الحدود الإسلامية البيزنطية
بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

الكتاب الأول

في الظروف التاريخية والجغرافية لقيامها

تأليف

فتحي عثمان



الناشر

الدار القومية للطباعة والنشر



هـــــذا البحث

بقلم الاستاذ الدكتور حسين مؤنس

استاذ التاريخ الاسلامي بجامعة القاهرة

ومدير معهد الدراسات الاسلامية بمدريد

اذا تمشينا مع طبيعة الاسلام كان لا بد أن تكون بلاد الاسلام كلها ثغرا واهلها جميعا مثاغرين ، لان الله سبحانه لم يبعث محمدا صلوات الله عليه بالاسلام لتقوم له دولة تقتصر على بعض الأرض وتحصر نفسها فيه ، بل بعثة « كافة ورحمة » كما قال صلى الله عليه وسلم . وعلى هذا فما دام قد بقى من الارض جزء لم يدخل دار الاســلام وما دامت هناك جمــاعات بشرية لم تصلهم الدعوة فلا قرار لجماعة الاسلام ولا سكون ، لأن رسالتهم لم تتم بعد ، ولا بد من مواصلة الدعوة بالحسنى والاقناع اولا ثم بالفتح بعد ذلك اذا كانت هناك قوى سياسية معادية تحول بين رعاياها والاسلام محافظة على سلطانها وامتيازها . ومن البديهى عندنا أن الدعوة والجهاد فى سبيل الله فرض عين لا فرض كفاية ، أى ان أعضاء الجماعة الاسلامية جميعا دعاة وجند لها وكل مدائنها مراكز لنشر الدعوة ومعسكرات لمواصلة الفتوح .

وهكذا كان الوضع ايام الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفـــاء الراشدين . فكانت المدينة عاصمة الدولة ومعسكرها ومركز الدعوة فى نفس الوقت ، وبعــد أن استولى رسول الله على خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى وضمها الى المدينة ، كان يعنى ذلك أن حدود دولة المدينة امتدت الى هذا الخط الشمالى ، ولكن المدينــة ظلت ثغر الاســلام ومركز دعوته ومعسكره ، أهلها جميعا جند للدعوة ورئيسها ـ رسول الله ـ مجاهدها

هو حماية الدولة ذاتهـــا وتأمين شخص الخليفة وأهل بيتـــه وانتقلت مسئولية حماية الحدود والقيام بالجهاد الى أجناس الجند المقيمين فيها سواء أكانوا عربا مقيدين فى الديوان يمارسون الحرب على أنها حرفة ومعاشا أو غير عرب مرتزقين ممن كانوا يشترون أو يؤجرون ويخصصون لهذا الغرض ، والحرب عند كلا الفريقين لم تكن جهادا أو واجبا دينيا بقدر ما كانت عملا يمارسه صاحبه لأنه وظيفته ومورد رزقه ٠

***

وقد جرى هذا التطور شيئا فشيئا خلال العصرين الأموى والعباسى وانتهى **بثبات مناطق الثغور والجهاد على الحدود** ٠ وهذا الثبـات مظهر **لتطور نفسى عميق** يتلخص فى أن شعوب الدولة شـعرت على مر الزمن بأنها ليست مكلفة بنشر الدعوة ، وأن الجهاد فى سبيل الدين عمل كأى عمل آخـر يقوم به أهله من الجند الرسمى المقيم فى قلب الدولـة أو فى مناطق الحدود ، ووراء هذه الحدود تقيم أمم غير مسلمة ، ولكن ادخالها فى الاسلام انتقل من عامة جماعة المسلمين الى الدولة ورجالها وسقط عن البقية تبعا لذلك فيما عدا أهل الرباط الذين ذكرناهم ، ومعنى هذا أن الجماعة الاسلامية فقدت شعور المسئولية عن مصيرها ومصير الاسلام نفسه ٠

ولا بد أن نقرر أن هذا التطور فى ذاته كان ناتجا **عن سـياسـة الدولة نفسها من ناحية وكان نتيجة لتطور طبيعى من ناحية أخرى** ٠

فان الدولة العباسية اعتمدت على **اجناس معينة من الجند** وعملت على تكوينهم تكوينا عقليا وفنيا خاصا لا يجعل منهم مقاتلين فى سبيل عقيـدة بل حرسـا خاصا لنظام معين ، ومن هنا كانت الظاهرة التى تستلفت النظر من أن الدولة العباسية على ضخامة ملكها وامكانياتها لم تزد رقعة الاسلام شبرا ٠ وقد كانت آسيا لاصغرى فى متناول يدها ولكنها لم تضم الى دار الاسلام منها شيئا ، وكانت قواها العســكرية ـ رغم ما قاله الشعراء فيها ـ خالية من الروح الجهادى الصحيح ، وهذا يفسر لنا كيف أن هارون الرشيد بذل من المجهودات فى القضاء على دولة الأدارسة المسلمين التى قامت على بعد آلاف الكيلومترات من العراق اكثر مما بذل فى كفاح البيزنطيين النصارى وهم على أبواب بلده ٠

وأما **فقدان روح الجهاد نتيجة للتطور الطبيعى** للأحوال داخل مملكة الاسلام نفسها فنفسره بقولنا بأن الدولة عندما ترامى اتساعها كثرت

الأول ، فاذا قرر صلوات الله عليه الغزو خرج لساعته بمن حضر من اصحابه وعسكر عند الغابة السفلى على اميال قليلة شمال غربى المدينة أو عند ذى الحليفة على أميال جنوبها أو عندما قرب منهما من أطراف المدينة شمالا وجنوبا - بحسب وجهة الغزوة ، فيتلاحق الناس به - كل بما حضر ٠ وفى اليوم التالى يسير الجيش على بركة الله ٠

وكذلك كان الحال ايام الخلفاء الراشدين ، فظلت المدينة وكل الجزيرة العربية ثغر الاسلام ومعسكره ، ودخلت البلاد المفتوحة الى ذلك الحين فى ذلك النظام ، فكانت العراق وفارس والشام ومصر ثغورا ومراكز لنشر الدعوة ومد نطاقها والجهاد فى سبيلها وكان الناس فى المدينة والكوفة ودمشق والفسطاط يعيشون مثاغرين ، عملهم الأول هو الثغور للجهاد ، وهذه كانت نظرية عمر ، فهو عندما منع العرب من الاشتغال بالزراعة لم يكن ذلك راجعا الى أنه احتقر الزراعة أو ذهب الى أن العرب ارفع من الاشتغال بها كما كان يظن ، بل لأنه كان يرى أن رسالة الاسلام لم تتم بعد ، ولا بد اذن من تكريس الجهود كلها لاتمام الرسالة ، ولا محل اذن للاشتغال بالزراعة وشئون المعاش ولم يقصد عمر بذلك العرب فقط ولكنه قصد كل المسلمين فقد كان خباب بن الأرت وبلال الحبشى وصهيب الرومى وغيرهم على أيام الرسول وأيامه ينفرون للجهاد مع اخوانهم العرب ٠ ولما كان عمر واصحابه فى المدينة يعيشون عيشة أهل الثغور على أهبة الحرب ابدا ، فقد أراد من غير المقيمين فى الجزيرة أن يظلوا كذلك ٠

***

وشيئا فشيئا ، **خلال العصر الأموى** انتقلت مراكز الجهاد ونشر الدعوة الى الحدود وانتقل واجب الجهاد من المجموع الى فئة معينة من جند الدولة المرصود فى العاصمة أو المقيم فى الأقاليم أو على الأطراف ٠ ولم يعد يشعر بمسئوليته من عامة أهل الدولة الا قلة من ذوى الايمان العميق والقوة على الحرب ، وهؤلاء هم الذين كانوا يحرجون للرباط فى نواحى الحدود ويشتركون فى الحملات حسبة لله وتطوعا للجهاد ، وشاركت فى ذلك جماعات من الراغبين فى الهجرة أو المنهزمين فى معارك التفاخر السياسى داخل الدولة ٠

***

وفى خلال العصر العباسى اصبح الواجب الأول على القوى العسكرية

مشاكلها الداخلية وتعين على حكامها توجيه جانب كبير من العناية لحلها ، وجاء وقت أصبحت هذه المشاكل الداخلية من الضخامة بحيث كانت تستغرق همم الحكام ونشاطهم ، ويكفي ان تشير الى المشكلة الاقتصادية التى واجهت خلفاء العباسيين منذ البداية تقريبا ، لان نفقات هذه الدولة كانت دائما اكثر من مواردها ، وبعد حرب الامين والمأمون وتكاثر الجند الخراسانى انعدم التوازن المالى ولجأت الدولة الى المصادرات واقترضت من الاغنياء قروضا لم تسددها اليهم ابدا ثم مدت يدها الى اموال التجار وذوى اليسار وانعدم أمان الناس على اموالهم ، وبعد أيام المعتصم أصبح الافلاس المالى حقيقة ميئوسا من علاجها ، وفى هذه الظروف لم يعد لدى الخلفاء أو القائمين بشئون الدولة فراغ للتفكير فى الجهاد أو مال للقيام بمطالبه .

وهذه المشكلة ذاتها انعكست على الرعية ، فقد شغل الناس بشئون المعاش و « هموم العيال » كما يقول الجاحظ ، ولم يبق لديهم مجال للنظر فى مد رقعة الاسلام او مواصلة الدعوة . ونتيجة لذلك كله أصبح هذا الواجب الاسلامى الاساسى مقصورا على مناطق الثغور وجندها وسكانها، وقد عنيت الدولة بذلك عناية خاصة لأن ذلك كان تأمينا لكيانها ولم تخل بلاد الاسلام ابدا من افذاذ يتطوعون للرباط والجهاد ويخفون الى مناطق الحدود والسواحل للاشتراك فى ذلك العمل الجليل مع الجند أو الانفراد به . وشيئا فشيئا ثبتت نظم مناطق الثغور وأصبحت أقاليم محددة لها حياتها الخاصة وأهلها من الجند والمطوعة ومن يعيش معهم لخدمتهم . وأصبح لسكانها ـ من غير الجند ـ وضع سياسى واجتماعى خاص ، لانهم ـ مهما بلغ امان الدولة الخارجي ـ كانوا يعيشون فى اقاليم المفروض أنها معرضة لخطر الاعداء دائما .

وهذا التطور ثم ذلك النظام الثغرى هو الذى درسه أخى وتلميذى الذى أشرف به محمد فتحى محمد عثمان فى هذا البحث الاصيل الذى أقدمه فى هذه السطور .

* * *

دخل فتحى عثمان هذا البحث من بابه الواسع ، أى رسم منهج دراسته على نحو يعطى القارىء فكرة كاملة عن مفهوم الحدود ومناطقها ونظمها لا فى دولة الاسلام وحدها ، بل فيما سبقها وعاصرها من الدول، ومما يستلفت النظر أن موضوع الحدود وما يتصل بها لم يستلفت انتباه مؤرخ قبله مع ما كان لها من الأهمية الدائما على طول تاريخ الاسلام .

وقد درست اقاليم الثغور البيزنطية والرومانية مرارا · ومن الواضح أن نظم هذه الاقاليم تتشابه فى شتى الدول لأن الظروف التى تسودها متقاربة واهداف من وراء اقامتها واحدة ، بل ان أهلها يتشابهون فى الخراج واسلوب الحياة ومن هنا جاءت الظاهرة الطريفة التى جعلت أهل الثغور الشامية المسلمين أو ثق صلة بأهل البنود البيزنطية المواجهين لهم من رجال الدولة فى بغداد بمقابليهم فى القسطنطينية ، مع أن المفروض أن أهل الثغور والبنود لا بد أن يكونوا اعداء الداء ولكن المجاورة وضرورات التبادل وكراهة النفس البشرية للحرب والتعرض للمخاطر تكفلت باقامة علاقات انسانية فى غاية الطرافة ، منها ـ مثلا ـ قيام أدب الثغور وهو أدب حروب وملاحم ومواقع يتشابه فى الروح ـ وأحيانا فى التفاصيل ـ فى الجانبين · وفى أثناء الصراع بين المسلمين والنصارى على مصير شبه الجزيرة الاندلسية ، قامت اغان قصصية خاصة تسمى فى الادب الاسبانى بأناشيد الثغور Romances frontizos راجت بين النصارى الاسبان ، وفى الكثير منها تمجيد للمسلمين المحاربين وابطالهم لأن المحارب ـ مهما كان ايمانه بما يحارب فى سبيله ـ لا يستطيع الا أن يعجب بخصمه اذا اظهر بطولة ورجولة ، وفى عصرنا هذا كتب الانجليز والامريكيون عن ايروين روميل اكثر مما كتب الالمان انفسهم ·

درس فتحى عثمان **منطقة الثغور الشامية والجزرية دراسة** جغرافية موسعة ، وقد كانت جغرافية هذه المنطقة مشكلة عويصة لمؤرخ الاسلام ، لأن الظواهر الجغرافية التى لا تستلفت نظر الرجل العادى تصبح ذات أهمية خاصة بالنسبة للعسكرى فكل خانق أو ممر أو جبل أو بحيرة أو حتى صخرة كبيرة لها أهميتها العسكرية فى هذه المناطق ومن هنا فان لها اسماءها التى تتوارد فى تفاصيل المعارك ولكنها لا توجد فى كتب الجغرافيين أو الرحالة ، ومن هنا فان **الفصل الثانى من هذا الكتاب** يعتبر دراسة أساسية بالنسبة لتاريخ الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية فى آن واحد ·

والفصل الثالث يتتبع تاريخ منطقتى الثغور الجزرية والشامية حتى ثبات حدودها واكتمال نظمها ، وهنا آلفت النظر بصورة خاصة الى الدراسة الخاصة بالثغور والعواصم وتحديد كل منهما وتعريفه تعريفا كاملا موسعا لا يدع للبس سبيلا ·

ثم تلى ذلك **فصول تدرس تاريخ مناطق الحدود شمال الجزيرة**

والشام بما فى ذلك سواحل هذا الاخير ، وهذه الفصــول هى فى الحقيقة دراسة للتاريخ العسكرى والسياسى الخارجى للدولة الاسلامية فى علاقاتها مع الدولة البيزنطية والشعوب الآسيوية المتاخمة لها ٠ وهنا تعرض فتحى عثمــان لموضوعات ضخمة كمحاولات المســلمين فتح القسطنطينية وثورة توماس البيزنطى وتدخل المسلمين فيها والبيالقة وما الى ذلك ٠

والناحية الرئيسية فى هذا البحث هى ناحية **النظم الخاصة بمناطق الثغور والحياة السائدة فيها** ، وقد درس المؤلف ذلك فى فصلين طويلين يعتبر كل منهما فى ذاته رسالة جديرة بالاجازة والتقدير ٠

وعندما نصل الى **الفصل السابع** ندخل فى الناحية الانســانية من ذلك البحث ناحية **التبادل التجــارى والفكرى وأدب الحدود** ســواء أكان عربيا أو بيزنطيا ٠ هنا يقرأ العربى لأول مرة شــيئا مفصــلا عن ملاحم ديوجانيس اكريتــاس والسيد البطال وتتاح له الفرصة لأن يقــارن بين شعر الحــروب والبطولة كما نطق به فحول محترفون للشــعر كالبحترى وابى تمام وكما عبر عنه ناس مجهولون ممن كانوا يسمون بالعوام فأنشأوا قصصا لطيفا ساذجا جميلا يدخل بالفعل فى نطاق الانتاج الفنى الانسانى العام ٠

وآخر البحث فصل عن **مجتمع الثغور** يمكن أن يسمى بحق مسك الختام ، فهو نظرة عامة على مناطق وبلاد عاش أهلها حرسا لدار الاسلام يمارسون هذه الحراسة على أنها وظيفتهم فى الحياة ، وتعودوا العيش فى ظلال الخطر والموت حتى غدت البطولة فى احســاسهم جــزءا من كيانهم نفسه ، وهذا كما هو بديهى ـ أجل ما تصل اليه النفس الانسانية ، واذا نحن لم نشأ أن نطلق هذا الحكم على كل من عاش فى مناطق الثغور فنحن حريون بأن نختص به المرابطين والزهاد الذين هجروا الريف الى مناطق الثغور وأقاموا فيها بين عبادة وجهاد ، فهؤلاء ـ قبل كل خليفة وعظيم ـ عاشوا درعا لأهل أوطانهم وحرسا لايمانهم ، وعالم الاسلام وأهله حقيقون بأن يذكروا أنهم ما أمنوا واستراحوا الا لأن غيرهم تعرض للمخاطر وظل حياته كلها فى يقظة وجهاد ٠

***

هذا بحث أصيل أساسى ، اعطاه صاحبه ما احتاج من وقت وجهد لأنه لا يبحث على وجهه الصحيح الا بهذه الروح ، وقد طال البحث لهذا واســترسل حتى قارب الالف صفحة ، ولكن كل سطر فيه له اهميتــه

ووظيفته ، وسيشعر القارىء وهو يقرأ هذا الكتاب انه يقرأ فى موضوع هام درس فى عنـاية واخلاص ، وقد وجدت متعة كبرى وانا اتتبع سير فتحى عثمان فى بحثه وافدت فائدة كبرى من الابواب التى تفتحت اثناء العمل ، ولهذا فاننى اشعر اليوم بسعادة اذ يتاح لقراء العربية جميعا ان يشاركونى هذه المتعة وتلك الفـائدة ، والعلم كما يقولون بلاغ ، لا تتم وظيفته الا اذا نقله صاحبه الى غيره · ومن هنا فنحن حريون أن نشكر لفتحى عثمان قيامه بهذا البحث اولا ثم اهتمامه باتاحته للناس ثانيا ·

والحمد لله فى البداية ، والحمد لله فى النهاية ، ومهما يلهج لساننا بالحمد فلن نبلغ الوفاء بحق ما من به الله علينا اذ جعلنا من خدم العلم وطلابه ·

مدريد ـ يوليو ١٩٦٦

حسين مؤنس


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

تقـــــديم

بقلم الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة
أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة عين شمس

أقبل المؤرخ صاحب هذا الكتاب الاستاذ فتحى عثمان منذ زمن بعيد على الدراسات التاريخية وهو اليوم ابن الاربعين · وظهر لديه من ايثار حب التاريخ والاهتمـــام بصميم مســائله ما استوجب به حب المؤرخين المصريين الحاليين · وكذلك أظهر صاحب هذا الكتاب من قبل كتبا أخرى قيمة عظيمة الشأن ممتلئة آمالا واقبالا على دراسة التاريخ · وأحب هنا أن أسجل للاستاذ فتحى عثمان انه ممن يعتبرون دراسة التاريخ جنه الخلد ·

ولى اليوم شرف تقديم رسالته الجامعية التى تقدم بهـا الى جامعة القاهرة منذ خمس سنوات تقريبا · وانما استحققت هذا التشريف لانى عشت الى جانب صاحب هذه الرسالة أثناء اعداده لهـا ، ولمست قدرته الفائقة فى السعى الى تحصيل مادتها ، ثم قدر لى بعد ذلك أن أكون أحد الذين ناقشوا الرسالة فى الجامعة وأجازوها ·

ولست أقصد الى التعريف بأبواب الرسالة ، فان هذا التعريف هو أيسر الجهد ، وانما أقصد الى تسجيل التقدير للدارس ، والى بيان أهمية الموضوع الذى تنـاولته الرســالة ، والى امكان الاستفادة منه فى توجيه حياتنا الحاضرة نحو الغد المشرق المنشود ·

يقدم الاستاذ فتحى عثمان فىهذه الدراسة المفصلة المفردة بموضوع خاص محصولا عملاقا يمثل ســهرا طويلا فى يقظة وتطلـع وتواضع ، واستسلاما لمقتضيات البحث ، ويمثل طاقة من نوع نادر المثال على العمل

العلمي الحاد مهما يكن مقدار الصبر الذى يقتضيه العمل • والواقع ان باب الدفاع عن الثغور باب مهمل لم يكد أحد يهتم به ، ومن هنا تتجلى ناحية من نواحى وعورته • ومن هنا نقرر ان الاستاذ فتحى عثمان انما هجم على موضوع شديد الوعورة يحتاج الامر فيه الى مؤرخ مسلح بالصبر والأصالة •

وانما يضنى الدارس نفسه لانه يصل الى وعى بالماضى فينتهى به الامر بأن يحس بأن أجيالا مجيدة ترجمت عن نفسها فبقى ذكرها وبأن أجيالا صامتة بادت • ونحن المؤرخين نحس بأن الواقع يتطلب من كل جيل أن يعبر عن نفسه وأن يجمع تراث السلف بقدر ما نحس بحاجة معاصرينا اليوم الى حل مشاكلهم المادية حلولا عملية علمية •

والاستاذ فتحى عثمان يجب أن يعد من دعاة الوعى بالعزة الثقافية، ومن جنود الثقافة • ونحن وهو نخطىء حين نكتفى بأن نكون أصحاب أوراق صفراء ، ونوجب على أنفسنا اذن أن نعبر عن ماضينا وآمالنا فى اطارنا الخاص وفى الاطار العالمى أيضا •

والموضوع المدروس فى هذا الكتاب انما يتناول تنظيما دفاعيا نادر المثال فى التاريخ كله ، وهو **الدفاع الثغرى** ، وهو تنظيم قائم على مبادىء وأسس دينية وحربية وسياسية • وهو **تنظيم أثبت فاعليته من جهة ، وأثبت من جهة أخرى قدرة الحضارة العربية على الارتفاع الى المستوى العالمى والى مستوى الاخطار المعاصرة يومئذ** • وفى هذه الدراسة أيضا دليل على مقدار عناية آبائنا بالحدود وعلى أن الرأى العام كان يحيط حماة الحدود بهالة من التقديس والكمال • ولدينا أدلة أخرى مستمدة من **الادب الشعبى** تثبت أن خيال الجماهير تعلق بأبطال الدفاع عن الحدود وهم المرابطون عامة • ومن ذلك قصة طويلة شعبية تعرف **بقصة ذات الهمة** ، وهى قصة جديرة بالاحياء • وليست قصة ذات الهمة مثلا فريدا، بل الامثلة كثيرة ومتنوعة ، ومن قبيل قصة ذات الهمة **قصص صغيرة أخرى** فى طريقها الى الضياع ان لم يتدارك أمرها الباحثون : مثل قصتين **مخطوطتين وجدناهما فى المكتبة القومية الجزائرية** من نوع القصص الشعبية القصيرة وقد قرأت احداهما على طلابى فاهتزت لها نفوسهم حتى تحركت عبراتهم • وانما تعلق الخيال الشعبى بقصص أصحاب الرباط لان الرباط يمثل الحياة الحربية المثالية القديمة ولان الرباط ليس عدوانا بل هو نظام دفاعى فعال خلق من ناحية أخرى فنا معماريا حربيا منقطع النظير •

ويسمى الرباط بالغزو والمرابطون بالغزاة ، وقد سمعنا بعض خطباء المساجد من الذين يقرأون من مجاميع الخطب القديمة دعاء للغزاة بالنصر، وقد يذكر المعمرون منا أن مصطفى كمال كان يتلقب بلقب الغازى ، قبل أن يتلقب بلقب أتا ترك . ومن قبل كان الرشيد يلبس جبة على أحد وجهيها تطريز لفظ حاج وعلى الظهر تطريز لفظ غازى . ومن قبل كان عبد الملك بن مروان يعتبر الغزو صنو الحج ، بل ذهبت بعض الفرق الاسلامية الى أن الجهاد ركن سادس من أركان الدين .

وديننا كما مارسه الاسلاف قد جرى على اعتبار الجهاد ركنا من أركان الحياة العامة ان لم يكن ركنا من أركان الدين . ولهذا أصبح من واجب علماء الدين أن يربطوا اليوم بين الدين والحياة وأن يفتحوا باب الاجتهاد .

وفى هذا الباب قد أدى التاريخ عبرته على يد الاستاذ فتحى عثمان صاحب هذه الرسالة . ومن أدى واجبه نحو التاريخ فقد استحق الثناء . والله الموفق للجميع .

الجزائر - ١١ من يوليو ١٩٦٦

محمد عبد الهادى شعيرة

أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة عين شمس

كلمة .. للمؤلف

كلمة صغيرة يسيرة ٠٠ فلم يبق مجال لكلام ، بعد أن تكلم الاستاذان الجليلان ٠

لماذا كان اختيار موضوع « الحدود الاسلامية البيزنطية : بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري » ـ ليكون محل هذا الدرس المسهب المستفيض ؟؟ وما القيمة (الثقافية) للبحث بالنسبة لعامة القراء ، اذا عرفت قيمته (الاكاديمية) بالنسبة للمتخصصين ؟؟

ان الباحث يؤمن ان المسلمين حملوا الى العالم منذ كان الاسلام دعوة السلام ، وانهم أرادوا للناس كما أرادوا لأنفسهم أن يدخلوا فى السلم كافة ، استجابة لأمر رب العالمين ، الذى وصف نفسه فى جلاله وقدسه وعلاه بأنه السلام ، ووصف جنته بأنها دار السلام ، وجعل تحية المسلمين فى الدنيا « سلام » ويوم يلقون الله « سلام » ٠

ويؤمن الباحث أن ثمة نظرات موضعية وأحكام جزئية جنت على تفهم **روح الاسلام وشريعته فى العلاقات الدولية** ٠ واذا كانت ثمة ردود (نظرية) (فقهية) على الذين حسبوا الاصل فى حكم الاسلام بالنسبة لعلاقة المسلمين بغيرهم هو الحرب ، والذين حسبوا العالم مقسوما بين « دار الاسلام » و « دار الحرب » وليس غير ٠٠٠ اذا كانت ثمة ردود (نظرية) (فقهية) كثيرة عديدة على هؤلاء ، طالما رددها علماء وباحثون سابقون ولاحقون ، **فان شهادة « الواقع » كما سجله « التاريخ » تكون دائما ابلغ واقوى** ٠

فالمسلمون فى مطلع تاريخهم قد عاصروا (الروم) البيزنطيين ٠٠ قاتلوهم وورثوا أكثر أرضهم وديارهم ، وتاخموا البقية الباقية منها ٠

وعلى الحدود الاسلامية البيزنطية ، جلى المسلمون (**الحق**) وقدموا شهادة (الواقع) ٠٠ وكان على رأس دولتهم وبين صفوف مجاهديهم الصحابة والتابعون ، وفقهاء الاسلام المبرزون ٠

***

لقد قاتل المسلمون الروم حقا ٠٠ لكنهم **احسنوا (الدفاع) كما أحسنوا (الهجوم) ، ولم يفرطوا في** صيانة ما تحقق لهم من كسب للأرض أو كسب للبشر ٠٠ **وأحسنوا (التنظيم) كما احسنوا (القتال) ، ونجحوا فى أن يبنوا (دولة) ثابتة الاركان وطيدة البنيان ، لها دفاعها المرابط على الثغور يحمى الديار ، ولها جهازها المنظم القائم على العدل والاحسان ٠٠ ومن ثم كان الاسلام (دولة) و (حضارة) لاغارة شعواء** وعاصفة هوجاء ، تهدم ولا تبنى ، وتأتى على الحرث والنسل فلا تبقى ولا تذر !!

وجاءت خطوط الدفاع الثغرى على الحدود الاسلامية البيزنطية شهادة تاريخية بعبقرية المسلمين فى الاقتباس والابتكار ، وبحيويتهم فى الجهاد والتعمير ، وببلائهم فى القتال والتعبد والتعلم ٠ وهذه **طرسوس** من أجل ثغور الدولة الاسلامية على حدودها مع الدولة البيزنطية « كان بينها وبين حد الروم جبال منيعة متشعبة من (اللكام) كالحاجز بين العملين » كما يذكر ابن حوقل ، (المتوفى ٣٨٠ هـ/٩٩٠م) وقد ذكر عن ترتيب أمور الجهاد والمجاهدين فى هذا المعقل الثغرى الذى يشرف على المدخل الجنوبى لدرب الابواب القيليقية عبر جبال طوروس « ان ليس من مدينة عظيمة من حد بلاد فارس والجزيرة والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب الا وبها لأهلها دار ورباط فى طرسوس ، ينزله غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها ، وترد عليهم الجرايات والصلات وتدر عليهم الانزال والحملان العظيمة الجسيمة ، الى ما كان السلاطين يتكلفونه وينفذونه متطوعين ويتحظون عليه متبرعين » ٠

وعلى خطوط النار ، كان الاحتفال بعيدى الفطر والنحر أجمل وأروع ما يكون الاحتفال ، حتى كان العيدان بثغور الشام وصقلية « من محاسن الاسلام » ٠ كما نقل المؤرخون

***

وقاتل المسلمون الروم حقا ٠٠ ولكنهم أيضا هادنوهم وعاهدوهم ، وتبادلوا معهم التجارة والثقافة ٠

زار العلامة المسعودى (المتوفى ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) القسطنطينية على لهفة الى العلم بها ، ووصفها كما رآها خلال القرن العاشر الميلادى على عهد الاسرة المقدونية (٨٦٧ : ١٠٥٩ م) وأنصف بيزنطة وشهد لها « ولم تزل الحكمة باقية عالية بها زمن اليونانيين وبرهة من مملكة الروم، تعظم العلماء وتشرف الحكماء » ٠

وتعددت الروايات عن استعانة الخلفاء المسلمين بالأباطرة البيزنطيين فى **تزيين المساجد بالفسيفساء** ٠

وأرسل الخليفة العباسى **الواثق** (٢٢٧ : ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ : ٧م) بعثة تستطلع خبر المدفونين فى **افسوس** بالإراضى البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وتتعرف هل هم حقيقة **أصحاب الكهف** الذين يتحدث عنهم القرآن ؟؟

وعلى الحدود الاسلامية البيزنطية جد المسلمون فى **طلب المخطوطات اليونانية بآسيا الصغرى** واحضارها خلال أوقات السلام ـ كما يتبين من كلام لحنين بن اسحق ٠ ومن هنا لا يستغرب ماكس مايرهوف انتقال مركز العلم الاغريقى من الاسكندرية الى انطاكية فى عهد **عمر بن عبد العزيز** (٩٩ : ١٠١هـ / ٧١٧ : ٧٢٠ م) وهو ما نقلته الروايات العربية ٠

وتنقل **مقابسات أبى حيان التوحيدى** (المتوفى بعد سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠ م) صورة جماعات من العلماء كانت تجتمع حول أبى سليمان السجستانى فى داره أو تلتقى بسوق الوراقين ببغداد ، وهى تجمع المسلمين على تنوع مذاهبهم الى النصارى والصابئة والعلماء القادمين الى بغداد طلبا للعلم بها من الاندلس فى الغرب أو بخارى فى الشرق أو شيراز فى الجنوب أو حدود الامبراطورية البيزنطية فى الشمال ٠ وبين هذه الجماعات نجد الفلاسفة والرياضيين والفلكيين والاطباء والمؤرخين والمتكلمين والشعراء وسائر الادباء ٠

وهناك رواية تقول ان الخليفة **المأمون** (١٩٨ : ٢١٨ هـ/ ٨١٣ : ٨٣٣ م) قد أرسل الى الامبراطور البيزنطى **تيوفيل** (٨٢٩ : ٨٤٢ م) يستقدم علامة فى الرياضيات اشتهر بين الروم يدعى ليو «وقال انه يعتبر ذلك عملا وديا ، **ويعرض فى مقابل ذلك ـ كما تؤكد الرواية ـ صلحا دائما والفى قطعة ذهبية** » ٠ على أن الامبراطور البيزنطى آثر الا يفرط فى علمائه ، ورتب لليو المذكور راتبا منتظما وعينه ليعلم فى احدى كنائس القسطنطينية ـ كما ينقل فازيلييف ٠

وهكذا استهلت حروب الاسلام باطلاق الاسير مقابل تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة .. ثم حين بلغ المسلمون ذروة مجدهم وقوتهم عرضوا الصلح الدائم والمال الوفير مقابل استقدام عالم يعلم المسلمين الرياضيات !

ولقد كتبت بطريق القسطنطينية نيقولا ميستيكس Nicholas mysticus فى النصف الاول من القرن العاشر الميلادى الى أمير اقريطش (كريت) المسلم «الاشهر الاشرف الادنى الى المحبة» يقول «ان دولتى العرب والروم ظاهرتان على العالم كله ، تمتازان وتتالقان كالشمس والقمر فى القبة الزرقاء ، ولا مندوحة أن نعيش معا كاخوة ، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين » .

***

وبين المواجهة الحربية الدائبة الدائمة في «الثغور» و «الرباطات» ، وما استلزمته من تنظيم حربى وادارى ...

وبين التواصل الحضارى وما أثمره من ثراء فى مجالات التجارة والثقافة ...

تحاول هذه الدراسة أن تستجلى (الحقيقة) على أرض (الواقع التاريخى) .. وهو خير ما يستهدى به للتوصل الى (الحق) عند تأويل النصوص وتمحيص الآراء .

فتحى عثمان

الفصل الأول
قبل الإسلام

أولا ـ حدود الدولة ووسائل حمايتها

ثانيا ـ منطقة سوريا والفرات في العصور القديمة

ثالثا ـ العرب في الشام : هجراتهم واماراتهم

رابعا ـ نظام البنود البيزنطي (الثيما Thema)

خامسا ـ صراع الفرس والروم في المنطقة



أولا ـ حدود الدولة ووسائل حمايتها :

لكل دولة حدود .. وعلى عاتق الدولة يقع عبء حماية هذه الحدود .

تلك حقيقة تستوى ازاءها الدول الصغرى والكبرى ، القديمة والحديثة . لكن الدول الكبرى بما لها من مطامع بعيدة وحدود طويلة وموارد كبيرة ، تغدو أقدر على الابتكار والتنظيم فى شأن ما يلزم لحماية حدودها . وتتأثر كل دولة فى هذا الصدد بظروفها التاريخية والجغرافية.

ولقد كان الغرض الأساسى الذى تحققه الحدود فى أول الأمر هو تأمين الناس من الغزوات المفاجئة ، ولما كانت القبائل القوية أقدر على صد القبائل الأخرى ومطاردتها كانت مساحة الحدود تتناسب تناسبا طرديا مع حظ القبيلة من السطوة والبأس . ثم فطن الانسان الى استغلال هذه المناطق بدلا من تركها غير مزروعة بعد أن سار شوطا نحو الاستقرار والرقى ، وتزايد ذلك بازدياد السكان حتى تاخمت الأمم بعضها بعضا وأصبح من الضرورى تحديد ممتلكات كل دولة وتمييزها . ثم اتجه الانسان للافادة من الحدود فى **أغراض أخرى** بجانب مدافعة الغزاة مثل الوقاية الصحية وصد المتسللين غير المرغوب فى دخولهم واقتضاء الرسوم الجمركية والحيلولة دون تهريب البضائع التى تحظر الدولة تداولها . كذلك تصبح الحدود تدريجيا **وسائل اتصال تجارى وحضارى** فى أوقات السلم كما هى وسيلة فصل وحماية فى وقت الحرب (١) .

لكن الحدود بوجه عام هى مراكز الدفاع الحربى عن الدولة قبل كل شىء ، وقد تكون قواعد ينطلق منها الهجوم اذا لزم الأمر . ومن هنا تحرص الدولة الأقوى على احراز أقصى ما يمكنها من مميزات على خصومها فى أى

---

(١) فوست : جغرافية الحدود ـ ترجمة محمد سيد نصر . ص ١٩ : ٢٤ .

حرب مستقبلة عند تخطيط الحدود ، وخاصة وقت عقد الاتفـــاقات أثر الحروب (٢) ٠

واذا كان الحد جغرافيـــا فينبغى أن يلاحظ أن تغيير الحد أو الخط الفـــاصل بين اقليم وآخر لا يتمشى مع الواقع حيث نجد فى الطبيعـــة **مناطق فاصلة لاخطوطا** ، فكلمة ساحل تدل على منطقة واسعة بين البر والبحر يختلط فيها تأثيرهما ٠ وبهذا تكون الحدود الجغرافية مناطق انتقال تلتقى فيها المؤثرات من اقليمين متجاورين أو أكثر وتتدرج فى طبائعهـا الى الأقاليم الأخرى المجاورة (٣) ٠

ويتميز السكان في بيئة ما عن جيرانهم فى بيئة أخرى بقدر مناعة الحد الفاصل بينهما ، فالحدود الضعيفة تساعد على الاختلاط وتمنع الفوارق من التأصل ويعين على ذلك ما اختص به الكائن الحى من مقدرة على التغير وذلك على العكس من الحدود المنيعة التى تزيد من تباين السكان على جانبيها ولو كانوا جميعا أبناء جنس واحد ٠ وقد كانت البحار والمحيطات أمنع فاصل بين الأمم قبل تقدم المواصلات ويليها الصحراوات (٤) ٠

والحدود قد تكون **طبيعية** : بحرا أو جبلا أو صحراء ٠ **والبحر** حد فاصل لكنه قد لا يحمى الاقليم من الغزو ، أما **الصحراء** ، فتحقق الفصل والحماية معا اذ يفتقد الغزاة المئونة الضرورية عند اجتياز مفاوزها ٠ وقد لعبت الصحراوات الواسعة دورا هاما فى تاريخ الانسان كمناطق حدود، فان افتقارها الى الماء بوجه خاص يضطر الجيش المغير أن يسلك طرقا معلومة ضيقة بشكل صف طويل مما يســـهل تركيز قوى الدفاع فى المراكز الحصينة ٠ والحدود **الجبلية** تعرقل تقدم المغير اذ يضطر الى مكايدة وعودة تضاريسها وتخلخل الهواء فى الصعود الى الطبقات العليا وكذلك انخفاض درجة الحرارة ٠ ويتوقف اجتياز الجبال على عوامل أهمها : ارتفاع الممرات بالنسبة الى خط الثلج ، ومقدار انحدارها ، وطول الطرق المرتفعة فوقها ٠ ويزيد من العقبات الطبيعية التى تجعل من الجبال حائلا أمام تقدم القبائل الضاربة فى السهول مقاومة السكان الجبليين وشدة مراسهم وانطباعهم بآثار البيئة الجبلية التى تجعلهم غرباء بل فى معظم الأحيان أعداء لسكان السهول المجاورة ٠ وقد تكون الحدود الطبيعية أيضا : **أنهارا أو غابات ، أو مستنقعات** وهذه ليست فى مناعة الحدود السابقة (٥) ٠

(٢) فوست : جغرافية الحدود ـ ترجمة نصر ٠ ص ٨٨ ٠
(٣) فوست : جغرافية الحدود ـ ترجمة نصر ص ٩ ، ١٧
(٤) فوست : جغرافية الحدود ـ ترجمة نصر ص ٥ ، ٦
(٥) فوست : جغرافية الحدود ـ ترجمة نصر ص ٢٧ وما بعدها ٠

وقد ترى الدولة من الضرورى استحداث حدود **صناعية** حيث لا توجد ظاهرة طبيعية تعين المكان الذى تنتهى عنده أراضى دولة وتبدأ أراضى دولة أخرى • وقد ظهرت هذه الحاجة فى العصور الأولى عندما توسعت الامبراطوريات الى آماد بعيدة جعلت من العسير صيانة الحدود المتطرفة عن قواعد الدولة • كذلك ظهرت هذه الحاجة عند ارتقاء دولتين متجاورتين ليس بينهما حد فاصل يسهل تحديده فتغدو هذه الحدود الاتصالية حدودا صناعية تعين بالاتفاق وتكون **حمايتها عن طريق ترك جزء منها خاليا قفرا أو اقامة حاجز عليها** من نوع سور الصين العظيم أو الحوائط الرومانية فى بريطانيا وجنوبى المانيا وحوض الدانوب • وغالبا ماكان يقوم مثل هذا الحاجز بين شعوب متفاوتة وكانت الدولة الأقوى أو الأكثر تمدنا هى التى تتولى تشييده وحمايته • أما الحاجز الصناعى بين الدول المتقاربة فى المدنية والقوة فانه يكون بمثابة خط حربى يتدرب عنده كلا الفريقين المتجاورين المتعاديين على أعمال الحرب • **والحد الصناعى المحض لا يدوم الا حين يكون بين شعبين متباينين فى اللغة والثقافة الى حد يستحيل معه الاندماج ، أو اذا كانت القوتان على جانبيه متكافئتين تماما،** وهذان شرطان يتعذر بقاؤهما طويلا على تلك الصورة كما يلاحظ فوست Faucett (٦) •

حماية الحدود (الحواجز ـ العواصم) :

واذا ما جاورت دولة متمدنة قبائل همجية لا يجمعها نظام أو استقرار فقد سارت الدول المتمدنة قديما **على غزو** الاراضى الهمجية حفاظا على كيانها فاذا ما خافت مغبة التوسع فليس أمامها سوى سياسة الدفاع بانشاء **حاجز حربى** عند الحدود • واتخذت الدولة الرومانية سبيل الفتح والقهر فى طور نموها واتساعها ، بينما قنعت فى أواخر أيامها بسياسة الدفاع فابتنت الحوائط ذات الحاميات لصد غارات البرابرة •

وقد كان هناك طريق آخر لتأمين الحدود حيث تتقارب الامم المتجاورة فى المستوى الحضارى والسياسى • ففى عصر الاقطاع الأوربى لم تكن هناك حكومة مركزية قوية تضمن سلامة الحدود بوضع حاميات منظمة مستقرة عليها ، ومن ثم نشأ **نظام النقط العسكرية** ـ أو بالأحرى تقدم ـ وصار من ميزات العصور الوسطى فى أوربا حتى استمر تأثيره الى العصور الحديثة ولم يقتصر هذا النظام على أوربا وحدها أو على تلك العصور فحسب

---

(٦) فوست : جغرافية الحدود ـ ترجمة نصر ص ٦١ : ٦ •

وكان يشمل **مقاطعات تنشئها الدولة عند الحدود** فى دور فتوحاتها وتضعها تحت امرة رؤساء أو أمراء حربيين مسئولين عن حماية الحدود ، أمثال نبلاء انجلترا فى مقاطعاتهم وامراء الثغور (أو المارك جراف) فى الدولة الرومانية المقدسة ، وقد كانوا على درجة كبيرة من الاستقلال · ولم تكن تلك الحدود الحربية منتظمة متصلة على نسق الأسوار والحوائط التى سبقتها ، بل تحصنت بسلسلة من القلاع كانت بمثابة قواعد تتحرك منها الجيوش ·

ويقسم فوست مقاطعات الحدود Frontier Marches الى ثلاثة أنواع :

١ ـ **العواصم التى تخضع لسيادة دولة واحدة** مادامت هذه الدولة هى الوحيدة التى يمكنها الاتصال بها ، وتندمج مثل هذه المقاطعات بالتدريج فى الدولة الحامية · ومن هذا النوع مقاطعات انجلترا وغربى فرنسا ·

٢ ـ **المقاطعات الحربية التى تكون بمثابة ولاية حاجزة بين دولتين كبيرتين أو أكثر** مثل المقاطعات الشرقية والشمالية والشرقية من فرنسا وكانت تحجزها عن الامبراطورية القائمة فى أرض ألمانيا · وقد تخضع الولاية الحاجزة للدول المحيطة بها جميعا أو لدلة منها فقط ، فقد انتهى الأمر بولاية أرمينية الحاجزة بين الفرس والروم الى اقتسامها بين الدولتين الكبيرتين الساسانية والبيزنطية فى أواخر القرن الرابع م ·أما اقليم الثغور والعواصم الاسلامية الذى كان يحجز بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية فقد كان جزءا من الدولة الاسلامية وقسما من أقسامها الادارية وقد كان البيزنطيون اذا نجحوا فى اقتطاع جزء منه ضموه الى حدود دولتهم وأخضعوه لنظمهم ·

وفى هذين النوعين من أنواع الولايات الحاجزة أو العواصم لا نرى موقع الولاية وأراضيها تؤهلها لأن تكون ذات قوة بشرية أو مادية تستعين بها على تغيير وضعها والتوسع فى مستقبل أيامها · والنوع الثانى من الأقطار الحاجزة أكثر انتشارا من الأول ·

٣ ـ **الأراضى القابلة للتطور فى القوة** وأحسن مثل لتوضيحه هو **براند نبرج** فى بروسيا التى كان لموقعها فى سهل مكشوف ووظيفتها كعاصمة على الحدود فى الطريق بين مرتفعات بوهيميا والبحر البلطى ان أصبحت ذات صبغة حربية منذ نشأتها وسلكت خطوات متتابعة للتوسع نحو الشرق ـ منها ما كان خارج حدود الامبراطورية نفسها ـ حتى نزعت الى السيادة على الامبراطورية الألمانية · كذلك اتسعت النمسا على هذا

النحو فنمت من منطقة عاصمة على الدنواب حتى صارت تحمل راية الامبراطورية الالمانية كما تقدمت سافوى نواة مملكة سردينيا حتى غدت ايطاليا بأسرها • ويكشف لنا هذا النوع من الولايات الحاجزة أهمية الدور الحساس التى تضطلع به مناطق الحدود بالنسبة للدولة التى تنشئها •

وأهم مظاهر نظام (العواصم) عند فوست **ان حاكمها كان يعتمد فى اعباء حماية التخوم عندها على مواردها الذاتية ، ولم يكن يستعين بالحاكم الاعلى الا عند الضرورة القصوى • وقد كان الأمير فى العواصم يمنح نفوذا مطلقا** حتى يقوم بالواجب المطلوب ويكاد يكون مستقلا ، ويتناسب مدى استقلاله وقوته تناسبا عكسيا مع عدد قوات السلطة المركزية وطرديا مع المسافة التى تفصله عن مقر الحكومة المركزية (٧) •

لكن العواصم الاسلامية كانت لها ظروفها الخاصة فهى معتبرة جزءا من الدولة ويحكمها وال من قبلها تمده الدولة باحتياجاته العسكرية • ونحن نحتاج فى دراستها على هدى ما تقدم ــ الى تبين ما يلى :

١ ــ الظروف الجغرافية لحدود الدولة الاسلامية فى منطقة الثغور والعواصم ، وهل تعتبر تلك الحدود طبيعية أو صناعية ؟ وما مدى صناعيتها ؟

٢ ــ الدور الحربى الذى اضطلعت به منطقة الثغور والعواصم الاسلامية والنظم العسكرية والادارية التى طبقت فيها •

٣ ــ الاتصالات البشرية عبر الحدود ، ودور منطقة الثغور والعواصم الاسلامية فى العلاقات التجارية والحضارية بين المسلمين وغيرهم •

وقد عقب ابن خلدون فى مقدمته فصلا « فى أن الملك يدعو الى نزول الأمصار » جاء فيه « •• ان القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمطار لسببين : أحدهما ما يدعو اليه الملك من الدعة والراحة وحط الأثقال واستكمال ما كان ناقصا من أمور العمران فى البدو ، والثانى دفع ما يتوقع على الملك من أحد المنازعين والمشاغبين **ــ لأن المصر الذى يكون فى نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم** وانتزاع ذلك الملك الذى سموا اليه من أيديهم فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم ، ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة ،

---

(٧) فوست : جغرافية الحدود ترجمة نصر ــ فصل (العواصم والولايات الحاجزة) ص ٧٦ • وما بعدها •

والمصر يقوم مقام العساكر المتقدمة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكة لأن الشوكة والعصابة انما احتيج اليهما فى الحرب للثبات لما يقع من بعد كرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة ، وثبات هؤلاء بالجدران فلا يضطرون الى كبير عصابة ولا عدد ... فاذا كانت بين أحيائهم أمصار انتظموها فى استيلائهم للأمن من مثل هذا الانخرام ، وان لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولا وحط أثقالهم ، وليكون ثانيا شجى فى حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم » (٨) ٠

وسنمهد لدراسة نظام العواصم الاسلامية بالمامة عن بعض السوابق فى حماية الحدود وصورة مجملة عن التاريخ القديم لسوريا والفرات ـ حيث المجال المكانى الذى ظهرت فيه العواصم الاسلامية ، وصراع الفرس والروم فى المنطقة ، حتى يسوقنا التاريخ الى تلك الوقفة التى وقفها المسلمون والبيزنطيون وجها لوجه تحجز بينهم جبال طوروس ، وتمتد على الحدود الثغور والعواصم الاسلامية ٠

سوابق فى حماية الحدود :

مصر الفرعونية : كان أهم ما عنى به الملك زوسر ـ من الأسرة الثالثة ـ حماية بلاده من الغارات الأجنبية خاصة غارات البدو ٠ وقد **قسم حدود البلاد الى مناطق أسماها (أبواب المملكة) أقام فى كل منها حامية ، ونصب عليها حاكما خاصا دعى** (مرشد الأرض ـ سيشم تا) وقد جعل لهؤلاء الحكام الكلمة العليا على حكام المقاطعات ، ووضعت اذارةالشرطة تحت أيديهم ٠ وقد اقيمت **المعاقل لحاميات الحدود** وكان لكل معقل ادارته العسكرية الخاصة ومخازن غلاله ، وقد حفظت لنا أسماء بعض المعاقل منذ الاسرة الثانية ٠ وقد أتم **سنفرو** ـ من الاسرة الرابعة ـ نظام حماية بلاده من غارات الأجانب ببناء قلاع فى الوجه القبلى والدلتا أطلق على كل منها اسم (حصن سنفرو) ٠ كذلك يبدو ان مصر كانت تحصن النقط الضعيفة فى حدودها باقامة **أسوار ضخمة عظيمة الامتداد** ، مثل ذلك السور الذى أقامه زوسر من أسوان الى الفيلة ويبلغ طوله نحو ١٢ ك م لضمان سلامة الحدود الجنوبية ، ويعتقد بعض الأثريين ان السور الذى أقامه أمنمحيت الاول لسد برزخ السويس فى وجه المغيرين لم يكن سوى تجديد لسور أقيم فى عهد الدولة القديمة ٠

(٨) ابن خلدون : المقدمة ـ طبعة دكتور وافى ج ٣ ص ٨٣١ ـ ٢ ٠

تلك بعض التجارب المبكرة في ميدان حماية الحدود ، مارستها مصر منذ ذلك الزمن البعيد . وقد تابعت الاسر الحاكمة المتعاقبة في مصر هذا النهج الذى سار عليه أولئك الرواد فنرى فراعنة **الأسرة الثانية عشرة** يهتمون بتحصين ومراقبة حدودهم الشرقية - حيث كانت تتجول القبائل السامية الرحل بين السويس ومصر الوسطى ، وحدودهم الجديدة فى الجنوب الى ما بعد الشلال الثانى حيث أقاموا **القلاع فى بلاد النوبة** وقد بقى هذا النظام قائما الى الدولة الحديثة (٩) . حتى اذا امتدت حدود مصر شمالا فى عهد الامبراطورية المصرية ، **شيد المصريون فى سوريا وفلسطين قلاعا** سموها بأسماء ملوكهم ، وجعلوا فى كل منها حامية ملكية بقيادة ضباط مهرة خاضعين لأوامر فرعون مصر ومعتبرين نوابا له ، ومن هذه القلاع ما شيده تحتمس الثالث - من ملوك الأسرة الثامنة عشرة - جنوبى لبنان ، وكان لكل حصن معبد . وصارت آسيا أشبه بممالك صغيرة تابعة لمصر تحت نوع من الحكم الذاتى ، وهو ما كان قد بلغ فى النوبة درجة أعلى حيث كانت تحت ادارة (والى كوش)(١٠) .

وفى عهد رمسيس الثانى - من الأسرة التاسعة عشرة - لم يكن الطريق بين مصر وفلسطين محكم التحصين ، غير أنه كان محروسا بعدة حصون مهمة على مسافات مختلفة مثل حصنى ثارو ورمسيس بين بحيرة التمساح والبحر المتوسط وينحنى خط الدفاع حول بحيرة التمساح غربا ليشمل وادى طميلات . وقد أخبر بنو اسرائيل أن خروجهم من مصر كان عن طريق الجزء الجنوبى لبرزخ السويس لخلوه من الحصون العائقة .

بابل وآشور : منطقة الهلال الخصيب أهم مكان سكنه الانسان فى غربى آسيا كما يذكر برستد ويمتد أحد جانبى هذا الهلال بجوار ساحل البحر المتوسط الشرقى ويمتد الطرف الآخر فى حوض نهرى دجلة والفرات (بلاد ما بين النهرين) حتى الخليج الفارسى . ويرتكز الهلال الخصيب الى قاعدة جبلية فى الشمال ، ويحتضن ذراعاه الصحراء فى الجنوب ، ويكاد الهلال الخصيب نفسه أن يكون حدودا فاصلة بين المنطقتين . وتاريخ غربى آسيا - عند برستد - ليس الا تاريخا للصراع بين سكان الجبال وسكان الصحراء (١٢) .

---

(٩) دكتور سليم حسن : مصر القديمة ج ٢ ص ٤٥١ وما بعدها ، ص ٤٨٠ وما بعدها .
(١٠) برستد : تاريخ مصر من اقدم العصور الى الفتح الفارسى - ترجمة حسن كمال ص٢١٣
(١١) المرجع السابق ص ٣٠١ .
(١٢) برستد : انتصار الحضارة - ترجمة دكتور احمد فخرى ص ١٥١- ٢ .

ومن أساليب الدفاع التى تجدها فى بابل وآشور **ما يقام حول المدن من تحصينات** لصد المهاجمين ، وقد كان هذا أسلوبا مألوفا فى التاريخ القديم نجده متبعا فى مدن مصر الكبرى ، وفى غربى آسيا كذلك • (١٣) فقد أحاط سرجون الاشورى ، مدينته فى شمال شرقى نينوى بسور مستطيل • وقد كان الحائط الخارجى لمدينة بنوخذنصر ـ بابل ـ مصنوعا من الآجر وبين طبقاته القار وسمكه ٧٫٨١ مترا ، وقد دعم من خارج خندق التحصين حتى مستوى الأرض بحائط آخر سمكه ٣٫٢٥ مترا ، أما الحائط الداخلى (الذى تفصله عن الحائط الآخر مسافة ١١٫٢٥ مترا) ، فقد بنى من اللبن بسمك ٧٫١٢ مترا وجهز بأبراج على مسافات متباعدة منتظمة بارزة فى الجانبين ، لكن تحصينات بابل فى القرن السابق تحت الاحتلال الاشورى كانت سورا مزدوجا من اللبن تقع على جانبيه ابراج ضخمة بينها ابراج أخرى صغيرة • أما أسوار المدينة الدفاعية فى القرون السابقة فلم يكشف عنها بعد • كذلك كانت المدن السومرية محاطة بحوائط من اللبن • وقد أعاد بنوخذنصر الثانى بناء (بوابة عشتار) وتقع قرب القلعة وكانت تتألف من مبنيين من الآجر يمت كل منهما الى أحد حائطى المدينة ، ولها ٣ مداخل مختلفة تغلق عليها ٨ بوابات (١٤) • وقد أقام البابليون أيضا **خطوط الاستحكامات الطويلة** ولم يكتفوا فقط بتسوير المدن فقد أنشأ بنوخذ نصر سورا من نهر دجلة الى نهر الفرات يمتد عبر السهل المحصور بينهما • (١٥)

الرومان : قدمت الامبراطورية الرومانية بأطرافها المترامية وتاريخها الطويل مجالا خصبا لنشوء وتطور النظم المتعددة فى حماية الحدود حتى أصبحت عناية الرومان بحدودهم Limes طابعا مميزا لتاريخهم •

فعندما اتسع نطاق الفتوحات الرومانية وتضخمت المشكلات العسكرية التى تواجه الجمهورية لم تعد تصلح تلك الطريقة العتيقة فى تجنيد جيوش مؤقتة وفقا للطوارىء النازلة وتسريحها بعد زوال الخطر • فاتجهت روما الى تكوين جيش محترف يخدم مدة طويلة ، وقد احتاج الجنود الى رواتب ونظم ثابتة جديدة ، وقام النظام الامبراطورى ليواجه المشكلة العسكرية التى نتجت عن الفتوحات • وقد بلغت هذه الفتوحات فى الشرق مدى بعيدا على يد القائد بومبى سنة ٦٧ ق٠م٠ فقد كافح

---

(١٣) الدكتور سليم حسن : مصر القديمة ج ٢ ص ٤٩٠ ـ ١ •

(١٤) ديلابورت : بلاد ما بين النهرين ـ ترجمة محرم كمال ص ٢١١ ـ ١٢ ، ٣٨٨

(١٥) برستد : انتصار الحضارة ترجمة دكتور فخرى ص ٢٣٢ •

قراصنة كيلكيا وتقدم حتى بحر قزوين ونهر الفرات ، وضم كيليكيا وسوريا وبيثنيا وبنطس ، فجعل روما سيدة غربى آسيا وخلف لنفسه اسما لامعا ولم تحس أعماله بتغيير جوهرى حتى مجيء الاسلام • (١٦)
وكانت السياسة الشرقية فى عهد أغسطس (٢٧ ق • م • : ١٤م) تحل فى المكان الأول مسألة العلاقات مع الامبراطورية الشرقية (بارثيا) ومع أرمينية • ويمكن أن توصف سياسة أغسطس فى هذا الصدد بأنها محاولة لاجراء **تسوية نصفية تجمع بين العودة الى سياسة قيصر وانطونيوس فى الحرب وبين التخلى عن ارمينية صراحة لسيادة بارثيا •** وربما كان الأمر الأخير أفضل حل للمسألة الشرقية عند الرومان نظريا لكنه يتضمن مهانة خطيرة تلحق بروما ، بينما كانت سياسة الحرب مقامرة لا تؤمن مغبتها • وبالنسبة للقبائل العنيدة فى جبال طوروس بآسيا الصغرى **أقام أغسطس ولاية عسكرية فى درجة مستعمرة بانطاكية فى بسيديا** Antioch in Pisidia **كما أمر بارسال حملات لتامين المنطقة وقام بتهجير السكان الى السهول المجاورة ، وانشئت ولايات جديدة أهمها ليسترا** Lystra **لتكون قواعد أمامية للمركز الرئيسى فى انطاكية (١٧) ووزعت القوات العسكرية على أنحاء الدولة •**

وبالنسبة لمراكز الحدود أنشئت المعسكرات وجهزت كثكنات دائمة للحاميات وان كانت مادة البناء ما زالت هى الطين والخشب (١٨) • وقد غدت الحملات التأديبية ضد القبائل فى جبال طوروس عمليات بوليسية مستمرة بعد عهد اغسطس • ولتيسير الاستطلاع العسكرى فى المرتفعات الجنوبية أنشىء **اقليم منفصل سنة ٤٣م يضم الاراضى الساحلية فى ليكيا** وبامفيليا Lycia, Pamphylia • كذلك انزل تيبريوس Tiberius **(١٤:٣٧م)مملكة كبادوكيا** Cappadocia **الى درجة اقليم سنة ٢٧ م لتقوية** الحد الرومانى عند الفرات • وقد واصل خلفاء أغسطس سياسته بالنسبة **لبارثيا وارمينيه** فحاولوا الاحتفاظ بسطوة روما مع بذل أقل جهد عسكرى ممكن • وفى سنة ٦٤م قوى نيرون (٥٤/٦٨م) قبضة روما على أراضى الحدود عند ارمينيه بضم **مملكة بنطس الشرقية** Pontus **الى اقليم جلاتيا** Galatia (١٩) • ثم جاء تراجان Trajan (٩٨ : ١١٧م) فانتهج

---

(١٦) فيشر : تاريخ اوربا (العصور القديمة) ترجمة الدكتورين نصحى وعواد ص ١٠٩ : ١١١

(١٧) Cary : A History of Roma PP. 497— 8

(١٨) Ibid. P. 506

(١٩) Ibid. P. 545 — 7

سياسة خاصة فى الحدود الشرقية لم يسايره عليها خلفاؤه فقد قام بادماج الولاية الاردنية Transjordanian Principality - التى كان قد احتفظ بها هيرود الثانى Herod Agrippa II طيلة خمسين عاما تقريبا - فجعلها جزءا من سوريا حوالى سنة ١٠٠ م • وفى سنة ١٠٥ الغى كيان مملكة العرب النبطيين الذين كانوا يشغلون مركزا هاما فى مواجهة خط القوافل الذى يتجه من صحراء العرب والبحر الاحمر الى ساحل فلسطين وأنشىء اقليم منفصل هو (الولاية العربية) Arabia مع ضم منطقة دمشق بأطرافها الشمالية الى سوريا • وقد أقيم طريق محصن من هذه المدينة الى خليج العقبة • والى جانب ذلك قام تراجان فى أواخر أيامه باختراق حد الفرات الذى كان اغسطس قد تولى تحديده كما كان نيرون قد رفض أن يتخطاه ، وقد جاء هذا التغيير الجوهرى فى السياسة الرومانية فى الشرق نتيجة اصطدام تراجان بملك بارثياخسرو Chosroe اذ بادر تراجان الى ضم ارمينيه واعتبارها اقليما رومانيا ثم زحف على بارثيا • غير ان خلفه هادريان Hadrian (١١٧ : ١٣٨م) لم يواصل هذه السياسة وسمح لملك بارثيا بالعودة الى عرشه • واكتسب ماركوس أورليوس Marcus Aurelius (١٦١ : ١٨٠م) المملكة الصغيرة التابعة vassal kingdom الواقعة فى غربى بلادين النهرين Mesopotamia المسماة Osrhoene فصارت خاضعة للرومان واستقامت الحدود عند خط الفرات ، ولأجل تأمين هذه المنطقة اقيمت مستعمرة فى كرهاى (حران) Carrhae وعاد الاقليم الاردنى الى وضعه السابق • وفى أيام هادريان أو انطونينوس Antoninus (١٣٨ : ١٦١ م) اقليم طريق محصن جديد على امتداد مراكز تراجان عند الحدود (٢٠) •

وقد اعتبرت سوريا ذات أهمية بالنسبة لسائر الممتلكات الآسيوية منذ فتحها بومبى ، وكان يعهد بها الى موظف رومانى بارز ، وقد كان موقعها كولاية على الحدود متاخمة لبارثيا عدوة روما يجعل لها وضعا خاصا ولما كانت سوريا مركز القوة الرومانية فى الشرق الادنى فقد أنشئت سلسلة من المراكز على طول حدود الصحراء لحماية الأماكن المتحضرة ، وكان جنود هذه الحصون غالبا من قوات القبائل الحليفة وقد ربط الطريق العرضى بين الشرق والغرب مدن دجلة والفرات بمدن البحر المتوسط مارا بتدمر ، كما كان هناك طريق طولى من دمشق الى حوران وجلعاد ومؤاب حتى يتصل جنوبا بطريق قوافل الجزيرة العربية • وشددت

(٢٠) Ibid. P. 645 : 8

الحراسة على الممرات الاستراتيجية مثل ممر (كيليكيا (٢١) • وأهم الحصون الرومانية الصغيرة فى الجنوب الشرقى من دمشق عند مدخل بادية الشام وحول اقليم الصفا البركانى هى من الشمال الى الجنوب : نقطة جبل **سيس** حيث يشغل الحصن مساحة مربعة جانبية قدرها ٣٥ مترا تقريبا ، وبه أبراج مستديرة والجدار مبنى بسمك مترين تقريبا ويحميه خندق صغير ، وقصر **الابيض** مبنى على شكل مربع وبه أبراج ذات زوايا وفى وسطه استحكامات وجدار السور مكون من واجهتين مرصوصتين ملء بالأحجار والملاط ويتصل بجوار السور برج عال بارز يشرف على البناء كله، وحصن **النمارة** يقوم على تل وسط وادى الشام • وقد بنى ماركوس أوريليوس أو كراكلا أو ايلاجبالوس Elag abalus (٢١٨ : ٢٢٢) ، ودير **الكهف** فى الجنوب الشرقى من جبل حوران ويشبه نظـام جبل سيس والقصر الابيض : مدخل واحد ومبان داخليـة بامتداد جدران السور وأبراج بارزة ذات زوايا فى الوسـط والجوانب ، وعلى باب الدخول اسـما قنسطنطيوس Constantinus (٢٩٢/٣٠٦م) وجاليريوس Galerius (٢٩٣ : ٣١١م) ، وقلعة **الأزرق** كانت على هذا التصميم وفيها هيكل مهدى الى دقلديانوس ومكسيميان Maximian (٢٨٦ : ٣٠٥م) • وفى جنوب خط الحصون الممتد من جبل سيس الى قلعة الازرق نجد خطـا آخر من المراكز المحصنة ولكنه أكثر ميلا الى جهة الغرب • ونحن نعلم من قائمةالوظائف) Notitia Dignitatum فى أول القرن الخامس م كان للمقاطعة العربية جيشان أحدهما « جيش برقة الثالث » وكان يعسـكر فى بصرى عاصمة الاقليم وتتبع لقيادتها حصون القصر الابيض والنمارة ودير الكهف وقلعة الازرق ، والجيش الآخر « جيش مارتيا Martia الرابع » فكان يعسكر فى (اللجون) فى شرقى الاردن وتتبعه الحصـون الممتدة من عمان حتى الحجاز وهى الحصون التى تحمى الحدود الحضرية (٢٢)

هذا وقد جرت الامبراطورية الرومانية على أن يكون لها **خط مزدوج** من الحدود :

حد داخلى ، يتبع اقليم الحضر والزراعة وهو محصن تمام التحصين ، وحد خارجى يمتد فى اقليم البدو الذين كانت تدفع لهم الحكومة الرومانية جزية سنوية ولم تكن فيه فرقة عسكرية دائمة ولا حصون • وقد كانت

---

(٢١) دكتور فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ١ ترجمة دكتور جورج حداد وعبد الكريم رافق ص ١٠٩ ، ٣١٥ : ٣٢٠ •

(٢٢) دوسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ـ ترجمة الداخلى والدكتور زيادة ص ٢٩ ـ ٣٠ ، ٣٧ •

مدين وغيرها من الواحات تقع خارج حدود المنطقة العربية ولم تكن جزءا من فلسطين الثالثة في التقسيم الاداري ولكنها كانت تدخل ضمن الحد الخارجي كما يتضح من النقش الموجود في الغوافة حيث بنت قبيلة ثمود معبدا لذكرى الامبراطورين ماركوس أورليوس ، ولوسيوس فيروس Verus (١٦١ : ٩ م) • واذا نجح الرومان في استمالة أحد رؤساء القبائل الخطرين فان الحد الخارجي كان يدخل في حدود النفوذ السياسي (٢٣)

وقد بنيت سلسلة **المعاقل الحصنية في القطاع الواقع بين الرين والدانوب** على شكل زاوية وأحيطت جبال التاونوس والغابة السوداء Taunus, Schnwarzwald بسلسلة متصلة من المعاقل والحصون بنيت تدريجا ، وربط بين المعاقل حائط متصل أقيم بواسطة تكديس التربة، وعلى مسافة بعيدة منه الى الجنوب أقيم حائط آخر من الحجر لحماية الأراضي وشبكة الطرق بين الرين والدانوب • وتتابع على بذل هذه الجهود أباطرة الرومان من فسبسيان Vespasian (٦٩ : ٧٩ م) الى تراجان • وقد تركزت مظاهر الحياة العسكرية في الولايات الواقعة على تخوم الدانوب ، وكان العامل الحاسم في تقدم حياة الحضر على ضفاف أواسط الدانوب والساف والدراف يرجع الى المراكز العسكرية الرومانية الكبرى المتنقلة بينها من وقت لآخر • **وبنيت غالبية الحصون في كنف** القرى الكبرى الكلتية والالليرية والتراقية • وقد انتزعت من القبائل المحلية مساحات شاسعة من الأراضي وخصصت للحصون والقلاع ، لذا يرد في النقوش اللاتينية ذكر (مراعي الفرق العسكرية Prata legionum (٢٤) هذا ويلاحظ أن المعاقل في شمال الرين والدانوب كانت أمنع من الحصون في سوريا (٢٥) •

وفي عهد دقلديانوس Diocletiam (٢٨٤ : ٣٠٥م) استعادت الامبراطورية الرومانية أراضيها التي فقدتها أثناء توالي الغارات المختلفة في أواسط القرن الثالث م ، وبلغ الدفاع عن الامبراطورية أوجه سنة ٣٣٠م فأقيمت التحصينات لكي تحقق أقصى ما يمكن تحقيقه عن طريقها لضمان سلامة الدولة • فالى الخلف من الحائط المهجور الذي كان قد أقامه سفيروس Severus (١٩٣ / ٢١١م) وكركلا Carcalla (٢١١ : ٧ م (في ألمانيا الجنوبية اختط دقلديانوس وقسطنطين

---

(٢٣) موزيل : شمال الحجاز ـ ترجمة الدكتور عبدالمحسن الحسيني ص ٢٩ : ٣١ •

(٢٤) رستوفتزف : تاريخ الامبراطورية الرومانية الاقتصادي والاجتماعي ج ١ ـ ترجمة الدكتورين زكي علي ، سليم سولم ص ٢٩٨

(٢٥) Brockelmann : Hist. of the Islamic Peoples pp. 6-7

(٣٠٦ : ٣٣٧م) سلاسل جديدة من القلاع **المنفصلة** على طول الرين والدانوب . وفى سنه ٣٠٠م حصن الساحل الانجليزى من جزيرة Wight الى واش Wash بشريط من القلاع ضد غارات القرصان السكسونين كما حصنت المدن الواقعة خلف الحدود فى المناطق المهددة بحوائط دائرية . وفى عهد أورليان Aurelian (٢٧٠ : ٥ م) وبروبوس Probus (٢٧٦ : ٢٨٠م) زودت روما بخط من الاستحكامات تفوق على حائط سرفيوس Servius Wall فى النطاق والمنعة ، كما زودت القسطنطينية بوسائل دفاع تحدت كل الهجمات طوال ألف عام تقريبا . وفى بلاد الغال Paul أقيمت فى القرن الرابع تحصينات جديدة أقوى مما احتاجه الالمان والفرنجة اثناء غزواتهم المبكرة . وأصلح نظام الجيش فى أيام دقلديانوس وقسطنطين فقسمت القوات العسكرية الى قسمين متميزين يشمل أولهما القوات التى تتولى حماية الحدود فى جهة معينة limitanei واعتبر القسم الثانى palatini, comitatenses احتياطيا عاما ترسل منه الكتائب الى المناطق المهددة عند بدء أى اشارة . وكانت حاميات الاقاليم تحت قيادة دوق أو قومس Duces, Comites (٢٦)

ومنذ بداية القرن الثالث انتظم غير الايطاليين فى سلك المدافعين عن الامبراطورية الرومانية بالمعسكرات الدائمة على طول تخومها حيث كان يعيش الرجال مع نسائهم وأسرهم معيشة شبه مدنية وأصبحت غالبية الفرق فى القرن الرابع تتألف من الجرمان كما تناقصت القوات التى تحمى الحدود (٢٧) .

وسوف نفرد مبحثا مستقبلا لنظام الدفاع البيزنطى الذى كان يقوم على اساس البنود العسكرية Thema لأهميته كسابقة مباشرة تقدمت نظام الثغور والعواصم الاسلامية .

الفرس : قسمت الدولة فى عهد **الاكمينيين** الى ولايات متسعة يحكمها ستاربه Satraps يقودون الجيوش فى الحروب الداخلية أما الحروب الخارجية فكان قواد الدولة يرأسون جيوش الولايات عموما ، وقسمت الدولة لأقسام حربية كل قسم على رأسه (كارنا) يرأس الستربى فى الشئون الحربية . وكانت معظم الولايات الايرانية فى عهد **الاشكانيين البارثين** أقل اتساعا من الولايات التى حكمها ستاربه Satraps

---

(٢٦) Cary : History of Rome pp. 735 : 8

(٢٧) فيشر : تاريخ اوربا (العصور القديمة) ترجمة الدكتورين نصحى وعواد ص ١٣٢ .

الاكمينيين الذين سبقوهم ، ولو ان حكام الاشكانيين كانوا أكثر استقلالا. وقد سارت ادارة ارمينية أيضا على نظم الاشكانيين فان فرعا منهم قد حكمها منذ سنة ٦٦م • والظاهر ان كلمة (**بدشـــخ**) **الارمينية كانت لقب الولاة (المرازبة) الاربعة الذين يحكمون الثغور فى الجهات الأصلية،** ويرى ماركارت ان تيجرانس الكبير ملك ارمينيـــة » ٨٩ : ٣٦ ق) هـــو الذى أدخل نظام البدشـــخات الاربعة **وقد الحق بهذه الوظيفة اقطاعات كبيرة** فى كل ولاية تمنح لواليها • وعرف نظام البدشخ أيام الساسانيين تحت اسم (بدخش) وقد سمى ولاة الاءقسام الأربعة التى ترجع الى عهد الاشـــكانيين ابتداء من القرن الخامس أو ما يليه بالمرازبة ، وعين مرازبة آخرون فى الولايات الداخلية •

وفى العهد **الساسانى** كانت ولايات الستاربة أو المرازبة صـغيرة نسبيا ، ولم تكن لها ـ كما لم يكن لها أيام الاكمينيين ـ حدود ثابتة • وكان المرازبة يغلب عليهم الطـــابع الحربى ، وفى أثنـاء الحرب كانوا يعملون قوادا فى الجيش تحت قيادة الاصـــبهبذين • وكانت الولايات مقسمة الى مديريات كل واحدة منها (استنان) يحكمها (استاندار) • **وفى نصيبين عين استاندار من أصـل ملكى لتامين الحدود** ، وكان لحـكام المديريات هـــؤلاء جماعات من الجند تحت تصرفهم كمـا كان الحـــال بالنسبة للمرازبة • **كان تحت امرة حكام المقاطعات الواقعـة على الحدود جنود مرتزقة ، وأقيمت الحاميات فى المناطق المحصـــنة لحمـاية حدود الدولة (٢٨) •**

وقد قام أنوشروان بتنظيمات حربيـة جديدة داخل مملكته ، فقد قهر أمم البارز وجول وانجز وخزر واللان ـ كما يروى الطبرى والبلاذرى ـ وقام باجلاء هؤلاء عن بلادهم وأعاد اسكانهم مواضع أخرى ثم استعان بهم فى حروبه • ففى مدينتى الشابران ومسقط وفى مدينة باب الأبواب (دربند) الحصينة التى قوى أسوارها أسكن (السياسيجين ؟) وأقام منهم حاميات فى البلاد الارمينية التى أخذها من الرومان • وبنى بأرض جرزان (جورجيا) مدينة يقال لها سغدبيل أنزلها قوما من السغد وأبناء فارس وجعلها مسلحة ، كما يذكر البلاذرى أيضا أنه نصب ملوكا تابعين له فى القوقاز • **وقد كان نقل جماعات من السكان وتوطينهم فى مكان آخر عادة قديمة عنـــد السريان وعنـــد الاكمينيين احيانا** ، وقد أنشـأ

---

(٢٨) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة دكتور الخشاب ص ٤ : ١١ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٩٧ ، ٥٠٢ •

ملوك ساسانيون مثل سـابور الاول والثانى **مستعمـرات الأسرى** فى جهات من ايران ، لكل ميزة كسرى الأول أنه استخدم هؤلاء الأسرى فى أغراض حربية فدخل فى جيشـه مهاجرون غرباء طاوعوا سريعا مـع البيئة الفارسية من غير أن يفقدوا صـفاتهم الحربية • ويروى الطبرى خبرا عن **تفريق كسرى مهام قيادة الجيش العليا بين أربعة أصـبهبذين يقـرر انهم كانوا : واحدا للشرق وخراسـان وما والاها ، والثـانى للعراق حتى حدود الدولة البيزنطية ، والثالث لنيموذ وهى بلاد اليمن ، والرابع لأذربيجان وما والاها وهي بلاد الخزر (٢٩) •**

وباب الأبواب « محكمة الاساس من بنـاء انوشروان وهى أحـد الثغور الجليلة العظيمة لأنها كثيرة الأعداء الذين حفوا بها من أمم شتى وألسنة مختلفة وعدد كبير • والى جنبها جبل عظيم يعرف بالذئب يجمع فى رأسه حطب كثير ليشعلوا فيه النار ان احتاجو اليه ينذرون أهـل أذربيجان وايران وأرمينية بالعدو ان دهمهم •• »

ويفيض البلاذرى والاصطخرى وياقوت فى وصف الحائط الذى بناه أنو شروان الذى يقال له الباب « وكانت الخزر تغير فى سـلطان فارس حتى تبلغ همدان والموصل » فتودد انوشروان الى خاقان الخـزر وما زال يحتال به حتى أقنعة بالحاجة الى اقامة حاجز بينهما « تدعنى أن ابنى حائطا بينى وبينك واجعل عليه بابا فلا يدخل بلدك الا من تحب ولا يدخل بلدى الا من أحب ، فأجابه الى ذلك » • وكانت الاكاسرة كثيرة الاهتمام بهذا الثغر « لا يفترون عن النظر فى مصالحه لعظم خطره وشدة خوفه وأقيمت لهـذا المكان حفظة من ناقلة البلدان وأهل الثقـة عنـدهم لحفظه وأطلق لهم عمارة ما قدروا عليـه بلا كلفة للسـلطان ولا مؤاخذة فيه ولا مراجعة حرصا على صيانته من أصناف الترك والكفر والاعداء » • وقد بنى أنو شروان الحائط وأحكمه « وجعله من قبل البحر بالصخر والرصاص وجعل عرضه ثلاثمائة ذراع وألحقه برؤوس الجبال •• فقاد الحائط فى البحر ثلاثة أميال ، فلمـا فرغ من بنائه علق على المدخل منه أبواب حديد ووكل به مائة فارس يحرسـونه بعد أن كان موضعه يحتاج الى خمسين أو (مائة) ألف من الجند وجعل عليه دبابة » • وجعل أنوشروان طرفا من هذا الحائط فى البحر « فأحكمه الى حيث لا يتهيأ سلوكه وهو مبنى بالحجارة المثقوبة المربعـة المهندمة لا ينقل أصـغرها

---

(٢٩) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة دكتور الخشاب ص ٣٥٣ : ٥٠

خمسون رجلا وقد أحكمت بالمسامير والرصاص وجعل فى هذه السبعة فراسخ سبعة مسالك ، **وعلى كل مسك مدينة ورتب فيها قوما من المقاتلة من الفرس يقال لهم الانشاستكين** • وكان على أرمينية وظائف رجال لحراسة ذلك السور مقدار ما يسير عليه عشرون رجلا بخيلهم ويتزاحمون •• » (٣٠) والنشاستجيين أو النشاستكين أصلها البهلوى نشاستكان بمعنى **المحاربين المقيمين كحامية** •

وكانت عاصمة ايران محوطة **بأسوار حصينة** تحيط بمجموعة المدن التى تكون (المدائن) وعليها **أبواب محكمة** • أما **المدائن** بمعناها الأخص (بالبهلوية تيسبون) فكانت تقع فى شرقى دجلة وحصنت بسور نصف دائرى عليه أبراج • كذلك حصنت **دستجرد** التى كانت محل اقامة كسرى المحببة منذ حوالى سنة ٦٠٤ م حتى زمن غزو هرقل سنة ٦٢٧ ـ ٦٢٨ اذ أنبىء بأن المدائن تحمل شؤما بالنسبة اليه ، وتقع دستجرد على الطريق الحربى الواسع من المدائن الى همدان ، وكان السور المحيط بالمدينة من الآجر الأحمر قائما كله فى أيام ابن رسته (حوالى سنة ٩٠٣م) • ويقول هرتسفيلد Herzfeld ان سور دستجرد قد يكون أمتن الاسوار المشيدة من الآجر التى بقيت فى آسيا الغربية باستثناء سور نبوخذ نصر (٣١) • **ويبدو أن تخطيط البلدتين المستديرتين : الحضر وطيسفون كانتا نموذجا لمدينة المنصور المستديرة بغداد ، ويحتمل أن نفس المدينتين كانتا تقليدا للمعسكرات الأشورية الحربية البارزة (٣٢)** •

وقد امتدت **معاقل الفرس ومراقبهم على طول الحدود** التى تطل منها بلادهم على بلاد الروم • وقر روى عن **دير القائم الاقصى** على شاطىء الفرات الغربى فى طريق الرقة « أنه مرقب من المراقب التى كانت بين الروم والفرس وعلى أطراف الحدود ، يرقب عليه طرف الحد بين المملكتين » (٣٣)

بلاد العرب : ولم تخل بلاد العرب نفسها من سوابق فى اقامة الاستحكامات والحصون ففى الجنوب كانت أقسام اليمن : محفد ،

---

(٣٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠٤ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٩ : ١٢ الاصطخرى : المسالك والممالك ص ١٠٩ ، ١١٠ والهامش

(٣١) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة دكتور الخشاب ص ٥٨٣ ، ٣٦٨ ـ ٦٩ ، ٤٣٧ ـ ٨ •

(٣٢) ايلييف : بحث (فارس والعالم القديم) فى كتاب (تراث فارس) باشراف أربرى ترجمة دكتور محمد صقر خفاجة ص ٥٣ •

(٣٣) العمرى : مسالك الابصار ج ١ ص ٢٦٩ ، ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ١٦١

ومخلاف ، **وقصر** شبه باماكن محصنة الى جانب كونها أقساما ادارية (٣٤). وقد بلغ عدد الطوابق فى حصن عمدان باليمن عشرين طابقا ، كماانتشرت حصون أخرى منيعة فى جميع أرجاء اليمن وحضرموت ومهرة وعمان • وفى الشمال نحتت مدينــــة **البتراء** فى جوف الصخر الصـــلد حتى استعصت على من يرومها ، على حين غدا حصن **الخورنق** الشــهير القائم بجوار الحيرة موضع أساطير عدة ، كذلك كان السدير حصنا مشـــهورا آخر على مقربة من الحيرة • أما الحصن المنيع المسمى **بالأبلق فى تيمــاء** فقد قاوم جيش ملك الحيرة وأعان صاحبه السموءل على اكتساب شهرته الخالدة فى الوفاء بالعهد •

وكان للطائف قلعة منيعة • وقد كفلت تلك الحصون لأصحابهـــا الحماية خاصة وان فن اقتحامها لم يكن متقدمـا فى بلاد العرب قبـــل الاسلام • (٣٥) وكان لليهود حصونهم مثـــل **خيبر** • وقد أتيح للعـــرب المقيمين فى سوريا والمارين بها فى تجارتهم أن يشهدوا الحصون الرومانية هناك •

***

ونستطيع أن نخرج من دراسة هذه السوابق بالأساليب التالية فى حماية الحدود : ـ

١ ـ **تحصين المدن** : باحاطتها بأسوار لها أبواب ، ونجد هـــذا اللون من التحصين فى الدويلات الصغيرة التى كانت تقوم أصلا حول مدينة City-state كما نجده فى العواصم والمدن الهامة التى تتخلل الدول الكبرى • وقد كانت هنـــاك أسوار واســـتحكامات حول روما والقسطنطينية والمدائن • وحول مدينة دمشق بنى ســـور فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث م على شكل مستطيل تقريبا وله ٧ أبواب •

وقد وصل الى علم الجغرافيين المسلمين شىء عن تحصينات مدينـــة الرومية (القسطنطينية) « ••• ولها حائطان من حجارة بينهما فضـــاء ستون ذراعا وعرض السور الداخل اثنتا عشرة ذراعا وســـمكه اثنتان وسبعون ذراعا وعرض السور الخارج ثمانى أذرع وسمكه اثنتان وأربعون ذراعا وفيما بين السورين نهـــر مغطى ببلاط نحـــاس طول كل بلاطة ست وأربعون ذراعا •• الخ » • (٣٦)

---

(٣٤) الدكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ص ٦٧ •

(٣٥) الحسينى : الادارة العربية ـ ترجمة الدكتور العدوى ص ٣٥ ـ ٣٦

(٣٦) دكتور سليمان عادل عبدالحق وعبد العزيز عثمان : نزهات أثرية فى سوريا ص ٧ • من خرداذبة : المسالك والممالك ص ١١٣ ـ ٤ ، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص١٣٠

٢ ـ **معاقل الحدود** : وهـــذه لا غنى عنهـــا فى الدول الكبـــيرة والامبراطوريات المترامية الاطراف لمراقبـــة الحدود الطويلة فى النقط الضعيفة أو ذات الاهمية الاستراتيجية ، فتنشأ هناك قلاع مشـــحونة بالجند والسلاح • ويبدو هذا الاسلوب الدفاعى فى مصر القديمةالفرعونية وفى الدولة الرومانية أحيانا ، **وقد أقام الرومان بين دمشق وتدمر الى الفرات ٥٢ حصنا أو قلعة** كان فى بعضها حرس كما بنوا حصـــونا على الطريق بين بصرى ودمشق ليأمنوا عبث البادية •

وذكر بروكوبيوس ان الفرس والروم ابتنوا قلاعا جدرانها باللبن لحماية كورة **قوماجين** Commagene **ى التى كانت تعرف قبلا باسم كورة الفـــرات** Euphratesia وحماية حدود الامبراطورية الفارسية الواسعة المشرفة على البادية من الغـزو ، وقد أمر دقلديانوس ببناء بعض هـذه الحصون •

٣ ـ **الأسوار والحوائط الطويلة** : وهى تمتد على حدود طويلة نسبيا ولا تحيط بمدينة مفردة فحسب ، وقد تتخللها أبراج حراسة ومراقبة أو قلاع متباعدة • وتوفر هذه الاستحكامات البنائية الكثير من القوة البشرية العسكرية ، وقد أوضـــح ذلك البـــلاذرى فى حديثه عن سور أنوشروان بأرمينية « وكل به مائة فارس يحرســـونه بعد أن كان موضعه يحتاج الى خمسين الفا » • وأشهر مثال على هذا النوع من التحصين الحوائط الرومانية وسور الصين العظيم ، وقد بنى هادريان بانجلترا سنة ١٢٣ م حدا بين بريطانيا الرومانية واسكتلندا التى عجز الرومان عن اخضاعها (٣٨) •

٤ ـ **الولايات العسكرية** : هذا أسلوب فى التحصـــين لا يقتصر على تسوير مدينة أو اقامة معقل أو تشييد حائط ، وانما يوجه الحياة فى ولاية كاملة بمدنها وأسوارها ومعاقلها ، وجنودها وأهليها ـ توجيهـــا يكفل تحقيق الأغراض العسكرية فى منطقة الحدود وفى الوقت نفسه لا يضر بالسير الطبيعى للحيـــاة المدنيـــة ، وقد تطور هذا الاسلوب فى الدولة الرومانية كما كان المرازبة الفرس يغلب فيهم الطابع الحربى ويعملون قوادا عسكريين أثناء الحروب • وقد ازداد هذا النظام تقدما واحكاما زمن البيزنطيين ، وسنعالج نظام البنود البيزنطى Thema على حدة •

٥ ـ **الدولة الحليفة** : هذا أسلوب دفاعى يقوم على تحالف الدولة

---

(٣٧) كرد على : خطط الشام جـ ٥ ص ٢٥٣ ، دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٣ ص ١٣٢

(٣٨) راوس : التاريخ الانجليزى ـ ترجمة الدكتور زيادة ص ٧

الكبيرة مع جارة صغيرة لها تحتل موقعا حساسا على حدودها ، فيغنى هذا التحالف عن تكاليف الفتح والتحصين فى أرض قد لا يخلص أهلها للفاتحين مهما مر الزمن • ومن هذا القبيل ما قام به عرب حطرا ـ الحضر ـ الذين كانوا يحتلون مكانا حصينا فى صحراء الجزيرة بين دجلة والفرات، وهو موضع يقع بين الرومان والبارثيين ثم بين الرومان والفرس • ثم نشأت الحيرة بعد ترك حطرا لأن موقعها فى الشمال جعل من العسير على العرب الدفاع عنها ، وقد اتفقت الحكومة الكسروية مع ملوك الحيرة على رعاية النظام على الحدود (٣٩) • وكذلك فعل البيزنطيون بالنسبة لدولة الغساسنة • ومن المثل الواضحة فى هذا الشأن ارمينية التى أدى موقعها بين الفرس والروم الى صراع الفريقين على اكتساب لنفوذ لسياسى فيها • ولو أن ارمينية كانت قوية لدرجة تكفل لها حفظ استقلالها لاستطاعت أن تكون حائلا بينهما ، ولكنها كانت ضعيفة جدا وكان حكامها المنتسبون الى الأشكانبين وكبار الاقطاعيين مستعدين للتمرد كما كان نفوذ الرومان متفوقا على النفوذ الايرانى (٤٠) • وقد انتهى أمر النزاع على ارمينية الى عقد **معاهدة بين الفرس والروم قسمت الولاية فيه بين الامبراطوريتين فى عهد** الامبراطور البيزنطى ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ : ٣٩٥ م) والملك الساسانى بهرام الرابع (٣٨٨ : ٣٩٩ م) « بعد أن ظلت ارمينية طيلة القرن الرابع لقمة تتنازعها فارس وروما مثلما كانت روسيا وانجلترا تتنازعان أفغانستان فى القرن التاسع عشر » على حد تعبير نورمان بينز (٤١) •

---

(٣٩) دوسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ـ ترجمة الدواخلى والدكتور زيادة ص ٣٧

(٤٠) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة الدكتور الخشاب ص ٢٠٨

(٤١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٤٥

ثانيا ـ منطقة سوريا والفرات فى العصور القديمة

ان تقديم صورة مجملة لتاريخ سوريا والفرات ـ وهى المنطقة التى ظهر فى جزء منها اقليم الثغور والعواصم الاسلامية ـ يعين على تبين التوجيه الجغرافى للمنطقة والمعالم البارزة فى تاريخها القديم ٠

فالهلال الخصيب من أهم ارجاء آسيا الغربية : تحيط ذراعاه بصحراء شاسعة فى الجنوب ، ويستند ظهره الى جبال مرتفعة فى الشمال ، **وقد هيأته الطبيعة لأن يكون فاصلا طبيعيا بين الصحراء والجبال** ٠ وعلى أراضى هذا الهلال الخصيب يتنازع سكان الجبال وسكان الصحراء ، حتى أن تاريخ غربى آسيا ـ كما يذكر برستد ـ ليس الا تاريخا للصراع بين الفريقين (٤٢) ٠

وبالقرب من منطقة الهلال الخصيب نجد **منطقة الجبال المرتفعة فى غربى آسيا** التى شهدت هجرات وحركات انسانية هامة ، وتشمل من الغرب الى الشرق : الاناضول وارمينية وميديا وايران ٠ ويمكن أن تسمى حضارة تلك المنطقة المتسعة (حضارة المنطقة المرتفعة) اذ يسود الاعتقاد بنشوئها فى الهضبة الايرانية (٤٣) ٠ ويطل الهلال الخصيب فى جناحه الغربى على مياه **البحر المتوسط** ٠ ولم تكن الظروف الجغرافية للأراضى الواقعة شرقى هذا البحر تسمح بجمع كلمة أهلها فى ذلك الزمن السحيق ٠ فالجبال هناك كثيرة وكذا التلال والوديان : فعلى طول شاطىء البحر المتوسط تخترق البلاد سلسلتا جبال لبنان الغربية والشرقية ٠ وفى الشمال مابين السلسلتين واد خصب يخترقه نهر العاصى أو الاورنط وهو السهل المتسع الوحيد فى سوريا وفلسطين الذى لا تتخلله جبال ولا تلال

---

(٤٢) برستد : انتصار الحضارة ـ ترجمة الدكتور أحمد فخرى ص ١٥١ ـ ٢

(٤٣) برستد انتصار الحضارة ـ ترجمة الدكتور فخرى ص ٢٤٣

ويمكن أن تنشأ فيه مملكة مستقلة قوية . أما شاطىء البحر المتوسط فتعزله عن البلاد الداخلية سلسلة جبال لبنان الغربية وهو لذلك موافق لأن تسكنه أمة بحرية تجارية . واما فلسطين الواقعة جنوبيه فأمامها عوائق منها عدم وجود موان بحرية قوية وكثرة أراضيها المجدبة ، فضلا عن أنها معترضة بجبال الكرمل ووادى الاردن والبحر الميت . وبشرقى فلسطين سلسلة جبال تنتهى بالصحراء العربية الكبرى الا فى جهتها الشمالية حيث تتصل بوادى الاورنط عند اقترابه من نهر الفرات (٤٤) .

وقد كانت الطرق التجارية من أقوى عوامل الارتباط المحلى فى منطقة الهلال الخصيب وصحاريها من جهة ، وسبيلا للتجارة العالمية بين الشرق والغرب أكسب المنطقة أهمية اقتصادية من جهة أخرى . ويمكن تتبع الطريق التجارى العالمى الكبير فى ذلك الوقت من دلتا النيل وعلى ساحل سيناء ، حيث يتفرع الى مناجم النحاس والفيروز فى شبه الجزيرة ، كما يتفرع الى أراضى البخور فى جنوب الجزيرة العربية ومن سيناء يتجه الطريق شمالا نحو فلسطين حتى الكرمل ، ومنها يتفرع طريق الى الساحل ويسير الآخر الى الداخل فيجتاز سهل مجدو ويعبر الاردن ثم يقصد الى دمشق **ومنها يتفرع طريق يعبر بادية الشام مارا بتدمر ويربط سوريا بوادى النهرين** . أما الطريق الرئيسى فيتجه من دمشق نحو الغرب ويعبر لبنان الشرقى فى ممر الزبدانى ويصعد شمالا عبر سوريا المجوفة Coele-Syri: متبعا نهر العاصى وقادش الى شمالى سوريا ، وعند قادش يتجه غربا ليتصل بالبحر المتوسط . **وبعد ان يتفرع فى شمالى سوريا الى البحر بطريق الابواب السورية فى جبل امانوس** Ammanus **والى الشمال الغربى بطريق الابواب الكيليكية ليصل آسيا الصغرى فانه يتحول الى الشرق بطريق الجسر السورى نحو الفرات ومنه الى الدجلة والخليج الفارسى (٤٥)**.

ونهر الفرات بدوره يربط بين الاراضى المختلفة على طول مجراه الطويل من منابعه فى ارمينية الى مصبه فى الخليج الفارسى . وبجانب ذلك نجد **البحر المتوسط** يجتذب سكان الجانب الشرقى من الهلال الخصيب وما يليه من مرتفعات وصحارى للوصول الى سواحله والافادة من موانيه باعتباره المنفذ التجارى الهام للمنطقة بأسرها . ومن أجل هذه الأهمية التجارية التى تمتعت بها تلك المنطقة من قديم نهضت دول وأقوام بحكم

---

(٤٤) برستد ـ تاريخ مصر من اقدم العصور ـ ترجمة حسن كمال ص ١٧٠ .

(٤٥) دكتور فيليب حتى ـ تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ـ ترجمة دكتور حداد ورافق ج ١ ص ٦٤ ـ ٥ .

موقعها على الطريق التجارى فى البر والبحر ، ومن ذلك **مدائن الآراميين** فى التجارية البرية وموانى الفينيقيين فى التجارة البحرية ·

هذا الوضع الجغرافى والاقتصادى **قد جعل منطقة الهلال الخصيب معبرا بشريا يموج بالهجرات المختلفة** · فقد غزاه الساميون من جنوبه ـ من ناحية الصحراء ، وغزاه سكان الجبال من شماله واتخذ بعضهم موطنا فيه · وأغرى هؤلاء الغزاة وضع الاقليم الاقتصادى وما يتمتع به من صلاحية للزراعة وموقع على طرق التجارة ، ولم تكن التخوم الطبيعية من الوعورة بحيث تحول دون اقتحام الغزاة ، وقد تطاحن الجبليون مع القبائل السامية قرونا طويلة ، **وارتكزت حضارات البابليين والاشوريين والفينيقيين والآراميين على العناصر السامية ، فى حين قامت دول الميتانيين والحيثيين والميديين والفرس على سكان الجبال** · وبينما كانت أقدم النقط الامامية للشعوب الهندواوربية فى مملكة **خيتا فى آسيا الصغرى وفى بلاد ميتانى على الفرات** نرى ان توسع الساميين اوصلهم الى الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط حيث تزعم **الفينيقيون** التجارة فى مياهه (٤٦) ·

***

واستهلت بوادر نهوض الساميين فى **أكد** ذات الموقع التجارى الممتاز على الطريق الموصل بين الرافدين والبلاد الجبلية فى شرقها وهناك هزم سرجون (فى القرن ٢٦ ا و ٢٤ ق · م) السومريين اصحاب اقدم الحضارات الهامة فى وادى لرافدين · ونحن نرى سرجون يصعد بمحاذاة الفرات حتى يصل شاطىء البحر المتوسط ويحتمل انه اوغل فى زحفه شمالا خلال المناطق الشرقية من آسيا الصغرى ليؤمن سبيل التجارة بين مناطق مناجم الفضة فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى وبين تجار بلاد الرافدين · وهكذا كانت جهود سرجون الاكدى استجابة مبكرة للظروف الجغرافية والاقتصادية فى المنطقة وكاد اول حاكم يؤسس مملكة كبيرة فى غربى آسيا تمتد من عيلام عند الخليج الفارسى شرقا الى شواطىء البحر المتوسط فأعالى دجلة والفرات شمالا وغربا · وعلى مر السنين نجم عن اتحاد السومويين والساميين أمة جديدة تدعى **سومر واكد** تحققت على أيديها الحضارة البابلية (٤٧) · وفى منتصف القرن ٢١ ق · م · جاء من الغرب **العموريون** الساميون وسيطروا على بعض

---

(٤٦) برستد انتصار الحضارة ـ ترجمة دكتور فخرى ص ٢٠٤

(٤٧) برستد انتصار الحضارة ـ ترجمة دكتور فخرى ص ١٧٧ ـ ٨ ، ١٠٨

مدن الشمال فى بلاد النهرين وظهرت **بابل** التى لم تكن حتى ذلك الوقت بلدا له أهمية سياسية كبيرة ، وفى هذه الفترة ظهر **حمورابى** الشهير .

ولم يترك أهل الجبال للساميين فرصة الانفراد بالسيطرة على اراضى الهلال الخصيب واقامة الدول فى ارجائه ، فقد **تعرضت بلاد بين النهرين لغزوات سكان المنطقة الجبلية منذ حكم أسرة سرجون الاكدى ، وبعد وفاة حمورابى لم تعمر الامة البابلية طويلا أمام غزوات (الكاسيين) من الشرق على سهل بابل خاصة بعد عام سنة ١٩٠٠ ق.م فأحرزوا السيادة هناك حوالى سنة ١٧٥٠ ق.م. كما جاء الحيثيون من الشمال** الغربى لكنهم اقتصروا على نهب بابل ثم عادوا ادراجهم (٤٨) وفى المنحنى الكبير لنهر الفرات قرب البحر المتوسط تأسست مملكة **ميتانى** التى امتد نفوذها حتى بلغ تونب (بعلبك ؟) على نهر الاورنط غربا ومدينة نينوى شرقا ، وقد كانت ميتانى من أسباب اضمحلال بابل بحكم موقعها الجغرافى على طريق بابل الى سوريا فأصبحت عقبة أمام سلطة بابل فى آسيا الصغرى (٤٩) . وقد استطاع فرسان ميتانى عند نزولهم منحنى الفرات ان يؤسسوا هناك ولاية حربية لها خطورتها ، وكان استخدام الجواد بدءا لعصر جديد فى بلاد الهلال الخصيب ، وشق حكام ميتانى بمركباتهم الحربية حدود بلاد الحيثيين ، وغزوا أشور واخضعوها لحكمهم بعد ان سدوا عليها المسالك فى طريقها الى الغرب (٥٠) . وبينما كان حكام الميتانى يؤسسون دولتهم كانت جماعة اخرى من الفزاة قد دخلت آسيا الصغرى قرابة سنة ٢٥٠٠ ق.م. واستطاعت فيما بعد أن تستولى على معظمها وتدخل الحصان المستأنس معها وتقيم **الامبراطورية الحيثية التى نشأت حضارتها من حضارات الهلال الخصيب** وكانت عاصمتها حاتوساس ذات الأسوار القوية المنيعة أول مدينة كبيرة فى القارة اذ فاقت بابل المعاصرة لها ، أما نينوى الاشورية فلم تكن قد ظهرت بعد . وقد اصطدم الحيثيون بمصر ، وعندما كانت الحرب محتدمة بين الفريقين خاصة بعد سنة ١٣٠٠ ق.م. بدات دولة الاشوريين فى نهضتها فضايقت الحيثيين الذين انتهى أمرهم الى مصالحة المصريين (٥١) . **وكانت ميتانى قد رات من صالحها مؤازرة مصر فى**

---

(٤٨) برستد انتصار الحضارة ـ ترجمة دكتور فخرى ص ١٩٧

(٤٩) برستد تاريخ مصر من اقدم ـ ترجمة حسن كمال ص ١٧٢ ـ ٣

(٥٠) برستد انتصار الحضارة ـ ترجمة دكتور فخرى ص ٢٠٢ ـ ٣

(٥١) برستد انتصار الحضارة ترجمة دكتور فخرى ص ٢٤٠ : ٢٥٠

صراعها ضد الحيثيين ولكن لفحها الصراع المستمر وسحقتها رحاه . واعقب ذلك ضعف الحيثيين والمصريين حتى انسحبتا سنة ١١٥٠ ق.م. من الميدان تاركين اشور لترث امبراطورية الشرق .

وبينما بلغت الشعوب الهندو أوربية خيتا فى آسيا الصغرى (داخل المنحنى الكبير لنهر هاليس Halys) التى تزعمت الحيثيين وبلاد ميتانى على الفرات ، بلغ الفينيقيون الساميون الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط حيث اقاموا سلسلة من الدويلات الغنية ذات التجارة والاساطيل البحرية المزدهرة فى حوض البحر المتوسط كله . وقد امتد نشاطهم الى قبرص ومنها استخرجوا النحاس ، ورودس وجزر الارخبيل اليونانى ، كما اسسوا محطات تجارية لهم على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى وأرض اليونان وجزرها المجاورة . وقد وزع الفينيقيون مصنوعاتهم فنشأت مدنهم الغنية مثل صور وصيدا وجبيل وارواد وبطرون وكانت كل مدينة تحت ادارة أسرة قوية . ولا يبعد ان يكون الفينقيون قد أسسوا مراكز تجارية جهة قرطاجنه والاندلس وقد كانوا حلقة الاتصال بين الحضارتين المصرية واليونانية (٥٢) . كذلك أسس الآراميون الساميون حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م. عددا من الممالك المزدهرة خاصة فى سوريا واستفادوا من مقومات الحضارتين الحيثية والمصرية . وفى فلسطين بدأ العبرانيون يحتلون الاراضى ويستقرون فيها . وفى أوائل سنى الالف الاول ق . م كان الآراميون والعبرانيون قد احتلوا معظم الطرف الغربى للهلال الخصيب وباعدوا بين اشور وبين ساحل البحر المتوسط . وامتد نشاط التجار الآراميين فى أرجاء الصحراء التى تتخلل طرفى الهلال الخصيب حتى وصلوا منابع نهر دجلة وأصبحت تجارة غرب آسيا فى أيديهم كما أصبحت الآرامية لغة الهلال الخصيب (٥٣) .

وجاء دور اشور لتتصدر تاريخ المنطقة بعد تهاوى بابل وميتانى والحيثيين ، وقد هيأ لها موقعها فى الزاوية الشمالية الشرقية من الصحراء المحيطة بالهلال الخصيب على مرتفع من الارض ميزة حربية سهلت الدفاع عنها خلافا للمدن التى كانت تقوم فى الارض السهلية بوادى الرافدين . كما اغدقت طرق التجارة والاتصال بالشعوب المجاورة على الأمة الناشئة فذهبت قوافلها الى آسيا الصغرى للاتجار فيما تدره مناجم الفضة .

---

(٥٢) برستد تاريخ مصر من أقدم العصور ــ ترجمة حسن كمال ص ١٧٩

(٥٣) برستد انتصار الحضارة ــ ترجمة دكتور فخرى ص ٢٠٤ : ٧

وأصبحت اشور مركزا هاما على طريق القوافل الذى ربط بين البلاد الجبلية الى الشرق منها وبين البلاد الواقعة فى غربيها ·

وعاش كثيرون من تجار بلاد بين النهرين فى محلات أسسوها فى جنوبى شرقى آسيا الصغرى وكان لها دور حضارى فى البلاد الواقعة الى الغرب منها . وقد انشغلت اشور بمشكلاتها الداخلية وما أصابها من غزو الآراميين بينما كان الصراع محتدما بين المصريين والحيثيين ، ولكن استطاعت فى القرن ٩ق.م. ان تتحرك للحصول على منفذ على البحر المتوسط والسيطرة على الطرق التجارية . ورغم ان الجيوش الاشورية عبرت الفرات حوالى عام ١٥٠٠ق.م. ووصلت الى البحر المتوسط سنة ١١٠٠ ق.م فقد ظل ملوك اشور مدى ثلاثة قرون ونصف **يواجهون مقاومة الممالك الآرامية والفينيقية والعبرية بيد ان دمشق الآرامية رأس المقاومة سقطت** سنة ٧٣٢ ق.م. كما احتل سرجون الملك الاشورى حماة بعد موقعة قرقر ، وقام بعد ذلك بحملات وصلت طرسوس والحصون الاغريقية الأيونية شمالا كما وصلت مصر جنوبا · وصارت الامبراطورية الاشورية جهازا عسكريا هائلا ، واتسم الجنود الاشوريون الى جانب أسلحتهم ومعداتهم بقسوة مرعبة ، وجاء استعمال الحديد بين الاشوريين على اثر التقائهم بالحيثيين . وقد كانت امبراطورية اشور بداية مبكرة للامبراطوريات العالمية . (٥٤)

وفى عهد سنحاريب الاشورى كانت قبيلة كالدى Kaldi قد شرعت تستقر حول رأس الخليج الفارسى وشواطئه فى سفوح الجبال الشرقية ، ولم تأت سنة ٦١٦ ق.م. حتى سيطر **الكلداديون** على بابل · ثم تعاون هؤلاء الساميون مع الميديين الجبليين فى القضاء على اشور نهائيا · وأسس الكلدانيون امبراطورية جديدة تشمل الهلال الخصيب بأسره فى حين **تركوا الميديين يحكمون الجبال الشمالية** ، وقد برز فيها اسم نبوخذ نصر الذى حارب مملكة يهوذا العبرانية الصغيرة ودمر أورشاليم سنة ٥٨٦ ق.م. وقد وسع مدينة بابل وحصنها وانشأ سورا من نهر دجلة الى الفرات يخترق السهل المحصور بينهما . وكان الكدانيون آخر الساميين الذين حكموا بابل القديمة (٥٥) ·

وجاء دور العنصر الهندأوربى ، واستطاع **الميديون** حوالى سنة

---

(٥٤) برستد انتصار الحضارة ـ ترجمة دكتور فخرى ص ١٩٨ : ٢٠١ ، ٢١٤ : ٢٢٠ ٢٢٨

(٥٥) برستد : انتصار الحضارة ـ ترجمة الدكتور فخرى ص ٢٢٦ : ٢٣٢

٧٠٠ ق.م. تأسيس امبراطورية ايرانية قوية فى الجبال الواقعة شرقى دجلة وكانت مدينتهم اكباتانا Ecbatama تقع فى مواجهة الممر الذى يخترق جبال زاجروس مؤديا الى الهلال الخصيب مباشرة والى مدينة بابل رأسا . ثم استطاع كورش Cyrus أن يجمع قبائل **الفرس** وينقض على المديين ، وقد تعلم الفرس تنظيم جيشهم وخططهم من الاشوريين ، وانتصروا على تحالف بابل (الكدانية) ومصر وليديا . وامتدت حدود الامبراطورية الفارسية لتشمل جميع البلاد حول الطرف الشرقى للبحر المتوسط حتى تكاد تصل الى الهند وكان للامبراطورية الاشورية الفضل فى تمهيد الطريق أمامها . وفى سبيل تنظيم هذه الامبراطورية الشاسعة **تولى دارا الاكبر (٥٢١ : ٤٨٥ ق.م) بنفسه مصر وبابل ، وقسم باقى الامبراطورية الى عشرين ولاية كل منها تحت حكم سترت** Satrap ، **وقد كان ذلك خطوة الى الامام فى تطور الحكم الاقليمى داخل الامبراطوريات الواسعة اذا قورن بما كان متبعا عند الكلدانيين والاشوريين والمصريين ، اذ تمتعت الاقاليم** الواقعة تحت الحكم الفارسى بقسط كبير من السلطة فى ادارة شئونها المحلية طالما كانت تقدم الجزية والجند ، لكن كان للملك الاكبر طائفة من موظفيه فى كل دولة تابعة. وقد ارتقى نظام المواصلات والبريد فى أنحاء الامبراطورية الفارسية (٥٦)

واستطاعت الامبراطورية الفارسية ان تقوم بدور تاريخى ، اذ أدمجت المنطقة الواسعة من الشرق حيث نشأت حضارات متعددة تحت نظام شامل من جهة ، كما أنها قد بلغت الاراضى الاوربية وكان لابد من تصادمها مع بلاد الاغريق من جهة أخرى . فلما استطاعت مقدونيا ان توحد تلاد اليونان تحت زعامتها خلال القرن ٤ ق.م. اتجه الاسكندر الى الاستيلاء على قواعد الاسطول الفارسى فى آسيا الصغرى وفينيقيا ومصر ، ثم دحر دارا الثالث عند أسوس سنة ٣٣٣ ق.م. وفى جاوجميلا Jaugamela سنة ٣٣١ ق . م ق وتنازع قواد الاسكندر على اقتسام امبراطوريته بعد موته العاجل فاخذ البطالمه مصر فصارت لهم اقوى دولة فى العالم الهلينستى ، وتلتها دولة السلوقيين (**السليوكيين**) فى بلاد بين النهرين وسوريا (عدا فلسطين وفينيقيا وجزء من سوريا) وأغلب الولايات الشرقية البعيدة وجانبا كبيرا من آسيا الصغرى ، وكانت

---

(٥٦) برستد : انتصار اضارلحة ــ ترجمة الدكتور فخرى ص ٢٥٦ : ٩ ، ٢٦٢ : ٥ ، ٢٧١ ــ ٢

الدولة الثالثة هي مقدونيا وتختص بالمدن الاغريقية في شبه جزيرة البلقان. وكان لكل دولة احتياجاتها ومراميها كما كان لها خطتها ووسائلها لتحقيق أهدافها . فاتجه البطالمة الى احراز السيطرة على بحر ايجه ورأوا أن ذلك يتطلب الاستيلاء على الموانى الكبيرة بفينيقيا وفلسطين، وكان طبيعيا ألا يسلم السلوقيون بذلك حتى لا يقفل أمامهم البحر المتوسط . واذا كانت الظروف القاهرة ارغمت السلوقيين على التخلى لغيرهم عن شمال آسيا الصغرى فانهم لم يكونوا ليسلموا طواعية لدولة أخرى بالسيطرة على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية والطرق الهامة الحربية والتجارية المؤدية من امبراطوريتهم الآسيوية الى ثغور آسيا الصغرى الغربية لأنه كان يترتب على ذلك أن تصبح دولتهم مملكة شرقية بحتة منعزلة عن العالم الاغريقى . وكان البطالمة يطمعون بدورهم فى الاستيلاء على منافذ الطرق التجارية الآتية من أواسط آسيا والتحكم فى التجارة الشرقية ، من أجل هذا دارت رحى الحروب السورية المتتابعة بين البطالمة والسلوقيين (٥٧) . وتعتبر سنة ٣١٢ ق.م. ميلاد الدولة السلوقية . **وقد أسس سلوقس (سليوكس) الأول مدينة انطاكية على نهر العاصى وسماها باسم والده حيث جعلها مقر الحكم** ، كما شيد مالا يقل عن ١٦ مدينة أخرى بهذا الاسم علاوة على مدن متعددة تحمل اسمه واسم أمه لاوديسيا Laodessa واسم زوجة اباما Appama . ومن المدن المسماة لاوديسيا : تقع واحدة على الساحل السورى وتسمى بالعربية اللاذقية . اما أباميا على العاصى : فهى (افاميه) لدى الجغرافيين العرب . وقد استخدم الجيش السلوقى الفيلة كما كان هناك أسطول أكثر بحارته من الفينيقيين . وقد ورثت الامبراطورية السلوقية جزءا كبيرا من نظمها عن الفرس واحتفظت الوحدة الادارية فيها باسم (المرزبانة) الفارسى . ويروى انه كان بسوريا ٨ مرزبانات : ٤ فى الشمال الكثيف السكان المسمى سلوقس (سليوكيس) Selucis ـ وهى : انطاكية (وسلوقيه) وأباميا ولاوديسا (اللاذقية) وكانت هناك ٤ مرزبانات فى الجنوب المسمى بسوريا المجوفة Coele-Syria ويظهر **ان دمشق والبنان فينيقية** شكلت أولاها وشكلت السامرية والجليل الثانية وتألفت الاثنتان الباقيتان من شرق الاردن وايدوميا . وكانت **الولاية اليهودية** فى معظم عهدها دولة كهنوتية تدفع الجزية فى ظل السيادة السلوقية . وقسمت المرزبانة أقساما صغيرة يديرها حكام فرعيون . **وكانت سوريا**

---

(٥٧) دكتور ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عهد البطالمة ج ١ ص١٩ ، ٥٦ ، ٦٠ ـ ٧ ، ٧٠ : ٢ .

العمود الفقرى للامبراطورية السلوقية وانطاكية رأسها السياسى وسلوقية عاصمتها التجارية وافامية مقرها الحربى وبينما كانت سلوقية على الدرجة عاصمة جناحها الشرقى كانت ساردس عاصمة جنحها الغربى وقد ربطت مراكز الامبراطورية الحساسة بالطرق الملائمة ، **وبنيت نسيبيس** Nisibis (نصيبين) حيث تمر الطرق الرئيسية بين سوريا وما وراء الدجلة (٥٨) ٠

وقد حاول **البارثيون** التخلص من حكم السلوقيين فهزم ارشاق Arsaces ملك بارتيا سليوكس الثانى بعد سنة ٢٤٠ ق ٠ م ٠ بقليل منتهزا فرصة هجوم بطلميوس الثالث على سوريا واحتلاله انطاكية ومسيره حتى الفرات وهكذا بدأ التأسيس الحقيقى للسلالة البارثية . وضغط **اليهود** على المراكز التى أخذت تنهار فيها السلطة السلوقية ، كما ضغطت **القبائل العربية المجاورة** وخاصة الانباط على حدود الامبراطورية الجنوبية ٠ وبدأت تبرز حوالى سنة ١٣٠ ق.م. **سلالة عربية فى الرها** Edessa **تعترف اسميا بسلطة بارثيا ويتسمى أكثر ملوكها باسم ابجر ، ونجحت قبيلة عربية اخرى فى حكم المنطقة حول حمص** Emesa **واعترفت بالتبعية الاسمية للسلوقيين ٠ كذلك توطدت دولة من الايتوريين فى سوريا المجوفة واتخذت من (عنجر - عين جر)** Chalcis **عاصمة لها ، وهكذا تقلصت دولة السلوقيين حتى انحصرت فى شمالى سوريا ٠ واصبح الانباط العرب قوة هامة بعد ان طردوا بقايا الايدوميين من منطقة البتراء قبل سنة ٣١٢ق٠م٠ ثم انتزعوا سوريا المجوفة من السلوقيين حوالى سنة ٨٥ ق٠م٠ ووضعت دمشق نفسها تحت حمايتهم خوفا من الايتوريين الذين اكتسحوا الساحل بين صيدا وتيوبروسوبون** Theuoprospen **وخربوا حقول جبيل وبيروت ٠ وقد حدث أثناء توسع البارثيين فى امبراطوريتهم سنة ١٣٠ ق٠م٠ من الفرات الى السند ان اصطدمت بالملكية الأرمينية التى استطاعت فى عهد تيجرانس** Tigranes **ان تكتسح بلاد الرافدين التى حكمها البارثيون وتستولى على سوريا الشمالية وكيليكيا وكانتا تحت حكم السلوقيين بل وصلت جيوش يجرانس الى عكا** واستطاعت جيوش حميه وحليفه مثرادتس Mithridates ملك بنطس جنوبى البحر الاسود التوسع فى آسيا الصغرى ٠ واخيرا تدخلت **روما** ضد هذه المشروعات التوسعية فاحتل

---

(٥٨) دكتور فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - ترجمة دكتور حداد ورافق ج ١ ص ٢٦٠ : ٦٢ ، ٢٧٧ - ٧٨ ، ٢٩٠ : ٩٤ ، ٢٩٧ ٠

بومبى بنطس سنة ٦٢ ق.م. كما احتل الرومان فلسطين فى السنة التالية وبدأ العهد الرومانى فى ربوع سوريا (٥٩) .

* * *

هذه لمحات سريعة عن الصراع البشرى فى منطقة سوريا والفرات خلال العصور القديمة ، وقد شهدت المنطقة اثناءها قيام **امبراطوريات بابلية واشورية** حاونت توحيد الهلال الخصيب تحت حكمها ، واتخذتها **الامبراطورية الفارسية** معبرا لاتصالها التاريخى بالغرب واوربا ، ورد **الاغريق** الكرة على الفرس فاكتسحها الاسكندر فى طريقه الى حرب اعدائه فى عقر دارهم . ويجمل بريستد ما شهدته منطقة الهلال الخصيب من ادوار الصراع المختلفة بقوله « منذ قدوم الاقوام الهندو أوربية غدا تاريخ العالم القديم تاريخا **للصراع بين النطاق السامى الجنوبى الذى جاء من الناطق العشبية الجنوبية ، وبين النطاق الهندى أوربي الشمالى الذى قدم من لمناطق العشبية الشمالية** . وهكذا واجه كلا الجنسين الآخر عبر البحر المتوسط كأنهما جيشان عظيمان يقفان قبالة بعضهما على خط يمتد من غربى آسيا حتى المحيط الاطلسى ، وتمثل الحروب التى نشبت فيما بعد بين روما وقرطاجنة بعض العمليات على الجناح السامى الأيسر ، بينما يمثل انتصار الفرس على الكلدانيين حدثا مشابها على الجناح السامى الأيمن . وانتهى هذا الصراع الطويل بانتصار الهندو أوربيين عندما أصبح للاغريق والرومان السيادة المطلقة فى عالم البحر المتوسط بأسره ـ وتلا هذا النصر صراع طويل آخر نشب بين أعضاء النطاق الشمالى أنفسهم فى سبيل الوصول الى مركز الصدارة فيه . وأخذت السيادة فى النطاق الشمالى تنتقل من طرفه الشرقى الى طرفه الغربى مبتدئة بالفرس ثم الاغريق وأخيرا الرومان الذين بسطوا سلطانهم على حوض البحر لمتوسط والعالم الشرقى » . (٦١)

لكن الساميين مالبثوا ان عادوا الى حلبة الصراع مرة أخرى حين برز العرب بروزهم التاريخى الكبير بعد ظهور الاسلام وهبوا يناجزون امبراطورية الروم البيزنطية .

---

(٥٩) دكتور حتى : تاريخ سوريا ج ١ ـ ترجمة الدكتور حداد ورافق ص ٢٦٢ ، ٢٧٠ : ٤

(٦٠) برستد : انتصار الحضارة ـ ترجمة دكتور احمد فخرى ص ٢٣٩

ثالثا ـ العرب فى الشام ... هجراتهم واماراتهم

الموجات السامية :

اعتمدت الدول البابلية والآشورية والفينيقية والآرامية التى برزت فى منطقة الهـــلال الخصيب على عناصر سامية هاجرت الى جهات من تلك المنطقة ثم غلبت عليها .وأصل الساميين قبائل من البدو هجرت الصحراء ، الى حافة الأراضى المنزرعة ثم أخذت تتحول الى الزراعة فالتجارة . وان جانبا كبيرا من تاريخ المنطقة هو قصة تلك الموجات المتتالية التى يحاول فيها سكان البادية السيطرة على الاراضى الزراعية بطريق التغلغل السلمى أو القوة . وقد اشتق اسم الساميين من ســـام بن نوح ، غير أن هذه التسمية لا تعبر الا عن مجموعة من اللغات من الناحية العلمية . ويحتمل أن يكون موطن الساميين الأصلى هو الجزيرة العربية .

وتوزيع الهجرات السامية فى ربوع الهلال الخصيب يدل على الارتباط الطبيعى بين جانبى الوادى عن طريق الممر الشمالى بين خليج الاسكندرية وبين منحنى الفرات ، اذ تشكل الاراضى هناك ممرا طبيعيا بين الساحل ومنطقة الرافدين له أهميته البشرية والحضارية ، فهناك يتحول الحاجز الجبلى فى الشمال والغرب والحاجز الصحراوى فى الجنوب الى ممر واحد منخفض يؤدى الى واد من جهة والى بحر من جهة أخرى ، ويقع فى سفح جبال طوروس ، ويكون مرحلة فى خط المواصلات الذى يبدأ من الخليج الفارسى حتى ضواحى نينوى ثم يتجـــه غربا الى الموانى السورية ، **وقد حاول البابليون والمصريون والآشوريون والكلدانيون والفرس والمقدونيون كل بدوره السيطرة على هذا الممر كمنطقة انتقال** . فبعد الهجرة السامية التى اتجهت حوالى سنة ٣٥٠٠ ق . م . من شبه الجزيرة العربية نحو

الشمال الشرقي ووزعت أفرادها بين السكان السومريين في بلاد الرافدين. نرى هجرة العموريين التى أعقبتها بنحو ألف سنة تحمل الساميين الى وادى الرافدين كما تحملهم الى سهول سوريا الشمالية • وبعد منتصف الألف الثانى ق • م • بقرن تحول العموريون الى سوريا الوسطى حيث انحصروا بين المصريين والحيثيين (٦١) • وقد شملت هذه الهجرة الشعب الذى احتل فيما بعد السهل الساحلى وأطلق عليه اليونان الذين اتصلوا به عن طريق التجارة اسم **الفينيقيين** •وربما يكون هؤلاء هم الكنعانيين الذين تحدثت عنهم التوراة (٦٢) • وقد عاش هؤلاء بحكم موقعهم الاستراتيجى بين مراكز الدول الكبرى فى مصر وبلاد النهرين وآسـيا الصغرى فى **جماعات متفرقة تتجمع كل منها حول مدينة محصنة باسوار ذات شرفات وأبراج للدفاع** ، وقد بقى الاسم السامى للبرج (مجدل Migdol ـ) فى التسمية العربية لبعض الأماكن • وكانت بعض المدن مثل أرواد وصيدا وصور تحتمى بخط دفاع مزدوج اذ كان أهلوها يحتلون موقعين أحدهما فى البر حيث الزراعة والتجارة والآخر فى جزر صغيرة مجاورة يلتمسون فيها ملجأ من هجمـات الفاتحين عبر الممرات الجبلية (٦٣) • وقد تاجر الفينيقيون فى البر والبحر وكانت محطاتهم التجارية فى الداخل تضم ادسا وربما نصيبين بحيث تصل موانيهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج الفارسى (٦٤) •

وانتشرت قبائل الآراميين فى بلاد النهرين وسـوريا ، وسكنت ضفاف وادى الفرات الأوسط قبل منتصف الألف الثانى ق • م حيث نشأت قوميتها ولغتها ، ثم امتدت الهجرات الآرامية الى سوريا الشمالية والوسطى لكن جبل لبنان وقف عائقا أمامها دون التوسع غربا • وبذلك ظهرت الدول الآرامية الأولى فى منطقة الفرات الأوسط مثل آرام النهرين (والنهران هما الفرات ورافده الخابور) ، **وآرام بدام** Padam ومركزها حران وهى أقل اتساعا ، وكانت أهم دول الآراميين **مملكة دمشـق التى تاسست فى أواخر القرن ١١ ق • م معاصرة لتاسيس المملكة العبرانية تقريبا ، ونمت حتى امتدت من الفرات الى اليرموك وتاخمت الأراضى الأشورية فى الشمال والعبرانية فى الجنوب • وقد احتكر الآراميون تجارة**

---

(٦١) دكتور فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ـ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٧٥ •

(٦٢) دكتور حتى : تاريخ سوريا جـ ١ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٦٨ ـ ٩

(٦٣) دكتور حتى : تاريخ سوريا : ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٨٨ ـ ٩٠

(٦٤) دكتور حتى : تاريخ سوريا ـ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ١٠٧

سوريا الداخلية كما احتكر الفينيقيون التجارة البحرية وكانت عاصمتهم دمشق ميناء البادية كما كانت جبيل ثم صور من موانىء البحر (٦٥) ٠

وحوالى سنة ٥٠٠ ق ٠ م أدت هـــجرة جـديدة من بلاد العرب الى استقرار **الأنباط** شمالى شرقي شبه جزيرة سيناء حيث كانت عاصمتهم البتراء التى بلغت درجة رفيعة من الحضارة ٠ ومن هنا نستطيع أن نتبين وجه العرب واضحا بين الموجات السامية المهاجرة ٠ وقد كانت كل موجة من هذه الموجات تستغرق حقبة طويلة بالطبع وتبدأ بانتقال مهاجرين قلائل ثم يتزايدون حتى تصل الموجة ذروتها وتأخذ فى التراجع ، وتاريخ الهجرة هو تاريخ بلوغ الذروة (٦٦) ٠

الهجرات العربية :

من بين الموجات السامية تحركت الهجرات العربية من صحراء بلاد العرب صوب الشمال حيث مواطن الخصب ومراكز التجارة ٠ وقد تنافس **السبئيون والمعينيون خلال الألف الأولى ق ٠ م على السيادة فى بلادهم (اليمن) وفى الواحات التى تمر بها الطرق التجارية ، فاقامت الجاليات** من عرب الجنوب فى كل واحة مهمة على طول الطريق التجارى ومع كل جالية مقيم منهم يرعى مصالح الملك السبىء أو المعينى ،**ومع هؤلاء المقيمين الجنوبيين تفاوض حكام سوريا وملوك أشور** ومن هنا جاء ذكر السبئيين فى الوثائق السريانية والعبرية كما لو كانوا يقيمون فى الجنوب الشرقى للبحر الميت ، **واندرجت واحتا معان وديدان فى الوثائق الأشورية تحت اسم (سبأ)** لأن المقيم السبئى هو الذى كان يدير دفة الأعمال فيها (٦٧)٠ وقد كانت **ثمود** تنزل قرب تيماء على الطريق التجارى العظيم بين الجنوب الغربى لبلاد العرب وبين سوريا ومصر ٠و ذكر نص أشورى أن سرجون الثانى هزم سنة ٧١٥ ق ٠ م قبائل ثمودى وأباديدى ومرسمان وخايابا ، كما يذكر الكتاب الأقدمون من اليونان والرومان هذه القبيلة تحت اسم Thamudeui (٦٨) ٠ وقد وردت الاشارات فى ثنايا التوراة الى العرب والبدو ويفهم منها أنهم أقاموا الى الشرق والشمال الشرقى من أدوم فقد جاء فى سفر أرميا (٢٥ : ٣٠) تهديد بالدمار الذى يصيب **ديدان وتيماء**

---

(٦٥) دكتور حتى : تاريخ سوريا جـ ١ ـ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ١٧٤ : ٧ ، ١٨١

(٦٦) دكتور حتى : تاريخ سوريا جـ ١ ـ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٦٩

(٦٧) موزيل : شمال الحجاز ـ ترجمة الدكتور الحسينى ص ١ ، ٢

(٦٨) موزيل : شمال الحجاز ـ ترجمة الدكتور الحسينى ص ٩١ ـ ٩٢

وبوز وجميع ذوى الرءوس المحلوقة كما هدد جميع ملوك البلاد العربية وملوك العرب ولعل المقصود بملوك البلاد العربية هم ملوك الواحات العربية ديدان وتيماء وبوز بينما يقصد بملوك العرب جميع ذوى الرءوس المحلوقة أى البدو (٦٩) ٠ كذلك يذكر المؤرخ سترابو أن النبطيين والسبئيين كثيرا ما أغاروا على سوريا قبل أن يحكمها الرومان (٧٠) ٠

تتابعت الهجرات العربية اذن صوب الشمال منذ زمن سحيق ٠٠٠ ويتحدث الهمدانى عن بعض تحركات الأزد بعد أن تركوا اليمن فيقول « ٠٠٠ وأقاموا بتهامة ما أقاموا حتى وقعت الفرقة بينهم وبين كافة عك ، فساروا الى الحجاز فرقا ـ فصار كل فخذ منهم الى بلد ، فمنهم من نزل السروات ، ومنهم من تخلف بمكة وما حولها ، **ومنهم من خرج الى العراق، ومنهم من سار الى الشام** ، ومنهم من رمى قصد عمان واليمامة والبحرين ٠٠ وأما من سكن الشام فآل الحارث محرق وآل جفنة ابنى عمرو ٠٠» (٧١) ويتحدث المسعودى فى (التنبيه والاشراف) عن الحروب بين الغوث بن طيىء وجديل بن سعد فيذكر أن **السلميين تفرقوا من طيىء فلحقوا بحاضر قنسرين من أعمال حلب** ٠ وشملت الهجرات العربية العراق كما شملت الشام ، ويذكر ابن حوقل فى (صورة الارض) أن طوائف من عرب ربيعة ومضر قد سكنت **الجزيرة** حتى صار لهم بها ديار ومراع فنزلوا على خفارة فارس والروم حتى ان بعضهم تنصر مثل تغلب بأرض الجزيرة وغسان وبهراء وتنوخ بأرض الشام ٠ وهكذا كانت هناك حركة طبيعية من سكان بلاد العرب لغزو الأقاليم الحضرية والاقامة فيها ٠ وقد كانت بادية الشام التى تمتد شمالا حتى نهر الفرات جزءا من المجال العربى (٧٢) ، ومن هنا **نرى الجغرافيين المسلمين يتقدمون بحدود الشام الى داخل الحجاز** ، فالمقدسى لا يذكر **مدين** ضمن أعمال المدينة بل يضيفها الى اقليم الشراة الشامى ، وهو يذكر فى موضع آخر أن مدين حد الحجاز كما يذكر أن اقليم الشراة يمتد حتى اقليم تبوك ٠ ويدخل المسعودى واحة تبوك فى أرض الشام فى كتابه (التنبية والاشراف) (٧٣) ٠

والرحلات العربية كانت تجرى على نظام فصول السنة ، فقد كان

---

(٦٩) موزيل : شمال الحجاز ـ ترجمة دكتور الحسينى ص ٦٠ ٠

(٧٠) موزيل : شمال الحجاز ـ ترجمة دكتور الحسينى ص ١٢٥

(٧١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٢٠٩ : ٢١١

(٧٢) دكتور شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول ص ٢٦ ـ ٢٧ ٠

(٧٣) موزيل : شمال الحجاز ـ ترجمة الدكتور الحسينى ص ٧١ ، ١٤١

العرب يقضون الشتاء فى جزيرتهم ثم يتجهون شمالا باحثين عن المراعى عند أطراف الحدود الحضرية فى فصل الربيع حين نهاية الحصاد فيغمر البدو الحقول بأغنامهم لترعى بقايا الزرع والكلأ • **وقد ادرك الرومان ذلك فاقاموا مراكز محصنة على امتداد حافة الصحراء كما اقاموا عددا كبيرا من الخزانات** تختزن أمطار الشتاء حتى الصيف ، لكن الهجرة العربية الى سوريا لا ترجع الى التنظيم الرومانى للحدود **وانما لقيت ظروفا مواتية فى ظل هذا التنظيم فحسب** اذ كانت مدينة حمص قبل وصول بومبى الى سوريا تحت سلطان أسرة يحمل أمراؤها أسماء عربية وكذلك كان الحال فى الرها • والعهد القديم يسلك (**يطور**) بين أبناء اسماعيل ، وسفر الأيام يسكنهم فى شرق الأردن • وفى العهد الرومانى نجد الايتوريين يقيمون فى لبنان الداخلى ويعرفون تارة بأنهم عرب وطورا بأنهم سوريون واحتفظت النقوش اللاتينية لبعض الجنود الايتوريين بأسماء آرامية وعربية وقبل العصر المسيحى كان الايتوريون يسيطرون على مملكة فى لبنان الداخلى عاصمتها (عنجر) فى البقاع بلغت الشاطىء الفينيقى حتى جاء بومبى وخضد شوكتهم (٧٤) •

ويروى المسعودى « كانت **قضاعة** أول من نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم ، فملكوهم بعد أن دخلوا فى النصرانية على من حوى الشام من العرب • وكان أول من ملك من **تنوخ** النعمان بن عمرو بن مالك •• ثم وردت **سليح** الشام فغلبت على تنوخ وتنصر من ملكته الروم على العرب الذين بالشام •• وغلبت **غسان** على من بالشام من العرب فملكها الروم على العرب » (٧٥) • وقد نزل التنوخيون فى الشمال قبل الاسلام بقرون ويقول ابن حزم « ••• وسموا تنوخا لأن التنوخ الاقامة فتحالفوا على الاقامة بموقعهم من الشام وهم من بطون شتى » • (٧٦) ـ ويروى أن التنوخيين قاتلوا الفرس فأعجب بهم ملك الروم وأقطعهم سوريا وما جاورها الى الجزيرة ، ويقول ابن العديم أن هذا كان منتهى أمرهم فى الجاهلية ولم يعرف الزمن الذى كان فيه التنوخيون (٧٧) • ويروى دوسو

---

(٧٤) دوسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ـ ترجمة الدواخلى والدكتور زياد ص ٢ ، ١١ ، ١١ ـ ١٤

(٧٥) المسعودى : مروج الذهب جـ١ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ، أيضا ابوالفدا : المختصر جـ١ ص٦

(٧٦) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٣١

(٧٧) كرد على : خطط الشام جـ ١ ص ٦١ ـ ٦٢

Dussaud أن ظهورهم فى سوريا كان فى أوائل التاريخ المسيحى وقد جاء من بعدهم بنو صالح ومن المحقق أن سكان (اللجة) قرية نجران أتوا من جنوبى جزيرة العرب ، كما كان يطلق على قرية بوريكاBouraike فى اللجة خلال العصر الرومانى اسم بوريكة السبئيين ٠ (٧٨)

وهكذا اتيح لقبيلة قضاعة أن تؤدى دورا تاريخيا فى امتداد ديار العرب الى بلاد الشام حيث تحقق اتصال العرب الروم ، فلا عجب أن يقول ابن حزم « **وبلاد قضاعة متصلة بالشام ببلاد يونان ، والأمم التى بادت ممالكها بغلبة الروم عليها ، وببلاد بنى عدنان** ، ولا تتصل ببلاد اليمن أصلا » ٠ (٧٩) **وكانت حدود صحراء النفود الشمالية والصحراء السورية بمثابة المهد الذى خرجت منه القبائل العربية لغزو أراضى الهلال الخصيب** ووادى النيل ٠ وتكاد تجمع الكتابات العربية على أن مرجع هذه الهجرات هو انتشار القبائل الجنوبية شمالا على أثر انهيار (سد مأرب) نتيجة (سيل العرم) ٠ وفى الأغانى : لما أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب قام رائدهم فقال « من كان منكم يريد الخمر والخمير ، والأمر والتأمير ، والديباج والحرير ، فليلحق ببصرى والحفير » وهى من أرض الشام ٠ ويذهب هنتنجتون Huntington وغيره الى أن هذه المنطقة الصحراوية من آسيا كانت تميل الى الجفاف قبيل الميلاد حتى ظهور الاسلام وهذا ما دفع الى تحرك القبائل وهجرتها ٠ ويرى جلازر Glazer أن نجم مأرب أخذ فى الافول منذ القرن الاول م وبسبب غزو الحبش لليمن ٠ ويرى هارتمان Hartman أن السبب هو ثورة الهمدانيين على الحميريين وانتصارهم ، ويرى جواد على أن السبب قد يكون تحول التجارة عن مأرب بسبب تغير طرق التجارة وتأثير الطرق البحرية التى أخذت تنافس الطرق البرية ، وهكذا شقت سفن البيزنطيين طريقها فى البحر الأحمر «فسلبت من اليمانيين ثروة عظيمة ولم يبق فى امكانهم الانفاق على السد لادامته والمحافظة عليه ، وهذا ما اضطر القبائل الى الهجرة من هذه الجنة التى ولجها الجفاف بالتدريج » (٨٠)

وجاءت هجرة بنى غسان الى الشام فاتحة لنفوذهم فى تلك الديار

---

(٧٨) روسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ـ ترجمة الدواخلى والدكتور زيادة ص ١٠

(٧٩) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٧ ٠

(٨٠) دكتور عباس عمار : المدخل الشرقى لمصر ص ٩٨ ، دكتور حسين مؤنس : التعليق على كتاب جرجى زيدان : (العرب قبل الاسلام) ١٢٥ هامش ، **كرد على : خطط الشام** ج ١ ص ٦٢

بعد قضائهم على القبائل ذات النفوذ هناك مثل سليح. وينتسب بنو غسان الى ماء بهذا الاسم . وقد تداخلت **طيء . وبنو مرة** فى أرض الغسانين وقوى نفوذهم فى أواخر أيام البيزنطيين ، كما نزلت الى جوار غسان **لخم ، وجذام** ونزل **بنو كلب** بجوار دومة الجندل . وقد تتبع شاعر قديم (بعض آل أسعد بن مليكيكرب) منازل من خرج من اليمن فى سائر جزيرة العرب وغيرها فقال :

وقد فارقت منهـا ملوك بلادها | فصاروا بأرض ذات مبدى ومحضر
وقد نزلت منا خزاعة منزلا | كريما لدى البيت العتيق المستر
وفى يثرب منا قبائل ان دعوا | أتو سربا من دارعين وحسر
وغسان حى عزهم فى سيوفهم | كرام المساعى **قد حووا أرض قيصر**
وقد نزلت منا قضاعة منزلا | بعيدا فأمست فى بلاد الصنوبر
وكلب لهـا ما بين رملة عالج | الى الحرة الرجلاء من أرض تدمر
ولخم وكانت بالعراق ملوكها | وقد طحرت عدنان فى كل مطحر
وحلت **جذام** حيث حلت وشاركت | هنالك لخما فى العلى والتجبر
وأزد لها البحران والسيف كله | وأرض عمان بعد أرض المشقر
ومنا بأرض الغرب جند تعلقوا | الى بربر حتى أتو أرض بربر(٨١)

الامارات العربية :

يقول رينان « ان غزو اللغة العربية لسوريا يتفق مع حادث تاريخى هام ، وهو وصول عدد كبير من أمراء العرب فى نفس الوقت الى البلاد السورية ، أى فى المدة التى بدأ فيها سلطان الرومان فى الاستقرار » والحقيقة المشار اليها ترجع الى أبعد من ذلك التاريخ (٨٢) الا أن وجود الامارات العربية بسوريا فى ظل الحكم الرومانى فالبيزنطى كان له تأثيره فى تاريخ العرب هناك .

وقد أطلق بطليموس على الصحراء السورية اسم بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea نسبة الى مدينة البتراء التى اشتهرت لمرور القوافل التجارية بها (وبترا Petra كلمة يونانية معناها صخر يقابلها الرقيم فى المراجع العربية) ، وسمى الجزء الأوسط والجنوبى الشرقى من الصحراء باسم بلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta أما الجزء من الصحراء الذى نال قسطا كبيرا من التأثير الرومانى فقد

---

(٨١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٢٠٦

(٨٢) دوسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ــ ترجمة الدواخلى والدكتور زيادة ص ١٤

سماه بطليموس سوريا • واعتمدت سياسة الامبراطورية الرومانية على هذا التقسيم الجغرافى فى وضع أسس الدفاع عن حدودها بتلك المنطقة التى كان يقوم أعداؤها الفرس على الجانب الشرقى منهـــا • **وكانت سياسة الرومان اتخاذ البحار والأراضى التى لا يمكن اجتيازهـــا حدودا طبيعية تقف عندها فتوحاتهم ، أما الحدود التى تتمتع بالحضانة الطبيعية فقد دأبوا على حمايتها بالتحالف مع الجيزان المطلين عليها •**

وفى الصحراء الشامية المطلة على العدو اللدود اقامت روما سلسلة من الحصون على طرف الصحراء المطلة على الفرات للمحافظة على الحدود ، كما استعانت أيضا بالقبائل الضاربة فى الصحراء على أعمـــال الحراسة والدفاع •

وعلى هذا النهج الرومانى سارت **الامبراطورية البيزنطية** منذ القرن الرابع م فلم تشأ التورط فى محاولات توسعية عقيمة وراء الفرات ، بل دعمت سلسلة **الحصون** فى الصحراء الشامية ، ثم جعلت سوريا وفلسطين ولاية واحدة هى **الولاية الشرقية** Oriens • وكانت هذه الحصون أشبه بالمعسكرات تقيم بها فرق الجيش التى تحرس الحدود والطرق التجارية ، فكان فى بصرى معسكر رئيسى يتبعه عدة مراكز أخرى لحاميات انتشرت فى مناطق ذات أهمية حربية أو تجارية ، ومن ذلك حصن نمارا Namara الذى تحكم فى منطقة حوران ، وكان الحصن بناء مســـتطيلا على جانبيه أبراج ويحيط به جدار سميك • واعتمد البنزنطيون كأسلافهم الرومان على الامارات العربية فى صحراء الشـــام للدفاع عن الحدود ، ومن هنـــا **ارتبطت حروب الفرس والروم بالهجرات العربية الى بلاد الشـــام اذ رأى الروم أن يتخذوا العرب درعا فى وجه الخطر الفالسى •**

وينبغى أن نلاحظ هنا أن الامبراطورية الرومانية كان لها **خط مزدوج من الحدود** أحدهما الحد الداخلى الثابت الذى يتبع اقليم الحضر والزراعة والثانى هو الحد الخارجى الذى يمتد بصورة غير محدودة فى اقليم البدو ، وهؤلاء تدفع لهم الحكومة الرومانيـــة جزية ســـنوية وليس فيه فرقـــة عسكرية دائمة ولا معسكرات محصنة • وقد كانت **ثمود** تقطن حدود المنطقة المسماة ببلاد العرب الحجرية والتى سميت فيما بعد فلســطين الآمنة وقد دفعت لهم الامبراطورية الرومانية جزية كى يعترفوا بســـلطان الرومان فالبيزنطيين وهم بذلك يؤجرون ويعينون كما لو كانوا موظفين ، لكن هذا

---

(٨٣) دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٣ : ٥ •

لا يعنى ان منطقة ثمود ـ وهى المنطقة التى سكنتها قبيلة جذام فيما بعد ـ اعتبرت جزءا من أجزاء الامبراطورية الرومانية يتبع سوريا ، فان رئيس القبيلة الذى كان يعتبر فى الوقت نفسه موظفا رومانيا أو حليفا كان اذا تأخر تسليم الجزية اليه ارتحل بعيدا عن هذه الحدود وأخذ يشن الغارة على الرومان كعدو لهم · وهناك كثرة من الوثائق الرومانية والسريانية تؤيد ذلك · واذا نجح الرومان أو البيزنطيون فى استمالة أحد رؤساء القبائل الخطرين فان الحد الخارجى كان يدخل فى حدود النفوذ السياسى ، وهكذا امتد الحد الخارجى الى الجنوب حتى ضواحى المدينة فى عهد الفيلارخ امرىء القيس وفى عهد ملوك غسان الأقوياء الذين ساروا بحملاتهم جنوبا حتى واحة العلا وخيبر وحائل · ويروى الزبير بن بكار أن عثمان حويرث عين ملكا على مكة من قبل الامبراطور البيزنطى ، ولكن نفوذ بيزنطة الحقيقى لم يكن يمتد وراء الحد الداخلى المحصن على طول السفح الجنوبى لجبل الشراة ، **وقد كانت الحدود الجنوبية لسوريا تطابق الحدود الجنوبية لبلاد العرب الحجرية التى عرفت فيما بعد بفلسطين الثالثة** Palestina Tertia أو الآمنة P. Salutaris وذكر البكرى أن فروة ابن عمرو الجذامى كان عاملا للروم على معان وما جاورها وأن الروم قتلوه حين أسلم · وقد كان ممكنا لزعيم قبيلة **جذام** أن يسيطر على معقل الحدود المنيع فى فلسطين الثالثة · وبقى نفوذ الرومان والبيزنطيين مقتصرا على فلسطين ، غير أنهم حالفوا رؤساء القبائل العربية وأدوا لهم أتاوة سنوية ليعترفوا بسلطان الامبراطور ، وبذلك يتسع نفوذ الامبراطور لسلطان الشيخ ونفوذه · وكانت الدولة تسترضى هؤلاء المشايخ بالأموال وبالألقاب · وكان لبلاد العرب أهمية كبيرة أيضا من الناحية العسكرية والاقتصادية لكونها جسما يصل بين الشام وحوض البحر المتوسط وبين اليمن والمحيط الهندى وما يقع على سواحلها من أراض كلها غنية بمحصولاتها الثمينة ، وقد صارت طريقا للتجارة ومرافئها ملجأ للتجارة وكان التجار عربا وعجما · وأخذت الدول الكبرى تضع حاميات لها فى المراكز الحساسة وتحت امرة المشايخ والملوك ـ كالذى فعله الفرس مع أمراء الحيرة ، للسيطرة على الشيخ وأرضه وقبيلته وتأمين سلامة الحدود من غارات الاعراب وهجوم الأعداء من جهة وللدفاع عن الشيخ الحليف اذ ثار عليه شيخ آخر أو قبيلة أخرى **ولهذا وضعوا مسالح على الحدود وحاميات من أفراد تلك الدول الكبرى وضباطها لحماية التخوم وهى على النهايات النائية للدولة وفى المنافذ المهمة من البادية التى تؤدى أبوابها الى تلك الممالك · كان عمر تلك المشيخات والامارات قصيرا اذا قيس بالمؤسسات السياسية**

فى البلاد الأخرى لأن الهدف لم يكن اقامة دولة واستدامتها وانما تثبيت أسرة وتوسيع نفوذ عشيرة أو قبيلة (٨٤) ٠

وشهدت سوريا قبل الاسلام **ثلاث امارات عربية** كانت سوابق مبكرة فى اقامة الدول الحاجزة Buffer-States **فى** تلك المناطق : الأنباط فى الجنوب ، وتدمر فى الشمال ، والغساسنة بينهما ، **واشتركت الدول الثلاثة فى خصائص عامة : فأصلها يرجع الى تحضر البدو ، وازدهارها يرجع الى تجارة المرور ، وتحالفت كل منها لبعض الوقت مع احدى الدولتين العالميتين الرومانية أو الفارسية باعتبارها دولة حاجزة** ٠ وقد تتابع الرومان والبيزنطيون على سياسة واحدة ازاء الامارات العربية : وهى محاولة الاستفادة منها ومساعدتها لتحمى حدود الدولة ، مع الحيلولة دون بلوغها درجة من القوة تصبح عندها خطرا يهدد الدولة التى اصطنعتها ، وسحقها عند التوجس خيفة منها ٠

الأنبـاط :

ويظهر الأنباط لأول مرة فى القرن ٦ق٠م كقبائل بدوية فى الصحراء الواقعة الى الشرق مما يسمى اليوم بشرقى الاردن ، **وكانت تلك الديار منذ بداية القرن ١٣ ق٠م مقر ممالك صغيرة هى مملكتا آدوم وموآب فى الجنوب ومملكتا عمون وجلعاد فى الشمال وجميعها كنعانية وآرامية** ، اذ تغلغلت قوى العبرانيين العسكرية والدينية فى تلك الجهات دون أن تتمكن من تثبيت أقدامها هناك ٠ ثم اندمج هؤلاء السكان فيما بعد فى **اتحاد نبطى يضم الى جانبهم قبائل ثمود ولحيان فى شمال الحجاز ، وكان النبطيون فى أول أمرهم رعية اللحيانيين فى عاصمتهم الحجر التى بدأت تحل تدريجيا محل ديدان القديمة على الطريق التجارى الرئيسى وتدرج الانباط من الرعى والتنقل الى الزراعة والتجارة حتى صاروا مجتمعا منظما متقدما فى أواخر القرن ٢ق٠م ، وهو تطور طالما تكرر فى تاريخ الشرق الأدنى القديم ٠ وهكذا بدأت (البتراء) حصنا جبليا وكانت قبل عهد الانباط ملجأ للأدوبيين ، ثم أصبحت محطة للقوافل** ، وقد حفرت فى قلب صخر رملى وتسمى بالعربية (الرقيم) ترجمة لكلمة (سلع) العبرية ، ويشغل موقعها حديثا (وادى موسى) ٠ ويظهر أن ضغط النبط على الأدوميين واستيلاءهم على أرض أدوم حدث بعد استيلاء نبوخذنصر على فلسطين ، فاتجه الأدوميون

---

(٨٤) موزيل : شمال الحجاز ـ ترجمة دكتور الحسينى ـ ص ٩ ـ ١٠ ، ٢٩ : ٣١ ٠
دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٤ ص ١٦٣ : ١٦٦ ، ٢١٨ ـ ٢١٩ ٠

نحو أرض يهوذا · وقد شملت مملكة النبط في أوج أيامها منطقة واسعة ضمت دمشق وسوريا المعروفة بسوريا المجوفة Coele-Syria والأقسام الجنوبية والشرقية من فلسطين وحوران وأدوم Idumaea ومدين الى ددان وسواحل البحر الأحمر ، كما سكنت جماعة من النبط في الأقسام الشرقية من دلتا النيل · ولا يعرف موطنهم الأصلي ولا زمان هجرتهم ، ويظن عموما أنهم كانوا بدوا في الأصل من سكان البادية الواقعة شرقي الأردن ثم ارتحلوا غربا فنزلوا أرض أدوم وضايقوا الأدوميين الذين ارتحلوا نحو الشمال والغرب اختيارا أو كرها فسكنوا في المناطق المشرفة على البحر المتوسط حوالي ٥٨٧ ق·م، وقد أطلق يوسيفوس اسم Nabatane على منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات فتتصل بحدود الشام الى البحر الأحمر وهي مناطق أولاد اسماعيل ·وكان النبط من الشعوب العربية التي جمعت ثروة عظيمة واكتنزت الذهب والفضة لاشتغالها بالتجارة وموقعها عند جملة طرق تجارية برية للقوافل .اليها يصل طريق اليمن والحجاز المهم الموازي للبحر الأحمر ومنها يتفرع الطريق الى مصر الشام وغزة والمدن الفينيقية على البحر المتوسط · واليها يصل طريق تجاري آخر مهم من الخليج الفارسي حيث كانت تحمل تجارة الهند وما وراءها وحاصلات ايران وشرقي بلاد العرب من جرها (العقير) Gerrhe على الخليج الى بطرا ومنها توزع في الشام ومصر وموانى البحر الأحمر ·وقد عمل ملوك النبط على الاستفادة من تلك الطرق · ونجح الانباط في صد حملتين من سوريا بقيادة أحد خلفاء الاسكندر ثم وسعوا سلطتهم ومراكزهم من عاصمتهم الى المنطقة الشمالية المجاورة حيث أعادوا بناء المدن الأدومية والموابية القديمة وأقاموا مراكز جديدة لحماية تجارة القوافل واستغلال الموارد المعدنية ، وكانت مدينتهم هي المدينة الوحيدة بين الاردن والحجاز التي توجد فيها مياه غزيرة نقية ، كما كانت حصينة من الشرق والغرب والجنوب ، وأصبحت البتراء منذ أواخر القرن الرابع ق·م المدينة الرئيسية على طريق القوافل المتجه من جنوبي الجزيرة العربية صوب الشمال ، وكانت تسيطر على الطرق المؤدية الى غزة غربا وبصرى ودمشق شمالا وأيلة على البحر الأحمر ثم على الخليج الفارسي عبر الصحراء وفي أوائل القرن الثاني ق·م أصبح الانباط قوة لها حسابها في المنطقة ، وقد وقعت امارتهم أثناء ظهورها تحت تأثير البطالمة · وعلى رأس ملوكها **الحارث** Aretas ملك العرب واسمه مألوف تداوله ملوك الانباط ثم الغساسنة · وتعتبر سنة ١٦٩ ق·م فاتحة عهده تقريبا وهو **معاصر لمؤسس الاسرة المكابية سمعان** الذي منحه الملك السلوقي ديمتريوس الثاني حكم اليهود بعد ثورتهم وقد استمرت هذه الدولة اليهودية حتى مجيء الرومان ·

وبدأ النبطيون والمكابيون عهدهم متحالفين ضد السلوقيين (السليوكيين) ولكنهم تنازعوا من بعد ، فقام **الحارث الثانى** مؤسس دولة الانباط Eratimus (حوالى ١١٠ : ٩٦ ق ٠ م) بمعاونه عزة أثناء حصار المكابيين لها ، كما انتصر خلفه **عبادة ١** Oboaas حوالى سنة ٩٠ ق٠م على المكابيين عند الشاطىء الشرقى لبحر الجليل مما مهد أمامه الطريق لاحتلال جنوبى شرق سوريا (منطقة حوران وجبل الدروز) ٠ واستغل عبيده **وخلفه الحارث الثالث** (حوالى٨٧ : ٦٢ ق٠م) فرصة تدهور السلوقيين والبطالمة فوسعا الحدود العربية الى الشمال ٠ ويعتبر **الحارث المؤسس الحقيقى لكيان دولة الانباط فقد هزم الجيش اليهودى مرارا وحاصر أورشليم ، كما استجاب لدعوة دمشق التى قصدت بها أن تتخلص من مطامع حاكم خالكيس (عنجر) الايتورى فأقام الحارث نفسه ملكا على دمشق والسهل الملحق بها سنة ٨٥ق٠م وهو سوريا المجوفة ٠ وبذلك أحاطت مملكة النبطيين بمملكة اليهود المكابيين من ثلاث جهات ، ثم بدأ مهاجمة مملكة يهوذا** وانتصر فى موقعة أديدا وأوغل فيها بين سنتى٦٦ ، ٦٥ ق٠م مستفيدا من خلافات اليهود فيما بينهم، وكاد الحارث يستولى على أورشليم لولا أن **الرومان هاجموا سوريا من الشمال** واستولوا على دمشق وتم لهم أخيرا القضاء على الدولة اليهودية سنة ٧٠م فتشتت اليهود فى الارض ٠

وقد استطاع الحارث أن يصد هجوم بومبى سنة ٦٣ ق ٠ م ، وكان هذا أول احتكاك مباشر له مع روما ٠ وفى سنة ٤٧ ق٠م طلب يوليوس قيصر من **مالك** Malchus (حول ٥٠ : ٢٨ ق٠م) تقديم فرسان للمشاركة فى حملته بالاسكندرية ٠ وتعاون **عبادة الثالث** (حوالى ٢٨ : ٩ ق ٠ م) مع حملة أيليوس جالوس Aelius Gallus سنة ٢٤ ق ٠ م لغزو اليمن (بلاد العرب السعيدة Arabia Felix فى عهد أغسطس ، وان كان سترايو يعزو فشل الحملة لخيانة دليلها النبطى٠ وبلغت المملكة ذروتها فى عهد **الحارث الرابع** (٩ ق٠م : ٤٠ م) — وكانت تضم فى أقصى اتساعها جنوبى فلسطين وشرق الاردن وسوريا الجنوبية والشرقية وشمالى الجزيرة العربية ٠ وفى سنة ٦٧ م أرسل **مالك الثانى** (٤٠ : ٧٠ م) جنودا لمعاونة الرومان فى هجومهم على أورشليم ، وفى أثناء حكمه صارت دمشق تحت حكم الرومان ٠

وقد حدث بعد ذلك أن **ابتلعت روما كل الممالك الصغيرة فى سوريا وفلسطين وأخذت تتأهب لقتال البارثيين** ، ولعلها فى نهاية حكم **رب ايل الثانى** Rabbil II (حوالى ٧١ : ١٠٥م) قد رفضت الاعتراف بخلف له ٠

وقد سحقت الجيوش الرومانية مقاومة البتراء ، واصبحت بلاد الانباط جزءا من الولاية العربية الرومانية حيث كانت بصرى لمدينة الرئيسية التى أصبحت فيما بعد عاصمة الولاية وزالت البتراء العربية من الوجود • وتشتت شمل النبط واندمجو فى غيرهم • وقد شملت الولاية العربية Provincia Arabia **كيليكيا وسوريا ومملكة اليهود** Judaea **وبلاد النبط** (٨٥) •

ومنذ تأسيس هذه المقاطعة الرومانية فى سوريا أقيمت شبكة من الطرق تتجه جنوبا ومركزها بصرى ، وأصبح طريق **القوافل من بصرى الى الجنوب** يمر بعمارن حتى يصل الى خليج العقبة وهو طريق تعرفة الاعمدة الدالة على المسافات التى أقيمت زمن تراجان • ومن بصرى كان هناك طريق رومانى يصل الى اذرعات ، وطريق ثان يصل الى دمشق ، ثم طريق ثالث يصل الى صلخد ومنها الى اعناك وقلعة الازرق حيث اقيم آخر حصن عند مدخل الصحراء كماكانت هناك طرق **للقوافل من بصرى الى قنسرين وجنوبى لبنان وحمص والرها والحضر فى اتجاه الشمال والشرق** • وقد ادت اقامة الحصون الرومانية على الطرق التجارية الهامة الى تحديد عدد البدو الذين كانوا يغشون الشام ، وكان الأنباط أكبر عون للرومان على هذه المهمة (٨٦) •

ولكن انصراف الرومان الى صراعهم المرير مع الفرس سوف يكون شاغلا لهم عن المضى فى هذه السياسة وسيكون عاملا لفتح ابواب الشام أمام تدفق الهجرات العربية •

تدمر :

مدينة أخرى للقوافل أخذت تحل تدريجيا محل (البتراء) الآفلة ، واستقرت فيها بضع قبائل عربية ، وأدى الاتجاه الجديد فى ميزان القوى العالمية والتحول فى طرق التجارة الدولية الى تزايد مكانة تدمر •

---

(٨٥) دكتور فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ـ ترجمة دكتور حداد ورافق جـ ١ ص ٤١٦ : ٤٢٤ ، دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٣ ص ١٤ وما بعدها ، جرجى زيدان : العرب قبل الاسلام ٨١ : ٨٩ تعليق دكتور مؤنس هامش ٨٩ ـ ٩٠ •

(٨٦) دوسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ـ ترجمة الدواخلى والدكتور زيادة ص ٨ ـ ص ٩ دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٤ ص ١٦٦ •
Brockelmann : Hist. of the Islamic Peoples pp. 6-7

وهي تظهر بهذا الاسم في **الوثائق الاشورية** ، ومنها مايروى ان تيجلات بلاسر الاول Tiglath Pilaser I (حوال ١١٠٠ ق٠م) قد طارد اعداءه البدو حتى هذا الملجأ الصحراوى ٠ وفى عهد تيجلات بلاسر الثالث (٧٤٥:٧٢٨ق٠م٠) كان للعرب مملكة عاصمتها **(الجوف)** وخضعت لنفوذ آشور حتى عهد أسرحدون (٦٨١ ق ٦٦٩ ق٠م٠)بل ان الملك البابلى نبونايدس (٥٥٦ : ٥٤٩ ق٠م٠) قد جعل مقره فترة من الزمان فى **واحة تيماء** التى كانت قاعدة بعض حملاته (٨٧) ٠ **ثم توسعت الامبراطورية البارثية في منطقة الفرات عند منتصف القرن ٢ق٠م ، وأعقبها بعد ثلاثة ارباع القرن توسع لوما في سوريا ، ووقفت تدمر بين الامبراطوريتين وساعدها موقعها الصحراوى المنعزل على الصمود ، كما استفاد تجارها من وضعها عند ملتقى الطرق التى تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب** ٠ وكانت تدمر من العقد الخطيرة فى العمود الفقرى لعالم التجارة بعد الميلاد تمر بها القوافل تحمل اثمن البضائع وكانت على اتصال باسواق العراق وما يتصل بها من اسواق فى ايران والهند والخليج الفارسى كما كانت على اتصال باسواق حوض البحر المتوسط ولا سيما ديار الشام ومصر ، وعلى اتصال وثيق بالحجاز واسواقها ٠ وقد أحيت التجارة تدمر ، وحين تغيرت طرق المواصلات تبعا لتغير الاوضاع السياسية ذهبت أهميتها ٠ وكان أهلها تجارا ومزارعين ، ويعيش فى أطرافها عرب ورعاة ٠ وكانت مدينة يونانية ولكنها ليست كسائر المدن المتأثرة بالهيلينية فى الشرق ولم تخضع لنظام المدن اليونانية Greek Polis وخضعت للرومان وكان بها حامية رومانية ولكنه خضوع صورى ، ولم تكن الحامية شيئا ذا بال لأهل المدينة والقبائل المحيطة بها ٠ وكانت المدينة رغم لطابع الهيلينى الرومانى فيها مدينة شرقية ، والحكم فيها الى الأسر ذات النفوذ فى البلدة تحكمها فى السلم والحرب ، ومن بينها الاسرة التى حكمت تدمر والاسرة التى حكمت مدينة تشبهها فى نظامها وهى حمص ٠

وصارت تدمر مدينة من الدرجة الأولى ومركزا دينيا للاصنام وسوقا للتجارة تكدست فيه البضائع ورءوس الاموال سيما بعد سقوط البتراء (بطرا) بأيدى الرومان ٠ وتولت قوافل تدمر نقل البضائع بين العراق والشام مخترقة البادية الى المرافىء العراقية على ضفاف الفرات ، وعادت

---

(٨٧) دكتور فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ١ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٤٣٢ دكتور اسعد طلس : تاريخ الامة العربية (عصر الانبثاق) ص ٩٧ – ٨
Brockelmann : Hist. of the Islamic Peoples pp. 6-7

القوافل على المدينة بخير عميم من أجور الوساطة فى البيع ولشرء ومن ضرائب البضائع . وكانت التجارة تمر بها حوالى سنة ١٠٠ ق.م. فى **سفرها بين دورا والشام** واستتبع النشاط التجارى علاقات سياسية واقتصادية مع الفرس والرومان والقبائل العربية فى البادية . **واستغل حكامها موقعها الاستراتيجى كدولة صغيرة حاجزة بين دولتين كبيرتين متصارعتين، فوقفوا مرة الى جانب رومان وأخرى الى جانب بارثيا ، حتى لا يطغى أحد الجانبين فيكتسح تدمر فى الطريق** ، وقد أمر انطونيوس فرسانه بغزوها سنة ٤١ ق.م. فاخلى التدمريون مدينتهم وهربوا عبر الفرات ، ولم يكن من السهل محافظة تدمر على سيادتها التامة فى وجه النفوذ المتزايد للامبراطورية الرومانية الواقعة فى غربيها ولا بد أنها اعترفت بسيادة روما ووصلها مقيم رومانى فى أوائل العصور المسيحية . **وقد الحق تراجان تدمر بالولاية العربية التى أنشأها سنة ١٠٦ م ، ومنحها هادريان فى زيارته سنة ١٣٠ م الاسم الذى خلع عليها (بالميرا)** Hadriana Palmyra **وجعلها تابعة لروما** ، وقد رفعت فى أوائل القرن ٣ م الى درجة مستعمرة ممتازة فى عهد سبتيموس سفيروس اوغيره ، ولكن المدنية كانت دائما بلدا مستقلا بالفعل وان دخلت فى نطاق الامبراطورية الرومانية **وكانت الطرق الرومانية تربط روما بدمشق عاصمة سوريا الداخلية وبمدن الفرات وبالحصون الامامية الدفاعية التى** كشف عنها بقايا تبدأ فى منطقة الدجلة وتستمر فى كل سوريا وشرقى الاردن حتى البحر الاحمر . وتأتى **دورا أورويس** Dura — Europos على الفرات (الصالحية) فى طليعة المدن التابعة لتدمر وكانت معقلا لحمارية تجارتها. كانت الرصافة مدينة هامة دعيت فيما بعد **سرجيوبوليس** Sergiopolis وقد ورد ذكرها فى الكتابات الاشورية وصارت من بعد مصيفا للامويين. وقد غلبت حضارة الرومان على الاثرياء التدمريين فاتخذوا أسماء رومانية اضافوها الى اسمائهم العربية أو الآرامية وفى منتصف القرن ٣م ارتقت الى مقام الزعامة أسرة يتصدر اسمها كلمة (**سبتيموس**) وتمكنت من حكم المدينة حكما واقعيا de facto وقد شيد تمثال سنة ٢٥١ م على شرف عميد الاسرة سبتيموس **خيران بن اذينة** وتسمى هو **بسبتيموس اذينة** Septemius Odenatus كان الرومان قد منحوا أباه لقب Procurator ولما حكم الساسانيون ايران منذ عام ٢٢٧ م بدأ ظهور تدمر ، اذ هزم الساسانيون الرومان سنة ٢٦٠ م فى عهد سابور الاول الرومانى قرب ادسا وأسروا امبراطورهم فالريان الذى كان قد أنعم برتبة القنصلية على اذينة ، وبلغت غارات الفرس التالية شمالى

سوريا ونهبوا انطاكية • وقد هرع اذينة الكبير Odenathus على رأس جيش كبير من السوريين والبدو وهزموا الفرس على ضفاف الفرات وطاردوهم حتى أسوار عاصمتهم • وكوفىء اذينة على ولائه فى عهد الامبراطور الجديد جالينوس Gallienus فمنح سنة ٢٦٢م لقب حاكم الشرق Dux Orientis الذى جعل من شبه نائب للامبراطور على القسم الشرقى من الامبراطورية التى كانت تعانى وطأة غارات البرابرة فى أوربا وآسيا• ولكن اذينة لم يلبث ان اغتيل مع وريثه فى ظروف غامضة سنة ٢٦٦ أو ٢٦٧ م أثناء احتفال فى حمص ولعل هناك أصبعا لروما فى ذلك •

وقد حكمت بعد اذينة زوجته الطموحة (**زنوبيا**) باســم ولدها القاصر (وهب اللات) وهى تذكر فى الكتابات التدمرية الاثرية باسـم بت زباى Bath-Zabbay (ابنة العطية) وهى الزباء فى الروايات العربية واشتهر فى بلاطها الفيلسوف لونجينوس Dionisisus Cassius Longinus من أهل حمص • **وقد اتسعت الدولة التدمرية فى عهـدها حتى شـملت سوريا وجزءا من آسيا الصغى وشمالى الجزيرة العربية** ، وتدخلت فى سياسة مصر وصار لها حامية بالاسكندرية وقد سكت زنوبيا النقود سنة ٢٧١ م وعليهـا رأس ولدها ، كما تلقب ابنهـا بملك الملوك وأغسطس وتلقبت زنوبيـا باغسطا • وتوغل القـــائدان التدمريان زبدا وزباى فى داخل آسيا الصغرى وأقاما الحاميات فى اتجاه الشمال الغربى حتى انكيرا Ancyra (انقرة) • وشعرت خلقيدونية المواجهــة لبيزنطة بالجيوش التدمرية واخيرا تحرك الامبراطور أورليان (٢٧٠ : ٥م) لصد هجمات الفرنجة والالمان والقوط والفرس • وفى سنة ٢٧٢ م هزم الحاميات التدمرية فى آسيا الصغرى وتحرك نحو سوريا فسقطت انطاكية وخمدت مقاومة حمص وانســـحبت زنوبيا وزبدا الى تدمر لتفوق الفرق الخفيفة التابعة لاوليان ولم يمد الفرس يدا الى التدمرين فى حربهم ضد الرومان ، وهربت الملكة من عاصمتها لكنها أسرت وقتل ابنهـا واعدم مستشاروها ومن بينهم لونجينوس • وما كان أورليان يعود ادراجه الى عاصمته حتى سمع فى طريقه بانتقاض تدمر فكر اليها مفاجئـــا واعمل فيهـا قتـــلا وتخريبا •

وكانت الزباء قد ابتنت مدينة على الفرات دعتهـــا زنوبيا لتقوية حدودها ولتـكون حصنـــا امام هجوم الســاسانيين ويرى هرزفيلد Ernst Herzfeld ان المدينة موضع (الحلبية) ويقابلها فى الضفة (الزلبية) وهو يعارض رأى من يدعى ان (الزلبية) هى مدينة الزباء• واستولى (خسروا) الأول عليها ودمرها سنة ٥٤٠ م ، ولما استرجعها جستينان اعاد بناءها •

وقد اشتهر التدمريون بحذقهم الرماية فكانوا فى أيامهم من خيرة الرماة بالسهام ، فاستعان بهم الرومان وألفوا كتائب اشتهرت فى الحروب ولما سقطت تدمر احتفظ بهم الرومان فى جيوشهم فاستخدموهم فى حروبهم فى شمالى افريقية ، وقد عثر على كتابات أثبتت انهم كانو فى جملة القوات الرومانية فى بريطانيا . **ولم تكن تدمر فى عهد دقلديانوس سوى قرية صغيرة وقلعة على الحدود لحمايتهـــا من هجمات القبائل وغزوها للمدن القريبة من البادية ، وروى أن قلديانوس بنى تحصينات** Castra **فيها بعد عقده الصلح مع الفرس ورمم بعض ابنيتها ، وقد أمر ببناء حصـــون وقلاع جديدة وبتقوية القديم منها فى أرجاء الامبراطورية من ارض مصر الى حدود الامبراطورية الفارسية** ، ووكل أمرها الى ضباط يتولون قيادة جنودهم والسهر فى حماية الحدود من هجمات الأعداء وغزو القبائل . وفى حوالى سنة ٤٠٠ م كانت تدمر تابعة لولاية فينيقية ، وعين ثيودس الصغير (٤٠٨ : ٤٥٠ م) فرقة لحراستها ويبدو أن ذلك كان لمقاومة هجمات رجال البادية . **أما الكتيبة التى** عسكرت فيها سنة ٤٠٠ م فهى اللجيون الاليرى الأول Illyria وذكر الراهب اسكندر Alexander thl Acoemete المتوفى ٤٣٠ م أنه فى سفره من الفرات الى مصر قابله الجند الرومان المعسكرون فى القلاع بترحاب ، وقدموا له ولمرافقيه المساعدات الممكنة ، **وانه وجد قلاعا مقامة على طول حدود الفرس والروم** على مسافات تتراوح بين ١٠ ، ٢٠ ميلا رومانيا ، وقد قطع الحدود حتى مدينة سليمان ـ ويقصد تدمر .

وأمر جستنيان بترميم مبانيها وتقوية حاميتها كما ذكر بروكوبيوس، كما أمر أن تكون مقر حاكم dux مقاطعة فينيقية اللبنانية Phoenica libanisia لحماية الحدود وخاصة حدود الأرض المقدســة . **وقد كانت تدمر على الحدود** Limes Interier للامبراطورية أيام جستنيان ، ويسكن فى المناطق بين هــذه الحدود والحدود الخارجية Limes 'terier القبائل المحالفة للرومان ، ومن هذه المنطقة كانت تأتى غارات القبائل على الحدود. وكان سلطان الروم أقوى فى الحدود الداخلية. **واتخذ بعض ملوك الغساسنة تدمر منزلا لهم** ومحل اقامة ولم تزل كذلك حتى فتحها المسلمون ســنة ٦٣٤ م . وهكذا زالت أهمية تدمر باستثناء فترات قصــيرة فى عهدى دقلديانوس وجستنيان وتغلبت الصحراء على سكانها حين فقدوا سيطرتهم عليها وان وجدت اشارات عارضة عنها كمركز اسقفى .

فى القرن ٢ق.م تـكونت مملـكة Osraei, Osrhoene التى عــد الـكتاب الرومانيون ملوكها من العرب وعـدوا سـكانها عـربا . ويعزو

رستوفترف سبب تكونها الى حالة الفوضى بين النهرين اثر احتلال البارثيين لها • وذكر بروكوبيوس انها دعيت كذلك نسبة لملك اسمه Osraes حكم تلك الارض قديما وكان حليفا للعرب •

ومن جملة المشيخات العربية فى الشمال **مشيخة حمص** Hemesena التى حكمت المدينة وما جاورها في أيام بومبى وكانت مدينة الرستن Areshusa مقرها وتقع على نهر الميماس وهو العاصى ويسمى الأرنط فى المصادر الكلاسيكية • وذكر اصطفانوس البيزنطى (ستيفان) أن شيخا عربيا اسمه Maniks **كون مشيخه فى خالكيس** Chalcis أى قنسرين من الشام وكانت القبائل العربية استقرت فى المنطقة قبل اصطيفانوس بمدة طويلة ، وفى الحيار من أعمال قنسرين اصطدم الغساسنة بالمناذرة سنة ٥٥٤م وانتصر الغساسنة ولما استولى الفرس على قنسرين وانتزعوها من البيزنطيين كان للقبائل العربية نفوذ واسع فى قنسرين وحلب ومنبج وبالس (٨٨) •

الغساسنة :

انتقل ارث تدمر الى مشيخات عديدة كما يحدث عند سقوط مملكة أو امارة تتكون فى البادية أو أطرافها ثم استقر فى آل **جفنة** بالشام وأخبار بنى جفنة الغساسنة أقرب الى التحقيق التاريخى ، وان كانت غامضة فى بدايتها • وقد دلت بحوث نولدكة Neldke على أن أول أمير قطع بصحة حكمه من هذه السلالة هو الحارث بن جبلة • وأما جبلة والد هذا الامير فيبدو أن ثيوفانيس قد ذكرة بمناسبة غارة بفلسطين سنة ٥٠٠ م ، **وبينما كانت تدمر آخذة فى الاضمحلال شق بنو غسان طريقهم الى حوران وهناك حلوا محل الضجاعم من سليح** وتنصروا فى القرن ٤ م ، لايعرف بصورة قاطعة تاريخ مؤلف السلالة الغسانية المدعو **جفنه بن عمرو مزيقيا** • ويختلف عدد الملوك الغساسنة عند اوْرخين العرب مابين ١١ و ٣٢ بينما يهتم المؤرخون البيزنطيون أساسا بعلاقتهم مع القسطنطينية • وليس لدينا معرفة كاملة بغير الملوك الخمسة الاخيرين وأولهم **الحارث بن جبلة** (حوالى ٥٢٩ : ٥٦٩م) الذى حارب المنذر الثالث الملك اللخمى لدولة الحيرة الحاجزة التى اصطنعها الفرس على حدودهم • وقد لقى بلاء الحارث

(٨٨) دكتور فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ١ ــ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٤٣٣ : ٤٤١ ، جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ص ٩٨ : ١٠٥ ، وتعليق دكتور مؤنس بهامش ص ٩٨ : ١٠١ ، دكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٧٦ وما بعدها وبخاصة ص ٧٦ : ٧٨ ، ١٢٥ : ١٣٠ ، ٢٨١ : ٢٨٥

تقديرا عند جستنيان فعينه سيدا على كل القبائل العربية فى سوريا ومنحه لقب فيلارخ Phylarchus وبطريق Patricius وتلعب الغساسنة بين العرب بالملوك. وقد ورد فى تاريخ بروكوبيوس أن المنذر ملك العرب Sarakynou الذين كانوا فى مملكة الفرس لما أكثر من الغارات على حدود امبراطورية الروم وعجز قواد الروم من أرباب لقب Duce ومشايخ القبائل من أرباب لقب فيلارخ Phylarchus المحالفين للروم عن صده والوقوف أمامه رأى جستنيان أن يمنح الحارث بن جبيلة الذى يحكم الولاية العربية Arabia لقب ملك ليقف فى وجه المنذر ، وذكر أنه لم يمنح لأحد من قبل ولم يكف عن غزو الحدود الشرقية للشام مدة طويلة وذهب نولدكه أن ذلك كان سنة ٥٢٩م . وواصل الحارث صراعه ضد اللخميين ، كما حارب فى الجيش البيزنطى تحت امرة بليزاريوس Belisarius فى بلاد بين النهرين وفى سنة ٥٤٤ م فقد الحارث أحد أبنائه فى قتال اللخميين وانتقم الحارث لنفسه بعد عشر سنوات فى معركة حاسمة قرب قنسرين (خالكيس) وقتل غريمه اللخمى . وقد حفلت أيام العرب بالكثير من الوقائع التى جرت بين الغساسنة واللخميين ، من ذلك يوم **عين أباغ** (٨٩) حين سار المنذر الثالث ملك الحيرة حتى نزل **بواد وراء الانبار على طريق الفرات الى الشام يدعى عين أباغ** ، فأرسل الى الحارث الغسانى يخيره بين الفدية والقتال ، فنهض الحارث للحرب وفقد اثنين من أبنائه فى مبارزة مع مقاتل لخمى قدمه المنذر على أنه ابنه ولم يكن كذلك . ولما بلغ الحارث الخبر نفر الى قتال اللخميين حتى قتل المنذر وهزم جيوشه وتتبعه الى عاصمته فأحرقها . فلما تولى المنذر بن المنذر اللخمى سار الى الحارث الغسانى يطلب ثأر أبيه فنزل **بمرج حليمة** فالتقى به الحارث ودارت الحرب بينهما أياما دون وقعة حاسمة ، فأعطى الحارث ابنته حليمة طيبا وأمرها أن تطيب من مر بها من جنده وأعلن فى فتيان غسان تزويجه ابنته لمن يقتل ملك الحيرة ، وقد استطاع أحدهم أن يقتل ملك الحيرة اللخمى لكنه سقط صريعا وهو يقاتل أخا المنذر وانجلت المعركة عن هزيمة لخم وانتصار غسان .

وقد زار الحارث بلاط جستنيان سنة ٥٦٣ م حيث استصدر قرارا بتعيين يعقوب البرادعى أسقفا على الكنيسة المونوفيزية السورية وانتشرت هذه العقيدة فى سوريا كلها أثناء حكمه وحكم ابنه ، وقد أثر الحارث تأثيرا

---

(٨٩) اعتمدنا فى رواية خبر يومى (عين اباغ) و (حليمة) على : جاد المولى والبجارى وابى الفضل : ايام العرب فى الجاهلية ص ٥١ : ٥٥ ويسمى بعض الاخباريين عين اباغ باسم (ذات الخيار أو ذات الخيار) وهو موضع ببرية قنسرين .

عميقا فى أهل العاصمة ورجال القصر والحاشية حتى قيل ان رجال البلاط كانوا يخوفون جستين -في خرقه- به • **وامتدت مملكة الغساسنة من قرب البتراء الى الرصافة شمالى تدمر وضمت فى أكنافها البلقاء والصفا وحران وغلت بصرى عاصمة دينية ومركزا تجاريا ، أما العاصمة السياسية فيبدو أنها كانت فى البدء مخيما متنقلا ثم استقرت فى الجابية بمنطقة الجولان ، كما كانت لفترة من الزمن فى جلق جنوب حوران •**

وكانت الحدود تتبدل حسب قوة الملوك كعـادة الممالك والامارات فى البادية أو أطراف البوادي حين تتعرض لغزو ونفوذ القبائل الفتية الطامعة فقد تتسع حتى تضم دمشق وفلسطين الثانية والكورة العربية وفينيقية ولبنان وفلسطين الثالثة وولايات سوريا الشمالية أحيانا ومساحات شاسعة من البادية • وقد تقـل لضعف الامير أو طمع القبـائل ومن شعر حسان ابن ثابت يتبين أن دولتهم فى أيامه كانت تمتد من حوران لخليج العقبة ، وكانت الجولان من أشهر مناطقهم • وقد عثر فى كتابات **حران** على اسم أمير يدعى **شراحيل بن ظالم** يروى نولدكة أنه من كنده لأن الاسمين شائعان فيها ، وتاريخ الكتابة باليونانية والعربية يرجع الى حوالى سنة ٥٦٨ م لمناسبة تدشين العامل بناء باسم يوحنا المعمدان ، فيكون شراحيل اذن من المعاصرين للحارث بن جبلة • ويستنتج نولدكة أن **عددا من المشايخ ظلوا على نفوذهم بعد** تالق آل غسان وذلك مما يوافق سياسة الروم الذين لم يكن من مصلحتهم ظهور أمير واحد قوى بل جملة أمراء متنافسين يضربون بعضهم ببعض •

وخلف الحارث ابنة **المنذر** Alamoundaros (حوالى سنة ٥٦٩ : ٥٨١ م) وقد تابع خطى أبيه فى دعم المونوفيزية وحرب اللخميين ، ولكن مخالفته للمذهب الرسمى فى بيزنطة باعدت بينه وبين الامبراطور جستين الثانى الذى كتب الى واليه فى سوريا يأمره بالتخلص من المنذر ، فوقعت الرسالة خطأ فى يد الملك الغسانى فأعلن العصيان ثلاث سنوات متتالية انتهزها عرب الحيرة وأغاروا على سوريا الشـمالية • ثم سويت الامور **وزار المنذر مع ولديه القسطنطينية سنة ٥٨٠ م** حيث استقبله بحفاوة الامبراطور الجديد تيبرس‌يوس الثانى Tiberus وأنعم عليه بلقب ملك الشرقيين وألبسه تاجا ملكيا وأوقف اضطهاد المونوفيزية وطلب من المنذر أن يعينـه على الوفاق الطائفى • لكن بطريق القسطنطينية لم يرض عن سياسة التسامح التى انتهجهـا تيبرس‌يوس ، كما اتهم القائد موريس المنذر بالخيانة حين تعاون معه فى هجوم خاطف عن طريق الفرات فوجد الجيش الجسر الكبير مهدوما ، على أن المنذر قد أغار بمفرده بعد ذلك على

امارة الحيرة وأعمل فى عاصمتها النار وعاد بغنائم عظيمة • وأرسل تيبريوس أمره بالقبض على المنذر ، فجرى تنفيذه عند حضور المنذر تدشين كنيسة فى حوارين بدعوة من حاكم سوريا ، وأرسل مع زوجته وأولاده الى القسطنطينية ومنها الى صقلية ، **وقطع البيزنطيون معونتهم لآل جفنة من ذلك الوقت** •

فلما طالت الحرب الفارسية شعر الامبراطور موريس بالحاجة الى من يوحد القبائل العربية فى سوريا ويقودها لمحاربة الفرس، فاستدعى **النعمان ابن المنذر** سنة ٥٨٤م، كان قد قاد عدة غزوات من البادية ضد البيزنطيين• فانخدع النعمان وذهب الى القسطنطينية ، وهنا وعده الامبراطور باعادة والده مقابل اشتراك الغساسنة فى الحرب ضد الفرس ومتابعتهم الديانة الرسمية ، وقد فشلت المقابلة وزج النعمان فى السجن • ويشير ميخائيل السرياني وابن العبرى الى انقسام الغساسنة بعد القبض على النعمان الى ١٥ فرقة هاجر بعضها الى العراق وتشتت الباقون ولم يبق لهم شأن يذكر• ودخل بعضهم فى المذهب الخلقيدونى ولم يشر الكتاب السريان أو البيزنطيون الى ملك الغساسنة بعد ذلك • وهنا يصير للشعر العربى والروايات الشارحة له وضع خاص كمراجع لأحداث التاريخ ـ مع وجوب التحفظ في تلقى هذه المادة وفحصها ـ وفى شعر حسان بن ثابت صيحات توجع على ما نزل بملوك غسان• ويرى نولدكه **أن أحوال العرب فى سوريا اضطربت حوالى سنة ٥٨٣ أو سنة ٥٨٤م وتفككت وحدتهم وتفرق الامراء فى ولائهم ما بين ايثار الاستقلال أو متابعة الفرس أو مواصلة الانقياد للبيزنطيين ، وتنازعت هذه الجماعات المتفرقة وتكرر السطو والنهب، وعند هذا الحد يفقد الاخباريون اليونان كل اهتمام بالموضوع وتروى التواريخ العربية أحداثا مشوشة حتى يفتح الفرس سوريا سنة ٦١١: ٦١٤م** فيزيد هذا من غموض الحالة السياسية اذ تركت مدة الغزو فراغا • فلا المؤرخون البيزنطيون والسريان دونوا تاريخ تلك الحقبة ولا الفرس تركوا أثرا يتحدث عن أعمالهم وصلاتهم بالقبائل العربية • ويقول نولدكه أن اضطراب الامور حمل الروم على التفكير فى تنصيب عامل رئيسى لهم من آل جفنة أيضا ويحتمل أن يكون هرقل قد أعاد السلالة القديمة حين طرد الفرس من البلاد بعد ١٤سنة، فقد روى فى أخبار الفتح الاسلامى للشام أن الغساسنة قاتلوا الى جانب البيزنطيين وأن آخر أمرائهم **جبلة بن الأيهم** ناجز المسلمين فى اليرموك سنة ٦٣٦م والاخباريون يروون أنه كان يحمل لقب ملك • ولكن نولدكه يرى أن أمر الغساسنة لم يكن من القوة فى ذلك الوقت بحيث يصل الى هذا الحد وان صح الخبر فلعل ذلك كان لأمد قصير ، وكان معاصرا

للنعمان بن المنذر ملك الحيرة وكان النعمان يتعقب أخباره ويسأل عنه من يقدم اليه من الشام ، وقد اسلم ثم ارتد وقصد بيزنطه في عهد عمر حين قضى الخليفة لأعرابي بالقصاص من الأمير الغساني الذي كان قد صفعه . على أنه **يمكن القول بوجه عام أنه في نهاية القرن السادس الميلادي وأوائل القرن السابع لم تكن هناك حكومة عربية واحدة تحكم القبائل والمدن والقرى في فلسطين والحجاز بل مشيخات وحكومات مدن تؤدي الجزية للاعراب جزءا ترك أذاها** . وضعف الغساسنة اثر ضربات الروم والفرس فتجزأ ملكهم وتفرق مشيخات ، وفي أيام الرسول كان **الحارث بن أبي شمر الغساني أو جبلة بن ايهم الغساني** هو البارز من الامراء واليه أرسل الرسول يدعوه للاسلام . **وكانت البلقاء في أيدي قبائل عربية مثل لخم وجذام وبلقين وبلي ، ويطلق عليها المؤرخون (المستعربة)** ، وقد كانوا في جانب الروم مع هرقل في غزوة مؤتة ، وكان صاحب معان رجلا من جذام هو **فروة بن عمرو الجذامي** وهو عامل الروم على من يليهم من العرب وقد حبسه الروم حين أسلم . وكانت **أيلة** في يدي يوحنا بن رؤبه ، ويظهر أنه كان على دومة رئيسان يلقبان نفسهما بالملكين عند ظهور الاسلام وبينهما تنافس وخلاف هما أكيدر بن عبد الملك والجلندي بن ربيعة . وكانت قبائل **بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان** تظاهر الروم على المسلمين (٩٠) .

وهكذا شهد العرب في أواخر أيامهم التي سبقت ظهور الاسلام قبيلا منهم أقام من نفسه (حاجزا) يعصم حدود الروم، في أرض الفها مهاجروهم وتجارهم ، يغشون أسواقها فيرون التحصينات على أطرافها ، ويحوض الغساسنة الوغى فيتسامع الناس بأيامهم ومعاركهم ، وينالون من حضارة الروم حظا يجتذب القاصدين الى بلادهم وبلاطهم . **ومن ثم كانت تلك الامارة سبيلا قريبا لمعرفة العرب شيئا عن ولايات التخوم وشئون الروم. وقد عرف هؤلاء العرب من حلفاء البيزنطيين (بروم العرب) أو (العرب المتنصرة)** وانتشرت قبائلهم عند حدود الحجاز الشمالية كما تعارف عليها كتاب العرب الذين اعتبروا أقصى مدن الحجاز شمالا : خيبر وتيماء وفدك ، **وجعلوا الشام يبدأ بعد خيبر بقليل** ، ولم يدخلوا وادي القرى في حدود الحجاز . وهذه لقبائل الموالية للبيزنطيين هي : جذام وبلي وعذرة وبهراء

---

(٩٠) دكتور فيليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ١ - ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٤٤٦ : ٤٥٠ ، دكتور رستم : الروم ج ١ ص ٢٠٢ : ٢٠٧ ، دكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ١١٨ وما بعدها حتى ص ١٥٣ ، ٤٠٤

وكلب ولخم ومجموعة القبائل القضاعية التي تسمي عادي ببني غسان(٩١) .

ويرتبط تاريخ الغساسنة بتاريخ اللخميين في الحيرة ارتباطه بالبيزنطيين ، فقد دارت الحرب بين الفريقين سجالا . واصل هذه الامارة العربية معسكر صغير على مقربة من نهر الفرات يسمى حرتا ، وقد حل محل قلعة حطرا Hatra (الحضر) التي بناها العرب ممن اعترفوا بسيادة الفرس ، ثم أصبح هذا المعسكر بعد قليل مدينة هامة هي الحيرة ومعظم المستشرقين يرون أن الحيرة من كلمات بنى ارم ، وأنها حرتا Harta أو حيرتو السريانية الاصل ومعناها المخيم والمعسكر ، وأنها تقابل في العبرانية كلمة حاصير Haser وأن حيرتا وحيرة في الواريخ السريانية التي تحدثت عن الغساسنة تقابل مصطلح عسكر عند الاسلاميين . (٩٢)

وتاريخ الحيرة قديم ، فقد خربها ملوك فارس عدة مرات ومنهم سابور بن هرمز (٣١٠ : ٣٨٩م) الذى عرف لمقتلته في العرب بذى الاكتاف . ولكن تاريخ الحيرة يرتبط الى حد كبير بتاريخ اللخميين الذين مازال أصلهم موضع خلاف بين المؤرخين فلم يقطع ان كانوا قحطانيين هاجروا من اليمن أو عدنانيين انتشروا نحو الشمال الغربى . وقد أورد ابن الكلبى روايات تقول بالرأيين وغالبها أنهم من عرب الشمال . وعن ابن الكلبى أخذ الطبرى ورجح القول أنهم يمن ، ويقال أنهم من حمير ومن التبابعة وأن قصريهم (الخورنق والسدير) على نسق قصور اليمن ولا يستبعد أن يكونوا خليطا من عرب الشمال وعرب الجنوب وغالبية المؤرخين على أن آل جذيمة الابرش الذين أنشأوا ملك اللخميين في الحيرة من أزد اليمن . وللاخباريين أقوال متخلفة في أول ملوك الحيرة ، فهو مالك بن فهم من الازد عند الطبرى واليعقوبى ، أما جذيمة فقد تلاه وهو شخصية معروفةعند مؤرخيالعرب،ولكنها تكاد تكونأسطورية ويقول عنه الطبرى أنه « من أفضل ملوك العرب رأيا وأبعدهم مغارا وأشدهم نكاية وأظهرهم حزما وأول من استجمع له الملك بأرض العراق وضم اليه العرب وغزا بالجيوش » حكم عشرين سنة يرى أن ملكة اسمها الزباء في بادية شمال الجزيرة غررت بجذيمة وأهلكته . وقد نوقشت

---

(٩١) دكتور مؤنس : المسلمون في حوض البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م٤ع١ ـ مايو ١٩٥١ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ١ ص ٨٧

(٩٢) العرب في سوريا قبل الاسلام ـ ترجمة الدواخلي والدكتور زيادة ص ٣٢ ، كريستنسن ـ ايران في عهد الساسانيين ترجمة دكتور الخشاب ص ٧٧ ، دكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٥ ـ ٦ .

حقيقة الزباء : هل هى زنوبيا ملكة تدمر أم غيرها ؟ وقد أثبت الأب سبستيان رنزفال اليسوعى أن الزباء هى زنوبيا ، وعارض ذلك ردهوس Redhause وقد انتقل الملك بعد جذيمة الى ابن أخته عمرو بن عدى الذى يبدو أنه انتصر على هذه الملكة ولعله أول من اتخذ الحيرة منزلا للملوك . والمفروض ان سابور الاول (٢٤١ - ٢٧٢ م) هو الذى عين عمرو بن عدى ملكا على العرب فى الحيرة(٩٣). وقد رجح دوسو أن النص العربى فى النمارة المكتوب بحروف نبطية فوق قبر امرىء القيس (ملك جميع العرب) سنة ٣٢٨م لا يشير الى أمير غسانى بل الى ملك من ملوك الحيرة ، فان منح لقب ملك لحكام الغساسنة لاول مرة يتاخر عن التاريخ المذكور ، فضلا عن ان استعمال كلمة التاج فى النص معروف فى البقاع الايرانية . وقد واخضع هذا الملك العربى عرب الحيرة كما امتد سلطانه الى القبائل المقيمة على تخوم لشام مثل أسد ونزاد ومذحج ومعد ووزع بنية فى القبائل ، كما يبدو انه حارب شمر يورعش صاحب نجران فى جنوب البلاد العربية وقد روى الطبرى ان امرىء القيس كان عاملا للفرس (على خرج العرب من ربيعة ومضر وسـائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة) . ووجـود قبر امرىء القيس فى أقليم رومانى ورثاؤه بحرف نبطية فى لغة عربية وقت وجود الولاية الرومانية فى البلاد العربية يكفيان لتأييد اعتراف الرومان بسلطانه وان كان النص لايقطع بهذا تماما ، ولعل هذا يتفق مع السـياسة المتأرجحة والمركز الخاص للعرب الرحل فى بادية الشام . وقد قام عرب حظرا من قبل بنفس الدور بين الرومان من جهة والبارثيين ثم الفرس من جهة أخرى وعرفوا كيف يحافظون على استقلالهم ، ولعلهم تركوا حطرا الى الحيرة لأن موقع الاولى فى الشام جعل من العسير لدفاع عنها .

وفى أيام امرىء القيس كان تنكيل سابور ذى الاكتاف بالعـرب وتلقيبه بذى الاكتاف على رواية الاخباريين ، فأوقع بمن انتجع بلاد فاس من العرب ، ثم قطع البحر فورد (الخط) فقتل من بلاد البحرين خلقـا كبيرا وافشى القتل فى (هجر) وبها ناس من اعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس ، ثم أوقع بسكان بلاد عبد القيس واليمامة حتى بلغ قرب المدينة ثم عطف نحو بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة فارس ومناظر الروم بأرض الشـام فتابع القتل هناك ، واسـكن من كان من بنى تغلب من

(٩٣) دكتور ماجد ــ التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ١ ص ٨٩ ، دكتور مؤنس : التعليق على كتاب (جورجى زيدان : العرب قبل الاسلام) ص ١٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٢٦ هامش ، Brockelmann : Hist. of the Islamic Peoples p. 8

البحرين (دارين والخط) ومن كان من عبد القيس وطوائف من بنى تميم (هجـــر) •• ومن كان من بكر بن وائل (كرمان) ومن كان من بنى حنظلة (الرملة من بلاد الاهواز) (٩٤) وكان **للنعمان الاول بن امرىء القيس** ٥ كتائب : دوسر من تنوخ التى اشتهرت بشدة بأسها والشهباء وهى من أهل الحيرة الفرس ، والرهائن وقوامها ٥٠٠ اتخذوا رهائن من قبائل العرب ، والصنائع وهم من خواص الملك لا يدعون بابه ، والوضائع وهم من جند الفرس يضعهم ملوك الفرس نجدة لملوك العرب وعددهم ألف جندى تبديلهم على التوالى وللكتائب حصون تعرف بالمسالح ، وقداصطدم **النعمان بن الاسود** حـوالى ٤٩٨ م ــ حسب رواية تيوفانيس ــ بقائد الروم اويجينيوس Eugenius عنــد ثرابسوس على الفرات فانهزم • ورجاه قباذ مهاجمة حدود الروم من الجنوب فى حرب الروم والفرس سنة ٥٠٢ م فهاجمهـــا فى قطـاع حران Carrhae ، وتغلب عليــه قائد الروم أوليمبيوس واويجينوس ثم تغلب عليهما ولكن جرح قرب قرقيسياء فمات • وفى اثناء غياب النعمان وجنده الحيرة انتهز العرب الموالون للروم الملقبون **ببني ثعلبة** الفرصة فأغاروا على العاصمة حتى اضطر الناس الى الفرار الى البادية •

وأشـهر ملوك الحيرة قاطبـة **المنذر بن امرىء القيس بن النعمـان بابن ماء السماء** نسبة الى أمه الجميلة (٥٠٥ : ٥٥٤م) وهو الذى سار محاربا البيزنطيين والغساسنة وكان ميدان القتال فى الحروب المتتابعة هو الارض المسماة ستراتا Strata وتمتد على جانبى الطريق من دمشق الى ما بعد تدمر •

وقد تمكن المنذر من أسر قائدى الروم Johannes 'Demostratus وسعى القيصر لاطلاقهما ومصالحة المنذر ومحالفته فأرســل وفدا من ابراهيم Abraham والد المؤرخ Nonnosus وشـمعون الأرشـامى Symoon of Beth Arsham وسرجيو أسقف الرصافة (بيت الرصافة)• وصادف وصول وفد الروم وصول وفد آخر قدم من اليمن أرســله ذونواس المشهور بتعذيب نصارى نجران ، ولعله طلب وساطة اللخميين لدى الفرس ليعينوا اليمن على مواجهة خطر الاحباش حلفاء الروم • ولكن تحالف الروم واللخميين لم يتحقق ، وفى سنة ٥٢٨ م هاجم المنذر مؤيدا للفرس وتوغل فى الشـام وغنم وعاد سريعا • وجدد هجومه سنة

---

(٩٤) دوسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ــ ترجمة الدواخلى والدكتور زيادة ص ٣٢ : ٧ ، الدكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٢٣ ــ ٤ •

٥٢٩ م حتى بلغ حدود أنطاكيه واستولى - حسب رواية ابن العبرى - على أراض واسعة شملت كل منطقة الحدود ومنها أرض الخابور ونصيبين حتى بلغ حمص Emesa وإباميا (فاميه) Apamea وانطاكية Antioch وقيل انه قتل وخرب كثيرا . واضطر هذا الغزو جستنيان الى تنصيب الحارث الجفنى فيلارخا أى عاملا على عرب بلاد الشام لحماية الحدود من اعتداءات المنذر وعرب العراق . وقام المنذر وقائد فارسى بمهاجمة منطقة الفرات Euphratensi وهى قوماجين Commagene فلما تصدى لهما بليزاريوس تراجعا ثم التقيا عند الرقة Callinicus فانتصرا عليه سنة ٥٣١ م ، واشترك الحارث بن جبله الغسانى مع الروم فى حماية الجانب الأيمن من جبهة الروم ، أما المنذر وجيشه فكانا يكونان الجناح المقابل (لعرب الروم) أى الجانب الأيسر لجيش الفرس . وعلى الرغم من صلح الفرس والروم سنة ٥٣٢ م لم ينقطع نزاع الحارث والمنذر لاختلافهما على الأتاوة التى تقتضى من عرب منطقة الاستراتا Strata جنوبى تدمر وهى منطقة رعى لا ماء فيها ولا زراعة . وتجددت الحرب سنة ٥٤٠م بعد مراسلات دون بعضها بروكوبيوس تجلى دبلوماسية ذلك العهد ومنطق الملوك فيه . غزا الحارث أرض الجزيرة وهاجم المنذر الشام حتى بلغ فينيقية وتوغل فى لبنان « وتأصل النزاع فى نفس الملكين العربيين حتى صار أشد قوة من العداء الذى كان بين الروم والفرس ، مع انهما من جنس واحد وليس لهما مصلحة عامة فيه وانما هما يخدمان به قوتين كل واحدة منهما تريد الخير لنفسها لا غير » . وفى أيام المنذر احتل الأحباش اليمن ، وشعر الفرس بفداحة الخطب فأرسلوا وفدا الى اليمن ومعه آخر يمثل المنذر ، وقابل الوفدان هناك وفد الروم ووفد الحارث بن جبله ووفد النجاشى وقد وصلت سنة ٥٤٣م . وختم عام ٥٥٤م النزاع العنيف بين المنذر والحارث بسقوط الحارث صريعا بعيدا عن عاصمة ملكه فى منطقة قنسرين على روية المؤرخين السريان. ويذكر أنه Rhomaye هاجم التابعة للروم ولقى مصرعه عند عودايا Wadaya وهى العذيبة على رأى موزيل من مواضع منطقة بالميرا أى تدمر ومعظمها من أعمال قنسرين. أما الذى عليه أكثر الاخباريين فهو أن قتل المنذر كان فى عين اباغ من أودية العراق وراء الآنبار على الفرات بين الكوفة والرقة لا يبعد كثيرا عن لحيرة ، وقد جعل بعض الاخباريين عين أباغ ذات الحيار (الحيان) وذكر ياقوت أن الحيار صقع من برية قنسرين وهذا ينطبق على ما رواه المؤرخون السريان وذهب بعض الاخباريين الى أن مقتل المنذر بن السماء كان فى يوم حليمة .

وحدثت غارات محدودة على الشام أيام **عمرو بن هند** ، ويظهر أن الباعث عليها كان امتناع الروم عن دفع ما كانوا يدفعونه سابقا للعرب المتاخمين للفرس لاسكاتهم عن مهاجمة الحدود ولعل ذلك كان اكتفاء بعقد الصلح بين الفرس والروم سنة ٥٦٢م • وجاء **قابوس** فانتهز فرصة وفاة الحارث بن جبلة ـ على رواية يوحنا الافسوسى John of Ephesus فباغت الغساسنة بهجوم مفاجىء فى عقر دارهم ، فأسرع المنذر بن الحارث وجمع جموعه وفاجأه بهجوم مقابل فانهزم هزيمة منكرة ووقع عدد من الامراء اللخميين فى الاسر ، وتعقب المنذر اعداءه حتى صار على ثلاث مراحل من الحيرة • ويري نولدكه ان هذه هي عين أباغ • ولقى قابوس هزيمة أخرى حوالى سنة ٥٧٠م ، وقد حاول أن يعوض خسائره بهجوم آخر منتهزا فرصة القطيعة التى حدثت بين المنذر وجستين امبراطور الروم ، ودامت تحرشات بالعرب الموالين للفرس بحدود الروم ثلاث سنين هى مدة القطيعة ، ولم تنقطع الا بعد مصالحة الروم للمنذر فى الرصافة • وهنا هاجم المنذر الحيرة هجوما ناجحا سنة ٥٧٨م وأحرق وأسر ، ويظن روتشتاين ان ذلك كان بعد وفاة قابوس • وآخر ملوك الحيرة اللخميين وأشهرهم **النعمان الثالث ابو قابوس** (٥٨٠ : ٦٠٢ م) ، ولا تعلم من اعماله ما يتناسب مع مدة حكمه التى تبلغ ٢٢ سنة على رواية حمزة الاصفهانى والمسعودتى ، وذكر حمزة انه غزا قرقيسيا Circessium ولم يعين لذلك تاريخا وهو يقصد غارته على ارض الروم • ويروى ان كسرى استدعى النعمان وحبسه حتى الموت نتيجة خلاف نشب بينهما ، ولعل الفرس كانوا مدفوعين فى اقصاء المناذرة عن الحكم بالخوف من انتشار النصرانية فى عهد النعمان • واستعمل كسرى على الحيرة **اياس بن قبيصه الطائى** أو اياس بن قبيصة بن ابى عفراء وهو غريب عن لخم ، وآل قبيصة من دوسر المعروفة فى الحيرة ، وسبق أن عهدت اليه ادارة مهمات الحكومة بعد وفاة المنذر ، فمكث يدير الملك الى أن أعطى التاج للنعمان ، ويظهر من روايات الاخباريين الى انه كان مقربا من كسرى • ولم يشر الاخباريون الى قيامه بغارات على عرب الشام ، ولكن الحدث البارز فى أيامه هو يوم **ذى قار**، اذ كلفه كسرى تجميع ما خلفه النعمان من مال وسلاح فادى هذا الى احتكاك بين العرب والعجم انتصر فيه الاولون • وقد **عادت الحيرة قبيل الاسلام**

خاضعة لسلطة الفرس تماما وكانت في ذروة مجدها تشمل المنطقة الواقعة غربى الفرات من مجراه الأوسط الى منتصف الخليج الفارسى (٩٥) ٠

وأهل الحيرة عرب يقسمهم الاخباريون الى طبقات ثلاث : تنوخ والعباد والأحلاف ، وهؤلاء فى نظرهم من قبائل متعددة فيها من قحطان وفيها من عدنان ، وذكروا فى لهجتهم هجنة ارجعوا سببها الى اختلاطهم بمن يفد عليهم من النبط ممن كانوا يثيرون الاحداث فيلتجئون الى هذا المكان٠ ويشير الدكتور جواد على الى احتمال ان تكون تسمية (العباد ، والعباديين) قد اطلقها متنصرة الحيرة الأولى على نفسها بينما يرجح الدكتور مؤنس ان امتداد أهل الحيرة خارج البلدة نفسها هو سبب انقسامهم الى ثلاث طوائف فتنوخ هم جماعات البدو الذين كانوا (ينيخون) حول البلد وعلى مقربة منها على اختلاف أصولهم فى حين أن العباد هم نصارى الحيرة والأحلاف هم الذين نزلوا الحيرة أو ما حولها ومعظمهم من الفرس والنبط (٩٦) ٠

***

ومهما يكن من أمر سقوط دول الانباط والتدمريين والغساسنة ، فان اضطلاع العرب بدور فى حماية حدود الروم قد مكن لهم فى بلاد الشام ، ثم جاء اهتمام البيزنطيين اخيرا بالحروب الفارسية مؤديا لفتح الجبهة الجنوبية من امبراطوريتهم على حدود الشام المواجهة لبلاد العرب أمام هجرات القبائل العربية ، وبذلك لم ينقطع السبيل أمام قوى عربية اخرى تأخذ فى البروز حين مال الغساسنة الى الأفول ٠ ويدل امتداد غارات الغساسنة فى اراضى الحجاز على احساسهم باتجاه بعض القبائل نحو الهجرة الى الشام ، غير انهم لم يستطيعوا فى العقد الاول من القرن ٧ م سوى الانتصار على أسد والاكتفاء بتهديد فزارة ، فى حين فشلوا فى غزو بنى عذرة بوادى القرى شمالى مكة ٠ وذلك ان طاقة الغساسنة قد استنفدها نضالهم ضد الدولة البيزنطية بعد ان قلبت لهم ظهر المجن ، ولم تكن قد مكنتهم فى يوم من الايام من السيطرة على المراكز الحربية البيزنطية مثل دمشق وبصرى وتدمر التى أعاد تحصينها

---

(٩٥) دكتور فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ترجمة مبروك نافع ص ٩٦ : ١٠١ دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٢٢١ : ٢٤١ ، الدكتور حسن ابراهيم تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٥١ : ٤ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ١ ص ٩٠ ــ ١ ، مبروك نافع : عصر ما قبل الاسلام ص ١٢٧ : ١٣٤ ٠

(٩٦) دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٤ ص ١٤ ، دكتور مؤنس : التعليق على كتاب جرجى زيدان : العرب قبل الاسلام ص ٢٢٤

جستنيان • حقيقة هاجم الغساسنة حامية بصرى واستولوا على ذخائر منها لكن كفة البيزنطيين كانت هى الراجحة آخر الامر ، فتفرق الغساسنة وذهبت ريحهم •

وشقت قبائل عربية طريقها الى الامام ، منها **بنو كلب** التى كان افرادها قد نزلوا بدومة الجندول وتبوك وأطراف الشام ووادى القرى وسيطروا على الواحات والينابيع شرقى حوران وجنوبيها سيما فى دومة الجندل ، كما اقام بعض افرادها حول سليمة وتدمر على الطريق التجارى الهام • **وقد ورثت كلب مجد الغساسنة** ، كما استقرت قبائل أخرى بالشام فى نهاية القرن ٦ وأوائل القرن ٧م فى نواح متفرقة وكان بعضها ممن حارب الغساسنة ، فاستوطن **بنو جمح** من قريش أذرعات ، وأقامت بطون من لخم بين الرملة ومصر ونزل بعضها فى حوران وسكنت ما بين مدين وتبوك **على حين نزل فخذ منها فيما يلى طبرية من ارض الاردن** • وكانت هذه القبائل العربية خير وسيط فى التجارة الشرقية التى تنقلها القوافل بين بلاد العرب والشام (٩٧) •

امية فى الشام :

كان دور القبائل العربية بالشام فى **الصراع الحربى** بين الفرس والروم ثانويا بالنسبة لدورها فى **حركة التجارة** بين الشرق والغرب ، اذ نزلت هذه القبائل فى بقاع تنتهى عندها طرق القوافل الآتية من بلاد اليمن وتسيطر على المحطات التجارية التى تنقل منها المتاجر الشرقية الى البحر المتوسط • وقد حمل المتاجر الشرقية الى عرب الشام **تجار اليمن** أولا ، اذ وصلت سفنهم بحرا الى أيلة وقوافلهم برا الى ديدان وتيماء ، وهنا كان يأتى دور **الانباط** بالشام فينقلون المتاجر الى بصرى وتدمر ودمشق • ثم امتدت اطماع الرومان الى نزع السيادة التجارية من ممالك الجنوب فى بلاد العرب فاتجهت حملة عسكرية بقيادة آيليوس جالوس سنة ٢٥ ق•م• لاخضاع عرب اليمن ، بينما نشطت السفن الرومانية لمزاحمتهم فى البحر الاحمر فاضطر اليمنيون الى الاقتصار على الطريق البرى المار بالحجاز • **واعان البيزنطيون الحبشة فى عهد جستنيان على السيطرة على تجارة البحر الاحمر فزال مجد اليمن التجارى ولم يستطع الاحباش القبض على زمام التجارة فى البحر الاحمر ومناهضة نشاط السفن الفارسية فى المحيط الهندى** •

(٩٧) دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٣ : ١٦

وهكذا خلا المجال أمام **عرب الحجاز** ليتولوا نقل التجارة الشرقية الى الشـام ، فارتفعت مكانة **مكة** بحكم موقعها . وتولى معظم أهلهـا نقل المتاجر الى الشام فى حين اشترك البعض مع الأحباش واليمنيين فى نقل المتاجر من الجنوب الى مكة . وكان يفد اليها **وكلاء بيزنطيون** لعقد الصفقات التجارية كما استقر **فيها عملاء الفرس والاحباش وبرزت قبيلة قريش فازدهرت على ايديها العـلاقات التجـارية مع الشـام** بعد ان عاد قصى فى منتصف القرن ٥ م من عند اخوته لامة من بنى عذرة على حدود الشـام، حيث امضى صباه الى مكة التى كانت قد غلبت عليها خزاعة . وقد حقق قصى لقريش الوحدة والسطوة ، لكن تنافس احفاده على اقتسام النفوذ ، فلما آلت السـقاية والرفادة الى عبد شمس تنـازل عنها لاخيه هاشم . ذلك ان عبد شمس كان كما يروى بن هشـام « رجلا سـفارا قلما يقيم بمكة ، وكان مقـلا ذا ولد وكان هاشم موسرا » . وينسب الى **هاشم** انه أول من سن لقريش رحلة الشتاء لليمن ورحلة الصيف للشام . وعقد معاهدة مع البيزنطيين والغسـاسنة كفلت لقريش حق التجوال بالشام. ثم تطلع بنو عبد شمس لاستعادة النفوذ الذى تنازل عنه ابوهم ، فجرت منافرة بين **امية بن عبد شمس** وعمه هاشم انتهت لغير صالحه فرحل الى الشام حيث اقام عشر سنين وهناك جذبت مكاسب الاقليم **امية وبنيه** ، ومات هاشـم فى أحدى رحلاته للشام حوالى سنة ٥١٠ م حيث دفن بغزة . ولما اعيد تنظيم الاشراف على مكة بعد كشـف عبد المطلب بئر زمزم فى القرن ٦ م اختص بنو هاشم بالاشراف على البئر وسقاية الحاج ونال بنو أمية اللواء واشرفوا بذلك على شئون الركب فى الاسفار للحرب أو التجارة وتوارثوا ذلك فارتفعت مـكانتهم المـادية والادبية بالحجاز والشـام ، ويروى البلاذرى أن ابا سفيان اشترى ضيعة فى البلقاء .

اتبع بنو امية فى تجـارتهم الطريق التجـارى القـديم الى الاراضى البيزنطية بعد اجتياز أيلة (العقبة) التى ضمها الرومان اليهم سـنة ١٠٥ م ، ومنها يبدأ طريق تراجان الى غزة فى حين يتجه فرع آخر الى بصرى المركز التجارى وعاصمة الولاية العربية . ووجدت القوافل معونة من السلطات البيزنطية عند دخولها (أيلة) التى احتلها الفيلق العاشر كما احتل جزيرة (جوتابا) لاحكام مراقبة التجارة البحرية ولقى التجار الأمويون الترحيب من الغساسنة . واشـتهر بقيادة قوافل قريش ابن جعدان وابو أحيحة وابو سفيان وغالبيتهم أمويون . وتجمعت لدى الأمويين خبرات شتى بشئون التجارة وببلاد الحجاز والشام وشىء من أحوال

الدولة البيزنطية فى الوقت نفسه . **ولقد اتجهت السلطات البيزنطية الى الاستعانة بالقبائل العربية الضاربة فى شمال الحجاز ضد الفساسنة، واتصلت بقريش** متذرعة بحماية نصارى الحجاز . ففاوض عثمان بن عفان التاجر الاموى الكبير عمال الحدود البيزنطيين فى بصرى وألمع الى الدور الذى يمكن ان يلعبه فى تعضيد البيزنطيين ضد الفرس وطلب الكف عن التدخل فى شئون الحجاز ، وقد منحه البيزنطيون لقب فيلارخوس رغم انه ابى تأليب عرب الحجاز ضد الفساسنة .

ثم غزا الفرس بلاد الشام (٦١٣ - ٤ م) فقضى على النفوذ البيزنطى هناك ، ولم يكد هرقل ينعم باستردادها حتى حمل العرب لواء الاسلام الى الشام . **واصبحت طرق التجارة فى بلاد العرب والشام تحت حكم واحد ، واتيح لبنى امية ان يفيدوا دولة الاسلام من خبراتهم فى الفتح ثم الحكم فى ديار الشام** (٩٨) .



(٩٨) دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ١٧ : ٣٥ ، وقد استند فى مسالة الاتصالات بالى جاز لحماية النصارى ومنح عثمان لقب فيلارخوس الى كمرر Kammerer ولم ياتنا هذا بمراجعه ، دكتور مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١

رابعا ــ نظام البنود البيزنطى (الثيما Thema)

من أهم السوابق التاريخية فى حماية الحدود ما جرت عليه الدولة البيزنطية من اقامة ولايات عسكرية أطلق عليها اسم (ثيما Thema) وقد خبر العرب شيئا من سياسة البيزنطيين الدفاعية فى امارة الغساسنة الحاجزة ، وستزداد خبرة العرب بنظام الدفاع البيزنطى عند هجومهم على الشام وفى حملاتهم على آسيا الصغرى والقسطنطينية بعد ذلك ، ومن هنا كان من الواجب أن تتقدم دراسة نظام (البنود) البيزنطى بين يدى دراسة نظام (الثغور والعواصم) الاسلامية ٠

السلطتان المدنية والعسكرية فى ادارة الولايات :

تمتعت الدولة البيزنطية بموقع جغرافى ممتـــاز ، أتاح لها تلقى ما تدفعه لها شرايين التجارة بين أوربا وآسيا وافريقية كما أغرى بهـــا المهاجمين من كل جانب : فانقض على حدودهاه الفرس والعرب والاتراك ، كما أغار عليها الصقالبة (السلاف) والبلغار والروس والقوط واللمبارد والنورمان والصليبيون ٠ واعتقد البيزنطيون أول الأمر أن فى وسعهم ايقاف هـــذه الموجات الداهمة المتلاحقة **بتشييد التحصينات على الحـدود والممرات الجبلية التى تشبه سور الصين العظيم ، ثم بتحصين كل مدينة هامة على حدة ٠ وقد قدم هذا النظام خدمات كثـــيرة لكنـــه كان باهظ النفقات عاجزا عن أن يقوم وحده بالغاية ، لذلك عملت الدولة على أن تجمع بينه وبين الاهتمام باقامة جيش قوى فى الوقت نفسه ٠ (٩٩)**

ورفعت فيالق الجيش قائدها **دقلديانوس** Diocletian الى عرش الامبراطورية (٢٨٤ : ٣٠٥ م) فطفق يبذل جهـــوده فى شـــئون الادارة

---

(٩٩) Byzantium. P. 72

والحكم ، **وقسم الولايات تقسيما جديدا اذ أدرك أهمية فصل السلطة** المدنية عن السلطة الحربية • وقد مهد دقلديانوس بما أحدثه في الحكم والادارة للعصر البيزنطي ، فقرر أن تكون مقاليد الحكم بيد أمبراطورين اثنين يعاونهما قيصران ويحلان محلهما في الحكم بعد عشرين سنة ، كما رأى أن أداة الدفاع من الامبراطورية يجب ألا تبقى جامدة في أمكنة ثابتة بل **ينبغي أن تكون متحركة متنقلة** • وقد اختار أربع مدن رئيسية في الدولة لتكون كل منها مقاما لواحد من الحكام الأربعة ، واختار لنفسه نيقوميديا على الشاطىء الاسيوى للبسفور (١٠٠) • وقد قسمت الامبراطورية الى **أربعة أقسام كبيرة كان منها قسم المشرق** ويشرف على كل قسم أمير لواء امبراطورى • Praefectus Praetorius وقسم كل من هذه الأقسام الأربعة الى أقسام أخرى تسمى Dioceses كان حاكمها يحمل لقب نائب أمير لواء Vicarius • وتنقسم المنطقة الواقعة تحت حكم هذا الأخير الى ولايات Provinces وقد بقيت أقاليم من آسيا وافريقية في وضع Proconsuls فتمتعت بامتياز الاتصال المباشر بالامبراطور ، كما أن الامبراطور كان يستطيع أن يتصل بالنائب الذى يحكم القسم الادارى مباشرة أو عن طريق أمير اللواء الامبراطورى • وأمدت الدولة بجهاز جديد من الموظفين المدنيين **وكان الطابع الرئيسى هو الفصل بين الموظف المدني** Praeses **والقائد العسكرى** aux ، **فلم يبق اتصال بين السلطتين الا في بعض مواضع على الحدود** • وأقيم تنظيم عسكرى ضخم بجانب التنظيم المدني وغدا من المؤمل أن توقف مطامع القادة العسكريين الذين يجنحون للخروج على الدولة • كذلك أوجد دقلديانوس جيشا امبراطوريا متحركا يستطيع أن يسارع الى أى جزء من الامبراطورية في أوقات الحروب أو الفتن وهو عمل أتمه قسطنطين فيما بعد ، كما زيد من عدد الولايات وبهذا أنقص من عدد القوات الخاضعة لامرة أى قائد بمفرده • (١٠١) واذا كانت الادارة المدنية قد فصلت تماما عن السلطة العسكرية ، فان الامبراطور قد جمع في شخصه شقى السلطان فقد ظلت بيزنطة دولة عسكرية ولم يكن أباطرتها العظام الا جنودا عظاما • (١٠٢)

---

(١٠٠) فيشر : تاريخ أوربا (العصور الوسطى ـ القسم الاول) ترجمة الدكتورين زيادة والعرينى ص ٢ ـ ٣

(١٠١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٤ ، ١٤٥ : ٨
Runciman : Byzantine Civilization. PP. 17-18, Byzantium pp. 281-2

(١٠٢) بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٧٦ ، ٨٤

وقد شمل لواء الشرق أقسام Dioceses الشرق ومصر وآسيا وبنطس وتراقيا. وشمل قسم الشرق ولايات provinces فلسطين الاولى وفينيقية وسوريا الأولى وكيليكيا وقبرص وفلسطين الثانية وفلسطين الثالثة وفينيقية اللبنانية والفرات وسوريا الثانية والرها وما بين النهرين وكيليكيا الثانية وأسوريا والولاية العربية ، ولاتزال أسماء هذه الولايات محفوظة فى القاب أخبار الكنيسة الأرثوذكسية حتى الآن . (١٠٣) ومنحت قوة الحدود limitaeni هبات من الأرض يمكن نقلها الى الغير ، وكان الابن ملزما بالوراثة ان يأخذ مكان أبيه . أما الجيش الامبراطورى فقد أصبح يتكون من فرق الردفاء Comitatenses والفرق التى جندت فيما بعد وسميت Pseudo Comitatenses ، وتعاونت الفرق الامبراطورية المتحركة على حماية الدولة بنجدة أية ولاية يهددها الخطر وسمى حرس البلاط بالحماة Protectores أو جنود القصر Domestici . وكان يقود قوة الحدود قائد dux أما الجيش الامبراطورى فكان تحت امرة رؤساء للمشاه والفرسان يسمون .Magistri (١٠٤) .

وقد جاء عهد جستنيان (٥٢٧ : ٥٦٥ م) فبدت بوادر العودة الى ادماج السلطتين العسكرية والمدنية فى بعض الاحوال . وشهدت الأقاليم الغربية التى استعادها جستنيان هذه التجربة ، فجمع (الاكزارك)Exarchus بين واجبات القائد العسكرى magister militum وواجبات الحاكم المدنى Praestorian Prefect وجرى جستنيان على هذا التنظيم فى بعض الولايات الشرقية . (١٠٥) ذلك أن الامبراطورية كانت تتطلب تنظيما جديدا بعدما واجهها من المتاعب فى أواخر القرن ٦ م وخلال القرن ٧ م . وقد عمل جستنيان على تجربة جعل حكام الاقاليم عسكريين عندما أعاد فتح افريقية اذ عين قائدا تحت يديه السلطتين العسكرية والمدنية ، كما وضع ايطاليا تحت حكم Viceroy يسمى اكزارك وما لبث هذا أن صار موظفا عسكريا ذا سلطات مدنية . (١٠٦) ومنح جستنيان القائد العام للجيوش البيزنطية فى ولاية ارمينية Magister Militum Per Armenian سلطات مدنية الى جانب مهامه الحربية بعد أن اشتد الخطر الفارسى على تلك البلاد .

---

(١٠٣) دكتور رستم - الروم جـ ١ ص ٦٧ .

(١٠٤) بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٦٨ ، ١٧٠ .
Runciman : Byz. Civ. P. 110, Byzantium P. 295

(١٠٥) Byzantium P. 285

(١٠٦) Runciman : Byz. Civ. P. 71

وبهذه السلطات صار لحاكم أرمينية الحربى الحق فى تصريف الشئون المدنية للاقليم ثم ساعدت الحوادث على تثبيت نظام جستنيان ، ذلك أن ضعف الدولة البيزنطية المالى ثم ظهور خطر الآفار على الدانوب أواخر القرن٦ م ، قد جعلا من العسير على خلفاء جستنيان تكوين فرق مرتزقة للجيش مثلما كان الحال أيام جستنيان ، فاتجهوا الى أبناء الامبراطورية ، وغدا التجنيد منذ عهد الامبراطور موريس (٥٨٢ : ٦٠٢م) أكثر دقة فى الاقاليم التى أعيد فتحها ، وقد سار نظام التجنيد فى أرمينية بطريقة محكمة . كذلك جعل موريس (الاكزارك) فى ايطاليا وافريقية أعلى مكانة من الحاكم المدنى ، **وهكذا أخذ الجيش وقواده ، يحتل وضعا خاصا فى الاصلاح الادارى للدولة البيزنطية . (١٠٧)**

وانقسم جيش جستنيان فرقا لكل فرقة قائد مسئول عن منطقة شاسعة تضم بضع ولايات **فكان قائد فرقة الشرق مكلفا بالدفاع عن حدود الدولة من البحر الاسود الى أقصى حدود مصر** ، وقسم جستنيان القيادات الكبيرة الى قيادات أصغر منها **فأصبحت الدولة مقسمة عسكريا الى مناطق حربية كبيرةلكل منها قائد عام**magister militum . **ولم يغفل جستنيان تحصينات الحدود** بعد أن لمس عجز البرابرة فى فنون الحصار فبنىسلسلة من القلاع والحصون والخطوط الدفاعية على طول أطراف ممتلكات الامبراطورية فى آسيا وأوربا ، وعمل على تدعيم الحصون الواقعة على حدود الجزيرة بينه وبين الفرس وكان تحصينه لحصن دارا المجاور لنصيبين الفارسية هو ما تذرع به قباذ لاشعال الحرب ضده . وكانت الولايات الالليرية وحدها تحميها ٢٩٤ قلعة ذكرها بروكوبيوس Procopius وتنتظمها أربعة صفوف متوالية من الدانوب حتى تلال تساليا ، وبعضها كان أبراجا منفردة لكن معظمها كان قلاعا متينة ذات استحكامات خارجية وكانت الحاميات مكلفة بحمايتها كلها . (١٠٨) **كذلك أعاد جستنيان بناء** كثير من القلاع وشيد جدرانا طويلة يمكن تتبع آثارها فى القرم لمواجهة **خطر الهون** الذى هدد الممتلكات البيزنطية وولاية القوط هناك وكانت

---

(١٠٧) Bury : Hist. of Later Roman Empire II P. 346.
دكتور العدوى : دراسات فى التاريخ البيزنطى ـ المجلة التاريخية المصرية م ٢ ع ٢ اكتوبر ١٩٤٩
بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٧١ .

(١٠٨) فيشر : تاريخ أوربا (العصور الوسطى ـ القسم الأول) ترجمة دكتور زيادة والعرينى ص ٥٢ ، أومان : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة الدكتور مصطفى بدر ص ٥٨ ـ ٩ ، ٨٧

تحت حماية البيزنطيين (١٠٩) • **وخصص جستنيان فرقا خاصة للحدود** limitani **كان قد بدأ بتكوينها انستاسيوس (٤٩١ : ٥١٢ م)** ، **وتقيم فى حصون على الاطراف • ويصل بين الحصن والحصن أحيانا سور ، وتكون هذه الحصون سلاسل تحيط بالدولة كالآحزمة** ، وقد تتعدد الاحزمة كما فى **مصر وافريقية ويسمى هذا الحزام الدفاعى** limes ، **ويؤدى ٣ وظائف : تثبيت حدود الامبراطورية ، وصد المغيرين حتى تصل الامدادات وايجاد ملجأ للأهالى اذا دهمهم العدو • وقد تحرى جستنيان أن تكون كبـار الحصون على رؤوس الطرق والثغور المؤدية الى داخل الدولة فكان لذلك أثره فى تيسير العمليـات العسـكرية من دفاعية وهجومية** ، بحيث قـرر بروكوبيوس أن جستنيان أنقذ بعمله الامبراطورية ، وامتدت هذه الأحزمة العظيمة من أوربا الى آسيا ومن الدانوب الى أقصى حدود مصر وصحارى افريقية • كذلك كان جستنيان يقدم للقبائل المقيمة على الحدود اتاوات مقررة ليأمن شرهم ويخلع عليهم خلعا وألقابا وزوجات ويربى أبناءهم ، كما كان يحرص على الايقاع بين الزعماء المتجاورين • واستعان الامبراطور ببعوثه التبشيرية اذ كان انتشار المسيحية امتدادا لسـلطان بيزنطة فى سوريا والحبشة والقوقاز وبين الحميرين فى اليمن والبربر فى شـمالى افريقية • (١١٠)

نظام الدفاع الرومانى فى سوريا والفرات :

نالت منطقة سوريا والفرات اهتماما بالغا لدى الرومان منذ فتحهم لها بحكم موقعها الجغرافى ومتاخمتها لاعـداء الدولة فى الشرق • وقد وضع أغسطس (٢٧ ق٠م : ١٤ م) بعض قواته فى سوريا • ولكن تبين مجموع حاميات الامبراطورية التى سميت بأسماء الاقاليم المختلفة وما وضع منها فى سوريا فى عهد تيبريوس (١٤ : ٣٧م) ، وقد نقل بعض هذه القوات فيما بعد لحرب البارثيين • وبعد فترة من الزمن انشئت ولاية فى كبادوكيا تحت اشراف Procurator وله أن يستعين عند الحاجة بمدد عسكرى من سوريا • **وكانت القواعد العسكرية الرئيسية بشمالى سوريا** فى مراكز مثـل : أنطاكية واللاذقيـة وكيرهوس (قورس) Cyrrhus والاسكندرونة Alexandrette • (١١١) وقد سبقت الاشـارة الى سياسة الرومان ازاء العرب على حدودها فى سوريا •

---

(١٠٩) Vasiliev : Hist, de l'Emp. Byz. Vol. P. 185

(١١٠) دكتور مؤنس ـ مذكرات

(١١١) Chapot : La Frontière de L, Euphrate de Pompée à la Conquête Arabe pp. 71 : 7

ويبدو أنه كان من الضرورى فى بعض الأوقات ترتيب نظام للمراقبة النهرية فى الفرات مثلماكان يحدث فى الاقاليم الغربية للدولة ، وان كانت السفن القائمة بالمراقبة غير حربية • ولم يكن لدى البارثيين والفرس من بعدهم ملاحة عسكرية نهرية وانما كانت تصل السفن الحربية اللازمة الى كلا الفريقين عند الحاجة للهجوم • (١١٢)

وبالنسبة لحماية حدود الدولة فى هذه المنطقة فالمعروف أن الدولة الرومانية اعتادت **أن تقيم تحصيناتها الأساسية على الحدود** فى صورة نوع من الحوائط تستخدم كمتاريس uallum الى جانب نوع آخر من الخنادق agger • **وقد كانت الحدود الشمالية للمنطقة على أطراف ارمينية محصنة بحكم ظروفها الطبيعية ، لا تحتاج لغير بناء قلاع عند الخوانق التى تجتازها الوديان خلال تلك البيئة الجبلية الوعرة ، ومن ثم لم تكن حاجة الى اقامة استحكامات صناعية الا عند مجرى الفرات الاوسط والأدنى وما يليه من صحارى حتى البحر الأحمر** • وقد ناقش شابوز Chapot تفصيلا مختلف الاحتمالات والآراء حول نوع الحدود الرومانية فى تلك المنطقة ومدى متابعتها للنسق الرومانى المألوف ، وخرج بنتيجة فحواها أنه لا توجد أدلة على حماية الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية بخط **متصل من الاستحكامات المتتابعة**une barriere continueيقوم مقام التخوم الطبيعية ويشمل العنصرين المألوفين فى الاستحكامات الرومانية : الحائط والخندق • وان التطورات الحربية المختلفة التى شهدتها هذه المنطقة وما ترتب عليها من اكتساب بعض الأراضى وفقدانها فى الجولات المتعاقبة لا تجعل من اليسير افتراض تطبيق النظام الرومانى القائم فى جهات أخرى بطريق القياس • فاذا تجاوزنا هذا المعنى الضيق للاستحكامات ، نجد الرومان قد شيدوا فى النوحى المختلفة لسوريا وما حولها منشآت **عسكرية وتحصينات متعددة على مسافات متباينة** وفقا لطبيعة الاقليم وحاجة الوقت • (١١٣) وقد سبق أن أشرنا الى الحصون الرومانية فى الجنوب الشرقى من دمشق عند مدخل بادية الشام وحول الاقليم البركانى الذى يطلق عليه الصفا وهى حصون : جبل سيس وقصر الابيض والنمارة ودير الكهف وقلعة الأزرق •

وقنع الرومان بذلك فى الشرق ولم يشيدوا تحصينات متصلة مثلما فعلوا بين الرين والدانوب أو فى افريقية الشمالية ، وذلك أن جبال

---

(١١٢) Ibid : PP. 146 : 8

(١١٣) Ibid : PP. 245 : 251

آسيا الصغرى الشرقية وبادية الشام شكلت حاجزا طبيعيا ملائما يمكن الانتفاع منه فى الحرب والدفاع واكتفى الرومان فى هذه المناطق بانشاء قلاع موزعة فى مواقع معينه تحمى الطرق الرئيسية والجسور والممرات الطبيعية وما الى ذلك وبذا أصبح حدهم الشرقى منطقة مراقبة وتبدأ هذه المنطقة ذات الحصون عند طرابزون ثم تتجه جنوبا حتى مجرى الفرات الأعلى فمصب الخابور فحدود البادية حتى العقبة • وكان خط الدفاع الممتد نحو ٨٠٠ كم بين قرقيسيا Circessium عند مصب الخابور وبين العقبة يتألف من طريق معبدة موازية للحدود محمية من الجانبين بأبراج كثيرة سيما عند مفارق الطرق • وكانت تدمر ودمشق والبتراء تدخل بقلاعهاوحصونها والطرق الموصلة اليها فى هذا الخط الدفاعى • وقد دلت التنقيبات فى شرقى الاردن ان الطريق العسكرى الرومانى كان على جانبيه نأبراج محصنة يبعد الواحد عن الآخر ٣٠ كم ووجدت قلاع لحماية موارد المياه شرقى هذا الطريق فى القسطل واللجون وغيرها • وكان الحد الشرقى لآسيا الصغرى يتبع الفرات الأعلى (فرع قرة صو) وأهم القواعد فيه ملطية فى الجنوب وستلا Satela (سدغ) فىالشمال ،وكانت ملطية على بعد واحد من أنطاكية وطرابزون ويمكن الوصول اليها من سميساط Samosata • ووراء الفرات تمتد أرمينية الرومانية وكانت تكون دفاعا جبليا ضد فارس • وفى الصحراء الممتدة شرقى سوريا وجنوبى بين النهرين عاشت القبائل العربية التى أقضت مضاجع الرومان بغاراتها ، وقد استفاد فسباسيان (٦٩ : ٧٩ م) من خدماتهم ضد اليهود • وفى القرن ٣ بدأت جموع منهم تهاجر الى الأقاليم الرومانية وقد استفادوا بوجه عام من صراع الفرس والروم • واهتم جستنيان بحصون أرضروم وكيثاريزون Citharizon ومارتيروبوليس Martyropolis وآمد Amida ودارا Dara ، وتقع الأخيرة بين نصيبين وماردين وهى تدعى (حصن الامبراطورية الرومانية) • كما اهتم جستنيان باقامة خط من الحصون وراء هذه الحصون الأمامية مثل نيكوبوليس Nicopolis وسبسطية وملطية والرها وحران وهيرابوليس Hierapolis وزجما Zeugma وأنطاكية (١١٤) ، واذا كان جستنيان قد نظم رباطات افريقية limes فانه لا يغيب عن البال وضع البيزنطيين القلق هناك فى حين أنهم لم يكونوا يكابدون داخل ولاياتهم بالمشرق مثل هذا العناء (١١٥) •

---

(١١٤) دكتور رستم . الروم جـ ١ ص ١٩١ : ٣
Bury : Hist of Later Rom. Emp. I. PP. 945

(١١٥) Chapot : La Frontière de l'Euphrate PP. 285 : 9

وعندما بدت معالم سياسة فصـــل السلطة المدنية عن الســـلطة العسكرية فى عهد دقلد يانوس ، غدا كل ما يتعلق بحمـــاية الحدود من **اختصاص القائد العسكرى** dux **ويشرف على الجهات القريبة من الحدود أيضا** وعلى القوات المخصصة لحمايتها وأحيانا كان يسمى dux limitis دون أن يوجد ما يميزه عن سائر القادة . وقد حدد نطاق اختصاص كل قائد ، وكان هناك قائد فى الشمال لأرمينية الأولى والثانية وبنطس وهى منطقة لا تكاد تبدو مكشوفة كثيرا . **وعلى طول فلســـطين الثالثة وهى الوحيدة من أقسام فلسطين التى تلامس الحدود وجد قائد بمفرده . وفى الولاية العربية** Arabia **كان الموظف نفسه يعمل تارة قائدا عسكريا** dux **وتارة موظفا مدنيا** Praeses **ومع هذا فقد وجدت الوظيفتـــان جنبا الى جنب** double officium . ونحن نجـــد ٤ قـــادة : فى فينيقيا Phoenicia، وسوريا بما فيها الجزء الذى يخترقه نهر **الفرات** من أرضها Syria, Eufratensis Syriae وأسرهون Osrhoene، والجـــزيرة Mesoptamia **فهذه أربعـة أقســام عسكرية موزعة على شــكل مروحة حول منطقة الخطر بين دجلة والفرا تالتى طالما تعرضت لهجوم الفرس .**

وتعرض هذا النظام لتعديلات تالية ، ففصلت السلطة العسكرية عن السلطة المدنية فى **الولاية العربية** ،وأنشأ ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ : ٤٠٥ م) سنة ٤١٣ م قســـما اداريا فى **بنطس** تحـــت اشراف قومس comes Ponticae نتيجة لتقسيم أرمينية بين الروم والفرس . وقد نظم جستنيان أربع ولايات فى **أرمينية كانت منهـــا أرمينية الثالثة وعاصمتها** (ملطية Melitene) تحت اشراف قومس ذى طابع عسكرى ، كما خلق منصبين جديدين dux فى Citharizon, Artaleson، وهكذا **اعتبر الفرات خط دفاع متأخر ينبغى أن تتقدم عليه خطوط أمامية** limes **فى قلب** أرمينية ، وقد كان هناك قائد عسكرى عام لأرمينية (١١٦) .

وقد تعاقب الرومان والبيزنطيون على **تحصين المدن** الهامة فى سوريا فقد بنى **لدمشق** سورا أحاط بالمدينة الآرامية والأحياء الاغريقية على شكل مستطيل فى أواخر القرن ٢م وأوائل القرن ٣م ، وجعل للسور ٧ أبواب: ٣ فى الشمال ، ٢ فى الجنوب ، والبابان الباقيان فى الشرق والغرب ، كما بنيت قلعة على نموذج الحصن الرومانى المعروف باسم (كاستروم) Castrum مكان القلعة الحالية . وبنى دقلديانوس معسكرا كبيرا فى تدمر وأحاطها بسور ، كما كان هناك سور لها من عهد جستنيان الذى قام أيضا بترميمات

---

(١١٦) Chapot : La frontière PP. 163 : 6

وتجديدات فى قلعة حلب ومنشآتها العسكرية لسد طريق الأناضول وأنطاكية فى وجه جموع الفرس الذين نهبوا أنطاكية وأحرقوها سنة ٥٤٠م · (١١٧)

عوامل قيام البنود :

لم يستطع جستنيان أن يوفر لحصونه الحاميات اللازمة بل اضطر الى الاقتصاد فى الجند والحراس ، **وتطلبت الحروب والمنشآت ومحاولات اصطناع زعماء البرابرة نفقات طائلة** فلجأ الى انقاص الجيش وخلت الحصون من الرجال حتى قال أجاثيوس : انها لم يعد يسمع فيها نباح كلب واحد ! (١١٨) ولم تنقطع الأخطار المحدقة بالدولة فقد كانت تتعرض للفتن فى الداخل كما كانت تتعرض لقتال الفرس وهجوم البرابرة من الخارج ، وفى هذه الظروف كلها كان لابد من احكام نظم الدفاع ،والافادة من السوابق الناجحة مع ادخال التعديلات والتحسينات اللازمة ·

وقد أثارت حوادث **التمرد** والخروج على الدولة فى الداخل تغييرات عميقة فى نظام الادارة ، اذ اضطرت الحكومة المركزية الى أن تخلق نظاما دفاعيا يكون أبلغ أثرا فى قمع المتمردين · ومن أجل هذا الغرض أقامت الدولة فى **أقاليم مثل ايطاليا التى كان يهددها اللمبارد وأفريقية التى كان يهددها البربر وحدات اقليمية وسعة ذت سلطات عسكرية قوية**
larges unités territoriales avec des pouvoirs militaires forts
على حد تعبير فازيلييف · (١١٩) وستعرض للسابقة الافريقية بوجه خاص فيما بعد ·

وجاءت **الحروب الفارسية ـ ومن بعدها الحملات العربية** ـ فكانت عاملا آخر واجهته الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى · فاذا كان حد الامبراطورية الآسيوى الممتد من أرمينية الى الولاية العربية Arabia قد تمتع بهدوء نسبى وأخذت مملكة البارثيين تهوى فى انحلال تدريجى ، فانه فى أوائل القرن ٣ م قامت دولة جديدة فى بلاد فارس هى دولة الساسانيين الذين جابهوا الرومان بالاعتداء طوال أربعة قرون متالية وهزموا أربعة أباطرة فى القرن ٣ م واقتنصوا الامبراطور فالريان أسيرا وبدت قوتهم فى تزايد مستمر (١٢٠) ·

(١١٧) دكتور سليمان عادل عبد الحق وعبد العزيز عثمان : نزهات أثرية فى سوريا ص ٧ ، ٢٣ ، ٦٧ ـ ٨٤ ـ ٥

(١١٨) دكتور رستم : الروم جـ ١ ص ١٩٣

(١١٩) Vasilier : Hist, de l'Emp. Byz. Vol. P. 299

(١٢٠) Runciman : Byz. City, P. 13

وجاء **العرب** من بعدهم ففاجئوا الدولة من حيث لا تحتسب ٠

وقد دفعت هذه الأخطار الداهمة الدولة البيزنطية الى اتخاذ وسائل حاسمة لحماية حدودها الشرقية ، واعادة تنظيم قواتهــــا العسكرية ، **واقامة أقسام ادارية جديدة مع اعطاء الصدارة للســـــلطة العســـــكرية** التي غدت خدماتها أكثر أهمية للامبراطورية ٠ وقد زاد من الخطر العربى فيما بعد ظهور الاسطول العربى وتفوقه فى البحر المتوسط وتهديده آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل وايطاليا وصقلية ٠

وفى الشمال الغربى من الامبراطورية احتل **الصقالبة (السلاف)** جزءا له قيمته من شبه جزيرة البلقان كما توغلوا فى بلاد اليونان وشبه جزيرة البلبونيز Pleponese وفى الوقت نفسه شهدت الحدود الشمالية قيام مملكة **البلغار** فى النصف الثـــــانى من القرن ٧م ٠ وهكذا واجهت الامبراطورية ظروفا جديدة تماما اضطرتها الى أن تعاود انشـــاء أقسام متسعة تحت قيادة سلطة عسكرية قوية فى المناطق المعروضـــة للتهديد بدرجة أكبر ٠ وأعان هذا على تحــول الدولة تدريجيـــا الى الطـــابع العسكرى ٠ (١٢١)

التنظيم الفارسى :

وبالنسبة لقيام البنود البيزنطية فى الشرق أثير التساؤل عن مدى توافق الوسائل البيزنطية الدفاعية مع التنظيم العسكرى الساسانى تحت حكم قباذ وكسرى أنو شروان فى القرن ٦ م ، حين تمخض الاصلاح العسكرى والادارى عن تقسيم ايران الى ٤ قيادات عسكرية ٠ ويذكر شتين Stein « لقد بدأ هذا التوافق كاملا عميقا الى درجة لاتبلغها سوى الارادة الواعية٠ وقد لا تخلو المصادر البيزنطية والفاسية من دلالات فى هذا الشأن » ومدار أبحاث شتين هى الشبه الدقيق بين النظم الساسانية ونظم الامبراطورية البيزنطية فالابتكارات الادارية فى احدى الدولتين كانت تطبق فى الأخرى، واعادة تنظيم الامبراطورية البيزنطية فى القرن ٧م مبنى على ما تم فى **الدولة الفارسية فى القرن ٦ م وان كانت لدى الروم أكثر فاعلية** ، والأسس الاقتصادية والاجتماعية للجيش الايرانى الجديد التى أدخلها كسرى أبوشروان تساير ما أدخله هرقل على الجيش البيزنطى الجديد، **فالاصبهبذون الأربعة فى نظام كسرى هم نظائر للقادة الذين شغلوا أرفع مناصب الدولة**

---

(١٢١) Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I P. 299 302

فى بيزنطة ، والمرازبة العظام نواب الاصبهبذين هم نظائر لنواب القادة فى تنظيم هرقل للدولة البيزنطية (١٢٣) ٠

وفى كتاب تنسر الفارسى الذى أرسله الى ملك طبرستان مخبرا أياه بحقيقة قيام الأسرة الساسانية اشارة الى **حكام الثغور الأربعة** ، والكتاب يرجع الى أيام كسرى الأول وقد جاء فيه « ليس لأحد ممن لا ينتمون الى بيتنا أن يحمل لقب ملك ، عدا أصحاب الثغور وهى : **اللان ، وناحية المغرب ، وخوارزم ،وكابل** » ويبدو أن الكتاب يشير الى الاصبهبذين الأربعة٠ وقد راعى أبو شروان فى تعيينهم الطابع العسكرى للولايات ، وقد يكون هناك بعض الخطأ فى تحديد الاقسام بالصورة المذكورة ٠ ويروى الطبرى نبأ توزيع الاصبهبذين الأربعة ، كما يلى : واحد للمشرق وخراسان وما والاها ، والثانى للعراق حتى حدود الدولة البيزنطية ، والثالث لليمن ، والرابع لأذربيجان وما والاها وهى بلاد الخزر (١٢٤) ٠

وقد تعددت مظاهر التأثير الفارسى على النظم البيزنطية الحربية ، ومن ذلك تشكيل قوة الفرسان الجديدة المتحصنة بدروع الزرد على نهج النظام الفارسى (كاتافراكتى cataphracti) فى القرن ٤ م فقد أدرك البيزنطيون حاجتهم الى فرق متنقلة من الفرسان تكون وحدات منفصلة (١٢٥) ٠

السابقة البيزنطية فى أفريقية :

كان من الضرورى للادارة البيزنطية فى أفريقية توفير الأسباب لحماية البلاد بالجند والحصون ودفع الجعالات لرؤساء الأهالى الذين عجزت عن التغلب عليهم ، وكان لابد من حراسة البلاد للاحتفاظ بها والاستمرار فى جباية الضرائب ، وهذه الضرائب بغضت أهل البلاد فى حكامهم فأضحى لزاما على البيزنطيين أن يظلوا على الحذر من أهل البلاد ٠ ولهذا انتهجت الدولة فى تنظيم أفريقية البيزنطية من الناحية العسكرية خطة جديدة تختلف عما اتبعته فى ولاياتها الأخرى : اذ اتجهت الى **احاطة أملاكها برباطات قوية من الحصون المتقاربة التى شحنتها بالحمايات** ، ولم تكتف برباط واحد بل أقامت ثلاثة ٠ وقسمت البلاد الى **أربع مناطق عسكرية لكل منها عاصمتها** التى ترابط فيها فرقة يقودها قائد dux وهى :

(١٢٣) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة الخشاب ص ٥٨٧ ٠
(١٢٤) المرجع السابق : ص ٣٥٥ : ٧
(١٢٥) بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٦٧ ـ ٨

طرابلس وعاصمتها لطة Leptis Magna ، الولاية الداخلية (بيزاسيوم) وعاصمتها ثلبت Thelepte وقفصة ثوميديا وعاصمتها قيصرية Caesarea مرطانية وعاصمتها قسطنطينية • **فأصبحت البلاد شبكة من الحصون والقلاع ، وان كان البيزنطيون قد اعتمدوا فى اقامتها على ماكان قائما من المنشآت الرومانية كالحمامات والملاعب والمعابد فلم تكن منيعة كما يتصور• وكانت المدن تحاط بالاسوار أو الحصون المنفصلة أو تترك مفتوحة وتحميها قلعة • وقد روعى فى اختيار مواقع هذه الحصون أن تكون محارس على أبواب البلاد ومنافذها** : فقامت قابس على باب سهل تونس تصد من يقبل مساحلا من الشرق ، وتليها حصون أخرى على الساحل مثل يونكا Yunca مغمداس Macomadas وقامت سبيطلة Suffetula على أحد المنافذ المطروقة التى يسلكها من يريد الانتقال من سهل تونس الى هضبة الأوراس بها الرباط الثانى الذى يبدأ من سوسة ثم يصل مدرسومة Madarsuma وثلبت ، ويلى ذلك الرباط الثالث الذى تقوم فيه سبيبة Sufes وممس Mamma وجلولاء Couloulis • وقد أوجز جوليان Julien وصف هذا النظام الدفاعى بقوله « أنشأ البيزنطيون **سلسلتين من الحصون : أما الأولى فسلسلة من الاستحكامات تربط المحارس بعضها ببعض ، وخلفها سلسلة من المدائن الحصينة التى استعملت دائما ملاجىء للناس** ••• ان الرباط البيزنطى كان يمثل القوة الرومانية فى حالة اضمحلالها تحت ضغط الهجوم الآتى من الصحراء » •

وفى أواخر القرن ٦ م كان البربر قد استولوا على الرباط الثالث وطمعوا فى الثانى ، وأحالت الاضطرابات والثورات البربرية افريقية البيزنطية الى **منطقة عسكرية يحكمها (أكزرك)** ، ويرى جوليان أن هذا التحول بدأ فى عهد جستنيان ولكنه لم يأخذ شكلا ظاهرا الا فى أيام جناريوس الذى أخمد ثورة البربر سنة ٥٨٧ م وكان أول الحكام العسكريين • وحاول الروم أن يرضوا الأهلين بدفع الجعالات المنتظمة الى رؤسائهم • ولكن استبانت الدولة أن حكم افريقية قد صار أمرا عسيرا ، وانساب بربر أنطالاس الى أراضى الولاية الداخلية حتى استولوا على سوسة وأعملوا النهب الذريع فى طريقهم ، وقتل فى حربهم رؤوس الولاية الافريقية البيزنطية فى ثلاث سنوات متتابعة من ٥٦٩ : ٥٧١م• ومن هنا تبين للأباطرة أن نظام جستنيان لافريقية لم يحقق غايته ، وأنه لابد **من نظام جديد يزيد فيه تغليب السلطة العسكرية على المدنية** وجعل الاولى فوق الثانية ومشرفة عليها بعكس مارسم جستنيان •

وبدأ التغيير منذ أوائل أيام موريس (٥٨٢ : ٦٠٢ م) الذى عدل

تقسيم افريقية البيزنطية ففصل عنها طرابلس وضمها الى مصر ، وجمع مرطانية السطيفية Mauretania Setifiensis الى ما بقى من مرطانية القيصرية M. Caesariensi وكون مهما ولاية مرطانية الاولى ، وأضيفت سبتة Septem الى جزائر البليار وبقية ممتلكات البيزنطيين فى أسبانيا وتألفت منها جميعا ولاية مرطانية الثانية ،وأنشئت ولاية جديدة لسردانية وقرسقة. **وأكتفى فى الدفاع عن البلاد بتحصين عدد قليل من المدن لا تكاد تتعدى خط العواصم الثاني (الرباط)** الذى يمر بمواقع تبسا وتمجاد وباغاية وتيجس وقسطنطينية وسيبه • وقد أقيم على الولاية حاكم عسكرى (اكزرك) له الاشراف التام على كل مرافقها وموظفيها بما فيهم الحاكم المدنى القديم Praefect ، **وأقيم على الأقسام الادارية الجديدة حكام عسكريون يلقبون بالادواق ، وعلى المدن قواد عسكريون على رأس حاميات** • وقد آتى هذا النظام ثماره فى أول الامر ، اذ انتظمت أمور الولاية فى حدودها الجديدة وسادها الهدوء فترة من الزمن ، وكان للمظهر العسكرى الذى ظهرت به أثره فى القبائل البربرية فلم تعد تستخف بالحدود البيزنطية وكفت عن مهاجمتها الى حين • ولكن البلاد أصبحت رهنا بارادة من يولى عليها من الحكام العسكريين • (١٢٦)

ظهور البنود وتطورها :

ورأت الدولة البيزنطية أن تستفيد من تجربتها التى لقيت نجاحا فى **افريقية** ، بعد أن هدد الاخطار الداخلية والخارجية مناطق أخرى بصورة لا تقل عما واجهته هناك • وتغيير النظم لا يتم دفعة واحدة ، فلا تزال العوامل الدافعة الى التغيير تحدث أثرها ، ولا تزال السوابق والتجارب تعمل عملها ، حتى تتمخض المقدمات عن نتائجها فيظهر النظام الجديد الى حيز الوجود • ثم يوضع هذا النظام موضع لتجربة ، فلا يلبث التطبيق أن يكشف من عثراته وثغراته ما يحتاج معه الى المعالجة دواما بالتعديل والتنقيح على هدى الخبرات المتجددة •

لقد ظلت الكلمة اليونانية (ثيما (Thema **) معنى فرقة من الجيش تعسكر فى اقليم ، ولم يمتد معناها للدلالة على الأقاليم نفسها التى تحتلها القوات العسكرية الا فى وقت متأخر • ولم يتم هذا التطور بصورة واضحة تماما الا فى القرن ٨م** • والمصدر البيزنطى الأساسى لدراسة

---

(١٢٦) دكتور مؤنس ـ فتح العرب للمغرب ص ١٨ : ٣٣
Bury : Hist. of Later Rom. Emp. II P. 148 — 9

هذا النظام هو ما كتبه عنه الامبراطور قسطنطين الســـابع (الارجوانى Porphyrogennotus) فى القرن العاشرالميلادى ، وهومرجع متأخرفى الزمن كما أنه يعتمد على معلومات جغرافية سطحية تنتمى الى القرن الخامس أو السادس الميلادى ، وان كان يحتفظ بدلالته الى حد ما على تنظيم البنود البيزنطية فى القرن السابع • كما توجد مادة للموضـــوع عند اثنين من الجغرافيين العرب : احدهما ينتمى الى منتصف القرن التاسع الميلادى وهو ابن خرداذبة والآخر عاش فى بداية القرن العاشر الميلادى وهو قدامة بن جعفر ، وهذان بدورهما لم يعاصرا هرقل حين استهل هذا النظام • ومن أجل دراسة منشأ البنود البيزنطية يستفيد المؤرخون من الملاحظـات العارضة الواردة فى ثنايا الحوليات chroniques وخاصة رسالة جستنيان الثانى باللاتينية الى البابا سنة ٦٨٧م تأييدا للمجمع السادس المسكونى ، اذ شملت هذه الرسالة قائمة بالاقاليم العسكرية وقتذاك لم تذكر باعتبارها بنودا thema لكن أشير اليها بالكلمة اللاتينية Exercitus (جيش) ، وكانت هذه الكلمة تستعمل أحيانا فى بعض المصادر التاريخية للدلالة على الاقليم الذى يسند الى اداوة عسكرية • وتتمثل السوابق الحقيقية للثيما البيزنطية فى ولايتى راقنا Ravena (بايطاليا) وقرطاجة Chartage (افريقية) حيث خضعت كل منهما لحاكم عسكرى فى نهاية القرن السادس الميلادى هو (الاكزرك) • (١٢٧)

والبنود البيزنطية لم يخلقها مرسوم تشريعى محددة موزعة مسماة فى يوم وليلة،فلكل بند تاريخه الذىقد يطول ••• وتقدم كتابات كولكوفسكى Koulkovski فى هـــذا الصـــدد فوائد جليلة فهى تقرر مثـــلا أن **الوسائل العسكرية التى عمد اليها هرقل بعد انتصاره على الفرس تكون نقطة البداية للنظام الادارى الجديد** • ويجد هذا الرأى ما يدعمه فى كتابات بريه L. Brehier ، فان هرقل حين أعاد تنظيم أرمينية لم يذكر الادارة المدنية ، ومن هنا فان نظام الثيما ليس الا تطبيقا لما أقامه هرقل فى أرمينية انتشر الى أقاليم أخرى • ونستطيع أن نتبين فى مثال تنظيم أرمينية حدثا فى مجرى تحول الامبراطورية البيزنطية نحو تغليب الطابع العســـكرى تدريجيا بالمشرق تحت ضغط الخطر الفـــارسى فى عهد هرقل • ويلاحظ أوسبنسكى F.I. Ouspenski أن الصـــقالبة (السلاف) الذين كانوا يندفعون خلال شبه جزيرة البلقان حوالى ذلك الوقت كانوا هم العـــامل المؤدى الى قيام الثيما فى آسيا الصـــغرى ، اذ قدموا عددا مذكورا من

---

(١٢٧) Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I PP. 298 - 9.

المتطوعين لتأسيس مستعمرة في بثنينا Bithynia ، لكن لايعرف شيء في الواقع عن هجرة جماعية للسلاف في آسيا الصغرى سابقه على واقعه توطين أكثر من ٨٠٠٠ منهم في بند **الأوبسكيون** Opsikion أيام جشتنيان الثاني في نهاية القرن السابع الميلادى ٠ (١٢٨)

لقد كشفت **الحروب الفارسية فالعربية** خلال القرن السابع الميلادى أنه ما من اقليم من أقاليم الدولة يمكن أن يكون في مأمن من الخطر ، حتى آسيا الصغرى قلب الامبراطورية لابد أن توضع في حاله دفاع دائم ٠ وكان الامبراطور موريس (٥٨٢ : ٦٠٢م) قد اتجه الى تكوين قوات اقليمية اذ رغب ان يتعلم كل المواليد الأحرار رمى السهام وان يمتلك كل منهم القوس والنشاب حتى يستطيعوا الدفاع عن أقاليمهم وقت الغزو ، ولا نستطيع أن نتبين مدى تنفيذ ذلك ولكن من المؤكد أن المدنيين عند قلاع الحدود كانوا يدعون للمشاركة في أعباء الدفاع ٠ وقد كان **الجيش الذى أعاد تنظيمه تيبريوس وموريس** هو الذى قاده هرقل الى النصر في الحروب الفارسية الطويلة ، وهو الجيش المرهق الذى تعرض من بعد لهجمات العرب **وقد أمد هذا الجيش هرقل بأساس نظامه العسكرى الجديد الذى أدى فيما بعد الى أحداث تغيير في نظام حكم الأقاليم** ٠ ذلك أن هرقل لما كان عاجزا عن الحصول على مرتزقة أجانب ، فقد قرر أن يقيم بعض فرقه في الاقاليم المهددة بالخطر الفارسى ، مؤملا أن يورثوا أمجاد انتصاراتهم على الفرس ذريتهم من بعدهم ، **ويبدو أنه قد وعد جنوده بمنح من الأراضى قبل أن يخوضوا معركتهم الحاسمة** ٠ وبذلك وضع هرقل نواة هذا النظام ، وأن كانت **لم تتح له فرصة تنفيذه الا في أرمينية ، ذلك أن الوقت لم يكن ملائما بالنسبة لسوريا وفلسطين ومصر** التى واجه الامبراطور فيها أعباء تنظيمية ثقيلة بعد تحريرها من الفرس ٠ ثم ما لبثت هذه الاقاليم أن تعرضت لهجوم العرب ٠٠ وهكذا **لا نستطيع أن نحدد** صورة كاملة لخطط التنظيم الهرقلى بالنسبة لشتى أقاليم الامبراطورية ، **وانما انحصر تطبيق نظام البنود في صورته الكاملة بآسيا الصغرى بعد نجاح الفتح الاسلامى** ٠ (١٢٩) وقد سار التنظيم الادارى العسكرى البيزنطى في مراحل من التطور خلال التجارب الأليمة المتتابعة التى واجهتها الدولة حتى بلغ نظام (الثيما) درجة من الاحكام في عهد الاباطرة الايسوريين في القرن الثامن الميلادى ٠

---

(١٢٨) Ibid : PP. 300 - 1.

(١٢٩) Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I p. 302, Runciman ; Byz. civ. p. 112, Byzantinium p. 297.

الطلائع الأولى :

نشأ نظام البنود (ثيما thema) **عن وضــــع بعض الفرق فى مراكز خاصة للدفاع عن أقاليم معينة ، ثم تعيين قائد هذه الفرق على رأس السلطة المدنية ، وأخذت المناطق نفسها بالتــــدريج تحمل اسم ثيما** thema ويضاف كل منها الى اسم الفرقة التى تشغله . وحين نمت الامبراطورية فى نظمها واستفادت حياتها المدنية أضيفت بنود جديدة فى المنـــاطق التى استعادتها الدولة وعلى الحدود أعطيت أسماء جغرافية .

ومن أجل سد الطريق أمام أى خطر مفاجىء ظهر فى الشرق فى القرن السابع الميلادى **أربعة أقسام عسكرية** حملت فيما بعد اســـم thema وهذه الأقسام هى :

١ ـ **بند أرمينية** : Armeniaci (Armeniacoi) فى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى عند الحدود الأرمينية . واذا كانت البنود التى أخذت اسماءها من الفيالق الحربية أقدم من تلك التى تحمل اسماء جغرافية ، فان بند أرمينية يشذ عن هذه القاعدة لان اسم أرمينية كان يطلق على الفيالق الموجودة به منذ أيام جستنيان الاول . وأول اشارة تاريخية لارمينية فى ظل النظام الجديد فى القرن السابع الميـــــلادى وردت فى أخبار ثورة سرابيوس قائد الفرق الارمينية فى آخر عهد قسطانز الثانى سنة ٦٨٨م، ويتضح منها أن بلاد أرمينية البيزنطية كانت اقليما حربيا مستقلا له فرقه العسكرية ويدير شئونه قائد عسكرى strategus يتمتع بسلطات الحاكم المدنى .

٢ ـ **بند الأناضول** : Anatolicii (Anatolikoi) ونحن نسمع عن تعيين ليونيتوس سنة ٦٩٠م قائدا للفرق الأناضولية وكانت تطلق كلمة أناضولى ومعناها مشرقى على القائد العام للولايات الشرقية من الامبراطورية Magister Militum per Orientum التى كانت تضم سوريا وآسيا الصغرى، وعندما استولى العرب على سوريا جلبت الفرق التى كانت تتبع ذلك القائد العام نحو الغرب واستقرت شمالى جبال طوروس للدفاع عن آسيا الصغرى وتبعا للتنظيم الجديد تلاشت سلطة القائد العام للمشرق وأطلق على تلك الجهات التى استقرت فيها القوات أخيرا الاقليم الشرقى أو الأناضـــولى، وتولى قادة الفرق فى ذلك الاقليم الحربى ادارة شئون الاقليم .

وقد شغل بندا أرمينية والأناضول كل القسم الأوسط من آسيا الصغرى من حدود كيليكيا شرقا الى بحر ايجه غربا ، وقد كانا سدا منيعا للامبراطورية أمام هجمات العرب .

٣ ـ بند الأوبسيكيون : Opsikion فى آسيا الصغرى ويمتد حول بحر مرمرة ويحمى العاصمة من الهجمات الخارجية ، وقد ظهر فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى وأخذ اسمه من الفرق الامبراطورية الهرقلية المستقرة حول بحر مرمرة ، اذ سمحت الدولة البيزنطية لبعض العناصر السلافية بالاقامة فى جزء من اقليم أوبسيكيون أو اقليم الفرق الامبراطورية • وقد امتد هذا الاقليم داخل آسيا الصغرى وسميت جهاته القريبة من بحر مرمرة بالمناطق البحرية Peratic Themes أما الجهات الداخلية فسميت بمناطق الخيالة Cavallarü

٤ ـ البند البحرى كرافيزيوناروم Caravisionarum الذى أطلق عليه فيما بعد ـ ولعل ذلك كان فى القرن الثامن الميلادى ـ اسم (كبيرايورت) Cibyraiote-Cibyrrhaeote على الشاطىء الجنوبى لآسيا الصغرى والجزر المجاورة ، وقد خصص للدفاع ضد الهجمات البحرية للاسطول العربى (١٣٠) •• وسنتناول تطور البنود البحرية بوجه خاص •

وكان قواد البنود يسمون Strategoi وهى تسمية تدل على الطابع الحربى لهذا التنظيم ، الا أن قائد البند البحرى (كبيرايوت) كان يحمل اسم drungarius (أى نائب أميرال) ، كما أن حاكم الأوبسيكيون كان فى رتبة Comes • وقد قسم كل بند الى أقسام صغيرة تسمى turmarchies ويشغل كل قسم منها جزء من الفرقة المنوطة بحماية البند يسمى turma ويقودها turmarch • وهذا الجزء ينقسم بدوره لأجل الاغراض العسكرية الى ٣ أقسام تسمى moirai أو dronggot كل منها تحت قيادة drungarius وتنقسم الأخيرة الى tagmata كل منها تحت قيادة comes ويلى هذه pentekontarchies ومن تسمية bands=tagmata اختار المسعودى تسميته لنظام البنود • ويلاحظ أن **السلطات المدنية لم تتخل عن اختصاصها دفعة واحدة للحكام العسكريين ، فقد بقيت الاقسام المدنية موجودة فى ظل النظام الجديد فى معظم الجهات ، لكن السلطات العسكرية التى تزايد اختصاصها لأجل دفع الاخطار الخارجية اكتسبت على مر الزمن نفوذا طاغيا فى الادارة المدنية • (١٣١) •**

---

(١٣٠) Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I p. 301, Bury : Hist. of later Rom. Emp. II pp. 340 : 9

دكتور العدوى : دراسات فى التاريخ البيزنطى المجلة التاريخية المصرية م ٢ ع ٢ اكتوبر ١٩٤٩

(١٣١) Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. vol. I. p. 302 - 3, Runciman : Byz. Civ. pp. 112 - 3, Byzantium pp. 298 - 9.

فى البلقان :

امتد نطاق هذا التنظيم الى شبه جزيرة البلقـــان فاقيم **بند تراقية** Thrace ليواجه خطر البلغار و الصقالية (السلاف) وأعقب ذلك فى الزمن اقامة بند **فى هيلاس** Helladici, Heladekoi لمواجهة خطر الصقالبة (السلاف) فى بلاد اليونان وربما كان ذلك فى نهاية القرن الســـابع الميلادى ـ ومن ناحية أخرى جعلت **صقلية اقليما عسكريا** فى الفترة نفسها لتواجه هجمات العرب البحرية التى بدأت تهدد القسم الغربى من البحر المتوسط • وقد واصل خلفاء هرقل خطته التى انتهجها فأقاموا فى وجه الخطر العربى **مناطق عسكرية لم تحمل اسم ثيما** ، وفى الوقت نفســـه اضطرهم خطر الصقالبة (السلاف) والبلغار فى شمالى الامبراطورية خلال القرن ٧م الى التوسع فى أنظمة الدفاع لحماية البلقان واليونان • وهكذا تصدق ملاحظة شتين « ان ما بذره هرقل قد نما بصورة عجيبة فى عهـد خلفائه » • (١٣٢) وعلى هذا النحو كانت هناك مناطق عدة فى نهـــاية القرن السابع الميلادى بارجاء اسيا الصغرى قد انتظمت فى سلك نظام البنود •

تعديلات وبنود جديدة (فى عهدى الايسوريين ، والعموريين) :

على يدى الامبراطور ليو الايسورى Leo III (الثالث ١٧ : ٧٤٠م) أحكم نظام البنود فقسمت البنود الآسيوية الى أقسام فرعية ، وعمم نظام البنود فى أوربا • وعلى ضوء الفرق بين ما رواه ابن خرداذبة فى القــرن التاسع الميلادى وبين ما حفظته مراجع القرن السابع البيزنطية يمكن نسبة ما حدث من تعديلات الى ليو وابنه قسطنطين ، فقد زاد ليو بنود آســيا الصغرى اذ اقتطع من **بنـد الاناضول البند التراقى** ، نســبة للجنـود التراقيين الذين جلبهم جستنيان الثانى سنة ٧١١ م لآسيا الصــغرى لمواجهة حروب العرب ، كما جعـل القسم الشرقى من الاوبسيكيون بندا مستقلا هو **البند البكلارى** Buccellarian ، وربما كانت النواة الاولى للاقليم هى الفرق المرتزقة اذ كان يطلق عليهـا اسم فرق الخبز اليابس Buccellarii فى القرن الخامس الميلادى • وبعد قليل تأسس **بنـد الاوبتماتى** Optimati (البند الاخير) ، وان أمكن الاســتدلال من حوادث الاقليم أنه كان أفقر البنود وان نشأته الاولى ترجع الى القوط الذين أسروا فى عهد أركاديوس (٣٩٥ : ٤٠٨م) وأقطعوا جهـــات من آسيا

---

(١٣٢) Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I. pp. 302 - 3.

الصغرى جنوبى البحر الاسود قرب البسفور ، وقد سكن جمـــاعة من اليونانيين من جبال طوروس بأهلهم فى الاقليم فنشأ من تزاوج الفريقين (القوط المتأغرقون) • ولم تتجاوز بنود أوربا فى القرن الثامن الميلادى أربعة هى : تراقية ومقدونية وهيلاس م وصقلية ، ولعل ما دفع ليو الى تقسيم الثيمات الاسيوية واقتطاع بنود جديدة منها هو خشيته من طموح القادة الذين قد يتجراون عليه كما تجرأ هو من قبل على ثيودوسيوس الثالث ، فصغر مساحات البنود لكى تنقص موارد القادة وتقل بين أيديهم فرص التمرد ، كما عنى باسوار العاصمة • (١٣٣) •

• ولما لم يكن للبنود المتأخرة أصل يعود الى أسماء فرق معينـــة من الجيش ، فقد أعطيت أسماء جغرافية • غير ان التطور التاريخي عرض هذه التسميات الجغرافية للخطا ، فنرى البند المقدونى Macadnian تنزل به غزوات البلغار الى اقليم يحيط بموضع Adrianople ، بينما نجد بنود مقدونية نفسها تاخذ أسماء البند التسالونيكى Thessalonicantheme وبند ستريمون Strymon • كما دعيت كلابريا Calabria فى القرن العاشر الميلادى بند صقلية ، اذ كانت جزءا من هذا البند قبـــل أن ينتزع العرب صقلية من الدولة البيزنطية • وحين أعادت انتصارات القرن التاسع والعاشر الميلادى جهات جديدة للامبراطورية ، خلقت بنودا لتلائم الاحتياجات الجديدة • وكلما تقدمت الحدود الى الامام نزعت بعض أقسام البنود الصغيرة turmarchios وأضيفت الى الاقليم الجديد لتـكون بنود جديدة ، وهكذا خلق ليو السادس (٨٨٦ : ٩١٢ م) بنود سلوقية (سليوكيا) ، Seleucia • واحتفظ ببعض أقسام الحدود خاصة عند الممرات بمنأى عن تطبيق نظام البنود وأبقيت تحت احتلال عسكرى دائم وهذه تسمى Kleisousmi-Klissurne وقائدها يسمى Klissurarch ، غير أنه كان من الممكن أن ترفع هذه المناطق الى مقام البنود • وقد عهـد الى قادة الممرات الجبلية هؤلاء بالاشراف عن المدافعين عن الحدود akaritai ما بين وقت وآخر ، وقد نهض هؤلاء المدافعون بعبء حربى هائل متواصل فى مناطق الحدود واليهم ينسب بطل الملحمة البيزنطية القومية الشهيرة ديجنيس Digenis akritas وهى تعكس أحوال القرن العاشر الميلادى (١٣٤)

---

(١٣٣) دكتور أسد رستم : الروم جـ ١ ص ٣٠١ ـ ٢ ومن مراجعه دكتور العدوى : دراسات فى التاريخ البيزنطى ـ المجلة التاريخية المصرية م ٢ ع ٢ أكتوبر ١٩٤٩
W. Brookes : Arab Lists of Byz. Themas. - Journal of Hellenic Studies XXI
Bury : Hist. of Later Rom. Emp. II pp. 343 - 4.

(١٣٤) Runciman : Byz. Civ. pp. 72 - 3, 112, 113, Byzantium p. 299

وفى نهاية القرن التاسع الميلادى، عندما صار لدينا وصف نيلوثيوس Philotheus للتنظيم البيزنطى وقائمتين عربيتين للبنود **نجد أمامنا ٢٥ بندا** مقسمة الى مجموعتين شرقية وغربية • على أن بداية هذا القرن نفسه لم يشهد سوى ١٠ بنود فقط ، ثم استمر العدد فى التزايد حتى عرفنا ٣٨ **بندا** فى القرن الحادى عشر الميلادى • **وكان امتداد الحدودوالرغبة فى مقاومة النزعة الاستقلالية فى الاقاليم ، هما اللذان اديا الى هذه الزيادة•** وقد خضع القادة العسكريون لهذه البنود Strategoi **مباشرة للامبراطور** • وتألفت **مجموعة البنود الشرقية** من بنود آسيا الصغرى بما فيها تراقية ومقدونية واستثنيت البنود البحرية التى الفت مع بقية بنود البلقان وجنوبى ايطاليا وخرسون Cherson فى القرم Crimea **المجموعة الغربية** ، وهى تضم أيضا دلماشيا Dalmatia وصقلية • **وكان قادة البنود الشرقية يعتبرون ارفع مرتبة وهم يتسلمون مرتباتهم من الخزانة المركزية ، وبينما كان قادة الغرب يعتملون على دخل اقاليمهم •** وعلى رأس قادة الشرق **قائد بند الاناضول** الذى آلت اليه أعباء الوظيفة القديمة لقائد الشرق العام Magister Militum of the East وقد كان منصبه هو المنصب العسكرى الرئيسى خلال القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع الميلادى (١٣٥) •

وفى العهد العمورى حدثت تغييرات ادارية فى تنظيم الاقسام العسكرية لمواجهة الظروف الجديدة ، فان توغل المسلمين فى مناطق الحدود جعل من الضرورى الاهتمام **بأقسام معينة من بندي الاناضول وارمينية هى مناطق الممرات** التى كانت تحت اشراف قادة أصغر رتبة Klesurarch وكان لهم أن يتخذوا وسائل للدفاع مستقلين عن قادة البنود • فاقتطعت منطقة الممرات سلوقية (سليوكيا) غربى كيليكيا من بند الاناضول ، ومنطقة **كرسيانون** Charsianon من بند أرمينية • وجعلت **كبادوكيا الجنوبية ولاية حدود** frontier province اذ كانت معرضة دوائما لهجوم المسلمين عبر الابواب الكيليكية Cilician Gates • ومن العسير تحديد أوقات هذه التغييرات ، ولكن يشك فى أنها حدثت قبل عهد تيوفيل • وقد استمرت بنود الأناضول ، أرمينية ، تراقية ، الابسيكيون ، البكلارى فى آسيا الصغرى حتى عهد ميخائيل (ميشيل) الثانى Michael II (٨٢٠ : ٩ م) وربما استمرت الى عهد تيوفيل أيضا Theophilus (٨٢٩ : ٨٤٢ م) •

---

(١٣٥) Runciman : Byz. Civ. pp. 72 — Bybantium p. 290

وقد أحدث تيوفيل تجديدات لها قيمتها فى نظام (الثيما) بمختلف أنحاء الامبراطورية ، ففى **آسيا** الصغرى خلق بندين جديدين هما **بافلاجونيا** Paphlagonia **كلديا** Chaldia, • ويبدو أن بند بافلاجونيا قد اقتطع من البند البكلارى ، ويرتبط قيامه بسياسة **تيوفيل فى بنطس** • أما تأسيس بند كلديا المقتطع من بند أرمينية ـ ربما حوالى ٨٣٧م ـ فيمكن أن يعتبر أيضا جزءا من سياسة عامة ترمى الى **سيطرة الامبراطورية على البحر الاسود وسواحله بعد أن هددها المسلمون فى ارمينية** • والى الجنوب من كلديا كانت هناك دوقية كولونيا Koloneia وكانت جزءا من نطاق بند أرمينية ، وقبل سنة ٨٦٣م رفعت **كولونيا وكبادوكيا** الى مرتبة البنود **اما بنود اوربا** التى كانت مختلفة عن بنود آسيا فقد بدت فى نهاية القرن الثامن الميلادى أربعة بنود هى : تراقية ، مقدونية ، هيلاس ، صقلية • وكانت هناك أقاليم أقل درجة مثل **كلابريا** Calabria تحت قيادة dux ، **ودلماشيار وكريت** تحت حكم (اركون) Archon ، بينما كانت **تسالونيكا** وما جاورها لا تزال تخضع لاشراف Praetorian prefect of Illyricum وهذه محاولة متعثرة لاحياء نظام قسطنطين القديم • وقد أدت ثورة الصقالبة (السلاف) فى عهد نقفور الاول nicephorus I (٨٠٢ الى ١١ م) الى اعادة تنظيم اقليم **هيلاس** وتأسيس بند فى البليبونيز حتى غدت هيلاس تعنى شمالى اليونان وحده • وأدى نزول المسلمين فى كريت الى تعيين (ستراتيجوس) بدلا من (الاركون) هناك، كما وضع (ستراتيجوس) **فى سالونيكا** على أثر الحروب البلغارية ، ووجد بند **كفالونيا** Kephalonia مع جزر الأيونيان Ionian فى بداية القرن التاسع الميلادى • وأدى تهديد المسلمين للادرياتيك وسواحل غرب اليونان الى تأسيس بند **ديراكيوم** Dirhachium ، كما أقام تيوفيل ستراتيجوس فى **كليماتا** Klimata • ولم يكن بند تراقية يشمل المنطقة المجاورة مباشرة للقسطنطينية التى يخترقها حائط أنستاسيوس الطويل ـ وفى القرن التاسع الميلادى كانت هذه المنطقة لا تزال نطاقا منفصلا وربما كانت تحت قيادة كونت الاسوار Count of the Walls ويعرفها الكتاب العرب باسم طلايا أو طالفلا •

وهذه قائمة يقدمها « بيورى » بما آلت اليه البنود فى العهد العمورى :

(أ) البنود الآسيوية : ـ

• **بنوديحكمهاقواد عسكريون** Strategioi : الأناضول ـ أرمينية ـ ثراقية ـ الاوبسيكيون ـ البكلارى ـ كبادوكيا ـ بافلاجونيا ـ كلديا ـ كولونيا .

• **مناطق الممرات الجبلية** Kleisurarchiai : كرسيانون ـ سلوقية (سليوكيا)

(ب) البنود الأوربية :

• **بنود يحكمها قواد عسكريون** Strategiai : مقدونية ـ تراقية ـ هيلاس ـ البليبونيز ـ تسالونيكا ـ ديراكيوم ـ كيفالونيا ـ صقلية ـ كليماتا .

• **دوقية** Ducate **كلابريا**

• **اركونيات** Archonates : ذلماشيا ـ قبرص . (١٣٦)

وهذه أسماء البنود فى القرن العاشر الميلادى كما ذكرها قسطنطين:

(ا) البنود الآسيوية وعددها سبعة عشر ، وهى Anatolic, Armeniac, Theracesian, Opsikion, Optimaton, Bucellarian, Paphlagonia, Chaldia (Trapezus (حول طرابيزون) و Coloneia, Sabasteia, Lycandos, Cibyraiot, Cyprus, Samos, Aegean, Coppadocia. و (الجزيرة) Mesopotamia

والبنود الأوربية وعددها اثنى عشر ، وهى: Thrace, Macedonia, Strymon, Thessalonica, Hellas, Peloponnesus, Cephallonia, Nicopolis, Dyrrhachium, Sicily, Longobardia, Cherson.(١٣٧)

(١٣٦) Bury. Hist. of Eastern Roman Emp. pp. 221 : 5

(١٣٧) دكتور العدوى ـ دراسات فى التاريخ البيزنطى ـ المجلة التاريخية المصرية م ٢ ع ٢ اكتوبر ١٩٤٩ .

البنود البحرية :

راجع نشأتها كالبنود البرية إلى القرن السابع الميلادى ، ولكنها لم تكتمل الا فى القرن الثامن بعد اصلاحات ليو الثالث . **فاقليم ابيلوس البحرى** Abydos تطور عن المدينة التى أعطت اسمها لها وقد كانت ذات أهمية فى حملة هرقل من قرطاجنة الى القسطنطينية التى وصل بعدها الى العرش . ومن المحتمل أن المدينة كان بها جباة يحصلون المكوس على السفن المارة بالدردنيل ثم انفصلت فيما بعد عن اقليم بحر ايجه البحرى. وكانت طلائع البنود تضم فيما بينها البند **البحرى كرافيزيوناروم** Caravisionarum الذى سمى فيما بعد ـ ربما فى القرن الثامن الميلادى ـ **كبرايوت** (Cybrahaeote ، Cibyraiote على الشواطىء الجنوبية والجنوبية الغربية لآسيا الصغرى والجزر المجاورة فى بحر ايجه ، وقد وضع هذا البند لمواجهة ضغط الهجمات العربية البحرية على الدولة البيزنطية ، واخذ اسمه من مدينة كيبيرا Cibyra فى بامفيليا Pamphylia وبلغ من أهمية هذا الاقليم فى القرن ٧ م أن أحد أمراء البحر الذين تولوه وهو ابسيمار Apsimar صار امبراطور سنة ٦٩٧ م باسم تيبريوس الثالث وهو الذى رفع هذا الاقليم سنة ٧٣١ م الى مرتبة بند وأصبح حاكمه (ستراتيجوس) .

وأسس على امتداد بند كبرايوت **بند الدوديكانيز** Dodecanese **بحر ايجه** ، بعد أن كانت جزائر بحر ايجه من قبل تخضع لبند كيبرايوت . وكلا البندين كانت تحت قيادة أمير البحر Drungarius وتدل هذه الرتبة على أن **البنود البحرية كانت أدنى مرتبة من البنود البرية** . وكان أمرا هذين البندين يقيمان فى القسطنطينية ويتبعان الامبراطور مباشرة، وكان تحت تصرف كل منهما أسطول كبير أهم قطعه سفن صغيرة تسمى القرابيز Carabos وهى قريبة الشبه بالشوانى المملوكية ، وبفضل هذه القرابيز السريعة استطاع البيزنطيون منع المسلمين من دخول بحر ايجه بل هددوا سواحلهم وموانيهم . (١٣٨) .

---

(١٣٨) Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I, p. 301. Byzantium, p. 304 Runciman : Byz. Civ. p. 120, Bury: Hist. of Later Rome. Emp. Vol. II pp. 343 - 4.

دكتور العدوى دراسات فى التاريخ البيزنطى ، المجلة التاريخية المصريه م ٢ ع ٢ اكتوبر ١٩٤٩

دكتور مؤنس ـ المسلمون فى البحر المتوسط ، المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥٩

وقد أهمل أباطرة الاسرة الايسورية أمر الاسطول بعد زوال الخطر الاسلامي، نتيجة انتقال مركز الدولة الاسلامية الى بغداد واهتمامها باقاليمها الشرقية وانصرافها عن المشروعات البحرية فى البحر المتوسط وغزو القسطنطينية. وهكذا وجد الاباطرة البيزنطيون لديهم من الفراغ ما يهيىء لهم فرصة الاغراق فى سياستهم الدينية المعادية للصور • ولكن عاد الاسطول الاسلامى للظهور فى القرن التاسع الميلادى فاستولى على صقلية وكريت واتخذ من الأخيرة مركز الغارات متتابعة يشنها على سواحل بحر ايجه، ومن هنا كان لا بد من احياء الاسطول البيزنطى واقترن ذلك بالانصراف عن المشكلات الدينية ، وباشر أباطرة الاسرة العمورية تيودورا وميخائيل الثالث (٨٤٢ : ٨٦٧م) ثم باسيل الأول Basil (٧٦٧ : ٨٨٦م) اعادة تنظيم الاسطول كله ، كما أعيد تنظيم البنود البحرية • وفى قائمة بيورى عن بنود العهد العمورى ورد ذكر البندين البحرين : كيبيرايوت ، والايجى Aigaion Pelagos وقد أضيف بعد ذلك بقليل بند ساموس Samos الذى يضم سميرنا (أزمير) الى البنود البحرية • **ودعمت البنود الاوربية هيلاس والبليبونير وكيفالونيا وايطاليا بمنشآت ومعدات بحرية • (١٣٩)**

البنود البيزنطية فى المراجع العربية :

ناجز العرب البيزنطيين فى الشام ، ثم دارت الحرب سجالا بين الفريقين عبر ممرات جبال طوروس ، فعرف المسلمون شيئا مذكورا عن نظم الادارة والحرب عند عدوهم • وقد أشار فازيليف الى أهمية المراجع العربية لدراسة البنود البيزنطية ، وبخاصة ما كتبه الجغرافيان : ابن خرداذبة ، وقدامة •

أما ابن خرداذبة ـ وقد كتب كتابه فى منتصف القرن التاسع الميلادى تقريبا (٢٣٢ هـ : ٨٤٦ م) ، وهو ينقل عن مسلم ابن أبى مسلم الجرمى : أن أعمال الروم التى يوليها الملك عماله ١٤ عملا : **منها خلف الخليج ٣ أعمال :**

١ ـ **عمل طافلا** ـ وهو بلد القسطنطينية ، وحده : من المشرق الخليج الى بحر الشام ومن المغرب السور المبنى من بحر الخزر الى بحر الشام ، ومن الجنوب بحر الشام ، ومن الشمال بحر الخزر ، وطوله مسيرة ٤ أيام ، وهو من السطنطينية على مسيرة يومين •

---

(١٣٩) بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٨٥ ـ ٦
Runciman : Byz. Civ. pp. 120 - 1, Bury : Hist. of Eastern Rom. Emp. p. 225.

٢ ـ عمل تراقية : وحده : من المشرق السور ، ومن الجنوب عمل مقدونية ، ومن المغرب بلاد برجان ، ومن الشمال بحر الخـزر • وطوله مسيرة ١٥ يوما وعرضه مسيرة ٣ أيام وفيه ١٠ حصون •

٣ ـ عمل مقدونية : وحده : من المشرق السور ، ومما يلى الجنوب بحر الشام ومن المغرب بلاد الصقالبة ومن الشمال برجان وطوله مسيرة ١٥ يوما وعرضه مسيرة ٣ أيام وفيه ثلاثة حصون •

ودون الخليج ١١ عملا :

١ ـ عمل افلاجونية : وفيه ٥ حصون •

٢ ـ عمل الأفطى ماطى : وتفسيره الاذن والعين وفيه ٣ حصـون ومدينة نقمودية وهى اليوم خراب •

٣ ـ عمل الابسيق : وفيه مدينة نيقية ولها ١٠ حصون والبحر من نيقية على ٨ أميال ولها بحيرة عذبة تكون ١٢ ميلا طولا وفى البحيرة ٣ أجبل • ومن المدينة الى البحيرة باب صـغير فاذا دهمهم خوف أخرجوا الذرارى من الحصن الى الزواريق فى البحيرة فحملوهم وألحقوهم بالجبال التى فى بالبحيرة •

٤ ـ عمل ترقسيس : وفيه من الحصون اقسس فى رستاق الاواسى وهى مدينة أصحاب الكهف ولها ٤ حصون •

٥ ـ عمل الناطلوس : وتفسيره المشرق وهو أكبر أعمال الروم وفيه مدينة عمورية وعدد بروجها ٤٤ برجا ، ومن الحصـون : العلمين ومرج الشحم ، وبرغوث ، والمسكنين ، و ٣٠ حصنا والبثن والمسبطلين •

٦ ـ عمل خرسيون : يلى درب ملطية وفيه من الحصون خرشنة و ٤ حصون •

٧ ـ عمل البقلار : وفيه مدينة أنقرة وصملة و ١٣ حصنا •

٨ ـ عمل الأرمنياق : وفيه من الحصون قلونية و ١٦ حصنا •

٩ ـ عمل خلدية : وحده أرمينية وفيه ٦ حصون •

١٠ ـ عمل سلوقية : من ناحية بحر الشام الى طرسوس واللامس ويتولاه **عامل الدروب** ، وفيه من الحصون سلوقية و ١٠ حصون •

١١ ـ عمل القبادق : وحده جبال طرسوس وأذنه والمصيصة وفيه

من الحصون : قرة وحصين وأنطيغوا والأجرب وذو الكلاع وهو جبل عليه قلاع سمته العرب ذا القلاع ثم حرف الاسم ـ واسمه جسسطرون و ١٤ حصنا • ومن المطامير ماجدة وبلنسة ، وملندسة وقونية وملقونية وبدالة وبارنو وسالمون ، وتفسير ملقوبية مقطع الارحاء اذ تقطع حجارة الارحاء من جبالها • (١٤٠) •

وقد أشارت القائمة الى أن **عمل سلوقية كان تحت اشراف عامل الدروب** • ويرد في بعض المراجع مثل ياقوت ـ اسمه الرومى **(كيليرج)** وهو القائد البيزنطى الذى يشرف على منطقة الممرات الجبليةKleissurarch

وكان **قدامة** تاليا لابن خرداذبة فى الزمن (حوالى ٣٣٧هـ ـ ٩٤٨م) وقد أورد قائمة بأعمال الروم خالفت النسق المتقدم فى الترتيب وفى اطلاق بعض الاسماء • فالعمل الذى ورد فى قائمة الجرمى كما نقلها ابن خرداذبة طافلا ـ سماه قدامة **طايلا** وسمى الافطى ماطى **الابطباط** ، كما سمى عمل الناطلوس عمل **الناطليق** ، وعمل خرسيون هـو عند قدامه عمل **خرشنة** ، كذلك جعل من خلدية **الخالدية** • وأحصى قدامه **القوة العسكرية** المرابطة فى كل بند من البنود فهناك ما بين أربعة وستة آلاف رجل ترابط فى البنود بصفة عامة عدا عمل فلاغونية حيث يرابط عشرة آلاف رجل وعمل الناطليق حيث يوجد خمسة عشر ألف رجل لأهميته واتساعه • أما العاصمة القسطنطينية فقد كان فيها ٢٤،٠٠٠ رجلا تناول قدامه تصنيفهم •

وقدر اليعقوبى القوات البيزنطية على هذا النحو : « جميع جيش بلاد الروم من الجند الموظف على امرساتيق والقرى أربعين ألف فارس ، وليس فيهم مرتزق وانما هم حينئذ يوظف على كل ناحية رجال يخرجون مع بطريقها فى وقت الحرب • فبعض البنود مل خرشنه وسلوقية قوتها ٥٠٠ فارس وتراقية قوتها ٥٠٠٠ فارس فى حين أن قوة مقدونية ٣٠٠٠ فارس » •

وأما ابن خرداذبة فيقول ان ديوان الروم مرسوم على مائة وعشرين الف رجل وهناك ٦ بطارقة فى القسطنطينية و ٦ فى الأعمال : عمورية ، أنقرة ، الارميناق ، تراقية ، صقلية ، سردانية • ويذكر أيضا « •• والخيل المقيمة على باب الملك أربعة آلاف فارس وأربعة آلاف راجل ولمعسكر الملك مقيما كان أو راحلا أربعة بنود عليها أربعة بطارقة فى الخيل كتيبة

---

(١٤٠) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٥ : ٨

كل واحد منهم اثنا عشر ألفا : ستة آلاف مرتزقة وستة آلاف شاجرد ، فان خرج الملك نحو بلاد العرب عسكر بدرولية على أربعة أيام من قسطنطينية وهو مجمع العرب والروم » .

ويتفق ابن خرداذبة وقدامة فى تناول تنظيم الفرق فى جيوش الروم . « فالبطريق رئيس على عشرة آلاف ، ومع كل بطريق طومارخان (طرماخان عند ابن خرداذبة) وكل طومرخ على خمسة آلاف ، ومع كل طومرخ خمسة طرنجارين كل طرنجار على ألف ، ومع كل طرنجار خمس قمامسة كل قومس على مائتين ، ومع كل قومس خمسة قمطرخين (قنطرخين عند ابن خرداذبة) كل قمطرخ على أربعين ، ومع كل قمطرخ أربعة داقرخين كل داقرخ على عشرة » (١٤١) .

ونحن نستطيع أن نتبين مدى دقة المعلومات التي قدمها قدامة حين نقارنها بما أورده الاستاذ بيورى Bury فى شأن التنظيم البيزنطى العسكرى ، اذ يقول : « كان تحت امرة الولاية الثغرية الواسعة (الاستراتيجوس) جيش قوامه عشرة آلاف جندى . وكان لنظام الفصائل والقيادات التابعة شبه ملحوظ بتنظيم بعض الجيوش الاوربية الحديثة . ولم تكن الخطة المدونة كما يظن واحدة فى جميع الولايات الثغرية ولا فى جميع الازمان . وكان الفيلق ـ ثيما Thema يتألف من فرقتين تسمى كل منهما (تورما) يقودها قائد فيلق turmarchal (طومرخ) . وكانت التورما مؤلفة من ٥ فرق كل منها تحت امرة drungerius (طرنجار) وكانت الفرقة المكونة من ٥ فرق خماسية تحت امرة قائد يسمى Komites (قومس) ،أما الفرقة الخماسية هذه فكانت تضم ٢٠٠ رجل وتنقسم الى ٥ فصائل كل منها تحت امرة ضابط يسمى pentekontarchia (قمطرخ) . وكانت هناك وحدة من ١٠ رجال تحت امرة dekarches (داقرخ) (١٤٢) .

ويذكر لنا المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٥ هـ ـ سنة ٩٥٦ م) قائمة معدلة وهو يعرف البنود بقوله « أرض الروم أرض واسعة فى الطول والعرض آخذة فى الشمال بين المشرق والمغرب ، مقسومة فى قديم الزمان على أربعة عشر قسما : أعمال مفردة تسمى البنود ـ كما يقال أجناد

---

(١٤١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٩ ، ١١١ ، قدامة بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ملحق بكتاب ابن خرداذبة (المسالك الممالك) ص ٢٥٥ : ٢٥٨ ، اليعقوبى : البلدان ـ ملحق بالاعلاق النفسية لابن رستم ص ٣٢٣ .

(١٤٢) بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٧١ : ١٧٣
Byzantum pp. 298 - 9.

الشام كجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين ، غير أن بنود الروم أوسع من هذه الاجناد وأطول • »

وهناك ٩ بنود دون الخليج مما يلي الثغور الشامية والجزرية وغيرها من بلاد الاسلام :

١ ـ **الأفتى ماتى** : أى الاذن والعين وهو ما أورده ابن خرداذبة نقلا عن قائمة الجرمى باسم الأفطى ماطى وأورده قدامة باسم الابطباط • **وهذا البند يتضمن بند الناطليق أيضا عند المسعودى** • وهنا يظهر اختلافه عن سابقيه اللذين جعلا من هذين بندين منفصلين •

٢ ـ **بند الأبسيق** : وفيه مدينة نيقية وهنا يتفق المسعودى مع ابن خرداذبة وقدامة •

٣ ـ **يسرة الناطليق أو ترقسين** : وهو بند افسس مدينة أصحاب الكهف • والمسعودى يتفق هنا أيضا مع الجغرافيين السابقين مع خلاف يسير فى التسمية •

٤ ـ **بند بنطيليا وهى دقابلى** : ويتصل هذا البند بالبحر الرومى أيضا وفى آخره عمل سلوقية وحصن بوقيه واللامس حيث يكون الفداء بين المسلمين والروم ومنه الى طرسوس ٣٥ ميلا وهو بند ضيق وحروب المسلمين عليه برا وبحرا • وفى **ايراد هذا البند بتميز المسعودى عن سالفيه اللذين لم يعرضا له بهذه الصورة بل أوردا فقط عمل سلوقية** « من ناحية بحر الشام الى طرسوس واللامس ويتولاه عامل الدروب » ـ على رواية ابن خرداذبة •••• ، « حدوده من المغرب الناطليق ومن الجنوب البحر ومن الشمال الطرقيس ومن المشرق درب لطرسوس من ناحية قليمه واللامس » ـ على ما ذكره قدامة •

٥ ـ ٦ ـ **بند القباذق وبند البقلار** : ولا يخالف المسعودى هنا ابن خرداذية وقدامه « وليس للروم أطول من بند البقلار هذا ولا أكثر رجالة منه » •

٧ ـ **بند الأفطماط** : وهو عمل نقمودية وهو بند مربع بين البقلار ـ والابسيق وآخر عمل هذا البند خليج القسطنطينية **وقد تناول ابن خرداذية وقدامة هذا البند عندما تكلما عن الافطى ماطى او الابطباط لكن المسعودى قد جعل من الافتى ماتى والناطليق شيئا واحدا ثم تكلم بعد ذلك عن الافطماط باعتباره بندا آخر** •

٨ ـ ٩ ـ الارمنياق ، فلاغونية : ويذكر المسعودى أن فى طرف بند الارميناق عمل خرشنة دون أن يحصيه كبند من البنود بينما احصاه

قدامة وقال ان حده الجنوبى يلى القبادق وحده الشرقى يلى دروب ملطية وحده الشمالى يلى الارميناق وحده الغربى يلى البقلار ، فى حين ذكره ابن خرداذبة باسم عمل خرسيون • كذلك لم يذكر المسعودى عمل خلدية او الخالدية « وحد منه بلاد أرمينية والثانى بحر الخزر والثالث والرابع أرمنياق » .

والخمسة الباقية من البنود وراء الخليج متصلة بالقسطنطينية :

١ ـ بند طايلا : وهذه هى تسمية قدامة أيضا أما تسمية خرداذبة نقلا عن الجرمى فهى طافلا ويسمى المسعودى السور الممدود من بحرالشمال الى بحر الخزر (مقرون تيخس) أى السور الطويل « وأكثر هـذا البلد ضياع الملك والبطارقة ومروج المواشى » •

٢ ، ٣ ، ٤ ـ تراقية ، مقدونية • بلبونيسة : « تفسير ذلك الجزائر الكثيرة وقيل البلدان الكثيرة • وهى ربى القسطنطينية فى خرقيـذية ومثونية وقرنتو وأثينس » ، **وبند بلبونسية انفرد بذكره المسعودى •**

٥ ـ بند سالونيكة : وقد انفرد بذكره المسعودى أيضا •

واذا تناولنا تسمية البنود عند المسعودى نجد أن البند الاول الافتى ماتى هو Anti Mati وتفسيره بالأذن والعين سليم لغـويا • أما تسمية هذا البند بالناطليق فترجع الى التسمية البيزنطية Anatolikoi أى البند المعروف باسم الشرق • ويتضح كذلك أن بند الابسيق Opsikion والتراقسين هو Thrakesioi ويتضح من وصف المسعودى لبند بنطيليا أو دقابلى أنه يقابل بند كيبيرايوت فى Kibyrrhaitoi المصطلح البيزنطى وهو يتصل بالبحـر الرومى • وبند القبـاذق هو Cappadocia ويواجه الثغور الشامية قلعة اللؤلؤة • وبند البقلار هو Bucellari وبنـد الاقطمـاط هـو Optimatoi والأرمينياق هو Armeniakoi • وبند فلاغونية هو Paphlagonia • أما البنود الاوربية خلف الخليج فهى : طايلا أو Tayla ، وبند تراقية هو Thrace وبند مقدونية هو Macedonia ، وبند بلبونيسة هو Plopenosos وبند سالونيكه هو Thessalonike •

وتوضح تلك القائمة حالة البنود البيزنطية أيام المسعودى أو أيام المراجع التى استخدمهـا • ولذا لم يذكر المسـعودى بنود الجزيرة Mesopotamia ، وليكاندوس Lycandos التى أضافها ليـو

السادس الى رقعة الامبراطورية أوائل القرن العاشر الميلادى • كما أن هناك أقاليم استقلت فيما بعد وكونت بنودا خاصـــة بها وقد ذكرها المسعودى ضمن بنود أكبر • ويمكن اتمام بنود الدولة البيزنطية التىذكرها المسعودى من قائمة الامبراطور قسطنطين السابع ، ومنها يتضحأن الدولة كانت تنقسم فى القرن العاشر الميلادى الى ١٧ بندا فى آسيا الصغرى ، ١٢ بندا فى أوربا • (١٤٤) ويلاحظ بيورى أن المنطقة المهجـورة مباشرة للقسطنطينية التى كان يخترقها حائط أنستاسيوس الكبير Long Wall of Anastasius كانت فى القرن التاسع الميلادى لا تزال نطاقا تحت القيـادة العسكرية لكونت الاسوار Count of the Walls وهذه هى ما يسميها الكتاب العرب طلايا أو طالفلا • (١٤٥) •

وجاء **ياقوت** (المتوفى سنة ٦٢٦هـ ـ ١٢٢٩ م) فسار على نهج قائمة الجرمى التى كان قد أوردها ابن خرداذبة من قبل ، كما نقل عن أحمد بن محمد الهمذانى • غير أننا نجد آثارا من مادة المسـعودى فى كتابة ياقوت مثل قوله عن طلايا ـ التى وردت عند المسعودى طايلا ـ « وأكثر هذا ضياع للملك والبطارقة ومروج لمواشيهم ودوابهم » وحديثه عن (مقرن تيخس) أى السور الطويل الممدود من بحر الشام الى بحر الخزر • ويتحفظ ياقوت فيقول : «وفىأخبار الروم أسماء عجزتعن تحقيقها وضبطها فليعذرالناظر فى كتابى هذا ، ومن كان عنده أهلية ومعرفة فقد أذنت له فى اصـلاحه مأجورا • » وقد ميز ياقوت بين القائد البيزنطى الذى يتولى الاشراف على مناطق الممرات الجبلية Kleisurarch الذى أسـماه (كيليرج) وبين القائد الذى يتولى الاشراف على بند من البنود Strategos ، فهـو يقول : « ••• دروب طرسوس واسم صاحب هذا العمل كيليرج ومرتبته الاصطرطغوس وتفسيره صاحب الدروب » • كما انه يتحـدث عمن يلى (الاستراتيجوس) فى الرتبة ويسميه (طومرخ) • وينقل عنالهمذانى بعد ايراد أعمال الروم الاربعة عر قوله : « فهذه جميع أعمال الروم المعلومة لنا فىالبر، على كل عمل منها وال من قبل الملك الذى يسمى الاصطرطغوس الا صاحب الانماط فانه يسمى الدمستق ، وصاحب سـلوقية وصاحب خرشنة : فان كل واحد منهما يسمى (الكيلرج) ، وعلى كل حصن من حصون الروم رجل ثابت فيه يسمى (برقليز) يحكم بين أهله » •

---

(١٤٣) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٥٠ : ٥٣

(١٤٤) دكتور العدوى : دراسات فى التاريخ البيزنطى ـ المجلة التاريخية المصرية م ٢ ع ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٩ م (وقد ذكر فى مراجعه
E.W. Brooks : Arabic Lists of the Byzantine Themes
Journal of Hellenic Studies. Vol. 21, 70.

(١٤٥) Bury : Hist. of Eastern Rom. Emp. p. 224

ويعقب ياقوت على هذا بقوله: «قلت أنا : وهذا فيما أحسب رسوم وأسماء كانت قديما ولا أظنها باقية الآن» وقد تغيرت أسماء البلاد وأسماء تلك القواعد • فان الذى نعرف اليوم من بلاد الروم المشهورة فى أيدى المسلمين والنصارى لم يذكر منها شيء مثل قونية وأقصرى وأنطاكيـــة واطربزنده وسبواس الى غير ذلك من مشهور بلادهم وانما ذكرت كمـــا ذكر والله أعلم » • (١٤٦) •

نشاط البنود :

ولم تكن الادارة البيزنطية أقل شأنا من الجيش البيزنطى فى تهيئة مكان رفيع للامبراطورية البيزنطية بين دول العصور الوسطى وتمكينها من الصمود والحياة ازاء التغييرات الكثيرة التى أحدثتهـــا الاباطرة دون التردى فى الفوضى والاضطراب ، على أن هذه الادارة قد كبدت الدولة نفقات باهظة واضطرتها الى استخدام كثير من الموظفين وهؤلاء كانوا بوجه عام يتقاضون مرتبهم من الدولة الا فى أحوال قليلة •

وقد كانت **السلطة المدنية** فى البنود باختصاصاتها المالية والقضائية بأيدى الحكام العسكريين ويعاون حاكم البند العسكرى جهاز ضخم من الموظفين المدنيين الى جانب الهيئة العسكرية (١٤٧) •

وكان الجيش فى البنود سلاحا دفاعيا فى أول الامر ، وعندما كان على الدولة أن تواجه عبء الدفاع بصفة مستمرة كانت فيالق البنود هى أهم ســلاح لديها • وكان **قائد بند الاناضول** هو المقدم بين قواد البنود والقائد الرئيسى فى آسيا حتى القرن التاسع الميلادى ، وفى القرن العاشر الميلادى كان يتمتع بدرجة عالية فى ترتيب الوظـــائف وكان **بارونات الحـــدود** Border Barons يرتبطون بالفـرق المنـوطة بحمـــاية الممرات Kleissurae وأحيانا يتولون قيادة هذه الفرق ، وهـــم يسمون Akritae ومن هؤلاء ديجينيس صاحب الملحمـــة المشهورة وقد قام أعمال حربية ضد العرب بصفته الشـــــخصية لكن يحتمل أنه انضم الى القوات الامبراطورية فى الحمــــلات المنظمـــة أيضا • (١٤٨) وكان كل من **الفرسان والمشاة** يقسمون الى فرق خفيفة

---

(١٤٦) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ (مادة الروم) ص ٣٢٦ : ٣٣٠ •

(١٤٧) Buzantium : pp. 71, 290 - 1, Runciman : Byz. Civ. p. 73

(١٤٨) Runciman : Byz. City pp. 109, 110, 113,

أومان : الامبراطوريه البيزنطية ، ترجمة دكتور زايد ص ١٧١ •

السلاح وثقيلة السلاح ، وكانت الخيالة الثقيلة سلاحا هاما فى البنود Ceballaria Themaia ويتحصن الفارس فيها بخوذة من الصلب ويثقل بالزرد كما تصفح الخيول أيضا ويتسلح بسيف عريض وخنجر ورمح وقوس ، وتستعمل هذه الفرق للهجوم الجماعى • وقد اهتم البيزنطيون بفن اقامة الحوائط والاسوار والاهتمام بالحدود Limes وتزويدها بالمراكز المحصنة والقلاع الصغيرة وتأمين الممرات والطرق أمام المهاجمين البيزنطيين ، كما أحيطت المدن بالاستحكامات ووضع نظام للاشارات ينذر بتحرك العدو • واذا لم تفلح قوات الحدود فى صدر المغيرين احتلت المشاة الطرق التى يتوقع أن ينسحبوا منها وشغلتهم الخيالة الخفيفة الى أن يكون الاستراتيجوس قد اتصل بالبنود المجاورة وجمع القوات الكافية لرد العدوان • وكان القادة يدرسون أساليب ادارة المعارك تفصيلا ، ومع ذلك فعلى كل قائد أن تكون له شخصية مستقلة فى التصرف والابتكار • والقاعدة البيزنطية الاساسية التى ينبغى مراعاتها هى التقليل من الخسائر بقدر الامكان والافادة من كل فرصة تستبعد أو تقلل من مخاطر القتال • (١٤٩)

وكانت الرواتب التى تدفع للجند صغيرة نسبيا ، ولكن كانت اقطاعات الارض العسكرية التى يهيئها نظام الثيما تعتبر تعويضا مجزيا لملاكها • وتتزايد رواتب الجند الذين يتقاضونها بعد أخرى •
وبالنسبة لمرتبات الضباط كان مرتب الاستراتيجوس فى الثيما الآسيوية يتراوح ما بين ٢٠ ، ٤٠ رطلا من الذهب (٢١٫٦٠٠ : ٤٣٫٢٠٠ فرنكا ذهبيا) وتتراوح مرتبات الضباط من التورمارخ الى الضباط الادنى منه مرتبة ما بين ٣ أرطال ذهبية (٣٢٤٠ فرنكا ذهبيا) ورطل ويدفع هذه المرتبات الموظف الخاص وتراقبه الحكومة المركزية • وقد أحصى ما يدفع لجنود البنود الشرقية بما فيها تراقية ومقدونية فبلغ ٥٠٠٫٠٠٠ جنيه أو ٢٢٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنكا ذهبيا على الاقل • ويغلب أن الجيش البيزنطى لم يكن يزيد فى أوجه عن ١٢٠٫٠٠٠ مقاتل منهم ٧٠٫٠٠٠ من البنود الشرقية والباقى من البنود الغربية والعاصمة علاوة على من يتعقبون الجيوش والعبيد والخدم •

وكان سكان الولايات الثغرية يتحملون نفقة الجيوش القائمة فيها ، ويؤدون النفقات نقدا للخزينة المركزية فى الشرق حيث انتشر الاقتصاد

---

(١٤٩) بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٧٩ : ١٨٢
Runciman : Byz. Civ. pp. 113:7, Byzantium pp. 301 - 3.

النقدى • أما فى الغرب فكانت تدفع عينا حيث كان معظم السكان زراعا صقالبة (١٥٠) •

وقد تقاسم **الاسطول** مع الجيش عبء صد الاخطار التى تهدد الامبراطورية ومنها الخطر العربى • وكان القائد الاعلى للاسطول هو Strategos of the Carabisiani وتحت اشرافه اثنان من أمراء البحر drungarii وكانت المناطق البحرية فى آسيا الصغرى وجزائر بحر ايجه تتولى امداد الاسطول بالرجال ، وقد ظهرت شهرة الاسطول ونفوذه منذ قيام البندين البحريين كيبيرايوت والايجى • ولكن ليو الثالث الايسورى ٧١٧ : ٧٤٠ م بعد حصار العرب للقسطنطينية اعتمد فى قوته على جيش آسيا الصغرى البرى وكذلك فعل خلفه قسطنطين الخامس • (٧٤٠ : ٧٧٥ م) ويبدو مما كتبه ليو السادس المقدونى ٨٨٦ : ٩١٢ م أن رجال الاسطول كانوا بحارا وجنودا ، كما يلاحظ فى الحملات أن جنود الاسطول كانوا غير المجدفين • وكانت السفن الكبيرة dromondis (الجارية runner) تسير ولها صفان من المجاديف غير أنه قد وجدت سفن خفيفة بصف واحد من المجاديف • وفى خلال القرن العاشر الميلادى كان أسطول القسطنطينية أقوى من أسطول البنود البحرية • وكانت توضع فى مقدمة السفن مجانيق للرمى battering-dam وأجهزة تقذف النيران الاغريقية • لكن على الرغم من تعدد فترات النشاط البحرى فقد ظل الجندى البرى يتقدم زميله البحار دائما (١٥١).

وقد جاء اقتطاع العرب للشام ومصر من أيدى البيزنطيين عاملا لأحكام نظام البنود العسكرية فى آسيا الصغرى ، وقد منحت فى ظله **الاراضى** للزراعيين الخاضعين لالتزام وراثى بالخدمة العسكرية • واعتمدت الامبراطورية منذ ذلك الوقت على هذا النظام لمواجهة الغارات التى تعرضت لها طوال القرون • وبلغ من أهميته لكيانها وارتباطه بتاريخها أن اعتبره اوستروجسكى Ostrogosky **البداية الواضحة لتاريخ الامبراطورية البيزنطية** ، واعتبار كل ما قبله مقدمة وفاتحة بين يدى هذا التاريخ الذى أبرز فيه النظام الجديد كيان الدولة الجديدة • (١٥٢)

---

(١٥٠) بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٣٥ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ـ ٦ Runciman : Byz. Civ. pp. 41, 117, Byzantium p. 300

(١٥١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٨٩ ; ١٩١ ، Buzantium : pp. 305 - 6, Runciman : Byz. Civ. pp. 119, 122 - 3

(١٥٢) Byzantium, p. XVI

خامسا ـ صراع الفرس والروم

كان انتصار **كورش** الفارسى على مملكة ليديا فى غربى آسيا الصغرى سنة ٥٤٦ ق٠م٠ بادرة لقيام قوة جديدة فى الشرق ٠ وقد هاجم قائد كورش فى العام التالى مدن الاتحاد الايونى فى آسيا الصغرى واخضعها فكان هذا اول احتكاك مباشر بين الفرس واليونان ، ثم انتصر الاغريق على الفرس فى مواقع ماراثون ٤٩٠ ق٠م وسلاميس ٤٨٠ ق٠م وبلاتايا ٤٧٩ ق ٠ م ٠ ثم قاد الاسكندر حملته المظفرة فغزا الفرس فى عقر دارهم واوغل فى أرض الشرق ٠

وخلف البارثيون (٢٤٩ ق٠م : ٢٢٦ ق٠م) دولة الاكمينيين فى حكم الفرس ، وكان لابد ان يشتبكوا مع القوة المسيطرة فى الغرب وهى روما التى حلت محل اليونان ، ولم يكن اقليم بارثيا يهدد روما نفسها كما كانت فارس فى عهد الاكمينيين تهدد أثينا وسائر بلاد اليونان ولكن الرومان فى سعيهم لكسب سيادة العالم وجدوا بارثيا سدا هائلا يقطع عليهم الطريق ٠ وبعد ان نجح البارثيون فى زعزعة حكم السلوقيين عملوا على توسيع مملكتهم فى فارس وارمينية وشمالى الهند ٠ **وكان هناك طريقان تجاريان يتجهان من بارثيا نحو سوريا : احدهما عن طريق اشور الحضر ـ نصيبين ، والثانى عن طريق دورا Doura حيث كان من الممكن السير بحذاء ضفة الفرات اليمنى نحو الخابور او سلوك طريق مختصر عبر الصحراء مارا بتدمر ٠ واتصلت بارثيا بروما بهذا الطريق التجارى وحملت اليها البضائع** الشرقية التى وردت اليها من الصين والشرق الاقصى ٠ وفى سنة ٩٢ ق٠م عندما كان سلا Sulla **فى منطقة** الفرات يراقب شئون البحر الاسود وارمينية **ظهرت فكرة محالفة البارثيين ٠ غير انه لم يكن بد من اصطدام دولتى الشرق والغرب فظلتا تقتتلان نحو ٣ قرون دون نتيجة حاسمة ٠ وشهد الفرات معاركهما** فهزم

الرومان هزيمة نكراء فى كرهاى « حران » Carrhae سنة ٥٣ ق٠م٠ كما فشلت محاولة ماركوس انطونيوس للاستيلاء على الحصن الجبلى الهائل فى فراتا (تخت سليمان باذربيجان) ٠

وقامت الامبراطورية الساسانية (٢٢٦ ق٠م : ٦٤١ م) فكانت خليفة البارثيين في منافسة روما وعدائها ، واشتركت الدولتان فى حروب طويلة كانت حلقة جديدة فى سلسلة الصراع بين الشرق والغرب ٠ وكان اميانوس مارسيلينوس Amianus Marcellinus وبروكوبيوس Procopius جنديين للغرب كما كانا مؤرخين فوصفا تفصيلا حملات الرومان التى اشتركا فيها ضد الساسانيين ٠ وكان الساسانيون على شجاعة وحيلة ، وقد استعملوا سلاح النار وكان شيئا جديدا مستحدثا وقتذاك ، ولعله هو الذى أعان كالينكوس بعد بضعة قرون على اختراع النار اليونانية وهى صورة فعالة من النار الفارسية (١٥٤) وقد رأى الساسانيون بعد فترة من بداية دولتهم ان **بلاد بين النهرين صارت المركز الرئيسى للامبراطورية تبعا للتطور التاريخى** وانتقل دور بابل السياسى الى سلوقية ـ طيسفون ٠ وكانت مدينة **طيسفون (المدائن)** خارج الاراضى الايرانية بالمعنى الحقيقى اذ كانت فى **الاقاليم الارامية** ، **وكانت البلاد العربية** تبدأ قريبة من اسوار ويه اردشير (سلوقية الجديدة التى أسسها اردشير مكان القديمة المخربة بايدى الرومان) ٠ وقد نشأت امارة عربية جديدة تابعة للدولة الساسانية **فى الحيرة** وراء نهر الفرات عند منعطفه نحو دجله ، وكانت حصن الفرس حيال العرب الرحل ، فى حين كانت امارة الغساسنة بالشام تابعة وحليفة للرومان ٠ (١٥٥) وهكذا نشأت الدولة الساسانية بين عوامل وظروف اعانت على توجيه سياستها وعلاقاتها مع البيزنطيين والعرب ٠

اتسعت الدولة الساسانية فى ظل نظام حربى قوى ، **ولم يكن بالاقليم الجبلى الممتد بين أقاصى شرقى البحر الاسود ومجرى دجلة الاصلى حدا طبيعيا فاصلا بين الفرس والروم ، وكانت ارمينية اضعف من ان تنهض بعبء الدولة الحاجزة بين الدولتين الكبيرتين** ٠ وتنازعت كبراءها ميول متضاربة نحو الفرس والرومان ، كذلك دار كثير من المعارك بين الفريقين فى **منطقة بين النهرين وسوريا الشمالية ، وكشف ذلك عن أهمية هذه المنطقة الحساسة فى احتكاك الشرق والغرب تجاريا وحربيا** ٠

---

(١٥٤) تراث فارس ص ٤٨ : ٥٠ ، ٤١٠ : ٤ ، ٤٢١ : ٦

(١٥٥) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة دكتور الخشاب ص ٨٠ ، ٨٢

وفى سنة ٢٤٤ م انتهى قتال الفريقين بمعاهدة بين سابور الاول (٢٤١ : ٢٧٢ م والامبراطور فيليب العربى (٢٤٤ : ٩ م) نص فيهـــا على ترك ارمينية للايرانيين ، ولكن تجددت الحرب بعد قليل وانهـــزم الامبراطور الرومانى فالريانوس Valerianus (٢٥٣ : ٢٦٠ م) ووقع اسيرا غير ان جيوش الامبراطور كاروس Carus (٢٨٢ ـ ٣ م) تقدمت بعد ذلك حتى بلغت المدائن ولكن تراجع الروم لوفاته ، **وعقد صلح سنة ٢٨٣ م تملكت به روما ارمينية والجزيرة** بسبب انشــغال بهرام الثانى ابن سابور (٢٧٦ : ٢٩٣ م) بثورة اخيه هرمزد حاكم خراسان ، كما اضطر نرسى بن سابور (٢٩٣ : ٢٩٧ م) أيضا أن يتنازل للرومان بعد أن هزموه عن مقاطعات من ارمينية **واعترفت ايبيريا (جورجيا) بســـيادة الامبراطور** •

واستمر السـلم بين الفـرس والروم قرابة ٤٠ سنة ، ثم عـادت رحى القتال تدور فى **ارمينية** فاجتاح ســابور الثـانى (٣٠٩ او ١٠ : ٣٧٩ م) ارمينيــة واصطدام بالرومان فى الجزيرة وثبتت قلعــة نصيبين لهجمات الفرس وظفر الرومان فى معركة سنجار ، لكنهم انهزموا بعد ذلك ولما لم تفلح محاولات الصلح استؤنف القتال بهجوم سابور على قلعة آمد (دياربكر) ســـنة ٣٥٩ م • صـار جوليـان julian امبراطورا (٣٦١ : ٣ م) فواصل الجهود التى تتابع عليها قسطنطين (المتوفى فى ٣٣٧ م) وقسطنطيوس (٣٣٧ : ٣٦١ م ـ منفردا بعد ٣٥١ م) ، فقاد الجيوش الرومانية وبين قواده هرمزد الفارسى الطامع فى العرش وقد اوقف الفرس الهجوم وأعانت ارمينية الرومان ، لكن قتل جوليان وانسحب الروم الى ما وراء الحدود **وعقد صلح لمدة ٣٠ عاما كسب فيه الفرس نصيبين وسنجار والمقاطعات المتنازع عليها فى ارمينية وانتزع الاقليمان القوقازيان ايبيريا (جورجيا) والبانى من السيادة الرومانية** ووضعا تحت ســيادة الفرس • لكن لم تنقطع المنازعات بين الساسانيين والروم حول التدخل فى شئون ارمينية • وقد تنازل الامبراطور ثالنسValens (٣٦٤:٣٧٨م) من جديد للملك الفارسى عن حق التدخل فى شئون عرش ارمينية • وفى اوائل حكم بهرام الرابع (٣٨٨ : ٩٩ م) اقتسم الفرس والروم ارمينية فدخل قسمها الشرقى وهو اكبرها تحت حماية الفرس وخضع القسم الغربى لحماية الرومان •

واستتب السلام بين الامبراطورتين الكبيرتين حتى رأينا يزدجرد الاول (٣٩٩ : ٤٢١ م) يأخذ تحت وصــايته الطفل القاصر الذى تولى

العرش البيزنطى فيما بعد باسم ثيودسيوس الثانى (٤٠٨ : ٤٥٠م) .
ثم دارت حروب قصيرة متتابعة بين الفرس والروم واستولى قباذ (٤٩٨ أو ٩ : ٥٣١م) على آمد وانتهت حروبه بصلح مع الامبراطور جستين Justin (٥١٨ : ٥٢٧ م) وطلب اليه ان يتبنى ابنه كسرى (١٥٦)

وجاء جستنيان Justinian (٥٢٧ : ٥٦٥ م) **فعمل على تقوية الحصون الواقعة على الحدود عند بين النهرين** Mesopotamia **وكان تحصينه لاستحكامات دارا** Dara **المجاورة لنصيبين الفارسية سبب الحرب الذى اختاره قباذ وكانت حربا دامية لكنها لم تكن حاسمة رغم** انتصار البيزنطيين عند دارا سنة ٥٣٠ م ولم ينجح احد الطرفين فى انتزاع حصن واحد ذى قيمة من الطرف الآخر . وعندما مات قباذ وعقد ابنه كسرى أنو شروان (٥٣١ : ٥٧٨ م) الصلح مع الامبراطورية سنة ٥٣٢ م لم تتعد شروط الصلح اعادة الحدود الى ما كانت عليه وقد ظهر فى تلك الحرب بليزاريوس Bllisarius قائد جستنيان (١٥٧) ، **ثم اراد انو شروان ان ياخذ جستنيان على غرة** وكان جيش الروم على الفرات ضعيفا جدا فتحاشى كسرى بجيشه قلاع بين النهرين وانقض على سوريا الشمالية فوجه ضربة الى انطاكية الفنية التى لم تكن قد رأت عدوا منذ ٣ قرون تقريبا واستولى عليها سنة ٥٤٠م وخربها واسر الآلاف منها وانزلهم على الفرات فى انطاكية الكسروية Chosro Antiocheria وكان كسرى يشن هجوما على قلاع الحدود الرومانية كلكيز Colchis وهى زراعية بين جبال قوقاز فى الشمال وارمينية فى الجنوب والبحر الاسود فى الغرب وترد اليها متاجر آسيا الشرقية ، فواتته الانباء أن بليزاريوس غزا شمالى الفرات وحاصر نصيبين فتراجع كسرى ثم انسحب القائد الرومانى بعد نجاحه فى الدفاع عن خط الفرات وارتد الغزاة بعد استيلائهم على احدى قلاع بين النهرين. واستمرت الحرب سنتين اخريين. ثم عقد الصلح سنة ٥٤٥م بعد أن ارتد كسرى عن اسوار ادسا (الرها) وقد تنازل عن فتوحاته وكانت قليلة الاهمية ، كما وافق جستنيان على دفع ألفي رطل من الذهب ، لكن استمرت الحرب المتقطعة من أجل السيادة على مملكة لازيكا Lazica على حدود كلكيز قرب البحر الاسود طيلة ٧ سنوات حتى عقد الصلح النهائى بين الدولتين سنة ٥٦٢م لمدة الحرب سنة

---

(١٥٦) المرجع السابق : مقتطفات متفرقة من الفصل الخامس (دولتا المشرق والمغرب) بشأن سير الحروب بين الدولتين ص ٢٠٨ وما بعدها ، ٣٣٨ : ٣٤٠

(١٥٧) أومان : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور بدر ص ٥٨ ـ ٥٩

على أن يترك **لكل من الطرفين ماله من الاراضى القديمة . ان غير النزاع تجدد سنة ٥٧٢م بسبب اضطرابات أرمينية** ، وفشلت مفاوضات الصلح فى أواخر عهد أنوشروان ثم فى عهد هرمزد الرابع (٥٧٨ : ٥٩٠م) وعلى اثر تولى كسرى الثانى ابرويز (المظفر) سنة ٥٩٠م نازعه بهرام على العرش حتى اضطره للهرب الى الحدود البيزنطية والاحتماء بالامبراطور موريس (موريق سنة ٥٨٢ : ٦٠٢ق) وقد امده هذا بمعونة مقابل ان ينزل له كسرى عن دارا وميافاتين اللتين استولى عليهما الروم فى الحرب. وعاد كسرى بروين الى العرش بهذه الطريقة . (٥٩١ : ٦٢٨ م)

وجاء مقتل موريس على يد فوكاس (فوقاس سنة ٦٠٢ : ٦١٠م سببا تذرع به كسرى لاعلان الحرب على البيزنطية. وعلى الرغم من ان فوكاس هذا طرده هرقل (٦١٠ : ٦٤١ م) الا أن الحرب استمرت . وغزت قوات الفرس جهات من آسيا الصغرى واستولت على الرها وانطاكية ودمشق ثم بيت المقدس وبعث الفرس بالصليب الى المدائن ثم استولوا على الاسكندرية واجزاء من مصر وبلغت قوة كسرى اوجها سنة ٦١٥ م . ولكن هرقل استطاع آخر الامر أن يوقف الزحف الفارسى ويستعيد السيطرة الكاملة على آسيا الصغرى ، ثم تقدم مطاردا جيوش كسرى فى أرمينية وأذربيجان واستولى سنة ٦٢٣ ــ ٤ م على جنزك **Ganzak** حيث ثأر لانتزاع الصليب بضرب بيت النار . ثم غزا وادى دجلة واستولى سنة ٦٢٨ م على قصر الملك فى دستجرد ، واستعد لحصار المدائن وهنا غادر كسرى العاصمة وما لبث أن لقى حتفه بعد قليل . وقد اضطربت الامور بعد كسرى برويز ، حتى **كانت نهاية الساسانيين على ايدى العرب المسلمين** . (٦٤١ ــ ٢ م) « ١٥٨ » .

واتخذ الصراع بين الفرس والروم وجها دينيا أيضا.. وكان نصارى ايران قد عاشوا فى سلام ما كانت الامبراطورية الرومانية وثنية ، ولكن الموقف تغير عندما صارت مسيحية . فقد كان على نصارى ايران ــ وكانوا كثيرين فى الولايات المجاورة للدولة الرومانية ــ أن يتحملوا نتائج اتحادهم فى الدين مع الرومان . فبدأ اضطهاد الفرس للمسيحيين ، وبخاصة فى ولايات الشمال الشرقى وفى المناطق المتاخمة للامبراطورية الرومانية . كما بدأ تدخل الرومان ــ بسفاراتهم أحيانا وبقواتهم الضاربة أحيانا أخرى ــ من أجل حماية المسيحيين . وفى عهد يزدجرد الاول أرسل وفد

---

(١٥٨) أومان : الامبراطورية البيزنطية ــ ترجمة دكتور بدر ص ٧٧ : ٩، كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ــ ترجمة دكتور الخشاب ص ٣٥٧ : ٩ ، ٤٢٧ : ٤٣٢

برياسة ماروثا اسقف ميافارقين من قبل الامبراطورية البيزنطية واسفرت مباحثاته عن السماح ببناء الكنائس المخربة واطلاق المسيحيين المسجونين والسماح لرجال الدين المسيحي بالتجول فى أنحاء الدولة • وحث ماروثا الملك على عقد مجمع للاساقفة فى سلوقية بجـــوار المدائن لترتيب أمور نصارى ايران وتحقيق وحدة الكنيسة المسيحية • **وقد كانت المسيحية سببا فى توثق صلات ارمينية بالرومان** ، ووجدت أسقفيات كثيرة فى المنـــاطق الارمينية والكردية شرقى دجـلة حتى كركوك وحلوان وناحية الجنوب فى جنديسابور وسوس وهرمزد اردشير (سوق الاهواز) • وكان للجالية النصرانية مركز كبير فى ادسا (الرها) ، وقد أقام الفرس أسرى الرومان وسوريا فى جهات نائية من الدولة ومعظم هؤلاء السكان الجدد كانوا من النصارى • (١٥٩) وحرص الروم فى معاهداتهم التى عقدوها مع الفرس على النص على حرية العقيدة ، ومن ذلك الصلح مع أنوشروان سنة ٥٦٢ م •

وبالنسبة لبلاد العرب عمل الروم كذلك على مناصرة المسيحية ، فأرسل الامبراطور قسطنطيوس سفارة تيوفيلوس سنة ٣٥٦ م • على ان الديانة اليهودية التى كانت قد دخلت بلاد العرب فى الغالب منذ غزو الامبراطور تيتوس لفلسطين وتخريبه بيت المقدس سنة ٧٠م قد ازدهرت هى الاخرى ، حتى حكم اليمن فى النصف الاول من القرن ٦م ملك حميرى يهودى يدعى ذو نواس • وأقبل الفرس يشدون أزر اليهود ـ كما يبدو ، **وتمخض صراع الفرس والروم عن مذبحة كبرى داخل اليمن اطاح فيها اليهود بمسيحيى نجران سنة ٥٢٣ م ، كما اعتدوا على التجار البيزنطيين• فأرسل جستين الاول (٥١٨ ـ ٥٢٧م) الى ملك الحبشة** يدعوه لوضع حد لعدوان اليهود فى اليمن • فجهز النجاشى حملة (أرياط) التى عبرت البحر الاحمر وتمكن (أبرهة) خليفة أرياط فى القيادة من هزيمة ذى نواس الذى فر تاركا اليمن لسيادة الحبشة المسيحية سنة ٥٢٥ • لكن الاحباش لم ينجحوا كثيرا فى نشر المسيحية أثناء حكمهم لليمن ، وهى التى كانت تحمـــل معها تغلغـلا سلميا للسيادة البيزنطية • وقد وجد الفرس فرصتهم حين قامت حركة **سيف بن ذى يزن** سليل البيت الحميرى الملكى القـديم **لتخليص اليمن من حكم الحبشة ، فطلب هذا من كسرى أنوشروان المعـونة ، فامده بحملة من ٨٠٠ رجل سـنة ٥٧٥ م ، فانهزم**

---

(١٥٩) كريستنسن ـ ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة الدكتور الخشاب ص ٢٥٣ : ٧

الاحباش **ولكن انهارت سيادة اليمن نفسها** ووقعت تحت حكم الفرس(١٦٠) وهكذا ساد الحروب الفارسية البيزنطية **حمالس صليبى** خاصة عندما استولى الفرس على بيت المقدس وانتزعوا الصليب فقد اشتعل الحماس وتغلب على اليأس حتى اضطرت الجيوش البيزنطية كسرى أن يهرب حاملا النار المقدسة عند ضرب جنزك ٠

كذلك كان للصراع بين الفرس والروم وجهه الاقتصادى ٠ فالدولة البيزنطية رغم مكانتها التجارية العالية لم تكن العميل المباشر مع الشرق الاقصى ، وقد غدت الدولة الساسانية بموقعها الجغرافى عقبة كؤودا فى وجه الطرق التجارية المؤدية الى بيزنطة ، فأدى هذا التنافس التجارى الى الصراع بين القوتين على المنافذ التجارية ٠ **ويمكن تلخيص الاتجاهات الرئيسية لمجرى الحروب المتقطعة بين الدولتين فى محاولة فارس مد ذراعيها للوصول الى البحر الاسود والبحر المتوسط، ووقوف بيزنطة لصد الزحف الفارسى** ٠ ولئن كانت بيزنطة قد نجحت فى الاحتفاظ بمنافذ الطرق الرئيسية الا أن الحروب الطويلة قد أشاعت الفوضى والاضطراب فى الطرق الاسيوية ، فالتمس البيزنطيون طريقا آمنا بعيدا عن أرض فارس باحياء طريق البحر الاحمر واحراز نفوذ فى بلاد اليمن المسيطرة على مدخل ذلك الطريق ٠ وكانت الدولة الرومانية الكبرى تولى هذا الطريق البحرى عنايتها من قبل ، حتى ان أغسطس بعث حملة من مصر بقيادة حاكمها الرومانى من ايليوس جالوس Aelius Gallus سنة ٢٤ ق٠م ٠ لاخضاع الحميريين ، وقد فشلت الحملة لكنها كشفت عن اهتمام الرومان المبكر بالطريق البحرى ، وهو اهتمام لم يتابعه البيزنطيون الا فى زمن متأخر على الرغم من انهم كانوا يملكون ميناء أيلة على خليج العقبة وكانت تنقل التجارة منه برا الى سوريا ، وميناء القلزم حيث تنقل المتاجر الى البحر المتوسط ، ذلك الى جانب عدة جزر جنوب رأس شبه جزيرة سيناء أقام البيزنطيون فى احداها وهى جوتابا (تيران) ديوانا تجبى فيه المكوس على الواردات الشرقية قبل دخول البحر المتوسط ٠

وتراخت قبضة بيزنطة على هذه المراكز الحساسة منذ أيام ليو الاول (٤٥٧ : ٤٧٤م) فاستولى مغامر فارسى يدعى اموركيزوس Amorkesos على جوتابا وجمع لنفسه مكوس التجارة وبسط نفوذه على الاقاليم

---

(١٦٠) دكتور العدوى ـ الامبراطورية البيزنطية الدولة الاسلامية ص ٩ : ١١ ، ١٦ ، دكتور مؤنس : التعليق على كتاب جرجى زيدان : (العرب قبل الاسلام) ص ١٢٥ ـ ٦ هامش

المجاورة للجزيرة وتطلع الى أن ينال من الدولة البيزنطية لقب فيلارخ وحاكم ولاية العرب الصخرية • ويرى موزيل ان هذا الرجل عربى اسمه امرؤ القيس سيد قبيلة الناقلة • وقد رضخت الدولة لمشيئته ، لكن انستاسيوس الاول (٤٩١ : ٥١٨م) قام بتأديب البدو وأعاد جوتابا الى بيزنطة سنة ٤٩٨ م • كذلك أرسل الامبراطور البيزنطى جستين الاول (٥١٨ : ٥٢٧م) الى نجاشى الحبشة بشأن اخضاع اليمن ، ويمكن اعتبار تلك الحملة التى حققت بها الحبشة رغبة بيزنطة جزءا من سياسة بيزنطة العامة وقتذاك فى اخضاع القبائل العربية واستخدامها ضد فارس •

كما رأى جستنيان (٥٢٧ : ٥٦٥م) أن يجتذب اليه مملكة أكسوم (الحبشة) Auxomitae ودولة الحميريين فى اليمن ـ وكانتا تقومان بالوساطة فى نقل تجارة الهند والشرق الاقصى عبر البحر الاحمر الى أراضى الدولة البيزنطية • فأرسل سفارة اليها لتنفيذ أغراضه التجارية والسياسية وتشجيع الحبشة على الوقوف فى وجه احتكار الفرس لتجارة الحرير ومنتجات الشرق • وقد بين كوزماس بحار المحيط الهندى Cosmas Indicopeustos فى كتابه الذى وضعه حوالى منتصف القرن ٦ م تفوق الفرس على البيزنطيين والاحباش فى التجارة الشرقية بفضل خليجهم المطل على المحيط الهندى ، وان كانت العملة البيزنطية قد تمتعت بالسمعة الطيبة فى المياه الشرقية • وقد تلقب ابرهة نائب ملك الحبشة فى اليمن بملك سبأوذى ريدان وحضرموت ويمنات واعرابها فى النجاد وفى تهامه ـ وهو اللقب القديم لملوك حمير المستقلين • وعظم شأن أبرهة ووفدت عليه وفود ملكالفرس والمنذر والحارث بن جبلة ورؤساء القبائل، وعمل على نشر المسيحية باليمن وبناء الكنائس وأهمها القليس Ecclesia ثم سار أبرهة بجيشه قاصدا مكة ، ومن غير المعقول أن يكون سبب مسيره رغبته فى تحويل العرب عن الكعبة الى القليس ، أو الانتقام من أفراد عبثوا بحرمة القليس كما تذكر الروايات • وقد رجح الدكتور صالح العلى أن يكون السبب ما رواه بروكوبيوس من ان البيزنطيين فى صراعهم مع الساسانيين استنجدوا بملك الحبشة ليعينهم بقوة عسكرية، فسار أبرهة وفى نيته أن يصل الى الشام لينضم الى جيوش البيزنطيين • وعلى كل حال فقد كانت حملة أبرهة الفاشلة الى مكة عام الفيل سنة ٥٧١ م تعنى امتداد سيطرة الاحباش وكلاء بيزنطة على أهم شريان تجارى فى بلاد العرب • ولكن الاحباش أدركهم الضعف ولم يستطيعوا تحقيق السيطرة الاقتصادية لصالح البيزنطيين على التجارة الشرقية عبر البحر الاحمر ، كما تدهور الحميريون اقتصاديا وتصدع سد مأرب وتتابعت هجرات

اليمنيين الى الشمال · وانتهز الفرس الفرصة فأعانوا سيف ابن ذى يزن على الاجهاز على السيادة الحبشية ، وسرعان ما حلت السيادة الفارسية محلها · وهكذا كانت بلاد اليمن بوابة انثالت منها بيزنطة وفارس الى جنوبى بلاد العرب وتدافعتا على السيطرة التجارية ، بينما حالت صحراء الشـــام وما والاها جنـوبا دون تدخـل الدولتين فى بـلاد العرب من الشمال · (١٦١)

ومن هنا تبـدو أهمية الصراع الاقتصـادى لتفهم العداء البيزنطى الساسانى ، ولذلك نص صلـح الدولتين سـنة ٥٦٢ م مثـلا على حرية التجارة بين ايران وبيزنطة · وقد وجد العرب أنفسهم غير بعيدين عن الصراع الفـارسى الرومى · فهم قـد احتكوا بسياسة الروم فى الشام واليمن كما لم يكونوا بعيدين عن سياسة الفرس · فالعاصمة الساسانية طيسفون (المدائن) كانت فى الاقاليم الارامية ، كما كانت البلاد العربية قريبة من أسوار «ويه اردشير» (سلوقية الجديدة) ، وقد **اصطدم اردشير الاول بالمملكة العربية الصغيرة فى (الحضر)** وتقع فى الصحراء جنوبى نينوى القديمة ، ولعلها لم تذعن الا أيام سابور الاول · وهذا الاخير قـد زها بانتصاره على الامبراطور الرومانى فالريانوس فاستخف بأذينة حاكم **تدمر** العربى · فبينما كان الملك الفارسى عائدا بعد اجتياح سوريا وكبادوكيا هاجم اذينة بقـواته الى جانب الفرق الرومانية جيش الفرس فارتد وراء الفرات بعد خسائر فادحة ، واســتولى أذينة على الكرخ ونصيبين وامتد سلطانه الى الشام وخلع عليه الامبراطور جالبنوس Gallienus (٢٣٥ : ٢٦٨م) ألقاب التشريف · وقد استمر الفرس يحاربون تدمر بغير جدوى حتى سنة ٢٦٥ م ولم يقدموا يد العون للزباء حين كان يسحقها الرومان·

وقد اشتهر بين العرب قبل الاسلام **سابور الثانى الذى لقب بذى الاكتاف لمقتلته فى العرب** ومعاركه ضد قبائلهم ، وقد احتل البحرين ·

وانشأ الفرس امارة عربية جديدة فى **الحـيرة** لتكون ولاية حاجزة تحمى دولتهم من البدو الرحل · واشتهر قبل الاسلام **بهرام الخامس الذى قضى فترة صباه فى الحيرة** ، فلما توفى يزدجرد الاول تطلع الى العرش

---

(١٦١) دكتور العدوى ـ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٥ : ٩ ، ١١ : ١٧ ،
دكتور مؤنس : التعليق على كتاب جرجى زيدان (العرب قبل الاسلام) : ص ١٢٦ ، ٢٧٩ هامش

Bury : Hist of Later Rom. Emp. Vol. II, 7 - 8.

موزيل : شمال الحجاز ـ ترجمة دكتور الحسينى ص ١١٨ : ١٢١

ابنه سابور الذى كان أبوه قد أقامه ملكا على القسم الفارسى من أرمينية فنازعه بهرام بجيش ملك الحيرة الذى يضم فرقتين : دوسر لتنوخ وغيرها من القبائل العربية حول الحيرة والشهباء للفرس • وقد استطاعت هذه القوات تنصيب بهرام الخامس (٤٢١ : ٤٣٨ أو ٩) • وقد دخل عرب الحيرة في الصراع الدائر بين الساسانيين والبيزنطيين ، ووقفوا ضد الغساسنة الذين كانوا يحرسون حدود البيزنطيين ، **وقد نصب جستنيان الحارث بن جبله فيلارخا على عرب الشام ليقوم بمدافعة المنذربن ماء السماء اللخمى عن ارض الروم ، وانتهى الصراع بينهما بقتل المنذر على يد الحارث فى موقعه عند عـودايا بناحية قنسرين قرب تدمر** ، ويذهب حمزه الاصفهانى وابن الاثير وغيرهما الى أن تلك المعركة هى المعروفة فى أيام العرب باسم (عين أباغ) ويسميها بعض الاخباريين (ذات الحيار أو ذات الحيار) وهو موضع ببرية قنسرين • وحدث أن أدى نزاع الغساسنة واللخميين الى الحرب بين أنوشروان وجستنتان • وفى عهد كسرى الثانى برويز اضطهد النعمان الثالث ملك الحيرة ، وقيل ان سبب ذلك هو رفضه مصاحبة الملك الفارسى أثنـاء هربه أمام بهرام وابائه أن يزوجه ابنته ، فسجنه كسرى بين سنتى ٥٩٥ ، ٦٠٤ ثم قتله وانتزع مملكة الحيرة من اللخميين ليعهد بها الى اياس الطائى وأقام بجـانبه رقيبا من الفرس • (١٦٢)

وواجهت الدولتان الساسانية والبيزنطية خطر غارات البرابرة على حدودهما ، فحارب يزدجرد الثـانى برابرة اقليم كوشا كمـا هزم ملك القبائل الهونية الرحل فى جول وكان يسكن شـمالى جرجان • وشيد يزدجرد فى الاقليم الذى فتحه مدينة (شهرستان ـ يزدجرد) وأقام بها بضع سنين ليكون قريبا من الحدود المعرضة لغزو البرابرة ، كما حارب القبائل الهونية التى تسمى الكدارية ـ تبعا لاسم ملكهم كدارة ـ لغزوهم اقليم طالقـان فى الشرق • هزم فيروز الكداريين كمـا اتجه الى صد السرجوريين وغيرهم من البرابرة الذين توغلوا فى جورجيا وارمينية من معابر القوقاز ، وحارب الهياطلة الذين قدموا من نواحى الصين وغزوا طخارستان بعد أن هجرها الكداريون وقد انهزم فيروز أمامهم • لكن لم تكن العلاقات عدائية دائمـا بين الفرس والهياطلة ، فقـد هرب قباذ على اثر

---

(١٦٢) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة الدكتور الخشاب ص ٢٠٨ ، ٢١٣ : ٥ ، ٢٢٤ ـ ٥، ٢٦١ ، ٣٥٧ ، ٤٣٥ ، دكتور مؤنس : تعليق على كتـاب جرجى زيدان : (العرب قبل الاسلام) ص ٢٣٤ هامش .

عزله الى بلاط ملك الهياطلة أو الخاقان فوجد ترحيبا ، وعندما حارب الفرس البيزنطيين سنة ٥٠٢ م قاتلت فرق الهياطلة معهم • وقد أدى تسرب غزاة الهون من **أبواب قزوين (فجوة داريال)** الى سعى قباذ لمهادنة البيزنطيين ، فعقد معهم هدنة لمدة ٧ سنوات سنة ٥٠٥ أو ٥٠٦ م بعد أن كان قد نجح في الاستيلاء على آمد • ونجح كذلك فى صد الهون ، ولكن الهون السابرية عادوا الى غزو أرمينية وآسيا الصغرى بعد ١٠ سنوات فجعل قباذ من المدينة القوقازية برتو (فيروز ــ قباذ) حاجزا منيعا ضد غزوات البرابرة (١٦٣) • وقد أقام أنو شروان استحكامات **دربند** فى وجه الشعوب المتبربرة المحيطة به • ويحدثنا المسعودى فى أخبار **الباب والابواب** ومن حوله من الامم : « وهذا الجبل ذو شعاب وأودية ، ومدينة الباب والابواب والسور على شعب من شعابه بناها كسرى أنو شروان وجعلها بينه وبين الخزر ، وجعل هذا السور من جوف البحر على مقدار ميل منه مادا الى البحر ، ثم على الجبل مادا فى أعاليه ومنخفضاته وشعابه نحوا من أربعين فرسخا الى أن ينتهى ذلك الى قلعة • وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور أو أقل أو أكثر على حسب الطريق بابا من حديد ، وأسكن من داخله على كل باب أمة تراعى ذلك الباب وما يليه من السور • كل ذلك ليدفع أذى الامم المتصلة بذلك الجبل والخزر واللان والسرير وغيرهم » (١٦٤) •

وقد تعاون الروم والفرس أحيانا **على صد خطر البرابرة رغم العداء بين الفريقين** ، فعندما اختتمت حرب السنوات الاربعين بين الفرس والروم فى عهد سابور الثانى على اثر مقتل الامبراطور جوليان سنة ٣٦٣م تعهد الرومان تعهدا شبه رسمي باستمرارهم فى المحافظة على **الابواب القزوينية عند ثغرة داريال** وكانت تحمى أقاليم جنوب القوقاز من غارات البرابرة ، وأقر قباذ للامبراطور انستاسيوس بحقه في تقاضى معونة مالية للدفاع عن شعاب القوقاز ضد البرابرة ، وما فتىء ذلك الامر مثار خلاف بين الفرس والروم • وقد طالب الامبراطور بمدينة نصيبين الحصينة ، ولكن قباذ لم يقبل هذا الشرط رغم انه كان يعانى من ثورات العشائر الجبلية من القادشيين وهم من الهياطلة كما يبدو ، والتموريين ، ومن غارات العرب (١٦٥) •

---

(١٦٣) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ــ ترجمة دكتور الخشاب ص ٢٧٣ ، ٢٧٨ : ٢٨٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨

(١٦٤) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ١٠٩ ــ ١١٠

(١٦٥) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ــ ترجمة دكتور الخشاب ص ٢٢٧ ــ ٨ ، ٣٣٣

ولم تنقطع الانتقاضات والهجمات فى تلك المناطق الوعرة حينما كون المسلمون دولتهم ، وكان انشغال الدولة الاسلامية بمقاومتها مؤثرا على مجرى الامــور فى منطقــة الثغــور والعواصم ، وقد حاول البيزنطيون الاستفادة من الفتن التى يواجهها المسلمون فى الجبهة الداخلية ، ومن ذلك محاولتهم استغلال الفتنة الخرمية لصالحهم ٠

وتعرض **البيزنطيون** أيضا لهجمات البرابرة : اللمبارد فى ايطاليا والسلاف (الصقالية) والآفار فى شبه جزيرة البلقان ٠ وكان الآفار من فرسان البدو الذين تحركوا صوب الغرب حتى ظهروا على طول حـدود البلقان وساحل البحر الاسود، ووقعت أول غارة لهمعلى الاراضى الرومانية سنة ٥٦٢ م ٠ وأما السلاف فكانوا أشد خطرا اذ لم يكتفوا بالنهب بل قصــدوا التــوطن ، وقد تزايدت غاراتهم بعد مــوت جستيان ٠ وقدم السلاف الى منطقة الدانوب عندما سار اللمبارد نحو الغرب ، وعمـل السلاف والآفار متحالفين حينا ومفترقين حينا آخر ٠ وقد اكتسحوا بلاد اليونان ســـنة ٥٨١ م والاقليم القريب من تسالونيكا وتراقيا كلها ، وسرعان ما أصبح **الحزام المؤلف من القلاع الممتدة على طول الدانوب منطقة مخربة يسكنها السلاف فى نقط متفرقة (١٦٦)** ٠

وضاعفت هجمات المسلمين متاعب الدولة البيزنطية اذ صار عليها أن تواجه الخطة فى جبهتين ، فتشـــتتت قواها الدفاعية أمـام العرب والبرابرة ٠

على ان علاقات الفرس والروم لم تكن عدائية فحسب ، فقد استمرت **التجارة** على الرغم من هذه الحروب كما حدثت **اتصالات دبلوماسية** فى مفاوضات الصلح ٠ وقد رأينا هرمز أخا الملك الفارسى سابور الثانى فى جيش الامبراطور جوليان يؤمل أن يجلسه الروم على عرش ايران ، كما استعان كسرى برويز بالامبراطور موريس للعودة الى عرشه ــ وقد تأثر بغير شك بالفترة التى قضاها فى جوار الروم واشـــترك مناصروه من الفرس مع القوات البيزنطية فى اعادته الى عاصمته ٠ وتجاورت المؤثرات الرومانية والفارسية فى**أرمينية** ، كما دخل **التأثير الرومانى فى الامبراطورية الساسانية** مع الاسرى الرومان الذين كان الفرس يسكنونهم فى بلادهم ويســتفيدون من خبراتهم ، وقد أقامهم ســابور الاول فى **جنديسابور وتستر** ، وهم الذين أقاموا السد والجسر الكبير فى تســتر (شاذوران

---

(١٦٦) أومان : الامبراطورية البيزنطية ــ ترجمة دكتور بدر ص ٩٥ :٨

تستر) (١٦٧) . وعلى هذا النحو وجد السبيل لاتصال ثقافى حضارى بين الجانبين المتعادين ، حتى ان شتين الذى درس الصلات بين نظم الدولة الفارسية فى القرن ٦ م ونظم الدولة البيزنطية فى القرن ٧ م قد لاحظ التشابه الملفت للنظر بينها . وجرى الحال على هذا المنوال حين ورث المسلمون امبراطورية الساسانيين فى المشرق وصارت لهم حدودهم المشتركة مع البيزنطيين اذ نجد للعلاقات الاسلامية البيزنطية هذا الجانب الحضارى السلمى مقترنا بالجانب الحربى العدائى .

***

وأكل الصراع الفرس والروم ، ونخرت البرابرة فى بنيان الدولتين « وبعد الصلح سنة ٦٢٨م استولى على الامبراطوريتين الرومانية والفارسية اعياء وركود ، وقد جف معينهما من المال والرجال .. ولم يحدث قبل ذلك مطلقا ان أنزلت قوة منهما بجارتها مثل هذه الضربات الفظيعة كما حدث فى صراعهما الاخير ، فقد كان الصراع فى الحرب السابقة يثار حول قلاع الحدود وينتهى بالاستيلاء على قطعة صغيرة من الارض ، ولكن **كسرى وهرقل سدد كل منهما الى قلب امبراطورية الآخر ضربات قاتلة** واكتسح كل منهما الولايات الداخلية فى دولة الآخر حتى أبواب عاصمته ، ووجه ملك فارس جميع الآفار الى تراقيا كما وجه امبراطور الرومان جموع الخزر الى أسوار المدائن .. وفى هذه اللحظة انقض **عدو جديد مخيف** على القوتين اللتين انهكتهما الحرب فحطم مملكة فارس العريقة ، ومزق نصف ولايات الامبراطورية الرومانية . وكان هرقل قد استنزف موارد الخزانة وفرض مزيدا من الضرائب وسرح كثيرا من جنوده المحنكين . ولم تستطع سوريا أن تعود الى حالتها الاولى بعد أن قضت ١٢ عاما تحت النير الفارسى فقد مزقتها المنازعات الدينية ورفع أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (المنوفيزيون) رؤوسهم مدة الحكم الفارسى ، وقد قاوموا بشدة محاولات هرقل لفرض مذهب الدولة بعد فتح البلاد من جديد » (١٦٨) .

ولفح لهيب الحرب نظم الحكم عند الساسانيين والبيزنطيين: فتضخمت السلطة العسكرية عند الاولين وظهر نظام البنود لمواجهة ضغط المطالب الحربية عند الآخرين ، وبدت مظاهر التفكك فى الامبراطوريتين فنفذ من ثغراتها العرب المسلمون فى زحفهم المظفر على الشام والعراق والجزيرة وارمينية وغير ذلك من الاقاليم الساسانية والبيزنطية « اما ان هذه

---

(١٦٧) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة دكتور الخشاب ص ٣١٠

(١٦٨) أومان : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور بدر ص ١٢٣ : ٦

الجيوش من عرب الصحراء قد نجحت فى جندلة دولة كبيرة ذات نظام حربى فى بضع سنوات كالدولة الساسانية فهذا يفسره التفكك الذى ظهر فى الدوله فى السنوات المضطربة التى تلت موت كسرى برويز ٠ وكان ذلك النتيجة المحتومة للسياسة الحربية التى بدأها كسرى أنو شروان ، **فان التطور مال شيئا فشيئا نحو التسلط الحربى** ، فاعتبر كل قائد أو حاكم الولاية التى يليها كأنها اقطاع وراثى على النمط القديم وخاصة عندما هوت الاسرة المالكة ٠ وكان تسلط القواد والحكام آخر مرحلة فى التطور السياسى أيام الساسانيين ، لكن نظام الاقطاع الجديد لم يكن لديه فسحة من الوقت للتجمع قبل الغزو العربى» (١٦٩) ٠ «وقد استطاع هرقل أن يوقف تيار الفرس المنتصرين ويزيحهم خارج حدود بلادهم ويسجل اسمه على رأس قائمة الصليبيين، وكانت سياسته الدينية مكملة لجهوده الحربية ، اذ كان جهده منصرفا الى اعادة الوحدة المعنوية للدولة التى أعاد بناءها ماديا ٠ ولكن الدولة بدأت تتفكك فعلا قبل موته : فتح العرب الشام ومصر والمغرب وارمينية ، وغزا اللمبارد أكثر من نصف ايطاليا ، وتهددت أراضى الدولة الضيقة من كل ناحية غارات اللمبارد والصقالية والعرب والبلغار ، فأخذت تتحول من طابعها الى **امبراطورية بيزنطية خالصة تتركز قواها حول القسطنطينية** ٠ وكانت نتيجة ذلك كله أن عانت الدولة تغيرا عميقا شاملا : فتغيرت الاجناس التى تسكن أراضيها وتخضع لها ، **وتغير نظامها الادارى فوضعت السلطات كلها فى يد القادة الحربيين** تيسيرا لأمر الدفاع ، وبدأت ترتسم الخطوط الرئيسية لنظام الادارة الحربية فى ولايات الحدود Thema وسيدوم هذا النظام ما بقيت الدولة ٠ وأخذت الهيلينية والمسيحية تشتركان فى تكوين طابع الدولة ، وتمهد السبيل للقطيعة التى ستقع وتصل بين الغرب وبيزنطة فصلا تاما حتى تركز اهتمام حكام بيزنطة فى الشرق وحده» (١٧٠)٠ « وزالت العداوة بين فارس والقسطنطينية ـ تلك العداوة التى ورثتها القسطنطينية عن روما القديمة ، وحلت محلها عداوة الاسلام التى بقيت ما بقيت الامبراطورية ، ومن هنا **يبدأ التاريخ البيزنطى**٠ ويرجع ماأحرزته أسرة هرقل من مجد الى أنها تلقت أولى ضربات الغزو العربى وأوقفته جنوب سلسلة طوروس فلما توجه الى البحر صدت العاصفة هجماته» (١٧١) ٠

---

(١٦٩) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة دكتور الخشاب ص ٤٨١

(١٧٠) ديل : بيزنطة ، عظمتها وسقوطها ـ فصل ملحق بكتاب (بينز : الامبراطورية البيزنطية) ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٣٢٨ : ٣٣٠

(١٧١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٥٦ ـ ٥٧

الفصل الثانى
تعريف جغرافى طبوغرافى

أولا : المنطقة المحيطة باقليم الثغور والعواصم Hinterland (الجزيرة ، الشام ، أرمينية ، بلاد الروم، بحر الروم وجزره «البحر المتوسط»

ثانيا : حلب والثغور والعواصم

أ ـ حلب ب ـ العواصم ج ـ الثغور الجزرية د ـ الثغور الشامية

ثالثا : الوضع الاستراتيجى للحدود الاسلامية البيزنطية (جبال طوروس، أرمينية ، الفرات ، البحار)

رابعا : التوجيه الجغرافى Orientation للثغور والعواصم الاسلامية موقعها من الطرق التجارية ودورها فى العلاقات الحضارية



يقول ياقوت :

« **الثغر** : كل موضع قريب من أرض العدو ، كأنه مأخوذ من الثغرة ـ وهي الفرجة في الحائط ، ومنه **ثغر الشام** ، وجمعه ثغور . وهو يشمل بلادا كثيرة ، ولا قصبة لها لان أكثر بلادها متساوية وكل بلد منها كان أهله يرون انه أحق باسم القصبة ، فمن مدنها بياس ، والمصيصة ، وعين زربة ، وأذنة ، وطرسوس ، والجوزات ، وأولاس ، والكنيسة السوداء ، والهارونية . ومرعش من **ثغور الجزيرة** . ومن مشهور مدن هذا الثغر انطاكية وبغراس وغير ذلك الا ان هذا الذي ذكرنا أشهر مدنها. قال أحمد بن يحيى بن جابر : « وكانت فيما بين الاسكندرية (أي الاسكندرونة) وطرسوس حصون ومسالح للروم كالحصون والمسالح التي يمر بها المسلمون اليوم .. » « **والعواصم** جمع عاصم وهو المانع ، والعواصم حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية ، وقصبتها أنطاكية . كان قد بناها قوم واعتصموا بها من الاعداء ، وأكثرها في الجبال ـ فسميت بذلك . **وربما دخل في هذا ثغور المصيصة وطرسوس وتلك النواحي . وزعم بعضهم ان حلب ليست منها** ، وبعضهم يزعم أنها منها ، ودليل من قال انها ليست منها : انهم اتفقوا على انها من أعمال قنسرين ، وهم يقولون قنسرين والعواصم ـ والشيء لا يعطف على نفسه ، وهو دليل حسن والله أعلم(١) » .

تلك مقتطفات من تعريف ياقوت بالثغور والعواصم . وهذا الاقليم خطوة جديدة في التنظيم الاداري للدولة الاسلامية فقد ارتأى الرشيد فصله عن جند قنسرين لتأمين الحدود الاسلامية على غرار منطقة الاطراف البيزنطية Kleisurai التي كانت تحت اشراف حكام الثغور Kleisuriarchs وقد أشار ياقوت الى الثغور البيزنطية فقال في معرض حديثه عن بلاد

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٦ ، ج ٦ ص ٢٣٧

الروم وأقسامها « ... والرابع دروب طرسوس ـ من ناحية قلمية واللامس ، واسم صاحب هذا العمل (كيليرج) ومرتبته دون مرتبة الاصطرطغوس ـ وتفسيره صاحب الدروب(٢) » .

وقد كانت الحدود بين بلاد المسلمين والروم فى أيام بنى أمية والعباسيين الأوائل تتألف من سلسلتى جبال طوروس وطوروس الداخلية Anti Taurus وكانت الثغور خطا طويلا من القلاع يحمى هذه الحدود فيميل من ملطية على الفرات الأعلى الى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط .

وكان الروم يحتلون هذه القلاع تارة والمسلمون يحتلونها تارة أخرى ، فكان الفريقان فيها بين كر وفر .

وينقسم خط القلاع هذا عادة الى مجموعتين : احداهما **تحمى الجزيرة** وتسمى الثغور الجزرية ـ وهى الشمالية الشرقية ، والثانية تحمى الشام وتسمى الثغور الشامية وهى الجنوبية الغربية . وكان من **ثغور الجزيرة**. ملطية وزبطرة وحصن منصور وبهسنا والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة . ومن **الثغور التى تحمى الشام** وكانت بالقرب من الساحل الشمالى لخليج اسكندرية (اسكندرونة) : المصيصة واذنة وطرسوس . أما لفظ **العواصم** فيقصد به سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية لانها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين. وبذلك تتميز عن الحصون الشمالية الخارجة الملاصقة للحدود البيزنطية المسماة بالثغور . ولم تكن الحدود الاسلامية البيزنطية خطا مفردا كحدود الدول الحديثة ، وانما كانت تخومانهاياتها غير محدودة ولا ثابتة، تمتد على عمق كبير أو يسير مسايرة فى معظمها **منحنى جبال طوروس** ما بين البحر المتوسط حتى سلسلة طوروس الارمينية . ثم ان **آرمينية** بأسرها تعد اقليم حدود بين الامبراطوريتين حيث كان يتعاقب أو يتعاصر النفوذ الاسلامى والنفوذ البيزنطى . ففى بداية القرن العاشر الميلادى كان الجزء الغربى من أرمينية بين الفرات وارسناس قد غدا بيزنطيا ، وفى المؤخرة كان لدى المسلمين ممر حر يخترقونه فى أرمينية حتى منطقة قاليقلا Theodosiopolis (أرضروم) التى احتلوها ، وقد ارتبط مع أهل تلك البقعة التى يخترقها الممر بعهد يضمن لهم حرية المرور .

---

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٢٩

ويتتبع منحنى جبال طوروس قسم كانار Canard في كتابه عن الحمدانيين منطقة الحدود الى **ثلاثة اقسام : من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي** • **فهناك القسم الغربي** ويقع في مؤخرة سلسلة طوروس « من Cilicie Trachée حتى سلسلة بنطس من ناحية ومنطقة أرضروم من ناحية أخرى ، وهذا القسم يجتاز ليكاونيا Lycaonie وكابادوكيا وأعالي نهر هليس (جزل ارمق) وليكوس (كلكيد ارمق) وشمالي الفرات (قرة صو) » ، **والقسم الاوسط** « من سهل قيليقية الى أرمينية ، ويجتاز هذا القسم طوروس القيليقية والداخلية وطوروس كوماجين Commagene وطوروس الارمينية » ، **والقسم الشرقي** من خليج الاسكندرونة الى أرمينية « ويجتاز هذا القسم مجرى الفرات ومنطقة روافد أعلى دجلة » (٣) • وقد عدد قدامة الثغور المختلفة التي تتضمنها مناطق الحدود بين المسلمين والروم ، كما فرق بين الثغور والعواصم فقال : « ان **الثغور** المقابلة لبلاد الروم ـ منها **برية** تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر ، ومنها **بحرية** تلقاه وتواجهه من جهة البحر ، ومنها **مايجتمع فيه الامران** وتقع المغازي من أهله في البر والبحر ••• **وعواصم** هذه الثغور وما وراءها الينا من بلدان الاسلام ، وانما سمي كل واحد منها عاصما لانه **يعصم الثغر ويمده في أوقات النفير** ، ثم ينفر اليه من أهل انطاكية والجومة والقورس » (٤) •

وقد سمى جوردن ايست Gordon East المدن التي تنشأ في مناطق الحافات على الممرات الطبيعية الممتدة من الفتحات أو الثغرات التي تتخلل مناطق الهضاب أو على كثب من تلك الفتحات بمدن المنافذ والثغرات Gap-Towns ، وقد يكون تقاطع الطرق القديمة السابقة على ظهور بعض المدن عونا على تحديد مواقع قيامها • ومن هنا يكون التعريف الجغرافي بالثغور والعواصم شيء أساسي لتفهم تاريخها ونظامها • فالدولة ليست الا اتحادا وثيقا بين السكان والوطن الذي يسكنونه ، وهي كائن اقليمي حي Spatiat organism على حد تعبير راتزل Ratzel في الجغرافية السياسية (١٨٤٤ : ١٩٠٤م) ، فنمو الدولة عملية لاحقة للمظاهر المختلفة لنمو سكانها ، والعلم يتبع التوسع التجاري والنشاط التبشيري • وليست **الحدود** طبقا لنظريته الا مناطق تلتقي عندها حدود الكائنات الاقليمية الحية التوسعية • **فحدود أية دولة هي العضو الحي المغلف لها ، والحدود**

---

(٣) لي سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ص ١٦٠ ـ ١ ،

Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides pp. 241 - 2.

(٤) قدامة : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة (ملحق بابن خرداذبة) ص ٢٥٣

لا تعين مدى ضمان سلامة الدولة فحسب بل ومدى نموها أيضا • ومن ثم كانت مناطق احتكاك قد تؤدى الى اندلاع نار الحروب وتسعى الدول فى نموها الى امتصاص الاقســام ذات القيمة السياسية •

والموقع الجغرافى Lage يربط الاقليم برباط طبيعى مع جيرانه وتتغير أهميته من فترة الى أخرى بسبب اختلاف مركز الدولة بين مواقع تركز السكان فى العالم ومراكز الثقل السياسية والثقافية ، وبسبب تطور سبل المواصلات العالمية• ودراسة **مجال الدولة** Gebiet تتضمن دراسة مساحتها وتوسعها ومدى نفوذها الثقافى والاقتصادى والسياسى ، وما يحدث من هجرات سلمية أو غزوات حربية ، كما تتضمن أيضا دراسة العلاقات المكانية للدولة • وقد كان ماكندر Mackinder (١٨٦١ : ١٩٤٧م) يرى فى حركة التاريخ البشرى صراعا مستمرا بين الدول القارية والبحرية ، وقد حدد المراكز الطبيعية للقوة السياسية فى العالم بثلاث : المنطقة القارية Continental pivot area والمنطقة البحرية أو المحيطية Outer Crescent ، والمنطقة الوسطى أو الانتقالية وتجمع بين القــارية والمحيطية Inner Crescent • وقد استحوذت على ماكندر نظرية قلب العالم Heartland التى تتوسط آسيا وتشمل نطاق الاسبتس من التركستان الروسى حتى جنوبى شرقى أوربا، وهى مســـاحة هائلة يجوس خلالها البدو والرعاة فى تحرر وانطلاق • وكانت بمثابة الخزان البشرى الكبير الذى ما فتىء يدفع بالموجة تلو الموجة من الهجرات والغزوات البشرية(٥) •

وقد أدى اتساع نطاق الفتــوح الاسلامية الى لفت أنظـار المؤرخين المسلمين الى أهمية الجغرافية فى دراساتهم • ومن هنا قدم لنا البلاذرى مثلا المتوفى سنة ٢٧٩هـ ـ ٨٩٢م فى (فتوح البلدان) ـ وهو عمل مبكر نسبيا ـ ايضاحات جغرافية • غير أن المادة الجغرافية أظهر للعيــان فى كتب التاريخ المحــلى • ومن ذلك كتاب ابن العديم (٥٨٨ : ٦٦٠ هـ) عن تاريخ حلب الذى حوى قسما خاصا عن جغرافية شمالى الشام ، وكذلك كتاب ابن شداد (الاعــلاق الخطيرة) وقد توفى المؤلف سنة ٦٨٤ هـ ـ ١٢٨٥م • أما الكاتب الذى مزج بين التاريخ والجغرافية العلمية بحق فهو المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٥هـ) ، بينما كان اليعقوبى مثلا (المتوفى سنة ٢٨٢هـ ـ ٨٩٥م) ما يزال يفصل تماما بين دراساته الجغرافية والتاريخية•

---

(٥) جوردون ايست : الجغرافيا توجه التاريخ ـ ترجمة دكتور الدناصورى ص ٩١ ـ ٢ ، فيفلد برس : الجيوبوليتيكا ـ ترجمة مجلى واسكندر ج ١ ص ٢٥ : ٣٦ ، دكتورة دولت صادق ، دكتور غلاب ، دكتور الدناصورى : الجغرافية السياسية ص ١٠ : ١٣

فنحن نرى المسعودى يقدم لتاريخه ببيان لشـــكل الأرض ومواقع المدن والظواهر الجغرافية الهامة والمحيطات والأنهار والجزر والبحيرات والمبـانى وما أصاب الأرض من تغيرات طبيعية وهكذا (٦) ٠

وهذه دراسة جغرافية لاقليم الثغور والعواصم الاسلامية ـ وبعبارة أخرى منطقة الحدود الاسلامية البيزنطية ـ من النواحى التالية :

أولا ـ الوصف الجغرافي للمنطقة المحيطة باقليم الثغور والعواصم ، ويدخل فيها ما يسمى بالارض الخلفية **Hinterland**

ثانيا ـ الوصف الجغرافى لاقليم الثغور والعواصم ٠

ثالثا ـ الوضع الاستراتيجي للثغور الاسلامية ومدى مناعتها الحربية

رابعا ـ التوجيه الجغرافى Orientation للثغور والعواصم ، والمنافذ البرية والبحرية أمامها ، مع تقدير موقعها على طرق التجارة العالمية ودورها البشرى والحضارى ٠

---

(٦) Rosenthal : A History of Muslim Historiography. pp. 94: 6

أولا ـ المنطقة المحيطة بالحدود الاسلامية البيزنطية

الجزيرة ، الشام ، أرمينية ، بلاد الروم ، جزر بحر الروم (البحر المتوسط)

ترتكز الثغور الجزرية والشامية الى أرض **الجزيرة** فى شمالى العراق من جهة وأرض **الشام** من جهة أخرى ، كما تتصل من ناحية الشرق والشمال الشرقى **بارمينية** ، ومن ناحية الشمال **بآسيا الصغرى** ، والى الغرب منها يقع ساحل البحر المتوسط الذى كان يسميه العرب **ببحر الروم** .

وارتباط أعالى الشام والجزيرة واضح من الناحية الجغرافية ، يقول ياقوت مثلا عن (الفراض) « **والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرقى الفرات** (٧) » ، وقد تتابع الجغرافيون المسلمون على تأكيد هذا الارتباط فذكر المسعودى ان **سورية هى الشام والجزيرة** . « وقد كان الروم يسمون البلاد التى سكانها المسلمون فى عهده من الشام والعراق وسوريا ، كما كان الفرس يسمون العراق والجزيرة والشام سورستان اضافة الى السريانيين الذين هم الكلدانيون وتسميهم العرب النبط » (٨) . ويقول المقدسى « **وأهل العراق يسمون كل ما كان وراء الفرات شاما** ، ولهذا أرسل محمد بن الحسن القول فى دواوينه : وليس وراء الفرات من الشام غير كورة قنسرين حسب ، والباقى بادية العرب والشام من ورائها ، وانما أراد محمد التقريب والمتعارف بين الناس » . وهو يقول عن مدينة **الرقة** «وانتشر فى الاقليمين ذكرها ، فالشام على تخمها والفرات الى جنبها » كذلك يتكلم المقدسى عن **اقليم الرحاب** ـ ويدخل فيه أرمينية ـ

---

(٧) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ٣٥٠

(٨) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٥٠ ، كرد على : خطط الشام ج ١ ص ٤٧

فيعرض للخلط الذى وقع فى شأن مدينة بدليس حتى اعتبرها البعض من اقليم آقور ـ الجزيرة ـ فى حين اعتبرها هو من اقليم ارمينية ويفرق بين التقسيم السياسى والتقسيم الجغرافى « فان زعم زاعم أن بدليس من اقليم أقور واستدل بأنها كانت فى ولايات بنى حمدان ـ أجيب بانه لما ادعاها أهل الاقليمين ، جعلنـــاها من هذا لانا وجدنا لها نظيرا فى الاسم وهى تفليس ، **واما الولايات فليست حجة فى هذا الباب** ، ألا ترى ان ســـيف الدولة كانت له قنسرين والرقة ولم يقل أحد أن الرقة من الشام » (٩) وارتباط الشام والعراق فى أعاليهما يدعمه **مجرى الفرات من جهة، وامتداد جبال طوروس** التى تحمى الثغور جزرية وشـامية على الســـواء من جهة أخرى • وقد ارتبطت المنطقتان فى الاعمال الحربية المختلفة التى سجلتها معارك الروم والفرس ، أو المسلمين والبيزنطيين •

وقد جرت الجغرافية القـــديمة على **تقسيم الارض الى سبعة أقاليم** قال ابو الريحان : «واما من زاول صناعة التنجيم وكلف بعلم هيئة العالم فانه أتى هذه القسمة من مأتى آخر •• نحن **اذا تاملنا الاختلافات التى تلحق الليـــل والنهار من ولـوج أحدهمـا على الآخر على طرفى الصيف والشتاء ، فالذى يحدث فى الهواء من احتدام الحر وكلب البرد وما يتبع ذلك من تاثر الأرض والماء بهما ـ وجدناها بحسب الامعـان فى جهتى الشمال والجنوب فقط ، وإننا حتى لزمنا نحو المشرق والمغرب مدارا واحدا لم يختلف علينا شىء** مما وجوده بالاضافة الى الآفاق بتة ـ اللهم الا آنتقال من صرود الى جروم أو عكسه مما لا يوجبه ذلك السمت ، انما يتفق من جهة الاتحـاد والاغوار وأوضاع أحدهمــا من الآخر فيه ، وتقـدم الطلوع والغـروب وتأخرهمـــا •• **فاذا قسمنا المعمورة عرضا بحسب الاختلاف والتغاير على اقسام متوازية فى طول الارض ليتفق كل قسم فى المشارق والمغارب على حال واحدة بالتقريب كان اصوب** •• ثم تأمل النهار الاطول والأقصر فان النظر فيهما لتكافئهما واحد ، فوجده من جهة الشمال حيث النـاس متمدنون وعلى قضـايا الاعتـدال خلقا وخلقـا مجتمعون ، دون المتوحشين المختفين فى الغياض والقفار ١٣ ساعة •• فجعل الحد الجنوبى وسط الاقليم الاول ثم الحد الشمالى وسط الاقليم السابع وسائر الاقاليم تتزايد نصف ساعة فى النهار الاطول فى أوســاط الاقليم • واما ما وراء

(٩) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥٢ ، ١٤١ ، ٣٧٥

الاقليم السابع منها فأرضون يعرض البرد فى قيظهـا ويهلك فى شتائها الذى هو أطول فصول السنة فيها فيقل قاطنوها » (١٠) ٠

وقد أفاض الجغرافيون الاقدمون فى وصف **مزايا الاقليم الرابع** ـ وهو الاقليم الذى تدخل فيه كثير من الثغور ٠ وقد حدده ابن رسـتة بأنه « يبتدىء من المشرق فيمر ببلاد التبت ثم على خراســـان فيكون فيها من المدن : ٠٠ وسر من رأى والموصل وبلد ونصـــيبين وآمد وراس العين **وقالى قلاو شمشاط** وحران والرقة وقرقيسيا ، ويمر على شمال الشام ففيه من المدن **بالس ومنبج وســميساط وملطيــة وزبطرة وحلب وقنسرين وانطاكية وطرابلس والمصيصة والكنيســة الســوداء وأذنة وطرسوس وعمورية ولاذقية** ، ثم يمر فى بحر الشام على جزيرة **قبرس ورودس** ، ثم يمر فى أرض المغرب على بلاد طنجة وينتهى الى بحر المغرب » ٠ أما الاقليم الثالث فتدخل فيه من مدن الشـــام والعراق ما يلى ذلك جنوبا ٠ « ويمر بكور الاهواز والعراق وفيها البصرة وواســـط وبغداد والكوفة والانبار وهيت ، ثم يمر على بلاد الشام وفيها من المدن الحيار وسـلمية وحمص ودمشق وصور وعكا وطبرية وقيسارية وأرســوف وبيت المقدس ورملة وعسقلان وغزة ومدين وقلزم ، ثم يقطع الى أسفل أرض مصر ٠٠٠ (١١) »٠

ويمضى الجغرافيون المسلمون على هذا النحو فى تحديد موقع الثغور من الاقاليم السبعة على خلاف يسير ، **فالمقدسى مثلا يجعل مدينة ملطية فى الاقليم الخامس (١٢) ويدخل ياقوت ضـمن نطاق الاقليم الخامس برذعة وميافارقين وأرمينية ودروب الروم وبلادهم وكل ماكان فى هذا السمت من البلدان شرقا وغربا ووقع طرفه الذى يلى الجنـوب قرب خلاط ودبيل وسميساط وملطية وعمورية (١٣) ٠ ويقسم ابن خلدون الاقليم الرابع الى تسعة أجزاء فرعية ، والجزء الخامس من هذه الاجزاء يبرز اقليم الثغور والعواصم** فى وضوح كما يبرز الاقاليم المتاخمة والمجاورة له فيعطينا صورة متكاملة « والجـزء الخـامس من هـــذا الاقليم غمر البحر منــه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ، وينتهى الضلع الغربى منها الى آخر الجزء فى الشمال ، وينتهى الضلع الجنوبى منها الى نحو الثلثين من الجزء ، ويبقى فى الجانب الشرقى من الجزء قطعة نحو الثلث ، يمر الشـــمالى منها الى

(١٠) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٦ ـ ٧
(١١) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ص ٩٧ ـ ٨
(١٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٦٠ ـ ١
(١٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣٠ ـ ١

الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه ، وفى النصف الجنوبى منها أسافل الشام ويمر فى وسطها **جبل اللكام** الى أن ينتهى الى آخر الشام فى الشمال فينعطف من هنالك ذاهبا الى القطر الشرقى الشمالى ، ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ، ومن هنالك يخرج الى الاقليم الخامس • ويحوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق • ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض الى أن ينتهى الى طرف خارج من البحر الرومى متأخر الى آخر الجزء من الشمال ؟ **وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب** وهى التى تفضى الى بلاد الارمن • وفى هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة • فأما الجهة الجنوبية التى قدمنا ان فيها اسافل الشام ، وان جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومى وآخر الجزء من الجنوب الى الشام ، فعلى ساحل البحر منه بلد **انطرطوس** فى أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث • **وفى شمال انطرطوس جبلة ثم اللاذقية ثم اسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد الروم** • وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحافاته فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنـوبا من غربيه حصن الحوانى وهو للحشيشة الاسماعيلية ــ ويعرفون لهـذا العهد بالفداوية ، ويسمى الحصن **مصبات** وهو قبالة انطرطوس • وقبالة هذا الحصن فى شرق الجبل بلد سلمية فى الشمال عن حمص • وفى الشمال عن مصبات بين الجبل والبحر بلد **انطاكية** ويقابلها فى شرق الجبل المعرة ، وفى شرقها المراغة **وفى شمال انطاكية المصيصة ثم اذنة ثم طرسوس آخر الشام • ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة • وقبـالة قنسرين فى شرق الجبل حلب • ويقابل عين زربة منبج آخر الشـــام • وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومى بلاد الروم** التى هى لهـذا العهد للتركمـــان وسلطانها ابن عثمان • وفى ساحل البحر منها بلد انطاكية والعلايا • وأما **بلاد الارمن التى بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية** والمعرة الى آخر الجزء الشمالى • ويخرج من الجزء الخامس فى بلاد الارمن **نهر جيحان ونهر سيحان** فى شرقه فيمر بها جيحان جنـوبا حتى يتجاوز الدروب • ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ، ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا حتى يصب فى البحر الرومى جنوب سلوقية • ويمر نهر سيحان موازيا لنهر جيحان فيحاذى المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب الى أرض الشام ، ثم يمر بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف الى الشمال مغربا فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة ومن غربها • واما **بلاد الجزيرة** التى يحيط بها منعطف جبـل اللكام الى جبل السلسلة ففى جنوبها بلد

الرافقة والرقة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وآمد تحت جبل السلسلة • وآخر الجزء من شماله وهو أيضا آخر الجزء من شرقيه • ويمر فى وسط هذه القطعة **نهر الفرات ونهر دجلة** يخرجان من الاقليم الخامس ويمران فى بلاد الارمن جنوبا الى أن يتجاوزا جبل السلسلة • فيمر نهر الفرات من غربى سميساط وسروج وينحرف الى الشرق فيمر بقرب الرافقة والرقة ويخرج الى الجزء السادس • ويمر دجلة فى شرق آمد وينعطف قريبا الى الشرق فيخرج قريبا الى الجزء السادس » •

ويقسم ابن خلدون الاقليم الخامس الى عشرة أجزاء ، « **وفى الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومى** خرجت اليه من الاقليم الرابع مضرسة كلها بقطع من البحر •• ويخرج منها الى الشمال خليج القسطنطينية •• **وفى الجزء الخامس من غربيه وجنوبه ارض باطوس** وفى الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد عمورية ، وفى شرقى عمورية **نهر قباقب** الذى يمد الفرات – يخرج من جبل هنالك ويذهب فى الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الى ممره فى الاقليم الرابع • وهنالك فى غربيه آخر الجزء فى مبدأ نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبان على سمته ، وفى شرقه هنالك مبدأ نهر الدجلة – وفى الزاوية التى بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذى يبدأ منه نهر دجلة بلد ميافارقين • ونهر قباقب يقسم هذا الجزء لقطعتين : احداهما جنوبية غربية وفيها أرض باطوس وأسافلها الى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذى يبدأ منه نهر قباقب أرض عمورية ، والقطعة الثانية شرقية شمالية فى الجنوب منها مبدأ الدجلة والفرات وفى الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقب وهى عريضة وفى آخرها عند مبدأ الفرات بلد خرشنة ، وفى الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من **بحر نيطش** الذى يمده خليج القسطنطينية • **وفى الجزء السادس من هذا الاقليم فى جنوبه وغربه بلاد ارمينية** متصلة الى أن يتجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق •• ومن هنالك مخرج بلاد ارمينية الى الاقليم الرابع » (١٤) •

ويحدد الجغرافيون المسلمون **طول كل اقليم وطول النهار فيه** • ويجعل المسعودى أطول ساعات النهار فى الاقليم الرابع ١٤½ ساعة ، وأطول ساعات الاقليم الخامس ١٥ ساعة(١٥) • أما عن طول الظل فيقول

---

(١٤) ابن خلدون : المقدمة طبعة الدكتور وافى جـ ١ ص ٣١٠ ، ٣١٩ – ٣٢٠

(١٥) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٢٩

المقدسى « الاقليم الرابع أوله حيث يكون الظل فيه فى نصف النهار أربعة أقدام وثلاثة أخماس وثلث خمس قدم ، وعرضه نحوا من مائتين وستين ميلا ونيفا قاصدا .. والاقليم الخامس أوله حيث يكون الظل خمسة أقدام وثلاثة أخماس وسدس خمس قدم ، والذى بين طرفيه عرضا نحو مائتين وثلاثين ميلا قاصدا » . ويفصل ياقوت القول فى طول النهار والظل ، وطول كل اقليم وعرضه وبروجه (١٦) .

وقد أبرز الجغرافيون المسلمون أوجه أفضلية الاقليم الرابع فهو « وسط الأقاليم السبعة وأعدلها وأفضلها - وبلد العراق وسطه فهو شرف الأرض وصفوتها : أعدلها غذاء وأصفاها هواء ، متوسط بين افراط الحر والبرد ، وموضعه الموضع الذى ينقسم فيه الزمان أربعة أقساط فلا يخرج ساكنوه من شتاء الى صيف حتى يمر بهم فصل الربيع ، ولا من صيف الى شتاء حتى يمر بهم فصل الخريف ، ولما ذكرنا من توسطه كانت ملوك سوالف الامم تحله ، اذ كان نسبة الملك الى المملكة التى هو عليها نسبة القلب الى البدن الذى هو فيه(١٧) » . «ولما كان الجنبان من الشمال والجنوب متضادين فى الحر والبرد ، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا . فالاقليم الرابع أعدل العمران ، والذى حافاته من الثالث والخامس أقرب الى الاعتدال ، والذى يليهما من الثانى والسادس بعيدان عن الاعتدال ، والاول والسابع أبعد بكثير . فلهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس والاقوات والفواكه، بل والحيوانات وجميع ما يتكون فى هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال . وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا ، حتى النبوات فانها توجد فى الاكثر فيها .. ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لانها وسط من جميع الجهات .. وأهل الاقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال فى خلقهم وخلقهم وسيرهم ، وكافة الاحوال الطبيعية للاعتماد لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والملك ، **فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والامصار والمبانى والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الاحوال المعتدلة .** وأهل هذه الاقاليم التى وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنى اسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين. ولما رأى النسابون اختلاف هذه الامم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الانساب(١٨) » .

---

(١٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٦٠ - ١ ، ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٩ : ٣١

(١٧) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٣٢ - ٣

(١٨) ابن خلدون : المقدمة - طبعة الدكتور وافى ج ١ ص ٣٣٠ : ٥

وفيما يلي وصف الجغرافيين المسلمين للمنطقة المحيطة بالثغور والعواصم : الجزيرة والشام ، وأرمينية ، وبلاد الروم ، وجزر بحر الروم .

(أ) الجزيرة :

كان اقليم الجزيرة وشمالى الشام وحدة تتم بعضها بعضا من حيث ارتباط حصونهما وتعرضهما لاغارات البيزنطيين . والجزيرة هى المنطقة الشمالية الخصبة بين دجلة والفرات وتمتد الى منطقة الدروب عند سلاسل جبال طوروس كما تمتد الى الجبال الفارسية . وقد سكن هذه المنطقة الآراميون الذين عرفوا غالبا باسم لهجتهم فسموا السريان ، وكثر السكان العرب هناك قبل الاسلام الذين قدموا غزاة أو مهاجرين حتى غدت الجزيرة بالنسبة لهم (ديارا) عرفت بأسماء قبائلهم التى استقرت فيها مثل ديار ربيعة ومضر وبكر ، كما وجدت فيها عناصر من السكان المجاورين من الأرمن والكرد والفرس . وقد نشأت فى هذه البلاد التى كانت فى طريق الغزاة والهجرات منذ أقدم العصور دول عديدة أشهرها آشور . وبعد أن ظهرت فى ايران دول قوية أصبحت الجزيرة موضع نزاع بينها وبين الدول الغالبة فى البحر المتوسط ، ومع ذلك ظهر فيها دويلات مستقلة عن هذه الدول الكبرى تشبه الدويلات الحاجزة فى الشام ، ولعل أشهرها **دويلة الرها أو أدسا** Edessa التى كان يسكنها عناصر آرامية أو عربية بدليل أسماء ملوكها مثل ابجر ووائل ومعين ، وقد يكون الفرس هم الذين قضوا عليها . وقد تناوشت هذه البلاد قبل الاسلام أيدى الروم والفرس ولم يكن لها كيان مستقل وجاء فتح المسلمين للجزيرة مترتبا على السير فى حركة الفتوح الاسلامية من أجل تأمين فتوحاتهم بالشام والعراق وتنحية الجيوش البيزنطية عن مواقعها التى لا تزال تحتفظ بها فى الجزيرة بعد هزيمتها فى الشام . وقد تهيأ للجزيرة بحكم موقعها الجغرافى المتوسط وكونها معبرا بين العراق والشام والامبراطورية البيزنطية وارمينية وأذربيجان وبحكم أنهارها ومواصلاتها ومواردها الطبيعية وبخاصة الزراعية ومدنها المتعددة الآهلة النشطة ــ أن تكون ذات أهمية خاصة بين أقاليم الخلافة العباسية فقد كانت الجزيرة ــ مع العراق ــ جسرا أرضيا **يوصل بين طرق المواصلات البحرية فى جنوبى آسيا وطرق المواصلات البحرية فى جنوبى أوربا** ، وذلك بحكم الموقع المتوسط بين البحر المتوسط والخليج الفارسى . وكانت أهميته فى زمن العباسيين عظيمة جدا بالنسبة لتجارة الشرق والغرب اذ لم تكن قناة السويس قد فتحت بعد . وقد وصف موقع العراق عموما بأنه يكون جزءا من طريق الدائرة الكبيرة Great Circle Route

وهو أقصر الطرق بين غربي أوربا وجنوبي شرقي آسيا . أما **موقع العراق** الاستراتيجي العسكري فقد وصفه العسكريون بأنه غاية في الأهمية لأنه يقع ضمن الجسر الارضي الذي يوصل القارات الثلاث : آسيا وافريقية وأوربا بعضها ببعض كما يوصل بين المحيط الهندي والبحر المتوسط . وقد كان للعراق بحكم موقعه أهمية دولية ، ومن هنا شهد حملات كورش والاسكندر وحكم السلوقيين والبارثيين والساسانيين وحملات العرب المسلمين وغارات المغول والاتراك العثمانيين . وقد اتخذ الفرس فيه بابل عاصمة ثانية لهم ، واتخذ السلوقيون سلوقية قرب بابل على دجلة عاصمة، وعلى الضفة المقابلة اتخذ البارثيون طيسفون عاصمة ، وعرفت المدينتان باسم المدائن ، وفي العراق كانت الكوفة وبغداد عاصمتين بعد الفتح الاسلامي . وفي كل هذه الأدوار حدث تفاعل بين الحضارات ونظم الحكم المختلفة . وكانت تقاليد البارثيين والساسانيين في الادارة امتدادا لنظم الأشوريين والفرس وشريعة حمورابي . كذلك شغل العراق **موقعا بشريا هاما** : فمنطقة المغول توجد شمالي الهملايا في شرقيه ، والى الشمال تقع منطقة القوقاز ، بينما تمتد الجزيرة العربية بازاء افريقية . وقد حدثت اتصالات بين هذه المناطق خلال الأزمنة الغابرة بدرجات متفاوتة ، ولكنها ذابت في خصائص الشعب الذي استوطن العراق من أقدم الأزمنة ، وهي خصائص جنس البحر المتوسط ذي الرءوس الطويلة ، واليه ينتسب الساميون والاكراد في سهول العراق وجبالها (١٩) .

وقد أطلق المقدسي على اقليم الجزيرة اسم (اقليم أقور) ، في شمالي ما بين النهرين (٢٠) . وعند ياقوت أن آقور كورة بالجزيرة ، أو هي الجزيرة التي بين الموصل والفرات بأسرها ، وهناك أيضا آثور لا اسم الموصل ، وقيل كان اسمها أتور . وببلد الموصل بقرب السلامية بليدة خراب يقال لها أقور وكأن الكورة كانت مسماه بها » (٢١) .

ويفتح **الخليج الفارسي** لوادي دجلة والفرات طريقا نحو المحيط الهندي حيث حاصلات الشرق النفيسة ، بينما يفتح **الفرات** طريقا لها نحو البحر المتوسط حيث كان الاتصال بين الاغريق والروم (٢٢) .

---

(١٩) دكتور ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية جـ ١ ص ٢٠٧ : ٢١٠ ، دكتور جاسم الخلف : محاضرات في جغرافية العراق ص ٨ : ١٦ ، ٣٨٨ : ٣٩٠
Canard. Hist. de la Dyn. des Hamdanides p. 143

(٢٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٣٦ ، لي سترينج . بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١١٤ .

(٢١) ياقوت : معجم البلدان ، ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع جـ ١ ص ٢٧ ، ١٠٦

(٢٢) Gaudefroy-Demombynes, Platonov: Le Monde Musulman p. 40

الأنهار (دجلة والفرات) :

يستقبل دجلة والفرات فى بلاد بين النهرين العليا روافدهما كلهـا من يسارهما فقد كانت هذه الروافد تنحدر اليهما من شمالهما الشرقى أو من الشمال • وقد شذ عن هذه القاعدة فى القرون الوسطى انصراف ماء نهر هرماس الآتى من نصيبين ، والهرماس زافد الخابور (الكبير) وقد سكرت مياه الهرماس فوق موضع اجتماعه بالخابور بسكير العباس وبينما كان قسم من مائه يجرى فيلتقى هو والخابور الذى يصب فى الفرات عند قرقيسياء ـ كانت ميـاه نهر الهرماس نفسه تنصب فى يمين دجلة عند تكريت بعد أن تجرى فى واد يقال له الثرثار •

وقد كانت حدود بكر ومضر وربيعة التى قامت قبل الفتح العربى ـ فى العهد الساسانى ـ واستمرت بعد الاسلام قد عينتها الفواصـل المائية • فديار بكر ـ هى أقصى الديار الثلاثة شمالا وهى سقى دجلة من منبعه الى منعطفه العظيم حيث يغير اتجاهه من اتجاه غربى شرقى الى الاتجاه الجنوبى الشرقى ، وتصل ديار بكر جنوبا الى أسـفل من تل فافان مع ما فى شمالها من أرض كانت تسقيها روافد دجلة الكثيرة التى تصب فى يساره قرب تل فافان وعاصمتها آمد ومن مدنها العامة ميافارقين وأرزن •

وكانت **ديار مضر** الى الجنوب الغربى وهى أكثر جهات الجزيرة تطرفا نحو الغرب • وتشمل الاراضى المحاذية للفرات من سميساط حيث يغادر سلاسل الجبال منحدرا الى عانة ، مع السهول التى يسقيهـا نهر البليج رافد الفرات الآتى من حران • وعاصمتهـا **الرقة** ومن مدنها الهـامة **الرها وحران وبالس •**

أما ديار ربيعـة فقـد كانت فى شرقى ديار مضر ، وتتألف من الأراضى التى فى شرقى الخابور (الكبـير) المنـدر من رأس العين ومن الأراضى التى فى شرقى الهرمـاس وهـو النهـر المنسـاب فى وادى الثرثار نحو الشرق الى دجلة ، كمـا تتألف من الأراضى على ضفتى دجلة التى تمتـد بانحدار النهر من تل فافان الى تكريت ، أى الأراضى التى فى غربى دجـلة حتى نصـيبين والتى فى شرقه المشـتملة على مضر أكثر أقسام الجزيرة أهمية وفيها العاصمة **الموصل** بجانب مدن هامة كثيرة (مثل رأس العين وماردين ونصيبين وجزيرة ابن عمر(٢٣)) •

---

(٢٣) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١١٤ ـ ٥ ،
Canard : Hist de la Dyn. des Hamdanides, pp. 77

وقد ذكر **ابن خرداذبة** ان مخرج **الفرات** من تالتفلا ، ويمر بأرض **الروم** ويستمد من عيون كثيرة ويصب فيه ارسناس نهر شمشاط ، ويجيء الى كمخ ويخرج على ميلين من ملطية ، ويجيء الى جبلتـــا حتى يبلغ الى سميساط فيحمل من هناك السفن والاطواف ويجيء حتى يبلغ السواد ، فيتشعب منه أنهـار فى سـواد بغداد ويصب فى دجلة ، وبعضه يمر فى الكوفة فيخترق سوادها ثم يصب فى دجلة أيضا أسفل المدائن • كما تتبع **ابن رستة** مجرى نهر الفرات من مخرجه ببلاد الروم : فهو يقبل من الشمال حتى يمر بالجزيرة والرقة ثم ينحدر الى الكوفة ، وفى غربية بلاد الشام وفى شرقيه بلاد الجزيرة ، ثم ينصب فى البطائح بعد أن يتفرع فيصير أنهارا عظـاما ومصبه فى البطـائح موضع كسكر • ويورد ياقوت روافد الفرات فيقول « ويصب اليه أنهار صغار **نحو نهر سنجة ، ونهر كيسوم ، ونهر ديصان ، والبليخ** ـ حتى ينتهى الى قلعة نجم مقابل منبج ، ثم يحادى بالس الى دوسر الى الرقة الى رحبة مالك بن طوق ثم الى عانة ثم الى هيت فيصير **أنهارا تسقى زروع السواد : منها سورا وهو أكبرها ، ونهر الملك وهو نهر صرصر ، ونهر عيسى بن على ، وكوثا ، ونهر سوق أسد والصراة ونهر الكوفة ، والفرات العتيق** •• فاذا سقت الزروع وانتفع بمياهها فمهما فضل من ذلك انصب الى دجلة : منها ما يصب فوق واسط ، ومنها مايصب بين واسط والبصرة فتصير دجلة والفرات نهرا واحدا عظيما » •

ومخرج **الخابور** من رأس العين فى أعلى الجزيرة ويستمد من الهرماس ويجرى وسط بلاد الجزيرة ويصب فى الفرات عند قرقيســـيا • ومخرج **الهرماس** من طور عبدين ويصب فى الخابور « وهو نهر نصيبين مخرجه من عين بينها وبين نصيبين ستة فراسخ مسدودة بالحجارة والرصاص ، وانما يخرج منها الى نصيبين من الماء القليل ، لان الروم بنت هذه الحجارة عليها لئلا تغرق المدينة ، وفاضل مائها يصب فى الخابور ثم الثرثار ثم الى دجلة » ، ومخرج البليخ من عين الذهبانة من أرض حران ويصب فى الفرات أسفل الرقة العوجاء « وقد بنى مسلمة بن عبد الملك حصنا بعد خمسة أمبـــال من مجرى النهر فى أرض حران يكون أسفله قدر جريب وارتفاعه فى الهـــواء أكثر من خمسين ذراعا • وأجرى ماء تلك العيون تحته ، فاذا خرج من تحت الحصن سمى بليخا ، ويتشعب من ذلك الموضع أنهار تسقى بساتين وقرى ثم تصب فى الفرات تحت الرقة بميل» • وكان الخابور يستقبل فى يســاره ميـــاه نهر **ماردين** الآتى من رأس العين ، ويصب فيه أسفل من ذلك نهر الهرماس الآتى من نصيبين ، على ان أكثر مياه هذا النهر كانت تنساب من سكير العبـاس ـ وكان على شيء يسير

فوق ملتقى الهرماس بالخابور - الى وادى الثرثار فتجتمع بذلك فى الخابور مياه ثلاثة أنهار كبيرة ، هذا الى ما ينصب فيه من مياه ٣٠٠ جدول على ما ذكر المستوفى ٠

ومخرج مياه دجلة كما يذكر ابن خرداذبه من جبال آمد ، وتمر بجبال السلسلة وتستمد من عيون كثيرة من نواحى أرمينية ، ثم تمر ببلد - ومن ثم تحمل السفن والاطواف ، وتستمد من الزابين والنهروان والصراتين وتصب فى البطائح ثم تصب فى البحر الشرقى ، وقد ذكر ابن رستة أن دجلة العوراء كانت قبل الاسلام تستقيم من عند المذار ، وهى فى أيامه منقطعة لتكون البطائح فى منطقة واسط ٠

ويورد ياقوت « ان أول مخرج دجلة من موضع يقال له عين دجلة على مسيرة يومين ونصف من آمد من موضع يعرف بهلورس من كهف مظلم ٠ وأول نهر ينصب الى دجلة يخرج من فوق شمشاط بأرض الروم يقال له نهر الكلاب ثم أول واد ينصب اليه واد بين ميافارقين وآمد ٠ وقيل يخرج من هلورس ، ثم ينصب اليه وادى ساتيدما وهو خارج من درب الكلاب بعد أن ينصب الى وادى ساتيدما وادى الزور الآخذ من موضع بظاهر أرمينية وينصب أيضا من وادى ساتيدما نهر ميافارقين ، ثم ينصب اليه وادى السربط الآخذ من ظهر أبيات أرزن ٠ ثم توافى دجلة موضعا يعرف بتل فافان ، فينصب اليها وادى الرزم حيث يكثر ماء دجلة وهذا الوادى مخرجه من أرض أرمينية ، وفى وادى الرزم ينصب الوادى المشتق لبدليس وهو خارج من ناحية خلاط ، ثم تنقاد دجلة كهيئتها حتى توافى الجبال المعروفة بجبال الجزيرة فينصب اليها نهر يرنى يخرج من دون ارمينية فى تخومها ، ثم ينصب اليها نهر باعيناثا ، ثم توافى أكناف جزيرة ابن عمر فينصب اليها واد مخرجه من ظاهر أرمينية يعرف بالبويار ، ثم توافى ما بين باسورين والجزيرة فينصب اليها وادى دوشا ويخرج من الزوزان بين أرمينية وأذربيجان ، ثم ينصب اليها وادى الخابور وهو خارج من الروزان ٠ (على أن ياقوت يذكر فى موضع آخر وخابور الحسنية من أعمال الموصل فى شرقى دجلة - نهر من جبل بأرض الزوزان عليه عمل واسع شمالى الموصل ، وقيل مخرجه من أرمينية ويصب فى دجلة) ، ثم تستقيم على حالها الى بلد والموصل فيصب اليها ببلد من غربيها نهر ، ثم لا يقع فيها قطرة حتى توافى الزاب الاعظم مستنبطة من جبال أذربيجان - يأخذ على زركون وبابغيش فتكون ممازجته اياها فوق الحديثة بفرسخ ، ثم تأتى السن فيعترضها الزاب الاسفل مستنبطة من

أرض شهر زور ، ثم توافى سر من رأى ، وقيل ان أصل مخرجه من جبل قرب آمد عند حصن ذى القرنين من تحته تخرج عين دجلة ثم كلما امتدت انضم اليها مياه جبال ديار بكر حتى تصير بقرب البحر مد البصر ثم يمتد الى ميافارقين ثم الى حصن كيفا ثم الى جزيرة ابن عمر ثم الى بلد والموصل ثم الى تكريت » •

ومخرج **الزابين** من جبال أرمينية ويصبان فى دجلة : الكبير بالحديثة والصغير بالسن • يقول ياقوت « الزاب الأعلى بين الموصل واربل ومخرجه من بلاد مشتكهر ـ وهو حد ما بين أذربيجان وبابغيش ، وهو ما بين قطينا والموصل ـ من عين فى رأس جبل ينحدر الى واد وهو شـديد الحمرة ، ويجرى فى جبال وأودية وحزونة حتى يصفو قرب الموصل ثم يقلب فى أرض الموصل حتى يخرج فى كورة المرج من كور الموصل ، ثم يمتد حتى يفيض فى دجلة على فرسخ من الحديثة ـ وهذا هو المسمى بالزاب المجنون لشدة جرية • وأما الزاب الأسفل فمخرجه من جبال السلق ما بين شهرزور وأذربيجـان ثم يمر الى ما بين دقوقا واربل ، وبينه وبين الزاب الأعلى مسيرة يومين أو ثلاثة ، ثم يمتد حتى يفيض فى دجلة عند السن » •

ومخرج **الثرثار** من الهرماس ويمر بالحضر ويصب فى دجلة « وهو واد عظيم بالجزيرة يمد اذا كثرت الأمطار ، فأما فى الصيف فليس فيه الا مناقع ومياه حامية وعيون قليلة ملحة ، وهو فى البرية بين سنجار وتكريت ـ كان فى القديم منازل بكر بن وائل واختص بأكثره بنو تغلب منهم • وكان للعرب بنواحيه وقائع مشهورة ولهم فى ذكره أشعار كثيرة وتنصب اليه فضلات من مياه نهر الهرماس ، ويمر بالحضر ثم يصب فى دجلة أسـفل تكريت ، ويقال ان السـفن كانت تجـرى فيه وكانت عليه قرى كثيرة وعمارات » •

ومخرج **النهروان** من جبال أرمينية ويمر بباب صلوى ويسمى هناك تامرا ويستمد من القواطيل ، فاذا صار بباجسرى سمى النهروان ويصب فى دجلة أسفل جبل « وقد كان على فوهته مصلحة ذات أبواب تسد عند قلة الماء وتفتح عند زيادته ، ومدنه وقراه باقية ليس فيها أحد لانقطاع الماء بسبب خراب المصلحة (٢٤) » •

---

(٢٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٧٤ ـ ٥ ، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص ٩٣ : ٦ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٥٢ ، ياقوت : معجم البلدان : ج ٦ ص ٣٤٧ ـ ٨ ، ج ٤ ص ٣٨ ـ ٩ ، ص ٣٦٤ ، ج ٣ ص ١٠ ، ابن عبد الحـق : مراصد الاطلاع بتحقيق البجاوى ج ١ ص ٤٤٤ ، ٢٢١ ، ج ٣ ص ١٤٠٧ ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٥١ : ٧

وقد ذكر المقدسي أهم خصائص اقليم أقور : « به مشــاهد الأنبياء ومنازل الأولياء ٠٠ ثم هو **ثغر من ثغور المسلمين ومعقل من معاقلهم** ـ لأن آمد اليوم دار جهادهم والموصل من أجل أنضادهم وجزيرة ابن عمر أحد منازلهم ، ومع ذلك هو **واسطة بين العراق والشام ، ومنازل العرب في الاسلام** ، ومعدن الخيل العتاق ومنه ميرة أكثر العراق ، رخيص الأسعار جيد الثمار ومعـدن الأخيار ٠٠ أما الهواء والرسوم فمقـاربة للشام مشـابهة للعراق ، وبه مواضع حارة ، وبه نخيل مثل سنجار ، ومدن الفرات وكورة آمد باردة لقربها من الجبال ، وأصح بلدانه هواء الموصل ، وأكثر بنيانهم الحجارة ٠٠ وليس فيه بحيرة ولا يتصل ببحر » (٢٥) ٠

نظرة اقليمية شاملة :

ويقسم سطح الجزيرة ـ والعراق بوجه عام الى ثلاثة أقســام **سهل رسوبي** في وسط وجنوبي العراق يحيط بدجلة والفرات ، **وهضبة صحراوية** في غربي العراق ، **ومنطقة جبلية** في الشـمال الشرقي من العراق ٠ وطبيعة الارض في المنطقة الجبلية ليست على نمـط واحد ، فالقسم المجاور للحدود الايرانية والتركية الحالية أكثر ارتفاعا وتعقيدا في تركيبه فهو وعر المسالك ولا تتخلله الا وديان ضيقة وسهول صغيرة ويكون حوالي ¼ المنطقة الجبلية ، أما ثلاثة الارباع الباقيـة منها فهي مكونة من سلاسل جبلية التوائية تمتد من الشمال الغربي الى الجنـوب الشرقي وتتخللها وديان واسعة وسهول كبيرة ويقل ارتفاع جبالهاوتزداد سهولها اتساعا كلما اتجهنا نحو الجنوب والغرب حتى تندمج فيالسهل الرسوبي والهضبة الصحراوية ٠

وقد ترتب على هـــذا التباين في سطح العراق تبـاين في أحواله الطبيعية والبشرية ٠ فكثرت الأمطار والثلوج على جباله العالية وانحدرت منها أنهار مثل الخابور والزابان الكبير والصغير نحو الضفة الشرقية من دجلة بينما انعدمت على ضفته الغربيـة لانخفاض الأراضي هنــاك وقلة الأمطار ، وليس للفرات روافد في الأراضي العراقية ، ووســط العراق وجنوبه أمطارهما قليلة ، ونظرا لقلة الارتفاع في هـذا الجزء فقد تعرض لفيضانات الأنهار وتكونت به بحيرات ومستنقعات كثيرة ٠٠على أن لانبساط الاراضي بوجه عام وقد يسر المواصلات ، والانهار في بعض أقســامها صالحة للملاحة ، وأثر امتداد السلاسل الجبلية من الشمال الغربي الى

---

(٢٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٣٦ ، ١٤٢ ٠

الجنوب الشرقي على سبل الانتقال فأصبحت أيسر في هذا الاتجاه منه في الاتجاهات الأخرى ، واختلفت الثروة المعدنية والأحوال المعيشية والبشرية تبعا لاختلاف السطح أيضا . (٢٦)

المدن :

ينقسم هذا الاقليم الى ديار ثلاث : ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر ، نسبة الى القبائل العربية ربيعة ومضر وبكر التى نزلت الاقليم قبل الاسلام . وكانت الموصل على دجلة أكبر مدن ديار بكر التى هى أقصى الديار الثلاثة شمالا .

ديار ربيعة : وهى بين الموصل الى رأس عين ، وربما جمع بين ديار بكر وربيعة .

الموصل : قاعدة ديار ربيعة على ضفة دجلة الغربية حيث تتصل عواقيل النهر فتؤلف مجرى كبيرا واحدا ، ويقال ان الموصل انما جاء اسما من هذا الاتصال ، وكان يقوم فى موضعها أيام الساسانيين مدينة بوذ أردشير . وعلا شأن الموصل أيام بني أمية ونصب فيها على دجلة جسر سفن يربط المدينة التى فى الجانب الغربى بخرائب نينوى فى الجانب الشرقى وصارت الموصل فى عهد مروان الثاني آخر خلفاء بنى أمية قاعدة اقليم الجزيرة وبني فيها الجامع الذى عرف بعدئذ بالجامع العتيق . وقد وصف ابن حوقل المدينة ـ وكان فيها سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) بأنها بلدة طيبة عامرة الأسولق نواحيها ورساتيقها كثيرة الخيرات ، وكان جل أهلها من الأكراد . وقد عنى ابن حوقل بسرد ما حول الموصل من كور ورساتيق كثيرة تؤلف ديار ربيعة . وقال المقدسى « بلد جليل... حسن الأسواق والفنادق ... منه ميرة بغداد واليها قوافل الرحاب » وقد زارها ابن جبير سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) فوصفها بأنها « من المرافق الحربية. وفى أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصا ينتظمها سور عتيق مشيد البروج » . وسرد القزوينى أسماء الديارات المختلفة المجاورة للموصل وأشار بوجه خاص الى خندق الموصل العميق وقلعتها العالية . أما تلول نينوى فكان يقال لها فى أيام المقدسى تل توبة ، وهو الموضع الذى خرج اليه النبى يونس لدعوة نينوى الى التوبة . ويقول ياقوت ان الموصل هى « المدينة المشهورة العظيمة احدى قواعد بلاد الاسلام ، قليلة النظير كبرا وعظما وكثرة خلق وسعة رقعة ، فهى محطة رحال الركبان ومنها

---

(٢٦) دكتور جاسم الخلف : محاضرات فى جغرافية العراق ص ٣٤ : ٣٧

يقصد الى جميع البلدان ، فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد الى أذربيجان ، وكثيرا ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور لأنها باب الشرق ودمشق لأنها باب الغرب والموصل لأن القاصد الى الجهتين قل مالا يمر بها • قالوا وسميت الموصل : لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق ، وقيل وصلت بين دجلة والفرات ، وقيل لأنها وصلت بين بلد سنجار والحديثة ••• وكان أول من عظمها وألحقها بالأمصار العظام وجعل لها ديوانا برأسه ونصب عليها جسرا ونصب طرقاتها وبنى عليها سورا مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية وكان لها ولاية ورساتيق وخراج••»•
وعلى بضعة أميال من شرقى الموصل بلدتا برطلى وكرمليس وقد ذكرها ياقوت والمستوفى ، والى شمالهما بقليل باعشيقا ، وقرب ذلك مر جهينة أو مرج جهينة على ضفة دجلة أول منزل لمن يريد بغداد من الموصل وتكريت يستقبل دجلة فى ضفتيه مياه الزابين ، ويصب أحدهما على نحو مائة ميل فوق الآخر ، وقد أطرى ابن حوقل المراعى والمزارع الخصبة الواسعة بين هذين النهرين • وتعرف البلاد التى يمر فيهاب الزاب الكبير على ما ذكر ياقوت باسم مشتكهر وبابغيش •

الحديثة : وتسمى حديثة الموصل تمييزا لها عن حديثة الفرات وعندها مصب الزاب الأعلى فى دجلة ، والمدينة على فرسخ فوق المصب ، أعادها الى العمارة مروان الثانى على جرف يشرف على مناقع • وهى ذات بساتين وأشجار وقد بنيت على شبه دائرة ، ويصعد اليها من دجلة بدرج، وقد كانت قصبة الكورة قبل قيام الموصل وعرفت أيام الساسانيين باسم نوكرد •

السن : على ميل تحت ملتقى الزاب الأسفل بدجلة على ما فى المسعودى ، ولكنها على ما فى المقدسى فوقه ، والزاب الأصغر فى شرقها ، وكان معظم أهلها نصارى ، وكانت تميز بسن بارما اذ كان دجلة يقطع جبال بارما قربها ، وللمدينة سور • والواقع أن أسافل الزابين قد تبدلت كثيرا منذ المائة الرابعة للهجرة (العاشرة الميلادية) فلم يعد اثر اليوم للسن والحديثة •

ومن جنوبى السن كان طريق البريد الى سامراء وبغداد يساير ضفة دجلة اليسرى • وعلى نيف ومائة ميل من شرق السن مدينة دقوقاء أو دقوق ، وقد تكلم المستوفى على نهر دقوق ومخرجه من جبال كردستان ويفنى ماؤه أسفل مدينة دقوق فى الأرض الرملية ويصل الى دجلة فى موسم الفيضان على قوله • وحين كان النهروان حيا بأجمعه كانت مياه نهر دقوق فى فيضان الربيع تنصب فى النهروان •

اربل : وهى اربلا القديمة فى فضاء من الأرض واسع بسيط بين الزابين الكبير والصغير ، وقد وصفها ياقوت بأنها مدينة يقصدها التجار وقلعتها على تل من التراب عال عظيم ، ولها خندق عميق وينقطع سورها فى نصفها ، وفيها سوق عظيمة ·

جزيرة ابن عمر : نسبة الى الحسن بن عمر التغلبى بانيها ، وكانت دجلة على ما ذكر ياقوت تحيط بهذه الجزيرة الا من ناحية واحدة شـبه الهلال ، ثم عمل هناك خندق أجرى فيه الماء · ووصف ابن حوقل الجزيرة فقال : « عليها سور وهى **فرضة لأرمينية** » ، وقال المقدسى ان دجلة بينها وبين الجبل · وكان قبالة جزيرة ابن عمر **بازبدى** وهى قرية تقـوم مقام الحصن الرومانى Bazabda · ويرى من شرقى جزيرة ابن عمر جبـل الجودى وفى قمته مسجد نوح وتحت الجبل قرية الثمانين · وينصب فى يســار دجلة قرب جزيرة ابن عمر روافد كثيرة ذكرها ياقوت هى يرنى وباعنياثا ـ وعليه قرية بهذا الاسم ، وأسفل هذه المدينة شمال خابور الحسنية ينحدر نهر البويار ودوشا من أرض الزوزان · وفى جانب دجلة الغربى فى سمت جزيرة ابن عمر كورة **طور عبدين** الجبلية وأهلهـــا يعاقبة وفيها مخرج نهرى الهرماس وخابور نصيبين ·

نصيبين : هى Nisibis عند الرومان تقوم فى أعالى نهر الهرومــاس وقد سماه جغرافيو اليونان Socoras أو Mygdonius وكانت مركزاهاما للمواصلات مع الجزيرة وبين النهرين وارمينية ، وكان طريقها مع أرمينيه هاما من الوجهتين الحربية والتجارية ، وأهميته التجــارية فى العصور الوسطى بصفة خاصة تتصل بالحرير والقطن · ونصيبين من أعظم مدن الجزيرة شأنا ، وصفها ابن حوقل فقال : **هى أجل بقاع الجزيرة وأحسنها** ، الى سعة غلات من الحبوب والقمح والشعير ، ومخرج مائها عن شعب جبل يعرف ببالوسا · وقال المقدسى : انها أرحب من الموصل وبها حصن من حجر وكلس · وأطرى ابن جبـــير بساتينها ، **وعلى نهر الهرماس جسر** معقود من الحجارة · وقد أشار ياقوت الى أهمية موقعها « **على جادة القوافل من الموصل الى الشام** ، وفيها وفى قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان ، وعليها سور **كانت الروم بنته واتمه انوشروان الملك** عند فتحه اياها » · وكان أكثر نصيبين قرمد خرب عندما زارها ابن بطوطة فى المائة الثامنة للهجرة ·

راس العين : قرب منابع الخابور وهى Resaina الرومانية على نهر خابوراس Chaboras مشهورة بكثرة عيونها البالغة ٣٦٠ على ما يقال ،

وتجتمع فتسقى بساتينها كأنها بستان واحد ، ثم تصب مياهها في الخابور . ووصف ابن حوقل رأس العين فقال : انها مدينة ذات سور من حجارة وداخل السور بساتين وطواحين . وبالقرب منها عين كبريت يظهر ماؤها أخضر ليس له رائحة ، ورأس العين بين حران ونصيبين ودنيسر .

ماردين : على نحو نصف المسافة بين رأس العين ونصيبين فى شمالهما وتشرف على دنيسر التى تحتها فى السهل على نحو ٣ فراسخ جنوبها ، وفى المائة الرابعة كان يقال لتلك القلعة **الباز** وهى معقل أمراء بنى حمدان . وهذه القلعة على قمة جبل وفى جانبها الجنوبى نشأ ربض عظيم كان آهلا فى المائة السادسة هـ ، والدور فيها كالدرج كل دار فوق الأخرى وكل درب منها يشرف على ما تحته « والذى لاشك فيه أنه ليس فى الأرض كلها أحسن من قلعتها ولا أحصن ولا أحكم » ـ كما يقول ياقوت .

ودنيسر : على بضعة فراسخ منها وكانت فى المائة السابعة مدينة ذات أسواق عظيمة ويقال لها أيضا (قوج حصار) . وذكر ياقوت أنه حين زارها فى صباه فى نهاية المائة السادسة رآها قرية ولكنها سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥م) « صارت مصرا لا نظير له كبرا وكثرة أهل وعظم أسواق » .

ودارا : على بضعة أميال شرقا . ذكر المقدسى أنها مدينة صغيرة زارها فى صباه فى نهاية المائة السادسة هـ رآها قرية ولكنها سنة ٦٢٣ (١٢٢٥م) « صارت مصرا لا نظير له كبرا وكثرة أهل وعظم أسواق » . وذكر ياقوت أنها « بلدة فى لحف الجبل بين نصيبين وماردين ذات بساتين ومياه جارية ، وعندها كان معسكر دارا لما لقى الاسكندر المقدونى » ، وكانت فى أيام الرومان قلعة عظيمة . وقد احتفظت **بأهميتها الاستراتيجية طوال أيام الرومان والبيزنطيين** ، بل وحتى القرن العاشر الميلادى كما تشهد بذلك الهجمات البيزنطية المتعددة التى استهدفتها .

وكفرتوثا : فى جنوبى غربى ماردين على نهرها الصغير ، وذكر ابن حوقل أنها صارت فى المائة الرابعة هـ بلدة قليلة الشأن عند ملتقى الطريق المنحدر من آمد وكانت حينذاك أوسع من دارا الا أن ياقوت أشار فى المائة السابعة هـ الى أنها قرية كبيرة .

وعند انحدار الخابور جنوبا يمر بمدينتى **عربان وماكسين** من أعمال ديار ربيعة ، والأولى كانت فى المائة الرابعة محاطة بسور منيع وتعمل فيها ثياب القطن ، أما الثانية فكان هناك جسر سفن يقطع الخابور عندها وكان القطن يكثر فيها أيضا وبقربها بحيرة صغيرة عميقة تسمى المنخرق .

وعلى مائة ميل أو يزيد جنوب نصيبين سكير العباس وكان هناك فى المائة الرابعة مدينة كبيرة لها جامع وأسواق ·

سنجار : يجرى نهر الثرثار فى برية سنجار بين مرتفعات جبل حمرين أو بارما ، ويستقبل من الشمال نهرا صغيرا ينحدر اليه من مدينة سنجار ، وكانت فى المائة الرابعة هـ مسورة بسور من حجر ونواحيها عامرة كثيرة الخيرات ، وهى مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهى فى لحف جبل عال · ويبدو أن المسيحية قد وصلت اليها قبل نصيبين ويذكر ابن بطوطة أنه وجدها مسكونة بالأكراد ، وكانت كثيرة القنوات والبساتين حتى شبهت بدمشق ·

والحضر هى Hatra عند الرومان · ذكر ابن سرابيون أن الثرثار يمر بها عند نصف المسافة بين سنجار وملتقاه بدجلة قرب تكريت ، وما زال يرى فى الحضر بقايا قصر بارثى كبير « ويقال كان فيه ستون برجا كبارا وبين البرج والبرج تسعة أبراج صغار بازاء كل برج قصر » ·

بلد : يتفرع عندها الطريق من الموصل الى نصيبين بحذاء دجلة الأيمن ، وتسمى الآن (اسكى موصل) وتقع على أربع فراسخ من الموصل· ويذهب طريق الى اليسار منها الى سنجار مارا بتل أعفر · وقد ذكر ابن حوقل أن بلد مدينة كبيرة ، وفوق تل أعفر على مرحلة واحدة من غربها قلعة حصينة تشرف على ربض كبير فيه نهر جار · أما الطريق الأيمن فانه يبدأ مما يلى بلد ويذهب الى **باعيناثا** وهى غير القرية الكبيرة باعيناثا الواقعة على النهر الذى يلتقى بدجلة شمال جزيرة ابن عمر · ويلى باعيناثا على طريق نصيبين **برقعيد** وهى بلد يضرب المثل بأهلها فى اللصوصية ، وكانت فى المائة الثالثة هـ بلدة كبيرة عليها سور ولها ثلاثة أبواب ، وماحلت المائة السابعة حتى تجنبتها أكثر القوافل فهان أمرها · **وأذرمة** فى نحو نصف المسافة بين برقعيد ونصيبين · وقد وصفها أحمد بن الطيب السرخسى من المائة الثالثة هـ بأنه كان بها قصر حسن ويشقها نهر عليه فى وسط المدينة قنطرة معقودة بالصخر والجص وحولها سوران احدهما دون الآخر ومن خارج السور خندق يحيط بالمدينة ·

ديار مضر : تحف بضفاف الفرات وهى ما كان بالسهل بالقرب من شرقى الفرات نحو حران والرقة وشمشاط وسروج وتل موزن ·

الرقة : أجل مون ديار مضر وهى فوق نهر البليخ المنحدر من الشمال الى الفرات وقامت فى موضع المدينة اليونانية القديمة Callinicus Nicephorium ، « والرقة كل أرض الى جنب واد ينبسط عليها

الماء » • ويقول ياقوت عن الرقة : « مدينة مشهورة على الفرات ، بينها وبين حران ثلاثة أيام ، معدودة فى بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي، ويقال لها **الرقة البيضاء** • أرسل سعد بن أبى وقاص سنة ١٧ جيشا عليه عياض بن غنم فقدم الجزيرة فبلغ أهل الرقة خبره فقالوا **أنتم بين العراق والشام** وقد استولى عليهما المسلمون فما بقاؤكم مع هؤلاء ؟ فبعثوا الى عياض فى الصلح فقبله ••• وكان بالجانب الغربى مدينة أخرى تعرف **برقة واسط** كان بها قصران لهشام بن عبد الملك على طريق رصافة هشام وأسفل من الرقة بفرسخ • **والرقة السوداء** قرية كبيرة ذات بساتين كثيرة وشربها من البليخ والجميع متصل » • **وحين** انتقلت الخلافة الى بنى العباس فى المائة الثانية هـ (الثامنةم) كانت الرقة **من أهم مدن وادى بين النهرين الأعلى وتسيطر على تخوم الشام** ، فشرع المنصور سنة ١٥٥ هـ (٧٢٢ م) فى بناء مدينة **الرافقة على** نحو ثلاثمائة ذراع من الرقة ورتب بها جندا من أهل خراسان ، وجرى ذلك على يد المهدى وهو ولى عهده • ثم بنى الرشيد قصورها وبنى له فيها قصر السلام لأنه كان يقيم فى الرقة أو الرافقة عند اشتداد حر بغداد • وسرعان ما خربت الرقة القديمة ، وشيدت أبنية جديدة فى الأرض الفضاء بين الرقة والرافقة وكانت الأخيرة حينا من الزمن ربضا للأولى ، فبطل اسم الرافقة بمرور الأيام ، وان كان ابن حوقل يتكلم فى المائة الرابعة عن مدينتى الرقة والرافقة المتلاصقتين •أما المقدسى فقال عن الرقة :« **الشام على تخمها ، والفرات الى جنبها والطرق اليها صعبة والرقة المحترقة قريبة منها قد خفت وخربت والرافقة هى ربض الرقة** » • وقد وصف الرافقة أحمد بن الطيب فقال : « بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة الفرات ، وعلى الرافقة سوران بينهما فصيل وهى على هيئة مدينة السلام ولها ربض بينها وبين الرقة وبه أسواقها وقد خرب بعض أسوار الرقة • قلت ــ أى ياقوت ــ هكذا كانت فأما الآن فان الرقة خربت وغلب اسمها على الرافقة » •

صفين : فى جانب الفرات الأيمن بازاء الرقة فما فوقها وفيها كانت معركة على ومعاوية ، ومقابل أرض الموقعة فى ضفة الفرات الشمالية (اليسرى) قلعة **جعبر** نسبة الى مالكها الأول وكان عربيا من بنى نمير ، وعرفت القلعة أولا بدوسر • وقد استولى عليها الصليبيون فى حملتهم الأولى • ويستقبل الفرات من يساره أسفل الرقة نهر البليخ،وهو عند اليونان Bilecha ومنبعه من عين الذهبانية شمالى حران ، ويجرى البليخ جنوبا ثم يلتقى بالفرات **تحت الرقة** •

حران : Carrhae قرب منبع البليخ وكانت مدينة الصابئة ،

وعليها حصن من حجارة . ووصف ابن حوقل سورها الحجرى . وقال ياقوت « بينها وبين الرقة يومان وهى على **طريق الموصل والشام والروم**» .

الرها : Edessa عند منابع احد روافد البليخ وكانت قاعدة الاقليم القديم Osrhoene , كما **كانت تكون مع انطاكية الدعامتين الرئيسيتين للاستراتيجية الرومانية** ومن هنا كانت تربطها شبكة من الطريق بسائر انحاء الجزيرة والعراق من جهة وبالشام من جهة أخرى وقد كانت تشغل موقعا فريدا فى قلب Osrhoene ، ولم يسهب البلدانيون المسلمون فى اخبارها لأن أغلب سكانها أقاموا على نصرانيتهم وأكثر ما اشتهرت به كنائسها ، فقال المقدسى : ان بها كنيسة عجيبة بآزاج ملبسة بالفسافساء هى احدى عجائب الدنيا وكانت مدينة محصنة وقد استولت عليها الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٢ هـ وظلت ولاية لاتينية حتى استعادها زنكى سنة ٥٤٠ هـ .

وفى جنوبى حران على مقربة من شرقى نهر البليخ **باجدا** قرية كبيرة بين رأس العين والرقة « قال أحمد بن الطيب : عليها سور ، وكان مسلمة بن عبد الملك أقطع موضعها رجلا من أصحابه يقال له أسيد السلمى فبناها وسورها ، وفيها بساتين تسقيها عين تنبع من وسطها ، وهى قرب حصن مسلمة » . **وحصن مسلمة** بالجزيرةبين رأس عين والرقة . وقد بنى على قدر جريب من الأرض وارتفاعه فى الهواء أكثر من خمسين ذراعا . وفى جنوبى حصن مسلمة فى طريق الرقة على ثلاثة فراسخ منها**باجروان** كانت منزلا خصبا نزها واسعا ثم عراها الاختلاف فى المائة الرابعة هـ .

قرقيسياء وهى Circessium القديمة وهى على نحو مائتى ميل أسفل من الرقة على ضفة دجلة اليسرى حيث يصب الخابور فضلة مياهه ، قرب **رحبة مالك بن طوق** على ستة فراسخ وهى مثلث بين الخابور والفرات وذكر ياقوت والمستوفى أن قرقيسياء **أصغر من الرحبة** المجاورة لها ، وهذه الرحبة سميت باسم مؤسسها مالك **بن طوق** الذى عاش فى خلافة المأمون ولها حصن منيع وربض كبير وبالقرب منها **الدالية** وهى بلدة صغيرة تعرف باسم مؤسسها مالك أيضا . والرحبة والدالية قرب نهر سعيد الذى يخرج من يمين الفرات فوق قرقيسياء بقليل ويعود فيصب فيه فوق الدالية ، حفره الأمير سعد بن عبد الملك الأموى المعروف بسعيد الخير وقد تولى الموصل حينا .

رصافة هشام : فى البادية بين الرحبة والرقة ، وهى Sergiopolis القديمة وكانت تعد تارة من جند قنسرين او العواصم والاخرى من ديار مضر ،

وقد يدرجها نفس المؤلف في اقليمين مختلفين مثلما فعل ابن خرداذبة وابن الفقيه ، في حين اعتبرها المقدسى والمسعودى من الشام فحسب ، ويعتبرها الطبري من ديار مضر حين يروى نهب القرامطة لها في أحداث سنة ٢٨٩ هـ ، ولعل هذا الخلط يرجع الى تباين وجهات النظر ما بين الاعتبار الجغرافي الخالص واعتبارات التنظيم الادارى المتغير • وكانت تسمى رصافة الشام أو رصافة هشام اذ بناها هشام بن عبد الملك « على طرف البرية لما وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف ••••• ووجدت - أى ياقوت - فى أخبار ملوك غسان : ثم ملك النعمان بن الحارث بن الأيهم وهو الذى أصلح صهاريج الرصافة وصنع صهريجها الأعظم • وذكرها ابن بطلان الطبيب في رسالته التي كتبها سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) الى هلال بن الحسن فقال : وهذا القصر - يعنى قصر الرصافة - حصن دون دور الخلافة ببغداد مبنى بالحجارة ، وفيه بيعة عظيمة ظاهرها بالفص المذهب انشأها قسطنطين ابن هيلانه ، وتحت البيعة صهريج فى الأرض على مثل بناء الكنيسة معقود على أساطين الرخام مبلط بالمرمر مملوء من ماء المطر • وسكان هذا الحصن بادية أكثرهم نصارى معاشهم تخفير القوافل وجلب المتاع ، والصعاليك مع اللصوص • وهذا القصر فى وسط برية مستوية السطح لايرد البصر من جوانبها الا الأفق ورحلنا منها الى حلب فى أربع رحلات » •

وفى شرقى الفرات بين الرقة وقرقيسياء **الخانوقة** ، قال ياقوت : ان أرض المضيق بالقرب منها •

عـانة : هى Anatha القديمة وليس فى اقليم الجزيرة أسفل قرقيسياء مدينة ذات شأن غيرها ، ذكرها ابن سرابيون فقال : ان الفرات يدور بها ، اما ابن حوقل فقال : ان عانة فى وسط الفرات ويطوف بها خليج من الفرات ، وزاد ياقوت بها قلعة حصينة مشرفة على الفرات ، واليها التجأ القائم بأمر الله سنة ٤٥٠ هـ حين استولى البساسيرى الديلمى على بغداد • وفرضة عانة تعرف بفرضة نعم وكانت محطة مهمة عند انقسام الطريق ، فيقطع أيسر البادية مارا بالرصافة ثم الى الرقة رأسا بينما يصعد الطريق الأيمن مع النهر •

وكان على الفرات فوق الرقة ثلاث مدن وهي : بالس ، وجسرمنبج، وسميساط • وقد كانت تحسب جميعا من أعمال الشام فى الغالب ، لوقوعها فى يمين الفرات أى في جانبه الغربى وان عدها أكثر المؤلفين من أعمال الجزيرة • وسيأتى ذكرها عند الكلام على اقليم الثغور والعواصم نفسه •

ديار بكر : بلاد كبيرة واسعة حدها ما غرب من دجلة الى بلاد الجبل المطل على نصيبين كما تشرف على دجلة ، ومنها حصن كيفا وآمد وميافارقين ، وقد تتجاوز دجلة الى سعرت وحيزان (وجنبى عند ياقوت وحيني عند ابن عبد الحق) وما تخلل ذلك من البلاد ولا يتجاوز السهل.

آمد : فى غربى دجلة أى يمينه ويطل عليها جبل علوه مائة قامة . قال ابن حوقل :عليها سور أسود من حجارة الأرحية ، وقال المقدسى : «بلد حصين حسن عجيب البناء على عمل انطاكية ... له أبواب وعليه شرف بينه وبين الحصن فضاء . وهى أصغر من أنطاكية بحجارة سود صلبة... وفيها عيون غربى دجلة ، رحبة طيبة ، ثغر للمسلمين وحصن حصين .. لها خمسة أبواب باب الماء وباب الجبل وباب الروم وباب التل وباب انس صغير يحتاج اليه وقت الحرب ، وبعض الحصن على الجبل . ولا أعرف للمسلمين اليوم بلدا أحصن ولا ثغرا أجل منها » . وقد أفاض ناصرى خسرو فى وصف آمد حين زارها سنة ٤٣٨ هـ وذكر أن علو سورها عشرون ذراعا وثخنه عشرة أذرع ، وأكثر حجارته ملتصق بعضه ببعض من غير طين أو جص وقد يصل الحجر الى ثلاثة أطنان ، وعلى بعد كل مائة ذراع من السور برج نصف دائرى تنتهى قمته بشرفات من الحجارة السود نفسها . وخارج ذلك سور آخر من الحجر نفسه وفى الفصيل بينهما ربض كالحلقة ، وفوق هذا السور شرفات ومرقاة للدفاع .وهناك أربعة أبواب حديد فى كل من السورين الداخلى والخارجى ، وفى وسط المدينة عين يتفجر ماؤها من الحجر .

وفى شمال آمد على مقربة من أحد الروافد الشرقية مدينة **حانى** ذكر ياقوت ان فيها معدن الحديد ومنها يجلب الى سائر البلاد . وذكر المقدسى أن أصل دجلة على بعد قليل من غربها وأول مايختلط بها **نهر الذئب ، وهو نهر الكلاب** عند ياقوت على ما يظهر . وكان يخرج من الجبال قرب شمشاط شمالى حانى . كما أن **موضع هلورس** الذى قيل بأنه أول مخرج دجلة يقع على مسيرة يومين ونصف من آمد . ويقول لى سترينج « وذكر المقدسى وياقوت أسماء سواق ورواضع وأنهار كثيرة ليس من الهين التوفيق بينها حسب الروايتين ، ولعل الأسماء تبدلت كثيرا بين المائة الرابعة والمائة السابعة (هـ) ».وأعظم الأنهار المنصبة فى دجلة قرب آمد النهر المنحدر من شمالى ميافارقين ـ ويتفرع منه نهر يسقيها ـ وهو نهر ساتيدما واحد فروعه وادى الزور الاخذ من الكلك ، وأول ماء ساتيدما من درب الكلاب ، ويسميه المقدسى نهر المسوليات ويعرف اليوم بطمان صو .

ميافارقين : يظهر ان الاسم العربى تحريف لاسم Maypharkath الآرامى أو Moufargin الأرمنى ، وسماها اليونان Martyropolis وقد عدها ابن حوقل تارة من أرمينية اذ هى على مرحلتين من دجلة وتكلم عنها تارة أخرى عندما تناول الجزيرة . « بلد طيب حصين له شرف وفصيل بحجارة وخندق ... والجبال حصينة بها قلعة وربض » . وهى قليلة البساتين وقد ذكر ناصرى خسرو حين زارها أن عليها سورا عظيما من الحجر الأبيض الذى يزن الواحد منه نحو طن ونصف ، وفى أعـــلاه شرفات ، وعلى بعد كل خمسين ذراعا منه برج عظيم من الحجر الأبيض نفسه ، ولهذه المدينة باب من ناحية الغرب حديد لا خشب فيه . واسهب ياقوت والقزوينى فى حديثهما عما كان فى ميافارقين قديما من مختلف البيع وعن ابراجها الثلاثة وابوابها الثمانية « والذى يعتمد عليه أنها من أبنية الروم لأنها فى بلادهم ، وقد ذكر فى ابتداء عمارتها انه كان فى موضع بعضها اليوم قرية عظيمة وكان بها بيعة من عهد المسيح وبقى منها حائط الى وقتنا .. قالوا وامر الملك قسطنطين وزراءه الثلاثة فبنى كل واحد منهم برجا من أبرجتها . فبنى احدهم برج الرومية والبيعة فى العقبة ، وبنى الآخر برج الراوية المعروف الآن ببرج على بن وهب وبيعة كانت تحت التل وهى الآن خراب ... وبنى الثالث برج باب الربض والبيعة المدورة ، وجعل لها ثمانية أبواب ... وكان بين برجين مرآة عظيمة يشرق نورها اذا طلعت الشمس على ماحولها من الجبال ... وفى برج على بن وهب فى الركن الغربى القبلى صليب منقور يقال انه مقابل بيت المقدس ... ومازالت ميافارقين بأرض الروم الى أيام قبادبن فيروز ملك الفرس فانه غزا ديار بكر وربيعة وافتتحها وسبى أهلها ونقلهم الى بلاده وبنى لهم مدينة بين فارس والأهواز ... وفى عهد ابرويز خرج هرقل ملك الروم فافتتح هذه البلاد واعادها الى مملكته وملكها بأسرها ثمان سنين حتى سنة ١٨ هـ » ـ حين كان الفتح الاسلامى .

أرزن : على شىء يسير من ميافارقين على الضفة الغربية لنهر أرواد يقال له سربط . ولارزن حصن عظيم منيع ، وقد زارها ناصرى خسرو سنة ٤٣٨هـ (١٠٤٦م) فوجدها عامرة يانعة ، فى حين ذكر ياقوت بعدذلكأنها: « مدينة مشهورة قرب خلاط ولها قلعة حصينة وكانت من أعمر نواحى أرمينية ، وأما الآن فبلغنى أن الخراب ظاهر فيها » ، وهذه غير أرزن الروم.

حصن كيفا : على ضفة الفرات الجنوبية بين مصبى النهرين الآتيين من شمالى ميافارقين وأرزن ، وقد سمى الروم الحصنKiphas أو Cephe ووصف المقدسى بلدة حصن كيفا بأنها « كثيرة الخير وبها قلعة حصينة

وكنائس كثيرة » ، وذكر ياقوت أنها « بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر وهى كانت ذات جانبين ، وعلى دجلة قنطرة لم أر فى البلاد التى رأيتها أعظم منها » ، وهى طاق واحد يكتنفه طاقان صغيران • وقد ظهر الخراب على حصن كيفا وقت أن زاره المستوفى •

تل فافان : أسفل التل مدينة بهذا الاسم على ضفة دجلة الشمالية أى اليسرى على نحو خمسين ميلا شرقى حصن كيفا حيث ينعطف النهر بشدة نحو الجنوب « وتل فافان من ناحية الجبل بين دجلة ورزم حولها بساتين والأسعار بها رخيصة وأوسواقها مغطاة ، بناؤهم طين » • والنهر الذى يلتقى بدجلة عند تل فافان ينحدر من باديس ومخرجه فى جبال أرمينية جنوب غربى بحيرة وان ، ويقترن به رافد عظيم ينبع من جنوب البحيرة سماه المقدسى وياقوت وادى الرزم • ويصير دجلة اسفل اقترانهما فى مجرى واحد صالح لسير السفن • وعلى ضفاف نهر الرزم شمال تل فافان وفوق مصب نهر بدليس فيه : مدينة سعرت وتعد فى الغالب من أعمال أرمينية وقد أشار اليها ياقوت ولكنه لم يصفها ، أما المستوفى فذكر آنيتها النحاس الفاخرة (٢٧) •

---

(٢٧) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١١٤ : ١٤٦ ،
Dussaud, Top. Hist. de la Syrie, pp. 448 : 465, 479, 493, 496, 7, 9.
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides pp. 77 : 131
المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٣٧ ، ١٤٢ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٥٢ : ٥٥ ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٧٣ : ٢٨٩ ابن جبير ص ٢٢١ : ٢٣٥ ، ياقوت : مواد المدن المذكورة على الترتيب فى معجم البلدان : ج ٤ ص ١١٧ (ديار بكر ، ربيعة ، مضر) ، ج ٨ ص ١٩٥ ـ ٦ (الموصل) ج ٥ ص ١٥٣ ـ ٤ (السن) ، ج ٣ ص ١٠٢ (جزيرة ابن عمر) ، ج ٨ ص ٢٩٢ (نصيبين) ، ج ٤ ص ٢٠٥ ـ ٦ (رأس العين) ، ج ٧ ص ٣٦١ (ماردين) ، ج ٤ ص ٥ ـ ٦ (دارا) ، ج ٧ ص ٢٦٣ (كفرتوثا) ، ج ٥ ص ١٤٤ (سنجار) ، ج ٤ ص ٣٧٢ ـ (الرقة) ، ج ٥ ص ٣٧٠ (صفين) ، ج ٧ ص ١٥٠ (قلعة جعفر) ، ج ٣ ص ٢٤٢ (حران) ، ج ٤ ص ٣٤٠ (الرها) ، ج ٢ ص ٢٣ (باجدا) ، ج ٣ ص ٢٨٦ (حصن مسلمة) ، ج ٧ ص ٥٩ ـ ٦٠ (قرقيسياء) ، ج ٤ ص ٢٥٥ ـ ٦ (الرصافة) ، ج ١ ص ٦١ (آمد) ، ج ٨ ص ٢١٤ ـ ٨ (ميافارقين) ، ج ١ ص ١٩٠ (أرزن) ، ج ٣ ص ٢٨٦ (حصن كيفا) • وفى المراصد ج ١ ص ٣٨٧ (الحديثة) ص ٥١ (اريــك) ، ص ١٥٢ (بازيدى) ، ج ٢ ص ٩١٢ (عانة) ، ج ١ ص ٣٧٣ (حانى) ص ٥١ (اربل) ، ص ١٥٢ (بازبدى) ، ج ٢ ص ٩١٢ (عانة) ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ١٨٤ : ٨ (رصافة هشام) ، ص ٣٢٠ (صفين)

(ب) الشام :

تكون بلاد الشام معبرا بين البحر المتوسط والصحراء ، ويدعو البحر للتجارة والملاحة ، في حين تخط دروب جبال طوروس ممرات نحو آسيا الصغرى حيث الدولة البيزنطية ، ويفتح وادى الفرات طريقا للشام نحو الخليج الفارسى • وفى الجنوب تتصل الشام بمصر وبلاد العرب • فبلاد الشام من أقاليم البحر المتوسط ، لكن لها صلاتها مع أوربا وآسيا الصغرى من جهة ومع مصر وبلاد العرب من جهة أخرى ، كما كانت لها صلاتها مع امبراطوريات دجلة والفرات عن طريق وادى الفرات والطريق الصحراوى الذى كان يجتاز يالميرا ، وقد وقعت الشام فى ايدى الساسانيين فى خلال القرن السابع ، ولكن صـلات الشـام الطبيعية كانت أكثر ارتباطا بمن له السيادة على آسيا الصغرى • وقد كان البيزنطيون أصحاب هذه السيادة خلال القرن السابع ، كما كانوا أصحاب السيادة على مصر في جنوبها الغربى أيضا (٢٨) •

وحد الشام « من الفرات الى العريش المتاخم للديار المصرية ، وأما عرضها فمن جبلى طىء ـ من نحو القبلة ـ الى بحر الروم ، وما بشأمة ذلك من البلاد ، وبها من أمهات المدن : منبج وحلب وحمـاة وحمص ودمشق وبيت القدس والمعرة ، وفى الساحل أنطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان وغير ذلك • وهى **خمسة أجناد** : جند قنسرين وجند دمشق وجند الاردن وجند فلسطين وجند حمص • ويعد فى الشام أيضا الثغور وهى المصيصة وطرسوس وأذنة وأنطاكية وجميع العواصـم من مرعش والحدث وبغراس والبلقاء وفى الحديث : (•••• والله لايزال هذا الإمر فيكم حتى تفتح أرض فارس وأرض الروم وأرض حمير ،وحتى تكونوا اجنادا ثلاثة : جند بالشام وجند بالعراق وجند باليمن ••• قال ابن حوالة فقلت يارسول الله ، من يستطيع الشـام وفيه الروم ذات القرون ؟ فقال النبى : والله ليستخلفنكم الله فيها حتى تظل العصـابة منهم ـ البيض قمصهم ، المحلوق اقفاؤهم ـ قياما على الرجل الأسـود ، ما آمرهم به فعلوا ، وان بها اليوم رجالا لانتم اليوم أحقر فى أعينهم من القردان فى اعجاز الابل • قال ابن حوالة : اخترلى يارسول الله ان أدركنى ذلك ، فقال : اختار لك الشام فانها صفوة الله من بلاده ، واليها يجتبى صفوته من عباده) • »

---

(٢٨) Gaudefroy-Demombynes, Platonov: Le Monde Musulman et Byz. pp. 41 - 2

وفى (تقويم البلدان) : ان حد الشام من الجنوب من أول رفح التى فى أول الجفار بين مصر والشام الى حدود تيه بنى اسرائيل الى ما بين الشوبك وايلة من البلقاء ، وحده من الشرق من البلقاء الى مشاريق صرخد ـ آخذا على أطراف الغوطة الى سلمية الى مشاريق حلب الى بالس ، وحده من الشمال من بالس مع الفرات الى قلعة نجم الى البيرة الى سميساط الى حصن منصور الى يهسنا الى مرعش الى بلاد سيس الى طرسوس الى بحر الروم ، وحده من الغرب من طرسوس المذكورة آخذا على ساحل البحر الرومى الى رفح المتقدمة (٢٩) .

وتغذى أراضى الشام الخصبة قرب الساحل عدة أنهار أهمها اليرموك والاردن وبردى والارند ـ أو الارنط ـ وقويق . ويلى هذه المنطقة الخصبة بادية واسعة تمتد حتى قرب الحجاز ومصر تعرف بالبلقاء . وقد كان يسكن الشام عناصر أغلبها سامية جاءته باستمرار من داخل الجزيرة العربية فى شكل موجات ضخمة متتابعة مثل : العموريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين والعبرانيين والفلسطينيين والأنباط ، وأخيرا العرب اليمنيين من قبائل الضجاعم وكلب وغسان وعذرة وجذام ، وهذه كانت قبل الاسلام تكون معظم سكان الشام وتمتد فى جنوبه من دمشق حتى حدود الحجاز . وقد طمعت فى الشام الدول المسيطرة فى حوض البحر المتوسط مثل المصريين القدماء والبطالمة والرومان وأخيرا البيزنطيين . ومن ناحية أخرى اكتسحته جيوش الفرس عدة مرات دون أن تطيل به المقام . وظهرت فى الشام دويلات أعانتها الدولة الرومانية أو البيزنطية على أن تقف حارسة لحدود أملاكها فى الشرق ضد غارات عرب الحجاز أو الفرس مثل مملكة النبط وتدمر وأخيرا الغساسنة . (٣٠)

وقد وصف الجغرافيون العرب المعالم الطبيعية لبلاد الشام : وصفوا بحر الروم كما وصفوا جبل اللكام ، ووصفوا البحيرات والأنهار .

بحر الروم :

يقول المسعودى : « هو بحر الروم والشام ومصر والمغرب والاندلس والافرنجة والصقالية وررومية وغيرهم ... طوله ٥٠٠٠ ميل ، وعرضه مختلف : قمنه ٨٠٠ ميل ، ومنه ٧٠٠ ميل ، ومنه ٦٠٠

---

(٢٩) ياقوت : معجم البلدان حـ ٥ ص ٢١٧ : ٢٢١ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٢٥ القلقشندى . صبح الأعشى حـ ٤ ص ٧٥ ـ ٧٦ ابن العديم : بقية الطلب ـ مخطوط ص ١٨ : ٢٢

(٣٠) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ١ ص ١٧٢ ـ٣

وأقل وأكثر ـ على حسب مضـــايفة البر للبحر والبحر للبر ٠ ومبدؤه، خليج آخذ من بحر اوقيانس المحيط يعرف بالزقاق ـ معترض بين طنجه وسبتة من سواحل أفريقية ٠٠٠ »« والتنانين فى بحر الروم كثيرة وكثيرا ماتكون مما يلى طرابلس واللاذقية والجبل الأقرع من أعمال انطاكية ـ وتحت هذا الجبل معظم ماء البحر وأكثره ويسمى عجز البحر ٠٠٠وغايته الى ساحل انطاكية وساحل المصيصة وفيه مصب نهر جيحان ، وساحل أذنة وفيه مصب سيحان وساحل طرسوس وفيه مصب نهر بردان » (٣١)

ويقول ياقوت :«٠٠٠ فبحر الاندلس وبحر المغرب وبحر الاسكندرية وبحر الشام وبحر القسطنطينية وبحر الافرنج وبحر الروم جميعه واحد ، ليس لهذا اتصال ببحر الهند ـ الا أن يكون من جهة المحيط ٠ وأقرب موضع بين البحر الهندى وهذا البحر : عند الفرما ـ وهى على ساحل بحر المغرب، والقلزم ـ وهو على ساحل بحر اليمن ٠ ولو أراد مريد أن يسير من سلا الى أفريقية ثم سواحل مصر والشام ، ثم الثغور الى طرابزنده ، ويقطع جبل القبق ويدير من أطراف بلاد الترك الى القسطنطينية فيصير البحر على جهته الجنوبية بعد أن كان من جهته الشمالية ، ويمر بسواحل الافرنج حتى يدخل الأندلس ، فيقابل سلا التى بدأ منها من غير أن يقطع بحرا أو يركب مركبا ـ يمكنه ذلك الا أن المسافة بعيدة والمشقة فى سلوكه صعبة لمروره بين أمم مختلفة فى الأديان والألسنة وجبال وبواد موحشة (٣٢) » ٠

الجبال :

جبل اللكام : هو بصفة خاصة الأجزاء الشرقية والشمالية مما كان يسمى قديما بجبل أمانوس Amanus ٠ وكل الجبال الواقعة بالشام فى شمالى لبنان تدخل تحت هذه التسمية بصفة عامة ٠ ويذكر ان جبل للكام هو **جبل سكين** الذى ذكره الجغرافيون المتأخرون العرب ٠ ويقول المقدسى عن جبل اللكام « أنه أعمر جبال الشام وأكبرها وأكثرها ثمارا ٠ هو اليوم بيد الأرمن ، **وطرسوس من ورائه وانطاكية دونه** » ٠ ويذكر الاصطخرى وابن حوقل فى أوائل القرن ٤ هـ (١٠م) : أن جبل **اللكام يفصل الثغور الشامية عن الجزرية** ، ثم يوغل شمالا فى بلاد الروم حوالى مائتى فرسخ على مايقال ٠ وتظهر الجبال أولا فى بلاد الاسلام ممتدة بين مرعش والهارونية وعين زربة ـ وتسمى **جبل اللكام** حتى اللاذقية

---

(٣١)المسعودى : التنميه والاشراف ص ٥٠ ، ومروج الذهب حـ ١ ص ٧١ : ٣

(٣٢) ياقوت : معجم البلدان حـ ٢ ص ٧٠ ـ ١

جنوبا ، أما أسفل ذلك فتسمى جبل **بهراء وتنوخ** حتى حمص ، وجنوبها تسمى الجبال **بجبل لبنان** ، ثم تنتشر جنوبا حتى تنتهى فى أحد جانبيها الى شاطىء بحر القلزم وفى الجانب الآخر تصل الى تلال المقطم بالقاهرة ٠ يقول ياقوت : « اللكام هو الجبل المشرف على أنطـــاكية وبلاد ابن ليون (ملك أرمينية) والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور ٠ وجبل لبنان مطل على حمص يجىء من العرج الذى بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام : فما كان بفلسطين فهو جبل **الحمل** ، وما كان بالأردن فهو جبل **الجليل** ، وبدمشق **سنير** ، وبحلب وحماه وحمص **لبنان** ، ويتصـــل بانطاكية والمصيصة فيسمى هناك **اللكام** ، ثم يميل الى ملطية وسميساط وقاليقلا الى بحر الجزر فيسمى **القبق** ، وقيل ان فى هذا الجبل سبعين لسانا لا يعرف كل قوم لسان الآخر الا بترجمان » وذكر ابن العديم عن جبل اللكام « ولا يزال به الثلج فى الشتاء والصيف وهو مسكن العباد والزهاد، وفيه من الفواكه المباحة ما يقتاتون به وهو يفصل بين الثغور الشامية والجزرية »٠ ويطلق البعض اسل جبل الثلج على الجبل الذى يقع قرب صفد « قال فى (تقويم البلدان) : ثم يمتد الى الشمال ويتجاوز دمشق فاذا صار فى شماليها سمى جبل (سنير) ويسمى جانبه المطل على دمشـــق جبل (قاسيون) ويتجاوز دمشق ويمر غربى بعلبك ، ويسمى الجبل المقابل لبعلبك جبل (لبنان) ٠ واذا تجاوز بعلبك وصار شرقى طرابلس سمى جبل (عكار) اضافة الى حصن باعلاه يسمى عكارا ، ثم يمـر شمالا ويتجاوز طرابلس الى حصن الاكراد من عمل طرابلس ، ويسامت حمص من غربيها على مسيرة يوم ويمتد حتى يجاوز سمت حماة ، ثم سمت شيزر ثم سمت افامية ــ ويسمى قبالة هذه البلاد جبل (اللكام) ٠ قال فى (رسم المعمور) : وجبل اللكام يمتد الى أن يصير بينه وبين جبل شحشبو ، اتساعه نصف يوم حتى يتجاوز صهيون والشغر وبكاس والقصير ، وينتهى الى انطاكية فينقطع هناك ويصير قبالة جبل الأرمن ٠ قال (فى تقويم البلدان) : ويقابل هذا اللكام عند مصـــــاقبته لافامية المتقدمة الذكر جبل آخر من شرقيه ويسمى جبل (شحشبو) اضـــافة الى قرية هناك تسمى بذلك ، ويمر من الجنوب الى الشمال على غربى المعرة وسرمين وحلب ثم يأخذ غربا ويتصل بجبـــال الروم » ٠ وتذهب أسطورة أن الاسكندر زار قرية شـــــحشبو ، ويعطى ياقوت اسم

---

(٣٣) Le Strange : Palestine Under the Moslems, pp. 81-2. المقدسى : أحسن التقاسم ص ١٨٨ــ٩ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٣٢٠ ، ٣٣٦ ــ ٧ ، الاصطخرى: المسالك والممالك ص ٤٣ : ابن العديم : بغية الطلب ــ مخطوط ص ٥٨ : ٦٠

الاسكندرية لقرية بين حماة وحلب (٣٤) • ويشرف **الجبل الأقرع** فى شمالى الشام على ساحل البحر ، ويروى ابن العديم فى سبب تسميته بالاقرع أنه « مستدير عال لا نبات عليه » ، ومن يكون فى بحر الروم يراه « وهو جبل لا يدرك علوه مطل على انطاكية واللاذقية وطرابلس وقبرص وغيرها من بلاد الروم (٣٥) ••• » **والخشبية** « جبل قرب المصيصة بالثغور كان به مسلحة للمسلمين وهى مسلحة الثغور » **والتنور** « جبل قرب المصيصة يجرى سيحان تحته » **وحوار** « جبل فى غربى جيحان ، ويسمى البعض الحد الجبلى بين الشام وبلاد الروم **بجبل سياح** » (٣٦) •

أما جبل سنير الذى أشار ياقوت الى اتصاله بجبل اللكام فهو يقول عنه « جبل بين حمص وبعلبك على الطريق وعلى رأسه قلعة سنير ، وهو الجبل الذى فيه المناخ مغربا الى بعلبك ويمتد شرقا الى القريتين وسلمية ، وهو فى شرقى حماه وجبل الجليل مقابله من جهة الساحل • وبينهما الفضاء الواسع الذى فيه حمص وحماه وبلاد كثيرة • وهذا جبل كورة قصبتها حوارين – وهى القريتين – ويتصل بلبنان متيامنا حتى يلتحق ببلاد الخزر ، ويمتد متياسرا الى المدينة ، وسنير الذى ذكر أنه بين حمص وبعلبك شعبة منه الا أنه انفرد بهذا الاسم (٣٧) » •

ويمتد عرضا من أرض الشام الى الفرات من جهة البادية **جبل البشر** « وفيه أربعة معادن : القار والمغرة والطين الذى يعمل منه البواتق التى يسبك فيها الحديد والرمل الذى فى حلب يعمل منه الزجاج وهو رمل أبيض كالاسفيداج • وهو من منازل تغلب بن وائل » ومن الجبال المطلة على حلب **الجوشن** ويطل على حلب فى غربيها ، **والسماق** جبل عظيم من أعمال حلب الغربية مشتمل على مدن عظيمة وقرى وقلاع **وشبيث** جبل بنواحى حلب مستدير يقطع منه حجارة الرحى ، **وتل قيقان** بظاهر حلب ، **وليلون** جبل مطل على حلب بينه وبين انطاكية وفيه قرى ومزارع (٣٨) •

---

(٣٤) ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٦٨ – ٩ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨٥ – ٩
Dussaud : Top Hist. de la Syrie, p. 184

(٣٥) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٥٦ ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ٦٠

(٣٦) ياقوت : معجم البلدان (الخشبية) ج ٣ ص ٤٤١ ، ابن عبدالخالق : المراصد (التنور) ج ١ ص ٢٧٨ ، (حوار) ص ٤٣٣ ، ياقوت : المعجم (سياح) ج ٥ ص ١٨٩

(٣٧) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ١٥٥

(٣٨) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١٨٧ ، ابن عبد الحق : المراصد ج ١ (الجوشن) ص ٣٥٩ ، (السماق) ص ٣١١ ، ج ٢ (شبيث) ص ٧٨٢ ، ج ٣ (ليليون) ص ١٢١٤ ياقوت : المعجم ج ٧ ص ١٩٧ (تل قيقان) ، ابن العديم : بغية الطلب – مخطوط ص ٣٢ : ٥٦

ووضع الجبال فى بلاد الشام ينتظم فى سلسلتين جبليتين تتجهان من الشمال للجنوب ويفصلهما واد تجرى مياهه نحو بحيرة أنطاكية • والسلسلة الغربية تسير من الطرف الشمالى لمرج الروج وتمتد حتى حارم وعم وتحمل اسم **الجبل الأعلى** ، أما السلسلة الشرقية فتسمى **جبل باريشا** ، وتكون الجبال مع جبل بركات أو سمعان (ليلون) الذى تتصل شعابه بها حاجزا صعب العبور بين منطقتى انطاكية وحلب • ويقطع الجبل الاعلى من الشرق الى الغرب منفذ ضيق يسمى ارمتاز (هرمز بوجازى) ومن هذا المنفذ يمر الطريق المتجه من حلب وذلك عند كفتين أو الاثارب او مرتحوان أو معرة مصرين وهكذا • ويؤدى المنفذ الى ارمتاز ومنها يواصل الطريق مسيره الى انطاكية وهكذا تمتعت انطاكية بحماية طبيعية • وقد أدت الظروف الجغرافية الى وجود عقبات كبيرة لاحصاء الجبال ووصفها خاصة فى شمالى الشام اثناء العصور الوسطى والقديمة مما أدى الى كثير من الخلط • ويقسم الاحصاء الذى قدمه الامبراطور البيزنطى الى بوهمند المناطق الجبلية فى شمالى سوريا الى ٣ مجموعات : كوكاس Kaukas وهى أكبر ارتفاعا ويمكن القول بأنها الواقعة فى شمالى انطاكية وتمتد حتى مضيق بيلان ، وليلون Loulos بين انطاكية وحلب والجبل الذى أسماه La Montagne Admirable بنواحى كاسيوس (الأقرع) وجبل مارسمعان على الشاطىء الأيمن لنهر العاصى فى أدنى انطاكية (٣٩) •

وهناك جبال أخرى فى وسط الشام وجنوبه عرض لها ياقوت فى مواضع مختلفة من معجمه ولا تستدعى دراسة اقليم الثغور تناولها على التفصيل • وقد أورد القلقشندى من جبال الشام المشهورة « **جبل عاملة** ويمتد شرقي ساحل بحر الروم وجنوبيه حتى قرب مدينة صور ، نزلة بنو عاملة ابن سبأ من عرب اليمن عند تفرقهم بسيل العرم ، **وجبل عوف** قرب عجلون نزله قوم من بنى عوف من جرم قضاعة ، **وجبل الصلت** نسبة الى مدينة بهذا الاسم من أعمال دمشق وهو جبل فى شرقى جبل عوف وشماليه (٤٠) » •

الأنهار :

يمر جزء من مجرى **الفرات** الأعلى فى شمالى الشام ، وقد سبق الحديث عن مجرى الفرات عند الكلام عن الجزيرة • ويمكن ايجاز وصف

---

(٣٩) Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, pp. 215: 6, 223, 441.

(٤٠) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٨٦ •

مجراه الأعلى الذى يمر فى اقليم الثغور بما أورده القلقشندى حين قال : « وأول ابتدائه من شمالى مدينة أرزن الروم وشرقيها ـ وهى آخر بلاد الروم من جهة الشرق ، ثم يأخذ الى قرب ملطية ، ثم يأخذ الى سميساط، ثم يأخذ مشرقا ويتجاوز قلعة الروم من شماليها ومشرقيها ، ثم يسير الى البيرة من جنوبيها ، ثم يمر مشرقا حتى يجاوز بالس ثم قلعة جعبر ، ويتجاوزها الى الرقة ، ثم يسير مشرقا ويتجاوز الرحبة من شماليها ويسير الى عنة ثم يمتد الى هيت ويمتد حتى يجاوز مخرج نهر كوثى (٤١) » .

وكثير من أنهار الشام يصب فى البحر المتوسط . وقد ذكر المسعودى أن أنهار سيحان وجيحان وبردان والأرنط تجرى فى بلاد الشام وتصب فى بحر الروم (٤٢) .

نهر سيحان : Sarus هو نهر **أذنة والمصيصة** ، مخرجه من بلاد الروم وينصب فى البحر الشامى ، ويذكر المسعودى أن مخرجه من مدينة سيحان من ناحية ملطية من الثغر الجزرى ، يمر بأذنة ثم ينفصل عنها نحو ستة أميال فيصب فى بحر الروم . وينقل أبو الفدا عن الاصطخرى وابن حوقل أن نهر سيحان أقل حجما من جيحان وعليه قنطرة حجرية عجيبة طويلة . ويذكر أبو الفدا أن النهر يمر ببلاد الروم الى الجنوب عند مجرى جيحان ، ويسير حتى يمر ببلاد الأرمن ويمر على سور أذنة من شرقيها ، ثم يتجاوزها ويلتقى مع جيحان ويصبان فى بحر الروم بين أياس وطرسوس بعد أن يصيرا نهرا واحدا غير أنهما اليوم يصبان فى مجريين منفصلين .

نهر جيحان : Pyramus مخرجه من بلاد الروم ويجتاز **بين المصيصة وكفر بيا** ومصبه فى بحر الشام . ويذكر المسعودى أن مخرج النهر من عيون وراء مرعش وهى عيون جيحان على ثلاثة أميال من مدينة مرعش ثم يصب فى البحر المتوسط ، ولا تقع عليه من مدن المسلمين سوى المصيصة وكفر بيا . وعلى جيحان بازاء المصيصة قنطرة من حجارة رومية عجيبة قديمة عريضة . وينفذ جيحان من المصيصة فيمتد ٤ أميال ثم يصب فى بحر الشام .

وسهل قليقيه (كيليكيا) هو منطقة المجرى الادنى لنهرى جيحان وسيحان ، وتحوطه الجبال من جوانب ثلاثة : طوروس وطوروس الداخلية

(٤١) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٥١ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧٩ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٤٠٦ وما بعدها .

(٤٢) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٥١ ـ ٢

وأمانوس ، وهي تنحدر تدريجيا في اتجاهه • وهناك سلسلة منعزلة تنفصل عن طوروس الداخلية بمجرى جيحان ، وتسمى باسم جبل المصيصة أو جبل الثغور ، وهي تمتد على طول الشاطىء الغربى لخليج وقد كانت عين زربه عاصمة كيليكيا الرومانية •

نهر البردان : Cydnus هو نهر **طرسوس** من الثغر الشامي ، ومخرجه من عيون تحت عقبة الأكواخ من جبل ترابى أحمر مما يلى هرقلة من بند القبادق ، فاذا جرى نحوا من ميل انقسم قسمين : قسم يمضى الى هرقلة وقسم يصير الى طرسوس ، فاذا صار على بريدين منها الى موضع القطاليا صب اليه **نهر الفاتر** وهو غزير الماء مخرجه من عقبة تحت عقبة البرادع وانما سمى الفاتر بالضد لشدة برودته ، ثم يشق بردان مدينة طرسوس ويصب الى البحر الرومي على ستة أميال منها • ويقول ياقوت : « والبردان أيضا نهر يسقى بساتين مرعش وضياعها مخرجه من أصل جبل مرعش ويسمى الجبل الاقرع ـ وذكره أحمد بن الطيب السرخسى » •

نهر السس : (والاصح اللامس) هو نهر **سلوقية** ، قريب من البحر ، بينه وبين طرسوس مسيرة يوم ، وعليه كان الفداء بين المسلمين والروم •

النهر الازرق : نهر بالثغر **بين يهسنا وحصن منصور** فى طرف بلاد الروم من جهة حلب • وبقربه **النهر الأسود فى طرف بلاد المصيصة وطرسوس** ، ويمتد حتى يصب فى بحيرة أنطاكية ويخرج منها ويصب فى العاصى • ويصب **نهر يغرا** فى النهر الأسود •

نهر عفرين : نهر فى نواحى **المصيصة** يخرج الى أعمال نواحى حلب ، ويأتى من بلاد الروم ويمر على الراوندان الى الجومة الى العمق ، ويختلط بالنهر الأسود • وقد كان نهر عفرين طريقا هاما للمواصلات فى المنطقة التى يجتازها ، وكان لابد من عبوره عند جسر مقام عليه للوصول الى الطريق المتجه الى الوادى الاعلى للنهر الاسود (قره صو) ، والطريق المتجه الى قورس والطريق المتجه الى كلس وعينتاب ، والطريق المتجه الى أعزاز •

نهر حوريث : نهر يأخذ من بحيرة الحدث قرب **مرعش** ، ويصب فى نهر جيحان •

نهر الساجور : اسم نهر **بمنبج** ، يقول العمرى : « يصب من جبال الروم آخذا شرقا حتى يحاذى منبج ، ثم يصب فى الفرات ، ويتشعب منه شعب لولاها لم يذكر الساجور » •

نهر قباقب : نهر بالثغر قرب **ملطية** ، وهو نهر يدفع فى الفرات •

نهر قويق : يقول ابن رستة أنه نهر **حلب** ، مخرجه من قرية تدعى سنياب على سبع أميال من دابق ، يمر الى حلب ١٨ ميلا ، ثم الى قنسرين ١٢ ميلا ، ثم الى مرج الأحمر ١٢ ميلا ، ثم يفيض فى الأجمة . وهذا النهر اسمه القديم Chalus . ويذكر ياقوت أن مخرج النهر من سبتات أو شباذر ، وهو يوافق تقديرات ابن رستة للمسافات التى يقطعها النهر فمن مخرجه الى مغيضه ٤٢ ميلا ، وماؤه أعذب ماء وأصحه الا أنه فى الصيف ينشف فلا يبقى الا نزوز قليلة ، وأما فى الشـــتاء فهو حسن المنظر طيب المخبر وقد وصفه شعراء حلب » . وهناك تسمية أخرى للنهر مقابل جبل جوشن اذ يطلق عليه **العوجان** ويصف الدمشقى النهر بنفس الوصف تقريبا .

نهر الذهب : يقول ياقوت : يزعم أهل حلب أنه **نهر وادى بطنان** الذى يمر ببزاعة ، وهو الذى يقال له عجائب الدنيا الثلاثة : دير الكلب ونهر الذهب وقلعة حلب . والعجب فيه أن أوله يباع بالميزان وآخره بالكيل ، وتفسير ذلك أن أوله يزرع على الحصى كالقطن وسائر الحبوب ثم ينصب الى بطيحة عظيمة طولها نحو فرسخين، فى عرض مثل ذلك فيجمد فيصير ملحا يمتار منه أكثر نواحى الشام ويباع بالكيل .

نهر العاصى : ويسمى الأرند أو الأرنط ، وهى تسمية مشتقة من كلمة يونانية مأخوذة عن تسمية قديمة . تعنى السريع وهى Atzois وقد حرفها العرب الى العاصى ، ومخرجه من أرض جبال دمشق مما يلى البرية ، من القرية المعروفة باللبوة بين حمص ودمشق ، ويشق بحيرة قدس وبحيرة فامية ، وهو نهر حمص وحماه وشيزر وأنطاكية . ويصب الى الارنط قرب أنطاكية **نهر الرقيا** الخارج من بحيرة جنـــدارس . ويقول ياقوت : « العاصى نهر حماه وحمص ويعرف **بالمياس** مخرجه من بحيرة قدس ومصبه فى البحر قرب أنطاكية ، واســـمه قرب انطاكية **الأرند** ، وقيل انما سمى بالعاصى لأن أكثر الأنهر تتوجه ذات الجنوب وهو يأخذ ذات الشمال وليس هذا بمطرد ... **والميماس وهو نهـــر الرستن** وهو العاصى بعينه » ، ويسمى النهر **بالمقلوب** أيضا لنفس السبب . ويذكر الادريسى أن منبع النهر من اقليم دمشق فى موضع يجاور نقطة تفرع الطريق الصحراوى، وهو حين يصل أنطاكية ينعطف حول الجانب الشمالى من المدينة ثم يصير الى مصبه عند جنوب السويدية . ويكرر أبو الفدا نفس السبب الذى ذكره ياقوت لتسمية النهر بالعاصى ، ويذكر سببا آخر أن غالب الأنهر تسقى الأرض بغير دواليب ولا نواعير بل تركب

الأرض بأنفسها ـ في حين لا يسقى هذا النهر الا بنواعير تنزع الماء منه ، واسمه القديم نهر الأرنط • وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك في الشمال عنها على نحو مرحلة تسمى الرأس ، ويمتد من الرأس شمالا حتى قائم الهرمل بين قرية جوسية والرأس ، ويمر في واد هناك ـ وينبع من هناك أكثر ماء النهر من موضع مغارة الراهب ، ويمتد شمالا حتى يتجاوز جوسية ثم يصب في بحيرة قدس غربى حمص ، ويخرج من البحيرة ويتجاوز حمص الى الرستن الى حماه الى شيزر الى بحيرة أفامية ، ويخرج من البحيرة فيمر على دركوش ويمتد الى جسر الحديد وذلك جميعه شرقى جبل اللكام ، فاذا وصـــل الى جسر الحديد انقطع الجبل المذكور هناك ، ويستدير النهر ويرجع فيسير جنوبا بغرب ويمر على سو أنطاكية ويسير مغربا بجنوب حتى يصب فى بحر الروم عند السويدية • **ويصب فى العاصى عدة أنهر** : منها نهر منبعه من تحت أفامية يسير مغربا حتى يصل الى بحيرة أفامية ويختلط بالعاصى ، ومنها نهر فى شمال أفامية على نحو ميلين يعرف **بالنهر الكبير** يسير مدى قريبا ويصب فى بحيرة أفامية ويخرج منها مع العاصى ، ومنها **النهر الاسود** يجرى من الشمال ويمر تحت دربساك ويمتد حتى يصب فى بحيرة أنطاكية ويخرج منها ويصب فى العاصى ، ومنها **نهر يغرا** الذى يمر على بلدة يغرا ويصب فى النهر الاسود ، ومنها **عفرين** الذى يأتى من بلاد الروم ويمر على الراوندان الى الجومة الى العمق ويختلط بالنهر الأسود » (٤٣) •

وهناك أنهار أخرى تجرى فى الوسط والجنوب من بلاد الشام مثل : **بردى** نهر دمشق ، **والاردن** الذى يصب فى بحيرة طبرية ويجتمع بعدها مع نهر اليرموك فيصيران نهرا واحدا ثم يصب فى بحيرة زغر ، **ونهر أبى**

---

(٤٣)
Le-Srrange : Palestine under the Moslems pp. 59 : 64, Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides pp. 200 - 1, 280, Dussand : Top. Hist. de la Syrie pp. 112 - 3, 229, 438, 467

المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٥١ ـ ٢ ، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص ٩١ ، الاصطخرى : المسالك والممالك : ص ٤٦ ـ ٧ العمرى مسالك الابصار ص ٧٩ : ٨١ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٤٨ : ٥١
القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ٧٩ : ٨٣ ، ياقوت : معجم البلدان : مواد(سيحان) حـ ٥ ص ١٩١ (جيجان) حـ ٣ ص ١٧٦ ، (البردان) حـ ٢ ص ١١٥ ، (قويق) حـ ٧ ص ١٨٨ ، (العوجان) جـ ٦ ص ٢٣٩ ، (الأزرق ـ الأسود) جـ ٨ ص ٣٣٥ ـ ٦ ، (عفرين) حـ ٦ ص ١٨٩ ، (نهر الذهب) حـ ٨ ص ٣٤٠ ، (نهر حوريث) حـ ٨ ص ٣٣٩ ، (الساجور) جـ ٥ ص ٧ ، (قباقب) جـ ٧ ص ٣٢ ، (آلس) جـ ١ ص ٥٩ ـ ٦٠ ، (العاصى والميماس) حـ ٦ ص ٩٦ ، حـ ٨ ص ٢٢٧ • ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ٤٢٤ : ٤٤٣

فطرس ومخرجه من أعين فى الجبل المتصل بنابلس وينصب فى البحر الملح بين مدينتى أرسوف ويافا •

البحيرات :

بحيرة أنطاكية : يذكر ياقوت أنها بحيرة عذبة الماء بينها وبين أنطاكية ٣ أميال وطولها نحو عشرين ميلا فى عرض سبعة أميال فى موضع يعرف بالعمق • ويزيد أبو الفدا أن البحيرة تقع بين أنطاكية وبغراس وحارم فى أرض تعرف بالعمق من معاملة حلب شمالى أنطاكية على مسيرة يومين من حلب فى جهة الغرب عنها • **وفيها مصب نهر عفرين والنهر الاسود ونهر يغرا** ، ودورها نحو مسيرة يوم ، وآجام القصب محيطة بها • وفيها من الطير والسمك نحو ماذكر فى بحيرة أفامية • وتتحد مجارى الأنهار الثلاثة قبل أن تنتهى الى البحيرة فى شاطئها الشمالى ، ومن الطرف الجنوبى للبحيرة يخرج نهر يتصل بالأرنط أسفل جسر الحديد الذى يمتد على نحو ميل فوق أنطاكية وتوجد البحيرة الى الشمال من أنطاكية •

بحيرة اليغرا : بين أنطاكية والثغر ، تجتمع اليها **مياه العاصى ونهر عفرين والنهر الأسود** ومجيئها من ناحية مرعش وتعرف ببحيرة السلور لكثرة هذا النوع من السمك فيها •

بحيرة الحدث : قرب مرعش من أطراف بلاد الروم ، أولها عند قرية تعرف بابن الشيعى على اثنى عشر ميلا من الحدث نحو ملطية ثم تمتد الى الحدث •

بحيرة افامية : وهى عدة بطائح فى الغرب بميلة الى الشمال عن أفامية _ كما يقول أبو الفدا ، بين غابات من القصب ، يصب فيها نهر العاصى من الجنوب ، وبها بحيرتان جنوبية وشمالية يصاد فيهما السمك : فالجنوبية بحيرة أفامية وسعتها بالتقريب نحو نصف فرسخ وقعرها قريب قامة وأرضها موحلة لا يقدر الانسان على الوقوف فيها وبوسطها جمم قصب وبردى وحولها القصب والصفصاف وبها أنواع الطير مالايحصى وينبت بها اللينوفر الأصفر حتى يستر الماء عن آخره بورقه وزهره ، والبحيرة الشمالية من عمل حصن برزويه بقدر بحيرة أفامية أربع مرات ووسطها مكشوف وينبت اللينوفر بجانبيها الجنوبى والشمالى • وبينها وبين بحيرة أفامية زقاق تسير فيه المراكب من احداها الى الأخرى ، وتعرف أيضا ببحيرة النصارى لوجود صيادين من النصارى يسكنون الأكواخ هناك •

بحيرة قدس : قرب حمص ، طولها اثنا عشر ميلا فى عرض أربعة أميال ، تنصب اليها مياه ما حولها من الجبال ثم يخرج منها نهر العاصى وهى بحيرة فى أرض مستوية عن حمص فى جهة الغرب على بعض يوم منها ، وطولها من الشمال الى الجنوب نحو ثلث مرحلة وفى طرفها الشمالى سد ممتد فى طولها مبنى بالحجر ينسب الى الاسكندر وسطه برجان من حجر أسود (٤٤) ٠

وهناك بحيرات أخرى فى القسم الأوسط والجنوبى من الشام تخرج عن نطاق البحث : مثل **بحيرة دمشق** شرقى غوطة دمشق ويصب اليهـا فضلة نهر بردى ، **وبحيرة بانيـــاس** فى مقابلة دمشق ويصب فيها عدة أنهار ويخرج منها نهر الشريعة ، **وبحيرة طبرية** فى أول الغور ويدخل اليها نهر الشريعة المنصب من بحيرة بانياس ، وبحيرة زغر أو المنتنة أو سدوم أو لوط أو المقلوبة وفيها مصب نهر الأردن المسمى بالشريعة عند نهايته ٠

نظرة اقليمية شاملة :

هذا عرض وصفى للمعالم الجغرافية فى اقليم الشـــام ، وقد نظر المقدسى الى تضاريسه جملة فقال « ووضع هذا الاقليم ظريف ـ **هو اربعة صفوف : فالصف الأول يلى بحر الروم وهو السهل** ـ رمال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل ، **والصف الثانى الجبل** ـ مشجر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل وايليا ونابلس واللجون وقدس والبقاع وأنطاكية ، **والصف الثالث الأغوار** ـ ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع يقع فيه من البلدان تبوك وصفد وأريحاء وبيسان وطبرية وبانياس ، والصف الرابع **سيف البادية** ـ وهى جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرى وعيـــون وأشجار يقع فيه من البلدان مآب وعمان وأذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب ٠ وتقع الجبال الفاصلة مثل جبل زيتا وصديقا ولبنان واللكام فى الصف الثانى ، وسرة الأرض المقدسة فى الجبال المطلة على الساحل (٤٥) » ٠

ونضع الى جانب تقسيم مؤلفنا الجغرافى القديم التقسيم الجغـرافى

---

(٤٤) Le Strange : Palestine Under th Mɔ slems, pp. 70 : 2. ابو الفـدا : تقويم البلدان ص ٣٩ : ٤٣ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨٤ ـ ٥ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٩ وما بعدها ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ٢٣١ ٠

(٤٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٦ ٠

لتشام الذى قدمه البحث المعاصر فنجد تقاربا كبيرا بين التقسيمين ٠ يقول حتى Hitti : ان الصفة البارزة للطبوغرافية السورية **هى تناوب الاراضى المنخفضة والاراضى المرتفعة بحيث تحاذى بعضها بعضا وتتجه من الشمال الى الجنوب** ٠ ويمكن تمييز خمس مناطق طولية بين البحر والبادية ٠

١ ـ **السهل الساحلى** : يمتد على ساحل البحر المتوسط الشرقى من شبه جزيرة سيناء الى خليج الاسكندرونة ، وينحصر بين البحر والبادية : فيتسع في الشمال والجنوب ، ويقتصر على مجرد شريط ضيق فى سفح جبل لبنان ـ وفى بعض الأحيان يكون الارتفاع من السهل الساحلى مفاجئا يستلفت النظر ، فعند مصب نهـــر الكلب **Lycus** تصل المرتفعات الجنوبية الى البحر فتعطى السكان موضعا استراتيجيا لصد القوات المعادية ٠ كذلك يحول الرأس الجبلى فى الكرمل دون وجود أى سهل ، ويترك ممرا يكاد لا يبلغ عرضه ٢٠٠ ياردة على الساحل ـ وهكذا يتحول الى الداخل الطريق الدولى العظيم الذى كان يبدأ فى العصور القديمة من مصر ويتابع الساحل نحو الشمال ٠ والساحل بكامله مستقيم لا يوجد فيه خليج نهرى عميق أو أى خليج مهم من نوع آخر الا فى الشمال حيث خليج الاسكندرونة ٠

٢ ـ **السلسلة الغربية** : تشرف على الساحل السورى سلسلة من الجبال والهضاب تبدأ **باللكام (امانوس)** فى الشمال وتمتد حتى **جبل سينا** المرتفع فى الجنوب ـ وأهم أجزائها **لبنان الغـــربى** ٠ ولبنان هو الهيكل الذى ترتبط به السهول والانخفاضات المجاورة ارتباط اللحم بالعظم ، وهذه السلسلة الجبلية أول حاجز للمواصلات بين البحر ومايليه شرقا ، ويمكن اختراقها شـــمالا عند **خليج الاسـكندرونة** حيث يجرى الاتصال بطريق الجسر السورى مع سهول مابين النهرين ، وجنوبا عند **برزخ السويس** الذى يجرى الاتصال بوساطته مع البحر الاحمر أو مـع الصحراء العربية ، وبين هذين الطرفين يمكن اختراق الحاجز الجبلى فقط فى وادى **النهر الكبير** (Elentherus القديم) شمالى طرابلس ، وعند تصدع **مرج ابن عامر** شرقى عكا وحيفا ٠

(أ) **اللكام أو الامانوس** Ammanus و (اللكام) تسميته العربية مأخوذة من السريانية (أوكاما) Ukkama أى أسود وبالتركية كاووداغ Giaour Dagh أى جبل الكفار اذ كان حصن البيزنطيين ضد المسلمين لزمن طويل ، وهو التواء فرعى يمتد من جبال طوروس التى تفصل سورية عن آسيا الصغرى باتجاه الجنوب ، فيتصل بكتلة الجبـــال السورية ٠

ويحيط جبل اللكام بخليج الاسكندرونة فيشكل حاجزا بين سوريا وكيليكيا ويرتفع الى نحو ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر ويشق نهر العاصى طريقه الى البحر فى الطرف الجنوبى من اللكام ، وتعبر الجبل طرق تمتد من أنطاكية وحلب وتمر بالممر الرئيسي ـ وهو مضيق بيلان المعروف باسم الأبواب السورية Pylae Syriae ٠

(ب) وتستمر السلسلة الغربية جنوبى مصب العاصى فى **جبل الأقرع** (Cassius القديم) الذى يرتفع الى ١٥٠٠ قدم ٠ ومن هناك تمتد الى جوار اللاذقية حيث تعرف بجبال النصيرية Bargyius ثم تتابع سيرها الى النهر الكبير الجنوبى ٠ ويشكل هذا النهر الذى ينبع من جبال النصيرية الحد الفاصل بينها وبين جبال لبنان ، كما يشكل الحدود السياسية الحالية بين لبنان وسوريا ٠ وسلسلة النصيرية ذات شكل عام بسيط نسبيا ، لكنها تتضمن أودية عميقة ووعرة ومرتفعات شديدة الانحدار ـ تحصن فيها الحشاشون والنصيريون وتوجت تلالها خرائب القلاع الصليبية ٠

(ج) وتبلغ السلسلة الغربية ارتفاعا شبيها بالارتفاعات الألبية فى **جبال لبنان** التى تمتد من النهر الكبير حتى نهر القاسمية شمالى صور على مسافة ١٠٥ أميال ٠ ويأتى اسم لبنان من أصل سامى (لابن) بمعنى البياض ـ اذ تغطى الثلوج قممها نحو نصف السنة ، فى حين يبقى الجليد فى الفجوات التى على قمم الجبال طوال السنة ٠ وبما أن طبقات جبال لبنان مائلة على العموم وملتوية وعمودية أكثر منها أفقية ـ فقد نتج عن ذلك خليط من التلال والشواهق والأودية مما يعترض المواصلات بين أجزاء البلاد ، ويزيد هذا التعقيد كثرة التصدعات ٠ وهكذا كانت هذه الأراضى خلال العصور ملاجىء للأفراد والجماعات الذين اختلفت ميولهم وعقائدهم عن أهل بيئاتهم ، كما كثرت الأودية المرتفعة والمساحات الخصبة فقصدها السكان المجاورون المتصفون بالنشاط وتعشق الحرية ٠ وهكذا استقر الموارنة والدروز والشيعة المتاولة فى معاقل لبنان ، كما التجأ اليها الارمن والاشوريين الهاربون من مظالم الحكم العثمانى ، كذلك آثر كهوف لبنان النساك والزهاد المسيحيون ورامها اللصوص وقطاع الطريق ٠

(د) **وفلسطين** : تعتبر من وجهة البنية امتداد لبنان جنوبا ، ويستمر سهل لبنان الساحلى فى سهل صارونة المتموج (شارون Sharon العربية ومعناها سهل) الذى يمتد من الكرمل الى جنوبى يافا ويتصل بساحل المنطقة الفلسطينية (فلسطينيا) ٠ وتستمر سلسلة سوريا

الغربية جنوبى ثغرة القاسمية فى هضاب ومرتفعات الجليل الاعلى ــ وهو قسم منعزل من جبال لبنان ، فى سلسلة تلال الجبال الادنى المنخفضة . وتبلغ مرتفعات الجليل الاعلى ذروتها فى جبل جرمق شمالى صفد (٣٩٣٥ قدما) ، ويرتفع الجليل الادنى عند جبل طابور قرب الناصرة (١٨٤٣قدما) وتشهد السلسلة الغربية أعظم انقطاع لها فى مرج ابن عامر Esdraleon الذى يجتاز فلسطين بكاملها ــ فيفصل تلال الجليل فى الشمال عن مرتفعات السامرة واليهودية فى الجنوب . وتبلغ هضبة اليهودية ذروتها جنوبى حبرون ، وسميت المنطقة الجنوبية القاحلة باسم عبرى هو النقب ــ أى الأرض المفلوحة .

٣ــ **المنطقة الطولية الثالثة : هى حوض طويل ضيق** يتوسط البلاد ويبدأ شمالا عند المنعطف الغربى للعاصى فى **سهل متسع يسمى العمق** ، ويرتفع عند حماه الى نحو ١٠١٥ قدما ، ثم يسمى **سهل البقاع بين سلسلتى** لبنان ، ويستمر جنوبا فى **وادى الأردن** حتى البحر الميت ، ومن هناك يواصل سيره بطريق **وادى العربة** حتى خليج العقبة . وقد تشكل هذا الحوض نتيجة تصدع ، وهذا التصدع الذى يشمل وادى البقاع والأردن والعقبة من أغرب المظاهر التضاريسية وبخاصة فى قسمها الجنوبى ، ويرتفع سطح الحوض المتصدع عند الحولة ٧ أقدام عن سطح البحر ، وعند بحيرة طبرية ينخفض ٦٨٥ قدما عن سطح البحر ، وأما عند البحر الميت فانه يبلغ ١٢٩٢ قدما تحت سطح البحر ، وهذا الانحدار غاية فى السرعة. ومن هنا أتت تسمية (الاردن) ــ اذ أن (يردن) العبرية معناها ينزل . ويتراوح عرض البقاع ــ وهو الجزء الذى تحصره سلسلتا لبنان ــ من ٦ الى ١٠ أميال، ويرتفع بجوار بعلبك الى ٣٧٧٠ قدما عن سطح البحر . وبقرب هذه المنطقة تقع **نقطة تقسيم المياه حيث يتجه العاصى ببطء شمالا بينما يتجه الليطانى جنوبا ــ والنهران اطول أنهار الشام اذا راعينا أن الفرات لا يعتبر نهرا شاميا** . ورواسب الطمى هنا تفيد الزراعة ، غير أن مجرى العاصى منخفض لدرجة تجعل استخدام مياهه بسهولة متعذرا . وهكذا جاء استعمال النواعير من قديم . وطول وادى الأردن نحو ٦٥ ميلا وعرضه بين ١٣ ، ١٤ ميلا . ويتلقى هذا الاخدود الفريد عددا كبير من الجداول من المنحدر الغربى فتتصرف مياه فلسطين بكثرة متجهة الى أكثر البحيرات ملوحة فى العالم . وقد نتجت درجة ملوحة مياه البحر الميت غير العادية من عدم وجود مخرج من جهة ومن الاتصال القديم بالأوقيانوس فى عصور ماقبل التاريخ من جهة أخرى . وتدل المنحدرات المتصدعة فى لبنان وأخدود الأردن والبحر الميت على وجود **منطقة زلازل** ، فى حين تخترق

الهضبة شرقى جبل حرمون وجنوبى دمشق خطوط من البراكين الخامدة وتعلوها آثارها ، وتوجد ينابيع مياه حارة موزعة ومن أمثلتها مافى طبرية ومنطقة البحر الميت وتدمر • ويسجل تاريخ الشام الزلازل التى أصابت أنطاكية ١٠ مرات على الأقل فى القرون الستة الميلادية الأولى ، كما أصابت جدران معبد الشمس فى بعلبك والقلاع الصليبية ، وهى فى الغالب التى هدمت أسوار أريحا بصورة مفاجئة فى عصر الغزو الاسرائيلى وسببت خراب سدوم وعمدرة المشهور فى الطرق الجنوبى الغربى للبحر الميت. وقد كانت الامداج التى يسببها المد عند الزلزال تعبث بالساحل الفينيقى، وهى التى نال صور وصيدا الكثير من أذاها • وقد حولت آخر زلزلة عنيفة سنة ١٨٢٢ م فى شمالى الشام (حلب) وغيرها الى خرائب .

٤ ـ **السلسلة الشرقية** : تبدأ فى **نقطة جنوب حمص وتقابل لبنان الغربى بلبنان الشرقى** على طول واحد وارتفاع واحد تقريبا ، **ثم تنحدر بسرعة من حرمون** (جبل سيريون فى المزامير وسفر التثنية وجبل الثلج عند المقدسى وأبى الفدا وجبل الشيخ حديثا) نحو هضبة **حوران** ومنطقة التلال التى تجاورهما فى الغرب وهى الجولان ، ومن هناك تستمر فى شرق الأردن فى **تلال جلعاد وهضبة مؤاب** المرتفعة وتنتهى فى **جبل سعير** جنوبى البحر الميت (ويرادف تقريبا أدوم) •

وتقسم **هضبة بردى وواديه** سلسلة لبنـــان الشرقى الى قسمين : شمالى لا يكاد يوجد فى منحدره الغربى قرية واحدة ، وجنوبى حيث يقوم **جبل حرمون** وهو من أعلى قمم الشام (٩٣٨٣ قدما) وتكثر القـرى فى منحدره الغربى ونظرا لقلة المطر والنبات فى لبنان الشرقى فضلا عن أسباب أخرى ، تقل كثافة سكانه عن الغربى ، وقد آتاه سكانه عموما من شرقى ســـدريا • وتمر حدود لبنان الشرقية اليوم بجبل حرمون وتنعطف حول الزبدانى وتتبع ذرى القسم الشـــمالى من لبنان الشرقى وينبع نهر بردى فى مرتفعات وادى الزبدانى ويتجه شرقا فيحيى قسما كبيرا من أراضى الشام ويساهم فى خلق مدينة دمشق مركز الحضـــارة الامامى على أبواب البادية •

وهضبة حوران سطحها بركانى فى معظمه ، وتبدأ الاراضى البركانية فى التلول جنوبى دمشـــق وتشمل مســـاحة طولها ستون ميلا وعرضها كذلك ، وهى أكبر هضبة من نوعها فى الشام ويحد هذه الاراضى فى الشمال الشرقى منطقة (اللجا) ذات الحجارة السوداء وكانت كما يدل اسمها العربى ملجأ المتمردين فى مختلف العصور . وفى الجنوب الشرقى

جبل **حوران أو جبل الدروز** ، وترتفع هذه الكتلة الجبلية شرقى حوران الى مابين ٤٠٠٠ ، ٥٠٠٠ قدم ـ وتقوم بين حوران والبادية ، فى حين تمتد المنطقة البركانية غربا حتى تشمل الجولان • وفى حوران قمح ومراع جيدة غير أنه قليـــل الينابيع ، وفيه معـــالم الطرق المنـدثرة والأقنية والصـــهاريج والمبانى والحصـــون الرومانية والبيزنطية التى تدل على ازدهار حوران الســـابق وعلى أنها كانت مخزن حبوب الامبراطورية ، ولا تزال تمون فلسطين ولبنان بالقمح كما كانت تفعل فى عهد العبرانين والفينيقيين وتمتد أراضى حوران البركانية باتجاه الجنوب الشرقى فى **صحراء الحماد الى الحقل الحجرية** فى الحجاز التى كان العرب يعرفون الواحدة منها باسم **الحرة** .

٥ ـ **بادية الشام** : تتدرج هضـــاب شـــمالى حوران وشرقى الأردن نحو منطقة السهوب والحرات والرمال ، وتلتقى أخيرا بالأراضى القاحلة التى تشكل بادية الشام • والسهول الصحراوية صخرية وجيرية فى غالبها ، والبادية هى تتمة صحراء العرب الكبرى ، وتفصل الشام عن العراق وتشكل الخليج الصـــحراوى الذى يقع بين لطرفين الشرقى والغربى للهلال الخصيب • وتسمى الصحراء التى تحيط بالطرف الشرقى ـ أى العراق ـ بادية الجزيرة أو بادية مابين النهرين فى قسمها الشمالى، وتدعى بادية العراق أو السماوة فى قسمها الجنوبى • وسطح القسم الجنوبى الغربى من بادية الشام وهو (الحماد) حجرى ورملى ويكسوه العشب فى الربيع • **وتؤلف البادية الشامية العراقية مثلثا كبيرا** ترتكز قاعدته على خليج العقبة فى الغرب وخليج الكويت فى الشرق ، بينما يصل رأسه منطقة حلب فى الشمال • وعرض البادية فى اوسع مناطقها يبلغ ٨٠٠ ميل • وقد تاجر سكانها الرحل مع سكان الحضر على جانبيها وعملوا كوسطاء وأدلاء ورؤساء قوافل ، كما أنهم بنوا فى القديم مدنا مثل تدمر الواقعة على طريق بين الشرق والغرب يجتاز البادية • وكانوا خلال العصور بمثابة احتياطى دائم للسكان فى الحضر يمدونهم بدم جديد اما بطريق الفتح أو بطريق التغلغل السلمى • والنزاع القديم بين الأرض المزروعة والبادية هو حقيقة تاراخية لها أساسها فى الجغرافية الطبيعية لهـــذه المنطقة (٤٦) •

---

(٤٦) دكتور فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ترجمة دكتور حداد ورافق حـ ١ ص ٣١ : ٤٧

Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 196 : 199.

المدن :

يتصل باقليم الثغور والعواصم على الحدود الاسلامية البيزنطية بصفة خاصة قطاعان هامان من مدن الشام : قطاع **مدن الساحل** حيث نشأت الرباطات البحرية ، وقطاع بعض **مدن الشمال** التى تعتبر منطقة خلفية hinterland تظاهر اقليم الثغور والعواصم ٠

مدن الساحل : هى من الشمال الى الجنوب :

أولاس : حصن على ساحل بحر الشـــام من نواحى طرسوس فيه حصن يسمى حصن الزهار ، قال أبو زيد البلخى : هى آخر ما على بحر الروم من العمارة للمسلمين (٤٧) ٠

الاسكندرونة : فى شرقى أنطاكية على ساحل بحر الشام ، بينها وبين بغراس ٤ فراسخ وبينها وبين أنطاكية ٨ فراسخ ٠ قال ابن شداد : أن زبيدة أم جعفر بنت حصنا هناك وجدده أحمد بن أبى داود فى خلافة الواثق ٠ ويدخل خليج الاسكندرونة فى اليابسة ، وموقعه الجغرافى يدعو الى تأسيس مرفأ بحرى اذ يحمى الخليج السفن من الرياح كما تحمى الجبال المرفأ من الرياح الغربية ٠ وهكذا تكون الاسكندرونة مرفأ حلب وأنطاكية وكلس وعينتاب ومرعش والبيرة وديار بكر ومدن شمالى الجزيرة حتى الموصل ، فى حين أن مرفأ اللاذقية يتعـــرض للرياح الجنوبية والغربية وللرمال (٤٨) ٠

اللاذقية : مدينة على ساحل البحر المتوسط تعد فى أعمال حمص وهى غربى جبلة بينهما ستة فراسخ وكانت أيام ياقوت من أعمال حلب، وهى « مدينة عتيقة رومية فيها أبنية قديمة مكينة ، وهو بلد حسن فى وطاء من الأرض وله مرفأ جيد محكم وقلعتان متصلتان على تل مشرف من الربض والبحر على غربيها وهى على ضفته » ٠ ونقل القلقشندى أنها « أجل مدينة بالساحل متعة وعمارة ولها مينا حسنة » ٠ وقد كانت اللاذقية ميناء لكثير من المدن الهامة المجاورة لها فى الداخل مثل أفامية ويشهد بأهميتها البحرية Ad mare فى العصر الاغريقى الرومـــانى عملتهـا

---

(٤٧) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣٧٧ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٨٧ ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ٢٧٥ ٠

(٤٨) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٣٤ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٨٧ ، كرد على : خطط الشام جـ ٥ ص ١٧٤ ـ ٥ ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ٢٧٦

وآثارها ووصف استرابون لمرفئها ورخائها وكرومها ، وفى العصر البيزنطى كان الدفاع عن منافذ البلاد يوجه من اللاذقية Laodicée

وبلاطنس : حصن منيع بالساحل مقابل اللاذقية ، ويرى هارتمان أنها قلعة المهلبى الحالية ، وقد كانت تشرف على تفرع الطريق المتجه الى جبلة عند انفصاله عن طريق الأرنط ـ اللاذقية (٤٩) .

جبلة : قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية . بينها وبين اللاذقية ١٢ ميلا ، وبينها وبين أنطاكية ٤٨ ميلا . وكانت حصنا للروم جلوا عنه عند فتح المسلمين حمص فشحنها معاوية بالرجال، وبنى بجبلة حصنا خارجا من الحصن الرومى القديم. ويذكر وسو ان معاوية استفاد من أنقاض حصن Paltos فى منتصف الطريق بين بانياس وجبلة . وظلت فى أيدى المسلمين حتى أخذها الروم سنة ٣٥٧هـ بعد وفاة سيف الدولة بسنة وظلت بأيديهم حتى سنة ٤٨٣ هـ .

والكاف : حصن حصين بسواحل الشام قرب جبلة .

وبلدة : من مدن ساحل بحر الشام قريب من جبلة (٥٠) .

والجماهرية : حصن قرب جبلة من سواحل الشام. وتدل العمليات الحربية لصلاح الدين سنة ١١٨٨ م أن هذه القلعة كانت تقع بين قلعة عيدو وبلاطنس (٥١) .

وبكسرائيل : حصن من نواحى سواحل حمص مقابل جبلة فى الجبل (٥٢) .

وصهيون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص لكنه ليس بمشرف على البحر وهو فى طرف جبل خنادقة أودية هائلة واسعة عميقة ليس له خندق محفور الا من جهة واحدة ، طوله ستون

---

(٤٩) ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٣١٢ ، ج ٢ ص ٢٦٠ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٦ ، القلقشندى حـ ٤ ص ١٤٥ ،
Dussaud : Top Hist. de la Syrie, pp. 148: 150, 41?

(٥٠) ياقوت . معجم البلدان ج ٣ ص ٥٣ ، ج ٧ ص ٢٠٩ ، ابن عبدالحق . المراصد ج ١ ص ٢١٧ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٤ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤٥ .
Dussaud : Top Hist. de la Syrie, pp. 132: 6

(٥١) ابن عبد الحق المراصد ج ١ ص ٣٤٥ .
Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, pp. 150 - 1

(٥٢) ابن عبد الحق المراصد حـ ١ ص ٢١٤

ذراعا أو نحوها وهو نقر في حجر ، وله ثلاثة أسوار : سوران دون الربض وسور دون القلعة (٥٣) .

مرقية : قلعة حصينة فى سـواحل حمص خربت فجددها معاوية ورتب فيها الجند واقطعهم القطائع (٥٤) .

بلنياس : كورة ومدينة حصـينة وحصـن بسـواحل حمص على البحر . ويذكر دوسو أن العرب اسموها بلتياس فيما بعد . **وبرج ابن قرط** بين بلنياس ومرقية ، قتل عنده عبد الله بن قرط الثمالى وكان واليا على حمص خرج يعس على شاطىء البحر فقتله الروم (٥٥) .

المرقب : بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بلنياس ، نقل ياقوت أن المسلمين عمروها سنة ٤٥٤ هـ « وهو حصن يحدث كل من رآه أنه لم ير مثله (٥٦) » .

انطرطوس : بلد من سواحل بحر الشام آخر اعمال دمشق من البلاد الساحلية واول أعمال حمص . قال أبو القاسم الدمشقى : من أعمال طرابلس تطل على البحر ، شرقى عرقة بينهما ٨ فراسخ ، ولها برجان حصينان كالقلعتين ، بناها معاوية وحصنها وأقطع المقاتلة بهـا القطائع كما فعل بمرقية وبلنياس . ويذكر دوسو أن أصـل انطرطوس هو Antaradus المواجهـة لجزيرة ارواد على البر ، وقد كان لهـا نفس أهمية الجزيرة (٥٧) .

طرابلس : جاء فى أخبار فتحها أنها كانت ثلاث مدن مجتمعة ، وحين جلا عنها أهلها أسكن معاوية جماعة كبيرة من اليهود أحد الحصون الثلاثة وهو الذى فيه المينا كما يقول البلاذرى ، ثم حصنه عبد الملك ابن مروان كما ذكر اليعقوبى أن معاوية نقل الفرس الى المدينة ولها ميناء عجيب يحتمل الف مركب . ويقول الاصطخرى أنها ميناء دمشق على الساحل حيث يرابط أهل دمشق فى حاميتها مع غيرهم من رجال الاقليم،

---

(٥٣) ابن عبد الحق المراصد : جـ ٢ ص ٨٥٩ .

(٥٤) ياقوت : معجم البلدان حـ ٨ ص ٢٨

(٥٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٧٨ ، ٩١٢ .

(٥٦) ياقوت : معجم البلدان : جـ ٨ ص ٢٨ عن بلنياس والمرقب :
Dussaud : Top Hist. de la Syrie, pp. 127-8.

(٥٧) ياقوت معجم البلدان حـ ١ ص ٣٥٩ وقد عرض لموانى المنطقة الشمالية من ساحل الشام المواجهة لجند حمص Dussaud : Top Hist. de la Syrie, p. 142.
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 204 : 7.

يومنها ينتقلون فى الحملات العسكرية . وأهل طرابلس أكثر هدوءا ووداعة من أهل دمشق . ويقول المقدسى : ان طرابلس مدينة محصنة مثل صيدا وبيروت الا انها أجل . ويعطينا ناصرى خسرو سنة ١٠٤٧ م صورة عن وضع المدينة العسكرى بعد أن تحدث كغيره من الجغرافيين عن حاصلاتها، فيقول ان المدينة فى موقع مناسب حتى أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ويحمى الجانب الرابع من جهة البر خندق يمتد الى الشرق من السور ذى الباب الحديد . والاسواق والمعاقل والمراقب مبنية من حجر منحوت ، وتوجد عرادات للدفاع عن المدينة ضد أى هجوم للروم . كما ذكر أن المدينة مركز للمراكب تأتى اليها السفن من سواحل الروم والفرنجة والاندلس والمغرب . **وهناك مبانى تشبه الرباطات خاليـــة من الحراس « ويسمونها مشاهد »** .

وقد وصف الجغرافيون والرحالون الأسواق والمنازل. وذكر الادريسى أن فى مواجهة طرابلس **أربع جزر** فى صف واحد : أولها وأقربها للبر النَدجس وهى صغيرة جدا وغير مسكونة ، ثم العمود ، والراهب، وأخيرا ارضكون . وقد عدد الادريسى اسماء بعض قلاع طرابلس وحصونها ، ومن ذلك: عناف الهجر وحصن القلمون وحصن أبى العداس وارتوسيه . ولا يضيف ياقوت الى ذلك جديدا . وقد تتبع الدمشقى وأبو الفدا وابن بطوطة ما أصاب المدينة من تغيرات بعد أن استعادها السلطان قلاوون من الصليبيين سنة ١٢٨٩م (٥٨) .

ومصياب : حصن حصين للاسماعيلية قرب طرابلس . وقد يقال له **مصياف** (٥٩) .

والمنيطرة : حصن بالشام قرب طرابلس أيضا (٦٠) .

عرقة : شرقى طرابلس بينهما أربعة فراسخ وهى آخر عمل دمشق فى سفح جبل بينها وبين البحر نحو ميل وعلى جبلها قلعة لها . قال أبو بكر الهمدانى : « عرقة بلد من العداصم بين رقنية وطرابلس » .

وذكر ياقوت أن اللكمة « حصن بالساحل قرب عرقة » .

---

(٥٨) Le Strange : Palestine Under the Moslems, pp. 348: 52.
(ملحق بالأعلاق النفيسة) ص ٣٢٧ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٣ ، الاصطخرى المسالك والممالك ص ٤٦ ــ ٤٧ ، المقدسى احسن التقاسيم ص ١٦٠ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٢ .

(٥٩) ياقوت : معجم البلدان حـ ٨ ص ٧٩

(٦٠) ابن عبد الحق : المراصد حـ ٣ ص ١٣٢٦

ورفنية : كورة من عمل حمص يقال لها رفنية تدمر وقيل بلدة عند طرابلس من سواحل الشام (٦١) .

جبيل : في سواحل دمشق ، بلد مشـــهور في شرقي بيروت على ثمانية فراسخ منه. يقول ياقدت : « بقي بأيدي المسلمين الى أن نزل عليه صنجيل الفرنجي سنة ٥٩٦ هـ » .

وبثرون : حصن بين جبيل وأنفة على ساحل بحر الشام .

وانفة : بليدة على ساحل بحر الشام شرقي جبيل (٦٢) .

بيروت : مدينة مشهورة على بحر الشام تعد من أعمال دمشـــق ، بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ (٦٣) .

صيدا : مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ست فراسخ .

وقلعة ابي الحسن : قلعة عظيمة ساحلية قرب صيدا بالشام(٦٤) .

صور : قال المقدسي : « مدينة حصينة على البحر ـ بل فيه ، يدخل اليها من باب واحد على جسر واحد ، قد أحاط البحر بها ، ونصـفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض تدخل فيه المراكب كل ليلة ثم تجـــر السلسلة . ولهم ماء يدخل في قناة معلقة ، وبين عكا وصور شبه خليج ولذلك يقال : عكا حذاء صور الا أنك تدور ـ يعني حول الماء » . وقال ياقوت:«مدينة مشهورة سكنها الزهاد والعلماء ، كانت من ثغورالمسلمين، داخلة في البحر مثل الكف ، يحيط بها البحر من جميع جوانبها الا الرابع الذي منه شروع بابها ، وهي حصينة جدا ركينة لا سبيل اليها الا بالخذلان » (٦٥) .

عكا : قال المقدسي :«مدينة حصينة ولم تكن على هذه الحصانة حتى قدمها ابن طولون وكان قد رأى صور واستدارة الحائط على ميناها فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك » . ويذكر المقدسي ان ابن طولون استعان بجده

---

(٦١) ياقوت : معجم البلدان حـ ٦ ص ١٥٥ ، حـ ٧ ص ٣٣٧ ، حـ ٤ ص ٢٦٦

(٦٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٥٩ ، جـ ٢ ص ٦٠ ، ابن عبدالحق : المراصد جـ ١ ص ١٢٦ .

(٦٣) ابن عبد الحق المراصد جـ ١ ص ٢٤٠ .

(٦٤) ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٤٠٣ ، جـ ٧ ص ١٤٨ .

(٦٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٦٣ ـ ٤ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٩٧

فى هذا السبيل « والتمس ــ هذا الجد ــ منهم احضار فلق من خشب الجميز غليظة ، فلما حضرت عمد بصفها على وجه الماء بقدر الحصن البرى وضم بعضها الى بعض وجعل لها بابا عظيما من ناحية الغرب، ثم بنى عليها الحجارة والشيد ، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء ، وجعلت الفلق كلما تقلت نزلت ، حتى اذا علم أنها قد جلست على الرمل تركها حولا كاملا حتى أخذت قرارها ، ثم عاد فبنى من حيث ترك ، وكلما بلغ البناء على الحائط القديم داخله فيه وخيط به ، ثم جعل على الباب قنصرة . فالمراكب فى كل ليلة تدخل الميناء وتجر السلسلة مثل صور » . وقد كانت فى عكا **صناعة بلاد الأردن** فنقلها هشــــام بن عبد الملك الى صور ، وقد وقعت فى ايدى الافرنج وافتتحها صلاح الدين ســنة ٥٨٣ هـ ، لكن استعادها الفرنج (٦٦).

وتل كيسان : موضع فى مرج عكا من سواحل الشام .

والخروبة : حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا .

والعرابة : من اعمال عكا **ومنواث** بقربها (٦٧) .

وطرطوس : قرب المرقب وعكا (٦٨) .

حيفا : حصن على ساحل بحر الشام .

وكرمل حصن على الجبل المشرف على حيفا . (٦٩)

قيسارية : قال المقدسى : « ليس على بحر الروم بلد أجل ولا أكثر خيرات منها، عليها حصن منيع وربض عامر قد أدير عليه الحصن، شربهم من آبار وصهاريج ». وذكر ياقوت : أنها كانت الى قرب عهده من اعيان المدن ، أما أيامه فليست كذلك وهى بالقرى أشبه منها بالمدن .

وقاقون : حصن بفلسطين قرب الرملة ، وقيل هو من عمل قيسارية.

وكفرلاب : بلد بساحل الشام قرب قيسارية بناه هشــــام بن عبد الملك .

---

(٦٦) المقدسى . أحسن التقاسيم ص ١٦٢ : ٤ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ٢٠٥ : ٧

(٦٧) ابن عبد الحق المراصد : ج ١ ص ٣٧٢ ، ٤٦٢ ، ج ٢ ص ٩٢٦ ، ٣ ص ١٣٢٥

(٦٨) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ٤١

(٦٩) ابن عبد الحق : المراصد ج ١ ص ٤٤٢ ، ج ٣ ص ١١٦١

ويازور : بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين بالشام (٧٠) .

أرسوف : ذكر المقدسى أنها أصغر من يافا حصينة عامرة ، وقال ياقوت : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا كان بها خلق من المرابطين (٧١) .

يافا : يقول المقدسى : على البحر صغيرة الا أنها خزانة فلسطين وفرضة الرملة ، عليها حصن منيع بأبواب محددة ، وباب البحر كله حديد ومبناها جيد . ويذكر ياقوت أنها تقع بين قيسارية وعكا ، لكن الواقع أن يافا تقع فى جنوبى قيسارية فى حين أن عكا تقع فى شمالها ، وانما تتوسط يافا بين عكا وقيسارية من جهة وبين عسقلان من جهة أخرى . وقد أشار ابن بطلان فى رسالته التى كتبها سنة ٤٤٢ م الى قحط يافا (٧٢) .

عسقلان : قال المقدسى : على البحر جليلة كثيرة المحارس الا أن ميناها ردىء . وقال ياقوت « ويقال لها عروس الشام ، وكذلك يقال لدمشق أيضا » . ونزلها جماعة من الصحابة وحدث بها خلق كثير ورويت فى فضائلها أحاديث .

وبيت جبرين - وهى فى لغة جبريل - Eleutheropolis حصن ببيت المقدس وعسقلان . قال المقدسى : وبيت جبريل مدينة سهلية جبلية ، وقد ذكر انها قد خفت - أى قل عمرانها وسكانها (٧٣) .

غزة : كبيرة على جادة مصر وطرف البادية وقرب البحر ، فيها أثر عمر بن الخطاب ومولد الشافعى وقبر هاشم ، وبينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل فى غربيها .

وميماس على البحر حصينة صغيرة تنسب الى غزة (٧٤)

---

(٧٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧٤ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ١٦ ، ١٩٥ ، ح ٣ ص ٤٩١

(٧١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧٤ ، ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ١٩٢

(٧٢) المقدسى ص ١٥٤ ، ياقوت . معجم البلدان ج ٨ ص ٤٩٢

(٧٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧٤ ، ياقوت : معجم البلدان ج ص ١٦٤ - ٥ ، ابن عبد الحق المراصد ج ١ ، ص ٣١١ .

(٧٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧٤ ، ابن عبد الحق : المراصد ج ٢ ص ٩٩٣

مدن شمالي الشام (غير الساحلية) :

حماة : مدينة قديمة جدا ، وأول مايعرف عنها أن الحيثيين استولوا عليها في القرن ٩ق٠م ، ثم تأسست فيها مملكة آرامية صغيرة تحالفت مع مملكة دمشق الآرامية لايقاف غزوات الاشوريين على سوريا ، بيد أن سرجون الثاني احتلها بعد موقعة قرقر سنة ٧٢٠ ق٠م٠ وأجرى السلوقيون (السليوكيون) فيها عمليات عمرانية واسعة كما يبدو وأطلقوا عليها اسم Epiphania نسبة الى انطيوخس الرابع ابيفانيس (٧٥)٠ وقد ذكر المدينة امرؤ القيس فى شعره فقال :

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية رحنا من حماة وشيزرا

وقد سجل الجغرافيون العرب قدم المدينة ، وكانت واقعة في اقليم حمص ، وهى على شاطىء العاصي.وكتب عنها الرحالة المسلمون مثل ناصرى خسرو الذى زارها سنة ١٠٤٧ م وابن جبير الذى زارها سنة ١١٨٥ م ووصفها وصفا مطولا نقتطف منه ما يشير الى أهميتها الحربية: «وبازاء ممر النهر بجوفي المدينة قلعة حلبية الوضع ، وان كانت دونها في الحصانة والمنع ، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها ٠٠٠ وموضوع هذه المدينة في وهدة من الأرض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق ، يرتفع لها جانبان : أحدهما كالجبل المطل ، والمدينة العليا متصلة بسفح ذلك الجانب الجبلى ، والقلعة فى الجانب الآخر فى ربوة منقطعة كبيرة مستديرة ، وقد تولى نحتها الزمان وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان ٠ والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذى يصب الماء عليه،وكلتا المدينتين صغيرتان .وسور المدينةالعليا يمتد على رأس جانبها العلى الجبلى وبطيف بها ، وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب، لأن جانبها المتصل بالبحر لا يحتاج الى سور ٠ وعلى النهر سور كبير معقود بصم الحجارة ، يتصل من المدينة السفلى الى ربضها ٠ وربضها كبير ٠٠٠٠٠٠٠ والبساتين متصلة على شطى النهر وهو يسمى العاصي ، لأن ظاهره انحداره من سفل الى علو ، ومجراه من الجنوب الى الشمال ٠ وهو يجتاز على قبلى حمص وبمقربة منها » ٠ وقد أشار ياقوت في القرن ١٣ م الى اتساع المدينة وكثرة خيراتها وأسواقها ورخص أسعارها : « يحيط بها سور محكم وبظاهر السور حاضر كبير جدا ويقال لهذا الحاضر السوق الأسفل لأنه منحط عن المدينة ٠ ويسمون المسور السوق

(٧٥) دكتور سليمان عبد الحق وعبد العزيز عثمان : نزهات أثرية فى سوريا ص ١١٥

الأعلى ، والجزء العلوى من المدينة يسمى المنصورية. وفى طرف المدينة قلعة عجيبة فى حصنها واتقان عمارتها وحفر خندقها للملك المنصور (الأيوبى) .... وقرون حماة قلتان متقابلتان بجبل يشرف عليها ، **وبين كل واحد من حماة وحمص والمعرة وسلمية وبين صاحبه يوم** ، وبينها وبين شيزر نصف يوم ، وبينها وبين دمشق خمسة أيام للقوافل ، **وبينها وبين حلب اربعة ايام »** .

وقد كان لحماه موقع هام فى قلب الشام ، وكانت لها طرق تربطها بالساحل . وقد ظلت مركزا هاما للثقافة المسيحية بعد الفتح العربى مدة طويلة ، ويسجل الدمشقى مظاهر احتفال الأهلين ببعض الأعياد المسيحية وقدوم السكان اليها من الجهات المجاورة : حمص وشيزر وسلمية وكفر طاب ومصياف والمعرة وتيزين والباب والفوعة وحلب فيحلون على شواطىء العاصى حيث يقيم أهل حماة الخيام ويدور الرقص والغناء .

وقد ذكر ياقوت أن حماه كانت فى أيامه بسلطان مفرد ، كما ذكر الدمشقى سنة ١٣٠٠م أنها كانت قاعدة الولاية ومركز الحكومة « وكانت حماة قديما مضافة الى حمص ثم أضيفت الى حلب ، ثم عظم شأنها بالملوك الأيوبية الذين كانوا سلاطينها وان كانوا تحت يد ملوك مصر وصار بها قضاة أربعة وحجاب وأمراء وأرباب وظائف » . وكذلك أشار ابو الفدا الى حصانتها ومناعة قلعتها ، وقد تتابع الجغرافيون على ذكر نواعيرها وفواكهها (٧٦) .

حمص : عرفت باسمها منذ العصر الرومانى وقد فاقت شهرتها المدن المجاورة وكانت تحكمها سلالة عربية قبل أن يستولى عليها الامبراطور دوميتيان Domitian قد سطع نجمها عندما تولى امبراطورية روما سنة ٢١٧م كاهن معبد الشمس الأكبر الذى ولد فيها وهو الاجابالس Elagabalus الذى منحها امتيازات كثيرة مما ساعد على ازدهارها ، بجانب ماهيأه لها موقعها الجغرافى (٧٧) .

---

(٧٦) Le Strange : Palestine Under the Moslems, pp. 357 : 60
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 208 - 9
اليعقوبى : البلدان (ملحق بالأعلاق النفيسة) ص ٣٢٤ ، رحلة ابن جبير ص ٢٤٣ : ٥ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣٥ ــ ٦ ، ابن عبد الحق المراصد ج ١ ص ٤٢٣ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٦٩ ، ابن العديم بغية الطلب مخطوط ص ٢١١ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٢ ــ ٣
Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, pp. 234-5, 243 - 4

(٧٧) دكتور سليمان عبد الحق وعبد العزيز عثمان : نزهات أثرية فى سوريا ص ١١٤

ويلاحظ اليعقوبى أن مدينة حمص من أوسع مدن الشام ، وأهلها من بطون اليمن ـ من طىء وكنده وحمير وكلب وهمدان ، كما أن اهالى حماه من بهراء وتنوخ • وقد أشار المسعودى الى جمال كنيسة حمص المقامة على أربع أركان وذكر أنها احدى عجائب الدنيا • ولاحظ البلاذرى وابن الفقيه أن مدينة حمص مفروشة بالصخر • ويبرز الاصطخرى جودة مناخ حمص وارضها . أما المقدسى فيقول : «ليس بالشام بلد أكبر منها وفيه قلعة متعالية عن البلد ترى من خارج » • واذا ماقارنا المدن التى يدخلها ابن خرداذبة فى نطاق اقليم حمص بالقائمة التى يوردها جورج القبرصى وترجع الى بداية القرن السابع الميلادى فاننا نجد تغيرا فى التنظيم الادارى ، فقد غدت حمص قاعدة لاقليم لا يشمل فحسب المنطقة المحيطة بها (أو فينيقيا اللبنانية) بل يضم ايضا فينيقيا البحرية فضلا عن منطقة أفامية وشيزر. ويعدد ابن خرداذبة من اقاليم حمص: حماة وشيزر وفامية ومعرة النعمان وصوران ولطمين وتل منس والغلاس وكفر طاب وجوسية ولبنان والشعيرة ، وأقاليم التمة الخمسة ، ثم البلعاس والبارة والرستن وزمين والقسطل وسلمية وعقبرتا والجليل والسويدا ورفنية وتدمر ، ومن سواحلها : اللاذقية وجبلة وبلنياس وانطرسوس ومرقية وقاسرة والسقى وجرثية والحولة وعملوا وزندك وقبراتا .ويبدو ان بعض اسماء المدن الساحلة ـ ان كانت لم تحرف فى الكتابة ـ قد تعرضت للتغيير ، لا نظرا للتطور فحسب بل لتتابع الهجرات بعد الفتح العربى ، وتحقيق هذه الاسماء وما أصابها من تغيرات يواجه صعابا جمة •

وقد احتل الصليبيون حمص سنة ١٠٩٩م ، ووصفها بعض الجغرافيين بعد ذلك التاريخ مثل الادريسى الذى كتب سنة ١١٥٤ م • وفى سنة ١١٨٥م كتب ابن جبير : « وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم اياه ـ وبعدهم فى ذلك أهل حلب •••وبقبلى هذه المدينة قلعة حصينة منيعة عاصية غير مطيعة قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها ، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد ومعه قبر ابنه عبد الرحمن وقبر عبيد الله بن عمر • وأسوار هذه المدينة غاية فى العتاقة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود ، وأبوابها أبواب حديد ، تكتنفها الابراج المشيدة الحصينة ، وأما داخلها فما شئت من بادية شعثاء خلقة الأرجاء ملفقة البناء لا اشراق لافاقها ولا رونق لأسواقها• وما ظنك ببلد :حصن الاكراد منه على أميال يسيرة ـ وهو معقل العدو فهو منه تتراءى ناره ويحرق اذا يطير شراره ويتعهد اذا شاء كل يوم مغاره » ويذكر ياقوت أن حمص « بلد مشهور قديم مسور ، وفى طرفه القبلى قلعة

حصينة على تل عال ـ كبيرة ، وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق • وبها دار خالد بن الوليد وقبره فيما يقال ـ وبعضهم يقول انه مات بالمدينة ودفن بها وهو الأصح ، وعند قبر خالد قبر عياض بن غنم القرشي الذى فتح الجزيرة • ويقال ان هذا الذي يزار بحمص انما هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية » • وقد تتابع الجغرافيون المسلمون الى الاشـــارة الى طلسم في حمص يفي من العقارب ، والى تمثال نحاسي على صورة انسان راكب على فرس يدور مع الريح • وذكر الدمشقي ان اسم حمص القديم هو سورية ، وأشاد أبو الفدا بحدائقها ، وقال ابن فضل الله العمرى : « وظاهرها احسن من باطنها لا سيما في زمن الربيع وما يلبس به ظواهرها من حال الربيع الموسقة بالأزهار ويتوسط بها البحيرة الصافية الماء ذات السمك المنقول من الفرات اليها حتى تولد فيها والطير المبثـوث في نواحيها (٧٨) » •

حصن الأكراد : حصن منيع على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب ـ وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان ، وهو بين بعلبك وحمص، وكان يسمي قديما حصن السفح ويسمى الآن قلعة الحصن أو الحصن • وكان بعض أمراء الشام قد بني في موضعه برجا وجعل فيه قوما من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج وأجرى لهم أرزاقا فجعلوا يحصـــنونه الى أن صار قلعة حصينة منعت الفرنج « وهو في أيديهم الى هذه الغاية ـ وبينه وبين حمص يوم ، ولا يستطيع صاحبها انتزاعه من أيديهم » وكما يقول ياقوت (٧٩) •

تدمر : تقع وسط واحة على ملتقى طرق القوافل بين الفرات وسواحل بحر الشام وبين الرقة ودمشق ، وتربط مصر بفارس والهند والشرق الأقصى • وهي هبة الينبوع المائي عندها وهبة الطريق الهام المار بهـا ، وقد ورد أقدم ذكر لها في كتابتين أشوريتين تقولان بأن الملك الأشورى تقلات فلاسر قد بلغها في احدى حملاته ضد الأراميين • ثم زادت أهميتها

---

(٧٨) Le Strange : Palestine Under the Moslems, pp. 353 : 7, Canard: Hist. de la Dyn. des Handanides. p. 208, Dussaud: Top Hist. de la Syrie, pp. 101 : 4,

اليعقوبى : البلدان (ملحق بالاعلاق النفيسة ص ٣٢٤ ، البلاذري : فتوح البلدان ص ١٤٠ ، ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٥ ـ ٦ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥٦ ، رحلة ابن جبير ص ٢٤٥ ـ ٦ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٤٠ ـ ١ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٧٣ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٠ ـ ١

(٧٩) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٢٨٤ ، Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, p. 92.

لتوسطها بين الامبراطوريتين الرومانية والفارسية وازدهرت في عهد أذينة وزوجته زنوبيا المشهورة • وبعد ضربة الرومان القاضية لها أيام أورليان بنى فيها دقلديانوس معسكرا كبيرا وأحاطها بسور • وفى العهد البيزنطى أنشأ جستنيان بها بعض الأبنية ومد فيها قناة. ويبدو أن أسوارها قد أعيد بناؤها في العهد الاسلامى ، اذ تكلم أبو الفدا عن قلعتها وأسوارها ويدل فن البناء التدمرى على الاقتباس من سوريا الرومانية وعالم البحر المتوسط مع تمثل تقاليد البناء الشرقية حتى كانت له شخصيته الذاتية • وقد بنيت تدمر على غرار المدن الاغريقية الرومانية كانطاكية وافامية ـ من شوارع مستقيمة متقاطعة وطريق رئيسى وساحة عامة ومسرح ومعابد (٨٠) • ووصف المقدسي تدمر بأنها «على مثل كرسى من مدن سليمان بن داود » (٨١) • وجاء عنها في مراصد الاطلاع • « مدينة قديمة مشهورة في برية الشام ، بينها وبين حلب خمسة مراحل وهى قريبة من حمص، ومن عجائب الابنية كانت موضوعة على العمد الرخام وأهلها يزعمون أنها كانت قبل سليمان بن داود بكثير • وأهلها الآن فى حصن منها على سور من حجارة وبابه مصراعان من حجر وبها صوامع باقية ، ولهم نهر يسقى نخلهم وبساتينهم وقيل أن الجن بنتها لسليمان » (٨٢) •

معرة النعمان : مكان مدينة آر القديمة وقد فتحها العرب سنة ٦٣٧م تقع على الطريق من حماة الى قنسرين وحلب، وسميت باسم الصحابى النعمان بن بشير الذى كان واليها زمن معاوية • ووقوعها على الطريق بين حماة وحلب ربط مصيرها بهاتين المدينتين فانها كانت الهدف الأول لكل غارة تأتى من الشمال وتقصد مدينة حماة وعندما كان خط الدفاع الأمامى للحمويين وقد كانت مجهزة بتحصينات دمرت في زمن فتنة نصر بن شبث ضد المأمون سنة ٢٠٧ هـ لكن بنيت في الوقت نفسه قلاع مجاورة مثل حناك. واستولى البيزنطيون على المعرة سنة ٩٦٨م بقيادة امبراطورهم نيقفور فوكاس ، ثم دخلها الصليبيون سنة ١٠٩٨م ، واستردها زنكى سنة ١١٣٦م وبقيت تابعة لامارة حماة فى ظل الأيوبيين والمماليك ولكن

---

(٨٠) دكتور سليمان عبد الحق وعبد العزيز عثمان : نزهات أثرية في سورية ص ٦١ : ٨
أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٨٨ ـ ٩
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, p. 212.

(٨١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥٦ •

(٨٢) ابن عبد الحق : المراصد حـ ١ ص ٢٥٤ •

(٨٣) دكتور سليمان عبدالحق عبدالعزيز عثمان ـ نزهات أثرية في سوريا ص ١١٣ ،
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, p. 215 - 6.

ظل حاكم حلب يتطلع اليها، وهكذا تداولتها ايدي أمراء حلب وحماة ويذكر ياقوت سبب تسمية المعرة ويرجح « أنها مسماة بالنعمان وهو الملقب بالساطع بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن خزيمة بن تيم الله وهو تنوخ بن أسد ... من قضاعة وهي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماه ماؤهم من الآبار وعندهم الزيتون والتين ».

وتل منس : حصن بقرب معرة النعمان بالشام نزله المتوكل فى رحلته الى الشام سنة ٢٤٤ هـ .

وكفر روما : من قرى المعرة كان حصنا مشهورا خربه لؤلؤ السيفى الجراحى المتغلب على حلب بعد ابي الفضائل بن سعد الدولة بن سيف الدولة سنة ٣٩٣ هـ (٨٤) .

الحولة : بين حمص وطرابلس ، (وثمة كورة أخرى بهذا الاسم بين بانياس وصور) (٨٥) .

الرستن : بين حماه وحمص فى منتصف الطريق بها آثار باقية تدل على جلالتها لكنها صارت خرابا وقت أن كتب عنها ياقوت وهي تشرف على نهر العاصي (٨٦).

سلمية : بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين وكانت تعد من أعمال حمص وتقع في الشمال الشرقى من حمص والجنوب الشرقي من حماة ، وهي في سهل خصب على حافة هضبة بركانية وكانت مركزا متقدما على حافة الصحراء ونقطة التقاء عدة طرق تتجه الى حلب فى الشمال ، والرصافة في الشمال الشرقي ، وحماة وحمص في الغرب ، وتدمر فى الجنوب الشرقى . وقد انحدرت زمن الحمدانيين بعد ماعانته من هجمات القرامطة وكان يسكنها قبل ذلك كثير من الهاشميين من سلالة صالح بن على العباسى واتخذها الاسماعيليون مركزا لدعوتهم. نقل ياقوت عن ابن طاهر انهـا بين حماة ورفنية ، وذكر أن **رفنية** يقال لها رفنية تدمر من أعمال حمص (وقيل عند طرابلس بساحل الشام) . وقد كان لرفنية أهمية استراتيجية مع **بارين** القلعة التى تجاورها ، وفى العصر الرومانى كان الفيلق الثانى عشر يعسكر هناك قبل الاستيلاء

---

(٨٤) ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ٩٦ ، جـ ٣ ص ٤٠٩ ، جـ ٧ ص ٣٦٤ ، ابن العديم: بغية الطلب مخطوط ١٩٣

(٨٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٦٨ .

(٨٦) ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٤٩

على ملطية ، كما كان الفيلق السادس يقيم هناك كما تدل بعض النصوص اللاتينية ، ومازالت انقاض المدينة تحمل نفس الاسم • وتدل نفوذ المدينة فى العصر اليونانى الرومانى على أهميتها الدينية (٨٧) •

شيزر : كان اسمها فى عهد السلوقيين Larissa ، وهى قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينهما وبين حماه يوم ، فى وسطها نهر الاردن ـ عليه قنطرة فى وسط المدينة أوله من جبل لبنان ، تعد فى كورة حمص وهى قديمة وقد ذكرها أمرؤ القيس فى شعره • وقد كانت تمثل نقطة دفاع هامة عند الخطر البيزنطى يلجأ اليها الحمدانيون عند الاقتضاء (٨٨) •

فامية : مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص فى الشمال الغربى من شيزر وقد يقال لها أفامية Apamée ويذكر اليعقوبى أن المدينة على بحيرة كبيرة ، وتوجد الآن بحيرتان صغيرتان قرب المدينة كبراهما فى الشمال (٨٩) •

وقد ذكر ياقوت مواضع حصون كثيرة فى منطقة حمص وحماة من ذلك : اسفونا قرب معرة النعمان ، وهناك حصن كان بمعرة النعمان خربه عبد الله بن طاهر بعد المائتين فيما خرب من حصون الشام ، وحوارين حصن من ناحية حمص ، والطوبان حصن من أعمال حمص أو حماه ، ولطمين كورة بحمص وبها حصن (٩٠) • كما ذكر من نواحى حمص اعناز وبارين بين حمص والساحل ، وقارة آخر حدود حمص وما عداها من أعمال دمشق وهى على رأس قارة وبها عيون جارية يزرع عليها ، والقرشية قرية بسواحل حمص آخر عملها مما يلى حلب وانطاكية (٩١) •

---

(٨٧) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ١١٢ ـ ٣ ، ج ٤ ص ٢٦٦
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 212 - 3.
ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ٢٠٩

(٨٨) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٢٤
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 209-210.
ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ٢٠٧

(٨٩) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٢٤ •
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, p. 210,
Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, pp. 98-9.

(٩٠) ابن عبد الحق : المراصد ج ١ ص ٧٣ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤ ، ياقوت : معجم البلدان : ج ٦ ص ٦٦ ، ج ٧ ص ٣٣٠ •

(٩١) ابن عبدالحق : المراصد ج ١ ص ٩٦ ، ٢٠٧ ، ج ٣ ص ١٠٥٦ ، ١٠٧٨ •

(ج) أرمينية :

صقع عظيم واسع يمتد الى جبال القبق أو القوقاز والبحر الأسود شمالا ، وبعض الجزيرة جنوبا ، وبحر الخزر أو قزوين وهضبة أذربيجان شرقا ، وآسيا الصغرى والجزيرة غربا ، ويشمل الأراضى الجبلية التى تخترقها أنهار عظيمة أهمها : الدجلة والفرات فى الجنوب ، والكر Kyros والرس Araxes فى الشمال • وكان يسكن هذه البلاد شعب آسيوى مجهول الأصل يعرف بالأرمن ، تحول الى المسيحية مبكرا ، وظهرت شخصيته المتميزة ، كما كانت تعيش فيه جماعات يهودية ومجوسية أتت من البلاد المجاورة •

وجاء موقع أرمينية بين دول متعادية سبيلا للتنازع عليها بين جيرانها من قديم فتصارع عليها السلوقيون والرومان والبيزنطيون من ناحية والدول الايرانية من ناحية أخرى • ويظهر أن فرعا من أسرة الارشكانيين (البارثيين) الفارسية تملك علىأرمينية أربعة قرون ، ثم سيطر الساسانيون على جزء كبير منها بعد ذلك ، كما استولى البيزنطيون من ناحيتهم على الاجزاء المجاورة لهم • وقد كان ظهور شعب **الخزر** ـ وهو مجهول الاصل أيضا ـ فى المناطق الشمالية المجاورة لأرمينية سببا لبناء الفرس قلاعا أو قصورا من الحجارة على أفواه شعاب جبال القبق عرفت **بالابواب** لمنع غاراتهم ـ لكنهم تمكنوا من الاستيلاء على بعض الاجزاء • واستطاع البيزنطيون فى عهد هرقل ضم معظم أرمينية ، لكن تمرد الارمن عليهم للاختلاف فى المذهب الدينى مرات متتابعة • وقد كان لطمع جيران أرمينية ولطبيعة أرضها الجبلية ما سبب تقسيمها الى أرمينية الكبرى والصغرى، أو الداخلة والخارجة ، بل الى ثلاث أو أربع أو خمس أرمينيات• وأصبح العرب على حدود أرمينية بعد أن فتحوا بلاد الجزيرة وأذربيجان ، وكان غزوها ضروريا لتأمين حدود امبراطوريتهم فى الجزيرة والشام ولوجود حدود مشتركة ولتضييق الخناق على دولة الروم بآسيا الصغرى (٩٢) •

ويقول لى سترينج : **ان اقليم الران وشروان وجورجيا وأرمينية ـ وهى فى جملتها شمالى نهر الرس ـ كان يصعب عدها من ديار الاسلام** ولهذا لم يتبسط البلدانيون العرب فى وصفها ، حقا أقام المسلمون فيها منذ صدر الاسلام ، وولى الخلفاء عليها عمالهم فى أوقات مختلفة ـ غير

(٩٢) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ص ٢٤٦ : ٨ •

أن أغلب أهلها بقوا على نصرانيتهم حتى أوشكت العصور الوسطى أن تنتهى ، وما زالت هذه البلاد على ذلك حتى حل فيها المسلمون ثانية عقب الفتح المغولى ـ لا سيما بعد حروب تيمور ، اذ استقر فيها الترك فصار الاسلام الدين السائد فيها (٩٣) · ويتصل اقليم أرمينية بما يجاوره من أقاليم ، وقد عرف هذه الحقيقة الجغرافيون العرب فأشار المقدسى عند كلامه على اقليم الرحاب « لما لم نجد له اسما عاما يجمع كوره سميناه الرحاب ··· وقد جعلنا هذا الاقليم ثلاث كور : أولها من قبل البحيرة الران ، ثم أرمينية ، ثم أذربيجان (٩٤) » ·

وهذا عرض موجز لأهم اقاليم تلك المنطقة الجبلية :

الران :

يسميه المستوفى (بين النهرين) اذ يقع فى المثلث العظيم الى الغرب من موقع اقتران نهرى **الكر** Kyros **والرس** Araxes ويجعل البعض نهر الرس حدا بين الران واذربيجان : فما جاوز النهر غربا وشمالا فمن الران وما يليه شرقا فمن أذربيجان · وكانت قصبة هذا الاقليم فى المائة الرابعة (هـ) (العاشرةم) **برذعة** وما زالت خرائبها باقية ، وقد وصفها ابن حوقل · وكانت أكبر مدن هذه الديار ، مربعة الشكل لها ثلاثة ، وهى من نهر الكر على نحو ٣ فراسخ على ضفة رافده الثرثور · وذكر المقدسى أن الران « تكون نحو الثلث من الاقليم فى مثل جزيرة بين البحيرة وبحر الرس ، ونهر الملك يشقها طولا ، قصبتها برذعة ، ومن مدنها تفليس والقلعة وخنان وشكمور وجنزه وبرديج والشماخيةوشروان وباكوه والشابران وباب الابواب وملاذكرد ·· وبرذعة قصبة كبيرة مربعة فى أرض سهلة لها حصن وسعة أسواقها قد ظلت مجتمعة··· » · ويذكر ياقوت ان برذعة مدينة أران وانها كانت كبيرة وخربت · وقد أضحت مدينة **البيلقان** ـ وهى بالارمينية Phaidagaran ـ قصبة الران بعد خراب برذعة وتقع على بعد أربعة عشر فرسخا فى جنوبها وعلى سبعة أو تسعة فراسخ من شمال الرس فى الطريق الصاعد من برزند ، وقد كانت موضعا عظيما حتى القرن ٦ هـ (١٥ م) ، وحين قصدها التتر سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) رأوا حصانة سورها · ويذكر ياقوت : أن

---

(٩٣) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ٢١١ ·

(٩٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣٧٣ ـ ٤

البيلقان مدينة قرب الدربند (الباب والابواب) تعد فى أرمينية الكبرى قريبة من شروان ؛ وفى شمالى غرب برذعة على طريق تفليس مدينة **كنجة أوجنزه** ، والى شمالى الغربى **شكمور** وخرائبها ما زالت موجودة . وينبع **نهر الرس** من بلاد قاليقلا في غربى أرمينية ، وبعد أن يجرى فى محاذاة أذربيجان الشمالية يلتقى **بنهر الكر** – على ما ذكر المستوفى – فى شرقى الران . ومخرج نهر الكر فى الجبال غربى تفليس ببلاد جورجيا – أى فى بلاد الخزر التى تتألف من ولايتى انجاز واللان . وبعد أن يمر نهر الكر بتفليس ينحدر الى شكمور ، وعندها – على ما ذكر المستوفى – يتفرع منه نهر يصب فى بحيرة **شمكور العظيمة** ، وبعد أن يلتقى الكر بنهر الرس أسفل برذعة يصب فى بحر قزوين (٩٥) .

شروان :

يلى نهر الكر على بحر قزوين حيث تنتهى جبال القوقاز عنده ، **وقصبته الشماخية او شماخى** ، وصفها المقدسى بأنها أسفل جبل ، كما ذكر مدينتى **شبران وشروان** . وفى أقصى شمالى بلاد شروان » باب الابواب) وهى تسمية العرب لدربند أجل موانى بحر قزوين . ويقول ابن حوقل انها كانت فى المائة الرابعة أكبر من أردبيل قصبة أذربيجان « وفى وسطها مرسى للسفن ، وفى هذا المرسى الخارج من البحر اليها **بناء قد بنى كالسد بين جبلين** مطلين على هذا المرسى الخارج ماؤه من بحر الخزر . وفى هذا السد باب مغلق على الماء قد استحكم من وصيده بعقد قد عقد على الماء نفسه والماء من تحته .. وعلى فم المدخل الذى تدخل فيه السفن سلسلة ممدودة وعليها قفل لمن ينظر فى أمر البحر **فلا يخرج المركب ولا يدخل الا بامر صاحب القفل** ، والسد من صخر ورصاص وهذه المدينة عليها سور منيع **من حجارة** » . وذكر المقدسى أن المدينة « لها ثلاثة أبواب : باب الكبير ، وباب الصغير ، وباب آخر نحو البحر مسدود لا يفتح – وعدة أبواب من قبل البحر وقبل الاسلام . والحائط قد مد من الجبل الى وسط البحيرة عليه أبرجة » . **وقد صارت باب الابواب ثغرا من ثغور الاسلام كان يحيط بها أهل الكفر من كل جانب فى اول العهد** ، وأسهب ياقوت فى ذكر الامم التى فى أعلى الجبال وهضابها

---

(٩٥) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ٢٩١ : ٣ ، **الاصطخرى : المسالك والممالك ص ١٠٨ : ١١١، المقدسى أحسن التقاسيم ص ٣٧٤ : ٦** ، ابن عبد الحق : المراصد : جـ ١ الران ص ٥٠ ، (برذعة) ص ١٨٢ ، (بليقان من ٢٢٤)

من ناحية الغرب » وعلى المدينة سور من الحجارة ممتد من الجبل طولا فى غير ذى عرض ، لا مسلك على جبلها الى بلاد المسلمين - لدروس الطرق وصعوبة المسالك من بلاد الكفر الى بلاد المسلمين ، ومع طول السور فقد مد قطعة من السور فى البحر - شبه أنف طولانى - ليمنع من تقارب السفن من السور . وهى محكمة البناء موثقة الاساس من بناء أنو شروان وهى أحد الثغور الجليلة العظيمة لأنها كثيرة الاعداء الذين حفظوا بها من أمم شتى وألسنة مختلفة وعدد كثير . والى جنبها جبل عظيم يعرف بالذئب يجمع فى رأسه كل عام حطب كثير ليشعلوا فيه النار ان احتاجوا اليه ينذرون أهل أذربيجان وأران وأرمينية بأتتكو ان دهمهم . وقيل انه فى أعلى جبلها الممتد المتصل بباب الأبواب نيفا وسبعين أمة ، لكل أمة لغة لا يعرفها مجاورهم . وكانت الأكاسرة كثيرة الاهتمام بهذا الثغر لا يفترون عن النظر فى مصالحه لعظم خطره وشدة خوفه . وأقيمت لهـذا المكان حفظة من ناقلة البلدان وأهل الثقة عندهم لحفظه ، وأطلق لهم عمارة ما قدروا عليه - بلا كلفة للسلطان ولا مؤامرة فيه ولا مراجعة ، حرصا على على صيانته من أصناف الترك والكفر والاعداء . فمن رتبوا هنـاك من الحفظة : أمة يقال لها طبرسران ، وأمة الى جنبهم تعرف نفيلان ، وأمة يعرفون باللكز كثير عددهم عظيمة شوكتهم ، والليران ، وشروان .. وغيرهم . وجعل لكل صنف من هؤلاء مركز يحفظه ، وهم أولو عدد وشدة ورجالة وفرسان . وباب الأبواب فرضة لذلك البحر ، يجتمع اليه : الخزر والسرير وسندان وخيزان وكرج ورقلان وزنكران وعميك - هذا من جهة شماليها ، ويجتمع اليه أيضا من جرجان وطبرستان والديلم والجبل » . وقد ذكر ياقوت شهرتها بالكتان والزعفران . ويصب نهر السمور - كما ذكره البلاذرى - فى بحر قزوين على شىء يسير من جنوب دربند ، وقد ذكره المقدسى باسم نهر الملك ، وكان على جسر يبعد عن الدربند عشرين فرسخا على الطريق الممتد من شماخى . وميناء باكوه أو باكويه (باكو » جنوبى دربنـد وقد أشـار الاصطخرى الى نفطهـا ، وقال ياقوت عنها « عين نفط عظيمـة تبلغ قبالتهـا فى كل يوم ألف درهم ، والى جانبها عين أخرى تسيل بنفط أبيض لا ينقطع ليلا ولا نهارا .. وهناك أرض لا تزال تضطرم نارا » .. وتكلم المستوفى عن قلعة باكويه التى كانت تطل على المدينة لتنشر عليها ظلها فى وسط النهار . وكان فى الجبال القريبة من دربند قلعة (قبلة) التى ذكرها المقدسى وقال انهـا

حصينة ، وورد ذكرها فى حروب تيمور . **وبلنجر** مدينة ببلاد الخزر خلف باب الابواب فتحها عبد الرحمن بن ربيعة (٩٦) .

وبلاد اللان : واسعة وأمة كبيرة تتاخم الدربند فى جبال القبق (٩٧) .

هذا وقد عدد مؤلف جركسى حديث **سكان منطقة القوقاز** فمنهم **الجركس** ويسكنون منطقتين كبيرتين فى شمالى القوقاز حول نهرى قوبان وترك وبعض سواحل البحر الاسود ، **والجن** ـ فى شمالى القوقاز وشرقى بلاد الجركس وعلى الشواطىء الجنوبية لنهر ترك ، فاذا اتجهنا شرقا نحو ساحل بحر الخزر وجبل قازبك شرقى سلسلة القوقاز الاصلية نجد اللزكى فى تلك المواقع المرتفعة الحصينة والسهول المحيطة بها ، ويسكن القوصحة (أستين) القسم الاول من جبال القوقاز فى مرتفعاته المنيعة بجبال قازبك والبرز . وفى الجنوب يسكن الكرج والأرمن (٩٨) .

الكرج (جورجيا) :

ذكر ياقوت أن الكرج جيل من الناس نصارى يسكنون جبال القبق وبلد السرير وقد قويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس ، ولهم ولاية تنسب اليهم ولهم شوكة وكثرة عدد . **والقبق جبل متصل بباب الابواب وبلاد اللان وهو آخر حدود ارمينية** . قال ابن الفقيه : وجبل القبق فيه اثنان وسبعون لسانا لا يعرف كل انسان لغة صاحبه الا بترجمان ، ويقال ان طوله خمسمائة فرسخ ، وهو متصل ببلاد الروم الى حد الخزر واللان ، ويقال ان هذا الجبل هو جبل العرج الذى بين مكة والمدينة : يمتد الى الشام حتى يتصل بلبنان من أرض حمص وسنير من دمشق ، ويمضى فيتصل بجبال انطاكية وسميساط ويسمى هناك اللكام، ثم يمتد الى ملطيه وشمشاط وقاليقلا الى بحر الخزر وفيه باب الأبواب

---

(٩٦) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ٢١٤ ـ ٥ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ١٠٩ ، ١١٢ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣٧٦ ، ياقوت : معجم البلدان ح ٢ (باب الأبواب) ص ٩ ـ ١١ ، (بلنجر) ص ٢١٨ ، ابن عبد الحق : المراصد ج ١ (باكويه) ص ١٥٦ ، ج ٢ (شروان) ص ٧٩٣ .

(٩٧) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٤ ـ ٥ ، المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٢٠ ـ ١

(٩٨) يوسف عزت : تاريخ القوقاز ترجمة عبد الحميد غالب ص ٧ : ٩ .

وهناك يسمى القبق • وكرجستان هى التى نسـميها جورجيا الآن ، وأنجاز يقال لها انجازية وقد فتحها تيمور فى ختام المائة الثامنة (هـ) •

وتفليس قصبة كرجستان • وصفها ابن حوقل بأن عليها سورين وهى حصينة لها ثلاثة أبواب • وذكر المقدسى أنهاحصينة ويخترقها نهر الكر وهى جانبان يرتبطان بجسر•وذكر ياقوت أن تفليس « بلد بأرمينية الاولى ويقال بأران ـ وهى قصبة ناحية جرزان قرب الباب والابواب ، مدينة قديمة أزلية وأهلها يتحدثون بلغة الارمن ، ملكها الكرج وقتلوا بها خلقا من المسلمين واستقروا بها مدة حتى جاءها جلال الدين بن خوارزم شاه سنة ٦٢٣ هـ » **وأنجاز** من جبل القبق ، وحولها قبائل من الكرج واللان وغـيرهم • وتنحدر من جبل البرز أنهار كثـيرة على ما ذكـر المستوفى (٩٩) •

أرمينية :

كانت أرمينية الكبرى تنقسم الى أرمينية الداخليةوأرمينية الخارجية وهى وان كان أكثر أهلها نصارى الا أن المسلمين **فتحوها وحكموها** اثر فتحهم للشام والجزيرة • وفى هذه البلاد **جبال عظيمة تمتد بين بحيرة وان وبحيرة كوكجة** • وقـد ذكر ابن خرداذبة أقسامهـا ومدنهـا فقال « **أرمينية الأولى** : السيسجان وأران وتفليس وبرذعة والبليقان وقبـلة وشروان ، **وأرمينية الثانية** : جرزان وصغدبيل وباب فيروز قباذ واللكر ، **وأرمينية الثالثة** : البسفرجان ودبيل وسراج طير وبغروند ونشـوى ، **وأرمينية الرابعة** : شمشاط وخلاط وقاليقلا وأرجيش وباجنيس » •

ويذكر الاصطخرى أن « **الثغر الذى يلى الروم من أرمينية قاليقلا** ، واليها يغزو أهل أذربيجان والجبـال والرى وما والاها ، ولهم مدخل الى الروم يعرف **بطر ابزندة** يجتمع فيه التجار فيدخلون بلاد الروم للتجارة، فما وقع من دبابيج وبزيون وثياب الروم الى تلك النواحى فمن طرابزندة، واما نشوىوبركرى وخلاط ومنازكرد وبدليس وقاليقلاوأرزن وميافارقين وسراج فهى بلدان صغار متقاربة فى المقدار خصبة كلها عامرة كثـيرة الخير • **وميافارقين يعـدها قوم من الجزيرة الا أنها دون الجـزيرة**

---

(٩٩) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ٢١٦ ، الاصطخرى: المسالك والممالك ص ١١٠ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣٧٥ ـ ٦ ، يافوت : معجم البلدان (القبق) حـ ٧ ص ٢٧ ـ ٨ ، ابن عبدالحق : المراصد (الكرج) حـ ٢ ص ١١٥٥ ، (تفليس) جـ ١ ص ٢٦٦ ، (انجاز) جـ ١ ص ١٠

وخلفها حد الجزيرة فيمـا صورنا ما بين دجـلة والفرات ، **لذلك جعلناها بأرمينية** » .

وذكر المقدسي شيئا من هذه المدن كما ذكر بجانبها بدليس وسلماس ومراغة وغير ذلك . وكانت قصبة أرمينية في الأزمنة الاسلامية الاولى **دبيل** وتسـمى دوين أوين وتدل عليهـا الآن قرية صغيرة قرب نهـر الرس ، فيحين أنها كانت فيالمائة الرابعة أكبر من أردبيل وهيأجل ناحية وبلدة بأرمينية الداخلة وعليها سور له ثلاثة أبواب ، ويطل جبل ارارات بقمتيه على دبيلوهي في جنوبه وراء نهر الرس . ويقال لأرارات بأرمينية جبل الحارث وقمتها الصغرى الحويرث ، وقال الاصطخرى أن الثلوج على هذين الجبلين دائمة ، ولا يرتقى الى أعلاهما من الارتفاع وصعوبة المسلك، ومحتطب أهل دبيل ومتصيدهم في هذه الجبال . وقال المقدسى : « دبيل بلد جليل عليه حصن منيع والخير به كثير » ، ووصف حصنه بأنه وثيق « به قلعة ، بنينهم طين وحجارة له أبواب عدة منهـا باب كيدار وباب تفليس وباب آنى ، الا أن الغالب عليه النصارى وقد خف أهله وتشعث حصنه » . وذكر المقدسى وجودالأكراد بتفليس . **وآنى** هيقصبة أرمينية النصرانية قديما وقد استولى عليها الب رسلان السلجوقى فى سنة٤٥٦هـ **وبحيرة كوكجة** (البحيرة الزرقاء) ـ كما سماها المستوفى ـ على بعد يسير شمالى شرقى دبيل ومياهها عذبة.**وبحيرة وان أو أرجيش** ـ على ماسماها المصنفون الأولون ـ كانت أشهر بحيراتأرمينية ، وعلى شطئانها **أخلاط وأرجيش ووان ووسطان** ، وقد وصفها الاصطخرى . ويخرج منها **سمك الطريخ** الذى يحمل الى الموصل والجزيرة ، وماء البحيرة مر .

وكانت خلاط أو اخلاط فى طرف البحـيرة الغربى من أجـل مدن أرمينية . قال عنها ياقوت « قصبة أرمينية الوسطى يضرب ببردها فى الشتاء المثل » ، وذكر انها بلدة عامرة . وكذلك وصفها المستوفى ، وقال المقدسى ان عليها حصن ويخترقها النهر ويصل جانبيها جسر ويطل عليها جبل (كوه سيبان) . **وارجيش** على الساحل الشمالى وكثيرا ما عرفت البحيرة باسمها ، وذكر المستوفى احكام تحصينها ووجود قلعة حصينة فى رأس الجبل . ومدينة **وان** تعرف البحيرة بها اليوم قرب شاطئها الشرقى، ذكر عنها ياقوت « قلعة بين خلاط ونواحى تفليس من عمل قاليقـلا » وكانت قلعة **وسطان** على ساحل البحيرة الجنوبى وقد تكلم عنها المستوفى. وفى جنوب غربى البحيرة مدينة **بدليس** ، وصفها المقدسى بأنها « فى واد

عميق يجرى فيه نهران ، في المدينة يجتمعان ، وهي جانبان فيها قلعة من حجارة » وهى تصدر التفاح على ما أورد ياقوت (١٠٠) ٠

وتبتدى حدود **كردستان** من شواطىء الخليج الفارسى ممتدة بخط مستقيم حتى مليطية ومرعش ، وفى الجانب الشمالى من هذا الخط فارس وعراق العجم وأذربيجان والأرمينيتان الصغرى والكبرى ، ويحدها جنوبا العراق العربى والموصل وديار بكر ٠ وكانت أرمينية الكبرى تطلق على البلاد المحصورة بين بحيرة وان من الشمالى وجبال القوقاز وعاصمتها مدينة **اران** (١٠١) ٠

أذربيجان :

يذكر المقدسى فى تقسيمه الثلاثى لاقليم « الرحاب » اقليم اذربيجان ، وقصبتها اردبيل ومن مدنها تبريز وجابروان وموقان وميمذ وبرزند وغير ذلك ٠ ويقول ياقوت « حد أذربيجان من برذعة مشرقا الى أرزنجان مغربا ، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم والجبل والطرم وهو اقليم واسع ومن مشهور مدائنها تبريز وهى اليوم قصبتها وأكبر مدنها ، وكانت قصبتها قديما المراغة ومن مدنها خوى وسلماس وأرمية واردبيل ومرند وغير ذلك ٠٠ ولا أغزر مياها وعيونا منها ٠٠ وأهلها صباح الوجوه حمرها رقاق البشرة ٠٠ وهى **بلاد فتنة وحروب ما خلت قط منها** ، فلذلك أكثر مدنها خراب وقراها يباب . وفى أيامنا هذه هى مملكة جلال الدين منكبرتى » ٠ ويصف المقدسى **اردبيل** بأنها « قصبة أذربيجان ومصر الاقليم عليه حصن منيع ، وهو أصغر من دبيل ٠٠ وبه مياه جارية وعساكر راتية وخيرات كثيرة » ٠ وقد ذكر الاصطخرى أن عليها سورا وبها العسكر ٠ ويصف المقدسى **تبريز** بقوله : « هى الذهب الابريز والبلد الحريز يختار على مدينة السلام وتباهى بها أهل الاسلام » ٠ ويصف ياقوت تبريز بأنها « مدينة عامرة حسناء ذات أسوار وأهلها أيسر أهل البلاد » وفى الاقليم **بحيرة ارمينية** نسبة الى مدينة أرمينية على ساحلها الغربى ، وهى أوسع رقعة دائمة الماء فى بلاد

---

(١٠٠) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ٢١٦ : ٨ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ١١٠ ـ ١١١ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣٧٧ ، ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٢٢ ، ابن عبد الحق : المراصد ج ١ (أرجيش) ص ٥٢ ، ١٦٧ ، (خلاط) ص ٤٧٦ ، (بدليس) ص ١٧١ ، (وان) ج ٣ ص ١٤٢٣ ٠

(١٠١) شرف خان : الشرفنامه ـ ترجمة جميل بندى وروثر بياتى ص ٢١ ٠

فارس • وفى تبريز **نهران** : مهـران روذ وهو يشـق أرباض تبريز ، وسرد روذ ويجرى الى الجنوب الغربى • ومدينة **المراغة** على سبعين ميـلا جنوبى تبريز ذكر المقدسى : أن « لها حصنا وبها قلعة ولها ربض وحصونها طين » ، وعنها يقول ياقوت «بلدة مشهورة بأذربيجان كانت قصبتهـا ، وبها آثار ومدارس . كانت تدعى أفرا هروذ فعسكر بها مروان بن محمد وهو والى أرمينيـة وأذربيجـان منصرفة من غزو موقان ، وكانت دوابه وأصحابه تتمرغ فيها فجعلوا يقولون : ابنوا قرية المراغة •• فابتناها مروان •• وبنى خزيمة بن خازم في ولاية الرشيد سورها وحصـنها وهى على نهر صافى • وذكر المقدسي أن « **موغان** ـ أو موقان مدينة قد أحاط بها نهران ، هى مع تبريز روضتان ، وللرحاب فى الاسلام مفخران موضوعة بين أردبيل وجيلان ، ومنها الى برذعة ثمان » • كذلك كانت **مرند** مدينة حصينة • **وسلماس** عليها حصن من طين وحجارة وقد أحاط بها الاكراد كما يقول المقدسى ، ويقول عنهـا ياقوت : « مدينة مشهورة بأذربيجان بينها وبين أرمية بومان وبينها وبين تبريز ثلاثة وبينها وبين سلماس وخوى مرحلة » **وخوى** ذات سور حصين وهى على نهـر يجرى شمالا فيصب فى نهـر الرس • هذا وتتداخل مدن أرمينية وأذربيجان عندالمقدسى ـ وهو قدأطلق علىالاقليم كله تسميةعامة هى «**الرحاب**»(١٠٢)

(د) بلاد الروم :

كان المسلمون يسـمون أقاليم الدولة البيـزنطية فى جملتها «**بلاد الروم**» ـ ولفظ الرومى فى العصور الاسلامية ترادف النصرانى سـواء أكان من اليونان أو اللاتين • كذلك عرف البحر المتوسـط ببحر الروم أيضا ، كما صارت لفظة (الروم) اسما لآسيا الصغرى عند العرب•ولا غرابة فى قلة ما عرفه البلدانيون العرب الأوائل عن هذه البلاد فقد كانت جزءا من الدولة البيزنطية حتى انتقلت الى السلاجقة • وكانت الحدود بين بلاد المسـلمين والروم تتمثل فى سـلسـلتى جبال طوروس وطوروس الداخلية Anti Taurus (١٠٣) •

(١٠٢) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٩٣ وما بعدها ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ١٠٨ ، ١١١ المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣٧٧ ـ ٨ ، ياقوت : معجم البلدان (أذربيجان) ج ١ ص ١٥٩ ، ابن عبد الحق : المراصد (اردبيل) ج ١ ص ٥٣ ، (تبريز) ج ١ ص ٢٥٢ ، (مراغة) ج ٣ ص ١٢٥٠ ، (موقان) ج ٣ ص ١٣٣٥ ، (مرند) ج ٣ ص ١٢٦١ ، (سلماس) ج ٢ ص ٧٢٩ ، (خوى) ج ١ ص ٤٩٣

(١٠٣) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٥٩ ـ ١٦٠ •

وقد ذكر ابن خردانة الطرق بين البلاد الاسلامية وبلاد الروم ، وعدد بنودها وعرض لشيء من نظمها المالية والعسكرية كذلك عدد المسعودى ملوك الروم القدامى والمعاصرين لخلفاء المسلمين ، كما ذكر البنود الرومية (والعدوات) الستة لمن يريد من دار الاسلام الوصول اليها مما يلى الثغور الشامية والجزرية وغيرها (١٠٤) .

وذكر ياقوت : « واما حدود الروم آ فمشارقهم وشمالهم الترك والخزر والروس ، وجنوبهم الشام والاسكندرية ، وتحاذيهم البحر والأندلس . **وكانت الرقة والشامات كلها تعد فى حدود الروم ايام الأكاسرة ، وكانت دار الملك انطاكية** الي أن نفاهم المسلمون الى أقصى بلادهم » .

وقد نقل لى سترينج وصف ابن خرداذبة (٢٥٠ هـ ـ ٨٦٤ م) للطريق العام الذى كان يسلكه البريد ورسل الخليفة وحملات الغزو الى القسطنطينية ، وتناقله الجغرافيون بعد ابن خرداذبة وكان هذا الدرب يعرف فى قسمه الجنوبى بدرب السلامة ويتصل بالأبواب القيليقية Pylae Ciliciae وقد وضح لى سترينج بين قوسين ما تيسر له تحقيقه من الأسماء : « من طرسوس الى العليق ١٢ ميلا ، ثم الى الرهوة (أى المكان المنخفض ولعلها Mosukrene القديمة) ثم الى الجوزات ١٢ ميلا ، ثم الى الجردقوب ٧ أميال ، ثم الى البذندون (Podandas وهى بيزنطة الحديثه) ٧ أميال وفيها عين رقة مات عندما المأمون ، ثم الى معسكر الملك على حمة لؤلؤة (Loulon) والصفصاف ١٠ أميال (قرب Faustinopolis) ، وكذلك حصن الصقالية ١٠ أميال . وتصير الى معسكر الملك وقد قطعت الدرب (النهاية الشمالية من درب لاأبواب القيليقية) وأصحرت . ومن معسكر الملك الى وادى الطرفاء ١٢ ميلا ، ثم الى منى ٢٠ ميلا ، ثم الى نهر هرقلة (Heraclia) ١٢ ميلا ، ثم الى مدينة اللبن ٨ أميال ، ثم الى رأس الغابة ١٥ ميلا ، ثم الى المسكنين ١٦ ميلا ، ثم الى عين برغوث ١٢ ميلا ، ثم الى نهر الاحساء (أى النهر الذى تحت الآرض » ١٨ ميلا ، ثم الى ربض قونية (Iconium) ١٨ ميلا ، ثم العلميش ١٥ ميلا ، ثم الى ابرونسمانة ٢٠ ميلا ، ثم الى وادى الجوز ١٢ ميلا ، ثم الى عمورية (Amorion) ١٢ ميلا . وطريق آخر من العلمين الى

---

(١٠٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٠ : ١١٨ ، قدامة : ملحق بابن خرداذبة ص ٢٥٥ : ٩ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٧٢ ، ١٢٠ : ٥ ، مروج الذهب جـ ١ ص ١٩١ : ٢١٠

عمورية : يبـدأ من العلمين الى قرى نصر الاقريطشى ١٥ ميـلا ، ثم الى رأس بحيرة الباسليون (بحيرة الأربعين شهيدا) ١٠ أميال ، ثم الى السند ١٠ اميال »، ثم الى حصن سنادة Synades ١٨ ميلا ، ثم الى مغل ٢٥ ميـلا ، ثم الى غابة عمورية ٣٠ ميـلا • ومن عمورية الى قرى الحراب ١٥ ميلا ، ثم الى صافرى (Sangarius) نهر عمورية ميلان ، ثم الى العلج ١٢ ميـلا ، ثم الى فلامة الغابة ١٥ ميلا ، ثم الى حصن اليهود ١٢ ميلا ، ثم الى سندابرى (Stantabaris) ١٨ ميلا ، ثم الى مرج حمر الملك فى درولية (Dorylaeum) ٣٥ ميلا ، ثم الى حصن غربلى ١٥ ميـلا ، ثم الى كنـائس الملك (Basilica of Anna Commenae) ٣ أميال ، ثم الى التلول ٢٥ ميلا ، ثم الى الاكوار ١٥ ميلا ، ثم الى ملاجنة (Malagina) ١٥ ميلا ، ثم الى اصطبل الملك ٥ أميال ، ثم الى حصن الغبراء Kibotos حيث معدية تصل الى Aigialos) ٣٠ ميلا ، ثم الى الخليج (Bosphorus) ٢٤ ميلا ، ونيقية (Nicaea) بازاء (أي جنوبى الغبراء» • وبهذا يختتم ابن خرداذبة كلامه عن طريق القسطنطينية، وهو يعرض طرقا أخرى تختلف بعض الشيء عن هـذا الطريق • فهناك طريق من البذندون الى الكرم الى النوبة الى الكنائس التى عن يمين كوكب ، الى وفرة الى بليسة الى مرج الأسقف الى فلوغرى الى قرية الأصنام الى وادى الريح الى نمرطى الى الصيد الى عاينوا الى مودويس الى مخاضـة الى قرية الجوز الى الغطاسـين الى قـرية البطريق الى مرج ناقولية الى دنوس ، ومنه الى درولية • وطريق آخر متياسر منه الى حصن بلومين الى قطية ، ثم يتياسر الى الرنداق الى أبيدوس على المضيق الى خليج القسطنينية « وهـو البحر الذى يدعى بنطس يجىء من بحـر الخزر ، وعرض فوهته هناك ستة أميال ... والخليج غربى يجرى جريا حتى يمر بالقسطنطينية على ستين ميلا من مدخله ... وعرضه عندها أربعة أميال ، فاذا بلغ موضعا يدعى ابدس صار بين جبلين وضاق حتى يكون عرضه غلوة منهم ، وبين أبدس وبين قسـطنطينية مائة ميل فى مسـتوى من الأرض • وبأبدس عين مسـلمة بن عبـد الملك حيث حصر قسطنطينية ، ويمر الخليج حتى يصب الى البحر الشـامى وعرضه عنـد مصبه ايضا قدر غلوة سهم يكلم الرجل على شطيه ، وهناك صخرة عليها برج فيه سلسلة تمنع سفن المسـلمين من دخول الخليج • وطول الخليج كله من بحر الخزر الى بحر الشام ثلاثمائة وعشرون ميلا ، والسـفن تنحدر فيه من جزائر بحر الخزر وتلك النواحى وتصعد فيه من بحر الشام الى القسطنطينية » • كذلك أورد ابن خرداذبة طريقا متياسرا من

لؤلؤة الى وادى الطرفاء الى هرقلة وهى تستمر حتى قونية ثم تدخل وادى ذمارى الى قرية دقليــــاس الى قــرية البرج الى ملس قومس ، ثم تأتى العلمين ثم قريات قطية حتى تصير الى **درولية « وهى مجمع العساكر العرب والروم »** ثم الى قرية افرسبوس الى باسلاقين وملاحنة « وهى اصطبلات الملك وموضع ثقـله وميرته » الى بحيرة نقموذية ثم تنحدر الى نقمودية الى المعابر الى بلاد الملك . وتتبع ابن خرداذبة طريقا الى عمورية من درب السلامة . وقد كان هناك طريق خلال درب الحدث فى الشمال الشرقى من مرعش الى الابلستين (Ablasta أو البستان وهى Arabissus اليونانية). ويخلط ابن حوقل بين النهرين المختلفين: آليس وصاغرة ، وهلس وسنجاربوس . كما أن جملة من مدن الروم فى صورتها المعربة قد تغيرت صورتها بعـد الفتح التركى . ومـمـا لا شبهة فى صحته أن الأسماء العربية للمعالم التالية تقابل قرينتها البيزنطية : الطوانة Tyana ، دباسة Thebasa ، ملقوبية Malocopia هـرقلة Heraclia ، لاذقيـة Laodicea ، قيصرية قبـادوقيـة Caesarea Mazaca of Cappadocia انطاكية بسيدية Antioch of Pisidia قطية Cotiaeum ، انقرة Angora افسوس Ephesus ابيدوس Abydos ، نقمودية Nicomedia وذلك الى جانب بعض المدن الأخرى

وقد كانت **قيصرية ذات أهمية خاصة** اذ تتحكم فى الطريق السهل الوحيد الذاهب من كيليكيا الى هليس الأوسط وأنقرة من ناحية وهليس الأعلى من ناحية أخرى ، وأخـيرا الطريق المتجه من مرعش عبر طوروس الداخلية ، ومنها كانت بداية الطريق الخارج من الأبواب الكيليكية والذى سلكته غالبا الحمـلات العربية . واشتهرت فى حمـلات القرن التـاسع الميلادى **مقلوبية ومرج الأسقف** ، وهناك رأى أن مرج الأسقف تحريف من ملجوب (مقلوبية) وبخاصة أن ملحمة « ديجنيس اكريتاس » تجعل فى ملقوبية معركة واقعة مرج الأسقف ٨٣٣ م حسب الرواية العربية . ومرج الأسقف عند المخرج الشمالى لدرب طرسوس (١٠٥) .

ويذكر ياقوت أن **قلمية** كورة واسعة برأسها من بلاد الروم قرب طرسوس ، قال أبو زيد : اذا جزت أولاس من بلاد الثغر الشامى دخلت

---

(١٠٥) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ــ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٦٦ : ٨ ، ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٠ : ٤ ، ١١٠ ، ١١٣ ،
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 276, 284-5,
فازيليف : العرب والروم ــ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٣٤ ــ ٥ هامش .

جبالا تنتهي الى بحر الروم وولاية يقال لها قلمية ، وبعض أبواب طرسوس يسمى باب قلمية منسوب اليها ، وهي ليست على البحر (١٠٦) ٠

وبرغوث بلد بالروم قريب من عمورية (١٠٧) ٠

والرقيم اوافسوس : موضع أصحاب الكهف بين عمورية ونيقية وبينه وبين طرسوس عشرة أيام ٠ وكان الواثق قد وجه محمد بن موسى المنجم الى بلاد الروم ـ قال : فاذا هي جبل صغير قدر أسفله أقل من ألف ذراع وله سرب من وجه الأرض ، فتدخل السرب فتمر في خسف من الأرض مقداره ٣٠٠ خطوة فيخرجك الى رواق في الجبل على أساطين منقورة وفيه أبيات (١٠٨) ٠ **ومرج الشحم** قرب عمورية (١٠٩) ٠

وهرقلة مدينة بلاد الروم افتتحها الرشيد عنوة ورمي بالنار والنفط حتى غلب أهلها (١١٠) ٠

وتوقات بلدة في أرض الروم بين قونية وسيواس ذات قلعة حصينة وأبنية متينة وبينها وبين سيواس يومان (١١١) ٠

وقيسارية مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم هي كرسي ملك بني سلجوق (١١٢) ٠

وقد وصف الجغرافيون العرب بشيء من التفصيل مدينة **القسطنطينية** فيقول ابن رستة مثلا : ولقسطنطينية قناة ماء يدخل اليها من بلد يقال له بلغر ، يجري اليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوما ، فينقسم اذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث : فثلث يذهب الى دار الملك ، وثلث يذهب الى حبوس المسلمين ، والثلث الثالث يذهب الى حمامات البطارقة وسائر أهل المدينة فانهم يشربون الماء الذي بين العذب والمالح ٠ وأهل بلغر يحاربون الروم والروم تحاربهم ٠ وحوالي قسطنطينية ديرات الرهبان وعلى باب قسطنطينية دير ساطرا ٠ ويقول الاصطخري عن خليج القسطنطينية « **وعليه سلسلة ممتدة لا تعبر فيه سفن البحر الا باذن مثل الماصر** ،

---

(١٠٦) ياقوت : معجم البلدان حـ ٧ ص ١٥٢ ٠

(١٠٧) ياقوت : معجم البلدان حـ ٢ ص ١٢٩ ٠

(١٠٨) ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٧٥

(١٠٩) ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٤١

(١١٠) ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ٤٥٣ ـ ٤

(١١١) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٣٠

(١١٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ١٩٥

ويقع فى بحر الروم من البحر المحيط من وراء الروم (١١٣) » • ويروى ياقوت : « ولهـا خليج من البحر يطيف بهـا من وجهين ممـا يلى الشرق والشمال ، وجانبها الغربى والجنوبى فى البر ، وسمك سورها الكبير ٢١ ذراعا ، وسمك الفصيل ممـا يلى البحر خمسة ، بينها وبين البحر فرجة نحو خمسين ذراعا ، وذكر ان لهـا أبوابا كثيرة نحو مائة باب منهـا بابه الذهب وهـو حديد مموه بالذهب • قال الهروى : ومن المنـاير العجيبة **منارة القسطنطينية** موثقة بالرصـاص والحديد والبصرم اذا هبت عليهـا الرياح أمالتها شرقا وغربا وجنوبا وشمالا من أصل كرسيها وتظهر على مسيرة بعض يوم للراكب فى البحر (١١٤) • غير أن ياقوت يشـير أحيانا الى مواضع من بلاد الروم اشارات غير ذات غناء ، ومن ذلك اشاراته الى برجمه(١١٥) وخنجره(١١٦) ودرولية(١١٧) وصاغرة(١١٨) وهكذا • وهو يعتمد أحيـانا على الشعر العربى الذى سـجل ملاحم الصراع بين المسلمين والبيزنطيين ، فيذكر المواضع التى تنـاولها الشعراء اشـادة بالمعارك • وينبغى أن يلاحظ فى هذا الصدد أن بعض ما ذكره المتنبى من مواقع سيف الدولة باعتبـاره واقعـا بأرض الروم كان داخلا فى نطاق الدولة الاسلامية فى عصور قوتها ويعتبر من ثغورها •

أما طرابيزون Trebizond أو اطرابزندة : فيذكر ابن حوقل انها أجل ميناء كانت تجلب اليه السلع من القسطنطينية فى صدر الدولة العباسية وتحمل الى بلاد الاسلام ، فكان التجـار العرب ينقلون السلع منها عبر الجبال الى ملطية وغيرها من مدن الفرات الأعلى ، وكانت هذه التجارة بيد الارمن ، على أن تجارا مسلمين كثـيرين أقاموا فى اطرابزندة • ومن أهم السلع التى تعامل فيها التجار هناك المنسوجات ، وقد خلعت المدينة اسمها على البحر الاسود ، وان كان يسمى أحيانا بحر بنطس Pontos • وذكر ياقوت ان المدينة منتهى جبل القبق ثم يقطعه البحر ، وماء البـحر يحيط بها كالخنـدق عليه قنطرة اذا دهمهم أمر قطعوها ولهـا رسـتاق واسع ويقابلها مدينة كرسنده • وذكر ياقوت عن البـحر انه يعرف « ببحر بنطس عند اليونانيين ، ويعرف عندنا ببحر طرابزندة لانها فرضة عليه »

---

(١١٣) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ١٢٦ ــ ٧ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٥٠

(١١٤) ياقوت : معجم البلدان ح ٧ ص ٨٦ : ٨ ــ

(١١٥) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦١٢

(١١٦) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٤٦٩

(١١٧) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٥٧

(١١٨) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٣٢

يخرج منه خليج يمر ببسور القسطنطينية ، ولا يزال مضايقا حتى يقع في بحر الشـــام الذي في ساحله الجنــوبي بلاد الشام ومصر والاسكندرية وافريقية(١١٩) » ٠

ومع ان مادونه مصنفو العرب عن طبوغرافية مدن آســيا الصغرى قبل الفتح السلجوقي ـ أي في النصف الاخـير من القرن ٥هـ (١١م) ـ قليل غاية القلة ، فان المسلمين كثيرا ما سلكوا هذه البـلاد أيام الامويين وصدر أيام العباسيين في شواتيهم وصوائفهم محاربين الروم ٠ وقد ضرب المسلمون الحصار ثلاث مرات على القسطنطينية أيام بني أمية ، ولا عجب أن تصمد المدينة أمام حصارهم : فالبسفور يبعد عن طرسوس قاعدة الهجوم العربي نيفا واربعمائة وخمسين ميــلا في خط مستقيم يقطع هضبة آسيا الصغرى الجبلية ، ولكن لم يحل ذلك دون مضي المسلمين في غزواتهم سنة بعد أخرى ٠ وأشهرها غزوة المعتصم العباسي سنة ٢٢٣هـ (٨٣٨م) ضد عمورية « أمنع وأحصن بلاد الروم ، وهي عين النصرانية» ٠ وقد عني ابن خرداذبة بوصف بنود آسيا الصغرى أيام ملوك الروم ٠ وكان لوصفه قيمة في تحديد التفاصيل التي دونها قسطنطين بورفيرو جينيتس ـ وقد تقدمت الاشارة الى ذلك ٠ ويصعب تعيين بعض مواضع الحملات الاسلامية التي أشار اليها المصنفون العرب وراء الحــدود لغموض الاشـارات أو التباس الاسماء ٠ ونحن نرى ياقوت يستدرك على ما أورده من مادة جغرافية عن بلاد الروم وبنودها ملقيا مسئوليتها على أحمــد بن محمد الهمداني الذى نقل عنه فيقول « قلت أنا : وهذا فيما أحسب رسوم وأسماء كانت قديما ولا أظنها باقية الآن ، وقد تغيرت أسماء البلاد وأســماء تلك القواعد ٠٠ وانما ذكرت كما ذكر والله أعلم (١٢٠) » ويقول لي سترينج : « ان **مرج الاسقف** جاء عنه في أحد مســالك ابن خرداذبة انه على شيء يســير غرب البذندون (بدندوس) ، **والمطمورة او المطامير** تردد ذكرها وعلينا أن نبحث عنها بجـــوار ملقوبية ، **وذو الكلاع او ذو القلاع** قال البلاذري ان تفسير اسمها عند الروم(الحصن الذى مع الكواكب)ويبدو انها تطابقSideropolis في كبادوكيا ٠٠ وفي جنوب البذندون **حصن الصقالبة** وفيه عسكر ـ على ماذكر البلاذري ـ قوم من الصــقالبة كانوا فروا من البيزنطيين فجعلهم مروان الثاني هناك لحراسة الدرب ٠٠ ولم تثبت الحدود على حال واحدة،

---

(١١٩) لي سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٦٨ ـ ٩ ، ابن عبد الحق : المراصد : ج ١ (اطرابزنده) ص ٩١ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ (بحر بنطس) ص ٦٦ ، (القسطنطينية)

(١٢٠) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٣٠

بل كانت فى تقدم وتراجع واقبال وادبار ، وفى وسعنا القول ان المسلمين لم يحتفظوا بجزء من الارض مما وراء طوروس احتفاظا مستديما(١٢١) » .

(هـ) ـ جزر بحر الروم :

ذكر ابن خرداذبة من جزر بحر الروم قبرس واقريطش وجزيرة الذهب وجزيرة الفضة وجزيرة سقلية ، وذكر قدامة «وفى بحر الروم مائة واثنتان وسبعون جزيرة كان جميعها عامرا فأخرب المسلمون أكثرها بالمغازى اليها ، منها خمس عظام : وهى جزيرة قبرس وجزيرة اقريطش وجزيرة سقلية وجزيرة سرتانية وجزيرة يابس حيال الاندلس» . أما ابن رستة فيكتفى بمائة واثنتين وستين جزيرة عامرة «منها خمس جزائر عظام: أصغرها قورنس يحيط بها مائتا ميل ، وسردانية يحيط بها ثلاثمائة ميل، وسقلية يحيط بها خمسمائة ميل ، واقريطية يحيط بها ثلاثمائة ميل ، وقوابرس يحيط بها ثلاثمائة ميل ».وأبرز الاصطخرى فى حديثه عن جزر بحر الروم بصفة خاصة جزر صقلية واقريطش وقبرس . وقد أفاض المسعودى شيئا ما فى وصف جزيرة صقلية وبراكينها ويشير الاصطخرى الى الدور التجارى والحربى لبحر الروم وأهميته فيقول «وليس فى البحار أحسن حاشية من هذا البحر ، فان العمارات فى الجانبين ممتدة غير منقطعة وسائر البحار يعرض فى شطوطها المفاوز والمقاطع »، وتتردد فيه سفن المسلمين والروم يعبر كل فريق الى جانب الآخر فيغنمون ، وربما اجتمع فيه الجيوش من المسلمين والروم فى السفن فيجتمع لكل فريق مائة سفينة حربية واكثر من ذلك فيكون حربهم فى الماء » (١٢٢) .

قد كان لجزر البحر المتوسط أهميتها بالنسبة لاقليم الثغور والعواصم على الحدود الاسلامية البيزنطية اذ تعتبر الجزائر القريبة من الساحل قواعد بحرية للاسطول العربى ، تظاهر الهجوم البرى . ويقول قدامه « والغزاة اذا عزموا عليها كوتب أصحاب مصر والشام فى العمل على ذلك والتأهب له بتجمع بجزيرة قبرص . والمدبر لجميع أمور المراكب

---

(١٢١) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٦٩ : ١٧٢.

(١٢٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١١٢ ، قدامة (ملحق بابن خرداذبة) : ص ٢٣١
ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٨٥ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٥١
المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٥٢ ، ٥٣ .

الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية » ٠ (١٢٣) وقد جعلت فى هذه الجزر حاميات اسلامية ٠ وكانت العمليات الحربية فى الجزر البعيدة عن الشام مثل صقلية تؤثر على قوة البيزنطيين الرئيسية فى مقر دارهم وقاعدة دولتهم وتعطى لحملات الثغور الاسلامية فرصة سانحة لمهاجمة بلاد الروم

ارواد :

ذكر ياقوت أن هذه الجزيرة قرب القسطنطينية وقد فتحها المسلمون سنة ٥٤ هـ (١٢٤) ، والجزيرة التى يعنيها ياقوت جزيرة Cyzicus قرب القسطنطينية ولكن هناك أرواد قرب ساحل الشام بين مدينة جبلة وطرابلس ، وكانت تتمتع بشهرة قديمة رغم ضآلة شأنها عند بدء ظهور المسلمين ٠ فقد لاحظ سترابون ان أهل أرواد يحترفون القرصنة وهكذا استغلوا مركزهم الجغرافى الممتاز ، وقد هاجمها معاوية سنة ٣٨هـ بعد عودته من جزيرة قبرص ، مقدرا أهمية الجزيرة الاستراتيجية التى ظهرت فى مختلف عهود التاريخ (١٢٥) ٠ ويذكر الدكتور حتى ان بعض المدن مثل Aradus أرواد وصيدا وصور كانت تتمتع بخط دفاع مزدوج اذ كان أهلوها يحتلون موقعين : أحدهمـــا على البر حيث يتاجرون ويزرعون ، والآخر فى جزر صغيرة مجاورة يلجئون اليها اذا ما هددهم الفـــاتحون واخترقوا الممرات الجبلية ٠ فالارواديون الذين كانت تســـمى مدينتهم على الساحل أرواد الخلفية Antaradus فى العصر الهلنستى كانوا يتجمعـــون فى جزيرتهم الصخرية وقد ظهرت براعتهم فى ضمان حاجتهم من المياه لأجل جزيرتهم فخزنوا مياه المطر فى صهاريج علاوة على استفادتهم من ميـــاه نبع عذب تحت البحر (١٢٦) ٠ على أن الدكتور شعيرة يرى ان ماذكر من الهجوم على رودس سنة ٥٣هـ وأرواد سنة ٥٤هـ واحتلال كل منهما ٧ سنوات واشتراك الفقيه مجاهد فى كلتا الحملتين يدعو الى القـــول بان ارواد ليست سوى تسمية أخرى لرودس وأن أخبار الفتح الاسلامى لا تتناول ســـوى جزيرة واحدة بعينها وهى رودس التى جرى فتحها سنة ٥٤هـ (١٢٧) ٠

---

(١٢٣) قدامة : نبذ من كتاب الخراج ملحق بالمسالك لابن خرداذبة ص ٢٥٥ ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ٤٤٨ وأيضا ص ٢٥ : ٣١ (بحر الشام) ٠

(١٢٤) ياقوت : معجم البلدان حـ ١ ص ٢٠٧ ٠

(١٢٥) دكتور العدوى . الأمويون والبيزنطيون ص ٨٧ ـ ٨

Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, pp. 121-2.

(١٢٦) دكتور فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ترجمة دكتور حداد ورافق ٠ حـ ١ ص ٩٠ ـ ٩١ ٠

(١٢٧) Cheira : La lutte entre les Arabes et Byzantines, pp. 101, 136.

قبرص :

جزيرة في بحر الروم ، ويذكر ياقوت أن القبرس كلمة رومية معناها النحاس الجيد(١٢٨) • ومنذ بزغت الحضارات فى حوض البحر المتوسط الشرقي والصراع مستمر على سيادة جزيرة قبرص منذ أيام تحتمس الثالث ، اذ ان موقعها الجغرافى يجعلها سهما مصوبا الى اقليم الشام ، وهى بمركزها فى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر المتوسط تتحكم فى مياه تلك المنطقة، ويمكن رؤيتها بالعين المجردة من آسيا الصغرى والشام ، ويقترب طرفها الشرقي من خليج الاسكندرونة الذى يقع خلفه الممر الجبلى الهام الممتد من ساحل البحر المتوسط الى شمال العراق ، وكان هذا الطريق من أهم المسالك التجارية للتجارة الشرقية صوب أسواق البحر المتوسط(١٢٩) •

رودس :

« جزيرة مقابل الاسكندرية على ليلة منها فى البحر » كما يذكر ياقوت ، ويقول المسعودى أن الجزيرة فى وقته كانت دار صناعة الروم ومراكبهم تقارب الاسكندرية وغيرها ومنها يشن الروم حملاتهم وغازاتهم (١٣٠) • وهذه الجزيرة أول حلقة فى سلسلة ارخبيل بحرايجة من ناحية الشرق ، وتمتد من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى على بعد ١٢ ميلا تقريبا من ساحل آسيا الصغرى • وقد هيأها هذا الموقع لأن تكون خطرا جاثما على اقليم العواصم والثغور فى أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى • فلما فتحها المسلمون أسسوا فيها رباطا لخهم يدافعون منه عن الشام (١٣١) •

اقريطش :

جزيرة فى بحر المغرب يقابلها من بر افريقية لوبيا • وهى جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى • قال ياقوت : وكانت من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم الى ان أناح عليها نقفور فوقاس الدمستق فى

---

(١٢٨) ياقوت :معجم البلدان حـ ٧ ص ٢٦

(١٢٩) دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٨١

(١٣٠) ياقوت : معجم البلدان حـ ٦ ص ٣٠٠

(١٣١) دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٩٠ ـ ١

خلافة المطيع (١٣٢) • وفي تقويم البلدان ان بين رودس وذنب أقريطش مجرى واحد • ونقل القلقشندى انهـــا جزيرة عامرة كثيرة الخصب وبها معدن ذهب وفي مراعيها المعز(١٣٣) • وتســيطر هذه الجزيرة على بحر ايجة • وتقسم الجزيرة بامتدادها البالغ ١٦٠ ميلا البحر الى مدخلين تتحكم فيهما(١٣٤) •

صقلية :

من جزائر بحر المغـرب وهو في مواجهـــة افريقية ، على شـــكل مثلث بين كل زاوية والاخرى مسيرة سبعة أيام • فالزاوية الاولى شمالية وهناك المجاز الضيق الى الارض الكبيرة (أى الارض الاوربية وراء الاندلس) وهو نحو ٦ أميال ، والزاوية الثانية جنوبية ـ وهي تقابل بر طرابلس من افريقية ، والزاوية الثالثة غربية • وتقع في شرقى الاندلس في لج البحر، وغربيها في البحر جزيرتا قورشقة وسردانية • وفي جنوبي صقلية جزيرة قوصرة ، وفي شـمالها بلاد قلفرية • وقد ارتبطت صقلية بحـكم موقعها الجغرافي بافريقية ، وافريقية منهـا في الجنـــوب الغربي (بين المغرب والقبلة) ، وبينها وبين مدينة ريو على ساحل البحر من البر الأعظم الذى عليه قسطنطينية مجاز يسمى القار وفي أطول جهة منها يبلغ اتساع المجاز ميلين عرضا ـ وعليها من جهتها مدينة تسمى المسينى • وبين الجزيرة وبر افريقية ١٤٠ ميلا الى أقرب مواضع افريقية • ونقـل ياقوت ان لصقلية ٢٣ مدينة ـ وقيل ١٨ ، ١٣ قلعة ـ وقيل أكثر من ٣٢٠ • وفي وسطها جبل يسمى **قصر يانة** من عجائب الدهر • وهي شاهقة في الهواء والانهار تتفجر من أعلاها وحولها ، وكثيرة المواشي ، وفيها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وجميع الفواكه • وكانت قليلة العمـارة خاملة قبل الاسلام ، فلما فتح المسلمون بلاد افريقية هرب أهلها اليها فعمروها ولم تزل على قربها من بلاد الاسلام حتى فتحت في أيام بني الاغلب • والغالب على صقلية الجبال والحصون ، وأكثر أرضها مزروعة ، ومدينتها المشهورة برم وهي قصبة صقلية على نحر البحر • وقد أشار ياقوت الى جبل النار في صقلية ويقارن الاصـطخرى بين جزر البحر المتوسط مبرزا أهميـة صقلية فيقول « وبصقلية من الخصب والسعة والزروع والمواشي والرقيق

---

(١٣٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣١١

(١٣٣) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ١٩٤ ـ ٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٧١

(١٣٤) دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٩١

ـ أكثر ما يقع فيها ـ ما يفضل على سائر ممالك الاسلام المتاخمة للبحر ، واقريطش دونها فى العرصة وفى العمارة ، وسكانها جميعا مسلمون أهل غزو وبين أظهرهم نبذ من النصارى كما يكون ببلدان المسلمين ، وأما قبرس فان أهلها نصارى كلهم ليس فيهم من المسلمين أحد وهى تقارب فى الكبر والعمارة اقريطش ، خصبة جدا ، افتتحها معاوية صلحا فهادية أهلها فهى فى هدنة المسلمين وهم نصارى من الروم ٠ ويقع بقبرس الميعة التى تحمل الى بلدان الاسلام من بلد الروم والمصطكى تكون بقبرس ٠ وأما جبل القلال فانه كان جبلا فيه مياه خرارة فوقع اليه قوم من المسلمين فعمروه وصاروا فى وجوه الافرنجة لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم » (١٣٥) ٠ وقال المسعودى : جزيرة صقلية وما يليها من جبل البركان ، ومنه تخرج عين النار التى تعرف بأطمة صقلية يستضىء بضوء نارها السفر على أكثر من مائة فرسخ برا وبحرا فى الليل ، وتنعكس الى البحر وتطفو فوق الماء ـ فهو الحجر الابيض الخفيف الذى يحك به الكتابة من الدفاتر والرقوق(١٣٦) ٠

وكانت صقلية بموقعها الجغرافى تتحكم فى المداخل الرئيسية الكبرى للبحر المتوسط وتقسمه الى قسمين رئيسيين تشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق مسنا ، ومضيق صقلية الذى يفصلها عن افريقية ٠ وقد لقيت صقلية بفضل موقعها معاونة الولايات البيزنطية الأخرى البعيدة عن متناول المسلمين فى بداية فتوحاتهم ، وغدت قاعدة لهجوم القوات البيزنطية على مصر ومحاولة تمزيق التعاون البحرى بينها وبين الشام ٠ ومن هنا تنبه المسلمون الى وجوب محاولة فتحها ، حتى تهيأ ذلك للأغالبة(١٣٧) ٠

قوصرة Cossira

اسم يونانى ومعناه السلة أو الزنبيل ، فى منتصف الطريق بين صقلية وافريقية ، وجملة مساحتها ٨٥ ميلا مربعا وسكانها لا يتجاوزون عشرة آلاف نسمة ٠ ويذكر الادريسى انها « توازى حصن اقليبية من أرض افريقية ، وتوازى بين مدينة الشاقة (Sciacca) ومازره (Mazzara)

---

(١٣٥) ياقوت ٠ معجم البلدان ج ٥ ص ٣٧٣ : ٦ أبو الفدا : تقويم البلدان ص ١٩٣ ١٩٣ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣٧ الاصطخرى : المسالك والممالك ص٥١

(١٣٦) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٥٢ ـ ٣ ٠

(١٣٧) دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٨٩ ٠

من صقلية ـ وبينهما مجرى • وهى جزيرة خصيبة فيها آبار وسواحل وأشجار زيتون ، وفيها معز كثير برية متوحشة ، ولها من جهة الجنوب مرسى مأمون من الرياح » • ويقول ياقوت « بين المهدية وصقلية فتحها المسلمون أيام معاوية وبقيت بأيديهم ثم خرجت» • ويذكر ابن سعيد الغرناطى ان المسلمين فتحوا صقلية من قوصرة ، وهو يشير الى شهرتها بشجر المصطكى كما يشير لذلك أيضا أبو الفداء • وقد كان استيلاء العرب على افريقية سببا فى توجيه أنظارهم لغزو الجزائر المتوسطة فى البحر بين العدوتين الافريقية والاوربية ، وكان ذلك لغايتين : دفاعية ضد هجمات الروم البيزنطيين ، وهجومية لمحاولة مد سلطان الاسلام على المراكز التى تفصلهم عن البر الكبير وتسمى اليوم Pantellaria (١٣٨) •

مالطة :

غزاها الأسطول الاغلبى سنة ٢٥٥ هـ واستولى عليها وألحقها بشمال افريقية ، ولم يذكر ياقوت فى شأنها بيانا شافيا • وهى من صغار الجزر التى رسخت قدم العربية وتغلغلت الروح الشرقية فيها • وتتمتع بموقع استراتيجى عظيم فى الحوض الاوسط للبحر المتوسط ، وقد ساعد الأغالبة على فتحها قرب قواعدهم البحرية منها لا سيما بعد فتح جزيرة صقلية • وقد عمدوا الى نقل سكان من تونس الى جزيرتى قوصرة ومالطة(١٣٩) •

سردانية :

« جزيرة فى بحر المغرب كبيرة • ليس هناك بعد الاندلس وصقلية واقريطش أكبر منها » ، وقد غزاها المسلمون وملكوها سنة

(١٣٨) حسن حسنى عبدالوهاب : قصة جزيرة قوصرة العربية ـ المجلة التاريخية المصرية م٢ ع٢ ـ أكتوبر ١٩٤٩ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ١٨٣ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ١٨٨

(١٣٩) حسن حسنى عبدالوهاب : المرجع السابق ، شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٨٥ ، دكتور العدوى • الأساطيل العربية فى البحر المتوسط ص ٨٣ •

٩٢ هـ في عسكر موسى بن نصير ، ثم آلت الى الافرنج(١٤٠) . ذكر ان يقربها مغاص مرجان وبها معدن فضة .

قورسقة : مقابل جنوة وبينها وبين سردانية مجاز نحو عشرة أميال وامتدادها من الشمال الى الجنوب مجرى ونصف ووسطها متسع وراسها من جهة جنوة ضيق(١٤١) .

هذا وقد هاجمت الاساطيل المغربية الاسلامية **جزر البليار** منذ وقت مبكر .

---

(١٤٠) ياقوت : المعجم ج ٥ ص ٦٦

(١٤١) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ١٨٩ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٧٤ ــ ٥

ثانيا ــ حلب والثغور والعواصم

« جبهة الحدود الاسلامية البيزنطية »

كتب ابن خرداذبة حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى يحدد معالم الطريق من الرقة الى الثغور الجزرية ، فذكر هذه **الثغور** : وهى سلغوس وكيسوم وشمشاط وملطية وزبطرة والحدث ومرعش وكمخ وحصن منصور وقورس ودلوك ورعبان ٠ ثم ذكر ان عوادل الثغور الشامية : عين زربة والهارونية وكنيسة السوداء وتل جبير من طرسوس على ثمانية أميال(١٤٢) وذكر ابن الفقيه حوالى سنة ٢٩٠ هـ ان العواصم تشمل القرى حول انطاكية وهى قورس والجومة ومنبج وتوزين وبالس ورضافة هشام ٠ وذكر ابن رستة فى نفس الوقت تقريبا « ومن كور الجزيرة مما يسمى الثغور : ومن الشام كور تسمى الثغور الشامية وهى اذنة والمصيصة وطرسوس شمشاط وملطية وزبطرة ومرعش والحدث وسميساط وحصن منصور٠٠ وعين زربة والهارونية والكنيسة السوداء ، والعواصم وانطاكية وتيزين وقورس ومنبج ودلوك ورعبان(١٤٣) » ٠ غير ان قدامة بن جعفر الذى كتب حوالى سنة ٢٦٦ هـ هو الذى كان أكثر تحديدا فى تقسيم الثغور وفى التفرقة بينها وبين العواصم فهو يقول فى كلامه عن الثغور المقابلة لبلاد الروم « ان هذه الثغور منها : برية تلقاها بلاد العدو وتقابله من جهة البر، ومنها بحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر ، ومنها ما يجتمع فيه الامران وتقع المغازى من أهله فى البر والبحر ٠ والثغور البحرية على الاطلاق سواحل الشام ومصر كلها ٠ والمجتمع فيه الامران غزو البر والبحر : الثغور المعروفة بالشامية ، فلنبدأ بذكرها : وهى طرسوس وأذنة

---

(١٤٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٧ ، ١٠٠

(١٤٣) ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص ١٠٦ ــ ٧

والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس ..
وعواصم هذه الثغور وما وراءها الينا من بلدان الاسلام ، **وانما سمى كل واحد منها عاصما لانه يعصم الثغر ويمده فى أوقات النفير** ، ثم ينفر اليه من أهل انطاكية والجومة والقورس . ثم يلى هذه الثغور عن يمينها وجهة الشمال منها الثغور المعروفة **بالجزرية** : وأول ما يحاد الثغور الشمية منها مرعش ، ويليه ثغر الحدث ، وكان يلى هذا زبطرة فخربت أيام المعتصم ـ وكان له عند النهوض الى بلاد العدو حتى فتح عمورية الحديث المشهور ، فلما انتهى الى موضع زبطرة بنى مكانها وبالقرب منهاحصونها لتقوممقامه وهى الحصن المعروف بطبارجى والحصن المعروف بالحسينية والحصن المعروف ببنى المومن والحصن المعروف بابن رحوان . ثم يلى هذه الحصون ثغر كيسوم ، ثم ثغر حصن منصور ، ثم ثغر ملطية وهو الخارج فى بلد العدو من جميع هذه الحصون . **وكل واحد بينه وبين بلد العدو درب وعقبة ، وثغر ملطية مع بلد العدو فى بقعة وأرض واحدة** . وكان يواجه هذه الثغور ويقابلها من بلد الروم خرشنة وعمل الخالدية ..
وعواصم هذه الثغور دلوك ورعبان ومنبج . ويلى هذه الثغور عن يمينها أيضا وفى جهة الشمال الثغور المسماة **بالبكرية** وهى : سميساط وحانى وملكين وحصون منها جمح وحوران والكلس وغيرها . ثم ثغر قاليقلا فى جهة الشمال ـ عن هذه الثغور زيادة الا انه كالمنفرد لما بينه وبينها من المسافة البعيدة . والذى يقابل هذه الثغور من أعمال الروم عمل الارمنياق وبعض عمل الخالدية ويقرب منها عمل افلاغونية المتصل ببلاد بحر الخزر .. وأما **الثغور البحرية** وهى. سواحل جند حمص: انطرطوس وبلنياس واللاذقية وجبلة والهرياذة . وسواحل جند دمشق : عرقة وطرابلس ودبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدنون . وسواحل جند الاردن صور وعكا . وسواحل جند فلسطين : قيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان وغزة . وسواحل مصر : رفح والفرما والعريش(١٤٤) .

ويجعل الاصطخرى وابن حوقل الثغور حد الشام مما يلى الروم «وهى ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وأذنة وطرسوس .. » ويلاحظ انهما قد جمعا بين الثغور الشامية والجزرية ، وهما يعززان وجهة نظرهما بهذا التدليل « قد جمعت الثغور الى الشام ، وبعض الثغور تعرف بثغور الشام وبعضها تعرف بثغور الجزيرة ، **وكلاهما من الشام ، وذلك أن كل ما وراء الفرات من الشام . وانما سمى**

---

(١٤٤) قدامة : نبذ من كتاب الخراج (ملحق بابن خرداذبة) ص ٢٥٣ : ٥

من ملطية الى مرعش ثغـور الجزيرة لان أهل الجزيرة بهـا يرابطون وبها يغزون – لا لانها من الجزيرة • وكور الشام انما هي جند فلسطين وجند الاردن وجند حمص وجند دمشق وجند قنسرين والعواصم والثغور ، وبين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل اللكام – وهو الفـاصل بين الثغرين • وجبل اللكام هو جبل داخـل فى بلد الروم ، ويقـال انه ينتهى فى بلد الروم الى نحو من مائتى فرسخ ويظهر فى بلد الاسلام بين مرعش والهارونية وعين زربة ويسمى اللكام ، الى أن يجاوز اللاذقية ثم يسمى جبل بهراء ، وينوخ الى حمص ثم يسـمى جبل لبنان ، ثم يمتد على الشام حتى ينتهى الى بحر القلزم » • ويذكر الاصطخرى فى موضع آخر « وشمشاط هى ثغر الجزيرة لانها فى غربى دجلة وشرقى الفرات ، **وأما ملطية وما ذكرناه من ثغور الشام فانما نسبناها الى الجزيرة لان أهلها يرابطون لها لقربها منهم** والا فثغر الجزيرة على الحقيقة شمشاط » • وهو يذكر أيضا ان الثغور لا قصبة لها «وكل مدينة قائمة بنفسها» ، على أن المقدسى لا يسلم بأن كل ما وراء الفرات يعتبر من أرض الشام فهو يقول : « وأهل العراق يسمون كل ما كان وراء الفرات شاما ، ولهذا أرسل محمد بن الحسن القول فى دواوينه : وليس وراء الفرات من الشام غير كورة قنسرين حسب والباقى بادية العرب والشام من ورائها ، وانما أراد محمد التقريب والمتعارف بين الناس(١٤٥) » •

ويعرض ياقوت للثغور الشامية والجزرية وللعواصم ، ويثير مسألة علاقة حلب بها ، فيقول : « الثغر : كل موضع قريب من أرض العدو – كأنه مأخوذ من الثغرة وهى الفرجة فى الحائط وهو فى مواضع كثيرة : منها **ثغر الشام** يشمل بلادا كثيرة وهى البلاد المعروفة اليوم ببلاد ابن لاون (ملك أرمينية) • **ولا قصبة لها ، لان أكثر بلادها متساوية** • وكل بلد منها كان أهله يرون انه أحق باسم القصبة • فمن مدنها : بياس ومنها الى الاسكندرية مرحلة ، ومن بياس الى المصيصة مرحلتـان ومن المصيصة الى عين زربة مرحلة ، ومن المصيصة الى اذنة مرحلة ، ومن اذنة الى طرسوس يوم ، ومن طرسوس الى الجوزات يومان ، ومن طرسوس الى اولاس على بحر الروم يومان ، ومن بياس الى الكنيسة السوداء أقل من يوم ، ومن بياس الى الهارونية مثله ، ومن الهـارونية الى مرعش – وهى **من ثغور الجزيرة** أقل من يوم ، ومن مشهور مدن هذا الثغر انطاكية وبغراس وغير ذلك ••

(١٤٥) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ابن حوقل ، المقدسى : أحسن التقاسيم : ص ١٥٢

والعواصم جمع عاصم وهو المانع ، والعواصم حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وانطاكية ، **وقصبتها انطاكية** ـ كان قد بناها قوم واعتصموا بها من الاعداء وأكثرها فى الجبال فسميت بذلك · وربما دخل فى هذا ثغور المصيصة وطرسوس وتلك النواحى · **وزعم بعضهم ان حلب ليست منها ، وبعضهم يزعم انها منها** ، ودليل من قال انهـا ليست منها : انهم اتفقوا على انها من أعمال قنسرين ، وهم يقولون (قنسرين والعواصم) ـ والشىء لا يعطف على نفسه ، وهو دليل حسن· وقال أحمد بن محمد جابر: لم تزل قنسرين وكـورها مضـمومة الى حمص ، حتى كان زمان يزيد بن معاوية : فجعل قنسرين وانطاكية ومنبج وذواتها جندا ، فلما استخلف الرشيد أفرد قنسرين بكورها فصيرها جندا وافرد منبـج ودلوك ورعبان وقورس وانطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون فسماها العواصم ـ لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو اذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثـغر ، **وجعل مدينة العواصم منبج** وأسـكنها عبد الملك بن صالح العباسى سنة ١٧٣هـ(١٤٦) » ·

ومن هذا يتبين مدى التداخل الذى حدث فى بيانات الجغرافيين العرب بين الثغور والعواصم من جهة ، وبين الثغور الجزرية وأعمـال الجزيرة من جهة أخرى ، وبين الثغور وحلب من جهة ثالثة ، وفيما اذا كانت عاصمة العواصم أنطاكية أو منبج « قال ابن حوقل : العواصم اسم للناحية وليست موضعا قصبتها انطاكية ، وعد ابن خرداذبة العواصم فكثرها وجعل منها كورة منبج وكورة تيزين وبالس ورصافة هشـام وكورة جومة وكذا شيزر وأفامية واقليم معرة النعمان واقليم صوران واقليم تل باشر وكفر طاب واقليم سلمية واقليم جوسية واقليم لبنـان الى أن بلغ اقليم قسطل بين حمص ودمشق · قلت : وأول من سماها بذلك الرشيد حين بنى طرسوس سنة ١٧٠ ، **والذى يظهر انها سميت بذلك لعصمتها مادونها من بلاد الاسلام من العدو اذ كانت متاخمة لبلاد الكفر واقعة فى نحر العدو وعساكر المسلمين حافظة لهـا · والثغر اسم لكل موضع يكون فى وجه العدو** .. وذكر عماد الدين صاحب حماه فى تاريخه : ان الرشيد سنة ١٧٠ عزل الثغور كلها من الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسماها العواصم . قلت : **ومقتضى ذلك ان تكون الثغور والعواصـم اسما على مسـمى واحد** ، وعليه ينطبق كلام المقر الشهابى بن فضل الله فى (التعريف) . وقد حدد هذه البلاد بجملتها

---

(١٤٦) ياقوت : معجم البلدان حـ ٣ ص ١٦ ، حـ ٦ ص ٢٣٧

فقال : وحدها من القبلة وانحراف للجنوب بلاد بفراس ومايليهما ، وحدها من الشرق جبال الدربندات ، وحدها من الشمال بلاد ابن قرمان، وحدها من الغرب سواحل الروم المفضية الى العلايا وانطاليا » (١٤٧) .

والواقع أن تفسير هذا التداخل فى معلومات الجغرافيين العرب ميسور اذا لاحظنا ان اقليم الثغور والعواصم لا يكون اقليما طبيعيا متميزا من الوجهة الجغرافية ، وانما هو تقسيم ادارى لاغير اقتضاه الصالح العسكرى للدولة الاسلامية . فالاقليم من الوجهة الجغرافية يتداخل فى أعالى الشام والجزيرة وأرمينية ، ثم هو من الوجهة الادارية تقسيم تأخر حدوثه نسبيا فى تاريخ الدولة الاسلامية ، والى جانب ذلك لا ينبغى اغفال ما تعرض له خط الثغور الأمامية من المد والجزر فى العهود المتتابعة تبعا لنتائج الحروب بين المسلمين والروم .

وفيما يلى عرض لأهم مدن هذا الاقليم ، بعد محاولة التخلص من تداخل المعلومات وخلطها بقدر المستطاع . وسيبدأ هذا العرض بتناول حلب ، فالثغور الجزرية ، فالشامية ، ثم العواصم .

واذا كان من الراجح — كما ذهب ياقوت — استبعاد حلب من العواصم ، الا أن لها على كل حال ارتباطا وثيقا لا ينكر بها ، وولايتها كانت تضم الثغور والعواصم قبل افرادها ، وقد كانت قاعدة ملك سيف الدولة الحمدانى الذى ارتبط تاريخه بالثغور وحروب الروم .

(أ) — حلب :

مدينة حلب :

يشير الاصطخرى وابن حوقل الى أهمية موقع حلب عاصمة اقليم قنسرين « على مدرج طريق العراق الى الثغور وسائر الشامات»(١٤٨). وهى ترتوى من نهر قويق Chalus . وتجارتها رائجة وأهلها أثرياء ، فهى « وسط سهل فسيح على ملتقى طرق تجارية مهمة فى سوريا الشمالية ، وميزتها الأصلية انها مدينة حدود ومدينة اتصال تلتقى بمنطقتها الوحدات الجغرافية الكبرى : سوريا وبلاد الرافدين والاناضول، وتجتمع فى ارجائها مجموعات عرقية هامة ، وليس تاريخها سوى تاريخ

(١٤٧) القلقشندى : صبح الاعشى حـ ٤ ص ١٣٠ — ١

(١٤٨) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٦ ، ابن حوقل :

الاتصالات التى جرت فى المنطقة . وهى من أقدم المدن ، تقول عنها الوثائق الحديثة انها كانت فى حوزة العموريين وأن الملك الحيثى مورسيل نهبها. وقد تحولت الى مركز مدنى على أثر اغارات الأمم الغازية التى سعت لضمها لأهميتها الاستراتيجية . وأنشأ السليوكيون بيروا واتسعت أيام الرومان ، واستولى عليها الفرس فأحرقوها ، فقام جستنيان يصلح ما أفسدوه ، ورمم أسوار قلعتها ومنشآتها العسكرية لسد طريق الاناضول وانطاكية عن جموع الفرس (١٤٩) » .

وكتب المقدسى : « أما حلب فبلد نفيس خفيف حصين مبنى بالحجارة ، شربهم من نهر قويق يدخل الى البلد .. » وقد خلف الطبيب النصرانى ابن بطلان وصفا لمدينة حلب فى رسالته التى كتبها الى هلال ابن الحسن بن ابراهيم الصابى سنة ٤٤٠هـ : « دخلنا من الرصافة الى حلب فى اربع مراحل ، وحلب بلد مسور بحجر أبيض وفيه ستة أبواب، وفى جانب السور قلعة ، فى أعلاها مسجد وكنيستان ، وفى احداهما كان المذبح الذى قرب عليه ابراهيم عليه السلام ، وفى أسفل القلعة مغارة كان يخبىء بها غنمه ، وكان اذا حلبها أضاف الناس بلبنها . فكانوا يقولون : حلب أم لا ؟ ويسأل بعضهم بعضا فسميت لذلك حلب. وفى البلد جامع وينابيع وبيمارستان صغير، وشرب أهل البلد من صهاريج فيه مملوءة بماء المطر وعلى بابه نهر يعرف بقويق يمد فى الشتاء وينضب فى الصيف . وهو بلد قليل الفواكه والبقول والنبيذ الامايأتيه من بلاد الروم . ومن عجائب حلب ان فى قيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره ٢٠ الف دينار مستمر ذلك منذ ٢٠ سنة ، والى الآن ومافى حلب موضع خراب أصلا . وبين حلب وانطاكية يوم وليلة » . وقد نقل ياقوت هذا الوصف وعلق على تسمية حلب بقوله فى شأن رواية حلب ابراهيم عليه السلام « وهذا فيه نظر ، لأن ابراهيم وأهل الشام فى أيامه لم يكونوا عربا ، فان كان لهذه اللفظة أصل فى العبرانية أو السريانية لجاز ذلك ، لأن كثيرا من كلامهم يشبه كلام العرب لا يفارقه الا بعجمة يسيرة » . وتلك ملاحظة نقدية لغوية بارعة من ياقوت . وهو يذكر أن باروا اسم مدينة حلب بالسريانية — والواقع انها سميت بهذا الاسم Beroea منذ الفتح المقدونى . ويضيف ياقوت أن مؤسسها بطليموس لاجوس ، وانها تسمى أيضا البيضاء ، لبياض ترابها . ويقول ياقوت « وشاهدت من حلب وأعمالها ما استدللت

---

(١٤٩) دكتور سليمان عادل عبد الحق وعبد العزيز عثمان : نزهات أثرية فى سوريا ص٨٣:٥

به على ان الله تعالى خصها بالبركة وفضلها على جميع البلاد » . وذلك لأن حاصلاتها من القطن والحبوب والفواكه تجود مع أنها لا تسقى الا بماء المطر . وكان الجند فى ابتداء الاسلام ينزلون قنسرين – وهى المدينة التى تنسب الكورة اليها – ولم يكن لحلب معها ذكر ، ثم ضعفت بقوة حلب عليها حتى غدت قنسرين قرية صغيرة . ومن أجل ذلك ذكر قسطنطين بورفيروجنيتيس فى كتابه المؤلف بعد عام ٩٢٩ م De Administrando Imperio في معرض حديثه عن امارات سوريا . حلب ولم يذكر قنسرين وتعاقب الجغرافيون على وصف حلب وتحصيناتها ، ذكر ذلك الاصطخرى وابن حوقل وأشارا الى أن القلعة لم تمنع استيلاء الروم على المدينة (في عهد نيقفور فوكاس) . وكتب المقدسى : « في وسط البلد قلعة حصينة » . وأشار ناصرى خسرو سنة ١٠٤٧ م الى أن أسوار حلب ترتفع الى حوالى ٢٥ ذراعا (أو ٥٠ قدما) ولها قلعة منيعة مبنية من الحجر اعتبرها الرحلة الفارسى فى ضخامة قلعة بلخ . وفيها **تحصل المكوس على التجارة** المارة بين أرض الشام وآسيا الصغرى وديار بكر ومصر والعراق . وكذلك أشار الادريسى الى أسوارها من الحجر الأبيض وموقعها على الطريق الرئيسى الى العراق وفارس وخراسان . وتكلم ابن جبير عن قلعة حلب فوصفها بأنها « شهيرة الامتناع » ، كما ذكر أنه كان فى حلب «سوران حصينان من الجانب الذى ينظر للبلد ويعترض دونها خندق لايكاد البصر يدرك مدى عمقه والماء ينبع فيه . وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة فيها العلالى المنيفة والقصاب المشرفة ».وقد رثى الرحالة الأندلسى أمجاد حلب الغابرة ومفاخر سيف الدولة . وأما ياقوت فيذكر: « وأما قلعتها فبها يضرب المثل فى الحسن والحصانة لأن مدينة حلب فى وطء من الأرض ، وفى ذلك الوطء جبل مدور صحيح التدوير ، مهندم بتراب صح به تدويره ، والقلعة مبنية فى رأسه ، ولها خندق عظيم وصل بحفره الى الماء . وفى وسط هذه القلعة مصانع تصل الى الماء المعين .. وكان الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين قد اعتنى بها بهمته العالية ».. وقد أورد لى سترينج محاولة لتحقيق اسماء الأبواب السبعة لحلب ومواضعها على النحو التالى :

١ – باب حمص الى الجنوب وقد اشار اليه Russel بباب دمشق فى خريطة كتابه Natural Hist. of Aleppo وهو الآن باب المقام (نسبة الى مقام ابراهيم) .

٢ – واذا اعتبرنا مكان الرقة من حلب فلابد أن يكون **باب الرقة**

هو باب الحديد الذى أشار اليه رسل فى الزاوية الشمالية الشرقية من السور .

٣ ـ باب قنسرين فى الطرف الجنوبى من الحائط الغربى وقد بناه سيف الدولة الحمدانى .

٤ ـ باب اليهود هو باب النصر الحالى فى وسط الحائط الشمالى حيث يقوم حى اليهود ، وقد أصلحه الملك الظاهر بن صلاح الدين وسماه باب النصر .

٥ ـ باب العراق : وكما يدل اسمه يقع غالبا فى الجنوب الشرقى ، وسماه رسل باب نيرب . وفى خرائط حلب التاريخية يسير طريق من المدينة عند الزاوية الجنوبية الشرقية الى قرية نيرب .

٦ ـ باب دار البطيخ ولعله باب الجنان عند رسل ، ويذكر ياقوت وغيره هذا الاسم وهو فى الحائط الغربى الى الشمال بقليل من باب انطاكية .

٧ ـ باب انطاكية ويسمى هكذا الآن وينفتح وسط الحائط الغربى الى الشمال من باب قنسرين وبينه وبين باب الجنان . ويشير رسل الى باب الاربعين فى الزاوية الشمالية الغربية من الربض فى شمالى حلب بعد باب النصر (١٥٠) . ويقول ابن شداد أن سور حلب كان من بناء الروم أولا ثم رممه كسرى أنوشروان بالآجر الكبار الفارسى بعد أن حاصرها وتشعثت أسوارها « وقد شاهدنا منه فى الأسوار التى فيما بين باب الجنان وباب انطاكية وفى أسوارها **أبرجة عديدة جددها ملوك الاسلام بعد الفتوح مثل بنى امية وبنى صالح** لما كانوا ولاة عليها من قبل بنى العباس ، وعلى الخصوص صالح بن على وعبد الملك ولده . ولما خربت بمحاصرة نقفور أواخر سنة ٣٥١ هـ جدد سيف الدولة أسوارها حين عودته سنة ٣٥٣ هـ كما جدد فيها ولده سعد الدولة سنة ٣٦٧ هـ ».

وكانت الملوك تبتنى قصورا فى حلب : منها قصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة انشأه سنة ٩٠ هـ ، وقصر سليمان ابن عبد الملك بالحاضر ، وقصر عمر بن عبد العزيز بخناصرة ، وقصر صالح بن على العباسى بقرية

---

(١٥٠) Le Strange : Palestine Under the Moslem, pp. 360: 7, Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 220:4, Dussaud: Top Hist. pp. 412-3,
المقدسى :أحسن التقاسيم ص ١٥٥ ـ ٦ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٣ ص ٣١٣ : ٥ ، ابن عبد الحق : المراصد جـ ١ ص ١٥١ ، ٢٤٢ ، رحلة ابن جبير : ص ٢٣٨:٢٤١ ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ٦٧ : ٧١ ، ١١٧ ، ١٢٤

يطياس فى ظاهر حلب • وقصر أولاد صالح ويعرف بالدارين خارج باب انطاكية فى وسطه قنطرة على نهر قويق كان عبد الملك بن صالح بناه وبنى حونه ربضا لم يتمه فأتمه سيما الطويل قائد المعتمد . وكان موضع مسجدها الأعظم بستانا للكنيسة العظمى أيام الروم وهى منسوبة الى هيلانة أم قسطنطين • ولحلب قناة تخترق شوارعها اجراها من حفرها الى الكنيسة وقيل أنها دثرت فجددها عبد الملك بن مروان (١٥١) • وقد ساق محمد بن قلاوون نهر الساجور الى حلب وكانت قد عظمت . قال فى مسالك الأبصار : وكانت حلب قد عظمت فى أيام بنى حمدان ، وجاءت الدولة الأتابكية فزادت فخارا ، حتى نزل هولاكو بحوافر خيله فهدمت أسوارها وخربت حواضرها ، وتجددت فى عهد الظاهر برقوق (١٥٢).

اهم مدن الاقليم :

ذكر المقدسى من مدن حلب : انطاكية ، بالس ، السويدية سميساط ، منبج ، بياس ، التينات ، قنسرين ، مرعش ، اسكندرونة ، لجون ، رفنية ، جوسية ، حماه ، شيزر ، وادى بطنان ، معرة النعمان ، معرة قنسرين (١٥٣) • ويذكر ابن شداد أن لها من البلاد بالس ، وقلعة نجم وتسمى جسر منبج ، وخناصرة ، ورصافة هشام ، وحيار بنى القعقاع ، وقنسرين وحاضر قنسرين ، وسرمين ، ومعرة مصرين ، والشغر وبكاس ، وحارم وشيح الحديد ، ودربساك ، واعزاز ، وكيسوم ، والراوندان ، وخروص ، وبهسنا (١٥٤) • وظاهر ان هذا التعداد تدخل فيه مدن تعد من الثغور والعواصم ، ويذكر لى سترينج أن افراد الرشيد العواصم كأقليم منفصل قد جعل جند قنسرين « قصورا على البلدان المحيطة بقنسرين وحلب مع اقليم المعرتين وسرمين (١٥٥) •

قنسرين : بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم وكانت فى العصر البيزنطى مركزا عسكريا لمقاومة بدو الشرق دعى Chaleis وهى قرب نهاية مجرى نهر قويق • وأصل تسمية قنسرين آرامى كما يرى دوسو • وحتى القرن الثامن الميلادى كانت القوافل المتجهة من حلب

---

(١٥١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٣٢ ، ٥٨ : ٦٢ ، ص ١٤٠ : ٢ ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ١١٢ ـ ١١٣

(١٥٢) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١١٦ ـ ٧ •

(١٥٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥٥ •

(١٥٤) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٥٨ ـ ٩ •

(١٥٥) Le Strange : Palestine Under the Moslems, p. 36.

سواء الى الجنوب أو الى أنطاكية تتوقف عندها • وكانت المناطق الآهلة أكثر امتدادا نحو الشرق ، بينما كانت قلعة خلكيس تحمى المدينة من غارات البـدو • ويحدد كليرمون جانو Clermont Ganneau تاريخ ٥٥٠ ـ ١ م لاعادة تشييد سور المدينة على يد جستنيان • وقد استفاد العـرب من خبرة البيزنطيين فى تنظيمهم الادارى والحـربى • ويذكر ياقوت أن البعض يدخل حلب فى العواصم ، **وكانت فى أول أمرها من جند حمص ثم صارت بعد ذلك قاعدة لجند قنسرين ثم طغت عليهـا حلب فأخذت مكانتها** • وما زالت عامرة آهلة حتى غلبت الروم على حلب منازل • وذكر أبو زيد أحمد بن سهل البلخى فى كتابه (صورة الأرض) « قنسرين مدينة تنسب الكورة اليها ، غير أن دار الامارة والأسـواق ومجامع الناس والعمارة بحلب » • وذكر ابن الطيب السرخسى أنه يقال لقنسرين هذه قنسرين الأولى ، قال ابن واضح : والثانية هى حيار بنى القعقاع • وقال السرخسى : قنسرين مدينة صغيرة ولها سور ولها قلعة وسورها متصل بسور المدينة • وذكر ابن شداد ان حاضر قنسرين يقال له حاضر طىء وله قلعة قد خربت •

حيار بنى القعقاع :

بينه وبين حلب يومان وهو صقع من برية قنسرين • وذكر ابن شداد أن بنى القعقاع هم أخوال الوليد وسليمان ابنى عبد الملك بن مروان• وتعرف بحيار بنى عيسى أيضا ، وقد صارت الآن منزلا للاعراب ، وهذه هى قنسرين الثانية (١٥٧) •

خناصرة :

بليدة من أعمال حلب تحاذى قنسرين نحو البادية ، وهى قصبة كورة الأحص • قال ابن شداد أ كانت بليدة قديمة ولها حصن بناؤه بالحجر الأسود الصلد على سيف البرية (١٥٨) •

---

(١٥٦) ياقوت : معجم البلدان حـ ٧ ص ١٦٨ ـ ٩ ، حـ ٣ ص ٢٠٠ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٦٢ : ٤ ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ١٣٤ ـ ١٤٤ ، ٢٠٣
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides pp. 218-9,
Dussaud : Top. Hist. des la Syrie, pp. 476 - 7.

(١٥٧) ابن عبد الحق : المراصد : جـ ١ ص ٤٤٠ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٦١ ـ ٨
ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ١٩٢

(١٥٨) ياقوت : معجم البلدان حـ ٣ ص ٤٦٧ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٦١ ـ
ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ١٨٥ •

سرمين :

بلدة مشهورة من أعمال حلب ، بطرف جبل السماق . قال عنها ابن شداد « كثيرة العمل واسعة الرستاق ، لها سور من الحجارة خرب ». وذكر القلقشندى نقلا عن تقويم البلدان أنها « غير مسورة وشرب أهلها من الصهاريج وهى جنوب حلب بمسيرة يوم » . **والفوعة** من أعمالها . وكذلك **تيزر** وهى قلعة حصينة (١٥٩) .

معرة مصرين :

بليدة بنواحى حلب ومن أعمالها ، بينهما نحو ٥ فراسخ . قال ابن شداد « مدينة مذكورة .. ولها سور قديم مبنى بالحجر وقد انهدم ولم يبق منه اثر وأهلها ذوو يسار » (١٦٠) .

الراونـدان :

قلعة حصينة وكورة مشجرة من نواحى حلب ، فى الغرب والشمال عنها وبينهما نحو مرحلتين وفى الشمال عن حارم ، على رأس جبل مرتفع أبيض « فى مكان لا يحكم عليه منجنيق ولا يصل اليه نيل ، ولها ربض صغير فى لحف جبلها ، وهى من أقوى القلاع وأحسن البقاع ، ويحف بالقلعة واد من جهة الشمال والغرب وهو كالخندق لها وفيه نهر جار». وقد أوردها العديم فى عداد الحصون التى لم يقع لها ذكر فى الفتوح وهى فى زمانه « معدودة من البلاد موصوفة بالحصانة مشحونة بالاجناد » .

وتل هران حصن قريب ما الراوندان . —

تل باشر :

قلعة حصينة وكورة واسعة شمالى حلب بينهمـــــا يومان ، قرب

---

(١٥٩) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٧٥ ، ابن عبدالحق : المراصد ج ٣ ص ١٠٤٧ ، ج ١ ص ٢٨٥ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٦٤ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٤ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢٦ ، ابن العديم : بغية الطلب — مخطوط ص ٢٠٥

(١٦٠) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٩٥ — ٦ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب : ص ١٦٤ — ٥ ، ابن العديم : بغية الطلب — مخطوط ص ١٩٩ .

(١٦١) ابن عبد الحق : المراصد ج ٢ ص ٥٩٨ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٦ — ٧ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١١ — ٢ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٦٩، ابن العديم : بغية الطلب — مخطوط ص ٣٦٩

عينتاب وشربها من الساجور ، ويليها تل خالد وقد أوردها ابن العديم بين الحصون المستحدثة بعد الفتح القائمة فى أيامه . وهذه المنطقة سهلة الاتصال بالجزيرة : (حران، الرها، سروج) عن طريق معابر الفرات (١٦٢)

الباب وبزاعة :

فى شمالى شرقى حلب ، والباب أكثر عمارة وكان فيها مغاور تعصم أهلها من العدو ، وبزاعة ذات حصن مانع له خندق ، وقد استولى عليه الروم حتى استنقذه عماد الدين زنكى سنة ٥٣٣ هـ . وكانت الباب فى صدر الاسلام كالربض لبزاعة . ويعرف الباب بباب بزاعة : بليدة من طرف وادى بطنان من أعمال حلب ، بينها وبين منبج نحو ميلين ، وبينها وبين حلب ١٠ أميال . وبزاعة فى **وادى بطنان** أيضا بين منبج وحلب . وبين كل واحدة منهما مرحلة . وبطنان واد بين منبج حلب فيه أنهر جارية وقرى متصلة وتعتمد الزراعة فيه على السيل وهى تجود فيه ، والقصبة بزاعة . وهناك بطنان حبيب وبطنان بنى وبرين « موضعان منه بينهما ورحة للماشى » (١٦٣) .

عـزاز :

بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب بينهما يوم . وكان يسميها البيزنطيون Azazion ، وتقع فى الجنوب الشرقى من جبل برصايا وفى الشمال الغربى من حلب . وهى فى وسط اقليم خصب آهل بالمدن والسكان ، ويرويها أحد روافد نهر قويق . ولها قلعة هدمها زلزال فى القرن الرابع الهجرى . وقد كانت هناك مجموعة من المواقع الى الشرق من نهر عفرين ، فى حوض نهر قويق ، هيأ لها موقعها بين حلب والحدود أن تلعب دورا هاما فى القرن العاشر الميلادى . **ودابق** : من أعمالها ، بينها وبين حلب أربعة فراسخ عندها مرج معشب نزه كان ينزله بنو مروان اذا غزوا الصائفة الى سهل مصيصة وبها قبر سليمان

---

(١٦٢) ابن عبد الحق : المراصد ج ٨ ص ٢٦٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢٧، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٣٢ ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٦٩ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٣٦٧
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, p. 233.

(١٦٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٩ ، ١٦٢ ، ابن عبد الحق : المراصد ج ١ ص ٢٠٤، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٦ ـ ٧ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢٨ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٧٢ : ٥ ، ابن العديم ، بغية الطلب ـ مخطوط ص ٣١١

ابن عبد الملك • **والأعماق** كورة قرب دابق ويقال لهـا العمق بين حلب وانطاكية (١٦٤) •

البـارة :

بليدة وكورة ما نواحي حلب وفيها حصن وتسمى زاوية البارة ويرى فان برخم Van Brechem أن التاريخ الوسيط لهذه القلعة يرجع وجودها قبل الحروب الصليبية ، ومن هنا يحتمل دوسو نسبتها الى العصر البيزنطى (١٦٥) •

كفر طـاب :

بلدة بين المعرة ومدينة حلب فى برية معطشة ، وهى على الطريق بين المعرة وشيزر • ويذكر دوسو أن تسمية كفر طاب تدل على أصلها الآرامى السابق على الاسلام ، وترجع أهميتها الى موقعها على الطريق المتجه من حلب والمتفرع عندها الى افامية أو شيزر فضلا عن قربهـا من أفامية على الطريق من الأخيرة الى معرة النعمان • وكانت أنطاكية واللاذقية من ناحية وافامية من ناحية أخرى يستخدمان شاطىء العاصى فى المواصلات عن طريق السيطرة على برزويه من جانب ومنطقة كفر طاب من جانب آخر • ويعدها ابن العديم بين الحصون المستحدثة بعد الفتح والقائمة فى أيامه (١٦٦) •

الجبـول :

شرقى حلب على مرحلة كبيرة منها ، قرب الفرات ، فيها ينصب نهر الذهب فينفصـل عنه الملح الذى تتزود منه الشـام وبعض الجزيرة (١٦٧) •

---

(١٦٤) ابن عبدالحق : المراصد حـ ٢ ص ٩٣٧ ، ياقوت : المعجم حـ ٤ ص ٣ ، ابن‌عبدالحق: المراصد جـ ١ ص ٩٦ ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٣٠٩ ،
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 224-5

(١٦٥) ابن عبدالحق : المراصد حـ ١ ص ١٥٢ ،
Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, p. 181.

(١٦٦) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٦٤ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٢ ـ ٣ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٢٥ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٠٦
Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, pp. 179-180, 187.

(١٦٧) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٥٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٢٦

(ب) العواصم :

تذكر قصبة العواصم عند الجغرافيين العرب على أنها تارة منبج وتارة انطاكية كما تقدم ، ولعل ذلك راجع الى أن **من العواصم مايقترب ويتاخم الثغور الجزرية ، ومنها ما يحيط بانطاكية ويتاخم الثغور الشامية .**

منبج :

Hierapolis . أكبر العواصم تطرفا نحو الشرق وقد وصفها عبد الملك بن صالح للرشيد حين زارها فقال : طيبة الهواء ، قليلة الأدواء، قال الرشيد : كيف ليلها ؟ قال : سحر كله ، قال : صدقت انها لطيبة ، قال : بل طابت بأمير المؤمنين ، واين يذهب بها عن الطيب وهي برة حمراء وسنبلة صفراء ، وشجرة خضراء ، في فيافي منبج ، بين قيصوم وشيح. وكان لمنبج أهميتها فقد لعبت دورا تجاريا ودينيا هاما في العهد الهيلينستي والروماني ، ولم تفقد مكانتها في العصور الوسطى بحكم موقعها كنقطة اتصال بين الثغور الجزرية والشامية ، ومجاورتها للفرات وحلب . وذكر بعضهم أن أول من بناها كسرى لما غلب على الشام . ولما افرد الرشيد العواصم جعل مدينتها منبج وأسكنها عبد الملك بن صالح العباسي كما يروى البلاذري ، وضم اليها اقليما يمتد من حدود جند حلب الى الساجور والفرات . ولم تقتصر مهمتها على حماية مواقع الحدود بل اضطلعت أيضا بمراقبة صحراء الشام في الجنوب حتى منطقة بالس. وأعطى مرور الفرات بالقرب من منبج الفرصة لظهور **جسر منبج.** ومنبج مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة في فضاء من الارض عليها سور مبني بالحجارة محكم ، بينها وبين الفرات ٣ فراسخ كما أنها قريبة من الساجور وبينها وبين حلب ١٠ فراسخ ، وشربهم من قنى تسيح على وجه الأرض ، وفي دورهم آبار كثيرة . وقال ابن حوقل : انها قريبة الى الثغر منها الى الفرات مرحلة خفيفة والى قورس مرحلتان والى ملطية أربعة أيام (١٦٨) .

---

(١٦٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٢٨ ـ ٩ ، الاصطخري : المسالك والممالك ص ٤٦ ، ٤٩ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ١٦٩ ـ ١٧٠ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٧٦٠ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٧٠ ـ ١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢٧ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٢٦ : ٩ ،
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 233-4, Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, pp. 474-5.

جسر منبج : كان على الفرات فوق الرقة ثلاث مدن تحسب من أعمال الشام في الغالب لوقوعها في يمين الفرات أى في جانبه الغربي وان عدها أكثر المؤلفين من أعمــال الجزيرة ، وهذه المدن هي : جسر منبج وبالس وسميساط . وجسر منبج أو جسر سنجة على الفرات ومنه يصعد طريق يغرب الى منبج . وتعبر القوافل الفرات على جسر منبج من الشام الى حران وبالاتجاه جنوبا يمكن الوصول الى قلعة جعبر أو قلعة دوسر وبين الجسر والمدينة أربع فراسخ ، واتخذ الجسر فى خلافة عثمان لتسير عليه الجيوش فى حملات الصوائف وقيل بل كان له رسم قديم. وعند الجسر قلعة حصينة تحتهـــا ربض عامر وهى مطلة على الفرات ، عرفت بقلعة نجم فيما بعد ، وقد عمرها نجم غلام حبى الصفوانى بعد سنة ٣٠٠ هـ تقريبا . ولما امر ابن جبير بقلعة النجم وهو آت من حران سنة ٥٨٠ هـ قال : « حولها ديار بادية وفيها سويقة » . وقال أبو الفداء ان الجسر بعد بناء القلعة « صار يعرف بقلعة نجم وهو من بناء السلطان نور الدين زنكى ، وكانت مسلحة تشدد النكير على ما فى يد الصليبيين من مدن ، ملكها بنو حمدان وتعاقبت عليها الولاة حتى خربتها التتر . وقد وصفها القاضى الفاضل : نجم فى سحاب ، وعقاب فى عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة (١٦٩) » .

فايا : بين منبج وحلب ، وهى من أعمال منبج فى جهة قبلتها قرب وادى بطنان ولها قرى عامرة فيها بساتين ومياه جارية (١٧٠) .

بقعاء العيس : من كور منبج ــ وهى من بداية على الفرات الى نهر الساجور ، **وبقعاء ربيعة** من كور منبج أيضا وهى من نهر الساجور الى أن يتصل بأعمال حلب (١٧١) .

بالس : فى غربى الرقة عند حد أرض صفين حيث يتجه الفرات شرقا بعد جريانه الى الجنوب ، وهى Barbalissus عند الرومان ، وكانت فرضة عظيمة لأهل الشام على الفرات ، ومن ثم كانت مركزا لكثير

---

(١٦٩) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ــ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٣٩ ، الاصطخرى المسلك والممالك ص ٤٦ ، ٥٤ ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ١٥١ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٣٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣٧ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٢٩ ــ ٣٠ ، رحلة ابن جبير ص ٢٣٦ ،
Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, p. 451.

(١٧٠) ياقوت : معجم البلدان : ج ٦ ص ٣٣٦

(١٧١) ابن عبدالحق : المراصد : حـ ١ ص ٢١٢

من طرق القوافل. قال عنها الاصطخرى : «هى **أول مدن الشام من العراق،** والطريق اليها عامر ، وهى **فرضة الفرات لأهل الشام** » ووصفها ابن حوقل بأن عليها سورا ازليا ولها بساتين فيما بينها وبين الفرات» . وقال عنها المقدسى فى المائة الرابعة هـ انها مازالت عامرة على ان ياقوت ذكر فى المائة السابعة هـ أن الفرات «لم يزل يشرق عنها قليلا قليلا حتى صارت بينهما فى أيامنا أربعة أميال » . وذكر ياقوت نقلا عن البلاذرى أن مسلمة بن عبد الملك حين توجه غازيا الروم من الثغور الجزرية أتاه أهل بالس وقاصرين - وهى تذكر الى جانبها منذ أيام الفتح الاسلامى - وعابدين وصفين ، وهذه قرى منسوبة اليها ، فسألوه جميعا أن يحفر لهم نهرا من الفرات يسقى أرضهم على أن يجعلوا له الثلث من غلاتها بعد عشر السلطان الذى كان يأخذه . فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة ووفوا له بالشرط ، ورم سور المدينة أحكمه ، فلما مات مسلمة صارت بالس وقراها لورثته . وفى عهد العباسيين أقطعها السفاح محمد بن سليمان بن على العباسى ، فلما مات أقطعها الرشيد ابنه المأمون فصارت لولده من بعده . وذكر ابن شداد أن بالس مدينة قديمة على شاطىء الفرات تحمل منها التجارات التى ترد من مصر وسائر أرض الشام فى السفن الى بغداد .

وروى ابن العديم أنها « كانت فى أول الاسلام عامرة جدا ، وهى أول مدن جند قنسرين ، وكان بها سور من بناء الروم ، وكانت تفضل على قنسرين فى العمارة ، وخرج منها جماعة من العلماء والرؤساء . وفى زماننا خرب سورها ولم يبق فيها من العلماء واحد ولا الرؤساء » (١٧٢).

انطاكية : يذكر الاصطخرى وابن حوقل ان انطاكية قصبة اقليم العواصم ، وهى أنزه مدينة فى الشام بعد دمشق وكان لها أسوار حجرية حولها كما تكتنف تلك الاسوار الجبل المطل عليها Siphius . وانتقل اليها بعد فتحها قوم من أهل حمص وبعلبك مرابطة ، منهم مسلم ابن عبد الله جد عبد الله بن حبيب بن النعمان بن مسلم الانطاكى ، وقد قتل مسلم على باب من أبوابها فعرف باسمه - كما يروى البلاذرى وأقطع الوليد بن عبد الملك جند انطاكية أرض سلوقية عند الساحل ،

---

(١٧٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٦ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٥٩ ، لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية - ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٣٩ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥٥ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٨ - ٩ ، ابن العديم : بغية الطلب : - مخطوط ص ١٨٨

وصير اليهم الفلثر بدينار ومدى قمح فغمروها وجرى ذلك لهم ، وبنى حصن سلوقية ، والفلثر مقــدار من الأرض كالفدان والجريب • كذلك تذكر روايات البلاذرى أن الطريق بين انطاكية والمصيصة كان «مسبعة يعترض للناس فيها الأسد ، فلما كان الوليد بن عبد الملك شكى ذلك اليه فوجه أربعة آلاف جاموس وجاموسة فنفع الله بها » ، كما بعث يزيد ابن عبد الملك بالجاموس الى انطاكية أيضا • وقد حدث تناقص فى ثروتها قبل أن يستولى عليها الروم سنة ٣٥٩ هـ ـ (٩٧٠ م) ، وهذا تاريخ يخالف ما أعطاه جبون : وهو سنة ٩٦٤ م (٣٥٣ هـ) • ويذكر ياقوت أن انطاكية « لم تزل قصبة العواصم بين الثغور الشــامية » مع أنه ذكر فى موضع آخر أن منبج مدينة العواصم • وذكر كذلك أن « بين انطاكية والبحر نحو فرسخين ، ولها مرسى فى بليد يقال له **السويدية** ترسو فيه مراكب الافرنج ، يرفعون منه أمتعتهم على الدواب الى أنطـاكية • وكان الرشيد العباسى قد دخل انطاكية فاستطابها جدا فعزم على المقام بهـــا فقال له شيخ من أهلها : ليست هذه من بلدانك يا أمير المؤمنين • قال: وكيف ؟ قال : لأن الطيب الفاخر يتغير فيها حتى لا ينتفع به ، والسلاح يصدأ ولو كان من قلعى الهند ، فصدقه فى ذلك فتركها •• ثم لم تزل بعد ذلك انطاكية فى ايدى المسلمين وثغرا من ثغورهم الى أن ملكها الروم سنة ٣٥٣هـ بعد أن ملكوا الثغور : المصيصة وطرسوس وأذنه ، واستمرت فى أيديهم الى أن استنقذها منهم سليمان بن فتلمش السلجوقى ســـنة ٤٧٧هـ» • والسويدية هى Soudin عند مصب نهر العاصى ، وقدحلت أيام الصليبيين محل ميناء انطاكية السابق سلوقية Selucie ذى الموقع المنيع على تلال الشاطىء الايمن للنهر • ويفيض المسعودى فى وصف كنائس النصارى وأعيادهم بانطاكية « ذلك أن مدينة انطاكية بها كرسى البطرك المعظم عندها فى ديانتها ، وان النصرانية تسمى انطاكية مدينة الله ويسمونها أيضا مدينة الملك وأم المدن ـ لأن بدء ظهور النصرانية كان فيها » • وهو يشير الى كنيسة القسيان ، وكنيسة بولس المعروفة بدير البراغيث عند باب الفارس ، وكنيسة أشمونيت خارج السور من انطاكية ، وكنيسة مريم وهى « مدورة وبنيانها من احدى عجائب العالم فى التشييد والرفعة ، وكان الوليد بن عبد الملك اقتلع من هذه الكنيســة عمدا عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق » • كما أشار المسـعودى الى هيكل الديماس العظيم البنيان الذى قيل انه من بنـــاء الفرس حين ملكت انطاكية (فى عهد سابور سنة ٢٦٠ م) وانه كان بيت نارلها «كان بانطاكية من أرض الشام على جبل بها داخل المدينة والسور محيط بها ، وقد جعل المسلمون فى موضعه مرقيا ـ ليندرهم من قد رتب فيـه

من الرجال بالروم اذا وردوا البر والبحر » . وقد استمر رخاء انطاكية في العهود المختلفة ، وغدت أكبر مركز للمسيحية في سوريا ، وكانت هدفا للصراع بين البيزنطيين والفرس أولا وبين البيزنطيين والعرب بعد ذلك . ويبدو ان انطاكية **احتفظت في العهد الاسلامي بمكانتها كمركز ديني ، فضلا عن أهميتها العسكرية كقاعدة هامة في الطرف الغربي لخط العواصم ، الا أنها لم تعد تلعب دورها التجاري الهائل القديم** ـ كما يلاحظ كنار . ووصف الطبيب النصراني العربي ابن بطلان انطاكية باسهاب في رسالته الى هلال بن المحسن الصابي سنة نيف وأربعين وأربعمائة وكانت قد صارت الى أيدي الروم فقال « وخرجنا من حلب طالبين انطاكية وبينهما يوم وليلة ، فوجدنا المسافة التي بين حلب وانطاكية عامرة لا خراب فيها أصلا ، ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون ، قراها متصلة ورياضها مزهرة ومياهها متفجرة ، يقطعها المسافر في بال رخي وأمن وسكون . وانطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل ، ولسوره ثلاثمائة وستون برجا يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس ينفذون من القسطنطينية من حضرة الملك يضمنون حراسة البلد سنة ويستبدل بهم في السنة الثانية . وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ـ والسور يصعد مع الجبل الى قلتين فتتم دائرة . وفي رأس الجبل داخل السور قاعة تبين لبعدها من البلد صغيرة، وهذا الجبل يستتر عنها الشمس فلا تطلع عليها الا في الساعة الثانية . كانت دار قسيان الملك الذي أحيا ولده بطرس » ويرجع لي سترينج والسور المحيط بها دون الجبل ٥ أبواب ، وفي وسطها بيعة القسيان . أن هذه الكنيسة هي التي بناها جستنيان تذكارا لبطرس وبولس ، غير انه لا توجد اشارة في الانجيل عن أحياء بطرس لابن الملك في انطاكية . ويفيض ابن بطلان في وصف الكنيسة وآثار أحد الزلازل عليها « وكانت حالها اعجوبة » . ثم يذكر أن في ظاهر البلد نهر المقلوب (الارنط) « يأخذ من الجنوب الى الشمال .... وعليه رحى وهو يسقي البساتين والأراضي » . وقد قيل ان المدينة المذكورة في الآية « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ... » يقصد بها انطاكية (١٧٣) .

---

(١٧٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٧٤ ـ ٥ ، ١٧٤ ـ ٥ ، الاصطخري : المسالك والممالك ص ٤٦ ، المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٣٥١ ـ ٢ ، ٣٧٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٥٣ ٣ : ٨ ، ابو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٥٦ ـ ٧ . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢٨ ـ ٩ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ١٦١ : ٧ .
Le Strange : Palestine Under the Moslems. pp. 367: 77, Canard: Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 214-5, 227-8., Dussaud, Top Hist. de la Syrie, pp. 425: 8, 430-1.

حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه انطاكية « يحرمها العدو وتكون حرما لمن فيها » كما يقول ياقوت وقد كانت حارم بحكم موقعها على أكمة تشرف على السهل وتحمى من ناحية أخرى مدخل جبل الأعلى الشمالى فضلا عن وقوعها على مسيرة يومين من حلب ومسيرة يوم من انطاكية ، وكانت نقطة استراتيجية هامة استفاد منها البيزنطيون عندما استولوا على انطاكية . وفى زمن ابن شداد غدت حارم فرضة لاقليم متسع يستوعب كل السهل فى شرقى بحيرة انطاكية . وهو يقول: كانت قبل الفتح صغيرة ودامت على ذلك فى صدر الاسلام الى أن ملكت الروم انطاكية سنة ٣٥٨ هـ فبنوها حصنا لتحمى مواشيهم من غارات العرب ، بينها وبين انطاكية مرحلة وربضها بلد صغير . (١٧٤)

العمق : ومنه أكثر ميرة انطاكية ، وقد يدخل وادى عفرين فى اقليم العمق أحيانا وقد ينقل الى اقليم الجومة أحيانا أخرى . ويذكر ابو الفدا أن نهر عفرين يأتى من بلاد الروم ويجرى عن طريق الراوندان فى اقليم الجومة ثم يمر فى اقليم العمق ، ولا يوجد حد مميز بين الاقليمين (١٧٥) .

برج الرصاص : قلعة لها رساتيق من أعمال حلب قرب انطاكية ، وهى بيزنطية الأصل . واياها عنى أبو فراس بقوله :

فأوقع فى جلباط بالروم وقعة بها العمق واللكام والبرج فاخر

وقد عدها ابن العديم من الحصون المستحدثة بعد الفتح القائمة فى أيامه (١٧٦) .

البرزمان : قلعة من العواصم من نواحى حلب (١٧٧) .

بغراس : فى لحف جبل اللكام وهى Pagris القديمة وقد كانت فى العصور الوسطى على طرف الطريق المؤدى الى مضيق بيلان . بينها

---

(١٧٤) ياقوت معجم البلدان حـ ٣ ص ١٩٩ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٦٥ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٨ ـ ٩ القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٢٤
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, p. 217

(١٧٥) ياقوت : معجم البلدان حـ ٦ ص ٢٢٤ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٤٩ ـ ٥٠
Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, p. 223.

(١٧٦) ياقوت : معجم البلدان حـ ٢ ص ١١١ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٣٧٠
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, p. 231.

(١٧٧) ياقوت : معجم البلدان حـ ٢ ص ١٢٣ ،

وبين انطاكية ٤ فراسخ ، على يمين القـــاصد الى انطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرسوس • وكانت أرض بغراس لمســـلمة بن عبد الملك ،ووقفها على سبيل البر • قال البحترى :

سيوف لها في كل دار غدا ردى وخيل لهــا في كل دار غدا نهب
علت فوق بغراس فضافت بما حنت صدور رجال حين ضاق بها درب

وذكر في تقويم البلدان انها ذات أعين وبساتين ، كما ذكر أن بينها وبين كل من انطاكية واسكندرونة ١٢ ميلا ، وبينها بين حارم في شرقيها نحو مرحلتين • وقد أقامت فيها زبيدة زوج الرشيد دارا للضيافة •وعند بغراس **عقبة** « عند الطريق المســـتدقة التي تشرف على الوادي » حيث سقط محمل امرأة في حملة لمسلمة بن عبد الملك على عمورية « فأمر مسلمة أن تمشي سائر النساء ، فمشين ــ فسميت تلك العقبة عقبة النســـاء . وقد كان المعتصـم بنى على حـد تلك الطـريق حائطا قصيرا » (١٧٨) .

دربساك : قلعة من جند قنسرين شمالى حلب على نحو ٣ أو ٤ مراحل منها ولها من شرقيها مروج متسعة كثيرة العشب يمر بها النهر الاسود • وتقع على لحف جبل اللكام ، وهذا البـــلد « ليس له ذكر في الفتوح وانمــا **جدد في دولة الآرمن** لما ملكوا الثغور » ـ كما يقول ابن شداد (١٧٩) .

حصن بوقا : بوقا من قرى انطاكية ارســـل اليها الزط مـــع جواميسهم في عهد الوليد ابن عبد الملك • وقد بنى هشام بن عبد الملك حصن بوقا ، وجدد من بعده (١٨٠) .

تيزين وارتاح : تيزين أو توزين كورة وبلدة بالعواصم من أرض حلب ، وكانت تعد من أعمال قنسرين حتى فصلت العواصم فصارت

---

(١٧٨) ياقوت : معجم البلدان حـ ٢ ص ٢٤٥ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٢١ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٨ ــ ٩ ، القلقشــندى : صبح الاعشى : حـ ٤ ص ١٢٢ ــ ٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ ، ابن حوقل ص ، ابن العديم : بغية الطلب ــ مخطوط ص ٢١٣ •
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 228-9, Dussaud: Top. Hist. de la Syrie, pp. 233-4, 438.

(١٧٩) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٠ ــ ١ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٢٢ ، ابن الشحنة . الدر المنتخب ص ٢٢٢ •

(١٨٠) ياقوت : معجم البلدان حـ ٢ ص ٣٠٧ ــ ٨ : ابن الشحنة : الدر المنتخب ص٢٢٢، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ ، ابن العديم : بغية الطلب ــ مخطوط ص٢٨٠•
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, p. 229.

تيزين منها مع منبج وغيرها ، وحين خربت أضيفت القرى التابعة لها الى ارتاح ، وارتاح حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب . وقد كان دور ارتاح هاما كمركز دفاعى فى أيدى الروم ثم الصليبيين من بعد (١٨١) .

دلوك ورعبان – عينتاب : دلوك ورعبان كورتان متقاربتان ، فأما **دلوك** فهى مدينة قديمة كانت عامرة ولها قلعة حجرية عالية ، وكان لها قناة ركبت على قناطر يصعد الماء عليها الى القلعة . وقد غدت دلوك وقلعتها خرابا أيام اليعقوبى ولم تعد أن تكون قرية صغيرة يسكنها بعض المزارعين ، وغدت لها أهمية عسكرية فى الحروب البيزنطيـــة فى القرن العاشر الميلادى . ولا يعرف بالضبط اين حصن العرندس الذى يقترن بدلوك ، وربما كان هو Arbadis الذى يذكره ميشيل الســورى وهـو Garabadiso القديم الذى كان جزءا من اقليم مرعش على مسافة ١٥ ميلا رومانيا من دلوك . **ورعبان** بين حلب وسميساط قرب الفرات ، وهى **قلعة تحت** جبل خربتها الزلزلة سنة ٣٤٠ هـ فأعاد سيف الدولة عمارتها . ويعدها البلاذرى وقدامة من العواصم فى حين يعدها ابن خرداذبة من الثغور الجزرية مع دلوك . وأهمية رعبان انها على طريق دلوك الى الثغور مارا بكيسوم كما أنها على الطريق العرضى من مرعش الى سميساط فى نفس الوقت ، والى الغرب من هذه المنطقة يمر طـريق حـلب – مرعش (١٨٢) . وقد غدت دلوك قرية من مضافات **عينتاب** التى قال عنها ياقوت : « عينتاب قلعة حصينة ورستاق بين حلب وانطاكية ، وكانت تعرف بدلوك ودلوك رستاقها ، وهى الآن من أعمال حلب » . وبها قلعة حصينة منقوبة فى الصخر ويخرج نهر الساجور من ناحيتها وهى « **مرصد لما تلقى من الأمور الطارقة من بلاد الروم والأرمن** » . وقد عد ابن العديم عينتاب من الحصون المستحدثة بعـــد الفتح والقائمة أيامه . **ودير سليمان** قرب دلوك يطل على مرج العين وهو فى غاية النزاهة (١٨٣)

---

(١٨١) ياقوت : معجم البلدان حـ ١ ص ١٧٦ ، حـ ٢ ص ٤٣٠ ، ٤٤١ ، ابن الشحنة ، الدر المنتخب ص ٢٢٢ ، Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, pp. 225: 8

(١٨٢) ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ٢٦١ – ٢ ، ابن عبدالحق : المراصد حـ ٢ ص٥٣٢ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٢٤ ، ابن العديم : بغية الطلب – مخطوط ص ٣٠٥ – ٦ .
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 232-3, 278.

(١٨٣) ياقوت : معجم البلدان حـ ٦ ص ٢٥٣ ، حـ ٢ ص ١٤٧ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٨ – ٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٢١ ، ابن الشحنة ، الدر المنتخب ص ١٧٠ – ١ ، ابن العديم : بغية الطلب – مخطوط ص ٣٦٨ .

الشغر وبكاس : الشغر قلعة حصينة تقابلها بـــكاس على رأس جبلين بينهما واد كالخندق لهما ، وهما قرب انطاكية • وبـــكاس على شاطىء العاصي ولها عين تخرج من تحتها بينها وبين ثغور المصيصة • ويعبر من أحد القلعتين الى الآخر بجسر « وهما فى غاية القوة والمناعة » كما يقول ابن شداد • ويقعان جنوبى انطاكية ويرى فان برخم Van Brechem أن الشغر وبكاس لم يكونا على نهر العاصي ولكن على راقد له ، وكان يفصـــل القلعتـين جسر متحرك pont-lébis • وكان هـــذا الجسر وجبـــل كشفهان يحـــددان موضـــعا هـــاما عنـــد مفترق طريقى انطاكية ـ أفامية ، وحلب ـ اللاذقية • ويذكر ابن العديم القلعتين بين القلاع المستحدثة بعد الفتح والقائمة فى أيامه (١٨٤) •

قورس : مدينة بها آثار قديمة باقية وكانت على الدوام مركزا حربيا هاما ، واسمها القديم Cyrrhus قاعدة الاقليم المتسع المسمى Cyrrhestique الذى كان يمتد فى عهد بطليموس الى الفرات • وهى تشرف على الطريق من انطاكية الى الفرات ، والطريق المؤدى الى حلب مارا بعزار وقويق • فقورس اذن خط دفاع أمامى عن حلب وانطاكية وقد كانت المركز الرئيسى للفيلق العاشر Fretensis ، وقد كانت جزءا من جند قنسرين عند بداية الفتح العربى • وقد ذكر ياقوت أنها كانت وقد خرجت فى أيامه • و قد ورد فى أخبار الفتوح أنها كانت **المسلحة لانطاكية** يأتيها كل عام طائفة من جندها ومقاتلها • ولم تزل فى أيدى المسلمين حتى أخذها هاجوسلين الفرنجى ثم اســتردها نور الدين • وذكر البلاذرى أن سلمان بن ربيعة نزل حصنا بقورس من **العواصم** فسمى **حصن سلمان** وقيل نسب الى سلمان بن ابى الفرات بن سلمان أحد الصقالية الذين رتبهم مران بن محمد بالثغور • (١٨٥) •

برزويه : حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق يضرب بها المثل فى جميع بلاد الافرنج بالحصانة • قد عدها ابن العديم من الحصون المستحدثة بعد الفتح والقائمة فى أيامه • وتحيط بها أودية

---

(١٨٤) ياقوت : معجم البلدان حـ ٥ ص ٢٧٨ ، حـ ٢ ص ٢٥٥ ، ابو الغدا : تقويم البلدان ص ٢٦٠ ـ ١ القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٢٣ ، ابن الشحنة : الدر المنتحب ص ١٧٥ ـ ٦ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٣٧٢ ،
Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, pp. 156: 160 .

(١٨٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٦ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٧ ص ١٧١ ، حـ ٣ ص ٢٨٥ ، ابن الشحنة : الدار المنتخب ص ٢٢٥ ـ ٦ ، ابن العديم : بغية الطلب ، مخطوط ص ٣٠٧ ،
Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, pp. 470-1.
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides p. 231

من جميع جوانبها ، وعلو قلعتها ٥٧٠ ذراعا • ويذكر أبو الفدا والدمشقي أن بحيرة تفصل ما بين برزوية وأفامية • ويشتغل أهل الجهة بصيد السمك من البحيرة • ويتفق وصف برزويه مع ماذكره استرابون عن قلعة ليسياس Lysias • وقد أخلى الحمدانيون كل القلاع التى تتحكم فى طريق اللاذقية خاصة برزوية وصهيون عند هجوم الامبراطور جون زيمسكى سنة ٩٧٥ م • وقد كانت برزويه بيد الأفرنج حتى فتحها صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ (١٨٦) •

بيت لاها : حصن عال بين انطاكية وحلب على جبل ليلون كان فيه ديدبان ينظر فى أول النهار انطاكية فى آخره الى حلب (١٨٧) •

الجرجومة : مدينة يقال لأهلها **الجراجمة** ، كانت على جبل اللكام بالثغر الشامى عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقة قرب انطاكية • وقد صالح المسلمون الجراجمة عند الفتح على أن يكونوا اعوانا لهم ومسالح فى جبل اللكام والا يؤخذوا بالجزية وان ينفلوا أسلاب من يقتلونه من أعداء المسلمين اذ حضروا معهم حربا ، ودخل من كان معهم فى مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط من أهل القرى ومن معهم فى هذا الصلح فسموا**الروادیف** • وكان الجراجمة يستيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى (١٨٨) •

دانا : قرية قرب حلب بالعواصم فى لحف جبل لنان ، قديمة ، وفى طرفها دكة عظيمة سعتها سعة ميدان منحوتة فى طرف الجبل على تربيع مستقيم وتسطيح مستو وسطه قبة فيها قبر مجهول (١٨٩) •

دركوش : حصن قرب انطاكية على نهر العاصى غربى حلب على نحو ٣ مراحل منها يجود بها العنب وتستعمل السواقى فى الرى لعمق الماء • وقلعتها استعصت على هولاكو (١٩٠) •

سلوكية : ذكر فى الفتوح أن الوليد بن عبد الملك أقطع أرضها

---

(١٨٦) ياقوت : معجم البلدان حـ ٢ ص ١٢٦ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٣٧٣ •
Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, pp. 152-3.

(١٨٧) ياقوت : معجم البلدان حـ ٢ ص ٣٢٣ •

(١٨٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٦ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٣ ص ٨٠ ـ ١ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٨١

(١٨٩) ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ٢٧

(١٩٠) ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ٥٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ١٢١
Dussaud : Top. Hist. de la Syrie, p. 163.

جند انطاكيـــة فعمروهـــــا وجرى ذلك لهـــم · ويضيف ياقوت « ولعل السيوف السلوقية والكلاب السلوقية منسوبة اليها (١٩١) ».

شقيف دبين : قلعة صغيرة قرب انطاكية ، **ودبين** ضيعة كالربض لهـــا (١٩٢) ·

عم (ينى شهر) : قرية محصنة ذات عيون جارية وأشجار ، بين حلب وانطاكية فى الشمال الشرقى من حارم ، وقد ورد ذكرها فى الحروب البيزنطية فى نهاية القرن العاشر الميلادى . وقال ياقوت أن كل من بها نصارى · ويصاد فيها السمك ويدور عليهـا رحى ، وكانت تسمى قديما Imma · وقد عانت من الصراع بين الصليبيين والمسلمين · وقد كانت هذه القرية المتواضعة تحرس المنفذ السهل المباشر من العمق الى داخل الشام ، وتتحكم فى الوقت نفسه فى الطريق الآتية من الشمال والمتجهة الى انطاكية عن طريق جسر الحـديد ، ومن هنا كانت أهميتها الاستراتيجية (١٩٤) ·

القيبار : حصن بين انطاكية والثغور له ذكر ومنعة (١٩٤) .

موزار : حصن ببلاد الروم ، استجد عمارته هشام بن عبد الملك حين عرض الروم لبعوثه فى درب اللكام عند العقبة البيضــاء فعمره مسلحة للمسلمين ورتب فيه ٤٠ رجلا وجماعة من الجراجمة وقد سماه البلاذرى (**موره**) · وبنى هشام كذلك حصن **يوقا** ، كما أقام ببغراس حصنا ومسلحة (١٩٥) ·

هاب : قلعة عظيمة من العواصم (١٩٦) .

حجر شغلان : حصن فى جبـل اللكام قرب انطاكية مشرف على بحيرة يغرا شمالى حلب على نحو ٣ مراحل منها . قال فى مســالك

---

(١٩١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٥ ، ياقوت معجم البلدان حـ ٥ ص ١١٥ ·

(١٩٢) ياقوت : معجم البلدان حـ ٥ ص ٢٨٤ ·

(١٩٣) ياقوت : معجم البلدان حـ ٦ ص ٢٢٤ ـ ٥

Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, p. 217

(١٩٤) ياقوت : معجم البلدان حـ ٧ ص ١٥٢ ·

(١٩٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ ، ياقوت : المعجم حـ ٨ ص ١٩٢ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٨٠ .

(١٩٦) ياقوت : معجم البلدان حـ ٨ ص ٤٣٨ ·

الأبصار : بالقرب من بغراس في جهة الشمال على مسافة قريبة جدا (١٩٧) .

وهناك اشارات عند ياقوت الى بعض المواضع قرب انطاكية ، يجمل فيها المؤلف ... فيقول مثلا عن **جلباط** : ناحية بجبل اللكام بين انطاكية ومرعش كانت بها وقعة سيف الدولة بالروم (١٩٨) . والمؤلف قد يعتمد هنا كعادته على ما يرد من المواضع في قصائد الشعراء . كذلك ترد أسماء قرى قليلة الاهمية من أعمال انطاكية والعواصم ، مثل : الحرملية ونيرامان وتل قباسين وما الى ذلك (١٩٩) .

(ب) ـ الثغور الجزرية :

كان **اقليم الجزيرة** في شمالي ما بين النهرين يعتبر شاملا بوجه عام للمدن والكور التي تحف بضفاف الفرات الاعلى الشرقي والغربي ـ اذ أن لنهر الفرات منبعين . والفرات هو أقصى الاثنين جنوبا ، ويرى بعض البلدانيين انه منبع الفرات الاصلي ، وقد ذكره بليني وتاكيتوس Pliny Tacitus, باسم Arsanius Flumen وسماه ابن سرابيون في المائة الرابعة (هـ) بنهر ارسناس ، وذكره ياقوت أيضا بهذا الاسم في المائة السابعه (هـ) وقال انه يوصف ببرودة مائة ، وهو يعرف عند الترك اليوم باسم (مرادصو) . ومخرج النهر من **بلاد طرون** (Daron عند الارمن ، Taronites عند الروم) وفيها الجبال التي الى شمال بحيرة وان . ومن المواضع الهامة عليه **ملاذ كرد** وصفها المقدسي بأنها حصينة ، وكانت مدينة موش في السهل غربي بحيرة وان وتحسب غالبا من أرمينية . ويصب في يمين نهر ارسناس رافدان ينحدران من الشمال من بلاد قاليقلا وهما الآن جنك صو Gunek — Su ، برى شاي Peri — Chay . **وبلاد قاليقلا** هي منطقة الجبال بين ارسناس والفرات الغربي ، والى غربها بلاد طرون . وقد ذكر قدامة أن ثغر قاليقلا كالمنفرد لما بينه وبين سائر الثغور من المسافة البعيدة ، وقد عد ابن حوقل قاليقلا من أرمينية الخارجة ، وعدها ابن الفقيه ـ مع همذان وخوارزم ـ أكثر جهات العالم بردا ، وذكر

---

(١٩٧) ابن عبدالحق : المراصد : حـ ١ ص ٣٨٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٢٤
(١٩٨) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٤٠ .
(١٩٩) ياقوت : معجم البلدان حـ ٣ ص ٤٥٤ ، ابن عبد الحق : المراصد : حـ ٣ ص ١٣٦٧ ، حـ ١ ص ٢٧٤

ياقوت انها من نواحى أرمينية الرابعة • وذكر ابن سرابيون ان أول الفرات الغربى من جبل اقردخس شمالى **أرزن الروم أو أرض الروم** (Karin عند الارمن ، Theodosiopolis عند الروم) ـ وهى المدينة الاسلامية فى بلاد قاليقلا وأكبر مدنها • والظاهر ان اسم قاليقلا ـ الذى أكثر البلدانيون العرب القدماء من مناقشته ـ غير معروف ، الا أنهم يجمعون على انها كانت البلاد التى يخرج منها الفرات الغربى ونهر الرس Araxes وروافد ارسناس • ولم يأت البلدانيون العرب الاول بشىء عن مدينة أرزن الروم عدا قولهم انها كانت مدينة عظيمة • وعلى نحو مائتى ميل فى غربها على ضفة الفرات اليمنى ـ أى الشمالية ـ مدينة **ارزنجان** • **واونيك** قلعة عظيمة فوق قمة جبل قرب أحد منابع نهر الرس (٢٠٠) •

شمشاط : أجل مدينة على نهر أرسناس الذى سماه ابن سرابيون نهر شمشاط ، ويبدو أنها كانت على لاضفة الجنوبية أى اليسرى للنهر ، وهى Arsamosata عند الروم، ويصب عند أسفلها وأعلاها رافدا ارسناس (جونكصو) و (برىشاى)• وذكر الاصطخرى **ان شمشاط هىثغر الجزيرة على الحقبة ، اذ اعتبر ملطيه من ثغور الشام** • وذكر ياقوت انها « مدينة بالروم على شاطىء الفرات ، شرقيها بالويه وغربيها خرتبرت ـ وهى الآن محسوبة من أعمال خرتبرت •• وشمشاط الآن خراب ليس بها الا أناس قليل ، وهى غير سميساط وكلاهما على الفرات : الأولى فى طرف ارمينية والثانية من أعمال الشام » • **وخرتبرت** مدينة ارمينية تعرف اليوم باسم خربوط ، واسمها العربى عند ياقوت **حصن رياد** الذى ذكر ابن خردادبة انه على بعد غير كبير من شمشاط • وذكر البلاذرى وغيره من المصنفين الأوائل ان فى هذه المنطقة **جسر يغرا** فوق نهر لعله من روافد ارسناس ، وهو من شمشاط على نحو من ١٠ أميال • ويختلط نهر ارسناس ـ أى الفرات الشرقى ـ بالفرات الغربى على نحو مائة ميل غربى شمشاط(٢٠١)

كمخ : قلعة على الفرات الغربى على مسيرة يوم أسفل أرزنجان ، فى يسار النهر ـ أى فى ضفته الجنوبية • ذكرها البلدانيون العرب الاقدمون،

---

(٢٠٠) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٤٧ : ١٥٠ ، ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ١٩٠ ـ ١ ، ج ٧ ص ١٧ ، ج ٨ ص ١٩٥ ، قدامة: نبذ من كتاب الخراج ـ ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٤ ـ ٥
Canard: Hist. de la Dyn. des Hamdanides. pp. 244-5.

(٢٠١) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٤٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٢ وما بعدها ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٥٣ ، ياقوت معجم البلدان حـ ٥ ص ٢٩٣ ـ ٤ ، حـ ٣ ص ٢٨٥ •

وهي Kamcha عند الروم • وعلى ستين ميلا أو أكثر في غربها ينحرف الفرات جنوبا بعد أن كانت وجهته من أرزن الروم نحو الغرب ، ويصب في ضفته اليمنى نهر سماه ابن سرابيون **نهر ابريق** نسبة الى القلعة في أعاليه ، وهو نهر (جلته ايرمق) الآتي من دوريك، وكتبه المستوفي دفريكي ـ وهو عند الروم Tephrike وفي المخطوطات اليونانية Aphrike ومن هنا جاءت تسمية **ابريق** • واشتهر هذا الموضع في ختام المائة الثالثه بأنه معقل البيالقة الذين استولوا على تفريك وحصنوها ، وكانوا فرقة خارجة على المذهب الرسمي في القسطنطينية فاضطهدهم البيزنطيون فتعاونوا مع المسلمين • ويقول قدامة عن البيالقة انهم يسكنون في مواجهة الثغور الجزرية « وهم من الروم الا انهم يخالفونهم في كثير من أديانهم ، وكان هؤلاء مع من المسلمين يعينونهم في غزواتهم الى أن رحلوا دفعة واحدة عن هذا الموضع باساءة أهل الثغور معاشرتهم فتفرقوا في البلاد وسكن مكانهم هؤلاء الارمن وابتنوا الحصون المنيعة ثم صارت لهم العدة الكثيفة » ويسمي ياقوت الموضع الابروق • (٢٠٢) •

ملطية : Melitene عند الروم ، كانت في الأزمنة الحالية من أجل الثغور الاسلامية أمام الروم وقد ذكر قدامة عن ثغر ملطية « وهو الخارج في بلد العدو من جميع هذه الحصون وكل واحد بينه وبين العدو درب وعقبة وثغر ملطية مع بلد العدو في بقعة وأرض واحدة ، وكان يواجه هذه الثغور ـ الجزرية ـ ويقابلها من بلد الروم خرشنة وعمل الخالدية » • وقد كان لسهل ملطية في جنوبي المجرى الادنى لنهر قباقب أهمية خاصة **فهو يقع بين المنطقتين الشمالية والوسطى للحدود الاسلامية البيزنطية حسب تقسيم كانار • ويعتبر نقطة التقاء طرق عدة ومفتاحا لمدخل آسيا الصغرى بالنسبة لجيوش المسلمين القادمة من الشرق ، ولمدخل الجزيرة بالنسبة لجيوش البيزنطيين القادمة من الغرب ، وتمثل ملطية مركز تقاطع عدة طرق وأودية مثل وادي قباقب (تخماصو** Tokhma — Su**) الذي يسير الى سمنلوتز زامندوس ، سلطان صو قراقيس الرافد الأيمن لتخماصو الذي يشق طرقه في عمق بين الصخور جنوبي ملطية الى زبطرة ، ونهر الجرجرية الذي يصعد في اتجاه سبسطية (سيواس) ، ثم وادي الفرات ومعابرة الى هنزيط** Anzitene **والجزيرة • واقليم ملطية على** رخاء واسع لجودة ريه ، وقد أطرى ابن حوقل حقوله وبساتينه • وتقع

---

(٢٠٢) لي سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فونسيس وعواد ص ١٥١ ، قدامة : نبذ من كتاب الخراج ـ ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٤

ملطية القديمة الى الشمال قليلا من اسكى شـهر ، وقد اعتنى المنصور بشحنها وتحصينها ٠

وروى البلاذرى أنه كانت لها مسلحة تحمى الجسر الذى على ٣ أميال منها ، وهناك يقطع الطريق العام نهر القباقب قرب ملتقاه بالفرات ٠ **والقباقب** عند الروم هو Melas ومنبعه فى غربى ملطية بعيدا عنها فى الجبل الذى يخرج منه نهر جيحان ، وهو وصف الاصطخرى مدينة ملطية فى المائة الرابعة (هـ) بأنها مدينة كبيرة تحف منها الجبال ورآها من أكبر الثغور دون جبل اللكام ، وقد اعتبرها من ثغور الشام لا الجزيرة ٠ وقال ياقوت عنها : « بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام وهى للمسلمين ٠ قال خليفة ابن خياط : فى سنة ١٤٠ هـ وجه المنصـور عبد الوهاب بن ابراهيم الامام العباسى لبناء ملطية فأقام عليها سنة حتى بناها وأسكنها الناس وغزا الصائفة ٠ ذكرها المتنبى فقال : ملطيـة أم للبنين ثكول ٠٠ وقد فتحها الدمستق سنة ٣٢٢ هـ وهـدم سـورها وقصورها » ، وقد تكلم ا لمستوفى بعد ياقوت بقرن عن ملطية فقال انها مدينة حسنة ذات حصن منيع ٠ وكانت مراعيها مشهورة يكثر فيها القمح والفواكه والقطن ٠ أما أبو الفدا فقد رأى فى زمنه أن الأريق عدها من بلاد الروم ٠ وعلى قمة جبل قرب ملطية **دير برصوما ٠ وقلوذية** Claudias حصن قرب ملطية هدم ثم أعاد بناءه الحسن بن قحطبة سنة ١٤١ هـ أيام المنصور ٠ ويذكر لها كانار تسـمية أخرى هى جرجر Gerger أو كركر Kerker (٢٠٣) ٠

حصن طرنده (درندة Derrende) : روى الواقدى أن المسلمين نزلوا طرندة بعد أن غزاها عبد الله بن عبد الملك سنة ٨٣ هـ (٧٠٢م) وهى داخلة فى بلاد الروم ، وبنوا بها مساكن وملطية ـ التى على ثلاث مراحل منها ـ يومئذ خراب ٠ ثم نقل عمر بن عبد العزيز أهل طرندة

---

(٢٠٣) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٥٣ ، قدامة : نبذ من كتاب الخراج ـ ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٤ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ، ٥٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٥ ـ ٦ ، ياقوت معجم البلدان حـ ٨ ص ١٥٠ ، حـ ٧ ص ١٥٢ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٣٨٤ ـ ٥ القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٣١ ـ ٢ ، ابن الشحنة الدار المنتخب ص ١٩٥ ٠
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, pp. 262, 264-5.

(٢٠٤) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٥٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٤ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٦ ص ٤٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٣٢ ٠

الى ملطية اشفاقا عليهم فخربت • وتقع طرندة في أعالى نهر القباقب غربى ملطية ، وذكرت فى التواريخ البيزنطية باسم Tarenta وكانت من أقوى حصون البيالقة (٢٠٤) •

زبطرة : في أعالى نهر قراقيس رافد قباقب الذى يصب فى جنوبه ، ويقال له عند الروم Sozopetra, Zapetra • وتقع زبطرة فى سهل محيط بالجبال على مرحلتين الى الجنوب الغربى من ملطية وعلى مسيرة يومين الى الشمال الغربى من حصن منصور • وقد قال عنها ابن شداد انهـــا بين ملطية وسميساط فى طريق بلاد الروم • ويحدد اندرسن Anderson موقعها الحالى بمدينة فيرانشهر قرب منابع (سلطان صو وهو قراقيس) و (جوك صو) جنوب النهر الازرق فى موضع يتفق مع الوصف الذى أورده أبو الفدا • وقد كان امتلاك زبطرة يفتح الطريق الى ملطية • وقد ذكر البلاذرى أن زبطرة « كانت حصنا قديما روميا ففتح مع حصن الحدث»، وهى من أقرب الثغـور الى بلاد الروم ، خربه الروم غير مرة ، وقـد بناه المنصور والمأمون • واشتهرت زبطرة فى التاريخ باستيلاء تيوفيل عليها واستعادة المعتصم لها • وقد ذكر قدامة أن زبطرة كانت تلى الثغور الجزرية « فخربت أيام المعتصم •• فلمـا انتهى الى موضـع زبطرة بنى مكانها وبالقرب منهـا حصونا لتقوم مقـــامه : وهى الحصن المعروف بطبارجى والحصن المعروف بالحسـينية والحصن المعروف ببنى المـومن والحصن المعروف بابن رحوان ، ثم يلى هذه الحصون ثغر كيســـوم ثم ثغر حصن منصور ثم ثغر شمشاط ثم ثغر ملطية ••• » • ومواضع الحصون الاربعة التى حلت محل زبطرة غير معروفة ، وحين زار أبو الفدا زبطرة سنة ٧١٥ هـ ذكر أنها كانت خرابا ، وقال ابن شداد انها فى زمنه كانت قرية • على ان زبطرة ظلت محتفظة بشىء من أهميتها فقـد اســـترجعها باسيل الاول وكانت لها أهمية فى القرن العاشر الميلادى (٢٠٥) •

الحدث : وهى Adata عند الروم استولى عليها المســـلمون أيام عمر ، وقال البلاذرى ان درب الحدث سمى بدرب الســـلامة فى العصر الأموى توقيـــا للطيرة ، غير أن درب الســلامة يطلق غالبـــا على طريق

---

(٢٠٥) لى سترينج بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٥٣ ـ ٤ ، البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٠٠ الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٣٤ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ٢٧٤ ـ ٥ ، ابن الشحنة : الدار المنتخب ص ١٩٤ ، قدامة : نبذ من كتاب الخراج ـ ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٣ ـ ٤ ،
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides, p. 267.

القسطنطينية الذى يجتاز الابواب القيليقية . ونوه الاصطخرى بكثرة خيراتها ، وذكر ياقوت انها « قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش من الثغور ، ويقال لها الحمراء لأن تربتها جميعا حمراء ، وقلعتها على جبل الأحيدب » . وربما سميت بالحمراء تمييزا لها عن الحدث الأخرى الموجودة فى صحراء تدمر - كما يذهب كانار وتسمى حدث الزقاق . وكان الحسن بن قحطبة قد غزا الثغور فلما قدم على المهدى أخبره بما فى بناء طرسوس والمصيصة من المصلحة للمسلمين فأمر ببناء ذلك وأن يكون البدء بالحدث وذلك سنة ١٦٢ هـ . وكان بناؤها باللبن ، « قال الواقدى : ولما بنيت الحدث هجم الشتاء وكثرت الأمطار ولم يكن بناؤها وثيقا فهدم سور المدينة وشعثها ونزل بها الروم .. ثم ولى الخلافة الرشيد فدفع عنها الروم وأعاد عمارتها وأسكنها الجند .. وكان لسيف الدولة به وقعات وخربته الروم فعمره سنة ٣٤٣ هـ » . ونهر الحدث يسمى **حوريث** ، قال عنه ياقوت « انه يصب فى نهر جيحان » ، ويفيد ابن سرابيون انه يصب الى حوريث نهر العرجان . ولعل الحدث كانت تحمى الدرب من مرعش Germanicia الى **البستان** وهى تسمية عربية متأخرة لأبلستين على الضفة اليسرى لجيحان قبل التقائه بروافده الآتية من جبال طوروس الداخلية واسمها البيزنطى Ablastha واليونانى Arabissos . **ولم يكن ممر درب الحدث (مرعش - البستان) مطروقا كممر الابواب الكيليكية التى تقوم على مدخله طرسوس**. وقد ذكر البكرى أن **عربسوس** «من ثغور والجزيرة ، تلقاء الحدث» وأورد ماذكره البلاذرى من أن عمير بن سعد ذكر لعمر بن الخطاب : ان بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عربسوس ، وانهم لا يخفون عن عدونا من عوراتنا شيئا ، فقال له عمر : اذا قدمت عليهم فخيرهم بين أن تعطيهم مكان شاة شاتين ومكان شىء شيئين فان رضوا فأعطهم وخربها ، فان أبو فانبذ اليهم وأجلهم سنة ثم خربها ، « فانتهى عمير الى ذلك ، فأبوا ، فأجلهم سنة ، ثم أخربها » . وكانت عربسوس أهم مركز حربى فى كتاؤنيا Cataonia ، وتقع بين رافدين لنهر جيحان آتيين من جبال طوروس الداخلية . وقد انتقلت أهمية عربسوس الى البستان (الابلستين) المجاورة لها شرقا فى عصر الحروب الصليبية وورثت مهمتها فى حماية ممر الحدث - مرعش . وبين عربسوس أو الابلستين وبين مرعش توجد **ممرات عدة** فى طوروس وذكرت فى القرن .

١٠م ولا يمكن تحديد مواقعها بالضبط ، مثل : درب الجوزات فى منطقة الحدث ودرب مغارة الكحل • (٢٠٦)

حصن منصور : على أحد الروافد اليمنى للفرات ويصب فيه أسفل سميساط ، وفى الشمال الغربى منه ينحدر النهـــر الأزرق ، ويحاذى الفرات حده الجنوبى ، ويقع الحصن فى أرض مســـتوية على مقربة من الحصن القديم Perrhe • وذكر ابن حوقل أن حصن منصور مدينة حصينة أصابها ما أصاب الثغور من جراء الهجمات المتبادلة للمسلمين والروم • وقال ياقوت عن الحصن : «من أعمال ديار مضر ، لكنه فى غربى الفرات قرب سميساط • وكانت مدينة عليها سور وخندق و ٣ أبواب ، وفى وسطها حصن وقلعة عليها سوران • ومن حصن منصور الى زبطرة مرحلة • وهو منسوب الى منصور بن جعونة، كان تولى بناء عمارته ومرمته وكان مقيما به أيام مروان ابن محمد ليرد العدو ومعه جنـــد كثيف من أهل الشام والجزيرة وأرمينية •• ثم ان الرشيد بنى حصن منصـــور وأحكمه وشحنه بالرجال فى أيام أبيه المهدى » • وقد ذكر أبو الفدا فى المائة الثامنه ان هذا الموضع خراب ولكن به مزدرع • (٢٠٧)

بهسنا : على أحد الروافد اليمنى للفرات الذى يصب أسفل سميساط وهي فى غربى حصن منصور ورستاقها رستاق كيسوم ، على سن جبل عال • وذكر ياقوت انها « قلعة حصينة عجيبة بقرب مرعش وسميساط » ويذكرها ابن العديم بين الحصون المستحدثة بعد الفتح والقائمة أيامه • وقد ورد ذكرها فى أخبار الحروب الصليبية باسم Behesdin • وعلى **نهر سنجة** Singas القريب منها **قنطرة** مشهورة من حجر مهندم وهى طاق واحد « ليس أعجب ولا أعظم منها ، ويضرب بها المثل وهى احدى عجـــائب الدنيا » ـ على قول ابن حـــوقل ، وهى من بنـــاء فسباســـيان

---

(٢٠٦) لى سترينج ، بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٥٤ ـ ٥ ،البلاذرى فتوح البلدان ص ١٩٧ ـ ٨ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ياقوت : معجم البلدان حـ ٣ ص ٢٣١ ـ ٢ ، البكرى : معجم ما اســتعجم حـ ٢ ص ٦٥٦ ، ابن الشحنة : الدر المنتخم ص ١٦٤ ، ١٩٣ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٨٨ ، ٣٧٥ •

(٢٠٧) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٥٥ ـ ٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠٠ ـ ١ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٣ ص ٢٨٦ ـ ٧ ابن الشحنة الدر المنتخب : ص ١٩٥ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٨ ـ ٩ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٩٧
Canard : Hist. de la yn. des Hamdanides. p. 268.

Vespasian • وقد وصف الجغرافيون اللاحقون بهسنا « فى (تقويم البلدان) قلعة حصينة مرتفعة لا ترام حصانة ، فى الغرب والشمال من عينتاب • قال فى (التعريف) : وهى الثغر المتاخم لبلاد الدروب والمشتعل فى جمرة الحروب ، وبها عسكر من التركمان والاكراد ، ولا يزال لهم أثر فى الجهاد » • **ويحمون** قرية من أعمال بهسنا – من أعمال كيسوم بين الروم وحلب • (٢٠٨)

مرعش : يسميها الروم Marasion ، قيل انها قامت فى موضع جرمانيقية Germanicia ، « مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم ولها سوران وخندق ، فى وسطها حصن عليه سور يعرف بالمروانى بنـــاه مروان بن محمد • ثم أحدث الرشيد بعده ســـائر المدينة ، وبها ريض يعرف بالهارونية وهو مما يلى باب الحـدث » • **وتمتد سلسلة طوزوس فى منطقة كوماجين Commagene صوب الجنوب الغربى بالقرب من مرعش فى مواجهة سفوح امانوس وبينهما سهل عرضه ١٠ كيلو مترات ويمكن اصابته بسهولة من الجنوب و الشرق والغرب مما يجعله يؤدى نفس دور سهل ملطية فى الطرف الآخر من السلسة ومن هنا كانت أهمية مرعش • وكان طريق الشمال الغربى والشمال تقفله طوروس وطوروس الداخلية ، ولا تقدم شواطىء جيحان فى أعلى مرعش سوى ممرات تعترضها كثير من العقبات** • وقد حاصرت الروم مرعش فى أيام مروان بن محمد عنـــدما اشتغل بمحاربة أهل حمص وأخربوها ، فلما فرغ مروان بعث جيشـــا مع الوليد بن هشام سنة ١٣٠ هـ فبناها ، ثم اتتها الروم وأخرجتها ثم ابتناها صالح بن على فى خلافة المنصور وندب الناس اليها ، ثم أخرجتها الروم فبناها سيف الدولة سنة ٣٤١ هـ • واستولى عليهـــا الصـــليبيون سنة ٤٠هـ ١٠٩٧) ثم صـــارت مدينة ذات شـــأن من مدن مملكة أرمينية الصغرى (٢٠٩) •

كيسوم : قرية مستطيلة من أعمال سميساط فى جنوب بهسنا على

(٢٠٨) لى ســـترينج : بلدان الخلافة الشرقية – ترجمة فرنســيس وعواد ص ١٥٦ ، ابن عبد الحق : المراصد حـ ١ ص ٢٣٤ ، حـ ٢ ص ٧٤٥ ، حـ ٣ ص ١٤٧٥ ، ابو العدا تقويم البلدان ص ٢٦٤ – ٥ القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٢٠ – ١ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٧١ ، ابن العديم : بغية الطلب – مخطوط ص ٣٧١ •

(٢٠٩) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٦١ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٦ – ٧ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٨ ص ٢٥ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٩١ – ٢ ، ابن العديم بغية الطلب – مخطوط ص ٢٨٥
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 270

نهر كيسوم على ٧ فراسخ من الحدث ، وفيها حصن كبير على قلعة كان نصر بن شبث تحصن فيه من المأمون حتى ظفر به عبد الله بن طاهر فأخرجه ثم أحدث فيها مياها وبساتين • قال ابن شداد : ذكرها ابن أبى يعقوب وعدها فى كتاب (البلدان) من العواصم ، وكانت مدينة كبيرة قديمة وولاية واسعة عظيمة وكان حصنها حصينا وبناؤها قويا ركينا • واعتبرها ابن خرداذبة من الثغور الجزرية • وهى تتحكم فى نقطة هامة على الطريق الى بهسنا ، وقد ورد ذكرها فى كتاب الحرب المهدى الى نقفور فوقاس De Velitatione Bellica de Nicephore Phocas •

ويضيف ابن خرداذبة كذلك **سلغوس** الى الثغور الجزرية ولا يمكن تحديد موضعها بالضبط ، وقد اكتفى ياقوت بذكر غزو المأمون لها وقال انها بعد طرسوس • ويتابع فازيلييف ابن خرداذبة • ويذكر البلاذرى سلعوس ـ بالعين ـ وهذه على الأرجح باقليم الرها بالجزيرة وليست من الثغور (٢١٠) •

كركر : حصن بين سميساط وحصن زياد (خرتبرت) ، فى الشمال عن حلب على نحو ٥ مراحل « قال فى (تقويم البلدان) هى قلعة حصينة شاهقة فى الهواء يرى الفرات منها كالجدول الصغير وهو منها فى جهة الشرق وكانت من أعظم الثغور زمن التتار » (٢١١) •

سميساط : يسميها الروم Samosata على ضفة الفرات اليمنى أى الشمالية وعندها ينحرف النهر ، وكانت قلعة حصينة مكينة • وذكر المسعودى أن سميساط كانت تعرف أيضا بقلعة الطين ، وذكر ياقوت أنها « مدينة على شاطىء الفرات فى طرف بلاد الروم على غربى الفرات ، ولها قلعة فى شق منها يسكنها الأرمن ومالكها فى هذا الزمان الأفضل على الأيوبى ذكرها المتنبى فى قوله : •

ودون سميساط المطامير والملا وأودية مجهولة وهو أجل

ويدخل قدامة « سميساط وحانى وملكين ، وحصونا منها جمع وحوران والكلاس وغيرها » فى نطاق ما أسماه بالثغور البكرية ، نسبة

---

(٢١٠) ياقوت : معجم البلدان حـ ٧ ص ٣٠٦ ، حـ ٥ ص ١٠٨ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٣٦ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٧ ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٣٠٩ ، ، فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ١٠٧
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 269

(٢١١) ابن عبد الحق : المراصد حـ ٣ ص ١١٥٩ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٤ ـ ٥ القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٢٠

الى **ديار بكر** . وموقع **خانى** عند منبع وادى كلب (انجارشاى) بين ميافارقين وآمد ، ومخرجه كما يقول ياقوت من موضع يعرف بهلورس حيث استشهد القائد العباسى على الأرمنى فى قتال الروم . وتتحكم **خانى** فى طريق القوافل بين ديار بكر وأرزن الروم ، اذ توجد فى أسفل الجزيرة من ناحية وفى المنطقة التى ينبع منها الفرع الأيسر لدجلة ويفتح طريقا للمواصلات مع وادى أرسناس من ناحية أخرى . وأما **ملكين** فهى على الشاطىء الأيمن لزيبين صو Zibene Su (الفرع الشرقى لدجلة) حيث ينحنى ويتجه جنوبا . ولا يعرف بالضبط موقع **حوران** التى ذكرها قدامة . **وهناك حصن ذى القرنين** الذى يتحكم فى ممر جبل طوروس فى الشمال ، ويذكر ياقوت زواية تقول ان مخرج دجلة من جبل قرب آمد عند هذا الحصن « من تحته تخرج عين دجلة ثم كلما امتدت انضم اليها مياه جبال ديار بكر حتى تصير بقرب البحر مد البصر » . **وتعد سميساط تارة من الثغور وأخرى من العواصم وهى موضع استراتيجى ومعبر هام للفرات ، وعندها تلتقى الطرق المتجهة الى الغرب الآتية من الجزيرة والرقة عن طريق سروج ، ومن آمد عن طريق الرها (ادسا) ، ومنها تسير الطرق المتجهة الى ملطية ومرعش ودلوك .**

ولم تزل سميساط فى أيدى الروم حتى قصدت الروم الثغور سنة ٣١٨ هـ فدخلوا سميساط واستعادها المسلمون . ثم ان الدمستق بعد أخذه ملطية قصد سميساط فأخذها (٢١٢) .

قلعة الروم : يقول عنها ياقوت « قلعة حصينة فى غربى الفرات مقابل البيرة ، بينها وبين سميساط ، بها مقام بطرك الأرمن ويسمونه بالأرمينية كتاغيكوس . وهذه القلعة فى وسط بلاد المسلمين وما أظن بقاءها في يد الأرمن مع أخذ جميع ما حولها الا لقلة جدواها فانه لا دخل لها ، وأخرى لأجل مقام رب الملة عندهم كأنهم يتركونها كما يتركون البيع والكنائس فى بلاد الاسلام » . وذكر القلقشندى ان اسم القلعة صار (قلعة المسلمين) ، وذكر انها فى البر الغربى الجنوبى من الفرات وعلى نحو خمس مراحل شمال حلب ، وفى الغرب عن البيرة على نحو

(٢١٢) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ــ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٤٠ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٦ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٥ ص ١٣٨ ، حـ ٤ ص ٣٨ ــ ٩ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٩٨ ــ ٩ ، قدامة : نبذ من كتاب الخراج ــ ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٤ ،
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. pp. 254: 7, 265-6.

مرحلة ، والفرات بذيلها ، وهى من القلاع الحصينة التى لا ترام ولا تدرك فتحها الاشراف خليل بن قلاون (٢١٣) .

البيرة : تشترك عدة مواضـــع فى هذا الاسم ، منها بلد قرب سميساط ولها رستاق وقرى . وذكر القلقشندى أنها شرقى قلعة الروم بمرحلة والفرات بينهما ، وقلعتها على صخرة ولها منعة وعسكر . (٢١٤)

الكختا : شمالى شرقى حلب على نحـو خمس مراحل منها ، وهى قلعة عالية « لا ترام حصانة » ، وملطية عنها فى الغرب على مســـيرة يومين ، وكركر منها فى الشرق . وكانت أحد ثغور الاســلام فى وجوه التتر (٢١٥) .

العين : قرية تحت جبل اللكام قرب مرعش واليها ينسب **درب العين** النافذ الى الهارونية . **وأودن** قرية تحت جبل بين مرعش والفرات (٢١٦)

(ح) الثغور الشامية :

عين زربى : (عين زربة) وعرفها الصليبيون باسم Anazarbus وقد كانت عاصمة الاقليم الرومانى فى كيليكيا . ووصفها الاصطخرى بقوله: « بلد يشبه مدن الغور بها نخيل وهى خصبة » ، وكان لها سور مكين فى المائة الرابعة (هـ). وذكرت ياقوت : «بلد بالثغر من نواحى المصيصه. قال ابن الفقيه : كان تجديد زربى وعمارتها على يد أبى سليمان التركى فى حدود سنة ١٩٠ هـ وكان قد ولى الثغور من قبل الرشيد .. قال الواقدى : لما كانت سنة ١٨٠ هـ أمر الرشيد ببناء مدينة عين زربى وتحصينهـــا وندب اليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم بها المنازل . ثم لما كانت أيام المعتصم نقل اليها والى نواحيها قوما من الزط الذين كانوا قد غلبوا على البطائح بين واسط والبصرة فانتفع أهل الثغر بهم .. ثماستولى عليها الروم فخربوها ، فأنفق سيف الدولة عليها ثلاثة آلاف الف درهم

---

(٢١٣) ياقوت : معجم البلدان حـ ٧ ص ١٥٠ ـ ١ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٨ ـ ٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١١٩ ـ ٢٠ .

(٢١٤) ابن عبد الحق : المراصد جـ ١ ص ٢٤٠ ـ ١ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٨ ـ ٩ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٣٧ ـ ٨

(٢١٥) ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٢ ـ ٣ القلقشـــندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٢٠ .

(٢١٦) ياقوت : معجم البلدان حـ ٦ ص ٢٥٠ ، ابن عبد الحق : المراصد حـ ١ ص ١٢٩

حتى أعاد عمارتها ، ثم استولى الروم عليها فى أيام سيف الدولة .. وأهلها اليوم أرمن وهى من أعمال ابن ليون » . ووصف أبو الفداء المدينة فقال : بلد فى جبل ذات قلعة مستعلية عنها ، وهى على مسيرة يوم جنوبى سيس ، وفى جنوبها نهر جيحان . وفى المائة الثامنة (هـ) غير الناس اسمها وسموها زاورزا . «(٢١٧)

سيس أو « سيسيه » : توصف بالحصن ، وتقع بين انطاكية وطرسوس ازاء عين زربى وتبعد حوالى ٦٠ كيلو مترا عن أذنه والمصيصة، وكان بها مسكن ابن ليون سلطان تلك الناحية الأرمنى . قال الواقدى: جلا أهل سيسيه ولحقوا بأعالى الروم سنة ٩٤ أو ٩٣ هـ وخربت ثم عمرت فى خلافة المتوكل على يد يحيى بن على المتوكل ، ثم أخربتها الروم فعمرت فى خلافة أحمد بن المعتمد سنة ٢٦٠ هـ على يد ابن بغا الصغير . وقال ابن فضل الله : سيس ما بين حلب والروم ، وبلادها بعضها أغوار بساحل الجبل وهى من العواصم . وقد افتتحت سنة ٧٧٦ هـ فى سلطنة الاشرف شعبان بن السلطان حسن وفرضتها **اياس** حصن على شاطىء البحر بيد الارمن ، واستعيدت أيام الناصر محمد بن قلاون سنة ٧٣٨ هـ (٢١٨) .

الهارونية : لا يعرف موضع الهارونية والكنيسة على وجه الدقة ، الا أنهما تقعان فى الجبال بين مرعش وعين زربى . والهارونية على مرحلة غربى مرعش ، كما هى غربى جبل اللكام فى بعض شعابه ـ وهذه تسمية البلدانيين المسلمين لسلسلة جبال (انتى طوروس) . ووصف ابن حوقل الهارونية بأنها فى غاية العمارة وقلعتها حصينة خربتها الروم . بينما قال ياقوت انها « مدينة صغيرة قرب مرعش بالثغور الشامية فى طرف جبل اللكام استحدثها هارون الرشيد ... ويقال انه بناها فى خلافة أبيه المهدى وتمت فى أيامه .. وعليها سوران وأبواب حديد ثم خربها الروم فأرسل سيف الدولة فأعاد عمارتها وهى اليوم من بلاد ابن ليون الأرمنى»

---

(٢١٧) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٦١ ، البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٧٨ ـ ٩ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ، ياقوت معجم البلدان جـ ٦ ص ٢٥٤ ـ ٥ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب : ص ١٨٥ أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٠ ـ ١ ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ١٣٠
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 280.

(٢١٨) ياقوت : معجم البلدان حـ ٥ ص ١٩٧ ـ القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٣٣: ٥ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٨٩ ـ ٩٠ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٦ ـ ٧ ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٧٨ ،
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 280.

وذكر القلقشندى ان « الهارونيتين حصنان بناهما الرشيد ٠٠ والهارونية آخر حدود الثغور الشامية مما يتصل بالثغور الجزرية ، وبينهـــا وبين الكنيسة السوداء ١٢ ميلا » ٠

والكنيسة السوداء : حصن منيع قديم ، بناها الروم بحجارة سود على ما قال البلاذرى ٠ والظاهر كانت جنوبى نهر جيحان اذ ذكر الاصطخرى أنها « ثغر فى معزل من شط البحر » ، وقال ياقوت « بلد بثغر المصيصة سميت السوداء لأنها بنيت بحجارة سود بناها الروم قديما وبها حصن منيع قديم أخرب فيما أخرب منها ، ثم أمر الرشيد ببنائها واعادتها الى ما كانت عليه وتحصينها وندب اليها المقاتلة وزادهم فى العطاء » ٠ وقال ابن شداد : أغارت الروم عليها فأحرقتها فسميت المحترقة ٠ وقد آلت الى مملكة أرمينية الصغرى (٢١٩) ٠

نقابلس : يمكن عبور جبـــال أمانوس عند الأبواب الســـورية Pylae Syriennes أو مضيق بيلان حاليا فى عـدة مواضع : منهـــا الاسكندرونة ، وهناك موضعان أحدهمـــا فى الشمال منها والآخر فى الشمال من بياس ٠ وفى أقصى الشمال يمكن العبور عند نقابلس واسمها القديم Nicopolis وتسمى حاليـا (اصلاحية) على الجانب الشرقى من أمانوس وهى نقطة التقاء طريق انطـــاكية ـ مرعش بالســـفح الشرقى للســلسلة والطريق من كيليكيا الى دلوك ٠ وعن طريق ســهل نقابلس فى شمالى منابع (قره صو) يمكن المرور بسهولة الى الجانب الآخر والوصول الى واد يشقه رافد لجيحان ٠ (٢٢٠)

المثقب : موضعها الحقيقى غير معروف الا أنها لا تبعد كثيرا عن الكنيسة فانها كانت عند لحف جبل اللكام على ساحل البحر قرب المصيصة ويعينها كانار عند الزاوية الشمالية لخليج اسـكندرونة ٠ قال ياقوت : « حصن على ساحل البحر قرب المصيصة ـ فى جبال كلها مثقبة ، فيــه

---

(٢١٩) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعـــواد ص ١٦١ ـ ٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٨ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ياقوت ، معجم البلدان جـ ٨ ص ٤٣٩ ، جـ ٧ ص ٢٨٨ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٣٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٣٦ ـ ٧ ، ابن الشحنة الدر المنتخب ص ١٨٦ ـ ٧ ، ابن العديم بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٧٧ ٠

(٢٢٠) Canard: Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 279.

كوى كبار كان أول من بناه هشام بن عبد الملك على يد حسان بن ماهوبه الانطاكى . (٢٢١) .

المصيصة : Mopsuestia ، المصيصة وأذنة وطرسوس من بناء الروم . ويقول ياقوت عن المصيصة : « مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم ، وهي الآن بيد ابن ليون وولده منذ أعوام كثيرة وكانت من مشهور ثغور الاسلام قد رابط بها الصالحون قديما وبها بساتين كثيرة يسقيها جيحان ، وكانت ذات سور وخمسة أبواب » . فتحها عبد الله ابن الخليفة عبد الملك الأموى فى القرن الأول وبنى حصنها على أساسه القديم ، ووضع بها سكانا من الجند الأشداء ، وبنى مسجدا فوق تل الحصن ، وكان فى الحصن كنيسة جعلت هريا . وبعد وقت قصير نشأ فى الجانب الآخر (الأيسر) من جيمان ربض أو مدينة ثانية سميت **كفربيا** قال عنها ياقوت : « مدينة بازاء المصيصة على شاطئ جيحان ، وهى فى بلاد ابن ليون اليوم . وكانت مدينة كبيرة ذات أسواق كثيرة وسور محكم وأربعة أبواب . كانت قد خربت قديما ثم جدد بناءها الرشيد ، وقيل بل ابتدأ ببنائها المهدى ثم غير الرشيد بناءها وحصنها بخندق ، ثم رفع المأمون غلة كانت على منازلها كالخانات وأمر فجعل لها سور فلم يستتم حتى مات، فأمر المعتصم باتمامه وتشريفه» وقد سمى ابن شداد المصيصة بغداد الصغيرة . وهذا وقد أنشأ مروان الثانى ربضا ثالثا فى شرقى جيحان يقال له **الخصوص** وبنى عليه حائطا وأقام عليه باب خشب وخندق خندقا . وكان بين كفربيا والمصيصة قنطرة . ولما استخلف المنصور عمر مدينة المصيصة سنة ١٣٩ هـ بعد أن نالت منها الزلازل فسميت **المعمورة** . وقد ذكر اليعقوبى أن المنصور بنى المصيصة فى خلافته وكانت قبل ذلك مسلحة ، كما نقل ابن العديم ـ عن الحسن بن أحمد المهلبى العزيزى من كتابه المسالك والممالك الذى وضعه للعزيز الفاطمى أن المصيصة كانت تسمى بغداد الصغيرة لأنها كانت جانبين على النهر « وكان بها من أهلها فتيان فرسان ظرفاء شجعان . قال: فأما خاصيات الثغر فانه كان يعمل الفراء المصيصية تحمل الى الآفاق وربما بلغ الفرو منها ثلاثين دينارا ويعمل بها عيدان السروج التى يبالغ بثمنها الى هذه الغاية ولم يكن على وجه الارض بلد يعمل فيه الحديد المحزوز

---

(٢٢١) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٦٢ ، البلاذرى فتوح البلدان ص ١٧٤ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٣٨٣ ، ابن الشحنة الدر المنتخب : ص ١٨٩ ، ابن العديم ، بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٧٧ ،
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 278.

لكراسي الحديد واللجم والمهاميز والعمد والدبابيس كما يعمل بالثغور ٠ ورويت أحاديث في فضل المصيصة » ٠

وانتقلت المصيصة بعد ذلك كسائر البلدان المجاورة لها الى أيدي ملوك أرمينية الصغرى ٠ ومن المصيصة حتى مصب جيحان بعد ٤ فراسخ يكثر السكان وتزدهر الزراعة والتجارة ٠ وقبل المصب يتفرع جيحان فرعين ٠ ولعل **فندق الحسين** كان الى الشرق من المصيصة وقريبا منهـا وهو في موقع بين الاسكندرونة والمصيصة ٠وعلى طول جيحان : **مرج الديباج** والاسم يدل على كثرة النبات في هذا الاقليم الخصب الغني ٠ (٢٢٢)

بياس : مدينة صغيرة شرقي انطاكية وغربي المصلصة قريبـة من البحر ، بينها وبين الاسكندرونة فرسخان ، قريبة من جبل اللكام ٠ قال ابن شداد : صغيرة حصينة (٢٢٣) ٠

التينات : فرضة على بحر الشام تجهز منها المراكب بخشب الصنوبر وهي بين بياس والمصيصة (٢٢٤) ٠وهي قريبة من ميدان معركة (اسوس) كما يرى كانار (٢٢٤) ٠

تل حوم : حصن في ثغر المصيصة ، وهناك أيضا **تل حامد** حصن في ثغور المصيصة ٠ ويلاحظ وجود بعض الحصـون على التلال ، مثل : تل خالد قلعة من نواحي حلب ، وتل منس حصن قرب معرة النعمان ، وتل هراق من حصون حلب الغربية ٠ (٢٢٥)

طوانة : بلد بثغور المصيصة ٠ ولما قدم المأمون الثغر غازيا أمر أن يسور على الطوانة قدر ميل فمات بعد شروعه بقليل فأبطله المعتصم ٠

---

(٢٢٢) لي سترينج : بلدان الخلافة الشرقيـة ـ ترجمة فرنسيس وعـواد ص ١٦٣ ، البلاذري : فتوح البلدان ص ١٧٢ ـ ٣ ، الاصطخري : المسالك والممالك ص ٤٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٨٠ ـ ١ ، ١٠٠ ، ج ٧ ص ٢٦٣ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٧٨ ـ ٩ ، وفي المراصد لابن عبد الحق) المخصوص بالحاء ـ قرب المصيصة شرقي جيحان) ج ١ ص ٤٠٨ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢١٤ : ٢٢٧ Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 281.

(٢٢٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣١٧ ـ ٨ ، الاصطخري ص ٤٧ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٨٨ ، ابن العديم ، بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٧٧ ٠

(٢٢٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٤٤ ، الاصطخري : المسالك والممالك ص ٤٧ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٨٩ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ـ ص٢٧٨ Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 278.

(٢٢٥) ياقوت : معجم البلدان ج ص ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ابن عبد الحق : المراصد ج ١ ص ٢٧٠ ٠

وروى أن مسلمة بن عبد الملك كتب وهو غاز بالقسطنطينية الى أخيه الوليد :

أرقت وصحراء الطوانة بيننا لبرق تلالأ نحو غمرة يلمع
أزاول أمرا لم يكن ليطيقه من القوم الاالل وذعي الصمحمح(٢٢٦)

صمالو : من الثغر الشامى قرب المصيصة وطرسوس ، روى أن الرشيد حاصر أهلها سنة ١٦٣هـ فسألوا الامان لعشرة أبيات فيهم القومس، وكان فى شرطهم الايفرقوا ، فانزلوا ببغداد بباب الشماسية فسموا موضعهم سمالو (بالسين) واليه يضاف ديرسمالو ، وسبى من بقى فى الحصن (٢٢٧) .

العجلانية : بليدة بثغور مرج الديباج قرب المصيصة . **ومرج الديباج** واد عظيم المنظر ، نزه ، بين الجبال بينه وبين المصيصة ١٠ أيام. **ومرج الخليج** من نواحى ثغر المصيصة ، **ومرج حسين** بالثغور الشامية منسوب الى حسين بن سليم الانطاكى كانت له وقعة ونكاية فى العدو . **ومرج الاطراخون** قرب المصيصة . (٢٢٨)

عربسوس : بلد من نواحى الثغور قرب المصيصة ، على أن البكرى يقول عنها «عربسوس من ثغور الشام الجزيرة ، تلقاء الحديث» . والتسمية اليونانية هى Arabissos ويقابلها فى البيزنطية Ablastha وتطلق على (الابلستين) وتسميتها العربية المتأخرة **البستان** .وقد كان درب الحدث يمتد بينها وبين مرعش ، ولم يكن مطروقا كممر الابواب الكيليكية التى يقوم على مدخلها طرسوس (٢٢٩) .

قطرغاش : حصن من أعمال الثغور قرب المصيصة كان أول من عمره هشام بن عبد الملك على يد عبد العزيز ابن حسان الأنطاكى (٢٣٠).

---

(٢٢٦) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ٦٥ .

(٢٢٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٨ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٨٢ ـ ٣ .

(٢٢٨) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ١٢٤ ، ج ٨ ص ١٥ ـ ٦ ، ابن عبدالحق : المراصد ج ٣ ص ١٢٥٤ .

(٢٢٩) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ١٣٧ ، قارن البكرى : معجم ما استعجم ج ٢ ص ٦٥٧ ، لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٧٨ـ٩
Bury : Hist. of East. Rom. Emp. p. 245.,

(٢٣٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ ، ياقوت معجم البلدان ج ٧ ص ١٢٤ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ـ ص ٢٧٩ .

ثنية العقاب : بالثغور الشامية قرب المصيصة(٢٣١) ٠

الصفصاف: كورة من ثغور المصيصة غزاها سيف الدولة سنة٣٣٩هـ في حوض المجرى الاعلى لنهر جيحان حيث كانت هناك قلعة بيزنطية قديمة، وينبغي أن يكون في هذه المنطقة أيضا **حصن العيون** أو حصن عيـــون الجيحان وقد اكتفي ياقوت بذكر انه من الثغور الرومية التى غزاها سيف الدولة ، ويصعب تحديد مواقع هذين الموضعين بالنسبة لابلستين (٢٣٢)٠

أذنة : قرب المصيصة على الشــاطىء الايمن لنهر سيحان ، الذى يصب فى البحر المتوسط ، وقد قال ابن حوقل عن أذنة انها مدينة حصينة عامرة تبعد عن طرسوس ١٨ ميلا ٠ وفى الطريق على شيء يسير من المصيصة كانت هناك قنطرة ترجع الى أيام جستنيان رممت سنة ١٢٥هـ (٧٤٣م) وسميت **بجسر الوليد** نسبة الى الوليد الاموى ٠قال ياقوت عن أذنة «بلد من الثغور قرب المصيصة مشهور ٠٠ قال أحمد بن يحيى بن جابر : بنيت أذنة سنة ١٤١ـ١٤٢ هـ وجنود خراسان معسكرون عليها بأمر صالح بن على العباسى ٠ ثم بنى الرشـــيد القصر الذى عند أذنة قريب من جسرها على سيحان فى حياة أبيه المهدى سنة ١٦٥ هـ ٠ ولما كانت سنة ١٩٣ هـ بنى أبو سليم فرج الخادم أذنة وأحكم بناءها وحصنها فندب اليها رجالا من أهل خراسان وذلك بأمر محمد الامين بن الرشيد ٠ وقال ابن الفقيه : عمرت أذنة ســـنة ١٩٠ هـ على يدى أبى سليم خادم تركى للرشيد ولاه الثغور وهو الذى عمر طرســوس وعين زربى ٠ وقال أحمد بن الطيب : رحلنا من المصيصة راجعين الى بغداد الى أذنة فى مرج وقرى متدانية جدا وعمارات كثيرة ، وبين المنزلين أربعة فراسخ ٠ ولاذنة نهر يقال له سيحان وعليه قنطرة من حجارة عجيبة ـ بين المدينة وبين حصن مما يلى المصيصة ، وهو شبيه بالربض والقنطرة معقودة عليه على طاق واحد ٠ ولاذنة ٨ أبواب وسور وخنــدق ٠٠ وجسر الوليد على طريق أذنة من المصيصة على تسعة أميال أول من بنــاه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ثم جدده المعتصم سنة ٢٢٥ هـ » ٠ وأذنة **قاعدة كيليكيا ، وهى النقطـــة الوحيدة التى يمـكن عندها عبور سيحان ، وقد حصنها الرشيد لحمـاية الجسر الذى يجتـــازه الطريق الى طرسوس والابواب القليليقية** ٠ وبعد أذنة بقليـــل يستقبل سيحان الرافد الذى يصل اليه باختراق طوروس القيليقية ٠

---

(٢٣١) ابن عبدالحق : المراصد جـ ١ ص ٣٠١ ٠

(٢٣٢) ياقوت : المعجم جـ ٥ ص ٣٦٨ ، جـ ٣ ص ٢٨٥ ،
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 271.

وقد كان نهرا سيحان وجيحان حدا مائيا بين المسلمين والروم ، ومنابعهما فى المرتفعات شمالى أرمينية الصغرى • وكان نهر جيحان بعد مروره بالمصيصة يصب فى بحر الروم فى خليج أياس شمال ميناء الملون Mallos • أما سيحان فاصغر منه ولم يكن على ضفافه مدن جليلة غير أذنة وأذرم من قرى أذنة(٢٣٣) •

طرسوس : قرب مصب البردان فى البحر المتوسط ، وكانت الملاحة قديما ممكنة فى النهر ولكن لم يعد ذلك متيسرا فيما بعد ، وفى غربى طرسوس يقترب الجبل من البحر • وقد اشتهرت طرسوس فى العصرين الهلنستى والرومانى بعلمائها ، واشتهرت فى العصر الاسلامى بأهميتها الحربية وخصائص سكانها ، فقد كانت أجل الثغور ، وكان مقاتلتها من الفرسان والمشاة وهى تشرف على المدخل الجنوبى لدرب أبواب قليقية • وذكر ابن حوقل أن عليها سورين من حجارة وبها مائة ألف فارس ، «وكان بينها وبين حد الروم جبال منيعة متشبعة من اللكام» ـ وهكذا كانت حاجزا بين العالم البيزنطى المسيحى والعالم الاسلامى•وحين زار ابن حوقل المدينة سنة ٣٦٧هـ (٩٧٨م) رأى الغزاة الوافدين اليها من مختلف البلاد الاسلامية ـ ذلك « ان ليس مدينة عظيمة من حد بلاد فارس والجزيرة والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب ـ الا وبها لأهلها دار ورباط فى طرسوس ينزله غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها ، وترد عليها الجرايات والصلات وتدر عليهم الانزال والحملان العظيمة الجسيمة ـ الى ما كان السلاطين يتكلفونه وينفذونه متطوعين ويتحظون عليه متبرعين » • وقد عنى المهدى والرشيد بتحصين طرسوس وشحنها فى أول الامر بثمانية آلاف من المقاتلة كما يروى المسعودى • ويقول ياقوت : « ان مدينة طرسوس أحدثها سليمان ـ كان خادما للرشيد ـ فى سنة نيف وتسعين ومائة ، قاله أحمد بن محمد الهمدانى • وهى مدينة لثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم • قال أحمد بن السرخسى : رحلنا من المصيصة نريد العراق الى أذنة ، ومن أذنة الى طرسوس ـ وبينها وبين أذنة ست فراسخ ، وبين

---

(٢٣٣) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٦٣ ـ ٤ ، البلاذرى فتوح البلدان ص ١٧٥ ـ ٦ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٦٥ ـ ٦ ، ٥٥ ، ج ٣ ص ١٠٦ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٤٨ ـ ٩، القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص١٣٩ ، ابن الشحنة: الدر المنتخب ص ١٨١ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٣١ : ٥ •
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 281.

أذنة وطرسوس فندق بغا والفندق الجديد ، وعلى طرسوس سوران وخندق واسع ولها ست أبواب ، ويشقهـا نهر البردان ، وبهـا قبر المأمون جاءها غازيا فأدركته منيته وما زالت موطنا للصالحين والزهاد ، يقصدونها لانها من ثغور المسلمين • ثم لم تزل مع المسلمين فى أحسن حال ـ الى أن كانت سنة ٣٥٤ هـ فان نقفور ملك الروم إستولى على الثغور وفتح المصيصة ، ثم رحل عنها ونزل على طرسوس ••» • ويقول عنها ابن العديم «مدينة قديمة من بلاد الثغور الشامية عظيمة ، وبها كان يقـوم سوق الجهاد ، وينزلهـا الصالحون والعباد ، ويقصدها الغزاة من سائر البلاد » وقد فصل الحديث عن زهادها وأورد الآثار فى فضلها • وعدد الحصون المجاورة لها وأورد عن أبى عمر وعثمان بن عبد الله الطرسوسى « كان شيوخنا يقولون ان أول مدينة عرفت فى اقليم الثغر أزلية قبل الاسلام مدينة قليقية واليها ينسب علماء الروم الثغر فيقولون بندقليقية » وذكر من الحصـــون حصن ثابت وحصن عجيف وغيرهما •

وكانت الندبات السنوية لحرب الروم تجتاز من باب الجهاد • وفى الجهة اليسرى من الجامع دفن المأمون الذى توفى فى بدندون Podandos القريبة من طرسوس • وذكر القلقشندى أن طرسوس مدينة مسورة بناها الرشيد سنة ١٧٠ هـ وأكملها سنة ١٧٢ هـ «ولها ٥ أبواب : باب الجهاد ، وباب الصفصاف ، وباب الشام ، وباب البحر ، والباب المسدود • والنهر يشق فى وسطها وعليها قنطرتان داخل البلد • قال ابن حوقل : وهى فى غاية الخصب •• وكانت استعادتها من الارمن فى الدولة الناصرية (حسن بن قلاوون) » • ونهر البردان الذى يخترق طرسوس هو Cydnus ، وذكر ابن الفقيه انه كان يسمى أيضا نهر الغضبان ، ومخرجه من أصل جبل فى شمال طرسوس يعرف بالاقرع ويصب فى بحر الروم قرب المصب الحديث لنهر سيحان • وفى ناحية الغرب على مرحلة من طرسوس نهر كان يؤلف حدا مائيا بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية فى الازمة الاولى وهى نهر اللامس Lamos وعليه كان يقع الفداء بين المسلمين والروم • ومما يلى هذا النهر بلدة للروم تعرف بســلوقية Seleucia of Cilicia وسماها الترك أخيرا سلفكه • ويقطع جبال طوروس دروب كثيرة سلك المسلمون منها بوجه خاص فى غزواتهم : درب الحدث فى الشمال الشرقى ـ من مرعش الى ابلستين التى عرفت أخيرا بالبســـتان (Ablastha

البيزنطية ، Arabissus اليونانيــة) ، وثانى الدروب **درب الابواب القيليقية** الضارب شمالا من طرسوس الى القسطنطينية (٢٣٤) ٠

تل جبير : بلد بينه وبين طرسوس أقل من عشر أميال ـ منسوب الى رجل من قريش انطاكية كانت له عنده وقعة (٢٣٥) ٠

بذندون : قرية بينها وبين طرسوس يوم من بلاد الثغر ، مات بها الملعون ، فنقل الى طرسوس ودفن بها ، وبطرسوس **باب بذندون** عنده فى وسط السور قبر المأمون(٢٣٦) ٠

سلغوس : حصن فى بلاد الثغور بعد طرسوس غزاه المأمون ويضيفه ابن خرداذبة الى الثغور الجزرية ولا يمكن تحديد موضعه بالضبط ، ويتابع فازيلييف قول ابن خرداذبة ، ويرى آخرون ان ســـلعوس التى أوردها البلاذرى دون تنقيط هى من اقليم الرها فى الجزيرة وليست من الثغور ، واذا كان رسم سلغوس صحيحا فقد تكون سجالاسوس فى بامفيليا(٢٣٧)

مطامير : المطمورة حفرة أو مكان تحت الارض قد هيء خفيا يطمر فيه الطعام أو المال ٠ **وذات المطامير** بلد بالثغور الشامية ذكر فى الفتوح أيام المهدى والمأمون والمعتصم ، ويقال له المطامير أيضا ٠ **ومطمورة** بلد فى ثغر الروم بناحية طرسوس ، غزاه سيف الدولة فقال الصغرى :

وما عصمت تاكيس طـالب عصـــمة

ولا طمرت مطمورة شـــخص هارب

---

(٢٣٤) Le Strange : Palestine Under the Moslems. pp. 377-8 ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٦٤ ـ٦
الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ٣٨ ـ ٣٩ ، ابو الفدا : تفويم البلدان ص ٢٤٨ ـ ٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ١٣٣ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٨٠ ـ ١ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٣٥ : ٢٧٥ ٠
Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 282.

(٢٣٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٠٤ ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص٢٧٥

(٢٣٦) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٩٤ ٠

(٢٣٧) ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ١٠٨ ، ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٧ ، Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. p. 269. ، فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٠٧ هامش ٠

وتاكيس : قلعة فى بلاد الروم فى الثغور • وقد كانت المطامير تكثر فى البند المتأخم لكيليكيا حيث كانت ملجأ لأهالى الاقليم• ويقول فازيلييف : « ولا نزال الى اليوم نجـــد فى كل بيت فى هاساكيوى مثلا طابقا سفليا محفورا فى الصخور ، وهذه الغرف الارضية متصلة فوق ذلك بممرات طويلة يمر بهـــا الانسان من بيت الى بيت » • ويذكر ابن خرداذبة من المطـــامير « ماجدة وبلنسة وملندسة وقونية وملقـــوبية وبدالة وبارنوا وسالمون ، وتفسير ملقوبية : مقطع الارحاء تقطع الارحاء من جبالها(٢٣٨)»

---

(٢٣٨) ياقوت : معجم البلدان حـ ٨ ص ٨٤ ـ ٥ ، ٨٩ ، حـ ٢ ص ٣٢٣ ، ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٨ ، فازيلييف : العرب والروم ، ترجمة دكتور شعيرة ص ٩٤ ، والهامش •

ثالثا ـ الوضع الاستراتيجى
لحدود الدولة الاسلامية مع الروم

يقول Leidell — Hart ان الاستراتيجية الكبرى Grand Strategy تبرز معنى السياسة فى نطاق التنفيذ policy in execution ، ودورها هو توجيه كل موارد الامة وتنسيق التعاون بينها من أجل الحصول على الهدف السياسى للحرب ، فالاستراتيجية الكبرى ينبغى أن تقدر الموارد المادية والبشرية والمعنوية على السواء ، ولا بد أن تعمل على تنسيق الخدمات المتنوعة ، وأن تدخل فى اعتبارها وعملها قوة الضغط المالى والدبلوماسى والتجارى والروحى فى توهين عزيمة العدو • وبينما ينحصر نطاق الاستراتيجية فى الحرب ، فان الاستراتيجية الكبرى تنظر الى مدى أبعد من الحرب لتكسب السلم أيضا • والاستراتيجية تعتمد فى نجاحها على الحساب الصحيح ، وعلى الموازنة بين الهدف والوسيلة ، فضبط الخطة يوفر اقتصادا للقوى فى معناها الاوسع ، واحكام الاستراتيجية يعمل على حسم الموقف دون معارك أو خسائر فادحة بقدر الامكان ، فهدف الدولة فى حربها ينبغى ألا يكون مجرد الفتح بل ضمان الامن(٢٣٩) •

الى أى مدى كانت حدود الدولة الاسلامية تحقق لها الامن ؟

ان الدولة الاسلامية كانت تطمح بغير شك الى **ازالة دولة الروم** من الوجود ، كما أزالت دولة الفرس • غير ان دولة الروم لم تكن فى نواياها ازاء الدولة الاسلامية أكثر صفاء ، فما من لحظة ضعف مر بها المسلمون الا وانتهزها الروم للانتقاض على أطراف المسلمين••• انتهز الروم فرصة ضعف المسلمين فى أواخر الدولة الاموية وبداية الدولة العباسية ، كما

---

(٢٣٩) Leidell — Hart : Strategy : pp. 335 : 9

انتهزوا فرصة ضعف الدولة العباسية نفسها عندما تأخر بها الزمن وتجزأت ولاياتها واستقل حكامها ، ولم يكن كل هؤلاء الحكام المسلمين المستقلين من طراز سيف الدولة الحمدانى أو نور الدين زنكى ، يصمدون للمطامع ويذودون عن العرين ٠

وقد راعى المسلمون منذ فتوحاتهم الاولى أن تحقق الحدود لدولتهم تأمينا كافيا ، ومن أجل ذلك اتجهوا الى فتح الجزيرة وأرمينية بعد أن تم لهم فتح الشام ، اذ ازدادت بذلك فرص الامن فى حدودهم ، **واستفادت من مناعة جبال طوروس من ناحية ، ومن طبيعة ارمينية الجبلية وموقعها الحاجز من ناحية اخرى** ٠ وقد أثبت خط سير الفتوح الاسلامية الاولى حقيقة ارتباط أجزاء هذه المنطقة المتداخلة ، **فقد كان هرقل يقود معركة الشام من حمص فى الشمال ، ثم نزل انطاكية ، حتى اذا انتصر المسلمون سنة ١٥ هـ بموقعة مرج الروم « ارتحل من عسكره فاتى الرها واخذ عامله بحمص »** ٠ **ولما دانت الشام لأبى عبيدة أخذ الروم يناوشون مؤخرة المسلمين من الجزيرة** « ففى سنة ١٧ هـ خرج الروم وقد تكاتبوا هم وأهل الجزيرة يريدون أبا عبيدة والمسلمين بحمص ٠ فضم أبو عبيدة اليه مسالحه وعسكروا بفناء حمص ، وأقبل خالد من قنسرين حتى انضم اليهم فيمن انضم من أمراء المسالح ، فاستشارهم أبو عبيدة فى المناجزة أو التحصن » ، وقد مال أبو عبيدة الى الرأى القائل بالتحصن ، وكتب الى عمر بخروج الروم عليه وشغلهم أجناد الشام عنه ، « فلما وقع الخبر لعمر كتب الى سعد بن مالك : ان أندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم الذى يأتيك فيه كتابى الى حمص فان أبا عبيدة قد أحيط به ٠٠ وكتب اليه أيضا : ان سرح سهيل بن عدى الى الجزيرة فى الجند ، وليأت الرقة فان أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص ، وان أهل قرقيسياء لهم سلف ، وسرح عبد الله بن عتبان الى نصيبين فان أهل قرقيسياء لهم سلف ، ثم لينفضا حران والرهاء ، وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، وسرح عياضا ٠ فان كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعا الى عياض بن غنم (٢٤٠) » ٠ وهكذا برزت **قيمة الجزيرة الحربية** فى حماية حدود الدولة الاسلامية ، فلا غرو أن يذكر المقدسى اقليم أقور (الجزيرة) فيقول « ثغر من ثغور المسلمين ومعقل من معاقلهم ، لان آمد اليوم دار جهادهم والموصل من أجل أنضادهم ٠٠ ومع ذلك هو واسطة بين العراق والشام ومنازل العرب فى الاسلام(٢٤١) » ٠

---

(٢٤٠) الطبرى ، حـ ٤ ص ٥٧ ، ١٣٦ ، ١٥٣ ، ١٩٥

(٢٤١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٣٦

وعلى هدى الظروف الجغرافية تتابعت فتوح المسلمين ، **فافتحوا الجزيرة بعد فتح الشام** « اذ كان اقليم الجزيرة وشمال الشام وحدة تتمم بعضها بعضا من حيث ارتباط حصونهما وتعرضهما لاغارات البيزنطيين • وأقام معاوية القبائل العربية الضاربة فى شمال العراق فى جهات بعيدة عن المدن المعرضة للغزو البيزنطى ، ثم حصن هذه المدن بسلسلة من الحصون تشبه العواصم والثغور الشامية وخصص لها حاميات دائمة » • **ثم فتح المسلمون أرمينية** منذ خلافة عثمان « فأرمينية تتحكم بفضل موقعها فى مفرق الطرق المؤدية الى أراضى المسلمين فى اقليم الجزيرة بالعراق وبلاد الشام والجهات التى احتلها المسلمون فى جنوب آسيا الصغرى ، كما انها وحدة طبيعية قائمة بذاتها وسط ما يحيط بها من بلاد » (٢٤٢) •

وكانت الاستراتيجية الرومانية تعتمد على دعامتين : انطاكية فى سوريا وادسا (الرها) فى بين النهرين • وقد أشار شابو الى ارتباط انطاكية بكيليكيا وكبادوكيا بطريق مجرى النهر الاسود (قرة صو) Melas فضلا عن امكان التوغل منها الى أرمينية ، علاوة على اتصالها بالشام • وكان نهر الفرات يربط ما بين الجزيرة وبين الشام وأرمينية ، وكان الجزء الواقع من أرمينية فى غربى الفرات الأعلى يسمى بأرمينية الصغرى • كما أن جبال طوروس كانت تمتد من الأناضول الى أرمينية وهى تفصل الجزيرة من جهة عن أرمينية وأذربيجان من جهة أخرى وكانت عسيرة الاختراق فى الشرق دون الغرب • وكانت نقطة الاتصال بين أرمينية الصغرى والشام تتمثل فى تلك الزاوية الوسطى التى تحدد مجرى الفرات بين سميساط وملطية • وكان شمالى الجزيرة (بين النهرين) يرتبط فى مصيره بظروف أرمينية والدور الذى يمكن أن تؤديه ، ولم يستطع الرومان أو البيزنطيين تجاهل هذه الحقيقة (٢٤٣) •

ولم يغفل المسلمون عن جزر البحر المتوسط «اذ رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به من مراكز استراتيجية هامة ، ولشل حركات البيزنطيين البحرية • فقد انتشرت هذه الجزر فى الشطر الشرقى من البحر المتوسط وقسمته الى بحار داخلية صغيرة ـ تتصل ببعضها البعض عن طريق مضايق وفتحات صغيرة تتحكم فى مداخلها أطراف الجزر • وغدت هذه المضايق أشبه بعنق الزجاجة تكفل للمسيطر عليها تمام السيادة على ما يليها من

---

(٢٤٢) دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٠٣ ، ١١٣

(٢٤٣) Chapot : La Frontière de l'Euphrate. pp. 344-5, 347, 380, Canard: Hist. de la Dyn. des Hamdanides. pp. 76, 234.

بحار داخلية وما يطل على هذه البحار من أرض وبلاد ، فهدفت الاغارات الاسلامية على هذه الجزر لتأمين سلامة البلاد الاسلامية من الجزر القريبة مباشرة من أراضيها ، ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التى تتحكم فى أكبر عدد من المضايق البحرية لسد الطريق فى وجه الأساطيل البيزنطية (٢٤٤) ٠

كذلك اتجه المسلمون الى محالفة بعض الطوائف التى تحتل أماكن حساسة على الأطراف ، **فتعاهدوا مع الجراجمة فى جبل اللكام ، وتعاونوا مع البيالقة على أطراف الدولة البيزنطية** القريبة من حدود المسلمين عند الفرات الأعلى ٠

والدول قديما لم تكن تعرف خطوطا للحدود Boundaries وانما كانت تعرف أقاليم حدود أو تخوم Frontier Areas يهمها منها مراكز التجارة أو معاقل الحدود ٠ وهكذا كانت الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية على السواء تهتمان بأقاليم التخوم ٠ وقد سبق للروم أن أقاموا عند حدودهم Limes ولايات عسكرية خاصة مثل بلاد العرب الصخرية ، أو ولايات الدانوب والرين ، كما حالفوا أقواما على أطرافهم واصطنعوا لهم دولا مثل الغساسنة واللخميين ٠ وكانت فكرة أقاليم التخوم أو مناطق الحدود الطبيعية تتفق مع فكرة أقاليم الانتقال الجغرافية ، بل ومع أقاليم الانتقال الثقافية والحضارية ـ اذ تكون مناطق التخوم أوسع وأعمق عند التقاء حضارات أو قوميات كبرى ٠ وقد نشأت نظرية التخوم الطبيعية Natural Frontiers على هذا الاساس ، اذ كانت الدول تعتمد على الظواهر الجغرافية الهامة وتتخذها خطوط للحدود Physical Boundaries ، وان كانت سلاسل الجبال لا تكون حواجز طبيعية فى جميع الحالات ، فنحن نرى سويسرا ذات أربع لغات ونرى انتشار اللغة الالمانية فى النمسا ٠ **غير أن اتخاذ الجبال كحدود سياسية كان سائدا فى الماضى** ،فقد كانت المناطق الجبلية قليلة السكان قليلة الموارد ، ومن هنا كانت مناطق استراتيجية يمكن أن تتخذ قواعد للدفاع ٠ وا لجبال فواصل طبيعية حسب وعورة تضاريسها ومدى ارتفاعها ودرجة انحدارها وشدة فقرها ٠ وقد لا تعدل الفواصل الجبلية بين الجيران فى وظيفتها الفاصلة أو الحامية ، بل قد تحابى دولة على حساب أخرى ٠ والمثل الأعلى للحدود الجغرافية هو الذى يقلل الى أدنى درجة ممكنة من الاحتكاك والحرب بين الدول التى يفصلها ،

---

(٢٤٤) دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٨٦ ـ ٧

ويجب أن يكون خطا دفاعيا منيعا دون أن يحول بين الدول التى على جانبيه وبين الاتصال الاقتصادى والحضارى (٢٤٥) ٠

وقد كانت **جبال طوروس** حدودا طبيعية فيزيوجرافية ، وتاريخية بشرية ٠ ودخل فى نطاق حدود الشام الاسلامية قليقية وأذنة ، وكانت مدن كلس وعينتاب وماردين عربية صميمة ، وأوجد هذا ظهيرا طبيعيا لحلب صار رأسا لجسمها وأمنها على منابع نهرها قويق ومنحها عنصر عمق فى الدفاع ٠ ولم **تخل جبال طوروس من دروب ومسالك للاتصال بين الدولتين والحضارتين المتجاورتين ، كما أن نهر الفرات وصل بين الجزيرة وانتاجها وبين منـــافذ الساحل وأسواق الشام ٠ كذلك أعطى البحر المتوسط للحدود الاسلامية مع الروم وضعا خاصا** ، فكان حاجزا واقيا كمـــا كان أداة اتصال أيضا ، وهكذا جمعت بوابة الشام الشـــمالية بين النافذة البحرية والظهير الطبيعى (٢٤٦) ٠

(أ) جبال طوروس :

كانت الحدود بين المسلمين والروم فى ابان ازدهار الدولة الاسلامية تتألف من سلسلتى جبال طوروس وطوروس الداخلية Anti Taurus وقد أطلق البلدانيون المسلمون على جبال طوروس الداخلية اسم جبل اللكام ٠ واتجه المسلمون والبيزنطيون الى **تحويل المنطقة التى تفصل بين ممتلكاتها الى خراب أول الأمر** ، ونقل كل منهما سكان تخومه الى داخل البـــلاد ٠ واشترط أبو عبيدة على أهالى بعض الجهات الشمالية القريبة من الحـــدود البيزنطية ـ **الجراجمة** ـ أن يزودوا المســـلمين بما يعرفونه من أخبـــار البيزنطيين ٠ وكان أهم **الدروب الجبلية** التى استخدمها الفريقان المتحاربان عبر جبال طوروس : **الأبواب القليقية** التى تتحكم فيها مدينة طرسوس ، والى الشمال الشرقى منها **درب الحدث** ٠ وحرص المسلمون والبيزنطيون على السيطرة على المعابر والممرات الهامة خلال الجبال واقامة الحصون عندها ٠ فوضع البيزنطيون **منطقة الأطراف المواجهة للمسلمين** تحت اشراف قواد عسكريين لقبوا بحكام الثغورKleisuriards وحين تزايدت الغارات الاسلامية فى القرن الثامن الميلادى دعموا تلك المنطقة بحاميات من مساعدة **المتطوعين** الذين سموا Akritoi ٠ وقد واجه الخط الدفاعى البيزنطى الثغور الاسلامية

(٢٤٥) الدكاترة دولت صادق ، محمد غلاب ، جمـال الدناصورى : الجغرافية السـياسية ص ١٠١ : ٨ ، فوست : جغرافية الحدود ترجمة نصر ص ٣٣ : ٩ ، ١٠٩

(٢٤٦) دكتور حمدان : دراسات فى العالم العربى ص ٨٥ : ٨

يقسميها الجزرية والشامية • واضطلع الامويون فالعباسيون بترميم المعاقل والحصون وبناء المدن وندب الأهالى اليها لتحصين وتعمير منطقة الثغور • وقام الرشيد **بافراد ولاية خطاصة للعواصم والثغور** جعل عليها ابنه المعتصم •

وممر الأبواب القليقية الشهير فى العصور الوسطى طوله سبعون ميلا ، ويبدأ من سفح الهضبة الوسطى لآسيا الصغرى جنوبى طوانة Tyana ، ويمتد الى حيث تتلاشى سفوح طوروس الجنوبية فى سهل كبادوكيا ، وفى أقصى الطرف الشمالى للممر قمة منعزلة شديدة الارتفاع ـ ١٠٠٠ قدم تقريبا ـ وتتحكم فى جزء كبير من سهول كبادوكيا الجنوبية وسفوح طوروس الشمالية فى الوقت نفسه • وعلى هذه القمة المنيعة بنيت قلعة اللؤلؤة Lulon التى كانت مفتاح الممر ، وقد تداولتها أيدى المسلمين والبيزنطيين وكان فى وسع الفريق الذى يضع يده عليها أن يمنع الآخر من اجتياز الممر • ويلتقى الطريق الشمالى المؤدى الى طوانة والطريق الغربى الى هرقلة قرب هذه القلعة أيضا • وينحنى الطريق شرقا فى أول الأمر ، ثم يتجه جنوبا حيث يطل على وادى البذندون البيضاوى الشكل ويسمى Camp of Cyrus حيث عسكر كورش الصغير أثناء مسيره لحرب أخيه ـ ثم يصعد الممر من البذندون عبر وهاد ضيقة شديدة الانحدار حتى نهايته ، وعلى الجانب الشرقى فى أعلى الجبال كانت تتحكم فيه قلعة حصينة من الحجر الاسود تسمى حصن الصقالبة (السلاف) ، ويؤدى ممر منزلق من قمة هضبة صغيرة تعرف حاليا باسم Tekir وطوله ٣ أميال تقريبا الى منفذ صخرى يعرف بالأبواب القليقية ـ وهم الاسم الذى أطلق على الممر بأجمعه • ويبلغ طول الممر مائة ياردة وعرضه بضع ياردات فقط ، وتكتنفه جبال صخرية مما جعل فى وسع حصن الصقالبة أن يوقف بأى حامية صغيرة جيشا كبير العدد • وقد كان هناك ممر آخر عبر جبال طوروس ليس مطروقا كالأبواب القليقية يمتد من مرعش (جرمانيكيا) الى أبلستين أو عربسوس ويعرف بدرب الحدث •

ولقدبلغ العرب السفوحالجنوبية الشرقية من جبال طوروس فوجدوها أشد بأسا من جنود الروم ، بسبب وعورتها وبردها القارس ، « حتى لكأن الطبيعة قد اقامت جبال طوروس لتكون على الدوام حدا فاصلا بين البلدين ـ على حد تعبير الدكتور حتى ، ثم ان المناخ فى الأناضول كان بالغ القساوة على أبناء الصحراء • لقد تجمدت اللغة العربية على منحدرات

طوروس الجنوبية ، ولم يقدر لها أن تغزو لسان بلد من بلدان آسيا الصغرى التى كان سكانها منذ أيام الحيثيين من غير الساميين » • ثم جاء السلاجقة من الأصقاع الباردة فى شمال شرقى نهر سيحون فتهيأ لهم فتح تلك البلاد ، فدخلت فى نطاق الاسلام السياسى ، وان لم تدخل فى نطاق اللسان العربى (٢٤٧) •

(ب) أرمينية :

هذه بلاد ذات أودية ضيقة وأحواض مرتفعة ، يفصل بعضها عن بعض عوائق جبلية عالية ، وليس فيها مركز ثابت غنى يحتشد فيه معظم السكان ولا جزء واسع خصيب يتصل بالأجزاء الأخرى ولا بؤرة غنية تجذب اليها السكان المبعثرين ، فوديانها جميعا مفتوحة نحو الخارج وشبه مقفلة نحو المركز الذى يعتبر أصعب جهاتها اتصالا حتى مع حدوده القريبة المتاخمة • **وهكذا أدت أرمينية دورها كدولة حاجزة بين الرومان والفرس ثم بين البيزنطيين والعرب** ، اذ تشغل حيزا من الأرض تقابلت فيه سلسلتا الجبال الالتوائية فى شمالى آسيا الصغرى وجنوبيها من جهة وجبال هضبة ايران من جهة أخرى ، وتكون اقليم معقدا فى تضاريسه ذات السلاسل الجبلية الشاهقة والوديان والأحواض الداخلية حول عقدة جبل أرارات • وعلى طول حافة أرمينية الشمالية يقع وادى القوقاز المنخفض ممتدا من البحر الأسود الى بحر قزوين ويفصلها عن جبال القوقاز ، بينما ينخفض السطح فى جنوبيها مكونا مجموعة من الوديان تنتهى الى سهول الجزيرة (٢٤٨) •

وقد اتجه المسلمون الى أن تكون سيطرتهم على أرمينية كاملة ، حتى لا يقعوا فى المأزق الذى وقع فيه الفروس والروم حين اقتسموها • كما استفاد المسلمون فى الوقت نفسه من سلامة ظهورهم فى اقليم الجزيرة • ويذكر شابو أن شمالى بين النهرين (ميزوبو تاميا) كان يستند الى أرمينية وأن الزاوية الوسطى فى مجرى الفرات بين سميساط وملطية تمثل

---

(٢٤٧) Bury : Hist. of East. Rom. Emp. pp. 245-6
دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٠٠ : ٣ ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٧٠ : ٣ ، حتى : تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٤٤ : ٦ ، تاريخ العرب ترجمة نافع حـ ١ ص ٢٤٨ : ٢٥٠ • حسونة : الجغرافية التاريخية الاسلامية ص ٣٣ ـ ٤

(٢٤٨) فوست : جغرافية الحدود • ترجمة نصر ص ٨٣ ـ ٤ •

نقطة الاتصال بين الشام وأرمينية الصغرى ، ولم تستطع روما أو بيزنطة تجاهل حقيقة وضع أرمينية بالنسبة لممتلكاتها فى الهلال الخصيب (٢٤٩) ٠

وقد وعى المسلمون هذه السوابق ، لكنهم لم يسلموا من الانتقاضات الداخلية لأهالى الاقليم الذين احتموا بطبيعة بلادهم المعقدة ، ووجد المتمردون على الدولة الاسلامية فرصتهم فى أراضى أرمينية ، ولم يحرم البيزنطيون سبيلا للاتصال بهؤلاء المتمردين ومعاونتهم على الفتنة ، ومن ذلك حركة بابك الخرمى التى ظاهرها البيزنطيون وتكبد المسلمون كثيرا حتى أخمدوها ٠

(ج) نهر الفرات :

لعبت الأنهار دورين متناقضين فى التاريخ : فهى **عوامل وحدة أحيانا، وهى فواصل جغرافية أحيانا أخرى ٠ وقد كانت حدود الامبراطورية الرومانية تتبع نهر الرين** من الشمال الى الجنوب ، ونهر الدنواب من الشرق الى الغرب ، واهتم « قيصر » بأن يقول فى كتابه أن نهر الجارون يفصل الغاليين عن الأكويتان وأن الجرمان يعيشون على الضفة الأخرى للرين ، وكانت القبائل الجرمانية فى توسعها شرقا تقف عند حدود أنهار الألب ثم الأودر متخذة هذه الأنهار حدودا طبيعة لها ، ومن ثم كانت المدن الألمانية المحصنة فى شرقى ألمانيا على الجانب الغربى للأنهار دائما ٠ لكن الأنهار مع ذلك كله عوامل وحدة أيضا ، لا سيما بعد زيادة السكان والتوسع فى الاستغلال الاقتصادى وتقدم الملاحة النهرية ٠ لكن الأنهار اذ كانت تجرى فى أقاليم مرتفعة وتعترضها أخاديد وشلالات أو مستنقعات كبيرة فقد تكون أصلح نوعا لأداء مهمة الحدود الفاصلة (٢٥٠) ٠

وقد لعب نهر الفرات دورا هاما كمنطقة حدود بين الفرس والروم ، أما بالنسبة للدولة الاسلامية فقد وقع جزء كبير من مجراه فى قلبها ، فى حين كانت مجاريه العليا عند حدودها ٠ ويقول Chapot : « **قد يكون الفرات حدا سياسيا ولكنه ليس حاجزا حربيا** ، فبين الصحراء ووادى النهرين يبدو هذا الشريط المائى طريقا لتموين الجش الغازى ، اذ يسير فى سهل تتشابه أجزاؤه ـ خاصة بعد أن يجتاز منطقته العليا ، وهو وسيلة يسيرة لنقل الانسان والبضائع لأن تياره ضعيف ٠ وكان **الفرس** قد وضعوا كثيرا من معسكراتهم على طول الفرات وفى الجزر التى فى وسطه

---

(٢٤٩) Chapot : La Frontière de l'Euphrate pp. 351-2, 380

(٢٥٠) الدكاترة دولت وغلاب والدناصورى : الجغرافية السياسية ص ١٠٩ ـ ١٠ ، فوست : جغرافية الحدود ـ ترجمة نصر ص ٤٦ : ٥٠

اذ كان هناك أقدم حد بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، كما كان هناك المسرح الرئيسي للعداء بينهما ، لكن الرومان ما لبثوا أن تجاوزوا الفرات وضموا منطقة Osrhoene وجزءا من بين النهرين وأخذوا يباشرون الدفاع عن حدودهم الجديدة » • وقد أشار شابو الى **اهمية موقع انطاكية كحلقة اتصال بين منطقة الفرات وبين البحر** « فان اقتراب الزاوية التي تقع فيها انطاكية تهيء لقائد الجيش سبل المواصلات مع القيادة المركزية للاقليم ومع البحر ـ حيث يمكنه الاتصـال بالامبراطورية » وكان لمنبج Hierapolis أهميتهـا الطبيعية في الناحية الشرقية • وفي منطقـة (قورس) هذه Cyrrhestique كان الأباطرة وقوادهم يعدون خطط الحملات ووسائل التنفيذ • كذلك أشار شابو الى **المنطقة المجاورة للفرات الأعلى والتي تصله بالبحر الأسود عن طريق منطقة القوقاز** Transcaucasie وهي ما تسمى Colchide, Lazique وتتبع شابو خط القلاع النهرية عند الفرات وأشار الى الموقع الاستراتيجي لقلعة النجم التي تحتل حافة الجبل المطل على الوادي ، كما أشار الى أهمية مواقع الموصل (نينوى) ، والرها (ادسا) وحران Carrhae ـ كما كانت آمد Amida مركزا هاما جرى تعزيزه وما حوله من مدن لمتاخمة تلك المنطقة للحدود ، وعند بداية العنق تجثم ماردين Marida ، وقد وصف اميان مارسلين حوائط نصيبين المنيعة وذكر أنه « بدونها لا يمكن السيادة على الشرق » وهــكذا أقام الفرات في آسـيا الصغرى الشرقية الحاجز الكبير للأمبراطورية وقد كانت ملطية في موقع ممتــاز حيث تتجـه الطرق منها على شكل مروحة (٢٥١) •

(د) البحار :

البحر حد فاصل ، ولـكنه بطبيعته قد لا يحمى الاقليم من الغزو والغارات •وقد أتيح لاقليم الثغور والعواصم أن يكون على اتصال بطرق تبلغ البحر المتوسط في الغـرب والجنوب الغربي والبحر الأسـود في الشمال ، ثم الخليج الفارسي في الجنوب الشرقي •

ويقول فيرجريف : كان **البحر المتوسط** المدرسة الأولى لتعلم الملاحة البحرية ، اذ يقع وسط اليابس فهو داخلي يخلو من آثار العواصف التي تكثر في عرض المحيطات كما يخلو من عنف حركات المد والجزر ، ويشارك البحر المتوسط في هذه المزايا البحر الأحمر والخليج الفارسي ولكن الأول يبرزهما باتساعه ومرافئه « فهو بهذه المزايا يصبح المثل الأعلى لتربيـة

(٢٥١) Chapot : La Frontière de l'Euphrate. pp. 254 : 8, 281, 301 ; 18, 354

رجال البحر » • ولما عرفه الناس كطريق للاتصال تهيأت الفرص للفينيقيين قديما كي يلعبوا دورهم فى تاريخ ذلك العالم الصغير ، وكانوا يسكنون أرضا هى همزة الوصل بين البلاد المختلفة وهى بمثابة لوحة القفز الى عرض البحار • وهكذا تغيرت وظيفة البحر المتوسط • لقد كان فى الأيام الخوالى حاجزا ثم أصبح فيما بعد طريقا تجاريا عند الفينيقيين ، وكان بمثابة حصن دفاع عند اليونانيين ، ثم اتخذه الرومان قاعدة لأساطيلهم البحرية التى أخضعوا بها كل البلاد التي تحف بشواطئه • ثم ضعفت القوة البحرية بضعف روما ذاتها وما تحولت بلاد المغرب والأندلس الى الحكم العربى الا لأن الأساطيل البحرية للامبراطورية الشرقية لم تتوافر لها القوة الكافية لتسيطر على البحر كله ، ثم أضحت الحال شبيهة بالأيام الأولى التى استمر فيها النزاع بين روما وقرطاجنة ، وأصبح البحر المتوسط كالخندق الذى يفصل بين عدوين ، ورجحت كفة كل فريق حينا من الدهر، وتوالى على الجزر الواقعة بينهما الحكم الاسلامى تارة ثم الحكم المسيحى تارة أخرى، واستولى المسلمون على كريت وصقلية عدة قرون قبل أن يستعيدهما الحكم المسيحى الى حظيرته فيما بعد • أما **الخليج الفارسى والمحيط الهندى** فقد جدت عليهما ظروف جديدة اذ خلا الجو فيهما للأساطيل الغربية من كل منافس ، وقد كان لانتشار الحكم العربى فى أول الأمر فى مساحة واسعة تمتد من شواطىء المحيط الأطلسى الى البحر المتوسط والى الخليج الفارسى والبحر الأحمر والى المحيط الهندى كما كان للسيطرة العربية على مفاتيح الطرق بين الشرق والغرب ــ برية وبحرية ــ أكبر الأثر فى احتراف العرب التجارة • وظلت التجارة العربية مزدهرة لم تتأثر بتمزق القوة الاسلامية ، الا أنه لما ضعفت الخلافة العربية فى الأندلس فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى أخذت حكومات جنوا وبيزا تقوم على انقاض امبراطورية الروم وتستأثر بالتجارة البحرية وتبنى الأساطيل التى مكنتها من نقل الحملات الصليبية • لكن التجارة العربية لم تلق منافسة فى المحيط الهندى فترة أخرى لأن حاجزا من اليابس وقف يفصل بين الشرق والغرب ، وحين زال هذا الحاجز أخيرا ــ بكشف الأوربيين طرقا ملاحية فى نهاية القرن ١٥ م ــ أدى ذلك الى انهيار التجارة العربية نهائيا (٢٥٢) •

ولقد بدأ العرب تأسيس دولتهم على غير علم بركوب البحر « ولم يزل الشأن ذلك ، حتى اذا كان زمن معاوية اذن للمسلمين فى ركوبه والجهاد

---

(٢٥٢) فيرجريف : الجغرافيا والسيادة العالمية ــ ترجمة د• الانصارى ص ٤٢ ، ١٠٩ ــ ١١٠

على أعواده • والسبب فى ذلك : أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه ، والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته • فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ـ استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا الى الجهاد فيه ، وأنشأوا السفن فيه والشوانى وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته ـ مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس •• وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل أساطيلهم شىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزر المنقطعة عن السواحل فيه ـ مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج (٢٥٣) •

وهكذا كان البحر بالنسبة للمسلمين فى **أول دولتهم مصدر خطر لاحد أمان** ، غير أن السياسة البحرية الأموية منذ ولاية معاوية للشام ما لبثت أن وطأت أكناف البحر للأساطيل الاسلامية حتى غدا البحر المتوسط بحيرة اسلامية كما يقال ، وصار حدا آمنا • ثم جاءت الدولة العباسية فكانت ذات نزعة مشرقية آسيوية، فمهد هذا لضعف البحرية الاسلامية فى عهدها وانتقلت دفة السياسة البحرية الاسلامية الى أيدى المغاربة، وغدا المشارقة يواجهون خطر التهديد البحرى مرة أخرى (٢٥٤) •

أما بالنسبة للبحر الأسود ، فقد ذكر ابن حوقل أن طرابزندة كانت أجل ميناء تجلب اليها السلع من القسطنطينية فى صدر الدولة العباسية وتحمل منها الى بلاد الاسلام ، وكانت هذه التجارة بيد الأرمن • ويبدو أن مهمة هذا البحر ـ الذى سمى ببحر طرابزندة أو بنطس ـ كانت بالنسبة للدولة الاسلامية تجارية أكثر منها حربية (٢٥٥) •

---

(٢٥٣) ابن خلدون : المقدمة ـ طبعة دكتور وافى حـ ٢ ص ٦٢٨ ـ ٩

(٢٥٤) دكتور مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ م

Cheira : La Lutte entre les Arabes et les Byzantins p. 85.

(٢٥٥) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٦٨

رابعا ـ التوجيه الجغرافي لمنطقة الحدود الاسلامية البيزنطية موقعها من الطرق التجارية ودورها في العلاقات الحضارية

كان موقع الثغور والعواصم فى أعالى الشام والجزيرة يهيىء لها **سبيل الاتصال بالمناطق المجاورة مثل : أرمينية والشام والجزيرة والعراق**. وكان الفرات طريقا للوصول الى **الخليج الفارسي** حيث ينتتح باب المحيط الهندى المطل على حاصلات الشرق الثمينة ، كما يتقترب الفرات فى زاويته الشمالية الغربية من **البحر المتوسط** فيمهد الطريق للوصول الى المناطق الواقعة على حضه اذ كانت مياه هذا البحر تدعو سكان ساحل الشام للتجارة والملاحة . وفى الشمال يمكن عبور ممرات جبال طوروس الى هضبة آسيا الصغرى حيث الدولة البيزنطية . وفى الجنوب كان يكن الاتصال بمصر والحجاز . وهكذا كانت تلك المنطقة على اتصال بالعالم حولها ما بين آسيا وافريقيا وأوربا ، وحتى نهاية العصـــور الوسطي كان الطريق الكبير لخراسان وفارس والعراق يصـل حلب وقنسرين ، ومنهـا تتفرع الطرق وأهمها تتجه الى انطاكية ، ومنها تسير طرق الى الاسكندرية وكيليكيا وأخرى الى موانى البحر المتوسط فى سلوقية Selucie de Pier . ومن قنسرين كان يمكن الوصول الى نهر العاصى عند جسر الشغر ومنـــه الى اللاذقية Laodicée عن طريق النهر الكبير أو جبله عن طريق صهيون وبلاطنس (٢٥٦) .

---

(٢٥٦) Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Musulman et Byzantin pp. 40-2, Dussaud : Top. Hist. de la Syrie pp. 432-3.

(أ) الثغور والعواصم وعلاقاتها بالمناطق البرية المجاورة :

يقدم لنا ابن خرداذبة شبكة من الطرق التى تربط الثغور **بالعراق والشام وأرمينية** :

١ ـ **الطريق من بغداد الى الموصل الى نصيبين** : كانت الطرق تصل بغداد بالبصرة جنوبا حيث تأتى المتاجر الشرقية عن طريق الخليج الفارسى كما كانت تصلها بالجزيرة **شمالا** ومنها الى الثغور الجزرية ، ثم الى ثغور الشام وساحل البحر المتوسط من جهة أو الى أرمينية من جهة أخرى والطريق من بغداد الى ديار الجزيرة يذكره ابن خرداذبة على هذا النحو : من بغداد الى البردان ٤ فراسخ ، ثم الى عكبرا ٥ فراسخ ، ثم الى باجمشا ٣ ، ثم الى القادسية ٧ ، ثم الى سر من راى ٣ ، ثم الى الكرخ ٢ ، ثم الى جبلتا ٧ ، ثم الى السودقانية ٥ ، ثم الى بارما ٥ ، ثم الى السن وبها الزاب الأكبر ١٢ ، ثم الى بنى طميان ٧ ، ثم الى الموصل ٧ • ويفصل قدامة الطريق بين السن والموصل على النحو التالى : من السن الى الحديثة برية يجرى فى وسطها الزاب الصغير ١٢ فرسخا ، ومن الحديثة الى طهمان ٧ ، ومن طهمان الى الموصل ٧ •

ويستأنف الطريق مسيره من الموصل الى بلد ٧ فراسخ ، ثم الى باعيناثا ٦ ــ وفى قدامه ٧ ، ثم الى برقعيد ٦ ، ثم الى أذرمة ٦ ، ثم الى تل فراشة ٥ ــ وفى قدامه ٣ ، ثم الى نصيبين ٤ • وهنا يقول قدامه « **ومن نصيبين مفرق طريقين : أحدهما ذات اليمين الى نواحى الشام المقاربة لما ذكرنا من الطرق من المشرق اليها ، والآخر الى سائر نواحى المغرب** » • فالطريق من نصيبين الى الرقة يمر أولا بدارا (وهى مدينة فى سفح جبل ـ كما يقول قدامة) ومن نصيبين اليها ٥ فراسخ ، ومن دارا الى كفرتوثا ٧ ، الى رأس عين ٧ (يجزئها قدامة : من كفرتوثا الى العرادة وهى منزل ٣ ، ومنها الى رأس عين وهى مدينة فيها عيون ٤) ، ومن رأس عين الى الجارود ٥ ، الى حصن مسلمة (قرية فيها صهريج كما يقول قدامة) ٦ ، الى باجروان ٧ ، الى الرقة ٣ •

٢ ـ **الطريق من نصيبين الى أرزن ذات اليمين (أرمينية)** : من نصيبين الى دارا ٥ فراسخ ، ثم الى كفرتوثا ٧ ، ثم الى قصير بنى نازع ٦ ــ وفى قدامة ٧ ، ثم الى آمد على دجلة ٧ ، ثم الى ميافارقين ٥ ، ثم الى ارزن ٧ « وهى مدينة تتاخم أرمينية » كما ذكر قدامة •

٣ ـ **الطريق من آمد الى الرقة ذات اليسار ثم الى الثغور الجزرية أو الشامية وساحل الشام :** كانت آمد نقطة التقاء عدة طرق ، وعن طريقها يعبر المجاهدون القادمون من أذربيجان وخراسان الى الثغور على الحدود الاسلامية البيزنطية مارين بأرمينية ثم ارزن وميافارقين فآمد ، ومن الأخيرة يسير طريق الى شمشاط « قرب ثغور الروم ـ كما ذكر قدامة » وبينهما ٧ فراسخ ، ثم الى تل جفر (تل جوفر عند قدامة) ٥ ، ثم الى جرنان (قريه آهلة كثيرة الأسواق كما ذكر قدامة) ٦ ، ثم الى بامقدا (وبها سور وأهلها قليل كما ذكر قدامة) ٥ ، ثم الى جلاب (قرية غناء على نهر كما ذكر قدامة) ٧ ، ثم الى الرها (وهى مدينة رومية فى سفح جبل كما ذكر قدامة) ٤ ، ثم الى حران ثم الى تل محرا ٤ ، ثم الى باجروان ٧ ، ثم الى الرقة ٣ ـ ومن الرقة الى عين الرومية ٦ فراسخ ، ثم الى تل عبدا ٧ ، ثم الى سروج ٧ ، ثم الى المزينية ٦ ، ثم الى سميساط ٧ (٦ عند قدامة ، وهى مدينة على الفرات من الجانب الشامى) ، ثم الى حصن منصور (ووصفها قدامة بأنها ثغر وعليها سور حجارة) ٦ ، **ثم الى هلطية** (ووصفها بأنها ثغر فى عقاب شديدة) ١٠ ، ثم الى كمخ (كانت ثغرا واستولى عليه العدو ـ كما ذكر قدامة ٤ ، ثم الى زبطرة (ويقول قدامة انها ذات اليسار واستولى عليها العدو) ٤ ٠ ثم الى الحدث (ويصفه قدامة بأنه ثغر فى نحر العدو) ٤ ، ثم الى مرعش (ويذكر قدامة بأنها ثغر ليس وراءه الا عمازات العدو) ٥ ، ثم الى عمق مرعش (والعمق كل مرج حوله جبال) ٠

والطريق من الجزيرة **الى ساحل الشام :** من الرقة الى دوسر ، ثم الى داقين ، ثم الى جسر منبج ، ثم الى منبج ، ثم الى حلب ، ثم الى الأثارب ، ثم الى عمق ، ثم الى انطاكية ، ثم الى اللاذقية ، ثم الى جبلة ، ثم لى طرابلس الشامية ، ثم الى بيروت ثم الى صيدا ، ثم الى صور ، ثم الى قدس ، ثم الى قيسارية ، ثم الى ارسوف الشامية ، ثم الى يافا ، ثم الى عسقلان ، ثم الى غزة ٠

وهناك طريق **من الرقة فى الجزيرة الى حمص ودمشق بالشام** مارا بالرصافة ، ومسافات من الرقة الى الرصافة ٢٤ ميلا (٨ فراسخ عند قدامة) ، ويسير طريق فى العمران الى الزراعة ٤٠ ميلا ، الى القسطل ٣٦ ، الى سلمية ٣٠ ، الى حمص ٢٤ ، الى شمسين ١٨ ، الى فارا ٢٢ ، الى النبك ١٢ ، الى القطيفة ٢٠ ، الى

دمشق ٢٤ . وهناك طريق **فى البرية** من الرصافة الى دمشق . ويسير **طريق للبريد** من حمص الى دمشق مارا بجوسية وبعلبك كما **يخترق البادية** طريق من الكوفة والحيرة الى دمشق مباشرة .

وبحكم الظروف الطبيعية لشمالى الشام كانت الطرق تتجه **من قديم من الشمال الى الجنوب** . وعلى طول الفرات وكان هناك طريق من سميساط الى الرقة ، لكن كان هناك كذلك طريق يعبر الفرات عند منبج Hierapolis ويصل ما بين الجزيرة عند (Zeugma قديما) والشام ، كذلك كان هناك طريق قورس حلب قنسرين (Chalcis) . لكن الطرق العسكرية الكبرى كانت تسير من انطاكية : فهناك طريق انطاكية نقابلس Nicapolis مرعش Germanicia ، وطريق انطاكية قورس Cyrrhus حمص Doliche وطريق انطاكية والفرات (عند موضع (Zeugma وطريق بين انطاكية ومنبج . وكانت الطرق التى تعبر الفرات فى مواضع متباعدة مثل سميساط وزيجما وكايكيليانا Caeciliana تتجه أخيرا الى الرها Edessa وقد كانت انطاكية والرها الدعامتين الرئيسيتين فى الاستراتيجية الرومانية .

ويذكر قدامة **الطريق العادلة من الحصن الى الثغور الجزرية** ـ على حران والرها : من الحصن الى حران ٣ سكك ، ومن حران الى الرها سكتان ، ومن الرها الى سميساط ٣ سكك ، ومن سميساط الى حصن منصور سكتان . والطريق العادلة أى المتجهة، وعوادل الثغور التى عدلت عنها . أما السكك فيقول ياقوت : « هى الطريق المسلوكة التى تمر فيها القوافل من بلد الى آخر ، فاذا قيل من بلد الى بلد كذا سكة فانما يعنون الطريق . مثال ذلك أن يقال من بغداد الى الموصل خمسة سكك ، يعنون أن القاصد من بغداد الى الموصل يمكنه أن يأتيها من ٥ طرق . وحكى عن بعضهم أن قولهم سكك البريد يريدون منازل البريد فى كل يوم ، والأول أظهر وأصح » . ويقول Dozy : السكة المسافة بين محطتين من محطات البريد وقدرها ٤ فراسخ .

٤ ـ **من حلب الى الثغور الشامية** : من حلب الى قنسرين ٧ سكك (عند قدامة من منبج الى قنسرين ٩ ، من حلب الى قنسرين ٣) ، ثم الى انطاكية ٤ سكك ، ثم الى المصيصة ٧ ـ وجيحان يشقها (ولا يغفل ابن خرداذبة أن يشير الى تسميتها عند الروم : مابسبستيا) ، ومن

المصيصة الى أذنة ٣ - (واسم اذنه عند الروم اداثم) وهي على سيحان ، ثم الى طرسوس ٥ - (واسمها عند الروم تارسم) ومن المصيصة الى عين زربى سكتان - كما يزيد قدامة ٠

وقد ظل نظام الطرق الرئيسية فى شمالى الشام على حاله حتى الحروب الصليبية ، فهناك طريقان يخرجان من قنسرين أو Chalcis يتفرعان الى ثلاثة أفرع تقصد أفامية وشيزر وحماة ٠ والطريق الأكثر تطرفا نحو الغرب يسير من حلب الى قنسرين ويمر بكفر طاب وشيزر وحماه وحمص كما يقول المقدسى ، وهو يجتاز معرة النعمان مثل الطريق الآخر الذى يخرج من قنسرين Chalcis الى حماه Epiphania والذى يذكره Itineraire Antonius ٠ **والطريق الشرقى** يذكره اليعقوبى ومراحله : حلب وقنسرين ، وتل منس ، حماة ، الرستن ، حمص ٠ ويذكر ابن خرذابة صواره محل تل منس - وهى صوران ٠ وهناك الطريق العرضى من البثنة الى انطرطوس (أرواد الداخلية) عن طريق حلب وقنسرين وتل منس Tuemenso وأفامية وقد ورد هذا الطريق فى Table de Peutinger ٠ وهناك طريق من أنطاكية الى جسر الشغر وأفامية ٠ وبقى الطريق بين أفامية وحماة مباشرة معروفا ٠ وفى فترة رخاء انطاكية فى العصور القديمة والوسطى كانت القوافل تنحدر من مضيق بيلان وتمر ببغراس وجسر الحديد للوصول الى قنسرين وحلب وكان هذا أيسر الطرق وله ميزة المرور بأكثر المراكز أهمية ٠ وهناك طريق آخر بعد الهبوط من مضيق بيلان يتجه الى الشمال من بحيرة أنطاكية وعند وصوله وادى عفرين يجتاز أحد تفرعاته هذا الوادى الى حمص Doliche والجزء الأول من هذا الطريق يليه طريق الاسكندرية حلب ويصل منه فرع الى عزاز ٠

هذا وقد **أتيح لحلب بحكم موقعها الجغرافى أن ترث مكانة انطاكية قبل الاسلام وقنسرين فى صدور الاسلام** ، فمنها كانت تتفرع الطرق التى تصلها بقنسرين وحماة وحمص ، وبانطاكية والاسكندرونة وقيليقية ، وبدلوك وسميساط ، وبمنبج ، وببالس والرقة والجزيرة ، بتدمر ٠ وقد أدى ضعف الدولة العباسية ، وارتفاع مكانة حلب الى ظهور الحمدانيين على مسرح الأحداث فى قاعدة الشام الشمالية ٠

ويتتبع ابن خرداذبة بعد ذلك **الطرق عبر آسيا الصغرى** عن طريق

درب السلامة الى خليج قسطنطينية • وقد سبق عرض بعض هـذه الطرق (٢٥٧) •

وهكذا ارتطبت الثغور والعواصم بما حولها بالطرق البرية ، وقد كانت بحكم موقعها قريبة من الطرق الرئيسية البرية والبحرية للتجارة الشرقية ، **و كان الهلال الخصيب بمثابة الجسر بين المحيط الهندى والخليج الفارسى من جانب (عن طريق نهر الفرات) وبين البحر المتوسط من الجانب الآخر ، وكان يمثل منطقة التقاء قوافل الصحراء القادمة من الجنوب (اليمن) بالسفن القادمة من البحر المتوسط • وهكذا قام عدد كبير من المرافىء البحرية على ساحل الشام ومن مدن القوافل التجارية على حافة الهلال الخصيب** • فالطريق التجارى الكبير يتفرع من شمال الشام الى البحر المتوسط بطريق الأبواب السورية فى جبل أمانوس ، ويتفرع الى الشمال الغربى بطريق الأبواب الكيليكية ليصل آسيا الصغرى ، وهو فى الوقت نفسه يتحول الى الشرق بطريق الجسر السورى نحو الفرات ومنه الى الدجلة والخليج الفارسى • فالأراضى الكائنة بين خليج الاسكندرونة ـ حيث يحدث البحر أعظم فجوة فى البر ـ وبين منحنى الفرات على مسافة نحو مائة ميل : تشكل ممرا طبيعيا له أهميته التجارية والحضارية • وبين الحاجز الجبلى فى الشمال والغرب ، والحاجز الصحراوى فى الجنوب يمرق ممر واحد منخفض يؤدى الى واد من جهة والى بحر من جهة أخرى ، وهو الممر السورى ، وهذا الممر يرتبط بدوره بخطوط المواصلات العالمية ، وقد حاول البابليون والمصريون والاشوريون والكلدانيون والفرس والمقدونيون فى العصور القديمة السيطرة على تلك المنطقة الهامة • وهكذا يصدق قول تشارلسورث Charlesworth : « **ان الطرق كانت تنبعث من انطاكية ـ فى عصر الامبراطورية الرومانية ـ فى جميع الاتجاهات** : غربا الى كيليكيا ثم بيزنطة ، وشرقا الى بالميرا والفرات وبابل ، وشمالا الى معابر الفرات الهامة عند سميساط (ساموساتا) وزيجما ومقالع الحجر ومناجم الحديد فى تلك المناطق ، وهناك كان مركز اقتضاء المكوس • كذلك ارتطبت انطاكية بمدينة الساحل سليوكيا (سلوقية) على مسيرة يوم فى الأرنط•

---

(٢٥٧) ابن خرداذبة ص ٩٣ : ١١٣ ، قدامة (ملحق بابن خرداذبة ص ٢١٤ : ٦ ، ٢١٨ ـ ٩ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ١ ص ٣٨ ، دكتور يحيى الخشاب ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية فى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى : المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨ م •

Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. pp. 82, 83, 234-5, Dussaud: Top Hist. de la Syrie. pp. 181-2, 234-5, 478-9.

وانفتح الطريق عبر جبال طوروس عن طريق الأبواب الكيليكية والسورية. ويرى فيرجريف أن قيام انطاكية لا فضل فيه للطريق البحرى ولكنه وثيق الصلة بالطريق البرى الى بابل أو مصر (٢٥٨) .

(ب) الاتصال بموطن العرب الرئيسي :

يرى السير هلفورد ماكندر Holford Mackinder الجغرافى البريطاني الكبير أن بلاد العرب تمتد من النيل غربا الى ما وراء الفرات شرقا - وهي مسافة تبلغ ٨٠٠ ميل ، ومن سفوح طوروس شمالا حتى خليج عدن - أى ما يبلغ ١٨٠٠ ميل ، وتمتاز هذه المنطقة بوجود ٣ طرق مائية : هى النيل ثم البحر الأحمر ثم نهر الفرات والخليج العربى .

وقد جعل ماكندر بلاد العرب طريقا بريا وجسرا موصلا بين القلبين الأرضيين اللذين تصورهما كمنطقتى ارتكاز للعالم : القلب الشمالى من حوض الفولجا الى شرقى سيريا ، والقلب الجنوبى فى افريقية جنوبى الصحراء الكبرى . وقد اتجهت الحركة الطبيعية للسكان العرب من قديم الى غزو الأقاليم الحضرية والاقامة فيها من قديم ، **فكانت بادية الشام حتى نهر الفرات تعد بالضرورة جزءا من المجال العربى - كما قال دوسو (٢٥٩)** فقد تحدث اراتستنيس Erathesthenes عن الجزء الصحراوى فى الشمال الواقع بين بلاد العرب السعيدة Arabia Felix وبين سوريا المجوفة Coele — Syria واليهودية Judaea حتى تجويف خليج العرب كمنطقة متجانسة . ويقول بلنيوس Plinius : لا تقل جزيرة العرب بالنظر لسعتها عن بلاد أية أمة أخرى فى العالم ، فأقصى ابعادها : المنحدر الممتد من جبل أمانوس باتجاه كيليكيا وكوماجين Cilicia, Commagene ، وقد هاجر بعضهم من تلقاء أنفسهم الى البحر المتوسط والساحل المصرى . وبلاد العرب تشبه ايطاليا من حيث الشكل والمساحة والاتجاه وبذا صارت لها ميزات مثل هذا الموقع الجغرافى . ويجاور البدو والقبائل الرحل الذين ينهبون بلاد الكلدانيين قوم يعرفون بالسنيتيين Scenitae وهؤلاء أنفسهم من الرحل - اشتق اسمهم من خيامهم المصنوعة من شعر المعز .

---

(٢٥٨) حتى : تاريخ سوريا جـ ١ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٦٥ ، ٧٥
فيرجريف : الجغرافيا والسيادة العالمية - ترجمة د. الانصارى ص ٥٨
Charlesorth : Trade Routes, Commerce of Rom. Emp. pp. 39-40

(٢٥٩) فيفيلد ، برسى . الجيوبوليتيكا - ترجمة مجلى وامكندر جـ ١ ص ٣٠ : ٢ ، دوسو: العرب قبل الاسلام - ترجمة الدواخلى ودكتور زيادة ص ٢ - ٣ .

ويجاورهم النبطيون الذين يسكنون بترا (البتراء) وفيها يلتقي طريقان يأتيان من سوريا وبالميرا من ناحية ، ومن غزة من ناحية أخرى . والاقليم الممتد بين بترا وشراكس Charax فى أقصى فجوة من خليج فارس ، كان مأهولا بالعمانيين Amani (٢٦٠) .

وقد ناقش الدكتور حزين مسألة **الظروف المناخية** وأثرها على هجرة العرب الى الشمال وعرض لنظرية مواسم الجفاف Climatic Desiccation وخلص الى أن التغير فى كمية المطر وان لم يكن كبيرا فان له آثاره البعيدة المدى على اقليم قاحل أو شبه قاحل مثل شبه جزيرة العرب . وتجمعت الى الى جانب ذلك عوامل أخرى من الفوضى وعدم الاستقرار فى شبه جزيرة العرب منذ حوالى القرن الثالث الميلادى ، وزادت فى بداية القرن السادس الميلادى ، كما بلغت أزمة الجفاف ذروتها قبل الاسلام بأكثر من قرن . لكن خفف من ضغط حركة التوسع نحو الشمال وسرعتها الانشغال بالتجارة ، وامكان اللجوء الى المناطق الخالية من سهول الوادى الخصيب بعيدا عن مراكز الحضارة الحقيقية فى الأقاليم الشمالية للامبراطوريتين لفارسية والبيزنطية. وقد حددت ظروف التضاريس وتوزيع المياه والنبات فى شمولى بلاد العرب المنافذ والمسالك التاريخية للتيارات الجنسية والثقافية عبر الحد الداخلى للهلال الممتد من رأس الخليج الفارسى الى رأس خليج العقبة (٢٦١) . وكانت أسواق العرب تنتقل من مكان الى آخر فى شهور السنة ويحضرها عامة قبائل العرب من قرب أو بعد ، ومن هذه الأسواق ما كان عند دومة الجندل على سيف بادية الشام أول يوم من ربيع الأول وكان يعشوهم فيها أكيد دومة ـ وهو ملكها ـ وربما غلب على السوق كلها فيعشوهم بعض رؤساء كلب ، فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر ثم ينقلون الى سوق هجر ـ كما ذكر القلقشندى . وروى القالى أن قريشا كانت تجارا ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ـ حتى ركب هاشم بن عبد مناف الى الشام فنزل بقيصر وتمكن عنده ، وقال له : ان قومى تجار العرب فان رأيت أن تكتب لى كتابا تؤمن تجارتهم ، فيقدموا عليك بما يستظرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم . فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، فجعل هاشم كلما مر بحى من العرب فى طريق الشام أخذ

---

(٢٦٠) بلاد العرب من جغرافية سترابون : ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ـ مجلة المجمع العلمى العراقى م ٢ سنة ١٩٥٢ ، بلاد العرب من تاريخ تلينوس ـ محمود شكرى محمد. مجلة المجمع العلمى العراقى م ٣ حـ ١ سنة ١٩٥١ .

(٢٦١) Huzzayen : Arabia, and Far East. pp. 2:11

من أشرافهم ايلافا ، والايلاف أن يأمنوا عندهم فى أرضهم من غير حلف ـ انما هو امان الطريق ، وعلى أن قريشا تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حملها ويؤدون اليهم رءوس اموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الايلاف بينهم وبين أهل الشام ، حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شىء بركة ٠ فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يجوزهم يوفيهم ايلافهم الذى أخذه لهم من العرب حتى أوردهم الشام وأحلهم قراها ٠ وقد مات هاشم بغزة اذ كان الروم يقيمون لهم سوقا فيها فى موسم معلوم وكانت قريش فى الجاهلية تحضره وتمتار منه ٠ ورحلة الصيف انما كانت نحو الشام وبلاد الروم ٠ وذكر اللغويون من جملة التخريجات فى اسم قريش ـ أنها سميت لتجرها وتكسبها وضربها فى البلاد تبتغى الرزق ، وقيل لكونهم أهل تجارة زرع وضرع ـ من قولهم : فلان يتقرش المال أى يجمعه ٠ وكان الأنباط يحملون من الشام الى الحجاز الزيت والدرمك ويعودون الى الشام بحاصلات الحجاز ، وحين أسلمت قريش خافت انقطاع السفر الى الشام للتجارات لمخالفتهم أهل الشام بالاسلام ، فقال النبى : « اذا هلك قيصر فلا قيصر واذا هلك كسرى فلا كسرى » ٠ فقويت نفوس العرب على الاتجار مع هذين القطرين ٠ وكان العرب قبل الاسلام يملكون المزارع فى الشام (٢٦٢) ، ذكر ياقوت : نقنس من قرى البلقاء من أرض الشام كانت لأبى سفيان بن حرب أيام كان يتجر الى الشام ثم كانت لولده بعده ويسميها البلاذرى بقبش (٢٦٣) ٠

وكان ظهور الاسلام عاملا حاسما وحد بين الوطن الأم فى جزيرة العرب وبين امتداد المجال العربى فى الشام وعلى ضفاف الفرات وقد اتبع **طريق الحاج الشامى** الذى يربط الشام بالديار المقدسة فى الحجاز نفس طريق القوافل القديم المعروف بالتبوكية والذى سلكه الفاتحون المسلمون للشام ، وكان بنو أمية يسلكون هذا الطريق فى ذهابهم الى مكة والمدينة ، ويحكى ابن الفقيه أن الوليد بن عبد الملك حفر المياه فى مختلف المنازل الواقعة على هذا الطريق كما أنشأ البيمار ستانات للمرضى، فى حين أقام مروان بن الحكم علامات الأميال على حدود الحرم فقط كما يفهم من ابن رستة ، ولو كانت هذه العلامات قد وضعت على الطريق كله لاهتم الجغرافيون بذكر مراحل الطريق مقدرة بالأميال كما فعلوا فى طرق أخرى (٢٦٤) ٠

---

(٢٦٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٥ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٨ ص ٣١٠

(٢٦٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٥ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٨ ص ٣١٠ ٠

(٢٦٤) موزيل : شمال الحجاز ترجمة دكتور الحسينى ص ١٥٥

وبالنسبة للجزيرة استمرت موجات الهجرة والاستقرار فى ديارها، ولئن كانت قد وجدت فرصا سانحة أثناء صراع الفرس والروم قبل الاسلام ، فقد وجدت فرصا أكبر بعد الفتح الاسلامى اذ استمر تدافع النازحين من الصحراء الى مناطق الاستقرار فى الشام والجزيرة ، وكان عهد ولاية معاوية للشام والجزيرة ايام خلافة عثمان فترة هامة فى هذا الصدد وان لم تكن الفترة الأخيرة (٢٦٥) • وأشاع الاسلام ثقافته كما صهر الثقافات القديمة بالهلال الخصيب فى البوتقة العربية ، وهكذا أصبح هذا الاقليم وسطا جغرافيا بالنسبة للعالم الاسلامى من ناحية والعالم العربى من ناحية أخرى • ولئن كانت المساحات الصحراوية من عوامل الفصل التى أثرت فى خلق قوميات محلية عديدة ، الا أن التاريخ يثبت أنها كانت عامل ربط بين هذه القوميات ـ اذا أوجدت عملا ثابتا للعنصر البدوى المتحرك بين الجماعات الزراعية المستقلة وهو الاشتغال بالنقل ، ومع نقل التجارة كانت تنتقل الآراء وتشيع الحضارة والثقافة كما كانت تنتقل جماعات البدو وتهاجر وتستقر فى أطراف الريف العراقى أو السورى فى سهولة ويسر (٢٦٦) •

(ج) التوجيه البحرى :

غدت الدولة الاسلامية باستيلائها على فارس وريثة نشاط الفرس التجارى فى ميدان الشرق الأقصى ، كما غدت بفتح الشام ومصر مسيطرة على حوض البحر المتوسط الشرقى ـ وهكذا تحقق للعرب حلم الفرس القديم • على أن « هذا الوضع لم يغير الظروف والطرق التجارية فى المنطقة ، لكن تبدلت الدول المتنافسة وقام عهد تجارى جديد • وكان أمام الدولة الاسلامية الطريقان الرئيسيان اللذان احتكرهما الفرس قبل زوال دولتهم : طريقا البر والبحر الى الهند والصين ، وقد دب النشاط التجارى الجديد عبر هذين الطريقين بانتظام واطراد » (٢٦٧) •

وأبدت الدولة الأموية عناية فائقة بسياستها البحرية فى البحر المتوسط ، فمعظم سواحل الشام من فتوح معاوية ، بل هو قد ذهب الى

---

(٢٦٥) Canard : Hist. de la Dyn. des Hamdanides. pp. 135-6
البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٦ أيضا ص١٥٧

(٢٦٦) الدكاترة دولت وغلاب والدناصورى : الجغرافيا السياسية ص ٣٦٧ ـ ٨ ، ٣٧٢ ، ٤١٨ •

(٢٦٧) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١١١ •

المخاطرة بغزو جزره . وهكذا رأينا الأمـــويين اذ نقلوا مركـز الدولة الاسلامية من الحجاز الى الشام قد غيروا وجهتها بصورة واضحة تغييرا بدت بوادره منذ عملوا لأبى بكر وعمر فى فتح الشمال ومصر ، لكن هذا التغيير لم تستبن معالمه الا فى عهد معاوية الذى حرص على أن يوجه الدولة كلها وجهة غربية متوسطية ، وتابعه على ذلك خلفـــاؤه « فتحولت دولة الاسلام من دولة قارية صحراوية الى دولة بحرية .وكان الأمويون هم الذين كسروا الوحدة التاريخية القديمة لهذا البحر وحولوه من بحيرة داخلة فى نطاق العالم اللاتينى اليونانى الى حد بين ذلك العالم وعالم آخر جديد هو العالم الاسلامى المشرقى . غير أن انتقال الخلافة الى العباسيين كان نقلا للدولة الاسلامية من عالم البحر الأبيض حيث كان بناؤها يعلو ويتكامل فى محيط هيلينى رومانى وهدفها الحلول محل القســـطنطينية وروما والسيادة على البحر المتوسط ـ الى عالم آسيوى مخالف تماما فأصـــبح الخليفة كسرويا وهدف الدولة الجباية وانفصل الأندلس والمغرب وأهملت شواطىء الشام وصفى الجناح الغربى للدولة الاســـلامية . وكان الذين قاموا بفتح صقلية وكريد فى العصر العباسى من الأندلسيين ، فى حين نفضت الخلافة الاسلامية الشرقية يدها من البحر المتوسط وأخذت آسيا تبتلعها ، ونظرت الى الشواطىء على أنها حدود ونهايات ينبغى حمايتها لا أبواب وثغور يقفز منها الى ماوراء البحر من بلدان . وهكذا لم تنتقل الدولة الاسلامية من عهد التعرف على عالم البحر المتوسط أيام الأمويين الى عهد السيطرة الفعلية عليه والاستفادة منه كطريق للمواصلات والتجارة كما فعل الرومان ، وأوقف ذلك التطور ما حدث من تغير مفاجىء لسياسة الدولة الاسلامية على أثر قيام الخلافة العباسية (٢٦٨) » .

وقد ساعد موقع الثغور بالقرب من البحر المتوسط ، بل ومن الخليج الفارسى والبحر الأحمر والبحر الأسود ، على تأكيد أهمية الدور الذى يمكن أن تؤديه فى التجارة والحرب على السواء . وكانت بذلك مراكز أمامية على الحدود البرية ،تتعاون مع الجبهة البحرية على ساحل البحر المتوسط كما شغلت مراكز حساسة على خطوط مواصلات منتظمـــة تربطها بطرق التجارة العالمية برية وبحرية . وقد عرض ابن خرداذبة لطائفة من التجار العالميين هم **اليهود الراذانية** « الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلبية ، وأنهم يسافرون من المشرق الى المغرب

---

(٢٦٨) دكتور مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ م .
Cheira : La Lutte entre les Arabes et les Byzantins P. 85.

ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ، يحملون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ،وهم يركبون البحر المتوسط حتى ساحله فيخرجون ـ بالفرما **أو انطاكية** ، يصلوا الهند والصين فيجلبون من هناك (المسك العود والكافور والدار صينى وغيرها) ويعودون بهذه السلع فيبيعونها فى القسطنطينية أو أوربا ، **أما اذا نزلوا بانطاكية فيحملون معهم متاجر أوربا ثم يسيرون حتى الفرات** ، وفيه يركبون حتى بغداد ثم يركبون دجلة حتى الأبلة فالخليج الفارسى ٠ ومنه الى المحيط حتى يصلوا الهند والصين (٢٦٩) ٠ وهكذا كانت الثغور حلقة هامة في المواصلات بين البحار الشرقية والغربية ٠

د ـ العلاقات الحضارية بين المسلمين والروم :

يقول ارنست باركر E. Barker ان الساحل الشرقى لبحر الروم من القسطنطينية الى الاسكندرية كان لعدة أسباب جغرافية متنوعة منطقة زاخرة بكثير من المشاكل : ففى هذه المنطقة ـ سواء عن طريق البحر الأسود أو البحر الأحمر أو عبر الصحراء ـ كانت أوربا تتصل بآسيا وما فيها من منتجات وأسرار ، وكانت هذه المنطقة أيضا مهد المدنيات والديانات والفلسفات ، وكان لابد من وقوع كثير من التصادم فى منطقة كهذه : وبعض التصادم كان اقتصاديا وبعضه كان دينيا وبعضه كان سياسيا وبعضه كان صراعا بين أجناس مختلفة ، وبعضه كان خليطا من ذلك كله ٠ ومن أكبر صور هذا التصادم وأجلها أثرا : ذلك الذى وقع بين كنيسة المسيحية الغربية وحضارتها وشعوبها من جهة ، وبين العقيدة الاسلامية وحضارتها وشعوبها من جهة أخرى ٠ بدأ هذا النضال بهزيمة هرقل ـ الذى يمكننا أن نسميه أول المحاربين الصليبيين ـ على يد قوات عمر فى واقعة اليرموك سنة ٦٣٦م ٠ وكان هذا النضال فى وقت من الأوقات دينيا قبل كل شىء ، ثم غلب عليه العنصر السياسى وقتا آخر ، كما كان نزاعا بين شعوب مختلفة ٠ ونجا بين الرومان والسلاف من ناحية ، وبين العرب والترك من ناحية أخرى ٠ لكنه ظل دائما نزاعا بين طرفين تتقابل فيه حضارتان وجها لوجه ، واحدى مظاهره الحروب الصليبية ١٠٩٦م التى فى وسعنا أن نقول انها استمرت الى عهد السياحات البحرية البرتغالية وكشوف كولمب (٢٧٠) ٠

---

(٢٦٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ٤

(٢٧٠) باركر : فصل الحروب الصليبية ـ ترجمة أحمد عيسى من كتاب (تراث الاسلام)، حـ ١ ص ٨٢ ـ ٣

ولم يكن العداء بين الدولتين البيزنطية والاسلامية ليقيم بينهمه سدا منيعا ، فسبيل الاتصال قائم بحكم الظروف الجغرافية والتاريخية، ومسالك الثقافة يتعذر سدها وهكذا التقى المسلمون بالثقافة الهيلينستية فى الولايات البيزنطية وبعض الأراضى الفارسية التى بسطوا سلطانهم عليها ، فانتهلوا من الثقافة الزاهرة فى انطاكية وقيصرية وغزة • ولعب اقليم الثغور والعواصم دوره الحضارى كما لعب دوريه التجارى والحربى• فانتقلت مدرسة الاسكندرية الى مدينة انطاكية فى عهد عمر بن عبدالعزيز، وكانت انطاكية من قبل مركزا لثقافة يونانية زاهرة رعاها اليعاقبة قبل الاسلام ثم أدركها الاضمحلال قبل استيلاء العرب على انطاكية ــ وذلك على أثر ما أصاب المدينة من نوازل الفرس وزلازل الطبيعة • لكن أتاح لها انتقال مدرسة الاسكندرية اليها على أيدى العرب أن تبعث من جديد • وعلى الرغم من وقوعها فى منطقة الأطراف القلقة بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية ، الا أن موقعها قد يسر جلب المخطوطات اليها من بلاد الروم فى آسيا الصغرى ، والاشراف على حركة تبادل الكتب خـــلال فترات السلام بين الحروب • وظلت مدرسة انطاكية زاهرة نحو ١٣٠ سـنة أو أكثر ، ثم انتقلت الى حران بالعراق الأعلى فى عهد المتوكل على يد تلميذين من انطاكية وهناك ظلت زاهرة نحوا من أربعين سنة حتى ارتحل الفلاسفة والعلماء منها الى بغداد فى خلافة المعتضد (٢٧١) • اذا كانت مدرسة انطاكية قد قامت فى قاعدة اقليم العواصم من جهة الشام ، فان حران لم تكن بعيدة عن اقليم العواصم من ناحية الجزيرة •

***

هيئت الظروف الجغرافية الثغور الشامية والجزرية على هذا الوجه لأداء دورها التاريخى على الحدود الاسلامية والبيزنطية فى مختلف المجالات وكما يقول جوردون ايست Gordon East « ••• ليست التخوم الا منطقة انتقال ، فلا تعد فاصـلا حـادا صـارما واضح السمـات • ولـما كانت هذه التخوم تمثل رقعة من سطح الأرض فانه يغدو من الواضح أن تقدر أهميتها الجغرافية •• فلا شك أن الظروف الطبيعية التى تسود التخوم مما يعنى الدول الملاصقة لهذه التخوم كثيرا ، لأن لها علاقة بما تمتاز به طرق المواصلات ووسائل النقل والدفاع من صعوبة ويسر » (٢٧٢) •

---

(٢٧١) دكتور العدوى . الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٣٨ : ١٤٢ •
(٢٧٢) جوردن ايست : الجغرافيا توجه التاريخ ــ ترجمة دكتور الدناصورى ص ٧ •

وقد أدت الثغور الشامية والجزرية دورها الحربى كأداة حجز ووقاية للدولة ، كما أدت دورها الحضارى كوسيلة اتصال بين الشعوب لتبادل المتاجر والثقافات « ولموقع الدول بالنسبة للكتل الأرضية أو المساحات المائية علاقة وثيقة بالسياسة الدفاعية أو الهجومية التى تنتهجها ، والموقع اما متوسط يسهل اتصاله ببقية البلاد واما حدى تتعذر اتصالاته . والمواقع الاستراتيجية لها أهميتها لأنها تعمل فى ابان السلم على توجيه الحركة التجارية ، أما فى زمن الحرب فيستفاد منها فى انشاء القواعد الحربية (٢٧٣) » .

---

(٢٧٣) نيجلد – برسى : الجيوبوليتيكا – ترجمة مجلى واسكندر حـ ١ ص ٦٣ – ٤

الفصل الثالث

منشأ الثغور والعواصم وتطورها عند المسلمين

أولا : العوامل المؤثرة فى التنظيم الادارى الحربى الاسلامى فى الشام والجزيرة الجغرافية ، التاريخية ، الدينية) .

ثانيا : الفتح الاسلامى يبرز أسس التنظيم

(الاحتكاكات الأولى ، جيوش الفتح ونواة التقسيم ، الفتوح فى : شمالى الشام ، الجزيرة ، ارمينية ، البحر المتوسط)

ثالثا : مرحلة نشوء التنظيم الادارى العسكرى الاسلامى فى أيام الخلفاء الراشدين

(الاصطلاحات ، الرباطات ، القوى البشرية ، الأجناد ، الشواتى والصوائف)

رابعا : مرحلة نضوج التنظيم الادارى العسكرى الاسلامى

(الأمويون وسياستهم البحرية ، العباسيون وافراد الثغور والعواصم بولاية خاصة)

كان ظهور اقليم الثغور والعواصم فى شمال الشام والجزيرة حلقة من حلقات تطور مر به النظام الادارى فى الدولة الاسلامية منذ فتح تلك الجهات • وفيما يلى عرض للعوامل التى أثرت فى هذا التنظيم وأدت الى افراد الثغور والعواصم في ولاية خاصـــة ، وعرض للمراحل التى مر بها التنظيم الادارى الاسلامى حتى وصل الى هذه المرحلة •

أولا ـ العوامل المؤثرة في التنظيم الادارى العسكرى الاسلامى فى الشام والجزيرة

أ ـ الظروف الجغرافية :

كان خط سير الجيوش الاسلامية فى فتح الشام يســـير فى طريق القوافل المعروف الذى يؤدى من مكة والمدينة الى دمشق ، ومن ثم كانت أولى المناطق خضوعا لنفوذ المسلمين هى المنطقة الواقعة شرقى نهر الاردن والبحر الميت ، ولم يتهيأ انجاز فتح منطقة الجليل والأراضي المنخفضة من اقليم الأردن وفلسطين حتى تم الاستيلاء على دمشق ونواحيها فى الشمال أما اخضاع الاقاليم الواقعة في شمال دمشق بما فيهـا من مدائن كبرى مثل أنطاكية وحلب وحمص فقد أتبع ذلك مبـــاشرة وبذلك انتهى فتح الشام • **وان الخط الذى تحرك فيه جيش الفتح الاسلامى يفسر التقسيم الذى أجرى في الاقاليم المفتوحة على يد عمر بن الخطاب ، اذ قسمت بلاد الشام الى أقاليم سمى كل منها جندا** • (١) وقد دارت رحي المعارك الحربية بين المسلمين والبيزنطيين فى الشام فى **جهات حددتها جغرافية الاقليم** ، اذ تمتاز تضاريس الشام بتتابع من أرض منخفضة وأخرى مرتفعة تمتد

(١) Le Strange : Palestine under the Moslems. p. 24.

متوازية من الشمال الى الجنوب مع ميل نحو الشرق ، فالساحل تليه أرض جبلية ثم وديان الأردن وأخيرا المنطقة المتصلة بالصحراء . **وقد بدأ المسلمون فتوحاتهم فى المنطقة الأخيرة حيث ينتهى الشريان التجارى القديم ، بينما تأخر استيلاؤهم على المنطقة الساحلية التى كانت موضع** اهتمام البيزنطيين وكانت تأتى منها امدادهم تدفع المسلمين (٢) ويظهر تأثير الظروف الجغرافية فى توزيع القادة المسلمين على مناطق الشام وكان أبو بكر قد سمى لكل أمير من أمراء الشام كورة : فسمى لأبى عبيدة ابن عبد الله بن الجراح حمص ، وليزيد بن أبى سفيان دمشق ، ولشرحبيل بن حسنة الأردن ، ولعمرو بن العاص ولعلقمة وبن مجزز فلسطين . (٣) وقد ذكر ابن رسته أن عمر كان اذا اجتمع عليه القادمون من أنحاء بلاد العرب أمر عليهم واليا وأمضاهم الى ناحية الشام ، **فجند عمر الشام أربعة أجناد متفرقة فى أيدى عماله** : وهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد ابن الوليد ويزيد بن أبى سفيان وعمر بن العاص ، **فبقيت الشام على ذلك التجنيد** حتى زاد فيها يزيد بن معاويةقنتشرين ـ وكانت منأرض الجزيرة فصارت أجناد الشام أربعة : جند فلسطين ـ وهى الرملة ، وجند الأردن ـ وهى الطبرية ، وجند دمشق ، وجند قنسرين (٤) .

وكان قيام **جبال طوروس** بممراتها المحدودة على حدود الدولتين الاسلامية والبيزنطية ظرفا طبيعيا ساعد على تكييف الدفاع وتأسيس المدن على نحو معين ، فاذا تأملنا الخط الدفاعى على امتداد جبال طوروس من الفرات الى حدود كيليكيا : فاننا نجد مدينة ملطية Melitene عند التقاء كثير من الطرق الكبرى المؤدية من سبسطية Sebastea (Siwas) وقيصرية Caesarea الى أرمينية ، وعلى الطريق من ملطية الى جرمانيكيا Germanicia (مرعش) عبر جبال طوروس ،نجد قلعتى زبطرة Zapetra والحدث Adata اللتين كثيرا ما تعرضتا لهجوم الروم وقد قام الرشيد بتحصين مرعش وعين زربى وابتنى قلعتى الكنيسة والهارونية بينهما فى منطقة التلال التى يجتازها نهر جيجان الأعلى Pyrammus ، وكان الخط من ملطية الى عين زربة يمثل **تحصينات الدفاع عن الجزيرة** ، بينما حصنت الشام بخط آخر كانت مراكزه الرئيسية فى المصيصة Mopsuestia وأذنه Adana وطرسوس Tarsus

---

(٢) دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٤٧ ـ ٨

(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٣٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١١٥ (رواية عن الواقدى).

(٤) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ص ١٠٧

وعند ما كان الطريق الساحلي يبرز من الأبواب القيليقية (الكيكلية) ويطوف حول خليج أسوس Isus كان يتجول بعد ذلك البر متجها الى المصيصة ومنها يسير غربا الى طرسوس مارا بأذنه التي يدخلها عن طريق القنطرة القديمة التي شيدها جستنيان على نهر سارس Sarus ومن بين ممرات جبال طوروس اشتهرت الأبواب الكيليكية Cilician Gates التي استخدمها البيزنطيون والمسلمون في حروبهم ، ثم الممر الذي يصل بين مرعش وعربسوس Arabissos (لبستان أو الأبلستين) ٠
وكان ممر الأبواب الكيليكية يبدأ من النقطة التي ترتفع فيها الهضبة الوسطى لآسيا الصغرى في [illegible]ب طوانة Tyana الى النقطة التي تنتهي عندها السفوح الجنوبية لطوروس في سهل كيليكيا ٠ وعند نهاية هذا الممر من الشمال توجد قمة منعزلة شاهقة تتحكم في منطقة واسعة من سهول كبادوكيا الجنوبية ومنحدرات طوروس الشمالية ، وعلى هذا العلو الشاهق المنيع كانت تقع قلعة اللؤلؤة Lulon التي تداولتها أيدي المسلمين والبيزنطيين وكانت مفتاح الأبواب الكيليكية ، ويقول عنها الأستاذ بيوري Bury أنه عندما كانت في أيدي الروم كان من العسير على جيش عربي أن يغزو كبادوكيا ، وعند ما كان يستولي عليها العرب لم يكن في وسع جيش امبراطوري أن يخاطر باقتحام منافذ الممر الضيقة ، وكان الطريق الشمالي الى طوانه والطريق الغربي الى هرقلة Heraclea يلتقيان بجوارها ٠ كذلك يصعد طريق الى البذندون وهو يجتاز بعدها وديانا ومنحدرة ٠ وضيقة الى نهايته وتتحكم فيه من الجانب الشرقي على ارتفاع شاهق قلعة محكمة البناء من الحجر الأسود تسمى حصن الصقالبة وهكذا كانت طبيعة ممرات جبال طوروس تحدد مواقع معينة يمكن عندها التحكم في المسالك والمعابر ويبرز بيوري استراتيجية أحد هذه المنافذ الجبلية وهو المسمى بالابواب الكيليكية والذي اعطى اسمه للممر المسمى بها الاسم والذي يبلغ طوله حوالي سبعين ميلا ، بينما كان المنفذ الجبلي نفسه يبلغ طوله مائة ياردة ولا يزيد عرضه عن بضع ياردات قليلة وتكشفه جوانب صخرية عالية ترتفع عمودية من الناحيتين وتهيىء بهذا فرصة الدفاع عنها العدد قليل من رجال أولى عزم يواجهون قوة ضخمة ٠

وقد حرص المسلمون وقت ازدهار دولتهم واشتداد قوتهم على السيطرة على البذندون والممر وحصن اللؤلؤة ، وكان الأخير قد تداولته أيدي البزنطيين والمسلمين (٥) ٠

---

(٥) Bury : History of Eastern Roman Empire : pp. 244: 6

ب ـ السوابق التاريخية :

كانت سوريا فى نهاية القرن الرابع تنقسم الى عدة مقاطعات :

١ ـ سوريا : وهى القسم الشمالى ، وتنقسم الى جزئين : **سوريا الاولى** Syria Prima ومركزها أنطاكية ، ومن مدنها الرئيسية سليوكيا (سلوقية) Seleucia ولاودكيا (اللاذقية) Laedicea وجبلة Gabila وبيرويا (حلب) Beroea وخالكيس أدبيلوم Chalcis adBelum

وسوريا الثانية : Syria Seconda ومركزها مدينة أفامية ومن المدن التابعة لها ابيفانيا (حماه) Epiphania وأريتوزه الرستن) Arethusa ولا ريسا (شيزر) Larissa

٢ ـ فينيقيا وقسمت قسمين : **فينيقية الاولى** Phoenicia Prima ومركزها صور Tyre وفى هذا القسم من المدن الرئيسية بتولمايس Ptolemais (عكا) وصيدا Sidon وبيروت Berythus وجبيل Byblus وبوتريس Botrys وطرابلس Tripoli وعرقة Arka وأرواد Aradus · ثم **فينيقية الثانية** أو فينيقية المقابلة للبنان Phoenicia ad Libanum ومركزها دمشق Damascus وتضم مدن حمص Emesa وهوليوبوليس Heliopolis وتدمر Palmyra وفينيقيا الأولى وهى فينيقيا البحرية المعروفة فى التاريخ ، أما الثانية فكانت مقاطعة داخلية تضم مدنا لم يسبق أن كانت تابعة لفينيقيا أو لبنان ·

٣ ـ فلسطين : وقد قسمت الى ٣ أجزاء :

فلسطين الأولى Palestina Prima وكانت قيصرية مدينتها الرئيسية Caesarea وضمت بجانب ذلك أورشليم Jerusalem ونيابوليس (نابلس) Neapolis وجوبا (يافا) Joppa وغزة Gaza وعسقلان Ascalon وغيرها ·

أما فلسطين الثانية Palestina Secunda فمركزها سكيثوباليس (بيسان) Scythopolis ومدنها الرئيسية جدرة Gadara وطبرية Tiberias

وثم **فلسطين الثالثة** Palestina Tertia كانت مدينتها الرئيسية البتراء Petra وقد تشكلت من الولاية العربية السابقة Arabia (١)

وقد وجد المسلمون هذه التقسيمات البيزنطيـة أمامهم ، فاهتدوا بها في ترتيب البلاد وادارتها ، كما استوحوا مقتضيات الأعمال الحربية للدفاع عن بلاد الشام ضد هجمات البيزنطيين • فقسم عمر بن الخطاب بلاد الشام الى أربعة أجناد : **جند دمشق** ، وفي الشمال **جند حمص** ، والى الغرب والجنوب الغربي **جند الأردن** ويشمل الجليل وغوطة الاردن حتى البحر لميت ، والى الغرب من ذلك **جند فلسطين** الذي يشتمل على الجهات الواقعة جنوبي سهل عكا ويحده البحر المتوسط من الغرب وصحراء التيه والطريق الى مصر من الجنوب • **ثم افرد جند قنسرين** عن جند حمص في بداية أيام الدولة الاموية على يدى معـاوية أو ابنه يزيد • ويذكر الدكتور العدوى أن « **تلك الاسماء الجغرافية التي سـميت بها أجناد الشام تدل دلالة واضـحة على ان هذا النظام اخذ باجمعه عن الدولة البيزنطية تشبها باساليبها التي استعار المسلمون الشيء الكثير منها في بناء صرح امبراطوريتهم • فالاجناد الاسلامية أقاليم استقرت فيها فرق من الجيش الاسلامية لحمايتها وقبض أعطياتهم فيها وهي تتفق مع التقسيم البيزنطي الذي وجده العرب قائما في الشام عند فتحها** (٧) ولم تخف على المسعودى أوجه الشبه بين البنود البيزنطية والاجناد الاسلامية حيث يقول « أرض الروم واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين المشرق والمغرب مقسومة في قديم الزمن على أربعة عشر قسما ـ أعمال مفردة تسمى **البنود** ، **كما يقال اجناد الشام** كجند فلسطين نجند الأردن دمشق وجند حمص وجند قنسرين • غير أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد وأطول » (٨) •

ويشير لى سترينج Le- Strange معرض التدليل على هذا الرأى الى ما ورد في قانون ثيودوسيوس Code of Theodosius الذى يرجع تاريخه الى القرن ٥ م من وصف لتقسيم الشام في حكم الروم ، ويخلص الى هذه النتائج :

---

(٦) Hitti : History of Syria. pp. 351: 3
والترجمة العربية للدكتور جورج حداد وعبدالكريم رافق جـ ١ ص ٣٨٨ ـ ٩ ، وقد ذكر في الترجمة العربية أن مركز فينيقيـة الثـانية حمص لا دمشق خلافا للاصل الانجليزى •

(٧) دكتور العدوى : دراسات في التاريخ البيزنطي ـ المجلة التاريخية المصرية م ٢ ع ٢ اكتوبر ١٩٤٩

(٨) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٥٠

١ ـ **فلسطين الأولى** وقصبتها قيصرية وتضم اليهودية والسامرة Judea, Samaria صـــارت **جند فلســطين** وصارت القصبة الرملة .

٢ ـ **فلسطين الثانية** ـ وقصــبتها ســكيثو بوليس (بيســان Beth Shean) وتضم الجليلين والقسم الغــربى من البتراء Petraea صارت **جند الاردن** وصارت القصبة طبرية •

٣ ـ **فلسطين الثالثة ـ أو** Salutaris وتشمل أيدوميا (أدوم) Idumaea والبتراء العربية **ادخل جزء منها فى جند دمشــق واعتبر جزء منهــا من جند فلسطين •**

٤ ـ **فينيقيا الأولى** وقصبتها صور ، **وفينيقيا الثانية** أو المقابلة للبنان : صارتا فى التنظيم الجديد مع كثير من الأراضى الممتــــدة شرقى الأردن **جند دمشق •**

٥ ـ **سوريا الثانية** ـ الشمال وقصبتها افامية : **قسمها العرب بين حماة وحمص •**

٦ ـ **سوريا الأولى** وقصبتهـــــا أنطاكية : صـــارت **جند حلب أو قنسرين** أو بتعبير أدق ذلك الجزء من جند حلب أو قنسرين الذى جرى فصله نهائيا تحت اسم جند العواصم • (٩)

واستبقت الدولة الأموية التنظيم القديم للأجناد البيزنطية على هذا النحو themes byzantins باعتبارها تابعة لديوان الجند أو الجيش • وكانت هذه الأقسام أقساما عسكرية ومالية في الوقت نفسه ، وهى تضم المحاربين المقيمين فى كل اقليم ويكفل خراج الاقليم أرزاق جنوده (١٠) • وقد أدى تزايد اهتمام المسلمين بحدودهم مع البيزنطيين نتيجة الصراع المستمر بين الدولتين الى افراد الجزيرة وفصل اقليم قنسرين عن حمص فى صدر العهد الاموى ، ثم فصـــل اقليم الثغور والعواصـم عن جند قنسرين فى العصر العباسى • **وهكذا أدى تراث البيزنطين فى التقسيم الادارى من جهة ، وصراع المسلمين معهم من جهة أخرى الى تشكيل الأجناد الاسلامية على النحو الذى ظهرت به فى المراحل المتتابعه من تاريخها •** روى البلاذرى عن الواقدى « استشار عمر المسلمين فى تدوين الديوان

---

(٩) Le Strange : Palestine under the Moslems p. 26.

(١٠) Gaudefroy — Demombynes, Platonov: Le monde Musulman et Byzantin p. 216.

فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : **قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جندا فدون ديوانا وجند جندا فأخذ بقوله** » (١١) .

وذكر ابن الشحنة تعليقا على تسمية أبى بكر كور الشام لأمراء جيوش الفتح « **فدل بذلك على أن الشام لما كان بأيدى الروم كان منقسما الى هذه الكور الأربع لا غير** • **ومما** يؤيد ماقدمنا ماذكره قدامة بن جعفر فى كتاب الخراج أن أبا عبيده سار الى قنسرين وكورها يومئذ مضافة الى حمص ، ولم تزل كذلك حتى أفرد جندها يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج والثغور جندا وأفردها عن حمص وصير حمص وأعمالها جندا • ولما استخلف هارون الرشيد أفرد قنسرين بكورها وصيرها جندا وأفرد منبج ورعبان وقورس ودلوك وأنطاكية وتيزين والثغور وسماها العواصم • وقد قيل ان العواصم من حلب الى حماه سميت بذلك لأن المسلمين يعتصمون بها فى الثغور فتعصمهم وقيل أن الذى جعل حلب وقنسرين جندا على حدة وأفردها عن حمص معاوية بن أبى سفيان وكانت حمص وقنسرين شيئا واحدا » (١٢) • وقد أعان على فصل اقليم الثغور والعواصم وجعله جندا مستقلا تحوله الى اقليم حدود بحت أيام العباسيين اذ أتسم عهدهم بالابتعاد عن مشروع فتح القسطنطينية وعن محاولة السيطرة على البحر المتوسط والقضاء نهائيا على دولة الروم • واتخذوا لدولتهم وجهة مشرقية آسيوية بدلا من ذلك •

ج ـ العامل الدينى :

جاء الاسلام يأمر بالجهاد كما يأمر بالرباط • ففى القرآن الكريم « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا» ذكر ابن كثير فى تفسيره: قيل المراد بالمرابطة مرابطة الغزو فى نحور العدو وحفظ ثغور الاسلام وصيانتها عن دخول الاعداء الى حوزة بلاد المسلمين • وأورد الآثار التى ترغب فى ذلك ، فمنها ما رواه البخارى رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » • وروى أحمد « من رابط فى شىء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام أجزأت عنه رباط سنة » « حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من الف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها » • ونقل ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك أنه أملى هذه الأبيات بطرسوس فى رسالة منه الى **الفضيل بن عياض سنة ١٧٠ هـ وقيل سنة ١٧٧ هـ** •

---

(١١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٦

(١٢) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٩

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا وهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله في أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب

فانطلق حامل الرسالة فلقى الفضل بن عياض بها في المسجد الحرام فلما قرأه ذرقت عيناه وقال : صدق أبو عبدالرحمن ونصحني(١٣)

وقد روى في فضل أنطاكية آثار غريبة منها « أنطاكية أم الثغور ، وفضلها على الثغور كفضل الفردوس على سائر الجنان ، الساكن فيها كالساكن في البيت المعمور ... وهي معقل ورباط ، وعبادة يوم فيها كعبادة سنة ، ومن مات فيها كتب الله له يوم القيامة أجر المرابطين (١٤)

ومن هنا تتابع المجاهدون المسلمون على الرباط عند تخوم الدولة وسواحلها . فيروى البلاذرى أن الزبير ابن العوام هم بالغزو وأراد اتيان أنطاكية فقال له عمر : يا أبا عبد الله ، هل لك في ولاية مصر ؟ فقال : لا حاجة لى فيها ولكنى أخرج مجاهد وللمسلمين معاونا ، فان وجدت عمرا قد فتحها لم أعرض لأمره وقصدت الى بعض السواحل فرابطت به ، وان وجدته في جهاد كنت معه ، فسار على ذلك .

وروى الواقدى أن ابن هرمز الأعرج القارىء كان يقول : خير سواحلكم رباطا الاسكندرية فخرج اليها من المدينة مرابطا فمات بها سنة ١١٧هـ (١٥) فلا عجب اذا رأينا حفيد الرسول الحسين بن على يعرض على الامويين سنة ٦٠ هـ الخروج الى الثغور كحل لخلافه مع بنى أمية فهو يقول لعمر بن سعد بن أبى وقاص الذى ولاه عبيد الله بن زياد وطلب اليه أن يكفيه الحسين « اختر واحدة من ثلاث : اما أن تدعونى فأنصرف من حيث جئت ، واما أن تدعونى فأذهب الى يزيد ، واما أن تدعونى فألحق بالثغور » (١٦) .

---

(١٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٤٤ : ٧
(١٤) الغزى : نهر الذهب في تاريخ حلب ح ١ ص ٣٩٠ ــ ١
(١٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٠ ، ٢٣٠
(١٦) الطبرى ج ٦ ص ٢٢٠

ثم نجد الرشيد سنة ١٨٧ هـ « أغزى ا بنه القاسم الصائفة فوجبه الله وجعله قربانا له ووسيلة وولاه العواصم » (١٧) ٠

وقد خلف هذا المعنى الدينى أثره على كلمة الرباط من الوجهة اللغوية فغدت اصطلاحا للجهاد المقدس ٠ ففى اللسان « الرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو أو الجهاد ، وأصله أن يربط فيه الخيل » وفى القاموس ، المحيط من معانى الرباط « ملازمة ثغر العدو كالمرابطة ، والخيل أو الخمس منها فما فوقها ، وواحد الرباطات المبنية ٠ والمرابطة أن يربط كل من الفريقين خيولهم فى ثغرة وكل معد لصاحبه ، فسمى المقام فى الثغر رباطا والربيط الراهب والزاهد والحكيم » ٠ وفى أساس البلاغة : « ورابط الجيش أقام فى الثغر والأصل أن يربط هؤلاء وهؤلاء خيلهم ثم سمى الاقامة فى الثغر مرابطة ورباطا ، والغزاة فى مرابطهم ومرابطاتهم وهى موضع المرابطة ، ووقف ماله على المرابطة وهى الجماعة التى رابطت ومنها : اللهم أنصر جيوش المسلمين ومرابطاتهم ٠٠ »

وقد وردت الاحاديث فى فضائل الشام : منها ما رواه عبد الله بن حوالة وكان رجلا من الأزد مسكنه بالأردن ، قال رسول الله : انكم ستجندون أجنادا ـ جندا فى الشام وجندا فى العراق وجندا باليمن ٠ قال : قلت يا رسول الله : خر لى ٠ قال : عليكم بالشام ، فمن أبى فليحق بيمنه يستق من غدره ، فان الله قد تكفل لى بالشام وأهله ٠

وروى عن كعب الاحبار : أن الرأس الشام وان مصر الذنب وان العراق الجناح ٠ وعنه أيضا : خمس مدائن من مدن الجنة : بيت المقدس وحمص ودمشق وجبرين وظفار اليمن ، وخمس مدائن من مدائن النار القسطنطينية والطوانة وأنطاكية وتدمر وصنعاء اليمن ٠ وعنه أيضا : لن تزالوا بخير مالم يركب أهل الجزيرة أهل قنسرين وأهل قنسرين أهل حمص فيؤمئذ تكون الجفلة ويفزع الناس الى دمشق ٠ والمعروف عن كعب الاحبار أنه ينقل عن التوراة ومأثورات بنى اسرائيل ٠ وحدث أبو الدرداء عن النبى : أهل الشام وأزواجهم وذراريهم وعبيدهم وامائهم الى منتهى الجزيرة مرابطون فى سبيل الله فمن أحتل منها مدينة فهو فى رباط ، ومن احتل منها ثغرا من الثغور فهو فى جهاد وفى رواية : فمن

---

(١٧) الطبرى جـ ١٠ ص ٨٩

احتل ساحلا من تلك السواحل فهو فى جهـــاد ومن احتل بيت المقدس وما حوله فهو فى رباط • وحدث ابراهيم اليمانى قال : قدمت من اليمن فأتيت ســـفيان الثـــورى فقلت : يا أبا عبـــد الله انى جعلت فى نفسى أن أنزل جدة فأرابط بهـــا كل ســـنة وأعتمر كل شـــهر عمرة وأحج فى كل ســـنة حجة ، أفأقرب من أهـــلى أحب اليـــك أم آتى الشـــام ؟ فقال لى : يا أخا أهل اليمن ، **عليك بسواحل الشـــام ، عليك بسواحل الشام ، فان أهل البيت يحجه فى كل عام مائة ألف وثلاثمائة ألف وما شاء الله من التضعيف ـ لك مثل حجهم وعمرتهم ومناسكهم (١٨)** •

ولئن كانت هذه الآثار متفاوتة فى قوة سندها وسلامة متنها فان ايحاءها واضح **ودلالتها بينه على تملك الرباط فى الثغور لمشاعر القوم** •

(١٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ـ تحقيق الدكتور المنجد ص ٤٨ ، ١٨٠ ، ٢١١ ، ٢٣٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، البدرى : نزهـة الانام فى محاسن الشـام ص ١١ : ١٣ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ١٠٦ : ٨

ثانيا ـ الفتح الاسلامى يبرز أسس التنظيم

(١) الاحتكاكات الأولى مع اطراف الدولة البيزنطيـة واحلافها ـ روم العرب : ـ

ارتبطت الحجاز والشـام بروابط جغرافية وتجارية من قبل الاسلام ووجدت علاقات مبكرة بين الروم والعرب ، وقد كانت منازل ثمود تقع على حدود المنطقة المسماة ببلاد العرب الحجرية والتى سميت فيما بعد باسم فلسطين الآمنة ، ودفعت لهـم الامبراطورية الرومانية المـال كى يعترفوا بسـلطان الامبراطورية الرومانى ثم البـيزنطى الذين كانوا يؤجرون فى خدمته . على أن هذا لا يعنى أن تلك المنطقة وهى منطقة قبيلة جذام التى خلفتهم فيما بعد ، كانت تكون جزءا دائما من أجزاء الامبراطورية الرومانية يتبع سوريا ، فأن رئيس القبيـلة الذى كان معتبرا فى نفس الوقت موظفا رومانيا وحليفا ـ كان اذا تأخر تسليم الجزية اليه يرتحل بعيدا عن هذه الحدود ثم يشن الغارة على الرومان ، وهنـاك كثرة من الوثائق الرومانية والسريانية تؤكد نصوصها ذلك ، واذا نجح الرومان أو البيزنطيون فى استمالة أحد رؤساء القبائل الخطرين امتدت حدود نفوذهم السياسى ، ففى عهد الفيلارخوس امرىء القيس امتد نفوذ الروم جنوبا حتى ضواحى المدينة ، وقد حدث نفس الشىء هذا الشىء فى عهد ملوك غسان الاقوياء اذ ساروا بحملاتهم التأديبية جنوبا حتى واحة العلا وخيبر وحائل . ويقول الزبير بن بكار السهيلى ان عثمـان حويرث عين ملكا على مكة من قبل الامبراطور البيزنطى ، ولكن نفوذ بيزنطة الحقيقى

الثابت لم يكن ليمتد وراء الحد الداخلى المحصن الذى كان يقع على طول السفح الجنوبى لجبل الشراه وقد كان هذا مشهورا عند المؤلفين العرب ، فاننا نستطيع اذن فى سهولة أن نشرح لماذا كان بعضهم يشير الى الحجاز السورية ومعنى ذلك الحجاز التى تتبع سوريا من الناحية السياسية (١٩)

وقد عرف العرب فى رحلاتهم التجارية الى الشام الغساسنة والبيزنطية وذهبوا الى بصرى التى كانت عاصمة الولاية العربية بالشام وفاوض عثمان بن عفان عمال الحدود البيزنطيين المقيمين فى بصرى (وهى من مناطق الاطراف البيزنطية) حين أراد البيزنطيون اجتذاب عرب الحجاز للقضاء على فلول الغساسنة (٢٠) وكان من الطبيعى أن تكون القبائل العربية الضاربة فى شمال الحجاز وعلى تخوم الشلم ذات صلة وثيقة بالروم ، ومن هنا اطلق عليهم العرب وصف **(روم العرب)** ٠ وقد ظهرت هذه العلاقة الوثيقة بين روم العرب والروم عند فتح الشام فيرى أن خالد بن الوليد حين قدم مغيثا لاهل اليرموك لقيه رجل من روم العرب ، فقال يا خالد ان الروم فى جمع كثير مائتى الف أو يزيدون فان رأيت أن ترجع على حاميتك فافعل ٠ فقال خالد أبا لروم تخوفنى ؟ فهزمهم الله على يديه ٠ (٢١)

ولم يغفل المسلمون أمر هذه القبائل العربية المتاخمة للروم والمحالفة لهم ٠ فهى تقف على طريق امتدادهم الى الشام ، ويحقق اتصالها بالروم خطرا كبيرا على الاسلام فى الجزيرة العربية ٠ وحين أرسل الرسول مبعوثيه يحملون كتبه الى الملوك أرسل شجاع بن وهب الى المنذر بن الحارث بن أبى شمر الغسانى سنة ٦ هـ وقد رفض الامير الغسانى رسالة الرسول وقال : من ينزع منى ملكى ، أنا سائر اليه (٢٢) كذلك روى أن الحارث بن عمير الازدى لما نزل مؤته بكتاب الرسول الى صاحب بصرى أخذه شرحبيل بن عمرو الغسانى وضرب عنقه (٢٣) ٠ وقد وجه الرسول عمرو ابن العاص سنة ٨ هـ الى **السلاسل من بلاد قضاعة** ـ أرض بلى وعذرة ،

---

(١٩) موزيل : شمال الحجاز ترجمة دكتور عبد المحسن الحسينى ص ٣٠ ـ ٣١

(٢٠) دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٢٩ ، ٣٤ وقد استند الى عبارة لكمرر ولم يأت هذا بمراجعه ٠

(٢١) الطبرى جـ ٤ ص ٣٦ ـ ٣٧ رواية سيف ، ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق تحقيق دكتور المنجد المجلدة الاولى ص ٥٥٠

(٢٢) الطبرى جـ ٣ ص ٨٨ رواية ابن اسحق ، وفى امتاع الاسماع للمقريزى : الحارث ابن ابى شمر الغسانى ص ٣٠٧ ـ ٨

(٢٣) المقريزى : امتاع الاسماع ٣٤٤ ـ ٥

يستنفر الناس الى الشام « وذلك أن أم العاص بن وائل فيما ذكر كانت قضاعية – امرأة من بلى – فذكر أن رسول الله أراد أن يتألفهم بذلك » (٢٤) وقد تتابعت سرايا الرسول الى تلك المنطقة التى يقطنها روم العرب ومن ذلك سرية زيد بن حارثة الى حسمى وراء وادى القرى سنة ٦ هـ وسببها أن دحية الكلبى أقبل من عند قيصر بجائزة وكسوة فلقية بحسمي (الهنيد بن عارض) وابنه (عارض بن الهنيد) فى جمع من جذام فأخذوا ما معه » : ثم كانت سرية عبد الرحمن بن عوف الى كلب بدومة الجندل ليدعوه الى الاسلام « وقال له رسول الله : ان أطاعوك فتزوج ابنه ملكهم » . وقد تحقق ذلك فهى أول كلبية تزوجها قرشى (٢٥) **وتظهر اهمية هذه الحملات المبكرة فيما ذكره الواقدى فى كتاب الصوائف** الذى صنفه من أن « **غزوة دومة الجندل أول غزوات الشام** . وهى من المدينة على ثلاث عشرة مرحلة ومن دمشق على عشر مراحل ، وهى مدينة عليها سور ولها حصن عادى مشهور فى العرب يدعى مارد . والثانية مؤته والغزوة الثالثة **تبوك** والغزوة الرابعة غزوة **اسامة بن زيد** » وفى مؤته سنة ٨ هـ أراد المسلمون الثأر لمبعوث الرسول الذى قتله شرحبيل بن عمرو الغساني ومؤته من عمل البلقاء بالشام دون دمشق » .**وفيها تحالف روم العرب مع الروم ضد المسلمين** » فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة الف من الروم وانضمت اليه **المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبلى** فى مائة الف منهم عليهم رجل من بلى » . وقد استشهد كثير من المسلمين فى تلك الغزوة . ثم كانت غزوة **تبوك** سنة ٩ هـ «وسببها أن أخبار الشام كانت بالمدينة عند المسلمين لكثرة من يقدم من الانباط بالدرمك والزيت ، فذكروا أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وأن هرقل رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة وزحفوا وقدموا مقدماتهم الى البلقاء وعسكروا بها وتخلف هرقل بحمص ولم يكن ذلك ، انما ذلك شىء قيل لهم فقالوه » « فتجهز الناس على ما فى أنفسهم من الكره لذلك الوجه لما فيه مع ما عظموا من ذكر الروم وغزوهم » (٢٦) ويبدو أن استخدام المؤرخين الاسلاميين لكلمة فى مثل هذه الغزوات والسرايا كان يقصد به

---

(٢٤) الطبرى حـ ٣ ص ١٠٤ رواية ابن اسحق .

(٢٥) الطبرى حـ ٣ ص ٨٣ رواية الواقدى ، المقريزى : امتاع الاسماع ص ٢٦٦ : ٨ .

(٢٦) ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق تحقيق دكتور المنجد م ١ ص ٣٨٥ – ٦ ، ٣٨٩ ، ٤٠٢ ، ٤١٣ ، الطبرى جـ ٣ ص ١٠٧ : ١١٠ رواية ابن اسحق ، ١٤٢ وما بعدها رواية ابن اسحق ، المقريزى : امتاع الاسماع ص ٣٤٤ : ٩ ، ٤٤٥ ، ومابعدها

روم العرب (٢٧) • وقد كانت نتيجة هذه الجهود أن اسلمت عشائر من جذام ، وقدم زيد بن رفاعة الجذامي في نفر من قومه بعد سرية ابن حارثة الى حسمي وعاهد الرسول (٢٨) • وكانت المنطقة التى تسكنهـا قبيلة جذام على طريق الشام ، وتأتى اليها من هناك ٣ طرق : الأول عن طريق ايلة والثـانى عن طـريق معـان وتبوك والثـالث عن طـريق الازرق وتيماءوبرد (٢٩) **وهكذا هيأت هذه الاحتكاكات الاولى للمسلمين خبرات مبكرة عن اطراف الدولة البيزنطية واحلافها وعرفوا الدور الذى تؤديه هذه الاحلاف والاطراف** • وقد كان خضـوع صاحب أيلة واكيدر دومة الجندل وصلح أهل جرباء وأذرح نتيجة طيبـة فى هذا السبيل أعقبـت غزوة تبوك (٣٠) « وكانت غزوة مؤتة أول لقاء بين الاسلام وعالم البحر المتوسط ، وهو يدل ع لىاتجاه نظر الرسول الى الشمال والى أن الامتداد خارج الجزيرة العربية كان فى حسابه قبل فتح مكة • وجاءت غزوة تبوك عظيمة الدلالة فهى آخر خطوات التوسع الاسلامى فى حياة الرسول وهى كالاشارة الى الطريق الذى تعين على خلفائه اتباعه بالسير براية الاسلام •• ويبدو من دراسة أوليـات اتجاه الحركة الاسـلامية نحو الشمال أن الهدف الأول كان السيطرة على روم العرب أو العرب المتنصرة عند حدود الحجاز الشـمالية : وهى جذام وبلى وعـذرة وبهراء وكلب ولخم وعاملة ومجموعة من لقبائل القضاعية التي تسمى عادة ببنى غسان • ونحن نتبين أن اتجاه الرسول نحو اخضاع هذه القبائل من زمن مبكر جدا من سنة ٥ هـ هو الذى أفضى بالعرب الى الاشتباك بالروم بعد ذلك ، ومن ثم يبدو أن ذلك الاشتباك جاء مصادفة أو استرسالا طبيعيا غير مقصود ، غير أن للموضوع أصولا أبعد تتصل بعلاقات بغيدة بين فريق من العرب وبلاد الشام ـ اذ اتجه فرع عبد شمس من قريش الى شئون التجارة والاسفار وصرف جهوده نحو الشمال منافسة لفرع عبد المطلب • فاتصـل بروم العرب أو العرب الضـاحية وارتبط بهم بعلاقات مختلفة ما بين تجـارة وصداقة وحلف ـ ثم اتصل بالشام وعربه ورومه لتيسير تجارتهم • ولما تنبه هؤلاء الى أن الاســـلام يقتطع منهم أحلافهم من روم العرب ، (وقد

---

(٢٧) Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins p. 21,
د• ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ١ ص ١٧٥ ،
(٢٨) المقريزى : امتاع الاسماع ص ٢٦٧ •
(٢٩) موزيل : شمال الحجاز ـ ترجمة عبدالمحسن الحسينى ص ١٣٣ : ٥
(٣٠) المقريزى : امتاع الاسماع ص ٤٦٣ : ٩ ، دكتور حميد الله الحيدر ابادى : مجموعة الوثائق السياسية ص ٧٤ : ٧ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٦٦ : ٧٠

عاهد النبى القبائل التى بين المدينة وساحل البحر مثل جهينة وضمرة وغفار وكانت ديارهم فى طريق قريش فى رحلتهم الصيفية وأراد أن يحيط مكة بقبائل مسلمة أو معاهدة) • ثم فتحت عليهم مكة وانهزموا جملة ، أسلموا له فنفعتهم خبراتهم التجارية والسياسية وعهد اليهم الرسول فى العمالات والبعوث » (٣١) •

ويميل الدكتور شعيرة الى قصر العلاقات المبكرة بين المسلمين والروم فى حياة الرسول على العلاقات مع روم العرب النصارى القاطنين على مشارف الشام ، ويذهب الى استبعاد آى علاقات للمسلمين مع الروم البيزنطيين أنفسهم سواء فى الجانب الديبلوماسى أو العسكرى ، وهو يشكك فى روايلت ايفاد الرسول لميعوثيه خارج جزيرة العرب ذاتها ويرى أن مثل هؤلاء المبعوثين كان ينبغي أن يتميزوا بمعرفتهم العميقة للاسلام أو اخلاصهم للرسول ، ولكن دحية المبعوث الى قيصر لم يرو سوى ستة أحاديث ليس فى احداها اشارة الى هذه المهمة • والمبعوث الى فيلارخوس بصرى لم يكن أكثر غيرة أو حمية • أما اصطلاح الروم الوارد فى أخبار بعض العمليات العسكرية فى عهد الرسول فهو ينصرف الى الروم المتنصرة الذين كانوا يعيشون على أطراف بلاد الشام ، ولقد اعتبر المسعودى فى (التنبيه) أ ن الحملة التى قصدت دومة الجندل سنة ٥ هـ أول حملة ضد الروم • وكذلك فان اصطلاح روم العرب قصد به ايضاح الصلات الوثيقة بين عرب الاطراف الشمالية وبين البيزنطيين • وكأن عامة العرب قد اعتبروا أولئك أقرب الى الروم وأبعد عن عرب الجزيرة • وقد اختفى هذا التعبير حتى تغيرت الظروف وأصبحت الشام بعد الفتح الاسلامى مع بلاد العرب فى حكم دولة واحدة • ثم أن الشام كانت تبدأ فى اعتبار العرب بعد خيبر وتيماء وفدك أقصى مدائن الحجاز شمالا ، وكان وادى القرى يعتبر خارج نطاق الحجاز وكذلك سهل تبوك ومواضع ذات السلاسل وذات اطلاح ودومة الجندل • **ومن هنا اعتبر روم العرب ساكنين فى منطقة شامية تعلو حدود الحجاز** ، ومن هؤلاء : جذام وبلى وعذرة وبهراء وكلب ولخم وعاملة وسائر بنى قضاعة أو الغساسنة • وعلى هذا لا يوافق الدكتور شعيرة من ذهب من المؤرخين الى اعتبار العمليات المبكرة فى تلك المنطقة مرحلة أولى فى الصراع مع البيزنطيين مثل دى جويه DeJoete وكايتانى Caetani ، وان كان الأخير قد ترجم مرة كلمة (الروم) الى

---

(٣١) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥٦ ، د• حميدالله الحيدر ابادى ـ مجموعة الوثائق السياسية ـ المقدمة •

(العرب ذوى الصبغة الرومية Arabes Romanises) . ويرى الدكتور شعيرة أن العلاقات بين المسلمين في المدينة وبين دومة الجندل ـ حيث تسكن كلب ـ كانت تسير في طريق التفاهم السلمي والاتجاه لمعاهدة أهلها مع الاستناد لعمليات عسكرية محدودة ، وكذلك كانت الحال بالنسبة لجذام في المنطقة التى تسكنها . أما في شمالى تبوك على مشارف الشام حيث تسكن قضاعة وتوجد مؤتة ومعان وذات السلاسل وذات اطلاح فقد لقى المسلمون معارضة ، وقبيل وفاة الرسول انقسمت المنطقة بين المناوئين الذين أرسل لحربهم اسامة والموالين الذين أوفد من أجلهم عمرو بن العاص . وقد رجحت كفة أعداء الاسلام في دومة حتى غدت مقصد كل مناوىء للاسلام فى المنطقة فكانت غزوة تبوك « التى كانت مجمعا لعمليات وبلوماسية وعسكرية متعددة » . وعلا نفوذ المسلمين من سهل تبوك وبين قضاعة في الشمال وقدمت نواحى أيله ودومة ولاءها (٣٢) .

(ب) تسيير جيوش الفتح ونواة التقسيم الادارى العسكرى :

تبين المسلمون أن أشد الأخطار عليهم انما موطنها الشام حيث البيزنطيون وعمالهم الغساسنة . وقد كانت جهودهم موفقة فى تاليف قلوب العرب على الطريق بين الحجاز والشام حتى وقفوا على أطراف الدولة البيزنطية ودنت ساعة الاصطدام المباشر بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية وقد سير أبو بكر **بعث أسامة** الذى كان الرسول قد أعده ثم توفى دون انفاذه وذلك في سنة ١١ هـ ـ سنة ٦٣٢ م « وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين » « ويوطىء من آبل الزيت من مشارف الشام الارض بالاردن» (٣٣) . وكانت هذه الحملة اختبارا لنوايا البيزنطيين دون توغل فى أرضهم وقد استطاع أبو بكر أن يوطد شئون الدولة الاسلامية داخل جزيرة العرب بقمع المرتدين كما كانت الحيرة أول ماكسبه الاسلام خارج حدود شبه الجزيرة ، وكذلك استولى المسلمون على **عين التمر** ذلك المكان الحصين فى الصحراء الى الشمال الغربى من الكوفة وكان الاستيلاء عليها قبل الزحف الشهير الى الشام (٣٤) وقد انتصر خالد فى عين التمر على جمع عظيم من قبائل التمر وتغلب واياد وكانت فى حصن

---

(٣٢) Cheira: La Lutte entre Arabes et Byzantins pp. 14: 27.

(٣٣) الطبرى جـ ٣ ص ١٨٨ روايتا ابن اسحق وسيف

(٣٤) دكتور حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع جـ ١ ص ١٨٢

عين التمر للأعاجم مسلحة عظيمة فخرج أهل الحصن فقاتلوا ثم لزموا حصنهم وحاصرهم خالد والمسلمون وافتتح الحصن عنوة » • ثم سار الى **دومة الجندل** ويقال ان اكيدر دومة لما منع فى خلافة أبى بكر ما كان يؤديه الى رسول الله أخرج من جزيرة العرب فى دومة فلحق بالجزيرة بين دجلة والفرات فابتنى قرب عين التمر بناء سماه دومة (٣٥) • ولما بلغ أهل دومة مسير خالد الى أحزابهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم فأتاهم ابن الايهم فى طوائف من غسان وكان من رؤساء القوم أكيدر بن أكيدر بن عبد الملك • وقد واصل خالد المسير حتى وصل الى **الفراض « والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة** •• فلما اجتمع المسلمون بالفراض حميت الروم واغتاظت واستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس وقد حموا واغتاظوا واستمدوا تغلب وايادا والنمر فامدوهم ثم ناهدوا خالدا » (٣٦) • **وهكذا طرق المسلمون ابواب الشام من الشمال الشرقى بعد ان وقفوا على مشارفه من الجنوب** •

وجاء فى أكثر الروايات أن خالد بن سعيد بن العاص هو أول من عقد له لواء ولكنها تذكر أن أبا بكر عزله بعد ذلك وأمر بتسليم اللواء الى يزيد بن أبى سفيان – وبين الروايات رواية تزعم ان أبا بكر عقد لخالد بن سعيد حينما وجه جيوشا لمحاربة المرتدين وجعله **ردءا فى تيماء** ، أى عقد له قبل تجهيز الجيوش التى أرسلت للشام • وذكر ابن الأثير انه قيل ان أبا بكر سير خالد بن سعيد لما سير خالد بن الوليد الى العراق **ولعل أبا بكر ارسله الى تيماء بعد عودة جيش اسامة وقت ذهاب خالد لمقاتلة المرتدين « ليراقب العرب المتنصرة عملاء البيزنطيين اذ قد ينتهز الروم الحرب الداخلية فى بلاد العرب ويحرضونهم على الهجوم على ارض المسلمين متفقين مع القبائل الشمالية المرتدة فى الانتصار للمرتدين »** (٣٧) • ولم يشأ أبو بكر أن تكون حملة خالد بن سعيد بن العاص اصطداما شاملا مباشرا مع الروم « قالوا : أمر أبو بكر خالدا بأن ينزل تيماء لا يبرحها ، وأن يدعو من حوله بالانضمام اليه والا يقبل الا ممن لم يرتد ولا يقاتل الا من قاتله حتى يأتيه أمره » فكانت مهمة خالد بن سعيد أن يستعين بالعرب الساكنين فى تلك المنطقة ممن لم يرتد على حرب الروم وأمر بألا يندفع فى الهجوم • وقد روى ان عبد الرحمن بن عوف أشار على أبى بكر حين دعا

---

(٣٥) المقريزى : امتاع الاسماع ص ٤٦٧ •

(٣٦) الطبرى ج ٤ ص ٢١ : ٦ رواية سيف ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٥٥ : ٩

(٣٧) طه الهاشمى : معركة اجنادين – مجلة المجمع العلمى العراقى م ٢ سنة ١٩٥٢ الطبرى : ج ٤ : ص ٣٨ ، ابن الاثير • ج ٢ ص ١٥٤

الصحابة للمشاورة فى غزو الروم فقال : « انها الروم وبنو الأصفر حديد وركن شديد ، ما أرى أن تقحم عليها اقحاما ولكن تبعث الخيل فتغير فى قواصى أرضهم ثم ترجع اليك ، فاذا فعلوا بهم ذلك مرارا أضروا بهم وغنموا من ادانى أراضيهم فقووا بذلك على عدوهم • ثم تبعث الى الاراضى أهل اليمن وأقاصى ربيعة ومضر ثم تجمعهم جميعا اليك ، فان شئت بعد ذلك غزيتهم بنفسك وان شئت أغزيتهم(٣٨) » • ويبدو ان خالد بن سعيد قَد وفق فى مهمته « فاجتمع اليه جموع كثيرة •• ولم يقتحم واستجلب الناس فعز فهابته الروم فاحجموا عنه • فلم يصبر على أمر أبى بكر ولكن توردها فاستطردت له الروم •• » **فضرب الروم على العرب الضاحية البعوث بالشام** اليهم فكتب خالد بن سعيد الى أبى بكر بذلك وبنزول من استنفرت الروم ونفر اليهم من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان ، وقد رد أبو بكر « أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك » • ولكن اندفاع خالد بن سعيد أدى الى معركة هزم فيها المسلمون فى **مرج الصفر** • وبذلك صارت الدولتان البيزنطية والاسلامية وجها لوجه ، وتقدم موعد صدامهما المحتوم على غير مشيئة ابى بكر حتى انه « لما قدم خالد بن سعيد ذا المروة كتب اليه أبو بكر : « اقم مكانك فلعمرى انك مقدام محجام نجاء من الغمرات لا تخوضها الى حق ولا تصبر عليه (٣٩) » •

وعند ذلك «**اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره**» • وقد كان أبو بكر رد عمر بن العاص على صدقات سعد هذيل وعذرة ومن لفها من جذام ، فكتب أبو بكر عند اهتياجه للشام الى عمرو «انى كنت قد رددتك على العمل الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاكه مرة وسماه لك أخرى•• وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه الا أن يكون الذى انت فيه أحب اليك » • فكتب اليه عمرو « انى سهم من سهام الاسلام وانت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها شيئا ان جاءك من ناحية من النواحى » • وكتب أبو بكر الى الوليد بن عقبة بنحو ذلك فأجابه بايثار الجهاد •• فأمد عمروا وأمره على فلسطين وأمره بطريق سماها له ، وكتب الى الوليد وأمره على الاردن وأمده ، ودعا يزيد بن أبى سفيان فأمره على جند عظيم ، واستعمل أبا عبيده على من اجتمع وأمره على حمص •ولما قدم الوليد على خالدبن سعيد سانده، وقدمت جيوش المسلمين الذين كان أبو بكر أمده بهم وسموا (**جيش**

---

(٣٨) ابن عساكر م ١ ص ٤٤٣ : ٤

(٣٩) الطبرى ج ٤ ص ٢٩ : ٣١ ، ٤٠ رواية سيف ، ابن عساكر م ١ ص ٤٥١

البلقاء) • فأخذ عمرو طريق المعرقة وسلك أبو عبيدة طريقه وأخذ يزيد طريق التبوكية ، وسلك شرحبيل بن حسنة ـ الذى كان قد قدم من عند خالد بن الوليد فندب أبو بكر معه الناس واستعمله على عمل الوليد ـ طريقه • وسمى لهم أمصار الشام « **وعرف ان الروم ستشغلهم ، فاحب أن يصعد المصوب ويصوب المصعد لئلا يتواكلوا ، فكان كما ظن وصاروا الى ما أحب** » • وقال أبو بكر لعمرو : « **انى قد استعملتك على من مررت من بلى وعذرة وسائر قضاعة** ، ومن سقط هناك من العرب فاندبهم الى الجهاد فى سبيل الله ورغبهم فيه **فمن تبعك منهم فاحمله وزوده ورافق بينهم واجعل كل قبيلة منهم على حدتها ومنزلتها** » (٤٠) •

على هذا النحو سار أبو بكر على سنة رسول الله فى الاتجاه الى الشام والاهتمام بأمره ، وفى هذا يقول ابن كثير « واستهلت سنة ١٣ هـ والصديق عازم على جمع الجنود ليبثهم الى الشام وذلك بعد مرجعه من الحج عملا بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » واقتداء برسول الله فانه جمع المسلمين لغزو الشام وذلك عام تبوك ثم بعث قبل موته أسامة بن زيد ليغزو تخوم الشام • ولما فرغ الصديق من أمر جزيرة العرب بسط يمينه الى العراق فبعث اليها خالد بن الوليد ـ ثم أراد أن يبعث الى الشام كما بعث الى العراق » (٤١) • ولم يفت أبا بكر أن يحاول ندب روم العرب لفتح الشام والافادة من خبرات الأمويين وكفاءتهم ، فاستعمل عمرو بن العاص على من مر به من بلى وعذره وسائر قضاعة وأمره أن يندبهم الى الجهاد ـ كما تقدم ، وأمر يزيد بن أبى سفيان ـ وكان أبو سفيان نفسه فى جيش ابنه وأعقب معاوية أخاه كما أبلى نساء البيت الأموى فى معارك الفتح « فكان بنوا أبى سفيان وأحلافهم بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدى بن كعب فى القيادات والعمالات من أول الأمر وخاصة فيما يتصل بالشام منها • وقد كان الرسول أول من بدأ ذلك لأنه كان يعلم بما بين بنى أمية والكثير من قبائل عرب الروم مثل بلى من القرابة والرحم فهو الذى ولى عمر بن سعيد بن العاص على تيماء وخيبر وتبوك وفدك • فاذا استطردنا مع فتوح الشام وجدنا رجالا من بنى أمية وأحلافهم فى القيادات من أول الأمر • فبعث أبو بكر يزيد بن أبى سفيان وأردفه بأخيه معاوية فكان هذا

(٤٠) الطبرى جـ ٤ ص ٢٩ : ٣١ ، ٤٠ رواية سيف ، ابن عساكر م ١ ص ٤٤٦ ، ٤٤٩ : ٥٢

(٤١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٧ ص ٢

أول الفتح • ونجد يزيد بن أبي سفيان عاملا لعمر على معظم الشام بعد وفاة أبي عبيدة ثم يخلفه على عمالته أخوه الأصغر معاوية الذى تجتمع الشام كلها له في عهد عمر ، في الوقت الذى يتجه عمرو بن العاص السهمى لفتح مصر – أى لاجتذاب المسلمين خطوة أخرى الى شواطىء البحر المتوسط • وقد علق على ذلك المقريزى فى كتابه (النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم) فيقول : (فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله ولا فى عمال أبي بكر وعمر أحد من بني هاشم ، فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بني أمية وفتح أبوابهم •• فاذا كان رسول الله قد أسس هذا الأساس وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد ، كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يمتد فى الولاية أملهم ؟) ولقد قيل (ما فتحت الشام كورة من كور الشام الا ووجد عنها رجل من بني سعيد بن العاص ميتا) • وبفضل خبرة بنى أمية بالشام وملكاتهم الحربية والسياسية تم فتح هذا القطر فى سرعة لم يكن يتوقعها أحد » (٤٢) •

وقد كانت في تسمية الكور لقواد الفتح اشارة الى تقسيم الشام الادارى فى حاضره البيزنطى ومستقبله الاسلامى : « فدل بذلك على أن الشام لما كان بأيدى الروم كان منقسما الى هذه الكور الأربع لاغير » كما يقول ابن الشحنة (٤٣) • ويمكن أن نميز فى وقائع فتح الشام مرحلتين : اصطدامات متفرقة خاضها الامراء متقرفين بجندهم حين وطئوا أرض الشام أو حين تقدموا فيها • ثم معارك كبرى خاضها الجيش الاسلامى كله فى مواقع فاصلة انتهت به الى التغلب على الشام (٤٤) • وكان اللقاء الاول في وادي عربة ذلك المنخفض العظيم في جنوبي البحر الميت ، فانتصر فيه يزيد على سرجيوس حاكم فلسطين الذى كان مركز قيادته فى قيسارية ، وقد لقيت فلول الجيوش البيزنطية الضخمة أثناء تقهقرها هزيمة ساحقة عند **داثن** قرب غزة « **فاول صلح كان بالشام صلح مؤاب** وهى فسنطاط ليس بمدينة مر أبو عبيدة بهم فى طريقه وهى قرية من البلقاء •• واجتمع الروم جمعا بالعربة من أرض فلسطين فوجه اليهم يزيد ابن أبي سفيان أبا امامة الباهلى ففض ذلك الجمع • قالوا : **فاول حرب**

---

(٤٢) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط • المجلة التاريخية المصرية م٤ ع١ مايو ١٩٥١ م ، د• العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٣٥ : ٤٢

(٤٣) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٩

(٤٤) دكتور شكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى ص ٢٠

كانت بالشام بعد سرية أسامة بالعربة . ثم أتوا الداثنة ويقال الداثن فهزمهم أبو امامة (٤٥) » . وأسرع هرقل ـ وقد دربته حملاته طوال ست سنوات أجلى فيها الفرس عن الشام ومصر من الرها ادسا ـ تنظيم جيش جديد ويبعث به الى الجنوب تحت قيادة أخيه تيودور « وأوعب القواد بالناس نحو الشام وبلغ الروم ذلك فكتبوا الى هرقل ، وخرج هرقل حتى نزل بحمص فأعد لهم الجنود وعبى لهم العساكر وأراد اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده وفضول رجاله . وأرسل الى عمر أخاه تذارق لأبيه وأمه فخرج نحوهم فى تسعين ألفا وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقة ثنية جلق باعلى فلسطين ، وبعث جرجه بن توذرا نحو يزيد بن أبى سفيان ، فعسكر بازائه ، وبعث الدراقص فاستقبل شرحبيل ، وبعث الفيقار بن نسطوس فى ستين ألفا نحو أبى عبيدة فهابهم المسلمون » (٤٦) .

ازاء تطور الأحداث كتب أبو بكر الى **خالد بن الوليد** « أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجعوا وأشجعوا » . وأمره بالخروج فى شطر الناس وأن يخلف على الشطر الباقى المثنى بن حارثة فاذا فتح الله على المسلمين الشام رجع خالد الى عمله بالعراق . وقد كانت رحلة خالد خلال الصحراء من العراق الى الشام مثار عدة أبحاث تاريخية وجغرافية لتباين الروايات عن أزمنة تلك الرحلة والطرق المسلوكة فيها وقد يكون بدأ من الحيرة سنة ١٣ هـ (مارس ٦٣٤ م) فاتجه غربا عبر الصحراء الى دومة الجندل (الجوف) الواقعة فى منتصف المسافة بين العراق والشام وكان فى طوقه أن يواصل زحفه عبر وادى سرحان (واسمه قديما بطن السر) الى بصرى أول مدخل يؤدى الى الشام ، **وتكن بعض الحصون تقع فى طريقه** ، لذلك سلك الطريق الشمالى الغربى من دومة الى قراقر (قلبان قراقر) على الحدود الشرقية لوادى سرحان ، ومنها اندفع شمالا الى سوى (قرب سبع بيار شمالى شرقى دمشق) المدخل الثانى للشام ، « فى طريق يأخذه الفذ الراكب ... وأمر صاحب كل خيل بقدر مايسقيها » . وظهر خالد فجأة فى المنطقة المجاورة لدمشق وفى مؤخرة الجيش البيزنطى تماما ، فأغار على مضيح بهراء وأتى تدمر وحوارين وقصم ، وأتى مرج راهط (معسكر غسانى يبعد نحو ١٥ ميلا عن دمشق قرب عذراء) فأغار على غيسان فى يوم فصحهم ، ونزل بصرى

---

(٤٥) الطبرى ج ٤ ص ٣٩ عن على بن محمد ، حتى تاريخ العرب ترجمة نافع ج ١ ص١٨١

(٤٦) الطبرى ج ٤ ص ٣١ رواية سيف ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع ج ١ ص ١٨١

فكانت أول مدينة افتتحت بالشـــام على يدى خالد فيمن معه من جند العراق • وهكذا نجح خالد فى الاتصال ببقية القوات العربية الأخرى التى أصبح الطريق أمامها مفتوحا الى كل فلسطين بعد انتصارها الباهر في معركة اجنادين (٣٠ يولية ٦٣٤) » (٤٧) • ويدور جدل كبير حول زمان معركة اجنادين ومكانها فهناك روايات تؤيد نشوبها سنة ١٣ هـ منها روايات ابن اسحق والواقدى والمدائني والبلاذرى ويؤيد ذلك السيوطى وياقوت والذهبى وابن كثير والديار بكرى صاحب تاريخ الخميس وابن عساكر ، في حين أن سيف بن عمر يجعلها سنة ١٥ هـ ويخلص العميد طه الهاشمى من مناقشة المصادر العربية والرومية واللاتينية والسريانية الى حدوث الواقعة سنة ١٣ هـ • وهو يرى أن الجيوش سارت متعاقبة متتابعة ، وأن أول من تقدم كان جيش يزيد وآخر من بعث كان أبو عبيدة اما على رأس قوة قليلة واما وحده ليتولى امرة الشام • وقد ذكر البلاذرى « أن أبا بكر أراد أن يعقد لأبى عبيدة فاستعفاه من ذلك ، وقد روى قوم أن قد عقد له وليس ذلك بثبت ولكن عمر ولاه الشام » • ويروى ابن عساكر بعث أمراء الشام دون ذكر اسم أبى عبيدة ويقول « فكان خالد مددا لعمرو وكان أمر الناس الى عمرو ••• » « ومع أن الجيوش كانت تتحرك على انفراد فى مناطق خاصة ففى الأخبار روايات تدل على أن أبا بكر كان يتوقع أنها قد تضطر الى الاجتماع •• والمبادىء الحربية تتطلب من هذه الجيوش أن تتقدم من الجنوب وجهتها الشـــمال ، وأن تسعى فى زحفها الى المحافظة على خطوط مواصلاتها بجزيرة العرب •• ويلوح لنا أن الروايات التى ذكرت أن هدف يزيد دمشق غير صحيحة • لهذا نجزم بأن البلقاء كانت هدفه وكانت فلسطين هدف عمرو ، ويظهـر أن شرحبيل استهدف الاردن فسـار على طـريق تبوك وراء جيش يزيد ثم انعطف نحو نهر الاردن فأصبح بمثابة جيش ارتباط بين جيش يزيد وجيش عمرو ينحاز الى أحدهما عنـد الضرورة •• فان كانت الجيوش العربية تقـدمت على ٣ طرق متوازية الى حد ما ووجهـة حركاتها خط بصرى ـ غزة فكان ينبغي لها أن تتقدم في حذر وحيطة كلما توغلت فى الشمال • وفي هذه الحالة ينبغى أن يقع أول اصطدام في الجنوب بين القدس والرملة لا فى الشمال على ضفاف اليرموك • والروايات التى تزعم أن معركة أجنادين وقعت سنة ١٥ هـ تشير الى أن المسلمين فتحوا

---

(٤٧) الطبرى ج ٤ ص ٣٩ : ٤٢ رواية سـيف ، ٤٤ ـ ٥ رواية ابن اسحق ، وابن عساكر م ١ ص ٤٥٨ : ٤٧٠ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١١٦ : ٩ ، حتى تاريخ تاريخ العرب ترجمة نافع ج ١ ص ١٨٢ : ٤

دمشق وحمص فلما بلغهم ارسال هرقل الجيوش نحـــو الجنوب تركوا حمص الى أهلها وتسحبوا من دمشق وتوجهوا الى الجابية ثم اجتمعوا فى جنوبى فلسطين وتغلبوا فى أجنادين على الروم . ويعنى هذا أنهم جعلوا خطوط مواصلاتهم على جانبهم الأيسر وعرضوها للخطر لأنه مادامت فلسطين بيد الروم ففى باستطاعة جيوشهم أن تتوجه جنوب الشرق وتقف بين جيوش المسلمين وبلاد العرب ... ان نشوب معركة اجنادين قبل نشوب معركة اليرموك يجعل سير الحركات العربية فى بلاد الشام ادعى للقواعد الحربية ، ولما كانت فلسطين الهدف الأقصى لم يكن بد من أن تقع أول المعارك فيها ، وفيها القيسارية وبيت لحم (اللتان يقدسهما الروم) وأسسوا فيها قيادة عسكرية مقرها قيسارية » على أن ابن عساكر يروى أن أبا سفيان انتقد خطة الفتح فقال: «انى أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والاردن فيحـــولوا بينكم وبين مددكم من المدينة فارتحلوا حتى تجعلوا أذرعات خلف ظهوركم » . ويناقش الهاشمى موقع اجنـــادين مستعينا ببحث دى جويه فى هذا الصدد ويرجع انهـــا فى المثلث الواقع بين الرملة وجرش وبيت جبرين ، على أن تكون جرش هى الواقعة جنوب اللطرون لا القصبة المعروفة . كما تقع أجنادين قرب خربة يرموث الواقعة الى شمال بيت نتيف ويذهب دى جويه أيضا الى ان معركة اجنادين اختلطت بموقعة اليرموك « ولذلك جعل سيف بن عمر معركة (اليرموك ـ الياقوصة) المعركة العظيمة الأولى التى وقعت فى سوريا بدلا من معركة اجنـــادين اســـتنادا الى روايات قديمة ... وقد وقعت معركة الياقوصـــة فى المكان الذى ينصب فيه نهر الياقوصة فى وادى اليرموك ومن أجل ذلك سميت تارة باسم النهر وتارة باسم الوادى ، ولأجل أن يحافظ البلاذرى والمدائنى على تاريخ وقائعها من جهة ويظلا متمسكين الى حد ما بالروايات القديمة سوغا لانفسهما أن يجعلا من معركة واحدة معركتين وأن يسميا كلا منهما بأحد الاسمين » وأدى هذا الخلط نفسه الى القول بعزل خالد فى معركة اليرموك سنة ١٣ هـ فى حين أن هذه كانت معركة اجنادين وقد كان العزل فى اليرموك سنة ١٥ هـ وأخيرا يرجح الهاشمى ما تراءى لدى جويه حين قال « كنت أرى قبلا أنه من الجائز أن اجنادين اسم جنس صيغ من تثنية جمع جند ، مضاف الى واقعة أو يوم فيوم اجنادين قد يعنى المعركة التى جرت بين الجيشين المجتمعين جيش الشام وجيش العراق » وهو يعزز هذا الرأى بما عرف عن العرب من تسمية بعض أيام حروبهم بأسماء لا تدل على محـــل كيوم داحس والغبراء فى الجاهلية ويوم ارماث فى الاسلام. وهو يرد على ماثار من اعتراضات على ذلك فيقول «فمتى أصبحت

اجنادين علما لمعركة فيجوز أن تذكر بلا حرف تعريف ، ويجوز أن النساخ أهملوا كتابة حرف التعريف • ولا مانع من أن يحتفظ ميدان المعركة بالاسم نفسه فيقال : اجنادين فى فلسطين ـ كما أورد اليعقوبى » • وعلى هذا التخريج تكون اجنادين تسـميـة راجعة الى أن « **العرب اشتركت بأجنادها : أجنـاد خالد وعمرو ويزيد وشرحبيل ، والروم اشـتركت بأجنادها جند قيسـارية وجند غزة والجند الذى جهـزه هرقل بقيادة تيودور** • ولاشك فى أن المعركة كانت أول اصطدام بين العرب والروم بقوات كبيرة لم يسبق لها مثيل » (٤٨) • وهذا التعليل لاسم الموقعة يقدم بداية مبكرة لاستعمال اصطلاح (الاجناد) فى فتح الشام •

— ويرى الدكتور شـعيرة فى اجنادين **البـداية الحقيقية للتوسـع الاسلامى** ، فقد كان أبو بكر فى أول الأمر يتابع سياسة الرسول التى تجمع بين الملاينة والشدة مع روم العرب فأنفذ بعث أسامة كما سير خالد بن سعيد • غير أن هدف أبى بكر فى أول الامر ـ عند الدكتورة شعيرة ـ كان محدودا مقصورا **على استعادة الارض التى فقدها الاسلام فى الشمال بعد ردة أهلها** • وكان لابد من متابعة فتح طريق الشمال لأهميته التجارية واخضاع قبائل روم العرب دون أن تكون هذه العمليات مرحلة مبكرة لفتح الشام نفسها ، فلم تكن هناك خطة للفتح أو رغبة فى تحويل روم العرب للاسلام أو السيطرة على بلادهم ، وانما كان هناك فقط اتجـاه لغزوة ناجحة • ثم تولد التفكير لدى المهاجمين وأعدائهم بعد أن تتابعت المعارك • **ويردد البعض خبر اتفاق سرى بين المسلمين وروم العرب** ـ من لخم وجذام وشتى بطون قضاعة ـ كان من شأنه تيسير العمليات الحربية الاسلامية ، ولا يستند هذا القول الا الى نص غير محدد لسيبيوس Sebeos • وان كانت قضاعة قد دخلت فى حلف المسلمين منذ أواخر حياة الرسول • وربما كانت رواية سيبيوس صـدى لخيبـة أمل الروم فى حلفائهم من العرب • على أن بطريق قيصرية عندما هبط جنوبا لغزو العرب وانهـزم وجدت بيزنطة نفسها لأول مرة قد انزلقت الى حلبة الصراع ، فقد غـدا الامر منذ ذلك الحين أمر هيبتها ونفوذها ، وأدت الظروف الى **تعميم النزاع** الأول حتى صار شاملا • وأرسل أبو بكر جيوشه مددا للمسلمين الذين تحفز لهم عدوهم • وكانت مراقبة الاحداث من اختصاص **قائد القـوات**

---

(٤٨) طه الهاشمى : معركة أجنادين ، مجلة المجمع العلمى العراقى م ٢ سنة ١٩٥٢ م ، د• جورج حداد : فتح العرب للشام ص ٤٣ : ٥٢ ، ابن عساكر : م ١ ص ٤٤٧ ـ ٨ ، ٥٣٢

البيزنطية فى المشرق المقيم فى أنطاكية ، ولكن الامبراطور تولى بنفسه زمام الموقف لاهتمامه بأحداث الشرق منذ توليه العرش • **وكانت بيزنطة قد اهملت اسلوبها فى الاعتماد على المحالفين أو المعاهدين** Foederati وقد تبين أنها كشفت بذلك حدودها للمخاطر • ولكن الامبراطور قدم بنفسه ليعالج الامر ولم يكن فى وسعه أن يقدر العلاج بأكثر من توجيه حملة تأديبية واعادة امارة الغساسنة الى ما كانت عليه • ولكن بدأ الفتح الاسلامى بانتصار اجنادين « الذى لا يعد بالنسبة للعرب واقعة أيا كانت **ولكنه حدث ولد فيهم شعورا جديدا بالعزم على بناء امبراطورية** • فقد كان الامر بالنسبة لهم فى البداية مقصورا على توطيد نفوذهم فى شمالى بلاد العرب ومعاودة استمالة روم العرب الى جانبهم ولم تكن وجهتهم وقتذاك هي الفتح وكان الامر بالنسبة لبيزنطة من الوجهة المقابلة : معاودة اقرار الامن على الحدود السورية برد هجوم لم يستشعر فيه البيزنطيون المدى اللازم لاعتباره فتحا • ولكن العرب بانتصارهم فى أجنادين واجهوا على الفور امكان اضطلاعهم بفتح كبير وليس هذا معناه فقط أنهم استغلوا النصر من حيث الاستراتيجية والتكتيك ولكن هذا يعنى أيضا انبعاث **روح النصر** كما كانت أيام النبى •• وقد استبان قصد الفتح عند العرب فور هذا النصر • ويروى كايتانى ان هذا القصد قد تميز فقط بعد اجنادين بشهور عندما تقدم المسلمون نحو دمشق ، وقد أبطأت الحركة بين هاتين المعركتين • وكان الزحف على دمشق فى نظر كايتانى حدثا جديدا يكون بداية مرحلة جديدة • وانه لمن الضرورى فى الحقيقة أن يحدد التاريخ الذى أخلص فيه العرب وجهتهم الى فتح الشام •• ونرى نحن أن مولد تلك اللحظة كان قبل الوقت الذى حدده كاتيانى بشهور قليلة ، لقد ولدت على الفور بعد انتصار أجنادين » (٤٩) •

وبمجىء خالد بن الوليد وشهوده اجنادين بدا الاتجاه الى توحيد القيادة ، وهو احتمال قدره أبو بكر منذ تسيير جيوش الى الشام « وذكر أبو مخنف أن أبا بكر قال للأمراء ان اجتمعتم على قتال فأميركم أبو عبيدة والا فيزيد ••• وروى الواقدى أنه قال اذا كان بكم قتال فأميركم الذى تكونون فى عمله • وروى أيضا أنه أمر عمروا مشافهة أن يصلى بالناس اذا اجتمعوا واذا تفرقوا صلى كل أمير بأصحابه • وأمر الأمراء أن يعقدوا لكل قبيلة لواء يكون فيهم » (٥٠) فلما أرسل هرقل قواته لمهاجمة العرب

---

(٤٩) Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins pp. 27 : 40

(٥٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١١٤ ـ ٥

« وأراد اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده وفضول رجاله ... ففزعوا فشغلوا بالكتب وبالرسل الى عمرو ، فكاتبهم وراسلهم أن الرأى الاجتماع .. وقد كتبوا الى أبى بكر بمثل ما كاتبوا به عمروا فطلع عليهم كتابه بمثل رأى عمرو » . وبهذا الرأى نفسه أشار خالد حين أتى الشام «ان أبا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى انا سنتياسر .. فقر أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه ان دان لاحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه ان دانوا له .. فان هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده ، ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وان هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا لنتعاور الامارة ... ودعونى اليكم اليوم . فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم وان الامر أطول مما صاروا اليه . فخرجت الروم فى تعبية لم ير الراءون مثلها قط ، وخرج خالد فى تعبئة لم تعبها العرب من قبل ذلك » (٥١) . وهكذا « أحس كل من خالد وعمرو أن الجيوش الاسلامية لا يمكنها أن تخطو خطوات بعيدة وهى على حالها من الغارات التى لا خطة لها ولا تدبير ، ولذلك صار كل يفكر فى احتلال منظم للبلاد السورية . وشعر عمر بن الخطاب بسداد هذه الفكرة فساعدها ، وكنت ترى فى تلك الآونة عائلات كبيرة تؤم هذه البلاد بشكل قبائل » (٥٢) . وقد سجل البلاذرى تطور أسلوب المسلمين فى القيادة أثناء فتحهم للشام « لما قدم المسلمون الشام كان كل أمير منهم يقصد لناحية يغزوها ويبث غاراته فيها فكان عمرو يقصد لفلسطين وكان شرحبيل يقصد للاردن وكان يزيد يقصد لارض دمشق . وكانوا اذا اجتمع لهم العدو اجتمعوا عليه واذا احتاج أحدهم الى مساندة صاحبه وانجاده سارع الى ذلك . وكان أميرهم عند لاجتماع فى حربهم أول أيام أبى بكر وعمرو ، **حتى قدم خالد فكان أمير المسلمين فى كل حرب** . ثم ولى أبو عبيدة أمر الشام كله وآمرة الأمراء فى الحرب والسلم من قبل عمر » (٥٣) .

ويعزى ما لقيه المسلمون من صعاب ومقاومة خلال عمليات فتح الشام الى نظام الجنود أو الاجناد البيزنطى Thema الذى جعل المناطق الادارية العسكرية وحدات قائمة بنفسها قادرة على رد أى عدوان أو انهاك مهاجمها حتى يأتيها المدد من جهات أخرى تجاورها (٥٤) . فلما انتصر المسلمون

---

(٥١) الطبرى جـ ٤ ص ٣١ - ٣٣ رواية سيف ، ابن عساكر ص ٥٤٨

(٥٢) د. جورج حداد : فتح العرب للشام ص ٥٢

(٥٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٢

(٥٤) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٣٩

عن أجنادين اندفعوا الى جني ثمار هذا الانتصار ، وجرب البيزنطيون أن يتخذوا ماوراء مستنقعات بيسان مركزا لهم ، ولكنهم عبروا الاردن عندما هوجموا وقابلوا المسلمين في فحل وهو مكان منيع وله أهمية جغرافية (واسمه باليونانية Pella) وهو يقع الى الجنوب الشرقي من بحيرة طبرية ويهيمن على معبر الاردن كما يقع في الطريق الى دمشق وذلك في ذي القعدة سنة ١٣ هـ (يناير سنة ٦٣٥ م) « فلما نزلت الروم بيسان بثقوا أنهارها وهي أرض سبخة فكانت وحلا • ونزلوا فحل وبيسان بين فلسطين وبين الاردن فلما غشيها المسلمون ولم يعلموا بما صنعت الروم وحلت خيولهم ، ولقوا فيها عناء ثم سلمهم الله ، وسميت بيسان ذات الردغة لما لقى المسلمون فيها • ودخل المسلمون فحل ولحقت رافضة الروم بدمشق وقد اجتمعت الى باهان » • ووجد البيزنطيون أنفسهم غير قادرين على حفظ كيانهم في مرج الصفر في أول المحرم سنة ١٤ هـ (فبراير سنة ٦٣٥ م) وهو سهل يبعد عشرين ميلا جنوبي دمشق ، فانهزم الروم الى دمشق وأغلقوا أبوابها • وظهر المسلمون قرب حصون المدينة بعد أسبوعين ، وقد حوصرت دمشق حصارين الأول قبل اليرموك والثاني بعد اليرموك التي وقعت سنة ١٥ هـ • « وقدم خالد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض وعلى الرجل شرحبيل ، فقدموا على دمشق وعليهم نسطاس فحصروا أهل دمشق ونزلوا حواليها ، وهرقل يومئذ بحمص ومدينة حمص بينه وبينهم • فحاصروا أهل دمشق نحوا من سبعين ليلة حصارا شديدا بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ، وهرقل منهم قريب — وقد استمدوه ، وذو الكلاع بين المسلمين وبين حمص على رأس ليلة من دمشق كأنه يريد حمص ••• وقد كانوا يرون أنها كالغارات قبل ذلك اذا هجم البرد قفل الناس •• » (٥٥) ويذكر بعض المؤرخين أن أباعبيدة وخالد ذهبا الى بعلبك وحمص بعد سقوط دمشق وانهما تركا يزيد وشرحبيل قرب الساحل • ويستبعد دي جويه أن يقع هذا في تلك الآونة ، فان المؤرخين قد يكونون مخطئين في عدم التفريق بين الحصار الأول والثاني ، وعلى كل حال اذا كان خالد وقواده قد فعلوا هذا فانما يكون فعلهم اجراء مؤقتا فحسب (٥٦) •

وبينما كان المسلمون يديرون عملياتهم الحربية في الجنوب ويتحركون

---

(٥٥) الطبري ج ٤ ص ٥٥ : ٦٠ روايتا ابن اسحق وسيف ، ابن عساكر م ١ ص ٤٨٥ : ٧ ، ٥١٤ : ٨ ، البلاذري : فتوح البلدان ص ١٢١ — ٢ ، ١٢٤ : ٨

(٥٦) د• جورج حداد : فتح العرب للشام ص ٩٦

نحو وسط الشام ، كانت القيادة البيزنطية تواجه الموقف من الشمال .
فيروى ابن عساكر أن الروم « **سارت من أنطاكية وحلب وقنسرين وحمص وما دون ذلك** » . ويروى البلاذرى نبأ **تحرك هرقل من حمص الى** أنطاكية (٥٧) . وهالت هرقل تلك الانتصارات المتتالية فاستجاش الجند من كل شعوب امبراطورية الروم والصقالية والارمن ومن العرب المتنصرة بقيادة جبلة بن الايهم ، ساعيا فى ذلك بنشاط **بين أنطاكية والرها** ، محاولا انقاذ سورية الجنوبية وفلسطين وممنيا نفسه بطرد العرب من الشام بعد ذلك ، بل وغزو الجزيرة العربية نفسها . وقاد المجموع باهان وقيل تيودور ، فقرر العرب الانسحاب الى مكان يسهل منه استقبال المدد عبر الصحراء وعزموا على الصمود الى النهاية . وكان من قول بعضهم : « كيف ندع هذه الاعين المتفجرة والانهار والزرع والاعناب والذهب والفضة والحرير ونرجع الى قحط الحجاز وجدوبة الارض وأكل الشعير ولباس الصوف ؟ » وتراجع العرب بناء على نصيحة خالد ونزلوا واديا يعرف **باليرموك** وهو الفرع الشرقى لنهر الاردن ويصفه الجغرافيون بأنه سهل فسيح على سيف صحراء الاردن يصلح لأن يكون معسكرا لجيش كبير وهذا الموقع « من أشد بقاع الارض قيظا ، وقد أحسنت القيادة العربية الاختيار دون نزاع » وقد أدت أبحاث الرحالة Seetzen سنة ١٨٠٦م الى اكتشاف مكان المعركة ، وقد رأى القرية التى أعارت اسمها الى السهل القريب منها وهى الياقوصة (الواقوصة) . وروى أن الروم حاولوا صرف العرب عن القتال وعرضوا عليهم الاموال ولكنهم أبوا الا القتال . « وكان هرقل قد نزل أنطاكية ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلى وعاملة وتلك القبائل من قضاعة وغسان بشر كثير ، ومعه من أهل أرمينية مثل ذلك . فلما نزلها أقام بها وبعث الصقلار خصيا له فسار بمائة ألف مقاتل معه من أهل ارمينية اثنا عشر ألفا عليهم جرجه ، ومعه من المستعربة من غسان وتلك القبائل من قضاعة اثنا عشر ألفا عليهم جبلة بن الايهم الغسانى وسائرهم من الروم ، وعلى جماعة الناس الصقلار ، وسار اليهم المسلمون وهم أربعة وعشرون ألفا عليهم أبو عبيدة .. ولزم الروم خندقهم عامة شهر يحضضهم القسيسون والشمامسة والرهبان وينعون لهم النصرانية ، حتى استبصروا فخرجوا للقتال الذى لم يكن بعده قتال مثله ... فخرجت الروم فى تعبية لم ير

---

(٥٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٤٦٠ ـ ١ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٠

الراءون مثلها قط وخرج خالد بتعبية لم تعبها العرب قبل ذلك ، فخرج في ستة وثلاثين كردوسا الى الاربعين ، وقال ان عدوكم قد كثر وطغى وليس من التعبية تعبية أكثر للعين من الكراديس ٠٠ واقتتل الناس قتالا شديدا حتى دخل عسكر المسلمين ، وقاتل نساء من نساء قريش بالسيوف حتى سابقن الرجال ٠ وقد كان انضم الى المسلمين حين ساروا الى الروم ناس من لخم وجذام فلما رأوا جد القتال فروا ونجوا » ٠ وفي المدة التى أعقبت معركة اليرموك الى بداية سنة ١٦ هـ ، توجه العرب الى أمكنتهم التي أتوا منها ، واسترجعوا المدن التى افتتحوها قبل المعركة ، متيقنين ان تلك المدن كانت دائما تحت ادارتهم و لم تفلت يوم تركوها ليحاربوا البيزنطيين فى اليرموك ٠ **ومن هنا لم يشر المؤرخون العرب الى سير المسلمين نحو دمشق وحمص بعد اليرموك بل قالوا ساروا نحو انطاكية وقنسرين** « فخرج الى خالد أهل دمشق فقالوا : نحن على عهدنا وصلحنا ؟ قال : نعم ٠٠ ثم ساق وراءهم الى حمص » ٠ وحصر أبو عبيدة **بيت المقدس** فطلب أهله منه أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب ، فكتب اليه بذلك فسار عن المدينة » ٠ وهكذا انفتح أمام المسلمين طريق الغزو الى جبال طوروس وسلم هرقل على الشام سلام مودع قائلا:«عليك ياسوريا السلام ،ونعم البلد هذا للعدو »(٥٨)٠
Vale Syria et ultimatum vale

ويبدو من ايثار أبى بكر للشام على العراق بايفاد سيف الله المسلول خالد بن الوليد اليها **مدى اهتمام المسلمين بالشام** « فأرسل الى خالد وهو بالعراق وكتب : أن انصرف بثلاثة آلاف فارس قاصدا اخوانك بالشام ، والعجل العجل ٠٠٠ فوالله لقرية من قرى الشام يفتحها الله على المسلمين أحب من رستاق العراق » (٥٩) ٠ وقد سأل عمر جمع بجيلة : أى الوجوه أحب اليكم ؟ قالوا : الشام فان أسلافنا بها ، فقال : بل العراق فان الشام فى كفاية ٠ فلم يزل بهم ويأبون عليه (٦٠) ومن هنا صح قول الدكتور فيليب حتى « **ان الغارة على العراق تقف من ناحية التوقيت**

---

(٥٨) الطبرى ج ٤ ص ٣٣ : ٦ رواية سيف ، رواية ابن اسحق ص ١٣٦ ، ١٥٩ ، ابن عساكر م ١ ص ٥٣١ وما بعدها ، د٠ ماجد التاريخ السياسى للدولة العربية ج ١ ص ١٨٤ : ٧ ، حتى : تاريخ العرب : ترجمة نافع ج ١ ص ١٨٥ ـ ٦ ، د٠ حداد : فتح العرب للشام ص ١٠٠ ، ١٠٢ ـ ٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٤، البلاذرى فتوح البلدان ص ١٤١ : ٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٣٥ ـ ٦

(٥٩) تهذيب ابن عساكر (بدران) ج ١ ص ١٤٧

(٦٠) الطبرى ج ٤ ص ٧١ ـ ٢ رواية سيف

التاريخى على رأس أعمال المسلمين الحربيـــة ولكن من وجهة نظر المدينة والحجاز كانت بلاد الشام المجاورة هى محل الاهتمام الاكبر » • وقد جاءت بلاد الشام محققة لآمال المسلمين فيها « فقد كانت السرعة واليسر اللذان تم بهما الحصول على اقليم ذى أهمية استراتيجية عظيمة من أعظم دولة فى ذلك العصر من العوامل التى أكسبت دولة الاسلام الناهضة حديثا نفوذا فى أعين العالم ، والأهم من هذا أنها جعلت أبناء تلك الدولة على ثقة مما يخبئه القدر لهم • فمن الشام زحفت الجموع الى مصر ، ومن ثم سلكت سبيل النصر الى كل شمالى افريقية ، واتخذت الشام كقاعدة بدات منهـا الهجمات على أرمينية وشمالى العراق وجورجيا واذربيجان • كذلك كان من السهل أن تتخذ ايضا قاعدة لغارات السنين المتوالية على آسيا الصغرى وبفضل جنود الشام كان من الممكن أن تنطوى أسبانيا الواقعة فى الطرف الاقصى من أوربا ــ قبل أن يمر على وفاة الرسول مائة سنة ــ فى دائرة الاسلام المتزايدة الى الابد فى الاتساع » (٦١) •

(ج) فتح شمالى الشام :

كان شمالى الشام قريبا من الاراضى الأصلية للدولة البيزنطية ، وفيه انطاكية المدينة العريقة • ولم يخف على مؤرخى العرب اهمية تلك المنطقة الشمالية من بلاد الشام بالنسبة للروم ، فيروى بعضهم ان هرقل لما بلغه أمر رسول الاسلام على أثر رسالته اليه سنة ٦ هـ عرض على قومه أن يصالحه ويقاسمه « فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية ويدعنى وأرض الشام • وكانت أرض سورية أرض فلسطين والاردن ودمشـــق وحمص ــ وما دون الدرب من أرض سورية ، **وكان ما وراء العرب عندهم** الشام فقالوا له : نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفت انها الشام ؟ والله لانفعل هذا أبدا » • (٦٢) وقد أعاد مؤرخو العرب ذكر هذا العرض مرة آخرى عند استهلال فتوح الشام « قالوا : وقد كان هرقل حج قبـــل مهزم خالد بن سعيد بيت المقدس ، وبينما هو مقيم به اتاه الخبر بقرب الجنود منه ، فجمع الروم وقال : أرى من الرأى الا تقاتلوا هؤلاء القوم أو تصالحوهم ــ فو الله لأن تعطوهم نصف ما اخرجت الشام وتأخذوا نصفا وتقر لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم فى جبال الروم • فتنخر أخوه ونخر ختنه وتصدع عنه من كان حوله » (٦٣)

(٦١) حتى : تاريخ العرب ــ ترجمة نافع جـ ١ ص ١٨٢ ، ١٨٩
(٦٢) الطبرى جـ ٣ ص ٨٨ رواية ابن اسحق
(٦٣) الطبرى جـ ٤ ص ٣٧ رواية سيف

ومهما كانت قيمة هذه الروايات من الوجهة التاريخية فانهـا تدل على استشعار أهمية خاصة لمنطقة شمال الشام . وقد تأيد هـذا عند فتح الشـام اذ كان هرقل يدير المعركة متنقلا ما بين حمص وانطاكيـة «فكتبوا الى هرقل وخرج حتى نزل بحمص فأعد لهم الجنود وعـين لهم العساكر .. وانتهت الهزيمة الى هرقل وهو دون مدينة حمص ، فارتحل فجعل حمص بينه وبينهم وأمر عليها أميرا فخلفه فيها .. ونزل المسلمون حوالى دمشق وهرقل يومئذ بحمص ومدينة حمص بينه وبينهم » . وسار هرقل في الروم حتى نزل انطاكية ومعه من المستعربة ومن أهل ارمينية (٦٤) ولم يغفل المسلمون عن مناوشة المنطقـة الشـمالية في أول الفتوح فهم في حصارهم لدمشق جعلوا « ذا الكلاع بين المسلمين وبين حمص على رأس ليلة من دمشق » . ولما جاء كتاب أبي عبيدة الى عمر بن الخطاب يسـأل عن الذي ينبغي أن يبدأ به كتب اليه : « أما بعـد ، فابدأوا بدمشـق فانهدوا لها فانهـا حصن الشـام وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب ، وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ويدعوها وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فان فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد الى حمص ودع شرحبيل وعمروا وأخلهما بالأردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته » ، فلمـا انجز المسلمون فتح دمشق وفحل « انصرف أبو عبيدة بخالد من فحل الى حمص سنة ١٣ هـ » (٦٥) ، وهكذا بدأ فتح شمالي الشام .

ففي سنة ١٥ هـ خرج أبو عبيدة بخالد فحل الى حمص ، و انصرف الى الروم بمن أضيف من اليرموك فجرت واقعة بينه وبين الروم في مرج الروم وكان على الروم توذرا البطريق ، وقدم عليه شنس الرومي في مثل خيله امدادا له وردءا لأهل حمص ، وقد هزم المسلمون الروم وواصلوا سيرهم الى حمص . وأاد الروم أن يستعينوا على حربهم ببرودة الجو التي لم يألفها العرب « ولما بلغ هرقل الخبر بمقتل أهـل المرج أمر أمير حمص بالسير والمضي الى حمص ، وقال انه بلغني أن طعامهم لحوم الابل وشرابهم ألبانها وهذا الشتاء فلا تقاتلوا الا في كل يوم باد .. وارتحل من عسكره ذلك فأتى الرهاء وأخذ عامله بحمص . واقبل أبو عبيدة حتى نزل حمص

---

(٦٤) الطبري ج ٤ ص ٣١ ، ٣٧ ، ٥٧ رواية سيف ، ١٣٦ رواية ابن اسحق

(٦٥) الطبري ج ٤ ص ٥٦ ـ ٧ ، ٦٠ رواية سيف ، ابن عساكر م ١ ص ٤٨٧ ، ٥١٤

وأقبل خالد بعده حتى ينزل عليها ، فكانوا يغادرون المسلمين ويراوحونهم فى كل يوم بارد ، ولقى المسلمون بها بردا شديدا والروم حصارا طويلا ؛ فأما المسلمون فصبروا ورابطوا وأعقبهم النصر ٠٠ فنادى أهل حمص : الصلح الصلح ، فأجابهم المسلمون وقبلوا منهم على أنصاف دورهم وعلى أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم ولا ينزلون عليهم ، فتركوه لهم ٠ فصالح بعضهم على صلح دمشق : على دينار وطعام على كل جريب أبدا ـ أيسروا أو أعسروا ، وصالح بعضهم على قدر طاقته ان زاد ماله زيد عليه أو نقص نقص ، وكذلك كان صلح دمشق والاردن ٠٠ وولوا معاملة ماجلا ملوكهم عنة » ٠ وأمنهم أبو عبيدة على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد ، وكان قد صالح بعلبك على نحو ذلك ٠ ثم صالح **حماه وشيزر ومعرة حمص** (التى نسبت أيضا الى النعمان بن بشير فقيل معرة النعمان) **وفامية أيضا** « وأذعنوا بالجزية والخراج واستتم أمر حمص » (٦٦) ٠

وبعث أبو عبيدة بعد فتح حمص خالد بن الوليد **الى قنسرين** فالتقوا بجيش الروم وعليه ميناس فهزموه ٠ وأرسل أهل حاضر قنسرين الى خالد « انهم عرب وانما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه » ٠ فقبل منهم وسار حتى نزل على قنسرين ، فتحصنوا منه ثم طلبوا الصلح على صلح حمص ولكن خالد قدر أهمية المدينة العسكرية وتحصيناتها ومقاومة أهلها فاشترط اخرابها « واتطأت حمص وقنسرين ، فعند ذلك خنس هرقل ، ورحل أبو عبيدة الى **حلب** وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهرى ، فتحصن أهلها ثم طلبوا الصلح « وقال بعضهم : ان أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحدا ، وذلك أن أهلها انتقلوا الى أنطاكية وأنهم انما صالحوه عن مدينتهم وهم بانطاكية ، وراسلوه فى ذلك فلما تم صلحهم رجوا الى حلب ٠ وقيل ان أبا عبيدة لما بلغ حلب بلغه ان أهل قنسرين نقضوا فوجه اليهم السمط بن الاسود الكندى فحصرهم وفتحها » ٠ وصولح عرب حاضر حلب على الجزية وسار أبو عبيدة من حلب **الى انطاكية** وقد تحصن بها خلق من أهل جند قنسرين « فلما صار بمهرويه قرب فرسخين من أنطاكية لقيه جمع للعدو ففضهم والجأهم الى المدينة وحاصر أهلها من جميع أبوابها ، وكان معظم الجيش على باب فارس وباب البحر ثم صالحوه على الجزية والجلاء فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمنهم ٠ ثم نقضوا العهد فوجه اليهم أبو عبيدة

---

(٦٦) الطبرى ج ٤ ص ١٥٣ ـ ٤ رواية سيف ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٧ ـ ٨ ، ابن عساكر م ١ ص ٥٢٠ ، ابن الاثير ج ٢ ص ٢٠٨ ٠

عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الأول ·· ويقال بل نقضوا بعد رجوعه فلسطين فوجه عمرو بن العاص من ايلياء ففتحها » وتتابعت انتصارات أبي عبيدة وقواده ومصالحاتهم في معرة مصرين وتوقا والجومة وسرمين ومرتحوان وتيزين وتل اعزاز ودير طايا وخناصره «وفتح أبو عبيدة جميع ارض فنسرين وانطـــاكية » وقورس وبالس وقاصرين وجسر منبج وصالح الجراجمةوكذلك منبج ودلوك ورعبان · ووجه أبوعبيدة وهو بمنبج خالد بن الوليد الى ناحية مرعش ففتحها ، وفتح حصن الحدث حبيب بن مسلمة من قبل عياض بن غنم وكان معـــــاوية يتعهده بعد ذلك · (٦٧)

وهكذا لم يجد المسلمون صعوبة فى فتح مدن شمالى الشام بوجه عام ، حتى روى عن أهل حمص قولتهم المشهورة للمسلمين « لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم» · وانضم الى قائمةالفتوح بسرعة أنطاكية وحلبوغيرهما من مدنالشمال · واذكانت قنسرينCholcis هى التى لاقوا فى فتحها بعض المشقة ، فانه يمكن القول عموما أنه « لم تحدث مقاومة خطيرة فى طريق الجنود العربية التى واصلت انتصاراتهـا حتى انتهت الى حدود سورية الطبيعية وهى جبال طوروس » · (٦٨) وتابعت جماعات من جيش المسلمين فلول الروم الهاربة حتى السفوح الشرقية لجبل اللكام Amanus ونهر الفرات عند نيكوبوليس Nicopolis (أصلاحية) · واستولى الفاتحون على الاقليم ، ويسجل الدكتور شعيرة هنا تباطؤ الروم وفتورهم ، ومن ناحية أخرى عدم مقاومة أهل الشام أنفسهم ـ عدا مدن الساحل والقليل من مدن الداخل · وقد لقى الفاتحون المسلمون فى أفريقية وأرمينية مقاومة مرجعها الى سكان البلاد الأصليين وتمكن روح الاستقلال منهم مما يبين أهمية التغلغل العربى البطىء بين أهل الشام قبل الاسلام · وكان فتح الشام خطوة ضخمة فى اقامة صرح امبراطورية جديدة تتحدى بيزنطة فى البر والبحر « لقد خلق فتح الشام عالما جديدا تماما ، ومن أجل حراسته كان ينبغى دفع كل محـــاولة من السادة القدماء للعودة ·· وفى الصراع بين البيزنطيين والعرب كان فتح الشام نقطة فاصلة ، واساسا وقاعدة اضيفت اليها الفتوح التالية · فان

(٦٧) الطبرى جـ ٤ ص ١٥٤ رواية سيف ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥١ ـ ٢ ، ١٩٦ ، ١٨٩ ، ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ١٥ : ٩

(٦٨) حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع حـ ١ ص ١٨٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٣ ـ ٤

القنوع بالشام كان معناه فقدها بعد قليل ! وقد كان اهتمام العرب بتأمين ممتلكاتهم هو الذى أدى بهم الى بسط رقعتها توخيا لحماية أفضل لها . وكانت قاعدة عامة أن يجد كل توسع عربى جديد فى هذا الاهتمام سببا لوجوده .. وكان من الممكن فتح سوريا من الجزيرة أو من مصر ، ولنتيجة لهذا كان فتح هذين الاقليمين ضروريا للمسلمين .. وهذه السياسة الهجومية التى تستهدف تأمين الدولة عرضت وتقررت فى الجابية بالشام عند قدوم عمر وتشاوره مع قواده» .. (٦٩)

(د) فتح الجزيرة :

بين الجزيرة والشام ارتباط جغرافى طبيعى عن طريق نهر الفرات . وقد تحدث الجغرافيون المسلمون عن « رصيف يمتد بين صرخند والعراق فى البرية يقال انه من عمل سليمان بن داود ، وينصل فى مواضع وينقطع فى أخرى ، يتوصل السالك معه من الشام الى العراق ، ومن العراق الى الشام فى أقرب مدة » . (٧٠) ولقد كان النزال المتجدد بين اللخميين والغساسنة يدور حول الارض الممتدة جنوبى تدمر Palmyra والتى تصل بين الامارتين المتعاديتين وتسمى Strata (٧١) . وقد بدأ ارتباط الجزيرة بالشام منذ بداية الفتوح الاسلامية فيروى البلاذرى « ان هرقل لما صار الى أنطاكية استنفر الروم **وأهل الجزيرة** وبعث عليهم رجلا من خاصته وثقاته من نفسه فلقوا المسلمين بفحل من الاردن » . (٧٢) ويروى الطبرى أنه على أثر اتجاه المسلمين لمهاجمة حمص « ارتحل هرقل من عسكره **فأتى الرهاء** وأخذ عامله بحمص .. وكتب أبو عبيدة الى عمر فأخبره خبر هرقل وأنه عبر الماء الى الجزيرة ـ فهو بالرهاء ينغمس أحيانا ويطلع أحيانا » .. (٧٣) ويروى أن المسلمين لما هزموا الروم فى اليرموك « بعث أبو عبيدة عياض بن غنم فى طلبهم فسلك الاعماق حتى بلغ ملطية فصالحهم أهلها على الجزية ثم انصرف . ولما سمع هرقل بذلك بعث الى مقاتلتها ومن فيها فساقهم اليه وأمر **بملطية فحرقت** . **والاكثر على أن الجزيرة من فتوح أهل الشام لا العراق** » . (٧٤) وذكر أن خالدا حين قتل ميناس

---

(٦٩) Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins. pp. 46-7

(٧٠) العمرى : مسالك الأبصار حـ ١ ص ٢٣٠

(٧١) Bury : Hist. of Later Rom. Emp. Vol.. II pp. 91 — 2.

(٧٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢١

(٧٣) الطبرى حـ ٤ ص ١٥٣ ـ ٤ رواية سيف.

(٧٤) الطبرى حـ ٤ ص ١٣٧ رواية ابن اسحق ، ابن الاثير حـ ٢ ص ٢٢٥

ومات الروم على دمه وعقد لأهل الحاضر وترك قنسرين طلع من قبل الكوفة عمر بن مالك من قبل قرقسيا وعبد الله بن المعتم من قبل الموصل والوليد بن عقبة من بلاد بنى تغلب في تغلب وعرب الجزيرة **وطووا مدائن الجزيره على نحو هرقل** ، وأهل الجزيرة فى حران والرقة ونصيبين وذواتها لم يغرضوا غرضهم حتى يرجعوا اليهم الا أنهم خلفوا على الجزيرة الوليد لئلا يؤتوا من خلفهم • فأدرب خالد وعياض مما يلي الشام وأدرب عمرو وعبد الله مما يلي الجزيرة ولم يكونوا ادربوا قبله ثم رجعوا فهى أول مدربة كانت في الاسلام سنة ١٦ هـ •• ولما خرج هرقل من الرهاء واستتبع أهلها قالوا نحن ههنا خير منا معك وابوا أن يتبعوه وتفرقوا عنه، وعن المسلمين وكان أول من انبح كلابها وأنفر دجاجها زياد بن حنظلة وكان من الصحابة وكان مع عمر بن مالك مساندة » • (٧٥)

وقد دعا العرب الى فتح الجزيرة عاملين : الميزات الاستراتيجية التي يكفلها هذا الفتح لتأمين الشام من الشرق ، ثم سهولة هذا الفتح بالنسبة لقوة مقيمة في الشام ومسيطرة على مصبات دجلة والفرات • ولم يعد الفرات بعد فتح الشام حدا خطيرا اذ هو سهل الملاحة فى مختلف الجهات والاوقات وقدكان خير طريق للغزو عرف قيمته الفرس • ويطلق الجغرافيون لفظ الجزيرة على السهل الذى يحوطه منحنى الفرات ويحده : فى الشرق خط يسير من جزيرة ابن عمر صوب الجنوب الى الفرات ، أما الحد الشمالى فليس نهر دجلة وانما هو خط اداري يمر بمواضع برجك وأورفا (والاخيرة هي الرها أو ادسا) ومادرين ونصيبين ، ويطابق بصورة قاهرة الحافة الجنوبية للكتلة الارمينية ،والى الشرق والجنوب من السهل السورى الطويل الممتد بين جبل اللكام (أمانوس) والفرات ليس هناك من عقبة جغرافية تعترض الولوج الى الجزيرة • **وهذا السهل الى جانب اقليم انطاكية يكونان مجالا لا مثيل له للحشود العسكرية اذ تنتهى هذه الرقعة من الارض فى كل الاتجاهات الى مناطق غنية** • وحين جلت بيزنطة عن هذه الرقعة لم تلبث أن تخلت عن الجزيرة أيضا • وأثبت نظام الدفاع البيزنطى بوساطة القلاع المتوالية المنعزلة أو المتقاربة فشله ، اذ أن هذه المواقع المحصنة لم يكن لها قيمة فى الحقيقة الا حين تكون مشحونة بقوات حسنة التدريب والاعداد ، أما وقد تركت هذه المعاقل لتدافع عن نفسها بنفسها فان سقوطها كان محتوما • وان كان شابو Chapot يؤكد أن

---

(٧٥) الطبرى جـ ٤ ص ١٥٥ رواية سيف •

الاقليم نفسه كان رغم نزعات اليهود والحرانيين Carrhaens كان مواليا تماما لبيزنطة (٧٦) ٠

غير أن الجزيرة لم تتعرض لهجوم جاد منظم من قبل المسلمين الى سنة ١٧ هـ ٦٣٧ م ، وذلك حين تعرض المسلمون لخطر محاولة بيزنطية ترمى الى تأليب أهل الجزيرة لطعن جيش المسلمين فى الشام من الخلف فى الوقت الذى تهاجمه القوات البيزنطية من الامام عن طريق البحر - وبخاصة وأن معظم ثغور الشام على البحر المتوسط كانت ما تزال تقاوم المسلمين « فتكاتبوا هم وأهل الجزيرة يريدون ابا عبيدة والمسلمين بحمص • فضم ابو عبيدة مسالحه وعسكروا بفناء مدينة حمص ، وأقبل خالد من قنسرين حتى انضم اليهم فيمن انضم من أمراء المسالح فاستشارهم أبو عبيدة فى المناجزة أو التحصن الى مجى الغياث » • واستقر رأى هذا المؤتمر الحربى على التحصن وطلب المدد خلافا لرأى خالد وقطز وأبحرت الجيوش البيزنطية من الاسكندرية بقيادة قسطنطين بن هرقل نفسه ، وأنزلت الجند فى أنطاكية وظفر البيزنطيون بمظاهرة القبائل المتمردة فى شمالى الشام «وكتب أبو عبيدة الى عمر بخروجهم عليه وشغلهم أجناد أهل الشام عنه ، وقد كان عمر اتخذ فى كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين عدة لكون ان كان ، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس فلما وقع الخبر لعمر كتب الى سعد بن مالك بندب الناس الى حمص مع القعقاع بن عمرو فان أبا عبيدة قد أحيط به ٠٠ وسرح سهيل بن عدى الى الجزيرة فى الجند وليأت الرقة فان أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وان أهل قرقيسياء لهم سلف ثم لينفضا حران والرهاء ، وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، وسرح عياضا فان كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعا الى عياض بن غنيم) » وكان عياض من أهل العراق الذين خرجوا مع خالد بن الوليد ممدين لأهل الشام وممن انصرف أيام انصرف أهل العراق ممدين لأهل القادسية • فمضى القعقاع نحو حمص ، وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغيره وتوجه كل أمير الى الكورة التى مر عليها • فأتى سهيل الرقة ، وخرج عمر مغيثا لابى عبيده حتى نزل الجابية • ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص وأثاروهم - وهم معهم مقيمون - عن حديث من يالجزيرة منهم

(٧٦) Cheira : La Lutte entre arabes et Byzantins pp. 47-8, 50

بأن الجنود قد ضربت من الكوفة ولم يدروا الجـزيرة يريدون أم حمص ـ تفرقوا الى بلدانهم واخوانهم وخلوا الروم • ورأى أبو عبيدة أمرا لما انجلى هذ الخطر وعزم على انجاز فتح الجزيرة فافتتحت سنة ١٧ هـ فى رواية سيف ويذكر ابن اسحق انها افتتحت فى سنة ١٩ هـ حين كتب عمر الى سعد بن ابى وقاص « ان الله قد فتح على المسلمين الشام والعراق، فابعث من عندك جندا الى ا لجزيرة ••• » •

وتتابعت انتصارات المسلمين ومصالحاتهم فى مدن الجزيرة الكبرى مثل الرهاء والرقة وحران ورأس العين ثم ميافارقين وسـنجار وآمد وكفرتوثا وماردين ودارا وسميساط ••• الخ « وقالوا ـ أهل الجزيرة ـ فيما بينهم : **أنتم بين أهل العراق وأهل الشام ، فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء** » • وخرج الوليد بن عقبة حتى قدم على بنى تغلب وعرب الجزيرة ، فنهض معه مسلمهم وكافرهم الا اياد بن نزار فانهم ارتحلوا فاقتحموا أرض الـروم فكتب بذلك الوليد ا لى عمر فكاتب عمر ملك الروم فى اخراجهم فأخرجهم « فتم منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبى عدى بن زياد وخنس بقينهم فتفرقوا فيما يلى الشام والجزيرة من بلاد الروم » • وذكر الواقدى أن أبا عبيدة مات فى طاعون عمواس سنة ١٨ هـ ـ ٦٣٩ م واستخلف عياضا فورد عليه كتاب عمر **بتوليته حمص وقنسرين والجزيرة « فلم يبق بالجزيرة موضع قدم الا فتح على عهد عمر على يد عياض بن غنم »** « فكانت الجزيرة أسهل البلدان أمرا وأيسره فتحا » • ولما استخلف عثمان كتب الى معاوية بولايته الشام وولى عمير بن سعد الانصارى الجزيرة ، ثم عزله **وجمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورهما** ، وهكذا ارتبطت الجـزيرة بالشام اداريا وحربيا منذ الفتح الاسلامى « **وذكروا أن الجزيرة كانت الى قنسرين حتى جندها عبد الملك بو مروان أى افردها** » • وقد تتابع عياض بن غنيم ومعاوية على فتح ملطية ، كما امتد الغزو الاسـلامى الى نواحى أرمينية • وأوضح فاتح الجزيرة بلغة الشعر القيمة العسكرية التى حققها الفاتحون :

جمعوا الجزيرة والغياث فنفسوا ... عمـا بحمص غيـابة القـدام
غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهوا ... عن غزو من يأوى بلاد الشام(٧٧)

(٧٧) الطبرى جـ ٤ ص ١٩٥ : ٨ روايتا ابن اسحق وسيف ، ابن الاثير جـ ٢ ص ٢٢٥ ـ ٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٩ : ١٨٩ ، ١٩٢ ـ ٣ ، ١٣٨ ، دكتور العدوى: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٤٢ : ٤ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ١ ص ٣٠ : ٢

هـ ـ فتح أرمينية :

تحتل ارمينية وضعا جغرافيا متميزا كمنطقة حاجزة من قديم « فبنى قباذ بأران مدينة البيلقان ومدينة برذعة وهى مدينة الثغر كله ومدينة قبلة وهى الخزر ، ثم بنى سد اللبن فيمابين أرض شروان وباب اللان ، وبنى على سد اللبن ٣٦٠ مدينة · وملك ابنـــه أنوشروان فبنى مدينة الشابران ومدينة مسقط ثم بنى مدينة الباب والابواب ، وانمـا سميت أبوابا لأنها بنيت على طريق فى الجبل · وأسكن ما بنى من هـذه المواضع قوما سماهم السياسيجين · وبنى بأرض جزران سغدبيل، وأنزلها قوما من السغد وابناء فارس وجعلها مسلحة وبنى مما يلى الروم فى بلاد جرزان قصر يقال له باب فيروز قباذ وقصرا يقال له بارقة وهو على بحر طرابزنده » ·

وانقسمت ارمينية قبيل الفتح الاسلامى بين الفرس والبيزنطيين ، وكان القسم الاصغر فى يد الاخيرين · وأدى اعتماد الفرس على ولاة محليين وتطلع هؤلاء للبيزنطيين شركائهم فى الدين الى الاضرار بالفرس ، كما أدى الاختلاف المذهبى ومحاولة البيزنطيين فرض مذهب بعينـه على رعاياهم المنسيحيين الى الاضرار بمركزهم أيضا بين الارمن اذا رفض هؤلاء اعتناق المذهب الخلدونى وتعرضوا لاضطهادات الدولة لهم · وجاء الاسلام فاتصلت فتوح الجزيرة بفتوح أرمينية كما اتصلت فتوح الجزيرة بفتوح الشام ، وأبلى فيها جنود الشام بلاء حسنا · فقد اخترقت احدى الحملات أرمينية من الجنـوب حتى بدليس وبدا العـرب كبيرى الاهتمـام بالاستيثاق من حدود الاقاليم المفتوحة · **وكانت ثغور الجزيرة فى مقدمة الاقليم غرب منحنى الفرات ومواجهة لآسيا الصغرى وهى تقابل أرمينية الثالثة (ويسمى الاقليم نفسه أرمينية الاولى حسب تقسيم الامبراطور موريس) ، وتجاور ثغور الجزيرة بند الارميناق (الذى جرى تأسيسه سنة ٦٢٦ م/٥ ـ ٦هـ) والذى كانت جبهة الجزيرة الامامية جــزءا منه قبل الفتــح العربى** وتقع بينه وبين أرمينية الكبرى · ولكى يؤمن المسلمون ثغور الجزيرة فى موقعها الحساس لم يكن أمامهم سوى انتزاع أرمينية من بيزنطة ودفع الحـدود الى الأمام · وفى مستهل حكم عثمان جمعت لمعاوية ولاية الشام والجـزيرة وغدت مسائل الحدود تعالج بنشاط كبير ، **فوجهت حملات عدة من الثغور الجزرية الى شمشاط** Theodosiopolis **وكمخ وقاليقلا** Arsamosate **قاصدة أرمينية الكبرى من بند الارميناق** وهو هدف اتجه اليه عثمان أو واليه معاوية ·

وقد ذكر أن عياض بن غنم وجه عثمان بن أبى العاص سنة ١٩هـ

الى أرمينية الرابعة فكان عندها قتال أصيب فيه صفوان بن المعطل السلمى ثم صالح أهلها على الجزية . كما ذكر أن عثمان ن عفان لما جمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورهما أمره ان يغزو **شميشاط وهى أرمينية الرابعة** أو يغزيها منذ سنة ٢٣ هـ / سنة ٦٤٢ م ، فوجه اليها حبيب بن مسلمة الفهرى وصفوان ففتحاها على مثل صلح الرها وأقام صفوان بها حتى توفى ، ولم يستطيعا فتح حصن كمخ . وقيل أن معاوية اشترك فى غزو شمشاط ، وأيا ما كانت الروايات المتباينة عن حملات أرمينية فالواضح أن مثل تلك البلاد بطبيعتها الجبلية وسكانها كان لابد أن تحتاج الى جهود متتابعة .

وكما برز عياض بن غنم فى فتوح الجزيرة برز اسم حبيب بن مسلمة فى فتوح ارمينية « وكان حبيب ذا أثر جميل فى فتوح الشام وغزو الروم ، وقد علم ذلك منه عمر ثم عثمان . فنهض اليها فى ستة أو ثمانية آلاف من أهل الشام وا لجزيرة » وبعد أن أذعنت له قاليقلا خرج اليه بطريق أرميناقس فى جمع عظيم تحالفه قوات من الخزر . فكتب الى عثمان يسأله المدد سنة ٢٥هـ « فكتب الى معاوية يسأله أن يشخص اليه من أهل الشام والجزيرة قوما ممن يرغبون فى الجهاد والغنيمة ، فبعث اليه معاوية الفى رجل . وكتب الى سعيد بن العاص عامله على الكوفه يأمره بامداده بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلى وهو سلمان الخيل » وكان خيرا فاضلا غزاء — فسار اليه فى ستة آلاف من أهل والكوفة . وقد أقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات وقد أبطأ على حبيب المدد فبيتهم المسلمون فاجتاحوهم وقتلوا عظيمهم » . ويروى أبو مخنف رواية مبهمة تقول ان معاوية بن أبى سفيان هو الذى طلب المدد من عثمان لأن الروم « قد أجلبت المسلمين بجموع عظيمة » . وهناك رواية تذكر أن انتداب أهل الكوفة كان بمكاتبة الوليد بن عقبة ، وأنهم مضوا « حتى دخلوا مع أهل الشام الى أرض الروم وعلى جند أرض الشام حبيب بن مسلمة وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة فشنوا الغارات على أرض الروم فأصاب الناس ما شاءوا من سبى وملأوا أيديهم من المغنم وافتتحوا بها حصونا كثيرة » وأبو مخنف هنا لا يذكر بالتحديد أن اجلاب الروم على المسلمين كان فى أرمينية ، مما قد يظن معه احتمال أن يكون الهجوم على أهل الشام عند حدود الشام مع الدولة البيزنطية ، ولكن البلاذرى يذكر الروايتين ثم يقول « والخبر الاول اثبت . »

وقد تتابعت انتصارات المسلمين فى أرمينية فصالحوا **خلاط وارجيس**

ودبيل والنشوى وتفليس • وكانت آخر حملات حبيب فى أرض أرمينية سنة ٣١ هـ / سنة ٦٥٢ م « ولما فتح حبيب ما فتح من أرض أرمينية كتب به الى عثمان بن عفان فهم أن يوليه جميع أرمينية وقد نعى اليه سلمان ابن ربيعة الباهلى •• ثم رأى ان يجعله غازيا لثغور الشام والجزيرة لغنائه فيما كان ينهض له من ذلك ... وسار حبيب راجعا الى الشام ، وكان يغزو الروم • ونزل حمص فنقله معاوية الى دمشق فتوفى بها سنة ٤٢هـ » وقد كان خضوع أرمينية للعرب يعتمد على معاهدات الصلح أكثر من اعتماده على حامياتهم ، وقد حققت به الدولة الاسلامية تأمين حدود بلادها وتضييق الخناق على دولة الروم • وكانت ثمرة حملات المسلمين وسياسة الاضطهاد الدينى التى جرى عليها قسطانز الثانى ان مال قائد أرمينية Theodore Rochtouni الى توقيع صلح مع معاوية سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣ م ، وتتابع أمراء الاقليم على الاعتراف بالصلح والانحياز لمعسكر العرب • ولكن الارمن ما كادوا يستشعرون وطأة النفوذ العربى حتى استرجعوا آلامهم القديمة ضد بيزنطة ، وقد حاولوا التأرجح بين القوتين المتجاورتين ، ولكن النفوذ الاسلامى استمر منذ سنة ٦٥٣م ، وان كان نفوذا مؤقتا على حد تعبير لوران Laurant وقد اوقفت الفتنة أيام عثمان كل نشاط خارجى ، فجلا العرب عن قاليقلا ولكن بقوا فى شمشاط Arsamosate وهكذا اتخذت قوات الجزيرة قواعد أربعة : ففى أول الأمر لم يكن هناك سوى حامية سميساط Samosate ، أما عند نهاية هذه الفترة فقد كانت هناك حاميات شمشاط وملطية وقاليقلا الى جانب سميساط • وشهدت الحدود ارتفاع سور بين بيزنطة وأرمينية يعز اختراقه ، ووجدت منطقة حدود أرمينية فى الوقت نفسه ، ولكن الكتاب الاقدمين دأبوا على اطلاق ثغور الجزيرة على الجبهة كلها ، ولم يرغب معاوية فى أن يقيم جبهتين • ومن أجل هذا نظم القاعدة الوسطى فى ملطية على بعدين متساوين من الجبهتين الجديدة والقديمة (٧٨).

و ـ البحر المتوسط :

انتصر المسلمون فى الشام على طول الطريق القديم الذى ارتادته قوافلهم التجارية فى رحلة الصيف تاركين المنطقة الساحلية التى فصلتها

(٧٨) البلاذرى : فتوح البلدان ٢٠٢ ، ٢١٢ ، الطبرى ج ٥ ص ٤٦ روايتا ابى مخنف والواقدى ، دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ١١٢ : ٧ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية جـ ص ٢٤٩
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins. pp. 49, 70 : 5

سلسلة جبال لبنان عن داخل البلاد • وهذه المنطقة الساحلية كانت موضع اهتمام البيزنطيين، اذ أقاموا بمدنها المعاقل للدفاع عنها، وخصصوا لذلك حاميات كبيرة منها حاميات قيسارية وعسقلان وغزة ويافا، وهى نقط قريبة من أماكن يمكن عندها اجتياز الحاجز الجبلى الذى يفصل الساحل عن داخل البلاد • وأدرك المسلمون أثناء فتوحهم فى اقليم الاردن خطورة بقاء المدن الساحلية ــ ولاسيما صور وعكا ــ فى أيدى البيزنطيين ، اذجاءت الامداد البيزنطية من هذه المنطقة الساحلية لدفع المسلمين وعرقلت تقدم عمرو بن العاص • وقد فتح شرحبيل عكا وصور وصفورية ، ووجه أبو عبيدة عمرو بن العاص الى سواحل الاردن « فكثر الروم وجاءهم المدد من ناحية هرقل وهو بالقسطنطينية ، فكتب الى أبى عبيدة يستنجده فوجه أبو عبيدة يزيد أبى سفيان فسار وعلى مقدمته معاوية أخوه • ففتح يزيد عمرو سواحل الاردن ، فكتب أبى عبيدة بفتحه لها • وكان لمعاوية بلاء حسن وأثر جميل » • وهكذا شهد الشام فاتحة جهود بنى أمية البحرية ، وحسن بلائهم فى افتتاح الثغور والموانى ثم تحصينها خلال عهدى عمر وعثمان وقاموا عن العرب بعبء كثيرا ما يثار عزوفهم عنه بحكم بيئتهم ، وهو ركوب البحر ثم القتال فيه • **وقد استخدم البيزنطيون ثغور الشام على البحر المتوسط فى هجومهم عليه سنة ٦٣٨ م بقيادة قسطنطين بن هرقل ، وكما أدى هذا الهجوم البيزنطى الى اتجاه المسلمين الى فتح الجزيرة فارمينية ليحموا ظهورهم ، فانه قد أدى أيضا الى اهتمامهم بفتح موانى الشام على البحر المتوسط** • فيذكر بن اسحق فى أعقاب روايته عن فتح الجزيرة : « ثم كان فتح قيسارية من من فلسطين وهرب هرقل » ، « وجعل الروم لا يزاحفون معاوية مرة الا هزمهم وردهم الى حصنهم ثم زاحفوه آخر ذلك فاقتتلوا فى حفيظة واستماتة » • واختلف فى تاريخ فتح **قيسارية** فى الفترة ما بين سنة ١٦ هـ و ٢٠ هـ ، وقيل انها حوصرت سبع سنوات ، وأنها حين فتحت وجد بها من المرتزقة ٧٠٠ ألفا ومن السامرة ٣٠ ألفا ومن اليهود ٢٠٠ ألفا ــ ومهما يكن فى هذه الارقام من مبالغة ظاهرة فهى تدل على اهتمام الروم بشحنها • وقيل انه وجد بها ٣٠٠ سوق قائمة مكانها ، وكان يحرسها كل ليلة على سورها ١٠٠ ألف وقد دل المسلمين على طريق فتحها أحد اليهود وبلغ سبى قيسارية ٤٠٠٠ رأس • وهناك روايات أخرى تختلف فى هذه الاحصاءات (٧٩)

(٧٩) الطبرى جـ ٤ ص ١٥٦ ، رواية سيف ، ١٩٧ ، ٢٢٥ روايات أبى معشر والواقدى وابن اسحق ، ابن الاثير جـ ٢ ص ٢٢٥ ، العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٤٨ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٥ •

وتعددت هجمات المسلمين على ساحل الشام من شماله الى جنوبه ، فبينما نري علقمة بن مجزز يحصر الفيقار بغزة ، نرى يزيد ومعاوية بن أبيعبيدة يبليان بلاء حسنا في مهاجمة مواقع أخرى من السال « لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان بعد فتح دمشق ، وسار الى فحل سار يزيد الى مدينة **صيدا وعرقة وجبيل وبيروت** وهى سواحل دمشق على مقدمته أخوه معاوية ففتحها فتحا يسيرا وجلا كثير من أهلها » . وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه في ولاية يزيد « ووجه يزيد معاوية الى سواحل دمشق سوى أطرابلس فانه لم يكن يطمع فيها فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة فربما قوتل قتالا غير شديد وربما رمى ففتحها » ... ولما استخلف عثمان وولى معاوية الشام وجه معاوية سفيان بن مجيب الازدى الى **أطرابلس** وهي ثلاث مدن مجتمعة ، فبنى في مرج على أميال منها حصنا سمى حصن سفيان وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره وحاصرهم فكتبوا الى ملك الروم فوجه اليه بمراكب كثيرة فركبوها ليلا وهربوا . وبذل معاوية جهدا كبيرا في **فتح عسقلان** التى كانت منيعة التحصين«وكتب عمر الى معاوية يأمره بتتبع ما بقى من فلسطين ففتح عسقلان صلحا بعد كيد ، ويقال ان عمرو كان فتحها ثم نقض أهلها وأمدهم الروم ففتحها معاوية وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة » ./وكان لعبادة بن الصامت الانصارى جهاد فى فتح **اللاذقية** « فلما رأى صعوبة مرامها عسكر على بعد من المدينة ثم أمر أن تحفر حفائر كالأسراب يستتر الرجل وفرسه فى الواحدة منها ثم انهم أظهروا القفول الى حمص فلما جن عليهم الليل عادوا الى معسكرهم وحفائرهم وأهل اللاذقية غارون يرون انهم قد انصرفوا عنهم ، فلما اصبحوا فتحوا بابهم » ففاجأهم المسلمون بالهجوم . « وورد عبادة والمسلمون السواحل ففتحوا مدينة تعرف ببلدة على فرسخين من جبلة ، وأنشأ معاوية جبلة وكانت حصنا للروم جاوا عنه » كما فتحت فى المنطقة المجاورة لساحل البحر انطرطوس وبلنياس وانطاكية وسلوقية (٨٠) . وبفتح الشام غدا المسلمون من قوى البحر المتوسط وقد علمتهم الاحداث المتتابعة ان الشام مهددة من جانبين : آسيا الصغرى ومصر . ومن هنا جاءت فكرة فتح مصر والعرب بفتحها يشغلون من سواحل المتوسط الشرقى ما يعادل ما كانت تشغله بيزنطة ، والعداوة المحدمة بين الفريقين استلزمت من المسلمين تشييد الاسطول (٨١) .

---

(٨٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٣ ، ١٣٣ ــ ٤ ، ١٣٩ ــ ٤٠ ، ١٤٧ : ٩ ، ١٥٤ـ٥ ،

(٨١) Cheira : La lutte entre Arabes et Byzantins p. 84.

وقد استمر الاندفاع الاسلامى نحو شواطىء البحر المتوسط بصورة متصلة ، فأدم المسلمون فتح مصر سنة ٢٢ هـ ، ٦٤٢ م « وكانوا يستطيعون التصعيد مع مجرى النيل الى النوبة والسودان ليجدوا بلادا واسعة ، لكنهم استطردوا مع ساحل البحر نحو برقة متحملين مخاطر الصحراء ، وتابعوا سواحل طرابلس الطويلة حتى وصلوا الى افريقية وهى ما يعرف اليوم بتونس ومن هناك خاضوا معارك حامية فى مفاوز بلاد المغرب وشعابها » (٨٢) ٠

ولم يغفل المسلمون عن أهمية **جزر البحر المتوسط** ، فألح معاوية على عمرو فى غزو البحر وقرب الروم من حمص وقال : ان قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم ، ولكن عمر خشى على المسلمين ركوب البحر ٠ فلما ولى عثمان « لم يزل معاوية به حتى عزم على ذلك وقال : لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله واعنه ففعل » ٠ وقد ذكر الواقدى ان فتح **قبرص** على يد معاوية كان سنة ٢٧ هـ ، وجعل أبو معشر ذلك سنة ٣٣ هـ وقال بعضهم انه كان سنة ٢٧ هـ ، ويبدو أن الجزيرة تعرضت لعدة حملات متعاقبة ٠ ولما غزا معاوية قبرص صالح اهلها « على جزية ٧٠٠٠ دينار يؤدونها الى المسلمين فى كل سنة ويؤدون الى الروم مثلها ، ليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك ، على ألا يغزوهم ولا يقاتلوا وراءهم من ارادهم من خلفهم ، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم وعلى أن يبطرق أمام المسلمين عليهم منهم » ٠ وقد تعاونت مصر والشام على هذا الغزو ، فكان عبد الله بن سعد بن أبى سرح على أهل مصر حتى لقوا معاوية فكان على الناس ، وحمل معاوية فى البحر زوجته وكذلك فعل عبادة بن الصامت ٠ فلما كانت سنة ٣٢ هـ أعان أهل قبرص الروم فى البحر بمراكب على غزو العرب ، فغزاهم معاوية سنة ٣٣ هـ فى ٥٠٠ مركب ففتح قبرص عنوة ، ثم أقرهم على صلتهم وبعث اليهم باثنى عشر الفا لسكنهم هناك وبنى بها مدينة وقيل ان هذه الغزوة الثانية كانت سنة ٣٥ هـ ٠ وغزا معاوية بن حديج **صقلية** أيام معاوية ٠ وغزا جنادة بن أمية الازدى **رودس** سنة ٣٣ هـ / سنة ٦٥٤ م ٠ وذكر ان معاوية هاجم **أرواد** (قرب ساحل الشام بين جبلة وطرابلس وليست هى الواقعة قرب القسطنطينية) سنة ٢٨ ، ٢٩ هـ / ٦٥٠ م ٠ وقد هوجمت كريت حوالى ذلك الوقت ، فان العرب الذين ذهبوا يبسطون سيادتهم على

---

(٨٢) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ــ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ م ٠

قبرص لم يقنعهم ارتياد مياه هذه المنطقة من البحر المتوسط فحسب بل ادركوا أهمية الفتح الشامل لهذه المراكز الاستراتيجية بالنسبة لتأمين دولتهم ذاتها ولتدعيم نفوذهم فى الشرق • وكان على بيزنطة سيدة البحر المتوسط القوية نظرا لمصالحها الاقتصادية والسياسية ولهيبتها وسطوتها ان تقاوم بعنف ، وقد تتابعت العمليات الحربية فى هذه الجزر فى عهد الامويين ، **وكان حاكم قيسارية التى قاومت معاوية مدى طويلا قد اتخذ مقره فى جزيرة صقلية** • وقد قامت من الشام حملة اسلامية سنة ٦٥٢ م الى صقلية وحملت أهلها على الانسحاب داخل الجزيرة (٨٣) •

ويظهر أن هذا النشاط المتزايد من قبل العرب قد استثار بيزنطة • فما كادت تفيق من الفوضى الداخلية التى أصابت البيت الحاكم بعد هرقل حتى بذل قنسطانز الثانى عدة محاولات للهجوم على المسلمين برا فى أرمينية وبحرا فى مصر • وفى سنة ٦٥٥ م ترامت اليه أنباء استعدادات بحرية وبرية هائلة يعدها معاوية لضرب القسطنطينية ، فأراد أن يبادر الاساطيل الاسلامية فى الشام بالهجوم • وعمل شخصان مسيحيان فى طرابلس على تسهيل فرار بعض الاسرى البيزنطيين ومهاجمة دار الحاكم الاسلامى واحراق العدة والعتاد • وما كاد معاوية يسير على رأس قواته البرية سنة ٦٥٥ م (٣٤ هـ) الى قيصرية فى كبادوكيا بآسيا الصغرى وترسو أساطيل الشام ومصر الاسلامية مرساها قرب ساحل ليكيا (عند Phoenix) حتى جاء النبأ باقتراب الاسطول البيزنطى على رأسه الامبراطور « فى جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الاسلام حتى سنة ٣١ هـ » وهى سنة الواقعة فى احدى الروايات • فكانوا فى ٥٠٠ مركب ، فالتقوا بالمسلمين الذين كانوا تحت قيادة عبدالله بن سعد ابن أبى سرح • وقد نقل الطبرى عن مشارك فى هذه المعركة التى سميت **بذات الصوارى** من المسلمين قال : « كنت معهم فالتقينا فى البحر فنظرنا الى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت الريح علينا فأرسينا ساعة وأرسو قريبا منا وسكنت الريح عنا فقلنا الأمن بيننا وبينكم ، قالوا : ذلك لكم وان شئتم فالبحر • قال : فنخروا نخرة واحدة وقالوا : الماء • فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها الى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضا على سفننا وسفنهم ، فقاتلنا أشد القتال ووثبت الرجال على الرجال

(٨٣) الطبرى حـ ٥ ص ٥١ : ٤ روايتا سيف والواقدى ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٩ : ١٦١ ـ ٢٤٤ : ٥ ، دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٨٧ : ٩٢ ، فازيليف : العرب والروم ، ترجمة دكتور شعيرة ص ٦٢ ـ ٣
Cheira : La lutte entre Arabes et Byzantins. pp. 99: 101

يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجئون على الجناجر حتى رجحت الدماء الى الساحل تضربها الامواج وطرحت الامواج جثث الرجال ركاما » . وانتصر المسلمون واقام عبد الله بذات الصوارى اياما بعد هزيمة القوم ثم رجع . وتنكر الامبراطور البيزنطى حتى استطاع الفرار متجها الى صقلية . وحطمت معظم سفن الاسطول البيزنطى وقتل من رجالها عشرون الفا وغدا الناس جميعا مرعوبين من المسلمين كما يروى ميشيل السورى . أما تيوفان فيقارن هذه الواقعة باليرموك . وقد أكد هذا النصر للعرب نفوذا في البحر المتوسط ، ولكن شغلهم الصراع الداخلى منذ فتنة عثمان عن الافادة منه . وقد تحول العرب منذ ذلك الوقت من قوم يجهلون تماما شئون البحر الى سكان لهذا البحر قد ارتبطوا بظروفه وأحداثه . « وتعتبر هذه الواقعة البحرية من المعارك الحاسمة القلائل التى غيرت مجرى التاريخ البحر المتوسط مثل معركة اكيتوم سنة ٣١ ق.م التى جعلت البحر المتوسط بحيرة رومانية ، ومعركة ابى قير البحرية سنة ١٧٩٨ م فقد قضت معركة ذات الصوارى على وصف البحر المتوسط بأنه بحر الروم وجعلته حريا بأن يدعى بحر المسلمين . وجاءت أولى النتائج الهامة لهذه المعركة الفاصلة عندما تخلى الامبراطور قنسطانز ومن جاء بعده عن فكرة طرد المسلمين من البلاد التى استولوا عليها فى شرقى البحر المتوسط ، ولو لم يحدث ذلك لكانت الاضطرابات التى حدثت فى الدولة الاسلامية منذ مقتل عثمان فرصة سانحة للبيزنطيين . لكن الدولة البيزنطية رات أن الأجدى لها هو تصفية علاقاتها مع العناصر الضارية على حدودها الشمالية من السلاف بالبلقان الذين كانوا قد انتهزوا فرصة انتهاز البيزنطيين بحرب المسلمين ، فى حين اكتفى البيزنطيون بتأمين اراضيهم فى الجبهة الجنوبية من آسيا الصغرى لدرء ما يقوم به المسلمون من نشاط حربى جديد ، كما اتجه معاوية الى حدود الشام الشمالية وعمد الى تحصينها ليقيها من أخطار البيزنطيين » . « وأثبتت المعركة ـ فعلا ـ أنها يرموك أخرى اذ حطمت القوى البيزنطية تحطيما تاما » . ورأى الامبراطور قنسطانز أن يستغل فترة الهدوء فى العلاقات الحربية بين الروم والمسلمين على أثر مقتل عثمان فنقل مقر حكمه الى صقلية : ليربط الدولة البيزنطية بالبقية الباقية

لها فى شمالى افريقية ، ويصد الزحف الاسلامى عليها من مصر ، ويحفظ ممتلكاته فى الغرب • (٨٤) •

وقد كانت السواحل بالنسبة للمسلمين فى أول الامر حدودا ونهايات لا يتجاوزونها ، فى حين كانت بالنسبة للبيزنطيين نقطا للوثوب والانطلاق ـ على حد تعبير الدكتور شعيره • وكان الروم يتخذون السواحل درعا يتقون به هجمات الداخل بينما كانت السيادة الاسلامية على الشواطىء تميل الى الضعف سواء فى مصر أو فى الشام وكان الساحل بالنسبة للبيزنطيين حدا يسهل عليهم ان يهاجموه فى حين كان الساحل بالنسبة للعرب خط دفاع عرضة للغزو الى حد كبير • وقد كان الاسطول البيزنطى ـ على حد قول دييل Diehl ـ احدى القوى الكبرى فى الامبراطورية وكان يتحكم فى البحار الشرقية ، بل كان قبل أن يبدو العرب على مسرح الاحداث القوة الوحيدة فى البحر المتوسط، وكانت هذه ميزة بيزنطية الى جانب ميزة أخرى هى تأثر أهل السواحل بالصبغة الرومية أكثر من تأثر الداخل ، ومن هنا كانت مدن السواحل أصعب فتحا على العرب • وقد جعل الروم يستفيدون من ميزاتهم وأقبل العرب يعالجون أوجه النقص لديهم • واستهل العرب جهودهم بتحصين مدن السواحل وتقوية استحكاماتها وشحنها بالمقاتلة • « وان عدد المدن التى جرى تحصينها على سواحل الشام يشير الى الخطر المتوقع ، ويشهد فى الوقت ذاته باتخاذ نظام محكم للدفاع » • وبجانب المدن التى ذكرت روايات المؤرخين اخبار تحصينها « يمكن الظن بصفة عامة ان كل المدن الساحلية قد وضعت فى حالة دفاع طبقا لأوامر عمر وعثمان » • واستفاد العرب تماما فى تحصيناتهم المبكرة من التحصينات البيزنطية السابقة باصلاحها وصيانتها • وكان ساحل الشام غنيا بالمدن المحصنة ، ويفوق فى ذلك ساحل مصر بحكم اختلاف الظروف الطبيعية •• ولم تتهاون الحكومات الاسلامية فى تنظيم الدفاع الساحلى عن دار الاسلام، وقد كان يتركز بصفة خاصة فى الشام ومصر • (٨٥) •

---

(٨٤) الطبرى ج ٥ ص ٦٩ : ٧٠ رواية الواقدى ، د• العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٩٤ : ٩ ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٥٤ : ٥ ، كرد على خطط الشام ح ١ ص ١٤٢ ـ ٣ ، أيضا الدبس : تاريخ سوريا ح ٥ ص ١٦ ـ ٧ نقلا عن تيوفانتس ، حتى تاريخ العرب ـ ترجمة ج ١ ص ٢٥٠ ـ ١
Cheira: La Lutte entre Arabes et Byzantins. pp. 102-3.

(٨٥) Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins pp . 85: 8

على ان بعض المؤرخين مثل جلزر Gelzer يذكران سقوط مصر والشام بأيدى المسلمين خفف عن الدولة البيزنطية عبئا ثقيلا ، وحقق لونا من التجانس بين سكان الجزء الباقى من الامبراطورية في الثقافة والعقيدة فقد تكون من الاجزاء الخاصة للدولة فى آسيا الصغرى والبلقان كتلة بيزنطية متماسكة مخلصة فى رقعة محدودة تسهل ادارتها والدفاع عنها . كذلك أدى ضياع الاجزاء المفقودة من الدولة البيزنطية الى اجراء مضاد يستهدف بناء نظام عسكري جديد فى آسيا الصغرى ، فمنحت الاراضى للزراع مقابل التزام وراثى بالخدمة فى الجيوش الامبراطورية ، كما كان لابد من اجراء التعديلات اللازمة على نظام الدفاع الامبراطورى . وكان هذا كله ايذانا بتبلور الشخصية البيزنطية للدولة الرومانية الشرقية (٨٦) . وهكذا كان امتداد الدولة الاسلامية الى الشام ايذنا باستهلال نظام عسكرى دفاعى اسلامى – هو نظام الاجناد والثغور ، كما أدى فى الوقت نفسه الى تبلور واحكام النظام العسكرى الدفاعى البيزنطى – نظام البنود أو الثيما .

---

(٨٦) Vasiliev : Hist. de L'Emp. Byz. Vol. 1 p. 282 - 3, Byzantium p. XV-XVI, XIX

ثالثاً ـ مرحلة نشوء التنظيم الادارى الحربى الاسلامى فى أيام الخلفاء الراشدين

١ ـ اصطلاحات :

ما كادت الفتوح الاسلامية تستقر حتى شرع المسلمون فى تنظيم البلاد المفتوحة مستفيدين فى ذلك من النظم السابقة التى كانت قائمة فى تلك البلاد عند الفتح ، وجرت عندهم الاصطلاحات المتعددة فى هذا الشأن •

فالكورة « كل صقع يشتمل على عدة قرى ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها » • وأما **المصر** « فيجىء فى قولهم : مصرت مدينة كذا •• **والمصر فى الاصل الحد بين الشيئين** » • ويذكر المقدسى « وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الاعظم وجمعت اليه الدواوين وقلدت منه الاعمال وأضيف اليه مدن الاقليم مثل دمشق والقيروان وشيزار • وربما كان للمصر أو للقصبة نواح لها مدن مثل **طخارستان لبلخ والبطائح لواسط والزاب لافريقية** » •

وأما **الجند** « فيجىء فى قولهم : جند قنسرين وجند فلسطين وجند حمص وجند دمشق وجند الاردن ، فهى خمسة أجناد وكلها بالشام ، ولم يبلغنى انهم استعملوا ذلك فى غير أرض الشام •• قال أحمد بن يحيى بن جابر : اختلفوا فى الاجناد ، فقيل **سمي المسلمون لكل صقع جندا بجند**

عينوا له يقبضون أعطياتهم فيه منه ، فكانوا يقولون هؤلاء جند كذا حتى غلب عليهم وعلى الناحية » (٨٧) .

ولم يكن اصطلاح **الثغور** مقصور الاستعمال على الثغور الجزرية والشامية ، بل استعمل فى فتوح العراق أيضا « فكانت الثغور فى زمن خالد بن الوليد بالسيب ... بعث ضرار بن الازور وضرار بن الخطاب والمثنى بن حارثة فهؤلاء أمراء ثغور خالد .. ورفق سواد الابلة على سويد بن مقرن وحسكة والحصين وأقر المسالح على ثغورهم ... وكان المثنى على ثغر من الثغور التى على المدائن ... وسوى يزد جرد الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر فسمي جند الحيرة والانبار والمسالح والابلة » . (٨٨) وقد كانت كلمة مرزبان فى اصطلاح الادارة الفارسية معناها صاحب البلد وبخاصة الثغر لأن **المر زا هي الثغر** (٨٩) . لذلك كان من الطبيعى أن ينتقل هذا النظام الى المسلمين عن طريق فتوحهم فى العراق وفارس فضلا عن انتقاله عن طريق ممتلكات الروم، ومن ثم يعملون على تطبيقه عند انشاء ادارتهم الجديدة . « فكانت الثغور الكوفية أربعة : حلوان عليها القعقاع بن عمر ، وما سيذان عليها ضرار بن الخطاب الفهرى وقرقيسيا عليها عمر بن مالك أو عمرو بن نوفل بن عبد مناف ، والموصل عليها عبد الله بن المعتم ... فلما اختطت الكوفة نقل الناس أبوابهم من المدائن الى الكوفة فعلقوها على مابنوا وأوطنوا الكوفة ، وهذه ثغورهم وليس فى أيديهم من الريف الا ذلك » (٩٠) .

ويقول ياقوت : « الثغر كل موضع قريب من أرض العدو ، كأنه مأخوذ من الثغرة وهى الفرجة فى الحائط وهو في مواضع كثيرة منهـا ثغر الشام » . وقد أطلق على هذه الثغور عند قنسطنطين بورفيروجنيتس De Caerim ors واسماها ميشيل السورى أقاليم Tagra (٩١) .

وقد استعملت كلمة **الفروج** أيضا : « فلما فرغ خالد من أمر اليمامة كتب اليه أبو بكر أن سر الى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهى الأبلة ... وهو أعظم فروج فارس شأنا وأشدها شوكة وكان صاحبه وكان صاحبه يحارب العرب فى البر والهند فى البحر » . وخطب عمر

---

(٨٧) ياقوت معجم البلدان حـ ١ ص ٣٦ : ٩ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ٤٧ .
(٨٨) الطبرى جـ ٤ ص ١٧ ، ١٩ ، ٨١ وكلها رواية سيف
(٨٩) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ١ ص ١٩٨ هامش
(٩٠) الطبرى ـ جـ ٤ ص ١٩٤ ـ ٥ رواية سيف
(٩١) معجم البلدان جـ ٣ ص ١٦ . Encyc. de l'Isl. art. Thughur.

عند زيارته للشام قال « .. فجندنا لكم الجنود وهيأنا لكم الفروج » (٩٢) .

وكان هناك **الرباط** وهو مكان محصن قد يكون على الساحل أو على الحدود لمراقبة العدو ومحاربته « فكتب عمر الى أبى عبيدة أن رتب بانطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة واجعلهم بها مرابطة » . وفى كل هذه المعسكرات كان العرب يعيشون معيشتهم القبلية فى **خطط أو قطائع** وكان لا بد أن يكون لهم فيها مسجد (٩٣) .

ثم نشأ اصطلاح **العواصم** « والعاصم هو المانع ، والعواصم حصون وموانع وولاية تحيط بها بين حلب وانطاكية ، و قصبتها انطاكية (وقيل منبج) وقد بناها قوم واعتصموا بها من الاعداء وأكثرها فى الجبال ، فسميت بذلك . وربما دخل فى هذا ثغور المصيصة وطرسوس وتلك النواحى » واختلف فى انتماء حلب اليها (٩٤) **وقد فرق قدامة بين العواصم والثغور** بقوله « وعواصم هذه الثغور وما وراءها الينا من بلدان الاسلام . وانما سمى كل واحد منها عاصما لأنه يعصم الثغر ويمده فى اوقات النفير ، ثم ينفر اليه من أهل أنطاكية والجومة والقورس » كذلك قسم قدامة الثغور باعتبار أنواعها ومواقعها الى أقسام « منها برية : تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر ، ومنها بحرية : تلقاه وتواجهه من جهة البحر ، ومنها ما يجتمع فيه الامران : وتقع المغازى من أهله فى البر والبحر . والثغور البحرية على الاطلاق سواحل الشام ومصر كلها ، والمجتمع فيها الامر ان غزو البر والبحر الثغور المعروفة بالشامية .. ثم يلى هذه الثغور عن يمينها وجهة الشمال منها الثغور المعروفة بالجزرية .. ويلى هذه الثغور عن يمينها أيضا وفى جهة الشمال ، الثغور المسماة بالبكرية» (٩٥)

وكانت مناطق الحدود التى يتركها الطرفان المتحاربان خالية ويقومون بنقل السكان منها تسمى **الضواحى** ويظهر ذلك الاصطلاح فى كلام الطبرى وابن الاثير (٩٦) .

---

(٩٢) الطبرى ج ٤ ص ٢ ، ٥ ، ٢٠٤ رواية سيف

(٩٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٤ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ص ٢٣٢ – ٣

(٩٤) ياقوت معجم البلدان ج ٦ ص ٢٣٧ .

(٩٥) قدامة بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج – ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٣ – ٥

(٩٦) Encyc. de l'Islam art. Awasim.

وقد جرى استعمال اصطلاحات أخرى مثل مسلحة ومن ذلك «أقبل خالد حتى دنا من الحيرة فخرجت اليه خيول صاحب خيل كسرى التى كانت فى مسالح ما بينه وبين العرب .. وكتب أبو بكر الى خالد أن يدخل العراق من أسفلها ، والى عياض بن غنم أن يدخلها من أعلاها وقال : اذا اجتمعتا بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردءا للمسلمين ولصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر .. وقال خالد : انما اريد أن استفرغ المسالح التى أمر بها عياض فنسكنها العرب فتأمن جنود المسلمين أن يؤتوا من خلفهم » « وكان فيما بين الاسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم كالحصون والمسالح التى يمر بها المسلمون اليوم ... وكانت قورس كالمسلحة لانطاكية بانيها كل عام طالعة من جند أنطاكية ... فصالح الجراجمة أبا عبيدة على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام ... » (٩٧) .

استعملت كلمة **مرقب** « وهو اسم الموضع الذى يرقب فيه ، والمرقب بلد وقلعة حصينة على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بلنياس » . « قال أبو الفرج عن دير القائم الاقصى على شاطىء الفرات من جانبه الغربى فى طريق الرقة : قد رأيته ، وهو مرقب من المراقب التى كانت بين الروم والفرس على أطراف الحدود » (٩٨) **والمناظر** « جمع منظرة وهو الموضع الذى ينظر منه وقد يغلب هذا على المواضيع العالية التى يشرف منها على الطريق وغيره . وقال أبو منصور : المنظرة رأس جبل فيه رقيب ينظر العدو ويحرس منه . وهو موضع فى البرية الشامية قرب عرض وقرب هيت أيضا » (٩٩) .

والمطامير « جمع مطمورة وهى حفرة أو مكان تحت الارض وقد هيىء خفيا يطمر فيه الطعام أو المال .. وذات المطامير بلد بالثغور الشامية وذكره فى الفتوح كثير » وهى الكهوف الارضية التى كانت ملجأ لأهالى أقاليم كبادوكيا خاصة فى الجند المتاخم لكليكيا (١٠٠) .

ومن الاصطلاحات العسكرية المألوفة لأماكن الجند **الثكن** « وهى

---

(٩٧) الطبرى ج ٤ ص ٣ ، ٥ ، ١٩ رواية سيف ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٨ ، ١٥٤ ، ١٦٤ .

(٩٨) ياقوت : معجم البلدان ص ٢٧ ، العمرى : مسالك الابصار ج ١ ص ٢٦٩ .

(٩٩) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ١٦٥ .

(١٠٠) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٨٤ ، فازيليف : العرب والروم ـ ترجمة الدكتور شعيرة ص ٩٤

مراكز الاجناد على راياتهم ومجتمعهم على لواء صاحبهم وعلمهم وان لم يكن هناك لواء ولا علم ، ومفردها الثكنة • وقد أنشأ الراشدون والامويون ثكنا ومعسكرات متعددة لاقامة جيوشهم الزاخرة ، وتأمين استراحتهم ولحماية المدن التى تم الاستيلاء عليها فى صدر الاسلام » (١٠١) •

وبعد اتمام مراحل الفتح العسكرى لبلاد الشام كان على المسلمين أن يواجهوا مهام التنظيم الادارى والحربى :

فكان عليهم أن يزودا المراكز الاستراتيجية الهامة **بالتحصينات المعمارية** التى تدفع عنها اارات العدو •

وكان عليهم أن يعبئوها **بالسكان المحاربين** •

وكان عليهم أن يستلهموا ظروف البلاد فى **تقسيم الوحدات الادارية وترتيب الجهاز الادارى** •

فلما استقرت أقدامهم فى داخل البلاد تزايد اهتمامهم **بحدودها** وثغورها وتطلعوا الى ايفاد **الحملات العسكرية وراء الدروب** الى أرض الروم•

وفي خلال هذه المراحل كلها تبلور وضع الثغور والعواصم ، وتأهلت لأن تشغل مكانها الخاص على تخوم الدولة الاسلامية للقوة المنافسة الكبرى : قوة الدولة البيزنطية • وفيما يلى **عرض لهذه المراحل التى أعانت على تحديد شخصية الثغور وظهور نظام العواصم لدى المسلمين** •

ب ـ الرباطات على السواحل :

« كان الساحل بالنسبة للبيزنطيين حدا تسهل مهاجمته بينما كان بالنسبة للمسلمين خط دفاع بالغ التعرض للخطر ، وقد أتاح خلو يد المسلمين من أسطول عربى ميزة كبرى لعدوهم عليهم • وبينما اتجه البيزنطيون الى الانتفاع بما عندهم من المزايا اجتهد المسلمون فى تلافى نواحى الضعف من جبهتهم وسد ثغراتها » (١٠٢) •

وقد اندفعت الدولة الاسلامية نحو البحر المتوسط منذ شرعت تجوس خلال ديار الشام ، **واعتبرته حدودا ينبغى تحصينها ضد غارات البيزنطيين** الذين ما فتئوا يستخدمونه لصد الفتح الاسلامى أولا ، ثم

---

(١٠١) نعمان ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ص ١٩ ـ ٢٠

(١٠٢) Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins p. 85

محاولة استعادة ما فقدوه ثانيا . فالبلاذرى يروى بعد فتح صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهى سواحل غلب الروم على بعضها فى آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان أن معاوية قصد لهم حتى فتحها « ثم رمها وشحنهـــا بالمقاتلة » . كذلك نقضت عسقلان بعد فتحها وأعانتها الروم فأعاد معاوية فتحها « وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة » (١٠٣) .

وكان لمعاوية فى العناية بالسواحل بلاء مشكور « وفى أعماله تتجلى كل هذه الخصائص ا لسياسية العملية التجارية التى امتاز بهــا البيت الاموى ، فعمل من أول الامر على أن يصبح الشام قطرا أمويا ، ثم اجتهد فى أن يجعل الدولة الاسلامية كلها دولة أموية . ولم يكن ذلك ميسورا الا بنقلها الى الشام وجعلها دولة شامية بحرية ... وكانت خطة المسلمين فى السيطرة على البحر تتفق مع طبيعتهم وهى الاستيلاء على الشواطىء والموانى ومن هنا كانت محاولتهم العديدة للاستيلاء على القسطنطينيـــة ليكفوا انفسهم غائلة الاساطيل الرومية . **وبينما نجد ثغور الشام البرية المفضية الى آسيا الصغرى من فتوح رجال كأبى عبيدة وميسرة بن مسروق وعياض بن غنم وغيرهم نجد سواحل الشام كلها عدا القليل من فتـــوح معاوية** . وكان أول ما فعلته الدولة الاسلامية لتلافى ضعفها فى الحروب البحرية اتجاها الى تحصين السواحل وتعمير محارسها ومسالحها وشدها بالرجال . **فنجد المسلمين يضعون نظاما دقيقا لحراسة السواحل وينقلون اليها اقواما من القادرين على الحرب ويقيمون على السواحل وفى كبار مدنها معسكرات منظمة معدة ويقسمون هذه القوات الى عرافات ويقيمون المناظر على السواحل ويقتبسون من البيزنطيين فكرة اعطاء الاشـــارات** بايقاد **النيران فى المواقيد** . وبلغ عدد حاميات السواحل فى الشام ١٦ وفى مصر ١٠» (١٠٤) . وعندما خرج عمر الى الشام سنة ١٧هـ : سد فروج الشام ومسالحها واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل ، كما انه وضع فى اواخر سنة ١٦ هـ مسالح مصر على السواحل كلهـــا لغزو هرقل مصر والشـــام من البحر (١٠٥) . وقد نقـــل البلاذرى عن أحد رواته « قال : ادركت الناس وهم يتحدثون ان معاوية كتب الى عمر بعد موت اخيه يزيد يصف له حال السواحل فكتب له فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها

---

(١٠٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٣ ، ١٤٩ .

(١٠٤) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ ، ابن عبد الحكيم

(١٠٥) الطبرى ج ٤ ٢٠٣ ، ٢٣١ رواية سيف

واقامة الجرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها » . « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج بها اليه من المسلمين ، فان حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا اليها الامداد ... فلما استخلف عثمان كتب الى معاوية يامره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها القطائع ففعل .. ولما اذن عثمان لمعاوية بالغزو بحرا امره ان يعد فى السواحل اذا غزا أو أغزى جيوشا سوى من فيها من الرتب ، وأن يقطع الرتب أرضين ، ويعطيهم ماجلا عند أهله من المنازل ويبنى المساجد ... ثم ان الناس بعد انتقلوا الى السواحل من كل ناحية ... وكانت **انطاكية** عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان فلما فتحت كتب عمر الى ابى عبيدة ان رتب بانطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء . ثم ولما ولى معاوية كتب اليه بمثل ذلك ، ثم ان عثمان كتب اليه يأمره أن يلزمها قوما وان يقطع قطائع ففعل . » وقام معاوية بتحصين **جبلة** « فبنى حصنا خارجا من الحصن الرومى القديم ، وكان سكان الحصن الرومى رهبانا وقوما يتعبدون فى دينهم » . وبنى معاوية **انطرطوس** ومصرها واقطع بها القطائع وكذلك فعل **بمرقية وبلنياس** . ومنذ فتح **اللاذقية وجبلة وانطرطوس** على يدى عبادة بن الصامت « كان يوكل بها حفظة الى انغلاق البحر ، فلما كانت شحنة معاوية السواحل وتحصينه اياها شحنها وحصنها وأعطى امرها على ما أمضى عليه امر السواحل . » ورم معاوية **عكا وصور** (١٠٦) .

وجرى منح **القطائع** لأجل ربط العرب بالسواحل ، ولم يكثر هذا زمن عمر بل اقتصر على ناحية انطاكية وحدها . ولكن جاء تعميم الاقطاع فى عهد عثمان حيث غدا قاعدة مقررة . ولم يكن منح القطائع لتكوين طبقة من المزارعين ، بل لتدعيم شأن المحاربين المرابطين فى الثغور الخطرة واتبع الجند النظاميين متطوعة اقبلوا على الجهاد والرباط ... وهكذا وانحلت مشكلة اسكان السواحل وشحنها بالمقاتلة .

غير أن هذه التنظيمات الدفاعية كلها مع عدم وجود **اسطول اسلامى** - كما يبدو أول الامر - لم تكن لتدفع اضطراب الحاميات البرية أمام هجوم مفاجىء من العدو ، كما انها جعلت القوات الاسلامية فى حالة مقاومة مستمرة لمنع العدو من اقامة رؤوس جسور قوية ودائمة فى أى موضع على الساحل ، ومع هذا فان اعمال التحصينات قد أثمرت أثرا

(١٠٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٤ ، ١٣٤ - ٥ ، ١٤٠ ، ١٥٤

قويا في تأمين المسلمين ، لأنها تطلبت تحركات مستمرة للقوات الحربية بدون انقطاع ، وقد بدأت هذه التحصينات سنة ١٦ هـ وعممت سنة ١٨هـ وظل الاعتماد عليها وحدها قائما حتى خلق أول اسطول اسلامى ـ أى طيلة عشر سنوات تقريبا ، وبالطبع استمرت التحصينات والحاميات بعد ذلك • وتضخم عبء تأمين الدولة ضد الخطر الخارجي ، ولم يكن أمام حكام المسلمين المتتابعين سوى الجد فى تطبيق الاساليب التى جرى عليها العمل فى ذلك العصر رغم ما كانت تتطلبه من جهد شاق و تكاليف باهظة • فقد كان المسلمون يواجهون حكم بلاد بحرية ارتبطت بما أرساه الروم فيها من تقاليد ، فضلا عن جنوح سكنها دوما الى التمرد (١٠٧) •

وكانت نتيجة هذه الجهود المتواصلة ان استطاع المسلمون ركوب البحر في اسطول اسلامى لفتح قبرص فى حملتهم الاولى بقيادة معاوية « ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها » ولم تكن قد نشأت دور الصناعة الاسلامية فى ذلك الوقت المبكر فلم يبق الا التسليم بما ذهب اليه هيد وبيرين من ان المسلمين استعملوا سفن اهل البلاد او السفن التى خلفها الروم أو عهدوا الى أهل السواحل فى ابتناء السفن لهم ، ويلاحظ أن كلمة أسطول نفسها يونانيه Sotolos • ويقول فازيلييف « ومن الثابت تقريبا أن الاسطول العربى الاول انما كان فى الحقيقة روميا سوريا عربيا، وكان بحارته منأهل المدن المفتوحة فىسورية ومصر ، وكان رؤساء البحارة كالبحارة معظمهم من المسيحيين او حديثى العهد بالاسـلام • وكانوا يتقاضون على تجنيدهم أجرا أو يكون أجرهم غنائمهم • فهؤلاء كانوا أول من علم العرب شئون البحر » • وقد ورد فى سياق غزوة الصوارى أن محمدين أبى حذاقة « ركب فى مركب وحده مامعه الا القبط » • « ولما كانت سنة ٤٩ هـ وخرجت الروم الى السواحل وكانت الصناعة بمصرفقط فأمرمعاويةبجمع الصناع والنجارين فجمعوا ورتبهم فىالسواحل ، وكانت الصناعة فى الاردن بعكا » وهكذا اخذ المسلمون فى انشاء اسطول خاص بهم يتولى مقاتلة الروم فى البحر ويعين المسلمين على ما يريدون غزوه من الجزر وغيرها من شواطىء الروم • وقد كان معظم استعمال الاسطول الاسلامى لنقل الجند لا للاشتباك فى القتال فى عرض البحر • ونحن نجد المسلمين فى غزوة الصوارى يعرضون القتال على الشـاطىء بدلا من البحر « ثم قلنا : ان أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ».

(١٠٧) Cheira : La Lutte entre Byzantins et Arabes p. 89, 91

فلما اختار الروم قتال الماء ربطت السفن بعضها الى بعض فغدت المعركة وكأنها معركة برية « حتى كنا يضرب بعضنا بعضا على سفننا وسفنهم » كما استعملت سفن الاسطول الاسلامى فى البداية لنقل الغلال من مصر الى الحجاز (١٠٨) ٠

واجتذبت الرباطات البحرية الاتقياء المتحمسين الحريصين على الجهاد فى سبيل الاسلام ٠ وكان البيزنطيون أيضا قد عرفوا من قبل نظام الاديرة المسلحة ، وهى الاماكن التى انقطع فيها الرهبان للعبادة واجتمعوا فيها سويا لخدمة مطالبهم مبتعدين عن زخرف الحياة الدنيا ولكن لا توجد شواهد قاطعة على اشتراكهم فى حروب الدولة البيزنطية « وكان سكان الحصن الرومى لجبلة رهبانا وقوما يتعبدون فى دينهم ٠ » وقد نزع الزبير ابن العوام الى الرباط فى أحد السواحل فقال لعمر : « ٠٠٠ ان وجدت عمروا قد فتحها لم أعرض لأمره ، وقصدت الى بعض السواحل فرابطت »٠ وقال سفيان الثورى لرجل يمنى : « عليك بسواحل الشام ، فان هذا البيت يحجه كل عام مائة ألف ومائتا ألف وثلثمائة ألف وما شاء الله من التضعيف لك مثل حجهم وعمرهم ومناسكهم » (١٠٩) ٠

(ج) القوى البشرية :

١ ـ **السكان الاصليون** : فتح المسلمون كثيرا من فتوحهم فى الشام والجزيرة صلحا « قال ابو عبيد القاسم بن سلام ، **وهكذا سائر مدن الشام كانت صلحا دون ارضيها** ، وافتتح شرحبيل بن حسنة الاردن كلها عنوة ماخلا طبرية فان اهلها صالحوه ، وبعث ابو عبيدة خالدا فغلب على أهل البقاع وصالحه اهل بعلبك وكتب لهم كتابا » (١١٠) ٠ وهذه المصالحات مع عرب الشام دفعت بعض المؤرخين مثل كيتانى Caetani الى القول بانه كان هناك اتفاق بين عرب الروم وعرب الحجاز للغارة على الشام وخاصة أن بيزنطة كانت قد منعت الجعل السنوى عنهم نتيجة للاضطرابات الناجمة عن الهجوم الفارسي الاخيرة عليها ٠ ولكن لم تصل مايؤيد مثل هذا

(١٠٨) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ ، فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة د٠ شعيرة ص ١٩٢ ، الطبرى ج ٥ ص ٦٩ ـ ٧٠ رواية الواقدى ٠

(١٠٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٠ ، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ـ تحقيق المنجد م ١ ص ٢٧١ ، دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٧٥ ـ ٧٦

(١١٠) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٤ ـ ٥ ٠

الاتفاق الا من الاسقف الارمني سيبيوس Sebeos (حوالى القرن ٧م) وهو متحامل على العرب • وعلى العكس من ذلك لم تغب دلالات العداء بين عرب الحجاز وعرب الشام فى عهدى النبى وأبى بكر مما اقتضى من المسلمين جهودا سياسية وعسكرية مستمرة فى تلك المنطقة • فقد **قاوم عرب الشام حملات الفتح الاسلامى مع البيزنطيين** ، (١١١) وقتل المبعوث الذى حمل رسالة النبى فى بصرى ، ولقى المسلمون فى مؤتة مقاومة شديدة • وفى مستهل فتح الشام سنة ١٣ هـ « ضرب الروم على العرب الضاحية البعوث بالشام الى المسلمين ••• ونفر اليهم من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وغسان » واصطدم خالد بن الوليد حين قدم الى الشام بغسان فى مرج راهط يوم فصحهم ، ونزل هرقل انطاكية « ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلى وعاملة وتلك القبائل من قضاعة وغسان بشر كثير » (١١٢) • فلم يكن الطريق امام المسلمين سهلا ، وقد واجهوا فى المعارك الكبرى فى اجنادين واليرموك عرب الشام يقاتلون بجانب البيزنطيين ، وكذلك كان الامر فى المعارك الاولى بجنوبى الشام والمعارك الاخيرة بسواحله• ويذكر الدكتور حتى أن أهل الشام لم يكونوا متجاوبين مع حكامهم البيزنطيين ، « فسكان الريف والفلوات ما برحوا يذكرون الخلافات الطائفية فهم مونوفيزيون ، فى حين أن الدولة أخذت تفرض مذهب الارادة الواحدة (المونوثوليت) كمحاولة للتوفيق بين مذهبى الطبيعة الواحدة والطبيعتين ، وبالنسبة لسكان المدن كانت الثقافة الاغريقية التى فرضت منذ فتح الاسكندرية سطحية » • ويصعب قبول هذا الرأى كحكم عام شامل ، لأن الروم مافتئوا يستثيرون الحمية الدينية ويؤكدون الطابع الدينى للقتال ، فكانوا يقدمون أمامهم الشمامسة والرهبان ، ولا يعقل أن تكون كل جموع نصارى الشام مرحبة بالفتح الاسلامى ترحيب أبى الفرج الذى كتب كموفيزى سورى « ولما شكا الناس الى هرقل لم يحر جوابا • ولهذا أنجانا الله المنتقم من الروم على أيدى العرب ـ فعظمت نعمة الدنيا ان أخرجنا من ظلم الروم وخلصنا من كراهيتهم الشديدة وعداوتهم المرة، على أن كنائسنا لم ترجع الينا لأن العرب أبقوا كل طائفة من المسيحيين على ما كان فى يدها عند فتحهم البلاد » • ولو كان هذا شعورا عاما لما لقى المسلمون ما لقوا من المقاومة ، حتى آثر فريق من عرب الجزيرة من

---

(١١١) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ١ ص ١٧٦ ،
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins pp. 30, 34-35

(١١٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٩ رواية سيف ـ ٣٩ عن على بن محمد ـ ٤١ رواية سيف ، ١٣٦ رواية ابن اسحق ، دكتور شكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى ص ٢٦ ـ ٨

اياد بن نزار أن يسيروا الى الروم ويتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة منها. كما سلك الدرب مستعربة من غسان وتنوخ واياد للحاق بهرقل (١١٣) .

غير اننا نجد من عرب المناطق الشمالية رغبة في المسالمة بشكل أوضح « وكان حاضر قنسرين لتنوخ منذ أول ما تنخوا بالشام ـ نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا به المنازل ، فدعاهم ابو عبيدة الى الاسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنوسليح بن حلوان بن الحاف بن قضاعة ... وكان بقرب مدينة حلب حاضر تدعى حاضر حلب يجمع اصنافا من العرب من تنوخ وغيرهم ، فصالحهم ابو عبيدة على الجزية ثم انهم أسلموا بعد ذلك» . «**وأرسل أهل حاضر قنسرين الى خالد انهم عرب وانهم انما حشروا** ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم » (١١٤) .

ولكن لاننسى ان الروم قد استفادوا من سكان مناطق شمالى الشام في هجومهم الذي هدد المسلمين في حمص سنة ١٧ هـ . على أن البعض ينسبون مقاومة بيت المقدس وقيسارية الطويلة الى أن العنصر البيزنطى هو العنصر الرئيسي في تلك البلدان ، في حين كان العرب أو الاراميون العنصر الرئيسى فى المدن الاخرى (١١٥) .

ومن نماذج عهود الصلح فى الشام ماذكر من أن أهل حمص صالحوا أبا عبيدة « على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وارحائهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد واشترط الخروج على من أقام منهم » . وذكر أن صلح حلب كان على هذا النحو ، وزعم بعض الرواة ان اهلها « صالحوا على حقن دمائهم وان يقاسموا أنصاف منازلهم وكنائسهم » . وصالح أهل أنطاكية على الجزية والجلاء « فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمنهم ووضع على كل حالم منهم دينارا وجريبا » (١١٦) .

وقد تتابعت اخبار متفرقة عن **جلاء بعض سكان الشام** على أثر الفتح الاسلامى ، ومن ذلك ما حدث فى جبلة وبلدة على فرسخين وانطرطوس . وفى فتوح الجزيرة ارتحلت ايادبن نزار الى أرض الروم ورجع بعضهم وتفرق الباقون « فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم » (١١٧) .

(١١٣) حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع جـ ١ ص ١٨٧ ، دكتور فيصل : حركة الفتح الاسلامى ص ٣٢ : ٤ ، بتلر : فتح العرب لمصر ترجمة فريد أبو حديد ص ١٤١

(١١٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧١ ، ١٥١ : ٣ ، الطبرى جـ ٤ ص ١٩٧ ، ١٥٤ ـ ٥ رواية سيف

(١١٥) د. جورج حداد : فتح العرب للشام ص ١٠٧

(١١٦) البلاذرى : فتح البلدان ص ١٣٧ ـ ١٥٣ ـ ٤ .

(١١٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٠ ، الطبرى جـ ٤ ص ١٩٧ ـ ٨ رواية سيف .

وظاهرة جلاء بعض السكان فرارا من المسلمين تدل هي الاخرى على عدم تجاوب طائفة من السكان ومنهم بعض العرب بالطبع - مع هذا الفتح ، وان كان المعقول أن معظم النازحين كانوا من الروم ، ويظهر هذا في قاصرين وبالس اللتين كانتا « لاخوين من أشراف الروم أقطعا القرى التي بالقرب منهما وجعلا حافظين لما بينهما من مدن الروم بالشام ، وصولح أهلها على الجزية والجلاء فجلا أكثرهم لبلاد الروم والجزيرة »(١١٨)٠

ومن هذا يتضح أن الذين وقفوا أمام الاسلام في الشام بصفة خاصة كانوا من القبائل التي تسمى (روم العرب) فهم الذين قاتلوا الى جوار البيزنطيين منذ بداية فتح الشام حتى اليرموك ٠ ومن هنا كان للامويين دور ينبغي أن يؤدوه في قلب الشام ، مثلما أدوه على اطرافه في أول الامر وكانت الغالبية في وسط ديار الشام لكلب والقبائل قضاعة الى جانب قبائل أخرى من أزد الصراة ٠ وكانت هذه القبائل قد توطنت هناك منذ قرون، فقد كانوا يفخرون بأنهم لم يهاجروا الى الشام حديثا، وقد تعرضوا لتأثير الحضارة اليونانية الرومانية والكنيسة المسيحية والدولة الرومانية، كما كانوا من الناحية الحربية يفوقون العرب جيعا بسبب حروبهم الدائمة مع الروم ، ولقد كان معاوية كما يقول فلهوزن Wellhausen من الحكمة بحيث حافظ على حماسهم وحميتهم ، وان كان هو من حيث النسب أقرب لقيس ٠ وكان معاوية يقيم في دمشق في المنطقة التي كانت تسكنها كلب غير بعيد عن مقر ملوكهم السابقين ٠ وتزوج امرأة من اشرافهم وجعل ابنها يزيد وارثا لعرش الدولة فكانت كلب كلها تشعر انها اصهار للخليفة واخواله لولي عهده ٠ ولم تكن مظاهر الدولة المنظمة ولا روح الدولة الحربية والسياسية معاني جديدة عليهم ، بل كانت لهم أسرة قديمة من الامراء دانوا لها بالطاعة دهرا طويلا ثم آل ما تعودوه من الطاعة الى معاوية باعتباره الوارث الشرعي لاسرتهم السابقة » ٠ (١١٩)

وكان فريق من السكان الاصليين في مناطق الفتح يشغلون مواقع استراتيجية هامة ٠٠٠ فالجراجمة - على جبل اللكام بين بياس وبوقا في بلدة الجرجومة - لما فتح أبو عبيدة انطاكية « لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم اذ خافوا على أنفسهم ، فلم ينتبه المسلمون لهم ولم ينبهوا عليهم ٠ ثم ان أهل أنطاكية نقضوا وغدروا فوجه اليهم أبو عبيدة من فتحها

(١١٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٥٧ ٠

(١١٩) فلهوزن تاريخ الدولة العربية - ترجمة دكتور ابي ريدة ص ١٢٦ - ٧ ، Brockelmann : Hist. of the Islamic Peoples pp. 72.

ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهرى ، فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم بدروا بطلب الامان والصلح ، فصالحوه على أن يكونوا اعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام ، والا يؤخذوا بالجزية ، وأن ينفلوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حربا فى مغازيهم • ودخل من كان فى مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم من أهل القرى فى هذا الصلح فسموا الروادیف ــ لانهم تلوهم وليسوا منهم ، ويقال انهم جاءوا بهم الى عسكر المسلمين وهم أرداف لهم فسموا روادیف ، فكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى » •

ـــ وصالح أبو عبيدة **السامرة** بالاردن وفلسطين • وهم يهود صنفان : السنان والكوشان « فكانوا عيونا للمسلمين وأطعمهم أرضهم » •

كذلك بعث أبوعبيدة عياض بن غنم الى ناحية **دلوك ورعبان** «فصالحه أهلها على مثل صلح منبج واشترط عليهم أن يبحثوا عن أخبار الروم ويكاتبوا بها المسلمين » • واشترط معاوية على **أهل قبرص** الا يغزوهم ولا يقاتلوا عنهم من أرادهم من ورائهم وأن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم » (١٢٠) •

وقد يشبه هذا التعاون العسكرى بين المسلمين وأهل البلاد المفتوحة ــ باستثناء قبرص التى كان لها وضع خاص ــ ما عرفته الدولة البيزنطية من فرق جنود المحالفين Foederati وهى فرق البرابرة التى كانت تجهز تبعا لشروط معاهدة تعقدها الدولة مع زعمائهم (١٢١) •

٢ ــ ناقلة من غير العرب : كان لابد للمسلمين من أن يعتمدوا على قوات أخرى الى جانب السكان الاصليين الذين لم يبدوا تجاوبا كاملا فى أول الامر ، وبخاصة فى المناطق الساحلية ، فأخذوا ينقلون قوما من القادرين على القتال « فنقل معاوية قوما من **فرس** بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الاردن صور وعكا ••• ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية ، فكان من قواد الفرس مسلم بن عبد الله جد عبد الله ابن حبيب بن النعمان بن مسلم الانطاكى ••• ولما فتحت أطرابلس أسكنها معاوية جماعة كبيرة من **اليهود** ••• ولما نقضت قبرص وأعاد

---

(١٢٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٥ ، ١٥٦ ــ ٧ ، ١٦٠ ــ ١ •

(١٢١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ــ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٧٤

Bury: Hist. of Later Rom. Emp. Vol. I. p. 42, II. p. 76. Byzantium p. 296.

معاوية فتحها نقل اليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة ۰۰۰ ونقل معاوية الى السواحل قوما من **زط** البصرة والسباتجة وأنزل بعضهم انطاكية ـ فبانطاكية محله تعرف بالزط ، وببوقا من عمل انطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزط » (١٢٢) ٠

« وأهل بعلبك قوم من الفرس ، وعرقة فيها قوم من الفرس ناقلة ، وأهل طرابلس قوم من الفرس كان معاوية نقلهم اليها ، وجبيل وصيدا وبيروت وأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية » (١٢٣) ٠

وقد بدأ معاوية هذه السياسة أثناء ولايته على الشام ، واستمر فيها بعد أن صار خليفة ٠ ويقول فازيلييف ان أصل (الزط) من الهند « ويسمون فى سوريا اليوم بالنور ، واللفظ العربى آت من الهندية جط ووجد من خلفهم من يعيش فى مستنقعات الهند الشمالية جنوبى نهر الاندس ٠ ويذكر العرب أيام فتوحهم الاولى أرضا افتتحوها تسمى أرض الزط بين رامهرمز وارجان » (١٢٤) ٠

وتشبه هذه السياسة فى الاستعانة بالمقاتلين الاشداء ما جرى عليه انوشروان فى اسكان الحصون والقلاع من الامم التى قهرها « وقد أنشأ ملوك ساسانيون مثل سابور الاول والثانى مستعمرات للاسرى فى عدة أقاليم من ايران ، ولكن يميز ما فعل كسرى الاول انه استخدمهم فى أغراض حربية ، وهكذا تكون جيش انوشروان من الاساورة ومن المهاجرين الغرباء الذين طاوعوا سريعا مع البيئة الفارسية من غير ان يفقدوا صفاتهم الحربية » (١٢٥) ٠

٣ ـ **العرب المسلمون** : انتقلت مع الفتح الاسلامى جماعات عربية مسلمة لتسكن الشام ، وقد روى البلاذرى عن بعض هؤلاء النازحين « نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم ، ثم نزع الينا أهل بلدان شتى فنزلوها معنا وكذلك جميع **سواحل الشام** ۰۰۰ » وروى أيضا « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين ۰۰۰ وولى ابو عبيدة كل

---

(١٢٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٥٤ ـ ٥ ، ١٦٠ ، ١٦٩

(١٢٣) اليعقوبى : البلدان ـ ملحق بالأعلاق النفسية ص ٣٢٧

(١٢٤) فازيلييف : العرب والروم ٠ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٩٦
Encyc. d'Islam Art. Awasim.

(١٢٥) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة دكتور الخشاب ص ٣٥٤ ـ ٥

كورة فتحها عاملا وضم اليه جماعة من المسلمين وشحن **النواحي المخوفة** ... **ورتب ببالس جماعة من المقاتلة وأسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام ، وقوما لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس . واسكن** قاصرين قوما ... وكانت بالس والقرى المنسوبة اليها في حدها الاعلى والاوسط والاسفل أعذاء عشرية ».
وسار المسلمون على هذه السياسة في **الجزيرة** ففتح عياض بن غنم سنجار صلحا « وأسكنها قوما من العرب .. ولما ولى معاوية الشام والجزيرة لعثمان أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الارضين التي لاحق فيها لاحد ، فأنزل بني تميم الرابية وأنزل المازحين والمديبراخلاطا من قيس وأسد وغيرهم وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ، ورتب ربيعة في ديارها على ذلك **والزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلها مع عماله**.»
وعلى هذا النحو جرت الامور **في ارمينية** « فبعث معاوية لحبيب بن مسلمة الفي رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها » .
وفي قبرص بعث معاوية « باثني عشر الفا كلهم أهل ديوان فبنوا بها المساجد وبنى بها مدينة وأقاموا يعطون الاعطية الى أن توفى » . وهكذا توافد العرب المسلمون على البلاد المفتوحة من مجاهدين ومهاجرين : وكانت المدن تقسم خططا بينهم فقد « قسم السمط بن الاسود حمص خططا بين المسلمين حتى نزلوها وأسكنهم في مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة » .
وأقطعت **القطائع** للمرابطة خاصة في السواحل ، فكان هذا عاملا من عوامل توطين السكان وتنظيم الدفاع « وكتب عثمان الى معاوية يأمره أن يلزم انطاكية قوما وأن يقطع قطائع ففعل . قال ابن سهم : وكنت واقفا على جسر انطاكية على الأرنط فسمعت شيخا مسنا يقول : هذه الأرض قطيعة من عثمان لقوم كانوا في بعث أبي عبيدة أقطعهم اياها أيام ولاية عثمان معاوية الشام ... وحدث بكر بن الهيثم أن رجلا عربيا بعسقلان أراه أرضا وقال هذه من قطائع عثمان » . (١٢٦)

ويشبه هذا ما جرى عليه **دقلديانوس** من منح الأرض لجنود الحدود نظير الخدمة العسكرية ، وقد اتسع نطاق هذا النظام في الولايات الثغرية أو البنود thema فيما بعد (١٢٧) .

---

(١٢٦) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٢٤ ، ١٣٤ - ٥ ، ١٣٧ ، ١٥٠ - ١ ، ١٥٤ - ٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٨٥ - ٦ ، ٢٠٥

(١٢٧) بينز : الامبراطورية البيزنطية - ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٣٥ ، ١٧٥ ، Byzantium : pp. XVI, 73

وقد هاجر الى الشام على أثر الفتح الاسلامى كثير من العرب ـ خاصة من **قيس** الذين انتقلوا الى شمالى الشام • **وكانت الشام تختلف عن العراق فى مجتمعها الداخل** « فان الكوفة والبصرة لم يكن لهما تراث غير تراث حياة البادية وتراث الاسلام ، وقد قذفت اليهما جروب الفتح بجيوش عربية من مختلف القبائل أقامت فى مايشبه المستعمرات العسكرية وانتقلت دفعة واحدة من حياة البادية الى ظروف الحضارة وتوسطت امبراطورية كبرى ، اما فى الشام فلم يكن المسلمون يعيشون بمعزل وفى مستعمرات مخصصة لهم ، بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد فى المدن القديمة مثل دمشق وحمص وقنسرين وغيرها • بل كانوا احيانا يقاسمونهم بيتا لله نصفه مسجد ونصفه كنيسة • وكانت القبائل المتوطنة في وسط الشام من قرون ـ من كلب وقضاعة وأزد الصراة ـ قد تأثرت بتأثيرات يونانية رومانية مسيحية ثقافية وسياسية • وقد قربهم اليه معاوية كما سلف ، ولم يكن من الممكن أن يميز العرب الذين دخلوا الشام فاتحين عن عرب الشام الاصليين الذين أدمجوا فى الدولة العربية وأسلموا مختارين ، وان كان اسلامهم مجرد انضمام لراية العروبة المنتصرة » • وكان المقاتلة يسمون بالمهاجرة « اذ ينتقلون الى المعسكرات الكبرى التى منها كانت تنظم الحرب وتوجه ، فكان معنى الهجرة الانتقال الى المراكز السياسية الحربية لاداء الاعمال • وكانت دار الهجرة الاولى هى المدينة ، ثم انضافت اليها عواصم الاقاليم أو الامصار • وكانت توجد فى الشام مدن اختيرت لذلك ، أما فى بر الشام فقد بنيت مدن حربية كالفسطاط والقيروان والبصرة والكوفة • وكان للانصار الفضل الاكبر فى فتوح الشام ومنهم كانت تتألف نواة الجيش الاسلامى وان لم يكونوا هم القواد » (١٢٨) •

وقد عامل معاوية عشيرته من بنى أمية بحرص بالغ مخافة أن يستشرى خطرهم فى المستقبل (١٢٩) •

(د) الاجناد :

سمى ابو بكر لامراء الاجناد أقاليمهم عندما انفذهم لفتح الشام « فدل ذلك على أن الشام لما كان بأيدى الروم كان منقسما الى هذه الكور

(١٢٨) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة دكتور أبى ريدة ص ١٢٦ ـ ٧ ، ٢٥ ، ٣٧ ، ٥٤

(١٢٩) Brockelmann : Hist. of the Islamic Peoples. pp. 72 - 3.

الاربع لاغير » ــ كما يقول ابن الشحنة · وكانت الاجناد العربية حمص ودمشق والاردن وفلسطين تقابل المقاطعات الرومانية البيزنطيـــة التى وجدت وقد الفتح · وكانت الاردن تشمل الجليل الى صحراء الشـــام ، وكانت فلسطين هي الارض الواقعة الى الجنوب من سهل مرج عامر(١٣٠)·

ويذكر بروكلمان أن الحكم الاسلامى فى البلاد المفتوحة اســـتبقى الطابع العسكرى فى التنظيم مدة طويلة بعد الفتــــح ، فقد ظل قادة الحاميات هم ولاة الخليفة في نفس الوقت ، كما كانوا أئمة الصلاة أيضا وقضاة الشرع فى بعض الاحيان ، لكن استقلت ولاية الخراج بأصحابهـا من أول الامر (١٣١) · وعندما فرض عمر العطاء ودون الديوان سنة١٥هـ فرض **لأهل الفيء الذين انتقلوا الى دمشق وحمص والاردن وفلســـطين** الى جانب غيرهم من أهل الكوفة والبصرة ومصر ، وقال : « الفيء لأهل هؤلاء الأمصار ولمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم ــ ولم يفرض لغيرهم ــ ألا فيهم سكنت المدائن والقرى وعليهم ما جرى الصلح واليهم أدى الجزاء وبهم سدت الفروج ودوخ العدو » · وحين زار عمر الشام سنة ١٧هـ « **قسم الارزاق وسمى الشواتي والصوائف وسد فروج الشام ومسالحها** وأخذ يدور بها وسمي ذلك في كل كورة » · وخطب حين أراد القفول من الشام فقال : « ··· قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا ما لديكم ، فجندنا لكم الجنود وهيأنا لكم الفروج ، وبوأناكم ووسعنا عليكم ما بلغ فيئوكم وما قاتلتم عليه من شامكم ، وسمينا لكم أطماعكم وأمرنا لـكم باعطائكم وأرزاقكم » · ورجع عمر الى المدينة وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت يديه على قنسرين ، وعلى دمشق يزيد بن ابى سفيان ، وعلى الاردن معاوية ، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز ، وعلى الاهراء عمرو بن عبسة ، وعلى السواحل عبد الله بن قيس ، وعلى كل عمل عامل « **فقامت مسالح الشام ومصر والعراق على ذلك الى اليوم لم تجز أمة الى اخرى عملها بعد الا** أن يقتحموا عليهم بعد كفر منهم فيقدموا مسالحهم بعد ذلك ، فاعتـــدل ذلك سنة ١٧ هـ » · وهكذا أقام العرب فى البلاد التى كانوا يفتحونها مراكز حربيـــة ثابتة فى التخوم الهامة قد أوضح ذلك كريمر فى كتابه (الشرق تحت حكم الخلفاء) اذ ذكر ان العرب كانوا يقيمون فى هذه المراكز عددا كبيرا من الفاتحين ومعهم أسرهم يصرف لهم عطاؤهم

---

(١٣٠) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٩ ، حتى : تاريخ العرب ــ ترجمة نافع ج ١ ص ١٨٨

Le-Strange : Palestine under the Moslems pp. 25-6

(١٣١) Brockelmann : Hist. of the Islamic peoples. pp. 61 - 2.

السنوى ويتوارثون الرباط بها وأشار الى ما فعله عمر من اقامة أربعة مراكز حربية فى الشام واقامته الفسطاط فى مصر وتزويده الاسكندرية بحامية قوية كانت تستبدل بين وقت وآخر ، علاوة على اقامته مركزى البصرة والكوفة • وقد أقيمت هذه المراكز فى مواقع استراتيجية مهمة على أبواب الطرق المؤدية للبلاد المفتوحة لتكون مقرا للقوات المحاربة • وقد روى الطبرى أن عمر قد اتخذ فى الامصار الثمانية قوات من الفرسان • وقد كانت هذه القوات تقوم بتدريباتها الدائمة كما كان القواد يتعاهدون تسليح جندهم فى هذه المعسكرات ويقومون بعرضهم على فترات • وكان للخيول (حمى) خارج المصر لا يجتازه أحد من الناس ، وروى ابن قتيبة أن عمر كان يخرج الى الحمى بنفسه ويشرف على تدريب الجند وانه كان يصحب معه بيطريا لتفقد الخيل (١٣٢) •

وروى ان عمر عاد الى الشام فى العام التالى لزيارته لها ـ أى سنة ١٨ هـ « حتى أتى الجابية ـ فاجتمع اليه المسلمون ، فدفع اليه أمراء الأجناد ما اجتمع عندهم من الأموال ، **فجند ومصر الأمصار** ثم فرض الأغطية والأرزاق ثم قفل المدينة • وحدد قاعدته فى توزيع العطاء موضحا وجهة نظره فى حرمان لخم وجذام منه قائلا :

« أنا أجعل أقواما أنفقوا فى الظهر وشدوا العرض وساحوا فى البلاد ، مثل قوم مقيمين فى بلادهم ؟ » ولكن القوم حاجوه « ان الله وضعنا من بلاده حيث شاء وساق الينا الهجرة فى بلادنا ونصرنا ، أفذلك يقطع حقنا يا عمر ؟» فلم يملك عمر الا أن يقول :« لكم حقكم مع المسلمين (١٣٣) » وقد اختلفوا فى **تسمية الأجناد** وكان هناك من ربط تسميه الجند بقبض العطاء منه « **فقال بعضهم : سمى لمسلمون فلسطين جندا لأنه جمع كورا وكذلك دمشق وكذلك الاردن وكذلك حمص مع قنسرين • وقال بعضهم : سميت كل ناحية لها جند يقبضون أطماعهم بها جندا • وكانت حمص وقنسرين شيئا واحدا ، حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبج وذواتها جندا»كما أن الجزيرة كانت الى قنسرين حتى جندها عبدالملك** أى أفردها «فصار جندها يأخذون أطماعهم بهامن خروجها» • وذكرياقوت

---

(١٣٢) الطبرى ج ٤ ص ١٦٣ ، ٢٠٣ : ٥ رواية سيف ، د• عون : الفن الحربى فى صدر الاسلام ص ١٠٦ : ١١١ •

(١٣٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ـ تحقيق دكتور المنجد م ١ ص ٣٥٣ : ٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٧

أنه لم يبلغه استعمال الجند في غير أرض الشام (١٣٤) •

وكان من مضافات **جند فلسطين** صحراء التيه وجفار وكلاهما تجاه حدود مصر • ويذكر اليعقوبي أن عاصمة جند فلسطين القديمة كانت اللد ، فلما أنشأ سليمان الرملة جعلها العاصمة • وفي شمال التيه توجد مشارف المدينة المقدسة كما ينكر الاصطخري وابن حوقل ، ويمتد الاقليم في أقصي طوله من رفح الى حدود اللجون ويستغرق سفر يومين ، ويستغرق العرض نفس المدة من يافا الى أريحا • ويذكر أ ن صحراء التيه تمتد ما بين جفار وجبال سينا ، وحدود جفار هي البحر المتوسط وصحراء التيه وفلسطين وبحر تنيس (في مصر) ، وتمتد حتي طرف بحر القلزم • ومن البلدان الهامة في فلسطين : عسقلان والرملة وغزة وارسوف وقيسارية ونابلس واريحا وبيت جبرين •

وجند الأردن يشمل غور نهر الأردن ومنطقة البحر الميت وعاصمته طبرية • ومن البلدان الهامة فيه كما يذكر ابن الفقيه : نابلس وبيسان وفحل Pella وجرش وعكا وقدس وصور • ويذكر اليعقوبي أن الغور امتداد خارجي لاقليم دمشق وقصبته أريحا Jericho • ويتميز الغور بانخفاضه وتنتهي اليه أنهار الشام مثل اليرموك Hieromax • وفى الطرف العلوى للغور بحيرة طبرية وفى الطرف السفلى البحر الميت•

ويشمل **جند دمشق** سهل الغوطة حول المدينة ومعظم المنطقة التى التي تليه جنوبا والتى تقع الى الشرق من غور الأردن والبحر الميت • ويذكر اليعقوبي أن من جند دمشق الأراضى الشرقية من الغور وحوران والبثنية ، ومن ضواحيها البلقاء والقسم الجنوبى من الغور والجبال • ويعدد ابن الفقيه من بلدان الاقليم سنير وجبيل وبيروت وصيدا والبثنية وحوران والجولان وأطراف البلقاء • والمدن الساحلية لجند دمشق هى صيدا وبيروت واطرابلس وعرقة وصور • ويقع جند دمشق الى الشرق من جند الأردن تحده شرقا صحراء الشام وجنوبا أرض السماوة وأرض عاد ، وفي شماله يوجد جند قنسرين وجند العواصم كما يذكر الادريسى• وتسمى المنطقة الجبلية التى سلكها طريق الحج الشامى من دمشق بالشراه، أما الجبال فهى أحد أطراف جند دمشق كما يذكر اليعقوبي •

وجند حمص عاصمته حمص ومن البلدان الهامة فيه سلمية وتدمر

---

(١٣٤) البلاذرى : فتوح البلدان : ص ١٣٨ ـ ياقوت : معجم البلدان : جـ ١ ص ٣٨ ـ ١٢٥ •

وخناصرة وكفر طاب واللاذقيـة وجبلة وانطرسوس وبلنيـاس وحصن الخوابى كما يذكر المقدسى وابن حوقل • **وقد كان جند حمص فى الأصل يشمل المنطقة الواقعة الى الشمال من دمشق ، ثم اقتطع منه جند قنسرين واقتطع من الاخير العواصم والثغور** • والحد الجنوبى لجند حمص كما يذكر ياقوت يقع مباشرة في جنوبى قره بينما حده الشمالى وراء القرشـيـة « وهي آخر أعمالها مما يلى حلب فانطاكية » • وفي الشرق يشمل جند حمص (القريتين) وتدمر (بالميرا) (١٣٥) •

وكما كانت البنود البيزنطيـة (الـ Thema) يستعين بعضـها ببعض عنـد مجـابهة الخطر الذى لا يقوى أحدها على صـده ، كانت الأجناد والأمصار الاسلامية تتعاون على دفع المخاطر « **فاتخذ عمر فى كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين ـ عدة لكون أن كان** • فكان بالكوفه من ذلك أربعة آلاف فرس » • وقد استعان عمر بهـذه القوات لدفع غزو الروم على الشام من الشمال سنة ١٧ هـ وقال « جزى الله أهل الكوفة خيرا يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار » • ورتب فى المعسكرات الكبرى القوات الخاصة بالغزو ، وخصص لـكل مصر المنطقة التى يباشر فيها الغزو « فكانت مغازى أهل الكوفة الرى وأذربيجان ، وكان بالثغرين عشرة آلاف مقـاتل من أهل الـكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف بالرى ، وكان بالكوفة أربعون ألف مقاتل • وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف فى كل سنة ، فـكان الرجل يصـيب فى كل أربع سنين غزوة » (١٣٦) •

وكان جنود الشام يباشرون الغزو عبر دروب الروم فى آسيا الصغرى وفى أرمينية •

واستهل عثمان خلافته بالكتابة الى أمراء الأجناد فى الفروج سنة ٢٤ هـ : « •• فانكم حماة المسلمين وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملأمنا ، ولا يبلغنى عن أحد منـكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون فانى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه » • وجمعت لمعاوية ولاية **الشام والجزيرة** سنة ٢٦ هـ لسنتين من خلافة عثمان ، فولى حبيب بن مسلمة بن مالك على

---

(١٣٥) Le Strange : Palestine Under the Moslems. pp. 28: 36
(مع مراجعة الجغرافيين المسلمين) ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٥١ •

(١٣٦) الطبرى ج ٤ ص ١٩٥ رواية سيف ، ج ٥ ص ٤٥ رواية أبى مخنف ، ابن العديم زبدة الحلب ج ١ ص ٣٦ ـ ٧

قنسرين وكان يسمى حبيب الروم لكثرة غزوه لهم ، ومات عثمان سنة ٣٥ هـ والشام مع معاوية وحبيب على قنسرين من تحت يده (١٣٧) .

هـ ـ حملات الدروب والثغور :

ما كاد الفتح الاسلامى يستقر فى الشام ـ ومن بعد ذلك فى الجزيرة ـ حتى شرع المسلمون فى ارسال **حملات استطلاعية تجوب الحدود الشمالية والشمالية الشرقيه التى تفصل ديار الاسلام عن بلاد الروم** . وقد روى الطبرى أنه بعد هزيمة الروم فى اليرموك « بعث أبو عبيدة **عياض بن غنم فى طلبهم فسلك الأعماق حتى بلغ ملطية** فصالحه أهلها على الجزية ثم انصرف . ولما سمع هرقل بذلك بعث الى مقاتلتها ومن فيها فساقهم اليه وأمر بملطية فحرقت » . كما روى أنه بعد فتح قنسرين « اتطأت حمص وقنسرين ، فعند ذلك خنس هرقل . وانما كان سبب خنوسه أن خالدا حين قتل ميناس ومات الروم على دمه وعقد لأهل الحاضر وترك قنسرين ، طلع من قبل الكوفة عمر بن مالك من قرقيسياء وعبد الله ابن المعتم من قبل الموصل والوليد بن عقبة من بلاد بنى تغلب وعرب الجزيرة ، وطووا مدائن الجزيرة عن نحو هرقل وأهل الجزيرة فى حران والرقة ونصيبين وذواتها لم يغرضوا غرضهم حتى يرجعوا اليهم ، الا أنهم خلفوا فى الجزيرة الوليد لئلا يؤتوا من خلفهم . فأدرب خالد وعياض مما يلى الشام ، **وأدرب عمر وعبد الله مما يلى الجزيرة ، ولم يكونوا أدربوا قبله ، ثم رجعوا ، فهى أول مدربة كانت فى الاسلام سنة ١٦ هـ » (١٣٨)** .

وقد عمل الفريقان فى أول الأمر على **تخريب الحصون** الواقعة على الحدود بينهما لخلق منطقة جرداء موحشة تكون الشقة الحرام بين الدولتين . فحين خرج هرقل نحو القسطنطينية سنة ١٥ أو ١٦ هـ سالكا طريق الدروب « أخذ أهل الحصون التى بين اسكندرية وطرسوس معه لئلا يسير المسلمون فى عمارة ما بين انطاكية وبلاد الروم ، وشعث الحصون فكان المسلمون لا يجدون بها أحدا ، وربما كمن عندها الروم فأصابوا غرة المتخلفين ، فاحتاط المسلمون لذلك » وكان قواد المسلمين اذا دخلوا بلاد الروم خلفوا بها جندا كثيفا الى خروجهم . واستبقى الروم بعض هذه الحصون والمسالح وشحنوها بالمقاتلة . وقد سلك المسلمون سبيل الروم

---

(١٣٧) الطبرى ج ٥ ص ٦٩ رواية سيف ، وص ٤٤ رواية سيف .

(١٣٨) الطبرى ج ٤ ص ١٣٧ رواية ابن اسحق ، ١٥٥ رواية سيف ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٣٢

في تخريب الحصون حتى لا تبقي صالحة لانتفاع العدو « قالوا : كانت ثغور المسلمين أيام عمر وعثمان وما بعد ذلك انطاكية وغيرها من المدن التى سماها الرشيد عواصم ، فكان المسلمون يغزون ما وراءها **كغزوهم اليوم ما وراء طرسوس** ، وكان فيما بين الاسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم كالحصون والمسالح التى يمر بها المسلمون اليوم - فربما اخلاها أهلها وهربوا الى بلاد الروم خوفا وربما نقل اليها من مقاتلة الروم من تشحن بهم ... وقد اختلفوا **في أول من قطع الدرب - وهو درب بغراس - فقال بعضهم : قطعة ميسرة بن مسروق العبسي** ، وجهه أبوعبيدة فلقى جمعا للروم ومعهم مستعربة من غسان وتنوخ واياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم لحق به مالك الأشتر النخعي مددا من قبل ابى عبيدة وهو بانطاكية . **وقال بعضهم : أول من قطع الدرب عمير بن سعد الانصارى** - وجهه عمر سنة ٢١ هـ الى بلاد الروم في جيش عظيم وهي أول صائفة، وأمره أن يتلطف لجبلة بنالأيهم ويدعوه الى الرجوع الى بلاد الاسلام على أن يؤدى ما كان بذل من الصدقة ويقيم على دينه فأبى ، وانتهى عمير الى موقع يعرف بالحمار فأوقع بأهله وأخربه فقيل أخرب من جوف حمار . وقال أبو الخطاب الأزدى : بلغنى **أن أبا عبيدة نفسه غزا الصائفة فمر بالمصيصة وطرسوس وقد جلا أهلها وأهل الحصون التى تليها فأدرب فبلغ في زواته زندة** . ولما غز معاوية غزوة عمورية سنة٢٥ هـ **وجد الحصون فيما بين انطاكية وطرسوس خالية فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته** ، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسى الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك ، وكانت الولاة تفعله . وغزا معاوية سنة ٣١ هـ من ناحية المصيصة فبلغ درولية ، فلما خرج جعل **لا يمر بحصن فيما بينه وبين انطاكية الا هدمة** .. وفتح خالد بن الوليد حصن مرعش على اجلاء أهله **ثم أخربه** ». وروى أن عمر « عندما استعمل عمير بن سعد على طائفة من الشام فقدم عليه قدمة فقال : يا أمير المؤمنين أن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عربسوس ، وانهم لا يخفون عن عدونا من عوراتنا شيئا. فقال له عمر : اذا قدمت عليهم فخيرهم بين أن تعطيهم مكان شاة شاتين ومكان شيء شيئين ، فان رضوا بذلك فأعطهم **وخربها** ، وان أبوا فانبذ اليهم ، وأجلهم سنة ثم خربها » (١٣٩) .

---

(١٣٩) الطبرى جـ ٥ ص ١٥٦ رواية سيف ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٣ ، ١٧٠ : ٢ ، ١٩٧ ، البكرى : معجم ما استعجم - طبعة وستنفلد جـ ٢ ص ٦٥٧ ، ابن العديم : بغية الطلب - مخطوط ص ٩ .

وتتابعت هذه الحملات المبكرة، ففى سنة ٢٤ هـ دخل أهل الكوفة وعليهم سلمان بن ربيعة الباهلى وأهل الشام وعليهم حبيب بن مسلمة الفهرى الى أرض الروم « فشنوا الغارات ، فأصاب الناس ما شاءوا من سبى ومـــلأ أيديهم من المغنم وافتحوا بهــا حصونا كثيرة » ٠ وفى سنة ٢٥ هـ جرى فتح بعض الحصون بقيادة معاوية ٠ وقيل انه غزا عمورية وبلغت غزوته سنة ٣١ هـ درولية ٠ وفى ســـنة ٣٢ هـ غز معــاوية مضـــيق القسطنطينية ومعه زوجته ، وفى سنة ٣٣ هـ غزا معاوية حصن المرأة من أرض الروم من ناحية ملطية (١٤٠) ٠

وسميت هذه الحملات المتتابعة **بالشواتي والصوائف** لأنها كانت تغزو شتاء وصيفا ٠ **وقد روى الطبرى هذا الاصطلاح فى أخبار سنة ١٧ هـ** ، فذكر أن الخليفة عمر فى زيارته الشام « سمى الشواتى والصوائف » ٠ وروى البلاذرى أن جسر منبج « اتخذ فى خلافة عثمان للصوائف » ٠ ولما ولى معاوية الشام والجزيرة وجه الى ملطية حبيب بن مسلمة « فكانت طريق الصوائف » ، وهكذا بدأت حملات الدروب تأخذ طابعا دوريا منظما ، وكان أكثرها صيفا لملاءمة الجو للعرب ٠ ثم صار للمسلمين **صائفتان يمنى ويسرى**، وكان الغرض من هذه الحملات الحماية والاستطلاع والتدريب (١٤١) ٠٠ وقد أدى انتظام هذه الحملات الى الشعور بالحاجة الى مراكز عسكرية ثابتة فى مناطق الحدود فيما بعد ٠

ذلك أن لحملات المتعاقبة كان لابد لها من قواعد ترتكز اليها ، فتطلع المسلمون **الى مد نفوذهم الى تلك المراكز الأمامية المطلة على العدو (الثغور) وتحصينها وشحنها بالجند** ، ولم يعودوا يقنعون بما ساروا عليه أولا من التشعيث والتخريب ٠ وكان العرب بعد احتكاكهم عن قرب بالروم والفرس قد شرعوا يتعلمون أساليب الحرب عند الفريقين وقد علموا أن شيئا جديدا ينقصهم يختلف عن الغارة السريعة والتقهقر السريع مما كان كافيا فى حرب الصحراء ٠ ولقد ذكر الامبراطور ليو فى كتابه أن العرب المعاصرين له يقلدون الترتيب والتنظيم المتبعين فى جيش الروم بكل تفصيلاتهما، ولا ننسى أن العرب أصحاب النفوذ فى العصر الاموى كانوا هم ســـكان الحدود الســورية الذين تدربوا ثم انتظموا فى القــوات الاضافية لجيش الــروم ٠ ويجب أن نعترف بأن الفـــرس فى نفس الوقت قد حاولوا

---

(١٤٠) الطبرى جـ ٥ ص ٤٦ رواية أبى مخنف ، ص ٤٧ رواية الواقدى ، ص ٧٧ رواية أبى معشر والواقدى ، ص ٨٠ رواية الواقدى ٠

(١٤١) الطبرى جـ ٤ ص ٢٠٣ رواية سيف ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٣ ، ١٩٣ ٠

أن يقلدوا أساليب الروم الحربيـة أيضا ، **وكان أحـد الأشـكال الجديدة للحرب هو استعمال الهندسة فى حصار المدن المحصنة وفى بناء تحصينات للدفاع ع ن مدنهم** • ومن أجل هذا الغرض الأخير أخذ العرب المعسكر المستطيل المحصن الذى عرف عن الأساليب العسكرية الرومانية• **ففى كل منطقة مفتوحة بنوا (مدينة معسكر)** ـ ويرى أوليرى أن العرب كانوا يسيئون اختيار مواقع مدن معسكراتهم ، ولعله يغفل ظروف حياتهم وتفكيرهم التى اجتهدوا فى حدودها اجتهادا كان موفقا فى كثير من الأحيان وأكبر مدينة من هذه المعسكرات : فى فلسطين الجابية ، وفى مصر الفسطاط ، وفى افريقية القيروان • ولكن لم تكن واحدة من هذه ذات أهمية عظيمة كما كانت مدينتنا المعسكر فى العراق : البصرة التى أسسها عتبة بن غزوان سنة ٦٣٥ م أو سنة ٦٣٧ م والكوفة التى أسسها سعد بن أبى وقاص بعد ذلك بقليل ، وقد لعبتا دورا هاما فى تاريخ الاسلام • وشغلت المدن التى أسست لتكون معسكرات فى الشام ـ كالجابية ودابق شمالى حلب ـ الدرجة الثانية بعد دمشق ، وبعض مدن المعسكرات بلغ درجة المدن الكبيرة وفاق المدن المركزية القديمة • ويروى ابن العديم أن جند حمص كان الجند المقدم وكانت قنسرين يومئذ ثغرا «والناس كانوايجتمعون بالجابية لقبض العطاء واقامة البعوث من أرض دمشـق فى زمن عمر وعثمـان ، حتى نقلهم الى معسـكر دابق معـاوية بن أبى سـفيان لقربه من الثغـور • وكان والى الصائفة وامام العامة فى أهل دمشق ، لأن من تقدمهم من أهل حمص وأهل قنسرين وأهل الثغور مقدمة لهم والى أهلهـا يؤولون ان كانت لهم جولة من عدوهم » (١٤٢) •

وبدأت **العواصم الخلفية والثغور الأمامية** تأخذ مكانتها المتميزة فى نظام الدولة الاسلامية « فكانت انطاكية عظيمـة الذكر والأمر عند عمر وعثمان ، فلما فتحت كتب عمر الى أبى عبيدة : أن رتب بانطاكية جماعة من المسلمين أهل نيـات وحسبة واجعلهم بهـا مرابطة ولا تحبس عنهـم العطاء ، ثم لما ولى معاوية كتب اليه بمثل ذلك • ثم أن عثمان كتب اليـه يأمره أن يلزمها قوما وأن يقطـع قطائع ••• وولى أبو عبيـدة كل كورة فتحها عاملا وضم اليه جماعة من المسلمين وشحن النواحى المخوفة ••• ورتب ببالس جماعة من المقـاتلة وأسـكنها قوما من العرب ••• ورتب

(١٤٢) أوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية ترجمة دكتور تمام حسان ص ٢١٧ ، بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر ص ٣٢ ، عون : الفن الحربى فى صدر الاسلام ص ٢٠٢٠١ ، ابن العديم بغية الطلب مخطوط ص ٨ ، ١١٠ •

حبيب بن مسلمة فى ملطية رابطة من المسلمين مع عاملها ، وقدمها معاوية وهو يريد دخول الروم فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما فكانت طريق الصوئف ... وبنى معاوية مدينة مرعش وأسكنها جندا » . غير أن المسلمين اكتفوا فى أول أمر بارسال قوات مؤقتة بالنسبة لبعض المواضع الأمامية النائية تعسكر فترة ثم تعود ويعرف هذا النظام **بالطوالع** ويروى البلاذرى فى أخبار فتح انطاكية وما حولها : ان قورس كانت كالمسلحة « يأتيها فى كل عام طلعة من جند انطاكية ومقاتلتها ، ثم حول اليها ربع من أرباع انطاكية وقطعت الطوالع عنها » ، ويروى عن أبى الخطاب الأزدى فى شأن المصيصة « وكانت الطالعة من انطاكية تطلع عليها فى كل عام فتشتو بها ثم تنصرف ، وعدة من كان يطلع اليها ألف وخمسمائة الى الألفين » . واشترط أبو عبيدة على بعض أهالى الجهات القريبة من الحدود البيزنطية **تحرى أخبار البيزنطيين وتزويد المسلمين بها** ـ فعل ذلك مع الجراجمة ومع أهالى دلوك ورعبان (١٤٣) .

وكانت الثغور تمتد من ملطية على الفرات الأعلى الى طرسوس قرب ساحل البحر المتوسط وتشمل أذنه والمصيصة ومرعش وهى تسيطر على مفارق الطرق الحربية المارة بها أو مداخل الممرات الجبلية الطبيعية الواقعة فى ممراتها ، واهم هذه الممرات الابوب الكيليكية التى تتحكم فيها مدينة طرسوس ، ودرب الحدث الى الشمال الشرقى من الممر السابق وقيل انه سمى بذلك تطيرا من أحداثه التى أصابت المسلمين . وعرفت سلسلة الحصون فى الجهات الاسلامية الملاصقة للدروب والثغرات التى ينفذ منها البيزنطيون من جبال طوروس لمهاجمة شمالى الشام باسم الثغور ، على حين أطلق اسم العواصم على سلسلة الحصون الخلفية لمنطقة الثغور . ولما كان اقليم الجزيرة وشمالى الشام وحدة تتمم بعضها بعضا ، فان تولية معاوية الاقليمين أيام عثمان أتاح له أن يتوسع فى تطبيق سياسته بالنسبة للجزيرة : فأقام القبائل العربية الضاربة فى شمالى العراق فى جهات بعيدة عن المدن المعرضة للغزو البيزنطى ثم حصنها بسلسلة من الحصون أشبه بالعواصم والثغور الشامية وخصص لها حاميات دائمة . **فانقسمت الحدود الاسلامية الى قسمين : اقليم العواصم والثغور الشامية للدفاع عن اقليم الشام والاغارة على أرض البيزنطيين بآسيا الصغرى ، واقليم العواصم والثغور الجزرية للدفاع عن شمالى العراق** وللحملات التى تقوم

(١٤٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٤ ، ١٥٦ ـ ٧ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، عون : الفن الحربى فى صدر الاسلام ص ٢٠١ ـ ٢

منه على أراضى الدولة البيزنطية • وزاد من سلامة الوضع الاستراتيجى للثغور والعواصم بعد فتح الجزيرة ، ما حدث من فتح أرمينية التى كانت تتحكم بفضل موقعها فى مفرق الطرق المؤدية الى أراضى المسلمين فى اقليم الجزيرة بالعراق وفى بلاد الشام والجهات التى احتلها المسلمون فى جنوب آسيا الصغرى ، وقد أقدم معاوية على غزوها مستفيدا من الصراع الطويل بين الفرس والبيزنطيين عليها « وجمع عثمان لمعاوية الشام والجزيرة وثغورهما وأمره أن يغزو شمشاط وهى أرمينيه الرابعة أو يغزيها فوجه اليها حبيب بن مسلمة الفهرى وسلمان بن معطل السلمى » • وقد كان لجنود الشام فى فتوح أرمينية بلاء مشكور ، وهكذا تكامل السياج الحربى القائم بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية • « وان نظرة واحدة الى مواقع الثغور الاسلامية التى أقاموها على تخوم بلادهم لتقفنا على ما كان لدى المسلمين من فن استراتيجى ، فانهم كانوا يقيمونها على أبواب الطرق متحكمة فى أماكن اقتراب العدو ، مراعين أن تكون بعيدة عن البحار قريبة من الصحراء التى يحسنون القتال فيها وأن تكون محصنة بثنيات الأنهار ومنعطفات الجبال أو بالخنادق يحفرونها أو بغير ذلك من المواقع الطبيعية أو الصناعية التى تضمن لمواقعهم ميزة استراتيجية ملحوظة • وقد كان لفن المسلمين الحربى فى تحركاتهم ما جعلهم ينقلون الجيوش المؤلفة بخيلها ومتاعها خلال ممرات جبال طوروس فى خفة تسترعى الأنظار » (٤٤) •

---

(١٤٤) دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٠١ : ٤ ، ١١٣ ـ ٤ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٢ ، حتى : تاريخ العرب ، ترجمة نافع ج ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ، عون : الفن الحربى فى صدر الاسلام ص ٢١٠

رابعا ـ مرحلة نضوج التنظيم الادارى الحربى الاسلامى

فى أيام الدولة الاموية

(أ) السواحل :

نقل بنو أمية مركز الدولة الاسلامية من الحجاز الى الشام فلم يقتصر الأمر على تغيير عاصمة بل كان يعنى تغيير اتجاه الدولة كله ، ولئن كان هذا التحول قد بدأ أيام أبى بكر وعمر اللذين تم فتح الشام ومصر فى عهدهما الا أن أثر بنى أمية كان واضحا فى تيسير هذه الفتوح حتى فى ذلك العهد المبكر . فلما استقر لمعاوية الأمر فى الشام حرص على توجيه الدولة كلها وجهة غربية متوسطة بدلا من وجهتها القارية الصحراوية الأولى ، وقد تابعه خلفاؤه على تلك السياسة فتمت سيطرة المسلمين على الشواطىء الشرقية والجنوبية والغربية من هذا البحر وعلى جانب كبير من جزائره ، أى أن الأمويين « هم الذين كسروا الوحدة التاريخية القديمة لهذا البحر وحولوه من بحيرة داخلة فى نطاق العالم اللاتينى اليونانى الى حد بين ذلك العالم وعالم جديد هو العالم الاسلامى المشرقى » (١٤٥) .

وقد تابع الامويون العناية **بمدن ساحل الشام وتحصينها** « وكان معاوية يوجه كل عام الى طرابلس جماعة كثيفة من الجند يشحنها بهم

---

(١٤٥) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ . ومن مراجعه
Oscar Halecki : The Limits and Divisions of European History.

ويوليها عاملا فاذا انغلق البحـــر قفل وبقي العـامل فى جمعيـة منهم يسيرة ، فلم يزل الأمر فيهم جاريا على ذلك حتى ولى عبد الملك فقدم في أيامه بطريق من الروم ومعه بشر منهم كثير ، فسأل أن يعطى الأمان على أن يقيم بها ويؤدى الخراج ، فأجيب • فلم يلبث الا سنتين أو أكثر منهما بأشهر حتى تحـين قفول الجند عن المدينة فأغلق بابها وقتل عاملها وأسر من معه من الجند وعدة من اليهود ولحق وأصحابه بأرض الروم، فقدر عليه المسلمون بعد ذلك في البحر وهو متوجه الى ساحل للمسلمين في مراكب كثيرة فقتلوه وقيـل أسروه ـ في البحـر وقيـل فى المدينـة ـ وصـلبه عبد الملك • وقال المدائنى نقض أهل طرابلس أيام عبد الملك ففتحها ابنه الوليد فى زمانه» • وأدى انشغال الدولة بقمع ثورة ابن الزبير الى التأثير على حالة الثغور البحرية والثغور البرية الواقعة على حدود الدولةالبيزنطية على السواء «وأخربت الروم عسقلان وأجلت أهلها أيام ابن الزبير، فلماولى عبد الملك بن مروان بناها وحصنها • ورم قيسارية وأعاد مسجدها الذى هدمه الرومو شحنها بالرجال• وبنى صور وعكا الخارجية وكانت سبيلهما مثل سبيل قيسارية • وأسكن عبد الملك العرب بعسقلان وأقطع المرابطة بها القطائع/• وأغارت الروم فى البحر على ساحل اللاذقية فهدموا مدينتها وسبوا أهلها في خلافة عمر بن عبـد العزيز سـنة ١٠٠ هـ فأمر ببنائها وتحصينها ووجه فى فداء الأسرى وأتم المدينة وشحنها يزيد بن عبد الملك وأقطع الوليد بن عبد الملك جنـدا بانطاكية أرض سلوقية عند الساحل وصير الفلثر وهو الجريب بدينار ومدى قمح فعمـروها وجرى ذلك لهم وبنى حصن سلوقية » • وفي عهد الأمويين أقيمت دور الصناعة فى بلاد الشام « لما خرجت الروم الى السواحل سنة ٤٩ هـ وكانت الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بجمع الصناع والنجارين فجمعوا ورتبوا فى السواحل فكانت الصناعة فى الأردن بعكا • وقال الواقدى : لم تزل المراكب بعكا حتى ولى بنو مروان فنقلوها الى صور » •

وتتابعت الحملات على **جزر البحر المتوسط** وواصل المسلمون الافادة من انتصارهم فى ذات الصوارى ، واستعادوا قاعدة قبرص وبسطوا نفوذهم على البحر المتوسط بنجاح • وقد زاد مركزهم قوة باحتلال رودس • كما خلقوا أسطولا جديدا لجبهة جديدة فتحوها فى افريقية ، وجاء حصارهم للقسطنطينية مؤكدا لسيادتهم البحرية • وفى كل السنوات كانت تخرج الاساطيل فى الحروب البحرية ، وبدأ يظهر فى الحوليات الاسلامية لقب صاحب البحر • ويذكر أن يزيد بن معاوية أقفل البعث الذى كان أرسله أبوه الى قبرص ، وزاد عبـد الملك على أهل قبرص ألف دينار • وأنزل

معاوية رودس قوما من المسلمين سنة ٥٢ هـ « وهى من أخصب الجزائر » وهى نحو ستين ميلا فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة • وأقام المسلمون برودس سبع سنين فى حصن اتخذ لهم ، فلما مات معاوية كتب يزيد الى جنادة بن أبى أمية الأزدى يأمره بهدم الحصن والقفل • وكان معاوية يعاقب الناس فيها وكان مجاهد بن جبر مقيما بها يقرىء الناس القرآن » وذكر محمد بن على أن المسلمين كانوا اذا أمسوا ادخلوا مواشيهم الحصن فى رودس ولهم ناطور يحذرهم ما فى البحر ممن يريدهم بكيد وكانوا أشد شىء على الروم فيعترضونهم فى البحر فيقطعون لهم سفنهم • وكان معاوية يدر لهم الأرزاق والعطاء وكان العدو وقد خافهم » • وفتح جنادة بن أبى أمية الأزدى سنة ٥٤ هـ أرواد وأسكنها معاوية المسلمين • وقد سار يزيد على سياسته فى عدم ايجاد حاميات ثابتة فى تلك الجزر « وجاء نعى معاوية وكتاب بالقفل فقفلنا فلم تعمر بعد ذلك » • وغزا جنادة اقريطش فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق ، وسبى عبد الله بن قيس بن مخلد الدزقى صقلية فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجوهر فبعث بها الى معاوية فحملت الى الهند لتباع هناك « وكان معاوية يغزى برا وبحرا » • وألح الأمويون على تنفيذ **مشروع غزو القسطنطينية** ووصلوا الى جدرانها العالية ٣ مرات : الأولى ٤٩ هـ ٦٦٩ م بقيادة يزيد ، والثانية فى حرب السنوات السبع ٥٤ : ٦٠ هـ ـ ٦٧٤ : ٦٨٠ م وفى خلالها احتلت أرواد ورودس ، والأخيرة بقيادة مسلمة ٧١٦ ـ ٧ م (١٤٦) فى خلافة سليمان •

ويرى الدكتور شعيرة أن أرواد هى تسمية ثانية لرودس وأنه لم يوجد قط سوى جزيرة واحدة هى رودس التى جرى فتحها سنة ٥٤ هـ• ويستدل على ذلك بأن تستحيل ماديا أن يباشر مجاهد الفتح فى جزيرتين فى وقت واحد ـ اذ تقول الروايات أن رودس فتحت سنة ٥٣ هـ وأرواد سنة ٥٤ هـ وأن الفتح انتهى بالنسبة للجزيرتين فى نفس الوقت وأن كليهما بقى مفتوحا ٧ سنوات •

---

(١٤٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٣ ـ ٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٥٠ ـ ١ ، ١٣٩ ، ١٥٥ ، ص ١٦٠ ـ ١ ـ ٢٤٤ ـ ٥ ، الطبرى ج ٦ ص ١٦١ ، ١٧٩ رواية الواقدى ، ص ١٦٤ رواية الواقدى ، حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع ج ١ ص ٢٥١ : ٤ Hitti. Hist. of Syria. p. 445 الترجمة العربية : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٤٦ : ٥١ ،
Creswell : Early Muslim Architecture. Vol. II p. 377, Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins. pp. 132: 4.

وفى فترة الاضطراب التى تخللت انتقال الحكم من الفرع السفيانى الى الفرع المروانى ـ من عهد يزيد ابن معاوية حتى معظم عهد عبد الملك بن مروان وهى فترة يسميها الدكتور شعيرة بالفتنة الثانية ـ ضعفت سيطرة العرب البحرية وتعرضت موانيها لهجوم الروم . وكان مقياس المد والجزر فى النفوذ الاسلامى : قبرص فى البحر المتوسط مثلما كان أرمينية فى جبهة آسيا الصغرى . أما قبرص فقد تعرضت لهجمات الروم ، ولكن الاسطول العربى أخيرا استطاع حماية قاعدة قبرص ومهاجمة كريت والقاء الرعب بين سكان السواحل منذ حصار القسطنطينية ، كما كان لأسطول افريقية شأنه فى البحر المتوسط الغربى . وقد كان النشاط البحرى الاسلامى كبيرا وان لم تصلنا تفاصيله كلها ، فقد كان سنويا ومنتظما كما تثبت البرديات المصرية فى عهد الوليد الأول ، وليس هناك مايدعو الى عدم اعتبار ذلك أمرا مطردا طوال عهد المروانيين الأوائل . وأعاد المسلمون تشييد التحصينات التى هدمتها الهجمات البيزنطية التى انتهزت فرصة الاضطراب الداخلى ، وقام عبد الملك باعادة تحصين عكا وصور وطرابلس وعسقلان وقيصرية. وزيدت الحاميات ونظمت فى انطاكية وطرابلس . وكانت انطاكية مركز احتشاد للقوات يغذى المعاقل الامامية . ويبدو أن عمر بن عبد العزيز لم يتجه الى ابتناء منشئات جديدة ، واذا كان قد أعاد بناء اللاذقية فقد كان ذلك بسبب هجوم بيزنطى خرب الميناء ، ولم تحدث مواصلة أعمال اعادة التحصين الا بعدوفاته . وفى عهد المروانيين المتأخرين كانت الحملات البحرية منتظمة كالحملات البرية ، على أن الاسطول العربى كان بعيدا عن ادعاء السيادة على البحر المتوسط الشرقى ، وعلى الرغم من نشاطه الكبير لم يستطع أن يحرز انتصارا كانتصار ذات الصوارى Phoenix وكانت قبرص فى انتقاضها على العرب تفوق أمينية ، ورأى الروم فى قواتهم البحرية أداة مفضلة فى اثارة المتاعب فى وجه العرب . وسارت بيزنطة على سياسة النشاط العدائى ضد المسلمين برا وبحرا . ومن المؤكد أن قبرص وقعت فى أيدى الروم سنوات عدة حتى استعادها العباسيون . واتخذ المسلمون بافريقية من تونس قاعدة بحرية للاغارة على صقلية فى هجمات متتابعة لم تدع لأسطولها فرصة المنازعة على سيادة البحر ، وفى خلال نحو ٣٠ سنة من حكم المروانيين المتأخرين تتابعت ٧ حملات على صقلية وعلى سردينية (١٤٧) .

---

(١٤٧) Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins. pp. 136, 195-6, 200-1, 210, 234-5, 238-9.

(ب) القوى البشرية :

ينسب **الجراجمة** الى بلدتهم الجرجومة ، ويطلق عليهم المسلمون اسم المردة لكثرة عصيانهم ، وقد كانوا عصاة لكل سلطة حاكمة فى الشام منذ أيام الدولة الرومانية الكبرى ، حتى وصفهم الرومان بأنهم شديدو البأس • واعتبروهم أعداء دائمين **Hostis perpetius** واستطاعت الدولة البيزنطية أن تجتذب تلك الجماعة المتاخمة لحدودها باغداق المنح المالية وتوجيهها لعرقلة حركات المسلمين مستغلين وقوع مساكنهم قرب درب أنطاكية المسمى درب بغراس ـ طريق اغارات المسلمين على أراضى البيزنطيين، واسماهم البيزنطيون (أصحاب القضبان الحديدية) لاعتيادهم السير وفى أيديهم هذه القضبان • فلما تم فتح تلك المنطقة وصولح الجراجمة على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام مقابل الا يؤخذوا بالجزية وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين نقضوا مرارا فاعانوا البيزنطيين على عرقلة حملة معاوية سنة ٦٦٦ م الى القسطنطينية مثلا مستفيدين من طبيعة بلادهم الجبلية وموقعهم الحساس • « وكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجن أخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم • فلما كانت أيام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبد الملك الخلافة بعده لتوليته اياه عهده واستعداده للشخوص الى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير ، خرجت خيل للروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت الى لبنان وقد ضوت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة وأنباط وعبيد أباق من عبيد المسلمين فاضطر عبد الملك الى أن صالحهم على ألف دينار فى كل جمعة وصالح طاغية الروم ـ جستنيان الثانى ـ على مال يؤديه اليه • واقتدى فى صلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق ووافق ذلك طلب سعيد بن العاص الخلافة واغلاقه أبواب دمشق حين خرج عبد الملك عنها فازداد شغلا وذلك سنة ٧٠ هـ ثم استطاع عبد الملك أن يحتال على الروم حتى قتل صاحبهم ومن كان معه وأمن من أوى اليه ، فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع أكثرهم الى مدينتهم باللكام، وأتى الانباط قراهم ورجع العبيد الى مواليهم • وفى سنة ٨٩ هـ اجتمع الجراجمة الى مدينتهم وأتاهم قوم من الروم من قبل الاسكندرونة وروسس فوجه الوليد بن عبد الملك اليهم مسلمة فأناخ عليهم فافتتحها على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجرى على كل امرىء منهم ٨ دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت وعلى ألا يكرهوا على ترك النصرانية وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ولايؤخذ منهم جزية وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونهم مبارزة وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال

موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين. فأخرب مدينتهم وأنزلهم فأسكنهم جبل الحوار وسنح اللولون وعمق تينزين ، وصار بعضهم الى حمص، ونزل بطريق الجرجومة فى جماعة من انطاكية ثم هرب الى بلاد الروم . وزعم أبو الخطاب الأزدى أن أهل الجرجومة كانوا يغيرون فى أيام عبد الملك على قرى انطاكية والعمق اذا غزت الصوائف قطعوا على المتخلف واللاحق ومن قدروا عليه ممن فيه أواخر العسكر وغالوا فى المسلمين ، فأمر عبد الملك ففرض لقوم من أهل أنطاكية وأنباطها وجعلوا مسالح وأردفت بهم عساكر الصوائف ليؤذنوا الجراجمة عن أواخرها فسموا الروادیف وأجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير - والخبر الاول أثبت » .

هكذا انتهى أمر الجراجمة أخيرا الى الجلاء عن الشام وأقاموا فى المقاطعات الداخلية أو على سواحل آسيا الصغرى حيث احترفوا الملاحة ، وبقى آخرون فكانوا أحد جذور المجتمع المارونى فى شمالى لبنان . وقد نجح عبد الملك بن مروان بالوسائل الدبلوماسية فى عقد اتفاق مع الدولة البيزنطية لازاحة هذا (الجدار النحاسى) من الحدود العربية البيزنطية ، وطالما كان يتترس به البيزنطيون ويدافعون من ورائه عن آسيا الصغرى فنقلوا الى داخل أراضى الدولة البيزنطية وتفرق المردة ليعملوا بحارة مابين بامفيليا فى آسيا لصغرى الجنوبية والبلوبونيز وكفالونيا وغير ذلك من الجهات وكان جلاؤهم عن الحدود العربية توطيدا لمركز العرب بغير شك فى الاقاليم المفتوحة وتسهيلا لتحركاتهم الهجومية وراء حدودهم نحو قلب آسيا الصغرى . ولايرى فازيلييف أدلة كافية تسند تفسير كولاكوفسكى Koulakovski لواقعة اجلاء الجراجمة عن الدولة الاسلامية بأن الرعايا المسيحيين كان ينظر اليهم كغرباء مخالفين فى الدين فالحق أن اجلاء الجراجمة انما كان لاسباب سياسية بحته وكان هؤلاء على اتصال بالروم أعداء المسلمين فعلا (١٤٨) .

وقد تابعت الدولة الاموية سياسة اجتلاب جماعات شديدة اليأس والسطوة ووضعهم فى المواقع الاستراتيجية الهامة عند السواحل والحدود « فأمر عبد الملك ففرض لقوم من أهل انطاكية وأنباطها وجعلوا مسالح

---

(١٤٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٦ : ٩ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع ج ١ ص ٢٥٦ ، دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٠٨ : ١١٢
Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I p. 285, Hitt: Hist. of Syria. pp. 448-9 الترجمة العربية حـ ٢ : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين دكتور اليازجى ص ٥٢ : ٤

وأردفت بهم عساكر الصوائف ليؤذنوا الجراجمة عن أواخرها ٠٠٠ ونقل معاوية سنة ٤٩ أو ٥٠ هـ الى السواحل قوم من زط النصرة والسباتجة (السبايجة) وأنزل بعضهم انطاكية ، فبأنطاكية محله تعرف بالزط وببوقا من عمل انطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزط ٠ ونقل الوليد بن عبد الملك الى انطاكية قوما من الزط السند ممز حمله محمد بن القاسم الى الحجاج فبعث بهم الحجاج الى الشام » ورتب مروان بن محمد جماعات من الصقالبة فى الثغور (١٤٩)٠ ويذكر تيوفانيس « أن السلاف انضموا الى عبد الرحمن وساروا معه الى سوريا خمسة آلاف منهم سنة ٦٦٤ فسكنوا فى افامية في قرية سلفوكوبول ٠ وفى سنة ٦٩١ استمال محمد قائد الصقالبة حليف الروم فأرسل له كيسا مملوءا ذهبا وأطعمه بالوعود الكثيرة وحرضه على الانضمام اليه مع عشرة آلاف من الصقالبة، وهكذا كان هربه من صفوف الروم » (١٥٠) ٠

وبالنسبة للسكان العرب سار معاوية على سياسته فى كسب بني كلب اليمنيين – رغم انه أقرب الى قيس – حتى جعلهم فى المرتبة التالية للبيت السفيانى وتخلى بذلك عن أبسط تقاليد البداوة والعصبية القبلية٠ «ولم يكن بنو كلب أكثر قبائل عرب الشام عددا بل كانوا أقربهم الى الروم. وكانوا عماد بني غسان وأحلاف الرومان والبيزنطيين ولهذا كانوا ذوى ملكات اقتصادية عمرانية جعلتهم من أصحاب الأراضى والضياع والمتاجر فى الشام ، ثم هم بعد ذلك يمنيون من أهل الجنوب وهم أهل حضارة ومال وثقافة والتفات معاوية الى هذه الناحية من أظهر دلائل كياسته وبعد نظره وقد كان لتفكيره السياسى على هذا النحو أبعد الاثر فى توجيه الدولة الأموية توجيها بحريا حضاريا ٠ « ومن هذا القبيل أيضا ميل معاوية الى الثقفيين من أهل الطائف ، وثقيف من قحطان أيضا وقد أمدت البيت الاموى بطائفة من أقدر الرجال » ٠ وغدا اليمنيون يكونون غالبية الجيش الشامى وعدة معاوية فى حملات ضد البيزنطيين ، كما ساهموا فى الحملات البحرية٠ واشتهر من قواد الامويين فى حملات الثغور : حبيب بن مسلمة الفهرى «وكان ذا أثر جميل فى فتوح الشام وغزو الروم، وقد علم ذلك منه عمر ثم عثمان ثم عثمان من بعده ٠٠ ورأى عثمان أن يجعل حبيب غازيا بثغور الشام والجزيرة ونزل حمص فنقله معاوية الى دمشق فتوفى بها سنة

---

(١٤٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٨ – ٩ ، ١٥٦ ويرى المطران الدبس أن المردة ليسوا سوى الموارنة ، تاريخ سوريا جـ ٥ ص ١٠٥ ، ١١٠ – وأيضا كرد على : خطط الشام جـ ١ ص ١٥١ ٠

(١٥٠) فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ١٠٦ ٠

٤٢ هـ (ولقب حبيب الروم لاغاراته عليهم) .. وكان مالك ابن عبد الله الخثعمي يقال له مالك الصوائف وهو من أهل فلسطين » كما كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد يغير سنويا على تخوم الدولة البيزنطية ، وقاد بسر بن أبى ارطاه أسطول معاوية الناشىء ولقبه معاوية بسيد أهل الشام كذلك برز فى الحملات البحرية « عبد الله بن قيس الحارثي حليف بنى فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة فى البحر ولم يغرق فيه أحد حتى قتل أخيرا بالمرقى من أرض الروم » وكان هناك أيضا من شيعة معاوية فى ميدان العمليات الحربية الضحاك بن قيس وأبو الأعور السلمى وشرحبيل ابن الصامت الكندى (١٥١) . وقد روى أحدهم مبلغ طاعة أهل الشام وحسن بلائهم فى حملات الصوائف فقال : « والله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح ان أرسله فى حاجة ، ولقد رأيتنا فى الصوائف وأحدنا على الف بعير وأن الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه وزاده خلفه » (١٥٢) .

(حـ) الثغور :

مضى خلفاء بنى أمية على سنن معاوية فى الاهتمام بالثغور ، وقد واصلوا اختطاط المدن وتمصيرها وانزال الجنود فيها وتوسيع الثكن واقامة المخازن والحظائر . ولم تزل العمائر فى عهدهم تتقدم حتى أصبحت أمصارا خطيرة الشأن زاخرة بالمقاتلة والسلاح والمؤن والأيدى العاملة ، وشيدوا كذلك مسالح متعددة ومنها ما كان فى الرى واذربيجان . (١٥٣) .

وكان من نتائج اهتمام الامويين بمحاربة الدولة البيزنطية برا وبحرا أن اتجهوا الى جعل قنسرين جندا مستقلا منفصلا عن جند حمص «ومصرها معاوية وجندها بمن ترك الكوفة والبصرة فى ذلك الزمان ، وأخذ لهم معاوية بنصيبهم من فتوح العراق : اذربيجان والموصل والباب » . وكانت اهمية قنسرين قد ظهرت كمركز للحشود العسكرية بحكم قربها من العراق حيث كان أنصار على بن أبى طالب ، وقيل ان يزيد بن معاوية هو الذى

---

(١٥١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٩ ، ٢٠٥ ، الطبرى ج ٥ ص ٥٢ ـ ٣ رواية سيف ، دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٥٧ : ٦٤ ، دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط . المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١

(١٥٢) الطبرى ج ٧ ص ١٨٥

(١٥٣) نعمان ثابت : الجندية ص ٢٩ : ٣١

« جعل قنسرين وانطاكية ومنبج وذواتها جندا ٠٠٠ وكانت الجزيرة الى قنسرين حتى جندها عبد الملك بن مروان أى أفردها فصار جندها يأخذون أطماعهم من خراجها » (١٥٤) ٠

والواقع أن الجبهتين المقابلتين لأسيا الصغرى ـ الشامية والجزرية كانتا متداخلتين فى بداية العهد الاموى ـ الا فى حالات نادرة ٠ ونحن لا نسمع خلال هذه الفترة عن جبهة مفردة فى الثغور الجزرية ، والحملات كانت تسير من الثغور الشامية والجزرية على السواء واذا كنا نجد حملات تخرج من شمشاط Arsamosate بقيادة صفوان بن المعطل أكثر من مرة لتهاجم قلعة كمخ المجاورة للحدود الارمينية ، فان هذه العمليات كانت ذات طابع محلى ٠ **وقد كان دور الثغور الجزرية من قبل هو اقامة حاجز بين بيزنطية وأرمينية** ، أما مهمتها فى عهد معاوية وخلفائه السفيانيين فكانت **حراسة أرمينية عن قرب والاتجاه الى ايجاد قوة محلية على أهبة الاستعداد الدائم للعمل** لتكون عوضا عن قوات أكثر عددا كانت موزعة فى أنحاء أرمينية الكبرى ٠ وبهذا يمكن تفسير عمليات فتح كمخ ٠ وكانت ثغور الجزيرة تعمل غالبا مع ثغور الشام كقاعدة للحملات المشتركة على آسيا الصغرى، على أن معاوية حفظ لكل جبهة شيئا من التخصص : **فمهمة الثغور الجزرية هى حماية الحدود الاسلامية بينما كانت مهمة الثغور الشامية الأساسية هى الهجوم على الدولة البيزنطية ذاتها** ، وقد كانت الحملات تسير من ملطية للاستطلاع وتأمين وفتح الجهات المحلية المجاورة ٠ وقد ظهرت **خطة حربية جديدة تقوم على حشد مقاتلين من الغرب فهى البند البيزنطى الارمنى (ارمينياك) ومواجهة الصراع فى آسيا الصغرى بمعزل عن الحدود الارمينية** ٠ ومثل هذه الخطة من شأنها أن تعرض على العدو ميدان قتال أقل صلاحية بالنسبة له ، وقد كان الأمر يقتضى تجنب ما يمكن أن يقوم به العدو من تهديد الجبهة الاسلامية من جانبها عن طريق البند البيزنطى الارمينى ٠ وهكذا قام الصراع على أرمينية ـ لا على حدودها، بل فى آسيا الصغرى ٠ وكانت نتيجة هذه الخطة أن عاشت أرمينية عشرين عاما سعيدة vingt ans de bonheur ـ على حد تعبير لوران Laurant ، تنعم بما أتيح لها من طرح سيادة بيزنطة المتاخمة لها ، وعاش الاقليم حياته القومية تحت الحكم العربى المتسامح ٠ وقد عاش أمير أرمينية جريجوار ممیکونیان Gregoire Mamikonian رهينة فى دمشق من

---

(١٥٤) الطبرى جـ ٤ ص ٢٦٠ رواية سيف ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨
Le Strange : Palestine under the Moslems. p. 25, Cheira: La Lutte entre Arabes et Byzantins. p. 141.

سنة ٦٥٥ الى سنة ٦٦١م • وقد أمكنه ـ بحكم معرفته بالعرب من الانتقال الى الجانب المزدهر فى غربى الاقليم وتوجيه أرمينية نحو سياسة موالية للعرب • ويوضح الخطة العربية الجديدة ما قام به معاوية حين كان واليا على الشام اذ قاد بنفسه حملات فى آسيا الصغرى تستهدف أن تقتطع من بيزنطة طريقها فى أرمينية وكان نجاح هذه الخطة المبكرة سببا فى استثارة التفكير فى متابعة هذا الاتجاه والشروع **فى افراد الثغور الجزرية كجبهة مستقلة • وكان المركز الذى تدور حوله تلك الخطة هو أرمينية ،** وقد استفاد العرب من التجارب البيزنطية فعدلوا عن اخضاعها تماما وتركوا الزعماء المحليين الذين يعز عليهم التخلى عن كيانهم • وقد بقى الهدوء الذى ساد الاقليم فى عهد معاوية مستمرا بعد اتحاد الأرمن مع العرب •

وكان هدف حملات الحدود فى عهد معاوية وخلفائه من السفيانيين هو شغل البيزنطيين فى عقر دارهم بأسيا الصغرى عن طريق التوغل التدريجى داخل حدودهم فى نشاط متزايد وان لم تكن هناك خطة مدبرة لاحداث تخريب منظم فى آسيا الصغرى تمهيدا لفتحها • **ولم يكن التفكير قد نضج بعد فى تلك الفترة بشأن اقامة جبهة من القلاع ضد الطريق فى وجه العدو لتأمين حدود الدولة الاسلامية • فقد كان المسلمون يفضلون أسلوب الدفاع المتحرك عن طريق الحملات الفصلية من صوائف وشواتى على الارتباط بقواعد محصنة فى خط ثابت مستقر ، وهكذا لم تجدد فى تلك الفترة المبكرة من العهد الأموى القلاع القديمة بين انطاكية وطرسوس وأهمل الخط المحصن الذى كان يمر بقاليقلا وشمشاط** Arsamosate **ومرعش حتى انطاكية نفسها أو الى الشمال منها •**

ولكن الحملات كانت تسير صيفا وشتاء ، وكانت الصوائف هى الأهم بحكم صعوبة القتال شتاء • وفى صيف سنة ٤٧هـ ـ ٦٦٧م والشتاء التالى نرى لأول مرة فى العهد الاموى المبكر صائفتين وشاتيتين • ولم تكن تجدد الفرق الشامية أو الجزرية التى توجه للقتال ، **ويبدو أن قوات الجبهتين كانت تشترك بدرجة واحدة فى الحملات ، ولكننا نعرف أن قوات الشام كانت تتبادل الخدمة فى القتال البرى والبحرى ، ويعزى ذلك الى اعتبار الحملات البحرية أيسر من القتال فى مرتفعات آسيا الصغرى • وكان يحدث مثل هذا التبادل بالنسبة لقوات الجزيرة • وكان ينضم للقوات النظامية مجاهدون متطوعة •** وقد كانت قوات الثغور الشامية والجزرية من قبل تحت قيادة أمير أو أميرين ، أما فى العهد الأموى فقد صارت **تحت قيادة**

الخليفة شخصيا وان كان يعتبر فى الحقيقة من مهام الدولة التى يرعاها بتوجيهه ، ومن هنا كان يذكر اسم الخليفة كمنظم للحملة • وكان يختار القادة من بين امراء الجند الذين يعتبرون من الموالين للبيت الاموى وفى هذا الاختيار تكريم لهم وارضاء لحماسهم واذكاء للمنافسه بينهم وتنمية لخبراتهم، حتىصارت آسيا الصغرى المدرسة الحربية التطبيقيةللمسلمين • ونجد فى عهد معاوية وخلفائه من السفيانيين ٢٥ قائدا على الأقل يتابعون الغزو أو يتعاقبون عليه فى البر والبحر دون ترتيب موضوع وكان منهم يزيد بن معاوية وقد سارت المعارك بين المسلمين والبيزنطيين روح الجهاد الدينى والفروسية • وأدت الحملات المتتابعة على حدود الدولة الاسلامية الى تأمين ديار الاسلام وساد الهدوء البلاد المعاهدة (أرمينية) • وقامت القيروان فى وسط البربر كما قامت شمشاط وسط الارمن • وأتاحت الأولى للمسلمين فرصة محاولة بسط نفوذهم فى حوض البحر المتوسط الغربى • وقد استقر الفتح الاسلامى فى الشام ومصر والعراق وفارس واعتبرت هذه أجزاء من دولة الاسلام ، وحول هذه الاقاليم الشاسعة كانت هناك جهات حاول المسلمين بسط نفوذهم اليها ، فقد حفزتهم انتصاراتهم وحماستهم للمزيد وسار البربر فى بلاد الغرب نحو الاسلام والعروبة ، بينما كان تعريب أرمينية مستحيلا ، وتعاون أهل ماوراء النهر العرب فى الدفاع عن الاقليم ضد الترك •

وقد أدى انشغال الامويين بالمشاكل الداخلية منذ خلافة يزيد حتى معظم عهد عبد الملك الى ايجاد فرصة للبيزنطيين لاحكام نظامهم العسكرى وزيادة عدد البنود البيزنطية (الثيما) لكنهم لم يستغلوا تماما ظروف توقف عدوهم عن قتالهم • وقد عين قائد عسكرى (استراتيجوس) للدفاع عن السواحل والجزر ، وتكون بند الابسيق (الأوبسيكيون) سنة ٦٨٨م/ سنة ٦٨ هـ من الوحدة الادارية القديمة diocese فى بنطس وجالاتيا وبيثنيا وميسيا وفريجيا • وحوالى ذلك الوقت تقريبا بين عامى سنة ٦٨٠ ، سنة ٦٩٠ م أو سنة ٦٠ ، ٧٠ هـ تكون بند كيبيرايوت البحرى فى قسم آخر من الساحل والجزر المحيطة به ، وهكذا شرع البيزنطيون يعززون دفاعهم فى المواضع التى هددها هجوم معاوية • وقد كان نظام البنود البيزنطى مطبقا قبل ذلك فى البند الأرمنى (الأرميناك) الذى تكون سنة ٦٢٦ م لمواجهة خطر الغزو الفارسى • وقد قلل من شأنه فتح العرب لملطية ، وكذلك فى البند الاناضولى الذى تكون فى وسط عهد معاوية ــ ولاشك أن قيامه ارتبط بالمشروعات الاسلامية الكبرى لفتح القسطنطينية وهكذا عدلت بيزنطة تقسيمها الادارى لمواجهة احتياجاتها

الدفاعية وجددت بعض ماكانت تسير عليه من نظم • وتمكنت بيزنطة فى فترة الهدوء التى استمرت ١٥ عاما من معالجة آثار التلف والتخريب التى أصابتها فى العشرين عاما السابقة عليها ، كما أقبلت على تدعيم مقدرتها الدفاعية لمواجهة الخطر العربى •

أما المسلمون فى الجانب الآخر فلم يكن فى وسعهم أن يحافظوا على نشاطهم الحربى السابق ، وقد أوجدوا لأنفسهم تنظيما عسكريا مناسبا للحدود ، ويقول لا مانس انه بجوار حاميات الروم والقوات غير النظامية التى تقاتل معهم أقام العرب **محارس منذ ابطال الحملات السنوية فى عهد يزيد بوجه خاص • ومن هنا كان من الضرورى زيادة تأمين الحدود بزيادة الجند ، فظهر جند قنسرين ثم جند الجزيرة** • وقد أفاد انشاء **جند قنسرين** سلامة الدولة فى الداخل والخارج ، ويرى لا مانس أن هذا الاجراء كان جزءا من برنامج لاعادة التنظيم الادارى للشام على نطاق أوسع فى عهد يزيد وذلك لأول مرة منذ العهد البيزنطى وهكذا يناقش لا مانس مسألة الأجناد العربية • ولا يتابع الدكتور شعيرة لا مانس فى اعتبار هذه الخطوة استنقاذا لاقليم كان النفوذ العربى فيه وقتيا حتى ان لامانس يطلق على هذا الاجراء (اعادة فتح) reconquerir • وهو يتكلم بوجه خاص عن اقليم قورس Cyrrhestique فيذكر أن الاقليم قد غدا صحراء بسبب وقوعه فى طريق الهجمات التى تقصد الشام أو آسيا الصغرى وبسبب الفتن التى كان يحدثها المردة ولذا اعتبر من الضواحى• غير أن هذين السببين قابلان للمناقشة : فحملات المسلمين لم تكن تقصد التخريب وانما كانت تحركات منظمة على الحدود ، وبيزنطة لم تستعد هذه المنطقة ابدا • أما فتنة المردة فكانت متأخرة عن ذلك التاريخ رغم افاضة لا مانس فى القول بفتنة للمردة فى عهد معاوية اضطرته لمصالحة الروم • وعلى العكس من ذلك عمل معاوية على اسكان قورس Cyrrhestique وبياس ويفترض مع فتح مرعش وزبطرة والحدث استقرار الحال فى المنطقة الواقعة بينها وبين انطاكية ، وترك هذه المنطقة دون اقامة استحكامات يفسره اشتراك المردة مع العرب فى الدفاع وحملت الفترة مابين عهدى يزيد وعبد الملك ـ أو الفتنة الثانية كما يسميها الدكتور شعيرة ـ معها **محاولة بيزنطة انتزاع الأقاليم المعاهدة من العرب وقد استعانت على ذلك بالبربر فى افريقية كما استعانت بهجمات الخزر لقلقلة النفوذ العربى فى ارمينية ، وقامت بالهجوم على الشام برا وبحرا واستعانت بالمردة** • وقد خرجت بيزنطة من هذه الفترة أكثر راحة وأقوى جيشا غير أن حالة المسلمين خلال هذه الفترة كانت أحسن حالا

من حالاتهم خلال الفتنة الأولى ، فان بيزنطة لم تكن فى وسعها بعد أن استقرت الدولة الاسلامية فى معظم اقاليمها سوى اثارة المتاعب ، بينما كان المسلمون يواجهون فى المرة الأولى خطر محاولات بيزنطة لاسترداد الاراضى التى فقدتها اثر الفتح الاسلامى •

وكان عهد المروانيين الاوائل ـ عبد الملك وابنيه الوليد وسليمان ـ متميزا فى تاريخ الحدود الاسلاميه البيزنطية ، فقد تابعوا سياسة معاوية باحاطة بيزنطة بالنفوذ العربى عن طريق عقد العهود والأحلاف ثم حماية من دخل فى عهد العرب بحملات كبيرة ضد الأراضى البيزنطية • واشتد القتال فى آسيا الصغرى ، **وعلى جانبى الحدود أقام الفريقان وسائل الدفاع : أحدهما عن طريق البنود (ثيما) والآخر عن طريق الاجناد •** وعمل كلاهما على زيادة الجند والعتاد • وبنى كل منهما فى مواجهة الآخر استحكامات جديدة ، وقد جعلت المصيصة Mopsuesta الحدود العربية أقرب الى بند الاناضول البيزنطى • ووجدت الحملات العربية فى تلك الفترة مداخل آسيا الصغرى تحت حراسة مشددة ، ولم تستطع اختراقها الا بعد اضطراب الأمور نتيجة لأزمة البيت الحاكم فى بيزنطة • وقد ظلت جبهة الثغور الشامية الجزرية على الدوام أكثر الجبهات اهمية ، فهى أقرب ميدان يقاتل العرب فيه الروم ، والفريقان أكثر خبرة به من غيره على أن عبد الملك قد انشغل منذ بداية سنة ٦٩٣ م الى سنة ٧٠٥ م بأرمينية ، وكرس العرب هدف معظم حملاتهم الى أرمينية وحمايتها ، وهكذا كان بين العرب والروم حرب حقيقية على أرمينية • وأما ثغور الشام ، فقد كان العرب قد أهملوا تنظيم الدفاع عنها وانصرفوا عن تحصين المنطقة بين أنطاكية والمصيصة التى يمكن عن طريقها الولوج الى آسيا الصغرى كما خربوا معاقلها ، واكتفوا بالاتفاق مع المردة بجبل اللكام ، كما أن الحملات العربية التى كانت تستهدف حماية أرمينية كانت تشغل بيزنطة بعيدا عن ثغور الشام • غير أن نزوع المردة الى التمرد والاصلاح العسكرى البيزنطى فى الأناضول وتوقف الحملات العربية خلال الفتنة الثانية قد غير الوضع ، وصار موقف المردة بين ثغور الشام الاسلامية وبند الأناضول البيزنطى محل ريبة منذ أواخر عهد معاوية • **وعندما كان الموقف فى ارمينية لصالح العرب باتخاذ قاعدة فى طرندة وتنظيمها وجهت بعض جهود نحو الغرب لكى يغدو موقف المسلمين تجاه البند الأناضولى لا يقل صلابة عن موقفهم تجاه البند الأرمينى • وتقدمت مواقع الثغور عن طريق اتخاذ قواعد اسلامية فى طرندة من جانب والمصيصة من جانب آخر على يد عبد الله بن عبد الملك** ، وكانت المصيصة

تحمى انطاكية وتكون جبهة أمامية لها ترسل منها الحملات التى تخترق بلاد الروم ، بينما واصل المسلمون الهجوم على القواعد البيزنطية فى آسية الصغرى وتخريب حصونها • وقد كان اهتمام المروانيين الاوائل بالتحصينات البرية صدى للمتاعب التى واجهها المسلمون نتيجة الفتنة الثانية وقد وضعت التحصينات الجديدة الى الأمام على اطراف منطقة الحدود لتكون أكثر اقترابا من العدو وكانت أكثر تنظيما وحماية ، **وتخلت ملطية ومرعش وانطاكية عن مكانتها لقواعد أكثر تقدما واقترابا من أراضى الروم مثل طرندة والمصيصة ، وكانت ملطية ومرعش وانطاكية قد تعرضت الهجوم العدو خلال الفتنة** • وقد عمل عبد الملك على الافادة من المنطقة التى خلقها تقدم القواعد الاسلامية المحصنة فمنح حيار بنى القعقاع بين انطاكية والفرات اقطاعات للاستصلاح ، وأقام الوليد الزط فى انطاكية وبوقا والمصيصة ومعهم قطعان من الجواميس ، وعمل على تأمين الطريق الحربى بين انطاكية والمصيصة الذى كانت تعترضه الحيوانات المفترسة ، كما منحت الاقطاعات فى اقليم سلوقية الساحلى لتعميره، وجرى منح الأرض للمزارعين فى بغراس وعين السلور وبحيرتها والاسكندرونة وأقيم الأرمن الذين طردتهم بيزنطة منأجل مذهبهم الدينى فى ملطبة حيث لقوا كل ترحيب من العرب كما يذكر ميشيل السورى • وأعيد تعمير وتحصين القواعد الاسلامية القديمة مثل مرعش • وجرت زيادة القلاع بصورة وافرة فى عهد المروانيين المتأخرين **ويعتبر تحصين المصيصة تخطيطا لأسلوب جديد فى الدفاع عن الحدود يتلخص فى أن يكون الحد محوطا بالقلاع ، ولكن هذا النظام لم يصادف التطبيق تماما الا فى عهد المروانيين المتاخرين** •

وجاء عمر بن عبد العزيز ويبدو أنه كان يؤمن **بانه لا ينبغى أن تهدد الحدود العدو ، وانما يكفى أن تحمى مداخل ديار الاسلام• ولم ينظر عمر الى هيبة الدولة ونفوذها بقدر ما نظر الى سلامة المقاتلين المسلمين على الحدود** • وهكذا أخلى طرندة ، وان كان قد حصن ملطية التى هى أدخل فى أرض الاسلام ، كما اتجه الى اخلاء المصيصة لكنه أقنع بغير ذلك • وهكذا كان عمر يعتبر تهديد العدو تاليا فى الأهمية لتأمين وضع الثغور داخل ديار الاسلام ، وهذه سياسة من لا يحب الحرب •

وتجدد النشاط الانشائى فى عهد المروانيينالمتأخرين حتى سادت الحدود ظاهرة جديدة خاصة بفضل جهود هشام والوليد الثانى • وكانت القاعدة هى اقامة التحصينات على طول الطرق الحربية ، **فحصن الطريق**

بين انطاكية والمصيصة فى عهدى هشام والوليد الثانى ، أما الطريق بين أنطاكية وسميساط مارا بمرعش وزبطره فقد حصنه مروان الثانى وغدت أنطاكية قاعدة خلفية ، ومركزا للطرق الحربية المؤدية الى الجهات المختلفة فى الجبهتين الشامية والجزرية • وعلى طريق المصيصة انطاكية بنى هشام ٦ قلاع : الربض فى المصيصة ذاتها ، والمثقب على طريق المصيصة الى البحر ، وقطر غاش قريبا من المصيصة ، ومورة على سفح جبل اللكام فى المنطقة التى كان يسكنها الجراجمة من قبل ، وبغراس ، وبوقا على السفح الشرقى لجبل اللكام على ارتفاع بياس فى السفح الغربى • وهكذا صار الطريق بين انطاكية والمصيصة محصنا كما لم يكن قط من قبل • كما أصلح هشام ملطية • ورغم قصر عهد الوليد الثانى فقد شرع فى بناء قنطرة على بعد ٩ أميال من المصيصة على نهر سيجان (سارس) لتربط هذه المدينة بأذنة ربى النهر ، كما أعاد بناء زبطرة التى دمرها العدو • وواصل مروان الثانى خطة هشام خاصة فى تحصين الطريق بين انطاكية وسميساط : فأعاد بناء بعض قلاع كان قد دمرها العدو ، وبنى حصن سليمان قرب قورس على هذا الطريق ، كما بنى حصن منصور بين زبطرة وسميساط على رافد أيمن الفرات وكان يشغل موقعا متوسطا بين زبطرة ومرعش وملطية وسميساط ويعطى هذه المواقع المتفرقة قوة دفاعية أكبر • وقام باعادة بناء مرعش وأقام لها قلعة • وبالنسبة للطريق الحربى بين أنطاكية والمصيصة بنى مروان الخصوص فى المصيصة واهتم باسكانها • وهكذا « شهد عهد المروانية المتأخرين بناء ١٤ مدينة محصنة أو حصنا جرى بناؤها تماما أو اصلاحها بأيدى الخلفاء المتعددين • واذا ما تمثلنا النفقات التى خصصت لهذا الغرض وانتقالات العمال والصناع والجنود والسكان المدنيين فان المرء يحس أن الثغور كانت حافلة بحياة مدنية وعسكرية ضخمة ولا نغفل المجاهدين الاتقياء من المتطوعة الذين توجهوا راضين للحياة فى الرباطات مما كان من شأنه أن يؤدى الى نشاط دينى وعقلى كبير » (١٥٥) •

وفيما يلى تفصيل ما شهدته الثغور والعواصم فى جهود الخلفاء الأمويين المتتابعين :

(١٥٥) Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins. pp. 108: 112, 117, 144-5, 154:9, 167: 170, 209-210, 214:9.

الثغور الشامية :

المصيصة : بنى حصنها على أساسه القديم عبد الله بن عبد الملك بن مروان حين غزا على الصائفة سنة ٨٤هـ فدخل من درب أنطاكية ٠ وقد وضع بها سكانا من الجند فيهم ثلاثمائة رجل انتخبهم من ذوى البأس والنجدة ، فتم بناؤها وشحنها سنة ٨٥ هـ ٠ وكانت الطوالع من انطاكية تطلع عليها كل عام فتشتو بها ثم تنصرف وعدة من كان يطلع اليها ١٥٠٠ الى الآلفين ٠ وقد روى أن الطريق كان بين أنطاكية والمصيصة « مسبعة يعترض للناس فيها الأسد ، فلما كان الوليد شكا ذلك اليه فوجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس فنفع الله بها ، وكان محمد بن القاسم الثقفى عامل الحجاج على السند بعث منها بألوف جواميس ٠ ووجه يزيد بن عبد الملك بأربعة آلاف جاموسة ــ من أموال بنى المهلب التى قبضها ــ الى المصيصة مع زطها فكان أصل الجواميس بالمصيصة ٠٠ وأما جواميس أنطاكية فكان أصلها ما قدم به الزط معهم وكذلك جواميس بوقا » ٠ وقد أراد عمر بن عبد العزيز هدم المصيصة وهدم الحصون بينها وبين انطاكية « وقال أكره أن يحاصر الروم أهلها ، فاعلمه الناس أنها انما عمرت ليدفع من بها من الروم عن أنطاكية ، وأنه ان أخربها لم يكن للعدو ناهية دون أنطاكية، فأمسك وبنى لأهلها مسجدا جامعا من ناحية كفر بيا واتخذ فيه صهريجا» وبنى هشام بن عبد الملك الربض ، ثم بنى مروان بن محمد الخصوص فى شرقى جيحان وبنى عليها حائطا وأقام عليه باب خشب وخندق خندقا وأسكنها أقواما من الفرس والصقالبة والانباط النصارى ٠ وبنى الوليد بن يزيد سنة ١٢٥هـ وجسر الوليد على تسعة أميال من المصيصة على الطريق الى أذنة ٠ (١٥٦)

حصون المثقب وقطرغاش ومورة وبوقا : بنى هشام حصن المثقب على يدى حسان بن ماهوية الانطاكى وبنى حصن قطرغاش على يدى عبد العزيز بن حيان الأنطاكى ، وحصن مورة على يدى رجل من أهل أنطاكية « وكان سبب بنائه اياه أن الروم عرضوا لرسول له فى درب اللكام عند العقبة البيضاء ورتب فيه أربعين رجلا وجماعة من الجراجمة » كذلك بنى هشام حصن بوقا ٠ (١٥٧)

---

(١٥٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٢ ــ ٣ ، ٥
Creswell : Early Muslim Architecture. II p. 375, 378.

(١٥٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤

بغراس : أقام بها هشام مسلحة فى خمسين رجلا وابتنى لهـــا حصنا • وقد سميت عقبة بغراس عند الطريق المستدقة التى تشرف على الوادى بعقبة النساء لسقوط محمل امرأة ممن رافق مسلمة بن عبد الملك من النساء فى غزوته عمورية • وأقطعت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك كما أقطع جند انطاكية أرض سلوقية عند الساحل (١٥٨) •

الثغور الجزرية :

ملطية : شحنها معاوية بجماعة من أهل الشام والجزيرة فـــكانت طريقا للصوائف • وانتقل عنها أهلها أيام ثورة عبد الله بن الزبير ، فخرجت الروم فشعثتها ثم تركتها فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والنبط ، واستردها المسلمون ـ لكنها تعرضت لهجمات رومية متتابعة (١٥٩) •

طرندة : غزاها عبد الله بن عبد الملك سنة ٨٣ هـ وبنيت بها مساكن وهى من ملطية على ثلاث مراحل وأغلة فى بلاد الروم ، وملطية يومئذ خراب ليس بها الاناس من أهل الذمة من الأرمن وغيرهم فكانت تأتيهم طالعة من جند الجزيرة فيقيمون بها الى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج فاذا كان ذلك قفلوا • فلما ولى عمر بن عبد العزيز رحل أهل طرندة عنها وهم كارهون لاشفاقه عليهم من العدو ، واحتملوا فلم يدعوا لهم شيئا ثم أنزلهم ملطية وأخرب طرندة (١٦٠) •

مرعش : بناها معاوية وأسكنها جندا ، فلما كان موت يزيد بن معاوية كثرت غارات الروم اليها فانتقلوا عنها ، ودارت عندها معارك بين الجانبين بعد ذلك ثم عمرها العباس بن الوليد بن عبد الملك وحصنها ونقل الناس اليها وبنى لها مسجدا جامعا « **وكان يقطع فى كل عام على اهل قنسرين بعثا اليها** » • وفى أثناء انشغال مروان بن محمد بتمرد أهل حمص خرجت الروم وحصرت مرعش حتى أجلت أهلها فخرجوا نحو الجزيرة وجند قنسرين وأخرب الروم المدينة ـ فى عهد قسطنطين بن ليون ، فلما فرغ مروان من اخماد ثورة حمص بعث جيشا لبناء مرعش فبنيت ومدنت ولكن أخربهـا

---

(١٥٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ ، ١٥٥

(١٥٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٣ ـ ٤

Creswell : Early Muslim Architecture. Vol. II p. 378

(١٦٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٤

الروم بعد أن انشغل فى المشكلات الداخلية التى أطاحت بالدولة الأموية كلها فى النهاية . (١٦١)

الحدث : كان معاوية يتعهد حصن الحدث ، وكان بنو أمية يسمون درب الحدث بدرب السلامة للطيرة « لأن المسلمين كانوا أصيبوا به فكان ذلك الحدث فيما يقول بعض الناس » . وقيل أن السبب هو لقاء المسلمين غلاما حدثا . وقد هدمت المدينة زمن فتنة مروان بن محمد . **ورهوة مالك** على ١٥ ميلا من درب الحدث وتنسب لمالك بن عبد الله الخثعمى المعروف بمالك الصوائف . (١٦٢)

زبطرة : حصن رومى قديم ، أخربته الروم فى أيام الوليد بن يزيد فبنى بناء غير محكم فأناخت الروم عليه عند اضطراب الأمور على مروان بن محمد فهدمته . (١٦٣)

وسار الأمويون على **سياسة منح الاقطاعات للمحاربين** ، فاقطع الوليد بن عبد الملك جند انطاكية أرض سلوقية ، وكان لمسلمة بن عبد الملك أرض بغراس (١٦٤) .

ونزل هشام بن عبد الملك الرصافة من أرض قنسرين سنة ١٢٥ هـ فرارا من وباء الطاعون « وهى برية ابتنى بها قصرين ، والرصافة مدينة رومية بنتها الروم » وكان الخلفاء وأبناؤهم ينتبذون ويهربون من الطاعون فينزلون الى البرية خارجا عن الناس (١٦٥) .

ولم يقصر الأمويون خطتهم فى تحصين الثغور وشحنها بالمقاتلة على **الثغور الشامية والجزرية** ففى أرمينية « أسكن مسلمة بن عبد الملك **مدينة الباب والأبواب** أربعة وعشرين ألفا من أهل الشام على العطاء وبنى هريا للشعير وخزانة للسلاح وأمر بكبس الصهريج ورم المدينة وشرفها .. ولما تولى الثغر مروان بن محمد نزل كسال فبنى مدينتها وهى من برذعة على أربعين فرسخا ومن تفليس على عشرين » (١٦٦) .

وخير ما يعبر عن جهاد الأمويين فى حفظ الثغور والسواحل وجهاد

---

(١٦١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٦ ـ ٧
Creswell : Early Muslim Architecture. Vol. II p. 378

(١٦٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٧ : ٢٠٠

(١٦٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠٠ .

(١٦٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ .

(١٦٥) الطبرى حـ ٨ ص ٢٨٧ عن على بن محمد ، وابن الاثير حـ ٥ ص ١٠٩ .

(١٦٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٤ ـ ٥

الروم مارواه البلاذرى « كانت بنو أمية تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلى ثغور الشام والجزيرة ، وتقيم المراكب للغزو وترتب الحفظة فى السواحل » • (١٦٧)

وأدى الصراع بين العرب والروم الى اتجاه العرب لاحكام تحصينات الحدود واقامة معاقل على طول الطرق الحربية وفى المواقع الحساسة ، فوجد نظام دفاعى دائم ، لكن هذا النظام ما لبث أن تعرض لخطر الانهيار نتيجة لهجوم الروم أثناء محنة سقوط الأمويين • وجاء العباسيون فساروا على نفس الخطة مع التوسع فيها ، وقد جعلت السياسة الهجومية التى سار عليها البيزنطيون فى العهد الايسورى من هذا النظام شيئا لا غنى عنه • وقد عملت السياسة الأموية فى البر على حرمان المسلمين من انتصاراتهم المعتادة ، فى آسيا الصغرى التى كان قد توجها حصار بيزنطة ذات الجلال، ومع ذلك استطاع العرب ـ طالما كانت جبهتهم الداخلية سليمة ـ أن يحافظوا على حدودهم وعلى حلفائهم • أما فى البحر فقد أقبل الايسوريون على تحدى السيادة العربية على البحر المتوسط الشرقى • (١٦٨)

(د) من نظم الثغور المعاصرة :

بينما كان الأمويون يقومون بدورهم التـــاريخى فى شرق البحر المتوسط فيحمون سواحله ويحفظون تخومهم مع البيزنطيين ويوالون ارسال الحملات البرية والبحرية للقضاء نهائيا على الروم واســـقاط عاصمتهم القسطنطينية ، نراهم اضطلعوا بدور تاريخى آخر فى غربى البحر المتوسط حين شرعوا فى فتح **الأندلس** فى ربيع سنة ٧١١ م (رجب ٩٢ هـ) وتمت آخر حلقة من حلقات فتح المسلمين للأندلس سنة ٧١٥م (٩٦هـ) ، وقد اجتازت الادارة العسكرية الأموية فى المغرب فى ثغور الأندلس تجارب شبيهة بما اجتازته فى الشرق ـ فى ثغور الشام والجزيرة ، حتى أن عمر بن عبد العزيز الذى فكر فى اخلاء الثغور الشـــامية والجزرية « وهدم الحصون بين المصيصة وانطاكية وقال : أكره أن يحاصر الروم أهلها » فكر أيضا فى اقفال المسلمين من الأندلس واخلائها منهم « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين •• وخشى تغلب العدو عليهم » • وكتب اليه السمح بن مالك « يعرفه بقوة الاسلام وكثرة مدائنهم وشرف معاقلهم » (١٦٩)

---

(١٦٧) البلاذرى : فتوح البلادان ص ١٥٥ ، ١٧٠ •

(١٦٨) Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins. pp. 239 - 240.

(١٦٩) دكتور مؤنس : فجر الاندلس ص ١٣٦ ـ ٧

تماما كما قال له أهل المشرق أن الثغور « انما عمرت ليدفع من بها من الروم عن انطاكية ، وأنه ان أخربها لم يكن للعدو ناهية دون انطاكية — فأمسك » ، ولما فتح المسلمون جنوبى غالة « وقفت ممتلكاتهم ، وظلت معتبرة ثغرا للأندلس فيما وراء البرتات يقيمون فيها ويحافظون عليهـــا ليحموا ما وراءها ولينهضوا فيها للغزو اذا ما أمكنتهم الفرصة . وقد كان يحدث أن يملك المسلمون أرضا واسعة دون نصر حاسم — كما ملكوا جزءا من آسيا الصغرى فلم تنشأ ولاية اسلامية فيها على الرغم من أن ماكانوا يملكون من أرضها أيام الأمويين يزيد مرات كثيرة عن مساحة البصرة مثلا .. وقد نشأ ثغر سبتمانية أيام السمح بن مالك فهو الذى افتتح أربونة وأجده ومجلونة ووصل الى ليون ، ولو لم ينهزم عند طولوشة لما اقتصر ثغر غاله على سبتمانية وبعض الأراضى الساحلية الواقعة شرقى الردانة ، ولجعل المسلمون عاصمة ثغرهم فى ابتيون أو طولوشه أو غيرهما من كبار المراكز التى تسيطر على جنوبى غالة كلها .. وكان المسلمون ينظرون الى هذه الولايات الثغرية نظرة تخالف نظرتهم الى الولايات المدنية فكانوا أميل الى التساهل مع السكان فى النواحى الثغرية طمعا فى كسبهم الى جانب المسلمين ، وكانوا كذلك أكثر كرما على الجنود المقيمين فى الثغر منهم على المقيمين فى الولايات المدنية ، فقد وزع عمر بن الخطاب أراضى أقصى شرقى فارس على فاتحيها من المسلمين وسماها الثغور الهندية استئلافا لقلوبهم ولتقوية نفوسهم على سداد ثغرها ، **واعتبر عمر بن عبد العزيز الأندلس ولاية ثغرية فأقر الا قطاعات فيها وتسامح المسلمون مع أهل النواحى من النصارى فيه » . ويذكرنا هذا بمعاملة المسلمين فى المشرق للجراجمـــة وبخاصة فى أول الامر ، وفى اقطاع المرابطة القطائع فى مدن ساحل الشام وانطـــاكية** . وقد أطلق على نواحى اشتريس وكنتيريا وجلتية (خلف الدروب) وهى الطرق التى كان المسلمون يسلكونها فى طريقهم من سهول الجنوب والوسط الى النواحى الساحلية العامرة فى أقصى شمال الأندلس ومعظمها طرق رومانية قديمة بين الهضاب والجبال . وكان معظم أمراء الثغر من البربر كما كانت معظم النواحى الشمالية منازل للبربر « **وقد عرف الأندلس الاسلامى نظام الأجناد أو الكور المجندة ، أخذه العرب عن البيزنطيين والمراد بها ولايات عسكرية ينزلها جند والجند خمس فرق من المحاربين وهى تقابل** Thema **فى التنظيم البيزنطى ويسميها العرب البند وهى تقابل الثغور ويحكمها قائد عسكرى . وكان الجند أول الأمر تنزله قبيلة واحدة أو عدة قبائل متحالفة ويكون لها خراج الناحية فى مقابل تقديمها لجند كامل اى خمس فرق من المحاربين** . ولم يعرف نظام

الأجناد الا في الشام وكان من أوكد أسباب قوة الدولة الأموية اذ ضمن لها المحاربين ، ومن الشام انتقل نظام الأجناد الى الأندلس على أيام أبي الخطار ابن الحسام سنة ١٢٥ هـ : ٧٤٣م مع اختلاف واحد هو أن **الجند في الشام كان يضم كورا كثيرة أما في الاندلس فكان يقابل كورة واحدة ، ومن هنا يغلب على الظن أن أجناد الأندلس كان عليها أن تقدم اعدادا من الجند أقل من خمس فرق** • وقد ظلت هذه الأجناد عصبا من أعصاب القوة العسكرية الأندلسية الى منتصف حكم عبد الرحمن الناصر على الاقل » (١٧٠) •

وكان للحروب الاموية أثرها على **تنظيم البنود** (Thema) **في الدولة البيزنطية** فقد عمل البيزنطيون على مواجهة السياسة الأموية فاعتنوا عناية خاصة باعادة تنظيم أقاليم الدولة الشرقية في الأناضول وكبادوكيا وأرمينية والحدود البيزنطية المواجهة لثغور الخلافة الاسلامية ، وبين حدود الدولتين وجدت منطقة مباحة تتناوشها أيدي الفريقين • (١٧١) ويربط معظم المؤرخين ابتداء من Finaly تنظيم (الثيما) بعد ليو الثالث (٧١٧ : ٧٤٠ م) الذي قام بصد الهجوم الاسلامي على القسطنطينية أيام سليمان • ويعاصر عمر بن عبد العزيز ويزيد الثاني وهشام — ولا يرجعون بها الى بدايتها الحقيقية في القرن السابع فقد كتب فنلي يقول عن ليو « لقد أقام ليو الثالث تنظيما جديد هو نظام الثيما — استمر طوال بقاء الحكم البيزنطي » • كما أن Gelger حريص جدا في هذه المسألة فهو يقول « ان ليو أبعد الموظفين المدنيين تماما ، ونقل السلطة المدنية في الأقاليم الى ممثلي السلطة العسكرية » • ويقول Ouspenski « لم يحدث حتى عهد ليو الايسوري احداث تغيير جذري بمعنى تقوية سلطات قائد الثيما (الاستراتيجوس) على حساب الادارة المدنية في الأقاليم » • وتبقى الحقيقة القائمة وراء هذا كله ، وهو أننا لا نملك ايضاحا وتحديدا لعمل ليو في مجال التنظيم الاقليمي • والمؤرخون يتوصلون الى نتائج معينة بمقارنة قائمة ابن خرداذبة عن بنود الروم في القرن ٩م بما لدينا من معلومات عن البنود البيزنطية (الثيما) في القرن ٧م • وهذه النتائج تتعلق بالتعديلات التي طرأت على هذا النظام في عهد الأسرة الايسورية • ففي آسيا الصغرى انشيء في القرن ٨م بندان جديدان — ويحتمل أن يكون ذلك في عهد ليو الثالث — أضيفا الى البنود الثلاثة في القرن ٧م • وكانت قد نشأت بآسيا الصغرى في القرن السابع الميلادي أبان اشتداد الحملات

---

(١٧٠) دكتور مؤنس : فجر الأندلس ص ٢٩٣ — ٤ ، ٢٩٨ ، ٣٤٥ ، ٣٨٤ ، ٥٥٥ — ٦

(١٧١) Gaudefroy-Demombynes, Platonov: Le Monde Mus. et Byz. pp. 319 - 20.

الاسلامية على القسطنطينية ثلاثة بنود كبرى لعبت دورا هاما فى سير العمليات الحربية : سمى اثنان منهما باسم الفيلقين اللذين أقاما بها على حين أخذ الثالث اسما جغرافيا ، فسمى الأول باسم بنـد الأناضـول (الأناتولى) وهذه الكلمة ومعناها الشرقى كانت تطلق على القائد العام للولايات الشرقيـة من الامبراطورية فى سـوريا وآسيا الصـغرى Magister Militum per Orientum • وعندما فتح المسلمون الشـام انسحبت الفرق البيزنطية الى شمالى جبال طوروس ، وأدى نظام البنود (الثيما) الى نهاية سلطة القائد الشرقي العام ولكن اسمه لصق بالاقليم الجديد الذى استقرت به بقية جنده وأصبح القائد يتولى فى الاقليم الشئون المدنية والحربية • وأخذ البند الثانى اسمه من الفرق التى كونت حرس هرقل اذ عسكرت بعد عودتها الى آسيا الصغرى حول بحر مرمرة فعرفت باسم **بند الأبسيق** (الأوبسيكيون أى اقليم الحرس الامبراطـورى) ، واختصت المنطقة بالحرس الامبراطورى لمواجهتها القسطنطينية العاصمة • وأقيمت فى البند بعض العناصر السلافية سنة ٦٨٧ ـ ٨ لتدعيم الفرق الامبراطورية ، وقد وضعت على سواحله فرق بحرية لصد سفن المهاجمين Peratic Themes على حين استقرت فى داخله ـ وكان يمتد مسافة كبيرة فى قلب آسيا الصغرى ـ فرق من الخيالة Cavallarii • وكان البند الثالث الهام فى آسيا الصغرى هو **أرمينية** وقد اشتمل على الأراضى المواجهة للمنطقة الخاضعة للمسلمين من أرمينية ، واهتم المسلمون بهذا البنـد لمواجهته بعض المنافذ التى سلكتها الصوائف والشواتى الاسلامية التى كانت تغير على آسيا الصغرى وتحاول الاتصال بغيرها من القوات الاسلامية الزاحفة من الشام نحو القسطنطينية • (١٧٢) وأما البنـدان الجديدان اللذين أضيفا فى القرن الثامن الميلادى : فأولهما ، **هو البند التراقى** ، فقد اقتطعت الأجزاء الغربية من البند الأناضولى الواسع وجعلت بندا مفردا سمى بالتراقى نسبة الى الحاميات الأوربية القادمة من تراقية التى تشغله • والبند الثانى **هو البكلارى** الذى نشأ فى جزء من بند الأبسيق (الأوبسيكيون) الواسع واكتسب اسمه من الفرق الرومانية القديمة • **وهكذا شهدت بداية القرن ٩م خمس بنود فى آسيا الصـغرى تسميها مصادر تلك الفترة باسم البنود الخمسة الشرقية** Les 5 themes orientaux **وفى أوربا كانت هناك اربع بنود فى نهاية القرن ٨م : تراقية ومقدونية وهيلاد وصقلية** • ولا يعلم ماذا كانت السلطات المدنية قد ألغيت تماما

---

(١٧٢) دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٦١ : ٣ •

ونقلت الى الحكام العسكريين ، كما لا يمكن التدليل على الدور الحاسم الذى قام به ليو الثالث فى نظام الثيما ولا يعدو الأمر أن يكون فرضا مجردا • وقد ارتبط امتداد وتعميم نظام البنود (الثيما) فى العهد الايسورى ارتباطا وثيقا بالأخطار الخارجية والداخلية التى هددت الامبراطورية ، فان تكوين البنود الجديدة بتجزئة وتقطيع الأقاليم المتسعة للبنود الأصلية قد أملته اعتبارات سياسية تتوقى مغبة ترك اقليم كبير فى يد حاكم عسكرى قوى قد يستطيع الثورة وانتزاع اللقب الامبراطورى ، ولكن بجانب هذه الاعتبارات كانت دواعى الخطر الخارجى تبرر تدعيم السلطة العسكرية فى المناطق المهددة بأعداء الامبراطورية من العرب والسلاف والبلغار • ولأجل الجمع بين الاعتبارات الداخلية والخارجية رؤى تقليل مساحة الأقاليم الموضوعة تحت سلطان لقادة العسكريين (الاستراتيجوس) • (١٧٣) وأقيم بندان بحريان على رأس كل منهما أمير للبحر (أميرال) drungarius أحدهما فى كبيرايوت Cibyrrhaeot ويشمل الساحل الجنوبى من آسيا الصغرى ، والآخر فى بحرايجة ويشمل الجزر كما يشمل أجزاء الساحل الغربى لآسيا الصغرى • وقد أخذت البنود البحرية البيزنطية صورتها الكاملة فى مطالع القرن الثامن الميلادى بعد آخر حملة أموية كبرى على العاصمة البيزنطية ، وظهرت بوادر نشاط بند كبيرايوت أثناء سير السفن الاسلامية قرب ساحل آسيا الصغرى لمعاونة الحملات الاسلامية فى حصار القسطنطينية وازاء حملات المسلمين اتسع نشاط هذا البند ففصلت الدولة البيزنطية البند الايجى عنه • وخضع أسطولا البندين لسلطة أمير البحر العام المهيمن على الأسطول الراسى بمياه القسطنطينية (١٧٤) • وينسب أومان عدم توسع المسلمين فى آسيا الصغرى الى مهارة الروم الحربية وفنهم التكتيكى فى استخدام ممرات طوروس الضيقة لصد المسلمين المهاجمين ، فضلا عن أن المسلمين لم يألفوا الجو هناك كما أشار الامبراطور ليو ، ولذا كانوا يتفرقون اذا حل الشتاء ويعودون الى بلادهم • على أن لنظام البنود البيزنطى أثره بلا شك فى احكام الدفاع عن دولة الروم (١٧٥) •

---

(١٧٣) Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I p. 361

(١٧٤) Runciman : Byz. Civ. p. 120 دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٦٣ – ٤ ، دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط – المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ •

(١٧٥) عون : الفن الحربى فى صدر الاسلام ص ٢٠٣ ، ٢٠٥
Oman : A Hist. of the Art. of War. p. 210.

وبينما كانت الدولة البيزنطية تقتطع بنود جديدة رأينا الدولة الاموية هى الأخرى قد أفردت جند قنسرين عن حمص ، كما أفرد جند الجزيرة ، ونالت الثغور والعواصم مكانا متميزا فى الدولة ، وسوف تنفرد بدورها كاقليم ادارى مستقل فى العصر العباسى .

فى أيام العباسيين

(أ) البحر المتوسط :

« يعتبر ارتداد المسلمين عن القسطنطينية سنة ٧٦٨م خط تقسيم واضح فى قصة العلاقات الاسلامية البيزنطية ، ونقطـــة تحول فى نظم الدولتين الداخلية اذا اتجهت جهودهما الى معالجة المشـــاكل الداخلية » فانشغل الأمويون بمنازعاتهم الداخلية وحركات التمرد المتتابعة التى كانت أخراها وكبراها الحركة العباسية التى استطاعت أن تزيح الأمويين وتتولى السلطة ، **فزالت عظمة اقليم الشام الذى كان يحتل مركزا استراتيجيـــا هاما فى الدولة الاسلامية وكان له أثره فى توجيه النشاط الحربى الاسلامى وأسس العباسيون عاصمتهم الجديدة فى بغداد فكان بعد الشقة بين بغداد والقسطنطينية مدعاة لرسم سياسية حربية جديدة اختلفت عن سياســة دمشق ودخلت دور التنفيذ زمن الخليفة الرشيد** . ولم تكن ظروف الدولة البيزنطية أحسن حالا ، فقد عجزت عن استغلال الاضطرابات الداخليـــة فى الدولة الاسلامية التى صاحبت فترة الانتقال بين حكم بنى أمية وحكم بنى العباس ، وكان الشغل الشاغل للامبراطور ليو الثالث الايسورى منقذ القسطنطينية شن الحملة على الأيقونات من صور مقدسة وتماثيل تصــور العذراء والقديسين Iconclast ، واستمرت هذه الحركة حتى توفى ليو الرابع ابن قسطنطين الخامس وخلفه ابنه القاصر قسطنطين السادس وأمه الوصية الامبراطورة ايرين ، **وهكذا اقبلت الدولة البيزنطية فى تلك الفترة ٧٧٦ : ٧٩٧م تشترى السلم بالمال وتكتفى بتحصين الحدود لاتقاء غارات الرشيد الذى تولى الحـــكم فى الدولة الاسلامية (٧٨٦ م ـ ١٧٠ هـ)** . وانصرف مجهود الدولتين ازاء هذه الظروف الى غارات الحدود المحـــدودة الأثر ، ولم يكن منتظرا أن تقوم الدولة العباسية بمشروعات حربية واسعة كمشروعات الأمويين فى غزو القسطنطينية بعد انتقال عاصمتها الى بغداد البعيدة عن القسطنطينية . ويقول Gaudefroy-Demombynes « لقد كان الشام الأموى مسندا ظهره الى البحر المتوسط مواجها الخصم الوحيد الخطير

الذى قام فى وجهه : الامبراطورية البيزنطية • وكان يبدو أن مصائر هذا الشام فى ذلك العصر الأموى متوسطية ، واستعانت الدولة على ذلك بموارد وادى النيل •• وظهر التغير فى الاتجاه المادى والمعنوى للخلافة بصورة واضحة منذ صارت الى بنى العباس وتجلى ذلك بنقل العاصمة من دمشق الى العراق ، فقد غدا وجه الخلافة العباسية الى المشرق • واذا صح مايقال من أن البرامكة فكروا فى فتح القسطنطينية وسيادة الحوض الشرقى للبحر المتوسط فان هذا كان اتجاها سياسيا لم يقدر له من العمر أكثر مما قدر للبرامكة أنفسهم • وابتداء من القرن ٩م أصبح موقف الخلافة سلبيا دفاعيا فيما يختص بالامبراطورية البيزنطية ، وغدت الخلافة العباسية آسيوية خالصة ، وسيتجه نشاطها التجارى نحو الخليج الفارسى والهند وسيكون اتساع أراضيها فى نواحى آسيا الوسطى • وحتى فى هذا الاتجاه لم توفق الامبراطورية الاسلامية الى الاحتفاظ بتوازنها أو تجانسها » • وهكذا لم يكن انتقال الخلافة من الأمويين الى العباسيين مجرد تغيير فى بيت الحكم وعاصمة الدولة بل كان انتقاله للدولة الاسلامية كلها من عالم البحر المتوسط الى عالم آسيوى يختلف عنه من كل ناحية «كان وجه الدولة الى الغرب وكانت همومها بحرية غربية وكان بناؤها يعلو ويتكامل فى محيط هيلينى رومانى ، وأهلها يقتطعون كل يوم قطعة من أهل الاغريق والرومان القدامى ويضيفونها الى أرضهم بما فيها ومن فيها ، وكان الهدف الأخير للدولة هو الحلول محل القسطنطينية وروما فى آن واحد ـ أى محل الامبراطورية والمسيحية ـ والسيادة على البحر المتوسط كله • وتغير هذا كله بعد انتقال الدولة الى العراق : فأصبح الخليفة كسرويا وظهر نظام الوزارة بمعناه الفارسى القديم وأصبح هدف الدولة الأخير المال والجباية ، وأهملت الدولة أملاكها الغربية ، فانفصل عنها الأندلس والمغرب الأقصى ، وتنازلت عن الغرب الأوسط وافريقية (تونس) لبنى الأغلب لقاء قدر من المال ، وعهدت فى أمور مصر والشام الى ولاة هم أقرب ما يكونون الى مرازبة الفرس القدماء بمهتمهم الوحيدة الالتزام بأداء المال • وأهملت شواطىء الشام واقترب البيزنطيون من حدوده شيئا فشيئا وانتهى الأمر باستيلائهم على انطاكية وطرابلس وعاد اليهم جانب كبير من تجارة حوض البحر المتوسط الشرقى شيئا فشيئا وهكذا ، تصفية حقيقية للجناح الغربى من الدول الاسلامية • وكان الأغالبة هم الذين فتحوا صقلية ، والأندلسيون هم الذين فتحوا كريت وقد عدلوا باستيلائهم على كريت كفة التوازن بين الاسلام والنصرانية فى شرقى البحر المتوسط بعض الشىء فى حين نفضت الخلافة الاسلامية الشرقية يدها من شئونه وأخذت

آسيا تبتلعها رويدا رويدا ، ونظرت الى الشواطىء على أنها حدود ونهايات يجب حمايتها لا أبوب وثغور يمكن الاعتماد عليها فى سيادة مياه البحر والقفز منها الى ما وراءه من بلدان • لقد كان العصر الأموى عصر تعريف الدولة الاسلامية بعالم البحر المتوسط وتمليكها اياه وتحصين شوطئه لصالحها ووضع نواة الأسطول الاسلامى ، ولكن لم تنتقل الشعوب الاسلامية الى الطور التالى بالسيطرة الفعلية على مياه ذلك البحر والاستفادة منه كطريق للمواصلات والتجارة كما فعلت الدولة الرومانية وكان السبب هو التغيير المفاجىء بانتقال الأمر الى العباسيين الذين اتجهوا نحو آسيا فحال هذا بين المسلمين وبين الاسفانة من سيطرتهم على شواطىء هذا البحر الغربية والجنوبية والشرقية وعلى معظم جزائره بصورة كاملة • ولم يفد العباسيون من الملكات البحرية لشعوب الخليج الفارسى كما أفاد الأمويون من أهل الشام ومصر ، وظلت البصرة ميناء خطرا واحتفظت سفن المسلمين فى البحر المتوسط كما احتفظ أهل الشام بالتفوق على سفن المحيط الهندى ورجالها وانتقل واجب الدفاع فى البحر المتوسط الى الدول المغربية والاندلسية من الأغالبة والفاطميين وبنلى زيرى والأندلسيين • وهؤلاء حولوا البحر المتوسط الاوسط والغربى الى بحيرتين اسلاميتين واحتلوا وعدلوا جبهة الاسلام فى الحوض الشرقى كما احتيوا جنوبى ايطاليا واشتبكوا مع الجنوبيين والابيزيين حتى القرن ١١ م » (١٧٦) •

على أن الأيام الأولى من خلافة العباسيين شهدت مطلع نشاط بحرى قوامه شن غارات ضيقة النطاق لم تلبث أن تطورت الى حركات بحرية منظمة اختلفت آثارها عن نتائج الاغارات البرية على أرض الدولة البيزنطية • فمن ذلك أن القائد المسلم ثمامة ابن أبى وقاص ـ Banaces قام بحملة برية بحرية سنة ٧٧٣ م ـ ١٥٧ هـ على شواطىء اقليم ايسورة بآسيا الصغرى للاغارة على بعض المدن الساحلية فأرسل الامبراطور قسطنطين الخامس (سنة ٧٤٠ : ٧٧٥ م) الى الجيش والأسطول المقيمين فى آسيا الصغرى بالتوجه لايسورة ، وقد قطعت السفن البيزنطية عند مدينة Syce الاتصال بين ثمامة وسفن الشام وحاصر الجيش قوآته البرية ولكنه استطاع الافلات من الحصار • وهكذا بدأ نشاط الأساطيل الاسلامية والبيزنطية فى معاونة التحركات لابرية • وكان لنظام البنود

---

(١٧٦) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط المجلة التاريخية م ٤ ع ١ اكتوبر ١٩٥١ ، د• العدوى الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٦٣ : ٧٠
Byzantium p. XXIV, Gaudefroy Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. pp. 271 - 2.

البيزنطى أثره فى مواجهة أخطار الهجمات المفاجئة ، وقامت البنود البحرية بدورها فى حماية المياه والشواطىء البيزنطية • وظهرت الاغارات البحرية فى عهد الرشيد فى الوقت الذى اشتدت فيه الاغارات البرية ، وكانت خطط الفريقين تعتمد على مراقبة السواحل والانقضاض فجأة • وقد أسر الاسطول البيزنطى سنة ٧٩٠ م بضع سفن اسلامية فى طريقها من مصر الى الشام ، وأغار اسطول اسلامى على قبرص فى نفس السنة مما يدعو الى الظن بأن الاسطول البيزنطى كان يراقب مشروع حملة اسلامية بحرية الى قبرص ، وتمكن الأسطول الاسلامى من انزال قواته فى الجزيرة ولما هوجم المسلمون هزموا البيزنطيين وأسروا أميرهم البحرى • وفى سنة ٨٠٦ م ــ سنة ١٩٠ هـ « نقض أهل قبرص العهد فغزاهم معيوف بن يحيى فسبى من أهلها ١٦ ألفا وهدم وحرق **وكان حميد يتولى سواحل بحر الشام الى مصر فى حين تولى عبد الملك بن صالح العباسى الثغور** » • وفى السنة التالية (سنة ٨٠٧ م ــ ١٩١ هـ) قامت غارة اسلامية على جزيرة رودس وعادت محملة بالغنائم والأسرى • « وغزا اقريطش حميد بن معيوف الهمدانى فى خلافة الرشيد ففتح بعضها ، ثم غزاها فى خلافة المأمون أبو حفص عمر بن موسى الأندلسى المعروف بالاقريطشى ولم يزل يفتح شيئا بعد شىء حتى لم يبق فيها من الروم أحد (١٧٧) » • وهكذا يحق لفازيلييف أن يقول عن هذه الفترة من تاريخ العباسيين « **اذا كانت الاصطدامات العربية البيزنطية فى الشرق ــ فيما عد القليل ــ لم تثمر نتائج خطيرة لأحد الجانبين فان عمليات الأسطول الاسلامى فى البحر المتوسط التى أدت الى احتلال كريت ومعظم صقلية وعدد من المراكز الهامة فى ايطاليا الجنوبية كان لها أهمية أكبر** (١٧٨) » • لكن الواضح أن مسلمى المغرب هم الذين نهضوا بأعباء هذا الجهاد ، فى حين توقفت غارات المسلمين المشارقة بحرية وبرية منذ انشغال الرشيد فى أواخر أيامه بالفتن الداخلية وطوال فترة الخلاف بين الأمين والمأمون •

وقد وصف المقدسى ما كان يجرى فى الرباطات الساحلية على البحر فى أيامه « فيقع بها النفير وتقلع اليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم أسارى المسلمين للبيع ــ كل ثلاثة بمائة دينار ، وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون اليهم فى الرسالات ويحمل اليهم أصناف

(١٧٧) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٨٦ ــ ٧ ، الطبرى ج ١٠ ص ٩٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦١ ؛ ٣ ، ٢٤٤ ــ ٥ •

(١٧٨) Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I, p. 361

الاطعمة • وقد ضج بالنفير لما ترايت مراكبهم ، فان كان ليل أوفـدت منارة ذلك الرباط وان كان نهار دخنوا • ومن كل رباط الى القصبة عدة منابر شاهقة قد رتب فيها أقوام ، فتوقد المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة الا وقد أنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ونودى الى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتق • ثم يكون الفداء : فرجل يشترى رجلا وآخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشترى ما معهم • ورباطات هذه الكورة التى يقع بهن الفداء غزة ، ميماس، عسقلان ، ماحوز (ميناء) ، ازدود ، ماحوزيبنى، يافا ، أرسوف (١٧٩) » •

وقد أمر المتوكل سنة ٢٤٧ هـ بترتيب المراكب بعكا وجميـع السواحل وشحنها بالمقاتلة ، وكان ذلك فى أعقاب اغارة الروم على دمياط فى ٣٠٠ مركب سنة ٢٣٨ هـ سنة ٨٥٣م • وكان هجوم الروم غير المتوقع على دمياط حافزا دفع العرب الى التفكير الجدى فى انشاء أسطول مصرى • ويروى المقريزى أنه منذ ذلك الوقت ابتدأت مصر اهتمامها الجدى بالأسطول حتى أصبح أمر البحر من أكبر الأمور أهمية • وصار هذا الاسطول عظيم الأهمية فى النصـــف الثانى من القرن ١٠ أيام الفـــاطميين بوجه خاص (١٨٠) •

(ب) القوى البشرية :

واصل العباسيون شـحن المعـاقل العســكرية فى المواقع الهامة بالمقاتلين الأشداء غير العـــرب • وقد نقل المنصور أهل الخصوص وهم **عرس وصقالبة وانباط ونصارى** وأعطاهم خططا فى مدينـــة المصيصة عوضا عن منازلهم على ذرعها ونقض منازلهم وأعانهم على البناء ، وأقطع الفرض قطائع ومساكن • وندب أبو سليم فرج الخادم سنة ١٩٤ هـ الى اذنة رجالا من **أهل خراسان** وغيرهم على زيادة فى العطاء وذلك بأمر محمد ابن الرشيد كما ندب أهل خراسان لتعمير طرسوس وعين زربة • ونقل المعتصم الى عين زربة ونواحيها قوما من **الزط** الذين كانوا قد غلبوا على البطائح بين واسط والبصرة ، وذكر أن ذلك كان على أثر تمرد هؤلاء الزط فى أسفل العراق • ولما أغارت الروم على عين زربة سنة ٢٤١ هـ

(١٧٩) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧٧ ،
Le Strange : Palestine under the Moslems. pp. 23 - 4.

(١٨٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٤ ، الطبرى جـ ١١ ص ٤٨ ، فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٩١ ـ ٢

« أسرت من كان بها من الزط مع نسائهم وذراريهم وجواميسهم وبقرهم» .
وقد حدث تمرد **بجبل لبنان** ، فوجه صالح بن على العباسى الى المتمردين من قتل مقاتلتهم وأقر من بقى منهم على دينهم وردهم الى قراهم وأجلى قوما من أهل لبنان . وقد كتب الأوزاعى الى صالح رسالة طويلة يستنكر أخذ البرىء بجريرة المسىء . وأمر المتوكل بأخذ الجزية من الجراجمة ، وان يجرى عليهم الأرزاق اذا كانوا ممن يستعان بهم فى المسالح (١٨١) .
وأسكن المنصور بعض العشائر فى البلاد الخالية المجاورة لبلاد المردة فى لبنان ، فنزل فند بن مالك وأرسلان بجماعة من عشيرتهما من بلاد المعرة سنة ١٤١ هـ فنزل وادى اللثيم فى حصن أبى الجيش ثم تفرقوا فى جبل لبنان وعمروا الخالى من أرضه . وفى أوائل حكم العباسيين أخرج صالح بن على قوما من **الأرض واللان** ممن كانت الروم تسيرهم من أرمينية مع كوشان جاثليقهم وأسكنهم سورية ومن هذا اليوم امتنع ملوك الروم أن يسكنوا فى سلطانهم أحدا من الأرمن ولا سيما فى المواضع القريبة من الثغور أى ثغور الشام أو بلاد قيليقية . وفى سنة ١٨٩ هـ أرسل هارون الرشيد منشورا الى ثابت بن الخزاعى أمير الثغور الشامية وغيره من عمال الشام أن يطلقوا التنبيه فى البلاد بالرحيل الى لبنان لتشتد قوة أمرائه (١٨٢) .
ويوضح هذا ماعاناه المسلمون من تمرد أهل لبنان بوجه خاص .

(ج) الثغور والعواصم :

شهدت الثغور صراع المسلمين والروم طوال قرون « ولعله لا يوجد على وجه الأرض مكان نشبت على أديمه معارك مروعة ــ حتى على حدود الرين وسهول لومباردى ــ مثلما نشبت على الأرض الواقعة بين الشام والأناضول » ! وقد توغل العرب فى عهد الأمويين داخل كيليكيا وكبادوكيا ، ولكن البيزنطيين استطاعوا استرداد مدن كان قد احتلها المسلمون عندما أخذ الأمويون فى الضعف منذ عهد يزيد الثانى . وجاءت لدولة العباسية فتتابعت الغزوات السنوية ، واهتم العباسيون بتشييد الحصون والرباطات ليس فقط فى كيليكيا أو عند حدود الشام ، بل أيضا فى بلاد ما وراء النهر وجورجيا وأرمينية . وكان اقليم العواصم على حدود الدولة البيزنطية يضم المنطقة الممتدة الى الجنوب الغربى من نواحى أنطاكية

---

(١٨١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٦ : ٩ ، ص ١٧٣ ، ١٧٥ : ٩ ، الطبرى جـ١١ ص ٥١ ، فازيلييف : العرب والروم ترجمة شعيرة ص ١١٤ ، ١٩٦ ــ ٧

(١٨٢) كرد على : خطط الشام جـ ١ ص ٦٨

حتى مصب نهر الأرنط ، ويصل حتى حلب ومنبج فى الجنوب الشرقى ، ويستوعب كل مايلى هذا شمالا حتى الحدود البيزنطية ٠

وقد كان هناك تمييز بين المنطقة الداخلية فى الجنوب التى سميت بالعواصم ، والمنطقة الخارجية التي سميت بالثغور ٠ ويذكر الاصطخرى أن هذا النطاق العسكرى كان يبدأ فى القرن ١٠ م من أولاس على البحر المتوسط ويضم طرسوس وأذنة والمصيصة وزبطرة ومرعش وملطية وحصن منصور حتى يصل الى سميساط على الفرات ويمتد على طول الرافد الغربى لهذا النهر فى اتجاهه جنوبا حتى بالس ٠ ويتضح من هذا أن الحدود كانت تطابق جملتها سلسلة جبال طوروس وطوروس الداخلية (انتى طوروس) ٠ كذلك تتميز غالبا فى الثغور منطقة شامية وأخرى جزرية : فالأولى تضم الجزء الغربى من النطاق المحصن بما فى ذلك الممرات التى تربط سوريا وكيليكيا ، والثانية تضم الجهات التى تتتابع الى الشرق ٠ وثمة وجهة نظر ترى أن الثغور كلها تنتمى الى جهات شامية بوجه عام ، واذا ما كان بعضها يسمى ثغورا جزرية فان هذا كان يرجع فقط لنظر المؤرخين العرب الى أن حامياتها كانت تتألف من متطوعين يجندون فى الجزيرة ٠ والاصطخرى وابن حوقل من الجغرافيين المسلمين يعتبران ثغور الشام والجزيرة كلها من الشام « وذلك أن كل ما كان وراء الفرات فمن الشام وانما سمى من ملطية الى مرعش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها كانوا يربطون ويغزون منها لا لأنها من الجزيرة » ٠

واذا ما تأملنا هذا الخط الدفاعى على طول جبال طوروس من الفرات الى حدود كيليكيا نجد أن ملطية الواقعة عند التقاء الطرق الكبرى الهامة الآتية من سبسطية (أوسيواس) وقيصرية الى ارمينية ، وعلى الطريق من ملطية الى مرعش (جرمانيكيا) عبر طوروس تقع زبطرة والحدث اللتان تعرضتا لكثير من هجمات الروم ٠ وقد حصن الرشيد مرعش وعين زربة وبين هذين المركزين الرئيسيين تقع الكنيسة والهارونية فى المناطق الجبلية لنهر جيحان (بيرامس) الأعلى ٠ وكانت المراكز الرئيسية فى القسم الشامى هى المصيصة وأذنة وطرسوس ، وقد حصن الرشيد طرسوس بسور مزدوج يحيط به خندق وشحنها بالمقاتلة ٠

وهكذا تتابعت التحصينات والاستحكامات فى معاقل الثغور لتحل محل المعسكرات البسيطة السابقة ، وقد انتشر المعسكر أو الفسطاط أيام الامويين واستمر فى أوائل عهد العباسيين ٠

وكانت منبج ينظر اليهــا أولا باعتبارها المكان الرئيسى فى اقليم العواصم ، ثم حلت مكانها انطاكية • ونجد الاشــارات أحيانا الى الثغور باعتبارها ولاية مستقلة ، وأحيانا أخرى باعتبارها جزءا من جند العواصم• ولعلاج تناقص السكان فى تلك المنــاطق نتيجة للحروب الطويلة ، ومن أجل تثبيت العنصر الاسلامى فى هذه الجهات نقل الخلفاء الى الثغور سكان المناطق البعيدة فى الامبراطورية •وأدى هذا تدريجيا الى حلول **خليط متعدد الالوان من العناصر الوافدة من المستعربة المسيحيين والصقالبة ، والفرس ، والمردة ، والسباتجة** ــ من أصــل تركى وقد وضعوا فى انطاكية وعند ممرات كيليكيا ،والزط ــمن أصل هندى •وكان ارتفاع خراج الثغور تافها اذا قورن بنفقات الدفاع عنها وكانت تنفق فى المشاريع العامة وأجــور الجواسيس والبريد ومســالح الدروب فى الجبــال ومخاضات الانهر والحصون ، وكان لهذه المدن قوات مرابطة كثيرة مخصصة لها ويتناول هؤلاء الارزاق والعطاء ويقومون على شئون المعسكرات علاوة على القتــال ، كما كانت تقطع لهم ولعائلاتهم أرض لزراعتها فى الغالب• وكانت هناك بجانب هذه النفقــات الثابتة كلها نفقــات طارئة للحملات الطارئة تتناسب مع أهميتها •

وقد أدت المتاعب الداخلية للدولة الاسلامية التى انتهت بنقــل العاصمة الى بغداد ــ أدت الى أن يدفع قسطنطين الخامس (٧٤١ : ٧٧٥م) بالحــدود الشرقية للامبراطورية البيزنطيــة الى ماوراء آســيا الصغرى وأرمينية ، وتراجع خط الحدود الاسلامى للثغور الذى كان ممتدا من الشام الى أرمينية نتيجة لتقدم الخط البيزنطى • لكن المهدى والرشيد والمأمون والمعتصم شنوا غارات متوالية على الحدود البيزنطية فوصل الرشيد الى هرقلة Heraclea والطوانة Tyana سنة ٨٠٦م وتقاضى الجزية من الامبراطور « وكانت هذه الحادثة وهذا التــاريخ فى حكم الرشيد أقصى ما وصل اليه النفوذ العباسى » •

وتمكن المعتصــم ســـنة ٨٣٨م من احتــلال عمورية Amorion ولقد كان المنتظر أن تواصل الجنود العربية سيرها الى القسطنطينية ولكنها رجعت عندما بلغها خبر قيام مؤامرة تهدد الخلافة فى حــين كان تيوفيل (٨٢٩ : ٨٤٢م) الامبراطور البيزنطى يخشى سقوط العاصمة حتى استنجد بالبندقية وملك الفرنجة والدولة الأموية بالأندلس • وبعد المعتصم لم يقم

العرب من جانبهم بهجوم خطير وان كان العلاقات العدائية رغم قلة أهميتها لم تنقطع طوال القرن التاسع على الحدود الشرقية (١٨٣) ٠

ولم تتم خطوة افراد الثغور والعواصم وجعلها ولاية ادارية مستقلة في أول قيام الدولة العباسية ، بل كانت تضاف الى غيرها من الولايات ٠ فقد ولى أبو جعفر المنصور أخاه العباس بن محمد الجزيرة والثغور سنة ١٤٢ه وضم اليه عدة من القواد فلم يزل بها حينا ٠

وأدى انصراف الدولة العباسية الى وجهتها الآسيوية وابتعاد عاصمتها الجديدة عن عاصمة الامبراطورية البيزنطية ـ وان كان قد روعى في اختيار موقعها حسن اتصالها بالجزيرة وأرمينية والرقة وماحول ذلك ـ ادى ذلك الى اعتبار خط الحدود خطا دفاعيا بحتا دون توجيه الهجمات الاسلامية الى وجود الامبراطورية نفسه مثلما كان عليه الحال أيام الامويين ، فكان طبيعيا أن يهتم المسلمون والبيزنطيون بالعناية بمناطق الحدود بينهما ، وظل خط الحدود في أخذ ورد بين الجانبين ولم يخضع تماما لأحدهما ، وحين وصل المعتصم الى عمورية لم يتابع سيره الى القسطنطينية ٠ يقول ابن العديم : « اعلم أن دابق كانت مجمعا لعساكر الاسلام في كل صائفة من زمن معاوية بن أبي سفيان ، فكانوا يجتمعون بها فاذا تكامل العسكر وقبضوا عطاءهم دخلوا حينئذ من الثغور الى جهاد العدو ٠ و استمر ذلك في أيام بني أمية ، لاسيما في أيام سليمان بن عبد الملك فانه أقام بدابق سنين ، وسير أخاه مسلمة لغزو القسطينية وكان يمده بالعسكر الى أن مات سليمان بدابق ٠ وبعد زوال ملك أمية تتبع بنو العباس مدن الثغور وحصونها فغمروها وحصنوها وغزوا غزوات مذكورة من نواحي حلب ، لاسيما أمير المؤمنين الرشيد رحمه الله فانه اجتهد في اقامة الجهاد وانفاق الاموال الوافرة في الثغور

---

(١٨٣) Encyc. de l'Islam : artic. Thughur, Awasim, Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I. pp. 360 - 1, Bury: Hist. of the Eastern Rom. Emp pp. 244 - 5, Hitti : Hist. of Syria. pp. 442-3, 3,539-540,

الترجمة العربية : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ترجمة د٠ اليازجي ص ٤٤ : ٦ ، ١٦٢ : ٤ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ ٢ ص ٢٧٠ : ٣ ، فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ٨٩ : ٩١ ، سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ترجمة رياض رافت ص ٣٦٩ ـ ٧٠ ، حسيني : الادارة العربية ترجمة د٠ العدوى ص ٤١٦ ـ ٧ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٣ ، ٤٦ ـ ٧ ، ٥٣ ، ابن حوقل ، قدامة : نبذ من كتاب الخراج ، ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٣ : ٥

وأهلها ، وكان يقدم حلب ويرتب أمر الغزو منها ، وكذلك فعل المأمون بعده ، ومات غازيا بطرسوس ، وجاء المعتصم كذلك وفتح عمورية » .

ومن هنا أقدم هارون الرشيد الذى كان من الخلفاء المهتمين بالحملات الوقائية ضد البيزنطيين على « عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسميت العواصم سنة ١٧١ هـ .. وفى سنة ١٨٧ هـ أغزى الرشيد ابنه القاسم الصائفة فوهبه لله وجعله قربانا له ووسيلة وولاه العواصم وفى سنة ١٩٣ هـ ولى الرشيد ثابت ابن مالك بن نصر الثغور» .. واستمر الامر على هذا الحال «حتى اذا كانت سنة ١٩٤ هـ عزل محمد الامين أخاه القاسم عن جميع ماكان أبوه هارون ولاه من عمل الشام وقنسرين والعواصم والثغور وولى مكانه خزيمة ابن خازم وأمره بالمقام بمدينة السلام .. وفى ولاية المأمون ولى الخليفة ابنه العباس الجزيرة والثغور والعواصم سنة ٢١٣ هـ فى حين ولى أخاه أبى اسحق الشام ومصر » . ويدل قيام الخلفاء أنفسهم وأولادهم بغزو الروم وقيادة الحملات المتتابعة ، كما يدل تولية اقليم الثغور والعواصم لابناء الخلفاء على الاهتمام بجهاد الروم(١٨٤) .

وبعد عزل الثغور والعواصم صار جند قنسرين مقصورا على ما حول قنسرين وحلب والمعرتين وسرمين . وذكر البلاذرى أن الرشيد جعل مدينة جند **العواصم** منبج ، لكن أبا الفدا ذكر بعد ذلك ان العاصمة انطاكية . وأشار ياقوت الى الاختلاف فى اضافة حلب الى العواصم كما ذكر ان قصبة العواصم انطاكية « **والعواصم حصون موانع وولاية تحيط بها بين** حلب وانطاكية ، وقصبتها انطاكية ، كان قد بناها قوم واعتصموا بها من الأعداء وأكثرها فى الجبال فسميت كذلك . وربما دخل فى هذا ثغور المصيصة وطرسوس وتلك النواحى ، وزعم بعضهم ان حلب ليست منها وبعضهم يزعم انها منها ، ودليل من قال انها ليست منها : انهم اتفقوا على انها من أعمال قنسرين وهم يقولون قنسرين والعواصم والشىء لا يعطف على نفسه وهو دليل حسن » . وقد ذكر البلاذرى ونقل عنه ياقوت بعض

(١٨٤) الطبرى ج ٩ ص ١٧٩ رواية الواقدى ، ٢٣٨ ، ج ١٠ ص ٥٠ ، ٨٩ ، ١٠٩ ، ١٣٠ ، ٢٧٩ ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ١٠٩ ، دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٧٠ ،
Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I, p. 360—

مدن العواصم : منبج ودلوك ورعبان وقورس وانطاكية وتيزين ، أما الثغور فيقول عنها ياقوت أنها « كل موضع قريب من أرض العدو » · وقد عدد من ثغور الشام بياس والمصيصة وعين زربة وطرسوس وأولاس والكنيسة السوداء والهارونية · ومن ثغور الجزيرة مرعش ، كما ذكر انطاكية وبغراس · وهما أقرب الى العواصم ·وذكر ياقوت عن الثغور أنها «لاقصبة لها لأن أكثر بلادها متساوية وكل بلد فيها كان أهله يرون أنه أحق باسم القصبة » · أما قدامة فيعدد الثغور الشامية والجزرية : « المجتمع فيها غزو البر والبحر الثغور الشامية وهى : طرسوس وأذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس ، وارتفاعها نحو المائة ألف دينار ينفق فى مصالحها وسائر وجوه شأنها وهى المراقب والحرس والفواتير والركاضة والموكلين بالدروب والمخايض وغير ذلك مما جانسه من الأمور والأحوال ويحتاج الى شحنتها من الجند والصعاليك ، ورواتب مغازيها الصوائف والشواتى فى البر والبحر فى السنة على التقريب مائتى ألف دينار وعلى المبالغة ــ وهى أن يتسع ــ ثلثمائة ألف دينار ــ والذى يلقاها من بلاد العدو ويتصل بها : أما من جهة البر فالقبادق ويقرب منها الناطليق ، ومن جهة البحر سلوقية · **وعواصم هذه الثغور وما وراءها الينا من بلدان الاسلام ، وانما سمى كل واحد منها عاصما لانه يعصم الثغر ويمده فى اوقات النفير ثم ينفر اليه من أهل انطاكية والجومة والقورس** ثم يلى هذه الثغور عن يمينها وجهة الشمال منها الثغور المعروفة **بالجزرية:** وأول مايحاد الثغور الشامية منها مرعش ويليه ثغر الحدث وكان يلى هذه زبطرة فخربت أيام المعتصم وبنى مكانها وبالقرب منها حصونا لتقوم مقامه وهى : طبارجى ، والحسينية ، وبنو المومن ، وابن رحوان · ثم يلى هذه الحصون ثغر كيسوم ثم ثغر حصن منصور ثم ثغر شمشاط ثم ثغر ملطية ــ وهو الخارج فى بلد العدو من جميع هذه الحصون ، وكل واحد بينه وبين بلد العدو درب وعقبة ــ وثغر ملطية فى بلد العدو فى بقعة وأرض واحدة · وكان يواجه هذه الثغور ويقابلها من بلد الروم خرشنه وعمل الخالدية فحدث فى هذا الوقت بينهم وبين الروم والارمن فى بلد كان يسكنه البيالقة ــ وهم من الروم الا انهم يخالفونهم فى كثير من أديانهم ، وكان هؤلاء مع المسلمين يعينونهم فى غزواتهم ــ الى أن رحلوا دفعة واحدة عن هذا الموضع باساءة أهل الثغور معاشرتهم وقلة اشراف المدبرين على أمرهم ، فتفرقوا من البلاد وسكن مكانهم هؤلاء الارمن وابتنوا الحصون المنيعة ·· **وعواصم هذه الثغور دلوك ورعبان ومنبج** · ويلى هذه الثغور عن يمينها أيضا وفى جهة الشمال الثغور المسماة **بالبكرية** نسبة الى

ديار بكر ـ وهي سميساط وحاني وملكين ، وحصون منها جمع ومنها حوران ومنها الكلس وغيرها ، ثم تغر قاليقلا فى جهة الشمال عن هذه الثغور زيادة الا انه كالمنفرد لما بينه وبينها من المسافة البعيدة . والذى يقابل هذه الثغور من أعمال الروم عمل الأرمنياق وبعض عمل الخالدية ويقرب منها عمل افلاغونية المتصل ببلاد الخزر(١٨٥) » .

وقد بذل الخلفاء العباسيون الاوائل جهودا متعاقبة فى تحصين الثغور وشحنها بالمقاتلة .

الثغور الشامية :

المصيصة : ألحت الروم عند قيام الدولة العباسية على المصيصة فوجه صالح بن على جبريل بن يحيى البجلى الخراسانى فعمرها وأسكنها الناس . وفرض المنصور بالمصيصة لاربعمائة رجل ثم لما دخلت سنة ١٣٩ هـ سنة ـ ٧٥٦ـ٧م أمر بعمران مدينة المصيصة وكان حائطهامتشعثا من الزلازل وأهلها قليل فى داخل المدينة فبنى سور المدينة وأسكنها أهلها سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ ـ ٨م) وسماها المعمورة وبنى فيها مسجدا جامعا ، وقد زاد فيه المأمون . وفرض المنصور فيها لألف رجل ثم نقل أهل الخصوص وهم فرس وصقالية وانباط ونصارى كان مروان أسكنهم وأعطاهم خططا فى المدينة عوضا عن منازلهم على ذرعها ونقص منازلهم وأعانهم على البناء ، واقطع الفرض قطائع . وكان بناء المصيصة على يدى جبرائيل بن يحيى الخراسانى . ولما استخلف المهدى فرض بالمصيصة لالفى رجل ولم يقطعهم لانها قد كانت شحنت من الجند والمتطوعة . وكانت الطوالع تأتيها من انطاكية فى كل عام « حتى وليها سالم البرلسى وفرض لخمسمائة مقاتل على خاصة عشرة دنانير ، فكثر من بها وقووا ـ وذلك فى خلافة المهدى » .

كفر بيا : قيل بدأ بناؤها فى خلافة المهدى ثم غير الرشيد بناءها وحصنها بخندق وقيل بدأ بناءها الرشيد . وقد عمل المأمون على تنظيمها فابطل « غلة كانت على منازلها وكانت منازلها كالخانات وأمر فجعل لها سور فرفع فلم يستتم حتى توفى فامر المعتصم باتمامه وتشريفه » .

---

(١٨٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٦ ، جـ ٦ ص ٢٣٧ ، قدامة : نبذ من كتاب الخراج (ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة) ص ٢٥٣ : ٥ .
Le Strange : Palestine under Moslems. pp. 36 : 8.

وبنى محمد بن يوسف المروزى المعروف بأبى سعيد **حصنا بساحل انطاكية** بعد غارة الروم على ساحلها فى خلافة المعتصم .

اذنة : بنيت سنة ١٤١ أو سنة ١٤٢ هـ (٧٥٨ ـ ٩ أو ٧٥٩ ـ ٧٦٠ م) « والجنود من أهل خراسان معسكرون عليها مع مسلمة بن يحيى البجلى ومن أهل الشام مع مالك بن أدهم الباهلى ـ ووجهها صالح بن على » . وكان صالح بن على قد بنى قصرا عند جسر اذنة على سيحان فى خلافة المنصور « ولم يكن بناؤه محكما فهدمه وحصنها وندب اليها رجالا من أهل خراسان وغيرهم على زيادة فى العطاء وذلك بأمر محمد بن الرشيد ورم قصر سيحان » .

طرسوس : غزا الحسن بن قحطبة الطائى بلاد الروم سنة ١٦٢ هـ فخرج مما يلى طرسوس « فأخبر المهدى بما فى بنائها وتحصينها وشحنها بالمقاتلة من عظيم العناء والكبت للعدو » وكان قد « ركب الى مدينتها وهى خراب فنظر اليها وأطاف بها من جميع جهاتها وحزر عدة من يسكنها فوجدهم ألف » وأخبره بشأن الحدث أيضا ، فأمره ببناء طرسوس وأنه يبدأ بالحدث فبنيت . فلما كانت سنة ١٧١ هـ (٧٨٧ ـ ٨ م) بلغ الرشيد أن الروم ائتمروا بينهم بالخلوج الى طرسوس فأغزى الصائفة هرثمة بن بن سليم الخادم . وأشخص أبو سليم الندبة الاولى من أهل خراسان وهم أعين وأمره بعمارة طرسوس وبنائها وتمصيرها ففعل وأجرى على يد فرج ٣٠٠٠ رجل فوردوا طرسوس ، ثم أشخص الندبة الثانية وهم ١٠٠٠ رجل من أهل المصيصة ، ١٠٠٠ من أهل انطاكية على زيادة عشرة دنانير لكل رجل فى أصل عطائه « الى أن استتم بناء طرسوس وتحصينها وبناء مسجدها ، ومسح فرج ما بين النهر الى النهر فبلغ ذلك ٤٠٠٠ خطة كل خطة عشرين ذراعا فى مثلها ، وأقطع أهل طرسوس الخطط وسكنتها الندبتان فى شهر ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ » .

سيسيه : هى مدينة تل عين زربة وقد عمرت فى خلافة المتوكل على يد على بن يحيى الأرمنى ثم أخربتها الروم .

عين زربة : فى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٥ ـ ٦ م) أمر الرشيد بابتناء مدينة عين زربة وتحصينها وندب اليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم فأقطعهم بها المنازل .

الهارونية : امر الرشيد ببنائها سنة ١٨٣ هـ (٧٩٩ ـ ٨٠٠ م) وشحنت بالمقاتلة والمطوعة ونسبت الى هرون الرشيد ، وقيل أنه بناها فى خلافة المهدى وأتمت فى خلافته .

الكنيسة السوداء : من حجارة سود بناها الروم ولها حصن قديم أخرب في ما أخرب فأمر الرشيد ببناء المدينة وتحصينها وندب اليها المقاتلة في زيادة العطاء وقد حصنت المدينة وشحنت على أثر هجوم الروم ... ونقل المعتصم الى عين زربة ونواحيها بشرا من الزط .

وقد حاصر هرون في خلافة المهدي سنة ١٦٣هـ **صمالو** « فسألوه الأمان لعشرة أهل أتبيات فيهم القومس فأجابهم الى ذلك ، وكان شرطهم الا يفرق بينهم فانزلوا ببغداد على باب الشماسية فسمي موضعهم سمالو .. وأمر الرشيد فنودى على من كان في الحصن فبيعوا » . (١٨٦)

الثغور الجزرية :

ملطية : أقبل قسطنطين على ملطية وكمخ سنة ١٣٣هـ فأجلى الأهلين « وهدم الروم ملطية فلم يبقوا منها الا هريا فانهم شعثوا منه شيئا يسيرا وهدموا حصن قلوذية . فلما كانت سنة ١٣٩هـ (٧٥٦م) كتب المنصور الى صالح بن على يأمره ببناء ملطية وتحصينها . ثم رأى أن يوجه عبد الوهاب بن ابراهيم الامام واليا على الجزيرة وثغورها فتوجه سنة ١٤٠هـ (٧٥٧م) ومعه الحسن ابن قحطبة في جنود أهل خراسان فقطع البعوث على أهل الشام والجزيرة ، فتوافى معه سبعون ألفا فعسكر على ملطية وقد جمع الفعلة من كل بلد . فأخذ في بنائها وكان الحسن بن قحطبة ربما حمل الحجر حتى يناوله البناء وجعل يغدى الناس ويعشيهم من ماله .. فكان الحسن يقول : من سبق الى شرفة فله كذا ـ فجد الناس في العمل حتى فرغوا من بناء ملطية ومسجدها في ستة أشهر ، وبنى للجند الذين أسكنوها : لكل عرافة بيتان سفليان وعليتان فوقهما واصطبل (والعرافة عشرة نفر الى خمسة عشر رجلا) وبنى لها مسلحة على ٣٠ ميلا منهـا ومسلحة على نهر قباقب الذى يدفع في الفرات . وأسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها من ثغورهم على زيادة عشرة دنانير في عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار سوى الجعل الذى يتجاعله القبائل بينها ووضع فيها شحنتها من السلاح وأقطع الجند المزارع وبنى حصن قلوذيه فأقبل قسطنطين فنزل جيحان فبلغه كثرة العرب فأحجم عنها » .

مرعش : أخربتها الروم أيام اضطراب الأمور على مروان بن محمد

---

(١٨٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٣ : ٩ ، الطبرى جـ ٩ ص ١٧٦ ، جـ ١٠ ص ٥٠
Creswell : Early Muslim Architecture Vol. II, pp. 379-380, 382-3

فبناها صالح بن على فى خلافة المنصور وحصنها وندب الناس اليها على زيادة العطاء . واستخلف المهدى فزاد فى شحنتها وقوى أهلها .

الحدث : هدمته الروم فى أثناء الاضطراب أيام مروان بن محمد كما فعلت بملطية ، **وفى سنة ١٦١ هـ وجه المهدى الحسن بن قحطبة الى بلاد** الروم « وكان دخوله من درب الحدث ، فنظر الى موضع مدينتها فأخبر أن ميخائيل خرج منه . فارتاد الحسن موضع مدينته هناك ، فلما انصرف كلم المهدى فى بنائها وبناء طرسون فأمر بتقديم بناء الحدث . فأنشأها على ابن سليمان بن على وهو على الجزيرة وقنسرين وسميت المهدية والمحمدية، وكان بناؤها باللبن وكانت وفاته سنة ١٦٩هـ . واستخلف الهادى فعزل على بن سليمان وولى الجزيرة وقنسرين محمد بن ابراهيم بن محمد بن على، وكان على بن سليمان فرغ من بناء مدينة الحدث وفرض محمد لها فرضا من أهل الشام والجزيرة وخراسان فى أربعين دينارا من العطاء وأقطعهم المساكن وأعطى كل امرىء ثلثمائة درهم وكان الفراغ منها سنة ١٦٩هـ (٧٨٥م) . وقال ابو الخطاب . فرض على بن سليمان بمدينة الحدث لأربعة آلاف فأسكنهم اياها ونقل اليها من ملطية وشمشا طوسميسا طوكيسوم ودلوك ورعبان ألفى رجل . قال الواقدى : ولما بنيت مدينة الحدث هجم الشتاء والثلوج وكثرت الأمطار ، ولم يكن بناؤها بمستوثق منه ولا محتاط فيه ، فتثلمت المدينة وتشعيت ونزل بها الروم فتفرق عنها من كان فيها من جندها وغيرهم ، وبلغ الخبر موسى فقطع بعثا فمات قبل أن ينفذ ثم ولى الرشيد فأمر ببنائها وتحصينها وشحنتها واقطاع مقاتلتها المساكن والقطائع » .

زبطرة : حصن رومى فتح مع حصن الحدث القديم واناخت الروم عليه فى أثناء الاضطراب أيام مروان بن محمد فهدمته « فبناه المنصور ، ثم خرجت اليه فشعثته فبناه الرشيد على يدى محمد بن ابراهيم وشحنه ، فلما كانت خلافة المأمون طرقه الروم فشعثوه فأمر المأمون بمرمته وتحصينه ثم خرجت الروم الى زبطرة فى خلافة المعتصم فقتلوا الرجال وسبوا النساء وأخربوها فغزاهم حتى بلغ عمورية وأخربها وأمر ببناء زبطرة وحصنها فرامها الروم فلم يقدروا عليها » .

حصن منصور : ينسب لمنصور بن جعون بن الحارث العامرى من قيس وذلك أنه « تولى بناءه ومرمته وكان مقيما به أيام مروان ليرد العدو ومعه جند كثيف من أهل الشام والجزيرة . وكان منصور هذا على أهل الرها حين امتنعوا فى أهل الدولة ، فحصرهم المنصور وهو عامل ابى العباس على

الجزيرة وأرمينية ولما فتحها هرب منصور ثم أومن فظهر » وقد قتل بعد ذلك لاتصاله بعبد الله بن على الذى خلع المنصور وقيل لاتصاله بالروم . وبنى الرشيد حصن منصور وشحنه فى خلافة المهدى .

الطوانة : وجه المأمون ابنه العباس الى أرض الروم سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) « وأمره بنزول الطوانة وبنائها وكان قد وجه الفعلة والفروض فابتدأ البناء وبناها ميلا فى ميل وجعل سورها على ٣ فراسخ وجعل لها أربعة أبواب وبنى على كل باب حصنا » . وكتب الى أخيه ابى اسحق انه فرض على أجناد الشام ٤٠٠٠ رجل وأن يجرى على الفارسى ١٠٠ درهم وعلى الراجل ٤٠ درهما وكتب للعباس بمن فرض على قنسرين والجزيرة . (١٨٧) ولكن لم يقدر لهذه الجهود فى تعمير طوانة الاستمرار. وواصل العباسيون بناء المدن والحصون فى شتى أنحاء دولتهم وشحنها بالمقاتلة ، ففى الجزيرة ــ بنى المنصور **الرافقه** بازاء الرقعة سنة ١٥٥ هـ على بناء مدينة بغداد « ولم يكن لها أثر قديم ، ورتب فيها جندا من أهل خراسان ، وجرت على يدى المهدى وهو ولى عهد ، ثم أن الرشيد بنى قصورها فكان بين الرقة والرافقة فضاء مزارع فلما قدم على بن سليمان ابن على واليا على الجزيرة نقل اسواق الرقة الى تلك الأرض » .(١٨٨) وفى أرمينية أسكن بغامولى المعتصم وهو والى أرمينية واذربيجان وشمشاط سنة ٢٤٠ هـ **شمكور** « قوما خرجوا اليها من الخزر مستأمنين لرغبتهم فى الاسلام ونقل اليها التجار من برذعة وسماها المتوكلية .. وبنى يزيد ابن أسيد السلمى والى أرمينية على عهد المنصور مدينة **أرجيل** الصغرى ومدينة **أرجيل** الكبرى وأنزلهما أهل فلسطين **وفتح باب اللان ورتب فيها رابطة من أهل الديوان** » . **(١٨٩)**

---

(١٨٧) البلاذرى : فتوح البلادان ص ١٩٤ : ٢٠١ ، الطبرى حـ ٩ ص ١٧٠ ، حـ ١٠ ص ٢٨٤ ؛
Creswell : Early Muslim Architecture. Vol. II. pp. 379: 381, 384, 386.

(١٨٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٧ ؛
Creswell : Early Muslim Architecture. Vol. II. p. 300

(١٨٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١١ ، ٢١٧ .

تدهور الثغور

وصف المقدسي الشام سنة ٩٨٥م فقال « وقد قسمنا هذا الاقليم ست كور أولها من قبل أقور : قنسرين وقصبتها حلب ، ثم حمص وهو اسم القصبة أيضا ، ثم دمشق وهو اسم القصبة أيضا ، ثم الأردن وقصبتها طبرية ، ثم فلسطين وقصبتها الرملة ، ثم الشراه وقصبتها صغر ٠٠ فان قال قائل : لم جعلت قصبة الكورة حلب وههنا مدينة على اسمها ـ أى قنسرين ؟ قيل له قد قلنا أن مثل القصبات كالقواد والمدن كالجند ولايجوز **ان نجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجمع الدواوين اليها** وأنطاكية ونفاستها وبالس وعمارتها جندا لمدينة خربة صغيرة » ٠(١٩٠) ويصور ابن العديم تطور الثغور الى نهايتها المؤسفة فيقول «واهتم المتوكل فى الثغر بترتيب المراكب ، وما زال مشحونا من ملوك المسلمين بالراجل والراكب ، الى أن قصرت الهمم ، وولى من تعدى وظلم ، واشتغلوا بالذات، وتعاطوا الأمور المنكرات ، فضعف أمر الثغور واختل ، ووهى عقد نظامها وانحل ، فجرى ماذكرناه فى باب طرسوس ، وحل بالمسلمين من أعداء الله الشدة والبؤس» (١٩١) وان كانت حلب قد لقيت مجدا بانتقال الحمدانيين اليها بعد قيامهم بالجزيرة ، الا انها لم تستطع أن تحافظ على مجدها للنهاية ، ولم يكن فى طوق هذه (الدولة الثغرية) أن تقف الى الأبد أمام ضغط الهجمات البيزنطية ويوجز ياقوت أحداث النهاية المؤسفة للثغور فيقول : « لم يزل هذا الثغر وهو طرسوس وأذنه والمصيصة **وما ينضاف اليها بايدى المسلمين ، والخلفاء** مهتمين بأمرها لا يولونها الا شجعان القواد والراغبين منهم فى الجهاد ، والحروب بين أهلها والروم مستمرة والأمور على مثل هذه الحال مستقرة حتى ولى العواصم والثغور الأمير سيف الدولة على بن أبى الهيجاء بن حمدان فصمد للغزو وأمعن فى بلادهم فكانت الحرب بينهم سجالا ٠ الى أن كان من وقعة مغارة الكحل سنة ٣٤٩ هـ ومن ظفر الروم بعسكر سيف الدولة ورجوعه الى حلب فى خمسة فرسان على ما قيل ، ثم تلا ذلك هجوم الروم على حلب فى سنة ٣٥١ هـ وقتل كل من قدروا عليه من أهلها ما كان عجز سيف الدولة فترك الشام شاغرا ورجع الى ميافارقين والثغر من الحماة فارغا ، فجاءهم نقفور الدمستق فحاصر المصيصة ففتحها ثم طرسوس ثم سائر الثغور وذلك

---

(١٩٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥٤ : ٦ ٠

(١٩١) ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٨ ٠

سنة ٣٥٤ – فهى فى أيديهم الى هذه الغاية ، وتولاها لاون الأرمنى ملك الأرمن يومئذ فهى فى عقبة الى الآن » . (١٩٢) .

وقد كان من أسباب تدهور الثغور اختلاط فرق الجيش الاسلامى من خراسانية وفرغانية وأشروسنية وسمرقندية وسودان وبربر – مع ضعف رابطة الاسلام الجامعة فى نفوس هذا الخليط المتنافر ، وتنازع الطوائف على السلطة ، وتسليم الخلفاء العباسيين للفرس فالأتراك فالديلم وغيرهم ، وانقيادهم للوزير فأمير الأمراء ، وقد بلغ الضعف بولاة الثغور الجزرية سنة ٣١٣هـ فى زمن المقتدر « أن قصد أهل ملطية بغداد مستغيثين فلم يغاثوا فعادوا بغير فائدة .. وفى سنة ٣١٦هـ انحدر أهل أرزن وغيرها الى بغداد واستغاثوا الى الخليفة فلم يغاثوا . وفى سنة ٣١٧ هـ عزم أهل ملطية وميافارقين وآمد وأرزن على طاعة ملك الروم والتسليم اليه لعجز الخليفة المقتدر عن نصرهم ، وأرسلوا الى بغداد يستأذنون فى التسليم ويذكرون عجزهم ويستمدون العساكر لتمنع عنهم فلم يحصلوا على فائدة ، واستولى البويهيون على العراق سنة ٣٤٤هـ فقدت السلطة بيد الجيوش الديلمية ، وكان الروم فى أثناء ذلك يغيرون على الثغور فيقتلون ويخربون ويحرقون « وليس هناك من المثاغرين من يمنعهم من ذلك حتى استردوا جميع الثغور الاسلامية ، والخليفة فى كل ذلك اسم بلا جسم لا أمر له ولا هيبة ولا جيش ولا سلطان وأخبر ياقوت : بأن ملك الروم لما استولى على الثغور سنة ٣٥٤هـ اشترط تخريب الجوامع والمساجد ، وأن من أراد المقام فى البلد على الذمة وأداء الجزية فعل وان تنصر فله الحياة والكرامة وتقر عليه نعمته – قال فتنصر خلق فأقرت نعمه عليهم ، وأقام نفر يسير على الجزية ، وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الاسلام وتفرقوا فيها . وملك نقفور البلد فأحرق المصاحف وخرب المساجد وأخذ من خزائن السلاح مالم يسمع بمثله مما كان جمع من أيام بنى أمية الى هذه الغاية » .

وقد لقى نظام الأجناد كله فى القرن الثانى عشر الميلادى بقدوم الصليبيين وتأسيس الامارة اللاتينية فى بيت المقدس ، ولما طرد صلاح الدين وخلفاؤه الصليبيين وعادت الشام الى حظيرة الدولة الاسلامية تبعت الشام وفلسطين حاكم مصر اسميا ، ولكنها انقسمت فى الواقع بين عدد من السلاطين الصغار من الأسرة الأيوبية الذين يتعذر تحديد الحدود بين دويلاتهم نظر لتتابع الحروب بينهم . (١٩٤)

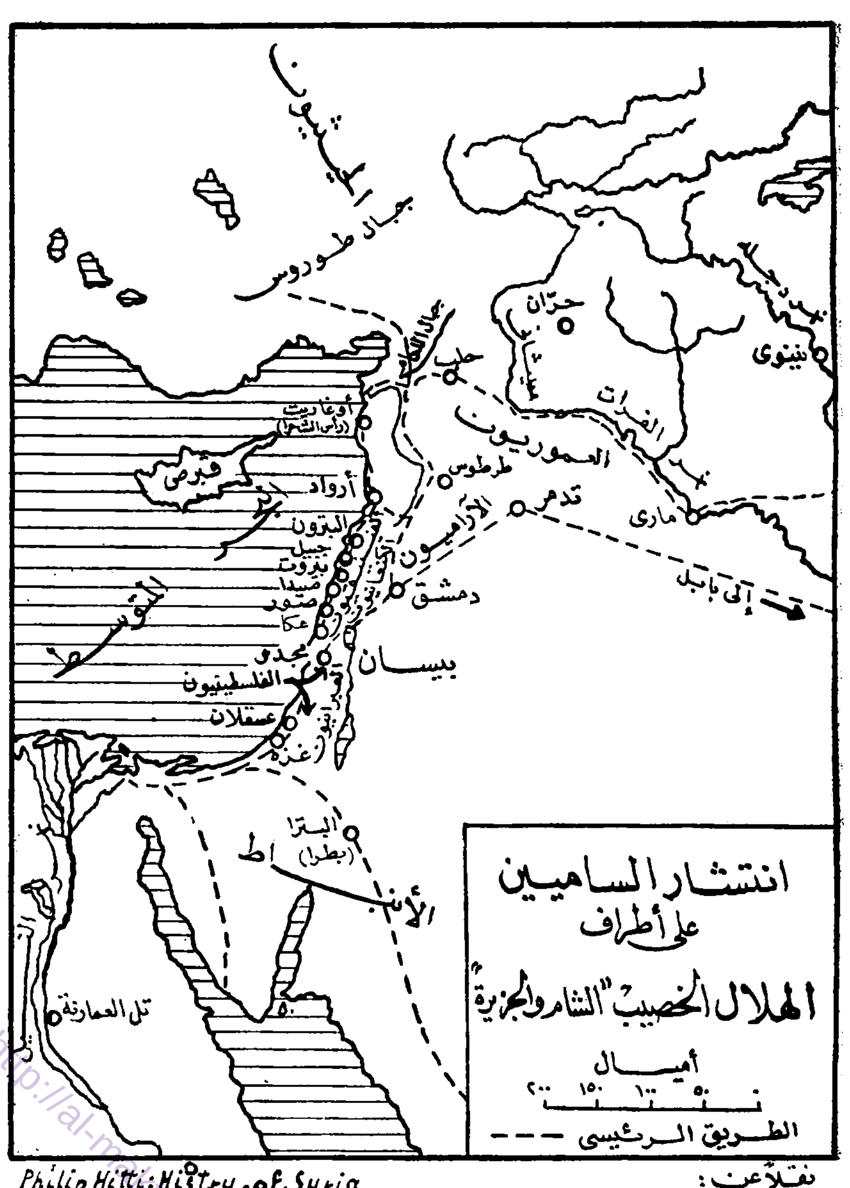
(١٩٢) ياقوت : معجم البلدان حـ ٣ ص ١٧ .

(١٩٣) نعمان ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ص ٦٨ : ٧٠ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٦ ص ٣٩ .

(١٩٤) Le Strange : Palestine under the Moslems. pp. 39-40.

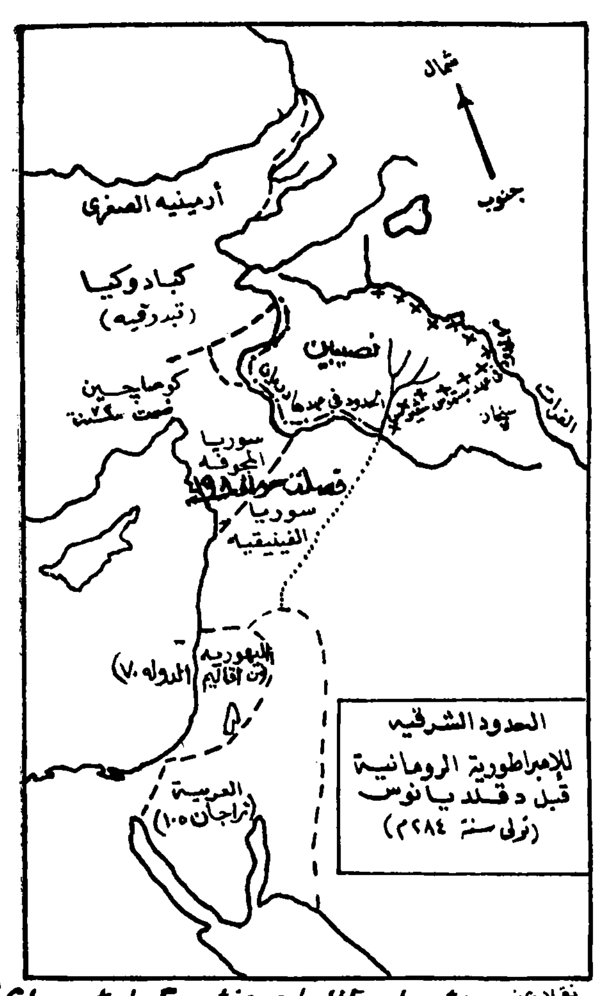
الخرائط



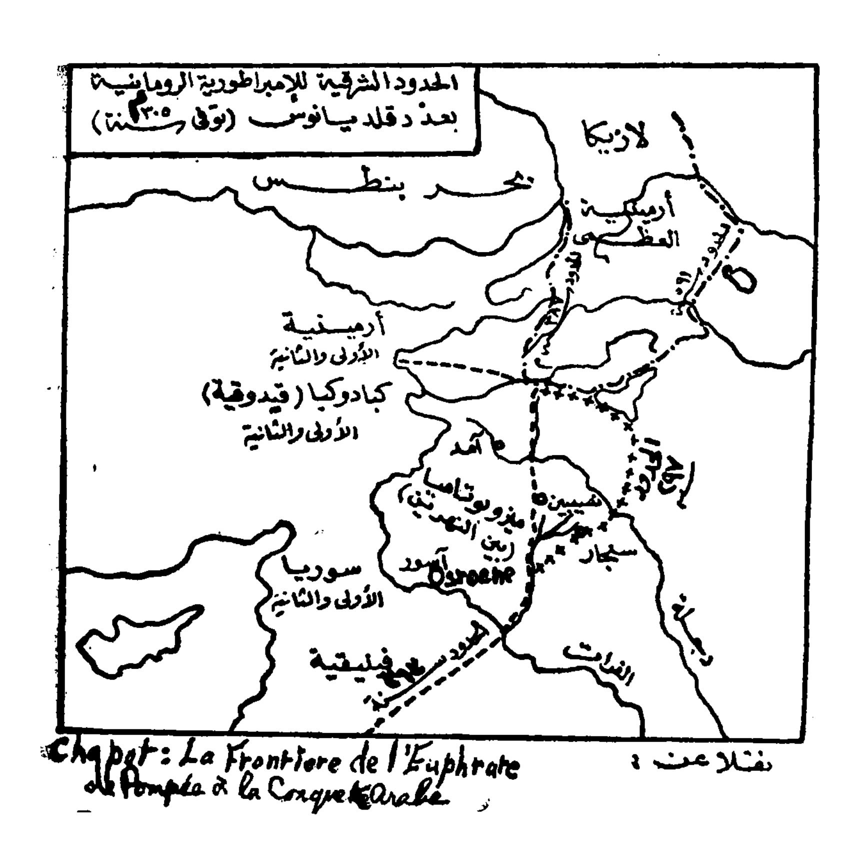


انتشار الساميين
على أطراف
الهلال الخصيب "الشام والجزيرة"
أميال
الطريق الرئيسي
جبال طوروس
حران
حلب
نينوى
الفرات
العموريون
طرطوس
أوغاريت (رأس الشمرا)
قبرص
أرواد
تدمر
ماري
الآراميون
إلى بابل
البترون
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
دمشق
مجدو
بيسان
الفلسطينيون
عسقلان
غزة
البترا (بطرا)
تل العمارنة

نقلاً عن:
Philip Hitti: Histry of Syria



نقلا عن Chapot: La Frontiere de l'Euphrate de Pompée á la Conquête Arape

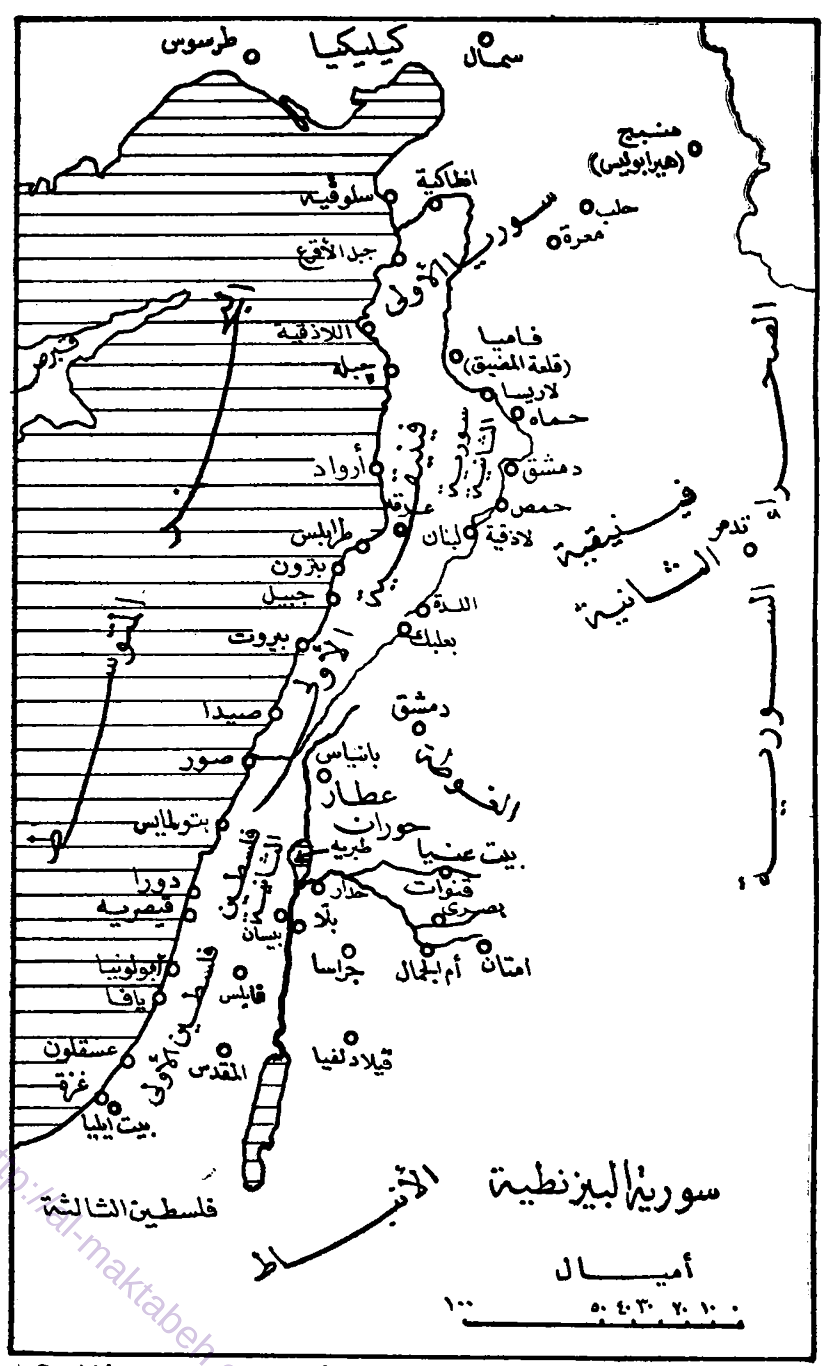


Chapot: La Frontière de l'Euphrate de Pompée à la Conquête Arabe

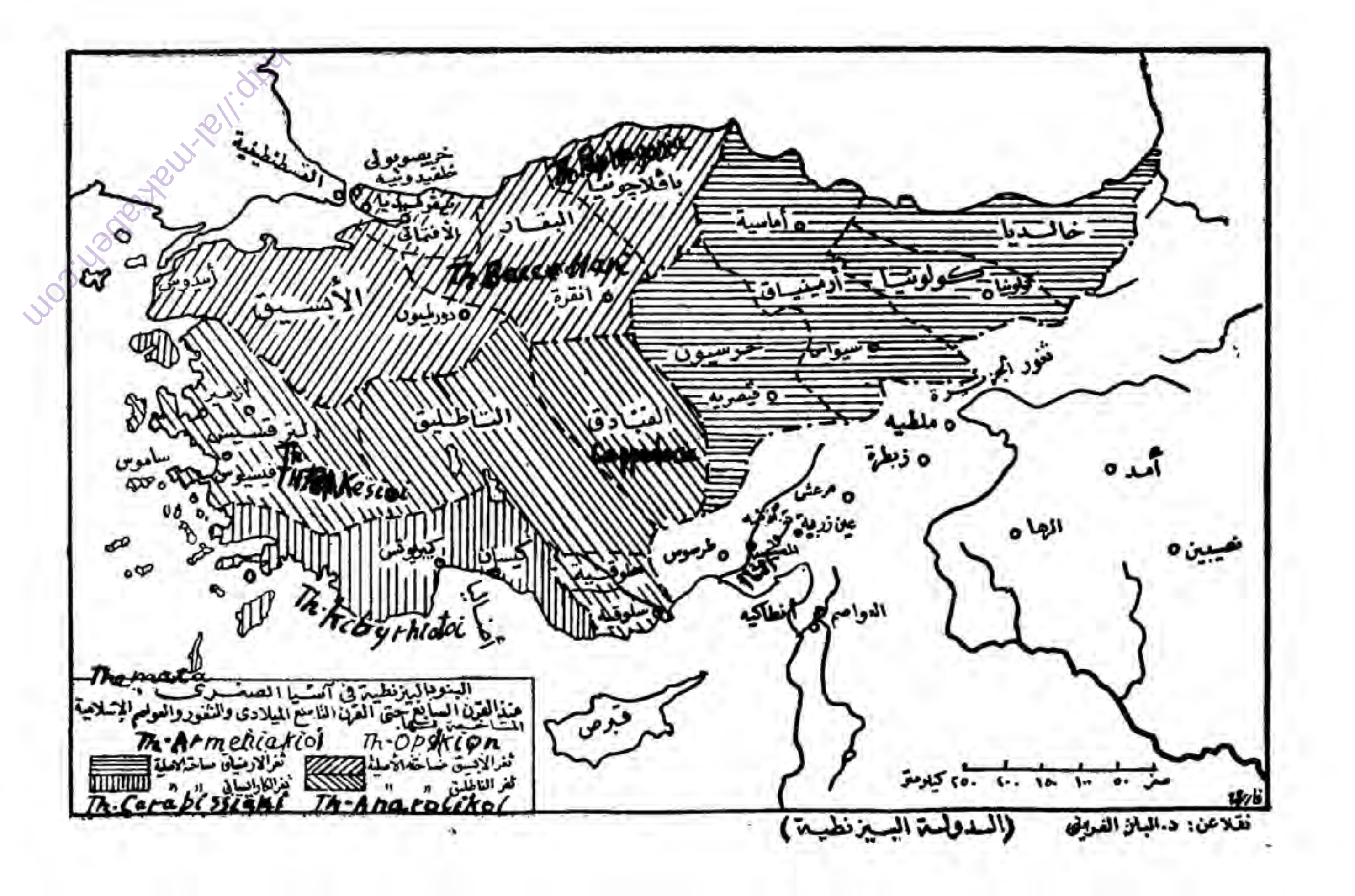
نقلاً عن :



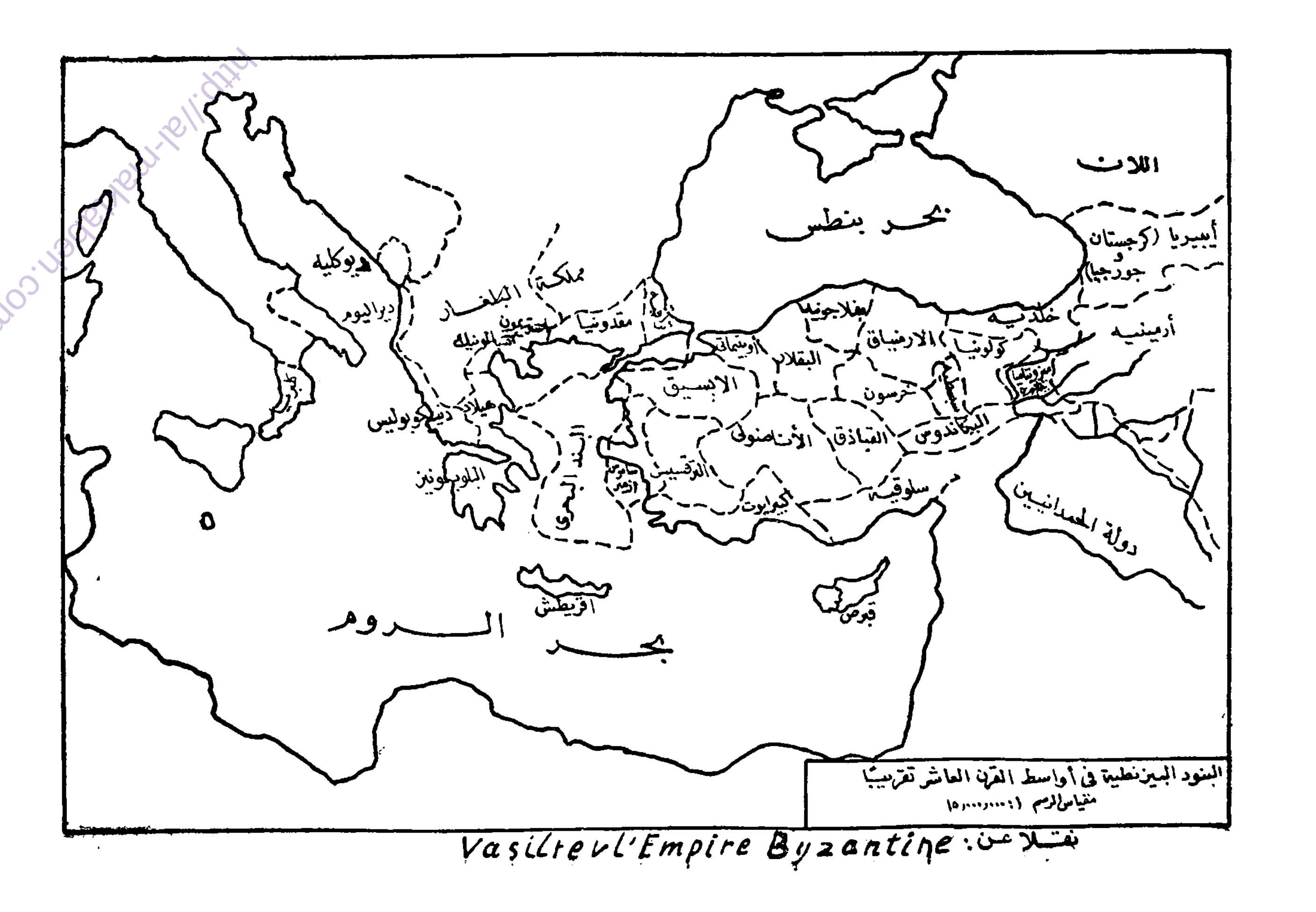
نقلا عن - R.Dussaud:Les
Arabesen Sypjeavant l'Islam



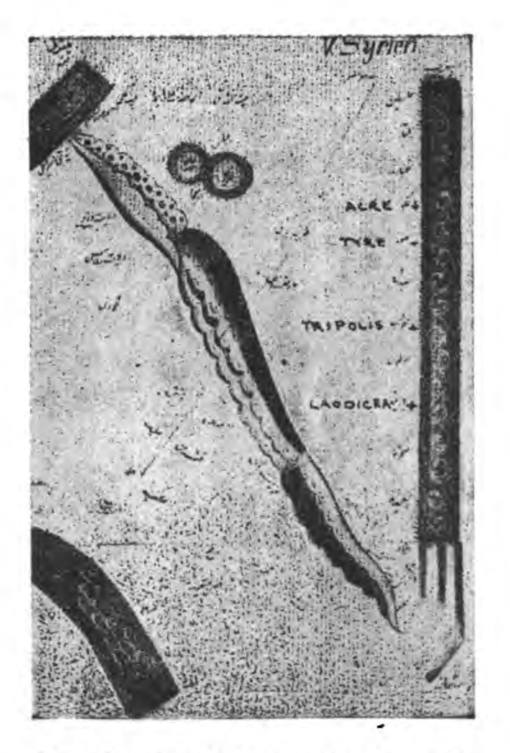
نقلا عن Philip Hitti. History of Syria



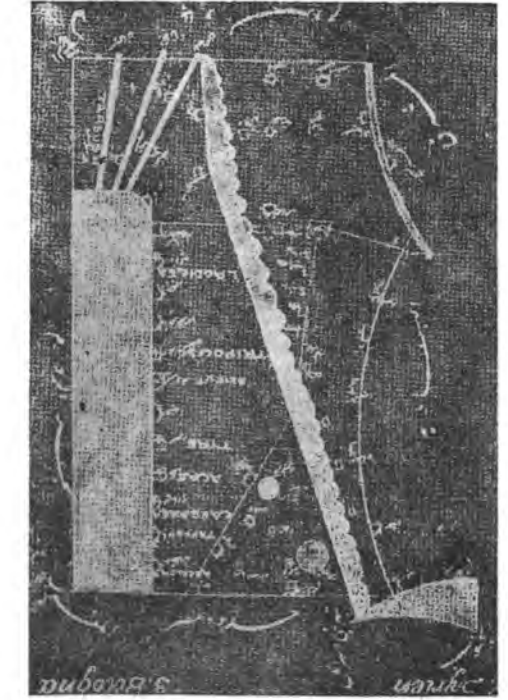
نقلا عن: د. الباز العرينى (الدولة البيزنطية)



البنود البيزنطية فى أواسط القرن العاشر تقريباً
مقياس الرسم ١ : ١٥,٠٠٠,٠٠٠
نقلا عن: Vasiliev L'Empire Byzantine



القواعد البحرية الاسلامية المبكرة فى الشام كما تصورها خريطة الجيهانى
Facsimile Miller. V. Bd. Beiheft, Tafel 67



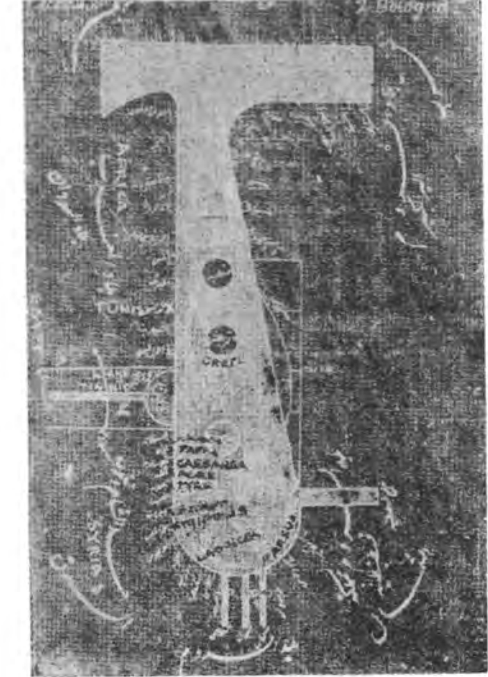
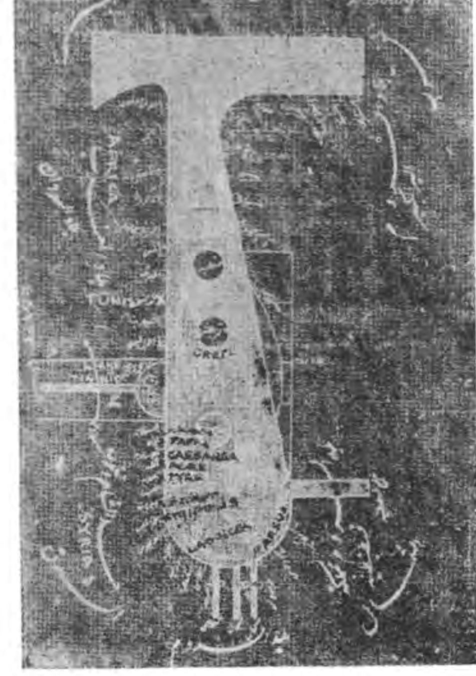
القواعد البحرية الاسلامية المبكرة فى الشام كما تصورها خريطة البلخى
Facsimile Miller. III Bd. Beiheft. Tafel 11.



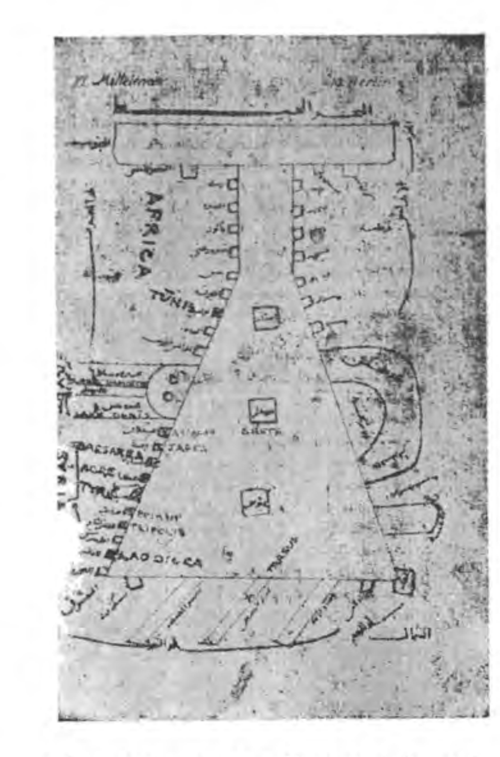
القواعد البحرية الاسلامية المبكرة فى الشام كما تصورها خريطة المقدسى
Facsimile Miller. III Bd. Beiheft. Tafel 11.

نقلا عن Dr. Ali Fahmy : Muslim Sea Power Mediterranean (7th : 10th cent.)

القواعد البحرية الاسلامية فى بحر الروم (البحر المتوسط كما تصورها خريطة الجيهاني
Facsimile Miller. V. Bd. Beiheft, Tafel 67

القواعد البحرية الاسلامية فى بحر الروم (البحر المتوسط كما تصورها خريطة البلخي
Original Bologna Univ. Bib. Facsimile, Miller I Bd. Heft, Tafel 4



القواعد البحرية الاسلامية فى بحر الروم (البحر المتوسط) كما تصورها خريطة المقدسي
Original in Berlin. Pr. Staatsbibl. 6034
Facsimile, Miller. I. Bd. Heft, Tafel 4

نقلا عن Dr. Ali Moh. Fahmy : Muslim Sea Power in the Eastern Mediterranean (7th cent.).

القواعد البحرية الاسلامية في بحر الروم (البحر المتوسط) كما تصورها خريطة الأدريسى
Original in Leyden, Reichauniv. Cd. 1702.
Facsimile Miller. I. Bd. I. Heft, Tafel 4

نقلا عن Dr. Ali M. Fahmy : Muslim Sea Power in the Eastern



القواعد البحرية المبكرة عند المسلمين المشارقة

وهذه هي الخريطة كما يرسمها الجغرافيون المحترفون



الثغور الشامية والجزرية

أعلى من ١٧٠٠ متر

من ٥٠٠ إلى ١٧٠٠ متر

ملطية

حصن منصور

كيسوم

منبج

قلعة النجم

نهر الساجور

نهر الفرات

حلب

قنسرين

دابق

بياس

المصيصة

عين زربة

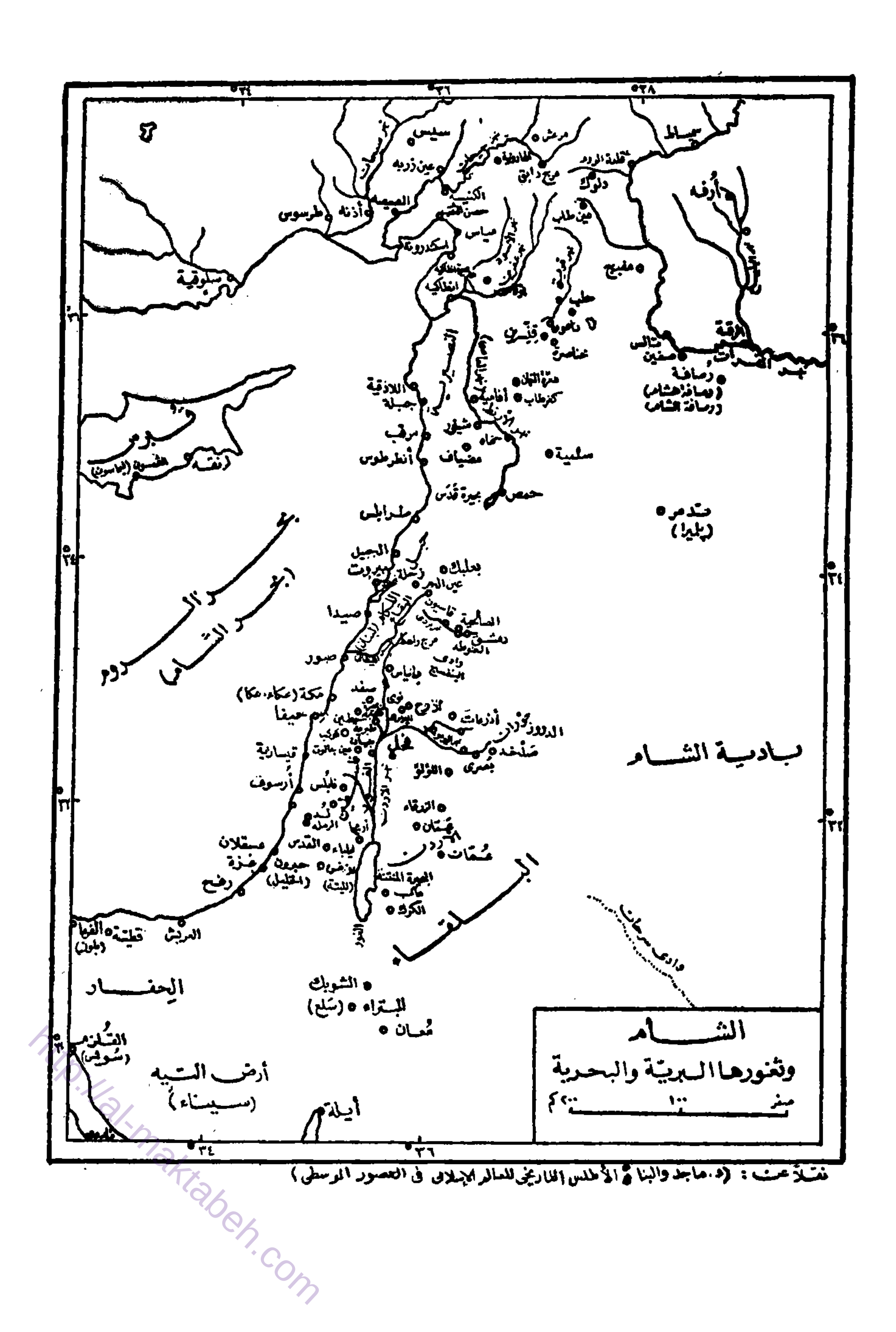
بوقا

بغراس

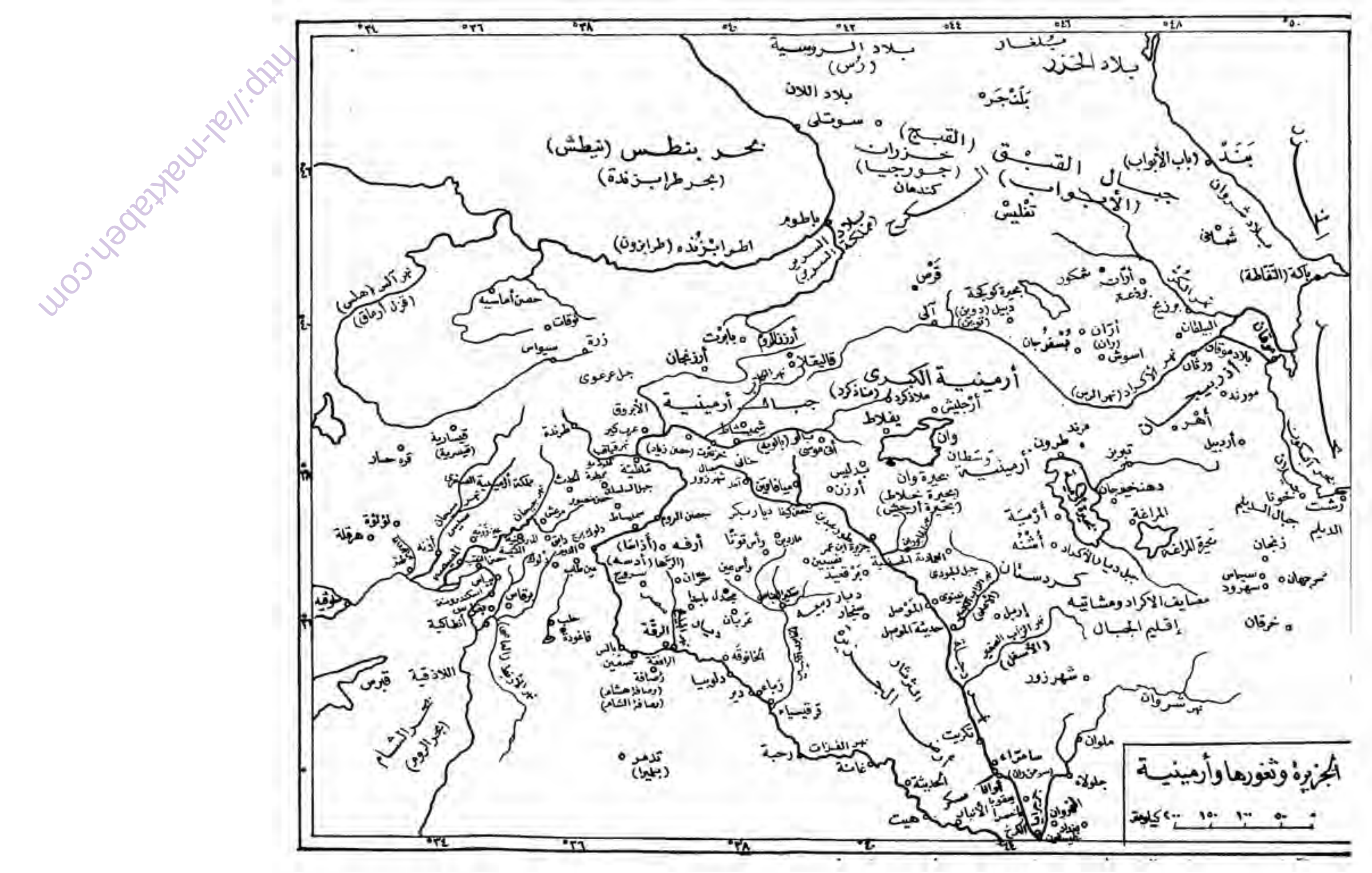
النهر الأسود

جبالس

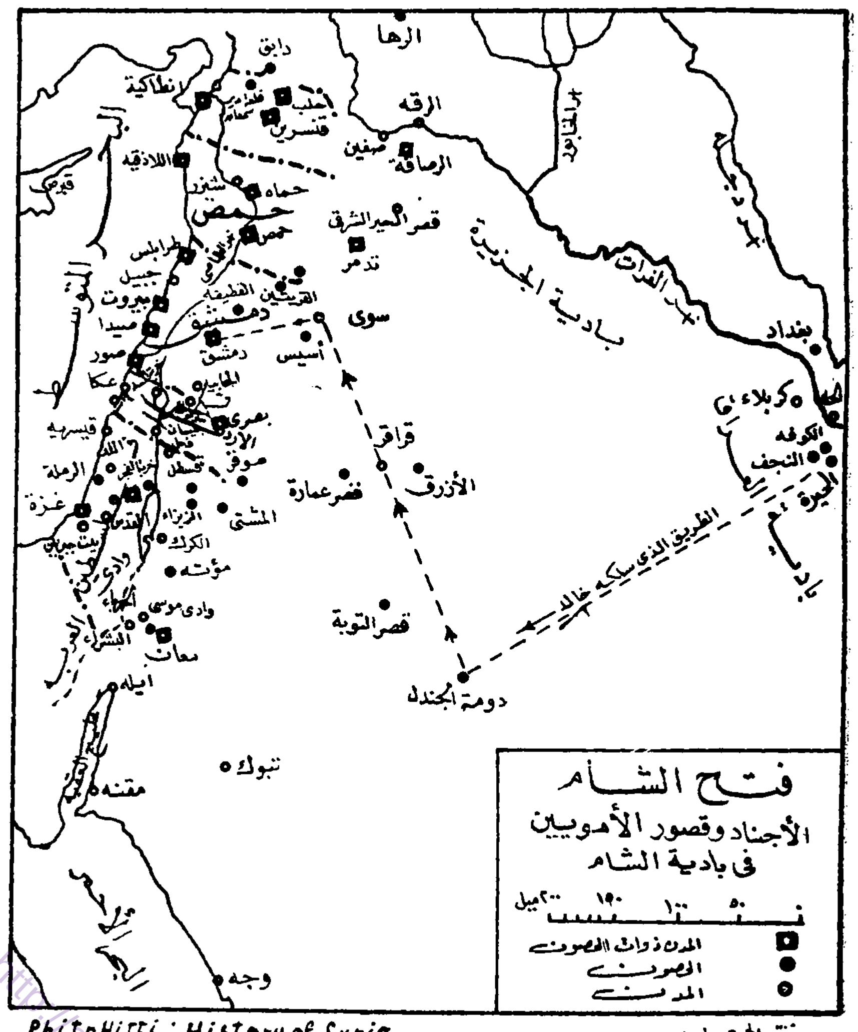
نقلاً عن : Honigmann et les Byzantins أوردها Cheira: La Lutte entre les Arabes et les Byzantins



نقلاً عن: (د. ماجد والبنا في الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى)



الجزيرة وثغورها وأرمينية
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ كيلومتر
بلاد الخزر
بلغار
بلاد الروسية
(رُس)
بلاد اللان
بلنجر
سوتلى
بحر بنطس (نيطش)
(بحر طرابزندة)
القبج
(القبج)
خزران
(جورجيا)
كندهان
جبال القبق
(الأبواب)
تفليس
بند (باب الأبواب)
بلاد شروان
شماخي
باطوم
اطرابزنده (طرابزون)
قرص
بحيرة كوكجة
دبيل
شمكور
أران
برذعة
البيلقان
موقان
حصن أماسية
توقات
زرة
سيواس
بايبرت
أرزن الروم
قاليقلا
أرزنجان
أرمينية الكبرى
ملاذكرد (مناذكرد)
أرجيش
آذربيجان
أردبيل
أهر
جبال أرمينية
جبل عرعوى
الأبرق
ملطية
خلاط
وان
بحيرة وان
أرمينية
طرون
تبريز
بحيرة أرمية
المراغة
أرمية
أشنه
الديلم
زنجان
سهرورد
قصارية
(قيصرية)
قرة حصار
لؤلؤة
هرقلة
أذنة
طرسوس
سميساط
حصن الرومي
بتليس
أرزن
آمد
ميافارقين
حصن كيفا
ديار بكر
جزيرة ابن عمر
نصيبين
ماردين
رأس العين
الموصل
إربل
كردستان
مضايف الأكراد ومشاتيه
إقليم الجبال
أرفه (أذاسا)
(الرها)
حران
ديار مضر
الرقة
منبج
حلب
أنطاكية
إسكندرونة
اللاذقية
قبرص
بحر الشام
(بحر الروم)
بالس
صفين
الرافقة
رصافة
(رصافة هشام)
(رصافة الشام)
الخابور
قرقيسياء
الرحبة
دلويا
تدمر
(بلميرا)
سنجار
ديار ربيعة
البرية
الجزيرة
تكريت
سامراء
شهرزور
نهر شروان
حلوان
جلولاء
بغداد
الأنبار
الحديثة
هيت
غانة
نهر الفرات
دجلة



Phitp Hitti ' History of Syria

نقلا عن :

فهرس

الموضـــوع | **الصفحـة**

الموضـــوع	الصفحـة

الموضـــوع	الصفحـة

We also find traces of Byzantine impression on Muslim architecture, specially in art of fortification.

The Islamic Byzantine frontier zone was distinguished with a *religious characteristic aspect,* either in Christianity or in Islam. The struggle between Muslims and Byzantines had its religious face as Crusudes, yet the individuals of every part were treated well in general through the lands of the other, some exceptions naturally happened. As a result of the religious zeal, many volunteers came to fight with the official army. The Muslim (Ribat) frontier fortress — received successive groups of volunteers, a spiritual and educational course was arranged for them afterwards, and so a cultural duty was added to the task of the military centres. On the other side, the region inherited several monasteries scattered along northern Syria and Mesopotamia. Religious distinction and hostility did not keep any side from the other in the religious sphere. The two parties entered in arguments, and both were influenced by Greek philosophy and logic.

The *society* of the Islamic Byzantine frontiers land, was composite. Since early days the muslim front included muslims and non-muslims, arabs and non-arabs. To establish a strong defence, Muslims had to get every possible support. In the frontier fortified centres there were Gotts (Zotts), Persians, and Slavonians. During the Abbassid period, Khurasanian and Turkish garrisons were sent there. However, the Muslim community in frontier centres lived in harmony. Traces of partisanship might reach frontier warriors when its flames surrounded all the Caliphate lands.



This is a glance of the Islamic-Byzantine frontiers life ... in various sides ... in hostile and peaceful sides both. The reader may now be convinced that frontiers zone was not a mere deserted « no man's land ». The current of life overflows everywhere, ... it conquers death and seperation, in the main land of death and separation, in battle-fields and frontiers-zone.

ciple led to the creation of a military land aristocracy who enjoyed an increasing impression on both political and economical spheres. To what extent this order was applied in the Islamic-Byzantine frontiers zone, and if applied what were the results ? Can we consider the Muslim society near to a special type of *military feudalism* ?

Answering these questions, the chapter comes to an end.



Now, it is the place to treat the ordinary life in the frontiers region. ***The seventh and last chapter studies : the Ordinary Peaceful Life in the Frontier Zone.***

The study deals first with commerce, following in the beginning the trade routes and relations between East and West before Islam, and the place of Arabs in the universal trade. We consider then the advantageous situation of the Islamic Byzantine frontier zone near those trade routes. It had an excellent situation between Syria, Mesopotamia, Armenia, and Asia Minor in land; as it had maritime routes and centres along the Mediterranean, Black Sea (Pontus) and Indian Ocean. The study treats, the commercial universal relations after Islam, considering the rôle of both the Caliphate and the Empire, their inter-communications, in this field.

In *cultural relations* some of frontier centres kept their own cultural inheritance, such as Antioch. Being near the Byzantine land such centres had the chance to get some Greek manuscripts during periods of peace and carried out a significant task in copying or translating them. Another contact took place through captives, who returned to their countryland when released carrying a clear vision of the enemy life to their nation. Some Muslim missions are sent specially for scientific purposes, such to bring Greek manuscripts or persuade some outstanding scientists to visit Muslim land.

In war literature of both Muslims and Byzantines we meet cultural reflections of the bitter hostile relations between the two parties. « Digenis Akritas » Epic in Byzantine literature, poems of Abu Tammam, Bohtry and the legend of «That El-Hemma = The Gallant Prince» are good examples.

considering the situation of Syria and Mesopotamia as provinces in the whole Muslim state, then treat the minor divisions through the province. At first there were four administrative military districts in Syria (Junds). Early Ommayad Caliphs introduced new divisions by separation of Quinnasrin — first included in Emesa (Homs) in northern Syria, and Mesopotamia (Guezirah) first included in Iraq. According to the Abbassid orientation towards the East, a protective policy was followed in the Islamic-Byzantine frontiers to establish a solid frontier organisation. The importance of the frontier zone both syrian and mesopotamian increased, and it was made a special province during the reign of the Abbassid Caliph Al-Rashid, at the name of « Awassem ». Concerning the *administrative officials* there was the provincial governon on the top, who was always an army officer in our case. Under his command there was a staff of local administration: specially the judge and the taxcollector. We at last put a list of the governors of the Islamic-Byzantine frontier zone in Syria and Mesopotamia during the period of our study.

Discussing the Islamic *Financial System* we study the *financial resources* of the state: land tax, capitulation, and other duties. We have to give details about the land system in conquered countries generally and in frontier zones specially. As to the *expenditure :* the Islamic state had to pay soldiers and employees, cover the costs of the military expeditions, carry out public services as paving roads, supplying water, building mosques, offering remedy and education etc. The *financial administration* included the tax collector and the financial clerk. Military expeditions had special staff for their financial affairs. Some words about *currency* are necessary to estimate its value in that time and to follow the reasons of the fight once opened between the Ommayad Caliph Abd-El-Malik and Byzantines which resulted in the independence of Islamic currency. The study treats then an important organisation, in both Byzantine and Islamic history either political or economical. To persuade soldiers to have residence in frontier zones, the state had to distinguish them with certain advantages, of which the grant of land was the most prominent. This prin-

internal troubles, especially with the revolts of « Khawaredj » — a certain fanatic Muslim sect.

Various narratives indicated a relation between the Byzantines and the Khurramite revolt, an Iranian sect, whose constant solid resistance went on against the Abbassid successive Caliphs till it was suppressed by Mutasim. On the other side, the Byzantine sources accused Mamun with supporting Thomas the rebellious Slavonian officer against the Emperor.

★ ★ ★

From the previous data, we tried to find out the systems applied in the Islamic-Byzantine frontier zone. *The fifth Chapter : studies the Military System.* It discusses the different aspects of the military activities : *Fortifications, Army, and Navy.* In the end, the Chapter comes to a certain activity that is related to military affairs, I mean *diplomacy.* The chapter goes on dealing first in brief with Byzantine systems, then turns to the Islamic systems in details. In discussing army and navy systems, many details are given about warriors, weapons, and tactics of fight. We see many Byzantine traces in Muslim Military Organization, specially in fire signals, besieging instruments and arts, naval equipments and fight. In consideration of diplomacy, we deal with written messages and personal embassies, then come to a characteristic aspect in the Islamic-Byzantine diplomatic relations : the arrangement of captives release *(Fidaa).* The study deals with military, naval, and diplomatic muslim efforts in scientific compilation and actual practice as well. It presents various extracts from the Holy Quran, Prophet Traditions (Sunna), Jurisprudence and other muslim writings about War (Jihad) ; close to what muslims practised actually in battlefields as indicated by historical facts.

★ ★ ★

In the sixth chapter : the Administrative and Financial Systems of the frontiers region are discussed, also in comparison with Byzantine systems. As to the *administration,* we study *the establishment and habitation of* frontier centres. Coming then to the *administrative division:* we begin by

forts, and the military administrative districts (Jund). Some early military expeditions were sent towards the Islamic — Byzantine frontiers, which were to form afterwards a permanent seasonal raids in summer and winter.

The Islamic Organizations became more and more *perfect during the Ommayad and Abbassid Caliphate.* Important military centres, both naval and terrestrial were provided with garrissons. The Ommayad Caliphate had significant efforts in establishing and strengthening the Islamic Naval power and defence, since its orientation was towards the Mediterranean. As the Abbassids were concerned more with Asia, they were satisfied with securing strong defence at the frontiers, never interested in conquering Byzance as their ancestors had done. Abbassids, however, had their great efforts in the establishment of permanent life in the frontiers zone and construction of fortifications, a plan which the Ommayads had started in certain limits since the reign of the Caliph Abd-El-Malik, as they were mainly prefering the mobile defence which depended on the human energy.

★ ★ ★

In order to get a clear vision of the subject, we have to be attendant at *the battle-fields through the Islamic-Byzantine* frontiers. What a blood covered their surface, running out of the struggle with the foreign enemy, as well as out of the struggle with local rebellious citizens who took benefit of the geographic situation of the Islamic-Byzantine frontier zone. Muslims and Byzantines tried both to get profit of any internal troubles that the enemy suffered, and gave its support to the revolutionists if possible.

We follow the Islamic naval and terrestrial expeditions against Byzantines since its *early days.* The Ommayads carried on their glorious projection of conquering Byzance (Constantinople) itself, and their successful attacks against Mediterranean islands.

The Abbasids had different concerns, they were satisfied by doing their best in carrying on protective raids against the Byzantines, specially during the reigns of Caliphs : Rashid, Mamun, Mutasim. The Caliphate was disturbed terribly with

a description of what is called technically the « *hinterland*» : including Mesopotamia as a whole, Syria as a whole-specially the northern and littoral parts, Armenia, and the Byzantine land in Asia Minor. The Mediterrenean Sea and its islands-specially in the Eastern parts (the Levant) — are also studied.

We come now to study the *Frontier Zone itself,* both the Syrian and the Mesopotamian frontiers.

After this geographical topographical study, we try to put in light some conclusions. To consider *the strategic situation* of the Islamic — Byzantine frontiers, the study examines how could the frontiers realize security for the Islamic State in its different parts: Taurus Mountains, Armenian Highlands, Euphrates River, and the Mediterranean. The study deals afterwards with the *geographical orientation* of the zone, as it occupied an excellent situation on the great trade route between East and West. A good net of routes was joining the frontier zone with Mesopotamia and Irak, Syria — relied itself to Arabia and Egypt, Asia Minor, and the Mediterranean. Hence, the Islamic-Byzantine frontiers had its impressive rôle in the economical and cultural relations between Muslims and Byzantines.

★ ★ ★

We have now a sufficient background to touch our subject directly. *The third chapter deals with the Establishment of the Islamic Frontier Defence System and its Evolution.* It first discusses the *factors and circumstances* that affected this organization : varied in geographical, historical and religious factors. The *Islamic Conquest of Syria* itself put the foundation. It brought out the necessity of arranging a defence system as the Byzantines would never leave a chance to regain Syria. It becomes clear from the geographical study that Syria, Mesopotamia, and Armenia are joined physically; Muslims ought to have supremacy on all these districts and establish a strong military organization through all of them, in order to secure their existence. The Islamic State realized also the importance of the marine defence. We follow then *the establishment of the Muslim frontier organization.*

The early Muslim efforts were devoted to the marine

the subject. It puts some words on the *frontier of a state* in general, and how a state can arrange its defence. Giving some examples of that defence in ancient Egypt, Babylonia, Assyria, Rome, Persia, and Arabia, the study makes special stress on the « Frontier Marches » or « Buffer States » as a basis of our study.

It is necessary to have a look afterwards on the place of events : namely, *Northern Syria and Mesopotamia.* We considered its geographic situation, then follow its ancient history. It was a field of constant struggle between the successive powers, either coming from the deserts or from the mountains. Before Islam, it was the turn of Romans and Persians, Byzantines and Sassandis to quarrel about sovereignty in general, and about seizing Syria and Mesopotamia specially.

After considering the place, we have to consider the people. We give a word about *Arab migrations* towards the north that took place before Islam, the *Arab Buffer-States* that rose to fulfil certain strategic necessities for the Great World Powers. However, these principalities acquired a prosperous part in the traffic-trade. The last link of the successive Arab-Buffer-states was the Ghassanid Dynasty in southern Syria, which was a vassal-state related to Byzance. It ran a terrible risk of fighting the Persians and their Arab vassal-state of Lakhmides, which had its place near the Persian Gulf. This introduction will be unsatisfactory unless we say something about the Byzantine military and administrative system of « *Thema* ». It was a good precedent of which the Arabs might get benefit ; they saw a type of military administration in the Syrian « Jund » — Byzantine Military provinces, moreover they got information of the Byzantine Thema which the Muslim historians and geographers presented in their books. The « Thema » organization was a result of military necessities to face the Persian attacks, it gave its impression on the Muslim organization, as it was itself impressed by the Muslim attacks.

★ ★ ★

The Second Chapter : is a *Geographical Topographical Study of the Islamic-Byzantine frontier Zone.* It begins with

THE ISLAMIC — BYZANTINE FRONTIERS BETWEEN MILITARY STRUGGLE AND CULTURAL COMMERCIAL RELATIONS

A study of « *frontiers* » can have different sides, each scholar may deal with the subject from his own interest. This historical study concerns a vivid and important frontier zone, namely, the Islamic-Byzantine Frontiers. The fore part of this frontier had a certain Islamic term « *Thughur* ». — that means « gaps », as those places were weak points which the enemy might attack and penetrate. Behind those sensitive-centres the frontier zone included another line, which was called « *Awassem* » — that means « defence centres », as it supported the fronted line and defended it.

The Islamic — Byzantine Frontier Zone had a glorious rôle, in either political military or cultural economic sides of the medieval history.

★ ★ ★

The period of our study begins with the establishment of the Islamic State, till the reign of the Abbasid Caliph « Mutawakkil ».

To fix dates, we can have the date of the Arab conquest of Syria as a beginning, hence our period will be 13 : 247 H. (634 : 861 A.D.). It is better however to have wider look, to have an idea about the history of the place and the precedents of frontier limitations and fortifications that happened there before Islam.

★ ★ ★

The first Chapter : gives an elementary introduction for

ISLAMIC-BYZANTINE FRONTIERS

between Military Struggle and Cultural-Commercial Relations

PART I

Establishment of the Frontiers :
Geographical and Historical Factors

By

Fathi Osman

Published By
National Publication House

الحدود الإسلامية البيزنطية

بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى

الكتاب الثانى

فى التاريخ الحربى

تأليف

فتحى عثمان

الناشر

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

القاهرة

الفصل الرابع

المعارك فى أراضى الحدود

- الحملات البرية : حملات الحدود ، محاولات فتح القسطنطينية فى العهد الاموى .

  سياسة العباسيين ووجهتها المشرقية

  دبيب الوهن

- الحملات البحرية

- الفتن الداخلية ومعاركها فى أراضى الثغور والعواصم الاسلامية

« لكم جرت الدماء فوق كل قدم من أرض الثغور طوال أيام الأمويين والعباسيين .. ان الدماء قل ان خضبت أرضا فى آسيا كما خضبت هذه الأرض ! .. بل وربما لم تسل الدماء على حدود الرين وسهول لمباردى بهذا القدر !! » .

عبارة تداولتها أقلام مؤرخين متعددين شرقيين ومستشرقين .. لقد كانت تلك المعاقل الهامة التى تسيطر استراتيجيا على تقاطع الطرق الحربية أو مداخل الممرات الضيقة الجبلية تتداولها الأيدى مرارا وتكرارا تبعا لانتصار فريق أو اندحاره .. ففى عهد الخلفاء الامويين الاقوياء توغل العرب داخل كيلكيا وكبادوكيا ، ولكن الدولة البيزنطية فى عهد يزيد الثانى وخلفائه الضعاف استردت المدن التى كان قد احتلها المسلمون . ثم اكتسبت الدولة الاسلامية بقيام العباسيين حيوية جديدة فلم تلبث أن استردت هذه الثغور وحصنتها فكانت قواعد انطلاق للجيوش الجرارة فى الغزوات السنوية من صوائف وشواتى ، وكانت هذه الجيوش تدخل فى معارك شديدة أحيانا ، وأحيانا كثيرة لا يتعدى نشاطها حدود المناورات (١)

ولم يكن هذا الصراع جديدا على المنطقة .. لقد تغير أحد طرفيه فقط فغدا صراعا بين المسلمين والبيزنطين بينما كان من قبل صراعا بين الساسانيين والبيزنطيين . وفى عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧:٥٦٥م) وكسرى الاول انو شروان (٥٤١ : ٥٧٩م) قاد كسرى جيشه بنفسه سنة ٥٤٠م نحو قلاع بلاد الجزيرة وانقض على سوريا الشمالية « وكان هدفه

(١) Encyc. de l'Islam. Art. Awasim, Hitti: Hist. of Syria. p. 443
الترجمة العربية ج ٢ ترجمة د. اليازجى ص ٤٤ ــ ٥ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ ١ ص ٢٥٠ ، سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ــ ترجمة رياض رأفت ص ٣٧٠

الأساسي أن يوجه ضربة الى انطاكية عاصمة الشرق الغنية التى لم تر عدوا منذ ثلاثة قرون تقريبا .. فسقطت المدينة وأنزل كسرى على الفرات آلاف الأسرى كما فعل نبوخذ نصر من قبل باليهود فى مدينة اسماها أنطاكية الكسروية Chosro Antiocheia ، وتابع كسرى هجومه على الحدود الرومانية فى كلكيز Cholcis فى أقصى الشمال ، ولكنه رجع أدراجه عندما وصلته الأنباء بأن بلزاريوس Belisarius غزا بلاد أشور وأخذ يحاصر نصيبين . ونجح بلزاريوس فى الدفاع عن خط الفرات ، وارتد الغزاة بعد أن استولوا على قلعة واحدة من بلاد الجزيرة .. واستمرت المنازعات بين الساسانيين والبيزنطيين مالا يقل عن عشرين سنة من عهود جستين الثانى (٥٦٥ : ٥٨٧ م) وتيبريوس (٥٧٨ : ٥٨٢ م) وموريس (٥٨٢ : ٦٠٢م) - اذ أعلنت الحرب سنة ٥٧٢م ولم تقف حتى سنة ٥٩٢ م . وكانت حربا غير حاسمة ، وأصبحت من جرائها ولايات الحدود فى كلا الامبراطوريتين فى حالة مخيفة من الخراب ، ووصل الفرس أبواب أنطاكية كما توغل الروم فى ميديا . واضطر كسرى الثانى (٥٩٠ : ٦٢٨ م) أن يتنازل لموريس عن مدينتي دار ومارتيروبوليس من مدن الحدود وقطعة من الاراضى الارمينية . وفى سنتين متواليتين من عهد فوكاس (٦٠٢: ٦١٠م) اندفع الفرس الى سوريا الشمالية وخربوها حتى ساحل البحر ، وفى السنة الثالثة اتجهوا شمالا واكتسحوا ولايات آسيا الصغرى التى لم تكن قد مست حتى الآن بسوء ، وفى سنة ٦٠٨م توغل جيشهم عبر كبادوكيا وجالاتيا حتى وصل الى أبواب خلقيدونية . وبذل هرقل(٦١٠: ٦٤١م) جهوده لانقاذ الامبراطورية فى حملات متتابعة (٦٢٢ : ٧م) حتى انسحب الفرس من آسيا الصغرى وسوريا ، واسترد بلاد الجزيرة الرومانية بما فيها قلاع أميدا (آمد) ودارا امارتيروبوليس . وحاصر الفرس القسطنطينية سنة ٦٢٦م متعاونين مع الآفار والسلاف الذين حاصروها من الجانب الأوربى ولكن الاسطول الرومانى حال دون توحيد قواتهم وثبتت القسطنطينية واستدعى هرقل حلفاء تتار من الشمال وهاجم الفرس فى عقر دارهم » . (٢)

ولم يكد البيزنطيون يفيقون من ضغط الهجمات الفارسية حتى واجهوا مخاطر الحملات العربية التى « كانت أبرز ظهورا وغيرت تماما مجرى التاريخ » . (٣)

---

(٢) اومان : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور بدر ص ٧٧ : ٩ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٥ : ٧ .

(٣) Byzantium p. 11.

وقد بلغت المسلمين فى أول أمرهم أنباء صراع الفرس والروم ، فانحازوا بعاطفتهم الى الروم المسيحيين ضد الفرس الوثنيين حتى راهن أبو بكر الصديق أن الغلبة آخر الامر ستكون للروم ، ونزل القرآن يقول « غلبت الروم فى أدنى الارض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » .

وانتصر الروم على الفرس فعلا « ويعتبر عصر هرقل أفضل نقطة انفصال فى تاريخ الامبراطورية بين ما يمكن أن يطلق عليه بصفة عامة التاريخ القديم وبين تاريخ العصور الوسطى » . (٤) .

ولكن المسلمين مالبثوا أن جاءوا هم يدقون أبواب الامبراطورية البيزنطية التى كانوا يتوقون الى انتصارها منذ سنوات على الفرس الكفار .. وكان ذلك فى عهد الخليفة الذى راهن على انتصار الروم من قبل ، فجاء الفتح الإسلامى خطا رئيسيا فى مجرى التاريخ « وكانت الحادثتان الرئيسيتان فى أواخر العصور القديمة : هما الهجرات التيوتونية التى أسفرت عن تمزيق الامبراطورية الرومانية الوقورة ، والفتوحات العربية التى حطمت الامبراطورية الفارسية وهزت القوة البيزنطية الى أساسها ، ووصلت أقصاها فى احتلال أسبانيا ـ فاعتبرت بداءة العصور الوسطى .. وكانت الحملات الحربية التى قادها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص الى العراق وفارس والشام ومصر من بين أروع الحملات التى تمت فى تاريخ الحروب والتى تجمل مقارنتها بحروب نابليون أو هانيبال أو الاسكندر » . (٥)

وقد كانت هذه الفتوح حدثا مؤثرا فى تاريخ الدولة البيزنطية نفسه « ففى خلال القرن السابع برزت الى الوجود امبراطورية جديدة ، وثبتت على موقفها حين سار ليو الثالث من آسيا ليؤسس أسرة حاكمة . لقد كانت الامبراطورية الجديدة جواب الشرق المسيحى على تهديد خلفاء رسول الاسلام ، وكان ينبغى للدولة كما نظمت وقتذاك أن تكون قوقعة صلبه لمقاومة الهجوم الاسلامى . وهنا لا نجدو استمرارا للامبراطورية الرومانية القديمة ، بل نجد فقط معاودة لتأكيد السلطان الامبراطورى المطلق والمركزية الادارية لمواجهة ظروف متغيرة » . (٦)

لقد فتحت الشام فتتابعت على أثرها فتوحات الجزيرة وأرمينية من

---

(٤) اومان : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور بدر ص ١١٠ .

(٥) حتى : تاريخ العرب . ترجمة نافع جـ ١ ص ١٧٤ .

(٦) Byzantium. pp. VX—XVI

جهة، وفتوحات مصر والمغرب وجزر البحرالمتوسط من جهة أخرى • ذلك أن تأمين فتح الشام قد استدعى السيطرة على تخومها من الشمال والشمال الشرقى ، ومن الجنوب والجنوب الغربى • وكان موقع مصر الاستراتيجى هاما بالنسبة للشام والحجاز ، فهى الجناح الأيسر لهما ولها ساحلان طويلان على البحر المتوسط والأحمر ، كما كانت عاصمتها مقرا للأسطول البيزنطى واليها انسحب الأرطبون Areteon بعد سقوط الشام ، ومنها خرجت حملة هرقل البحرية التى هاجمت شمالى الشام واستولت على انطاكية ، فكان لا بد من السيطرة عليها لاضعاف بيزنطة وتأمين الشام ثم ان مصر هى بوابة افريقية ومورد القمح الغنى للامبراطورية • وقد ذكر ابن الحكم أن عمرو بن العاص كتب الى عمر يقول : « ان فتحها كان قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الارض أموالا » وهكذا كان ضمان السلامة هو الذي أدى بالعرب الى مد فتوحهم من أجل تحقيق حماية أفضل ، وفى ظل هذه القاعدة يبحث عن أسباب الفتوح بوجه عام عدا فتوح المشرق ، ومن هنا استدعى الموقف أن تؤمن الشام بفتح الجزيرة ومصر ، وقد نوقشت هذه السياسة وتقررت فى مؤتمر الجابية حين اجتمع عمر بن الخطاب بقواده • كذلك جاء فتح الجزيرة والعراق لأهيمتها الاستراتيجية بالنسبة لضمان السلامة من جهة ثم لسهولة هذا الفتح للقوات المستقرة بالشام ، وأخيرا للوصول الى مصبات دجلة والفرات • فبعد فتح الشام لم يعد الفرات حدا خطيرا ، وهو يكون طريقا هاما عرف الفرس قيمته • وفى الشرق والجنوب من السهل السورى الطويل الممتد بين اللكام (أمانوس) والفرات لاتعترض أية عقبة جغرافية مدخل وادى النهرين • وقد كان هذا السهل مع اقليم أنطاكية ميدانا ملائما للحشود العسكرية بحكم اتصالها بمناطق غنية • وقد كان نظام الدفاع البيزنطى عن طريق اقامة سلسلة من المعاقل المنعزلة أو المتصلة ، يحتاج الى أن يعزز بقوات متحركة حسنة التدريب • وهذا ما لم يكن متوافرا فى بعض الاوقات • وان كان الاقليم ـ كما يؤكد شابو ـ Chapot متجاوبا مع بيزنطة رغم نزعات اليهود وأهل حران Carrheens (٧) •

ولم يتوقف الخطر العربي وكان على الامبراطورية البيزنطية أن تحشد كل امكانياتها وجهودها للاحتفاظ بجبال طوروس حدا أقصى للتوسع العربى فى الشمال ، فقد واصل العرب اجتياز السلسلة الجبلية الى آسيا

(٧) حتى : تاريخ العرب حـ ١ ص ١٩٦ ، العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٤٤ ـ ٧ ، أسد رستم : الروم حـ ١ ص ٢٤٨ ـ ٩ ،
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins pp. 47-8, 50—1

الصغرى · وشيدوا لهم أسطولا ، وفى سنة ٦٧٢م وطدوا مركزهم فى بحر مرمرة وفى سنة ٦٧٧م أغاروا على أسوار القسطنطينية ، وفى بداية القرن التالى نظموا حركة ضخمة لتوجيه الضربة القاضية للامبراطورية باحتلال العاصمة · وفى خلال ذلك الوقت نفسه كانوا يتوسعون صوب الغرب فشرعوا يهاجمون افريقية سنة ٦٧٠م وسقطت فى أيديهم قرطاجة سنة ٦٩٧م ، ومنها تحركوا صوب الأندلس · ومن الموانى البحرية فى مصر والشام تقدمت أساطيل العرب لتستولى على قبرص ورودس ، ومنهــا هاجمت جزر بحر ايجة والبحر المتوسط ، وتعرضت آسيا الصغرى آخر ممتلكات البيزنطيين غيرالأوربية الى منازعات عنيفة طيلة قرن ، واستسلمت فى النهاية أرمينية وأقاليم القوقاز ، ومع ذلك نجح البيزنطيــون فى فى الاحتفاظ فى الجنوب بممرات جبال طوروس التى تعتبر الباب الرئيسى الى شبه الجزيرة (٨) · « وانتزعت من الامبراطورية أقاليمها الكبرى فى المساحة والسكان والثروة ، ونزع منها كل طابع عالمى ، وهبطت الى مجموعة من الأقاليم المتفرقة فى آسيا الصغرى وجنوبى شبه جزيرة البلقان وايطاليا وصقلية ، على أن العرب بدورهم لم يكفوا عن أن يؤملوا فى انتزاع البقية الباقية منها · وقد حملوا مرتين فى خلال نصف قرن على العــــاصمة القسطنطينية سنة ٦٧٣ م ، ٧١٦ م ولم ينقذها من المصير المحتوم سوى تفوق الفن الرومى technique grecque وخاصة استعمال النار الاغريقية feu grégois » (٩) · كما واجهت القسطنطينية وقتذاك اخطار اللمبارد والسلاف والبلغار بجانب العرب ، وكمــا يقــول بريبيه L. Brehier ان هذه الفترة تميز بالنسبة للقسطنطينية بداية دور تاريخي من الدفاع الدائم استمر حتي القرن الخامس عشر الميــــلادى وتعاقب فيه التقدم والتقهقر · (١٠)

وكانت سلسلة جبال طوروس وطوروس المضــــادة أو الداخلية Anti-Taurus تبــدو وكأن الطبيعــة قد أقامتهــا حدودا طبيعية « حتى كأن اللغة العربية كانت تتجمد على منحدرات تلك الجبال الجنوبية » · على حد تعبير فيليب حتى !! على أن المسلمين وقد نجحوا فى فتوحهم بالشام والجزيرة وأرمينية قد ثبتوا حدودهم فى مواجهة بيزنطة وكان عليهم أن

(٨) Runciman : Byz. Civ. p. 35, Byzantium. pp. 11 - 12.

(٩) Gaudefroy-Demembynes, Platonov: Le Monde Musulm. et Byz. pp.453-4

(١٠) Vasiliev. Hist. de L'Emp. Byz. Vol. I. p. 283.

يضطلعوا بوضع نظام دفاعي يتمشى مع امتداد هذه الفتوح • وكانت الخطة الأولى التى انتهجتها الدولتان المتعاديتان على جانبى هذه السلسلة الجبلية هى احتجاز احداهما عن الاخرى بتحويل المنطقة الفاصلة بينهما الى أرض قفراء • وعمل المسلمون من جانبهم أول الأمر على اقامة هذه المنطقة الحاجزة بين الدولتين التى لايملكها أحد no man's land ، لكنهم ما لبثوا بعد ذلك أن تابعوا خطة أخرى ترمى الى تأسيس قواعد عسكرية فى تلك المنطقة باعادة بناء المدن المهجورة أو المخربة وبناء مدن جديدة وتحصينها جميعا • وهكذا نما خط التحصينات الاسلامية فى الثغور من طرسوس فى قيليقية (كيليكيا) الى ملطية عند الفرات الأعلى التى تتحكم فى الممرات الجبلية ، وشحنت هذه الثغور والعواصم التى تليها بالمقاتلة ، وكانت القسطنطينية على مسيرة ٤٥٠ ميلا من طرسوس وعلى خط مستقيم معها وقد وصلت الغارات المتكررة فى آسيا الصغرى الى العاصمة البيزنطية ، لكن المسلمين لم يستطيعوا أن يثبتوا لهم مركزا فى آسيا الصغرى نفسها • (١١) •

واتحدت فى الدولتين المتصارعين سمات مشتركة « فالمؤمن الذى يقتل فى هذا الكفاح يدخل الجنة شهيدا ، وعلى هدى تلك الروح نفسها سأل نقفور فوقاس (٩٦٣ : ٩م) القساوسة اليونان أن ينزلوا الجنود المسيحيين الذين قتلوا فى حزب المسلمين منازل الشهداء • وقد أدى استمرار حرب الثغور الى حدوث نفس التطور الاجتماعى لدى كل من الدولتين ، فمنذ القرن السابع شرعت كل من الدولتين تقطع أجزاء كبيرة من مناطق الثغور لطائفة وراثية من المقاتلين المحترفين •• وكانت كل من الامبراطوريتين الاسلامية والبيزنطية تحت حكم اوتوقراطي مطلق •• وكان كل من المسلم والمسيحي اللاتيني والمسيحي اليوناني يرى نفسه صاحب الدين الحق ، وكانت الثقافة هى الدين والدين هو الثقافة ، وارتبطت العقيدة بالدولة » • (١٢)

(١١) حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ ١ ص ٢٤٨ : ٢٥٠ ؟
Hitti. Hist. of Syria. pp 442: 4
الترجمة العربية جـ ٢ ـ ترجمة د• اليازجى ص ٤٤ ـ ٥
(١٢) جرونيباوم : حضارة الاسلام ـ ترجمة جاويد ص ٢٣ : ٦

صور النشاط الحربى :

تتابعت **الصوائف والشواتي** التى كان يرسلها المسلمون الى الحدود البيزنطية بصفة دورية فلم تعد تنقطع الا لخطر بالغ تواجهه الدولة الاسلامية في داخلها ، وهذه الغزوات وان لم تكن لها نتائج حاسمة فانها كانت مدرسة مفيدة لعرب الشام والجزيرة اذ بفضلها لم ينقطع تدربهم على الحرب (١٣) ٠ وقد اهتمت المراجع الاسلامية بايراد أخبار الصوائف والشواتى مجملة أو مفصلة حسب أهميتها ، ذكرها البلاذرى (المتوفى سنة ٢٧٩هـ ، ٨٩٢م) فى سياق حديثه عن فتوح البلدان بلدا بلدا ، وأوردها الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ ـ ٩٢٣ م) على طريقة الحوليات سنة سنة ، وتابعه على ذلك ابن الاثير (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٣م) لكنه أدخل مرويات البلاذرى فى ثنايا حولياته ٠ وفى تاريخ اليعقوبى (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ـ ٨٩٧ م) اختصت هذه الحملات بوضع خاص فى نهاية حكم كل خليفة ، جعل لها ابن كثير فى (البداية والنهاية) موضعا خاصا فى مدخل أخبار كل سنة ، وهى مميزة كذلك عند ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٦ م) ، كذلك حاول المؤرخون المسلمون التأريخ لدولة الروم وبيان ملوكها الأقدمين والمتنصرين ومن عاصر منهم دولة الاسلام ٠

وقد كانت الحملات الاسلامية على الدولة البيزنطية **برية وبحرية** ، وقدامة بن جعفر يرى أن من الثغور « ما يجتمع فيه الأمران وتقع المغازى من أهله فى البر والبحر ٠٠ والمجتمع فيه الأمران غزو البر والبحر الثغور المعروفة بالشامية » ٠ (١٤) كذلك شهدت مناطق الثغور والعواصم وما يتاخمها من أرض الجزيرة وشمالى الشام **فتناداخلية** شغلت الدولة الاسلامية بقمعها ، فأدارت سلاحها من الهجوم خارج الحدود الى تاديب المتمردين داخل الحدود ،وقد وجدت الفتن الداخلية كذلك فى داخل الدولة البيزنطية ومنها ما كان يمس مناطق حدودها مع المسلمين ، وقد حاولت كل دولة أن تفيد من الظروف السيئة والعناصر المتمردة فى الدولة الأخرى ٠

وعلى ذلك يمكن اجمال صور النشاط الحربى فى اقليم الثغور والعواصم الاسلامية فى هذه الصور الثلاثة : ـ

(١٣) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة دكتور أبى ريده ص ٢٠٩ ٠
(١٤) قدامة : نبذ من كتاب الخراج ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٣

١ ـ الحملات البرية :

استهدفت الحملات الاسلامية الهجوم على معاقل الحدود البيزنطية أولا ثم استطاعت أن تتوغل في داخل الاراضي البيزنطية حتى بلغت العاصمة ٠

(ا) **معاقل الحدود :** لم يكن أسلوب الدفاع عن الحدود المألوف في بريطانيا مطبقا في الشرق ، وهو لا يكاد يوافق ظروفه الجغرافية ٠ ففي الجزيرة أو التخوم الصحراوية للشام لا نجد آثار حواجز كالتي عرفت في نورثمبرلند واسكتلندا وأراضي الرين ، والتي كانت تتألف من حواجز وخنادق : Vallum, foss ، وانما وجدت سلاسل من القلاع امتدت على حدود الفرات وطول الخابور (أبوراس Aborras) ، كما امتدت شمالا من دارا الى آمد ، وكان الحد الشرقي لآسيا الصغرى يتابع الفرات الأعلى وأهم قاعدتين على هذا الحد هما ملطية في الجنوب وستلا Satala (سداغ) في الشمال ٠ وكانت ملطية Melitene على مسافة واحدة من كل من انطاكية وطرابزون ويمكن الوصول اليها من سميساط Samosatia بطريق مباشر أو بطريق أطول يساير الضفة اليمنى للفرات ٠ وكانت أرمينية الرومانية تقع وراء الفرات وتكون خط دفاع جبلي ضد الفرس ٠ وتعرضت الصحراء الممتدة شرقا من سوريا وفلسطين الى الفرات والأرض المتروكة في جنوبي وادي بين النهرين لهجمات البدو الذين كانوا يغيرون ويلوذون بالفرار فيتعذر تعقبهم في فيافي الصحراء ، وقد بدأ توطن هؤلاء داخل الاقليم الروماني في القرن الثالث الميلادي ٠ ويمكن أن نقارن مراكز تجمعهم بمراكز تجمع الجرمان على الحدود الأخرى ، وقد نالت تجمعاتهم تعضيد الدولة ، على ان هناك من ظلوا خارج الحدود يحاولون الافادة من العداء بين الروم والفرس بعرض خدماتهم على جانب أو آخر(١٥) ٠ وقد كان على المسلمين حين اتجهوا الى فتح الشام أن يحتكوا بالعرب المتوطنين على الحدود أولا ، ثم يقتحموا الشام بأجنادها المختلفة بعد ذلك ، حتى اذا دانت لهم الشام صار عليهم أن يؤمنوا مراكزهم الجديدة بفتح الجزيرة وأرمينية ٠ وعندما استقر الفتح الاسلامي في تلك الديار تطلع المسلمون الى أراضي الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى فبدأوا بشن الغارات على معاقل حدودها ، ولما خبروا مسالكها أخذوا يتوغلون الى داخلها شيئا فشيئا مستندين الى قواعدهم العسكرية التي أقاموها عند حدودهم مع البيزنطيين ٠ ثم تطلعوا بعد ذلك

---

(١٥) Bury : Hist. of the Later Roman Emp. Vol. I. pp. 94-5

الى العاصمة نفسها ، ليضموا الدولة كلها الى حوزتهم ، ويسقطوها نهائيا بضربة قاضية كما فعلوا بدولة الأكاسرة الساسانيين .

(ب) **القسطنطينية** : تعرضت أسوارها التى أقيمت تحت رعاية Anthemius (٤١٣م) لخسائر بالغة من جراء زلزال حدث سنة ٤٤٧ م فأصلحت ودعمت وأقيم سور خارجي جديد . ولعل المدينة فى ذلك الوقت كانت تتوقع هجوم الهون فى أى لحظة فأجرى العمل على عجل لمواجهة الخطر . ولما تم تحصين المدينة على هذا النحو لم يتعرض بعد ذلك هذا التحصين لتغيير جوهرى . وكان هناك سور داخلى يمثل خط الدفاع الرئيسى عن المدينة وسمكه حوالى ١٤ قدما ، ويدعمه ٩٦ برجا ــ ارتفاع كل منها ٦٠ قدما ، ويفصل كل برج عن الآخر حوالى ٦٠ ياردة ويرابط في هذه الابراج حرس دائم . وبين هذا الحائط الداخلى وبين السور الخارجي مسافة يبلغ عرضها من ٥٠ الى ٦٠ قدما . وسمك السور الخارجى من ٢ الى ٦½ قدما فقط ، ومعظمه مبنى بشكل أقواس arches وله ٩٦ برجا أيضا يتفاوت ارتفاعها ما بين ٣٠ و ٣٥ قدما . وفى خارج السور جسر عرضه ٦١ قدما ، يليه جندق يتفاوت عمقه من موضع الى آخر ويبلغ عرضه ٦١ قدما وتقسمه سدود منخفضة . ويخترق هذه التحصينات ١٠ بوابات خصص منها خمسة للأغراض العسكرية البحتة . وتتوالى البوابات المدنية والعسكرية . والمدخل الرئيسى الأقرب لبحر مرمرة هو البوابة الذهبية Golden Gate وقد شيدها ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩: ٣٩٥) كقوس نصر تذكارى لتغلبه على ثورة مكسيموس ، وتصميم القوس كبوابة يوحى بأن ثيودوسيوس ربما يكون قد فكر فى احاطة المدينة بسور جديد . وكانت البوابات الاربعة الاخرى تعرف بهذه الاسماء Melantias, Rhegion, St. Romanus, Charisius وكان الجزء الممتد من السور النازل من بوابة سانت رومانوس الى وادى ليكوس Lycus والصاعد بعد ذلك الى بوابة كاريزيوس ــ ويعرف هذا الجزء بالسور الأوسط Mesoteichien أضعف نقطة فى خط الدفاع يتخيرها العدو لينفذ منها . وكانت البوابات الخمسة تقسم السور الى ستة أقسام لكل منها حامية خاصة . وفى كل قسم ــ عدا القسم القصير بين البوابة الذهبية والبحر الذى كان القسم الاول يمده بالرجال ــ كانت هناك بوابة عسكرية تؤدى الى الممر الداخلى . وبعد اتمام سور انتيميوس بخمسة وعشرين عاما ، مدت الاسوار البحرية للقسطنطينية على طول القرن الذهبى Golden Horn ومرمرة لتتصل بخط التحصينات الجديد ، ويبدو ان هذا قد تم سنة ٤٣٩م . غير ان الاقليم الثالث عشر وراء القرن الذهبى المعروف باسم Syca وفيما بعد

Galata لم يكن محصنا ، وهو وان كان جزءا من المدينة من الناحية الرسمية الا انه كان ضاحية في واقع الامر • وكانت هناك سفنا تسير كمواصلات منتظمة لهذا الجزء فضلا عن جسر خشبي مقام على القرن الذهبي حلت محله قنطرة حجرية في القرن السادس الميلادى • وكانت البوابة الذهبية الميناء الكبير للقسطنطينية غير انه كانت هناك مرافيء صغرى على البسفور كانت تأتي اليها السفن المحملة بالقمح من مصر وأهمها Eleutherius وقد كانت هذه الموانى الصغيرة موافقة لاحتياجات الدولة وضرورية لها اذ ان الرياح الشمالية السائدة كانت تجعل من العسير على السفن غالبا أن تدور لتدخل القرن الذهبى (١٦) • وقد وصف ابن رستة القسطنطينية فقال «مدينة عظيمة : اثنى عشر فرسخا في اثنى عشر فرسخا • وفرسخهم على ما ذكر لى ميل ونصف ، ويحيط البحر مما يلى المشرق منها وغربيها صحراء يؤخذ منه الى الرومية • وعليها حصن • والباب الذى يؤخذ منه الى الرومية من ذهب ، والى جانبه ناس من خدمه ويسمى باب الذهب ، وعلى الباب تماثيل خمسة على مثال الفيلة ، وتمثال على صورة رجل قائم قد أخذ بزمام تلك الفيلة ، ولها باب مما يلى الجزيرة يقال انه باب بيغاس ـ موضع يتنزه الملك اليه وهو باب من حديد (١٧) » •

وقد صاحبت الحملات الاسلامية البرية من الثغور الشامية والجزرية أيضا مثل أرضد الدولة البيزنطية حملات أخرى في **جبهات مختلفة** ضد البيزنطيين أيضا مثل أرمينية من جهة وبلاد المغرب وجزر البحر المتوسط من جهة أخرى • وكانت هذه الجبهات المتعددة التى فتحها المسلمون في أراضي الدولة البيزنطية تدعو الى تنسيق سياسة الهجوم الاسلامي وبالتالي سياسة الدفاع البيزنطي مما يؤدى الى تأثر الحرب في جبهة بما يحدث من عمليات فى جبهة أخرى •

٢ ـ الحملات البحرية :

كانت معركة ذات الصوارى سنة ٣٤ هـ ـ ٦٥٥ م التى وقعت قرب ثغر Phoenicus على ساحل آسيا الصغرى بداية موفقة للمعارك البحرية بين المسلمين والبيزنطيين • وقد تأسس الاسطول الاسلامي بفضل جهود عبد الله بن سعد بن أبي سرح في مصر ، ومعـاوية بن أبي سفيان في

(١٦) Bury: Hist. of the Later Rom. Emp. Vol. I. pp. 70-2.

(١٧) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ١١٩

الشام » وكانت معركة ذات الصواري قاضية على تفوق الاسطول البيزنطي، ولكن المسلمين بسبب بعض الاضطرابات الداخلية فشلوا في أن يستغلوا انتصارهم ويواصلوا تقدمهم الى القسطنطينية التى كانت هدفهم الاصلي(١٨) » ٠

وتتابعت الحملات البحرية الاسلامية على جزر البحر المتوسط ، كما ساندت الهجمات البرية على القسطنطينية واضطرت الدولة البيزنطية ازاء الخطر الاسلامي الى تعميم نظام البنود Thema وادخاله في ولاياتها البحرية المواجهة للمسلمين ففى القرن الثامن الميلادى كان هناك البند الايجى (ابيدوس) وبند كيبيرايوت Kibyrhaetoi وكان حاكم البند الاول موكلا بحماية شواطىء آسيا الصغرى ومداخل بحر ايجه من المسلمين ٠ وكان هذان البندان البحريان خاضعين لقيادة عليا خاصة لدفع العرب عن القسطنطينية ومواجهة حركات الاساطيل الاسلامية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وكان تحت تصرف كل منهما أسطول كبير من سفن القرابيز Carabos الصغيرة السريعة الشبيهة بالشوانى المملوكية ٠ ودعا النشاط البحرى الاسلامى فى القرن التاسع الميلادى الدولة البيزنطية الى معاودة تنظيم بنودها البحرية فأسست بندا بحريا ثالثا مركزه جزيرة ساموس ومهمته مراقبة حركات المسلمين المسيطرين على كريت وحماية مداخل البحر الادرياتى وجنوبى ايطاليا من غاراتهم ، كما أقيمت قواعد بحرية فى بعض البنود الاوربية المهددة بالخطر الاسلامى البحرى مثل البلوبونيز وبنود ايطاليا(١٩) ٠

٣ ـ المعارك الداخلية :

لم تنقطع محاولات كلا الفريقين للافادة من الفتن والقلاقل لدى الآخر، فالبيزنطيون قد حاولوا كثيرا استثارة الجراجمة ضد المسلمين « فكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى ويكاتبون الروم ويمالئونهم(٢٠)»٠ كذلك حاولوا الانتفاع من فتنته الخرمية أيضا ٠ وبالمثل اتجه المسلمون الى الافادة من خصوم الدولة البيزنطية من الصقالبة ، فيذكر تيوفانيس فى

---

(١٨) حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ ١ ص ٢٠٤ ـ ٥ ٠

(١٩) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ ، دكتور العدوى دراسات فى التاريخ البيزنطى : المجلة التاريخية م ٢ ع ٢ سنة ١٩٤٩ ؟ Runciman: Byz. Civ. pp. 150-1.

(٢٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٦

أحداث عام ٦٦٤ أن السلاف انضموا الى قائد المسلمين وسـار معه الى سوريا خمسة آلاف منهم فسكنوا فى أفامية • ونجح القائد المسلم فى استمالة « قائد الصقالبة حليف الروم ، فأرسل له كيسا مملوءا ذهبا وأطعمه بالوعود الكثيرة وحرضه على الانضـمام اليـه مع عشرة آلاف من الصقالبة . وهكذا كان هربه من صفوف الروم » • وقد أسكن محمد بن مروان الصقالبة فى الثغور ، وأنزلهم مروان بن محمد الخصـوص (٢١) شرقى جيحان ازاء المصيصة • وفى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥:٨٦هـ - ٦٨٥:٧٠٥م) تجددت الحرب مع البيزنطيين وكان يحكمهم جستنيان الثانى (٦٨٥ : ٦٩٥ م ، ٧٠٥ : ٧١١م) ، وحين اصطدم الفريقان عند سيواس Sebastopolis انضمت العناصر السـلافية الى المسلمين (٢٢)• كما حاول المسلمون الاستفادة من البيالقة (البولسيين) Paulicians الذين اضطهدتهم الدولة البيزنطيـة فتقفهم العرب وأنزلوهم فى مواضـع أمينة وأدخلوهم فى جيوشهم فشاركوهم حملاتهم على الروم أكثـر من مرة • ويقول قدامة عن هؤلاء البيالقة « هم من الروم الا انهم يخالفونهم فى كثير من أديانهم ، وكان هؤلاء مع المسلمين يعينونهم فى غزواتهمويتوفر على المسلمين المعونة بهم ، الى أن رحلوا دفعة واحدة باساءة أهل الثغـور معاشرتهم وقلة اشراف المدبرين على أمرهم ، فتفرقوا فى البـلاد وسكن مكانهم الارمن (٢٣) » • واستفاد المسلمون من ثورة توماس Thomas على ميشيل الثانى (٨٢٠ : ٨٢٩ م) « وهى التى استمرت ثلاث سنين وكانت حادثا رئيسـيا فى حكم ميشيل الثـانى فهى التى فرضت على الامبراطورية سياستها الدينية ، ولعل فقـد كريت وصقلية نتيجة من نتائجها •• ونلاحظ حلفا حقيقيا كاملا بين توماس والعرب • وكان المأمون متبعا خطة دقيقة التحديد عدائية للروم ، وقد أجل خطته بعدهزيمة توماس بسبب الفتن الداخلية الخطيرة الناشئة فى داخل الامبراطورية ، ولكنه عاد مرة أخرى الى الحرب الجدية فى السنين الأربعة الأخيرة من خلافته » • وكذلك نرى ايفيميوس Euphemius قائد اسـطول صـقلية يتصل بالمسلمين بعد أن أعلن تمرده على الدولة البيزنطية التى أخذت تضطهـده

---

(٢١) فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ١٧٠٦ هامش ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٣ •

(٢٢) Bury : Hist. of the Later Rom. Emp. Vol. II p. 322.

(٢٣) فازيلييف : العرب والروم - ترجمة دكتور شعيرة ص ٢٠٠ : ٢٠٢ ، قدامه : نبذ من كتاب الخراج ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٤

فاستغاث بافريقية وكانت تحت حكم الاغالبة وقد اغتنم فرصة ثورة توماس ونصر المسلمين فى كريت (٢٤) ٠

وقد لا تمس الفتن الداخلية اقليم الثغور مباشرة ، وقد لا تتدخل الدولة المعادية لتأييد الجانب الثائر عند خصومها ، ومع هذا كله يستفيد أى الفريقين بطريق غير مباشر حين يرى الآخر مشغولا بنفسه موجها السلاح ضد أهله ، فالانتقاضات التى شهدها المسلمون فى أواخر حكم عثمان وفى أثناء حكم على بن أبى طالب قد أثرت على موقفهم تجاه البيزنطيين واضطرت معاوية أن يصالح العدو الخارجى ليدعم سلطانه فى الجبهة الداخلية ٠ واندلعت الفتن أيضا أثناء حكم عبد الملك بن مروان أولا ، وأثناء حكم المروانيين المتأخرين ثانيا، وبعد مضى العصر الزاهر من حكم العباسيين أخيرا فكان لهذه الفتن أثرها على الصراع الاسلامى البيزنطى ، وكان البيزنطيون تارة ينتهزون فرصة انشغال عدوهم للعبث بحدوده ، وتارة أخرى يؤثرون العافية ويقنعون بأن كفاهم الله شر القتال « روى المدائنى : لما اشتغل عبد الملك بمحاربة مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم الى ملكهم فقالوا : قد أمكنتك الفرصة عن العرب بتشاغل بعضهم ببعض ، فالرأى أن تغزوهم فى بلادهم ٠ فنهاهم عن ذلك وخطا رأيهم ، ودعا بكلبين فأرش بينهما فاقتتلا قتالا شديدا ، ثم دعا بثعلب فخلاه بينهما فلما رأى الكلبان الثعلب تركا ماكانا فيه فاقبلا على الثعلب حتى قتلاه ٠ فقال لهم ملك الروم هذا مثلنا ومثلهم ـ فعرفوا صدقه وحسن رأيه ورجعوا عن رأيهم(٢٥) » ٠

---

(٢٤) فازيلييف : العرب والروم ترجمة الدكتور شعيره ص ٢٨ ، ص ٦٩ : ٧١ ٠

(٢٥) ابن قتيبه : عيون الاخبار م ١ ص ١١٦ ٠

أولا : الحملات المبكرة بعد فتح الشام
(عصر الخلفاء الراشدين)

الحملات البرية :

تعددت روايات المؤرخين عن أول حملة اسلامية اجتازت الدرب : درب بغراس (مضيق بيلان على ارتفاع ٨٠٠ مترا فوق سطح البحر بين جانبين ارتفاعهما ١٨٠٠ مترا) يربط بين السهل فى الشرق والساحل فى الغرب ، والى جانبيه هناك درب الحدث أو السلامة • وبعض الروايات تبين أن **الحملات الاسلامية الاولى اتجهت الى ارتياد منطقة الثغور الشامية بينما البعض الآخر يتجه بالحملات الى منطقة الثغور الجزرية وبعض الروايات تشير الى ان أول مدربة اخترقت درب بغراس بينما تشير أخرى الى اختراق درب الحدث** • فقد ذكر الطبرى ان خالد ابن الوليد وعياض بن غنم **ادربا مما يلى الشام** ، وادرب عمر بن مالك وعبد الله بن المعتم مما **يلى الجزيرة** «ولم يكونوا ادربوا قبلة ــ ثم رجعوا»وهى أول مدربة كانت فى الاسلام سنة ١٦ هـ » (٦٣٨م) • وروى فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) الروم أبو بحرية الكندى عبد الله بن قيس « وهو أول من دخلها فيما قيل، وقيل أول من دخلها ميسرة بن مسروق العبسى ، فسلم وغنم » وقد اجتازت هذه الحملة درب الحدث • ونقل البلاذرى اختلاف الأقوام فى أشخاص الذين قطعوا الدرب لأول مرة ــ وهو درب بغراس ــ فقيل ميسرة بن مسروق العبسى حيث أوقع يجمع للروم ومعه مستعربة من غسان وتنوخ

واياي يريدون اللحاق بهرقل ، ولحق به مالك الاشتر النخعي مددا من قبل أبي عبيدة وهو بانطاكية ، وقيل اول من قطع الدرب عمير بن سعد الانصارى حين توجه لمحاولة ارجاع جبلة بن الايهم الذى كان قد دخل بلاد الروم فى ثلاثين ألفا اذ وجهه عمر لهذا الغرض سنة ٢١ هـ فى جيش عظيم الى بلاد الروم « وولاه الصائفة ـ وهى أول صائفة كانت ، وأمره أن يتلطف لجبلة بن الايهم ويستعطفه بالقرابة بينهما ويدعوه الى الرجوع الى بلاد الاسلام على أن يؤدى ما كان بذل من الصدقة ويقيم على دينه • فسار عمير حتى دخل بلاد الروم وعرض على جبلة ما أمره عمر بعرضه عليه ، فأبى الا المقام فى بلاد الروم ، وانتهى عمير الى موضع يعرف بالحمار ـ وهو واد ، فأوقع بأهله واخربه ـ فقيل : أخرب من جوف حمـــار » • وقيل ان أبا عبيدة نفسه غزا الصائفة فمر بالمصيصة وطرسوس «وقد جلا أهلها وأهل الحصون التى تليها » فأدرب فبلغ زندة ، وقيل انما وجه ميسرة بن مسروق فبلغ زندة • وقد استهدفت الحملات الاولى **تامين سلامة المسلمين واقصاء خطوط عدوهم وايجاد طائفة من المدن او السكان من أهل العهد المحالفين ـ خاصة في ارمينية ، ثم محاولة حل مسالة اللاجئين الى ديار العدو من اهل البلاد المفتوحة** • وقد كانت هذه هى مهمة الثغور الاساسية ، الا انه فى بعض الاحيان كان الامر يصل الى قيام معارك حقيقية ، ولكن الهدف من ذلك بقى كما هو : ابعاد العدو عن قواعده وعدم اتاحة فرصة له للهجوم(٢٦) •

ويعطينا الكتاب المنسوب للواقدى تفصيلا لطليعة الحملات الاسلامية وراء الدروب ، فيروى أن أبا عبيدة قال بعد أن دانت له الشام : معاشر المسلمين ، هذا الشام قد ملكتموه وملككم الله اياه وأخرج عدوكم منه بالذل والهوان وأورثكم أرضهم وديارهم فما تشيرون به على ؟ أندخل فى هــذه الدروب وراء أعدائنا ؟ فلم يجبه أحد • فأعاد الكلام فكان أول من تكلم ميسرة بن مسروق العبسى فقدم نفسه للقتال وأشار خالد بأن تبعث الجيوش فى كل درب من هذه الدروب فعقد لميسرة وانتخب له من القبائل ٣٠٠٠ فارس و ١٠٠٠ عبد من السودان وجعل من كل قبيلة نقيبا ، **وطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين من يكون دليلا ناصحا لهم ، فاختاروا لهم أربعة وأعطاهم أبو عبيدة وأحسن اليهم وطرح عنهـــم الجزية • ودخلوا الدرب الأعظم من بلد قورس** وقال الأدلاء للمسلمين: **ان هذه الدروب ليست كمثل**

---

(٢٦) الطبرى حـ ٤ ص ١٥٥ رواية سيف ، ٢٣١ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٣ ، ١٧١ ؛ Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins. pp. 75:7.

البلاد التي فتحتموها • بل هي بلاد شديدة البرد ، كثيرة الشجر والمدر والحجر ، وفيها مضايق وشعاب وأودية وكهوف وعقبات • قال عطاء بن جعدة : وسرنا والدليل أمامنا حتى أتينا عقبة حنداس فقطعناها ، عبرنا نحو الساجور وأتينا قورس فنزلنا فيها وبتنا فلما أصبحنا ودخلنا الدروب وجدنا بها أرضا وعرة وأشجارا ومياها جارية ومضايق ليس للفرس فيها مجال ، فهالنا وحشة ذلك المكان اذ ليس للعرب فيه مجال ولا فسحة • فقلت في خاطرى : ان طالت علينا هذه الأردية خشيت على المسلمين أن يظفر بهم عدوهم ، والادلاء أمام المسلمين وقد تعلقوا في جبال شامخة صعبة الصعود • فلم يبق أحد الا وترجل عن فرسه ، ومشينا حتى تقطعت نعالنا وسال الدم من أرجلنا ، فلم نزل على ذلك ثلاثة أيام والأدلاء يقولون لنا : كونوا على يقظة ، فان أخذ عليكم المجال هلكتم • فلما كان اليوم الرابع خرجنا الى أرض واسعة ، وكان دخولنا الى بلاد الروم في أول الصيف ونحن مخففون من الثياب ، ولما دخلنا الى هذه الأرض وجدنا بردا كثيرا ونظرنا على الثلج وهو على الجبال عن يميننا وشمالنا • وقد افاض الكتاب في السرد القصصي عارضا صورة تفصيلية لهذا اللقاء المبكر بين العرب والروم على أرض الروم ، وهو لا يغفل القتال العنيف الذى دار في وقعة أسماها (مرج القبائل) أو (الحطمة ـ لأجل حطم أغمدة السيوف اظهارا للاصرار على القتال) • وانتصر المسلمون نصرا ساحقا «ثم تحالف الروم على ألا ينهزموا أويقتلوا عن آخرهم ، **فأمر بطريق الروم أن تضرم النيران على شواهق الجبال وأن ينفذ النفير الى البلاد بأسرها فاتت اليه الروم من كل جانب** • فلما كان الغد صلى ميسرة بالمسلمين صلاة الخوف ـ وهو أول من صلاها داخل الدروب ، وأول راية دخلت كانت رايته ـ وحث جنوده على الصبر والثبات• ثم أنفذ أحد الأدلاء ومعه آخر الى أبي عبيدة يعلمه أن نفير القوم قد لحق المسلمين من الجنود والقرى وسائر البلاد ونزلوا بازاء المسلمين » • فانتدب أبو عبيدة خالدا على رأس مدد من ٣٠٠٠ فارس أردفهم بالفين ، وقد انسحب الروم بعد مبارزات جرت مع جيش المسلمين ، ووصل خالد بالمدد وأراد أن يتبعهم ، فمنعه ميسرة وقال له : انها بلادهم ، وهي وعرة ، وان الصواب رجوعنا الى عسكر المسلمين فعادوا غانمين منصورين ، ولكن أسر عبد الله بن حذافة ، فكتب فيه عمر الى هرقل فأطلقه(٢٧) •• والقصة بهذا التفصيل الذى عمل فيه بيان الراوى تصور المتاعب التى كان على المسلمين أن يواجهوها في حملاتهم المتتابعة : الطبيعة التى لم يألفها العرب في

---

(٢٧) الواقدى : فتوح الشام حـ ٢ ص ٣٠ : ٨ •

موطنهم ، والتنظيم الدفاعي البيزنطي للبنود Thema الذى أنقذ البقية الباقية من الدولة البيزنطية من الهجوم العربى الاسلامى ٠

ونحن نرى فى الفترة المبكرة التى تلت فتح الشام أسس الحملات المتتالية ضد الروم من **شواتي وصوائف** ، ففى زيارة عمر بن الخطاب للشام سنة ١٧ هـ ـ ٦٣٨ م « قسم عمر الأرزاق ، وسمى الشواتي والصوائف ، **وسد فروج الشام ومسالحها** وأخذ يدور بها ، وسمي ذلك في كل كورة ٠٠ **وأدرب** سنة ١٧ هـ خالد وعياض فسارا فاصابا أموالا عظيمة وكانا توجها من الجابية ٠ فرجع عمر الى المدينة وعلى حمص أبو عبيدة ، وخالد تحت يده الى قنسرين ٠٠٠ وعلى السواحل عبد الله بن قيس ، وعلى كل عمل عامل ـ فقامت مسالح الشام ومصر والعراق على ذلك الى اليوم لم تجز أمة على أخرى عملها بعد الا أن يقتحموا عليهم بعد كفر منهم فيقدموا مسالحهم بعد ذلك » (٢٨) ٠ وكتب عمر الى أبى عبيدة فمعاوية « أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنه العطاء» ، وكتب عثمان الى معاوية يأمره أن يلزمها قوما وأن يقطعهم قطائع ، واتخذ جسر منبج فى خلافة عثمان للصوائف (ويقال بل كان له رسم قديم) ٠ وفتح حبيب بن مسلمة الفهرى ملطية ورتب فيها رابطة من المسلمين فلما قدمها معاوية وهو يريد دخول بلاد الروم شحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما « فكانت طريق الصوائف» ٠ **وقد تم فى عهدعثمان عملان حربيان هامان : فتح أرمينية ، وتكوين الأسطول ، ونحن نستبين فى هذه الاجراءات كلها اصرارا على متابعة الحملات ضد البيزنطيين منذ فتح الشام خاصة بعد توحيد امرة الشام والجزيرة فى يد معاوية سنة ٢٥ هـ ـ ٦٤٦ م، مما أدى الى تنسيق العمليات الحربية فى الجبهتين البريتين فضلا عن تنسيق اعمال الاسطول فى الشام ومصر** ٠ ولم يكن غريبا بعد أن استبانت دلائل هذا الاصرار أن تتتابع حملات الثغور على الحدود البيزنطية مستهدفة تدمير قواعد العدو وازعاجه برا وبحرا ومحاولة التوغل فى أرمينية بجانب القيام بأعمال الحراسة المعتادة ، كما لم يكن غريبا أن تتوالى الفتوح فى بلاد **المغرب وجزر البحر المتوسط** ، ولم يكن هدف التنظيم الحربى فى الثغور الاسلامية مقصورا على **حماية حدود دار الاسلام ضد اى تهديد وتدعيم هيبة المسلمين العسـكرية ، بل كان من أهدافه أيضـا تحقيق ما يمكن من المكاسب الجديدة (٢٩)** ٠

---

(٢٨) الطبرى حـ ٤ ص ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،رواية سيف ٠

(٢٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٩٣ ؟

Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 69-70

ويقدم الطبرى وغيره من المؤرخين المسلمين تسجيلا لغزوات متتابعة منذ غزوة أبى بحرية الكندى عبد الله بن قيس أو ميسرة بن مسروق العبسى سنة ٢٠ هـ ٠

ففى سنة ٢١ هـ ـ ٦٤٢ م « كان بالشام غزوة الأمير معاوية ، وعمر بن سعد الانصارى على دمشق والبثنية وحوران وحمص وقنسرين والجزيرة ، ومعاوية على البلقاء والأردن وفلسطين والساحل وأنطاكية ومعرة مصرين وقيلقية (٣٠) ٠ ولعل هذه الحملة كانت لتأمين الحدود أكثر من أى شىء آخر ، وفى سنة ٢٢ هـ « غزا معاوية الصائفة ودخل بلاد الروم فى عشرة آلاف من المسلمين » (٣١) ٠ وفى سنة ٢٥ هـ ـ ٦٤٦ م « كان فتح الحصون وأميرهم معاوية » ويعطى البلاذرى بعض التفصيل « لما غزا معاوية غزوة عمورية فى سنة ٢٥ هـ وجد الحصون فيما بى أنطاكية وطرسوس خالية فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته ، ثم أغرى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد الحر العبسى الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك وكانت الولاة تفعله ٠ وقال راوى هذا الخبر : ووجدت فى كتاب مغازى معاوية أنه غزا سنة ٣١ هـ من ناحية المصيصة فبلغ درولية فلما خرج جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية الا هدمه » ٠ ويبدو **أن معاوية أراد أن يقرن حملته على شمشاط بحملته فى آسيا الصغرى سنة ٢٥ هـ بعد أن اجتمعت له امرة الشام والجزيرة ، كما أراد أن يغطى جملة قاليقلا بحملة درولية سنة ٣١ هـ** لتأخر وصول نجدة بيزنطية الى قاليقلا (٣٢) ٠ وفى سنة ٢٦ هـ ، ٧٤٧ م.أرسل والى الشام يزيد بن الحر العبسى للغزو ، وفى العام التالى **حشد معاوية قواته فى اقليم قنسرين دون خروج للغزو ، ونلمح هنا بداية تنظيم قاعدة حربية هناك ٠ كذلك الشىء جسر منبج** ، وأطلق على هذه العمليات اسم غزوات. وقد وردت روايات عن غزو حبيب بن مسلمة سنة ٢٨ هـ ـ ٦٤٩ م « **سورية** من أرض الروم ، ولم ينكب » (٣٣) ٠ ولا ندرى ما المقصود بسورية هذه التى سيرد ذكرها فى حملات تالية ، فالمسعودى يقول مثلا ان الروم تسمى « البلاد التى سكانها المسلمون فى هذا الوقت من الشام والعراق سوريا ، والفرس الى

---

(٣٠) الطبرى حـ ٤ ص ٢٥٠ رواية ابن اسحاق ٠

(٣١) الطبرى حـ ٤ ص ٢٥٩ رواية الواقدى ؟
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. p. 76.

(٣٢) اطبرى حـ ٥ ص ٤٧ رواية الواقدى ، ابن الأثير حـ ٣ ص ٣٥ ـ ٦ ؟ البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧١ ـ ٢ ؟
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 76 : 8

(٣٣) الطبرى حـ ٥ ص ٥٤ ؟ Cheira: La Lutte entre Arabes et Byz. p. 77.

هذا الوقت تقارب الروم في هـــذه التسمية ، فيسمون العراق والجزيرة والشام سورستان اضافة الى السريانيين الذين هم الكلدانيون ، ويسمون سريان ولغتهم ســـورية وتسميتهم العرب النبط » ويقـول ياقوت عن سورستان « واليها ينسب السريانيون وهم النبط ، وأن لغتهم يقال لهـا السريانية ٠٠ وقال أبو الريحان : والسريانيون منسوبون الى سورستان ـ وهي أرض العراق وبلاد الشام» ، وينقل ياقوت قول هرقل حين انسحب من الشام « سلام عليك يا سورية ، سلام مودع » ، ويستدل بذلك على أن سورية هي بلاد الشام ، غير أنه يعود فيقول في موضع آخر « سورية : موضع بالشام بين خناصرة وسلمية » ٠ ويذكر الدكتور شعيرة أن **قوات الجزيرة يحتمل أن تكون قد تحركت من سميساط الى ايسوريا** Isaurie **وربما كانت هذه الحملة قد أرسلت لاشغال الروم وتهيئة الفرصة لحملة قبرص التي ارسلت في الوقت نفسه** ٠ وقد تكرر ذكر سورية في أحداث **سنة ٨٩ هـ ، ٧٠٨ م وهي تعني قيليقية (كيليكيا) ، أو قيليقية وكوماجين** Commagene عند تيوفانيس ، أما فلهوزن فيحقق سورية على أنها ايسوريا ٠ ويحققها بروكس Brooks على هذا الوضع بالنسبة لأحداث الأعوام ٦٠ ، ٦١ ، ٨٨ ، ٩٠ هـ ، على أنه يجعلها بالنسبة لأحداث ســنة ٨٩ هـ في أعالي الفرات وقيليقية ٠ ويرى الدكتور شعيرة أن الخلاف ليس كبيرا ، **فقيليقية وايسوريا جزءان من اقليم عسكرى واحد كان في القرن العاشر الميلادى يكون بند سلوقية** Seleucie ولـكن الطبـرى يذكر أن سورية تشمل أقاليم فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما وراء الدرب ، وهكذا تكون سورية ما يلي الابواب الكيليكية (٣٤) ٠ وفي سنة ٣٠ هـ ـ ٦٥١م غزا سفيان بن عوف الغامدى، فرحل من قبل مرعش ـ وكانت أكثر الثغور الجزرية تطرفا للغرب واقربها للشام ، وقد رغب المسلمون في اعادة تحصين مرعش كقاعدة أمامية تشترك مع أنطاكية في عملياتها ٠ وقد ساح سفيان في بلاد الروم ، وهكذا بدأت الحملات المحلية تخلي مكانها لعمليات عسكرية واسعة النطاق (٣٥) ٠ بل لقد أتت في تلك الفترة المبكرة أخبار عن حملات اسلامية أوغلت في أرض الروم ، فقد روى أن معاوية قد غزا المضيق ـ الذى قيل أنه مضيق القسطنطينية سنة ٣٢ هـ ـ ٦٥٣ م ومعه زوجته ، **وقد يكون هذا المشروع المبكر في غزو القسطنطينية هو الذى أثار انتباه الروم وادى الى معركة الصوارى فيما بعد ، كما قد تكون هذه الحملة**

---

(٣٤) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٥٠ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٥ ص ١٦٩ ، ١٧١ ؛ Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 77, 175 (note 3)

(٣٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٦ ؛ Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. p. 77.

تغطية أخرى للجهود الحربية المستمرة ضد قاليقلا ، ويذكر سيبيوس Sebeos هنا خلقدونية • ويحتمل الدكتور شعيرة أن يكون المضيق في آسيا الصغرى وراء طرسوس اذ يقول ياقوت عن (الدرب) اذا أطلقت الكلمة « مابين طرسوس وبلاد الروم ، لأنه مضيق كالدرب» • وفي السنة التالية ٣٣ هـ ـ ٦٥٤ م غزا معاوية حصن المرأة من أرض الروم من ناحية ملطية ، حماية للعمليات الحربية المتصلة في قاليقلا ، ومن أجل حماية الحملة البحرية في العام التالي وبسط نطاقها اتجه معاوية الى تسيير حملة الى قيسارية (قيصرية) حيث يمر طريق ارمينية الكبير ، ويعتبر هذا المشروع ردا على هجوم الروم على أرمنية (٣٦) •

وفي أثناء تتابع هذه الحملات كان المسلمون يواصلون القتال في جبهات بيزنطية أخرى • ففي سنة ٢٤ هـ ـ ٦٤٤ م غزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينية « لمنع أهلها ما كانوا صالحوا عليه أهل الاسلام أيام عمر » ، وقيل ان ذلك كان سنة ٢٦ هـ وكانت الجبهة الاناضولية تعين على نجاح الجبهة الأرمينية اذ كانت تباشر عمليات حربية للتغطية في أراض العدو وأعان على ذلك قيادة معاوية الموحدة • وقد اضطلعت الثغورالجميلة بعبء الفتوح في الجبهة الأرمينية ، فتتابعت الحملات منها الى شمشاط وكمخ وقاليقلا تستهدف فصل ارمينية الكبرى عن بند الارميناق • وكان الأقدمون يجعلون جبها الجزيرة تمتد في مقدمتها حتى غربي منحنى الفرات في مواجهة آسيا الصغرى ، وهي تقابل أرمينية الثالثة التي كانت قاعدتها ملطية Melitene كما أسماها جستنيان سنة ٥٣٥ م ، وتجاور بند الأرمنياق (الذي أنشىء سنة ٦٢٦ م ـ ٥ ـ ٦ هـ) وقد كانت جزءا منه قبل أن يفتحها العرب ، وتفصل بينه وبين أرمينية الكبرى • وهكذا كانت جبهة الجزيرة حساسة ، وكان على المسلمين أن يدفعوا هذه الجبهة الى الأمام لتعزل أرمينية عن الارض البيزنطية • فلما استخلف عثمان وجمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها أمره أن يغزو شمشاط ـ وهي أرمينية الرابعة « فوجه اليهما حبيب بن مسلمة الفهري وصفوان بن معطل السلمي ففتحاها بعد أيام من نزولهما عليها على مثل صلح الرها ، وأقام صفوان بها وبها توفي في آخر خلافة معاوية ـ ويقال بل غزاها معاوية بنفسه وهذان معه فولاها صفوان» • وهذه المدينة تقع على الفرات الأعلى ومواصلاتها سهلة مع الشرق في ارمينية ومع الجنوب ومع جبهة الجزيرة ، ومن هنا كان موقعها ممتازا كقاعدة بالنسبة

---

(٣٦) الطبرى حـ ٥ ص ٧٧ رواية أبي معشر والواقدى ؟ ابن الأثير حـ ٣ ص ٥٤ ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ٤٩ ؟
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 78-9.

لأرمينية • وغزا حبيب بن مسلمة حصن **كمخ** بعد فتح شمشاط وغزاه صفوان دون جدوى حتى فتح فيما بعد سنة ٥٩ هـ ـ ٦٦٩ م • ويظهر أن هذه الجبهة الأرمينية هي التي جاشت فيها الروم سنة ٢٤ هـ فاستمد من بالشام من جيوش المسلمين المدد ، وان كان أبو مخنف لا يحدد أن ذلك كان بأرمينية خلافا للواقدى « فخرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام الى **أرض الروم** وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهرى ، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلى فشنوا الغارات على أرض الروم فأصاب الناس ما شاءوا من سبى وملأوا أيديهم من المغنم وافتتحوا بها حصونا كثيرة » • ويذكر البلاذرى أن هـذا الهجوم البيزنطى كان **تاليا لهجوم اسلامى على قاليقلا** Theodisopolis **سنة** ٣١ هـ ـ ٦٥٢ م ، وكان طريقها فى الشمال يحمى النفوذ البيزنطى فى أرمينية كما كانت فيها حامية بيزنطية منذ أيام جستنيان • « قالوا : ولما استخلف عثمان بن عفان كتب الى معاوية وهو عامله على الشام والجزيرة وثغورها يأمره أن يوجه حبيب بن مسلمة الفهرى الى أرمينية ، وكان حبيب ذا أثر جميل فى فتوح الشام وغزو الروم ـ قد علم منه ذلك عمر ثم عثمان رضى الله عنهما ثم من بعده • ويقال : بل كتب الى حبيب يأمره بغزو ارمينية ـ وذلك أثبت • فنهض اليها فى ستة آلاف ، ويقال فى ثمانية آلاف من أهل الشام والجزيرة ، فأتى قاليقلا فأناخ عليها ، وخرج اليها أهلها فقاتلهم ، ثم الجأهم الى المدينة ، فطلبوا الأمان على الجلاء والجزية ـ فجلا كثير منهم فلحقوا ببلاد الروم ، وأقام حبيب بها فيمن معه أشهرا ، ثم بلغه أن بطريق أرمنياقس قد جمع للمسلمين جمعا عظيما ، وانضمت اليه أمداد من أهل اللان وأفخاذ وسمندر من الخزر ، فكتب الى عثمان يسأله المدد ، فكتب الى معاوية يسأله أن يشخص اليه من أهل الشام والجزيرة قوما ممن يرغب فى الجهاد والغنيمة ، فبعث اليه معاوية الفى رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها • ولما ورد على عثمان كتاب حبيب كتب الى سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ـ وهو عامله على الكوفة ـ يأمره بامداده بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلى وهو سلمان الخيل وكان خيرا فاضلا غزاء • فسار سلمان الخيل اليه فى ستة آلاف رجل من أهل الكوفة ، وقد أقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات ، وقد أبطأ على حبيب المدد ، فبيتهم المسلمون فاجتاحوهم وقتلوا عظيمهم • وقالت أم عبد الله بنت يزيد الكلبية امرأة حبيب ليلتئذ له : أين موعدك ؟ قال : سرادق الطاغية أو الجنة ، فلما انتهى الى السرادق وجدها عنده ، قالوا : ثم ان سلمان ورد وقد فرغ المسلمون من عدوهم فطلب أهل الكوفة اليهم أن يشركوهم فى الغنيمة باردة لأهل الشام ، وكتب الى سلمان يأمره بغزو

ازان » . وقد أورد البلاذرى الرواية الاخرى التى تقول بأن سليمان بن ربيعة توجه الى أرمينية فسبى وغنم وانصرف الى الوليد بن عقبة وهو بحديثه الموصل سنة ٢٥ هـ حيث أتاه كتاب عثمان بأخبار معاوية اياه أن الروم اجبلوا على المسلمين دون تحديد للجبهة الارمينية بالذات ، وعلق البلاذرى على هذه الرواية بقوله « والخبر الأول أثبت ، حدثنى به عدة من مشايخ أهل قاليقلا » . وكانت نتيجة هذا الجهاد الاسلامى فى ارمينية بجانب ما جرته سياسة التعصب المذهبى التى سارت عليها بيزنطة مع أهل أرمينية أن عقد القائدالأرمنى تيودر Theodore Rechtouni مع معاوية سنة ٣٢ هـ ـ ٦٥٣ م صلحا تعاقب على الدخول فيه أمراء الاقليم ، وان كان الأرمن قد دأبوا على التأرجح بين المسلمين والروم . وقد أغار الروم فى العام التالى سنة ٣٤ هـ ـ ٦٥٤ م وحاولوا استثارة أرمينية على العرب ولكنهم عادوا ادراجهم قبل حلول الشتاء . وقبل ذلك بقليل قاد والى الشام حملة ضد حصن المرأة البيزنطى قرب ملطية وذلك لتأمين الحدود الاسلامية ولتحويل ملطية الى قاعدة هامة ، وقد القى على قوات الثغور الجزرية عبء حماية الحدود الأرمينية ، وتتابعت الحملات الاسلامية تجوس خلال أرمينية ، **وغدت هناك حاميات عسكرية اسلامية فى شمشاط وملطية وقاليقلا وسميساط ، واستقر حد منيع بين بيزنطة وأرمينية ، ولكن الكتاب الأقدمين استمروا على استعمال تسمية الثغور الجزرية بالنسبة لكل المنطقة ،** ولم يشأ معاوية أن يخلق جبهتين ، ولذلك نظم فى الشمال قاعدة متوسطة فى ملطية بين الجبهتين القديمة والجديدة (٣٧) .

كذلك حاول البيزنطيون استرداد مصر، اذ نقضت الاسكندريةعهدها سنة ٢٥ هـ ـ ٦٤٥ م ، « وكان سبب ذلك أن الروم عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الاسكندرية من ملكهم ، فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فأجابوهم الى ذلك ، فسار اليهم من القسطنطينية جيش كثيروعليه منويل فأرسوا بها واتفق معهم من بها من الروم ... فلما بلغ الخبر الى عمرو بن العاص سار اليهم وسار الروم اليه فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الروم وتبعهم المسلمون الى أن أدخلوهم الاسكندرية وقتلوا منهم فى البلد مقتلة عظيمة منهم منويل .. فلما ظفر بهم لمسلمون جاء أهل القرى الذين خالفوهم فقالوا لعمرو : ان الروم أخذوا دروابنا وأموالنا ولم

---

(٣٧) الطبرى حـ ٥ ص ٤٥ : ٤٧ روايتا ابى مخنف والواقدى ؟ البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٢ ، ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ؟ ابن الأثير حـ ٣ ص ٣٤ ـ ٥ ؟

Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 70:5.

فخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة . فرد عليهم ماعرفوا من أموالهم وهدم سور الاسكندرية » . وجاءت حملة منويل فى عهد قنسطانز الثانى (٦٤١: ٦٦٨ م) محاولة من الدولة البيزنطية لمواجهة العرب فى البحر المتوسط الشرقى ، **وقد كانت هذه الحملة مصاحبة للحملات التى شغلت جيوش المسلمين بالشام على الحدود البيزنطية فى الجبهة الأرمينية غالبا (٣٨)** . وفى سنة ٢٥ هـ اتبع المسلمون فتح مصر بالاتجاه لفتح بلاد المغرب مورد الغلال والأخشاب البيزنطية اذ « سير عمرو بن العاص عبد الله بن سعد ابن أبى سرح الى أطراف افريقية غازيا بأمر عثمان ، وكان عمرو بن العاص قد بعث بعثا قبل ذلك الى المغرب فأصابوا غنائم (٣٩) » . وهكذا حمل المسلمون راية الجهاد ضد البيزنطيين فى كل مكان .

الحملات البحرية :

كانت سياسة المسلمين فى البحر دفاعية فى أول الأمر ، حسبها أن تواجه خطر حملات الأسطول البيزنطى على الثغور البحرية الاسلامية التى لم تخضع للمسلمين الا بعد مقاومة عنيفة . ففى أواخر سنة ١٦ هـ «وضع عمر مسالح مصر على السواحل كلها ، وكان داعية ذلك أن هرقل أغزى مصر والشام فى البحر ونهد لأهل حمص بنفسه (٤٠) » « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج اليها من المسلمين ، فان حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا اليها الأمداد ــ فلما استخلف عثمان كتب الى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها القطائع ففعل ... ثم ان معاوية لم يزل بعثمان حتى أذن له بالغزو بحرا وأمره أن يعد فى السواحل اذا غزا أو أغزى جيوشا سوى من فيها من الرتب ، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ، ويبنى المساجد ويكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته ... ثم ان الناس بعد انتقلوا الى السواحل من كل ناحية » وقد أتاح تكوين الاسطول الاسلامى فرصا ناجحة لحماية السواحل الاسلامية فضلا عن الهجوم المظفر على أعدائهم . ونحن لا نجد ما بين عامى ٢٥ ، ٣٥هـ

---

(٣٨) الطبرى حـ ٥ ص ٤٧ رواية الواقدى ، ابن الأثير حـ ٣ ص ٣٣ ؟
Bury : Hist. of the Later Rom. Emp. Vol. II. p. 288.
دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٥١ ــ ٣

(٣٩) الطبرى حـ ٥ ص ٤٧ رواية الواقدى ٤٨ : ٥١ رواية سيف والواقدى ؟ ابن الأثير حـ ٣ ص ٣٦ : ٨ .

(٤٠) الطبرى حـ ٤ ص ٢٣٠ ــ ١ رواية سيف .

غارة بيزنطية على السواحل الاسلامية ، بل بدأ المسلمون يشنون الحملات البحرية بدورهم (٤١) ·

وكانت باكورة الحملات البحرية الاسلامية هي غزو قبرص ما بين سنة ٢٧ و ٢٩ على اختلاف الروايات ، سنة ٦٤٧ ، سنة ٦٤٩ م ويختار لها الدكتور شعيرة ربيع أو صيف سنة ٢٨ هـ « فالح معاوية على عمر في غزو البحر وقرب الروم من حمص ·· وأول من غزا في البحر معاوية زمان عثمان ، وقد كان استأذن عمر فيه فلم يأذن ، فلما ولى عثمان لم يزل به حتى عزم على ذلك ، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر ولم ينكب »(٤٢) · وهو نشاط ضخم لدولة ناشئة في الميدان البحرى ، تعاونت عليه قواعد المسلمين البحرية التي استهلت جهودهم بتحصينها، ثم ما اتجهوا اليه بعد ذلك من تكوين أسطول اسلامي استفادوا فيه من خبرة أهل الشام ومصر وكانوا عونهم على تشييده وتسييره والقتال فيه · وغدت قبرص مركزا للحملات البحرية الاسلامية ، ومن ذلك ما ورد من أنه قد غزا قبرص « أهل مصر وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، حتى لقوا معاوية فكان على الناس » · وقد صولح أهل قبرص على أن يؤدوا جزية للمسلمين علاوة على جزيتهم للروم « واشترط عليهم المسلمون ألا يقاتلوا عنهم من أرادهم من ورائهم ، وأن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم · فكان المسلمون اذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرص ولم ينصروا عليهم » · وهذه شروط متواضعة تظهر أن المسلمين لم يفكروا في احتلال قبرص واتخاذها قاعدة عسكرية في غزواتهم الاولى ولكن الدواعي الحربية دفعتهم الى تغيير خطتهم سنة ٣٣ هـ ـ ٦٥٣ ـ ٤م ، فقد أعان أهل قبرص الروم « على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم اياها ، فغزاهم معاوية سنة ٣٣ هـ في خمسمائة مركب ففتح قبرص عنوة فقتل وسبى ثم أقرهم على صلحهم ، وبعث اليهم باثنى عشر ألفا كلهم أهل ديوان ، فبنوا بها المساجد · ونقل اليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة·· وبعض الرواة يزعم أن غزوة معاوية الثانية قبرص في سنة ٣٥هـ » (٤٣) وتتابعت

---

(٤١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٤ ـ ٥ ؟

Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 90-1 99.

(٤٢) الطبرى حـ ٥ رواية سيف والواقدى ص ٥١ ـ٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٩ : ١٦١ ·

(٤٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٠ ؟

Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 99:101.

الغارات على جزر البحر المتوسط ، فبدأ المسلمون بمهاجمة الجزر القريبة من أراضيهم ثم اتبعوا ذلك بمحاولة السيطرة على غيرها من الجزر التى تتحكم فى أكبر عدد من المضايق البحرية لسد الطريق فى وجه الأساطيل البيزنطية . وبدأ المسلمون بجزيرة أرواد قرب ساحل الشام بين مدينتى جبلة وطرابلس . وقد هاجمت الحملة الأولى العائدة من قبرص سنة ٢٨هـ أرواد ، ونزل المسلمون بالجزيرة ولكن أهلها اعتصموا بقلعتها ، فلم تفتح الا فى العام التالى سنة ٢٩ هـ سنة ٦٥٠ م فى نفس الوقت الذى فتحت فيه جزيرة Cos وروى البلاذرى عن الواقدى ان جنادة بن ابى امية فتح ارواد سنة ٥٤ هـ واسكنها معاوية المسلمين . وقد كانت الحملات تتوالى على هذه الجزائر بالطبع ولم يتسن للمسلمين اخضاعها فى حملة واحدة أو عام واحد . وهوجمت **رودس** سنة ٣٣ هـ سنة ٦٥٤ م وموقعها هام لقربها من آسيا الصغرى والحدود الاسلامية البيزنطية فى أطراف الشام ، وقد أصاب المسلمون فيها غنائم كثيرة وتمثالا كبيرا ، وكان أبو الأعور هو قائد الحملات المظفرة الى قبرص ورودس . وقد روى البلاذرى عن الواقدى أن جنادة بن ابى أمية فتح رودس ٥٤ هـ مما رجع معه الدكتور شعيرة أنها هى أرود الواردة فى روايات أخرى . وهوجمت **كريت** فى نفس الوقت تقريبا وقد عرف العرب أهمية هذه الجزر لسلامة مواقعهم على ارض القارة ونفوذهم على القسم الشرقى .

وكان صقلية تقسم البحر المتوسط قسمين رئيسيين ، وقد فكر العرب فى مهاجمتها بعد فتحهم المغرب اذ كانت نأتى منها الهجمات والنجدات البيزنطية . ويذهب امارى Amari ومعه فازيلييف الى أن المسلمين شرعوا فى مهاجمة **صقلية** بعد ٥ سنوات من حملتهم الأولى على افريقية . ويرى الدكتور شعيرة أن اتجاه المسلمين الى فتح صقلية بعد فتح المغرب يبدو منطقيا ، أما التاريخ فهو محل مناقشة كما يذهب كايتانى ، وتتأرجح التواريخ التى تقدمها الحوليات فهى سنة ٣٣ هـ فى رواية الواقدى والنويرى فى (نهاية الأرب) وصاحب المؤنس ، أما صاحب (البيان المغرب) فيعطى ٣ تواريخ ، ويمكن الخلوص من رواياته الى تحديد سنة ٤٩ هـ ، سنة ٦٦٩ م جين كان معاوية خليفة وتؤيد ذلك رواية البلاذرى . وقد ذهب أمارى وفازيلييف الى القول بتكرار ذكر الحملة مرة سنة ٣٣ هـ ومرة سنة ٤٩ هـ ، ولا يرى الدكتور شعيرة ذلك ويرجح حدوث فتح صقلية سنة ٤٩ هـ . وكان على بيزنطة ازاء هذه الهجمات أن

تبادر بالرد عليها حماية لمصالحها الاقتصادية والسياسية وهيبتها وسلامتها ، فكانت واقعة الصواري (٤٤) ٠

حدثت **موقعة الصوارى** سنة ٣٤ هـ ـ ٦٥٥ م أوفونيكس Phoenix « فخرج أهل الشام عليهم معاوية ، وعلى أهل البحر عبد الله بن سعد ، وخرج عامئذ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بأفريقية فخرجوا فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الاسلام فخرجوا فى خمسمائة مركب فالتقوا هم وعبد الله بن سعد ، فأمن بعضهم بعضا حتى قرنوا بين سفن المسلمين وأهل الشرك بين صواريها » ٠ ومن هنا سميت غزوة ذات الصوارى ودارت بين جزيرة رودس ـ لا أرواد على ما يرجح الدكتور شعيرة ـ وبين ساحل ليكيا عند شواطىء فونيكس Phoenix٠

وينقل الطبرى عن شاهد عيان للمعركة قال : « كنت معهم ـ فالتقينا فى البحر فنظرنا الى مراكب مارأينا مثلها قط وكانت الريح علينا فأرسينا ساعة وأرسوا قريبا منا ٠ وسكنت الريح عنا فقلنا : الأمن بيننا وبينكم ، قالوا : ذلك لكم منا ولنا منكم ٠ ثم قلنا : ان أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم وان شئتم فالبحر ، قال : فنخروا نخرة واحدة وقالوا : الماء ٠ فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها الى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضا على سفننا وسفنهم ، فقاتلنا أشد القتال ، ووثبت الرجال على الرجال ـ يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجأون بالخناجر حتى رجعت الدماء الى الساحل تضربها الأمواج وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما ٠٠٠ ثم ان الله نصر المؤمنين منهم مقتلة عظيمة ، لم ينج من الروم الا الشريد » وهكذا قتل معظم رجال الأسطول البيزنطي عددهم ٢٠٫٠٠٠ وخرج قسطنطين من المعركة جريحا ٠ وقد سرت رهبة المسلمين فى نفوس جميع السكان كما يقول ميشيل السورى ، أما **تيوفانس فيقارن هذه المعركة البحرية بمعركة اليرموك البرية** ٠ وقد أكد هذا الانتصار قوة العرب البحرية، ولكن الفتنة التى اندلعت ضد عثمان عوقت افادتهم من ذلك(٤٥)٠ ويقول الأستاذ الدكتور حتى أن هذه المعركة « أثبتت أنها يرموك أخرى ، اذ حطمت القوى البيزنطية تحطيما تاما ٠٠٠ ولكن العرب لم يستفيدوا من ذلك الانتصار ، فلم يواصلوا هجومهم الى القسطنطينية ، ولعل السبب الذى منعهم هو مقتل عثمان الذى حدث حوالى ذلك الوقت وغير

(٤٤) دكتور Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 83, (n. 2), 101
الأمويون والبيزنطيون ص ٨٦ : ٩٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٤

(٤٥) الطبرى حـ ٥ ص ٦٩ ـ ٧ رواية الواقدى ، ابن الأثير حـ ٣ ص ٤٨ ؟
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 102-3.

ذلك من الاضطرابات الداخلية التى لازمته » • ويرى الدكتور العدوى أن هذه الواقعة البحرية « تعتبر من المعارك الحاسمة القلائل التى غيرت مجرى تاريخ البحر المتوسط وتقف على قدم المساواة مع واقعة اكتيوم ٣١ ق‌م وأبى قير البحرية سنة ١٧٩٨ م ••• وأولى نتائجها الهامة تخلى الامبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة عن فكرة طرد المسلمين من البلاد التى استولوا عليها فى شرقى البحر المتوسط والاكتفاء بتأمين الأراضى البيزنطية فى الجبهة الجنوبية من آسيا الصغرى لدرء ما يقوم به المسلمون من نشاط حربى جديد • وقد أفاد هـذا التغيير فى السياسة البيزنطية الدولة الاسلامية فى وقت دخلت فيه فى دور من القلق والنزاع بسبب مقتل عثمان ، ومن الحرب الأهلية بين على ومعاوية (٤٦) » •

وقد رأى قنسطانز أن يستفيد من فترة الهدوء التى سادت العلاقات الحربية مع المسلمين ، ففكر فى أن ينقل مقر حكمه من القسطنطينية الى صقلية ليربط الدولة البيزنطية بما بقى لها فى شمال افريقية ، لكنه اغتيل فى سيراكوز سنة ٦٦٨ م (٤٧) • وابن الأثير يعقب على أخبار غزوة الصوارى سنة ٣١ هـ بخبر مقتل قسطنطين « فانه سار فى مركبه الى صقلية ، فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم ، فقالوا : أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها ، لو أتانا العرب لم يكن عندنا ما يمنعهم • ثم أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه فى المركب وأذنوا لهم فى المسير الى القسطنطينية » • أما الطبرى فيسوق ذلك فى أخبار سنة ٣٥ هـ « حين سار قسطنطين بن هرقل فى ألف مركب يريد أرض المسلمين ، فسلط الله عليهم قاصفا من الريح فغرقهم ونجا قسطنطين بن هرقل فأتى صقلية فصنعوا له حماما فدخله فقتلوه فيه وقالوا : قتلت رجالنا » • وينقل عنه ابن الأثير هذا الخبر أيضا ثم يقول : « هكذا قال أبو جعفر ، وهذا قسطنطين هو الذى هزمه المسلمون فى غزوة الصوارى سنة ٣١ هـ وقتله أهل صقلية فى الحمام • وان كانوا قد اختلفوا فى السنة التى كانت الواقعة فيها • فلولا قوله (ان المراكب غرقت) لكانت هذه الحادثة هى تلك ، فانها فى قول بعضهم كانت سنة ٣٥ هـ (٤٨) » •

---

(٤٦) حتى تاريخ العرب ترجمة نافع جـ ٤ ص ٢٠٤ ـ ٥ ، ٢٥٠ ـ ١ ، دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٩٤ ـ ٩ •

(٤٧) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٥٥ وراجعه هنا فازيلييف
Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I. p 238.
Bury : Hist. of the Later Rom. Emp. Vol. II pp. 297-8, 302

(٤٨) الطبرى جـ ٥ ص ١٦١ رواية الواقدى ، ابن الاثير جـ ٣ ص ٤٩ ، ٨٤ •

تخللت ثنايا غزوة الصوارى أخبار تحمل نذر الثورة على عثمان ، « وأقام عبد الله بذات الصوارى أياما بعد هزيمة القوم ثم أقبل راجعا ، وجعل محمد بن أبى حذيفة يقول للرجل : أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقا ، فيقول الرجل : وأى جهاد ؟ فيقول : عثمان فعل كذا وكذا ٠٠ حتى أفسد الناس فقدموا بلدهم وقد أفسدهم ، وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون به (٤٩) » ٠

وهكذا شرعت دوامة الفتن تلف الدولة الاسلامية ، فلا تغدو قادرة على الإفادة من مركزها البحرى بعد انتصارها فى موقعة الصوارى ، ولا تغدو قادرة على مواصلة اتجاهها المبكر الى الهجوم على القسطنطينية برا وبحرا ، بعد أن عزز هذا الاتجاه انتصارها على الأسطول البيزنطى ٠

وقد اتخذت الشام فى عهد عثمان منفى للثائرين والمتمردين لاستقرار الأمر فيها على يد معاوية ، فقد كتب سعيد بن العاص والى الكوفة الى عثمان يقول : « ان رهطا من أهل الكوفة ـ سماهم له عشرة ـ يؤلبون ويجتمعون على عيبك وعيبى والطعن فى ديننا ، وقد خشيت ان ثبت أمرهم أن يكثروا ٠ فكتب عثمان الى سعيد : أن سيرهم الى معاوية ـ ومعاوية يومئذ على الشام ٠ فسيرهم ـ وهم تسعة نفر ـ الى معاوية ، فيهم مالك الأشتر وثابت بن قيس بن منقع وكميل بن زياد النخعى وصعصعة بن صوحان » ٠ فلما شكى منهم معاوية ردوا الى الكوفة ، فضج منهم واليها فاعيدوا الى الشام حيث ألزموا الساحل والدروب « فكتب عثمان الى سعيد أن سيرهم الى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ـ وكان أميرا على حمص فأنزلهم عبد الرحمن بن خالد الساحل وأجرى عليهم رزقا ٠٠٠ وكتب عثمان الى سعيد : أن سيرهم الى الشام وألزمهم الدروب » ٠ وقيل ان القوم خرجوا من دمشق فاختاروا الشخوص الى الجزيرة ـ وطالما وجد فيها الثوار والمتمردون فرصتهم فقالوا « لا ترجعوا الى الكوفة فانهم يشمتون بكم وميلوا بنا الى الجزيرة ، ودعوا العراق والشام ٠ فاووا الى الجزيرة ، وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد وكان معاوية قد ولاه حمص ، وولى عامل

---

(٤٩) الطبرى : ج ١ ص ٧٠ ـ ١ رواية الواقدى ، ابن الاثير ج ٣ ص ٤٨ ـ ٩ ٠

الجزيرة حران والرقة ، فدعا بهم وعنفهم وسامهم الشدة فضرعوا له وتابعوه (٥٠) » .

وقد كان الاتجاه الى اشغال الساخطين فى الحروب والمغازى حلا يعرض على بساط البحث عند الخليفة ومستشاريه واجراء يلجأ اليه لعلاج الفتنة ، فحين تكاتب المنحرفون على عثمان للاجتماع لمناظرته فيما أخذوا عليه سنة ٣٤ هـ ـ ٦٥٥ م « أرسل عثمان الى معاوية والى عبد الله بن سعد والى سعيد بن العاص والى عمرو بن العاص والى عبد الله بن عامر ، فجمعهم ليشاورهم فى أمره وما طلب اليه وما بلغه عنهم ... فقال عبدالله بن عامر: رأيى لك يا أمير المؤمنين أن **تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وان تجمرهم فى المغازى حتى يذلوا لك** فلا يكون همة أحدهم الا نفسه وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه ... فرد عثمان عماله على أعمالهم ، وأمرهم بالتضييق على من قبلهم ، وأمرهم بتجمير الناس فى البعوث (٥١) » .

ولم يغن هذا العلاج شيئا ، فقد استشرت الفتنة حتى عطلت الثغور وأوقفت الجهاد ، وكانت الشام أكثر الأمصار استقرارا « فتنقل عبد الله ابن سبأ ـ وهو ممن ألبوا على عثمان ـ فى بلدان المسلمين يحاول ضلالهم، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام » (٥٢) .

وكانت نهاية هذه الفتنة الكبرى مقتل عثمان بن عفان ، **وبويع على ابن أبى طالب** سنة ٣٥ هـ ـ ٦٥٦ م فتميز موقف الشام المستقرة على شتى الأمصار المضطربة حتى رجحت كفتها فى ميزان القوى المتصارعة واستطاعت أن تنقل الخلافة اليها . وعبثا حاول على أن يقتحم أبواب الشام على معاوية فقال لابن عباس : « سر الى الشام فقد وليتكها . فقال ابن عباس : ما هذا برأى معاوية رجل من بنى أمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام ، ولست آمن أن يضرب عنقى لعثمان ، أو أدنى ما هو صانع أن يحبسنى فيتحكم على . فقال له على ; ولم ؟ قال : لقرابة ما بينى وبينك ، وان كل ما حمل عليك حمل على ، ولكن اكتب الى معاوية فمنه وعده . فأبى على ... ولما دخلت سنة ٣٦ هـ فرق على عماله على الأمصار ، فبعث سهل بن حنيف على الشام ، فخرج حتى اذا كان بتبوك لقيته خيل فقالوا : من أنت ؟ قال :

---

(٥٠) الطبرى ج ٥ ص ٨٥ : ٩٠ روايتا سيف ومحمد بن عمر ، ابن الاثير ج ٣ ص ٥٧ : ٦٠ .

(٥١) الطبرى ج ٥ ص ٩٢ : ٥ روايتا سيف وجعفر بن عبد الله المحمدى ، ابن الاثير ج ٣ ص ٦١ ـ ٢

(٥٢) الطبرى ج ٥ ص ٩٨ رواية سيف ، ابن الاثير ج ٣ ص ٦٤ .

أمير ، قالوا : على أى شيء ؟ قال : على الشام ، قالوا : ان كان عثمان بعثك فحى أهلا بك وان كان بعثك غيره فارجع ، قال : أو ما سمعتم بالذى كان ؟ قالوا : بلى ٠ فرجع الى على (٥٣) » ٠

وأراد معاوية - وهو والى الشام - أن يعزز جانبه بمصر ، فأقبل يعالج أمرها تارة بالقوة وأخرى باللين حتى دانت لسلطانه وولى عليها عمرو بن العاص ٠

وهكذا أصبح معاوية مسيطرا على الشام والجزيرة - وقد جمعا له منذ أيام عثمان - ثم مصر ، وبلغ سلطانه البحر المتوسط ، وصار يتاخم الروم في آسيا الصغرى من جهة وفي افريقية من جهة أخرى ٠

وقد كان التقاء على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان **في صفين من أرض الجزيرة** ، وبذلك أتيح لتلك المنطقة القريبة من الثغور والعواصم أن تشهد تلك الموقعة التاريخية « فلما انتهى على الى الرقة قال لأهلها : اجسروا لى جسرا حتى أعبر من هذا المكان الى الشام ، فأبوا - وقد كانوا ضموا اليهم السفن ، فنهض من عندهم ليعبر من جسر منبج وخلف عليهم الأشتر » ، فهددهم الأشتر فنصبوا الجسر (٥٤) ٠ وقد بدت العصبيات القبلية فى تلك الموقعة « وخرج معاوية الى على فى أهل الشام ، فأخذ على يقول : من هذه القبيلة ومن هذه القبيلة ، فنسبت له قبائل أهل الشام ، حتى اذا عرفهم ورأى مراكزهم قال للأزد : اكفونى الأزد ، وقال لخثعم : اكفونى خثعم ، وأمر كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيها أختها من أهل الشام - الا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها الى قبيلة أخرى تكون بالشام ليس منهم بالعراق واحد - مثل بجيلة لم يكن منهم بالشام الا عدد قليل فصيرهم الى لخم (٥٥) » ٠ وقد انتهت هذه المعركة برفع أهل الشام المصاحف على الرماح ، قائلين : ان على المسلمين أن يحموا ثغورهم ويواجهوا عدوهم بدلا من أن يقتل بعضهم بعضا « فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : هذا كتاب الله بيننا وبينكم ، من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق» (٥٦) ٠ وقد كان اجتماع المحكمين بين الفريقين بأذرح وهى مكان وسط بين أهل الشام والعراق ٠ وحين انصرف على من صفين ولى الأشتر على الجزيرة فكتب اليه وهو يومئذ

---

(٥٣) الطبرى جـ ٥ ص ١٦٠ - ١ روايتا الواقدى وسيف ، ابن الاثير جـ ٣ ص ٨٣ - ٤ ٠
(٥٤) الطبرى جـ ٥ ص ٢٣٧ رواية أبى مخنف ، ابن الاثير جـ ٣ ص ١٢٠ ٠
(٥٥) الطبرى جـ ٦ ص ٨ ، ابن الاثير جـ ٣ ص ١٢٧ ٠
(٥٦) الطبرى جـ ٦ ص ٢٦ رواية أبى مخنف ، ابن الاثير جـ ٣ ص ١٣٦

بنصيبين : « ... فانك ممن استظهرته على اقامة الدين وأقمع به نخوة الأثيم وأشد به الثغر المخوف (٥٧) » . ولا عجب أن تكون الجزيرة ثغرا مخوفا بالنسبة لعلى ، فهى التى تقاعس أهلها عن نصب جسر له ليعبر الى الشام ، ولقد كانت الجزيرة مضمومة الى معاوية منذ أيام عثمان ، وهى قريبة من الشام .

جاءت نهاية موقعة صفين على هذا الوجه نذير سوء بالنسبة لعلى بن أبى طالب ، فاضطربت عليه كثير من النواحى والأطراف « وبعد أن كانت العصبية القبلية فى عهد عثمان بين قريش والقبائل الأخرى أصبحت هذه العصبية فى خلافة على بين فرعى قريش الكبيرين بنى هاشم وبنى أمية .. وكان جيش على يشمل عدة عناصر مختلفة من سكان العراق الذين نزحوا الى البصرة والكوفة بعد الفتح : ولكن **كان أهم عناصر جيش على هم بنو ربيعة** مما جعل مضر والأزد يشعرون بالغيرة ولذا ظلوا على ولائهم لعثمان.. لقد نقمت ربيعة على مضر والأزد يشعرون لها فى الفتح ثم استئثارها دونها بالسلطان . فانضمت الى على ليكون لها حظ من السلطان ولتعين عليا على اليمنية التى اعتز بها معاوية ــ **فقد كان مع معاوية قضاعة وكلب واليمنيتان فضلا عن تغلب** وبعض بطون قريش . وأما **مضر** فقد وقفت أكثر قبائلها العراقية موقف من يود أن يترك الزمن ليحل هذا الاشكال . وهكذا اعتز كل من فرعى بنى عبد مناف بواحد من الفريقين المتعاديين منذ الجاهلية ، فاعتز على بربيعة ومعاوية باليمن ولكن كان فى جيش على عنصر واحد من عناصر مضر وهم بنو تميم ، وبعض العناصر اليمنية وخاصة أشرافهم مثل الأشتر والأشعث . وكانت واقعة صفين صورة حقيقية للعصبية القبلية حين وقفت كل قبيلة من قبائل العراق فى مواجهة مثيلتها من قبائل الشام (٥٨) » .

وفشل التحكيم فى ايجاد حل للنزاع كما فشلت محاولات الصلح بين الفريقين ، « وفى سنة ٤٠ هـ جرت بين على وبين معاوية المهادنة بعد مكاتبات جرت بينهما على وضع الحرب بينهما ويكون لعلى العراق ولمعاوية الشام فلا يدخل أحدهما على صاحبه بجيش ولا غارة ولا غزو ... وتراضيا على ذلك فاقام معاوية بالشام بجنوده يجبيها وما حولها وعلى بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده (٥٩) » . وفى تلك الأثناء **اكتفى معاوية بأن فرق**

---

(٥٧) الطبرى جـ ٦ ص ٥٤ أبى مخنف ، ابن الاثير جـ ٣ ص ١٥٢

(٥٨) دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ص ٢٤٦ : ٨

(٥٩) الطبرى جـ ٦ ص ٨١ رواية زياد بن عبد الله عن أبى إسحق ، ابن الاثير جـ ٣ ص ١٦٧ .

جيوشه على الأطراف التي في طاعة على بن أبى طالب سنة ٣٩ هـ « فوجه النعمان بن بشير فى ألفى رجل الى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعلى ٠٠٠ ووجه سفيان بن عوف فى ستة آلاف ، وأمره أن يأتى هيت فيقطعها وأن يغير عليها ثم يمضى حتى يأتى الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها٠٠ ووجه عبد الله بن مسعدة الفزارى فى ألف وسبعمائة الى تيماء على أن يأتى مكة والمدينة والحجاز ٠٠٠ ووجه الضحاك بن قيس ومعه ثلاثة آلاف وأمره أن يمر بأسفل واقصة حتى انتهى الى القطقطانة ٠٠ وسار معاوية بنفسه الى دجلة حتى شارفها ثم نكص راجعا » ٠ وكان سبب نجاح سفيان بن عوف فى مهمته فى هيت والانبار تفرق مسلحة على « وكان عليهم كميل بن زياد فبلغه أن قوما بقرقيسياء يريدون الغارة على هيت ، فسار اليهم بغير أمر على فأتى أصحاب سفيان وكميل غائب عنها فأغضب ذلك عليا (٦٠) »٠ وقد سير معاوية عبد الرحمن بن قباث بن أشيم الى بلاد الجزيرة وفيها شبيب بن عامر « فكتب الى كميل بن زياد وهو بهيت ، فسار نجدة له فأدركوا عبد الرحمن ومعه معن يزيد السلمى ، فقاتلهما كميل وهزمهما وكتب الى على بالفتح فرضى عنه ٠ **واقبل شبيب بن عامر من نصيبين فرأى كميلا قد أوقع بالقوم فهناه بالظفر ، واتبع الشاميين فلم يلحقهم فعبر الفرات وبث خيله فأغارت على أهل الشام حتى بلغ بعلبك** ، فوجه معاوية اليه حبيب بن مسلمة فلم يدركه ، ورجع شبيب فأغار على نواح بالرقة ٠٠ ووجه الحرث بن نمر التنوخى الى الجزيرة ليأتيه بمن كان فى طاعة على فأخذ من أهل دارا سبعة نفر من أهل تغلب ، وكان جماعة من بنى تغلب فارقوا عليا الى معاوية فسألوه فى اطلاق أصحابهم فلم يفعل فاعتزلوه أيضا ٠٠ فأراد على أن يوجه اليهم جيشا ـ حين قتلوا أحد رجاله ـ فكلمته ربيعة وقالوا هم معتزلون لعدوك (٦١) » ٠ وهكذا صار معاوية هو المهاجم ورجحت كفته بعد مقتل على بن أبى طالب وقد أخذ الطريق الحربى المعتاد وعبر أرض الجزيرة الى العراق ونزل بعسكره فى مسكن على حدود الدجلة من الموصل ، ولكنه انتظر هناك حينا بعد وفاة على ٠ ومالبث الحسن أن صالح معاوية وتنازل عن الخلافة بعد نصف عام (٦٢) ٠

وقد شغلت هذه الأحداث الكبرى معاوية عن متابعة الحملات ضد الروم والقيام بمحاولة جديدة لاستئناف الجهود لفتح القسطنطينية ٠ويروى

(٦٠) الطبرى ج ٦ رواية على بن محمد وعبدالله بن أحمد المروزى ومحمد بن عمر ص ٧٧ الى ٩ ، ابن الأثير ج ٣ ص ١٦٢ ـ ٣

(٦١) ابن الاثير ج ٣ ص ١٦٤ ـ ٥ ٠

(٦٢) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٩٩ ٠

أنه أتى معاوية فى ليلة أن قيصر قصد له فى الناس • وأن ناتل بن قيس الجذامى غلب فلسطين وأن المصريين الذين كان سجنهم هربوا ، وأن على ابن أبى طالب قصد له فى الناس • فجاءه عمرو بن العاص فقال له : رميت بالقسى الأربع ! قال عمرو : اما هؤلاء الذين خرجوا من سجنك فهم فى سجن الله وهم قوم شراة لارحلة بهم فأجعل لمن اتاك برجل منهم أو برأسه ديته فانك ستؤتى بهم ، وانظر قيصر فوادعه واعطه مالا وحللا من حلل مصر فانه سيرضى عنك بذاك ، وانظر ناتل بن قيس فلعمرى ما أغضبه الدين ولا أراد الا ما أصاب فاكتب اليه وهب له ذلك وهنئه اياه فان كانت لك قدرة عليه وان لم تكن فلا تاس عليه واجعل حدك وحد يدك لهذا الذى عنده دم ابن‌عمك » (٦٣) وهناك رواية قريبة تروى عن عبدالملك ابن مروان أيضا ، وهو الذى كانت فتنة ناتل بن قيس فى أيامه •

وقد روى أن معاوية لما بلغه عزم صاحب الروم على غزو الشام كتب اليه يهدده « تالله لئن تممت على مابلغنى من عزمك لأصالحن صاحبى ، ولأكونن مقدمته اليك ولأجعلن القسطنطينية البحراء حمامة سوداء ولانتزعنك من الملك (٦٤) » •

ويروى أن الروم كانوا قد شرعوا فى طلب الصلح مع العرب بعد موقعة الصوارى ، ولكن تغير الموقف بعد الفتنة زمن عثمان وعلى ، فقد **طلب معاوية الصلح** هذه المرة سنة ٣٦ هـ سـنة ٦٥٧ م على رواية البلاذرى فهو يقول عن عبد الملك « واقتدى فى صلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق ، فانه صالحهم على أن يؤدى اليهم مالا وارتهن منهم رهناء ببعلبك » • وهو يقول فى موضع آخر « أن الروم صالحت معاوية على أن يؤدى اليهم مالا وارتهن معاوية منهم رهناء فوضعهم ببعلبك ، ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من فى أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم ، وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر» والتزم معاوية بدفع ألف دينار وعبد وحصان كل يوم أو أسبوع • ونحن لا تعرف نصوص الوثائق السياسية لهذا الاتفاق ،ويعطى تيوفانيس تاريخا له ٣٨ هـ ـ ٣٩ هـ • وقد **عادت ارمينية وقبرص الى النفوذ البيزنطى** ،

(٦٣) الطبرى جـ ٦ ص ١٨٦ رواية عبدالله بن أحمد المروزى
(٦٤) دكتور الحيدر أبادى : مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٩٥ •

وكان المقابل الذى قدمه قنسانز الثانى أن يترك المسلمين وشأنهم ، ولم يشأ هذا أن يستغل الأزمات الداخلية بين المسلمين أكثر من ذلك ، مكتفيا بما وصل اليه بدلا من مغامرات طامعة تستثير عدوا أثبت حيوية عسكرية فائقة • وهكذا ثبت أن بيزنطة قد انصرفت عن استعادة الأقاليم التى فقدتها • ويعتبر هذا الاتفاق سابقة هامة من الوجهة القانونية ، وهو لم يعقد مع الدولة الاسلامية ذاتها ولكن مع الفريق الموالى لعثمان منها والذى صار يتزعمه معاوية (٦٥) •

---

(٦٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٦ ، ١٦٧

Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 104, 106

فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٩٥ •

ثانيا : عصر الدولة الاموية

حصاران على القسطنطينة :

معاوية بن ابى سفيان

٤١ : ٦٠ هـ ، ٦٦١ : ٦٨٠ م

واصل معاوية بن أبى سفيان طوال مدة حكمه محاربة الروم فى البر والبحر ، ولا يمكن الفصل تماما بين عهد معاوية كوال للشام وعهد معاوية كخليفة فى سياسته ازاء الحدود الاسلامية البيزنطية، فقد بقى أساس هذه السياسة واحدا : من تشييد خط منيع للحدود يستطيع أن يضمن الاستقرار بالنسبة لأراضى الحدود وبالنسبة لاقاليم الاطراف الخاضعة للنفوذ الاسلامى ، وانما تختلف السياسة فى عهد خلافة معاوية فى شيء من تكتيك الدفاع ورسم الاتجاهات • **فقد ارتكز الدفاع فى مواجهة آسيا الصغرى على جبهة واحدة بدلا من جبهتين ، وقد حدث توسع فى الحدود المصرية ونجاح فى الجبهة الأرمنية ، وانما يتميز عهد حكم معاوية تماما حين نتبين اتساعا فى نطاق حملات الحدود** من ناحية قوتها ومن ناحية توغلها بصورة لم نشهد لها مثلا من قبل ، ففى الفترة السابقة كانت هناك توغلات محدودة فى البحر والبر تتقدم حملات الهجوم أو تحمى بعض العمليات المحلية ، بينما نجد هذه المرة اندفاعا حتى العاصمة وهجوما فى شتى نواحى آسيا الصغرى ، بل ان حملات الحدود صارت أكثر أهمية • وكان الجيل الذى اضطلع بهذه الأعمال غير جيل الفاتحين الأولين ، فالجيل الجديد هم (**نابتة الفتح**) الذين نشأوا على حب الجهاد والفروسية وسمعوا أحاديث المغامرات من آبائهم واخوانهم • وهكذا كانت تلك الفترة حافلة بالمجد والفخار • ونحن لانسمع فى العهد السفيانى عن جبهة الجزيرة الا قليلا مثل حملة صفوان بن المعطل السلمى على قلعة كمخ على الحدود الأرمينية وان كانت هذه الحملات

ذات طابع محلى ،وانما كانت مهمة الحدود فى منطقة الجزيرة خلال هذه الفترة هى اقامة حاجز بين بيزنطة وأرمينية ، فهى تتولى حراسة أرمينية عن قرب وتضمن انتقال جيش محلى مستعد للعمل ، وكانت هذه الجبهة لا تعمل الا مع الجبهة الشامية وتستخدم الجبهتان قاعدة للحملات المعتادة ضد آسيا الصغرى • وهكذا كانت مهمة جبهة الجزيرة دفاعية فى حين كانت مهمة الجبهة الشامية هجومية • وتتضح أسس هذه الخطة الجديدة فى الاتجاه الى شغل بند الأرمنياق البيزنطى بهجمات وعزل ميدان القتال فى آسيا الصغرى عن الحدود الأرمينية ، اذ عن طريق البند الأرمنى كان يمكن للعدو أن يهاجم مجنبة الجيش الاسلامى ، وقد انتقل الصراع على أرمينية من حدودها الى قلب آسيا الصغرى وهكذا أمضت أرمينية عشرين عاما تتمتع بحسن حظها كما يقول لوران Laurent وعاشت حياتها القومية تحت سماحة الحكم العربى ، وظل الأمير الأرمنى على القسم العربى المسمى جريجوار ممكونيان Gregoire Mamikonian رهينة فى دمشق من سنة ٦٥٥ م الى سنة ٦٦١ م ، وعن طريق معرفته للعرب استطاع أن يحقق الخير لبلاده ويقود أرمينية نحو سياسة عربية خالصة مستقرة • وقد جاءت هذه السياسة الحربية الجديدة للمسلمين وليدة خبرات معاوية الذى كان قد قاد من قبل حملات فى آسيا الصغرى لتجريد أرمينية من طريقها الى آسيا الصغرى • وأدى نجاح هذه الخطة القديمة الى التفكير فى الاستغناء عن الاحتفاظ بجبهة مستقلة فى الجزيرة • واستفاد المسلمون كذلك من التجربة البيزنطية فى استرضاء الزعماء الاقطاعيين الغيورين على استقلالهم بتركهم يتمتعون بنفوذهم • وهكذا أتاح هدوء الاقليم زمن معاوية فرصة لتوثيق عرى التعاون والتآلف بين الأرمن والعرب • وصار هدف الحملات الاسلامية فى تلك الفترة اشغال البيزنطيين فى عقر دارهم بتوغل أكثر عمقا وحيوية ، بدلا من التخريبات المتوالية ،.ولم يتجه التفكير الى اقامة جبهة من القلاع تقفل الطريق فى وجه العدو لتضمن سلامة ديار المسلمين ، بل فضل المسلمون دفاعا متحركا عن طريق الحملات الفصلية من صوائف وشواتى التى كانت تخرج من قواعد محصنة • وقد انتظمت الحملات الاسلامية على الحدود البيزنطية منتظمة من سنة ٤١ هـ الى سنة ٦٠ هـ (٦٦١ : ٦٨٠ م) حتى كانت أراضى العدو لا تخلو من هذه الحملات • وبعد ضائفتى سنة ٤١ ، ٤٢هـ وجدت حملات استغرقت الصيف والشتاء ، وظل ذلك ٤ سنوات سنة ٤٣ : ٤٧ هـ ولكن (التجمير) فى البعوث لم يكن يلق ترحيبا ، وهكذا نجد حملتين للصيف والشتاء ، واستمر ذلك حتى سنة ٥٤ هـ سنة

٦٧٤ م باستثناء حصار القسطنطينية سنة ٤٩ ـ ٥٠ هـ (٦٦٩ ـ ٦٧٠ م) • وفى خلال السنوات الخمسة التالية ٥٥ : ٥٩ هـ (٦٧٥ :م) لا يذكر المؤرخون سوى الشواتى ، ويبدو أنه كانت تحدث أحيانا معاودة للخطة الأولى ، وفى السنة الأخيرة عقدت هدنة مع بيزنطة بسبب المشكلات الداخلية ، فأثر هذا على نظام الحملات الدورية (٦٦) •

لقد طرق معاوية أبواب عاصمة أعدائه ذاتها مرتين ، اما مهمة توطيد سلطانه في العراق بعد اخضاعه فقد تركها لولاته على الكوفة والبصرة • وهكذا نجد بنى أمية على كثرة مشاغلهم وتوالى ثورات العرب عليهم ملتفتين الى البحر المتوسط وشئونه ، وقد قامت حملاتهم الكبرى على القسطنطينية فى فترات كانت الثورات عليهم فيها على أشدها فى العراق والجزيرة العربية ، وفى نفس هذه الظروف أيضا أرسلوا الحملات التى فتحت المغرب والأندلس وما وراء ذلك • « ولو قوم غيرهم لرصدوا هذه القوات كلها على تثبيت أمرهم فى تلك البلاد المشرقية التى جاءهم منها البلاء فيما بعد • وكانت خطتهم فيما يتصل بالجزيرة العربية والعراق أن يعهدوا فى أمرهما الى رجال أشداء يحكمونها بالعسف والقهر •• ان بنى أمية اذ نقلوا مركز الدولة الاسلامية من الحجاز الى الشام لم يقتصر الأمر على تغيير موضع المركز بل **تغيير الاتجاه كله للدولة الاسلامية عامة فتحولت من دولة قارية الى دولة بحرية ذات طابع متوسطى** » (٦٧) •

حصار القسطنطينية الأول ٤٨ : ٥٠ هـ (٦٦٨ : ٦٧٠ م) :

ماكاد يستقر الأمر لمعاوية حتى أخذ يستأنف جهاده القديم ضد الروم ، فقد أوغل فى بلاد الروم من قبل وهو وال على الشام قبل أن يكون خليفة ، وشرع قبل خلافته بعشر سنوات تقريبا فى محاولة لفتح القسطنطينية ـ كما قد يؤخذ من بعض الروايات ـ مما قد يكون سببا فى اصطدامه مع الأسطول البيزنطى عند فونيكس فى واقعة ذات الصوارى •

وقد كانت الطلائع المبكرة لحصار القسطنطينية الجديد فى عهد معاوية الخليفة **حملات من الشواتى والصوائف** ، حتى قيل ان بسر بن أرطاه « غزا الروم وشتى بأرضهم سنة ٤٣ هـ (سنة ٦٦٣ م) صيفا وشتاء حتى بلغ القسطنطينية فيما زعم الواقدى وأنكر ذلك قوم

---

(٦٦) Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 107: 112.

(٦٧) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ •

من أهل الأخبار » ، وجاء مشتى عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد بأرض الروم سنوات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ هـ (٦٦٤ : ٦ م) ٠

وقد أمضت هذه الحملة الطويلة شتاءها الأول فى كلوديوبوليس Claudiopolis لا فى اقلونية أو كلونية أو كوغونية كما يروى ابن واضح ، لأن هذا الموضع أبعد عن منطقة العمليات الحربية ، اذ انتقلت الحملة بعد ذلك الى اقليم انقرة Ancyra ٠ ودارت المعركة الأولى عند بحيرة سكدارين Skodarine - وكانت تسمى قديما Skleros وعند البيزنطيين Pousgousa, Poungousa Pasgousa , وقد أسميت فيما بعد بج - شهر أو كيرولو Beg-Schehir, Kerolu وكان فى البحيرة جزر لجأ اليها سكان الاقليم فرارا من جيش المسلمين ، لكن عبدالرحمن صنع مراكب للوصول الى الجزر ، واختفى بعض الأهالى وقطعوا حبال المراكب العربية فابتعدت فى الماء ، فصار العرب محصورين بين الماء والوحل ، فتجمع الأهلون وهاجموا العرب بالسيوف والحجارة والسهام ٠ ويذكر أن العرب لم يعودوا لمهاجمة هذه البحيرة حتى نهاية القرن السابع الميلادى ٠ وقد تسلم عبد الرحمن بن خالد جزية عمورية وخلف هناك حامية ثم اتجه الى قلعة سلوس Sillos وهى تشيلى - حصار ، فحاصرها وقد خدعه رجل من أهل الاقليم أغراه بصنع منجنيق ضخم لذلك القلعة ، ولم يكن هذا المنجنيق على ضخامته فى طاقته أن يلقى سوى حجارة صغيرة ، وسرعان ماقلبته قطعة ضخمة من الحجر قذفته بها القلعة المحاصرة ٠ وفشل الحصار لكن عبد الرحمن واصل مسيره فاستولى على قلعة بسينوس Pissinus (وهى Justinianopolis Patia ارسورى أو سبرى حصار) فى شمالى عمورية قرب روافد المجرى الأعلى لنهر سنجاريوس ٠ ثم استولى على مدينة خيوس Chios، وأخيرا أخذ برجلم Pergame وسميرنا Smyrne (ازمير) على الشواطىء الغربية لآسيا الصغرى ٠ وهنا توقف عبد الرحمن وعاد أدراجه بعد ذلك الى حمص ٠ وقيل كانت لمالك بن عبد الله مشتى الشاتية الأخيرة فى هذه الحملة الطويلة وغنم غنائم كثيرة ٠ ويقول البلاذرى فى شأن غزوة مالك « قالوا : وكان مالك بن عبد الله الختمى الذى يقال له مالك الصوائف - وهو من أهل فلسطين - غزا بلاد الروم سنة ٤٦ وغنم غنائم كثيرة ثم قفل ، فلما كان من درب الحدث على خمسة عشر ميلا بموضع يدعى (الرهوة) أقام فيها ثلاثا فباع الغنائم وقسم سهام الغنيمة - فسميت تلك الرهوة **رهوة مالك** » ، وقيل بل كان مالك بن هبيرة السكونى ٠ واستمرت هذه الحملات فى سنة ٤٧ هـ ٦٦٧ م صيفا

وشتاء) وفيها كان مشتى مالك بن هبيرة ، وسنة ٤٨ هـ التي كان فيها مشتى ابى عبد الرحمن القيني بانطاكية السوداء من بلاد الروم فى ايسوريا Isaurie • ويذكر أيضا خبر هذه الشاتية مع سالفتها سنة ٤٧ هـ ، ولو صح ذلك لكان شيئا يحدث لأول مرة أن توجه شاتيتان فى نفس العام لاقليم واحد من أراضى العدو • وفى سنة ٤٨ هـ كانت صائفة عبد الله بن قيس الفزارى • وكانت هناك **حملات بحرية** بجانب الحملات البرية ، فغزا بسر بن أبى ارطاه البحر سنة ٤٤ هـ ، وغزا مالك بن هبيرة السكونى البحر كما غزا عقبة بن عامر الهجنى بأهل مصر البحر وبأهل المدينة وعلى أهل المدينة المنذر بن الزبير وعلى جميعهم خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد سنة ٤٨ هـ(٦٨) •

وفي سنة ٤٩ هـ ـ ٦٦٨ م كان مشتى مالك بن هبيرة السكوني بأرض الروم ، وأرسلت **حملة استطلاعية تمهيدية** لاختبار خط الدفاع البيزنطي الامامي « فشتي بجربة ، وفتحت على يديه وأصاب منها سبيا كثيرا » ، ويبدو أن جزبة هي خرشنة وأنه حدث خطأ في النسخ كما يرجح الدكتور شعيرة • كما كانت صائفة عبد الله بن كرز البجلي ، وغزا يزيد بن شجرة الرهاوى فى البحر بأهل الشام وغزا عقبة بن نافع البحر بأهل مصر فشتى بهم • وقد استطاع فضاله أن يكتسح المعاقل البيزنطية فى طريقه الى خلقدونية • واغتنم المسلمون فرصة اضطراب شئون الروم الداخلية على أثر مقتل الأمبراطور قنسطانز الثانى سنة ٤٨ هـ (٦٦٨م) اذ تطلع الى العرش الطامعون وتمردت فئات من الجند ، وثار سابور Saborius احد حكام المناطق المجاورة لأرمينية (بند الأرمنياق) وراسل معاوية للتعاون معه ، وكان فضالة قد وصل Hexapolis فى طريقه الى أدريانوبوليس Adrianopolis ، • ولكن الثورة قد أخمدت قبل أن يصل المسلمون الى ملطية ومات سابور فاتجه فضالة الى أن يشتو فى خرشنة Kharsianon فى بند الأرمنياق • ويشير المكان الى أن الجيش قد اختار أن يعسكر فى غربي البند لعزل العاصمة ولترك فرصة أمام السكان للمضى فى تمردهم • وقد نجحت الحملة وأسرت كثيرين وتوقف فضالة فى الشتاء لتنظيم قوات انتظارا للمدد ، وبعث ابن الامبراطور المقتول مندوبا للصلح ، وتذكر شاتية لمالك بن هبيرة السكونى سنة ٤٨ ـ ٩ هـ عند كايتانى • ثم ما لبث معاوية أن صمم على

---

(٦٨) الطبرى جـ ٦ ص ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ابن الاثير جـ ٣ ص ١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، اليعقوبى جـ ٢ ص ٢١٣ ـ ١٤ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ ، Cheira: La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 114:7.

مهاجمة العاصمة ، وسار يزيد بن معاوية على رأس مدد الى **القسطنطينية** سنة ٤٩ هـ ـ ٦٦٩م او سنة ٥٠ هـ ـ ٦٧٠م ومعه ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الانصارى ومن هذا الجيش الرئيسى كان هناك فريق من الفرسان المختارين على رأسه سفيان بن عوف ، ويذكر هنا أن يزيد كان قد تثاقل عن المسير فى أول الأمر ولما سمع بما أصاب جيش المسلمين فى غزواتهم من جوع ومرض أنشأ يقول :

أهون على بما لاقت جموعهم يوم الطوانة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقا بدير مروان عندى أم كلثوم

وأم كلثوم أمرأته فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليحلقن بالمسلمين فى أرض الروم ، فذهب الى جيش المسلمين الذى رابط شتاء فى خلقدونية وقد استولى المسلمون على عمورية فى فريجيا وتركوا فيها حامية من ٥٠٠٠ رجل • ويشار أيضا الى صائفة لعبد الله بن قرط الباهلى لعلها اضطلعت بحراسة الحدود • وقد استمر حصار القسطنطينية من ربيع سنة ٦٦٩ م الى صيف العام نفسه • **ولم ترد اشارة الى اشتراك الأسطول الاسلامى فى عمليات الحصار** ، وربما اجتاز المسلمون المضايق عن طريق القوارب والمراكب وفى خلال الحصار كان يقع القتال فى بعض الأيام كما تذكر بعض الروايات ، بينما يذكر البعض الآخر أن سفيان هاجم ميناء الذهب مع ٣٠٠٠ رجل ، وتذكر روايات أخرى أن السكان تحصنوا خلف الأسوار القوية للعاصمة ، بينما أغار المسلمون على تراقية Thrace وقد ولى بيزنطة الامبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ : ٦٨٥ م) ، وحاول المحاصرون اختراق الحصار منتهزين فرصة انشغال جيش المسلمين بغاراته فى تراقية ، ولكن المسلمين تظاهروا بالانسحاب ثم انقضوا على المهاجمين وأعملوا فيهم القتل والأسر حتى لاذوا بأسوار مدينتهم وقبعوا داخلها مرة أخرى ، وأثار ذلك حنق الامبراطور ، وتدل هذه الحادثة على اضطراب أمور الدفاع البيزنطى • على أن الحصار لم ينجح ، وبقيت العاصمة منيعة ثابتة • وكان حظ المسلمين من الغزو تهديدهم للمدينة وتغنيهم بمفاخرهم فى تلك الحملة ، وقد دأبوا على الأمل فى فتح القسطنطينية. وتذكر القصص أن يزيد أبدى من الشجاعة والقوة على أسوار القسطنطينية ما أكسبه لقب (فتى العرب) ، وكانت صيحات التهليل تسمع على التعاقب من خيمتين منفصلتين عندما كان العرب أو البيزنطيون فى المعركة وكانت فى احدى الخيمتين ابنة ملك الروم وفى الأخرى ابنة جبلة بن الأيهم وهى التى كانت تهلل لانتصارات العرب وطمع يزيد فى سبيها • ثم رجع يزيد وجيشه الى الشام » وقد توفى أبو أيوب الانصارى عند

القسطنطينية فدفن بالقرب من سورها ، فأهلها يستسقون به وكان قد شهد بدرا واحدا والمشاهد كلها مع الرسول وشهد صفين مع على » . وقد شاعت رواية تقول ان نورا كشف عن موضع قبره أثناء حصار الأتراك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، وقد أقيم عليه مسجد .

وتعددت بعد هذه الحملة الشواتي والصوائف سنويا حتى نهاية حكم معاوية ، ويجوز أن يكون حصار القسطنطينية قد استغرق أكثر من صائفة بسبب الاختلاف فى سنة استشهاد أبى أيوب الأنصارى مابين سنتى ٤٨، ٥٢ هـ . ولم تذكر أخبار الانسحاب بالتفصيل ، وقد أشير الى أن الحامية العربية فى عمورية قد هاجمها أندرياس Andreas فى الشتاء هجوما ساحقا ، وباستثناء ذلك عادت القوات العربية من حصارها للقسطنطينية دون خسائر كبيرة . وفى العام نفسه ٤٩ هـ ، ٦٦٩ م **هاجم الأسطول البيزنطى ساحل الشام ردا على الحصار الاسلامى للقسطنطينية ، وقد يكون هذا الهجوم حقق بعض النجاح اذ حاول الخليفة علاج الأمر باقامة دور الصناعة بالشام** فروى البلاذرى « قالوا : لما كانت سنة ٤٩ ، خرجت الروم الى السواحل ، وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن أبى سفيان بجمع الصناع والتجار فجمعهم ورتبهم فى السواحل ، وكانت الصناعة فى الأردن بعكا » . وفى نفس العام قام اسطول الشام بحملة بحرية لشل الأسطول البيزنطى أثناء اختراق القوات الاسلامية للمضايق فى طريقها الى القسطنطينية . ولكن السفن العربية لم تقابل الاسطول البيزنطى الذى هاجم سواحل الشام ، وشتت فى قبرص . وفى سنة ٥٣ هـ ، ٦٧٣ م هاجم الاسطول البيزنطى المدينة المصرية الساحلية **البرلس** وقد قتل واليها فى المعركة .

على أن ثمة مصادر مسيحية تصف حملة بحرية اسلامية على القسطنطينية بشىء من الاسهاب دون أن تحدد تاريخها ، فكانت تضم ٣٠٠ مركب ثقيلة عليها أسلحة الحصار من المنجنيقات وتحمل الواحدة ألف رجل ، ٥٠٠ مركب خفيفة تحمل الواحدة مائة . وقد أخضع الأسطول فى طريقه سكان السواحل ، ووصل القسطنطينية واستمر محاصرا لها سبع سنوات ، ومن هنا **يرجح أن يكون حديث هذه المصادر عن الحصار الثانى للقسطنطينية** . ولم يدخر البيزنطيون وسعا فى تقوية وسائل الدفاع عن القسطنطينية والطرق المؤدية اليها ، وكان ركن الشاطىء الأوربى المواجه لآسيا الصغرى الذى تقع عليه القسطنطينية ينتظم بندا قائما بذاته وان كان يعتمد فى الدفاع على بنود آسيا الصغرى ، وقد نظم البيزنطيون

مواردة الغذائية وكانت تأتيه من اليونان وجزر بحر ايجة وسهول القمح على شواطىء البحر الأسود الشمالية (٦٩) .

وقد ظهرت فى الحملات الاسلامية المتتابعة ضد الروم بعد ذلك أسماء القادة الأمويين : بسر بن أبي أرطاه وسفيان بن عوف وفضالة بن عبيد الأنصارى وعبد الرحمن ابن أم الحكم ، وقد تتابعت غزواتهم سنة ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ هـ . وتجرى هذه الحملات على النسق المألوف ، صوائف وشواتى ، ولكنها تشن غارات أضعف من قبل . وتقتصر الروايات على ايراد أسماء القواد ، ويبدو أن حملة سنة ٥١ هـ ، ٦٧١ م أحرزت بعض النجاح وأكثرت من القتلى والاسرى ، وقد قتل سفيان فى حملة ٥٢ هـ ، ٦٧١ م ، ولانعرف أين قتل هذا القائد وقد حل محله عبد الله بن مسعدة . وفى عامى ٥٣ ، ٥٤ هـ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ م لا تحوى الحوليات سوى أسماء القادة . **وبجانب الحملات البرية كانت هناك حملات بحرية سنوية منتظمة** اذ اتجه العرب الى استعادة ما فقدوه أثناء الفتنة فقد غزا فضالة بن عبيد الأنصارى البحر سنة ٥٠ هـ (٧٠) . وفتح جنادة بن أمية الأزدى رودس، واسترجع المسلمون قبرص ، وبدأ ذلك سنة ٤٢ هـ ، ثم أرسلت حملة سنة ٤٤ هـ ، ٦٦٤ م فى نفس الوقت الذى سارت فيه حملة عبد الرحمن بن خالد الى آسيا الصغرى وقد أقام معاوية فى الجزيرة « اثنى عشر الفا كلهم أهل ديوان ، ونقل اليها جماعة من بعلبك ، وبنى بها مدينة » . وكان للأسطول المصرى جولة بحرية سنة ٤٦ هـ ، ٦٦٦ م ، فى احدى الجهات ، كما كانت له حملة سنة ٥١ هـ ، ٦٧١ م لا نعرف عنها شيئا . بينما نجد أسطول الشام سنة ٥٠ هـ ، ٦٧٠ م يستتو فى صقلية التى هاجمها أسطول مصر فى العام السابق ثم يسير فى حملة بقيادة فضالة سنة ٥٤ هـ ـ ٦٧٣ م وقد اشتد النشاط البحرى الاسلامى منذ مهاجمة رودس سنة ٤٧ هـ ـ ٦٦٧ م حتي سقطت بعد ٧ سنوات سنة ٥٤ هـ ـ ٦٧٤ م

---

(٦٩) ابن الاثير جـ ٣ ص ١٩٧ ، المسعودى مروج الذهب جـ ٢ ص ٦٧ ، اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٠٣ ـ ٤ ، ٢١٤ ، حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع ـ جـ١ ص ٢٥١ ـ ٢ ، Hist. of Syria. pp. 443—4. الترجمة العربية جـ١ ـ ترجمة د. اليازجى ص٤٦
٧ دكتور ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية جـ ٢ ص ٤٢ : ٦ ، د. رستم : الروم جـ ١ ص ٢٦٠ ـ ١ ، دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ١٥٤ : ٨ ، ١٦٤
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 119:122, Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. p. 74.
انظر ايضا بحث شنيدر : قبور الصحابة فى القسطنطينية ، مترجم فى كتاب للدكتور صلاح المنجد : المنتقى من آثار المستشرقين .

(٧٠) الطبرى جـ ٦ ص ١٣١ ، ١٤١ ، ١٦١ ، ابن الأثير جـ ٣ ص ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ـ ٢١١
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 123, 135.

ونزلها المسلمون « فكانوا على حذر من الروم وكانوا أشد شيء عليهم فيعترضونهم فى البحر فيقطعون سفنهم ، وكان معاوية يدر لهم الأرزاق والعطاء وكان العدو قد خافهم » • وهكذا صارت رودس قاعدة هامة للمسلمين مثل قبرص وسيصير لها دورها الكبير وأسطولها الدائم وأثرها على بحرية العدو • وقد بدا أن المسلمين أخذوا يخوضون البحر دون وجل ، ويرضون طموحهم الى الفتح • وتحت قيادة عبدالرحمن بن خالد نشط الأسطولان الشامى والمصرى وعلى كل قائده الخاص (مالك بن هبيرة السكوني وعقبة بن عامر الجهنى على التوالى) • وقد قيل ان غزو رودس كان سنة ٦٠ هـ ، وربما تعددت الحملات عليها • وفتح جنادة أيضا جزيرتين أخريين سنة ٥٤ هـ ـ ٦٧٤ م احداهما **أرواد** قرب القسطنطينية التى أقام فيها حامية « وأقام المسلمون بها دهرا فيما يقال سبع سنين •• وجاء نعى معاوية وكتاب يزيد بالقفل ، فلم تعمر بعد ذلك ، وخربت وأمن الروم » ، والأخرى **اقريطش** التى عزيت بعد فتح أرواد • ولا يعرف المقصود بالضبط بجزيرة أرواد الآن فلعلها احدى جزر الخليج (مرمرة) مثل مصطكى ، وقد تكون تسمية أخرى لرودس كما يرى الدكتور شعيرة بسبب أن غزوها وغزو رودس كان على يد جنادة فى نفس العام فضلا عن أن حكم المسلمين فى كليهما استغرق نفس المدة ـ ٧ سنوات منذ فتحها • وقد تكون هى Cyzicus التى ذكرها تيوفانيس وكان العرب يشنون غاراتهم منها على القسطنطينية • كذلك غزيت **صقلية** أيام معاوية « وكان أول من غزاها ، ولم تزل تغزى بعد ذلك » ـ على حد تعبير البلاذرى ، حتى تم فتحها أيام الأغالبة • وقد شن الأسطول الاسلامى المصرى من ٢٠٠ سفينة بقيادة معاوية بن حديج غارة على صقلية لعلها فى سنة ٤٩ هـ ـ ٦٦٩ م ، واستفادت هذه الغارة من الظروف القائمة فى الجزيرة منذ مصرع قنسطانز الثانى على أرضها سنة ٤٨ هـ ـ ٦٦٨ م ، اذ أقامت ثورة هناك ميزيزيوس Mizizios على العرش ، وسار قسطنطين الرابع الذى خلف أباه الى صقلية واستدعى قواته فى المغرب • وقد ساعد الحصار البحرى الاسلامى للقسطنطينية على توطيد سيادة العرب على البحر • والى هذه الفترة يرجع نمو التنظيم البحرى فقد أنشئت دور الصناعة بالشام ، وظهر الأسطول الاسلامى بافريقية الى الوجود (٧١) •

---

(٧١) الطبرى حـ ٦ ص ١٦١ ، ابن الأثير حـ ٣ ص ٢١١ ، البلاذرى : فتوح البلدان ١٦٠ ، ص ٢٤٤ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ٤٦
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 128, 132:6, Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. pp. 74-5.

وفى أرمينية عمل حبيب بن مسلمة والى الجزيرة بعد نهاية الفتنة الداخلية سنة ٤١ هـ - ٦٦١ م على عقد اتفاق محلى مع القائد البيزنطى (قائد الارميناق كما يحتمل) لاطالة أمد الاتفاق المعقود بين المسلمين والروم من قبل سنة ٣٧ هـ • وفى سنة ٤٢ هـ (صيف عام ٦٦٢ م) استؤنف القتال فسارت حملة بقيادة بسربن أرطاة فواجهت قوات الروم يعينها اللان عند قاليقلا فانتصر المسلمون وقتل بعض البطارقة • وكان المقصود من هذه الحملة منع عودة الروم الى أرمينية بعد أن استعادها العرب سنة ٦٦٦١ م . وتقترن هذه الحملة بعودة جرجوار ممكونيان Gregoire Mamikonian سنة ٦٦٢ م من دمشق حيث كان يقيم هناك رهينة منذ سنة ٦٦٥ م وتنصيبه حاكما على أرمينية من قبل العرب ، وقد مكن استقرار الأمر فى أرمينية المسلمين من توجيه اهتمامهم الى حملات آسيا الصغرى • وقد نشطت عمليات الحدود سنة ٤٨ هـ - ٦٦٨ م اذ ثار سابور Saborius قائد بند الأرمنياق فأرسل الى معاوية (سرجيوس) يطلب معونته ، وأرسل الامبراطور بدوره سفيرا من قبله يدعى اندرياس وربما كان ذلك سبب ازدواج حملتى الشتاء سنة ٤٧ هـ - ٦٦٧ م • ومن أجل ذلك أيضا رأينا حملة بقيادة عبدالله بن قيس الفزارى تقيم الصيف كله فى ملطية من ناحية ، ورأينا جيشا بقيادة فضالة الفقيه الشامى يتجه لنجدة الثائرين وللتعاون معهم فلما وصل هكسابوليس Hexapolis من ملطية علم بوفاة سابور المفاجئة • وكان هناك جيش بيزنطى فى الطريق الى بند الأرمنياق ، يقصد أدريانوبوليس Adrianopolis حيث قيادة الثورة ، وقد سهل عليه اخمادها بعد وفاة قائدها • ولم يتقدم جيش فضالة ، لكن اشترك فى حصار القسطنطينية ، وقد استغل معاوية متاعب الروم لارسال حملته الى آسيا الصغرى ، وتوجيه الضرب للعاصمة البيزنطية (٧٢) •

هذا وقد كانت الحملات الأموية فى افريقية موفقة ، **ولم يكن هناك نظام للثغور كما فى الشام والجزيرة ، وانما كانت ترسل الحملات من الفسطاط ثم تعود** بعد انتهائها ورابط عقبة بن نافع فى نواحى برقة فى الشمال وزويلة فى الجنوب لغزو البربر وتحويلهم للاسلام • وقد سعى معاوية الى انشاء قاعدة للعسكر فى افريقية ، وربما دفعه الى ذلك خوفه من محاولة بيزنطة استعادة نفوذها فى افريقية ، « فاختط عقبة بن نافع **قيروانها** وقطعها للناس مساكن ودورا وبنى مسجدها » • وبذلك اصبح

(٧٢) Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 113-4, 117:9

للعرب معسكر متقدم فى افريقية يقف قلعة حصينة أمام قبائل البربر الجريئة المتعددة فى جبال أوراس ، ويؤدى تلقائيا الى انحسار النفوذ البيزنطى ، وما لبث أن قام أسطول اسلامى جديد ينشط فى تلك المنطقة البحرية الهامة (٧٣) ٠

الحصار الثانى للقسطنطينية ٥٤ : ٦٠ هـ ـ ٦٧٤ : ٦٨٠ م :

يعرف الغزو الثانى للقسطنطينية **بحرب السنوات السبع** التى دارت رحاها بين المسلمين والبيزنطيين أمام القسطنطينية ٠ **وكانت البنود البحرية البيزنطية لا تزال فى دور التكوين عاجزة عن الصمود أمام سفن المسلمين الفتية ٠**

وقد رسى العرب سنة ٥٤ هـ ـ سنة ٦٧٣ م على ساحل ليكيا ، فاعترضهم ثلاثة من قواد الروم بقواتهم فقتلوا الآلاف وضطروا الباقين الى الانسحاب الى البحر ، حيث تابعت الأسطول الاسلامى سفينة بيزنطية أحرقته ، ولكن قاعدته واصلت الحصار وهى التى تطلق عليها الروايات العربية اسم جزيرة ارواد وتجعلها قريبة من القسطنطينية قاعدة لعملياتهم الحربية ولعلها جزيرة كيزيكوس أو رودس ٠ وظلت الأساطيل الاسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة الى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية فى حين كان الأسطول يكمل حلقة الحصار بأن تقف سفنه بين رأس Hebdomon التى تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة ، وبين راس Kiklobios قرب باب الذهب ٠ وشتا المسلمون فى الأراضى البيزنطية سنة ٥٦ ، ٥٧ هـ ٦٧٦ م ٠ وكانوا يقضون الشتاء فى كيزيكوس أو هبدمون وكان الحصار البرى والبحرىللقسطنطينية يستمر شهور الربيع والصيف تحدث خلالها مناوشات بين أساطيل المسلمين والبيزنطيين ، بينما تتراشق القوات البرية بالقذائف والسهام ٠ **على أن الدكتور شعيرة يرى أن الحصار الثانى للقسطنطينية كان بحريا ،** وأن تشتيت الأساطيل الاسلامية المختلفة يثبت أن العرب لم يقصدوا الى حصار بيزنطة حصارا مزدوجا من البر والبحر فى نفس الوقت٠ وتقول المراجع البيزنطية ان هذا الحصار كان حول العاصمة البيزنطية ذاتها بينما يروى المؤرخون العرب أخبار حصار يشمل المنطقة البحرية من رودس الى القسطنطينية ، فهو نوع من اغلاق تلك المنطقة blocus ٠ وتتكامل الروايتان ، اذ أن العرب كانوا يقتنصون السفن

---

(٧٣) الطبرى حـ ٦ ص ١٣٤ ، ابن الأثير حـ ٣ ص ٢٠٠،
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. p. 130:2
دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ٥٧ : ٩ ٠

البيزنطية فى عرض البحر ويدمرونها ، ومثل هذه العمليات المختلفة كانت تهديدا خطيرا أحس الروم بوطأته ، كما أن هجمات المسلمين اتجهت الى سواحل آسيا الصغرى والى الجزر • وقد كانت رودس مركزا هاما لعمليات الحصار ، وهاجم المسلمون كريت بنجاح سنة ٥٩ هـ ـ ٦٧٩ م وربما أمضوا هناك فصل الشتاء •

وقد صمدت القسطنطينية للحصار ، سيما وأن قسطنطين الرابع كان قد ملأ خزائنها بالمؤن والعتاد وأصلح أسوارها قبل هجوم المسلمين بزمن يسير •

وكانت السفن تعود بالجند الاسلامى الى جزيرة أرواد لقضاء فصل الشتاء ، وفى مطلع الربيع تكر لحصار المدينة الذى يستمر طوال الصيف• ويظهر من ثنايا الحوليات البيزنطية ومن المراجع الأوربية التى اعتمدت عليها أن أهم عامل أنقذ القسطنطينية من الحصار العربى هو (النار الاغريقية) ، التى كان قد توصل اليها سورى نازح الى القسطنطينية يدعى Callinicus وكانت السفن البيزنطية تقذف هذه النار فلا يطفئها الماء بل تزداد اشتعالا • غير أن مراجعة أخبار الحصار الاسلامى تكشف عن أن العامل الأول فى صمود القسطنطينية انما يرجع الى موقعها الجغرافى وطبيعة التيارات المائية التى تحيط بجهاتها الساحلية •

وتروى المراجع الاسلامية أسماء القواد المسلمين فحسب فى الحملات البرية المتتابعة ما بين سنة ٥٤ ، ٦٠ هـ ، ٦٧٤ : ٦٨٠ م ومنهم محمد بن مالك ومعن بن يزيد السلمى وسفيان بن عوف الأزدى وجنادة بن أبى أمية ومالك بن عبد الله الخثعمى وعبد الله بن قيس الفزارى وغيرهم • ولا نجد سوى أخبار الشواتى ، ولايمكن القول بضعف النشاط صيفا وربما يكون قد حل محل النظام الذى كان سائدا فى السنوات الأولى نظام تواصل فيه الصائفة مهمتها شتاء باطالة مدة الخدمة ، وقد تكون اقامة حملة واحدة مدة طويلة دليلا على مدى الأمن الذى كانت تحسه هذه الحملات فى أرض العدو وبسبب الحصار البحرى للقسطنطينية • ومنذ سنة ٥٥ حتى ٥٩ هـ (٦٧٥:٩ م) سارت الحملات الصائفة الشد expeditions estivo-hivernales آسيا الصغرى • وفى سنة ٥٩ هـ (٦٧٩ م) أرسلت حملة الى **كمخ** التى توالت عليها الحملات من قبل ، وكانت القلعة الشرقية للأرمنياق ، وقد أدى الاستيلاء عليها الى امتداد الحدود وتأمين مدخل أرمينية من أرضروم ، وقد كان ذلك بجهود عمير بن الحباب السلمى الذى اعتلى الأسوار وتابعه المسلمون فأخذوا المدينة على غرة • وفى سنة ٦٠ هـ ـ ٦٨٠ م قاد مالك الصوائف حملة الى **ايسوريا** Isaurie واستمرت الحملة على ما يبدو

طوال الشتاء ، ويضيف لامانس صائفة فى الأناضول Anatolie بقيادة يزيد بن معاوية • ويرى الدكتور شعيرة أن هـــذه الحملات لم تخل من تنظيم ، فان نجاحها سنة ٥١ هـ ـ ٦٧١ م والاستيلاء على كمخ ووقائع حملة ايسوريا من شواهد ذلك • على أن الاندفاع العربى فى آسيا الصغرى فى خلال هذه السنوات العشرة لم يكن من القوة مثلمـا كان فى السنوات العشرة السابقة ، ويبدو أن أية حملة لم تتوغل كثيرا فى اتجاه العاصمة التى ضرب الأسطول الاسلامى عليها الحصار سبع سنوات ، وهكذا لم يتجه العرب الى الاستيلاء على عاصمة العدو بجد وعزم •

وكانت هناك **حملات بحرية** تظاهر الحصار البرى للقسطنطينية ، مثل حملة أرواد وحملة رودس بقيادة جنادة (ولعلهما حملة واحدة كانت ضـد رودس كما أسلفنا) • وقد كان لأسطول الشام نشاط فى هذه العمليات البحرية بجانب الأسطول الدائم لرودس بعد فتحها ، وقد شتا الأسطول الاسلامى سنة ٥٦ ـ ٧ هـ (٧٧٦ ـ ٧ م) ، ٥٨ ـ ٩ هـ (٦٧٨ ـ ٩ م) فى قبرص أو رودس ، وان لم يوفق فى كل عملياته وقد غزا يزيد بن شجرة الرهاوى فى البحر سنة ٥٦ هـ ولقى مصرعه مع عدد من رفاقه فى حملتـه سنة ٥٨ هـ ـ ٦٧٨ م مما يشير الى هزيمة للمسلمين • وليست هنا اشارة الى مشاركة الأسطول المصرى • وقد تحـرك الأسـطول البيزنطى فصـد الاسطول الاسلامى فى محاولته الرسو على شواطىء ليكيا •

وقد استعان الروم على المسلمين **بالجراجمة** ، فيقـــول تيوفانيس : « خرج المردة من لبنان فضبطوا كل ما كان من الجبل الأسود (المعروف اليوم بالجبل الأقرع فوق السويدية) الى المدينة المقدسـة أورشليم ، واستحوذوا على قمم لبنـان وانضـم اليهم كثيرون من العبيـد والأسرى والوطنيين حتى أصبح عددهم فى مدة وجيزة ألوف كثيرة • وسمع معاوية وأصحاب مشورته بذلك فخشـوا جدا من عاقبتـه وأرسلوا **وفدا الى قسطنطين الملك يطلبون الصلح ويعدون بوفاء جزية لكل سنة** فتقبل الملك وفدهم بالاعزاز والتكريم ، وأرسـل معهم الى سوريا البطريق يوحنا المسمى بتسيكود ـ وكان من رجال الندوة فى حكومته ومتصفا بالخبرة والحكمة ويحسن التعاطى والمداولة مع العرب ليتفـق معهم على شروط الصلح • ولما بلغ سوريا قابله معاوية بالترحاب وعقد ديوان مشورته ، وبعد المداولة بشروط الصلح قر رأيهم على كتابة عهدته موثقة باليمين : على أن يدفع العرب كل سنة للرومانيين ثلاثة آلاف ذهب وثمانية آلاف أسير وخمسين جوادا من الخيل الجيـاد • وأبرم الصلح بين الرومانيين والعـرب على هذه الشروط الى ثلاثين سـنة ، ودونت العهـدة ووقع على

نسختين منها لكل فريق نسخة • وعاد ذاك الرجل الشهير البطريق يوحنا المتواتر ذكره الى الملك بهدايا نفيسة جدا » • وقد حمل الأسطول البيزنطى سنة ٥٧ هـ ـ ٦٧٦ م (المردة) ـ وهم الجراجمة ـ وأنزلوهم على سواحل الشام فى صور وصيدا ليشغلوا المسلمين عن أية معارك فى الخارج محتمين بسلسلة جبال لبنان • وقد نجحت التجربة ، ولكن نتائجها لم تكن خطيرة عاجلة بالنسبة للعرب •

وانتهى حصار القسطنطينية الى أن انسحب الأسطول العربى من مياه البوسفور وبحر ايجة ، وتم هذا الانسحاب عند اخلاء جزيرة رودس ـ وفقا لرواية المؤرخين العرب وقبل هذا الوقت فى رواية المؤرخين البيزنطيين الذين يقولون أن الأسطول الاسلامى قاسى هزيمة بحرية خلال انسحابه وذلك بالقرب من Sylleum على ساحل بامفيليا • **ونظرا لعقد صلح بين المسلمين والروم مال فى أواخر أيام معاوية سنة ٦٠ هـ ـ ٦٨٠ م ، فان فلهوزن وديل يستنتجان أن ذلك كان بسبب الهزيمة البحرية عند القسطنطينية** وفقا لما يرويه تيوفانس ، فضلا عن هجمات (المردة) بمساعدة الروم• **أما لامانس فيرى أن سبب طلب الصلح هو الشعور بعدم جدوى مثل هذه الحملات المضطربة** والمشروعات التى لا تستند الى خطة فى الحرب أو قصد للفتح الثابت المستقر • على أنه وان كان من المعقول أن يحدث الشعور بالفوز أثره فى نفوس البيزنطيين ، الا أن **الدافع الاكبر للصلح انما كان يرجع الى الظروف الداخلية للدولة الاسلامية الناجمة عن العهد ليزيد** • وقد خرج صلح العرب مع الروم الى حيز التنفيذ فى عهد يزيد فاستفاد منه ليتجه بكل طاقته لعلاج المشكلات الداخلية •

ويمثل الصراع الكبير بين المسلمين والبيزنطيين عند القسطنطينية ذروة النشاط العربى ، فقد حاصر المسلمون القسطنطينية مثل هذا الحصار أو بدرجة أكبر أو أصغر ، لكنهم لم يتجهوا الى فتح حاسم اذ كانوا يعرفون استحالته ، واكتفوا برؤية بيزنطة الشامخة تنزل من عليائها ولكن المدينة تلقت أشد الضربات دون أن تحنى رأسها بل كانت تقوم بردها• ولم يتراجع أحد الخصمين وقد ملأت المسلمين دائما روح الجهاد وحفظت عليهم الحركة الدائمة واقدام الفروسية . **وقد شملت جهود معاوية واليا وخليفة البحر المتوسط من صقلية الى آسيا الصغرى** ، ويقول ميشيل السورى ان هيبة معاوية سادت فى كل مكان • وفى تلك الفترة من التاريخ لم يعد المسلمون يتطلعون الى مزيد من الفتوحات لأقطار مثل الشام أو مصر أو فارس ، أما هذه الأقطار التى سبق فتحها فقد اعتبرت أجزاء من صلب الدولة وأعضاء فى جسمها • وحول تلك الدولة المترامية الأطراف وجدت

أقاليم مدت الدولة اليها نفوذها ، وقد جمع بينها الزهو بالانتماء الى هذه الدولة الظافرة المجيدة مع الحفاظ على الطابع القومى الخاص • وتتابعت الصوائف عاما بعد آخر طالما كانت حالة الدولة الاسلامية فى الداخل مستقرة تسمح بذلك (٧٤) •

وبنجاح قسطنطين الرابع Pogonarus **(٦٦٨ - ٦٨٥ م) فى صد العرب عن القسطنطينية وفى عقد اتفاقية السلم لصالح البيزنطيين حمى الامبراطور البيزنطى أوربا الغربية كلها لا القسطنطينية فحسب** من الخطر الاسلامى ، وقد أدى نجاحه فى هذه المهمة التاريخية التى تمتعه بنفوذ كبير فى الغرب • ويذكر أحد كتاب الحوليات أن نبأ انتصار قسطنطين حينما وصل الى خان الآفار وغيره من الملوك الغربيين أرسلوا السفراء بالهدايا الى الامبراطور وطلبوا عقد صلات السلم والصداقة • غير أن هناك من **القبائل البربرية** على الحدود الشمالية للدولة البيزنطية من اقتنص فرصة انشغال قسطنطين الرابع فى الدفاع عن عاصمته وانقض على الولايات الأوربية التى كانت الجيوش البيزنطية قد انسحبت منها لمقاومة العرب ، وأتى **السلاف** من الداخل وحاصروا سالونيكا مدة سنتين ولم تنج من هجماتهم الا عندما نفض قسطنطين يده من حرب معاوية • ولكن عدوا آخر قام بهجوم أشد خطرا فى الجزء الشرقى من شبه جزيرة البلقان - وهم **البلغار** الذين أتوا الى الدانوب وأخضعوا السلاف واستقروا بين الدانوب ومنطقة البلقان الشرقية فى الجهة التى ما زالت تحمل اسمهم حتى الآن ، وأقاموا من القبائل السلافونية المشتتة دولة قوية واحدة قدر لها أن تكون جارا متعبا للامبراطورية البيزنطية طويلا • وتعتبر سنة ٦٧٩ م السنة الأولى من حكم أول ملوك بلغاريا ، وكان قسطنطين الرابع متعبا جدا من جراء حربه الطويلة مع معاوية فلم يبذل محاولة جدية لرد البلغار الى ما وراء الدانوب ، وانقضت السنوات الأخيرة من حكمه فى سلام (٧٥) •

(٤٧) الطبرى حـ ٦ ص ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ابن الأثير حـ٣ ص٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، حـ٤ ص٢ ، اليعقوبى حـ٢ ص ٢١٤، البلاذرى: فتوح البلدان ص١٦٥ - ٦ ، حتى : تاريخ العرب • ترجمة نافع حـ١ ص ٢٥٢ - ٣ Hist. of Syria. pp. 444-5 والترجمة العربية حـ ٢ ترجمة د• اليازجى ص٤٧:٩ د• رستم • الروم حـ ١ ص ٢٦٢ - ٣ ، أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور بدر ص ١٣٤ ، دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ١٦٤ : ٨ ، الدبس : تاريخ سوريا م ٥ ص ١٠٥ - ٦ •

Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 123:5, 136, 137:9, 144, 45:7
Brockelmann : Hist. of Isl. Peoples p. 74, Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Musulm. et Byz. pp. 164-5, 463-4.

(٧٥) Vasiliev : L'Emp. Byz. Vol. I. pp. 234-5,
اومان : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية • ترجمة دكتور بدر ص ١٣٤ - ٥

عصبيات وفتن :

يزيد بن معاوية (الأول) ٦٠ : ٦٤ هـ ـ ٦٨٠ : ٦٨٣ م
معاوية بن يزيد (الثاني) ٦٤ هـ ـ ٨٦٣ م
مروان بن الحكم ٦٤ : ٦٥ هـ ـ ٦٨٣ : ٦٨٥ م
عبد الملك بن مروان ٦٥ : ٨٦ هـ ـ ٦٨٥ : ٧٠٥ م

توفى معاوية سنة ٦٠ تاركا الدولة الاسـلامية تجتاز مرحلة من الاضطراب الداخلى والنزاع على الخلافة بين أبنائه وكبار رجالات الدولة الاسلامية اذ ذاك حتى أيام عبد الملك بن مروان فأتيح للدولة البيزنطية أن تنعم بثمار نجاحها فى الدفاع عن القسطنطينية ٠ وكان عرش **يزيد** فوق فوهة بركان ، فلا عجب أن ركز اهتمـامه كله على توطيد الكيان الداخلى والافادة من آثار الصلح الذى كان قد عقده أبوه مع البيزنطيين والانصراف تماما عما يستثير المناوشات معهم ، ومن هنا **رأيناه فى قبرص يرسل باقفال البعوث التى كان معاوية قد أرسلها هناك ، كما أمر بهدم المدينة ٠ وقد اتبع السياسة نفسها فى رودس** التى كان قد نزلها المسلمون وزرعوا واتخذوا بها أموالا ومواشى فاذا أمسوا أدخلوها الحصن « وكانوا أشد شىء على الروم فيعترضونهم فى البحر فيقطعون سفنهم ، وكان معاوية يدر لهم الأرزاق والعطاء ـ وكان العدو قد خافهم ٠ فلما مات معاوية أقفلهم يزيد بن معـاوية » ٠ وقد تكون رودس هى جزيرة أرواد التى أقام المسلمون بها نحو سبع سنين « وجاء نعى معاوية وكتاب يزيد بالقفل ، فقفلنا فلم تعمر بعد ذلك وخربت وأمن الروم (٧٦) » ٠ فلا عجب اذن أن يقول فلهوزن عن يزيد الذى ظهر اسمه فى حصـار القسطنطينية فى خلافة أبيه ، انه لم يستطع أن يواصل جهاده حين ولى الخلافة اذا استهلكت طاقته الاحداث الداخلية « فوضع حدا للحرب التى استمرت مع الروم سنين كثيرة » ٠ ولم يعد الأسطول البيزنطى فى البحر المتوسط يواجه منافسا ، وبذلك لم يكن هناك محل لأى صراع (٧٧) ٠ وحين كانت الدولة الأموية مشغولة بقتال الحسين ابن على ، عرض الحسين أن يدعه جيش الأمويين ليلحق بالثغور ، ولكن عبيد الله بن زياد رفض هـذا العرض اذ كان الأمويين يتجهـون لاخمـاد الفتن الداخلية بكل قواهم (٧٨) ٠

(٧٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٠ ، الطبرى : حـ ٦ ص ١٦١ ، ١٦٤ رواية محمد بن عمر ، ابن الأثير حـ ٣ ص ٢١١ ـ ١٢
Cheira : La Lutte entres Arabes et Byz. p. 136.

(٧٧) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة د٠ أبي ريدة ص ١٦٥ ،
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. p. 149.

(٧٨) الطبرى حـ ٦ ص ٢٢٠ رواية زكريا بن يحيى الضرير عن أحمد بن جناب المصيصي

تمرد القيسية فى شمالى الشام والجزيرة :

وفى حياة معاوية الثانى بدأت فيما يظهر الاضطرابات فى الشام ، وقد جاءت هذه الاضطرابات **من جانب قبائل قيس الذين كانوا يسكنون بوجه خاص فى شمالى الشام وفى الجزيرة على جانبى نهر الفرات وفى قنسرين وقرقيسياء وحران** ، فيقال ان قبائل قيس كانت هى وحدها دون جميع أهل الشام هى التى امتنعت عن مبايعة معاوية وكانوا حانقين على ما كان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية لأن أم كل منهما كانت كلبية • ولعل النزاع بين اليمانية والقيسية يرجع الى عصبية جاهلية ، فقد كانت خزاعة اليمانية تسكن مكة قبل قريش وكانت الأوس والخزرج اليمانيتان تسكنان يثرب أيام النبى وربما كانت اليمانية تملك الجزيرة العربية كلها فى وقت من الأوقات حتى ان عرب الحجاز كانوا لهم رعية • ومن هذا الرأى دوزى Dozy وعلى العكس يرى المستشرق جولدتسيهر Goldzeiher أن العداوة بين القيسية واليمانية كانت أحدث ولم تظهر الا بظهور الاسلام ، اذ بدأت بشكل خطير فى حروب الردة والفتوح التى كانت عداء بين عرب الحجاز وقبائل يمانية • لذلك يرى فلهورن Wellhauzen أن العداوة بين كلب وقيس لم تكن موجودة قبل فتح الشام على يد المسلمين ولا قبل هجرة قبائل قيس الى الشام وان وجد تمايز فى النسب القديم بين قضاعة وقيس • وقد اشتدت الخصومة بينهم أول الأمر لأن قضاعة كانت متوطنة فى الشام من قبل بينما كانت قيس حديثة عهد بالهجرة ، وزادت حدة الخصومة حين اقتربت قبائل كلب من البيت الحاكم بعد مصاهرتها لمعاوية ، فامتلأت نفوس قيس بالحسد وانضموا الى ابن الزبير حين ارتفع شأنه بعد وفاة يزيد على حين حافظت كلب على ولائها للأمويين « وهكذا امتزج الخصام القبلى بالسياسة العليا وكانت مجموعات القبائل المرتبطة برابطة النسب هى بالاجمال الأحزاب السياسية التى كانت فى أصلها مستقلة عن القبائل ، أما فى العراق فقد كان عدد من القبائل العربية الشمالية قد أقاموا فى ديار بكر على طول نهر دجلة وفى ديار مضر على نهر الفرات وكانت قيس تحتل المكانة الأولى بين مضر ، بينما كان النفوذ لليمانية الكلبية فى الشام • كذلك كان عرب خراسان وشمال شرقى فارس من عرب الشمال وخاصة قبيلة [illegible] التى تقابل قيسا فى منطقة الفرات ، وكان الحزب اليمنى فى خراسان يسمون [illegible] • وكانت كلب تصاهر معاوية ، ومن قبله كانت تصاهر عثمان ، وقد أوصى معاوية يزيد بهم فكان يعتمد عليهم فى جيشه • **وادى التعصب الأموى لليمن على حساب قيس ان تضعضع نفوذ القيسية مع انهم اصحاب**

الفتوح وهم الذين كانوا يحاربون في الثغور ضد البيزنطيين واشتهروا بسد الثغور مما جعلهم يبغضون بني أمية • غير أن معاوية كان حسن السياسة فاستطاع أن يمنع احتكاك اليمانية والقيسية وحارب بكليهما أهل العراق ، وفى عهد يزيد لم تعلن القيسية عصيانها كذلك وكان عامل دمشق الضحاك بن قيس الفهرى وهو قيسى ، ولكن سنحت الفرصة **أمام** القيسية لتعلن غضبها بعد موت يزيد فمالت مع ابن الزبير • وكان لحسان ابن مالك بن بحدل الكلبى خال يزيد مركز قوى فى الدولة اذ كان العماد الأكبر لمعاوية الثانى كما كان أخو **سعيد بن مالك بن بحدل الكلبى أميرا على قنسرين** ، فرأت قيس أن اسناد الامارة عليهم وفى مدينتهم الى رجل من كلب لا يمكن أن يطاق فبدأوا بأن وثبوا عليه وأخرجوه من قنسرين ، وقد فعلوا ذلك تحت امرأة زفر بن الحارث الكلابى ـ وكان من قبل فى صفوف ابن الزبير يحارب يزيد وتبعته قيس بعد أن بويع لابن الزبير • **وهكذا كانت حمص وقنسرين المتاخمتان لاقليم الثغور والعواصم في أيدى الثوار على بنى أمية ، وكانت الجزيرة من أرض العراق أيضا معرضة لثورات القيسية الذين يسكنونها ويشايعون أعداء الأمويين •**

وانتشر الاضطراب فى سائر أرجاء الشام حتى اضطر حسان بن مالك ابن بحدل أمير فلسطين الى الخروج الى الأردن ليكون أقرب الى دمشق ، أما الضحاك بن قيس فقد تأرجح موقفه واضطر أخيرا أن ينضم نهائيا الى جانب ابن الزبير • وفى المحرم من سنة ٦٥هـ ـ يوليو ٦٨٤م خرج مروان ابن الحكم ومعه قبائل اليمانية من كلب وغسان والسكاسك والسكون ونزلوا **مرج راهط** ـ وهو سهل شرقى دمشق فخرج اليهم الضحاك من دمشق فى جمع كبير من القيسية ومعه رؤساء الأجناد فى الشام ونزلوا بازائهم • فانتهزت اليمانية فرصة خروجهم واستولت على دمشق « وخرج الناس منهزمين من المرج الى أجنادهم وقتل النعمان بن بشير وهرب زفر ابن الحارث فلحق بقرقيسيا ، وناتل بن قيس فلحق بابن الزبير وأطبق أهل الشام على مروان واستوثقوا له واستعمل عليهم عماله » • وانتهت موقعة مرج راهط بانتصار كلب على قيس ـ التى كانت أكثر من كلب ضعفين أو ثلاثة أضعاف « ولكن النزاع بينهما لم ينته بذلك لأن قيسا كان لابد أن تثأر لقتلاها الكثيرين ، وكان البغض يتجدد فى كل مناسبة ليجد ما يشفيه ، وكان يلهب نيران العداوة حتى بعد أن زالت الأسباب السياسية •• وكانت قيس هى الموتورة فكانت هى التى بدأت ، وانما كانت كلب تدافع عن نفسها • **وقد اشتركت فى هذا العداء من قبائل قيس : قبائل عامر وسليم وغنى وباهلة ـ وذلك بمقدار الجماعات التى**

نزلت من هذه القبائل فى شمال الشام وجنوب أرض الجزيرة على ضفتى الفرات ، أما فى جانب كلب فكانت فى سائر قبائل قضاعة . ولكن لم يدخل فى القتال بالفعل الا قبائل كلب ، والمصادر لمعرفة الأيام المتباعدة أحيانا والتى كان فيها ذلك القتال الطويل هى القصائد الشعرية التى ترجع الى ذلك العصر والحكايات المرتبطة بها » .

وعلى مسرح أرض الجزيرة المتاخمة للثغور ـ دارت الأيام بين قيس وكلب . واستطاع أمير جند قنسرين زفر بن الحارث بعد هزيمة المرج أن يلوذ بالفراد ويتخذ قرقيسياء على الفرات فى المنطقة المعروفة بديار مضر قاعدة لحرب كلب « **وتحصن زفر وثابت اليه قيس** » ، **فاجتمعت اليه سائر قيس من كل مكان وخاصة من منطقة الثغور الجزرية ـ التى كان معاوية أنزلها بعض بنى تميم وأخلاط قيس وأسد وغيرهم ، فكانت القيسية تهاجم كلب البوادى والحضر على السواء . فاتحدت كلب ضدهم واتخذت تدمر قرب حلب مكانا لتجمعهم ، وتتابعت وقائع قتال لا ينتهى تشعله الثارات العصبية . ثم اشتعلت الحرب بين قيس وتغلب وهى قبيلة يمانية تسكن الجزيرة فى المنطقة المعروفة بديار ربيعة** غربى دجلة ، وكان معظمهم من البدو وهم من القبائل الحربية التى لها قدم راسخ فى القتال والغارات ، وقد كانوا هموا باللحاق بأرض الروم حين طلبت منهم الجزية اباء وأنفة فأعفاهم عمر بن الخطاب منها . ومن أيام العرب الشهيرة التى دارت فى أرض الجزيرة **يوم بنات قين** ـ وهو ماء ـ اذ غزا زفر بن الحارث الكلابى تدمر وعليها عامر بن الأسود الكلبى ، وقد فازت فى هذا اليوم قيس على اليمانية . وحين أغار عمير بن الحباب السلمى مع زفر على بنى تغلب كان **يوم ماكسين من** قرى الخابور بينها وبين رأس العين يوم أو يومان جاء **يوم ماكسين** من قرى الخابور بينها وبين رأس العين يوم أو يومان ـ وعلى رأس قيس عمير بن الحباب وعلى رأس تغلب شعيث بن مليل وقد فازت فى هذا اليوم قيس على تغلب ، واستنجدت تغلب ببنى النمر بن قاسط فقال لهم شيخها : لو كنتم من بنى تغلب حقا لدافعتم عن أنفسكم وحرمكم ، فقالوا له : انا حى فينـا ما قد علمت من النصرانية ونصر مضر ، وأى السلطانين غلب فهو مع قيس ، فأجابهم : اذهبوا فان أمدهم السلطان بفارس فلكم فارسان وان السلطان اليوم لفى شغل عنكم وعنهم . وفى **يوم الثرثار الأول** ـ النهر الذى ينزع من هرماس نصيبين شرقى سنجار ويفرغ فى دجلة ـ قتلت تغلب مقتلة كبـيرة من قيس ، فتجمعت قيس واستمدت عمير الحباب ومعهم زفر بن الحارث والخليفة عبد الملك بن مروان مشغول عنهم ، فثأروا من بنى تغلب وقتلوها قتلا عظيما **فى يوم الثرثار**

الثاني وتتابعت انتصارات قيس على تغلب فى **يوم الفدين** ـ موضع لتغلب على الخابور ، **ويوم السكر** أو سكر العباس وهى قرية لتغلب على الخابور ، **ويوم المعارك** وهو موضع بين الحضر والعقيق من أرض الموصل ، **ويوم البليخ** ـ وهو نهر بين الرقتين ، **ويوم الكحيل** ـ من أرض الموصل عبر دجلة الغربى ، **ويوم البشر أو الرحوب** ـ وهو جبل عبر الفرات الغربى • وانتصرت تغلب فى **يوم الشرعبية** ـ ببلاد تغلب ، **ويوم الحشان** ـ وهو تل قريب من الشرعبية وقد قتل فيه عمير بن الحباب وبعثت بنو تغلب برأسه الى عبد الملك بن مروان • ويدعى الفريقان الانتصار فى **يوم لبى** ـ وهو دير فوق تكريت من أرض الموصل ، **ويوم بلد** •

وقد عمل عبد الملك بن مروان على التخفيف من حدة العصبية بين اليمانية وقيس ، واذا كان قد حارب القيسية بكلب فى أول خلافته ورمى قرقيسياء مركز تجمعهم بالمجانيق فانما اقتضت ذلك سلامة الدولة ومصالحها العليا نظرا لأن زفر بن الحارث زعيم القيسية قد أعلن العصيان على الخليفة سنين طويلة ومال الى جانب مصعب بن الزبير ، **فلما صالح عبد الملك زفر قربه هو وأبناءه وأصبحت القيسية قسما فى جيشه** • وعندما فتك الجحاف بن حكيم السلمى بقوم الأخطل عند جبل البشر ـ وهو ماء ببني جشم بن بكر وخاف الجحاف عبد الملك فدخل بلاد الروم وأقام بطرابندة ، « استأمن عبد الملك فأمنه ، ثم قدم العراق وقصد الحجاج فأكرمه » • (٧٩)

ولعل مما يفسر ذلك الصراع الطويل بين القيسية (أو العدنانية أو المعدية أو النزارية) وهم عرب الشمال وبين اليمنية (أو القحطانية أو الكلبية أو الأزدية) وهم عرب الجنوب ماكان هناك من تباين فى الخصائص بين الفريقين ، فعرب الشمال أكثر عددا وأغلبهم بدو ، فى حين كان عرب الجنوب سكان سواحل وجبال فى الأكثر وكانت بلادهم أكثر خصبا كما كانت مركزا تجاريا بين الهند وفارس وشرقى افريقية وبين آسيا وشمالى أفريقية وأوربا • ومن هنا كان عرب الجنوب أرقى ثقافيا لاحتكاكهم بالثقافات الحبشية والفارسية والهندية ، فضلا عما استفادوه من هجراتهم

---

(٧٩) الطبرى حـ ٧ ص ٣٧ : ٤٣ رواية ابن مخنف ، ابن الأثير حـ ٤ ص ٦١ : ٥ ، فلهوزن تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة دكتور ابى ريدة ص ١٦٧ : ١٧٨ ، ١٩٦ : ٢٠٢ دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ص ٩٢ : ١٠٨ حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع حـ ١ ص ٣٤٣ ـ ٤ ، دكتور طلس : تاريخ الأمة العربية ـ عصر الاتساق ص ١٠٥ : ٨

Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. pp. 77-8.

فى المناطق المختلفة على أثر اضطراب أحوال اليمن وانهيار سد مأرب · وقد أقام عرب الجنوب دولا متعددة ، وخضعت اليمن للأحباش تارة وللفرس أخرى ، كما خضع المناذرة لنفوذ الفرس والغساسنة لنفوذ الروم ، بينما كان عرب الشمال لا يؤسسون دولة جامعة قبل ظهور الاسلام ولا يألفون الخضوع لحكم أجنبى · وهكذا يبدو « أن اختلاف البيئتين قد جعل النزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب منتظرا ، كما أن تعود عرب الجنوب الخضوع للحكم الأجنبى يفسر استعانة الأمويين بهم الى حد بعيد » · (٨٠)

دور الجزيرة فى فتن

الشيعة ·· المختار ·· ابن الزبير :

واجه عبد الملك بن مروان دولة تنفجر الثورات فى شتى أجزائها ، فالخلافات القبلية التى أثارتها مرج راهط تهيج ثائرة القيسنية بين الحين والحين ، والشيعة يستثيرهم مقتل الحسين ، والخوارج على عهدهم من التمرد والانتقاض ، والشخصيات القوية الطموحة مثل المختار وعبد الله ابن الزبير تحاول أن تستفيد من سخط الساخطين وهياج الثائرين ·

وكانت الجزيرة مسرحا لكثير من هذه الفتن ، دارت على أرضها كثير من الوقائع · وانما أفاد عبد الملك فى مواجهة هذه الفتوق البالغة تفرق خصومه بعضهم عن بعض · فالشيعة الذين تحركوا للكوفة واتعدوا للاجتماع بالنخيلة سنة ٦٥ هـ ٦٨٤ م للمطالبة بدم الحسين لم يكونوا على وفاق مع المختار « فعسكروا بالنخيلة ، بعد أن كان لهم مع المختار بن عبيد الثقفى خطب طويل بتثبيطه الناس عنهم »**(ودخل المختار الكوفة ، وقد اجتمعت رءوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صرد** فليس يعدلون به ·· مازال بالشيعة حتى انشعبت اليه طائفة تعظمه وتجيبه أمره ، وعظم الشيعة مع سليمان بن صرد فسليمان أثقل خلق الله على المختار ·· وطائفة المختار أقل الطائفتين وهو لايريد أن يخرج حتى ينظر الى ما يصير اليه أمر سليمان بن صرد » · (٨١) فلما هزم سليمان بن صرد وظهر المختار بحركته كان الشيعة العرب من الجيل القديم لا يثقون به حتى اعتزلوه جانبا ، فلم يكن أمامه الا المتعصبون والموالى « وكانت الشيعة تسب المختار وتعيبه » · (٨٢) كذلك « فارق عبد الله بن الزبير الخوارج الذين قدموا عليه فقاتلوا معه حصين بن نمير السكونى ، فصاروا الى البصرة ثم

(٨٠) دكتور فروخ : العرب والاسلام فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ص ١٢٣ ـ ٤

(٨١) الطبرى حـ ٧ ص ٥٣ رواية ابى مخنف

(٨٢) فلهوزن : الخوارج والشيعة ـ ترجمة دكتور بدوى ص ٢٢٥ ، ابن الأثير حـ ٤ ص٧١

افترقت كلمتهم فصارت أحزابا » . (٨٣) كما اصطدم مصعب بن الزبير بالخوارج فى العراق وقاتل المختار والشيعة .

وكانت القيسية هي التي عاونت الشـــيعة حين خرجوا لأول مرة سنة ٦٥هـ « فانتهوا الى قرقيسياء من شاطىء الفرات وبها زفر بن الحارث الكلابى فأخرج اليهم الانزال وساروا من قرقيسياء ليسبقوا الى **عين الوردة**» وقد عرض زفر على سليمان أن يتعاونا فلما رفض نصحه بالتوجه الى عين الوردة : « فاجعلوا المدينة فى ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة فى أيديكم » ، وهى من أرض الجزيرة . ووجه مروان عبيد الله ابن زياد الى الجزيرة لكى يعبر الى العراق التى كان قد مزقهـــا النزاع ، ويروى ان مروان وعد عبيد الله أن تكون له البلاد التى يغلب عليها ، وبينما كان لا يزال عند جسر منبج على الفرات كانت مقتلة شيعة الكوفة بقيـــادة **سليمان بن صرد** عند عين وردة على يد الحصين بن نمير ، وكان مع سليمان رؤساء أربعة آخرون من فزارة والأزد وبكر وبجيلة . ثم اضطر عبد الله أن يشتغل عند ذلك **بقتال زفر بن الحارث ومن معـــه من قيس نحوا من سنة** ، وبعد ذلك تقـدم سائرا فى طريق الجيوش المعتـاد الى الموصـل ليستخلص العراق من المتمردين على الدولة وذلك فى الوقت الذى كان فيه المختار الثقفى قد استولى على الكوفة ، وانحاز أمير الموصل من قبل المختار الى تكريت .

وفى سنة ٦٦هـ ـ ٦٨٥م استطاع **المختار بن أبى عبيـــد الثقفى** أن يطرد عامل ابن الزبير على الكوفة وينادى هو الآخر بالثأر للحسين، وهزم عبيد الله بن زياد الجيش الأول الذى وجهه اليه المختار بعد قتـــال عنيف فى أواخر سنة ٦٦ هـ . ولكن عبيد الله لم يلبث أن هزم أمام جيش ثان يقوده ابراهيم بن الاشتر فى موقعة **خازر** فى أوائل سنة ٦٧هـ . وقد استفاد المختار كثيرا بانضمام ابن الاشتر اليه ، وكانت الجزيرة مسرحا لهذه الموقعة الهامة التى قتل فيها القائد الأموى ، **وظاهرت القيسية جانب اعداء الدولة الأموية** . ويروى الطبرى عن أحد شهود هذه المعركة «مضينا مع ابراهيم بن الأشتر ونحن نريد عبيد الله بن زياد ومن معه من أهـــل الشام ، فخرجنا مسرعين لا ننثنى نريد أن نلقاه قبل أن يدخل أهـــل العراق . فسبقناه الى تخوم أهل العراق سبقا بعيدا وأوغلنا فى أرض الموصل ، فتعجلنا اليه وأسرعنا السير فلقيناه بخازر ـ الى جانب قرية يقال لها باربيثا بينها وبين مدينة الموصل خمسة فراسخ . وأرسل

(٨٣) الطبرى حـ ٧ ص ٥٥ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ٦٩ .

عمير بن حباب السلمي ـ القائد القيسي ـ الى ابن الأشتر : انى معك ..
وكانت قيس كلها بالجزيرة فهم أهل خلاف لمروان وآل مروان يومئذ كلب وصاحبهم ابن بحدل » « وكان عمير بن الحباب على ميمنة ابن زياد وفى نفسه من يوم مرج راهط ، فصاح يالثارات قريش يالمضر يالنزار » .
وقتل عبيد الله كما قتل الحصين بن نمير ، ورفعت قيس رأسها من جديد فى قرقيسيا ، وخذل القيسية الذين كانوا فى جيش الامويين قادتهم فانضموا الى جيش ابن الأشتر « وكان من حسن حظ عبد الملك بن مروان أن مصعب بن الزبير وكان أميرا لأخيه على العراق قد ضايقه الشيعة والخوارج فى امارته نفسها ، فلم يكن يستطيع أن يفكر فى الشروع فى حرب خارج العراق » .

ومضى زمان قبل أن يستطيع عبد الملك اخضاع العراق التى كان يحكمها مصعب مستقلا بعض الاستقلال ، فشغلت عبد الملك مشكلات ناتل بن قيس الجذامى الذى هزمه فى أجنادين ، فضلا عن **تحرك الروم وتاليبهم الجراجمة** . يروى المسعودى أن عبد الملك بن مروان سار فى جيوش أهل الشام فنزل بطنان من أعمال قنسرين ينتظر ما يكون من ابن زياد فأتاه خبر مقتله وهزيمة جيشه ، كما أتاه نبأ هزيمة جيشه أمام ابن الزبير بالمدينة ، وخبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ، ومسير مصعب بن الزبير من المدينة الى الشام ، ثم جاءه مسير ملك الروم ونزوله المصيصة ، كما جاءه خبر دمشق وأن عبيدها وأوباشها ودعارها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل ، وأن خيل الاعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع ، ثم ان عمر بن سعيد بن العاص خرج عليه اذ كان هو الموعود بالخلافة بعد مروان بن الحكم كما حدث قحط شديد بالشام « لم يقدروا من شدته على الغزو » « وغير ذلك مما نمى اليه من المفظعات المختلفة ، فلم ير عبد الملك فى ليلة قبلها أشد ضحكا ولا أحسن وجها ولا أبسط لسانا ولا أثبت جنانا منه فى تلك الليلة ـ تجلدا وسياسة للملوك . فترك اظهار الفشل **وبعث بأموال وهدايا الى ملك الروم فشغله وهادنه** ، وسار الى فلسطين وبها ناتل على جيش ابن الزبير فالتقوا بأجنادين فقتل ناتل وعامة أصحابه وانهزم الباقون . ونما خبر قتله وهزيمة الجيش الى مصعب وهو فى الطريق فولى راجعا الى المدينة . ورجع عبد الملك الى دمشق فنزلها . وسار ابراهيم بن الاشتر فنزل نصيبين ثم لحق المختار بالكوفة » . وقد تكون هذه الوقائع فى أوقات متتابعة لا فى وقت واحد لكنها متقاربة الحدوث على أية حال .

وجاء الخلاص لعبد الملك بن مروان من المختار وابن الأشتر على يد

خصم آخر لعبد الملك هو مصعب بن الزبير والى البصرة من قبل اخيه وكانت جيوشه تحارب ضد الخوارج وقتذاك ٠ ولكن حرضه أعداء المختار الهاربون من الكوفة على المختار فسير جيشا فهزم المختار فى وقعة **المذار** فى منتصف سنة ٦٧ هـ فهزم المختار فيها ٠ ثم زحف المهلب من الأمنار الى الكوفة فهزم المختار وأصحابه أيضا فى حروراء ـ كل ذلك وابراهيم ابن الأشتر باق فى الموصل ، حتى كان مقتل المختار فى دار امارته فى رمضان سنة ٦٧ هـ ـ ابريل سنة ٦٨٧ م ٠

لقد ترك عبد الملك أهل العراق يقتتلون ويفنى بعضهم بعضا ، ويقول الرواة العرب والياس النصيبى : ان أول خروج عبد الملك لقتال **مصعب بن الزبير** كان فى صيف سنة ٦٨٩م ٠ ٦٩ـ٧٠هـ ، **وقد أدار عملياته الحربية فى بطنان حبيب ، اما مصعب فكان معسكرا فى باجميرا عند تكريت** « **وكل من المعسكرين كان ثغرا ونقطة حدود على الطريق الكبير بين الشام والعراق ٠ اما أرض الجزيرة فكانت منطقة بين العدوين غير أنها كانت أقرب الى أن تكون فى يد مصعب** ، وذلك أن قبائل قيس على الفرات كانت أيضا الى جانب مصعب » ٠ ودارت الحرب سجالا فى سنوات متتابعة ، وقد حرص مصعب على الافادة من جهود ابن الاشتر بعد مقتل المختار ٠ وكذلك فعل مروان : الأول يعده « بالشام وأعنه الخيل وما غلب عليه من أهل المغرب ما دام لأهل الزبير سلطان » ، والثانى يعده بالعراق٠ وقرر ابن الأشتر موقفه « لو لم أكن أصبت عبيد الله بن زياد ولا رؤساء أهل الشام تبعت عبد الملك ، مع انى لا أحب أن أختار على أهل مصرى مصرا ولا على عشيرتى عشيرة ٠ فكتب الى مصعب وأقبل اليه بالطاعة ٠ فلما بلغ مصعبا اقباله بعث المهلب الى عمله وهى السنة التى نزل المهلب على العراق (٦٧ هـ) ٠ اذ وجه المهلب بن أبى صفرة على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية وأقام بالكوفة » ٠

وقد حاول عبد الملك بن مروان أن يخفف عن ظهره وطأة **هجمات القيسية** فى ميدان العمليات الحربية بالجزيرة وعول على أن ينهى حربهم ليتفرغ لمصعب بن الزبير ، فكان لا بد من **غزو قرقيسياء** لانهاء مقاومة زفر ابن الحارث ، **ثم راس العين** حيث تحصن عمير بن الحباب ، كما كان لا بد من التغلب على **نصيبين حيث** كان يدافع عنها بقية أتباع المختار الثقفى ، وقد انجز الكثير فى صيف سنة ٦٩١ م ، ٧١ـ٢ هـ ، فاستسلم زفر بن الحارث بعد حصار طويل والحق ابنه الهذيل بعبد الملك فى حروبه ٠ وجاء الصدام الحاسم آخر الأمر بين عبد الملك ومصعب بعد أن مضى من الصيف شطر كبير ، وكانت المعركة فى **دير الجاثليق** بين مسكن ـ

حيث كان معسكر عبد الملك ومعسكر معاوية من قبل ـ وبين باجميرا ـ حيث كان معسكر مصعب • واستمات مصعب فى القتال الى أن قتل سنة ٧٢هـ ـ ٦٩١م ، وعسكر عبد الملك بجيشه فى النخيلة قرب الكوفة • ودعا أهل العراق الى بيعته فبايعوه ، وفرق أعمـــال العراق والمصرين الكوفة والبصرة على عمـــاله ، وخرج من الصراع وقد أكلت الثـورات المتعارضة بعضها فلم يحتج الأمويون الا لمواجهة القليل منها «فكفاه ابن زياد قائده ـ شر التوابين (الشيعة) ، وكفاه المهلب قائد بن الزبير أمر الخوارج، وكفاه مصعب خطر المختار ، وبقى مصعب وحده فواجهه عبد الملك» ويروى أن عبد الملك حين أتى برأس مصعب قال له أحد الحاضرين : انى رأيت بهذه القلعة رأس الحسين أمام عبيد الله بن زياد ، ورأس ابن زياد أمام المختار ، ورأس المختار أمام مصعب ، ورأس مصعب أمام أمير المؤمنين ـ فتشاءم عبد الملك وأمر بدك القلعة (٨٤) •

الخوارج :

اضطربت أمور العراق بعـــد وفاة يزيد بن معـــاوية فانضم كثير من أهل البصرة الى الخوارج • وحين ولى المدينة مصعب بين الزبير أدرك أن المهلب ابن أبى صفرة هو القائد الجدير بقتالهم فأشخصه لحربهم، وولى ابراهيم بن الأشتر مكانه فى الموصل • **وعرفت عن المهلب شجاعته فى حرب الثغور** فقد كان أصيب فى عينه أيام معاوية كما كان ذا مكيدة فى الحرب • وبعد مقتل مصعب بن الزبير بايع المهلب ومن معه من جند البصرة عبد الملك بن مروان اذ كان أغلبهم يمنيا ، غير أن بشر بن مروان الذى ولاه أخوه على العراق سنة ٧٢هـ ـ ٦٩١م لم يطلق يد المهلب فى كفاح الخوارج • فلما توفى بعد عامين وولى الحجاج ، قام بتجنيد أهـــل العراق « عن طريق عرفاء المصر وجرائد الديوان وأجبرهم على السير الى المهلب اذ **اعتبر حرب الخوارج كحرب الثغور والمغـــازى** » • وفى الوقت الذى لم يكن قد تم فيه التغلب على الخوارج الأزارقة فى المشرق ، قام خوارج

---

(٨٤) المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ١١٠ : ١٢٠ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٥ ـ ١٦ ، الطبرى حـ ٧ ص ٤٧ وما بعدها رواية ابى مخنف غالبـا ، ابن الأثير حـ ٤ ص ٦٧ ومابعدها ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة دكتور أبى ريدة ص ١٨١ : ١٩٣ ، الخوارج والشيعة ترجمـة دكتـور بدوى ص ١٨٩ ومابعدها ، دكتور ماجد التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ١١٢ : ١٢٨ ، دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ص ١٢٧ : ١٥٧ ، سديو : تاريخ العرب العام ـ ترجمة زعيتر ص ١٦٩ ـ ١٧٠ ، Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. pp. 78:80

آخرون في أول سنة ٧٦هـ في غرب العراق كان **أغلبهم ينتمي الى بني شيبان بن بكر ، وكانوا قد تركوا مواطنهم الاولى على الضفة اليمنى للفرات فى بادية الكوفة والبصرة وهاجروا من زمن قصير الى شمالى أرض الجزيرة** •

وفي نواحي الموصل ظهر **صالح بن مسرح** من الخوارج الصفرية وهو ناسك كان يعيش فى دارا بين نصيبين وماردين وكان تميميا ، بينما كان غالبية العرب الذين يسكنون هناك على جانبى الدجلة من بنى ربيعة من بني شيبان بن بكر وقد ظل صالح يدعو ويجتذب الأنصار فترة طويلة ، وفى سنة ٧٦هـ خرج بدارا وأرض الموصل والجزيرة ومعه رجال من ربيعة « وبلغ مخرجهم محمد بن مروان وهو أمير الجزيرة فاستخف بأمرهم » • وبعث اليهم حملة من الف قيسي ثم تابع ارسال الحملات اليهم ، « وبعد قتال عنيف خرج صالح وأصحابه فقطعوا أرض الجزيرة، ثم دخلوا أرض الموصل فساروا فيها حتى قطعوها ، ومضوا حتى قطعوا الدسكرة ، فلما بلغ ذلك الحجاج وجه اليهم جيشا بقيادة الحارث بن عميرة فالتقوا عند **المدبج** من أرض الموصل على تخوم بينها وبين أرض جوخى »• وانتهت المعركة فى غير صالح الخوارج ، وقتل صالح •

وبايع الخوارج **شبيب بن يزيد بن نعيم** ، وكان بفضل سرعة فرسانه كثير الظهور والاختفاء فهزم جيوشا كثيرة أرسلها الحجاج ، واختار لجولاته أرض جوخى على النهروان والجبال التى تقع الى شمالها ـ مسرح الخوارج الأولين ، ولبث فترة طويلة فى بلاد اذربيجان الجبلية تقاطر اليه فى اثنائها خلق كثير • وقد تقدم فى النصف الثانى من سنة ٧٧ هـ نحو الجنوب يحاول هجوما حاسما على الكوفة وهزم جيوشها هزيمة شنعاء ، واضطر الحجاج الى الاستنجاد بالشام فاستطاع هؤلاء أن يطردوا شبيبا الى أرض جوخي ، وظل جيش الشام يطارده حتى غرق فى نهر دجيل فى الاهواز سنة ٧٧ هـ ـ ٦٩٧ م • وبعد موت شبيب لم تعد جماعته ذات أهمية ، **ولكن حركات الخوارج ظلت قوية فى نواحي الموصل بين بنى شيبان وسائر آل بكر ، وتكاد جميع ثورات الخوارج فى العصر الأموى المتأخر أن تكون قد خرجت من الموصل ومن آل بكر ، وقد تحولت فى آخر أمرها الى ثورة شاملة لجماهير كبيرة • (٨٥)**

(٨٥) الطبرى حـ ٧ ص ٢١٧ وما بعدها رواية ابى مخنف ، ابن الأثير حـ ٤ ص ١٦٣ وما بعدها ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٢٢١ ـ ٢، الخوارج والشيعة ـ ترجمة دكتور بدوى ص ١١٠ : ١٣٠ ، دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ص ٢٠١ ـ ، دكتور ماجد التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ١٥٢ • Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. p. 88.

خروج ابن الأشعث :

أوفد الحجاج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من سلالة ملوك كندة وأبوه والى الموصل لابلن الزبير وكان من الثائرين على المختار - الى سجستان على رأس جيش تام الأهبة والعدة سمى (بجيش الطواويس) ، فقام هناك بحرب منظمة « وكان لا يفتح حصنا ولا يجاوز عمرانا الا خلف فيه قائدا معه حامية من المسلمين ، ونظم المراسلات بالبريد بين البلاد وجعل الأجناد على العقاب والشعاب ووضع المسالح لكل مكان مخوف . وبعد أن حاز أرضا عظيمة وامتلأت يداه بالغنائم حبس الناس عن الوغول فى البلاد حتى يتعود جنوده على طبيعة البلاد » . ولكن الحجاج - وهو قليل الصبر اتهمه بالضعف وايثار الموادعة ، فأدى هذا الى مخالفة ابن الأشعث ومن معه من جند العراق ، فوادع خصمة الزنبيل (رتبيل) فى سجستان وأقبل لحرب الحجاج بالعراق سنة ٨١ هـ - ٧٠٠ م ، ولم ينضم اليه المهلب فى خراسان . واستطاع ابن الأشعث أن يدخل الكوفة سنة ٨٢هـ - ٧٠١م، «**واجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم** ، والقراء من أهل المصرين ، فاجتمعوا جميعا على حرب الحجاج وجمعهم عليه بغضهم والكراهية له ، وهم اذ ذاك مائة الف مقاتل ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم ، وجاءت الحجاج امداده من قبل عبد الملك .. **وأراد أن يرتفع الى هيت وناحية الجزيرة فيأتيه المدد من الشام من قريب ويقترب من رفاغة سعر الجزيرة** ، فلما مر بدير قرة قال : مابهذا المنزل بعد من أمير المؤمنين وان الفلاليج وعين التمر الى جنبنا » . **وكان على المدد الذى أرسله عبد الملك بن مروان أخاه محمد وابنه عبد الله ابن عبد الملك على رأس جيشين من أهل الشام ، وبذلك عري الحدود امام الروم فاغتنم هؤلاء الفرصة** . وقد عرض عبد الملك على أهل العراق « عزل الحجاج ، وأن تجرى عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد من العراق شاء يكون عليه واليا مادام حيا وكان عبد الملك واليا وكان محمد بن مروان أمير العراق . والا فالحجاج أمير جماعة أهل الشام ومحمد وعبد الله فى طاعته » فاغتاظ الحجاج وحذر الخليفة مغبة ذلك ،لكن عبد الملك أصر على عرضه،وأراد ابن الأشعث قبوله فاصر أهل العراق على موقفهم وجددوا خلع عبدالملك. وقد دارت الدائرة على جيش ابن الأشعث الذى كان يحتل معسكرا حصينا عند دير الجماجم امام جنود الشام ، وتراجع الى البصرة،ثم

تحول الى **مسكن** على نهر الدجيل حيث انحاز اليه جنود كثيرون وفلول من كل ناحية ، ولكنه هزم أيضا وواصل تقهقره نحو الشرق حيث كان هلاكه سنة ٨٥ هـ .

ويرى فلهوزن ان حركة ابن الأشعث ليست حركة للموالى وحدهم، وليست مجرد استمرار لثورة المختار كما يرى فون كريمر : « فقد اشترك فيها بنوع خاص كثير من الناس من أهل البصرة ومن المقـــاتلة القدماء والموالي والقراء .. ولم يكن الموالى أكثر من مؤيدين ولم تأت الثورة منهم بل من جانب جيش الطواويس الذى كان يؤلف جيش العراق والذى انضمت اليه سائر المسالح والثغور . وقد اشترك فى ثورة ابن الأشعث أكابر العرب ... **فهى لم تكن صراعا بين الموالي والعرب بل كانت صراعا بين عرب العراق وعرب الشام** ، وكان على جند العــراق أن يقنعوا بأعطيات قليلة ويحتملوا فى الوقت نفسه مئونة أهل الشام ، وكانوا يوجهون فى حملات بعيدة ويرسلون الى المســالح القاصية على حين كان يبقى جند الشام فى أهله » (٨٦) .

وقد أدت ثورة جيش العراق وقتاله لحكومة الشام الى اصطناع مزيد من التشدد فى حكم الشام للعراق ، وبنى الحجاج مدينة **واسط** سنة ٨٣هـ ، وجعلها حصنا فى منتصف الطريق بين الكوفة والمدائن والأهواز والبصرة ومقرا للحكم والجيش ، ويقال انه فعل ذلك توقيا لما يرتكبه جند الشام من مفاسد فى الكوفة والبصرة « ونادى مناديه لاينزلن أحد على أحد ، **واخرجوا فعسكروا ، وبعث روادا له يرتادون له منزلا** ». **ويظهر أن الحجاج كان** شديد الرغبة فى عزل جند الشام عن أهل العراق وجعلهم حول الحاكم الأموى ليكونوا أداة طيعة تحت يده ، وهكذا انتقل الحجاج « من وسط الجماعة الى مركز قيـادة حربى ، فابان بذلك عما يشعر به من أنه فى بلاد **معاوية** وأقام حكمه على القوة فى صورتها الصريحة (٨٧) » .

---

(٨٦) الطبرى حـ ٨ ص ٧ وما بعـدها . رواية أبى مخنف ، ابن الأثير حـ ٤ ص ١٩١ وما بعدها ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية . ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٢٢٣ : ٢٤١ ، دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ص ١٧٤ : ٧ .
Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. p. 88-9.

(٨٧) الطبرى حـ ٧ ص ٣٦ ـ ٧ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ٢٠٤ ـ ٥ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٢٤١ ـ ٢ .
Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. p. 89.

الجراجمة والروم :

أثرت هذه الفتن المتلاحقة على مركز المسلمين العسكرى فى ثغور الشام فقد هوجمت مرتين احداهما بطريق مباشر سنة ٦٤ ـ ٥ هـ سنة ٦٨٤م ، وأخرى بطريق (المردة أو الجراجمة) ، وفى كلا المرتين سعى المسلمون لتجديد الصلح مع الروم · وقد حدث الهجوم المباشر فى وقت هجوم الخزر وعودة الروم الى أرمينية · وسار الامبراطور البيزنطى الى المصيصة فى الوقت الذى طلب منه عبد الملك الصلح سنة ٦٥ هـ سنة ٦٨٥ م · ويروى البلاذرى أن الروم أخربت **عسقلان** وأجلت أهلها عنها فى أيام ابن الزبير ، كما شعثت **قيسارية** وهدمت مسجدها ، فرم عبد الملك هذين الثغرين وشحن قيسارية بالرجال . وكان معاوية يوجه فى كل عام الى **طرابلس** جماعة كثيفة من الجند يشحنها بهم يوليها عاملا فاذا انغلق البحر قفل وبقى العامل فى جمع يسير « فلم يزل الأمر فيها جاريا على ذلك حتى ولى عبد الملك ، فقدم فى أيامه بطريق من بطارقة الروم ومعه بشر منهم كثير ، فسأل أن يعطى الأمان على أن يقيم بها ويؤدى الخراج فأجيب الى مسألته . فلم يلبث الا سنتين أو أكثر منهما بأشهر ، حتى تحين قفول الجند عن المدينة ثم أغلق بابها وقتل عاملها ، وأسر من معه من الجند **وعدة من اليهود** ». وقدر عليه المسلمون بعد ذلك فى البحر ، وقيل حاصروه فى البر وقد بنى عبد الملك حصن طرابلس وحصنه . كذلك تعرضت ملطية **ومرعش** لهجمات الروم المتلاحقة بعد موت يزيد بن معاوية حتى انتقل المسلمون عن الأخيرة· ولما كانت أيام ابن الزبير وموت مروان وطلب عبدالملك الخلافة واستعداده للشخوص الي العراق لمحاربة مصعب ابن الزبير (خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم سارت الى لبنان وقد ضمت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة وأنباط وعبيد أباق من عبيد المسلمين » (٨٨) .

وقد بدأت مشكلة هؤلاء فى صيف سنة ٦٨٧ م ـ ٦٨ هـ · روى ابن عساكر أن طاغية الروم كاتب أنباط جبل لبنان واللكام ، فخرج **الجراجمة** وعسكروا بالجبل وجاء بطريق رومى فى جماعة من الروم فى البحر فسار بهم حتى أرسى ، ثم خرج بمن معه حتى علا جبل لبنان « وبث قواده فى أعلى الجبل حتى بلغ انطاكية وغيرها من الجبل الأسود ، فأعظم ذلك

---

(٨٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٠ ، ١٣٣ ـ ٤ ، ١٩٦ ـ ٧ ، ١٦٦ ـ ٧ ·

المسلمون بالساحل حتى لم يكن أحد يخرج فى ناحية الا بالسلاح ، فغلبت الجراجمة على الجبال كلها من لبنان وسنير وجبل الثلج وجبال الجولان» .
وتذكر الروايات العربية أن عبد الملك شتى فى قنسرين ولجأ الى استرضاء الجراجمة بالمال بأن يدفع لهم ألف دينار أسبوعيا ، ثم استعمل المكيدة واليه على طرابلس سحيم بن المهاجر حتى استطاع أن يدخل معسكر الروم متنكرا ويقتل البطريق وكثيرا من جنده ، وهرب الباقون فلحقوا بأرض الروم ، ورجع أنباط جبال لبنان الى قراهم . ويذكر ابن القلاعى « أن الموارنة كانوا يتولون الجبال والسواحل التى تجاورهم وبلادهم من حدود الشوف الى بلاد الدروب - وأميرهم يسكن قرية بسكنتا ، وقد نزل الى البقاع فى رجاله ونهبها وقتل كثيرين ولبث أياما فى قب الياس .. **ولم تزل الحروب منذ ذلك الحين سائر بن المسلمين والموارنة الى نحو ثلاثين سنة** ، ثم ابتنى الموارنة حصنا فوق نهر الكلب وجرت عنده موقعة هائلة » وبسبب هذه الفتن لقب الجراجمة بالمردة(٨٩) .

ويذكر تيوفانيس أنه فى السنة الاولى لعبد الملك بن مروان قد حدثت مجاعة شديدة وطاعون فى الشام كما توالت غارات المردة فى جبال لبنان . وقد نقض الروم صلحهم مع المسلمين سنة ٦٥ هـ سنة ٦٨٥ م بهجومهم على ملطية ومرعش ، وثارت الفتن فى أرمينية ، وقد طلب عبد الملك الصلح للمرة الثانية سنة ٦٩ هـ سنة ٦٨٩ م . وكانت مدة الصلح الذى عقد أيام معاوية سنة ٦٠ هـ ٦٨٠ م ثلاثين عاما ، بينما كان صلح عبد عبد الملك الثانى سنة ٦٩هـ ٦٨٩ م لمدة عشر سنوات . ونص الصلح الاول على تقديم ٣٠٠٠ دينار ذهبى سنويا ، ٥٠ عبدا ، ٥٠ حصانا أصيلا، أما الصلحان اللذان عقدهما عبد الملك فينصان على تقديم ٣٦٥٫٠٠٠ دينار ذهبى ٣٦٥ عبدا ، ٣٦٥ حصانا أصيلا ، ولم تحترم المدد المقررة فى تلك المعاهدات ، وقد جاء نقض المعاهدة الاولى من جانب الروم بعد ٥ سنوات ، وجاء نقض المعاهدة الثانية بعد ٣ سنوات ، وجاء نقض المعاهدة الثالثة بعد ٥ سنوات . ويذكر تيوفانيس فى أخبار جستنيان الثانى (٦٨٥ - ٦٩٥ م ، ٧٠٥ - ٧١١ م) أن عبد الملك أرسل اليه رسلا لابرام عهد الصلح . « فعقد الصلح على الشروط الآتية : وهى أن الملك يمنع غارات عسكر المردة من لبنان، وعبدالملك يدفع اليه فى كل يوم ألف دينار

(٨٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٧ ، كرد على : خطط الشام ص ١٤٩ : ١٥١ ، Cheira : La Lutte. pp. 151-2. الطبرى حـ ٧ ص ١٨١ ، ابن الأثير حـ٤ ص ١٢٨ .

وفرسا مملوكا، وأن الملكين يقتسمان بينهما خراج قبرص وأرمينية وايبريا قسمة عادلة سوية. وأرسل (بولس ماجستريانس) الى عبد الملك لابرام عهدة الصلح.. وابرر الملك **أمرا بابعاد اثنيعشر ألفا من المردة عن** أوطانهم. وقد اضعفت بذلك قوة المملكة الرومانية لان جميع المدن المجاورة لبنان من المصيصة الى أرمينية الرابعة كانت ضعيفة وخالية من السكان بسبب غارات المردة الذين كبنهم الملك ، وقد توالت من ذلك اليوم المحن والمصائب فى المملكة الرومانية بسبب سطو العرب ... وقد مضى الملك ـ فى سنة تالية ـ الى أرمينية فقابل هناك عسكر المردة الذى كان قبلا فى لبنان **بمنزلة سور نحاسي لمملكته فدكه بيده** » . ويذكر أن جستنيان الثانى توصل الى اجلاء الجراجمة بالمكيدة. فروى السمعانى فى المكتبة الشرقية عن البطريرك الدويهى الاهدانى : أن الملك جهز جيشا وسيره الى سوريا وأشاع أنه حامل على العرب ، فقابل الامير يوحنا قائد الجيش بالترحاب فاحتال عليه القائد حتى قتله « أما قائد جيش الملك فمن بعد هذه المقاتلة اخذ يخمد جذوة غيظ سكان لبنان ويجاملهم ويعتذر عن سوء صنيعه ، ويقول ان قسطنطينية محفوفة بمخاطر شديدة من جراء حملات العرب وفى أقصى الحاجة الى انجادهم ومعاونتهم وأنه يلزم تقديم المصلحة العامة على الخاصة ، وأكثر من الوعود ان الملك يجزل من المكافآت الملكية لمن يطيعه وينجده . وبعد العناء الشديد المديد حملهم على أن يقيموا سمعان **ابن أخت الامير يوحنا القتيل قائدا لهم » ، ومضى القائد البيزنطى بآلاف** الجراجمة الى أرمينية ثم تراقية ويعلق المطران الدبس على هذه الواقعة بقوله : « ويظهر من ذلك أن ملوك الروم كانوا يوسوسون للمردة ليخرجوهم من طاعة الدولة السائدة بهم حتى صار للمردة ضلع من هؤلاء الملوك ، ولولا ذلك لما صدقوا وعود قائدهم ولما اغضوا عن قتل أميرهم . ويتبين لى أنهم راعوا من جهة اسخاطهم لدولتهم بتعدياتهم ، ومن جهة أخرى أنهم اذا عصوا ملوك الروم لم يكن لهم طاقة على معاندة الدولتين معا .فآثروا مطاوعة القائد والمسير معه على بقائهم فى أوطانهم عرضة لتنكيل الدولتين بهم ، وكانوا يرجون أن يوستنيانس ينتفع بخدمتهم ويعيدهم الى وطنهم ، ولم يدروا باتفاق الدولتين على ابعادهم الا بعد حلول المصاب بهم ، ولا غرو أن عيالهم لحقت بهم ويظهر أن ذلك كان سنة ٦٨٥ أو سنة ٦٨٦ م ، وحينئذ أمر الموارنة عليهم ابرهيم ابن أخت بطريركهم القديس يوحنا مارون . » ويذكر قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس (٩١٣ ـ ٩٥٩ م) فى كتابه أن المردة نقلوا الى بامفيليا ومقام قائدهم فى مدينة اضاليا ، فان المؤلف حين عرض لعمل بامفيليا ذكر أن « فيه المردة الذين أجلوا من

لبنان يليهم قائد لهم ، وقد استمروا هناك من عهد يوستنيانس الى أيامنا » ومما قاله **أن الامبراطور البيزنطى كان ينصب للمردة واليا وقاضيا فى اضاليا** • ويذكر السمعانى أن كتابا شهد مؤلفه فتح العثمانيين القسطنطينية « وذكر كبير المردة ، قال : انه كان يحمل عكازا من فضة مموها بالذهب » ، كما نقل السمعانى أن الرتبة السابعة عشر بعد الملك كانت لكبير المردة « وان الموارنة المجلوبين استمروا فى بامفيلية ولهم ممثل فى قسطنطينية الى أن أخذت الدولة العثمانية قسطنطينية سنة ١٤٥٣ م » • وأما تراقية التى أقاموا فيها « فالصحيح أنها قسم من كيليكيا وهى الآن ولاية ادنة ، وكيليكيا مقسومة الى قسمين : سهلية وجبلية ، فالسهلية قاعدتها ادنة وترسيس والجبلية من مدنها سلوقية كيليكيا ، وكان القدماء يسمونها تراكة أى الحجرية والان يعبرون عنهما بكيليكيا الاولى والثانية ، وبامفيلية متاخمة لتراكية غربا • وليست تراكية تراسة أى الروملى » (٩٠) •

ولئن كان عبد الملك بن مروان قد سار على سنة سلفه معاوية فى مصالحة الجراجمة والروم ، الا أن الامور لم تستمر على هذا النحو فقد شرع عبد الملك **فى اصلاح نظام العملة فجر هذا الى استئناف الحرب مع الروم** • وكانت العملة اليونانية والفارسية شائعة التداول قبل الاسلام، واكتفى الخلفاء الاوائل المسلمون بهذه العملية الاجنبية ولعلهم فى بعض الحالات كانوا يسكون فوق نقوشها بعض آيات قرآنية • وكانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر ، فاحدث عبد الملك بن مروان اجراء يقضى بأن يكتب فى رءوس الطوامير عبارات من ذكر الله ،فكتب اليه ملك الروم: انكم احدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه ، فان تركتموه والا اتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه • فكبر ذلك فى صدر عبد الملك فشاور خالد بن يزيد بن معاوية فقال له : افرخ روعك يا أمير المؤمنين حرم دنانير فلا يتعامل بها واضرب للناس سككا ، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا فى الطوامير • فقال عبد الملك : فرجتها عنى فرج الله عنك • وقد سك عدد قليل من القطع المعدنية قبل أيام عبد الملك ولكن تلك

---

(٩٠) الدبس : تاريخ سوريا م ٥ ص ١٠٦ ومابعدها ، دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ١٧٥ ـ ٦ ، حتى : تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة د. اليازجى ص٥٢ : ٤

المسكوكات لم تكن سوى تقليد للطرازين البيزنطى والفارسى وكان أول سك العملة العربية الخالصة سنة ٧٤ ـ هـ سنة ٦٩٢ ـ ٣ م (٩١) ٠

وكان هذا الحادث ـ فيما يروى تيوفانيس ـ شرارة لاشعال نار الحرب بين المسلمين والبيزنطيين ٠ وكان المسلمون قاد عادوا لاحتلال قبرص سنة ٧٣ هـ سنة ٦٩٣ م بعد اخلائها من قبل اثناء اضطراب امورهم الداخلية ٠ واتى اليها جيش بيزنطى سنة ٧٤ هـ سنة ٦٩٤ م استفاد من استياء السكان ، وقد لجأ المسلمون الى اجلاء بعض السكان لتوطيد مركز حكمهم سنة ٧٥ هـ سنة ٦٩٥ م وقد زادوا من الجزية المفروضة على الجزيرة ، وقد تدخل الامبراطور تيبريوس سنة ٧٧ هـ سنة ٦٩٦ م لاعادة هؤلاء المنفيين ويبدو أن النفوذ العربى ظل قائما فى الجزيرة ، فلا نجد اثارة لمسألتها حتى سنة ٩٤ هـ سنة ٧٧٣ م ٠

وكان جستنيان الثانى ـ الذى قبل نقل الجراجمة الى داخل الأراضى البيزانطية ـ قد اتجه الى محاولة استخدام العناصر **السلافية** فى الدفاع عن الدولة فجمع عددا كبيرا من السلاف وزعهم على أشد المناطق تعرضا لهجمات المسلمين فى آسيا الصغرى والتى كانت فى طريق زحفهم صوب القسطنطينية فكون منهم فرقة كبرى بلغت٣٠٫٠٠٠ جندى وجعل مقرها الرئيسى فى بند الابسيق (الاوبسيكيون) المطل على الدردنيل ٠ كما أراد جستنيان نقل عدد كبير من أهالى قبرص الى بند الابسيق أيضا ولكنهم غرقوا فى عاصفة ٠ واغتر جستنيان الثانى باستعداداته الحربية واتخذ من مسألة الدنانير تعلة لنقض الصلح ٠ وعبثا حاول عبد الملك ارجاعه عن عزمه « لانه أراد أن يأخذ جالية من قبرص لغير داع ، وأنف أن يأخذ من عبدالملك الدنانير التىسكها حديثا، ولاعتماده على عسكر اختاره من الصقالبة ٠٠٠ فعلق العرب صحيفة المعاهدة علىعلمهم ووثبواعلى الجيش الرومانى»٠ وزحف المسلمون على كيليكيا بآسيا الصغرى ، واصطدموا عند مدينة سيواس Sebastopolis سنة ٧٣ هـ ـ سنة ٦٩٢ م القوات البيزنطية وما فيها من فرق سلافية من بند الابسيق ٠٠٠ لكن تخلت هذه القوات عن الامبراطور مما استثاره الى اجراء مذبحة فيمن بقى منهم بجيشه عند Laucata ، **فغدا السلاف مستعدين لخدمة المسلمين فى**

---

(٩١) الطبرى حـ ٧ ص ٢٤٢ ، ابن الاثير حـ ٤ ص ١٧٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٩ ، حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع ص ٢٧٠ ـ ١
Hist. of Syria. pp. 448-9.
الترجمة العربية حـ٢ ـ ترجمة د٠ اليازجى ص ٨٤ ٠
Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. pp. 80, 82.

أى نضال حربى ينشب بينهم وبين البيزنطيين , وكانوا على علم بدروب آسيا الصغرى • وقد اكتسح جنود الخليفة بعد ذلك كبادوكيا واستأنفوا جهاد الروم « بعد أن ركد هذا الجهاد خمسة عشر عاما » ، وكان قائدهم أخ للخليفة هو محمد بن مروان أمير الجزيرة وأرمينية وكانت له قيادة الجيش فى آسيا الصغرى وأرمينية • وقد استطاع القائد الاسلامى أن يستميل اليه الصقالبة « فانحاز ومعه عشرون ألفا الى العرب » فأسكنهم عبد الملك فى ثغور الشام وقبرص فنجحوا وأثروا ، فى حين غدا اخوانهم بآسيا الصغرى أداة تعين حملات المسلمين ضد الروم (٩٢) •

وقد اتخذ عبد الملك بن مروان اجراءات سريعة فى ترميم الثغور وتحصينها سواء منها الثغور البحرية مثل عسقلان وقيسارية وطرابلس ، أو الثغور البرية • وكان أول ما ابتنى **حصن المصيصة** على يد ابنه عبد الله سنة ٨٤ هـ فتم بناؤها وشحنها سنة ٨٥ هـ • وروى أنه فرض لقوم من أهل انطاكية وأنباطها وجعلوا مسالح **وأردفت بهم عساكر الصوائف ليؤذنوا الجراجمة عن أواخرها فسموا الرواديف** ، وكان الجراجمة اذ غزت الصوائف قطعوا على المتخلف واللاحق ومن قدروا عليه وأغاروا على قرى انطاكية • والى العهد الاموى يرجع مضمومة الى حمص ، ثم **افراد الجزيرة كجند** مستقل فى عهد عبد الملك بن مروان بعد أن كانت مضمومة الى قنسرين وذلك بناء على رأى محمد بن مروان أمير الجزيرة وأرمينية (٩٣) •

وقد عادت **حملات الشواتى والصوائف** السنوية من ثغور الشام متتابعة فقال الاخطل يمدح عبد الملك •

وفى كل عام منك للروم غزوة بعيدة آثار السنابك والسرب

وكان عبد الملك يرسل مع هذه الحملات ابناءه وأفراد اسرته وولى أخاه **محمد بن مروان** الجزيرة وأرمينية سنة ٧٣ هـ فغزا الصوائف بين عامى ٧٣ ، ٧٦ هـ على التوالى •

---

(٩٢) الطبرى حـ ٧ ص ٢٠٦ ، حـ ٨ ص ٥ رواية على بن محمد ، ٣٧ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ٤٧ ، ١٨٩ ، ٢٠٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٢ ، ١٦١ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ١٧٤ وما بعدها ، الدبس تاريخ سوريا م ٥ ص ١٠٧ وما بعدها ، دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٧٦ : ١٨٠ ، رستم : الروم حـ ١ ص ٢٦٦ ـ ٧ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية : ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٢٠٩ ـ ١٠ •
Cheira : La Lutte. pp. 96-7.

(٩٣) البلاذرى :فتوح البلدان ص ١٧٢ ، ١٦٨ ـ ٩ ، ١٣٨ ، ١٦١ •
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 169-170.

وكانت أرمينية قد انتقضت على المسلمين أثناء انشغالهم بمشكلاتهم الداخلية • وقد راعت بيزنطة شروط الصلح مع المسلمين في عهد يزيد ، ولكنها آثرت للوصول الى استغلال الظروف **أن تستخدم الخزر ضد الارمن وتستفيد منهم • وقد آزرت بيزنطة الهجوم الخزرى الذى هدد الأطراف الاســـلامية ، لتتدخل في الشــام وارمينية** ، ولتحاول استــتثارة الاقليم الأخير دون التعرض لخســـائر • وقد تعــددت هجمات الخزر على المسلمين بين ســـنتى ٦٨٣ ، ٦٨٦ م ، وكانت بيزنطة تعــرف جيــداً القيمــة السياسية للتحالف مع الأقــوام القوقازية وبقيت أرمينية على ولائهـــا للعرب لاخلاص جرجوار ممكونيان ، ولكن هذا الامير لقى حتفه فى دفع الخزر سنة ٦٨٥ م ، وعين العرب له خلفا حاول طرد الغزاة ، ولكن بيزنطة رفعت رأسها وتدخل جستنيان الثانى بطريقة مكشوفة ، فأعاد القـــائد البيزنطى ليونتوس فتح أرمينية والمناطق الجبلية المجاورة لها ، واضطلع جيش بيزنطى من ٣٠٫٠٠٠ جندى بحماية الاقليم منذ ذلك الوقت • وقد طلب عبد الملك تجديد الصلح سنة ٦٨٥ م ، ولم يتمكن المسلمون من العودة للاقليم حتى سنة ٦٩٣ م • **وكانت السياسة العربية فى أرمينية دائمـــا هى دخول الاقليم من احد جوانبه اثناء تحرك جيش عربي آخر على الحــد الغربي المجاور للدولة البيزانطية • وبدأت** المعارك سنة ٧٣ هـ سنة ٦٩٣ م بقيادة محمد بن مروان الذى دخل أرمينية بمساعدة العناصر المواليـــة للعرب من أهلها ، وقد تسبب القائد الارمنى سنباط Sembat فى مقتل كثير من الروم أثناء انسحابهم ، وهكذا وفق محمد فى حملته « فقتل وسبى وغلب على البلاد » ، وقدم زعماء الارمن خضوعهم ، وبدأت منذ ذلك الوقت سلسلة من الحكام الخاضعين للعرب • وفى القسم العربى من الاقليـــم تمكن جيش عربى من ٤٠٠٠ رجل بقيادة عثمان بن الوليد بن عقبة من هزيمة جيش بيزنطى كبير عدته ٦٠ الفا فى معركة سبسطية اوسيواس، ويصف تيوفانيس الهزيمة بأنها منكرة • واستمر القتال حتى نهـــاية سنة ٧٤ هـ (٦٩٣ م) ، ولتدعيم نتائج المعارك وصل محمد بن مروان فى العام التالى الى اذروليه فى الارض التى تتقدم أرمينية •

وقد كان **دينار بن دينار مولى عبدالملك** يلى قنسرين وكورها،وهزم الروم سنة ٧٥ هـ ٦٩٤ م عند جسر يغرا على عشرة أيام من شمشاط ، وحين خرج الروم من قبل مرعش الى الاعماق فى نفس العام زحف دينار مع أبان بن الوليد بن عقبة فاقتتل المسلمون مع الروم قتالا شديدا بعمق مرعش • وفى سنة ٧٥ ـ ٧٦ هـ / ٦٩٥ م غزا يحيى بن الحكم عم الخليفة الصائفة أرمينية الرابعة البيزنطية فكانت معركة مرج الشحم بين ملطية

والمصيصة ولعلها بعبارة أدق قيصرية كبادوكيا ، وقد آثر بعض الصقالبة (السلاف) التحالف مع العرب ونقلوا الى انطاكية وقورس ٠

اما الوليد بن عبد الملك فقد غزا الصائفة سنة ٧٧ هـ (٦٩٦ م) من ناحية ملطية (اطمار) وهو اقليم المطامير من بند خرشنة Kharaianon في البند الارمني وظل على امارة الغزو حتى مات عبدالملك سنة ٨٦هـ ، وقد غزا في البحر حسان بن النعمان سنة ٧٧ هـ ٠

هذا وقد قام عبد الملك ابن مروان بزيادة الجزية على أهل قبرص ، ولعل ذلك كان منه اجراء تأديبيا ضد الجزيرة ، لتألب أهلها على المسلمين وتعاونهم مع الروم ٠

وتعد عملية قبرص الحربية تغطية وحماية لحملات أرمينية ٠ ومع ذلك بقي جزء من أرمينية خاضعا للروم طوال حكم عبد الملك وبخاصة أن العرب شغلوا بحرب الخوارج ، اذ احتل الخوارج الصفرية بقيادة شبيب دارا ونصيبين وسنجار وهزموا جيوش الدولة سنة ٧٦ ـ ٧ هـ (٦٩٥ ـ ٦ م) ، فلا نجد معركة جدية في صائفة سنة ٧٨ هـ (٦٩٧ م) التي كانت بقيادة يحيي بن الحكم ، وتوقفت العمليات الحربية في العام التالي بسبب المشكلات القائمة **واستطاعت بيزنطة أن تستفيد من الظروف وأن تهاجم ارمينية وانطاكية** سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) فقد أرسل تيبريوس الثالث جيشا الى أرمينية استولى على قاليقلا ، واصطدم بمقاومة سنباط أمير الاقليم الذى نصبه العرب ، ولكن هذا ما لبث أن تراجع فاهتزت ثقة الاقليم في كفاءة الحماية العربية ٠ وفي العام نفسه شن الروم هجوما بحريا على انطاكية واستطاعت المدينة المقاومة بتحصيناتها ورجالها ٠ وفي العام التالي سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) لانجد في الجوليات العربية سوى حملة بقيادة الوليد لاتعرف وجهتها ٠ وفي سنة ٨١ هـ ـ ٧٠٠ م تضاءل النفوذ العربي في أرمينية ، وقتل سنباط الحامية العربية في نختشوان ، ومن هنا **جاء اتجاه العرب الى فتح قاليقلا** ، وان كانت الخلافة تعاني وقتئذ من فتنة بن الأشعث منذ صيف ٧٠٠ م ـ ٨١ هـ ٠

وقد قاد الحملة على قاليقلا عبد اللك سنة ٨١ هـ ، ونجحت في الاستيلاء على المدينة ، ولكن لم يكن هذا كافيا فقد اشتعلت ارمينية بالفتن واحتذى كثير من القادة الارمن حذو سنباط ٠ وفي العام الثاني سنة ٨٢ هـ ـ ٧٠١ م سار محمد بن مروان بقواته لاخضاع الاقليم ، لكنه ترك القيادة لاحد رجاله وهو أبو الشيخ ورحل الى العراق ، فتقدم الروم

نحو سميساط • وفى العام التالى سنة ٨٣ هـ ـ ٧٠٢ م استراحت الدولة من ضغط ازماتها الداخلية بعد واقعة دير الجماجم ، وغدا شغلها الشاغل هو المسألة الارمينية ، **فدخل محمد بن مروان أرمينية بينما عمل عبد الله فى الغرب ناحية طرندة** • على ثلاث مراحل من ملطية وكانت واغلة فى بلاد الروم ، وملطية يومئذ خراب « فكانت تأتيهم طالعة من جند الجزيرة فى الصيف ، فيقيمون بها الى أن ينزل الشتاء » ، وكان ذلك حلا مفيدا للمسألة الارمينية بتغطيتها بقواعد أمامية ثابتة ، وكان الروم قد أجلوا أهل ملطية أثناء فتنة ابن الزبير ، وهكذا اقترب مركز النشاط العربى من البند الارمنى • وفى سنة ٨٤ هـ (٧٠٣ م) غزا محمد بن مروان أرمينية ، وغطى ذلك غزو عبد الله الصائفة فدخل من درب انطاكية وبنى حصن المصيصة. « وكانت الطوالع تطلع عليها فى كل عام فتشتو بها ثم تنصرف وعدة من كان يطلع اليها الف وخمسمائة الى الالفين » • واستمر العمل فى العام التالى ، ثم استطاع المسلمون تدمير الحصون الاناضولية فى منطقة سيس سنة ٧٠٥ م التى وصلوها لاول مرة بعد الصعود فى النهر الذى تقع عليه المصيصة ، وقد هرع هرقل شقيق تيبريوس الثالث وهزم المسلمين بقيادة ابن جبير ولكنهم عاودوا هجومهم على هذا المكان فى السنوات التالية • وقد قام مسلمة بحملة موفقة فى الجبهة الجزرية ، وتوغل فى الاراضى البيزنطية ويروى انه استولى على قلعتين بيزنطيتين • وقد حاولت بيزنطة عرقلة استعداد العرب فى أرمينية سنة ٨٥ هـ ـ ٧٠٤ م متعاونة فى ذلك مع سنباط الذى قاد ثورة شاملة فى أرمينية سنة ٧٠١ ـ٢ م وتلقى امارة الاقليم من الروم ، واستفاد من موضع Thonkhark فى كلكيد Colchide على شواطىء البحر الاسود حيث يمكن وصول النجدات الضرورية فى الوقت المناسب • ولكن محمد بن مروان قهر سنباط بعد حملة طويلة فى أرمينية استغرقت طوال الصيف والشتاء التالى سنة ٧٠٤ـ٥ م ، ولم يجد سنباط مناصا من محاولة التفاهم مع العرب • وهكذا شغلت المسألة الارمينية العرب بالدرجة الاولى من سنة ٦٩٣ الى ٧٠٥ م ، وقد دخلت الجيوش البيزنطية الاقليم العربى من أرمينية ٣ مرات سنة ٦٩٨ ، ٧٠١م ، ٧٠٤م ـ وكانت المرتان الاخيرتان بمعاونة سنباط ، وزاد من حدة المسألة الارمينية انشغال الدولة الاسلامية بمشكلاتها الداخلية • (٩٤)

(٩٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٢ ، ١٩٣ ـ ٤ ، ١٩٦ ـ ٧ ، الطبرى : حـ ٧ ص ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٨٠ ، حـ ٨ ص ٣٧ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ١٥٥ ، ١٧٤ ، ١٨٦ ، ٢٠٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ٤٤ ـ ٥ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٢٦ـ٧ •
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 149-150, 160:7, 169-170

أما فى افريقية ، فقد ساد الهدوء بعد صلح المسلمين والروم سنة ٦٠ هـ (٦٨٠ م) ولكن حدثت مناوشات بين العرب والبربر . ثم عقد صلح سنة ٦٥ هـ (٦٨٥م) ، لكن ما لبث زهير بن قيس البلوى ان اصطدم بالبربر أيضا سنة ٦٧ هـ (٦٨٧م) فى الوقت الذى كان فيه المسلمون يعانون من فتنة المردة فى الشام . **وقد آزر الروم الزعيم البربرى كسيلة ضد العرب** ، وكان اسطولهم يخرج من صقلية ليناوش العرب على الساحل الإفريقى حتى فقد العرب سيطرتهم على القيروان وقتل زهير . ولكن استطاع العرب أخيرا أن يتغلبوا على مقاومة كسيلة ، ثم قضى حسان ابن النعمان الغسانى على تمرد الكاهنة ، واستعاد المسلمون حصن قرطاجنة (٩٥) .

ولم يكن عبد الملك بن مروان هو الذى شقى وحده بالخلافات الداخلية ، فان معاصره البيزنطى جستنيان الثانى كان كأنما أصابه مس بهزيمته أمام العرب فأجرى مذبحة جنده الصقالبة (السلاف) فى ليوكاتا Leucata — كما سلف الذكر ، وشرع يقتل ضباطه ويحبسهم . وفى سنة ٦٩٥ م استطاع قائد جند هيلاس **ليونتيوس** Leontius **أن يقود** ثورة انتهت بالقبض على جستنيان ونفيه وتولية ليونتيوس (٦٩٥ : ٦٩٨م) . واعقبت ذلك فوضى عشرين سنة اذ أن الامبراطور الجديد لم يكن كفوًا ، فقد دعته الى الثورة مخاوفه من تنكيل جستنيان أكثر من طموحه الى العرش ، احتفظ بالعرش ثلاث سنوات بصعوبة فى وسط ثورات داخلية وهزائم خارجية فى الحد الاسيوى للامبراطورية وفى افريقية . وعندما سقطت قرطاجنة فى ايدى المسلمين دبر القادة المنسحبون فى طريقهم الى القسطنطينية مؤامرة لخلع ليويتيوس ، واشركوا معهم تيبيريوس ابسيماروس قائد الاسطول الامبراطورى فى بحرايجة ، وكللت المؤامرة بالنجاح وكان عهد تيبريوس الثالث Tiberius III (٦٩٨ ، ٧٠٥ م) أكثر توفيقا فى مناطق الحدود البيزنطية الاسلامية . **ثم تمكن جستنيان الثانى** من الفرار من منفاه واللجوء الى خان قبيلة الخزر التتارية شرقى بحر أزوف ،ولما أحس بمؤامرة لتسليمه نجح فى الفرار واسترداد عرشه ، وهكذا بدأت الفترة الثانية من حكمه (٧٠٥ : ٧١١ م). والمسعودى يقص أنباء هذه الفترة المضطربة من تاريخ عرش الروم فيقول « اسطنيانس المعروف بالاخرم : ملك تسع سنين فى أيام عبد الملك ثم خلع وخرم أنفه وقطع عرق تحت لسانه ليخرس ، فسلم من ذلك وحمل

---

(٩٥) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ١٧٨ : ١٨٣ ،
Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 158-4

الى بعض الجزائر فهرب ولحق بملك الخزر مستنجدا به ، وتزوج هناك فلم ير عندهم ما يحب فصار الى طرفلا ملك برجان ... أولنطس وقيل لونطس : ملك ثلاث سنين فى ايام عبد الملك ثم زهـــد فى الملك واظهر العجز عنه ، فلحق بالدير فترهب ... ابسيمر المعروف بالطرسوسى : ملك سبع سنين فى أيام عبد الملك ، فسار اسطنيانس الاخرم ومعـه طرفلا ملك برجان منجدا له فى جيوش كثيفة ، فكانت مع أبسيمر حروب يطول شرحها ، فغلب اسطنيانس على الملك وخلع أبسيمر ـ وكان ذلك فى السنة الاولى من ملك الوليد بن عبد الملك واستوى الامر له ، وقد كان شرط لطرفلا ملك برجان اذا رجع الملك اليه أن يحمل اليه فى كل سنة خراجا وكان يفعل ذلك ، واشتد عسفه للروم ، وبسط يده فى القتل فيهم وأباد كثيرا من رؤسائهم وبطارقتهم فأجمعوا على قتله » . واستطاع **فيليبيــكوس** Philippicus (٧١١ : ٧١٣م) أن يستولى على القسطنطينية أثناء غياب جستنيان فانتهت اسرة هرقل . ولم يكن الامبراطور الجديد كفئا فخرج بنفس الطريق الذى أتى به ، وتولى سكرتيره ارتيميوس **انســـتاسيوس** العرش Anastasius II (٧١٣ : ٧١٥ م) ولكن جنـود بند (الابسيق الاوبسيكيون Apsikion لم يرضـــوا عن مؤامرته توليته العرش فقضوا عليه ، وأعطوا التاج **لثيود وسيوس ادراميتم** (٧١٥ : ٧١٧م) Theodosius *III* (٩٦) .

ويروى من حماقات جستنيان الثانى فى أواخر فترة حكمه الاولى انه فى **ارسال حملة الى الشام لتأتى ببطريرك الموارنة** وأخرى الى روما لتأتى بالبابا امعانا فى تأييد مذهب المشيئة الواحدة (المونوثليت) الذى كان يعارضه الكاثوليك . ويذكر السمعانى أن الجيش البيزنطى بلغ سوريا فى أواخر الربيع فوثب على دير القديس مارون سنة ٦٩٤ م وكان الموارنة قد نقلوا البطريرك منه وتحول الجند من هناك الى قنسرين العواصـم «وضربوا هذين البلدين المهمين فى ذلك العمل ، وقرض أصحاب المشيئة الواحدة سكانهما عن آخرهم ، وتركوا كل ما فيهما غنيمة للجنـــود » . وعسكر الجيش البيزنطى بجوار طرابلس وجنوده يقتلون وينهبـــــون وينشرون الفزع والهلع« فوردت حينئذ رسائل من قسطنطينية من لاون ـ الذى كان الامبراطور أراد ارساله فى تلك المهمة فأعتذر فكان نصيبـــه السجن ـ الى البطريرك يوحنا والى سمعان أمير لبنان يبشرهما فيه بخلع يوستنيانس من الملك وترقيته هو الى منصته ويأمرهما بضرب الجيش

(٩٦) أومان : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور بدر ص ١٣٨ ـ ١٤٣ ، رستم : الروم حـ ١ ص ٢٧٠ . ٣٠ ، المسعودى : التنبية والاشراف ص ١٤٠ .

الذى أرسل الى سوريا بمنزلة عدو للملك ... فاندفقوا من أعالى الجبال اندفاق الماء المنهمر ووثبوا على جيش يوستنيانس وثبة الأسود فأثخنوا فيهم » • ويبدو أن ذلك كان فى فترة انشغال عبد الملك بن مروان بالفتن الداخلية ، يؤرخ (كرد على) لتلك الواقعة بسنة ٧٥هـ (٦٩٥ م) • وتدل الحادثة على ضعف قبضة المسلمين على تلك المنطقة من الشام ، وارتباط تلك الطائفة من سكانها بالروم حتى نظر اليها جستنيان الثانى باعتبارها من رعاياه الذين تجرى عليهم احكامه (٩٧) •

لقد استفاد الروم من الاضطرابات الداخلية فى الدولة الاسلامية ، فحاولوا استثارة الخزر والبربر والمردة ومعاونتهم ضد العرب فى ارمينية وافريقيــة والشام ، فى الوقت الذى هاجموا فيه ثغور الدولة البـرية والبحرية •

وفى الوقت نفسه اغتنم البيزنطيون الفرصة فراحوا يرتبون أمور دفاعهم فى بندى الابسيق Opsikion **البرى وبند كيبرايوت البحرى -** لحماية ديارهم من هجمات العرب • وقد خرجوا من تلك الفتــرة أكثـر وأقوى جيشا ، دون أن تشتط بهم المطامع والمغامرات •

وبالنسبة لدولة الاسلام غدت الشام ومصر من صميم ديار الاسلام، والمركز الحقيقى لقوته • وفى خلال العامين الاخيرين من حكم عبـد الملك وضع الخليفة أسس **المسألة الارمينية** ، وشرع فى خطة للهجوم اضطلع بها ابناه وخليفتاه الوليد وسليمان ، ونهض بتنفيذها مسلمة بن عبد الملك الذى أثبت كفاءته العسكرية • وقد تابع قيادة الحملات ١٥ ســـنة على التوالى - لم يتخلف الا فيما ندر (٩٨) •

توطيد وامتداد : (الوليد بن عبد الملك ٨٦ : ٩٦هـ - ٧٠٥ : ٧١٥م)

ارتقى الوليد عرش الخلافة فبدأت فترة جديدة من الفتوحات الكبيرة ، اذ كان الوليد قد جنى ثمرات جهاد أبيه فى الداخل فسادت السـكينة وهدأت العراق تحت حكم الحجاج الذى تمسك به الوليد • **ولم يكن الوليد متحيزا الى قيس** اذ لم يكن بحاجة الى ذلك وكان كأبيه يرى أن يستعلى بقدر الامكان فوق هذه العصبيات ، أما أن الحجاج - وهو قيسى كان من

---

(٩٧) الدبس : تاريخ سوريا م ٥ ص ١١٨ : ١٢١ ، كرد على : خطط الشام حـ ١ ص ١٥٢ - ٣ •

(٩٨) Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 157, 170-1.

رجالهما فقد كان ذلك بسبب شخصه لا قبيلته، وعلى هذا يعارض فلهوزن دوزى حين يقول : « ان حكومة الوليد كانت قد أبلغت قيسا ذروة قوتها ، فجاء سقوطها بعد موته على الفور وكان سقوطا مريعا » • ويرى فلهوزن ان بغض سليمان ابن عبد الملك الذى خلف الوليد للحجاج كان شخصيا أيضا « وقد عزل سليمان عمال الحجاج لأنهم كانوا صنع يده لا لأنهم كانوا قيسيي الهوى (٩٩) » •

وقد عمل الوليد على اقرار الأمور فى الثغور • ففى سنة ٨٩ هـ ـ ٧٠٨ م « اجتمع **الجراجمة** الى مدينتهم وأتاهم قوم من الروم من قبل الاسكندرية وروسس Roussos ، فوجه اليهم الوليد مسلمة فأناخ عليهم فى خلق فافتتحها ، على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت ، وعلى ألا يكرهوا ولا أحد من أولادهم أو نسائهم على ترك النصرانية ، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم أو نسائهم جزية ، وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجارتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين • فأخرب مدينتهم ، وأنزلهم فأسكنهم جبل الحوار وسنح اللولون وعمق تيزين وصار بعضهم الى حمص ، ونزل بطريق الجرجومة فى جماعة معه أنطاكية ثم هرب الى بلاد الروم ••• ونقل **الوليد الى أنطاكية قوما من الزط** السند ممن حملهم محمد بن القاسم الى الحجاج فبعث بهم الحجاج الى الشام » وبهذا فرق الوليد شمل الجماعة المتمردة التى توثقت صلاتها بالروم حتى كانت شوكة فى جنب المسلمين ، وأبعدهم عن مراكزهم الحساسة ، وكانت هذه خطوة حكيمة بعد خطوة عبد الملك فى اجلاء عدد كبير منهم الى بلاد الروم • وعمل الوليد بن عبد الملك على تأمين الطريق بين العواصم والثغور ، وكانت ترتع فيه الوحوش « قال أبو النعمان الانطاكى : كان الطريق فيما بين أنطاكية والمصيصة مسبعة يعترض للناس فيها الأسد ، فلما كان الوليد ابن عبد الملك شكى ذلك اليه فوجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس فنفع الله بها ، وكان محمد بن القاسم الثقفى عامل الحجاج على السند بعث منها بألوف جواميس ••• وأما جواميس أنطاكية فكان أصلها ما قدم به الزط معهم وكذلك جواميس بوقا » • وقد أقطع الوليد جند أنطاكية أرض سلوقية عند الساحل « فعمروها وجرى ذلك لهم ، وبنى حصن سلوقية • وكانت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك « فوقفها فى سبيل البر(١٠٠) »

---

(٩٩) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية • ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٢١٦ : ٨ ، ٢٥١ ـ ٢
(١٠٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٨ ، ١٧٤ ـ ٥ ، ١٥٥ ، اليعقوبى ج ٣ ص٢٧ ـ ٨

وبعد أن استقرت سيطرة العرب فى أرمينية عادت حملات الشواتى **والصوائف** منذ أواخر أيام عبد الملك ، فكانت تمهيدا لحصار جديد للقسطنطينية • وقد وكل الوليد حرب الروم الى أخيه **مسلمة بن عبد الملك والى ابنه العباس بن الوليد** ، فأظهر كلاهما مقدرة حربية فى قيادة الحملات وبخاصة مسلمة الذى كان أبوه يسميه «ناب بنى أمية» • ولم تكن هذه الحملات يقصد بها التهديد فحسب ، بل كان هدفها دك حصون العدو ومدنه المسلحة وانشاء حصون جديدة مما أدى الى امتداد النفوذ العربى فى آسيا الصغرى • وقد كانت الدولة البيزنطية تعانى من اضطراباتها الداخلية فى أواخر الفترة الثانية من حكم جستنيان الثانى وفلبيكوس وانستاسيوس الثانى وكانت المؤامرات والفتن هى الطريق الى العرش • فبدأ البلغاريون والمسلمون مرة أخرى يكتسحون ولايات الحدود ، وتزايدت غاراتهم كل توغلا واندفاعا واختل النظام الحربى فى الدولة وارتبكت شئونها •

تتابعت الغزوات كما يذكر مؤرخو الحملات المسلمون من سنة ٨٦ هـ الى سنة ٩٦ هـ وقد غزا **مسلمة بن عبد الملك** سنة ٨٧ هـ (سنة ٧٠٦ م) أرض الروم ومعه يزيد بن جبير فلقى الروم فى عدد كثير بسوسنة من ناحية المصيصة ويبدو انها سيس • ويروى أن مسلمة لاقى ميمونا الجرجماني في هذه الغزوة وجرى قتال الروم عند طوانة « فقتل منهم بشرا كثيرا وفتح الله على يديه حصونا » والبلاذرى يخالف الطبرى وابن الاثير ويروى نبأ ميمون فى خلافة عبد الملك « وكان ميمون الجرجمانى عبدا روميا لبنى أم الحكم أخت معاوية بن أبى سفيان ـ وهم تقفيون ، وانما نسب الى الجراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم • فبلغ عبد الملك عنه بأس وشجاعة فسأل مواليه أن يعتقوه ففعلوا ، وقوده على جماعة من الجند زصيره بانطاكية فغزا مع مسلمة بن عبد الملك الطوانة وهو على ألف من أهل انطاكية فاستشهد بعد بلاء حسن وموقف مشهود ، فغم عبد الملك مصابه وأغزى الروم جيشا عظيما طلبا بثأره » • ولعل تأخير هذه الواقعة الى عهد الوليد أولى • وقيل ان الذى غزا سنة ٨٧ هـ هو **هشام بن عبد الملك** « ففتح الله على يديه حصن بولق وحصن الاخرم وحصن بولس وقمقم ، وقتل من المستعربة نحوا من ألف مقاتل وسبى ذراريهم ونساءهم » • ولعل حصن بولق وحصن بولس كانا فى منطقة يسكنها البيالقة Paulicians الذين كانوا على المذهب الذى أحدثه بولس الشمشاطى • وقلفت النظر هنا أن نجد ذكر المستعربة فى داخل الاراضى البيزنطية ، ويبدو أنهم من سلالة الذين رحلوا الى بلاد الروم

عند الفتح الاسلامى أو من الجراجمة الذين أجلوا الى هناك · وقد تعرض البند الاناضولى فى العامين التاليين لهجمات المسلمين من أجل انهاء مسألة الجراجمة أو عزل سيس · حتى اذا كانت سنة ٨٨ هـ ـ سنة ٧٠٧ م كانت أهم المعارك التى خاضها المسلمون فى تلك الفترة وقد خلدها الشاعر جرير فقد عملوا على الاستيلاء على حصن طوانة قرب المصيصة Tyana وكانت طوانة مفتاح الطريق الهام بين الشام والبسفور وأهم معاقل كبادوكيا ونقع الى الجنوب من كيليكيا وهى تسد ممر طوروس ، تدعم مركز سيس التى أراد المسلمون تدميرها من زمن ، ومن شأن هذه الضربة أن تجعل المردة معزولين · وقد حاصر المسلمون طوانة تسعة أشهر بالمنجنيقات حتى بلغت خسائر الروم فيها حوالى خمسين ألفا عدا الاسرى والغنائم ، وقد انتهز المسلمون فرصة ما وصلهم من أنباء هجوم خزر القوقاز على الاقليم الرومانى « **وكان على الجيش مسلمة بن عبد الملك والعباس ابن الوليد بن عبد الملك** ·· وهزم المسلمون العدو يومئذ حتى صاروا الى كنيستهم ، ثم رجعوا فانهزم الناس حتى ظنوا ألا يجبروها أبدا · وبقى العباس معه نفر منهم ابن محيريز الجمحى فقال له : أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة ؟ فقال له ابن محيريز : نادهم يأتوك ، فنادى ـ فأقبلوا جميعا فانهزم الله العدو حتى دخلوا طوانة · **وكان الوليد ضرب البعث على اهل المدينة في هذه السنة** ـ بعث ألفين خرج منهم ألف وخمسمائة · وغزا أيضا مسلمة الروم ففتح على يديه حصون ثلاثة : حصن قسطنطينية ، وغزالة ، وحصن الاخرام وقتل من المستعربة نحوا من ألف من سبى الذرية وأخذ الاموال » ·· وفى سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) شغل مسلمة باخضاع فتن الجراجمة طوال الصيف ، وكان الروم قد أنزلوهم على الساحل بين الاسكندرية وروسس Roussos ، ردا على هزيمتهم فى الطوانة وتهديدهم فى سيس ، وذلك لشغل المسلمين بهذا الخطر وتهديد قلعة المصيصة · وقد بقى الجراجمة مصدر خطر رغم توطينهم داخل الشام بعد فتنتهم أيام عبد الملك ، وبعد فريق آخر منهم الى داخل آسيا الصغرى بمقتضى الاتفاق بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٦٩ هـ (٦٨٩ م) وقد أخمد مسلمة الفتنة بقوة واحتل مراكزهم الجراجمةالرئيسية وأجبرهم على التوطن فى أماكن محددة هى جبل حواروسنح اللولون وعمق تيزين وحمص ثم أنطاكية نفسها حيث استمروا يكونون مجتمعا متميزا يتزعمه بطريق خاص · على أنهم قد أعطوا بعض الامتيازات مثل المشاركة فى غنائم ما يشهدون من معارك ، ومنح مقاتلتهم العطاء نقدا أو نوعا واعفائهم من الجزية ، وهكذا يكون المردة جندا فى خدمة الدولة يشتركون

فى الدفاع عن حدودها دون أن يجبروا على اعتناق الاسلام ، ولم يهجروا جبلهم تماما ولكن شوكتهم قد خضدت .

وغزا مسلمة والعباس أيضا في العام نفسه أرض الروم « ودخلاها جميعا ثم تفرقا ـ على رواية الواقدى ـ فافتتح مسلمة حصن سورية ، وافتتح العباس أدورلية ووافق من الروم جمعا فهزمهم . وأما غير الواقدى فقال : قصد مسلمة عمورية فوافق بها للروم سمعا كثيرا فهزمهم وافتتح هرقلة وقمودية (قونية عند ابن الأثير) وغزا العباس الصائفة من ناحية البذندون » وهكذا استولى المسلمون على حصون للعدو فى قيليقية . وقد تكرر اسم سورية وحصونها فى السنوات التالية ، وقد سبق ذكر هذا الاسم فى أخبار سنة ٢٨ هـ اذ « غزا حبيب بن مسلمة سورية من أرض الروم ولم ينكب » . وفى سنة ٦٠ هـ « كانت غزوة مالك بن عبد الله سورية » . وتتابع غزو هذه المنطقة فى السنوات ٩٠ : ٢ هـ (٧٠٩:٧١١م) « وفتح مسلمة الحصون الخمسة التى بسورية ، وغزا العباس بن الوليد ـ قال بعضهم حتى بلغ الأرزن ، وقال بعضهم حتى بلغ سورية » ويبدو أن الحصون الخمسة فى نواحى سيس . وفى سنة ٩٤ هـ (٧١٣ م) بلغ يزيد ابن أبى كبشة أرض سورية ـ والاسم يرد بهذه الصورة فى روايات الواقدى .

وظهر فى حملات الصوائف اسم **عبد العزيز بن الوليد** سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) وكان على الجيش مسلمة ، كما ظهر اسم **عمر بن الوليد** بجانب مسلمة سنة ٩٢ هـ « ففتحت حصون ثلاثة وجلا أهل سوسنة الى جوف أرض الروم » . وظهر اسم **مروان بن الوليد** سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) فبلغ خنجرة وهى أبعد من أماسيا ، فى حين افتتح مسلمة ماسة (أماسيا على شواطىء المجرى الاوسط لنهر Lycos) وحصن الحديد وغزالة وبرجمة من ناحية ملطية . وافتتح العباس بن الوليد سنة ٩٣ هـ ـ أو سنة ٩٥ هـ سبسطية (وهى أقرب لملطية من أماسيا ، فى الحوض الأعلى لنهر Halys) والمرزبانين (لا يمكن تحديدها) وطولس (ويذكر الدكتور شعيرة انها طرسوس ويرى بعدها عن ميدان المعارك) وهرقلة . وكانت الوجهات المتعددة لهذه الحملات فى طريق واحد يخترق البند الارمنى ، فقد كان مسلمة فى ماسة يتقدم العباس فى سبسطية ، ولكن يتقدمه مروان فى خنجره . ولم يكن هذا النشاط الاسلامى ليجد مداه الواسع فى سهولة الا بسبب اضطراب الامور الداخلية فى الدولة البيزنطية سنة ٧١١ م ، فضلا عن **تعصب الامبراطور فيليبيكوس الارمنى الاصل الذى كان يشترك مع غالبية الارمن فى المذهب ضد مواطنيه المخالفين لمذهبه وعمله على طردهم**

من الامبراطورية • ومن الذين صاروا معه سنباط الذى هجر الجانب العربى وانضم الى الروم ، فى حين لجأ كثير من الساخطين الى العرب الذين اقاموهم على الفرات ، وهكذا دخل العرب فى الصراع بين الروم والأرمن•

وتعرضت العاصمة البيزنطية لخطر **البلغار** الذين اغاروا على تراقيه سنة ٧١٢ م • وقد كان للعباس بن الوليد بلاء مجيد فى حرب الثغور ، وهو الذى صار الى مرعش « فعمرها وحصنها ونقل الناس اليها وبنى لهـا مسجدا جامعا ، وكان يقطع فى كل عام على أهل قنسرين بعثا اليها » وقد ذكر أن العباس هو الذى أحرق سنة ٩٤ هـ سنة ٧١٣ م انطاكية المحترقة لبلاد الروم Antioch in Pisidia وقد غطت عمليات حملة انطاكية جيوش أخرى قامت بعمليات ثانوية فى غزالة قرب سيس وبرج الشحم (وهو موضع غير محدد) وسنورية (؟) وقو استطاع المسلمون بهذه الحملات المتوالية أن يتوغلوا داخل بلاد الروم تدريجيا ، وان كانوا قد تكبدوا فى حملاتهم المتوالية تضحيات كبيرة ففى سنة ٩٥ هـ مثـلا « قتل الوضاحى بأرض الروم ونحو من ألف رجل معه » وفى سنة ٩٥ هـ (سنة ٧١٤ م) اخترقت الحمـلات الاسلامية طريقا وسطا الى هرقلة وقيسارية (قيصرية) من ناحية ، والى حصن عوف أو عقيق (ولا يمكن تحديد موضعه) من ناحية أخرى • وقد استولى العباس على هرقلة وبعض الحصون المجاورة لها التى منها قيصرية ويذكر المسعودى أن أهمية هرقلة كأهمية عمورية • وفى العام التالى توغل جيش مسلمة الى مدى أبعد فى آسيا الصغرى وربما يكون ميدان عمل هذه الحملة فى جالاتيا وقد يكون هناك حصن عوف أو عقيق • وغزا بشر بن الوليد الشاتية سنة ٩٦ هـ سنة ٧١٤ م ولم يعد بعد وفاة الوليد • وقد تتابع الاباطرة البيزنطيون فى عهود قصيرة ، وسادت الفوضى والفتن شئون الدولة الداخلية •

ويبدو أنه كان للمسلمين **نشاطهم البحرى أيضا** ، رغم حرمانهم من القواعد والسيطرة البحرية نتيجة الاضطرابات الداخلية • فقد ورد فى أخبار سنة ٩٠ هـ (٧٠٩م) أن **الروم أغارت على دمياط وأسرت خالد بن كيسان** صاحب البحر « فذهبوا به الى ملكهم فاهداه الى الوليد » وقد لقى المسلمون خسارة بحرية ــ بسبب النار الاغريقية ايضا سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) وفى السنة التالية سنة ٩٤ هـ (٧١٣ م) جرد المسلمون حملة على قبرص ، ولعل ذلك كان بسبب عدم استقرار الأمر فى الجزيرة وفداحة الجزية التى تؤخذ منها وربما تعرضت كريت للهجوم أيضـا من نفس الحملة ، وفى نفس العام اشتبك جانب من أسطول الشام مع قوات مصر فى حملة صوب الغرب •على أن **أكبر جهود بذلها الأسطول**

الاسلامى كانت فى حصار القسطنطينية ولم تستطع رودس ولا البند البحرى كيبيرايوت اعتراض سبيله ٠

وكان الامبراطور البيزنطى انستاسيوس الثانى قد أخذ يقوى جبهة آسيا الصغرى لمواجهات الحملات الاسلامية المتكررة وعين على البند الاناضولى وهو الاقليم الحربى الشرقى بآسيا الصغرى **القائد ليومن مواطنى** المنطقة الجبلية فى ايسورة والذى قضى فترة طفولته فى مدينة مرعش Germanica – كما يذكر المسعودى – وتقع على الحدود الاسلامية البيزنطية حيث أتيح له أن يتعرف على العرب ٠ ونجح فى مهمة مبكرة بين القبائل الضاربة على حدود الامبراطورية فى الشمال ٠ ويصف أومان Oman ليو الايسورى بأنه « الرجل الذى قدر له أن ينقذ الامبراطورية الرومانية الشرقية من تمزيق سابق لأوانه ، وهو من الضباط الحربيين القليلين الذين اشتهروا أثناء الكوارث المخيفة فى السنوات العشر الاخيرة، وقد اقنع ليو المسلمين برفع الحصار عن عمورية بالسياسة أكثر منه بالقوة ٠٠ وسيصبح عليه أن يواجه هجوما أخطر من الهجوم الذى صده قسطنطين الرابع منذ ثلاثين سنة ، ولم يكن عنده سوى جيش محطم تعود أخيرا على الثورة أكثر من تعوده على القتال ، وخزانة خاوية ونظام ادارى تشيع فيه الفوضى » ٠ وقد واجه الوليد بن عبد الملك شخصية ليو بشخصية أخيه مسلمة بن عبد الملك اذ عزل محمد بن مروان سنة ٩٠ أو سنة ٩١ هـ عن الجزيرة وأرمينية واستعمل عليها أخاه مسلمة ٠ وبدأت استعدادات واسعة لحصار القسطنطينية سنة ٧١٤، **وقد أوفد انستاسيوس** الثانى دانيال Daniel بطريق سينوب سنة ٩٥ هـ (سنة ٧١٤ م) **على رأس سفارة لتتباحث مع السلطات الاسلامية فى شأن عقد هدنة بين الدولتين ، وتستطلع أخبار استعدادات المسلمين للغزو المرتقب ٠**

وجاءت البعثة تؤكد نبأ هذا الحصار الاسلامى الجديد فأمر انستاسيوس كل فرد أن يخزن لنفسه مئونة ثلاث سنوات وألا يغادر العاصمة وملأ الخزائن بالقمح واهتم بتجديد أسوار المدينة وتسليحها بالمجانيق وغيرها (١٠١) ٠

---

(١٠١) الطبرى حـ ٨ ص ٦٢ رواية الواقدى ، ٦٤ – ٥ رواية الواقدى ، ٦٧ رواية الواقدى وغيره (أيضا حـ ٥ ص ٥٤ ، حـ ٦ ص ١٧٩ رواية الواقدى) ، ٦٨ رواية الواقدى ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، (أيضا حـ ٣ ص ٤٠ ، حـ ٤ ص ٢) ، ٢٢٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، حـ ٥ ص ٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٧ ، ١٩٧ ، الىعقوبى حـ ٣ ص ٣٥ – ٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ٤٥ – ٤٦ ، المسعودى : مروج الذهب حـ ١ ص ٢٠٤ دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ١٨١ : ٤ ، =

واستمر ارسال الحملات في جبهات أخرى « فغزا مسلمة الترك حتى بلغ الباب من ناحية اذربيجان ففتح حصونا ومدائن » « وغزا موسى بن نصير **الأندلس** ففتح مدائن وحصونا (١٠٢) » • وهناك رواية قديمة تروى ان عثمان بن عفان كان قد ارسل عبد الله ابن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن عبد القيس من افريقية الى الاندلس فأتياها من قبل البحر وكتب عثمان الى من انتدب من أهل الأندلس : اما بعد فان القسطنطينية انما تفتح من قبل الأندلس وانكم ان افتتحتموها كنتم شركاء من يفتحها في الاجر (١٠٣) • وبينما يتقبل البعض هـذه الرواية عن ذلك المشروع المبكر ويقول : « ان أول واضع لخطة الفتوحات الاسلامية في أوربا هو الخليفة الثالث عثمان ••• وقد اتخذ ولاة شمالى افريقية وقواده أجنادها وصيته نبراسا لسياستهم الاسلامية التى يسيرون عليها» ، يتشكك آخرون فيها استبعادا لمثل هذا المشروع الضخم للدوران حـول البحر المتوسط عن طريق فرنسا وأوربا الوسـطى والاسـتيلاء على القسطنطينية من الخلف وتحويل البحر المتوسط الى بحيرة اسلامية ، اذ يصعب تصور مسير الفتوح العربية على هذا النحو من التخطيط الدقيق البعيد المدى ويكفي الأمويين فخرا أنهم [illegible] الاسلامية بعد أن ورثت من الدولة البيزنطية سوريا ومصر فى مواصلة الحرب ضد عدوها والسعى لتوطيد سيطرتها على البحر المتوسـط فى الغرب بعد الشرق « فاستمر الهجوم الاسلامى برا كنتيجة طبيعية للقوى المادية والمعنوية ، كما ابدى العرب اهتماما جديدا فى هجماتهم البحرية بالشئون الاقتصادية والاحتياجات التجارية التى كانت قائمة وقتذاك • ان التجار المكيين ـ من بنى أمية ـ قد قدموا الدليل على مواهبهم الحقيقية كرجال دولة (١٠٤) •

وفى هذه الاثناء استمرت غزوات **جزر البحر المتوسط** ، فواصـل المسلمون فتح جزيرة **اقريطش** فى زمن الوليد (١٠٥) • ولما فتح موسى الاندلس سير طائفة من عسكره فى البحر الى جزيرة **سردانية**

= اومان : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور بدر ص ١٤٣ : ٥ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ١٩٣ : ٥ •
Cheira : La Lutte entre les Arabes et Byz. pp. 171:181, 199-200.

(١٠٢) الطبرى حـ ٨ ص ٦٧ ، ٧٤ ـ ٥ ابن الاثير حـ ٤ ص ٢٢٢ ، ٢٢٧ •

(١٠٣) الطبرى حـ ٥ ص ٥٠ ـ ١ رواية سيف ، ابن الاثير حـ ٣ ص ٣٨ ـ ٩ •

(١٠٤) شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٩٦ ،
Gaudefroy-Demombynes, Platonov: Le Monde Musulm. et Byz., pp. 318-9

(١٠٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٤ ـ ٥

سنة ٩٢ هـ « فدخلوها وهى من أكبر الجزائر ما عدا صقلية واقريطش ، وعمد النصارى الى ما لهم من آنية ذهب وفضة فألقوا الجميع فى المينا ، وجعلوا أموالهم فى سقف البيعة العظمى ، وغنم المسلمون فيها مالا يحد ولا يوصف وأكثروا الغلول ، وأصاب سهم السقف - خطأ - فنزلت الدنانير » • وقد تتابعت الحملات لغزو هذه الجزيرة بعد ذلك ، وأسهم فى ذلك عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى سنة ١٣٥ هـ ، كما غزيت فى عهد الخليفة الفاطمى المنصور بن القائم سنة ٣٢٣ هـ ، وغزاها مجاهد العامرى سنة ٤٠٦ هـ من دانيه وكان صاحبها • ويجمع بن الأثير بين هذه الاخبار التى تباعدت أزمانها ويقول عن غزوة مجاهد وهى الاخيرة « فانهزم المسلمون وخرجوا من سردانية وأخذت بعض مراكبهم ••• ولم تغز بعد ذلك وانما ذكر بعض اخبارها ههنا لقلتها - واذ تفرقت لم تعرف كما يجب » وابن الاثير يجرى على هذه الطريقة فى بعض المواضع (١٠٦) •

ويذكر اليعقوبى ان العباس بن الوليد فتح **قبرص** سنة ٩٥ هـ ، لكن الطبرى يروى أن هذا الفتح كان لقنسرين - وهذا غريب ، ويتابعه على ذلك ابن الأثير • ويبدو من تشابه حروف الكلمين احتمال حدوث تحريف عند النسخ (١٠٧) • وبالنسبة **لصقلية** يظهر أن الروم كانوا قد نقلوا اليها بعض قواتهم التى كانت مرابطة فى المغرب بعد انسحابهم منه أمام العرب ، وقد عاود المسلمون مهاجمة الجزيرة • على أن خبر أسر الروم لخالد بن كيسان أمير البحر ، ومهاجمتهم للساحل المصرى سنة ٩٠ هـ ٧٠٩ م مما يدل على تفوق الروم البحرى (١٠٨) •

الحصار الثالث للقسطنطينية : سليمان بن عبد الملك ٩٦ : ٩٩ هـ - ٧١٥ - ٧١٧ م

تابع سليمان بن عبد الملك سياسة أخيه الرامية الى توجيه ضربة كبيرة للقسطنطينية بعدة وأهبة عظيمتين• وتتميز سياسة سليمان الداخلية بتلك الحرب التى شنها سليمان على آل الحجاج وأنصاره وعماله وكان الحجاج نفسه قد توفى قبل وفاة الوليد • واستعان سليمان بعدو الحجاج الألد يزيد بن المهلب ، على أن هذا لا يعنى أن سليمان كان ينزع نزعة

(١٠٦) ابن الأثير حـ ٤ ص ٢٣ - ٣

(١٠٧) اليعقوبى حـ ٣ ص ٣٦ ، الطبرى حـ ٨ ص ٩٦ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ٢٤٦ •

(١٠٨) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ص ٢٤٤ - ٥

يمنية ظاهرة « وليس ثمة أى أثر يدل على انه كان فى الشام منحازا الى جانب اليمن عن جانب قيس ، بل هو كان يأسف لأنه جرح مشاعر قيس الشام بما صنعه مع قتيبة بن مسلم ـ وكانت له محبة فى الشام **عند قيس الذين يقطنون أرض الجزيرة** وكانت باهلة تقيم بينهم ،وكانت أم سليمان هى أم الوليد ـ قيسية من عبسى . أما انقسام العالم العربى الى قسمين متخاصمين على أساس الانقسام القبلى فانه كان فى ذلك الوقت مايزال في دور التكوين ، وقد كان مابين الولاة والرؤساء الأقوياء من عداء شخصى سببا جوهريا فى تفاقم خطب هذا الانقسام » . ولم يسلك يزيد بن المهلب في حكم العراق طريقا غير طريق الحجاج بل أقام مثله فى واسطا واستبقى أهل الشام فى العراق (١٠٩) .

وتمثل نزوع الامويين الى الصحراء فى سليمان بن عبد الملك ، فقد أخذ البيعة لنفسه فى الرملة . بل قيل انه هو الذى كان قد أحدث الرملة ومصرها عندما ولاه أخوه الوليد جند فلسطين . وهكذا ظهرت **العواصم الصحراوية السورية** وفيها بيوت عليها قبـــاب وتحاط بالاسوار وهى مفتوحة من كل جانب للريح ، وكان معاوية ويزيد يحبان الاقامة بجانب بحيرة طبرية ، وينسب الى الوليد بناء قصر المشتى قرب البحر الميت ، وجاء سليمان فأنشأ الرملة . **وقد اقتربت بعض هذه العواصم الصحراوية من اقليم الثغور والعواصم ، فكان سليمان يسكن فى دابق وكان عمر بن عبد العزيز يسكن خناصرة شرقى حلب ، وســكن هشــام بن عبد الملك بالس بين حلب والرقة على الفرات والرصافة على طرف البرية غـــربى الفرات (١١٠) .**

استمر مشروع حصار القسطنطينية فى عهد ســـليمان دون أى تغيير . وقد استغل العرب أزمة الروم الحرجة التى يصورها شاهد معاصر سنة ٧١٥ م فيقول : تغيرات متتابعة كثيرة فى الأباطرة ، تدهور مستمر فى حالة الدولة ، انحطاط فى النظام العسكرى ، وكانت نتيجة هــذا كله ان أعداء الدولة مرحوا فى اقاليمها وتزايدت المدن التى تتساقط فى أيديهم . وقد تكاتفت اقاليم مصر والشام وشمال افريقية على اعداد الحملة الاسلامية وتسييرها . فابحر أسطول من مصر الى شواطىء الشام لجمع اخشاب من سواحل لبنان لصناعة سفن فى دور الصناعة بمصر

---

(١٠٩) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية . ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٢٤٩ : ٢٥٤ .

(١١٠) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ٢٤١ : ٣ ، البلاذرى . فتوح البلدان ص ١٥٠ ، Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. p. 91.

ورافق الحملة المقدسة كثير من فقهاء الشام والعراق ، وحشد النفط والعدد والمؤن اللازمة لحصار طويل يستغرق الصيف والشتاء • وقد عهد الروم الى جند الابسيق (اقليم العاصـــمة الامبراطورية) بمهاجمة الاسطول المصرى الذى ينقل الاخشاب ، بينما وجهت بعض الفرق الى جزيرة رودس فى طريقها لمهاجمة سواحل الشام سنة ٩٦ هـ سنة ٧١٥ م ولكن حال دون ذلك تمرد الاسطول وفرق الابسيق واتجهت الفرق الى القسطنطينية وعزلت الامبراطور وعينت غيره. وفى تلك اللحظة الحرجة أرسل سليمان حملة الى سواحل كيليكيا، ووجد فرصته السانحة فى جو الاضطرابات الداخلية لانفاذ حملة القسطنطينية • ويذكر اليعقوبى فى تعليل الاقدام على تلك الحملة « ان الروم اغاروا على مدينة اللاذقية من جند حمص فاحرقوها وذهبوا بما فيها » ، غير أن البلاذرى يذكر غارة على ساحل اللاذقية فى خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ ، بينما تؤكد مراجع اخرى غزوة الروم لساحل حمص فى عهد سليمان « فسبوا امرأة وجماعة فغضب وقال : والله لأغزونهم غزوة افتح بها القسطنطينية او أموت دون ذلك • فاغزى جماعة أهل الشام والجزيرة والموصل فى البر نحو مائة وعشرين ألفا ، واغزى أهل مصر وافريقية فى البحر فى الف مركب وعلى جماعة الناس مسلمة ، وأغزى داود ابنه فى جماعة من أهل بيته ، وقدم سليمان من القدس الى دمشق ومضى حتى نزل مرج دابق فأمضى البعث وأقام بالمرج » ورابط سليمان بمرج دابق الى أن مات به ، وقد اتخذ هذا المعسكر فى شمالى الشـام قاعدة لتدبير أمور الحملة الكبيرة الموجهة الى القسطنطينية (١١١) •

واستعد سـلمان لحملته اسـتعدادا هائلا ، بينما كان عرش القسطنطينية يعانى من أزماته أذ عـزل انستاسـيوس الثانى وولى ثيودوسيوس فثار عليه ليو الايسورى • وجمع سليمان فى مرج دابق بقرب حلب فى منطقة الثغور جنوده من مختلف جهات الدولة الاسلامية ، وسلحها بأدوات الحرب المختلفة خاصـة أدوات الحصـار من المجانيـق والنفط ، وكانت اقامته الكثيرة فى دابق دليل اهتمامه بهذه الحملة • وتقدمت صائفة سنة ٩٦ هـ بين يدى هذا المشروع الكبير فغزا مسلمة أرض

---

(١١١) اليعقوبى حـ ٣ ص ٤٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٩ ، كرد على ، خطط الشام حـ ١ ص ١٥٤ ــ ٥ ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ٤٨، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٢٥٥ •
Brockelmann: Hist. of Isl. Peop. p. 91, Cheira : La Lutte entre les Arabes et Byz. p. 181.

الروم وفتح حصن عوف • وفى سنة ٩٧هـ سنة ٧١٥م جهز سيلمان الجيوش الى القسطنطينية واستعمل ابنه داود على الصائفة فافتتح حصن المرأة ، كماذكر أن مسلمة غزا أرض الروم ففتح الحصن الذى كان فتحه الوضاح صاحب الوضاحية وغزا عمر بن هبيرة الفزرى فى البحر أرض الروم فشتى بها • ولكن الحملة الرئيسية الضخمة خرجت وعلى رأسها مسلمة سنة ٩٨ هـ ـ ٧١٦ م • وعلى أركان حربه الفارس الشهير عبد الله البطال ، ومعه سليمان بن موضح الانطاكي والبختري ، وسلكت الحملة طريق مرعش من ناحية الشام ، وقد أمضت قرابة عام فى آسيا الصغرى قبل أن تحاصر القسطنطينية ، وكانت تقوم خلال هذه الفترة بمهاجمة المواقع المحصنة واجراء بعض الاتصالات مع ليو • وقد دارت العمليات الحربية فى عمورية ونيقية وبرجاس وساردس. ووفقا للروايات البيزنطية كان أول ما فعله مسلمة هو حصار عمورية صيفا مع الدخول فى محادثات مع ليو ، وبعد الاتفاق ترك عمورية وشتا فى آسيا أو قيليقية بعد أن أخذ كل من مسلمة وليو يسيران كل على حدة الى القسطنطينية • وقد هزم ليو فى طريقه جيشا لثيودوسيوس عند نيقية فى نيقوميديا ثم دخل بيزنطة ظافرا فى نهاية الربيع • ومن ناحية أخرى هاجم مسلمة برجام وساردس •

وتختلف الروايات فى شأن اتصال ليو بالمسلمين ، فقيل ان ليو هو الذى بدأ بالاتصال « وكان سليمان لما نزل بدابق أعطى الله عهدا ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه الى الروم القسطنطينية ، وهلك ملك الروم فاتاه اليون فأخبره وضمن له أن يدفع اليه أرض الروم ، فوجه معه مسلمة حتى نزل بها وجمع كل طعام حولها وحصر أهلها ، وأتاهم اليون فملكوه » ، وقال Daniel الارمني ان قصد ليو فى الحقيقة كان خداع العرب وايقاف سفك دماء مواطنيه • على ان هناك رواية أخرى تذكران مسلمة بعث أحد قواده طليعة بين يديه ، فتوغل فى الاقليم الاناضولى حتى بلغ حاضرته عمورية فحاصرها وهناك علم بتمرد ليو فراسله قائلا : نحن نعلم ان مال الامبراطورية الرومانية اليك فاخرج لنا لنتفق على شروط الصلح ، ثم أمر جنده فحيوا ليو بالملك ، وهناك بيت ليو فى نفسه أن يتظاهر بالانضمام للمسلمين ودخل في مفاوضات معهم طلب فيها رفع الحصار عن عمورية ، ثم صاحب الجيوش الاسلامية قاصدا القسطنطينية حيث استطاع أن يصل الى العرش فى ٢٥ مارس سنة ٧١٧م بعد عزل ثيودوسيوس بينما كانت الجيوش الاسلامية تقترب حثيثا من

القسطنطينية ، ويذكر أن الاتهامات التى تناثرت حول ليو بدعوى تفريطه فى الدفاع عن الاناضول قد قاربت بينه وبين المسلمين . وبعد تتويج ليو بخمسة شهور فقط بدأت سفن المسلمين المحملة تمخر عباب بحر مرمرة ، فى حين كان جيشهم قد سار من طرسوس واخترق آسيا الصغرى واستولى فى طريقه على ساردس وبرجام (مدينة الصقالبة) وقد انتشر الرعب بين سكان آسيا الصغرى فكانوا يهربون أمام العرب ، وأسر كثيرون ، وأرسل فريق منهم الى الشام والحجاز حيث كان الخليفة يؤدى فريضة الحجج . كما عبر المسلمون البحر الى تراقية وأخذوا يقتربون من المدينة من ناحية الغرب . وأمر مسلمة جنوده بأن يحفروا خطا من الخنادق يمتد من البحر حتى القرن الذهبى ، ويقطع كل اتصال بين القسطنطينية وتراقية ، بينما سد فريق من المسلمين مدخل البسفور الجنوبى وحاولوا أن يقفلوه أيضا من ناحية الشمال لكى يمنعوا وصول أية امدادات من البحر الاسود .

وكان الجيش الاسلامى الذى عبر الدردنيل عند ابيدوس مزودا بآلات الحصار ، ولكن كان على الاسطول أن يلقى مراسيه على مقربة من أسوار المدينة فى بحر مرمرة ومضيق البسفور لان القرن الذهبى كان مغلقا بالسلاسل . وهنا نجد الاشارة الى اغلاق القرن الذهبى بهذه الطريقة .

وعزم المسلمون على تجويع المدينة بضرب الحصار عليها والبقاء أمام أسوارها الى ماشاء الله . « وأمر سليمان مسلمة أن يقيم على القسطنطينية حتى يفتحها ، فشتى بها وصاف .. ولما دنا من القسطنطينية أمر كل فارس أن يحمل على عجز فرسه مدين من طعام حتى يأتى به القسطنطينية، فأمر بالطعام فألقى فى ناحية مثل الجبال ، ثم قال للمسلمين . لا تأكلوا منه شيئا ، اغيروا فى أرضهم وازرعوا ، وعمل بيوتا من خشب ومكث ذلك الطعام فى الصحراء والناس يأكلون مما أصابوا من الغارات ثم أكلوا من الزرع . فأقام مسلمة بالقسطنطينية قاهرا لأهلها ، معه وجوه أهل الشام : خالد بن معدان ، وعبد الله بن أبى زكريا الخزاعى ، ومجاهد بن جبر » .

وقد عمل العرب منذ ربيع سنة ٧١٥ م على شل الاسطول البيزنطى فى رودس الذى كان ينتوى مهاجمة الشام ، وتحقق ذلك بأهون سبيل تمرد هذا الاسطول . وهكذا هاجم العرب سواحل آسيا الصغرى فى يسر، وهرب سكان المناطق الساحلية أمامهم وشتا الاسطول الاسلامى فى قيليقية . ووصل (الهلسبونت) فى الصيف التالى وبلغ القسطنطينية

لحصارها بحرا ، وكانت القوات البرية قد وصلت قبله بأسبوعين • وبدأ الحصار الحقيقى للقسطنطينية الذى استمر طيلة عام على الأقل •

وفي الجانب البيزنطى عمل ليو على تحصين المدينة ، وأرسل جيشا لقطع طرق المواصلات التى يمكن للمسلمين العودة منها الى الشـام ، كما دمر جسر السفن على المضايق ، ليصير المسلمون محصورين كأسرى فى تراقية ، ولـكنهم واصلوا الحصار ودأبوا على مهـاجمة المدينة ، وأرسل مسلمة حملة من ٤٠٠٠ رجل لمهاجمة الميناء الذهبى ، وتقدم ٣٠٠٠ فدائى لمشاغلة العدو فسحقهم الروم • ولقد كان الحصار عنيفا فى الخريف الاول لكن الشتاء أدى الى تراخى العمليات • وعمل ليو على استمالة البلغار الى جانبه فى الربيع ، فأوقع هؤلاء بقسم من جند العرب على غـرة • وكان الأسطول الاسلامى يتكون من ١٨٠٠ سفينة ـ كما ذكرت بعض المصادر ـ وقد لقى عناء من التيار المائى الشديد الذى يتدفق من البحر الاسود عبر البسفور الى بحر مرمرة ومن تغيير الرياح اتجاهها • وانتهز البيزنطيـون هذه الفرصة وبعثوا سفنهم المحملة بالنار الاغريقية ليزيدوا من متـاعب السفن الاسلامية ، وان كان سوء الاحوال الجوية أفعل أثرا فى هـــذا السبيل فقد كان المناخ قاسيا فى الشتاء ، « وكان الثلج يغطى وجه الارض نحوا من مائة يوم واشتد الضيق على العرب وهلك كثير من خيلهم وبغالهم وجمالهم • وفى فصل الربيع واتتهم نجدة من مصر وافريقية ووثبوا ليلا على قسطنطينية حتى غطت سفنهم وجه البحر ولكن هبت ريح عاصـفة فأتلفت كثيرا من السفن وغرق كثـيرون » • كذلك يروى أنه قد تمرد بعض البحارة القبط على ظهر السفن الاســلامية ، وعلى أثر ذلك هاجم الأسطول البيزنطى أسطول المسلمين فألحقوا به خسائر فادحـة • ولم يتحدث المؤرخون العرب عن هاتين المعركتين البحريتين •

وسطا الروم على جيش المسلمين فى البر فتقهقروا ، وكان أهل آسيا يكمنون لهم ويرصـــدونهم على طريقة المردة ـ كما يقول شـــدرانس وانسطاس المكتبى ـ ويغتالونهم ، وأضر بهم القحط ـ بحكم الظروف فى تراقية ـ وخلوهم من الزاد حتى لجئـوا الى أكل البهـائم التى تعرضت للموت فى شتاء سنة ٧١٦ ـ ٧ م • ويعلق أومان على ما لاقاه المسلمون من عناء البرد القارس بقوله : « استطاع ليو أن يفخر مثل القيصر نيقولا بأن ديسمبر ويناير وفبراير كانوا أعظم قواده » •

كذلك تعرض المسلمون لهجوم البلغار الذين يسموهم مؤرخو العرب برجان » فقد أغارت برجان سنة ٩٨ هـ على مسلمة بن عبد الملك وهو فى

قلة من الناس ، فأمده سليمان بن عبد الملك بمسعدة وعمرو بن قيس فى جمع فنكرت بهم الصقالبة ، ثم هزمهم الله بعد أن قتلوا شرحبيل بن عبده » . وقد تخلل الخبر ذكر الصقالبة وهم السلاف ، مما يدل على شيء من الخلط أو عدم التحديد . وقد تلقى المسلمون الامداد خلال الصيف سنة ٧١٧م سنة ٩٨ هـ ، فجاءت حملة بقيادة داود ابن الخليفة وظل حتى نهاية حصار القسطنطينية ، كما تحرك جيشان للعمل فى آسيا الصغرى أحدهما بقيادة الوليد بن هشام المعيطى وكان غير موفق والآخر بقيادة عمر بن قيس الكندى . وكانت هذه الحملات تقصد نجدة مسلمة ، ولكن فشلها الجزئى يشير الى استقرار الامور للامبراطور ليو فى آسيا الصغرى .

وزاد من الاهوال التى لقيها الجيش الاسلامى المحاصر خدعة خدع بها ليو قائده ، فيروى مؤرخو العرب : « قدم مسلمة فهابه الروم ، فشخص اليون من أرمينية فقال لمسلمة : ابعث الى رجلا يكلمنى ، فبعث ابن هبيرة . فكان مما قاله له اليون : كنا وأنتم نقاتل على الدين ونغضب له ، فأما اليوم فانا نقاتل على الغلبة والملك ، نعطيك عن كل رأس دينارا .. وقالت البطارقة لاليون : ان صرفت عنا مسلمة ملكناك . فوثقوا له فأتى مسلمة فقال : قد علم القوم انك لا تصدقهم القتال وانك تطاولهم مادام الطعام عندك ، **ولو احرقت الطعام أعطوا بأيديهم . فاحرقه ، فقوى العدو وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون** فكانوا على ذلك حتى مات سليمان .. وأتاهم اليون فملكوه ، فكتب الى مسلمة يخبره بالذى كان ، ويسأله ان يدخل من الطعام ما يعيش به القوم ويصدقونه بأن أمره وامر مسلمة واحد وانهم فى أمان من السباء والخروج من بلادهم ، وأن يأذن لهم ليلة فى حمل الطعام ــ وقد هيأ اليون السفر والرجال . فأذن له ، فما بقى فى تلك الحظائر الا مالا يذكر ــ حمل فى ليلة ، وأصبح اليون محاربا . وقد خدعه خديعة لو كان امرأة لعيب بها . فلقى الجند ما لم يلق جيش ــ حتى ان كان الرجال ليخاف أن يخرج من المعسكر وحده ، واكلوا الدواب والجلود واصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب ، وسليمان مقيم بدابق ونزل الشتاء فلم يقدر بمدهم حتى هلك سليمان » . على أن اليعقوبى يذكر انه « لما بلغ سليمان ما فيه مسلمة ومن معه أمدهم بعمرو بن قيس فى البر وأغزى عمر بن هبيرة فى البحر .. ووجه سليمان ابنه داود الى أرض الروم ومسلمة منيخ على القسطنطينية ففتح داود حصن المرأة من ناحية ملطية » .

ومن الاحصاءات التى أوردها ميشيل السورى والمسعودى وغيرهما

نعلم أن القوات الاسلامية قد ضمت مائتى ألف فارس وكانت دواب الحمل ٦٠٠٠ جمل ومثلها من الحمير ومالا يحصى من الخيل ، ويقدر البعض الآخر عدد القوات بمائة وعشرين ألفا ٠ وكان الاسطول يتألف من ٥٠٠٠ سفينة ويعطى فازيلييف استنادا لمصادره رقما آخر هو ١٨٫٠٠٠ ويعطى بيورى وفقا لمصادره رقما مغايرا هو ١٨٠٠ سفينة ولم يكن لدى ثيدوسيوس فى مواجهة هذا كله سوى فرق بند الابسيق ، أما فرق البندين الأناضولى والأرمنى فقد رفضت الطاعة واتبعت قوادها ٠ على أن الامداد التى وصلت مسلمة برا وبحرا فى الربيع التالى من مصر وطرسوس قد لقيت هجوما شديدا من الروم فتولت سفن النار الاغريقية مهاجمة الاسطول ونزلت قوة من الجنود على شاطىء بثنيا فباغتت الجيش البرى الذى عسكر فى نيقوميديا ونيقيا ، وبذل المسلمون غاية جهدهم فى مواصلة الحصار حتى توفى سليمان ٠ وتولى عمر بن عبد العزيز فأصدر أمره بالرجوع ، فنقل الأسطول الجيش البرى ، ثم اتجهت القوتان عائدتين أدراجهما ، وعاد مسلمة الى طرسوس بثلاثين ألف رجل فقط من أكثر من مائة ألف ، وتعرض الأسطول لعاصفة فى بحر ايجة حتى قال تيوفانيس : ان خمس سفن فقط من بين ١٨٠٠ سفينة هى التى نجت ووصلت الى ثغور الشام ٠ « لقد ضاعت الأرمادا العربية ، ـ كما يقول حتى ـ وتؤدى بالمؤسس السورى للاسرة الابسورية كمخلص لأوربا من المسلمين العرب كما نودى من قبل بهرقل المؤسس الارمنى للاسرة الهرقلية كمخلص للمسيحية من فارس الوثنية ٠ ولم يجرؤ جماعة من العرب بعد ذلك على الظهور أمام القسطنطينية الا عندما عسكر هرون الرشيد أمام اسكدار Chrysopolis سنة ٧٨٢م ٠٠ ولم تر مدينة قسطنطين مرة أخرى جيشا اسلاميا تحت أسوارها الا بعد مرور سبعة قرون عندما أصبح الاتراك حملة راية الاسلام ٠ وعلى الرغم من أن حملة مسلمة قد انتهت بالفشل الا أنها قد أثارت وراءها تراثا قصصيا من بينه ماقيل من بناء مسلمة لمسجد بالقسطنطينية » ، كما برز من الجند الاسلامى اسم عبد الله البطال كبير حراس مسلمة الذى استشهد فى معركة تالية بعد انتهاء الحصار وعرف فى القصص باسم (السيد غازى) ٠

وقد تجرأ الروم على مهاجمة ثغور المسلمين فى الشام على أثر فشل الحصار الاسلامي للقسطنطينية كما حدث بعد فشل الحصار الاول ، ويحاول مؤرخو العرب أن ينسبوا فشله الثانى الى مسلمة بدعوى أنه كان شجاعا لكن لا علم له بمكائد الحرب ولم يكن فى أصحابه من له رأى ، ولكن الواقع أن الروم كانوا مازالوا أقوياء ٠ ويرى دكتور ماجد

أن معركة القسطنطينية كانت لاتزال عند العرب معركة فر وكر • غير أن هذه المحاولة لم تتكرر ثانية فى العهد الأموى على الأقل • ولم تتكرر بصورة فعالة تهدف الى القضاء نهائيا على الدولة البيزنطية فى عهد العباسيين • واذا كان ليو قد أنقذ الامبراطورية البيزنطية فان القسطنطينية كانت ساحة أوربا المسيحية كلها ـ على حد قول بيورى Bury وهو يعتبر عام ٧١٨ م تاريخا عالميا ، أما المؤرخ اليونانى لامبروز Lambros فيقارن هذه الحادثة بحروب الفرس القديمة الاغريق ويطلق على ليو اسم « ميليتياد الهيلينية الوسيطة » Militiade de l'Hellenisme Medieval واذا كان قسطنطين الرابع قد أوقف العرب أمام أسوار القسطنطينية ، فان ليو الثالث قد صدهم نهائيا ، وكانت هذه آخر هجمة عربية ضد المدينة التى كانت تعتبر (كنانة الله Protegée de Dieu) • ومن هنا كان انتصار ليو على درجة من الاهمية غير عادية كما يذكر فازيلييف ، ويقول أومان : « ولو أن الحروب كانت تنشب دائما بين الامبراطور والخليفة فى مدى ٣٥٠ سنة أخرى الا أنها صارت فى المستقبل محدودة لا محاولات يائسة الغاية منها اصابة قلب الامبراطورية وغزو أوربا واخضاعها للاسلام • ويرجع الفضل فى تخليص المسيحية من الخطر الاسلامى الى ليو أكثر مما يرجع الى معاصره شارل مارتل ملك الفرنجة • فان شارل رد جيشا من جيوش الغارات أرسل من ولاية نائية من ولايات الخلافة ، فى حين صد ليو جيش المسلمين العظيم الذى جمع من ممتلكاتهم الشرقية كلها وكان يقوده أخو خليفتهم » •

ومع ذلك فان ليو لم يتخلص من المسلمين تخلصا تاما بانتصاره سنة ٧١٨ م • ففى فترات مختلفة من أواخر حكمه كانت تقلق باله غاراتهم على حدوده وان لم تكن هذه الغارات خطيرة ، وقد تخلصت آسيا الصغرى نهائيا من خطر المسلمين بعد انتصار على جيش المغيرين الاصلى سنة ٧٣٩ م فى اكروينون Acroinon احدى مدن فريجيا • أما المشكلة الحقيقية التى واجهة ليو فهى خطة فى الاصلاح الدينى قد ملكت عليه حواسه وأثارت العامة ضده ، وهى الحركة التى تهدف الى تخليص المسيحية من الشوائب الوثنية وكانت معارضة تقديس الأيقونات ظاهرة من أهم ظواهرها • وقد سميت من أجل ذلك بالحركة المضادة للايقونات Iconclast

على أن القوات الاسلامية كانت مظفرة فى مواصلة **فتوح المشرق** التى بدأها قتيبة بن مسلم فى عهد الوليد بن عبد الملك . **وكان المسلمون**

اكتفوا باتخاذ بلدة قزوين (كشور عند الفرس - أى الحد المرموق) ثغرا أومصرا على الحدود يغزون منها حتى أيام الحجاج الذى أقام فيها مناظر للمراقبة ، كذلك كان المسلمون يغزون من خراسان ، لكن يزيد بن المهلب عمل على فتح المناطق الواقعة جنوبى بحر قزوين وجنوبه الشرقى • وهكذا كان عهد المروانيين الأوائل عهد انقـاذ للحدود الاسلامية فى مختلف مواضيعها • فلقد حاول المسلمون استرداد الارض التى فقدوها أثناء اضطراب الامور بعد وفاة معاوية ، ثم حاولوا كسب الجديد ، وكانت هذه المحاولات تصادف بعض العقبات فى الداخل والخارج ، كذلك **نهضت بيزنطة من خمولها** فى حيوية ، وأبدت نشاطا فى البر والبحر ، ولكنها تعثرت فى المتاعب التى صاحبت نهاية الاسرة الهرقلية (١١٢) •

عمرو بن عبد العزيز ٩٩ : ١٠١ هـ / ٧١٧ : ٧٢٠ م •

يزيد بن عبد الملك (الثانى) ١٠١ : ١٠٥ هـ / ٧٢٠ : ٧٢٤ م

هشام بن عبد الملك ١٠٥ :١٢٥ هـ / ٧٢٤ : ٧٤٣ م •

مد وجزر :

الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الثانى) ١٢٥ : ١٢٦هـ/ ٧٤٣ : ٧٤٤ م •

يزيد بن الوليد بن عبد الملك (الثالث) ١٢٦ هـ/٤

ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م

قتال الروم :

ما كاد **عمر بن عبد العزيز** يتولى الخلافة بعد سـليمان حتى كتب الى مسلمة بن عبد الملك الذى كان يحاصر القسطنطينية يأمره بالقفـول

---

(١١٢) الطبرى حـ٨ ص١١٢ ، ١١٣ رواية الواقدى ، ١١٧ رواية محمد بن عمر وعلى بن محمد، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٤٢ ـ ٣ ، دكتور ماجد . التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ٢٤٥ : ٩ ، الدبس : تاريخ سوريا م٥ ص ٢١٧ ـ ٨ ، دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٨٤ : ١٩٢ ، أومان : الامبراطورية البيزنطية • ترجمة دكتور بدر ص ١٤٥ : ٩ ، رستم : الروم حـ ١ ص ٢٧٣ ـ ٤ ، حتى : تاريخ العرب • ترجمة نافع حـ ١ ص ٢٥٤ ـ ٥ ، ٢٦٥ •
Hitti : Hist. of Syria, pp. 445:8.
والترجمة العربية حـ ٢ ترجمة د. اليازجى ص ٤٩ : ٥٢ ،
Vasiliev : Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I. pp. 314: 17, Gaudefroy-Demombines, Platonov : Le Monde Musulman et Byz. pp. 168-9, Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 180 : 191, 205.

منها بمن معه من المسلمين فى أكتوبر سنة ٧١٧ م « ووجه اليه خيـلا عتاقا وطعاما كثيرا وحث الناس على معونتهم » • وبذلك وضحت سياسة الخليفة الجديد الحـربية • وقد عادت القوات البرية فى بداية سـنة ٩٩ هـ ـ ٧١٧ م ، وفى أثناء الانسحاب حاول الروم تعويق مسير الجيش العربى بغير نجاح • كما حاول أمير طوانة البيزنطى مع قوة من ٦٠٠٠٠ رجل ارسلها ليو مفاجاة المسلمين • ولكنهم انذروا بالخطر فاوقعـوا عدوهم فى شرك مكيدته ، كما فشل جيش بيزنطى آخر أرسل لنفس المهمة . وعاد المسلمون الى الشام بعد أن أعملوا القتل والتخريب فى أراضى العدو أثناء انسحابهم .

وقد أوضح فلهوزن معـالم سياسة عمر بن عبـد العزيز فقال . « لم يكن عمر ميالا الى حروب الفتح ، وكان يعلم حق العلم أنها لم تكن حروبا في سبيل الله بل من أجل الغنائم • وهو لم يستطع من حيث المبدأ أن ينهى الجهاد مع قيصر الروم ، ولكنه **ترك المراكز الأمامية وجمع جنود الغزو فيما دونها** ••• وكان جل اهتمامه متجهـا الى السياسة الداخلية ، وهنا نجد أنه قد حصل فى عهده تحول ذو طابع مغاير للتحول الذى كان بين عهد الوليد وعهد سليمان وأكبر منه شأنا بكثير » • وقد كتب عمر أيضا الى عبد الرحمن بن نعيم يأمره باقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم ، فأبوا وقالوا : لا يسعنا مرو ، فكتب الى عمر بذلك فكتب اليه عمر : اللهم انى قد قضيت الذى على فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذى قد فتح الله عليهم • على أن عمر قد اهتم بثغر خراسان فكتب الى عقبة بن زرعة الطائي وكان قد ولاه الخراج « ••• وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم الى ولا أعظم عندى من ثغر خراسان فاستوعب الخراج وأحرزه فى غير ظلم فان بك كفافا لأعطياتهم فسبيل ذلك والا فأكتب الى حتى أحمل اليك الاموال فتوفر اليهم أعطياتهم » • كما تذهب بعض المراجع الى أن عمر ابن عبد العزيز كان يفكر فى اقفال المسلمين من الأندلس واخلائها منهم اذ « خشي تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن القوطية أو « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين » كما يقول صاحب فتح الأندلس وصاحب الأخبار المجموعة • وربما جاز تعليل ذلك بأن عمر لم يكن يعلم مدى استقرار المسلمين فى الأندلس ومدى افادتهم منها وقد كتب اليه السمح بن مالك الخولانى « يعرفه بقوة الاسلام وكثرة مدائنهم وشرف معاقلهم » • وقد عبرت جيوش المسلمين البرنات وأرسوا لهم قاعدة فى نربون فى عهد عمر نفسه •

بل يذكر أن **عمر أراد أن يهدم المصيصة من ثغور الشـام وهدم الحصون بينها وبين أنطاكية** « وقال : أكره أن يحاصر الروم أهلهـا ،

فأعلمه الناس أنها عمرت ليدفع من بها الروم عن انطاكية ، وانه انأخربها لم يكن للعدو ناحية دون انطاكية ـ فأمسك ، وبنى لأهلها مسجدا جامعا من ناحية كفر بيا واتخذ فيه صهريجا ٠٠ » ٠ ومن هذا يتبين أن عمر كان شغله الشاغل سلامة المسلمين ووقايتهم من المهالك التي قد يتعرضون لها دون مقتض ، وقد نقل أهل طرندة لاشفاقه عليهم من العدو وانزلهم ملطية وأخرب طرندة « وكانت واغلة في بلاد الروم ، وملطية يومئذ خراب ليس بها الا ناس من أهل الذمة من الارمن وغيرهم ، فكانت تأتيهم طالعة من جند الجزيرة في الصيف فيقيمون بها الى أن ينزل الشتاء » ٠ وقد كان عمر اذا اقتنع بالضرورات الحربية وبان المسلمين يؤدون جهادا حقيقيا تركهم على ثغورهم وأعانهم على جهادهم « **وقد اتبع عمر سياسة حدود تختلف عن سياسة جميع خلفاء الدولة العربية** » ، فهو ـ على عكس ما يظن ـ لم يوقف الغزو لأنه كان يقدر أهمية الجهاد لوقف خطر أعداء الاسلام ، ولكنه أراد أن يكون الغزو لوجه الجهاد خالصا ٠ ولم يكن يهم عمر بن عبد العزيز أن تكون له الفتوح العظيمة كسابقيه ولذا كانت فترة حكمه القصيرة خالية من الغزوات الكبيرة » ٠ ولما أغارت الروم فى البحر على ساحل اللاذقية فهدموا مدينتها وسبوا أهلها سنة ١٠٠ هـ أمر عمر ببنائها وتحصينها ووجه فى فداء أسرى المسلمين فلم يتم ذلك حتى توفى عمر سنة ١٠١ هـ فأتم المدينة وشحنها خلفه ٠ واقتصرت بعوث الخليفة على الصوائف التى كانت مهمتها الاساسية هى البناء والتحصين سنة ٩٩ : ١٠١ هـ ٧١٨ : ٩ م ، وكانت القيادة للولاة لا للامراء من البيت الاموى ٠ ثم أن رجوع المسلمين من حصار القسطنطينية لايعنى توقف الصوائف والشواتي التي تخرج من ملطية أو غيرها من الثغور ٠ وانما كان عمر يقاتل على أساس القاعدة الاسلامية فكان يدعو حصن الروم الى الاسلام أو الجزية أو القتال ، كما جعل الرباط فى الثغور أربعين يوما يرجع المرابط بعده الى أهله ليستجم ٠ ودخل في مفاوضات مع البيزنطيين للبحث في فداء الأسرى وعرض عليهم ملطية ليحثهم على ذلك وكان يعطى بالرجل من المسلمين عشرة من الروم ، كما كان يكره قتل أسرى العدو ٠ وقد أعاد عمر أبناء الأمراء الأرمن الصغار الذين ربوا فى دمشق منذ سنة ٧٠٥ م الى أهليهم ٠ وولى عمر الجراح بن عبد الله الحكمي جهاد المشرق فواصل الحرب ضد الديلم وحمى ثغر قزوين كما حارب الترك ناحية أذربيجان ٠ وكان أكثر مقام عمر بن عبد العزيز بخناصرة الاحص، وولى من قبله على قنسرين هلال بن عبد الاعلى ثم ولى عليها الوليد بن هشام

المعيطى على الجند والفرات بن مسلم على خراجها ، وتوفى بدير سمعان من أرض معرة النعمان .

ويرى الدكتور شعيرة فى تقدير سياسة عمر بن عبد العزيز الخارجية أنه ينبغي الموازنة بين خسائر القتال من جهة وبين المحافظة على مكانة الاسلام ازاء عدو لا يتسامح ، ولذلك كانت هذه السياسة تبدو غيرمفهومة ولا مستساغة، فخلفاؤه أنفسهم قد تخلوا عنها،والبيزنطيون لم يتقبلوها الا بتحفظ ، فلم تكن قد غابت عنهم ذكريات العداء الطويل والغزو المتكرر وحصار العاصمة ، ولم يكن في وسعهم أن يهضموا سياسة عمر الا على أساس أنها تأكيد لفوزهم في رد الحصار ، وهكذا لم يتح لسياسة حسن الجوار الاستمرار .. ويرى الدكتور شعيرة أنه كان من حسن حظ النفوذ العربى أن لم تعش هذه السياسة أكثر من سنتين .

ومنذ نهاية عهد عمر بن عبــد العزيز حتى نهـاية الدولة الاموية ١٠٢ : ١٣٢ هـ ، ٧٢٠ : ٧٥٠ م نشاطا ونزعة توسعية لدى الروم فى البحر والبر . وحين نتأمل جبهة آسيا الصغرى ـ وهي الجبهة الوحيدة الهامة في تلك الفترة وأكثر الجبهات حساسية ، نجد تأثيرها بطـابع شخصية كل خليفة فضلا عن ظروف الدولة الداخلية . ونحن نجد القادة العسكريين هنا من طراز أقل كفاءة ممن عرفنا من قبل ، وخير قادة هذه الفترة مروان ابن محمد الذى سيصير آخر خلفاء بنى أمية ، فقد واجـه الخزر فى ارمينيه فى شجاعة ومقدرة. ونجد روح الفروسية فى صفوف المجاهدين من أمثال مالك والبطال فى المصيصـة وملطية . **وقد تغـيرت سياسة العمل فى مناطق الحدود ، فقد عدلت الخلافة عن سياسة الزحف الى القسطنطينية التى سادت بعد عهد عبد الملك بن مروان ، وعاد الامويون المتاخرون الى سياسة عبد الملك بابتناء الحصون بعـد أن انتعشت الدولة البيزنطية على اثر انتهاء الأسرة الهرقلية وتولى الأسرة الايسورية ، خاصة بعد الاصلاح العسكرى على يد ليو الثالث . وقد كانت الحملات فى تلك الفترة توجه من ثغور الشام ومن ثغور الجزيرة ولكل جبهة نشاطها المستقل** وقد تركز نشاط الثغور الجزرية حول الهتد الارمنى لمراقبة الحدود الغربية الارمينية وجرى على ذلك يزيد الثانى [illegible] . وفى عهد الاخير كانت تمتد حملتنا الثغور الشامية والجزرية عندما تتسع المعـركة فتخـرج عن النطاق المحلى وتصير معركة هامة فى قلب آسيا الصغرى (١١٣)

(١١٣) الطبرى حـ ٨ ص ١٣٠ ، ١٣٩ رواية على بن محمد ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٨ ، ٢٢ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٤٥ ، ابن العـديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ٤٦ ، فلهوزن ـ

٧ - وفى عهد **يزيد بن عبد الملك** انهمكت الدولة فى معالجة **الفتن الداخلية** ، وقد وجهت قائدين ممتازين من قواد الثغور لهذا العمل : هما **مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليـــد** . وقد كادت الحملات تتوقف تماما فى الجبهة البيزنطية فلا نسمع عنها الا قليلا . وقد ترك الخليفة التحـركات العسكرية على الحدود الشرقية للبند الأرمنى دون نتيجة حاسمة غير أن هجوما **للخزر** سنة ٧٢٢ ـ ٣ م استغرق الجهـــد وحدد نطاق العمليات الحربية ، ولكن سكون الخليفة طوال العامين الأخيرين من مدة حكمه لا يفسر الا بافتقاده روح المبادرة الى العمل وقد كانت تخرج حملتان فى العام ، ولا نجد معركة تخرج عن النطاق المحلى سوى مرة واحدة . وقد شغلت أرمينية جهـــود الأمويين المتأخرين ، نظرا لاستفادة الروم من غارات الخزر ، ومن المنافسات الداخلية بين الاسر الارمينية ومنها ما يوالى العرب مثل Bagratouni ، ولهؤلاء خصوم يحقدون عليهم ويتعرضون لاضطهادهم واضطهاد العرب ايضا مثل Mamikonian وقد كثرت الفتن فى الاقليم وتأييدا للفريق الموالى للعرب كان الامويون لا ينقطعـون عن الانفـــاق سنويا على جيش ارمينية للمشـــاركة فى حماية الاقليم ضد الخزر أو الروم . وكان على العرب أن يحولوا بين بيزنطة وبين اســـتغلال متاعبهم الداخلية فى ارمينية ، وكان اقل ما فى وسعهم فى هذا السبيل الا يتركوا البند الارمنى المجاور لهم فى راحة . اذ هو القاعدة البيزنطية القريبة لأى حركة نحو الشرق ضد العرب ، وكان هذا هو الهدف فى عهد يزيد : ازعجاج بند الارميناق ومراقبة ارمينية بتيقظ . وفى ثغور الشام لم يكن هناك فى مثل هذه الظروف ســـوى نشـــاط محلى يسير .

ويورد ابن الأثير فى حوادث سنة ١٠٢ هـ ٧٢٠ م غزوة عربية لأرمينية الرابعة البيزنطية « غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية ارمينية وهو على الجزيرة قبل أن يلى العراق ، فهزمهم وأسر منهم كثيرا وقتل سبعمائة أسير . وغزا عباس بن الوليد الروم فافتتح دلسه » . ويذكر الطبرى الواقعة الأولى فقط ، ويكـــرر ابن الاثير الواقعة الثانية سنة ١٠٣ هـ . ويرى الدكتور شعير ان العباس كان من المشتغلين باخمـــاد فتن ابن المهلب فى العراق ، فاذا كان قد غادر الشام حوالى نهاية الشتاء

= تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٢٦٠ ـ ١ ، دكتور ماجد . التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ٢٦٧ : ٩

Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. p. 92.

دكتور مؤنس : فجر الأندلس ص ١٣٦ ـ ٧ .

Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. pp. 189-190, 207: 213, 214-5, 219

(مارس) ـ أى بعد شهر من وفاة عمر بن عبد العزيز فى فبراير سنة ٧٢٠ م ـ فانه ما كان يتاح له أن يعود قبل هذه الموقعة فىأغسطس ٧٢٠م ـ ١٤ صفر سنة ١٠٢ هـ . ويرجح الدكتور شعيرة أن حملة العباس كانت فى العام التالى سنة ١٠٣ هـ / ٧٢١ م مع القائدين اللذين ذكرهما اليعقوبى ، أما هدف الحملة فقد اختلف فيه ، وهو يرجح أنه لاريسا Larissa وان كان ميشيل السورى قد ذكر سيزا ولم يحدد ايليا النصيبى واجابيوس موضعا . ويذكر اليعقوبى غزوة للوليد بن هشام فى أرض الروم سنة ١٠٢ هـ « فنزل على المخاضة عند أنطاكية » ، ويذكر فتح حصن سنة ١٠٣ هـ على يدى عبد الرحمن بن سليمان الكلبى وعثمان ابن حيان المرى ، وقد اشتركا فى الصائفة أحدهما على اليمنى والآخر على اليسرى سنة ١٠٤ هـ سنة ٧٢٢ م ـ **ونحن نجد تعبير الصائفة اليمنى واليسرى لأول مرة** . ولا نعرف تفاصيل العمليات الحربية وان كانت ارمينية واجهت هجوم الخزر هذا العام . وقد اشترك العرب والأرمن فى دفعه . وقد اتجهت حملة من ثغور الجزيرة فى ملطية لمهاجمة كمخ فى السنة الأخيرة من عهد يزيد سنة ١٠٥ هـ سنة ٧٢٣ م لمنع بيزنطة من الاستفادة من الهجوم الخزرى وكان على رأسها مروان والى الجزيرة . وفى ناحية الثغور الشامية خرجت حملة من الدوريات المعتادة ، ويذكر اليعقوبى غزوة لسعيد بن عبد الملك فى نفس العام وفى نهاية الموسم الحربى تحرك جيش بيزنطى وأحرق بعض المحاصيل ، وهو تصرف للروم لانجد أمثاله كثيرا كما يروى خبر نزول الروم الساحل المصرى (١١٤) .

وكان استئناف قتال الروم بصفة جدية فى عهد **هشام بن عبد الملك**، وكان ينزل الرصافة من أرض قنسرين وهى مدينة رومية قديمة . وقد نقل هشام صناعة السفن من عكا الى صور ، كما بنى ربض المصيصة ومجموعة من الحصون يعددها البلاذرى وهى : المثقب ، قطرغاش ، مورة ـ **وكان استخدم أهل انطاكية فى بناء هذه الحصون**. وقد لجأ الخليفة الى هذه التحصينات حين عرض الروم لرسول له فى درب اللكام عند العقبة البيضاء ، فبنى حصن مورة ورتب فيه أربعين رجلا وجماعة من الجراجمة ، وأقام ببغراس مسلحة خمسين رجلا وابتنى لهم حصنا ، وبنى حصن بوقا من عمل أنطاكية .

ومنذ عهد هشام انتقل ميدان العمليات الحربية الى غربى البند

---

(١١٤) الطبرى جـ ٨ ص ١٦٧ ، ابن الأثير جـ ٥ ص ٤١ ، اليعقوبى جـ ٣ ص ٥٦ .
Cheira : La Lutte entre les Arabes et Byz. pp. 214, 220: 3.

لأرمنى بقصد تأمين السيطرة على بعض الحصون التى تفتح طريقاً الى قلب آسيا الصغرى • وكان هناك شروع فى الاتجاه الى القسطنطينية ، ولكن ظروف الروم لم تكن تسمح بذلك ، فقد انتعشت الدولة وقضى ليو الثالث وقسطنطين الخامس على اتجاه لهذه المحاولة ، بل نقل الاباطرة الصراع الى الحدود العربية ذاتها ، وكان للخزر أثرهم فى شغل جهود المسلمين فى أرمينية • **وقام هشام بغزوات كبيرة فى كل صيف وكان يوجه غزوتين أو ثلاثا فى وقت واحد معا لتلتقى فى نقطة واحدة** ، وقاد الغزو ابنه معاوية — وهو جد الامويين فى الاندلس وقد قامت سنة ١١٨ أو سنة ١١٩ هـ / ٧٣٦ — ٧ م وابنه سليمان ، على أن البطل الاكبر فى هذه الحروب كما تصوره الروايات هو عبد الله البطال • **وهكذا عاد مسير الحملات المنتظمة من جناحي الثغور الشامية والجزرية ، فنسمع عن الصائفة اليسرى واليمنى كما عادت غزواتهم فى البحر • وكان الموقف يتطلب مواجهة حازمة من العرب للخطر البيزنطى والخزرى •**

وغزا سعيد بن عبد الملك (١٠٦ هـ) سنة ٧٢٤ م الصائفة اليمنى وفقد قسما من جيشه ، بينما غزا اليسرى معاوية فى الوضاحية الذين ينسبون للوضاح وأحرق محاصيل العدو • وفى سنة ١٠٨ هـ سنة ٧٢٥م غزا مسلمة حتى بلغ قيسارية مدينة الروم مما يلى الجزيرة • ويأخذ الدكتور شعيرة بالرواية القائلة ان حملة قيسارية استغرقت عامين ١٠٧ - ٨ هـ ، ٧٢٥ — ٦ م ، وكانت الثانية هى التى استولت على المدينة بينما استولت الصائفة اليسرى على حصن • واستولى معاوية بن هشام على خنجرة سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م وصمالا سنة ١١٠ هـ — ٧٢٨ م واشترك فى جهاد هذا العام والذى قبله البطال وجماعته وقد استولوا على حصون متعددة • وعاود العرب غزو قيسارية بقيادة سعيد بن هشام سنة ١١١ هـ / ٧٢٩ م وقاد معاوية الصائفة اليسرى فى حملة عامة ، وظلت قيسارية هدفا فى حملات السنة التالية • وكانت خرشنة هى هدف حملة سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م بقيادة مسلمة ، وقد سارت من ملطية فأحرقت فرندية ، ثم استولت على خرشنة ، وقد هاجم الخزر فى نفس العام ارمينية ، واستعمل هشام مسلمة على ارمينية سنة ١٠٧ هـ ، وعزل الجراح بن عبد الله الحكمى الذى كان عامل عمر عبد العزيز على أرمينية وأذربيجان ثم أعاد هشام الجراح سنة ١١١ هـ وعزل مسلمة « فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالما ، فجمعت الخزر وحشدت وسارت الى بلاد الاسلام ، وكان ذلك سبب

قتل الجراح بمرج اردبيل وقيل ببلنجر » ، فأعيد مسلمة الى ولاية أرمينية وأذربيجان سنة ١١٢ هـ ، ثم وليها مروان بن محمد سنة ١١٤ هـ . **وقد أخذت حملات الثغور الشامية والجزرية تضعف منذ الهجوم الخزري سنة ٧٢٢ - ٣ م** . ولعل هجرات العناصر الجبلية التى تسكن جبال القبق أو القبج شمالى بحر قزوين والبحر الاسود وقد جاءت من وسط آسيا تحت ضغط موجات الهون (الهياطلة) على المناطق القوقازية ، ونجد من هذه العناصر بجانب الخزر : اللان ، وشعب السرير الذى يمتد حتى باب الأبواب (دربند) التى تحيط بها أفواه شعاب جبال القبق التى أقيمت عليها الحصون . وكانت الشعوب القوقازية - خاصة الخزر - تغير على الفرس ، فبنوا تحصيناتهم لمواجهتها ، وقد ساعد القوقازيون هرقل على استعادة أرمينية من الفرس . كذلك واجهت الدولة الاسلامية خطر أتراك وسط آسيا الذين كانوا قد سكنوا تحت ضربات قتيبة بن مسلم . **وكان العرب يدفعون الخطر التركى عن طريق مراكز محصنة للتجمع ، فضلا عن حاميات متعددة فى المدن المختلفة والاعتماد على تأييد الاعاجم (الفرس) أعداء الترك التقليديين** ، لا سيما وان الاسلام قد انتشر بينهم .

ولهذه الظروف كلها ، لم يكن من المستغرب أن تأتى صائفة سنة ١١٣ هـ ، سنة ٧٣١ م حملة عامة عادية ، وقد تقدمها البطال وجماعته فاصطدموا بقوة للعدو أضخم عددا ، فاستشهد عبد الوهاب بن بخت وبعض زملائه أثناء تغطية انسحاب البطال . وفى سنة ١١٤ هـ ، سنة ٧٣٢ م اتجهت حملة من الثغورالجزرية الى قيسارية ، وتجهت حملة أكثر أهمية من ثغور الشام الى ربض أقرن (عقرون Akroinon) فخربت ضاحيتها ، وكانت مقدمة الحملة بقيادة البطال فالتقت بقوات العدو بقيادة قسطنطين فأسرته وعادت منتصرة محملة بالغنائم ، ولكن تعرضت مؤخرتها لهجوم أثناء العودة فأبيدت المؤخرة . وهكذا رأينا حملة عربية واسعة النطاق ، تحرك فيها جيشان كبيران الى مواقع هامة وأحرزا نتائج طيبة ، ولكن هذا الاندفاع العربى الى قلب آسيا الصغرى توقف فجأة ، وبدا ان الحملات العربية أخذت تلقى مقاومة خلال أربع سنوات متتالية ، وأخذت غاراتها تتضاءل فى أهميتها .

ففى سنة ١١٥ هـ / ٧٣٣ م التقى معاوية بن هشام فى آسيا الصغرى بجيش للعدو ، وبدأت المعركة بمبارزة صرع فيها عبد من أصل عربى خرج من صفوف الروم ستة من العرب . فنازله البطال وقتله ،

وذارت الحرب وانهزم الروم تاركين وراءهم الكثير من الغنائم والأسرى ، واستولى العرب على حصون عدة ، لكن لم يستطيعوا المضى قدما داخل أراضي العدو • وفى السنة التالية سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م قاد معاوية حملة أقل أهمية ، وكذلك كان شأن حملتى سنة ١١٧ هـ / ٧٣٥ م واليسرى منها كانت بقيادة معاوية واليمنى التى أغارت من الثغور الجزرية على أراضى العدو كانت بقيادة سليمان • وفى سنة ١١٨ هـ / ٨٣٦ م ، سارت حملتان وعليهما القائدان بعينيهما ، ولا نجد تفصيلات عن الحملات، وهكذا مضت سنوات أربعة من التوقف بالنسبة للعرب ، واليقظة البالغة بالنسبة للبيزنطيين •

غير أن العرب عادوا الى اندفاعهم داخل آسيا الصغرى فى احدى انتفاضات نشاطهم ، وقد سارت حملتان من الثغور الشامية والجزرية سنة ١١٩ هـ / ٧٣٧ م ، وأهمها كانت بقيادة سليمان بن هشام وكان من مقاصدها برجان ، وقيل انها أعادت أسيرا يسمى تيبريوس ادعى انه ابن قسطنطين وسمح له بالتجوال فى مدائن الشام • واتجه سليمان فى العام التالى سنة ١٢٠ هـ ـ سنة ٧٣٨م الى سندرة (أو حصن الحديد Siedror) وجاء مع الحملة أسير ذو شأن هو ابن أحد البطارقة • وفى سنة ١٢١ هـ سنة ٧٣١ م سار مسلمة بن هشام من ملطية الى اقليم المطامير حيث أدار عمليات ناجحة • وواصل العرب توغلهم الى قلب آسيا الصغرى فىالسنة الرابعة ، ولكنهم أصيبوا بخسارة •

ففي سنة ١٢٢ هـ ـ ٧٤٠ م استطاع الروم أن يقضوا على جيش عربى عدده خمسون ألفا فلم يبق منه سوى عشرة آلاف عند **أكروينون** (أفيوم قره حصار) من أعمال فريجيا فاضطر المسلمون أن يجلوا عن غربى آسيا الصغرى وأن يتراجعوا شرقا فجنوبا ، وفى هذه الموقعة قتل على الارجح عبد الله البطال • والمؤرخون العرب يقصون ذكر استشهاد البطال وأحد رفاقه ، وبعض المؤرخين يجعلون الحادث فى طريق العودة صبيحة الفوز • « واسمه عبد الله أبو الحسين الانطاكي ، قتل سنة ١٢٢ وقيل سنة ١٢٣ هـ ، وكان كثير الغزاة الى الروم والاغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وخوف شديد • حكى أنه دخل بلادهم فى بعض غزواته هو وأصحابه فدخل قرية لهم ليلا وامرأة تقول لصغير لها يبكى : تسكت

والا سلمتك الى البطال .. سيره عبد الملك مع ابنه مسلمة الى بلاد الروم وأمره على رؤساء أهل الجزيرة والشام وأمر ابنه أن يجعله على مقدمته وطلائعه ، وقال انه شجاع مقدام ، فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان بينه وبين الروم » . ولكن طبقا لرواية تيوفانيس كان جيش عربى هام من ۲۰٫۰۰۰ مقاتل يعمل فى كابادوكيا حين التقى عند أكروينون بجيش بيزنطي على رأسه الامبراطور ليو وابنه قسطنطين ، وانهزم العرب هزيمة كبرى ولم يصابوا من قبل بمثل هذا الحظ السيء ـ على حد تعبير دنيس Denis de Tell Mahr، ويقرن ديل Diehl هذه الهزيمة بهزيمة العرب عند بواتييه . والمؤرخون المحدثون يجعلون الواقعة حاسمة اذ يعتبرون الاندفاع لعربى غزوا لآسيا الصغرى ، أما الدكتور شعيرة فيراه لا يخرج عن صراع الحدود والنزال من أجل البطولة الذى ينتقل فيه زمام المبادرة من يد الى أخرى . وفى خلال الفتن الداخليـة للدولة الاسلامية كانت بيزنطة تجد فرصتها للبدء ، والجديد فى الواقعة السـالفة أن المسلمين رغم هدوء أحوالهم الداخلية قد مكنوا البيزنطيين من انتزاع زمام المبادرة ، وتجدد هـذه الواقعة تاريخا هاما فى الصراع العربى البيزنطى فى الجبهة البرية ، فقد غدت بيزنطة منذ ذلك الوقت أكثر ثقة فى جيشها ، وعدت حريصة على الاحتفاظ بميزتها على حسـاب متاعب العرب .

وفقدت الثغور الاسلامية بطلا آخر بموت **مسلمة البطل الكرار** سنة ١٢٠ هـ وقيل سنة ١٢١ هـ ، ٧٣٨ ـ ٩ م ـ وهو الذى عرفته سـاحات المعارك على الحدود وفى قلب ديار الروم من أيام عبد الملك الى عهد هشام . وفى خلال المدة الباقية من عهد المروانيين الاواخر كف العرب عن الهجمات الضاربة فى قلب آسيا الصغرى عدا سـنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م ، بل ان بيزنطة هي التى شنت الهجوم فى سنوات ٧٤١ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ م . ويروى أن الروم خرجوا سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م فى عشرين ألفا فنزلوا على ملطيـة مهاجمين الحدود الاسـلامية البرية مبـاشرة لأول مرة « فاغلق أهلها أبوابها وظهر النساء عليهن العمائم فقاتلن ، وخرج رسول لأهل ملطية مستغيثا فركب البريد وسار حتى لحق بهشام بن عبد الملك وهو بالرصافة ، فندب هشام الناس الى ملطية . ثم اتاه الخبر بأن الروم قد رحلت عنها فدعا الرسول فأخبره ، وبعث معه خيلا ليرابط بها ، وغزا هشام نفسه ثم نزل ملطية وعسكر عليها حتى بنيت ، فلمـا كان ممره بالرقة دخلها متقلدا سيفا ولم يتقلده قبل ذلك فى أيامه » .

وشرع قسطنطين فى مغادرة العاصمة فى العام التالى سنة ١٢٤هـ / ٧٤٢م لقيادة حملة جديدة ضد العرب ، ولكن دبرت من خلفه مؤامرة لتسليم العاصمة الى خصمه ارتافاسد Artavasde فشغله ذلك طوال العام . وطلب كل من قسطنطين وخصمه تأييد الخليفة ولم يشأ العرب أن يكونوا اداة فى يد غيرهم ، وآثروا أن يعملوا لحسابهم الخاص وبدون شطط ، فسارت الصائفة فى الأراضى البيزنطية حتى بافلاجونيا، والتقت بجيش قسطنطين ولكن لم تصطدم معه فى قتال ، وآثرت أن تنال فوزا أسهل منالا ، وكانت بقيادة سليمان الذى عاد بعد نجاح محدود . **وكانت هذه هى المرة الاخيرة حتى نهاية الدولة الأموية التى يتوغل فيها المسلمون الى هذا المدى داخل اراضى العدو** . وفى نفس العام لم يبد مروان فى جبهة الجزيرة وأرمينية أى اتجاه للاعدة من الموقف ، وآثر الحيطة واليقظة فحسب دون ارسال حملات ، وهكذا كان اتجاه العرب دفاعيا خالصا فى هذه الجبهة .

وبين الحملات المستمرة التى يسردها مؤرخو الحوليات من سنة ١٠٦ هـ الى سنة ١٢٥ هـ نجد **حملات بحرية منتظمة** أيضا . ونحن نلحظ أسرة من قبيلة محارب يتولى القيادة عدة افراد منها ، منهم الأسود بن بلال المحاربى الذى يقود غزوات البحر من سنة ١٢٠ الى سنة ١٢٦ هـ / ٧٣٨ : ٧٤٤م ، وقد تولى أخواه مهمات مماثلة خلال ٤٠ عاما ابتداء من سنة ١٠٢هـ ــ ٧٢١م، وكان لحفص بن الوليد نشاطه فى أسطول الساحل المصرى . ولم يكن الأسطول الاسلامى على قوة تتيح له السيادة على حوض البحر المتوسط الشرقى، وعلى الرغم من نشاطه الكبير لم يستطع أن يحرز انتصارا مثل انتصاره فى واقعة الصوارى ، على أن الحوض الغربى شهد نشاطا أكبر . وقد ضعفت سيطرة المسلمين على قبرص وأهلها ، واتخذت الجزيرة سياسة معادية ثلاث مرات فى سنوات ١٠٦ ، ١٢٠ ــ ١ هـ ، ١٢٩هـ/٧٢٤ ، ٧٣٨ ــ ٩ ، ٧٤٩ م . وكان وضع قبرص أسوأ من وضع أرمينية اذ كان الروم يرون فى قوتهم البحرية أداة مفضلة لتحدى العرب، واذا كانت بيزنطة قد اتخذت سياسة حربية نشيطة فى البر انتهت بالهجوم فكذلك كان موقفها فى البحر ونحن نجهل الوقائع البحرية فى السنين الاولى من هذه الفترة ، ويبدو أن الجزيرة لم تكن معادية للعرب منذ مهاجمة الروم تنيس فى مصر سنة ١٠١ هـ ، ٧٢٠ م ، ولكن الجزيرة اتخذت موقفا معاديا للعرب سنة ١٠٦ هـ سنة ٧٢٤ م ، فقد شرع هؤلاء فى الاستعداد لحملة كبيرة يبدو أن هدفها قبرص . وفى ذى الحجة سنة ١٠٦ هـ / ابريل سنة ٧٢٥ م فرض على المدينة البعث من ٤٠٠ رجل

نصفهم للحملة والنصف الأخر للانضمام الى حاميات السواحل . وقد ورد في أخبار ١٠٧هـ أن معاوية بن هشام غزا الصائفة وعلى جيش الشام ميمون ابن مهران « فقطع البحر حتى عبر الى قبرص » ولم تكن الحملة ناجحة، ولم يعد أحد من بعث المدينة . وكانت الفتن التى اثارتها السياسة المعارضة للصنور في ايطاليا واليونان والسيكلاديس سنة ١٩٠ هـ - ٧٢٧ م سببا في حرمان الروم من الاتجاه للهجوم ، فعاشت الجزيرة فى سلام واستقر النفوذ العربى ، وأمنت السواحل حتى سنة ١٢٠ هـ . سنة ٧٣٨ م ، وتتابعت الحملات السنوية حتى ذلك التاريخ والاشارات اليها موجزة .

فقد غزا عبدالله بن عقبة بن نافع الفهرى على جيش فى البحر سنة ١٠٩ ، ١١٠هـ (٧٢٩ - ٧٣٠م) ، وفى سنة ١١١ هـ (٧٣١م) غزا على جيش البحر عبد الله بن أبى مريم . كذلك سير عبيد الله بن الحبحاب والى هشام افريقيه جيشا الى صقلية سنة ١١٧ هـ / سنة ٧٣٧ م « فلقيتهم مراكب الروم فاقتلوا قتالا شديدا فانهزمت الروم وأسروا جماعة من المسلمين»، وكانت تونس قاعدة الحملات البحرية فى افريقيـة بينما كانت القيروان قاعدة برية . وسير بن الحبحاب جيشا فى نفس العـام الى **سردانية** « فقتحوا فيهـا ونهبوا وغنموا وعادوا » . **وقد هاجم الروم ميناء قرب بيروت** سنة ١٢٠ هـ سنة ٧٣٨ م ونهبوا الاهالى وأخذوا السفن التجارية ، وقد تعقبهم والى بيروت فاضـطروا الى ترك اسـلابهم . وواصـل الروم سياسة الهجوم فى العام التالى سنة ١٢١ هـ سنة ٧٣٩م فهاجموا **دمياط** بنجاح وقتلوا وأسروا . وكانت الحمـلة البيزنطية الثـالثة للنزول فى الموانى الاسلامية سنة ١٢٣ هـ سنة ٧٤١ م موجهة ضد السواحل المصرية. غير أنها كانت أقل نجاحا ، وتتبع حفص بن الوليد العـدو فى انسحابه فورا .

وفى خلال هذه الهجمات لم ينقطع الاسطول الاسلامى عن العمل ، فقد كان للاسطول المصرى عملية بحرية سنة ١١ هـ/سنة ٧٣٩م ، وفى سنة ١٢٢هـ سنة ٧٤٠م رحل الأسطولان المصرى والشامى من الاسكندرية فى مهمة مجهولة ، وضلت الحملة الطريق فقصدت **كريت** وهاجمتها دون نجاح وان أسرت أسرى عديدين . كما عاود ابن الحبحاب غزو صـقلية سنة ١٢٢ هـ . واشتهر فى المغازى البحرية حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة ابن نافع وابنه عبد الرحمن « فظفر ظفرا لم ير مثله حتى سرقوسة وهى من أعظم مدن صقلية ، فقاتلوه فهزمهم وحصرهم فصالحوه على الجزية . وعزم حبيب على المقـام بصقلية الى أن يملـكها جميعـا ، فاتاه كتاب ابن الحبحاب يستدعيه الى افريقية » . وقد أحصى الذكتور شعيرة ٧ حملات

على صقلية سنة ٧٢٠م (١٠٢هـ) ، ٧٢٢م ، ٧٢٦م (١٠٨هـ) ، ٧٢٧م ، ٧٢٨م ، ٧٤٠م (١٢٢هـ) ، ٧٤٧م (١٣٠هـ) ، وحملتين على سردانية سنة ٧٢١م (١٠٣هـ) ، ٧٢٤م ، وذلك في مدى ثلاثين عاما ، مما يبدو معه أن المسلمين واصلوا ضغطا متتابعا على أسطول صقلية لمنافسته في السيادة البحرية • على أن الهجمات البيزنطية ظلت مستمرة بدورها ، خاصة في الحوض الشرقي من البحر المتوسط (١١٥) •

يصف المسعودى هشام بن عبد الملك فيقول عنه : « كان يجمع الاموال ويعمر الارض ويستجيد الخيل ، وأقام الحلبة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا اسلام لأحد من الناس • وقد ذكرت الشعراء ما اجتمع له من الخيل • واستجاد الكسى والفرش وعدد الحرب ولامتها واصطنع الرجال وقوى الثغور •• » واستفاضت شهرة هشام فى تدبير الحرب وتناقلها الناس حتى بلغت مجلس الخليفة العباس المنصور ـ كما يروى الطبري (١١٦) • وقد كان هشام من أقوى شخصيات المروانيين المتأخرين ، واذا كان عهده لم يخل من انتكاسات فى الجبهة البيزنطيةخاصة فى أواخره فان الحالة قد تفاقمت فى عهود الخلفاء الضعاف الذين أعقبوه •

أكلت الفتن بنى أمية فشغلتهم عن اى شيء آخر فلا نكاد نسمع عن الشواتي والصوائف الا ما ندر • وانتقل الروم من الدفاع الى لهجوم مستفيدين من اصلاحات ليو العسكرية التى لم تؤت ثمارها الا فى آخر عهده وفي عهود خلفائه من بعده • فقد توفى هشام سنة ١٢٥ هـ سنة ٧٤٣ م دون أن يوفق لانتزاع زمام المبادرة العسكرية من البيزنطيين • وخلفه الوليد بن يزيد الذى لم يحكم سوى ١٤ شهرا ، وكان كلفا بالشعر والشراب ، واتجه لارضاء أحقاده من عمه هشام بتنحية أولاده عن قيادات

---

(١١٥) الطبرى حـ ٨ ص ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٦ ـ ١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ـ ٤ ، ٦٨ : ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ؛ ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٨ ـ ٩ ، ١٠٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٤، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٩٤ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٦٩ ـ ٧٠ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٣٢٧ ـ ٨ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ٢٩٤ : ٣٠١ •
Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. p. 97.
Cheira : La Lutte entre les Arabes et Byz. pp. 214, 223: 231, 234:7, 238-9.

(١١٦) المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ١٨٠ ـ ١ ، الطبرى حـ ٩ ص ٣٠٤ •

الثغور واحلال اخـــوته محلهم وهم أقل كفاءة • ولم تستقر الأمور فى الداخل طوال عهد **الوليد بن يزيد** ، **ويزيد بن الوليد** ، **ابراهيم بن الوليد**، واستغل الروم الفرص لسانحة • وقد سارت الصائفتان الغربيان سنة ١٢٥ هـ ـ ٧٤٣ م وكان من قادة الغزو الغمر بن الوليد أخو الخليفة ، وقد شن الروم هجوما على زبطرة ودمروا أسوارها التى أعيد بناؤها على عجل فكانت أقل حصانة • وفى سنة ١٢٦ هـ ـ ٧٤٤ م أرسل المسلمين حملة جاء مقتل الوليد عند عودتها • وحاول والى أرمينية تهدئة الاقليم فى نفس العام بدعوة المتمردين الى السكينة • وفى نهاية سنة ٧٤٤ م ارتقى والى أرمينية مروان بن محمد عرش الخلافة •

وفى البحر سار جيش بقيادة الأسود بن بلال المحاربى سنة١٢٥هـ سنة ٧٤٣ م الى قبرص ليخيرهم بين المسير الى الشام ان شاءوا وان شاءوا الى الروم ، ولعـلهم ـ كعهدهم ـ كانوا يعينون الروم عـلى المسـلمين • فاختارت طائفة جوار المسلمين فنقلهم الأسود الى الشام ، واختار آخرون أرض الروم فنقلوا اليها ـ ويذكر البلاذرى أن هـذا الاجراء كان « لأمر اتهمهم به الوليد ، فانكر الناس ذلك فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم » (١١٧) • وكان ذلك فى العام التالى سنة ١٢٦هـ سنة٧٤٤م• **واستغل قسطنطين الخـامس الـذى اعقب ليو الثـالث (٧٤١ : ٧٧٥م) الصراع الداخلى بين أفراد البيت المروانى فاغار سـنة ٧٤٥م على حدود الدولة الاسلامية** ينتقص من أطرافها ، واستولى **على مرعش ودلوك** وأجلى نصارى الحدود الى داخل الدولة البيزنطية في تراقية • وفى سنة ٧٤٦ م جهز أسطولا كبيرا فىمياه آسيا الصغرى الجنوبية وهاجم أسطولا اسلاميا فى **قبرص** واحتل الجزيرة ، وفى سنة ٧٥١م جرد حملة على حدود العرب فى **ارمينية** فاستولى على ارزن الروم (ارضروم) وملطية ، ثم اتجه نحو الفرات فاحتل حصن قلوذية وبلغ شمشاط (١١٨) •

الدولة تحارب رجالها :

كان **عمر بن عبد العزيز يكره آل المهلب** ويقول : « هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم » وقد عزل **يزيد بن المهلب** عن العراق وضيق عليـه وبادله بغضا ببغض • وجاء **يزيد بن عبد الملك** ـ وله صلات وثيقة بالحجاج وهو

---

(١١٧) الطبرى حـ ٨ ص ٢٩٩ ، ابن الأثير جـ ٥ ص ١٠٩ ، البلاذرى فتوح البلدان ص١٦١
Cheira : La Lutte entre les Arabes et Byz. pp. 232-3, 238.

(١١٨) رستم : الروم حـ ١ ص ٢٩٣ ـ ٤ •

زوج ابنة اخيه ـ فلم يكن ينتظر منه خيرا بالنسبة لعدو الحجاج الذى نكل بأهله . واستطاع يزيد بن المهلب أن يدخل البصرة موطن أسرته من المهالبة وموطن قبيلته أرد عمان ، فانضمت اليه قبائل اليمن من الارد وربيعة ، أما قبائل تميم وقيس فانهم كانوا فى جانب الوالى . وهكذا برزت الخلافات العصبية ، وكان بنو مروان الاولون ـ مثل عبد الملك والوليد وسليمان ـ قد نجحوا فى حفظ التوازن بينهما بقدر المستطاع . وقد سعى ابن أخى يزيد بن المهلب ـ حميد بن عبد الملك بن المهلب ـ عند الخليفة فبعث معه بالامان للمطالبة جميعا ، لكن يزيد بن المهلب كان قد غلب على البصرة وحبس واليها عدى بن أرطاه ونادى بأن « جهاد أهل الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم » . وأصبح الوفاق بين ابن المهلب والخلافة متعذرا ، وصار عليه أن يحدد وجهته بعد البصرة ، فاقبل حتى نزل واسط واستخلف أخاه مروان على البصرة وأخذ يستشير أصحابه فى وجهته ، فمنهم من نصحه بفارس « فتأخذ بالشعاب وبالعقاب وتدنو من خراسان وتطاول القوم ، فان أهل الجبال ينفضون اليك وفى يدك القلاع والحصون . فقال : انما تريدون أن تجعلونى طائرا على رأس جبل » . وأشار اليه آخرون بأن « **يأتى الجزيرة ويبادر اليها حتى ينزل حصنا من حصونها ، فاذا أقبل أهل الشام يريدونه لم يدعهم جنده بالجزيرة يقبلون اليه ، فيقيمون عليهم فيحبسونهم عنه حتى يأتيهم ، ويأتيه من بالموصل من قومه وينفض اليه أهل العراق وأهل الثغور** ، ويقاتلهم فى أرض رخيصة السعر وقد جعل العراق كله وراء ظهره . فقال : انى أكره أن أقطع جيشى وجندى » .

ولم يرد ابن المهلب ان يترك العراق امام جند الشام ـ وكانوا قد تقدموا نحوها ، بل أراد أن يسبقهم الى الكوفة قدر الامكان . وفى آخر سنة ١٠١ هـ ـ ٧٢٠ م توقف عند **عقر التى تواجه فارط** ، ويعتبرها نولدكه معقلا Castra قرب بابل القديمة ولم يرض غير قليل حتى ظهر **مسلمة بن عبد الملك قائد الحملات فى آسيا الصغرى وأرمينية سنين طويلة ومعه العباس بن الوليد الذى برز اسمه فى جهاد الروم أيضا** ، وقد عبرت قوات الدولة الى منزل يزيد بن المهلب بوساطة جسر أقامته ، ودارت المعركة التى هزم فيها المهلب فى الكوفة وبعض سلائل ابن الاشعث ومالك الأشتر فركبوا السفن الى كرمان فالسند ولكنهم لم يفلتوا ، وعلقت الرءوس المقطوعة فى حلب . واسندت ولاية العراق أولا لمسلمة

الذى اخذ يعين ولاة جددا تحت يده ، ثم عزل مسلمة وعين على العراق وولايات المشرق عمر بن هبيرة الفزارى - وكان والى الجزيرة لعمر بن عبد العزيز ، وهو قيسى لقيت قبائل الأزد واليمن عموما على يديه عنتا . وكانت عداوة الحجاج فى حياته لابن الاشعث وابن المهلب من حدة النزاع بن قيس واليمن ، وأدى ذلك الى تدخل الخلفاء فى الصراع القبلى . وكانت حرب الامويين للمهالبة بمثابة حرب على قبائل اليمن كما يقول فلهوزن « وكانت نتيجة ذلك أن حكومة بنى أمية انقلبت حزبا يحكم باسم قيس (فى العراق) ، .. أما فى الشام فان يزيد بن عبد الملك لم يحاب قيسا على قضاعة - لأن قضاعة كانت نواة الجيش الذى انتصر فى موقعة عقر ، وكان الذي قتل يزيد بن المهلب رجلا من كلب ، وكان الكلبيون هم الذين تعقبوا المهالبة الهاربين واستأصلوا شأفتهم » .

وجاء **هشام بن عبد الملك فادار السياسة الاموية وجهة اخرى** « **وكان أول مافعله ان كسر شوكة القيسيين** الذين كانت قد اخذتهم العزة بالاثم فى المشرق فعزل عمر ابن هبيرة ، وعين مكانه خالد بن عبد الله القسرى فى شوال سنة ١٠٥ هـ مارس سنة ٧٢٤ م وبذلك صار على العراق وال يمكن أن يعتبر الى حد ما فى عداد زياد والحجاج » . وكانت قبيلة خالد (قسر) فرعا من بجيلة - وهى قبيلة مزقتها خلافات الجاهلية ولم تكن تنتسب الى مضر ولا الى اليمن ، ولكن خالد انحاز الى اليمنة بدافع من عداوة قيس « قال عمر بن يزيد بن عمير الأسيدى : دخلت على هشام وخالد عنده وهويذكر طاعة أهل اليمن فقلت: والله ما رأيت هكذا خطأ وخطلا ، والله ما فتحت فتنة فى الاسلام الا باهل اليمن : هم قتلوا عثمان ، وهم خلعوا عبد الملك ، وان سيوفنا لتقطر من دماء بنى المهلب » . ولبث خالد على العراق زهاء خمسة عشر عاما وهى أطول مدة قضاها وال على العراق باستثناء الحجاج . **ولكن هشام تغير عليه وعزله سنة ١٢٠هـ وولى يوسف بن عمر الثقفى القيسى أحد اقرباء الحجاج** . وجعل هذا مقره فى الحيرة اذ منعه هشام من أن يعسكر بجند الشام بين أهل الكوفة .

ثم تولى الخلافة **الوليد بن يزيد** رغم محاولة هشام عزله وتولية ابنه مسلمة ، **فشغل بالانتقام من اولاد هشام حتى اخذ ابنه سليمان الذى اشتهر فى حرب الثغور فضربه وسجنه . كما كانت هناك وحشة بينه وبين الوليد بن القعقاع العبسى - خال سليمان ابن عبد الملك وقد تولى هو أو اخوه عبد الملك قنسرين لهشام ، واليهم ينسب حياد بنى عبس** . وكان بنو القعقاع قد أيدوا هشاما فى خلع الوليد وتولية ابنه . وقد هرب

الوليد بن القعقاع وغيره من اخوته فعاذوا بقبر يزيد بن عبد الملك ، فولى الوليد على قنسرين يزيد بن عمرو بن هبيرة الذى عذب آل القعقاع حتى مات منهم الوليد » **وكان معنى تسليط يوسف بن عمر على خالد القسري - وهو اجراء بدا به هشام اخيرا واستمر فيه يزيد - هو اغراء قبائل قيس بقبائل اليمن** ، وبدا أن الخليفة قد صار هو ويوسف بن عمر وبقية آل الحجاج حزبا واحدا .. **وهي أول مرة حدث فيها تذمر سياسى شامل في العراق وفي الشام وألف هذا التذمر بين اليمن هنا وهناك ، وكان أشد الناس تأثرا بذلك هم يمن الشام وخصوصا كلب** - لأن خالد القسري - الذى قضى نحبه بتنكيل يوسف بن عمر فى عهد الوليد - كان قد قضى سنيه الأخيرة في دمشق ونال محبة كثيرين . ولكن التذمر كان من الخليفة خاصة أكثر منه من قيس بوجه عام ونفخ فيه أعداء الخليفة الشخصيين لاغراضهم الخاصة . فالثورة وان جاءت من قبائل اليمن الا أن اليمنية لم يكونوا وحدهم في جانب والقيسية فى جانب آخر ، بل نجد عبس قيس يقفون فى الجانب المعادى للخليفة لأنه كان قد أغضبهم بما فعله مع بنى القعقاع ، كما أتى لنجدة الخليفة قوم من كلب من قبائل عامر وسليم بن كيسان بجانب البهرانيين من حمص .. وانضم الى الثائرين أبناء هشام وغيرهم من بنى مروان . وكانوا يتحدثون فيما بينهم أن الوليد قد أعد مائة جامعة من الحديد ، وكتب على كل واحدة منها اسم رجل من بنى أمية ليقتله بها . وكان من الذين يؤيدونهم وربما يحرضونهم قوم من اشراف كلب في دمشق وكانوا قوادا وعمالا ساخطين أزيلوا عن مناصبهم : صار منصور بن جمهور أكثرهم ذكرا » . وهكذا أحاطت نيران الثورة بالوليد من كل مكان « واضطغن على الوليد آل الوليد وآل هشام وآل القعقاع واليمانية بما صنع بخالد بن عبد الله ، فأتت اليمانية **يزيد بن الوليد** فأرادوه على البيعة سنة ١٢٦ هـ » . وكان الناس متفرقون في البوادي بسبب الوباء ، وفوجىء الوليد بن يزيد بأخبار الثورة ، وقد **نصح بأن ينزل حمص لأنها حصينة او تدمر فهى حصينة ايضا ، وقيل له اخيرا « اما اذا ابيت فهذا الحصن البخراء فانه حصين وهو من بناء العجم فانزله » . فنزل وجاءه من تدمر قوم من كلب ومن حمص بهرانيون وفشل العباس بن الوليد فى نجدته ، ولم ترد كلب تدمر ان تقاتل كلب دمشق فانتهى الامر بقتل الوليد بن يزيد ، وفتح قتله باب الفتن فى منطقة شمالى الشام والجزيرة وهى المنطقة التى كانت تدور فيها الاستعدادات وتوجه منها الحملات لقتال الروم** ، فأصبح الأمويون يقتلون فيها بعضهم بعضا « واضطرب حبل بنى مروان وهاجت الفتنة » .

علم **أهل حمص** بمقتل الوليد « فأغلقوا أبوابها وأقاموا النوائح والبواكي على الوليد ، وسألوا عن قتله فقيل : ان الذى أعان عليه العباس ابن الوليد ،فوثب أهل حمص فهدموادار العباس وانتهبوها وسلبوا حرمه وأخذوا بنيه فحبسوهم ، وطلبوه فخرج الى يزيد بن الوليد وكاتبوا الأجناد ودعوهم الى الطلب بدم الوليد فأجابوهم · وكتب أهل حمص بينهم كتابا : ألا يدخلوا فى طاعة يزيد ، وان كان وليا عهد الوليد حيين قاموا بالبيعة لهما والا جعلوها لخير من يعلمون على أن يعطيهم العطاء· وقد أيدهم مروان بن عبد الله بن عبد الملك أمير حمص ، ثم انصرفوا عنه الى أبى محمد السفيانى زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الذى قال لهم : « لو قد أتيت دمشق ونظرت الى أهلها لم تخالفني » · وأراد يزيد أن يراسلهم فطردوا رسله ، فوجه اليهم مسرور بن الوليد بن روح فى جمع كبير أكثرهم بنو عامر من كلب فنزلوا حوارين · ولما قدم سليمان ابن هشام على يزيد أكرمه وصاهره ورد عليه ماكان الوليد اخذه وارسله قائدا عاما على تلك الحملة المرسلة لتأديب حمص · والتقى الفريقان **بالسليمانية** – مزرعة كانت لسليمان بن عبد الملك خلف عذراء من دمشق على أربعة عشر ميلا – وكان مصير أهل حمص الفناء التام ، وحبس أبو محمد السفياني وابنا الوليد بن يزيد وآخرون من السفيانيين الذين كانوا يؤيدون الوليد لأنه كان ينتسب اليهم من طريق جدته بنت يزيد بن معاوية·

وبعد أن فرغ يزيد من أمر أهل حمص اتجه أهل فلسطين والاردن الذين كانوا قد وثبوا على عاملهم أيضا اثر مقتل الوليد ، فوجه اليهم سليمان بن هشام على رأس قوة من جيشه فأخذ يعد بعض الزعماء الثائرين ويمنيهم حتى تمكن من اخماد الفتنة · واستعمل يزيد : ابراهيم بن الوليد على الاردن وضبعان بن روح على فلسطين ومسرور بن الوليد على قنسرين ، وابن الحصين على حمص ·

وقد ادت المتاعب التى واجهها يزيد الى اعتماده على اهل اليمن وخصوصا كلب اعتمادا ظاهرا ، ووجه المنصور بن جمهور الكلبى لولاية العراق وقبض على يوسف بن عمر واطلق سراح من كانوا فى سجنه ، ثم ولى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز مكان منصور بن جمهور سنة ١٢٦ هـ· وهكذا اضطربت سياسة الامويين بين القيسية واليمانية كما تتابع العزل والتولية فى جهات الشام والجزيرة ·

ثم ظهر فى اتون هذه الخلافات **مروان بن محمد** ، وكان أبوه أحد اخوة عبد الملك أميرا على أرض الجزيرة وارمينية سنين كثيرة وكان يقود

الحرب مع الروم ثم حل محله مسلمة ، وقد اسندت الى مروان ارمينية واذربيجان سنة ١١٥هـ فابلى بلاء حسنا فى الدفاع عن ثغر القوقاز أمام هجمات الترك • ويصفه فلهوزن بأنه « **كانت له علاقات بجميع الجهات ، وكان على علم تام بما يرسم من الخطط فى كل مكان** » • فلما صارت الخلافة الى الوليد بعث اليه يهنئه ـ وكان قد عاتب هشاما حين انتقده ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة يحسن الظن بالوليد ومهما يكن من شىء فانقتل الوليد جاء ملائما لأغراضه « فقد استطاع أن ينهض للثأر من القاتلين وأن يأخذ من أيديهم الغنيمة مستندا الى اعتبارات وجيهة » على حد قول فلهوزن •فخرج مروان من ارمينية متجها الى الجزيرة التى خرج واليها من قبل الوليد ـ عبده بن رباح الغسانى ـ الى الشام عند مقتل الوليد ، « **ووثب عبد الملك بن مروان بن محمد على حران ومدائن الجزيرة فضبطها وولاها سليمان بن عبد الله بن علاثة ، وكتب الى أبيه بأرمينية يعلمه بذلك ويشير عليه بتعجيل السير والهجوم • فتهيأ مروان للمسير وأظهر أنه يطالب بدم الوليد وكره أن يدع الثغر معطلا** حتى يحكم أمره ،فوجه الى أهل الباب : اسحق بن مسلم العقيلى وهو رأس قيس وثابت بن نعيم الجذامى من أهل فلسطين وهو رأس اليمن »• لكن هذا الجيش الخارج على الخليفة لم يكد يسير حتى ابتلى فى صفوفه بالخارجين عليه ، فقد تمرد اليمانيون من جند الشام تحت امرة ثابت بن نعيم ، وكان سببصحبة ثابت اياه أن مروان خلصه من حبش هشام بالرصافة « وكان مروان يقدم على هشام المرة فى السنتين فيرفع اليه أمر الثغر وحاله ومصلحة من به من جنوده وما ينبغى أن يعمل به فى عدوه » • وبلغ مروان أن ثابتا كان يدس الى القواد بالانصراف من ثغرهم واللحاق بأجنادهم « ودس ثابت من نعيم الى من معه من أهل الشام بالانخذال عن مروان والانضمام اليه ليسير بهم الى أجنادهم ويتولى أمرهم ، فانخذلوا عن معسكرهم مع من فر ليلا وعسكروا على حدة ، وبلغ مروان أمرهم فبات ليلته ومن معه فى السلاح يتحارسون حتى أصبح ثم خرج اليهم بمن معه ومن مع ثابت يضعفون على من مع مروان ••• وأجابوه بانا كنا نطيعك بطاعة خليفتنا وقد قتل خليفتنا » • وقد أظهر مروان ثباتا وقوة شكيمة فى علاج هذا التمرد ، فاتهم الخارجين عليه بأنهم يريدون النهب والسلب فى الطريق وهددهم بالقتال وهكذا اجتاز مروان هذه الفتنة المبكرة مظفرا « فانقادوا اليه وأمكنوه من ثابت بن نعيم وأولاده » • **وسار حتى بلغ حران • وفرض لأهل الجزيرة المقاتلين وتهيأ للمسير الى يزيد بعد أن خلى سبيل جند الشام فلحقوا بأجنادهم وكانت جنود قيس من أهل الجزيرة نواة جيشه،**

لكن يزيد بن الوليد كاتب مروان « على أن يبايعه ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان ولى أباه محمد بن مروان من الجزيرة وارمينية والموصل واذربيجان فبايع له مروان ووجه اليه محمد بن عبد الله بن علاثة ونفرا من وجوه الجزيرة » . ومع ذلك فقد قيل أن تسمية يزيد بالناقص جاءت من مروان ، وقيل انه أسماه بذلك لما نقص الأعطيات اذ ردها الى ما كانت عليه هشام بعد أن كان الوليد بن يزيد قد زادها .

ومات يزيد بن الوليد بعد أن تولى الخلافة بستة أشهر ، ووخلفه **ابراهيم بن الوليد** فلم يبايع له الا أهل جنوب الشام ، فعاد مروان الى خطته القديمة على الفور « **وارسل الى بن علاثة وأصحابه فردهم من منبج، وشخص الى ابراهيم بن الوليد في جند الجزيرة وخلف ابنه عبد الملك في أربعين ألفا من الرابطة بالرقة ، فلما انتهى الى قنسرين – وبها أخ ليزيد ابن الوليد يقال له بشر كان ولاه قنسرين – خرج اليه فصافه،ومال اليه يزيد بن عمر بن هبيرة في القيسية وأسلموه بشرا وأخاه مسرورا فحسبهما مروان وسار فيمن معه من أهل الجزيرة وأهل قنسرين الى أهل حمص وكانوا امتنعوا حين مات يزيد بن الوليد أن يبايعوا ابراهيم ،** فوجه اليهم ابراهيم عبد العزيز بن الحجاج وجند أهل دمشق فحاصرهم فلما دنا مروان من حمص رحل عبد العزيز عنهم وخرجوا الى مروان فبايعوه وساروا بأجمعهم معه . ووجه ابراهيم بن الوليد الجنود مع سليمان بن هشام فسار بهم **عين الجر** (وهو نهير في سلسلة جبال لبنان الشرقية Antilibanus حيث يلتقى بنهر الليطاني) وأتاه مروان وسليمان في مائة وعشرين ألف فارس ومروان في نحو من ثمانين ألفا » . وجرى مروان على عادته في مناداة أعدائه وتقديم عروضه اليهم قبل الموقعة ، فدعاهم الى الكف عن قتاله واطلاق ابنى الوليد المحبوسين على الا يؤاخذ أحد بقتل الوليد فأبوا ذلك . فاقتتلوا ، وكان مروان مجربا مكايدا فجعل قسما من جنده يعقد الجسور من الشجر ويعبر النهر بين العسكرين فيفاجىء جيش سليمان من الخلف « فلما رأوا ذلك انكسروا وكانت هزيمتهم ، ووضع أهل حمص السلاح فيهم لحردهم عليهم فقتلوا منهم نحوا من سبعة عشر ألفا ، وكف أهل الجزيرة وأهل قنسرين عن قتلهم ، وأتوا مروان من اسرائهم بمثل عدة القتلى » . وانسحب سليمان بن هشام ومعه يزيد بن خالد بن عبد الله القسرى الى دمشق حيث تشاوروا مع ابراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج وغيرهم ، فارتأوا قتل ابنى الوليد في السجن وقتل يوسف بن عمر وابى محمد السفياني ، وقد نجا الأخير . وظن القوم أنهم بهذا يؤمنون أنفسهم ، في

حين انهم فتحوا الطريق أمام مروان ليصل الى عرش الخلافة « ودخل مروان دمشق ودفن الغلامين ويوسف بن عمر وأتى بأبي محمد السفياني في كبوله فسلم عليه بالخلافة ٠٠٠ فكان أول من نهض معاوية بن يزيد ابن الحصين بن نمير ورؤوس أهل حمص فبايعوه ٠ فأمرهم أن يختاروا لولاية أجنادهم ، فاختاروا : أهل دمشق زامل بن عمرو الجبراني ، وأهل حمص عبد الله بن شجرة الكندي ، وأهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان ، وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي - فأخذ عليهم العهود المؤكدة فلما استوت لمروان الشام وانصرف الى منزله بحران طلب الأمان منه ابراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فأمنهما ، فقدم عليه سليمان وكان يومئذ بتدمر بمن معه من اخوته وأهل بيته ومواليه الذكوانية » ٠

ونستطيع أن نرى في هذه البداية المبكرة لمروان بن محمد نزعة عهده الذي سوف يكون **ميالا الى القيسية من جهة والى الجزيرة من جهة أخرى** وإذا ما استعرضنا سياسة بني مروان عموما نجد موالاة القيسية أيام يزيد بن عبد الملك وأعقبت ذلك سياسة عكسية لهشام رجع عنها في أواخر أيامه حين عزل خالد القسري ، وتابع الوليد بن يزيد هذه السياسة ، وشذ يزيد بن الوليد فمال الى اليمانية ، وأتى مروان ابن محمد فعاد الى سياسة موالاة القيسية وكان قتال مروان لأبناء عبد الملك قتالا لكلب وقضاعة ، وقد انضمت اليه قيس وحاربت معه ، وهو أيضا اتخذ مقر اقامته بين قيس في حران بأرض الجزيرة حيث نما وترعرع ٠٠٠ واذا كان بعض خلفاء بني أمية قد أثروا الاقامة بعيدا عن دمشق فان مقصدهم لم يكن تجريد دمشق من مكانتها **أما مروان فقد نقل مقر حكمه الى حران كما نقل خزانته كما يقول تيوفانيس ، فأحس الشام كله عدا الاجزاء الشمالية انه قد انتزعت منه السيادة** ، وقد أخذت الخلافات بين الأحزاب تختفي وسط هذا الشعور شيئا فشيئا » كما يقول فلهوزن ٠

أرضى مروان بن محمد طموحه أخيرا ووصل الى الخلافة ، ولكن في ظروف غير سعيدة ٠٠٠ **ولم تستطع الدولة الاسلامية أن تستفيد من خبرة مروان بن محمد في القتال بأرمينية ، فان أرض الثغور والعواصم وما تاخمها من شمالي الشام والجزيرة لم تعد قاعدة لانفاذ الشواتي والصوائف ضد الروم وانما غدت مسرحا للفتن والثورات** التي انتهت الى نهاية الدولة الأموية أخيرا « وقد كان مقتل الوليد بن يزيد بمثابة العلامة التي آذنت بسقوط أسرة بني أمية - كما يرى فلهوزن - وكانت هذه الأسرة الحاكمة قد انتحرت عند ذلك انتحارا سياسيا ٠٠٠ ذلك أن بلاد

الشام نفسها ــ حجر الزاوية في النظام القائم ــ قد لفتها دوامة الثورة ٠٠٠ أما رجال قبيلة **كلب** الذين كانوا أخلص أولياء الدولة فانهم قد خرجوا على الولاء لها ، ويستطيع الانسان أن يتصور ما كان لتزعزع سلطان الدولة فى القلب من تأثير على الأطراف ٠٠٠ وفى وسط ذلك الاضطراب كانت تظهر تجمعات لا تلبث أن تزول، فكانت مختلف العناصر الهائجة تتجمع حول نقطة واحدة ثم تفرق بعد ذلك وتدخل فى تنظيمات أخرى ، وكانت تلك الفترة انسب ما يكون للمغامرين والمتغلبين : كان الواحد منهم تصبح له فى أقصر قوة كبيرة ثم يختفى من غير أن يترك أى أثر » (١١٩) ٠

نهاية عهد : مروان بن محمد (١٢٧ : ١٣٢ هـ ــ ٧٤٤ : ٧٥٠ م)

فتن الشام :

كان انتصار مروان بن محمد انتصارا للقيسية ، فلم يكن ينتظر أن تقف اليمانية موقفا سلبيا ، فانتقضت **عشائر كلب فى حمص** وما يجاورها بعد انتقال مروان الى حران ٠ ويظهر أن الثورة نشأت من جانب أهل فلسطين حيث كان ثابت بن نعيم الجذامى اليمنى الذى كان قد تألب على مروان من قبل حينما سار من أرمينية لحرب يزيد بن الوليد، ثم امتدت الى جميع الجهات حتى وصلت الى مدينة حمص « **وأرسل أهل حمص الى من بتدمر من كلب** ، فشخص اليهم الأصبغ بن ذؤابة الكلبى ومعه بنون ثلاثة ومعاوية السكسكى فارس أهل الشام ٠٠٠ ونحو من ألف من فرسانهم فدخلوا حمص ليلة الفطر سنة ١٢٧هـ ومروان بحماه ، فجد فى السير ومعه ابراهيم بن الوليد المخلوع وسليمان بن هشام يكرمهما فى عسكره ، فانتهى الى حمص بعد الفطر بيومين والكلبية فيها

---

(١١٩) الطبرى حـ ٨ ص ١٣٢ ــ ٣ ، ١٣٦ ــ ٧ رواية ابى مخنف ، ص ١٤٤ وما بعدها رواية ابى مخنف ، ١٨٠ رواية محمد بن سلام الجمحى ، ص ٢٤٩ وما بعدها ، حـ ٩ ص ٢ وما بعدها ، ٢٢ رواية احمد بن زهير عن على بن محمد ، ٢٣ : ٦ رواية احمد عن على ، ص ٤٤ : ٨ ، ٥٤ ــ ٥ رواية احمد بن زهير عن عبد الوهاب ابن ابراهيم، ابن الأثير حـ ٥ ص ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٨ وما بعدها ، ٥٠ ، ٨٦ وما بعدها ، ١١١ وما بعدها ،١١٦ : ٨ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ــ ١٣٠ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٣٠٢ : ٣١٢ ، ٣١٦ : ٣٢٥ ، ٣٤٠ : ٣٦٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب ص ٤٨ : ٥٠ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ص ٢٧٢ : ٦ ، ٢٨١ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ٠
Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. pp. 93, 96, 99: 101

قد ردموا أبوابها من داخل وهو على عدة معه روابطه... فناداهم مناديه: ما ذعاكم الى النكث ؟ قالوا : فانا على طاعتك لم ننكث ،فقال : فان كنتم على ما تذكرون فافتحوا ، ففتحوا الباب » ، فاقتحم جيش مروان ودار القتال فى داخل المدينة وخارجها « فقتل عامتهم وأفلت الأصبغ والسكسكى ، وأسر ابناه فى نيف وثلاثين رجلا فقتلهم مروان، وهدم من حائط مدينتها نحوا من غلوه » . وى الوقت نفسه اشتعلت ثورة فى دمشق فى الغوطة. لـكن ثبت أهل دمشق نفسـها مع واليهم زامل بن عمرو ، ووجه اليهم مروان من حمص أبا الورد بن الكوثر بن زفر بن الحارث واسمه مجزأة وعمرو بن الوضـاح ـ وكان له بلاء فى اخمـاد فتنة حمص ـ فى عشرة آلاف ، فهزموا الثـائرين وحرقوا المزة من قرى اليمـانية وقتل يزيد بن خالد القسرى قائد الثورة . ثم شخص أبو الورد بعد ذلك للقضاء على رأس الفتنة فى فلسطين ، فهزمهم ودل على ثابت رجل من قومه . « واستقامت لمروان الشام كلها ماخلا تدمر » ـ وهى المقر الأساسى لكلب، فتوجه اليها مروان بنفسه ، « ومضى بمن معه فنزل القسطل من أرض حمص مما يلى تدمر بينهما مسيرة ثلاثة أيام ، وبلغه انهم قد عوروا ما بينهم وبينها من الآبار وطموها بالصخر فهيأ المزاد والقرب والأعلاف والابل فحمل ذلك له ولمن معه ، فـكلمه الأبرش بن الوليد وسـليمان بن هشـام وغيرهما وسألوه أن يعذر اليهم ، فأجابهم الى ذلك » . واسـتطاع الأبرش أخيرا أن ينجح فى مهمته ، فأقنع أهـل تدمر بمبايعة مروان « فأجابه عامتهم وهرب من لم يثق به منهم الى برية كلب » وكتب مروان الى الابرش ليهدم حائط مدينتهم وينصرف اليه ومعه رءوسهم ، « وانصرف مروان بهم على طريق البرية على سورية ودير اللثق حتى قدم الرصافة ومعه سليمان ابن هشام وعمه سـعيد بن عبد الملك واخوته جميعا وابراهيم المخلوع وجماعة من ولد الوليد وسليمان ويزيد . ثم شخص الى الرقة ، فاستأذنه سليمان أن يقيم أياما ليقوى من معه من مواليـه ويجم ظهره ثم يتبعه ـ فأذن له . ومضى مروان فنزل عند واسط على شاطىء الفرات فى عسكر كان ينزله ، ثم مضى الى قرقيسيا وابن هبيرة بها ليقدمه الى العراق لمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى الحرورى » .

ولكن فتنة الشام لم تكن قد انتهت بعد حتى يتفرغ مروان للعراق والخوارج ، فان اليمـانية لا تريد أن تستسلم ، فأقبلت تنقض معسكر مروان من داخله وتنتزع سليمان بن هشام من ركاب الخليفة لتوليه قائدا على ثورتها الجديدة.وكان سليمان بن هشام « قد قضى كل صباه فى حروب الروم وكان أحب شىء اليه أن يكون فى ميدان القتال على رأس جنوده ،

وكان الذكوانية هم الحرس الذى يحميه » ، وقد وقف أمام مروان من قبل دفاعا عن ابراهيم بن الوليد ، وهو يقف الآن ضد مروان مرة أخرى « فأقبل نحو من عشرة آلاف ممن كان مروان قطع عليهم البعث بدير أيوب لغزو العراق مع قوادهم حتى جاءوا الرصافة فدعوا سليمان الى خلع مروان ومحاربته وقالوا : أنت أرضي منه عند أهل الشام وأولى بالخلافة فأجابهم • **وخرج اليهم باخوته وولده ومواليه الى قنسرين ، فكاتب أهل الشام فانفضوا اليه من كل وجه وجند • وأقبل مروان بعد أن شارف قرقسياء منصرفا اليه**،وكتب الى ابن هبيرة يأمره بالثبوت فى عسكره فى دورين حتى نزل معسكره بواسط • واجتمع من كان (بالهنى) من موالى سليمان وولد هشام فدخلوا **حصن الكامل** بذراريهم فتحصنوا فيه وأغلقوا الابواب دونه » فخشى مروان على مؤخرته فحذر من دخلوا الحصن من التعرض لجنده ـ فوعدوه بأنهم سيكفون ، ولكنهم لم يحترموا عهدهم « فجعلوا يخرجون من حصنهم فيغيرون على من اتبعه من أخريات الناس وشذاذ الجند فيسلبونهم خيولهم وسلاحهم•••واجتمع الى سليمان نحو من سبعين الفا من أهل الشام والذكوانية وغيرهم ، وعسكر فى قرية لبنى زفر يقال لها **خساف من قنسرين** من أرضها » • وهزم سليمان فى هذه الجولة أيضا ، وأسر السكسكى **وظهر فى هذه المعركة بعض الصقالبة الذين كانوا فى اقليم الثغور والعواصم فالمراجع الاسلامية تتحدث عن مبارزة « فارس من فرسان انطاكية يقال له سلساق قائد الصقالبة** » • وقد قتل فى هذه المعركة ما ينيف على ثلاثين الفا كما يروى الطبرى ، وقتل ابراهيم ابن سليمان أكبر ولده • ودارت جولة أخرى فى **حمص** ، اذ مضى سليمان مفلولا اليها • أما مروان فلم ينس حصن الكامل الذى نكث به نزلاؤه من موالى سليمان وولده هشام ، فنصب عليهم المجانيق حتى استسلموا « واحتملتهم أهل الرقة فآووهم وداووا جراحاتهم وهلك بعضهم وبقى أكثرهم » ـ وهكذا وجد أعداء مروان من يعطف عليهم فى الجزيرة حصن مروان الحصين •

ثم اتجه مروان الى سليمان وقد تبايع أنصاره على الموت فى حمص، فلما اقترب مروان فر سليمان الى تدمر ومنها الى الكوفة ، وبقى الجيش فى حمص بقيادة أخيه سعيد • وقد أراد الثائرون أن يأخذوا مروان على غرة « وبلغه خبرهم وما كان منهم فتحرز وزحف اليهم فى الخنادق على احتراس وتعبية ، فراموا تبييته فلم يقدروا • فتهيأوا له وكمنوا فى زيتون ظهر على طريقه فى قرية تسمى **تل منس** من جبل السماق ، فخرجوا عليه وهو يسير على تعبية فوضعوا السلاح فيمن معه وانتبذ لهم ونادى

خوله فثابت اليه من المقدمة والمجنبتين والساقة ، فقاتلوهم » . وأسر فارس من بنى سليم ورجل من بنى تميم أحد كبار الثائرين وهو السكسكى ، وحاصر مروان حمص حصاره الثانى وكان حصارا طويلا بلغ عشرة أشهر « ونصب عليها نيفا وثمانين منجنيقا فطرح عليهم حجارتها بالليل والنهار ، وهم فى ذلك يخرجون اليه كل يوم فيقاتلونه ، وربما بيتوا نواحى عسكره وأغاروا على الموضع الذى يمعون فى اصابة العورة والفرصة منه ، فلما تتابع عليهم البلاد ولزمهم الذل سألوه أن يؤمنهم على أن يمكنوه من سعيد بن هشام وابنيه » . **وقد هدم مروان أسوار حمص وبعلبك ودمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن الشام الكبرى ، الا انطاكية** فانه لم يهدم أسوارها وقد كان أغلب أهلها نصارى ، ويدل ما هدم مروان من أسوار على أنه قد لاقى مقاومة من هذه المدن . وأخيرا « كان مروان قد انتهى من اخضاع الشام سنة ١٢٨هـ ـ ٧٤٦م فوقعت ممزقة تحت قدميه (١٢٠) » .

الخوارج بالجزيرة :

ظلت حركة الخوارج قوية **فى نواحى الموصل بين بنى شيبان وسائر آل بكر** ، وتكاد أن تكون جميع ثورات الخوارج التى حدثت فى العصر الأموى قد خرجت من الموصل ومن آل بكر . وفى سنة ١٠٠ هـ فى خلافة عمر بن عبد العزيز ـ خرج **شوذب واسمه بسطام من بنى يشكر بجوخى فى ثمانين فارسا أكثرهم من ربيعة** ، وكانت سياسة عمر تجرى على مسالمة الخوارج ان لم يسفكوا دما أو يفسدوا فى الأرض والاعذار فى مناقشتهم واقامة الحجة عليهم ، ولما مات عمر عاد الخوارج الى الثورة ، فقاتل عبد الحميد بن عبد الرحمن بن يزيد بن الخطاب شوذب سنة ١٠١ فانتصر الخوارج حتى بلغوا أخصاص الكوفة . فلما دخل الكوفة مسلمة ابن عبد الملك فى جيش أهل الشام شكى اليه أهلها مكان شاذب فأرسل اليهم جيشا عليه سعيد بن عمرو الحرشى فتفوق الخارج أولا ثم انهزموا وقتل شوذب . وفى أيام هشام خرج **بهلول بن بشر** سنة ١١٩ هـ ـ الملقب كثاره ـ وهو من الموصل من شيبان وكان مشهورا بالبأس ،

---

(١٢٠) الطبرى حـ ٩ ص ٥٥ : ٧ ، ٦٢ : ٤ ، رواية أحمد عن عبدالوهاب بن ابراهيم ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٣٢ : ٤ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٧٦ ـ ٧ ، ابن العديم . زبدة الحلب حـ ١ ص ٥٠ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٣٦٥ : ٨ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ٣١٦ .
Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. p. 101.

واجتمع هو وأصحابه فى قرية من قرى الموصل وكان خالد القسرى عندئذ هو والى هشام على العراق . وقد انتصر بهلول مرتين على الجند الذين أرسلوا لقتاله ، ثم أراد أن يتجه الى الشام فارتحل يريد الموصل، « وخاف عمال هشام موجدته ان تركوه يجوز على بلادهم حتى ينتهى الى الشام ، فجند له خالد جندا من أهل العراق وجند له عامل الجزيرة جندا من أهل الجزيرة ووجه اليه هشام جندا من أهل الشام . فاجتمعوا بدير بين الجزيرة والموصل ، وأقبل بهلول حتى انتهى اليهم - ويقال التقوا **بالكحيل** دون الموصل » . وتكاثر جنود الدولة على بهلول فقتلوه كما قتل من استخلفه **عمرو اليشكرى** - كذلك خرج الصحارى **ابن شبيب** (وهو شبيب المشهور) فى ثلاثين رجلا من آل بكر فى حبل فى سهل الدجلة وفشلت حركته وقتل .

ثم اتخذت حركة الخوارج أسلوبا آخر عند تداعى الدولة الاموية اذ **انقلبت تلك الحركة الى ثورة شاملة كما يقول فلهوزن** . وبعد أن كانت قلة العدد طابع جيوشهم أصبحوا يقاتلون بحشود قوية «وتضخمت جماعتهم وصاروا يقبلون كل من ينضم اليهم ليعينهم على تحقيق أغراضهم ولم يطردوا حليفا أراد أن يقاتل فى صفوفهم ... **وقد بدأت الحركة فى أرض الجزيرة وهى الولاية التى كانت بمثابة وطن لمروان ، لكنها لم تبدأ بين قيس فى الجنوب بل بين ربيعة فى الشمال،** وكانت ربيعة من قبل متباعدة دائما بعض التباعد عن بقية العرب المسلمين خصوصا عن مضر منافسيهم القدماء » . وحين قتل الوليد بن يزيد خرج بالجزيرة حرورى يقال له **سعيد بن بحدل الشيبانى** فى مائتين من أهل الجزيرة فيهم الضحاك « فاغتنم قتل الوليد واشتغال مروان بالشام فخرج بأرض كفر توثا ، وخرج بسطام البيهسى وهو مفارق لرأيه فى مثل عدتهم من ربيعة ، فسار كل واحد منهما الى صاحبه . فقتل بسطام ومن معه الا أربعة عشر لحقوا بمروان فأثبتهم فى روابطه وولى عليهم رجلا منهم ، ومضى سعيد بن بحدل نحو العراق لما بلغه من تشتت الأمر بها واختلاف أهل الشام وقتال بعضهم بعضا . **وكانت اليمانية من أهل الشام مع عبد الله بن عمر بالحيرة ، والمضرية مع ابن الحرشى بالكوفة فهم يقتتلون فيها بينهم غدوة وعشية** » ومات سعيد بالطاعون أثناء الطريق فخلفه **الضحاك بن قيس الشيبانى** .

واجتمع مع الضحاك نحو ألف ومر بأرض الموصل فاتبعه منها ومن أهل الجزيرة نحو من ثلاثة آلاف ، كما انحاز اليه الخوارج فى أرمينية

وأذربيجان، **وخرج سليمان بن هشام بعد يوم خساف فانضم الى الضحاك**. فلما دنا الضحاك من الكوفة اصطلح ابن عمرو الحرشي وخندقا على الكوفة ومعهما من أهل الشام نحو من ثلاثين ألفا لهم قوة وعدة ، ومعهم قائد من أهل قنسرين جاء مددا من مروان اسمه عباد بن الغزيل فى ألف فارس . وانتصر الخوارج سنة ١٢٧ هـ سنة ٧٤٥ م « فاستولى الضحاك والجزرية على الكوفة وجبوا السواد » ــ كما تروى الحوليات . ولحق ابن عمر بواسط وتوجه الحرشي الى الشام ، وقد اتبعه الضحاك وحاصره . وبرز فى قتال الخوارج منصور ابن جمهور ، لكنه كان أول من جنح اليهم وقبل مقالتهم فى الدين . **وكاتب أهل الموصل الضحاك** ودعوه أن يقدم فيمكنوه منها ، فاستولى الضحاك على الموصل وكورها فبلغ مروان بن محمد خبره وهو محاصر حمص ، فكتب الى ابنه عبد الله خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير معه من روابطه الى نصيبين فيشغل الضحاك عن توسط الجزيرة ولكنه فشل فى مهمته لتفوق قوات الضحاك ، وكان ممن يعين الضحاك فى حملاته بدر الذكوانى مولى سليمان بن هشام الذى لم ينس حروب مولاه مع مروان ، وقد وجهه الضحاك مع عبد الملك بن بشر التغلبى فى قوة الى الرقة فقاتلهم من بها من خيل مروان ، واستطاع مروان أن ينجد الحامية المدافعة عن الرقة فلم تسقط المدينة . كذلك **كان مع الضحاك مهاجرة كلب ومغامروهم** . واستطاع مروان أخيرا أن يقهر حمص ، فمضى صامدا الى الضحاك فالتقى الجيشان عند كفر توثا وقتل الضحاك فى المعركة وقد ستر ظلام الليل شخصيته فلم يعرف مقتله الا بعد ذلك . وبايع أهل عسكره **الخيبرى** « وسليمان بن هشام يومئذ فى مواليه وأهل بيته مع الخيبرى ، وقد كان قدم على الضحاك وهو بنصيبين فى أكثر من ثلاثة آلاف من أهل بيته ومواليه فتزوج فيهم أخت شيبان الحرورى الذى بايعوه بعد مقتل الخيبرى » . وهكذا واصل سليمان بن هشام مغامراته الحربية التى لا تنتهى .

وجدد الخوارج الهجوم على مروان حتى فر بعد أن أدركوه فى قلب جيشه . ووصل الخيبرى الى معسكر قيادته . ولكن ميمنة مروان وميسرته ثبتا فى القتال ، ولما رأى جنده قلة من مع الخيبرى وثب اليه عبيد بعمد الخيام « فقتلوا الخيبرى وأصحابه جميعا فى حجرة مروان وحولها ، وبلغ مروان الخبر وقد جاز العسكر بخمسة أميال أو ستة منهزما فانصرف الى عسكره ورد خيوله عن مواقفها وبات ليلته تلك فى عسكره . فانصرف أهل عسكر الخيبرى فولوا عليهم شيبان وبايعوه ، **فقاتلهم مروان بعد**

ذلك بالكراديس وابطل الصف منذ يومئذ » . وكان مقتل الخيبرى فى أواخر سنة ١٢٨ هـ ٧٤٦ م .

وكان لا يزال للخوارج جيش فى ربعين ألف رجل ، قادهم **شيبان بن عبد العزيز اليشكرى المكنى أبو دلف (الدلفاء)** . وأبدى سليمان بن هشام الذى ضرسته الحروب رأيه فى قتال الخوارج فقال « ان أحدكم يظفر ثم يستقتل فيقتل ، فانى أرى أن ننصرف على حاميتنا حتى ننزل الموصل فنخندق » . ففعلوا ، والخوارج فى شرقى دجلة وقد تبعهم مروان فعسكر بازائهم ، فاقتتلوا تسعة أشهر ، ويزيد ابن عمر بن هبيرة بقرقيسيا فى جند كثيف من أهل الشام وأهل الجزيرة — فأمره مروان أن يسير الى الكوفة . ولم يتزحزح الخوارج عن موقفهم على نهر الدجلة الا بعد أن فقدوا سيادتهم على العراق . وكان عامل مروان الذى انتزع العراق من يد الخوارج وجعل مقامهم على الدجلة مستحيلا **هو يزيد بن عمر بن هبيرة من قيس قنسرين** ، وقد سار من قرقيسيا وتتابعت انتصاراته على الخوارج فى عين التمر والنخيلة والصراة ودخل الكوفة سنة ١٢٩ هـ ٧٤٧م . وجاء عامر بن ضبارة المرى على رأس جيش ، فوجه اليه شيبان المقاتلين فهزمهم ابن ضبارة بالسن دون الموصل « فلما قدم أشار عليهم سليمان بالارتحال عن الموصل ، وأعلمهم أنه لامقام لهم اذ جاءهم ابن ضبارة من خلفهم وركبهم مروان من بين أيديهم ، فارتحلوا فأخذوا على حلوان الى الأهواز وفارس ... ووجه مروان الى ابن ضبارة ثلاثة نفر من قواده فى ثلاثين ألفا من روابطه ، وكتب اليه يأمره أن يتبعهم ولا يقطع عنهم حتى يبيرهم ويستأصلهم فلم يزل يتبعهم حتى وردوا فارس وخرجوا منها وهو فى ذلك يستسقط من لحق من اخرياتهم فتفرقوا ، وأخذ شيبان فى فرقته الى ناحية البحرين فقتل بها، وركب سليمان فيمن معه من مواليه وأهل السفن الى السند (١٢١) » .

***

---

(١٢١) الطبرى حـ ٨ ص ١٣١ رواية محمد بن عمر وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، ٢٤٢ : ٤ رواية أبى عبيده معمر بن المثنى ، ٧٦ : ٨٢ رواية أبى مخنف وأحمد بن زهير عن عبد الوهاب بن ابراهيم عن أبى هاشم مخلد بن محمد ، حـ ٩ ص ٥٧ : ٦٢ رواية أبى هاشم مخلد بن محمد ، ابن الاثير حـ ٥ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٨٢ ، ٤ ، ١٣٥ — ٦ ، ١٤٠ : ٣ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٧٦ — ٧ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية — ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٣٧٢ : ٨ ، الخوارج والشيعة ترجمة دكتور بدوى . ص ١٢٨ : ١٣٦ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية حـ ٢ ص ٢٧٦ — ٧ ، ٣١٨ . Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. p. 102.

وكانت **حركات الشيعة** تمتد أيضا الى أرض الجزيرة والموصل . فحين خرج **زيد بن على بن الحسين بن على** بتأثير الشيعة « أقام بالكوفة وأرسل الى أهل السواد وأهل الموصل رجالا يدعون اليه » ، وقد هزم زيد فى النهاية بعد أن كان موفقا فى بداية القتال سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م وقطعت رأسه ، وفر ابنه يحيى الذى ظل يتنقل من مكان الى مكان حتى قتل سنة١٢٥هـ فى عهد الوليد بن يزيد وهو يحارب من كانوا فى طلبه.

وكانت آخر ثورة للشيعة فى عهد الأمويين هى التى قام بها **عبد الله ابن معاوية حفيد جعفر ابن ابى طالب** ، اذ انتهز شيعة الكوفة فرصة موت يزيد الثالث واضطراب شئون الخلافة وبايعوه ، وثبتت ربيعة والزيدية بجانب ابن معاوية فى القتال سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م ، فاستطاع الانسحاب مارا بالمدائن وتزايد نفوذه فى فارس « وجاء آخرون من بنى أمية وبنى العباس ممن لم يأمنوا على أنفسهم فى أوطانهم فاستتروا تحت جناحه ، **وهكذا قامت فجأة فى المشرق الذى لم يكن له سيد دولة شاسعة من الدول السريعة الزوال وهذا من العلامات التى كان يتميز بها ذلك العصر كما يقول فلهوزن** ... وقد فر منصور بن جمهور بعد هزيمة الخوارج وكان قد ظاهرهم مع أصحابه من كلب الى بلاد عبد الله بن معاوية ، كما تقهقر الخوارج - الذين طردهم مروان من الموصل - الى هناك فارتفع شأن ابن معاوية بحكم هذه الظروف حينا فقد **اجتمع اليه الشيعة والخوارج وكلب والعباسيون والأمويون** الساخطون ، وقد بدا أن كل الفوارق فى هذه الكتلة المتعصبة الموالية لمروان قد تلاشت . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تفرقت هذه الفلول المختلفة التى ألفت بينها الضرورة ولم تحتمل الحياة معا » . وكان ممن انضم الى هذا الخليط العجيب الذى يصوره فلهوزن المحارب المغامر سليمان بن هشام ، ولكن استطاع مروان فى آخر الأمر أن يدمر هذاالتجمع الشاذ وانهارت دولة ابن معاوية سنة ١٣٠ هـ ، وتابع الفرار حتى قتله بعد أبو مسلم الخراسانى (١٢٢) .

وهكذا كان مروان كلما رقع رتقا انفتق آخر وقد حاول أن يوطد

---

(١٢٢) الطبرى حـ ٨ ص ٢٦٠ وما بعدها رواية الهيثم بن عدى وابى مخنف ، ٣٠٠ - ١ رواية أبى مخنف ، حـ ٩ ص ٤٨ : ٥٢ رواية أبى مخنف ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، ٩٣ : ٥ رواية على بن محمد ، ابن الأثير حـ ٥ ص ٩٠ وما بعدها ١٠٧ - ٨، ١٣٠ : ٢ ١٤٩ : ١٥١ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٣٢٥ : ٧ ، ٣٦٩ : ٣٧١ ، الخوارج والشيعة ترجمة دكتور بدوى ص ٢٥٦ : ٢٦٤ ، د . ماجد التاريخ السياسي للدولة العربية حـ ٢ ص ٢٨٢ : ٤ ، ٣١٦ - ٧ ، Brockelmann : Hist. of Ist. Peop. p. 101.

سـيادته فى العراق فأرسل النضر بن سعيد الحرشى ليوجه عبد الله ابن عمر بن عبدالعزيز الذى كان يعتمد على قبائل اليمانية ، فاذا بالواليان المتنافسان يتصارعان . وما كاد يفيق مروان من فتن الشام حتى واجهته ثورات الخوارج فى الجزيرة والموصل. ثم كان عليه أخيرا أن يدك هذه الجزيرة من المتمردين التى طغت فوق بحر دولته وتجمعت رواسبها حول ابن معاوية ، وتأرجح جند الشام فوق بركان من الفتن وقد أتعب مروان ابن محمد جيشه فى الخوارج ، فى حين « ظلت مكاتبة نصر بن سيارمروان واعلامه ما هو فيه واظهار أمر العباسية وتزايده » ، ولما وصل الى مروان النذير الأخير « وجده مشتغلا بحرب الخواج فى الجزيرة (١٢٣) » .

الدعوة العباسية :

كانت البداية الباكرة لتحرك العباسيين الايجابى يوم وجه محمد ابن على بن عبد الله بن عباس رسله من أرض الشراه من أعمال البلقاء بالشام الى العراق وخراسان سنة ١٠٠هـ فى خلافة عمر بن عبد العزيز. وظلت الدعوة العباسية تتقدم فى خلال الاعوام الاخيرة من حكم الامويين الذين مزقت جهودهم الخلافات والعصبيات ، وبرز أبو سلمة الخلال وأبو مسلم الخراسانى ، واستطاع الاخير أن يقضى على ابن معاوية حفيد جعفر ابن أبى طالب . وانشغل مروان بقتال الخوارج عن تلبية نداء واليه نصر بن سيار الذى استنجد به لمواجهة خطر هذه الدعوة الجديدة فى خراسان ، كما عجز يزيد بن عمر بن هبيرة عن ايقاف الزحف العباسى على العراق .

وبويع السفاح بالخلافة سنة ١٣٢ هـ سنة ٧٤٩م ، وكان مقدارا لأرض الجزيرة وما يليها أن تشهد الموقعة الفاصلة التى تنهى حكم الأمويين ، كما شهدت من قبل المعركة التى آذنت بميلاد دولتهم فى صفين . فقد اتى مروان من حران الى رأس العين فالموصل فنزل على دجلة وحفر خندقا ، وكان مروان فى قبائل قضاعة وبنى سليم والسكاسك والسكون ، يواجه جيشا جمعه العباسيون من أطراف بلاد الفرس وعلى رأسه عبد الله بن على عم السفاح وقد سبقه أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدى . ووقعت المعركة على ضفة **نهر الزاب الكبير قرب الموصل** فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ يناير ٧٥٠م ، وكان العباسيون يعبرون على مخاضة الى معسكر مروان فيقاتلونه ، كما عقد مروان جسرا وسرح ابنه

---

(١٢٣) المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٠٢ ، دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ص ٢٠٦ .

عبد الله ليحفر خندقا أسفل معسكر العباسيين فيقطع عليهم خط الرجعة . وتبادل الفريقان القتال وكانت كفة مروان فى أول الأمر هى الراجحة ، **ولكن الهزيمة القبيحة جاءت من أن قيسا لم تشأ أن تقاتل دون قضاعة** « وقال مروان لقضاعة : انزلوا ، فقالوا: قل لبنى سليم فلينزلوا، فأرسل الى السكون أن احملوا فقالوا : قل لغطفان فليحملوا ... ثم انهزم أهل الشام وانهزم مروان ، وقطع الجسر فكان من غرق يومئذ أكثر من قتل » .

وسار مروان الى **حران** قاعدته ومستقره ، فلما دنا عبد الله بن على حمل أهله وولده ومضى منهزما فمر **بقنسرين** وعبد الله متبع له، وشمتت **حمص** فى من حاصرها مرتين حين مر بها مروان وقالوا : مرعوب منهزم. **وولى عبدالله بن على الولاة فى طريقه : فولى الموصل محمد بن صول وولى منبج ابا حميد المروروذى وبعث اليه أهل قنسرين ببيعتهم** قبل أن يصلهم وأخيرا وصل عبد الله بن على الى دمشق ، وقدم عليه عبد الصمد بن على وصالح بن على مددا وحصروا أهل دمشق والبلقاء حتى اقتحموها .وظل مروان يجتاز البلدان فى فلسطين فالاردن والناس يثبون به لما رأوا من ادبار الامر عنه « قال الدينورى : جعل مروان يستقرى مدن الشام فيستنهضهم فيروغون عنه ويهابون الحرب ، فلم يسر معه منهم الا قليل ». وبلغ مروان نهر أبى فطرس قرب الرملة، ولما اقترب مطاردوه هرب الى ساحل مصر . وأرسل عبد الله بن على فى اثره اخاه صالحا ، فتعقبه حتى بوصير واستطاع المطاردون أن يستدلوا عليه وأحاطوا به فى النهاية فقتلوه وظفر العباسيون بابنه عبد الله فى عهد المهدى وكان مستخفيا بالشام . وعند أبى فطرس قتل عبد الله بن على حوالى ثمانين من بنى أمية بعد أن أمنهم ، ونبشت قبور موتاهم فى دمشق ودابق والرصافة وقنسرين ، وقد قاومته واسط بعض الوقت ولكنها سقطت بعد حصار أحد عشر شهرا . واستغل العباسيون الخلافات القديمة بين القيسية واليمانية فى حاميتها « فقالت اليمانية : لا نعين مروان وآثاره فينا آثاره ، وقالت النزارية : لا نقاتل حتى تقاتل معنا النزارية . وكاتب أبو العباس اليمانية من أصحاب ابن هبيرة وأطمعهم » .

وهكذا انتهى مصير مروان الذى لم يكل لحظة فى محاربة خصومة والثبات أمام الفتن والأحداث ، ولم يستطع الخليفة الذى ثبت أمام فتن الشام وحروب الخوارج بالجزيرة والعراق وغلب ابن معاوية حفيد جعفر ابن أبى طالب فى فارس أن يصمد لهذه الداهية القادمة من خراسان .

ويروى انه حين ضاق به الأمر وخذلته رعيته وغلب عليه خصومه ، كان من رأيه أن **يقطع الدرب وينزل بعض حصون الروم ويكاتب ملكها** ويستوثق منه ويجمع عليه رجاله وشيعته من البلاد الى أن يرتىء فى أمره « فقد فعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم ، وليس هذا عارا بالملوك ، فلا يزال يأتينى الخائف والهارب والطامع فيكثر من معى ، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمرى وينصرنى على عدوى» ! ويذكر المسعودى ان أحد مشيريه نهاه عن ذلك ونصحه بشىء آخر « ٠٠ ولكن اقطع الفرات ، ثم استنفر الشام جندا جندا ــ ولك فى كل جند صنائع يسيرون معك، حتى تأتى مصر ، فانها أكثر أرض الله خيلا ومالا ورجالا ، ثم الشام أمامك وافريقية خلفك (١٢٤) » ٠ وقد نجح فى الوصول الى المغرب والأندلس بالفعل عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام ٠ ونحن نتساءل : هل كان من الممكن أن يلجأ مروان حقا الى الروم وهو صاحب البلاء المجيد فى جهاد أعداء الدولة فى الخوارج قبل أن تشغله مشكلات الداخل ؟ وهل كان من الممكن أن تصل الهزيمة النفسية بمروان الى هذا الحد بعد أن دمرته الهزيمة العسكرية ؟

***

كان مروان قد بنى الخصوص شرقى جيحان بجوار **المصيصة** ولم يغفل عن تحصينها « وبنى عليها حائطا وأقام عليها باب خشب وخندق خندقا » ، وقد أسكنها فرسا وصقالبة وانباطا ونصارى ، وهو الذى رتب الصقالبة فى الثغور ٠ ولكنه حين انشغل بمحاربة أهل حمص سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٥ م « خرجت الروم وحصرت مرعش حتى صالحهم أهلها على الجلاء فخرجوا نحو الجزيرة وجند قنسرين بعيالاتهم ثم اخربوها ، وكان عامل مروان عليها يومئذ الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابى ، وكان الطاغية يومئذ قسطنطين ابن اليون ٠ ثم لما فرغ مروان من أمر حمص وهدم سورها ، بعث جيشا لبناء مرعش فبنيت ومدنت » ٠ وتذكر الحوليات الاسلامية غزوة الصائفة بقيادة الوليد بن هشام سنة ١٣٠ هـ

---

(١٢٤) الطبرى حـ ٩ ص ١٣٠ : ٧ رواية على بن محمد ، احمد بن زهير عن عبد الوهاب ابن ابراهيم عن ابى هاشم مخلد بن محمد ، ص ١٤٢ رواية على بن محمد ، حـ ٩ ص ٣٣٨ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ٢١ ــ ٢ ، ١٦٩ : ١٧٤ ، ١٧٧ : ١٨٠ ، حـ ٦ ص ٢٠ ، اليعقوبى : حـ ٣ ص ٨٣ ، ٩١ ــ ٢ ، المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٠٥ : ٩ ، ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ٥٣ ــ ٤ ، كرد على : خطط الشام حـ ٢ ص ١٦٠ ــ ١ دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ٣٣٤ : ٧ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ــ ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٥١٨ : ٥٢٤ ، Brockelmann : Hist. of Isl. Peop. 105-6.

« فنزل العمق وبنى حصن مرعش » . وكانت الفتن المتلاحقة قد جرأت الروم على الثغور وتعرضت **دلوك** أيضا لهجوم الروم . وتكررت مهاجمة مرعش سنة ١٢٩ هـ سنة ٧٤٦ م بعد تجديدها كما هوجمت زبطرة وكانت « حصنا قائما الى أن اخربته الروم فى أيام الوليد ابن يزيد ، فبنى بناء غير محكم فاناخت الروم عليه فى أيام فتنة مروان ابن محمد فهدمته » . وهاجم الروم **ملطية** سنة ١٣٣ هـ سنة ٧٥١ م وحصر قسطنطين من فيها « والجزيرة يومئذ مفتونة ، وعاملها موسى بن كعب بحران فوجهوا رسولا لهم اليه فلم يمكنه اغاثتهم ، وبلغ ذلك قسطنطين فقال لهم : ياأهل ملطية انى لم آتكم الا على علم بأمركم وتشاغل سلطانكم عنكم ، انزلوا على الامان واخلوا المدينة واخربها وامضى عنكم ، فابوا عليه فوضع عليها المجانيق . فلما جهدهم البلاء واشتد عليهم الحصار سألوه أن يوثق لهم ففعل ، ثم استعدوا للرحلة وحملوا ما استدق لهم والقوا كثيرا مما ثقل عليهم فى الآبار والمخابى ، ثم خرجوا وأقام لهم الروم صفين من باب المدينة الى منقطع آخرهم مخترطى السيوف طرف سيف كل واحد منهم مع طرف سيف الذى يقابله حتى كأنها عقد قنطرة ثم شيعوهم حتى بلغوا مأمنهم وتوجهوا نحو الجزيرة فتفرقوا فيها ، وهدم الروم ملطية فلم يبقوا منها الا هريا فانهم شعثوا شيئا يسيرا ، وهدموا حصن قلوذية » . هذه هى رواية البلاذرى ، والطبرى يذكر هجوما لقسطنطين على ملطية فى تاريخ متأخر من سنى العباسيين الاولى هى سنة ١٣٨ هـ ويتابعه فى ذلك ابن الاثير ، كما تورد رواية أخرى أن هذا الهجوم كان سنة ١٣٩ هـ. كذلك هوجمت قاليقلا وحدث مثل ذلك فى **الحدث** « فلما كان زمن فتنة مروان ، خرجت الروم فهدمت مدينة الحدث وأجلت عنها أهلها كما فعلت بملطية » ، وشاع الاضطراب فى اقليم العواصم التى تلى الثغور واخذ السكان فى اخلاء تلك الجهات وأتيحت الفرصة للنهب ولسلب ، « وغلب أهل انطاكية وقنسرين على كثير من الجواميس ــ التى كانت قد وجهت الى المصيصة ــ واحتازوه لانفسهم فى أيام فتنة مروان بن محمد » واستولى الروم على المصيصة بعد قليل ، وظلت تحصينات الحدود على هذا الخراب خلال ست سنوات حتى شرع المنصور يجدد بناءها . وهكذا نجح البيزنطيون فى تدمير التنظيم الدفاعى العربى ولم يتح قط للمسلمين أن ينالوا من عدوهم الى مثل هذه الدرجة .

وفى البحر هاجم اسطول الروم سنة ١٢٩ هـ ــ ١٣٠ هـ ، سنة

٧٤٧ م **قبرص** واخذ الأسطول الاسلامى فى ميناء Ceramee على غرة ولم تستطع النجاة سوى ثلاث سفن لاذت بالفرار بينما دمر الروم الباقى . وقد استفاد الروم من متاعب المسلمين الداخلية فى أواخر العهد الأموى فاسترجعوا قبرص وظلت فى أيديهم سنين عدة حتى استعادها العباسيون .

وصارت حالة الثغور والعواصم فى آخر الدولة الأموية خاتمة أليمة لتاريخ مجيد . ويصل البلاذرى تاريخ الثغور فى عهد العباسيين بما انقطع من أمجادها أيام الأمويين فيقول :

« كانت بنو أمية تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلى ثغور الشام والجزيرة ، وتقيم المراكب للغزو وترتب الحفظة فى السواحل ، ويكون الاغفال والتفريط خلال الحزم والتيقظ . فلما ولى أبو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج الى البناء منها ، وفعل مثل ذلك بمدن الثغور . ثم لما استخلف المهدى استتم ما كان بقى من المدن والحصون ، وزاد فى شحنها . قال معاوية بن عمرو : وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هرون فى الغزو ونفاذ بصيرته فى الجهاد أمرا عظيما ـ أقام من الصناعة ما لم يقم قبله ، وقسم الأموال فى الثغور والسواحل ، وأشجى الروم وقمعهم . وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب فى جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة وذلك سنة ٢٤٧ هـ (١٢٥) » .

---

(١٢٥) الطبرى جـ ٩ ص ١١١ ، ١٧٠ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٥٩ ، ١٩٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٤ ـ ٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ١٧٥ ، ١٧٠ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ـ ص ٧ ـ ٨

Cheira : La Lutte entre les Arabes et Byz. pp. 233-4, 238.

ثالثا : فى أيام الخلفاء العباسيين العشرة الاوائل من السفاح الى المتوكل

١٣٢ : ٢٤٧ هـ ـ ٧٥٠ : ٨٦١ م

سياسة العباسيين :

جاءت الدولة العباسية بسياسة أخرى فى الداخل والخارج ...

وقد بدأت بوادر هذه السياسة فى خطاب داود بن على بالكوفة حين صعد السفاح أعلى المنبر بعد أن بويع بالخلافة وقام داود أدناه فأكمل خطاب الخليفة الذى كان موعوكا وأورد فى ثنايا قوله « انا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى اتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فاحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا ... وادالكم على أهل الشام ونقل اليكم السلطان » . واستفاد العباسيون من خلافات القبائل العربية فى خراسان التى جاءت صورة من الخلافات التى نخرت قلب الدولة الأموية بالشام . فان ابا مسلم حين توجه الى مرو « استطاع أن يؤثر على على بن جديع الكرمانى ومن معه من ربيعة وقحطان حتى نفضوا عهدهم مع نصر بن سيار وانقلبوا عليه وعلى مضر » . . وقد تتابعت العلامات الدالة على سياسة العباسيين فى الاعتماد على أهل خراسان ، فقد اصاب خازم بن خزيمة قائد السفاح وهو يحارب بسام بن ابراهيم بن بسام من فرسان أهل خراسان سنة ١٣٤ هـ ـ ٧٥٠ م ـ وكان قد أعلن تمرده فاتبعه جيش خازم فى أرض جوخى ـ أصاب اخوال بنى العباس السفاح ، فلما هم السفاح بقتل خازم دخل عليه موسى بن كعب وأبو الجهم بن عطية قائلين « ان له طاعة وسابقة وهو يحتمل له ما صنع ، فان شيعتكم من أهل خراسان قد آثروكم على الأقارب من الأولاد والآباء والاخوان » . وتولى خراسان أبو داود خالد بن ابراهيم الذهلى فوجد ستة عشر كتابا

من عيسى بن ماهان الى كامل بن مظفر صاحب ابى مسلم « يعيب فيها ابا داود وينسبه فيها الى العصبية وايثاره العرب وقومه على غيرهم من أهل الدعوة ، وأن فى عسكره ستة وثلاثين سرداقا للمستأمنة » ــ كما ورد فى أخبار سنة ١٣٥ هـ . ولما هلك ابو داود خلفه عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى ، وقد أعلن هذا تمرده سنة ١٤١ هـ بعد أن غضب عليه المنصور لقتله رؤساء أهل خراسان فقال « ان عبد الجبار قد افنى شيعتنا ومافعل ذلك الا وهو يريد أن يخلع »، وقد أراد المنصور أن يحتال عليه فيسحب الجنود من خراسان ليسهل عليه طرده بعد ذلك فادعى حاجته للجنود لتوجيهها للروم ، ولكن عبد الجبار كان فطنا فأجابه أن الترك قد جاشت وان تفرقت الجنود ذهبت خراسان . فكتب اليه المنصور « ان خراسان أهم الى من غيرها » . وأوصى المنصور المهدى فقال « وأوصيك بأهل خراسان خيرا فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ودماءهم دونك ومن لاتخرج محبتك من قلوبهم ان تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم فى أهله وولده » وتتابع الخلفاء على هذه السياسة ، فنرى المأمون يقرأ كتابا كتبه احمد بن ابى خالد الاحول كاتبه عن غسان بن عباد عامل خراسان بالاستعفاء « فقال المأمون : والله ما أعرف فى المملكة الا خراسان ، وما أدرى ما حمل هذا الجاهل على الاستعفاء الا أن يكون ما رأى نفسه لها أهلا »، وكان ذلك طريقا احتال به أحمد لتوليه طاهر بن الحسين خراسان فى أول سنة ٢٠٦ هـ مكان غسان . وقد قال المأمون كلاما صريحا يحدد موقفه من العرب ومن الشام « ذكر عن محمد بن على بن صالح السرخسى قال : تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا ، فقال له : يا أمير المؤمنين أنظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ، فقال : اكثرت على يا أخا اهل الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى انه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ــ يعنى فتنة ابن شبث العامرى ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على والله منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما شاريا »(١٢٦)

---

(١٢٦) الطبرى حـ ٩ ص ١٢٧ ، ١٤٨ ــ ٩ ، ١٥١ ــ ٢ ، ١٧٥ ــ ٦ رواية على بن محمد ، ٣١٩ عن الهيثم بن عدى ، حـ ١٠ ص ٢٩٦ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٦٨ ، ١٨٢ ــ ٣ ، ١٨٤ ــ ٥ ، ٢٠٣ ــ ٤ ، حـ ٦ ص ٧ ، ١٥٩ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٨٣ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٥٠١ .

يحق لديمومبين اذن أن يقول « لقد ظهر التغير فى الاتجاه المادى والمعنوى فى الخلافة بصورة واضحة منذ صارت الخلافة الى بنى العباس ، وتجلى ذلك بنقل العاصمة من دمشق الى العراق ۰ لقد كان للخلافة الأموية ميل لشئون البحر المتوسط ، أما الخلافة العباسية فكان وجهها الى المشرق۰ واذا صح ما يقال من أن البرامكة فكروا فى فتح القسطنطينية فان هذا كان اتجاها سياسيا لم يقدر له من العمر أكثر مما للبرامكة ۰ وابتداء من القرن التاسع الميلادى أصبح موقف الخلافة سلبيا دفاعيا فيما يختص بالامبراطورية البيزنطية ، من ذلك الحين كانت الخلافة العباسية آسيوية خالصة ، وسيتجه نشاطها التجارى نحو الخليج الفارسى وبحار الهند ، وسيكون توسعها فى أراضيها ناحية آسيا الوسطى ، ولكن حتى فى هذا الاتجاه لم توفق الامبراطورية الاسلامية الى الاحتفاظ بتوازنها أو تجانسها (١٢٧) » ۰ على أن الأمور لم تجر يسيرة هينة أمام العباسيين فى خراسان ، فقد واجهت انتقاضات متعددة هناك ، ومن ذلك فتن بسام فى عهد السفاح سنة ١٣٤ هـ / ٧٥٢ م وجمهور بن مرار العجلى سنة ١٣٨ هـ ، وعبد الجبار سنة ١٤١هـ ف عهد المنصور ۰ وكانت الفتنة الكبرى حين قتل المنصور ابا مسلم سنة ١٣٧ هـ ، فاضطربت خراسان وغيرها من الجبال ۰ وخرج سنباذ من قرى نيسابور يطالب بدمه (١٢٨)۰

وقد استفاد العباسيون فى أول حركتهم من العناصر الخطرة التى كانت تتحول اثناء حكم الأمويين الى خراسان ــ من شيعة وخوارج۰ ولكن ما كادت تقوم دولتهم حتى صار عليهم أن يعانوا متاعب الاضطرابات الطائفية المذهبية : من المسلمية وهم «القائلون بأبى مسلم وامامته» وقد تنازعوا فى ذلك بعد وفاته فمنهم من رأى انه لم يمت حتى يظهر فينا عدلا ، وفرقة قطعت بموته وقالت بامامة ابنته فاطمة ۰۰۰ » والراوندية « من أهل خراسان على رأى ابى مسلم يقولون فيما زعم بتناسخ الأرواح ويزعمون أن روح آدم فى عثمان بن نهيك وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم وهو أبو جعفر المنصور ، وأن الهيثم بن معاوية جبرائيل » ، وقد اضطرب هؤلاء الأخيرون فى المدينة الهاشمية بالكوفة فى عهد المنصور وحبس منهم

---

(١٢٧) Gaudefroy-Demombynes, Platonov: Le Monde Musulm. et Byz. pp. 271-2.

(١٢٨) الطبرى حـ ٩ ص ١٤٨ ــ ٩ ، ١٥٩ وما بعدها ــ رواية على بن محمد ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ــ ٦ رواية على بن محمد ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٨٢ ــ ٣ ، ١٨٩ وما بعدها ، ١٩٥ ــ ١٩٦ ، ٢٠٣ ــ ٤ ۰

جماعة فثار الباقون . ويروى ابن العديم أن خطرهم امتد الى الشام والجزيرة « فخرجوا سنة ١٤١ بحلب وحران وكانوا يقولون قولا عظيما ، وزعموا انهم بمنزلة الملائكة وصعدوا تلا بحلب ولبسوا ثيابا من حرير وطاروا منه فترددوا وهلكوا » وخرج يوسف بن ابراهيم المسمى يوسف البرم بخراسان سنة ١٦٠ هـ في عهد المهدى وقيل انه كان حروريا وخرج في نفس الوقت تقريبا حكيم المقنع بخراسان من قرى مرو وكان يقول بتناسخ الأرواح واتخذ وجها من ذهب وادعى الالوهية . وقد كلفت مقاومته الدولة جهودا متتابعة حتى هلك ووجهت رأسه الى المهدى وهو بحلب (١٢٩) . وهكذا استنفدت كثيرا من طاقة الدولة هذه الأخطار التي أثارتها الحركات الطائفية في خراسان حيث كان يسهل اتصال تخوم الدولة الاسلامية بالأفكار الدينية والقومية في وسط آسيا وعند الفرس والهنود ، ولم توفق الدولة العباسية الى احراز نتائج حاسمة في حملاتها ضد البيزنطيين أو ضد الخزر الأتراك في القوقاز أو ضد الديلم على الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين او ضد الترك فيما وراء نهر سيحون Oxus أو ضد الهنود خاصة في مبدأ قيام الدولة (١٣٠)

لقد انصرفت الدولة العباسية الى آسيا والشرق ، ولم تعد وجهتها هي البحر المتوسط « ونحيت الشام جانبا ، ودعت ظروف مصر الخاصة حكامها الى العمل على استقلالها ، اما فتح القسطنطينية فلم يعد بالنسبة للخلفاء العباسيين سوى مجرد حلم مبهم من أحلام المجد . ولم تعد أساطيل البحر المتوسط تعنى كثيرا حكام بغداد . وانشغلوا بمشاغلهم الاقليمية الداخلية ولم ترجع هذه الاهتمامات الا في القرن العاشر تحت الفاطميين » (١٣١) . ويعلق على كلمات ديمومبين هذه الدكتور مؤنس « ان انتقال الخلافة من الأمويين الى العباسيين لم يكن مجرد انتقال السلطان من بيت الى بيت ، أو انتقال العاصمة من بلد الى بلد ، بل كان نقلا للدولة الاسلامية كلها من عالم الى عالم : من عالم البحر المتوسط الى عالم آسيوى يختلف عنه من كل ناحية وكان الذين فتحوا صقلية هم بنو الأغلب ، والذين فتحوا كريت جماعة من الأندلسيين ... ونظرت

---

(١٢٩) الطبرى حـ ٩ ص ١٧٣ : ٥ رواية على بن محمد ، ٣٣١ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ . ابن الأثير حـ ٥ ص ٢٠٢ ـ ٣ ، حـ ٦ ص ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ـ ١٩ ، المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٣٦ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريدة ص٤٧٢ـ٣

(١٣٠) Brockelmann : Hist. of the Isl. Peop. pp. 111-112.

(١٣١) Gaudefroy-Demombynes, Platonov: Le Monde Musulm. et Byz. p. 320.

الدولة الاسلامية الى الشواطىء على انها حدود ونهايات ينبغى حمايتها ، لا أبواب وثغور يمكن الاعتماد عليها فى سيادة مياه البحر والقفز منها الى ما وراء البحر من بلدان ، وهذا حال بين المسلمين وبين الاستفادة الكاملة من سيطرتهم على شواطىء البحر المتوسط الغربية والجنوبية والشرقية ومعظم جزائره (١٣٢) »٠ومن هنا نجد فازيلييف يخطط صورة سريعة للعلاقات العربية البيزنطية فى العهد العمورى فيفرق بين الجبهة الشرقية والجبهة الغربية فى النتائج ، فقد نجحت الامبراطورية فى فى حماية ممتلكاتها تماما تقريبا ، وما حدث من تعديلات طفيفه فى خط الحدود لا يؤثر علىالمجرى العام للأحداث ، وكانت جهود العموريين فى هذه الناحية ذات أهمية بالغة للامبراطورية اذ ظل الأباطرة العموريون خلال ٤٧ عاما قادرين على مقاومة هجمات العرب المشارقة والمحافظة على مجموع الممتلكات البيزنطيه فى آسيا الصغرى سليمة فى حين كان الأمر بالنسبة للجبهة الغربية مختلفا تماما ، اذ تحملت بيزنطة خسارة كريت وصقلية : الأولى فقدتها حتى سنة ٩٦١م فقط ، والثانية فقدتها الى الأبد ٠ كما انتقل عدد من المراكز الهامة فى ايطاليا الجنوبية الى أيدى العرب ، وان كان الجزء الذى وقع فىأيديهم لم يكون منطقة ثابتة مستقرة الى منتصف القرن التاسع الميلادى (١٣٣) ٠

وجاءت عاصمة الدولة الجديدة ــ بغداد ــ اختيارا موفقاا يعبر عن السياسة الجديدة فهى اقرب الى الوجهةالآسيوية المشرقية ، بقدر ماكانت أبعد عن البحر المتوسط ، وعن القسطنطينية مما أدى بها لرسم سياسة حربية جديدة اختلفت عن سياسة دمشق ، وقد خرجت هذه السياسة الى حيز التنفيذ بصورة واضحة فى عهد الرشيد ٠ ولم تستطع الدولة البيزنطية أن تستفيد كثيرا من فترة الانتقال بينالعهدين الأموى والعباسى فى استعادة ما ضاع من أراضيها، اذ انشغلت هى الأخرى بحركة محاربة الأيقونات التى مضى فيها ليو الثالث (٧١٧ : ٧٤١ م) وخلفاؤه حتى وفاة ليو الرابع (٧٧٥ : ٧٨٠ م) وجاءت ايرين وصية على ابنها القاصر قسطنطين السادس (٧٨٠ : ٧٩٧ م) الدولة البيزنطية انهماكها فى المشكلة الدينية وأقبلت تشترى السلع عن طريق المال وتقنع بتحصين الحدود من غارات الرشيد الذى تولى سنة ٧٨٦ م ــ ١٧٠ هـ ٠ ويمكن

---

(١٣٢) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ٠ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ ٠

(١٣٣) Vasiliev : l'Emp. Byz. Vol. I. pp. 369-370.



تقسيم مدة الصراع ضد الأيقونات الى فترتين منفصلتين : الأولى سنة ٧٢٦ : ٧٨٠ م وتنتهى بالمجمع المسكونى السابع ، والثانية سنة ٨١٣ : ٨٤٣ م وتنتهى بارجاع العقيدة الأرثوذكسية الى حالتها الأولى ٠ وقد استولى اللمبارد سنة ٧٥٠م على رافنا وجميع ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية فى وسط ايطاليا ، وطلب البابا (ستيفن) المساعدة من (ببن) ملك الفرنجة بدلا من الامبراطور ، وغدت البابوية تعتمد على الفرنجة فى المستقبل ٠ ومع ذلك فقد سجل البيزنطيون انتصارات على المسلمين ، فانتصر قسطنطين الخامس (٧٤١ : ٧٧٥ م) على المسلمين والسلاف والبلغار ، كما انتصر ليو الرابع على المسلمين سنة ٧٧٦م ٠ أما ايرين فقد عملت على ايقاف اضطهاد أنصار الأيقونات وأخذت تعمل على زيادة نفوذها حتى ازاحت ابنها عن طريقها سنة٧٩٧ م ـ فانتهى حكم الاسرة الايسورية ٠ وحكمت ايرين خمس سنوات تؤرقها الثورات والمؤامرات ، وفى عهدها برز الانفصال بين روما والقسطنطينية بتتويج البابا الثالث سنة ٨٠٠ م كارل ملك الفرنجة امبراطورا رومانيا ، بعد أن مهد الطريق للانفصال النزاع حول الأيقونات ، ثم جاء جلوس امرأة على العرش تكأة لهذه الخطوة الانفصالية (١٣٤) ٠

كان للبيزنطيين اذن مايكفيهم من مشاغلهم الداخلية ، كما كان للعباسيين مشاغلهم فى تأسيس دولتهم وتدعيم سلطانهم ٠ واتسمت الفترة التى انصرف فيها مجهود الدولتين الاسلامية والبيزنطية الى حل مشاكلها الداخلية بوقوع بعض المصادمات الحربية على منطقة الحدود بين الدولتين دون أن تترامى الآمال الى مشروعات حربية كبرى مثل مشروعات الخلافة الأموية ، فاهتم المسلمون والبيزنطيون بتحصين مناطق الحدود بينهما للحد من نشاط الغارات ٠ وقد استطاع قسطنطين الخامس أن يستفيد من متاعب الدولة الاسلامية فى دفع الحدود البيزنطية صوب الشرق الى ما وراء حدود آسيا الصغرى وأرمينية ، وتراجع خط الحدود الاسلامية الذى كان ممتدا من الشام الى ارمينية نتيجة لتقدم الخط البيزنطى ٠ ولكن المنصور وخلفاءه لم يفهم تحصين ثغور الشام وساحله، وقام الرشيد بعد استقرار امر العباسيين بهجمات على الحدود (١٣٥) ٠

---

(١٣٤) اومان : الامبراطورية البيزنطية ٠ ترجمة دكتور بدر ص ١٤٩ : ١٥٦ ، د٠ رستم ج ١ ص ٢٩٣ ـ ٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ وما بعدها ٠

(١٣٥) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٧٠ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ ٣ ص ٣٧٠ ، Hist. of Syria. p. 540. الترجمة العربية جـ ٢ ، ترجمة د٠ اليازجي ص ١٦٢ ـ ٤ ٠

واتخذ العداء البيزنطي العربي على الحدود الشرقيـة صورة معارك دورية تتكرر في كل سنة تقريبا ، ويتبعها تبـادل الأسرى . ووقف في الجانب الاسـلامي خط تحصـينات الثغور والعواصم يواجه التحصينات البيزنطية الذى كون نوعا من حدود الروم المعروفة Limes ولم تعـد هجمات المسلمين المتكررة تهدد وجود الامبراطورية البيزنطية في ذاته كما كان الحال فيالقرنين السابعوالثامن الميلاديين ، وانكانت قد تابعتأحداث الخسائر فى اقاليم الحدود والاضرار بممتلكات السكان وحياتهم . واخدت الخلافة تضعف تدريجيا نتيجة للاضطرابات الداخلية وسيادة الفرس ثم الأتراك ، حتى لم يعد من معارك الحدود فى القرن التاسع الميلادى شيئا ذا أهمية باستثناء القليل ، على عكس الحال بالنسبة لما واجهته الدولة البيزنطية من عمليات بحرية للعرب المغـاربة فى البحر المتوسـط ممـا انتهى باختلال كريت وجزء كبير من صـقلية وعدد من المراكز الهامة فى ايطاليا الجنوبية (١٣٦) .

وقد زالت بسقوط الأمويين أهمية اقليم الشـام الذى كان يحتل مركزا استراتيجيا فى الدولة الاسـلامية ، وجنى أهل الشـام حصاد خذلانهم لمروان ، فأصبحت الصـدارة للعراق « وانتهت سيادة العرب بالمعنى الحقيقى التى كان يمثلها بنو أمية وأهل الشـام ، وخرب وطن العرب القديم حتى صـار الحج غير آمن ، وفقـدت القبائل العربية مكان الصدارة وتحرر الموالى . وتراجعت العروبة الى الميدان المدنى المسالم ، وصالت حضارة عالمية يشترك فيهـا كل المسلمين أساسها الدين ... وصار رجحان شـأن أهل شأن خراسان كحزب وجيش فى خدمة بنى العباس رجحانا لأمتهم وبلادهم »(١٣٧) . ولقد ذكرتالرواياتمن أسباب غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بن على الهاشمى سـنة ١٨٨ هـ انه يؤهل نفسه للخـلافة ، وانه يراسل رؤساء القبائل والعشـائر بالشام والجزيرة » (١٣٨) .

الدولة الجديدة : ترسي قواعدها :

السفاح (١٣٢ : ٦ هـ ـ ٧٥٠ : ٤ م)
المنصور (١٣٦ : ١٥٨ هـ ـ ٧٥٤ : ٧٧٥ م)
المهدى (١٥٨ : ١٦٩ هـ ٧٧٥ : ٧٨٥)
الهادى (١٦٩ : ١٧٠ هـ ـ ٧٨٥ـ٦ م)

(١٣٦) Vasiliev : L'Emp. Byz. Vol. I pp. 360-1.

(١٣٧) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٦٢٥ : ٨ ، Brockelmann : Hist. of the Isl. Peop. p. 106.

(١٣٨) اليعقوبى حـ ٣ ص ١٥٤ .

فتن بالشام والجزيرة :

تنبه أهل الشـــام بعد هزيمة الزاب الى أن مركز الثقـل فى دولة الاسـلام قد تحول عن بلادهم فىاتجـاه شرقى ، فعقدوا رجاء اخيرا على سليل لمعاوية من البيت السفيانى توقعوا أن يعود لينجيهم ، ولم يتوانوا بعد ان فقـدت بلادهم مكانتهـا عن التعـبير عن معارضتهم الشـديدة ، وأحنقتهم مقتـلة عبد الله بن علي في الامويين ، حنقت قيس على ذلك كمـا حنقت كلب • فثارت **قيس فى قنسرين وعلى رأسـهم ابرز رجـل فيهم أبو الورد مجزأة** بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابى من أصحاب مروان وقواده وفرسانه ، وانضمت الى قيس قبائل كلب فى تدمر كما انضم اليهم عرب حمص • وكان ابو الورد بقنسرين عنـدما هزم مروان فبايع عبد الله بن علي ، « وكان ولد مسـلمة بن عبد الملك مجاورين له ببالس والناعورة ، فقدم بالس قائد من قواد عبد الله بن علي فى مائة وخمسين فارسـا فعبث بولد مسلمة ونسائهم ، فشـكا بعضهم ذلك الى ابى الورد فخرج من مزرعة له ـ يقال لهـا زراعة بنى زفر ويقال لهـا خساف ـ فى عدة من أهل بيته حتى هجم على ذلك القائد وهو نازل فى حصن مسلمة فقاتله ومن معه ، وأظهر التبييض والخلع لعبد الله بن علي ودعا أهل قنسرين الى ذلك فبيضوا بأجمعهم ••• وقد كان تجمع مع ابى الورد جماعة أهل قنسرين وكاتبوا من يليهم من أهل حمص وتدمر ، وقدمهم الوف عليهـم **أبو محمـد بن عبد الله يزيد بن معاوية بن ابى سفيان** ـ الذى كان مروان قد اطلقه ـ فرأسوا عليهم ابا محمـد ودعوا اليه وقالوا : هو السفيانى الذى كان يذكر ـ وهم فى نحو من أربعين ألفا » • فلمـا دنا منهم عبد الله بن علي وأبو محمد معسكر فى جمـاعته **بمرج الأخرم** (آخر سنة ١٣٣هـ ـ آخر يولية سنة ٧٥١م) ، وابو الورد المتولى لأمر العسكر والمدبر له وصاحب القتال والوقائع ، وجه عبد الله أخاه عبد الصمد بن علي فى عشرة آلاف من فرسانه ، كما روى أن مقاتل ابن حكيم العكى هو الذى اتجه من الرقة فى خيل عظيمة مقتال السيفانى أولا •• وثبت أبو الورد على رأس جيشه لقتال عبد الصمد حتى انكشف كما ثبت لقتال عبد الله الذى أقبل يظاهر عبد الصمد ومعه حميد ابن قحطبة وغيره من القواد ، حتى بقى فى خمسـمائة من أهل بيته وقومه « فقتلوا جميعا وهرب أبو محمد ومن معه من الكلبية حتى لحقوا بتدمر ، وأمن عبد الله أهل قنسرين وسودوا وبايعوا ودخلوا فى طاعته » •

ولكن لم تكن تلك الثورة هى الوحيدة فى الشام « فقد كان أهل

حمص نقضوا وأرادوا ايثار أبى محمد فلما بلغهم هزيمته أقاموا » ، ولم يزل ابو محمد متغيبا هاربا حتى بلغ أرض الحجاز ، ولكنه أدرك وقتل واسر ابناه ثم أطلقا ٠

كذلك بيض حبيب بن مرة والمرى بأرض البلقاء والبثنية وحوران وكان من قواد مروان وفرسانه ، وقد خشى على نفسه وقومه فبايعته قيس وغيرهم ممن يليهم من أهل تلك الكور فقاتله عبد الله ثم صالحه ، ولما مضى عبد الله بن على للقاء ابى الورد خلف بدمشق ابا غانم عبد الحميد بن ربعى الطائى فى أربعة آلاف من جنده ، فلما قدم عبد الله حمص انتقض عليه أهل دمشق فبيضوا وهزموا عامله وقتلوا أصحابه وانتبهوا متاع عبد الله ولم يعرضوا لأهله ، فلما فرغ عبد الله من أمر ابى الورد وعاد لدمشق تفرق الثائرون « ولم يكن بينهم وقعة وآمن عبد الله أهلها وبايعوه » ٠

ومما يستلفت النظر ـ على حد قول فلهوزن ـ «أن أهل الشام انصرفوا عن بنى مروان الذين كانت فيهم الخلافة الى السفيانيين الذين كانوا قد أزيلوا عنها ٠٠ ولم يختف شأن أبى محمد السفيانى بموته بل هو زاد فكان يعتبر فى أول الأمر عند أهل الشام المهدى المنتظر ، وكان أهل الشام يعلقون آمالهم السياسية على عودته الى الظهور ٠ وفى آخر الأمر لما آلت الرياسة الى أعداء أهل الشام صار يقال : ان السفيانى هو الرجل الذي سيظهر قبل ظهور المسيح الدجال، وعلى هذا فان شبح بيت الأمويين قد بقى بعد سقوطهم أحد مظاهر اقتراب الدنيا » ٠ ويقول كرد على : « والغالب أن أنصار الأمويين وضعوا بعد سقوط دولتهم ملحمة من الملاحم، زعموا فيها أنهم يعرفون ما يحدث فى المستقبل من الزمان ، من ظهور أمرهم ورجوع دولتهم وظهور السفيانى فى الوادى اليابس من أرض الشام فى غسان وقضاعة ولخم وجذام وغاراته وحروبه ومسير الأمويين من بلاد الأندلس الى الشام وانهم أصحاب الخيل الشهباء والرايات الصفر ، وما يكون لهم من الوقائع والحروب ـ على ما نقله المسعودى ٠ وفى (البدء والتاريخ) : ان الروايات بشأن السفيانى فيها حشو كثير ومحالات مردودة ومسألة السفيانى تدبير للأمويين حتى لا ينقطع الأمل من رجوع دولتهم ويخيفوا أعداءهم على الدوام ، وربما كانت دعوة قرب ظهور السفيانى أيضا واسطة لفتك العباسيين بكل من توهموا فيه شيئا من الرائحة السيفانية ، ولم تنقطع هذه النغمة من الشام الا سنة ٢٩٤هـ » ٠ كذلك خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك ، فوجه صالح

أبن على اليهم من قتل مقاتلتهم ، وأقر من بقي منهم على رتبهم وردهم الى قراهم ، وقد ذكر أن الفقيه الاوزاعى كتب الى صالح رسالة طويلة يستنكر أخذ البرىء بجريرة المذنب . على أن القتال بين جند المسلمين ونصارى تلك البلاد قد استمر ـ على ما فى تواريخ الموارنة ـ مدة طويلة ، ونهب المقدم الياس البقاع سنة ١٣٥ هـ ثم عقد الصلح .

وبلغ **أهل الجزيرة** خروج ابى الورد وانتقاض أهل قنسرين ، فانتشرت اليهم عدوى الثورة فبيضوا ونقضوا « وساروا الى **حران** وبها يومئذ **موسى بن كعب فى ثلاثة آلاف من الجند فتشبث بمدينتها وساروا اليه مبيضين من كل وجه وحاصروه ومن معه** ـ وأمرهم مشتت ليس عليهم رأس يجمعهم ـ وقدم **اسحاق بن مسلم من أرمينية** وكان شخص عنها حين بلغه هزيمة مروان فرأسه أهل الجزيرة عليهم ، وحاصر موسى بن كعب نحوا من شهرين » . ووجه السفاح ابا جعفر فى الجنود التى كانت محاصرة لابن هبيرة بواسط « فمضى حتى مر بقرقيسيا وأهلها مبيضون وقد غلقوا أبوابها دونهم ، ثم قدم مدينة الرقة وهم على ذلك وبها بكار بن مسلم فمضى نحو حران ورحل اسحاق بن مسلم الى **الرهاء** وذلك سنة ١٣٣ » وخرج موسى بن كعب والى حران فلقى ابا جعفر ، وتعاون بكار مع أخيه اسحق بن مسلم ومع جماعة ربيعة بدارا وماردين ـ ورئيس ربيعة يومئذ رجل من الحرورية يسمى بريكة . وبدأ أبو جعفر بقتال هؤلاء الأخيرين فقتل بريكة بعد قتال شديد ، وانصرف بكار الى أخيه اسحق بالرها . وهنا **أراد اسحق أن يفتح جبهة جديدة فاستخلف بكار على الرها ومضى فى معظم الجند الى سميساط** وأقبل أبو جعفر للقاء بكار بالرها وكانت بينهما وقعات ، كما كتب السفاح الى عبد الله بن على فى المسير بجنوده الى اسحق بسميساط « فأقبل من الشام حتى نزل بازاء اسحق بسميساط ، وهم فى ستين الفا أهل الجزيرة جميعا وبينهما الفرات ، وأقبل أبوجعفر من الرها فكاتبهم اسحق وطلب اليهم الأمان فأجابوا الى ذلك ... فخرج اسحق الى أبى جعفر وتم الصلح بينهما ، وكان معه من آثر أصحابه عنده . **فاستقام أهل الجزيرة وأهل الشام وولى أبوالعباس أبا جعفر الجزيرة ومينية وأذربيجان فلم يزل على ذلك حتى استخلف** » .

وقد ذكر أن اسحق لم يصالح حتى أيقن من قتل مروان . كذلك كان منصور ابن جعونة بن الحارث العامرى من قيس على أهل الرها حين امتنعوا فى أول الدولة العباسية ، وينسب اليه حصن منصور اذ تولى

بناءه ومرمته ، وقد أمنه المنصور ثم قتله سنة ١٤١ هـ بتهمة التواطؤ مع خصوم الخليفة (١٣٩) .

وعصى **أهل الموصل** فى بداية حكم العباسيين ، فامتنعوا عن طاعة محمد بن صول « وقالوا يلى علينا مولى الخثعم ؟ وأخرجوه عنهم ، فكتب الى السفاح بذلك واستعمل عليهم اخاه يحيى بن محمد وسيره اليها فى اثنى عشر ألف رجل ... ثم دعاهم فقتل منهم اثنى عشر رجلا ، فنفر أهل البلد وحملوا السلاح فأعطاهم الأمان ». الا أنه نقض أمانه وأقام الرجال على أبواب الجامع يقتلون الناس قتلا ذريعا حتى قيل انه قتل احد عشر ألفا كما قتل النساء والصبيان ثم قتل جنوده الزنج بعد ذلك ، « وقيل : كان السبب فى قتل أهل الموصل ما ظهر منهم من محبة بنى أمية وكراهة بنى العباس » . ، وقد استعان عليهم بجند من أهل خرسان وزنوج . وذكر اليعقوبى انه أفنى أهل الموصل «فجرت دماؤهم فغيرت ماء دجلة ، فلم يعرف لأهل الموصل وثوب الى هذه الغاية » . ، وفى سنة ١٣٣ هـ عزل يحيى بن محمد عن الموصل واستعمل مكانه اسماعيل بن على « وانما عزل يحيى لقتله أهل الموصل وسوء أثره فيهم (١٤٠) » .

وواجه العباسيون انتقاض رجالهم كما واجهوا عصيان أعدائهم ، فقد عقد أبو العباس السفاح لأخيه ابى جعفر الخلافة من بعده على أن يخلفه عيسى بن موسى بن محمد بن على ، فسخط لذلك عبد الله بن على. كما أن المنصور عمل على خلع عيسى بن موسى سنة١٤٧ هـ والمبايعة لابنه المهدى. كذلك تخلص العباسيون من وزيرهم الأول أبى سلمة حفص بن سليمان سنة١٣٢هـ ثم من ركنهم الركين ابىمسلم الخراسانى سنة ١٣٧هـ(١٤١) وقد شهدت أرض الشام والجزيرة خروج عبد الله الذى استعانت عليه

---

(١٣٩) الطبرى حـ ٩ ص ١٣٧ : ١٤٠ رواية احمد بن زهير عن عبد الوهاب بن ابراهيم عن مخلد بن محمد ، ورواية على بن محمد ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٧٥ : ٧ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٩١ : ٣ ، ١٠٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ٥٤ ـ ٧ البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٩ ، ٢٠٠ ـ ١ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٥٢٥ ـ ٦ . Brockelmann : Hist. of the Isl. Peop. p. 106. كرد على : خطط الشام حـ ١ ص ١٧٦ ـ ٧ ، ١٧٩ ـ ٨٠ .
Hitti. Hist. of Syria. p. 540.
الترجمة العربية جـ ٢ ـ ترجمة د. اليازجى ص ١٦٤ ـ ٥

(١٤٠) اليعقوبى حـ ٣ ص ٩٤ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٨٠ ، ١٨٢ ، الطبرى حـ ٩ ص١٤٨.

(١٤١) الطبرى حـ ٩ ص ١٤٠ وما بعدها ، ص ١٥٤ وما بعدها ، ص ١٥٩ وما بعدها ، ٢٢٦ وما بعدها ، ابن الأثير حـ٥ ص ١٧٧ وما بعدها ، ص١٨٦ ومابعدها ، ص١٨٩ وما بعدها ، ٢٣٣ وما بعدها

الدولة بأبي مسلم الخراساني ، كما شهدت بداية المنازعات الايجابية بين أبي مسلم والعباسيين . **وكان عبد الله بن علي** يعتبر نفسه صاحب الحق الشرعي في الخلافة ، مستندا الى ان أبا العباس عبد الله بن محمد السفاح كان قد أعلن أن من يسير لقتال مروان بن محمد فهو ولي عهده ، **فلما ورد على عبد الله بن علي سنة ١٣٦هـ/٧٥٤م نبأ تولية ابي جعفر المنصور – وكان على اهبة المسير لغزو الروم ، وادركه الرسول بدلوك جمع الجند** فقرأ عليهم الكتاب بوفاة ابي العباس ودعا الناس الى نفسه ، وروى لهم واقعة العهد لمن يقاتل مروان قائلا « فعلى هذا خرجت من عنده ، وقتلت من قتلت . فقام أبو غانم الطائي وخفاف المروروذي في عدة من قواد أهل خراسان فشهدوا له بذلك » فبايعه القواد من اهل خراسان والشام والجزيرة وفيهم حميد بن قحطبة . ثم ارتحل عبد الله بن علي فنزل حران وبها مقاتل العكي الذي كان أبو جعفر استخلفه هناك ، فرفض مبايعة عبد الله وانتهى أمره الى القتل . غير ان مركز عبد الله كان حرجا ، فأهل الشام لا ينسون ما فعله فيهم وفي الأمويين ، وأهل خراسان لم يكونوا له أكثر ولاء «وكان عبد الله بن علي خشي الا يناصحه أهل خراسان، فقتل منهم نحوا من سبعة عشر ألفا – أمر صاحب شرطه فقتلهم . وكتب لحميد بن قحطبة ووجهه الى **حلب** وعليها زفر بن عاصم ، وفي الكتاب : اذا قدم عليك حميد فاضرب عنقه ... وقرا حميد الكتاب في الطريق ، فاتجه الى رصافة الشام وأخذ طريق العراق مع نفر من أصحابه ، وانضم هو وأخوه الحسن – وكان خليفة ابي جعفر بارمينية – الى أبي مسلم . وبينما نزل عبد الله نصيبين وخندق عليه ، اتجه أبومسلم من الانبار الى الموصل واخذ طريق الشام دون أن يعرض لعبد الله وكتب اليه : اني لم أومر بقتالك ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام وانما أريدها » . وهنا أراد أهل الشام الذين مع عبد الله أن يخرجوا الى بلادهم فيمنعوها ، وحاول عبد الله اقناعهم بأن المعركة المحتومة مع أبي مسلم ستدور حيث يعسكرون بالجزيرة فهو ما وجه الا لقتالهم ، ولكنهم لم يقتنعوا . « وأقبل أبو مسلم فعسكر قريبا منهم ، وارتحل عبد الله من عسكره متوجها نحو الشام ، وتحول أبو مسلم حتى نزل في معسكر عبد الله بن علي في موضعه وعور ما كان حوله من المياه والقى فيها الجيف ، وبلغ عبد الله بن علي نزول أبي مسلم معسكره فقال لأصحابه من أهل الشام : الم أقل لكم ، وأقبل فوجد ابا مسلم قد سبقه الى معسكره فنزل في موضع عسكر ابي مسلم الذي كان فيه فاقتتلوا شهرا خمسة أو ستة ، وأهل الشام أكثر فرسانا وأكمل عدة » . وكان على ميمنة عبد الله بن علي بكار بن مسلم العقيلي

الذى ظاهر أخاه اسحق فى ثورة الجزيرة ضد العباسيين . ثم اقتتل الفريقان قتالا شديدا ، ولجا أبو مسلم الى المكيدة فتظاهر بكشف ميمنته فلما رأى ذلك أهل الشام أعروا ميسرتهم فحمل أهل القلب مع من بقى فى الميمنة من جيش ابى مسلم على ميسرة أهل الشام « وركبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة » . وانسحب عبد الله وعبد الصمد بن على الى رصافة هشام ، وهناك قبض على عبد الصمد ثم أطلق ، وأما عبد الله فقد سار ليلا الى البصرة وتوارى عند عاملها سليمان بن على ، وقد دخل سليمان وأخوه عيسى على المنصور بعد ذلك سنة ١٣٩هـ فأعلماه حضور عبد الله بن على وسألاه الاذن له لكن حبسه المنصور ، ثم ارتأى أن يسلمه الى عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسه ، وعمد الى ضرب أحدهما بالآخر فأوحى الى عبد الله بقتل عيسى ثم أنكر عليه ذلك .

ثم جاء خروج **ابى مسلم** على المنصور بعد قتال عبد الله بن على ، فقد أرسل المنصور أبا الخطيب مولاه يحصى ما أصابه أبو مسلم فى عسكر عبد الله بن على ، فغضب من ذلك أبو مسلم وقال : أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال ! « وسار أبو مسلم الى **الجزيرة** وقد أجمع على خلاف المنصور» (١٤٢). وقد خشى المنصور أن يمضى أبو مسلم الى خراسان، فكتب اليه بولاية مصر والشام بدلا من خراسان . فرفض أبو مسلم وخرج يريد خراسان ، وكتب الى المنصور وقد نزل الزاب « انه لم يبق لأمير المؤمنين عدو الا أمكنه الله منه ، وقد كنا نرى عن ملوك آل ساسان أن اخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت » . فما زال يحتال عليه المنصور ويلين له القول حتى استقدمه فقتله سنة ١٣٧ هـ وكان متخوفا منه وسبق له أن نصح سلفه السفاح بالتخلص منه (١٤٣).

وقد حرص العباسيون على تولية الشام والمراكز الهامة فى دولتهم رجالا من أسرتهم ، فعهدوا بالشام الى قاهر مروان عبد الله بن على ثم

---

(١٤٢) الطبرى جـ ٩ ص ١٥٦ : ٩ ، ١٧٢ ، ٢٦٤ ـ ٥ ، ابن الاثير جـ ٥ ص ١٨٧ : ٩ ، ٢٠٠ ـ ٢٠١ ، ٢٣٤ ـ ٥ ، اليعقوبى جـ ٣ ص ١٠١ ـ ٢ ، المسعودى مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ١٥٧ ـ ٨ .

(١٤٣) الطبرى جـ ٩ ص ١٥٣ ـ ٤ رواية على بن محمد ، ١٥٩ وما بعدها ، ابن الاثير جـ ٥ ص ١٨٥ ـ ٦ ، ١٨٩ وما بعدها ، اليعقوبى جـ ٣ ص ١٠٢ وما بعدها ، المسعودى مروج الذهب جـ ٢ ص ١٣٤ وما بعدها .

أعقبوه بصالح بن علي، « وولى أبو جعفر أهل بيته البلدان : فولى اسماعيل ابن علي فارس وسليمان بن علي البصرة وعيسى بن موسى الكوفة ، **وصالح ابن علي قنسرين والعواصم والعباس بن محمد الجزيرة ، وعبد الله ابن صالح حمص** ، والفضل بن صالح دمشق ، ومحمد بن ابراهيم الأردن ، وعبد الوهاب بن ابراهيم فلسطين ويحيى بن محمد الموصل ثم صرفه وولى ابنه جعفر وصير معه هشام بن عمرو » . ثم ما لبث غضب المنصور أن أدرك صالح بن علي أيضا ، اذ بلغه كثرة عدده ومواليه فخافه، فاستقدمته فاعتذر بمرضه لكن المنصور أصر على حضوره ، فلما رآه صرفه ولم يأمر له بصلة وقد توفي في طريقه عند عانات من كور الفرات . وقد تولى حلب وقنسرين بعد وفاته الفضل بن صالح لكن عزل بعد ذلك وكتب المنصور باخراج عمال صالح من الشام . **وولى أبو جعفر أخاه العباس بن محمد الجزيرة والثغور** ، وضم اليه عدة من القواد سنة ١٤٢ هـ ، فلم يزل بها حينا حتى لحقه غضب السفاح . (١٤٤) .

ولم تخل الجزيرة من فتن الخوارج وخاصة بين بني شيبان ، وقد ظهر خارجي شديد البأس سنة ١٣٧هـ/٧٥٥م هو **ملبد بن حرملة الشيباني** الذى هزم **روابط الجزيرة ثم روابط الموصل** وانتصر على ماسير اليه من حملات تتابع على قيادتها يزيد بن حاتم المهلبي والمهلهل بن صفوان مولى أبي جعفر ونزار من قواد خراسان وزياد بن مشكان وصالح بن صبيح وحميد بن قحطبة . ثم وجه اليه خازم بن خزيمة في نحو ٨٠٠٠ جندى من المروروذية ، فنزل الموصل وبعث الى الملبد بعض أصحابه وبعث معهم الفعلة وسار الى (بلد) فخندقوا . وبلغ ذلك الملبد فخرج حتى نزل ببلد في خندق خازم ، فلما بلغ ذلك خازما خرج الى مكان من أطراف الموصل حريز فعسكر به . فعبر الملبد دجلة وتوجه الى خازم يريد الموصل من ذلك الجانب ، فعقد خازم جسرا وعبر الى الملبد وظل يسايره يوما بعد يوم . وتظاهر الملبد بالهرب فاقتفى أثره خازم وأصحابه وتركوا خندقهم فكر عليهم الملبد وأصحابه . ثم نزلوا وقاتلوا على الأرض بالسيوف فلما ثار الغبار رمي جند خازم بالنشاب فقتل الملبد وكثير من أصحابه وهرب الباقون (١٤٥) .

---

(١٤٤) اليعقوبي ج ٣ ص ١١٧ ـ ٨ ، الطبري ج ٩ ص ١٧٩ رواية الواقدي ، ابن الاثير ج ٥ ص ٢٠٦ ، ح ٦ ص ٢ ـ ٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب ح ١ ص ٥٩ ، كرد علي : خطط الشام ج ١ ص ١٨١

(١٤٥) الطبري ج ٩ ص ١٦٩ ، ١٧٠ ـ ١ ، ابن الاثير ج ٥ ص ١٩٥ ، ٥٩٦ .

وفى سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م خرج **حسان بن مجاهد** بن يحيى بن مالك ابن الاجدع الهمدانى بقرية بافخارى قرب الموصل ، هزم عسكر الموصل ثم سار الى الرقة ، وحاول الاتصال بخوارج عمان. واستغرب المنصور أن يدخل همدانى فى زمرة الخوارج لان عامة همدان شيعة علويون وقد فارق حسانا بعض أصحابه اذ سخطوا على بعض تصرفاته . واستعمل المنصور على الموصل خالد بن برمك بعد أن بلغه انتشار **الأكراد** بولايتها وافسادهم « فأحسن الى الناس وقهر المفسدين وكفهم ، وهابه أهل البلد هيبة شديدة مع احسانه اليهم » . كما عقد المنصور ليحيى ابن خالد على اذربيجان (١٤٦) .

وفى سنة ١٦٢ هـ/٧٧٩ م خرج بالجزيرة عبد السلام بن هاشم اليشكرى « وكثر اتباعه واشتدت شوكته فنكب غير واحد من القواد » . ويروى خروج عبد السلام سنة ١٦٠ هـ بالموصل . وقد خرج شبيب بن واج المروروذى مؤيدا بالفرسان فى أثر عبد السلام ، فهرب لكنه أدرك فى قنسرين حيث قتل سنة ١٦٢ هـ (١٤٧) .

وفى ١٦٨هـ/٧٨٤م خرج بأرض الموصل خارجي اسمه **ياسين من بنى** تميم وهزم عسكر الموصل وغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة . وكان يميل الى مقالة صالح بن مسرح الخارجى . فوجه اليه المهدى محمد بن فروخ وهرثمة بن أعين ، فحارباه حتي قتل وانهزم أصحابه . وقد خرج بالجزيرة فى السنة التالية **حمزة بن مالك الخزاعى** ، فسار اليه جيش انتصر عليه الخارجي فى **باعر بايا** من بلد الموصل وغنم الأموال وقوى أمره لكن صحبه رجلان ثم اغتالاه (١٤٨) .

وقد كانت مدينة الموصل وربوع الجزيرة وماحولها من أكثر الاقاليم اضطرابا وفتنا وثورات على الدولة منذ العهد الأموى، وظل حالها كذلك خلال العصر العباسى ايضا. **ويقرر متزهذه الحقيقة فيقول: «كانت الجزيرة أكبر مركز تحتشد اليه الثوار على اختلاف أصنافهم، حيث يكونون على الاستعداد دائما لاتباع قائد يسير بهم الى أراضى الفلاحين الخصبة - يقتلون وينهبون » ! ويرجع ذلك الى عاملين: أولهما وجود بعض القبائل**

---

(١٤٦) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٣٥ - ٦ ، ج ٦ ص ٥ - ٦ ، الطبرى ج ٩ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(١٤٧) الطبرى ج ٩ ص ٣٣٦ ، ٣٤١ - ٢ ، ابن الاثير ج ٦ ص ١٨ ، ٢١ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٦٠ .

(١٤٨) ابن الاثير ج ٦ ص ٢٨ ، ٣٤ .

العربية المسلحة قوية الشكيمة أمثال بكر وتغلب وغيرها ، وثانيهما موقع هذه المنطقة الجغرافى بين شعوب وعناصر مختلفة من العرب والكرد والأرمن والروم والفرس « فكان طبيعيا أن يخلق فيها جو مضطرب النزعات والعقائد والآراء ، يتقبل كل فكرة تدعوة الى التمرد والعصيان والانتقاض ضد نظام الحكم أيا كان . وأكثر ما يلاحظ فى تاريخ هذه البقعة من الأرض انتشار المذهب الخارجى الداعى الى الثورة على كل سلطان لا يدين به » . وقد انتشر الخوارج فى لبلاد لعربية منذ نشوب النزاع على اثر التحكيم فى حرب صفين ، وكانت أكثر القبائل البدوية المخيمة حول الموصل عددا وقوة بنو شيبان الذين انتشروا فى أطرافها وخاصة فى شرقيها (١٤٩) . ولاقرار الأمن فى هذه المنطقة المضطربة ، **اقيم حرب ابن عبد الله الراوندى ــ الذى تنسب اليه الحربية ببغداد ــ بالموصل** « **فى الفين من الجند لمكان الخوارج الذين بالجزيرة** (١٥٠) » .

وأقلقت الدولة العباسية فتن الخوارج فى نواح أخرى غير لجزيرة ، كما تتابعت ثورات **العلويين** الذين خاب أملهم فى أولاد عمومتهم بنى العباس . ففى سنة ١٤٥ هـ ٧٦٢ م خرج محمد بن عبد الله بن حسن ابن على بن أبى طالب بالمدينة ، وخرج أخوه ابراهيم بن عبد الله بالبصرة . **وكان ابراهيم قد نزل بالحيار من أرض الشام على آل القعقاع بن خليد العبسى ، فكتب الفضل بن صالح بن على وكان على قنسرين الى المنصور** « يخبره خبر ابراهيم ، وانه طلب فوجده قد سبقه منحدرا الى البصرة مارا بالموصل » . فأمر أبو جعفر باذكاء العيون ووضع المراصد والمسالح وقد ندب المنصور لحرب محمد وابراهيم عمه عيسى بن موسى « فلا يبالى أيهما قتل صاحبه » وقتل محمد بالمدينة ، وانهزم جند ابراهيم بالبصرة بعد أن كادوا ينتصرون ، وقتل ابراهيم أيضا وفى سنة ١٦٩ هـ خرج الحسين بن على حفيد الحسن بن على بن أبى طالب . وقتل بفخ فى طريق مكة (١٥١) .

وجد المهدى فى طلب **الزنادقة** وولى أمرهم واليا خاصا . **وفى اثناء**

---

(١٤٩) متز : الحضارة الاسلامية ــ ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ٢ ص ٤٦ ، دكتور جومرد : هارون الرشيد جـ ٢ ص ٤٠٠ ، صائغ : تاريخ الموصل جـ ١ ص ٧٣ .

(١٥٠) الطبرى جـ ٩ ص ٢٦٤ ، ابن الاثير جـ ٥ ص ٢٣٢ .

(١٥١) الطبرى جـ ٩ ص ١٨٠ وما بعدها ، ٢٤٣ وما بعدها ، ابن الاثير جـ ٥ ص ٢٠٦ وما بعدها ، ص ٣٢٦ وما بعدها .

مسيره لغزو الروم سنة ١٦٣ هـ بعث عبد الجبار المحتسب لجلب من بناحية حلب من الزنادقة ، فقتلهم بدابق وقطع كتبهم (١٥٢)

وامتدت الاضطرابات الى الجناح الغربى من الدولة الاسلامية ، وهو جناح يواجه الروم فى البحر المتوسط • فقتل الاغلب بن سالم بن عقال ابن خفاجي التميمى عامل المنصور سنة ١٥٠ هـ فى فتن **المغرب** « وكان ممن قام مع أبى مسلم الخراسانى » كما قتل الخوارج عامل المنصور عمر ابن حفص سنة ١٥٣ هـ ، فوجه المنصور يزيد بن حاتم الى افريقية فىالعام التالى فافتتحها وقتل بعض زعماء الخوارج « واستقامت بلاد المغرب ، ودخل يزيد بن حاتم القيروان » • (١٥٣)

ولكن ظروف المغرب الجغرافية والبشرية قد اضطرت الرشيد بعد ذلك الى التخلص من مشكلاته باطلاق أيدى الأغالبة • كذلك أتاحت الاضطرابات فى **الاندلس** الفرصة لتجدد حكم الأمويين هناك ، رغم قيام بعض امرائها مثل عامر العبدرى والحباب بن رواحة بن عبد الله الزهرى بالدعوة لبنى العباس لسخطهما على الصميل بن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن • واستطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام أن يهرب بعد نكبة أبى فطرس حتى وصل المغرب ، فظل يتنقل فى أرجائها « وأخذ فى تدبير المكاتبة الى الأمويين من أهل الأندلس يعلمهم بقدومه ويدعوهم الى نفسه، ووجه بدرا مولاه اليهم وأمير الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فسار بدر اليهم واعلمهم حال عبد الرحمن ودعاهم اليه ، فأجابوه ووجهوا له مركبا وأخذوه ورجعوا الى الأندلس سنة ١٣٨هـ » (١٥٤) • وأخذ عبد الرحمن يتلقى البيعة من نواحي الأندلس ويوطد الأمور لنفسه هناك، فلما استقر له الامر أخذ يباشر الغزو على حدود بلاده •

معاقل الحدود وقتال الروم :

انشغل العباسيون أول أمرهم بتوطيد دولتهم والقضاء على معارضيهم ، لكنهم لم يغفلوا مع ذلك **تحصين حدودهم وثغورهم** • وكانت البعوث تخرج لتعمير الثغور وشحنها بالمقاتلة ، وقد ذكر أن

---

(١٥٢) الطبرى ج ٩ ص ٣٤٥ ، ابن الاثير ج ٦ ص ٢٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٦١ •

(١٥٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٨٤ ــ ٥ ، ابن الاثير ج ٥ ص ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ج ٦ ص ٢
Brockelmann : Hist. of the Isl. Peop., p. 112.

(١٥٤) الطبرى ج ٩ ص ١٧١ ، ابن الاثير ج ٥ ص ١٨٧ ، ١٩٩ ــ ٢٠٠ •

المنصور أمر بعمران **المصيصة سنة** ١٣٩هـ وأسكنت سنة١٤٠هـ وسميت (المعمورة) ونقل اليها الذين كان أسكنهم مروان الخصوص من فرس وصقالبة وأنباط ونصارى ، وكانت تأتيها **(الطوالع)** من انطاكية فى كل عام ثم خصص لها المقاتلون فىخلافة المهدى٠وقد تعرضت المصيصة لهجوم الروم فى أول أيام الدولة العباسية ، فوجه اليها صالح بن على جبريل ابن يحيى البجلى لتحصينها وشحنها ٠

وبنيت **اذنة** فى سنة ١٤١ هـ أو سنة ١٤٢ هـ ، والجنود من أهل حراسان معسكرون عليها مع مسلمة بن يحيى البجلى ومن أهل الشام مع مالك بن أدهم الباهلى ، وكان قد وجههما صالح بن على ٠

وفى سنة ١٤٩ هـ نزل المنصور حديثة الموصل ، ثم أغزى منها الحسن بن قحطبة وبعده محمد بن الأشعث وجعل عليهما العباس ابن محمد وأمره أن يغزو بهم **كمخ** ، فمات محمد بآمد وسار العباس والحسن الى ملطية فحملا منها الميرة ثم اناخا على كمخ ، واستعملت المجانيق فى الحصار ثم اتخذت الدبابات واشتد القتال حتى تم الفتح ٠ ويذكر اليعقوبى ان المنصور على أثر هجمات الخزر « اخرج سبعة آلاف من أهل السجون ، وبعث فجمع من كل بلد خلفا عظيما ووجه بهم وبفعلة وبنائين، فبنى مدينة كمخ ومدينة المحمدية ومدينة باب واق ، وجعلها ردءا للمسلمين وأنزلها المقاتلة ، وقوى المسلمين بتلك المدن » ٠

وقد اهتم المنصور ببناء ملطية وتحصينها فوجه عبد الوهاب بن ابراهيم الامام واليا على الجزيرة وثغورها سنة ١٤٠ هـ ومعه الحسن بن قحطبة فى جنود أهل خراسان ، وجمع الفعلة من كل بلد وقطعت البعوث على أهل الشام والجزيرة حتى فرغ من بناء ملطية ومسجدها فى ستة أشهر ، وأسكنها المنصور أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها من ثغورهم على زيادة فى العطاء وأقطعت لهم قطائع ، وبنى حصن قلوذية وأقبل قسطنطين يريد الغزو فأحجم لكثرة العرب ، وفى سنة ١٤١ هـ رابط المسلمون بملطية لئلا يطمع فيها العدو ورجع اليها بقية أهلها ٠

كذلك بنى صالح بن على **مرعش** فىخلافة المنصور وحصنها وشحنها وفى عهد المنصور بنى أيضا **حصن زبطرة** ٠

ويذكر أن من المميزات التى رعاها المنصور فى **اختيار موضع بغداد موقعها بالنسبة للجزيرة وارمينية والشام والرقة** وفى سنة ١٥٤ هـ عزم المنصور على بناء **الرافقة فى مواجهة الرقة** ، فغضب أهل

الرقة خشية على أسواقهم « واختطها على شط الفرات ، وهندسها له أدهم ابن محرز » وقد أرسل المنصور ابنه المهدى للاشراف على البناء الذى احتذى تخطيط بغداد « وسور سورها وخندقها » .

وعلى أثر غزو ميخائيل عمق مرعش سنة ١٦١ هـ وجه المهدى الحسن بن قحطبة الذى دخل بلاد الروم من درب الحدث ، فنظر الى موضع مدينتها فأخبر ان ميخائيل خرج منه ، فارتاد موضع مدينته هناك ، ثم كلم المهدى فى بنائها وبناء طرسوس فأمر بتقديم مدينة الحدث فأنشأها سليمان بن على وهو على الجزيرة وقنسرين وسميت (المحمدية) و (المهدية) وتوفى المهدى عند فراغهم من بنائها زاد المهدى من حامية مرعش ، وتم فى عهده تحصين **حصن منصور** على يد ابنه هارون . واستخلف **الهادى** محمد بن ابراهيم بن محمد بن على ففرض للحدث فرضا من أهل الشام والجزيرة وخراسان وأقطعهم . وقيل أن بناء الحدث لم يتحمل الامطار والثلوج فشرع الهادى فى احكام بنائها فمات قبل أن ينفذ بعثة . (١٥٤)

وقد اختلف فى أول غزوة قام بها العباسيون ضد الروم . فاليعقوبى يقول« وغزا بالناس فى أيام المنصور سنة١٣٨(هـ) صالح بن على **على جند الشام** ، والعباس بن محمد بن على **على خراسان** ، ولم تغز بلاد الروم منذ غزا الغمر بن يزيد سنة ١٢٥ (هـ) الى هذه الغاية وأقام صالح بن على واليا على الشام والثغور وهو يغزى بلاد الروم أمراء من قبله عليهم ابنه الفضل ابن صالح وغيره » . وابن العديم يعطى السنة التالية تاريخا لبدء الغزو « وأغزى الصائفة مع ابنه الفضل سنة١٣٩(هـ) بأهل الشام، وهى أول صائفة غزيت فى خلافة بنى العباس وكانت انقطعت الصوائف أيام بنى أمية قبل ذلك بسنين » . غير أن الطبرى يذكر فى أخبار سنة ١٣٣هـ « وجه صالح بن على سعيد بن عبد الله لغزو الصائفة وراء الدروب » ، كما يذكر غزو قسطنطين ملطية ، ولكن ابن الأثير لا يتابعه فى ذلك ويكتفى بأن يذكر فى أخبار سنة ١٣٣هـ ما ينقله عن البلاذرى من هجوم قسطنطين على كمخ وملطية منتهزا فرصة الاضطرابات التى حدثت فى الجزيرة فى بداية حكم العباسيين ، ونصبه المجانيق عليها واجلاء أهلها وتفرقهم فى بلاد الجزيرة ، كما يذكر هدم الروم حصن قلوذية ومهاجمتهم مرعش والحدث ، ويذكر ايضا ان كوشان الارمنى اناخ

---

(١٥٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٣ : ٦ ، ١٩٢ : ٢٠١ ، الطبرى حـ ٩ ص ١٧٠ ـ ١ ، ١٧٦ ، ٢٣٩ ، ٢٨٥ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٩٦ ـ ٧ ، ٢٢٤ ـ ٥ ، ٢٤٦ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٩٥ ، ص ١٠٧ ، ص ١٢٠ ، ١٢٩

على **قاليقلا** وأعانه اخوان من الارمن على دخولها من نقطة ضعيفة في سورها وقد فادى المنصور سنة ١٣٩هـ من كان حيا من أساراها وبناها وندب اليها جندا من أهل الجزيرة وغيرهم . ويتعذر قبول ما ذكره الطبرى من تاريخ مبكر لاستئناف ارسال الحملات ضد الروم ، اذ كانت الدولة العباسية وقتذاك في شغل شاغل باقرار الامور في داخلها ، وقد يكون العباسيون سمعوا بحملات قسطنطين فسيروا بعوثا لمهام استطلاعية أو دفاعية لحماية أطراف الدولة الاسلامية دون الولوج الى داخل أراضى الروم . على أن اليعقوبى يذكر أن موسى بن كعب التميمي زحف الى قسطنطين حين اناخ على ملطية سنة ١٣٣هـ « فلم يكن بينهما لقاء وكتب أبو العباس الى عبد الله بن على يعلمه أن العدو قد كلب بالغفلة عنه ، وأمره أن ينفذ بالجيوش التى معه فيبث جيوشه في نواحي الثغور ، وزحف حتى قطع الدرب . ولم يزل يعبى حتى أتاه خبر وفاة أبي العباس فانصرف » (١٥٥) . وشروع عبدالله ابن على في غزو الروم ووصوله الى أفواه الدروب محل اجماع بين المصادر المختلفة على أن التاريخ الذى يعطى لذلك هو سنة ١٣٦ هـ حين قدم عبد الله ابن على الانبار فعقد له لخليفة أبو العباس على الصائفة فى أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل « فسار فبلغ دلوك ولم يدرب حتى أتته وفاة أبي العباس .. وقدم أبو غسان يزيد بن زياد حاجب أبى العباس ببيعة أبي جعفر وعبدالله بأفواه الدروب يريد الروم » (١٥٦) . وهكذا لم تنفذ سنة ١٣٦ هـ هذه الحملة التى كانت طليعة حملات العباسيين الى بلاد الروم ، وجاء العام التالى عام ١٣٧ هـ حافلا بالمتاعب فقد شغل المنصور بقتال عبد الله بن على ، ثم أثار مقتل أبى مسلم بعد ذلك اضطرابات منها خروج سنباذ بخراسان ، كما خرج فى العام نفسه أو فى العام التالى ملبد بن حرملة الشيباني الخارجي بالجزيرة . ومن هنا لاعجب أن تقرر الحوليات الاسلامية « **لم يكن للناس فى هذه السنة صائقة لشغل السلطان بحرب سنباذ** » . **(١٥٧)**

فالحملة الأولى للمسلمين ضد الروم كانت اذن سنة ١٣٨ أو سنة ١٣٩هـ على اختلاف الروايات ، وقد كانت لعلاج آثار هجوم قسطنطين على

---

(١٥٥) اليعقوبى حـ ٢ ص ٩٩ ، ١٢٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ٥٩ ، الطبرى حـ ٩ ص ١٤٨ ، ١٧٠ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٨١ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٤ : ٨ ، ٢٠٧

(١٥٦) الطبرى حـ ٩ ص ١٥٥ ـ ٦ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٨٧ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٠١ ، ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ٥٧ .

(١٥٧) الطبرى حـ ٩ ص ١٦٩ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١٩٥

ملطية أولا ، فقد أقام صالح بن علي والعباس بن محمد « حتى استتما بناءها ، ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغلا فى الروم ، وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابه ابنتا علي ، وكانتا نذرتا ان زال ملك بنى أمية أن تجاهدا فى سبيل الله » • وقد أفاض البلاذرى فى الحديث عن نشاط المسلمين فى بناء ملطية سنة ١٤٠ هـ ، فذكر أنه رابط فيها سنة١٤١ هـ محمد بن ابراهيم فى جند أهل خراسان ، كما ذكر ان قسطنطين عاد لمهاجمتها فى أكثر من مائة الف فنزل جيحان فبلغته كثرة العرب فأحجم عنها ، وذكر أيضا حملة لجعفر بن حنظلة البهرانى من درب ملطية سنة ١٣٩ هـ • وعلى أية حال يبدو من الحوليات الاسلامية أن طليعة الحملات العباسية ضد الروم كانت منصرفة قبل كل شيء الى تحصين حدود المسلمين أكثر من اتجاهها الى مهاجمة الروم • ثم حدث **الفداء بين المنصور والروم** لاستنقاذ أسرى المسلمين سنة ١٣٩ هـ « **ولم يكن بعد ذلك فيما قيل للمسلمين صائفة الى سنة ١٤٦ هـ لاشتغال أبي جعفر بأمر ابني عبد الله الحسن** • الا أن بعضهم ذكر أن الحسن بن قحطبة غزا الصائفة مع عبد الوهاب بن ابراهيم الامام سنة ١٤٠ هـ » على هذه الصائفة كانت لترميم ملطية وتحصينها وحمايتها من أيهجوم مستقبل للروم كما يروى البلاذرى (١٥٨) • لكن اليعقوبى لا يقطع غزوات الروم فى تلك الفترة بل يذكر غزوة للعباس بن محمد فى العامين المتواليين سنة ١٤٢ ، ١٤٣ هـ ، ثم يذكر غزوة لحميد بن قحطبة سنة ١٤٥ هـ (١٥٩) •

وواجه العباسيون خطر **هجمات الترك والخزر** على حدودهم فى **أرمينية** وقتلهم كثيرا من المسلمين ، فكتب يزيد بن أسيد السلمى والى المنصور على ارمينيه الى الخليفة يخبره بهذا الهجوم الخزرى الكبير ومقتل حرب بن عبد الله الراوندى قائد روابط الموصل سنة ١٤٧ هـ ، فوجه المنصور جبريل بن يحيى البجلى فى عشرين الفا من أهل الشام والجزيرة والموصل ، ولكن هزم الخزر هذه الحملة ، فاهتم المنصور بتحصينات الحدود هناك • ثم تحركت **الصنارية بأرمينية** فوجه اليهم الحسن بن قطحبة ثم عامر بن اسماعيل الحارثى ، فانتصر المسلمون بعد قتال شديد • واهتم المنصور بارمينية فولاها واضحا مولاه فلم يزل عليها وعلى اذربيجان خلافة المنصور كلها ، وان كان الطبرى يذكر تولية بكار بن مسلم العقيلى ارمينية

---

(١٥٨) الطبرى جـ ٩ ص ١٧١ ، ابن الأثير جـ ٥ ص ١٩٧ ، ٢٠٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٥ ـ ٩٦ ، ٢٠٧

(١٥٩) اليعقوبى جـ ٣ ص ١٢٤ •

سنة ١٥٣ هـ (١٦٠) • ولا شك أن الروم استفادوا كثيرا من مهاجمة الخزريين لأطراف الدولة الاسلامية ، ولعل الحملات المتتالية التى يتحدث عنها اليعقوبى منسنة ١٤٥ هـ الى سنة ١٤٩ هـ (١٦١) كانت ضد هؤلاء الخزريين أكثر مما كانت ضد الروم • ويذكر الطبرى فى احداث سنة ١٤٨هـ غزو حميد بن قحطبة للترك بعد أن عاثوا بتفليس ، فى حين يذكر أن صالح بن على قد عسكر بدابق فى هذا العام ولم يغز ويؤيد ذلك ابن الأثير (١٦٢)• وفى سنة ١٤٩هـ غزا العباس بن محمد الصائفة ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث فمات ابن الأشعث بالطريق • والبلاذرى يجعل هذه الحملة موجهة ضد كمخ ، واليعقوبى يذكر للحسن ابن قحطبة معارك فى الجبهة الارمينية ضد الخزر (١٦٣) وفى سنة ١٥٠هـ لم تكن للناس صائفة • وقيل ان أبا جعفر ولى أسيدا الصائفة فلم يدخل بالناس أرض العدو ونزل مرج دابق • وفى سنة ١٥٢ هـ غزا الصائفة عبد الوهاب بن ابراهيم وقيل محمد بن ابراهيم فلم يدرب ، على أن ابن الأثير يذكر غزوة لعبد الوهاب بن ابراهيم سنة ١٥١ هـ أيضا(١٦٤)

يمكن القول **اذن أن أعمال المسلمين الحربية فى بداية حكم العباسيين كانت مقصورة حتى عام ١٥٢ هـ على تحصين مواقع الحدود وصد هجمات الخزر فالحوليات تذكر أن المسلمين لم يدربوا فى سنوات عدة ، وقد شغلتهم الفتن الداخلية المختلفة** • وأول صائفة تتحدث عن **هجوم حقيقى** على الروم فى عهد بنى العباس يعود تاريخها الى سنة ١٥٣ هـ – ٧٧٠م حين غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجورى « فسار الى حصن للروم ليلا وأهله نيام ، فسبى وأسر من كان فيه من المقاتلة ، ثم صار الى اللاذقية المحترقة ففتحهاوأخرج منهاستة آلاف رأس من السبى سوى الرجال البالغين» (١٦٥) • واللاذقية المحترقة Loadicea Combusta هى Katakehaumena وتقع شمال قونية (١٦٦) • ثم تتوالى الصوائف دون اشارة الى وقائع

---

(١٦٠) الطبرى حـ ٩ ص ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ٢٣٠ ، ٢٣٢ – ٣ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٠٧ – ٨ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٦ – ٢١٧ •

(١٦١) اليعقوبى حـ ٣ ص ١٢٤

(١٦٢) الطبرى حـ ٩ ص ١٧٦ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ٢٣٧

(١٦٣) الطبرى حـ ٩ ص ٢٧٦ ، أبن الأثير حـ ٥ ص ٢٣٧ – ٨ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٢ – ٣ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٠٧

(١٦٤) الطبرى حـ ٩ ص ٢٨٧ ، ٢٨٣ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ٢٤٥

(١٦٥) الطبرى حـ ٩ ٢٨٤ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ٢٤٦

(١٦٦) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٨٢

هامة ما بين سنة ١٥٤ ،سنة ١٥٨ هـ ،ويظهر فيها من القادة زفر بن عاصم الهلالى ويزيد بن أسيد السلمى ومعيوف بن يحيى • كما تذكر الحوليات الاسلامية أن صاحب الروم طلب الصلح من المنصور على أن يؤدى اليه الجزية وذلك سنة ١٥٥ هـ ـ سنة ٧٧٢م (١٦٧) ، فى حين أن ضغط الهجمات الاسلامية على الجبهة البيزنطية لا يكفى لبلوغ هذه النتيجة •

لم تحدث اذن حملات جدية ضد الروم طوال عهد المنصور ، على أنه قد أوصى ابنه المهدى بشحن الثغور وضبط الاطراف اذ قال له «وليكن أهم أمورك اليك أن تحفظ أطرافك وتسد ثغورك •• وارغب الى الله فى الجهاد والمحاماة عن دينك واهلاك عدوك بما يفتح الله على المسلمين ويمكن لهم فى الدين ، وابذل فى ذلك مهجتك ونجدتك ومالك وتفقد جيوشك ليلك ونهارك واعرف مراكز خيلك ومواطن رحلك ، وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك » (١٦٨) •

وفى عهد **المهدى** أغار الروم على الحدود الاسلامية ، فيذكر اليعقوبى أن الروم جاءوا الى سميسطا سنة ١٥٩ هـ فسبوا خلقا كثيرا • على أن الطبرى يروى خبر غزو العباس بن محمد الصائفة حتى أنقرة سنة ١٥٩ هـ « وعلى مقدمته الحسن الوصيف فى الموالى ، وضم المهدى اليه جماعة من قواد أهل خراسان وغيرهم • وخرج المهدى فعسكر بالبردان وأقام فيه حتى أنفذ العباس ، ولم يجعل العباس على الحسن الوصيف ولاية فى عزل أو غيره ففتح فى غزاته مدينة للروم ومطمورة وانصرفوا سالمين » •

ويذكر الطبرى والبلاذرى وابن الاثير هجوما للروم سنة ١٦١ هـ عند مرعش بعد أن اجتازوا درب الحدث ، وقد حاول أهل المدينة المقاومة وكان واليها عيسى بن على خرج الى الغزو فحاصرهم الروم ثم انصرفوا حتى نزلوا جيحان • وبلغ الخبر ثمامة بن الوليد العبسى وهو بدابق يتأهب لغزو الصائفة « فأتته طلائعه وعيونه بذلك فلم يحفل ، وخرج الى الروم وعليها ميخائيل بسرعان الناس فأصيب من المسلمين عدة » على أن الطبرى يذكر أن عيسى بن على كان مرابطا بحصن مرعش ولم يغز • وانشغل المسلمون بعبء الدفاع عن حدودهم « **فلم يكن للمسلمين فى ذلك العام صائفة من أجل ذلك** » • **وقد بدأت الحدود الاسلامية تشهد**

---

(١٦٧) الطبرى حـ ٩ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ـ ٩ ، ٢٩١ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ٢٤٦ ، حـ ٦ ص ٢ ، ٤ ، ٥ ، ١٣ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٢٤

(١٦٨) الطبرى حـ ٩ ص ٣٢١ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٧ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٢٦ ـ ٧

الموالى ـ وهم عماد الدولة العباسية ـ فى مقدمة الحملات ضد الروم مثل الحسن الوصيف كما رأينا قوات المسلمين على قسمين : أهل الشام وأهل خراسان . وبدأت **الحملات البحرية** تعود الى الظهور فى الحوليات العربية ، فيذكر أن الغمر بن العباس غزا فى سنة ١٦١ هـ وقد اهتم المهدى فى العام التالى بالثأر من الروم لمهاجمتهم مرعش ، فولى ثمامة بن الوليد العبسى الصائفة سنة ١٦٢ هـ ولكن لم يتم خروجه الى الروم . وخرجت الى الروم الى الحدث فهدموا سورها ، ثم وجه المهدى الحسن بن قحطبة فى ثلاثين الف مرتزق سوى المطوعة « فبلغ حمة ادرولية فأكثر التخريب والتحريق فى بلاد الروم من غير أن يفتح حصنا ويلقى جماعة وسمته الروم التنين » « وثقلت وطأته على أهلها حتى صورروة فى كنائسهم» وقد رأى الحسن بن قحطبة بناء طرسوس والحدث على أثر هذه الحملة . وعزز هذا الهجوم بحملة يزيد ابن أسيد السلمى فى الجبهة الارمينية من باب قاليقلا ، وقد غنم وفتح ثلاثة حصون وأسر وسبى . (١٦٩)

وأخذ اسم هرون يلمع فى حملات الصوائف فى حياة أبيه المهدى سنة ١٦٣ هـ وكان ما زال حديث السن « فكان يضرب بالصوالجة ، وموسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح يتضاحكان منه » . وكان المهدى قد قطع **البعوث للصائفة** على جميع الاجناد من أهل خراسان وغيرهم ، وخرج فعسكر بالبردان نحو شهرين يتعبأ ويتهيأ ويعطى الجنود ، وأخرج بها صلات لأهل بيته الذين شخصوا معه . ولما وجه هرون خرج يشيعه ، فلما حاذى قصر مسلمة بن عبد الملك قال له العباس بن محمد وكان معهما : يا أمير المؤمنين ان لمسلمة فى اعناقنا منة ـ كان محمد بن على مر به فأعطاه أربعة ألف دينار وقال له : يا ابن عم هذان الفان لدينك والفان لمعونتك فاذا نفدت فلا تحتشمنا ، فأمر المهدى باحضار الموجودين من ولد مسلمة ومواليه فأمر لهم بعشرين الف دينار وأن تجرى عليهم الأرزاق . وقد ضم المهدى الى هارون كبار القواد ، فوجه الربيع الحاجب وخالد ابن برمك ومعه الحسن وسليمان ابنا برمك ويحيى بن خالد على أمر العسكر ونفقاته وكتابته واستعفى الحسن بن قحطبة ، «وكان أمر هرون كله الى يحيى وصير الربيع الحاجب معه يغزو عن المهدى ـ وكان الذى بين الربيع ويحيى على حسب ذلك ـ وكان يشاورهما ويعمل برأيهما ، ففتح الله عليهم فتوحا كثيرة وأبلاهم فى ذلك الوجه بلاء جميلا ، وكان لخالد فى ذلك

(١٦٩) الطبرى حـ ٩ ص ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٣٥ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٦ ، ١٩٧ ـ ٨

بسمالو أثر جميل لم يكن لأحد » • ذلك أن هرون بعد أن قطع الدرب وبلغ جيحان ودع اباه وسار حتى نزل سمالو فأقام عليها ٣٨ ليلة نصب عليها المجانيق حتى فتحت بعد تخريبها وتجويعها وبعد خسائر فى جانب المسلمين « وكان فتحها على شروط شرطوها لأنفسهم : لا يقتلوا ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم ـ فأعطوا ذلك » • وأنزل أهل سمالو ببغداد على باب الشماسية فسمى موضعهم بنفس الاسم • أما المهدى فقد أتته بحلب حيث نزل بقصر بطياس فى ظاهرها بشرى قتل المقنع الثائر فى خراسان الذى كان يقلق الدولة ، كما تولى قتل الزنادقة الذين جيء بهم من هذه المنطقة فى دابق ، وارتاد المدينة التى تسمى المهدية ثم سار الى بيت المقدس وصلى فيه • وكان للمهدى اجراءات ادارية خلال رحلته هذه فولى ابنه هرون المغرب كله واذربيجان وأرمينية وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى وعلى رسائوة يحيى بن خالد ، كما عزل المهدى عند مقدمة عبد الصمد بن على عن ولاية الجزيرة لأنه لم يتلقه ولم يهيىء له نزلا أو قناطر اثر مشادة بينهما عند حصن مسلمة وولى زفر بن عاصم ، ثم عزله وولى عبد الله بن صالح بن على وقيل على بن سليمان ابن على • (١٧٠)

على أن الحملة الكبرى التي برز فيها هارون فى عهد أبيه المهدى كانت سنة ١٦٥ هـ سنة٧٨٢م وان كان اليعقوبى يقدمتاريخها عاما وكان عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قد غزا من درب الحدث ، فأقبل اليه ميخائيل البطريق فى نحو تسعين الفا فيهم طازاذ الأرمنى البطريق ، ففشل عنه عبد الكبير ومنع المسلمين من القتال، فغضب لذلك المهدى واراد قتله فكلم فيه فاكتفى بحبسه . فانفذالمهدى هارون ومعه الربيع مولاه على رأس جيش ضخم مزودا بأموال طائلة « فوغل فى بلاد الروم ، فافتتح ماجدة • ولقته خيول (نقيطا) قومس القمامسة فبارزه يزيد بن مزيد فضربه يزيد حتى أثخنه ، وانهزمت الروم وغلب يزيد على عسكرهم وسار **الى الدمستق بنقمودية وهو صاحب المسالح** ، وسار هرون حتى بلغ خليج البحر الذى على القسطنطينية ، وصاحب الروم يومئذ اغسطة امرأة اليون ـ وذلك أن ابنها كان صغيرا قد هلك أبوه وهو فى حجرها فجرت بينها وبين هرون الرسل والسفراء فى طلب الصلح والموادعة واعطاء الفدية • فقبل ذلك منها هرون ، وشرط

---

(١٧٠) الطبرى حـ ٩ ص ٣٤٢ : ٥ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٢٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٨ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٢٩ ، ١٣٥ ، ابنا العديم : زبدة الحلب ص ٦٠ ـ ١
Gaudefroy-Demombynes, Platenov: Le Monde Musulm. et Byz., pp. 279-280, 322-3.

عليها الوفاء بما أعطت له ، وأن تقدم له الادلاء والاسواق فى طريقه ـ وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين ، فأجابته الى ماسال » ٠ وهكذا عاد هرون بعد أن وصلت قواته الى البسـفور ـ خرسوبوليس Chrysopolis (اسكدار) كما يذكر تيوفانيس ، وأجبرت ايرين التى كانت تحـكم باسم ابنها قسـطنطين السادس (٧٨٠ : ٧٩٧ م) على **طلب الصلح بمعاهدة فى غاية الاذلال لبيزنطة** « والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون الف دينار تؤديها فى نيسـان الأول فى كل سنة وفى حزيران ٠٠ ووجهت معهم رسولا الى المهدى بما بذلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعرض ، وكتبوا كتاب الهدنة الى ثلاث سنين ، وسلمت الأسارى » ٠ وتدل الاحصـاءات العديدة التى يقدمها الطبرى على ضخامة هذه الحملة ، فعدد الأسرى ٥٦٤٣ ، والقتلى ٥٤ر٠٠٠ ، وقد قتل من الأسرى ٢٠٩٠ ، وغنمت ٢٠ر٠٠٠ دابة بأدواتها وذبح ١٠ر٠٠٠ رأس من البقر والغنم ٠ وبلغت المرتزقة ـ سوى المطوعة وأهل الأسواق ـ ١٠٠ر٠٠٠ وبيع البرذون بدرهم ، والبغل بأقل من عشرة دراهم ، والدرع بأقل من درهم ، و ٢٠ سيفا بدرهم ٠

وقد سجل مروان بن أبى حفصة ذكرى هذه الغزوة فخـاطب الرشيد بقوله :

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا ... اليها القنا حتى اكتسى الذلسورها
ومارمتهـا حتى أتتك ملوكهـا ... بجزيتها والحرب تغلى قدورهـا

وقفل هارون فى أوائل سنة ١٦٦هـ ، وقدمت الروم بالجزية «وذلك فيما قيل أربعة وستون الف دينار عدد الرومية ، والفان وخمسـمائة دينار عربية وثلاثون الف رطل مرعزى » ٠

يقول الدكتور حتى « هذه الحمـلة هى التى رفعت ذكر هارون ، وكانت آخر مرة وقف فيها جيش عربى أمام أسوار العاصمة المتكبرة » وكانت جملة الحملات التى وجهت الى بيزنطة اربع : ثلاث منها فى عهد الأمويين أيام معاوية وسليمان وحملة هارون هى الرابعة ، لكن الروايات التركية تجعل الحصارات بين سبعة وتسعة اثنين منها لهارون ٠ وصارت هذه الحملات الاسلامية على القسطنطينية موضـوعا لقصص الفروسية العربية خاصة فى فترة الحروب الصليبية ٠

وقد أعقبت هذه الحملة فترة سكون عامى ١٦٦ ، ١٦٧ هـ فلم يكن صائفة للهدنة بين المسلمين والروم » على أنه فى سـنة ١٦٨ هـ نقض

الروم الصلح « فكان بين أول الصلح وغدر الروم ٣٢ شهرا ، فوجه على ابن سليمان وهو على الجزيرة وقنسرين يزيد بن بدر البطال فى سرية الى الروم ، فغنموا وظفروا » • على أن اليعقوبى يذكر غزوة لثمامة بن الوليد سنة ١٦٦ هـ وللفضل بن صالح سنة ١٦٧ هـ كما يذكر غزوة لمحمد بن ابراهيم سنة ١٦٨ هـ • وغزو الصائفة سنة ١٦٩ هـ فهى عهد **الهادى** معيوف بن يحيى من درب الراهب « وكانت الروم أقبلت مع البطريق الى الحدث فهرب الوالى والجند وأهل الأسواق فدخلها العدو ، ودخل أرض العدو معيوف بن يحيى فبلغ مدينة أشنة فغنم وسبى » • (١٧١)

الجهاد العباسي ضد الروم في ذروته :

الرشيد (١٧٠ : ١٩٣ هـ ـ ٧٨٦ : ٨٠٩م)
الامين (١٩٣ : ١٩٨ هـ ـ ٨٠٩ : ٨١٣م)
المأمون (١٩٨ : ٢١٨ هـ ـ ٨١٣ : ٨٣٣م)
المعتصم (٢١٨ : ٢٢٧ هـ ـ ٨٣٣ : ٨٤٢م)

تزايدت كراهية الناس **لا يرين** بعد أن أزاحت عن طريقها قسطنطين السادس ، وامتلأت سنوات حكمها الخمسة التى حكمتها منفردة (٧٩٧ : ٨٠٢ م) بالمؤامرات • فاستغل الفرصة **نقفور** Nicephorus واستولى على منصب الامبراطورية فى سهولة ويسر (٨٠٢ : ٨١١ م) وكان سامى الأصل ان لم يكن عربيا • ويقول المسعودى : « نقفور بن استبراق ملك سبع سنين وثلاثة أشهر فى أيام الرشيد ، وهلك أول خلافة الامين •• وقيل انه كان من ولد جفنة من غسان ممن تنصر آباؤه ، وقيل بل من ولد متنصره اياد الذين دخلوا فى أرض الروم من بلاد الجزيرة فى خلافة عمر ••• وبايع لابنه استبراق بالملك بعده ، ولم يعهد هذا فيمن سلف من ملوك الروم ، وكانت كتبه تصدر من نقفور واستبراق ملكى الروم ، وكانت ملوك الروم قبله تحلق لحاها فأبى ذلك نقفور •• وكانت مرتبته قبل أن **يلى الملك (لغثيط) وهى ولاية ديوان الخراج** • وكانت ملوك الروم تكتب على كتبها من فلان ملك النصرانية ، فغير ذلك نقفور وكتب ملك الروم •• وأنكر على الروم تسميتهم العرب (ساراقينوس) تفسير ذلك عبيد سارة طعنا منهم على هاجر وابنها اسماعيل •• وكان مقتل نقفور فى حرب كانت بينه وبين برجان فى سنة ١٩٣ هـ » وقد ذكر الطبرى

(١٧١) الطبرى حـ ٩ ص ٣٤٥ : ٧ ، حـ ١٠ ص ٢ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٢٣ ـ ٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، اليعقوبى : حـ ٣ ص ١٢٩ ، ١٣٥ ، حتى تاريخ العرب ـ ترجمة نافع حـ ٢ ص ٣٧٠ ـ ١ ، .History of Syria, p. 447 ، الترجمة العربية حـ ٢ ترجمة د • اليازجى ص ٥١

مقتل نقفور فى هذا العام أيضا وهو يقابل سنة ٨٠٩م ، على أن مقتل نقفور كان سنة ٨١١ م فى قتال البلغار • وكانت أسرته تسكن فى آسيا الصغرى ، ويذكر بعض المؤرخين الشرقيين انه من سلالة جبلة الغسانى الذى هرب الى كبادوكيا وتنصر . وولد نقفور فى بيسيديا Pisidia وقد استخدم خبرته اعتباره رجل المالية فى عهد ايرين لاصلاح الأوضاع المالية عندما صار امبراطورا ، أما بالنسبة للمسألة الأيقونية فانه لم يتخذ لنفسه موقفا محددا فى التأييد أو المعارضة • وقد كان نقفور مثار انتقاد كثيرين • غير أن بيورى يحاول أن ينصفه فيذكر انه كان رجلا قويا نزاعا للسيادة نابضا بالحيوية ازاء مصاعب الحكم ، وان كان يبدو فى المواربة وما اليها من فنون السياسة والدبلوماسية • وقد كان متحمسا فى الدفاع عن امبراطوريته ضد أعدائها فى الجبهتين الاسلامية والبلغارية ولكن لم تكن لديه مزايا القائد الماهر ، وأدى نقص كفاءته الى تعجيل نهايته • وقد كان نقفور سىء الحظ فى حملاته الخارجية ، وان كان موفقا فى اخماد عدد من الثورات الداخلية ، « وقد الحق الرشيد كثيرا من الأذى بالولايات الآسيوية « وخرب البلاد كلها حتى أنقرة ». ولم يستطع نقفور ان يتخلص منه دون صلح مهين . » وقد غزا نقفور بلغاريا سنة ٨١م ليعاقب ملكها على تخريبه تراقية ، وبعد معركة انتصر فيها الجيش البيزنطى أتاح نقفور فرصة لعدوه يباغته فيها بهجوم ليلى على معسكره . اسقط الامبراطور واتخذ البلغار من رأسه كأسا وتابعوا السير حتى أدرنه ، وجرح ابنه **ستوراكيوس** Stauracius (استبراق المراجع العربية) جرحا شديدا أعجزه عن الاستمرار فى الحكم بعد أبيه، والمسعودى يذكر انه ملك شهرين .

وتولى العرش ميشيل الأول زوج اكبر بنات الامبراطور (٨١١ : ٨١٣ م) ٦ وكان ضعيفا ، مال لانصار الايقونات وسمح باضطهاد المهاجرين الشرقيين الذين نقلوا من الحدود البيزنطية لتعمير العاصمة وتراقية ، ولم يوفق فى الحرب البلغارية • وتذكر المراجع الاسلامية تولية ميخائيل بن جورجس بعد استبراق بن نقفور ، وتشير الى أنه ختنه على أخته وقد ملك سنتين فى أيام الأمين ، ثم وثبت عليه الروم سنة ١٩٤هـ فهرب وترهب ، وهذا العام يقابل سنة ٨١٠م فى حين أن عزل ميشيل الأول وقع سنة ٨١٣م •

فنودى بليو الأرمنى (١٨٣ : ٨٢٠م) وكان ضابطا كفئا ، فاقسم يمين الولاء للكنيسة وعنى بأسوار العاصمة للصمود فى وجه البلغار، وعقد

الصلح بين الفريقين ، فاستمر السلم ٣٠ سنة وهنا وجد الامبراطور فرصة لمتابعه سياسة محاربة الايقونات باعتدال فأطلق عليه وصف (الحرباء) ، وأشرك ابنه في الحكم لكن لم يرض رفاقه في السلاح عن سياسته ، وهاجمه **ميشيل العموري** في قداس عيد الميلاد ، ويذكر المسعودى « اليون المعروف بالبطريق ملك سبع سنين وثلاثة أشهر ، وذلك بقية أيام الامين وصدرا من خلافة المأمون ، فاحتال صنائع ميخائيل فاستخلصوه فوثب باليون وهو مفتر فقتله وعاد الملك اليه » . ويذكر الطبرى أن مقتل ليو كان سنة ٢٠٠ هـ وهي تقابل سنة ٨١٥ م في حين أن المعروف أن مقتله كان سنة ٨٢٠م . والطبرى والمسعودى يذكران عودة ميشيل الاول للحكم بعد ليو ، في حين أن الحكم صار الى ميشيل الثانى ويقول المسعودى « ملك تسع سنين في أيام المأمون وقيل أكثر من ذلك ، وقد أتينا على خبره وما كان من أمره وعوده الى الملك ثانية .. » . وتروى الحوليات الاسلامية وفاة ميشيل (ميخائيل) سنة ٢٠٩ هـ وتولية توفيل ، وهي تقابل سنة ٨٢٤م في حين أن التاريخ الصحيح هو ٨٢٩م ، ويذكر المسعودى أن توفيل « ملك أربع عشرة سنة بقية أيام المأمون وأيام المعتصم وصدرا من أيام الواثق (١٧٢) » .

ولم تكد الأسرة العمورية تستقر في الحكم حتى واجهت ثورة خطيرة أشعلها توماس في قلب الدولة البيزنطية ، وثورة أخرى أشعلها يوفيموس في صقلية .

ولم تكن الخلافة العباسية أكثر استقرارا ، فان الخلافات استعرت في داخل البيت الحاكم نفسه . وقد تولى الرشيد الخلافة بعد أن مات أخوه الهادى في ظروف مريبة على اثر محالته العهد بالخلافة الى ابنه من بعده بدلا من أخيه ، ثم ثار النزاع بين ابنى الرشيد الأمين والمأمون من بعده ، كما تعددت الثورات في المشرق وديار الجزيرة والشام وبلاد المغرب غير أن هذه الفترة تتميز بحملات لامعة ضد الروم خاصة معركة هرقلة أيام الرشيد ، ومعركة عمورية أيام المعتصم . لكن مشاغل العباسيين الداخلية

---

(١٧٢) الطبرى حـ ١٠ ص ١٢٩ ، ١٣٨ ، ٢٣٨ ، ٢٦٩ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٨١ ، ٨٥ ، ١١٨ ، ١٤٣ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٤٣ ـ ٤ ، فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ـ ذيل اقتباسات من مؤرخى العرب ص ٢٤٤ ـ ٥
Bury, Hist. of the Eastern Rom. Emp. pp. 8-9.
الومان : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور بدر ص ١٥٨ : ١٦١ ، رستم : الروم ص ٣١٤ : ٩١ .

ووجهتهم الآسيوية لم تدع لهم فرصـــة للمضى قدما فى هذا الســبيل والاتجاه الى احراز نصر رئيسى حاسم على البيزنطيين ٠

العباسيون يحاربون فى الداخل والخارج :

يمكن اعتبار لرشيد صاحب الحملات الحقيقية ضد الروم منذ تولى العباسيون الخلافة ، وقد تقدمت الاشارة الى حملته فى أواخر أيام المهدى، وهى التى انتهت بصلحه مع ايرين ٠ واستهل عهده سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م **بعزل الثغور عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وتسميتها العواصم**، كما توالت أخبـــار **تعمير الثغور وتحصينها واستحداث الجديد منهـا** فى الحوليات الاسلامية ، فقــد بنى **كفر بيا** بجوار المصيصة ، وقيــل ابتدأ بناؤها فى خلافة المهدى وأجرى عليــه الرشيد تعديلات وحصنها بخندق وسور ٠ كذلك جرت عمارة **طرسوس** وأشخص اليهاالسكان : من أهل خراســان (٣٠٠٠) والمصيصة (٢٠٠٠) وانطاكية (١٠٠٠) ، وذلك بعد اتمام بنائها سنة ١٧٢هـ على أيدى أبى سليم فرج الخادم التركى مع زيادة فى العطاء والاقطاع ٠ وفى ســنة ١٨٠هـ أمر الرشــيد ببنــاء **عين زربى** (أو عين زربة) وتحصينها وندب اليهــا ندبة من أهل خراسان ٠ وفى سنة ١٨٣هـ أمر ببنــاء **الهارونية** وشحنها ـ وقيــل بدأ ذلك فى خلافة المهدى ٠ وكانت **الكنيسة السوداء** ذات حصن رومى قديم فأعاد الرشيد بناء المدينة وتحصينها وشحنها بعد اغارة الروم عليها ، كما جرى تعمير مدينة الحدث بعد أن اضرتبها الثلوج والأمطار وبنىحصن زبطرة(١٧٣)٠ وكان الرشيد يشخص من بغداد للاقامة فى بلدان الجزيرة ، خرج سنة ١٧٤هـ الى باقردى وبازبدى وبنى بباقردى قصرا سنة ١٧٤هـ ، كما كان يذهب الى الرقة كثيرا واتخذها وطنا (١٧٤) ٠

وكانت الحروب بين الامبراطورية والخلافة حملات دورية متتابعة ، لا تعدو الاحداث الرئيسية فيها احتلال القلاع القائمة على ممرات طوروس وطورس الداخلية أو معاودة احتلالها اثر التخلى عنها ، وبين وقت وآخر قد تستطيع حمـله أوسع نطاقا أن تدمر مدينـة هامة ٠ وتسجيل هذه العمليـات الحربيـة التى تجرى على وتيرة واحدة يبدو بشـكل أوفى فى

---

(١٧٣) الطبرى حـ ١٠ ص ٥٠ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٤٠ ، ٥٥ ، ٤٧ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٣ ، ١٧٦ ـ ٧ ، ١٧٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٥٣

(١٧٤) الطبرى حـ ١٠ ص ٥٢ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٤٣ ، ٥٥ ، ٦٠

الحوليات العربية منه فى اليونانية. ومن العبث والاملال أن تعاد تفاصيل هذه الحملات السنوية وتكفى متابعة التغيرات الهامة فى سير الأمور .

لقد سكن القتال فى خلال السنوات الأخيرة القليلة من حكم ايرين، ويبدو أن الامبراطورية توخت السلامة بدفع الجزية السنوية للخليفة. **وتتميز هذه الفترة من عهد العباسيين بخروج الخلفاء بأنفسهم للغزو بجانب قوادهم** . وفى الغزوات المتتابعة ما بين سنة ١٧٠هـ ، و ١٨٦ هـ (٧٨٦ : ٨٠٢م) ظهر من القواد سليمان بن عبد الله البكائى، واسحق ابن سليمان بن على ، ومحمد بن ابراهيم وعبد الملك بن صالح وابناه عبد الرحمن والفضل ، وعبد الرزاق بن عبد الحميد التغلبى ، ومعاوية ابن زفر بن عاصم ، وتختلف القائمة التى يقدمها الطبرى وابن الأثير لقواد الحملات الدروية عن قائمة اليعقوبى ، هذا ويظهر أن القواد كانوا يورثون أبنائهم مهام الغزو . وقد روى ان الرشيد غزا بنفسه سنة١٧٠هـ، كما أنه غزا سنة ١٨١ هـ فافتتح حصن الصفصاف وبلغ عبد الملك بن صالح فى نفس السنة أنقرة وافتتح مطمورة ، وتلاه ابنه فى العام التالى فبلغ افسوس . وفى سنة ١٨٦ هـ **بايع الرشيد للقاسم ابنه وسماه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم وأشخصه الى منبج فأنزله اياها بما انضم اليه من القواد والجند ، وأغزاه الصائفة فى العام التالى « فوهبه لله وجعله قربانا ووسيلة »** .

وقد كان المسلمون يعانون من الظروف الطبيعية القاسية فى منطقة الحدود الاسلامية البيزنطية . ومن ذلك شدة البرد حتى يقال انه قطع أيديهم وأرجلهم فى حملة سنة ١٧٥ هـ ، ومن أجل ذلك نجد أن الغزوات كانت فى غالبها صائفة ، وان كانت شاتية فى بعض الأحيان . كذلك كانت منطقة الثغور والعواصم معرضة للزلازل ، ومن ذلك حدث سنة ١٨٧ هـ اذ « زلزلت المصيصة ، فانهدم بعض سورها ونضب ماؤهم ساعة من الليل » . هذا وقد كان العباسيون يولون أولاد عمومتهم منطقة الثغور والعواصم أو الجزيرة أو الشام ، ولكن الخلافات بين الخلفاء وأقاربهم كثيرا ماكانت تؤدى الى عدم الاستقرار الادارى فى المنطقة وكثرة التولية والعزل ، فقد غضب المنصور على صالح بن على الذى تولى الشام بعد عبد الله بن على وعلى غيره من ولد على بن عبد الله بن عباس ، كما عزل أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وغرمه مالا وحبسه سنة ١٥٥هـ اذ كان قد اصطدم بيزيد بن اسيد ـ وغضب المهدى على عبد الصمد بن على الذى كان على الجزيرة سنة ١٦٣هـ . وولى الرشيد

عبد الملك بن صالح الثغور والعواصم فى أوائل خلافته وكان مقره منبج ثم عزله ، ولكن أعاده بعد ذلك ثم عزله مرة أخرى بسعاية ابنه وكاتبه · فظل محبوسا منذ سنة ١٨٧ هـ حتى أطلقه الأمين ، وعقد له على الشام ، فكانت ولايته الثالثة ، ولم يزل بالرقة حتى مات ·

ويتحدث ابن الأثير **عن فداء بين الروم والمسلمين سنة ١٨١ هـ** وهو العام الذى غزا فيه الرشيد « وهو أول فداء كان فى أيام بنى العباس ، وكان القاسم بن الرشيد هو المتولى له ، وكان الملك نقفور · ففرح بذلك الناس · ففودى بكل أسير فى بلاد الروم ، وكان الفداء باللامس على جانب البحر بينه وبين طرسوس ١٢ فرسخا · وحضر ثلاثون ألفا من المرتزقة مع ابى سليمان فرج الخادم متولى طرسوس ، وخلق كثير من أهل الثغور وغيرهم من العلماء والأعيان ، وكان عدة الأسرى ثلاثة آلاف وسبعمائة وقيل أكثر » · ولكن ابن الأثير مع ذلك يتابع الطبرى فى ذكر فداء سابق على هذا جرى فى عهد المنصور سة ١٣٩ هـ · وربما قصد أن فداء سنة ١٨١ هـ كان أول فداء جرى باللامس وفق نظام معين موضوع لتبادل الأسرى بين المسلمين والروم ·

وتسجل الحوليات الاسلامية احداثا خطيرة فى سنة ١٨٧ هـ فى سنة ٨٠٣ م ، اذ دخل القاسم ابن الرشيد أرض الروم فاناخ على قرة وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث فاناخ على حصن سنان وواصل الحصار فبعثت اليه الروم تبذل له ٣٢٠ أسيرا من المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم · ولكن الحدث الأكبر هذا العام هو **نقض صاحب الروم الصلح الذى كان قد عقد ايام ايرين ، وذلك بعد خلعها وتولية الروم نقفور** « والروم تذكر ان نقفور هذا من أولاد جفنة من غسان ، وأنه قبل الملك كان يلى ديوان الخراج ···· فذكر ان نقفور لما ملك واستوثقت له الروم بالطاعة كتب الى الرشيد : من نقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب أما بعد ، فان الملكة التى كانت قبلى اقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثالها اليها ، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن · فاذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، والا فالسيف بيننا وبينك · فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحدا أن ينظر اليه دون أن يخاطبه ، وتفرق جلساؤه خوفا من زيادة قول او فعل يكون منهم ، واستعجم الرأى على الوزير من ان يشير عليه او يتركه يستبد برأيه دونه ـ فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب : بسم الله

الرحمن الرحيم : من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ـ قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ماتراه دون أن تسمعه وسار الرشيد من يومه حتى هاجم **هرقلة** ، ففتح وغنم وخرب وحرق لتأديب امبراطور الروم، **وكان نقفور وقتها مشغولا باخماد ثورة داخلية هى ثورة باردنس**Bardanes فلم يكن مهيئا للقائه • فعرض دفع الجزية سنويا اذا ما انسـحب الجيش المتقدم من الأبواب القيليقية الى هرقلة ، ووافق الرشيد مكتفيا بما أحدثه فى أرض عدوه من تخريب وما كبده اياه من خسائر • وما كاد الرشيد يرجع ادراجه الى الفرات ويصل الرقة حتى أتت الأنباء بنقض نقفور العهد « وكان البرد شديدا ، فيئس نقفور من رجعته اليه » واحتال وزراء الرشيد على ابلاغه الخبر « اشفاقا عليه وعلى أنفسهم من الكرة فى مثل تلك الأيام » ، فدسوا له شاعرا يقول :

نقض الذى أعطيته نقفـور ... وعليه دائرة البوار تـدور
نقفور انك حين تغدر ان نأى ... عنك الامام لجـاهل مغـرور
ان الامام على اقتسارك قـادر ... قربت ديارك ام نأت بك دور
ملك تجـرد للجهاد بنفسـه ... فعـدوه ابـدا به مقهـور

فلما فرغ الشاعر من انشاده قال الرشيد : أوقد فعل نقفور ذلك ؟ « فكر راجعا فى أشد محنة وأغلظ كلفة ، حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضى » • وقال فى ذلك أبو العتاهية :

الا نادت هـرقلة بالخـراب ... من الملك المـوفق بالصـواب
غـدا هرون يرعـد بالمنايا ... ويبرق بالمـذكرة القضـاب

وذكر ان نقفور خرج فى العام التالى للقاء صائفة ابراهيم بن جبريل سنة ١٨٨ هـ سنة ٨٠٤م وكان قد دخل أرض الروم من درب الصفصاف وقتل كثيرا من الروم وغنم دوابهم • على أن نقفور « ورد عليه من ورائه امر صرفه عن لقائه ، فجرح ثلاث جراحات ، وانهزم • وقتل من الروم اربعون الفا وسبعمائة وأخذ أربعة آلاف دابة » • وكان القاسم بن الرشيد مرابطا بدابق • وجرى فداء للأسرى فى سـنة ١٨٩ هـ « فلم يبق بأرض الروم مسلم الا فودى به » وقال فى ذلك مروان بن أبى حفصة •

وفكت بك الأسرى التى شيدت لها ... محابس مافيها حميم يزورهـا
على حين اعيى المسلمين فكاكهـا ... وقالوا سجون المشركين قبورها

على أن الروم استعادوا نشاطهم وخرجوا سنة ١٩٠ هـ سـنة ٨٠٦ م **فاغاروا على عين زربة والكنيسة السوداء** ، وأسروا بعض المسلمين

واستاقوا مواشيهم لكن نجح أهل المصيصة فى انجاد اخوانهم واستنقاذ ما بأيدى الروم • وخرج الرشيد ليشفى نفسه من نقفور وغدره فى حملة تصور ضخامتها الحوليات الاسلامية « وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم ، وكان دخلها فيما قبل فى ١٣٥ الف مرتزق ـ سوى الأتباع والمطوعة ومن لاديوان له • واناخ عبد الله بن مالك على **ذى الكلاع** ، ووجه داود بن عيسى بن موسى سائحا فى أرض الروم فى ٧٠ الفا • وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة **حصن الصقالية ودبسة** ، وافتتح يزيد بن مخلد **الصفصاف وملقوبية** • وكان فتح الرشيد هرقلة فى شوال ، وأخربها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوما عليها • ثم سار الرشيد الى الطوانة ، فعسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر وأمره ببناء فنزل هنالك » • **وهكذا استولى الرشيد على عدد من القلاع الهامة ، وهرقلة ، وطوانة الى الشمال من لؤلؤة على الطريق الى قيصرية ، وقد حولها الى مركز احتلال دائم** • وقد ابلى المسلمون بلاء حسنا فى حصار هرقلة واستعملوا النار فى المنجنيقات • ويروى المسعودى أن الرشيد كان قد نصحه ناصح بأن هرقلة نقطة عسكرية لا غنيمة ترجى من ورائها وقيل له « هذا حصن بنته الروم فى نحر الدروب ، وجعلته ثغرا ـ وليس بالآهل ، فان انت فتحته لم يكن فيه ما يعم المسلمين من الغنائم » • على ان الرشيد قد سمع رأيا آخر يقول ان « هذا أول حصن لقيت من حصون الروم ، وهو فى نهاية المنعة، فان نزلت عليه وسهل الله فتحه لم يتعذر عليك فتح حصن بعده » • وقد انتهت حملات الرشيد باتفاق مع نقفور « وكان نقفور اشترط الا يخرب ذا الكلاع ولا صملة ولا حصن سنان واشترط الرشيد عليه الا يعمر هرقلة ، وعلى أن يحمل نقفور ثلاثمائة الف دينار» •

وقد اتخذ الرشيد قلنسوة مكتوبا عليها (غاز حاج) وتعتبر جملته هذه أقصى ما وصل اليه النفوذ العباسى ، وقد اثنى على الرشيد ابو المعالى الكلابى بقوله :

فمن يطلب لقاءك أو يرده   فبالحرمين أو أقصى الثغور

ومن طريف مايروى ان نقفور كتب مع بطريقين من عظماء بطارقته رسالة الى الرشيد فى جارية لابنه من سبى هرقلة واستهداه طيبا وسرادقا فأمر الرشيد بارسال الجارية والهدايا ، ورد نقفور بهدايا أخرى•

وظهرت أخبار **النشاط البحرى الاسلامى** أيضا فى ذلك العام ، فقد ولى الرشيد حميد بن معيوف سواحل بحر الشام الى مصر « فبلغ قبرس ـ وكان أهلها قد نقضوا العهد ، فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر

الفا ، فأقدمهم الرافقة فتولى بيعهم ابو البخترى القاضى فبلغ اسقف قبرص الفى دينار » • وازاء هذا النجاح فى حملات البر والبحر ، يعقب مؤرخو الحوليات على حوادث العام بأن نقفور بعث الى الرشيد « بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين الف دينار » •

وفى العام التالى سنة ١٩١ هـ سنة ٨٠٧ م غزا يزيد بن مخلد الهبيرى أرض الروم « فأخذت الروم عليه المضيق فقتلوه على مرحلتين من طرسوس فى خمسين رجلا ، ورجع بقية الجيش وكان عشرة آلاف • فاغزى الرشيد الصائفة هرثمة بن اعين فى ثلاثين الفا من جند خراسان ومعه مسرور الخادم – اليه النفقات وجميع الأمور خلا الرئاسة « ومضى الرشيد الى درب الحدث ، فرتب هنالك عبد الله بن مالك ، ورتب بسعيد بن مسلم بن قتيبة بمرعش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين ، وبعث محمد بن يزيد بن مزيد الى طرسوس ، ثم انصرف الرشيد الى الرقة » •

ولم يجد الرشيد فرصة لمتابعة حملاته ضد الروم ، اذ منعته الفتن فى ممتلكاته الشرقية وبخاصة خلال العامين الأخيرين من حكمه سنة ١٩٢ – ٣ هـ سنة ٨٠٨ – ٩ م حين خالف رافع بن ليث بن نصر بن سيار بسمرقند من مواصلة جهاده ضد الروم بنفس النشاط • فلا نجد فى الحوليات الاسلامية خلال تلك الفترةسوى أنباء **الفداء بين المسلمين والروم** على يدى ثابت بن نصر بن مالك ، وقد ولى الثغور فغزا فافتتح مطموره • وجرى الفداء بالبدندون ، وكان عدد أسرى المسلمين ٢٥٠٠ أسير . ثم جاءت أحداث الصراع بين الأمين والمأمون ، فأمنت الامبراطورية البيزنطية طيلة عدة سنوات من أى هجوم خطير ، حتى ذكر الطبرى فى آخر أخبار سنة ١٩١ هـ « **ولم يكن للمسلمين بعد هذه السنة صائفة الى سنة ٢١٥ هـ** (١٧٥) » •

وكانت الجبهة الأرمينية المتاخمة للجبهة البيزنطية مثار متاعب للمسلمين « وكانت ارمينية قد انتقضت بعد وفاة المهدى ، فلم تزل

---

(١٧٥) الطبرى حـ ١٠ ص ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ – ٤ ، ٦٢ ، ٥٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٣ ، ٨٩ : ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٧ : ١٠٠ ، ١٠٨ – ٩ ، ابن الأثير حـ ٦ ص٤٠ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٤ – ٥ ، ٦٦ ، ٦٧ – ٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ – ٧٤ ، ٧٥ ، اليعقوبى حـ ٣ ص١٦١ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٧ ، ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ٦٢ : ٤ ، المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٠٤ : ٨ ، دكتور جومرد : هرون الرشيد حـ ٢ ص ٥٣١ : ٥ ، حتى : تاريخ العرب حـ ٢ ص ٣٧١ – ٢
Bury : Hist. of the Eastern Rom. Emp., pp. 24z-251.
Brockelmann : Hist. of the Islamic Peoples, pp. 115-6.

منتقضة أيام موسى ، فلما ولى الرشيد خزيمة بن خازم التميمى ارمينية اقام بها سنة وشهرين وضبطها وصلحت البلاد واعطى اهلها الطاعة ... ثم وليها يزيد بن مزيد الشيبابى فضبطها اشد ضبط ، حتى لم يكن أحد يتحرك » لكن الولاة الذين تتابعوا على أرمينية قد تفاوت حظهم من النجاح ، فالفضل بن يحيى البرمكى قد هزم هناك ، ولم تفلح شدة يحيى الحرشى فى قمع الاضطرابات « فولى الرشيد سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلى فلما قدم البلد تلاءمت الناس شهورا ، ثم تعبث بالبطارقة فخالف عليه الباب والابواب ووثبوا بعاملة فقتل سعيد بن مسلم صاحب الباب والابواب ، فوثب ابنه وكشف رأسه للمعصية وكتب الى خاقان ملك الخزر ، فزحف اليه ملك الخزر فى خلق عظيم فأغار على المسلمين ، فقتل وسبى خلقا عظيما وحرق البلاد وقتل النساء والصبيان » . وقد دخل الخزر ارمينية (من الثلمة) كما يذكر الطبرى . وفى سنة ١٨٣ هـ ولى الرشيد يزيد بن مزيد ارمينية مع اذربيجان وقواه بالجند ، وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين ردءا لأهل ارمينية لمواجهة هذا الخطر الداهم الذى بلغ من شدته أن قيل ان الخزر قد سبوا أكثر من مائة الف « فانتهكوا امرا عظيما لم يسمع فى الاسلام بمثله » كما يقول الطبرى وقد حاول يزيد بن مزيد أن يصلح ما افسده سعيد ويخرج الخزر ويسد الثلمة التى نفذوا منها « فلما قدم تلاءمت الناس ، واصلح البلاد وساوى بين النزارية واليمانية ، وكتب الى أبناء الملوك والبطارقة يبسط آمالهم فاستوى البلد » ـ كما يذكر اليعقوبى . على أن ارمينية بقيت مع ذلك مثارا للاضطرابات الدائمة ويعبر عن ذلك البلاذرى بقوله : « ولم يزل بطارقة أرمينية مقيمين فى بلادهم يحمى كل واحد منهم ناحيته ، فاذا قدم الثغر عامل من عماله داروه ، فان رأوا منه عفة وصرامة وكان فى قوة وعدة أدوا اليه الخراج واذعنوا له بالطاعة ، والا اغتمزوا فيه واستخفوا بأمره » (١٧٦) .

وقد ثارت **العصبية بين اليمانية والقيسية** من جديد فى عهد العباسيين ، وظهرت فى اذربيجان وارمينية « وولى المنصور اذربيجان يزيد بن حاتم المهلبى فنقل اليمانية من البصرة اليها وكان أول من نقلهم ... وفرق قبائل اليمن ... ثم ولى الرشيد يوسف بن راشد السلمى فنقل الى البلد جماعة من النزارية وكان الغالب على ارمينية

---

(١٧٦) اليعقوبى حـ ٣ ص ١٥٦ : ٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٧ ـ ٨ ، الطبرى حـ ١٠ ص ٧٠ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٥٨ .

اليمانية ، ثم ولى يزيد بن مزيد الشيباني فنقل اليها ربيعة من كل ناحية حتى هم اليوم الغالبون عليها (١٧٧) » ٠

وقد روى فى أخبار بنـاء الرصـافة فى الجانب الشرقى من بغداد أن قثم بن العباس استثار اليمن على مضر بتفضيله مضر ليتخـذ ذلك ذريعة لاقامة ابن الخليفة بجانب من الجيش فى الرصافة وذلك سنة ١٥١هـ « فنفر الحيـان ٠٠٠٠ وافترق الجنـد فصـارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسـانية فرقة وربيعة فرقة ، فقـال قثم لأبى جعفر : قد فرقت بين جندك ، وجعلتهم أحزابا ـ كل حزب منهم يخـاف أن يحدث عليك حدثا فتضربه بالحزب الآخر (١٧٨) » ٠

كذلك تجدد النزاع بين القيسية واليمانية فى الشام أيام الرشيد ، وكانت بداية ذلك سـنة ١٧٤ هـ ، ثم تكرر ذلك سـنة ١٧٦ هـ **فهاجت الفتنة بدمشق وكان راس المضرية أبو الهيدام** عامر بن عمـارة ابن خزيم ٠ وكان سبب الفتنة ان عاملا للرشيد بسجستان قتل أخاه ، كما كانت تسـتثير المنازعات أسـباب تافهة حتى قيل ان منـازعة قامت من أجل بطيخة فى بستان لرجل من لخم أو جذام أخذها رجل من بنى القين ٠ وعزل عبد الصمد عن دمشق واسـتعمل عليهـا ابراهيم ابن صـالح بن على وكان ميله مع اليمانيـة ، فاسـتمر النزاع واستشرى حتى استولى أبو الهيدام على دمشـق واسـتمد المضرية ، كما تجمعت اليمانية ودار القتال بين الفريقين ٠ وانهزمت اليمانية مرة بعد اخرى وانتصرت المضرية على جند اسحاق بن الوالى ابراهيم بن صالح ٠ **وامتد النزاع الى حمص** حيث أغار أهلها على قرية لأبى الهيدام ، فأرسل اليهم طائفة من أصحابه فانتصروا عليهم ٠ فأرسل الرشيد جيشا عليه السندى فأخبره ابو الهيدام انه على الطاعة فصولح ابو الهيدام ، ولكن تجدد القتال حين قدم موسى بن عيسى واليا على دمشق وأراد أن يباغت ابا الهيدام وكان قد قصد بصرى ٠ وأخيرا سكنت الفتنة لتتجدد سـنة ١٨٠ هـ ، فولى الرشيد جعفر بن يحيى الشام ليعالج هذه الخلافات العصبية « فأصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ، ولم يدع بها رمحا ولا فرسا فعادوا الى الأمن والطمأنينة فأطفأ تلك الثائرة » ٠ ومات ابو الهيدام سنة ١٨٢ هـ ولكن تجددت المنازعات سنة ١٨٧ هـ والوالى على دمشق شعيب بن خازم بن خزيمة وذكروا منه تعصبا ، فوجه الرشـيد

---

(١٧٧) اليعقوبى حـ ٣ ص ١٠٧ ، ١٥٦ ٠

(١٧٨) الطبرى حـ ٩ ص ٢٨٢ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ٢٤٣ ٠

محمد بن منصور ابن زياد وأمره بدعاء الفريقين الى الرجوع · وفى سنة ١٩٠ هـ وثب أهل حمص بواليهم فخرج الرشيد نحوهم « فلما صار بمنبج لقيه وفدهم يعطون بأيديهم ويسألون ، فعفا عنهم » · كما أرسل الرشيد يحيى بن معاذ لقمع فتنة بالشام فى العام التالى ·

وتجدد خلاف أهل حمص فى عهد الأمين سنة ١٩٤ هـ وكان عهدا مضطربا انتهز فرصته كل راغب فى الخروج ، فصرف الأمين اسحق ابن سليمان عن حمص وولى عبد الله بن سعيد الحرشى « فحسب عدة من وجوههم ، وضرب مدينتهم من نواحيها بالنار » · على أن الفتنة الخطيرة **بالشام كانت فتنة السفيانى سنة ١٩٥ هـ** وهو على بن عبد الله بن خالد ابن يزيد بن معاوية الملقب بالعميطر ، وكان يقول : أنا ابن شيخى صفين، لأنه كان ينتسب لبنى أمية من جهة أبيه ، ولآل أبى طالب من جهة أمه · وكان أكثر أصحابه من كلب ، **وتعصب له اليمانية وهاجم القيسية** ،وطارد عامل الأمين على دمشق وعاونه المتغلب على صيدا ، لكن **تصدى له محمد بن صالح بن بيهس الكلابى** ، وانتصر عليه · فكتب ابو العميطر الى **السواحل والبقـــاع البعلبك وحمص** فأتاه خلق عظيـم · ولكن مرض ابن بيهس فاجتمعت نمير على اموى آخر هو مسلمة بن يعقوب من سلالة مســلمة ابن عبد الملك ، فتغلب على السفيانى وأدنى القيسية · ثم استأنف ابن بيهس القتال حتى هرب مسلمة والسفيانى من وجهه بعد أن استولى على دمشق سنة ١٩٨ هـ ، وظل حتى قدم عبد الله بن طاهر بعد انتصـار المأمون فدخل دمشق سنة ٢٠٨ هـ وحمله معه الى العراق سنة ٢١٦ هـ ·

وقد امتدت نيران العصبية الى شمال العراق **فحدثت وقعة الميدان بالموصل** بين اليمانية والنزارية سنة ١٩٨ هـ ، وهزم النزارية ·

وبينما كان زمام الشام يفلت من يد الامين على هذا النحو فى دمشق وحمص ، **اذا بعبد الملك بن صالح الذى كان قد حبسه الرشيد وأطلقه الامين سنة ١٩٣ هـ يقنعه بورقيام بمحاولة للانتصار بأهل الشـــام فى حربه ضد المأمون** قائلا ان « أهل الشام قوم قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد ، وجدهم منقاد الى مسارع الى طاعتى » فولاه الامين الشـــام والجزيرة ، فلما بلغ الرقة أنفذ رسله الى القواد والوجوه « فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه الا وعده وبســط له فى أمله · فقدموا رئيسا بعد رئيس وجماعة بعد جماعة ـ فكان لايدخل عليه أحد الا أجازة وخلع عليه فأتاه **أهل الشام والزواقيل والاعراب** من كل فج » · ثم نشب احتكاك بين جند من أهل خراسان وبين الزواقيل ، وأخذ الفريقـــان

يتجمعان • ولكن تخوف أهل الشام مغبة الصراع « فقال **رجل من أهل حمص** : ••• انكم بعدتم عن بلادكم وخرجتم من أقاليمكم ترجون الكثرة بعد القلة والعز بعد الذلة••• النفير النفير، قبل أن ينقطع السبيل!» وقال **رجل من كلب** « انكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان فى رقابكم • اعتزلوا الشر قبل أن يعظم ،وتخطوه قبل أن يضطرم شأمكم • داركم داركم، الموت الفلسطينى خير من العيش الجزرى » • واستنهض **رجل من تغلب فقال** « والله ما أنا من قيسها ولا يمنها ، ولا كنت فى أول هذا الأمر لأشهد آخره » **فانهزم أهل الشام أمام أهل خراسان ، وكان من بين المنهزمين نصر بن شبث الذى سيقود ثورة فى عهد المأمون** ، وعمرو السلمى والعباس بن زفر • وفى هذا الوقت المضطرب **اراد عرب حاضر** حلب من تنوخ وغيرهم اخراج اهلى حلب ، فاستنجد الهاشميون من أهلها بقبائل العرب حولهم فانجدهم العباس بن زفر بن عاصم الهلالى ويعقوب بن صالح الهاشمى وتم اجلاء أهل الحاضر الى قنسرين ، فلما أرادوا التغلب عليها أخرجهم أهلها عنها « فتفرقوا فى البلاد ، فمنهم قوم قدم بتكريت وقوم بارمينية وفى بلدان كثيرة متباينة » •

ثم قامت فتنة أموية جديدة فى أول عهد المأمون ، اذ خرج **سعيد بن خالد الأموى وتعصب لليمن وادعى الخلافة ، فتصدى له يحيى بن صالح** ابن بيهس حتى فر ، وهدم حصنه بالفدين فى **حوران** ثم تفرق عنه اصحابه• واستمرت فتن الشام فى عهد المأمون ، وقدم عبد الله بن طاهر بن الحسين بغداد « بالمتغلبين على الشام كأبى السرج وابن أبى الجبل وابن ابى الصقر » • حتى اذا كان عهد المعتصم اجتمعت يمن وقيس على خلاف والى دمشق سنة ٢٢٤ هـ ، وفى سنة ٢٢٧ هـ **خرج ابو حرب المبرقع اليمانى بفلسطين** وكان يقعد على الجبال بالنهار متبرقعا ويزعم أنه أموى وقيل انه السفيانى واستجاب له بعض الحراثين « فلما كثرت غاشيته وأتباعه من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات منهم جماعة من رؤساء اليمانية » • غير أنه لم يستطع أن يقاوم جيشا عباسيا انتهز فرصة انصراف الزارعين الى زراعتهم •كذلك عصى **أهل حمص** أيام المعتصم وشغبوا على عاملهم الفضل بن قارن، فأمر بقلع الصخر الذى يفرش المدينة، لكنهم أعادوه وحاربوا واليهم « حتى قدروا عليه وأنهبوا ماله ونساءه، وأخذوه وقتلوه وصلبوه » فأرسل الخليفة اليهم موسى بن بغا الكبير مولاه فى حملة تأديبية ، فتصدى له أهل حمص ، « وفيهم خلق من نصارى المدينة ويهودها فقتل منهم مقتلة عظيمة وهزم باقيهم حتى الحقهم بالمدينة ودخلها جنده ـ وذلك فى سنة ٢٥٠هـ » .

وعلى هذا النحو عاشت الشام هذه الحياة المضطربة فى عهد العباسيين ، ويصور كرد على هذه الفتن والقلاقل فيقول « وهكذا لم يخل عهد السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد والامين والمأمون من خلفاء بنى العباس من فتن مشئومة بالشام ، وبقيت نار العصبيات تتأرجج ، واليمانيون مع الامويين والقيسيون مع العباسيين والدعوة للسفيانى الذى وعد بارجاع ملك بنى أمية تهب وتنام ....
حتى ان ابراهيم بن المهدى حين ولى دمشق أمر بتصيير أعلى الناس من الجانب الأيمن مضريا وعن شماله يمانيا ومن دون اليمانى مضرى ومن دون المضرى يمانى حتى لايلتصق مضرى بمضرى ولا يمانى بيمانى ،وكانت الحاجة تعرض لبعض الحيين فيسأل قبل أن يقضيها : هل لأحد من الحى الآخر حاجة تشبه حاجة السائل ؟ فاذا عرفها قضى الحاجتين (١٧٩) » !!

وتتابعت الفتن بالموصل والجزيرة خاصة من الخوارج ففى عهد الرشيد **خرج الصحصح الخارجى** سنة ١٧١ هـ فانتصر على عسكر محمد بن فروخ وغلب على ديار ربيعة ثم قتل بدورين • **وقتلت تغلب** روح بن صالح الهمدانى من قواد الموصل ، فسار اليهم حاتم بن صالح فهزمهم • وفى سنة ١٧٦ هـ **خرج الفضل الخارجى** بنواحى نصيبين ، وسار الى دارا وآمد وارزن وخلاط فكان يأخذ الأموال وهزم عسكر الموصل عند الزاب ، وقتل أخيرا • وخرج سنة ١٧٧ هـ : ٧٩٣ م **العطاف بن سفيان الأزدى** ، فاجتمع عليه أربعة آلاف مقاتل وغلب على الموصل وجبى خراجها سنتين رغم وجود عامل الرشيد ، وبقى متمردا باطراف الموصل والجزيرة حتى مشى اليه الرشيد بنفسه فهرب الى أرمينية • وهدم الرشيد سور الموصل سنة ١٨٢ هـ ، وعزم على قتل أهلها فلم يفتة بذلك ابو يوسف ، فعين عليها يحيى بن سعيد الحرشى الذى اشتط فى كبح جماحها • وفى سنة ١٧٨ هـ خرج **الوليد بن طريف الشارى** بالجزيرة ، ففتك بابراهيم بن خازم بن خزيمة بنصيبين ، ثم مضى الى ارمينية وأذربيجان والناس يفتدون انفسهم بالمال ، ثم رجع الى الجزيرة فى العام التالى واشتدت شوكته وكثر اتباعه • فسير اليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيبانى فكان

(١٧٩) الطبرى حـ ١٠ ص ٥٢ ، ٥٩ ـ ٦٠ ، ٦٦ : ٨ ، ١٠٠ ١٣٠ ، ١٥٥، ١٦١ ، : ٣ ، ٢٧٨ ، حـ ١١ ص ٥ ـ ٦ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٤٥ : ٨ ٥٤ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٨٩ ـ ٩٠ ، ٩٣ ، ١١١ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٠٦ ، ١٤١ ـ ٢ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٠ ـ ١ ، ص ١٥٢ ـ ٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٦٢ ، كرد على خطط الشام ج ١ ص ١٨١ ـ ١٦٦ ، ١٨٩ : ١٩٣
Hitti : History of Syria, pp. 540:2.
الترجمة العربية ج ٢ ترجمة د . اليازجى ص ١٦٥ ـ ٦

بطاوله ، فدس له البرامكة عند الرشيد لقرابة بينه وبين الثائر فكتب اليه غاضبا ، على أن يزيد استطاع في النهاية أن يقتل الوليد ويهزم اتباعه سنة ١٧٩ هـ • وخرج **خراشة الشيباني** بالجزيرة سنة ١٨٠ هـ فقتله مسلم بن بكار العقيلي • وخرج **عبد السلام الخارجي** بآمد سنة ١٨٧ هـ ، فقتله يحيى بن سعيد العقيلي •

ولم تقتصر الفتن بالجزيرة على الخوارج ، فقد عصى من **مقدمي الاكراد** سنة ٢٢٤ هـ جعفر بن فهرجس وتبعه كثير من الاكراد ، فاستعمل المعتصم عبد الله بن السيد بن أنس الازدي على الموصل لقتاله «فقصد جبل داسن ، وامتنع بموضع عال فيه لاميرام والطريق اليه ضيق ، فاستظهر جعفر ومن معه من الاكراد على عبد الله لمعرفتهم بتلك المواضع » • فيسير المعتصم ايتاخ فهلك جعفر وكثير من الاكراد ، ونقل كثير منهم الى تكويت وقيل أن حملة ايتاخ كانت سنة ١٢٦ هـ (١٨) •

وكانت أخطر ثورات الجزيرة : ثورة **نصر بن شبث العقيلي** في وجه المأمون ، وهو الذي كان قد اشترك في القتال بين عرب الشام وأهل خراسان بالجزيرة اثناء ولاية عبد الملك بن صالح للأمين على الشام والجزيرة • **وكان نصر يتحصن في كيسوم وسروج** ،ومضت سنوات متتابعة وهو متغلب على منطقته • وخرج عبد الله بن طاهر لقتاله سنة ٢٠٦ هـ سنة ٨٢١ م بعد أن تولى الرقة وديار ربيعة وكتب له أبوه في أمور السياسة والادارة كتابا شهيرا ، ولما مات طاهر سنة ٢٠٧ هـ صير المأمون عبد الله بن طاهر على عمله في الجزيرة والمشرق وجمع له الشام وكان مقيما بالرقة يواصل قتال نصر بن شبث وقد أوفد اليه المأمون رجلا من أهل الجزيرة يعطي نصر الأمان ، فاشترط شروطا منها « الا يطأ للمأمون بساطا » ولكن المأمون لم يرض بهذا الشرط ، وكان نصر بن شبث يخشى الغدر » ولم تكن له يد قط يحمل عليها ولا لمن مضى من سلفه ، انما كانوا من جند بني أمية »

وأصر نصر على القتال مادام لم يقبل شرطة ، وقال عن المأمون « لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه ــ يعني فتنة الزط ــ يقوى على حلبة العرب ؟ » • وقد أنبيء المأمون أن عبد الله بن طاهر يخرج الى نصر بن

---

(١٨٠) ابن الاثير جـ ٦ ص ٤١ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ــ ٢ ، ٥٥ ، ٦٧ ، ١٨٧ ، الطبري جـ ١٠ ص ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٨٩ ، جـ ١١ ص ٦ ، اليعقوبي جـ ٣ ص ١٤٢ ، صائغ : تاريخ الموصل جـ١ ص ٧٣ : ٩ •

شبث فيجتمعان ويتحدثان ، فأرسل اليه معنفا • وجد عبد الله فى قتال نصر وحصره ويقال أن نصرا لما علم عزم المأمون على القدوم الى بغداد أملى على كاتبه خطابا للبطريق مانويل كما كان يريد التحالف مع الروم ، فلما علم الامبراطور ميشيل بذلك بعث رسله فوصلوا الى كيسوم فوجدوه قد خرج الى سروج ، وأنكر عليه انصاره اتصاله برسل الروم حتى ملأوا نفسه حقدا « فأرسل من قتل رسل الروم » •

ويبدو أن الملحمة الرومية حفظت ذكرى ثورة نصر لأن منطقتها كانت منطقة البطل الرومى ديجنيس Digenis (اقليم سميساط) ، وكان نصر يرأس القيسية ، وقد ذكر ميشيل السورى انه كان يعامل المسيحيين برفق ويقول : ليس لى عندكم الا الجزية ، وكل فرد بعد ذلك حر فى اختيار عقيدته ،ويرجح فازيلييف أن نصر هو الذى يسميه الروم تيوفوبوس Theophobos . على أن هناك نصرا آخر يسميه الروم تيوفوب هو قائد الخرمية اللاجئين لبلاد الروم • ويذكر جريجوار أن « تيوفوب التاريخى كان من رجال بابك ، ثم لجأ الى أرض الروم بعد هزيمة بابك الأولى سنة ٨٣٤ م • وكان اسمه فى الحقيقة نصرا وقد دخل فى النصرانية وسمى عند التعميد باسم تيوفوب ، وعهد اليه بقيادة جيش من الحلفاء الخرمية اللاجئين الى الروم ، وقد اذاع الروم كذلك انه ينتمى الى أصل فارسى ملكى ليزيدوا من نفوذه » • ويذكر بيورى (تيوفوبوس) فحسب على ان رواية رومية تجعل تيوفوبوس (نصر) لاجئا ارمينيا • وقد أشارت تعليقات الناشر على كتاب فازيلييف الى أن **بيورى** « **يخلط بين شخصين اسمهما نصر احدهما ثائر عربى وثانيهما قائد بابك**» ومن هنا شك فى أن يكون نصر هو تيوفوبوس • وأخيرا أرسل المأمون الى نصر يؤمنه ويحذره عاقبة المعصية قائلا « لأطان بمن معى من أنصار الدولة كواهل رعاع أصحابك ، ومن تأشب اليك من أدانى البلدان وأقاصيها وطغامها وأوباشها •**فخرج نصر الى عبد الله بالأمان سنة ٢٠٩هـ ٨٢٥ م ، بعد أن أقام عبد الله على حربه خمس سنين ، وخرجت كيسوم، ووجه نصر مع أنصاره الى بغداد** • وكتب عبد الله الى سائر المتغلبين فى الجزيرة والشامات فطلبوا الأمان « وسار عبد الله ليستقرى الشام بلدا بلدا ، لا يمر ببلد الا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقيل ، وهدم الحصون وحيطان المدن ، وبسط الأمان للأسود والأبيض والاحمر وضمهم جميعا • ونظر فى مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج ـ فلم يبق مخالف ولا خالع الا خرج من قلعته وحصنه ، وسار عبد الله بالقوم جميعا الى مصر » • وقد نجح فى القضاء على الفتن

بمصر واستأمن اليه على بن عبد العزيز الجروى وعبد الله بن السرى بن الحكم ،وأقام مصر سنة ٢١١ هـ واليا عليها وعلى الشام والجزيرة • واتهم بالتشييع للعلويين لكن المأمون كان مستوثقا من طاعته • فى سنة ٢١٣هـ ولى المأمون أخاه أبا اسحق الشام ومصر ، وولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم ، وأمر لكل واحد منهما ولعبد الله ابن طاهر بخمسمائة الف دينار (١٨١) •

ولم تكن هذه الفتن لتجد سبيلها الى الشام والجزيرة على هـــذا النحو الفظيع الا **لأن قلب الدولة نفسه يغلى بالاضطرابات** • ويذكر الطبرى فى صدد عهد الرشيد الى **ابنيه الأمين فالمأمون سنة١٨٢ هـ ثم اضافته ابنه القــاسم** وتســميته المؤتمن سنة ١٨٦ هـ « ولمــا قسم الأرض بين أولاده الثلاثة ـ قال بعض العامة : قد أحكم أمر الملك ، وقال بعضهم : بل قد القى بأسهم بينهم وعاقبه ماصنع مخوفة على الرعية » • واما ابن الأثير فيقول :«وهذا من العجائب، فان الرشيد قد رأى ماصنع ابوه وجده المنصور بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد ، وما صنع أخوه الهادى ليخلع نفسه من العهد ـ فلو لم يعاجله الموت لخلعه ـ ثم هو يبايع للمأمون بعد الامين ، وحبك للشىء يعمى ويصم » • وبيد الرشيد نفسه غرست جرثومة الخلاف بين الاخوين اذ « اشهد الرشيد من معه من القواد وسائر الناس وغيرهم وغيرهم أن جميع من معه من الجند مضمومون الى المأمون ، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون » فعظم ذكر على الأمين ، وأراد أن يحتاط لنفسه بمتابعة أخبار مرض أبيه والمبادرة الى العمل ، فلما اعتلى عرش الخلافة **عزل أخاه القاسم سنة ١٩٤ هـ عما كان أبوه ولاه من الشام وقنسرين والعواصم والثغور** ، كما أمر بالدعاء لابنه موسى بالامرة ، فظهر الفساد بين الأخوين وتبودلت بينهما الكتب دون طائل • وأخذ طاهر بن الحسين قائد المأمون يتقدم نحو العاصـــمة ، وحاصر مع هرثمة بن أعين الأمين ســـنة ١٩٧ هـ • وعلى الرغم من انتصـــارات جند الأمين أول الأمر فى واقعتى درب الحجـــارة وباب الشماسية ، فقد استعمل طاهر المكر والدسيسة بجانب الحرب حتى فرق اتباع الأمين عنه • ورجحت كفة المأمون ، **وكان الاقتراح الاخير الذى نصح**

---

(١٨١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٥٧ وما بعدها حتى ١٧٩ ، ابن الاثير ج ٦ ص ١٣٤ ، ومابعدها حتى ١٥٠ ، اليعقوبى ج ٣ ص ١٨٣ ، وما بعدها حتى ١٨٨ ، ١٩٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٦٥ : ٧ ، فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ٨٧ ، ١١٣ ، والهامش ، تعليق هنرى جريجوار عن منويل ص ٣٦٢ ـ ٣ ، صائغ : تاريخ الموصل ج ١ ص ٧٤ ـ ٥ Bury : Hist. of Eastern Rom. Emp. p. 253

به الأمين ان يلحق بالجزيرة والشام « فتنفرض الفروج وتجبى الخراج وتصير في مملكة واسعة وملك جديد ، فيسارع اليك الناس وينقطع عن طلبك الجنود » وكان عبد الملك بن صالح قد وجه نظره الى هذه الوجهة ايضا وطلب الاعتماد عليه فى ذلك ، ولكن اضطراب الأمور فى معسكر الأمين منع من تنفيذ هذا الاقتراح ، كما أن طاهر بن الحسين دس لأنصاره أن يصرفوه عن ذلك ٠

وتولى المأمون بعد قتل أخيه فواجه الاضطرابات فى كل ناحية : فقد وثب جند طاهر بقائدهم ، وسخط الناس على تزايد نفوذ **آل سهل**، وقد تسبب الحسن بن سهل وزير المأمون فى مقتل قائد المأمون المخلص هرثمة بن أعين ، كما أبعد طاهر بن الحسين وزاد الاضطرابات ببيعة المأمون لعلى الرضا من بعده ، اذ غضب العباسيون لخروج الخلافة من بينهم فبايعوا لابراهيم **بن المهدى** فى بغداد ٠ وأخيرا استمع المأمون لنصيحة الناصحين فشخص من مرو الى بغداد ، واختفى ابراهيم ابن المهدى الذى ظل يحكم بغداد حوالى العامين ٠ وانقطعت الفتن سنة ٢٠٤ هـ وطرح المأمون لباس الخضرة وولى طاهر بن الحسين عمل المشرق ٠

وتتابعت ثورات **العلويين** منذ عهد الرشيد ، فمضى يحيى العلوى الى الديلم واستطاع ادريس أخوه أن يذهب الى المغرب حيث قامت دولة الادارسة بعده ٠ وفى عهد المأمون خرج بالكوفة محمد ابن ابراهيم سنة ١٩٩ هـ المعروف بابن طباطبا وكان قائده أبو السرايا ٠ وفى العام التالى خرج زيد بن موسى بن جعفر بالبصرة وابراهيم بن موسى بن جعفر الصادق باليمن كما خرج هناك من بعد عبد الرحمن العلوى سنة ٢٠٧ هـ ٠ وفى سنة ٢٠٢ هـ كان العباس بن موسى بن جعفر العلوى يعمل لحساب المأمون بالكوفة بعد أن ولى أخاه عليا عهده ضد ابراهيم بن المهدى الذى تغلب فى بغداد ٠ واقتتل أهل الكوفة وفيهم أبو عبد الله أخو ابى السرايا وعلى بن محمد بن جعفر العلوى وعليهم الخضرة مع العباسيين من أنصار ابراهيم بن المهدى وعليهم السواد ٠ واخيرا تغلب المأمون على ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب الامام المسمى بابن عائشة سنة ٢١٠ هـ كما قبض على ابراهيم بن المهدى فى نفس العام ٠

واضطربت **الزط** ـ وأصلهم من الهند (جط) ـ فى أسفل العراق مغتنمين فرصة الفتن المتلاحقة وحرب الأمين والمأمون ، وقد كانوا يقطعون الطريق واضطر العباسيون الى مواجهة هذا الخطر ٠ ففى سنة ٢٠٦ هـ ولى المأمون داود بن ماسجور محاربة الزط وأعمال البصرة والبحرين ،

واستطاع عجيف بن عنبسة سنة ٢١٩ هـ أن يلحق بهم هزيمة ساحقة واستعرض الأسرى في بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠ هـ سنة ٨٣٥ م أمام المعتصم ، « **ثم نقلوا الى الثغر عين زربى فاغارت عليهم الروم فاجتاحوهم** فلم يفلت منهم أحد (١٨٢) » ٠

وبعد أن فرغ المأمون من معالجة مشكلاته الداخلية أقبل على الالتفات الى شئونه مع الدولة البيزنطية وقد توقف الجهاد ضدها منذ أواخر عهد الرشيد ٠ وقد يكون من دوافع الاهتمام بالجبهة البيزنطية ما كان من تشجيع الروم لاحدى الفتن الداخلية في الدولة الاسلامية التي أثارها بابك في ارمينية واذربيجان (١٨٣) ٠ على ان العرب لم يتوانوا بدورهم في تشجيع الفتن الداخلية في الدولة البيزنطية ٠

العرب يستغلون ثورة توماس :

لا تتحدث المراجع العربية عن الثورة الخطيرة التي واجهها ميشيل الثاني ولا عن موقف المسلمين من هذه الثورة ، ولكن مؤرخي التاريخ البيزنطي وبعض المؤرخين الشرقيين غير العرب مثل ميشيل السوري يتكلمون كثيرا عن ثورة توماس وتأييد العباسيين لهذه الثورة ٠ فبعد أن كف العرب عن حملاتهم السنوية ، وذكر الطبري في آخر أخبار سنة ١٩١ هـ « ولم يكن للمسلمين بعد هذه السنة صائفة الى سنة ٢١٥ هـ » وفي الوقت الذي كان الأباطرة البيزنطيون أيضا منصرفين عن الافادة من مصاعب الدولة الاسلامية ــ بعد هذه الفترة الطويلة من السكون **ابدى المأمون نواياه العدائية ضد الروم بتاييد ثورة تعرض لها مؤسس الأسرة العمورية ، وكان لدى الامبراطور البيزنطي فرصة مماثلة في تاييد فتنة بابك في الدولة الاسلامية** ٠ وميشيل السوري يقول ان المأمون استدعى الثائر توماس واعانه بقوات عربية ليفتح آسيا الصغرى ويسلمها له أو يوقع الاضطراب فيها بالحرب ، وبناء على ذلك يقول فازيلييف « اننا نلاحظ حلفا حقيقيا كاملا بين توماس والعرب ، فلم يكن

---

(١٨٢) الطبري جـ ١٠ ص ٥٤ وما بعدها ، ص ٦٩ وما بعدها ، ١٢٤ وما بعدها ، ٢٠٦ ــ ٨ ، ٢٢٧ وما بعدها ، ٢٣٢ وما بعدها ، ٢٣٦ وما بعدها حتى ٢٥٨ ، ٢٦٤ ــ ٥ ، ٣٠٦ ، ابن الاثير جـ ٦ ص ٤٤ وما بعدها ، ص ٥٧ وما بعدها ، ٧٩ وما بعدها ، ١٠٩ ، ١١١ وما بعدها حتى ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٦٤ ، اليعقوبي جـ ٣ ص ١٧٣ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣٠٧ ، فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ١٩٦ ــ ٧

(١٨٣) Brockelmann : Hist. of the Islamic Peoples, p 124.

وجود الفرق العربية فى جيش توماس اتفاقا ولم يكن دخولهم فيه رغبة فى السلم والغنيمة ، وانما كان المأمون فى ذلك متبعا خطة دقيقة التحديد عدائية للروم. اما بعد هزيمة توماس ، فان الخليفة حقا أجل خطته بسبب الفتن الداخلية الخطيرة الناشبة فى داخل الامبراطورية ، ولكنه عاد مرة أخرى الى الحرب الجدية مع جيرانه الغربيين فى السنين الأربعة الأخيرة من خلافته » • ويقول بيورى : ان الخليفة المأمون فوض أشخاصا مسئولين لمقابلة الثائر ، وانعقد تحالف بين الجانبين اعترف فيه المأمون بتوماس امبراطورا على الروم بمساعدته لتنحية خصمه عن العرش ، وفى مقابل هذا قيل أن توماس وافق لا على تسليم أقاليم معينة عند الحدود فحسب بل على أن يكون تابعا للخليفة ولعل المقصود بذلك دفع الجزية له •

وتعد هذه الثورة التى استمرت ثلاث سنوات حادثا رئيسيا فى حكم ميشيل الثانى : **فهى التى فرضت على الامبراطورية سياستها الدينية ، ثم ان فقد كريت وصقلية ربما كان من نتائجها ، وهى ليست ثورة مطامع شخصية فحسب كغيرها بل تداخلت فيها اتجاهات سياسية ودينية واجتماعية فاستفاد توماس من العرب ومن عباد الصور ومن طوائف المستضعفين الساخطين على تحكم سادة الروم وحكامهم** « فرفع الخادم يده فى وجه سيده ، والجندى فى وجه قائده ، والقائد فى وجه أميره » ـ كما يقول صاحب (صلة تيوفانيس) • ويتواتر وصف توماس بأنه صقلبى الأصل ، وكان الأباطرة الصقالبة slavs بالألوف الى آسيا الصغرى ، ومن هنا تحدث أوسبنسكى Ouspenski عن الدوافع القومية الصقلبية فى حركة توماس ، على أن هناك قولا بأنه ارمنى الأصل • ويصعب تبين المراحل الأولى من ثورة توماس • ويخلص فازيلييف من مناقشة المصادر المختلفة الى أن توماس لجأ الى العرب بالشام سنة ٧٩٧ م حيث ادعى أنه قسطنطين ابن ايرين وذلك أثناء وصاية ايرين على قسطنطين السادس ، أما بيورى فيرى أن توماس هرب مرة أخرى بعد ذلك فى عهد نقفور • وبدأ توماس أعماله العدائية ضد الدولة منذ آخر حكم ليو الأرمنى فأخضع أرمينية ، وكلديا فى بنطس الشرقية Chaldia in Eastern Pontus ومراكز منيعة فى البند الأرمنى (الأرمنياق) • وكان يتجه بصفة خاصة للأقاليم الشرقية ، غير انه ما لبث أن مد نفوذه صوب الغرب حتى شمل معظم آسيا الصغرى من حدود أرمينية الى شواطىء بحر ايجة وقد آزره البيالقة Paulicians الذين كانوا مضطهدين • واحتجز الثائرون الضرائب الواجب سدادها الى القسطنطينية لانفاقها على اغراضهم • وتوالت المدن المختلفة على تأييد الثائر توماس رغبا ورهبا • ولما قتل ليو الأرمنى سنة ٨٢٠ م وتولى

ميشيل الثانى ، استغل توماس هذه الظروف فنشط فى الاتجاه الى العاصمة ، وقد كان من حقه أن يتيه بأنه لم يتخلف عن متابعته فى آسيا الصغرى سوى بندين : الأرمنى والأبسيق • وكان فى جند توماس أمداد من الشعوب القوقازية التى أخضعها من الفرس ومن الايبرين أو الجورجيين ومن الارمن والاباج (الانجاذ) ويقدر مجموع قوات توماس بثمـــانين الفا •

وتأتى بعض الروايات بأخبار **تحالف توماس مع المأمون** الذى كان ينوى مهاجمة القسطنطينية كما يقــال •• وتقــول الروايات أن توماس استعرض عضلاته فى حملة قوية الى الشام لم تعبر مثلها من قوات الروم جبال طوروس منذ غدت الشام اقليما عربيا على حد تعبير بيورى • وكان قصد الحملة لا ينصرف الى القتال ، وانما يتجه الى اثارة مخاوف العرب ودهشتهم توطئة للتحالف معهم • وقد حققت هذه العمليــة أغراضها ، فأرسل المأمون مفوضين من قبله لمقابلة توماس ، وتم الاتفاق على امداده على أن كلام صاحب (صلة تيوفانيس) يفهم منه أن مهاجمة توماس للشام كان استرضاء للذين اتهموه بأنه يفتح بثورته آسيا الصغرى للمسلمين بينما تهاجم قوات عربية أخرى الجزر الرومية الشرقية وشواطىء آســيا الصغرى • وتوج توماس امبراطورا على يد بطريرك انطاكية • وقديما توج ليونتيوس الثائر على الامبراطور زينو فى القــرن الخامس هنــاك ، ويتساءل بيورى عن دواعى تتويج توماس على هذا النحو ما دام ينتحل شخصية قسطنطين السادس ويدعى انه سبق تتويجه فى القسطنطينية على يد البطريرك الأعظم ، ويرجح أخيرا بعد مناقشة الفروض المختلفة ان هذا التتويج كان برغبة المأمون لا توماس ، اذ أن تسلم توماس لرمز سلطته من أحد رعايا الخليفة الاسلامى قد يعبر عن اعتراف رمزى بسيادة الخليفة وتبعية توماس •

واستغل المسلمون خلو أرض الروم من الجنود النظاميين نتيجـة لتوجيه الدولة كل قواها ضد توماس فأغاروا عليها ، واستفاد توماس فى تمويل قواته من انضمام جباة الضرائب الامبراطوريين بآسيا الصغرى الى حركته **ويرى فازيليف ان حلف توماس مع العرب ان كان قد أمده بالقوة المادية الا انه « ابعد عنه الحزب الارثوذكسى الذى أيده** على أنه حامى الصور ، ولم يكن يرتضى تحالفه مع الكفار » • واخطأ ميشيل الثانى فى تقدير قوة خصمه فى أول الأمر ، فأرسل للقائه جيشا صغيرا انتصر عليه توماس • أما أساطيل البنود الســاحلية Aegean Themes فقد انحازت الى توماس وتجمعت فى لســبوس Lesbos بجانب ما أعده توماس من

سفن النقل والقتال منتظرة أوامره ، بينما تقدم هو نحو الهلسبونت واستولى على أبيدوس Abydos وقد بقى الأسطول الامبراطورى على ولائه لميشيل • وأدرك الامبراطور البيزنطى أخيرا انه يواجه زعيما لأنصار الايقونات ، ففكر فى عقد مؤتمر دينى سنة ٨٢١ م ولكنه فشل • وفى هذه الاثناء ارتكب توماس خطأ عسكريا بقصده القسطنطينية ، فى حين كان يهدد مؤخرته بآسيا الصغرى بندان مخلصان للامبراطور هما : البند الأرمنى على رأسه البيانوس Albianos وبند الابسيق وعلى رأسه كاتاكيلاس Katakylas فاحتل توماس بنفسه اقليم هلسبونت وأسند الدفاع عن آسيا الصغرى والمؤخرة الى ابنه ، ومن هنا أتت الفرصة السانحة لالبيانوس قائد البند الأرمنى ، فان قواته المحدودة لم تكن لتستطيع مواجهة جيش توماس الضخم لولا انقسام قواته • فهوجم الابن من الخلف وقتل واستمر الاتصال بين الامبراطور وقواده الأوفياء فى آسيا الصغرى رغم قيام توماس بينهم •وبذل توماس كل جهده لاستمالة سكان تراقية فتابعوه ، كما حالفه الصقالبة المقدونيون ، أما البلغار فانهم ظلوا على الحياد ثم تدخلوا ضده أخيرا • وحاصر توماس القسطنطينية فى أواخر سنة ٨٢١ م بجيشه وأسطوله الذى صدرت له الأوامر بالتحرك عن لسبوس فوصل فى نفس الوقت ، وكان ميشيل قد استعد للدفاع فى حين تفرق بعض انصار توماس لتحالفه مع العرب او تركه آسيا الصغرى واتجاهه الى تراقية • وتوقع توماس ان تفتح القسطنطينية ابوابها له بمجرد اقترابه منها ، ولكن صدمته مقاومتها الشديدة ورفع ميشيل علم الحرب على سطح كنيسة بيكرن ، ورأس ابنه تيوفيل موكبا رفع رداء العذراء ملتمسا الحماية الالهية ، وجاء هذا من امبراطور لا يعتقد فى الصور !! وفشل هجوم توماس على العاصمة برا وبحرا رغم استخدام كل آلات الحصار، فتركها فى الشتاء ثم استأنف حصارها فى ربيع سنة ٨٨٢م، فهزم توماس فى البر والبحر ورفض بعض أسطوله القتال وانضم البعض الآخر للامبراطور ، لكن توماس انتصر على أحد أنصار الامبراطور كان قد هدد مؤخرته بعد أن اجتاز تراقية ، ولم يتمتع بثمار انتصاره هذه كثيرا اذ أوقع الأسطول الامبراطورى بسفنه هزيمة حاسمة • وأخيرا اضطر توماس لرفع الحصار حين أتاه خبر الحملة البلغارية ضده وقد كانت ذات أثر حاسم على الثورة ، اذ تفرقت جهود الثائر بين محاربة البلغار والروم وسخط جيشه لتطاول الحرب ثلاث سنين ، فانهزم فى ديابازيس عند مصب النهر الأسود غربى القسطنطينية • وعندما انسحب الى اركاديوبولس بتراقية لجأ الى تدابير اغضبت أهلها ، فهوجم توماس هناك

وسلم الى ميشيل فى منتصف أكتوبر سنة ٨٢٣ م ، وقد تغنت بهجوه بعض الآثار الأدبية والرومية . واستمرت المقاومة بعض الوقت فى مواقع قليلة بتراقية وآسيا الصغرى ولكن دون طائل ، فانتهت الثورة وقتل ميشيل توماس ، أما بقية الأسرى ـ ومنهم عرب كما يروى ـ فقد اكتفى باستعراضهم ونفى بعضهم . ويذكر ميشيل السورى وابو الفرج أن الامبراطور أحرز نصره الحاسم باعتماده على بعض الأسرى العرب مقابل وعدهم باطلاق سراحهم ولكن لم يف بوعده . وقد تسببت حركة توماس فى افلاس عدد كبير من الملاك الصغار ، فباعوا ممتلكاتهم لجيرانهم الأغنياء الذين تزايد نفوذهم . أما بالنسبة للعلاقات الاسلامية البيزنطية ، فيذكر فازيلييف ان « **الخليفة المأمون انهزم فى شخص توماس خاصة وقد اضطر بعد ذلك ان يوجه كل اهتمامه لمشاكل الخلافة الداخلية .. لكن نتيجة ثورة توماس كانت ضررا على الامبراطورية ، فان امرها لم يقف عند تخريب أكثر اقاليم الامبراطورية غنى ولا عند ايقاف التيار السياسى العام ، بل تجاوز ذلك الى اصداء تجاوب بها الغرب البعيد ـ وذلك أن عرب الأندلس وافريقية استغلوا المشاكل الرومية الداخلية فافتتحوا كريت وصقلية » (١٨٤)** .

* * *

واذا كان المأمون قد خاب أمله فى اكتساب نصر هين على عدوه لو انتصر توماس فقد صار عليه أن يعتمد على سواعد جنده فى مواجهة خصمه . وكانت نيران الفتنة بين الأمين والمأمون قد أصابت الثغور والعواصم والجزيرة فاليعقوبى يعرض لوفاة عبد الملك بن صالح فيقول : « واضطرب البلد بعد وفاته ، وتغلب كل رئيس قوم عليهم ، وصار الناس حزبين : حزب يظاهر بمحمد وحزب يظاهر بالمأمون . فلم يبق بلد الا وبه قوم يتحاربون لا سلطان يمنعهم ولا يدفعهم » (١٨٥) . وبعد استقرار الأمور للمأمون عادت الحملات الاسلامية الى بلاد الروم . ويذكر البلاذرى تاريخا متقدما للنشاط الاسلامى فى الجبهة البيزنطية يسبق ما ذكرته الحوليات العربية ، ويروى أن المأمون أمر بترميم زبطرة وتحصينها وكانت قد تعرضت لغارة رومية « وقدم وفد طاغية الروم سنة ٢١٠ هـ سنة (٨٢٥ م) يسأل الصلح فلم يجبه اليه ، وكتب الى عمال الثغور فساحوا

---

(١٨٤) فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ٢٨ : ٥١ ، رستم : الروم جـ ١ ص ٣٢٠ : ٢
Vasiliev : L'Emp. Byz., Vol. I, pp. 301 :4.
Bury : Hist. of the Eastern Rom. Emp., pp. 84 :108.

(١٨٥) اليعقوبى جـ ٣ ص ١٦٩

فى بلاد الروم . فاكثروا فيها القتل ودوخوها وظفروا ظفرا حسنا ، الا أن يقظان بن عبد الأعلى بن أحمد بن يزيد بن أسيد السلمى أصيب ».
ويناقش فازيليف علاقة هذا النشاط الاسلامى المبكر بثورة توماس : « **فبينما كان الروم يقاومون توماس أمام القسطنطينية ، كانوا يحاربون حلفاءه العرب فى آسيا الصغرى فى نفس الوقت** . وذكروا فى هذا الموقف بالذات هجوما موفقا على حصن زبطرة فى اقليم الثغور .. ولكن الواقعة ليست ثابتة ، فان تاريخها عند البلاذرى متأخر عن ثورة توماس ، ومن الجائز أن يكون هذا المصدر العربى وميشيل السورى قد كررا اخذ المدينة على يد تيوفيل » . على أن فازيلييف يقبل واقعة طلب الروم للصلح ، اذ أراد ميشيل فى عام ٨٢٥ م أن يصلح ما سببته الحرب الداخلية من خسائر لسكان الامبراطورية ، لكن رفض الخليفة ذلك وتتابعت غارات العرب على أرض الروم (١٨٦) .

وتجعل الحوليات الاسلامية بداية نشاط المأمون فى غزو الروم سنة ٢١٥ هـ - ٨٣٠ م بعد أن تخففت الدولة من أعباء الفتن ، وفى ذلك الوقت كانت حرب صقلية تحول انتباه الامبراطورية وقواتها نحو الغرب وكان قد تولى العرش تيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢ م) فانتهز المأمون هذه الفرصة ، وابتدأ العمليات الحربية فى آسيا الصغرى . وشخص المأمون بنفسه فى مستهل سنة ٢١٥ هـ ، ثم سلك طريق الموصل الى منبج ثم دابق فانطاكية فالمصيصة وخرج منها الى طرسوس فدخل الى بلاد الروم فى جمادى الأولى وقد مر المأمون فى طريقه بالصابئة فى شمالى الجزيرة ، وهذا أول ذكر لهذه الطائفة فى الوقائع التاريخية . ويصادفنا فى أنباء هذه الحملة ذكر اللاجىء الرومى **مانويل** الذى يذكر الطبرى انه كان فى صحبة العباس بن المأمون قبل دخول العرب أرض الروم ، ويذكر أن الاثنين لقيا المأمون عند رأس العين . اما اليعقوبى فيذكر أن المأمون عندما أخذ أنقرة - وصحتها قره - هرب منها مانويل ، ويرى كنار M. Canard أن المقصود هروب مانويل من صفوف العرب الى الروم بعد أن صحب ابن الخليفة الى حدود الروم ، فان صح ذلك كانت المصادر العربية متفقة تقريبا مع المصادر الرومية التى تجعل هذا الهرب عند احدى ضواحى الحدث . ويذكر ابن طيفور ان العباس حين انتهى من حملته فى رمضان ورجع الى أرض الاسلام من درب الحدث خلف مانويل على ما أخذه من الحصون - وكان يصحبه طول غزوه ، ولكن مانويل خدعه وطرد المسلمين وأخذ

---

(١٨٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠٠ . فازيلييف : العرب والروم . ترجمة دكتور شعيرة ص ٤٤ - ٥ ، ٥١

خزائن سلاحهم وصالح الامبراطور • وكان مجال عمليات العباس اقليم ملطية ـ الحدث ، بينما دخل المأمون من درب قيليقية الى أرض الروم فوقعت المصادمات فى كبادوكيا ، **وخاصة فى الهند المتاخم لقيليقية حيث تكثر الكهوف الأرضية التى كانت ملجأ لأهالى الاقليم ويسمها العرب (مطامير)** واستسلمت الحصون الرومية الضعيفة وأولها **ماجدة** فى اقليم المطامير فلم يؤذ المأمون أهلها • ويقول المسعودى : ان ماجدة مطمورة فى أول بند القباذق مما يلى الثغور الشامية على عشرين ميلا تقريبا من لؤلؤة• ثم فتح المأمون حصن قره ولعله **حصن قورن** فى كبادوكيا عند كتاب الروم ـ وكان افتتاح هذا الحصن عنوة وهدمه المأمون ، ويظهر أن المأمون أمن أهل قرة بعد ذلك ، فاليعقوبى يذكر انه فتح نصفا بالصلح ونصفا بالسيف • ووجه الخليفة أشناس الى **حصن سندس** ـ وسوندا أوسوندس عند الروم فى كبادوكيا على مفترق الطريق الى قيصرية والطريق من جستنيانوبوليس موكيزوس الى طوانة ودرب كيليكيا جنوبا ـ وقد أتى اشناس بقائد الحصن • ووجه الممأون عجيفا وجعفر الخياط الى صاحب **حصن سنان** قرب هرقلة وطوانة فسمع وأطاع • ثم وجه المأمون الأفشين الى **مصر** للقضاء على فتنتها •

وكان تيوفيل قد أراد الثأر لهزيمته ، **فاغتنم ابتعاد عدوه واجتاز جبال طوروس وقتل عددا من سكان طرسوس والمصيصة** يبلغ حوالى ألف وستمائة • ويقال ان فرقا أخرى من جيش تيوفيل سارت نحو الشمال الشرقى من كبادوكيا فى الوقت نفسه ، وهزمت العرب قرب حصن **خرشنة مقر قائد البند المسمى بنفس الاسم وأسرت** خمسة وعشرين ألفا على قول صاحب (صلة تيوفانيس) • وفى كتاب (المراسم) الذى ألفه قسطنطين بورفيروجنيتوس **Porphyrogennetus** لم يستحق مواكب الظفر من حملات تيوفيل الا حملتان ، احداهما تلك الحملة ، والأخرى حملة زبطرة أيام المعتصم • وهكذا احتفل تيوفيل بغاراته على طرسوس والمصيصة احتفالا رائعا ، وعلم المأمون بالخبر **فكر الى أرض الروم سنة ٢١٦ هـ ـ سنة ٨٣١ م** •

ووقعت حركات هذه الحملة فى المنطقة نفسها التى وقعت فيها حملة العام السابق ، وقد قصدت الى ذلك الموقع الهام من كبادوكيا الذى سبق أن احتله الرشيد سنة ٨٠٥ م ثم استرده الروم وهو هرقلة كيبسترا غير بعيدة عن جبال طوروس ، وقد أخذت صلحا • **ثم وجه المأمون اخاه أبا اسحق فافتتح ثلاثين حصنا ومطمورة** وخربها ولم يعرض لأهلها ، كما وفق يحيي بن أكثم فى غارته من **طوانة** • وذكر اليعقوبى

أن المأمون فتح ١٢ حصنا وعدة مطامير . **ووجه العباس ابنه فلقى طاغية الروم وهزمه ، وفتح حصونا فى كبادوكيا** منها أنطغوة (وهناك رأى أنه الطوانة) وحصن الاخرب أو الاجرب (ويسميه الروم كاسن غير بعيد من ساسيما وملقوبية ـ اسم تورما من كبادوكيا تابعة لبند خرشنة) . وقد جاءت المأمون رسل تيوفيل تعرض الصلح ، ولقيته باذنة مع خمسمائة من أسرى المسلمين ، ويرى البعض أن رسول الامبراطور كان يوحنا النحوى . ويروى اليعقوبى : « ووجه اليه تيوفيل ملك الروم بالإسقف صاحبه ، وكتب اليه كتابا بدأ فيه باسمه ، فقال المأمون : لا أقرأ له كتابا بدأ فيه باسمه ، ورده . فكتب اليه توفيل بن ميخائيل : لعبد الله ملك العرب من توفيل بن ميخائيل ملك الروم من قبل .. وسأل أن يقبل منه ألف دينار ، والأسرى الذين عنده وهم وسبعة آلاف أسير ، وأن يدع لهم ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم ، ويكف عنهم الحرب خمس سنين . فلم يجبه الى ذلك ، وانصرف الى كيسوم من أرض الجزيرة من ديار مضر » ، وغنم كثيرا من الغنائم . والراجح أن الشتاء كان قد تقدم فى ذلك الوقت .

وعلى أثر ذلك شخص المأمون الى مصر ، وكان قائده الأفشين قد سبقه اليها نجح فى اخماد ثورتها . **وفى سنة ٢١٧ هـ / ٨٣٢م** أسرع المأمون الى الحدود الرومية ، فنزل اذنة معسكرا بها . ثم غزا بلاد الروم ، فاناخ على **لؤلؤة** وكانت موقعا حصينا هاما على الطريق المار بالأبواب القيليقية بين طرسوس والطوانة شمال البدندون وعلى مسافة قريبة من الطوانة وهى مكان فاوستينوبوليس ، ويشرف هذا الحصن على مدخل الدرب . واذا كان سرد العمليات الحربية فى حملة العام السابق الى هرقلة والطوانة لم يذكر لؤلؤة ، فلعل ذلك لأن العرب استطاعوا اجتناب المرور بها عن طريق فرعى آخر . وقد حاصر المأمون لؤلؤة مائة يوم ، ولم يستطع المأمون أخذها عنوة . ويذكر الطبرى أن المأمون خلف عليها عجيفا ورحل عنها ، أما اليعقوبى فيذكر بناء حصنين للاحاطة بها . وقد خلف المأمون على حصنه أحمد بن بسطام وخلف أبو اسحق على حصنه محمد بن الفرج بن أبى الليث بن الفضل ، وصير المأمون عند هؤلاء زاد سنة ، ثم سار متوجها الى **سلغوس** حصن فى الثغور وراء طرسوس وهى غير سلعوس من اقليم الرها ، وقد أفلح الروم فى أسر عجيف . وأبلغوا الامبراطور ذلك فتقدم الى لؤلؤة . ويذكر اليعقوبى أنه هزم بغير قتال « وظفر من كان بالحصنين من المسلمين بمعسكره فحووا كل ما كان فيه . فلما رأى ذلك أهل لؤلؤة وأضربهم الحصار طلب رئيسهم

الحيلة فقال لعجيف : اخلى سبيلك على ان تطلب لى الأمان من المأمون • فضمن له ذلك ، فقال : أريد رهينة • فقال : أنا أحضرك ابنى » فوجه الى الروم جماعة من النصارى فى زى المسلمين • ولما خرج أعلمهم بخدعته فناشدوه الوفاء ، فأخذ لهم عجيف الأمان وفتحها وأسكنها المسلمين • ويذكر الطبرى ان المأمون أرسل المدد لمواجهة تيوفيل ولكن هذا سبق بالرحيل • وهو يورد فى أخبار هذه الحملة سنة ٢١٧ هـ خبر كتاب الصلح الذى بدأ فيه تيوفيل بنفسه ، فى حين يذكر اليعقوبى رواية مشابهة فى أخبار العام السابق • وقد جاء فى كتاب تيوفيل الذى قدم به وزيره : « أما بعد ، فان اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما • وقد كنت كتبت اليك داعيا الى المسألة لنضع أوزار الحرب عنا مع اتصال المرافق والفسح فى المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة ، فان أبيت فانى لخائض اليك غمارها ، وان أفعل فبعد أن قدمت المعذرة » • وكتب اليه المأمون : « فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة وخلطت فيه من اللين والشدة ، فلولا ما رجعت اليه من أعمال التؤدة لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ، هم أظمأ الى موارد المنايا منكم الى السلامة بالمخوف معرتهم عليكم » • ثم خيره المأمون بين الاسلام أو الجزية أو القتال • **ويرى بيورى ان هذه الخطابات ان كانت صحيحة فهى توضح أن نجاح الأعوام الثلاثة الماضية قد شجع المأمون على العزوف عن انهاء القتال ، وقد يكون دفعه الى التفكير فى اخضاع الامبراطورية نهائيا • وقد أورد اليعقوبى أن المأمون فى حملته سنة ٢١٨ هـ « استعد لحصار عمورية ، وقال أوجه الى العرب فآتى بهم من البوادى ثم أنزلهم كل مدينة افتتحها حتى اضرب الى القسطنطينية •** فأتاه رسول ملك الروم يدعوه الى الصلح والمهادنة ودفع الأسرى الذين قبله ، فلم يقبل » •

أقام المأمون بسلغوس وقتا ، ثم أمضى الصيف فى الرقة ودمشق وجدد مسيره الى الحدود البيزنطية سنة ٢١٨ هـ - ٨٣٣ م فوجه ابنه العباس الى **الطوانة** لبنائها وكانت الحملات السابقة قد أضرت بها ، « فبناها ميلا فى ميل ، وجعل سورها ثلاث فراسخ ولها أربعة أبواب ، وبنى على كل باب حصنا • وكتب الى أخيه أبى اسحق : انه قد فرض على جند دمشق وحمص والأردن وفلسطين أربعة آلاف رجل يجرى على الفارس مائة درهم وعلى الراجل أربعين درهما ، وفرض على مصر فرضا • وكتب الى العباس بمن فرض على قنسرين والجزيرة، والى اسحق بن ابراهيم

بمن فرض على أهل بغداد وهم ألفا رجل · وخرج بعضهم حتى وافى طوانة ونزلها مع العباس » · وتروى المراجع الاسلامية هنا أيضا أخبارا عن طلب الروم للصلح، فجاء رسولهم الى المأمون بالبدندون وقال: «ان الملك يخيرك بين أن يرد عليك نفقتك التى أنفقتها فى طريقك من بلدك الى هذا الموضع، وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار ، وبين أن يعمر لك كل بلد للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان وترجع عن غزاته »· ففكر المأمون ثم كان جوابه: « أما قولك ترد على نفقتى فانى سمعت الله تعالى يقول (··· فلما جاء سليمان قال اتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون) ، وأما قولك انك تخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم فما فى يدك الا أحد رجلين : أما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة ، فقد صار الى ما أراد ، واما رجل يطلب الدنيا فلا فك الله أسره ، واما قولك انك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم فلو انى قلعت أقصى حجر فى بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت فى حال أسرها فقالت وامحمداه » · ويذكر المسعودى أن المأمون فتح فى غزاته هذه خمسة عشر حصنا ، خير أصحابها بين الاسلام والجزية والسيف ، فأجابه بعض الروم الى الجزية ، وقد شهدت منطقة الثغور فى ذلك العام كتب المأمون الى اسحق بن ابراهيم خليفته فى بغداد بامتحان القضاة والمحدثين وأشخاص المخالفين لرأى المعتزلة فى خلق القرآن ، كما نفذت كتب المأمون الى جميع عماله بتولية أخيه أبى اسحق من بعده · ولم يفسح الأجل للمأمون فى تحقيق آماله الفكرية والحربية فقد أصابته الحمى فى البدندون من أكلة رطب · وتوفى ودفن فى طرسوس سنة ٢١٨ هـ ـ ٨٣٣ م (١٨٧) ·

جزر البحر المتوسط :

لم ينل البحر المتوسط من عناية العباسيين سابق حظه فى عهد الأمويين ، فلا تتحدث الحوليات الاسلامية الا عن غزوات متفرقة فى البحر · فقد قام ثمامة بن وقاص ـ باناكيس Banaces فى تاريخ تيوفانيس ـ بحملة برية بحرية سنة ١٥٧ هـ ـ ٧٧٣ م على شواطىء اقليم ايسوريا

---

(١٨٧) الطبرى ج ١٠ ص ٢٨٠ ـ ١ ، ٢٨٣ ـ ٤ ، ٢٨٤ : ٢٩٣ ، ٢٩٣ : ٢٩٥ ، ابن الاثير ج ٦ ص ١٥٣ : ٥ ، ١٥٥ : ٧ ، ١٥٧ ـ ٨ ، اليعقوبى ج ٣ ص ١٩٢ : ٦ ، المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٢ : ٤ ، التنبيه والاشراف ص ١٥١ ، فازيلييف : العرب والروم · ترجمة دكتور شعيرة ص ٩١ : ١١٢ Bury : Hist. of the Eastern Roman Emp., pp. 251 :6. دكتور رفاعى : عصر المأمون م ١ ص ٢٩٠ ـ ١ ·

بآسيا الصغرى لمهاجمة بعض المواقع الساحلية الهامة • فصدرت أوامر الامبراطور قسطنطين الخامس الى الجيش وأسطول آسيا الصغرى بقطع خط الرجعة على ثمامة • واستطاعت السفن البيزنطية قطع الاتصال بين ثمامة وسفن الشام التى أبحرت معه باحتلالها سيس Syce ، على حين حاصر الجيش البيزنطى قوات ثمامة البرية وهكذا كان هناك تعاون بين الأسطول لدى الجانبين الاسلامى والبيزنطى ، وقد استطاع ثمامة أن يفلت من الحصار • وغزا الغمر بن العباس الخثعمى بحر الشام سنة ١٦٠ ـ ١ هـ •

وفى عهد الرشيد كانت الخطط البحرية للمسلمين والبيزنطيين تستهدف فرض الرقابة على سواحل العدو من جهة ، والاغارة المفاجئة عليها من جهة أخرى • وقد كان الأسطول البيزنطى يراقب شواطىء البحر المتوسط الشرقى التابعة للخلافة العباسية ، واستطاع أن يأسر سنة ٧٩٠ م سفننا اسلامية فى طريقها من مصر الى الشام • ولكن حدث فى تلك السنة نفسها ان أغار أسطول اسلامى على قبرص ، ويجوز أن الأسطول الاسلامى تمكن من انزال قواته فى الجزيرة ، فأرسلت ايرين قسما من الأسطول البيزنطى لنجدة قبرص ، ولكن كان مصيره الهزيمة وأسر المسلمون قائده الذى تعجل الهجوم ، وأمر الرشيد بقتله • وهكذا يبدو أن المسلمين تطلعوا لاستعادة مركزهم فى الجزيرة الذى كان قد تزعزع منذ أواخر العهد الأموى ، وقد روى البلاذرى ان المنصور رد جزية أهل قبرص الى ما كانت عليه أيام معاوية ، وكان عبد الملك بن مروان فقد زاد عليهم ألف دينار • وفى سنة ١٩٠ هـ / سنة ٨٠٦ م غزا حميد ابن معيوف الذى ولى سواحل بحر الشام وقبرص « فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفا ، فأقدمهم الرافقة فتولى بيعهم أبو البخترى القاضى ، فبلغ أسقف قبرص ألفى دينار » كما يروى الطبرى ويذكر البلاذرى غزو حميد لقبرص « لحدث أحدثوه ، فأسر منهم بشرا • ثم انهم استقاموا للمسلمين ، فأمر الرشيد برد من أسر منهم ، فردوا» • ويبدو أن مركز المسلمين فى قبرص لم يكن مستقرا ، فالبلاذرى يذكر ما أحدثه أهلها مرة بعد أخرى ونقضهم العهود وتواطئهم مع العدو ، ويذكر نقاشا فقهيا طويلا جرى حول السياسة الواجب اتباعها ازاءهم « قالوا : أحدث أهل قبرص حدثا فى ولاية عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله ابن عباس الثغور ، فأراد نقض صلحهم ـ والفقهاء متوافرون • فكتب الى الليث بن سعد ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة وموسى

ابن أعين واسماعيل بن عياش ويحيى بن حمزة وابى اسحق الفزارى ومخلد بن الحسين فى أمرهم ، فأجابوه . وكان فيما كتب به الليث بن سعد : ان أهل قبرص قوم لم نزل نتهمهم بغش أهل الاسلام ومناصحة أعداء الله الروم وقد قال الله تعالى (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) ، ولم يقل لا تنبذ اليهم حتى تستيقن خيانتهم ، وانى أرى أن تنبذ اليهم وينظروا سنة يأتمرون ، فمن أحب منهم اللحاق ببلاد المسلمين على أن يكون ذمة يؤدى الخراج قبلت ذلك منه ، ومن أراد أن ينتمى الى بلاد الروم فعل ، ومن أراد المقام بقبرس على الحرب - أقام - فكانوا عدوا يقاتلون ويغزون ، فان فى انظار سنة قطعا لحجتهم ووفاء بعهدهم .. وكتب يحيى بن حمزة : ان أمر قبرس كأمر عربسوس ، فان فيها قدوة حسنة وسنة متبعة ، وكان من أمرها ان عمير ابن سعد قال لعمر بن الخطاب وقد قدم عليه . ان بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عربسوس ، وانهم يخبرون عدونا بعوراتنا ولا يظهرونا على عورات عدونا ، فقال عمر : فاذا قدمت فخيرهم أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ومكان كل شىء شيئين ، فاذا رضوا بذلك فاعطهم اياه وأجلهم وأخربها ، فان أبوا فانبذ اليهم وأجلهم سنة ثم أخربها .... وكتب ابو اسحق الفزارى ومخلد بن الحسين : انا لم نر شيئا أشبه بأمر قبرص من أمر عربسوس » . على أن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وموسى بن أعين واسماعيل بن عياش دعوا الى التريث واحترام العهود ، ونقل عن الاوزاعى قوله « ماوفى لنا اهل قبرس قط ، وانا لنرى انهم أهل عهد ، وان صلحهم وقع على شىء فيه شرط لهم وشرط عليهم ولا يستقيم نقضه الا بأمر يعرف فيه غدرهم ونكثهم » . وهذه المناقشات الفقهية المطومة تدل على مدى أهتمام المسلمين بالوضع فى قبرص ومحاولتهم علاجه بكل سبيل . وفى سنة ١٩١ هـ سنة ٨٠٧ م أرسل الرشيد حملة الى رودس عادت بالأسرى والغنائم . على أن الفتن الداخلية نالت من جهود المسلمين فى البحر كما نالت من جهودهم فى البر ، وذلك فى آخر عهد الرشيد ، ثم طوال فترة الصراع بين الأمين والمأمون (١٨٨) .

---

(١٨٨) الطبرى جـ ٩ ص ٣٣٤ ، ٣٤١ ، جـ ١٠ ص ٩٩ ، ابن الاثير جـ ٦ ص ٢٠ ، ٧٠ البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦١ : ٤ ، دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٨٦ - ٧

وقد انتقل عبء النشاط البحرى الى بلاد المغرب والأندلس ، وكانت هناك جماعات بحرية غير رسمية من مجاهدة البحر تغزو شواطىء البلاد النصرانية • والمراجع اللاتينية والبزنطية تصف هذا النشاط بأنه قرصنة ، على أن ليفى بروفنسال يقول : « ومن المظنون أن قراصنة المسلمين كانوا شيئا آخر غير المجاهدين المسلمين الذين كانوا يغازون النصارى بدافع دينى » • وقد اكتفت الأساطيل الاسلامية النظامية سواء اكانت تابعة للدولة العباسية فى الشام أم للدويلات المستقلة فى مصر والمغرب بالدفاع عن الشواطىء ، اما الغارات فكانت تقوم بها فى الغالب جماعات تعمل لحسابها الخاص هدفها الاغارة على الشواطىء الأوربية والفوز بالغنائم ، ومن هنا سميت هذه الأعمال بالقرصنة وأغفلتها المراجع العربية • وهذه العمارات البحرية الصغيرة هى التى روعت امن شرق البحر المتوسط ووسطه بعد العصر الأموى • كما أن الشواطىء الأوربية للحوضين الشرقى والأوسط للبحر المتوسط حفلت بقراصنة النصارى الذين كانوا لا يفرقون بين البلاد الاسلامية وغيرها وقد نسبت بعض اعمالهم للمسلمين • وأكبر مثال لهذه الجماعات الاسلامية التى كانت تعمل لحسابها الجماعة الاسلامية التى استولت على **اقريطش (كريت)** وأصلها من الأندلس خرجت سنة ١٩٨ هـ ـ سنة ٨١٣ : ٤ م بعد تمرد ربض قرطبة على الحكم الأول وعقابه لأهل الربض ونفى بعضهم ، فذهب هؤلاء الى العدوة الافريقية واستقروا بفاس • ومنهم من واصل السير بحرا وكانوا ١٥ الفا عدا النساء والأطفال يقودهم ابو حفص عمر بن عيسى البلوطى فنزلوا الى جانب الاسكندرية فى جوار احدى قبائل افريقية الشمالية فى العام التالى لخروجهم وكان ولاة مصر لا يسمحون للأندلسيين بالدخول ، ولكنهم تمكنوا مع ذلك من نزول الاسكندرية « أيام شغل الناس بفتنة الجروى وابن السرى •••• والدنيا مفتونة قد غلب على كل ناحية غالب » • ولما دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر سنة ٢١١ هـ سنة ٨٢٥ م أرسل الى هؤلاء الأندلسيين يؤذنهم بالحرب ان لم يدخلوا فى الطاعة • فسألوه الأمان « على أن يرحلوا من الاسكندرية الى بعض اطراف الروم التى ليست من بلاد الاسلام » ، فاعطاهم الأمان ونزلوا اقريطش • وكان قد غزاها جنادة بن ابى أمية الأزدى من قبل فى بواكير العهد الأموى وحاصرها الأسطول العربى منذ القرن السابع الميلادى لكن لم يتم له الاستيلاء عليها « فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم اغلق ، وغزاها حميد بن معيوف الهمدانى فى خلافة الرشيد ففتح بعضها • ثم غزاها فى خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسى المعروف بالاقريطشى ، وافتتح منها حصنا واحدا ونزله ، ثم لم يزل يفتتح شيئا بعد شىء حتى لم يبق فيها

من الروم أحد وأخرب حصونها » ، على ما يذكر البلاذرى • ثم وفد على الجزيرة نفر آخر من الأندلسيين وانضموا الى اخوانهم «وملكوا عليهم رجلا منهم وعمروا فيها أربعين قطعة ، وغزوا جميع ما حولهـــا من جزائر القسطنطينية ، ففتحـوا أكثر الجزائر وغنمـوا وسبوا ولم يكن لملك القسطنطينية بهم من قبـل » • **وتربط المصادر اليونانية بين تفكير الأندلسيين فى الاستقرار بكريت وبين ثورة توماس التى استغرقت كل جهود الروم البحرية عند القسطنطينية ، ولكن هذه الثورة كانت قد أخمدت قبل اتجاه العرب الى كريت بأربع سنوات** • وقد سبق للأندلسيين غارات على كريت وجزر أخرى يونانية ، ويبدو أن أبا حفص حين نزل كريت فى هذه الهجرة الأندلسية لم يلق مقاومة كبيرة ، ولعل أهل كريت كانوا ساخطين على الحكم البيزنطى لسياسته الدينية والادارية • وتذكر المراجع البيزنطية أبا حفص الاقريطشى باسم Apocapso • وتنسب اليه غزوات كثيرة وكان مركز أعماله موضع بلد قديم على خليج لادا Lada هو شراخ Charax حفر حوله خندقا فعرف بالخندق ، وحرف الى Candia ولم يقلل ميشيل وخلفاؤه من أهميـة وقوع كريت فى أيدى المسلمين بالنسبة للامبراطورية البيزنطية ، فنظمت سلسلة من الحملات لم تنتج شيئا ، وبقيت كريت فى سلطان العرب الى أيام الامبراطور رومانوس العربى حين فتحها القائد الذى صار امبراطور فيما بعد ـ نقفور فوكاس سنة ٩٦١ م • وقد فشلت الحملات البيزنطية التى أرسلت فى عهد ميشيل الثانى بقيادة فوتينوس Photeinos قائد البند الأناضولى سنة ٨٢٨ م ودميانوس Damianos (Count of the Stable) وكراتيروس Krateros قائد بند كيبيرايوت البحرى بآسيا الصغرى وأوريفاس Oryphas أمير البحر ولم يكف العرب عن مهاجمة **الجزر القريبة من كريت** وهددوا بحرايجه• ووجه ميشيل الثانى كل جهوده لصقلية فزادت الفرصة أمام عرب كريت وغزوا آسيا الصغرى فى كاريا وايونيا وتوغلوا الى جبل لاتروس Latros المشهور بأديرته ، ولكن هزمهم قائد البند التراقى • وفى الوقت نفسه تقريبا انهزم الأسطول البيزنطى سنة ٨٢٩ م قرب جزيرة ثازوس Thasos وهوجمت جزر السكلاديز وغيرها وقد اتجه تيوفيل كسلفه الى الاهتمام بصقلية ، وجنى الاباطرة العموريون ثمار اهمال الأسطول ، وجاء فقـد كريت وصقلية درسا لهم فى هذا الصدد •

ويحيط الغموض برواية تزعم أن المسلمين بعد ان هزموا الروم فى عمورية سنة٨٣٨م، اتجهوا لدحرهم نهائيا ببناء أسطول لغزو القسطنطينية ظلوا عاكفين على بنائه سنين ، حتى كانت سنة ٨٤٢ م فقاد **أبو دينـار**

أسطولا من ٤٠٠ سفينة dromonds الى القسطنطينية . ولقى فشلا ذريعا وكان ذلك فى عهد **الواثق** العباسى (٢٢٧ : ٢٣٢ هـ ٨٤٢ . ٨٤٧م) وميشيل الثالث (٨٤٢ : ٨٦٧ م) وان كانت الاستعدادات قد بدأت قبل ذلك ولا تتحدث المصادر العربية عن هذه الواقعة التى يقرنها الروم فى الأهمية بانتصار النزعة الموالية للأيقونات وعوذه الارثذوكسية، وقد ظن بعض المحدثين أن أبادينار هو جعفر بن دينار والى طرسوس غير أن جعفر يذكر فى تاريخ لاحق متأخر ، وظنه البعض أمير كريت وهذا أيضا غير صحيح . ولدينا اشارة من المسعودى فى (المروج) عن أن المعتصم بعد انتصاره فى عمورية « أراد المسير الى القسطنطينية .. فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه » . وأراد أنصار الايقونات أن يستطلعوا مدى رضاء الله عنهم بمحاولة استعادة كريت سنة ٨٤٣ م ، وكان على رأس الحملة Theoklistos وان كانت هذه الحملة أقوى من الحملات التى أرسلت أيام ميشيل الثانى وقد أشاع العرب فى معسكر قائد الروم أن ثمة مكائد تدبر فى القسطنطينية . فأسرع القائد الى العودة وانهزم جيشه ، وان كان القائد البيزنطى قد حاول أن يثأر لنفسه من العرب الذين خدعوه فى الجبهة الشرقية ولكنه انهزم أمام عمرو بن الأقطع الذى غزا ارض الروم . وفى السنوات الأخيرة من حكم ميشيل الثالث أغار عرب كريت على جزيرة ميتيلين وهاجموا جبل آتوس Athos سنة ٨٦٢ م حتى اضطروا الرهبان لهجر أديرتهم ، كما اغاروا على جزيرة صغيرة مجاورة تسمى نيون سنة ٨٦٦ م . وأراد الروم اعداد حملة فى هذا العام لمهاجمة كريت ولكنها توقفت بسبب الظروف الداخلية فى البلاط البيزنطى . ومن كريت استمرت الهجمات الاسلامية على جزائر بحر ايجه ، « ولم يكد ينتصف القرن العاشر حتى كانوا يهددون سواحل اليونان نفسها ، ولقد عثر أخيرا على ثلاثة نقوش كوفية فى أثينا تدل على أن العرب استوطنوا حينا ما تلك الجهة . وربما كان مقامهم هناك قد امتد الى القرن العاشر » ـ على ما ينقله الدكتور حتى . وحين تم استرجاع الروم لكريت فى عهد نقفور فوقاس سنة ٣٥٠ هـ / سنة ٩٦١ م عادت سيادة الدولة البيزنطية الى شرقى البحر المتوسط . ولكنها لم تدم طويلا لاهمال البيزنطيين أسطولهم ، فقد أمنوا المنافسة من غيرهم وخشيوا المتمردين من رجالهم.

وبذلك وجدت الفرصة السانحة أمام البندقية لتأخذ وضعها وتلعب دورها فى البحر المتوسط (١٨٩) ·

واذا كان فتح كريت قد ارتبط بعرب الأندلس ، فان فتح **صقلية** قد ارتبط بعرب المغرب · وكانت الاضطرابات قد تتابعت فى افريقية منذ وليها المنصور الأغلب بن سالم سنة ١٤٨ هـ فقتله البربر سنة ١٥٠ هـ · وفى عهد الرشيد تولاها هرثمة بن أعين ، فلما رأى ما بها من الاختلاف كتب الى الخليفة يستعفى وخلف افريقية سنة ١٨١ هـ بعد أن تولاها سنتين ونصفا ، وولى الرشيد محمد بن مقاتل بن حكيم العكى فاختلف الجند عليه واضطربت الأمور ، ولكن ابراهيم بن الأغلب أعان الوالى « فكره أهل البلاد ذلك ، وحملوا ابراهيم بن الاغلب على أن كتب الى الرشيد يطلب منه ولاية افريقية فكتب اليه فى ذلك ، وكان على ديار مصر كل سنة مائة ألف دينار تحمل الى افريقية معونة فنزل ابراهيم عنها، وبذل أن يحمل كل سنة أربعين ألف دينار » · وأيد هرثمة ترشيح ابراهيم بن الأغلب ، فولاه الرشيد فى أول سنة ١٨٤ هـ « فانقمع الشر وضبط الأمر وسير كل من يتوثب على الولاة الى الرشيد» · وهكذا نشأت دولة الأغالبة فى شمال افريقية « وكان قيام دولة الأغالبة فى تونس نتيجة لسياسة الرشيد فى تأديب البربر وغيرهم من الثوار ، والوقوف فى وجه دولة الادارسة التى أسسها ادريس العلوى الذى هرب بعد موقعة فخ سنة ١٦٩ هـ ضد الحسين بن على ـ اذا أرادوا الاغارة على أراضى الدولة العباسية الواقعة شرق دولتهم » · وتزايد استقلال دولة الأغالبة عن الدولة العباسية على مر الأيام (١٩٠) ·

ويتميز المغرب عن غيره مما دخل فى حوزة الاسلام من أقطار البحر المتوسط « بأن النشاط البحرى جزء لا يتجزء من حياته وكيانه الاقتصادى والاجتماعى تبعا لذلك ، لأن أخصب أراضى المغرب وأوفقها للسكنى وأوفرها ماء هى مناطق الشريط الساحلى الذى يتصل من تونس الى المحيط

---

(١٨٩) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٧٥ ـ ٦ ، ابن الاثير جـ ٦ ص ١٤٧ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٤ ـ ٥ المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٥٤ ، فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ٥٢ : ٦١ ، ٨٥ ـ ٦ ، ١٧١ ـ ٢ ، ٢٢٦ : ٨ حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ ٢ ص ٥٨١ ،
Bury : Hist. of the East. Rom. Emp., pp. 287:293.
دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١

(١٩٠) ابن الاثير جـ ٦ ص ٥٠ ، ٥٥ : ٧ ، دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٧٧ : ١٨٠ . فازيلييف : العرب والروم · ترجمة دكتور شعيرة ص ٧٠ ·

الأطلسى ... وسكان هذا الشريط الساحلى العامر لا يستغنون عن البحر وتجارته ، ولهذا كان أهله من أنشط الأمم البحرية أيام الرومان والبيزنطيين .. وغلبت طبيعة البلاد البحرية على المسلمين ، فانشأوا ميناء تونس بعد اختطاطهم القيروان فى الداخل .. ولما تمكن المغرب من التخلص من قبضة المشرق بعض الشىء بقيام دولة الأغالبة على رأس المائة الميلادية التاسعة ، أخذ المغرب يرتد الى البحر المتوسط وعاد أهله الى نشاطهم السابق فى حوضه الأوسط ... وهكذا لم يكن فتح صقلية مصادفة أو استمرارا لسياسة الفتوح الاسلامية العامة ، **بل محاولة من المغرب لاستعادة مركزه فى البحر المتوسط فى نطاق اسلامى** . لقد اكتسب أهل المغرب من الاسلام شعورا بأنفسهم ونزوعا نحو السيادة فحاولوا التخلص من سيطرة العرب أولا ، ثم سيادة حوض البحر المتوسط الأوسط والغربى بعد ذلك . وبينما كان المغرب قبل الاسلام تابعا لما يقابله من شواطىء البحر الأبيض الشمالية نراه ينزع الى سيادتها بعد الاسلام » . وقد تم ذلك بعلاقات حربية فى عهد الاغالبة فالفاطميين ، ثم بعلاقات دبلوماسية تجارية فى عهد بنى زيرى ومن تلاهم،حتى انتقلت السيادة الى أمم غربى أوربا خاصة بعد شل الغزوة الهلالية لنشاط المغرب وضياع الأندلس . وقد كان نشاط المغرب منذ أواخر القرن الثامن الميلادى نشاطا غير رسمى تتحدث عنه حوليات النواحى التى وجه المغاربة اليها نشاطهم دون المراجع العربية (١٩١) .

وقد عرف العرب صقلية منذ أيام الاسلام المبكرة وأول غوزة عليها خرجت من شوطىء الشام سنة ٣٢ هـ ــ سنة ٦٥٢ م كما يذكر تيوفانيس ، ويقول البلاذرى : « قالوا : غزا معاوية بن حديج الكندى أيام معاوية بن أبى سفيان سقلية وكان أول من غزاها ولم تزل تغز بعد ذلك وقد فتح آل الأغلب بن سالم الافريقى منها نيفا وعشرين مدينة ». وبين غزو المسلمين المبكر وحملات الأغلب تتابعت الحملات الاسلامية . ومن ذلك حملة سنة ٦٦٨ م ــ سنة ٤٨ هـ التى خرجت من الاسكندرية بقيادة عبد الله بن قيس وتعاقبت على أثرها الهجمات . وفى سنة ٧٠٠ م ــ سنة ٨١ هـ أخذ عرب **مصر قوصرة (بانتلاريا)** وهى على ستين ميلا من صقلية وأربعين من افريقية وكانت القنطرة التى قفزوا منها الى صقلية . وهكذا تجدد النشاط البحرى من أوائل القرن الثامن الميلادى بعد سكونه « فنجد المسلمين يهاجمون صقلية فى سنوات ١٠٢ هـ ،

---

(١٩١) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ــ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ م

سنة ٧٢٠ م ، ١٠٩ هـ سنة ٧٢٧ م ، ١١٠ هـ - ٧٢٨ م ، ١١٢ هـ ٧٣٠ م ١١٤ هـ - ٧٣٢ م ، ١٣٥ هـ - ٧٥٢ م ، ١٣٦ هـ - ٧٥٣ م » . على ان حملات الشام ومصر كانت للمغنم والاسر لا للفتح والاستقرار . وجاء تأسيس القوة العربية فى افريقية مغيرا للموقف ، وعرف أباطرة الروم انهم لن يستطيعوا أن يتجنبوا صراعا نهائيا فى صقلية . وتعرضت الجزيرة لهجمات متعددة خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادى (٢ هـ) دون نتيجة حاسمة .

ووجد زيادة الله بن الأغلب فى فتح الجزيرة مخلصا من متاعبه الداخلية والاضطرابات التى تحدث بين السودان والعرب والبربر . وكان الأغالبة قد فكروا فى الاستيلاء على صقلية وسرادانية جملة واحدة من قبل ولم تمكنهم الظروف من ذلك ، وعقد عبد الله بن ابراهيم سنة ٨١٣ م سنة ١٩٨ هـ صلحا لعشر سنين ولكن جاءت الفرصة المواتية لغزو صقلية على أثر تمرد القائد البيزنطى يوفيميوس Euphémius - الذى تسميه المراجع العربية (فيمه) «اذ كتب ملك الروم الى قسطنطين - عامله على صقلية - بأمره بالقبض على (فيمة) مقدم الأسطول وتعذيبه. فبلغ الخبر الى فيمه فأعلم أصحابه فغضبوا له وأعانوه على المخالفة » . وكان بعد الجزيرة عن القسطنطينية يغرى بالثورة كل طامع ، وقد سبق فى عهد ايرين أن فر البيديوس Elpidios من الجزيرة الى العرب بافريقية حيث لقى الترحيب كامبراطور ورمانى . **وبدأ يوفيميوس ثورته سنة ٨٢٦ - ٧ م مغتنما ثورة توماس ونصر المسلمين فى كريت** ،وكان يعد لها من قبل. وقد استنجد وفيميوس بالمسلمين لمواجهة الدول البيزنطية ، وارتضى الأغالبة بعد تشاور أن يساعدوه . وخرجت الحملة الاسلامية بقيادة أسد ابن الفرات سنة ٢١٢ هـ - ٨٢٧ م من سوسة ونزلت الجزيرة عند مارزة Mazara وحاصرت سرقوسة Syracuse، وقرر أسد أن يستقل بعملياته عن حليفه البيزنطى. وقد تعرض أسد لمكائد الروم وتواطؤ يوفيميوس معهم وتهديد المجاعة عند سرقوسة ، وكادت الحملة تفشل ورغب بعض الجند فى الرجوع ولكن وصل صقلية مدد من افريقية ومتطوعون أندلسيون من كريت ، كما قدم مدد من بيزنطة والبندقية الى الروم . وأحرز المسلمون بعض الانتصارات ثم تحول عنهم الحظ بعد وفاة قائدهم أسد بالطاعون ، وهلك يوفيميوس بمكيدة من أنصار الامبراطور . وهكذا حين جاء صيف سنة ٨٢٩ م - اى بعد عامين من بدء الغزو - بدا أن العمليات الحربية العربية على وشك الانتهاء وان كان موقف الروم ضعيفا رغم انتصاراتهم الظاهرة .

وتحول الموقف لصالح العرب فى السنين الأولى من حكم تيوفيل اذ وصل المهاجمين أسطول أندلسى وآخر افريقى سنة ٢١٥ هـ - ٨٣٠ م ، ولكن المرض انتشر مرة أخرى فى الجيش الاسلامى ، وعاد بعض عرب الأندلس الى بلادهم . بينما حاصر عرب افريقية بلرم فاستولوا عليها بعد حصار عام سنة ٢١٦ هـ - سنة ٨٣١ م ، ويقول فازيلييف : « **كان فتح بلرم أمرا هاما أكسب العرب قاعدة قوية يمكن الاعتماد عليها فى فتح سائر المدينة . وكانت أحداث سنة٨٣١ تفسر لم أقدم تيوفيل بعد انتصاره فى طرسوس والمصيصة على مصالحة المأمون** » . ولم يتبع نصر العرب فى بلرم حدث هام مدى سنتين ، لانشغال المسلمين بتنظيم فتحهم الجديد . وتتابعت بعض الانتصارات للجيش الاسلامى حول قصريانة . وفى سنة ٢٢١ هـ - ٨٣٦ م غزا المسلمون اقليم اتنا (جبل النار) ، كما غزا أسطولهم الجزر الايولية المجاورة . **وفى سنة ٢٢٢ هـ - ٨٣٧ م سجل البيزنطيون انتصارهم فى الجبهة الشرقية فى زبطرة ، وفى صقلية ارتد المسلمون عند كفالو ومات زيادة الله وتوقف الهجوم العربى . لكن المسلمين ما لبثوا أن انتصروا فى عمورية فى العام التالى ، ثم اخذت تتساقط فى أيدى المسلمين مدن فى داخل صقلية** حتى صار القسم الغربى من الجزيرة فى يد العرب آخر أيام تيوفيل ، وتوفى الامبراطور فى أوائل سنة ٨٤٢ م بعد أن رأى فشل سياسته فى الغرب والشرق .

ثم حول العرب عملياتهم الى أقصى الشرق من الجزيرة ، فحاصروا مسينا وساعدوهم أهل نابولى كحلفاء لهم ، وكان العرب قد ساعدوهم منذ هجوم بنفنتو سنة ٨٣٦ م ، فسقطت فى أيدى المسلمين سنة ٢٢٩ هـ - ٨٤٣ م . وكانت الامبراطورة تيودورا الوصية على ميشيل الثالث (٨٤٢ : ٨٦٧ م) قد صالحت العرب المشارقة سنة ٨٤٥ م للتفرغ لصقلية ، ولكن تتابعت هزائم الروم وقامت مجاعة كبيرة بالجزيرة . وفى سنة ٢٣٨ - ٩ هـ ٨٥٢ : ٤ م خرب العرب القسم الجنوبى الشرقى من الجزيرة أى اقليم قطانيا وسرقوسة ونوتو وراجيز . وعلى الرغم من مهاجمة الروم دمياط سنة ٢٣٨ هـ - ٨٥٣ م لقطع اتصال مصر بكريت تمهيدا لمهاجمة الأخيرة ، فان ظروفهم لم تتحسن فى صقلية . وسقطت قصريانة Castrojiovanni ٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م ثم سقطت سرقوسة آخر المعاقل البيزنطية الكبرى سنة ٢٦٥ هـ - ٨٧٥ م بعد حصار طويل . ولم تسقط طبرمين Tauromenium الا سنة ٢٩٦ هـ - ٩٠٨ م « **أى أن المسلمين أنفقوا ١٣٨ سنة فى فتح هذه الجزيرة ولم تخلص لهم بعد ذلك الا ثلاثا وسبعين** » - على حد تعبير الدكتور مؤنس . وهو يعتبر فتح صقلية من المعالم الهامة فى التاريخ البحرى الاسلامى

« فان سيطرتهم عليها جعلت مفتاح حوض البحر المتوسط الأوسط والغربي فى أيديهم . واذا كان المسلمون لم يحسنوا الاستفادة من صقلية كبلد عظيم وقع فى أيديهم وكان فى امكانهم تحويله الى بلد اسلامى خالص فلم يلبث أن ضاع من أيديهم ، الا أنهم أفادوا منه كمفتاح بحرى عظيم القيمة ، وعرفوا كيف يهددون منه ايطاليا كلها ويسودون البحر التيرانى كله ويفتحون أجزاء كثيرة من ايطاليا ومن أسف أن دول الأغالبة والفاطميين وبنى زيرى لم تضع سياسة بحرية رسمية تمكنهم من الافادة من صقلية ومركزها ولكن مرابطة المسلمين ومجاهدة البحر قاموا بجانب مما قصرت الدول المغربية الرسمية فى أدائه ، فأظهروا نشاطا عظيما فى الغزو فى البحر ، وتمكنوا من موالاة الغزوات على جنوبى ايطاليا وغربيها . ولو أن الدول الاسلامية المغربية أيدتهم فى أعمالهم ونظمتهم ، لكان للمسلمين فى حوض البحر الأبيض تاريخ آخر » . **ويذكر بيورى أن صقلية لعبت دورا مرموقا فى المرتين التى بلغ فيهما التوسع السامى اقصاه فى صراعه مع أوربا على جزر وسواحل البحر المتوسط وذلك بسبب موقعها الجغرافى : مرة فى صراع الفينيقيين مع الاغريق واخرى فى صراع العرب مع الروم . وفى كلتا المرتين انحسر المد الآسيوى على غير ايدى الاغريق ، فان الرومان هم الذين طردوا الفينيقيين كما أن النورمان هم الذين طردوا العرب** . والفارق بين الغزوتين الساميتين هو سيطرة العرب على الجزيرة بأسرها .

وقد عرقلت خلافات مسلمى صقلية من أفارقة عرب وبربر وغيرهم أندلسيين ـ عملياتهم الحربية ، على أنهم اشتركوا مع أهل المغرب فى مهاجمة **الشواطىء الايطالية** منتهزين فرص الخلافات بين الأسر الحاكمة حتى احتلوا برنديزى Brundisium سنة ٨٣٦ م وملكوها ثلاثين سنة ٨٤٠ : ٨٧٠ م ، وهاجموا نابلى سنة ٨٣٦ م واجتاحوا اقليم قلورية كله Calabria سنة ٨٣٧ م وخربوا كابوا Capua سنة ٨٤٠ م ، واحتلوا بنفنتو Benevento وحكموها خمس سنوات ٨٤٢ : ٨٤٧ م وعادوا اليها بعد فترة قصيرة من تركها ، واستولوا على تارنتم Tarentum وحكموها أربعين سنة ٨٤٠ : ٨٨٠ م ، واحتلوا بارى التى ظلوا فيها ثلاثين سنة ٨٤١ : ٨٧١ م . وغزوا روما وتقدموا شمالها الى مونت كاسينى سنة ٨٨٣ م وفى الوقت نفسه نزل بعض مهاجرة البحر الأندلسيين شاطىء ايطاليا الشمالى الغربى واجتاحوا شمالى ايطاليا حتى جبال الألب، وهاجم أسطول أغلبى جنوة سنة ٨٣٤ ـ ٥ م .

وفى سنة ٨٠٩ م كان الأندلسيون قد بدأوا فى غزو **قرصقة البيزنطية**

وسردانية الفرنجية ، وغزاهما الأغالبة من الغرب وصقلية وثبتت أقدامهم فيهما الى سنة ٨٣٠ م ، ثم انتقلتا الى الفاطميين فالأندلسيين حتى استخلصتهما قوات جنوة وبيزا بعد هجوم استمر من سنة ١٠١٦ الى سنة ١٠٥٠ م . وفتح الأغالبة مالطة سنة ٨٢٤ م ، وظلت فى أيدى المسلمين حتى انتزعها النورمان سنة ١٠٩٠ م . **ومنذ فتح المسلمون قوصرة (بانتلاريا) سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٨ م صارت درعا يقى تونس ، وقد زادت أهميتها بعد سقوط صقلية فى أيدى النورمان ، وكان سقوط قوصرة فى ايديهم ايضا سنة ٣٨٤ هـ - ١٠٩١ م نذيرا بغاراتهم على سواحل تونس (١٩٢) .**

الروم يستغلون فتنة الخرمية :

توالت أنباء الحوليات الاسلامية تحمل أنباء الانتقاضات الطائفية فى المشرق ، حيث تتعدد النحل والاعتقادات . ففى سنة ١٨٠/٧٩٦ م - فى عهد الرشيد - خرجت (المحمرة) بجرجان ، وظن الوالى العباسى على بن عيسى بن ماهان أن الأمر لا يعدو أن يكون تهييج فرد ، فطلب من الرشيد عقاب عمرو بن محمد العمركى لأنه هو « الذى هيج ذلك عليه وانه زنديق ، فأمر الرشيد بقتله فقتل بمرو » . ولكن ذلك لم يكن علاجا للأمور ، فغلبت المحمرة على خراسان فى العام التالى .

وفى سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م تحركت (الخرمية) بناحية أذربيجان، فوجه اليهم الرشيد جيشا من عشر آلاف فارس . ويبدو أن نجاح هذا الجيش كان جزئيا فقد حملت أنباء سنة ٢٠١ هـ / ٨١٥ م فى عهد المأمون « تحرك بابك الخرمى فى الجاويذانية - أصحاب جاويذان ابن سهل - صاحب البذ ، وادعى أن روح جاويذان دخلت فيه وأخذ فى العبث والفساد ، وتفسير جاويذان الدائم الباقى ، ومعنى خرم فرح - وهى

---

(١٩٦) ابن الاثير جـ٦ ص١٢٣ : ٦ ، ١٤٠ جـ٧ ص٢-٣ ، ٢٢ ، ٣٦-٧ ، فازيلييف: العرب والروم - ترجمة دكتور شعيرة ص ٦٢ : ٨٤ ، ١١٥ : ١٢٤ ، ١٢٩ - ١٣٠ ، ١٥٩ - ١٦١ ، ١٨٠ : ٧ ، ١٩٢ : ٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط - المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ .
Vasiliev : L'Emp. Byz., Vol. I, pp. 367:370, 401:5. المصرية
Bury : Hist. of the East. Rom. Emp., pp. 294:306. وما بعدها
دكتور حتى : تاريخ العرب - ترجمة نافع جـ ٢ ص ٥٨٠ - ١ ، ٧٨١ : ٥ ، د . احسان عباس : العرب فى صقلية ص ٣١ : ٩ ، د . العدوى : الامبراطور البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٧٦ : ٩١ فى صقلية ص ٣١ : ٩ ، العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٨٦ : ٩١ .

مقالات المجوس أى دين الفرح ، ويعتقدون مذهب التناسخ » . وهذا التفسير لمبادىء الخرمية يورده ابن الأثير ، ويقول فان فلوتن « ويروى بعض الباحثين أن هناك صلة بين اسم الخرمية الذى قد يكون مشتقا من (خرم) اسم مدينة ببلاد ميديا أو كلمة (خرم) : ومعناها لذيذ ، فاذا ما تكلمنا عن (خرم دينيا Kharam dinia فلكى نبين أن هؤلاء لا يعرفون دينا غير اللذة » . والمحمرة فرقة من الخرمية . ويربط البعض بين الخرمية وبين أبى مسلم الخراسانى ، فيقال ان بابك من ولد مطهر بن فاطمة بنت أبى مسلم . وتنسب لهذه الطائفة كذلك أهداف سياسية ، فيقول المقدسى «فان الخرمية احتالوا فى ازالة الملك الى العجم ، فموهوا هذه النحلة وزينوها للجهال ، ودعوا اليها فى السر ومحصول أمرهم التعطيل والجاد » . وكانوا يعتقدون فى ظهور (المهدى) من جنسهم ليدعوهم الى الايمان به ، ويتبعه خلفاء له .

وتتابع ولاة أرمينية وأذربيجان على قتال بابك فى عهد المأمون دون نتيجة منذ سنة ٢٠٤ هـ ، وتذكر الحوليات انتصارات لبابك على عيسى ابن محمد بن أبى خالد سنة ٢٠٦ هـ وعلى محمد بن حميد الطوسى الذى لقى حتفه سنة ٢١٤ هـ . **وكانت ارمينية التى تتاخم ثغور الجزيرة من جهة وأذربيجان من جهة أخرى مسرح نشاط الخرمية الذين كانوا يسكنون بوجه خاص فى الاقليم الجبلى بين أذربيجان والديلم الى همذان والدينور . كما ارتبطت الفتنة الخرمية بالعلاقات الاسلامية البيزنطية فقد أراد الروم أن يستغلوا لصالحهم هذه الفتنة التى ساعدتها الظروف الجغرافية لتلك الأقاليم الجبلية . ويبدو أن تجدد الحرب بين المسلمين والبيزنطيين فى أواخر عهد المأمون نشأ عن فتح باب المفاوضات بين بابك وتيوفيل** . فما كاد هذا يعتلى العرش حتى اجتاز عدد من ثوار الخرمية الحدود الى بلاد الروم ــ بعد أن قتل اسحق بن ابراهيم خليفة المأمون فى بغداد ٦٠٫٠٠٠ فارسى فى همذان ــ وعرضوا خدماتهم على الجيش البيزنطى ، وقد تم هذا بمعونة ضابط من أصل فارسى أحضر للقسطنطينية وتيوفوبوس وحمل اسما اغريقيا هو تيوفوبوس Theophobos أعتنق النصرانية وعينه تيوفيل قائدا على هؤلاء الهاربين الشرقيين وأهله لذلك أصله ولسانه وربما نظر اليه جنوده على أنه أحد الخلفاء المنتظرين لقائدهم الالهى . وكان طريق هؤلاء الهاربين من الخرمية هو الطريق الساحلى المار بطرابزون Trapezus اذ كانوا لا يستطيعون اجتياز اقليم ملطية الاسلامى . وقد حاول هؤلاء فيما بعد ــ وقد خدموا الدولة البيزنطية فى حملة زبطرة وغيرها ــ أن يعلنوا قائدهم الذى منح رتبة

البطريق امبراطورا سنة ٨٣٧م ضد رغبته ولضن هذا القائد الذى تزوج أخت تيوفيل أو تيودوا كاتب الامبراطور بذلك ، فعفا عن هؤلاء الجنود ولكنه فرقهم فى مجموعات كـ مجموعة من ألفى جندى على الجيوش المختلفة حيث عرفوا (بالتورمات الفارسية) .

وكان على المعتصم أن يواجه هذه الفتنة التى بلغ من خطورتها أن عبد الله بن طاهر قائد المأمون الشهير « بعث اليه المأمون يخيره بين خراسان والجبال أو ارمينية وأذربيجان ومحاربة بابك ، فاختار خراسان » كما يروى اليعقوبى . **وعقد المعتصم سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٥ م للأفشين حيدر ابن كاوس على الجبال ووجهه لحرب بابك كما وجه أبا سعيد محمد بن يوسف الى اردبيل ليوفر الاستعدادات الحربية اللازمة للقتال** « **وأمره أن يبنى الحصون التى خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ، ويجعل فيها الرجال مسالك لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة الى اردبيل** » . وقد أحرز أبو سعيد انتصارا على سرية خرمية مغيرة « فهذه أول هزيمة كانت على أصحاب بابك ، ووجه أبو سعيد الرؤس والأسرى الى المعتصم » .

ويعتبر قتال المسلمين لبابك مصدرا هاما لمعرفة النظم الحربية أيام العباسيين ، وقد استهل الأفشين جهوده بتحديد مراكز ثابتة محصنة لقواده بين برزند وأردبيل فى مواضع مختلفة « فكانت السابلة والقوافل تخرج من اردبيل معها من يبذرقها حتى تصل الى حصن النهر ، ثم يبذرقها صاحب حصن النهر الى الهيثم الغنوى (القائد من أهل الجزيرة وكان ينزل فى أرشق) ، ويخرج هيثم فيمن جاء من ناحيته حتى يسلمه الى أصحاب حصن النهر ، ويبذرق من جاء من أردبيل حتى يصير الهيثم وصاحب حصن النهر فى منتصف الطريق فيسلم صاحب حصن النهر من معه الى هيثم والعكس » . وكان الأفشين لا يؤذى الجواسيس ولكن يحاول أن يشتريهم ليعملوا لحسابه . وقد استهل الأفشين انتصاراته على بابك حين قدم بغا الكبير بأموال اليه ، وأراد الخرمية أن يأسروا القافلة التى تحمل الأموال . فقد رتب الأفشين خطة لتسير القافلة بعد أن يعود المال الى أردبيل ، وتنكر الخرمية فى زى جند المسلمين،وأخفى الافشين تحركه فباغت عدوه الذى كان يحلم بقافلة المال ولم يكن يتوقع أن يواجه الافشين فى قتال « فلم يزل الناس فى طلق واحد متراكضين يكسر بعضهم بعضا حتى لحقوا بابك وهو جالس ، فلم يتدارك أن يتحول ويركب حتى وافته الخيل والناس ، واشتبكت الحرب فلم يفلت من رجالة بابك واحد وأفلت هو فى نفر يسير » . على أن الخرمية استطاعوا مع ذلك أن يستولوا على

بعض قوافل تموين الأفشين ، كما انتصر بابك على بغا الكبير سنة ٢٢١هـ « وكان تجهز وحمل معه الزاد من غير أن يكون الأفشين كتب اليه ولا أمره بذلك ، فدار حول (هشتادسر) حتى دخل الى قرية (البذ) » ، فخرج اليه بعض عساكر بابك وهاجموا فريقا من جنده. ثم اتفق بغا والافشين على يوم معين لمهاجمة بابك ، ولكن الظروف الجوية القاسية من رياح باردة وأمطار وثلوج لم تحقق توافق العمليات الحربية من جانبى القائدين، فدارت الدائرة على جيش بغا بعد أن كابد الكثر من وعورة المضايق والعقاب فى الجبال « وتخوف بغا على عسكره أن يواقع بالطلائع من ناحية ، ويدور عليهم فى بعض الجبال والمضايق قوى آخرون... فقال له الفضل بن كاوس : ليس هؤلاء أصحاب نهار وانما هم أصحاب ليل .. فضرب لبغا على طرف الجبل فى موضع شبيه بالحائط ليس فيه مسلك ، وجاء بغا فنزل وأنزل الناس وقد تعبوا وكلوا وفنت أزوادهم ، فباتوا على تعبئة وتحارس من ناحية المصعد . فجاءهم العدو من الناحية الأخرى ، فتعلقوا بالجبل حتى صاروا الى مضرب بغا ، فكبسوا المضرب وبيتوا العسكر وخرج بغا راجلا حتى نجا وجرح الفضل ابن كاوس .. » ولكن المسلمين استطاعوا فى نفس السنة قتل قائد كبير لبابك هو طرخان .

وفى العام التالى جرت موقعة بين أصحاب الافشين وآذين قائد بابك الذى تحدى المسلمين فكشف عياله فوق جبل يشرف على روذ الروذ « وقال لا أتحصن من اليهود ـ يعنى المسلمين ـ ولا أدخل عيالى حصنا » ، فأراد الافشين أن يرد التحدى بأسر عيال آذين ، وأجرى استعدادات لمواجهة طبيعة البلاد الجبلية « وكان الافشين عند توجه هؤلاء الرجالة ودخولهم المضيق يخاف أن يؤخذ عليهم المضيق ، فأمر (الكوهبانية) أن يكون معهم أعلام وأن يكونوا على رؤس الجبال الشواهق التى يشرفون منها على هؤلاء الرجالة ، فان رأوا أحد يخافونه حركوا الأعلام » . وقد نجح جند الافشين فى هذه المهمة .

وأخذ الافشين يدنو من (البذ) فى بطء «ولا يحفر خندقا،ولكنه يقيم معسكرا فى الحسك . وكتب اليه المعتصم يأمره أن يجعل الناس نوائب كراديس تقف على ظهور الخيل ، فبعض القوم معسكرون وبعض وقوف على ظهور دوابهم على ميل ، كما يدور العسكر بالليل والنهار مخافة البيات » . فأرهق جند الافشين وتعجلوا القتال ، ولكن الافشين مضى فى خطته فاختار مواقع حصينة على رؤس الجبال » وأمر الفعلة بنقل الحجارة وتحصين الطرق التى تسلك الى تلك الثلاثة أجبل حتى صارت

شبه الحصون ، وأمر فاحتفر على كل طريق وراء تلك الحجارة الى المصعد خندقا ، فلم يترك مسلكا الى جبل منها الا مسلكا واحدا » • وأتاه رسول من بابك يحمل اليه القثاء والبطيخ ويرمى الى استطلاع استعدادات معسكر الافشين فمكنه من ذلك • ثم أخذ يوالي تجهيزاته دون أن يقدم على قتال حاسم ، ولكن يواجه المناوشات الجزئية ، وقد عول على أن يتعرف مواضع كمناء بابك بعد استدراجهم •

وكان كثير من الجند خاصة (المطوعة) لا يطيقون هذه الاجراءات الطويلة التى يحكم بها الافشين خطته ، فرتب هجمة سريعة لم تؤد لنتيجة « فلم يزل الناس متواقفين متحاجزين يختلف بينهم النشاب والحجارة : أولئك على سورهم والباب ، وهؤلاء قعود تحت اتراسهم وقال جعفر : لست أوتى من قلة الرجال ولكنى لست ارى للحرب موضعا يتقدمون انما ها هنا موضع مجال رجل أو رجلين قد وقفوا عليه وانقطعت الحرب ••• وبعث الافشين بالبغال عليها المحامل فجعلت فيها الجرحى ، وانصرف الناس الى خندقهم وأيسوا من الفتح فى تلك السنة ، وانصرف أكثر المطوعة » • ولكن الافشين جهز هجوما اخر بعد جمعتين ، جمعتين فلما تعثرت الخيل فى آبار محفورة وجه الافشين (الكلفرية) ـ الفعلة « يقلعون حيطان منازلهم ويطمون بها تلك الآبار ، وحمل الناس عليهم حملة واحدة » . واضطر بابك الى الانسحاب وعرض عليه الافشين الامان .

ودخل جند الافشين البذ وصعدوا بالاعلام فوق قصور بابك الأربعة ، وكان فيها كمائن خرجوا يقاتلون المهاجمين فقاتلتهم الافشين وقواده « واحضر النافطين فجعلوا يصبون عليهم النفط والنار والناس يهدمون القصور » وقد رجع الافشين بعد فتحه معقل بابك الى خندقه ، ثم تابع الهدم والتحريق ثلاثة أيام « وكتب الى ملوك ارمينية وبطارقها يعلمهم ان بابك قد هرب وعدة معه ، وصار الى واد خرج منه الى ناحية ارمينية وهو مار بكم ، وامرهم أن يحفظ كل واحد منهم ناحيته ولا يسلكها أحدالأخذوه حتى يعرفوه فجاء الجواسيس الى الافشين فاخبروه بموضعه فى الوادى وكان واديا كثير العشب والشجر طرفه بأرمينية الآخر باذبيجان ، ولم يمكن الخيل أن تنزل اليه ولا يرى من يستخفى فيه لكثرة شجره ومياهه » .

فرتب الافشين دوريات على الطرق ، وجدد عرض الامان على بابك حين ورد من المعتصم فابى ثم عثرت على بابك احدى الدوريات ولكنه

هرب حين رآها تاركا اخاه وأمه وامرأة أخرى ودخل جبال ارمينية متخفيا على أن احتياجه للطعام مالبث أن كشف امره ، واستطاع سهل ابن سنباط ان يخدعه ثم يسلمه اثناء خروجهما معا للصيد الى الافشين اما عبد الله أخو بابك ، فقد صار الى عيسى بن يوسف بن اصطفانوس فاسلمه أيضا .

وقد جرى استعراض بابك فى معسكر الافشين ثم فى سامرا حين اشخص اليها مع أخيه سنة ٢٢٣ هـ سنة ٨٣٨ م امام الخليفة والعامة ووضع على فيل ثم قتل وصلب ويقدم لنا الطبرى فى ختام عرضه المفصل لقتال بابك هذا الاحصاء : كان يجرى الافشين فى مقامة بازاء بابك سوى الأرزاق والانزال والمعاون فى كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم ، ونصف ذلك حين لا يركب وكان جميع من قتل بابك فى عشرين سنة ٢٥٥٫٥٠٠ انسان وغلب يحيى بن معاذ وعيسى بن ابى خالد وأحمد بن الجنيد وأسره وزريق بن على صدقه ومحمد بن حميد الطوسى وابراهيم بن الليث ، وأسره مع بابك ٣٣٠٩ أناسى واستنفذ من المسلمات فى يده وأولادهن ٧٦٠٠ انسان وعدة من صار فى يد الافشين من أسرة بابك ١٧ رجلا و ٢٣ امرأة فلما أنهى الافشين هذا الصراع الطويل كان الخليفة يوجه اليه فى طريقة الى سامرا كل يوم فرسا وخلعة « منها عشرة آلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف يفرقها فى أهل عسكره وعقد له على السند ، وادخل عليه الشعراء يمدحونه وأمر للشعراء بصلات » . وقد بلغ من عناية المعتصم بأمر بابك وأخباره انه « جعل من سامرا الى عقبة حلوان خيلا مضمرة على رأس كل فرسخ فرسا معه مجر مرتب ، فكان يركض بالخبر ركضا حتى يؤديه من واحد الى واحد يدا بيد ، وكان ما خلف حلوان الى اذربيجان قد رتبوا فيه دواب المرج فكان يركض بها يوما أو يومين ثم تبدل .. وجعل لهم ديادبة على رؤوس الجبال بالليل والنهار .. ، فكانت الخريطة تصل من الأفشين الى سامرا فى أربعة أيام وأقل » .

وقد ارهق بابك قوى الدولة الاسلامية فى الداخل وشغلها عن حرب البيزنطيين ، وقد كان يتجمع اليه الساخطون من رجال الدولة ، فحين أتى حاتم بن هرثمة بن أعين والى ارمينية لفترة فى عهد المأمون نبأ مقتل أبيه بدسيسة ابن سهل « خرج من برذعة حتى نزل كسال ، فبنى فيها حصنا وعمل على أن يخلع ، وكاتب البطارقة وكاتب بابك والخرمية وهون أمر المسلمين عندهم فتحرك بابك والخرمية » . ولما غضب المأمون على على بن هشام وآليه على الجبل واذربيجان سنة ٢١٧ هـ ووجه اليه

عجيفا « أراد أن يفتك به ويلحق ببابك » (١٩٣)

وخرج **المازيار** بطبرستان ، وكان المأمون يخاطبه فى رسالة بألقاب التكريم الى جيل جيلان اصبهبذ اصبهبذان . . » ـ فاختلف أيام المعتصم سنة ٢٢٤ هـ مع عبدالله بن طاهر « فكان يكاتب بابك ويحرضه ويعرض عليه النصرة » .

ثم طمع **الافشين** فى ولاية خراسان جزاء على جهوده فى خدمة الدولة فشجع المازيار على الخلاف ليكون ذلك سبيلا لعزل عبد الله بن طاهر وافساح الطريق أمامه ، « وكان الأفشين يسمع أحيانا من المعتصم كلاما يدل على انه يريد أن يعزل آل طاهر عن خراسان ، فطمع الافشين فى ولايتها ، فجعل يكاتب مازيار ويبعثه على الخلاف ويضمن له القيام بالدفع عند السلطان ، ظنا منه ان مازيار ان خالف احتاج المعتصم الى أن يوجهه لمحاربته ويعزل عبد الله بن طاهر ويوليه خراسان » . وهلك المازيار بعد أن أعانَ عليه ابن عم له حاقد عليه ، وسعى عبد الله بن طاهر عند الخليفة ضد الافشين وأخبر بمكاتباته للمازيار وتكديسه للأموال فى أشروسنة وزاد من حرج موقفه مخالفة منكجور منكجور أحد أقربائه باذربيجان . وهكذا انتهى أمر القائد الصغدى الايرانى الذى ابلى فى حرب بابك والروم الى المحاكمة ، وشهد المازيار عليه بانه كان يحرضه على المعصية « لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس » . وأن أخا الافشين كتب الى أخى المازيار « انه لم يكن ينصر هذا الدين الابيض غيرى وغير بابك فاما بابك فانه بحمقه قتل نفسه ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه الا أن دلاه فيما وقع فيه ، فان خالفت لم يكن القوم من يرمونك به غيرى ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس ، فان وجهت اليك لم يبق أحد يحاربنا الا ثلاثة: العرب والمغاربة والاتراك والعربى بمنزلة الكلب المرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس ، هؤلاء الذباب ـ يعنى المغاربة ـ انما هم أكلة رأس ، وأولاد الشياطين ـ يعنى الاتراك ـ فانما هى ساعة حتى تنفد سهامهم

---

(١٩٣) الطبرى حـ ١٠ ص ٦٨ ـ ٩ ، ١٠٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٨ ـ ٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٤ : ٣٣٤ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٤ ، ١٢١ ، ١٣٢ ـ ٣ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ـ ٣ ، ١٥٥ ، ١٦٤ : ٦ ١٦٧ : ١٧٦ ، المسعودى : مروج الذهب حـ٢ ص ٢٣٦ ـ ٧ ، ٣٥٠ : ٣ ، دكتور حسن ابراهيم . تاريخ الاسلام حـ ٢ ص ٩٦ : ١٠٠ ، فازيلييف : العرب والروم : ترجمة دكتور شعيرة ص ٨٧ ـ ٨ ، ١١٣ ـ ٤ والهامش ، ١٣٨ : ١٤٣ ، ذيل هنرى جريجوار : ص ٣٦٣ ـ ٤ ،
Bury : Hist. of the East. Rom. Emp., pp. 251:4.

ثم تجول الخيل عليهم جولة فتاتي على آخرهم ، ويعود الدين الى مالم يزل عليه أيام العجم » . وقد تولى محاكمة الافشين محمد بن عبد الملك الزيات وطعن عليه فى دينه ، وانتهى أمره الى مصير بابك والمازيار ، حتى يقول براون Browne « ان الأفشين لم يكن فى ميوله ونشأته الفارسية أقل وطنية وعطفا على الفرس من هذين الرجلين الذين صحباه فى نهاية المحزنة (١٩٤) » !!

ولقد شهد عهد المعتصم وهو من أم ولد تركية **تحول العباسيين عن الفرس الى الاتراك** الذين جلبوا من وراء نهر جيحون عن طريق السبى باعتبارهم جزية يقدمها الامراء المحليون ، أو عن طريق تجارة الرقيق . وكانت قيادة هذه القوات فى أيدى الاحرار من رجال العباسيين العرب والفرس ، ولما اشتعلت الخصومة بين العرب والفرس خاصة فى نزاع الامين والمأمون التمس المعتصم مزيدا من الطمأنينية بالاعتماد على الاتراك ورفعهم الى مناصب القيادة . وقد رأى المعتصم أخيرا أن يبعد هؤلاء الجنود الاتراد عن بغداد بعد أن تأذى الناس من تصرفاتهم وكثرت الاحتكاكات بينهم وبين الاهلين ، فبنى مدينة سامرا عند القاطول سنة ٢٢١ هـ/سنة ٨٣٦ م ويذكر ان الرشيد كان قد شرع فى ذلك من قبل « وقد كان خاف من الجند ماخاف المعتصم ، فلما وثب أهل الشام بالشام وعصوا خرج الرشيد الى الرقة فأقام بها ، وبقيت مدينة القاطول لم تتم(١٩٥) » .

عمورية : سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م :

عاصر تيوفيل الاول (٨٢٩ : ٨٤٢ م) السنوات الاخيرة من حكم المأمون حتى سنة ٨٣٣ م ، وعاصر المعتصم منذ توليه الخلافة فى ذلك العام ثم توفى العاهلان البيزنطى والاسلامى فى سنة واحدة . ويرى بيورى ان عهد تيوفيل كان من الممكن أن يتألق فى الحوليات البيزنطية مثلما تألق عهد الرشيد فى حوليات الاسلام ، ولكن تيوفيل كان هدفا لحملة شديدة باعتباره من محاربى الايقونات ، كما ان عملياته الحربية

---

(١٩٤) الطبرى حـ ١٠ ص ٣٤٨ وما بعدها الى ٣٦٧ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ١٨٢ ومابعدها الى ١٩٦ ، المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٥٤ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ١٨٩ الى ١٩٠ ، دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ٢ ص ١٠٠ : ٤ ، فازيلييف العرب والروم ــ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٠٥

(١٩٥) الطبرى حـ ١٠ ص ٣١٠ ــ ١١ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ١٦٦ ، المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٤٩ ــ ٥٠ ،
Brockelman : Hist. of the Islamic Peoples, pp. 129-130.

لم تكن موفقة فى المشرق والمغرب • ولم يكن الامبراطور البيزنطى متمتعا بمواهب الساسة الكبار • وقد زاد من تشويه سمعته ان تسجيل تاريخه قد وقع فى العهد الباسيلى ، الذى كان يرتكز على النيل من الأسلاف العموريين :

وقد اتيح لتيوفيل مع ذلك أن يحتفل مرتين بانتصاره على المسلمين: احداهما بعد حملته على المصيصة وطرسوس سنة ٢١ هـ — ٨٣١ م فى عهد المامون ، والاخرى فى عهد المعتصم • وقد كان لدى الدولة الاسلامية ما يشغلها من فتنة الخرمية فى داخلها ، وكان لدى البيزنطيين مايشغلهم من توجيه الجهود لاستنقاذ صقلية • لذلك بذل تيوفيل محاولات متتابعة لمصالحة المامون ، ولكن تاييد البيزنطيين للخرمية قد جعل قتال المسلمين لهم أمرا محتوما فى اواخر ايام المامون ثم فى عهد المعتصم بعد ذلك •
ذلك ان بابك حين رأى تضييق الأفشين عليه « وأشرف على الهلاك وأيقن بالضعف ، كتب الى ملك الروم توفيل بن ميخائيل بن جرجس يعلمه أن ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته اليه حتى وجه خياطه — يعنى جعفر ابن دينار — وطباخه — يعنى ايتاخ ••• طمعا منه بكتابه فى أن ملك الروم ان تحرك انكشف عنه بعض ما هو فيه ، بصرف المعتصم بعض من بازائه من جيوشه الى ملك الروم ••• فذكر أن توفيل خرج فى مائة ألف وقيل أكثر ، فيهم من الجند نيف وسبعون ألفا وبقيتهم أتباع — حتى صار الى زبطرة ، ومعه من المحمرة — الذين كانوا خرجوا للجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم اسحق بن ابراهيم بن مصعب — جماعة رئيسهم بارسيس ، وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم فى أهم أموره اليه » وقد تظاهر بابك امام تيوفيل بأنه مسيحى ووعد بتنصير أتباعه .

ودخل تيوفيل ارض العرب بجيشه من البلغار والسلاف والفرس من أتباع بابك سنة ٨٣٥ م وقصد الروم الى حصن زبطرة الحصين فى ثغور الجزيرة قرب الحدود الفاصلة بين الامبراطوريتين على أربع فراسخ من الحدث وعلى مسيرة يوم من حصن منصور (فيران شهر جنوب غربى ملطية) • ويبدو أن تيوفيل رغب فى الاتصال بثوار ارمينية وأذربيجان من أعالى الفرات ، وكان قد حاول تدعيم نفوذه فى المنطقة الارمينية القوقازية ، وأرسل رسلا الى ارمينية الكبرى لمطالبتها بالجزاة كما يقول ميشيل السورى • وهاجم تيوفيل **زبطرة وشمشاط وملطية** ، وكان أشد ما أصيب زبطرة حيث قتل الرجال وسبى **الذرارى** والنساء وتركت شمشاط على الفرات خرآبا •

وبينما كان الامبراطور البيزنطى يحتفل بانتصاره « بلغ النفير الى سامرا ، وخرج أهل ثغور الشام والجزيرة الا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح ، واستعظم المعتصم ذلك فصـــاح فى قصره : النفير ، ثم ركب دابته ••• » ووضع الخليفة وصيته فى ممتلكاته ، ووجه بعض القواد الى زبطرة ـ عجيف بن عنبسة وعمرو الفرغانى ومحمد بن كوته « فوجدوا ملك الروم قد انصرف الى بلاده ••• فوقفوا قليلا حتى تراجع الناس الى قراهم واطمأنوا • فلما ظفر المعتصم ببابك قال : أى بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل عمورية ، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الاسلام وهى عين النصرانية ••• » ودخل ابراهيم بن المهدى على المعتصم فاستثاره بشعره :

يا غارة الله قد عانيت فانتهـــكى
هتـك النســـاء ومامنهن يرتكب

هب الرجال على اجرامهـا قتلت
مابال أطفالها بالذبح تنتهب

فتعمم المعتصم بعمامة الغزاة وخرج فى جمادى الاولى سنة ٢٢٣هـ/ ابريل سنة ٨٣٣م « ونودى فى الامصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين ، وجعل على مقدمته اشناس التركى ويتلوه محمد بن ابراهيم وعلى ميمنته ايتاخ ، وعلى ميسرته جعفر بن دينار وعلى ساقته بغا الكبير ، وعلى القلب عجيف بن عنبسة **وسار المعتصم من الثغور الشامية** •• ودخل الناس من سائر الدروب فلم يكن يحصى النـــاس العدد ، ولا يضـــبطون كثرة فمن مكثر ومقلل ، فالمكثر يقول خمسمائة ألف والمقلل مائتى ألف » • وأقام المعتصم على نهر اللامس ، وهو على سلوقية قريبا من البــحر بينه وبين طرسوس مسيرة يوم وعليه يكون الفداء ، «فذكر انه تجهز جهازا لم يتجهز مثله قبله خليفة قط من الســـلاح والعدد والآلة وحياض الادم والبغال والروايا والقرب وآلة الحـــديد والنفط » • ونقش المعتصم على الالوية والتروس عمورية •

وورع المعتصم قواته فامضى الأفشين الى سروج ليدخل من درب الحدث ، وأمر اشناس أن يدخل من درب طرسوس الى الصفصاف ، وحدد لهم المواعيد ليلتقى القــائدان بقواتهما مع قوات الخليفة عنــد انقرة ، ليفتحوها • ثم ارسل المعتصم الى اشـــناس وهو بمرج الاسقف أن جيش الامبراطور بين يديه وان عليه انتظار الساقة « لان فيها الاثقال والمجـانيق والزاد وغير ذلك ، وكان ذلك بعـد فى مضيق الدرب » •

ويذكر كانار Canard ان من الصعب ايجاد صلة لغوية بين مرج الاسقف وملاكوبيا (ملقوبية) ، ومقتضى مايذكره ابن خرداذبة أن مرج الاسقف تقع على الطريق بين دروب قيليقية وأذرولية بعد اجتياز (بليسة ـ فلسة)، ويزيد الادريسي انها تبعد عن بليسة نحو تسعة أميال «وعلى هذا لايتصور ان مرج الاسقف هي نازايانزى ـ نينزى أو ملاكوبيا » . وقد كلف المعتصم أشناس بالاستفادة من الوقت فى ارسال سرية استطلاعية تأسر بعض الروم للاستعلام منهم عن خبر امبراطورهم ، وكان هذا قد علم بقصد المسلمين أنقرة وعمورية فغادر عاصمته صوب الحدود ومعه تيوفوبوس الفارسي ومانويل اللاجىء الرومى العائد وأخذ يدبر تحصين عمورية وشحنها مخالفا بذلك نصيحة باخلائها . وقد عهد بذلك الى Aetius آيتيوس (ياطس) قائد البند الاناضولى ومقره عمورية، **وكانت خطة الامبراطور أن يهاجم قوات عدوه شمالا الى انقرة .**

ولما لم يكن الامبراطور يعلم شيئا عن تحرك الافشين من الثغور الجزرية فانه قد عبر نهر الهليس مقدرا ان عدوه سيجتاز الابواب القيليقية الى انقرة عن طريق أقصر الطرق من سدس Soandos الى بارناسوس Parnassos ثم يتابع مجرى النهر ، فعزم على أن ينقض على جناحه . على أن كانار يرجح أن الامبراطور عسكر وراء الهيلاس لا الهليس ، وانه كان ينوى أخذ جيش المعتصم على غرة عند مخاضة على هذا النهر « فان المعتصم حين أراد السير من مطامير الى انقرة ، لم يكن ليخطر بباله قط أن يجتاز منحنى الهليس ، وذلك ان الطريق المستقيم كان على الضفة الاخرى » . ثم علم الامبراطور بمسير جيش الافشين من ناحية بند الارمنياق فكان لابد من أن يقسم قواته ، فأخذ معظم جيشه وسار لمواجهة الافشين بينما خلف أحد أقربائه لمنع تقدم الخليفة . وكان الافشين قد اجتاز فى هذه الاثناء سبسطية (سيواس) ووصل اقليم Dazimon حيث التقى بقوات الامبراطور . وتتحكم هذه البقعة (توكات الحديثة) فى الطريق الكبير الذى يسير من القسطنطينية الى سبسطية فى نقطة يجتازها طريق آخر شمالا الى Neo-Caesarea . وعسكر الافشين بجنده قرب طرخال Turkhal (كازا اوفا عند الترك Kaza Ova) على نهر ايريس . ويبدو أنه قد انضم اليهم جند ارمن مع أمير ملطية عمر بن عبيد الله بن مروان الاقطع السلمى ـ بينما كان الترك أكثر فى جند اشناس .

وأتت السرية الاستطلاعية التى أرسلها أشناس بقيادة عمرو الفرغانى بأخبار توزيع الملك قواته بعد أن واجهت بعض المخاطر ، اذ ان

القائد البيزنطى فى منطقة (**حصن قرة**) فى بند كبادوكيا (القباذق) قد تنبه للخطر . ويقدم الطبرى تفصيلا عن نشـــاط هذه الحمـلة الاستطلاعية فيقول :

« فوجه أشناس عمرا الفرغانى فى مائتى فارس ، فساروا ليلتهم حتى اتوا حصن قرة فخرجوا يلتمسون رجلا من حول الحصن فلم يمكن ذلك ، ونذر بهم صاحب قرة ، فخرج فى جمع فرسانه الذين كانوا معه بالعدة . وكمن فى الجبل الذى فيما بين قرة ودرة (ولعلها مدينة دوارا فى كبادوكيا) - وهو جبل كبير يحيط برستاق يسمى رستاق قرة . وعلم عمرو الفرغانى أن صاحب قرة قد نذر بهم ، فتقدم الى درة فكمن بها ليلته . فلما انفجر عمود الصبح صير عسكره ثلاثة كراديس ، وأمرهم أن يركضوا ركضا سريعا بقدر ما يأتونه بأسير عنده خبر الملك ، ووعدهم أن يوافوه به فى بعض المواضع التى عرفها الادلاء ووجه مع كل كردوس دليلين ، وخرجوا مع الصبح فتفرقوا فى ثلاثة وجوه ، فأخذوا عدة من الروم وبعضهم من أهل عسكر الملك وبعضهم من الضواحى . وأخـذ عمرو رجلا من الروم من فرسان أهل القرة فسأله عن الخبر ، فأخبره أن الملك وعسكره بالقرب منه وراء اللمس بأربعة فراسخ (الهليس كما يرى فازيلييف وهيلاس كما يرى كانار) ، وان صاحب قرة نذر بهم فى ليلتهم هذه ، وانه ركب فكمن فى هذا الجبل فوق رءوسهم فلم يزل عمرو فى الموضع الذى كان وعد فيه أصحابه ، وأمر الأدلاء الذين معه ان يتفرقوا فى رءوس الجبال ، وأن يشرفوا على الكراديس الذين وجههم اشفاقا أن يخالفهم صاحب قرة الى أحد الكراديس ، فرآهم الأدلاء ولوحوا لهم فأقبلوا ، فتوافوا هم وعمرو فى موضع غير الموضع الذى كانوا اتعدوا له ، ثم نزلوا قليلا ثم ارتحلوا يريدون العسكر ، وقد أخذوا عدة ممن كانوا فى عسـكر الملك ، فصاروا الى اشناس فى (اللمس) فسألهم عن الخبر ، فأخبروه ان الملك مقيم منذ أكثر من ثلاثين يوما ينتظر عبور المعتصم ومقدمته باللمس فيواقعهم من وراء اللمس ، وانه قد جاءه الخبر قريبا انه قد رحل من ناحية الارميناق عسكر ضـخم وتوسط البلاد - يعنى عسكر الافشين - وانه قد صار خلفه ، فأمر الملك رجلا من أهل بيته ابن خاله فاستخلفه على عسكره . وخرج ملك الروم فى طائفة من عسكره ، يريد ناحية الافشين . فوجه أشناس بذلك الرجل الذى أخبره بهذا الخبر الى المعتصـم فأخبر بالخبر ، فوجه المعتصم من عسكره قوما من الادلاء وضمن لهم لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم على أن يوافوا بكتاب الافشين وأعلمه فيه ان أمير المؤمنين مقيم ، اشفاقا من أن يواقعه ملك الروم . وكتب الى أشناس كتابا

يأمره أن يوجه من قبلة رسولا من الأدلاء الذين يعرفون الجبال والطرق والمشبهة بالروم ، وضمن لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم ان هو أوصل الكتاب » .

ولكن الرسل لم تلحق الافشين . « وذلك انه كان وغل فى بلاد الروم ، وتوافت آلات المعتصم وأثقاله مع صاحب الساقة الى العسكر ، فكتب الى أشناس يأمره بالتقدم . وتقدم أشناس والمعتصم من ورائه – بينهم مرحلة ، ينزل هذا ويرحل هذا ، ولم يرد عليهم من الأفشين خبر حتى صاروا من انقرة على مسيرة ثلاث مراحل ، وضاق عسكر المعتصم ضيقا شديدا من الماء والعلف » . ودل أحد الاسرى أشناس على موضع يتمون منه جنوده ودوابهم ، وكان قد هرب الى هذا الموضع بعض جند الروم الجرحى فعلم المسلمون منهم بانتصار الافشين فى المعركة التى دارت فى ٢٥ شعبان /٢٢ يوليو ضد جيش الامبراطور الذى فر من الميدان الى خليوكومون Chiliokomon بعد أن كان الجيش البيزنطى متفوقا فى أو الامر ويبدو انه قد حدث تمرد بين الفرس فى جيش الامبراطور . « وسمع منويل اللاجىء الرومى القائد الذى صار دمستق الاسكول) فى قول أو سمع تيوفوب (الفارسى) فى قول آخر – على حد تعبير فازيلييف – مفاوضات بين الفرس والعرب كان الغرض منها خيانة تيوفيل، فلما سمعها دعاه وفاؤه الى جمع جماعة ممن ثبت اخلاصهم للامبراطور فاقنعوه بالهرب . فافسح الامبراطور لنفسه طريقا بين جند العدو بعد شىء من العنا وسار حتى بلغ (خليو كومون) وهو سهل شمالا أمازيا ، فجمع به فلول جيشه الهارب » . ويذكر المسعودى ان المدعو نصرا (تيوفوب) ابلى بلاء حسنا. « والواقع انه وقع خلط كثير بين منويل وتيوفوب (نصر) ، لقد كان كل منهما شخصية كبيرة فى ناحية العرب وناحية الروم وكان لكل منهما اسطورة ذات ملاحم عند كلا الفريقين . ولهذا خلطوا بينهما ، ولكن منويل أصبح عند الروم موضع القداسة فغطى على تيوفوب » .

ويروى الطبرى نبأ الواقعة التى انتصر فيها الافشين نقلا عن شهود العيان من جرحى الروم فيقول « فاخبروهم ان الملك كان معسكرا على أربعة فراسخ من اللمس حتى جاءه رسول ان عسكرا ضخما قد دخل من ناحية الارمنياق ، فاستخلف على عسكره رجلا من أهل بيته ، وأمره بالمقام فى موضعه فان ورد عليه مقدمة ملك العرب واقعه ، الى أن يذهب هو فيواقع العسكر الذى دخل الامنياق – يعنى عسكر الافشين – فقال

أميرهم : نعم وكنت ممن سار مع الملك فواقعناهم صلاة الغداة ، فهزمناهم، وقتلنا رجالتهم كلهم وتقطعت عساكرنا فى طلبهم • فلما كان الظهر رجع فرسانهم فقاتلوا قتالا شديدا حتى خرقوا عسكرنا واختلطوا بنا واختلطنا بهم فلم ندر فى أى كردوس الملك فلم نزل كذلك الى وقت العصر . ثم رجعنا الى موضع عسكر الملك الذى كنا فيه فلم نصادفه • فرجعنا الى موضع معسكر الملك الذى خلفه على اللمس ، فوجدنا العسكر قد انتفض، وانصرف النـــاس عن الرجل قرابة الملك الذى كان الملك استخلفه على العسكر ، فأقمنا على ذلك ليلتنا . فلما كان الغد وافانا الملك فى جماعة يسيرة فوجد عسكره قد اختل ، وأخذ الذى استخلفه على العسكر فضرب عنقه • وكتب الى المدن والحصون ألا يأخذوا رجـلا من عسكر الملك الا ضربوه بالسياط ، ويرجع الى موضع سماه لهم الملك انحاز اليه ليجتمع اليه الناس ويعسكر به ليناهض ملك العرب ، ووجه خادما له خصيا الى أنقرة على أن يقيم بها ويحفظ أهلها ان نزل بها ملك العرب • قال الاسير: فجاء الخصى الى انقرة وجئنا معه ، فاذا انقرة قد عطلها أهلها وهربوا منها فكتب الخصى الى ملك الروم يعلمه ذلك ، فكتب اليه الملك يأمره بالسير الى عمورية .. » وسارت السرية تحمل هذه المعـلومات القيمة الى أشناس ، ولحق أشناس بانقره وأدركه المعتصم فى اليوم التالى « فلما كان اليوم الثالث جاءت البشرى من ناحية الأقشين يخبرون بالسلامة وانه وارد على أمير المؤمنين بانقره . قال : ثم ورد على المعتصم الافشين بعد ذلك بيوم بانقره ـ فأقاموا بها أياما ، ثم صير العسكر ثلاثة عساكر : عسكرا فيه اشناس فى الميسرة ، والمعتصم فى القلب ، والافشين فى الميمنة ـ وبين كل عسكر وعسكر فرسخان . وأمر كل عسكر منهم أن يكون له ميمنة وميسرة وأن يحرقوا القرى ويخربوها ويأخذوا من لحقوا فيها من السبى فيما بين انقرة الى عمورية وبينهما سبع مراحل» .

وبدأ حصار **عمورية** فى ٦ رمضان / أول أغسطس بعـد تخريب انقرة فى الطريق «فقسمها أمير المؤمنين بين القواد كما تدور : صير الى كل واحد منهم ابراجا منها على قدر كثرة أصحابه وقلتها وصار لكل قائد منهم ما بين البرجين الى عشرين برجا وتحصن أهل عمورية وتحرزوا » . وقد أوفد تيوفيل رسولا يطلب الصلح « فى أول ما نزل المعتصم على عمورية» كما يذكر الطبرى ، وهذا عرض الامبراطور حسب رواية اليعقوبى «فأوفد طاغية الروم من قبله وفدا الى المعتصم يقول ان الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمرى ، وأنا ابنيها بمالى ورجالى وارد من أخذ من أهلها ، وأخلى جملة من فى بلد الروم من الاسارى ، وأبعث اليك بالقوم الذين

فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة » • ورفض الخليفة الصلح ، ولم يأذن الرسول الروم فى اعوده حتى انجز فتح عموريه • وكانت عموريه موطن الاسرة البيزنطية قد استعدت لمواجهة الحصار فدعمت الأسوار وحفرت الخنادق ، وتراجع الامبراطور الى درولیه Dorylaion يتابع ابناء المعركة.
وابتدأت المناوشات بتبادل قذف الاحجار والسهام ، فقتل كثيرون • وهنا تذكر الروايات العربية والبيزنطية نبأ خيانة فى معسكر الروم ، ويذكر الطبرى ان الخائن كان مسلما قد أسره الروم وتنصر « فلما رأى أمير المؤمنين ظهر وصار الى المسلمين ، وأعلمه ان موضـــعا من المدينة حمل الوادى عليه من مطر جاءهم شديد ، فحمل المـاء عليه فوقع السـور من ذلك الموضـع فكتب ملك الروم الى عامل عمورية أن يبنى ذلك الموضع فتـواني •• حتى كان خروج الملك من القسطنطينية فبنى وجه السور بالحجارة حجرا حجرا وصير وراءه من جانب المدينة حشوا ثم عقد فوقه الشرق »،وهكذا بدا ظاهر السور سليما أمام عين امبراطور، واستترت نقطة ضعف خطيرة أرشد المسلمين اليها هـذا الرجل • « فأمر المعتصم فضرب مضربه في ذلك الموضع ، ونصب المجانيق على ذلك البناء ، فانفرج السور من ذلك الموضع • فلما رأى أهل عمـورية انفراج السور علقوا عليه الخشب الكبار ــ كل واحدة بلزق الاخرى فكان حجر المنجنيق اذا وقع على الخشب تكسر ، فعلقوا خشبا غيره وصيروا فوق الخشب البراذع ليترسوا السور • فلما ألحت المجانيق على ذلك الموضع انصدع السور»•
وأراد ياطس (آيتيوس)والخصى (تيودور كراتيروس Theodore Krateros الذى أرسله تيوفيل للدفاع عن المدينة أعلام الامبراطور بنبأ الثغرة والعزم على الانسحاب ، فأرسلا رسولين أحدهما يتقن العربية ، ولكنهما وقعا فى أيدى المسلمين ، وتذكر الروايات العربية انهما أسلما بعـد أن نفحهما الخليفة من عطائه ، وأوقفا أمام السور يحملان الكتاب والعطاء سخرية من ياطس • واستمر الحصار « وأمر المعتصم أن تكون الحراسة نوائب، فى كل ليلة يحضرها الفرسان يبيتون على دوابهم بالسلاح وهم وقوف عليها ، لئلا يفتح الباب ليلا فيخرج من عمورية انسـان » • وقد أراد الخليفة أن يبتكر فى وسائل الحصار ، فاتخذ مجانيق كبارا يسع الواحد منها أربعة رجال ، وجعلها على كراسى تحتهـا عجل ، وطرح حشايا من جلد الغنم مملوءة بالتراب فى الخندق لتسير عليه دبابات كبـار تسع الواحدة عشرة رجال ، ولكن هذه الحشايا الجـلدية تعلقت بالدبابات « وبقى القوم فيها فما تخلصوا منها الا بعد جهد ، ثم مكثت تلك العجلة مقيمة هناك لم يمكن فيها حيلة حتى فتحت عمـورية ، وبطلت الدبابات

والمنجنيقات والسلاليم وغير ذلك حتى أحرقت» . وتتابع القواد على القتال يوما بعد يوم : اشناس ، وكان الموضع ضيقا فلم يمكن القتال واكتفى بالرمى بالمجانيق الكبار ، فالافشين وقد أثنى المعتصم على الحرب فى يومه ، وفى اليوم الثالث كانت النوبة على جند الخليفة « ومعهم المغاربة والاتراك ، والقيم بذلك ايتاخ . فقاتلوا فاحسنوا واتسع لهم الموضع» .

وتذكر الرواية العربية هنا حادثا غريبا لقائد رومى يسمى (وندوا)ـ تقول الرواية ان تفسيره بالعربية ثور ـ وكان موكلا بموضع الثلمة « وكان قواد ملك الروم عندما نزل بهم عسكر المعتصم اقتسموا البروج ، لكل قائد وأصحابه عدة أبرجة» . ونظرا لتركيز العرب هجومهم على موضع الثلمة استمد القائد الروم ليعينوه على موضعه بعد أن كثر جرحاه « فقالوا سلم السور من ناحيتنا ، وليس نسألك أن تمدنا، فشأنك وناحيتك فليس لك عندنا مدد . فاعتزم هو واصحابه على أن يخرجوا الى المعتصم ويسألوه الامان على الذرية ، ويسلموا اليه الحصن بما فيه من الخرثى والمتاع والسلاح . وأمر أصحابه ألا يحاربوا حتى يعود اليهم ، فخرج حتى وصل الى المعتصم فصار بين يديه والناس يتقدمون الى الثلمه وقد أمسك الروم عن الحرب ، حتى وصلوا الى السور . فدعا المعتصم بفرسه فحمله عليه ، وقابل حتى صار الناس معهم على حرف الثلمة وعبد الوهاب بن على بين يدى المعتصم ، فأومأ الى الناس بيده ان ادخلوا ، فدخل الناس المدينة . فالتفت (وندوا) وضرب بيده الى لحيته وقال : جئت أريد أن أسمع كلامك وتسمع كلامى فغدرت بى ..» ويشك بيورى فى امتناع الروم عن امداد هذا الرجل ، ويذكر ان الوفد الذى قابل المعتصم كان يتألف من بطريق عمورية وثلاثة من الضباط فيهم هذا الرجل الذى يدعى بويدتزس Boiditzes وقد طلب الخليفة استسلاما بلا قيد ولا شرط فعاد الوفد ادراجه وانفرد بويدتزس وحده بالرجوع الى المعتصم للاتفاق . والواقع ان مصير عمورية كان محتوما بعد تهدم سورها، وقد أجزل الخليفة للرجل العطاء ، ودخل العرب عمورية فى ١٧ رمضان/ ١٢ أغسطس . وكان آخر قتال فى كنيسة كبيرة فى زاوية عمورية ، فأحرقها المسلمون . وحاول ياطس أن ينخفى ليجد سبيلا للفرار ، ولكن صعد المسلمون البرج فأسروا ياطس وغيره مثل تيودور الخصى « فأمر المعتصم (بسيل) الترجمان أن يميز الاسرى فيعزل منهم أهل الشرف والقدر من الروم » وأذن لرسول امبراطور الروم بالعودة . وهناك روايات تزعم أن خائن عمورية قد اعتنق الاسلام وسعى فى تخذيل قومه من أسرى الروم ليسلموا مثله ، ولكنهم أبوا فقتلوا . وتذكر اسطورة ان الخائن

لقى نفس المصير اذ رأى الخليفة انه ان كان قد خان قومه فهو بخيانة المسلمين أولى ·

وادت البنود البيزنطية دورها فى حماية الدولة ضد الهجوم الاسلامى ، فقامت منطقة حدود كبادوكيا بمواجهة السرية الاستطلاعية واحتمى الامبراطور البيزنطى ببند الابسيق حيث تقهقر الى درولية Dorylaion **بعد تقدم الجيش الاسلامى نحو عمورية ، وكان يريد أن تقوم انقرة وعمورية بدوريهما فى مواجهة القوات الزاحفة ، وعلى هذا النحو تستهلك البنود البيزنطية على التوالى طاقة الجيوش المهاجمة ،** وتتعاون على النيل منها فى أكثر من ميدان ، حتى لا تخلص الى القسطنطينية ـ اذا قصدت ذلك ـ الا وهى منهكة غاية الانهاك « وهكذا وقفت البنود البيزنطية بآسيا الصغرى خطا دفاعيا مرنا منيعا ضد التقدم الاسلامى ، تصمد له حينا وتنثنى أمامه حينا لتقذف به فى الوقت المناسب الى الوراء ، أو يتراجع الخط الدفاعى بانتظام لاجهاد المسلمين واستنفاذ قواهم · كل ذلك دون أن تنال الاغارات الاسلامية المتكررة من تلك البنود أو تعرقل حياتها ، اذ ظل سكانها يحتملون مصائب الغزو فى صبر وجلد ثم يقبلون على فلاحة أراضيهم وبساتينهم بعد انتهاء كل غارة دون بأس أو ضجر ·· »

وفى طريق العودة بلغ المعتصم ان الامبراطور البيزنطى « يريد الخروج فى أثره أو يريد التعبث بالعسكر ، فمضى فى طريق الجادة مرحلة ثم رجع الى عمورية وأمر الناس بالرجوع ، ثم عدل عن طريق الجادة الى طريق وادى الجور ففرق الاسرى على القواد ·· فساروا فى طريق نحوا من أربعين ميلا ليس فيه ماء فكان كل من امتنع من الاسرى أن يمشى معهم لشدة العطش ضربوا عنقه ، فتساقط الناس والدواب وقتل بعض الاسرى بعض الجند وهرب · وكان المعتصم تقدم العسكر ، فاستقبل الناس ومعه الماء قد حمله من الموضع الذى نزله ، وقال الناس له : ان هؤلاء الاسرى قد قتلوا بعض جندنا ، فأمر عند ذلك بسيل الرومى بتمييز من له القدر منهم ، ثم أمر بالباقين فاصعدوا الى الجبال وأنزلوا الى الاودية فضربت أعناقهم جميعا ـ وهم مقدار ستة آلاف رجل قتلوا فى موضعين بوادى الجور وموضع آخر · **ورحل المعتصم يريد الثغر حتى دخل طرسوس ،** وكان قد نصب له الحياض من الادم حول العسكر من الماء الى العسكر بعمورية ·· » وهكذا كانت نهاية هذه الغزوة التى استغرقت خمسة وخمسين يوما · وقد هدمت أسوار عمورية وأبوابها ، وأمر المعتصم

بترميم زبطرة وتحصينها واقامة حصون أخرى حولها (طبارجي والحسينية وبنى المومن وابن رحوان). ويصف الادريسى اسوار عمورية أيامه بأنها متينة ، فى حين رآها أبو الفدا بعده خرابا • وقد أجرى الجيش الاسلامى أثناء رجوعه بعض عمليات صغيرة من ذلك ان المعتصم حين ارتحل من عمورية يريد الثغر « وجه الافشين ابن الاقطع خلاف طريق المعتصم ، وأمره أن يغير على موضع سماه له، وأن يوافيه فى بعض الطريق» • وتذكر الروايات غير العربية أن تيوفيل **أرسل الى المعتصم البطريق باسيل** يعرض مائتى قنطار فداء للأسرى ومعه بعض أقربائه وخاصته ، فأجاب الخليفة ان النفقات بلغت ألف قنطار ، واشترط تسليم (منويل) الذى كان قد لجأ للعرب وخانهم وعاد الى قومه وصار دمستق الاسكول ومن يسمى نصر ، وكان مع المبعوث البيزنطى رسالة أخرى ذات لهجة تهديدية عند رفض الرسالة الودية وحين قرأها المعتصم رد الهدايا مغضبا •

صار الطريق أمام المسلمين بعد انتصارهم فى عمورية مفتوحا لمواصلة الزحف الى القسطنطينية ، ولكن المعتصم كان قد استهل عهده بما يدل على انصرافه عن هذه الوجهة اذ أوقف سنة ٢١٨ هـ بناء الطوانة الذى كان قد شرع فيه المأمون وأمر بهدم ما كان قد بنى « وحمل ماكان من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله ، وأمر بصرف من كان المأمون اسكن ذلك من الناس الى بلادهم» • ونستطيع على هذا الضوء أن نرى فى حملة عمورية **حملة تأديبية قامت بقصد محدد وغرض مؤقت ،** لكن مع ذلك يذكر المسعودى أن المعتصم «أراد المسير الى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة فى فتحها برا وبحرا ، فاتاه ما أزعجه وازاله عما كان عزم عليه من أمر العباس بن المأمون وأن ناسا قد بايعوه وأنه كاتب طاغية الروم » • على أن **هناك غزوات برية أعقبت عمورية ، وقد قام بها : سعيد محمد بن يوسف امير الشام والجزيرة وبشير امير المصيصة الذى اتيح له أن يهزم نصر ويهلكه رغم تفوقه أول الأمر ويذبح الخرمية فى جيشه** ـ كما يقول ميشيل السورى ففرح الخليفة بموت نصر لانه كان مخرب زبطرة ، وتقع هذه الحملة سنة ٨٣٩ أو ٨٤٠ م ولعل منها ماتسرب الى اسطورة البطال • **لكن الروم نجحوا فى حملة لهم سنة ٨٤٠ ـ ٨٤١م فاحتلوا الحدث ومرعش وأرض ملطية بينما كان المعتصم متفرغا للافشين وأصحابه ولعل العام السابق قد شهد غارة لاسطول الروم على ساحل الشام أمام انطاكية** ، ويقول فازيلييف « ولنا أن نفترض انه أرسل الى سوريا فى وقت حصار عمورية رجاء التخفيف عنها • ولا يذكر أحد هذه الغزوة البحرية الا ميشيل السورى ـ وهو يقول : قصد الروم عندئذ

انطاكية ونزلوا ميناء سلوقية ، ونهبوا التجار وأسروا ثم ركبوا سفنهم .
فلما بلغ الامر ابا اسحق آمر ببناء حصن وسط الميناء » غير ان البلاذرى
يروى ان محمد بن يوسف المروزى المعروف بأبى سعيد « بنى حصنا
بساحل انطاكية بعد غارة الروم على ساحلها فى خلافة المعتصم » .
ويذكر بيورى ان هذه الظروف دعت المعتصم الى قبول **تبادل الاسرى فى سنة ٨٤١م** ، وقد أبدى الخليفة استعداده لرد اسيرين روميين مكان كل
أسير مسلم اذا أعاد الروم أسرى المسلمين دون أن يسألوا مقابلا ، كما
أبدى استعداده لمجاوزة أى مدى يصل اليه الروم فى هذا السبيل ، ولكن
لم يشمل هذا الفداء ياطس (آيتيوس) وزملاءه ويقول فازيلييف « ونحن
نرى ان هذا التبادل المزعوم عام ٨٤١م لم يقع ، ويلاحظ فابل عن حق ان
العرب سجلوا أمر الافدية تسجيلا دقيقا ، ولم يذكروا غير فداء سنة
٢٣١ هـ / سنة ٨٤٥ م . فمن الراجح ان الامبراطور لم يغتنم اذن هذه
الوفادة ليطلب ولو بعض اسرى عمورية وخاصة قريبه قسطنطين
بابوتزيكوس ، ونحن نعلم ان شهداء عمورية قتلوا فى ٦ مارس سنة
٨٤٥ م ، ثم ان المعتصم رغم تبادل الهدايا عام ٨٤١ م كان يفكر منذئذ
فى هجوم يبلغ به هذه المرة القسطنطينية ، ووقع هذا الهجوم فعلا على
يد الى أبى دينار وانتهى بالفشل بعد موت تيوفيل والمعتصم سنة ٨٤٢م» .

وقد قام تيوفيل على اثر معركة عمورية بايفاد الرسل الى البندقية
وبلاط ملك الفرنجة لويس التقى والخلافة الاموية بالاندلس ، ولم تثمر
هذه الوفادات نتائج ايجابية ، باستثناء ارسال اسطول من البندقية
لمهاجمة الامير العربى فى تارنت بايطاليا الجنوبية وقد كان مصيره
الهزيمة(١٩٦) .

لم ينعم المعتصم بنصرة فى عمورية ، فقد نغصت عليه الفتن طريق

---

(١٩٦) الطبرى حـ ١٠ ص ٣٠٤ ـ ٥ ، ٣٣٤ : ٣٤٣ ، ٣٤٤ ـ ٥ ابن الاثير حـ ٦ ص١٧٦ـ
١٨٠ ، المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٥٣ ـ ٤ ، التنبيه والاشراف ص ١٤٤
ـ ٥ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٢٠١ ـ ٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ ، ٢٠٠ ،
الفخرى ص ١٧١ ، فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٢٤ ،
١٦٥ ، ص ١١٣ ـ ٤ (الهامش ، ذيل بقلم جريجوار ص ٣٦١ : ٤ ، ذيل كنار
ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ ،
Bury : Hist. of the East. Rom. Emp., pp. 121-2, 127, 253-4, 259, 276.
حتى : تاريخ العرب حـ ٢ ترجمة نافع ص ٣٧٢ ـ ٣ ، دكتور العدوى : الامبراطورية
البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٨٢ : ٥ ، دراسات فى التاريخ البيزنطى : المجلة
التاريخية المصرية م ٢ ع ٢ اكتوبر ١٩٤٩ ، د . مؤنس : صور من البطولة
ص ١٤٧ : ١٥٢ .

عودته • وبدت البوادر حين اثنى **عمرو الفرغاني** على قتال الافشين فى عمورية أمام الخليفة ، فسمعها اشناس ، فعنفه وكان هو القائد المباشر للقتال فى اليوم السابق على يوم الافشين • وحين تداول عمرو مع **احمد بن الخليل فى** ذلك « قال ان **العباس بن المأمون** قد تم أمره وسنبايع له ظاهرا ونقتل المعتصم وأشناس وغيرهما عن قريب » ، ونصحه بالانضمام الى المتآمرين • وقد **استاء عجيف بن عنبسة** لاطلاق يد الافشين دونه فاتجه الى العباس بن المأمون الذى ظهر خطره على خلافة المعتصم منذ بدايتها اذ بايعه الجند بالخلافة بعد وفاة أبيه المأمون « فأرسل أبو اسحق الى العباس فأحضره فبايعه ثم خرج الى الجند فقال : ما هذا الحب البارد؟ قد بايعت عمي وسلمت الخلافة اليه فسكن الجند» • وقد استثار عجيف مطامع العباس فى الخلافة ، وصير العباس الحارث السمرقندى سفيره لدى القواد يرتب لمن ينضم الى المؤامرة دوره فيها والشخص الذى يقتله • وأشار عجيف على العباس أن يثب على المعتصم فى الدرب ـ وهو فى قلة من الناس بحكم ضيق الممر ، ويقفل الناس دون غزو فيفرحوا بانصرافهم، فأبى العباس حتى لا يفسد الغزاة • وكرر عليه عجيف القول بعد فتح عمورية ، فرأى العباس أن يؤجل هذا لحين مرور المعتصم فى الدرب عند العودة • وأحس المعتصم بوادر الفتنة عند نهب المتاع أثناء بيع الغنائم « فوكل بالمقاسم قواده ••• ووكل مع كل قائد من هؤلاء رجلا من قبل أحمد بن أبى داود يحصى عليه ••• ولما كان يوم ايتاخ قبل أن يرتحل المعتصم منصرفا وثب الناس على المغنم الذى كان ايتاخ على بيعه ، وهو اليوم الذى كان عجيف وعد الناس فيه أن يثب بالمعتصم • فركب المعتصم بنفسه ركضا وسل سيفه ، فتنحى الناس عنه من بين يديه وكفوا عن انتهاب المغنم ، فرجع الى مضربه » • وكان خبر المؤامرة قد تسرب الى المعتصم عن طريق غلام له من قرابة الفرغانى • وكان اشناس قد علم باتجاه الفرغانى وأحمد بن الخليل الى عسكر الافشين ، فلما سئلا عن قصدهما قالا انهما رغبا فى الشراء من سبى ابن الاقطع الذى عاد به من غارته على الموضع الذى وجهه اليه الافشين بعد عمورية • فغضب اشناس وطلب من المعتصم تأديبهما فحنقا عليه وطلبا التحول الى قائد آخر • فما كان من اشناس الا أن حبسهما ، ثم بلغه نبأ المؤامرة عن طريق أحمد ابن الخليل ، فقبض على كبار المتآمرين • وأقر الحارث السمرقندى لكن المعتصم أطلقه « وخلع عليه ولم يصدق على أولئك القواد لكثرتهم » ، وعفا عن الحارث لصدقه الخبر ، أما العباس فقد استدرجه المعتصم فأطلقه ومناه وأسكره « ثم دفع العباس الى الافشين ، ثم تتبع المعتصم أولئك

القواد فأخذوا جميعا » • فجرى تعذيب المتآمرين بالتجـويع والشمس والقيد والسياط ، فقتلوا شر قتلة : العباس بمنبج ، والفرغانى بنصيبين، وعجيف بباعيناثا ، وابن الخليل بسامرا ـ وغيرهم • وحبس ولد المأمون من (سندس) أم العباس (١٩٧) • ثم واجه المعتصم سنة ٢٢٤ هـ فتنة المازيار ، وفى السنة التالية فكر الافشين فى قتل الخليفة بالسم أو هروبه هو الى بلاد ارمينية ثم الخزر حين أحس بتغـير الخليفة عليه • **وهكذا اصـطدم المعتصم بقـواده فى حمـلات الثغـور وغيرها وبرجال دولته ،** وجاء خروج المبرقع اليمانى الى فلسطين فى السنة التى توفى فيها الخليفة « وبعد المعتصم لم يقم العرب من جانبهم بهـجوم خطير ، فكانت أهداف الجيوش التى أرسلها أخلافه عبر الحدود ترمى الى الغارة لا الى الفتح ، ولم يقع صدام ذو أهمية أو كان له أثر عميق فى البلاد • **ومع ذلك فطوال القرن التاسع الميلادى كانت العلاقات العدائية برغم قلة اهميتها لاتنقطع ، بل كانت تقع كل عام تقريبا على الحدود الشرقية • وكانت أمثال هذه الغارات تدرب الجند وتعود باسلاب كبيرة ، ولكن الروح العربية القومية والباعث الدينى اللذان كانا يحركان حملات الاسلام من قبـل قد أصبحا أقل اهمية** ، ونم الضعف الذى اعترى الدولة الاسـلامية عن نفسه فى علاقات المسلمين الخارجية» (١٩٨) •

دبيب الوهن : الواثق (٢٢٧ : ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ : ٨٤٧ م) المتوكل (٢٣٢ : ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ : ٨٦١ م)

لم يكن الواثق بمسـتطيع أن يستفيد من انتصارات أبيه المعتصم فقد واجهته أزمات داخلية خطيرة فى جهاز الدولة الادارى وفى فتن الأهلين فى قلب الدولة وأطرافها على السواء •

لقـد تتابعت **الفتن فى الشام** ففى سـنة ٢٣١ هـ جرى بين الامير هانا **والمردة** حروب كثيرة فى جبل لبنان ، فانتصر عليهم ولقب بالغضنفر أبى الاهوال ـ كما ينقل كردعلى ، وحثه على متابعة الحرب خاقان التركى

---

(١٩٧) الطبرى حـ ١٠ ص ٣٠٤ ، ٣٤٠ ـ ١ ، ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ، ٣٤٣ : ٨ ، ابن الاثير حـ ٦ ص ١٦١ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٠ : ٢ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٢٠٢ ، المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٥٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ٦٨ ـ ٩ ، فازيلييف العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٤٧ ـ ٨ ، ١٥٢

(١٩٨) حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ ٢ ص ٣٧٣

خادم الرشيد • وفى عهد المتوكل وثب **أهل حمص** بعاملهم على المعونة وكان قد قتل رجلا من رؤسائهم فوجه المتوكل محمد ابن عبدويه كرداس الانبارى محل المقتول ليستصلحهم بذلك «فرضوا به فولاه عليهم، فعمل فيهم الأعاجيب • فثاروا عليه فى العام التالى » « وأعانهم على ذلك قوم من نصارى حمص • فكتب بذلك الى المتوكل فكتب اليه يأمره بمناهضتهم، وأمده بجند من راتبة دمشق مع صالح العباس التركى - وهو عامل دمشق وجند من جند الرملة • فأمره أن يأخذ من رؤسائهم ثلاثة نفر فيضربهم بالسياط ضرب التلف ••• وأن يأخذ بعد ذلك من وجوههم عشرين انسانا فيضربهم ثلثمائة سوط كل واحد منهم ويحملهم فى الحديد الى باب أمير المؤمنين ، وأن يخرب ما بها من الكنائس والبيع والا يترك فى المدينة نصرانيا الا أخرجه منها » ••• ولعل ذلك كان من دوافع سياسة تمييز أهل الذمة فى اللباس والركوب التى تشدد فيها المتوكل • كما وثب أهل **دمشق** فى الوقت نفسه بعامل المتوكل لسوء سيرته فيهم ، وقد غضب المتوكل لمقتل عامله فطلب واليا لدمشق فى صولة الحجاج « فقيل له افريدون التركى ، فأمره وجهزه اليها فى سبعة آلاف ، وأحل له القتل والنهب ثلاثة أيام » ، ولكن اعثرته البغلة التى ركبها فسقط ميتا •• ومن العجيب أن **المتوكل جاء ليسكن دمشق هربا** مما كان يحاذره من شدته على العراقيين فقد شخص اليها أواخر سنة ٢٤٣ هـ فقال يزيد بن محمد المهلبى :

أظن الشـام تشمت بالعراق
اذا عزم الامام على انطـلاق

وقد دخلها فى العام التالى بعد رحلة اسـتغرقت حوالى ثلاثة شهور « وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك اليها وأمر بالبناء بها ، فتحرك الأتراك فى ارزاقهم وأرزاق عيالاتهم فأمر لهم بما أرضاهم به »•• ولم يلائم جو المدينة الخليفة فعدل عن سكناها وأمر ببناء **الماحوزة** وسماها الجعفرى سنة ٢٤٥ هـ •

وقد تعرضت الشام **لزلازل الطبيعة ومن ذلك** « انه كان فى هذه السنة بانطاكية زلزلة ورجفة قتلت خلقا كثيرا وسقط منها ألف وخمسمائة دار ، وسقط من سورها نيف وتسعون برجا ، وسمعوا أصواتا هائلة لا يحسنون وصفها من كوى المنازل ، وهرب أهلها الى الصحارى ، وتقطع جبلها الاقرع وسقط فى البحر فهاج البحر فى ذلك اليوم وارتفع منه دخان اسود مظلم منتن وغار منها نهر على فرسخ ، وسمع فيها أهل تنيس

في مصر ضجة دائمة هائلة .. وزلزلت بالس والرقة وحران ورأس عين وحمص ودمشق والرها وطرسوس والمصيصة وأذنة وسواحل الشام ورجفت اللاذقية فما بقى منها منزل ولا أفلت من أهلها الا اليسير وذهبت جبلة بأهلها » .

ولم تنقطع **فتن الخوارج وانتفاضات الأكراد** ، ففى سنة ٢٣١ هـ ٨٤٦ م خرج محمد بن عمرو الخارجى من بنى زيد بن تغلب فى **ديار ربيعة** ، فتوجه اليه غانم بن أبى مسلم بن حميد الطوسى وكان على حرب الموصل وأسره . كما شخص وصيف التركى فى طلب الأكراد الذين تطرقوا الى اصبهان والجبال وفارس . واضطربت **أرمينية** « وتحرك بها قوم من العرب والبطارقة والمتغلبين ، وتغلب ملوك الجبال والباب والأبواب على ما يليهم وضعف أمر السلطان . فولى الواثق خالد بن يزيد بن مزيد ، أمره بالنفوذ وضم اليم كورا من كور ديار ربيعة ، فسار فى جيش عظيم فلما بلغ المتغلبين بتلك البلاد خبره هابوه .. واعتل خالد ثم مات ، فعاد البلد الى أقبح أحواله فولى الوائق محمد بن خالد مكان أبيه فاجتمع الى محمد أصحاب ابيه ومواليه فحارب الصنارية ولم يزل ضابطا للبلد » . وقد توفى أبو سعيد محمد بن يوسف المروزى والى اذربيجان وأرمينية سنة ٢٣٦ هـ سنة ٨٥١ م فاستعمل المتوكل ابنه يوسف وقبض على بطريق البطارقة الذى خرج يطلب الامارة وخرج جماعة من البطارقة فحاصروا يوسف وقتلوه ومن قاتل معه « وكان يوسف قبل ذلك فرق أصحابه فى رساتيق عمله فتوجه الى كل طائفة منهم قوم من البطارقة وممن معهم جماعة فقتلوهم » . فوجه المتوكل بغا الشرابى الى ارمينية فشخص اليها من ناحية الجزيرة وقتل من متمرديها كثيرين « حتى صلح ذلك الثغر صلاحا لم يكن على مثله ، ثم قدم سر من رأى سنة ٢٤١ هـ » وقد أحرق بغا فى حملته مدينة تفليس بالنفط لقمع اسحق بن اسماعيل مولى بنى أمية ، وكان من المتمردين هناك .

وكان الخطر الأعظم الذى تعرضت له الدولة العباسية هو **ازدياد نفوذ الأتراك** وقد أخذ هذا النفوذ يتزايد منذ عهد المعتصم « ففى سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) خرج المعتصم الى السن واستخلف **اشناس** .. وأجلسه على كرسى وتوجه ووشحه » ، ولما تولى الواثق « توجه والبسه وشاحين بالجوهر » سنة ٢٢٨ هـ ٨٤٣ م كما ظهر **بغا الكبير ابو موسى التركى** وظهر **وصيف** الذى كان يخرج فى الحملات ضد الروم ، ثم **ايتاخ**

« الذى رفعه المعتصم ومن بعده الواثق ، حتى ضم اليه من أعمال السلطان أعمالا كثيرة .. وكان من أراد المعتصم أو الواثق قتله فعند ايتاخ يقتل وبيده يحبس .. فلما ولى المتوكل كان ايتاخ فى مرتبته ، اليه الجيش والمغاربة والاتراك والموالى والبريد والحجابة ودار الخلافة» . وقد أخذ هؤلاء الأتراك يولون الخلفاء ويعزلونهم حتى أن الواثق لما توفى «حضر الدار أحمد بن أبى داود وايتاخ ووصيف .. فعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق وهو غلام أمرد فقال لهم وصيف : .... تولون مثل هذا الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة .. فتناظروا – وخرج أحد الحاضرين فمر بجعفر المتوكل فاذا هو فى قميص وسروال قاعد مع أبناء الأتراك – ثم دعوا به » . واصطدم ايتاخ يوما بالمتوكل اذ كان قد شرب فعربد عليه فهم ايتاخ بقتله ، فتظاهر المتوكل بالاعتذار اليه ثم دس اليه من يشير عليه بالحج ودبر قتله فى طريق عودته سنة ٢٣٥ هـ سنة ٨٥٠ م .

وفى وسط هذه الفتن كلها عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة سنة ٢٣٥ هـ « فكان ما ضم الى ابنه محمد المنتصر من ذلك : افريقية والمغرب كله وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسياء وكور باجرمى وتكريت .. وكان ماضم الى ابنه المعتز كورخراسان وارمينية واذربيجان .. وكان ماضم الى ابنه ابراهيم المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين .. وجاء فى كتابه : .. أن يطلق محمد المنتصر بالله لابراهيم المؤيد بالله الخروج الى الشام وأجنادها ، ... وعلى المعتز بالله اذا افضت الخلافة اليه وابراهيم مقيم بالشام أن يقره بها أو كان بحضرته أو كان غائبا عنه أن يمضيه الى عمله بالشام ويسلم اليه أجنادها وولايتها وأعمالها كلها » . ولكن المتوكل لقى مصرعه سنة ٢٤٧ هـ سنة ٨٦١ م بعد أن كتب بقبض ضياع وصيف « وعزم على أن يفتك بالمنتصر ويقتل وصيفا وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم » فدبر بغا الصغير المعروف بالشرابى مقتله بأيدى غلمان الأتراك ، كما قتل الفتح بن خاقان . وتولى المنتصر فقام باغزاء وصيف التركى صائفة الروم فى العام التالى (١٩٩) .

---

(١٩٩) الطبرى حـ ١٠ ص ٣٦٣ ، حـ ١١ ص ٩ ، ١٠ وما بعدها ، ١٢ وما بعدها ، ١٥ وما بعدها ، ١٨ – ٩ ، ٢١ وما بعدها ، ٢٦ ، ٣٣ وما بعدها ، ٣٦ وما بعدها ، ٣٨ وما بعدها ، ٤٤ – ٥ ، ٤٧ – ٨ ، ٤٩ : ٦١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ وما بعدها=

وكان قد اعتلى عرش الدولة البيزنطيـــة بعد تيوفيل (معـاصر المعتصـــم) الامبراطور **ميتشيل الثالث** (٨٤٢ . ٨٦٧ م) وقد تولت الوصـــاية عليه الامبراطورة تيودورا التى عدلت عن ســـياسة محاربة الايقونات ، بينما رجع المتوكل من بعد عن محاربة الذين يرفضون القول بخلق القرآن . وقد تزايد نفوذ أخى الامبراطورة المسمى برداس Bardas وتتــابعت المشـــاحنات فى القصر الامبراطورى واصـــــطدم برداس بالامبراطورة وغيرها ، كما حـدث فى الكنييســة كل ذلك وميشـيل الثالث عاكف على لهوه حتى بعد بلوغ رشده . وهكذا تمهد الطريق أمام باسيل الأول (٨٦٧ : ٨٨٦ م) لتأسيس الأسرة المقدونية التى تربعت على العرش مدة طويلة (٢٠٠) .

ولا تذكر المراجع العربية شيئا عن **الحملة الاسلامية التى جرى الاستعداد لها بعد عمورية ضد القسطنطينية** ، الا اشارة عند المسعودى عن نية للمعتصم فى ذلك رجــع عنهــا بينما تروى مراجــع أخرى أن المسلمين ظلوا سنين يبنون اسطولا حتى سنة ٨٤٢ م حين توفى المعتصم وتيوفيل . ويغــالى الروم فى قيمة هذه الحملة حتى يقرنوها بعــودة الارثذوكسية . وقد تولى القــائد أبو دينار ـ ويظنه البعض خطأ جعفر بن دينار والى طرسوس ـ اســطولا ابحر من موانى الشـــام يتألف من أربعمائة سفينة dromonds نحو القسطنطينية . واستعدت العاصـــمة للدفاع ، ولكن عاصفة حطمت الأسطول العربى فى موضع خطر قرب جزر Chiliodonian isles أو رأس كيبير ايوت عند الزاوية الجنوبيـــة الشرقية من لسبيا جنوبى انطاكية فى بامفيليا ، فلم ينج الا سبع سفن وعندما فشل تيوكتيستوس Theoktistos فى حملته على كريت سنة ٨٤٣ م رغم انتصـــاره أول الامر اذ خدعه العرب بزعـــم وجود مؤامرة فى القسطنطينية ، أراد أن يثار بمحاربة العرب المشارقة ، فأرسـلته تيـــودورا لمحـاربة عمر الأقطع أمير ملطية لـكنه انهزم أيضــــا قرب موروبوتامون Mauropotamon . وقد اختلف فى تحديد هذا الموضع

= ابن الاثير حـ ٧ ص ٣ ، ٤ ـ ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦ ـ ١٧ ،١٧ ـ ١٨ ، ٢٠ ـ ١ ، ٢٣ ـ ٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ـ ٩ ، ٣١ وما بعدها ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٨ ـ ٩ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٢٠٦ ـ ٧ ، ٢١٤ ـ ١٥ ، كرد على : خطط الشام جـ ١ ص ١٩٣ ـ ٤ ، فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٥٧ ، ١٨٧ ـ ٨

(٢٠٠) اومان : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور بدر ص ١٦٥ : ٧ ، رستم الروم حـ ١ ص ٣٢٧ وما بعدها .

ويرجح البعض أنه راقد سنجاريوس ـ ويقال ان بعض الروم لاذوا بمعسكر العرب حقدا على قواد لهم مثل تيوفانيس الفرغاني ، ويذكر أهل فرغانة كثيرا فى جند الروم . وقد حمل القائد البيزنطى سياسة برداس مسئولية فشله وأيدته فى ذلك الامبراطورة .

وبعد هذه الحملة بدأ ميل الجانبين البيزنطى والاسلامى الى اقامة **علاقات سلمية عن طريق فداء الأسرى** ، فتم الفداء بين المسلمين والروم والروم على نهر اللامس عند سلوقية وعلى مسيرة يوم من طرسوس فى على نهر اللامس على سلوقية وعلى مسيرة يوم من طرسوس فى مستهل عام سنة ٢٣١ هـ/سنة ٨٤٥ م « فبلغت عدة المسلمين فيما قبل ٤٣٦٢ انسانا » . وعقد الواثق لأحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلى على الثغور والعواصم وأمره بحضور الفداء . وكان قد وصل رسول الروم للمفاوضة فى ذلك فقبل الواثق الفداء . والعجيب ان الواثق قد بلغ من التحمس لقضية خلق القرآن ـ التى سار فيها سلفاه المأمون والمعتصم من قبل شوطا بعيدا ـ أن أمر بامتحان أهل الثغور فى القرآن ، كما امتحن الأسرى الذين استعادهم المسلمون . وقد ضرب بين المسلمون والروم أجل طيلة أربعين يوما « لا يغزون حتى يصلوا الى بلادهم ومأمنهم ، وكان الفداء فى أربعة أيام .. **ولما انقضت المدة غزا احمد بن سعيد شاتيا ، فاصاب الناس الثلج** والمطر فمات منهم قدر مائتى انسان وغرق منهم فى البدندون قوم كثير وأسر منهم نحو من مائتين .. وكان أقبل الى احمد بن سعيد وهو فى سبعة آلاف بطريق من عظمائهم فحيز عنه ، فقال له وجوه الناس : ان عسكرا فيه سبعة آلاف لا يتخوف عليه ، فان كنت لا تواجه القوم فتطرق بلادهم . فأخذ نحوا من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة وخرج . فعزله الواثق وعقد لنصر بن حمزة الخزاعى » .

وكان عهد الواثق قصيرا ، وتولى خلفه المتوكل سنة ٢٣٢ هـ سنة ٨٤٧ م ، ولكن **لا يرد ذكر لصائفة حتى سنة ٢٣٧ هـ سنة ٨٥٢ م** حين غزا الصائفة على بن يحيى الأرمنى. وفى **تلك الفترة حاول البيزنطيون الاستفادة من اتفاقهم مع المسلمين المشارقة لتوجيه كل جهودهم نحو صقلية ولكن تتابعت هزائمهم** وأخذ المسلمون فى تلك الجبهة يخربون الجزء الجنوبى الشرقى من الجزيرة ويحاولون تثبيت اقدامهم فى ايطاليا .وبينما شرع على بن يحيى فى ارسال الصوائف المتتابعة سنة ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩/سنة ٨٥١ : ٣ م نزل دمياط فجأة أسطول رومى سنة ٢٣٨ هـ/سنة ٨٥٣ م فى ثلثمائة مركب « مع عرفا وابن قطونا وأمردنافه

ـ وهم كانوا الرؤســـاء فى البحر مع كل واحـد منهم مـائة مركب فاناخ ابن قطونا **بدمياط** وبينما وبين الشـط شبيـه بالبحيرة ... »

ويفترض فازيلييف « **ان خطة الروم كانت تشـمل الهجوم على كريت لضرورة عزلها وقطع اتصالها بمصر ، وذلك أن مصر كانت دار الصناعة** لقراصـنة كريت » . وقـد يكون الاسـم الأول الذى أورده الطبرى لمشاهير رجال هذه الحملة (عرفا) هو أمير البحر الرومى أوريفاس ، أما الاسمان الآخران فلا مخرج من غموضهما ، ويقول بيورى فى صدد هذه الحملة : « ومما له دلالته فى معرفة طبيعة التواريخ الرومية جهلهم أمر دمياط جهلا تاما ، والثابت مع ذلك أن أخذ دمياط كان عملا حربيا عظيم البراعة ، وقد يؤخذ بأحد معانيه على أنه ثأر لعمورية ، فاذا لم يتكلم عنه أى رومى فذلك لأن تواريخ عهد ميشـيل الثالث اعـدمت اعداما تاما ، وأحلت محلها روايات مفرضة لهذا الملك العظيم ومن أعانه » .

وكان حول سور دمياط قناة تحيط بها كالخنـدق ، وفى شرقها بحيرة المنزلة التى وقعت فيها عمليات الاسطول الرومى ، ويفصلها شريط رفيع عن البحر ينقطع فى عدة أماكن . وكانت دمياط فى ذلك الوقت أقرب الى البحر . وكان مع ابن قطونا حين نزل دمياط خمسة آلاف رجل تقريبا ، وقد فزع اهل المدينة وأخلوها وحاولوا عبور البحيرة الفاصلة بين دميـاط وبين اليابس من المخاضات « فمن جازها الى الارض أمن من مراكب البحر ، وغرق قوم كثير من نساء وصـبيان ، واحتمل من كانت له قوة فى السفن فنجوا الى ناحية الفسطاط . وكان والى معونة مصر عنبسة بن اسـحق الضبى (آخر وال عربى على مصر) ، فلمـا قرب العيد أمر الجند الذين بدمياط ان يحضروا الفسطاط ليتجمل بهم فى العيـد وأخلى دمياط من الجند ... فاناخ بها مائة مركب من الشلندية يحمل كل مركب ما بين الخمسين رجلا الى المائة ، **فخرجوا** اليها واحرقوا ما وصلوا اليها من دورها وأخصاصها ، **واحتملوا سلاحا كان فيها ارادوا حمله الى ابى حفص صاحب القريطش** ـ نحو من الف قناة وآلتها ، وقتلوا من أمكن قتله من الرجال ، وأخذوا من الأمتعـة القنـد والكتان ما كان عبى ليحمـل الى العراق .. وأحرقوا خزانة القلوع وهى شرع السفن » . ويقدم الطبرى احصاء بمن سباه الروم من النساء فيجعلهم نحوا من ستمائة امرأة منهن ١٢٥ مسلمة . ويروى أن سجينا فى دمياط يدعى ابن الاكشـف كسر قيـده ، وخرج فقاتلهم وقتل جماعة منهم مستعينا بمن تجمـع حوله . واتجه الروم الى اشتوم تنيس عند مرسى على بعد أربعة فراسخ من تنيس تقريبـا « وله سور

وباب حديد كان المعتصم أمر بعمله ، فخربوا عامته وأحرقوا ما فيه من المجانيق والعرادات وأخذوا بابيه الحديد فحملوهما ثم توجهوا الى بلادهم لم يعرض لهم أحد » . ولعل أحد أقسام هذه الحملة البحرية كان يغزو مصر لقطع اتصالها بمسلمى كريت ، بينما كان القسمان الآخران من الاسطول البيزنطى يغزوان شواطىء كريت بقيادة القائدين اللذين لم يشر الطبرى الى عملياتهما الحربية . وقد عاد الروم للهجوم على الساحل المصرى سنة ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ ـ ٤ م كما يذكر المقريزى ويجعل هدفه دمياط ، وسنة ٢٤٤ هـ/ ٨٥٩ م كما يذكر الكندى الذى يجعل هدفه الفرما **واذا كانت مهاجمة المسلمين لكريت وصقلية قد علمت الروم ضرورة ايجاد اسطول قوى ، فان مهاجمة الروم دمياط كانت درسا لم يضع على عرب مصر ، فمنذ ذلك الوقت ابتدأت مصر اهتمامها الجدى بالاسطول كما يذكر المقريزى** ، وجعل للبحارة عطاء كعطاء الجند وشحنت السفن بالرماة حتى صار الاسطول المصرى عظيم الاهمية فى النصف الثانى من القرن العاشر وبخاصة فى أيام الفاطميين . وقد أورد ادولف جروهان نص وثيقة بردية يرجع تاريخها الى سنة ٢٤١ هـ سنة ٨٥٥ م تعطى فكرة عن تهديد البيزنطيين لسواحل مصر حتى ذلك التاريخ وشدة اهتمام الولاة بدفعهم عن السواحل ومعاناة المصريين فى ذلك . وذكر البلاذرى أن المتوكل أمر سنة ٢٤٧ هـ « **بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة** » . كذلك أجريت **الارزاق على الجراجمة ممن يستعان بهم فى المسالح** وأخذت الجزية من غيرهم . على ان الروم لم يستفيدوا فى حرب صقلية من غاراتهم على دمياط اذ تتابعت هجمات المسلمين فى صقلية حول سرقوسة وطبرمين ، وسقط حصن قصريانة سنة ٨٥٩ م وانهزم اسطولهم الذى أرسلوه الى هناك . واتبع الروم هجومهم البحرى على دمياط **بهجوم برى على عين زربى** سنة ٢٤١ هـ سنة ٨٥٥ م وأسروا الزط وقد كان المعتصم نقل آليها كثيرا منهم واصل هؤلاء من الهند وقد بدأ نقلهم الى مناطق الثغور والعواصم منذ العهد الاموى . ولم يستتبع هجوم الروم عين زربة نتائج خطيرة . وجرى **الفداء بين المسلمين والروم فى نفس العام على اثر سفارة نصر بن الازهر** ، ويذكر أن عدد أسرى المسلمين كان قد بلغ عشرين ألفا ، قتل بعضهم لأنه رفض التنصر . أما الأسرى الذين جرى فيهم الفداء فكانوا ٧٨٥ ، منهم ١٢٥ امرأة ، كما أن منهم بعض المسيحيين .

ولكن هذا الفداء لم يقطع استمرار العمليات الحربية ، ففى العام

التالى سنة ٢٤٢ هـ سنة ٨٥٦ م **خرجت الروم من ناحية شمشاط** بعد خروج على بن يحيى الارمنى من الصائفة حتى قاربوا آمد ، ثم خرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا عدة قرى وأسروا نحوا من عشرة آلاف انسان » وكان دخولهم من ناحية ابريق قرية (قربياس) ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم . فخرج قربياس وعمر بن عبد الله الأقطع وقوم من المتطوعة في أثرهم فلم يلحقوا منهم أحدا ، فكتب الى على بن يحيى أن يسير الى بلادهم شاتيا »٠٠ وابريق عند العرب هى Tephrike عند الروم وتذكر فى الخطوطات اليونانية Aphrike . وقد اشتهر هذا الموضع فى ختام القرن ٣ هـ ـ ٩ م بكونه معقلا عظيما للبيالقة Paulicians

واذا كان خلفاء العباسيين قد نشطوا فى فرض عقيدة خلق القرآن واتبع المتوكل سياسة متشددة ضد الذميين ، فان الاباطرة العموريين قد جروا على الاهتمام بالمسائل الدينية ولم يطيقوا بقاء مذاهب تخالف عقائدهم . وكان البيالقة اتباع بولس يعيشون على حدود البيزنطيين مع العرب فى آسيا الصغرى ما بين فريجيا Phygria وليكاءونيا Lycaonia الى أرمينية منذ أيام قسطنطين الخامس فى أمن وتعاون مع الدولة خلال عهود الاباطرة المحاربين للصور فى القرن الثامن الميلادى ، حتى وصفوا بانهم الجناح الأيمن لأعداء الصور . لكن بدأ اضطهادهم فى عهد ميشيل الاول الذى وكل ذلك الى ليو الارمنى قائد البند الاناضولى والى اثنين من رجال الكنيسة . كذلك اضطهد تيوفيل البيالقة ، وفى عهده ـ أو قبل ذلك خلال موجة الاضطهاد المبكرة ـ قاد كاربيس Karbeas (قربياس أو قرباص) وهو موظف بولسى فى البند الأناضولى خمسة آلاف من اخوانه فى العقيدة وراء كبادوكيا ووضع نفسه فى خدمة أمير ملطية ، ومن المحتمل أن يكون قد سبقهم لاجئون من اخوانهم الى الجهات الشمالية والغربية من ملطية. وتتابع هروب البيالقة ، واستقروا فى ثلاث مدن رئيسية على حدود أرمينية فى منطقة سيواس الجبلية : ارجاؤس Argaus ، امارة Argaus ، وتفريك التى صارت مركزهم الرئيسى . وقد أثبت البيالقة انهم خصم عنيف للدولة . وقد كانوا من قبل درعا واقيا لها أدوا لصالحها أجل الخدمات . واذا كانوا قد لقوا اضطهادا على أيدى حكام معارضين للصور ، فقد توقعوا من باب أولى الا يجدوا رحمة فى عهد تيودورا التى عادت الى السياسة الارثوذكسية وكانت من أنصار الصور . وتقرر ارجاع البولسيين الى المذهب السائد بالقوة ، وأرسلت حملة لتنفيذ هذا القرار أجرت مذبحة جماعية نال فيها الضحايا

مصارعهم بالآلاف ذبحا أو غرقا ، وصودرت ممتلكاتهم ، اما من أستطاع الهرب من هذه المجزرة فقد لجأ الى العرب وراء الحدود .

وهكذا فتح الطريق لتعاون هذه الطائفة مع العرب ، الذين أنزلوهم في مواضع أمينه واشركوهم في جيوشهم وحملاتهم ضد الروم . **وقام جند أميرى ملطية وطرسوس عمر الاقطع وعلى بن يحيي الارمنى مع قربياس (كاربيس) بغزوات عديدة فى أرض الروم** وحين قام بتروناس Petronas شقيق تيودورا قائد البند الترافى Thrakesian بغارته على اقليم شمشاط وآمد سنة ٢٤٢ هـ سنة ٨٥٦ م كان على بن يحيى الأرمنى قد رجع من صائفته التقليدية . وتقدم بتروناس الى تفريك مركز قيادة قربياس ، ثم رجع الروم بعد أن أسروا الآلاف وأحرقوا القرى ، وتتبعهم عمر بن عبد الله الاقطع وقربياس فلم يدركاهم . وغزا على بن يحيى شتاء ، وتتابعت غزوات العرب للانتقام . وقد بدأت فترة قصيرة من العداء المستمر تميزت فى جانب بتتابع حملات أميرى ملطية وطرسوس مع قربياس ، وتميزت فى الجانب الآخر بظهور ميشيل الثالث نفسه بجانب عميه برداس ، وبتروناس فى ميدان القتال . كما اقام المتوكل بدمشق شهرين ، وأرسل بغا لغزو الروم فاستولى على حصن صمالو . وقد نجح الجيش البيزنطى سنة ٨٥٩م بقيادة ميشيل الثالث الذى كان قد بلغ رشده وكان يرافقه برداس فى حصار **شمساط** ، وأثرت حملة ميشيل الشاب التى جاوز بها الفرات فى مخيلة الجنود حتى تصوروا حملات سنة ٨٥٦ م وما تلاها انتقاما من خزى عمورية وتغنت بذلك الاغانى . على أن الطبرى يذكر غارة للروم سنة ٢٤٥ هـ سنة ٨٥٩ معلى سميساط « فقتلوا وسبوا نحوا من خمسمائة ، وغزا على بن يحيى الصائفة » . على أن المصادر الرومية تروى ان حامية شمشاط استطاعت أن تفك الحصار بهجوم مفاجىء على الروم أثناء انشغالهم بمراسم الاحد ، ففر الامبراطور بصعوبة وتساقط معسكره فى أيدى العرب ، وابدى قربياس كثيرا من ضروب البطولة . ويتشكك البعض فى هذه الرواية سيما أنه من غير المفهوم ان تسكت المصادر العربية على مثل هذا النصر فلا تورد أخباره « ورواية جنزيوس وصلة تيوفان موضع شك فهى من الانتحالات المغرضة التى أراد بها مصدر من هذه المصادر الزراية بقيمة البطل الشاب ميشيل ، ولعل الأمر لا يعدو تضخيم واقعة صغيرت حدثت أثناء هذه الحملة المظفرة » كما يرى جريجوار فى تعليقاته على فازيلييف على أن الروم قد واجهوا تمردا فى لؤلؤة فيروى الطبرى أن أهلها منعوا رئيسهم من الصعود اليها ثلاثين يوما « فبعث ملك الروم اليهم بطريقا

يضمن لكل رجل منهم ألف دينار على أن يسلموا اليه **لؤلؤة** • فأصعدوه اليهم ، ثم اعطوا أرزاقهم الفائتة وما أرادوا ، فسلموا لؤلؤة والبطريق الى بلكاجور فى ذى الحجة • وكان البطريق الذى كان صاحب الروم ووجهه اليهم يقال له (لغثيط) فلما دفعه أهل لؤلؤة الى بلكاجور ، وقيل ان على بن يحيى الأرمنى حمله الى المتوكل ، ورفعه المتوكل الى الفتح بن خاقان ، فعرض عليه الاسلام — فابى • فقالوا : نقتلك ، فقال : انتم أعلم ، وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين » • وقد قام ميشيل الثالث بترميم قلعة أنقرة ، ولعله كان يتوقى هجوما اسلاميا تتكرر معه كارثة سور عمورية • وقد أعاد أسطول الروم الهجوم على ساحل مصر سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، فهاجم دمياط أو الفرما •

ولعل معارك سنة ٢٤٥هـ/سنة ٨٥٩م كانت سببا فى تاخير حدوث الفداء الذى كان قد طلبه ملك الروم ، اذ أرسل رسولا الى المتوكل فى ذلك العام — تحت تأثير فقد قضريانة غالبا «شيخا يدعى أطروبوليس معه ٧٧ رجلا من أسرى المسلمين أهداهم ميخائيل بن توفيل ملك الروم الى المتوكل ••• ثم وجه المتوكل نصر بن الازهر الشيعى مع رسول صاحب الروم فشخص فى هذه السنة ، ولم يقع الفداء الا سنة ٢٤٦هـ سنة (٨٠٦م) » • وفى العام التالى جرت مفاوضات الفداء بين نصر بن الازهر الشيعى وبتروناس بالقسطنطينية « ففودى بألفين وثلثمائة وسبعة وستين نفسا على يدى على بن يحيى الأرمنى » • ولم يبق فى يد الروم غير سبعة : خمسة من (صقلية) ردوا الى الجزيرة بعد افتدائهم ، واثنين من رهائن (لؤلؤة) رغبا فى النصرانية • وطبيعى أن تتوقف الاعمال الحربية بعض الوقت على أثر هذا الفداء • ولكن **الحوليات الاسلامية تذكر غزو عمر بن عبد الله الاقطع الصائفة فى نفس العام الذى جرى فيه الفداء** وأسره سبعة آلاف ، كما غزا قربياس وأسر خمسة آلاف ، وغزا الفضل بن قارن بحرا فى عشرين مركبا فافتتح حصن انطالية مدينة الشاطىء الآسيوى الجنوبى لبلاد الروم ، وتكتبها بعض المراجع العربية انطاكية وقيل أن المقصود بها انطاكية فى كيليكيا القديمة قرب طرسوس وتقع على نهر سارس (سيحان) ، ولكن الأرجح أنها انطالية • وغزا بلكاجور فغنم وسبى ، وغزا على بن يحيى الارمنى الصائفة فجأة بخمسة آلاف رأس وعشرة آلاف دابة ، وربما حدث فى نفس الوقت غزو الاسطول العربى الكريتى لجزر السكلاديز • وكان الامبراطور قد تحرك سنة ٨٦١م لغزو العرب بعد الفداء الذى لم يخلف سلاما طويلا ، وبينما هو

فى موروبوتامون Mauropotamon أخبره أوريفـــاس قائد الاسـطول الذى خلفه على القسطنطينية بظهور الروس فجأة أمام القسطنطينية ، ويفترض ان الامبراطور قد عاد وحده وترك الجيش فى آسيا الصغرى حتى يعود اليه ثانية . فوصل الامبراطور القسطنطينية وقد أحاط بها الروس وقتلوا من حولها من السكان ، فلم يعبر المضيق الا بمشقة وقد استغل المسلمون فى غاراتهم الناجحة هجوم الروس وغياب الامبراطور .

وقد رجع الامبراطور بعد زوال الخطر عن العاصمة الى الجبهة الشرقية لمقاتلة عمر الاقطع أمير ملطية ، واجتاز ميشيل الطريق الرئيسى المؤدى الى الفرات الأعلى مارا بانقرة وسبسطية . وقد عسكر فى دازيمون Dazimon حيث انتصر الافشـــين على ابيه من قبـل . وانتظر الامبراطور هناك قدوم جيش المسلمين لكن عمر اجتاز طريقا غير متوقع فقاد قواته شمالا عبر تلال Ak-Dugh وهبط الى سهل دازيمون فأحرز موقعا ممتازا عند Chonarion غير بعيد من معســكر الروم . وقد أدت المعركة الى هزيمة الروم فالتمس ميشيل مهربا فوق قمة تل Anzen حيث حوصر بعض الوقت ، ولكن اضـــطر أمـــير ملطية لسحب قواته طلبا للماء والمرعى . ويحتمل أن يكون القائد المنتصر قد واصل تقدمه حتى سينوب Sinope

***

وعلى أثر مقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ سنة ٨٦١م تولى ابنه المنتصر، فاغزى فى العام التالى سنة ٢٤٨هـ سنة ٨٦٢م الصائفة وصيفا التركى ، باشارة وزيره أحمد بن الخصيب لبغضه اياه . وكان الجيش الاسلامى الاسلامى من زهاء عشرة آلاف رجل وعلى مقدمته مزاحم بن خاقان . وعلى الساقة محمد بن رجاء وعلى الميمنة السندى بن بختاشة وعلى آلات الحرب نصر بن سـعيد المغربى ، ويتولى أمر النفقات والمغانم والمقاسم أبو الوليد الحريرى . وكتب المنتصر الى مولاه محمد بن عبد الله ابن طاهر بموافاة وصـيف فى ملـطية بالمتطوعين للجهــــاد وأمـر وصيفا بالقيام ببلاد الثغر اذا هو انصرف من غزاته أربع سنين « يغزو فى أوقات الغزو منها ،الى أن يأتيه أمر امير المؤمنين » ، ولم توفق هذه الغزوة ولم يأخذ وصيف سوى حصن رومى يقال له فروريه ، ويرى البعض انها لفظ فروريون اليونانى بمعنى الحصن وأن الاسم سقط ، والطبرى يقول « فلم يزل وصيف فى جهازه حتى خرج فما افلح فلا نجح » . وتوفى المنتصر فى نفس العام وعاد وصيف من الثغر الشامى .

وفى خلافة المستعين (سنة ٢٤٨ : ٢٥١ هـ / ٨٦٢ : ٨٦٦م) غزا جعفر

بن دينار الصائفة سنة ٢٤٠ هـ / ٨٦٣ م فافتتح حصنا ومطامير ، ولكن أمير ملطية **عمر بن عبد الله الاقطع** استأذنه فى القيام بحملة بلغ بها قلب أرض الروم وارتاد المناطق التى سبق له ارتيادها فى حملته السابقة التى التقى فيها بالامبراطور ، كما قام بتخريب فى بند الارمنياق ووصل ساحل أوكسين Euxine واستولى على مدينة اميزوس Amysus على البحر الاسود (اسمها الحديث سمسون Samsun) ، **وكانت اميزوس اكبر ميناء فى ساحل آسيا الصغرى الشمالى وكبادوكيا ولا يزال الطريق الطبيعى السهل القصير بين كبادوكيا والبحر الأسود ينتهى عندها • ويبدو ان خطة عمر الاقطع استهدفت الوصول الى قلب آسيا الصغرى ثم العودة الى دار الاسلام عن طريق الابواب القيليقية** ، وقد بلغ من تأثير رؤية عدو غير متوقع على ذلك الساحل أن عادت الحياة الى الاسطورة القائلة بأن الامير أمر بضرب البحر اذ ساءه أن يوقف سيره كما فعل اجزركبسيس Xerxes ملك الفرس •

ورد الامبراطور على هذه الانتصارات بتكليف بتروناس القائد وأخى تيودورا بمواجهة الهجوم الاسلامى ، واتخذت استعدادات كبيرة فوضعت تحت قيادة بتروناس قوات الجيش كلها وصارت له قيادته العليا ، فلم تكن قواته مقصورة على الفرق الموجودة فى آسيا بل شملت قوات تراقية ومقدونية وفرق العاصمة Tagmata وقد تلقى عمر نصيحة بالتراجع حين بلغته أنباء هذه الاستعدادات ولكنه صمم على تنفيذ خطته الاصلية ، فسار فى طريق يؤدى الى الطوانة والبدندون بمتابعة الشاطىء الغربى لنهر هليس « فسار ومعه خلق كثير من أهل ملطية ، فلقيه الملك فى جمع من الروم عظيم بموضع يقال له **ارز من مرج الاسقف** ، فحاربه بمن معه محاربة شديدة قتل فيها خلق كثير من الفريقين ، ثم أحاطت به الروم وهم خمسون ألفا فقتل عمر وألفا رجل من المسلمين » •

وتحديد موقع المعركة بالضبط على ضوء الروايات العربية وغيرها يثير مشاكل كثيرة ، فيقول فازيلييف « الاسم الاول من هذين مصحف من غير شك ولم يعرف للآن ، أما اذا كان مرج الاسقف هو المكان المقصود فى حوادث سنة ٨٣٨ م ــ حملة المعتصم ــ ففى الامر تناقض واضح فى تحديد مكان المعركة بين الروايات المختلفة ••• وتتفق الروايات العربية والرومية فى أن مكان الواقعة ملاكوبيا ولعله كان يوجد فى هذه الناحية بعض قرى سميت مالاكومى أو مالاكوبيون بمعنى (مجنى التفاح) ويقارب ذلك ان اسم جبال (المالى ــ داغ) الحالى ومعناه جبل التفاح والراجح أن

هـذا التشابه في الاسماء كان سـببا فى نقـل ميدان المعركة من اقليم جانجر الى اقليم ميلجوب فى كبادوكيا » • ويشير بيورى الى محاولة تحديد المكان فى شمالى نازيانزوس Nazianzus وسندس Soandos ومن الروايات ما يحدد الموضع على مجرى لالاكاون Lalakaon ولعله احد روافد الهليس كما يذكر فازيلييف . وقد دارت المعركة على كل حال على الحـدود بين بندى بافلاجونيا والارمنياق عند موضع يسمى بوزن Poson . وحاصر بتروناس المســلمين من جميع الجهات ، **وأدت البنود البيزنطية** Them a **دورها ، فتقدمت من ناحية الشمال قوات البنود** : لأرمنياق Armeniac ، والبقلار Bukellarian ، وبافلاجونيا Paphlagonian وكولونيا Kolonean بعد ان اجتاز عمر انقرة ، بينما تجمعت فى الجنوب والجنوب الشرقى قوات بندى الأناضول Anatolian والابسيق Opsikion تعززها قوات سلوقية Seleucia وخرشنة Charsianon بينما ظهر فى غربى خط مسير العدو بتروناس على رأس فرق العاصمة Tagmata والبند التراقى Thracian والمقدونى Macedonian فضـلا عن قواته الثراكيزية Thrakesians • وكان هنـاك تل يفصـل بتروناس عن معسكر العرب ، ونجح القائد البيزنطى فى احتلال المرتفع ، ووقع عمر فى الفخ • ولما لم ينجح أمير ملطية فى شق طريقه وسط الجيوش الرومية صوب الشمال أو الجنوب اختـار الاصطدام مع بتروناس فصمد جيش الروم هناك بينما أطبقت جيوشهم الأخرى من الشمال والجنوب وكادت الجيوش الاسلامية ان تباد تماما ، وسقط عمر صرعها • واراد ابن عمر أن ينجو بقسم من الجيش فجاز الهليس ، لكنه أسر وجنده فى خرشنة ، وعاد بتروناس الى العاصمة ظافرا وأنعم عليه بلقب ماجستر وعين دمستق الاسـكول • ومن الجائز أن يكون قربياس زعيم البيالقة قد هلك فى هذه المعركة لانه مات فى نفس العام سنة ٨٦٣ م •

وتذكر رواية رومية آثار انتصارات الروم هذا العام « فلما رجع رؤساء الأجناد مظفين الى قسطنطين احتفلوا بنصرهم فى السيرك ، وشمل السلام العميق الشرق من ذلك الوقت بسبب موت عمر » • ويرى بيورى أن أغنية النصر التى ذكرها قسطنطين فى (المراسم) : أغنية الأمير الذى هزم وقتل فى الحرب ـ قد غنيت فى حلبة السباق يوم الاحتفال بنصر سنة ٨٦٣ م •

وفقد المسلمون فى نفس العام قائدهم الآخر على بن يحيى الأرمنى ـ وكان قد عزل فى العام السابق سنة ٢٤٨ هـ عن الثغور الشامية وولى

أرمينية وأذربيجان ، وذلك أن الروم « لما قتلت عمر بن عبيد الله ، خرجوا الى الثغور الجزرية وكلبوا عليها وعلى حرم المسلمين بها . فبلغ ذلك على ابن يحيى وهو قافل من أرمينية ميافارقين ، فنفر اليهم فى جماعة من أهل ميافارقين والسلسلة فقتل فى نحو من أربعمائة رجل » . ولا يعرف ان كان جيش الروم الذى انتصر فى Martyropolis بقيادة بتروناس أو غيره . **ولقد كان لهذه الخسارة الفادحة آثارا بعيدة المدى فى قلب الدولة العباسية** « فلما اتصل الخبر بأهل مدينة السلام وسامرا وسائر ما قرب منهما من مدن الاسلام بمقتل عمر بن عبد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى وكانا نابين من أنياب المسلمين شديدا بأسهما عظيما غناؤها عنهم فى الثغور التى هما بها ، شق ذلك عليهم وعظم مقتلهما فى صدورهم مع قرب مقتل أحدهما من الآخر ، ومع مالحقهم من استفظاعهم من الاتراك قتل المتوكل واستيلاءهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء واستخلافهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم الى ديانة ولا نظر الى المسلمين . فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير ، وانضمت اليهم الأبناء والشاكرية تظهر انها تطلب الارزاق ، ففتحوا سجن نصر بن مالك وأخرجوا من فيه وفى القنطرة بباب الجسر وقطعوا احد الجسرين وضربوا الآخر بالنار وانحدرت سفنه ... ثم اخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامرا أموالا كثيرة من أموالهم **فقووا من خف للنهوض الى الثغور لحرب الروم بذلك** ، وأقبلت العامة من نواحى الجبل وفارس والاهواز وغيرها لغزو الروم ، فلم يبلغنا انه كان للسلطان فيما كان من الروم الى المسلمين من ذلك تفيير ولا توجيه جيش اليهم لحربهم فى تلك الايام » وهكذا كانت تلك الثورة الشعبية الهائجة خير احتجاج على اهمال الثغور والقعود عن الجهاد وتمكين الروم من أطراف ديار المسلمين . ولكنها لم تؤد الى نتيجة فى المحيط الرسمى وقابل الاتراك هذا الاضطراب بالقمع « ثم ركب فى ذلك اتامش ووصيف وبغا وعامة الاتراك ، فقتلوا من العامة جماعة والقى على وصيف قدر مطبوخ ـ وقيل رماه العامة بحجر ، فأمر وصيف النفاطين فقذفوا هنالك من حوانيت التجار ومنازل الناس بالنار .... » .

وكان انتصار الروم سنة ٢٤٩ هـ / ٨٦٣م حاسما ، « فتخلص الروم من عدوين قويين ، ولم يبق الا البيالقة . ولكن عرب ملطية انما كانوا فى ترنح الهزيمة الى حين ، ولهذا لم يستقر السلام استقرارا تاما

فى السنين الاخيرة من حكم ميشيل الثالث » كما يقول فازيلييف فغزا القائد بلكاجور بالمسلمين صائفتين سنة ٢٥٠ - ١هـ/٨٦٤ - ٥م وأخذ فى ثانيهما حصنا ذا مئونة كثيرة وأسر كثيرا من أشراف الروم • وكان موقف الخليفة العباسى المستعين مزعزعا ، والدولة مضطربة من مكة الى الموصل وحمص واصفهان والاتراك مختلفون فيما بينهم وقد ظهر يحيى العلوى من سلالة زيد بن على بن الحسين بالكوفة كما خرج الحسن العلوى بطبرستان أيضا • **وروع الترك المستعين فحاول الفرار من سامرا الى بغداد ، وأقام الترك المعتز خليفة فى سامرا ، واقتتلت العاصمتان ورجحت كفة الاتراك وتولى المعتز الخلافة سنة ٢٥١هـ/٨٦٦م ولم يقع صدم بين المسلمين والروم حتى وفاة ميشيل الثالث سنة ٨٦٧م •**

ولم يكن يرجى فى هذه الدولة المضطربة خير للثغور أو لجهاد الروم • على انه لم يحدث كبير تغيير بوجه عام فى الحدود بين المسلمين والبيزنطيين فى آسيا الصغرى ، فالمسلمون قد غنموا قليلا من القلاع وأهمها ماكان فى كبدوكيا شرقى الهليس ، وقد عززت جهودهم المعونة التى لا تقدر من جانب البيالقة • وقد أورث العموريون خلفاءهم عبء العمل على طرد العدو من كبادوكيا ، وزاد من مصاعبهم سياسة اضطهاد البيالقة التى يقع وزرها على تيوفيل وتيودورا • على أن استفادة المسلمين من عون البيالقة لم تدم ، فيذكر قدامة رحيلهم عن مواضعهم على الحدود الاسلامية البيزنطية « باساءة أهل الثغور معاشرتهم وقلة اشراف المدبرين على أمرهم ، فتفرقوا فى البلاد وسكن مكانهم هؤلاء الأرمن وابتنوا الحصون المنيعة ثم صارت لهم العدة الكثيفة والمعرة الشديدة (٢٠١) » •

***

(٢٠١) الطبرى حـ ١١ ص ١٣ ، ١٩ : ٢١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ - ١ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٠ - ١ ، ٧٣ : ٥ ، ٨٤ - ٥ ، ٨٦ وما بعدها ، ابن الأثير حـ ٧ ص ٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٧ - ٨ ، ٤١ - ٢ ، ٤٢ وما بعدها، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٤ ، ١٦٨ ، اليعقوبى حـ ٣ ص ٢١٥ ، فازيلييف : العرب والروم - ترجمة دكتور شعيرة ص ١٧٠ : ١٨٠ ، ١٨٧ : ١٩٢ ، ١٩٦ : ٢٢٥ ، هامش ١٨٩ ، هامش ص ٢٠٦ - ٧ ، هامش ٢٢٥ ، قدامة بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج (ملحق المسالك والممالك لابن خرداذبة) ص ٢٥٤ ، دكتور العدوى: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٩١ : ٨ ،
Bury : Hist. of the Eastern Rom. Emp., pp. 274-286.
Vasiliev: Hist. de l'Emp. Byz. Vol. I pp. 365:7,
رستم : الروم حـ ١ ص ٣٣٤ : ٨ ، دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط - المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١

والظاهرة الرئيسية فى العلاقات الاسلامية البيزنطية منذ النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى الى مدى قرنين تقريبا هى **رجحان كفة البيزنطيين** باطراد فى ميدان العمليات الحربية ، وتأرجح كفة المسلمين . **فقد أخذ الأباطرة المقدونيون بيد الدولة البيزنطية فى طريق المجد واهتموا برعاية الطبقة الوسطى التى غلب عليها الطابع اليونانى ، بينما تفاقم النفوذ التركى فى الدولة العباسية وتفاقمت الثورات الكبيرة مثل ثورتى الزنج والقرامطة واخذت** الدولة المستقلة **تنفصل** من جسم الخلافة . وبعد أن كانت الدولة البيزنطية تواجه فى آسيا عدوا واحدا قويا سواء فى أيام الفرس الساسانيين أو أيام المسلمين أمويين وعباسيين ، فانها صارت تواجه دويلات متعددة .

واستطاع **احمد بن طولون** الذى ولى مصر سنة ٢٥٤هـ ـ ٨٦٨م أن يؤسس لنفسه فى مصر والشام دولة مستقلة لم تكن على وفاق دائما مع الخلافة العباسية ، « **وتعتبر الدولة الطولونية اول ظاهرة فى النظام السياسى الذى كان العنصر التركى نواته فى قلب الخلافة ، سرعان ماتلتها دول أخرى تركية** » . واستغل باسيل الاول (٨٦٧:٨٨٦م) مؤسس الاسرة المقدونية هذه الظروف فشن الحرب على المسلمين على طول جبهتهم من شاطىء قيليقية حتى أرمينية وطرابزون ودفعهم الى الوراء مرات مستهلا نشاطه باحتلال لؤلؤة سنة ٨٧٦م واحتل الممرات الرئيسية عبر طرسوس ، وأسر **عبد الله بن كاوس** أمير الثغور الشامية سنة ٢٦٤هـ/ ٨٧٧م ، وقاتل البيالقة بين سبسطية على الهليس وملطية على الفرآت ودمر تفريك سنة ٨٧٢م . وفى العام التالى احتل زبطرة وسميساط ، وعزل ملطية عن دولة العباسيين باحتلاله ما حولها . وفى سنة ٨٧٧م احتل لؤلؤة وجميع ما بين قيصرية ومرعش ، وأصبح سيد جبال طوروس بسلسلتيها وممراتها . وسره أن الخليفة المعتمد اعترف سنة ٨٨٥م **بدولة ارمينية مستقلة تحت حكم** Aschod فقامت بذلك أسرة Bagratides وقد أسرع باسيل يعترف بالملك الجديد مبقيا على اتصالاته بالامراء الآخرين .

اما فى البحر المتوسط فكانت كفة المسلمين مازالت راجحة حتى هاجم ليو الطرابلسى سنة ٩٠٤م سالونيك والقسطنطينية . وحاول باسيل التعاون مع البابا والامبراطور لويس الثانى لمواجهة خطر المسلمين ، فى حين طلب الخليفة المعتمد من أحمد بن طولون الدفاع عن الثغور الشامية ، فراسله الروم لطلب الهدنة وأطلقوا سرآح ابن كاوس

وعدة أسرى سنة ٢٦٥هـ ٨٧٨م ولكن ضعف الدولة العباسية وقصر حكم الطولونيين مكن باسيل من أن يدفع المسلمين شرقا على طول خط الحدود، وأن يستولى تدريجيا فى الفترة ما بين سنتى ٨٧١ ، ٨٨٢م على جميع المعابر التى كانت تنفذ منها جيوش المسلمين الى آسـيا الصغرى ، كما استطاع الاستيلاء على قبرص التى ظلت تابعة للروم بين سنتى ٨٧٤ ، ٨٧٧م • وحاول المسلمون الرد على ذلك بهجمات منتظمة من كريت على الجزر البيزنطية والسواحل المجاورة فتصدى لهم ليو السادس سنة (٨٧٠ : ٨٨٦م) الذى خلف سياسة بحرية ثابتة كما خلف أبوه باسيل جيشا بريا منظما •

وتوالت الانتصارات البيزنطية فى عهد رومانوس الثانى (٩٥٩ : ٩٦٣م) ، بينما كان **الحمدانيون** الذين استهلوا دولتهم فى شمالى العراق وعاصمتها الموصل سـنة ٩٢٩م ينتقلون الى الشـام سنة ٣٣٣ هـ سنة ٩٤٤م ، فيناضلون **الاخشيديين** ـ الذين كانت دولتهم قد قامت فى مصر قبل عشر سنوات سنة ٣٢٣هـ سنة ٩٣٥م ليستخلصوا من نائبهم بالشام حلب وحمص وقد استطاع القائد البيزنطى نقفور فوقاس Nicephorus Phocas أن يستولى على كريت سنة ٣٥٠هـ / سنة ٩٦٢م ، ثم يؤازر بعد ذلك أخاه فى الحرب التى دارت سجالا بينه وبين سيف الدولة طيلة سنوات متتابعة • وقد استطاعت الدويلة الحمـدانية الصغيرة أن تقـوم بعبء الغارات السنوية على الروم ، ولكن كان لا بد أن تنوء بهذا الحمل الثقيل فاضطر سيف الدولة للجـلاء عن حلب سنة ٣٥١هـ ـ ٩٦٢م • وتولى نقفور فوقاس العرش (٩٦٣ : ٩٦٩م) فمضى فى سياسته وتابع حملات مظفرة برا وبحرا بين سنتى ٩٦٤ ، ٩٦٩م فاستولى على انطاكية ، وأعاد قائده احتلال حلب واذلال الحمدانيين •

على ان السنوات الاخيرة من حكمه شهدت دخول **الفاطميين** الى ميدان الصراع البيزنطى ، فجاهدوا لاستعادة أراضى المسلمين الضائعة فى حلب وانطاكية ، واصطدموا بالبيزنطيين فى عهد امبراطورهم العسكرى جون تزيمسكيس (٩٦٩ : ٩٧٧م) الذى استطاع احتلال نصيبين وميافارقين والرهاوملطية ثم حمص وبعلبـك ودمشق وشـــمالى فلسطين وفكر فى استرجاع بيت المقدس ثم انصرف عن ذلك واستولى على بيروت وصيدا • ورغم انشغال الفاطميين بالقرامطة ، فقـد استطاعوا هزيمة الامبراطور عند طرابلس ونجحوا فى استعادة حلب وحمص وشيزر • ومن ثم بدأت علاقات ودية بين الفاطميين والبيزنطيين فى عهد باسيل الثانى (٩٧٦ :

١٠٢٥م) الذى يعاصره من الفاطميين الخليفتان الحاكم فالظاهر • وتعتبر الدولة الفاطمية صاحبة الفضل فى منع التقدم البيزنطى الى البلاد الاسلامية فى القرن العاشر الميلادى ، فى وقت لم يكن فى استطاعة العباسيين القيام بهذا الواجب كما كان لها جهود طيبة فى مجال البحر المتوسط •

ثم ظهر فى الافق الاسلامى خطر السلاجقة ، كما ظهر فى الآفق الاوربى خطر النورمان • وكلا الفريقين هددا الدولتين الاسلامية والبيزنطية « وغدا عالم العصور الوسطى مقبلا على عهد جديد : قوامه السلاجقة فى الدولة الاسلامية والنورمان فى الغرب ، فودع المسرح العالمى الوسيط نجمين وشاهد بزوغ آخرين اصطدما فى ذلك الصراع المعروف **بالحروب الصليبية** بين الشرق والغرب • وانزوت الدولة البيزنطية تدريجيا فى هذا الصراع حتى تلاشت ، مما جعل الحرب الصليبية خاتمة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين وبالتالى نقطة تحول جديدة فى مجرى التاريخ العام للعصور الوسطى(٢٠٢) » •

---

(٢٠٢) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٩٩ : ١٠٩ ، دكتور وستم : الروم حـ ٢ ص ٦ : ٨ ، ١٩ : ٢٠ ، ٢٦ ـ ٧ ، ٢٩ : ٣٦ ، ٤٠ : ٢ ، ٤٧ : ٩ ، ٥٤ ، ٦٠ ، اومان : الامبراطورية البيزنطية • ترجمة دكتور بدر ص ١٧٨ : ١٨٦ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ ٢ ص ٥٨٢ وما بعدها ، Vasiliev: Hist. de l'Emp. Byz., Vol. I pp. 401-406, 415-4. دكتور مؤنس المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ •

الفصل الخامس
النظم الحربية

اولا ـ التحصينات والمعسكرات :

السوابق البيزنطية ، التحصينات الاسلامية

ثانيا ـ الجيش :

عند المسلمين مقارنا بما لدى البيزنطيين (فى الواقع التاريخى والتاليف العلمى) : التنظيم ، التسليح ، المواصـلات والاشـارات والمخابرات ، الرباط والصوائف والشواتى

ثالثا ـ البحرية :

البحرية البيزنطية زمن الفتـح العربى ، التنظيمات البيزنطية والاموية ، السيادة البيزنطية على البحر المتوسط أيام العباسيين ، جهود المسلمين المغاربة فى البحر المتوسط ، السفن ، الفنون البحرية ٠

رابعا ـ الاتصالات الدبلوماسية :

(فى الواقع التاريخى والتاليف العلمى) : المراسلات المكتوبة ، السفارات الشخصية ، فداء الاسرى ٠

أولا : التحصينات والمعسكرات

تتم حماية مناطق الحدود باجراءات عسكرية مختلفة : منها اقامة الأسوار حول المدن أو اقامة القلاع لتحمى المدن والمواقع الحربية الهامة أو الاكتفاء بوضع جماعات من الجند فى معسكرات فى بعض المواضع ٠

وفى انحاء البلاد العربية كان هناك عدد من القلاع والحصون المنيعة قبل الاسلام وقد بلغ عدد الطوابق **فى حصون غمدان** فى اليمن عشرين طابقا ، كما انتشرت حصون أخرى منيعة فى جميع أرجاء اليمن وحضرموت ومهرة وعمان ، ونحتت مدينة **البتراء** كلها فى جوف الصخر الصلد حتى تستعصى على من يرومها ، على حين غدا حصن **الخورنق والسدير على مقربة من الحيرة** ذوى شهرة كبيرة ٠ وكان **للطائف** قلعة منيعة وقد أشار الى تحصيناتها أمية بن أبى الصلت وابن هشام والبلاذرى ٠ **أما حصن الآبلق فى تيماء** فقد قاوم جيش ملك الحيرة(١) ٠ وقد سمى حصن تيماء بالأبلق الفرد لانه كان مبنيا بحجارة مختلفة الالوان بناه السموءل بن عادياء اليهودى وبه تضرب العرب المثل فى الحصانة والمنعة ٠ وقصدت الزباء هذا الحصن وحصن مارد فلم تقدر عليهما فقالت « تمرد مارد وعز الأبلق » ، **ومارد حصن كان بدومة الجندل** مبنى بحجارة سود ويقال أيضا انه من بناء السموءل (٢) ٠ وكان لليهود حصون شتى فى بلاد العرب قبل الاسلام ٠

وقد شهدت بلاد الشام تحصينات كثيرة فى العهد الرومانى ، منها ما كان فى اقليم الصفا البركانى الى الجنوب الشرقى من دمشق ٠ وأهم الحصون الرومانية الصغيرة فى **منطقة الصفا هى من الشمال الى الجنوب :**

---

(١) حسينى : الادارة العربية ٠ ترجمة دكتور العدوى ص ٣٥ ـ ٦ ٠

(٢) النويرى : نهاية الأرب السفر الاول ص ٣٧١ ـ ٢ ٠

موقع جبل سيس ، قصر الابيض ، النمارة ، دير الكهف وقلعة الازرق •
والأطلال التى توجد عند قاعدة المخروط البركانى المسمى جبل سيس ذات أهمية خاصة ، فالحصن يشغل مساحة مربعة جانبية تقدر بـ ٣٥ مترا تقريبا وبه أبراج مستديرة والجدار مبنى بسمك مترين تقريبا ويحميه خندق صغير • أما قصر الأبيض فهو مبنى بدوره على شكل مربع وبه أبراج ذات زوايا وفى وسطه استحكامات ، وجدار السور مكون من واجهتين مرصوصتين ملء مابينهما بالاحجار والملاط ، وهناك برج عال يتصل بجدار السور ، ولكن لا يبرز منه شىء فى الخارج • وفى جنوب خط الحصون من جبل سيس الى قلعة الازرق كان هناك **خط آخر من المراكز المحصنة أكثر ميلا لجهة الغرب** ، ونحن نعلم من قائمة الوظائف Nolitia Dignitatum أنه فى أول القرن ٥م كان **للمقاطعة العربية جيشان : جيش برقة الثالث ، ويعسكر فى بصرى عاصمة الاقليم وتتبع حصون قصر الأبيض والنمارة ودير الكهف وقلعة الأزرق قيادة بصرى ، وجيش** Martia **الرابع ويعسكر فى اللجون فى شرق الاردن وتتبعه الحصون الممتدة من عمان حتى الحجاز وهى الحصون التى كانت تحمى الحدود الحضرية** • وتاثرت اللجون خاصة بالحصون الرومانية ذات المساحة الشاسعة ، على أن المشتى قد أثار الجدل حوله ، فهو ان كان يضاهى الحصون الرومانية المقامة فى الشام فان داخله وان كان ينطوى مثلها على فناء يتوسطه يمتاز بخصائص هامة : ففى أبعد موضع من الفناء تقوم غرفة كبرى ذات ثلاث مقصورات تنتهى ببناء على شكل عقد مثلث الأركان تغطيه قبة • وقد بنيت أجزاء من الجدران والقباب فى الداخل بالآجر ، ومن هنا ذهب ديسو Dussaud الى وجود **مؤثرات فارسية** « من حيث البناء بالآجر أخذ بها فى قصر المشتى منذ البداية على أنها تقوى وتتأيد فى العقد المنثنى فى القباب • وهذا الطابع ليس رومانيا ولا اغريقيا بل هو طابع شرقى يرجع الى عهد سحيق • وقد دخل فن العمارة البيزنطى منذ وقت بعيد ، غير أن الفن العربى هو الذى اصطفاه بوجه خاص ـ وهذا يدل على مقدار العلاقات التى تربط الفن العربى بالفن الفارسى » (٣) •

وقد بنى **سور دمشق** فى عهد الامبراطورين سبتيموس سفيروس وكركلا فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث ، وأحاط السور

---

(٣) دوسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام • ترجمة الدواخلى والدكتور زياده ص ٢٩ ـ ٣٠ ، ٣٧ : ٤٤ •

بالمدينة الآرامية والأحياء الاغريقية على شـــكل مستطيل تقريبا طوله ١٥٠٠ مترا وعرضه ٧٥٠ مترا ، وجعلت له ٧ أبواب ـ ٣ فى القسم الشمالى ، ٢ فى الجنوبى ، ٢ كبيران فى الشرق والغرب • وكانت هناك محل القلعة الاسلامية فى دمشق قلعة قديمة رومانية أو بيزنطية يظن أنها كانت على نموذج الحصن الرومانى المعروف باسم كاستروم • وبنى دقلديانوس معسكرا كبيرا فى **تدمر** وأحاطها بسور وأنشأ جستنيان بعض الأبنية فيها ، ويحيط بها سور يرجع الى عهده ، طوله كيلومتران وعرضه كيلومتر واحد ، أما سور زنوبيا فيبدو أنه كان يقابل خطا مرتفعا من الأرض مستقيما يعلو قليــلا عن سطح الصـــحراء وتتصل المرتفعات به بواسطة أسوار ثانية • وقد أحيطت **حلب** (بيروا) بسور منذ أيام السلوقيين ، وعلى أثر استيلاء الفرس عليها فى احدى غاراتهم على سوريا البيزنطية سنة ٤٤٠ ميــلادية رمم جستنيان أسوار قلعته وجدد منشآتها العســكرية لسد طريق الأناضول وأنطاكية أمام جموع الفرس (٤) •

وعندما فتح المسلمون دمشق سنة ١٤ هـ « سار أبو عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد فحاصرهم فصالحوه وفتحوا له باب الجابية ، وفتح خالد أحد الأبواب عنوة وأتم لهم أبو عبيدة الصلح(٥)»•وقد ذكر لدمشق عدة أبواب قديمة : الباب الصغير الذى نزل عليه يزيد بن أبى سفيان فى حصار المسلمين الروم ، وباب كيسان من شرقيه نزل عليه كيسان مولى معاوية ، وباب شرقى دخل منه خالد عنوة ، وباب توما وباب الجنيق نسبة الى رجلين من الروم ، وباب الجابية الذى قال عنه الحافظ بن عساكر أنه ثلاثة أبواب الأوسط كبير وعلى جانبيه بابان صغيران (٦) • كذلك كانت **اللاذقية** محصنة عندما جاء المسلمون لفتحها اذ « كان لها باب عظيم لا يفتحه الا جماعة من الناس » ، وفى حصـــار **انطاكية** « كان معظم الجيش على باب فارس وباب البحر » (٧) •

كان العرب اذن على قدر من العلم بالتحصينات وهم بالجزيرة العربية، غير أن تقاليدهم جرت على خوض المعارك الحربية المكشوفة ، فلما ساروا الى

---

(٤) دكتور سليمان عادل عبدالحق ، عبدالعزيز عثمان : نزهات أثرية فى سورية ص ٧ ، ٢٣ ، ٦٧ ـ ٨ ، ٨٤ ـ ٥ •

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٤٩٦

(٦) البدرى : نزهة الانام فى محاسن الشام ص ٢٤ ـ ٥ •

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٩ ، ١٥٤ •

الشام صار في يدهم تراث ضخم من تنظيمات الروم العسكرية ، وكانت مراكز المسلمين العسكرية فى بادىء الأمر **معسكرات ومضارب خيام ، ثم مصرها القواد فتحولت الى مدن كبيرة** سارت فى طريق العمران شيئا فشيئا ، وكان عمر هو الذى أمر باقامة الحصون والمعسكرات الدائمة ، كما أنه رفض أن يقيم الجند فى أكواخ مقامة من سعف النخيل • وكانت المعسكرات الاسلامية تتحرى فى البداية ألا يفصلها عن المدينة مقر الخلافة بحر أو نهر • وقد كانت المراكز العسكرية الاسلامية الأولى مجهزة بثكنات للجند وحمى للخيل ، وأحدثت فيها قيود وسجلات تكتب فيها المعلومات الاحصائية عن الجيش ، كما كانت هناك مخازن للعتاد والذخائر • وكان قادة الجيوش الاسلامية يتابعون أوامر الخليفة ويستأذنونه فى بناء الأمصار والمدن فكلما أنفذ اليهم وصية عملوا بمقتضاها (٨) • وقد حضر عمر الى الشام بنفسه سنة ١٦ هـ بعد سقوط بيت المقدس ، وقسم القوات الى أجناد تتألف كل منها من عدة قبائل وخصص لكل منها معسكرا دائما واستخدم المراكز الحربية الدائمة التى وجدت من قبل بالشام مثل دمشق وحمص وطبرية واللد والرملة ، بينما أنشئت مراكز عسكرية جديدة بالعراق هى البصرة والكوفة بنيت بالقصب ثم اللبن وتحولت الى مدينتين عامرتين بعد ذلك (٩) • وهكذا **يرجع نظام المعسكرات الدائمة الى فترة مبكرة فى تاريخ الدولة الاسلامية ، وفى المعسكرات العربية اقيمت الحواجز والخنادق وبوابتان أو أربع بوابات مثلما كان يفعل الرومان (١٠) •**

وبين المجاهدين المسلمين الذين ساروا الى الشام انتقلت قبيلة قيس مع الفتح الى شمال الشام ، ولكن الغالبية فى الوسط كانت لكلب ولقبائل قضاعة الى جانب قبائل أخرى من أزد الصراة • وكانت هذه القبائل قد توطنت هناك منذ قرون ولم تكن جاءت مع مجىء الاسلام ، **ولم يكن المسلمون فى الشام يعيشون بمعزل أو فى مستعمرات مخصصة لهم ، بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد فى المدن القديمة** مثل دمشق وحمص وقنسرين وغيرها ، بل كانوا أحيانا يقاسمونهم بيتا لله نصفه مسجد ونصفه كنيسة • وذلك على خلاف الحال فى البصرة والكوفة مثلا حيث كانت حروب الفتح قد قذفت اليهما بجيوش عربية تتألف من

---

(٨) نعمان ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ص ٢٣ : ٦ •

(٩) هل : الحضارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٥٠ ـ ١

(١٠) فون كريمر الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور مصطفى بدر ص ٦١

مختلف القبائل فأقامت هناك أشبه شيء بالمستعمرات العسكرية ولم يكن لها غير تراث البادية وتراث الاسلام (١١) ۰ وسار الأمويون على أثر الخلفاء الراشدين فى العناية بتكنات الجند والاكثار من الاهراء لخزن الطعام والأرزاق والعلوفة وبناء الاصطبلات لايواء الخيل ۰ ولم تزل العمارات فى عهدهم سائرة الى التحسن والتوسع حتى صارت أمصارا كبيرة زاهرة بالعلوم والفنون ، زاخرة بالمقاتلة والسلاح والمؤن والتجهيزات وسائر المهمات ، حافلة بالأيدى العاملة التى تمد المقاتلة بكافة احتياجاتها من زراعة وصناعة (١٢) ۰ ونال الجنود الذين دافعوا عن المراكز الامامية وقلاع الحدود مقررات سنوية منتظمة وعطاء لأسرهم ، كما هيئت لهم أسباب الحماية والدفاع وكانت المعسكرات تحمى بالخنادق فاذا طالت اقامتها حميت بالمتاريس ، ولزيادة الحيطة فى بلاد العدو كان المحاربون يقفون بسلاحهم وكامل عتادهم وبأعداد كافية لصد أى هجوم مفاجىء ۰ وكتب ليو الحكيم (٨٨٦ : ٩١٢ م) أن العرب « كانوا دائما فى خوف من البيات ولاسيما فى البلاد الأجنبية ، واتخذوا احتياطات عظيمة لذلك فكان الحراس يقومون بعملهم طوال الليل أو يحضن المعسكر بعناية حتى لا يؤخذ على غرة » (١٣) ۰

وأدى احتكاك المسلمين بقوات الروم الى تزايد ادراكهم لأهمية الاستحكامات المبنية ومروا بقلاع الحدود الرومانية فأقبلوا على دراسة فنون التحصين والحصار ۰ وبدأوا خبراتهم **بالمحافظة على ما وجدوا من تحصينات وصيانتها** ۰ فيروى البلاذرى « سمعت هشام بن عمار يقول : لم يزل سور مدينة دمشق قائما حتى هدمه عبد الله بن على بعد انقضاء أمر مروان وبنى أمية » (١٤) ۰ فاذا ما تعرضت هذه الأسوار للهدم أو التخريب لسبب من الأسباب ، فقد كانت تجدد بعد ذلك ، ففى سنة ١٢٧ هـ ٧٤٥ م هدم مروان الثانى أسوار تدمر بعد تمردها ولكن وصف أبى الفداء لها بعد ذلك يرجح اعادة بنائها (١٥) ۰

وتعرضت معاقل الحدود الشمالية بين المسلمين والبيزنطيين للتخريب فى مطلع أيام الفتح الاسلامى للشام « وكان فيما بين

---

(١١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٢٦ ۰

(١٢) نعمان ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ص ٢٩ ۰

(١٣) حسينى : الادارة العربية ترجمة الدكتور العدوى ص ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٤٢٤

(١٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٢ ۰

(١٥) دكتور سليمان عادل عبدالحق ، عبد العزيز عثمان : نزهات أثرية فى سوريا ص ٦٧

الاسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم كالحصون والمسالح التى يمر بها المسلمون اليوم فربما أخلاها أهلها وهربوا الى بلاد الروم خوفا ، وربما نقل اليها من مقاتلة الروم من تشحن به ، وقد قيل ان هرقل أدخل أهل هذه المدن معه عند انتقاله من أنطاكية لئلا يسير المسلمون فى عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم ، وحدثنى ابن طسون البغراسى عن أشياخهم أنهم قالوا : الأمر المتعالم عندنا أن هرقل نقل أهل هذه الحصون معه وشعثها فكان المسلمون اذا غزوا لم يجدوا بها أحدا وربما كمن عندها القوم من الروم فأصابوا غرة المتخلفين عن المعسكر والمنقطعين عنها ، فكان ولاة الشواتى والصوائف اذا دخلوا بلاد الروم خلفوا بها جندا كثيفا الى خروجهم ... عن رجل من أهل دمشق قال : لما غزا معاوية غزوة عمورية سنة ٢٥ (هـ) وجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية فوقف عندها جماعة من أهل الشام ، والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته ، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسى الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك ، وكانت الولاة تفعله . وقال هذا الرجل : ووجدت فى كتاب مغازى معاوية أنه غزآ سنة ٣١ من ناحية المصيصة فبلغ درولية فلما خرج جعل **لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية الا هدمه** » (١٦) .

غير أن تشعيث معاقل الحدود سواء من جانب الروم أو العرب كان مقصورا على معاقل الأطراف التى تقترب من الحدود البرية المشتركة بين الدولتين . **أما الاستحكامات الداخلية والساحلية فقد بادر المسلمون الى تدعيمها** « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين ، فان حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا الامداد . فلما استخلف عثمان كتب الى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها القطائع ، ففعل » « قالوا : بنى معاوية لجبلة حصنا خارجا من الحصن الرومى القديم ، كان سكان الحصن الرومى رهبانا وقوما يتعبدون فى دينهم » « قال مخلد بن الحسين : سمعت مشايخ الثغر يقولون : كانت أنطاكية عظيمة الذكر والأمر عند عمر وعثمان ، فلما فتحت كتب عمر الى أبى عبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء . ثم لما ولى معاوية كتب اليه بمثل ذلك . ثم ان عثمان كتب اليه أن يلزمها قوما وأن يقطعها قطائع . وولى

---

(١٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٠ : ٢ ، الطبرى جـ ٤ ص ١٥٦ رواية سيف .

أبو عبيدة كل كورة فتحها عاملا وضم اليه جماعة من المسلمين .وشحن النواحي المخوفة » (١٧) ٠

وحين استقر المسلمون فى بلاد الشام وتزايدت ثقتهم فى أنفسهم أخذوا **يشيدون ويحصنون المدن والقرى التى هجرها أعداؤهم وملؤا فتوحاتهم خطوة خطوة الى ديار البيزنطيين نفسها** ، ثم شحنوا التخوم بالجند ، وكانت أهم النقط الاستراتيجية هي قاليقلا وكمخ وقلوذية فى القسم الشرقي من الحدود الاسلامية البيزنطية والأوليان بابان لارمينية والأخيرة باب عمورية ، وفى القسم الاوسط : كانت الحدث وزبطرة وملطية قلاعا هامة لحماية الجزيرة ، وفى الغرب ، كانت هناك المصيصة وطرسوس وأذنه وتحمى الطريق الساحلي من أرض الروم الى الشام ٠ وتقع هذه المراكز الحربية الهامة على مفارق الطرق الحربية أو الممرات الجبلية التى كانت مخارج للقوات البيزنطية ٠ واتخذت رقابة شديدة على أفراد الحاميات ، كما عين موظف بقصد التحرى عن عمليات الوصول والرحيل فقط ٠ (١٨) « عن الواقدى وغيره : لما كانت سنة ٨٤ هـ غزا على الصائفة عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، فدخل من درب أنطاكية وأتى **المصيصة** فبنى حصنها على أساسه القديم ، ووضع بها سكانا من الجند فيهم ٣٠٠ رجل انتخبهم من ذوى البأس والنجدة المعروفين ـ ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك ، وبنى فيها مسجدا فوق تل الحصن ٠ ثم سار فى جيشه حتى غزا حصن سنان ففتحه ، ووجه يزيد بن حنين الطائى الانطاكى فأغار ثم انصرف اليه ٠ وقال أبو الخطاب الأزدى : كان أول من آبتنى حصن المصيصة فى الاسلام عبد الملك بن مروان على يد ابنه عبد الله ابن عبد الملك فى سنة ٨٤ على أساسها القديم فتم بناؤها وشحنها فى سنة ٨٥ ٠ وكانت فى الحصن كنيسة جعلت هريا ، **وكانت الطوالع من أنطاكية تطلع عليها فى كل عام فتشتو بها ثم تنصرف** ـ وعدة من كان يطلع اليها ألف وخمسمائة الى الألفين ٠ قال : وشخص عمر بن عبد العزيز حتى نزل هرى المصيصة وأراد هدمها وهدم الحصون بينها وبين أنطاكية ، وقال : أكره أن يحاصر الروم أهلها ، فأعلمه الناس أنها عمرت لبدفع من بها الروم عن أنطاكية وأنه ان أخربها لم يكن للعدو ناهية دون

---

(١٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ٠

(١٨) حسينى : الادارة العربية ٠ ترجمة دكتور العدوى ص ٢٥٩ ـ ٦٠ ، د٠ شعيرة : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية ـ بحث فى كتاب « الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين »٠

أنطاكية ، فأمسك وبنى لأهلها مسجدا جامعا من ناحية كفر بيا واتخذ فيه صهريجا ... **ثم بنى هشام الربض ، ثم بنى مروان بن محمد الخصوص** فى شرقى جيحان وبنى عليها حائطا وأقام عليه باب خشب وخندق خندقا » . وهكذا سـار المسلمون تدريجا فى تحصـين تلك المناطق وتعميرها » وقال أبو النعمان الأنطاكى : كان الطريق فيما بين أنطاكية والمصيصة مسبعة يعترض فيها للناس الأسد فلما كان الوليد بن عبد الملك شكى ذلك اليه فوجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس فنفع الله بها » وبنى هشام حصون **المثقب وقطرغاش ومورة وبوقا** ، وأقام مسلحة من خمسين رجلا وحصنا **ببغراس** وكان الروم قد عرضوا لرسول له فى درب اللكام عند العقبة البيضاء .

هذا فى ناحية الثغور الشامية ، أما الثغور الجزرية فقد وجه معاوية ـ حين جمعت له ولاية الشام والجزيرة ـ حبيب بن مسلمة الى [illegible] **ففتحها عنوة ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها** ، وقدمها معاوية وهو يريد دخول الروم فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما فكانت طريق الصوائف . ثم ان أهلها انتقلوا عنها فى أيام عبد الله بن الزبير وخرجت الروم فشعثتها ثم تركتها فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والنبط ونزل المسلمون **طرنده** بعد أن غزاها عبد الله بن عبد الملك سنة ٨٣ وبنوا بها مساكن « وهى من ملطية على ثلاث مراحل واغلة فى بلاد الروم ـ وملطية يومئذ خراب ليس بها الا ناس من أهل الذمة من الأرمن وغيرهم ، **فكانت تأتيهم طالعة من جند الجزيرة فى الصيف فيقيمون بها الى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج فاذا كان ذلك قفلوا** . فلما ولى عمر بن عبد العزيز رحل أهل طرنده عنها وهم كارهون ـ وذلك لاشفاقه عليهم من العدو ، واحتملوا فلم يدعوا لهم شيئا حتى كسروا خوابى الخل والزيت ثم أنزلهم ملطية وأخرب طرنده » . وتعرضت **مرعش** بعد أن بناها معاوية وشحنها بالجند لغارات الروم بحكم قربها من ديارهم وانشغال الأمويين بأحداث دولتهم الداخلية . « ثم ان العباس بن الوليد بن عبد الملك صار الى مرعش فعمرها وحصنها ونقل الناس اليها ، وكان يقطع فى كل عام على أهل قنسرين بعثا اليها . فلما كانت أيام مروان بن محمد وشغل بمحاربة أهل حمص خرجت الروم وحصرت مدينة مرعش حتى صالحهم أهلها على الجلاء فخرجوا نحو الجزيرة وجند قنسرين بعيالاتهم ثم أخربوها .. ثم لما فرغ مروان من أمر حمص وهدم سورها بعث جيشا لبناء

مرعش فبنيت ومدنت ، فخرجت الروم فى فتنته فأخربتها » (١٩) ٠

على هذا النحو سار الأمويون قدما فى تحصين الحدود الاسلامية البيزنطية بقدر ما تسمح به الظروف السياسية العامة فى أرجاء دولتهم الواسعة ، فكيف تحققت للمسلمين هذه الوثبة الواسعة فى فنون التحصين ؟

يجيب كرزويل Creswell على هذا التساؤل بتوجيه النظر الى تدبر الطريق التى سلكتها الجيوش الاسلامية فى فتوحها ، فان مسير الجيوش يكاد يتفق مع خط الحجاز الحديدى فى العصر الحديث : فقد سار جيش نحو اليسار فى اتجاه بيت المقدس ، والثاني اتجه صوب دمشق ، بينما انحرف الثالث نحو اليمين لفتح العراق حتى وصل الى الفرات عند البصرة ٠ **وكانت هذه الجيوش تمر فى طريقها بسلسلة من قلاع الحدود الرومانية** Castra of the Roman Limes كانت تمتد من خليج العقبة دمشق ، ومن دمشق الى تدمر Palmyra وقد وصف هذه القلاع برونو Brunow وفون دمزيفسكى Domaszewski ، وأهمها من الجنوب الى الشمال : اذرع Odruh التى بناها تراجان ، والدجانية واللجون janiya, Lejjun ويحتمل أن يكونا من عهد تراجان أيضا ، وبشير وعليها نقش لدقلديانوس (٢٨٤ : ٣٠٥م) ، ودمير(١٦٢م) ٠ **ثم أن من** خلفاء الأمويين أنفسهم من عاش فى بعض قلاع الحدود الرومانية ، فالوليد [illegible] عاش أحيانا فى حصن الأزرق الذى تم تجديده بعد ذلك سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦م ــ ٧م) ، وكان فى أيام الوليد الثانى قلعة رومانية ترجع لأيام دقلديانوس ومكسيميان ٠ وحينما هاجم المتآمرون الوليد الثانى فر شمالا الى حصن البخراء الذى هو اسم عربى لقلعة رومانية تقع الى الجنوب الغربى من تدمر بـ ١٥ ميلا ٠ وفى قلب الصحراء على مسيرة حوالى ٢٠ ميلا شرقى الزرقاء كانت هناك قلعة رومانية عرفت فى تسميتها الحديثة بقصير الحلابات ، وقد بدأ تشييدها كراكلا (٢١٣ : ٢١٧م) وأتمها جسنتيان (٥٢٩م) ، وعلى بعد حوالى ١٥ ياردة من ركنها الجنوبى الشرقى يوجد مسجد صغير يرجع الى النصف الأول من القرن ٨ م وقد بناه بلا شك أحد الأمويين الذين أقاموا فى القلعة بجواره ٠

وقد كانت نتيجة هذا مزدوجة : فقد أعطت هذه الخبرة بالحصون الرومانية خلفاء الأمويين المعرفة الضرورية لبناء قلاعهم على الحدود البيزنطية

(١٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٢ ــ ٣ ، ١٧٤ ، ص ١٩٣ ــ ٤ ، ١٩٦ ــ ٧ ٠

لحماية أنطاكية - مثل المصيصة والمثقب وقطرغاش • وموره وبوقـا وبغراس • كما أنها أثرت في طراز قصور الخلفاء الأمويين نفسها • ومن ذلك قصر الوليد فى مينيا على بحيرة طبرية وقصره فى جبل سيس (٧٠٥ : ٧١٥م) وقصر هشام المعروف بقصر الحير الغربي (٧٢٧م) وقصره المعروف بقصر الحير الشرقى (٧٢٩م) وقصره فى خربة المفجر شمال أريحا بأربعة أميال وقصر الوليد الثانى فى مشـتى وقصره المعروف بقصر الطوبة (٧٤٤م) • ومع أن هذه القصور شيدت فى قلب بلاد المسلمين فانهـا تبدو من الخارج مثل القلاع ، فقد شيدت جدرها من الحجر واكتنفتهـا الأبراج المستديرة • أما عن سبب اتخاذها طابع التحصـينات مع عدم الحاجة الى ذلك فان كرزويل يستنتج أن الاعتياد على سكنى قلاع الحدود الرومانية جعلت الجدار المستطيل الذى تكتنفه الأبراج جزءا ضروريا من مقر الأمير ، وان ظاهرة بناء المشربيات machicoulis التي لم تكن معروفة فى أوربا الغربية حتى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى كانت معروفة فى سوريا قبل الاسلام ، وبدأ ظهورها في التحصينات الاسلامية فى ظروف غريبة • فحين بني هشام قصر الحير الغربى اختار موقعا على ربوة صغيرة الى الغرب من تدمر بأربعين ميلا حيث كان يقوم دير بناه جستنيان، وجعل لبرج هذا الدير الذى كان له باب مشربية عالية ذات فتحة واحدة لحماية البرج ، وهكذا أقام هشام برج حراسة طويل فى الركن الشمالى الغربى من قصره المربع • وبعد عامين بنى الى الشرق من تدمر مقرا جديدا فجعل فيه مشربية جميلة ذات فتحتين (٢٠) • والمشربيات فى العمارة عبارة عن اعداد دعائم يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقهـا حواجز بارزة ، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب السهام منه الى رءوس المهاجمين الذين يحاولون أن يحفروا تحت الجدران ويضعوا تحتها اللغم ، كما يمكن أن يصب على رءوسهم الزيت أو الماء المغلى أو غير ذلك من المواد المؤذية •

واذا كانت القلعة البيزنطية هي السابقة المباشرة القريبة التى وجدها المسلمون فى الشام فيجدر أن يعرف شيء عن هذه القلعة ، وقد عنى الرومان بدراسة مشاكل الدفاع العسكرى كعلم له قواعد وأساليب واستفاد البيزنطيون من هذا التراث ودضوا فى تطويره ، لأن سياستهم العسكرية كانت دفاعية خلال مدة وجودهم فى الشرق الوسيط سيما فى سوريا التي واجهوا فيها غارات الأعراب من الصحراء ولذلك أكثروا من

(٢٠) Crewell: Fortification in Islam. pp. 89:91.

بناء الحصون والقلاع فى الأماكن الهامة • ولم تكن القوة العددية للجند عند البيزنطيين تعتبر مشحّنة اذ سرعان ما كانت تسندهم بلادهم المجاورة بما يتطلبه الموقف العسكرى • والقلعة البيزنطية فى الشرق لم تكن أكثر من (معسكر محصن) قام تصميمها على اعتبار ان العدو ـ وبخاصة العرب ـ كان أضعف من البيزنطيين فى فنون الحصار وأسلحته ، ولذلك لم يعن البيزنطيون العناية الواجبة بمتانة جدران حصونهم ، واستعانوا بالخنادق العريضة أو العميقة ليحرموا العدو من امكان جلب أبراج الكباش وسلالم الحصار الى مسافة يستطيع منها قذف الحجارة والسهام على جنود القلعة • وكان البيزنطيون يشـــيدون فى القلاع الأبراج ذوات الميول ويبنونها على مسافات متفاوتة من جدران القلعة ، ولم تكن تلك الأبراج تبتنى لحماية الأسوار بل لكى تيسر لرماة القسى ورماة النفط مدى بعيدا فى اصابة العدو المهاجم ، وكان يشيد فى وسط السور برج مرتفع تخزن فيه المؤن والسلاح والعتاد • وقد استخدمت القلعة كمكان اقامة دائمة باستثناء بعض القلاع التى شيدها البيزنطيون عند حدودهم الأرمنية حيث كان يقوم بشئون الدفاع أمراء شبه مستقلين • ومع أن البيزنطيين كانوا يعنون باختيار الأرض الصالحة لبناء القلعة ، الا أن صعوبة الوصول الى موقع القلعة من ناحية المهاجم لم تكن هى أول العوامل التى اهتموا بها ، وانما كانت المزية الأولى الرئيسية للقلعة أن تستخدم كثكنة مسلحة ، وكان من العسير أن تطلب من الجندى كلما أمر بالتحرك أن يجهد نفسه صاعدا أو هابطا • وقد اتبع العرب أساليب البناء البيزنطية حين أتوا الى الشام ، ولما كانت طبيعة جيوشهم تعتمد على الهجوم المفاجىء وسرعة الحركة فانهم لم يعنوا فى أول أمرهم كثيرا بمشاكل الدفاع الكبرى الا فى بعض الظروف (٢١) • وتحت ضغط هذه الظروف تطوروا فى نظام دفاعهم عن حدودهم البرية وفى سياستهم البحرية على حد سواء •

وبلغت جهود المسلمين فى حماية الحدود الشمالية ذروتها فى عهد العباسيين فعمدوا الى احتلال جميع المراكز الواقعة على الحدود وأطراف المفاوز الجبلية التى يخشى كمون الاعداء فيها • وتتابع المنصور والمهدى على تحصين المصيصة وشحنها بالمقاتلة ، وكان حائطها متشعثا من الزلازل « فبنى المنصور سورها وعمرى وأسكنها أهلهـــا سنة ١٣٩ ـ ١٤٠ هـ وسماها المعمورة وبنى فيها مسجدا جامعا ، وفرض لأربعمائة رجل زيادة

---

(٢١) دكتور عبدالرحمن زكى : العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين ـ المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨

فى شحنتها ، ثم فرض لألف رجل ، ونقل اليها أهل الخصوص وهم فرس وصقالية وأنباط ونصارى وكان مروان أسكنهم اياها وأعطاهم خططا فى المدينة عوضا عن منازلهم على ذرعها وأعانهم على البناء وأقطع الفرض قطائع ومساكن » وبنيت أذنه سنة ١٤١ هـ . ولما استخلف المهدى فرض بالمصيصة لألفى رجل « ولم يقطعهم لأنها قد كانت شحنت من الجند والمطوعة ولم تزل الطوالع تأتيها من أنطاكية فى كل عام حتى وليها سالم البرلسى وفرض موضعه لخمسمائة مقاتل على خاصة عشرة دنانير عشرة دنانير فكثر من بها وقووا » . وأخبر الحسين بن قحطبة الطائى المهدى على أثر غزوه بلاد الروم سنة ١٦٢ هـ بأهمية بناء وتحصين طرسوس والحدث « فأمره ببناء طرسوس وأن يبدأ بمدينة الحدث فبنيت وأوصى المهدى ببناء طرسوس » .

كذلك أغزى المهدى ابنه هارون بلاد الروم فقام بترميم المصيصة وزيادة حاميتها وبناء القصر الذى على نهر سيحان عند جسر أذنه . وأبتنيت كفربيا فى خلافة المهدى أو الرشيد ، وأمر المأمون بتسويرها فتم ذلك فى عهد المعتصم ، وأحكم بناء أذنه وقصر سيحان فى عهد الأمين على يد أبى سليم فرج الخادم سنة ١٩٤ هـ (٨١٠ م) وندب اليها رجالا من خراسان على زيادة فى العطاء . وبنى محمد بن يوسف المروزى المعروف بأبى سعيد **حصنا بساحل أنطاكية** على أثر هجوم رومى على ساحلها .

وأمر الرشيد ببناء **طرسوس** سنة ١٧١ هـ (٧٨٧م) فتم ذلك على يد فرج بن سليم الخادم « فأشخص الندبة الأولى من أهل خراسان وهم ثلاثة آلاف رجل فوردوا طرسوس ، ثم أشخص الندبة الثانية وهم ألفا رجل ألف من أهل المصيصة وألف من أهل أنطاكية على زيادة عشرة دنانير عشرة دنانير لكل رجل فى أصل عطائه فعسكروا مع الندبة الأولى بالمدائن على باب الجهاد فى مستهل المحرم سنة ١٧٢ هـ الى ان استتم بناء طرسوس وتحصينها وبناء مسجدها . ومسح فرج ما بين النهر الى النهر فبلغ ذلك أربعة آلاف خطة كل خطة ٢٠ ذراعا فى مثلها وأقطع أهل طرسوس الخطط وسكنتها الندبتان فى شهر ربيع الآخر سنة ١٧٢ » . كذلك بنى الرشيد عين روبى سنة ١٨٠ هـ(٧٩٦م) وحصنها « وندب اليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم فأقطعهم بها المنازل»، كما بنى **الهارونية** سنة ١٨٣ « وشحنت بالمقاتلة ومن نزح اليها من المطوعة ونسبت اليه ، ويقال انه بناها فى خلافة المهدى ثم أتمت فى خلافته».وبنى كذلك مدينة الكنيسة السوداء وحصنها وندب اليها المقاتلة مع زيادة العطاء « وكانت

من حجارة سود بناها الروم على وجه الدهر ولها حصن قديم أخرب فيما أخرب » ٠وعمرت سيسية فى خلافة المتوكل على يدى على بن يحيى الأرمنى ثم خربتها الروم ٠

وهكذا عنى العباسيون بترميم ما كان عامرا من الثغور وخرب عند نهاية الدولة الأموية ، كما استحدثوا مدنا ثغرية جديدة : عين زربى والكنيسة السوداء والهارونية وكفربيا وطرسوس وتقع فى المنطقة الساحلية المقابلة للبند الأناتولى البيزنطى والخبر الوارد فى بناء طرسوس عند هجوم الروم يفيد أن هذه الانشاءات كانت لمواجهة هذا الخطر ٠ وهكذا صار الثغر أعظم عمرانا ، حتى أمكن أن يكون قسما اداريا حربيا قائما بذاته فى عهد الرشيد ٠

وقد اتجه العباسيون كذلك الى تعمير **الثغور الجزرية** وتحصينها بعد اغارة الروم عليها فى أواخر أيام الأمويين « فلما كانت سنة ١٣٩ كتب المنصور الى صالح بن على يأمره ببناء ملطية وتحصينها ثم رأى أن يوجه عبد الوهاب بن ابراهيم الامام واليا على الجزيرة وثغورها فتوجه سنة ١٤٠ ومعه الحسن بن قحطبة فى جنود أهل خراسان فقطع البعوث على أهل الشام والجزيرة فتوافى معه سبعون ألفا فعسكر على ملطية وقد جمع الفعلة من كل بلد فأخذ فى بنائها ٠ وكان الحسن بن قحطبة ربما حمل الحجر حتى يناوله البناء وجعل يغدى الناس ويعشيهم من ماله ٠٠ فكان الحسن يقول : من سبق الى شرفة فله كذا ٠ فجد الناس فى العمل حتى فرغوا من بناء ملطية ومسجدها فى ستة أشهر ، وبنى للجند الذين سكنوها : لكل عرافة بيتان سفليان وعليتان فوقهما واصطبل (والعرافة عشرة نفر الى خمسة عشر رجلا) ، وبنى لها مسلحة على ثلاثين ميلا منها ومسلحة على نهر يدعى قباقب يدفع فى الفرات ٠ وأسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها من ثغورهم على زيادة عشرة دنانير فى عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار سوى الجعل الذى يتجاعله القبائل بينها ، ووضع فيها شحنتها من السلاح وأقطع الجند المزارع وبنى حصن قلوذية ٠ وأقبل قسطنطين الطاغية فى أكثر من مائة ألف فنزل جيحان فبلغه كثرة العرب فأحجم عنها » ٠ كذلك بنيت **مرعش** فى خلافة المنصور على يدى صالح بن على بعد أن أخربها الروم ، وقام بتحصينها وندب الناس اليها على زيادة العطاء ، واستخلف المهدى فزاد فى شحنتها وقوى أعلها ٠ واهتم المنصور كذلك بشمشاط واسترد كمخ ولما ارتاد الحسن بن قحطبة موضع الحدث فى غزوته سنة

١٦١ هـ وكلم المهدى فى بنائها وبناء طرسوس فأمر بتقديم بناء الحدث أنشأها على بن سليمان بن على وهو على الجزيرة وقنسرين وسميت المهدية والمحمدية وكان بناؤها باللبن وفرض على بن سليمان لأربعة آلاف فأسكنهم اياها ونقل اليها من ملطية وشمشاط وسميساط وكيسوم ودلوك ورعبان ألفى رجل ، وولى محمد بن ابراهيم بن محمد بن على الجزيرة وقنسرين للهادى ففرض للحدث فرضا من أهل الشام والجزيرة وخراسان فى أربعين دينارا من العطاء وأقطعهم المساكن وأعطى لكل امرىء منهم ثلاثمائة درهم « قال الواقدى » : ولما بنيت مدينة الحدث هجم الشتاء والثلوج وكثرت الأمطار ولم يكن بناؤها بمستوثق منه ولا محتاط فيه فتثلمت المدينة وتشعثت ونزل بها الروم فتفرق عنها من كان فيها من جندها وغيرهم ٠٠ ثم ولى الرشيد الخلافة فأمر ببنائها وتحصينها وشحنتها واقطاع مقاتلتها المساكن والقطائع » وتتابع على بناء **حصن زبطرة** المنصور والرشيد والمأمون وكانت الروم تغير عليه المرة بعد الأخرى حتى كانت غارتهم زمن المعتصم التى أدت الى حملة عمورية ٠

وتدل أخبار البناء والاسكان على أن الصفة الحربية كانت تسود هذه المدن الثغرية ، فهى انما أقيمت للجهاد والرباط ، وكانت الدولة تتولى كل مرافق المنطقة الثغرية : الأمن والطرق والمزارع والمساكن والمئونة الى جانب متطلبات الحصون والجنود (٢٢) ٠

وعلى مسيرة ثمانية كيلو مترات فى أعلى الرقة وعلى نفس الجانب من الفرات هناك آثار سور دائرى قطره حوالى ٦٠٠ مترا تكتنفه أبراج مستديرة يفصل كل منها عن الآخر ٤٠ مترا وهناك آثار ٤ بوابات كبيرة على شكل أبراج مربعة ، وآثار جدار داخلى دائرى داخله مبنى من الحجر ٠ ويشير هرزفلد Herzfeld الى أن هذه الآثار اطلال هرقلة التى أنشأها الرشيد بين ١٩٠ : ١٩٢ هـ ــ ٨٠٦ : ٨٠٨م لأخت بطريق الروم التى أسرها فى غزوته لهرقلية بطوروس ، وهى على الطريق من رافقه الى بالس ويقول ياقوت انها تواجه صفين ٠ (٢٣)

وفى سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) وجه المأمون ابنه العباس الى أرض الروم « وأمره بنزول الطوانه وبنائها ، وكان قد وجه الفعلة والفروض ٠

---

(٢٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٣ : ٨٠ ، ١٩٥ : ٢٠٠ ، د٠ شعيرة : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية ــ بحث فى كتاب (الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين)

(٢٣) Creswell : Early Muslim Architecture Vol. II pp. 225-6.

فابتدأ البناء وبناها ميلا فى ميل ، وجعل سورها على ثلاثة فراسخ وجعل لها أربعة أبواب ، وبنى على كل باب حصنا وكتب الى أخيه أبى اسحق ابن الرشيد أنه قد فرض على جند دمشق وحمص والاردن وفلسطين أربعة آلاف رجل ، وانه يجرى على الفارس مائة درهم وعلى الراجل أربعين درهما ، وفرض على مصر فرضا ، وكتب الى العباس عن فرض على قنسرين والجزيرة ، والى اسحق بن إبراهيم عمن فرض على أهل بغداد ـ وهم ألفا رجل • وخرج بعضهم حتى وافى طوانة ونزلها مع العباس » • وولى المعتصم « فأمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانه ، وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله ، وأحرق ما لم يقدر على حمله ، وأمر بصرف من كان المأمون أسكن ذلك من الناس الى بلادهم » (٢٤) • ويبدو انه لم يكن من الميسور المحافظة على مثل هذا الموقع الأمامى الواغل فى أرض العدو ، واتجه المعتصم الى بناء سامرا •

وبانتقال العاصمة لبغداد وقعت العمارة الاسلامية تحت المؤثرات الساسانية بعد أن كانت تواجه فى الشام المؤثرات الهيلينية • وظهر هذا فى طراز العاصمة الجديدة حيث كان يوجد **سوران داخلى وخارجى بينهما فاصل** ، **وكانت المدينة مستديرة** قطرها حوالى ميلان ونصف وهناك أربع بوابات على مسافات متساوية تسمى بأسماء الجهات التى تؤدى اليها ، وقد عرف هذا التصميم الدائرى قبل تأسيس بغداد بكثير فى المنطقة بين شرقى آسيا الصغرى وجنوبى غربى فارس • أما المداخل المنحنية Bent Entrance للمدينة فاننا لا نجدها فى قلعتى الحلبية والزلبية الواقعتين على الفرات على مسيرة خمسين ميلا أسفل الرقة ، بل نجد مداخلهما مستقيمة ويحتمل أن القلعتين ترجعان الى عهد جستنيان ، والى الجنوب الغربى من الرقة بثلاثين ميلا تقريبا نجد الرصافة المهجورة التى بنى أسوارها جستنيان ، ولها أربع مداخل أحدهما مفرد والمداخل الباقية يتكون كل منها من بوابتين على محور واحد بينهما ساحة ، وتجرى نفس الظاهرة فى بوابات تدمر وانطاكية وجميع بوابات أنقرة عدا واحدة • ولا نجد فى القسطنطينية بوابة منحنية سواء فى منشئات ثيودوسيوس أو هرقل • أما فى شمالى افريقية فتطرد الظاهرة الا فى بوابات معينة • **ومن مزايا المداخل المنحنية أنها تعرض المهاجمين لأخطار الاصابة عند اقتحامها اذ ان جعل المدخل الموصل من باب القلعة الى داخلها على**

(٢٤) الطبرى حـ ١٠ ص ٢٨٤ ، ٣٠٥ •

شكل زاوية قائمة او جعله ملتويا يجعل العـــدو الذى يصل الى الباب لم يتمكن من رؤية الفناء الداخلى أو تصويب سـهامه اليه على أن هـــذا المدخل المنحنى لم يكن طرازا عاما ، فأن المنصور نفسه قد بنى الرقة بعد سـنوات قليلة سـنة ١٥٥ هـ ـ سنة ٧٧٢م وشحنهـا بالفرق الخراسانية لتأمين الحدود الشامية من غارات الروم المتتابعـة · **واذا كان الطبرى قد ذكر أن الرقة قد بنيت على طراز بغداد** بالنسـبة لأبوابها والفاصل والرحبة والشوارع ، فان هذا القول ليس دقيقا على اطلاقه ، فهناك سور مزدوج وخندق ولكن لانجد الشكل الدائرى،ذلك أن الجانب المحاذى للفرات بحكم استقامته قد جعل التصميم على شكل حدوة الفرس· وأسوار المدينة مبنية من طوب اللبن لكن الأبراج مغطاة بطبقة من الطوب المحروق والجدار الرئيسى سمكه٨٥ر٥ متراً وعرض الفاصل ٨٠ر٢٠ مترا وسمك الجدار الخارجى حوالى ٥٠ر٤ مترا،وعرض الخندق حوالى ١٦ مترا فى أعلاه ، و ٥ر٩ مترا فى قاعه · (٢٥) واذا كانت التحصينات الاسلامية قد تقدمت خطوة عما أحرزه الامويون بوجود الاسوار المزدوجة ذات الأبراج نصف المستديرة والبوابات الاربعة ذات المداخل المنحنية وهو تخطيط لم يكن معلوما لدى الرومان أو البيزنطيين قبل ذلك فاننـا نجد فى الأخيضر الواقعة الى الغرب من كربلاء بحوالى ثلاثين ميلا من بناء عيسى بن موسى ابن أخ السفاح حوالى عام ١٥٩ هـ ـ ٧٧٦ م ـ معالم عسكرية بارزة أخرى : فهناك سياج محصن خارجى مساحته حوالى ١٧٠ مترا مربعا ، وفي وسط كل جانب منه بوابة كبيرة من داخلها نجد قصرا يلتصق تماما بالجانب الشمالى ومساحته ١١٣ × ٨٢ مترا ويبلغ الارتفاع الحالى للأسوار حوالى ١٧ مترا بدون الحاجز الواقى parapet · وهناك أربعة أبراج فى الأركان وعشرة أبراج فى الوسط، علاوة على الأبراج الغربية عند الأبواب فى كل جانب وللأبواب متاريس مدلاة من حديد تسدهـا عند الضرورة برفعها أو خفضها ، وتلك ظاهرة جديدة فى القلاع العربية لكنها كانت معروفة لدى الرومان·كما كان هناك اعداد خاص لالقاء قذائف من الداخل خلال فتحات معينة لتصل الى أى عدو يقف عند قاعدة السور، وهيئت نار سفلية من شرفة فى الحائط على استدارة السياج كله تقريبا لتعشى عيون الاعداء وهى ظاهرة لم تعرف فى أوربا قبل القرن الرابع عشر · **وهذه التأثيرات الجديدة فى الفن الاسلامى زمن العباسـيين على**

(٢٥) Creswell : Fortification in Islam. pp. 91:108 — Early Muslim Architecture. II pp. 18, 26, 39. رما بعدها ·

سعة انتشارها لا تعنى أن الفن الأموى قد فقد حيويته فى الشام ، وقد اتخذ هذا الفن وجهة جديدة فى الأندلس (٢٦) ٠

وقد وصف الجغرافيون المسلمون تحصينات الثغور والعواصم فى زمنهم ـ وهو زمن متأخر عن الفترة التى ندرسها من تاريخ الثغور والعواصم ، لكن وصفهم يعطى فكرة عن تلك التحصينات على أية حال ، فيذكر الاصطخرى وابن حوقل مثلا : « وأما أنطرطوس فحصن على البحر ثغر لحمص ، وعليه سور من حجارة يمنع أهلها من بادرة ، ولقد نجوا من الروم فى حيننا هذا عند قصد نقفور ساحل الشام ٠٠ وكان لحلب سور من حجارة لم يغن عنهم من العدو شيئا وكان بهما قلعة غير طائلة ولا حسنة العمارة ٠٠ وعلى انطاكية الى هذه الغاية سور من صخر يحيط بها وبجبل مشرف عليها العدو ٠٠ ومنبج عظيمة الأسوار حصينة عليها سور أزلى رومى ٠٠٠ الخ » ٠

وهو يعرض بعد ذلك ثانية لطرسوس فيصف مناعتها الطبيعية والحربية « وعليها سوران من حجارة كانت تشتمل على خيل ورجال وعدة وعتاد وكراع ، وكانت من العمارة والخصب بالغاية ٠٠ وكان بينها وبين حد الروم جبال متشعبة من اللكام كالحاجز بين العملين ، ورأيت غير عاقل مميز وسيد حصيف مبرز يشار اليه بالدراسة والفهم واليقظة والعلم يذكر أن بها مائة ألف فارس » ٠

ويبدو من هذه النصوص ومما ذكره البلاذرى عن بناء بعض المدن الثغرية أن البناء يكون بالحجر دائما بالنسبة لأسوار المدينة وأبراجها وقلعتها الرئيسية ، وذكرت حالة واحدة بنى فيها السور باللبن فتشقق شتاء (الحدث) ، والسور أهم أبنية المدينة ويتوقف شكله ـ استدارة واستطالة ـ على وضع الأرض التى يبنى عليها وكلما اتسع تزايدت نفقاته مما يستلزم الاقتصاد فى الأبنية الأخرى ٠ وتكون المساكن بقدر عدد الجند المرابطين بصفة دائمة ٠ ويبدو الطابع العسكرى واضحا فى تماثل المنازل المعروفة بالعرافات أو فى الخانات والخطط بحيث يحس الناظر لأول وهلة أنه أمام تكنات عسكرية ، كما أن الاصطبلات وهى من المرافق الرئيسية للمدينة الثغرية ـ تنشر رائحتها المعروفة فى جو الثغر (٢٧) ٠

---

(٢٦) Creswell : Fortification in Islam. pp. 108:112, Early Muslism Architecture. II pp. 37, 50.

(٢٧) ابن حوقل (كتب حوالى ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م) ، الاصطخرى (كتب حوالى ٣٤٠ هـ/ ٩٥١ ـ ٢ م) : المسالك والممالك ص ٤٦ ـ ٤٧ ، د٠ شعيرة : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية ـ بحث فى كتاب (الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين)

وقد تناول المقدسى المواقع الحصينة فى عرضه الجغرافى لبلادالجزيرة والشام ، ومن ذلك « آمد بلد حصين عجيب البناء ـ على عمل انطاكية ، بفصيل شبه كرسى له أبواب وعليه شرف بينه وبين الحصن فضاء وهى أصغر من انطاكية ، بحجارة سود صلبة ٠٠ لها خمسة أبواب ، باب الماء وباب الجبل وباب الروم وباب التل وباب انس صغير يحتاج اليه وقت الحرب ، وبعض الحصن على الجبل ولا أعرف للمسلمين اليوم بلدا أحصن ولا ثغرا أجل منها ٠ وميافارقين بلد طيب حصين له شرف وفصيل بحجارة وخندق ٠٠ وأما حلب فبلد نفيس خفيف حصين فى وسط البلد قلعة حصينة واسعة ٠٠ لها سبعة أبواب : باب حمص ، باب الرقة ، باب قنسرين ، باب اليهود ، باب العراق ، باب دار البطيخ ، باب أنطاكية ، وباب الأربعين مسدود ٠٠ وحمص ليس بالشام بلد أكبر منها وفيه قلعة متعالية عن البلد ترى من الخارج » ٠ وسجل المقدسى حصانة بعض مدن ساحل الشام مثل صيدا وبيروت وصور وعكا وعسقلان وقيسارية ٠ (٢٨)

أما الرحالة ابن جبير فيصف الموصل بأنها « عتيقة ضخمة حصينة فخمة ، قد كادت أبراجها تلتقى انتظاما لقرب مسافة بعضها من بعض ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج » ٠ وذكر ان فى حران قبة فى صحن مسجدها كانت فى الأصل من بنيان الروم « وأعلاها مجوف كأنه البرج المشيد يقال أنه كان مخزنا لعدتهم الحربية » ٠وذكر أن منبج من مدن الروم العتيقة ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها ٠ « ولها قلعة حصينة فى جوفيها تنقطع وتنحاز منها » ٠ حتى اذا بلغ ابن جبير حلب خصها بوصف يتناسب مع مجدها ومكانتها « فكم هاجت من كفاح وسلت عليها من بيض الصفاح ، لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع معدومة الشبه والنظير فى القلاع تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع ٠ ومن كمال خلالها المشترطة فى حصانة القلاع أن الماء بها نابع وقد صنع عليه (جبان) فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أمد الدهر ، والطعام يصبر فيها الدهر كله ٠ ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان من الجانب الذى ينظر للبلد ، ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه والماء ينبع فيه ٠٠ وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة فيها العلالى المنيفة والقصاب المشرفة قد تفتحت كلها طيقانا وكان برج

---

(٢٨) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٤٠ ، ١٥٥ ـ ٦ ، ١٦٠ : ٤ ، ١٧٤ ـ ٥ (كتب حوالى ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م)

منها مسكون » (٢٨) • وكان على انطاكية سور ضخم للغاية قيل ان دوره للراكب يومان ، وعلى منبج سور مبنى بالحجارة محكم ، ولدلوك قلعة من بناء الروم عالية مبنية بالحجـارة ، وكانت رعبان وعينتـاب وبهنسى والشغر وبكاس قلاعا حصينة ، كما كانت هناك أسوار لرصافة هشام وتيزين وأذنه ـ وكان للأخيرة ٨ أبواب ٠ ووصف القاضى الفاضل قلعة نجم التى كانت قديما تعرف بجسر منبج على شـاطىء ألفرات « نجم من سحاب وعقاب فى عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة اذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قامة » • وقد تخرب الكثير من هذه الحصـون والقلاع واحتل بعضها الروم فى فترات ضعف المسلمين • (٣٠)

وقد تضمنت المؤلفات الاسلامية في الفقه والاحكام السلطانية الحث على ضبط الحدود وحماية الثغور ، فالماوردى يعد من واجبات الامام : « تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظهر الاعداء بغرة ينتهكون فيها محرما أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دما » • (٣١) وجاء (فى آثار الأول) فى حفظ الثغور والقلاع وما يجب من أمورها « قد ورد فى الرباط والمثاغرة من الفضل والثواب ما يطول بشرحه الكتاب : فى البخارى عن سـهل بن سـعد أن النبى صلى الله عليه وسـلم قال : رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها •• والذى يجب على الملك الفاضل أن يصرف معظم عنايته الى حفظ الثغور وضبطها ، فان من أهمل ذلك دخل على ملكه ورعيته الخلل والهلاك • وكان بعض الملوك الفرس يقول لحاجبه : لا تحجب عنى رسول الثغر وان كنت نائما أيقظتنى ليلا أو نهارا • وليكثر في الثغر من الشجعان وذوى البصائر في القتال وأهل الحمية والأنفة والدين المتين ، فبمثل هؤلاء تصان الثغور • ثم ليكثر لهم الدروع والخوذ والرماح والسـيوف والقسى والجروخ والدرق والتروس وجميع آلات الحرب والزيارات المجانيق ، ويرتب الحراس على الأبراج والحفاظ للشرفات ليلا ونهارا • ويحتاط فى فتح الأبواب وفى غلقها فلا يكون فى وقت الغلس ولا يهمل أمر ظواهر البلد وضواحيه من المطالع وارصاد العيون من جهة العدو لئلا يهجم عليه ويطرق ثغره وهو غافل • ثم يوسع فى نفقتهم ويدخر أقواتهم ويزيح أعـذارهم فى ذلك ، وكذلك الكسوات وجميع الآلات ويحسـن الى واليهم ومقدمهم ويرفع

(٢٩) رحلة ابن جبير ص ٢٢١ : ٢٤٠ (توفى ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م)

(٣٠) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٥٢ وما بعدها (والقاضى الفاضل توفى ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م)

(٣١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣ (توفى ٤٥٠ هـ / ١٠٥٧ م)

قدرهم ويؤلف بين كلمتهم على المصالح العائدة نفعها فى حراسة ثغرهم وحفظه • كان كسرى أنو شروان لا يولى الا لمن جاوز الأربعين من ذوى الشهامة والرأى والشجاعة والحمية ويخلع عليهم في كل سنة مرتين لتعلم مكانتهم عنده فتنفذ أوامرهم • وخلعته كسوة تامة وسلاح تام وقوس وعلم وخيمة • وينبغى أن يتفقد السلاح فى كل سنة فيرم منه ما تشعث ويجدد ما عتق ويعوض ما نقص وكذلك جميع الآلات • ويتفتقد أهل الثغر بالكسوات والنفقات ويرتب لهم الاطباء والجراحين وما يحتاجون اليه من الأدوية والأشربة والذخائر من سائر الاصناف ويحذر كل الحذر من أن يكسر لهم جامكية شهرا على شهر فيدخل عليه الخلل ويفسد حال أهل الثغر » • (٣٢)

(٣٢) الحسن بن عبدالله : آثار الأول فى ترتيب الدول ص ١٦٦ ـ ٧ (كتب حوالى ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٨ م)

ثانيا : الجيش

تنظيم الجيش

السوابق البيزنطية :

وجد المسلمون بين أيديهم أساليب البيزنطيين فى تنظيم الجيش ، وتعرفوا عليهم وهم يقاتلون الروم بالشام وعند جبال طوروس ٠

وقد ارتبطت الادارة البيزنطية ارتباطا وثيقا بقواتها العسكرية ٠ فقد كانت الامبراطورية محوطة باعداء المتربصين فاحتاجت الى جيش كفء على أهبة الاستعداد على الدوام ٠ وقد أجبرت الحاجة البيزنطيين أن يصهوا أنفسهم فى الخطوط العسكرية ، فكانت بيزنطة فى العصور الوسطى المكان الوحيد الذى تدرس فيه بعناية وروية شئون تنظيم الجيش وفنون الحرب والاستراتيجية ٠ وقد قدمت بيزنطة مجموعة من الكتاب العسكريين واهتم كثير من مؤرخيها بالشئون الحربية ومنهم Procopius فى القرن السادس الميلادى ، والامبراطور موريس الذى أعقبه بعشرات قليلة من السنوات إذ كتب كتابه Strategicon وتتابعت الكتابات العسكرية ففى حوالى سنة ٩٠٠م كتب ليو السادس Tactica ، حوالى سنة ٩٦٠ م كتب أحد قواد نقفور فوقاس كتابا عن الحرب فى الجبهة الشرقية ، كما كتب كيكومنوس Cecaumenus فى القرن ١١م بعض تجاربه وهكذا ٠

وكان الجيش البيزنطى يجتاز فترة تغيير عندما اختط قسطنطين مدينته على البسفور ، فان الحرس البريتورى كان يولى ويعزل الأباطرة ، وكان صغار حكام الاقاليم بما لديهم من قوات فى تمرد دائم وقد حاول **دقلديانوس وقسطنطين الاصلاح فى أواخر القرن ٣م وخلال القرن ٤م**

فوضعت قوة منظمة للحدود من جنود يتوارثون الجندية وتدفع أجورهم من الارض Imitanoi ، ثم انشىء جيش مركزى متحرك تحت قيادة الامبراطور Comitatenses (الردفاء) يستطيع أن يتجه الى اى مكان حسب الحاجة • ولكن هذا لم يكن كافيا فقد كان التكتيك الرومانى متخلفا وكانت الفرق الثقيلة لا تتكافا مع الخيالة السريعة عند البرابرة • واستعان ثيودوسيوس الأول بالبرابرة فى الجيش الرومانى تحت أمرائهم foederati • ولكن هذا خطرا مدمرا، وفى القرن السادس الميلادى خفضت هذه الفرق الأجنبية الى الحد المعقول ووازنتها الخيالة الثقيلة من آسيا الصغرى Cataphracti التى أعجبت بروكوبيوس والتى أحرزت الانتصارات لجستنيان ، ولكن هذه خلفت متاعت نتيجة ارتباطها بأميرها الى حد كبير • وأدت متاعب السنوات الاخيرة **لجستنيان** وسنى عهد جستين الثانى – فى القرن ٦م – الى التقليل من المرتزقة الاجانب ، وهذا مكن تيبريوس (٥٧٨ : ٥٨٢م) وموريس (٥٨٥ : ٦٠٢م) من ايقاف نظام Buccellarii – أى الذى كانوا يخدمون مقابل جراياتهم • وأعيد تنظيم الجيش كى يكون معتمدا على الامبراطور • ويعطى كتاب Strategicon صور للجيش الجديد : ووحدته جماعة تدعى arithmos tamgma, numerus – حيث لم يكن قد تم التحول من اللاتينية الى اليونانية – من ٣٠٠ أو ٤٠٠ جندى يقودها tribune أو comes وكل ٦ أو ٧ أو ٨ جماعات تكون وحدة أكبر moira يقودها moerarch, dux وكان جمع هذه الفرق من مهام القائد الاعلى عند نشوب الحرب ، ولم تكن هناك مجموعات ثابتة الا هذه الفرق : Optemati, buccellarii, foederati وهؤلاء الاخيرون (الأوبتيماتى) بقايا المرتزقة الاجانب التى صارت تكون نوعا من الحرس الامبراطورى • وكان لدى موريس مشروع لتكوين قوة من الاحرار بالمولد كى يتعلموا الرمى ويتملكوا قوسا ليتولوا حماية أقاليمهم • ولا يمكن القول الى أى مدى تحقق تنفيذ هذا المشروع ، وان كان من المؤكد أن المواطنين المقيمين فى قلاع الحدود كانوا يدعون للمشاركة فى الدفاع •

وكان هذا الجيش الذى أعاد تنظيمة تيبريوس وموريس هو الذى قاده هرقل (٦١٠ : ٦٤١م) الى النصر خلال الحروب الفارسية الطويلة وقد أجهدته تلك الحروب ثم خرج لاهثا ليواجه العرب • ولما كان هرقل غير قادر على الحصول على المرتزقة الاجانب **فقد قرر توطين قواته فى أكثر** الأقاليم مواجهة للخطر الفارسى • ويبدو أنه وعد الجنود بأن يتيح لهم فرصة التوطن والاستقرار فى الارض قبل خوض الموقعة الفاصلة اغراء

لهم ببذل كل جهودهم لتحقيق النصر • واقتطعت الفتوح العربية من الامبراطورية مصر وأفريقية والشام وأبقت لها آسيا الصغرى بعد عناء • وفى خلال هذه السنين أعيد تنظيم الجيش البيزنطى على مراحل متتابعة حتى انتهى الى **نظام الثيمات (الاجناد أو البنود** Thema) فى القرن الثامن على عهد الايسوريين وقد تقدم شرح هذا النظام • وتكفى هنا الاشارة الى الوحدات التنظيمية للجيش البيزنطى الموزع على البنود المختلفة • فكان القائد فى كل بند من البنود يقود ١٠٠٠٠ر١٠ جندى ، وينقسم جيشه الى مجموعتين أو ثلاثة تسمى Turmai ويقود كل مجموعة من هذه turmarch • وكانت التورما مؤلفة من وحدات أصغر تسمى moirai, drungarii يقود كل منها drungarius وعددها حوالى ثلاثة ، تنقسم كل منها بدوره الى ١٠ وحدات أصغر تسمى tagmata يقودها comes • وتنقسم الوحدة الصغيرة الى ٥ مجموعات خماسية pentarkhia تضم كل منها ٢٠٠ جندى ، وهذه تنقسم الى ٥ فصائل كل منها تحت امرة pentakontarchia ، كما كانت هناك وحدة من ١٠ رجال تحت امرة dekarch • وكان مجموع الجيوش يقدر فى زمن جستنيان بـ ١٥٠ ألفا • وفى القرن التاسع الميلادى بـ ١٢٠ ألفا • وقد تعرض تقسيم البنود البيزنطة (الثيمات) للتعديل فى خلال تطور الظروف السياسية والحربية للدولة ، وقد استثنيت مناطق معينة من الحدود خاصة عند الممرات ووضعت تحت حماية عسكرية دائمة وهى ما يسمى kleisurai ويعرف قائد هذه المنطقة kleisuriarch وربما رفعت هذه الى درجة بند (ثيما) أحيانا • وقد كان جيش الثيما سلاحا دفاعية فحسب فى بداية الامر وكانت له أهميته عندما التزمت الامبراطورية جانب الدفاع • وكان قائد البند الأناضولى) أكبر القواد مرتبة حتى القرن التاسع وهو القائد الاعلى فى آسيا واحتفظ بتميزه فى القرن العاشر وله اتصال بحماة الممرات ، وربما وضع تحت اشرافه أحيانا ـ بارونات الحدود Akritae • ومن هؤلاء البطل الاسطورى Digenes الذى خاض حربا متصلة ضد العرب من أجل الاسلاب والغنائم ولكنه ربما انخرط فى سلك القوات الامبراطورية فى حالة قيام حملات منظمة •

وبالنسبة للقوات المرابطة فى العاصمة البيزنطية ظهرت فى خلال القرن التاسع أهمية الفرق الاربعة Tagmata الحرس الامبراطورى ، وهى Scholae, Excubitores, Vigla, Hicanati والأخيرة ـ الهيكاناتي ـ فيما يبدو من انشاء نيقفور الاول أما الفرق الثلاثة الأولى فقد انحدرت عن حرس القصر فى أيام الامبراطورية الاولى • وكلها من فرق الخيالة

ولعلها لم تتمتع بقوة كبيرة • وكانت الاسكول فى القرن العاشر الميلادى حوالى ١٥٠٠ وكل فرقة من الحرس تحت قيادة الدمستق Domesticus أى رئيس حرس القصر باستثناء الفجلا التي كانت تتولى المراقبة والحراسة فيرأسها درنجار drungarius وقد ألحق بهؤلاء جماعات Numeri وهم من الرجالة وعددهم ٤٠٠٠ تقريبا ، وكانت ترابط فى العاصمة أيضا • وكانت هناك أهمية للجنود الذين تحت امرة دمشق الأسوار comes, domesticus of the walls ربما يشير الى الاسوار الطويلة التى بناها أناستاسيوس الأول (٤٩١ : ٥١٨م) الى الغرب من العاصمة• أما فرق Hetaeria فهى الحرس الامبراطورى القائم وقتذاك ويجند من الاجانب ، وقد حل خلفا لجنود المحالفين foederati وهى الفرق البربرية التى تجهز تبعا لشروط معاهدة بينهم وبين الدولة • **والواقع أن الفرق البارز بين جيوش جستنيان والجيوش التى كانت تجمع بعد نهاية القرن السادس هى أن المتطوعين الاجانب أخلوا يتوارون ، وأصبح الجيش يجند أساسا من داخل الامبراطورية ـ خاصة أرمينية** • وهذه الفرق المركزية كانت تعسكر فى تراقية أو بثنيا ، كما كانت ترافق الامبراطور فى حملاته • وفى حالة غيابه كان رئيس فرق حرس القصر يعتبر القائد العام Domesticus Scholarum (دمستق الاسكول) ، وقد ظل هذا الموظف أكبر شخصية عسكرية فى الامبراطورية طوال فترة امتدت حوالى قرن من عهد باسيل الأول المقدونى (٨٦٧ : ٨٨٦م) الى نيقفور الثانى فوقاس (٩٦٣ : ٩٦٩م) حين لم يكن واحد من الاباطرة عسكريا ، وان كان هذا القائد ظل يعتبر أدنى مرتبة من قائد البند الأناتولى • وكانت الحرب تدعم من نفوذه حتى صار دمستق الاسكول نيقفور فوقاس سنة ٩٦٣م المرشح البارز للامبراطورية (٣٣) •

هذا هو الجيش الذى واجهه المسلمون عند فتح الشام وتركت تنظيماته آثارها على تنظيم الجيش الاسلامى • ولم تخف أنباء التنظيم البيزنطى على المسلمين فكتب قدامة « واذ قد ذكرنا أمر الثغور الرومية وأسبابها فلا بأس أن نذكر من أحوال الروم ما ينتفع بعلمها ، فأول ذلك ترتيب جيوشهم : وهو ان البطريق يكون رئيسا على عشرة آلاف ، مع كل بطريق طومرخان ـ وكل طومرخ على خمسة آلاف ، ومع كل طومرخ خمسة طرنجارين ـ كل طرنجار على ألف ، ومع كل طرنجار خمسة

---

(٣٣) Runciman : Byzantine Civilization pp. 109: 114, Byzantium. pp. 244:300 بينز الامبراطورية البيزنطية : ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٦٧ : ١٧٥

قمامسة ـ كل قومس على مائتين ، ومع كل قومس خمسة قمطرخين ـ كل قمطرخ على أربعين ، ومع كل قمطرخ أربعة داقرخين ـ كل داقرخ على عشرة • فأما عدة جيوشهم بقسطنطينية وهى حضرة الملك : أربعة وعشرون ألفا ، منهم الفرسان ستة عشر الفا والرجالة ثمانية آلاف • فينقسم الفرسان أربعة أقسام : أولها الاسخلارية وصاحبهم الدمستق الكبير وهو صاحب فرض الفروض والرئيس على الجماعة وعدتهم أربعة آلاف فارس ، والصنف الثانى الحسف وهم أربعة آلاف فارس ، والصنف الثالث أوموس ، وهم للحرس وصاحبهم طرنجار وعدتهم أربعة آلاف ، والصنف الرابع قيدارطين وهم يخرجون مع الملك اذا خرج فى سفر وعدتهم أربعة آلاف • وينقسم الرجالة قسمين : فالأول منهم يسمى أنلتمساوعدتهم أربعة آلاف راجل ، والباقى يسمون مويرة وعدتهم أربعة آلاف » •

وقد اتفق ابن خرداذبة مع قدامه فى بيان ترتيب وحدات الجيش وعدد أفراد كل منها ورتبة قائدها مع خلاف طفيف فى تسمية رتب القواد ، فالطومرخ عند قدامه هو طرماخ عند ابن خرداذبة وهو ما يقابل turmarch فى التنظيم البيزنطى • وكتب ابن خرداذبة قنطرخ ـ بالنون ـ فى حين فى كتبها قدامه قمطرخ ـ بالميم ـ وهو قائد الوحدة الذى يعرف فى التنظيم البيزنطى باسم pentakontarkhia • ويذكر ابن خرداذبة أن ديوان امبراطور الروم «مرسوم على مائة وعشرين ألف رجل» ويقول عن القوات المنوطة بحماية العاصمة « وبهذه المدينة ـ البذروم ـ أربعمائة رجل لباسهم الطيالسة الخضر المزورة بالذهب ، وهم لمشورة الملك والقيام بأمره وأمر البطارقة •• والخيل المقيمة على باب الملك أربعة آلاف فارس وأربعة آلاف راجل ولمعسكر الملك مقيما كان أو راحلا أربعة بنود ، عليها أربعة بطارقة فى الخيل ـ كتيبة كل واحد منهم اثنا عشر ألفا : ستة آلاف شاجرد • فان خرج الملك نحو بلاد العرب عسكر بدرولية ـ على أربعة أيام من قسطنطينية وهو مجمع العرب والروم ••• » • على أن اليعقوبى يجعل تعداد الجنود البيزنطية قائلا « فجميع بلاد الروم من الجند الموظف على الرساتيق أربعون ألف فارس ، وليس فيهم مرتزق وانما هم حينئذ موظف على كل ناحية رجال يخرجون مع بطريقها فى وقت

الحرب » وقد قدر اليعقوبى لكل من خرشنة وسلوقية ٥٠٠ فارس ، بينما قدر لتراقيه ٥٠٠٠ فارس ٠ (٣٤)

أما القوات المنوطة بحماية الممرات بصفة خاصة فقد عرض لها ياقوت عندما تناول دروب طرسوس من أعمال الروم فقال : « واسم صاحب هذا العمل كيلرج ، ومرتبته دون مرتبة الاصطرطغوس ، وتفسيره صاحب الدروب ، ويدل تفسيره وجه الملك . ومنزله سلوقية الى أنطاكية (٣٥) ٠

تنظيم الجيش الاسلامى :

كانت الأمة الاسلامية بأجمعها فى عهد الخلفاء الراشدين هى الجيش العامل ، وميره الخليفة فى المدينة ٠ الذى كان ينيب عنه فى هذا الاختصاص قوادا ٠ وفى مراحل الفتح الأولى كان القائد الذى يفتح مقاطعة يتولى الامامة والقضاء فيها ثم يجرى تعيين الولاة والقضاة بعد ذلك (٣٦) ٠

ويصف جرونيباوم الطابع العسكرى للدولة الاسلامية فيقول : « كل مؤمن مجاهد فى سبيل العقيدة ، وكل مسلم معرض للخدمة العسكرية ٠ وكثيرا ما استعمل الاجبار لملء الصفوف ٠ وكم من جيش كان يحتوى على كتيبة من المتطوعين الذين كانوا يتقدمون للخدمة مدفوعين ببواعث دينية ٠ فاذا طرأ خطر محدق أو نشأت موجة مفاجئة من الحماس نفر لها العدد الجم من المتطوعة **وعندما كان البيزنطيون يهاجمون مناطق الثغور كان معظم من يجتمع حول الراية من كتائب المتطوعة من السكان المحليين ، وكان هؤلاء الحراس المحليون يعززون اذا اقتضى الحال بمسلمين من مناطق أخرى نائية ينضمون الى الجيش فى ثلل صغيرة** مخلفين على امتداد خط سيرهم الى الجبهة حبلا مديداً من التعصب الدينى وكان الخليفة هو القائد الأعلى ، على حين كان العامل أو الوالى المحلى أو أى شخص يعينه البلاط هو القائد الفعلى وكان المجتمع الاسلامى مجتمعا حربيا والشجاعة صفة لا غنى عنها للأشراف ، وقد اجمعت التقاليد العربية

---

(٣٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٩ : ١١٢ ٠ قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة ٠ ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٥ ـ ٦ ، اليعقوبى : البلدان ملحق بالاعلاق النفيسة لابن رستة ص ٣٢٣ ٠

(٣٥) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٢٩ ٠

(٣٦) حتى : تاريخ العرب : ترجمة نافع م ١ ص ٢١٢ ـ ٣ ٠

والفارسية على ابراز الشجاعة ، والمقدرة العسكرية بوصفهما خلتين جوهريتين فى الرجل الصالح • وكان شطر كبير من حياة كل مسلم قوى البدن يقضى فى حمل السلاح وبخاصة فى الأيام الأول لدولة الاسلام قبل أن يتولى المرتزقة المحترفون معظم شئون الحرب • وكان تاج الاستشهاد خير جزاء على التضحية العليا التى يبذلها المجاهد فى سبيل الله » •

ولكن الى أى مدى غلب هذا الطابع العسكرى على الدولة الاسلامية ، والى أى مدى تحكم الجند فى سلطاتها ؟ والى أى مدى وصلت الدولة الاسلامية الى مصير الدولة الرومانية فالبيزنطية من عبث الجيش بالقياصرة والأباطرة ؟ يقول جرونيباوم « ومع ذلك فان الحضارةالاسلامية حضارة مدنية • فان الأضرب المدنية من صور التطور الانسان كالعالم والولى والأديب ــ قد اجتذبت اليها معظم طاقة الاسلام الخلاقة ، وكان المدنى يعلو على الجندى فى تركيب الطبقات الاجتماعى • والمفروض أن للوزير وهو مؤلف مدنى الأسبقية على القائد ، يدلك على ذلك أن ما عقد من الأبحاث على نظرية الحكم يبحث منصب الوزارة قبل امارة الحرب • وكثيرا ما تولى الجند ــ بوصفهم طائفة ــ حكم الدولة الاسلامية ولكن هذه السيادة الواقعية de facto لم تغير بأى حال الاجماع المنعقد على أن رئاسة الدولة وظيفة مدنية • **وكان المسلمون فى القرن السابع كأنما يعيشون فى الواقع فى معسكر مسلح ولكن رويدا رويدا تحول قائدهم الخليفة حتى صار الرئيس الادارى الأعلى** ، وما وافت سنة ٨٠٠ ميلادية حتى كان التحول على أتمه • ومهما يكثر الخليفة من تولى الامرة على جنده بشخصه ، ومهما يكثر الشعراء من التغنى بشجاعته ، فانه لم يكن الا موظفا مدنيا أولا وجنديا حين تلم الملمات • وصور الانسانية المثالية التى هي من خواص الحضارة الاسلامية انما تتمثل شخصية غير عسكرية وان واصل القوم استحسان الفضائل العسكرية » (٣٧) •

وفى الاسلام نصوص تحرض المسلمين على القتال عامة ، وقتال الروم بالذات ، فقد ورد فى الحديث مثلا « أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم » • وفى الحديث أيضا « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار اليها » • وروى عن عمر « خير الناس رجل من أهل البادية صاحب صرمة ــ قطعة ــ ابل أو

(٣٧) جرونيباوم : حضارة الاسلام ــ ترجمة عبر العزيز جاويد ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥

غنم أقبل بابله أو غنمه الى مصر من الأمصار فباعها ثم أنفقها فى سبيل الله فكان مسلحة بين المسلمين وبين عدوهم » • وقد وردت **أحاديث فى التنظيم العسكرى** فعن ابن عباس « الأصحاب أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة اذا كانت كلمتهم واحدة » • قال السرخسى « وفيه دليل على أن السرية أقل من الجيش - وانما سموا سرية لأنهم يسرون بالليـــل ويكمنون بالنهار لقلة عددهم ، وسمي الجيش جيشا لأنه يجيش بعضه فى بعض لكثرة عددهم • ولم يرد به أن ما دون الاربعمائة لا يكون سرية ، وانما مراده أنهم اذا بلغوا أربعمائة فالظاهر من حالهم أنهم لا يرجعون من دار الحرب قبل نيل المراد • وليس المقصـــود من بعث السرايا القتال فقط • بل تارة يكون المقصود أن يتحسس خبر الأعداء فيأتيه بما عزموا عليه من السر - وتمكن الواحد من الدخول بينهم لتحصيل هذا المقصود أظهر ، وقد يكون المقصـــود أن يأتيه أحدهما بالخبر ويمكث الآخر بين الأعداء ليقف على ما يتجدد لهم من الرأى بعدما ينفصل عنهم الواحد - وهذا يتم بالمثنى ، وقد يكون المقصود القتال للتوصل الى قتل بعض المبارزين غيلة - وبالثلاثة فصاعدا يحصل هذا المقصود • ولهذا كان الرأى فيه للأمير يعمل بما فيه نظر للمسلمين » • وقد قال محمد بن الحسن « ولا بأس للامام أن يبعث الرجل الواحد سرية أو الاثنين أو الثلاثة اذا كان محتملا لذلك » - وقد فعل النبى ذلك • وآتخذت الرايات والألوية فى الجيوش الاسلامية منذ عهد الرسول • قال محمد بن الحسن • « وينبغى أن يتخذ كل قوم شعارا اذا خرجوا فى مغازيهم حتى ان ضل رجل عن أصحابه نادى بشعارهم ، وكذلك ينبغى أن يكون لأهل كل راية شعار معروف حتى ان ضـــل رجل عن أهل رآيته نادى بشعاره فيتمكن من الرجوع اليهم • وليس ذلك بواجب فى الدين ولكنه أفضل وأقوى على الحرب » (٣٨) •

وعلى هدى الدين والخبرة باشر المسلمون تنظيماتهم العسكرية بعد فتوحاتهم المبكرة ، فقد سمى أبو بكر لكل أمير من أمراء الشام كورة منذ مسيرهم للفتح • وبعد استقرار الفتوح رأينا عمر يمصر الامصار ويضع فى كل مصر جيوشه اللازمة « **وقد كان عمر اتخذ فى كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين عدة لكون ان كان** ، فكان بالكوفة من

---

(٣٨) شرح السرخسى لكتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن ج ١ ص ٣٥ - ٦ ، ٦٧ : ٧٠ ، ٧١ : ٣ ، ايضا : البخارى ج ٤ باب فضل الجهاد والسير •

ذلك أربعة آلاف فرس » وقد ندب هؤلاء لنجدة أبى عبيدة عند هجوم الروم عليه فى حمص وشغلهم أجناد أهل الشام عنه وتواطؤ أهل الجزيرة معهم وقال عنهم عمر : « جزى الله أهل الكوفة خيرا يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار » • وهكذا رأينا فى بواكير تنظيم الأمصار والأجناد الاسلامية ملامح قريبة من نظام البنود البيزنطية « **وفى كل مصر من الأمصار الثمانية ـ خيول ـ على قدرها، فان نابتهم نائبة ركب قوم وتقدموا الى أن يستعد الناس** » • وفي نفس العام الذى هجم الروم فيه على حمص سنة ١٧ هجرية ٦٣٨ م خرج عمر الى الشام « قالوا : قسم عمر الارزاق، وسمى الشواتي والصوائف ، **وسد فروج الشام ومساحتها وأخذ يدور بها وسمى ذلك فى كل كورة** ، واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة وعزل شرحبيل واستعمل معاوية وأمر أبا عبيدة وخالدا تحته ••• وخطب حين أراد القفول : ••• قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا ما لديكم ، فجندنا لكم الجنود وهيأنا لكم الفروج ، وبوأناكم ووسعنا عليكم مابلغ فيئكم وما قاتلتم عليه من شامكم ، وسمينا لكم أطماعكم وأمرنا لكم باعطائكم وأرزاقكم ، ومعاونكم ••• فرجع عمر الى المدينة وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت يديه على قنسرين ، وعلى دمشق يزيد بن أبى سفيان ، وعلى الأردن معاوية ، وعلى فلسطين علقمة ابن مجزز وعلى الاهراء عمرو ابن عبسة ، وعلى السواحل عبد الله بن قيس ، وعلى كل عمل عامل • **فقامت مصالح الشام ومصر والعراق على ذلك اليوم لم تجزأ أمة الى اخرى عملها الا أن يقتحموا عليهم بعد كفر منهم فيقدموا مسالحهم بعد ذلك** • فاعتدل ذلك سنة ١٧ » (٣٩) •

وأخذ المقاتلة العرب يعيشون فى الأمصار والأجناد والثغور والرباطات « **فالمصر** فى الأصل الحد بين الشيئين • ويجىء فى قولهم : مصرت مدينة كذا فى زمن كذا ، **وأما الجند** فيجىء فى قولهم جند قنسرين وجند فلسطين وجند حمص وجند دمشق وجند الأردن فهى خمسة أجناد كلها بالشام ••• **والثغر** كل موضع قريب من أرض العدو » (٤٠) • وباتساع الامبراطورية اقتضى الأمر تنظيم الادارة المالية والحربية فأنشىء **الديوان ليتولى** انفاق العطاء على أصحابه على ضوء السجلات وتنظيمات وافية • « قالوا : فرض عمر العطاء حين فرض لأهل الفىء الذين أفاء الله عليهم ـ وهم أهل المدائن ، فصاروا بعد الى الكوفة ـ انتقلوا عن

---

(٣٩) الطبرى حـ ٤ رواية شعيب عن سيف ص ١٥٩ ـ ٦ ، ٢٠٣ : ٥ •
(٤٠) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٨ ـ ٩ ، جـ ٣ ص ١٦ •

المدائن الى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر ، وقال الفيء لأهل هؤلاء الأمصار ومن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم - ولم يفرض لغيرهم - الا فبهم سكنت المدائن والقرى وعليهم جرى الصلح واليهم أدى الجزاء وبهم سدت الفروج ودوخ العدو • ثم كتب فى اعطاء أهل العطاء أعطياتهم اعطاء واحدا سنة خمسة عشر » • « ••• ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين ، وفرض لأهل البلاء البارع منهم ألفين وخمسمائة » وكانت مرتبة هؤلاء تلى قرابة الرسول ومن قاتلوا معه ، واعتبر الاعراب المهاجرون الى الأمصار المسجلون فى الديوان ذوى هجرة « عن الحسن : هجرة الأعراب اذا ضمهم ديوانهم » والى هذا أشار محمد بن الحسن الشيباني فقال « **اذا وطن الاعرابي مصرا من أمصار المسلمين فقد خرج من الاعرابية وصار من أهل الأمصار التحق فى الديوان أو لم يلتحق** » (٤١) •

ونيط بكل مركز من المراكز الحربية الاسلامية جبهة تباشر فتحها وتأمينها « فكانت مغازى أهل الكوفة الري وأذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة - ستة آلاف باذربيجان وأربعة آلاف بالرى - وكان بالكوفة اذ ذاك أربعون ألف مقاتل ، وكان **يغزون هذين الثغرين منهم عشرة آلاف في كل سنة ، فكان الرجل يصيبه في كل أربع سنين غزوة** فغزا الوليد بن عقبة فى امارته على الكوفة فى سلطان عثمان أذربيجان وأرمينية ٦٤٤ م فدعا سلمان بن ربيعة الباهلى فبعثه امامه مقدمة له وخرج الوليد فى جماعة الناس ••• » وروى أن الوليد لما أصاب حاجته من غزوته التى كانت سنة ٢٤ هـ ٦٤٤ - ٥ م وفى رواية سنة ٢٦ هـ - دخل الموصل فنزل الحديثة فأتاه كتاب عثمان ليمد بأهل الكوفة معاوية بالشام فقد أجلبت عليه الروم ، فانتدب ثمانية آلاف مع سلمان بن ربيعة الباهلى فدخلوا الروم مع أهل الشام الذين كان عليهم حبيب بن مسلمة بن خالد الفهرى « فشنوا الغارات فأصاب الناس ما شاءوا من سبى وملأوا أيديهم من المغنم وافتتحوا بها حصونا كثيرة » • وتروى رواية أخرى أن الذى أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة كان سعيد ابن العاص وكان معاوية أغزى حبيبا بأمر عثمان فلما بلغه أن الموريان الرومى بطريق أرمنياقس توجه نحوه فى ثمانين ألفا من الروم والترك طلب المدد • والبلاذرى يرجح الرواية الأخيرة (٤٢) • وهكذا تحددت

---

(٤١) شرح السرخسي لكتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ج ١ ص ٩٤ - ٥

(٤٢) الطبرى : حـ ٥ ص ٤٥ : ٦ رواية هشام بن محمد عن ابى مخنف ، الواقدى ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠٥ : ٧ •

جبهات حربية للكوفة « قالوا فتوح المدائن السواد وحلوان وماسبذان وقرقيسياء فكانت الثغور ـ ثغور الكوفة ـ أربعة : حلوان وماسبذان وقرقيسياء والموصل ... » ومن ثم كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص بفتح الجزيرة . كذلك كان للبصرة جبهتها فى فارس . **أما الشام فكانت تكفيها الجبهة البيزنطية التى تمتد على حدود الشام والجزيرة وأرمينية** وكانت تأتيها الامداد أحيانا من أمصار أخرى لمواجهة هذا الخطر الكبير .

وبجوار هذه المراكز العسكرية الثابتة فى الأمصار والأجناد كان المسلمون أحيانا يكتفون بارسال **طوالع عسكرية** تقيم بعض الوقت فى بعض المواقع « قالوا : وكان معاوية يوجه فى كل عام لى أطرابلس جماعة كثيفة من الجند يشحنها بهم ويوليها عاملا ، فاذا انغلق البحر قفل وبقى العامل فى جمعية منهم يسيرة ، فلم يزل الأمر فيها جاريا على ذلك حتى ولى عبد الملك فقدم فى أيامه بطريق من بطارقة الروم فسأل أن يعطى الأمان على أن يقيم بها ويؤدى الخراج فأجيب الى مسألته ، فلم يلبث الا سنتين وأكثر منهما بأشهر حتى تحين قفول الجند عن المدينة ثم أغلق بابها وقتل عاملها وأسر من معه من الجند وعدة من اليهود ، ولحق وأصحابه بأرض الروم فقدر المسلمون بعد ذلك عليه فى البحر » ويبدو أن العرب وجدوا فى نظم البيزنطيين شيئا من ذلك ، « وكانت قورس كالمسلحة لانطاكية يأتيها فى كل عام طلعة من جند أنطاكية ومقاتلتها ، ثم حول اليها ربع من أرباع أنطاكية وقطعت الطلائع عنها » . وفى بداية الدولة الاسلامية كان المسلمون يكتفون فى حماية الأطراف القاصية من حدودهم مع البيزنطيين بهذه الطوالع . « وكانت الطوالع من أنطاكية تطلع على المصيصة فى كل عام فتشتو بها وتنصرف وعدة من كان يطلع اليها ألف وخمسمائة الى الألفين ... ولم تزل الطوالع تأتيها من أنطاكية فى كل عام حتى وليها سالم البرلسى وفرض موقعها لخمسمائة مقاتل على خاصة عشرة دنانير عشرة دنانير فكثر من بها وقوى وذلك فى خلافة المهدى » . « وكانت تأتى طرنده ـ وهى من ملطية على ثلاث مراحل ـ طالعة من جند الجزيرة فى الصيف فيقيمون بها الى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج فاذا كان ذلك قفلوا » (٤٤) فلما استقرت أقدام المسلمين وتوطد سلطانهم استعاضوا عن هذه الطوالع المؤقتة بحاميات ثابتة .

---

(٤٣) الطبرى حـ ٤ ص ١٩٤ رواية السرى عن شعيب عن سيف ، ١٩٦ ـ ٧ رواية ابن اسحق ورواية السرى عن شعيب عن سيف .

(٤٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٣ ـ ٤ ، ١٥٦ ، ١٧٢ ـ ٣ ، ١٩٤ .

وقد كانت القوات المستقرة فى الأمصار والأجناد لا تكفى أحيانا لبعض المهام الكبرى أو الطوارىء الجسيمة فتضرب **البعوث** عندئذ على سكان بعض المناطق من غير الجنود المسجلين فى الدواوين للقيام بهذه الأعباء مقابل رواتب وأرزاق فنجد مثـــلا أن الوليد بن عبد الملك ضرب البعث سنة ٨٨هـ (٧٠٧م) على أهل المدينة لغزو الروم فى هذه السنة فضرب عليهم بعث ألفين فتجاعلوا فخرج ألف وخمسمائة وتخلف خمسمائة (٤٥) • وكان العباس بن الوليد ابن عبد الملك « يقطع فى كل عام على أهل قنسرين بعثا الى مرعش » • كما نجد عبد الوهاب بن ابراهيم الامام والى الجزيرة وثغورها يقطع البعوث على أهل الشام والجزيرة ســنة ١٤٠ هـ - ٧٥٨ م لبناء ملطية (٤٦) • وفى سنة ٢١٨ هـ ٨٣٣ م وجه المأمون ابنه العباس الى أرض الروم « وأمره بنزول الطوانة وبنائها وكان قد وجه الفعلة والفروض •• وكتت الى أخيه أبى اسحق بن الرشيد بأنه قد فرض على جند دمشق وحمص والأردن وفلسطين أربعة آلاف رجل ، وأنه يجرى على الفارس مائة درهم وعلى الراجل أربعين درهما ، وفرض على مصر فرضا، وكتب الى العباس عمن فرض على قنسرين والجزيرة ••• » (٤٧)

فالجنود المثاغرون : اما **فرض** لهم عطاؤهم المقرر فى الديوان ، واما **ندبة** اختيروا لميزة فيهم - كما يرى الدكتور شعيرة ويضرب على ذلك مثلا انتخاب عبد الله بن عبد الملك لثلاثمائة جندى بالمصيصة ، واما **بعث** يقيم فى الثغر مدة ويقفل وقد يكون مرتبا بصفة دورية أو موجها لمهمة استثنائية ويرى الدكتور شعيرة أن هذه **عناصر ثابتة بالثغور ، فتضاف اليها عناصر متحركة تتمثل فى الطالعة والجند الغازين فى الصوائف والشواتي• فالطالعة** رابطة فصلية تقدم الى الثغر من المدينة الخلفية الآهلة لترابط مدة الصيف وتعود الى قواعدها الخلفية فى الشتاء ، فى حين أن **البعوث** تضرب على بعض الاقاليم - وان كانت بعيدة - لتشد ازر جند الغزو • ويقيم جند الغزو فى مدن الثغر أو قد يتجاوزها الى أراضى العدو ، وتكون تحركاته عادة عنـــد دفء الجو • ويتلقى المرابط فى الثغر معونة تعينه على التجهيز ومســكنا للاقامة وزيادة فى العطاء واقطاعا فى ريف الثغر ، تشجيعــا للجنــد على الرباط (٤٧م) •

---

(٤٥) الطبرى حـ ٨ ص ٦٤ - ٥ •

(٤٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٧ ، ١٩٥ ، نعمان ثابت - الجندية ص ٢٢٢ - ٣ •

(٤٧) الطبرى : حـ ١٠ ص ٢٨٤ •

(٤٧ م) د • شعيرة : المرابطون في الثغور البرية العربية الرومية - بحث في كتاب (الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين)

واستعان المسلمون فى المهام الدفاعيه **باهل البــلاد المفتوحة ومن أشهر هؤلاء جماعة الجراجمة** الذين صالحوا المسلمين « على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام والا يؤخذوا بالجــزية وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المســلمين اذا حضروا لهم حربا فى مغازيهم ، ودخل من كان فى مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط وغيرهم وأهل القرى فى هذا الصلح فسموا الرواديف ـ لأنهم تلوهم وليسوا منهم ويقال انهم جاءوا بهم الى عسكر المسلمين وهم أرداف لهم فسموا رواديف » ٠ غير أن هذا الاتفاق لم يستمر ومالأ الجراجمة الروم وتوصل المسلمون الى الاتفاق مع البيزنطيين على اجلاء الجراجمة الى داخل الحدود البيزنطية ، كما شتتوا شمل البقية الباقية منهم بالغارات المتعاقبة ٠ ويظهر اسم ميمون الجرجماني فى الغزو مع مسلمة بن عبد الملك فى الطوانة وقد استشهد بعد بلاء حسن وموقف مشــهود ، لكن البلاذرى روى أن ميمون « كان عبدا روميا لبنى أم الحكم أخت معاوية ـ وهــم ثقفيون ، وانما نسب الى الجراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم » (٤٨) ٠ وروى البلاذرى أن المتوكل « أمر بأخذ الجزية من الجراجمة ، وأن يجرى عليهم الأرزاق ـ اذا كانوا ممن يستعان بهم فى المسالح وغير ذلك » ٠ ولمواجهة مكائد الجراجمة الذين كانوا يغيرون على قرى أنطاكية والعمق حتى اذا غزت الصوائف « قطعوا على المتخلف واللاحق ومن قدروا عليه ممن فى أواخر العسكر » أمر عبد الملك « ففرض لقوم من **اهل انطاكية وأنباطها** وجعلوا مسالح وأردفت بهم عساكر الصوائف ، ليؤذنوا الجراجمة عن أواخرها فسموا الرواديف ، وأجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير » وفى هذه الرواية تأتى تسمية الروادف للأنباط لا للجراجمة ، غير أن البلاذرى يضعف الخبر الأخير ٠ وقد نقل معاوية سنة ٤٩ أو ٥٠ هـ ٦٦٩ ـ ٧٠ م الى السواحل قوما من **زط البصرة والسباتجة** وأنزل بعضهم أنطاكية، كذلك نقل معاوية الى أنطاكية **جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصرين** سنة ٤٢ هـ ٦٦١م كما نقل قوما من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الأردن صور وعكا وغيرهما وكان من قواد الفرس مسلم ابن عبد الله جد عبد الله بن حبيب بن النعمان بن مسلم الأنطاكى. وقتل مسلم على باب من أبواب أنطاكية من جراء هجوم رومى فعرف الباب بباب مسلم(٤٩) ٠ ونقل الوليد بن عبد الملك الى أنطاكية قوما من زط

(٤٨) قارن رواية الواقدى : لاقى مسلمة ميمونا الجرجمانى ومع مسلمة نحو من الف مقاتل من أهل انطاكية عند طوانة فقتل منهم بشرا كثيرا ـ الطبرى حـ٨ ص ٦٢ ٠

(٤٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٦ : ٩ ، ١٢٣ ، ١٥٥

السند· وبنى مروان محمد الخصوص فى شرق جيحان عند المصيصة وأسكنها **الفرس والصقالبة والانباط والنصارى** وقد نقلهم المنصور الى المصيصة · وكان مروان قد رتب الصقالبة فى الثغور وقيل بنسبة حصن سليمان الى أحدهم (٥٠) ·

وفى عهد الدولة العباسـية غلب الخراسانيون على الجيش وشتى مناصب الدولة ، وانعكست آثار ذلك على الصوائف وحاميات الثغور ، فبنيت أذنه سنة ١٤١ أو سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ ـ ٧٦٠ م « والجنود من أهل خراسان معسكرون عليها مع مسلمة بن يحيى البجلى ومن أهل الشام مع مالك بن أدهم الباهلى » · وفى سنة ١٦٢ هـ / ٧٧٩ م غزا الحسن بن قحطبة الطائى بلاد الروم فى أهل خراسان وأهل الموصل والشام وامداد اليمن ومطوعة العراق والحجاز وأبلى بلاء حسنا ونصح المهدى ببنـاء طرسوس وتحصينها فوكل الرشيد أبا سليم فرج الخادم ببنائها « وتوجه أبو سليم الى مدينة السلام فأشخص الندبة الاولى من أهل خراسان وهم ثلاثة آلاف رجل فوردوا طرسوس ثم أشخص الندبة الثانية وهم ألفـا رجل من أهل المصيصة وألف من أهل انطاكية » وفى سنة ١٦٣ هـ قطع المهدى البعوث للصائفة على جميع الاجناد من أهل خراسان وغيرهم(٥١) ·

وفى عهد الفتنة بين الامويين والمامون انعكست آثار ذلك على الثغور ، فقد ولى الامين عبد الملك بن صالح على الشام سنة ١٩٦ هـ/٨١١ م وكان محبوسا فى حبس الرشيد فأطلقه الامين وولاه الشام والجزيرة فكتب الى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة يبسط الوعود « فأتاه أهل الشـام الزواقيل والاعراب من كل فج واجتمعوا عنده حتى كثروا · ثم أن بعض جند أهل خراسان نظر الى دابة كانت أخذت منه تحت بعض الزواقيـل فتعلق بها ، فجرى الامر بينهما الى أن اختلفا واجتمعت جماعة من الزواقيل والجند فتلاحموا وأعـان كل فريق منهـم صـاحبه وتلاطموا وتضـاربوا بالايدى » (٥٢) ·

وفى عهد المعتصم ظهر رجاله الاتراك فى ميدان الحروب البيزنطيـة مثل ايتاخ واشناس اللذين اشتركا فى حملة عمورية (٥٣) ·· كما نقل المعتصم الى عين زربى ونواحيها بشرا من الزط ممن كانوا قد غلبوا على البطائح بين واسط والبصرة (٥٤) ·

(٥٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٣ ، ١٥٦ ·
(٥١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٥ : ٧ ، الطبرى حـ ٩ ص ٣٤٣ ·
(٥٢) الطبرى : حـ ١٠ ص ١٦١ : ٣ ·
(٥٣) الطبرى : حـ ١٠ ص ٣٣٥ ·
(٥٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٨ ـ ٩ ·

وكان لكل مركز حربي مكتب تسجيل ومخزن للمؤن ، وفي كل معسكر حربي عريف يوزع الرواتب • وكان أقل **راتب للمجند** في تنظيم عمر ـ كما يشير فون كريمر ـ هو ٢٠٠ درهم في السنة ثم زاد بالتالي الى ٣٠٠ • ويبلغ متوسط راتب الجندي ٦٠٠ درهم سنويا • ونال القواد أكثر من ذلك ، بجانب عطاء الزوجة والاولاد • كما كان يأخذ المقاتل (جرايه) عينية من الطعام دون مقابل بجانب الملابس علاوة على حظه من الغنيمة ، وبذلت عناية كبرى لتوفير راحة الجند• وفيما عدا حالات الطوارىء غير العادية لم يكن يسمح للجندي أيام الراشدين بأن يغيب عن بيته أكثر من أربعة أشهر • وفي بداية حكم معاوية بلغت جيوش المسلمين أعدادا ضخمة فاشترك في وقعة صفين ١٧٥٫٠٠٠ جندي من الجانبين • وكشف تعداد يزيد أن الكوفة ضمت ٦٠٫٠٠٠ مقاتل والبصرة ٨٠٫٠٠٠ مقاتل • وكان لمصر في ذلك الوقت ٤٠٠٠ جندي بجانب أعداد كبيرة في الحواضر الاخرى• ويبدو أن رواتب الجنـــد زادت في عهد معاوية الى ألف درهم للشخص سنويا بما في ذلك عطاء الاسرة • وبالاضافة الى العطاءات السنوية الثابتة كان يدفع الى الجند مبالغ اضافية في الحالات الخاصة • كما كانت تقدم العطاءات السخية لشيوخ القبائل كي يقدموا المحاربين عند الطلب ، فنال شيخ قبائل قحطان مقررا سنويا من المال قدره مليونا درهم مقابل تقديم مدد ثابت من ألفي رجل• وقد جرى الامويون على فرض البعوث والالزام بالقتال • وفي سنة ٨٠ هـ / ٧٠٠ م ألزم الحجاج سكان البصرة والكوفة بأن يقدم كل فريق منهما ٢٠٫٠٠٠ رجل لتعـــزيز الجيوش في فرس مهددا اياهم بايقاف الطعام وزاد الجيش الاموي عن ١٠٠٫٠٠٠ جندي ، وتروى بعض المصادر انه كان في العراق وحدها ٧٤ هـ / ٦٩٤ م ٦٠٫٠٠٠ من أصحاب العطاء يكلفون الدولة في العام ٦٠ مليون درهم • وفي أواخر العصر الاموي أخذ نظام الجيوش يتغير شيئا فشيئا ويتجه نحو التنظيم الفني ، وبدأ نظام المقاتلة القديم غير صالح للغزوات الطويلة الشـــاقة والغايات البعيدة ، فاعتمد الجيش الاسلامي على جند الدولة من أهل الشام، اذ كان من العبث مواصلة السير على سياسة الاجتذاب بالمال لأداء المهام العسكرية • وبدأت تحل محل القبائل التي كانت تؤلف فرق الجيش في النظام القديم فرق بالمعنى الحقيقي لتكون صلب الجيش ، **وحل القـــواد المحترفون محل رؤساء القبائل ، وكانت الفرقة تحمل احيانا اسم قائدها كالوضاحية والذكوانية** نسبة الى عمر بن الوضاح ومسلم بن ذاكون •

وفى العصر العباسى الأول كان فى الاستطاعة وضع قوات كبيرة للقتال وقد ورد فى أخبار سنة ١٩٠ هـ/٨٠٦ م عن غزو الرشيد هرقلة أنه « دخلها فيما قيل فى مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ـ سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له ٠ وأناخ عبد الله ابن مالك على ذى الكلاع ، ووجه داود بن عيسى بن موسى سائحا فى أرض الروم فى سبعين ألفا ٠٠٠ » ٠ وفتحت أبواب المناصب العسكرية العليا فى العصر العباسى أمام جميع الجنسيات ٠ وقد قسم المنصور الفرق الى مضرية ويمنية وخراسانية واستمر هذا التقسيم ، وأضاف المعتصم فرقتين من الأتراك والمغاربة ٠ ولعل هذا التقسيم كان لمواجهة كل فرقة بالاخرى ، ولكنه حطم وحدة الجيش ٠ واضطر المعتصم أمام سلوك الحرس التركى الى نقل عاصمته الى سامرا « ولم يلبث هذا الحرس التركى أن قام بنفس دور الحرس البريتورى فى العهد الرومانى فى عهد خلفاء المعتصم الضعاف ٠ وصار قادتهم يعزلون الخلفاء ويعينونهم حسب هواهم » ٠ وبلغ متوسط راتب الجندى من المشاة فى عهد الخليفة العباسى الأول نحو ٩٦٠ درهما سنويا بجانب عطاءات أخرى وسهام الغنيمة ، ونال الفارس ضعف هذا الراتب ٠ وفى نهاية عهد الرشيد انخفض مرتب الجندى من المشاة الى ستين درهما شهريا ٠ وفى عهد المأمون انخفض الى عشرين درهما شهريا وللفارس أربعين ٠ وهذا العطاء ان كان صغيرا بالنسبة لما كان عليه أيام الأمويين الا أنه لم يكن ضئيلا فى حد ذاته فقد كان المنصور يدفع للعامل فى بناء بغداد دانقين فقط يوميا ٠ وكان يصعب على الخليفة وقت أن كان الجيش مقصورا على العرب خفض الرواتب وحين أنقص يزيد الثالث سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م العطاء بنسبة العشر لقب بالناقص ، لكن العباسيين وجدوا ميدانا أوسع للتجنيد من العرب والفرس والأتراك والبربر والزنج وصارت الجيوش كبيرة تقدر بمئات الألوف فى العصر العباسى الأول ، فضلا عن أن الجندية لم يعد فيها كثير من المخاطرات ولم تعد الفتوحات متلاحقة ، **ولذا فان للدولة لم تدفع رواتب عالية لا للجند فى بعض الأقاليم حيث تعرضت حياتهم للمخاطر بسبب الحروب او الثورات ٠ وكانت الثغور من الجبهات الخطيرة** ، فقد أسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها من ثغورهم « على زيادة عشرة دنانير فى عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار سوى الجعل الذى يتجاعله القبائل بينها » ، « وبنى صالح بن على مرعش فى خلافة المنصور

وحصنها وندب الناس اليها على زيادة العطاء » وفى بنـاء طرسوس سنة ١٧١ هـ / ٧٨٧ م انتدب اليها ٥٠٠٠ من أهل خراسـان والمصيصة وانطاكية « على زيادة عشرة دنانير لكل رجل فى أصـل عطائه » ، وفى بناء أذنة ١٩٤ هـ / ٨٠٩ - ١٠ م انتدب اليها من أهل خراسان « على زيادة فى العطاء » وهكذا • على أن السبب الاخير والهـام لخفض رواتب الجند يبدو أنه يرجع الى تقدير قيمة الدينار ، فكان الجند يأخذون رواتبهم ذهبا على حساب أن الدينار يساوى عشرة دراهم ، غير أن سعر الدينار فى السوق كان من ٢٠ الى ٢٢ درهما •

وبجانب المرتزقة كان هناك الجند المتطوعون الذين تقدموا للجهاد فى سبيل الله وقد اشترك عدد كبير من المسلمين زمن الامويين فى حروب الاسلام باعتبارهم متطوعة ، وانضوى عدد أكبر تحت راية العباسيـين للدفاع عن بلاد الاسلام أو للاغارة على أراضى العدو • وكانت الصوائف ضد البيزنطيين تثير حماسة خاصة فقد كان لها طابع الجهـاد الدينى ، وعندما يهاجم العدو أطراف الدولة الاسلامية فان جميع سكان مدن الاطراف وهى معسكرات اسلامية أقامتها الدولة يقومون قومة رجل واحد للدفاع عنها عدا أولئك الذين لا يملكون خيلا ولا سلاحا • ويرسل الخليفة جيشه، كما ينهال المتطوعة والاموال من جميع أرجاء الدولة على المدافعين عن ثغور الاسلام • وكان عيب استخدام المتطوعة استطاعتهم العودة فى أى وقت يشاءون أثناء العمليت الحربية ، فضلا عن عدم خضوعهم للنظام ممـا يجعلهم عنصرا غير متجانس مع الجيش النظامى • وقد تجلى ذلك بوضوح فى الحملة التى توجهت لمحاربة بابك الحرمى (٥٥) • على أن المتطوعة كان لهم أثر محمود فى الثغور على أية حال وكانوا اما يجعلون فى جناحى الجيش النظامى فتكون واجباتهم الاحاطة بجناحى العدود دون أن يختلطوا بالجند النظاميين المدربين ، واما أن يوكل اليهم أن يغيروا على العدو قبل نشوب الحرب لازعاجه في قواعده وعرقلة تجمعـاته وتخريب مدخراته وقطع مواصلاته ، كما قد يوكل اليهم مطاردة العدو عند تقهقره • ولم يجـوز العلماء أن يعطى المتطوعة من الفىء وان أجازوا اعطاءهم من الصدقات(٥٦)

---

(٥٥) حسينى : الادارة العربية ـ ترجمة دكتور العدوى ص ١١٩ ـ ١٢٠،٢٤٨ : ٢٥٤، ٤٠٥ : ٤١٤،الطبرى حـ ١٠ ص ٩٨ البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٥،١٧٧،١٩٦، ١٩٧ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريده ص ٣٥٧ ـ ٨ ، حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع حـ ١ ص ٢٨١ ، حـ ٢ ـ ص ٤٠٧ : ٩ ، دىمومبين : النظم الاسلامية ـ ترجمة السامر والشماع ص ١٦٠ ـ ١

(٥٦) نعمان ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ص ٢١٩ : ٢٢١ •

ويبدو أن مجال الحروب لم يعد مغريا للمتطوعة فى النهـــاية لكثرة الجند المرتزقة وانخراط الغوغاء والسوقة فى **الجيش** وعدم اهتمام الخلفاء بتقدير هؤلاء المجاهدين المخلصين (٥٧).

وأما الرتب العسكرية فنجد فى أيام الراشدين سلسلة القيادة على الوجه التالى : أمير الجيش ، خليفة الأمير أو خلفاؤه وهم بمنزلة أركان حرب ، أمراء التعبئة كأمير الميمنة والميسرة والقلب وغيره وخلفاؤهم ، أمراء الكراديس ، العرفاء ، أمراء الأعشار ، النقباء • ومع **الجيش** : الرائد الذى يرتاد المواقع الموافقة لنزول الجيش ، وصاحب الأقباض وهو الذى تنتهى اليه حفظ الغنائم وقسمة الفىء ، والداعية والقاضى والترجمـان والكاتب والقاص ، والوازع الذى يتقدم لصف فيصلحه ، والسعاة على الهجن • وأدخلت تحسينات على التنظيم العسكرى فى العهد الأموى فكان تحت امرة العريف ١٠ جنود (يقابل الديكريون) ، والخليفة ٥٠ جنديا ، والقائد مائة جندى (يقابل السنتريون) • ثم أصـــبحت رتب الجند : العريف على ١٠ جنود ، النقيب على ١٠٠ ، القائد على ١٠٠٠ ، الأمير على ١٠ر٠٠٠ • **وقد جاء فى كتاب عمر لسعد بن أبى وقاص** « **فعشر الناس** ، وعرف عليهم ، وأمر على أجنادهم » ويطلق على رجل الدولة المنوط به جمع الراغبين فى الجندية والفرض لهم فى ديوان العطـــاء (**الفارض**) ، أما (**العارض**) فهو عامل آخر يناط به عرض الجنـد للكشف عن لياقتـهم والتفتيش على أسلحتهم (٥٨) •

وكانت فرق **الخيالة** يناط بها الاستطلاع والاغارة • قال الجاحظ : « وليس يكون الكمين ولا الطليعة ولا الساقة الا الكبار منهم ، ومنهم من يحمل البنود والرايات والطبول والاجراس » وكان لكل معسكر حـربى حظيرة هائلة **للخيل** ، وكل حصان يرسم على فخذه فعلامة (فى سبيل الله)، وبذلت عناية كبيرة لتربية سلالة ممتازة من الخيل • وكان كل جنـدى يعرف ركوب الخيل • واشتهر العرب بالخفة فى تحـركاتهم • وقد كتب فون كريمر فى تقريظ الجمل : « تتطلب ملاحظة ليو عن الابل المستخدمة فى النقل اعتبارا خاصا ، فبينما استخدم البيزنطيون الخيول والبغـال

---

(٥٧) Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Musulman et Byzantin p. 352.

(٥٨) نعمان ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ص ١٢٠ : ٤ ، ١٤٢ ـ ٣ ، فون كريمر : الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور بدر ص ٦١ ، حتى تاريخ العرب ترجمة نافع م ٢ ص ٤٠٩ ، دى مومبين النظم الاسلامية ترجمة السامر والشماع ص ١٦١ ، حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٢٦١ ، د• شعيرة : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية بحث فى كتاب (الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين)

والحمير أو عربات تجرها الثيران كان المسلمون ينقلون الرجال والعتاد فى على وجه أسرع وأسلم بوساطة الابل ، وكذلك كانت الابل تعتبر فى الصحراء القاحلة التى لا تلائم تماما جيش الروم ميزة ، وانى لا أغالى اذا قلت ان العرب نالوا معظم انتصاراتهم بفضل ابلهم ففتحت لهم تلك الابل الصبورة الشام ومصر • ويبدو أن الجمل لم يستخدم فى آسيا الصغرى قبل الفتح الاسلامى » (٥٩) •

ويختلف **لباس الجنود** باختلاف أسلحتهم • فالمشاة أو الحربية مثلا كان لباسهم الخوذ والدروع التى تقى الصدور ولها أجزاء للساعدين والساقين • وقد أخذت المرتزقة فى عهد المتوكل تعلق السيف على نحو ما كانت تعلقه الفرس فى حزام من الوسط • ولما أراد المعتصم أن يميز رجال الحرس عن غيرهم ألبسهم الدمقس المزركش بالذهب (٦٠) • ولم يجهل الجيش العباسى مسائل الزينة فكانت الفرق المختارة والجنود المبرزون يضعون الأساور والأطواق والأكاليل ، وينقش اسم الخليفة وولى العهد على الأعلام والرايات والمثاريب تفاؤلا بالنصر كما كانت توسم دواب الحمل التى تتبع الفرق المختلفة مثل الشاكرية والرابطة • (٦١) •

وكان الخليفة هو القائد الأعلى للجيش ، وكان **الخلفاء والأمراء** من البيت الحاكم كثيرا ما يقودون الحملات على الحدود البيزنطية سواء فى العهد الأموى أو العهد العباسى ، بل كان يشترك فى ذلك بعض نساء بيت الخلافة أحيانا • ولم يكن الخلفاء المسلمون أقل رغبة فى شهود ميادين القتال من الأباطرة البيزنطيين ، وقد غزا معاوية مضيق القسطنطينية سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣ م ومعه زوجته عاتكة أو فاختة (٦٢) ، كما أغزى وهو خليفة ابنه يزيد بلاد الروم سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م حتى بلغ القسطنطينية (٦٣) • وبرز فى الجبهة البيزنطية من بنى مروان محمد بن مروان ومسلمة بن عبد الملك وعبد الله بن عبد الملك • وفى العهد العباسى ظهر صالح بن على العباسى ، كما سار للغزو الرشيد والمأمون والمعتصم • وظهر كثير من القواد المسلمين فى هذا الميدان مثل : مالك بن عبد الله الخثعمى « الذى يقال له مالك الصوائف » وهو من أهل فلسطين ، وحبيب بن مسلمة الفهرى « وكان ذا أثر جميل فى فتوح الشام وغزو الروم وقد

---

(٥٩) حسينى : الادارة العربية • ترجمة دكتور العدوى ص ١١٨ ، ٢٦٤ ـ ٥ ، نعمان ثابت : الجندية

(٦٠) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ترجمة رياض رأفت ص ٣٧١•

(٦١) Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. p. 358

(٦٢) الطبرى : حـ ٥ ص ٧٧ •

(٦٣) المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٦٧ •

علم ذلك منه عمر ثم عثمان » (٦٤) • وفى غزوات البحر برز اسم عبد الله بن قيس الحارثى حليف بنى فزارة الذى « غزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة فى البحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب (٦٥) » كذلك لمع من القواد بسر بن أبى ارطاه وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وغيرهم ، فضلا عن البطل الاسطورى عبد الله الذى قتل فى جماعة من المسلمين بأرض الروم سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م وغدا بعد ذلك بطلا شعبيا وبخاصة لدى الاتراك (٦٦) •

الاسلحة :

كان الفرسان والمشاه فى **الجيش البيزنطى** يقسمون الى فرق خفيفة السلاح وفرق ثقيلة السلاح • فكان **الفارس ذو السلاح الثقيل** يلبس خوذة من الفولاذ ودرعا من الزرد يكسوه من رقبته الى فخذيه ، وقفازا من الحديد وأحذية من الفولاذ وكان يحمل عباءة خفيفة يرتديها فوق سلاحه صيفا وعباءة فضفاضة من الصوف يندثر بها شتاء • وكان سلاحه سيفا عريضا وخنجرا ورمحا وقوسا للرماية عن ظهور الخيل وجعبة للسهام ، واذا كان ممن يقفون فى الصفوف الاولى ويقومون بالهجوم وضعت دروع فولاذية على صدر حصانة وعصابات فولاذية على جبهته • وكان **الفارس ذو الأسلحة الخفيفة** عادة من الرماه ويلبس سترة من الزرد • أما الجنود **المشاة ذو الأسلحة الثقيلة** فيلبسون دروعا من الزرد تغطى أنصاف أجسامهم العليا وخوذا فولاذية وكانت أسلحتهم السيف والرمح وفأسا لها نصل قاطع من ناحية وسن مدببة من ناحية أخرى • وكان جندى **المشاة ذو السلاح الخفيف** أما راميا بالقوس أو قاذفا بالحربة ويلبس قميصا طويلا من الزرد يصل الى ركبتيه أو درعا خفيفا فى بعض الأحيان ويحمل جعبة للسهام فيها أربعون سهما وفأسا فى حزامه وكان يعلق خلفه ترسا صغيرا مستديرا • وكانت تعهد مهمة حماية الممرات الجبلية الوعرة الى فرق المشاة الثقيلة حيث يتعذر استخدام الفرسان • أما النار الاغريقية الشهيرة فى أعمال الأسطول البيزنطى فلم تكن تستخدمها الجيوش البرية الا فى دفع المحاصرين (٦٧) •

---

(٦٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٩ ، ٢٠٥ •

(٦٥) الطبرى حـ ٥ ص ٥٢ ـ ٣ رواية السرى عن شعيب عن سيف •

(٦٦) الطبرى حـ ٨ ـ ص ٢٧٩ ، حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع م ١ ص ٢٥٤

(٦٧) Runciman : Byz. Civ. pp. 116:7. ، بينز الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة مؤنس وزايد ص ١٨٠ ـ ١ ، Byzantium. pp. 301-2

واستخدم المشاة فى **الجيش الاسلامى** زمن الراشدين القوس والسهم والمقلاع ، وفى بعض الأحيان **الترس والسيف** ، وكان السيف يحمل فى جراب يعلق على الكتف الأيمن ، وأخذ العرب **الحربة** عن الحبشة • وأشهر سلاح كان يستعمله الخيالة هو **الرمح والنبال** التى كان أشهرها فى الأدب العربى (الخطى) نسبة الى الخط على ساحل البحرين وكان ينمـــو فيهـا الخيزران ثم صار يستورد من الهند ، وكانت أحسن السيوف تصنع فى الهند أيضا ومن هنا جاء لفظ (المهند) •

وفى العصر الاموى وضحت آثار احتكاك المسلمين بالروم الى حـد كبير ، فلم يعد هناك فرق كبير فى الزى والدروع بين المحارب العربى والرومى ، وكذلك الاسلحة كانت بوجه عام واحدة • **واستخدم المشاة رماحا طول الواحد منها ثمانية أقدام ، كما استخدموا أقواسا وسهاما فى جعب ومزاريق وسيوفا ذات حدين وصوالج ذات عقدة حديدية ودروعا تغطى جميع الجسم وأخرى صغيرة مستديرة لها عقدة فى الوســـط ، ولبسوا البيضـــة وأقمصـــة الزرد أو قمصـــانا من الجلد ذات ثنيـات عديدة مع لوحة على الصدر • وتسلح الخيالة بالرماح والاقواس والسهام والسيوف على اختلاف أشكالها ، واحتموا بالدروع والقمصان الزرد الى الركبتين وكانوا يستعملون سروجا بسيطة مدورة تشبه سروج البيزنطيين ويحمى الخيول على الصدر والجباه الواح حديدية كذلك استعملت الدبابيس والمقاليع** • وفى العصر العباسى الأول كان الجند يتكونون من **الحربية** : ويسلحون بالحراب والسيوف والدروع التى تغطى الصـــــدر والذراعين والساقين ، **والرامية** : بالاقواس والسهام وقد استخدم العباسيون آلات وأقواسا تقذف عدة سهام فى نفس الوقت وأقواسا مستعرضة ويدوية لاطلاق سهام أكبر وأثقل ـ وكان رماة السهام الخيالة من **الخراسانيين أو** سكان شمالى فارس المشهورين منذ القدم باصـــابة المرمى على **الخيل** ، **والفرسان** ويلبسون خوذات ودروعا على صـــــدورهم ويزودون بحراب طويلة **وبلط حربية كما استخدمت المزاريق والفئوس** • وكانت تلحق بكل فرقة من الرماة جماعة من **النفقاطين** يلبسون ملابس غير قابلة للاحتراق ويقذفون بمواد حارقة على الأعداء • وفى المتوكل صار الجند يلبسون السيوف على الطراز الفارسى فى أوساطهم • ويعتقد أن صناعة السلاح فى الشام كانت تقوم على استيراد الحديد من الصين والهند علاوة على انتـاج المناجم قرب بيروت وأرمينية والقوقاز ثم كرمان وكابل •

وقد استفاد العرب من **فنون الحصار** البيزنطية استفادتهم من فنون التحصين وكانت آلات الحرب الثقيلة كالعرادة والمنجنيق والدبابة والكبش

تحمل بجانب متاع الجيش على الابل خلف الجيش . ويغلب ان كلمة **برج** مشتقة عن اليونانية وقد وضعت لبرج متحرك مشيد من الخشب ومغطى بالحديد والجلد وكان يستعمل للاقتراب من حصون العدو أو المدن المنيعة لاقتحامها ولقذف السهام أو الأحجار أو أية مقذوفات أخرى ، وفى معظم الأحيان يجرعلى عجلات خشبية أو حديدية أو يدفع على اسـطوانات ، ويتألف البرج من عدة أدوار فوق بعضها يوصل اليها بدرجات من الداخل وينتهى البرج بقنطرة خشبية يمكن القاؤها على الحصن أو السور ليجرى عليها الجنود فى هجومهم على العدو . **والدبابة** آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيدبون الى الأسوار ليثقبوها ـ وهى شبه برج متحرك له أحيانا أربع أدوار أولها من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من الحديد ورابعها من النحاس الأصفر ، وتصعد الى طبقاته الجنود لنقب الحصـون وتسلق الأسوار ، وقد عرف الفرس استخدام الدبابات ووصلت الى العرب . وفى السيرة أن المسلمين لما فتحوا (حصن الصعب) فى خيبر سنة ٧ هـ / ٦٢٨ م وجدوا فيه منجنيقات ودبابات . وكانت الدبابات تسبق المشاة حتى تقترب الى مسافات قصيرة من مواقع العدو أو حصونه وهناك تعمل عملها فى قذف الحجارة أو كرات النار المشتعلة أو النبال ، وأتقن صناعتها الأمويون ثم العباسيون ، وكان القادة يخصصون عددا من الجنود للسير خلف الدبابة لتسوية طريقها وازالة الموانع التى يضعها العدو فى طريقها . **والضبر** وجمعه ضبور مثل رءوس الأسفاط يتقى بها فى الحرب وهى جلد يغشى خشبا يكمن تحته الرجال عند الهجوم أو الانسحاب **والعرادة** آلة أصغر من المنجنيق تلقى بها الحجارة على أبعاد كبيرة وقد عرفها الفرس أيضا . **والعيار** قطعة جلد أو قماش قوية قليلة العرض مطوية تمسك من طرفيها ويوضع الحجر أو الحصاه أو قطع الحديد أو الرصاص المصوب نحو الهدف فى وسطها ، وقد يكون المقلاع مكونا من كفة توضع فيها القذيفة مربوطة بثلاثة حبال أو سيور متينة تمسك من أطرافها وبعد تدويرها مرارا باليد يفلت طرف واحد من الثلاثة سيور المذكورة فيقذف ما فى الكفة الى بعد عظيم بقوة . **والكبش** آلة من خشب وحديد تجر بنوع من الحبال فتدق الحائط فينهدم ، وأصل الكبش دبابة لكن له رأس فى مقدمه مثل رأس الكبش يتصل داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال تجرى على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها ، ويتعـاون الجنود الذين يتحصنون داخل الكبش مع آخرين اسـتتروا بدروعه ووقفوا خلفه على ضرب السور حتى يخرقوه . وقد عرف العرب آلات المقذوفات واستخدمها الرشيد فى حصار هرقلة وكانت تقذف الحجارة ، وقد ورد ذكر المكحلة والمقلاع والمنجنيق ويذكر دوزى أن أول ذكر **للمدفع** كان سنة ٧٩٢هـ/

١٣٨٣م وأورد كترمير بعض مواضع استخدام المدفع عند المغول ، واستخدم **المنجنيق** فى حصار الطائف ولا يدرى أنقله العرب عن الفرس أم الروم أم عرف قبل ذلك . ومن المجانيق أنواع لرمى السهام التى توضع فى المنجنيق وترمى عنها بالأقواس الى مسافات بعيدة وقوة خارقة وأخرى لرمى الحجارة حتى تهدم الحصون وثالثة لرمى قدور النفط أو الكرات المشتعلة من النيران الاغريقية أو لرمى العقارب أو سلال الرماد والرمم العفنة . **والنفاطة** هى الآلة التى تقذف النفط ويلبس النفاط ثوبا خاصة اسمه لباس النفاطين لكيلا يصاب بأذى وقيل ان مخترعه مسلم اسمه محمد بن يزيد ارتداه عندما اقتحم نيران مدينة هرقلة بعد وقوعها فى أيدى الرشيد . وقد استخدم العرب المواد الملتهبة من قبل حتى قيل ان عبد الله بن الزبير استخدم أوانى النفط الملتهب فى حصار مكة . وقد خلد أعمال فرقة النفاطين الاسلامية التى أدت الى سقوط هرقلة سنة ١٩٠ هـ ٨٠٦م الشاعر المكى بقوله :

هوت هرقلة لما أن رأت عجبا	مصبغات على أرسان قصار
كأن نيراننا فى جنب قلعتهم	جوائما ترمى بالنفط والنار

وقد ذكر الشاعر الفارسى السعدى الشىء الكثير عن النفاطين وأعمالهم . وقد كان الاهتداء الى مركب البارود فى القرن ١٣م تحت التأثير العربى (٦٨) .

وكان المهندسون الذين يشرفون على **آلات الحصار كالمجانيق والمقاليع والكباش** يرافقون الجيش ، وقد ذكر لنا التاريخ مهندسا يسمى ابن صابر المنجنيقى عاش فى أواخر عهد الخليفة العباسى الناصر ٥٧٥ : ٦٢٢هـ ١١٨٠ : ١٢٢٥م وقد ألف كتابا لم يكمله عالج فيه فن الحرب . وكان النفاطون يعدون مركبات النفط التى يستخدمونها بأن يضعوا الكبريت مع النفط الابيض والحجارة ويلفوها جميعا بنسيج الكتان ثم توضع هذه الكرات النارية فى ذراع المنجنيق وتطلق على الجدران التى تشطرها الحرارة شطرين . واستخدم الرشيد مثل هذه الكرات فى حصار هرقلة سنة ١٨٧هـ/٨٠٣م وارتدى النفاطون ملابس تقيهم النار وتمكنهم من التوغل سالمين فى أطلال حصون العدو المشتعلة . وفى احدى حملات الرشيد سد الامبراطور نقفور الطريق على المسلمين بأشجار قطعت واشتعلت فيها النار فقام النفاطون بملابسهم الواقية

---

(٦٨) دكتور عبد الرحمن زكى : السلاح فى الاسلام ص ١٣ ، ٢٤ ــ ٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ــ ٦ ، ٤٨ ، ٥٢ ــ ٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، جورج يعقوب . أثر الشرق فى الغرب ترجمة دكتور فؤاد حسنين ص ٣١ ــ ٢ .

الخاصة واندفعوا وسط الاشجار المشتعلة وطهروا الطريق للجيش .
وكان **النقابون** مزودين بآلات الثقب والنقب وواجبهم احداث ثغرات فى جدران معاقل الاعداء فى حماية الدبابة . وفى أثناء تحرك جيش المسلمين الذى بلغ عمورية كانت الاثقال والمجانيق والزاد فى الساقة ، وعند عمورية نصبت المجانيق أمام السور « فلما رأى أهل عمورية انفراج السور علقوا عليه الخشب الكبار كل واحدة بلزق الأخرى ، فكان حجر المجنيق اذا وقع على الخشب تكسر فعلقوا خشبا غيره وصيروا فوق الخشب البراذع ليترسوا السور فلما الحت المجانيق على ذلك الموضع انصدع السور .. وكان المعتصم حين نزل عمورية ونظر الى سعة خندقها وطول سورها ، وكان قد استاق فى طريقه غنما كثيرة ـ فدبر فى ذلك أن يتخذ مجانيق كبارا على قدر ارتفاع السور يسع كل منجنيق منها أربعة رجال وعملها أوثق ما يكون وأحكمه وجعلها على كراسى تحتها عجل ، ودبر فى ذلك أن يدفع الغنم الى أهل العسكر الى كل رجل شاة فيأكل لحمها ويحشو جلدها ترابا ثم يؤتى بالجلود مملوءة ترابا حتى تطرح فى الخندق ففعل ذلك بالخندق ، وعمل دبابات كبارا تسع كل دبابة عشرة رجال وأحمكها على أن يدحرجها على الجلود المملوءة ترابا حتى يمتلىء الخندق ففعل ذلك وطرحت الجلود فلم تقع الجلود مستوية منضدة ـ خوفا منهم من حجارة الروم فوقعت مختلفة ولم يمكن تسويتها فأمر أن يطرح فوقها التراب حتى استوت ثم قدم دبابة فدحرجها فلما صارت من الخندق فى نصفه تعلقت بتلك الجلود وبقى القوم فيها فما تخلصوا منها الا بعد جهد . ثم مكثت تلك العجلة مقيمة هناك لم يمكن فيها حيلة حتى فتحت عمورية وبطلت الدبابات والمنجنيقات والسلاليم وغير ذلك حتى أحرقت .. وأمر المعتصم بالمنجنيقات الكبار التى كانت متفرقة حول السور فجمع بعضها الى بعض وسيرها حول الثلمة وأمر أن يرمى ذلك الموقع .. وصارت طائفة كبيرة من الروم الى كنيسة كبيرة فى زاوية عمورية فقاتلوا قتالا شديدا فأحرق الناس الكنيسة عليهم فاحترقوا عن آخرهم »
وكانت لكل جيش فرقة من الغلمان يحملون الفئوس والبلط وغيرها من الادوات بالاضافة الى السيوف والدروع استخدمت تلك القوات فى الحفر والقطع والهدم وغير ذلك (٦٩) .

---

(٦٩) حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع م ١ ص ٢١٢ ـ ٣ ، ٢٨١ ، م ٢ ص ٤٠٨ ، حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ، ص ٢٧٠ ـ ١ ، ٤١٩ : ٤٢١ ، سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى . ترجمة رياض رأفت ص ٣٧١ ، ٣٧٣ ، دكتور عبدالرحمن زكى : صناعة السيوف الاسلامية . المجلة التاريخية المصرية م ٥ سنة ١٩٥٦ ، الطبرى : حـ ١٠ ص ٣٣٦ ، ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ، ٣٤٢ .

فنون القتال :

عنـد البيزنطيين :

هناك كتب صغيرة عن الجنـدية ترجع تواريخها الى فترات مختلفة من تاريخ الامبراطورية الشرقية وهى تعطى فكرة عن الجيش البيزنطى الذى كان يتميز بين معاصريه وقتذاك بطابع علمى فى أساليبه الحربية فلم يكن الفوز للعدد بل للمهارة والتفكير ولم تكن المعركة اصطراعا أهوج بل تعاونا منظما بين وحدات كثيرة ٠

وكان البيزنطيون أبعد ما يكونون عن العمليات الانتحارية وانما كان الحذر أساس استراتيجيتهم ، فلقـد كانت هجمات البرابرة من الكثرة والمفاجأة لدرجة يبدو معها التورط فى الهجوم شيئا غير عملى ٠ ولم يكن الجيش البيزنطى ضخما مثل الجيش الاسلامى كما انه كان باهظ التكاليف ، لذلك كان شعاره دائما : أقصى كسب بأقل الخسائر ، ويجب المحافظة على القوات البيزنطية المحـدودة بكل طريقة ، وعلى القـائد أن يستوثق من الظروف الملائمة للعمليات العسكرية قبل المجازفة بالاشتراك فى أى اشتباك حربى : فالهرب المصطنع والمباغتة والهجوم الليلى والكمين والمفاوضة لكسب الوقت ـ كل هذه وغيرها وسائل مقبولة ، وكان الجندى الذى يعتمد على القوة حيث يغنى الدهاء فى كسب النصر يعتبر أبلها ولا يأس بارسال خطابات مريبة لقادة العدو لبذر الشقاق بينهم وبين قوادهم، كما انه لا بأس باخبار الجند بانتصارات وهمية لرفع روحهم المعنوية ٠ وكانت قوة البيزنطيين فى مخابراتهم ، فقد جعلوا شغلهم الشاغل دراسة سبل عدوهم فى الحرب ومواجهتها بأفضل الطرق ـ وهكذا عرفوا عيوب الفرنجة والترك من مجيار وبشناق وسلاف ٠ **وكان العرب هم الأعـداء الرئيسيون : وهم يتميزون بان فى مكنتهم حشد قوات ضخمة والتحرك بسرعة فائقة كما ان لهم بصرا بفن الحرب ، ولكن البيزنطيين يرونهم مع ذلك على شيء من عـدم النظام ، وضعف الروح المعنـوية عند الهزيمة ، والاضـطراب امام الهـجوم الليلى عليهم وهم يتحركون ببطء مثقلين بالغنائم ، كذلك راى البيزنطيون العرب يتاثرون بالجو وينال منهم البرد والمطر ٠**

وكان البيزنطيون لا يخشون أن يستدرجهم عدوهم لأى معركة ما لم تكن الأعداد غير متكافئة بدرجة كبيرة ٠ وقد كان لفن الحصـار عند البيزنطيين قواعد خاصة تختلف تبعا لنوع البرج المحاصر والبيئة المحيطة ، وكانت هذه القواعد تطبق ولكنها لم تكن جامدة ٠ وقد حث كيكومنوس

القادة على التفكير فى طرائق جديدة ، كما كان على من يقع فريسة الحصار أن يختبر قوة عدوه وطبيعته ، وقد زكى كيكومنوس قدرا من الحيلة ٠وكانت قوة الجيش البيزنطى فى خيالته الثقيلة ، وكان نظامه محكما وخدماته شاملة : كانت له فرقة طبية خاصة ، وكان الفرسان deputati التابعون للخدمات الطبية يحملون الجرحى من ميدان المعركة الى أطباء الجيش فى المؤخرة، كما ان مهندسيه قد درسوا العقبات الطبيعية وأساليب مواجهتها مثل استعمال جسر القوارب المغطى بالألواح لعبور الانهار ٠ ولقى فن تنظيم المعسكرات من البيزنطيين كثيرا من الاهتمام(٧٠) ٠

عند المسلمين :

حضت كتب الفقه الاسلامى المسلمين على جهاد الروم بكل سبيل ، وأعلنت عليهم حربا مقدسة مستمرة تدوم مهما تعددت دول الاسلام وتباين حكامها « وقال مالك : لا أرى بأسا أن يجاهد الروم مع هؤلاء الولاة ٠ قال ابن القاسم : وكان فيما بلغنى عنه لما كان زمان مرعش وصنعت الروم ما صنعت فقال : لا بأس بجهادهم ٠٠ قال ابن القاسم : قلت لمالك : يا ابا عبد الله انهم يفعلون ويفعلون ، فقال لا بأس على الجيوش وما يفعل الناس ، وقال : لا أرى به بأسا ، ويقول : لو ترك هذا ــ أى لكان ضررا على هذا الاسلام ، ويذكر مرعش وما فعل بهم وجرأة الروم على أهل الاسلام وغاراتهم على أهل الاسلام » ٠ وقد كان البيزنطيون ينظرون الى حربهم للمسلمين نفس النظرة ، وقد روى الطبرى فى أخبار فتح الشام سنة ١٣هـ عن جند الروم انهم « لزموا خندقهم عامة شهر يحضضهم القسيسون والشمامسة والرهبان وينعون لهم النصرانية ، حتى استبصروا واخرجوا للقتال الذى لم يكن بعده قتال مثله فى جمادى الآخرة » وأجاز فقهاء الاسلام خروج النساء فى هذه الحروب فى بعض الاحوال : « قال ابن القاسم ، وسألت مالكا عن الرجل يغزو ومعه أهله الى الرباط على بعض السواحل فقال : لا بأس بذلك . قلت : فهل كشفتموه عن الرجل يدرب فى أرض الحرب غازيا ٠ يغزو بأهله معه أو يغزو النساء مع الرجل فى دار الحرب ؟ فقال : ما كشفناه عن أكثر مما قلت لك فى الرباط ، ولا أرى أن يخرج بالنساء الى دار الحرب قلت : أرأيت النساء هل يدرب بهن فى رض العدو فى الغزو ؟؟ قال : ما سمعت من مالك فيه شيئا ، ولكن سمعت مالكا يقول فى السواحل لا بأس أن يخرج الرجل بامرأته فى عسكر لا يخاف عليهم لقلتهم مثل

---

(٧٠) Runciman : Byz. Civ. pp. 115-6 ، بينز : الامبراطورية البيزنطية ٠ ترجمة مؤنس وزايد ص ١٧٨ : ١٨٢ ٠

الاسكندرية وما أشبهها . قال ابن القاسم . وان غزا المسلمون فى عسكر لا يخاف عليهم لقلتهم لم أر بأسا أن يخرج بالنساء فى ذلك (٧١) . وقد كان بنو أمية يحملون معهم النساء فى الغزو « ارادة الجد فى القتال للغيرة على الحرم ، فلما صار مسلمة بن عبد الملك لما غزا عمورية حاملا معه نساءه فى عقبة بغراس عند الطريق المستدقة التى تشرف على الوادى سقط محمل فيه امرأة الى الحضيض ، فأمر مسلمة أن تمشى سائر النساء فمشين فسميت تلك العقبة عقبة النساء » (٧٢) . وفى العصر العباسى غزت مع صالح بن على اختاه أم عيسى ولبابة « وكانتا نذرتا ان زال ملك بنى أمية أن تجاهدا فى سبيل الله (٧٣) » . وتحت تأثير هذا الشعور الدينى الجارف ازاء الحرب المقدسة أغزى الرشيد ابنه القاسم الصائفة سنة ١٨٧هـ « فوهبه لله وجعله قربانا له ووسيلة وولاه العواصم (٧٤) .

وقد بدأت تجارب العرب الحربية مع الروم فى معارك فتح الشام ، وتعطينا خططهم فى معاركهم صورة عن خبراتهم فى مختلف فنون القتال. فبالنسبة **لاختيار الموقع (الاستراتيجية)** نجد أبا سفيان يعرض رأيه حين نزل خالد بن الوليد الشام على الامراء الثلاثة الذين كانوا يديرون القتال وقد سارت الروم من انطاكية وحلب وقنسرين وحمص بقيادة باهان ، فنفر القواد منه أولا اذ كان حديث عهد باسلام ثم طلبوا أخيرا رأيه فقال لهم : ان معسكركم هذا ليس بمعسكر ، **انى اخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والاردن فيحولوا بينكم وبين مددكم من المدينــة فتكونوا بين عسكرهم ! فارتحلوا حتى تجعلوا اذرعات خلف ظهوركم يأتيكم المدد والخبر** ـ فقبلوا ذلك من رأيه . فقال : اذ قبلتم هذا من رأيى فأمروا خالد بن الوليد على الخيول ومروه بالوقوف بها فيما يلى نهر الرقاد ، وأمروا رجلا على المرامية وأخرجوا اليه كل نابض بوتر ومروه بالوقوف فيما بين العسكرين وبين الخيول فانه ستكون لرحيل العسكر من السحر أصوات عالية تحدث لعدوكم فيكم طمعا فان أقبلوا يريدون ذلك لقيتهم الخيول فكفتها ، وان كانت للخيول جولة وزعت عنها المرامية فقبلوا ذلك من رأيه (٧٥) .

وقد أشار خالد بن الوليد **باجتماع جيوش المسلمين على قيادة واحدة**

---

(٧١) سحنون : المدونة الكبرى حـ ٣ ص ٥ ـ ٦ ، الطبرى : حـ ٤ ص ٣٢ .

(٧٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ .

(٧٣) الطبرى حـ ٩ ص ١٧١

(٧٤) الطبرى حـ ١٠ ص ٨٩ .

(٧٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٥٣٢ ـ ٣

بعد أن تطاولت المعارك فى الشام ، كما سار على أسلوب جديد فى التعبئة قال : فهلموا فلنتعاور الامارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعونى اليكم اليوم . فأمروه وهم يرون انها كخرجاتهم وان الامر أطول مما صاروا اليه فخرجت الروم فى تعبية لم ير الراءون مثلها قط ، **وخرج خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك : فخرج فى ستة وثلاثين كردوسا الى الاربعين وقال : ان عدوكم قد كثر وطغى وليس من التعبية تعبية أكثر فى رأى العين من الكراديس ،** فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس وأقام عليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبى سفيان . وكان على كردوس من كراديس أهل العراق القعقاع بن عمرو ، وعياض بن غنم على كردوس وهكذا(٧٦)»

وتقسيم الجيش الى قلب وجناحين ومقدمة ومؤخرة كان **معروفا** فى عهد الرسول وهو ينم عن تأثر مبكر بالنظامين البيزنطى والساسانى ، وكان لفظ (الخميس) هو الذى يطلق على هذه الوحدة الحربية لتكونها من خمس فرق ، وكان الخيالة يقفون فى الجناحين . وفى هذا التقسيم كانت تراعى الوحدة القبلية وكان لكل قبيلة علمها الخاص يحمله أحد أفرادها الشجعان مثبتا على رمح . ويقف الجند صفوفا أو كتلا متراصة ، ثم تبدأ الحرب بمبارزات فردية بين الابطال الممتازين . والواقع ان ميزة الجيش الاسلامى فى تلك الفترة المبكرة كانت فى قوة معنويته واحتماله وسرعة حركته . وكانت الطليعة تسير فى مقدمة الجيش تتحسس الطريق ، يتبعها الجيش فى ترتيبه الحربى وفى آخره الساقة بالمتاع وآلات الحصار . وكان الجيش يمون نفسه من الغنائم ، فضلا عن حصيلة الضرائب العينية المتجمعة فى بيت المال . وبعد تنظيم الضرائب النقدية أسست ادارة لتموين الجيش عرفت باسم الاهراء .

وبالنسبة **لادارة المعارك (التكتيك)** نجد للمسلمين عمليات حربية موفقة فى فتوح الشام ، فقد استطاع خالد فى اليرموك أن يشطر بقلب جيشه خيالة العدو عن مشاته ، بينما كان الجناحان يشاغلان العدو أيضا . وعند اقتحام تحصينات دمشق سبح المسلمون عبر خندق المياه وعلى ظهورهم القرب ثم رموا بالحبال والأوهاق الشرف وتسلقوا الجدران وفتحوا الابواب . واستخدمت حفر النار والعوائق فى المعارك الدفاعية. وبنهاية عهد الراشدين كان المسلمون قد غدوا على جانب كبير من الكفاية

---

(٧٦) الطبرى حـ ٤ ص ٣٢ ـ ٣ رواية السرى عن شعيب عن سيف .

فى التنظيم والتسليح وصاروا على خبرة بطرائق المسير واقامة المعسكرات والنقل والتموين وغيرها · كما تعلموا أساليب الحصار ومحاربة الجيوش الكبيرة بعدد أقل ·

وأفاد الجيش الأموى بوجه عام من تنظيم الجيش البيزنطى فكانت كل وحدة تقسم الى الاقسام الخمسة المعروفة من قبل · وظل هذا النظام معمولا به حتى عهد مروان الثانى ١٢٧ : ١٣٢ هـ ، ٧٤٤ : ٧٥٠ م الذى آثر تعبئة الوحدات الصغيرة المتماسكة المعروفة **بالكراديس** · وكان الجند فيما سبق يحاربون صفوفا طويلة ، وبين الصفين المتقاتلين تقع المبارزات الفردية التى كثيرا ما يعين مصير المعركة · وبداية نظام الكراديس قد ترجع الى ما قبل مروان — وقد سبق أن أخذ بها خالد فى معارك فتح الشام ، ولعل مروان هو الذى توسع فى الأخذ به وتعميمه · وعندما تسير الحملة كان صوت الطبلة الصغيرة يغطى ضوضاء المسير · وفى الحملات الصغيرة أو عند اقتضاء السرعة أو طول المسافة كان المشاة ينقلون على ظهور الخيل · واعتاد المسلمون نصب معسكرهم بعد مسيرة كل يوم · واستخدم المسلمون فى النقل الخيل والابل والبغال والحمير · وكان رجال الحرب الامويون يعدون المشاة أنسب للدفاع ضد هجوم العدو ، فى حين ان الخيالة أحسن استعدادا للهجوم وسار العرب قدما فى اتقان فنون الحصار · وعندما قسم الجيش كراديس أو فرق حافظت الاقسام على الالتصاق بعضها ببعض واذا تعرض أحدها لضغط شديد خف كردوس آخر أو قسم منه للمعاونة · أما القائد العام فينسق التعاون بين مجهودات الفرق المختلفة · وظل نظام الحركة دون تغيير ، فالجيش يتحرك فى شكل مربع عظيم ، وبذلت عناية كبرى للاحتفاظ بتشكيل المعركة على حاله وعدم مطاردة العدو الهارب بصورة تعرض التشكيلات للخلل · وكان المقاتلون ينتظرون فى صبر مبادرة العدو بالهجوم ، وحالما يتخلص الجند من الضربة الاولى يحملون الى الأمام فى صفوف متراصة واضعين دروعهم جنبا الى جنب ·

وفى طوال القرن الاول من الحكم العباسى · اعتمدت الخلافة على جندها لمواجهة الفتن الداخلية والقتال فى الجبهة البيزنطية · وقد قال أومان « كان هناك شيئان يجعلان المشارقة فى القرن ١٠م عدوا خطرا : عددهم الكبير ، وقدرتهم الفائقة على التحرك » وفى الكتاب المنسوب الى الامبراطور ليو السادس الحكيم (٨٨٦ – ٩١٢م) عن الخطط الحربية يقول « من بين كل الامم المتبربرة كان هؤلاء المشارقة أصحاب أحسن رأى وأحكم خطة فى حركاتهم الحربية » ويصف تعبئتهم فى حومة الوغى بأنها

على هيئة مربع طويل يصعب اختراقه ومن هنا تمتعوا بأعظم مزايا الدفاع في التحرك والقتال • وكانوا يؤثرون أن يبدأ عدوهم المعركة ويستهلون بتسديد السهام ويرمون بالنبال ويتحاذون بدروعهم حتى تلتصق ويهجمون في صفوف متراصة ، وكانوا يحبون خيولهم ويؤثرونها على أنفسهم . ويصف الامبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس الاثر الذى تركه العرب فى خصومهم البيزنطيين «لقد كانوا من القوة والميل الى الحرب بحيث لو ان ألفا واحدا منهم احتلوا موضعا لأصبح من المستحيل أن تزيحهم عنه » • ومن كتابات هؤلاء بجانب كتابات نيقفور فوكاس أيضا من الخطط الحربية يتضح أن أبغض شيء الى المحارب العربى كان هو الجو البارد الممطر ، كما ان العرب كانوا يفقدون روح النظام اذا كسرت خطوطهم أثناء القتال •

ويصف فون كريمر مسير الجيش العربى تتقدمه طلائعه وينتهى بالردء أو المؤخرة فيقول : « ولا بد أن الجيش العربى قد أثار شعورا قويا وعظيما حين اجتازت صفوفه التى لا تحصى بلاد الاعداء : اذ سارت فى المقدمة قوة من الفرسان الخفية بدروعها الحديدية البراقة وبيضاتها الحديدية المتلألئة مع رماحها الطويلة التى تزين رءوسها بريشة سوداء من ريش النعام • وكان يصاحب المقدمة الرماه بلونهم الأصحن وبنيتهم القوية ويجرون بحيث يلاحقون الخيل • وتحمى الجناحين من الهجوم المفاجىء فرقة خفيفة • وفى الوسط يسير المشاة مسلحين بالمزاريق والسيوف والدروع ، وفى صحبتهم آلاف الابل تحمل المؤن والخيام والعتاد ، على حين يتبعهم فى الخلف أدوات الاسعاف والنقالات للمرضى والجرحى محملة على الابل ومعها آلات الحرب • واذا سار أمير المؤمنين أو أحد أمرائه مع الجيش غدا المظهر عظيما بسبب الملابس المتعددة الموشاة بالذهب التى يلبسها حرس الخليفة • وكان فى الاستطاعة رؤية رجال الحرس الفارسى بقلانسهم السوداء العالية من جلد الماعز وحرس القصر من الاتراك بعمائمهم الشبيهة بالثلج فى بياضه . وكان يرى اسم الحاكم على الالوية والأعلام مطرزا بالذهب ويحيط به قادته العظام راكبا برذونا محملا بالجواهر والذهب ، ويسير خلف الامير مباشرة الخصيان بأجسامهم غير العادية ثم قافلة من الهوادج المغطاة تستر صفوة نساء الحريم » . وكان قرع الطبول هو علامة المسير فاذا سكتت توقفت الصفوف . وقد عانت الجيوش الاسلامية كثيرا فى احتياجاتها التموينية وراء جبال طوروس ، ومن ثم بذل المسلمون عناية كبرى فى تموين قواتهم ، وتجلى ذلك بصفة خاصة فى حملات الأمويين

ضد القسطنطينية . وبدأ تدهور القوة الحربية فى العصر العباسى حين تعددت عناصر الجيش وعز الانسجام بينها وضعفت الروح المعنوية (٧٧).

وكان يصحب الجيش فى جميع الحركات العسكرية فئة من المهندسين ـ كما سلف الذكر ـ يسمون بالمنجنيقيين يعين البعض منهم فى الحصون والحواضر ، ويطلق على رئيسهم أمير المنجنيقيين ، ويبدأ هؤلاء حياتهم العملية بالانخراط فى الجيش ، وتقدمت الاشارة الى يعقوب بن صابر المنجنيقى الذى استهل حياته فى جيش المرتزقة ثم تدرج فى المراتب العسكرية حتى وظيفة أمير المنجنيقيين ، وعين فى بغداد وعلا كعبه فى الدراسات العسكرية وألف كتابا اسمه « عمدة السالك » فى الهندسة الحربية ، ويحدثنا ابن خلكان انه عالج كل ناحية من نواحى الحرب كالتعبئة والاستيلاء على الحصون وتشييد القلاع والفروسية والهندسية والحصار وتركيب الآلات وصفات الخيول وأنواع الخيالة وكان للمنجنيقيين دور كبير أثناء عمل الجيش فى الميدان كذلك كان يصحب الجيش فى أثناء المعارك هيئة طبية ومستشفى تام العدد والاجهزة ، لوازم مستشفى الميدان كالخيم والأدوات الطبية والنقالات التى كانت عبارة عن محفات على عدد كبير من البغال والجمال (٧٨) .

ولدينا فى العصر العباسى معركتان فريدتان دارتا فى جبهتين من الحدود الاسلامية : أرمنية وآسيا الصغرى ، وكشفتا عن كثير من فنون الحرب وقتذاك أولاهما **قتال بابك الخرمى فى معركة البذ** سنة ٢٢٢هـ ٨٣٧م والثانية عمورية سنة ٢٢٣ هـ ٨٣٨م وكلتاهما فى عهد المعتصم . فيحدثنا الطبرى « ذكر ان الافشين لما عزم على الدنو من البذ والارتحال من كلان روز جعل يزحف قليلا قليلا على خلاف زحفه قبل ذلك الى المنازل التى كان ينزلها ، فكان يتقدم الاميال الاربعة فيعسكر فى موضع على طريق المضيق الذى ينحدر الى روذ الروذ ولا يحفر خندقا ولكنه يقيم **معسكرا فى الحسك** . وكتب اليه المعتصم يأمره أن يجعل الناس **نوائب كراديس تقف على ظهور الخيل** .. فبعض القوم معسكرون وبعض وقوف على ظهور دوابهم على ميل ، كما **يدور العسكر بالليل والنهار مخافة** البيات .. وأقام الافشين بروذ الورذ وأمر **الكوهبانية**

(٧٧) حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع م ١ ص ٢١٣ ـ ٤ ، ٢٨٠ ـ ١ ، م ٢ ص ٤٠٩ ـ ١٠ ، حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ١٢١ ـ ٨ ، ٢٦١ ـ ٢ ، ٢٧١ : ٤ ، ٤٢٢ ـ ٣ ، ٤٣٠ : ٢ أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ـ ترجمة رياض رأفت ص ٣٧٧ : ٣٨٠ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٣٥٨ .

(٧٨) أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ترجمة رياض رأفت ص ٣٧٢ .

أن يصعدوا الى رءوس الجبال التى يظنون انها حصينة فتراءوا له فيها ويختاروا له فى رءوس الجبال مواضع يتحصن فيهـا الرجالة ، فاختاروا له ثلاثة أجبل قد كانت عليها حصون فيما مضى فخربت فعرفها .. فلما كان بعد يومين انحدر من معسكره الى روذ الروذ ، **وأخذ معه الكلغرية وهم الفعلة وحملوا معهم شكاء الماء والكعك .. وأمر الفعلة بنقل الحجارة وتحصين الطرق** التى تسلك الى تلك الثلاثة الأجبل حتى صارت شبه الحصون ، فاحتفر على كل طريق وراء تلك الحجارة الى المصعد خندقا ــ فلم يترك مسلكا الى جبل منها الا مسلكا واحدا .. وأمر الفعلة بالعمل ووكل بهم من يستحثهم ، ونزل هو والفرسان فوقفوا تحت الشجر ، فلما صلى العصر أمر الفعلة بالصعود الى رءوس الجبال التى حصنها مع الرجالة ، وأمر الرجالة أن يتحارسوا ولا يناموا ويدعوا الفعلة فوق الجبال ينامون وأمر الفرسان بالركوب عند اصفرار الشمس فصيرهم كراديس وقفها حيالهم بين كردوس وكردوس قدر رمية سهم. وتقدم الى جميع الكراديس ألا يلتفتن كل واحد منكم الى الآخر ، ليحفظ كل واحد منكم ما يليه .. فان سمعتم هده فلا يتلفتن أحد منكم الى أحد .. فلم يزل الكراديس وقوفا على ظهوردوابهم الى الصباح والرجالة فوق رءوس الجبال يتحارسون .. فلبثوا فى حفر الخندق عشرة أيام ثم ان الافشين كان فى كل أسبوع **يضرب بالطبول نصف الليل ويخرج بالشمع والنفاطات الى باب الخندق ، وقد عرف كل انسـان منهم كردوسه : من كان فى الميمنة ومن كان فى الميسرة ــ فيرخج الناس فيقفون فى مواقفهم ومواضعهم** . وكان الافشين يحمل **أعلاما** سودا كبارا : اثنى عشر علما يحملها على البغال ولم يكن يحملها على الخيل لئلا تزعزع ، وكانت **طبوله** الكبار أحدا وعشرين طبلة ، وكانت الأعلام الصغار نحوا من خمسمائة علم . فيقف أصـحابه كل فرق على مرتبتهم ربع الليل ، حتى اذا طلع الفجر ركب الأفشين من مضربه فيؤذن المؤذن بين يديه ويصلى ثم يصلى الناس بغلس . ثم يأمر بضرب الطبول ويسير زحفا ، **وكانت علامته فى المسير والوقوف تحريك الطبول وسكونها لكثرة الناس ومسيرهم فى الجبال والأزقة على مصافهم** ، كلمـا استقبلوا جبلا صعدوه واذا هبطوا الى واد مضوا فيه ــ الا أن يكون جبلا منيعا لا يمكنهم صعوده وهبوطه فانهم كانوا ينضمون الى العساكر ويرجعون اذا جاءوا الى الجبل الى مصافهم ومواضعهم ، وكانت علامة المسير ضرب الطبول فان أراد أن يقف أمسك عن ضرب الطبول فيقف الناس جميعا من كل ناحية على جبل أو فى واد أو فى مكانه ، **وكان يسير قليلا قليلا كلما جاءه كوهبانى بخبر وقف قليلا** ، وكان يسير هذه الستة أميال التى بين روذ الروذ وبين

البذ ما بين طلوع الفجر الى الضحى الاكبر ٠٠ وكان يأمر أبا سعيد محمد بن يوسف أن يعبر الوادى ـ وكان بينه وبين البذ شبه الخندق ـ فى كردوس من أصحابه ، ويأمر جعفرا الخياط أن يقف أيضا فى كردوس من أصحابه ، ويأمر أحمد ابن الخليل فيقف في كردوس آخر ـ فيصير فى ذلك جانب الوادى ثلاثة كراديس فى طرف أبياتهم ، وكان بابك يخرج عسكرا مع آذين فيقف على تل بازاء هؤلاء الثلاثة الكراديس خارجا من البذ ٠٠ **ويفرق رجالته الكوهبانية ليفتشوا الأودية طمع أن يقع على مواضع الكمناء** فيعرفها فكانت هذه حالته فى التفتيش الى بعد الظهر ٠٠ وكان من سنته اذا بدأ الانصراف ينحدر علم الكراديس وفرسانه ورجالته والكردوس الآخر واقف بينه وبينه قدر رمية لا يدنو من العقبة ولا من المضيق حتى يرى انه قد عبر كل من فى الكردوس الذى بين يديه وخلا له الطريق ، ثم يدنو بعد ذلك فينحدر فى الكردوس الآخر بفرسانه ورجالته ، ولا يزال كذلك وقد عرف كل كردوس من خلف من ينصرف فلم يكن يتقدم أحد منهم بين يدى صاحبه ولا يتأخر ٠٠ فأقام الأفشين فى خندقه بروذ الروذ فشكا اليه **المطوعة** الضيق فى العلوفة والزواد والنفقات فقال لهم : من صبر منكم فليصبر ومن لم يصبر فالطريق واسع فلينصرف بسلام ، معى جند أمير المؤمنين ومن هو فى أرزاقه يقيمون معى فى الحر والبرد ، ولست أبرح من ههنا حتى يسقط الثلج ٠ فانصرف المطوعة وهم يقولون لو ترك الأفشين جعفرا وتركنا لأخذنا البذ هذا لا يشتهى الا المماطلة ٠٠ ووعد الناس ليوم ، وأمر الجند والفرسان والرجالة وجميع الناس بالأهبة وأظهر انه يريد الحرب لا محالة ٠ وخرج الأفشين **وحمل المال والزاد ولم يبق فى العسكر بغل الا وضع عليه محمل للجرحى وأخرج معه المتطببين ، وحمل الكعك والسويق** وغير ذلك وجميع مايحتاج اليه ، وزحف الناس حتى صعد الى البذ ٠٠ وقال لأبى دلف : قل للمطوعة أى ناحية هى أسهل عليكم فاقتصروا عليها ، وقال لجعفر : العسكر كله بين يديك **والناشبة والنفاطون** فان أردت رجالا دفعتهم اليك فخذ حاجتك وما تريد واعزم على بركة الله فادن من أى موضع تريد ٠٠ فوجه الأفشين برجل معه بدر الدنانير وقال : اذهب الى أصحاب جعفر فكل من تقدم فاحث له ملء كفه ، ودفع بدرة أخرى الى رجل من أصحابه وقال له : اذهب الى المطوعة ومعك هذا المال وأطواق وأسورة وقل لأبى دلف : كل من رأيته محسنا من المطوعة وغيرهم فاعطه ، **ونادى صاحب الشراب فقال له : اذهب فتوسط الحرب معهم حتى اراك بعينى معك السويق والماء لئلا يعطش القوم** فيحتاجوا الى الرجوع ـ وكذلك فعل بأصحاب جعفر فى الماء

والسويق ، **ودعا صاحب الكلغرية فقال له : من رأيته في وسط الحرب من المطوعة في يده فأس فله عندي خمسون درهما** ودفع اليه بدرة دراهم، وفعل مثل ذلك بأصحاب جعفر ووجه اليهم الكلغرية بأيديهم الفئوس ، ووجه الى جعفر بصندوق فيه أطواق وأسورة فقال له : ادفع الى من أردت من أصحابك هذا سوى مالهم عندي وما تضمن لهم على من الزيادة فى أرزاقهم والكتاب الى أمير المؤمنين بأسمائهم ٠٠ وكان الأفشين قد حمل **عرادات** فنصب عرادة منها مما يلى جعفرا على الباب وعرادة أخرى من طرف الوادى من ناحية المطوعة ، فأما العرادة التى من ناحية جعفر فدافع عنها جعفر حتى صارت العرادة فيما بينهم وبين الخرمية ساعة طويلة ثم تخلصها أصحاب جعفر بعد جهد ٠٠ فلم يزل الناس متواقفين متحاجزين يختلف بينهم النشاب والحجارة أولئك على سورهم والباب وهؤلاء قعود تحت أتراسهم ، ثم تناجزوا بعد ذلك ٠ فلما نظر الأفشين الى ذلك كره أن يطمع العدو فى الناس فوجه الرجالة الذين كان أعدهم قبله حتى وقفوا فى موضع المطوعة ، وبعث الى جعفر بكردوس فيه رجالة فقال : لست أوتى من قلة الرجال ولكنى لست أرى للحرب موضعا يتقدمون انما ههنا مجال رجل أو رجلين قد وقفوا عليه وانقطعت الحرب ٠٠ فانصرف جعفر **وبعث الأفشين بالبغال التى كان جاء بها معه عليها المحامل فجعلت فيها الجرحى ومن كان به وهن من الحجارة ولا يقدر على المشى** ٠٠ وأيس الناس من الفتح فى تلك السنة وانصرف أكثر المطوعة ٠ ثم ان الأفشين تجهز بعد جمعتين فلما كان فى جوف الليل بعث الرجالة الناشبة وهم مقدار ألف رجل فدفع الى كل واحد منهم شكوة وكعكا ودفع الى بعضهم أعلاما سودا وغير ذلك ، وأرسلهم عند مغيب الشمس وبعث معهم أدلاء فساروا ليلتهم فى جبال منكرة صعبة على غير الطريق حتى داروا فصاروا خلف التل الذى يقف آذين عليه وهو جبل شاهق ٠ وأمرهم ألا يعلم بهم أحد ، حتى اذا رأوا أعلام الأفشين وصلوا الفداه ورأوا الوقعة ركبوا تلك الاعلام فى الرماح وضربوا الطبول وتحدروا من فوق الجبل ورموا بالنشاب والصخر على الخرمية ، وان لم يروا الأعلام لم يتحركوا حتى يأتيهم خبره ٠ فلما كان فى بعض الليل وجه الأفشين الى القواد أن يتهيئوا فى السلاح فانه يركب فى السحر ٠٠ فلما كان فى السحر خرج وأخرج الناس وأخرج النفاطين والنفاطات والشمع على حسب ما كان يخرج ٠٠ فحملوا عليهم حملة شديدة قلبوه وأصحابه فى الوادى ، وحمل عليهم رجل مما فى ناحية أبى سعيد فى عدة معه **فاذا تحت حوافر دوابهم آبار محفورة تدخل أيدى الدواب فيها فتساقطت فرسان أبى سعيد فيها ، فوجه الافشين الكلغرية يقلعون**

حيطان منازلهم ويطمون بها تلك الآبار ، ففعلوا ذلك ــ فحمل الناس عليهم حملة واحدة .. وصعد الناس بالاعلام فوق قصور بابك ــ وكان قد كمن فى قصوره وهى أربعة ستمائة رجل ، وفتح أولئك الكمناء أبواب القصور وخرجوا رجاله يقاتلون الناس ، ومر بابك حتى دخل الوادى الذى يلى هشتادسر . واشتغل الأفشين وجميع قواده بالحرب على أبواب القصور فقاتل الخرمية قتالا شديدا **وأحضر النفاطين فجعلوا يصبون عليهم النفط والنار والناس يهدمون القصور حتى قتلوا عن آخرهم .. فاصعد الكلفرية فهدموا القصور وأحرقوها** ، فعل ذلك ثلاثة أيام حتى أحرق خزائنه وقصوره ولم يدع فيها بيتا ولا قصرا الا أحرقه وهدمه . ثم رجع وعلم أن بابك قد أفلت فى بعض أصحابه ، فكتب الأفشين الى ملوك أرمينية وبطارقها وأمرهم أن يحفظ كل واحد منهم ناحيته ولا يسلكها أحد الا أخذوه حتى يعرفوه . فجاء **الجواسيس** الى الأفشين فأخبروه بموضعه فى الوادى ، وكان واديا كثير العشب والشجر طرفه بارمينية وطرفه الآخر بأذربيجان ولم يمكن الخيل أن تنزل اليه ولا يرى من يستخفى فيه لكثرة شجره ومياهه ــ ويسمى هذا الوادى غيضه . فوجه الأفشين الى كل موضع يعلم ان طريقا ينحدر منه الى تلك الغيضة أو يمكن بابك أن يخرج من ذلك الطريق ، فصير على كل طريق وموضع من هذه المواضع عسكرا فيه مابين أربعمائة الى خمسمائة مقاتل ، **ووجه معهم الكوهبانية ليقفوهم على الطريق** ، وأمرهم بحراسة الطريق فى الليل لئلا يخرج منه أحد . وكان يوجه الى كل عسكر من هذه العساكر الميرة من عسكره وكانت هذه العساكر خمسة عشر عسكرا(٧٩) » .

هذا الوصف التفصيلى الممتع يقدم صورة متكاملة عن عملية حربية فذة قامت بها الجيوش الاسلامية ، ونحن نرى فى هذه الصورة كيفية تحرك هذه الجيوش وسيرها ، ونرى خطط القتال وفرق الاستطلاع والادلاء والكمائن ، ونرى المطوعة وما يثيرونه من قلق وسط الجند النظامية ، ونرى مهام النشابة والعرادات والكلفرية والمتطببين ــ كل ذلك فى صفحات متتابعة لمعركة واحدة ، تكتمل صورتها بما بذل من حيل ورسم من خطط لأسر بابك نفسه فى النهاية .

أما المعركة الأخرى التى تحمل أيضا معلومات طيبة عن فنون الحرب لدى الجيش الاسلامى فهى معركة عمورية التى شنها المسلمون ردا على

---

(٧٨) الطبرى جـ / ١٠ ص ٣١٨ : ٣٢٨ .

ايقاع تيوفيل بن ميخائيل صاحب الروم بأهل زبطرة « ذكر أن السبب في ذلك كان مالحق بابك من تضييق الأفشين عليه ، فلما أشرف على الهلاك وأيقن بالضعف من نفسه كتب الى ملك الروم يعلمه أن ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته اليه حتى وجه خياطه ــ يعنى جعفر ابن دينار ــ وطباخه ــ يعنى ايتاخ ــ ولم يبق على بابه أحد ، فان أردت الخروج اليه فاعلم أنه ليس فى وجهك أحد يمنعك ــ طمعا منه بكتابة ذلك اليه فى أن ملك الروم أن تحرك انكشف عنه بعض ما هو فيه بصرف المعتصم بعض من بازائه من جيوشه واشتغاله به عنه . فذكر أن توفيل خرج فى مائة الف وقيل أكثر فيهم من الجندنيف وسبعون الفا وبقيتهم اتباع ، حتى صار الى زبطرة **ومعه من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم اسحق ابن ابراهيم بن مصعب جماعة رئيسهم برسيس ، وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم فى أهم أموره اليه** . فلما دخل ملك الروم زبطرة وقتل الرجال الذين فيها وسبى الذرارى والنساء التى فيها وأحرقها بلغ النفير فيما ذكر الى سامرا ، **وخرج أهل ثغور الشام والجزيرة وأهل الجزيرة الا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح** ، واستعظم المعتصم ذلك فذكر أنه لما انتهى اليه الخبر بذلك صاح فى قصره النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالا وسكة حديد وحقيبة ... فلما ظفر المعتصم ببابك قال : أى بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل : عمورية ، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الاسلام وهى عين النصرانية وبنكها وهى أشرف عندهم من القسطنطينية فشخص غازيا الى بلاد الروم ، فذكر أنه **تجهز جهازا لم يتجهز مثله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط** . وجعل على مقدمته أشناس ويتلوه محمد بن ابراهيم ، وعلى ميمنته ايتاخ ، وعلى ميسرته جعفر بن دينار بن عبد الله الخيال ، وعلى القلب عجيف بن عنبسة . **ولما دخل بلاد الروم اقام على نهر اللامس** وهو على سلوقية قريبا من البحر بينه وبين طرسوس مسيرة يوم وعليه يكون الفداء **وأمضى المعتصم الأفشين حيدر بن كاوس الى سروج وامره بالبروز منها والدخول من درب الحدث وسمى له يوما أمره ان يكون دخوله فيه** ، وقدر لعسكره وعسكر أشناس يوما جعله بينه وبين اليوم الذى يدخل فيه الأفشين بقدر ما بين المسافتين الى الموضع الذى رأى أن يجتمع العساكر فيه وهو أنقره ، ودبر النزول على أنقرة فاذا فتحها الله عليه سار الى عمورية.
الى عمورية **وامر المعتصم أشناس أن يدخل من درب طرسوس وأمره** بانتظاره بالصفصاف ، وقدم وصيفا فى أثر أشناس على مقدماته

المعتصم . فلما صار أشناس بمرج الأسقف ورد عليه كتاب المعتصم من المطامير يعلمه أن الملك بين يديه وأنه يريد أن يجوز العساكر اللامس فيقف على المخاضة فيكبسهم ويأمره بالمقام بمرج الاسقف ، وكان جعفر ابن دينار على ساقة المعتصم ـ وأعلم المعتصم أشناس فى كتابه أن **ينتظر موافاة الساقة لأن فيها الأثقال والمجانيق والزاد وغير ذلك وكان ذلك بعد فى مضيق الدرب لم يخلص** ... فأقام أشناش بمرج الأسقف ثلاثة أيام ، حتى ورد كتاب المعتصم يأمره أن يوجه قائدا من قواده فى **سرية يلتمسون رجلا من الروم يسألونه عن خبر الملك** ومن معه . فوجه أشناس عمروا الفرغانى فى مائتى فارس ، فساروا ليلتهم حتى أتوا حصن قرة فخرجوا يلتمسون رجلا من حول الحصن فلم يمكن ذلك ، ونذر بهم صاحب قرة فخرج فى جميع فرسانه وكمن فى الجبل فيما بين قرة ودرة، وعلم عمرو الفرغانى أن صاحب قرة قد نذر بهم فتقدم الى درة فكمن بها ليلته فلما انفجر عمود الصبح صير عسكره ثلاثة كراديس وأمرهم أن يركضوا ركضا سريعا بقدر ما يأتونه بأسير عنده خبر الملك ووعدهم أن يوافوه به فى بعض المواضع التى عرفها الأدلاء ووجه مع كل كردوس دليلين ... »

ونجحت هذه السرية الاستطلاعية في مهمتها بعد أن شارفت الهلاك « فصاروا الى أشناس باللامس فسألهم عن الخبر ، فأخبروه أن الملك يقيم أكثر من ثلاثين يوما ينتظر عبور المعتصم ومقدمته باللامس فيواقعهم من وراء اللامس ، وانه جاءه الخبر قريبا أنه قد رحل من ناحية الأرمنياق عسكر ضخم وتوسط البلاد ـ يعنى عسكر الأفشين ـ وانه صار خلفه فأمر الملك رجلا من أهل بيتهابن خاله فاستخلفه على عسكره وخرج ملك الروم فى طائفة من عسكره يريد ناحية الأفشين فوجه أشناس بذلك الرجل الذى أخبره بهذا الخبر الى المعتصم فأخبره، فوجه المعتصم من عسكره قوما من **الادلاء** ، وضمن لهم لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم على أن يوافوا بكتابه الأفشين وأعلمه فيه أن أمير المؤمنين مقيم فليقم.. اشفاقا من أن يواقعه ملك الروم ، وكتب الى أشناس كتابا يأمره أن يوجه من قبله رسولا من الادلاء الذين يعرفون الجبال والطرق والمشبهة بالروم وضمن لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم أن هو أوصل الكتاب ويكتب اليه أن ملك الروم قد اقبل نحوه فليقم مكانه حتى يوافيه كتاب أمير المؤمنين . فتوجهت الرسل الى ناحية الأفشين ، فلم يلحقه أحد منهم وذلك انه كان وغل فى بلاد الروم . وتوافت آلات المعتصم وأثقاله مع صاحب الساقة الى العسكر فكتب الى أشناس يأمره بالتقدم ، فتقدم

أشناس والمعتصم من ورائه بينهم مرحلة ينزل هذا ويرحل هذا ولم يرد عليهم من الأفشين خبر حتى صاروا من أنقرة على مسيرة ٣ مراحل ، **وضاق عسكر المعتصم ضيقا شديدا من الماء والعلف** ... وأصابوا فى الأسرى عدة بها جراحات عنق من جراحات متقدمة فسألوهم عن تلك الجراحات فقالوا : (كنا فى وقعة الملك مع الأفشين .. وكنت ممن سار مع الملك فواقعناهم الغداة فهزمناهم وقتلنا رجالتهم كلهم وتقطعت عساكرنا فى طلبهم . فلما كان الظهر رجع فرسانهم فقاتلونا قتالا شديدا حتى خرقوا عسكرنا واختلطوا بنا واختلطنا بهم فلم ندر فى أى كردوس الملك ، فلم نزل كذلك الى وقت العصر . ثم رجعنا الى موضع عسكر الملك الذى كنا فيه فلم نصادفه فرجعنا الى موضع معسكر الملك الذى خلفه على اللامس فوجدنا العسكر قد انتقض وانصرف الناس عن الرجل قرابة الملك الذى كان الملك استخلفه على العسكر فأقمنا على ذلك ليلتنا .. فلما كان الغد وافانا الملك فى جماعة يسيرة فوجد عسكره قد اختل وأخذ الذى استخلفه على العسكر فضرب عنقه وكتب الى المدن والحصون الا يأخذوا ممن انصرف من عسكر الملك الا ضربوه بالسياط ويرجع الى موضع سماه لهم الملك انحاز اليه ليجتمع اليه الناس ويعسكر به ليناهض ملك العرب ، ووجه خادما له خصيا الى أنقره على أن يقيم بها ويحفظ أهلها ان نزل بها ملك العرب) . ثم ورد على المعتصم الأفشين بعد ذلك اليوم بيوم بأنقرة فأقاموا بها أياما .

« ثم صير العسكر ثلاثة عساكر : عسكروا فيه أشناس فى الميسرة والمعتصم فى القلب والأفشين فى الميمنة وبين كل عسكر وعسكر فرسخان ، وأمر كل عسكر منهم أن يكون له ميمنة وميسرة وان يحرقوا القرى ويخربوها ويأخذوا من لحقوا فيها من السبى . واذا كان وقت النزول توافى كل أهل عسكر الى صاحبهم ورئيسهم — يفعلون ذلك فيما بين أنقرة الى عمورية ... فقسمها أمير المؤمنين بين القواد كما تدور : صير الى كل واحد منهم أبراجا منها على قدر كثرة أصحابه وقلتهم وصار لكل قائد منهم ما بين البرجين الى عشرين برجا ، وتحصن أهل عمورية وتحرزوا . **وكان رجل من المسلمين قد أسره أهل عمورية فتنصر وتزوج فيهم فحبس نفسه عند دخولهم الحصن ، فلما رأى أمير المؤمنين ظهر وسار الى المسلمين وجاء الى المعتصم وأعلمه أن موضعا من المدينة حمل الوالى عليه من مطر جاءهم شديد فحمل الماء عليه فوقع السور من ذلك الموضع** . فكتب ملك الروم الى عامل عمورية أن يبنيه فتوانى حتى كان خروج الملك من القسطنطينية فبنى وجه السور

بالحجارة حجرا حجرا وصير وراءه من جانب حشوا ثم عقد فوقه الشرف. فلما الحت المجانيق على ذلك الموضع انصدع السور ، فكتب ياطس والخصى الى ملك الروم يعلمانه أمر السور ، **ووجها الكتاب مع رجل فصيح بالعربية وغلام رومى** وأخرجاهما من الفصيل فعبرا الخندق ودفعا الى ناحية أبناء الملوك المضمومين الى عمروا الفرغانى ، فلما خرجا من الخندق انكروهما ، فسألوهما من أين أنتما ؟ قالا : نحن من أصحابكم . قالوا من أصحاب من أنتم ؟ فلم يعرفا أحدا من قواد أهل العسكر ـ فأنكروهما . فساءلهما المعتصم وفتشهما ، فوجد معهما كتابا من ياطس الى ملك الروم يعلمه فيه أن العسكر قد أحاط بالمدينة فى جمع كثير وقد ضاق بهم الموضع ، وقد كان دخوله ذلك الموضع خطأ وأنه قد اعتزم على أن يركب ويحمل خاصة أصحابه على الدواب التى فى الحصن كائنا فيه ما كان : أفلت فيه من أفلت وأصيب فيه من أصيب حتى يتخلص من الحصار ويسير الى الملك . فلما قرأ المعتصم الكتاب أمر للرجل الذى يتكلم بالعربية والغلام الرومى الذى معه ببدرة ، فأسلما وخلع عليهما وأمر بهما حين طلعت الشمس فأداروهما حول عمورية ... وأمر **المعتصم أن تكون الحراسة بينهم نوائب فى كل ليلة يحضرها الفرسان يبيتون على دوابهم بالسلاح وهم وقوف عليها** ، لئلا يفتح الباب ليلا فيخرج من عمورية انسان ...

« وكان أول من بدأ بالحرب أشناس وأصحابه .. وكانت الحرب فى اليوم الثانى على الأفشين وأصحابه .. فلما كان فى اليوم الثالث كانت الحرب على أصحاب أمير المؤمنين خاصة ومعهم المغاربة والقيم بذلك ايتاخ .. فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت فى الروم الجراحات ، وكان قواد ملك الروم عند ما نزل بهم عسكر المعتصم اقتسموا البروج لكل قائد وأصحابه عدة أبرجة ، وكان الموكل بالموضع الذى انثلم من السور رجلا من قواد الروم يقال له (وندوا) وتفسيره بالعربية ثور ، فقال الرجل وأصحابه قتالا شديدا بالليل والنهار والحرب عليه وعلى أصحابه لم يمده ياطس ولا غيره بأحد من الروم .. فقالوا : سلم السور من ناحيتنا ، وليس نسألك أن تمدنا فشأنك وناحيتك .. فاعتزم هو واصحابه ء لى أن يخرجوا الى المعتصم ويسألوه الأمان على الذرية ويسلموا أرليه الحصن بما فيه من الخرثى والمتاع والسلاح وغير ذلك . فلما أصبح وكل أصحابه بجنبى الثلمة وخرج فقال : انى أريد أمير المؤمنين ، وأمر أصحابه ألا يحاربوا حتى يعود اليهم فخرج حتى وصل الى المعتصم فصار بين يديه والناس يتقدمون الى الثلمة ...

وكان ياطس فى برجه وحوله جماعة من الروم مجتمعين ، وصالت طائفة منهم الى كنيسة كبيرة فى زاوية عمورية فقاتلوا قتالا فأحرق الناس الكنيسة عليهم ، وبقى ياطس فى برجه حوله أصحابه وباقى الروم وقد أخذتهم السيوف فبين مقتول ومجروح .. ثم نزل ياطس فوقف بين يدى المعتصم وكان ملك الروم قد وجه رسولا فى أول مانزل المعتصم علىعمورية ، فأمر به المعتصم فأنزل على موضع الماء الذى كان الناس يستقون منه وكان بينه وبين عمورية ثلاثة أميال ، ولم يأذن له فى المصير اليه حتى فتح عمورية فلما فتحها اذن له فى الانصراف الى ملك الروم فانصرف . **وانصرف المعتصم يريد الثغور ــ وذلك أنه بلغه أن ملك الروم يريد الخروج فى أثره ، أو يريد التعبث بالعسكر** فمضى فى طريق الجادة مرحلة ثم رجع الى عمورية وأمر الناس بالرجوع ، ثم عدل عن طريق الجادة الى طريق وادى الجور ففرق الأسرى على القوات .. فساروا فى طريق نحوا من أربعين ميلا ليس فيه ماء ، فكل من امتنع من الأسرى أن يمشى معهم لشدة العطش الذى أصابهم ضربوا عنقه ، فدخل الناس فى البرية فى طريق وادى الجور فأصابهم العطش فتساقط الناس والدواب وقتل بعض الأسرى بعض الجند وهرب . وكان المعتصم قد تقدم العسكر فاستقبل الناس ومعه الماء قد حمله من الموضع الذى نزله ... وقال الناس للمعتصم : ان هؤلاء الأسرى قد قتلوا بعض جندنا . فأمر عند ذلك بسيل الرومى بتمييز من له القدر منهم فعزلوا ناحية ، ثم أمر بالباقين فأصعدوا الى الجبال وأنزلوا الى الاودية فضربت أعناقهم جميعا وهم مقدار ستة آلاف رجل . ورحل المعتصم من ذلك الموضع حتى دخل طرسوس ، وكان قد نصب له الحياض من الادم حول العسكر من الماء الى العسكر بعمورية والحياض مملوءة والناس يشربون منها لايتعبون فى طلب الماء » (٨٠) .

ولئن كان قتال المسلمين للخرمية قد أبرز صورة معركة دارت فى بيئة جبلية وعرة لا يلتقى فيها المحاربون جملة فى واقعة حاسمة وانما تلتقى سراياهم فى معارك جزئية اذ كان الخرمية يمارسون حربا أشبه بحرب العصابات ، فان معركة المسلمين مع البيزنطيين كانت شيئا آخر متميزا : فقد اقتتل فيها جيشهم مع جيش منظم ، وبرزت فيها أعمال الحصار بصفة خاصة ، وراعى فيها المسلمون استطلاع أحوال عدوهم فى كل مراحل تحركاتهم واستخدموا الحيلة فى الوصول الى أغراضهم ، وكان عليهم أن يدبروا فى خلال حملاتهم تموين جيوشهم ودوابهم . وقد

---

(٨٠) الطبرى ج ١٠ ص ٣٣٤ : ٣٤٣ .

تألق الأفشين فى قتال الخرمية وفى قتال الروم على السواء وفى ختام أخبار عمورية السالفة يروى الطبرى فى مدح الأفشين هـذا الشعر للحسين بن الضحاك الباهلى :

انما الأفشين سيف سله قدر الله بكف المعتصم
لم يدع بالبذ من ساكنة غير أمثال كأمثال ارم
ثم أهدى سلما بابكة رهن حجلين نجيا للندم
وقرى توفيل طعنا صادقا فض جمعيه جميعا وهزم
قتل الأكثر منهم ونجا من نجا لحما على ظهر وضم

غير أن الأفشين لاقى بعد ذلك أسوأ مصير متهما فى ولائه للدولة •

* * *

هذا شىء من الفنون الحربية التى عرفها واقع المسلمين التاريخى فى معاركهم ، أما **المؤلفات العلمية فى** هذا المجال فقد ذكرنا كتاب **ابن صابر المنجنيقى** الذى لم يصلنا • ولم تلق المؤلفات الاسلامية فى الفنون الحربية عناية من الدارسين فى أول الأمر حتى اعتمد مؤرخ مثل شارلس اومان على كتاب ليو Tactica فى تناوله لعمليات المسلمين الحربية • والواقع أنه **باستثناء أحكام الجهاد المبثوثة فى كتب الفقه وبعض المسائل المتعلقة بالتدريب على الفروسية، فان الكتاب المسلمين حتى عهد الحروب الصليبية لم يوجهوا سوى القليل من مواهبهم الى الشئون الحربية** • وفى بيان الكتب المتعلقة بالحرب الذى أعده Aloys Sprenger سنة ١٨٤٠ م كان معظم الكتب المتعلقة بالعلوم الحربية فى القائمة الأولى تتناول بحث السروج واللجام والركاب والصيد وأسماء الخيل بينما كانت القائمة الثانية تتناول عرضا تاريخيا للحروب والوقائع ومشاهير المحاربين • ولا يبدأ المرء يسمع عن الكتب التى تعرض للرمح وفنون السيف والفروسية ورمى السهام والتحصين والقذائف ـ الخ الا منذ أواسط القرن ١١ م • ويبدو أن الحروب الصليبية أعادت الى المسلمين أحساسهم بمواطن ضعفهم وحاجتهم لتحسين تكتيكهم الحربى وتسليحهم فى مواجهة قوات الخيالة الأوربية الثقيلة وآلاتهم فى الحصار وأسلحتهم المعقدة • على أن هناك كتابا يسمى **(الفروسية والبيطرة) لمحمد بن يعقوب بن حزام الخطلى** الذى كان يشرف على خيول المعتصم العباسى (٢١٨ : ٢٢٧ هـ ـ ٨٣٣ : ٨٤٢ م) والمؤلف يقر بفضل السبق للفرس فى مجالات الفروسية والتدريب والتكتيك ، وهناك خلاف حول اسمه وحول ما اذا كان يعمل للمعتصم أو المتوكل أو المعتضد وعلى كل حال ينبغى فحص المخطوطة

ذاتها للاستيثاق منها ومن نسبتها وتاريخها ، وسيما أنه قد اعتمدت عليها مؤلفات أخرى (٨١) ٠

وقد سبقت الى بيان بعض أساليب الحرب أحاديث الرسول واخبار سيرته وقد كتب عبد الحميد الكاتب على لسان مروان الى ولى عهده عبد الله ابن مروان حين وجهه لمحاربة الضحاك الخارجي فاشتمل كتابه على بعض قواعد الحرب المعروفة عند الأمويين قال : اذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مختصر وكان من عسكرك مقتربا ، فقد شامت طلائعك مقدمات ضلالته وحماة فتنته ــ فتأهب أهبة المناجزة وأعد أعداد الحذر ٠ وكتب خيولك وعب جنودك ، واياك والمسير الا مقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، قد شهروا بالأسلحة ونشروا البنود والأعلام ، وعرف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم قد أخذوا أهبة القتال ٠٠ وليكن ترجلهم وتنزلهم على راياتهم وأعلامهم ومراكزهم ٠٠ وعرف كل قائد وأصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، حتى تكون عساكرهم في كل منهل تصل اليه ومسافة تجتازها كأنها عسكر واحد ٠٠ ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك فى نفسك صرامة ونفاذا ورضى فى العامة ، انصافا من نفسه فى الرعية ٠٠ نظيرا لك فى الحال وشبيها بك في الشرف ٠ ثم كثف معه الجمع وأيده بالقوة وقوة بالظهر وأعنه بالأموال واغمره بالسلاح ، ومره بالعطف على ذوى الضعف من جندك ومن زحفت به دابته أو اصابته نكبة من مرض غير أن تأذن لأحد منهم بالتنحى عن عسكره أو التخلف بعد ترحيله الا المجهود أو المطروق بآفة ، ثم تقدم اليه محذرا ومره زاجرا وانهه مغلظا بالشدة على من مر به منصرفا عن معسكره من جندك بغير جوازك شادا لهم أسرا وموقرهم حديدا ٠٠ أجعل خلف ساقتك رجلا من وجوه قوادك عفيفا صارما شهم الرأى شديد الحذر في خمسين فارسا من خيلك ، تحشر اليهم جندك ويلحق بك من يتخلف عنك بعد الابلاغ فى عقوبتهم ٠٠ ليكن رحيلك ابانا واحدا ووقتا معلوما ، لتخف المؤنة بذلك على جندك ويعلموا أوان رحيلهم فيقوموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم وأعلاف دوابهم ، وتسكن أفئدتهم آلى الوقت الذى وقفوا عليه ٠٠٠ اياك أن تنادى برحيل من منزل تكون فيه حتى يأمر صاحب تعبيتك بالوقوف على معسكرك ، آخذا بفوهة مجنبتيه بأسلحتهم عدة الأمر ان حضر ومفاجاة من طليعة للعدو ان أراد نهزة أو لمحت عندكم غرة ٠٠٠ اياك أن يكون منزلك الا فى خندق أو حصن تأمن به بيات عدوك

(٨١) دكتور جورج سكانلون : مقدمة بالانجليزية لكتاب عمر بن ابراهيم الأوسى الأنصارى « تفريج الكروب فى تدبير الحروب »

وتستنيم فيه الى الحزم من مكيدته . اذا وضعت الأثقال وخططت أبنية أهل العسكر لم يمد خباء ولم ينتصب بناء حتى يقطع لكل قائد ذرع معلوم من الأرض بقدر أصحابه ، فيحتفروه عليهم ، ويبنون بعد ذلك خنادق الحسك طارحين لها دون اشجار الرماح وانصب الترسة لها بابان قد وكلت بعد بحفظ كل باب منها رجلا من قوادك فى مائة رجل من أصحابه وتقدم اليهم فلا يكون قتالهم بالليل فى تلك المواضع من طرقهم الا بالرماح مسندين لها صدورهم ، والنشاب راشقين به وجوههم ، قد ألبدوا بالترسة واستجنوا بالبيض وألقوا عليهم سوابغ الدروع وجباب الحشو . فان صد العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى كبر أهل تلك الناحية الأولى وبقية العسكر سكوت والناحية التى صدر عنها العدو لازمة لمراكزها .. واياك ان تخمد نار رواقك ، واذا وقع العدو فى معسكرك فأججها ساعرا لها ، وأوقدها حطبا جزلا يعرف بها أهل العسكر مكانك ويسكن نافر قلوبهم ولا يرجفون فيك بالظنون » (٨٢) .

وقد عرضت بعض المؤلفات الاسلامية العامة المبكرة فى ثناياها للحرب وأوردت بعض الوصايا والتعاليم فى شأنها .

وجاء فى **شرح السرخسى لكتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى مثلا :** « كره اتخاذ **الجرس** للغزاة فى دار الحرب ، فانهم اذا قصدوا أن يبيتوا العدو علم بهم العدو بصوت الجرس فيبدرون بهم .. وأما ما كان فيه فى دار الاسلام منفعة لصاحب الراحلة فلا بأس به .. يدفعون به النوم عن أنفسهم ومن يضل عن الطريق يتمكن من اللحوق بهم بصوت الجرس فلا يضل . ومن الدواب ماينشط فى السير بصوت الجرس ... قال محمد : ولا يستحب رفع الصوت فى الحرب من غير أن يكون ذلك مكروها من وجه الدين ولكنه فشل ، فان كان فيه تحريض ومنفعة للمسلمين فلا بأس ... » « وكتب أبو بكر الى عماله بالشام : لا تبعثوا الى برأس ، ولكن يكفينى الكتاب والخبر » ، « قال محمد : **وينبغى أن يؤمر على الجند العاقل الفاضل العالم بالحرب الرفيق . واذا نادى الأمير أن يكون فلان وجنده فى الميمنة ، وفلان وجنده فى المقدمة ، وفلان وجنده فى الميسرة ، وفلان وجنده فى الساقة فلا ينبغى لأحد أن يترك الموضع الذى أمره بالكون فيه** ... ولو نادى المنادى . الساقة غدا على أصحاب الخيل . فهو على نحو ما ذكرنا ، وينبغى لأصحاب البرآذين أن يكونوا مع أصحاب العراب فى ذلك ، الا أن يكون المعروف من ذلك أنهم اذا نادوا بذلك

(٨٢) كرد على خطط الشام جـ / ٥ ص ١٣ : ١٦ .

يريدون أصحاب العراب خاصة لأنها أسرع فى الطلب والحرب • وان قال : الميمنة غدا على أهل المصيصة فكان رجل من أهل الكوفة سكن المصيصه لقوله صلى الله عليه وسلم ومن تأهل ببلدة فهو من أهلها ، وان كان لم يتخذ المصيصة مسكنا فلا يدخل فى هذا النداء الا أن يكون ديوانه مع أهل المصيصة • **فان شد العدو الى الساقة فلا بأس بأن يعينهم أهل الميمنة والميسرة اذا خافوا عليهم فان كان ذلك يخل بمراكزهم فلا ينبغى لهم أن يفعلوا • وان أمرهم الأمام أن لا يبرحوا من مراكزهم ونهى عن أن يعين بعضهم بعضا فلا ينبغى لهم أن يعصوه ، وان امنوا من ناحيتهم وخافوا على غيرهم** •• وان خرج علج من المشركين بين الصفين يدعو الى **البراز** فلا بأس بأن يخرج اليه رجل من المسلمين من غير أن يستأذن من الامام فى ذلك مالم ينههم •• فاذا تبارز المسلم والمشرك فلا بأس بأن يعين المسلمون صاحبهم اذا قدروا ••ولا بأس بأن تخرج الجماعة الممتنعة الى **العلافة** بغير اذن الوالى فيتعلقون ثم يرجعون ، الا أنهم لا يتمكنون من ذلك الا بمنعه فلا بأس بأن يخرجوا اذا كانوا أهل منعة ولا يتفرقون الا بحيث يغيث بعضهم بعضا •• وان نادى منادى الأمير بالنهى عن الخروج للعلافة فلا ينبغى لأهل منعة ولا لغيرهم أن يخرجوا ، الا أنه ينبغى للامام أن يبعث لذلك قوما ••• **ولا أحب اذا انتهوا الى القرى أن يدخل الرجل الواحد لعل فيها قوما مختفين فيقتلونه ، ولكن يدخل عدد القرية متأهبين للقتال ،** فان كان فيها أحد أعلن بعضهم بعضا لقوله تعالى (خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) • وان نهى الأمير المسلمين أن يقطعوا الشجر أو يهدموا الأبنية فليس ينبغى لهم أن يعصوه فى ذلك » •

وفى المدونة الكبرى من رواية سحنون عن عبد الرحمن بن القاسم عن مالك أنه لا بأس بحرق قرى العدو المحارب وحصونه بالنار أو اغراقها بالماء وتخريبها وقطع الشجر فى أرضه فاذا حصر المسلمون المشركين ومعهم أسرى من المسلمين فى حصن أو سفينة لم يكن للمسلمين أن يلقوا على عدوهم النار حفاظا على الأسرى المسلمين • أما بالنسبة للعتاد والمتاع والحيوان الذى يضطر المسلمون للتخلى عنه فقد ورد فى المدونة « قلت : أرأيت البقر والغنم والدواب والطعام والسلاح والأمتعة من متاع الروم ودوابهم وبقرهم وطعامهم ، وما ضعف عنه أهل الاسلام من أمتعات أنفسهم وما قام عليهم من دوابهم — كيف يصنعون بهذا كله فى قول مالك ؟؟ قال : قال مالك : يعرقبون الدواب أو يذبحونها وكذلك البقر والغنم ، وأما الأمتعات والسلاح فان مالكا قال تحرق •• ولقد قال مالك فى الرجل تقف عليه دابته أنه يعرقبها أو يقتلها ولا يتركها للعدو ينتفعون بها » •

وقد عرض الماوردى الأحكام الخاصة بالجهاد ، وبدأ بمسير الجيش • فنص على وجوب الرفق فى السير وتفقد الخيل ومراعاة المسترزقة والمتطوعة وتعريف العرفاء وتنقيب النقباء واتخاذ شعار لكل طائفة وتفقد الجيش لاستبعاد من يستراب فيه والاستيثاق من عدم المحاباة أو التحامل • أما بالنسبة لما يلزم أمير الجيش فى سياسة الجند فقد أجمل الماوردى ذلك فى : حراسة قواته حتى لا يباغتها العدو ، وتخير مواضع نزولهم لمحاربة العدو « وذلك أن يكون أوطأ الأرض مكانا ، وأكثرها مرعى وماء ، وأحرسها أكنافا وأطرافا » • كما أن على القائد تدبير تموين جيشه من زاد وعلوفة ، واستطلاع أخبار عدوه وترتيب الجيش فى مصاف الحرب « والتعويل فى كل جهة على من يراه كفؤا لها ، ويتفقد الصفوف من الخلل فيها ويراعى كل جهة يميل العدو عليها بمدد يكون عونا لها » • ثم على القائد أن يتعهد الروح المعنوية لجنده ، ويشاور ذوى الرأى فى تدبير الأمر ، وعليه أخيرا أن يقيم أحكام الله بين أفراد الجيش « حتى لا يكون بينهم تجوز فى دين ولا تحيف فى حق ، فان من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه ••• ولا يمكن أحدا من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة ، لصرفه الاهتمام بها من مصابرة العدو وصدق الجهاد » • وفى قتال العدو أجاز الماوردى نصب العرادات والمنجنيقات والهدم والتخريب ، والبيات وقطع الشجر والتحريق • وهو يفرق بين الامارة على حملة مفردة بعينها وبين الامارة على حملات سنوية متعاقبة ـ شأن الصوائف والشواتى التى تخرج من الثغور « فاذا عقدت هذه الامارة على غزوة واحدة لم يكن لأميرها أن يغزو غيرها ـ سواء غنم فيها أو لم يغنم ، واذا عقدت عموما عاما بعد عام لزمه معاودة الغزو فى كل وقت يقدر على غزو فيه ، ولا يفتر عنه مع ارتفاع الموانع الا قدر الاستراحة ، وأقل مايجزيه أن لا يعطل عاما من جهاد • ولهذا الأمير اذا فوضت اليه الامارة على المجاهدين أن ينظر فى أحكامهم ، ويقيم الحدود عليهم وسواء من ارتزق منهم أو تطوع ، ولا ينظر فى أحكام غيرهم ماكان سائرا الى ثغر ، فاذا استقر فى الثغر الذى تقلده جاز أن ينظروا أحكام جميع أهله من مقاتلته ورعيته ، وان كانت امارة خاصة أجرى عليها حكم الخصوص » (٨٣) •

وعقد ابن خلدون فى مقدمته فصلا : فى الحروب ومذاهب الأمم فى

---

(٨٣) شرح السرخسى للسير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى جـ١ ص ٨٧ : ٩ ، ١١٠ ، ١٦٨ ، ١٧٠ : ٢ ، ١٧٤ ـ ٥ ، ١٧٨ المدونة الكبرى لسحنون جـ٣ ص ٧ ـ ٨ ، ٢٤ ، ٤٠ ، الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢٩ وما بعدها •

ترتيبها كان مما جاء فيه : « وصـــفة الحروب على نوعين : نوع بالزحف صفوفا ، ونوع بالكر والفر ٠٠ أما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم ، وأما الذى بالكر والفر فهو قتال العـرب والبربر **وقتال الزحف أوفق وأشد من قتال الكروالفر** ٠٠ واما قتال الكروالفر فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما فى قتال الزحف ٠٠٠ ثم ان الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمـون الجيوش والعساكر **أقساما يسمونها كراديس ويسوون في كل كردوس صفوفا** وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الـكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحى اسـتدعى ذلك أن يجهـل بعضهم بعضا اذا اختلفوا فى مجـال الحرب ٠٠٠ فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعا ، ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ، ويرتبونها قريبا من الترتيب الطبيعى فى الجهات الأربع، ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد فى القلب ، ويسمون هذا الترتيب التعبئة وهو مذكور فى أخبار فارس والروم والدولتين صدر الاسلام٠٠٠ ومن مذاهب أهل الكروالفر فى الحروب **ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيـوانات العجم فيتخلونهـا ملجأ للخيـالة** فى كرهم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب الى القلب ، وقد يفعله أهل الزحف أيضا ليزيدهم ثباتا وشـدة ٠ فقد كان الفرس وهم أهـل الزحف يتخذون الفيـلة فى الحروب ويحملون عليهـا ابراجا من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويضعونها وراءهم فى حومة الحرب كأنها حصون فتقوى بذلك نفوسهم ٠٠ وأما الروم وملوك القـوط بالأندلس وأكثر العجم فـكانوا يتخـذون لذلك الأسرة ينصبون للملك سريرة فى حومة الحرب ويحف به من خدمة وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاسـتماتة دونه ، وترفع الرايات فى أركان السرير ويحـدق سياج آخر من الرماة والرجالة ٠٠٠ وأما أهل الكروالفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون لذلك ابلهم والظهر الذى يخمـل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمونهـا المجبوذة ٠٠٠ وكان الحرب أول الاسـلام كله زحفا ، وكان العرب انما يعرفون الكر والفر ـ لكن حملهم على ذلك أول الاسلام أمران : احدهمـا أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفـا فيضطرون الى مقاتلتهم بمثل قتالهم ، والثانى أنهم كانوا مستميتين فى جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الايمان والزحف الى الاستماتة أقرب ٠ **وأول من أبطل الصف فى الحروب وصـار الى التعبئـة كراديس مروان** فى قتال الضحاك الخارجى والخيبرى بعده ٠ قال الطبرى (فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكرى ويلقب ابا الدلفاء ، وقاتلهم مروان

بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ) • **فتنوسي قتال الزحف بابطال الصف ، ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف** •• لذلك نسوا عهد الابل والظعائن فخلفوا النساء فى الأسفار ، وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية ، فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية ـ وكان ذلك صفتهم فى الحرب • وكان من مذاهب الأول فى حروبهم حفر **الخنادق** على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف ، حذرا من معرة البيات والهجوم على العسكر بالليل ••• **وأسباب الغلب فى الأكثر مجتمعة فى أمور ظاهرة : وهى الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ، وفى أمور خفية : وهى اما من خدع البشر وحيلهم فى الارجاف والتشانيع التى يقع بها التخذيل وفى التقدم الى الأماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفى الكون فى الغياض ومطمئن الأرض والتوارى بالكدى عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتلفتون الى النجاة وأمثال ذلك، واما أن تكون تلك الأسباب الخفية أمورا سماوية** لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى فى القلوب فيستولى الرهب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة ، وأكثر ماتقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة مايعتمل لكل واحد من الفريقين فيهاحرصا على الغلب ، فلا بد من وقوع التأثير فى ذلك لاحدهما ضرورة ـ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (الحرب خدعة) ••• وقد ذكر الطرطوشى أن من أسبا الغلب فى الحروب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير الشجعان فى أحد الجانبين على عدتهم فى الجانب الآخر •• وليس بصحيح وانما الصحيح المعتبر فى الغلب حال العصبية ، أن يكون فى أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم وفى الجانب الآخر عصائب متعددة » (٨٤) •

ومن المؤلفات الحربية التى ترجع الى العصر الأيوبى : **تبصرة الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ، ونشر أعلام الاعلام فى العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء** ، ومؤلفها مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى الذى عاش زمن صلاح الدين •

وقد تناول **الطرطوشى** فى كتابه (سراج الملوك) التحركات الحربية ، وحبذ طريقة الصفوف وفضل تقديم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطويلة والمزاريق المسنونة النافذة (٨٥) •

(٨٤) ابن خلدون : المقدمة ـ طبعة الدكتور وافى ج ٢ ص ٥٦٣ : ٦٦٦ •

(٨٥) دكتور زيادة : مؤلف الطرسوسى فى التاريخ الحربى على عهد الأيوبيين ـ المجلة التاريخية المصرية م٢ ع١ مايو سنة ١٩٤٩ ، حسينى : الادارة العربية ـ ترجمة دكتور العدوى ص ٦٥ ، الطرطوشى سراج الملوك •

وجاء فى « **آثار الأول فى ترتيب الدول** » فصل فى الحروب والمصافات وتعبية العساكر ومايبنغى لأهلها وولاتها وصفة المصاف كان مما ورد فيه « وليعب ـ الملك ـ جيوشه ، ويأمر كل أمير بحفظ مركزه وصيانة طلبه ، ويرتب الطلائع من جهة العدو ، ويتقدم على تعبيته ٠ فاذا قرب اللقاء فلا يهمل أمر الشمس ويجتهد أن تكون فى وجه أعدائه ، وكذلك الريح ٠٠ وان أمكنه أن يتجنب المواضع الكثيرة الغبار والسباخ والموالح والوعر فعل ، ويتحرز من قرب المواضع آلتى يتوقع منها خروج الكمين الا بعد البحث والكشف ٠٠ ويجب على الملك قبل الحرب والفحص عن الأرض ومكانها وحفائرها ومخايضها وطرقها ومناهلها ومعاطشها ليكون على بصيرة بمن معه ان كانت الكرة له أو عليه ، واذا دخل أرض العدو فليحتفظ من المضايق والدربندات فربما أمسكت له أواخرها أو أواسطها ٠٠ فان دعت الضرورة الى ذلك وجاز المضايق بعد كشفها فينبغى للملك أن يشحنها بالرجال الأنجاد ويتركهم بها يحفظونها ٠٠ ثم يجتهد فى دخوله أرض العدو من التهجم على شرب مياه الآبار والغدران والأحواض فربما كانت مسمومة ٠٠ وكما أنه يحترز من قلة المياه ومضرتها فكذلك يحترز من كثرتها فربما كانت الطريق على سباخ أو أرض رخوة وفتحت المياه اليها فيهلك من توسطها » وقد عرض المؤلف بعد ذلك للمصاف وتعبئة العساكر للحرب كما تناول الحصار وفتح القلاع ومايبنغى أن يفعله الحاصر والمحصور ولم يغفل حروب البحر (٤٦) ٠

وقد تميز الفقه الاسلامى **بأحكام مفصلة فى تقسيم الغنائم** ، وأجاز لكل أمير فى أرض الحرب يلى سرية أو جندا أن ينفل منها أصحابه **قبل اصابة الغنيمة** وهو فى ذلك بمنزلة الامام « قال محمد : ولو أن أمير المصيصة بعث سرية لم يكن له أن ينفل بعضهم على بعض، بخلاف ما اذا دخل الامام مع الجيش دار الحرب ثم بعث سرية ونفل لهم ما أصابوا فانه يجوز ٠ قال السرخسى : لأن السرية المبعوثة الى المصيصة يختصون بما أصابوا قبل تنفيل الامام ، وليس لأهل المصيصة معهم شركة فى ذلك فان المصيصة من دار الاسلام ومن يتوطن فى دار الاسلام لا يشارك الجيش فيما أصابوا فليس فى هذا التنفيل الا ابطال الخمس ٠ وأما السرية المبعوثة من الجيش فى دار الحرب فلا يختصون بالمصاب قبل تنفيل الامام، وانما هذا التنفيل للتخصيص على وجه التحريض لهم فكان مستقيما ٠ قال محمد : ثم لا ينبغى

---

(٨٦) الحسن بن عبد الله : آثار الأول فى ترتيب الدول ص ١٦٧ وما بعدها الى ١٩٨ ٠

للامام أن ينفل أحدا شيـــئا الا ببلاء يبليه وذلك لا يحصل للتنفيل فى السرية المبعوثة فى دار الاسلام ويحصل فى السرية المبعوثة من الجيش فى دار الحرب • وكذلك لو حاصروا حصنا فكره القوم التقدم فيقول الأمير : من تقدم الى القتال أو الى الباب أو الى حصر الحصن فله كذا ـ فذلك تنفيل مستقيم لما فيه من معنى التحريض والمنفعة للمسلمين ، وكل من فعل ذلك استحق ما سمى له من المصاب قبل الخمس والقسمة ، فاما ماليس فيه منفعة للمسلمين فلا ينبغى فيه التنفيل ••• ولو بعث أمير المصيصة سرية منها فنفل أصحاب الخيل دون الرجالة لم يجز ـ لأن هذه السرية مبعوثة من دار الاسلام ، وهذا تنفيل عام ـ فان أهل السرية أصحاب الخيل كلهم والتنفيل العام لا يجوز ـ لأنه ليس فيه الا ابطال الخمس وتفضيل الفارس على الراجل • ولكنه لو أرسل معهم قوما من أصحاب المجانيق وقوما يحصرون الحصن فنفلهم شيئا لجزائهم وغنائهم فهذا جائز ـ لأنه تنفيل خـــاص لبعض أهل السرية ، بخلاف السرية المبعوثة فى دار الحرب لو نفل أصحاب الخيل جاز ـ لأن التعميم فى حقهم لا يمنع صحة التنفيل اذ المقصود قطع شركة الجيش معهم » • أما بالنسبة لمن يتخذ دليلا من الأسرى فقد ورد « لو قال الأمير : من دلنا على طريق درب الحدث فهو حر ، فدلهم رجل على طريق المصيصة أو طريق ملطية ـ فان كان ذلك أقـــرب وأكثر منفعـــة فهو حر ، وان كان ليس كذلك أو لا يدرى أهو كذلك أم لا فهو فىء » • وبالنسبة لمن يجوز منه النفل بعد اصابة الغنيمة قال محمد « ولو بعث الخليفة عاملا على الثغور ولم يذكر له النفل بشىء فله أن ينفل قبل الخمس و بعد الخمس ـ لأنه انما استعمل على الثغور ليحفظها ويغزو أهل الحرب حتى يقطع طمعهم عنها ، والنفل من أمر الحرب فانه تحريض على القتال ـ الا أن ينهاه الخليفة عن النفل•• ولو أن هذا العامل بعث سرية من الثغور وأمر عليهم أميرا فنفل أميرهم فى دار الحرب للسرية سلب القتلى فذلك جائز كما يجوز من العامل لو غزا بنفسه ـ لأنه فوض اليه أمر الحرب وجعله نافذ الأمر على أهل السرية ، وانما بعثهم من دار الاسلام فكان أميرهم كأمير العسكر وتنفيل أمير العسكر جائز وان لم يؤمر به نصا لأن الحق فى المصاب لمن تجب ولايته خاصة فكذلك تنفيل أمير السرية • ولو نهاه العامل أن ينفل أحد شيئا فنفل لم يجز تنفيله » (٨٧) •

---

(٨٧) شرح السرخسي للسير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى ج ٢ ص ٦٢٠ : ٣ ، ٦٦١-٢ ، ٧٨٧ ، ٨٠٦ - ٧ •

وواضح من هذه النصوص كثرة الأحكام التى تتعلق بالثغور ، فقد كانت ميدان الجهاد البارز الذى عملت منه الجيوش الاسلامية ٠

المواصلات والاشارات والمخابرات :

اهتم المسلمون بخطوط مواصلاتهم ، وكان لهم فى النقل ميزة على أعدائهم فقد كانوا خفاف الحركة لا يستخدمون وسائل ثقيلة للنقل ، وأسعفهم فى ذلك الجمل بجانب الخيول والبغال والحمير ، فضلا عن القوارب النهرية والزوارق للعبور ، وقد اهتموا بالطرق فى أرجاء دولتهم ٠ وقد حددت الظروف الجغرافية **طرق المواصلات** فى أرجاء بلاد الشام التى سلكتها جيوش الفتح ، كما سلكتها البعوث المنتدبة من جهـــات الشام المختلفة وما يليها من البلدان الى الثغور فتتألف الشام من ٣ دروب موازية لساحل البحر تفصل بعضها عن بعض سلسلتان من الجبال الشاهقة تتخللها فرج فى مواضع قليلة ٠ فالطرق تنحصر فى ثلاث نقاط : الطرق الواصلة بين المدن الواقعة فى درب واحد ، والطرق الواصلة بين المدن الواقعة بين دربين متوازين بواسطة طرق عرضية أى شرقية غربية وتتخلل الجبال ، والطرق المتشعبة كالشرايين فى سهول دمشق وحمص (٨٨) ٠ وفى الشمال يقطع جبال طوروس دروب سلك المسلمين اثنين منها بوجه خاص فى غزواتهم السنوية لبلاد الروم : أولهما درب الحدث وهو فى الشمال الشرقى وكان يتجه من مرعش شمالا الى ابلستين التى عرفت فى الأزمنة الأخيرة بالبستان (وهى ابلستا البيزنطية Ablastha وعربسوس اليونانية Arabissus) ويحمى هذا الدرب حصن الحدث Adata وثانى الدروب وكثـــيرا ما كان يسلك فى الأزمنة القـــديمة هو **درب الأبواب الفيليقية (الكيليكية)** الضارب شمالا من طوسوس ومنه يأخذ الطريق العـام الى القسطنطينية وكان يسلكه سـعاة البريد ويتجـه منه وفود الامبراطورية والخـــلافة ، كما أنه الطـــريق الذى تتبعـــه ندبات الغزو الجنوبى بدرب السلامة ويتصل بالأبواب القيليقية (الكيليكية) المشهورة Pylae Ciliciae وقـــد عنى ابن خـــرداذبة بوصف هـــذا الطريق ، على أن كثيرا من المواضع التى ذكرها لا يمكن تعيينها الآن ٠ وقد تقدم وصفه للطرق بين ديار الاسلام وبلاد الروم فى (التعريف الجغرافى) (٨٩) ٠

---

(٨٨) كرد على : خطط الشام ج /٥ ص ٢٩٦ ــ ٢ ٠

(٨٩) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ٠ ترجمة فرنسيس وعواد ص ٦٥ : ٧ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠١ : ٤ ٠

واستفاد المسلمون من الطرق التى كان قد مهدها الروم لجيوشهم ، ومن **القناطر** التى أقاموها من قبل على مجارى الماء • وأعجب قنطرة فى البلاد الاسلامية كانت مبنية على طريقة الروم ـ وهى قنطرة سنجة التى بناها الامبراطور فسباسيان على نهر سـنجة أحد فروع دجلة على مقربة من سميساط وكانت تعد من عجائب الدنيا « كبيرة شاهقة متصلة بالجبل على حجر مخوخ اذا زاد عليها الماء اهتزت » وكانت عقدا واحدا كل حجر من أحجاره عشرة أذرع فى خمسة •

ونظم **البريد** لربط أجزاء الدولة وكانت المسافات تقاس بالأميال فى غربى الفرات ، أما فى شرقيه فبالفراسخ • وكانت توجد محطات للبريد تسمى السكك وهى مزودة بالخيل وسائقيها على مسافات معينة كل ثلاثة أميال أو فرسخين • وكان بين أطراف ديار الاسلام فى المشرق والمغرب وبين ماىليها من أقطار شبه تبادل دولى فى البريد ، فكان بريد الترك يصل الى يوشجان الأعلى وهو حد الصين ، وكان بريد آسيا الصغرى يواصل الرحلة الى القسطنطينية • وكانت تنظم أثناء الحروب **برد حربية** كما كان يقام حصن عند كل فرسخ من الطريق • ولا عجب أن تكون للبريد أهميته الحربية ، فقد كان صـاحب البريد هو صاحب الاخبار الرسمى وكان له عيون يوافونه بكل جديد ، وهذا ميراث أخذه العرب عن البيزنطيين • ففى عهد قسطنطين الأكبر كان لصاحب البريد أعوان يسمون باسم Veredarii ـ وهم نقلة الاخبار الذين يركبون الخيل (٨٩) وقد أقام معـاوية الخيول على الطرق لنقل البريد ورتب له الاميـال والمحطات ، واستفادت الدولة الاسلامية فى ذلك من السوابق الفارسية والرومانية ، وخص عبد الملك بن مروان البريد بقسط وافر من عنايته كى يضمن سلامة الامن والادارة فى الداخل ويقف على حركات العدو فى الخـارج • وقد أستعين ببريد الشام فى انجاد جيش الدولة الذى يحاصر شبيب الخارجى • وكان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى يبلغ فى بعض الأحايين أربعين أو خمسين دابة سيما اذا استخدمت فى نقل الجنود لاخماد الفتن والثورات • وفى عهد العباسيين كانت الظروف تستلزم الاكثار من العيون لكتابة التقارير للخلفاء وسرعة ايصالها اليهم لاستحكام العداء وتتابع القتال بين العباسيين والروم (٩٠) •

---

(٨٩) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ٢ ص ٢٩٧ : ٣٠٠ : ٣ ، ٣٠٩ ، حـ/١ ص ١٠١ •

(٩٠) دكتور نظير سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية ص ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٨ ـ ٩ ،

وحين أغزى المهدى ابنه هارون الروم وأحب أن يتابع أخباره أولا بأول ، رتب بينه وبين معسكر ابنه بردا « كانت تأتيه بأخباره وتريه متجددات أيامه » ، بعد أن كان البريد منذ أواخر الدولة الأموية « لا يشد له سرج ولا تلجم له دابة » • على أن شئون البريد لم تنتظم دوما بعد تلك الغزوة ، « فلما كانت خلافة الرشيد ذكر يوما حسن صنيع أبيه فى البرد التى جعل بينهما ، فقال له يحيى بن خالد : لو أمر أمير المؤمنين باجراء البريد على ما كان عليه كان صلاحا لملكه ، فأمره به فقرره يحيى ابن خالد ورتبه على ماكان عليه أيام بنى أمية ، وجعل البغال فى المراكز وكان لا يجهز عليه الا الخليفة وصاحب الخبر » • وقد أتى البريد للخليفة المأمون وهو يقاتل الروم برطب الازاد من العراق بمجرد أن اشتهاها(٩١) • **وفى قتال بابك بلغ من اهتمام المعتصم بتتبع أنبائه أنه « جعل من سامرا الى عقبة حلوان خيلا مضمرة ، على رأس كل فرسخ فرسا معه بجر مرتب• فكان يركض بالخبر ركضـــا حتى يؤديه من واحد الى واحد يدا بيد •** وكان ما خلف حـلوان الى أذربيجـان قد رتبـــوا فيه دواب المرج فكان يركض بها يوما أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ ، وجعل لهم ديادبة على رءوس الجبال بالليل والنهار وأمرهم أن ينعروا اذا جاءهم الخبر ، فاذا سمع الذى يليه النعير تهيأ فلا يبلغ اليه صاحبه الذى نعر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه ، فكانت الخريطة تصل من عسكر الأفشين الى سامرا فى أربعة أيام وأقل (٩٢) » • واستخدم جيش المسلمين الرسل فى ديار العدو نفسها للاتصال بأقسام الجيش فى مواضعها المختلفة ، ففى حملة عمورية لما علم المعتصم بتحرك ملك الروم لمواجهة الأفشين « وجه من عسكره قوما من **الادلاء** وضمن لهم لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم على أن يوافوا بكتابه الأفشين •• وكتب الى أشناس كتابا يأمره أن يوجه من قبله رسولا من الأدلاء الذين يعرفون الجبال والطرق والمشبهة بالروم وضمن لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم ان هو أوصل الكتاب (٩٣) » •

وذكر المسعودى فى المروج أن **الحمام** استخدم لنقل الأخبار سنة ٢١٢ هـ ـ ٨٣٧ م حين نقل الحمام الى المعتصم نبأ الظفر ببابك الحرمى ، « وأطلقت الطيور الى المعتصم وكتب اليه بالفتح (٩٤) » • وتفيض كتب

---

(٩١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٦٧ : ٩ •
(٩٢) الطبرى جـ/١٠ ص ٣٣٢ •
(٩٣) الطبرى جـ/١٠ ص ٣٣٦ •
(٩٤) المسعودى : مروج الذهب جـ/٢ ص ٣٥١ •

الأدب بذكر الحمام الزاجل وأوصافه وتدريبه ، وتبين مبلغ اهتمام الناس فى العراق به وما وصل اليه تدريبه من رقى ، وهو يقسم الى عادى ورسائلى ويختار وفقا لأوصاف معروفة • كما اشتهر شمال الشام بتربيته واستخدامه فى نقل الرسائل فى القـــرن الثالث الهجرى ، وللجاحظ اشارة توضح أن العناية بالحمام الزاجل هناك أقدم كثيرا من زمن نور الدين والقرن السادس الهجرى • فكان حصن الحجر فى جبل اللكام قرب أنطاكية وجهات اقليم الثغور الشامية حيث المصيصة وطرطوس وأذنة تحفل برجال مهروا فى تدريب الحمام جماعات أو فرادى حســب الحاجة ، وكانوا يجتهدون فى المحافظة على انسابها ويعهدون فى فترة زجل الحمام الى أشخاص موضع ثقة وأمانة وبعد عن الكذب والرشوة لمراقبة أعلام الغاية وتسجيل خطوات التدريب (٩٥) • وقد بلغ ثمن طائر من الحمام الزاجل جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار « وكان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب ، وأنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه والاخبار عنها والوصف لأثرها والنعت لمشهورها (٩٦) » • واستخدمت **سفن البريد** لايصال الأخبار عبر المجارى المائية ، كما كانت الرسائل توضع فى قصبة تربط برزمة من حشيش – وترمى فى النهر – وذلك اذا كان المرسل اليه على طريق المجرى • وكانت الحاجة تدعو أحيانا الى استخدام الفدائيين لايصال الأخبار (٩٧) •

وعرف المسلمون استعمال **النار** فى الاشارة وبخاصة فى الجهات التى كانت تابعــة من قبـــل للدولة البيزنطية لأن هذه الدولة كانت تستعملها ، وقد استخدمت استخداما حسنا فى القرن الثالث الهجرى على الساحل الافريقى الشمالى حيث كانت الرسائل تصل من الاسكندرية الى سبتة فى ليلة واحدة ، ومن طرابلس الى الاسكندرية فى ثلاث ساعات الى أربع(٩٨) • وقد اهتم العرب منذ فتحوا الشام بمنارات سواحلها فكتب عمر لمعاوية فى « اقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها(٩٩) » • والمناظر أو المنائر كالأبراج ترسل الاشارات باشعال النار وينتقل الخبر من منظرة الى منظرة ، وهى قباب مبنية على رءوس الجبال العالية بين كل

---

(٩٥) دكتور العدوى : الحمام الزاجل فى العصور الوسطى • المجلة التاريخية م ٢ ع ١ مايو ١٩٤٩ •
(٩٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج\١٤ ص ٣٩٠ •
(٩٧) نعمان ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ص ٤٢ •
(٩٨) متز : الحضارة الاسلامية • ترجمة الدكتور ابى ريدة ج/٢ ص ٣١٠ •
(٩٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٤ •

بلد وآخر بحيث يتقارب بعضها من بعض ويشرف بعضها على بعض ، وكان يقام فيها حراس يوقدون النار عندما يرون اقبال العدو من جهتهم ، فيوقد حراس المنظار الذى يليهم كذلك · وهكذا حتى يصل الخبر الى المدينة أو الثغر أو المسلحة فى زمن قليل فيسرعون لامداد الجهة التى أقبل منها العدو· وقيل ان أول من عمل المنائر وعلامات الاميال الوليد بن عبد الملك، على ان الاستهداء بالنار عادة عربية قديمة· ووضع السفاح المنائر والاميال من الكوفة الى مكة(١٠٠) · وترفع النار من المناور ليلا ويرفع الدخان نهارا للاعلام بحركات العدو ، فترفع النار أو الدخان بهيئة لها دلالتها الخاصة المتفق عليها · وقد أرصد فى كل منور الديادب والنظارة لرؤية ماورائها واخبار من أمامهم · والمناور تارة تكون على رءوس الجبال أو فى ابنية عالية ، وهى من أقصى ثغور الاسلام الى حضرة السلطان · قال صالح ابن يحيى : فى سنة ٦٩٣ هـ ـ ١٢٩٣ م جعلت لأمراء الغرب فى لبنان درك بيروت ليراقبوا البحر وجعلوا فيه رهجية وحمام بطاقة مدرج الى دمشق وخيل بريد : فكانت النار للحوادث فى الليل ، وحمام البطاقة للحوادث فى النهار والبريد لما يتجدد من الاخبار ـ وكل ذلك فعلوه خوفا من رجوع الافرنج (١٠١) ·

واتسع نطاق استخدام **الجواسيس** فى العصر العباسى ، فسافروا رجالا ونساء الى الاقاليم المجاورة متنكرين فى صور عديدة من تجار أو أطباء يجمعون الاخبار وينقلونها · على أن هناك روايات عن نشاط مبكر للجاسوسية العربية فى بلاد الامبراطورية البيزنطية ، اذ كانت منافسهم القوى كما كانت المصدر الذى أخذوا عنه كثيرا من الفنون الحربية (١٠٢) · كما تحدثنا الروايات العربية عن أن امرأة رومية تتكفف الناس استطاعت أن تتعرف على شخصية عبد الله بن قيس الحارثى الذى لم ينكب فى خمسين غزاة بين شاتية وصائفة فى البحر ، وكان قد انتهى الى المرقى من أرض الروم وحده فى قارب استطلاع فدلت المرأة الروم عليه فقاتلوه حتى قتل (١٠٣) · وروى المسعودى : أخبرنى بعض الروم ممن كان قد أسلم وحسن اسلامه أن الروم صورت عشرة أنفس فى بعض

---

(١٠٠) نعمان ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ص ٣٩ ـ ٤٠ ، دكتور سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية ص ١٥١ : ٣ ·

(١٠١) كرد على : خطط الشام جـ/٥ ص ١٩ ·

(١٠٢) هل : الحضارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٨٦ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع جـ/٢ ص ٤٠٥ ·

(١٠٣) الطبرى جـ ٥ ص ٥٣ رواية السرى عن شعيب عن سيف

كنائسها من أهـــل البأس والنجـدة والمكايد فى النصرانية والحيلة من المســلمين ، ومنهم الرجـل الذى بعث به معـــاوية حين احتـــال على البطـريق فأسره من القســطنطينية ـ فأقاد منــــه بالضرب ورده الى القســطنطينية ، وعبد الله البطــال ، وعمر بن عبد الله (الأقطع) ، وعلى بن يحيى الارمنى ، والعــريل بن بكار ، وأحمد بن أبى قطيفة ، وقربياس البيلقانى صـــاحب مدينة أبريق ، ويازمان الخادم فى موكبه والرجال حوله ، وأبو القاسم بن عبد الباقى • ومن رجال البحر الذين طالما تبرم بهم الروم ليون الطرابلسى ، ومعيوف بن يحيى الحجورى ، والمغيرة بن عبيد الأزدى (١٠٤) • وروى البلاذرى أن الحسن بن قحطبة الذى وجهه المهدى لقتال الروم « ثقلت وطأته على أهلها حتى صوروه فى كنائسهم (١٠٥) » • وعن طريق هذا التصوير يتعالم الناس أوصاف أعداء الدولة فيســـهل الاستدلال عليهم • وقد واجـه المسلمون هذه الاستعدادات الكبيرة للجاســوسية البيزنطية منذ فتح الشام فعملوا على اتخاذ سبل الوقاية والحذر ، فنجد فى شروط مصالحه أهل دلوك ورعبان « أن يبحثوا عن أخبـــار الروم ويكاتبوا بهـا المسلمين » ، وقد صولح الجراجمة « على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام » ، وصولحت قبرص على « أن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم » وقد غدا للعرب نظام جيد للجاسوسية منذ أيام معاوية ، فكان الجواسيس يقدمون المعلومات عن قوة العدو ونقط ضعفه وتخطيط حصونه وغير ذلك ، واختير الجواسيس من جميع الطبقات • و فى عهد الرشيد اشتغل شخص يدعى عبد الله السيدى بالجاسوسية فى أراضى الامبراطورية البيزنطية مدى عشرين عاما • ومن تقـــارير عيون الدولة الاســـلامية أعد ابن خرداذبة وصفا للامبراطورية البيزنطية وقوتها الحربية ومواردها الدفاعية الى غير ذلك . وحفظ لنا كتاب الادريسى تقريرا قدم للخليفة الواثق عن أقاليم نهر الفولجـــا وما وراء النهر • وقد بذل الخلفاء رقــــابة محكمة على الاجـــانب الذين يدخلون الدولة الاسلامية ، وفرض معاوية رقابة دقيقة على أفراد الحاميات وأسرهم ، وعين موظفا عربيا فى كل حامية ليتحرى عن الداخلين والخارجين ، واستمر هذا النظام قائما فى عهد العباسيين (١٠٦) •

(١٠٤) كرد على : خطط الشام جـ ٥ ص ٥٣ ، رواية السرى عن شعيب عن سيف ، المسعودى: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٥١

(١٠٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٨ •

(١٠٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٦ ـ ٧ ، ١٦٦ ، ١٦٠ ، حسينى : الادارة العربية ترجمة د • العدوى ص ٤١٧ : ٩

ويقدر النشاط الذى انطلق به المسلمون فى استطلاع أخبار عدوهم بقدر حرصهم على اتقاء نشاط جواسيس العدو فى بلادهم • قال أبو يوسف فى كتاب الخراج الذى كتبه للرشيد : « وسألت يا أمير المؤمنين عن رجل من أهل الحرب يخرج من بلاده يريد الدخول الى دار الاسلام فيمر بمسلحة من مسالح المسلمين على طريق أو غير طريق فيؤخذ فيقول خرجت وأنا أريد أن أصير الى بلاد الاسلام أطلب أمانا أو يقول انى رسول ـ يصدق أو لا يصدق ؟ وما الذى ينبغى أن يعمل به فى أمره ؟ قال أبو يوسف : فان كان هذا الرجل الحربى اذ مر بمسلحة مر ممتنعا منهم ـ لم يصدق ولم يقبل قوله ، وان لم يكن ممتنعا منهم ـ صدق وقبل قوله • فان قال أنا رسول الملك بعثنى الى ملك العرب هذا كتابه معى وما معى من الدواب والمتاع والرقيق فهذه اليه ـ فانه يصدق ويقبل قوله اذا كان أمرا معروفا ••• ، وان قال هذا الحربى المأخوذ انما خرجت من بلادى وجئت مسلما ـ فان هذا لا يصدق ••• فان أراد هذا الرسول رسول الملك أو الذى أعطى الأمان أن يرجع الى دار الحرب ـ **فانهم لا يتركون أن يخرجوا معهم بسلاح ولا كراع ولا رقيق مما أسر من أهل الحرب ، فان اشتروا من ذلك شيئا يرد على الذى باعه منهم ورد أولئك الثمن اليهم ••• ولا ينبغى للامام أن يترك أحدا من أهل الحرب يدخل بأمان أو رسولا من ملكهم يخرج بشىء من الرقيق والسلاح أو بشىء مما يكون قوة لهم على المسلمين ، فاما الثياب والمتاع فهذا وما أشبهه لا يمنعون منه ••• وسألت يا أمير المؤمنين عن الجواسيس يوجدون وهم من أهل الذمة او من أهل الحرب أو من المسلمين : فان كانوا من أهل الحرب أو من أهل الذمة ممن يؤدى الجزية من اليهود والنصارى والمجوس فاضرب أعناقهم ، وان كانوا من أهل الاسلام معروفين فاوجعهم عقوبة وأطل حبسهم حتى يحدثوا توبة ه قال أبو يوسف : وينبغى للامام أن تكون له مسالح على المواضع التى تنفذ الى بلاد أهل الشرك من الطرق ـ فيفتشون من مر بهم من التجار فمن كان معه سلاح أخذ منه ورد ، ومن كان معه رقيق رد ، ومن كان معه كتب قرئت كتبه : فما كان من خبر من أخبار المسلمين قد كتب به أخذ الذى أصيب معه الكتاب وبعث به الى الامام ليرى فيه رأيه • ولا ينبغى للامام أن يدع أحدا ممن أسر من أهل الحرب وصار فى أيدى المسلمين يخرج الى دار الحرب راجعا الا أن يفادى به فاما على غير الفداء فلا »** • على أن صاحب (المدونة) كان أكثر تحرجا بالنسبة لمن يقدم من العدو الى ديار الاسلام زاعما أنه جاء مستأمنا أو تاجرا « قال :

سمعت مالكا وقد سأله أهل المصيصة فقالوا انا نخرج فى بلاد الروم فنلقى العلج منهم مقبلا الينا فاذا أخذناه قال انما جئت أطلب الأمان افترى أن أصدقه ؟؟ قال : قال مالك : هذه أمور مشكلة ، أرى أن يرد الى مأمنه وروى ابن وهب عن مالك فى قوم من العدو يوجدون بغير اذن من المسلمين على ضفة البحر فى أرض المسلمين فيزعمون أنهم تجار وان البحر قد لفظهم ثغبا ولا يعرف المسلمون تصديق ذلك الا أن مراكبهم قد انكسر ومعهم السلاح أو يشكون العطش الشديد فينزلون للماء بغير اذن من المسلمين ـ قال مالك : ذلك الى الامام يرى فيهم رأيه » غير أن صاحب المدونة قد نقل عن ابن وهب بعد ذلك أن من أخذه المسلمون « فزعم انه جاء للتجارة أو مستأمنا بعد ما أخذ فلا أمان له » ونقل عن ربيعة أن من زعم التجارة كان من أرض عدو « ولم يكن بينهم وبينكم ذمة ولم تكن التجارة منهم ولا منكم فيما يليكم ويليهم ــ لم يكن لهم عهد بقولهم انما جئنا تجارا ، لا تكون تجارة بين المسلمين وعدوهم الا بخبر قد ثبت وأمر قد جرى ، ولو ترك أشباه هذا لم تزل عين من العدو مطلة على المسلمين .. » (١٠٧)

وعن طريق اتصالات المخابرات العربية حاول المسلمون الافادة من متاعب البيزنطيين والتعاون مع أعدائهم ، فتوماس الصقلبى الثائر على الدولة البيزنطية يلاحظ فازيلييف فى شأنه أنه كان هناك « حلف حقيقى كامل بينه وبين العرب ، فلم يكن وجود الفرق العربية فى جيش توماس اتفاقا ولم يكن دخولهم فيه رغبة فى السلب والغنيمة ، وانما كان المأمون متبعا خطة دقيقة التحديد فى عداء الروم . أما بعد هزيمة توماس فان الخليفة أجل خطته بسبب الفتن الداخلية الخطيرة الناشبة داخل دولته ، ولكنه عاد مرة أخرى الى الحرب الجدية مع جيرانه الغربيين فى السنين الأربعة الأخيرة من خلافته ... وقضت شروط حلف توماس مع المأمون أن يمده المأمون بجيش قوى ، وكان المأمون من جهته ينوى مهاجمة قسطنطينية نفسها وكانت قوات عربية أخرى تهاجم الجزر الرومية الشرقية وشواطىء آسيا الصغرى ، وأصبح هذا الحلف شرعيا بتتويج توماس امبراطورا على يد أيوب بطريرك أنطاكية (١٠٨) » .

---

(١٠٧) أبو يوسف : الخراج ص ١٨٧ : ١٩٠ ، سحنون : المدونة الكبرى جـ ٣ ص ١٠

(١٠٨) فازيلييف : العرب والروم . ترجمة دكتور شعيرة ص ٢٨ ، ٣٦ ـ ٧ .

كذلك عمل المسلمون على اجتذاب **الصقالبة** (السـلاف) أعداء البيزنطيين حتى انضم الى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد خمسة آلاف منهم سنة ٦٤٤ م كما يذكر تيوفانيس ، وفى سنة ٦٩١ م استمال أمير المسلمين قائد الصقالبة حليف الروم فأرسل له كيسا مملوءا ذهبا وأطمعه بالوعود الكثيرة وحرضه على الانضمام اليه مع عشرة آلاف من الصقالبة • ويعرض البلاذرى لوضع العرب من جاءهم من الصقالبة فى الثغور الاسلامية على الحدود البيزنطية (١٠٩) • على أن علاقة المسلمين **بالبلغار** كانت عدائية ويروى الطبرى فى أخبار سنة ٩٨هـ فتح مدينة الصقالبة « قال محمد بن عمر : أغارت برجان فى سنة ٩٨ هـ على مسلمة بن عبد الملك وهو فى قلة من الناس ، فأمده سليمان بن عبد الملك بمسعدة أو عمرو بن قيس فمكرت بهم الصقالبة ثم هزمهم الله » •وهكذا أراد العرب أن يحكموا حصارهم للقسطنطينية بمهاجمة البلغار (١١٠) •

كذلك اتصلت حبال الود بين العرب **والبيالقة** Paulicians وهم فرقة غريبة من نصارى الشرق كانوا على مذهب بولس الشمشاطى فاضطهدهم اباطرة القسطنطينية ، واشتهر معقلهم Tephrike او Aphrike الذى يطلق عليه الجغرافيون العرب أبريق • وكان المسلمون يؤازرون البيالقة ويعينونهم فتمكنوا من رد جنود القسطنطينية بضع سنين • ويقول قدامة عن البيالقة الذين يسكنون فى مواجهة الثغور الجزرية : « البيالقة وهم من الروم الا انهم يخالفونهم فى كثير من أديانهم ، وكان هؤلاء مع المسلمين يعينونهم فى غزواتهم ، ويتوفر على المسلمين المعونة بهم ، الى أن رحلوا دفعة واحدة عن هذا الموضع باساءة أهل الثغور معاشرتهم وقلة اشراف المدبرين على أمرهم ، وسكن مكانهم هؤلاء الأرمن(١١١) » • وبالمثل **حاول الروم الافادة من الفتن الداخلية** فى الدولة الاسلامية حين تنقل مخابراتهم أنباءها فيستغلون الفرصة للهجوم • حدث هذا أيام القتال بين على ومعاوية ، وفى أيام الفتن المتلاحقة التى واجهها عبد الملك ابن مروان،وفى أواخر أيام الأمويين وقت أن استعرت الشحناء بين أفراد

---

(١٠٩) فازيلييف : العرب والروم ــ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٠٦ هامش ، دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ١٠٦ ــ ٧ •

(١١٠) الطبرى : جـ/٨ ص ١١٨ ،دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ/٢ ص ٢٤٨ •

(١١١) لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ــ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٥١ ، قدامة : بنذ من كتاب الخراج ملحق بالمسلك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٤ •

البيت المروانى نفسه وهكذا . وربما قدم البيزنطيون عونا مباشرا للثائرين على الدولة الاسلامية : فقد رحل جبلة بن الايهم وفريق من **المستعربة** الى بلاد الروم اثر الفتح الاسلامى . وعند فتح الجزيرة سنة ١٧ هـ ـ ٦٣٨ م ارتحلت أياد بن نزار الى أرض الروم ، فلما علم عمر كتب الى ملك الروم باخراجهم (١١٢) . وفى أخبار سنة ٨٧ هـ (٧٠٦م) يروى الطبرى أن « هشام بن عبد الملك غزا الروم ففتح الله على يديه حصن بولق وحصن الأخرم وحصن بولس وقمقم ، وقتل من المستعربة نحوا من ألف مقاتل وسبى ذراريهم ونساءهم (١١٣) » . وقد تعاون البيزنطيون مع **الخرمية** ، ووافقوهم على مهاجمة الحدود الاسلامية لشغل المسلمين فى جبهتين ، وكان بين مقاتلة جيش الروم الذين أغاروا على زبطرة « من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم جماعة رئيسهم برسيس ، وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم فى أهم أموره اليه » ، وقد يكون الاسم الصحيح نرسيس ، ويحتمل أن يكون هو تيوفوبوس أو نصر الفارسى (١١٤) .

الرباط فى الثغور وحملات الصوائف والشواتى

اشتهرت حرب العرب مع الروم باسم « حرب الثغور » أى الحدود ـ والثغر كل موضع فى أرض العدو فى بطن واد أو فرجة جبل قرب أرض المسلمين . وقد كانت حدود الروم تتكون من سلاسل جبلية شاهقة منها جبل اللكام Ammanus ، وتتميز بطرقها الكثيرة التى تعرف بالدروب ، وبمسالك أنهار مثل سيحان وجيحان وقويق والبردان والأرند ، ومن طريف مايذكر أن العرب أسموا النهر الأخير بالعاصى لأنه يخرج من بلاد الاسلام ليدخل فى أرض العدو . وتميز من هذه الثغور جناحان : ثغور الشام وثغور الجزيرة وهى حصون عديدة فى الجبال أو مسالح أى مواضع للعسكر للمراقبة أو مدن حصينة على ملتقى الطرق مثل منبج وأنطاكية وطرسوس وأذنة والمصيصة وبياس ومرعش وزبطرة وسميساط وملطية ويلاحظ الدكتور شعيرة أن **معظم الهجوم كان من ثغر الشام اما ثغر**

---

(١١٢) الطبرى ج/٤ ص ١٩٧ ـ ٨ رواية السرى عن شعيب عن سيف .

(١١٣) الطبرى ج/٨ ص ٦٢ .

(١١٤) الطبرى ج ١٠ ص ٣٣٤ ، فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة د. شعيرة ص ٢٥٧ هامش .

الجزيرة فالطابع الغالب عليه الحراسة • وقد سميت المدن الداخلة من جبهه الحدود بالعواصم فى العصر العباسى • وكانت الثغور خاليه عند الفتح الاسلامى اذ نقل الروم أهلها حتى سميت بالضواحى لقلة سكانها ، فعمل العرب على اسكان القبائل العربية فيها بعد أن استقرت أقدامهم فى فتوحهم الجديدة فأنزلت قيس وأسد من الحجاز فى ثغور الجزيرة بين مضر وربيعه، ونقلت جماعات من أهل الجزيرة وحمص وبعلبك ، ومن المصرين الكوفة والبصرة الى نواحى أنطاكية التى أسكنها معاوية أيضا عناصر هندية من السند تعرف بالزط كانت قد استقرت على الخليج الفارسى ووجدهم العرب عند فتح فارس والعراق واعتنقوا الاسلام • وتقد سمى العرب سكان الثغور بالمرابطة لملازمتهم ثغر العدو بالجهاد وهو الرباط ، فكانوا يعيشون مع نسائهم وأولادهم وتقطعهم الخلافة القطائع وتمنحهم العطاء • وبذلك أصبحت منطقة الثغور موطنا للعرب الذين ينشدون التقوى والجهاد • وظهر جيل منهم أحب الحروب وتغنى بالشجاعة والفروسية • ووضع العرب نظاما لحرب الثغور فكانت تخرج بانتظام حملات سنوية على بلاد الروم فى الشتاء والصيف عرفت بالشواتى والصوائف • ونسمع أحيانا عن صائفتين يمنى ويسرى ، ففى أخبار سنة ١١٤ هـ (٧٣٣ م) « غزوة معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وسليمان ابن هشام الصائفة اليمنى » ، وقد ترسل أكثر من شاتية فى السنة الواحدة • وكان هدف العرب من غاراتهم المتكررة الاستيلاء على حصون للعدو قائمة يصلحونها أو يتعهدونها بالتحصين فيرتبون فيها المرابطة ، كما كانوا يضعون فى الحصون القديمة المخربة جندا لحماية مؤخرتهم من انتقاض الروم الذين كانوا يكمنون لهم عند بعضها وهم عائدون من الغزو (١١٥) •

وتقع ملطية عند تقاطع الطرق الرئيسية المؤدية من سبسطية Sebastea (سيواس Sivas) وقيصرية الى أرمينية ، أما الطريق من ملطية الى مرعش (Germanicia) عبر طوروس فقد تميز بمعقلين فى زبطرة (عند فيرانشهر) والحدث ، وكلاهما هاجمه الروم كثيرا • وقد حصنت مرعش وعين زرفة تحصينا قويا فى عهد الرشيد ، وبين هذين المركزين الهامين فى المناطق الجبلية حيث يجرى نهر جيحان الأعلى Pyrammus كانت قلاع الكنيسة والهارونية • وهذا الخط من ملطية الى عين زرفة كان خط دفاع

---

(١١٥) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ص ٣٦ : ٤٠ ، الطبرى جـ ٨ ص ٢١٧ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٨

الجزيرة ويشرف عليه أمير ملطية ، أما اقليم الشام فقد حصن بخط آخر من قواعده الرئيسية المصيصة وأذنه وطورسوس . وفى عهد الرشيد زودت طرسوس بحامية من ٨٠٠٠ جندى وحصنت بسور مزدوج يحيط به خندق . وخلال ممرات جبل طوروس تحرك الروم والعرب ليتبادلوا الهجمات ، وأهم هذه الممرات الأبواب الكيليكية التى استخدمها العرب حين كانت طرسوس قاعدتهم . والممر الثانى هو الذى كان يصل مرعش بالبستان أو الابلسيتن Arabissos واشتهر ممر الابواب الكيليكية فى التاريخ القديم والوسيط . وبجوار الطرف الشمالى للممر ترتفع قمة شامخة منعزلة عليها قلعة لؤلؤة Lulon التى كثيرا ما تداولتها أيدي العرب والروم وهي مفتاح الممر الكيليكي . وكان الطريق الشمالى الى طوانة والغربى الى هرقلية يتقابلان بالقرب منها مما جعلها تتحكم فى عدة طرق هامة . ومن البدندون يبدأ ممر خلال وديان ضيقة منحدرة الى أعلى الممر ، ويوجد في الجانب الشرقى فى أعلى الجبل قلعة حصينة من الحجر الأسود هى قلعة السلاف التى تتحكم فى الممر (حصن الصقالبة) . وفى عهد قوة العباسيين كانت البدندون والممر نفسه فى أيدى العرب على الدوام كما يبدو ، أما لؤلؤة فقد تداولتها الأيدى . وحينما كانت فى أيدى الروم استخدمت كمركز متطرف فى **خط المنارات** beacons التى تومض خلال مرتفعات وسهول آسيا الصغرى حتى القسطنطينية لتنذر بخطر أى غزو .

وكان الضوء المنبعث من تل لؤلؤة يراه المراقبون على قمة Mount Argaios الى الجنوب الشرقى من بحيرة Tatta . ثم تنتقل الاشارة فى اتجاهها الشمالى الغربى صوب مياه البحيرة لتنبعث من جديد على تل Isamos ثم تحمل الاشارة عاليا الى أقصى ارتفاع Aigilos . ومن هنا ترى فى المركز العسكرى الكبير Dorylaion الذى يمتد على نهر Tembris حوالى ثلاثين ميلا نحو الشمال الغربى . ثم تحمل الاشارة الى Mamas فى الاطراف الجنوبية الشرقية من جبل Ilympos ومنها تمر الى Mokilos ويخترق الضوء من هذه الأخيرة خليج بثنيا ، وتتولى منارة جبل St. Auxantiox نقل الرسالة الى المراقبين المرابطين فى منارة القصر الكبير Pharos of the Great Palace ومثل هذه الوسائل عرفت من قديم ، واستخدمها الروم فى أماكن أخرى . ولكن مجرد اشعال النار ليس فى وسعه أن يرسل سوى اشارة واحدة .

وقد قيل ان ليو الرياضى وضع خطة بسيطة لاستعمال هذه المنارات

فى ارسال عدد من الرسائل يبلغ اثنتى عشرة رسالة مختلفة ورعى تنفيذها الامبراطور تيوفيل • فقد وضعت ساعتان تسيران بنفس التوقيت احداهما فى القصر والاخرى فى غابة قريبة من الحدود الكيليكية• واتفق على اثنتى عشرة حادثة من الحوادث الهامة الجارية عند الحدود اختيرت لكل منها احدى الساعات الاثنتى عشر لترمز اليها ودونت هذه الحوادث على مينائى الساعتين • فاذا ما حدث أن علم قائد لؤلؤة فى الساعة الرابعة أن العدو على وشك عبور الحدود فانه ينتظر حتى الساعة الواحدة ثم يضىء منارته فاذا ما بلغت اشارتها حراس القصر عرفوا فى أى ساعة كانت الاضاءة وبالتالى ماذا تعنى هذه الاشارة • وتعنى الاشارة المعطاة فى الساعة الثانية أن العمليات العدائية قد بدأت ، أما اشارة الساعة الثالثة فتختبر عن حريق ، وهكذا •

وفى الحملات على كوماجين Commagene والجزيرة كانت الجيوش الامبراطورية عموما تتبع طريق عربسوس الذى يجتاز جبال طوروس هابطا نحو مرعش • وكانت فرق البود الآسيوية تلتقى بالفرق القادمة غربا من قيصرية فيقودها ريق ممر كوروخاى Kuru-Chai عبر جبال طوروس الداخلية Anti Taurus الى سيريكا Sirica (ربما كانت هذه Kemer) وعربسوس • ولكن عند سيريكا كان يمكنها الولوج فى طريق آخر جنوبا الى Geuksun Kokusos فتصل مرعش عن طريق ممر Ayer-Bel وفى بداية القرن ٩ م كان جزء كبير من كبادوكيا الى الشرق والجنوب الشرقى من المجرى الأعلى لنهر Halys قد صار اقليم حدود ، ان لم يكن المسلمون قد احتلوه فعلا الا أنهم قد امتلكوا فيه مراكز حصينة هامة حتى أبواب قيصيرية • ولما لم يكونوا قد استولوا من قبل على قلاع منطقة طوروس الداخلية التى تتحكم فى الطرق الى Kokusos, وسيس Sis التى توجد على أحد الطرق المؤدية الى مرعش فانهم كانوا لابد أن يستولوا على تلك المنطقة حتما • وفى اتجاه الشمال يبدو أنهم بسطوا سيادتهم على الاقليم الممتد غربا حتى الطريق من سبسطية الى عربسوس • أما فى جنوب جبال طوروس الداخلية فقد كانت عربسوس الموقع الوحيد فى أيدى المسلمين • واذا كان اقليم خرشنه Charisian قد اعتبر منطقة ممرات Kleisurarchi فان هذا يدل دلالة بارزة على خط الحدود الشرقية فقد كان من مهام قائد الاقليم حماية ممرات تلال طوروس الداخلية (١١٦) .

(١١٦) Bury : Hist. of the East Rom. Emp. pp. 244:9

كانت الغزوات المتتابعة التى يقوم بها المسلمون ضد الروم فى كل عام **مدرسة مفيدة لعرب الشام والجزيرة لم ينقطع تدربهم فيها على الحرب** وان لم تكن للمعارك نفسها نتائج مباشرة(١١٧) ٠ وكانت **واجبات الفرق البيزنطية فى البنود** (الثيما) محددة بدقة لمواجهة الهجوم العربى ، فحينما تعبر القوات الاسلامية الحدود يخبر القائد المحلى قائد البند (الاستراتيجوس) فيرسل على الفور تحذيرا الى البنود المجاورة ، بينما يطلق فرسانه لمناوشة المغيرين ، ويحتل المشاة طرق الممرات التى يحتمل أن يعود المهاجمون منها ٠ وفى أثناء ذلك تحشد البنود المجاورة قواتها الرئيسية وتتأهب للاتجاه الى النقطة التى يتوقع أن يقصدها العدو ٠ وكانت المدن فى الداخل محاطة بالمتاريس لحمايتها ٠ وقد وضعت قواعد للتصرف فى ميدان القتال تفصيلا ، ولكن كان ينتظر من القائد دائما أفكار جديدة والقاعدة الرئيسية تقليل الخسائر والحصول على النصر بأهون التكاليف ٠ فاذا ما جرى تجميع القوات وترتيب العمل فى توقيت مناسب ثم اقتناص الغزاة ومحاصرتهم مثلما حدث سنة ٨٦٣ م (٢٤٩ هـ) بالنسبة للقائد العربى عمر الذى أوقعته جيوش بنود آسيا فى فخها على نهر الهاليس ٠

وكان البيزنطيون يقومون بغارات مضادة ويخطر الاسطول لمهاجمة السواحل الاسلامية ٠ وفى حالة الهجوم المضاد كان الامبراطور أو دمستق الاسكول يقود فرق القسطنطينية وتنضم اليه فى نقط معينة على الطريق الحربى الكبير خلال آسيا فصائل من جيوش البنود المختلفة تتكون أساسا من المشاة مع بعض الفرسان ، وهكذا يكون فى صحبة الامبراطور ٨٢٠٠ فارس على الاقل و ٦٠٠٠ من المشاة ٠ والمعلومات التى لدينا من الناحية البيزنطية قليلة عن خطة هؤلاء فى غاراتهم فى قلب بلاد العدو اذ أن ليو السادس حين كتب كتابه كانت مثل هذه الغارات قليلة ٠ ولم يصف قائد نيقفور فوقاس (٩٦٣ : ٩٦٩م) سوى العمليات الحربية الدفاعية القديمة. وانما ورد شىء عن العمليات الهجومية لغزو البلاد الاجنبية فى الكتاب الصغير الذى لا يعرف مؤلفه Liber de Re Militari وعلى الرغم من انه فى ذلك الوقت كان جون تزيمسكيس (٩٦٩ : ٩٧٦م) John Tzimisces يقود قواته الى فلسطين وأطراف بغداد الا أن القواعد الموضوعة كانت تتسم بالحذر وعدم التحديد وتتناول بصفة رئيسية حصار مدن العدو(١١٨) ٠

(١١٧) فلهوزن : تاريخ الدول العربية ، ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٢٠٩ ٠

(١١٨) Runciman : Byz. Civ. pp. 114-5, Byzantium p. 302.

وتعتبر قصة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين من منتصف القرن ٨ م الى منتصف القرن ٩ م تأريخا زمنيا لاغارات تبادلها الطرفان لم تتوغل إلا نادرا فى أراضى الدولتين ومن الطلائع المبكرة فى ذلك مارواه الطبرى من أن عمر حين زار الشام سنة ١٧ هـ ـ ٦٣٨ م قسم الارزاق وسمى الشواتى والصوائف وسد فروج الشـــام ومسالحها (١١٩) • وكانت الصفة البارزة فى تلك الاغارات الاستيلاء على معـــاقل جبال طوروس والتخلى عنها حسب مد الحرب وجزرها وان تمخضت بعض الغارات الكبرى عن تخريب المدن الهامة • وقد برز فى هذه الحملات السنوية منذ بدايتها بعض قواد المسلمين فمالك بن عبد الله الخثعمى من أهل فلسطين يسمى مالك الصوائف ، واليه نسبت رهوة مالك على خمسة عشر ميلا من درب الحدث اذ عندها قسم الغنائم وباعها • وكان حبيب بن مسلمة الفهرى ذا أثر جميل فى غزو الروم « حتى لقب بحبيب الروم » وقد بلغ من الاهتمام المبكر بالصوائف أن اتخذ فى خلافة عثمان جسر منبج للصوائف وقيل انه كان له رسم قديم • واتخذت ملطية طريقا للصوائف وشحنها معاوية بجماعة من أهل الشام والجزيرة (١٢٠) • وتحتفظ المراجع العربية بسجل واف دقيق لهذه الاغارات • وقد اتصلت الصوائف والشواتى وتحملت القوات فى الشتاء البرد القارس• وكان المسلمون اذا نزلوا بأرض البيزنطيين قسموا أنفسهم أجنادا للحراسة والدفاع والاغارة وكفلوا وسائل الاتصال بين الأجناد بعضها مع بعض . كما أعدوا أماكن للنخيل محصنة لدرء الاغارات المفاجئة التى قد شنها العدو . ومنذ أيام الرشيد تكاد تكون اغارات المسلمين منتظمة سنويا فى أراضى الدولة البيزنطية عدا تلك الفترات التى انشغلت فيها لدولة الاسلاميه بالفتن الداخلية . وقد شجع استقرار الأحوال الداخلية للدولة فى صدر عهد الرشـــيد على التوغل فى اقليم آسيا الصغرى والحصول على الكثير من الغنائم . على أن حروب الصوائف والشواتى لم تتمخض عن نتائج ذات قيمة كبيرة لأحد الفريقين فقد ظل خط الحدود بينهما فى أخذورد دون أن يستطيع أحدهما الســـيطرة التامة على معاقله أو دروبه • كما أن نجاح احدى الاغارات كان متوقفا على الأحوال الداخلية عند الفريقين المتنازعين ، ويذكر الدكتور شعيرة أن التحركات الحربية فى منطقة الثغور كانت رتيبة مستمرة لا تنقطع الا ابان الفتن «أما فى السلم فان الانقطاع يعتبر تقصيرا موجبا لعقاب المسئول عنه ، فقد عزل أحد ولاة خراسان لانه ترك الغزو

---

(١١٩) الطبرى جـ/٤ ص ٢٠٣ •

(١٢٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ١٥٧ ، ١٩٣ •

سنة وعوقب أحد القواد لانه تأخر بالغزو البحرى الى أن دخل فصل الرياح الضارة. فاذا ورد فى مصادرنا انه لم يقع غزو فى عام عادى دون تعليق فمعنى هذا فى نظرى ان والى الثغر اقتصر على الحركات العادية الدورية ولم يدخل أرض العدو ، واذا احتج بعض الولاة بضرورة لزوم الثغر والبقاء فى مقر ولايته فحجته وجيهة . واذن فهناك حركات حربية حتمية والا انعزلت الرباطات الدائمة وانقطعت عن الدواخل التى تدافع عنها وصارت مجرد خلوات يستقر فيها فرسان » . ويؤيد ذلك ما ذكره الماوردى فى أحكام تقليد الامارة على الجهاد « واذا عقدت ـ الامارة ـ عموما عاما بعد عام لزمه ـ الامير ـ معاودة الغزو فى كل وقت يقدر على غزو فيه ولا يفتر عنه مع ارتفاع الموانع الا قدر الاستراحة ، وأقل ما يجزيه ألا يعطل عاما من جهاد (١٢١) » .

وكانت الصوائف أحب الى العرب لانهم كانوا أكثر احتمالا للحر من عدوهم وأقل صبرا على البرد منهم ومن هنا عجز العرب عن الاستقرار وراء جبال طوروس فتحولت حروبهم الى غزوات للتخريب قابلها الروم بغزوات انتقامية فى أرضهم التى فقدوها وحاولوا استرجاعها فى الشام(١٢٢) حتى قال الدكتور حتى « كانت سلسلة جبال طوروس وطوروس المضادة الشامخة تبدو وكأن الطبيعة اقامتها حدودا طبيعية . ويخيل الينا ان اللغة العربية أيضا كان تتجمد على منحدرات تلك الجبال الجنوبية ، وعلى الرغم من ان هذه المنطقة دخلت فى نطاق الاسلام السياسى فيما بعد على أيدى السلاجقة والاتراك العثمانيين الا أن جزءا واحدا فى آسيا الصغرى لم يتكلم أهله باللسان العربى . ان سكان تلك البلاد الأصليين منذ أقدم العصور ابتداء من أيام الحيثيين كانوا دائما من غير الساميين . ولقد أثبت مناخ هذه البلاد انه شديد الصرامة على المدنية العربية فلم تتأصل جذورها فى الارض هناك(١٢٣) » .

وقد عرض قدامة بن جعفر شيئا عن حملات الصوائف والشواتى

---

(١٢١) دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ١٠٤ : ٨ ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٧٧ : ٨٥ ، د . شعيرة : المرابطون على الثغور البرية العربية الرومية ـ بحث في كتاب (الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٥٤

(١٢٢) دكتور فروخ : العرب والاسلام فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ص ٩٠ .

(١٢٣) حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع م١ ص ٢٤٨ ـ ٩ ، تاريخ سوريا ج ٢ ـ ترجمة الدكتور اليازجى ص ٤٦

« فنقول ان أجهدها مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين: أن تقع الغزاة التى تسمى **الربيعية** لعشرة أيام تخلو من آيار بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون ثلاثين يوما وهى بقية آيار وعشرة من حزيران فانهم يجدون الكلأ فى بلاد الروم ممكنا وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا ، ثم يقفلون فيقيمون خمسة وعشرين يوما وهى بقية حزيران وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر ويجتمع الناس لغزو الصائفة ، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوما • فأما **الشواتى** فانى رأيتهم جميعا يقولون : **ان كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل** وليكن مسيره عشرين ليلة بمقدار مايحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره ، وأن يكون ذلك فى آخر شباط فيقيم الغزاة الى أيام تمضى من آذار فانهم يجدون العدو فى ذلك الوقت أضعف مايكون نفسا ودوابا ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون(١٢٤) » • وكانت قيادة المسلمين تحرص على ألا تجمر المسلمين فى الثغور فلا تطيل اقامتهم هناك بل تداول بين الجنود فى تلك الحملات• وقد جاء فى خطبة لعمر « ولكم على أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم ، ولكم على الا القيكم فى المهالك ولا أجمركم فى ثغوركم(١٢٥) » •

وقد اجتمع لقواد الثغور خبرات عسكرية متنوعة خلال حملاتهم « قيل لعمرو بن معاوية العقيلى وكان صاحب صوائف : بم ضبطت الصوائف ؟ أى الثغور • قال : بسمانة الظهر وكثرة الكعك والقديد • وفى كتاب الآيين ـ وهى كلمة فارسية معناها القانون ـ ليكن أول ماتحمله معك خبزا ثم خبزا ثم خبزا واياك والمفارش والثياب»(١٢٦) • ويبدو ان مشكلة التموين كانت تلح على المسلمين فى حملاتهم العسكرية بأرض الروم ، وفى حملة القسطنطينية سنة ٩٨هـ/٧١٧م «أمر مسلمة كل فارس أن يحمل على عجز فرسه مدين من طعام حتى يأتى به القسطنطينية ، فأمر بالطعام فألقى فى ناحية مثل الجبال ، ثم قال للمسلمين : لا تأكلوا منه شيئا ، أغيروا فى أرضهم وازرعوا ، وعمل بيوتا من خشب فشتى فيها » وقد حرص ليو قائد الروم على أن يقضى على مؤن المسلمين فأتى مسلمة فقال : « قد علم القوم أنك لا تصدقهم القتال وانك تطاولهم مادام الطعام

---

(١٢٤) قدامة : نبذ من كتاب الخراج ـ ملحق بالمسلك والممالك لابن خردذابة ص ٢٥٩
(١٢٥) ابو يوسف : الخراج ص ١١٧ •
(١٢٦) ابن قتيبة : عيون الأخبار م ١ ص ١١٦ •

عندك ولو أحرقت الطعام أعطوا بايديهم ! فأحرقه فقوى العدو وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون(١٢٧) » ٠

وقد برز اسم مسلمة بن عبد الملك فى قتال الروم وقال هشام لمسلمة : يا أبا سعيد هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو ؟ قال : ماسلمت فى ذلك من ذعر ينبه على حيلة ، ولم يغشنى فيها ذعر سلبنى رأيى ٠ قال هشام : هذه البسالة(١٢٨) ٠ وأبدى أهل الشام صبرا وطاعة فى جهاد الصوائف حتى تندر بذلك أهل العراق ففى أخبار الطبرى سنة ٧١هـ : « هم أهل العراق بالغدر بمصعب فقال قيس بن الهيثم : ويحكم لا تدخلوا أهل الشام عليكم فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليصفين عليكم منازلكم ، والله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح أن أرسله فى حاجة ، ولقد رأيتنا فى الصوائف وأحدنا على ألف بعير وان الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه وزاد خلفه(١٢٩) » ٠

وكان تزاحم المسلمين فى النزول عند اقامة المعسكر بأرض الروم موضع الشكوى « عن سهل بن معاذ : غزوت مع عبد الله بن عبد الملك بن مروان فى ولاية عبد الملك الصائفة ـ والصائفة اسم للجيش العظيم الذين يجتمعون فى الصيف ثم يغزون اذا دخل الخريف وطاب الهواء ـ قال فنزلنا على حصن سنان فضيق الناس المنازل وقطعوا الطريق ـ ومعنى تضييق المنزل أن ينزل بالقرب من موضع نزول أخيه المسلم بحيث لايبقى له المربض والمطبخ وموضع قضاء الحاجة » ٠ وأوصى عبد الملك بن صالح أمير سرية الى بلاد الروم بالحذر فى سياسة الحرب وادارة القتال فقال : « انت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس الذى ان وجد ربحا تجر والا احتفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك » ٠

وقد عرض الفقه الاسلامى لاحكام متفرقة تتعلق بالصوائف والشواتى ومن ذلك ان النساء والغلمان يخرجون فى القتال اذا كان النفير عاما ، أما بالنسبة للحملات السنوية المعتادة فيقول محمد بن الحسن الشيبانى « ولا ينبغى للشواب أن يخرجن أيضا فى الصوائف ونحوها ، **فأما العجائز فلا بأس بأن يخرجن مع الصوائف لمداواة الجرحى** ٠

---

(١٢٧) الطبرى ج/٨ ص ١١٧ ٠

(١٢٨) ابن ابن قتيبة : عيون الأخبار م ١ ص ١٧٤ ٠

(١٢٩) الطبرى ج/٧ ص ١٨٥ ٠

ولا يعجبني أن يباشرن القتال لان بالرجال غنية عن قتال النساء ، فلا يشتغلن بذلك من غير ضرورة ، **وعند تحقيق الضرورة بوقوع النفير عاما لا بأس للمراة أن تقاتل بغير اذن زوجها** .. وكذلك الغلمان الذين لم يبلغوا اذا أطاقوا القتال فلا بأس بأن يخرجوا ويقاتلوا فى النفير العام وان كره ذلك الآباء والامهات .. واذا خرج القوم الى الصوائف فأرادوا أن يخرجوا معهم النساء بغير منفعة الا المباضعة والخدمة فالمستحب الا يفعلوا ذلك مخافة عليهن .. فان كان لا بد من اخراجهن فالاماء دون الحرائر .. ولكن مع ذلك يرخص فى اخراج الحرائر والاماء لمن يقوى على حفظهن ان ابتلى المسلمون بهزيمة ـ يخرجهن الى دار الاسلام اما بقوة نفسه أو بما معه من الظهور والخدم .. وكذلك ان كانوا سرية يدخلون أرض العدو فانه لاينبغى لأحد من العجائز أن يخرج معهم لمداواة الجرحى» .
ولما غزا مسلمة بن عبد الملك عمورية حمل معه نساءه وحمل ناس ممن معه نساءهم « وكانت بنو أمية تفعل ذلك ارادة الجد فى القتال للغيرة على الحرم » . كما يروى البلاذرى . أما سكنى النساء للثغور فقد جاء عنها « ولا بأس للذين يسكنون الثغور من المسلمين **أن يتخذوا فيها النساء والذرارى** وان لم يكن بين الثغور وبين أرض العدو أرض للمسلمين ، لانهم يندبون الى المقام فى الثغور ، وانما يتمكنون من المقام بالنساء والذرارى ـ فالنساء سكن للرجال ، ولانهم اذا أقاموا فى ذلك الموضع بالنساء والذرارى كثروا بمرور الزمان حتى يصير ذلك الموضع مصرا من أمصار المسلمين ويتخذ المسلمون وراء ذلك ثغرا بالقرب من العدو ولكن هذا اذا كانوا بحيث لو نزلت بهم جلية العدو قدروا على دفع شرهم عن أنفسهم وعن ذراريهم وتمكنوا من أن يخرجوهم الى أرض الاسلام ، فأما اذا لم يكن بهذه الصفة فانه لا ينبغى أن يتخذوا النساء فى مثل هذه الثغور .. وكره اخراج النساء مع الجيش العظيم للمباضعة ولم يكره ذلك فى الثغر اذا كثر فيه المسلمون لان أهل العسكر لا يطول مقامهم فى دار الحرب فلا يحتاجون الى النساء مدة مقامهم فى الظاهر ، فأما أهل الثغور فيطول مقامهم فى الثغر بل يؤمرون بألا يبرحوا منها واذا كانوا عزابا ضجروا بالمقامة فيها ـ فلهذا لم ير بأسا بأن يتخذوا فيها النساء والذرارى . فان قال أهل الثغر لا نقدر على دفع العدو بأنفسنا آن أتانا ولكن نستغيث بالمسلمين فيأتينا الغياث منهم فندفع بهم العدو ـ فانه لا ينبغى لهم أن يحملوا النساء والذرارى الى مثل هذه الثغور أيضا(١٣٠) » .

(١٣٠) السرخسي : شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى ج١ ص ٣١ ـ ٢ ، ٢٠٠ ـ ٤ ، ٢١٠ ـ ١١ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧١

ويقدم ابن العديم صورة متأخرة لما كان يحدث عند النفير للجهاد في طرسوس ، نقلا عن مصدره أبي عمرو القاضي الطرسوسي ، يقول : « يركب المتولي لعمل الحسبة الى وقت النفير من ليل أو نهار ، ورجالته بين يديه ينادون بأعلى أصـــواتهم أجمع صوتا واحدا يقـولون : النفير يا أصحاب الخيل والرجالة النفير ، حملكم الله الى باب الجهاد ـ وان أراد الى باب قلمية أو الى أي باب اتفـق • وتغلق سـائر أبواب المدينة وتحصل مفاتيحها عنـد صاحب الشرطة ، فـلا تزال مغلقة حتى يعود السلطان من النفير ويستقر في داره ثم يفتح الابواب المغلقة كلها، ويطوف المحتسب ورجالته الشوارع كلها • فاذا كان ذلك نهارا انضاف الى رجالته عدد كثير من الصبيان وساعدوهم على النداء بالنفير ، وربما احتاجوا الى حشد النــاس لشــدة الامر وصعوبة الحال فأمر أهل الاسواق بالنفير وحضهم على المسير في اثر الامير أين أخذ وكيف سار • ويكون مركز صاحب الشرطة اذا وقع النفير مع رجالته الموسومين به عند الباب الاول الذي يلي المدينة الذي تخرج منه الناس الى النفير ، وكذلك المحتسب الا أن المحتسب متردد في الاسواق اذا طال أمر النفير تأخر خبره ويبعث على اللحوق بمن سار مع الامير وبمن توجه الى النفير ، فلا يزال الامر على هذا حتى يعود السلطان الى دار الامارة • ويخرج الى النفير قواد الرجالة معروفون ومتى عقد السلطان لقائد من الفرسان فبعثه للقاء من ورد من ذلك الوجه أضاف اليه قائدا من قواد الرجالة ، وأتبعه من أجلاء الرجال أهــل القــوة والنشاط والبنية من المطوعة المسجدية حتى اذا نزلوا أول منزل ، مثل شيخ بل شيوخ من الصلحاء معروفون بحفظ من هناك من الغلمان المرموقين بالصباحة • والوضاءة ، فلوهم أحدهم بالوضوء لصلاة لما أخرج عنه الا برقيب ثقة شيخ معروف يمضي معه لحاجته حتى اذا فرغ عاد الى حملته • وقد رأينا في آخر أيام طرسوس رجلا يعرف بروؤبه ، يجتمع اليه الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم يزيد عددهم على ألف صبي كلهم بالسلاح الذي يمكن مثلهم حمل مثله وبمذاودهم ، وقد أعدوا فيها من صنوف أطعمة أمثــالهم يطوفون جميعهم بمطرد يحمله رؤبه يسيرون بسيره ويقفون بوقوفه • فلا يزال ذلك دأبهم حتى اذا عاد السلطان الى مقر داره عند رجوعه من نفيره دخل أولئك الصبيان أمامه على مراتبهم ، يصفهم قائدهم الامثل فالامثل ٠٠٠» (١٣٠م)

ثم أدرك المسلمون الضعف فعجزوا عن حماية حدودهم بعد الفترة

(١٣٠م) ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٢٥٠ : ٥

الزاهرة من العصر العباسى · ويشكو المسعودى « من ضعف الاسلام فى هـذا الوقت وذهابه ، وبلوغ الروم على المسلمين وفسـاد الحج وعدم الجهاد وانقطاع السبيل وفساد الطريق ، وانفراد كل رئيس وتغلبه على الصقع الذى هو فيه ـ كفعـل ملوك الطوائف بعـد مضى الاسكندر ·· ولم يزل الاسـلام مستظهرا الى هـذا الوقت ، فتداعت دعائمه ووهى أسه وهى سـنة اثنتين وثلاثين وثلثمـائة (٩٤٣م) فى خلافة أبى اسحق ابراهيم المتقى لله أمير المؤمنين ، والله المستعان على ما نحن فيه » · أما الامبراطورية البيزنطية فقد أسعدها الحظ فى القرن ١٠م بثلاثة قواد ذوى كفاية نادرة تعاقبوا على عرشها وهم نيقفور الثانى فوكاس (٩٦٣ : ٩م) ويوحنا الاول تزيمسكيس (٩٦٩ : ٩٧٦ م) وباسيل الثانى (٩٧٦ : ١٠٢٥ م) · وقد فتح نيقفور جزيرة اقريطش وبعدها سقطت قبرص ، كما أغار على شمال الشام وفتح حلب والمصيصة وطرسوس ثم حمـاه وحمص وانطاكية ، وأغار الروم بعـد ذلك على الجزيرة فهاجموا الرها وبلغوا نصيبين ودخلوا ديار بكر ، فقصد بغداد من نجا من أهل البلاد مستنفرين واجتمع معهم أهل بغداد فى الجوامع وأصابهم جميعا غضب اليائسين فكسروا المنابر ومنعوا الخطب وقصدوا دار الخليفة فحـاولوا الهجـوم عليه واقتلعوا بعض شبابيك دار الخـلافة وخاطبوا الخليفـة بالتعنيف ، فرماهم الغلمان بالنشاب من الرواشن · وبلغ الجمع ستين ألفا » فطلب عز الدولة بختيار بن بويه من الخليفة المطيع لله أن يبعث له مالا يخرجه للغزاه ، فامتنع الخليفة بحجة أن الأموال لا تجبى اليه فلا تلزمه النفقة على الغزاة وهدد بالاعتزال ، وترددت الرسائل بينه وبين بختيار حتى بلغ الأمر التهديد ـ فبذل المطيع أربعمائة ألف درهم واحتاج فى ذلك الى بيع ثيابه وأنقاض داره من ساج ورصـاص ، وشاع بين الحجاج أن الخليفة قد صـودر » . لكن الغزاة مالبثوا أن تحزبوا الى سنيين وشيعة ووثب بعضهم على بعض وأعرضوا عن ذكر الروم جانبا ، ولما قبض بختيار المال صرفه فى مصالحه وبطل حديث الغزاة (١٣١) .

وهكذا ضاع مجد الثغور وخربت ، ويقارن ابن حوقل بين العهدين فى طرسوس فيقول : « فأما مدينة طرسوس فالمدينة المشهورة المستغنى بشهرتها عن تحديدها ، كبيرة عليها سوران من حجارة · كانت تشتمل على خيل ورجال وعدة وعتاد وكراع ، وكانت من العمارة والخصب بالغاية الى رخص عام على مر الأيام وتعاقب الأعوام ، وكان بينها وبين حد الروم

---

(١٣١) متز : الحضارة الاسلامية · ترجمة دكتور ابى ريدة جـ/١ ص ٦ ـ ٧ ·

جبال متشعبة من اللكام كالحاجز بين العملين • ورأيت غير عاقل مميز وسيد حصيف مبرز يشار اليه بالدراسة والفهم واليقظة والعلم يذكر أن بها مائة ألف فارس وكان ذلك عن قريب عهد من الأيام التى أدركتها وشاهدتها ، وكان السبب في ذلك أنه ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والجبال وطبرستان والجزيرة وأذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب الا وبها لأهلها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة الى ما كان السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف من فنادق • فهلكوا فكأنهم لم يسكنوها حتى لظننتهم كما قال الله تعالى : « هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا(١٣٢) » •

وقد أثار وقوع بعض الاراضى الاسلامية فى أيدى غير المسلمين منذ النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى نتيجة للحرب الدائمة بين الاسلام والنصرانية طوال العصور الوسطى مسألة من **(نوازل الجهاد)** هى مسألة بقاء جماعات اسلامية منقطعة تماما عن بلاد الاسلام داخلة بلاد النصرانية• وهذه القضية عاصرها مالك بن أنس نفسه فى أواخر أيامه (توفى سنة ١٧٩ هـ ـ ٧٩٥ م) وعاصرها أقطاب المالكية الاول من أمثال عبد الله ابن القاسم وأشهب بن عبد لعزيز وسحنون عبد السلام بن سعيد. ولم يعتبر أهل المشرق ما بين مسلمين ونصارى هذه المسألة مشكلة اذا لم يكن غريبا عنهم خضوع النصارى للمسلمين أو المسلمين للنصارى « وقد جرت عادة الحيين على أن تعيش الجماعة المغلوبة فى حكم الغالب فى حدود وقياد لا تبلغ مبلغ القضاء على الدين أو اللغة أو الشخصية ، وصاحب الفضل فى ذلك هو التشريع الاسلامى الذى وضع أول الأمر نظاما عادلا لأهل الذمة آمنوا به على عقائدهم وشخصيتهم من الضياع ، وقد جرى جيرانهم الروم على آثارهم فصار من يقع من المسلمين تحت سلطانهم يعتبر ذميا من وجهة نظرهم يخضع لقيود ويؤدى أموالا ولكنه لا يخشى على عقيدته الضياع اذا هو أحب أن يستمسك بها ، وقد تعارف الحيان على ذلك وعاش النصارى فى أرض المسلمين والمسلمون فى أرض النصارى

---

(١٣٢) ابن حوقل ص ١٢٢ ، لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة فرنسيس وعواد ص ١٦٤ ـ ٥

وتكفلت حوادث الايام وضرورات العيش باكمال ما فات المشرعين » • وقد ناقش الفقهاء حكم المسلم المقيم فى دار الحرب فقال ابن العربى : عصى ويختلف فى حاله ، وقال الشافعى : « ان العاصم هو الاسلام لا الدم » واحتج الشافعى بقول النبى : « أمرت أن أقاتل الناس •• الحديث » فنص على أن العصمة للنفس والمال انما تكون بكلمة الاسلام ، ولو أن مسلما دخل الى دار الحرب فانه معصوم الدم والمال والدار معدومة : ويقول الشافعى قاله أشهب وسحنون وهو اختيار القاضى أبى بكر بن العربى • غير أن هناك رأيا آخر لمالك وأبى حنيفة ومن قال بقولهما يرى أن العاصم انما هو الدار « فما لم يحز المسلم ماله وولده بدار الاسلام ـ والا فما أصيب من ذلك بدار الكفر فهو فيىء للمسلمين » • وقد تندر على ذلك ابن العربى فقال : « وهذه المسألة خراسانية عظما لم تبلغها المالكية ولاعرفتها الأئمة العراقية فكيف بالمقلدة المغربية ؟ » « وقال بعض المحققين من الشيوخ : « يظهر أن الأحكام الملحقة بهم فى الأنفس والأولاد والاموال جارية على المقيمين مع النصارى الحربيين •• ثم ان حاربونا مع أوليائهم ترجحت حينئذ استباحة دمائهم وان أعانوهم بالمال على قتالنا ترجحت استباحة أموالهم (١٣٣) » •

---

(١٣٣) الونشريشى : اسنى المتاجر : تحقيق وتقديم دكتور مؤنس •

ثالثا : البحرية

الأسطول البيزنطي :

لم يكن للأسطول عند البيزنطيين ما كان للجيش عندهم من أهمية• والى الوقت الذى ألف فيه ليو السادس (٨٨٦ : ٩١٢م) كتابه Tactica لم يكن هناك كتاب ألف عن الحرب البحرية فى بيزنطة ، على ان هذا الكتاب لم يخصص لهذه الحرب سوى فصول قصيرة • ولم يعد لهذا الموضوع كاتب سوى Paracoemomenus Basil الذى لم ينشر كتابه Naumachia • وقد عرض قسطنطين السابع فى كتابه بعض المعلومات العارضة ، أما المؤرخين أمثال Anna Comnena فهم يعتبرون الشئون البحرية أقل أهمية من شئون الجيوش البرية • ونتيجة لهذا لا نعرف سوى القليل عن التاريخ البحرى لبيزنطة مما يغرى بالتقليل من أهميته • وقد اتجهت روما الجمهورية الى البحر مكرهة ويصدق الحكم نفسه على الامبراطورية البيزنطية ، فقد بنى الأسطول الروماني تحت ضغط الحروب البونية وأبقى عليه ليقوم بمراقبة البحار لقهر القراصنة وحماية واردات الحبوب المنقولة لروما والقسطنطينية • فلما أصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية Mare Nostrom بعد اكتيوم وفى زمن الامبراطورية أهمل الأسطول وشق الغزاة البرابرة خلال القرن ٣ م طريقهم فى الدردنيل وجابوا البحر الايجى رغم أنف روما ، وكشف نمو المملكة الوندالية فى أفريقية وقوتها البحرية عن ضعف روما البالغ فغزت سردينيا ونهبت ايطاليا وروما وصارت لها سيادة المياه الغربية (١٣٤) • وتوزعت جهود الرومان الحربية على طول حدودهم البرية عند الرين والدانوب وبلاد فارس

---

(١٣٤) Runciman : Byz. Civ. pp. 119, 120, Byzantium. p. 303.

بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٨٢ ـ ٣

والصحراء ، ولم تكن بهم حاجة الى قوة بحرية دفاعية الا فى بريطانيا لبعدها عنهم . واتخذت الخطوة الأولى نحو تأسيس قوة بحرية دفاعية الا دائمة زمن أناستاسيوس ، **وكان تحكم جستنيان فى البحر هو الذى حقق انتصاراته** ، وقد أدرك أن الوندال هم أول أعدائه وهذا يدل على تقديره أهمية ذلك العامل البحرى ويمكن الاستدلال على أهمية السيطرة البحرية من قلة عدد الجنود الذين استخدمهم البيزنطيون فى حروب جستنيان اذا ما قورنت بالجيوش الجرارة التى استخدمها الرومان فى العصور السابقة ، وبينما ربطت الفرق البرية الأقاليم المختلفة أيام أغسطس وتراجان وقسطنطين بل وأيام ثيودوسيوس نفسه **فان السفن أدت هذه الوظيفة أيام جستنيان وموريس وهرقل** . ودعمت القوة البحرية حكم القسطنطينية فى أيام الامبراطورية على شواطىء البحرين المتوسط والاسود وهذا يعنى أن حكم جستنيان كان بداية عهد جديد .

ومن شأن البحرية ألا تغنى فى تأمين الاقاليم الداخلية ضد غارات البرابرة وغيرهم، وقد اعتمد حكام القسطنطينية مدة القرنين ٧،٦ م فى الدفاع البرى عن ممتلكاتهم على التحصينات الضخمة والمراكز القوية التى أقاموها على حدودهم وفى داخل أراضيهم جريا على سياسة الرومان التقليدية ، لكن البيزنطيين وسعوا مجال التحصينات وزودوها بحاميات نظامية مع الاستعانة بكتائب من الجنود المحليين أو المعاهدين من مستوطنى الريف المجاور ، وقد وصفها بروكوبيوس بأنها فسيحة ضخمة باهظة التكاليف ، ويبدو أن بعضها أسس أولا كملجأ للسكان عند الغزو لتسعهم مع قطعانهم ومتاعهم . والواقع أن جستنيان وخلفاءه كانوا أحوج الى الرجال منهم الى المال ، وعلى هذا عمدوا الى تحديد قوات الجيش العامل بأقل كثيرا مما كانت عليه أوائل عهد الدولة الرومانية للاقتصاد ولتأمين الاباطرة أنفسهم ، مع الاعتماد على معاقل الحدود والقوة البحرية .

وهكذا كانت أنظمة الدفاع عن عالم البحر المتوسط حتى فتوح الاسلام ، وقد أدت هذه السياسة غايتها الا فى المناطق البعيدة عن البحر مثل شمال ايطاليا وعلى طول نهر الدانوب وفى بلاد الشرق حيث عجزت عن حماية الامبراطورية أمام الفرس ثم العرب . ونظام الدفاع البيزنطى يشبه بدرجة ملحوظة أساليب دفاع الامبراطورية البريطانية فى القرنين ١٨ ، ١٩ فى الاكتفاء بقوات صغيرة من الجنود المحترفين تشد أزر قوات الدفاع المحلية فى مناطق الخطر ، وفى تحرى السيطرة على مواقع بحرية تتيح اشرافا على البحارة والتجارة . وفهم هذه الحقيقة يجعلنا لا نغالى

فى تقدير مافقدته الدولة البيزنطية من أراض على أيدى الفرس والمسلمين منذ القرن السابع الميلادى فصاعدا حين توالت عليها النكبات • ونحن نعرف من أخبار القرن السابع الميلادى أن الدولة البيزنطية احتفظت بقواعد بحرية ودور للصناعة فى قرطاجنة وعكا والاسكندرية والقسطنطينية حيث تم بناء الكثير من السفن الحربية الخفيفة السريعة Dromonds بجانب قواعد أخرى فى سرقوسة بصقلية ورافنا لحراسة البحرين التيرانى والادرياتى ، ويحتمل وجود قاعدة بحرية أخرى فى سبتة وجزر البليار • والراجح أنه كان للدولة فى القرن السادس الميلادى أساطيل اقليمية تشبه أساطيل الامبراطورية فى أواخر عهدها ، ومن المحتمل أن بلاد القرم كانت تؤدى بعض الخدمات البحرية • وفى الحرب كانت الدولة تعزز أسطولها بعدد من السفن التجارية لنقل الجنود والامدادات • ولم تواجه البحرية البيزنطية عدوا خطرا حتى ظهر الأسطول الاسلامى ، وفشلت هجمات اللمبارد والآفار والفرس حتى أواخر أيام موريس ولكن بعد موت موريس (٦٠٢ م) انهار نظام الجيش وزحف الآفار عبر حدود الدانوب واقتنص الساسانيون الفرصة فعبروا حدود سوريا ومصر • وبعد سقوط انطاكية وبيت المقدس ظهرت جيوش الفرس عند خلقدونيا تجاه القرن الذهبى سنة ٦٢٦م تظاهرها قوات الآفار على الشاطىء الاوربى المقابل • **وأنقذت الامبراطورية زعامة هرقل وقوته البحرية** ، فقد ساعدت سيطرة الاسطول على البحر على انزال قواته ثم حماية ظهر جيوشه المهاجمة التى أوغلت فى الداخل تتعقب الفرس • كما استطاعت البحرية البيزنطية تشتيت وحدات بحرية للآفار كانت تهدد القسطنطينية • واحتفظ الاسطول البيزنطى بالمدخل المائى للقرن الذهبى مفتوحا فأمكن تموين العاصمة المحاصرة • وعاش هرقل منقذ الامبراطورية بفضل الاسطول البيزنطى ليواجه الخطر العربى الذى كان أشد وأبقى(١٣٥) •

وقد تغيرت التنظيمات البحرية البيزنطية على أثر ضغط هجمات الفرس والعرب فى القرنين السابع والثامن ، فوضع على رأس كل اقليم قائد حربى له السلطة الحربية والمدنية معا Strategos وأتاح ذلك وسائل فعالة للدفاع وطبق هذا النظام فى الأسطول والجيش معا وكفل الى حد ما نجاح بيزنطة فى البقاء ، ويرجع ذلك الى أيام قنسطانز الثانى

(١٣٥) ارشيبالد لويس / القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط • ترجمة أحمد عيسى ص ٢٧ : ٣٠ ، ٤٠ : ٩ ، ٧٤ : ٨ •

(٦٤١ : ٦٦٨ م) وقسطنطين الرابع (٦٦٨ : ٦٨٥ م) فقد تطلبت القوة البحرية النامية للعرب جهودا بيزنطية مضادة ، وجعل المغيرون الكثيرون على الامبراطورية من النقل البرى أمرا صعبا فكان لا بد من الالتفات الى الطرق البحرية . وكان نظام القوة البحرية البيزنطية فى صورته الاخيرة فى أواخر القرن ٧ وأوائل القرن ٨ م عبارة عن أسطول حربى دائم قوامه **أسطول مركزى امبراطورى فى القسطنطينية** بقيادة القائد الاعلى Strategos of Carabisiani مباشرة أو عن طريق مساعد أو نائب drungarus ، وهناك **أسطولان اقليميان فى الشرق هما أسطول بحر ايجة وأسطول كيبرهايوت** Cibyrhaeot ويقومان على أساس اقليمى، يشرف الأول على جزر السكلاديز والدوديكانز ، والثانى على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى ويخضع كلا منهما لقيادة نائب أميرال ، والى جانبهما وحدات بحرية صغيرة فى بلاد الشرق . وهذا الأسطول البيزنطى هو الذى صد العرب مرتين عن القسطنطينية وحفظ صقلية طويلا للامبراطورية ، غير أن ليو الثالث (٧١٧ : ٧٤٠ م) بعد حصار العرب للقسطنطينية اعتمد فى قوته على جيش آسيا الصغرى البرى ، وكذلك فعل خلفه قسطنطين الخامس (٧٤٠ : ٧٧٥ م) . **وفى الجانب الغربى من المتوسط رابط الاسطولان الاقليميان الرئيسيان فى صقلية وفى رافنا . ويحتمل وجود ثالث فى افريقية** حتى الفتح الاسلامى لها واحتفظ الاسطول الامبراطورى وكل أسطول اقليمى بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب **والبحارة ودور الصناعة وأحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى على نفقة الأقاليم التى تقيم فيها الاساطيل ، وربما فرضت الاساطيل الاقليمية فى الحرب على الثغور البحرية فى مناطقها تقديم ملاحين أو سفن للنقل والمئونة.** وشاهد القرن الثامن الميلادى تغييرا طفيفا فدعمت المناطق البحرية فى الشرق وجعلت بنودا بحرية thema ، ورفع لقب مساعد أميرال أسطول كيبرهايوت الى لقب قائد أعلى للبحرية . **ويخالف ارشيبالدلويس بيورى فيما ذهب اليه فى تعليل نقل مركز رئاسة الاساطيل الشرقية فى عهد ليو الثالث من القسطنطينية بأن جهات أخرى غدت أحوج للحماية وهى سواحل آسيا الصغرى وعلى ذلك ألغى مركز القائد الأعلى فى بيزنطة ـ اذ يرجع ذلك فى رأى أرشيبالد الى انتقال قوة الهجوم البحرى البيزنطى جنوبا نحو مياه البحر المتوسط ذاته بعد رفع الحصار عن القسطنطينية** . ويبدو ان القيادة العليا فى كيبرهايوت فى أوائل عصر الاسرة الايسورية أشرفت على أسطول أضخم بكثير مما يلزم فى الاغراض الدفاعية، وهو الاسطول الذى حطم العمارة البحرية العربية قرب قبرص سنة ٧٤٧ م . أما جليزر فيرى ان

السبب في الغاء القيادة العليا الموحدة هو أن الاسطول نادى بنائب الاميرال ابسيمار امبراطورا سنة ٦٨٧م باسم تيبريوس الثالث وأسقط جستنيان الثانى سنة ٧١٣م وأنستاسيوس الثانى سنة ٧١٦م ، مما أخاف الأباطرة العسكريين الايسوريين فضلا عن ميل رجال البحرية لتقديس الصور ، بينما كانت تساند القوات الآسيوية نزعة الاباطرة اللا أيقونية • ومن أجل ذلك اعتبر الايسوريون من الاسلم الغاء القيادة العليا وانزال البنود البحرية وانقاص عدد السفن • وعلى كل حال فقد كانت ميزة التنظيم البحرى البيزنطى هى مرونته وقابليته للتطبيق العملى المتنوع ، فقد استخدم موارد الامبراطورية البحرية مجتمعة مع توزيع تكاليف الدفاع البحرى على الاقاليم « وبذلك أتاح حماية قليلة التكاليف لسواحل الامبراطورية من الهجوم البحرى العربى (١٣٦) » •

ودفعت الكوارث البحرية القسطنطينية بعد عام ٨٢٧ م الى اعادة تنظيم أساطيلها الشرقية حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى فى العهد العمورى ، ولعل ذلك بدأ زمن حكم ميشيل الثالث ولكنه لم يثمر قبل عهد باسيل الأول • فتولى أمر الأسطول الامبراطورى أميرال جديد عرف باسم Drungarios of the Ploimen وربما كان يقوم بوظيفة القائد العام للبحرية أيضا ، وكانت ترابط قطع منه عند جزيرة ميتيلين لحراسة مدخل الدردنيل حتى أصبحت الجزيرة أكثر القواعد البحرية أهمية لمقاومة مسلمى كريت فى بحر ايجة ــ وهذا الاسطول وه الذى حطم تحت قيادة نيكيتاس أوريفاس أبرز أميرالات العصر أسطول مسلمى كريت فى خليج كورنث سنة ٨٧٩م/٢٦٦هـ • وقد أرسلت حملة من ثلثمائة سفينة ضد مصر سنة ٨٥٣م/٢٣٨هـ وحجمها يبرز التقدم البحرى البيزنطى • ويحتمل أن يكون تهديد أسطول المسلمين فى قندية (كانديا بجزيرة كريت) سببا فى احداث تغيير آخر فى نظم البحرية البيزنطية بايجاد أسطول بحرى اقليمى جديد فى بحر ايجة أضيف الى أسطولى كيبر هايوت وايجة: **هو أسطول بند ساموس** Samos **البحرى وقاعدته ازمير** Smyrna **واقتصرت مسئولية أسطول كيبير هايوت على حماية السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى ضد غارات القوات العربية من طرسوس وسورية وتلك هى المهمة القديمة لذلك الاسطول ، أما أسطول بحر ايجة فكان عليه حماية**

---

(١٣٦)أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ــ ترجمة أحمد عيسى ص ١١٢ : ٤ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٨٤ ــ ٥
Runciman : Byz. Civ. p. 120, Byzantium: p. 304.

الشواطىء الاوربية لذلك البحر ، على حين يتولى أسطول جزيرة ساموس حماية شواطئه الآسيوية ضد غارات كريت • والى جانب ذلك وجدت قوات بحرية أقل أهمية فى ثغور هيلاس والبلوبونيز وكيفالونيا وبامبلاجونيا Pamplagonia والمعلومات عن قوة بيزنطة البحرية فى الغرب قليلة ، ومن المؤكد انها كانت أضعف من قبل حتى لم تستطع قوات صقلية البحرية أن تسترد قوتها بعد كارثة سنة ۸۲۷م • وكان لزاما لرد القوات الاسلامية فى البحر أن تصل امداد من أساطيل الاقاليم الشرقية والاسطول الامبراطورى ولعل هذا يوضح علة اتباع بيزنطة فى الجملة سياسة دفاعية وتجاسر مدن كمبانيا على حكام بيزنطة فى الغرب الذين أعوزتهم القوة البحرية لفرض سياستهم • وكانت القوة الوحيدة الجديرة بالاعتبار فى الغرب قوة البندقية تساندها أحيانا قوات أخرى من ساحل دلماشيا ، والبندقية والساحل الدلماشي كادا أن يكونا مستقلين بعد سنة ۸۲۷م • وقد ظل قائد البند البحرى يتقاضى مرتبا أقل من زملائه فى البنود البرية ـ عشر أرطال فقط من الذهب فى العام • وفى أيام رومانوس ليكابينوس (۹۱۹ : ۹٤٤م) قوى شأن الاساطيل الامبراطورية والاقليمية فى الشرق والغرب ببناء سفن أضخم وأقوى بدليل غاراتها فى المياه الغربية وقرب الشواطىء المصرية ، وأخذ الاسطول البيزنطى الجديد يعمل بنشاط فى استعادة جنوب ايطاليا للامبراطورية • وان لم تنجح محاولاته الاولى فى انقاذ صقلية ، كما ان الحملات فى الادرياتيك بقيادة الاميرال العظيم باسيل الاول (۸٦۷ : ۸۸٦ م) المسمى أوريفاس جعلت ساحل دلماشيا يجدد ولاءه • وفى أوائل تلك المرحلة غلب على البحرية البيزنطية التزام جانب الدفاع فى الجملة ، عدا ماقام به المردة المقيمون بالشواطىء الأناضولية بجهودهم الذاتية ضد أعدائهم رجال اسطول طرسوس الاسلامى وهم وحدهم الذين اتخذوا خطة الهجوم لمواجهة هجمات المسلمين المستمرة • وما جاء عن الحرب البحرية فى كتاب ليو Tactica يبين أن أساطيل بيزنطة دربت على تجنب ملاقاة العدو الا عند الضرورة القصوى ، وانها اعتبرت عضدا للقوات البرية لا سلاحا قائما بذاته ـ وهذا المسلك الدفاعى الحذر يوضح مركز بيزنطة الهزيل فى البحار خلال معظم تلك الفترة • وحين كانت تشترك الأساطيل فى العمل كانت القيادة البحرية تجمع لأمير بحر واحد • وكان اسطول كبيرـ هايوت يفخر بمكانته بين الأساطيل المحلية ، فقد كان قاعدة البيزنطيين للعمل ضد العرب • وكانت تقع الاشتباكات مع أمراء أذنة وطرسوس بصورة دائمة ، فاذا تقدم أمير

مسلم على رأس جيشه قام الأسطول البيزنطى الذى كان على استعداد للابحار فى أية لحظة بهجوم مضاد له ، بينما تقوم القوات البرية بحركة يقصد منها تضليل العرب فى حالة ما اذا حاولوا القيام بحملة بحرية .
وقد ارتفع شأن البحرية البيزنطية فى المشرق بعد مصرع القائد البحرى الاسلامى ليو الطرابلسى ، واستطاع نيقفور فوقاس أن يقدم الى ليوتبراند Liutprand مبعوث أوتو الأول أسطولا مجهزا وأن يقول : ان القوة البحرية لى وحدى Navigatium fortitudo mihi soli inest تحدث قسطنطين بورفيروجيننتوس فى مناسبات مختلفة عن السيادة الرومية على مياه البحر المتوسط من جبل طارق الى الدردنيل (١٣٧) .

البحرية الاسلامية :

وقد بدأت مرحلة جديدة في تاريخ البحر المتوسط بسقوط الاسكندرية فى أيدى العرب سنة ٦٤١ م - ٢٠ هـ وموت هرقل يسميها أرشيبالد لويس **مرحلة الفتح العربي (٦٤١ ، ٧٥٢ م) (وتشمل عهود عمر وعثمان وعلي والخلفاء الأمويين حتى بداية العهد العباسي ٢٠ : ١٣٤ هـ)**
وقد ظهر الاسلام على سواحل ذلك البحر لا كما جاء الساسانيون الى سوريا ومصر - لأجل موقوت ، وانما غدا وجود المسلمين عنصرا دائما فى الموقف ولئن كان العرب كأهل بر وبداوة غير مستعدين فى أول الأمر لمواجهة البحر - حتى حكموا مصر من الفسطاط بدلا من الاسكندرية ، والشام من دمشق بدلا من أنطاكية - الا أن الظروف الجغرافية جعلت من مصر ومن سوريا الساحلية بلادا لا يمكن عزلها عن البحر المتوسط . فقد كانت معظم ثروة مصر والشام من تجارتهما الداخلية والخارجية وعلاقاتهما مع بلدان البحر المتوسط ، ثم احتاج العرب للدفاع عن ممتلكاتهم البرية ضد البيزنطيين الذين لا يزالون يسودون البحر حتى استطاعت حملتهم نزول الاسكندرية سنة ٦٤٥ م - ٢٥ هـ ، واستلزم اجلاؤها قتالا عنيفا .
وأدرك معاوية والى الشام ضعف سلطانه على سواحلها أمام قوة أسطول بيزنطة ، وكيف أن كثيرا من سكان المدن الساحلية الموالين لبيزنطة ظلوا يتطلعون الى البحر ، واستطاعت مدينة مثل أرواد أن تصمد للمقاومة

---

(١٣٧) أرشيبالدلويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة عيسى ص ٢٤٣ : ٥ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٨٥ : ٧ ،
Runciman : Byz. Civ. p. 121, Byzantium. p. 304:5
Bury : Hist. of the Rom. Emp. pp. 229:230.

طويلا (١٣٨) . وكانت تتردد فى آذان العرب غداة استيلائهم على الشام ومصر محنة الفرس عندما أهملوا الأسطول ففشلوا فى تحقيق أمنيتهم للاستقرار على شواطىء البحر المتوسط للافادة من موقعهم الجغرافي على الطريق التجارى العظيم بين الشرق والغرب ، واستهل العرب سياستهم البحرية عندما سيطروا على شواطىء البحر المتوسط من جبال طوروس شمالا الى حدود برقة غربا بخطة دفاعية تستهدف تأمين فتوحاتهم فحسب ، فعمدوا الى الثغور البحرية وشحنها بالحاميات (١٣٩) .

ومن هنا يصدق ما قرره الدكتور شعيره « كان الساحل بالنسبة للبيزنطيين حدا تسهل مهاجمته بينما كان بالنسبة للمسلمين خط دفاع بالغ التعرض للخطر .. وبينما اتجه البيزنطيون الى الانتفاع بما عندهم من المزايا اجتهد المسلمون فى تلافى نواحى الضعف من جبهتهم وسد ثغراتها » . وتشهد بهذا رواية البلاذرى « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر ما يحتاج لها اليه من المسلمين فان حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا اليها الامداد فلما استخلف عثمان كتب الى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزل اياها القطائع ففعل » . وكتب معاوية الى عمر بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل « فكتب له فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها ولم يأذن له فى الغزو بحرا » (١٤٠) .

وقد ناقش الكثيرون تخوف العرب من ركوب البحر وقال ابن خلدون « والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله مالا تعانيه أمة من أمم البحار .. وأوعز عمر بمنع المسلمين من ركوبه .. والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه ، والروم والافرنج لممارستهم أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته » . (١٤١) على أن نفور

---

(١٣٨) أرشيبالدلويس : القوى البحرية والتجارية ـ ترجمة أحمد عيسى ص ٨٧ : ٩٠ حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى . ترجمة دكتور يعقوب بكر ص ١٨٠ .

(١٣٩) دكتور العدوى : الأساطيل العربية ص ٢ : ٤ ، حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ـ ترجمة دكتور يعقوب بكر ص ١٨٠

Cheira : La Lutte entre Arabes et Byz. p. 85

(١٤٠) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط . المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ م ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٤ .

(١٤١) ابن خلدون : المقدمة . طبع الدكتور وافى جـ ٢ ص ٧٢٧ ـ ٨ .

العرب من ركوب البحر لا يعنى جهلهم تماما بشئونه فاللغة العربية مليئة بمفردات لاصطلاحات بحرية عربية الصياغة أو مستعارة من أمم أخرى ، وقد استعملت هذه المفردات فى الشعر الجاهلى ومن ذلك السفينة والفلك واستعمل طرفة والأعشى كلمة (بوصى) وقيل أن أصلها بوزى الفارسية ، والملاح فى الأصل من يصنع الملح من ماء البحر ثم اتسعت دلالة الكلمة . ويظهر أن كلمة نوتى جاءت الى العربية من الروم عن طريق الشام وأصلها Nauticus علاوة على اصطلاحات أخرى : مثل قلع ومجداف وسكان وشراع . ولما ترقت العرب فى الملاحة بعد الاسلام حدثت ألفاظ جديدة وكان عندهم فرق بين اصطلاحات البحر الرومى واصطلاحات البحر الهندى وكان مما أخذ عن اليونانية أوقيانوس للبحر الأعظم ، وجون للخليج ، واسطام للقطعة الأمامية من المركب ، وقرقور للسفينة الكبيرة، وعدولية للسفينة ، وقير للزيت يطلى به ألواح السفن ، علاوة على لفظ أسطول نفسه . وكانت **لخم وجدام** من قبائل العرب قاطنة بثغور الشام . وكانت تجمعهم والروم روابط حتى تنصر كثير منهم ، وقد حدث تميم الدارى من هؤلاء وكان نصرانيا فأسلم ـ قال بعد وصوله المدينة أنه ركب فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجدام فلعب بهم الموج شهرا فى البحر ثم أرخوا الى جزيرة فى البحر فدخلوها . على أن العرب ان عرفوا شيئا عن ركوب البحر فقد جهلوا حروبه وأساليب القتال فيه تماما ، ومن هنا جاءت رهبتهم من مواجهة عدوهم على مياهه . وقد منع عمر المسلمين ركوب البحر « لأنهم لم يكن لهم سابق عهد بحروبه والروم كانوا ماهرين فيها » (١٤٢) .

وقد صرف العرب عن الاستفادة الكاملة من ظروف بلادهم البحرية التى كانت تطل على البحر الأحمر والخليج الفارسى ويكملهما النيل والفرات ودجلة عقبات : منها أن الجزيرة لا تنتج الخشب الصالح للسفن القوية ولا تشتمل على الحديد للمسامير وليست على مقربة من بلد ينتجه وليس فيها أنهار صالحة للملاحة ولا تكثر فيها الموانى الممتازة ، فضلا عن أن الملاحة فى البحر الأحمر فى تلك العصور لم تكن أمرا سهلا ، ومن هنا آثر العرب أن يقيموا طرقا للقوافل على طول الساحل الغربى من جزيرتهم . وكانت الأحوال أوفق فى الخليج الفارسى ولكن كان الماء الصالح للشرب شحيحا وقد يكون البدو على جهل بالبحر أو خوف منه ، أما عرب

---

(١٤٢) سليمان الندوى : الملاحة عند العرب . مجلة الضياء ١٣٥٣ هـ .

السواحل وخاصة فى اليمن فقد اعتادوا عليه · والاسلام قد تحدث عن البحر وركوبه والفلك التى تجرى فيه كنعمة سابغة من نعم الله (١٤٣) ·

وكان فقر سكان السواحل ووجود جزر تجاهها يساعد على تفشى القرصنة (١٤٤) ·

ومع ذلك فقد حرص الاسلام على ترغيب المسلمين فى ركوب البحر والجهاد باقتحامه وقد استقيظ الرسول يوما وهو يضحك فسألته ام حرام بنت ملحان عما يضحكه « قال : ناس من مأتي عرضوا على غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة ـ أو مثل الملوك على الأسرة · قالت فقلت : يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم ، فدعا لها رسول الله ·· فركبت البحر فى زمان معاوية بن أبى سفيان فصرعت عن دابتها خرجت من البحر فهلكت (١٤٥) وعن كعب قال : اذا وضع الرجل رجله فى السفينة خرج من خطاياه كيوم ولدته أمه ، المائد فيه كالمتشحط فى دمه فى سبيل الله والغريق فيه له مثل أجر شهيدين والصابر فيه كالملك على رأسه التاج · وقد علل الفقهاء مضاعفة أجر المجاهد فى البحر « لأنه أشد وأخوف وفيه تسليم النفس لابتغاء مرضاة الله » (١٤٦) · وانما نهى عمر عن ركوب البحر كما نهى عن المبالغة فى (الانسياح) فى البر فى فارس ، ولم يكن متحمسا لفكرة فتح مصر ··· اذ لم يكن يريد أن تتناثر أرجاء الدولة فتصبح حمايتها عبئا ثقيلا · وكذلك كان الروم فى بداية تاريخهم غير مقبلين على ركوب البحر وانما اضطرتهم آلى ذلك الظروف ·

وقد روى أن عثمان كان يريد أن يواصل الفتوح من افريقية الى الأندلس ثم تسير جيوشه فى قلب أوربا الى القسطنطينية وكتب الى من انتدب من أهل الأندلس « أما بعد فان القسطنطينية انما تفتح من قبل الأندلس وانكم ان افتتحتموها كنتم شركاء من يفتحها فى الأجر » ويبدو هذا مغامرة جريئة فى ذلك التاريخ المبكر وكان معاوية يعرف الأهمية الاستراتيجية لجزر البحر المتوسط بالنسبة للشام « قالوا : الح معاوية فى زمانه على عمر فى غزو البحر وقرب الروم من حمص ، وقال ان قرية

---

(١٤٣) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى · ترجمة دكتور يعقوب بكر ص ٢٤ ـ ٦ ، ص ١٧٩ ·

(١٤٤) Hadi Hassan : Hist. of Persian Navigation pp. 95:7

(١٤٥) البخارى · جـ ٤ باب فضل الجهاد والسير ·

(١٤٦) السرخسى ـ شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى جـ ١ ص ٣٠ ـ ١ ·

من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم ـ حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر » (١٤٧) ٠

وبفضل معاوية أجريت الترتيبات الدفاعية عن موانى الشام ، وبفضله أيضا بدأ بناء الأسطول والاتجاه الى الهجوم ولم يصدر الاذن بغزو البحر لمعاوية الا زمن عثمان فارسلت **حملة الى قبرص** ٢٨هـ/٦٤٨م، وهكذا أصبح للمسلمين أسطول فى البحر وصل فى بعض حملات قبرص خمسمائة سفينة ٠ وقد ذهب هويد وبيرين الى أن المسلمين استعملوا أسطول أهل البلاد أو السفن التى خلفها الروم ، أو عهدوا لأهل السواحل فى ابتناء سفن لهم ـ وعلى أية حال لم تكن أساطيل المسلمين الأولى اسلامية الا من حيث المقاتلة الذين دخلوا فيها للحرب والفتح ٠ وكلمة أسطول نفسها يونانية Stolos ، وكان المسلمون يحاربون فى البحر بنفس أسلوب حربهم فى البر ـ أى بالرمى بالسهام والحراب والحجارة فى بعض الأحيان، فاذا أعياهم الأمر رموا خطاطيف تتشبث بسفن العدو ثم جذبوها اليهم حتى اذا تلاصقت السفن تحولت المعركة الى معركة برية ويذكر هذا الأسلوب فى القتال بالخطط الرومانية فى معركة الغربان corvi تجاه Mylae بشمال صقلية سنة ٢٦٠ق٠م ضد أسطول قرطاجنة حيث جهزت السفن الرومانية بروافع طويلة مدببة الأطراف تقذف فوق ظهور السفن المعادية فتنغرز فيها فتوقفها ثم ينقض عليها الملاحون الجنود ـ وقد شبهت الروافع بمناقير الغربان ٠ ويلاحظ أن معظم استعمال الاسطول الاسلامى ـ أول الأمر ـ كان لنقل الجند لا للاشتباك فى القتال فى عرض البحر بدليل قلة مالدينا من أخبار الوقائع البحرية بين المسلمين والروم وكانت خطة المسلمين فى السيطرة على البحر فى مستهل عهدهم تتفق مع طبيعتهم وهى الاستيلاء على الشواطىء والموانى ، والى تلك الخطة ترجع محاولاتهم العديدة للاستيلاء على القسطنطينية لأنها كانت فى نظرهم مركز الأساطيل الرومية التى تعترض سفنهم فى البحر وتهدد شواطئهم وكانوا يرون أنهم اذا وضعوا أيديهم عليها كفوا أنفسهم هذا الشر٠٠ لقد حرص معاوية منذ استقر له الأمر بالشام على أن يوجه الدولة كلها وجهة غربية متوسطية، وجرى على هذا السنن من أتى بعده من خلفاء أمية ٠٠ ويبدو أن هذه الهمة التى أبداها المسلمون فى بناء السفن هى التى حفزت الامبراطور البيزنطى قنسطانز الى الخروج فى أسطول بيزنطى ضخم للقضاء على ما كان لدى المسلمين اذ ذاك من أدوات للحرب فى البحر وكانت نتيجة ذلك واقعة

---

(١٤٧) الطبرى جـ ٥ ص ٥٠ : ٢ رواية السرى عن شعيب عن سيف

ذات الصواري ٣٤ هـ / ٦٥٥ م التي تعتبر حادثا فاصلا في تاريخ البحر الأبيض ذلك أن قنسطانز كان يرمي الى تحطيم قوى المسلمين البحرية في مهدها ، ولو وفق في ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض ـ أو حوضه الشرقي على الأقل ـ بيد البيزنطيين دون المسلمين » • ويذكر تيوفانيس وميشيل السوري أن معاوية حشد أسطولا في رابلس سنة ٣٥ هـ/٦٥٥ م لمهاجمة الأسطنطينية • وقد كانت نواة الأسطول الاسلامي شامية ولكن القوة الحاسمة أتت من مصر (١٤٨) •

ويبدو من المعارك البحرية الاسلامية المبكرة **تعاون الأسطولين الشامي والمصري** • ففي روايه الواقدي عن فتح قبرص « غزا معاويه في سنة (٢٨ هـ / ٦٤٨ م) قبرص ، وغزاها أهل مصر وعليهم عبد الله ابن سعد أبي سرح حتى لقوا معاوية فكان على الناس » ، وفي غزوة الصواري ٣٤هـ/٦٥٥م « أن أهل الشام خرجوا عليهم معاوية ابن أبي سفيان وعلى أهل البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح » وتعطينا الرواية العربية تفاصيل طيبة عن البحرية الاسلامية في مطالع تاريخها « وخرج عامئذ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بافريقية فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الاسلام فخرجوا في خمسمائة مركب •• عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : كنت معهم فالتقينا في البحر فنظرنا الى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت الريح علينا فأرسينا ساعة وأرسوا قريبا منا •• ثم قلنا : ان أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم وان شئتم فالبحر ، فنخروا نخرة واحدة وقالوا : الماء • فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها الى بعض ، حتى كنا يضرب بعضنا بعضا على سفننا وسفنهم فقاتلنا أشد القتال ووثبت الرجال على الرجال يضربون بالسيوف على السفن ويتواجئون بالخناجر •• » • واشترك القبط في الحملة العربية « فركب محمد بن أبي حذيفة ـ على أثر نزاعه من عبد الله ابن سعد ـ في مركب وحده ما معه الا القبط » • ومن الطريف أن الروم ليلة المعركة « باتوا يضربون بالنواقيس وبات المسلمون يصلون ويدعون الله » •

---

(١٤٨) دكتور مؤنس : المسلمون في البحر المتوسط المجلة التاريخية المصرية م٤ ع ١ مايو ١٩٥١ ، راجع أيضا حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ترجمة دكتور يعقوب بكر ص ١٨٢ : ٦ وهو يرى أن أسطول موقعة الصواري بني في الإسكندرية كله • ،
Ali Fahmy : Muslim Sea Power in the Eastern Medit. pp. 51:5.
دكتور العدوي : الأساطيل العربية ص ١٧ : ١٩ •

وقد حرص المسلمون على الافادة من قبرص كمركز استطلاعى فاكتفوا من أهلها بالجزية ولم يمنعوهم عن أداء الجزية للروم « على ألا يغزوهم ولا يقاتلوا من وراءهم ممن أرادهم من خلفهم ، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم » (١٤٩) • على أن المسلمين لم يستفيدوا تماما من انتصار الصوارى العظيم اذ توقفت العمليات أكثر من عشر سنوات بين الطرفين لانشغال كليهما بالمشاغل الداخلية •

***

وفى سنة ٦٦٦ م (٤٥ هـ) دفع قنسطانز الثانى المردة (الجراجمة) من سكان الجبال فجاسوا خلال الشام ، ورغب معاوية — فى السلام ، وعمل على تدعيم المدن الساحلية بسكان من الفرس والزط كما يروى البلازدرى •

وعاد معاوية الى الهجوم البحرى سنة ٦٦٩ م (٤٩ هـ) بعد موت قنسطانز واتخذت الحملات الاسلامية خطة الهجوم بدلا من الدفاع والغارات البسيطة **واستهدفت فى السنوات التالية السيطرة على شواطىء المتوسط بالاغارة على صقلية وشمال افريقية ، لكن اتجهت جهود المسلمين الحقيقية نحو القسطنطينية • كما سلطت القوات العربية البحرية على منطقة بحر ايجه ، فهاجمت كريت واستولت على رودس ، ولم تؤ الغارة البيزنطية سنة ٦٧٣ م / ٥٣ هـ على دلتا النيل الى نتيجة ولم تحم القسطنطينية سوى النار الاغريقية (١٥٠) •**

وقد قامت حملات العرب ضد القسطنطينية على التعاون والتنسيق بين القوات البرية والبحرية • وأظهر عبد الملك بن مروان اهتماما كبيرا بالقوة البحرية لما قاساه أول عهده من بحرية أعدائه البيزنطيين فضلا عن افسادهم المردة في الشام حتي دفع آتاوة زائدة الى الروم واتفق على اقتسام دخل قبرص ومن أجل ذلك أمر موسى بن نصير والى افريقية بانشاء قاعدة

---

(١٤٩) الطبرى جـ ٥ ص ٥٣ ، ٦٩ — ٧٠ رواية الواقدى •

(١٥٠) راشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية — ترجمة أحمد عيسى ص ٩٢ ، ٩٥ : ٧

بحرية وأرسل له ألف قبطى مصرى من بنـــاة السفن مع عائلاتهم لبناء أسطوله ، **واختار موسى موقع تونس لبعده بعض الشىء عن الساحل الى الداخل وحفر قناة تصلها بالخليج القريب ، واستولى العرب على جزيرة قوصرة فسيطروا على المضيق الفاصل بين الشاطىء الافريقى وصـــقلية وأصبح شمال افريقية مركزا بحريا ثالثا بجوار الشـــــام ومصر تولى الاغارة على صقلية وسردنية وجزر البليار (ميورقة) • ثم جاء غزو الاندلس** ـ وان لم يستخدموا فيه الأسطول العربى على نطـــاق واسع ـ فاكتمل التفاف العرب حول البحر المتوسط •

ويعتبر الهجوم الأموى الثانى على القسطنطينية فى عهد سـليمان ابن عبدالملك أقصى جهود المسلمين فى ذلك الوقت ، فقد شمل الأسطول الاسلامى ألف وثمانمائة سفينة اشتركت فيها وحدات الشـــام ومصر وافريقية • واستعان ليو الايسورى على المقاومة بالبلغاروالنار الاغريقية علاوة على ما قيل من انحياز البحارة المسيحيين فى الأسطول العربى الى الروم • ولم ينشط العرب بعد ذلك فى الحرب الا فى الغرب حيث أغارت أساطيلهم من افريقية على صقلية وسردينية ، ويظهر أن الأعمال الحربية فى الشرق كانت عبارة عن القيام بغارة اســلامية على قبرص أو غارة بيزنطية مضادة على مصر باعتبارهما الهدفين الرئيسيين الذين تتكافأ فيهما قوى الفريقين •

وختمت جولات الصراع سنة ٧٤٧م ١٢٩هـ بمعركة فاصلة قرب قبرص حيث حاصر أسطول كريت البيزنطى أسطولا عربيا ضخما من ألف سفينة كما يروى تيوفانيس وهو رقم يمثل ازدهار البحرية الاسلامية ، وكان الأسطول البيزنطى أقل عددا ولكنه مسلح بالنار الاغريقية فانهزم الاسطول العربى حتى لم تنج منه سوى ثلاث سفن • ويعلق أرشيبالد لويس على هذه المعـــركة بقوله « ولهذا النصر البحرى البيزنطى دلالته الكبرى اذ أنه أنهى الصراع البحرى الطويل الأمد بين الأمويين والبيزنطيين ولم يستطع العرب فى سوريا ومصر أن يعوضوا ما فقدوه أبدا ، واختفت قوة مصر البحرية من البحر المتوسط أكثر من قرن من الزمان ولم تستعد سلطانها فعلا الا فى أيام الفاطميين أواخر القرن العاشر ، كذلك لم يعد هناك ذكر لأخبار البحرية السورية لمدة ربع قرن ولم يستعد الأســطول العربى السورى حيويته ونشاطه الا زمن ليو الطرابلسى أواخر القرن ٩م، وأصاب الخمول أيضا القاعدة البحرية العربية فى شمال افريقية وقلمت أظافرها هى الأخرى اذ أتاحت انتصارات الأسطول البيزنطى فى الشرق فرصة ارسال بعض قواته الى الغرب وتوقفت غارات أسطول شمال افريقية

الغربى مدى نصف قرن بعد غارة سنة ٧٥٢ م (١٣٤ هـ) على صقلية وسردينية • وهكذا استطاعت بيزنطة بعد قرن من الجهود البحرية أن تستعيد سيادتها على مياه المتوسط ثانية » •

ويقسم ارشيبالد لويس فترات تحدى المسلمين لسيادة بيزنطة البحريه فى البحر المتوسط الى ثلاثة : الأولى دفاعية فى أساسها من سنة ٦٤٨ م الى ٦٥٥ م (٢٧ : ٣٤ هـ) وتنتهى بموقعة الصوارى ولو أن العرب انتصروا فيها انتصارا باهرا ، والثانية فترة غارات هجومية من سنة ٦٦٩ م (٤٩ هـ) واشتملت على حصار عظيم للقسطنطينية دام سبع سنوات وانتهت بانتصار بيزنطى كامل بسبب نشاط الأسطول البيزنطى الذى أثر فى جبهة شمالى افريقية وبسبب نشاط المردة فى الشام ، والفترة [illegible] هى أشد الموجات جدية واستمرت منذ سنة ٦٩٣ م (٧٣ هـ) قرابة ستين عاما الى سنة ٧٥٢ م ([illegible] هـ) وبدأت بانتصار العرب خاصة فى غربى البحر المتوسط كما اشتملت على حصار ثان كبير للقسطنطينية • وبعد فشل الجهود الأموية الضخمة تحول صراع الدولتين الى مناوشات متبادلة وشهدت سنة ٧٤٧ م (١٢٩ هـ) نصرا بيزنطيا كبيرا واختفت قوة الأمويين البحرية نهائيا سنة ٧٥٢ م • على أنه رغم انتصار بيزنطة فى البحر الا أن العرب كانوا قد قضوا أثناء الموجة الثانية من هجومهم على مراكز دفاع أعدائهم البرية والبحرية فى المنطقة لوسطى من حوض البحر المتوسط وهم بذلك قد طوقوا احد اجنحة القسطنطينية البحرية كما أضافوا شمال افريقية وأسبانيا الى أملاكهم ومن قواعدهم الجديدة بشمال افريقية خرجت وحدات بحرية فى القرن التالى للانتقام من هزيمة العرب البحرية سنة ٧٤٧ م •

وقد ناقش ارشيبالد لويس أسباب استطاعة بيزنطة استرداد سيادتها البحرية رغم خسائرها ، وأسباب خسارة الأمويين كفاحهم البحرى رغم استهلالهم المظفر • وهو يعلل ذلك **بأهمية الموقع الجغرافى المحصن لبيزنطة فى حين كانت القواعد البحرية العربية فى مصر والشام وشمال افريقية بعد فتحها مكشوفة** « فكان للقسطنطينية من بحر ايجه حتى مضيق الدردنيل بما فيها من جزر وخلجان نطاق يقيها هجمات العدو وكذلك كان لها من بحر مرمرة حاجز مائى منيع آخر ، ثم يأتى فى النهاية البحر الأسود وهو منطقة خلفية ليست فى متناول تهديد العرب• ويشبه وضع القسطنطينية ولكن بصورة أصغر ـ وضع رافنا والبندقية من البحرين الأيونى والادرياتى ، ومثل هذا اقليم البحر التيرانى بجزره

الواقية أمثال صقلية وسردينية وكورسيكا وان كان العرب وقتذاك لم يحاولوا التوغل بعيدا فى تلك الجهات » .

وتعتبر **النار الاغريقية** الى حد كبير سبب النجاح التـــام لقوات بيزنطة البحرية ، وأغلب الظن أن الأسطول الامبراطورى فى القسطنطينية كان وحـــده هو المجهز بهـــا مع اجازة استخدامهـــا للوحدات البحـرية الاقليمية عنـــد الضرورة . كذلك تمتعت البحـرية البيزنطيـــة بوفرة الأخشاب واحتياجات السفن والحديد ، على حين استطاعت أن تحول دون حصول أعدائها الأمويين على ماينقصهم من هذه المواد ، فلم يكن الحديد متوافرا فى الشام ومصر ولم يكن بوادى النيل الخشب اللازم للصوارى وكان محصول الشام منه فى لبنان والشمال ضئيلا كما توقفت مناجم الحديد فى شمال افريقية فى القرن ٨ م ، ولم تسهم أسـبانيا بشىء فى مجال القوى البحرية وقتئاك ، أما أخشاب شمال افريقية فكانت توجد فى المناطق الواقعة غربى تونس وصعب استخدام العرب لها (١٥١) .

ومعلوماتنا عن **تنظيمـــات الأمويين البحرية** أقل مما لدينـــا عن الأساطيل البيزنطية ، ويمكن القول أنه **كان هناك ثلاثة أساطيل متمايزة يرتكز كل واحد منها ـ كالأساطيل البيزنطية تماما ـ الى اقليم بحرى مستقل وهى أساطيل الشام ومصر وشمالى افريقيـــة بعد عام ٧٠٤م ، بجانب وحدة بحرية صغيرة عملت فى حراســة البحر الاحمر ويحتمل خضوعها للأسطول المصرى** وقد قرر ذلك ابن خلدون فى مقدمته فهو يقول عن مجهودات المسلمين البحرية « واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته : مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس (١٥٢) » .

وتواجه الأساطيل الثلاثة توزيع الأساطيل البيزنطية فأسطـــول الشام يواجه أسطول كبيرهايوت البيزنطى فى آسيا الصغرى الذى كان يكون طليعة بيزنطية ضد المســـلمين وكانت مشاغبـــاته مع أمراء أذنه وطرسوس مستمرة ، وأسطول شمالى افريقية يقابل أسطول صقلية ، وأسطول مصر يقابل الأسطول الامبراطورى فى القسطنطينية اذ كان أكثر أهمية وأضخم عددا . وانعقد لواء كل واحد من هذه الأساطيل لأمير من أمراء البحر وقد يتولى أمير البحرية المصرية القيادة العامة فى الاشتباكات

---

(١٥١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية . ترجمة أحمد عيسى ص ٩٩ الى ١٠٥ ، ١٠٧ : ١١٢ .

(١٥٢) ابن خلدون : المقدمة ـ طبعة دكتور وافى ج ٢ ص ١٣٧ .

الكبرى مثل معركة الصوارى سنة ٦٥٥ م /٣٤هـ ومعركة قبرص سنة ٧٤٧م/١٢٩هـ . وغالبا ما اشترك الاسطولان الشامى والمصرى فى عمليات واحدة ، على حين استقل أسطول شمال افريقيا بعملياته عنهما ، وشاهد الحصار الثانى للقسطنطينية فقط الأساطيل الثلاثة مجتمعة .

ونجد تشابها آخر بين التنظيمات البحرية للأسطولين العربى والبيزنطى فى **الاستقلال الذاتى لقوات القسم الغربى فى البحريتين العربية والبيزنطية على حد سواء** ، فقد تمتع أسطول صقلية باستقلال مشابه لما تمتع به أسطول شمال افريقية . وهكذا كان التنظيم البحرى الاسلامى بداية موفقة فى نهاية القرن ١ هـ بداية ٨ م ، حتى رأى الدكتور على فهمى أن البيزنطيين سعوا لملاحقتها فى القرنين ٨ ـ ٩ م ولم تتحقق نتائجها الا فيما بعد . والطابع الرئيسى للتنظيم البحرى الاسلامى هو النظام المعروف باللاتينية Cursus أى الغارات التى تشنها أساطيل الخلافة بانتظام ضد الامبراطورية البيزنطية . وتوضح أوراق البردى العربية أنها كانت تحدث سنويا ، وان الضرائب لكل حملة كانت تقرر فى التقدير الضرائبى السابق على حدوثها . وسارت هذه الغارات الدورية على يد موسى بن نصير فى المغرب وقره بن شريك فى مصر بجانب غارات الشام. وهناك قطع من البردى تشير الى ارسال الأساطيل خلال الشتاء رغم استبعاد بروكس Brooks لذلك . وتشير الغارات الى الأقاليم البحرية الثلاثة : مصر والشرق Oriens وافريقية ، وحين كانت تذكر البرديات قسما من الأقسام الثلاثة فى صدد حملة فان هذا يعنى أن الأساطيل بدأت منه.

وقد ذكر أسطول المشرق فى البرديات ، فهناك خطاب من قره بن شريك سنة ٩٣ هـ ـ سنة ٧١١ م الى باسليوس الذى كان يشغل أحد مراكز الادارة المحلية Pagarchy يعرض لأجور ٧ بحارة أرسلوا الى المشرق للخدمة فى غارة سنة ٩١ هـ ـ سنة ٧٠٩ م وبقوا هناك . وتبدو الاشارة هنا الى اقليم ربما كان سوريا أو أجزاء قريبة من الساحل اعتبرت قديما من المشرق . كما تبرز البرديات أن اللاذقية كانت مركزا بحريا رئيسيا فى الاقليم .

وكانت مصر مركز بناء السفن فى العصر الأموى ففى الفسطاط والقلزم بنيت السفن العربية الأولى ، واستقدم معاوية بناة السفن من المصريين ليبنوا سفن الأسطول الشامى فى عكا التى سرعان ما أصبحت أهم قاعدة بحرية فى الشام ، وأوفد عبد الملك عمالا مصريين الى شمالى افريقية لبناء أول أسطول بحرى اسلامى هناك . وخلال أربعين عاما بعد الفتح بلغ ما أنفقه متولى بناء السفن فى مصر ٧٠٠٠ دينار سنويا ، وكانت

المشكلة هناك هى ندرة الخشب » قالوا : لما كانت سنة ٤٩ هـ (٦٦٩م) خرجت الروم الى السواحل ـ وكانت الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبى سفيان بجمع الصناع والنجارين فجمعوا ورتبهم فى السواحل ، وكانت الصناعة فى الأردن بعكا • فذكر أبو الخطاب الأزدى أنه كانت لرجل من ولد أبى معيط بعكا أرجاء • مستغلات فأراد هشام بن عبدالملك على أن يبيعه اياها فأبى المعيطى ذلك عليه فنقل هشام الصناعة الى صور واتخذ بصور فندقا ومستغلا • وقال الواقدى : لم تزل المراكب بعكا حتى ولى مروان فنقلوها الى صور فهى بصور الى اليوم » •

أما كيف نظمت هذه الأساطيل وكيف أمدت بالرجال والمعدات فأمر يصعب تفصيله ، والراجح أن معظم قوات الأسطول فى السنوات الأولى تكونت من أهل الشام الأصليين والمصريين المقيمين فى الموانى الساحلية ، ثم ساد نظام أدق فيما بعد ولا سيما زمن خلافتى عبد الملك وابنه الوليد • ولابد أنه كانت تستدعى فرق من المدن الساحلية لتلتحق بالقوة البحرية العامة مثلما كان يحدث بالنسبة للأساطيل الاقليمية البيزنطية •

وتكشف أوراق البردى العربية أن الخدمات المدنية فى ادارة مصر كانت منظمة ، وكانت مطالب السلطة المركزية توجه الى المجموع لا الى الفرد ، وكانت اجراءات تقرير الخدمات الفردية التى تتطلبها الدولة تماثل اجراءات تقدير الضرائب • ولم يكن العمل وان كان فى الظاهر اجباريا سخرة بالمعنى المفهوم من صور الخدمة الاجبارية ، فالأشخاص المستدعون للخدمة يتسلمون الأجور ويضمن حضورهم بكفلاء ، وكان النساء يستدعون كالرجال • وكانت تكاليف البحرية تفرض على السكان نقدا أو عينا أو بتقديم البحارة • ويبدو من خطابات قره بن شريك أنه كان هناك نفور كبير بين سكان الريف من قبول الخدمة الشخصية وكانوا يفضلون دفع بدل نقدى adaeratio لاستئجار رجل من مكان آخر • وبالاضافة الى البحارة الروم والأقباط الذين كان يحصل عليهم عن طريق الخدمة الاجبارية كان فى الأسطول المهاجرون والموالى المسلمون ـ ويكونون القسم العسكرى من رجال البحرية ويتميزون عن المجدفين ومن يديرون الدفة • وكان المهاجرون العرب الى العواصم العسكرية يتسلمون عطاء لمعاشهم نقدا وعينا ، وليس هناك دليل على أن البحارة فى سفن المسلمين استدعوا من سكان السواحل العربية الجنوبية والخليج الفارسى وليس فى أوراق البردى ما يدعم تأكيد لا منس بأن

معاوية مدين خاصة لليمنيين وأنه يؤثرهم للعمل بحارة لأسطوله وتكشف هذه الوثائق ان العرب كانوا قبل كل شيء مقاتلين بريين ، وأن الذين كانوا يعملون في الأسطول لم يكونوا بحارة بقدر ما كانوا (فرق نزول)على الأقاليم الساحلية البيزنطية · ويبدو أنه كان من عادة المقاتلة أن يأخذوا زوجاتهم معهم ، وهكذا رافقت معاوية زوجته فاختته فى حملته الأولى على قبرص ـ كما يروى البلاذرى ، وأخذ عبادة بن الصامت زوجته أم حرام هناك · ويروى ابن أبى السرح كانت معه فى معركة ذات الصوارى وأعجبت بعلقمة بن يزيد لانقاذه سفينة القائد بعد أن أقصتها عن الأسطول سفينة بيزنطية ·

وعمل الموالى فى الأسطول وهم من أصل غير عربى من الروم أو القبط فى مصر ـ واعتنقوا الاسلام والحقوا بالقبائل العربية · وهناك اشارة لموال تسلموا عطاءهم ، ولا نعرف ما اذا كان هناك اختلاف بين عطاء الفريقين ، وتكشف البرديات عن أن عددا كبير من الصناع مثل النجارين والعمال المهرة والمقلفطين وقصارى الأقمشة كان يحتاج اليهم للعمل فى الأحواض البحرية · ويرى سفيروس أن تيودور حاكم الاسكندرية فى عهد يزيد بن معاوية أجبر الرهبان فى مصر على العمل فى بناء الأسطول ، وأن أسامة حاكم مصر فى عهد سليمان بن عبد الملك هددهم بتشغيلهم على السفن اذا لم يدفعوا مبلغا معينا من المال ·

وكان الأسطول يمد بكل المؤن المختلفة عن طريق الضريبة ، فكانت قرية افروديتو مثلا (Aphrodito كوم أشقوه) تقدم المال وأشياء نوعية كالخشب والحديد والنحاس والحبال والحشايا والغزل للسفن ، والخبز والنبيذ والزيت والملح للصناع والبحارة · وقد أكدت بعض البرديات وجوب تقديم المؤن عينا ، كما أن هناك تعليمات وجهت مرة باعدة المؤن لدافعي الضرائب وربما كان ذلك لضرورة طارئة · وبين البرديات خطابات تتعلق بالمتهربين ، ويبدو أنهم كانوا يتهربون من الضرائب عموما · ولضبط هؤلاء أدخل نظام لجوازات الاقامة والسفر وكان الجواز يتكلف خمسة دنانير واذا ضاع تلف يجدد بمثلها ·

واذا ما قارنا البحرية الأموية عموما بالبحرية البيزنطية فاننا نرى كاتبا غربيا كأرشيبالد لويس يقول : « ان البحرية الأموية تبدو على الجملة أقل تنظيما وأكثر بعدا عن الأساليب الصحيحة اذا قيست بالقوة البيزنطية المنافسة لها » ، فى حين أن كاتبا عربيا هو الدكتور على محمد فهمي يرى « أن البحرية العربية استهلت بداية ضخمة فى نهاية القرن

١ هـ/بداية ٨ م حاول البيزنطيون ادراكها فى القرنين ٨ - ٩ م ولم تتحقق نتائج محاولاتهم الا فيما بعد » .

لكن ما هو أثر العمليات البرية على موقف كل من الدولتين فى صراعهما البحرى ؟ لا شك أن العرب كانوا أثناء عملياتهم البرية أثبت أقداما منهم أثناء عملياتهم البحرية ، ولهذا تفوقوا على أعدائهم البيزنطيين. ولكن اذا استثنينا حملات العرب على شمال افريقية من سنة ٦٩٣ الى سنة ٧٠٥ م ، ٧٣ : ٨٦ هـ فان **أعمالهم الحربية البرية لم تؤثر تأثيرا يعتد به على قواتهم البحرية** . وفى الشرق ظللت الحدود بين الدولتين ثابتة بشكل ملحوظ بين سنتى ٦٤١ ، ٧٥٢ م (٢٠ : ١٣٤ هـ) وتعتبر جبال طوروس تقريبا خط الحدود بينهما ، وأحيانا كانت القوات العربية تتوغل بعيدا داخل آسيا الصغرى مثلما حدث الحصار الثانى للقسطنطينية ، وأحيانا أخرى كان يندفع المردة بتأثير البيزنطيين الى مسافات بعيدة داخل الشام ، ولكن الغارات المستمرة على الحدود هى الاكثر حدوثا . وكان العرب أكثر اقداما على هذه الغارات غير أن نظام البنود البيزنطى استطاع أن يحمى أراضى الامبراطورية الداخلية على أحسن وجه . أما فى الغرب فبعد انهيار دفاع البيزنطيين عن افريقية كان لقوات العرب الحربية نصيب أكبر فى مجرى الحوادث ، وأن العمليات التى قامت بها تلك القوات فى فتح الاندلس خلت من أى عنصر بحرى ، وعندما عبر العرب جبال البرانس ولاقوا مقاومة جدية من جانب الفرنجة لم يستخدموا سوى القليل من قواتهم البحرية ، على أنهم كانوا أكثر استعدادا فى ذلك من الفرنجة (١٥٣) .

***

سقطت خلافة الأمويين عقب انكسارهم البحرى والاقتصادى على أيدى لبيزنطيين واختفت قوتهم البحرية نهائيا سنة ٧٥٢ م . ثم انتقلت الخلافة الى العباسيين فانتقلت الخلافة الاسلامية من اقليمى البحر المتوسط وهما الشام ومصر قاعدتى الدولة الأموية الى اقليم داخلى فى غرب آسيا ومن هنا يؤرخ ارشيبالد لويس لفترة من **السيادة البيزنطية (٧٥٢ : ٨٢٧م) . تقابل عهود الخلفاء العباسيين من السفاح المأمون - ١٣٤ : ٢١٢هـ) . وقد صارت بغداد عاصمة الخلافة وهى مدينة فارسية فىأفكارها** وثقافتها وتتجه نحو وسط آسيا والمحيط الهندى لا صوب البحر المتوسط فحق لاينهارت أن يلقب الرشيد بملك بلاد فارس ، كما حق لثيوفانيس

---

(١٥٣) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية - ترجمة عيس صفحة ١١٥ ،
Ali Fahmy: Muslim Sea-Power in the East Medit. pp. 87:92, 98:109, 119.
البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٤

أن يصف العباسيين الوصف نفسه . ويقول جود فروا ديمومبين « لقد ظهر التغيير فى الاتجاه المادى والمعنوى للخلافة بصورة واضحة منذ صارت الخلافة الى بنى العباس .. لقد كان للخلافة الأموية ميل للشئون المتوسطية **وأتاح فتح صقلية على بنى الأغلب أمام الاسلام سبلا جديدة الى الغرب** ووضع فى أيدى أهله امكانيات جديدة . أما الخلافة العباسية فكان وجهها الى المشرق .. وابتداء من القرن ٩ م أصبح موقف الخلافة سلبيا دفاعيا فيما يختص بالامبراطورية البيزنطية » .

واذا كان المسلمون قد فتحوا صقلية فى العصر العباسى فان التى قامت بذلك كانت دولة اسلامية مغربية هى دولة بنى الأغلب ، واذا كان المسلمون قد فتحوا جزيرة كريت فى هذا العصر فان الذين قاموا بذلك كانوا من الأندلسيين ـ كما يلاحظ الدكتور مؤنس ـ وقد عدلوا باستيلائهم على الجزيرة كفتى الميزان بين الاسلام والنصرانية فى شرق البحر المتوسط بعض الشيء . « **أى أن الخلافة الاسلامية الشرقية نفضت يدها من شئون البحر المتوسط ، وخرجت من ميدانه جملة وأخذت آسيا تبتلعها رويدا رويدا** . وليس أدل على ذلك من أن الدولة الاسلامية نظرت الى الشواطىء على أنها حدود ونهايات ينبغى حمايتها لا أبواب وثغور يمكن الاعتماد عليها فى سيادة مياه البحر والقفز منها الى ما وراءه من بلدان . لقد كان العصر **الأموى عصر تعريف الدولة الاسلامية بعالم البحر المتوسط وتمليكها اياه وتحصين هذه الشواطىء لصالحها ووضع نواة الأسطول الاسلامى . وكان ينبغى أن تنتقل الشعوب الاسلامية بعد ذلك الى الطور الثانى :** طور السيطرة الفعلية على مياه هذا البحر والاستفادة منه كطريق للمواصلات والتجارة كما فعلت الدولة الرومانية . ولكن التغير المفاجىء للأحوال فى العالم الاسلامى وانتقال الأمر الى العباسيين واتجاه الدولة نحو آسيا ـ كل هذا أوقف ذلك التطور ، وحال بين المسلمين وبين الاستفادة الكاملة من تلك السيطرة التى صارت لها على شواطىء هذا البحر الغربية والجنوبية والشرقية ومعظم جزائره » .

واستطاع الفرنجة التفوق على المسلمين فى الأندلس فكسبوا لدولتهم الساحل من جبال البرانس حتى ايطاليا كسبا لا منازع لهم فيه وانتصروا كما انتصر أباطرة القسطنطينية ، ولكنه كان نصرا أجوف على ساحل يطل على بحر نضب معين تجارته ، ولم يعد يتوافد على شواطئه التجار السوريون كما كانوا يتوافدون بين مدنه وبين الاسكندرية وأنطاكية . **وتحول مركز القوى فى دولة الفرنجة الى الداخل بعيدا عن البحر المتوسط كما حدث تماما فى العالم الاسلامى . وكان لبيزنطة لمدى نصف**

قرن آخر تقريبا بعد عام ٧٥٢ م أكبر قوة بحرية فعالة فى مياه البحرين المتوسط والأسود •

وبقيت مصر وشمال افريقية كما بقيت البلغار والفرنجة عاجزين ازاء قوة القسطنطينية البحرية • ووجدت قوة بحرية محلية صغيرة على ساحل اقليم صغير من الأندلس بين طركونه وطرطوشة وهو جزء من امارة والى سرقسطة المكلف بحماية حدود الأندلس ضد هجمات الكارولنجيين ، ويلاحظ أن أمويى الأندلس وجهوا هجماتهم البحرية فى ذلك الوقت وما بعده ضد الفرنجة لا البيزنطيين • كما كان هناك **أسطول محلى بالشام يعتبر جزءا من قوات الجدود وجهه العباسيون ضد الروم** ، بعد أن أخذ ينتعش بعد هزيمة سنة ٧٤٧م /١٢٩هـ • وفى عام ٧٧٣م /١٥٦هـ أغار الأسطول على قبرص وأسر حاكمها البيزنطى منتهزا فرصة انشغال البيزنطيين بحرب البلغار • وفى سنة ٧٩٠ م/١٧٤ هـ أغار على كريت وقبرص وأسر أمير **البحرية** البيزنطية • واستمرت العواصم الاسلامية بعيدة عن البحر فى الفسطاط والقيروان وفاس وقرطبة ، وتأكدت فى ختام القرن ٨م الصفة غير البحرية للعالم البحر المتوسط ، كما تأكد اكتمال **هيمة القسطنطينية** على البحار •

**

وبدأ الموقف يتغير من عام ٨٠٠م اذ أخذت بيزنطة تهمل شأن قواتها البحرية ، وربما رجع ذلك الى عهد ايرين ونقفور • وربما أغرى البيزنطيين بالاهمال انصراف المسلمين عن البحر ، لكن مخاطر المستقبل كانت فى الغرب لا فى الشرق : فى طموح الحكام المسلمين فى افريقية والأندلس اذ « **يختلف المغرب عن غيره مما دخل فى حوزة الاسلام من بلاد البحر المتوسط بأن النشاط البحرى يكون جزءا لا يتجزء من حياته وكيانه الاقتصادى والاجتماعى ـ كما يقول الدكتور مؤنس ـ** ، لأن أخصب أراضى المغرب وأوفقها للسكنى وأوفرها هى مناطق الشريط الساحلى الذى يتصل من تونس الى المحيط الأطلسى •• وسكان هذا الشريط لايستغنون عن البحر وتجارته ولهذا كان أهله من أنشط الأمم البحرية أيام الرومان والبيزنطيين •• وأوقفت حالة الحرب القائمة بين الاسلام والنصرانية النشاط البحرى المغربى ، ودام ذلك طالما كان سلطان المشرق على المغرب قويا مباشرا • فلما تمكن المغرب من التخلص من قبضة المشرق بعض الشىء بقيام دولة الأغالبة على رأس المائة الميلادية التاسعة ، أخذ المغرب يرتد الى البحر المتوسط وعاد أهله الى نشاطهم السابق فى حوضه المتوسط •• ولم يكن فتح صقلية مصادفة واستمرار لسياسة الفتوح الاسلامية العامة بل محاولة من المغرب لاستعادة مركزه فى

البحر المتوسط فى نطاق اسلامى ٠٠ لقد اكتسب أهل المغرب من الاسلام شعورا بأنفسهم ونزوعا نحو السيادة ، وهذا النزع هو الذى دفعهم الى محاولة التخلص من سيطرة العرب عليهم أولا ثم الى سيادة حوض البحر الأبيض الأوسط والغربى بعد ذلك ٠ وبينما كان المغرب قبل الاسلام تابعا لما يقابلة من شواطىء البحر الأبيض الشمالية نراه ينزع الى ينزع الى سيادتها بعد الاسلام ، وتم له ذلك على خطوتين : الأولى عدائية فى عصرى الأغالبة والفاطميين والثانية حربية تجارية فى عهد بنى زيرى وما تلاه » ٠

وكان اهتمام الأندلس بأسطولها أقل لاتجاهها ضد الكارولنجيين وتحالفها مع البيزنطيين ، **ولكن بدأ الأسطول السورى يتخذ سنة ٨٠٦ م موقفا هجوميا بعد هدوء عشرين عاما تقريبا ، اذ عاصرت حملة الرشيد** على هرقلة اغارة أسطول الشام على قبرص وفى العام التالى أغار على رودس وقبلت القسطنطينية دفع الجزية لبغداد ٠ ثم تحرك أغالبة افريقية فى أعمال بحرية بعد نصف قرن من الوهن فأغار أسطولهم على البلوبونيز سنة ٨٠٥ م ، ثم تتابعت هجماتهم على سردينية وصقلية ٠

وتحرك شرلمان هو الآخر للقيام بجهود بحرية ، **الا انه يمكن القول جملة انه حتى سنة ٨٢١ م تمكنت بيزنطة من الاحتفاظ بسيادتها امام هذه القوى البحرية الفتية** ٠ وقد ساعدت الأحداث والانقسامات الداخلية بين المسلمين على اجتياز الخطر بسلام حتى عهد ميشيل الثانى ٠ **وحل عام ٨٢١م على بيزنطة بالمصائب** فاقتتل الأسطول الامبراطورى فى القسطنطينية مع الأساطيل الاقليمية التى ظاهرت توماس الصقلبى فى ثورته ٨٢١ ــ ٨٢٣ م بالنار الاغريقية بينما **نزل فريق المسلمين الوافدين من الأندلس على كريت سنة ٨٢٧ م وظلوا هناك مبعثا للفزع بمنطقة بحر ايجه والعرش البيزنطى قرنا ونصف ، وهاجم الأغالبة صقلية واستفادوا من تمرد يوفيميوس على البيزنطيين** ٠

وهكذا « بدأت صفحة أخرى من النفوذ الاسلامية على البحار ، ــ كما يقول ا. لويس ــ وانتقم المسلمون للمعركة التى جرت قرب قبرص سنة ٧٤٧ م . وأحس مسلمو شمالى افريقية وكريت ــ وهم حكام البحر المتوسط الجدد ــ أنهم ورثوا سلطان القسطنطينية الذى ظل الأمويون يجرون وراءه دون جدوى » ٠ **ولم تقترن فترة التفوق البيزنطى البحرى التالية لعام ٧٥٢ م بتفوق برى مثله** ، ولم يؤد انتقال مركز القوى الاسلامية من دمشق الى بغداد الى وضع حد للعداوة بين خلفاء المسمين وأباطرة بيزنطة ٠ **واذا كانت البحرية**

الاسلامية ضعيفة معظم تلك الفترة فلم يكن هذا هو حال قوات المسلمين البرية فقد استمرت الهجمات على الحدود البيزنطية (١٥٤) .

وبدأت فترة أخرى من **التوسع الاسلامي (٨٢٧ : ٩٦٠م) (عهود الخلفاء العباسيين من المأمون الى المطيع ٢١٢ : ٣٤٩هـ)** بالاستيلاء على كريت سنة ٨٢٧م /٢١٢هـ اذ أخذت السيطرة على البحر المتوسط تنتقل الى المسلمين الذين انتشروا على الشواطىء الجنوبية لهذا البحر من جبال طوروس حتى البرانس • ولم يتم التغيير دفعة واحدة بل احتفظت القسطنطينية بالسيطرة على بعض القوات البحرية الهامة وكافحت ببسالة ضد المسلمين فى شرق البحر وغربه فاستطاعت أن تؤخر اتمام فتح الأغالبة لصقلية حتى سنة ٩٠٢م ٢٨٩هـ ، وأن تجمع من الأساطيل ما يبقى سيطرتها على مناطق هامة جنوبى ايطاليا والبحر الاذرياتى ، وبقى البيزنطيون سادة البحر الأسود مع بعض العناء ، وحاولوا استعادة كريت دون طائل ، **ولم يأت القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى) الا وقد انتقلت السيادة الكاملة في البحر المتوسط للمسلمين** • وكان أبلغ الحملات أثرا ما قامت به **الأساطيل الافريقية الشمالية فى بحار صقلية وايطاليا ، وما قامت به أساطيل كريت الاسلامية فى بحر الارخبيل والبحر الونانى ، وجاءت صداقة نابولى عظيمة القيمة لعرب صقلية** لأنها أضعفت فى لحظة حاسمة قوة أسطول بيزنطة فى مياه البحر التيرانى حتى تمكن المسلمون بعد ذلك من الغارة على وسط ايطاليا وجنوبها • وشغلت البيزنطيين مشكلات الشرق وبحر ايجة بجانب أحداث مياه ايطاليا وصقلية ، واشتمل أسطول مسلمى افريقية فى بعض المعارك على حراقات تقذف بلهب النفط فلم تعد النار الاغريقية فريدة فى الميدان ، كما اتجهت بيزنطة بحملاتها الى دلتا النيل ردا على تحالف مسلمى مصر مع كريت. وكانت الضربة القاسية **من مسلمى كريت حين شاركوا بسفنهم ليو الطرابلسى فى غارة على سالونيك** ثانى مدن الامبراطورية سنة ٩٠٤ م ٢٩١ هـ ، وكانت قاذفات اللهب فى الطليعة وأسر المسلمون حوالى اثنين وعشرين ألف نسمة ، ولم تسترح بيزنطة من هجمات ليو الطرابلسى حتى سنة ٩٢٣ م ٣١١ هـ حين هزمه رومانوس ليكابينوس . **وكان الشام وطرسوس نصيب من القوة البحرية** غير أنها كانت مهملة نسبيا حتى جاءت الهجمات البيزنطية بين عامى ٨٢٨ م ، ٨٤١ م (٢١٣ ،

---

(١٥٤) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة فيسى ص ١٥٧ : ١٧١ دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط المجلة التاريخية المصرية ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ •

٢٢٦ هـ) ـ التي نهبت فيها أنطـاكية ـ فابرزت ضرورة وجـود قـوة بحرية لحمـاية هـذه الشـواطىء بالاضـافة الى المعونة غير المباشرة التي يأتي من أسطولي كريت وشمال افريقية . فأمر المعتصم ببناء سفن في الشام وربما في طرسوس ، وتحرك هذا الأسطول من ٣٠٠ سفينة الى **بحر ايجة سنة ٨٤٢ م ٢٢٧ هـ فدمرت العواصف معظمه.** وأغارت بيزنطة على دمياط ميناء مصر سنة ٨٥٣م/٢٣٨هـ في عهد المتوكل وعند ذاك « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الاسـطول وأنشـئت الشواني برسم الاسطول ، **وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر وانتدب الامراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر بتعليم أولادهم الرماية وجنيـع أنواع المحـاربة ، وانتخب له القـواد العارفون بمحاربة العدو** ، وكان لا ينزل في رجال الاسـول غشـيم ولا جاهل بأمـور الحرب . هـذا وللناس اذ ذاك رغبـة في جهـاد أعداء الله واقامة دينه ـ لا جـرم انه كان لخـدام الأسـول حـرمة ومكانة ولكل واحد من الناس رغبة في أن يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان من **غزو الأسطول بلاد العـدو وما شحنت به كتب التواريخ . فكانت** الحرب بين المسلمين والروم سجالا ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضـا لكثرة هجوم أساطيل الاسلام بلاد العدو فانها كانت تسير من مصر والشام ومن افريقيـة . وهـكذا سـجل المقريزي هـذه المرحلة الهـامة في التـاريخ البحري الاسلامي .

و النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي كانت القوة البحرية الاسلامية في شرقي البحر المتوسط وبخاصة عند حدود طرسوس اكثر استقرارا ، ويبدو انها كانت تحت امرة القائد البري لقوات الحدود الاسلامية ، وقد استطاع هذا الاسطول ـ ويجوز انه دعم بفرق مصرية وشامية ـ أن يغير على القاعدة البحرية البيزنطية الاناضولية في أضاليا سنة ٨٦٠م ٢٤٦هـ ورافق ذلك هجوم برى على بلاد آسيا الصغرى ، على جزيرة آيوبيا في بحر ايجة سنة ٨٧٣م ٢٥٦هـ وربما ساعدته فرق كريتية. وفي أواخر عهد باسيل الأول وهي الفترة التي امتازت بالانتصار على مسلمي كريت في بحر ايجة سنة ٨٧٩م ٢٦٦هـ وعلى الأغالبة ومسلمي صقلية في الغرب بين عامي ٨٨٠ ، ٨٨٦م ٢٦٧ ، ٢٧٣هـ اعترض احياء البحرية البيزنطية الجهود البحرية المشتركة من قوات طرسوس والشام ومصر . وربما كانت المشاكل الداخلية أقوى أثرا في صرف المسلمين عن أعدائهم من قوة هؤلاء الأعـداء ، فقد امتد نفوذ ابن طـولون الى سواحل الشام فاصطدم بأسطول طرسوس حتى أخضعه وفي خلال

هذا الصراع استعاد باسيل الاول قبرص ، فلما استعاد العباسيون مصر سنة ٩٠٤م/٢٩١هـ ارتفع شأن القوة البحرية فى طرسوس وسواحل الشام ، واستطاع ليو الطرابلسى أن يكون مصدر رعب لسكان بحر ايجه جيلا من الزمان .

وعهدت بيزنطة الى حاكم قبرص وزعيم المردة فى أضاليا بالحيلولة دون اتصال مسلمى كريت باخوانهم مسلمى الشام، لذا أغار ليو الطرابلسى على قبرص لخروجها على حيادها التقليدى فى الحرب بين العرب والروم .

فيمكن القول جملة أنه كان لمسلمى طرسوس وسورية ومصر قوة بحرية كبيرة على الأخص فى أوائل القرن العاشر الميلادى ، واستطاعت هذه القوة تدعيم قوة كريت وتقوية امكانياتها بتهديد طرق التجارة البيزنطية ، وتم هذا كله رغم الخلافات القائمة بين صفوف المسلمين وقتذاك . ولم يهمل حكام القسطنطينية شأن الأسطول الاسلامى الا بعد تحطم أسطول ليو الطرابلسى سنة ٩٢٣ م ٣١١ هـ ، بل كانت سفن طرسوس والمنطقة الواقعة بين شواطىء كليكيا وساحل الشام بوجه عام لا تزال من القوة لدرجة استطاعت معها أن تعوق الغزو الثالث للفاطميين على مصر سنة ٩٣٥م ، ٣٢٣ هـ وتعين الأخشيد على حكم مصر . أما أمويو الأندلس فلم يكترثوا بتكوين قوة بحرية لهم فى أول الأمر وظلوا على سياستهم التقليدية فى مصادقة البيزنطيين ومعاداة العباسيين على نقيض سياسة الأغالبة ، وتركزت البحرية الأندلسية فى أواخر القرن التاسع الميلادى فى الساحل الشمالى الشرقى بين طرطوسة وبلنسية بقيادة أمير سرقسطه ، حتى اذا كانت غارات الشماليين Norse من الفكنج Viking سنة ٨٤٤ م تنبه الأمويون الى أهمية الأسطول ، ولم توجد للأندلس قوية بحرية منظمة بالمعنى الصحيح الا فى عهد عبدالرحمن الناصر الثالث ٣٠٠ : ٣٥٠ هـ ، ٩١٢ : ٩٦٢ م ، أى فى القرن ١٠ م حين بدأ البيزنطيون فى الشرق والأمويون فى الغرب يوسعون سلطانهم البحرى ويخلون بميزان القوى البحرية الموجودة وقتذاك . وكان رومانوس ليكابينوس قائدا للأسطول البيزنطى قبل أن يغتصب العرش الامبراطورى ومن ثم رأيناه أول حاكم بيزنطى بعد باسيل الأول آمن بأهمية الأسطول وضرورته للامبراطورية ، وقد انتصر أسطول ليو الطرابلسى سنة ٩٢٣ م ، ٣١١ هـ ، وعلى سفن الروس الفارنجيين أصحاب كييف وجنوبى روسيا المهاجرين من اسكنديناوة والذين هددوا البحر الأسود وتحركوا لمهاجمة القسطنطينية نفسها بألف سفينة سنة ٩٤١ م كما شن هجوما على مصر . ولعل الضغط البحرى الذى قام به الفاطميون من قواعدهم فى افريقية وصقلية

هو الذى استثار ظهور القوة البحرية البيزنطية فى البحر التيرانى لأول مرة بعد عام ٨٨٨ م ، كما استثار مخاوف عبد الرحمن الثالث من نوايا جيرانه فحمله على بناء الأسطول الأندلسى الذى أثبت جدارته عندما قضى على غارة الفيكنج سنة ٩٤٤ م ٣٣٢ هـ (١٥٥) .

وليس لدينا سوى خطوط رئيسية عن **تنظيم القوى البحرية الاسلامية خلال تلك الفترة فى مناطقها الثلاثة : بالاندلس أولا ، وشمال افريقية وصقلية ثانيا ، وكريت وسوريا ومصر ثالثا** . ويرى البعض أن أساطيل الأقاليم الواقعة عند أطراف البلاد الاسلامية مثل أساطيل سرقسطة وطرسوس وكريت ـ وبلرم فى أزمنة سابقة ـ « كانت أقرب الى أن تكون **سفن قرصان** معظمهم من المغامرين المسلمين ومن المسيحيين الذين تحولوا عن دينهم والغرض الأول لهؤلاء جميعا هو النهب والغنيمة. وقد خلف لنا ابن حوقل فى أواخر القرن العاشر الميلادى صورة عن هؤلاء النهاية لا تشرفهم فى وصفه للحى الذى كانوا يسكنون فى بلرم . **والغالب ان تنظيم ذلك النوع من القوى البحرية الخاص بالأطراف كان فى الغالب مماثلا لتنظيم القوى البرية التى كانت تقوم بالغارات قرونا عديدة على الأراضى المسيحية فيما يحاذى نهر ابرو باسبانيا أو جبال طوروس على الحدود البيزنطية** » . وارشيبالد لويس اذ يرى هذا الرأى يقرر أنه « حتى القرن ١٩م لم يختلف نظام أساطيل القراصنة الرابضة عند شواطىء بلاد البربر عن تلك الأساليب » . على أن الدكتور مؤنس يتجه وجهة مخالفة لما ذهب اليه ارشيبالد لويس « وعندما ندرس القليل من النصوص العربية عن النشاط البحرى العظيم غير الرسمى ابتداء من القرن ٨ م نتبين أن الدافع الأول لهذا النشاط كانت الحرب الدينية ومغازات بلاد النصارى ، لأن حوض البحر الأبيض أصبح منذ دخول الاسلام دار حرب والجهاد الدينى لايتنافى مع اكتساب المغانم وأسر الناس وتخريب المواقع ، والحكم على هذه الأعمال يتوقف على وجهة النظر اسلامية أو نصرانية ، على أن العرف الاسلامى كان يستنكر الاسراف فى النهب والسلب . ولكن حوليات النواحى التى وجه المغاربة اليها نشاطهم تصفه بأنه كان نشاط قرصان .. ويقول ليفى بروفنسال : (انه من المناسب أن نذكر شيئا عن نشاط قراصنة الأندلس فى البحر الأبيض خلال القرن العاشر ، وأن نتتبع بوجه خاص الأوديسة الفذة التى قام بها جماعة من

(١٥٥) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة عيسى ص ٢١١ ـ ٢٣٧ ، دكتور مؤنس المسلمون في البحر المتوسط المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ ، المقريزى : الخطط .

غزاة البحر المغاربة الذين نزلوا عند فراكسينتوم Fraxinetum ـ وهو جبل يطل على خليج سان تروبيز Saint Troupez على شاطىء بروفانس وأسسوا دولة اسلامية غربية مقحمة فى صميم بلاد النصرانية قدر لها أن تظل بضع عشرات من السنين ٠٠ ان الدولة الأموية لم تنظم هذه القرصنة وان كانت تتغاضى عنها بل تشجعها بخلاف القرصنة المغربية فى العصور الحديثة اذ أن دول المغرب كانت تنظمها وتشرف عليها ، ومن الحق أن تقرر أن الدويلات المسيحية كانت تقف نفس موقف الدولة الأموية من رعاياها الذين كانوا يغيرون على شواطىء المسلمين وسفنهم ٠٠ ومن المظنون أن قراصنة المسلمين كانوا شيئا آخر غير المجاهدين المسلمين الذين كانوا يغازون النصارى بدافع دينى ، وكذلك لا تستطيع القرصنة المسيحية أن تنسب نفسها الى الكنيسة أو المسيحية ٠ ولدينا مايبرر القول بأن معظم أولئك الذين كانوا يقطعون البحر من المسلمين لم يكونوا من العرب أو البربر ، ويغلب على الظن أنهم كانوا من المولدين أو من مستعمرى الأندلس النصارى من رعايا خليفة قرطبة لايتحدثون العربية وانما لهجتهم الرومانية المعروفة بعجمة أهل الأندلس » (١٥٦) ٠

وخلف هذه الطليعة من الأساطيل غير النظامية والقواعد الأمامية كان للمسلمين فى البحر المتوسط قوة بحرية أحسن تنظيما ـ خاصة عند الأغالبة والفاطميين بشمالى افريقية ابتداء من القرن التاسع الميلادى ، وبصقلية وبالأندلس فى القرن التالى ٠ ولم توجد وحدة سياسية وبحرية شاملة لجميع البلاد الاسلامية المحيطة بالبحر المتوسط بل توزعت بين مراكز ثلاث قوات اسلامية بحرية متباينة : صقلية وشمال افريقية تحت حكم الأغالبة فالفاطميين ومعهما الطلائع العربية المستقلة القصير العمر فى بارى وجاريليانو ، ثم القوة البحرية فى الأندلس ، والقوة الشرقية تتكون من كريت المستقلة وأساطيل طرسوس وهى فى حكم المستقلة وأساطيل سوريا ومصر ٠ وتوحدت هذه الأساطيل الثلاثة الأخيرة تحت حكم الطولونيين والأخشيديين ، وكانت كريت وثيقة الصلة بمصر دائما ٠ وكان الاحتكار بين القوات البحرية الثلاثة على الجملة قليلا ، حتى ظهر الفاطميون واستخدموا قواتهم البحرية ضد كل من دولتى الاسلام فى شرقيهم وغربيهم ، وعلى هذا يرى ارشيبالد لويس « أن وجود ثلاث خلافات اسلامية فى قرطبة والمهدية وبغداد فى ذلك الحين دليل على وجود

(١٥٦) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة عيسى ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ، دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م٤ ع١ مايو ١٩٥١

عوامل انحلال فى العالم الاسلامى ·· ومع أن المســلمين حطموا سيادة بيزنطة البحرية الا أنهم لم يقيموا ـ أو فى الحقيقة لم يستطيعوا اقامة ـ سيادة تعادل سيادة بيزنطة » ·

وقد كان أمير البحر الأندلسى يقال عنه انه قسيم الخليفة فى السطان. أما أساطيل الشام ومصر فيبدو أنها كانت أضعف شأنا والمعلومات عنها أقل تفصيلا ، **ويبدو أن أمير صور كان قائد البحرية الشامية كما كانت قبرص مـركز تجمع الحملات المصرية الشـامية المشتركة** · ويذكر قدامة « ومقدار ما يغزو فى الغزاة من مراكب الثغور الشامية ما يجتمع اليها من **مراكب الشام ومصر** من الثمانين الى المائة ، والغزاة اذا عزموا عليها فى البحر كرتب **أصحاب مصر والشام فى العمل على ذلك والتأهب له يجتمع فى جزيرة قبرص ويسمى ما يجتمع منها بالأسطول** ـ كما يسمى مايجتمع ما يجتمع من الجيش فى البـر المعسـكر ، **والمـدبر لجميع أمور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية** ، ومقدار النفقة على المراكب اذا غزت من مصر والشام نحـو مائة ألف دينـار » · وقد ذكر المقدسى بعد المقدسى بعد كلامه عن كفر سـلام من قرى قيسـارية شـيئا عن نظم **الرباطات البحرية** فى المواني الاسلامية « ولهذه القصبة رباطات على البحر يقع بها النفير وتقلع اليها شلنديات الروم وشـوانيهم معهم أسـارى المسلمين للبيع ـ كل ثلاثة بمائة دينـار ، وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون اليهم فى الرسالات ، ويحمل اليهم أصناف الأطعمة وقد **ضج بالنفير لما ترايت مراكبهم** : فان كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط وان كان نهار دخنوا ، ومن كل رباط الى القصبة عدة منابر شـاهقة قد رتب فيها أقوام ، فتوقد المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة الا وقد أنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ونودى الى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق · ثم يكون الفداء : فرجل يشترى رجلا ، وآخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشترى ما معهم · ورباطات هذه الـكورة التى يقع بهن الفداء : غزة ، ميماس ، عسقلان ، ماحوز ، ازدود ، ماحوزبينا ، يافة ، أرسـوف » ·

ويستخلص منهذا وجود تنظيم دقيق عند مسلمى المشرق وكان هناك مثله عند أساطيل شمالى افريقية والأندلس وقد نقل المتوكل دور الصناعة الى عكا· وروى البلاذرى « عن ابى اسحق الفزارى قال : كانت بنو أمية تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلى ثغور الشام والجزيرة وتقيم المراكب للغزو وترتب الحفظة فىالسواحل ، ويكون الاغفال والتفريط خلال الحزم والتيقظ · فلما ولى أبو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل

ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج الى البناء منها وفعل مثل ذلك بمدن الثغور ، ثم لما استخلف المهدى استتم ماكان بقى من المدن والحصون وزاد فى شحنها • قال معاوية بن عمرو : وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون فى الغزو ونفاذ بصيرته فى الجهاد أمرا عظيما ـ أقام من الصناعة مالم يقم قبله وقسم الأموال فى الثغور والسواحل وأشجى الروم وقمعهم • وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب فى جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة وذلك فى سنة ٢٤٧ هـ » (٨٦١م) •

وكانت طرسوس مركزا بحريا هاما ، وقد ابتناها العباسيون بنصيحة قائدهم الحسن بن قحطبة الطائى أثر غارته على بلاد الروم سنة ١٦٢هـ ـ سنة ٧٦٩م وحصنها الرشيد بعد ذلك والمدينة بحكم موقعها بين الشام وآسيا الصغرى تفصل العالمين الاسلامى والمسيحى ، ويذكر ابن الفقيه وأبو الفدا أنها على ساحل الشام فى حين يحدد المسعودى موقعها بصورة أكثر ايضاحا فيذكر أن البردان نهر طرسوس يقسم المدينة ويصب فى البحر بعد ستة أميال وهى مسافة يذكرها ياقوت أيضا ، أما الاصطخرى فيذكر أنك حين تترك أولاس تصل جبال تسمى قلمية تمتد الى البحر المتوسط وهو نفس الاسم لمدينة كانت فى أيدى الروم مرة وليست على البحر ولا شاطئه ، فاذا سرت مسيرة فرسخ منها تصل الى اللامس على ساحل البحر حيث كان يجرى فداء الأسرى الروم والمسلمين ، والأول يجرى على السفن والثانى على البر • ويذكر ابن خرداذبة ان المسافة بين قلمية وطرسوس ١٦ ميلا ، بينما يجعل المسعودى المسافة بين اللامس على ساحل البحر وطرسوس ٣٥ ميلا ويضع الاصطخرى وابن حوقل أولاس على ساحل البحر بمسيرة يومين من طرسوس • وقد تدافع المهاجرون الى طرسوس يتحرقون حمية للمشاركة فى الجهاد المقدس ونيل الشهادة ، وقد كانت المدينة محصنة بسور حجرى مزدوج • ويروى الطبرى بعد ذكر تغلب المعتضد على فتنة وصيف الخادم سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م أن الخليفة « أمر باحراق جميع المراكب البحرية التى كان المسلمون يغزوو فيها وجميع آلاتها ، وذكر أن **دميانة غلام يازمان** هو الذى أشار عليه بذلك لشىء كان فى نفسه على أهل طرسوس • فأحرق ذلك كله ـ وكان فى المراكب نحو من خمسين مركبا قديما قد أنفق عليها أموال جليلة ، لا يعمل مثلها فى هذا الوقت ، فأحرقت فأضر ذلك بالمسلمين وكسر ذلك فى أعضادهم وقوى به الروم وأمنوا أن يغزوا فى البحر » • ومهما يكن من سبب حرق هذه السفن فان هذا يوضح أن

طرسوس كانت مركزا حربيا بحريا هاما فى الصراع الدائم ضد الروم ، فان العباسيين اعتادوا تدعيم العمليات البرية فى هذه القاعدة بعمليات بحرية • ويذكر المسعودى أن يازمان الخادم أمير طرسوس « فى نهاية البلاغة فى الجهاد فى البر والبحر ، وكان معه رجال من البحرين لم ير مثلهم ولا أشد منهم وكان العدو يهـابه وتفزع منـــه النصرانية فى حصونها ، ولم ير فى الثغور الشامية والجزرية بعد عمر بن عبد الله الأقطع صاحب ملطية وعلى بن يحيى الأرمنى صاحب الثغور الشامية أشد على الروم منه » • ورغم خسارة السفن التى أحرقها المعتضد وفق رواية الطبرى فقد كان أسطول الشام مصدر رعب بحر أيجة فى ناية القرن الثالث الهجرى وبداية العاشر الميلادى ، ويذكر الطبرى نفسه فى أخبار سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) ورود كتاب فى آخر رمضان من أبى معدان من الرقة « فيما قيل باتصال الأخبار به من طرسوس أن الله أظهر المعروف لغلام زرافة فى غزاة غزاها الروم فى ذلك الوقت بمدينة انطالية – وزعموا أنها تعادل قسطنطينية وهذه المدينة على ساحل البحر ، وأن غلام زرافة فتحها بالسيف عنوة ، وقتل فيما قتل أربعة آلاف انسان وأسر شبيهـا بعدتهم واستنقذ من الأسارى أربعة آلاف انسان ، وأنه أخذ الروم ستين مركبا فحملها ما غنم من الفضة والذهب والمتاع والرقيق ، وأنه قدر نصيب كل رجل حضر هذه الغزاة فكام ألف دينار فاستبشر المســلمون لذلك » • والخبر نفسه يرويه ابن الأثير وابن خلدون الذى يقرر أن مسير الغلام زرافة كان من طرسوس • ويرجح الدكتور على فهمى أن هذا الأمير ليس سوى ليو الطرابلسى الذى هاجم سالونيك بأسطوله ، أما انطاليـة المذكورة فى الحوليات الاسلامية فهى سالونيك لأنه لا توجد مدينة تعادل القسطنطينية غيرها ، وعلاوة على ذلك فان التاريخ الذى يعطيه المؤرخون العرب للغارة على المدينة هو تقريبا نفسه التاريخ الذى يذكره المؤرخون البيزنطيون وقد ذكر المسعودى ما يؤيد القول بأن الطرابلسى الذى يسميه لاوى الطرابلسى ويكنى أبو الحارث هو الغلام زرافة الذى كان موكلا بقيادة السفن الحربية فى البحر المتوسط ، ويذكر المقريزى أن أسطول طرسوس بقيادة دميانة هو الذى رافق الحملة العباسية وحطم الأسطول البيزنطى سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م ، كما يذكر الكندى أن رشيق الوردانى المعروف بغلام زرافة رافق دميانة فى هذه الحملة كما ذهب مرة أخرى لمساعدة الخليفة العباسى فى اخضاع الثائر محمد بن الخلنجى سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٥م، ويذكر المسعودى دميانة سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م كقائد للأسطول العامل فى المتوسط الذى احتل قبرص وظل بها أربعة شهور يعمل النهب والأسر

والتحريق ويستولى على المواقع الهامة ويحصـــنها . وقد كان لأسطول طرسوس دور كبير فى مياه المتوسط فهو الذى قاوم الفاطميين بقيادة أمير البحر العباسى ثامل الخادم وأحرق سفنهم بالنفط فى مياه رشيد وقتل منهم وأسر ، ويذكر يوتيخوس أن أسطوله اشتمل على ثمانين سفينة حربية ، ويذكره ابن الاثير على أنه قائد أسطول البحر المتوسط ، كمـــا يخبر المسعودى أنه يعرف بالزلفى ويشير اليه كأمير للثغور قاد حملة من طرسوس سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ ـ ٥ م وهو يذكر أيضا أن بعض البلغاريين كانوا على سفن طرسوس ورافقوا أهلها الى مدينتهم وهذه المعلومات المختلفة توضح أن طرسوس كانت مركزا بحريا له أهميته بغير جدال ، وقد بدأ المسلمون يجهزون سفنهم بمركب حارق فكانت حراقات الاغالبة قرب صقلية سنة ٨٣٥ م / ٢٢٠ هـ تقذف مادة سريعة الاشتعال على ســفن الأعداء ، واستخدم ليو الطرابلسى قاذفات اللهب فى هجومه على سالونيك سنة ٩٠٤ م ، وبهذا السلاح أحرق الفاطميون السفن التى هاجموها فى البحر التيرانى سنة ٩٣٥ م / ٣٢٣ هـ (١٥٧) .

وقد استفاد المسلمون من هذه القاعدة الهامة فى حملاتهم البرية والبحرية حتى غزاها نيقفور فوقاس كما يذكر ياقوت سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م، « وأخذ من خزائن السلاح مالم يسمع بمثله مما كان جمع من أيام بنى أمية الى هذه الغاية » (١٥٧م) .

وأورد قدامة أن تكاليف الحملة البحرية من مصر والشام كانت تبلغ مائة ألف دينار، أما بالنسبة للبيزنطيين فقد كانت رواتب الضباط ورجالهم فى كل من حملتى كريت ســنة ٩٠٢ م/٢٨٩ هـ أيام ليو الســادس وســنة ٩٤٩ م / ٣٣٧ هـ فى أيــام قســطنطين الســابع ما يربو على مائة وأربعين ألف جنيــه ، وكانت النفقــات الاجماليــة تربو على ١٤٣٫٠٠٠ جنيه فى الحملة الأولى ، ١٤٧٫٠٠٠ فى الثانية ، كان فى الحملة الأولى مائة وسبعة وسبعون سفينة وأكثر من سبعة وأربعين ألف

---

(١٥٧) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة عيسي ص ٢٤٠:٢٤٣، ٢٥٠:٢
Ali Fahmy: Musli mSea Power in the East Medit. pp. 54:63, 95:6

دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٤، ١٧٠ الطبرى ج ١١ ص ٢٦٩ ـ ٧٠ ، ٣٩١ ، قدامة نبذ من كتاب الخراج ـ ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذية ص ٢٥٥ ، المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٧٧ ، المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٥٠ (عن ذكر المسعودى لافتتاح لاون غلام زرافة في البحر بند سالونيكة ـ راجع التنبيه والاشراف ص ١٥٣) ،

(١٥٧م) ياقوت : معجم البلدان ح ٦ ص ٣٩

رجل • وقدر بيورى نفقات اعداد طاقم السفن فى الحملة الثانية بألف جنيه ، وهو يضع لنفقات حملة دمياط البيزنطية سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٣م حوالى مائتين وخمسين ألف جنيه • وهكذا كان هناك فارق يعتد به بين نفقات الحملات البيزنطية والاسلامية (١٥٨) •

ويلاحظ أن الارتباط بين العمليات الحربية البرية وبين نشاط القوة البحرية كان ضئيلا فى ذلك الحين ، اذ بقيت ميادين القتال البرية بين الاسلام والمسيحية فى الشرق والغرب على السواء مستقرة نسبيا • ففى الغرب ظلت الحدود بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا على حالها تقريبا من عام ٨٢٧ الى عام ٩٦٠ م (٢١٢ : ٣٤٩ هـ) وكذلك الحال بين العرب وبيزنطة على طول الحدود الأناضولية اذ بقى خط الحدود عامة على ما كان عليه أيام الأمويين والعباسيين الأوائل • وكانت بيزنطة فى السنوات الأولى من القرن التاسع الميلادى ملتزمة جانب الدفاع بعد كارثة عمورية عام ٨٣٩ م / ٢٢٤ هـ التى تمثل آخر ما وصل اليه نفوذ القسطنطينية من تقلص • غير أن حروب ميشيل الثالث كانت أكثر توفيقا لأنها أعادت توازن القوى الحربية ، **ثم تحول التيار تماما زمن رومانوس ليكابينوس اذ امتد نفوذ بيزنطة الى ارمينية وكيليكيا لتقسيم الدولة العباسية تدريجيا بين الاسرات الاسلامية المتحاربة فى مختلف الاقاليم ، وهكذا وجدت الفرصة لأعمال نيقفور فوقاس ويوحنا جيمسكى • على أن هذه التغييرات لم تؤثر فى القوة البحرية بشواطىء الأندلس أو آسيا الصغرى تأثيرا يعتد به وفى أيام الطولونيين والاخشيديين كانت الانتصارات المؤقتة للقوات البرية بالاشتراك مع البحرية فى كل من طرسوس والشام ومصر قد جمعت هذه البلاد كلها تحت أمره حاكم واحد** ، على أن كفاح الطولونيين للاستيلاء على الشام وطرسوس قد حرر لفترة ما قوة بيزنطة البحرية من خطر الهجوم الأسلامى فى الشرق مما يفسر النجاح البحرى لباسيل الأول • ورغم كل هذه الظروف ، ورغم هجوم الفاطميين على مصر ، وخمود المنافسة بين الرستميين والأدارسة فى المغرب ـ فان العمليات الحربية البرية فى العالمين الاسلامى والمسيحى لم تكن ذات نتائج خطيرة على الناحية البحرية حتى عام ٩٦٠م/٣٤٩هـ • كما لم تتأثر هذه الناحية بغارات القرامطة على ديار الاسلام أو غارات البلغار والروس الفارانجيين والقبائل الأسيوية المتنقلة •

---

(١٥٨) Bury : Hist. of East Rom. Emp. p. 231.

قدامة : نبذ من كتاب الخراج ـ ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٥

واذا لم يكن للمعارك البرية الا هذا الأثر الضئيل على مصائر الشعوب المحيطة بالبحرين الأسود والمتوسط **فما هى الآثار الناجمة عن تغير الأوضاع البحرية فى ذلك الحين ؟** يبدو أن التغيير الحيوى هو انتقال الجزر الهامة فى البحر المتوسط الى أيدى المسلمين وكان لهذا الانتقال انعكاسات هامة على القوى البحرية فى البحر المتوسط نتيجة لسيطرة المسلمين معظم الوقت على كريت شرقا وصقلية ومالطة وقوصرة فى الوسط وجزر البليار ميورقة ومنورقة غربا ثم على جزيرتى سردينية وقبرص المحايدتين ، بل ان الطريق الموصل بين البحر المتوسط والندقية عبر مياه البحرين الأيونى والأدرياتى ظل مغلقا ثلاثين عاما لوجوجد قواعد اسلامية فى بارى وتارنت حتى زالت سنة ٨٧٥ م/٢٦٢ هـ • وهكذا حصر الاسلام البيزنطيين والشعوب المسيحية الغربية فى البحار الضيقة • غير أنه يمكن القول بأن سيطرة **المسلمين على الجزر ذات المواقع الهامة كانت لأغراض دفاعية أو على الأقل انتهت الى هذه النتيجة : فكانت طرسوس** وجزيرة قبرص المحايدة تحميان شواطىء الشام • **وكانت تحمى مصر** ، كما كانت **صقلية تحمى** شمال افريقية ، وكانت جزز البليار **تحمى الأندلس** • **وفى أواخر القرن التاسع** الميلادى صارت الشواطىء الاسلامية فى مأمن من أى غزو لاول مرة منذ سنة ٢٥/٦٤٥هـ• وشعر المسلمون كذلك أن لديهم المواد الأولية الهامة لبناء السفن بجانب استيراد ما يلزمهم من البندقية ، فكان فى ميسورهم الحصول على الخشب والحديد من صقلية وغربى تونس والأندلس كما أمدتهم جبال كيليكيا بأنواع من أخشاب السفن ، وكانت الاسكندرية فى ذلك الحين ميناء هاما لتصدير الخشب الى **مصر** (١٥٩) •

***

ثم تأتى فترة حددها أ• لويس بما بين (٩٦٠ : ١٠٤٣م) وتشمل عهود الخلفاء العباسيين المطيع والطائع والقادر والقائم ـ (٣٤٩:٤٣٥هـ) وفيها حدثت تغييرات استغرقت السنوات الأخيرة من القرن ١٠ م النصف الأول من القرن ١١ م كانت على جانب كبير من الأهمية فى الشكل العام للقوى البحرية فى البحر المتوسط : فقد استطاعت الخلافة الفاطمية بالقيروان أخيرا أن تتحرك شرقا لتستولى على معظم ما كان يملكه الاخشيديون فى مصر والشام والحجاز ، وتربط القوة البحرية الاسلامية فى شرق المتوسط بمحور شمال افريقية صقلية فى غربه ، وفى هذا الوقت نفسه تحركت بيزنطة لتستولى على كريت وقبرص وطرسوس وشمالى سوريا وأجزاء أخرى من آسيا الصغرى والبلقان • غير أن

---

(١٥٩) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ـ ترجمة عيسى ص ٢٤٥ ، ٢٥٠

ممتلكات المعز فى المغرب تعرضت للتقسيم بعد انتقاله للقاهرة (الكلبيين بصقلية والزيريين بشمال افريقية وغيرهم) ثم تدهورت القوة البحرية فيها الى مستوى خفيض جدا ، بينما أنهار سلطان الأمويين فى الاندلس بعد وفاة المنصور بن أبى عامر حيث وقعت الامارات الاسلامية الصغيرة المتنازعة فى سلسلة من الخلافات أفقدت الأندلس قوته البحرية • وبعد انتهاء حروب بيزنطة فى الجبهتين السورية والبلغارية تحولت صوب الغرب سنة ١٠٢٥م ، وفى هذه الأثناء كان الغرب اللاتينى ينهض من الفوضى التى سادته منذ وفاة شارلمان • لكن يجب التسليم بأن **البحر المتوسط بقى الى حد كبير بحيرة اسلامية حتى سنة ١٠٤٣م ، رغم ضعف القوى الاسلامية فيه الا أنه بدا واضحا أن ذلك الوضع لن يستمر طويلا • وقد استمرت قوة بيزنطة البحرية على الأساطيل الاقليمية ، ونتيجة لاتساع فتوحها برا وبحرا وتقدمها نحو الجنوب انتقلت قواعدها الرئيسية تبعا لذلك فى هذا الاتجاه** فغدت قبرص قاعدة بحرية رئيسية لأساطيل اقليم كبيرها يوت بعد ٩٦٥م وربما غدت كريت بالمثل قاعدة أمامية لأساطيل منطقة بحر ايجه • أما أساطيل الفاطميين والزيريين والصقليين والأندلس فانها استمرت على ما كانت عليه منذ البداية • كذلك يبدو أنه كان للبندقية فى ذلك الحين أسطول حربى منظم وفق أسلوب العصر • ويعتبر التغيير الرئيسى **المميز لتلك الفترة ازدياد حجم بعض أنواع السفن التى** استخدمها المسلمون أو البيزنطيون وربما كانت القسطنطينية أول من بنى شوانى بحرية كبيرة بدلا من الشلنديات والدرمونات الصغيرة المستخدمة فى البداية • وقد اشتركت هذه السفن الكبيرة فى الاغارة على كريت ، وذكر استخدامها فى وقعة المجاز سنة ٩٦٥/٣٥٤هـ، وتدل مقاييس بعض السفن الفاطمية التى استخدمها المعز فى غزو مصر سنة ٩٦٩ م/٣٥٨ هـ على أن المسلمين سلكوا نفس السبيل • والراجح أن الدول المتقدمة هى التى استطاعت وحدها بناء مثل هذه السفن فنحن لا نجدها الا فى أساطيل الفاطميين أو الأندلسيين أو البيزنطيين وربما بدأ البنادقة يزيدون حجم سفنهم منذ ذلك الوقت (١٦٠) •

السفن :

عند البيزنطيين :

كانت وحدة الأسطول البيزنطى هى **الدروموند** dromond

---

(١٦٠) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ـ ترجمة عيسى ص ٢٩٣ ـ ٤ ، ٣٢١ : ٥

من الكلمة اليونانية dromos أو الجارية وتحمل فوق المائة رجل في الغالب بصفين من المجاديف وفيها سبعون من جنود البحر والباقى من المجدفين والملاحين ، وبجانب ذلك كانت هناك سفن ذات طراز مختلف منها ما هو أكثر سرعة ويسمى pamphylus, pamphylis وهى ذات صفين من المجاديف ومن هذا النوع كانت سفينة القيادة الكبيرة التى تحمل العلم وهذا النوع من السفن يستخدم فى المطاردة والقتال • وكانت هناك سفن بصف واحد من المجاديف Galleys تستخدم للاستطلاع ونقل الرسائل ، كما كان الأسطول يستعين ببعض السفن التجارية عند الحاجة• فقد اشتمل اسطول جستنثيان الثانى الذى أرسل الى خرسون Cherson على سفن تجارية وزود بسفن قديمة وقد أتيح له أن يصد الغارة الروسية سنة ٩٤١ م حينما كان الأسطول الامبراطورى بعيدا فى بحر ايجه • وقد أرسلت ٣٠٠ سفينة للغارة على مصر سنة ٨٥٣ م / ٢٤٨ هـ كان كثيرا منها قوارب صغيرة • وفى حملة كريت ٩٠٢ / ٢٨٩ هـ قدم الأسطول الامبراطورى : ٦٠ دروموند و ٤٠ بامفيليا ، فى حين قدمت أساطيل البنود كبيرايوات وايجه وساموس ٣٥ درومند و ٣٥ بامفيليا ، وأرسلت هيلاس ١٠ دروموند • وكان لدى بند كليريا ٧ سفن كما يبدو سنة ٩٢٩م •

وقد كانت السفن تسلح **بمنجنيقات ضاربة** ، غير أن أهم أسلحتها كان **النار الاغريقية** ويبدو أن هذه المادة الكيماوية كانت من أنواع مختلفة وتستعمل بطرق شتى • وصورتها الأساسية أن تكون قذائف يدوية تتفجر عند اصطدامها بسفن العدو ، أو تكون أوعية ترسل خلال الهواء بوساطة المنجنيقات ، وربما استخدمت قذائف فى دفع مواد سريعة الالتهاب خلال أنابيب صوب أهداف بعيدة وقد حفظ تركيب النار الاغريقية سرا مصونا ، وكانت لها مخازن فى المدن البحرية الكبرى ، وعندما احتل كروم Krum مدينة Mesembria سنة ٨١٢م كانت الكارثة الفادحة أن امتدت يد خان البلغار الى كمية منها • وقيل أن مخترعها يدعى كالينيكوس Callinicus الذى عاش فى القرن السابع الميلادى ، ولكن يبدو أن اختراعها أقدم من ذلك فقد نقل عن عهد انستاسيوس الأول استخدام مادة غير قابلة للاطفاء ، ثم استخدمت صورة من النار الاغريقية فى دفع العرب عن القسطنطينية أثناء حصارهم لها • ومن المحتمل أن استخدام النار الاغريقية لم يبلغ حد الاتقان حتى القرن التاسع الميلادى ، ويتكلم ليو السادس عنها كما لو كانت كشفا جديدا • وفى القرن العاشر الميلادى أعطى مارك الاغريقى كيفية تركيبها بصورة مبهمة ، ويبدو أن العرب

تتعلموا صناعتها قبل الحرب الصليبية . وقد اختفت تماما فى القرن ١٤م باستخدام البارود والمدفع .

وكان **رجال السفن** يتكونون من رعايا الامبراطورية ، ومن المتبربرين المستقرين فى أرض الدولة مثل المرده Merdates ومن المرتزقة الأجانب مثل الروس الذين يبدو انهم استخدموا أول مرة فى الأسطول زمن الأسرة المقدونية ويبدو من كتاب ليو السادس (Tactica) ان رجال الأسطول كانوا بحارة وجنودا ، ونلحظ فى حملة كريت سنة ٩٠٢ م / ٢٨٩ هـ ان جنود الأسطول كانوا شيئا آخر غير المجدفين (١٦١) .

عند المسلمين :

يغلب ان سفن المسلمين فى ايام الخلافة المبكرة كانت تشبه سفن الروم ، وتدل اوراق ـ البردى على انها كانت ذات حجم يعتد به قادرة على حمل عدد كبير من البحارة . وقد استطاع المسلمون بعد استقرارهم فى البحر المتوسط وسيطرتهم على صناع السفن الشاميين والمصريين ان يخلقوا اسطولا حربيا قويا ، وقد تابعوا الاصول الفنية المعروفة عند الروم وعند اهل الشام اخلاف الفينيقيين واقتبسوا الهيكل العام المعروف فى البحر المتوسط وقتذاك . وقد استطاع المسلمون ان يكونوا تلاميذ نابهين يسيرون نحو التفوق والحلول محل معلميهم . ويذكر المقريزى ان **السفن كانت مقسمة قسمين : سفن الحرب المجهزة بالمقاتلة والاسلحة ، والسفن النيلية لحمل القمح والبضائع** . وايا ماكان شكل السفينة وحجمها فان الجزء الغائص من هيكلها فى الماء صمم على شكل الحوت ، ويذكر ابن خلدون ذلك فى فصله عن النجارة . وكان استخدام القلع المثلث (lateen) لدى العرب دليلا على تقدمهم البحرى بعد استقرارهم حول شواطىء البحر المتوسط . وحين يصف (Cameniates) استيلاء ليو الطرابلسى على سالونيك سنة ٢٩١ هـ ، ٩٠٤ م نراه يسوق معلومات قيمة عن بناء السفن الحربية الاسلامية ومنها يبدو ان شراعها كان على شكل مثلث ولها على الاقل صاريان تحركها مجاديف من حجم غير عادى ، ويثبت القلع المثلث على عمود (yard) طويل منحدر ينشر الى ذروة الصارى . **وشكل القلع ووضعه يجعلانه اقدر على العمل من القلع المربع الصغير المعروف عند الرومان ، ومن المحتمل ان السفن**

---

(١٦١) Byzantium: pp. 305:6, Runciman: Byz. Civ. pp. 122-3.
بينز : الامبراطورية البيزنطية . ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٨٩ ــ ١٩٠ .

المثلثة القلع المزدوجة الصارى كانت اكثر سرعة من السفن الرومانية القديمة فى بعض اوضاع الريح (عندما تكون مسلطة على العارضة beam) أو قبلها بقليل) • ويمثل ذلك تقدما واضحا فى فن الملاحة حتى يذكر (Bellec) « ان العرب حين تركوا صحراءهم وساروا الى البحر غدوا فى الملاحة خلال فترة قصيرة ـ كما غدوا فى الفلسفة ـ اساتذة فنهم الجديد ، فاخذوا القلع الذى وجدوه فى شتى الجهات التى فتحوها خلال الساحل : فى الاسكندرية وبرقة وقرطاجة وقيصرية ، وأجروا تخفيف العمود (yard) واطالته ورفعوا رأسه عاليا (peak) وجعلوا بكرة فى اسفله ، وفى فترة وجيزة كان لديهم القلع المثلث الذى قد يظل باقيا حينما يمضى كل دليل آخر على طاقة العرب القاهره ، وبمثل هذا القلع قادوا اسطولهم الاول الذى منحهم على الفور جزر البحر وتجارته » • وقد كان استخدام السفن المزدوجة الصارى المثلثة القلع محصورا تقريبا فى البحر المتوسط ، وكان الشراع المربع يرى من قبل فى جميع انحاء البحر المتوسط فى سفن المصريين والفينيقيين واليونان والرومان • وفى العصرين الهلنستى والرومانى كان يشد احيانا شراع الى صار صغير مائل فى مقدمة السفينة يسمى الاردمون للانتفاع بالرياح المواتية ، وكان الشراع مربعا ايضا • وتمتاز الشرع المربعة بالرسوخ والثبات على السفن ـ الكبيرة وفى الانواء وقد ظلت النمط الاساسى للشرع فى السفن الاوربية حتى آخر ايام السفن الشراعية ، ولكن للشرع المهدودة عبر السفينة طولا ميزتها عند المناورة وتحويل مجرى السفينة فى الانهار ومجارى الماء الضيقة فهى اقدر كثيرا على الاقتراب من الريح • ولهذا وجدنا المحاولات لتحوير الشراع المربع على نحو يحقق هذا الغرض ، ويعتبر ادخال الشراع المثلث الى البحر المتوسط من ايدى العرب الجليلة على المدنية • وكما يقول كلاوز « لولا التحسينات البعيدة الاثر فى الصوارى والشرع لما استطاع المكتشفون الكبار تحقيق ماحققوه » • **وكانت المرحلة الاخيرة فى تطوير الشراع المثلث أن ينشأ شراع تام التثليث** (triangular) ، **لا يعرف ان كان العرب ام الروم هم الذين اتخذوا هذه الخطوة** • وقضت الظروف الجغرافية ان **تتوزع الملاحة البحرية فى منطقة الاسلام فى بحرين منفصلين** تماما : البحر المتوسط والمحيط الهندى ـ لان برزخ السويس كان حائلا دون اتصالهما ، وكان نوع السفن التى تستعمل فى احدهما يختلف عنه فى الآخر • فكانت مراكب البحر المتوسط ذات مسامير اما مراكب البحر الاحمر فكانت تخاط بحبال الليف ، وقد حاول المسعودى تعليل ذلك

بان « مراكب البحر الحبشي لايثبت فيها مسامير الحديد لان ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير في البحر فتضعف فاتخذ اهلها الخياطة بالليف بدلا منها وطليت بالشحم والنوره » ، ولاحظ ابن جبير والادريسى وابن بطوطه ان هذه الخيوط تجعل السفينة مرنة امام مصادمات الشعاب المرجانية فضلا عن استطاعتها الرسو على الشاطىء فوق الزبد الكثيف وتحمل صدمات الأمواج على ساحل رملى وربما جاء استعمال الليف بسبب غلاء الحديد نسبيا فى تلك المناطق فضلا عن التأثر بالتقاليد السابقة • وكانت مراكب البحر المتوسط أكبر من مراكب المحيط ، وقد تعجب مفتش الضرائب تشاوجوكوا فى أوائل القرن ١٣ م كيف أن سفينة واحدة تحمل بضعة آلاف من الرجال وعلى ظهرها حوانيت للشراب والطعام وفيها مغازل • ولم تكن السفن ذات الدفتين موجودة فى غير البحر المتوسط ، ولم تكن لسفن المحيط اكثر من طبقة واحدة وكانت فى معظم الاحيان ذات سارية واحدة ، وكانت قيعان السفن التى تسير فى البحر الاحمر « عراضا دون تعميق فى تركيبها لتحمل بذلك كثيرا من الوسق ولا تدرس على كبير ترس » كما يقول الادريسى •

وكانت البندقية فى القرن الرابع الهجرى تمد العرب بالخشب لبناء السفن ، مما جعل الامبراطور البيزنطى يحتج لدى الدوق فأمر هذا بايقاف بيع الخشب للعرب ولم يسمح الا بامدادهم بالخشب الذى لايصلح لانشاء السفن ، ولهذا شرط ان يكون من اللبخ والسنديان على الا يتجاوز طول اللوح خمسة اقدام وعرضه نصف القدم ، وأذن ايضا بان تباع لهم الأدوات المصنوعة من الخشب • وكانت دفة السفينة التى تجرى فى البحار تحرك بحبلين • ولا يذكر كتاب القرن الرابع هـ شيئا عن البوصلة ، ولكنها ذكرت فى قرون تالية • وكان على ظهر السفينة عدد من المراسى يقال لكل منها انجور بلفظها اليونانى ويستخدم لسير الاغوار • وكانت القوارب الصغيرة تستعمل لتسيير المراكب بالمجاديف اذا احتاج الامر • وكان بين ملاحى السفينة ملاح غواص • وقد كان اسطول الفاطميين فى شمالى افريقية عند بداية دولتهم اقل كفاية من اسطول الشام حتى استطاعت ٢٥ من سفن الشام سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ان تهزم ٨٠ من سفن الفاطميين تماما • وكانت سفن العرب تقطع البحر المتوسط عرضا فى ٣٦ يوما من مبدئه فى الغرب الى آخره بانطاكية وميناؤها سلوقية التى كانت فى اثناء القرن ٣ هـ ، ٩ م اهم ميناء تجارى فى الشام ، وقد حصنها المعتصم ولكن كان يؤذيها وجود شعاب نابتة تحت الماء بينها وبين قبرص تسمى السفاله تتحطم عليها معظم السفن • ويذكر اليعقوبى فى أواخر

القرن الثالث الهجرى ان ميناء **طرابلس الشام** « عجيب يحتمل ألف مركب » . وكانت مدينة **صور** هى الميناء الحربى الاسلامى « بها دار الصناعة ومنا تخرج مراكب السلطان لغزو الروم وكانت حصينة جليلة » ، ولكن زحف البيزنطيين فى القرن ٤ هـ على بلاد الاسلام غير احوال بلاد الشام وقد جاء فى كلمات **ليو السادس وهو يخاطب أمير البحر : ان حجم السفن التى تبنيها سيعتمد على العدو الذى تحاربه ، والامر يختلف بين العرب والروس ، فالعرب يستخدمون سفنا كبيرة وبطيئة نسبيا بينما يستخدم الروس سفنا خفيفة وسريعة** ، والسبب ان غارات الروس فى البحر الاسود تعمل اسفل الانهار حيث يستحيل استخدام سفن اكثر من حمولة معينة . ولذلك ينبغى تقدير هذه الحقائق عند رسم الخطط (١٦٢).

ويذكر ابن عبد الحكم من اسماء السفن المستخدمة فى معركة ذات الصوارى ٣٤ هـ / ٦٥٥ م أولى المعارك الاسلامية البحرية الهامة **السفينة والمركب والقارب** . وبين السفن المذكورة فى أوراق البردى الدروموز (dromonaria) والأكاتيا (acatia) ويرد ذكرهما فى معرض الكلام عن اسطول الحراسة عند مصبات النيل سنة ٩٦ هـ ـ سنة ٧١٤م وعن الاسطول المغير من مصر فى نفس السنة وعن اسطول الشرق سنة ٩٧ هـ ـ سنة ٧١٥ م . ويذكر تيوفانيس ان **الدرومون** كونت جزءا من أسطول المسلمين خلال الحصار الثانى للقسطنطينية سنة ٩٩ هـ ـ سنة ٧١٧ م . وتعتبر الكلمة اصطلاحا شاملا للسفينة الحربية عموما وقد استخدمه ليو السادس ، وربما كانت مرادفا للشلندى التى استخدمت فيما بعد . اما الأكاتيا (acatia, acatenaria) التى تشير اليها البرديات فى غاره سنة ٩٢ هـ ـ سنة ٧١٠ م فربما كانت سفينة مساعدة لنقل المؤن للأسطول وربما كانت على صلة بسفن (katinae) التى ذكرها تيوفانيس كسفن خازنة للاسطول الاسلامى خلال الحصار الثانى للقسطنطينية . وربما كانت تشير الى الطراز المتأخر المعروف بالطاردة . وهناك اشارات مختلفة فى البردى الى سفن **القرابيز** (carabi) ويرد ذكرها فيما يتعلق بجزيرة بابليون فى غازة سنة ٩٧ هـ ـ سنة ٧١٥ م . ويذكر احيانا انها محاطة بابراج مما يدل على انها على نوعين محصنة وغير محصنة ، والحصن عبارة عن برج صغير له جوانب خشبية

---

(١٦٣) Ali Fahmy : Muslim Sea Power. pp. 120:4 حورانى : العرب والملاحة الهندى ص ٢٤٩ : ٢٥٨ ، ٢٦٦ ، ٣٧٥ ، ميتز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور ابى ريده حـ ٢ ص ٣١٣ : ٨ .

مشيدة فى منتصف الصارى لحماية الجنود من احجار العدو وسهامه • وربما كانت هذه السفن تعنى مايسمى بالعربية قارب ، وهى كلمة قيل باشتقاقها من الاغريقية ، ويمكن أن نشير الى الطراز المتأخر المعروف بالقراب • واشير فى البردى الى **الزوارق الكبيرة المعروفة باسم** (galleys) ويبدو انها كانت على نوعين : نوع ذى جانبين ورد ذكره فى الاسطول المغير من مصر سنة ٩٦ هـ ـ سنة ٧١٤ م ، ونوع آخر محصن • وربما استخدمت هذه القوارب فى أغراض الاستطلاع ، ويصف ليو السادس السفينة البيزنطية من هذا النوع على انها ذات صف واحد من المجاديف •

وفى خلال العصر العباسى دخلت كلمات جديدة فى تسمية السفن، فيذكر المقدسى ٣٦ نوعا مختلفا من السفن،ويقول وستنفلد (Wüstenfeld) « على الرغم من طبيعة اللغة العربية التى تستطيع ان تعرض مائتى اسم للجمل واربعمائة للاسد ، فانه مما يدعو للعجب ان يكون هناك أكثر من مائة اسم للسفينة » !! وهو يذكر ان عددا كبيرا منها اتى من خارج الجزيرة العربية ، التقطها العرب بسرعة وجعلوها جزءا من المفردات العربية وقد وردت كلمة **اسطول** فى معنى الاسطول الحربى فى شعر البحترى فى القرن ٣ هـ / ٩ م الذى مدح به أحمد بن دينار قائد الأسطول الاسلامى المرسل لحرب البيزنطيين ، وقد استعملت بعد ذلك فى قصائد شعراء لاحقين • ولا يعتبر المقريزى هذه الكلمة عربية تماما • ويقرر المسعودى انها ذات أصل رومى وتعنى سفن الحرب المجتمعة ، وقد تستخدم ايضا للدلالة على السفينة الحربية كما ورد عند ابن خلدون• وهى ترادف الكلمة العربية عمارة وجمعها غمائر ، ويوردها ابن دينار فى ثيانا حديثه عن عمارة الجنويين والبنادقة التى هاجمت المهدية وزويلة سنة ٤٨١ هـ ـ ١٠٨٨ م كما يستعملها ابن مماتى وابن دقماق والقلقشندى فى الكلام عن صناعة العمارة والعمائر ويستخدم ابن الأثير **قطع** لنوع من السفن يكون جزءا من الاسطول وتستعمل عادة للدلالة على عدد السفن فى الحرب والنقل على السواء • كذلك يستخدم ابن الأثير كلمة **حربى** للدلالة على المركب الحربى كما يستخدم هو والمسعودى كلمة حربية أيضا ، ويذكر الادريسى الحرابى كما يذكر النويرى والمقريزى الحربيات • أما **الشلندى** فيذكر قسطنطين بورفير وجنيتوس فى (حياة باسيل) أسماء رومية لثلاثة انواع من سفن المسلمين الحربية مرادفاتها اللاتينية هى : (cumbarii) وهى أكبرها واثقلها (satural) وهى صغيرة سريعة (galeae) وهى سفن حربية ذات طبقة

واحدة ـ ولا يعطينا بعد ذلك أى تفصيلات ولعل النوع الاول (cumbarii) يشير الى مايعرف بالعربية بالشلندى ويجمع على شلنديات وقد وردت الكلمة فى مؤلفات كتاب عرب عديدين من القرن ٤ هـ ـ ١٠ م اشارة الى السفن الحربية البيزنطية • وقد بحث فرينكل (Fraenkel) ما اذا كانت الكلمة قد أتت الى العربية مباشرة عن طريق البيزنطيين ،ويتكلم الطبرى عن مائة شلندى رومى فى حملة دمياط سنة ٢٣٨ هـ ـ ٨٥٣ م ، ويذكر ابن حوقل شرندى ، ويتكلم المقدسى عن الشلندى التى تحمل الاسرى المسلمين للفداء • وتذكر هذه الكلمة عند تناول حروب صقلية بكثرة كما يظهر فى كتابات ابن الاثير • **ويذكر المقريزى الشوانى من بين سفن الاسطول الفاطمى فى مصر بجانب الشلنديات والمسطحات وقد وجهت خاصة الى صور وعكا وعسقلون لحرب الروم** • وابن مماتى يستعمل كلمة مسطح لسفينة تشبه الشلندى ، وفى وصف الأسطول الايوبى نراه يتكلم عن الشلندى كسفينة مسطحة يقاتل عليها الجنود بينما يكون المجدفون قائمين بتحريك المجاديف اسفلهم ، والسفينة معدة بحيث تهيىء لعدد من المقاتلة مكانا كافيا للحركة عند ادنى اشارة بمجرد ظهور العدو • واصلها فى اللاتينية (chelandrum) وخففها العرب فقالوا صندل ايضا والشلندى تعادل الشونة والحراقة فى الاهمية، وتستخدم كذلك فى نقل البضائع • **والشينى او الشينية او الشانى** وتجمع على شوانى تستعمل للزورق الكبير (galley) ، ويشك دوزى فى اصلها العربى • وهى عبارة عن سفينة مجهزة للحرب البحرية، ويعتبرها صاحب تاج العروس اصطلاحا مصريا ، ويبدو ان استعمال الكلمة كان مقصورا على البحر المتوسط • ويذكر ابن حوقل والمقدسى الشوانى البيزنطية على سواحل الشام وفلسطين • كما يذكر الادريسى مراكب الحمالة والحرابى (سفن النقل والحرب) والشوانى فى ميناء وقور بجوار تونس وحجمها غير مقطوع به فالمقريزى يقرر أن الشوانى كانت تحمل فى نهاية العهد الفاطمى عشرة آلاف جندى ، وأبو شامة يعطى رقما أقل ١٥٠ جنديا للشينى الكبيرة ، وابن عذارى يذكر فى أخبار زيادة الله سنة ٢٩١ هـ ـ ٩٠٣ م ان الشينى لم تكن مفرطة الضخامة • **ويذكر ابن مماتى أن الشينى تعرف ايضا بالغراب** ولها ١٤٠ مجدافا وتحمل جنودا ومجدفين ، ويذكر أبو عمروا القرطبى أن الشينى تطلى بالقار ولها قلوع كبيرة بيضاء وهيكلها على شكل حوت ومؤخرها على شكل طائر صغير ، وفى شعر الشاعر الصقلى ابن حمديس نجد الشوانى تشتمل على ابراج يقذف منها النفط

الابيض على العدو • ويبدو ان معنى الكلمة قد مر بعدة تطورات على مر الزمن ، وانه بالنظر لتفرق هذه الاستعمالات يصعب تتبعها • وقد كانت الشواني أهم قطع الاسطول ، ولكن يمكن وصف الشونة عموما بانها مركب حربى كبير طويل ذو أبراج وقلاع يستعمل للدفاع والهجوم ويجهز للحرب بالسلاح والنفطية ويحشد بالمقاتلة او الجنود البحرية ، وهى من اقدم انواع السفن وكانت اهم قطع الاسطول الاسلامى والرومى لانها كانت أكبر السفن استعمالا لحمل المقاتلة للجهـــاد ، ويجدف فيها بمائة مجداف • قال ابن حمديس الصقلى السرقوسى يمدح ابايحى الحسن بن على بن يحيى :

انشـــأت شـــوانى طايره وبنيت على ماء مـــدنا
ببروج قتـــال تحســبها فى شـــم شواهقها قننا

فهى أشبه بالقلاع البحرية تحاصر العدو وترميه بالنفط وتحطم سفنه بقوتها ، وبها اللجام لتقذف به سفن العدو لاغراقها ، وكلاليب ــ وهى خطاطيف كبار من الحديد تطرح على ظهر سفن العدو لايقافها • ويزود المقاتلة بالأحجار والرماح والقسى وسائر أسلحة المقاتلة بينما تزود السفن بالمنجنيقات والعرادات • وقد احتوت على مخازن للقمح وصهاريج للماء العذب حتى تساعد بحارتها وجنودها على البقاء أطول مدة ممكنة فى عرض البحار • **والغراب** اسم للزورق الكبير (galley) ويظن (Vollers) ان الإسم بهذا المعنى ليس من الضرورى أن يكون عربيا بل ربما كان مشتقا من الاصـــطلاح الرومى carabus ويلاحـظ ان الاســـم قد انتقل الى اللغات ذات الأصل الرومانى فى صورة (corvetta, corvetti) ويستعمل وستنفلد كلمة غريب فى قائمته للسفن ، ويعتبرها (Brunot) الصيغة الجزائرية لكلمة قارب ، ويذكر Kindermann أن التشابه فى المعنى بين كلمة غراب العربية والكلمة اللاتينية corvus فى رأى (Lakotoch) مجرد مصادفة • وهناك رأى بأن تسمية الغراب جاءت بسبب خفة السـفينة وطولها ، وربما كانت هذه السفن أحد الأنواع الثلاثة التى تكلم عنهـا قسطنطين وهى النوع الخفيف السريع (satural) وقد جرى تأكيد التشابه بين الطائر والسفينة فى العربية خاصة ، وجرى وصف السفينة فى الشعر المغربى بانها مطلية بالقار ولها أجنحة بيضاء هى قلاعها مما يعطيها شكل الغراب • وتذكر مخطوطة ترجمها Gildemeister ان هذا النوع من السفن يحمل الجنود وهو يسير بالشراع والمجاديف التى يختلف عددها حتى يبلغ ١٨٠ مجدافا • ويسمى ابن مماتى هذه السفن بالشينى ويذكر انها تحمل

المقاتلة ولها ١٤٠ مجدافا ، فى حين يذكرها ابن خلدون بجانب الشينى ، ويجعلها المقريزى مع الطاردة من أنواع الشينى • ويعتبرها ابن أبى زرع أكبر السفن الاسلامية • ويبدو ان اصطلاح الغراب قد اقتصر على البحر المتوسط ، ومن خصائص هذا النوع من السفن انه كان مزودا بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية ، وقيل ان مقدمه كان يشبه رأس الغراب • جاء فى شفاء الغليل : الغراب نوع من السفن مشهور فى أشعار المحدثين لا سيما المغاربة ، وربما أطلق على سفن لصوص البحر . وهذا النوع يسميه الفرنج (galere)

والحراقة سفينة حربية كبيرة تملأ بمواد قابلة للاشتعال لاحراق سفن العدو ، ولذلك كانت مزدوة بالنفط الذى يرمى بالمنجنيقات أو السهام أو القوارير وتجمع على حراقات وحراريق • ويذكر ابن مماتى وجودها فى الأسطول المصرى ، وأنها أصغر من الشوانى ، ولها كما يحتمل مائة مجداف فقط • وقد استخدمت هذه الكلمة بصور شتى غير متميزة حتى فقدت معناها الأصلى وبعدت عن المادة العربية التى اشتقت منها ، حتى ان Kindermann يرى استحالة تحقيق هذا الاصطلاح لتعقد استعماله وتعذر تحديد دلالته على طراز معين من السفن فى مدى العصور • وتذكر الحراقات كثيرا كمراكب حربية صغيرة فى النيل تساعد السفن والزوارق الكبيرة • ويعرض Moritz للمعنى الأصلى ويشير الى استخدام الحراقات فى مهرجانات الألعاب النارية لمناسبة الأعياد بالقاهرة • فى حين يذكر Quatremere هذه السفن حين تجرد من السلاح كانت تستخدم فى النقل البحرى والنهرى • وقد ابتنى الأمين حراقات على شكل اسود وفيلة وثعابين وحيوانات مائية ، تناولها أبو نواس فى شعره ، ويذكر الطبرى كيف هوجمت حراقة الأمين • ويذكر ابن خلكان ان القوارب المعروفة بالشبارة عند أهل الموصل هى الحراقة فى مصر ، ويتكلم المقريزى عن ركوب السلطان الى المقياس لامتطاء الحراقة • وكل هذه الأمثلة تدل على تطور الحراقة من سفينة لقذف النار الى قارب للهو • وقد كانت هذه السفن فى أصلها تحمل المجانيق لقذف النيران كالنار الاغريقية مثلا • **والطاردة** تجمع كل طرائد وقد تسمى طراد أو طرادة وهى مركب سريع استخدم فقط فى البحر المتوسط ، وقد ورد فى لغات شتى ويقرر Quatremere انه لا يزال يوجد الآن فى هذه اللغات ، وربما أدى الى ظهور كلمات قريبة فى الاسبانية والايطالية والفرنسية tartana, tartanae • والطاردة هى سفينة النقل فى البحر المتوسط وتحمل الخيل خاصة كما يذكر ابن مماتى ، ويقدر أقصى عدد لحمولتها أربعين حصانا وهناك من يقدر حمولتها

بثمانين فرسا . وتبرز المخطوطة التى ترجمها Goldemeister أن الطاردة تعد لنقل خيل الحرب وهى مفتوحة من الخلف لتسنهيل صعود وهبوط الحيوانات على ظهرها . وهناك اشارات كثيرة لهذه القوارب التى تحمل الخيل مع الناس والمؤن والخشب ومعدات الحرب . وذكر الطاردة مع الشينى والشلندى يعين على تحديد أشكال السفن التى تكون الأسطول . ويعتقد Jal أن الطاردة كانت تستخدم عموما فى نقل كل شيىء : الجنود والخيل والمؤن والسلاح . ومما وصفت به أنها سفن صغيرة على هيئة البراميل بدون سطح تستعمل فى مطاردة العدو لسرعتها .

ويبدو جليا من دراسة سفن الأسطول الاسلامى انه **كانت توجد أسماء شتى لنوع واحد من السفن ، كما كان يخلع اسم واحد من السفن على أنواع شتى** . فان التقدم الفنى لم يؤد فقط الى ادخال كلمات جديدة فى مفردات اللغة ، بل الى تغيير معانى الكلمات . فالطراز الجديد من السفن ليس من الضرورى أن يحمل اسما جديدا . وان الأسماء الكثيرة المستعملة فى العربية ربما كانت تعطى عشرات من الأنواع .

وهناك سفن أخرى مثل **الشذاه او السميريه** : وكانت تستعمل فى عهد الدولة العباسية لنقل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والرماة والملاحين ، وكان بها حوالى أربعين مجدافا وتستخدم فى حراسة أفواه الأنهار . وتختص **البطس** بنقل الجند المحاربين حتى يروى المقريزى أن احداها حملت ١٥٠٠ شخصا كما تحمل كذلك المؤن والذخيرة ، والبطسة عظيمة البناء تشتمل على عدة طبقات يشغل كل طبقة منها فئة معينة من الجند بأسلحتها وتسيرها قلوع كثيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعا . **والمسطح** : من أكبر سفن الأسطول الاسلامى وكانت تجر خلف السفن الصغيرة لئلا تغرق وهى وكانت تجر خلف السفن الصغيرة لئلا تغرق وهى بالأسبانية Mestech والقراقير كانت مهمتها الأساسية نقل المؤن والذخيرى واقتصرت فيما بعد على حمل المؤن ، بينما اضطلعت الحمالات بنقل الذخيرة. **والشبابيك** جمع شبك أو شباك وهما من سفن الأسطول الصغيرة ذات ثلاثة قلاع وأحيانا تسير بالمجاديف . وكانت **الفلايك والقوارب والزوارق** سفن صغيرة تتحرك بالمجاديف وتستعمل فى نقل الأشخاص ، ويحمل الزورق من ٢٤ الى ٣٠ مجدافا ، وهذه سفن سريعة الحركة ، وكانت تستعمل فى احراق المراكب الكبيرة بالقاء النيران والهرب فى المسالك الضيقة .

وقد استخدم المسلمون المواد الملتهبة كقذائف ، وقيل ان عبد الله

ابن الزبير استخدم فى حصار مكة أوانى من النفط الملتهب ثم أخذ العرب النار البيزنطيـــة عن الروم وهى مزيج من زيت النفط والقار والزيت النباتى وعدة مواد ملتهبة أخرى • ورامى النفط يسمى نفاطا ، ويقى نفسه بلباس النفاطين الذى قيل أن مخترعه مسلم اسمه محمد بن يزيد ارتداه عندما اقتحم نيران مدينة هرقلية بعد سقوطها أمام جيش الرشيد• **والنفـاطة** : هى الآلة التى تقذف النفط • وباســـتخدام الأســـاطيل الاسلامية ـ الأسطول الأغلبى والأسطول الفـاطمى خاصـــة ـ للنفط فقدت النار الاغريقية غلبتها الجبارة (١٦٣) •

ومنذ القدم اعتمدت القوى البحرية فى البحر المتوسط على الغابات لاستمداد أخشاب السفن ، واجتاز الانسان تجارب كثيرة فى تهـذيب الأخشاب وربطها وقلفطتها وتشكيلها بحيث تقاوم الأمواج • ولا يشك فى أن مصر كانت تمتلك أشجارا تستخدم فى هذا الغرض خلال أوائل عهد الخلافة الاسلامية • **وكانت الشام تنتج نوعا من خشب الصنوبر** كان حصن التينات قرب الاسكندرونة مصدر تجارته ومنه يصدر الى أنحـاء الشام ومصر وكيليكيا• ويذكر الاصطخرىوابن حوقلعن (حصنالتينات) « حصن التينات حصن كان على شط البحر ، فيه مقطع لخشب الصنوبر الذى كان ينقل الى الشام ومصر والثغور ••• » • كذلك كانت غابات لبنان ولبنان الداخلية شهيرة منذ القدم بخشب السفن ، ويذكر ناصرى خسرو ان حيفا على شاطىء البحر يكثر فيها النخيل والشجر الذى تبتنى منه السفن الضخمة • ورأى عبد اللطيف البغدادى أشجار التين فى عسقلون وسواحل الشام • أما Phoenix فى Lycia فقد قيل انهـــا كانت غنية فى شجر السرو Cypress الذى صنع منه الصـــوارى • ويروى نقفور ان المسلمين ذهبوا الى هناك لقطع هــذا الخشب ، كما يروى انهم بنوا أسطولا هناك • كذلك أمدت البندقية المسلمين بالخشب•

ويحتاج بنـــاء السـفن الى **المعـادن** لعمل المســامير والمراسى والروابط المختلفة ، وقد كانت سفن البحر المتوسط تصل بين ألواحها بالمسامير الحـديدية • وهناك اشارات مستمرة للمسامير فى مراســلات

Ali Fahmy : Muslim Sea Power in the East Medit. pp. 125:138,(١٦٤

وعبد الرحمن زكى : السلاح فى الاسلام ص ٢١ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٠ ، دكتور العدوى : الاساطيل العربية ص ١٥٣ : ٥ ، دكتور عطيه مشرفه : نظم الحكم فى عصر الفاطميين ص ١٨٢ : ٤ ، دكتور ماجد : نظم الفاطميين ص ٢٢١ : ٤ ، ٢٢٦ ـ ٧ •

البردى المتعلقة ببناء السفن فى أيام الخلافة الأولى ، فهناك أمر الى احدى قرى افروديتو (كوم أشقوه) بجمع خمسين litrae من الحديد الخام (غير النقى) هو صادر الى المدعو باسليوس الذى كان يشغل احد مراكز الادارة المحلية pagarchy لعمل مسامير لدار الصناعة فى بابليون . وهناك خطاب آخر يتعلق بكمية من الحديد قدمتها الحكومة لعمل مسامير السفن . ويلقى الخطابات ضوءا على صناعة الحديد فى ذلك الوقت . ويرى Thomlinson أن الحديد الخام ربما كان يستورد من أسبانيا أو البا فى عهد الحكم الاسلامى . ويذكر المقدسى مناجم للحديد فوق بيروت، كما يذكر اليعقوبى مناجم فى افريقية . وكانت هناك مناجم واسعة للحديد فى صقلية . وكانت طريقة عمل الحديد ـ كما يظن ـ أن تحفر فى الارض حفرة يوضع فيها مزيج الخام المعدنى مع الفحم النباتى الذى يسخن بعد ذلك فيخرج النتاج فى صورة كتل قابلة للطرق تقطع قطعا مناسبة . ويحتاج الحديد بعد ذلك لعمليات تنقية أثناء مراحل الصناعة. وهناك خطاب يتعلق بجمع المراسى anchors ، كما ذكرت السلاسل النحاسية فى أوراق البردى باعتبارها لازمة لتجهيز السفينة . وقد توفر النحاس من قديم فى قبرص التى سميت باسمه ، كما يذكر انه كان موجودا فى اسبانيا ، وكانت السلاسل تصنع كذلك من القصدير .

أما الحبال فكانت مصر مشهورة بحبال الليف من النخيل كما يذكر المقدسى . ويذكر ابن الفقيه نوعا خاصا من القنب فى مصر يلائم حبال السفينة جدا ، كما كان البردى يستخدم فى هذا الغرض وكان ينمو فى بالرمو كما يذكر ابن حوقل . وهناك بجانب ذلك معدات أخرى للسفن مثل الحشايا التى يبدو انها كانت تغطى مقاعد المجدفين . كما ذكرت الاغطية pads لتجهيز سفن القرابيز carabi وغيرها . ويبدو ان جوانب السفينة كانت تغطى أولا باللباد ، ثم تغطى بعد ذلك بجلود الثيران المخيطة على شكل غطاءات لوقاية السفن من الحريق عندما يرميها العدو بالنار . ويتكلم قسطنطين بورفير وجنيتوس عن جلد المعز المستخدم فى السفن البيزنطية باعتباره غطاء كثيفا للمظلات التى يستظل بها الجنود لحمايتهم من الشمس والسهام . ومن العمال المهرة الذين عرضت لهم البرديات كثيرا المقلفطون، وقد شرح قسطنطين كيف تقلفط الواح السفن فى نهايتها بخيط القطن المشمع ، كما تكلم عن وضع صفائح الرصاص لتغطى الجزء المغمور تحت الماء . وتذكر احدى البرديات الغزل الذى قد يكون احتيج اليه لحياكة قطع قماش القلاع معا . ويعطى قسطنطين معلومات مفيده عن القلاع

فيقرر انها تتكون من قطع منفصلة من قماش القلع تخاط معا بالطول المطلوب لكل طراز من السفن • فالسفينة الروسية قلعها ٣٠ ذراعا طولا ، والدماشية ٢٠ • وقد أشار الى حائكى القلاع والخيط الذى يستعملونه • ويذكر ابن خلدون بين أسباب احتياج صناعة النجارة استخدامها « فى انشاء المراكب ذات الألواح والدسر ، وهى اجرام هندسية صنعت على قالت الحوت واعتبار سبحه فى الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون لها فى مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التى للسمك تحريك الرياح ، وربما أعينت بحركة المقاذيف كما فى الأساطيل » (١٦٤) •

وكان من المعدات الحربية التى يزود بها المقاتلة المسلمون على السفن ما يماثل أسلحة مقاتلة البر مع التعديل المناسب • ومنها الزرد والخود والدرق والتروس والرماح والقسى التى تشد بواسطة اليد أو الرجل فاذا كان القتال فى البحر المالح فيكون خشب القوس أكثر من قرنه وتكون القوس طويلة السيات معتدلة الفروض فى حين تزود السفن **نفسا بالكلاليب ، والباسليقات** وهى سلاسل فى رؤوسها رمانة حديد ، **والعرادات** وهى أصغر من المنجنيق وتستخدم فى رمى الحجارة والسهام وقدور النفط • وكانوا يجعلون فى أعلى الصوارى صناديق مفتوحة من أعلى يسمونها التوابيت يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة فى مخلاه معلقه بجانب الصندوق فيرمون العدو بالأحجار وهم مستورون بالصناديق • وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط للاشتعال ، أو جرار النوره وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ يرمون بها فى مراكب الاعداء فتعمى الرجال بغبارها وقد تلتهب عليهم ، أو يرمون عليهم قدور الحيات أو العقارب أو قدور الصابون اللين ليزلق أقدامهم • وكانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب والنطرون لدفع أذى النفط • وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق أو الخطمى المعجون بالخل فان هذه المواد تقاوم فعل النفط •

أما **النار الاغريقية** فقد ذكر أحد كتاب الروم فى القرن ١٠م فكرة تركيبها : « اذا أخذت كبريتا نقيا مع حامض الطرطريك والصمغ الفارسى

---

(١٦٤) Ali Fahmy : Muslim Sea Power in the East Medit. pp. 75:85,
دكتور العدوى : الاساطيل العربية ص ١٥١ ــ ٢ ، ابن حوقل ، الاصطخرى : ص ٤٧ ، ابن خلدون : المقدمة فصل النجارة

والقار الخام والنترات ، ثم مزجت الخليط معا ، وغمست فى هذا الخليط نسيج الكتان ، ثم اشعلت فيه النار انتشر اللهب فى الحال • وتطفىء هذه النار الرمل فقط أو الخل » • وظهر نوع منها أشبه بالمفرقعات تحوى الوحدة منه رطلا من الكبريت المسحوق مع رطلين من الفحم البلدى أو ٦ أرطال من نترات البوتاس وملح البارود ، ثم يوضع المزيج فى غلافات طويلة ضيقة محكمة أشبه بالخرطوشة تغطى فتحتها بسلك حديدى ، وتشعل هذه الأنابيب وتقذف فى الهواء بالأنابيب فيسمع لها انفجار مدو يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف • وكانت النار التى زودت بها السفن الحربية عبارة عن أنابيب من النحاس تقذف من مقدمة المركب ، وتوضع فى مقدمات السفن تماثيل للأسود والوحوش تنبعث النار من أفواهها •ويحتمى رجال الأسطول من تأثير النار بدهن أجسامهم بالبلسان • ومن احتياط العرب فى الحرب إنهم اذا جن الليل لا يشعلون فى مراكبهم نارا ولا يتركون فيها ديكا ، واذا أرادوا المبالغة فى التخفى أسدلوا على المركب قلوعا زرقاء كى لا تظهر من بعد • وكانوا يجعلون فى مقادم المركب أداة كالفأس يسمونها اللجام : وهى جديدة طويلة محددة الرأس جدا ، وأسفلها مجوف كسنان الرمح ، تدخل من أسفلها فى خشبة كالقناة بارزة فى مقدم المركب يقال لها الاسطام فيحتالون فى طعن المراكب بهذا السلاح • كما كانوا يلقون الكلاليب على مراكب العدو اذا دنوا منها فيوقفونها ثم يشدونها اليهم ويرمون عليها الألواح كالجسر ويدخلون اليها ويقاتلون ، فاذا كان العدو قويا أبطل الكلاليب بقطعها بفاس ثقيل من فولاذ ، ومن الطريف أن يذكر وجود قفص حمام ضمن معدات أسطول صقلية ويبدو انه كان يستعمل فى حفظ الاتصال بين مختلف وحدات الأسطول أو بينها وبين القيادة • كما كان مركب أمير الأسطول يزود بفانوس لتهتدى به المراكب الأخرى •

ويوضح المسعودى انه كانت هناك رتب شتى للهيئة التى تعمل فى السفن البحرية فى البحر المتوسط ، وغالب هذه الهيئة من **النواتية ثم الرؤساء** ومن يعهد اليهم بقيادة السفن الحربية مثل ليو الطرابلسى • وكلمة نوتى واضح فيها الأصل اللاتينى واليونانى ويوضح المسعودى ان كلا من البحر المتوسط والبحار الشرقية له خبراؤه وبحارته (١٦٥) •

---

(١٦٥) حسن بن عبدالله.اثار الاول ص ١٩٥ ـ ٦ ، دكتور العدوى : الاساطيل العربية ص ١٦٢ : ٦ ، دكتور ماجد نظم الفاطميين ص ٢٢٦ ـ ٧ •

Ali Fahmy : Muslim Sea Power in the East Medt.pp.138-9.

وللبحترى قصيدة فى مدح أحمد بن دينار يصف فيها مركبا كان قد اتخذه أثناء ولايته البحر وغزا فيه بلاد الروم ، وقد عدت من عيون قصائده ، كما كانت فريدة فى بابها اذ وصفت السفينة ورجالها ومعداتها :

ولما تولى البحر والجو صنوه غدا البحر من أخلاقه بين أبحر
أضاف الى التدبير فضل شجاعة ولا عزم الا للشجاع المدبر
غدوت على الميمون صبحا وانما غدا المركب الميمون تحت المظفر
أطل بعطفيه ومر كأنما تشرف من هاوى حصان مشهر
اذا زمجر النوتى فوق علاته رأيت خطيبا فى ذؤابة منبر
يغضون دون الاشتيام عيونهم وقوف السماط للعظيم المؤمر
اذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له جناحا عقاب فى السماء مهجر
اذا ما انكفأ فى هبوة الماء خلته تلفع فى أثناء برد محبر
وحولك ركابون للهول عاقروا كئوس الردى من دارعين وحسر
تميل المنايا حيث مالت أكفهم اذا أصلتوا حد الحديد المذكر
اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع الا عن شواء مقتر
صدمت بهم صهب العثانين دونهم ضراب كايقاد اللظى المتسعر
يسوقون أسطولا كأن سفينة سحائب صيف من جهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم اذا اختلفت ترجيع عود مجرجر
تقارب من زحفيهم فكأنما تؤلف من أعناق وحش منفر
فما رمت حتى أجاف الحرب عن طلى مقطعة فيهم وهام مطير
على حين لا نقع يطرحه الصبا ولأرض تلفى للصريع المقطر(١٦٦)

فنون القتال البحرى :

عند البيزنطيين :

نصح ليو السادس بتكتيك بحرى يكاد يكون أكثر حذرا مما قدمه للجيوش البرية . فهو يرى من الواجب توقى الاستدراج للقتال الا اذا كان أسطول العدو فى مركز سيىء ، فالمناوشات الجزئية أكثر حكمة . واذا استدرج الاسطول الى معركة لم يكن فى وسعه تجنبها فان **تشكيل الهلال** الذى طالما عشقه الاغريق القدماء هو الاولى بالاتباع . ويجرى

(١٦٨) النويرى : نهاية الارب . السفر السادس ص ١٩٧ ـ ٨ .

ارسال **الاشارات** عن طريق الاعلام والاضواء ليلا ، وقد اهتم البيزنطيون **بفنون الاستطلاع والخطط والحركات البحرية ، وينبغي دراسة أمور الملاحة** جيدا بمعرفة الرياح والتيارات والمد والجزر والاوصاف الطبيعية للساحل والجزر وما ينبغي أن يتخذ ازاء الظروف المختلفة من احتياطات، وقد كان من الواجب تجنب السواحل الوعرة والافادة من عوامل الجو لتحطيم أسطول العدو لأن هذا هو أرخص نصر وأفضله • يبدو من صفحات كتاب ليو السادس انه لم يكن كبير الاهتمام بالعمليات البحرية ولا حسن التفهم لها ، ويبدو طابع الهواية فى معارفه أكثر جلاء فى الفصل الخاص بالبحرية ، فليس هناك تسجيل من خبير محترف لعمليات البحرية ونظرياتها فى بيزنطة • ولم تصل العلوم البحرية الى درجة من التقدم يتناسب مع الأهمية المنتظرة للأسطول فى الدفاع عن الامبراطورية على الرغم من بعض النتائج القليلة الرائعة التى حققها •

وقد صدق كيكومنوس Cecaumenus حين قال ان الأسطول هو مجد رومانيا ـ أى الدولة الرومانية كما كانت تسمى فى العصور المتأخرة ، غير ان الرومان تطلعوا فى أواخر أيام دولتهم الى مجدهم بغير حماس وخشوا مخاطر البحر وتحطم أكثر من أسطول بيزنطى بغير أيدى الأعداء ، وآثر البيزنطيون علما أكثر يقينا ، فانصرفوا الى الحرب البرية • وكان الجندى البرى يتقدم البحار دائما • (١٦٧) •

عند المسلمين :

تعلم المسلمون فنون الحروب البحرية منذ وقت مبكر ، فقد انتصروا فى معركة الصوارى وهم ما زالوا حديثى عهد بركوب البحر • وجرت المعركة على أسلوب شبيه بقتال البر وقد سبقهم الرومان فى ماضيهم الى ذلك ، ففى معركة الغربان corvi تجاه ميلا Mylae على الساحل الشمالى لصقلية سنة ٢٦٠ ق•م• كانت سفن الرومان التى حاربت أسطول قرطاجنه مجهزة بروافع cranes طويلة ذات أطراف معدنية مدببة تقذف فوق ظهور السفن المعادية فتنغرز فيها الأطراف المدببة فلا تستطيع السفن حراكا فينقض عليها الملاحون وشبهت هذه الروافع بالغربان لأنها كمنقار الغراب فى الشكل (١٦٨) • وكان مما حفز على هذا

---

(١٦٧) Runciman: Byz. Civ. p. 124, Byzantium p. 306.
بينز : الامبراطورية البيزنطية : ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٩٠ ـ ١ •

(١٦٨) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ـ ترجمة دكتور بكر ص ١٨٥ ـ ٦، دكتور العدوى : الاساطيل العربية ص ١٦٩ •

الأسلوب اعتماد الملاحة وقتذاك على الرياح وحرصها على اتخاذ الجانب الملائم بالنسبة اليها ، أدخل العرب تحسينات فى هذا الصدد اذ كان الروم يخشون الاقتراب من سفن الأساطيل العربية ويجتهدون فى تفريقها • وباستقرار العرب على شواطىء البحر المتوسط ازدادوا اقداما على ركوب لبحر ودراية بأساليب القتال فيه ، وفى هذا يقول بن خلدون : « فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ـ استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا الى الجهاد فيه ، وانشأوا السفن فيه والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته ـ مثل : الشام وافريقية والمغرب والأندلس • وأوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ، ومنها كان فتح صقلية •• وفتح قوصره •• وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر الى مائتى مركب أو نحوها •• وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد يتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره الى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ، ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاديف وأمر ارسائه فى مرفئه • فاذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل أو غرض سلطانى مهم ، عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وأنجاد عساكره ومواليه ، وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه ، ثم يسرحهم لوجههم وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة •• والمسلمون قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبه ، والعساكر الاسلامية تجيز البحر فى الأساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتثخن فى ممالكهم • وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالى منه من سواحل الافرنجه والصقالبة وجزائر الرومانية لايعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليها ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت فى طرقه سلما وحربا •• » (١٦٩) •

---

(١٦٩) ابن خلدون : المقدمة ـ طبعة دكتور وافى ج ٢ ص ٦٢٨ : ٦٣٠

وكانت المعارك البحرية نادرة الوقوع فى عرض البحر ، وانما كانت تجرى بين الطرفين **قرب الموانى والجزر** ، وغدا البحر المتوسط فى القرن العاشر الميلادى ميدانا اصطدمت فيه سفن المسلمين بالبيزنطيين. ووصف الاصطخرى الحالة وقتذاك « وليس فى البحار أحسن حاشية من هذا البحر فان العمارات فى الجانبين ممتدة غير متقطعة .. وتتردد فيه سفن المسلمين والروم . يعبر كل فريق منهم الى جانب الآخر فيغنمون ، وربما اجتمعت فيه الجيوش من المسلمين والروم فى السفن فيجتمع لكل فريق مائة سفينة حربية وأكثر من ذلك فيكون حربهم فى المساء ، وهذه صفة هذا البحر وما يكون فيه » . (١٧٠) وكان الأسطول يودع حين رحيله ، ويحاول الأمير التخفى عند المسير حتى يفاجىء عدوه أو يختار مواقعه . وتخصص سفن للاستطلاع ، وتنقل الرسائل بالسفن الخفيفة السريعة أو بالاشارة أو بالحمام أحيانا . وقد جهز المسلمون موانيهم بوسائل الدفاع والمراقبة ، ووصف المقدسى عمل المناور انذارا بقدوم العدو . وكانت الرسائل تصل من الاسكندرية الى سبته فى ليلة واحدة ومن طرابلس الى الاسكندرية فى ٣ أو ٤ ساعات (١٧١) . **وكانت تعبئة الأساطيل** قلب وجناحين ومقدمه وساقه أشبه بالجيش البرى ، أو يجرى اصطفاف السفن على شكل نصف دائرة فاذا اقترب منها العدو أحاطت به وحطمته ، وأحيانا تقف صفوفا مستقيمة لتنطح مراكب العدو باللجام وتغرقها (١٧٢) . **قال الحسن** ابن عبد الله فى آثار الأول : « ان القتال فى البحر شديد صعب عسر لامور : منها ان المجال ضيق ولا تكاد السهام والاحجار تخطىء ، ومنها اختلاف الرياح بما يضر أو سكونها عند الحاجة اليها ، ومنها أنه لا يمكن فيه الهرب ولا الفرار ولا الاستتار . قال جاماسب : ان الشطرنج وضع لتمثيل حرب البر والنرد وضع لتمثيل حرب البحر ، فان صاحب النرد وان وضع المهارك فى المواضع الجيدة واحترز فاذا جاءت الفصوص بما لا يوافق الغرض لم ينتفع باحترازه وبطل عليه تدبيره ـ كاختلاف الريح واضطراب البحر .. وبالجملة يجب على والى البحر ان يستجيد المراكب

---

(١٧٠) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٥١ .

(١٧١) المقدسى : احسن التقاسم ص ١٧٧ ، متز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ ترجمة ابى ريده حـ ٢ ص ٣١٠ ، دكتور سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية ص ١٥٩ .

(١٧٢) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطيه والدولة الاسلامية ص ١٥٧ ، الاساطيل العربية ص ١٦٧ ـ ٨ .

ويستحذها ويكثر تقويتها وادخار آلاتها حتى اذا تلف شيء من ذلك وجد ما يخلفه ، ويحتاط في تقييدها واحكام ما يلاقى فى الماء منها فانه الاصل الذى يعول عليه ٠ ويتخير القواد والرؤساء العارفين بمسالك البحر ومراســيه وعلامات الرياح وتغيرات الانواء والحركات البحرية من المد والجزر وغيره ٠٠ ويحترس من هجوم العدو عليه فى الليل فلا يتخذ فى المراكب نارا ولا يشعل مصباحا ولا يترك فيه ديكا ، وان اشتد الخوف عليه وأراد الاختفاء فليجدد له قلوعا زرقا كي لا تظهر من بعد ٠ وينبغى الا يهجم على المراسى لئلا تكون مراكب العدو بها كامنة ، ولا يتقدم الى البر الا بعد المعرفة به والاحتراز من الاحجار والشعاب والاحارس التى تنكسر عليها المراكب ، ويكثر من الماء والزاد ليستظهر على طول المدة اذا دعت الحاجة اليه كادخار أصحاب الحصون ٠ وان كان القتال يقرب البر والسواحل والجزائر فليجعل عيونه وطلائعه على الجبال فيتأهب لذلك ، ويفعل مقدم المركب من تاليف أصحابه ووعدهم واستمالتهم وتحريضهم قبل الحرب كما يفعل والى البر وأبلغ من ذلك لأن هذا لا منجى منه ولا مخلص الا بصدق القتال ـ اما كاسر أو مكســـور ٠ والمراكب الكبار ان سكن الريح عنها جذبتها الشواني الى موضع القتال ، والمراكب الصغار والشواني لا ينبغى أن تأتى خلف البطس والمسطحات فانها تغرق فى واديها ، واما من جانبها فلا يمكنها الالتصاق بها بل تقابلها عن بعد وتنطحها بالقياس الذى يقام له اللجام ٠٠ واذا أمكنهم الفرصة تأخروا به قليلا ثم قذفوا قذفة واحدة قوية فينطح المركب فيغرقه ويدخل الماء فيــه فيطلبون الأمان واذا تقرب الشينى من الشينى طرحت فيه كلاليب كبار من الحديد فيها ســـلاسل معقودة الى المركب فتوقفه ، ثم يطرح الألواح بينهما كالجسر ويدخلون اليه ويقـــاتلون ٠ وليس فى حرب البحر شيء أصعب من النفط بسبب الزفت والقير الذى يطلى به المركب ، فيحتـــاط لدفع ذلك باللبود المبلولة بالخل والشب والنطرون ، ومما يدفعه الطين المخلوط بالبورق والنطرون والخطمى المعجون بالخل ٠٠ والأصل فى قتال البحر معرفة الرياح حتى يتقدم خصمه أو يعلو عليه فوق مهب الريح ٠ وأما القول فى الخلجان والأنهار الصـــغار فهو دون هذا وهو قريب من قتال البر ٠٠ وانما يصعب فيه السلوك فى الدحال والمضايق ويكون العدو على البر فيجذب بالكلاليب والخطاطيف ويرمى بالسهام والحجارة ـ فأما الكلاب فيضرب بفاس صغير فولاذ يقطعه ، وأما الدحال والآجام فلا

سبيل الى دخولها الا بدليل من أهلها ويتوقى المواحل التى فيها والمضايق ويقصد الأطراف » . (١٧٣)

وقد أورد قدامه نسخه **عهد صادر من الخلافة الى أحد الامراء بولايه الثغر ببحره ومراكبه** ، وقد استهله الخليفة كالعادة موصـيا أمير البحر بتقوى الله « وأمره أن يكون الاذن عليه لمن معه من الجند مبذولا والوصول اليه من ذوى الحاجات والظلامات سهلا يسيرا ، وأمره أن يستعمل على شرطته من يرضى عقله وعفافه ويثق بجزالته وصرامته وشدته على أهـل الريب والدعارة . وأمره أن يديم عرض جنده حتى يعلم علمهم ويطلع على حقيقة أمرهم ويلزم مراكبهم وأمره أن يشرف على مراقبه ومحارسه حتى يحكم أمر المرتبين فيها ويدر عليهم أرزاقهم ولا يتأخر عنهم شىء منها . وأمره أن يتفقد أمر المراكب المنشأة حتى يحكمهـا ويجود آلاتها ويتخير الصناع لها ، ويشرف على ما كان منها فى الموانى ويرفعهـا من البحر الى الشاطىء فى المشاتى وهيج الرياح المانعة من الركوب فيها ـ وأمره أن يكون نواشيره وعيونه الذين يبعث بهم ليعرف أخبار عدوهم من ذوى الصدق والدين والأمـانة والخبرة بالبحر وموانيـه وداخلاته ومخابيه حتى لا يأتوا الا بالصادق من الخبر والصحيح من الأثر . وان رهقهم من مراكب العدو مالا قوام لهم به انحازوا الى المواضـع التى يعرفونهـا ويعملون للنجاة بالانحياز اليها . وأمره الا يدخل فى الناطين والنواتية والقذافين ولا فى غيرهم من ذوى الصناعات والمهن فى المراكب الا من كان طبا ماهرا حاذقا صـبورا معالجا . وان يكون من يحمله معه فى المراكب أفاضل الجند وخيار الأولياء ، أصدق نية واحتسابا وجرأة على العدو وارتكابا . وأمره أن ينظر فى صناعة المراكب نظرا يستكشف به آلاتها من الخشب والحديد والمشاقة والزفت وغيره حتى يحكمها ويجيد بناء المراكب وتأليفها وقلفطتها وتركيبها ، ويستجيد المقاذيف ويتخيرها وينتقى الصوارى والقلوع وينتخبها . ويميز النواتية ويعتمد من له الحذق والدربة منهم والحنكة والتجربة من جميعهم حتى لا يدخل فيهم من لا يصلح دخوله ولا يخلط بهم من يكون غيره أحق بالعمل منه . وأمره أن يحترس من أن ينفذ العدو حيلة فى اجتناء الأسلحة أو شىء من أدوات الحرب والمكيدة من أرض الاسلام ، أو أن يطلق لأحد من التجار حمل شىء اليهم أو اقامة الطريق الى بلدهم . ومن وجده قد أقدم على هذا وما جانسه من الناس جميعا عاقبه عقوبة موجعه وجعله نكالا وعظة . وأمره أن يضم

---

(١٧٣) الحسن بن عبد الله : اثارة الاول ص ١٩٥ : ٨

المراكب فى الموانى التى ترسى فيها ويولى مراعاتها من يثق بنصيحته وشهادته حتى لا يخرج منه مركب الا بعلمه ، ويشرف عليها فى كثير من الأوقات حتى تكون على هيئتها مجلوة مسنونة مقومه موضونه متعاهدة مصونة الى وقت الحاجة اليها والعمل بها ، يشرف على ما فيها من النقط والبلسان والحبال وغيرها من سائر الآلات حتى يحتاط فى ظروفها وأوعيتها ويأمن الفساد والتغيير عليها . وأمره بشدة الحذر من جواسيس العدو وعيونه ، وان يوكل لكل مدينة من يعلم حالها ، ولا يطلق لأحد من البوابين والحرس أن يدخلها الا من يعلمون حاله وسبيل مدخله وصورته ومغزاه وارادته - هذا عهد أمير المؤمنين اليك وأمره اياك ، فافهم واعمل بما حده ورسمه وكن عند حسن ظنه بك في جميعه ، وهو يسأل توفيقك وارشادك الى ما فيه الخيرة في جميع ما أسنده اليك واعتمد فيه عليك » . (١٧٤)

(١٧٤) قدامه : كتاب الخراج وصنعة الكتابة - مخطوط مكتبة استانبول . نقلا عن دكتور حميد الله .
Hamidullah : Muslim Conduct of State. pp. 319:321.

رابعا : الاتصالات الدبلوماسية

عند البيزنطيين :

على الرغم من أن الدول تهتم كل الاهتمام بتنظيم جيوشها وأساطيلها الا انها مع ذلك لا تغفل جانبا هاما من النشاط السياسي يترتب على العناية به الاقتصاد في القوات العسكرية • فالنشاط الدبلوماسي يصطنع الأصدقاء ويبذر الشقاق بين الاعداء فيتحقق توازن القوى ويحجز العدو المتربص عن المخاطرة بالعدوان • والمعلومات المتوفرة عن تنظيم الدبلوماسية البيزنطية قليلة • وقد كانت الشئون الخارجية من اختصاص الوزير المسمى Logothete of the Course وكان هذا الوزير يتولى استقبال السفراء الاجانب وايفاد السفراء البيزنطيين واختيارهم • لكن بعض الشئون الدبلوماسية كان يعهد بها الى السلطات المحلية فكان قائد خرسون فى القرم Strategus of Cherson in Crimea ينظم ارسال البعثات الى شعوت الاستبس ، وقد اعتبر قسطنطين السابع خرسون قاعدة ملائمة للنشاط الدبلوماسي فى تلك الارجاء • وفى ايطاليا كان القائد المحلى يتصل بالعرب ، وان كانت السفارات الكبرى الى القصور الايطالية تعد فى القسطنطينية • وفى أواسط القرن ١٠ م كان أسقف اترنتو Archbishop of Otranto المسمى Vlattus هو الذى رحل الى المهدية ليفتدى الأسرى النصارى • ولم يكن هناك جهاز دبلوماسي دائم بالمعنى العصرى بل كان كل مبشر أو تاجر يرحل الى الخارج يحصل على معلومات نافعة للدولة عن الجهات التى ذهب اليها ، خاصة الاشخاص الموالين الذين يحسن امدادهم بالهدايا مع تحديد أنواع تلك الهدايا • فلم يكن هناك سفراء دائمون لبيزنطة فى أى بلد أجنبى ، غير ان قائد خرسون كانت لديه هيئة من المبعوثين قد جمعت أطراف المعلومات عن الشئون السياسية لشعوب الاستبس ، وكانت التقارير الواردة عن

الموارد والاحوال الداخلية للمالك البربرية المجاورة توجه السياسة البيزنطية ، فنرى الخزر يحاربون فى معارك هرقل ضد الفرس ، وقد وقفوا فى وجه البشناق فيما بعد ، وقد واصل البيزنطيون امدادهم عن طريق خرسون بل ابتنوا لهم ثغر ساركل الحربى على بحر آزوف • وهكذا حرص الروم على حفظ توازن القوى حولهم من كل جانب • وفى عهد ليو السادس ارسل Magister Leo Choerosphacta سفيرا الى بغداد ثم الى بلاط ملك البلغار • كما أوفدت بيزنطة مبعوثها الى المسلمين لمباشرة تبادل الأسرى على الحدود ، ولعل منهم من كان يعرف العربية •

والطابع الظاهر للدبلوماسية البيزنطية هو الشكلية الجامدة التى وضعت للمبالغة فى تقرير العظمة الامبراطورية فى الأذهان ، فكان السفير الأجنبى لا يكاد يصل القسطنطينية حتى يحاصر بقواعد صارمة للبروتوكول حتى لا يقابل غير المختصين • وعندما يؤذن له بالدخول الى الحضرة الامبراطورية ، كان يجرى استقباله وفق مراسم خاصة حسب مركزه فى بلاده ، وفى خلال المقابلة الأولى يظل الامبراطور ساكنا كأنه اله معبود • وكان على المبعوث ان يسجد امام الامبراطور ، وبعد ذلك يبدأ اتصاله بالامبراطور فى وليمة سياسية أو مقابلة شخصية • ونجد فى (المراسم) De Cermoniis لقسطنطين بوفيروجينتوس وصفا دقيقا لدور كل طبقة من الهيئة الحاكمة بالامبراطورية فى سلسلة الاستقبالات والاحتفالات التى كانت تكون (السنة المسيحية) البيزنطية : فهو يذكر بالتفصيل الملابس والحركات ومواضعها وأوقاتها والتعبيرات الرسمية التى صارت مقدسة بمرور الزمن • وعندما كان زعيم بربرى من أحد السهول أو الصحارى يصل الى البلاط البيزنطى فانه ينزل فى ضيافة القصر ويعد له برنامج لمشاهدة عجائب العاصمة فى رعاية موظفى الامبراطور ، وحين يتشرف بالمثول بين يدى الامبراطور كان عليه أن يمر فى متاهة من الدهاليز الرخامية ونقوش الفسيفساء والأردية الذهبية والحرس الامبراطورى • فاذا ما وصل أخيرا الى الامبراطور وجده محفوفا بهالة من النبلاء والاساقفة والقادة وأعضاء مجلس الشيوخ ، ويعزف أرغن الكنيسة تصاحبه فرق المغنيين والخصيان ثم يسجد مأخوذا من هذه الفخامة التى لا تنتهى • وهو فى طوافه فى أرجاء القصر الامبراطورى يسمع زئير الأسود الذهبية وتغريد الاطيار الصناعية ، فاذا شرد ذهنه فى ذلك لم يكد يستطيع الاجابة على أسئلة رئيس الديوان المتكلم باسم الامبراطور • وهكذا يكسبه الامبراطور الى جانبه ليحارب من أجل

الامبراطورية والمسيح ، ثم تغدق عليه الامتيازات والهبات والهدايا متى وعد بالدفاع عن الحدود وربما منح مركزا رسميا فى الحكومة فيصبح نبيلا أو وزيرا أو قائدا فى الجيش ، وربما حالفه الحظ فيوعد بتزويجه من أميرة بيزنطيـة ، كما فعل هـرقل مع زعيم الخـزر فيعتنق المسيحية ويقوم الامبراطور نفسـه بدور الاشبين عند الحوض المقـدس ، وينتدب أحد الاساقفة للاشراف على مصالح الروم فى بلاده ، وعند ثورة شعبه عليه يسمح له بالالتجاء للامبراطورية وقد يعاد لمركزه بحراب الرومان. وقد يطاف ببعض المبعوثين الاجانب على كنوز القصر أو مواضع الآثار ويتاح لهم شهود الألعاب ولكن المبعـوث الاجنبى معـرض طوال مدة اقامته فى الأراضى البيزنطية للمراقبة الدقيقة ، اذ ينبغى له ان يعود الى وطنه وهو لا يعلم عن بيزنطه الا ما أرادت له الحكومة الامبراطورية ان يعلم . فاذا ما كان شيء من سلوكه أو حديثه يقل عن التوقير الواجب ألقى المبعوث فى السجن فورا ، فليس هنـاك أى امتيـاز دبلوماسى للأشخاص الذين ينالون من العظمة الامبراطورية / وكان المبعوثون البيزنطيون يرحلون الى الخارج فى موكب فاخر محملين بالهـدايا التى منها الجـواهر والذهب والحرير والديباج توجه الى الملك الاجنبى ورجاله ذوى النفوذ . وكانت على المخابرات الامبراطورية ان تعرف الشخصيات التى ينبغى على بيزنطة ان تواليها ، وحين أوفد نيقفور أورانس Nicephorus Uranus الى بغداد سنة ٧٨٠م ١٦٤هـ ، أخبر بأن يتودد بصفة خاصة الى عضد الدولة أهم رجال الخليفـة على الاطلاق . وخلف هذه القشرة من بهاء الدبلوماسـية البيزنطية يكمن الدهاء وبعد النظر بل والالتواء/. فقد رعيت الالتزامات الواردة فى نصوص المعاهدات بدقة ، ولكن البيزنطيون لم يروا بأسا فى اغراء قبيلة أجنبية ضد قبيلة أخرى مجاورة ولو كانت على وفاق معهم . وهكذا نجد ليو السادس البالغ من الورع مبلغا حجزه عن ان يقاتل البلغار اخوانه فى المسيحية بشخصه ــ نجده لا يتردد فى تقديم المعونة المالية الى المجـريين الوثنيين لينقضوا على مؤخرة البلغار . وبالمثل أغـرى نيقفور فوكاس الروس بالبلغار .

وكان للزواج دوره الـكبير فى الدبلوماسـية البيزنطية ، حتى ان الاباطرة كانوا هم أيضا يتزوجون من أجنبيات . وجلست أميرات الخزر على العرش الامبراطورى ، ومنهن زوجتـا جستنيان الثـانى وقسطنطين الخامس . وكان للدين أثره فى الدبلوماسية الامبراطورية ، وان لم يمكن التحكم دائما فى مطامع من تحول الى المسيحية من الدول المجاورة . وقد كانت الدبلوماسـية البيزنطية باهظة التـكاليف بمـا تتطلبه من هدايا

واعانات ومهور بكميات طائلة • وكان الحصار الاقتصادى الذى يضرب أحيانا على العرب يؤثر على الامبراطورية أيضا • ورغبت الامبراطورية فى أن تدفع لاعدائها بدلا من أن تغزو ديارهم ، ومن هنـــا كان الامراء غير الشرعيين فى الخارج عملاء ذوى رواتب وهؤلاء يفضلون دخـــلا ثابتا من الذهب البيزنطى على غارة غير مضمونة العواقب • وكانت بيزنطية تقبل دفع مال سنوى الى بغـــداد اذا كانت لا ترغب فى الحرب ، وربما سمى الخليفة هذا المال جزيه ، بينما كان املار عند الامبراطور مجرد انتفـــاع حكيم (١٧٥) •

عند المسلمين :

وكان على المسلمين بدورهم أن يباشروا هذه الاتصالات الدولية مع القـوى السياســـية الكبرى فى عصرهم • ومن أقرب هذه الدول اليهم جيرانهم البيزنطيون • ولم تكن علاقات الفريقين حروبا متصلة الحلقات ، بل ان هذه الحروب نفسها كانت تستلزم اتصالات تتعلق بشئون الحرب من محاولة انهاء حرب أو الابقاء على فترات السلم أو تبـادل الاسرى • ويمكن تمييز ألوان ثلاثة فى الاتصالات الاسلامية البيزنطية : **المراسلات المكتوبة ، والسفارات الشخصية ، وبعثات فداء الاسرى •**

المراسلات المكتوبة :

من أقدم المراسلات المكتوبة بين المسلمين والبيزنطيين مارواه الطبرى فى أخبار فتح الجزيرة سنة ١٧ هـ ٦٣٨م اذ ارتحلت اياد بن نزار فاقتحموا أرض الروم على أثر الفتح الاســلامى ، فكتب بذلك الوليد بن عقبــه الى عمر بن الخطاب فكتب هذا الى ملك الروم : « انه بلغنى ان حيا من احياء العرب تلك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتخرجنه ، أو لننبذن الى النصارى ثم لنخرجنهم اليك » فخرجوا فتم منهم على الخروج أربعــة آلاف وخنس بقيتهم فتفرقوا فيما يلى الشام والجزيرة من بلاد الروم (١٧٦) •

وكان إتصال معاوية بالروم حين ولايته الشام أمرا طبيعيا ، وعلى ذلك تعددت انباء الاتصالات بينه وبين الروم • فقد روى ان الروم حاولوا أن يتصلوا به أثناء قتاله مع علي فأبى ، على انه قد اضطر فى أثناء حكمه أن

(١٧٥) Runciman : Byz. Civ. pp. 124:9, Byzantium. pp. 306-7.
بينز : الامبراطورية البيزنطية • ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٩٠ : ٤ •

(١٧٦) الطبرى حـ ٤ ص ١٩٧ ـ ٨ رواية السرى عن شعيب عن سيف •

يصالحهم على مال « وارتهن معاوية منهم رهنا ، فوضعهم ببعلبك ، ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل ما فى أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر ٠٠ وهو قول العلماء ـ الاوزاعي وغيره » ٠ كذلك اضطر عبد الملك بن مروان الى مهادنة الروم أيضا « فاضطر عبد الملك الى ان صالحهم على ألف دينار فى كل جمعه ، وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه لشغله عن محاربته وتخوفه أن يخرج الى الشام فيغلب عليه ، واقتدى فى صلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق فانه صالحهم على أن يؤدى اليهم مالا وارتهن منهم رهنا ، وضعهم بعلبك (١٧٧) » ٠ وقد روى ان ملك الروم رفض غزو العرب حين اشتغل عبد الملك بن مروان بحرب مصعب « ودعا بكلبين فأرش بينهما فاقتتلا قتالا شديدا ، ثم دعا بثعلب فخلاه بينهما فلما رأى الكلبان الثعلب تركا ما كانا فيه وأقبلا على الثعلب حتى قتلاه (١٧٨) » ٠

على ان هناك مكاتبات بين المسلمين والروم فى غير الشئون الحربية ، وكتب الادب العربى تروى **مراسلات تدور حول الجدل الدينى** ٠ روى ابن عباس : كتب قيصر الى معاوية : سلام عليك ـ أما بعد ، فانبئنى بأحب كلمة الى الله وثانية وثالثة ورابعة وخامسة ، ومن أكرم عباده اليه وأكرم امائه ، وعن أربعة أشياء فيهن الروح لم يرتكضن فى رحم ، وعن قبر يسير بصاحبه ٠٠ الخ ٠ فأرسل الي يسألنى ٠ وحين كتب عبد الملك على القراطيس (قل هو الله أحد) وذكر النبى وكانت تصدر من بلاد العرب الى بلاد الروم كتب اليه ملك الروم « انكم قد أحدثتم فى طواميركم شيئا من ذكر نبيكم نكرهه ، فانه عنه والا أتاكم فى دنانيرنا من ذكره ماتكرهون» ٠ فكان هذا دافعا لعبد الملك لضرب الدنانير ٠ ولما هدم الوليد بن عبد الملك كنيسة دمشق كتب اليه ملك الروم : « انك قد هدمت الكنيسة التى رأى أبوك تركها ، فان كان حقا فقد أخطأ أبوك ، وان كان باطلا فقد أخلفته» ٠ فكتب اليه الوليد (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث ٠٠ ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما) ٠ (١٧٩) ٠ والعجيب ان الوليد الذى هدم كنيسة دمشق فأثار بفعله سخط ملك الروم قد كتب الى ملك الروم سنة ٨٨ هـ / ٧٠٧ م « يعلمه انه أمر بعمارة مسجد رسول الله وأنه يعينه فيه ، فبعث اليه بمائة ألف مثقال ذهب وبعث اليه بمائة عامل

---

(١٧٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٥ ـ ٦ ، ١٦٧ ، الطبرى جـ ٧ ص ٦٨١

(١٧٨) ابن قتيبه : عيون الاخبار م ١ ص ١١٦ ٠

(١٧٩) ابن قتيبه : عيون الاخبار م ١ ص ١٩٨ : ٢٠٠

وبعث اليه من الفسيفساء بأربعين حملا ، وأمر أن تتتبع الفسيفساء فى المدائن التى خربت فبعث بها الىالوليد» (١٨٠) ٠ بل تروى بعض الروايات ان الوليد طلب معونة ملك ـ الروم على بنساء مسجد دمشق الذى هدم لأجل توسيعه كنيسة « فكتب الى الطاغية أن وجه الى مائتى صانع من صناع الروم فانى أريد أن أبنى مسجدا وان لم تفعل غزوتك بالجيوش وخربت الكنائس وفعلت ٠ فكتب اليه ـ مشيرا الى هدم الكنيسة ـ : لئن كان أبوك فهمها فأغفل عنها انها لوصمة عليه ، ولئن كنت فهمتها وغيبت عن ابيك انها لوصمة عليك ، وأنا موجه اليك ماسألت ٠ فأراد أن يعمل لها جوابا ٠٠ فقال الفرزدق : أنا أجيبه » (١٨١) ٠

وكانت **المعاهدات** من صور الكتابات الدبلوماسية بين المسلمين والبيزنطيين ، فعلى أثر غزو هارون فى عهد المهدى سنة ١٦٥ هـ/٧٨١ م بلاد الروم وبلوغه خليج البحر جرت بينه وبين اغسطه ـ وهي ريني امرأة اليون ـ وذلك ان ابنها كان صغيرا قد هلك أبوه وهو فى حجرها ـ الرسل والسفراء فى طلب الصلح والموادعة واعطاء الفدية ٠ فقبل ذلك منها هارون ، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له ، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق فى طريقه ـ وذلك انه دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين فاجابته الى ماسأل ٠ والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها : تسعون أو سبعون ألف دينار فى نيسان الاول فى كل سنة وفى حزيران ٠ فقبل ذلك منها فأقامت له الاسواق فى منصرفه ، ووجهت معه رسولا الى المهدى بما بذلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعرض ٠ وكتبوا كتاب الهدنة الى ثلاث سنين وسلمت الاسارى ٠٠ » وقد رعيت هذه الهدنة فى السنة التالية سنة ١٦٦ هـ / ٧٨٢ م « وقدمت الروم بالجزية معهم وذلك فيما قيل أربعة وستون ألف دينار عدد الرومية وألفان وخمسمائة دينار عربية وثلاثون ألف رطل مرعزى ٠٠ ولم يكن فى هذه السنة صائفة للهدنة التى كانوا فيها » ٠٠ واستمر الحال كذلك سنة ١٦٧ هـ/٧٨٣ م ثم نقض الروم الصلح سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م « فكان بين أول الصلح وغدر الروم ونكثهم به اثنان وثلاثون شهرا » (١٨٢) وتولى الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م ، وقد كتب اليه نقفوز اثر توليه عرش بيزنطة كتابه المشهور سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م « من نقفور ملك الروم الى هارون

---

(١٨٠) الطبرى حـ ٨ ص ٦٥ ٠

(١٨١) العمرى : مسالك الابصار حـ ١ ص ١٨٣ ٠

(١٨٢) الطبرى : جـ ١٠ ص ٢ ، ٨ ، ٩ ، ١٠

ملك العرب : أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقـــام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من أمـوالها ما كنت حقيقا بحمل أمثالها اليها لكن ذلك ضعف النساء ـ وحمقهن ، فاذا قرأت كتابى فاردد ماحصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقـع به المصادرة لك والا فالسيف بيننا وبينك »/٠ والكتاب على حد تعبير بيورى Bury هو اعلان حرب ان صـــحت صيغته هذه ، « فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحدا أن ينظر اليه دون أن يخاطبه ، وتفرق جلساؤه خوفا من زيادة قول أو فعل يكون منهم ، واستعجم الرأى على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبد برأيه دونه ٠ فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ـ من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم : قد قرأت كتابك يا ابن الكافره ، والجواب ماتراه دون أن تسمعه ، والسلام ٠ ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقله ، ففتـــح وغنم واصـــطفى وأقاد ، وخرب وحرق واصـــطلم ، فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه فى كل سنة فأجابه الى ذلك ٠ فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد ٠٠ وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعته اليه ٠٠ فاحتيل للرشيد بشاعر من أهل جنـــده يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف ويقال هو الحجاج بن يوسف التميمى فقال :

نقض الذى اعطيته نقفور وعليه دائرة البوار تدور

فكر الرشيد ـ راجعا فى أشد محنة وأغلظ كلفه حتى أناخ بفنائه ، فلم يبرح حتى رضى » ٠

على ان هذه اللهجة الملتهبة فى الخطابات الدبلوماسية لم تكن دائما هى السائدة ، فلم تكد تمضى سنوات معدودات حتى فتح الرشيد هرقله سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م « وبعث نقفور الى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار ، منها عن رأسه أربعة دنانير ، وعن رأس ابنه استبراق دينـــارين ٠ وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته فى جارية من سبى هرقلة كتابا نسخته : لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم ، ســـلام عليك ـ أما بعد أيها الملك ، ان لى حاجة لا تضرك فى دينك ولا دنياك هينة يسيرة ، أن تهب لابنى جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابنى ، فان رأيت أن تسعفنى بحاجتى فعلت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ـ واستهداه أيضا طيبا وسرادقا من سرادقاته ٠ فأمر الرشـــيد بطلب الجارية ، فأحضرت وزينت وأجلست على سرير من مضربه الذى كان

نازلا فيه ، وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع الى رسول نقفور ، وبعث اليه بما سأل من العطر - وبعث اليه من التيمور والاخبصة والترياق والزبيب - فسلم ذلك كله اليه رسول الرشيد • فأعطاه نقفور وقر دراهم اسلامية على برذون كميت كان مبلغها خمسين ألف درهم ومائة ثوب من ديباج ومائتى ثوب يزيون واثنى عشر بازيا وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين • وكان نقفور اشترط ألا يخرب ذا الكلاع ولا صمله ولا حصن سنان ، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقله وعلى أن يحمل نقفور ثلثمائة ألف دينار (١٨٣) •

والمسلمون قد أسموا مايقتضونه من أموال الروم تطبيقا لنصوص مثل هذه المعاهدات جزية • والواقع أن لها وضعها القانونى الخاص ، لأنها لا تعبر عن تبعية بالصورة التى تعنيها الجزيه ولا يفقد الروم معها شخصيتهم السياسية الدولية ليصيروا أهل ذمة للمسلمين ، كما أن الدولة الاسلامية لا تتولى ادارة شئونهم أو حمايتهم من أعدائهم بل تبقى للدولة البيزنطية سيادتها الداخلية والخارجية كاملة • ويؤثر الدكتور حميد الله أن يسمى دولة الروم - أو قبرص - بالنسبة لمثل هذه الاتفاقات دوله تابعة مستقلة Tributary independant State (١٨٤)

ولم يكن المأمون أقل حرصا على كرامة الخلافة الاسلامية ولا أزهد فى جهاد الروم فقد غزا ديارهم فى السنوات المتتابعة ٢١٥ هـ ، ٢١٦ هـ ، ٢١٧ هـ وتوفى بالمبدندون سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٠ : ٣ م) • وقد كتب اليه تيوفيل بن ميشيل سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م « فبدأ بنفسه ، فلما ورد الكتاب اليه لم يقرأه وخرج الى أرض الروم فوافاه رسل توفين بن ميخائيل باذنه ، ووجه بخمسمائة رجل من أسارى المسلمين اليه ، فلما دخل المأمون أرض الروم ونزل أنطيغوا فخرج أهلها على صلح ، وصار الى هرقلة ••• » • ويذكر الطبرى فى أخبار السنة التالية ٢١٧ هـ/٨٣٢ م أن الفصل وزير توفيل قدم بطلب الصلح وعرض الفدية «وكانت نسخة كتاب توفيل الى المأمون : أما بعد - فان اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما فى الرأى مما عاد بالضر عليهما ، ولست حريا أن تدع لحظ يصل الى غيرك حظا تحوزه الى نفسك ، وفى علمك كاف عن اخبارك • وقد كنت كتبت اليك داعيا الى المسالمة راغبا فى فضيلة المهادنة لتضع أوزار

---

(١٨٣) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٧ ، جـ ١٠ ص ٧٠ ، ٩٢ - ٣ ، ٩٩
Bury : Hist. of East Rom. Emp. pp. 249-250.
(١٨٤) Hamidullah : The Muslim Conduct of State. p. 99

الحرب عنا، ونكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا ـ مع اتصال المرافق والفسح والمتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضه . فان أبيت فلا أدب لك فى الخمر ولا أزخرف لك فى القول ، فانى لخائض اليك غمارها آخر عليك اسدادها شأن خيلها ورجالها ، وان افعل فبعد أن قدمت المعذرة وأقمت بينى وبينك علم الحجة والسلام » . فكتب اليه المأمون :

« أما بعد ـ فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت اليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الاسارى ورفع القتل والقتال . فلولا ما رجعت اليه من اعمال التؤدة والاخذ بالحظ فى تقليب الفكرة والا اعتقد الرأى فى مستقبله الا فى استصلاح ما أوثره فى معتقبه ، لجعلت جواب ـ كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون الى الله بدمائكم ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثم أوصل اليهم من الامداد وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد ، هم أظمأ الى موارد المنايا منكم الى السلامة من مخوف معرتهم عليكم ، موعدهم احدى الحسنيين عاجل غلبة أو قريب منقلب ـ غير أنى رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة ومن الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفية ، فان أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وان تركت ذلك ففى يقين المعاينة لنعوتنا ما يغنى عن الابلاغ فى القول والاغراق فى الصفة ، والسلام عن من اتبع الهدى » .

ويرى بيوري أن المأمون قد شجعته انتصارات الأعوام الثلاثة على الانصراف عن انهاء الحرب ، وربما تطلع الى اخضاع الامبراطورية كلها لكن أدركه المحتوم فى العام التالى (١٨٥) . والمصادر غير العربية تذكر أن المأمون عقد اتفاقا مع توماس الصقلبى الثائر على حكام بيزنطة قضت شروطه أن يمد المأمون توماس بجيش قوى فى الوقت الذى يهاجم المأمون من جهته القسطنطينية نفسها ، وقيل ان توماس قد توج امبراطورا على يد بطريق انطاكية (١٨٦) .

***

ولم يفت المؤلفين المسلمين أن يكتبوا فى قواعد المراسلات السياسية : فالمكاتبات عن الخلفاء الى أهل الكفر « كان الرسم فيها أن يكتب (من فلان الى فلان) ويقع التخلص فيها الى المقصود بـ (أما بعد) ويختم

---

(١٨٥) الطبرى حـ ١٠ ص ٢٨١ ، ٢٨٣ ـ ٤ .
Bury : Hist. of East Rom. Emp. pp. 255-6

(١٨٦) فازيلييف : العرب والروم . ترجمة دكتور شعيره ص ٣٦ ـ ٧ .

الكتاب بلفظ (والسلام على من اتبع الهدى) » . وفى كتابة الهدنة بين أهل الاسلام وأهل الكفر ينبغى أن تراعى « الشروط الشرعية المعتبرة فى **صحة العقد** ، بحيث لا يصح عقد الهدنة مع اهمال شيء منها ـ وهى أربعة شروط : الأول فى العاقد ويختلف الحال فيه باختلاف المعقود عليه ـ فان كان المعقود عليه اقليما كالهند والروم ونحوهما أو مهادنة الكفار مطلقا فلا يصح العقد الا من الامام الأعظم أو من نائبه العام المفوض ، الثانى . أن يكون فى ذلك مصلحة للمسلمين ... ، الثالث ألا يكون فى العقد شرط يأباه الاسلام ، ... الرابع ألا تزيد مدة الهدنة عن أربعة أشهر عند قوة المسلمين وأمنهم ولا يجوز أن تبلغ سنه بحال ، وفيما دون سنة وفوق أربعة أشهر قولان للشافعى أصحهما أنه لا يجوز ، أما اذا كان فى المسلمين ضعف وهناك خوف فانه تجوز المهادنة الى عشر سنين ... ومن الشروط العادية فى كتابة الهدن أن يشترط ـ (المسلم) عليه (العدو) أن يكون لوليه مواليا ولعدوه معاديا .. وأن يكف عن بلاده وأعماله ومتطرف ثغوره وشاسع نواحيه أيدى الداخلين فى جماعته ولا يجهز لها جيشا ولا يحاول لها غزوا ولا يبدأ أهلها بمنازعة .. وأن يفرج عمن هو فى حوزته ممن أحاطت به ربقة الأسر ويمكنهم من المسير الى بلادهم.. وأن يشترط عليه مالا يحمله اليه فى كل سنة ، وأن يسلم اليه مايختاره من حصون وقلاع وأطراف وسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين أحب انتزاعه أو استضافته من بلاد من يهادونه من ملوك الكفر ، وأن يبقى بها من أهلها ويقررهم فيها بحرمهم وأولادهم ومواشيهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم دون أن يلتمس عن ذلك أو عن شيء منه مالا أو يطلب عنه بدلا .. وعدم التعرض لتجار مملكته والمسافرين من رعيته برا وبحرا ، وللمجاورين للبحر عدم ركوب المراكب الحربية التى لا يعتاد التجار ركوب مثلها . ومن ذلك أن يشترط عليه امضاء من وقعت عليه المعاقدة وألا يرجع عن ذلك ولا عن شيء منه ولا يؤخر شيئا عن الوقت .. واذا بقى من مدة الهدنة مدة قريبة مما يحتاج الى التعبى فيه أن يعلمه بما يريده من مهادنة أو غيرها .. واذا انقضى أمد الهدنة على أحد من الطائفتين وهو فى بلاد الآخرين أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمنه » . ومما يلزم الكاتب فى **كتابة الهدنة** « تحرير أوضاعها وترتيب قوانينها وأحكام معاقدها وذلك باعتماد أمور : منها أن يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذى تجرى الهدنة بينه وبين ملكه ... من قطع ـ الورق ـ العادة أو الثلث أو النصف . ومنها أن يأتى فى ابتدائها ببراعة الاستهلال اما بذكر تحسين موقع الصلح .. أو بذكر السلطان الذى تصدر عنه

الهدنة أو السلطانين المتهادنين ، أو الامر الذى ترتب عليه الصلح - وما يجرى هذا المجرى ٠٠ ومنها أن يأتى بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذى أوجد الهدنة ٠٠٠ ومنها أن يراعى المقام فى تبجيل المتهادنين أو أحدهما بحسب مايقتضيه الحال ووصف كل واحد منهما بما يليق به ٠٠ ويجرى على حسب ذلك فى الشدة واللين ٠٠٠ ومنها أن يتحفظ من سقط يدخل على الشريعة نقيصة ان كانت المهادنة مع أهل الكفر أو يجر على سلطانه وهيصه ان كانت بين المسلمين ، ويتحذر كل الحذر من خلل يتطرق اليه : من اهمال شيء من الشروط أو ذكر شرط فيه خلل على الاسلام أو ضرر على السلطان أو ذكر لفظ مشترك أو معنى ملتبس يوقع شبهة توجب السبيل الى التأول ٠٠ ومنها أن يبين أن الهدنة وقعت بعد استخارة الله تعالى وتروية النظر ومشاورة ذوى الرأى ٠٠ ومنها أن يبين مدة الهدنة ، فالصحيح من مذهب الشافعى أنها اذا لم تبين المدة فى مهادنة أهل الكفر فسدت الهدنة ٠ قال فى (التعريف) وقد جرت العادة أن يحسبوها مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمرية ٠٠٠ ومنها أن يبين أن الهدنة وقعت بين الملكين نفسيهما أو بين نائبيهما أو بين أحدهما ونائب الآخر ويستوفى مايجب لكل قسم منها ٠٠ ومنها أن يتعرض الى مايجرى من التحليف فى آخرها على الوفاء ٠٠٠ ومنها أن يحرر أمر التاريخ بالعربى وما يؤرخ به فى مملكة الملك المهادن من السريانى والرومى وغيرهما ٠٠٠ ومنها أن يقع الاشهاد على كل من المتعاقدين بذلك ٠٠ وربما طولب النائب عن الملك الغائب احضار نسخة مهادنة من جهة مستنيبه على ما وقع به فى العقد مشموله بخط الكتاب مشهودا عليه فيها بأهل مملكته أو تجهز اليه نسخة يكتب عليها خطه ويشهدون عليه فيهاأهل مملكته، والغالب الاكتفاء بالرسل فى ذلك» (١٨٧)

وكان الكاتب فى **ديوان الرسائل** ينشىء كتب الخليفة الذى يتولى التوقيع ، وكانت تمر على ديوان التوقيع فى العصر العباسى كل المراسلات والوثائق السياسية (١٨٨)

---

(١٨٧) القلقشندى : صبح الاعشي جـ ١٤ ص ٧ : ١٥

(١٨٨) دكتور فروخ : العرب والاسلام فى شرقى البحر المتوسط ص ١٦٧ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع م ٢ ص ٤٠١

السفارات الشخصية :

قد يستدعى الاتصال الدبلوماسى ارسال سفير لتبادل وجهات النظر عند الرغبة فى الاتفاق على مسائل حربية أو تجارية أو لتبادل المجاملات. ويعرف اليوم هــذا النوع من السفراء بالسفراء فوق العادة وهم سفراء المناسبات . وقد راعى أولو الامر فى الدولتين تزويد السفير بكتاب يعرف بشخصه ومهمته يشبه أوراق الاعتماد الآن وتمتع سفراء الجانبين بميزات وحصانات ، وحرص كل فريق على الحفاوة بالسفراء واظهار عظمته لممثل الفريق الآخر . وقد طلب معاوية من عثمان أن يترك له خراج بعض أراض وضياع لا يرسل لبيت المال كى يخصص لاعباء التمثيل الدبلوماسى ، وكانت هذه الأراضى لأنباط هجروها أو قتلوا على أثر الفتح الاسلامى « ولم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت المال .. حتى كتب معاوية فى امرته على الشام الى عثمان أن الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل أمرائها ، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها .. وساله أن يقطعه اياها » فأجابه الخليفة الى ذلك . (١٨٩)

وقد عرف عن الدولة البيزنطية تدقيقها فى اختيار سفرائها الى الدولة الاسلامية ، وقد أرسلت الى دمشق بعد انتهاء حصار القسطنطينية الثانى (٥٤ : ٦٠ هـ / ٦٧٤ : ٦٨٠م) أحد رجالها الممتازين ويدعى **يوحنا**، وكان مسنا حكيما لبقا . وقد استقبل لدى الأمويين بالحفاوة والترحيب وعقد له مجلس كبير ضم علية القوم ، واكتسب عطف معاوية ثم عاد الى القسطنطينية بعد أن أخذ فكرة طيبة عن البلاط الأموى . واشتهر من سفراء الأمويين الى بلاط القسطنطينية العــالم الفقيه **عامر بن شراحيل الشعبى** ، اذ بعثه الخليفة عبــد الملك بن مروان الى امبــراطور الدولة البيزنطية فى رسالة خاصة . «ذكر الشعبى : قال أنفذنى عبد الملك الى ملك الروم ، فلما وصلت اليه جعل لا يسألنى عن شىء الا أجبته ، وكانت الرسل لا تطيل الاقامة عنده ــ فحبسنى أياما كثــيرة حتى استحببت خروجى ، فلما أردت الانصراف قال لى : من أهل بيت المملكة أنت ؟ قلت : لا ، ولكنى رجل من العرب فى الجملة . فهمس بشىء ــ فدفعت الى رقعة وقيل لى : اذا أديت الرسائل عند وصولك الى صــاحبك أوصل هذه الرقعة . قال : فأديت الرسائل عند وصــولى الى عبد الملك ونسيت

(١٨٩) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ــ تحقيق دكتور المنجد م ١ ص ٥٩٥ .

الرقعة ، فلما صرت في بعض الدار اذ بدأت بالخروج تذكرتها - فرجعت فأوصلتها اليه ، فلما قرأها قال لى : أقال لك شيئا قبل أن يدفعها اليك؟ قلت : نعم قال لى : من أهل بيت المملكة أنت ؟ ، قلت : لا ، ولكنى رجل من العرب فى الجملة ٠ ثم خرجت من عنده فلما بلغت الباب رددت ، فلما مثلت بين يديه قال لى : أتدرى مافى الرقعة ؟ قلت : لا ، قال : لم أقرأها ، فلما قرأتها فاذا فيها : عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره !! فقلت له : والله لو علمت ماحملتها ، وانما قال هذا لأنه لم يرك ٠ قال : أفتدرى لم كتبها ؟ قلت : لا ٠ قال : حسدنى عليك وأراد أن يغرينى بقتلك » (١٩٠) ٠ وجاء فى أخبار الشعبى أنه قال : « قال لى ملك الروم لما شيعنى وقد قفلت من عنده : كنت أحب أن أسألك عن ثلاث وكان حسن حديثك يمنعنى من ذلك ٠ قلت : فليسألنى الملك الآن عما أحب قال : خضابك هذا حين غيرته الا رددته الى سجيته وسننه الأول ؟ أو تركته كما غيره الله تعالى ؟ قلت : الجواب عن هذا السؤال أن هذه سنة نبينا ٠ قال الملك : سنن الانبياء لا متروك لها ولا احتجاج عنها ٠ قال الملك : فهل للعرب أمثال مثل أمثال العجم ؟ قلت : نعم ٠٠٠ ابن آدم اذا لم تستح فاصنع ماشئت ٠ قال : هذا الذى لايشبهه مثل ٠ قال : فأخبرنى أيهما أفضل أنت أم أبوك ؟ قلت : أبى أفضل منى ٠ قال : فمن أفضل أنت أم ابنك ؟ قلت : أنا أفضل من ابنى ٠ قال : هكذا نجد صفتكم ٠٠٠ » (١٩١)

ومن المبعوثين المسلمين من أوفد فى مهام سرية ٠ من ذلك قصة طويلة يرويها المسعودى أن المسلمين غزوا فى أيام معاوية فأسر جماعة منهم فأوقفوا بين يدى الملك ، فتكلم بعض أسارى المسلمين فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفا بين يدى الملك فلطم حر وجهه ، فآلمه وكان رجلا من قريش فصاح : وا اسلاماه !! أين أنت يامعاوية اذ حملتنا وضيعت ثغورنا وحكمت العدو فى ديارنا ودمائنا وأعراضنا ؟؟ فنمى الخبر الى معاوية فآلمه ٠٠ ثم أجمل الأمر فى اعمال الحيلة باقامة الفداء للمسلمين ، فلما صار الرجل الى دار الاسلام دعاه معاوية فبره وأحسن اليه ثم قال له : لم نهملك ولم نضيعك ولا أبحنا دمك وعرضك ، ومعاوية مع ذلك يجيل الرأى ويعمل الحيله ٠ ثم بعث الى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور وكان به عارفا كثير الغزوات فى البحر مبل من الرجال

---

(١٩٠) المسعودى - مروج الذهب حـ ٢ ص ١٢٦ ٠

(١٩١) ابن الفراء : رسل الملوك ٥٢ ٠

مرطان بالرومية ، فأحضره وخلا به وأخبره بما قد عزم عليه وسأله اعمال الحيلة فيه والتأنى له فتوافقا على أن يدفعا للرجل مالا عظيما يبتاع به أنواعا من الطرف والملح والجهاز والطيب والجوهر وغير ذلك ، وابتنى له مركب لا يلحق في جريه سرعة بنيانا عجيبا . فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرص فاتصل برئيسها وأخبره أن معه جارية للملك وأنه يريد التجارة الى القسطنطينية قاصدا الى الملك وخواصه بذلك ، فروسل الملك بذلك واعلم بحال الرجل فأذن له في الدخول ... » وأخذ الرجل يوثق صلاته بالملك وبطارقته « وبايعهم وشاراهم ولم يعط للبطريق الذى لطم وجه القرشي شيئا .. وتأنى الصورى فى الأمر على حسب ما رسمه معاوية ، وأقبل الرجل من القسطنطينية الى الشام وقد أمره البطارقة والملك بابتياع حوائج ذكروها ... فلما صار الى الشام سار الى معاوية سرا وذكر له من الأمر ما جرى فابتيع له جميع ماطلب منه .. وتقدم اليه فقال : ان ذلك البطريق اذا عدت الى كرتك هذه سيعزلك عن تخلفك عن بره واستهانتك به ، فاعتذر اليه ولاطفه بالقصد والهدايا واجعله القيم بأمرك والمتفقد لأحوالك ، وانظر ماذا يطلب منك حين أوبك الى الشام فان منزلتك ستعلو وأحوالك تزداد عندهم ... ولم يزل هذا فعله يتردد من الروم الى معاوية ومن معاوية الى الروم ويسأل الملك والبطريق وغيره الحوائج ، والحيلة لا تتوجه لمعاوية ـ حتى مضى على ذلك سنين » ثم طلب البطريق بساطا بوسائده يكون فيه من أنواع الالوان « وكان من شأن الصورى اذا ورد الى القسطنطينية أن تكون مركبه بالقرب من ذلك البطريق ، وللبطريق ضيعة سرية وفيها قصر مشيد ومتنزه حسن على أميال من القسطنطينية راكبة على الخليج ، وكان البطريق أكثر أوقاته في المتنزه ، وكانت الضـيعة مما يلى فم الخليج مما يلى بحـر الـروم والقسطنطينية » . وهنا حضرت الحيلة معاوية فتحرى وجود البطريق فى ضيعته ثم أرسل ماطلبه من بساط ووسائد ، ونضد هذا فى صحن المركب « والرجال تحت المجلس بأيديهم المجاديف مشكلة قائمة غيرقاذفين بها ، ولا يعلم بهم انهم فى بطن المركب الا من ظهر منهم فى المركب عمله ، والريح فى القلع والمركب مار فى الخليج كأنه سهم ... وأشرف البطريق على المركب فنظر الى مافيه من حسن ذلك البساط ونظم ذلك الفرش كأنه رياض تزهر فلم يستطع اللبث فى موضعه حتى نزل قبل أن يخرج الصورى من مركبه اليه . فطلع آلمركب ، فلما استقرت قدمه فى المركب ودنا من المجلس ضرب الصورى بعقبه على من تحت البساط من الوقوف ـ وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين فى بطن المركب فما

استقر دقه بقـــدمه حتى اختطف المركب بالمجاديف فاذا هو فى وسط البحر لا يلوى على شيء ٠٠ فكانوا اليوم الثالث عشر حضورا بين يدى معاويه ٠٠٠ فقال : على بالرجل القرشى ، وانفض المجلس بأهله فقال له معاوية أنظر ، لا تتعد ماجرى عليه منه ، واقتص منه على حسب ماصنع بك ولا تتعد وراع ما أوجب الله عليك من المماثلة ٠٠٠ وأحسن معاويه الى البطريق وخلع عليه وبره وحمل معه البساط وأضاف الى ذلك أمورا كثيرة وهدايا الى الملك ٠٠٠ » وكان هذا مدعاة لصنع سلسلة على فم وادى القسطنطينية فلا يدخل أحد الا باذن الملك وأعجب الروم بعظم حيلة معاوية (١٩٢) كما روى أن معاوية لما أسن اعتراه أرق ، فكانت توقظه نواقيس الروم فقال : « يا معشر العرب هل فيكم من يفعل ما آمره واعطيه ثلاث ديات اعجلها له وديتين اذا رجع ؟ فقام فتى من غسان فقال : أنا يا أمير المؤمنين ، قال : تذهب بكتبى الى ملك الروم فاذا صرت على بساطه أذنت ٠٠٠ فلما صار على بساط قيصر أذن ، فتناجزت البطارقة واخترطوا سيوفهم ٠ فسبق اليه ملك الروم فجثا عليه ٠٠٠ ثم قال : يامعشر البطارقة ، ان معاوية رجل قد أسن وقد أرق ، وقد آذته النواقيس وأراد أن نقتل هذا على الآذان فيقتل من قبله منا على النواقيس والله ليرجعن اليه بخلاف ما ظن ! فكساه وحمله فلما رجع الى معاوية قال : أو قد جئتنى سالما ؟ قال : نعم ، أما من قبلك فلا » (١٩٣) !

ومهما يكن من أمر هذه الروايات فهى تدل على أن المسلمين والروم قد ألفوا الاتصال سرا وعلنا لمختلف الاسباب والاغراض ٠

وجاء العباسيون فحرصوا على **التباهى بفخامة ملكهم ومنشئاتهم** أمام سفراء الروم ، فلما استتم للمنصور بناء بغداد قدم اليه بطريق من بطارقة الروم « فأمر الربيع أن يطوف به فى المدينة وما حولها ليرى العمران والبنـــاء ، فطاف به الربيع ٠ فلما انصرف قال : كيف رأيت مدينتى ؟ ـ وقد كان أصعد الى سور المدينة وقباب الأبواب ٠ قل : رأيت بناء حسنا الا أنى رأيت أعداءك معك فى مدينتك ! قال : ومن هم ؟ قال : السوقه ٠ قال : فاضب عليها أبو جعفر ، فلما خرج البطريق أمر باخراج السوق ٠٠٠ وذكر أنه قيل لأبى جعفر : ان الغرباء وغيرهم يبيتون فى الكرخ ولا يؤمن أن يكون فيهم جواسيس ومن يتعرف الاخبار

---

(١٩٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٥١ : ٤ ، النويرى : نهاية الأرب ٠ السفر السادس ص ١٨٥ : ٧

(١٩٣) ابن قتيبه : عيون الاخبار م ١ ص ١٩٨

أو أن يفتح أبواب المدينة ليلا لموضع السوق ، فأمر باخراج السوق من المدينة وجعلها للشرط والحرس » . ويروى ابن الفراء أن المنصور رد على بطريق الروم قائلا : « ما أبالى أن يطلع على سرى خاصتى وعامتى لأنى لا أنى فيه وأحصنه. فلما انصرف الرسول تعقب الرأى وتبينه» (١٩٤)

واشتهرت سفارة يوحنا النحوى الى الخليفة المأمون فى مستهل عهد الامبراطور البيزنطى تيوفيل ، وقد بلغ من آثار هذه السفارة على الخيال الشعبى البيزنطى أنها اتخذت طابعا أسطوريا . والحقيقة التى يمكن استخلاصها من الروايات المشـــوشة أن **يوحنـــا المشـــهور بالنحوى** ـ John the Synkellos وهو عالم ربما كان على معرفة بالعربية ـ قد أوفد الى بغداد لاعلان ارتقاء تيوفيل العرش الامبراطورى وقد حمل معه هدايا ثمينة للخليفة ، كما حمل أموالا ضخمة للتأثير فى العرب بمظاهر البذل والسخاء ، ولقد روى أنه كان ينثر الذهب مثل رمال البحر ويمنح هباته لكل من يزوره فى دار الضيافة لأى سبب . وكان من أسباب الاهتمام بسفارة يوحنا النحوى رابطة حقيقية أو وهمية تربطها بمغامرات قائد شـــهير فى ذلك الوقت ، مما أدى الى لبس فى تحديد النصوص الرومية لتاريخ السفارة بتأخيرها عن وقتها ذلك أن مانويل الذى كان قائد البند (الارمنى) فى عهد ليو السادس ـ ولعله كان قائد البند نفسه فى عهد ميشيل الثانى ـ قد امتاز ببسالته .. وهو من أصل أرمنى . وفى معركته مع العرب أنقذت جرأة هذا القائد وعزيمته حياة الامبراطور أثناء انهزامه أمام المأمون سنة ٨٣٠ م / ٢١٥ هـ واحتمـاله بفرقه الفارسية التى تآمرت عليه لتسليمه لعدده ، اذ فهم مانويل لسان الفرس واندفع خلالهم وأمسك بعنان حصان تيوفيل وانتزعه من الهلاك . وأغدق الامبراطور على منقذه من آيات التكريم ما أثار حسد بتروناس شقيق الامبراطورة ، وهنـــا دس الى الامبراطور أن مانويل يتطلع الى العرش . وانطلت الدسـيسة على تيوفيل وأحس ما نويل بالخطر فعبر الى Pylae ثم وصل الى الحدود الكيليكية . واستقبله العرب بالترحيب، وكان الخليفة يشتو بالشـام وقد تقبل بسرور خدمات أقدر قواد عدوه . ويحكى انه أدى خدمات كبرى للخليفة ضد أتباع بابك وثوار خراسان . ويذكر فازيليف أن هرب مانويل والتجـاءه الى العـرب حـدث سنة ٨٣٠م ـ ويرجح بروكس وجريجوار بعد دراسة روايات اليعقوبى وابن الاثير وجنزيوس وصلة تيوفانيس أن هربه كان أيام ميشيل الثانى (فى

---

(١٩٤) الطبرى جـ ٩ ص ٢٦٢ ، ابن الفراء : رسل الملوك ص ٣٩

قبل سنة ٨٢٩ م) وهناك معلومات تشير الى دور لمانويل أيام ميشيل الأول وليو الخامس • وقد أول أنصار مانويل التجاءه للعرب بأنه كان هربا من اضطهاد تيوفيل ، مما أدى الى محاولة تقديم تاريخ معركة أنقذ فيها مانويل الامبراطور تيوفيل وسياق هذه المعركة يتفق مع المعركة التى وقعت سنة ٨٣٨ م ، ٢٢٣ هـ ورويت رواية أخرى عن انقاذه ميشيل الثالث سنة ٨٦٠م ٢٤٦ط « فلو صح ذلك لكان ميشيل الاول سنة ٨١٣ م هو الذى أنقذ بعد ذلك بسبعة وأربعين سنة ميشيل الثالث سنة ٨٦٠ فى معركة مماثلة للتى أنقذ فيها تيوفيل سنة ٨٣٨ م وفى نفس الظروف!!» وهناك رواية ساقها الروم والعرب تقول ان مانويل هرب وترك الامبراطور وأن المنقذ الحقيقى للامبراطور هو اللاجىء الارمنى تيوفو بوس (نصر) وكان من رجال بابك ثم لجأ الى أرض الروم بعد هزيمة بابك الاول سنة ٨٣٤ م / ٢١٩ هـ وقد تنصر وعهد اليه بقيادة جيش من حلفاء الروم من الخرمية اللاجئين ، ووه الذى حضر واقعة زبطرة سنة ٨٣٨ م كما حضرها مانويل ، وينسب له صاحب صلة تيوفانيس وجنزيوس والمسعودى انقاذ تيوفيل وتنكر الامبراطور له بعد ذلك واستطاعته اثبات ولائه ، وقد قتله العرب سنة ٨٤٠ م / ٢٢٥ هـ فى معركة وادى عقرقس • وعلى كل حال تذكر الروايات أن تيوفيل اتجه الى استدعاء مانويل ، ولعل كان فى أول حكمه ، وهكذا يكون التجاء مانويل للعرب فى عهد ميشيل الثانى الذى انتهج تيوفيل سياسة مضادة له فى كثير من النواحى • ويجعل المؤرخون الروم من يوحنا النحوى سفيرا مهد السبيل لعودة مانويل الى بلاد الروم تلك العودة التى حدثت سنة ٨٣٠ م • وقد قيل ان يوحنا النحوى اضطلع بتدبير لقاء سرى مع مانويل لينقل اليه تأكيد الامبراطور بالعفو والامان والتكريم اذا ما عاد أدراجه الى القسطنطينية • وأجرى المبعوث هذه المهمة الحساسة بنجاح ، فقد حمل خطابا امبراطوريا مختوما بخاتم ذهبى كما حمل الصليب الذى يضعه تيوفيل على صدره • وقد أعادت هذه التأكيدات الثقة الى مانويل فتعهد بالعودة الى البلاد فى أول فرصة • وعندما رافق ابن الخليفة فى غزوة البلاد الروم نجح فى الفرار عند الحدود • فيذكر الطبرى فى أخبار سنة ٢١٥ هـ « انصرف أبو سحق بن الرشيد من مصر فلقى المأمون قبل دخوله الموصل ، ولقيه مانويل وعباس ابنه برأس العين » • وكان هذا قبل دخول العرب أرض الروم ، أما اليعقوبى فيقول : ان المأمون عندما أخذ أنقره هرب منها مانويل ، وأنقره فى هذه العبارة صحتها قرة • ويرى كنار أن المقصود هروب مانويل من صفوف العرب الى

الروم بعد أن صحب بن الخليفة الى الحدود سنة ٨٣٠ م . وهكذا تتفق المصادر العربية مع الرومية ، ويذكر ابن طيفور أن العباس حين انتهى من حملته فى رمحان ورجع عن طريق درب الحدث خلف مانويل على ما أخذه من الحصون ولكن مانويل خدعه وطرد المسلمين الذكن معه وأخذ سلاحهم وصالح الامبراطور وخد ولاه تيوفيل فورا منصب دمستق الاسكول ورفعه من درجة بطريق Patricain الى ما جستر Magister والقصة فى جملتها لها أساس من الصحة ، فلا شك أن مانويل قد فر الى العرب ثم رجع ثانية ، وليس بعيدا عن الاحتمال أن يكون يوحنا النحوى أداة فى توصيل التأكيدات الامبراطورية التى أدت الى عودته . ولكن قبول القصة كما يرويها كتاب الروم يدعو الى افتراض أن فرار مانويل من الامبراطور كان سنة ٨٣٠ م وأن عودته كانت سنة ٨٣٢ م ، وعلى هذا كان تاريخ سفارة يوحنا هو شتاء سنة ٨٣١ ـ ٢ م . ومثل هذه النتيجة توقعنا فى صعوبات شتى ، **والحل الذى يبدو أكثر احتمالا للمسألة أن مانويل كان قد فر من بلاط تيوفيل بل من بلاط أبيه ، وهو قد عاد الى القسنطينية سنة ٨٣٠ م** . وقد كانت كل من سفارة يوحنا ومخاطرة مانويل متعة للخيال الشعبى . وفى الروايات التى وصلت الينا حليت التفصللات بكثير من الخيال الاسطورى **وواقعة انقاذ مانويل لتيوفيل لاتخلو فى الحقيقة من بعض الشك اذ رويت رواية مماثلة عن ميشيل الثالث بعد ذلك . (١٩٥)**

وعلى اثر ايقاع تيوفيل سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ هـ بزبطرة وخروج المعتصم فى غارة انتقامية كبرى حاول الامبراطور البيزنطى ان يصلح خطأه « فوجه رسولا فى أول مانزل المعتصم على عموريه ، فامر به المعتصم فانزل على موضع الماء الذى كان الناس يستقون منه ـ وكان بيته وبين عمورية ثلاثة أميال ـ ولم يأذن له فى المصير اليه حتى فتح عمورية ، فلما فتحها اذن له فى الانصراف الى ملك الروم » (١٩٦) . وقد ارسل ملك الروم الى المعتصم بعد انتصاره فى عمورية واسره الالاف « ان الملوك لم تزل يغزو بعضها بعضا ويعلو بعضها على بعض ، وربما اتيت من وزراء السوء . وقد كان منا بزبطرة ما كان وتبينت وجه الخطر فيه ، وقد كلت

---

(١٩٥) Bury : Hist. of East Rom. Emp. pp. 256:9 فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ٩٣ والهامش ، تعليق اضافى لجريجور ص ٣٦١ : ٥ ، الطبرى ج ١٠ ٢٨٠ ـ ١

(١٩٦) الطبرى ج ١٠ ص ٣٤٣ .

لى بالصاع اصوعا فيما فعلت بعموريه ، وانا اسألك بالطينه المباركة التى أنت منها ان تنعم على باطلاق بطارقتى فانهم مائه وخمسون بطريقا وانا افتدى كل واحد منهم بمائه من المسلمين . وقد تهادت الملوك قبلنا ، وقد وجهت من رسولى من الثياب الديباج المذهبة أربعين ثوبا طول كل ثوب منها اربعون ذراعا فى عرض عشرين » . وذكر سائر ما اهداه وصفته وارسل بذلك بطريقا وخادما وجماعة معهما . فلما وصلوا اخذ محمد بن عبد الملك الكتب وتوصل الى علم ما تضمنته وردها بخواتيمها وقال : امير المؤمنين مشغول عنها . فكانت الهديه موقوفه ستة اشهر ، ثم اذن للرسول فدخل على الملك ، فلما رآه المعتصم قال : ارانا قد اضررنا بك لطول مقامك ، قال : كلا ، ان طول المقام أوجب لى الذمام ، ولم نزل نسمع من حكمائنا ان ابطاء الرسول يؤذن بالنجاح ، وما ضرنى مقام قرب منك واشهدنى نعم الله عندك . فأعجب المعتصم بما ترجم له من كلام الرسول وقبل هديته . فأقبل عليه محمدا با عبد الملك الزيات فقال له : كم خراج بلدكم ؟ قال : اقل من مائه انف دينار ، فقال محمد : هذا غلة بعض ضياع أمير المؤمنين . فقال الرسول : نحن أحزم وأحكم فى باب الخراج منكم ، أنتم تستخرجون من الناس مالا فتكسبون عداوتهم وتوغرون صدورهم ، ويسرق المال عمالكم ويعطون عليه الأرزاق ، ثم يحمل من بلد الى بلد آخر فيذهب ويتخرم فى الطريق وتحتاجون ان يسلم الى خزنة وحراس ثم تخرجه الى رجالكم . ونحن جعلنا خراجنا رجالا فكفينا هذه المؤنة ، وصيرنا هذا المقدار الذى ذكرته لك رسما للخراج لئلا يبطل اسمه ، فأمنا عداوة الناس وحفظنا المال وكفينا ما أنتم فيه . فسكت محمد بن عبد الملك الزيات ولم يحر جوابا ، وقد تصدى ابن الفراء الرد على الرسول البيزنطى « وقد كان الجواب ممكنا والحجة متوجهة عليه والخطأ فى القول لازما له ، وذلك ان رجال الحرب بمثابه الجوارح التى لا يجوز ان تمرن بعمل من الاعمال ولا مهنه من المهن غير اختطاف الارواح وصيد الرجال واعمال الحيلة فى التسليم من اللقاء والكر والفر وفى الاقامة والتحيز . فلما صارت الروم اهل تناية واصحاب فدان وزراعة ومهن وصناعة نشأ الأبناء على ما عليه الاباء فركنوا الى الدعة وهابوا الحرب ونكصوا عن لقاء الاعداء وصيد الرجال وصاروا جمع العصا وخشوا الفلس .. ثم صار الملك منهم لا تتعلق به رغبة اذ هو قليل المال نزر الجبايه . فلما احست الروم بعدم الرغبة امتنعت عن الخطار بانفسها .. وصار مابايدى الروم من الضياع والاقطاع كانما هو كالملك لهم يرثه خلف عن سلف وصار الملك اذا دعته ضرورة الى انتزاع

بعض ما في أيديهم كانوا العدو الحاضر المشارك في الدار غير المأمون الضرر والغوائل المطالب بالدخول والطوائل ٠٠ فكيف صار أحكم من فعل المسلمين في الخراج ؟ وقد كنت أعرف عن الروم ان أخس الرتب والمنازل عندهم رتبة الكاتب وان الشاكرى أجل رتبة منه ، حتى علمت الآن قلة احتياجهم الى من يحفظ الارتفاع ويحمل أعباء الملك ٠٠ ولعمرى ان نوازع الروم وأغراضهم وأوطارهم أقل من نفقات المسلمين ودواعيهم ، ولو الزم ملك الروم من في بلاده من المؤن والمغارم ما يلزم في بلاد المسلمين لما قامت لهم قائمة ولاحتاجوا الى أحد أمرين : اما احتياج أموال رعاياهم أو التسلط على من يجاورهم ٠٠ » (١٩٧) ٠ وقد روى المقدسي أنه قد حسب خراج الروم للمعتصم فبلغ خمسمائة قنطارا وكذا قنطار فاذا به أقل من ثلاثة ألف دينار ، فكتب الى ملك الروم : ان أخس ناحية عليها أخس عبيدى خراجها أكثر من خراج أرضك (١٩٨) ٠

وقامت سفارات علمية بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية ٠ وقد حاول المأمون أن يستقدم الرياضي البيزنطي الشهير ليو ، فلما سمع الامبراطور تيوفيل بذلك فرو للعالم البيزنطي مرتبا وعينه معلما في احدى كنائس القسطنطينية ، ورفض الامبراطور رسالة شخصية من المأمون يطلب فيها السماح لهذا العالم بالحضور لبغداد فترة قصيره ويعتبر ذلك عملا وديا ، وتقول الروايه ان المأمون عرض في مقابل حضور ليو صلحا دائما وألفي قطعة ذهبية (١٩٩) ٠

وامتاز عهد الواثق ببعثة علمية لدراسة موضع اصحاب الكهف وآثارهم فقد أنفذ الواثق محمد بن موسى المنجم من سر من رأى الى بلاد الروم حتى أشرف على أصحاب الرقيم : وهو الموضع المعروف من بلاد الروم . وقد روى المقدسي عن مجاهد بن يزيد خبر بعثة أسبق من عهد الواثق « قال : خرجت مع خالد البريدى في أيام وجه الى الطاغيه ١٠٢ وليس معنا ثالث من المسلمين فقدمنا القسطنطينيه ثم خرجنا منصرفين الى عموريه ثم اتينا اللاذقيه المحترقه في اربع ليال ثم انتهينا الى الهوية وهى جوف جبل فذكر لنا ان بها اموانا لا يدرى ماهم وعليهم حراس ، فأدخلونا سربا طوله نحوا من خمسين ذراعا في عرض ذراعين بالسروج ،

---

(١٩٧) ابن الفراء : رسل الملوك ص ٣٤ : ٨ ٠

(١٩٨) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٦٤ ٠

(١٩٩) فازيليف : فصل بيزنطة والاسلام من كتاب Byzantium مترجم وملحق بكتاب بنيز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٣٨٠ ٠

واذا وسط السرب باب من حديد وكمن لعيالهم اذا يجيئهم العرب ، واذا كهف ذلك المكان الى جوف ذلك الجبل فانطلق بنا الى كهف ممايلي الجوف من الهويه طوله نحو من عشرين ذراعا واذا فيه ثلاثه عشر رجلا رقودا على أقفيتهم ، على كل رجل منهم جبة لا ادرى من صوف او وبر الا انها غبراء وكساء اغبر يتقعقع كما يتقعقع الرق وقد غطى بكسائه وجهه وسائر جسده ، واذا هى ذوات اهداب وعلى بعضهم خفاف الى أنصاف سوقهم وبعض بنعال وبعض بشمشكات والجميع جدد . فكشف عن وجه أحدهم فاذا شعر رأسه ولحيته لم يتغير ، واذا بشره وجهه منيرة ودم وجهه ظاهرا كأنما رقدوا تلك الساعة .. واذا كان رأس كل سنة فى يوم عيد لهم يجتمعون فيه ويقيمونهم رجلا رجلا فيتركونهم قياما يمسحونهم وينفضون غبار ثيابهم ويسودون أكسيتهم عليهم » .

وبينما يحدد المقدسى موضعهم بجوار طرسوس ، يذكر ابن خرداذبة انهم بخرمة رستاق بين عمورية ونيقية « وكان الواثق بالله وجه محمد بن موسى المنجم الى بلاد الروم لينظر الى أصحاب الرقيم وكتب الى عظيم الروم بتوجيه من يوقفه عليهم ، فحدثتنى محمد بن موسى ان عظيم الروم وجه معه من صار به الى قره ثم سار أربع مراحل واذا جبيل قطر أسفله أقل من ألف ذراع وله سرب من وجه الارض ينفذ الى الموضع الذى فيه اصحاب الرقيم . قال : فبدأنا بصعود الجبل الى ذروته فاذا بئر محفوره لها سعة تبينا الماء فى قعرها ، ثم نزلنا الى باب السرب فمشينا فيه مقدار ثلثمائه خطوة فصرنا الى الموضع الذى اشرفنا عليه فاذا رواق فى الجبل على أساطين منقورة وفيه عدة أبيات منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليه باب حجر منقور فيه الموتى ورجل موكل بحفظهم ومعه خصيان روقة ، واذا هو يحيد عن ان نراهم أو أن نفتشهم ويزعم انه لا يأمن ان يصيب من التمس ذلك آفة يريد التمويه ليدوم كسبه بهم ، فقلت له : دعنى أنظر اليهم وأنت برىء ، فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى فنظرت اليهم فى مسوح تتفرك فى اليد واذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها واذا جلودهم لاصقة بعظامهم . غير انى أمررت يدى على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته . وأحضر الموكل بهم طعاما وسألنا الغداء عنده ، فلما ذقنا طعامه انكرنا انفسنا فتهوعنا . وانما اراد أن يقتلنا أو يغصنا له ما كان يدعيه عند ملك الروم من أنهم أصحاب رقيم ، فقلنا له انما ظننا انك تريننا موتى يشبهون الاحياء وليس هؤلاء كذلك » . ويذكر ابن خرداذبة فى موضع آخر هوية الرقيم وهى تتلو لؤلؤة ثم بحيره المسكنين « وهى خسف فى الارض يكون مقدار مائتى ذراع فى

مائتى ذراع مشقوقه فى وسطها بحيره .. والقوم فى مغاره يصعد اليهـا من أرض الهويه يسلم لعله ان يكون ثمانيه اذرع ونحو ذلك ، فاذا هم ثلاثة عشر رجلا وفيهم غلام أمرد ، عليهم جباب صوف واكسية صـوف وعليهم خفاف ونعال ، فتناولت شعرات فى جبهة أحدهم فمددتها فما تبعنى منها شيىء » .

والصـورة التى ينقلها ابن خرداذبة تخالف الصـــورة التى ينقلها المقدسى . ويذكر ابن خرداذبة انه قرىء فى مسجد أصـــحاب الكهف فى افسوس من عمل ترقســـيس كتاب بالعربية بدخول مســـلمة بلاد الروم (٢٠٠) .

وأوفد المتوكل نصر بن **الازهر الشيعى** الى ملك الروم أمر الفـداء سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م « قال : لما صرت الى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك ـ بسوادى وسيفى وخنجرى وقلنسوتى ، فجـرت بينى وبين خال الملك بطرناس المناظرة ـ وهو القيم بشـأن الملك ـ وأبوا أن يدخلونى بسيفى وسـوادى ، فقلت : انصرف فانصرفت ـ ترددت من الطريق ومعى من الهدايا نحو من ألف نافجة: مسك وثياب حرير وزعفران كثير وطرائف وقد كان أذن لوفود برجان وغيرهم ممن ورد عليه . وحملت الهـدايا التى معى فدخلت عليه ، فاذا هو على سرير فوق سرير واذا البطارقة حوله قيام . فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير وقـد هيىء لى مجلس ووضعت الهدايا بين يديه ، وبين يديه ثلاثه تراجمه : غلام فراش كان لمسرور الخادم ، وغلام لعباس بن **سـعيد الجوهرى** . وترجمان له قديم يقال له سرحون . فقالوا لى : ما نبلغه ؟ قلت : لا تزيدون على ما اقول لكم شيئا ، فاقبلوا يترجمون ما أقول ، فقبل الهدايا ولم يأمر لأحد منها بشيىء ، وقربنى وأكرمنى وهيأ لى منزلا بقـربة ، فخرجت ـ فنزلت فى منزلى . وأتاه أهل لؤلؤة برغبتهم فى النصرانيـة وانهم معه ووجهوا برجلين ممن فيها رهينه من المسلمين . قال : فتغافل عنى نحوا من أربعة أشهر ،حتى أتاه كتاب مخالفة أهل لؤلؤة وأخـذهم رسله واستيلاء العرب عليها ، فراجعوا مخاطبتى ـ وانقطع الامر بينى وبينهم فى الفداء على ان يعطوا جميع من عندهم واعطى جميع من عندى وكانوا اكثر من ألف قليلا . وكان جميع الاسرى الذين فى ايديهم اكثر من ألفين : منهم عشرون امرأه معهم عشرة من الصبيان ، فاجابونى الى المحالفة

---

(٢٠٠) المسعودى : مروج الذهب . ج ١ ص ١٩٥ ـ ٦ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥٢ : ٤ ، ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٦ ـ ٧ ، ١١٠ ـ ١١١ .

فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل . فقلت : ايها الملك قد حلف لى خالك فهذه اليمين لازمة لك ؟ فقال برأسه : نعم – ولم اسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم الى ان خرجت منها ، انما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه نعم أو لا وليس يتكلم وخاله المدبر امره» (٢٠١).

وقد خلف عهد المقتدر صورة زاهية لاستقبال سفراء الروم في بلاط الخلافة ، ففي سنة ٣٠٥ هـ/٩١٨ م « دخل مدينة السلام رسل ملك الروم ورئيساهم شيخ وحدث ومعهما عشرون علجا ، فأنزلوا الدار التى كانت لصاعد ووسع عليهم فى الانزال والوظائف ، ثم أدخلوا بعد أيام الى دار الخليفة من باب العامة وجيء بهم فى الشارع الاعظم وقد عبى لهم المصاف من باب المخرم الى الدار . فأنزل الرئيسان عن دابتهما عند باب العامة وأدخلا الدار وقد زينت المقاصير بأنواع الفرش ، ثم أقيما من الخليفة على نحو مائة ذراع والوزير على بن محمد بين يديه قائم والترجمان واقف يخاطب الوزير والوزير يخاطب الخليفة ، وقد أعد من آلات الذهب والفضة والجوهر والفرش مالم ير مثله وطيف بهما عليه ، ثم صير بهما الى دجلة وقد أعدت على الشطوط الفيله والزرافات والسباع والفهود ، وخلع عليهما وكان فى الخلع طيالسة ديباج مثقلة وامر لكل واحد من الاثنين بعشرين الف درهم ، وحمل فى الشذى مع الذى جاؤا معهما وعبر بهما الى الجانب الغربى وقد مد المصاف على سائر شراع دجله الى ان مر بهما تحت الجسر الى دار صاعد » . وقد أعفى هؤلاء المبعوثون من تقبيل البساط حتى لا يطالب المسلمون بمثل ذلك فى بيزنطة . ولما دخل الرسول الى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها ، وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائه ألف درهم ، بها ١٨ غصنا واكثر قضبانها فضة وبعضها مذهب عليها أطيار مصوغة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها . وللشجرة ورق مختلف الالوان يتحرك ، وهي تقوم وسط بركة مدورة صافية الماء . وفى يمنتها تماثيل ١٥ فارسا على أفراسهم البسوا الديباج وغيره وفى أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد فيظن ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد ، فعظم تعجب رسل الروم كما يروى البغدادى . وأدخلوا الى الدار المعروفة بخان الخيل وأكثرها أروقة بأساطين رخام فيها من الجانب الايمن ٥٠٠ فرس عليها ٥٠٠ مركب ذهبا وفضة بغير أغشيه ، ومن الجانب الايسر ٥٠٠ فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال ، وكل فرس فى يدي شاكرى بالبزة الجميلة . ثم ادخلوا من هذه

---

(٢٠١) الطبرى جـ ١١ ص ٦٠ – ١ .

الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بحمر الوحش ، وفيها من أصنافه قطعان تقترب من الناس وتتشممهم وتأكل من ايديهم . ثم اخرجوا الى دار فيها مائه سبع فى رءوسها واعناقها السلاسل والحديد (٢٠٢) .

ومن المشكلات التى يثيرها بحث الاتصالات الدبلوماسية الاسلامية مشكلة الاتصالات بين العباسيين والفرنجه . ويتناقل المحدثون من مؤرخى الاسلام القول بأنه لما قامت على شواطىء البحر المتوسط بين منتصف القرنين ٨ ، ١١ م دولتان اسلاميتان كبيرتان : العباسية فى المشرق والامويه فى الاندلس وكانتا على عداء ، ودولتان نصرانيتان : البيزنطية فى الشرق والفرنجية فى الغرب وكانتا على عداء أيضا ـ فقد اجتهد العباسيون فى محالفة الكارولنجيين للاستعانة بهم على أمويى الاندلس فى نفس الوقت الذى اجتهدت فيه الدولتان البيزنطيه والاموية الاندلسية فى التحالف معا للقضاء على خصميهما . ويذهب أولئك المؤرخون الى أن الرشيد وشارلمان تبادلا السفارات والمحالفات، وكذلك فعل حكام بيزنطة وأمويو الأندلس . وقد ناقش علاقة العباسيين بالكارولنجيين كثيرون بين مؤيد ومعارض أمثال بتلر وجورانسون ورنسيمان و ف.ف. شميث، وناقش آراءهم الدكتور الدوري فى كتابه (العصر العباسى الاول) فقال: « **تخلو المصادر الشرقية اسلامية ومسيحيه من الاشارة الى أى صلة بين الرشيد وشارلمان وتنفرد المصادر اللاتينيه بذلك ولكنها مضطربة وغامضة** . فلا غرابة ان وجدنا تبلبل الكتاب الغربيين ولجوئهم الى الخيال لتفسير تلك الصلات ، ولكنهم جميعا عدا بارتولد يقررون صحتها ثم يختلفون فى تفسير نتائجها » . والدكتور الدوري يشكك فى النصوص اللاتينيه ثم يقول « يظهر لى ان الباحثين ظروف شارلمان لم يفهموا وضع الرشيد وهل كان يستوجب فتح صلات من هذا القبيل ، فقد كان الرشيد هو المنتصر على البيزنطيين قبيل فتح العلاقات حتى اضطرهم الى دفع الجزية سنة ٧٩٨ م» (١٨١ هـ) . كما انه لا دليل على أن مسيحيي الشام والجزيرة كانوا خطرا يذكر على سلامة الدولة فى عهده ـ كي يرغب فى القضاء على نفوذ البيزنطيين المعنوى بينهم . ثم هل كان الرشيد يعرف قوة شارلمان مع بعد المسافة واختلاف الدين ؟ وهل يمكن ان يضع الخليفة ثقته فى هذا الغريب لاسترجاع الاندلس ؟ وهل يجوز لخليفة المسلمين أن يتفق مع مسيحى لضرب مسلمى الاندلس ؟ وهل من المعقول

(٢٠٢) الطبري ج ١١ ص ٣٣ ـ ٤ ، البغدادى . تاريخ بغداد ، جروتيباوم : حضارة الاسلام . ترجمة جاويد ص ٤٦ ـ ٧ ، متز : الحضارة الاسلامية : ترجمة دكتور أبى ريدة ج ١ ص ١٩٩ ، ج ٢ ص ١٥٧ ، ١٥٩ .

أن يفكر الرشيد في استرجاع الاندلس في وقت اضطر فيه الى ان يتخلى عن سلطته الحقيقية في افريقيه (تونس) والمغرب ؟ .. ومن الجهة الاخرى كانت علاقة شارلمان مع البيزنطيين حسنة في هذا الدور ، ففي سنة ٧٩٨ م ارسلت ايريني وفدا الى شارلمان للمفاوضة في عقد حلف واقترحت عليه الزواج ولعلها سلمت بأعطائه لقب امبراطور . ثم هل كان عرب الاندلس يدينون بالطاعة للخليفه العباسي - اذا ضغط عليهم استجابة لحلفه مع شارلمان ؟ .. واخيرا يرى بارتولد انه ليس من المعقول أن يكون الرشيد أرسل (الفيل) مع اسحق بينما أرسل سفراءه مقدمين بأياد فارغه ، ويرى ان اسحق كان من التجار اليهود المتاجرين بين الشرق والغرب لا سفيرا ، ويقوى رأيه هذا أن مصدرين لاتينين يذكران ان غاية الوفد الاول كانت الحصول على فيل .. ويستنتج بريبه Brehier من مصدر اينهارد Eginhard اللاتيني ان الرشيد اجاب رغبات شارلمان - حسب طلب الوفد الاول - واعطاه حق حماية الارض المقدسة ؛ كما ان ارسال البطريق لمفاتيح كنيسة القيامة كان معناه تقديم الطاعه للحامي الجديد . وقد بين جورانسون Joranson ان آراء بريبه مبنية على التخمين ، فليس هناك ما يدل على حدوث مفاوضة سياسية بين الرشيد والوفد الاول أو اتصال لهذا الوفد مع شارلمان بعد سفره ، أما تقديم المفاتيح والراية من قبل البطريق فلا يمكن أن يعطى معنى سياسيا لان الرواة يتفقون على انه كان من باب الدعاء والتبريك benedictionis causa لا دليل على وجود علاقة بين صلات الخليفة وصلات البطريق بشارلمان ... » . والغريب ان بكلر Buckler يجعل شارلمان واليا على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسي ؛ ومن جهة أخرى يجعل الخليفة وكيله في تنفيذ مهامه ! ثم هو يجعل شارلمان (امير استيلاء يعقد عن اضطرار) على الاندلس وفقا لاصطلاح الماوردي !! اما رنسيمان فيرى في نظرية حماية شارلمان على فلسطين أسطورة مخترعة . ويرجع الدكتور الدوري « احتمال وجود نوع من الصلات ، ولكنها **صلات تجارية لا سياسية ، وان المسئول عنها هم التجار اليهود العالميون** الذى كانوا حلقة وصل بين الشرق والغرب ، ولعلهم من اليهود الراذانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والاقطار لاسلاميه والصين كما بين ابن خرذابة - خاصة وان من أساليب التجار آنئذ ان يدعو بانهم سفراء لتسهيل مصالحهم » .

وهكذا يظهر بوضوح - كما يرى الدكتور مؤنس - ان قصة الاتصالات العباسية الكارولنجية « من ابتكار مؤرخي شارلمان - ليزيدوا

من فضله وجاهه ، وان الذين أيدوها من المؤرخين الاوربيين المحدثين انما فعلوا ذلك بدوافع بعضها دينى كالرغبة فى اثبات أن المسلمين فى أيام عزهم سمحوا للنصارى بحماية الاراضى المقدســة ، بل تركوا مفاتيح كنيسة القيامة في يد شارلمان وبعضها سياسى يرمى الى القــول بأن للغرب على الاراضى المقدسة حقوقا اعترفت بها الدولة الاسلامية فى أوجها»

أما علاقة البيزنطيين بأموى الاندلس فهى أوضح وهناك معلومات متفرقة عنها لدى ابن حيان وابن عذارى والمقرى وابن خلدون ، فقــد أرسل تيوفيل سنة ٢٢٥ هـ : سنة ٨٣٩ ــ ٨٤٠ م الى عبــد الرحمن الأوسط ترجمانا روميا ــ أى سفيرا ــ يسمى كرتيوس ــ Kratiyus حاملا هدايا ورسالة يخطب فيها وده ، ويسأله أن يعقــد معه معاهــدة صداقة ويحرضه على استرجاع ملك أجداده بالشام ، ويطلب استخلاص اقريطش ممن استولى عليها من الاندلس وردها الى دولة الروم « والغالب ان دافع الامبراطور البيزنطى الى هذا المسعى كان خوفه من نوايا المعتصم الخليفة العباسى ــ بعد غزوه عمورية ٠٠ ومما يؤيد ذلك أن تيوفيل أرسل فى نفس الوقت سفارتين : احداهما الى لويس لتقى والاخرى الى البندقية يستصرخهما لعونه على العباسيين الذين كانوا يهددون دولته فى الشرق وعلى أهل افريقية وصقلية الذين استولوا على جزء كبير من أملاك الدولة فى الغرب ٠ وقد رد عبد الرحمن على ذلك بسفارة الى الامبراطور البيزنطى تتكون من اثنين من المنجمين والشاعر يحيى بن حــكم الغزال ــ ومعهم رسالة تبين أن عبد الرحمن كان شديد الحذر فى كتابه الى الامبراطــور البيزنطى ، نعم اننا نجد دلائل على كراهيته للعباسيين ولكنه لم يرتبــط من ناحيته بشىء ، وحتى عن الاندلسيين الذين كانوا قد اســتولوا على صقلية يقرر عبد الرحمن انهم منذ طردوا من الاندلس لم يعودوا رعاياه ، ولا يشير الكتاب الى ما ذكر الامبراطور البيزنطى من أعمال الاغالبة فى صقلية وجنوبى ايطاليا ٠ وقد تجددت المحــاولة فى عهد عبد الرحمن الناصر وكان البادىء بهــا قسطنطين بورفيروجنتيس الذى أرســل سنة ٣٣٦ هـ : سنة ٩٤٧ ــ ٨ م سفارة الى الناصر بدافع من شعوره لما كان بين الامويين والفاطميين من عداء وتخوفه من نوايا أولئك الاخيرين نحوه بعد انتقالهم الى مصر ٠ وقد تلقى الناصر السفارة البيزنطية لقاء حســنا حرص فيه على أن يظهر دولته بمظهر القوة والجاه ٠ وقد وصف المقرى مشهد استقبال سفراء الروم وصفا بديعا وأورد خطبة منذر بن ســعيد البلوطى ٠٠٠ وعندما شرع النــاصر فى بناء مدينة الزهــراء بعث الى

القسطنطينية فى طلب الفسيفساء والمرمر كبير مستعربى الاندلس الاسقف ربيع بن زيد فأدى الرسالة وعاد بالتحف المطلوبة .. وهكذا كانت بين الدولتين البيزنطية والاموية الاندلسية مراسلات وسفارات ، وان أباطرة البيزنطيين حسبوا أول الامر أنهم يستطيعون الافادة من العداء الطبيعى بين الامويين الاندلسيين والعباسيين فى الاستعانة بالأولين على الآخرين ، كما حسبوا أن أمير قرطبة يستطيع رد أذى الاندلسيين على شواطىء الروم. ولكن أمراء الأندلس كانوا أعقل من أن يجروا وراء هذه الأوهام ، وتمكنوا بما عهد فيهم من كياسة من توجيه العلاقات بينهم وبين بيزنطه وجهة سلمية علمية // **لم يكن هناك اذن اتفاق بين البيزنطيين والامويين على عداء العباسيين ولا تفاهم بين العباسيين والفرنجة على الاضرار بالاندلس ، والموضوع كله وهم تاريخى أشبه بالاسطورة أخذت هيئة الحقيقية التاريخية لكثرة تكرارها » (٢٠٣) .**

وهكذا كان المسلمون والبيزنطيون على السواء يحرصون على ان يطلعوا السفراء على أبهة ملكهم ورواثه بوضع برنامج لزيارة السفير يشاهد فيه روائع المنشآت وتقديم هدايا تكون صورة مشرفة للبلد الآخر . وخصصت دور الضيافة لاستقبال السفراء ، وهيىء التراجمة لمصاحبتهم فقد عهد عمر بن عبد العزيز الى عشرة من المسلمين يعرفون اليونانية لمصاحبة سفارة بيزنطية من عشرة رجال وكلفهم أن يدونوا له ملاحظات الروم دون ان يطلعوهم على معرفتهم بلغتهم . ولما دخلت السفارة البيزنطية الجامع الاموى وأخذت تتفرس فى روائعه الفنية خر رئيسها مغشيا عليه ، فسأله رفاقه عن سبب اغمائه بعد افاقته « فقال : انا معشر أهل رومية نتحدث ان بقاء العرب قليل ، فلما رأيت مابنوا علمت أن لهم مدة سيبقونها فلذلك أصابنى ما أصابنى » .

وبالمثل كان البيزنطيون يعرضون على سفراء المسلمين روائع عاصمتهم ومباهجها ، ومن ذلك ماذكره ابن رسته « فى وسط المدينة بلاط الملك وهو قصر والى جانبه موضع يقال له البذرون . (Hippodrome). وهو يشبه الميدان تجتمع اليه فيه البطارقة فيشرف عليهم الملك من قصره فى وسط المدينة وقد صور فى القصر أصنام مفرغة من صفر على مثال الخيل والناس والوحوش والسباع وغير ذلك ، وعلى غرب الميدان بابان : يسوقون الى هذين البابين ثمانية من خيل ، وهناك عجلتان من

---

(٢٠٣) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ .

ذهب يشد كل عجلة على أربعة من الخيل يركب فوق العجلة رجلان قد ألبسا ثياب متوجة بالذهب ، ويتركها تجرى .. حتى تخرج من تلك الابواب فتدور على تلك الاصنام ثلاث دورات فأيها سبق صاحبها ألقي اليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل من ذهب ، وكل من في القسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ويبصرون » . وقد وصف ابن رسته مدينة القسطنطينية وقصر الملك وموكبه في الخروج الى الكنيسة العظمى الى غير ذلك من المشاهد في بلاد الروم .

وكان المسلمون والبيزنطيون يدققون في مراقبة السفراء خشية التجسس ، ويروى ان سفارة بيزنطة أتت لاستطلاع أخبار الاستعدادات لغزو القسطنطينية زمن الوليد بن عبد الملك وهو الغزو الذى تم زمن سليمان .

ويلاحظ أن المسلمين قد تفوقوا على البيزنطيين في ميدان الرحلات وتدوين التقارير عنها ، فتفيض كتب (المسالك) التي وضعها الجغرافيون المسلمون بشرح الطرق المودية الى بلاد الروم وعاصمتهم ومحطات تلك الطرق ، وقد استمدوا معلوماتهم ممن شاهدوا تلك الديار ومعظمهم من كبار الاسرى . وأول رحالة مسلم وصف القسطنطينية هرون بن يحيى احد الاسرى الذين نقلوا الى القسطنطينية في عهد باسيل الاول أو اسكندر ، فوصف طريق البحر الى القسطنطينية كما وصف ما رآه من الملعب والقصر وموكب الامبراطور وتمثال جستنيان وقناطر المياه وبعض الأديرة مما أورده ابن رسته في كتابه ، كذلك زار سالونيك وقد قدم مسلم بن ابى مسلم الجرمي احد الاسرى المسلمين الذين اطلق سراحهم سنة ٢٣١ هـ ـ ٨٤٥ م قائمة من التقسيمات الادارية العسكرية للدولة البيزنطية التي تسمى (البنود) كانت المادة الاساسية التى استمد منها الجغرافيون المسلمون معلوماتهم ـ كما يذكر ابن حرذابة مثلا، وقد زار المسعودى القسطنطينية . (٢٠٤) .

(٢٠٤)دكتور العدوي : الامويون والبيزنطيون ص ٢٥٣ : ٧ ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٥٨ : ١٦١ ، التمثيل السياسى بين الخلافة العباسيه والدولة البيزنطية المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ٢ مايو سنة ١٩٥٢ ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ١١٩ ومابعدها. المقدسي أحسن التقاسيم ص ١٤٧ : ١٥١، ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٠١ وما بعدها ، فازيلييف : بيزنطة والاسلام ـ فصل من كتاب Byzantium مترجم وملحق بكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص، ٣٧٧ ـ ٨

ويذكر أن « البطاركة » كانوا أشبه بسفراء سلام بين ملوك الاسلام وملوك الروم اذا وقع حيف على المسلمين في بلاد أعدائهم ينتدبهم ولاة الاسلام الى مطالعة الروم بما ينال النصارى في الشام وغيرها من الاضطهاد ان هم أساءوا الى المسلمين الواقعين في أسرهم والراحلين اليهم في التجارة » (٢٠٥) .

* * *

وقد كتب المسلمون في الشروط التي يجب توفرها في السفراء وفي القواعد التي يسيرون عليها في قيامهم بمهامهم وفي مقدمة كتاب المسلمين في هذا الموضوع ابن الفراء صاحب كتاب (رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة) ، وقد تحير محققه في شخصية الكاتب ورجح أن يكون أحد رجلين : موصلي تكلم عنه الخطيب أو قرطبي ذكره السمعاني . وبعد ان تكلم المؤلف على رسل الله ، تحدث عن ميزات الرسالات المكتوبة والسفارات الشخصية « فالكتاب مقصور على معناه الذي يتضمنه لا يتعداه الى غيره ، والرسول يتصرف في مذاهب الحجة . فالكتاب يد والرسول لسان ، والواجب على الملوك ان يقرنوا كتبهم بالرسل لما في ذلك من كمال الفائدة ووجوب الحجة ، ولقطع الرسول الامر اذا كان مأمورا من غير مراجعة ولا احتياج الى استئذان مرسله » . على أن ابن الفراء ينهي الرسول عن تعدى ما أرسل به ويؤثر أن يخطيء برأى المرسل على ان يصيب برأيه ، وهو ينهي كذلك عن الوهم بالرسالة والتحريف لها . ثم يعدد الشرائط التي ينبغي توفرها في الرسول . فاما من الناحية النفسية فينبغي للرسول أن يغفل اذا سفر بين ملكين وكان احدهما يرعد ويبرق ويتوعد ويستعدى فهو بهذا التغاضي يصغر اليه نفسه « والرسول محتاج من الاقدام والجرأة الى مثل ما يحتاج اليه من الوقار والركانة .. ويحتاج الرسول من الحلم وكظم الغيظ ما يحتاج اليه من الصبر على طول المكث وتراخي المقام فان الرسول ربما وجه الى سخيف ودفع الى طائش .. » وقد يدفع الرسول من ملكه الى رسالة غليظة يؤمر بان يؤديها على وجهها ويحظر عليه أن يغيرها ، فيحتال حتى يؤدى الرسالة ويسلم من معرة الملك المرسل اليه ويعود بحمد منه وقد نصح لمن أرسله وأدى مقالته . وينبغي أن يكون الرسول تاما ذا بهاء ورواء فما فيه من فضل عائد على من أرسله وهنا ينتقل ابن الفراء الى بيان الصفات الجسمية للسفر « ويستحب في الرسول تمام القد وعبالة الجسم حتى لا يكون قميئا ولا ضئيلا ، وان كان المرء بأصغريه ومخبوءا تحت لسانه . ولكن الصورةتسبق اللسان والجثمان

---

(٢٠٥) كرد علي : خطط الشام جـ ٦ ص ١٢ .

يستر الجنان ولذلك ما قال عمر « يؤذن لكم فيقدم أحسنكم اسما ، فاذا دخلتم قدمنا أحسنكم وجها فاذا نطقتم ميزتكم ألسنتكم) » ٠ وقال أبو زيد في السياسة المختصرة « وأن يكون الذى تختاره للتوجه فى الرسائل جهر الصوت حسن الرداء والمنظر ، مقبول الشمائل ، حسن البيان جيد العبارة ، حافظا لما يتبلغ ليؤديه على وجهه ٠ ولا يمنعه الصدق عن سلطانه رغبة يقدمها فيمن يتوجه اليه ولا مهانة يستشعرها فى نفسه وتقديم النصيحة لرئيسة ٠٠ » وقال غير البلخى « ٠٠٠ ويجب أن يجمل بكل ما أمكن الوافد ، والعامة ترمق الزى أكثر مما ترمق الكفاية والسداد ٠ ويجب أن تزاح علله فيما يحتاج اليه حتى لا تشره نفسه الى ما يبذل له ويدفع اليه ، فان الطمع يقطع الحجة ، والرسول أمين لا أمين عليه فيجب أن يرتهن بالاحسان اليه والافضال عليه » ٠

وجاء فى سيرة المعتصم انه وجه رسولا الى ملك الروم فلما رأى الملك هيبة الرسول وكثرة تجمله وما صحبه من الرحل والآلات التى لا يكون مثلها الا لعظماء الملوك قال له : كم ترزق من مال سلطانك ؟ قال : أرتزق أنا وولدى فى كل شهر عشرين ألف درهم أو نحوها ٠ قال : فتحت فتحا قط كان السلطان به معنيا ؟ قال الرسول : لا ٠ قال الملك : نازلت رجلا مشهورا بالفروسية من أعداء سلطانك فقتلته مجاولة ؟ قال الرسول : لا ٠ قال : فاستنفذت خليفة أو ولى عهد وقد لجج فى مضيق او معركة لم يظن الخلاص منها فوجد باقدامك وقد احجم نظراؤك فرجه ؟ قال الرسول : لا ٠ قال الملك : فبأى شىء تستحق هذا الرزق الكثير ؟ قال الرسول للملك : **ان للخلفاء خدما يتصرفون فى انحاء الخدم : لكل طائفة مذهب يجتبون له ويحتملون عليه لا يكلفون سواه ولا يراد منهم غيره** ٠ فمنهم من يعد للفتوح فهو يلبس السلاح ويقود الجيوش ، ومنهم **من يعد للقضاء فهو يلبس المبردات والدنيات (الدنية : القلنسوة ، تاج العروس) ومنهم مثلى من يصلح أن توفده الخلفاء للملوك ويحتمل رسائلهم الى أمثالك من أهل الجلالة والقدر والسناء والذكر** ـ فلولا ثقتهم بى ـ وعلمهم بمناصحتى وصدقى فيما أورد وأودى ـ صادرا وواردا لما رأونى أهلا للتوجه فيما توجهت فيه اليك ، وقيل لمثلى هذا الرزق مع هذا التحمل ومع هذا المحل من الخلافة وهى من الجلالة ما هى ٠ فسكت ملك الروم سكوت معترف ولم يقل فى ذلك شيئا ٠

ولم يفت ابن الفراء امتحان السفراء وقد أورد المؤلف ما كانت الفرس تعمله من الاحتياط على الرسل ليصح لهم الخبر المورد عليهم اذ

الاخبار مظان الصدق والكذب . وأخذ المؤلف يعرض صورا من المحاورات والمداورات بين السفراء والملوك الذين يسفرون عندهم فنهى عن مفاتحة رسل الملك بحضرة الملأ من الناس ومنع من جدالهم وان لا يمكنوا الا من أداء الرسالة وتحمل الجواب ، وروى عن الواقدى « مات رسول ملك الروم بدمشق فى زمن معاوية فوجد فى جيبه لوح ذهب مكتوب فيه حفرا : اذا ذهب الوفاء نزل البلاء ، واذا مات الاعتصام عاش الانتقام ، واذا ظهرت الخيانات قلت البركات » . ونهى الملوك – كما نهى السفراء من قبل – عن العجل الى السفه فى المكاتبة وساق ذلك مثلا أن هشـــام كتب الى ملك الروم « من هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين الى الطاغية ملك الروم .. » فلما وصل اليه الكتاب وقرأ العنوان قال : ما ظننت أن الملوك العقـلاء يسبون ، وما كان يؤمنه ان أكتب اليه من ملك الروم الى الملك المذموم الأحول المشئوم ! وأعاد الكتاب ولم يفضه ولا قرأه ثم سار عقيبه فشعث بلاد الاسلام » . كما ساق هناك سوء خطاب نقفور للرشيد وما جره عليه من غزو هرقلة (٢٠٦) .

أما صاحب (آثار الاول فى ترتيب الدول) فقد قال بعد كلامه عن ميزة بعث الواحد فى سفارة على بعث سفراء متعددين « وينبغى للملك ان يتقدم أمره الى جميع عماله بالبلاد التى تحت حكمه أن يعتنوا بأمر الرسل والقصاد من أطراف البلاد فينزلوا مساكن تليق بهم ويجرى عليهم من النفقات والاطعمة ما يرغد به عيشهم ، وكذلك يقام لهم بوظيفة المراكب حسبما تدعو الحاجة اليه ، وان نفق لهم دابة عوضوا عنها ، ويكون ذلك معدا لهم فى جميع البلاد التى على أطراف الطرق ، وما يلزم الطرقات لمثل هذا ، وان كانت الطرق والمسالك تحتاج الى خفراء كان اجود أن يسير معهم الخفراء والدللاء ... فان كان ممن ينبغى للملك الاجتماع به وان يستقبله بنفسه فعل ذلك ، وهو على مقدار المرسل – وكل رسول على مقداره ومقدار مرسله . ومن الرسل من يعتبر حاله : فان لم يمكن الملك ان يتلقاه بنفسه بعث اليه أحدا من اركان دولته على مقـدار الرســول ومرسله حسبما يليق حاله . **فان كان الرسول من صاحب ثغر أو والى حرب اجتمع به لوقته** وسمع رسالته فربما كان فيه مصلحة وفى تأخيره مضرة ، وان لم يكن كذلك فليترك فى دار الضيافة ثلاثة أيام ولا يمكن احدا من الاجتماع به ، ثم يستدعى وقد رتبت دار الملك فى ذلك اليوم ويجتمع العساكر والجند ويجلس الملك على سرير الملك فى أحسن أبهه وزى

(٢٠٦) ابن الفراء : رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة .

... ثم يخرج الكتب التي معه فيضعها على وجهه وعينيه ثم يطرحها بين يدى الملك ، فان اراد الملك اكرام صاحبها فليقم لتناولها وليشر بالخدمة عند فضها وقراءه اسم مرسلها ، ثم يلبث قليلا حتى يشير اليه الملك بالجلوس فيتأخر ويجلس حيث يجلسه الحاجب .. فان سأله الملك عن شيء من أحوال مرسلة أجاب عنه بما ليس فيه سر ولا كتمان ، ويترك ما عنده من المشافهة والاسرار الى مجلس الخلوة . ثم يشير الى صاحبه بانصرافه الى دار الضيافة للاستراحة ، وان كان معه هدية فليخاطب الحاجب عنه الملك : ان الملك الفلانى قد بعث هدية يلتمس قبولها ـ فيشير الملك بحضورها وهى محصلة عند اقرب الابواب ، فتعرض عليه بما فيها من دواب وجوارح وثياب مع ثبت يتضمن ذلك الا الجوارى فلا تعرض بل يمضى بها الى دار الحريم بعد استئذان مع الخدم والقهرمانه » (٢٠٧) .

وقد ضمن الفقه الاسلامى **حصانات كافية للسفراء** من ذلك ما جاء فى شرح السير الكبير « ولو ان رسول ملك أهل الحرب جاء الى عسكر المسلمين فهو آمن حتى يبلغ رسالته ـ بمنزلة مستأمن جاء للتجارة . فان أراد الرجوع فخاف الامير أن يكونا ـ الرسول والمستأمن ـ قد رأيا للمسلمين عورة فيدلان عليها العدو فلا بأس بأن يحبسهما عنده حتى يأمن من ذلك .. الا انه لا ينبغى له أن يقيدهما ولا أن يغلهما . وان سار الامام راجعا الى دار الاسلام فله أن يذهب بهما معه حتى يبلغ الموصل الذى يأمن فيه مما يخاف عنهما ثم يخلى سبيلهما .. فان وصل الى مأمنه من دار الاسلام ثم أمرهما بالانصراف فسألاه أن يعطيهما مالا يتجهزان به الى بلادهما فانه ينبغى له أن يعطيهما من النفقة ما يبلغهما الى المكان الذى أبيا أن يصحباه منه لأنه جاء بهما مكرهين من ذلك الموضع فعليه أن يردهما اليه ، وكان ذلك منه نظرا للمسلمين فتكون تلك المؤنة من بيت مال المسلمين بمنزلة نائبة تنوب المسلمين . وفيما يجاوز ذلك قد أتيا اختيارا منهما فلا يعطيهما للرجوع نفقة .. فان أراد تخلية سبيلهما بعد ما أمن وكان هو فى موضع يخافان فيه فينبغى له أن ينظر لهما ولا يخلى سبيلهما الا فى موضع لا يخاف عليهما فيه ، وان كانا لا يأمنان من اللصوص فينبغى له أن يرسل معهما قوما يبلغونهما مأمنهما » (٢٠٨) .

وينبغى ألا يقتل السفراء أو يزعجوا أو تساء معاملتهم بحال حتى ولو كان المبعوث عدوا للدولة الموفد اليها ، فهكذا كان فعل الرسول مع مبعوثى

(٢٠٧) الحسن بن عبد الله : آثار الاول فى ترتيب الدول ص ٩٣ : ٦ .

(٢٠٨) شرح السرخسى للسير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى ج ٢ ص ٥١٥ : ٥٢٠

مسيلمة . وللسفراء حرية العبادة حسب دينهم ، فقد ترك النبى وفد نجران يؤدى عبادته فى المسجد . ويعفى متاع المبعوث من المكوس فى دار الاسلام على قاعدة المعاملة بالمثل كما يقرر الشيبانى (٢٠٩) .

فداء الاسرى :

لم تقم سفارات كبرى بين الدولتين الاموية والبيزنطية لتبادل الاسرى على نحو ما حفل به العصر العباسى فيما بعد رغم اتساع دائرة الحروب فى العصر الاموى . فلا نجد غير اشارات عابرة عن اتصالات دبلوماسية لاطلاق سراح بعض الشخصيات الكبرى من رجال الدولتين واقتصر الفداء على حالات فردية (٢١٠) فيروى الطبرى مثلا فى أخبار سنة ٩٠ هـ (٧٠٩م) : «أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحر فذهبوا به الى ملكهم فأهداه ملك الروم الى الوليد بن عبد الملك » (٢١١) . وقد كان المسلمون يحسنون معاملة الاسرى حتى ولو غدر بهم أعداؤهم ، فروى البلاذرى « أن الروم صالحت معاوية على أن يؤدى اليهم مالا وارتهن معاوية منهم رهنا فوضعهم ببعلبك ، ثم أن الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من فى أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر ــ وهو قول العلماء الاوزاعى وغيره » (٢١٢) .

وروى ابن رسته أن فى القسطنطينية « أربعة حبوس : حبس منها للمسلمين ، وحبس لاهل طرسوس ، وحبس للعامة ، وحبس لصاحب الشرط » (٢١٣) ، ويذكر المقدسى الاقوال فى وصف القسطنطينية يقول « ان للمسلمين بها دارا يجتمعون فيها ويظهرون الاسلام بها .. اعلم أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر شرط على كلب الروم بناء دار بازاء قصره فى الميدان ينزلها الوجوه والاشراف اذا أسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده ، فأجابه الى ذلك وبنى **دار البلاط** ــ والبلاط خلف الميدان يصنع به الديباج الملكى .. ولا يسكن دار البلاط من المسلمين الا وجيه فى اجراء وتعاهد وتنزه ، وسائر الاسارى من عامة

---

(٢٠٩) Hamidullah : The Muslim Conduct of State. pp. 148-9.

(٢١٠) دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٢٥٢ ــ ٣ ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٩٦ .

(٢١١) الطبرى جـ ٨ ص ٦٨ .

(٢١٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٥ ــ ٦

(٢١٣) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ص ١٢٠ ــ ١ .

المسلمين يستعبدون فى الصنائع ـ فالحازم الذى اذا سئل عن صنعته لم يقر بها ، وربما اتجر الاسارى بينهم وانتفعوا ، ولا يكرهون احدا على أكل لحم الخنزير ولا يثقبون أنفا ولا يشقون لسانا • ومن دار الكلب الى دار البلاط حبل ممدود فيه صورة فرس من نحاس ، ولهم اوقات يجتمعون فيها للعب •• فاذا أرادوا أن يتفاءلوا فى لعبهم صاروا حزبين وأرسلوا الخيل حول الدكة فان سبقت خيل حزب الكلب قالوا : ستكون الغلبة للروم •• وان غلبته خيل حزب الوزير قالوا : ستكون الغلبة للمسلمين وذهبوا الى المسلمين فيخلعون عليهم ويصلونهم لكون الغلبة لهم » (٢١٤)

وكان تبادل الاسرى يجرى عند **اللامس فى مقاطعة سلوقية** على مسيرة يوم من طرسوس • على ان المقدسى يروى حدوث الفداء فى **ثغور فلسطين** مثل قيسارية حيث « تقلع اليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم اسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون اليهم فى الرسالات ••• فتوقده المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الاخرى فما تكون ساعة الا وقد أنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ونودى الى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق ثم يكون الفداء فرجل يشترى رجلا وآخر يطرح درهما او خاتما حتى يشترى ما معه • ورباطات هذه الكورة التى يقع بهن الفداء غزة ميماس ، عسقلان، ماحوز أزدود، ماحوزيبنا، يافا ، أرسوف » (٢١٥)

وكانت تسبق حركة التبادل ايفاد سفارات يشترك فيها عمال الثغور لتقرير أسس الفداء ويتضح من هذه المفاوضات أن تبادل الاسرى كان يجرى طبقا لقواعد مرسومة ونظم خاصة فاذا ما نجحت المفاوضات استعد الطرفان استعدادا عظيما لعمليات الفداء • ويورد المسعودى فى (التنبه والاشراف) ثبتا بالافدية بين المسلمين والروم ، **وقد حدثت منها فى الفترة التى ندرسها من العصر العباسى ـ الى عصر المتوكل ـ خمسة افدية تتفق تواريخها التى اوردها المسعودى مع ما ورد فى مراجع الحوليات وفى مقدمتها تاريخ الطبرى** • على أن المسعودى يجعل الفداء الاول فى خلافة الرشيد سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) فى حين أن المسعودى يجعل الفداء سابقا على هذا التاريخ سنة ١٣٩ هـ (٧٥٧ م) **فى عهد**

---

(٢١٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٤٧ ـ ٨ ٠

(٢١٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧٧ •

المنصور * » فاستنقذ المنصور منهم اسراء المسلمين ، ولم يكن بعد ذلك فيما قيل للمسلمين صائفة الى سنة ١٤٦ هـ ٠٠ لاشتغال أبي جعفر بأمر بني عبد الله ابن الحسن ٠٠٠ » فكأن هذا الفداء كان لتصفية الوضع على الحدود البيزنطية مؤقتا ليتفرغ العباسيون لمعالجة مشكلاتهم الداخلية في تلك الفترة المبكرة التي يقيمون فيها أسس دولتهم ٠

ثم يتفق الطبرى مع المسعودى فى تسجيل الافدية التالية :

● ففى سنة ١٨٩ (٨٠٥ م) **من عهد الرشيد** كان الفداء بين المسلمين والروم فلم يبق بأرض الروم مسلم الا فودى به فيما ذكر ٠ فقال مروان بن أبى حفصة فى ذلك :

وفكت بك الاسرى التى شيدت لها — محابس ما فيهـا حميم يزورها
على حين أعيـا المسلمين فكاكها — وقالوا سجون المشركين قبـورها

والمسعودى يرى ان ذلك « كان أول فداء جرى فى أيام ولد العباس باللامس من ساحل البحر الرومى على نحو من ٣٥ ميلا من طرسوس والملك على الروم نقفور بن استبراق وذلك على يد القاسم بن الرشيد وباسمه وهو معسكر بمرج دابق من بلاد قنسرين من أعمال حلب ٠٠٠ حضر هذا الفداء وقام به أبو سليم فرج خادم الرشيد المتولى له بناء طرسوس فى سنة ١٧١ للهجرة وسالم البرلسى البربرى مولى بنى العباسى فى ثلاثين ألفا من المرتزقة ، وحضره من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار وغيرهم نحو من خمسمائة ألف وقيل أكثر من ذلك بأحسن مايكون من العدد والخيل والسلاح والقوة قد أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ٠ وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزى ومعهم أسارى المسلمين ، وكان عدة من فودى به من المسلمين فى اثنى عشر يوما ثلاثة آلاف وسبعمائة وقيل أكثر من ذلك وأقل ، والمقام باللامس نحو من أربعين يوما قبـل الأيام التى وقع الفداء فيها وبعدها ٠ وانما نذكر فى كل فداء يرد فيما بعد هذا الفداء الايام التى وقع فيها الفداء لا مدة مقام الناس باللامس اذ كان يطول ويقصر » ٠

● **وتلا ذلك فداء آخر فى عهد الرشيد أيضا وذلك سـنة ١٩٢ هـ**

(*) عبارة المسعودى عن فداء ١٨٩ هـ « كان أول فداء جرى فى أيام ولد العباس باللامس» ـ تحتمل ان يكون هذا أول فداء جرى باللامس ، أو ان يكون هذا أول فداء جرى فى أيام ولد العباس ٠ ويرجح الاحتمال الأخير أن المسعودى لم يذكر فداء سابقا عليه فى عهد بني العباس فى موضع غير اللامس ٠

(٨٠٨ م) ويكتفى الطبرى هنا بالاشارة ان الفداء جرى على يدى ثابت بن نصر بن مالك وانه كان بالبدندون ، ويلاحظ هنا أيضـــا أنه « لم يكن للمسلمين بعد هذه السنة صائفة الى سنة ٢١٥ هـ » ٠ والمسعودى لايزيد على ذلك الا أن ثابت كان أمير الثغور الشامية وان الفداء « حضره مئـو ألوف من الناس وكان عدة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفين وخمسمائة ونيفا من ذكر وأنثى ٠

● على أن الطبرى يذكر فى ثنايا رواياته **فداء أيام الامين** فيقول : « ولم يكن فداء منذ أيام محمد بن زبيدة فى سنة ١٩٤ أو سنة ١٩٥ هـ (٨١٠ ـ ١١ م) » ٠

● وبالنسبة **للفداء الذى جرى فى عهد الواثق** نجد مادة المعلومات عند وفيرة فى المراجع الاسلامية ، وهى تكون أقدم صورة مفصـلة عن المفاوضات السابقة على الفداء ، ثم الاجراءات التى تتم لانجاز الفداء ٠٠٠ وهى صورة مستمدة من روايات شهود العيان من الاسرى المسلمين الذين استنفذوا فى هذا الفداء ٠ فيذكر الطبرى فى أخبار سنة ٢٣١ هـ (٨٤٦م) « ما كان من أمر الفداء الذى جرى على يد خاقان الخادم بين المسلمين والروم فى المحرم منها فبلغت عدة المسلمين فيما قيل أربعة آلاف وثلثمائة واثنين وستين انسانا ٠٠٠ واجتمع المسلمون والروم على نهر يقال له اللامس على مسيرة يوم من طرسوس ٠٠ فقدم له الواثق رسل صاحب الروم وهو ميخائيل ابن توفيل بن ميخائيل بن اليون بن جرجس يسأله أن يفادى بمن فى يده من أسارى المسلمين ، فوجه الواثق خاقان فى ذلك فخرج خاقان ومن معه فى فداء أسارى المسلمين فى آخر سنة ٢٣٠ على موعد بين خاقان ورسل صاحب الروم لالتقاء للفداء فى يوم عاشوراء سنة ٢٣١ ٠ ثم عقد الواثق لاحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبه الباهلى على الثغـور والعواصم وأمره بحضور الفداء ـ فخرج على سبعة عشر من البرد ، وكان الرسل الذين قدموا فى طلب الفداء قد جرى بينهم وبين ابن الزيات اختلاف فى الفداء ـ قالوا : لانأخذ فى الفداء امرأة عجوزا ولا شيخا كبيرا ولاصبيا، فلم يزل ذلك بينهم أياما حتى رضوا عن كل نفس بنفس ٠ فوجه الواثق الى بغداد والرقة فى شرى من يباع من الرقيق من مماليك فاشترى من قدر عليه منهم فلم تتم العدة ، فأخرج الواثق من قصره من النساء الروميات العجائز وغيرهن حتى تمت العدة ٠٠ فذكر عن أحمد بن الحارث انه قال: سألت ابن أبى قحطبة صاحب خاقان الخادم ـ (وكان السفير الموجه بين المسلمين والروم ، وجه ليعرف عدة المسلمين فى بلاد الروم ، فأتى ملك

الروم وعرف عدتهم قبل الفداء) ـ فذكر انه بلغت عدتهم ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة . فأمر الواثق بفدائهم وعجل أحمد بن سعيد على البريد ليكون الفداء على يديه ... فلما كان يوم عاشوراء اجتمع المسلمون ومن معهم من العلوج وقائدان من قواد الروم يقال لأحدهما القاس وللآخر طلسيوس، والمسلمون والمطوعة فى أربعة آلاف بين فارس وراجل. فذكر عن محمد بن أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبه الباهلى أن كتاب أبيه أتاه أن من فودى به من المسلمين ومن كان معهم من أهل ذمتهم أربعة آلاف وستمائة انسان منهم صبيان ، ونساء وستمائة ، ومنهم من أهل الذمة اقل من خمسمائة والباقون رجال من جميع الآفاق .. وأوفد أحمد بن سعيد وخاقان محمد ابن عبد الله الطرسوسى مع نفر من وجوه الاسرى على الواثق فحملهم الواثق على فرس وأعطى لكل رجل منهم ألف درهم . وذكر محمد هـذا أنه كان أسيرا فى أيدى الروم ثلاثين سنة ، وانه كان أسر فى غزاة رامية ـ كان فى العلافة فأسر ... قال محمد : فلما جمعوا للفداء وقف المسلمون من جانب النهر الشرقى والروم من الجانب الغربى وهو مخاضة ، فكان هؤلاء يرسلون من ههنا رجلا وهؤلاء من هنها رجلا فيلتقيان فى وسط النهر ، فاذا صار المسلم الى المسلمين كبرو وكبروا ، واذا صار الرومى الى الروم تكلم بكلامهم وتكلموا شبيها بالتكبير . وذكر عن السندى مولى حسين الخادم انه قال : عقد المسلمون جسرا على النهر وعقد الروم جسرا ، فكنا نرسل الرومى على جسرنا ويرسلون المسلم على جسرهم فيصير هذا الينا وذاك اليهم وأنكر أن يكون مخاضة ... قال محمد بن كريم : وكان البطريقان اللذان قدما بالاسرى لا بأس بهما فى معاشرتهما ، وخاف الروم عدد المسلمين لقلتهم وكثرة المسلمين فآمنهم خاقان من ذلك وضرب بينهم وبين المسلمين أربعين يوما لا يغزون حتى يصلوا الى بلادهم ومأمنهم . وكان الفداء فى أربعة أيام ، ففضل مع خاقان ممن كان أمير المؤمنين أعد لفداء المسلمين عدة كبيرة ، وأعطى خاقان صاحب الروم من كان قد فضل فى يده مائة نفس ليكون عليهم الفضل استظهارا مكان من يخشى أن يأسروه من المسلمين الى انقضاء المدة ورد الباقين من طرسوس فباعهم . قال : وكان خرج معنا ممن كان تنصر ببلاد الروم من المسلمين نحو من ثلاثين رجلا فودى بهم » .

ويتبين من هذه المعلومات أن أهل الذمة كانوا مع المسلمين فى أسر الروم وجرى فداء هؤلاء مع أولئك وأن الاسير قد يمكث فى أيدى الروم ثلاثين سنة ، وأن من الاسرى من تنصر ببلاد الروم وفودى بهم . وأخيرا تبدى هذه المعلومات أن المسلمين كانوا يؤمنون عدوهم حتى يعودوا الى

بلادهم ويمتد مأمنهم الى ما بعد الفداء بوقت كاف حدد بأربعين يوما ٠ كذلك تشير المعلومات الى تولى أمير الثغور والعواصم أمر الفداء « ثم عقد الواثق لاحمد بن سعيد على الثغور والعواصم وأمره بحضور الفداء » كما تشير الى استخدام البريد فى النقل الحربى اذا قصد السرعة « فخرج على سبعة عشر من البرد ٠٠ وعجل أحمد بن سعيد على البريد ليكون الفداء بين يديه » ٠

ولا تزيد الصورة التى يقدمها المسعودى عن هذا الفداء شيئا بل ينقصها كثير من التفاصيل وانما يعطى أرقاما جديدة فى تحديد عدد الاسرى ويذكر شخصية كبيرة منهم فيقول : « وعدة من فودى به من المسلمين فى عشرة أيام أربعة آلاف وثلثمائة واثنين وستين من ذكر وأنثى ، وقيل أربعة آلاف وسبعة وأربعين على ما فى كتب الصوائف ، وقيل أقل من ذلك ٠ وفى هذا الفداء أخرج أهل زبطرة ، **وفيه خرج مسلم بن أبى مسلم الجرمى وكان ذا محل فى الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها وله مصنفات فى أخبار الروم اليها والغارات عليها ومن جاورهم من الممالك** من برجان والابر والبرغر الصقالبة والخزر وغيرهم » ٠

وقد بلغ من تعصب الخلفاء العباسيين فى ذلك الوقت لمسألة خلق القرآن التى أثيرت منذ أيام المأمون أن الواثق « وجه ممن مع ابن أبى داؤد رجلين يقال لاحدهما يحيى بن آدم الكرخى ويكنى أبا رملة وجعفر بن الحداء ، ووجه معهما كاتبا من كتاب العرض يقال له طالب بن داود ، وأمره بامتحانهم هو وجعفر : فمن قال القرآن مخلوق فودى به ومن أبى ذلك ترك فى أيدى الروم ٠ وأمر لطالب بخمسة آلاف درهم ، وأمر أن يعطوا جميع من قال ان القرآن مخلوق ٠ قال محمد بن كريم : لما صرنا فى أيدى المسلمين امتحننا جعفر ويحيى فقلنا ، وأعطينا دينارين دينارين» ٠٠ وقد أدى هذا التعصب الاحمق الى أن يختار بعض الاسرى الرجوع الى أرض النصرانية على القول بخلق القرآن ٠

● وجرى **فداء فى خلافة المتوكل سنة ٢٤١هـ (٨٠٦م)** لدينا عنه مادة مفصلة ومنها يظهر أن الروم كانوا يعرضون على الاسرى ترك دينهم واعتناق النصرانية تمشيا مع الطابع الدينى المقدس للحروب بين المسلمين والروم ٠ ويقول الطبرى « ذكر ان تذوره صاحبة الروم أم ميخائيل وجهت رجلا يقال له جورجس بن فرناقس يطلب الفدى لمن فى أرض الروم من المسلمين ، وكان المسلمون قد قاربوا عشرين ألفا ٠ فوجه المتوكل رجلا من الشيعة يقال له نصر بن الازهر بن فرج ليعرف صحة من

فى أيدى الروم من أسارى المسلمين ليأمر بمفاداتهم ... فذكر ان تذوره أمرت بعد خروج نصر بعرض أسراها واعراض التنصر عليهم ، فمن تنصر منهم كان أسوة من تنصر قبل ذلك ومن أبى عليها قتلته . فذكر أنهاقتلت من الاسرى اثنا عشر ألفا ، ويقال ان قنقلة الخصى كان يقتلهم من غير أمرها . ونفذ كتاب المتوكل الى عمال الثغور الشامية والجزرية أن شنيفا الخادم قد جرى بينه وبين جورجس رسول عظيم الروم فى أمر الفداء قول ، وقد اتفق الامر بينهما وسأل جورجس هذا هدنة لخمس ليال تخلو من رجب سنة ٢٤١ هـ الى سبع ليال بقين من شـــوال من هذه السنة ليجمعوا الأسرى ولتكون مدة لهم الى انصرافهم الى مأمنهم . فنفذ الكتاب بذلك .. وكان الفداء يقع فى يوم الفطر من هذه السنة ، وخرج جورجس رسول ملكة الروم الى ناحية الثغور على سبعين بغلا اكتريت له ، وخرج معه أبو قحطبة المغربى الطرطوسى لينظروا وقت الفطر ، وكان جورجس قدم معه جماعة من البطارقة وغلمانه بنحو من خمسين انسانا . وخـرج شنيف الخادم للفداء فى النصف من شعبان معه مائة فارس ثلاثون من الاتراك وثلاثون من المغاربة وأربعون من فرسان الشاكرية . فسأله جعفر بن عبد الواحد وهو قاضى القضاة أن يؤذن له فى حضور الفــداء وأن يستخلف رجلا يقوم مقامه ، فأذن له وأمر له بمائة وخمسين ألفا معونة وأرزاق ستين ألفا فاستخلف ابن أبى الشوارب ... وخرج قوم من أهل بغداد من أوساط الناس فذكر أن الفــداء وقع من بلاد الروم على نهـر اللامس لأثنتى عشرة ليلة خلت من شوال فكان أسرى المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين انسانا ، ومن النساء مائة وخمس وعشرين امرأة » ٣٠/

على أن المسعودى يذكر أن عـلى بن يحيى الارمنى صاحب الثغـور الشامية قد حضر هذا الفداء « فكان عدة من فودى به من المسلمين فى سـبعة أيام ألفى رجـل ومائتى امرأة ، وكان مع الروم من النصـارى المأسورين من أرض الاسلام مائة رجل ونيف ، فعوضوا مكانهم عدة أعلاج اذ كان الفداء لا يقع على نصرانى ولا ينعقد » . وهو مبدأ لم يشر اليه الطبرى من قبل فى فداء أهل الذمة بل روى على العكس نقلا عن أحـد مصادره فى أخبار فداء سنة ٢٣١ هـ « قال : وكان خرج معنا من كان تنصر ببلاد الروم من المسلمين نحو من ثلاثين رجلا فودى بهم » ، وربما رجع هؤلاء الى الاسلام عند الفداء كما يتضح من رواية الطبرى الاخرى عن فداء سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) . ويبدو من أخبار فداء سنة ٢٤١ هـ الفداء كيف كان القوم يتطلعون الى شهود الفداء وكيف كانوا يشخصون من بغداد الى موضعه القصى .

● وتلا ذلك **فداء نصر بن الازهر وعلى بن يحيى الارمنى فى صفر أو جمادى الاول سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م)** « ففودى بألفين وثلثمائة وستين نفسا » . وقد مهدت للفداء مفاوضات نصر بن الازهر للقسطنطينية ، يقول « وانقطع الامر بيني وبينهم في الفداء على أن يعطوا جميع من عندهم وأعطى جميع من عندى وكانوا أكثر من ألف قليلا . وكان جميع الاسرى الذين في أيديهم أكثر من ألفين منهم عشرون امرأة معهن عشرة من الصبيان .. ثم خرجت من عنده بالاسرى على أحسن حال حتى اذا جئنا موضع الفداء أطلقنا هؤلاء جملة وهؤلاء جملة ، وكان عداد من صار فى أيدينا من المسلمين أكثر من ألفين منهم عدة من كان تنصر ، وصار فى أيديهم أكثر من ألف قليلا . وكان قوم تنصروا ، فقال لهم ملك الروم : لا أقبل منكم حتى تبلغوا موضع الفداء والا فليضمن وليمض مع أصحابه . وأكثر من تنصر أهل المغرب وأكثر من تنصر بالقسطنطينية ، وكان هناك صائغان قد تنصرا فكانا يحسنان الى الاسرى ، فلم يبق فى بلاد الروم من المسلمين ممن ظهر عليه الملك الا سبعة نفر ، خمسة أتى بهم من سقلية أعطيت فدائهم على أن يوجه بهم الى سقلية ، ورجلين كانا من رهائن لؤلؤة فتركها ، قلت : اقتلوهما فانهما رغبا فى النصرانية » .

وتدل معلومات هذا الفداء على وجود أسرى من المغرب وصقلية ، وقد قام العباسيون بافتداء أسرى صقلية وتوجيههم اليها . **وكانت صقلية قد تعرضت لهجوم الاغالبة** فى عهد زيادة الله الاغلبى (الاول ٢٠١ : ٢٢٣هـ / ٨١٧ : ٨٣٨ م) وذلك فى سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، وهؤلاء كانوا يحكمون تونس **حكما يكاد يكون مستقلا** عن الخلافة العباسية منذ اتفاقهم مع الرشيد سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ويبدو كذلك أن معاملة الاسرى ـ خاصة بالنسبة لعرض النصرانية عليهم قد تحسنت عما كانت عليه من قبل مما أورده الطبرى فى أخباره منذ سنوات سنة ٢٤١ هـ .

● **وتتابعت الافدية بعد ذلك كما يروى المسعودى فى عهود المعتز والمعتضد والمكتفى والمقتدر حتى كان فداء ابن حمدان فى خلافة المطيع .. وهو يذكر أفدية لم تثبت عنده مثل أفدية : النقاش الانطالى أيام المهدى ، وعياض بن سنان أيام الرشيد سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) وثابت بن نصر أيام الامين سنة ١٩٤ هـ (٨١٠ م) ، ومحمد بن على أيام المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) (٢١٦) .**

(٢١٦) الطبرى ج ٩ ص ١٧١ ، ج ١٠ ص ٩٧ ، ١٠٨ ـ ٩ ، ج ١١ ص ١٣ ، ١٩ : ٢١ ، ٥١ ـ ٢ ، ٦٠ ـ ١ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٦٠ : ٣ وبقية الأفدية حتى ص ١٦٦ .

على ان معاملة الأسرى ربّما تأثرت بتدهور أحوال الدولة الاسلامية واجتراء الروم على الثغور الشامية ، حتى روى الوزير على بن عيسى فى خلافة المقتدر بالله (٢٩٥ : ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ : ٩٣٢ م) ويعاصر حكم ليو السادس الملقب بالحكيم (٨٨٦:٩١٢م) الذى اشترك معه قسطنطين السابع (٩١١ : ٩١٣ م) وحكم الاسـكندر (٩١٢ ـ ٣ م) وحكم قسطنطين السابع (الارجوانى) فترته الاولى فى ظل مجلس وصاية (٩١٣ : ٨ م) ورومانوس الاول ليكابيوس ٩١٩ : ٩٤٤م الذى اشترك معه أربعة : «كتب الى عاملنا بالثغر بأن أسارى المسلمين كانوا فى بلد الروم على حال رفاهة وصيانة الى أن ولى ملك الروم آنفا حدثان منهم فعسفا وعاقباهم وأجاعاهم وأعرياهم وطالبا هم بالتنصر ، وانهم فى بلاء وجهد . وهذا أمر لا حيلة فيه ولا مقدرة على دفع ما أظل هؤلاء المساكين ، ولو ساعدنى الخليفة على انفاق الاموال وتجهيز الجيوش الى هؤلاء الكفار لفعلت فى ذلك ما أوجبه الله علينا من بذل الوسع والامكان » . فنصحه مكرم بن عمر أبو يحيى ابن مكرم القاضى « قلت : بأنطاكية عظيم للنصارى يدعى البطرك وببيت المقدس آخر يقال له القاثليق وأمرهما ينفذ على ملوك الروم ، لان أمورهم لا تتم الا بهما ، والطاعة تلزم جمهور رعيتهم الا بقولهما وربما حرما الواحد منهم فيحرم عندهم ، والرجلان فى ذمتنا وتحت سلطاننا فيأمر الوزير بمكاتبة عاملى البلدين باحضارهما واعلامهما ما يجرى على الأسارى فى بلد الروم وانه مما لم تجر به عادة ، ومتى لم يزل ذلك عنهم وتستأنف حسن المعاملة طولها بجريرة ما يفعل هناك وسلك فى معاملة النصارى مثل ذلك ، وننتظر ما يكون الجواب » . وبعد شهرين وأيام وصل رسول العامل الذى أنفذه مع رسول البطرق والقاثليق الى القسطنطينية حاملا كتابهما باعتبار فعل ملكى الروم بأسارى المسلمين مخالف لوصية المسيح وتهديدهما باللعن والطرد والحرمان فقال رسول العامل : « فلما وصلنا الى القسطنطينية أوصل رسول البطـرق والقاثليق الى الملكين وحجبت ، وخلوا به ووقفا على ما ورد معه ، وتركانا أياما ثم أحضرانى اليهما ، فسلمت عليهما وقال لى ترجمانهما : الملكان يقولان : الذى أدى الى ملك العرب من فعلنا بأسارى المسلمين كذب وشناعة ، وقد أذنا فى دخولك دار البلاط لتشاهدهم وتسمع شكرهم وتعلم استحالة ما ذكر لكم فى أمرهم . وحملت الى دار البلاط : فرأيتهم كأنهم خارجـون من القبور وقائمون الى النشور ووجوههم دالة على ما كانوا فيـه من الضر والعذاب ـ الا أنهم فى حالة صيانة مستأنفة ورفاهة مستجدة ، وتأملت ثيابهم فكانت جـددا كلها . فتبينت اننى أخرت ذلك التأخـير حتى

غير أمرهم وجدد زيهم وقالوا لى : نحن شاكرون للملكين فعل الله لهما وصنع - مع ايمائهم الى بان حالهم كانت على ما تأدى الينا وانما خفف عنهم وأحسن اليهم بعد حصولى هناك » (٢١٧) •

***

لقد كانت الثغور الشامية والجزرية مركزا زاخرا بصور النشاط الحزبى ، سواء فى بناء التحصينات والمعسكرات أو فى تنظيم الجيوش المدافعة والمهاجمة ، أو فى تحركات الأساطيل فى البحار المجاورة ، وأخيرا فى تبادل السفارات من أجل الهدنة أو الفداء •

وقد واجه المسلمون أعباء حماية حدودهم فى عهود قوتهم بدأب ومقدرة ، واستفادوا من السوابق التى تقدمت بين أيديهم ومن تجاربهم التى مارسوها منذ الفتح • وكانت الثغور الشامية والجزرية جبهة دائمة للجهاد المقدس وغدت مجالا طيبا لنضوج كثير من النظم الحربية الاسلامية•

(٢١٧) الصابى : تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء ص ٣٥٤ : ٩ •

الجداول والخرائط

قائمـــة

بالخلفاء المسلمين والاباطرة البيزنطيين وتاريخ ولاية كل منهم

الخلفـــاء :	الأباطـــرة :
الخلفاء الراشدون **١١ : ٤٠ هـ ٦٣٢ : ٦٦١ م**	**أسرة هرقل Heraclian Dynasty** **٦١٠ : ٧١١ م**
أبو بكر ١١ هـ / ٦٣٢ م	هرقل Heraclius ٦١٠ م
عمر ١٣ هـ / ٦٣٤ م	
	قسطنطين الثانى Constantine II ٦٤١ م
	هرقليوناس Heraclonas (Heracleon) ٦٤١ م
	قسطنطين الثالث (قنسطانز الثانى) Constantine III (Constans II) ٦٤١ م
عثمان ٢٣ هـ / ٦٤٤ م	
على ٣٥ : ٤٠ هـ/ ٦٥٦ : ٦٦١ م	
الخلافة الأموية **٤١ : ١٣٢ هـ / ٦٦١ : ٧٥٠ م**	
معاوية بن أبى سفيان ٤١ هـ / ٦٦١ م	قسطنطين الرابع (ذو اللحيـــة) Constantine IV (Pogonatus) ٦٦٨ م
يزيد بن معاوية ٦٠ هـ / ٦٨٠ م	

معاوية الثانى ٦٤ هـ / ٦٨٣ م	
مروان بن الحكم ٦٤ هـ / ٦٨٣ م	
عبد الملك بن مروان ٦٥ هـ / ٦٨٥ م	جستنيان الثانى (مجدوع الانف) Justinian II (RHINOTMETUS) ٦٨٥ م
	ليونتيوس Leontius ٦٩٥ م
	تيبريوس الثالث Tiberius III (Apsimar) ٦٩٨ م
الوليد بن عبد الملك ٨٦ هـ / ٧٠٥ م	جستنيان الثانى (للمرة الثانية) ٧٠٥ م
	فيليبيكوس Phillipicus (Bardanes) ٧١١ م
	أنستاسيوس الثانى Anastasius II (Artemius) ٧١٣ م
سليمان بن عبد الملك ٩٦ هـ / ٧١٥ م	ثيودوسيوس الثالث Theodosius III ٧١٥ م ٧١٧ م
عمر بن عبد العزيز ٩٩ هـ / ٧١٧ م	
	الأسرة الايسورية Isaurian Dynasty ٧١٧ م ٨٢٠ م
يزيد الثانى ١٠١ هـ / ٧٢٠ م	اليو الثالث Leo III ٧١٧ م
هشام بن عبد الملك ١٠٥ هـ / ٧٢٤ م	قسطنطين الخامس Constantine V (Copronymus) ٧٤١ م
الوليد الثانى ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م	
يزيد الثالث ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م	

ابراهيم ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م

مروان الثانى

١٢٧ : ١٣٢ هـ / ٧٤٤ : ٧٥٠ م

الخلافة العباسية (الى عهد المتوكل
١٣٢ : ٢٤٧ هـ / ٧٥٠ : ٨٦١ م

السفاح ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م

المنصور ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م

المهدى ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م ليو الرابع (الخزرى)
Leo IV (The Khazar) ٧٧٥ م

قسطنطين السادس Constantine VI
٧٨٠ م

الهادى ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م

الرشيد ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م

ايرينى Irene ٧٩٧ م

نقفور الاول Stauracius ٨٠٢ م

الأمين ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م

استراقيوس Stauracius ٨١١ م

ميشيل الاول Michael I (Rangabe)
٨١١ م

المأمون ١٩٨ هـ / ٨١٣ م ليو الخامس (الارمنى)
Leo V (The Armenian)

٨١٣ : ٨٢٠ م

الاسرة العمورية Amorian Dynasty
٨٢٠ : ٨٦٧ م

ميخائيل (ميشيل) الثانى
Michael II(Tho Stammerer
٨٢٠ م

المعتصم ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م تيوفيل Theophilus ٨٢٩ م

الواثق ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م

ميخائيل (ميشيل) الثالث

٨٤٢ : ٨٦٧ م

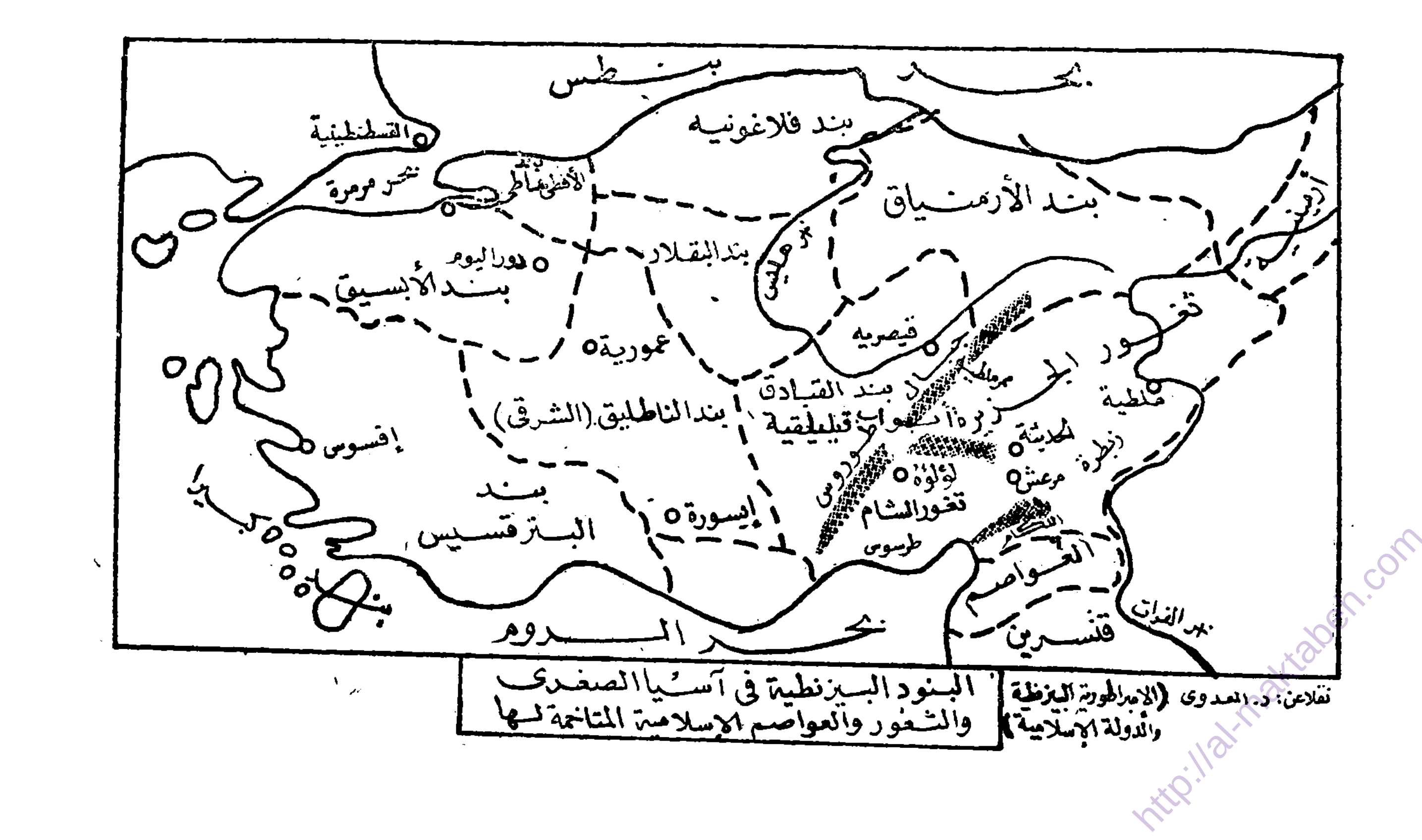
Michael III (The Drunkard)

المتوكل

٢٣٢ : ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ : ٨٦١ م

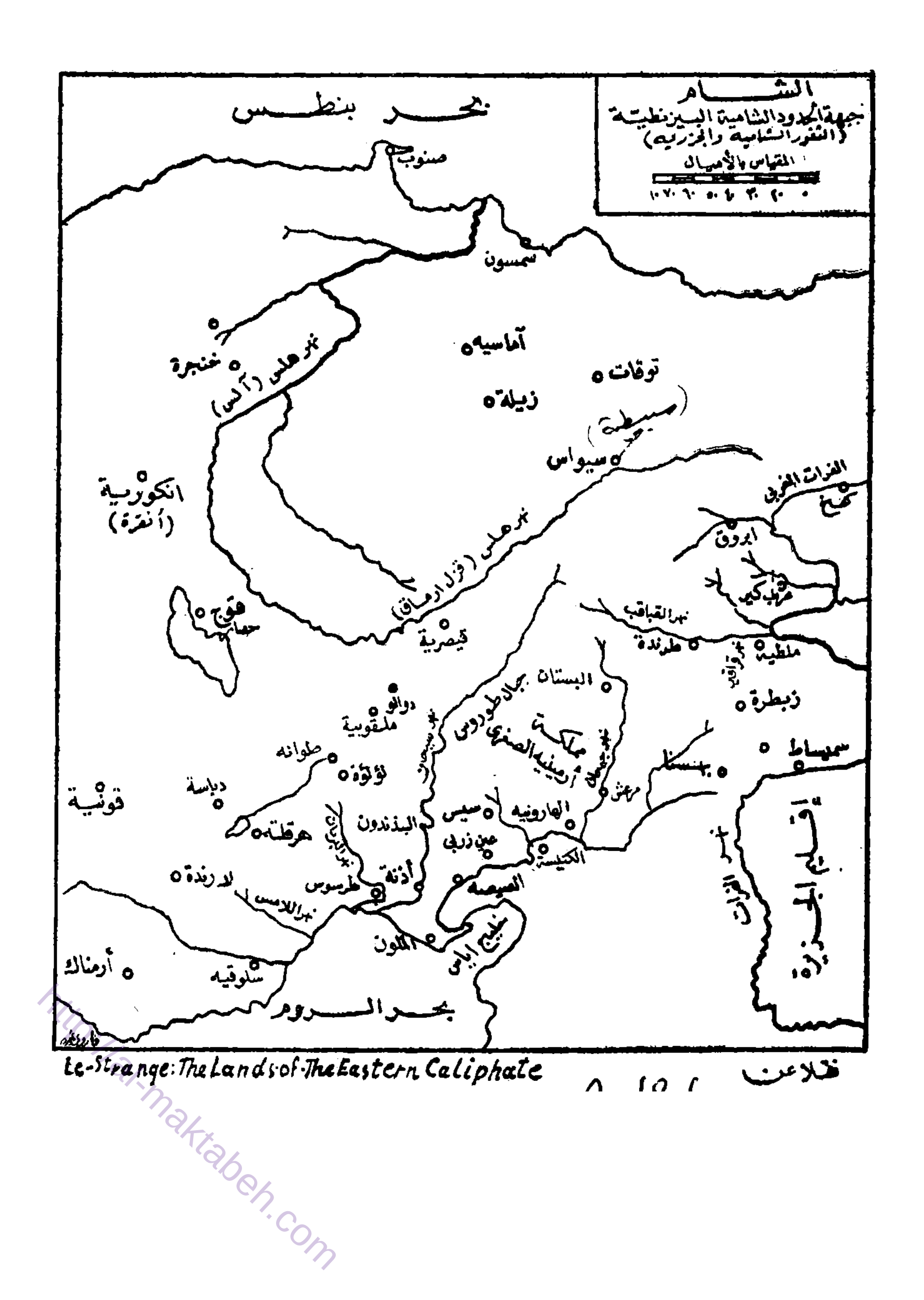
قوبل بين التقويم الهجرى والتقـويم الميلادى على أساس جداول

HAIG : COMPARATIVE TABLES.



البنود البيزنطية فى آسيا الصغرى والثغور والعواصم الإسلامية المتاخمة لها

نقلا عن: د. العدوى (الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية)



Le-Strange: The Lands of The Eastern Caliphate نقلاً عن

الموضوع **الصفحة**

فهرس

الكتاب الثاني

الحدود الإسلامية البيزنطية
بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

الكتاب الثالث
في الاتصال الحضاري

تأليف

فتحي عثمان

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

الحدود الإسلامية البيزنطية

بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

الحدود الإسلامية البيزنطية
بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

الكتاب الثالث
في الاتصال الحضاري

تأليف
فتحي عثمان

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

الفصل السادس

النظم الإدارية والمالية

أولا ـ النظم الادارية :

في الثغور الاسلامية (مع المقارنة بادارة البنوذ البيزنطية)

(أ) انشاء المدن واسكانها

(ب) التقسيم الاداري : في الدولة الاسلامية عموما ، أجناد الشام ، افراد جندين للجزيرة وقنسرين في العهد الأموي ، افراد الثغور والعواصم في العهد العباسي

(ح) الجهاز الاداري : الامارة ، الادارة المحلية ، ولاة قنسرين والعواصم في اجمال

ثانيا ـ النظم المالية :

في الثغور الاسلامية (مع المقارنة بالتنظيم المالي للبنود البيزنطية).

(أ) الموارد المالية : الخراج ، الجزية ، موارد أخرى كالعشور والمكوس... الخ

(ب) المصارف المالية : العطاء ، النفقات العسكرية ، نفقات المرافق والخدمات العامة ... الخ

(ح) الادارة المالية : الديوان ، موظفو الادارة المالية ، تقدير الخراج ، ديوانا الخاتم والزمام ، بيت المال والميزانية ، الادارة المالية في الحملات العسكرية ، ظهور أمراء الأطراف عن طريق ضمان الجباية

(د) العملة : العملة العربية في عهد عبد الملك بن مروان ، العملة المحلية في حلب وقنسرين

(هـ) الاقطاع : في النظم الاسلامية حتى عهد عمر ، في الثغور والسواحل في عهد عثمان ، انتشار الاقطاع في عهد الأمويين ، بين هذا الاقطاع والاقطاع الأوربي ـ تعميم اقطاع الولايات والتوسع في الاقطاع الحربي في عهود متاخرة

أولا : النظم الادارية

فى الدولة البيزنطية :

يسجل جرونيباوم ملامح مشتركة فى طابع الحكـــم فى الدولتين الاسلامية والبيزنطية . « فقد كانت كلتاهما تحت حكم أوتوقراطى مطلق، وكان نفوذ صاحب السلطان مطلقا غير محدود ، وربمـــا طولب الموظف المعزول أو المنكوب بتقديم الحساب عن ادارته ، ولكن النظرية الفقهية لم تكن ترى ن هناك أى قيود تحد من سلطة الأمير أو الحاكم اللهم الا ما كان يفرضه عليه أحد الرؤساء عن قصد ، وكان معنى ذلك فى حالتى الخليفة والامبراطور هو الحكم المطلق غير المحـــدود ، . وكان يختلط فى كل من بغداد والقسطنطينية مبدآن لتحديد وراثة العرش فكان الجانب النظرى يؤيد الانتخاب ، على حين كان الواقع المعمول به ينحو نحو الوراثة . على أن النظرية الاسلامية نجحت بتوسيعها فكرة الانتخاب فى ايجاد انسجام بين المبدأين .. وكانت سلامة البدن فى كل من البلدين بين مؤهـــلات العاهل التى لابد منها ، كما أن الأخذ بهذا الشرط أدى فى كل من البلدين الى انزال التشويه بالحكام المخلوعين أو المطالبين بالعرش أو المخفقين فى الوصول اليه .. » (١) وكان الطابع الدينى واضـــحا فى كل من الخلافة الاسلامية والامبراطورية المسيحية وخلف هذا الطابع آثاره فى شخصية عاهل الدولة هنا وهناك « لكن الامبراطور كان الرئيس الاسمى للكنيسة الأرثوذكسية ، على حين أن الخليفة لم يكن الا مدبر دولة المسلمين دون أن يكون له أى حق فى اضافة شىء الى أصل الشرع أو تغييره أو تاويله ، ولكن أوجه التشابه كانت ترجح الفروق فى عين العالم المعاصر » . (٢)

---

(١) جرونباوم : حضارة الاسلام ـ ترجمة جاويد ص ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥ ـ ٦ .

وإذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد ظلت في الوجود أحد عشر قرنا فانما يكاد يرجع ذلك تماما الى المزايا التي توفرت في تأسيس الدولة وادارتها . وقد انحدر هذا التنظيم فى بطء من تراث الماضى الرومانى . على أنه لم تنقطع محاولة الملاءمة بين هذا التراث وبين الاحتياجات المتجددة لتدعيم هذه النظم على مر القرون (٣) . وكان الأساس **فى تنظيم دقلديانوس وقسطنطين الادارى هو الفصل التام بين واجبات القائد العسكرى** du **والحاكم المدنى** praeses . واقترن هذا بانقاص حجم الولايات بوجه عام حتى لاينفرد القائد أو الحاكم بسلطة ربما تخلق منه منافسا خطرا للعرش . وحينما تطور نظام ادارة الامبراطورية كما نراها مثــــلا زمن تيودوسيوس الاول (٣٧٩ : ٣٩٥م) نجدها مقسمة الى أربعة أقســـام يســمى كل منهـــا لواء Praefectura وعلى رأس كل منهـــا أمير لواء امبراطورى Praefectus Praetorius ، وينقسم كل لواء الى عدد من الأقسام الادارية Dioceses يشرف على كل منها نائب أمير لواء Vicarius وكل قسم ادارى منها ينقسم الى عدد الولايات Provinces على كل منها وال يخضع لنائب أمير اللواء . وهكذا أصبح نائب أمير اللواء جزءا من الهيئة الحاكمة المدنية ، أما علاقته الوحيدة بالأمور العسكرية فقد نشأت فى ذلك الحين من واجبه فى الاشراف على تسجيل الامداد فى الجيش وتوفير جرايات الجند ، كما كان يستشار بالطبع فى تنظيم التحركات العسكرية داخل لوائه . وكان الامبراطور يرسل مبعوثين خصوصيين لتفقد الأدارة المحلية ، كما كان كل موظف ينظر بعين الحسد الى زميله ويتربص له . ويستطيع الامبراطور أن يتصل بالنائب حاكم القسم الادارى عن طريق أمير اللواء الامبراطورى حينا ومباشرة حينا آخر . ومن هنا نرى أن الحاكم لم يعد القوة الوحيدة فى القسم الادارى اذ كان الى جانبه قائد عسكرى يمارس سلطة كسلطته لكنه مستقل عنه فى الوقت ذاته . وكان كبير الوزراء فى العاصـــمة رئيس الادارات كلها Magister Officiorum ويزداد سلطان وظيفته باستمرار على حساب أمير اللواء ، ووزيرا المالية الكبيران بجانبه احدهما المشرف على الهبات المقدســـة ومالية لامبراطورية عامة والآخر المشرف على الأملاك الامبراطورية . وقد نشأت تقاليد ادارية ثابتة كانت تقاوم نزعات الاصلاح والتجديد التى تظهر عند بعض الأباطرة . ثم كان أن تداعى نظام الادارة البيزنطى (المقدس) تحت ضغط الهجات التى توالت على الامبراطورية خلال القرن السابع الميلادى . وحينما أعيد بناء النظام من جديد جعل أساسه التناسق بين الموظفين بدلا من اتبـــاع

---

(٣) Runciman: Byz. Civ. p. 51.

يعضهم لبعض كما كان الحال قبلا ، وان بقى نظام الرتب المتتابعة بل زاد احكاما • وأصبحت الولايات أقساما عسكرية يحكمها قائد عسكرى يتلقى الأوامر من الامبراطور وحده ، واختفى رؤســـاء الجند وأمراء الألوية الامبراطورية • ونتيجة لذلك زادت وظيفة محافظ المدينة أهمية وانهدمت الوزارات المركزية الكبيرة وحل محلها عدد عظيم من الدواوين يكمل كل منها عمل الآخر ويختص بعمل معين ، بينما ظهر الى الوجود وزير وحيد للمالية أصبح فى القرن التاسع يشرف على الوظائف التى تتعلق بالمالية أو ادارة موارد الدخل اشرافا عاما ومنظما •

وقد ظهر الاتجاه الى الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية منذ عهد جستنيان (٥٢٧ : ٥٦٥م) الذى خالف سنة دقلديانوس وقسطنطين ، وسار فى نفس الطريق موريس (٥٨٢ : ٦٠٢م) • فعنـــدما افتتحت افريقية من جديد عين موظف يجمع بين سلطة القـــائد العســـكرى Magister Militum والوالى Praefectus ووضعت ايطاليا تحت حكم Exarchus سرعان ما صـــادر موظفـــا عســـكريا بســـلطات مدنية • ولكن هذه التعيينات **اقتصرت على الأقاليم التى تواجه مخاطر الغزو وجاءت الحروب الفارسية والعربية فى القرن السابع فلم يعد هناك اقليم بمنجاة من الخطر** ـ حتى آسيا الصغرى نفسها قلب الامبراطورية كان ينبغى أن توضع فى حالة دفاع دائم • **وصار من المعتاد وضع بعض الفرق العسكرية** Themata **على الدوام فى منـــاطق معينة ، واعطى قائد الفرقة ســـلطات مدنية على سكان المنطقة • وهكذا غدت هذه المناطق بالتدريج تدعى فى جملتها بنودا وكل بند** Thema **يحمل اسم فرقة خاصة** • ووجدت عند نهاية القرن السابع ولايات ثغرية فى آسيا الصغرى هى البنود : **البكلارى والأناضولى والأوبسكيون والتراقى** تبعا لأسماء الفرق • واذا كان هذا النظام قد استهل **فى العهد الهرقلى فانه قد أحـــكم فى العهـــد الايسورى خاصة أيام ليو ، اذ قسمت البنود الآسيوية الى بنود أخرى كما امتد هذا النظام الى أوربا • وغدا للقائد العســـكرى المكانة العليا حتى حجب الحاكم المدنى الاقليمى تماما فى النهاية • وكان لقواد الولايات** الثغرية الشرقية الأسبقية فى البلاط ويتقاضون رواتب ثابتة من الحكومة المركزية وهم أعلى مرتبة من قواد بنود المجموعة الغربية الذين يتقاضون رواتبهم من الضرائب المحلية • **وفى نهاية القرن التـــاسع عندما جاءنا** وصف Philotheus **كما جاءتنا القائمتان العربيتان للبنود اللتان وردتا فى المؤلفات الجغرافية الاسلامية كان قد صار لدى البيزنطيين ٢٥ بندا • وكان لقائد خرسون** Cherson **وضع خاص ، كما تمتع بالصـــدارة**

ستراتيجوس البند الاناضــولى الذى انحدرت اليه مهــام قائد المشرق Magister Militum of the East • وكانت البنــود تقســم الى اقســـام فرعية مثل Tourmai وتليها Moirai أو Drouggoi واستمر التزايد فى عدد البنود حتى سمعنا فى القرن ١١م عن ٣٨ بندا فان امتداد الحدود مع الرغبة فى عدم توسيع نطاق الاقاليم ابتغاء الحد من النزعة الانفصالية قد أديا الى هذا التطور •

ولقب الاستراتيجوس يواضح الأصل العسكرى لحاكم البند وان كانت فى يده الاختصاصات المدنية والقضائية ، ولديه ١١ نوعا من الموظفين فى مكتبه يساعدونه فى الحكم المدنى والعسكرى على الســـواء ، وتكاد سلطاته فى الشئون المحلية أن تكون مطلقة ، ولكنه كان يولى ويعزل وفقا لرغبة لامبراطور ، كما كان من الممكن ان تقدم الشكاوى فى حقــه • ومن اهم موظفى البند موظف يتولى صرف مرتبات الجند والضباط والموظفين Chartularius ، وهو وان كان يخضــع لقـــائد البند الا أنه مســئول فى الوقت نفسه أمام Logothetes tou Stratiotikou ، كما كان هناك قاضى البنـــد ومـــوظف يدعى Pronotary ويعتبر من مـــوظفى Chartularius of the Sacellion وهؤلاء على الأقل من بداية القرن العاشر كانوا خاضعين لقائد البند أيضا • وكانت الحكومة المركزية تعين دافع المرتبات وجامع الضرائب من قبلها مباشرة ، كما كانت الدعاوى الهامة تسمع فى العاصمة • وفى أوقات الطوارىء يوفد قواد اضافيون يدعون ek prosopôn الى أى مكان • وهكذا كان تنظيم البند الادارى يراعى فيه ما عبر عنه كتـــاب Taktikon of Leo من تحفظـــات « انهم ـ أى موظفى البند ـ يجب أن يخضعوا لأوامر القائد Strategos فى بعض الأمور ، لكنا نعتبر من الأسلم وجوب رفع تقاريرهم عن الحسابات الى ادارتنا الامبراطورية المركزية ليتسنى لنـــا العلم بأحوال الادارة » واذا كان لايعلم كيف توزعت الاختصاصات والمهام بين الادارتين المركزية والاقليمية على وجه التفصيل فانه كان للسلطة المركزية على أية حال حق الاشراف لمراقبة القادة وكبح جماحهم • وكانت ترسل موظفين من قبلها للتفتيش كما كانت تحض الأســـاقفة على ملاحظـــة مجرى الادارة فى أبرشياتهم وتشجيع الرعية على التماس الانصاف القانونى من أى غبن • واذ أصبح القائد العسكرى يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية فقد عادت روما الى ماكانت عليه زمن الجمهورية ـ كان الحاكم المدنى وقتذاك قائدا أيضا اذا دعت الحاجة وأصبح القائد الآن حاكما مدنيا أيضا •

ولو نظرنا الى تاريخ القرن ١٢م من زاوية معينة لرأينا انه كان فى

الواقع صراعا على السلطان بين موظفى الدولة والارستقراطية العسكرية في آسيا الصغرى • فرغم أن الأقاليم كانت تحكم حكما عسكريا فان الحكومة المركزية ظلت مدنية • وكان القادة العسكريون المركزيون Domesticoi, Stratarchoi لا يشاركون فى الادارة ، بل كان يباشرها طائفتان كبيرتان من الموظفين Kritai, Secretikoi واختفى الموظف الكبير Magister Officii ولم يبق سوى لقبه الأجوف شاهدا على مجده الدارس • ومن أهم موظفى طائفة Kritai كان محافظ المدينة ، و Eparchos **واذا كان النظام الادارى المركزى قد بقى من الناحية العملية دون تغيير حتى أنهاه الاحتلال الصليبى للعاصمة سنة ١٢٠٤ م فإن النظام الاقليمي كان بالضرورة أكثر مرونة بتغير حدود الامبراطورية؛** وعلى الحدود الشرقية كانت هناك **مناطق صغيرة تحت الحكم العسكرى** Klissurae حيث كان يحكم بارونات الحدود العسكريون دون اعتراض ، وعندما تتقدم الحدود ترتفع هذه المناطق الى بنود ويوضع قوادها فى سلك الوظائف الامبراطورية • وعندما أعيد احتلال انطاكية وضعت تحت حكم حاكم عسكرى خاص dux •

وهكذا كانت حكومة بيزنطة أداة فعالة للحكم ومنظمة تنظيما علميا رغم مفاسدها ونفقاتها الباهظة وبطء حركتها وقلة مرونتها وقد جعلت هذه الحكومة قيام الحياة الاجتماعية المؤسسة على حكم القانون أمرا ممكنا وكانت هذه ميزة الامبراطورية عن البلاد الواقعة خلف حدودها (٤) •

وقد أورد الجغرافيون المسلمون ما ورد اليهم من أنباء الادارة البيزنطية ، وكان مسلم بن أبى مسلم الجرمى مصدرا قيما فى التنظيم البيزنطى فنقل عنه ابن خرداذبة « ان أعمال الروم التى يوليها الملك عماله أربعة عشر عملا : منها خلف الخليج ثلاثة أعمال •• ودون الخليج ثلاثة عشر عملا •• » وهو يعدد بعد ذلك كبار الموظفين البيزنطيين « ومن البطارقة **بالروم اثنى عشر بطريقا** لا ينقصون ولا يزيدون : ستة منهم مقيمون بالقسطنطينية بحضرة الطاغية ، وستة فى الأعمال ـ بطريق عمورية ، بطريق أنقرة ، بطريق الأرمنياق ، بطريق تراقية وهى خلف قسطنطينية مما يلى برجان ، وبطريق سقلية وهى جزيرة عظيمة ومملكة واسعة بازاء أفريقية ، وبطريق سردانية وهو صاحب جزائر البحر كلها •• **واكبر**

---

(٤) Byzantium pp. 281-2, 285-6, 290-1, Runciman: Byz. Civ. pp. 71-3, 75-6,
بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٤٥ : ١٥٢ •

البطارقة خليفة الملك ووزيره ثم اللغثيط صاحب ديوان الخراج ، وصاحب عروض الكتب ، والحاجب ، وصاحب ديوان البريد ، ثم القاضى ، ثم صاحب الحرس ، ثم المرقب .. وبريد الروم براذين لطاف محـــذقة الأذناب خفاف (٥) » وقد ذكر قدامة بن جعفر أيضا شيئا من أحوال الروم ونظمهم الحربية والادارية فتكلم عن أعمالهم وراء الخليج ودون الخليج ، « **والوالى عليه يعرف بالاطرطيفوس (٦)** » . وذكر المســعودى العدوات الى بلاد الروم « وطول الخليج ثلثمائة وستون ميلا ـ وقيل وثلاثون ، وعليه ست عدوان لمن يريد من دار الاسلام اليها مما يلى الثغور الشامية والجزرية وغيرها ... » كما ذكر بنود الروم « أرض الروم أرض واسعة فى الطول والعرض آخذة فى الشمال بين المشرق والمغرب مقسومة فى قديم الزمان على أربعة عشر قسما : أعمال مفردة ـ تسمى البنود ، كما يقال أجناد الشام : كجند فلسطين وجند الاردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين ـ غير أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد وأطول » . وقد جعل المسعودى تسع بنود دون الخليج مما يلى الثغور الشامية والجزرية وغيرها من بلاد الاسلام والخمســة الباقية من البنود وراء الخليج متصـــلة بالقسطنطينية (٧) . ورغم أن ياقوت يعتذر عن المادة التى قدمها فى شأن بلاد الروم اذ فيها « اسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها ، فليعذر الناظر فى كتابى هذا ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئا منها علما فقد أذنت له فى اصلاحه مأجورا ... » الا أنه قد عدد بنود الروم ومنزل الاصطرطغوس فى كل بند ، **وميز بين قائد البند وصاحب الدروب** فقال عند كلامه عن عمل سلوقيه « واسم صاحب هذا العمل كيلرج ومرتبته دون مرتبة الاصطرطغوس وتفسيره صاحب الدروب وقيل تفسيره وجه الملك ومنزله سلوقية الى أنطاكية» ونقل عن أحمد بن محمد الهمذانى بعد ان أورد أعمال الروم « .. فهذه جميع أعمال الروم المعلومة لنا فى البر ، على كل عمل منهـــا وال من قبل الملك الذى يسمى الاصــــطرطغوس ، الا صـــــاحب الانطمـــــاط ـ وحده الأول الخليج وجنده ٤٠٠٠ وأهله مخصوصون بخدمة الملك وليسوا بأهل حرب ـ فانه يسمى الدمستق ، وصاحب سلوقية وصاحب خرشنة فان كلّ واحد منها يسمى الكيلرج . وعلى كل حصن من حصون الروم رجل ثابت فيه يسمى برقليس يحكم بين أهله ـ وقلت أنا : وهذا فيما أحسب رسوم وأسماء كانت قديمـــا

---

(٥) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٤ : ١١٢ .

(٦) قدامة : نبذ من كتاب الخراج ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٥ : ٩

(٧) المسعودى : التنبيه والأشراف ص ١٢٠ : ٢ ، ١٥٠ : ٣ .

ولا أظنها باقية الآن ، وقد تغيرت أسماء البلاد وأسماء تلك القواعد ، فان الذى نعرفه اليوم من بلاد الروم المشهورة فى أيدى المسلمين والنصارى لم يذكر منها شيء : مثل قونية واقصرى وأنطاكية واطربزندة وسيواس ـ الى غير ذلك من مشهور بلادهم ، وانما ذكرت كما ذكر والله أعلم (٨) » ٠

عند المسلمين :

هذه هى السوابق البيزنطية فى الادارة بين أيدى المسلمين ، وقد كان للمسلمين نظمهم الادارية التى أفادوا منها من خبرتهم بهذه السوابق، ولدراسة ادارة الثغور والعواصم نعرض لأسلوب الادارة الاسلامية فى انشاء المدن واسكانها والتقسيم الادارى ، وتنظيم الجهاز الادارى :

(أ) انشاء المدن واسكانها :

يذكر ابن خلدون فى مقدمته « ان القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأمرين : أحدهما ما يدعو اليه الملك من الدعة والراحة وحط الأثقال واستكمال ماكان ناقصا من أمور العمران فى البدو ، والثانى دفع مايتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين لأن المصر الذى يكون فى نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم ٠٠ **والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكة ،** لأن الشوكة والعصابة انما احتيج اليهما فى الحرب للثبات لما يقع من بعد كرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة ـ وثبات هؤلاء بالجدران ، فلا يضطرون الى كبير عصابة ولا عدد ٠ فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يفت فى عضد الأمة التى تروم الاستيلاء ويخضد شوكة استيلائها ، **فاذا كانت بين أحيائهم أمصار انتظموها فى استيلائهم للأمن من مثل هذا الانخرام ، وان لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولا وحط أثقالهم وليكون ثانيا شجى فى حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم** ٠ فتعين أن الملك يدعو الى نزول الأمصار والاستيلاء عليها (٩) » ٠

وقد عقد ابن خلدون فصلا **فيما تجب مراعاته فى أوضاع المدن : من دفع المضار بالحماية من طوارقها ، وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها**

---

(٨) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٢٨ : ٣٣٠ ٠

(٩) ابن خلدون : المقدمة : طبعة دكتور وافى ج ٣ ص ٨٣١ ـ ٢

« فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار وان يكون وضع ذلك فى متمنع من الأمكنة : أما على هضبة متوعرة من الجبل ، واما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويضاعف امتناعها وحصنها. ومما يراعى فى ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض .. وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور : منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بازائها عيون عذبة ثرة .. ومما يراعى أيضا المزارع .. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء .. وقد يراعى أيضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية الا أن ذلك ليس بمثابة الأول ـ وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وماتدعو اليه ضرورة المساكن ، وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعى أو انما يراعى ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكر حاجة غيرهم ـ كما فعله العرب لأول الاسلام فى المدن التى اختطوها بالعراق وافريقية فانهم لم يراعوا فيها الا الاهم عندهم من مراعى الابل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح .. كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها ، ولهذا كانت أقرب الى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية . ومما يراعى فى البلاد الساحلية التى على البحر أن تكون فى جبل ، أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها من العدو . والسبب فى ذلك أن المدينة اذا كانت حاضرة البحر ، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ، ولا موضعها متوعر من الجبل ـ كانت فى غرة للبيات وسهل طروقهـا فى الأساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها وان الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقاتلة ، وهذه كالاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونه وسلا . ومتى كانت القبائل والعصائب متوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها فى هضاب الجبال وعلى اسنمتها ـ كان لها بذلك منعة من العدو وييئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من اجابة صريخها ، كما فى سبتة وبجاية .. فاهتم بذلك واعتبره فى اختصاص الاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية ـ مع أن الدعوة من ورائها ببرقة وافريقية ، وانما اعتبر فى ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ، ولذلك كان طروق العدو للاسكندرية وطرابلس فى الملة مرات متعـــددة (١٠) » . وقد رأى ابن خلدون أن المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا فى

---

(١٠) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٣ ص ٨٣٧ ، ٨٤٠ .

الأقل « والسبب فى ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع فلا تكون المبانى وثيقة فى تشييدها ، وله وجه آخر وهو أمس به وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط المدن (١١) » • وقد تابع ابن خلدون تطور الأمصار: فهى « اذا اختطت أولا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التأنق كالزجاج والرخام والربج والزجاج والفسيفساء والصدف ـ فيكون بناؤها يومئذ بدويا وآلاتهـا فاسدة • فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ وكثر الصناع الى أن تبلغ غايتها من ذلك• فاذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك ففقدت الاجادة فى البناء والاحكام والمعالاة عليه بالتنميق ، ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بنـــاؤهم وتشييدهم من الآلات التى فى مبانيهم فينقلوها من مصنع الى مصنع لأجل اخلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل لقلة العمران • وقصوره عما كان أولا ، ثم لاتزال تنقل من قصر الى قصر ومن دار الى دار الى أن يفقد الكثير منها جملة فيعودون الى البداوة فى البناء •• » • ويذكر ابن خلدون أن تفاضل الأمصار والمدن فى كثرة الرفة لأهلها ، ونفاق الأسواق انما هو فى تفاضل عمرانهـا فى الكثرة والقلة « والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافا •• فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العـاملين وضروراتهم ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ، ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر (١٢) » • وأهل البـادية يقصرون عن سكنى المصر الكثير العمران اذ يكثر ترفه « وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو اليها فتنقلب ضرورات وتصير فيه الأعمال كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الأغراض عليها من أجل الترف وبالمغارم السلطانية التى توضع على الأســواق والبياعات وتعتبر فى قيم المبيعات ويعظم فيه الغلاء فى المرافق والأقوات والأعمال •• وهو فى بدوه يسد خلته بأقل الأعمال لأنه قليل عوائد الترف فى معاشه وسائر مؤنه (١٣) » • ويحتاج المتمولون من أهل الأمصار الى الجاه والمدافعة لحماية أشخاصهم وأموالهم ، واذا اتصلت الدولة ورسخت رسخت الحضارة فى الأمصار « **ولهذا تجد الأمصار التى فى القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة** •• بخلاف المدن المتوسطة

---

(١١) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى ج ٣ ص ٨٥٧ •
(١٢) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى ج ٣ ص ٨٥٨ : ٨٦٣ •
(١٣) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى ج ٣ ص ٨٦٦ ـ ٧ •

فى الأقطار التى هى مركز الدولة ومقرها .. وقد قدمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم .. ثم انه اذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها فى ذلك المصر واحدا بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخا . واعتبر ذلك فى اليهود لما طال ملكهم فى الشام نحوا من ألف وأربعمائه سنة رسخت حضارتهم وحذقوا فى أحوال المعاش وعوائده والتفنن فى صناعته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل حتى انها لتؤخذ عنهم فى الغالب الى اليوم . ورسخت الحضارة أيضا وعوائدها فى الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة ـ فكانوا فى غاية الحضارة (١٤) » . وعندما يتناول ابن خلدون صناعة البناء يلاحظ أنها أكثر ما تكون فى الأقاليم المعتدلة « اذ الاقاليم المنحرفة لا بناء فيها ، وانما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين ويأوون الى الكهوف والغيران » كما تتأثر هذه الصناعة بالبداوة والحضارة « فلذلك عندما تكون الدولة بدوية فى أول أمرها تفتقر فى أمر البناء الى غير قطرها ـ كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام ، فبعث الى ملك الروم بالقسطنطينية فى الفعلة المهرة فى البناء فبعث اليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد (١٥) » .

واذا كان ابن خلدون قد ناقش تأسيس المدن والأمصار من الوجهة العمرانية الاجتماعية فان بعض فقهاء المسلمين قد ناقشوا فى احكام الجهاد **مسألة التوطن فى الثغور** واتخاذ النساء والذرارى فيها وتحويلها الى مدن آهلة عامرة مسكونة سكنى دائمة « ولا بأس للذين يسكنون الثغور من المسلمين أن يتخذوا فيها النساء والذرارى وان لم يكن بين الثغور وبين أرض العدو أرض للمسلمين ـ لأنهم يندبون الى المقام فى الثغور وانما يتمكنون من المقام بالنساء والذرارى فالنساء سكن للرجال **ولأنهم اذا اقاموا فى ذلك الموضع بالنساء والذرارى كثروا بمرور الزمان حتى يصير ذلك الموضع مصرا من أمصار المسلمين ويتخذ المسلمون وراء ذلك ثغرا بالقرب من العدو** . ولكن هذا اذا كانوا بحيث لو نزلت بهم جلبة العدو قدروا على دفع شرهم عن أنفسهم وعن ذراريهم وتمكنوا من أن يخرجوا الى أرض الإسلام ، فأما اذا لم يكن بهذه الصفة فانه لا ينبغى أن يتخذوا النساء فى مثل هذه الثغور .. وهو نظير ما سبق من الفصل بين الصائفة والسرية ، الا أن هناك كره اخراج النساء مع الجيش العظيم للمبالغة ولم يكره ذلك فى الثغر اذا كثر فيه المسلمون ـ لأن أهل المعسكر لا يطول

(١٤) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٣ ص ٨٧١ : ٣ .
(١٥) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٣ ص ٩٣٤ ، ٩٣٦ .

مقامهم فى دار الحرب فلا يحتاجون الى النساء مدة مقامهم فى الظاهر ، فأما أهل الثغور فيطول مقامهم فى الثغر يؤمرون بألا يبرحوا منها ٠٠ فان قال أهل الثغر : لا نقدر على دفع العدو بأنفسنا أن أتانا ولكن نستغيث بالمسلمين فيأتينا الغياث منهم فندفع بهم العدو ـ فانه لا ينبغى لهم أن يحملوا النساء والذرارى الى مثل هذه الثغور أيضا ٠٠ ولا يبنى الحكم على الموهوم خصوصا فيما يكون الواجب فيه الأخذ بالاحتياط ٠٠ فلهذا لا يستقيم البناء على الغوث وانما يبنون ذلك على شوكة أنفسهم (١٦) » ٠

وأيقظت مطالب الظروف الجديدة عند العرب على أثر الفتوح الاسلامية مواهب جديدة ، وساعدهم تفتح أذهانهم على تفهم هذه الظروف والاستجابة لها ٠ وظهرت الحاجة الى **مراكز حربية دائمة**.ويعزى انشاء هذه المراكز الى عمر الذى تنسب اليه كذلك سائر الأعمال الادارية اذ حضر عمر بنفسه الى الشام بعد سقوط بيت المقدس وقسم القوات الى أجناد تتألف كل منها من عدة قبائل وخصص لكل منها معسكرا دائما ، واستخدم فى هذا الصدد المراكز الحربية الدائمة التى وجدت من قبل فى الشام مثل دمشق وحمص وطبرية ٠ أما فى العراق فقد نشأت مراكز عسكرية جديدة هى البصرة والكوفة بنيت بالقصب ثم استبدلت بها منازل من اللبن ، وما لبث هذان المعسكران الحربيان أن تطورا الى مدينتين عامرتين ٠ وفى مصر قام معسكر جديد فى المنطقة المجاورة لحصن بابليون ـ غدا مدينة الفسطاط ٠ وأدى السماح للجند بالاقامة مع عائلاتهم فى معسكرات حربية دائمة الى نشأة الميل للاستقرار عند أفراد الجيش وتجلى ذلك فى تسابقهم على حيازة الأرض التى تحت أيديهم (١٧) ٠

وبدأ تنظيم الدولة الاسلامية فى البلاد المفتوحة كما ينظم الجيش تماما ، فكان سجل المواطنين المشتمل على اسمائهم هو سجل ديوان الجيش، وكانت القبائل والعشائر هى التى تؤلف فصائل الجيش وكتائبه ٠ وكان المقاتلة من العرب هم الذين يقيدون فى الديوان ، يسمون ـ تمييزا لهم عمن يبقون فى ديارهم ـ (بالمهاجرة) أى الذين ينتقلون الى المعسكرات الكبرى التى منها كانت تنظم الحرب وتوجه ـ وذلك أن الهجرة انما كانت تعنى الأنتقال بالأهل والولد الى المراكز السياسية الحربية لأداء الأعمال ٠ ولم يكن يستطيع الانسان فى الاسلام أن يتمتع بما للمواطن من حقوق كاملة الا فى الجيش وفى المدن ومعسكرات الجيش الكبرى ، أما الأعراب الذين

---

(١٦) شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن ٠ املاء السرخسى جـ ١ ص ٢١٠ : ٢ ٠

(١٧) الحضارة العربية : ترجمة دكتور العدوى ص ٥٠ ـ ٥١ ٠

بقوا لا يعملون شيئا فى ديارهم ومع قطعانهم فلم يكونوا يعتبرون مواطنين بالمعنى الكامل •

وكانت دار الهجرة الأولى هى المدينة ثم انضافت اليها الأمصار وفيها مدن قديمة كما فى الشام أو مدن حربية مستحدثة كما فى العراق ومصر• واحتفظ العرب فى الأقاليم التى فتحوها بنظامهم القبلى السابق مع الفارق، ففى الوطن العربى الأول لم يكن يتألف اتحاد حقيقى الا من جماعة صغيرة نسبيا وهى الجماعة التى كانت تحل للرعى معا وترتحل معا ، أما بعد أن اجتاز العرب حدود صحرائهم على نطاق واسع فلم تكن القبيلة كلها تهاجر الى الخارج وتقيم مجتمعة فى مكان واحد بعينه ، وانمـا كانت أجزاء من القبيلة تخرج الى هنا وهناك ولا تستطيع أن تعيش وحدها فتنضم الى أجزاء أخرى من قبائل مهاجرة تشترك معها فى نسب أعلى ـ وكان هذا أسهل ما دام لم يكن للقبائل ما كان لها من قبل من مكان رحب تنتشر عليه وما داموا يعيشون معا مجتمعين فى معسكرات ومتصلين فيما بينهم اتصـالا وثيقا •

وعن طريق هذا النوع من الاندماج صـار لبعض الجماعات القبلية الكبير شأن جديد لم يكن لها من قبل ولم يكن لها من بعد فى جزيرة العرب نفسها ، وتطورت هذه الظاهرة حتى أصـــبحت عاملا خطيرا فى التاريخ الداخلى للدولة العربية (١٨) •

وكان للشام مركز انفردت به لأن معظم العرب الذين كانوا يقطنونها لم يذهبوا اليها مهاجرين كغيرهم ، وكان لهـم الى جانب ذلك تقاليد غير التى كانت لأهل الكوفة والبصرة • وكانوا منذ زمان طويل واقعين تحت التأثير اليونانى الرومانى ، وكانوا قبل الاسـلام تابعين لدولة هى دولة الغسانيين • فى حين أنه لم يكن للكوفة والبصرة تراث غير تراث حياة البادية وغير تراث الاسلام ، وكانت حروب الفتح قد قدمت اليهما بجيوش عربية تتألف من مختلف القبائل فأقامت هناك أشبه شىء بالمستعمرات العسكرية ، ووجدت هذه القبائل نفسها قد انتقلت دفعة واحدة من ظروف حياة البادية الى ظروف الحضارة وصارت فى المركز المتوسط لامبراطورية كبرى ـ فلا عجب أن تتعثر فى هذه القفزة الواسعة • على أنه قد هاجر الى الشام أيضا على أثر الفتح الاسلامى كثير من العرب ـ خصوصا من قيس الذين انتقلوا الى شمال الشام ـ ولكن الغالبية فى الوسط كانت لكلب

(١٨) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية • ترجمة دكتور أبى ريده ص ٢٤ : ٧ •

ولقبائل قضاعة الى جانب قبـــائل أخرى من أزد الصراة • وكانت هذه القبائل قد توطنت هناك منذ قرون قبل الاسلام ، وتعرضوا لتأثير الحضارة اليونانية الرومانية والكنيسة المسيحية والدولة الرومانية • فلم تكن مظاهر الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية جديدة عليهم ، وكانت لهم أسرة قديمة حاكمة دانوا لها بالطاعة دهرا طويلا • وقد أطاعوا أميرهم أينما وجههم بعد أن اتفقت مصلحتهم ومصلحته فى السيادة ولم يكونوا فى داخل أنفسهم يبالون بالاسلام أكثر مما يبالى هو نفسه ، وحسبهم أن السيادة كانت للشام وحسبهم أن ينالوا أعطيات مرتفعة من بيت مالها وقد أثبتوا أنهم من الناحية الحربية ذوو شدة ومراس ، فقد كانوا بسبب الحروب الدائمة مع الروم يتدربون تدربا منظما •

وكان معاوية قيسى النسب تقريبا لكنه كلبى المقام والصهر فهو يقيم فى دمشق فى المنطقة التى كانت تسكنها كلب ـ غير بعيد من مقر ملوكهم السابقين ـ وتزوج امرأة من أشراف كلب • ولم يكن من الممكن أن يصبح عرب الشام الذين أدمجوا فى الدولة العربية بعد الفتح فى المرتبة الثانية بعد العرب الذين دخلوها فاتحين ـ ذلك أن دخول عرب الشام فى الاسلام جاء مبكرا ، وكان لهم فيه نصيب من الاختيار ، وان كان اسلامهم مجرد انضمام لراية العروبة المنتصرة • ولم يكن المسلمون فى الشام يعيشون بمعزل وفى مستعمرات مخصصة لهم ، بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد فى المدن القديمة مثل دمشق وحمص وقنسرين وغيرها ـ بل كانوا أحيانا يقاسمونهم بيتا لله ، نصفه مسجد ونصفه كنيسة !! (١٩) ولو قارنا بين استيطان العرب فى العراق والشام لوجدنا العرب قد توغلوا فى الشـــام بفضل وديانها العديدة فاستوطنوا مراكز مختلفة وجاء تأسيس الأجناد الستة فى مواقع قرب المدن المهمة بينمـــا لم يقدم العرب فى العراق على الاستيطان على شواطىء الانهار والسهول المنخفضة ذات النخيل الكثير التى كانت عرضة للفيضان بل احتشدت فى معسكرى البصرة والكوفة •

على أن المسلمين لم يعمروا **ثغور الشام البحرية والبرية** غداة الفتح الاسلامى بحيث تكتمل سيطرتهم عليهـــا • والبلاذرى يقدم لنـــا صورة واضحة لهذه الحقيقة فهـو يروى : « لما كانت سـنة ٤٩ خرجت الروم الى السواحل ••• » وهذا التاريخ تال لتمام الفتح الاسلامى للشام تقريبا

---

(١٩) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية • ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٥٤ ، ١٢٥ : ٨ • دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق تحت الحكم الأموى ص ٢٨٥ •

بأكثر من ثلاثين عاما ، ومن هنا لم يكن فى مكنة المسلمين فى مطالع استقرارهم بالشام أن يستحدثوا المدن الجديدة ويعمروها بالسكان ، بل **حسبهم أن يحصنوا ما يضعون أيديهم عليه من مدن ومعاقل قائمة** ٠ والبلاذرى يعقب على هذا الهجوم الرومى بقوله «وكانت الصناعة بمصر فقط، فأمر معاوية بجمع الصناع والنجارين فجمعوا ورتبهم فى السواحل وكانت الصناعة بعكا » وهو يروى « ان يزيد أتى ـ بعد فتح مدينة دمشق ـ صيدا وعرقة وجبيل وهى سواحل وعلى مقدمته معاوية ففتحها فتحا يسيرا وجلا كثير من أهلها، وتولى فتح عرقة معاوية نفسه فى ولاية يزيد ، ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل فى آخر خلافة عمر أو أول خلافة عثمان، فقصد لهم معاوية حتى فتحها ثم رمها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع ٠ فلما استخلف عثمان وولى معاوية الشام وجه معاوية سفيان بن مجيب الأزدي الى أطرابلس وهى ثلاث مدن مجتمعة ٠٠٠ وكتب بالفتح الى معاوية فأسكنه معاوية جماعة كبيرة من **اليهود** وهو الذى فيه الميناء اليوم ، ثم أن عبد الملك بناه بعد وحصنه ٠ وكان معاوية يوجه فى كل عام الى أطرابلس جماعة كثيفة من الجند يشحنها بهم ويوليها عاملا ، فاذا انغلق البحر قفلوا وبقى العامل فى جمعية منهم يسيرة ٠ فلم يزل الأمر فيها جاريا على ذلك حتى ولى عبد الملك فقدم فى أيامه بطريق من بطارقة الروم ومعه بشر منهم كثير فسأله أن يعطى الأمان على أن يقيم بها ويؤدى الخراج ـ فأجيب الى مسألته ، فلم يلبث الا سنتين أو أكثر منهما بأشهر حتى تحين قفول الجند عن المدينة ثم أغلق بابها وقتل عاملها وأسر من معه من الجند وعدة من اليهود ولحق وأصحابه بأرض الروم ٠٠٠ » وهذه الحادثة وحدها تكشف عن حال الثغور البحرية وكيف كانت يد المسلمين عليها واهنة فى أول الفتح ـ بل حتى أيام عبد الملك ابن مروان ـ حتى أنهم يجعلون فيها حامية مؤقتة ثم يأمنون أن يقيم فيها بطريق رومى !! والبلاذرى يروى عن أطرابلس بالذات أنها كانت ميئوسا منها ، فقد وجه يزيد معاوية الى سواحل دمشق « سوى أطرابلس فانه لم يكن يطمع فيها ٠٠٠ » وفى خلافة عمر بن عبد العزيز أغارت الروم على ساحل اللاذقية فهدموا مدينتها وسبوا أهلها سنة ١٠٠ هـ « فأمر عمر ببنائها وتحصينها ٠٠٠ ولم يمت حتى حرر مدينة اللاذقية » ٠ **لذلك دأب معاوية على تحصين الثغور البحرية اذ كانت هى موضع الخطر الكبير** « فأنشأ معاوية بن أبى سفيان جبلة ـ وكانت حصنا للروم جلوا عنه عند فتح المسلمين حمص ـ وشحنها ٠٠ بنى معاوية لجبلة حصنا خارجا من الحصن الرومى القديم ٠٠٠ فتح عبادة والمسلمون معه انطرطوس ـ وكان حصنا ثم جلا عنه أهله ـ فبنى معاوية انطرطوس

ومصرها واقطع بهــا القطائع ، وكذلك فعل بمرقية وبلنياس » . وهكذا تابع المسلمون الحصون الرومية على البحر يدعمونها ويشحنونها « قالوا : افتتح أبو عبيدة اللاذقية وجبلة وانطرطوس على يدى عبادة بن الصامت. وكان يوكل بها حفظة الى انغلاق البحر ، فلما كانت شحنة معاوية السواحل وتحصينه اياها شحنها وحصنهـــا وامضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل » . وكذلك لقي المسلمون المتــاعب فى ثغور فلسطين ، فروى البلاذرى عن محمد بن سعد عن الواقدى « لما ولى عمر معاوية الشام حاصر قيسارية حتى فتحها ، وقد كانت حوصرت نحو من سبع سنين وكان فتحها فى شوال سنة ١٩ » . وكذلك كانت حال عسقلان « يقال ان عمرو بن العاص كان فتحها ثم نقص أهلها وأمدهم الروم ففتحها معاوية وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة ... وأخربت الروم عسقلان وأجلت أهلهــا عنها فى أيام ابن الزبير فلمــا ولى عبد الملك بناها وحصنها ورم أيضــا قيسارية ... وبنى صور وعكا الخارجة وكانت سبيلهـــا مثل ســبيل قيسارية »(٢٠) **وأخذ معاوية فى تعمير هذه السواحل بمختلف طوائف السكان الذين استقدمهم من شتى أنحاء الدولة الاسلامية** « فنقــل قوما من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الأردن صور وعكا وغيرها سنة ٤٢ ، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية فى هذه السنة أو قبلها أو بعدها بسنة جماعة ... وحدثنى هشام بن الليث قال : حدثنى أشياخنا قالوا : نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم ، ثم نزع الينا أهل بلدان شــتى فنزلوها معنا وكذلك جميع سواحل الشام » « واسكن معاوية ـ الحصن بأطرابلس ـ جماعة كبيرة من اليهود » « ... ثم أن الناس بعد انتقلوا الى السواحل من كل ناحية » (٢١) .

فاذا انتقلنا من الثغور البحرية الى **الثغور البرية** وجدنا المسلمين فى شمال الشام يعملون على **اسكان الفاتحين** فى المدن الكبرى القائمة فى شمال الشام أول الأمر ، فبعد صلح حمص نجد أن « السمط بن الأسود الكندى قسم حمص خططا بين المسلمين حتى نزلوها ، واسكنهم فى كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة » . وقد كان فى هذه المنطقة **قبائل عربية** قبل الفتح الاســلامى « وكان حاضر قنسرين لتنوخ مذ أول ما تنخوا بالشام ـ نزلوه وهم فى خيم الشعر ثم ابتنوا به المنازل ، فدعاهم أبو عبيدة الى

---

(٢٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٤ ، ١٣٣ ، ـ ٤ ، ١٣٩ ـ ١٤٠ ، ١٤٨ : ٥٠ .
(٢١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٣ ـ ٤ ، ١٣٣ ، ١٣٥ .

الاسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح ٠٠ ثم سار أبو عبيدة يريد حلب فبلغه أن أهل قنسرين قد نقضوا وغدروا فوجه اليهم السمط فحصرهم ثم فتحها ٠٠٠ وكان بقرب مدينة حلب حاضر تدعى حاضر حلب تجمع أصنافا من العرب من تنوخ وغيرهم فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم أنهم أسلموا بعد ذلك ٠٠٠ وكان حيار بنى القعقاع بلدا معروفا قبل الاسلام ٠٠٠ ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة واسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام ٠ وقوما لم يكونوا من البعوث نزعوا الى البوادى من قيس ٠ وأسكن قاصرين قوما ثم رفضوها أو اعقابهم ، وبلغ أبو عبيدة الفرات ثم رجع الى فلسطين وكانت بالس والقرى المنسوبة اليها فى حدها الأعلى والأوسط اعذاء عشرية » ٠ وكذلك جرى الحال بالنسبة للجزيرة « لما ولى معاوية الشام والجزيرة لعثمان أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم فى اعتمال الارضين التى لا حق فيها لأحد ، فانزل بنى تميم الرابية ، وأنزل المازحين والمديبر اخلاطا من قيس وأسد وغيرهم وفعل ذلك فى جميع نواحى ديار مضر ، ورتب ربيعة فى ديارها على ذلك ، والزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله » ٠ وفى أرمينية كتب حبيب بن مسلمة الفهرى الى عثمان يسأله المدد « فكتب الى معاوية يسأله أن يشخص اليه من أهل الشام والجزيرة قوما ممن يرغب فى الجهاد والغنيمة فبعث اليه معاوية الفى رجل اسكنهم قاليقلا وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها ٠٠٠ وأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأبواب أربعة وعشرين الفا من أهل الشام على العطاء » وحين غزا معاوية قبرص سنة ٣٣ هـ معاودا فتحها أقر أهلها على صلحهم « وبعث اليها باثنى عشر الفا كلهم أهل ديوان فبنوا بها المساجد ، ونقل اليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة ، واقاموا يعطون الأعطية الى الى أن توفى معاوية وولى بعده ابنه يزيد فأقفل ذلك البعث » (٢٢) ٠

غير ان المسلمين كانوا محجمين عن الاستقرار فى أقصى الشمال على حدود دولتهم مع الدولة البيزنطية « قالوا : كانت ثغور المسلمين الشامية أيام عمر وعثمان وما بعد ذلك أنطاكية وغيرها من المدن التى سماها الرشيد عواصم ، فكان المسلمون يغزون ما وراءها كغزوهم اليوم ما وراء طرسوس،

---

(٢٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٧ ، ١٥١ : ٣ ، ١٥٧ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢١٤ ، ١٦٠ ٠

وكان فيما بين الإسكندرية وطرسوس حصون ومسالح للروم كالحصون والمسالح التي يمر بها المسلمون اليوم ـ **فربما أخلاها أهلها وهربوا الى بلاد الروم خوفا ، وربما نقل اليها من مقاتلة الروم من تشحن بهم ، وقد قيل ان هرقل أدخل اهل هذه المدن معه عند انتقاله من انطاكية لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين انطاكية وبلاد الروم** ... قالوا : الأمر المتعالم عندنا أن هرقل نقل أهل هذه الحصون معه وشعثها ، فكان المسلمون اذا غزوا لم يجدوا بها أحدا ، وربما كمن عندها القوم من الروم فاصابوا غرة المتخلفين عن العسكر والمنقطعين عندها، فكان ولاة الشواتي والصوائف اذا دخلوا بلاد الروم خلفوا بها جندا كثيفا الى خروجهم ... ولما غزا معاوية غزوة عمورية سنة ٢٥ وجد الحصون فيما بين انطاكية وطرسوس خالية ، فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته ... وكانت الولاة تفعله . وقال : ووجدت في كتاب مغازي معاوية أنه غزا سنة ٣١ من ناحية المصيصة فبلغ درولية فلما خرج **جعل لايمر بحصن فيما بينه وبين انطاكية الا هدمه** » (٢٣) وزاد من حرج مركز المسلمين على الحدود أن **الجراجمة** في جبل اللكام بين بياس وبوقا كانوا يمالئون الروم على العرب حتى اضطر **عبد الملك ابن مروان الى مصالحة الروم** ليتفرغ للجبهة الداخلية . واضطر الوليد بن عبد الملك أن يوجه اليهم مسلمة فيفتح بلادهم ويجليهم عنها . وقد نقل معاوية سنة ٤٩ أو سنة ٥٠ الى السواحل قوما من **زط البصرة والسباتجة وانزل** بعضهم انطاكية فبأنطاكية محلة تعرف بالزط وببوقا من عمل انطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزط . كما نقل الوليد بن عبد الملك الى انطاكية قوما من الزط السند ممن حمله محمد بن القاسم الى الحجاج فبعث بهم الحجاج الى الشام » وزعم أبو الخطاب الازدي أن أهل الجرجومة كانوا يغيرون في أيام عبد الملك على قرى أنطاكية والعمق واذا غزت الصوائف قطعوا على المتخلف واللاحق ومن قدروا عليه ممن في أواخر العسكر وغالوا في المسلمين ، فأمر عبد الملك ففرض لقوم من أهل انطاكية وأنباطها وجعلوا مسالح وأردفت بهم عساكر الصوائف ليؤذنوا الجراجمة عن أواخرها فسموا الروادیف وأجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير » (٢٤) كذلك رتب مروان بن محمد **الصقالبة** في الثغور وحين بنى الخصوص في شرقي جيحان بجانب المصيصة أسكنها فرسا وصقالبة وأنباطا نصارى (٢٥) .

---

(٢٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٧٠ : ٣ .

(٢٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٦٦ : ٩ .

(٢٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٧٣ .

فلما اشتدت شوكة المسلمين واستقرت أقدامهم بالشام عزموا على ألا يدعوا حدودهم الشمالية خرابا « قال أبو الخطاب الازدى : كان أول من ابتنى حصن **المصيصة** فى الاسلام عبد الملك بن مروان على يد ابنه عبد الله بن عبد الملك فى سنة ٨٤ على أساسها القديم فتم بناؤها وشحنها فى سنة ٨٥ ، وكانت فى الحصن كنيسة جعلت هريا . وكانت الطوالع من أنطاكية تطلع عليها فى كل عام فتشتو بها ثم تنصرف وعدة من كان يطلع اليها ألف وخمسمائة الى الألفين » **فالثغور لم تسكن بعد سكنا دائما ولم تشحن بأعداد كثيفة** ، ويوضح تردد المسلمين فى تعمير الحدود الشمالية ما روى من أن عمر بن عبد العزيز « شخص حتى نزل هرى المصيصة وأراد هدمها وهدم الحصون بينها وبين أنطاكية ، وقال : أكره أن يحاصر الروم أهلها ـ فأعلمه الناس أنها انما عمرت ليدفع من بها من الروم عن انطاكية ، فأمسك وبنى لأهلها مسجدا جامعا من ناحية كفر بيا واتخذ فيه صهريجا وكان اسمه عليه مكتوبا ... ثم بنى هشام ابن عبد الملك الربض ، ثم بنى مروان بن محمد الخصوص فى شرقي جيحان وبنى عليها حائطا واقام عليها باب خشب وخندق خندقا » . وفى عهد هشام بن عبد الملك **بنيت حصون المثقب وقطر غاش ومورة** « وكان سبب بنائه أن الروم عرضوا لرسول له فى درب اللكام عند العقبة **البيضاء** ، **ورتب فيه أربعين رجلا وجماعة من الجراجمة** » ، وكذلك أقيمت **ببغراس مسلحة** فى خمسين رجلا وابتنى لها حصن ، وبنى **حصن بوقا** . ولم يفت المسلمين أن يؤمنوا الطريق بين انطاكية والمصيصة ، فقد كان «مسبعة يعترض للناس فيها الأسد ، فلما كان الوليد بن عبد الملك شكى ذلك اليه فوجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس فنفع الله بها ... ولما قبض يزيد بن عبد الملك أموال بنى المهلب أصاب لهم أربعة آلاف جاموسة كانت بكور دجلة وكسكر فوجه بها الى المصيصة أيضا مع زطها ... وأما جواميس أنطاكية فكان أصلها ما قدم به الزط معهم وكذلك جواميس بوقا » (٢٦) كذلك اتجه المسلمون الى تعمير الثغور الجزرية ، وساروا فى هذا السبيل خطوات ومراحل فقد فتحت ملطية ثم أغلقت « فلما ولى معاوية الشام والجزيرة وجه اليها حبيب بن مسلمة ففتحها عنوة ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها ، وقدمها معاوية وهو يريد دخول الروم فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما فكانت طريق الصوائف. ثم أن أهلها انتقلوا عنها فى أيام عبد الله بن الزبير ، وخرجت الروم

---

(٢٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٢ : ٥ .

فشعثتها ثم تركتها فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والنبط • وحدثني محمد بن سعد عن الواقدى فى اسناده قال : كان المسلمون نزلوا طرندة بعد أن غزاها عبد الله ابن عبد الملك سنة ٨٣ وبنوا بها مساكن – وهى من ملطية على ثلاث مراحل ، واغلة فى بلاد الروم ، وملطية يومئذ خراب ليس بها الا ناس من أهل الذمة من الأرمن وغيرهم – فكانت تأتيهم طالعة من جند الجزيرة فى الصيف فيقيمون بها الى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج فاذا كان ذلك قفلوا » **فنحن أمام حاميات مؤقتة كما كان الأمر بالنسبة للثغور الشامية** ، وتواجهنا هنا سياسة عمر بن عبد العزيز أيضا فهو قد « رحل أهل طرندة عنها وهم كارهون – وذلك لاشفاقه عليهم من العدو ، واحتملوا فلم يدعوا لهم شيئا حتى كسروا خوابى الخل والزيت • ثم أنزلهم ملطية وأخرب طرندة »، وولى على ملطية جعونة ابن الحارث أحد بنى عامر بن صعصعة » فالمسلمون قد شرعوا يضعون أقدامهم بغية الاستقرار فى الثغور أيام الأمويين ، لكنهم لم يتوطنوا هناك تماما بل كانوا يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى « وكان بنى أمية يسمون درب الحدث السلامة – للطيرة ، لأن المسلمين كانوا أصيبوا به – فكان ذلك الحدث فيما يقول بعض الناس » (٢٧) • وقد تعرضت هذه الثغور كلها شامية وجزرية لغارات الروم وتخريبهم فى أواخر أيام الأمويين نتيجة ما أصاب الدولة الاسلامية من ضعف واضمحلال ، على أنه كانت هناك بعض محاولات متفرقة فى استصلاح أمر الثغور « قال أبو الخطاب : بنى الجسر الذى على طريق أذنة من المصيصة وهو على تسعة أميال من المصيصة سنة ١٢٥ فهو يدعى جسر الوليد ، وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك المقتول » « فلما كانت أيام مروان بن محمد وشغل بمحاربة أهل حمص خرجت الروم وحصرت مدينة **مرعش** ••• ثم لما فرغ مروان من أمر حمص بعث جيشا لبناء مرعش فبنيت ومدنت (٢٨) » غير أن هذه الاصلاحات لم تدم اذ أن انتقاض العباسيين على الحكم الأموى وجدهم فى القضاء عليه قد ترك للروم فرصة سانحة أغاروا فيها على الثغور وخربوها •

ولما جاء العباسيون ونقلوا عاصمتهم الى المشرق اعتنوا بتدعيم الحدود وتحصينها وكأنهم وقد انصرفوا تماما عن السياسة الأموية فى غزو القسطنطينية وفتح بلاد الروم قد عولوا على أن تؤدى الثغور مهمتها الأساسية كحدود فاصلة بين دولتين ، فعملوا على تشييد وتدعيم المراكز

---

(٢٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٣ – ٤ ، ١٩٨ •

(٢٨) البلاذرى / فتوح البلدان ص ١٧٥ ، ١٩٧ •

الحربية على الحدود لتؤمن الدولة الاسلامية من غارات العدو • فهم لما اعتنقوا هذه السياسة الدفاعية صمموا على أن يحكموها تماما ، وقد مضوا فى هذا منذ بواكير أيامهم • فما كاد عبد الله بن على ينجز القضاء على الدولة الاموية بالشام حتى كلف بغزو الروم • ونجد الخلفاء العباسيين الأوائل يتتابعون على تعمير الثغور لتكون مقرا للسكنى الدائمة والحاميات الكبيرة « فلمــا استخلف أبو العبــاس فرض **بالمصيصة** لأربعمائة رجل زيادة فى شحنتها وأقطعم • ثم لما استخلف المنصور فرض بالمصـــيصة لأربعمائة رجل ، ثم لما دخلت سنة ١٣٩ أمر بعمران مدينة المصيصة وكان حائطها متشعثا من الزلازل وأهلهــا قليل فى داخل المدينة ، فبنى سور المدينة واسكنها أهلها سنة ١٤٠ وسماها المعمورة ، وبنى فيهــا مسجدا جامعا فى موضع هيكل كان بها وجعله مثل مسجد عمر مرات ـ ثم زاد فيه المأمون ، وفرض المنصور فيها لألف رجل ثم نقل أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط نصارى ـ وكان مروان أسكنهم اياها ـ وأعطاهم خططا فى المدينة عوضا عن منازلهم على ذرعها ونقض منازلهم وأعانهم على البناء وأقطع الفرض قطائع ومساكن • ولما استخلف المهدى فرض بالمصيصة لألفى رجل ، ولم يقطعهم لأنها قد كانت شحنت من الجند والمطوعة ولم تزل الطوالع تأتيها من انطاكية فى كل عام حتى وليها سالم البرلسى وفرض موضعه لخمسمائة مقاتل على خاصة عشرة دنانير عشرة دنانير فكثر من بها وقووا ـ وذلك فى خلافة المهدى ••• وبنى الرشيد **كفر بيا** ، ويقال بل كانت ابتنيت فى خلافة المهدى ، ثم غير الرشيد بناءها وحصنها بخندق ، ثم رفع الى المأمون فى أمر غلة كانت على منازلها فأبطلهــا وكانت منازلها كالحانات ، وأمر فجعل لهــا سور فرفع فلم يســتتم حتى توفى ـ فأمر المعتصم باتمامه وتشريفه ••• » « ولما كانت سنة ١٦٥ أغزى المهدى ابنه هرون بلاد الروم ، فنزل على الخليج ثم خرج فرم المصيصة ومسجدها وزاد فى شحنتها وقوى أهلها ، وبنى القصر الذى عند جسر أذنه فى سيحان ـ وقد كان بنى فى عهد المنصور ولم يكن محكما ـ ثم لما كانت سنة ١٩٤ بنى أبو سليم فرج الخادم أذنه فأحكم بناءها وحصنا وندب اليها رجالا من أهل خراسان وغيرهم على زيادة فى العطاء وذلك بأمر محمد بن الرشيد فرم قصر سيحان » • وحين غزا الحسن بن قحطبة الطائى بلاد الروم سنة ١٦٢هـ فى أهل خراسان وأهل الموصل والشام وأمداد اليمن ومطوعة العراق والحجاز « نزل مرج طرسوس ، فركب الى مدينتها وهى خراب ، فنظر اليها وأطاف بها من جميع جهاتها وحزر عدة من يسكنها فوجدهم مائة ألف ، فلما قدم على المهدى وصف له أمرها وما فى بنائها وشحنتها

من غيظ العدو وكبته وعز الاسلام واهله ، وأخبره فى **الحدث** أيضا بخبر رغبته فى بناء مدينتها ، فأمره ببناء طرسوس وأن يبدأ بمدينة الحدث . فلما كانت سنة ١٧١ بلغ الرشيد أن الروم ائتمروا بينهم بالخروج الى طرسوس لتحصينها وترتيب المقاتلة فيها فاغزى الصائفة سنة ١٧١ هرثمة بن أعين وأمره بعمارة **طرسوس** وبنائها وتمصيرها ففعل واجرى أمرها على يد فرج بن سليم الخادم بأمر الرشيد فوكل فرج ببنائها وتوجه أبو سليم الى مدينة السلام : فأشخص الندبة الأولى من أهل خراسان ـ وهم ثلاثة آلاف رجل ـ فوردوا طرسوس ، ثم أرسل الندبة الثانية وهم ألفا رجل : ألف من أهل المصيصة وألف من أهل انطاكية على زيادة عشرة دنانير عشرة دنانير لكل رجل فى أصل عطائه ـ فعسكروا مع الندبة الأولى بالمدائن على باب الجهاد فى مستهل المحرم سنة ١٧٢ الى أن استتم بناء طرسوس وتحصينها وبناء مسجدها . ومسح فرج ما بين النهر الى النهر ، فبلغ ذلك أربعة آلاف خطة ـ كل خطة عشرين ذراعا فى مثلها ـ واقطع أهل طرسوس الخطط ، وسكنتها الندبتان فى شهر ربيع الآخر سنة ١٧٢ » ثم عمرت **سيسية** مدينة تل عين زربةفى خلافة المتوكل على يدى على بن يحيى الأرمنى ثم أخربتها الروم . وفى سنة ١٨٠هـ أمر الرشيد بابتناء مدينة **عين زربة** وتحصينها « وندب اليها من أهم خراسان وغيرهم فأقطعهم بها المنازل » ونقل اليها المعتصم بشرا من الزط قد كانوا غلبوا على البطائح بين واسط والبسرة فانتفع أهلها بهم وفى سنة ١٨٣هـ أمر الرشيد ببناء **الهارونية** « فبينت وشحنت بالمقاتلة ومن نزح اليها من المطوعة ... ويقال انه بناها فى خلافة المهدى ثم أتمت فى خلافته » . كما أمر الرشيد ببناء مدينة الكنيسة السوداء وتحصينها وندب اليها المقاتلة فى زيادة العطاء « وكانت من حجارة سود بناها الروم على وجه الدهر ولها حصن قديم أخرب فيما أخرب » (٢٩) . ولم يكن العباسيون أقل نشاطا فى تعمير الثغور الجزرية « فلما كانت سنة ١٣٩ كتب المنصور الى صالح ابن على يأمره ببناء ملطية وتحصينها ، ثم رأى أن يوجه عبد الوهاب ابن ابراهيم الامام واليا على الجزيرة وثغورها ـ فتوجه فى سنة ١٤٠ هـ ومعه الحسن بن قحطبة فى جنود أهل خراسان ، فقطع البعوث على أهل الشام والجزيرة ـ فتوالى معه سبعون ألفا فعسكر على ملطية وقد جمع الفعلة من كل بلد . فاخذ فى بنائها وكان الحسن بن قحطبة ربما حمل الحجر حتى يناوله البناء ، وجعل يغدى الناس ويعيشهم من ماله مبرزا مطابخه .

---

(٢٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٣ : ٩ .

فغاظ ذلك عبد الوهاب فكتب الى أبى جعفر ز٠٠ فكتب اليه أبو جعفر : يا صبى يطعم الحسن من ماله وتطعم من مالى ، ما أتيت الا من صغر خطرك وقلة همتك وسفه رأيك ، وكتب الى الحسن أن أطعم ولا تتخذ منـاديا ٠ فكان الحسن يقول : من سبق الى شرفة فله كذا ، فجد الناس فى العمل حتى فرغوا من بناء ملطية ومسجدها فى ستة أشهر ، وبنى للجند الذين أسكنوها ـ لكل عرافة بيتان سفليان وعليتان فوقهما واسطبل (والعرافة عشرة نفر الى خمسة عشر رجلا) ، وبنى لها مسلحة على ثلاثين ميلا منها ومسلحة على نهر يدعى قباقب يدفع فى الفرات ٠ وأسكن المنصور منطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لانها من ثغورهم على زيادة عشرة دنانير فى عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار سوى الجعل الذى يتجاعله القبائل بينها ، ووضع فيهـا شحنتها من السلاح، وأقطع الجنـد المزارع ، وبنى حصن قلوذية » ٠ وفى خلافة المنصور بنى صالح بن على **هرعش** « وحصنها وندب الناس عليها علىزيادة العطاء ، واستخلف المهدى فزاد فى شحنتها وقوى أهلها » ٠ وكلم الحسن بن قحطبة المهدى فى بناء الحديث وبناء طرسوس « فأمر بتقديم بناء الحديث ، فأنشأها على بن سليمان بن على وهو على الجزيرة وقنسرين وسـميت المحمدية والمهدية ، وكان بنـاؤها باللبن ، وتوفى المهدى مع فراغهـم من بنائهـا فولى الهـادى الجزيرة وقنسرين محمـد ابن ابراهيم بن محمـد بن على ففرض فرضـا من أهل الشـام والجزيرة وخراسان فى أربعين دينارا من العطاء واقطعهم المساكن واعطى كل امرىء ثلثمائة درهم ٠٠٠ وقال أبو الخطاب: فرض على بن سليمان بمدينة الحدث لأربعة آلاف فاسكنهم اياها ونقل اليها من ملطية وشمشاط وسميساط وكيسوم ودلوك ورعبـان الفى رجل ٠ قال الواقدى : ولما بنيت مدينـة الحدث هجم الشتاء والثلوج وكثرت الامطار ولم يكن بناؤها بمستوى منه ولا محتاط فيه ٠٠ فتثلمت المدينة وتشعثت ونزل بها الروم فتفرق عنها من كان فيها من جندها » ويصف غير الو اقدى طريقة البناء «كان بناؤها بلبن قد حمل بعضـه على بعض »٠، فلمـا ولى الرشـيد الخلافة أمر ببنائهـا وتحصينها وشحنتهـا واقطاع مقاتلتهـا المساكن والقطـائع وتوالى على تحصين زبطرة المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم (٣٠) ٠ وقد وجه المأمون ابنه العباس لبناء الطوانة سنة ٢١٨ هـ « وكان قد وجه الفعلة والفروض فابتدأ البناء وبناها ميلا فى ميل وجعل سورها على ٣ فراسخ وجعل لها ٤ أبواب وبنى على كل باب حصنا » ٠ وكتب الى أخيه اسحق أنه فرض على

(٣٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٥ : ٢٠٠ ٠

لأجناد الشام ٤٠٠٠ رجل وأنه يجرى على الفارس ١٠٠ درهم وعلى الراجل ٤٠ درهما وكتب للعباس بمن فرض على قنسرين والجزيرة (٣١) ٠

وهكذا نشأت المدن الاسلامية بالتدريج : الأمصار والاجناد فالرباطات فالعواصم والثغور ٠ وشهدت هذه البلاد مع تقديم المسلمين واستقرارهم العرب وغيرالعرب، وعاش السكان فيها فى الخطط والقطائع، وتوطن المقاتلة ونزح اليهـا المطوعة وقامت فيهـا المساجد تعلى شعائر الاسلام على الحدود بين عالمين حضاريين متميزيين ٠ وبارك الفقه الاسلامى هذا التمدد السياسى والاجتماعى « فاذا وطن الاعرابى مصرا من أمصار المسلمين فقد خرج من الاعرابية وصار من أهـل الامصار ، التحق فى الديوان أو لم يلحق » (٣٢) ٠

وكان ارتياد موقع الثغر هو الخطـوة التمهيدية الاساسية ٠ وتدل النصوص على أن البناء فى الثغور كان يجرى صـيفا وينتهى على عجل ، وكانت ترتب أثناءه الحراسة الكافية ، ولهذا كله تحشد لانجازه الآلاف العديدة ٠ كان هناك تقسيم للعمل وتشجيع على السـبق ٠ والنصوص تسجل بناء الخانات : وهى مجموعة مساكن تلتف حول ساحة مشتركة وتعرف اليوم فى كرمانشاه وهمذان على طريق بغداد — طهران، كما تسجل بناء خطط الواحدة منها ٢٠ ذراعا فى مثلها تتسع لأسرة أو عرافة وقد بنيت طرسوس خططا ، وجاء فى وصف العرافة أنها تتألف من ٤ بيوت — أى حجرات — منها بيتان سفليان وآخران علويان واصطبل ٠ ويتصور أن تكون الخانات والعرافات والخطط متلاصقة بينها دروب ضيقة ويحيط بالثغر سور (٣٢ م) ٠

ويقسم متز مدن المملكة الاسلامية أربعـة أنواع : مدنا على الطراز اليونانى فى صورته الشرقية والمعروف فى حوض البحر المتوسط، والمدن التى على طراز جنـوب جزيرة العرب مثل مدينة صنعاء ومن هـذا الطراز مكة والفسطاط — وتختص المدن العربية بتقارب المبانى وارتفاع الدور ، والمدن التى كانت تشيد على النظام البابلى ، والمدن التى كانت على الطراز المعروف فى شرق المملكة الاسلامية ٠ والمدن الايرانية كانت تتألف من

---

(٣١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٨٤ ٠

(٣٢) شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن املاء السرخسى ج ١ ص ٩٥ ٠

(٣٢م) د٠ شميرة : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية بحث فى كتاب (الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) ٠

قلعة (قوهندز) ومن المدينة الرسمية (ولهـا فى العادة أربعة أبواب)، ومن قسم تجارى يشتمل على الاسواق ـ وكان كل قسم محصنا بسوره الخاص • وقد ظهر منذ منتصف القرن ٣ هـ طراز خامس وذلك أن الملوك صاروا يبنون لانفسهم الى جانب العاصمة مدنا خاصة يتخذونها مقرا لهم، مثل سامرا والجعفرية على دجلة بجانب بغداد ورقادة التى اتخذها بنو الأغلب بجوار القيروان والقطائع التى اتخذها الطولونيون بمصر (٣٣) • **ويمكننا أن نعتبر المراكز العسكرية على الحدود نوعا متميزا خاصا من أنواع المدن الاسلامية ، اذ اثرت الظروف الحربيـة على العمارة والادارة والمجتمع •**

هذا وقد كان الامويون يميلون الى سكنى الصحراء ، ويفسر البعض ذلك بغلبة روح التبدى العربيـة عليهم ورغبتهم فى تنشـئة أبنائهم فى بيئة عربية ونزوعهم الى الفرار من الأوبئة والحشرات• وقد لاحظ ابن خلدون أن العرب لعهـد بنى أميـة كانوا لا يزالون يسـكنون البيوت من الوبر والصوف ، وقد أحس عمر بحنين العرب الى الصحراء فبنى لهم الامصار على حافتها ، ولما جاء بالشام نزل الجابية • ولدينا من العصر الأموى بقايا ما يقرب من ثلاثين **من المراكز الصحراوية** أغلبهـا للخلفاء ، كما أن بعض النساء الأمويات بنين لهن قصورا • فأقام الامويون مبـانى فخمة مفتوحة للريح من كل جانب يقيمون فيها فى الربيع والشتاء وحتى فى الصيف ، وعلى البيوت قباب وتحيطها أسوار، وحوائطها مزخرفة وأرضها مفروشة بالرخام أو البازلت وبها صهاريج المـاء • وقد كان معاوية يحب الاقامة بجـانب بحيرة طبرية وكذلك ابنه يزيد ، وبنى الوليـد قصورا صحراوية وينسب اليه بنـاء قصر المشتى قرب البحر الميت أما سليمان، فأنشـأ الرملة على الطريق الممتد من القـدس الى البحر وقد يكون بناها حينما ولى جند فلسطين من قبل الوليد واستكملها فى خلافته ، وسكن عمر بن عبد العزيز خنـاصرة ـ بليدة شرقى حلب ، ويزيد بن الوليـد موقر فى البلقاء قرب دمشق ، وهشام بالس بين حلب والرقة على الفرات أو الرصـافة على طرف البرية غربى الفرات وقد كان هذا الموضع للملوك الغساسنة وتكثر به الكنائس العظيمة • وشرب سـكانها من صهاريج لانه لم يكن عندها نهر ولا عين جارية • ولعل الوليد الثانى هو الذى بنى قصر مشتى وغيره (٣٤) • ولقيت بعض مدن الجزيرة اهتماما خاصا لدى

---

(٣٣) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ٢ ص ١٩٨ ـ ٩ •

(٣٤) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٢٤١ : ٣ والهامش و ص ٢٨٠ •

العباسيين ، ففي سنة ١٥٤ هـ وجه المنصور المهدى الى الرقة لبناء الرافقة «. فبناها على بناء بغداد فى أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها وسورها وسورها وخندقها »• وجاء الرشيد فمضى سنة ١٨٠ هـ الى الرقة فنزلها « واتخذها وطنا » « وقد كان خاف من الجند ما خاف المعتصم ، فلما وثب أهل الشام بالشام وعصوا خرج الرشيد الى الرقة فاقام بها » (٣٥)• وقد بنى المعتصم سامرا ، كما بنى المتوكل الماحوزة التى سميت الجعفرية والمتوكلية (٣٦) •

(ب) التقسيم الادارى :

من الواضح ان هناك تشابها بين الأسس العامة التى سار عليها كل من الرومان والعرب فى تقسيماتهم الادارية ، فقد كانت (**المدينة**) هى الأساس الذى قام عليه التنظيم الادارى السياسى الرومانى ، وكانت المدن هى المراكز التى اعتمد عليها العرب أيضا فى الحكم والادارة • ولقد انتفع العرب باهتمام الرومان بالمدن وتنظيمهم اياها وعنايتهم باتقان بنيانها وتزويدهم اياها بما استطاعوا تزويدها به من وسائل العمران المدنى، ولايبدو ذلك بصورة هى أوضح مما يبدو بها فى الشام والأندلس « **ففى الشام تعلق العرب بالمدن وتجمعوا فيها وجعلوها مراكز عسكرية، والحقوا بكل منها جانبا من الريف اعتبروه حوزا للمدينة أو زماما ـ وهذا هو ما عرف بالأجناد** ـ وكان مفهوم المدينة عند الرومان مفهوما سياسيا واجتماعيا خاصا ، أخذوه عن الاغريق وأضافوا اليه وعدلوه بما يناسب الطبيعة العسكرية السياسية الخاصة بدولتهم ••واصبحت المدينة مرادفا لنظام سياسى يتضمن حريات وحقوقا وواجبات معينة يعتبر الحصول عليها حصولا على حق المواطنة الرومانية• فاذا دخل الرومان بلدا قسموه أقساما بحسب طريقة دخولهم: عنوة أو صلحا أوبمحالفة أو ما الى ذلك• وقد يرفع الرومان مستوى بعض النواحى بعد زمن ويمنحونها حق المدينة أى حق المواطنة • ولم تكن المدينة عندهم مجرد مدينة بل كان لها زمام يحيط بها Orbs-is تابعا لها حكمه كحكمها وسكانه مواطنون فيها • واذا كان هذا الزمام واسعا قسم الى أقسام • وقد ثبت الرومان زمامات المدن وفصلوا أمرها فيما أصدروه من وثائق خاصة بها • وعند ماظهر نظام الولايات Provinciae فى نهاية أيام الجمهورية الرومانية نشأت المديريات

(٣٥) الطبرى جـ ٩ ص ٢٩٠ ، جـ ١٠ ص ٦٨ ، ٣١١ •
(٣٦) الطبرى : جـ ١١٠ ص ٥٦ ـ ٧٠ •

عن مجموعات من المدن وزماماتها وحددت مساحة كل منهـا بمعرفة لجنة خاصة • وكان الرومان اذا فتحوا بلدا اجتهدوا فى ترتيب أرضه وأهله: فأما الارض التى وجدوها أو أدخلوها فى حوزة مدينـة فاحتفظ أهلهـا بالحقوق التى منحها الرومان للمدينة ـ واعتبرت هذه الأرض Municipia من الناحية القـانونية ، وأما الأرض التى استصفوها أو وجدوها طلقـة لا تتبع أحدا فقـد أنشأوا فيها المستعمرات Coloniae وجلبوا اليها المعمرين Coloni لتعميرها لقاء ضريبة يؤدونها على أساس ما يمتلكه كل معمر من أرض • أما المدن نفسها فقد اختلف وضعها بحسب علاقتها بالرومان وكان للرومان أسس قانونية معقدة خاصة بهذه المدن ، غير أن أوضاع المدن قد تقارب بعضها من بعض خـلال القرون الرومانية المتأخرة كما أن أوضاع الناس قد تقاربت كذلك • **وكان الانجاه فى الادارة الاسلامية عامة يميل نحو الاقسام الادارية الصغيرة تيسيرا لضبط الأمن وربط المال فحوض الدجلة والفرات مثلا كان يضم مالايقل عن ١٥ كورة ، ولا يشذ عن ذلك الا الشام فقد قسم الى مناطق عسكرية كبيرة تسمى الأجناد • ثم ان النظم الادارية الاسلامية كانت لا تميل الى تجزئة الوحدات الادارية الى أجزاء والأجزاء الى أجزاء أصغر كما فى النظام الرومانى ، فاكتفى المسلمون بالكور ـ كل كورة تتبعها مدن وكل مدينة تتبعها أقاليمها أو زماماتها • وقد أدى ذلك الى تبسيط السلم الادارى** ـ فالادارة المركزية يتبعها عمال الكور ، وعمال الكور يتبعهم عمال المدن وهم المسئولون عن زمامات المدن أو أقاليمها ، وجرت العادة أن يعين عامل المدينة عاملا خاصا بالمدينة نفسها يسمى صاحب المدينة • ومن هنا **فقد كان عدد الموظفين فى الادارة الاسلامية لا يبلغ خمس عددهم فى الادارة الرومانية وخاصة** منذ أيام ـ دقلديانوس الذى زحم الادارات بالموظفين وجعلهم طبقات بعضها فوق بعض • **وقد وجد المسلمون عند فتح الشام نظام الأجناد البيزنطى ، والمراد بها ولايات عسكرية ينزلها جند ، والجند ه فرق من المحاربين وهى تقابل thema فى التنظيم البيزنطى ويسميها العرب البند وجمعها بنود ، ويحكم كل منها قائد عسكرى • وكان الجند أول الأمر تنزله قبيلة واحدة أو عدة قبائل متحالفة ويكون لها خراج الناحية فى مقابل تقديمها لجند كامل أى ه فرق من المحاربين •** ولم يعرف نظام الاجناد الا فى الشام وقد كان من أوكد أسباب قوة الدولة اذ ضمن لها المحاربين • وكان الجند فى الشـام يضم كورا كثيرة » (٣٧) •

(٣٧) دكتور مؤنس : فجر الاندلس ص ٥٤٦ : ٩ ، ٥٥٤ ـ ٥ •

وقد استعملت الادارة الاسلامية مصطلحات كثيرة حاول المؤلفون تحديدها بقدر الامكان « قال الحسن البصرى : لا جمعة الا فى **الامصار** ـ المدينة والبصرة والكوفة والبحرين والجزيرة والشـــام ومصر ٠ قال الضحاك : هذه هى البلدان التى جعلها عمر أمصارا » (٣٨) ٠ والمقدسى يقول « وقد اختلف فى الامصار : فقالت الفقهاء : المصر كل بلد جامع يقام فيه الحـدود ويحله أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه ـ مثـل عثر ونابلس وزوزن ، وعند أهل اللغة المصر كل ماحجز بين جهتين ـ مثل البصرة والرقة وأرجان ، والمصر عند العوام كل بلد كبير جليل ـ مثل الرى والموصل والرملة ٠ وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الأعظم وجمعت اليه الدواوين وقلدت منه الاعمال وأضيف اليه مدن الاقليم ـ مثل دمشق والقيروان وشيراز ٠ وربما كان للمصر أو للقصبة نواح لهـــا مدن ـ مثل طخارستان لبلخ والبطائح لواســـط والزاب لافريقية ٠ فالاقاليم أربعة عشر : ستة عربية ـ جزيرة العرب ثم العراق ثم أقور ثم الشام ثم مصر ثم المغرب ، وثمانية عجمية ـ المشرق ثم الديلم ثم الرحاب ثم الجبال ثم خوزستان ثم فارس ثم كرمان ثم السند ٠ **ولابد لكل اقليم من كور ، ثم لكل كورة من قصبة ، ثم لكل قصبة من مدن** ـ الا الجزيرة والمشرق والمغرب : فان لكل واحد مصرين ، والمصر قصبته كورته ، وليس كل قصبة مصرا ٠ ثم الامصار اسم كورها أيضا ـ الا الأربع الأول ٠٠٠ الخ » (٣٩) ٠ أما ياقوت فيعرف في ايجاز المصر « **والمصر** فى الأصل الحد بين الشيئين ٠٠٠ » ويقول عن **الكورة** « ذكر حمزة الاصفهانى : الكورة اسم فارسى بحت يقع على قسم من أقسام الاستان وقد استعارتها العرب وجعلتها اسما للاستان كما استعارت الاقليم من اليونان فجعلته اسما للكشتمر فالكورة والاستان واحد ٠ قلت أنا : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اســـمها ذلك اسم الكورة ٠٠٠ وأما **الاستان** فقد ذكرنا عن حمزة أنه قال : ان الاستان والكورة واحد ـ ثم قال شهرستان وطبرستان وخوزستان مأخوذ من الاستان فخفف ٠٠٠ ثم ينقسم الاستان الى الرساتيق ، وينقسم الرستاق الى الطساسيج ، وينقسم كل طسوج الى عدة من القرى ٠ وأما **الرستاق** فهو فيما ذكره حمزة : مشتق من روذه فستا ـ وروذه اسم للسطر والصف والسماط

---

(٣٨) تهذيب ابن عساكر لبدران : م ١ ص ٤٤ ٠

(٣٩) المقدسي : احسن التقاسيم ص ٤٧ ٠

وقستا اسم للحال ، والمعنى أنه على التسطير والنظام • قلت : الذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن • وأما **الطسوج** فهو أخص وأقل من الكورة والرستاق والاستان ، كأنه جزء من أجزاء الكورة ـ كما أن الطسوج جزء من أربعة وعشرين جزءا من الدينار ، لأن الكورة قد تشتمل على عدة طساسيج وهى لفظة فارسية » (٤٠) • ويلاحظ أن مصطلح الكورة لم يكن فى بلاد الاسلام محدد المعنى ، وكلام ياقوت غير متناسق لا ينتهى الى مفهوم واضح للكورة ، وربما كان سبب ذلك الغموض أن الكورة كمصطلح ادارى لم يستعمل بصورة منتظمة الا فى مصر ، أما فى العراق وما يليه شرقا فكان المصطلح يستعمل تجوزا ، وقد استعمله الجغرافيون أمثال المقدسى والاصطخرى للتسهيل ـ وهما يخلطان بين الكورة والرستاق والاستان والرم وما الى ذلك من المصطلحات الادارية (٤١) • وقد استخلص متز تصنيف القرن الرابع للمدن فلم يدخل فيه الكور بل قصره على : الامصار ، القصبات وهى عواصم الاقاليم ومقامها من الامصار مقام الحجاب من الملوك ، والمدن وهى مايلى القصبة فى الاقاليم ومقامها مقام الجند ، والنواحى مثل نهاوند وجزيرة ابن عمر ، والقرى وهى الملحقة بالمدن ومقامها مقام الرجالة ـ وواضح أن متز اعتمد على المقدسى فيما خلص اليه (٤٢) •

وفى منطقة الثغور تتصل الشام بالجزيرة مما يثير مسألة **تحديد الحدود بين ما هو شامى وما هو جزرى** وقد قال المقدسى عن الرقة مثلا « فالشام على تخمها والفرات الى جنبها » وقال فى تحديد الشام « وأهل العراق يسمون كل ماكان وراء الفرات شاما ، ولهذا أرسل محمد بن الحسن القول فى دواوينه : وليس وراء الفرات من الشام غير كورة قنسرين حسب والباقى بادية العرب والشام من ورائها ـ وانما أراد محمد التقريب والمتعارف بين الناس كما يقال لخراسان المشرق وانما هو من ورائها ، وانما الشام كل ما قابل اليمن وكان الحجاز بينهما • فان قال قائل : ما تنكر أن يكون طرف البادية الى حدود العراق من الشام ليصح ماقاله أهل العراق ؟ قيل : قد قسمنا الاقاليم ورسمنا الحدود فلا ينبغى لنا أن ندخل فى اقليم من غيره » • على أن الاصطخرى

(٤٠) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣٦ : ٩ •
(٤١) دكتور مؤنس : فجر الاندلس ص ٥٧٧ ـ ٨ •
(٤٢) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور ابى ريده ص ١٩٥ •

وابن حوقل يريان أن ثغور الشام والجزيرة كلها من الشام « وذلك أن كل ما كان وراء الفرات فمن الشام . وانما سميت ثغور الجزيرة بذلك لأن أهل الجزيرة بها يرابطون ومنها يغزون » . وقد راعى المقدسى تطور الاحوال فى أيامه فقال عن اعتبار القصـــبة حلب بعد أن كانت قديما قنسرين « فان قال قائل : لم.جعلت قصبة الكورة حلب ـ وهاهنا مدينة على اسمها ؟ قيل له : قد قلنا ان مثل القصبات كالقواد والمدن كالجند ولا يجوز أن نجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجمع الدواوين اليها وأنطاكية ونفاستها وبالس وعمارتها أجنادا لمدينة خربة صغيرة .. » كذلك ميز بين التقسيم الجغرافي والتقسيم السـياسى أو الادارى « فان زعم زاعم أن بدليس من اقليم أقور واستدل أنها كانت فى ولايات بنى حمدان ـ أجيب بأنه لما ادعاها أهل الاقليمين جعلناها من هذا ـ أى أرمينية بالرحاب ـ لأنا وجدنا لها نظيرا فى الاسم وهى تفليس ـ وأما الولايات فليست حجة فى هذا الباب ـ ألا ترى أن سيف الدولة كانت له قنسرين والرقة ولم يقل أحد أن الرقة من الشام ؟ » (٤٣) .

وفى البيان التالى عرض للمراحل التى مر بها التقسيم الادارى للشام فى أجناده حتى انتهى الى أفراد الثغور والعواصم فى ولاية خاصة ، وتمهيدا لذلك تعرض للتقسيم الادارى فى الدولة الاسلامية عموما .

١ ـ التقسيم الادارى للدولة الاسلامية عموما :

كانت الدولة الاسلامية على عهد الأمويين مقسمة اداريا الى خمس ولايات كبرى :

١ ـ الحجاز واليمن ووســط شــبه جزيرة العرب ـ بما فى ذلك نجد .

٢ ـ مصر وتنقسم قسمين أسفل الأرض وأعلى الأرض .

٣ ـ العراقان : العــربى والعجمى ، وكانا يعتبران ولاية كبيرة يحكمها والى العراق وحاضرته الكوفة ، ويتبعه أيضا خراسان وما وراء النهر وكان يلى أحدهما عامل من قبل والى العراق ومركزه مرو ، وكانت البصرة معتبره ولاية يعين عاملها والى العراق ، ويتبع عامل البصرة ولاية

(٤٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥٢ ، ١٥٦ ، ٣٧٥ ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٣ ابن حوقل .

البحرين وعمان ـ وكان يعين عليها عامل من قبله وكانت السند ولاية تابعة لوالى العراق أيضا ٠

٤ ـ الجزيرة (شمالى العراق) ويتبعها أرمينية وأذربيجان ومايدخل فى الدولة الاسلامية من أراضى آسيا الصغرى ٠

٥ ـ افريقية وحاضرتها القيروان ويتبعها المغرب الأوسط والمغرب الأقصى والأندلس ، وكان والى افريقية يعـين من قبله ولاة على هذه الأقسام بما فى ذلك الأندلس (٤٤) ٠

وواضح أن الشام لم تدخل فى هذا التقسيم وان كانت من قبل ولاية فى عهد الراشـدين لـكنها قد غدت قاعدة الحـكم الاموى « لمقام بنى أميـة فى الشـام وكون الولاة فى أيامهم بمنزلة الشرطة لا يستقلون بالامور والحروب » (٤٥) ٠ كما أن هذه الأقسام كانت أكثر عددا فى أول الأمر ـ حوالى ٩ عمالات تقريبا ثم تبلورت بالتدريج الى هذه الصورة ٠

وتتفق هذه الأقسام الادارية بوجه عام مع الولايات السابقة التى كانت موجودة أيام امبراطوريتي البيـزنطيين والفرس ، ولم يحـدث العباسيون تغييرا جوهريا فى النظام الذى وضعه الأمويون للامبراطورية ٠ وقائمة أسماء الاقاليم العباسية لم تكن واحدة فى كل العصور ، كما أن التقسيم السياسى لها كان لا يتبع دائما التقسيم الجغرافى كما يتبين ذلك من كتب الاصطخرى وابن حوقل وابن الفقيه وغيرها ٠ ويعدد الدكتور حتى أشهر الولايات فى أول عهد خلفاء بغداد فى ٢٤ ولاية تقريبا :

افريقية : غربى ليبيا بما فيها صقلية ، مصر ، **الشـام وفلسطين وتنفصلان أحيانا** ، الحجاز واليمامة ووسط بلاد العرب ، اليمن وجنـوب بلاد العرب ، البحرين وعمان وعاصمتها البصرة بالعراق ، السـواد أو العراق (أدنى بلاد النهرين (Mesopotamia وأشهر بلدانها بغداد والكوفة وواسط ، **الجزيرة (آشـور القديمة) وعاصمتها الموصـل** ، آذربيجان وأشهر مدنها اردبيل وتبريز والمراغة ، الجبل (ميديا القديمة)

---

(٤٤) دكتور مؤنس : تعليق بهامش تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان ج ١ ص ١١٤ ، أيضا دكتور حتى . تاريخ العرب ترجمة نافع م ١ ص ٢٧٨ تاريخ سوريه ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٨٧ ، أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ترجمة رافت ص ١٦٣ ٠

(٤٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٤١ ٠

وسميت العراق العجمى ، خوزستان وأشهر مدنها الاهواز وتستر ، فارس وحاضرتها شيراز، كرمان ، مكران (بلوخستان الحالية) ، سجستان أو سستان وعاصمتها زرنج ، قوهستان ، قومس ، طبرستان ، جرجان، أرمينية ، بخراسان (شمال غربى الافغان الحالية) وأشهر مدنها نيسابور ومرو وهرات وبلخ ، خوارزم ، الصغد (بين نهرو سيحون وجيحون)، ومن بلدانها المشهورة بخارى وسمرقند ، فرغانة والشاش (طشقند الحالية) وغيرهما من البلاد التركية (٤٦) .

٢ ـ الأجناد :

الجند فى المصطلح العام هم العسكر ، أما فى مصطلح الدولة الاسلامية خلال عصر الراشدين والأمويين فيراد بهم **الجند العربى المدون فى الديوان ـ الذى يفرض لرجاله العطاء (المرتبات)** والارزاق (ما كان يعطى للجند علاوة على مرتبه من الزيت والقمح والعسل والنسيج) . أما فى المصطلح الادارى فالجند هو **الاقليم العسكرى الذى تقوم بحراسته** وتقيم فيه حامية عربية .

يقول البلاذرى : « وقد اختلفوا فى تسمية الأجناد فقال بعضهم سمى جندا لأنه جمع كورا .. وقال بعضهم سميت كل ناحية لها جند يقبضون أطماعهم بها جندا » . وأول ناحية قسمت الى أجناد ـ أى ولايات عسكرية ـ هى الشام اذ قسمت الى أربعة أجناد . وقد اعتبرت البصرة والكوفة أول الامر جندين واعتبرت مصر جندا ، ثم تحولت البصرةوالكوفة الى كورتين وقسمت مصر كورا ، ولم يعد العراق ومصر جندين أو ولايتين عسكريتين **أما الشام فقد ظل مقسما الى اجناد لأن الدولة الاموية اعتبرت الشام كله اقليما عسكريا** ، ومن الشام انتقل نظام الاجناد الى الاندلس فأنشئت فيه ست ولايات عسكرية عرفت بالاجناد . وفى غير الشام والاندلس لم يستمر نظام الاجناد ، بل حولت أراضى الدولة الاسلامية كلها الى كور ـ أى الى أقسام زراعية مالية .

وكانت الاجناد تخضع لنظام ادارى مالى خاص ، فكان قائد الجند يعتبر حاكم الاقليم ـ فى حين أن الخلافة كانت تقيم على الولايات الاخرى عاملا مدنيا وقائدا عسكريا وقد يجمع الامران للعامل اذا كان من العسكريين . وبينما كانت الولايات تؤدى خراجا عن الارض كانت الاجناد

---

(٤٦) حتى : تاريخ العرب . ترجمة نافع ج ٢ ص ٤١١ ـ ١٢ .

تؤدى العشر فقط لأن الذين كانوا يجمعون الضرائب ويؤدونها الى الدولة كانوا قواد الاجناد وهم عرب ـ والعرب لا يدفعون الا العشر على اعتبار أنه صدقة لا خراج • وكان المزارعون يؤدون الخراج الى قائد الجند فيؤدى منه العشر ويستفضل الباقي ليوزعه على جنده • ويرجع نظام الاجناد الى التقسيم البيزنطى للدولة أيام هرقل الى اقسام عسكرية يسمى واحدها Thema وجمعها Themata وقد عربه العرب بالنسبة لأقسام الدولة البيزنطية الى بند وبنود (٤٧) •

ويفسر سير الجيوش العربية فى فتوح الشام الاقسام الادارية التى قسمت اليها بلاد الشام فيما بعد عندما وضع الخليفة الثانى والادارى العظيم عمر قواعد الحكم الاسلامى هناك • وقد نقل ابن الشحنة بعد تسمية الصديق الكور لجيوش الفتح » قال : فدل بذلك على أن الشام لما كان بأيدى الروم كان منقسما الى هذه الكور الاربع لاغير » (٤٨) • والاجناد الاربعة التى انقسمت اليها الشام فى أول الامر : جند دمشق ، وجند حمص ، وجند الاردن ، وجند فلسطين • ثم فصل من جند حمص جند قنسرين • ويتصل التقسيم الخماسى لأجناد الشام الى حد كبير بالاقاليم البيزنطية والرومانية القديمة كما وجدها العرب فى الواقع زمن الفتح ، وكماوصفت فى تقنين ثيودوسيوس Code of Theodosius ويرجع الى القرن ٥ م :

١ـ ففلسطين الأولى Palaestina Prima وعاصمتها قيصرية (قيسارية) Casarea التى تشمل اليهودية Judaea وسماريا Samaria **قد صارت جند فلسطين** وعاصمته الرملة •

٢ ـ وفلسطين الثانية Palaestina Secunda وعاصمتها سكيثوبوليس Scythopolis (Beth Sheân بيسان) التى تشتمل على الجليل Galilee والقسم الغربى من البتراء Petraea **قد صارت جند الاردن** وعاصمته طبرية •

٣ ـ فلسطين الثالثة Palaestina Tertia أو Salutaris التى تشتمل على أدوم (ايدوميا) Idumaea وبلاد العرب الصخرية Arabia Petraea **قد ادخل جزء منها فى جند دمشق وادخل الجزء الآخر فى فلسطين** •

---

(٤٧) دكتور مؤنس : تعليق بهامش تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان ج ٤ ص ٧٤ • البلاذرى فتوح البلدان ص ١٣٨ •

(٤٨) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٩ •

٤ و ٥ ـ فينيقيا الاولى Phoenicia Prima وعاصمتها صور Tyre ، وفينيقيا الثانية Ph. Secunda أو Ad. Libanum **وقد صارتا فى التقسيم الجديد معا الى جانب كثير من الاراضى الممتدة شرق نهر الاردن جند دمشق الكبير .**

٦ ـ سوريا الثانية Syria Secunda فى الشمال وعاصمتها أفاميا Apameia **وقد صارت عند العرب اقليما يضم حماه وحمص .**

٧ ـ وأخيرا سوريا الاولى Syria Prima وعاصمتها أنطاكية Antioch **قد صارت جند حلب أو قنسرين ، أو بتعبير أدق ذلك الجزء من جند قنسرين الذى غدا فيما بعد اقليما منفصلا باسم جند العواصم (٤٩) .**

وقد عدد الجغرافيون المسلمون المدن الهامة التى تندرج فى كل جند من الاجناد .

وهكذا احتفظ المسلمون **بالتقسيم الادارى الذى كان سائدا زمن البيزنطيين حيث كان حاكم الاقليم يجمع بين السلطات الادارية والعسكرية،** وقد اقتصر الامر على أجناد أربعة فى أول الامر « **استنتم أمر حمص ، فكانت حمص وقنسرين شيئا واحدا . وقد اختلفوا فى تسمية الاجناد : فقال بعضهم : سمى المسلمون فلسطين جندا لأنه جمع كورا وكذلك دمشق وكذلك الاردن وكذلك حمص مع قنسرين . وقال بعضهم : سميت كل ناحية لها جند يقبضون أطماعهم بها جندا (٥٠)** . وغدت الدولة الاسلامية على عهد الامويين تنتظم امارات كبرى يحكم كل منها وال مسلم يرتبط مباشرة بالخليفة ، وقد حافظ الامويون فى ولايات القسم الغربى من دولتهم على طريقة الادارة البيزنطية اذ كانت الشام ومصر وافريقية هى نفس الولايات التى خضعت للبيزنطيين من قبل وقد أبقى على ادارتها وعمالها ، وبذلك استطاع الامويون أن ينهضوا بادارة امبراطوريتهم الضخمة ، كما أن الدولة الاسلامية كان لها آثارها هى الاخرى على النظم البيزنطية ، فتحت ضغط الهجمات الاسلامية أحكم الاباطرة نظام الاقاليم الحربية أو البنود Thema الذى هو أصل نظام الاجناد (٥١) .

---

(٤٩) Le Strange : Palestine Under the Moslems, pp. 24:26.

(٥٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ .

(٥١) دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٢٣٤ : ٨ ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٥٢ : ٥ .

٣ - افراد جندى الجزيرة وقنسرين :

يروى البلاذرى « **وذكروا ان الجزيرة كانت الى قنسرين فجندها عبد الملك بن مروان - أى أفردها - فصار جندها يأخذون أطماعهم بها من خراجها ، وأن محمد بن مروان كان سال عبد الملك تجنيدها ففعل . ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة الى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبج وذواتها جندا** (٥٢) » . وهكذا كان المسلمون كلما استقرت أقدامهم فى دولتهم الفتية أحسوا بالحاجة الى احكام نظمها الادارية والدفاعية والاهتمام بمناطق الحدود وخاصة ما يواجه الدولة البيزنطية . ويروى الطبرى « **وكان معاوية هو الذى جند قنسرين من رافضة العراقين أيام على ، وانما كانت قنسرين رستاقا من رساتيق حمص حتى مصرها معاوية وجندها بمن ترك الكوفة والبصرة فى ذلك الزمان ، واخذ لهم معاوية بنصيبهم من فتوح العراق** - أذربيجان والموصل والباب - فضمها فيما ضم وكان أهل الجزيرة والموصل يومئذ ناقلة ، رميتا بكل من كان ترك هجرته من أهل البلدين . وكانت الباب وأذربيجان والجزيرة والموصل من فتوح أهل الكوفة ، فنقل ذلك الى من انتقل منهم الى الشام زمان على والى من رميت به **الجزيرة** والموصل ممن كان ترك هجرته أيام على (٥٣) .

وهذه الرواية أبرزت عاملا داخليا فى افراد جند قنسرين فان معاوية وقد نازع عليا الخلافة أراد أن يجتذب بعض أنصاره الى صفه ويغريهم بالاراضى، ويقلقل مركز منافسه فى الكوفة والبصرة فضلا عن الجزيرة(٥٤) **وقد اهتم الامويون بالجزيرة ، فقد كان موقعها هاما بين الشام والعراق ،** وكان **لمروان بن محمد اهتمام خاص بالجزيرة** حتى قال ياقوت عن الموصل : « كان أول من عظمها والحقها بالامصار العظام وجعل لها ديوانا برأسه وتصب عليها جسرا ونصب طرقاتها وبنى عليها سورا مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية » .

وقد تناول ياقوت أهمية الموصل فوصفها بأنها « باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد الى أذربيجان » ويعلق فلهوزن على سياسة مروان بن محمد فى الاستقرار بالجزيرة بقوله : « ان بعض خلفاء بنى أمية وان

---

(٥٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ .

(٥٣) الطبرى حـ ٤ ص ٢٦٠ رواية السرى عن شعيب عن سيف .

(٥٤) Le Strange: Palestine Under the Moslems : p. 25.

كانوا قد آثروا الاقامة بعيدا عن دمشق فانهم لم يفعلوا ذلك لأسباب سياسية ولم يكن مقصدهم أن يجردوا دمشق من مكانتها كعاصمة للدولة أما مروان فيظهر أنه كان فى الحقيقة يقصد ذلك • فقد نقل مقر حكومته الى حران ونقل اليها كما يقول ثيوفانيس كل الاشياء والخزائن التى كانت فى دمشق ، وقد جر هذا على مروان عواقب خطيرة ، ذلك أنه بعد حرمان دمشق من مكانتها أحس الشام كله ـ عدا الاجزاء الشمالية أنه أيضا انتزعت منه السيادة (٥٥) » •

والغريب أن الرشيد حين استوطن الرقة وآثرها على بغداد ذكر فى تعليل ذلك ما يفيد استمرار النفوذ الاموى فى تلك المنطقة الى أيامه « ذكر عن بعض قواد الرشيد أن الرشيد قال لما ورد بغداد : والله انى لأطوى مدينة ما وضعت بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها ، وانها لوطنى ووطن آبائى ودار مملكة بنى العباس ما بقوا وحافظوا عليها ، وما رأى أحد من آبائى سوءا ولا نكبة منها ولا سىء بها أحد منهم قط ـ ولنعم الدار هى ، ولكنى أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لائمة الهوى والحب لشجرة اللعنة بنى أمية ـ مع ما فيها من المارقة والمتلصصة ومخيفى السبيل ولولا ذلك مافارقت بغداد ماحييت ولاخرجت عنها ابدا(٥٦) »

٤ ـ افراد الثغور والعواصم :

فصل السفاح فلسطين عن الشام واستعمل عليها أميرا مستقلا ففى أخبار سنة ١٣٤ هـ أن الولاة كانوا « على قنسرين وحمص وكور دمشق والاردن عبد الله بن على ، وعلى فلسطين صالح بن على ، وعلى الجزيرة عبد الله بن محمد المنصور(٥٧) » • ولعل ذلك كان لتدعيم النفوذ العباسى فى الشام قاعدة أعدائهم الامويين خاصة وقد اشتعلت الفتن فى شتى أرجائها ضد العباسيين أول عهدهم • ولما كانت الدولة العباسية قد ولت وجهها شطر آسيا ونقلت عاصمتها الى بغداد فقد كانت سياستها بالنسبة للبيزنطيين سياسة دفاعية ومن ثم كان اهتمام الخلفاء بتحصين حدودهم واحكام خطوطهم الدفاعية •

(٥٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ١٩٥ ـ ٦ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريده ص ٣٦٤ •

(٥٦) الطباخ : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ ١ ص ١٦٣ ـ ٤ •

(٥٧) الطبرى جـ ٩ ص ١٤٩ •

وهكذا بدأ المنصور فى جد تعمير مدن الثغور وتابع ذلك المهدى. فالرشيد . وفى أخبار سنة ١٧٠هـ ٧٨٦م يروى الطبرى أن الرشيد « **عزل الثغـور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحـدا وسميت العواصم**(٥٨) » . ويذكر البلاذرى « **فلما استخلف الرشيد أفرد قنسرين بكورها فصير ذلك جندا واحدا ، وافرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وانطاكية وتيزين وسماها العواصم لان المسلمين يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم اذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر ، وجعل مدينة العواصم منبج فسكنها عبد الملك بن صالح بن على فى سنة ١٧٣ هـ وبنى بها أبنية**(٥٩) » . **ويذكر لى سترينج من أسباب هذه الخطوة ان المنصور وخلفاءه قد مدوا حدود الشام بغزواتهم حتى وجد الرشيد من الضرورى تقسيم جند قنسرين بعد تضخمه .**

ويروى الدكتور شعيرة أن نظام الثغور والعواصم العباسى قد حل محل نظام الأجناد الأموى للقيام بدوره بعد أن اندثر بقضاء الجيوش الخراسانية العباسية الثائرة على جيش الأجناد الشامية الأموى « فصار من الضرورى البحث عن تنظيم جديد » .

وهكذا اقتطع جند جديد تجاه الحدود الاسلامية البيزنطية يشمل المنطقة من انطاكية غربا الى الساحل وشرقا الى حلب ومنبج وسمى هذا الجند بالعواصم . أما الثغور فهى عند الحدود الحقيقية وهى التى تقسم غالبا الى الثغور الشامية غربا والثغور الجزرية شرقا وتشمل هذه المنطقة السلسلة الطويلة من الحصون والمعاقل التى تحمى الحدود الشمالية للشام من غارات الروم وتمتد من طرسوس وأذنة والمصيصة غربا فتجتاز ملطية وحصن منصور الى أن تبلغ شرقا حد المياه العليا من الفرات عند سميساط وبالس (٦٠) .

والاصطخرى وابن حوقل لا يوافقان على هذا التقسيم . فاذا كانت هنـاك ثغور تعرف بثغور الشام وثغور تعرف بثغور الجزيرة فكلاهما من الشـام « **وذلك ان كل ما وراء الفرات من الشـام ، وانما سمى من ملطية الى مرعش ثغور الجزيرة لان أهل الجزيرة بها يرابطون**

(٥٨) الطبرى جـ ١٠ ص ٥٠ .

(٥٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ ـ ٩ .

(٦٠) Le Strange : Palestine Under the Moslems. pp. 25-6.

دكتور شعيرة : المرابطون فى الثغور العربية البرية الرومية ـ بحث فى كتاب (الى الدكتور طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) .

ومنها يغزون لا لانها من الجزيرة» • ويذكر الاصطخرى أن شمشاط ثغر الجزيرة « لانها غربى دجلة وشرقى الفرات ، **وأما ملطية فانما نسبناها الى الجزيرة لان أهلها يرابطون بها تقربها منهم** ، والا فثغر الجزيرة على الحقيقة شمشاط » •

ويذكر الاصطخرى أن **قصبة العواصم انطاكية** « **وأما الثغور فلا قصبة لها** ، وكل مدينة قائمة بنفسها ومنبج قريبة من الثغور » • ويذكر ياقوت أن : انطاكية « لم تزل قصبة العواصم من الثغور الشامية •• وبين انطاكية والبحر نحو فرسخين ولها مرسى فى بليد يقال له السويدية ترسى فيه مراكب الافرنج يرفعون منه أمتعتهم على الدواب الى انطاكية ، وكان الرشيد العباسى قد دخل انطاكية فى بعض غزواته ، فاستطابها جدا وعزم على المقام بها فقال شيخ من أهلها : ليست هذه من بلدانك يا أمير المؤمنين •• لان الطيب الفاخر يتغير والسيف يصدأ فيها » • وقد تدخل الثغور فى العواصم من باب التعميم •

على أن ياقوت يذكر أيضا فى معرض كلامه عن **منبج** « والرشيد أول من أفرد العواصم ، وجعل مدينتها منبج وأسكنها عبد الملك به صالح » • ويعرض ياقوت نقاشا حول **تبعية حلب للعواصم** « وزعم بعضهم أن حلب ليست منها ، وبعضهم يزعم أنها منها ، ودليل من قال انها ليست منها انهم اتفقوا على انها من أعمال قنسرين ، وهم يقولون قنسرين والعواصم والشىء لا يعطف على نفسه ــ وهو دليل حسن(٦١) » •

فالمسلمون قد أطلقوا أول الامر العواصم على الولايات المتاخمة للدولة البيزنطية شمالى العراق والشام ، والثغور هى المراكز العسكرية الامامية لهذه الولايات المتطرفة وكانت تقوم عادة على المداخل الى بلاد الروم وعلى الموانى التى تصدر منها الاساطيل للغزو •

ولم يستقر نظام العواصم والثغور الا أيام العباسيين وفى أيام الرشيد خاصة • ويرى الدكتور مؤنس « ان الأغلب أن الذى حفز الرشيد على وضع نظام هذه الولايات هو تحويل الدولة البيزنطية على أيام الاسرة المقدونية لولاياتها المتاخمة للدولة الاسلامية الى ولايات عسكرية تسمى واحدتها Thema ويسميها العرب البنود » •

---

(٦١) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٦ ، ابن حوقل : ، ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٤ ، ج ٦ ص ٢٣٧ ، ج ٨ ص ١٦٩ ــ ١٧٠ •

وكانت العواصم ولايات عسكرية يحكمها قادة عسكريون ويسرى فيها القانون العسكرى لا المدنى ، وتبعا لذلك كانت الثغور قواعد عسكرية صرفة لا يقيم فيها غير الجنود والمجاهدين والمتطوعة ، والاخيرون قد يطلق عليهم لفظ الصعاليك . **وبالاضافة الى الثغور الشامية والجزرية كانت هناك ثغور السند فى أقصى المشرق والثغور الاندلسية** وهى ثغور الاندلس الشمالية وكانت ثلاثة : الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، والثغر الاوسط وقاعدته مدينة سالم ، والثغر الادنى وقاعدته الاشبونة(٦٢) .

وقد كان المسلمون يشعرون ان مقامهم فى تلك الثغور ليس مقام استقرار بل هو معرض لغارات العدو المتتابعة التى تجعل الحدود دائما بين مد وجزر « **والمعروف ان الولايات الاسلامية كانت تولد عقب الانتصارات العسكرية الكبيرة ، فهكذا نشأت ولايات العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس . وقد كان يحدث أن يملك المسلمون أرضا واسعة دون نصر حاسم ـ كما ملكوا جزءا من آسيا الصغرى ـ فلم تنشأ ولاية اسلامية فى آسيا الصغرى على الرغم من أنه كان ما يملكونه من أرضها أيام الأمويين يزيد مرات كثيرة عن مساحة ولاية البصرة مثلا (٦٣) »** .

وعلى ذلك لم يكن لاقليم الثغور عاصمة معروفة وان كان أهم مواقعه ملطية . واعتبرت منبج أولا قاعدة اقليم العواصم ومركزها الرئيسى ، ثم حلت محلها انطاكية حيث كان يقيم الحاكم المسلم . والجغرافيون العرب يضعون الثغور تارة قسما مستقلا وأخرى جزءا داخلا فى جند العواصم (٦٤) .

والواقع أن ولايات الثغور والعواصم والجزيرة وارمينية كانت متجاورة وشئونها متداخلة ، ففى عهد الراشدين والأمويين وصدر عهد العباسيين كان يعهد أحيانا الى وال واحد بالشام والجزيرة وأحيانا توضع الجزيرة والموصل مع أرمينية تحت ادارة واحدة ، ثم أخذت الثغور والعواصم مكانتها بالتدريج واصبح أمراؤها مختصين بها يباشرون حكمها وتجريد الحملات منها ضد البيزنطيين (٦٥) .

---

(٦٢) دكتور مؤنس : تعليق بهامش تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان ج ١ ص ٢١١ ـ ١٢ .

(٦٣) دكتور مؤنس : فجر الاندلس ص ٢٩٣ .

(٦٤) Encyclopedie d'Islam : article Al Awasim.

(٦٥) Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. p. 332.

على أن انشاء هـذه الولاية العسكرية البحتة قد أدى الى أن تنال القوات زيادة فى عطائها واقطاعا من الأرض لاستثمارها ، فانتقل أناس كثيرون بأسرهم من ولايات الامبراطورية القاصية الى الثغور واستقروا فيها ، وأدى ذلك الى ازدهار حياة هذا الجزء من البلاد وتعويض ما تخربه وتهلكه الحروب المتكررة وظلت أحوال الثغور حسنة حتى أيام الواثق اذ بدأ نجمها فى الافول وقضت الحروب المتتابعة على عمرانها (٦٦) ثم ابتلعها سلطان الروم أخيرا •

هكذا تطورت أجناد الشام حتى غدت الثغور والعواصم قسما اداريا عسكريا مستقلا • وان محاولة **تتبع الوضع الادارى الداخلى فى جند قنسرين اولا ثم فى الثغور والعواصم بعد افرادها ثانيا** تواجهها بعض الصعوبات فى مؤلفات الجغرافيين المسلمين •

١ ـ **فابن خرداذبه** كتب حوالى سنة ٢٣٢ هـ سنة ٨٤٦ م عن **كورقنسرين** انها : معرة مصرين ، مرتحوان ، كورة سرمين ، حيار بنى القعقاع ، دلوك ، رعبان ، حلب • وأورد من كور العواصم قورس ، الجومة منبج ، انطاكية ، تيزين ، بوقا ، بالس ، رصافة هشام • وذكر ابن خرداذبة فى موضع آخر أن **عوادل الثغور الشامية:** عين زربة، الهارونية، كنيسة السوداء(٦٧) • وعوادل الثغور هى التى عدلت عنها(٦٨) •

٢ ـ وكتب **اليعقوبى** كتابه حوالى سنة ٢٨٤ هـ ـ سنة ٨٩٧ م أو قبل ذلك بقليل كما يرى لى سترينج سنة ٢٧٨ هـ سنة ٨٩١ م ، **وقد ذكر جند حمص فحسب ولم يشر الى جند قنسرين او العواصم وان كانت هناك كتب أخرى تنقل عنه ما يتعلق بذلك •**

فقد نقل ابن الشحنة « وقال ابن واضح : وقنسرين الثانية هى حيار بنى القعقاع •• وعلم ابن واضح فى كورة حلب مرتحوان وكورة مصرين •• قال ابن أبى يعقوب : ومدينة المصيصة بناها أبو جعفر المنصور فى خلافته وكانت قبل ذلك مسلحة ، وبنى المأمون كفر بيا •• قال ابن أبى يعقوب : كانت مدينة ملطية قديمة •• قال ابن أبى يعقوب : ورعبان

---

(٦٦) هل : الحضارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٨٧ •

(٦٧) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٥ ، ١٠٠ •

(٦٨) الخوارزمى: مفاتيح العلوم ـ نقلا عن الدكتورين يحيى الخشاب والعرينى: ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية الواردة فى كتاب مفاتيح العلوم المجلة التاريخية المصرية ـ م ٧ سنة ١٩٥٨ م ••

ودلوك كورتان متقاربتان . قال ابن شداد : ذكر كيسوم بن أبي يعقوب .. قال ابن أبي يعقوب : منبج مدينة قديمة افتتحت صلحا .. » كما نقل أبو الفدا « قال أحمد الكاتب : وأذنه بناها الرشيد وهو أيضا الذى بنى طرسوس .. قال أحمد الكاتب : وباب اسكندرونة مدينة على ساحل البحر الرومى بالقرب من انطاكية بناها أحمد بن أبي داود الايادى فى خلافة الواثق .. » مما يدل على اننا فقدنا أجزاء من كتاب اليعقوبى .

٣ ـ كتب **ابن الفقيه** سنة ٢٩٠ هـ ـ سنة ٩٠٣م **فعدد فى جند العواصم** قرى قورس ، الجومة ، منبج ، انطاكية ، توزين ، بالس ، رصافة هشام ، وذكر انه فى أيام عمر وعثمان كانت ثغور المسلمين انطاكية وغيرها من المدن التي سماها الرشيد عواصم فكان المسلمون يغزون ما وراءها وكذلك كان يغزوها الروم ، وكان فيما بين الاسكندرية وطرسوس حصون ومسالح للروم ـ ويلاحظ انها هى **نفس العبارة التى أوردها البلاذرى تقريبا** .

٤ ـ ويعاصر **ابن رستة** ابن الفقيه ويحتمل انه كتب كتابه سنة ٢٨٩ هـ ٩٠٢ م وقد ذكر ان من **كور الجزيرة مما يسمى الثغور** : شمشاط وملطية وزبطرة ومرعش والحديث وسمسياط وحصن منصور . وكور الشام : حلب وقنسرين وانطاكية وشيزر وحماه وفامية وبعلبك ودمشق والطبرية والرملة وايليا . ومن **الشام كور تسمى الثغور الشامية** وهى أذنة والمصيصة وطرسوس وعين زربة والهارونية والكنيسة السوداء **والعواصم** وانطاكية وتيزين وقورس ومنبج ودلوك ورعبان . ويتناول ابن رستة منشأ الاجناد فيقول « **وكان أيام عمر بن الخطاب يرد عليه وفود اليمن وغيرهم من العرب فاذا اجتمعوا أمر عليهم واليا وأمضاهم الى ناحية الشام ، فجند عمر الشام أربعة أجناد متفرقة فى أيدى عماله : وهم أبو عبيدة وخالد ويزيد وعمرو ، فبقيت الشام على ذلك التجنيد حتى زاد فيها يزيد بن معاوية قنسرين وكانت من أرض الجزيرة** فصارت أجناد الشام أربعة : جند فلسطين وهى الرملة ، وجند الاردن وهى الطبرية ، وجند دمشق وجند قنسرين » ويغفل ابن رستة هنا جند حمص .

٥ ـ وكتب **قدامة** حوالى سنة ٣٣٧ هـ ـ سنة ٩٤٨ م ـ ولى سترينج يجعل تصنيفه سابقا على اليعقوبى سنة ٢٦٠ هـ سنة ٨٨٠م ـ وقد ذكر الثغور تفصيلا « ان هذه الثغور منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر ، ومنها بحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر ، ومنها ما يجتمع

فيه الامران وتقع المغازى من أهله في البر والبحر • والثغور البحرية على الاطلاق سواحل الشام ومصر كلها •

والمجتمع فيها الامران غزو البر والبحر: **الثغور المعروفة بالشامية** فلنبدأ بذكرها ، وهى طرسوس وأذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس وتقابلس •• **وعواصم هذه الثغور** وما وراءها الينا من بلدان الاسلام ، وانما سمى كل واحد منها عاصما لانه يعصم الثغر ويمده فى أوقات النفير ثم ينفر اليه من أهل انطاكية والجومة والقورس ثم يلى هذه الثغور عن يمينها وجهة الشمال منها : **الثغور المعروفة بالجزرية** ، وأول ما يحاد الثغور الشامية منها مرعش ويليه ثغر الحدث وكان يلى هذه زبطرة فخربت أيام المعتصم •• وبنى مكانها وبالقرب منها حصونا لتقوم مقامه وهى الحصن المعروف بطبارجى والحصن المعروف بالحسينية والحصن المعروف ببنى المؤمن والحصن المعروف بابن رحوان • ثم يلى هذه الحصون ثغر كيسوم ، ثم ثغر حصن منصور ثم ثغر شمشاط ، ثم ثغر ملطية – وهو الخارج فى بلد العدو من جميع هذه الحصون وكل واحد بينه وبين بلد العدو درب وعقب ، وثغر ملطية مع بلد العدو فى بقعة وأرض واحدة •• **وعواصم هذه الثغور** دلوك ورعبان ومنبج • ويلى هذه الثغور عن يمينها أيضا وفى جهة الشمال : **الثغور المسماة بالبكرية** وهى سميساط وحانى وملكين وحصون منها جمح ومنها حوران ومنها الكلس وغيرها ، ثم ثغر قاليقلا فى جهة الشمال عن هذه الثغور زيادة الا انه كالمنفرد لما بينه وبينها من المسافة البعيدة » وقد زاد قدامة ايراد الثغور البكرية وأورد بعض الحصون التى يصعب تحديد مواقعها وتاريخها مثل الحصون المجاورة لزبطرة • وقد عدد أخيرا **الثغور البحرية** «وهى سواحل جند حمص : انطرطوس وبلنياس واللاذقية وجبلة والهرياذة ، وسواحل جند دمشق : عرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدنون ، وسواحل جند الاردن : صور وعكا ، وسواحل جند فلسطين : قيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان وغزة وسواحل مصر : رفح والفرما والعريش » •

٦ – أما **الاصطخرى** الذى كتب سنة ٣٤٠ هـ سنة ٩٥١ – ٢م فيذكر ان آخر حدود الشام مما يلى الروم **الثغور** « وهى ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وأذنة وطرسوس •• وقد جمعت الثغور الى الشام ، وبعض الثغور تعرف بثغور الشام وبعضها تعرف بثغور الجزيرة – وكلاهما من الشام ، وذلك ان كل ما وراء الفرات

من الشام ، وانما سمى من ملطية الى مرعش ثغور الجزيرة لان أهل الجزيرة بها يرابطون وبها يغزون لا لانها من الجزيرة • وكور الشام انما هى جند فلسطين وجند الاردن وجند حمص وجند دمشق وجند قنسرين والعواصم والثغور ، وبين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل اللكام •• **وجند قنسرين** مدينتها حلب وهى عامرة بالاهل جدا، وقنسرين مدينة تنسب الكورة اليها وهى من أصغر المدن بها ، ومعرة النعمان مدينة ، وخناصرة حصن على شفير البرية كان يسكنه عمر بن عبد العزيز• **وأما العواصم** فاسم الناحية وليس موضع بعينه يسمى العواصم وقصبتها: انطاكية وهى بعد دمشق أنزه مدن الشام ، وأما بالس فهى مدينة على شط الفرات صغيرة وهى فرضة الفرات لأهل الشام ، وأما منبج فهى مدينة فى برية ويقربها سنجة ، وأما سميساط فهى على الفرات وكذلك جسر منبج • وملطية مدينة كبيرة من أكبر الثغور التى دون جبل اللكام ، وحصن منصور حصن صغير ، والحدث ومرعش مدينتان صغيرتان عامرتان وأما زبطرة فانها حصن كان من أقرب هذه الثغور الى بلد الروم ، والهارونية من غربى جبل اللكام فى بعض شعابه وهى حصن صغير ، واسكندرونة على ساحل بحر الروم صغير ، وبياس مدينة صغيرة على شط بحر الروم ، والتينات حصن على شط البحر ، والكنيسة حصن على معزل من شط البحر ، والمثقب حصن صغير ، وعين زربة بلد يشبه مدن الغور ، والمصيصة مدينتان احداهما تسمى المصيصة والاخرى كفر بيا على جانبى جيحان ، وأذنة على نهر سيحان ، وطرسوس مدينة كبيرة وبينها وبين حد الروم جبال هى الحاجز بين المسلمين والروم » •

٧ ـ أما **ابن حوقل** الذى كتب سنة ٣٦٧ هـ ـ سنة ٩٧٧م فلا تكاد كتابته تختلف عما كتبه الاصطخرى الا قليلا •

٨ ـ لكن **المقدسى** يقدم سنة ٣٧٨هـ ـ سنة ٩٨٨م ـ أو قبل ذلك عند لى سترينج ٣٧٥هـ سنة ٩٨٣م ـ تقسيما مختلفا عن اجناد الشام المعروفة اذ **يزيد ما يسمى باقليم الشراه زيادة على الاجناد الخمسة ويدخل الثغور العواصم فى قنسرين** « وقد قسمنا هذا الاقليم ست كور : أولها من قبل أقور قنسرين ثم **حمص ثم دمشق ثم الاردن ثم فلسطين ثم الشراة** • فأما قنسرين فقصبتها حلب ومنمدنها أنطاكية ، بالس ، السويدية ، سميساط ، منبج ، بياس ، التينات ، قنسرين ، مرعش اسكندرونة ، لجون ، رفنية ، جوسية ، حماة ، شيزر ، وادى بطنان ، معرة قنسرين ، معرة النعمان •• وأما حمص فاسم القصبة

أيضا ومن مدنها .. وأما دمشق فاسم القصبة أيضا ومدنها .. وأما الاردن فقصبتها طبرية ومن مدنها ... وأما فلسطين فقصبتها الرملة ومدنها ... وأما الشراة فجعلنا قصبتها صغد ومدنها مآب ، معان تبوك ، أذرح ، ويلة ، مدين . وفى هذا الاقليم قرى أجل وأكبر من أكثر مدن الجزيرة مثل داريا وبيت لهيا وكفر سلام وكفر رسابا غير انها على رسوم القرى معدودة منها وقد قلنا ان عملنا موضوع على التعارف » .

وقد حدث خلط عند المقدسى بين اقليمى حمص وقنسرين ، فان الخناصرة وكفر طاب ينسبهما المقدسى لحمص وهما يقعان فى الحقيقة شمالا عن حد هذا الاقليم . كما أنه يجعل رفنية وجوسية من اقليم قنسرين والاصح انهما فى اقليم حمص ، بل يبدو اختلاف بين ما ذكره المقدسى فى هذا الموضع من كتابه وما ذكره فى موضع آخر . والمقدسى يضع أذرعات بين مدن اقليم الاردن بينما هى تعرف عامة كعاصمة للبثنية التابعة لجند دمشق . ويبدو أن الحدود بين جندى دمشق والاردن لم تكن محددة بوضوح. وكانت الاراضى التى تلى مباشرةأخدود الاردن الى الشرق تعد أحيانا فى عداد اقليم وأحيانا أخرى فى عداد اقليم آخر .

٩ ـ ويذكر **ياقوت** المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ـ سنة ١٢٢٩م فى كتابة أن « ثغر الشام يشمل بلادا كثيرة ـ وهى البلاد المعروفة اليوم ببلاد ابن لاون ، ولا قصبة لها ـ لأن أكثر بلادها متساوية ، وكل بلد فيها كان أهله يرون أنه أحق باسم القصبة » . وهو يعدد من مدن ثغور الشام بياس ، والمصيصة ، وعين زربة وأذنة ، وطرسوس ، والجوزات ، وأولاس والكنيسة السوداء والهارونية ، كما يعد « من مشهور مدن هذا الثغر : أنطاكية وبغراس وغير ذلك ـ الا أن هذا الذى ذكرنا أشهر مدنها » ، فهو يدرج العواصم فى الثغور ويذكر من ثغور الجزيرة مرعش. ويقول فى العواصم « حصون موانع ولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية وقصبتها أنطاكية ... وربما دخل فى هذا ثغور المصيصة وطرسوس وتلك النواحى ، وزعم بعضهم أن حلب ليست منها ..... الخ » وهو ينقل ما رواه البلاذرى عن تطور الثغور والعواصم حتى افرادها (٦٩).

---

(٦٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٥ ، ١٠٠ ، اليعقوبى : البلدان ، ملحق بالاعلاق النفيسة لابن رستة ص ٣٢٣ ـ ٤ ، ٣٦٢ ـ ٣ ، ابن الفقيه مختصر كتاب البلدان ص ١١١، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص ١٠٦ ـ ١٠٧، قدامة : نبذ من كتاب الخراج.ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٣ : ٥، الاصطخرى المسالك والممالك ص ٤٣ ، ٤٦ ـ ٧ ، ابن حوقل ، المقدسي أحسن التقاسيم ص ١٥٤ : ٦ ، ٣٧٥ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٦ ، ج ٦ ص ٢٣٧ .
Le Strange : Palestine Under the Moslems pp. 35:40.

والطابع الواضح فى أجناد الشام ـ وفى الولايات الاولى عموما فى غير الشام ـ هو **الطابع العسكرى** ، فالامراء الذين تفتح بلاد تحت قيادتهم هم أول الولاة الذين يعينون عليها ، كذلك من جاء بعدهم كانوا قوادا حربيين قبل كل شىء • ويعبر عن ذلك فلهوزن بقوله « كما أن الجيش كان فى نفس الوقت هو الامة ذاتها ، فكذلك كان الامير هو الامام، فكان يعين على الحرب والصلاة » (٧٠) • ولما كان بيد الوالى شئون الحرب فقد كان يقال أحيانا ولى فلان الحرب كناية عن ولايته عموما (٧١) • وقد كان هذ التقسيم الادارى شيئا جديدا فى حياة العرب الذين عاشوا على التقسيم القبلى حتى فى داخل جيوش الفتح ، لكن أجناد الشام ـ البيزنطية الاصل ـ قد جمعت المحاربين المقيمين فى كل جند وكان الخراج فى الجند يقوم بالنفقات العسكرية ، على أن هذا لا يعنى أن الخلافات القبلية قد اختفت تماما ، فقد كشفت معركة مرج راهط وغيرها عن عمق الجذر القبلية فى النفوس (٧٢) • على أن معاوية قد بذل جهدا مشكورا فى أن يخلق من المادة البشرية التى كانت بين يدية أداة حربية وادارية منظمة ، وقد بذل الكثير لتجريد تلك الادارة من نظامها القبلى العتيق وأقام دولة منظمة ثابتة الاركان مستهديا بالنموذج البيزنطى السابق ، وخلق مجتمعا منظما (٧٣) • ومع ذلك ظل العرب يتجمعون داخل المدن فى أحياء بحسب قبائلهم ، وتحوط المدن أسوار وأبواب (٧٤) • وقد كان كل فريق من العرب نزل مصرا يحب أن ينفرد بخيراته ويذود غيره من العرب عنه ، فهو يتحمس لحقوقه فى مصره ، وكان النزاع بين الشام والعراق الذى ملأ العصر الاموى كله محليا قبليا • وهكذا كانت الحركات التى ظهرت فى صدر الاسلام محلية عصبية ، (٧٥) أما الحركات التى ظهرت ابتداء من النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى فكانت حركات انفصالية •

(٧٠) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية • ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٢٥ ـ ٦ •

(٧١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٢ •

(٧٢) Gaudefroy-Demombynes, Platonov :Le Monde Mus. etByz. pp. 210-7.

(٧٣) حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ٢٤٣ ، تاريخ سوريا ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٢٤ •

(٧٤) حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ٢٨٦ ، تاريخ سوريا ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٩٤ ، أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ترجمة رافت ص ١٦٧ •

(٧٥) مثلا : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٢٦ ـ ٧ ، ٢٤٠ ـ ١ ، دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق فى العصر الأموى ص ٣٢ ، ١٢٩ ، ٢٤١ ، ٢٨٦ ، وما بعدها ، دكتور شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٤٤ ـ ٥ ، ١٠٠ : ١٠٦ •

على أنه رغم الطابع العسكرى فى الاجناد الاسلامية ، ورغم ان المجتمع الاسلامى الفتى كان مجتمعا حربيا ــ وبخاصة قبل أن يتولى المرتزقة المحترفون معظم شئون الحرب .. فان الحضارة الاسلامية كانت حضارة مدنية ، والمدنى يعلو على الجندى فى ترتيب الطبقات الاجتماعى. والمفروض أن للوزير ــ وهو موظف مدنى ــ حق الاسبقية على القائد ، وكان بحث نظرية الحكم عند الفقهاء يقدم منصب الوزارة على امارة الحرب . وكثيرا ما تولى الجند بوصفهم طائفة حكم الدولة الاسلامية ، ولكن هذه السيادة الواقعية de facto لم تغير بأى حال الاجماع المنعقدة على أن رئاسة الدولة وظيفة مدنية . وكان المسلمون فى القرن السابع الميلادى كانما يعيشون فى الواقع فى معسكر مسلح ، وقد أبرزت التقاليد العربية والفارسية شأن الشجاعة والمقدرة العسكرية وكان الخليفة هو القائد الأعلى على حين كان العامل أو الوالى المحلى ــ أو أى شخص يعينه البلاط ــ هو القائد الفعلى ولكن رويدا رويدا تحول الخليفة الى الرئيس الادارى الأعلى وما وافت سنة ٨٠٠ م حتى كان التحول على أتمه .. ومهما يكثر الخليفة من الامرة على جنده بشخصه ومهما يكثر الشعراء من التغنى بشجاعته ــ فانه لم يكن الا موظفا مدنيا أولا وجنديا حين تلم الملمات . وصور الانسانية المثالية التى هى من خواص الحضارة الاسلامية انما تتمثل شخصية غير عسكرية ، وان واصل القوم استحسان الفضائل العسكرية (٧٦) .

وقد لقى نظام الاجناد الضربة القاضية فى القرن ١٢ م على اثر الغزو الصليبى وتأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية بما تضمنته من بارونيات وكونتيات . وبعد أن طرد صلاح الدين وخلفاؤه الصليبيين وأعادوا توطيد الحكم الاسلامى بأرجاء الشام تبعت الشام وفلسطين حاكم مصر اسميا ، أما من ناحية الواقع فكانت مقسمة بين عدد من السلاطين الصغار من سلالة صلاح الدين واخوته . ويذكر الدمشقى حوالى سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م انه منذ قيام دولة الترك .. قسمت الشام الى ٩ ممالك . ولا يمكن تعيين الحد المنضبط لهذه الدويلات بسبب الحروب والمنازعات المستمرة بين حكامها (٧٧) .

(٧٦) جروليباوم : حضارة الاسلام .ترجمة جاويد ص ٣٠٤ ــ ٥ .

(٧٧) Le Strange : Palestine Under the Moslems. p. 40.

والمعروف ان صلاح الدين واسرته اكراد لا اتراك ، وربما كان المؤلف غير دقيق في تعبيره او انه قصد سلاجقة سوريا (٤٨٨ : ٥٠٨ هـ \ ١٠٩٥ : ١١١٤ م او اتابكة دمشق (٤٩٧ : ٥٤٠ هـ \ ١١٠٣ : ١١٥٤ م) وحلب (٥٤١ : ٧٩ هـ ١١٤٦ : ١١٨٣ م) وقد كان هناك أيضا اتابكة للموصل وسنجار والجزيرة وغيرها . والسلاجقة والاتابكة وسابقون على الأيوبيين .

(ج) الجهاز الادارى :

الامارة :

يقسم الماوردى الامارة على الأقاليم أو البلدان الى ضربين : عامة وخاصة . فأما العامة فهي تنقسم بدورها قسمين : **امارة استكفاء بعقد عن اختيار** وامارة استيلاء بعقد عن اضطرار . أما الأولى : فتشتمل على عمل محدود ونظر معهود والتقليد فيها أن يفوض اليه الخليفة امارة بلد أو اقليم ولاية على جميع أهله ونظرا فى المعهود من سائر أعماله ، فيصير عام النظر فيما كان محدودا من عمل ومعهودا من نظر . فيشتمل نظره فيه على سبعة أمور : احدها النظر فى تدبير **الجيوش** وترتيبهم فى النواحى وتقدير أرزاقهم ـ الا أن يكون الخليفة قدرها فيذرها عليهم ، والثانى النظر فى **الاحكام** وتقليد القضاة والحكام والثالث جباية **الخراج** وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منها ، والرابع حماية **الدين** والذب عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل ، والخامس اقامة **الحدود فى حق الله** وحق الآدميين ، والسادس **الامامة** فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها ، والسابع تسيير **الحجيج** من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه . **فان كان هذا الاقليم ثغرا متاخما للعدو اقترن به ثامن : وهو جهاد من يليه من الاعداء وقسم غنائمهم فى المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس** . وتعتبر فى هذه الامارة الشروط **المعتبرة فى وزارة التفويض ، لأن** الفرق بينهما خصوص الولاية فى الامارة وعمومها فى الوزارة ، وليس بين عموم الولاية وخصوصها فرق فى الشروط المعتبره فيها . ثم ينظر فى عقد هذه الامارة : فان كان الخليفة قد تولاه كان لوزير التفويض عليه حق المراعاة والتصفح ولم يكن له عزلة ولا نقله من أقليم غيره ، وان كان الوزير قد تفرد بتقليده فهو على ضربين ـ أحدهما أن يقلده عن اذن الخليفة فلا يجوز له عزله ولا نقله من عمله الى غيره الا عن اذن الخليفة وأمره ، ولو عزل الوزير لم ينعزل هذا الامير ، والضرب الثانى أن يقلده عن نفسه فهو نائب عنه فيجوز له أن ينفرد بعزله والاستبدال به ... ولو أطلق الوزير فلم يصرح كان التقليد عن نفسه ... ويجوز لهذا الامير أن يستوزر لنفسه وزير تنفيذ بأمر الخليفة وبغير أمره ، ولا يجوز أن يستوزر وزير تفويض الا عن اذن الخليفة ...

واذا أراد هذا الامير ان **يزيد فى ارزاق جيشه** لغير سبب لم يجز لما فيه من استهلاك مال فى غير حق ، وان زادهم لحدوث سبب يقتضيه نظر فى السبب فان كان مما يرجى زواله لا يستقر به الزيادة على التأبيد ـ كالزيادة لغلاء سعر أو حدوث حدث أو نفقة فى حرب ـ جاز للامير أن يدفع هذه الزيادة من بيت المال ولا يلزمه استئمار الخليفة لأنها من حقوق السياسة الموكولة الى اجتهاده ، وان كان سبب الزيادة مما يقتضى استقرارها على التأبيد ـ كالزيادة لحرب أبلوا فيهـا وقاموا بالنصر حتى انجلت ـ أوقفها على استئمار الخليفة فيها ولم يكن له التفرد بامضائها ٠ ويجوز أن يرزق من بلغ من أولاد الجيش ويفرض لهم العطاء بغير أمر ولا يجوز أن يفرض لجيش مبتدىء الا بأمر ٠ **واذا فضل من مال الخراج فاضل عن أرزاق جيشه حمله الى الخليفة ليضعه فى بيت المال العام المعد للمصالح العامة ، واذا فضل من مال الصدقات فاضل عن أهل عمله لم يلزمه حمله الى الخليفة ويصرفه في اقرب اهل الصدقات من عمله ٠ واذا نقص مال الخراج عن ارزاق جيشه طالب الخليفة بتمامه من بيت المال ، ولو نقص مال الصدقات عن أهل عمله لم يكن له مطالبة الخليفة بتمامه ـ لأن أرزاق الجيش مقدرة بالكفاية وحقوق أهل الصدقات معتبرة بالوجود ٠**

واذا كان تقليد الامير من قبل الخليفة لم ينعزل بموت الخليفة ، وان كان من قبل الوزير انعزل بموت الوزير ـ لأن تقليد الخليفة نيابة عن المسلمين وتقليد الوزير نيابة عن نفسه » ٠ على أن الامير المختار قد تنزع منه اختصاصات كالقضاء أو الجباية يعهد بها لموظف خاص وهنا تكون **الامارة خاصة** ويكون الامير « مقصور الامارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة والذب عن الحريم ، وليس له أن يتعرض للقضاء والاحكام ولجباية الخراج والصدقات ... » .

ويرى **الدكتور مؤنس أن امارة الاستكفاء كانت امتيازا بولاية كاملة فى الاموال والقضاء والامامة ، فى حين ان الامير العادى كا نيؤمر على الجند فقط ـ اى يعتبر قائدا عسكريا ـ ويعين معه عامل على الاموال وقاض ، وان جمعت بعض الامراء العاديين امرة الجيوش والعمالة على الخراج**

وحين ضعفت السلطة المركزية غلب على بعض الاقاليم امراء بحد السيف دون اختيار من الخليفة سابق على ولايته الفعلية ، فاوجد الفقهاء مخرجا لهذا الامر الواقع de facto بالقول بما يسمى **بامارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطرار** « فهى أن يستولى الامير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة امارتها ويفوض اليه تدبيرها وسياستها ،

فيكون الامير باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدبير والخليفة باذنه منفذا لاحكام الدين ـ ليخرج من الفساد الى الصحة ومن الحظر الى الاباحة . وهذا وان خرج من عرف التقليد المطلق فى شروطه وأحكامه ـ ففيه من حفظ القوانين الشرعية وحراسة الاحكام الدينية ما لا يجوز أن يترك مختلا مدخولا ولا فاسدا معلولا ، فجاز فيه مع الاستيلاء والاضطرار ما امتنع فى تقليد الاستكفاء والاختيار ـ لوقوع الفرق بين شروط المكنة والعجز » . وقد أشرك الماوردى الخليفة المولى والامير المستولى فى وجوب حفظ قوانين الشرع ، بمراعاة حفظ منصب الامامة وظهور الطاعة الدينية واجتماع الكلمة وصحة عقود الولايات الدينية وشرعية استيفاء الاموال والحدود وورع الامير « فان كملت فى المستولى شروط الاختيار كان تقليده حتما استدعاء لطاعته ودفعا لمشاقته ومخالفته ، وصار بالاذن له نافذ التصرف فى حقوق الملة وأحكام الامة ، وجرى على من استوزره واستنابه أحكام من استوزره الخليفة واستنابه ، وجاز أن يستوزر وزير تفويض ووزير تنفيذ (خلافا للامير المولى عن اختيار) . فان لم يكمل فى المستولى شروط الاختيار جاز للخليفة اظهار تقليده استدعاء لطاعته وحسما لمخالفته ومعاندته ، وكان نفوذ تصرفه فى الاحكام والحقوق موقوفا على أن يستنيب الخليفة فيها من قد تكاملت فيه شرطها ... وجاز مثل هذا وان شذ عن الاصول لأمرين : أحدهما أن الضرورة تسقط ما أعوز من شروط المكنة ، والثانى أن ما خيف انتشاره من المصالح العامة تخفف شروطه عن شروط المصالح الخاصة » (٧٨) .

وقد كانت امارة اجناد الشام ـ وامارة الثغور والعواصم من بعد ـ امارة استكفاء بعقد عن اختيار أيام الراشدين والامويين وصدر ايام العباسيين . وقد واجه عمر مشكلة ادارة الممتلكات الجديدة فى مؤتمر الجابية ، وفيه تم تقسيم الشام الى اربعة اجناد ، ثم نشأت معسكرات أخرى فى جوار حمص وعمواس وطبرية (لجند الاردن) واللد (لجند فلسطين) ، وحل معسكر الرملة فيما بعد محل معسكر اللد . وما أن استوطن الجنود العرب هذه المناطق حتى استقدموا اسرهم ، وكانت بعض زوجاتهم أو جواريهم من سكان البلاد الجديدة . وكان لهؤلاء الجنود المحاربين من الحقوق والميزات ما ليس للوافدين المتأخرين .

(٧٨) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢٤ : ٩ ، تعليق الدكتور مؤنس بهامش تاريخ التمدن الاسلامى جـ ١ ص ١٥٥

وعلى رأس الجند القائد الاعلى والحاكم العام الذى جمع فى شخصه جميع السلطات التنفيذية والعسكرية والقضائية ، الا أنه أبقى على هيكل الجهاز الحكومى البيزنطى واحتفظ بالموظفين من الأهلين الذين لم يغادروا البلاد ابان الفتح فى مناصبهم . ويرى الدكتور حتى ان الحكومة العربية الاقليمية فى دورها البدائى سواء في الشام أو فى مصر أو فى العراق حكومة عسكرية محضة ذات هدف مالى واضح (٧٩) ، غير أن هذا المذهب الذى يذهب اليه بعض المؤرخين وفى مقدمتهم فلهوزن لا يعنى أن الحكم الاسلامى فى الاقاليم المفتوحة لم يكن ذا رسالة حضارية أو لم يكن رجاله يعتنقون المثل العليا ويحاولون تطبيقها ، وانما يقصد بذلك أن الاعباء العمرانية كانت جديدة على الاداة العربية فلم تتمثلها أو تنهض بها فى أول أمرها كما ينبغى ، وانما استأثر بجهودها كفالة الامن ورعاية العدل واقتضاء الخراج للقيام بنفقة الدولة . وفى سنة ١٧هـ ٦٣٨م زار عمر الشام فقسم الارزاق ، وسمى الشواتى والصوائف ، وسد فروج الشام ومسالحها ، وأخذ يدور بها وسمى ذلك في كل كورة . واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة وعزل شرحبيل واستعمل معاويه ، وأقر أبا عبيدة وخالد تحته ، فقال له شرحبيل عن سخطه عزلتنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، انك لكما احب ــ ولكنى أريد رجلا أقوى من رجل . فرجع عمر الى المدينة : وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت يديه على قنسرين ، وعلى دمشق يزيد بن أبى سفيان ، وعلى الاردن معاوية ، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز ، وعلى الاهراء عمرو بن عبسة ، وعلى السواحل عبد الله بن قيس ، وعلى كل عمل عامل « فقامت مسالح الشام والعراق على ذلك الى اليوم لم تجز أمة الى أخرى عملها بعد ــ الا أن يقتحموا عليهم بعد كفر منهم ، فيقدموا مسالحهم بعد ذلك . فاعتدل ذلك سنة سبعة عشر » وقد اشتهر عمر بتدقيقه فى محاسبة العمال ، ولم يتهاون فى ذلك حتى مع خالد بن الوليد صاحب الفتوح المشهورة وآخرها فى الشام ، فقد أدرب خالد سنة ١٧ هـ مع عياض بن غنم فسارا « فأصابا أموالا عظيمة ، ولما قفل خالد وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة ، انتجعه رجال ، فانتجع خالدا رجال من أهل الافاق فكان الأشعث ابن قيس من انتجع خالدا بقنسرين فأجازه بعشرة آلاف . وكان عمر لايخفى عليه شيء من عمله ... فدعا البريد وكتب معه الى أبى عبيدة :

---

(٧٩) حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٩ : ٢٢ .

ان يقيم خالدا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين اجازة الأشعث : أمن ماله أم من إصابة أصابها ؟ فان زعم أنها من اصابة أصابها فقد أقر بخيانة ، وان زعم أنها من ماله فقد أسرف - وأعزله على كل حال واضمم اليك عمله ... » وقد نفذ ذلك تماما « فرجع خالد الى قنسرين فخطب اهل عمله وودعهم وتحمل ثم أقبل الى حمص فخطبهم وودعهم ، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال : لقد شكوتك الى المسلمين وبالله أنك فى أمرى غير مجمل يا عمر ، فقال عمر : من أين هذا الثراء ؟ قال من الانفال والسهمان ، ما زاد على الستين الفا فلك - فقوم عمر عروضه فخرجت اليه عشرون الفا فادخلها بيت المال ثم قال : ياخالد والله انك على لكريم وانك الى لحبيب ولن تعاتبنى بعد اليوم على شيء »(٨٠) .

وقد اخذت الخطوط العامة لهيكل الادارة الاقليمية فى الدولة الاسلامية تتبلور خلال عهد الراشدين . وعند ما كان ينصب وال أو عامل فانه كان يعطى عهد تعيين يحتوى على أمر تنصيبه وتحديد ما يخول من سلطات وما يكلف من واجبات ، ويحمل هذا الامر خاتم الخليفة أو توقيعه مع الاشهاد عليه ، ويقرأ عهد التعيين على الملأ فيعرف كل فرد سلطات الولاة والعمال وواجباتهم . ثم تراقب أى زيادة طارئة على ثرواتهم . ومن أجل صيانة نزاهة الحكم أعطى العمال رواتب عالية وأمدوا بجرايات وأرزاق . فقد كان عمار بن ياسر يتناول ٦٠٠ درهم سنويا فضلا عن جراية من القمح واللحم (٨١) . وقد كان من سياسة عمر العدل والرفق بالرعية ومن ذلك الا يجمروا فى الحرب باطالة اقامتهم فى ميادين القتال ، فقد روى أن عمر « كان اذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول : انى لم استعملكم على أمة محمد على اشعارهم ولا على ابشارهم ، انما استعملتكم عليهم لتقيموا الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل ... ولا تجلدوا العرب فتذلوها ، ولا تجمروها فتفتنوها ، ولا تغفلوا عنها فتحرموها ... وكان يقص من عماله ، واذا شكى اليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه فان صح عليه أمر يجب أخذه به اخذه به » (٨٢). ومن ولاة الاسلام الاول فى الشام عمير ابن سعيد الانصارى كان سنة ٢١هـ على دمشق والبثنية وحوران وحمص

---

(٨٠) الطبرى جـ ٤ رواية السرى عن شعيب عن سيف ص ٢٠٥ .
(٨١) حسينى : الادارة العربية ترجمة العدوى ص ٨٢ : ٤ .
(٨٢) الطبرى جـ ٥ ص ١٩ .

وقنسرين والجزيرة وقد قال على منبر حمص « ألا ان الاسلام حائط منيع وباب وثيق ، فحائط الاسلام العدل وبابه الحق ، فاذا نقض الحائط وحطم الباب استفتح الاسلام • فلا يزال الاسلام منيعا ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ـ ولكن قضاء بالحق وأخذا بالعدل (٨٣) • وكان أول كتاب كتبه عثمان الى أمراء الاجناد والفروج : « أما بعد فانكم حماة المسلمين وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ـ بل كان عن ملأ منا ، ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ـ فانى أنظر فيما الزمنى الله النظر فيه والقيام عليه (٨٤) •

ونحن نلاحظ فى بداية الحكم الاسلامى للشام اضـــافة **قنسرين والجزيرة الى حمص** فى الولاية فبعد وفاة أبى عبيدة فى طاعون عمواس سنة ١٨ هـ استخلف عياضا بن غنم فورد عليه كتاب عمر بتوليته حمص وقنسرين والجزيرة (٨٥) ، كما ارتبطت **الشام والجزيرة من ناحيـــة بالجبهة الارمنية** من ناحية أخرى « ولما استخلف عثمان كتب الى معــاوية وهو عامله على الشام والجزيرة وثغورهما يأمره أن يوجه حبيب بن مسلمة الفهرى الى أرمينية ، وكان حبيب ذا أثر جميل فى فتوح الشام وغزو الروم قد علم ذلك منه عمــر ثم عثمــان ••• ولما فتح حبيب ما فتح من أرض ارمينية كتب به الى عثمان ، فوافاه كتابه وقد نعى اليه سلمان بن ربيعة الباهلى فهم أن يوليه جميع أرمينية ، ثم رأى أن يجعله غــازيا بثغور الشام والجزيرة لغنائه فيما كان ينهض له من ذلك » (٨٦) • **وقد جمع عثمان لمعاوية الشام والجزيرة وثغورهما** • وتتبع الطبرى التطورات الادارية على اجناد الشام حتى انتهت بانفراد معاوية بها علاوة على الجزيرة « قالوا : لما حضر ابو عبيدة استخلف على عمله عياض بن غنم ـ وهو خاله وابن عمه ـ وقد كان ولى بالجزيرة عملا فعزله عمر فلحق بأبى عبيدة بالشام وكان معه ، وكان جوادا مشهورا بالجود ، فكلم عمر فى ذلك فقيل له : عزلت خالدا وعتبت عليه العطاء وعياض أجود العرب وأعطاهم لايمنع شيئا يسأله فقال عمر : ••• حتى يخلص الى مالنا ، وانى مع ذلك لم أكن مغيرا امرا قضاه أبو عبيدة • ومات عياض بن غنم بعد أبى عبيدة، فأمر عمر على عمله سعيد بن حذيم الجمحى • ومات سـعيد بعد ، فأمر

---

(٨٣) كرد على : خطط الشام جـ ١ ص ١٣٣ •

(٨٤) الطبرى جـ ٥ ص ٤٤ رواية السرى عن شعيب عن سيف •

(٨٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٠ •

(٨٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠٥ ، ٢١٢ •

عمر مكانه عمير بن سعد الانصارى ومات عمر : ومعاوية على دمشق والاردن وعمير بن سعد على حمص وقنسرين ـ وانما مصر قنسرين معاوية لمن لحق به من أهل العراقيين ٠ ومات يزيد بن أبى سفيان ، فجعل عمر مكانه معاوية ونعاه لابى سفيان فقال : من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين؟ فقال : معاوية فقال : وصلتك رحم ـ فاجتمعت لمعاوية الاردن ودمشق ٠ ومات عمر ومعاوية على دمشق والاردن ، وعمير بن سعد على حمص وقنسرين ، وعلقمة بن مجزز على فلسطين ٠٠٠ فلما ولى عثمان أقر عمال عمر على الشام ، فلما مات عبد الرحمن بن علقمة الكنانى وكان على فلسطين ضم عمله الى معاوية ، ومرض عمير بن سعد فى امارة عثمان مرضا طال به فاستعفاه واستأذنه وأذن له وضم عمله الى معاوية ـ فاجتمع الشام على معاوية لسنتين من امارة عثمان (٨٧) ٠

وقد عمل معاوية على الاعتماد على القبائل العربية التى سبق أن استوطنت البلاد من قبل الاسلام ، وكان الكثير من هذه القبائل ينتسب الى عرب الجنوب خلافا للنازحين المتأخرين الذين كانوا من عرب الشمال، وكانت كلب وقبائل قضاعة الى جانب قبائل أخرى أزد الصراه تكون الغالبية فى وسط الشام وهؤلاء لم تكن مظاهر الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية معانى جديدة عليهم ٠ كما تعهد معاوية رعيته من النصارى وقد نال محبتهم واعترافهم بفضله (٨٨) ٠٠ على أن الوئام لم يصل بين معاوية وبين قريش عامة الى ما كان ينبغى أن يكون عليه ، وقد اشتكى هو من ذلك وقال انه لم يؤخرهم الا لانهم انصرفوا عنه ٠ وكانت العلاقات متوترة بينه وبين قبائل مخزوم خاصة ـ وهؤلاء كانوا يحقدون على بنى امية من قديم اذ هم الذين زحزحوهم عن محلهم الذى كان لهم فى مكة حتى وقعة بدر ٠ وقد حاول معاوية أن يضعف قوة بنى أمية باثارة الشحناء بين فروعهم فأوقع بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم ليشغل الامويين بانفسهم ٠ أما علاقة معاوية باشراف المسلمين وأهل البيت والصحابة الاولين والانصار فكانت بالطبع علاقة ريبة وعداوة ٠ ولم يكن كبار العمال الذين ولاهم معاوية أهم الولايات أمويين ، بل لم يكونوا من قريش باستثناء القليل ٠ فقد كان معاوية

(٨٧) الطبرى جـ ٥ ص ٦٩ رواية السرى عن شعيب سيف ، أيضا البلاذرى : فتوح البلدان. ص ١٤٧ ، ١٧٩ ـ ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٩٢ ٠

(٨٨) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ١٢٦ ـ ٨ ، حتى تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٢٣ ـ ٤ ٠

ثاقب النظر فى اختيار الرجال وكان يعرف كيف يستأثر بولاء الرجال ـ كما فعل بعمرو بن العاص الذى كان لايشعر أنه عامل لمعاوية بقدر ما يشعر أنه حليف له · ويبدو معظم رجالاته من طراز الرجال الجدد hominis novi وكان يشاورهم معاوية وربما عارضوه ـ ولكنه كان يعرف كيف لا يفلت الزمام من يده · ولم تكن تغضبه خشونة الناس بل كان يتحلى بشيمة السيد العربى من الطراز القديم · وهو ان لم يوهب الشجاعة العسكرية ـ على مداومته لتوجيه الحرب ضد الروم ـ الا أنه قد تمتع بصفات أخرى للسيادة كاللين والحلم وضبط النفس : « فقد كان معاوية فى جوهره دبلوماسيا وسياسيا ، وكان يترك الامور حتى تنضج ـ ولم يكن يتعجلها الا فى بعض الاحيان · ولم يكن ينكر أن أصله تاجر ، فكان لا يلجأ الى القوة الا كارها (٨٩) » ·

وهكذا انتهت الامور الى الامويين بالشام محاربين فاتحين فولاة حازمين ، ثم بعد ذلك خلفاء للمسلمين · وكانت جذور ماضيهم تربطهم بالشام منذ تجارتهم فى الجاهلية ، حتى قيل ان عثمان فى ذلك الزمن البعيد سفر لقريش عند عامل الروم على بصرى فمنحه لقب فيلارخوس · وكان الرسول يطمئن الى بنى عبد الدار وأحلافهم ويعهد اليهم بالوظائف الادارية وشئون الدولة وكذلك كان أبو بكر وعمر من بعده فضلا عن عثمان « وهذه الكفاية نتيجة طبيعية لاشتغالهم بأمور التجارة والمال اذ يحتاج ذلك الى عقلية عملية واقعية كالادارة تماما ، ثم أن كفايتهم فى الامور الادارية نتجت عن صلاتهم الطويلة بالروم وترددهم على بلادهم»
ولذا قال المقريزى « فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله ولا فى عمال أبى بكر وعمر أحد من بنى هاشم ، فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كاسهم وفتل أمراسهم ··· فاذا كان رسول الله قد أس هذا الأساس ، وأظهر بنى أمية لجميع الناس ·· بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد ، كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يمتد فى الولاية املهم ؟؟ » وقد نقل المقريزى قولا متداولا : ما فتحت بالشام كورة الا وجد عندها رجل من بنى سعيد ابن العاص ميتا !! « واذا تأملنا تصرفات عمال الامويين وجدناهم اشبه بقناصل الرومان : رجال فى خدمة الدولة ينفذون أوامرها فى طاعة

---

(٨٩) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ١٣٠ : ٣ ·

ونظام يستوقفان النظر ، رجال لا يفكرون فى الخروج على الدولة والعمل لحساب أنفسهم كما سيكون شأن عمال بنى العباس » (٩٠) .

وقد كان الاستقرار الادارى فى الشام مدعاة للاتجاه الى صرف دعاة الفتنة المتمردين على عثمان اليها – من أمثال مالك بن الحارث الاشتر وابن ذى الحبكة وجندب بن زهير الغامدى وجندب بن كعب الازدى وصعصعة وابن الكواء وكميل بن زياد النخعى وثابت بن قيس النخعى وزيد بن صوحان العبدى وعمرو بن الحمق الخزاعى وعروة بن الجعد وعمير بن ضابىء « فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم الى عثمان فى اخراجهم فكتب : اذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية ... وأنزلهم كنيسة تسمى مريم وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجرى عليهم بالعراق وجعل لا يزال يتغدى ويتعشى معهم » . وبعد محاورات ومداورات احتد نقاش معاوية معهم « فقال : انى قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم، لا والله لا ينفع الله بكم احدا ولا يضره ... وخرج القوم من دمشق فقالوا : لا ترجعوا الى الكوفة فانهم يشمتون بكم ، وميلوا بنا الى الجزيرة ودعوا العراق والشام . فأووا الى الجزيرة وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد – وكان معاوية قد ولاه حمص وولى عامل الجزيرة حران والرقة ، فدعا بهم فقال : يا آلة الشيطان لا مرحبا بكم ولا أهلا ، وقد رجع الشيطان محسورا وانتم بعد نشاط ، خسر والله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم حتى يحسركم ، يا معشر من لا ادرى أعرب أم عجم – لكى لا تقولوا لى ما يبلغنى أنكم تقولون لمعاوية ، انا ابن خالد بن الوليد ، انا ابن من قد عجمته العاجمات ، أنا ابن فاقىء الرده ... فاقامهم شهرا كلما ركب أمشاهم ، فاذا مر قال : يا ابن الخطيئة ان من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ، مالك لا تقول كما كان يبلغنى أنك تقول لسعيد ومعاوية؟ فيقول ويقولون : نتوب الى الله ، أقلنا أقالك الله ... » كما روى أن عبد الرحمن بن خالد أنزلهم الساحل وأجرى عليهم رزقا لما سيرهم سعيد بن العاص اليه بأمر عثمان ، **وقيل كتب سعيد الى عثمان ان سيرهم الى الشام والزمهم الدروب** (٩١) .

ودانت الشام لمعاوية واليا عشرين عاما ، وكان هذا تمهيدا لان تدين له خليفة فقد كان يعرف طريقه جيدا فى البلد الذى يحكمه « وخرج

---

(٩٠) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ ، دكتور العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٣٤ : ٤٢ .

(٩١) الطبرى جـ ٥ ص ٨٥ : ٩٠ رواية السرى عن شعيب عن سيف ، محمد بن عمر

عمر الى الشام فرأى معاوية فى موكب يتلقاه وراح اليه فى الموكب ، فقال له عمر : يا معاوية ، تروح فى موكب وتغدو فى مثله ، وبلغنى أنك تصبح فى منزلك وذوى الحاجات ببابك • قال يا أمير المؤمنين ، ان العدو هنا قريب منا ولهم عيون وجواسيس فأردت أن يروا للاسلام عزة ، فقال له عمر : ان هذا لكيد رجل لبيب أو خدعة رجل أريب فقال معاوية : يا أمير المؤمنين مرنى بما شئت أصر اليك ، قال : ويحك ما ناظرتك فى أمر أعيب عليك فيه الا تركتنى لا أدرى آمرك أم انهاك(٩٢)» • فلا عجب أن وطد معاوية أقدامه بالشام فدانت له بالولاء وظاهرته حتى رفعته الى الخلافة « لما دخلت سنة ٣٦ فرق على بن أبى طالب عماله على الامصار ، فبعث •• سهل بن حنيف على الشام ، فأما سهل فانه خرج حتى اذا كان بتبوك لقيته خيل قالوا : من أنت ؟ قال : أمير ، قالوا : على أى شىء ؟ قال : على الشام ، قالوا : ان كان عثمان بعثك فحيى أهلا بك وان كان بعثك غيره فارجع • قال : أوما سمعتم بالذى كان ؟ قالوا بلى - فرجع الى على (٩٣) » • وقامت الخلافة الأموية ، فجاء اختيارها دمشق عاصمة موافقا للعقلية العربية فى سكنى المدن ، فهذه المدينة القديمة التى كانت عاصمة الغساسنة ومتجرا لقوافل رحلة الصيف من الحجاز وعليها سادة قريش من بنى أمية قبل الاسلام ، ثم كانت معسكرا عند الفتح - كانت كمدن الامصار بعيدة عن الساحل لتكون بمنأى عن هجوم السفن ، واقعة على حافة بادية البلقاء ، فى واحة الغوطة الخصبة يغذيها نهر بردى ، وتحيطها جبال مثل قاسيون ، وقد أبقى معاوية على نظام حكم الدولة الاسلامية الذى وضعه عمر دون تغيير (٩٤) • وعلى رأس الأقاليم قام الولاة يؤدون واجباتهم فى قيادة الجيوش وجمع الخراج والصدقات ورعاية العدالة المدنية والجنائية • وهكذا كان الولاة مطلقى السلطات ، يبقون فى مناصبهم طالما رضيت الخلافة عن سلوكهم ، وكانت هناك ضرورة لهذه السلطة المطلقة هى صعوبة المواصلات وما يترتب عليها من تأخير وتعقيد لو أحيلت كل مسألة الى الخليفة • وعلى الرغم من أن الوظيفة الاساسية للوالى كانت حفظ الأمن وقمع الفتن فانه لم يغفل عن الأعباء الأخرى التى يمارسها حكام الأقاليم فى العصر الحديث مثل استصلاح الأراضى وتجفيف المستنقعات وحفر القنوات وتشييد الطرق والجسور وغير ذلك • وفى عهد الأمويين عين أمراء من البيت المالك

---

(٩٢) الطبرى ج ٦ ص ١٨٤ • رواية احمد بن زهير عن على بن محمد •

(٩٣) الطبرى ج ٥ ص ١٦١ رواية السرى عن شعيب عن سيف •

(٩٤) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٢ ص ٢٣ - ٤ •

ولاة ، وفضل بعضم البقاء فى العاصمة واستخلاف نواب عنهم لادارة ولاياتهم ، فعندما ولى هشام مسلمة بن عبد الملك ارمينية واذربيجان فضل البقاء فى العاصمة . ولما كانت الشام مقر الخليفة فان الخليفة نفسه تولى ادارتها بمساعدة نوابه من الولاة على اجنادها . وقد ظلت تحكم وفق الأصول البيزنطية . وحرص الأمويون على استرضاء اهلها لأنهم مصدر قوتهم وركن دولتهم (٩٥) . ويقول ابن العديم عن حلب انها كانت فى قبضة ايدى بنى أمية المباشرة « لمقامهم بالشام ، وكون الولاة فى أيامهم بمنزلة الشرط ، لا يستقلون بالامور والحروب ، وولاة الصوائف ترد كل عام مع الجيوش الاسلامية الى دابق (٩٦) » . ويذكر الغزى أنه « من سنة ٤٥هـ ــ بعد وفاة عبد الرحمن بن خالدعامل حمص وما والاها ــ الى حدود سنة ٨٦ هو لم أطلع على اسماء عمال الخلفاء على قنسرين وحمص، ولعل العمال عليهما فى هذه المدة هم امراء الصوائف والمشاتى يخرجون الى الروم ويرجعون الى احدى البلدتين بعد انقضاء غزوهم ، فان البلدتين من أعظم ثغور الروم (ا) فلا يستبعد أن يكونا محل اقامة الأمراء المذكورين أيام تقاعدهم عن الغزوات ، فانهم كانوا يقومون بوظائف العمال فى أثناء ذلك ويستخلفون اذا غزوا (٩٧) . ويقول كرد على « لا جرم أن ادارة الأمويين لم تكن فى كل أيام خلفائهم بريئة من العيوب ، ولم تضعف فى الحقيقة الا فى أيام يزيد بن الوليد ــ وكان على غير طريقة اسلافه فى أعماله ، وكان آخرهم مروان بن محمد على عظم همته وشدة باسه مشغولا بالدفع عن الخلافة وكثرت الفتوق فضعفت ادارة المملكة .. وقيل من أوكد الأسباب فى زوال سلطانهم : استئثار الاخبار عنهم واغضاب قواد الدولة وانقسام البيت الأموى على نفسه بسبب ولاية العهد ، فضلا عن انقسام العرب فى خراسان الى مضرية ويمانية وتنازعهم على الولاية ، ثم تأخير العطاء عن الجند فلم يدافعوا باخلاص عن دولتهم (٩٨) » .

وفى العصر العباسى أصبح النظام الادارى نظاما مركزيا ، واصبح العمال على الأقاليم مجرد عمال ولم يكونوا من الشخصيات البارزة . وكان الخليفة العباسى يختار عمال الأقاليم بنفسه لادارة شئونها ، بيد أن سلطتهم المدنية والقضائية لم تكن مطلقة وان كان بعض الامراء قد نالوا

---

(٩٥) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ ــ ٢١٣،٢٠٧ .

(٩٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٤١ .

(٩٧) الغزى . نهر الذهب ج ٣ ص ٢١ ــ ٢ .

(٩٨) كرد على الادارة الاسلامية فى عز العرب ص ١١٩ .

بمتيازات لخدمتهم أو ولائهم . ولم يترك الوالى فى ولايته زمنا طويلا فى الغالب واذا ما عزل طولب ببيان عن ولايته ، فان تأيد شك صودرت أملاكه . واستهلت الدولة العباسية حكمها للشام بأن **فصل السفاح فلسطين عن الشام ، كما فصل ارمينية واذربيجان عن الجزيرة** ـ وجعل منها ولايتين وقد نصح ابن المدبر المتوفى سنة ١٩٢ هـ كاتبه بمخاطبة كل على قدر مكانته ويلفته الى أن من الطبقات العلوية بعد الخلفاء والوزراء وكتابهم « أمراء ثغورهم وقواد جيوشهم » . وجرت العادة أن يولى الخلفاء العباسيون الولايات الاسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسى وأكابر القواد ، غير أن هؤلاء آثروا البقاء فى بغداد أو سامرا وأنابوا عنهم نوابا يحكمون الولايات باسمهم ، فلما ضعفت السلطة المركزية ساءت حالة الولايات وجنح بعض النواب الى الاستقلال (٩٩) . وقد ساعد على هذه النزعة الانفصالية عدم استحكام النزعة البيروقراطية ، فانه لم يكن هناك شيء غريب وبغيض على العقلية الاسيوية ـ على حد تعبير فون كريمر ـ مثل وجود تحكم مركزى شديد ، فكانت كل قرية وكل بلدة تدير فى الحقيقة شئونها بنفسها ، وكانت الادارة تسير على أبسط النظم ، ولا تفرض السلطة العليا على الأهلين سوى دفع الضرائب وتنظيم الرى . وفى المشرق مثلا كانت كل مدينة فى فارس تقوم بشئونها الخاصة الى درجة كبيرة ، بل كانت تجبى الضرائب كما تريد على أن تدفع الخراج المعين للدولة ، وكانت السلطة العليا تستشير الحكام المحليين عند استحداث ضرائب جديدة أو نشوب خلافات بين المدن المتجاورة . وتكاد هذه المدن تؤلف أمارات شبه مستقلة تقترب من وضع المدن الحرة فى أوربا ، فكانت مساحة بلخ

وملحقاتها تزيد على الـ ١٠ فراسخ وتحوطها الأسوار لحمايتها . وعلى منوالها جرت الأمور فى صغد وسمرقند وهراة وبخارى وخوارزم والرى وهمدان وغيرها . وكان يدير كثيرا من المدن مجلس من أعيان المواطنين كما كان فى المدن التجارية نقابات للتجارة . وتكتفى السلطة المركزية بتعيين القاضى وكبار الموظفين والحكام الذين تختارهم من أعيان الجهة ، وقد كان منصب الحاكم من الأهمية بحيث كان يختار له احيانا أمراء من بيت الخلافة (١٠٠) . وهكذا كانت النزعة الانفصالية شيئا طبيعيا بعد

(٩٩) دكتوران حسن وعلى ابراهيم : النظم الاسلامية ـ الطبعة المفصلة ـ ص ٢٤ : ٦ ، دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٠٢ : ٤ ، حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٣٣٧ ـ ٨ ، جرونيباوم : حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ٢٢٠ .

(١٠٠) أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى . ترجمة رافت ص ٣٦٢ ، حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠ .

امتداد الامبراطورية امتدادا شاسعا وصعوبة المواصلات فى داخلها ، مما مكن لتزايد نفوذ الحاكم فى الولاية تبعا لمقدرته الشخصية وضعف الخليفة وبعد الولاية عن العاصمة . اما بالنسبة الى الشام بالذات فقد زالت سيادتها على دنيا الاسلام بسقوط الأمويين ، وتنبه أهل الشام بعد هزيمة الزاب الى انتقال مركز الثقل فى دولة الاسلام نحو الشرق ، فعقدوا رجاء أخيرا على سليل لمعاوية من البيت السفيانى توقعوا أن يعود عودة المسيح ويديل لهم من منافسيهم ولئن كانت الدولة الأموية ــ على اعتبار ما ــ وريثة الامبراطورية البيزنطية فقد كانت خلافة بنى العباس ــ باعتبار أعم وأوسع ــ وريثة أمبراطورية الاكاسرة . وكان أول وال للعباسين على سوريا عبد الله بن بطل الزاب نفسه ، وما أن توفى السفاح حتى طلب عبد الله الخلافة لنفسه منازعا المنصور ، فقضى عليه أبو مسلم الخراسانى، ثم قضى المنصور على أبى مسلم . وقد هيأت القلاقل التى رافقت سقوط الأمويين وقيام العباسيين لقياصرة الروم فرصة التقدم داخل الحدود الاسلامية فاضطر المنصور وخلفاؤه الى بذل الجهد فى تحصين الثغور . على أن انتقال العاصمة الى بغداد جعل أمر الروم بالنسبة للعباسيين غيره بالنسبة لاسلافهم . ولم يتوان أهل الشام بعد أن فقدت بلادهم مكانتها عن التعبير عن معارضتهم ، فقامت فتن عدة فى وجه عبد الله حاكم الشام الأول من بنى العباس فى حوران والبثنية وقنسرين تزعمها قادة مروانيون سابقون . فى حين قاد المتمردين فى حمص وتدمر زعيمهم زياد سليل معاوية الذى وقع عندهم انه السفيانى المنتظر . واشتد النزاع القيسية واليمنية ، وكان ضلع العباسيين مع القيسية بوجه عام ، وبلغ النضال أشده فى عهد الرشيد . كذلك كان لصراع الأمين والمأمون على الخلافة آثاره فى الشام ، اذ نشب الاحتكاك بين أهلها واهل خراسان ــ الذين تزايد توافدهم فى الثغور والاجناد منذ قيام العصر العباسى ــ وفى عهد الأمين المضطرب عمد سفيانى آخر اسمه على الى رفع العلم الأبيض وظفر بتأييد حاكم صيدا واحتل حمص ودخل دمشق . فى سنة ٢١٤ هـ ٨٢٩م قدم المأمون الشام ووضع كشفا جديدا لأراضيها لزيادة خراجها ، وأعاد زيارتها بعد أربع سنوات ــ وكان عدد من الخلفاء الذين سبقوه زاروا الشام فى طريقهم الى الحج أو حملاتهم على الروم ، كما كانوا على علم بمجريات الأمور هناك عن طريق ولاتهم وعمال البريد . وفى زيارة المأمون للشام أبدى رأيا لا يسر فى أهلها ، فقد روى الطبرى « تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا ــ فقال له : يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان فقال : أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت

قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد .
وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها
تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على
الله منذ بعث نبيه من مضر ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما شاريا ــ
اعزب فعل الله بك » (١٠١) . ثم ثار المبرقع اليماني بفلسطين سنة ٨٤٠
ـ ١ م وزعم أنه سفياني النسب ، وكان اتباعه البالغون فيما روى مائة
ألف رجل من مزارعى الريف مما يشير الى دافع اقتصادى . وفى عهد
المتوكل شبت الثورة فى دمشق مرة أخرى سنة ٢٣٩هـ ٨٥٤ ـ ٥م وقتل
الحاكم العباسى ، فارسل الخليفة قائدا تركيا بجيش كبير فأعمل فى المدينة
القتل والحرق والعجيب أن الخليفة المتوكل نفسه فكر فى نقل عاصمته
الى دمشق سنة ٢٤٣ هـ ٨٥٨ م ، ويغلب أنه حاول بذلك أن يتفادى تسلط
حرسه الأتراك .« وعزم على المقام بها ،ونقل دواوين الملك اليها ،وأمر بالبناء
بها ، فتحرك الأتراك فى أرزاقهم وأرزاق عيالاتهم فأمر لهم بما أرضاهم
ثم استوبأ البلد وذلك أن الهواء بها بارد ندى والماء ثقيل والريح تهب
فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يحصى الليل ، وهى كثيرة البراغيث
وغلت فيها الأسعار وحال الثلج بين السابلة والميرة » (١٠٢) .

وكان قيام الحرس التركى فى عهد خلفاء المأمون أول البوادر لانحلال
الحكم العباسى فقد غدت هذه الجماعة نظير الانكشارية فى التاريخ العثمانى
وغلب نفوذها على الخليفة . فأخذ نفوذ الخلافة يتداعى ــ الا فى فترات
قصيرة ، وكان ذلك بمثابة انتحار بطىء يمهد للضربة القاضية من يد
هولاكو والمغول سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م. وبينما كانت الخلافة العباسية تزداد
تفسخا كانت بعض السلالات الصغرى وجلها من أصل عربى تقتطع
لنفسها مناطق نفوذ من ممتلكات الخلافة الغربية ، وبعضها الآخر وجلها من
الترك ، والفرس تفعل مثل ذلك فى المناطق الشرقية . فأحمد بن طولون
كان أبوه مولى تركيا أرسل من بخارى هدية للمأمون ، وقد انتهز أحمد
فرصة تكليف من الخليفة ليخضع ثائرا بالشام الذى كثيرا ماكان بلد
الثائرين على حكم العباسى فزاد جنده ودعم سلطانه فى دولة قصيرة
العمر (سنة ٢٥٤ : ٢٩٢ هـ ٨٦٨ : ٩٠٥ م) . وكان القائد الذى دفع

(١٠١) حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٥٧ : ١٦٦ الطبرى
جـ ١٠ ص ٢٩٦ .

(١٠٢) الطبرى جـ ١١ ص ٥ ــ ٦ ، ٥٥ ، حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور
اليازجى ص ١٦٦ ــ ١٦٧ .

هجمات القرامطة عن دمشق باسم الطولونيين تركيا من فرغانة اسمه طغج استطاع ابنه محمد أن يقيم نفسه على حكم مصر سنة ٩٣٥م بعد فاصل قصير من الحكم العباسى هناك أعقب سقوط الطولونيين • وكانت الأسرة الاخشيدية قصيرة الحكم أيضا ٣٢٣ : ٥٨ هـ ٩٣٥ : ٦٩ م كسابقتها الطولونية « وقد كان منهج حياتهما واحدا ـ ذلك المنهج الذى ميز عددا من الولايات الأخرى المنسلخة من السلطة المركزية العباسية ، فقد عمدت كلتاهما الى تبذير المال الوارد من الولايات لاسترضاء الرعية فخربت الخزينة ، وكل منهما لم تقم على أساس قومى فى الامصار التى استتبعتها ولا استطاعت أن تعتمد بين رعاياها على جماعة متجانسة متماسكة من ابنائها الموالين وكان على هؤلاء الحكام الدخلاء أن يتخذوا حرسهم وجنودهم من مصادر غريبة ولا يمكن صيانة مثل هذا الحكم الا اذا استمرت اليد التى امتشقت السيف قوية » ـ على حد تعبير الدكتور حتى •

وهكذا بدأ الحكم الاسلامى فى الشام بامرة استكفاء تعقد عن اختيار، وانتهى بامرة استيلاء تعقد عن اضطرار ـ على حد تعبير الماوردى • ويصف ابن الأثير حالة الدولة العباسية جملة فى خلافة الراضى ٣٢٢ : ٩ هـ ٩٣٤ : ٤٠ م فيقول « ولم يبق للخليفة غير بغداد واعمالها ـ والحكم فى جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم • وأما باقى الأطراف ، فكانت البصرة فى يد ابن رائق وخورستان فى يد البريرى ، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان فى يد ابى على محمد بن الياس والرى وأصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير اخى مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر **ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج والمغرب وافريقية فى يد ابى القاسم القائم بامر الله بن المهدى العلوى** • وهو الثانى منهم ويلقب بأمير المؤمنين ، والاندلس فى يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الاموى ، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد السامانى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى » •

وحين شرع الاخشيد يستقر فى كرسى الحكم ، اذا بنفوذ **الحمدانيين** فى شمال الشام يتحدى سلطانه على يد أميرهم الفتى سيف الدولة فى مدينة حلب • وينسب هؤلاء الى حمدان بن حمدون من بنى تغلب ، بدأ ظهوره فى أواخر القرن التاسع الميلادى عندما استولى على قلعة ماردين ، واستطاع اعقابه بعد كثير من المنازعات والمهادنات مع الخلفاء أن يبسطوا سلطانهم على الموصل وجانب كبير من العراق وشمال الشام ، **وكان ابرزهم ابو العلاء الذى استطاع سنة ٣٣٣هـ ٩٤٤م أن ينتزع من عامل الاخشيد حلب وانطاكية**

وحمص وان يحصل من الخليفة العباسي على لقب سيف الدولة • وقد استمر الحمدانيون على الدعاء للخليفة العباسي واختار سيف الدولة مدينة حلب عاصمة له ، « اما سبب اختياره لها فربما كان وجود القلعة القديمة فيها وقربها من الحصون القائمة على الحدود ، اذ كان ينوى أن يدفع عنها غارات الروم : ولاول مرة بعد عهد العموريين غدت مدينة الشمال قاعدة للحكومة ذات خطر » وشملت سلطة سيف الدولة شمالى الشام وجانبا من كيليكيا وجزءا كبيرا من شمالى العراق،كما انتزع مركزا اماميا في ارمينية بمساعدة اخواله الاكراد • ولما كانت دولته قائمة على الحدود فقد استنفد صد غارات البيزنطيين جل وقته ومعظم جهده ، وكان أول قائد جدد الكفاح بعد الركود، وكان الصراع الحمدانى البيزنطى مقدمة بين يدى الغزو الصليبى • وفى مقابل شخصية الامير الحمدانى كبطل محارب مسلم كانت هناك شخصية الامبراطور البيزنطى نقفور فوقاس ••• « على أن الغيوم الدكناء أخذت تتلبد فى الافق : فالجيوش الفاطمية اخذت بعد منتصف القرن العاشر فى مهاجمة الشام من الجنوب ، ومتعصبو القرامطة من عشائر العراق وفارس عاودوا اجتياح البلاد من الشمال الشرقى ، ثم لم يلبث السلاجقة وسواهم من الاتراك أن انحدروا من الشمال ، واذا بكبريات المدن نظير حلب ودمشق والقدس تتقاذفها الايادى الغريبة • وفى اواخر القرن الحادى عشر كان اقوام من الفرنج ينحدرون من الشمال الغربى واعقب امارات المماليك تسلط الاتراك العثمانيين « وعندها خيم على البلاد ظلام لم ينقشع حتى أواسط القرن التاسع عشر (١٠٣) » •

الوظائف المحلية الأخرى :

في الأخبار المبكرة للحكم الاسلامى بالشام ورد ذكر بعض موظفى الادارة المحلية « فولى عمر معاوية بعد يزيد ، وولى معه رجلين من أصحاب رسول الله الصلاة والقضاء : فولى أبا الدرداء قضاء دمشق والأردن وصلاتهما ، وولى عبادة قضاء حمص وقنسرين وصلاتهما » (١٠٤) • ودلالة هذا الخبر انه قد وجد موظفون محليون فى أجناد الشام بجوار الولاة منذ البداية ، وأن هؤلاء الموظفين المحليين كانت تعينهم السلطة المركزية • وأخذت الخطوط العامة للادارة الاقليمية فى الدولة الاسلامية

(١٠٣) حتى : تاريخ سورية ج ٢ ترجمة الدكتور اليازجى فصل ٤٣ ص ١٨٥ ومابعدها ، ابن الاثير ج ٨ ص ١١٢ ـ ٣ •

(١٠٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٨ •

تتضح بالتدريج حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين ، **فبجوار الوالى فى دار الامارة كان هناك عامل لكل مقاطعة وقاض يفصل فى اقضية المقاطعة ، كما وجد كتاب للامارة ، وكان هناك أيضا صاحب بيت المال** • وكان لكل قسم من الأقسام الفرعية للمقاطعة عامله والهيئة التابعة له • (١٠٥) وكان من حق الأمير أن يعين عامله على أى جزء فى امارته ، ولا يتطلب أكثر من أن يرفع اسمه للخليفة • وقد ازداد النظام الادارى احكاما **فى عهد الأمويين :** فنظمت ثلاثة دواوين فى ولايات الدولة : ديوان الجند ، وديوان الرسائل ، وديوان المستغلات ، وكان يمثل ديوان البريد المركزى صاحب البريد فى الولايات • واذا كان الامير — وهو رجل من أصحاب السيف — أهم موظف فى الولاية فى عهد الفتح والتوسع ، فانه عندما استقرت دعائم الدولة أخذ العامل يزداد أهمية ، ويتولى موارد الولاية ويعلو رأيه فيما يختص بصالح الخزانة على رأى الأمير أو الوالى • أما صاحب الخراج فهو الذى يتولى جمع ضريبة الارض بعد أن اتسعت الأرض الخراجية لتزايد الفتوح ، وكان الكاتب يشرف على ديوان الولاية ويخفف عن الوالى كثيرا من أعبائه ، وتعدد الكتاب باتساع الادارة • وكان هناك صاحب الاحداث الذى يشرف على الشرطة ومهمته نصنفها حربى ونصفها بوليسى ، لأن عليه حفظ القانون والنظام ، والقضاء على الفتن ومنع الجرائم ، وذلك الى جانب القاضى (١٠٦) • ويبدو أن معاوية كان أول من عين صاحب خراج ، وكانت الادارة المالية هى الغالبة على ما عداها فى حكم أى ولاية • (١٠٧) وقد أبقى معاوية فى دواوين الشام الكتاب من النصارى من أهل البلاد وكثرتهم يكتبون باليونانية • ولكى يشرف على ادارة الدولة اشرافا دقيقا أوجد ديوان الخاتم لانفاذ كتب الخليفة والختم عليها بعلامته واثبات نسخها فيه ، كذلك ينسب اليه ابتكار نظام البريد الذى أعطى له عبدالملك طابعه النهائى فكان يعرف بجناح المسلمين (١٠٨) • وقد نهض عبد الملك بعبء تحويل الدواوين الى العربية « فلما كانت سنة ٨١ أمر بنقله ، وذلك أن رجلا من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئا فلم يجد ماء فبال فى الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان فسأله أن يعينه بخراج الاردن سنة ، ففعل ذلك وولاه الأردن — فلم تنقض

---

(١٠٥) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٨١ — ٢ ، ولم يذكر مصادره فى تحديد منصب خاص (للعامل) هو غير الوالى وغير صاحب بيت المال او صاحب الخراج •

(١٠٦) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٢٠٧ : ٩ •

(١٠٧) حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع ج ١ ص ٢٧٩ •

(١٠٨) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٢ ص ٢٤ — ٥ •

السنة حتى فرغ من نقله • وأتى عبد الملك فدعا بسرجون كاتبه فعرض ذلك عليه فغمه ، وخرج من عنده تئيبا فلقيه قوم من كتاب الروم فقال: اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم » (١٠٩) والسبب الذى يرويه البلاذرى ساذج للغاية ، فى حين أن ابن خلدون يعلل هذا على مذهبه فى تطور الامم من البداوة الى الحضارة • « وأما حال الجباية والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة لأن القوم كانوا عربا أميين لا يحسنون الكتابة والحساب ، فكانوا يستعملون فى الحساب أهل الكتاب أو أفرادا من موالى العجم •• وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الأمور ـ لم تكن عندهم رتبة خاصة ، للأمية التى كانت فيهم والأمانة العامة فى كتمان الفول وتأديته •• وأيضا فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة أحسنها لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات ، ولم يبق الا الخط فكان الخليفة يستنيب فى كتابته ـ متى عن له ـ من يحسنه •• ثم استفحل الملك بعد ذلك •• واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطه على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه •• ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الأمية الى حذق الكتابة وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتاب والحسبان أمر عبد الملك سليمان بن سعد أن ينقل ديوان الشام الى العربية » (١١٠) وقد مضى تعريب الدواوين فى شتى أنحاء الدولة الاسلامية ، فنقل ديوان العراق من الفارسية الى العربية ، وديوان مصر من القبطية والرومية الى العربية أيضا • وساعد على هذه الخطوة ما تم من محاولات فى بحث قواعد اللغة العربية وكتابتها ، ومن ذلك جهود أبى الأسود الدؤلى ومساعى الحجاج لضبط الحروف العربية بالتنقيط • وكان من نتائج تعريب الادارة أن أقبل كتابها من غير العرب على تعلم العربية ابقاء على عملهم بالدواوين ، على أنه ينبغى أن يلاحظ أن ديوان العساكر الاسلامية كان يحرر بالعربية منذ عهد عمر ، وانما كان ديوان المال والجباية بلغة أهل البلاد المفتوحة • وتأخر تعريب ديوان مصر لكن الوليد منع نهائيا التحرير باليونانية وجعل العربية لغة الادارة الوحيدة ، واستعان على تعريب ديوان مصر بشخص من الشام (١١١) ويبدو أن عبد الملك قد أقام الدولة من وجوه أخرى على قواعد جديدة ، فأصبحت

---

(١٠٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠١ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ١٩٩ ، ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى ج ٢ ص ٦١٥ •

(١١٠) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى ج ٢ ص ٦٠٤ : ٦ ، ٦١٤ ـ ١٥ •

(١١١) دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٢ ص ١٦٢ : ٥ •

ادارتها ذات طابع فني وعلى نظام متدرج أكثر من قبل وان كانت فى ذلك أقل بكثير من ادارة الدولة العباسية • وقد اختط عبد الملك فى معاملته لعماله خطة صارمة وأوشك أن يكون جافيا غليظا حتى مع الحجاج على مكانته (١١٢) •

وكانت المدن التى أسست لتكون معسكرات كالجابية ودابق شمالى حلب تشغل فى الشام المكانة التالية لدمشق ، واقتدى العرب بعادات الشعوب التى أدخلوها تحت حكمهم: فكلمة ديوان لعلها مأخوذة من الفارسية، وأما البلاد التى كانت تحت حكم البيزنطيين فأخذت مصطلحاتها من اليونانية واللاتينية ، وظلت الأعمال الكتابية بأيدى العمال المحليين وباللغات المحلية ولم يبدأ استعمال اللغة العربية الا فى نهاية القرن الأول الهجرى ونهاية السابع الميلادى • ونرى مصطلحات مأخوذة من لغات عدة تستعمل متآلفة معا فى أعمال الخلافة الخاصة بالدولة والادارة : فمثلا المصطلحات المأخوذة من بيزنطة مثلا تستعمل فى البلاد المأخوذة من ايران والعكس بالعكس • فكلمة بريد مأخوذة من كلمة veredus اللاتينية ، بينما سماها اليونان أنكروس نقلا عن الفارسية • ويرى بارتولد أن مصطلح الجند نفسه فارسى الأصل كما يرى أن كثيرا من رتب الحرس والشرطة مأخوذة عن الايرانيين (١١٣) •

وصارت الأداة الادارية أكثر دقة فى العهد العباسى • وكان لكل ديوان من الدواوين الرئيسية فى العاصمة ديوان مماثل له أو موظف يمثله فى كل ولاية من الولايات ولكن تركزت فى ديوان واحد من العاصمة يمثل مصالح الولاية فيها مهام شتى دواوين الولاية • ومن المؤكد وجود الدواوين التالية فى الولايات : الخراج ، الرسائل ، الزمام ، البريد ، الضياع ، وكان لكل ولاية بجانب واليها قاض وصاحب شرطة ومحتسب، وأصل وضع الشرطة فى الدولة العباسية « لمن يقيم أحكام الجرائم فى حال استبدائها أولا ثم الحدود بعد استيفائها » • ويفرق الماوردى بين نوعين من القضاء احدهما ذو سلطات عامة ومطلقة والآخر ذو سلطات خاصة ومحددة • وقد ذكر مثلا أن محمدا أبا الحسن بن الامام الشافعى « ولى **قضاء قنسرين والعواصم** » • كما ذكر أن هرون بن عبد الله من سلالة عبد الرحمن بن عوف « ولى القضاء بالمصيصة ، ثم الرقة » ، وذكر أن صالح من أولاد الامام بن حنبل كان « قاضى الثغر » فى حين كان ابنه

---

(١١٢) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريده ص ٢١٣ •

(١١٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر ص ٣٢ : ٦ •

عبد الله « قاضي حمص » كما ذكر أن هرون بن عبد الله من سلالة عبد الرحمن بن عوف « ولاه المأمون قضاء المصيصة » ، ويتولى المحتسب المحافظة على القانون ولا سيما فى الجانب الدينى والأخلاقى منه وفى استطاعته الفصل فى القضايا التى يكون فيها الحق واضحا بينا لا لبس فيه (١١٤) ٠

ونحن نعثر على ذكر **قاضي العسكر** لأول مرة فى عهد عمر ، اذ يروى الطبرى أن عمر جعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى ذا النور وجعل اليه الاقباض وقسمة الفىء ٠ ولا بد أن قضاة العسكر لم يقتصروا على الفصل فى قضايا الجند ــ بل كانوا يفصلون أيضا فى قسمة غنائم البر والبحر ٠ واذا وقع من أفراد الجيش تصرف جرى القيام به بأمر سلطة عليا فانه لا يعتبر جريمة من القائم به ولا يحاكم عليه ولكن يسأل من اصدر الأمر ، أما أن صدر التصرف بغير اذن السلطة العليا أو علمها فلا بد من أن يعوض مرتكب الفعل الشخص المضرور عما ألحقه به فعله فضلا عن العقوبات التأديبية التى تصيب مرتكب الضرر ٠ وهكذا دفعت الحكومة الاسلامية الدية لبنى جذيمة عن كل حياة أزهقت ، وعوضوا عن الكلاب المقتولة وزيد قدر من المال لتغطية الخسائر غير المعلومة (١١٥) ٠ وكان على قاضي العسكر أن يتريث فى انفاذ الحدود أثناء سير الجيش فى أرض العدو ٠ وأورد أبو يوسف عن ابراهيم بن علقمة قال: غزونا أرض الروم ومعنا حذيفة وعلينا رجل من قريش ، فشرب الخمر فأردنا أن نحده ، فقال حذيفة : تحدون أميركم وقد دنوتم من عدوكم فيطمعون فيكم ؟؟ وروى أن عمر أمر أمراء الجيوش والسرايا أن لا يجلدوا واحدا حتى يطلعوا من الدرب قافلين ، وكره أن تحمل المحدود حمية الشيطان على اللحوق بالكفار ٠ (١١٦) ٠

وجعل لكل ولاية ديوان ببغداد يدير شئونها ،وكانكل من هذه الدواوين يتألف من قسمين : أولهما الاصل وهو يختص بوضع الضرائب وحملها الى بيت المال وبمراقبة الضرائب وتنمية مواردها ــ أى يختص بالادارة ، وثانيهما الزمام أو ديوان المال ٠ ولما جاء المعتضد سنة ٢٧٩ ــ ٢٨٩ هـ ، سنة ٨٩٢ ــ سنة ٩٠٢ م ضم دواوين الولايات كلها فى

---

(١١٤) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠ ، ٣٣٨ ; ٣٤٣ ٠
ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى ج ٢ ص ٥٧٦ ــ ٧ ، ٦٢٥ الزبيرى نسب قريش ص ٢٧٢ ، ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٦٦ ، ١٢٥ ، ٣٠٠ ٠

(١١٥) Hamidullah : Muslim Conduct of State. pp. 283-4.

(١١٦) ابو يوسف : الخراج ص ١٧٨ ٠

(ديوان الدار) وله ثلاثة فروع : ديوان المشرق ، وديوان المغرب وديوان السواد أى العراق • ووضعت أزمة الدواوين كلها فى يد رئيس واحد ، والاصول كلها فى يد رئيس واحد • وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساما كثيرة تسمى دواوين أيضا اذ كان لكل ناحية ديوانها • **وفى الولاية كان هناك العامل بجانب الامير المتولى قيادة الجيش ، ويسمى العامل صاحب الخراج** لأن أكبر واجبـاته حمـل خراج الولاية الى خزالة الدولة ويتولى الانفاق على الولاية مما يحصله من الأموال ، لأن خزانة الدولة العامة كانت لا تتولى غير نفقات دار الخلافة والدواوين وما يتعلق ببغداد • وترسـل منشورات الوزير الى الامير والعامل فى وقت واحد ، لكن الامير يتميز بالامامة فى الصلاة واذا تضافر الرجلان استطاعا أن يفعلا ما يشـاءان ، ولو أن رجلا واحدا قلد المنصبين لا صبح كالحاكم المستقل بولايته • ولدينا شكوى من Dionusius von Tellmachrè المتوفى سنة ٢٢٩ هـ ـ سنة ٨٤٣م فى آخر كتـابه فى التـاريخ من كثرة عدد العمـال « لأنهم بهذه الكثرة يغتصبون عيش الفقير بكل الوسائل » ، ففى مدينة الرقة مثلا ــ وهى مدينة صـغيرة على الفرات ـ كان يوجد : قاض ، وكاتب سـلعة يعرف بالبندار يطالب بالخراج ووجوه المال ، وصاحب جند ، وصـاحب بريد ينهى أخبار الولاية للخليفة ومتول للضياع السلطانية ، وصاحب معونة ـ وهذا الكلام الذى يرويه ميشيل السورى غير واضح لأن منصب صاحب المعونة كان يضـم عادة الى صاحب الجنـد والحرب • ولما كانت الصبغة الغالبة فى عمال الدواوين هى الصبغة الاقتصادية المالية فقد كان لا بد أن تتوفر فى الواحد منهم خصال التاجر ـ وكان الفارسى أمهر تاجر فى المملكة الاسلامية • وذكر البعض أن **الكتاب خمسـة : كاتب رسـائل ، وكاتب خراج ، وكاتب قضاء ، وكاتب جند ، وكاتب شرطة** ـ لكل منهم أشياء يجب أن يعرفها • (١١٧) •

ومن أهم وسائل توثيق الروابط بين الادارة المركزية والولايات العناية بالبريد وقد غدت الطرق بين بغداد وسائر جهـات الامبراطورية عامرة بالحركة وقام فى بغداد ديوان كبير للبريد وزودت الطرق بمحطات للبريد وكان عامل البريد عينا على العمال فى الولايات (١١٨) • والبريد الامبراطورى ميراث سـاسـانى بيزنطى ، وقد قامت الدولة الاسـلامية بتوزيع منازل الخيل والبغال والجمـال على الطرق الكبرى بين العاصـمة

---

(١١٧) متز : الحضارة الاسلامية • ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٩٨ ، ١٠٤ : ٧ •
(١١٨) هل : الحضارة العربية • ترجمة دكتور العدوى ص ٨٨ •

والبلدان الهامة فى الولايات وعلى بعض الطرق الجانبية ليجد الركاب الساعون بالبريد دوابا مستريحة ووسائل للاسعاف واشخاصا يحلون بدل العاجزين عن مواصلة السير فى بعض الأحيان · ويمكن ادراك أهمية أعباء صاحب البريد اذا علمنا أنه يشرف على شبكة الطرق فى منطقة من حيث تامينها وصيانتها وهى مهمة شاقة خاصة عند مجارى الانهار· (١١٩)
وقد وصف ابن خرداذبة بريد الروم فقال : « وبراذين الروم براذين لطاف ، محذقة الاذناب خفاف » (١٢٠) · وقد ذكر أن معاوية هو الذى استهل بانشاء البريد حين استقرت له الخلافة « لتسرع اليه أخبار بلاده من جميع أطرافها ، فأمر باحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل الأعمال الروم وعرفهم ما يريد فوضعوا له البريد » وأحكمه عبد الملك بن مروان بعد أن وطد دولته وقضى على الخوارج « وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه الفسيفساء وهى الفص المذهب من القسطنطينية الى دمشق حتى صفح منه حيطان المسجد الجامع بها ومساجد مكة والمدينة والقدس » · وانقطع البريد باضطراب الاحوال أواخر الدولة الاموية « وملك السفاح ثم المنصور ثم المهدى والبريد لا يشد له سرج ولا تلجم له دابة » ثم رتب المهدى بريدا يأتيه بأخبار ابنه هارون لما أغزاه الروم وانقطع ذلك بعد قفوله فلما استخلف الرشيد ذكر يوما حسن صنيع أبيه فى البريد الذى جعل بينهما فحسن له يحيى بن خالد اجراء البريد على ما كان عليه ، فأمره بذلك « فرتب البريد على ما كان عليه أيام بنى أمية ، وجعل البغال فى المراكز وكان لا يجهز عليه الا الخليفة وصاحب الخبر » (١٢١) · وكانت تجعل خيل مضمرات فى عدة أماكن ، فاذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحة ، وكذلك يفعل فى المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة · وقد وضع البريد طلبا لحفظ الأموال وسرعة وصول الاخبار ومتجددات الاحوال · (١٢٢) واستخدم البريد أحيانا فى النقل السريع للشحنات الصغيرة من الجند ، ومن ذلك أنه على أثر قتل الترك باللان الجراح الحكمى ارتأى سعيد بن عمرو الحرشى للخليفة أن يبعثه على ٤٠ دابة من دواب البريد ثم يبعث اليه كل يوم ٤٠ دابة عليها ٤٠ رجلا حتى يوافيه امراء

---

(١١٩) Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. p. 397.
(١٢٠) ابن خرداذبة . المسالك والممالك ص ١١٢ ·
(١٢١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٦٧ : ٩ ·
(١٢٢) دكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٥٨٤ ـ ٥ ·

الاجناد . (١٢٣) ولصاحب البريد الاشراف على انفاذ الكتب وتلقيها ، وله النظر في المرتبين في السكك وتنجيز أرزاقهم ، وتقليد اصحاب الخرائط في سائر الامصار ، ولا غنى له بعد ثقة الخليفة عن معرفة الطرق والمسالك الى جميع النواحي ، وكان له عيون يوافونه بكل جديد ـ وهذا ميراث أخذه العرب عن البيزنطيين اذ كان لصاحب البريد أعوان Veredarii في عهد قسطنطين الاكبر وهم نقلة الاخبار اليه . وذكر المسعودى في المروج أن اولى الامر قد اسكتوا ابن بسام الشاعر **بولاية البريد بجند قنسرين** . وجاء في **عهد بولاية بريد أورده قدامة** ما يوجب على صاحبه « أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجرى عليه أمرهم ويتتبع ذلك تتبعا شافيا ويستشفه استشفافا بليغا وينهيه على حقه وصدقه .. وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال وما يجرى في أمور الرعية فيما يعاملونه من الانصاف والرفق والجور والعسف فيكتب به مشروحا .. وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم .. وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق وما يلزمه الموردون من الكلف والمؤن ويكتب بذلك على حقه وصدقه .. وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء واعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجرى فيه ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته . وأن يكون ما ينهيه من الاخبار شيء يثق بصحته .. وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط في عمله ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم وعدد السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها ويوعز الى هؤلاء المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على أيديهم ، والى الموقعين باثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الاوقات التى سبيله أن يرد السكة فيها . وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الاخبار كتبا باعيانها ، فيفرد لاخبار القضاة وعمال المعاون والاحداث .. والخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتبا ليجرى كل كتاب في موضعه(١٢٤) » . ونصح أبو يوسف الرشيد بأن يكتب اليه البريد بكل مايحدث ، وأن يتوعد الخليفة عمال البريد على ستر الاخبار عنه ويحذر ميلهم مع العمال على الرعية . وطلب أبو يوسف أن يدر لرجال البريد الرزق من بيت المال « **ومتى لم يكن أصحاب البرد والاخبار في النواحي ثقات عدولا فلا ينبغى أن يقبل لهم خبر في قاص ولا وال** (١٢٥) » . وكان صاحب البريد في الولاية يبعث

(١٢٣) الطبرى ج ٨ ص ٢٠٥ رواية محمد بن عمر .
(١٢٤) متز : الحضارة الاسلامية . ترجمة دكتور ابى ريدة ج ١ ص ١٠٠ : ٢ .
(١٢٥) أبو يوسف : الخراج ص ١٨٥ ـ ٦ .

الى ديوان البريد فى العاصـمة أو الخليفة مباشرة بأخبار موظفى الولاية بما فيهم واليها • واسـتخدم المنصور وخلفاؤه فى نظام المراقبة التجار والباعة المتجولين والمسافرين وقيل ان المأمون استخدم النساء العجائز• **ومن أهم الطرق الرئيسية للبريد الطريق الذى يربط بغداد بالموصل ويمر بآمد (ديار بكر) وغيرها من حصـون الثغـور ، وفى الناحية الشمالية الغربية كانت تتصل بغـداد بدمشـق وغيرها من بلاد الشـام عن طريق الانبار والرقة** • وفى اتجاه الشرق كان طريق خراسان الكبير يصل بغداد بمدن الحدود على نهر سيحون وحدود الصين، وتتفرع عند المدن الهامة فروع الى الشـمال والجنوب ومع نهر دجلة يسـير طريق من بغداد الى واسط والبصرة ثم يتجه الى الاهواز فى خوزستان ومنها الى شيراز بفارس وتتفرع منه فروع شرقا وغربا تنتهى بطريق خراسان الكبير • وكان ابن خرداذبة صاحب البريد فى ولاية الجبال أيام المعتمد • وقد كان البريد ينقل رسائل الدولة والأفراد على السواء (١٢٦) •

وقد كان لمصر منذ أوائل العصر الاسلامى نظام دقيق لجوازات المرور للانتقال الداخلى ، ولم يكن يجوز للرجل أن يخرج من مصر على عهـد الطولونيين الا بجـواز ، الا أنه لم يكن بالمشرق عموما فى القرن الثـانى الهجرى نظـام لضبط أسـماء الاغراب قبل دخولهم أبواب المـدن •. اذ تكلم أحـد الرحالة المسـلمين فى القرن الثـالث الهجرى عن جوازات المـرور بالصـين كلام من يعتبرها شـيئا جـديدا ، وأحـدث عضـد الدولة فى القرن الرابع الهجرى مراقبة الأبواب فى عاصمته شيراز ، فقـال المقـدسى : « ومنع الخـارج منهـا الا بجـواز ، وحبس الداخل والمجتاز » (١٢٧) •

وكانت الدولة الاسلامية ترعى **النواحى العمرانية والخدمات العامة** فى مختلف الولايات • ففى عهد الوليد عبدت الطرق وأقيمت على جوانبها الشواهد الحجرية وبنيت الاستراحات واستنبطت الابار • كما اهتم الوليد بعلاج المرضى فى دور للعلاج وأمر بعزل المصابين بأمراض معدية خاصة المجـذومين ، وأعد ترتيبات لاعانة الزمنى والمشـوهين والعمى ، واعتنى باليتامى وتعليمهم • ومضى عمر بن عبد العزيز قدما فى هذا السبيل • وبنى هشام أحواضا وخزانات على الطريق الى مكة ، وشيد واليه على الموصـل دارا للعلم ومناخا للقوافل ، وأمر هشام بحفر قنـاة لتزويد

---

(١٢٦) حتى : تاريخ العرب • ترجمة نافع جـ ٢ ص ٤٠٣ : ٥ •

(١٢٧) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ١ ص ٢٠٥ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٢٩ •

الموصل بالمياه العذبة بلغت تكاليفها ٨ مليون درهم • وأما الوليد بن يزيد ابن عبد الملك فقد « أجرى على زمنى أهل الشام وعميانهم وكساهم ، وأمر لكل انسان منهم بخادم ، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزادهم على ما كان يخرج لهم هشام ، وزاد الناس جميعا فى العطاء عشرة عشرة ، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة •• وكان هو ولى عهد **يطعم من وفد اليه من أهل الصائفة قافلا** ، ويطعم من صدر عن الحج بمنزل يقال له زيزاء ثلاثة أيام ويعلف دوابهم ••» (١٢٨) •

وفى عهد العباسيين كان المهدى يشبه الوليد فى العناية بالمرضى والفقراء وقد منح المجذومين معاشات ومنعهم الاستجداء وتأسست دور العلاج والدواء فى سائر أنحاء الدولة ، ونال الفقير والعاجز والمريض العناية التامة • وروى عن عهد الواثق أنه لم يوجد متسول فى أنحاء الامبراطورية (١٢٩) • ومن الأعمال العمرانية الكبيرة فى الدولة الاسلامية **قنطرة عجيبة على نهر سنجة بين حصن منصور وكيسوم من ديار مضر** كانت « من احدى عجائب الدنيا من الشط الى الشط ، والطاق يشتمل على مائتى خطوة من حجر مهندم ، وطول الحجر منه عشرة أذرع فى ارتفاع خمسة أذرع » (١٣٠) •

عرض لولاة قنسرين والعواصم فى اجمال :

عهد الخلفاء الراشدين :

١ ـ **أبو بكر** : توفى أبو بكر سنة ١٣ هـ وكان بالشام أبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ـ **كل رجل منهم على جند** ، وعليهم خالد بن الوليد (١٣١) •

٢ ـ **عمر** : لما استخلف عمر كان أول ما تكلم به عزل خالد « ولم يزل عمر عليه ساخطا ، ولأمره كارها فى زمان أبى بكر كله لوقعته بابن نويرة وما كان يعمل به فى حربه ••• فقام بلال مولى أبى بكر فقاسمه ماله حتى بقيت نعلاه فأخذ نعلا وأعطاه نعلا ••• ولم يكن لخالد مال

(١٢٨) حسينى : الادارة العربية • ترجمة دكتور العدوى ص ٢٣٩ : ٤١ ، ٢٤٦ ، دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٤٧٨ ، الطبرى جـ ٨ ص ٢٩٣ •

(١٢٩) حسينى : الادارة العربية • ترجمة دكتور العدوى ص ٣٨٥ ـ ٦ •

(١٣٠) عبد المؤمن : مراصد الاطلاع ـ طبعة البجاوى جـ ٢ ص ٧٤٥ •

(١٣١) الطبرى جـ ٤ ص ٥١ •

الا عدة ورقيق فحسب ذلك فبلغت قيمته ثمانين ألف درهم فناصفه عمر ذلك فأعطاه أربعين ألف درهم وأخذ المال (١٣٢) ٠ وكان أول كتاب كتبه عمر الى أبى عبيدة « أوصيك بتقوى الله ٠٠٠ وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك ، لا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه ولا تبعث سرية الا فى كثف من الناس ، واياك والقاء المسلمين فى الهلكة. وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك فغض بصرك عن الدنيا ٠٠٠ » ٠ وقدم بوفاة أبى بكر الى الشام شداد بن أوس بن ثابت الانصارى ومحمية بن جزاوير فكتموا الخبر عن الناس حتى ظفر المسلمون ـ وكانوا بالياقوصة وقيل باليرموك يقاتلون عدوهم من الروم ـ وذلك فى رجب ، فأخبروا أبا عبيدة بوفاة أبى بكر وولايته حرب الشام وضم عمر اليه الأمراء وعزل خالد ، فاستحيى أبو عبيدة أن يقرىء خالدا الكتاب حتى فتحت دمشق وجرى الصلح على يد خالد وكتب الكتاب باسمه (١٣٣) ٠ واشترك خالد بعد ذلك فى فتح حمص وقنسرين « ولما بلغ عمر ذلك قال : أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى ـ وقد كان عزله والمثنى مع قيامه ، وقال انى لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما ٠ فلما كان من أمره وأمر قنسرين ما كان ، رجع عن رأيه ٠٠٠ فأدرب خالد وعياض بن غنم مما يلى الشام وأدرب عمر بن مالك وعبد الله بن المعتم مما يلى الجزيرة ـ ولم يكونوا ادربوا قبله ، ثم رجعوا ـ فهى أول مدربة كانت فى الاسلام سنة ستة عشر فرجع خالد الى قنسرين فنزلها ، وأتته امرأته ، فلما عزله قال : ان عمرو لانى الشام حتى اذا صارت بثنية وعسلا عزلنى » (١٣٤) ٠

ولما نزل عمر الجابية وصد المسلمون هجوم الروم على حمص سنة ١٧هـ واشترك فى ذلك خالد « أمد عياض بن غنم ـ الذى برز فى فتح الجزيرة ـ بحبيب بن مسلمة ٠٠وكتب أبو عبيدة الى عمر بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضم اليه عياض بن غنم اذ ضم خالد بن الوليد الى المدينة، فصرفه اليه ٠٠٠ واستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها والوليد بن عقبة على عرب الجزيرة (١٣٥) ٠٠٠ » ٠ وروى أن أبا عبيدة

---

(١٣٢) الطبرى جـ ٤ ص ٥٦ رواية ابن اسحق ٠
(١٣٣) الطبرى جـ ٤ ص ٥٤ ـ ٥ رواية ابن اسحق وغيره ٠
(١٣٤) الطبرى جـ ٤ ص ١٥٥ رواية أبى عثمان وجارية ٠
(١٣٥) الطبرى جـ ٤ ص ١٩٨ رواية السرى عن شعيب عن سيف ٠

استعمل حبيب بن مسلمة على قنسرين (١٣٦) وزار عمر الشام سنة ١٧ هـ « فرجع الى المدينة وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت يديه على قنسرين ، وعلى دمشق يزيد بن أبى سفيان وعلى الأردن معاوية ، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز ، وعلى الاهراء عمرو بن عبسة ، وعلى السواحل عبد الله بن قيس ، وعلى كل عمل عامل • فقامت مسالح الشام ومصر والعراق على ذلك الى اليوم ، لم تجز أمة الى أخرى عملها بعد الا أن يقتحموا عليهم بعد كفر منهم ، فيقدموا مسالحهم بعد ذلك ـ فاعتدل ذلك سنة ١٧ » (١٣٧) وفى سنة ٢٣ هـ وهى السنة التى كان فيها مقتل عمر كان على حمص عمير بن سعد وعلى دمشق معاوية وقد ورد كتاب عمر بتولية عمير حمص وقنسرين والجزيرة سنة ١٨ هـ (١٣٨) • وذلك أن عياض ابن غنم ولى الجزيرة ثم عمل مع أبى عبيدة حتى استخلفه على عمله عند وفاته ، ومات عياض بعد أبى عبيدة فأمر عمر على عمله سعيد بن حذيم الجمحى ، ومات سعيد فأمر عمر مكانه عمير بن سعد الانصارى • ومات يزيد بن أبى سفيان فجعل عمر مكانه معاوية ـ فاجتمعت لمعاوية الاردن ودمشق « ومات عمر ومعاوية على دمشق والاردن ، وعمير بن سعد على حمص وقنسرين ، وعلقمة بن مجزز على فلسطين » (١٣٩) •

٣ ـ **عثمان** : أقر عثمان عمال عمر على الشام ، فلما مات عبد الرحمن بن علقمة الكنانى ـ وكان على فلسطين ـ ضم عمله الى معاوية، ومرض عمير بن سعد مرضا طال به فاستعفاه واستأذنه فأذن له وضم عمله الى معاوية«فاجتمع الشام على معاوية لسنتين من امارة عثمان(١٤٠)• وولى معاوية حبيب بن مالك بن مسلمة الفهرى على قنسرين وكان يسمى حبيب الروم لكثرة غزوه لهم • ومات عثمان مقتولا آخر سنة ٣٥ والشام مع معاوية وحبيب على قنسرين من تحت يده (١٤١) •

ويمتاز ولاة الشام فى عهد الخلفاء الراشدين بوجه عام بالتقوى والورع ، وقد روى أن عمر أرسل الى سعيد بن عامل بن حذيم الجمحى

---

(١٣٦) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٣٥ •

(١٣٧) الطبرى جـ ٤ ص ٢٠٥ رواية السرى عن شعيب عن سيف •

(١٣٨) الطبرى جـ ٥ ص ٤٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٠ •

(١٣٩) الطبرى جـ ٥ ص ٦٩ : رواية السرى عن شعيب عن سيف ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٣٦ ـ ٧ •

(١٤٠) الطبرى جـ ٥ ص ٦٩ : رواية السرى عن شعيب عن سيف ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٣٧ •

(١٤١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٣٧ •

« انى مستعملك على هؤلاء تسير بهم الى أرض العدو فتجاهد بهم . فقال : يا عمر ، لا تفتنى . قال : والله لا أدعكم جعلتموها فى عنقى ثم تخليتم عنى ! انما أبعثك على قوم لست بأفضلهم » . وقد توفى فى حدود سنة ٢٠ هـ . أما عمير بن سعد الاوسى الانصارى الذى اعقبه فقد استدعاه عمر مرة ليستطلع أحوال امارته وطلب منه أن يحضر فيء المسلمين معه « فاقبل عمر ماشيا من حمص بيده عكازه واداوة وقصعة وجراب كثير الشعر ، فلما قدم على عمر قال له : يا عمير ، ما هذا الذى أرى من سوء حالك ـ أكانت البلاد بلاد سوء أم هذه خديعة منك ؟؟ قال عمير : يا عمر ... ألست ترانى طاهر الدم صحيح البدن ومعى الدنيا بقرابها ؟؟.. قال : فاخبرنى ما حال ما خلفت من المسلمين ؟ قال : يصلون ويوحدون ... قال : ما صنع أهل العهد ؟؟ قال عمير : أخذنا منهم الجزية .. فأخذناه منهم ثم رددناه على فقرائهم ومجهوديهم .. » . وروى الواقدى أن عمر كان يقول « وددت أن لى رجالا مثل عمير بن سعد أستعين بهم على اعمال المسلمين » . أما حبيب بن مسلمة بن مالك غازى الروم وفاتح أرمينية فقد قال عنه الذهبى « كان من خواص معاوية وله معه آثار محمودة شكرها له معاوية » . وفى الاصابة « ولم يزل مع معاوية فى حروبه ووجهه الى أرمينية واليا » . وقد توفى فى حدود سنة ٤٢ هـ أو بعدها بقليل (١٤٢).

٤ ـ **على** : فشلت محاولة على فى ارسال وال الى الشام سنة ٣٦ هـ عندما فرق عماله فى الامصار ، فقد ردت الخيل **سهل بن حنيف** والى على الشام عند تبوك (١٤٣) .

عهد بنى أمية :

١ ـ **معاوية** : قتل على سنة ٤٠ هـ ومعاوية متغلب على الشام جميعه وصالحه الحسن بن على وتمت خلافة معاوية فى ربيع الأول سنة ٤١هـ ، وكان معاوية يدعى بالشام الأمير ، فلما قتل على دعى معاوية أمير المؤمنين (١٤٤) . **فمصر معاوية قنسرين وأفردها عن حمص ، وقيل انما فعل ذلك ابنه يزيد ، وصار الذكر فى ولاية قنسرين . ووظف معاوية الخراج على قنسرين أربعمائة ألف وخمسين الف دينار ، وكانت حلب تحت الحكم المباشر للخلفاء من بنى امية لمقامهم بالشام وكون الولاة فى أيامهم**

(١٤٢) الطباخ : اعلام النبلاء . جـ ١ ص ١٠٣ : ٦ .
(١٤٣) الطبرى : جـ ٥ ص ١٦١ رواية السرى عن شعيب عن سيف .
(١٤٤) الطبرى جـ ٦ ص ٩٣ ـ ٤ رواية عبدالله بن أحمد المروذى ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤١ .

بمنزلة الشرط لايستقلون بالامور والحروب ، وولاة الصوائف ترد كل عام مع الجيوش الاسلامية الى دابق . وأقام جماعة منهم بنواحى حلب : فان سليمان بن عبد الملك رابط بدابق الى أن مات ، وأقام عمر بن عبد العزيز بخناصرة الى أن مات .. ولم يزل حبيب بن مسلمة مع معاوية فى حروبه .. واستعمل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد على غزو الروم (١٤٥) .

وقد ذكر « أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد كان قد عظم شأنه بالشام ومال اليه أهلها لما كان عندهم من آثار أبيه خالد ولغنائه عن المسلمين فى أرض الروم وبأسه ، حتى خافه معاوية وخشى على نفسه منه لميل الناس اليه فأمر ابن أثال أن يحتال فى قتله ، وضمن له ان هو فعل ذلك أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه جباية خراج حمص فلما قدم عبد الرحمن حمص منصرفا من بلاد الروم ـ سنة ٤٦هـ ـ دس اليه ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص ، فوفى له معاوية بما ضمن له .. فاعترض له خالد بن عبد الرحمن ـ وهو راكب يوما ـ فضربه بالسيف فقتله فرفع الى معاوية فحبسه أياما ولم يقده منه (١٤٦) » . ويعلق فلهوزن على هذا الحادث بقوله « ويستطيع الانسان أن يتصور مبلغ تأثير ذلك فى نفوس بنى مخزوم ـ وكانوا منذ زمان طويل يحقدون على بنى أمية » . ولكن الدكتور أبو ريدة يقول ان هذه الحكاية لا تسلم من النقد (١٤٧) .

وقاد مالك بن عبد الله الخثعمى من أهل فلسطين الصوائف أربعين سنة ويقال له مالك الصوائف أو السرايا « قدم على معاوية برسالة عثمان .. وكسر فيما قيل على قيده أربعون لواء وكان صواما قوما (١٤٨) » .

ويذكر الغزى أنه من سنة ٤٥ هـ الى حدود سنة ٨٦هـ « لم أطلع على اسماء عمال الخلفاء على قنسرين وحمص ، ولعل العمال عليهما فى هذه المدة هم أمراء الصوائف والمشاتى (١٤٩) » .

---

(١٤٥) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤١ ـ ٢ .

(١٤٦) الطبرى جـ ٦ ص ١٢٨ ـ ٩ رواية عمر عن على عن مسلمة بن محارب ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٢ ـ ٣ .

(١٤٧) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية . ترجمة الدكتور ابى ريدة ص ١٣٠ ـ ١ والهامش

(١٤٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٩ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٣ ، الطباخ اعلام النبلاء ص ١٠٨ .

(١٤٩) الغزى : نهر الذهب جـ ٢ ص ٢٢ .

وقد ظهر فى هذه الغزوات مالك بن عبد الله الخثعمى سنة ٤٦ هـ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ هـ ، ومالك بن هبيرة السكونى سنة ٤٦ : سنة ٤٩هـ وبسر ابن أبى ارطاة سنة ٤٣ ، سنة ٤٤ ، سنة ٥٠ ، سنة ٥١ ، سنة ٥٢هـ ، وعبد الرحمن القينى سنة ٤٧ ، سنة ٤٨ هـ ، وفضالة بن عبيد سنة ٤٩، سنة ٥٠ ، سنة ٥١ هـ ، ويزيد بن شجرة الرهاوى سنة ٤٩ هـ و سنة ٥٦ ومحمد بن عبد الله الثقفى سنة ٥٢ هـ ، وسفيان بن عوف الازرى سنة ٥٠ ، ٥٢ هـ ، سنة ٥٥ وعبد الرحمن بن أم الحكم سنة ٥٣ هـ ، ومحمد بن مالك سنة ٥٤ هـ ، ومعن بن يزيد سنة ٥٤ هـ ، وجنادة بن أبى أمية سنة ٥٣ ، سنة ٥٤ ، سنة ٥٦ ، سنة ٥٨ ، سنة ٥٩ ، سنة ٦٠ هـ وعمرو بن مرة الجهنى سنة ٥٨ وسنة ٥٩ هـ ، عمرو بن محرز سنة ٥٥ هـ ، وعياض بن الحارث سنة ٥٦ ، وعبد الله بن قيس الفزارى سنة ٥٥ ، سنة ٥٧ هـ ـ وفقا للروايات المختلفة • وقد ذكر عن **عبد الله ابن قيس الحارثى** حليف بنى فزارة أنه « غزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة فى البحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب » • (١٥٠)

٢ ـ **عبد الملك بن مروان** : واجهت الدولة الاموية الفتن الداخلية بعد عهد معاوية ، ويذكر أن الحسين بن على خاطب عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى ولاه عبيد الله بن زياد الرى وولاه حرب الحسين « فلما أتاه قال له الحسين : اختر واحدة من ثلاث : اما أن تدعونى فأنصرف من حيث جئت ، واما أن تدعونى فأذهب الى يزيد **واما أن تدعونى فالحق بالثغور** » فقبل عمر ولكن رفض عبيد الله (١٥١) • وفى أثنـاء ثورة العراق على الآمويين صور بعض الثائرين مدى طاعة أهل الشام لخليفتهم حتى ينفر أهل العراق من الجنوح للأمويين والغدر بمصعب بن الزبير « فقال قيس بن الهيثم : ويحكم ، لا تدخلوا أهل الشام عليكم ، فو الله لئن تطعموا بعيشكم ليصفين عليكم منازلكم !! والله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح ان أرسله فى حاجة !! **ولقد رأيتنا فى الصوائف وأحدنا على** الف بعير وان الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه وزاده خلفه (١٥٢) •

وقد استعمل عبد الملك أخاه **محمدا على الجزيرة وأرمينية** فغزا منها

---

(١٥٠) الطبرى جـ ٦ ص ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ •

(١٥١) الطبرى جـ ٦ ص ٢٢٠ رواية زكريا يحيى الضرير عن أحمد بن جناب المصيصى

(١٥٢) الطبرى جـ ٧ ص ١٨٥ رواية عمر عن محمد بن سلام •

(١٥٣) ، وقال البلاذرى أن محمد بن مروان لما ولى الجزيرة وأرمينية حوى صيد بحيرة الطريخ وباعه بعد أن كانت مباحة (١٥٤) . وقد أورد الطبرى غزوته الصائفة سنة ٧٣ ، سنة ٧٥ هـ (١٥٥) وغزا **الوليد بن عبد الملك** الصائفة سنة ٧٧ هـ ويقول ابن العديم « وظل على الولاية الى أن مات عبد الملك فى شوال سنة ٨٦هـ » (١٥٦) . وتتابع الامراء الأمويون على جهاد الروم ، وكان **لعبد الله بن عبد الملك** بلاء مذكور فى غزو المصيصة من الثغور الشامية « وكانت الطوالع من أنطاكية تطلع عليها فى كل عام فتشتو بها وتنصرف وعدة من كان يطلع اليها الف وخمسمائة الى الالفين» وطرنده من الثغور الجزرية « فكانت تأتيهم طالعة من جند الجزيرة فى الصيف فيقيمون بها الى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج فاذا كان ذلك قفلوا » (١٥٧) .

٣ ـ **الوليد بن عبد الملك** : غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم سنوات ٨٦ و ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ هـ . ويذكر ابن العديم أن **الوليد تولى الخلافة** و « **محمد بن مروان على ولايته ، فما زال كذلك الى أن عزله الوليد فى سنة ٩٠ وولى مكانه أخاه مسلمة .** فدخل مسلمة حران وكان محمد بن مروان يتعمم للخطبة ، فأتاه آت فقال: هذا مسلمة على المنبر يخطب . فقال محمد : هكذا تكون الساعة بغتة وارتعدت يده فسقطت المرآة من يده ، فقام ابنه الى السيف فقال : يا بنى ولانى أخى وولاه أخوه . وكان أكثر مقام مسلمة بالناعورة وبنى فيها قصرا بالحجر الاسود الصلد وحصنا بقى منه برج الى زماننا هذا . وكان عبد الملك يقول للوليد : كأننى لو قدمت بك قد عزلت أخى ووليت أخاك» (١٥٨) . وظهرت فى الغزوات الموجهة لحرب الروم أسماء العباس ابن الوليد سنوات ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ هـ وقد عمر مرعش وحصنها وكان يقطع بعثا من أهل قنسرين اليها سنويا (١٥٩)، وعبد العزيز

---

(١٥٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٤ .

(١٥٤) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٠٨ .

(١٥٥) الطبرى جـ ٧ ص ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٤ ـ ٥ .

(١٥٦) الطبرى جـ ٧ ص ٢٨٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٥ .

(١٥٧) الطبرى جـ ٨ ص ٣٧ رواية الواقدى ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٢، ١٩٤ .

(١٥٨) الطبرى جـ ٨ ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ـ ٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٤ ـ ٥ .

(١٥٩) الطبرى جـ ٨ ص ٦٤ ـ ٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ٩١ ، ٩٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٧ .

ابن الوليد سنتى ٩١ ، ٩٤ هـ (١٦٠) ، وعمر بن الوليد سنة ٩٢ هـ (١٦١) ، ومروان بن الوليد سنة ٩٣ هـ (١٦٢) ٠

٤ ـ **سليمان** : جهز سليمان الجيوش الى القسطنطينية سنة ٩٧ هـ واستعمل ابنه داود على الصائفة وواصل مسلمة غزواته سنتى ٩٦ ، ٩٧هـ حتى وجهه سليمان الى القسطنطينية سنة ٩٨هـ(١٦٣)«وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره ، فشتى بها وصاف » ويقول ابن العديم أن مسلمة لما خرج للغزو « استخلف على عمله خليفة » وتوفى سليمان سنة ٩٩ هـ وهو مرابط بدابق من أرض قنسرين ٠ وقد ذكر أن الفقيه عدى ابن عدى بن عفير بن زرارة بن الارقم ولى الجزيرة وارمينية وأذربيجان لسليمان بن عبد الملك (١٦٤) ٠

٥ ـ **عمر بن عبد العزيز** : كان أكثر مقامه بخناصرة الاحص ، وقد أمر مسلمة بالقفول من أرض الروم ، على أنه أغزى سنة ١٠٠ هـ الوليد ابن هشام المعيطى وعمرو بن القيسى الكندى من أهل حمص الصائفة ، وأشخص عمر بن هبيرة الفزارى الى الجزيرة عاملا عليها فى العام نفسه (١٦٥) ٠ ويذكر ابن العديم أنه ولى من قبله على قنسرين هلال ابن عبد الأعلى ثم ولى عليها الوليد بن هشام المعيطى على الجند والفرات ابن مسلم على خراجها وتوفى عمر بدير سمعان من أرض معرة النعمان سنة ١٠١ هـ (١٦٦) ٠

٦ ـ **يزيد بن عبد الملك** : استعان يزيد سنة ١٠٢ هـ بمسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد فى الجبهة الداخلية لحرب يزيد بن المهلب ، فلما فرغ مسلمة من حربه جمع له يزيد ولاية الكوفة والبصرة وخراسان، ثم ما لبث أن عزله فى نفس العام لانه « لم يرفع من الخراج شيئا » (١٦٧) وذكر ابن العديم أن يزيد ولى الخلافة والوليد بن هشام المعيطى على جند

---

(١٦٠) الطبرى جـ ٨ ص ٧٤ ، ٩١ ٠

(١٦١) الطبرى جـ ٨ ص ٨٢ ٠

(١٦٢) الطبرى جـ ٨ ص ٨٣ ٠

(١٦٣) الطبرى جـ ٨ ص ١١٣ ٠

(١٦٤) الطبرى جـ ٨ ص ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٦ ، ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤٠٠ ٠

(١٦٥) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٠ ، ١٣٢ ٠

(١٦٦) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٦ ٠

(١٦٧) الطبرى جـ ٨ ص ١٥١ وما بعدها رواية هشام عن أبى مخنف ، ١٦٠ ، ١٦٦ برواية على بن محمد .

قنسرين وكان عمر بن عبد العزيز قد كتب الى يزيد وهو ولى عهده « أن الوليد بن هشام كتب الى كتابا أكثر ظني أنه تزين بما ليس هو عليه - اذ طلب أن ينقص رزقه ففعل عمر - فأنا أقسم اليك أن حدث وأفضى هذا الأمر اليك فسألك أن ترد رزقه ، وذكر أني نقصته - فلا يظفر منك بهذا » . فلما طالب الوليد يزيد برد رزقه مدعيا أن عمر نقصه وظلمه غضب يزيد وعزله وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها فلم يل له عملا حتى هلك . وتوفي يزيد بالبلقاء سنة ١٠٥ هـ (١٦٨) .

٧ - **هشام** : تتابع الأمراء الأمويون على جهاد الروم فغزا سعيد بن عبد الملك الصائفة سنة ١٠٦ هـ وغزا معاوية بن هشام سنوات ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ هـ وغزا مسلمة بن عبد الملك سنوات ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ هـ وغزا ابراهيم بن هشام سنة ١٠٨ هـ كما غزا عبد الله بن عتبة الفهري وعبد الرحمن بن معاوية بن حديج سنة ١١٠ هـ وغزا سعيد بن هشام سنة ١١١ هـ ،وسليمان بن هشام سنوات ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ هـ كما غزا النعمان بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ وكانت توجه أحيانا حملات بقيادة قواد آخرين فقد غزا الوليد بن القعقاع العبسي سنة ١١٩ هـ . وفي سنة ١١١ هـ ولى الجراح بن عبد الله الحكمي ارمينية واستشهد سنة ١١٢ فوجه للقتال سعيد بن عمرو الحرشي كما ذكر أن معلن بن صفار ولى أرمينية وأذربيجان لهشام **وولى مروان بن محمد أرمينية** فظهر اسمه في الغزو سنوات ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١هـ (١٦٩)، فافتتح حصونا ثلاثة من اللان .

وكان هشام ينزل الرصافة من أرض قنسرين ونقل الطبري أنها « برية ابتنى بها قصرين ، والرصافة مدينة رومية بنتها الروم » وقد كان الخلفاء وأبناء الخلفاء ينتبذون ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجا عن الناس « فلما أراد هشام أن ينزل الرصافة قيل له : لا تخرج فان الخلفاء لا يطعنون لم ير خليفة طعن ، قال : أتريدون أن تجربوا بي » (١٧٠) . وذكر أن **هشام ولى على قنسرين وعملها خال اخيه سليمان وهو الوليد**

---

(١٦٨) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٤٧ .

(١٦٩) الطبري ج ٨ ص ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨٣ ، ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤١٣ .

(١٧٠) الطبري ج ٨ ص ٢٨٧ رواية أحمد بن زهير عن علي بن محمد .

ابن القعقاع بن خليد العبسى ، وقيل انه ولى عبد الملك بن القعقاع على قنسرين ـ وقيل حمص واليهم ينسب حيار بنى عبس والى أبيهم ينسب القعقاعية قرية من بلد فايا • وتوفى هشام سنة ١٢٥ هـ (١٧١) •

٨ ـ **الوليد بن يزيد** : استعمل الوليد العمال وكتب اليه مروان بن محمد يهنئه ، وقد أجرى على زمنى أهل الشام وعميانهم ومحتاجيهم وكساهم « وزادهم على ماكان يخرج لهم هشام ، وزاد الناس جميعا فى العطاء عشرة عشرة ، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة ••• وكان وهو ولى عهد يطعم من وفد اليه من أرض **الصائفة قافلا** » وقد أغزى أخاه الغمربن يزيد بن عبد الملك ، كما أمر على جيش البحر الى قبرص الاسود بن عبد الله المحاربى ليخير اهلها « بين المسير الى الشام ان شاؤا ، وان شاؤا الى الروم • فاختارت طائفة جوار المسلمين ـ فنقلهم الاسود الى الشام ، واختار آخرون أرض الروم ـ فانتقلوا اليها » (١٧٢) •

وكانت بين الوليد وبين القعقاع وحشة ، فهرب الوليد بن القعقاع وغيره من بنى أبيه من الوليد فعاذوا بقبر يزيد بن عبد الملك ، فولى الوليد على **قنسرين يزيد بن عمر بن هبيرة** ، وبعث الى الوليد بن القعقاع فأخذه من جوار قبر أبيه ، ودفع بنى القعقاع الى يزيد بن عمر بن هبيرة فمات فى العذاب الوليد وعبد الملك ابنى القعقاع وغيرهما « واضطغن على الوليد آل الوليد ، وآل هشام ـ فقد اشتد عليهم وضرب سليمان بن هشام وحلقه وغربه وحبسه ـ وآل القعقاع واليمانية كما صنع بخالد بن عبد الله » • وقد انتقض يزيد بن الوليد على الوليد بن يزيد فنصح البعض الوليد بأن يمضى «حتى ينزل حمص فانها حصينة، ويوجه الجنود الى يزيد فيقتل أو يأسر» فأبى أن يمضى الى حمص وتدمر ورضى أخيرا أن ينزل حصن البخراء « فانه حصين وهو من بناء العجم » ، وهناك لقى مصرعه على يد يزيد بن الوليد (١٧٣) •

٩ ، ١٠ ـ **يزيد وابراهيم ابنا الوليد**: بويع ليزيد بن الوليد سنة ١٢٦هـ «وانما قيل يزيد الناقص لنقصه الناس الزيادة التى زادهموهما الوليد بن يزيد فى اعطياتهم وذلك عشرة عشرة ••• وقيل أول من سماه بهذا

---

(١٧١) الطبرى جـ ٩ ص ٦ رواية أحمد بن زهير عن على بن محمد ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ١ ص ٤٨ •
(١٧٢) الطبرى جـ ٨ ص ٢٩٣ ، ٢٩٩ •
(١٧٣) الطبرى جـ ٩ ص ٣ ، ٦ ، ١١ وما بعدها •

الاسم مروان بن محمد » ٠ واضطرب حبـل بنى مروان وهاجت الفتنة ، كما ثار أهل فلسـطين والاردن ، واستعمل ابراهيم على الاردن وضـبعان بن روح على فلسطين **ومسرور بن الوليد على قنسرين ـ وقيل بشر بن الوليد** ـ وابن الحصين على حمص (١٧٤) ٠ وفى سنة ١٢٦هـ كتب مروان بن محمد الى الغمر بن يزيد يطالبه بالاخذ بدم أخيه الوليد ، وكان ابنه عبد الملك بن مروان بن محمـد قد وثب على عامل الوليـد بالجزيرة اثر العـلم بقتل الوليد ووضع الارصاد على الطريق ٠ ثم أظهر الخـلاف على يزيد وانصرف من ارمينية الى الجزيرة وكاد جنده ينتقض عليه فى الطريق ، « وكاتبه يزيد على أن يبايعه ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان ولى اباه محمد بن مروان من الجزيرة وأمينية والموصل واذربيجان فبايع له مروان » ٠ وتوفى يزيد بن الوليد آخر سنة ١٢٦(١٧٥) ٠ وجاء ابراهيم بن الوليد « غير أنه لم يتم له أمر ٠٠٠ وكان يسلم عليه جمعة بالخلافة ، وجمعة بالامرة ، وجمعة لا يسلمون عليه لابالخلافة ولا بالآمرة ٠٠٠حتى قدم مروان بن محمد فخلعه ٠٠٠ فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٦ هـ (١٧٦) » ٠

١١ ـ **مروان بن محمد** : لعب مروان وجند الجزيرة دورا كبيرا فى انهاء خلافة الوليد وابراهيم ابنى يزيد « فسـار مروان في جنـد الجزيرة وخلف ابنه عبد الملك فى أربعين ألف من الرابطة بالرقة ، فلما انتهى الى قنسرين وبها أخ ليزيد ابن الوليد يقال له بشر كان ولاه قنسرين ، فخرج اليه فصافه فنادى الناس ودعاهم مروان الى مبايعته ٠٠٠ واسلموا بشرا وأخا له يقال له مسرور ٠٠٠ فحبسهما وسار فيمن معه من أهل الجزيرة وأهل قنسرين متوجها الى حمص »٠ وبويع مروان من أهل الشام «**فامرهم أن يختاروا للولاية أجنادهم** : فاختار أهل دمشق زامل بن عمرو الجيرانى وأهل حمص عبد الله بن شجرة الكندى ، وأهل الاردن الوليد بن معاوية بن مروان وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامىـ الذى كان استخرجه من سجن هشام وغدر به بأرمينية ٠ فأخذ عليهم العهود المؤكدة والايمان المغلظة على بيعته وانصرف الى منزله من حران » ٠ واستوت لمروان الشام واستأمن منه ابراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام الذى كان بتدمر مع عشيرته ٠ ثم انتقض أهل حمص باغراء ثابت بن نعيم فسار اليهم مروان

(١٧٤) الطبرى ج ٩ ص ٢٢ : ٦ ، ٤٧ رواية احمد بن زهير عن على بن محمد ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٤٩ ٠

(١٧٥) الطبرى ج ٩ ص ٣٤ : ٧ ، ٤٤ ـ ٥ ٠

(١٧٦) الطبرى ج ٩ ص ٤٦ رواية أحمد بن زهير عن على بن محمد ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٤٩ ٠

فحاربهم **وولى مروان على حلب وقنسرين عبد الملك ابن الكوثر الغنوى** وقد عاد سليمان بن هشام الى الانتقاض فحاربه مروان حتى هزمه . وذكر البلاذرى **أن عامل مروان على الجزيرة وجند قنسرين هو الكوثر بن زفر ابن الحارث الكلابى** (١٧٧) .

عهد بني العباس :

١ ـ **السفاح** : بويع السفاح فى ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ بالكوفه فسير عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس فى جمع عظيم للقاء مروان فهزمه بالزاب وتعقبه فى انسحابه حتى تم اندحاره . وقتل عبد الله بن على كبار بنى أمية بنهر أبى فطرس ـ ولما أصاب العباسيون ولد مسلمة بن عبد الملك ببالس والناعورة ثار أبو الورد مجزاة بن الكوثر ابن زفر بن الحارث بعد أن كان قد بايع بنى العباس ، وانتقضت حمص ، كذلك خلع حبيب بن مرة المرى بالبثنية وحوران ، كما بيض أهل الجزيرة وساروا الى حران ولكن فشلت هذه الثورات واستطاع العباسيون القضاء عليها . وذكر أن **عبد الله بن على فى تعقبه لمروان نزل منبج فولاها أبا حميد المروروذى وبعث اليه أهل قنسرين ببيعتهم ، وقدم عليه عبد الصمد بن على أمده به أبو العباس فى أربعة آلاف فقيل أنه قلده حلب وقنسرين** ، وقدم عليه صالح بن على مددا بعد ذلك وعبد الله فى طريقه الى دمشق « **فاستقام أهل الجزيرة وأهل الشسام ، وولى أبو العباس أبا جعفر الجزيرة وارمينية واذربيجان ، فلم يزل على ذلك حتى استخلف** » (١٧٨) . ووضع السفاح كبار العباسيين على ولايات الشام والجزيرة : فبجانب أبى جعفر عبد الله بن محمد على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان كان عبد الله بن على على الشام (قنسرين وحمص وكور دمشق والاردن) ، ويحيى بن محمد بن على على الموصل، وذكر أن **عبيد الله بن العبـاس بن يزيد بن الاسود ولى قنسرين للسفاح وارمينية للمنصور** . وفى سنة ١٣٣ هـ أقر السفاح عبد الله بن على على الشام وولى على فلسطين صالح بن على وعلى الموصل اسماعيل بن

(١٧٧) الطبرى جـ ٩ ص ٤٧ ، ٥٤ : ٧ ، ٦٢٠ : ٤ ، رواية أحمد عن عبد الوهاب ابن ابراهيم عن مخلد بن محمد ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٥٠ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٧ .

(١٧٨) الطبرى جـ ٩ ص ١٣٠ : ١٤٠ رواية على بن محمد ، احمد بن زهير عن عبدالوهاب ابن ابراهيم عن مخلد بن محمد ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٥٣ : ٦ .

على ، وهكذا غدت فلسطين ولاية مفردة عن باقى أجناد الشام وولى **صالح بن صبيح أرمينية وتلاه يزيد بن اسيد** • واستمر الحال كذلك حتى توفى السفاح سنة ١٣٦ هـ بعد أن عقد لعبد الله بن على على الصائفة فى أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل (١٧٩) •

٢ ـ **المنصور** : وصل رسول الخلافة ببيعة السفاح لأخيه أبى جعفر الى الشام قبل وفاته وعبد الله بن على بأفواه الدروب يريد الروم فوصله الخبر عند دلوك ، فرجع ودعا الى نفسه زاعما أن السفاح جعله ولى عهده ، وغلب على حلب وقنسرين وديار ربيعة ومضر وسائر الشام • **فوجه المنصور أبا مسلم لقتاله وولاه الشام جميعه وحلب وقنسرين** • وقد انتصر أبو مسلم على عبد الله بن على الذى هرب الى سليمان بن على بالبصرة كما هرب عبد الصمد بن على فاستأمن له عيسى ابن موسى ولكن انتصار أبى مسلم حمل معه نهايته فقد ساءت العلاقات بينه وبين المنصور (١٨٠) • **وقد أعقب عبدالله : صالح بن على «وكانت فى ولده ثروة ورياسة ••• وكان له عقب كثير وقد انتشرت ذريته بحلب ومنبج وسلمية واعمال حمص وقنسرين » (١٨١)** وذكر ابن العديم أنه « لما عاد أبو مسلم من الشام ولى المنصور حلب وقنسرين وحمص صالح بن على سنة ١٣٧ هـ فنزل حلب وابتنى بها خارج المدينة قصرا بقرية يقال لها بطياس بالقرب من النيرب وآثاره باقية الى الآن ، ومعظم أولاده ولدوا ببطياس ـ وقد ذكرها البحترى وغيره فى أشعارهم • وأغزى الصائفة مع ابنه الفضل سنة ١٣٩ بأهل الشام ، وهى أول صائفة غزيت فى خلافة بنى العباس ، وكانت انقطعت الصوائف فى أيام بنى أمية قبل ذلك بسنين ••• ودام صالح فى ولاية حلب الى أن مات سنة ١٥٢ • ورأيت فلوسا عتيقة فتتبعت ما عليها مكتوب فاذا أحد الجانبين مكتوب عليه (ضرب هذا الفلس بمدينة حلب سنة ست وأربعين ومائة) وعلى الجانب الآخر (مما أمر به الامير صالح بن على أكرمه الله) • ولما مات صالح بن على **تولى حلب وقنسرين بعده ولده الفضل بن صالح** واختار له العقبة بحلب فسكنها وأقام بحلب واليامدة • ثم ولى المنصور

---

(١٧٩) الطبرى جـ ٩ ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٠١ •

(١٨٠) الطبرى جـ ٩ ص ١٥٦ : ٩ ، ص ١٥٩ وما بعدها ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٥٧ : ٩ •

(١٨١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ١٧ ـ ١٨ ، ٣٢ •

بعده **موسى بن سليمان الخراساني** ، ومات المنصور سنة ثمان وخمسين وموسى على قنسرين وحلب • ورأيت فلوسا عتيقة فقرأت عليها (ضرب هذا الفلس بقنسرين سنة سبع وخمسين ومائة) وعلى الجانب الآخر (مما أمر به الامير موسى مولى أمير المؤمنين) » (١٨٢) **وكان على الجزيرة حميد بن قحطبة** سنة ١٣٧ (١٨٣) • وظهرت أسماء بنى العباس فى الجهاد بأرض الروم ، فغزا العباس بن محمد بن على وصالح بن على سنة ١٣٨ هـ وشرعا فى بناء ملطية وكان قد هدمها صاحب الروم فاستتماها سنة ١٣٩ هـ (١٨٤) • وقد رابط بها محمد بن ابراهيم الامام سنة ١٤١ هـ وابتنيت المصيصة على يد جبرائيل بن يحيى الخراسانى (١٨٥) ويبدو أن المتمردين على بنى العباس كانوا يتجهون الى الشام فقد أنبأ الفضل بن صالح بن على الخليفة المنصور أن ابراهيم ابن عبد الله بن الحسن نزل بالحيار من أرض الشام على آل القعقاع بن خليد العبسى ، وأنه طلبه فوجده قد قصد البصرة (١٨٦) • وقد زار المنصور الشام بعد أن قضى حجة سنة ١٤٠ هـ وتوجه الى بيت المقدس « ثم سلك الشام منصرفا حتى انتهى الى الرقة ••• ثم شخص منها فسلك الفرات حتى أتى هاشمية الكوفة » (١٨٧) • وروى الواقدى أن **أبا جعفر ولى أخاه العباس بن محمد الجزيرة الثغور** سنة ١٤٢ هـ وضم اليه عدة من القواد فلم يزل بها حينا ، وقد غزا العباس مع الحسن بن قحطبة الصائفة سنة ١٤٩ هـ ، وسار للغزو عبد الوهاب بن ابراهيم سنة ١٥٢ هـ وقيل محمد ابن ابراهيم وغزا معيوف بن يحيى الحجورى سنتى ١٥٣ ، ١٥٨ هـ كما غزا زفر بن عاصم الهلالى سنة ١٥٤ ، سنة ١٥٦ هـ ، سنة ١٥٧هـ ، ويزيد بن أسيد السلمى سنة ١٥٧ هـ (١٨٨) • وفى سنة ١٥٥ هـ عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وغرمه مالا وغضب عليه وحبسه وكان قد ولاه اياها بعد يزيد بن أسيد « فلم يزل ساخطا عليه حتى غضب على بعض عمومته من ولد على بن عبد الله بن عباس » ثم كلم فيه فرضى عنه ، **واستعمل على حرب الجزيرة وخراجها موسى** ابن كعب • وفى سنة ١٥٨ هـ ورد على المنصور خبر انتقاض الموصل

---

(١٨٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٥٩ ــ ٦٠ •
(١٨٣) الطبرى ج ٩ ص ١٦٩ •
(١٨٤) الطبرى ج ٩ ص ١٧٠ ، ١٧١ •
(١٨٥) الطبرى ج ٩ ص ١٧٦ •
(١٨٦) الطبرى ج ٩ ص ٢٤٤ رواية ابن قديد بن نصر •
(١٨٧) الطبرى ج ٩ ص ١٧٣ •
(١٨٨) الطبرى ج ٩ ص ١٧٩ ، ٢٧٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨٨ ــ ٩ •

والتشار الاكراد بها فنصح **بتولية خالد بن برمك عليهما** ، وغضب المنصور على موسى بن كعب عامله على الجزيرة والموصل فعزله وقيده ، **وولى يحيي بن خالد أذربيجان** فاتصل عمل الاب مع الابن (١٨٩) ٠

٣ ـ **المهدى** : أورد الطبرى خبر عزل الهيثم بن سعيد عن الجزيرة وتولية الفضل بن صالح سنة ١٥٩ هـ (١٩٠) وبذلك **اجتمعت للفضل ولاية قنسرين مع الجزيرة** ، ولم يذكر الطبرى من قبل شيئا عن ولاية الهيثم بن سعيد والى الجزيرة المعزول ٠ واستمر ارسال الصوائف ففى سنة ١٥٩ خرج المهدى فعسكر بالبردان وأقام حتى أنفذ العباس بن محمد ومن قطع عليه البعث معه وكان معه الحسن الوصيف فى الموالى وقواد من أهل خراسان « ولم يجعل للعباس على الحسن الوصيف ولاية فى عزل ولا غيره » ، وتتابعت الصوائف بعد ذلك فغزا ثمامة بن الوليد العبسى سنتى ١٦٠ ـ ١ هـ وغزا البحر الغمر بن العباس فى العامين (١٩١) ٠ وقد عزل الفضل بن صالح عن الجزيرة سنة ١٥١ هـ واستعمل **عبد الصمد بن على** (١٩٢)٠ ووجه المهدى ابنه هرون للصائفة سنة ١٦٣ وخرج فعسكر بالبردان وقد خرج يشيعه العباس بن محمد « فلما حاذى قصر مسلمة قلت يا أمير المؤمنين أن لمسلمة فى أعناقنا منة ، كان محمد بن على مر به فأعطاه أربعة آلاف دينار ٠٠٠ فقال لما حدثته الحديث : احضروا من هنا من ولد مسلمة ومواليه فأمر لهم بعشرين ألف دينار وأمر أن تجرى عليهم الارزاق ٠٠٠ » **وكان هرون فى هذه الغزوة حدثا «وتوجه معه الحسن وسليمان ابنا برمك ووجه معه على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بامره يحيي بن خالد وكان أمر هرون كله اليه** ، وصير الربيع الحاجب مع هرون يغزو عن المهدى » ٠ وفى مسير المهدى كان على الجزيرة عبد الصمد بن على « فلما شخص المهدى من الموصل وصار بأرض الجزيرة لم يتلقه عبد الصمد ولا هيأ له نزلا ولا أصلح له قناطر ، فاضطغن ذلك عليه المهدى ٠٠٠ الى أن نزل حصن مسلمة فدعا به وجرى بينهما كلام أغلظ له فيه القول المهدى فرد عليه عبد الصمد ولم يحتمله فأمر بحبسه وعزله عن الجزيرة ، ولم يزل فى حبسه فى سفره ذلك وبعد أن رجع الى أن رضى عنه » ٠ على أنه عزل

---

(١٨٩) الطبرى جـ ٩ ص ٢٨٦ ، ٢٩٠ رواية الحسن بن وهب بن سعيد واحمد بن معاوية ابن بكر الباهلى ٠

(١٩٠) الطبرى جـ ٩ ص ٣٢٩ ٠

(١٩١) الطبرى جـ ٩ ص ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ٠

(١٩٢) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤١ ٠

زفر بن عاصم بعد ذلك عن الجزيرة « وولى مكانه عبد الله بن صالح بن علي وكان المهدي نزل عليه في مسيره الى بيت المقدس فأعجب بما رأى من منزله بسلمية » . ومازالت ولاية فلسطين منفصلة عن الشام فقد « عزل المهدي ابراهيم بن صالح عن فلسطين فسأله يزيد بن منصور حتى رده عليها (١٩٣) ، وفي سنة ١٦٤ هـ غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وانهزم فحبسه المهدي وقد ذكر **أن عبد الكبير هذا ولى انطاكية كما ولى آرمينية** (١٩٤) . وذكر في أخبار سنة ١٦٨ **جمع قنسرين والجزيرة لعلي بن سليمان** (١٩٥) .

وبدت ظاهرة جديدة في الحكم والادارة ، **فقد ولى المهدي ابنه هرون المغرب كله وأذربيجان وارمينية وجعل كاتبه على الخراج ثابت ابن موسى وعلى رسائله يحيى بن خالد بن برمك** . ويدخل في ولاية هرون الشام بأجنادها كلها ، وكانت أعمال هذه الولايات الشاسعة ودواوينها الى يحيى بن خالد ، يقوم بها ويخلف هرون على مايتولى منها حتى وفاة المهدي (١٩٦) . كذلك امتاز عهد المهدي باستحداث **ديوان الزمام** « وذلك أنه لما جمعت لعمر بن بزيع الدواوين تفكر فاذا هو لا يضبطها الا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الازمة وولى على كل ديوان رجلا ولم يكن لبني أمية دواوين أزمة » (١٩٧) .

٤ ـ **الهادي** : كان عهده قصيرا ، ومن أخباره أنه عزل علي بن سليمان عن الجزيرة وجند قنسرين وولى هناك محمد بن ابراهيم بن محمد ابن علي كما ولى عبيد الله بن زياد ابن أبي ليلى خراج الشام وما يليه (١٩٨) . وولى اسماعيل بن صبيح زمام ديوان الشام وما يليه وغزا الصائفة معيوف بن يحيى ١٦٩هـ (١٩٩) .

---

(١٩٣) الطبري جـ ٩ ص ٣٤٣ : ٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦١ ـ ٢ .
(١٩٤) الطبري جـ ٩ ص ٣٤٥ ـ ٦ ، الزبيري : نسب قريش ص ٣٦٤ .
(١٩٥) الطبري جـ ١٠ ص ١٠ .
(١٩٦) الطبري جـ ٩ ص ٣٤٥ وجـ ١٠ ص ٢١ .
(١٩٧) الطبري جـ ١٠ ص ١٠ البلاذري : فتوح البلدان ص ١٩٨ .
(١٩٨) الطبري جـ ١٠ ص ٢٣ ، البلاذري : فتوح البلدان ص ١٩٨ ـ ٩ .
(١٩٩) الطبري جـ ١٠ ص ٤٧ ، ٣٢ .

٥ - **الرشيد** : استهل الرشيد عهده سنة ١٧٠ هـ بتعمير طرسوس واغزى سليمان بن عبد الله البكائى ، **وعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسميت العواصم** « وأفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين - وسماها العواصم ، لأن المسلمين يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم اذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر وجعل مدينة العواصم منبج ، فسكنها عبد الملك بن صالح بن على سنة ١٧٣ هـ وبنى بها أبنية » (٢٠٠) • وقد ذكر أنه قتل أبا هريرة محمد بن فروخ وكان على الجزيرة سنة ١٧٠ كما عزل يزيد بن‌مزيد عن أرمينية وولاها عبيدالله بن‌المهدى سنة ١٧٢هـ (٢٠١) وولى الرشيد **الفضل بن يحيى أرمينية والأذربيجان** بجانب كور الجبال وطبرستان ودنباوند وقومس (٢٠٢) • وحين هاجت الفتنة بالشام بين النزارية واليمانية منذ سنة ١٧٤ هـ وكان العامل عليها موسى بن عيسى « ولى الرشيد سنة ١٧٦ هـ **موسى بن يحيى بن خالد الشام** وضم اليه من القواد والاجناد ومشايخ الكتاب جماعة ••• فأقام موسى بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أهلها » • ثم تفاقمت الفتن مرة أخرى فعقد **لجعفر بن يحيى** على الشام « فأصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحا ولا فرسا••• وولى صالح بن سليمان البلقاء وما يليها واستخلف على الشام موسى بن العكى » (٢٠٣) • وكثرت فتن الخوارج بالجزيرة فخرج الوليد بن طريف الشارى ففتك بابراهيم ابن خازم بن خزيمة بنصيبين ومضى الى أرمينية ثم رجع الى الجزيرة فقتله يزيد بن مزيد الشيبانى سنة ١٧٩ هـ • وخرج خراشة الشيبانى فقتله مسلم بن بكار بن العقيلى سنة ١٨٠ هـ ، وهدم الرشيد سور الموصل بسبب الخوارج الذين خرجوا منها • وولى الرشيد أرمينية يزيد بن مزيد مع أذربيجان وكان بارمينية سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلى وقواه بالجند لمواجهة الخزر وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين ردءا لأهل أرمينية (٢٠٤) • وقد اختار الرشيد الرقة مقاما له سنة ١٨٠ هـ (٢٠٥) •

---

(٢٠٠) الطبرى جـ ١٠ ص ٥٠ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ - ٩ •

(٢٠١) الطبرى جـ ١٠ ص ٥١ •

(٢٠٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٥٤ •

(٢٠٣) الطبرى جـ ١٠ ص ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٦ - ٧ ابن العديم زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٢ •

(٢٠٤) الطبرى جـ ١٠ ص ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٠ •

(٢٠٥) الطبرى جـ ١٠ ص ٦٨ •

وعقد الرشيد لابنه محمد ولاية العهد سنة ١٧٣ هـ وسماه الامين وضم اليه الشام والعراق سنة ١٧٥ ، ثم بايع لعبد الله المأمون بالرقة سنة ١٨٣ هـ وولاه من حد همذان الى المشرق • وكان القاسم بن الرشيد فى حجر عبد الملك بن صالح فلما بايع الرشيد لمحمد والمأمون كتب اليه عبد الملك :

يا أيها الملك الذى لو كان نجما كان سعدا
اعقد لقاسم بيعة وأقدح له فى الملك زندا
الله فرد واحد فاجعل ولاة العهد فردا

فكان ذلك أول ما حض الرشيد على البيعة للقاسم ، **فبايع للقاسم ابنه وسماه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم** • فقال فى ذلك :

الله قلد هارونا سياستنا لما اصطفاه فأحيى الدين والسننا
وقلد الأرض هارون لرأفته بنا أمينا ومأمونا ومؤتمنا

وأشخص الرشيد القاسم ابنه الى منبج سنة ١٨٦ هـ فانزله اياها بما انضم اليه من القواد والجند (٢٠٦) • وقد أغزاه الرشيد الصائفة سنة ١٨٧ هـ « **فوهبه لله وجعله قربانا له ووسيلة وولاه العواصم** » ، ورابط بدابق سنة ١٨٨ هـ ، سنة ١٨٩ هـ (٢٠٧) • ويذكر ابن العديم أن الرشيد لما أفضى الأمر اليه « **ولى حلب وقنسرين عبد الملك بن صالح ابن على بن عبد الله فاقام بمنبج** ، وابتنى فيها قصرا لنفسه وبستانا الى جانبه ، وكانت ولايته سنة خمس وسبعين ثم صرفه لأمر عتب عليه فيه ••• » • وهذه الولاية تفسر خروج عبد الملك بن صالح فى غزوات المتتالية لحرب الروم • **وذكر البلاذرى أن عبد الملك بن صالح استعمل يزيد بن مخلد الفزارى على طرسوس فطرده من بها من أهل خراسان فاستخلف أبا الفوارس فاقره أبو محمد وذلك سنة ١٧٣ هـ • وانما كانت ولاية موسى وجعفر ابنى يحيى بن خالد الشام ولاية طوارىء لمواجهة العصبية بها « ثم ان الرشيد ولى حلب وقنسرين اسماعيل بن صالح** بن على لما عزله عن مصر سنة اثنين وثمانين ومائة وأقطعه ماكان له بحلب فى سوقها وهى الحوانيت التى بين أنطاكية الى رأس الدلبة ، وعزله وولاه دمشق • ثم ولى الرشيد بعده عبد الملك بن صالح بن على ثانية فسعى به ابنه عبد الرحمن الى الرشيد وأوهمه أنه يطمع فى الخلافة، فاستشعر منه وقبض عليه فى سنة سبع وثمانين ومائة •• » وقد

---

(٢٠٦) الطبرى جـ ١٠ ص ٧١ : ٣ •
(٢٠٧) الطبرى جـ ١٠ ص ٨٩ ، ٩١ ، ٩٥ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٣ •

فصل الطبرى القول فى هذه الدسيسة التى تواطأ عليها ابن عبد الملك «عبد الرحمن» وكاتبه قمامة ، وان كان عبد الله بن مالك صاحب الشرطة قد شهد لصالحه فقال للرشيد « ما علمت عبد الملك الا ناصحا فعلام حبسته ؟ قال : ويحك ! بلغنى عنه ما أوحشنى ولم آمنه أن يضرب بين هذين ـ يعنى الأمين والمأمون » • كما شهد له يحيى بن خالد فقال «ما اطلعت من عبد الملك على شىء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لأن ملكك كان ملكى وسلطانك كان سلطانى والخير والشر كان فيه على ولى ••• ولكنه كان رجلا محتملا يسرنى أن يكون فى أهلك مثله فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت اليه لأدبه واحتماله » ، وأصر يحيى شهادته رغم تهديده بقتل ابنه الفضل وكان دخان الفتنة والوشاية بعبد الملك قد أخذ ينتشر من قبل « وقيل : بينما الرشيد يسير وفى موكبه عبد الملك بن صالح ، اذ هتف به هاتف وهو يساير عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، طاطىء من اشرافه وقصر من عنانه واشدد من شكائمه والا أفسد عليك ناحيته • فالتفت الى عبد الملك فقال : ما يقول هذا يا عبد الملك ؟ فقال عبد الملك : مقال باغ ودسيس حاسد فقال له هارون : صدقت ، نقص القوم ففضلتهم ، وتخلفوا وتقدمتهم ، حتى برز شأوك فقصر عنه غيرك ، ففى صدورهم جمرات التخلف وحزازات النقص • فقال عبد الملك : لا أطفأها الله وأضرمها عليهم حتى تورثهم كمدا دائما أبدا • وقال الرشيد لعبد الملك بن صالح وقد مر بمنبج وبها مستقر عبد الملك : هذا منزلك ؟ ؟ قال : هو لك ياأمير المؤمنين ، ولى بك • قال : كيف هو ؟ قال : دون بناء أهلى وفوق منازل منبج قال : فكيف أهلها ؟ قال سحر كله » • **ولم يزل عبد الملك محبوسا حتى توفى الرشيد فاطلقه محمد الأمين وعقد له على الشام فكان مقيما بالرقة** « وجعل لمحمد عهد الله وميثاقه لئن قتل وهو حى لا يعطى المأمون طاعة أبدا ، فمات قبل محمد فدفن فى دار من دور الأمارة • فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل الى ابن له : حول أباك من دارى • فنشبت عظامه وحولت » **وذكر ابن العديم « وقيل ان الرشيد لما غضب على عبد الملك بن صالح ولى أخاه عبد الله بن صالح ثم عزله سنة ثمان وثمانين وولى القاسم بن هارون ابنه • وقيل ان احمد بن اسحق بن اسماعيل بن على ابن عبد الله بن العباس ولى قنسرين للرشيد** ، وقد كان ولى له مصر وعزله عنها سنة تسع وثمانين ـ فلا اتحقق ولايته فى أى سنة كانت • وقد ذكر بعضهم أن عبد الله بن صالح توفى أيام المنصور ، وقال بعضهم : ونه توفى بسليمة سنة ست وثمانين ـ **فعلى هذا يكون الذى**

ولاه الرشيد ابن ابنه عبد الله بن صالح بن عبد الله بن صالح والله أعلم • ثم أن الرشيد ولى حلب وقنسرين خزيمة خازم من قبل انه ابنه القاسم بن الرشيد فى سنة ثلاث وتسعين ومائه ولم يزل القاسم بن الرشيد فى ولاية حلب وقنسرين حتى مات أبوه فى سنة ثلاث وتسعين ومائة فى جمادى الأخرة (٢٠٨) » • وفى سنة ١٩٢ هـ نجد واليا يفرد للثغور ويتولى الغزو ويباشر الفداء وهو ثابت بن نصر بن مالك ، كذلك نجد عاملا يخصص لعشور الثغور فمن أخبار البلاذرى « وتوفى الرشيد سنة ١٩٣ هـ وعامله على أعشار الثغور أبو سليم (٢٠٩) » • ويبدو أن جزر البحر المتوسط كانت داخلة فى ولاية الثغور ، فقد أورد البلاذرى عن أبى القاسم بن سلام وغيره « قالوا : أحدث أهل قبرس حدثا فى ولاية عبد الملك بن صالح بن على بن عبدالله بن عباس الثغور ، فأراد نقض صلحهم والفقهاء متوافرون ، فكتب الى الليث بن سعد ومالك بن أنس وسفيان ابن عيينة وموسى بن أعين واسماعيل بن عياش ويحيى بن حمزة وأبى اسحق الفزازى ومخلد بن الحسين فى أمرهم فأجابوه ••• (٢١٠) »

٦ ـ الأمين : تولى الأمين فاقر أخاه القاسم سنة ١٩٣ هـ على ما كان أبوه هارون ولاه من عمل الجزيرة واستعمل عليها خزيمة بن خازم ، واقر القاسم على قنسرين والعواصم كما اقر أبا سليم على أعشار الثغور ولكنه فى العام التالى عزل أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه ولاه من عمل الشام وقنسرين والعواصم والثغور ، وولى مكانه خزيمة ابن خازم وأمره بالمقام بمدينة السلام (٢١١) • واشتجر النزاع بين الأمين والمأمون فولى الأمين الشام سنة ١٩٦ هـ عبد الملك بن صالح بن على ـ وهو الذى أطلقه فى ذى القعدة سنة ١٩٣ هـ ـ وأمره بالخروج اليها وهذه ولايته الثالثة ليستعين بجندها على قتال جند المأمون آخذا بنصيحة عبد الملك الذى قال له « ••• وأهل الشام قوم ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد ، وجلهم منقاد الى مسارع الى طاعتى ••• فولاه الشام والجزيرة واستحثه بالخروج استحثاثا شديدا ووجه معه كنفا من الجند

---

(٢٠٨) الطبرى جـ ١٠ ص ٨٩ : ٩١ رواية أحمد بن ابراهيم بن اسماعيل ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٢ : ٥ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٧ •

(٢٠٩) الطبرى جـ ١٠ ص ١٠٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٦ •

(٢١٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦١ ـ ٢ •

(٢١١) الطبرى جـ ١٠ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٤ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٦ •

والأبناء ... فلما قدم الرقة أنفذ رسله وكتب الى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة ، فلم يبق أحد من يرجى ويذكر بأسه وغناؤه الا وعده وبسط له أمله وأمنيته . فقدموا عليه رئيسا بعد رئيس وجماعة بعد جماعة ، فكان لا يدخل عليه أحد الا أجازه وخلع عليه وحمله ، فأتاه أهل الشام الزواقيل والأعراب من كل فج واجتمعوا عنده حتى كثروا ... » .غير أنه سرعان ما نشبت المعارك بين هؤلاء وبين جند أهل خرسان والأبناء (٢١٢) - أى أبناء الدهاقين من الفرس (٢١٣) .

ومات عبد الملك بن صالح قبل الأمين وقد ذكر **المسعودى** أن عبد الملك ابن صالح توفى بالرقة سنة ١٩٧ هـ وكان متوليا الجزيرة وجندقنسرين والعواصم والثغور واضطربت البلدان بعد وفاته وتغلب كل رئيس على قومه ، وصار الناس حزبين : حزبا يظاهر الأمين وحزبا يظاهر المأمون « فلم يبق بلد الا وفيه قوم يتحاربون ، لا سلطان يمنعهم ، ولا شيء يدفعهم **ولما افضت الخلافة الى المامون كان بقورس وما والاها من كور العواصم العباس بن زفر الهلالى ، وبالحيار وما والاها من كور قنسرين عثمان بن ثمامة العبسى ، وبالحاضر الذى الى جانب حلب منيع التنوخى .** وقد كان يعقوب بن صالح الهاشمى يحارب الحاضر فهرب أهل قنسرين، وكان بمعرة النعمان وتل منس وما والاها من أقاليم حمص الحوارى ابن حنطان التنوخى ، وبحماه وما والاها حراق البدائى وبشيزر وما والاها بنو بسطام ، وبمدينة حمص بنو السمط . وأقام بدمشق والأردن وفلسطين جماعة من رؤساء القبائل - حتى ولى المأمون بن طاهر» **اما بن العديم** فيعقب على وفاة عبد الملك بن صالح بقوله « ثم ولى خزيمة **ابن خزيمة حلب وقنسرين فى سنة سبع وتسعين ومائة وقيل ان الوليد ابن طريف ولى حلب وقنسرين بعد عبد الملك بن صالح ،وبعده ورقاء عبد عبد الملك، ثم بعده يزيد بن مزيد ثم استأمن الى طاهر بن الحسين»(٢١٤).** ولحق القاسم بن الرشيد بالمأمون سنة ١٩٧ هـ ، كما خالف خزيمة بن خازم الأمين أخيرا واستأمن الى طاهر بن الحسين سنة ١٩٨ هـ (٢١٥) .

وقد انعقدت آمال قواد الأمين على الجزيرة والشام لتحويل التيار

---

(٢١٢) الطبرى جـ ١٠ ص ١٦١ - ٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٤ - ٥ .

(٢١٣) دكتوران يحيى الخشاب والباز العرينى : ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية فى مفاتيح العلوم للخوارزمى - المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨ م .

(٢١٤) كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٣٦٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٢ - ٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٥ .

(٢١٥) الطبرى جـ ١٠ ص ١٧٤ ، ١٩٢ .

لصالحهم « ... **فنخرج حتى نلحق بالجزيرة والشام** ، فتفرض الفروض وتجبى الخراج وتصير فى مملكة واسعة وملك جديد ... » غير أن طاهر ابن الحسين احتال عن طريق المتصلين به من رجال الأمين حتى صرفه عن هذا الرأى (٢١٦) .

٧ ـ **المأمون** : استهل المأمون عهده سنة ١٩٨ هـ بأن كتب الى **طاهر بن الحسين** وهو مقيم ببغداد بتسليم جميع ما بيده من الأعمال فى البلدان كلها الى خلفاء الحسن بن سهل ، وأن يشخص عن ذلك كله الى الرقة ، **وجعل اليه حرب نصر بن شبث وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب** . وقد حدث على بن موسى بن جعفر بن محمد العلوى ووجوه أهل العسكر المأمون يوما عن مساوىء الفضل بن سهل وسعيه لقتل هرثمة بن اعين الذى أراد نصحه « وان طاهر بن الحسين قد ابلى فى طاعته ما ابلى وافتتح ما افتتح وقاد اليه الخلافة مزمومة حتى اذا وطأ الامر أخرج من ذلك كله وصير فى زاوية من الارض بالرقة » . وفى سنة ٢٠٥ هـ ولى المأمون طاهر بن الحسين من مدينة السلام الى أقصى عمل المشرق ، وكان قبل ذلك ولاه الجزيرة والشرط وجانبى بغداد ومعاون السواد . **واستخلف طاهر ابنه عبد الله على الرقة وأمره بقتال نصر بن شبث** ، وولى المأمون **يحيى بن معاذ الجزيرة سنة ٢٠٥ هـ كما ولى عيسى بن محمد بن أبى خالد ارمينية واذربيجان ومحاربة بابك** . ومات يحيى بن معاذ فى العام التالى مستخلفا ابنه **أحمد** على عمله **فولى المأمون عبد الله بن طاهر الرقة وسيره لحرب نصر بن شبث**(٢١٧) ، فكتب اليه أبوه كتابا كان مما جاء فيه « فان الله قد أحسن اليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده والزمك العدل عليهم والقيام بحقه وحدوده فيهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم والحقن لدمائهم والامن لسبيلهم وادخال الراحة عليهم فى معايشهم .. ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ، والمباشرة لامور الاولياء والحياطة للرعية والنظر فيما يقيمها ويصلحها .. وأقم حدود الله فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه .. واذا وعدت الخير فأنجزه ، وأقبل الحسنة وادفع بها .. واعلم أن الاموال اذا كثرت وذخرت فى الخزائن لا تثمر ، واذا كانت فى

---

(٢١٦) الطبرى جـ ١٠ ص ١٩٦ .

(٢١٧) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٢٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٥ ـ ٦٦ .

اصلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف المؤنة عنهم نمت وربت وصلحت به العامة وتزينت به الولاة وطاب به الزمان .. ولا تحقرن ذنبا ، ولا تمايلن حاسدا ، ولا ترحمن فاجرا ولا تصلن كفورا ، ولا تداهنن عدوا ، ولا تصدقن نماما ، ولا تأمنن غدارا ، ولا توالين فاسقا .. وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم ، وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معايشهم .. وانتفع بتجربتك وانتبه في صمتك واسدد في منطقك ، وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ في الحجة ، ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباة ولا محاماه ولا لوم لائم ، وتثبت وتأن وراقب وانظر وتدبر وتفكر واعتبر . ولا تسرعن الى سفك دم ، فان الدماء من الله بمكان عظيم .. واعلم انك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا .. فاستعمل عليهم في كور عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق .. فانك متي آثرته ـ يعنى العمل الذى وكل اليه ـ وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الاحدوثة في عملك .. فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب في كورك ، فكثر خراجك وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جندك وارضاء العامة .. واجعل في كل كورة من عملك أميرا يخبرك أخبار عمالك ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم حتى كانك مع كل عامل في عمله معاين لامره كله .. وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك .. وافرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته اليك .. وانصب لمرضى المسلمين دورا تأويهم وقواما يرافقونهم وأطباء يعالجون أسقامهم .. وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك : فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر اليه والتدبير له ..» وقد ذكر ان كتاب طاهر تنازعه الناس « وتدارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرىء عليه ، فقال : ما بقى أبو الطيب شيئا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة واصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد احكمه وأوصى به . وتقدم وأمر أن يكتب بذلك الى جميع العمال فى نواحى الاعمال(٢١٨) » وتوفى طاهر بن الحسين سنة ٢٠٧ هـ فولى المأمون ابنه عبد الله عمل طاهر كله ـ وكان مقيما بالرقة على حرب نصر بن شبث ،

---

(٢١٨) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٥٨ : ٢٦٤ .

وجمع له مع ذلك الشام ، وبعث اليه بعهده على خراسان وعمل ابيه ، فوجه عبد الله بن طاهر أخاه طلحة لخراسان واستخلف بمدينة السلام اسحق بن ابراهيم » • ووفق عبد الله بن طاهر فى حرب نصر بن شبث حتى طلب الامان سنة ٢٠٩ هـ بعد أن ضيق عليه الحصار بكيسوم(٢١٩)، وولى المأمون فى نفس العام **صدقة بن على المعروف بزريق ارمينية واذربيجان ومحاربة بابك** . وانتدب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد بن فرزندى الاسكافى ، فأسره بابك • وافتتح عبد الله بن طاهر مصر سنة ٢١٠هـ شاخصا اليها من الرقة فاستأمن اليه عبيد الله بن السرى بن الحكم، كما فتح الاسكندرية وأجلى عنها من كان تغلب عليها من أهل الأندلس **وأقام عبد الله بن طاهر بمصر سنة ٢١١هـ واليا عليها وعلى سائر الشام والجزيرة** ، ثم قدم بغداد من المغرب فتلقاه العباس بن المأمون وأبو اسحق المعتصم وسائر الناس « وقدم معه بالمتغلبين على الشام كابن السرج وابن أبى الجمل وابن أبى الصقر(٢٢٠) » • وفى سنة ٢١٢ هـ وجه المأمون محمد بن حميد الطوسى لحرب بابك ، فلقى مصرعه سنة ٢١٤ هـ وعرضت على عبد الله بن طاهر محاربة بابك مع ولاية ارمينية واذربيجان فاختار عليها ولاية خراسان ، فولى المأمون على بن هشام الجبل وقم واصبهان واذربيجان ، ثم غضب عليه فقتله وأخاه حسينا بأذنه سنة ٢١٧ هـ وطيف برأسه الشام والجزيرة كورة كورة(٢٢١) •

وفى سنة ٢١٣ هـ « **ولى المأمون اخاه أبا اسحق الشام ومصر** • **وولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم** ، وأمر لكل واحد منهما ومن عبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف دينار ــ وقيل انه لم يفرق فى يوم من المال مثل ذلك(٢٢٢) » • ووجه المأمون ابنه العباس لبناء الطوانة سنة ٢١٨ هـ « وكان قد وجه الفعلة والفروض فابتدأ البناء ، وبناها ميلا فى ميل ، وجعل سورها على ثلاثة فراسخ ، وجعل لها أربعة أبواب، وبنى على كل باب حصنا • • وكتب الى أخيه أبى اسحق بن الرشيد انه قد فرض على جند دمشق وحمص والاردن وفلسطين أربعة آلاف رجل، وانه يجرى على الفارس مائة درهم وعلى الراجل أربعين درهما وفرض على

---

(٢١٩) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٦٥ ــ ٦ ، ٢٦٧ ــ ٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٦ •
(٢٢٠) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٧٣ : ٦ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٦ ــ ٧ •
(٢٢١) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ــ ٣ •
(٢٢٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٧٩ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٧ •

مصر فرضا ، وكتب الى العباس بمن فرض على قنسرين والجزيرة ، والى اسحق بن ابراهيم بمن فرض على أهل بغداد ـ وهم ألف رجل ، وخرج بعضهم حتى وافى طوانة ونزلها مع العباس(٢٢٣) » . ويذكر ابن العديم أن المأمون عزل ابنه العباس سنة ٢١٤ هـ **وولى حلب وقنسرين والعواصم والثغور اسحق بن ابراهيم بن مصعب بن زريق** ، ثم عزله وولاه مصر **وأعاد العباس ثانية ، ثم ولى حلب وقنسرين ورقة الطريفى** « وأظنه مع العباس ، وكانت لورقة حركة أيام الفتنة ، فلما قدم المأمون حلب للغزاة ونزل بدابق فى سنة خمسة وعشرة ومائتين ، لقيه عيسى بن على بن صالح الهاشمى فقال : يا أمير المؤمنين أيلينا أعداؤنا فى أيام الفتنة وفى أيامك ؟ فقال : لا ، ولا كرامة ـ فصرف ورقة . **وولى عيسى بن على بن صالح ـ نيابة عن ولده العباس** فيما أرى، فوجد عنده من الكفاية والضبط وحسن السيرة ما أراد ، فتقدمه وكبر عنده وأحبه ـ وكان المأمون كلما غزا الصائفة لقيه عيسى بن على بالرقة ولا يزال معه حتى يدخل الثغور ثم يرد عيسى الى عمله . وولى المأمون فى سنة خمس عشرة ومائتين **قضاء حلب عبيد بن جناد بن أعين مولى بنى كلاب فامتنع عن ذلك** ـ فهدده على الامتناع فأجاب . ثم ولى المأمون **عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح** لما غزا الصائفة فى سنة ثمان عشرة ومائتين العواصم فى غالب ظنى ، فان العباس ولى حلب وقنسرين والجزيره من سنة أربع عشرة ومائتين الى أن توفى أبوه المأمون ـ وفيها مات المأمون ، وانما وليها **عبيد الله عن العباس بن المأمون** بالبدندون من أرض طرسوس « (٢٢٤) » .

٨ ـ **المعتصم** : بويع المعتصم سنة ٢١٨ هـ وقد أشفق الناس من منازعة العباس بن المأمون له ، وكان العباس قد ولى الجزيرة والثغور والعواصم أيام المأمون وبالفعل شغب الجند ونادوه بالخلافة ولكنه بايع عمه وصرف مشايعيه عن هذا (الحب البارد !!) . ولكن فى أعقاب غزوة عمورية سنة ٢٢٣ هـ « لم يطلق ـ المعتصم ـ يد عجيف بن عنبسة فى النفقات كما أطلقت يد الافشين ، واستقصر المعتصم أمر عجيف وأفعاله واستبان ذلك لعجيف ، فوبخ عجيف العباس على ما تقدم من فعله عند وفاة المأمون حين بايع أبا اسحق وعلى تفريطه فيما فعل ، وشجعه على أن يتلافى ما كان منه ، فقبل العباس ذلك ودس رجلا يقال له الحارث السمرقندى ... فصيره العباس رسوله وسفيره الى القواد .. فلما أرادوا

(٢٢٣) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٨٤ .

(٢٢٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٧ ـ ٨ .

أن يدخلوا الحرب ، أشار عجيف على العباس أن يثب على المعتصم فى الدرب وهو فى قلة من الناس ٠٠ فأبى العباس عليه وقال لا أفسد هذه الغزاة » ٠ وقد نما الخبر الى المعتصم فقبض على العباس والمتآمرين معه « فكان فى يدى الافشين ، فلما نزل المعتصم منبج وكان العباس جائعا سأل الطعام فقدم اليه طعام كثير فأكل فلما طلب الماء منع ٠٠ فمات بمنبج(٢٢٥) » ٠ وعقد المعتصم للأفشين حيدر بن كاوس على الجبال سنة ٢٢٠ هـ ووجهه لحرب بابك(٢٢٦) ٠ وعلى الرغم من بلاء الافشين فى حرب الروم وبابك فقد غضب عليه المعتصم وعزله وحبسه سنة ٢٢٥هـ (٢٢٧)٠ وقد روى عن المعتصم انه شكى لاسحق بن ابراهيم ليلة من فشله فى اصطناع الرجال قال : « نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة انجبوا طاهر بن الحسين ــ فقد رأيت وسمعت ، وعبد الله بن طاهر ــ فهو الرجل الذى لم ير مثله ، وانت ــ فانت والله الذى لا يعتاض السلطان منك أبدا ، وأخوك محمد بن ابراهيم واين مثل محمد ؟ وأنا : فاصطنعت الافشين ــ فقد رأيت الى ما صار أمره ، واشناس ــ ففشل ايه ، وايتاخ ــ فلا شىء ، ووصيف ــ فلا مغنى فيه ٠٠ قلت : يا أمير المؤمنين اعزك الله ــ نظر أخوك الى الاصول فاستعملها فانجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب اذ لاأصول لها ٠ قال : يااسحق ــ لمقاساة ما مر بى فى طول هذه المدة اسهل على من هذا الجواب(٢٢٨) » ٠ وولى المعتصم **حلب وقنسرين حربها وخراجها وضياعها عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل ابن صالح بن على الهاشمى ، ثم انه ولى اشناس التركى الشام جميعا والجزيرة ومصر** وتوجه والبسه وشاحين بالجوهر سنة ٢٢٥ هـ ،قال ابن العديم : « وأظن انه بقى فى ولايته الى أن مات سنة ثلاثين ومائتين فى أيام الواثق(٢٢٩) » ٠

٩ ــ **الواثق :** استهل الواثق عهده بحبس الكتاب والزامهم أموالا سنة٢٢٩ هـوذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم(٢٣٠)وفى آخر سنة ٢٣٠ هـ خرج خاقان الخادم فى فداء اسرى المسلمين على موعد مع رسل صاحب الروم ، وكان خاقان خادم الرشيد وقد نشأ بالثغر ثم

(٢٢٥) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٠٤ ، ٣٤٤ : ٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٨ ــ ٩ ٠
(٢٢٦) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٠٧ ٠
(٢٢٧) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٦٣ : ٧ ٠
(٢٢٨) الطبرى جـ ١١ ص ٨ ــ ٩ ٠
(٢٢٩) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٠ ، الطبرى : اخبار ٢٢٥ ، ٢٢٨ هـ ٠
(٢٣٠) الطبرى جـ ١١ ص ١٠

عقد الواثق لاحمد بن سعيد ابن قتيبة الباهلى على الثغور والعواصم وأمره بحضور الفداء (٢٣١) • ويذكر ابن العديم قبل ولاية أحمد بن سعيد ولاية عبد الله ابن عبد العزيز بن الفضل بن صالح الهاشمي للواثق حلب وقنسرين حربها وخراجها وضياعها ، وقال «واظنه كان متوليا فى أيام المعتصم من جهة اشناس فاقره الواثق على ولايته » • وولى الواثق قنسرين وحلب والعواصم بعد عبيد الله محمد بن صالح بن عبد الله بن صالح — فكانت سيرته غير محمودة • « وكان أحمر أشقر فلقب (سماقة) لشدة حمرته • ويقال انه أول من أظهر البرطيل بالشام وأوقع عليه هذا الاسم وكان لا يعرف قبل ذلك الا الرشوة على غير اكراه • وكان أكثر الناس سكوتا وأطولهم صمتا لا يكاد يسمع له كلام الا فى أمر يأمر به أو قول يجيب عنه • وكان قاضى حلب فى أيامه ابا سعيد عبيد بن جناد الحلبى ، توفى سنة احدى وثلاثين ومائتين وكان المأمون ولاه قضاء حلب» • فلما ولى الثغور والعواصم أحمد بن سعيد غزا شناتيا فاجهد الناس فعزله الواثق وولاها نصر بن حمزة الخزاعى(٢٣٢) •

١٠ — **المتوكل** : لقى ايتاخ مصرعه على يد المتوكل سنة ٢٣٥ هـ بعد أن بلغ نفوذا عظيما « فرفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم اليه من أعمال السلطان أعمالا كثيرة •• فلما ولى المتوكل كان ايتاخ فى مرتبته ، اليه الجيش والمغاربة والاتراك والموالى والبريد ودار الحجابة(٢٣٣) » • وفى سنة ٢٣٥ هـ عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة : **المنتصر** وضم اليه افريقية والمغرب كله من عريش مصر الى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكور باجرمى وتكريت وطساسيج السواد وكور دجلة •• الخ ، **والمعتز** ، وضم اليه كور خراسان وما يضاف اليها وطبرستان والرى وارمينية واذربيجان وكور فارس ، كما ضم اليه فى سنة ٢٤٠ هـ خزن بيوت الأموال فى جميع الافاق ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم ، **والمؤيد** ، وضم اليه جند دمشق

---

(٢٣١) الطبرى جـ ١١ ص ١٩ •

(٢٣٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٧٠ — ٧١ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٦١ •

(٢٣٣) الطبرى جـ ١١ ص ٣٣ : ٥ •

وجند حمص وجند الاردن وجند فلسطين(٢٣٤) • وهكذا سار على سابقه الرشيد فى العهد لابنيه وتقسيم ملكه بينهما وزاد فعهد الى ثلاثة أبناء •

وفى سنة ٢٣٦ هـ هلك **أبو سعيد محمد بن يوسف المروزى** اذ وثب به أهل ارمينية وكان قد عهد له بأذربيجان وامينية فارس بن بغا الشرابى وهو خليفة أبيه • وثار لمقتله بغا فشخص الى ارمينية من ناحية الجزيرة • كذلك وثب أهل حمص بعاملهم على المعونة أبى المغيث الرافعى موسى بن ابراهيم سنة ٢٤٠ هـ فأخرجوه وأخرجوا صاحب الخراج ، وتولى محمد ابن عبدوية برضائهم فعمل فيهم الاعاجيب ثم وثبوا به فى العام التالى ، فأمر المتوكل بمناهضتهم وأرسل الى حمص جندا من راتبة دمشق مع صالح العباسى التركى عاملها وجندا من الرملة(٢٣٥) • **وشخص المتوكل الى دمشق سنة ٢٤٣ هـ** فى أواخرها فدخلها سنة ٢٤٤ هـ « وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك اليها وأمر بالبناء بها ، فتحرك الاتراك فى أرزاقهم وأرزاق عيالاتهم ، فامر لهم بما أرضاهم ثم استوبأ البلد(٢٣٦) » • وقد ظهر فى جهاد الروم أمير الثغور **على بن يحيى الامنى** سنة ٢٣٧، ٢٣٩هـ ، سنة ٢٤٢هـ ، سنة ٢٤٥هـ ، سنة ٢٤٦ وكذلك أمير ملطية **عمر بن عبد الله الاقطع** وبخاصة سنة٢٤٢هـ، سنة٢٤٦هـوبغا سنتى ٢٤٤،٢٤٥هـ(٢٣٧)• العديم « **وولى الشارباميان فى أول أيام المتوكل على حلب وقنسرين والعواصم واليين** •• وكان الشار باميان أحد قواد المتوكل وكان خصيصا عنده ، فاما أن يكون المتوكل ولاه جند قنسرين والعواصم ، أو انه كان السلطان فى أيام المتوكل فكان أمر الولاية اليه • فاننى قرأت فى كتاب نسب بنى صالح بن على قال : وولى الشارباميان جند قنسرين والعواصم **على بن اسماعيل بن صالح بن على أبا طالب** ، وانما أراد أن يتزين به عند المتوكل ، فامتنع من قبول ولايته ، فاعلمه ان لم يفعل كتب فيه الى الخليفة ـ فقبلها ، وأقام على ولاية جند قنسرين والعواصم حتى مات ، فكانت أيامه أحسن أيام وسيرته أجمل سيرة • وكان على بن اسماعيل اذا خرج الى العواصم استخلف ابنه محمد بن على على قنسرين وحلب فلا يفقد

---

(٢٣٤) الطبرى جـ ١١ ص ٣٨ ـ ٩ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٧٢ •

(٢٣٥) الطبرى جـ ١١ ص ٤٤ ـ ٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ـ ١ •

(٢٣٦) الطبرى جـ ١١ ص ٥٥ •

(٢٣٧) الطبرى جـ ١١ ص ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٠ ، اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٤١ ، المسعودى التنبيه والاشراف ص ١٦٢ ، فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ١٨٨ ، ٢٠٥ ، ٢١٥ وفى نفس المرجع زيل بنصوص منقولة عن تاريخ اليعقوبى ص ٢٤١ •

الناس من أبيه شيئا · قال : وولى الشارباميان جند قنسرين والعواصم **عيسى بن عبيد الله ابن الفضل بن صالح بن على الهاشمى ·**

قال : وولى المتوكل **طاهر بن محمد بن اسماعيل بن صالح على المظالم بجند قنسرين والعواصم والنظر فى أمور العمال** ، وجاءته الولاية منه فألقاه الرسول فى مرضه الذى مات فيه(٢٣٨) » ·

***

ويتضح من هذا العرض ان ولاية الثغور والعواصم بعد أفرادها **ظلت تجمع مع غيرها من الولايات للولاة** ، فهى تجمع تارة مع الجزيرة وأخرى مع قنسرين وربما جمعت معهما معا · والواقع ان موقع الثغور الجغرافى وارتباطها بشمالى الشام من ناحية والجزيرة وشمالى العراق من ناحية أخرى قد جعل من الاسلم أن تساير الادارة ظروف الطبيعة ، بل ومن الولاة من كان يجمع بين الجزيرة وارمينية أيضا · وعلى كل حال فقد اهتم الخلفاء ــ امويون وعباسيون ــ بولاية الثغور ، **وعهدوا بها الى اخوتهم وأبنائهم وكبار رجال دولتهم** · وقد رأينا الكثير من بنى مروان يجاهدون الروم ويحكمون الجزيرة وأرمينية وأشهرهم فى ذلك مسلمة ابن عبد الملك ·

كذلك رأينا الكثير من بنى صالح بن على العباسى يتولون قنسرين والعواصم حتى ذكر ابن العديم فى مراجعه كتابا عن نسب بنى صالح بن على نقل عنه مادة طيبة عن ولاة حلب والعواصم ، ومن أشهر بنى صالح عبد الملك بن صالح ثم رأينا **ظاهرة تجزئة الخلافة بين أولياء العهود** ، وكانت الثغور والعواصم ــ مضمومة الى الشام تقع فى عهد من يتولى القسم الغربى من الدولة واذا كانت ولاية أولياء العهود لهذه المساحات الشاسعة نوعا من التكريم الشرفى لا الادارة العملية كما حدث فى أوربا عندما خلعت القاب الدوقيات والكونتيات على أمراء الاسر المالكة ونبلائها الا ان **ثمة ولاة فعليين قائمين بالادارة قد عهد اليهم أيضا بولايات واسعة ليحكموها** مثل طاهر بن الحسين وابنه عبد الله · ويدل ما سجله ابن العديم من وجود **عملة مضروبة فى حلب وقنسرين** على ازدهار هذا الاقليم وارتفاع شأنه · وقد كان الخلفاء يزورونه فى طريقهم الى الغزو خاصة الرشيد والمأمون ·

---

(٢٣٨) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٧١ ــ ٢ ·

ثانيا : النظم المالية

فى الدولة البيزنطية :

كانت الامبراطورية البيزنطيـة مكونة تكوينـا مركبا compiex organism فهي دولة بيروقراطية ، وهى ملكية مطلقة ، وهى شبه شرقية semi-Oriental وهى مجتمع يونانى مسيحىGraeco-Christian، وهى فى الوقت نفسه دولة تلعب العاصمة فيها دورا قد يرجح ما تلعبه العاصمة فى دولة المدينة city-state ـ مثل اثينا أو روما أو البندقية • وميزانية الدولة ـ كما يقول نابليون ـ مرآة حياتها السياسية والاجتماعية ، وقد انعـكست ملامح الدولة البيزنطيـة على ماليتهـا ، ووضـحت فى بنود مصروفاتها • وقد اثنى دييـل Diehl على الادارة البيزنطية قائلا : **انهـا قوية التركيز حـكيمة التنظيم** strongly centralized and wisely organised" ولم تكن الادارة أقل فضلا من الجيش فى احلال الامبراطورية البيزنطية مكانتها الرفيعة فوق دول العصور الوسطى ، وفى تمكينها من اجتياز التغيرات العديدة التى أحدثها الاباطرة دون أن تهوى الى الفوضى • غير أنه من جانب آخر كانت الادارة المدنيـة تكلف الدولة **مصروفات باهظة** : فقد كا نعدد الموظفين كبيرا وجلهم يتقاضون **رواتبهم** من الدولة• ومثلما يجرى الحال فى الدول المعاصرة كانت الدولة البيزنطية تعتنق **سياسة الاقتصاد الموجه** State-directed economy، فهى تلح على مراقبة وتنظيم كل مظاهر حياة الجماعة: من انتاج وعمل واستهلاك وتجارة وانتقال للسكان وكل مايمس الصالح العام• ومن أجل هذه الرقابة احتاجت الدولة لعدد هائل من الموظفين • بل انها عـلاوة على ذلك كانت تمتلك مساحات ضخمة من الاراضى وكانت تشغل نفسها بصناعات عدة • واذا كانت ممالك عصر النهضة Renaissance قد مارست التدخل الاقتصادى ـ ان لم يكن مارست نظام المركزية المطلقة ـ اذ كانت الدولة تمتلك ممتلكات زراعية وصناعية ، الا انها كانت تتبع نظام بيع الوظائف العامة فخفف هذا من أعبائها • أما الامبراطورية البيزنطية فلم يكن يباع فيها الا القليل من وظائف البلاط أو الالقاب الجوفاء • ومن ثم كان من الضرورى اعطاء **الرواتب** للموظفين العموميين ، وكان كل راتب يتكون من ثلاثة عناصر : المؤن siteresion ، والنقد rogn ، والكسوة • وكان النقد والكسوة يوزعان مرة واحدة فى السنة ويتـولى هذا التـوزيع الامبراطور شخصيا بالنسبة لكبار الموظفين ، أما بالنسـبة لباقيهم فيتـولى اعطاءهم رواتبهم الموظف المسمى parakoimômenos • وقد تقاضى الموظفون الكبار رواتب

طيبة ـ فعميد مدرسة الحقوق مثلا وصلت حصته النقدية الى أربعة أرطال ذهبية سنويا علاوة على الثياب الفاخرة • كذلك كانت الدولة تنفق على ابتناء **القصور** الفاخرة متأثرة في ذلك بتطور بدأ منذ عهـد دقلديانوس وعززه تأثير خلافة بغـداد • وكان للمسـيحية **وكنائسها** التزاماتها هي الاخرى ، وذلك بجانب **النفقات العسكرية** طبعا التى كانت أول واجبات الانفــاق ، ومن ذلك تكاليف الجيش والاسطول والحصون على الحدود والموانى وذخائر الحرب وعطاءات الجنود المرتزقة • ومن أجل ابراز ابهة الامبراطورية اغدقت الاموال على **احتفالات** الاعياد والمواكب والاستقبالات والهدايا والمنح ، واستنزفت **المباني العامة** مبالغ ضخمة ، وانفقت الدولة الكثير فى القرون الاولى على **توزيع الخبز واللحم والخمر والزيت** على سكان العاصمة ، ولكن هرقل قد اضطر للكف عن ذلك بتأثير الازمة المالية فى سني حكمه الاولى ، ويبدو أن خزن القمح بعد ذلك كان لمواجهة حاجات الجيش • وقد كان من الواجب المحـافظة على المنشآت العامة ، وجبيت ضريبة خاصة لاصلاح **أسوار العاصمة** •

ومن الرجم بالظنون محاولة تقدير **الايرادات البيزنطية** ، فالمؤرخ يشعر بضيق المجال أمامه لصمت المراجع عنـد بحث المسـائل المالية ، وبوده لو استبدل بالروايات المسهبة عن حملات الحدود شيئا يهديه فى عمليات النظام المالى • وقد كتب بنيامين التطيلى Benjamin de Tudela ان الدولة جبت فى القـرن ١٢م من القسطنطينية وحـدها ٧٫٣٠٠٫٠٠٠ نومسما ، بينما وعد الصليبيون بلدوين الحـاكم اللاتينى للقسطنطينية بدخل يومي قدره ٣٠٫٠٠٠ نومسما (وهى تساوى ١٢ شلنا)• كما أكد يوحنا برومبتون John Brompton ان كورفو دفعت سنة ١١٩٠م للدولة ١٥٠٠ لترا litrai أى ما يساوى ٦٤٫٨٠٠ جنيه من المعدن (وهو لا يعين قيمتهـا الشرائية) **وكانت موارد الدخل : عقارات الافراد الذين يموتون دون وارث او صية ، وهبات الرعية المباشرة ، وما يدفعه مرشحو وظائف البـلاط أو الخدمة المدنية ، ودخل الممتلكات الامبراطورية فى آسيا ، والضرائب المباشرة وغير المباشرة العـادية وغير العادية** • وكانت الدولة تعتمد على الضرائب فى الحصول على الدخل بصورة رئيسية وكانت **ضريبة الارض** مفتـــاح المـالية البيزنطية • وقـد كانت هذه تجمع أيام دقلديانوس على شكل جزء من محصول الارض يستخدم فى تموين فرق الجيش الجديدة والموظفين المدنيين وأهل العاصمة ، وظلت هذه الضرائب العينية على طابعها الاول غير ثابتة القيمة تقررها الحاجة الطارئة • ولكن كان هناك ميل قوى خلال القرن الرابع لاستبدال الضريبة العينية بمـا

يعادلها من المال • وقد تحقق ذلك فى النهاية وصار دفع الضرائب النقدية اجباريا •

وأجبر الناس على الاستقرار فى قطع معينة من الارض وزراعتها ، والزمت الجماعة بضمان هذا الالتزام ، وأصبح لزاما على هيئة كبراء كل بلد الذين كانوا يكونون مجلسها أن تلتزموا سداد الضرائب المستحقة على البلد وما يحيط به من القرى فى حالة ما اذا هرب أحد آلملاك ولم يخلفه فى القيام بالتزاماته أحد •

وحينما وضع دقلديانوس نظامه الخاص بمنح الاراضى لجنود الحدود اخذت هذه الالتزامات صورة قانون ثابت وخرجت عن دائرة العقود الفردية ، وما شرعه دقلديانوس لجنود الحدود اصبح فى القرن الرابع قانونا عاما لفلاحى الامبراطورية كلها •

وقد شهد القرن الرابع والربع الاول من القرن الخامس النزاع بين الدولة والمالك الكبير ، ولم تتبين خزانة الدولة بوضوح السبيل الحقيقى لضمان مواردها ، وكان أعضاء مجلس القرى قد انهكتهم المطالب فوضح ان المالك الكبير يستطيع أن يستعمل سلطانه نائبا عن مزارعيه فى مقاومة الدولة ، بيد ان الدولة كانت تكسب اذا هى جعلت مالك الارض يقوم بجمع الضرائب لها ــ اذ كان فى مركز يخوله تقديم الضمانات التى تريدها الدولة ، وكانت الارض أوثق أنواع الضمان • ولم تتردد الدولة فى الاختيار ، ورجح لديها الاعتبار الاخير سنة ٤٢٥ م ، واسلمت الدولة نفسها لسطوة المالك الكبير Patronus فاستثنيت اصقاع شاسعة من بلاد الريف من المسئولية الجماعية لمجالس القرى عن الضرائب وأصبحت جماعة أهل القرية فى خلال القرن الخامس الميلادى مسئولة مسئولية مباشرة عن نصيبها من الضريبة • وهكذا يتميز القرنان الخامس والسادس الميلاديان بنمو قوة الملاك الكبار ، وأصبح تاريخ الامبراطورية بعد ذلك اذا نظرنا اليه من زاوية معينة **نزاعا بين الدولة والملاك الارستقراطيين** ، لان الحكومة المركزية ــ اذا صرفنا النظر عن الناحية المالية ــ كان لابد أن ترعى الزارع الصغير وتقلل من سلطة السيد الاقطاعى الخطر • وشهد القرن السادس الميلادى أفرادا من المواطنين يكونون عصابات مسلحة من التابعين Buccellarii وكان النبلاء العظام يستطيعون بعصاباتهم المنظمة تحدى السلطات المدنية • ولكن غزوات الصقالبة الرحل والآفار فى القرن السابع الميلادى من الشمال ، وغزوات الفرس والعرب من الشرق والغرب استطاعت أن

تكسر شوكتهم ، وحين استتب النظام ثانية فى عهد أسرة هرقل كانت هناك فرص جديدة أمام المالك الصغير ٠

وقد نظم الايسوريون الامبراطورية البيزنطية كوحدة دفاعية فاعطيت سلطات كبيرة للعسكريين ، وفى خلال الحروب الاخيرة كانت المحاولات المتزايدة لتامين الامبراطورية تعطى قيمة جديدة للارض كمصدر للثروة ٠ ولقد حاولت الدولة انقاص اعباء الميزانية السنوية بالتضحية بمساحات كبيرة من الاراضى العامة وتوزيعها على المواطنين مقابل التزام وراثى بالخدمة فى الجيش ٠ واذا كان دقلديانوس قد منح قوات الحدود Limitanei هبات من الارض يمكن نقلها الى الغير وكان الابن ملزما بحكم الوراثة بان ياخذ مكان أبيه فى الجندية ، فقد ظهر ثانية نظام منح الاراضى نظير الخدمة العسكرية الذى كان مطبقا على حرس الحدود فى القرن الرابع واخذ يتسع نطاقه هذه المرة في الولايات الثغرية . وكان لا يجوز انتقال هذه المنح لان منحها كان يتضمن الزاما للخدمة فى الجيش يرثه الابن عن ابيه ٠ وان القوة التى استخلصتها الاسر الكبيرة لنفسها قد جعلت منها خطرا يهدد الحكومة المركزية ، وقد توقع هذا كل من رومانوس الاول وقسطنطين السابع اللذين حاولا علاج الموقف باصدار تشريعات لم تكن كافية للحيلولة دون تراكم الاراضى والضياع ٠ فحاول التشريع الاصلاحى فى القرن العاشر الميلادى مثلا ان يحرم على المالك الكبير — سيدا او كنيسة — حيازة ارض علاوة على أملاكه الاخرى فى حدود زمام القرية سواء بطريق الهبة أوغيرها وجاء انتصار السلجوقيين الحاسم فى واقعة ملاذكردسنة ١٠٧١م التى أسر فيها الامبراطور رومانوس ضربة قاضية لهذا النظام العسكرى الذى تطور زمن الحكام العسكريين من البيت المقدونى ٠ ونتج عن ازدياد طبقة النبلاء العسكريين الاقوياء أصحاب المقاطعات الكبيرة فى آسيا الصغرى ان انتاب الحكومة المركزية قلق كبير ، بينما سعت الادارة المدنية الى اضعاف النزعة الانفصالية بفرض ضرائب باهظة ٠ ولما كانت الدولة أعجز من أن تهاجم امتيازات الملاك الكبار بصورة مباشرة فقد حاولت أن تخلق طبقة مقابلة لهم — فمنحت الجنود اقطاعات واسعة ٠ ولم تصلنا معلومات كافية عن نظام البرونيا الجديد (Pronia مئونة) الذى أدخله ميخائيل السابع دوكاس وتطور زمن آل كومنين ٠ ويظهر أن هذه المنح كانت تمنح لمدى حياة الممنوح ، مثلها فى ذلك مثل الاقطاعات الاولى في غربى أوربا — مع استثناء ان صاحبها لم يكن له حق توريثها من بعده ٠ وكانت المنحة المتضمنة فيما يبدو الزاما بالاقامة على الارض تعطى فقط

للجنود من ذوى الرتب العاليه ، وكانت بوجه عام مكافاة على خدمات سابقة . وكان الممنوح ملزما بان يقدم للدولة عددا معينا من الجند للجيش مقابل تنازل الدولة له عن حق جباية ضرائب معينة داخل اقطاعيته . وكان من المحرم عليه زيادة الاموال التى ينبغى أن يدفعها المزارعون ويسمح له بامتيازات فى مسائل القضاء والبوليس . ولم تكن هذه الاراضى كما يبدو تقتطع من ممتلكات النبلاء او من اراضى الكنيسه، وانما من المساحات التى كانت مقصورة على العسكريين . وكان جشع الارستقراطيين فى حيازة الاراضى يغريهم بضم كثير من هذه الممتلكات العسكرية الى ممتلكاتهم مما كان يؤدى فى النهاية الى اضعاف الجيش ، فضلا عما الحقته غزوات السلاجقة فى آسيا الصغرى من اقتطاع أراض من الامبراطورية وتخريب أراض أخرى ظلت رومانية . فهرب الفلاحون من المزارع الى المدن ، وواجه اباطرة القرن الثانى عشر الميلادى هبوطا خطيرا في اعداد السكان الاحرار بسبب غارات المجر والعرب والسلاجقة ، واجتهد آل كومنين فى تعويض ذلك باسكان الاتراك والبشناق كمعمرين للارض داخل الامبراطورية وتحرير العبيد على حساب الدولة . **وقد اتحد الاباطرة وكبار الموظفين المدنيين الاكفاء ضد الارستقراطية العسكرية الاقليمية فى آسيا الصغرى التى كانت تستثير حسد بيروقراطية العاصمة** . واذا كانت احقاد البيروقراطية ضد الارستقراطية العسكرية الساعية الى القوة قد أدت فى النهاية الى تدهور النظام الدفاعى للامبراطورية فان الانتعاش الذى احدثه عهد آل كومنين قد أدى الى رد فعل ضد غلبة المدنيين. وهكذا لم يجد اللاتين الذين قدموا الى الشرق ظروفا مخالفة لتنظيمهم الاقطاعى ، غير أنه فى عهد اسرة باليولوجوس كانت البيروقراطية لا تزال سند الدولة التى تنافح عن بقائها .

وبجانب ضريبة الارض كانت هناك ايرادات عامة أخرى . **وكانت الممتلكات التابعة للدولة : صناعية وزراعية ومدنية والاولى تقدم ادوات الجيش والترف** ، وكانت منتجات المصانع الامبراطورية تباع نادرا ــ ومع ذلك كونت دخلا غير مباشر فقد وفرت على الدولة نفقات شراء كثير من السلع الضرورية للجيش والاسطول والبلاط والادارة . وورث الاباطرة البيزنطيون عن اسلافهم اراضى زراعية تناقصت بتوزيع الاراضى العسكرية وهبات الكنائس والمؤسسات الخيرية وبالاغداق على الاقارب وأصحاب الحظوة . لكن هذه الاراضى تزايدت من ناحية أخرى بالفتوح ، والمصادرات ــ التى كانت تكثر فى الاوقات العصيبة لان القواد المتمردين

كانوا غالبا من النبلاء ذوى الضياع الواسعة ، وهذا يفسر استمرار وجود الضياع الكبيرة التى تغطي حاصلاتها جزءا لا قيمة من المصروفات العامة ، اذ كانت الاراضي العامة على اطراف القسطنطينية تقدم المؤن **للبلاط والآلاف من الموظفين ـ والتابعين . وللموارد المدنية** urban resources أهميتها فى الدخل البيزنطي ، فقد فرضت **ضريبة الايركون** aerikon على أراضي البناء كما يظهر ، وربما كانت هذه الضريبة على أراضي المدن تقابل الضريبة على أراضي الريف ، وكانت هناك **ضرائب بلدية وضرائب على أصحاب الحرف وضرائب على التركات ، فضلا عما يفرض لسداد نفقات الاحتفالات والانتصارات** . وقد كانت هناك ضرائب غير مباشرة من **المكوس** الموضوعة على التجارة فى محطات مثل جوتاب Jotabe الواقعة على طرق شبه جزيرة سينا والتى كانت تحصل مكوس التجارة الشرقية ، ونظرا لتقدم التجارة البحرية فقد كان دخل المكوس ذا أهمية حيوية . **وقد ضاعفت خزانة الدولة مواردها بتحصيل المكوس فى الثغور ، والرسوم من الاسواق ، فضلا عن ارباح احتكارات الدولة لصناعة الحرير** . وكان للحاكم المطلق الحق أن يسخر **الشعب في المحافظة على محطات الطرق وتموين خيل البريد الإمبراطورى واضافة السفراء والموظفين بجانب ضريبة الحاكم .. وكانت هناك ضريبة على الاستهلاك الداخلي للبضائع** ، وكل سلعة أو مجموعة سلع لها ضريبتها الخاصة مما يبين أن الضريبة كانت متغيرة والبضائع المستوردة لا يعفيها دفع المكوس من اقتضاء ضرائب عند البيع بالتجزئة . ووجدت ضريبة على **الموازين والمقاييس** يدفعها المشترى ، كما كانت هناك **رسوم للترخيص بمزاولة المهن** . على أن احتياجات الخزانة البيزنطية كانت على وجه العموم محتملة بالنسبة لسكان الريف على وجه الخصوص اذا سلمت من المطالب الطارئة أو الفرعية .

ويقدر بابا ريجوبولوس Paparrigopoulos **ميزانية الامبراطورية البيزنطية** بناء على ما نقله الرحالة الاجانب وسجلته الحوليات بمبلغ ٦٤٠ مليون فرنك ذهبى ، وهو رقم له قيمته الشرائية التى تفوق قيمته العددية . بينما يقدر شتاين Stein هذه الميزانية بما تتراوح بين ١٠٠ ، ١١٥ مليون . ويرى اندريادس Andradès أن الحقيقة تقع بين هذه الرقمين ، على أنه من المستحيل تحديد رقم معين للميزانية كلها أو لأى جزء من أجزائها الرئيسية . فالمادة التى تقدمها المصادر الرئيسية يكتنفها الشك ، وكذلك الحال بالنسبة للمصادر الاجنبية . وهناك قدر من المصروفات النوعية من سلع أو عمل وهذه يصعب تقدير

قيمتها بعد ما فصلتنا عن زمنها القرون الطوال واذا كانت أبواب الصرف الرئيسية قد بقيت دون تغيير ما بقيت ملامح شخصية الامبراطورية ثابته ، فان المبالغ المدرجة تحت هذه الابواب كانت تختلف كثيرا من عهد امبراطور الى آخر تبعا لاختلاف أسلوبه في الحكم . ومع هذا كله فمن المحتمل ان نقرر انه باستثناء أيام أسرة باليولوجوس ١٢٦١ : ١٤٥٣م حينما كانت الأمبراطورية ظلا باهتا لعظمتها السابقة وباستثناء بعض العهود الشاذة في تعاستها ، كانت ايرادات الدولة لا بد أن تزيد - واحيانا تزيد بكثرة - عن ١٠٠ مليون فرنك ذهبي . ولا تسعفنا المقارنة مع ميزانيات ملوك الغرب في العصور الوسطى اذ كان هؤلاء يحكمون دولا اقطاعية ولا يعرفون شيئا من معظم بنود الصرف المقررة لدى البيزنطيين وخاصة الصرف على جيش وجهاز من الموظفين . والميزانية الصالحة للمقارنة في هذا الصدد هي ميزانية خلفاء بغداد . **وتدل الوثائق التي نشرها فون كريمر ان الميزانية العباسية في عهد الرشيد وصلت الى رقم يصل الى ما اعطاه بابا ريجوبولوس Paparrigopoulos فهي ٥٣٠ مليون درهم مع استبعاد الضرائب النوعية وقد كانت اقاليم الدولة في عهد الرشيد أكثر امتدادا من ممتلكات الاباطرة ، كما يرى البعض ان النظام الاسلامي في الضرائب ربما كان اثقل على الرعية** ، ومع ذلك تبقى لهذه الارقام دلالتها في التقدير . وقد كان لممتلكات الأمبراطورية البيزنطية التي تديرها بنفسها اهمية تفوق الاهمية الحالية لاملاك الدولة العامة ، وامتصت الخزانة عن طريق الضرائب نسبة من الدخل القومي تعد عالية اذا نظر اليها بالتقدير السائد قبل عام ١٩١٤م . **وربما جمع خلفاء بغداد ايرادات فاقت في فترة معينة ايرادات الاباطرة البيزنطيين ، لكن نظامهم المالي يتهم بالقسوة - على الاقل في بعض العهود - كما ان رخاءهم المالي لم يدم طويلا ، فقد بلغ ذروته في عهد الرشيد ثم اخذ يتناقص خلال القرن التاسع الميلادي حتى تدهور في القرن العاشر الميلادي . في حين استمر الدخل البيزنطي وفيرا طيلة قرون عدة ، مما يكشف عن كفاءة الاداة المالية البيزنطية** . واذا كان الاباطرة قد احتفظوا بالنظم الامبراطورية التي تلقوها عن اسلافهم فانهم قد ادخلوا عليها تحسينات تهدف الى جعل الضريبة محتملة وتسعى لحماية المالك الصغير . وفشل البلغار وغيرهم ممن غلبوا على اجزاء من أراضي الدولة البيزنطية في اعطاء رعاياهم ادارة أفضل ، وعانوا مصاعب مرهقة في جمع دخل يعد اصغر بكثير مما كانت تتسلمه أصغر ولاية بيزنطية دون كبير جهد ، وكانت نظمهم المالية

لا تجاوز مرحلة الطفولة . ويلاحظ اتجاه المالية البيزنطية ، المتزايد الى **استبدال الدفع عينا بالنقد** وكان للثروة الذهبيـة التى يملكها الامبراطور أهميتها فكـان القواد يتقاضـون راتبهم بالنقد . فاحتفظت الدولة المركزية بسيطرتها وكان نقدها المتوفر قابلا للزيادة لأن ملاك الارض يخضعون لضرائب تتغير قيمتها ولم تكن زيادة ثروة التاج تعنى ضرورة مصـادرة الأملاك أو الغـزو الخـارجى ، ومن هـذا أمكن ايجـاد جيش تطول مدة الخدمة فيه فيحسن تدريبه وتنظيمه ، وهكذا كان جهد الدولة مستمرا لا مجرد تشـنج وقتى تدفع اليه الظروف . وكان الامر مختلفا عند الجرمان الغربيين . اذ لا توجد ضريبة مباشرة على الارض ، فكان الملك مضطر الى ان يعتمد على دخله ليقوم بمصاريف البلاط ، ولم تكن رواتب موظفى التاج تؤدى نقدا بل على صورة منح من الارض . ولم يكن مثل هؤلاء يدفعون الضريبة المباشرة التى كانت تفرض لتواجه حاجات الدولة أولا بأول لكنهم كانوا يجبرون فقط على القيـام بخدمات معينة ، الا أن تعويض الموظفين عن أعمالهم بمنح من الارض أوجد علاقة دائمة بين الارض ومن منحت له ، وكانت النتيجة الطبيعية أن أصبحت الحقوق التى يمارسـها الموظف المقطع فى الارض وراثية ، بمـا أن الملك لم يكن يستطيع زيادة أراضيه حسب ارادته فقد كان عليه اما أن يفتقر أو يزيد أمواله بالفتح والمصادرة فحسب . فاذا ضعفت الدولة المركزية كف التابع عن تأييد الحاكم المطلق وربط نفسه بمصالح اقليمه المحلية ، ولم يكن هناك سبيل لاعادة السلطة المركزية سوى التدخل العسكرى .

وقد باشر **الادارة المالية البيزنطية** فى العاصمة أول الامر **وزير يشرف على الهبـات المقـدسـة** Comes Sacrarum Largitiorum وهو ليس مجرد موزع لصدقات الامبراطور فقد أصـبحت ماليـة الامبراطور هى خزانة الدولة واضحى رئيس الهيئات المقدسة مسئولا عن مالية الامبراطورية بوجه عـام ، وكان هنـاك **وزير آخر يشرف على الاملاك الامبراطورية** Comes Rerum Privatorum التى تضخمت على حساب الحكام السابقين الذين صودرت أملاكهم أما بالنسبة لاقسام الامبراطورية Praefectus Praetorius **فكان أمـير لـواء امبراطورى بيت ماله الخاص** الذى ينفق منه على مطالب الجيش . **وحين أعيد بناء النظام البيزنطى الجـديد بعد هجمات القـرن السـابع وأصبحت الولايات اقسـاما عسكريه يحكمها قائد عسـكرى ، انهدمت الوزارات المركزية الكبيرة وحل محلها عدد كبير من الدواوين لكل منها عمل خاص**

يكمل عمل الآخر ، **وظهر وزير وحيد للمالية** Sacellarius اصبح فى القرن التاسع الميلادى يشرف على الوظائف التى تتعلق بالمالية أو ادارة موارد الدخل اشرافا عاما ومنظما ، وخفف هذا الى حد ما من اثر النقص الذى نتج عن عدم وجود ديوان مالى وحيد مركزى . وكان **سكان الولايات الثغرية** themata **يتحملون نفقات الجيوش القائمة فيها** ، **وكانت تجبى نقدا للخزينة المركزية** ، في حين انها كانت فى الغرب تدفع عينا ، ويعلل هذا بأن معظم سكان الغرب كانوا زراعا صقالبة مشتغلين بالزراعة بينما كانت المدن التى يقوم اقتصادها على النقد منتشرة فى المقاطعات الاغريقية الواقعة على الساحل ، وعندما حاولت الحكومة المركزية فى القرن الثانى عشر الميلادى أن تدخل الى الغرب طريقة التعامل بالنقد المعمول بها فى الولايات الثغرية الشرقية ثارت بلغاريا وانفصلت . وكانت الامبراطورية البيزنطية **تفضل استخدام الذهب على السيف فى سياستها الخارجية** ، وتؤثر استغلال موارد الامبراطورية فى كسب الحلفاء بين جيرانها ، اذ كانت اجهزة الدفاع تتطلب نفقات باهظة لبناء السفن وصناعة الاسلحة والمعدات ودفع تكاليف القوات الاحتياطية والجنود المرتزقة ، واذا قدر عدد الضباط بحوالى ٣١٢٠ فانه كان على الدولة أن تدفع لهم ٣٩٦٠ رطلا أو ـ ٤ر٢٧٦ر٨٠٠ فرنكا ذهبيا فى السنة . وقد احتفظت العملة البيزنطية بنقائها ، وثبت النظام المالى البيزنطى رغم اسراف بعض الاباطرة ، ويقول جلزر Gelzer « لم تجد الحكومة الرومانية من عهد دقلديانوس الى عهد الكسيوس كومنينوس طوال فترة مدتها ٨٠٠ سنة نفسها فى وضع يضطرها الى اشهار افلاسها أو التوقف عن الدفع ، ولا نجد فى العالم القديم أو الحاضر شيئا يشبه هذه الظاهرة . لقد ضمن هذا الاستقرار العجيب فى السياسة المالية الرومانية لبيزنطى عملته العالمية ـ فقد كانت مقبولة عند جميع الامم المتجاورة بسبب وزنها المضبوط كأساس ثابت التعامل ، واستطاعت بيزنطة أن تسيطر بنقودها على كلا العالمين المتحضر والبربرى » (٢٣٩) .

وقد وصل الى المؤلفين المسلمين شىء عن النظم المالية البيزنطية ، فقد أورد ابن خرداذبة فى ثنايا المعلومات التى قدمها عن بلاد الروم « **وخراج الروم مساحة على كل مائتى مدى ثلاثة دنانير فى كل سنة** ـ

---

(٢٣٩) Runciman : Byz. Civ p. 41. Byzantium. pp. 72:85, 298 الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٢٨ : ١٤٤ ، ١٤٨ : ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٥ : ٨ .

والملدى ثلاثة مكاكيك • ويؤخذ عشر الغلات فيصير فى الاهراء للجيوش ، ويؤخذ من اليهود والمجوس دينار فى السنه ، ويؤخذ من كل بيت يوقد فيه نار فى السنة ستة دراهم - (ضريبة الموقد التى جدت فى أيام آل كومنين وربما تكون قد حلت محل ضريبة القرن السادس المسماه أيركون: بينز ص (١٦١) - وثمار الروم تدرك فىالسهل والجبل فى ايلول •• والعطاء مختلف : أكثره أربعون رطلا ذهبا ، الى ستة وثلاثين رطلا ، الى اربعة وعشرين رطلا ،الى اثنى عشر ، الى ستة أرطال ، الى رطل • وأعطيات الجند ما بين ثمانية عشر دينارا الى اثنى عشر دينارا - هذا مرسوم لهم فى كل سنة ، وانما يعطون ذلك فى كل ثلاث سنين وربما كان فى اربع سنين وربما كان فى خمس سنين وربما كان فى ست سنين عطاء واحدا • واكبر البطارقة خليفة الملك ووزيره ، ثم اللغثيط صاحب ديوان الخراج ، وصاحب عرض الكتب ، والحاجب ، وصاحب ديوان البريد ثم القاضى ، ثم صاحب الحرس ، ثم المرقب ••• قال العالم ببلاد الروم : أعطيات الرؤساء ما بين ثلاثة ارطال ذهب الى رطل ، والرطل تسعون مثقالا • وانما يقبض الروم فى ديوانها الغلمان المردان ، فيأخذ الغلام فى السنة الاولى دينارا وفى الثانية دينارين وفى الثالثة ثلاثة دنانير - حتى يتم اثنتى عشرة سنة فيأخذ اثنى عشر دينارا ••• وليس للروم فى عساكرهم أسواق ، انما يحمل الرجل من منزله كعكه وزيته وخمره وجبنه » (٢٤٠) •

ونقل ياقوت : « وقال بعض الجلساء : سمعت المعتز بالله يقول لأحمد بن اسرائيل - يا أحمد كم خراج الروم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين خرجنا مع جدك المعتصم فى غزاته ، فلما توسط بلد الروم صار اليفا بسيل الخرشنى - وكان على خراج الروم - فسأله محمد بن عبد الملك عن مبلغ خراج بلدهم ؟ فقال : خمسمائة قنطار وكذا وكذا قنطارا ، فقال حسبنا ذلك فاذا هو أقل من ثلاثة آلاف الف دينار . فقال المعتصم : اكتب الى ملك الروم : انى سألت صاحبك عن خراج ارضك فذكر أنه كذا وكذا ، وأخس ناحية فى مملكتى خراجها أكثر من خراج أرضك ! قال - فضحك المعتز وقال : من يلومنى على حب احمد بن اسرائيل ، ما سألته عن شىء الا أجابنى بقصته (٢٤١) •

وقد نقل ابن الفراء هذه القصة مفصلة لكنه ذكر أن ملك الروم لا رسول

---

(٢٤٠) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١١١ - ١١٢ •

(٢٤١) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٣٠ - ١ ، المقدسي ، احسن التقاسيم ص ٦٤.

الروم كان باسيل فيحين أن المعتصم كان معاصرا لتيوفيل ، أما باسيل هذا فقد عاصر المعتز والمهدى والمعتمد من بعد . وقد جرت هذه المناقشه مع رسول لملك الروم يحمل هدايا ويطلب افتداء مائة وخمسين بطريقا « فاقبل عليه محمد بن عبد الملك الزيات فقال له : كم خراج بلدكم ؟ قال : أقل من مائة ألف دينار ، فقال محمد : هذا غلة بعض ضياع امير المؤمنين ، فقال الرسول : نحن أحزم واحكم فى باب الخراج منكم ، أنتم تستخرجون من الناس مالا فتكسبون عداوتهم ، وتوغرون صدورهم ، ويسرق المال عمالكم ويعطون عليه الارزاق ، ثم يحمل من بلد الى آخر ، فيذهب ويتخرم فى الطريق ، وتحتاجون ان يسلم الى خزنة وحراس ، ثم تخرجه الى رجالكم . **ونحن جعلنا خراجنا رجالا ،** فكفينا هذه المؤنة، وصيرنا هذاالمقدار الذى ذكرته لك رسما للخراج لئلا يبطل اسمه فأمنا عداوة الناس وحفظنا المال وكفينا ما أنتم فيه . قال المؤلف :فسكت محمد بن عبد الملك الزيات ، ولم يحر جوابا الى الرسول . وقد كان الجواب ممكنا والحجة متوجهة عليه والخطأ في القول لازما له : وذلك أن رجال الحرب بمثابة الجوارح التى لا يجوز أن تمرن بعمل من الاعمال، ولا مهنة من المهن غير اختطاف الارواح وصيد الرجال واعمال الحيلة فى التسليم من اللقاء والكر والفر ، وفى الاقامة والتحيز . فلما صارت الروم أهل تناية واصحاب فدان وزراعة ومهن وصناعة ، نشأ الابناء على ما عليه الآباء فركنوا الى الدعة وهابوا الحروب ، ونكصوا عن لقاء الاعداء وصيد الرجال ، وصاروا جمع العصا ، وخشوا الفلس ، فحينئذ صار الرجل الواحد من المسلمين لايهاب لقاء الجمع الكثير من الروم ، وله تسلط عليهم واقتدار على تفريق جماعتهم . هذا مضاف الى ما وعد الله به فى كتابه من النصر ... ثم صار الملك منهم لا تتعلق به رغبة ، اذ هو قليل المال نزر الجباية . فلما أحست الروم بعدم الرغبة امتنعت من الخطار بأنفسها ، وقل من يعمل للاخرة منهم ، وانما تخاطر التماسا للمثوبة والجزاء ، وتحقق العلج منهم أنه اذا أسر وحصل فى بلاد الاسلام ، يؤمر أو يقود ، ويعفى من كد التعب وداب النصب ، ويصير بعد الذل عزيزا وبعد المهانة والذلة وأدعا مكرما . وصار ما بأيدى الروم من الضياع والاقطاع كأنما هو كالملك لهم ، يرثه خلف عن سلف ، والحق **الذى لا يجب لغيره شيء فيه ، وان غير أو بدل على ما سنتهم الآن جارية** من البدل فانما ينقل من مشتى الى مصيف أو ربيع الى خريف ، **وصار الملك اذا دعته ضرورة الى انتزاع بعض ما فى أيديهم كانوا العدو الحاضر المشارك فى الدار ، غير المأمون الضرر والغوائل ، المطالب بالذحول**

والطوائل ، الواضح الفساد ، العديم الرشاد . فكيف صار أحكم من فعل المسلمين فى الخراج ؟ وقد كنت أعرف عن الروم أن أخس الرتب والمنازل عندهم رتبة الكاتب ، وأن الشاكرى أجل رتبه منه ، حتى علمت الآن قلة احتياجهم الى من يحفظ الارتفاع ويحمل اعباء الملك ، وتساوى كافتهم فى البلاده ، وعله المعلوم . **ولعمرى ان نوازع الروم وأغراضهم ودواعيهم وأوطارهم أقل من نفقات المسلمين ودواعيهم ، ولو الزم ملك الروم من فى بلاده من المؤن والمغارم ما يلزم فى بلاد المسلمين ، لما قامت لهم قائمة ، ولا احتاجوا الى أحد أمرين : أما اجتياح أموال رعاياهم التسلط على من يجاورهم ، وحيازة ما فى ايديهم اليهم .** والرومى اذا تجمل قطع الثوب الديباج الذى من عمل زوجته وابنته وأخته ، يقيم على لابسه عشرين سنة اذا صانه من البذلة ، ولا عهد للرومى بالشرب والعصب ، والمعلم ، والمذهب ، والمصنف ، والمنير ، ولا باستعمال الرومى والأصبهانى ولا برفيع التونى الذى يودع أنابيب الذهب والفضة ، هذا ما لا عهد لملوكهم به — فكيف لوضائعهم ؟ والملك منهم وغيره يتساويان فى اللباس: انما هو الطلى الديباج والمسده وأوانيهم الذهب والفضة ، ولو ابتاع أحدهم قحفا خزفيا بمائة دينار يلحقه الصدع فلا يساوى درهما ، أو من مخروط البللور ورفيع المحفور ما اذا بات نديا من الماء أو النبيذ فى غلافه تصدع وعادت القطعة التى تساوى ألف دينار بالنزر اليسير من الثمن . وكذلك الزجاج المحكم والقلب سليم وغرائب الصينى من الصحون البلق والمشمشى والسواد والزمردى والخافقيات الفائقات والرشيدى الشفاف وملح الطرائف — هذا مالا يتملكونه على الامر الاكثر ، انما يهدى اليهم ويسمعون بذكره . فأما الفروش عندهم فمن صنعتهم أيضا — انما هى الديباج والطنافس والقطف والبزيون ، فأما طميم القرقوبى ومذهب الدبيقى ورفيع الخسروانى فتفرد بملكه ملوك الاسلام . وأغذية الروم الشواء والصليق وأكثرها فى صيدهم مما فى مروجهم من الطير والدواب »(٢٤٢) . وقد أصاب ابن الفراء الحقيقة فى أمور ، منها اشارته الى **خطر تحول أفراد الجيش الى طبقة ارستقراطية مالكة** « فلما صارت الروم أهل ثناية وأصحاب فدان وزراعة ومهن وصناعة ، نشأ الابناء على ما عليه الآباء فركنوا الى الدعة وهابوا الحروب .. » ، وكذلك أشارته الى **النزاع بين الاقطاع العسكرى والسلطة المركزية الامبراطورية** « وصار ما بأيدى الروم من الضياع واقطاع كأنما هو كالملك لهم ، يرثه خلف عن

(٢٤٢) ابن الفراء : رسل الملوك ص ٣٤ : ٨ .

سلف ، والحق الذى لا يجب لغيره شيء فيه ... وصار الملك اذا دعته ضرورة الى انتزاع بعض ما في ايديهم كانوا العدو الحاضر المشارك فى الدار ، غير المأمون الضرر والغوائل ... » ومعلومات ابن الفراء غير صحيحة بالنسبة لمستوى المعيشة عند البيزنطيين « ولعمرى أن نوازع الروم وأغراضهم ودواعيهم وأوطارهم أقل من نعمات المسلمين ودواعيهم ... » وان الصورة المسهبة التى قدمها لابراز تخلف البيزنطيين عن المسلمين فى فنون التمدن ومظاهر الترف فيها كثير من التجنى والمبالغة **عند المسلمين :**

اهتدى التنظيم المالى للدولة الاسلامية بسوابق النظم البيزنطية ، فقد روى الواقدى أن عمر استشار المسلمين فى تدوين الديوان ، فقال له على بن أبى طالب : تقسم كل سنة ماجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئا ، وقال عثمان : ارى مالا كثيرا يسع الناس وا نلم يحصوا حتى يعرفوا من أخذ ممن لم يأخذ حسبت ان ينتشر الامر فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : **قد جئت الشام فرأيت ملوكا قد دونوا ديوانا وجندوا جندا** فدون ديوانا وجند جندا - فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نسابة قريش فقال : اكتبوا الناس على منازلهم . وقد ارجع أبو سفيان - الخبير بنظم الروم بحكم نشاطه التجارى فى الشام والحريص على النشاط الاقتصادى الفردى - هذا النظام الى أصله حين قال : اديوان مثل ديوان بنى الاصفر ؟ انك ان فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة ، فقال عمر : لا بد من هذا فقد كثر فيء المسلمين (٢٤٣) .

وقد احتفظ العرب بالكتاب اليونان والفرس فى أول عهدهم . ويرى فلهوزن أن عمر بن الخطاب منظم الدولة الاسلامية بعد الفتوحات « لم يكن مبدعا لنظام جديد لكن يرجع له الفضل في أنه نحى قانون الغنائم العربى جانبا ، وانه أدخل الدولة بين الجيش وبين الامم المغلوبة فحمى الرعية بعض الحماية ، واستند الى تقوية الدولة على الجيش معتمدا على الخراج الذى كانت تدفعه هذه الرعية » . ومهما يكن من شأن هذا الرأى فان الطابع المالى غلب على الادارة العربية - خاصة فى أول امرها ، وكان ديوان ادارة الدولة ديوان حساب كما يقول فلهوزن ، بل ذهب (حتى) الى أن « الحكومة العربية الاقليمية فى دورها البدائى سواء فى الشام أو مصر أو العراق كانت حكومة عسكرية محضة ذاته

---

(٢٤٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ ، ٤٦٣ .

هـدف مالى واضح » (٢٤٤) . على أن هـذا لا يعنى أن الحكم الاسلامى فى الاقاليم المفتوحة كان خلوا من أهداف حضارية أو قيم انسانية ، وانما الذى يعنيه ان جهاز الادارة الاسلامية شغل فى أول نشـأته بالضرورات المالية العاجلة المباشرة حتى تطور واستوعب شتى ضروب النشاط المالى للدولة .

ورواة التاريخ الاسلامى ينظرون عادة للحوادث الجسيمة والحروب والفتن ، ويعقبون بأخبار الشعراء والكتاب والفقهاء ومن اليهم ، « وان الناظر الى تاريخ دول المشرق في موجز تاريخى جامع مثل الكامل لابن الاثير ليجد **أن المشـكلة الرئيسية التى دار عليها تاريخ المشرق حتى نهاية العصر العباسى الاول هى مشكلة الحكم : من يحكم ومن لا يحكم ؟ وابتداء من خلافة الواثق تختفى مشكلة الحكم لتحل محلها المشـكلة المالية** . فقد كانت الدولة فى حالة افلاس حقيقى من عهد المتوكل ، وعلى صخرة الازمة الماليـة تهاوى الخلفاء والوزراء والكتاب وعجز الجميع عن أن يجدوا لها حلا ــ وانتهى الامر بزوال الدولة كلها جملة !! وقد بدات المشكلة المالية من أول يوم قام فيه بنو العباس ، فقد تربعوا على امبراطورية واسـعة تضم ولايات فسيحة ــ لكل منها طبيعة واحوال خاصة ، فكان لابد من وضع نظام ادارى وآخر مالى ــ ولم يوضع هذا ولا ذاك !! ومضت الايام والخليفة لا يعرف ما عنده وما ليس عنده ، والرعية لا تعرف ما عليها ، ولم يلحظ احد شـيئا ما دامت الدولة فى سعودها والجباية وافية ، ولكن الانفاق كان دائما أكثر من الايراد ! وطلب الرشيد من أبى يوسف القاضي دستورا اداريا ماليا ، فوضع له مبحثا فقهيا لم ينتفع به الرشيد أو من جاء بعده . فلما جاء اليوم الذى وجد الخليفة فيه الخزانة خاوية بدأ فى مصادرة أموال النـاس ، ونظر الوزراء والكتاب الى المكوس والمغارم والمعاون يقتضونها من الناس قسر ، فثبطت الهمم وانحسرت الثروات ونزر الوارد الى بيت المال شيئا فشيئا حتى وصلت الدولة الى الافلاس . وبدات مأساة تصفية الدولة العباسـية من القرن الرابع الهجرى والثروة الطبيعية لا تغنى شيئا اذا كان النظام فاسدا ، فقد كان ارتفاع الاهواز مضرب المثل ولكن سوء النظام وفساد الذمم هبطا بها الى هاوية الفقر ، وكانت مصر من أغنى بلاد دولة الاسلام

---

(٢٤٤) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٣١ ــ ٣٢ ، حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجي ص ٢٢ .

فى المشرق ولكنها أفلست تماما فى منتصف العصر الفاطمى بسبب سوء الادارة وفساد النظام ا لمالى » !! (٢٤٥) .

وفي حدود المادة التاريخية والفقهية التى نجدها عن النظام المالى الاسلامى وفى حدود ما يتصل بالثغور والعواصم بالذات ، نعرض للموارد فالمصارف المالية ، ثم نتناول الاقطاع بصفة خاصة ثم الادارة المالية والعملة .

(أ) الموارد المالية :

يذكر عادة أن أهم موارد بيت المال فى النظام الاسلامى هى : الزكاة، والخراج والجزية ، والفىء ، والغنيمة بجانب عدد من الموارد الاخرى . والزكاة انواع : زكاة الذهب والفضة ، وزكاة السوائم ، وزكاة الزروع والثمار ، وزكاة عروض التجارة ، وزكاة المعدن والركاز . والزكاة مورد عام في الدولة الاسلامية كلها لارتباطه الوثيق بالدين وشريعته ، وليس فيه مجال للتميز بالنسبة للثغور والعواصم خاصة . اما الخراج والجزية فهما يتأسسان فى احكامهما على الفتح ، وأما الفىء والغنيمة فهما يخلصان من الحرب ــ فهذه الموارد بالذات أوثق علاقة بالموضوع .

الخراج :

ان تحديد الاصطلاحات خاصة فى النظم المالية أمر دقيق . **فالتمييز بين الجزية ــ ضريبة الرءوس ، وبين الخراج ــ ضريبة الارض من جهة والتمييز بين الغنيمة والفىء** من جهة اخرى يحتاجان الى متابعة دقيقة لمراحل التطور الفقهى والتاريخى . وأبو يوسف مثلا ــ وهو الذى عاصر الرشيد ــ لا يفرق في احكامه بين الفىء والخراج فيقول « فأما الفىء يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا ــ خراج الارض » . والخراج عنده يطلق على خراج الارض التى افتتحت عنوة او صلحا فهو يقول « والخراج ما افتتح عنوة مثل السواد وغيره .. وايما قوم من أهل الشرك صالحهم الامام على أن ينزلوا على الحكم والقسم وأن يؤدوا الخراج ــ فهم أهل ذمة وارضهم أرض خراج ، ويؤخذ منهم ما صولحوا عليه ويوفى لهم ولا يزاد عليهم » . ونص ابو يوسف ايضا على ان « سبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب سبيل خراج ، وكذلك ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا من جزية رءوسهم وما يؤخذ من مواشى

---

(٢٤٥) دكتور مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٣٣ : ٥ .

يني تغلب فان ذلك كله سبيل الخراج » . وقال ابو حنيفة « لا يترك ذمي في دار الاسلام بغير خراج رأسه » (٢٤٦) .

ومن هنا كان هناك مجال كبير في النظام المالي الاسلامي للاجتهاد الفقهي والاستجابة للاحتياجات العملية ، **وينسب الى عمر تقرير مبدأ أن ما وقع في أيدي المحاربين من أموال منقولة واسرى حرب انما هو داخل في الغنيمة وهو من نصيب المقاتلين ـ كما جرى الامر الى حين ، اما اراضي البلاد المفتوحة فليست كذلك اذ هي من حق جمهور المسلمين وهي فيئهم .** « وكان من المستحيل احداث تغيير هائل في نظام التملك على اثر الفتح الاسلامي مباشرة ـ كما يقول فلهوزن ـ حتى لو لم يحسب أهل الطبقات الدنيا اصابة كبيرة اذ لم يكونوا يملكون الارض بل يزرعونها لان العرب لم يكن في وسعهم أن يقتسموا فيما بينهم نصف العالم ، ولا كانوا يستطيعون أن ينتشروا في تلك الارض الواسعة لكي يزرعوها بل كان لابد لهم أن يتجمعوا في معسكرات ان ارادوا المحافظة على سلطانهم .. وفوق هذا كان لابد للعرب أن يفكروا في المستقبل ، فلو ان كل شيء قسم على الفوربين الفاتحين الحقيقيين لتبددت الغنيمة التي حصلوا عليها بالسرعة التي اغتنموها بها . ولذلك **اعتبرت الارض بمثابة رأس مال ثابت وأعيرت لملاكها الاصليين على أن يزرعوها ويؤتوا غلتها ، وهذه الغلة وحدها هي التي كانت نصيب العرب المحاربين ومن يرثهم من ذراريهم ، فهم لم يكن لهم رأس المال بل ما يخرج منه .** وعلى هذا النحو لم تكن المدن والقرى التي فتحت عنوة باسوأ حالا في الحقيقة من المدن التي سلمت صلحا ، وكذلك كان اسم الاتاوة في الحالين واحدا غير أن الاتاوة في الحال الثانية كانت تحدد في شروط الصلح وكان لا يجوز تغييرها على الهوى . وهكذا نشأ التمايز بين الغنيمة والفيء .. وكانت غلة الارض تجبيها الدولة بوساطة موظفيها ، ثم هي لا تعطى الغلة الكاملة للمقاتلة او وارثيهم ، بل كانت تدفع اعطيات وارزاقا ثابتة ـ على حين يبقى ما يفضل عن ذلك في بيت مال الدولة » . **فالارتباط وثيق اذن بين اختيار هذا النهج في تاويل النصوص وتطبيقها وبين الضرورات العسكرية للدولة** ، اذ أن المسلمين حرصوا على دوام تفرغهم للجهاد وحفظ الثغور وربما كان من الصحيح في عهد عمر المزعوم صدوره من الخليفة لاهل الشام أن يحافظ العرب على انسابهم والا يقتنوا المزارع

---

(٢٤٦) أبو يوسف : الخراج ص ٢٣ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ١٣٢ ، ١٣٤ .

وألا يعملوا في الارض(٢٤٧)٠ وقد أورد أبويوسف أن المسلمين لما أكثروا على عمر أن يقسم فيهم الشام كما قسم الرسول خيبر قال لهم : اذن اترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم !! وفى موضع آخر برر عمر وجهه نظره حينما نوقش فى قسمة الارض « فتكلم قوم فيها وارادوا أن يقسم لهم حقوقهم ومافتحوا ٠٠ فقال له عبد الرحمن بن عوف : فما الرأى ، ما الارض والعلوج الا مما أفاء الله عليهم !! فقال عمر : ماهو الا كما تقول ــ ولست أرى ذلك ، والله **لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل** ــ بل عسى أن يكون كلا على المسلمين . **فاذا قسمت ارض العراق بعلوجها وارض الشام بعلوجها ــ فما يسد به الثغور** ؟ وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟٠٠ قالوا : فاستشر فلما اجتمعوا حمد الله واثنى عليه ، ثم قال : **أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام ــ كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ــ لابد لها أن تشحن بالجيوش ، وادرار العطاء عليهم ، فمن أين يؤتى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج؟** فقالوا جميعا : الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، ان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر الى مدنهم ٠٠ » وهكذا مضت تلك القاعدة التى سجلها عمر فى التفرقة بين الاراضى المفتوحة وغنيمة العسكر ، وكتب عمر الى سعد حين افتتح العراق « فاذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به الى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء ٠٠» . وقد زكى أبو يوسف رأى عمر فى تأويل نصوص الشرع « والذى رأى عمر من الامتناع عن قسمة الارضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان في كتابه من بيان ذلك ــ توفيقا من الله كان فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين . وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لان هذا لو لم تكن موقوفا على الناس فى الاعطيات والارزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ، ولما امن رجوع اهل الكفر الى مدنهم اذا خلت من المقاتلة والمرتزقة ، والله أعلم بالخير حيث كان » . وعلى هذا أورد ابو يوسف حكمه فى الارض

---

(٢٤٧) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٢٨ . ٣٢ ، حتى : تاريخ سورية ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٢٠ ــ ١ ، العرب ترجمة نافع ج ١ ص ٢٠٩ : ٢١١ ٠

المفتوحة : « وأيما أرض افتتحها الامام عنوة فقسمها بين الذين افتتحوها فان رأى أن ذلك افضل فهو فى سعة من ذلك ـ وهى ارض عشر ، وان لم ير قسمتها ورأى الصلاح فى اقرارها في ايدى اهلها كما فعل عمر فى السواد فله ذلك ـ وهى أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهى ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ويضع عليهم الخراج ولا يكلفوا من ذلك مالا يطيقون » . **وقد وضع أبو يوسف حد أرض العشر من أرض الخراج « فكل أرض اسلم اهلها عليها وهى من أرض العرب أو أرض العجم فهى لهم ـ وهى أرض عشر .. وايما دار من دور الاعاجم قد ظهر عليها الامام وتركها فى ايدى أهلها ـ فهى أرض خراج ، وان قسمها بين الذين غنموها فهى أرض عشر .. وكل أرض من اراضى الاعاجم صالح عليها اهلها وصاروا ذمة فهى أرض خراج » (٢٤٨)** .

على أن الماوردى يبقى على التفرقة فى الحكم بين الارض المأخوذة عنوة والمأخوذة صلحا ويفرق فى الأرض التى جرى عليها الصلح بين ما جلا عنه أهله وبين ما أقاموا فيه وصولحوا على اقراره فى ايديهم « والأرضون كلها تنقسم أربعة أقسام : **أحدها ما استأنف المسلمون احياءه** فهو أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج .

والقسم الثانى ما أسلم عليه اربابه فهم أحق به فتكون على مذهب الشافعى أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج ، وقال أبو حنيفه الامام مخيربين أن يجعلها خراجا أوعشرا فان جعلهاخراجا لم يجز أن تنقل الى العشر وان جعلها عشرا جاز أن تنقل الى الخراج .

والقسم الثالث ما ملك من المشركين عنوة أو قهرا فيكون على مذهب الشافعى غنيمة تقسم بين الغانمين وتكون أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج ، وجعلها مالك وقفا على المسلمين بخراج يوضع عليها ، وقال أبو حنيفة يكون الامام مخيرا بين الأمرين .

والقسم الرابع ما صولح عليه المشركون من أرضهم فهى الارض المختصة بوضع الخراج عليها وهى على ضربين : **أحدهما ما جلا عنه** أهله حتى خلصت للمسلمين بغير قتال فتصير وقفا على مصالح المسلمين ، ويضرب عليها الخراج ويكون أجرة تقر على الابد وان لم يقدر بمدة لما فيها من عموم المصلحة ، ولا يتغير باسلام ولا ذمة ، ولا يجوز بيع رقابها اعتبارا لحكم الوقوف .

---

(٢٤٨) أبو يوسف : الخراج ص ٢٤ : ٧ ، ٦٣ ، ٦٩ .

والضرب الثاني ما أقام فيه أهله وصـــولحوا على اقراره في أيديهم بخراج يضرب عليهم فهذا على ضربين : **أحدهما أن ينزلوا عن ملكها لنـــا عند صلحنا** فتصير هذه الارض وقفا على المسلمين كالذى انجلى عنه أهله، ويكون الخراج المضروب عليهم أجرة لا تسقط باسلامهم ، ولا يجوز لهم بيع رقابها ، ويكونون أحق بها ما أقاموا على صلحهم ولا تنتزع من أيديهم سواء أقاموا على شركهم أو أسلموا ‥ ولا يسقط عنهم بهذا الخراج جزية رقابهم ان صاروا أهل ذمة مستوطنين ‥ والضرب الثانى أن يستبقوها على أملاكهم ولا ينزلوا عن رقابها ويصالحوا عنها بخراج يوضع عليهـــا فهذا الخراج جزية تؤخذ منهم ما أقاموا على شركهم وتسقط عنهم باسلامهم، ويجوز الا يؤخذ منهم جزية رقابهم ، ويجوز لهم بيع هذه الأرض على من شاءوا منهم أو من المسلمين أو من أهل الذمة : فان تبايعوها فيما بينهم كانت على حكمها فى الخراج وان بيعت على مسلم سقط عنه خراجها ، وان بيعت على ذمى احتمل الا يسقط عنه خراجها ‥ واحتمل أن يسقط عنـــه خراجها ‥ الخ » (٢٤٩) . على أن الفقه الشافعى الذى لا يرتضى للأرض المفتوحة عنوة الا أن تقسم غنيمة بين الفاتحين لم يعدم تخريجا فقهيا لاتجاه عمر الى عدم القسمة ، فهو اما أن يكون قد جرى فى أرض أخذت صـلحا أو يكون قد جرى بعد استطابة أنفس الفـاتحين ان كان فى أرض فتحت عنوة « وهذا حلال للامام لو افتتح اليوم أرضا عنوة فاحصى من افتتحها، وطابوا نفسا عن حقوقهم منها أن يجعلها الامام وقفا ‥ » كما يقول الشافعى فى (الام) ، « **فالخلاصة أن أئمة الفقه الاسلامى وان اختلفوا فى التكييف القانونى لما قرره عمر وأمضاه فى أرض العنوة وفى التوفيق بين آيتى الفىء والغنيمة ، وما فعله الرسول مرة كتقسيم خيبر وتركه مرة اخرى كترك مكة وقرى بنى النضير وغيرها . بالرغم من ذلك قد انتهوا الى أن الأراضى التى فتحها المسلمون فى عصر صدر الاسلام قد صارت (وقفا) أى ملكا للأمة الاسلامية كمجموع** » (٢٥٠) .

تركت الادارة الاسلامية اذن الأراضى المفتوحة فى أيدى أصحابهـــا الأصليين ، وعلى تتابع الايام **كان من أصحاب الارض من يعتنق الاســـلام** وهنا ثارت القضية الثانية من قضايا نظام الارض فى البـــلاد المفتوحة : « قال الواقدى : قال مالك وابن أبى ذئب : اذا أسلم كافر من أهـــل العنوة أقرت أرضه فى يده يعمرها ويؤدى الخراج عنها ـ ولا اختلاف فى ذلك . وقال مالك وابن أبى ذئب وسفيان الثورى وابن أبى ليلى عن الرجل

---

(٢٤٩) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣١ ـ ٢ .

(٢٥٠) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ١١٤ : ١١٧ .

يسلم من أهل العنوة : الخراج فى الارض والزكاة من الزرع بعد الخراج ـ وهو قول الاوزاعى • وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يجتمع الخراج والزكاة على رجل » (٢٥١) • على أنه قد تقدم رأى أبى يوسف أن كل أرض أسلم عليها أهلها وهى من أرض العرب أو أرض العجم « فهى لهم ، وهى أرض عشر » وقد واجه الأمويون مشكلة الوضع القانونى للارض الخراجية التى يتحول أصحابها الى الاسلام : فاذا خفضت الجزية والخراج بمقدار ما ينقص منها بسبب الدخول فى الاسلام أضر ذلك ببيت المال ، واذا أخذا مبلغا اجماليا بالمقدار الذى كانا عليه أولا زاد العبء على الجماعة التى نقص أفرادها أثر اسلام بعضهم • فاذا هجر المسلمون الجدد ـ كما كان يحدث فى العادة وربما فى الغالب ـ قراهم ومزارعهم الى المدن التى كان يقطنها العرب كان هذا سببا فى حرمان القرى من اليد العاملة • ولما كان هؤلاء يسعون الى الالتحاق بالجيش العربى ، فان عملهم هذا كان من شأنه أن يوقع بيت المال فى خسارة مزدوجة : نقصان الخراج والجزية من جهة وزيادة العطاء من جهة أخرى •

وكان الالحاح على ملء الفجوة فى صفوف المقاتلين بعد ما أريق من دماء فى ثورة المختار ـ بالعراق ـ قد يفسح مجالا للمسلمين الجدد القادمين من القرى والرساتيق ، وهكذا تفقد مدن الجيش والحكومة طابعها العربى المميز • ولم تكن هذه المشكلة قد ظهرت فى عهد عمر بن الخطاب لأن الدخول فى الاسلام لم يبلغ حد تهديد بيت المال ، كما كان بيت المال يفيض بالغنائم ولا تزدحم عليه النفقات ، أما فى الجيل الثانى خصوصا فى عهد الأمويين فقد تغيرت الأحوال• ويروى أن الحجاج كان أول من قرر تغيير النظام الموروث لكى يقاوم النقص الذى لحق بيت المال ، **فلم يعف العرب الذين تملكوا أرضا من أرض الخراج من أن يدفعوا ما عليهم منها ، وفرض الخراج من جديد على قوم كان فىذلك الحين موضوعا عنهم ولابد أنه عامل المسلمين الجدد ـ من غير العرب ـ الذين بقوا فى قراهم واحتفظوا بأراضيهم من حيث ما يجب عليهم من خراج بمثل ما عامل به العرب ، ولكنه حرم عليهم الهجرة الى الحواضر** ، وكان فى بعض الأحيان يعيدهم الى قراهم بالقوة • ولقى ذلك سخطا بالطبع ، وواجه عمر بن عبد العزيز التقى الورع المشكلة « فاستنبط من السنة السابقة **أن أرض الخراج يجب أن تكون ملكا للمسلمين جميعا أولا ، ثم هى بعد ذلك لأهل القرى الذين**

---

(٢٥١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢ •

تركها لهم المسلمون مقابل خراجها بحيث لا يصح أن تقتطع أجزاء منها وتعتبر بسبب انتقالها الى أيدى المسلمين ملكا خاصا يعفى من الخراج . وتبعـــا لذلك أعلن عمر بن عبد العزيز أن بيع أرض الخراج على العرب والمسلمين غير جائز اعتبارا من سنة مائة للهجرة .

ولكنه لم يجعل لهذا المنع أثرا رجعيا ، أما اذا دخل المالك الملزم بدفع الجزية فى الاسلام فالظاهر أن عمر قرر رجوع ممتلكاته الى أهل القرية التى هو منها ، وكان المالك يستطيع بعد ذلك أن يبقى فيها متقبلا لها ـ وليست القبالة خراجا ـ كما كان يستطيع أن يرحل الى العواصم خلافا لما جرى عليه الحجاج .. وكان تحريم انتقال ملكية أرض الخراج اجراء تشريعيا جديدا له أعمق الأثر ، ولكنه كان يستند على كل حال الى الفـكرة الاصلية فيما يتعلق بأرض الخراج ، وكان نتيجة للمبدأ الذى عمل به فى أيام الفتح وهو أن الأرض لم تعتبر غنيمــة بل بقيت دون تقسيم .. ولم يســتطع عمر ابن عبد العزيز أن ينفذ سياسته .. فان الاضرار ببيت المـال صد شيئا لا يمكن تفاديه نظرا للطريقة التى حاول بها ما أراد .

ولم يمكن العمل بمبدأ عدم انتقال ملكية أرض الخراج ، ولم يمكن ايقاف انتقال الممتلكات كما لم يكن ايقاف تغيير الدين . ثم عاد الحال فيما بعد الى العمل بما كان قد جرى عليه الحجاج لكن مع تعديل .. ذلك أنه ظهرت تفرقة بين الخراج والجزية لم تكن موجودة من قبل : **فاعتبرت الجزية متعلقة بالشخص فلا تقع الا على غير المسلمين وكانت تسقط عن رؤوسهم اذا دخلوا فى الاسلام ، أما الخراج فصـــار يعتبر متعلقا بالأرض المزروعة كما اعتبر انه لا يشين الشخص ، ويجوز بل يجب أن يدفعه المسلمون أيضا اذا كانوا يملكون أرض خراج** . ولما كانت الأرض المنزرعة هى أهم ما يدفع عنه الخراج ، فان اسقاط الجزية عن الداخلين فى الاسلام لم يكن فى الحقيقة من جانب بيت المال تضحية كبيرة . وهكذا أمكن ان يفى بيت المال بحاجة الدولة الاسلامية من غير مشقة ، وكان الأمر أمر تدقيق فقهى » . وعلى هذا النحو أجيز أن يؤخذ الخراج ممن أسلم لا بحكم أنه جزية فى الأصل وانما بحكم ابقائه على الأرض باعتبارها من فىء المسلمين . ولم تكن هذه النتيجة التى وصل اليها التطور الفقهى من فعل عمر بن الخطاب . كما لم تكن تطبيقا لقاعدة تقضى بمنع الملكية الخاصة للأرض ـ كما ذهب فون كريمر وأوجست موللر اللذين رأيا فى اجراءات عمر بن عبد العزيز مجرد محـاولة للاقتـداء بعمر بن الخطـاب وغفـلا عن أن عمر لم يقل قط ان الخراج يتعلق بالارض والجزية تتصل بالشخص ، كما ان الاسلام

لا يمكن ان يقال انه حرم ملكية الأرض تماما على العرب فى الامصار ، لأن الأرض كانت تنتقل لهم عن طريق الشراء وغيره (٢٥٢) ٠

نقل ابن عساكر « قال الوليد : وأخبرنى أبو عمرو وغيره : **أن عمر وأصحاب رسول الله** أجمع رأيهم على اقرار ما كان بأيديهم من أرضهم يعمرونها ويؤدون منها خراجها الى المسلمين ، فمن أسلم منهم رفع عن رأسه الخراج وصار ما كان فى يده من الأرض وداره بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ، ويسلمون له ما له ورقيقه وحيوانه ، وفرضوا له فى ديوان المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ٠ ولا يرون أنه وان أسلم أولى بما كان فى يديه من أرضه من أصحابه وأهل بيته وقرابته ـ لا يجعلونها صافية للمسلمين ، وسموا من ثبت منهم على دينه وقريته ذمة للمسلمين ٠ ويرون أنه لا يصلح لأحد من المسلمين شرى ما فى أيديهم من الأرضين كرها ، لما احتجوا به على المسلمين من أن امساكهم كان عن قتالهم وتركهم مظاهرة عدوهم من الروم عليهم ٠ فهاب لذلك أصحاب رسول الله وولاة الأمر قسمهم وأخذ ما كان فى أيديهم من تلك الارضين ٠٠ قالوا : وكرهوا شراءها منهم طوعا بما كان من ايقاف عمر وأصحابه الأرضين محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين لاتباع ولا تورث ـ قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين ، ولما الزموه أنفسهم من اقامة فريضة الجهاد ٠٠ فسأل الناس **عبد الملك والوليد وسليمان** قطائع من أرض القرى التى بايدى أهل الذمة ، فأبوا عليهم ٠ ثم سألوهم أن يأذنوا لهم فى شرى الارضين من أهل الذمة ، فأذنوا لهم ـ على ادخال اثمانها ببيت المال وتقوية أهل الخراج به على خراج سنتهم مع ما ضعفوا عن أدائه ٠ وأوقفوا ذلك فى الدواوين ووضعوا خراج تلك الارضين عمن باعها منهم وعن أهل قراهم وصيروها لمن اشتراها يؤدى العشر ـ يبيعون ويمهرون ويورثون ٠٠٠ قال : واعرض **عمر بن عبد العزيز** عن تلك الاشرية بالاذن لأهلها فيها ، لاختلاط الأمور فيها لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون ـ فلم يقدر على تخليصه و لامعرفة ذلك ٠ قال : وأعرض عن الاشرية التى اشتراها المسلمون بغير اذن ولاة الأمر ، لما وقع فى ذلك من المواريث واختلاط الأمر ٠ **وجعل الاشرية وغير الاشرية سواء ، وامضاه لأهله ولمن كان فى يده**

---

(٢٥٢) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٢٦٣ : ٢٨٣ ، ايضا. حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٨٥ ـ ٦ ، تاريخ العرب : ترجمة نافع جـ ١ ص ٢٧١ ـ ٢ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية. جـ ٢ ص ٢٦٢ : ٤

كالقطائع للأرض عشرا ليس عليها ولا على من صارت اليه بميراث أو شراء جزية • قالوا : وكتب بذلك كتابا قرىء على الناس فى سنة مائة : واعلمهم انه لا جزية عليها وانها أرض عشر ، وكتب ان من اشترى شيئا بعد سنة مائة فان بيعه مردود وسمى سنة مائة المدة ـ فسماها المسلمون بعده المدة• فأمضى ذلك فى بقية ولايته ، ثم أمضاه يزيد وهشام أبنا عبد الملك ـ فتناهى الناس عن شرائها بعد سنة مائة بسنيات ، ثم اشتروا أشرية كثيرة كانت بأيدى أهلها يؤدون العشر ولا جزية عليها • فلما أفضى الأمر الى أبى جعفر عبد الله بن محمد أمير المؤمنين رفعت اليه تلك الاشرية ، وانها تؤدى العشر ولا جزية عليها وان ذلك أضر بالخراج وكسره ، فأراد ردها الى أهلها ، وقيل له : قد وقعت فى المواريث والمهور واختلط أمرها • فبعث المعدلين الى كور الشام سنة أربعين أو احدى وأربعين : منهم عبد الله ابن يزيد الى حمص واسماعيل بن عياش الى بعلبك ـ فى أشباه لهم ، فعدلوا تلك الأشرية على من هى بيده شرى أو ميراث أو مهر ، وعدلوا مابقى بأرض الانباط من بقية الأرض على تعديل مسمى• ولم تعدل الغوطة فى تلك السنة ، وكان من كان بيده شىء من تلك الاشرية من أهل الغوطة يؤدى العشر حتى بعث أمير المؤمنين عبد الله بن محمد : هضاب بن طوق ومحرز ابن زريق ـ فعدلوا الاشرية ، وأمرهم الا يضعوا على شىء من القطائع القديمة ولا الاشرية خراجا وان يمضوها لأهلها عشرية ، ويضعوا الخراج على ما بقى منها بأرض الانباط وعلى الاشرية المحدثة من بعد سنة مائة الى السنة التى عدل فيها » (٢٥٣) وأورد البلاذرى : كان أبو اسحق الفزارى يكره شرى الأرض بالثغر ، ويقول : غلب عليه قوم فى بدى الامر وأجلوا الروم عنه ولم يقتسموه ، وصار الى غيرهم وقد دخلت فى هذا الامر شبهة العاقل حقيق بتركها (٢٥٤) • على أن الطبرى أورد مثلا فى أخبار سنة ٢٤١ هـ أن المتوكل « جعل كورة شمشاط عشرا ، ونقلهم من الخراج الى العشر ، وأخرج لهم بذلك كتابا » بل يبدو أن المتوكل قد جعل الثغور عامة عشرية بدل أن كانت خراجية ، فيروى البلاذرى « ولم تزل شمشاط خراجية حتى صيرها المتوكل عشرية اسوة غيرها من الثغور » (٢٥٥) •

وقد عرض الفقهاء لأبحاث فرعية فى أحكام الخراج ، منها مدى التزام أهل الخراج بحفر الانهار والمجارى الى أرضهم « قال أبو يوسف : واذا احتاج أهل السواد الى كرى أنهارهم العظام التى تأخذ من دجلة والفرات

---

(٢٥٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٥٩٣ ـ ٧ •
(٢٥٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٩ •
(٢٥٥) الطبرى ج ١١ ص ٥٢ البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٢ •

كريت لهم ، وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج ، وأما الأنهار التى يجرونها الى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء . فأما البثوق والمسينات والبريدات التى تكون فى دجلة والفرات وغيرهما من الانهار العظام فان النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء ـ لأن مصلحة هذا على الامام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال لأن عطب الارضيين من هذا وشبهه وانما يدخل الضرر من ذلك على الخراج » (٢٥٦) .

وقد ذكر البلاذرى أن بالس والقرى المنسوبة اليها فى حدها الأعلى والأوسط والأسفل كانت اعذاء عشرية ـ والعذى ما تسقيه السماء ـ وقد رتب أبوعبيدة ببالس عند الفتح جماعة منالمقاتلةواسكنها قوما منالعرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام « فلما كان مسلمة ابن عبد الملك توجه غازيا للروم من نحو الثغور الجزرية عسكر ببالس فأتاه أهلها وأهل بوبلس وقاصرين وعابدين وهى قرى منسوبة اليها ، فأتاه أهل الحد الأعلى فسألوه جميعا أن يحفر لهم نهرا من الفرات يسقى أرضهم على ان يجعلوا له الثلث من غلاتهم ـ بعد عشر السلطات الذى كان يأخذه ، ففعل . فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة . ووفوا له بالشرط .. ويقال بل كان ابتداء الغرض من مسلمة وانهم دعاهم الى هذه المعاملة » (٢٥٧) .

كذلك حرصت أحكام من الفقه الاسلامى على ضمان الزراعة فى الأراضى الخارجية على الدوام « وقال أبو الزناد ومالك وأبو حنيفة وسفيان ويعقوب وابن أبى ليلى وزفر ومحمد بن الحسن وبشر بن غياث : اذا عطل رجل أرضه قيل له ازرعها وأد خراجها ،والا فادفعها الى غيرك يزرعها فأما أرض العشر فانه لا يقال له فيها شيء ، ان زرع أخذت منه الصدقة وان أبى فهو أعلم . وقالوا : اذا عطل رجل أرضه سنتين ثم عمرها أدى خراجا واحدا ، وقال أبو شمر : يؤدى الخراج للسنتين . وقال أبو حنيفة وسفيان ومالك وابن أبى ذئب وأبو عمرو الاوزاعى : اذا أصابت الغلات

(٢٥٦) أبو يوسف : الخراج ص ١١٠ .

(٢٥٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٧ ، الدكتوران يحيى الخشاب والعرينى : ضبط وتحقيق الالفاظ الاصطلاحية التاريخية بمفاتيح العلوم للخوارزمى . المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨ .

آفة أو غرق سقط الخراج عن صاحبها ٠٠وقال أبو يوسف فى أرض موات من أرض العنوة يحييها المسلم ـ انهـــا له ، وهى أرض خراج ان كانت تشرب من ماء الخراج ، فان استنبط لها عينا أو سقاها من ماء السـماء فهى أرض عشر ٠ وقال بشر : هى أرض عشر شربت من ماء الخراج أو غيره » ٠

وعرض الفقهاء لحكم الارض الخراجية اذا تعددت زراعاتها فى العام الواحد : « قال مالك وابن أبى ذئب وسفيان وأبو حنيفة : اذا زرع الرجل أرضه الخراجية مرات فى السنة لم يؤخذ منه الا خراج واحد ، وقال ابن أبى ليلى : يؤخذ منه الخراج كلما أدركت له غلة ـ وهو قول بن أبى سبرة وأبى شمر ٠ »

واذا استغلت الأرض الخراجية فى البناء « قال أبو حنيفة والثورى فى أرض الخراج اذا بنى مسلم أو ذمى فيها بناء من حوانيت أو غيرها أنه لا شىء عليه ، فان جعلها بستانا الزم الخراج ٠ وقال مالك وابن أبى ذئب: نرى الزامه الخراج لأن انتفـــاعه كانتفاعه بالزرع ٠٠ وقال أبو حنيفة والثورى وأصحابهما ومالك وابن أبى ذئب والليث بن سعد فى أرض الخراج التى تنسب الى أحد : يقعـد المسلمون فيها فيتبايعون ويجعلونها سوقا : انه لا خراج عليهم فيها » (٢٥٨) ٠

***

والخراج قد يعنى به ايرادات الدولة بوجه عام من الخراج وغيره ، وهذا هو المعنى الذى يفهم حين تذكر قوائم الخراج للدولة الاسلامية ٠ وقوائم الخراج التى ذكرها المؤلفون العرب تنسب عهودهـــا لى العصر العباسى الأول وتقدم صورة عن الحالة المالية لولايات الدولة المختلفة :

١ ـ **قائمة البلاذرى** : وهى قائمة مجملة لوظائف أجناد الشام ٠

وظيفة الأردن	١٨٠ر٠٠٠ دينار
فلسطين	٣٥٠ر٠٠٠ دينار
دمشق	٤٠٠ر٠٠٠ دينار

حمص مع قنسرين وكور العواصم ٨٠٠ر٠٠٠ أو ٧٠٠ر٠٠٠ دينـار (٢٥٩) ٠

---

(٢٥٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢ ـ ٣ ٠
(٢٥٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠١ ـ ٢ ٠

٢ ـ **قائمة الجهشيارى** : ذكر الجهشيارى فى كتابه (الوزراء والكتاب) « وجدت فى كتاب عمله أبو الفضل محمد بن عبد الحميد الكاتب فى أخبار خلفاء بني العباس ، بخط أبى الفضل يقول : أنفذ الى أبو القاسم جعفر بن محمد بن حفص رقعة انتسخها من دواوين الخراج ، ذكر فيهما أن أبا الورد عمير بن مطرف الكاتب من أهل مرو وأنه كان يتقلد ديوان المشرق للمهدى وهو ولى عهد ثم كتب له فى خلافته ولموسى وهارون ، **وانه عمل في أيام الرشيد تقديرا عرضه على يحيى بن خالد لما يحمل الى بيت المال بالحضرة من جميع النواحي من المال والأمتعة** » •

ونحن نورد من هذه القائمة ما يتعلق بأجناد الشام والجزيرة فحسب :

ولموصل وما يليها ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ـ من العروض العسل الأبيض ٢٠٫٠٠٠ رطل •

الجزيرة والديارات والفرات ٣٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم

أذربيجان ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم

أرمينية ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم

البسط المحفورة ٢٠ ، الرقم ٥٨٠ قطعة ، المالح المنبود (ما هى) ١٠٫٠٠٠ رطل ، الطريخ ١٠٫٠٠٠ رطل ، البزاة ٣٠ ، البغال ٢٠٠ •

قنسرين والعواصم ٤٩٠٫٠٠٠ دينار ـ ونقلها لى سترينج ٤٧٠٫٠٠٠

حمص ٣٢٠٫٠٠٠ دينار

الزبيب ألف راحلة ـ وقد تكون صحتها الزيت كما لاحظ لى سترينج

دمشق ٤٣٠٫٠٠٠ دينار

الأردن ٩٦٫٠٠٠ دينار

فلسطين ٣٢٠٫٠٠٠ دينار

ومن جميع أجناد الشام من الزبيب ٣٠٠٫٠٠٠ رطل •

وقد جمع لى سترينج خراج أجناد الشام الخمسة فبلغت ١٫٦١٦٫٠٠٠ دينار مع ملاحظة أنه أثبت خراج قنسرين والعواصم ٤٧٠٫٠٠٠ دينار فقط، وقد قدر هذا بما يعادل ٨٠٨٫٠٠٠ استرلينى بقيمته الأصلية أو ٢٫٥ مليون بالعملة القائمة فى وقته (٢٦٠) •

---

(٢٦٠) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٠٥ : ٨

Le Strange Palestine under the Moslems. p. 45.

٣ ـ **قائمة ابن خلدون** : نقل ابن خلدون فى مقدمته أنه « وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل الى بيت المال ببغـــداد أيام المأمون من جميع النواحى نقلته من جراب الدولة ٠٠ » ٠ ويشك لى سترينج فى نسبة هذه القائمة الى عهد المأمون ، ويرجح أنها ترجع الى قبل ذلك بنصف قرن أيام جده المهدى بين سنة ١٥٨ ، وسنة ١٧٠ هـ كما يلاحظ اتفاقها فى معظم الحالات مع قائمة الجهشيارى وفيما يلى ما يتعلق بموضوعنا من القائمة :

الموصل وما اليهـا ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٤ درهم ـ مرتين ٠٠٠ العسـل الأبيض ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠ رطل ٠

أذربيجان ٠٠٠ر٠٠٠ر٤ درهم ـ مرتين

الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٤ درهم مرتين

الرقيق ١٠٠٠ رأس ، العسل ٠٠٠ر١٢ زق ، البزاة ١٠ ، الاكسية ٢٠ ٠

ارمينية ٠٠٠ر٠٠٠ر١٣ درهم ـ مرتين

البسط المحفورة ٢٠ ، الرقم ٥٣٠ ، المالح ٠٠٠ر١٠ رطل ، الطريخ ١٠٠٠ رطل ، البغال ٢٠٠ ، البزاة ٣٠ الزيت ١٠٠٠ حمل

قنسرين	٠٠٠ر٤٠٠ دينار
دمشق	٠٠٠ر٤٢٠ دينار
الأردن	٠٠٠ر٩٧ دينار
فلسطين	٠٠٠ر٣١٠ دينار
من الزيت	٠٠٠ر٣٠٠ رطل

وهذه القائمة تفتقد بيان خراج جند حمص ، ومجموع خراج أجناد الشام على حالتها بالقائمة ٠٠٠ر٢٢٧ر١ دينار وقدرها لى سترينج بمـــا يعادل ٠٠٠ر٦٢٠ جنيه استرليني بقيمته الاصلية أى أقل من ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ بقيمته السائدة فى وقته (٢٦١) ٠

---

(٢٦١) ابن خلدون : المقدمة ٠ طبعة دكتور وافى ج ٢ ص ٥٠٠ : ٤ ،
Le Strange : Palestine under the Moslems. pp. 44-5.

ويرى الدكتور الريس أن قائمة ابن خلدون « ليست لعصر المأمون وانما هي لعصر الرشيد ، بل الحقيقة كلها هي أن هذه القائمة ليست الا قائمة الجهشياري نفسها ، وان كان هناك اختلاف فمن خطأ النساخ » ٠ ويستدل على ذلك بأن مصدري قائمتي الجهشياري وابن خلدون متحد الاسم عدا تحريف بسيط كما أن الديباجتين صيغتهما واحدة ٠ ثم ان القائمتين متطابقتان في أكثر الأرقام المذكورة ، ومنها أرقام الموصل وأذربيجان والجزيرة والفرات وأرمينية ـ وبوجه عام في ٢٢ موضعا أما بقية الأقاليم ـ وهي الأقلية ـ فالنظر يرجح أن الاختلاف من تحريف النساخ : ففي قائمة الجهشياري خراج قنسرين ٠٠٠ر٤٩٠ دينار ، بينما هو في قائمة ابن خلدون ٠٠٠ر٤٠٠ دينار ، **وقد سقط من قائمة ابن خلدون خراج حمص ، كما سقط خراج موقان وجيلان مع بقاء ذكر العروض (الضرائب العينية) الخاصة بها عند (الجزيرة والفرات) مع أنها لا تناسب هذا الاقليم** اذ ورد فيها « ومن الرقيق ألف رأس ٠٠ الخ » ٠ كذلك يلاحظ أن نفس العروض والأمتعة واحدة في القائمتين : الأنواع والمقادير بالضبط وذكر في قائمة ابن خلدون أن خراج الري « اثنا عشر الف ألف درهم » وهذا الرقم ان كان كذلك في قائمة الجهشياري الا انه مقبول حين يرجع الى عهد الرشيد لكنه غير مقبول بالنسبة الى عصر المأمون ، اذ ذكر البلاذري والطبري أن المأمون اسقط من وظيفة الري ألفي ألف درهم ، ولذا نص ابن خرداذبة على أن خراجها « عشرة آلاف الف درهم » كذلك ورد بقائمة ابن خلدون ذكر خراج السند وافريقية ، وهاتان الولايتان استقلتا أيام المأمون ولم يذكرهما قدامة ولا بن خرداذبة ، وقد لا حظ ذلك فون كريمر، ورد عليه جرجي زيدان مرجحا رأى ابن خلدون (٢٦٢) ٠

وعلق الدكتور مؤنس على ذلك بقوله « لا يظن أن بن خلدون معصوم من الوهم في مسائل المال والجبايات خاصة ، بل وربما كان وهمه في هذه الناحية من أقوى المآخذ على تاريخه ٠٠ وقائمته لا تخلو من مشاكل تجعل الاعتماد عليها أمرا عسيرا ٠ مثال ذلك : انه يذكر كلمة مرتين بعد رقم الخراج ـ وأحيانا يذكر ثلاث مرات ، فهل المراد ان المبلغ كان يدفع على مرتين ـ كل دفعة نصف القيمة ، أم المراد أن المبلغ يؤدى مرتين ـ فتكون جباية النواحي ضعف الرقم المذكور ؟ ٠٠ والراى ان المراد بلفظ مرتين أن القدر يحمل الى الخليفة مرتين في موعدين مختلفين بدليل أنه يقول في بعض الحالات مرة فقط ، وبذلك تتغير أرقام القائمة تماما ٠

---

(٢٦٢) دكتور الريس : الخراج في الدولة الاسلامية ص ٤٢٧ : ٤٣١

ثم ان القائمة تهمل قيمة الأشياء الأخرى التى كانت ترسل مع الأموال مع أنها جزء لا يتجزأ من الخراج ، فقد كان بعضه يرسل مالا وبعضه يرسل عينا » (٢٦٣) ٠

وقد لاحظ الدكتور الريس بعض ملاحظات حسابية بالنسبة لاحصاء مجموع الدراهم فى قائمة الجهشيارى وقد خرج بأن مجموع الخراج هــو ٤٩٠ر٣٧٠ر٠٠٠ درهما علاوة على أثمان الامتعة والعروض ٠ (٢٦٤)

٤ ـ **قائمة قدامة** : وتمثل الحالة المالية للدولة فى خلال الربع الأول من القرن الثالث ابتداء من سنة ٢٠٤ هـ ، لأن هذه « أول سنة يوجد حسابها فى الدواوين بالحضرة » اذ ان الدواوين كانت أحرقت فى أيام الفتنة بين الامين والمأمون ، فالقائمة تبين الخراج فى عصر المأمون وأوائل عهد المعتصم ، ويبدو أنها اعتمدت على قوائم رسمية ٠ ومما جاء فى هذه القائمة :

ارتفاع أعمال الموصل في المتوسط ٦ر٣٠٠ر٠٠٠ درهم ٠

باقردى وبازبدى وقصبتاهما بجزيرة ابن عمر وباسورين ٣ر٢٠٠ر٠٠٠ درهم ٠

ديار ربيعة وكورها بلد ونصيبين ودارا وماردين ورأس العين والخابور وتل سنجار الخ ٤ر٦٣٥ر٠٠٠ درهم (٩ر٦٣٥ر٠٠٠ درهم)٠

أرزن وميافارقين ٤ر١٠٠ر٠٠٠ درهم (٤ر٢٠٠ر٠٠٠ درهم)

طرون من أعمال ارمينية ١٠٠ر٠٠٠ درهم

ارمينية وكورها ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم

ديار مضر : الرها ، حران ، سروج ٠٠٠ الخ ٦ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم٠

أعمال طريق الفرات : هيت ، عانة ، الرحبة ، قرقيسيا الخ ٢ر٩٠٠ر٠٠٠ درهم ٠

جند قنسرين والعواصم : حلب ، انطاكية ، منبج الخ ٣٦٠ر٠٠٠ دينار ٠

---

(٢٦٣) دكتور مؤنس : تعليق بهامش تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان جـ ٢ ص ٥٦ : ٨ هامش ٠

(٢٦٤) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٤٣٣ : ٦

حمص	١١٨ر٠٠٠	دينار	(٢١٨ر٠٠٠ دينار)
دمشق	١١٠ر٠٠٠	دينار	
الأردن	١٠٩ر٠٠٠	دينار	
فلسطين	١٩٥ر٠٠٠	دينار	(٢٥٩ر٠٠٠ دينار)

وهناك اختلافات بين القائمة التفصيلية التي اوردها قدامة ، ثم القائمة المجملة التي انهى بها بحثه . فخراج ديار ربيعة مثلا مذكور على أنه ٤ر٦٣٥ر٠٠٠ درهم في القائمة المفصلة وعند الاجمال ذكر أنه ٩ر٦٣٥ر٠٠٠ درهم ، كذلك ذكر ارتفاع اعمال حمص عند التفصيل على أنه ١١٨ر٠٠٠ دينار . واجمل على أنه ٢١٨ر٠٠٠ دينار وتكرر هذا بالنسبة لجند فلسطين ذكر في التفصيل أنه ١٩٥ر٠٠٠ دينار وعند الاجمال ٢٥٩ر٠٠٠ . وقد اخذ لى سترينج بماورد في ثنايا البيان المفصل . ويذكر قدامة « والذي بيناه في مبالغ الارتفاعات فعلى التوسط، وما يرتفع بعض النواحي في هذا الوقت وينقص البعض نقصانا لا تلتفت اليه ولا تعمل عليه ، لأنه انما عمل بقلة الضبط واضاعة الحزم ، والباقي الممنوع منه فهذه سبيله ايضا » . وقد جمع لى سترينج ارتفاع أجناد الشام فبلغ ٩٠٢ر٠٠٠ دينار أو ما يعادل ٤٥١ر٠٠٠ استرليني بقيمته الأصلية أو ما يقرب من مليون وفق القيمة السائدة في وقته (٢٦٥) .

وقد احصى الدكتور الريس المجموع الكلي للخراج بعد تحويل الدنانير الى دراهم ـ ويلاحظ انه يعتمد على الارقام الواردة في قائمة قدامة الاجمالية ـ فبلغ ٣٩٣ر٢٣ر٣٥٠ درهم ، فاذا اضيفت اليه اثمان العروض والامتعة صار لا يقل عن ٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ـ ومعنى ذلك أنه نقص ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم عن عصر الرشيد (٢٦٦) .

٥ ـ **قائمة بن خرداذبة** : وهو من رجال القرن الثالث ، عاصر الواثق والمتوكل ثم المعتمد ، وقد تولى البريد بالجبال . ويستنتج دى خويه بأن ابن خرداذبة ألف كتابه سنة ٢٣٢ هـ وهي آخر سنة من عهد الواثق ، وقد صرح ابن خرداذبة بأنه تلقى معلوماته عن الخراج من الفضل بن مروان ـ وهذا كان وزيرا للمعتصم ثم عزل ثم صار واليا على

---

(٢٦٥) قدامة : نبذ من كتاب الخراج ـ ملحق بالمسالك والممالك لا بن خرداذبة ص ٢٤٥ : ٢٥١ ، Le Strange : Palestine under the Moslems. pp. 45-6.

(٢٦٦) دكتور الريس : الخراج في الدولة الاسلامية ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

ديوان الخراج للواثق ، ثم اعفى سنة ٢٣٣ هـ . فالقائمة قريبة العهد بقائمة قدامة وتشابههما كبير :

أذربيجان	٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم	حمص	٣٤٠٫٠٠٠ دينار
الموصل	٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم	قنسرين	٤٠٠٫٠٠٠ دينار
ديار مضر	٥٫٦٠٠٫٠٠٠ درهم	دمشق	٤٠٠٫٠٠٠ دينار
ديار ربيعة	٧٫٧٠٠٫٠٠٠ درهم	الأردن	٣٥٠٫٠٠٠ دينار
أرمينية	٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم	فلسطين	٥٠٠٫٠٠٠ دينار

وقد جمع لى سترينج خراج أجناد الشام فكان ١٫١٩٠٫٠٠٠ دينار أو حوالى ١٫٠٠٠٫٠٠٠ استرلينى فى قيمته الأصلية ويعادل ثلاثة ملايين تقريبا بقيمة العملة فى عهده (٢٦٧) .

وقد قدر الدكتور الريس مجموع قائمة ابن خرداذبة فكان الناتج ٣٣٤٫٨٥٥٫٨٤٠ فكأنها تفرق عن قائمة قدامة نحو ٥٩ مليونا . ولكن يلاحظ أن ابن خرداذبة أغفل ذكر ارقام الخراج لبعض البلدان ولم يقدم قائمة مرتبة مسلسلة ، بل كان يتناول الخراج عرضا فى ثنايا حديثه عن وصف الطرق وعدد الأميال (٢٦٨) .

وقد نقل ابن خرداذبة بجانب الارقام التى أوردها أرقاما أخرى نقلها عن الاصبهانى الذى برز فى بداية القرن ٩ م وهى :

حمص ١٨٠٫٠٠٠ دينار ، دمشق ١٤٠٫٠٠٠ ، الأردن ١٧٥٫٠٠٠ ، فلسطين ١٧٥٫٠٠٠ ، وهذا يجعل المجموع ٦٧٠٫٠٠٠ دينار ويقدرها لى سترينج بما يعادل ٢٣٥٫٠٠٠ استرلينى بقيمته الأصلية أو حوالى مليون بالقيمة السائدة فى وقته (٢٦٩) .

٦ ـ **قوائم أخرى** : ذكر **اليعقوبى** أن خراج حمص ٢٢٠٫٠٠٠ دينار ، دمشق سوى الضياع ٣٠٠٫٠٠٠ دينار ، والأردن سوى الضياع ١٠٠٫٠٠٠ دينار ، وفلسطين سوى الضياع ٣٠٠٫٠٠٠ دينار ، فيكون

---

(٢٦٧) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٣ ـ ٦ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ايضا المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٩ ،
Le-Strange: Palestine under the Moslemsp. 46

(٢٦٨) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٤٤٦ .

(٢٦٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٤ : ٧ هامش .
Le Strange : Palestine under the Moslems p. 46-7.

المجموع ٩٢٠٫٠٠٠ دينار . ويقدرها لى سترينج بما يعادل ٤٦٠٫٠٠٠ استرلينى بقيمته الأصلية أو مايقل عن مليون بالقيمة السائدة فى وقته (٢٧٠) .

وطبقا **لابن حوقل** يبلغ خراج الشام سنة ٢٩٦ هـ ، ٣٠٦ هـ بعد اسقاط رواتب الموظفين ٣٩٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وقد قدره لى سترينج بـ ١٫٣٠٠٫٠٠٠ استرلينى بالقيمة الاصلية أو حوالى أربع ملايين بالقيمة السائدة فى وقته (٢٧١) .

وينقل **المقدسى** أرقام ابن الفقيه وابن خرداذبة ، وهو يورد بالنسبة لأيامه هذه الأرقام :

قنسرين والعواصم : ٣٦٠٫٠٠٠ دينار ، دمشق ٤٠٠٫٠٠٠ دينار ونيف الأردن ١٧٠٫٠٠٠ دينار ، فلسطين ٢٥٩٫٠٠٠ دينار . والمجموع ١٫١٨٩٫٠٠٠ دينار أو حوالى ٦٠٠٫٠٠٠ ألف استرلينى كما يقدره لى سترينج حسب القيمة الاصلية وهو يعادل ١٫٨٠٠٫٠٠٠ بالعملة السائدة فى وقته . وبعد أيام المقدسى لا يبدو أمامنا تسجيل لخراج الشام . وبعد قرن من زمانه اتى الصليبيون ، وحينما استعاد المسلمون البلاد بعد قرن آخر لم يسجل صلاح الدين وخلفاؤه خراج الشام (٢٧٢) .

ومما عرف فى نظام الخراج فى الدولة الاسلامية ما يسمي **بالايغار** — وقد وردت الاشارة له منذ أيام عبد الملك ابن مروان . وهو كما جاء فى القاموس أن يوغر الملك الرجل الارض فيجعلها له من غير خراج ، أو هو أن يؤدى الخراج للسلطان الاكبر فرارا من العمال . وذكر الخوارزمى : ان الايغار هو الحماية ، وذلك أن تحمى الضيعة أو القرية فلا يدخلها عامل ، ويوضع عليها شيء يؤدى فى السنة لبيت المال فى الحضرة أو فى بعض النواحى . وفى لسان العرب : والايغار المستعمل فى باب الخراج قال ابن دريد لا احسبه عربيا صحيحا ، وقد يسمى ضمان الخراج ايغارا ، وقيل الايغار ان يسقط الخراج عن صاحبه فى بلد ويحول مثله الى بلد آخر فيكون ساقطا عن الاول وراجعا الى بيت المال ، وقيل سمى الايغار لانه يوغر صدور الذى يزاد عليهم خراج لا يلزمهم (٢٧٣) . وروى البلاذرى

(٢٧٠) اليعقوبى : البلدان : ملحق بالاعلاق النفيسة لابن رستة ص ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ . Le Strange : Palestine under the Moslems ,p. 47.

(٢٧١) ابن حوقل : Le Strange : Palestine. p. 47.

(٢٧٢) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٨٩ Le Strange : Palestine. p. 47.

(٢٧٣) الدكتوران يحيى الخشاب والعريلى : ضبط وتحقيق الالفاظ الاصطلاحية التاريخية بمفاتيح العلوم للخوارزمى — المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨م ، دكتور الريس: الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٢٥٠

فى نهاية كلامه عن الثغور الشامية « وكانت بالثغر ايغارات قد تحيفت ما يرتفع من اعشاره حتى قصرت عن نفقاته ، فأمر المتوكل سنة ٢٤٣ هـ بابطال تلك الايغارات فأبطلت » (٢٧٤) ٠

الجزية :

هى الضريبة الموضوعة على الرءوس وتفرض على غير المسلمين فى البلاد المفتوحة ، وذكر الماوردى انها تفترق عن الخراج من ثلاثة أوجه : « فأحدها : ن الجزية نص وان الخراج اجتهاد ، والثانى أن أقل الجزية مقدر بالشرع وأكثرها مقدر بالاجتهاد ، والخراج أقله واكثره مقدر بالاجتهاد والثالث : **أن الجزية تؤخذ مع بقاء الكفر وتسقط بحدوث الاسلام والخراج يؤخذ مع الكفر والاسلام** ٠٠٠ فيجب على ولى الامر أن يضع الجزية على رقاب من دخل بالذمة من أهل الكتاب ليقروا بها فى دار الاسلام ، ويلتزم لهم ببذلها حقان : أحدهما الكف عنهم والثانى الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين ٠٠٠ والعرب فى أخذ الجزية كغيرهم ، وقال أبو حنيفة لا آخذها من العرب لئلا يجرى عليهم صغار ٠ ولا تؤخذ من مرتد ولا دهرى ولا عابد وثن وأخذها أبو حنيفة من عبدة الاوثان اذا كانوا عجما ولم يأخذها منهم اذا كانوا عربا وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى وكتابهم التوراة والانجيل ويجرى المجوس مجراهم فى أخذ الجزية منهم ٠٠٠ ولا تجب الجزية الا على الرجال الاحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبى ولا مجنون ولا عبد لانهم اتباع وذرارى ٠٠٠ واختلف الفقهاء فى قدر الجزية : فذهب ابو حنيفة الى تصنيفهم ثلاثة أصناف ـ أغنياء يؤخذ منهم ٤٨ درهما واوساط يؤخذ منهم ٢٤ درهما ، وفقراء يؤخذمنهم ١٢ درهما٠٠٠وقال مالك لا يقدر اقلها ولا اكثرها وهى موكولة الى اجتهاد الولاة ، وذهب الشافعى الى انها مقدرة الاقل بدينار وعنده غير مقدرة الاكثر ٠٠٠ فاذا اجتهد ـ الوالى ـ رأيه فى عقد الجزية معهم على مراضاة اولى الامر صارت لازمة لجميعهم ولاعقابهم قرنا بعد قرن ولا يجوز لوال بعده أن يغيره الى نقصان منه أو زيادة عليه ٠ فان صولحوا على مضاعفة الصدقة عليهم ضوعفت كما ضاعف عمر مع تنوخ وبهراء وبنى تغلب بالشام ٠٠٠ ويثبت الامام ما استقر من عقد الصلح معهم فى دواوين الامصار ليؤخذوا به اذا تركوه فان لكل قوم صلحا ربما خالف ما سواه ٠ ولا تجب الجزية عليهم فى السنة الا مرة واحدة (٢٧٥) ٠

---

(٢٧٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٩

(٢٧٥) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٢٦ : ١٣٠

أما من الوجهة التاريخية فقد روى عن الأوزاعى : كانت الجزية فى بادىء الامر جريبا ودينارا على كل جمجمة ، ثم وضعها عمر على أهل الورق اربعين درهما · وجعلهم طبقات : لغنى الغنى واقلال المقل وتوسط المتوسط · وقد كتب عمر الى أمراء الاجناد الا يضعوا الجزية الا على من جرت أو مرت عليه المواسى ، وبجانب الجزية النقدية ـ كان « عليهم ارزاق المسلمين من الحنطة مديين وثلاثة اقساط زيت لكل انسان كل شهر ـ **من كان من اهل الشام واهل الجزيرة** ، ومن كان من اهل مصر أردب لكل انسان وكل شهر ، ومن الودك والعسل شىء لم نحفظه ، وعليهم من البز التى كان يكسوها امير المؤمنين الناس شىء لم نحفظه ، ويضيفون من نزل بهم من أهل الاسلام ثلاثة أيام وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل انسان » ·

ويروى ابن العديم من شرط عمر على أهل قنسرين « على الغنى ثمانية وأربعون ، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المدقع اثنا عشر ، يؤديها بصغار ، وعلى مشاطرة المنازل بينهم وبين المسلمين وأن يقروا ضيف المسلمين ثلاثا ··· فدخل فى هذا الصلح أهل الجزيرة · وقيل ذلك ما كان أبو عبيدة فارقهم على أربعة دراهم ، وعبادة ··· على أن يكون عمر الفارض عليهم اذا قدم بلادهم (٢٧٦) ·

ونزول الجند على أهل البلاد وعيشهم على نفقتهم تقليد عسكرى قديم ، فقد كان جند الرومان مثلا اذا انزلوا بلدا استحلوا دخول بيوته وأرغموا أهله على اطعامهم واطعام دوابهم وكانوا يسمون ذلك ضيافة Hospitalitas وكان الجنود ينتهزون هذه الفرصة ويرهقون الاهالى بمطالبهم من الطعام وما اليه · وقد حاول أباطرة الرومان ان يحددوا الضيافة بثلاثة أيام وبأنواع معينة من الطعام فلم يستطيعوا أن يحملوا الجند على ذلك · وعندما غزا الجرمان اراضى الدولة الرومانية استغلوا حق الضيافة وقاسموا الاهلين أموالهم واملاكهم على أساس الثلثين للجرمانى والثلث للرومانى وظل ذلك عرفا مقررا للمحاربين فى أوربا طوال العصور الوسطى وكان يعرف بحق الايواء droite de gite أما فى المصطلح الاسلامى فيعرف **بالنزلة** ، ويشك فيما ورد عن عمر فى هذا الشأن ، وبعض الروايات المروية عنه ·· تحدد النزالة بثلاثة أيام

---

(٢٧٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٠ ـ ١ ، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٥٧١ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٣ ـ ٤ ·

وتعفى الناس من تقديم أصناف معينة للجنود تيسيرا عليهم وحماية لهم من الجند ومثل هذه الاحكام قد وضعت فى زمن متأخر (٢٧٧) ٠

وكما استجابت الاحكام الفقهية للضرورات العملية فى شأن الخراج ، فقد حدث هذا أيضا بالنسبة للجزية ٠ فان الظروف والمطالب السياسية والحربية قد جعلت المسلمين لا يعممون حكم الجزية على مختلف رعاياهم وخاصة من كانوا يسكنون على حدود الدولة البيزنطية ٠ فقد أراد عمر مثلا أن يأخذ الجزية من **نصارى بنى تغلب** فانطلقوا هاربين الى أرض الروم ، فقال رجل لعمر : انشدك الله فى بنى تغلب فانهم قوم من العرب نائفون من الجزية وهم **قوم شديدة نكايتهم فلا يغن عدوك عليك بهم** ، « فأرسل عمر فى طلبهم فردهم ، واضعف عليهم الصدقة ٠٠٠ وقالوا : اما اذا لم تكن جزية كجزية الاعلاج فانا نرضى ونحفظ ديننا » ٠ قال الواقدى « وقال سفيان الثورى والاوزاعى ومالك وابن ابى ليلى وابن ابى ذئب وابو حنيفة وأبو يوسف : يؤخذ من التغلبى ضعف ما يؤخذ من المسلم فى أرضه وماشيته وماله ٠ فأما الصبى والمعتوه منهم : فان أهل العراق يرون أن يؤخذ ضعف الصدقه من أرضه ولا يأخذون من ماشيتهم شيئا ، قال أهل الحجاز : يؤخذ ذلك من ماشيته وارضه ٠ وقالوا جميعا : ان سبيل ما يؤخذ من أموال بنى تغلب **سبيل مال الخراج لانه بدل من من الجزية** » ٠ وقد راعى المسلمون الوضع الخاص لبعض الطوائف مثل **السامرة** « والسامرة يهود وهم صنفان : صنف يقال لهم الدستان ، وصنف يقال لهم الكوشان » ٠ وعند الفتح روى أن أبا عبيدة « صالح السامرة بالاردن وفلسطين **وكانوا عيونا وادلاء للمسلمين** على جزية رءوسهم وأطعمهم ارضهم » ٠ فلما كان يزيد ابن معاوية « وضع الخراج على أرض السامرة بالاردن وجعل على رأس كل امرىء منهم دينارين ، ووضع الخراج ايضا على ارضهم بفلسطين وجعل على رأس كل امرىء منهم خمسة دنانير ٠٠٠ قالوا : وكان بفلسطين فى أول خلافة الرشيد طاعون جارف ربما أتى على جميع أهل البيت فخربت ارضوهم وتعطلت ، فوكل السلطان بها من عمرها وتألف الاكرة والمزارعين اليها ، فصارت ضياعا للخلافة وبها السامرة ٠ فلما كانت سنة ٢٤٦ هـ رفع أهل قرية من تلك الضياع تدعى بيت ماما من كورة نابلس ــ وهم سامرة ــ يشكون ضعفهم وعجزهم عن أداء الخراج على خمسة دنانير ، فأمر المتوكل بردهم الى ثلاثة دنانير » ٠ كذلك صالح حبيب بن مسلمة الفهرى **أهل الجرجومة** ــ على

---

(٢٧٧) دكتور مؤنس ٠ تعليق بهامش تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان ج ٤ ص ١١٢ ٠

جبل اللكام - عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقا « على أن يكونوا **اعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام** ، والا يؤخذوا بالجزية وأن ينفلوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حربا فى مغازيهم ودخل من كان فى مدينتهم من تاجر واجير وتابع من الانباط وغيرهم واهل القرى فى هذا الصلح » . وبعد أن حاربهم مسلمة ابن عبد الملك سنة ٨٩ هـ اتفق معهم ايضا على أن « لا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية ، وعلى ان يغزوا مع المسلمين فينفلون أسلاب من يقتلونه مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم واموال موسريهم ما يؤخذ من المسلمين ... وقد كان بعض العمال الزم الجراجمة بانطاكية جزية رءوسهم فرفعوا ذلك الى الواثق وهو خليفة فأمر باسقاطها عنهم (٢٧٨) . وروى الواقدى فى أخبار غزوة المسلمين المبكرة داخل الدروب التى اسماها مرج القبائل « ... ثم ان خالدا قال : ايها الأمير - مخاطبا ابا عبيدة - ارسل معهم **ادلاء يعرفونهم الطريق ويكونون لهم عيونا على أعدائهم . فطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين من يكون ناصحا لهم ، فاختاروا لهم اربعة - واعطاهم أبو عبيدة واحسن اليهم وطرح عنهم الجزية (٢٧٩)** . وقد جرى هذا النهج فى معاملة الرعية غير المسلمين الذين يخدمون مطالب الدولة الحربية فى كل مكان « وكتب عمر الى قواده بالكوفة ان يستعينوا بمن احتاجوا اليه من **الاساورة** ويرفعوا عنه الجزاء » (٢٨٠) .

وقد فرض المسلمون **جزية جماعية** فى بعض الاحيان - فعلوا ذلك مثلا مع **قبرص** التى صالحها معاوية على الحياد بين المسلمين والروم سنة ٢٩ هـ « فصالحهم على سبعة آلاف ومائتى دينار يؤدونها فى كل عام ، وصالحهم الروم على مثل ذلك - فهم يؤدون خرجين ، واشترطوا الا يمنعهم المسلمون أداء الصلح الى الروم ، واشترط عليهم المسلمون ألا يقاتلوا عنهم من ارادهم من ورائهم وأن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم . فكان المسلمون اذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرص ولم ينصروا عليهم ... ثم لم يزل المسلمون يغزونهم حتى صالحهم معاوية فى أيامه صلحا دائما على سبعة آلاف دينار ، وعلى النصيحة للمسلمين وانذارهم عدوهم من الروم .. قالوا : وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك

---

(٢٧٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٩ : ١٩١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ .
(٢٧٩) الواقدى : فتوح الشام جـ ٢ ص ٣٠ - ١ .
(٢٨٠) الطبرى جـ ٤ ص ١٩٥ رواية السرى عن شعيب عن سيف .

أجلى منهم خلقا الى الشام لامراتهمهم به ، فانكر الناس ذلك فردهم يزيد ابن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم ... عن الواقدى : لم يزل اهل قبرس على صلح معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار ، فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم ، ثم لما ولى هشام ردها . فجرى ذلك الى خلافة المنصورة فقال : نحن أحق من انصفهم » (٢٨١) .

وقد كان المسلمون يسمون ما يفرضونه على دولة أثر انتصاراتهم جزية ففى سنة ١٦٥ هـ غزا هارون الروم فى خلافة ابيه المهدى فعقد صلحا مع ملكتهم « والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون الف دينار تؤديها فى نيسان الأول فى كل سنة وفى حزيران ... ووجهت معه رسولا الى المهدى بما بذلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعرض.وكتبوا كتاب الهدنة الى ثلاث سنين ، وفى سنة ١٨٦ قدمت الروم بالجزية معها « وذلكفيما قيل ٦٤٫٠٠٠ دينار عدد الرومية ، ٢٥٠٠ دينار عربية ، ٣٠٫٠٠٠رطل مرعزى » . وقد حاول نقفور التحلل من هذا الصلح سنة ١٨٧ هـ فقاتله الرشيد ، « فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه فى كل سنة » . وعلى أثر انتصار الرشيد فى هرقلة سنة ١٩٠ « بعث نقفور الى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بيته : خمسين الف دينار ـ منها عن رأسه اربعة دنانير وعن راس استبراق دينارين » . كما ارسل نقفور الى الرشيد على سبيل الهدية « وقردراهم اسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين الف درهم ، ومائة ثوب ديباج ، ومائتى ثوب بزيون ، واثنى عشر بازيا ، واربعة اكلب من كلاب الصيد ، وثلاثة براذين » ، واشترط الرشيد أن يحمل نقفور ثلثمائة الف دينار (٢٨٢) . وقد اسمى الدكتور حميد الله الحيدر ابادى الدول التى يعقد معها المسلمون مثل هذه المعاهدات بالدول المستقلة التابعة أو الدول المستقبلة التى تدفع الجزية Tributary Independant States (٢٨٣)

موارد اخرى :

ومن أهم الموارد الأخرى للدولة الاسلامية : **العشور وهى الرسوم التى تؤخذ على أموال وعروض تجارة أهل الحرب وأهل الذمة المارين**

---

(٢٨١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٠ ـ ١ .

(٢٨٢) الطبرى ج ٩ ص ٣٤٧ ، جـ ١٠ ص ٢ ، ٩٢ ، ٩٩ .

(٢٨٣) Hamidullah : Muslim Conduct of State. p. 99.

بهــا على ثغور الاســلام ، (٢٨٤) والمكوس : ضرائب تؤخــذ من التجار فى المراصد التى تقام خصيصا لهذا الغرض • فقد كتب أبو موسى الاشعرى الى عمر : ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر ، فكتب اليه عمر : خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهــل الذمة نصف العشر ومن المســلمين من كل اربعين درهما ـ درهما ـ وليس فيمــا دون المائتين شيء •• **وكتب أهل منبج ـ قوم من اهل الحرب وراء البحر ـ الى عمر : دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا ، فشاور عمر اصحاب الرسول فاشاروا عليه به ـ فكانوا أول من عشر من أهل الحرب** • وبعث عمر زياد بن حدير الاســدى على عشور العراق والشــام فمد حبلا على الفرات فمر عليه رجل من تغلب فأخذ منه ، ثم انطلق فلما رجع مر عليه فأراد ان يأخذ منه فقال : كلما مررت عليك تأخذ منى ؟ وشكى الى عمر ، فلما رجع وجد كتاب عمر قد سبق اليه « ومن مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا الى مثل ذلك اليوم من قابل الا ان تجد فضــلا » • وهكذا وجد نظام العشــور والمكوس او الضرائب الجمركية « وقال أبو يوسف : فان عمر بن الخطاب وضع العشور ، فلا بأس بأخذها اذا لم يتعد فيها على الناس ويؤخذ بأكثر مما يجب عليهم ـ **وكل ما أخذ من المسلمين من العشــور فسبيله ســبيل الصدقة ، وسبيل ما يؤخذ من اهل الذمة جميعا واهل الحرب فســبيله سبيل الخراج** » • وقد لقيت العشور نفورا من الفقهاء ، ولعلهم كانوا أميل الى أن تترك التجارة حرة «Laisser passer» « عن ابن الزبير : **ان هذه المآصر والقناطر سحت لا يحل اخذها** ، وبعث عمالا الى اليمن ونهاهم أن يأخذوا من مأصرة او قنطرة أو طريق شيئا ••• وعن انس بن سيرين : أرادوا أن يستعملونى على عشور الابلة فأبيت••• العشور أخبث ما عمل عليه الناس (٢٨٥) • وقال الماوردى « واما أعشار الأموال المتنقلة فى دار الاسلام من بلد الى بلد فمحرمة لا يبيحها شرع ولا يسوغها اجتهاد ، ولا هى من سياسات العدل ولا من قضايا النصــفة وقل ما تكون الا فى البلاد الجائرة » (٢٨٦) • ومع ذلك فقد انتشرت مراصد المكوس تؤدى مهمتها المالية ـ والحربية ايضا فقد قال أبو يوسف « **وينبغى للامام ان تكون له مسالح على المواضــع التى تنفذ الى بلاد اهل الشرك فى الطرق فيفتشون من مر بهم من التجار** : فمن كان معه سلاح اخذ منه ورد ، ومن

---

(٢٨٤) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ١٢٣ •

(٢٨٥) أبو يوسف : الخراج ص ١٣٤ : ٧ •

(٢٨٦) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٨٣ •

كان معه رقيق رد ، ومن كانت معه كتب قرئت كتبه ــ فما كان من خبر من أخبار المسلمين قد كتب به أخذ الذى اصيب معه الكتاب وبعث به الى الامام ليرى فيه رأيه (٢٨٧) . وكانت المكوس على البضائع الصادرة والواردة تؤخذ على **الحدود بين الشام والروم** ، وكثيرا ما كان الروم اذا قويت شوكتهم فى الشام يقيمون فى حلب رجلا منهم لاخذ مكس البضائع كما جرى فى القرن الرابع (٢٨٨) .

وكانت **غنائم الحرب** من موارد الدولة المالية ، فقد كانت الحملات تتتابع على بلاد الروم فتصيب احيانا غنائم كبيرة ، ومن ذلك ما اسفرت عنه حملة هارون سنة ١٦٥ هـ الى بلاد الروم من غنائم كبيرة « وكان الذى أفاء الله على هارون الى أن أذعنت الروم بالجزية : ٥٦٤٣ رأسا ... ومما أفاء الله عليه من الدواب الذلل بأدواتها : ٢٠٫٠٠٠ دابة ، وذبح من البقر والغنم : ١٠٠٫٠٠٠ رأس ــ وكانت المرتزقة سوى المطوعة وأهل الاسواق مائة الف . وبيع البرذون بدرهم ، والبغل بأقل من عشرة دراهم والدرع بأقل من درهم ، وعشرون سيفا بدرهم » . وفى سنة ١٩٠ هـ « ولى حميد بن معيوف سواحل بحر الشام الى مصر فبلغ قبرس فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر الفا ، فأقدمهم الرافقة فتولى بيعهم ابو البحترى القاضى ــ فبلغ أسقف قبرس الفى دينار » وعلى أثر غزوة المعتصم بعمورية سنة ٢٢٣ هـ « اقبل الناس بالاسرى والسبى من كل وجه حتى امتلأ العسكر ، فمر المعتصم بسيل الترجمان ان يميز الأسرى ثم أمر المعتصم فوكل بالقاسم قواده : ووكل اشناس بما يخرج من ناحيته وأمر بالباقى فضرب بالنار ... فلما كان من الغد أمر الا ينادى على ينادى ويبيع ، وأمر ايتاخ بناحيته مثل ذلك ، وجعفر الخياط بمثل ذلك فى ناحيته . ووكل مع كل قائد من هؤلاء رجلا من قبل احمد بن ابى دؤاد يحصى عليه ، فبيعت المقاسم فى خمسة أيام ــ بيع منها ما استباع، وأمر بالباقى فضرب بالنار ... فلما كان من الغد أمر الا ينادى على السبى الا ثلاثة اصوات ليتروج البيع ــ فمن زاد بعد ثلاثة أصوات والا بيع العلق فكان يفعل ذلك فى اليوم الخامس ــ فكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة والمتاع الكثير جملة واحدة (٢٨٩) .

ووجدت **ضرائب مختلفة على السلع** ، وقد ذكر المقدسى أنه كان فى

---

(٢٨٧) أبو يوسف : الخراج ص ١٩٠ .

(٢٨٨) ابو يوسف الخراج ص ١٠٥ ، ٤٧ : ٥٠ .

(٢٨٩) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٧ ، جـ ١٠ ص ٩٩ ، ٣٤٢ .

بيت المقدس ضرائب ثقال على الرحبة « فلم يكن يجوز لاحد أن يبيع شيئا مما يرتفق به الناس الا بهـا وثم رجال على أبوابها وآخرون على مايباع فيها » • ومن ضرائب هذا الاقليم ضرائب الحمـاية على من يكون عنده مركب ، وكانت حصيلتها تعادل ما يأتى من خراج الارض • واختلفت الضرائب باختلاف الحكام خاصة بعد ضعف الخلافة العباسية وغلبة أمراء مختلفين عليها ، فيقول ابن حوقل « فأما خراجاتها وأعشـارها ومرافق سلاطينها فكان ذلك على أوقات مختلفة بقوانين متباينة وجبايات ناقصة وزائدة ، وذلك انها منذ ستة ثلاثين (٣٣٠ هـ) بين قوم يتطاول أحدهم على الآخر ، **واكثرهم غرضه ما اجتلبه في يومه وحصله لوقته ، لا يرغب في عمارة ولا يلتفت اليها برؤية ولا اشارة (٢٩٠)** •

(ب) المصارف المالية :

العطـــاء :

تزايدت الغنائم الواردة الى بيت المـــال ، فلم يكن يستوعبهـــا أن تقسم لوقتها على **الجند** فى أعقاب كل حملة « وأول من وضـع الديوان فى الدولة الاسلامية عمر ـ يقال بسبب مال أتى به أبو هريرة من البحرين فاستكثروه وتعبوا فى قسمه ، فسموا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق ، فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال : **رأيت ملوك الشـــام يدونون** فقبل منه عمر ، وقيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان ، فقيل له : ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم ؟ فان من تخلف أخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب ••• فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانســاب (٢٩١) » • وروى أن عمر لما فتح بلاد فارس والروم « جمع أناسا من أصحاب رسول الله فقال ماترون ، فانى أرى أن أجعل عطاء الناس فى كل سنة ، واجمع المال فانه اعظم للبركة » فوافقوه ففرض الاعطيات • واستشارهم فى ترتيب الناس على منازلهم وكان أبو بكر يرى التسوية فى القسمة ولا يأخذ بتفضيل أهل السوابق والقدم « انما ذلك شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش فالاسوة فيه خير من الأثرة » • أما عمر فكان يرى أنه لا يسوى بين من قاتل رسول الله ومن

---

(٢٩٠) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ١ ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٦٧ ، ابن حوقل •

(٢٩١) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٢ ص ٦١٤ •

قاتل معه ، وبدأ بعم رسول الله ثم الاقرب فالاقرب ففرض لاهل بدر ٥٠٠٠ درهم ، ولمن بعدها الى الحديبية ٤٠٠٠ ، ولمن بعدها حتى نهاية قتال المرتدين ٣٠٠ – وهذا يشمل المقاتلين حتى القادسية ، ثم فرض لاهل القادسية **واهل الشام ٢٠٠٠ – ولاهل البلاء البارع منهم ٢٤٠٠ ، وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ١٠٠٠ ، ثم فرض للروادف المثنى ٥٠٠ ثم للروادف الثليث بعدهم ٣٠٠ – وقد سوى كل طبقة فى العطاء قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم – وفرض للروادف الربيع ٢٥٠ ، وفرض لمن بعدهم ٢٠٠** – وميز العباس ونساء النبى فى العطاء وجعل لنساء أهل بدر ٥٠٠ ، ونساء من بعدهم الى الحديبية ٤٠٠ ، ونساء من بعد ذلك الى الايام ٣٠٠ ، ونساء أهل القادسية ٢٠٠ – ثم سوى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء على مائة . « **وفرض لاهل اليمن وقيس بالشام والعراق : لكل رجل ما بين الفين الى ألف الى تسعمائة الى خمسمائة – ولم ينقص احد عن ثلثمائة** » . « قالوا فرض عمر العطاء حين فرض لأهل الفىء الذين أفاء الله عليهم وهم أهل المدائن فصاروا بعد الى الكوفة – **انتقلوا عن المدائن الى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر ، وقال : الفىء لاهل هؤلاء الامصار ولمن لحق بهم وأعانهم واقام معهم** . ولم يفرض لغيرهم – ألا فبهم سكنت المدائن والقرى وعليهم جرى الصلح واليهم ادى الجزاء ، وبهم سدت الفروج ودوخ العدو ، ثم كتب فى اعطاء أهل العطاء اعطياتهم اعطاء واحدا سنة خمسة عشر » . **وكان بجانب العطاء النقدى رزق عينى** « فجمع عمر ستين مسكينا واطعمهم الخبز ، فاحصوا ما اكلوا فوجدوه يخرج من جريبتين ، ففرض لكل انسان منهم ولعياله جريبتين فى الشهر » وقال عمر قبل موته « لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف : ألفا يجعلها الرجل فى أهله والفا يزودها معه والفا يتجهز بها وألفا يترفق بها » – فمات قبل أن يفعل . وفرض عمر للطفل مائة درهم ، فاذا ترعرع بلغ به مائتى درهم ، وشمل ذلك اللقطاء وكان رضاعهم ونفقتهم من بيت المال ، كما شمل الرضيع والفطيم «فاذا بلغ أن يفرض له ألحق بالفريضة فلما كان معاوية فرض ذلك للفطيم، **فلما كان عبد الملك بن مروان قطع ذلك كله الا عمن شاء**» وأجرى عمر القوت على المجذمين من نصارى الشام . وكان من المفروض **أن يحدد المسلمون موقفهم فى توزيع العطاء بالنسبة للبدو والحضر والعرب وغير العرب** فروى عن ابى عبيدة « أن رجالا من أهل البادية سالوه أن يرزقهم فقال : والله لا أرزقكم حتى ارزق اهل الحاضرة ... وكتب عمر ابن عبد العزيز الى يزيد بن حصين أن مر للجند بالفريضة وعليك بأهل

الحاضرة » . وكان عمر « لا يعطى أهل مكة عطاء ولا يضرب عليهم بعثا ، ويقول هم كذا وكذا » . وخطب عمر يوم الجابية فقال « أما بعد فان هذا المال نقسمه على من أفاء الله عليه بالعدل ـ الا هذين الحيين من لخم وجذام فلا حق لهم فيه ، فقام اليه أبو حديدة الأجذمى فقال : ننشدك الله يا عمر فى العدل فقال عمر : العدل أريد ، أنا أجعل أقواما انفقوا فى الظهر وشدوا العرض وساحوا فى البلاد مثل قوم مقيمين فى بلادهم ؟ ولو أن الهجرة كانت بصنعاء وعدن ما هاجر اليها من لخم ولا جذام أحد. فقام أبو حديدة فقال : الله وضعنا من بلاده حيث شاء ، وساق الينا الهجرة فى بلادنا فقبلناها ونصرناها ـ أفهذا يقطع حقنا يا عمر ؟ ثم قال : لكم حقكم مع المسلمين . ثم قسم : فكان للرجل نصف دينار فاذا كانت معه امرأته أعطاه دينارا . ثم دعا ابن قاطور صاحب الارض فقال : اخبرنى ما يكفى الرجل من القوم فى الشهر واليوم ؟ فأتى بالمدى والقسط فقال يكفيه هذان المديان فى الشهر وقسط زيت وقسط خل ... » وهكذا رضى عمر أن يفرض لمن اسلم من قبائل العرب التى كانت مقيمة بالشام قبل الفتح ، وقد روى الطبرى لعمر كلاما يؤيد ذلك ويخالف كلامه الذى ادلى به فى الشام « وقيل له : قد سويت من بعدت داره بمن قربت داره وقاتلهم عن فنائه فقال : من قربت داره أحق بالزيادة لانهم كانوا ردءا للحوق وشجى للعدو ، فهلا قال المهاجرون مثل قولكم حين سوينا السابقين منهم والانصار ؟ فقد كانت نصرة الانصار بفنائهم ، وهاجر اليهم المهاجرون من بعد » . وشمل العطاء كافة المسلمين ولو كانوا من غير العرب ، فكتب عمر الى امراء الاجناد «ومن اعتقتم من الحمراء فاسلموا فالحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، وان احبوا ان يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم اسوتهم فى العطاء » وروى أن عمر زار الشام سنة ١٨ هـ « فدفع اليه أمراء الاجناد ما اجتمع عندهم من الاموال **فجند ومصر الامصار ثم فرض الاعطية والارزاق** ، ثم قفل الى المدينة (٢٩٢) . وقد أجمل عمر سياسته المالية بقوله « ما من أحد الا له فى هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك وما انا فيه الا كأحدهم ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله والرجل وبلاؤه فى الاسلام والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه فى الاسلام والرجل وحاجته (٢٩٣) .

(٢٩٢) الطبرى جـ ٤ ص ١٦٢ ـ ٣ رواية السرى عن شعيب عن سيف ، البلاذرى ، فتوح البلدان ص ١٣٦ ، ٤٥٣ : ٤٦٦، ابو يوسف : الخراج ص ٤٢ : ٧ ، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٥٥٣ : ٦ ، الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٧٥ : ٧ .
(٢٩٣) ـ الطبرى جـ ٤ ص ٢٣ ـ ٤ .

وذكر الماوردى أن **تقدير العطاء معتبر بالكفاية** « حتى يستغنى به عن التماس مادة تقطعه عن حماية البيضة • والكفاية معتبرة من ثلاثة أوجه: أحدها ـ عدد من يعوله من الذرارى والمماليك ، والثانى ـ عدد ما يرتبطه من الخيول والظهر ، والثالث الموضع الذى يحله فى الغلاء والرخص •• فيكون هذا المقدر فى عطائه ، ثم تعرض حاله فى كل عام فان زادت رواتبه الماسة زيد وان نقصت نقص • واختلف الفقهاء : اذا تقدر رزقه بالكفاية ـ هل يجوز أن يزاد عليها ؟ فمنع الشافعى من زيادته على كفايته وان اتسع المال ـ لان أموال بيت المال لا توضع الا فى الحقوق اللازمة ، وجوز أبو حنيفة زيادته على الكفاية اذا اتسع المال لها • ويكون وقت العطاء **معلوما** يتوقعه الجيش عند الاستحقاق ، وهو معتبر بالوقت الذى تستوفى فيه حقوق بيت المال •• واذا تأخر عنهم العطاء عند استحقاقه وكان حاصلا فى بيت المال كان لهم المطالبة به كالديون المستحقة ، وان أعوز بيت المال لعوارض أبطلت حقوقه أو أخرتها كانت أرزاقهم دينا على بيت المال وليس لهم مطالبة ولى الأمر به •• واذا اراد ولى الأمر اسقاط بعض الجيش لسبب أوجبه أو لعذر اقتضاه جاز ، وان كان لغير سبب لم يجز ـ لانهم جيش المسلمين فى الذب عنهم • واذا اراد بعض الجيش اخراج نفسه من الديوان جاز مع الاستغناء عنه ، ولم يجز ، مع الحاجة اليه الا أن يكون معذورا •• واذ نفقت دابة احدهم فى حرب عوض عنها •• واذا استهلك سلاحه فيها عوض عنه ان لم يكن يدخل فى تقدير عطائه •• واذا مات أحدهم أو قتل كان ما يستحق من عطائه موروثا عنه على فرائض الله تعالى وهو دين لورثته على بيت المال • واختلف الفقهاء فى استبقاء نفقات ذريته من عطائه فى ديوان الجيش على قولين احدهما : أنه قد سقطت نفقتهم من ديوان الجيش لذهاب مستحقة ـ ويحالون على مال العشر والصدقة والقول الثانى : **ان يستبقى من عطائه نفقات ذريته ترغيبا له فى المقام وبعثا له على الاقدام** • واختلف الفقهاء أيضا فى سقوط عطائه اذا حدثت به زمانة •• (٢٩٤) » •

والطابع العسكرى واضح فى تقرير العطاء ، فهو مقرر للمسلمين اعانة لهم على الجهاد • وهو نظام جديد استحدثه عمر على هدى السوابق الرومية والفارسية ومن ثم كان المجال فسيحا أمام الخلفاء فى التعديل والتغيير • وهكذا كانت الأمور لا تجرى على وتيرة واحدة فى شأن اعطيات المقاتلة فى مدن المعسكرات وحاميات الثغور • فكانت الحكومة تسقط من

---

(٢٩٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٨١ ـ ٢ •

ديوان المقاتلة من تشاء وتفرض فيه لمن تشاء ، وتزيد الاعطيات أو تنقصها كما تشاء ٠ ولم يسكت للمقاتلين صوت فى المطالبة بمال الفيء ،ووسع عمر بن عبد العزيز دائرة اصحاب الاعطيات حتى صارت أكثر شمولا لغير العرب مما كانت عليه من قبل ، ولم يقتصر على اعفاء الموالى الذين يحاربون مع العرب من الخراج بل جعل لهم أرزاقا واعطيات ٠ كذلك أعاد عمر ما كان أوقفه عبد الملك من أعطيات ذرارى المقاتلة (٢٩٥) ، وزاد الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ الناس فى العطاء عشرة عشرة، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة فلما بويع يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦هـ نقص تلك الزيادة «ورد اعطياتهم الى ما كانت عليه أيام هشام بن عبد الملك ـ فسمى يزيد الناقص وقيل أول من سماه بهذا الأسم مروان بن محمد (٢٩٦) » ٠ وكان أهل الشام يتميزون فى العطاء خلال الحكم الأموى فقد وعد عبد الملك أهل العراق خلال ثورة ابن الاشعث أن يجعل عطاءهم مساويا لعطاء أهل الشام ولكنه لم يبر بوعده ، بل روى أن عمر بن عبد العزيز زاد عطاء أهل الشام عشرة دنانير على أهل العراق ٠ ولما زاد الوليد بن يزيد جميع الأمصار ما لبث أن ميز أهل الشام بزيادة أخرى (٢٩٧) ٠

وسارت تلك المحاولة الأولى لكفالة المواطنين على هذا النطاق الواسع سيرا حسنا بعض الوقت ، ويقول وليم ميور « ان تقسيم أمة كبيرة لكل موارد الطعام وغنائم الفتوح بين ابنائها : أولا على أساس الاخاء التام ، وثانيا وفق المواهب الحربية والتفوق الروحى ـ يعتبر ظاهرة من المحتمل أن تكون من الظواهر المقطوعة النظير فى تاريخ العالم » ٠ ويبدو أن رواتب الجند كانت فى عهد معاوية ١٠٠٠ درهم للشخص سنويا بما فى ذلك عطاء الأسرة ، وفى سنة ٧٤هـ كان فى العراق وحدها ٦٠٫٠٠٠ من أصحاب العطاء بلغت رواتبهم واسرهم ٦٠ مليون درهما سنويا ٠ وبالاضافة الى العطاءات السنوية الثابتة كان على الحكام أن يدفعوا للجند من حين الى آخر مبالغ اضافية عند قيامهم بمهام خاصة ٠ كما كان على الأمويين من أجل الحصول على مدد دائم من الرجال تقديم اعانات مالية لشيوخ القبائل المختلفين مقابل أن يمدوهم بعدد معين من المحاربين عند الطلب ، فنال شيخ قبائل قحطان ٢ مليون درهم مقابل تقديم ألفى رجل٠

---

(٢٩٥) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور أبى ريدة ص ٢٨٨ ـ ٩ ٠

(٢٩٦) الطبرى ج ٨ ص ٢٩٣ ، ج ٩ ص ٢٢ ٠

(٢٩٧) دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الاموى ص ٤١٧ ـ ١٨ ٠

وكان الجنود بجانب ذلك ينالون نصيبهم من الغنائم وكان تعداد الجيش الأموي يفوق ١٠٠ر٠٠٠ جندي ٠ وفي العصر العباسي الأول كان من الممكن حشد قوات كبيرة للقتال ، ففي حملة الرشيد سنة ١٩٠هـ وجد ١٣٥ر٠٠٠ جندي من أصحاب العطاء عدا المتطوعة ٠ وبلغ عدد الجند في عرض عسكري في حضرة الرسل البيزنطيين أيام المقتدر نحو ١٦٠ر٠٠٠ من الفرسان والمشاه وكان متوسط راتب الجندي في عهد الخليفة العباسي الأول نحو ٩٦٠ درهما سنويا بجانب الأرزاق الأخرى ونصيبه في الغنائم ، ونال الفارس ضعف ذلك ٠ وقد انخفض مرتب الجندي في عهد الرشيد الى ٦٠ درهما شهريا ، وفي عهد المأمون الى ٤٠ درهما فقط ٠ على أنه لا يغيب عن الذهن أن المنصور عندما بنى بغداد دفع لكل عامل دانقين فقط يوميا أي ⅓ درهم ٠ وقد أدت ضخامة عدد الجند ورغبة الاجناس المختلفة التي ضمتها الدولة بعد اتساعها في كسب العيش عن طريق الانتظام في الجيش الى قلة الرواتب ٠ على أنه كانت ترفع الرواتب في المهام الخاصة وعند وجود الأخطار ٠ ونالت القوات التي تحرس الحدود **رواتب أعلى ومقرارات اضافية ، وخصص المعتصم ١٠٠ درهم شهريا لكل جندي من الفرسان** ، ٤٠ لجندي المشاه من المدافعين عن معقل طوانة الاستراتيجي ٠ وقد تغير سعر الدينار في السوق زمن الرشيد فبعد أن كان يساوي عشرة دراهم صار يساوي من ٢٠ الى ٢٢ درهما (٢٩٨) ٠ وكان للخلفاء هبات سخية على كبار الأمراء والقواد فحين ولي المأمور أخاه أبا أسحق الشام ومصر وولى ابنه العباس الجزيرة والثغور والعواصم أمر لكل منهم ومن عبد الله بن طاهر بخمسمائة الف دينار (٢٩٩) ٠ وحين خرج المهدي لتوديع الصائفة سنة ١٦٣ هـ ذكره العباس بن محمد بسابقة فضل لمسلمة بن عبد الملك صاحب البلاء المحمود في جهاد الروم على محمد بن علي ، فقرر الخليفة العباسي أن يقابل الوفاء بالوفاء فأمر لولد مسلمة ومواليه بعشرين ألف دينار وان تجرى عليهم الأرزاق (٣٠٠) ٠

وبجانب عطاءات الجند كانت هناك **رواتب الموظفين الاداريين** : وفي عهد الراشدين كان العمال يتناولون رواتب عالية كما منحت لهم جرايات وارزاق عينية بجانب مقرراتهم السنوية ، فنرى عمار بن ياسر

(٢٩٨) حسيني : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوي ص ١١٧ ـ ٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٤٠٥ ـ ٦ ، ٤٠٩ : ٤١٣ ، أمير علي مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ترجمة رامت ص ٣٧٥ ٠

(٢٩٩) الطبري جـ ١٠ ص ٢٧٩ ٠

(٣٠٠) الطبري جـ ٩ ص ٣٤٣ ٠

يتناول ٦٠٠ درهم سنويا بجانب جراية من القمح واللحم • وكانت **نفقات الادارة الاقليمية تستمد من موارد المقاطعات فاذا تبقى فائض حفظ في بيت مال الولاية بعد ارسال النصيب المقرر الى بيت مال العاصمة** وكان كبار موظفى الولاية ينالون فى العهد الأموى ٣٠٠ درهم شهريا • وبقى هذا فى العصر العباسى الأول حتى دفع الفضل بن سهل الرواتب أيام المأمون ، فروى أن قاضى مصر تقاضى فى ذلك العهد ٤٠٠٠ درهم شهريا كما روى أن راتب الكاتب العادى كان عشرة دراهم شهريا وهو ما يعادل أجر العامل فى بناء مدينة بغداد (٣٠١) • وقد أوصى أبو يوسف الرشيد « **فاجعل ما يجرى على القضاة والولاة من بيت المال المسلمين من جباية الأرض أو من خراج الأرض والجزية ــ لأنهم فى عمل المسلمين فيجرى عليهم من مالهم** • ويجرى على كل والى مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل وكل رجل تصيره فى عمل المسلمين فأجر عليهم من بيت مالهم ، ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا ــ الا والى الصدقة فانه يجرى عليه منها •• فأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمل والولاة مما يجرى عليهم فذلك اليك •• فأما قولك يجرى على القاضى اذا صار اليه ميراث من مواريث الخلفاء وبنى هاشم وغيرهم من الذى يصير اليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم وما لهم ــ فلا ، انما يعطى للقاضى رزقه من بيت المال ليكون قيما للفقير والغنى والصغير والكبير (٣٠٢) » •

النفقات العسكرية فى الثغور :

قام نظام الاجناد فى أسسه المالية على اعتماد كل جند على خراجه فى كفالة نفقاته « وذكروا أن الجزيرة كانت الى قنسرين فجندها عبد الملك ابن مروان ــ أفردها ، **فصار جندها ياخذون اطماعهم بها من خراجها** (٣٠٣) » • وقد استدعى بناء مدن الثغور وتحصينها وشحنها بالمقاتلة نفقات طائلة ، وكان الخلفاء ينفقون فى ذلك عن سخاء ويزيدون فى عطاء الجند ، فقد بعث معاوية مثلا الى قبرص « باثنى عشر ألفا ــ كلهم أهل ديوان ، فبنوا بها المساجد ونقل اليها جماعة من بعلبك ، وبنى بها مدينة ، واقاموا يعطون الأعطية الى أن توفى معاوية وولى بعده يزيد فأقفل ذلك البعث •• » • وكان للعباسيين الأوائل آثار مشكورة على

(٣٠١) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٨٤ ، ١٨٧ ــ ٨ ، ٣٣٥ ــ ٦ •

(٣٠٢) أبو يوسف : الخراج ص ١٨٦ ــ ٧ •

(٣٠٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ •

خط الحدود الاسلامية البيزنطية » فلما استخلف أبو العبـــاس فرض بالمصيصة لاربعمائة رجل زيادة فى شحنتها **واقطعهم ٠٠وفرض المهدى لخمسمائة مقاتل على خاصة عشرة دنانير عشرة دنانير** ٠٠ثم لما كانت سنة ١٩٤ بنى أبو سليم فرج الخادم أذنه فاحكم بناءها وحصنها وندب اليها رجلا من أهل خراسان وغيرهم **على زيادة فى العطاء ٠٠ وتوجه أبو سليم** الى مدينة السلام فاشخص الندبة الأولى من أهل خراسان وهم ثلاثة آلاف رجل فوردوا طرسوس ، ثم أشخص الندبة الثانية وهم ألفا رجل : ألف من أهل المصيصـــة وألف من أهل انطاكيـــة **على زيادة عشرة دنانير عشرة دنانير لكل رجل فى أصل عطائه** ٠٠ وأمر الرشيد ببناء مدينة الكنيسة السوداء وتحصينها وندب اليهـــا المقاتلة **فى زيادة العطاء** » ٠ هـــذا عن الثغور الشامية ، أما فى الثغور الجزرية فقد « كتب المنصور الى صالح ابن على يأمرة ببناء ملطية وتحصينهـــا ، ثم رأى أن يوجه عبد الوهاب ابن ابراهيم الامام واليا على الجزيرة وثغورها » فتوجه فى ســـنة ١٤٠ ومعه الحســـن بن قطحبة فى جنود أهل خراسان فقطع على أهل الشـــام والجزيرة فتوافى معه سبعون ألفا فعســـكر على ملطية وقد جمع الفعلة من كل بلـــد ٠٠ وجعـــل يغدى النـــاس ويعشيـــهم من ماله ٠٠ فكان الحسن يقول : من سبق الى شرفة فله كذا ، فجد الناس فى العمل حتى فرغوا من بناء ملطية ومسجدها فى ستة أشهر ٠٠ وأسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لانها من ثغورهم ــ **على زيادة عشرة دنانير فى عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار ــ سوى الجعل الذى تتجاعله القبائل بينها** ، ووضع فيهـــا شحنتها من الســـلاح وأقطع الجند **المزارع** ٠٠ وبنى مرعش صالح بن على فى خلافة المنصور وحصنها وندب الناس اليها **على زيادة العطاء** ٠٠ وفرض محمد بن ابراهيم ــ والى الجزيرة وقنسرين أيام الهادى ــ للحدث فرضا من أهل الشام والجزيرة وخراسان فى اربعين دينارا من العطاء واقطعهم المساكن واعطى كل امرىء ثلثمائة درهم (٣٠٤) » وفى بناء المامون للطوانة سنة ٢١٨ هـ « كتب الى أخيه أبى اسحق بن الرشـــيد أنه قد فرض على جنـــد دمشق وحمص والأردن وفلسطين أربعة آلاف رجل ، وأنه يجرى على الفـــارس مائة درهم وعلى الراجل أربعين درهما ٠ وفرض على مصر فرضا ٠ وكتب الى العباس بمن فرض على قنسرين والجزيرة ، والى اسحق بن ابراهيم بمن فرض على أهل بغداد وهم ألفا رجل ٠٠ » (٣٠٥) ٠ وهكذا تكلفت المطالب الحربية فى

---

(٣٠٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ : ٨ ، ١٩٥ ـ ٦ ، ١٩٨ ـ ٩ ٠

(٣٠٥) الطبرى : جـ ١٠ ص ٢٨٤ ٠

الثغور نفقات هائلة . فقد جرى تشجيع المرابطين فيها على ما يواجهون من مخاطر . فكان المرابط يتلقى بادىء ذى بدء معونة يتجهز بها ، وينال سكنا وزيادة في العطاء ثم اقطاعا فى ريف الثغر (٣٠٥ م) .

ولم يكن ينتظر لايرادات هذه المناطق النائية أن تكفى مطالبها الحربية الباهظة ومن هنا كانت تمد بأموال العاصمة، ويقدم قدامة فى هذا الشأن معلومات عن ايرادات الثغور ومصروفاتها « **وارتفاع الثغور الشامية نحو المائة ألف دينار** ، ينفق فى مصالحها وسائر وجوه شأنها ، وهى المراقب والحرس والفواثير والركاضة والموكلين بالدروب والمخايض والحصون ، وغير ذلك مما جانسه من الأمور والأحوال ، **ويحتاج الى شحنتها من الجند والصعاليك ، ورواتب مغازيها الصوائف والشواتى فى البر والبحر فى السنة على التقريب مائتى ألف دينار وعلى المبالغة أن يتسع ثلثمائة ألف دينار .. وارتفاع الثغور الجزرية مع ملطية سبعون ألف دينار ، يصرف منها فى مصالحها أربعون ألف دينار ويبقى ثلاثون ألف دينار ، ويحتاج لنفقة الأولياء والصعاليك على التجزئة مائة ألف وعشرين ألف دينار ، تنضاف الى البقية ، وعلى المبالغة مائة ألف وسبعون ألف دينار تنضاف اليها تتمة مائتى ألف دينار ، سوى نفقات المغازى فى أوقاتها** ، وهذه الثغور هى الواسطة ومنها كانت تقع المغازى ، فان احتيج الى الغزو منها كانت النفقة حسب الغزاة .. **وارتفاع الثغور البكرية فى السنة ألف وثلثمائة درهم ، تحتاج نفقتها فى مصالحها وحصونها وأرزاق شحنها الى هذا المقدار وزيادة ألف ألف وسبعمائة ألف درهم ـ تتمة ثلاثة آلاف ألف درهم .. ومقدار النفقة على المراكب اذا غزت من مصر والشام نحو مائة ألف دينار** » (٣٠٦) . وروى البلاذرى أنه أجرى على كل امرىء من الجراجمة سنة ٨٩ هـ ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت وهو مديان من قمح وقسطان من زيت ، كما روى أن عبد الملك فرض لقوم من أهل انطاكية وأنباطها وجعلوا مسالح واردفت بهم عساكر الصوائف ليؤذنوا الجراجمة فسموا الرواديف وأجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير ، وأجرى المتوكل الارزاق على من يستعان به من الجراجمة فى المسالح (٣٠٧) . وقد كانت الحملات الاسلامية الكبرى

(٣٠٥م) د. شعيرة : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية ـ بحث فى كتاب (الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) .

(٣٠٦) قدامة : نبذ من كتاب الخراج ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٥٣ : ٥ .

(٣٠٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٨ ـ ٩ .

تتكلف نفقات ضخمة ، ففى سنة ٩٨ هـ « لما دنا مسلمة من قسطنينية ، أمر كل فارس أن يحمل على عجز فرســـه مدين من طعام حتى يأتى به القسطنطينية ـ فأمر بالطعام فألقى فى ناحية مثل الجبال (٣٠٨) وفى حملة الرشيد ضد الروم أيام أبيه المهدى سنة ١٦٥ هـ « سار هرون فى خمسة وتسعين الفا وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلا وحمل لهم من العين مائة ألف دينار واربعة وتسعين ألفا واربعمائة وخمسين دينارا ومن الورق احدا وعشرين الف ألف واربعمائة ألف واربعة عشر ألفا وثمانمائة درهم (٣٠٩) » ٠وروى عن الفضل بن مروان : « لم يكن للمعتصم لذة فى تزيين البناء وكانت غايته فيه الاحكام ، ولم يكن بالنفقة على شىء اسمح منه بالنفقــة على الحرب » ٠ وقــد وجه المعتصم ســنة ٢٢٢ هـ مع ايتــاخ الى الافشين ثلاثين الف ألف درهم عطاء للجند والنفقات فى قتال بابك(٣١٠) « وكان يجزى الأفشين فى مقــامه بازاء بابك ـ سوى الأرزاق والانزال والمعاون ـ فى كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وفى كل يوم لايركب فيه خمسة آلاف درهم ، وكان جميع من قتل بابك فى عشرين سنة مائتى ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة انسان، ٠٠ فتوج المعتصم الافشين والبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين ألف ألف درهم منها عشرةآلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف درهم يفرقها فى أهل عسكره ٠٠ وفى سنة ٢٢٣ هـ شخص المعتصــم غازيا الى بلاد الروم فذكر انه تجهز جهــازا لم يتجهز مثله قبله خليفة قط : من السلاح والعدد والآلة ،وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب ، وآلة الحديد والنفط (٣١١) ٠٠ » ٠واذا ما كلف جندى بمهمة عسكرية ذات شأن فقد كانت تخصص له مكــافأة مغرية ، ففى حملة عمورية مثلا « وجه المعتصم من عسكره قوما من الادلاء وضمن لهم لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم على أن يوافوا بكتابه الافشين، واعلمه أن أمير المؤمنين مقيم فليقم اشفــاقا من أن يواقعــه ملك الروم ٠ وكتب الى اشناس كتابا يأمره أنيوجه من قبله رسولا من الادلاء الذين يعرفون الجبال والطرق والمشبهة بالروم ، وضمن لــكل رجل منهم عشرة آلاف درهم هــو أوصــل الــكتاب ٠٠ (٣١٢) ٠ وعرض الجعــائل فى الحرب على هذا النحو أمر له عيوبه ومضاره ، وان كانت له مزاياه « قال أبو حنيفــة : تكره الجعــائل ما دام للمسلمين قوة فاذا لم يكن فلا بأس

---

(٣٠٨) الطبرى جـ ٨ ص ١١٧ ٠

(٣٠٩) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٦ ـ ٧ ٠

(٣١٠) الطبرى جـ ١١ ص ٨ ٠

(٣١١) الطبرى جـ ١٠ ص.٣١٧ ، ٣٣٣ ـ ٤ ، ٣٣٥ ٠

(٣١٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٣٦ ٠

أن يقوى بعضهم بعضا • وذكر عن ابن عباس أنه سئل عن هذا فقال : من جعله فى كراع أو سلاح فلا بأس به » وينبغى أن توفر نفقات الحملات العسكرية من بيت المـال أولا ، ولا يلجأ الى مطالبة الأهلين الا للضرورة وعلى هذا لو أراد الامام أن يجهز جيشا فان كان فى بيت المال سعة فينبغى له أن يجهزهم بمال بيت المال ولا يأخذ من الناس شيئا، وان لم يكن فى بيت المال سعة كان له أن يتحكم على الناس بما يتقوى به الذين يخرجون الى الجهاد (٣١٣) » •

نفقات أخرى :

كانت كل ولاية تنفق من ايراداتها على مرافقها الخاصة كانشاء الطرق وحفر الجداول وبناء المؤسسات العامة من مساجد ودور للعلم والعلاج ، ومن أخبار الثغور الشامية فى هـذا الصدد أن الوليد بن عبد الملك وجه أربعة آلاف جاموسة الى المصيصة ، كمـا وجه يزيد بن عبد الملك اليهـا أربعة آلاف جاموسة أيضا للانتفاع منها هناك والاستعانة بها على تأمين الطريق بين انطاكيـة والمصيصة وكانت تقطعه الوحوش • واهتم الوليد ابن عبد الملك بتعبيد الطريق وشيد عليهـا محطات البريد ، وأمر هشام بحفر قنـاة للموصـل بلغ تكاليفهـا ٨ مليون درهـم وزرع الطريق على جانبيها بالاشجار وكانت قنطرة سنجة قرب سميساط تعد من عجائب الدنيـا • وراعت الدولة المعوزين والمحتـاجين وبرز فى ذلك الوليـد بن عبد الملك الذى رعى المجذمين والمرضى والمشوهين ثم الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى أجرى على الزمنى والعميان وكان يطعم أهل الصائفة(٣١٤) •

وسلك العباسيون نفس السـبيل فأنفقوا على آبار الرملة وقناتها التى كان ينفق عليها الأمويون بعد سليمان بن عبد الملك « وكان الأمر فى تلك النفقة يخرج فى كل سنة من خليفة بعد خليفة، فلما استخلف المعتصم أسجل بتلك النفقة سجلا ــ فانقطع الاستئمار وصارت جارية يحتسب بها العمال فيحسب لهم (٣١٥) • وقد كانت هناك طريق مستدقة تشرف على الوادى عند عقبة بغراس التى عرفت بعقبـة النسـاء منذ سقط عندها

---

(٣١٣) شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى املاء السرخسى ج ١ ص ١٣٨ ــ ٩ •
(٣٤١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ ، حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٣٨٣ ، الطبرى ج ٨ ص ٢٩٣ •
(٣١٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٠ ــ ١ •

محمل امرأة فى احدى غزوات مسلمة بن عبد الملك فأمر مسلمة النساء باجتيازها مشيا ، وبنى المعتصم على حد تلك الطريق حائطا قصيرا من حجارة اتقاء لتردى الناس فيها (٣١٦) ٠

ومن هنا استدرك ديمومبين على نفسه عندما تناول مدى اهتمام الدولة الاسلامية بالأعمال العامة اذ يقول « خلال هذه الادارة الواسعة لا نجد شيئا مخصصا للصرف على المشاريع الانتاجية والاعمال العامة (كالطرق والجسور والقنوات والرى الخ) كما فى الامبراطورية الرومانية ٠٠ ومع هذا فان بعض الحكام احتذوا حذو الحجاج وأشرفوا بأنفسهم على الأعمال العامة وغذوها بالمال ، وحتى الخليفة قد يهتم أحيانا بمشروع يمس عن قرب مصالحه الخاصة ٠ ومع هذا فقد كان الأمل فى الثواب يدفع الحكام وكبار الشخصيات بحماس شديد الى مشروعات نافعة ٠٠ هؤلاء الأفراد شادوا المساجد وعملوا على فتح قنوات ومخازن للمياه لتنتفع بها الحجاج ، كما أقاموا جسورا ومحطات للاستراحة ، ومدارس وزوايا ومستشفيات ، وعملوا على ضمان استمرارها عن طريق خيرات الوقف (٣١٧) » ٠ وقد روى الاصطخرى وابن حوقل عن مدينة طرسوس « انه ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والجبال وطبرستان والجزيرة واذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب الا وبها لأهلها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، الى ما كان السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليه وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف من فنادق ٠٠ وبغرس كانت فيها دار لزبيدة ولم يكن بالشام دار ضيافة غيرها كبيرة (٣١٨) » ٠

(ج) الادارة المالية :

كانت الادارة المالية الاسلامية منذ انشائها صريحة الدلالة على أصولها الرومية أو الفارسية ، فمشورة تدوين الديوان قدمها خبير بشئون الشام ، أو الهرمزان الفارسى بل يذكر ابن خلدون أن عمر « سأل عن اسم الديوان

---

(٣١٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٤ ٠

(٣١٧) ديمومبين : النظم الاسلامية ، ترجمة الشماع والسامر ص ١٥٥ ٠

(٣١٨) ابن حوقل ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ٠

فعبر له » • وانتقد ابو سفيان هذا النظام فقال « أديوان مثل ديوان بنى الأصفر؟ انك ان فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة (٣١٩) » ويذكر ان كلمة الخراج ليست عربية أصيلة بل نقلت عن اللغة اليونانية عن طريق البيزنطيين ، أو هى تعريب الكلمة الآرامية choregia وتعنى الضريبة عامة ، وعلى أنه من المؤكد « ان هذه الاستعارة ان كانت حدثت لم تكن فى العصر الاسلامى ولا وقعت كأثر للفتوح الاسلامية ، بل لابد أن حدوثها كان قبل مجيء الاسلام بوقت طويل أو كثير • ذلك لأننا نجد الكلمة قد استعملت فى القرآن وتكرر ورودها فى الأحاديث وعلى لسان العرب قبل بدء الفتوح (٣٢٠) » ، والجزية أيضا يذكر أنها معرب (كزيت) وهو الخراج بالفارسية (٣٢١) • وقد استعملت اصطلاحات خراجية يعترى الشك عروبة أصلها فقال ابن دريد عن الايغار « لا أحسبه عربيا صحيحا » كما جاء فى لسان العرب ولا عجب أن يقتبس المسلمون من نظم الادارة عند غيرهم ، فقد **قال أبو يوسف : اذا كانت فى البلاد سنة أعجمية قديمة لم يغيرها الاسلام ولم يبطلها فشكاها قوم الى الامام لما ينالهم من مضرتها ـ فليس له ان يغيرها وقال مالك الشافعى : يغيرها لأن عليه نفى كل سنة جائزة سنها أحد المسلمين فضلا عن أهل الكافر (٣٢٢) »** •

وينبغى **التفريق بين الديوان بصفة عامة وديوان المال :** فالديوان لم يكن أول الأمر الا سجلا أو سجلات تدون فيها البيانات الخاصة بهذه أو تلك من نواحى الادارة ، فديوان الجند هو سجل الجند المقيدين الذين تجب عليهم الخدمة العسكرية وما يستحق لهم من العطاء والرزق ، وديوان الأموال تقيد فيه الأموال ـ ومالى ذلك • بل كانت هناك دواوين أموال : لكل ولاية اسلامية ديوان خاص بأموالها ويذهب فلهوزن الى أن ديوان المال حل محل بيت المال ـ وهذا غير صحيح ، لأن بيت المال هو خزانة أو خزائن المال ويكون عند الخليفة ، أما ديوان المال فهو الادارة الخاصة بتسجيل الدخل والخرج وكان فى الغالب فى بيت الوزير (٣٢٣)

---

(٣١٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ ، ٤٦٣ ، ابن خلدون : المقدمة • طبعة دكتور وافى جـ ٢ ص ٦١٣ ـ ١٤ •

(٣٢٠) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ١١٩ •

(٣٢١) الدكتوران يحيى الخشاب والعرينى : ضبط وتحقيق الالفاظ الاصطلاحية التاريخية بمفاتيح العلوم للخوارزمى • المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨ •

(٣٢٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٣ •

(٣٢٣) دكتور مؤنس : تعليق بهامش التمدن الاسلامى لجورجى زيدان جـ ٢ ص ١٥ هامش •

الاختصاصات : وذكر الماوردى أن الديوان موضوع الحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال « والذى يشتمل عليه ديوان السلطنة ينقسم أربعة أقسام : **أحدها ما يختص** بالجيش من اثبات وعطاء والثانى ما يختص بالأعمال من رسوم وحقوق، والثالث ما يختص بالعمال من تقليد وعزل ، والرابع ما يختص ببيت المال من دخل وخرج » . فأما اثبات الجند وعطائهم فقد سبق التعرض له ، **وأما ما يختص بالاعمال من رسوم وحقوق** فيفصل الماوردى جوانبه على ستة « احدها : **تحديد العمل** بما يتميز به من غيره وتفصيل نواحيه التى تختلف أحكامها .. الثانى : أن يذكر حال البلد **هل فتح عنوة أو صلحا وما استقر عليه حكم أرضه من عشر أو خراج** .. فان كان جميعه أرض عشر لم يلزم اثبات مسائحه لأن العشر على الأرض دون المساحة ، ويلزم تسمية أربابه عند رفعه الى الديوان ـ لأن وجوب العشر فيه معتبر بأربابه دون رقاب الأرضين ، واذا رفع الزرع بأسماء اربابه ذكر مبلغ كيله وحال سقيه بسيح أو عملا لاختلاف حكمه .. وان كان جميعه أرض خراج لزم اثبات مسائحه لأن الخراج على المساحة ، فان كان هذا الخراج فى حكم الأجرة لم يلزم تسمية أرباب الارضين لأنه لا يختلف باسلام ولا كفر ، وان كان الخراج فى حكم الجزية لزم تسمية اربابه ووصفهم بالاسـلام أو الكفر لاختلاف حكمه باختلاف أهله .. الثالث : **أحكام خراجه وما استقر على مسائحه** : هل هو مقاسمة على زرعه أو هو رزق مقدر على خراجه..الرابع: ذكر من فى كل بلد من **أهل الذمة** وما استقر عليهم فى عقد الجزية .. الخامس : ان كان من بلدان **المعادن** ـ ان يذكر أجناس معادنه وعدد كل جنس منها ، وهذا مما لا ينضبط بمساحة ولا ينحصر بتقدير لاختلاقه ، وانما ينضبط بحسب المأخوذ منه اذا أعطى وأنال .. السادس : **ان كان البلد ثغرا يتاخم دار الحرب وكانت أموالهم دخلت دار الاسلام معشورة عن صلح استقر معهم ـ أثبت فى ديوان عقد صلحهم ، وقدر المأخوذ منهم من عشر أو خمس وزيادة عليـه أو نقصان منـه ، فان كان يختلف باختلاف الامتعـة والاموال فصلت فيـه وكان الديوان موضوعا لاخراج رسومه ولاستيفاء ما يرفع اليه من مقادير الامتعة المحمولة اليه** » .

وفيما يختص بالعمال من تقليد وعزل يشـتمل على سـتة أمور « احدها : ذكر **من يصح منه تقليد العمال** ، وهو معتبر بنفوذ الأمر وجواز النظر .. وهذا يكون من أحد ثلاثة : أما من السلطان ، وأما من وزير التفويض ، وأما من عامل عام الولاية كعامل اقليم أو مصر عظيم يقلد فى خصوص الأعمال عاملا .. الثانى : **من يصح أن يتقلد العمالة** ، وهو من

استقل بكفايته ووثق بأمانته ٠٠ الثالث : ذكر **العمل** الذى تقلده ـ تحديد الناحية ، وتعيين العمل من جباية أو خراج أو عشر ، والعلم برسوم العمل وحقوقه ٠٠ الرابع : **زمان النظر** ـ (فيقدر العمل بمدة محصورة ، أو بانجاز العمل ، أو يرد التقليد مطلقا ٠٠) الخامس : **فى جارى العمل** على عمله (وقد يكون مسمى معلوما أو مسمى مجهولا فيقدر جارى المثل ، أو غير مسمى مجهول أو معلوم ٠٠) ٠٠ السادس : **فيما يصح به التقليد** ٠٠ فاذا صح التقليد بالشروط المعتبرة فيه ، وكان العمل قبله خاليا من ناظر ـ تفرد هذا المولى بالنظر واستحق جاريه من أول وقت نظره فيه وان كان فى العمل ناظر قبل تقليده نظر فى العمل : فان كان مما لايصح الاشتراك فيه كان تقليده الثانى عزلا للأول ، وان كان مما يصح فيه الاشتراك روعى العرف ٠٠ واذ طولب العامل برفع الحساب فيما تولاه لزمه رفعه فى عمالة الخراج ولم يلزمه رفعه فى عمالة العشر ومصرف العشر الى أهل الصدقات ، وعلى مذهب أبى حنيفة يؤخذ برفع الحساب فى المالين لاشتراك مصرفهما عنده ٠٠ واذا أراد العامل أن يستخلف على عمله فذلك ضربان : أحدهما أن يستخلف عليه من يتفرد بالنظر فيه دونه ـ لهذا غير جائز منه لأنه يجرى مجرى الاستبدال وليس له أن يستبدل غيره بنفسه وان جاز له عزل نفسه ، والضرب الثانى أن يستخلف عليه معينا له فيراعى مخرج التقليد » ٠

وفيما اختص ببيت المال من دخل وخرج « فهو أن كل مال استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم فهو من حقوق بيت المال ، فاذا قبض صار بالقبض مضافا الى حقوق بيت المال سواء أدخل الى حرزه أو لم يدخل لأن بيت المال عبارة عن الجهة لا عن المكان ٠ وكل حق وجب صرفه فى مصالح المسلمين فهو حق على بيت المال ، فاذا صرف فى جهة صار مضافا الى الخراج من بيت المال سواء خرج من حرزه أو لم يخرج ٠٠ فأما الفىء **فمن حقوق بيت المال** لأن مصرفه موقوف على رأى الامام واجتهاده ، وأما الغنيمة فليست من حقوق بيت المال لأنها مستحقة للغانمين ٠٠ وأما خمس الفىء والغنيمة فينقسم ثلاثة أقسام : قسم منه يكون من حقوق بيت المال وهو سهم النبى المصروف فى المصالح العامة ، وقسم منه لا يكون من حقوق بيت المال وهو سهم ذوى القربى وقسم منه يكون بيت المال فيه حافظ له على جهاته وهو سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل ان وجدوا دفع اليهم وان فقدوا أحرز لهم ٠ وأما الصدقة فضربان : صدقة مال باطن فلا يكون من حقوق بيت المال لجواز أن ينفرد أربابه باخراج زكاته فى أهلها ، والضرب الثانى صدقة مال ظاهر كأعشار الزروع والثمار وصدقات المواشى ـ فعند

أبي حنيفة أنه من حقوق بيت المال لأنه يجوز صرفه على رأى الامام واجتهاده ولم يعينه فى أهل السهمين ، وعلى مذهب الشافعى لا يكون من حقوق بيت المال لأنه معين الجهات عنده ، ولكن اختلف قوله هل يكون بيت المال محلا لاحرازه عند تعذر جهاته ٠٠ وأما **المستحق على بيت المال** : (فان كان) مصرفه مستحقا على وجه البدل كأرزاق الجند وأثمان الكراع والسلاح ـ فاستحقاقه غير معتبر بالوجود وهو من الحقوق اللازمة مع الوجود والعدم ، فان كان موجودا عجل دفعه وان كان معدوما وجب فيه على الانظار ٠ (وان كان) مصرفه مستحقا على وجه المصلحة والارفاق فاستحقاقه معتبر بالوجود دون العدم ، وان كان معدوما سقط وجوبه عن بيت المال وكان ان عم ضرره من فروض الكفاية على كافة المسلمين حتى يقوم به منهم من فيه كفاية ـ كالجهاد ، وأن كان مما لا يعم ضرره ـ كوعور طريق قريب يجد الناس طريقا غيره بعيدا سقط وجوبه عن الكافة ٠٠ واذا فضلت حقوق بيت المال عن مصرفها فقد اختلف الفقهاء فى فاضله فذهب أبو حنيفة الى أنه يدخر فى بيت المال لما ينوب المسلمين من حادث ، وذهب الشافعى الى أنه يقبض على أموال من يعم به صلاح المسلمين ولا يدخر لأن النوائب تعين فرضها عليهم (٣٢٤) » ٠

الموظفون : وقد عرض الماوردى لموظفى الادارة المالية : **فعامل الخراج** « يعتبر فى صحة ولايته : الحرية والأمانة والكفاية ٠٠ فان ولى **وضع الخراج** اعتبر فيه أن يكون فقيها من أهل الاجتهاد ، وان ولى **جباية الخراج** صحت ولايته وان لم يكن فقيها مجتهدا ٠ **ورزق عامل الخراج فى مال الخراج ، وكذلك أجور المساح ، واما أجرة القسام فقد اختلف الفقهاء فيها** : فذهب الشافعى الى أن أجور قسام العشر والخراج معا فى الحق الذى استوفاه السلطان منهما ، وقال أبو حنيفة : أجور من قسم غلة العشر وغلة الخراج وسط من أصل الكيل ، وقال الثورى : أجور الخراج على السلطان وأجور العشر على أهل الأرض ، وقال مالك : أجور العشر على صاحب الأرض وأجور الخراج على الوسط » ٠

واما كاتب الديوان فالمعتبر فيه العدالة والكفاية « فاذا صح تقليده فالذى ندب له ستة أشياء : **حفظ القوانين** على الرسوم العادلة من غير زيادة تتحيف بها الرعية أو نقصان ينثلم به حق بيت المال ، وان تقدمته القوانين المقررة فيها رجع فيها الى ما أثبته أمناء الكتاب اذا وثق بخطوطهم ٠٠ الثانى : **استيفاء الحقوق** ، فيعمل فيه على اقرار العمال بقبضها ، ثم

---

(٣٢٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٧٩ : ١٨٩ ٠

استيفاؤها من العمال (الى صاحب بيت المال) ·· الثالث **اثبات الرفوع** — فأما رفوع المساحة والعمل فان كانت أصولها مقدرة فى الديوان اعتبر صحة الرفع بمقابلة الأصل وأثبت فى الديوان أن وافقها ، وان لم يكن لها فى الديوان أصول عمل فى اثباتها على قول رافعها ، واما رفوع القبض والاستيفاء فيعمل فى اثباتها على مجرد قول رافعها لأنه يقربه على نفسه لالها ، وأما رفوع الخراج والنفقة فرافعها مدع لها فلا تقبل دعواه الا بالحجج البالغة فان احتج بتوقيعات ولاة الأمور استعرضها ·· الرابع : **محاسبه العمال** ·· فان لم يقطع بين العامل وكاتب الديوان خلف كان كاتب الديوان مصدقا فى بقايا الحساب ، فان استراب به ولى الأمر كلفه احضار شواهده ، وان لم تزل الريبة أحلف العامل دون كاتب الديوان لان المطالبة متوجهة على العامل دون الكاتب — وان اختلفا فى الحساب نظر : فان كان اختلافهما فى دخل فالقول فيه قول العامل لأنه منكر ، وان كان اختلافهما فى خرج فالقول فيه قول الكاتب لأنه منكر ، وان كان اختلافهما فى مساحة تمكن اعادتها اعتبرت بعد اختلاف ·· الخامس : **اخراج الاحوال** ، وهو استشهاد صاحب الديوان على ما يثبت فيه من قوانين وحقوق فصار كالشهادة ·· السادس : **تصفح الظلامات** ، فان كان المتظلم من الرعية تظلم من عامل تحيفه فى معاملته كان صاحب الديوان فيها حاكما بينهما ، وان كان المتظلم عاملا جوزف فى حساب أو غولط فى معاملة صار صاحب الديوان فيها خصما وكان المتصفح لها ولى الأمر (٣٢٥) » ·

تقدير الخراج : للادارة المالية فى تقدير الخراج طرق شتى ، وقد اختلفت هذه الطرق فى العراق عنها فى الشام أيام عمر بن الخطاب ، وينبغى ان يراعى في كل أرض ما تحتمله « فانها تختلف من ثلاثة اوجه يؤثر كل واحد منهما فى زيادة الخراج ونقصانه : أحدها ما يختص **بالارض** من جودة او رداءة ، والثانى ما يختص **بالزرع** من اختلاف انواعه فمنها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه ، والثالث ما يختص **بالسقى والشرب** ·· وشرب الزرع والاشجار ينقسم أربعة اقسام : احدها ما سقاه الادميون بغير آلة كالسيوح من العيون والانهار ·· والثانى ما سقاه الادميون بآلة من نواضح ودواليب او دوالى وهذا اكثر المياه مؤنة واشقها عملا · والثالث : ما سقته السماء بمطر او ثلج أو طل ويسمى العذى · الرابع : ما سقته الارض بنداوتها وما استكن من الماء فى قرارها ويسمى البعل · فأما الفيل وهو ما شرب بالقناة : فان ساح

(٣٢٥) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣٦ — ٧ ، ١٨٩ : ١٩٢ ·

فهو من القسم الاول وان لم يسح فهو من القسم الثانى ، وأما الكظائم فهو ما شرب من الآبار : فان نضح منها بالفروب فهو من القسم الثانى وان استخرج من القناة فهو غيل يلحق بالاول .. فلابد لواضع الخراج من اعتبار لما وصفناه ، من غير زيادة تجحف باهل الخراج ولا نقصان يضر بأهل الفيء .. ومن الناس من اعتبر شرطا رابعا وهو **قربها من البلدان والأسواق وبعدها** لزيادة اثمانها ونقصانها ، وهذا انما يعتبر فيما يكون خراجه ورقا ولا يعتبر فيما يكون خراجه حبا » . **ويجرى وضع الخراج على مسائح الارض ويعتبر فى هذه الحالة بالسنة الهلالية ، او على مسائح الزرع ويعتبر هنا بالسنة الشمسية ، أو مقاسمة فيعتبر بكمال الزرع وتصفيته** . ويرى الماوردى **تثبيت قدر الخراج** المقرر بشروطه « لا يجوز أن يزاد فيه ولا ينقص منه ما كانت الارضون على أحوالها فى سقيها ومصالحها ، فان تغير سقيها ومصالحها الى الزيادة والنقصان فذلك ضربان : احدهما ان يكون حدوث الزيادة والنقصان بسبب من جهتهم ــ كزيادة حدثت بشق انهار او نقصان حدث لتقصير فى عمارته ، فيكون الخراج عليهم بحاله .. الثانى أن يكون حدوث ذلك من غير جهتهم ــ فيكون النقصان لشق انشق او نهر تعطل ، فان كان سده وعمله ممكنا وجب على الامام ان يعمله من بيت المال والخراج ساقط عنهم ما لم يعمل ، وان لم يمكن عمله فخراج تلك الارض ساقط عن أهلها اذا عدم الانتفاع بها ، فان امكن الانتفاع بها في غير الزراعة كمصايد او مراع جاز ان يستأنف وضع خراج عليها بحسب ما يحتمله الصيد والمرعى . وأما الزيادة التى احدثها الله ــ فكانهار حفرها السيل ، فان كان هذا عارضا لم يجز ان يزاد الخراج وان وثق بدوامه راعى الامام فيه المصلحة لارباب الضياع وأهل الفيء » (٣٢٦) .

وقد ذكر الماوردى أن عمر أقر نظام تقدير الخراج **بالمساحة** الذى كان سائدا ايام الفرس ــ وفيه يتقرر خراج معين على مساحة محددة من الارض تجبيه الدولة فى كل عام جملة او منجما دون نظر الى ما يحدث من اختلاف كميات المحصول او غيره الا أن يغير قدر الخراج برمته لظروف معينة . ثم حدث العمل بنظام المقاسمة أيام العباسيين ــ وفيه تتقاسم الدولة مع الزراع ما ينتج من محصول الارض بنسبة معينة دون اعتبار للمساحة فيتغير الخراج بتغير كمية المحصول الناتج . « ولم يزل السواد على المساحة والخراج الى أن عدل بهم المنصور عن الخراج

(٣٢٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٢ : ٥ .

الى المقاسمة لان السعر نقص فلم تف الغلات بخراجها وخرب السواد فجعله مقاسمة . واشار ابو عبيد الله على المهدى ان يجعل ارض الخراج مقاسمة بالنصف أن سقى سيحا ، وفى الدوالى على الثلث وفى الدواليب على الربع ، وان يعمل فى النخل والكرم والشجر مساحة خراج تقدر بحسب قربه من الاسواق والفرض » . **والماوردى لا يرحب بهذا التغيير** « والذى يوجبه الحكم أن خراجها هو المضروب عليها اولا ، وتغييره الى المقاسمة ــ اذا كان لسبب حادث اقتضاه اجتهاد الائمة فيكون امضى مع بقاء سببه ، والا احيل الى حاله الاول عند زوال سببه ، اذ ليس للامام أن ينقض اجتهاد من تقدمه » . وأما التزام العمال بتقديم قدر معين من الخراج وهو ما يعرف **بالتقبل او الالتزام** فالماوردى يرفضه كلية « فأما تضمين العمال لاموال العشر والخراج فباطل لا يتعلق به فى الشرع حكم ، لان العامل مؤتمن يستوفي ما وجب ويؤدى ما حصل ، فهو كالوكيل الذى اذا أدى الامانة لم يضمن نقصانا ولم يملك زيادة وضمان الاموال بقدر معلوم يقتضى الاقتصار عليه فى تملك ما زاد وغرم ما نقص ــ وهذا مناف لوضع الامانة وحكم العمالة فبطل » (٣٢٧) . ويرفض أبو يوسف نظام التقبل أيضا ، الا أنه يؤثر **نظام المقاسمة** على نظام المساحة فيقول : « نظرت فى خراج السواد وفى الوجوه التى يجبى عليها ، وجمعت فى ذلك أهل العلم بالخراج وغيرهم وناظرتهم فيه ... فناظرتهم فيما كان وظف عليهم في خلافة عمر فى خراج الارض واحتمال ارضهم اذ ذاك لتلك الوظيفة حتى قال عمر لحذيفه وعثمان بن حنيف : لعلكما حملتما الارض مالاتطيق ... فذكروا أن العامر كان من الارضين فى ذلك الزمان كثيرا وأن المعطل منهما كان يسيرا ، ووصفوا كثرة العامر الذى لا يعمل وقلة العامر الذى يعمل .. فرأيت ان وظيفة من الطعام ــ كيلا مسمى او دراهم مسماة توضع عليهم مختلفة فيه دخل على السلطان وعلى بيت المال وفيه مثل ذلك على أهل الخراج بعضهم من بعض . اما وظيفة الطعام فان كان رخصا فاحشا لم يكتف السلطان بالذى وظف عليهم ولم يطل نفسا بالحط عنهم ولم يقو كذلك الجنود ولم تشحن به الثغور ، واما غلاء فاحشا لايطيب السلطان نفسا بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك والرخص والغلاء بيد الله تعالى لا يقومان على أمر واحد . وكذلك وظيفة الدراهم ــ مع اشياء كثيرة تدخل فى ذلك تفسيرها يطول .. ولم أجد شيئا

---

(٣٢٧) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٥٧ .

اوفر على بيت المال ولا اعفى لاهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا اعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم — ومن مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضى ولاهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل » . وأبو يوسف يرى تعميم نظام المقاسمة حتى على النخل والكرم والبساتين (٣٢٨) . واذا قارنا بين نظام المساحة وبين نظام المقاسمة « فانا نجد ان نظام المساحة يكون فى صالح المزارعين اذا كانت الغلات عالية الاسعار لانه لا يكون على المزارع الا ان يدفع خراجا محدودا — نقدا فى الغالب — ويبيع غلاته فيستفيد من غلاء الاسعار . وكلما اجتهد فزاد انتاجه جنى ثمرة جهده وذلك بشرط ان تكون الوظيفة حددت بعدل وان تظل ثابته . والا فان نظام المقاسمة يكون افيد للمزارعين فهو اصلح لهم اذا كانت الاسعار رخيصة لان الغلات حينئذ قد لا تفى بخراجها ، وهو اصلح اذا كان الخراج المقرر باهظا ... » (٣٢٩) . وقد كانت الادارة المالية في الدولة الاسلامية مرنة ، تغير اساس تقدير الخراج من عهد الى عهد ، كما تعدل فى قدر الخراج المربوط نفسه — دون أن تساير فى ذلك الرأى الفقهى القائل بالتأبيد . فالبلاذرى يروى أنه كان بفلسطين فروز بسجلات من الخلفاء مفردة من خراج العامة وبها التخفيف والردود « وذلك ان ضياعا رفضت فى خلافة الرشيد وتركها أهلها ، فوجه الرشيد هرثمة بن أعين لعمارتها فدعا قوما من مزارعيها وأكرتها الى **الرجوع اليها على ان يخفف عنم من خراجها ويلين معاملته فرجعوا فاولئك اصحاب التخافيف ، وجاء قوم منهم بعد فردت عليهم ارضوهم على مثل ما كانوا عليه — فهم أصحاب الردود »** . والبلاذرى يسوق خبرا كهذا فى شأن السامرة الذين وضع عليهم يزيد بن معاوية خراجا خمسة دنانير ، ثم اصابهم الطاعون بالخراب فتألفهم الرشيد ، كما ردهم المتوكل الى ثلاثة دنانير (٣٣٠) .

وقد بدأ تنظيم الادارة المالية الاسلامية فى اجناد الشام منذ عهد عمر فقد قسم الارزاق وعين امراء الاجناد في زيارته سنة ١٧ هـ وخطب حين أراد القفول فقال « ... قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم وابلغنا مالديكم — فجندنا لكم الجنود وهيأنا لكم الفروج ، وبوأناكم

---

(٣٢٨) أبو يوسف الخراج ص ١٠٥ ، ٤٧ : ٥٠ .
(٣٢٩) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٣٨٨ : ٣٩١ .
(٣٣٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥١ ، ١٦٥ .

ووسعنا عليكم ما بلغ فيئكم عليه من شامكم ، وسمينا عليكم اطماعكم، وأمرنا لكم باعطائكم وأرزاقكم ومعاونكم ... » ويلاحظ ان عمر خصص عاملا للاهراء هو عمرو بن عبسة (٣٣١) ، وقد كانت الاهراء مخازن لايرادات الدولة النوعية ، وكان بحمص هرى « يرده قمح وزيت من الساحل وغيرها مما قوطع أهله عليه واسجلت لهم السجلات بمقاطعتهم»، كما بنى مسلمة بن عبد الملك بالباب هريين للطعام والشعير ، وجعل عبدالله ابن عبد الملك كنيسة فى حصن المصيصة هريا (٣٣٢) .

وقد جاء تعريب الدواوين فى عهد عبد الملك بن مروان خطوة واسعة فى سبيل تقدم الادارة المالية الاسلامية ، بعد ان كان كتابها من الروم والفرس حتى روى البلاذرى ان زادان فروخ ان بيرى كان يقول عن الحجاج انه « .. لا يجد من يكفيه حسابه غيرى » وكان معه صالح ابن عبد الرحمن مولى بنى تميم من سبى سجستان يخط بين يديه بالعربية والفارسية فقال له « لو شئت أن احول الحساب الى العربية لحولته » . فلما عزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية وقلد ذلك صالحا « قال له مروان شاه بن زادان فروخ : كيف تصنع بدهوية وششوية ؟ قال : اكتب عشر ونصف عشر ، قال فكيف تصنع بويد ؟ قال اكتبه ايضا والويد النيف والزيادة تزاد ، فقال : قطع الله اصلك كما قطعت أصل الفارسية . وبذلت له مائة الف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فابى ونقله ، فكان عبد الحميد ابن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول : لله در صالح ــ ما اعظم منته على الكتاب » (٣٣٣) ، وهكذا بدا فى الظهور جهاز ادارى مالى عربى أو مستعرب وتغلب الكتاب الجدد على مصاعب كتابة الكسور ، وكوفىء الموظف الذى عرب ديوان الشام بخراج الاردن لمدة عام وكان مائة وثمانين الف دينار « وبقى النظام الرومى والفارسى في الديوان كما هو بطبيعة الحال ، ولم يتغير الا لغة الديوان . ولا شك أيضا فى أن الكتاب الروم والفرس الذين كانوا فى خدمة الدولة قد بقوا كما كانوا لانهم كانوا يعرفون العربية ، وكان لا بد للكاتب من معرفة الفارسية والرومية لكى يستطيع النقل الى العربية . وينسب تيوفانيس الى الوليد الاول ــ لا الى من قبله ــ احلال اللغة العربية محل الرومية ، ويقول ان العرب قد اضطروا

(٣٣١) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٣ ــ ٤ رواية السرى عن شعيب عن سيف .
(٣٣٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤١ ، ١٧٢ ، ٢١٤ .
(٣٣٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٨ ــ ٩ .

الى الاحتفاظ بعلامات الارقام الرومية وان كتابه كانوا ما يزالون نصارى . والحقيقة أن الكتاب النصارى في العصر العباسي ـ الذى الف فيه هذا المؤرخ البيزنطى كتابه ـ كانوا أقوى نفوذا وأعظم سلطانا مما كانوا فى أى وقت مضى ، ولكن البغض لهم لم يبلغ ما بلغه في ذلك العصر أيضا . وقد أخذ على عبيد الله بن زياد انه استعمل الدهاقين فى جباية الخراج فعلل ذلك بأنهم (ابصر بالجباية ، واوفى بالامانة ، وأهون فى المطالبة من العرب) . واصبحت ادارة الدولة في عهد عبد الملك ذات طابع فنى ومتدرج اكثر مما كانت عليه من قبل ، وان لم تبلغ فى ذلك الا درجة أقل بكثير مما بلغته ادارة الدولة العباسية » . (٣٣٤) وذكر الطبرى « روى عن عبد الله بن على : جمعت دواوين بنى مروان فلم ار ديوانا اصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام . وقال غسان بن عبد الحميد : لم يكن أحد من بنى مروان أشد حصرا فى أمر أصحابه ودواوينه ولا أشد مبالغة فى الفحص عنهم من هشام » . (٣٣٥) واذا كان تدوين الدواوين فى الاصل قد اجرى لاسباب مالية ، فان تطورها وزيادة عددها وأحكام أعمالها قد دفعت اليه أسباب مالية أيضا . وديوان الخاتم الذى يعزى انشاؤه الى معاوية قد قام توقيا للتزوير والاختلاس ، فيروى البلاذرى أن رجلا انتقش على خاتم وأصاب به مالا من خراج الكوفة ، ونقل عن ابن المقفع علم بسوابق فى الادارة الفارسية لضبط هذا الامر « قال : كان ملك الفرس اذا أمر بأمر وقعه صاحب التوقيع بين يديه ، وله خادم يثبت ذكره عنده فى تذكرة تجمع لكل شهر فيختم عليها الملك خاتمة وتخزن . ثم ينفذ التوقيع الى صاحب الزمام فيعرضه على الملك فيقابل به ما فى التذكرة ـ ثم يختم بحضرة الملك أو أوثق الناس عنده ... وعنه أيضا قال : كان للملك من ملوك فارس خاتم للسر ، وخاتم لمرسل وخاتم للتخليد ـ يختم به السجلات والاقطاعات وما شبه ذلك من كتب التشريف ، وخاتم للخراج . فكان صاحب الزمام يليها ، وربما أفرد بخاتم السر والرسائل رجل من خاصة الملك » .

وعلى هدى هذه السوابق « كان زياد بن أبى سفيان أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امتثالا لما كانت الفرس تفعله ... وأخبرنى مشايخ من الكتاب : أن دواوين الشام انما كانت فى قراطيس وكذلك

(٣٣٤) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية . ترجمة دكتور أبو ريدة ص ٢١١ : ٢١٣ .
(٣٣٥) الطبرى جـ ٨ ص ٢٨٥ .

الكتب الى ملوك بنى امية فى حمل المال وغير ذلك ، فلما ولى المنصور أمر وزيره أيوب المورياني أن يكتب الرسائل بحمل الاموال فى صحف وأن تصفر الصحف — فجرى الامر على ذلك (٣٣٦) » .

وهكذا ظهر ديوان الخاتم فى عهد معاوية بينما انشىء ديوان الزمام فى عهد العباسيين فى خلافة المهدى سنة ١٦٢ هـ « ولم يكن لبنى أمية دواوين أزمة » وذلك أن الدواوين جمعت لعمر بن بزيع احد موالى المهدى الخاصين به وحينذاك « تفكر فاذا هو لا يضبطها الا بزمام — يكون له على كل ديوان ، فاتخذ دواوين الازمة وولى على كل ديوان رجلا (٣٣٧) » . انتظمت الادارة المالية الاسلامية فى الاقاليم « وكان خزيمة بن خازم هو الذى سن المساحة بدبيل والنشوى ولم يكن قبل ذلك ... ولم يزل بطارقة أرمنية مقيمين فى بلادهم يحمى كل واحد منهم ناحيته فاذا قدم الثغر عامل من عماله داروه ، فان رأوا منه عفة وصرامة وكان فى قوة أدوا اليه الخراج وأذعنوا له بالطاعة ، والا اغتمزوا فيه واستخفوا بأمره » (٣٣٨) » .

وكانت الجباية تسند الى عامل الخراج مستقلا عن الوالى ، فاذا ما جمع الوالى الى عمله وظيفة صاحب الخراج فانه كان يدع مهمة الجباية الى الكاتب . وتتناثر روايات تاريخية متفرقة تصور سير العمل فى الادارة المالية ، ومن ذلك ما يرويه احمد بن المدبر « كنت اتقلد مجلس الاسكدار — وهو مدرج يكتب فيه عدد الخرائط والكتب الواردة والنافذة وأسامى أربابها — فى ديوان الخراج (٣٣٩) .. » .

وقد تمخضت زيارة المأمون للشام سنة ٨٢٩م ٢١٥ هـ عن وضع كشف جديد لاراضيها على أمل زيادة جبايتها (٣٤٠)، ويبدو أن السلطة المركزية فى العهد العباسى لم تكن تدع للولايات السلطان المطلق فى الشئون الادارية — خاصة بالنسبة للشام التى كانت تنظر اليه الدولة نظرة معينة باعتبارها قاعدة خصومها السابقين من الأمويين فضلا عن كونها مثار فتن متلاحقة ضد العباسيين .

---

(٣٣٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٦٨ : ٤٧٠ .
(٣٣٧) الطبرى ج ٩ ص ٣٤٢ ، جـ ١٠ ص ١٠ .
(٣٣٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٧ — ٨ .
(٣٣٩) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٩٩ .
(٣٤٠) حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٦٥ .

وفى العاصمة كان هناك **فصل بين بيت المال العام وبين خزانة الخليفة وهى المسماه بيت مال الخاصة** وان كان يعهد بأمرها لرجل واحد فيصبح الفصل بين حساباتهما مسالة تتعلق بضميره . وفى بيان يرجع الى أول القرن الرابع الهجرى **نجد ان اموال مصر والشام كانت تحمل الى بيت مال الخاصة** ـ اذ تحمل جزية أهل الذمة الى بيت مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين لا الى بيت مال العامة ـ فهذ واجب الخليفة نظريا ، كما كان يحمل الى بيت المال الخاص من أموال الضياع والخراج بالسواد والاهواز والمشرق والمغرب . وعندنا **أبواب لميزانية الدولة** سنة ٣٠٦هـ ـ سنة ٩١٨م ـ وهى تقوم على ميزانية عام سنة ٣٠٣هـ ، **فكانت الميزانية العامة تقسم على نحو ما كانت تقسم الدفاتر** فى دواوين الخراج الى باب الاستخراج أو الدخل وباب النفقات، وكذلك **يقسم باب النفقات الى النفقات الراتبة والحادثه ، وكانت الميزانية تنتهى بعجز . وكانت مقادير الخراج لاقاليم من المشرق تذكر عينا وحتى عام ٢٦٠ هـ/٨٧٣ م كان يذكر النوع الى جانب القيمة بالذهب مما يدل على تقدم النظام المالى ، أما فيما يتعلق بالشام والعراق فكان الخراج يحسب بالعين والنوع. وبحكم اعتبار الخليفة اماما للمسلمين كان عليه أن ينكفل من بيت المال الخاص بنفقات موسم الحج والغزوات الصائفة وفداء أسرى المسلمين واستقبال الرسل الوافدين ، اما العطايا وكل ما يتعلق بنفقات دار الخلافة فكان يؤخذ من بيت المال العام .**

وكانت بيت المال فى كل من مصر والشام بالمسجد الجامع « وهو شبه قبة مرتفعة محمولة على أساطين ، لبيت المال باب حديد وأقفال والصعود عليه على قنطرة من الخشب ، واذا صليت العشاء الاخرة أخرج الناس كلهم من المسجد ثم أغلقت أبوابه وذلك لوجود بيت المال فيه (٣٤١) » .

وصحبت الحملات العسكرية ضد الروم ادارة مالية خاصة ، ففى سنة ١٦٣ هـ أخرج المهدى مع هارون « على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره يحيى بن خالد » (٣٤٢) .

ولم تجر الريح طيبة دائما فى شئون المال طوال عهد العباسيين ، فقد ظهر نذير الازمة المالية . وفى سنة ٢٣٢ هـ أمر الواثق بترك جباية

---

(٣٤١) متز : الحضارة الاسلامية . ترجمة دكتور أبى ريدة ج ١ ص ١٧٢ : ٥ ، ١٤٤ ، ١٨٠ .

(٣٤٢) الطبرى ج ٩ ص ٣٤٣ .

اعشار البحر تيسيرا لامر التجارة ، ولكن هذا التيسير لم يكن نتيجة استغناء بيت المال وانما هى محاولة لعلاج بعض نواحى الازمة ، وقد حبس الواثق الكتاب سنة ٢٢٩هـ والزمهم أموالا « فدفع احمد بن اسرائيل الى اسحق بن يحيى بن معاذ صاحب الحرس وأمر بضربه كل يوم عشرة أسواط ، فضربه فيما قيل نحوا من الف سوط فأدى ثمانين الف دينار ، وأخذ من سليمان بن وهب أربعمائة ألف دينار ... ومن احمد الخصيب وكتابه الف دينار ... وذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم (٣٤٣) » . وهذا دليل على مواضع سوء فى الادارة المالية مكنت هؤلاء الكتاب من الخيانة ، أو سوء فى حالة الدولة الجاها الى المصادرة بهذا الاعتساف . وقد اخذ نظام التقبل أو الضمان ينتشر بالتدريج فى العصر العباسى (٣٤٤) ، بالرغم من أن الفقهاء صرحوا بمخالفة هذا النظام لمبادىء الشريعة الاسلامية « فان المتقبل اذا كان فى قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم مالا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه . وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية ، والمتقبل لا يبالى بهلاكهم بصلاح أمره فى قبالته ، ولعله يستفضل بعد ما يتقبل به فضلا كثيرا ... فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكسر الخراج ، وليس يبقى على الفساد شىء ولن يقل مع الصلاح شىء (٣٤٥) » .

وقد كان امراء الاطراف يظهرون على مسرح الاحداث فى غالب الامر ضامنين للبلاد التى يحكمونها فهم لم يظهروا فى صورة أصحاب الاقطاعات كما كان الحال فى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، بل يتوصلون الى الملك بأن يشرعوا فى احتلال المدن الاقاليم غصبا ويقاتلوا عليها عسكر الخليفة حتى يقر لهم بالامارة مقابل مال يضمنون أداءه . فى سنة ٢٩٦هـ – سنة ٩٠٩ م ضمن ابن أبى الساج أرمينية وأذربيجان قبل أن تؤولا للسامانيين على ١٢٠٫٠٠٠ دينار – وهو ما يقرب من عشر الدخل الذى كانت تدفعه هذه البلاد منذ مائة سنة (٣٤٦) .

ولم تجد الاقتراحات شيئا فى علاج الاحوال فان ابن المقفع مثلا قد كتب للمنصور ما عرف باسم (رسالة الصحابة) نصح فيها الاولى

---

(٣٤٣) الطبرى جـ ١١ ص ٢٤ ، ١٠ .
(٣٤٤) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٤٨٥ .
(٣٤٥) ابو يوسف : الخراج ص ١٠٥ .
(٣٤٦) متز : الحضارة الاسلامية . ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ١ ص ١٨٧ .

جند خراسان شيئا من الخراج « فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم ــ لأنهم أهل دالة ودعوى بلاء ، وانه اكان جلابا للدراهم والدنانير اجترأ عليهما ، واذا وقع فى الخيانة صار كل أمره مدخولا ... »

وافصحت الرسالة عن مساوىء النظام المالى منذ ذلك العهد المبكر من حكم العباسيين « ان أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم ، وليس من كورة الا وقد غيرت وظيفتها مرارا فخفيت وظائف بعضها وبقيت وظائف بعض .. فلو ان أمير المؤمنين أعمل رأيه فى التوظيف على الرساتيق والقرى والارضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك واثبات الاصول .. لرجونا أن يكون فى ذلك صلاح للرعية وعمارة للارض وحسم لابواب الخيانة وغشم العمال » . وختم ابن المقفع نصائحه بتخير العمال وتفقدهم والاستعتاب لهم والاستبدال بهم(٣٤٧) » . ثم جاء أبو يوسف فكتب كتابه فى الخراج للرشيد ، ولكن لم تجد الكتب فى علاج الامور . وقد عقد ابن خلدون فصلا ممتعا فى الجباية لكنه جاء متأخرا جدا بالنسبة للاحوال السياسية والاقتصادية ، وان كان متقدما بالنسبة لتاريخ العلوم والمعارف . فقال ابن خلدون : ان الجباية فى أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة « والسبب فى ذلك ان الدولة ان كانت على سنن الدين فليست تقتضى الا المغارم الشرعية : من الصدقات والخراج والجزية ــ وهى قليلة الوزائع ، وهى حدود لا تتعدى . وان كانت على سنن التغلب والعصبية فلا بد من البداوة فى أولها : والبداوة تقتضى المسامحة والمكارمة .. فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة ، والوزيعة التى تجمع الاموال من مجموعها ، واذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقلة المغرم ، واذا اكثر الاعتمار كثرت اعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التى هى جملتها . فاذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها وآحدا بعد واحد. وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف ، فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والاكرة والفلاحين وسائر أهل المغانم ، ويزيدون فى كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية ويضعون المكوس على المبايعات والابواب . ثم تتدرج الزيادات

---

(٣٤٧) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٣٧٣ : ٥ .

فيها بمقدار بعد مقدار — لتدرج عوائد الدولة فى الترف وكثرة الحاجات والانفـــاق بسببه ، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتنهضم وتصير عادة مفروضة ٠٠ ثم تزيد الى الخروج عن حد الاعتدال ، فتذهب غبطة الرعايا فى الاعتماد لذهاب الامل عن نفوسهم بقلة النفع اذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته ٠٠ وربما يزيدون فى مقدار الوظائف اذا رأوا ذلك النقص فى الجباية ، ويحسبونه جبرا لما نقص — حتى تنتهى كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس وراءها نفـــع ولا فائدة ٠٠ الى أن ينتقص العمران بذهاب الامال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة » ٠

وقد فطن ابن خلدون الى أن اقلال الدولة من نفقاتها وعطائها يؤدى بالتالى — بعد دورة اقتصادية — الى نقص فى الجباية « والسبب فى ذلك ان الدولة والسلطان هى السوق الأعظم للعالم ومنه مادة العمران ، فاذا احتجن السلطان الاموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها فى مصارفها — قل حينئذ ما بأرض الحاشية والحامية ، وانقطع أيضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم ، وقلت نفقاتهم جملة — وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للاسواق ممن سـواهم ، فيقـع الكساد حينئذ فى الاســواق وتضعف الارباح فى المتاجر ، فيقل الخراج لذلك — لان الخراج والجباية انما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفـاق الاسواق وطلب الناس للفوائد والارباح ٠ ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقـلة أموال السلطـــان حينئذ بقلة الخراج(٣٤٨) » ٠

(د) العملة :

كانت الدنانير الرومية والدراهم الكسروية وقليل من الدراهم الحميرية (وعليها صورة البومة الاثينية) وهى الجارية فى بلاد العرب ٠ وقد أبقى عليها عمر وربما اضيفت اليها عبارة (لا اله الا الله) أو كلمة (جائز) للدلالة على انها عملة مقبولة . وكانت هذه العملة تحمل نقوشا فيها تماثيل — أى صوره لملك أو أمير أو حصن او حيوان او بيت نار أو صليب ، وبعضـها كان يحمل تواريخ قديمة ترجع الى ما قبل الاسلام باربعمائة سنة . وقد ظهرت محاولات لسك عملة اسلامية من الفضة والنحاس على أيدى معاوية ومصعب بن الزبير بأمر أخيه عبد الله ، ولكن هذه العملات لم تنجح ٠ ومن اصلاحيات عبد الملك بن مروان المالية الكبرى تعريب المعلة بعد تعريب الادارة .

---

(٣٤٨) ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى جـ ٢ ص ٦٦٧ : ٩ ، ٦٧٩ ٠

والبلاذرى يروى ان ضرب الدنانير بدا فى دمشق سنة ٧٤ هـ بينما بدا ضربها فى العراق على يد الحجاج سنة ٧٥ هـ وهناك رواية للواقدى تذهب الى انه لم يبدأ فى ضرب الدراهم الفضية والدنانير الذهبية الا بعد ذلك سنة ٧٦ هـ « وكانت مثاقيل الجاهلية التى ضرب عليها عبد الملك اثنين وعشرين قيراطا الا حبة وكان العشرة وزن سبعة ، والمثقال الشامى هو الذى ضربت عليه الدنانير » • ويذكر تيوفانيس ان رد جستنيان الثانى للدنانير الذهبية الدمشقية كان هو السبب فى استئناف الحرب بين المسلمين والروم • ويروى البلاذرى « وكانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر ، ويأتى العرب من قبل الروم الدنانير • فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب التى يكتب فى رءوس الطوامير من (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكرها فكتب اليه ملك الروم : انكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه فان تركتموه والا اتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ماتكرهونه • فكبر ذلك فى صدر عبد الملك فكره أن يدع سنة حسنة سنها فأرسل الى خالد بن يزيد ابن معاوية •• وأخبره الخبر ، فقال : أفرخ روعك يا أمير المؤمنين ـ حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها ، واضرب للناس سككا ، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا فى الطوامير • فقال عبد الملك : فرجتها عنى فرج الله عنك ـ وضرب الدنانير» • وهكذا ولدت العملة العربية • وروى ان الحجاج سأل عما كانت الفرس تعمل به فى ضرب الدراهم « فاتخذ دار ضرب وجمع فيها الطباعين ، فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والسقوقة والبهرجة ، ثم أذن للتجار وغيرهم فى أن تضرب لهم الاوراق واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من فضول الاجرة للصناع والطباعين » • وتتابع الولاة الامويون على تجويد النقود : عمر بن هبيرة وخالد ابن عبد الله البجلى القسرى ويوسف بن عمر « فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بنى أمية ، ولم يكن المنصور يقبل فى الخراج من نقود بنى أمية غيرها» **وسك كل أمير فى ناحيته العملة بتفويض من الخليفة** • وقد جاء سك العملة العربية استجابة لمقتضيات سيادة الدولة الاسلامية ، كما انتفع الناس باشراف الدولة عليها ، فتميز الصحيح من المغشوش • وكان الخليفة بنفسه يحدد المقدار أى الوزن • ولم تتغير وحدة العملة بتعريبها فبقى الدينار الذهبى والدرهم الفضى والقطع من الدرهم مثل الدانق والمثقال ، ولكن تغير نقش العملة وأصبح كلمات من غير صور فكانت الدنانير والدراهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما فى دوائر متوازية

فيكتب على أحد الوجهين أسماء الله وصلاة على النبى وعلى الوجه الآخر التاريخ واسم الخليفة ٠

وكان وضع علامة السلطان على النقود دليلا على جودتها « بحسب الغاية التى وقف عندها السبك والتخليص فى متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة ٠٠ ولفظ السكة كان اسما للطابع ــ وهى الحديدة المتخذة لذلك ، ثم نقل الى أثرها وهى النقوش المماثلة على الدنانير والدراهم ، ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه ــ وهى الوظيفة ٠٠ وهى وظيفة ضرورية للملك اذ بهـا يتميز الخالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات ٠٠ ولما جاء الاسلام أغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب ٠٠ الى أن تفاحش الغش فى الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك » ٠ وقد أثنى المقريزى على فعل عبد الملك «فكان فيما صنع فى الدراهم ثلاث فضائل : الاولى ــ ان كل سبعة مثاقيل زنة عشرة دراهم ، والثانية ــ انه عدل بين صغارها وكبارها حتى اعتدلت وصار الدرهم ستة دنانير ، والثالثة ــ انه موافق لما سنه رسول الله فى فريضة الزكاة بغير وكس ولا اشتطاط(٣٤٩) » ٠

وقد كانت الدولة الاسلامية تتعامل بالدينار والدرهم معا ، ويجبى الخراج بهما معا « وكانت الدولة منقسمة الى منطقتين : المنطقة الاولى ــ يكثر التعامل فيها بالدينار أو يعتبر أساسا كمصر والشام أو المنطقة التى كانت تابعة للدولة البيزنطية ، والثانية ــ يكثر التعامل فيها بالدرهم أو يعتبر النقد الرئيسى مثل العراق وفارس أو المنطقة التى كانت تابعة للدولة الفارسية ٠ فالاولى يصح أن تسمى منطقة الذهب والثانية تسمى منطقة الفضة ٠ ولكن مع ذلك كان التعامل مقبولا بأحد النقدين أو الآخر ، ويحـول أحدهما الى الآخر بحسب النسبة ــ أى **سعر الصرف السائد فى السوق الذى تحدده الاحوال التجارية دون تدخل الحكومة ٠**

فنظام النقد للدولة الاسلامية بصفة عامة هو نظام المعدن المزدوج
Bimettalism

وقد اختلف سعر الصرف : فبعد أن كان الدينار مساويا لعشرة

---

(٣٤٩) الطبرى ج ٧ ص ٢٤٢ رواية الواقدى ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٩ ، ٤٧١ : ٤ ، ابن خلدون : المقدمة طبعة دكتور وافى ج ٢ ص ٥٧٧ ، ٦٣٨ : ٦٤٠ ، فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ترجمة دكتور ابى ريدة ص٢١٠ ــ ١١ ، دكتور ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ١ ص ٢٣٧ ــ ٨ ، ج ٢ ص ١٦٥ : ١٧٠ ، المقريزى : النقود القديمة الاسلامية ص ٢٢ : ٧ ٠

دراهم فى العهد الاول صار فى النصف الثانى من العهد الاموى يساوى اثنى عشر درهما ، الى أن صار يساوى خمسة عشر أو أكثر فى العهد العباسى » • ويرجح الدكتور الريس تقدير الدينار بستين قرشا مع اختلاف تقدير الدرهم باختلاف سعر الصرف « ولكن هذه التقديرات كلها من حيث قيمة العملة فى ذاتها ولايدخل فيها تقدير القوة الشرائية(٣٥٠)» وقد ضربت النقود فى مختلف أقاليم الدولة الاسلامية ، **وفى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ضربت الدراهم بالجزيرة وكانت السكة بحران(٣٥١) • والتقط فلس ضرب فى قنسرين أيام صالح العباسى وكان يكتب على العملة اسم الخليفة أو العامل ـ وهناك عملة عليها اسم العكى عامل الرشيد(٣٥٢) •**

وذكر ابن العديم « ورأيت فلوسا عتيقة ، فتتبعت ما عليها مكتوب، فاذا أحد الجانبين مكتوب عليه (ضرب هذا الفلس بمدينة حلب سنة ست وأربعين ومائة) وعلى الجانب الآخر (مما أمر به الأمير صالح بن على أكرمه الله) •• ورأيت فلوسا عتيقة فتتبعت ما عليها مكتوب ، فاذا أحد الجانبين مكتوب عليه (ضرب هذا الفلس بمدينة حلب سنة سبع وخمسين ومائة)، وعلى الجانب الآخر (مما أمر به الأمير موسى مولى أمير المؤمنين) وهو موسى بن سليمان الخراسانى (٣٥٣) » •

(هـ) الاقطاع :

فى القرن السابع الميلادى انتشر الطابع الاقطاعى فى النظم الحربية، فالملك يقسم الأرض بين البارونات الذين يلزمون بتقديم عدد معين من الجند لخوض معارك الحرب مع الملك ، وبهذا النظام **لايكون الجند ملزمين بالطاعة اذ كانوا هم جند البارونات أو تابعى الملك • لكن عمر بن الخطاب أدخل طريقة منظمة لدفع رواتب الجند (٣٥٤) ، بل حرص عمر على أن يحول بين الجند وبين تملك الأرض والاشتغال بالزرع ، فاعتبرت الأراضى المفتوحة فيئا** ـ أى من الملك العام للدولة وتركت فى أيدى أصحابها على أن

---

(٣٥٠) دكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٣٤٥ : ٧ •

(٣٥١) المقريزى : النقود القديمة الاسلامية ص ٤٥ •

(٣٥٢) الكرملى : علم النميات ص ١٣٦ ـ ٧ •

(٣٥٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٦٠ •

(٣٥٤) حسينى : الادارة العربية ترجمة دكتور العدوى ص ١١٧ •

يؤدوا الخراج • فالى أى حد طبقت هذه القاعدة عموما وفى الثغور بوجه خاص ؟ **وهل كانت الدولة الاسلامية فى نظمها بالثغور اقرب الى القاعدة العمرية أم الى ماكان لدى الروم من نظم حربية ومالية ؟**

يقول جرونيباوم « أدى استمرار حرب الثغور (الحدود) الى حدوث نفس التطور الاجتماعى لدى كل من الدولتين ، فمنذ القرن السابع شرعت كل منهما تقطع أجزاء كبيرة من مناطق الثغور لطائفة وراثية من المقاتلين المحترفين • حقا ان الاسلام والامبراطورية البيزنطية كانا يعرفان الاقطاع خارج ولايات الحدود أيضا ، على أن أهميته السياسية كانت على أشدها حيثما كان الأمر يقتضى قيام حالة مستديمة من بالغ اليقظة لدفع عدوان المغيرين • والاقطاع عند المسلمين والبيزنطيين كبير التشابه ، وهو يختلف عند الفريقين عن سميه فى الغرب اختلافا جوهريا — من حيث ارتباط صاحب الاقطاع بعاهله مباشرة على حين كان المقطع الغربى vassal عضوا فى مجموعة متدرجة من الاقطاعيين الذين كانوا يستطيعون أن يعطوا الأرض التى منحها لهم مولاهم المباشر اقطاعا لآخرين دونهم — فيصبحون بذلك اتباعا مقطعين لمقطعين وهكذا دواليك (٣٥٥) » • ومن هنا ارتأى الدكتور مؤنس أن المسلمين « **كانوا ينظرون الى الولايات الثغرية نظرة تخالف نظرتهم الى الولايات المدنية ، فكانوا اميل الى التساهل مع السكان فى النواحى الثغرية طمعا الى كسبهم فى نواحى المسلمين وكانوا كذلك أكثر كرما على الجنود المقيمين فى الثغر** منهم على المقيمين فى الولايات المدنية ، وقد وزع عمر ابن الخطاب أراضى أقصى شرقى فارس على فاتحيها من المسلمين وسماها الثغور الهندية ، وقد فعل ذلك استئلافا لقلوب هؤلاء الجنود ولتقوية نفوسهم على سداد ثغرهم • واعتبر عمر بن عبد العزيز الأندلس ولاية ثغرية : فأقر الاقطاعات فيها ، وتسامح المسلمون مع أهل النواحى من النصارى فيها • فحكومة المسلمين فى الولايات الثغرية فى حاجة الى الدرس — فقد كانت لها نظم خاصة تختلف كل الاختلاف عن النظم التى أقرها المسلمون فى البلاد المفتوحة (٣٥٦) » •

وهناك روايات مبكرة عن **اقطاع الأرض فى الاسلام** ، فقد روى عن تميم الدارى انه استقطع رسول الله أرضا بالشام قبل أن تفتح فأعطاه اياها ، فلما فتحت الشام أيام عمر أتاه تميم فأخبره الخبر ، فجعل عمر ثلثها لابن السبيل وثلثا لعمارتها وثلثا لتميم . وقد كانت الأرض تقطع

---

(٣٥٥) جرونيباوم • حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ٢٤ •

(٣٥٦) دكتور مؤنس . فجر الأندلس ص ٢٩٨ والهامش •

فى أول الأمر تعويضا لما فقده المهاجرون أو معونة أو تحقيقا للاستثمار الاقتصادى . **ويعتبر أبو بكر من المقلين فى الاقطاع الى درجة المنع ، بينما اهتم عمر باقطاع أرض الموات بصفة خاصة لما رآه فى ذلك النفع العام ،** وشدد عمر فى ان المقطع اذا عجز عن استغلال اقطاعه خلال ثلاث سنوات استرجعه منه أو استرجع القدر الذى لم يطق عمارته ، **أما الأرض العامرة المزروعة فعلا التى انتقلت الى حوزة المسلمين بالفتح فيئا كانت أو غنيمة فلم يرعمر اقطاعها مثل أرض السواد بالعراق واسترجع ما كان اقطعه . وكانت المراعى تعتبر من المنافع ومن ثم ندر اقطاعها . أما اقطاع المساكن فكان معروفا منذ فجر الاسلام وذلك لضرورة التعمير والاستقرار واسكان المهاجرين والنازحين واقامة المدن والامصار .** وأجاز الرسول حيازة المعادن لمن يرد الأرض التى تحويها أولا ، لكنه لا يقطع ما دام المعدن ظاهرا . **وقد توسع عثمان فى منح القطائع** « وذكر أبو هلال العسكرى فى الأوائل ان أول من أقطع القطائع بالأرضين عثمان ـ ووجه ذلك ان أول من اقطع القطائع بعد الفتح » . تلك هى أصول الاقطاع فى الاسلام « ويلاحظ ان الفكرة نبتت لأول مرة فى الدولة الاسلامية خلال العشرة سنين الأولى من القرن الأول الهجرى وأوائل القرن السابع الميلادى ، وانها لم تعد مجرد اجراء فرعى تنظيمى لجأ اليه ولى الأمر من بين ما لجأ اليه من نظم وتشريعات كى يمنح بعضا من الرعايا مساحات معينة ان ملكا وان استغلالا لأسباب ماثلة لديه وهو فى حل من أن يمنح أو لا يمنح ، **بل اعتبرت من الصدقة للفريق من المقطعين** . وربما كان هذا المعنى هو الذى دفع المقريزى فيما بعد لأن يقول (وانما القطائع على وجه النفل من خمس ما افاء الله) ، وهذا ما جعل للاقطاع الاسلامى **صفة المنحة الشخصية** التى ظلت بارزة فى الدولة الاسلامية خلال العصور اللاحقة ـ حتى فى أقصى مراحل تطور الاقطاع الاسلامى ونضجه » . (٣٥٧) .

وكان من نتائج الفتح الاسلامى ان أراضى عديدة فى العراق والشام وغيرهما بقيت بدون مالك ـ اذ جلا عنها أهلها أو كانت تابعة للملوك السابقين أو الدولة . فقرر عمر ضمها الى بيت المال وعرفت بالصوافى اذ جعلت خالصة صافية لبيت المال ، واستثمرت مباشرة دون اقطاع . ويروى أن غلتها كانت أربعة أو سبعة أو تسعة آلاف الف درهم كانت تصرف فى مصالح المسلمين . ثم رأى عثمان أن اقطاعها أوفر لغلتها على أن يأخذ

---

(٣٥٧) دكتور طرخان : الاقطاع الاسلامى المجلة التاريخية المصرية م ٦ سنة ١٩٥٧ .
القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٣ ص ١٠٤ ـ ٥ .

ممن اقطعه اياها حق الفيء ، وقد بقيت هذه الأراضي مسجلة في الديوان حتى أحرقت الدواوين في أثناء فتنة ابن الأشعث (٣٥٨) .

وقد ظهرت آثار سياسة عثمان في التوسع في الاقطاع في ثغور الشام وسواحلها : فروى البلاذري « كانت انطاكية عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان، فلما فتحت كتب عمر الى أبي عبيده: أن رتب بانطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء . ثم لما ولى معاوية كتب اليه بمثل ذلك ، ثم ان عثمان كتب اليه يأمره أن يلزمها قوما وأن يقطع قطائع ففعل . قال ابن سهل : وكنت واقفا على جسر انطاكية على الارنط فسمعت شيخا مسنا من أهل انطاكية وأنا يومئذ غلام يقول : هذه الأرض **قطيعة من عثمان** لقوم كانوا في بعث أبي عبيدة اقطعهم اياها أيام ولاية عثمان الشام .. وكانت بالس وقاصرين لأخوين من أشراف الروم أقطعا القرى التي بالقرب منهما وجعلا حافظين لما بينهما من مدن الروم بالشام ، فلما نزل المسلمون بها صالحهم أهلها على الجزية والجلاء فجلا أكثرهم الى بلاد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج ، ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة ن المقاتلة وأسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام وقوما لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس ، واسكن قاصرين قوما ثم رفضوها او اعقابهم ، وكانت بالس والقرى المنسوبة اليها في حدها الاعلى والأوسط والأسفل أعذاء عشرية .. ولما ستخلف عثمان كتب الى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنتها ، **واقطاع من ينزله اياها القطائع ففعل** ... وأمره ان يعد في السواحل اذا غزا واغزى جيوشا سوى من فيها من الرتب ، **وان يقطع الرتب ارضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل** ويبنى المساجد .. قال الوضين : ثم ان الناس بعد انتقلوا الى السواحل من كل ناحية » . وهكذا جرى الامر في سواحل صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وعسقلان ، كما جرى في انطرطوس ومرقية وبلنياس وقاليقلا (٣٥٩) فنحن نلاحظ منذ ذلك العهد المبكر مخالفة للسياسة العربية التي يعبر عنها معاذ بن جبل بقوله « لئن قسمت الارض لتكونن ما نكره ، ويصير الشيء الكثير في ايدى القوم ثم يبيدون فيبقى ذلك لواحد ، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون في

---

(٣٥٨) دكتور الريس : الخراج في الدولة الاسلامية ص ١٣٩ : ١٤١ .

(٣٥٩) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٥١ ، ٢٠٥ .

الاســـلام مسدا فلا يجـــدون شـيئا ، فانظر أمر يســـع أولهـم وآخرهم » . (٣٦٠) . كذلك اذن للعرب فى تلك المناطق بالزرع بعد ان كان عمر ينفر من اشتغال الجند بالزراعة « ولما ولى معاوية الشام والجزيرة لعثمان أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ، **ويأذن لهم فى اعتمال الارضين التى لا حق فيها لأحد** ، فأنزل المازحين والمديبر اخلاطا من قيس وأسد وغيرهم وفعل ذلك فى جميع نواحى ديار مضر ، ورتب ربيعة فى ديارها على ذلك (٣٦١) .

ومضى الامويون قدما فى هذا السبيل ، واستلزم تحول الخلافة الى ملك استكثار الانصار ، واقطعت الدولة الحسن ابن على اقطاعا كبيرا على أثر تنازله عن الخلافة لمعاوية .

« **واتاحت السعة فى رقعة الدولة الاسلامية للخليفة أن يتوسع فى اقطاع القطائع ، من ذلك ما استلزمته المحافظة على هذا الملك العريض من اقامة المعاقل والحصون التى عرفت بالمسالح ولا سيما على حدود الدولة وشحنها بالجند المرابطين والثاغرين ليكونوا على أهبة الدفاع .. ثم ان عملية التوسع نفسها وما تخللها من عمليات حربية أدت بطبيعة الحال الى اختلال الامن** وفقدان الطمأنينة سواء فى حدود الدولة من العدو الجاثم على الابواب ، أو داخل حدود الدولة نفسها من الصعاليك وقطاع الطرق .. وظهرت تلقائيا فكرة (الالجاء) ومعناها أن يلجىء ضعيف ضيعة انى جار قوى ثم يسترجعها منه ثانية اقطاعا أو يلجىء أهل القرية قريتهم بأراضيها الى السيد القوى قائدا كان أو أميرا ثم يستردونها منه اقطاعا فيصبحون مزارعين له ، وفى نظير ذلك يتولى السيد الدفاع عنهم . وثمة عامل آخر لانتشار الاقطاع الاسلامى هو أن **الثراء المفرط الذى صار للخلفاء نتيجة للفتح وتكدس الغنائم** مكن لهم أن يبسطوا أيديهم كل البسط فى الهبات الاقطاعية على سبيل الجـائزة أو المكافأة .. هـذا **وشخصية ولاة الامر انفسهم** كانت من أكبر العوامل فى انتشار الاقطاع ، اذ عمل القوى منهم على استئذاء الاقطاع لتدعيم سلطانه وتثبيت قواعد ملكه كخلفاء الدولة الاموية وخلفاء العصر العباسى الاول وأوائل الفاطميين ، على حين اضطر الضعيف فيهم الى اشباع رغبـات المتسلطين من الاعوان على اختـلاف أجناسهم ومناصبهم فحازوا الاقطاعات الواسـعة وتصرفوا هم فى المنح

---

(٣٦٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٨ .

(٣٦١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٦ .

الاقطاعية لانصارهم(٣٦٢) . ومن هنا **نجد آثار التوسع فى الاقطاع باراضى الثغور** « فأقطع الوليد بن عبد الملك جندا بانطاكية **أرض سلوقية** عند الساحل ، وصير الفلثر وهو الجريب بدينار ومدى قمح ـ فعمروها وجرى لهم ذلك وبنى حصن سلوقية . وكانت أرض بغراس لمسلمه بن عبد الملك فوقفها فى سبيل البر ، وكانت عين السلور وبحيرتها له أيضا . فلما كان مسلمه بن عبد الملك توجه غازيا للروم من نحو الثغور الجزرية عسكر ببالس ، فأتاه أهلها وأهل بوبلس وقاصرين وعابدين وصفين وهى قرى منسوبة اليها فأتاه أهل الحد الأعلى فسألوه جميعا أن يحفر لهم نهرا من الفرات يسقى أرضهم على أن يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان الذى كان يأخذه ، ففعل .. فلما مات مسلمه صارت بالس وقراها لورثته . وأقطع عبد الملك بن مروان **القعقاع بحيار بنى القعقاع قطيعة**، واقطع عمه العباس بن جزء بن الحارث **قطائع اوغرها له الى اليمن** فأوغرت بعده .. ولم تزل بحيرة الطريخ بأرمينية مباحة حتى ولى محمد ابن مروان الجزيرة وارمينية فحوى صيدها وباعه فكان يستغلها ثم صارت لمروان بن محمد .. وأسكن مروان بن محمد الخصوص شرقى جيحان ـ بجانب المصيصة فرسا وصقالبة وأنباطا نصارى . وكان موضع نهر سعيد بن عبد الملك ـ وهو الذى يقال له سعيد الخير ـ غيضة ذات سباع فاقطعه اياها الوليد فحفر النهر وعمر ما هناك ، وقال بعضهم : الذى أقطعه ذلك عمر بن عبد العزيز ... وعن مشايخ من كتاب الرقة وغيرهم : كانت عين الرومية ومالها للوليد بن عقبة فاعطاها أبا زيد الطائى ... **وكان ابن هبيرة اقطع غابة ابن هبيرة** وهى من أرض سروج ... **وكان هشام اقطع عائشة ابنته قطيعة براس كيفا** تعرف بها ... وكان **لعبد الملك وهشام قرية تدعى سلعوس ونصف قرية تدعى كفر جدا من الرها ، وكانت بطوان للقمرين يزيد تل عفراء وارض تل منابا وارض المصلى وصوافى فى ربض حران ومستغلاتها (٣٦٣)** » .

ولما جاء العباسيون قبضوا ما كان بايدى بنى أمية من القطاعات واعطوها لآلهم وانصارهم . فارض مسلمة مثلا فى بالس قبضها عبد الله بن على وأقطعها السفاح سليمان بن على فصارت لابنه محمد سليمان ، ثم آلت للرشيد فاقطعها المأمون وصارت لولده من بعده (٣٦٤) .

---

(٣٦٢) دكتور طرخان : الاقطاع الاسلامى : المجلة التاريخية المصرية م٦ سنة ١٩٥٧م .
(٣٦٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٥ ، ١٥٧ ـ ٨ ، ١٥٣ ، ٢٠٨ ، ١٧٣ ، ١٨٧ : ٩ .
(٣٦٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٨ .

وكانت هناك **أرض من الحمى** « وحمى الموات هو المنع من أحيائه أملاكا ليكون مستبقى الاباحة لنبت الكلا ورعى المواشى ٠٠ واذا استقر حكم الحمى على أرض فأقدم عليها من أحياها ونقض حماها روعى الحمى : فان كان مما حماه رسول الله كان الحمى ثابتا والاحياء باطلا ٠٠ وان كان من حمى الأئمة بعده ففى اقرار أحيائها قولان : أحدهما لا يقر ويجرى عليه حكم الحمى ، والثانى يقر الأحياء ، ويكون حكمه أثبت من الحمى ٠٠ » (٣٦٥) ٠

وقد كان مرج عبد الواحد حمى لخيل المسـلمين قبل أن تبنى الحدث وزبطرة « فلما بنيتا استغنى بهما فعمر ، فضـمه الحسين الخادم الى الأحواز فى خلافة الرشيد ٠ ثم توثب الناس عليه فغلبوا على مزارعه حتى قدم عبد الله بن طاهر الشام فرده الى الضياع ». وعلى أثر طاعون أصاب فلسطين عطل أراضى السامرة فى عهد الرشيد « وكل السلطان بها من عمرها وتألف الأكرة والمزارعين اليها فصارت ضياعا للخلافة » (٣٦٦) ٠ وهكذا تراكمت ضياع بنى العباس ، فيروى الطبرى « **ولى سلام أو رشيد الخادم بعض خدام الخاصة ضياع الرشيد بالثغور والشامات ، فتواترت الكتب بحسن سيرته ، فأمر الرشيد بتقديمه وضم ما أحب أن يضم اليه من ضياع الجزيرة ومصر...**» (٣٦٧) **واستخدم العباسيون الاقطاع على نطاق واسع لتعمير مدن الثغور** ـ فعل هذا المنصور فى **المصيصة** « **واقطع الفرض قطائع ومساكن** » ، **وفى ملطية بنى للجند مساكن وثكنات** « **واقطع الجند المزارع** ٠ » وعلى هذا النهج تتابع خلفاء بنى العباس ، فبنى الرشيد طرسوس « فبلغ ذلك أربعة آلاف خطة كل خطة ٢٠ ذراعا فى مثلها ، **واقطع أهل طرسـوس الخطط** » **كما اقطع المنازل بعين زربة ، واقطع المساكن والقطائع بالحدث** ٠ على أننا نجد أحيانا شذوذا عن هذا السبيل من ذلك أن المهدى « فرض بالمصيصة لألفى رجل ، **ولم يقطعهم لأنها كانت قد شحنت من الجند والمطوعة** » (٣٦٨) ٠

تضخمت القطائع اذن بأراضى الثغور ، وابن عسـاكر يقدم لنا قصة هذه القطائع وتطورها « **قال الوليد** : واخبرنى أبو عمرو وغيره أن عمر وأصحاب رسول الله أجمع رأيهم على اقرار ما كان بأيديهم ـ أى أصحاب الارض ـ من أرضيهم يعمرونها ويؤدون منها خراجهـا الى المسـلمين ... وكرهـوا شراءها منهم طـوعا بما كان من ايقاف

---

(٣٦٥) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٦٤ : ٦ ٠

(٣٦٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٨ ـ ٩ ، ٢٠٠ ، ١٦٥ ٠

(٣٦٧) الطبرى جـ ١٠ ص ١١٧ ٠

(٣٦٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ٠

عمر وأصحابه الارضين محبوســـة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين لا تباع ولا تورث ... فقلت لغير واحد من مشيختنا ممن كان يقول هذه المقاله : فمن أين جاءت هذه القطائع التى بين ظهرانى القرى الراهنة والمزارع التى بيد غير واحد من الناس ؟ فقال : ان بدء هذه القطائع أن أناسا من بطارفه الروم اذ كانت ظاهرة على الشام كانت هذه القرى التى منها هذه القطائع ، **فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان في أيديها من تلك المزارع فلحقت بأرض الروم ، ومن قتل منها فى تلك المعارك التى كانت بين المسلمين والروم ـ فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبلها والى المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته.. قالوا : فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت المال فتخرج نفقة مع مايخرج من الخراج ، حتى كتب معاوية فى امرته على الشام الى عثمان : ان الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل أمرائهم ومن يقـــدم عليه من رسل الروم ووفودهم ، ووصف فى كتابه هذه المزارع الصافية وسماها له ـ يساله أن يقطعه اياها ليقوى بها على ما وصف له ، وانها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج ، فكتب اليه عثمان بذلك كتابا .** قالوا : فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان ، وأفضى الى معاوية الأمر ـ فاقرها على حالها ، ثم جعلها من بعده حبسا على فقراء أهل بيته والمسلمين . قالوا : **ثم ان أناسا من قريش واشراف العرب سالوا معاوية أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التى لم يكن عثمان أقطعه اياها ـ ففعل** فمضت لهم أموالا ـ يبيعون ويمهرون ويورثون فلما أفضى الأمر الى عبد الملك بن مروان وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية أقطع منها أحدا شيئا ـ سأله أشراف الناس القطائع منها ـ ففعل . قالوا : ثم ان عبد الملك سئل القطائع ـ وقد مضت تلك المزارع لأهلها فلم يبق منها شىء ، **فنظر عبد الملك الى أرض من أرض الخراج ـ وقد باد أهلها ولم يتركوا عقبا ، فاقطعهم منها ورفع ماكان عليها من خراجها عن أهل الخراج ولم يحمله أحدا من أهل القرى ، وجعلها عشرا ـ ورآه جائزا له مثل اخراجه من بيت المال الجوائز للخاصة .** قالوا : فلم يزل يفعل ذلك ـ حتى لم يجد من تلك الارض شيئا . **فسال الناس عبد الملك والوليد وسليمان قطائع من أهل القرى ـ التى بأيدى أهل الذمة ، فأبوا عليهم . ثم ســالوهم أن يأذنوا لهم فى شرى الأرضين من أهل الذمة ، فأذنوا لهم على ادخال أثمانها بيت المال** وتقوية أهل الخراج به على خراج سنتهم مع ما ضعفوا عن أدائه ، وأوقفوا ذلك فى الدواوين ، ووضعوا خراج تلك الأرضين عمن باعها منهم وعن أهل قراهم ،وصيروها

لمن اشتراها يؤدى الشر ـ يبيعون ويمهرون ويورثون . قالوا : **فلما ولى عمر بن عبد العزيز أعرض عن تلك القطائع التى أقطعها عثمان معاوية ، وعبد الملك والوليد وسليمان ـ فلم يردها عمر على ما كانت عليه صافية ولم يجعلها خراجا ، وأمضاها لأهلها تؤدى العشر ... » (٣٦٩)**

وعلى هدى هذا التطور **أجاز الفقهاء هذا الاقطاع** « سمعت محمد ابن يوسف الفاريابى يقول : بعسقلان هاهنا قطائع اقطعت بأمر عمر وعثمان لو دخل فيها رجل لم أجد بذلك باسا ... وعن مكحول أن عشرى بالشام فهو مما جلا عنه أهله فاقطعه المسلمون فأحيوه وكان مواتا لا حق فيه لأحد فأحيوه باذن الولاة » . على **ان أبا اسحق الفزارى « كان يكره شرى أرض بالثغر** ويقول : غلب عليه قوم فى بدى الأمر وأجلوا الروم عنه فلم يقتسموه ، وصار الى غيرهم ، وقد دخلت فى هذا الأمر شبهة العاقل حقيق بتركها » (٣٧٠) وقال أبو يوسف عن القطائع أنها بمنزلة المال الذى لم يكن لأحد ولا فى يد وارث « **فللامام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء فى الاسلام ويضع ذلك موضعه** ولا يحابى به ... فأما من أخذ من واحد وأقطع أخر فهذا بمنزلة مال فصبه واحد من واحد وأعطى واحدا . وانما صارت القطائع يؤخذ منها العشر لأنها بمنزلة الصدقة وانما ذلك الى الامام : ان رأى أن يصير عليها عشرا فعل ، وان رأى أن يصير عليها عشرين فعل ، وان رأى ان يصيرها خراجا اذا كانت تشرب من أنهار الخراج فعل ذلك موسعا عليه فى أرض العراق خاصة . وانما يؤخذ منها العشر لما يلزم صاحب الاقطاع من المؤنة فى حفر الانهار وبناء البيوت وعمل الارض . وكل أرض ... عامرة ، وليست لأحد ولا فى يد أحد ولا ملك أحد ولا وراثة ولا عليها أثر عمارة . فاقطعها الامام رجلا فعمرها : فان كانت فى أرض الخراج أدى عنها الذى اقطعها الخراج ،وان كانت من أرض العشر أدى عنها الذى اقطعها العشر ... فكل أرض اقطعها الامام مما فتحت عنوة ففيها الخراج الا أن يصيرها الامام عشرية ... وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضا من أهل السواد وأرض العرب والجبال ... فلا يحل لمن يأتى بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرجه من يدى من هو فى يده وارثا أو مشتريا ... فلا يحل للامام ولا يسعه أن يقطع أحدا من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئا ـ الا بحق يجب له عليه ... **والارض عندى بمنزلة المال ، فاللامام أن يجيز**

---

(٣٦٩) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٥٩٣ : ٦ .

(٣٧٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٧٩ .

من بيت المال من كان له غناء فى الاسلام ومن يقوى به على العدو ويعمل فى ذلك بالذى يرى أنه خير للمسلمين وأصلح لأمرهم ، وكذلك الارضون يقطع الامام منها من أحب ... ولا أرى أن يترك ارضا لا ملك لأحد فيها ولا عمارة ـ حتى يقطعها الامام ، فان ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج» .
واقطاع موات الارض يكون جائزا اذن من باب أولى « فاذا لم يكن فى هذه الارضين أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيئا لأهل القرية ولا مسرحا ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم ، وليست بملك لأحد ولا فى يد أحد ـ فهى موات ، فمن أحياها أو أحيى منها شيئا فهى له . ولك أن تقطع ذلك من أحببت ورأيت وتؤاجره ، وتعمل فيه بما ترى انه صلاح » . **وواضح من هذه النصوص أن الفقهاء كانوا يضعون نصب أعينهم أهدافا اقتصادية وحربية وهم يجيزون الاقطاع** « فقد جاءت الآثار بأن النبى اقطع أقواما وان الخلفاء من بعده أقطعوا ، ورأى رسول الله الصلاح فيما فعل من ذلك اذ كان فيه تألف على الاسلام وعمارة للارض ، **وكذلك الخلفاء انما اقطعوا من راوا له غناء فى الاسلام ونكاية للعدو** ورأوا أن الأفضل ما فعلوا »(٣٧١) .

أما الماوردى فهو ينص على أن « أقطاع السلطان مختص بما جاء فيه تصرفه ونفذت فيه أوامره ، ولايصح فيما تعين فيه مالكه وتميزمستحقه» وهو يقسم الاقطاع الى اقطاع تمليك واقطاع استغلال . فأما **اقطاع التمليك** فيكون فى الارض الموات والعامرة والمعادن . **والأرض الموات** منها ما لم يزل مواتا على قديم الدهر أو ما كان عامرا فى الجاهلية فخرب وهذان لا خلاف فى جواز اقطاعهما « أما ما كان اسلاميا جرى عليه ملك المسلمين ثم خرب فقد اختلف الفقهاء فى حكم احيائه (وأوسط آرائهم ما قاله أبو حنيفة) : ان عرف أربابه لم يملك بالأحياء ، وان لم يعرفوا ملك بالأحياء ـ وان لم يجز على مذهبه أن يملك بالاحياء من غير اقطاع.. فمن خصة الامام به وصار بالاقطاع أحق الناس به لم يستقر ملكه عليه قبل الاحياء ... قال أبو حنيفة لا يعارض فيه قبل مضى ثلاث سنين ، فان أحياه فبها والا بطل حكم اقطاعه .. وعلى مذهب الشافعى أن تأجيله لا يلزم ، وانما المعتبر فيه القدرة على احيائه .. فلو تغلب على هذا الموات المستقطع متغلب فأحياه فقد اختلف العلماء فى حكمه ... » **والارض العامرة** قد يتعين مالكها فلا يجوز اقطاعها اذا كانت فى دار الاسلام لمسلم أو ذمى « **فان كانت فى دار الحرب التى لا يثبت للمسلمين**

---

(٣٧١) أبو يوسف : الخراج ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ـ ٤ .

عليها يد فأراد الامام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها جاز ...
واذا صح الاقطاع والتمليك على هذا الوجه نظر حال الفتح : فان كان صلحا خلصت الارض لمقطعها وكانت خارجة عن حكم الصلح بالاقطاع السابق، وان كان الفتح عنوة كان المستقطع والمستوهب أحق بما استقطعه واستوهبه من الغانمين » وأما الارض العامرة التى لم يتعين مالكوها ولم يتميز مستحقوها فمنها **ما يصطفيه الامام لبيت المال من فتوح البلاد اما بحق الخمس واما باستطابة نفوس الغانمين عنه** من أموال الملك أو الدولة التى دالت أو من هرب من رجالها أو هلك ، فكان عمر يصرف غلتها فى مصالح المسلمين « ولم يقطع شيئا منها ، ثم أن عثمان أقطعها لأنه رأى اقطاعها أوفر لغلاتها من تعطيلها ، وشرط على من أقطعها اياه أن يأخذ منه حق الفىء ــ فكان ذلك اقطاع اجارة لا اقطاع تمليك ، فتوفرت غلتها ... ثم تناقلها الخلفاء بعده ، فلما كان عام الجماجم سنة اثنتين وثمانين فى فتنة ابن الأشعث أحرق الديوان وأخذ كل قوم مايليهم . فهذا النوع من العامر لا يجــوز اقطاع رقبته لأنه قد صار باصطفائه لبيت المال ملكا لكافة المسلمين ـ فجرى على رقبته حكم الوقوف المؤبدة والسلطان فيه بالخيار : بين أن يستغله لبيت المال كما فعل عمر ، وبين أن يتخير له من ذوى المكنة والعمل من يقوم بعمارة رقبته بخراج يوضع عليه مقدر بوفور الاستغلال ونقصــــه كما فعل عثمان ويكون الخراج أجرة تصرف فى وجوه المصالح ــ الا أن يكون مأخوذا بالخمس فيصرف فى أهل الخمس » . وأما أرض الخراج من الأراضى العامرة فلا يجوز اقطاع رقابهـــا تمليكا ، وأما ماماتت عنــه أربابه ولم يستحقه وارث فهو ينتقل الى بيت المال وأجاز البعض فيه البيع والاقطاع خلافا لآخــرين قالوا بوقفها . والنوع الثــانى من الاقطاع **اقطاع الاستغلال** ، وهو لا يجوز فى أرض العشر ، وأما اقطاع أرض الخراج للاستغلال : فاذا كان **من يتلقى الاقطاع من أهل الصدقة** فلا يجوز « لأن الخراج فىء لا يستحقه أهل الصــــدقة كما لا يستحق الصدقة أهل الفىء ــ وجوز أبو حنيفة ذلك » ، وان كان **المقطع من أهــل المصالح** « ممن ليس له رزق مفروض فلا يصح أن يقطعه على الاطلاق وأن جاز أن يعطاه من مال الخراج ــ لأنه من نفل أهل الفىء لا من فرضه » ، فان كان من يتلقى الاقطاع **من مرتزقة أهل الفىء وفرضية الديوان ــ وهم أهل الجيش « فهم أخص الناس بجواز الاقطاع ، لأن لهم أرزاقا مقدرة تصرف اليهم مصرف الاستحقاق لأنها تعويض عما أرصدوا نفوسهم له من حماية البيضة والذب عن الحريم** . فاذا صح أن يكونوا من أهل

الاقطاع ، روعى حينئذ مال الخراج ... فأما ماكان منه جزية : فهو غير مستقر على التأبيد ، لأنه مأخوذ مع بقاء الكفر وزائل مع حدوث الاسلام ، فلا يجوز اقطاعه أكثر من سنة ... وأما ماكان من الخراج أجره : فهو مستقر الوجوب على التأبيد فيجوز اقطاعه سنين ... **(أما)أن يستقطعه مدة حياته ثم لعقبه وورثته بعد موته فهذا اقطاع باطل ... (وأما) أن يستقطعه مدة حياته ففى صحة الاقطاع قولان : انه صحيح وأنه باطل ...»**

واذا كان الماوردى يرى أن أفراد الجيش أحق باقطاع الاستغلال فانه **قد عرض لأرزاق من عدا الجيش اذا اقطعوا** بها من مال الخراج « فيقسمون ثلاثة أقسام : أحدهما ـ من يرتزق على عمل غير مستديم كعمال المصالح وجباة الخراج فالاقطاع بأرزاقهم لا يصح ... الثانى ـ من يرتزق على عمل مستديم ويجرى رزقه مجرى الجعالة وهم الناظرون فى أعمال البر التى يصح التطوع بها اذا ارتزقوا عليها كالمؤذنين والأئمة فيكون جعل الخراج لهم فى أرزاقهم تسببا به وحوالة عليه ولا يكون اقطاعا . الثالث ـ **من يرتزق على عمل مستديم ويجرى رزقه مجرى الاجارة ، وهو من لا يصح نظره الا بولاية وتقليد مثل القضاة والحكام وكتاب الدواوين فيجوز أن يقطعوا بارزاقهم خراج السنة واحدة ويحتمل جواز اقطاعهم أكثر من سنة وجهين لما يتوجه اليهم من العزل والاستبدال » . بقيت من انواع** الارض المقطعة **المعادن** « فان اقطعت المعادن **الظاهرة** ـ كمعادن الكحل والملح والقار والنفط ـ لم يكن لاقطاعها حكم وكان المقطع وغيره فيها سواء ، وجميع من ورد اليها اسوة مشتركون فيها ، فان منعهم المقطع منها كان بالمنع متعديا وكان لما أخذه مالكا وأما المعادن **الباطنية** فهى ماكان جوهرها مستكنا فيها لا يوصل اليه الا بالعمل ـ كمعادن الذهب والفضة والصفر والحديد سواء احتاج المأخوذ منها الى سبك وتخليص أو لم يحتج ، وفى جواز اقطاعها قولان ... » (٣٧٢) .

وبتتبع الأصول التاريخية والفقهية للاقطاع الاسلامى نجد له ميزاته وخصائصه بالنسبة للاقطاع الغربى « فهناك اتفاق فى الدلالة اللفظية على مساحة معينة من الارض يمنحها ولى الأمر لبعض رعاياه ، مع اختلاف الدوافع والنتائج التى ترتبت على المنح فى كل من الشرق الاسلامى والغرب المسيحى ـ ومع وجود التشابه الكثير فى التفصيلات الفرعية لكل من النظامين وأقدم أصول للاقطاع الغربى هى الاحداث التى وقعت خلال

---

(٣٧٢) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٦٨ : ١٧٥ .

العصر الميروفنجي فى القرن السادس الميلادى بصفة خاصة حين نشب نزاع حاد وحشى بين أبناء وأحفاد كلوفس Clovis نظرا لما جروا عليه من تقسيم الملك كارث خاص ثم بين هؤلاء الملوك من الفرنجة وكبار الارستقراطيين فى القرن السابع الميلادى ، فسببت هذه الاحداث الخطيرة اختلالا فى الأمن فى المناطق الواقعة بين نهرى الرين واللوار ٠٠ وزاد الأمر سوءا ان عجزت الحكومة عن حماية الأمن ـ مما أتاح الفرصة لظهور ونمو فريق من الرعايا الاثرياء الاقوياء ، لجأ اليهم جيرانهم من مفتقدى الأمن وطلاب الدعة ٠٠ وفى نظير هذه الحماية كان لا بد من لقاء لها ٠٠ وكيفما كانت أهداف هذه القلة من الجيران الأقوياء سواء أكانت للافادة من الفوضى السياسة الكائنة فى تنمية قواتهم أو ثرواتهم أو للقيام بدور سياسى ، فقداحتاجوا فعلا الى خدماتآخرين يرتبطون بهم شخصيا ـ ولم تكن سوى الاعمال العسكرية ٠ تطور فريق من الناس اذن الى نوعين من تلقاء أنفسهم تحت الأحوال السائدة : سادة وأتباع ٠٠ أما أصول الأرض الاقطاعية التى توزع على أولئك الاتباع أو على الفلاحين فترجع كذلك الى العصر الميروفنجى ، وجاءت عن طريق تاجير الاراضى اليهم ٠ وربما كان الاصل الاقدم راجعا الى **عصر الرومان** : فى كيفية زراعة الابعاديات الكبيرة فى فلسطين مثلا Latifundia أو المستعمرات الزراعية Colonate بل ان الميروفنجيين منحوا قطعا من الاراضى على سبيل الهبة والرزقة Beneficium ٠ وفى الحالات القصوى ربما اعتبر التابع أو الممنوح الحر عبدا لحاميه أو مانحه القوى ، غير أن الامثلة على هذه الحالات لم تكن من الكثرة فى العصر الميروفنجى بحيث نقول انها كانت منتشرة وشائعة قبل منتصف القرن الثامن الميلادى كما ان ارتباط المنحة بالتبعية التى تؤدى معنى القيام بخدمات معينة واضحة المعالم كان نادرا فى تلك الفترة ٠ ووضع هذا فى **عصر الكارولنجين** خلفاء الميروفنجيين حين احتاج بن الثانى Pepin II وشارل مارتل Charles Martel الى مزيد من القوة الحربية فأكثرا من الاتباع ومنح الضياع حتى يستطيع التابع تجهيز نفسه حربيا ولاسيما ان الفارس فى ذلك الزمن كان العامل الحاسم فى الحروب ، ومنحت تلك الضياع فى أغلب الاحيان تمليكا لا استغلالا ٠ والملاحظ ان بعض هذه المنح كان من الاملاك الشخصية لببن أو شارل والبعض الآخر من الضياع الملكية fisci ٠ وسار شرلمان على هذا النحو فكثر اتباعه كما منح الاتباع أراضيهم لغيرهم فتكونت طبقة اتباع الاتباع subvassals بل صارت التبعية شرفا ، **ولم يات آخر القرن التاسع حتى صارت هذه الطريقة عامة ٠ وخلال فترات الاضطراب التى اقترنت بالغزو الخارجى من جانب النورمان او الصقالبة** Slavs **او العرب**

أو المجريين بدت حاجة صغار الملاك الى التماس الأمن ، ولما تعارضت هذه الحاجة مع حرصهم على الابقاء على منزلتهم الاجتماعية كرجال أحرار — لم يكن امامهم سوى دخولهم ضمن طبقة المحاربين الممتازين التابعين لكبار السادة Qualified Warrious بمعنى آخر الجاوا أملاكهم الى أولئك السادة Feudalisation ثم استردوها منهم ثانيا كاقطاع • وفيما يتعلق بالمراعي اعتبرها الاقطاع الغربى ملكا عاما لأهل القرى common وهذا وجه الاتفاق مع استغلال المراعى فى فجر الاسلام • أما وجه الخلاف فانها تابعة للسيد في الاقطاع الغربى ويتولى هو تنظيم استغلالها بين المزارعين التابعين له •• أما اقطاع المراعى فى الاسلام واستغلالها لحساب السيد الاقطاعي فهذا ما حدث في عصر المماليك » • (٣٧٣) •

وتزايد الاقطاع الاسلامي نتيجة للنظام الملكي الوراثي واتساع رقعة الدولة واضطراب الامن نتيجة للحروب الخارجية والفتن الداخلية ، فضلا عن ثراء الخلفاء ومحاولاتهم لتدعيم شخصياتهم • وتمثلت أول صورة من الصور الاقطاعية بمعناها الغربى فى تاريخ الاسلام فى ظاهرة التلجئة ، وقد عرفها الخوارزمي « أن يلجىء الضعيف ضيعته الى قوى ليحامي عليها » • (٣٧٤) • فيلجىء الرجل أرضه الى أمير أو قوى يحتمى به فتكتتب باسمه ، فلا يتجرأ الجباة على العنف والظلم ، ويقوم بدفع خراجها ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعا له ، وتصبح الضيعة بتوالى الأيام ملكا للملجأ اليه • وهو نفس نظام الحماية Patronage, Autopragia حين اضطر المزارع البيزنطى الذى لا حول له ولا قوة أمام تضاعف الاعباء ان يبحث عن رجل غنى أو قوى يضع أرضه تحت تصرفه ليقوم بدلا منه بدفع الضرائب ويحميه من عسف الحكومة • وقد الجأ ناس الى مسلمة بن عبد الملك ضياعا كثيرة فى البطائح للتعزز به ، والجأ أهل المراغة باذربيجان أرضهم الى مروان بن محمد ، والجأ كثير من العجم فى اذربيجان قراهم الى العرب الذين نزلوا بتلك الولاية للخفارة وصار أهلها مزارعين لهم • وبدات هذه القطائع امثلة قليلة حدثت فى الجهات النائية او الجديدة فى العهد الاموى ، ولكنها تكررت فى مناطق آخرى فى العصر العباسى • وصارت التلجئة اصطلاحا قائما بذاته بين مواضعات الكتابة فى دواوين الخراج بخراسان وأصبح لها قسم خاص بهـا فى القرن الرابع الهجرى •

---

(٣٧٣) دكتور طرخان : الاقطاع الاسلامى المجلة التاريخية المصرية م ٦ سنة ١٩٥٧ .
(٣٧٤) دكتور الخشاب والعرينى : ضبط وتحقيق الالفاظ الاصطلاحية التاريخية بمفاتيح العلوم للخوارزمى — المجلة التاريخية المصرية م ٧ سنة ١٩٥٨ •

وشاعت فى فارس بنوع خاص لثقل الخراج بها . (٣٧٥) وحدث ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاة نتيجة لسياسة الاقطاع التى اتبعتها . **على ان الاقطاع الاسلامى قد لا يدخله العنصر الحربى فى منشئة** أحيانا مثل الاقطاع الغربى ، فالاقطاع الاسلامى فى مصر مثلا خلا من هذا العنصر الحربى حتى أيام الأيوبيين والمماليك ، ودخل هذا العنصر الحربى أخيرا بأسلوب آخر يتلخص فى انتفاع الجند بدخل الاقطاعات المختلفة لا الاستقرار فى الارض وزراعتها كما لم يوجد حق الوراثة الذى كان يتمتع به أصحاب الاقطاع فى أوربا . **ومنذ عهد الرشيد اتبع العباسيون سياسة اقطاع بعض أقاليم الدولة لبعض الشخصيات مقابل مال يؤدى للخلافة ، دون ان يتوارث هؤلاء المقطعون اقطاعاتهم ، ومن ذلك ان الرشيد اقطع** افريقية (تونس) لابراهيم بن الاغلب سنة ١٨٤ هـ ــ وان كانت قد توارثتها سلالته بتحديد الاقطاع واحدا بعد الآخر . وجرت قسمة العالم الاسلامى الى قسمين فى عهد المعتمد (٢٥٦ : ٢٥٩هـ) قسم شرقى يحكمه أخوه الموفق وقسم غربى ويحكمه ابنه المفوض ، وقد سبقتها فى صورة أخف قسمة أخرى فى عهد المأمون : فيذكر الطبرى انه فى سنة ٢١٣ هـ ولى المأمون أخاه المعتصم الشام ومصر وولى ابنه العباس الجزيرة والثغور والعواصم ، وجاء المعتصم فثبت من الحكام من ثبت وعزل من عزل فى البلاد الخاضعة لحكمه . وتدل أوراق البردى على انه فى سنة٢١٧هـ كانت الاوامر والرسائل التى تصدر الى الولاة باسم المأمون يذكر فيهااسم المعتصم بجانبه . ولما ولى المعتصم الخلافة سنة٢١٨:٢٢٧هـ اقطعاشناس التركى ولاية مصر واذن له ان يولى الحكامبنفسه وكان يذكر اسمهفىخطبة الجمعة مع الخليفة ، ومنذ سنة ٢٢٧ هـ كانت تحت حكمه دولة تمتد من بغداد الى آخر حدود المغرب . واقطع المتوكل سنة ٢٣٤ هـ ــ بعد قتله ايتاخ التركى الذى كان قد أقطع مصر منذ عهد الواثق ــ ابنه المنتصر ــ مصر . وكان القواد الاتراك الذين يقطعون الولايات يؤثرون البقاء فى العاصمة ويستخلفون نوابا يحملون اليهم الأموال ويدعون لهم على المنابر، ويستطيع النائب ذو الشخصية والطموح أن يستقل بما تحت يده . (٣٧٦)

ويعتبر عهد المقتدر ٢٩٥ : ٣٢٠ هـ ٩٠٨ : ٩٣٢ م ايذانا بمرحلة مميزة فى تطور نظام الاقطاع فى الدولة الاسلامية « لأنه عمم اقطاع الولايات الكبار قواده نظير قدر معين من المال يدفع لخزانة الخلافة عرف

(٣٧٥) الدكتور الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٢٤٩ ــ ٥٠ ، ٤٨٦ ــ ٧ ، متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبى ريدة ج ١ ص ١٦٣ .

(٣٧٦) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٤ : ٦ ، ٥٣ ــ ٤ .

باسم مال المقاطعة أوالجزية ، على أن يقوموا بجميع نفقات الادارة المحلية ».
وقد كانت قوة الخلفاء أمثال المعتصم والواثق تحد من نفوذ الآتراك المقاطعين رغم سطوتهم ، وجاء المقتدر وتفاقم ذلك فى عهد بنى بويه « **حتى أضحت الخلافة العباسية قرب نهايتها . فى كثير من الوجوه ـ كما كانت أسرة هيوكابى** Hugh Capet **فى بدايتها : أسرة اقطاعية فى خضم من الولايات الاقطاعية** ، فلم يعد للخلافة سوى بغداد وبعض ضواحيها .. ولم يكتف الولاة المقاطعون بحيازة ولاياتهم وتوارثها بل **اقطعوا بدورهم لشيعتهم وأعوانهم** .. ووجد السيد الأوسط Medius Lord والسيد الأعلى Over Lord والتابع أو المزارع Tenant Vassal وتابع التابع Subtenant, ولهذا نظائره فى الغرب الاقطاعى ، واستنصر الاتباع بأتباعهم ضد السيد الأعلى ..**حتى كان القرن الخامس الهجرى ـ ١١م حين حدث تطور خطير** فى المنح الاقطاعية اذ صارت حربية عامة ، وغدت الطريق الوحيد للحصول على القوة الاساسية فى الدولة .. وكان السبب المباشر هو ازدياد ضعف الدولة العباسية ، وسوء تصرف بنى بويه فى الاقطاعات وما نجم عن هذا من بوارها ، وضعف القوة الحربية فى نفس الوقت » . **وتوسع سلاطين بنى بويه فى الاقطاعات الحربية لكنهم لم يعمموها** ، وغدت مطمع الاتباع العسكريين دون تقديمهم ما يقابلها ، واختل الميزان المالى بجانب انحطاط القوى الحربية . **وكان على السلاجقة الذين خبروا الاقطاع الحربى وهم فى خدمة بنى بويه ـ أن يصلحوا الحال ماليا وحربيا** « **فرأوا أن يعمموا هذا النظام بحيث يحل محل العطاء للجند عامة** وكان عهد السلطان ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ : ٤٨٥هـ/١٠٧٢ : ١٠٩٢م) ووزيره نظام الملك مفرق الطرق فى تعميم هذا النظام فى دولة اسلامية عريضة تمتد من جنوب فارس الى قلب آسيا الصغرى . يقول المقريزى : (**واعلم انه كانت عادة الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والفاطميين ـ من يوم عمر بن الخطاب، أن تجبى أموال الخراج ثم تفرق فى الأمراء أو العمال أو الاجناد ، وعلى قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم . وكان يقال لذلك فى صدر الاسلام العطاء . ومازال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم ،فغير هذا الرسم وفرقت الأراضى اقطاعات على الجند** . وأول من عرف أنه فرق الاقطاعات الملك أبو على الحسن بن على ابن العباس ـ وهو نظام الملك ـ وزير الب أرسلان .. وذلك أن مملكته اتسعت :فرأى أن يسلم الى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل ـ على قدر طاقته ، لأنه رأى أن فى تسليم الأراضى الى المقطعين فيه عمارتها ـ لاعتناء مقطعيها بأمرها ، بخلاف ما اذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد ـ فان الخرق يتسع ويدخل الخلل فى البلاد . ففعل نظام الملك

ذلك وعمرت البلاد وكثرت الغلات» . ولكى يجعل من الاقطاع الحربى نظاما يكفل ولاء الجنود وخضوعهم بعثر الاقطاع الواحد فى أماكن متباعدة (وربما قرر لواحد من الجند الف دينار فى السنة : فوجه نصفه على بلد من الروم ونصفه على وجه فى أقصى خراسان ـ وصاحب القرار راض) ، فكان الأمير الذى يستقل بمدينة أو ولاية يحكمها حكما مطلقا ، ويمارس فيها سلطة (صاحب المعقل) الاقطاعى ويجهز جنوده على نفقته ويقاتل مع السلطان ويدفع له المال » . على أن الاقطاع الحربى الاسلامى لم يصبح عاما بجميع الدولة الاسلامية فى القرن الحادى عشر الميلادى : فلم تعممه الدولة الفاطمية فى بلادها مع ما هو معروف عنها من كثرة الاقطاعات لجنودها وأمرائها ، كما اختلفت طرق الانفاق على الجنود بالأندلس فجرت أولا على اقطاع الأرض ثم تغيرت الى العطاء والرواتب ثم عادت الى الاقطاع ... « **أما الدول التى قامت فى أحضان السلاجقة وعلى أنقاضهم : الزنكية ثم الايوبية فالمملوكية ـ فانتشر النظام الاقطاعى الحربى اليها كاملا .. يقول المقريزى** (واما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب الى يومنا هذا فان أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده) . ومن كبار أمراء الاقطاع وأعيان دولة ملكشاه : **آق سنقر الملقب بقسيم الدولة ـ وهو أبو عماد الدين زنكى ـ فقد شمل اقطاعه قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية ولواحقها ، كما ان ابنه زنكى كان اقوى الاقطاعيين فى عصره اذ شملت دولته الاقطاعية ما بين حلب والموصل . وصار هو يقطع اتباعه** ، لا سيما ان الجهاد ضد الصليبيين كان على أشده فى تلك الفترة فاحتاج الى تدبير القوة الحربية اللازمة » . وفى ذلك الوقت ـ القرن الحادى عشر الميلادى أيضا ـ كان وليم الفاتح ينظم الاقطاع الحربى بانجلترا على أثر الفتح النورماندى سنة ١٠٦٦ م وكان يبعثر اقطاعات اتباعه ويأخذ عليهم من العهود والمواثيق « ما جعل الاقطاع الانجليزى يختلف عن نظائره فى بقية أوربا ، ويقترب فى كثير من التفاصيل من الاقطاع الحربى الاسلامى ـ مع انه منقول من نورمانديا الفرنسية » . (٣٧٧) .

***

كان على الحكم الاقليمى فى الدولة الاسلامية ثلاث مهام : الادارة ، وجباية الضرائب والتوجيه الدينى . ويقوم بهذه المهام الثلاث على

---

(٣٧٧) دكتور طرخان : الاقطاع الاسلامى . المجلة التاريخية المصرية م ٦ سنة ١٩٥٧ ، أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ترجمة رأفت ص ٣٧٣ : ٥ .

الترتيب : الوالى الذى يضطلع باعبـــاء الشئون السياســـية والادارة العسكرية فى ولايته ، وصاحب الخراج ، والقـــاضى . **وكانت الثغور** والعواصم باعتبارها احدى ولايات الدولة الاسلامية تشترك فى نظمهـــا الادارية والمالية مع سائر الوحدات الاقليمية الاسلامية فى أمور ، وتتميز **عنها فى امور اخرى** . ومن أهم **خصائصها الادارية : ذلك الطابع العسكرى فى حكمها** ، فعلى رأسها قواد محاربون - لا من الوجهة الرسمية فحسب على اعتبار أن أمير الولاية هو قائد جيشها ، بل من الوجهة العملية اذ لا ينفكون عن الخروج لجهاد الروم ، حتى تداخلت قائمة ولاة الثغــور مع قواد الصوائف ، وحتى طغى مد الحروب وجزرها على الاستقرار الادارى لتلك الولاية : من اضافة مسئولياتها الى أعباء حاكم ولاية مجاورة اكتفاء بمباشرة قواد الحملات الدورية لتصريف الأمور الجارية ، الى كثرة العزل والتولية نتيجة الأحداث الحربية ، الى شيوع القلق من هجمات العدو - خاصة فى فترات الضعف والتهيؤ دوما للنزوح والرحيل عند الخطر . ومن أهم **خصائص الثغور المالية : زيادة نفقاتها بحكم الأعباء العسكرية الملقاة عليها ، وقلة مواردها نظرا لافتقاد الاستقرار وهو شرط الجد فى الاستثمار ، بل ان الدولة كانت تتسامح هناك فى عطاء جندها واقطاع ارضها اغراء بتعميرها والرباط فيها وجهاد الاعداء** . وقد كان ياقوت دقيقا فى ابراز الطابع العسكرى لهذا الاقليم الادارى ، فقال فى تعريفه « والعواصم **حصون** موانع ، **وولاية** تحيط بها بين حلب وانطاكية (٣٧٨) »

---

(٣٧٨) ياقوت : معجم البلدان ص ٩ ص ٢٣٧ .

الفصل السابع

حياة السلم فى أراضى الحدود

اولا : الثغور وحركة التبادل التجارى :

(أ) حركة التبادل التجارى ، ودور شمالى الشام والجزيرة والعرب فيها قبل الاسلام .

(ب) موقع الثغور واهميتها التجارية ، بالنسبة للتجارة المحلية بين الشام والجزيرة وارمينية وآسيا الصغرى ، وبالنسبة للتجارة العالمية بين الشرق والغرب .

(ج) تجارة الشرق والغرب بعد الاسلام ودور ثغور الشام والجزيرة فيها (من القرن ٧ الى ١٠ م) .

ثانيا : الثغور فى المجال الثقافى :

تراث الفكر اليونانى بين المسلمين والبيزنطيين

(أ) الاتصال الثقافى فى مدن الحدود .

(ب) الاتصال الثقافى عن طريق الأسرى .

(ج) السفارات العلمية .

(د) أدب الحرب .

(هـ) الفنون .

ثالثا : الدين فى الثغور :

اهمية انطاكية فى الكنيسة المسيحية ــ الطابع الدينى فى صراع الفرس والروم ثم فى صراع المسلمين والروم :

(أ) الجهاد الدينى .

(ب) السياسة الدينية ازاء المخالفين فى الدين .

(ج) الأديرة ، الرباطات .

(د) التأثير المتبادل فى الفكر الدينى .

رابعا : المجتمع فى الثغور :

« الحرب بين الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين سجال ، على أن كل فريق منهما كان يرى للفريق الآخر ضرورة وجوده .. **الأصل الحرب الدائمة ، ولكنها حرب محدودة تبقى ـ وتذر ، ويصاحب الحرب الدائمة علاقات سلمية دائمة في أعمال مشتركة** • وينسب لأحد الأكاسرة قوله : ان هناك عينين اثنتين وكلت اليهما القدرة الالهية أن تبصرا العالم: فعلى يد هاتين الامبراطوريتين العظيمتين يكبح جماح الشعوب المتبربرة المجبة للحرب ويتسنى للبشرية حكم أفضل وأشد أمنا فى كل مكان • واستمدت دولة الروم قوتها ـ وقتذاك ـ من قدرتها الاقتصادية ، فكانت الزراعة والصناعة والتجارة مزدهرة فى ولاياتها الكبرى : آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، ولكل منها قاعدة عالمية الشهرة : القسطنطينية وانطاكية والاسكندرية (١) » •

بهذا التصوير قدم الاستاذ شفيق غبريال لكتاب ارشيبالد لويس « القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ٥٠٠ : ١١٠٠م »

وقد استمرت الصورة نفسها حين صار العرب هم القوة التى آلت اليها أراضى الفرس • بل وجزء كبير من أراضى الروم • وقد كتب نيقولا ميستيكوس Nicholas Mysticus بطريق القسطنطينية حوالى منتصف القرن ١٠م الى أمير جزيرة كريت أيام تبعيتها للمسلمين :

« ان أعظم قوتى العالم أجمع : قوة العرب وقوة الروم ـ تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء • ولهذا وحده يجب أن نعيش أخوة، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين (٢) » •

وفى هذا الفصـــل عرض سريع للجانب الســـلمى من العلاقات الاسلامية البيزنطية : فى مجال التجارة والثقافة والدين والمجتمع ، مع ابراز دور الثغور بصفة خاصة فى هذا الاتصال الحضارى •

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة أحمد عيسى ـ مقدمة الاستاذ شفيق غربال ص ١٥ ـ ١٦ •

(٢) فازيلييف : ترجمة بحث : بيزنطة والاسلام من كتاب Byzantium ملحق بترجمة كتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية للدكتور مؤنس وزايد ص ٣٦٤ ، دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٧٢
Vasiliev : L'Emp. Byz. Vol. I. p. 405

أولا : الثغور وحركة التبادل التجارى

« أكد مؤرخو الأزمنة الحديثة الجمع فى دراسة واحدة بين القرى البحرية والتجارة ‥ واتخذوا لمعناه شعارا حينما قالوا : (التجارة تتبع العلم) (٣) » ، ومن هنا كان الارتباط بين القوة السياسية والعسكرية فى جانب وبين القوة التجارية فى الجانب الآخر ٠

وتشغل الثغور الشامية والجزرية موقعا حساسا على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب عموما ، وعلى طرق التجارة المحلية بين الشام وبين بلاد النهرين وآسيا الصغرى ومصر وبلاد العرب ٠

التبادل التجارى ودور شمالى الشام والجزيرة فيه قبل الاسلام

وهذه المنطقة لها ماضيها التجارى العريق من قديم بحكم موقعها الفريد « فالدور الذى لعبته سوريا نتيجة موقعها بين القارات القديمة : أوربا وآسيا وافريقيا ـ تشرحه لنا أعمال الفينيقيين الذين كانوا أول التجار الدوليين ‥ وقد امتد الى أحد طرفيها وادى النهرين والى الطرف الآخر وادى النيل ‥ » ويمكن تتبع الطريق الدولى العظيم من دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع الى مناجم النحاس والفيروز فى سيناء ، كما يتفرع الى أراضى البخور فى جنوبى الجزيرة العربية ٠ ومن سيناء يتحول الطريق شمالا نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر ، وهنا يتفرع الى طريقين يتجه الواحد الى الساحل فيصل صور

(٣) مقدمة الاستاذ شفيق غربال لكتاب ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة عيسى ص ١١ ٠

وصيدا وجبيل وسائر الموانى السورية ، ويسير الآخر الى الداخل فيتجاوز سهل مجدو ويعبر الأردن فى واديه الشمالى ثم يتجه رأسا الى دمشق فى الشمال الشرقى • ومن هنا **يتفرع عبر بادية الشام بواسطة تدمر ويربط مركز سوريا مع قلب بلاد الرافدين** الذى مثلته على التوالى : بابل والمدائن وبغداد ، أما الطريق الرئيسى فيتجه من دمشق غربا ويعبر لبنان الشرقى بواسطة ممر الزبدانى ويسير شمالا عبر سوريا المجوفة متبعا نهر العاصى وقادش الى شمالى سوريا ، ويتفرع فى سيره عند قادش فى اتجاه غربى ليتصل بالبحر المتوسط بواسطة النهر الكبير • **وبعد أن يتفرع الطريق** فى شمالى سوريا عبر الابواب السورية فى جبل اللكام (أمانوس) ، ويتفرع الى الشمال الغربى عبر الأبواب القيليقية ليصل آسيا الصغرى ـ **فانه يتحول الى الشرق بطريق الجسر السورى نحو الفرات** ، ومن هناك نحو الدجلة وجنوبا الى الخليج الفارسى : « ولقد سلك بعض أجزاء هذا الطريق التجارى العظيم سرجون وسنحاريب ونبوخذ نصر والاسكندر وبومبى وعمرو بن العاص وبونابرت واللنبى ، وابراهيم وموسى والعائلة المقدسة ـ كما سلكه كثيرون غيرهم • وكانت تنقل على هذا الطريق فى العصور القديمة والوسطى احمال العاج والذهب من افريقية والمر والبخور والتوابل من الهند وجنوبى بلاد العرب ، والكهرمان والحرير من آسيا الوسطى والصين ، والقمح والاخشاب من سهول سوريا وجبالها • غير أن القوافل كانت تحمل أكثر من ذلك : فقد كانت تحمل معها أحمالا غير منظورة من الأفكار » •

فالأراضى الكائنة بين خليج الاسكندرونة ـ حيث يحدث البحر أعظم فجوة فى البر ـ وبين منحنى الفرات على مسافة نحو مائة ميل تشكل **ممرا طبيعيا بين الساحل ومنطقة بلاد الرافدين** • وفى هذه المنطقة يتحول الحاجز الجبلى فى الشمال والغرب والحاجز الصحراوى فى الجنوب الى ممر واحد منخفض ، يؤدى الى واد من جهة والى بحر من جهة أخرى ـ ولذلك فقد سمى بالممر السورى • ويقع الممر فى سفح جبال طوروس ـ وهو المرحلة الأخيرة من خط المواصلات الذى يبدأ عند الخليج الفارسى ويصعد دجلة حتى ضواحى نينوى ، ثم يتجه غربا الى الموانى السورية « وفى هذا السهل يبدأ التاريخ السورى المستمر : وأول ممثلين للساميين هم العموريون ، ومنذ ذلك الوقت حاول البابليون والمصريون والاشوريون والكلدانيون والفرس والمقدونيون ـ كل بدوره ـ السيطرة عليه كنقطة انتقال •• » وكانت ميتانى (على المنحنى الكبير للفرات) من أسباب اضمحلال بابل بحكم موقعها الجغرافى على طريق بابل الى سوريا :

فأصبحت عقبة أمام سلطة بابل في آسيا الصغرى • وكانت أشور مركزا هاما على طريق القوافل بين البلاد في شرقها وغربها ، كما ذهبت قوافلها لآسيا الصغرى للاتجار فيما تدره مناجم الفضة ، وقد حاولت أن تشق طريقها للوصول الى مياه البحر المتوسط • وهكذا **كانت بلاد الرافدين تشكل الاراضي الداخلية التي تقع فيما وراء سوريا ، ومنطقة حلب خاصة كانت تستعمل كطريق تجارى تمر فيه معادن قيليقيه الخام الى امبراطورية بلاد النهرين** ، وكانت كميات الفضة والذهب التي وجدت في قبور أور الملكية (حوالى ٢٧٠٠ ق٠م) تمر غالبا بهذا الطريق ، كما كان أمراء سومر يحصلون على الأرز من جبل اللكام (أمانوس) بالاضافة الى الذهب من قيليقية • وتجار بلاد بين النهرين الذين كانوا يبحثون عن هذا الخشب المرغوب قد اكتشفوا ــ قبل ذلك العهد ــ المرتفعات المكسوه بالغابات في جبال سوريا الشمالية •

وكان الفينيقيون تجار البحر والبر • فقد أصبحت طرقهم الرئيسية تبدأ في صيدا وصور فتصل مصر ، أو تتجه شمالا الى قبرص ، وغربا الى ليكيا تحت جبال طوروس ثم الى جنوبى رودس، فكريت وجزيرة كورسيرا حتى صقلية ، ومنها الى مستعمراتهم في شمالى افريقية فاسبانيا • وكان الفينيقيون أول من قدم أربع مواد هامة مفقودة في كثير من بلدان البحر المتوسط : وهي الأخشاب والقمح والزيت والخمر وكانت محطاتهم التجارية في الداخل تضم ادسا وربما نصيبين ــ بحيث **تصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج الفارسى** •

وبعث التجار الآراميون قوافلهم الى جميع مناطق الهلال الخصيب بل الى منابع الدجلة في الشمال ، واكتشفت في خرائب نينوى بعض الموازين البرونزية التى تركوها ــ **وكانوا يحتكرون تجارة سوريا الداخلية ، كما كان يحتكر ابناء عمومتهم ومنافسوهم الفينيقيون التجارة البحرية** ، وكانت عاصمتهم دمشق ميناء البادية كما كانت جبيل ثم صور من موانىء البحر • وقد تاجر الآراميون بالأرجوان من فينيقية والمطرزات والكتان واليشب Gaspar والنحاس والأبنوس والعاج من افريقية و (بمحصول البحار) الذى ربما كان اللؤلؤ الذى اشتهر به الخليج الفارسى خلال العصور •

وجاءت الامبراطوريات الكبرى : **امبراطورية الفرس وامبراطورية الاسكندر** ، وأصبحت الشام كما أصبحت بلاد النهرين جزءا من امبراطورية عظيمة ، واعتنى بالطرق وأخذت المدن الفينيقية في الازدهار

وواصلت نشاطها التجارى ، خاصة وقد شملت الامبراطوريتان الكبيرتان على التوالى رقعة ضخمة من العالم المعمور حتى أضحت معظم مسالك تجارة الشرق والغرب فى حمى دولة واحدة ضخمة . فلما تجزأت امبراطورية الاسكندر بين قواده « كانت سوريا العمود الفقرى **للامبراطورية السلوقية (السليوكية)** ، وانطاكية رأســـها السياسى ، وسلوقيه (سليوكيا) عاصمتها التجارية ، وأفامية مقرها الحربى ، وسلوقية (سليوكيا) على الدجلة عاصمة جناحها الشرقى ، وساردس عاصمة جناحها الغربى » . واهتم السلوقيون بربط هذه الأرجاء بالطرق ، فتمتع العالم الهلنستى - حتى فى عهد تجزئته - بمقومات تحقق شيئا من الانســـجام الثقـــافى والاقتصادى . ويبدو أن السياسة السلوقية كانت تهدف الى أن تجذب الى بلادها بضائع الجزيرة العربية والهند وأواسط آسيا للاستهلاك المحلى والمرور ، كما تهدف الى تشجيع العلاقات التجارية السورية مع الغرب وخاصة العالم اليونانى - الرومانى .

وهذه السياسة أدت الى تنافس البطالمة مع السلوقيين على تجـــارة الترانسيت ، فمنتجات الهند يمكن أن تأتى بحرا الى اليمن Arabia Felix لتصبح جزءا من تجارة الجزيرة العربية فتنقل برا الى البتراء وبـلاد البطالمة ، كما يمكن أن تتجه بحرا عن طريق الســـاحل الغربى للخليج الفـارسى فتمر بالعقـــير Gerrha وتصعد دجلة الى سلوقية ويتجمع هناك أيضا ما تجلبه تجارة القوافل البرية ثم تتجه غربا فتصعد الفرات مارة بدورا - أوروبس Dura - Europos الى أنطاكية أو تتبع الطريق القديمة شرقى دجلة فتعبر ما يدعوه العرب جزيرة ابن عمر وتسير غربا الى نصيبيين فادسا ثم أنطاكية أو دمشق . وقد جعل هذا من سلوقية على دجلة مركز توزيع البضائع بالنسبة للتجارة الشرقية فكانت وريثة بابل القديمة وسلفا لبغداد فى العصور الوسطى . وقد بقيت هذه الطريق التجارية الشرقية التى تمر بسلوقية على دجلة مطروقة خلال القرن ٣ق .م ولكن فى الفترة المضطربة فى أواخر القرن ٢ وأوائل ١ق .م أصبحت الطريق الصحراوية المارة بتدمر أكثر ملاءمة ، وخاصة لأن القبائل التدمرية كانت فى وضـــع يمكنها من ضـــمان الأمن والمياه ، واستمرت الأمور على هذا النحو ٤ قرون . وكان بامكان القوافل الآتية من مصر والبتراء أو الساحل الفلسطينى أن تتبع الطريق الســـاحلية حتى اللاذقية ومن هناك تتصل بسلوقية وانطاكية ، أو يمكنها أن تنعطف من مجدو أو صور الى دمشق متتبعة الطريق القديمة الكبرى . أما القوافل القـــادمة من أرواد أو مارثوس فيمكن أن تتبع الطريق الساحلية شمالا أو تســـتدير شرقا باتجاه حمص وافاميه . وكانت ســـلوقية

أو جارتهـــا أنطاكية على نهر العاصى الصالح للملاحة وقتذاك نقطة التقاء القوافل المختلفة . وكان السلوقيون فى ذروة حكمهم سادة طريق الحرير التى تخترق الهضبة الايرانية وآسيا الوسطى حتى منغوليا ، وكان قسم كبير من الطريق يقع فى الامبراطورية السلوقية . **والتقت منتجات الشرق الأقصى بمنتجات الهند وغربى الجزيرة العربية فى بلاد الرافدين ، وانتقلت غربا أما بطريق نصيبين وادسا (الرها) أو بطريق دورا – أوروبس –** وكانت احدى المراكز رالقوية التى أسسها السلوقيون لتحمى الطرق الرئيسية كما كانت محطة قوافل ، وهى فى موقع متوسط بين سوريا وبلاد الرافدين . وقد تطورت من حصن قوى الى سوق تجارية هامة ، وموقعها ذو منعة طبيعية على هضبة صخرية تشرف على الفرات ويحيط بها واديان سحيقان . وقد بلغت ذروتها كمركز للقوافل فى عهد البارثيين واستخدمها الرومان كمعقل على حدود الامبراطورية من جهة الفرات، واحتلها الساسانيون بعد سنة ٢٥٦م بقليل وهدموها . وكانت جرها Gerrha أهم مركز تجارى على الخليج الفارسى ، وهى مدينة عربية تقريبا لها واجهتها البحرية كما لها موقعها على طرق القوافل الكبرى ، ومنهـا طريق يصلها باليمن جنوبا بينما تتجه طرق أخرى فى قلب الصحراء الى تيمـاء فالبتراء . وكان الاتصـــال البحرى الرئيسى بين الهنـد والامبراطورية السـلوقية يتم بواسطة العقير ، كما كان السـلوقيون يتزودون بحاجاتهم من بضائع الجزيرة العربية عن طريقها خاصـة حين كانت ســوريا الجنوبية جزءا من دولة البطالمة – وأهمها المر واللبان والعطور . وكانت بضائع الجزيرة العربية والهند وأواسـط آسـيا المصدرة الى سوريا يستهلك جزء منها محليا ، ويعاد تصدير الجزء الآخر الى الغرب . وقد كان للتجارة دورها الكبير فى ازدهار سوريا ، وكانت تتألف من منتجات سوريا الزراعية والصناعية – مثل الزجاج والنسيج – بالاضافة الى البضائع المارة بها من البلاد الواقعة فى شرقها – وكانت تجارة الرقيق من العناصر الهامة فى التجارة السورية (٤) . وهكذا بينما كانت الحاصلات الهندية العربية وحاصلات شرقى افريقية من توابل وعقاقير وعاج ولآلىء تحمل الى موانىء مصر برنيق Berenice وميـوس هورموس Myos Hormos وارسينوى Arsinoe والقلزم Clysma ومنها تنقل الى أسواق الاسكندرية – كان حرير الصين ينزل فى ايله أو ليوكى كومى Leuce Come أحيانا (الحوزة) وتحمله القوافل الى سوريا . وكان

(٤) حتى : تاريخ سوريا جـ ١ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٥ ، ٦٤ – ٥ ، ٧٤ – ٥ ، ١٠٤ – ٥ ، ١٠٧ ، ١٤٩ – ١٥٠ ، ١٨١ – ٢ ، ٢٤٠ ، ٢٦٩ : ٣٠١ ، برستد : انتصار الحضارة – ترجمة دكتور فخرى ص ١٩٨ : ٢٠٣ .

الموقع الجغرافى الممتاز لسوريا بالنسبة للتجارة الشرقية عبر الطرق البرية يرفع من قيمة مكانها بالنسبة للتجارة البحرية القادمة من الخليج الفارسى بل ومن البحر الأحمر أحيانا ـ وهذا من خصائص سوريا التى مكنتها من منافسة مصر بنجاح فى السيطرة على تجارة بعض البضائع وتسويقها حتى خلال العصور الوسطى ـ أما بالنسبة للشمال فقد اتصلت البداوة والتجارة فى أقصى شمالى الجزيرة ، وقامت أسواق فى بعض مراكز مثل أورفا (الرها) وقد عمل البدو من العرب فى نقل بضائع التجار الاغنياء فى المدن المستقرة بينما اغار سكان الجبال الاكراد على القوافل وهى تجتاز الطرق التجارية • وقد عملت المنافذ عبر الجبال الممتدة طوليا فى سوريا كمسالك بشرية وتجارية بين الداخل والساحل ومن أهمها بوابة حلب ، ومنفذ اليرموك ـ برج ابن عامر Esdraleon والمنطقة المنخفضة جنوب مؤاب ومرتفعات اليهودية Judaea وقد شاركت حلب (Khalpa القديمة) فى النشاط التجارى عبر الطريق الملكى Royal Road **الذى يربط بين افسوس على بحر ايجة وبين مدن الامبراطورية الفارسية، كما كانت مستودعا للتجارة بين موانى الساحل السمانى لفينيقية مثل انطاكية واللاذقية وطرسوس وطرابلس من جهة وبين مدن شمالى الهلال الخصيب مثل نصيبين وادسا (أورفا) وماردين وغيرها** • وسوف تقاسمها هذا الخير حماه وحمص فى العصور الوسطى لسهولة مواصلاتها مع الساحل عن طريق العاصى والنهر الكبير (٥) •

(أ) كان شمالى الشام والجزيرة اذن طريقا الى الاتصال بالهضبة الايرانية، التى كانت بدورها معبرا بين آسيا الغربية والشرقية ـ اذ اتصلت فارس بالصين من قديم ، ويقوم أول شاهد تاريخى على التأثير المباشر لهذا الاتصال فى القرن ٦ق.م• وبعد قيام الصين الموحدة كان أمامها طريقان للاتجار مع الغرب : البر والبحر ، ويمكن القول عموما بأنه حين تركزت قوة الامبراطورية فى الشمال كان الاهتمام بطريق التجارة البرية على عكس الحال حين تركزت قوة الامبراطورية فى الجنوب • كذلك أدى توسع الصينيين البحرى الى الاتصال بمنطقة الملايو الهندية Indo-Malaysia وساعد توسع الفرس البحرى على اقامة اتصال مباشر بين جنوبى شرقى آسيا والشرق الأقصى ، وكان الخليج الفارسى مجالا طيبا للتقدم الملاحى المبكر ، وهناك نظرية ترجع موطن الفينيقيين الأصلى الى الخليج الفارسى • وقد استفاد الاشوريون والبابليون من هذا الخليج فى اقامة العلاقات

---

(٥) Huzayyin: Arabia and the Far East. p. 11-3. 102.

التجارية مع سواحل عمان والبحر العربى وربما الهند نفسها • وكانت البضائع المتبادلة هى اللبان والتوابل واللآلىء والمعادن والاخشاب • وقد اهتم الاكمينيون بطرق التجارة البرية على حساب الطرق البحرية ، ولم تكن سيطرة السلوقيين على الخليج الفارسى فعالة اذ قامت امارة محلية عند مصب دجلة والفرات وجاء البارثيون ـ وموطنهم شمالى ايران ـ فاهتموا باحتكار التجارة البرية بين الصين ووسط آسيا والهند من جانب وبين الاقاليم الرومانية من جانب آخر • واهتم التجـــار الاغريق من سوريا وفينيقية ومصر بطريق البحر الأحمر ، كما نشطت قبائل الانباط فى تجارة طريق الحجاز الذى يربط جنوبى بلاد العرب بالبحر المتوسط ، وفى عهد الساسانيين ـ وموطنهم جنـــوبى ايران ـ (حوالى ٢٢٥ـ٦م) أخذ الخليج الفارسى يستعيد أهمية التجـــارية • وأدت المنافسة بين ذراعى المحيط الهندى : البحر الأحمر والخليج الفارسى الى صراع الفرس والروم للسيطرة على الطرق التجارية (٦) •

(ب) وفى الوقت نفسه **كان شمالى الشام والجزيرة طريقا للاتصال بآسيا الصغرى وشواطىء البحر المتوسط** من جهة أخرى • ويمكن تتبع التوغل التجارى الاغريقى فى بلاد العرب فى النظام النقدى قبل الاسلام• فهناك دلائل على تداول العملة الاتيكية فى القرن ٥ ق•م• فى جنـــوبى فلســطين وشمالى الحجاز ثم تغلغت جنوبا فى قلب بلاد العرب حتى أدركت آثارها حملات المعينيين والسبئيين والحميريين والقتبانيين• ثم قامت امبراطورية الاسكندر فزادت النفوذ الاغريقى الاقتصـادى فى الشرق ، وقامت الدولة البكترية Bactrian Kingdom جنوبى التركستان وشمالى غرب الهند كنموذج مثالى للدولة التجارية ، اذ قامت حياتها على احتكار تجارة وســط وشرقى آسيا • واستفادت دول الارشـــاقيين Arsacids (فى بارثيا) والسلوقيين من موقعهـــا الممتاز على الطرق التجارية ، وحاول البطالمة فتح سبل الاتصال البحرى مع الحبشة والهند والتقوا فى طريقهم بالعرب الجنوبيين والهنـــود وغيرهم ، وغدا نفوذهم محسوسا بصفة خاصة على ساحل اكسوم Auxome حيث قامت فيما بعد دولة تسير فى فلك بيزنطة وتعتنق المسيحية (٧) •

وقد بلغت المبادلات التجارية السورية ذروتها **أيام الحكم الرومانى** ، وغدت مدن القـــوافل كالبتراء وجرش وبصرى وتدمر ودورا أورويس

---

(٦) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 17:22, 76:8. 87...
(٧) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 25:7.

Dura Europos مراكز تجـــارية مزدهرة . ثم نشـــطت الطرق البحرية حين أعاد تراجان تجديد القناة التى تصل النيل بالطرف الشمالى الغربى الاقصى للبحر الاحمر والتى كان الفراعنـــة القدماء أول من بدأ بحفرها ، وصدرت المدن الفينيقية البلح وأحسن دقيق القمح . وكان اللبان المصدر من سوريا يأتى من جنوبى الجزيرة العربية ، كما صدرت المحاصيل من نباتات غربى آسيا من عقاقير وعطور تمتعت بشهرة عالمية ، وغالبا ما تشير المصادر اللاتينية الى شجيرة الميعة والسلفيوم Silphium والمجيداريس Magidaris والناردين الآتية من سوريا . كما كانت تصدر الخمور والزيوت والثمار المجففـــة والدهون . ووجدت فى مصر وقبرص وايطاليا وكولونيا وجنوبى روسيا آنية من زجاج صيدا ترجع الى القرن أم ، كما عاش أحسن عمال للبرونز فى صيدا . ووجدت فى أمكنة متعددة خارج سوريا آثار النسوجات السورية من كتانية وصوفية وحريرية . واشـــتملت الواردات السورية على الخزف من اليـــونان وايطاليا ، والسمك المجفف من مصر وأســـبانيا ، والبردى من مصر ، والمر والبخور من جنوبى الجزيرة العربيـــة ، والتوابل والجواهر من الهند ، والحرير من الصين . وكانت عكا مركزا هاما لتجارة السمك . وانتعشت الخصائص الفينيقية القديمة ، ونشط السوريون فى المغامرات التجارية وانتشرت حواضرهم على طول شاطىء البحر المتوسط ، وعلى الطرق التجارية الرئيسية ، ومجارى الانهار الكبرى فى الداخل ، كمـا وجدت جالياتهم فى جزيرة ديلوس الايجية وصقلية والميناءين الايطاليين نابلى وأوسيتا ، ووصلوا عن طريق الدانوب الى بانونيا Pannonia وعن طريق الرون الى ليون وكان لهم مراكز فى اسبانيا والغال . واحتكر التجار السوريون تجارة الولايات اللاتينية مع الشرق ، ولم يكن لهم منافس كصيارفة ، وكانت ســلعهم تســتخدم كنماذج يجرى عليهـا التعليم هناك (٨) .

وارتبطت دمشق أيام الرومان بطرق القوافل التى تسير فى جميع الاتجاهات : الى تدمر Palmyra والفرات ، وفى اتجاه الشمال الى ابيفانيا Epiphania ومنها يمكن الوصول الى مدن نهر العاصى حتى انطاكية ، كما يمكن الوصول عن طريق خالكيس Chalcis وبيروا Beroea الى معبر الفرات الشـــهير عند زيجمـا Zeugma أو غربا الى ممرات جبل اللكام (امانوس) Amannus فى قيليقية .

---

(٨) حتى : تاريخ سوريا ج ١ ترجمة دكتور حداد وعبد الكريم رافق ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠ ، ٣٨٣ ــ ٤ .

وقد تفرعت الطرق من انطاكية فى كل اتجاه : غربا الى قيليقية ثم بيزنطة نفسها ، وشرقا الى تدمر Palmyra والفرات وبابل ، وشمالا الى معابر الفرات الهامة عند سميساط Samosate وزيجما Zeugma والى مناجم الحديد ومقالع الحجر فى تلك المناطق. وبعد عهد تراجان كانت هناك ٥ طرق تمر بالمدينة وكان هناك مركز اقتضاء المكوس ، وفى هذه المنطقة وبجوار قورس Cyrrhus اكتشف الكثير من آثار الرومان وقناطرهم .

وكانت هناك طرق من مدن الداخل الهامة الى الساحل : فارتبطت انطاكية بسلوقية (سليوكيا) ، وفاميه (اباميا) باللاذقية (لاوديكيا) وحمص بارواد (ارادس) ، ودمشق بصيدا ، وأورشليم بقيصرية . وكانت هناك طرق محلية فى منطقة بحيرة طبرية ، ولكن الخطوط الرئيسية للمواصلات كانت تسير شمالا وجنوبا ، وفى كثير من المواضع كانت التربة الصحراوية متماسكة بدرجة كافية ، ولم يكن يحتاج الا الى قناطر على المجارى السريعة ، كما يحتاج لتعبيد أجزاء الطرق التى تؤدى الى داخل المدن مثلما حدث عند انطاكية. وقد كان وجود القوات الرومانية وما كفلته من اقرار النظام والأمن أكبر ضمان للتجار والمسافرين ، وبعد ضم تراجان لاقليم العرب الصخرية أقيمت مجموعة طيبة من الطرق المعبدة شرقى نهر الاردن وأقيمت فى أقصى الشرق مراكز الحراسة والبريد ، كذلك نظمت الطرق الرئيسية فى سوريا والولاية اليهودية (جوديا) وعبدت بعناية ، وحمى الطريق من انطاكية الى الشرق بفرق مسلحة قدمتها البلديات واعتنى بها بدرجة كبيرة . ولقيت طرق شمالى سوريا اهتماما كبيرا ، ووضعت عليها العلامات الدالة على المسافات بالاميال . ووجهت عناية أيضا الى الطرق المائية الموجودة : فأمكن الوصول الى انطاكية من مينائها سلوقية (سليوكيا) بعد ابحار يوم فى الارنط ، وكانت هناك رحلات مائية أقصر . كذلك اعتنى بموانىء ساحل البحر المتوسط وان لم تكن كبيرة مثل سلوقية (سليوكيا) واللاذقية وارواد Aradus وبيروت وبطلمية وجوبا وعسقلون وغزة ، فازدهرت تجارتها وملاحتها .

وقام فسباسيان باصلاحات كثيرة فى سلوقية بصفة خاصة وهى الميناء الاكبر لشمالى سوريا . وازدحمت هذه الموانى بالسفن من سوريا والاسكندرية وآسيا الصغرى ، وكان يوصل الى روما عن طريق الاسكندرية . وكانت الاقاليم الشرقية فى الدولة الرومانية عموما تمثل مراكز الصناعة والنسيج والسجاد والخزف والزجاج وغيرها ، وان كانت

تتميز أيضا ببعض المواد الخام، بينما كانت الاقاليم الغربية هى المستودع الضخم للمواد الخام خاصة المعادن من ذهب وفضة ونحاس ورصاص وصفيح وحديد وغيرها ثم أخذت الصناعة تدب تدريجيا فى الغرب أيضا. وكان للجاليات الشرقية - ومنها سوريون - فضل كبير فى ذلك . وقد بذلت محاولات - خاصة فى عهد أغسطس - لتعبيد وتأمين الطريق بين آسيا الصغرى وسوريا التى تجتاز الابواب القيليقية وكان هناك طريق جنوبى فى آسيا الصغرى يخترق مناطق تكثر فيها فرص التجارة ، وعن طريق الابواب القيليقية كان يمكن الولوج جنوبا الى انطاكيا بسوريا أو عبر الجبال الى الفرات عند زيجما ، كما كانت هناك **شبكة من الطرق المستعرضة التى تربط بين الطرق الرئيسية - مثل الطريق الذى يربط بين سينوب** Sinope **وطرسوس** Tarsus .

وأدى نشوب الاضطرابات بين الرومان وأمراء الولايات الحاجزة الحليفة من جهة ، وتزايد قوة بادثيا من جهة أخرى الى اتجاه الرومان الى تحويل هذه الولايات الى أقاليم تابعة للدولة مباشرة ، وتأمين الطرق المؤدية الى الفرات بالحاميات . فوضعت بنطس Pontus وارمينية الصغرى تحت الحكم (الرومانى) المباشر ، وربطت بالجزر حول قيلقيه ببقية أقليم كابادوكيا ، ووضعت حاميات قوية فى ستلا Satala وملطية Melitene ووصل بينهما طريق أقيم فى عهد فسباسيان ، وكان الاشراف على هذه المنطقة العليا وامتلاك معابر سميساط Samosate وزيجما Zeugma يعنيان أن الفرات كله صار تحت رقابة الرومان(٩) .

وحملت متاجر الهند وسيلان وحرير الصين عن طريق البحر الاحمر ، وعن طريق الخليج الفارسى بمدنه التجارية : جرها Gerrha وعمان Ommana ، وشراكس Charax Spasini التى امتد منها طريق على طول الفرات الى الشمال الغربى حتى يتصل بطريق الشرق البرى الكبير عند سلوقية (سليوكيا) .

وخلاصة ما ورد عن جرها Gerrha انها من المراكز التجارية الخطيرة ، وملتقى طرق القوافل الواردة من بلاد العرب الجنوبية ومن الحجاز ومن الشام والعراق ، كما كانت سوقا للتجارة البحرية تستقبل تجارة افريقية والهند وبلاد العرب الجنوبية وتعيد تصديرها الى مختلف

---

(٩) Charlesworth : Trade Routes and Commerce of the Rom. Emp. pp. 37:42, 78: 84, 237-8.

الاسواق بطريق القوافل البرية حيث ترسل عن طريق حائل وتيماء الى موانى البحر المتوسط ومصر أو بالطريق البرى الى العراق ومنه الى الشام ، وقد ترسل بالسفن الى سلوقية Seleucia أو بابل و Thaposcus ومنها بالبر الى البحر المتوسط ، وتستقبل تجارات البحر المتوسط والعراق والاسواق المتعاملة معها لتعيد تصديرها الى بلاد العرب الجنوبية وافريقية والهند وربما الى ما وراءها ، فهى سوق وساطة (ترانسيت) • وهى كما فى كتب الكلاسيكيين واقعة فى بلاد العرب الشرقية على ساحل الخليج على مسافة منه أو عليه مباشرة ، ويرى البعض انها العقير ، أما مدينة Charax فأول من أشار اليها المؤرخ بلينوس، وقد أنشأ الاسكندر فى جملة المدن التى أنشأها فى الشرق ويظن انها المحمرة(١٠) ، ولقد روى ان اليهود أسسوا لأنفسهم مستعمرة علىساحل ملبار بالهند عندموزيريس Muziris قرب موضع Crangnnare الحالية بعد سقوط اورشليم ومثل هذه الاسطورة ايا كان نصيبها من الصحة تبين اهمية هذا الساحل التجارية • وقد سعى تجار الرومان بدأب حتى عبروا مضيق ملقا سنة ١٦٠م ووجدوا أنفسهم وجها لوجه مع الصين ، وكان الرومان جد حريصين على الاتصال بالصين ولكن البارثيين دأبوا على الحيلولة بينهم وبين هدفهم ، وأوفد الامبراطور ماركوس أورليوس بعثة تجارية الى الصين نجحت فى مهمتها وأخذت التقارير الصينية تذكر بلاد Ta-Tsin وتعنى الحدود السورية للامبراطورية الرومانية ، وبدا فيها تقدير أمانة التجار، الرومان ونزاهتهم ، كذلك تكلم بلينى وبطليموس عن فراء التبت • واتجهت السياسة الرومانية الى تشجيع التجارة البحرية للاستيلاء على العائدات الباهظة منها ومنعها من أن تقع فى أيدى البارثيين حيث كان الطريق الذى يخترق بلادهم طويلا معرضا للناهبين وآلمشاغبين(١١) •

وقد حاول الرومان القضاء على طريق الخليج الفارسى الذى يتحكم فيه خصومهم ــ لصالح طريق البحر الاحمر الذى يسيطرون عليه فى مصر وسوريا ، سيما وقد تزايدت مطالبهم للبان والتوابل واللآلىء والعاج والدقيق ومنسوجات الهند القطنية وحرير الصين وفرائها وحديدها •

وكان العرب الحميريون يهددون مصالح الرومان عند المدخل الجنوبى

---

(١٠) دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٢ ص ٣٧٥ ، جـ ٣ ص ٢٧٧ ، ص ٤١٨ وما بعدها •

(١١) Huzayyin : Arabia and Far East. pp. 95:106, Charlesworth : Trade Routes and Commerce of the Rom. Emp. pp. 67:73.

للبحر الاحمر ، وفي عهد اغسطس جردت حملة بقيادة آليوس جالوس Aelius Gallus ٢٥ق٠م ابحرت من ارسينوس Arsinos الى ليوكى كومى Leuce-Come (الحورة ميناء البتراء عاصمة الانباط) ويشك فى مدى معاونة الانباط لها ٠ وقد تقدمت نحو جنوبى بلاد العرب لاخضاع الحميريين وانتزاع موارد ثروتهم ٠ وتعرف أحد الرعايا الرومان Hippalos على طريقة الاستفادة من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية حوالى سنة ٤٠ ــ ٥٠م فى السفر مباشرة عن طريق البحر من خليج عدن الى الهند ، وربما كان ذلك معروفا لدى تجار البحر العربى الذين عبروا المحيط الى مواضع مختلفة من ساحل الهند ولكنهم لم يفشوا سرهم الى منافسيهم الاغريق المصريين ٠ وهكذا كان ما وصل اليه هيبالوس كشفا من وجهة نظر الرومان وحدهم ، وقد أفاد هذا الامبراطورية فى مواردها وتجارتها ، كما اضعف من تحكم العرب الجنوبيين ويذكر لنا سترابو أن القوافل من ليوكى كومى Leuce-Come الى البتراء Petra كانت من الضخامة لدرجة انها تقارن بجموع الجيوش ، وسارت حركة الملاحة بين مستودعات الجنوب الغربى لبلاد العرب وموانىء ساحل الانباط ، واندفع الملاحون المصريون والاغريق والسوريون موغلين فى البحار الشرقية(١٢) ٠ وفى خلال القرن الرابع الميلادى وجزء كبير من القرن الخامس الميلادى كانت الظروف المحلية فى جنوبى شرقى آسيا تضعف من ملاحة الصين وتجارتها٠ فكانت القوة الشرائية للامبراطورية الرومانية الغربية تنهار بسرعة، بينما كانت الامبراطوريتان البيزنطية والساسانية فى دور التكوين ٠ وكذلك كان الحال فى غربى آسيا أيضا ٠ وغدت الحركة ضئيلة فى خطوط البحر الاحمر والخليج الفارسى والطرق البرية عند الحدود السورية وفى وسط آسيا ، وأخذت تتدهور أسواق الشرق الرومانى عموما ٠

وهكذا تميز طوران فى تاريخ العلاقات التجارية بين شرقى آسيا وغربيها ، وهماما يسميان : بالطور الاغريقى الرومانى والطور الايرانى (الفارسى) العربى ٠ ويمكن تسجيل البداية الحقيقية للنشاط البحرى الصينى من حوالى وسط القرن الخامس الميلادى وبداية القرن السادس الميلادى(١٣) ٠

وشهد غربى آسيا تغيرات . ففى أوائل عهد الامبراطورية الرومانية ، كانت الجهود مركزة فى فتح طريق البحر الاحمر والسيطرة

(١٢) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 110 : 3, 119.
(١٣) Huzayyin : Arabia and the Far East. p. 126.

على المراكز التجارية فى بلاد الانباط فى جنوبى فلسطين وفى شمالى الحجاز وعندما نهضت التجارة الهندية فى الخليج الفارسى فى بداية القرن الثانى الميلادى كان الطريق من رأس الخليج الى البحر المتوسط يجتاز حدود صحراء النفود بين شراكس Charax Spasini والبتراء الى غزة ، وقد احتل الرومان البتراء سنة ١٠٦م فى عهد تراجان كما حاولوا توطيد نفوذهم فى شراكس • وبعد قرن أو قرنين أخذت المراكز التجارية على **جانبى الصحراء فى سوريا وبين النهرين تنتقل تدريجيا صوب الشمال ،** وحلت بصرى وتدمر Palmyra ودمشق محل البتراء وتيماء ، كذلك حلت الحيرة وبتناى Batnae محل شراكس وابولوجوس Apologos كمركز لتجمع التجارة البرية والبحرية •

وتأسست الامارتان الحاجزتان للغساسنة واللخميين منذ القرن الثالث الميلادى فصاعدا على حدود الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية ليأخذا مكانيهما الى الشمال قليلا من سالفيتهما : الانباط وميسين خراسين Mesene-Kharacene **ومن اهم أسباب هذه النقلة صوب الشمال ارتقاء موانى ساحل فينيقية ـ بدلا من غزة ـ عند قيام الامراطورية البيزنطية ، وتقدم مدن شمالى سوريا وبين النهرين كمراكز تجارية ودينية** • وربما كان ما يعزى من جفاف فى شمالى الجزيرة العربية قد أدى الى التدهور التدريجى للاجزاء الجنوبية من الصحراء السورية من رأس الخليج الفارسى الى الركن الجنوبى الشرقى للبحر المتوسط ، مما حفز الى الهجرة منها •

غير انه من الصعب ان تعزى هذه الحركة صوب الشمال الى انتعاش الطرق البرية عبر وسط آسيا وشمالى ايران على حساب الطريق البحرى للخليج الفارسى ، لان تلك الطريق كانت مازالت متأخرة • وفى الوقت نفسه كانت القبائل من جنوبى بلاد العرب وجنوبها الغربى تهاجر الى ساحل الخليج الفارسى وأطراف الهلال الخصيب من جهة وسواحل الحبشة والصومال من جهة أخرى ، وكان لهذا آثاره على التجارة •

واجتهد الساسانيون الأوائل بدورهم (٢٢٥ ـ ٦٣٨ م) فى تنشيط تجارة الخليج الفارسى ، **فتجددت المنافسة بين الخليج الفارسى والبحر الاحمر بالنسبة لتجارة المحيط الهندى . وبينما كان الخليج تحت سيطرة الساسانيين وحدهم ، كان البحر الاحمر موزعا بين عناصر متنافسة من رومان وهنود وعرب ـ وكانت النتيجة لصالح الخليج الفارسى الذى اجتذب معظم التجارة الشرقية ، ومنه كانت تحمل فى دجلة والفرات ثم تنقلها**

القوافل الى السوق العظيم تدمر Palmyra على الجانب السورى • وأدت الخصومة السياسية بين الروم والفرس الى عرقلة التجارة ، وحطم أورليان فى أواخر القرن الثالث الميلادى تدمر التى عملت وسيطة بين الجانبين فأفاد ذلك تجارة البحر الاحمر نسبيا • وادى اتساع نفوذ ملوك سبأ الحميريين الى الاتصال باكسوم على الساحل المقابل وكانت مركزا تجاريا هاما ، وانتهى أمرها بأن دخلت فى فلك الروم semi-vassal وانتقل اليها مبشرو المسيحية وقويت أكسوم تدريجيا واستولت أسواقها فى القرن الخامس الميلادى على معظم تجارة البحر الاحمر ، واستطاعت أن تغزو اليمن سنة ٥٢٢ م على أثر اضطهاد ملكها اليهودى ذى نواس لنصارى نجران، وكان هذا يعنى تركز التجارة كلها فى أيدى الاحباش. ويذكر بروكوبيوس ان جستنيان ٥٢٧ ــ ٥٦٥ م أرسل سنة ٣٥٠ ــ ١م بعثة تجارية الى اكسوم لتعرض على أهلها تحقيق أرباح طائلة عن طريق شراء الحرير من تجار موانى الهند وسيلان وبيعه للرومان ، ويكون ذلك فى الوقت نفسه خدمة جليلة للرومان حتى لا يدفعوا أموالهم لاعدائهم الفرس. ويمضى المؤلف قائلا : انه كان من المتعذر على الأثيوبيين شراء الحرير من تجار الهنود ، لان التجار الفرس كانوا أقرب الى مراسى السفن الهندية بحكم مجاورتهم لها وهكذا كانوا يتمكنون من السبق الى شراء بضائع تلك السفن • **والواقع ان الامبراطورية الساسانية بسيطرتها على جانبى الخليج الفارسى استفادت كثيرا من التحكم فى التجارة ، وما كانت لتسمح بنمو طريق البحر الاحمر** • وقرب نهاية القرن السادس الميلادى أرسل انوشروان حملة الى اليمن أجلت الاثيوبيين عنها ، كما أرسل أسطولا الى سيلان (سرنديب) وفق رواية حمزة الاصفهانى • وهكذا كان الخليج الفارسى يشهد تجارة متضخمة فى عشرات السنوات التى سبقت الاسلام (١٤) • وقد ذكر المسعودى أن سفن الصين والهند.

كانت تصل لملوك الحيرة ، مما أثار جدلا حول تحديد وقت وصول الجنك الصينى الى الحيرة ، فرأى يرجع ذلك الى القرن الثالث الميلادى ، ورأى يرجعه الى لربع الاول من القرن الخامس الميلادى ، وآخر يرجعه الى وقت معركة القادسية ، وربما كان الارجح أن ذلك كان فى بداية القرن السادس الميلادى • وقد كانت هذه التجارة مورد ربح كبير للخميين والساسانيين على السواء ، ولكنها بدأت تتدهور قبيل الاسلام لعدة

---

(١٤) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 130 : 4. حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ترجمة دكتور بكر ص ٩١ : ٥ ، ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة أحمد عيسى ص ٥٢ ــ ٣ •

عوامل : منها الصراع السياسى بين البيزنطيين والساسانيين ، واضطرابات البدو المتجددة على أطراف الهلال الخصيب ، فضلا عن التغيرات المتعددة للمجارى الدنيا لدجلة والفرات التى كانت تعرقل الملاحة وتنقل مواقع الموانى . فيذكر المسعودى مثلا طغيان مياه دجلة على كلديا سنة ٦٢٧ م • وهذه الظروف الملاحية تؤثر على الجنك الصينى بصفة خاصة لحجمه الكبير وفقا لوصف المصادر العربية والصينية على السواء ، مما اضطر ملاحى الخليج الفارسى الصينيين الى اتخاذ سيراف ومسقط موانى لهم فى الجنوب ، ومنها تنقل القوارب الصغيرة المتاجر الصينية والشرقية الى مصب دجلة والفرات • ومن هذا كانت أهمية ميناء جرها فى القرن السابع الميلادى كمدخل شرقى لوسط بلاد العرب ومكة ، وحلول الطريق من جرها الى نجد الوسطى ومكة وشمالى الحجاز فسوريا محل الطريق من موانى بابل عبر الصحراء السورية الى الحدود البيزنطية ، وربما فضل الوسطاء المحايدون الطريق الجديدة لبعده عن نفوذ الروم والفرس نسبيا • واستمر نشاط تجار الصين فى البحار المغربية بعد الاسلام ، وفى سنة ٨٥١ م تكلم سليمان التاجر ـ أول رحالة عربى وصلتنا كتابته عن بحار وأراضى جنوبى آسيا وجنوبها الغربى ـ عن السفن الصينية وتجارتها مع سيراف (١٥) •

واستعمل الطريق بين البحر الاسود وبحر قزوين من أيام جستنيان (٥٢٧ : ٥٦٥ م) ومنذ سنة ٥٦٨ م فصاعدا تبودلت السفارات بين الترك الغربيين والبيزنطيين ، ولعل سياسة الساسانيين العدائية تجاه الترك الغربيين ومنع الساسانيين رعاياهم من المتاجرة مع الترك الغربيين مما أدى الى تحالف هؤلاء الأخيرين مع الروم ، وجاء هذا الطريق انقاذا للروم من تدخل الفرس وتجار العرب الوسطاء على الحدود بين الامبراطوريتين ، ولكن لم يدم مفتوحا لامد طويل وذلك بسبب اضطرابات القبائل التركية التى عرقلت التجارة • وقرب نهاية القرن السابع الميلادى كانت العلاقات **البرية بين آسيا الشرقية والغربية عموما قد تقطعت ، ولا يرجع هذا الى توسع العرب كما يظن ، بل يرجع الى الاضطرابات على حدود التبت التى** استمرت حوالى ١٤٠ سنة حتى فجر القرن التاسع الميلادى ثم بدت بوادر للتعاون بين الامبراطوريتين الاسلامية والصينية لضمان الامن والسلام فى الطريق البرية ، وتتكلم التقارير الصينية عن تجديد العلاقات وتذكر

---

(١٥) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 138 : 143.
أيضا حورانى : العرب والملاحة ترجمة دكتور بكر ص ٩٧ ـ ٨ ، ١٠٩ ـ ١١٥ •

٣ سفراء قدموا الى البلاط الامبراطورى سنة٧٩٨م وأدت الجهود من الجانبين الى زيادة النشاط التجارى بينهما كما يبدو من كتابات المسعودى وابن خرداذبة ، وان كانت الكتابات العربية عن الطرق البحرية أوفر . والحق انه ما من أسرة حكمت شمالى الصين فى ذلك الوقت ، بلغت من القوة بحيث تستطيع حفظ الطرق البرية تحت سيطرتها الكاملة . وأدى ادخال شرنقة الحرير من الصين الى خوتان Khutan فى أوائل القرن الخامس الميلادى تقريبا وانتشارها منها الى مختلف واحات التركستان الغربية واقليم طبرستان والشرق الادنى نفسه أدى هذا الى تحول نسبى فى تلك الاقاليم عن حرير الصين ، وان لم يكن انتاج وسط وغربى أسيا منه كافيا لتغطية احتياجات أسواق الشرق الآدنى ، **وكان الاتصال بين الشرق والغرب بحريا بصفة اساسية خلال سـيطرة العرب على العلاقات الدولية (١٦)** .

هذا وقد كان البلاط الامبراطورى فى الصين يصر أكثر من أى بلاط شرقى على اشراف الحكومة على العلاقات التجارية الاجنبية للبلاد . وكان ممثلو الامبراطور يرفضون العلاقات التجارية مع الأجانب الا اذا كانت وفقا لشروطهم . وكان قسم من التجارة يتخذ شكل المنح كعلامة للخضوع والاعجاب من جانب ملك بعيد ، ويدفع الثمن الكامل فى صورة منح مقابلة للسـفير المزعوم ـ التاجر فى حقيقته . ومعظم مايسمى بالسفارات الحاملة للجزية التى تتكلم عنها الحوليات الصينية فى مختلف الأزمان ، لم تكن أكثر من بعثات تجارية خاصة . ولم يعترض تجار الشرق العـربى فى العصـور الوسطى اعتراضـا جديا على النظام الامبراطورى للمبادلات، وان كان قد بلغ من الصرامة فى بعض الاوقات حتى وصل الى درجة احتكار الدولة لكل المتاجر الهامة (١٧). والحرير أهم السلع التى كانت تحمل من الصين منذ زمن بعيد . ويذكر بلينى وبعض المصـادر الصينية ان المنسوجات الصينية كان يجرى نسلها واعادة نسجها وفقا للذوق الغربى للمستهلكين ، وبلغت فنون النسج والتصميم والصباغة فى صـناعة النسيج فى مدن العـالم الهلنستى درجة كبيرة من الاتقان . ولما أقيم أسرى الروم فى سوس وغيرها على أثر حروب البيزنطيين والساسانيين تحركت المراكز الصناعية شرقا من

(١٦) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 147 : 151. ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة احمد عيسى ص ٥٣ .

(١٧) Huzayyin : Arabia and the Far East. p. 161.

القرن الرابع الميلادى فصاعدا ، ولم تستعد مراكز الهلال الخصيب بهاءها القديم الا فى عهد الخلافة الاسلامية • وفى خلال عهد هذه الخلافة وطول العصور الوسطى أخذت صناعة الحرير والنسيج عموما تنتشر على السهول الشمالية للشرق العربى وعلى الجوانب الغربية والشمالية الغربية للهضبة الايرانية وأخذ انتاجها يتزايد حتى أمكن تصديره لأسواق أوربا وأقطار الشرق الأخرى • وكانت الحكومات الامبراطورية فى الصين جد حريصة على منع وصول سر انتاج الحرير الى العملاء الغربيين ، ولكن السر تسرب فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وتذكر الكتابات الصينية أن تسرب الحرير أتى عن طريق زواج أميرة صينية أخذت معها شرانق الحرير الى بلاد زوجها ملك خوتان ، ومنها انتشرت فى غربى التركستان والشرق الادنى ويذكر بروكوبيوس أنه فى حوالى سنة ٥٥٢ ــ ٤م جلب راهبان نسطوريان مقيمـــان فى وتان ــ المعروفة بسرينـديا Serindia لدى الغرب ــ شرانق الحرير مخبأة فى عصا الى بلاد جستنيان • وقد شجع البيزنطيون والساسانيون المتأخرون على السواء تربية دود الحرير وصناعة منسوجاته، واستمر انتشاره حتى بلغ صقلية والحوض الغربى للبحر المتوســط • وساعد على تقدم صناعة الحرير مطالب البلاط الرسمية لدى البيزنطيين الساسانيين ثم لدى الأمويين والعباسيين ، وكان قيام دول جديدة فى أوربا وراء المتوسط ، وماتمتعت به الكنيسة من قوة فى مطالع العصور الوسطى مما زاد الطلب على الحرير للباس والزينة • ويمكن القول بأن استيراد الحرير من شمالى غربى الصين وأن أخذ يقل تدريجا خلال الطور الايرانى العربى فى العلاقات التجارية فى الشرق الأقصى ، الا أن حرير الأقاليم الساحلية للصين لم ينقطع وروده للبلدان الغربية كمـا يذكر الكتاب العرب • وبجانب الحرير كانت تحمل من الصين كميات يسيرة من السلع الصوفية من الحدود الشمالية الغربية للصين عبر طرق آسيا ــ خاصة الى التركستان ، كما كان ينقل الفراء من غربى الصين والتبت عن طريق الهند الى الشرق الأدنى ونقلت السجاجيد والأبسطة من ايران الى الصين ، كذلك كانت المنسوجات القطنية تصدر من شمالى الهند خاصة عند هبوط القوة الشرائية للمستهلكين الرومان • وكان يستورد من الصين أيضـا ــ كما يذكر ابن خرداذبه والادريسى ــ الحديد ، وهناك ما يدعو الى القول بأن مصانع الحديد المشهورة فى دمشق وغيرها من مدن سوريا فى العصـور الوسطى كانت تستخدم حديد الصين ، أما الصـفيح فكان يحمله تجار الغرب فى العهد الرومانى الى المشرق خاصة الهند ، وبينما كانت تتدهور مناجم الامبراطورية الرومانية كانت

تزدهر مناجم الملايو الهندية Indo Malaysia حيث تجمع المصادر على أن تلك المناجم كانت مورد العالم فى ذلك الوقت . كذلك كان الشرق الرومانى يصدر الزجاج المتقن الى الشرق الأقصى خاصة الصين حيث كان يباع بأسعار غالية ، حتى أدخلت تلك الصناعة هناك قرب نهاية الربع الاول من القرن الخامس الميلادى عن طريق السوريين أو البكتريين أو الهنود ، وقد استمر تصدير الزجاج من الشرق - من حلب مثلا - بعد ذلك . وصادفت صناعة الخزف تقدما حقيقيا منذ القرن السابع الميلادى وصارت عنصرا هاما فى الصادرات - وقد سجل ذلك سليمان التاجر ، وتميزت على المصنوعات المماثلة فى ملبار وايران - كما يؤكد أبو دلف ، بينما امتد سوق الخزف الصينى من جنوب شرقى آسيا الى بلاد المغرب . أما التوابل والعطور والعقاقير كالصبر والصندل والكافور فقد كان مركزها القديم بلاد بنط حول خليج عدن ، وفى عهد الرومان استوردت هذه السلع من جنوبى بلاد العرب وساحل أثيوبيا ، ولكن عجزت هذه المنطقة أخيرا عن الوفاء باحتياجات العالم الرومانى وأخذ مركز هذه النباتات يتحرك تدريجا صوب الهند وجنوب شرقى آسيا فى الملايو الهندية Indo Malaysia وساحل ملبار وجزر الهند الشرقية ، وكانت هذه الحاصلات تصدر الى الصين والغرب أيضا وأنتجت التبت وبعض أقاليم الصين المسك والراوند .

ويورد سليمان التاجر (٨٥١م) أول ذكر للشاى ، وان كان تصديره للغرب قد تأخر الى فترة تالية . وكان يصدر اللبان من جنوبى بلاد العرب وشرقى أفريقيا الى الهند وآسيا الشرقية . ويتحدث ابن خرداذبه والمسعودى عن مصائد العنبر فى المحيط الهندى حتى فضلها الأخير على انتاج البحر المتوسط وصقلية وسواحل الأندلس . وكانت اللآلىء وسلع الزينة سلعا تجارية وواسطة للتبادل فى الوقت نفسه ، وقد اشتهرت الهند بلآلئها كما كان زمرد الصحراء الشرقية المصرية مطلوبا حتى الصين، وكانت مصائد اللآلىء والمرجان فى البحرين المتوسط والأحمر والخليج الفارسى تلعب دورا هاما فى الحياة الاقتصادية والتجارية لسكان غربى آسيا ، وقد واجهت منافسة شديدة منذ بداية العهد المسيحى من مصائد سيلان وجنوبى الهند . أما الصينيون فقد كانوا يقدرون اللآلىء الأجنبية وقد كانت جزءا هاما من وارداتهم ، كما كانوا يجلبون العاج من شرقى افريقية ، وهكذا كانت الصين طوال الطور الأغريقى الرومانى والطور الايرانى العربى من تاريخ العلاقات التجارية أحد الأسواق الهامة لسلع الزينة ، وكان للصينين وضعهم الخاص بالنسبة للرق ، وقد احتكوا فى

موانيهم بتجار الرقيق من الملايو الهندية وجنوب غربى آسيا وشرقى أفريقيا ، وانتشرت هذه التجارة فى العهود الصينية التى اهتمت بالاتصالات البحرية . وقد كانت التجارة بين شرقى آسيا وغربيها كبيرة بالرغم من مصاعب النقل وسائر العقبات الفنية فى وجه النشاط التجارى مثل أساليب المبادلات وتحديد عدد مستهلكى السلع الرئيسية ، وتعددت السلع فى هذه التجارة بتزايد احتياجات الأفراد والمجتمعات نتيجة للتمدن . وكان الميزان التجارى بالنسبة للصين فى صالحها عموما ، الا أن المخازن الامبراطورية اكتظت أحيانا باللآلىء وغيرها من السلع الثمينة التى جلبها معهم التجار الغربيون مقابل الحرير والخزف وسائر السلع الصينية، مما أدى الى كساد فى أسوق الشرق الأقصى . وفى الوقت نفسه كان الميزان الظاهرى لبلاد الشرق عامة فى الجانب المقابل ، ولكن يلاحظ هنا أن جزءا كبيرا من السلع الشرقية التى كانت تصل لآسيا الغربية كان يعاد تصديرها الى الغرب ، بينما كانت الأرباح الكبيرة لتجار الشرق كوسطاء وناقلين هى سبب الزيادة فى جزء كبير من الواردات (١٨) .

الطرق التجارية ودور العرب فيها قبل الاسلام

ويهمنا من تتبع طرق التجارة التى كانت تسلكها التجارة الشرقية، تحديد دور شمالى الشام والجزيرة ودور العرب قبل الاسلام بالنسبة لهذه التجارة الهامة .

(أ) الطرق البرية :

كان من الممكن لهذه التجارة أن تتجه من التركستان الى بحر قزوين ثم تسلك بعد ذلك أحد سبيلين :

١ ـ شمالا الى الفلجا والبحر الاسود عند خرسون Cherson

٢ ـ جنوبا خلال شمالى فارس الى نصيبين على حدود امبراطورية الروم وخلال ارمينية الى طرابزون .

وطريق الشمال من بحر قزوين الى أراضى القرغيز والصغد لم يسمع عنه قبل أواسط القرن السادس الميلادى ، عندما حاول أباطرة بيزنطة

(١٨) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 191:215.

تأمين هذا الطريق بالاتفاق مع زعماء الترك الغربيين لتجنب المرور في الاراضي الايرانية •

أما طريق الجنوب عبر ارمينية فكان يحتاج الى الاتفاق مع أقاليم شمالى ارمينية وهذا ما لجأ اليه الروم للسبب نفسه• وكان يمكن للتجارة الشرقية اذا عبرت الاراضي الايرانية أن تواصل سيرها عبر الطريق الامبراطورى القديم ، اذ يلتقى الطريقان الفرعيان من اكباتانا Ecbatana وزيجما Zeugma بالفرات عند ادسا (الرها ، اورفا) شمالى الهلال الخصيب ، ثم يمتد الطريق الى افسوس على بحر ايجه •

وثمة طريق يخترق الاراضي الايرانية يجتاز الهند وافغانستان ووسط فارس الى نصيبين ومنها الى سوريا •

أما الطريق الجنوبى من حوض الاندس Indus الادنى وسهول بلوخستان الى الاراضي القفراء جنوبى ايران حتى برسبوليس Persepolis وسوسيانا Susiana والذى يصل أدنى بلاد النهرين فمراكزه التجارية قليلة وهو أقل الطرق أهمية • وكان للحركة التجارية النشطة خلال هذه الطرق آثارها في منطقة الشام والفرات ، التى تتوسط الشرق والغرب فتدفقت السلع على دمشق والموانى البحرية المتقاربة : طرابلس وبيروت وصور وعكا ، وكان الفرات صالحا للملاحة من الخليج الفارسى حتى قرب البحر المتوسط ، وكانت كالينيكوم Callinicum (الرقة العربية فيما بعد) مركز الروم لشراء الحرير من الفرس ، وقد واصلت أداء دورها التجارى فى العهد الاسلامى لا فى جهات الفرات وحدها بل فى الجهات الشمالية الشرقية مع نصيبين والموصل ، وفى الجهات الجنوبية الغربية مع دمشق• وكانت بالس على مسيرة يومين من الرقة ، ويصفها الاصطخرى بأنها فرضة أهل الشام حيث كان محط رحال التجارة الذاهبة الى الشرق والآتية منه . وكانت حلب على مسيرة يومين غربى بالس ـ مركزا تجاريا هاما فى شمالى الشام ، يقابل مركز دمشق فى الوسط . وتواصل بعض المتاجر طريقها الى انطاكية ومنها الى البحر • وقد بلغت أهمية الشريان التجارى بين حلب وانطاكية ان اتفق البيزنطيون والحمدانيون على استمراره آمنا بعد سقوط انطاكية فى أيدى الروم • ونحن نجد فى قائمة عشور التجارة فى اتفاق الجانبين أسماء هذه السلع : الذهب والفضة والحرير الرومى والحرير الخام والاحجار الثمينة واللآلىء والديباج والاقمشة والماشية • كذلك كانت المتاجر الشرقية تصل الى الغرب عن طريق طرابزون ويشير الى أهمية دورها فى هذا الصدد المسعودى والاصطخرى •

(ب) **الطرق البحرية :**

كان هناك طريق الخليج الفارسي ومنه الى سوريا ، وطريق البحر الاحمر فمصر ، ومن ميزة الطريق الآخر انه يتوقى المرور فى الاراضى الفارسية · وكانت فارس خطرا يهدد التجارة الشرقية بالنسبة للروم ، فقد وضعت مكوسا عالية ، وفى أوقات الحرب قطعت الاتصال تماما · ويمكن تلخيص اتجاهات الحرب الفارسية الرومية فى محاولة فارس مد ذراعيها للوصول للبحرين الاسود والابيض للسيطرة تماما على التجارة الشرقية استيرادا وتصديرا ، ومحاولة الروم تحطيم الاقتصاد الفارسى بالوصول الى مناطق استيراد التجارة الشرقية . وتفسر هذه المحالاوت كثيرا من مظاهر العداء بين المدائن والقسطنطينية حتى سنة ٦٢٩م مما كان يؤدى الى تعطل مصانع الحرير عند الروم وان لم يصل الى حد الاضرار بميزانهم التجارى ·

وقد حاولت الدبلوماسية البيزنطية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين تأمين الطريقين البعيدين عن النفوذ الفارسى ، فسعت لتأمين **طريق الشمال البرى** بالتفاهم مع ممالك الهون والترك فى الاستبس – فى الوقت الذى عملت فيه الجيوش فى شبه جزيرة القرم وآرمينية والقوقاز ودعم البيزنطيون سلطانهم فى ميناء خرسون ضد ضغط الترك سنة ٥٨١م، أما **طريق الجنوب البحرى فى البحر الاحمر** فقد سعى البيزنطيون الى الاتفاق مع الاحباش فى اكسوم مؤملين أن ينمى الاحباش التجارة مابين سيلان والبحر الاحمر للاضرار بالساسانين ولفائدة البيزنطيين ، وقد كان البيزنطيون الى حد كبير سبب اتجاه الحبشة الى محاولات الفتح فى الساحل العربى للبحر الاحمر (١٩) .

وقد ذكرت بعض مدن الحدود فى المعاهدات بين فارس والروم ليمر بها الحرير الخام دون غيرها : مثل كالينيكوم Callinicum فى جنوب خسروان ، ونصيبين فى الجزيرة فى منتصف خط الحدود ، وارتكستاتا Artaxata ودوفن Dovin فى الشمال عند ارمينية · وكانت نصيبين وحدها هى التى يصرح فيها لتجار الرومان بالتجارة قبل المعاهدة التى عقدها امبراطور الروم جوفيان Jovian (٣٦٣ – ٤م) وقد رفض نرسى

---

(١٩) Huzayyin : Arabia and the Far East pp. 106-7 Runciman : Byz. Civ p. 131.
Heyd. Hist. Du Commerce du Levant Vol. I. pp. 40:45.
أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة احمد عيسى ص ١٦ – ١٧ ، ٥١ : ٣ .

مثل هذا الشرط من دقلديانوس سنة ٢٩٨م ، وكان كل من الفرس والروم يخشون التجسس عن طريق التجارة • وفي سنة ٤٠٨ ــ ٩م صدر منشور امبراطورى لتوجيه حكام مناطق الحدود ، ومنه نعلم اتفاق الدولتين على قصر التبادل بين تجارهما على أنواع معينة • وكانت معظم السلع الشرقية قبل القرن السادس الميلادى تسلك الطريق المتوسط عبر الاراضى الساسانية ، على حين كان ينقل بعضها الآخر بحرا الى الخليج الفارسى ثم عن طريق بين النهرين الى الحدود السورية ، وسلك جانب ثالث طريقا برية من التركستان وشمالى ايران الى حدود ارمينية وسوريا •

وغدت مناطق الامبراطورية الرومانية الاقتصادية الكبرى نهاية لطريق هام من طرق تجارة الشرق الاقصى : فكانت مصر نهاية الطريق البحر الاحمر ، وسوريا نهاية لطريق الخليج الفارسى والطريق البرى عبر فارس ، والقسطنطينية نهاية لطريق ارمينية والبحر الاسود • وشاركت كل منطقة فى الرخاء الناتج عن اعادة تصدير البضائع المارة بها ، وكانت مدن القرم مثل خرسون والبوسفور ذات أهمية كبيرة ورخاء باعتبارها مراكز لتجارة الفراء الروسى ونهايات لطرق الحرير الآتية من الشمال • **واستمر قيام المدن على الحدود بالتحكم فى الوارد والصادر ، وظلت دارا وارتكسانا ونصيبين وكالينيكوم قوية فى عصر جستنيان** ، واعترف بهذا النظام فى المعاهدة التجارية مع الفرس سنة ٥٦٢م • ويبدو ان التحكم الاقتصادى فى شئون النقل والتجارة الخارجية شغل الاباطرة البيزنطيين منذ عهد جستنيان وخلفائه أكثر مما شغل اسلافهم من الرومان(٢٠) •

ومن هنا يتبين أهمية الدور الذى لعبته مناطق الحدود فى الجزيرة وارمينية بين فارس والروم ، ولا بد أن تكون الرها بحكم موقعها قد شاركت فى تبادل التجارة عبر الحدود • ومنذ القرن الخامس الميلادى قصرت الدولة البيزنطية السماح بشراء الحرير على وكلاء امبراطوريين على الحدود لكيلا يكون لها منافس •

وتاجرت موانى القرم مع الهون والآفار وجنوبى روسيا ، وفى خلال القرن السادس الميلادى ازدهرت التجارة الشرقية وظل الحرير ينقل برا عبر الاراضى الفارسية الى مراكز المكوس ثم يصنع فى مصانع القسطنطينية

---

(٢٠) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٧ ، ٥٣ ــ ٤ ، ٦٤ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية • ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٧١ ، كريستنسن : ايران تحت حكم الساسانيين • ترجمة دكتور الخشاب ص ١١٥ ــ ٦ •

أو صور أو بيروت ولكن بعض الحرير كان يأتى عن طريق البحر . وقد تحدث كوزماس Cosmas Indicopleustes عن تجاربه الخاصة كتاجر فأبرز أهمية سيلان فى القرن السادس الميلادى كملتقى تجار الشرقين الاقصى والادنى فهناك كان تجار من الهند والحبشة يبادلون الحرير والمر وخشب الصندل الوارد من الصين بالزجاج والاقمشة المطرزة من سوريا . وكان تجار الحبشة يجلبون هذه المنتجات الى ادولة على البحر الاحمر عاصمة اكسوم Axum الحبشية وكان للتجار الاحباش جولاتهم التجارية داخل افريقية . وتأتى السفن الرومانية الى ادولة فتحمل التجارة الشرقية الى جوتاب وهى جزيرة تبعد عن سينا كانت تصلها أيضا سفن البهار من موانىء اليمن على ساحل البحر الاحمر الشرقى ، فاذا دفعت المكوس فى محطة الجمارك الامبراطورية فى جوتاب تقدمت مع أحد خليجى البحر الاحمر الى أيلات (ايلة ـ العقبة) أو الخليج الآخر الى القلزم ومنها الى الاسكندرية .

وقد أدت الحروب بين الروم والفرس زمن جستنيان الى ارتفاع أسعار الحرير الخام، فلجأ الامبراطور الى تحديد سعره فرفض تجار الفرس البيع، وجاء انفراج الأزمة بتهريب شرانق الحرير الى أراضى امبراطورية الروم زراعة أشجار التوت فى سوريا . وقد حاول جستين الثانى خلال النصف الثانى من القرن السادس الميلادى فتح طريق التجارة الشمالى ، ففاوض خان الأتراك ولكن شغلته حروب الغرب (٢١) .

وكانت قوافل العرب البرية تشارك الطريق البحرى نشاطه فى نقل التجارة الشرقية قبل الاسلام ، فكانت هناك رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن والشام .ويرى أن مغامرا فارسيا يدعى Amarkesos آثر العيش فى اقليم رومانى فى عهد الامبراطور ليو الاول (٤٥٧ ـ ٤٧٤م) ، وأقام فى الولاية العربية Arabia وأخذ يوسع نفوذه ويغير على عرب المنطقة . واستولى على جوتاب التى كانت تابعة للروم وكانت مركزا تجاريا له قيمته وبها حامية ،رومانية ، وربما سكنها بعض التجار ، وكانت تجمع المكوس ، ويعطى عنها وثائق تبرز فى الموانى الرومانية والا دفعت المكوس من جديد . وقد قام هذا المغامر بطرد موظفى المكوس الروم، وأخذ يقتضى هو المكوس من السفن المارة ، وبسط نفوذه على الجزر والسواحل شمالى البحر الاحمر وعلى الطريق التجارى الذى يربط سوريا

---

(٢١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٧١ : ٦
Runcinan : Byz. Civl. pp. 131-2.

ببلاد الغرب الجنوبية ، وأراد بعد اتساع نفوذه أن يصير فيلارخا على العرب في ولاية بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea فأرسل اسقف العرب المسيحيين الساكنين في الخيام Saracens المسمى Peter للتفاوض في ذلك ثم زار هو العاصمة حيث استقبله ليو بنفسه وأعد له برنامج حافل خلال زيارته وأعطيت له الهدايا واغدقت عليه الامتيازات ، ونقلت اليه ملكية جوتاب واعترف بحكم امور كيزوس لقرى مجاورة على الرغم من أن معاهده الصلح مع الفرس نصت على عدم السماح لأى لاجيء من الاقليم الفارسى بالاقامة في الدولة الرومانية ولم تعد جوتاب الى حظيرة الامبراطورية الا في عهد انستاسيوس . ويرى موزيل أن هذا المغامر الفارسى هو عربى انتقل من منطقة النفوذ الفارسى الى منطقة النفوذ الرومانى « وأغلب الظن أن الاسم الذى عرفت به عند الرومان Nakalians كان يدل على معنى الانتقال ، وأن الذى اطلقه على القبيلة هم سكان المقاطعة الرومانية من العرب القاطنين فوصفوا القبيلة الطارئة عليهم بنعت يحمل معنى الانتقال والبداوة ـ أى ناقلة (٢٢) .

وكان العرب يسكنون على ساحل البحر الاحمر، الذى جرى الصراع بين الروم والفرس على السيطرة عليه والتحكم في تجارته ، وكانت بلاد اليمن بوابة انثالت منها قوتا بيزنطة وفارس الى جنوب بلاد العرب ، وتزاحمتا على السيطرة التجارية في تلك البلاد . ذلك أن صحراء الشام وما والاها جنوبا وقفت حائلا دون هاتين القوتين العالميتين اذ ذاك من الامتداد الى بلاد العرب من ناحية الشمال ، ومن ثم تسربت حمى التنافس التجارى بين القوتين العظيمتين اللتين احاطتا ببلاد العرب شرقا وشمالا عبر اليمن ، وتمكنت فارس من اقصاء الشبح البيزنطى وحلفائه من الاحباش عن تلك البوابة وغدت الرقيب المهيمن عليها حتى اطاح بها الاسلام (٢٣) » .

لقد كانت اليمن « بحكم موقعها الممتاز نقطة تبادل تجارى بين الحضارات العريقة التى نشأت في وادى النيل وفي وادى دجلة والفرات وفي حوض البحر المتوسط من جهة وبين الحضارات التى عاصرتها في أوقات مختلفة في الهند وفي جنوب شرقى آسيا وفي شرقى افريقية من جهة أخرى . ونظرا الى صعوبة الملاحة في البحر الاحمر ، بالاضافة الى

(٢٢) Bury : Hist. of Later Rom. Emp. Vol. II. pp. 7-8. موسل : شمال الحجاز . ترجمة الدكتور الحسينى ص ١١٨ : ١٢١ .

(٢٣) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٦ ـ ١٧ .

سيطرة اليمن على مدخله الجنوبي والمام اليمنيين بالملاحة فى المحيط الهندي وفى البحار المحيطة ببلادهم ، **استطاعت الدول اليمنية القديمة أن تحتكر التبادل التجارى بين الشرق والغرب** وأن توجهه لمصلحتها على طول طرق القوافل فى شبه جزيرة العرب ، وكانت سلع الشرق تنتقل الى حوض البحر المتوسط وبالعكس خلال ٣ طرق للقوافل : الاول من الساحل الجنوبي على ظهور الابل غربا حتى صنعاء ثم شمالا بمحاذاة ساحل البحر الاحمر مخترقة تهامة والحجاز ومارة بمكة والمدينة الى العلا ثم **بطرة حيث كانت تخرج طرق فرعية الى تدمر والى الشام** والى مصر ـ وهذا أهم طرق القوافل العربية ، والطريق الثانى من أقصى شمالى بلاد اليمن على طول وادي الدواسر الى وسط بلاد العرب ومن هناك يسير **طريق الى جنوب العراق**، والطريق الثالث من وسط شبه الجزيرة **الى جنوبى شرقى سورية** مارا بواحات الجوف فى الشمال . وكانت هذه الطرق تحت رحمة العرب وحدهم . واستفادت اليمن من ميزاتها التجارية ، فارتقت حضارتها وانتشرت بانتشار المحطات والمستعمرات اليمنية على طول الطرق التجارية، ومن هنا وجدت صلات بين الخط المسند اليمنى وبين الخط الصفوى بحوران واللحيانى بالعلا والحجر والثمودى . وخلال الالف الاولى قبل الميلاد كان الجزء الاكبر من التجارة العالمية فى بلاد العرب واقعا فى يد السبئيين والمعينيين المسيطرين على الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية ، وكانت تقيم فى كل واحة مهمة على طريق الطريق التجارى جالية من عرب الجنوب ومعها مقيم منها مهمته تنظيم الاتصال بالاقليم ورؤسائه حتى لا يسيئوا لمصالح سيده السبىء او المعينى الذى قد يكون على راس المملكة الجنوبية السبئية او المعينية تبعا لاختلاف العهود التاريخية . وقد كان حكام سوريا وملوك آشور البعيدون عن طريق التجارة الرئيسية لا يهتمون بالمفاوضات مع الملوك المحليين للاقليم واشرافه ، بل يتجهون الى المقيم الجنوبي كما لو كان هو الملك الجنوبى ، وهذا يفسر اشارات الوثائق السريانية ، والعبرية عن السبئيين كما لو كانوا يقيمون فى الجنوب الشرقى للبحر الميت . وطريق التجارة القديم الذى يسير من أيلة الى الشمال عن طريق معان يمر على الحدود بين البدو والحضر ، وتبعا للمصادر الاشورية والعبرية فان البدو كانوا يسمون عروبى او عرب وان ارضهم كانت تحمل نفس الاسم ، فيجب ان نفرض أن هذا الطريق كان يحمل اسم (الطريق العربى) لانه كان يمر على حافة الحدود الغربية لارض عروبى أو عريبى او بلاد العرب . وقد اتصل بنو اسرائيل بهذا الطريق عند نقطة قريبة نوعا من محطة القويرة الحالية فداروا الى

الشمال ، وسلكوا خلال جبل سعير ولكن كانوا على غاية من الحذر من قبائل البادية التى تقيم على حافته الشرقية ، اما أهل سعير فلم يعترضوا طريقهم . ويفهم من اشارات الكتاب المقدس التى تهدد ملوك البلاد العربية ، ان المقصود هم ملوك الواحات العربية ديدان وتيماء وبوز — وديدان هى مركز العرب اللحيانيين ، ثم اخذت تحل محلها الحجر Hagart 'Agra 'Hagra فى أوائل القرن الثانى الميلادى وتقع شمالى ديدان وصارت التجارة مركزة فيها . ويشير بروكوبيوس الى وجود اليهود فى جزيرة جوتاب ، وفى ذلك العهد كانت توجد حى أو خطة لليهود تختلف فى المساحة باختلاف المدن والقرى فى المقاطعة العربية . وقد حل اليهود محل الفينيقيين فى النشاط التجارى ، خاصة بعد اضطهاد الرومان لهم سنة ٧٠ م ، فاتجهوا نحو الطرق التجارية العالمية واستقروا على طولها — ومن اهمها طرق القوافل العربية وافرعه المختلفة . واستقروا عند الطرف الشمالى لطريق القوافل فى بطره (البتراء) ، كما استقروا فى الواحات على طول طريق القوافل فى تيماء والعلا ويثرب، واتجهوا نحو اليمن وأكسوم فى الحبشة وعظم شأنهم فى الواحات الواقعة على طول الحجاز كما كان شأنهم فى يثرب قبل الاسلام (٢٤) .

وقد حاول الرومان الاستيلاء على طريق القوافل العربى فى حملة اليوس جالوس سنة ٢٤ ق . م ، وادى فشلهم الى انتعاش بلاد اليمن وبسطت سبأ نفوذها اواخر القرن الثالث الميلادى على اليمن ، وكان شمريهرعش ملك سبأ فى أواخر القرن الثالث الميلادى واوائل القرن الرابع الميلادى محاربا نشيطا غزا حضرموت ومد نفوذ سبأ للموانى فى شرق الساحل الجنوبى وبسط سلطانه فوق المرتفعات الجنوبية الغربية من اليمن ، فأشرف على تجارة البر والبحر . ولكن ضعفت سبأ نتيجة للحروب الداخلية ، ثم احتلال الاحباش لها سنتى ٣٤٥ ، ٣٧٨ م وصراع الروم والفرس على السيطرة على التجارة العربية . وقد كانت حملة امرىء القيس بن عمرو ملك الحيرة الموالى للفرس على نجران التى اشار اليها نقش النمارة سنة ٣٢٨ م فصلا من الحروب الرومانية الفارسية ، وكانت محاولة للسيطرة على القبائل العربية بين حدود الهلال الخصيب والحدود الشمالية لليمن ، والسيطرة على طرق القوافل العربية والقضاء على

---

(٢٤) دكتور حسن الباشا — طرق التجارة العربية من عهد سبأ الى صدر الاسلام — المجلة ع ٤ أبريل سنة ١٩٥٧ ، موسل : شمال الحجاز ترجمة الدكتور الحسينى ص ١ — ٢ ، ٢٣ ، ٦٠ ، ١٠٧ ، ١٣٢ .

الاحتكار اليمنى للتبادل التجارى بين الشرق والغرب • ولكن فشل هذا الهجوم واعانت على ذلك قبيلة كندة ، التى ظلت منذ تأسيسها فى نجد مخلصة لملوك اليمن • وبعد قرن قام الملك اليمنى ابو كرب اسعد او تبع (حوالى ٣٨٥ : ٤٢٠ م) مع ابنه بهجوم مضاد نحو الشمال حتى استولى على الحيرة وتوغل فى الأراضى الفارسية ، منتهزا فرصة الاضطراب الذى اعقب وفاة يزدجرد الاول سنة ٤٣٠ م وانشغال الفرس بحرب الرومان او قتال الهون • وتفرغ التبابعة لاحياء طرق القوافل العربية والسيطرة على التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، بينما انشغل الفرس والروم بهجمات الهون والجرمان عن الصراع على التجارة العالمية وطرق القوافل العربية مؤقتا ، ولم تكن الحبشةوقتها منافسة خطيرة لليمن لعدم توحيدها فى دولة قوية • وبعد ان تمكن الساسانيون والبيزنطيون من صد الخطر البربرى ، تفرغتا لصراعهما ، فتعرضت اليمن للمطامع التجارية الاحتكارية منهما ، كما ظهرت مملكة اكسوم كدولة موحدة قوية فى الحبشة •

ويستشف من النقوش اليمنية القديمة ان التبابعة ساهموا فى الحروب الفارسية البيزنطية من ٥٠٦ الى ٥٢٦ م فى جانب البيزنطيين غالبا ومع ذلك يبدو أن اتجاه بيزنطة الى تشجيع المسيحية فى نجران أثار ذا نواس اخر التبابعة فاعتنق اليهودية. وتحالف مع المنذر الثالث ملك الحيرة ـ وادى هذا السلوك العدائى الى **الغزو الحبشى البيزنطى لليمن سنة ٥٢٢م وسقوط التبابعة واحتلال الاحباش لليمن • وكان من المتعذر على الاحباش الاشراف على طرق القوافل الخطرة ، ففضلوا طريق البحر الاحمر • كما كانت دولتا النبط وتدمر قد سقطتا على التوالى بايدى الروم ، وقامت دولتا المناذرة والغساسنة اللتان اصطنعتهما الفرس والروم.وقد ارتبطت هذه الدويلات العربية بتجارة المرور ، حتى ارتأى حتى** Hitti **« أن شان هذه الدويلات العربية الشمالية شان دول الجنوب تستمد قوتها فى الغالب من التجارة ، ولم تكن بحال من الاحوال دولا حربية لاعند نشأتها ولا عند تطورها » • غير ان هذا القول يصعب اطلاقه بالنسبة للغساسنة واللخميين بصفة خاصة ـ مع التسليم بدور طرق التجارة العالمية فى قيام هذه الدويلات** ، والدكتور حتى يقول بالنسبة للبتراء نفسها انها « وصلت الى أقصى درجات الغنى والرخاء فى القرن الاول الميلادى تحت رعاية الرومان الذين كانوا يتخذون منها مملكة حاجزة تقيهم شر بارثيا » • ويقول عن تدمر كذلك انها « كانت تقع بين الامبراطوريتين المتنافستين ـ بارثيا وروما فكانت تعتمد فى سلامتها على حفظ التوازن بين الدولتين وتستفيد من حيدتها» على أن اثر التجارة بارز

فى قيام هذه الدويلات وقد يكون سابقا على العوامل السياسية ، والدكتور حتى يشير الى اجتماع الظروف الاقتصادية والسياسية فى نشأة تدمر « وادى الاتجاه الجديد فى الامبراطوريات العالمية والتحول فى طرق التجارة الدولية الى رفع هذه القرية الصغيرة الى مكانة باهرة من الغنى والسلطة بين مدن العالم القديم .. واستفاد تجارها من وضعها الفريد **كمحطة رئيسية لنزول القوافل** عند نقطة التقاء الطرق التى تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب ، واستقل رجال السياسة بذكاء **موقعها الاستراتيجى بين دولتين كبيرتين متنافستين**».

وساعدت الظروف مكة ـ خاصة موقعها ـ كى تخلف اليمن ، وغدت فى القرن السادس الميلادى مدينة دولية يعيش فيها بجانب أهلها من قريش عشائر عربية أخرى وجنسيات اجنبية وديانات مختلفة وبعض هؤلاء تجار وبعضهم رقيق . وذكر الاخباريون ان هاشم بن عبدمناف الذى ولد فى العقد السابع من القرن الخامس الميلادى هو اول من قام برحلة الشتاء لليمن ورحلة الصيف للشام . وصارت مكة ـ والحجاز عامة ـ مركز التبادل التجارى والنقدى وعمليات التسليف والرهن والتأمين والتصدير والاستيراد والاشتراك فى المشروعات التجارية المختلفة وكان بها سفراء يحافظون على مصالح دولهم التجارية ، كما عقدت قريش الاحلاف والمعاهدات التجارية لتؤمن قوافلها التجارية فى بلاد العرب . فعقد هاشم مع بيزنطة والغساسنة معاهدة للاتجار فى الشام ، وعقد عبد شمس اتفاقا تجاريا مع نجاشى الحبشة ، وسمح الفرس لنوفل والمطلب بالاتجار معالعراق وفارس « فكان العرب ينزلون دومة الجندل على سيف بادية الشام اول يوم من ربيع الاول فيقيمون اسواقها للبيع والشراء والاخذ والعطاء وكان يعشوهم فيها اكيدر دومه ـ وربما غلب علىالسوق كله فيعشوهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر ثم ينقلون الى سوق هجر ـ قاله القلقشندى ... وروى القالى ان قريشا كانت تجارا وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ـ اى تقدم عليهم الاعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف الى الشام فنزل بقيصر وتمكن عنده وقال له : ان قومى تجار العرب فان رأيت ان تكتب لى كتابا تؤمن تجارتهم ، فيقدموا عليك بما يستطرف من ادم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو ارخص عليكم ، فكتب له كتاب امان لمن يقدم منهم ـ فاقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام اخذ من اشرافهم ايلافا . **والايلاف أن يأمنوا عندهم فى أرضهم من غير**

حلف ـ **انما هو امان الطريق** ، وعلى أن قريشا تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حملانها ويؤدون اليهم رؤوس اموالهم وربحهم ، فاصلح هاشم بذلك الايلاف بينهم وبين أهل الشام ، حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء اتوا به بركة . فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يجوزهم ، يوفيهم ايلافهم الذى اخذه لهم من العرب حتى اوردهم الشام واحلهم قراها ، فاتسعت قريش فى التجارة الجاهلية . وهاشم هذا هو جد الرسول ، مات بغزة فنسبت اليه فقيل لها غزة هاشم ، لان الروم كانوا يقيمون لهم سوقا فى غزة فى موسم معلوم وكانت قريش فى الجاهلية تحضره وتمتار منه . وكانت لهاشم رحلتان : رحلة فى الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة . ورحلة فى الصيف نحو الشام وبلاد الروم . وقال الثعالبى : وكان يأخذ الايلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر ... **ومعنى الايلاف انما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح يجعل لهم متاعا مع متاعه ويسوق اليهم ابلا مع ابله ، ليكفيهم مئونة الاسفار ويكفى قريشا مئونة الاعداء ... وذكر اللغويون من جملة التخريجات فى اسم قريش ، انها سميت بذلك لتجرها وكسبها وضربها فى البلاد تبتغى الرزق** ، وقيل لانهم كانوا اهل تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع وضرع ـ من قولهم : فلان يتقرش المال أى يجمعه .. »

وهكذا ورثت مكة الاشراف على طرق القوافل العربية من اليمن ، وورثت أيضا صراع الروم والفرس على هذه الطرق . فجهز ابرهة حمله كبيرة الى مكة سنة ٥٧٠ م فشلت فى غرضها ، ويميل بعض العلماء الى اعتبارها فصلا من فصول الحروب البيزنطية الفارسية بين سنة ٥٧١ ، سنة ٥٨٠ م وكان ابرهة يرمى من ورائها الى السيطرة على وسط بلاد العرب وشمالها فتتصل بحدود حليفته الدولة البيزنطية فى الشام ويتسنى لبيزنطة خنق فارس ، وان كانت هى فى الحقيقة فصلا من المنافسة حول احتكار التبادل التجارى والسيطرة على طرق القوافل . ولا ينال من هذه الحقيقة ذلك الطابع الدينى المستفاد من الروايات القائلة بمحاولة ابرهة صرف الحج عن الكعبة الى كنيسة القليس التى ابتناها بصنعاء . وقد ازداد نفوذ مكة وقريش على اثر فشل حملة ابرهة . ولما سيطر الفرس على اليمن سنة ٥٧٥ م بالاضافة الى سيطرتهم فى الحيرة فى الشمال ، جاء يوم الفجار الثانى الذى نهضت فيه قريش تنتصر لمن قتل شخصا اضطلع بحماية قافلة تجارية للنعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وكان مقتله بسبب المنافسة على نقل التجارة . غير أن سيطرة مكة تعرضت للخطر لانتشار

الترف وبدت بوادر التحلل الاجتماعى وافتقاد النظام الحكومى فى الداخل (٢٥) ٠

وكان جل الاهتمام بشئون التجارة والمال عند قريش قبل الاسلام فى **بنى عبد الدار** ، الذين تركوا لبنى عبد المطلب الجاه المعنوى بقيامهم بشئون الكعبة والحجاج ٠ ولقد كانت قريش كلها تسهم فى تجارة الشام ، ولكن بنى أمية كانوا ينظمونها ويوجهونها ويتولون قيادة القوافل الخارجة بالمتاجر - فكان رؤساء قافلة بدر كلهم أمويين ، وهكذا كانت تجارة قريش مع الشام اموية ، واهتم بنوعبد شمس بالتجارة والسفر اهتماما فسر دوافعه ابن هشام بقوله : ان عبد شمس كان رجلا سفارا قلما يقيم بمكة ، وكان مقلا ذا ولد وكان هاشم موسرا » ٠ ويقال ان عثمان بن عفان سفر لقريش عند عامل الروم على بصرى فمنحه لقب فيلا رخوس ، كما سأل قيصر أبا سفيان عن النبى ، وكان لابى سفيان ضيعة فى البلقاء ٠ واتبع بنو أمية فى قيادتهم لقوافل التجارة الطريق التجارى القديم ، وهو يؤدى بعد اجتياز بلاد الحجاز الى الاراضى البيزنطية عند ايلة (العقبة) التى ضمها الرومان اليهم سنة ١٠٩م وعندها يبدأ طريق تراجان بين البحر الاحمر وفلسطين وينتهى عند غزة ، ويذهب فرع آخر منها الى بصرى التى كانت عاصمة الولاية العربية بالشام وسوقا كبيرا وفدت اليه القوافل التجارية قبل الاسلام ٠ وكانت القوافل تجد كل معونة من السلطات البيزنطية عند دخولها ايلة - مقر الفيلق العاشر الذى احتل جزءا من جزيرة جوتاب لاكمال الرقابة على تجارة البحر ٠ وكان التجار الامويون يحرصون على الحصول على الدينار البيزنطى لتصريف شئونهم التجارية ، وقد لقوا كل ترحيب فى المدن التى سادها نفوذ الغساسنة ٠ وكانت قوافل مكة تحصل من الشام على المنسوجات القطنية والحريرية والاقمشة المصبغة ذات اللون الارجوانى ، كما كانت تجلب من بصرى الاسلحة والحبوب والزيت (٢٦) ٠

---

(٢٥) دكتور حسن باشا : طريق التجارة العربية من عهد سبأ الى صدر الاسلام - المجلة ع ٤ ابريل سنة ١٩٥٧ ، أيضا دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ١٩ : ٢٣ ، حتى تاريخ العرب ترجمة نافع ج ١ ص ٥٩ : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، تاريخ سوريا ج.١ ترجمة حداد ورافق ص ٤١٧ وما بعدها ، كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ٢٥٨ : ٢٦٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٤١٠ - ٢١١ جـ ٤ ص ٢٦٣ - ٤ ٠

(٢٦) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط - المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ ، دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٢٣ : ٣٢ ٠

على أن نشاط العرب البحرى قبل الاسلام كان محدودا ، واذا كانت لقريش صلة بالحبشة عبر البحر الاحمر بدليل هجرة اوائل المسلمين اليها اليها حوالى سنة ٦١٥ م الا انها كما يبدو لم تكن تملك سفنا خاصة واذا كان للبحرين وعمان ملاحوهما على الساحل الشرقى والجنوبى الشرقى حيث انطلقت غارات العرب البحرية بعد الاسلام مباشرة الا انه كان هناك عنصر فارسى قوى فى تلك السواحل بعد تبعية المنطقة للساسانيين ، وربما كان المشتغلون بالملاحة فى أيلة مزيجا من الفرس والعرب . وهكذا سار اتجاه الفتح الاسلامى الى الشمال تجاه الشام ، ولم يعبر البحر الاحمر الى الحبشة وافريقية (٢٧) .

كانت اهم مراكز صناعة الحرير عند الروم فى الشام ــ خاصة فى صور وبيروت . **وكانت الشام عموما من اكثر اقاليم الامبراطورية ازدهارا** . ويقول بروكوبيوس عن انطاكية عاصمة الاقليم انها كانت اولى مدن الشرق الرومانية نظرا لثرائها ومساحتها وسكانها وجمالها وآثارها ويعجب القديس انطونين الشهيد S. Antonin Martyr لابهة انطاكية وبهاء أفامية وبيروت وغزة . ولم تستمر الحالة التى نشأت عن تحديد جستنيان لاسعار الحرير والتى ضاق بها التجار والصناع ، اذ ادخل الحرير الى أراضى الدولة بعد ذلك وبدأت زراعة اشجار التوت فى نواحى بيروت فى القرن الأخير من الحكم البيزنطى للشام . وكان لاهل الشام نشاطهم التجارى ايضا، فقد حملوا معهم الحرير الى شواطىء البحر المتوسط ليتعاملوا فى منتجاته متحملين فى ذلك صعابا جمة . وحين استقر الامر للجرمان فى اوربا ــ الغربية زاد نشاط السوريين التجارى ، واستقر بعضهم هناك . ولم يكن للروم أنفسهم مثل نشاط السوريين فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب . وكان موقع دمشق التجارى ممتازا ، فهى مرحلة هامة فى طرق القوافل بين آسيا الصغرى أو اقاليم الفرات وبين بلاد العرب ومصر ــ ونهر الفرات ينتهى الى الخليج الفارسى الذى اطلق عليه احد جغرافيى القرن العاشر اسم بحر الصين لانه نقطة انطلاق السفن نحو الشرق الاقصى . وكان البيزنطيون قبل الاسلام سادة البحر المتوسط وكانت امبراطوريتهم تضم السواحل التى تنتهى اليها الطرق التجارية الاسيوية ، ففى حوزتهم مصر حيث تجتمع شواطىء البحرين الاحمر والابيض ، والشام حيث تنحدر المتاجر القادمة عبر الخليج الفارسى أو خليج العقبة او الطرق البرية من وسط آسيا كما كان للروم نفوذهم

(٢٧) حورانى : العرب والملاحة في المحيط الهندى ــ ترجمة د. بكر ص ١٥٠ : ٨ .

على شواطيء البحر الاسود حيث المراكز التجارية التالية فى الاهمية ٠ حتى كان ظهور القوة العربية على مسرح الاحداث بعد الاسلام ، وما ترتب عليه من آثار عميقة فى شتى الاتجاهات ، ومن بينها الحياة التجارية والاقتصادية (٢٨) ٠

وكان الشام يعتمد على التجارة البحرية بجانب التجارة البرية . وقد استفاد الامويون من خبرتهم بالشام وجهة بحرية متوسطية اتضحت منذ ولاية معاوية الشام واستقرت عند قيام الخلافة الاموية،«وهكذا بدا التحول ـ فى اتجاه الدولة الاسلامية عامة ـ منذ فتوح الشام ايام ابى بكر وعمر وكان أثر بنى أمية واحلافهم فيها واضح ، ثم حرص معاوية منذ استقر له الامر فى الشام ان يوجه الدولة كلها وجهة غريبة متوسطية وجرى على هذا السنن من آتى بعده من خلفاء بنى أمية بعد ان نشأت الدولة قارية فى محيط صحراوى ٠٠٠ وقد عبر عن ذلك بدقة جود فروا ديمومبين : (لقد كان الشام الاموى مسندا ظهره للبحر المتوسط ، مواجها خصمه الخطر الوحيد الامبراطورية البيزنطية وكان يبدو ان مصائر الشام فى ذلك العصر الاموى كانت متوسطية ولكن موارده كانت قليلة ٠٠٠ فكان لابد له من الاستعانة بموارد وادى النيل (٢٩) ٠

وقد قام بعبء الملاحة فى البحر المتوسط أهل سواحل الشام وقد كانوا على طول أيام الروم وحتى منتصف القرن السابع الميلادى حملة النصيب الاكبر من عبء التجارة فى البحر المتوسط ٠ وكانت لهم جاليات تجارية فى كل موانىء البحر ، وفى كثير من بلاد الداخل ، بل فى العاصمة نفسها ٠

ومن الاسباب المقررة لاضمحلال بيزنطة الاقتصادى اعتناق أهلها مبدأ عدم نقل السلع الى المناطق الاجنبية ، وانتظار المشترى الاجنبى حتى يحضر اليها فتحدثنا نصوص القرن السادس الميلادى أن سكان أربونة (نربون) Narbonne مثلا يتكونون من الرومان واليهود والاغريق والسوريين ، وأشار سيدونيس Sidonius الى وجود كثير من السوريين فى رافنا أواخر القرن الخامس الميلادى ، ويذكر الرواة أخبار رجال سوريين فى ثغور غاله وبلادها كانوا يملكون الضياع والقصور

---

(٢٨) Heyd : Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 19:22, 24, 26-7

(٢٩) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م٤ع١ مايو ١٩٥١

Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. p. 270.

ويبتنون البيع ، وقد يذكرون فى النصوص باسم المشــارقة الى جانب اليهود والاغريق • وانتشر السوريون فى أرجاء فرنسا فى خلال العهــد الميروفنجى وتوغلوا فى الداخل واندمجوا مع السكان حتى يتعذر اعتبارهم غرباء • وقد أقاموا فى نيس ومرسيليا ، ومن مرسيليا ساروا مع الجارون الى بردال (بوردو) وصعدوا مع نهــر ردانة (الرون) الى ليون ومع اللوار أورليان وتور ، وفى ايطاليا أقام المشارقة فى نابلى وأوســتيا Ostia بل تستطيع تتبع آثارهم فى بريطانيا وألمانيا • وهنــاك شواهد على تمتع الجاليات الشرقية بذاتيتها فى مدن الغــرب بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين • وكانت البضائع التى تحمل الى موانى هذا البحر شرقية ، وقد أورد بيرين قائمة بها ، ومن أهمها التوابل ـ خاصة الفلفل ـ والبردى والزيت ، وقد صدرت سوريا الحرير والخمور من غزة وساربتا Sarepta وعسقلان والزجاج من صيدا ومواد متقنة الصنع من صور وبيروت •

وكان الحرير السورى زينة القصور والكنائس وكان التجار المشارقة المقيمون فى غالة وغيرها من النواحى المطلة على البحر التيرانى ـ يهودا وغير يهود يحترفون التصدير بجانب الاســتيراد وبخاصة الرقيق وظل الجزء الشرقى أى الاغريقى من الدولة الرومانية والجزء الذى أغار عليه الجرمان يتعــاملان بالعملة الواحدة التى كانت أســاس التعامل أيام الامبراطورية الرومانية Solidos ، مع اختلافات طفيفة أحيانا فى بعض الجهات فى الوزن أو المعدن ، وكان التجار السوريون لدى نزولهم فى موانى البحر التيرانى يجدون نفس العملة التى اعتادوا عليها فى بحر ايجة • بل ان ملوك المتبربرين أنفسهم قد أدخلوا على العملة فى بلادهم نفس التعديلات التى أدخلها الأباطرة البيزنطيون • وبقى الشرق والغرب مرتبطا أحدهما بالآخر اقتصاديا لصالح التجار الشرقيين وفيما عدا جهات من ايطاليا مثل البندقية التى تاجرت بسفنها مع الشرق بقى الغرب مجالا لاستثمار سوريا والاسكندرية والقسطنطينية » ولم يتوقف البحر المتوسط ـ **الذى اتجه نحوه نشاط ولايات الامبراطورية الرومانية من بريطانيــا الى الفرات ـ** عن القيام بدوره التقليدى بعد الغزوات الجرمانيــة وظل عند المتبربرين طريق الاتصال الرئيسى مع الامبراطورية البيزنطية ويكفى أن نذكر هنــا النشاط البحرى السورى الذى ظل قائما فيما بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين بين ثغور حوض البحر المتوسط وثغور مصر وآسيا الصغرى ،

واحتفاظ الرومان بالصـــولدى الرومانى .... » على حد تعبير بيرين Pirenne (٣٠) .

وجاء الاسلام « فورث الاحتكار القرشى لرحلة الشـتاء والصيف ، وانتهت اليه مهمة الاشراف على التبـــادل التجارى بين الشرق والغـرب والسيطرة على طرق القوافل العربية ، وورث مع ذلك كله عبء مجـابهة المنافسات الداخلية والخارجية حول هذه الطرق . وقد وجه الاسلام عنايته نحو **طريق القوافل الشمالى** : حيث كان عليه أن يؤمن المصالح التجارية ضد مناوأة اليهود فى الواحات الواقعة على طوله ، وضد فلول الغساسنة وضد القبائل العربية الشمالية الموالية للبيزنطيين ، وضد الخطر الذى يهدد التجارة العربية من ايلة ومن دومة الجندل (٣١) » .

الثغور وأهميتها التجارية فى الدولة الاسلامية

تشغل ثغور الشام والجزيرة على السواء موقعا هاما بين الشام (وهو يطل على البحر المتوسط) والعراق وأرمينية (وهى قريبة من بحر قزوين والبحر الاسود) وآسيا الصغرى ، وقد ارتبطت مع هذه الجهات بشـبكة من الطرق يسرت اتصالها بما حولها وهيأت لها دورا تجاريا كبير . وقد عدد الجغرافيون المسلمون فى كتب المسالك وغيرها هذه الطرق ، وفصلوا مراحلها ومسافاتها وسككها وبتتبع هذه الطرق يمكن تبين هذه المجموعات:

١ ـ **الاتصال بين الجزيرة والثغور الجـــزرية** : تتفرع الطرق داخل العراق فترتبط بين مختلف أجزائه ، وعن طريق الجزيرة فى الشمال يمكن الوصول الى الثغور الجزرية والى أرمينية أو الشام . وقد كانت الرقة مركزا هاما للمواصلات ومنها يمكن الوصول الى الثغور الجزرية : وهى سلغوس وكيسوم وشمشـــاط وملطية وزبطرة والحدث ومرعش وكمخ وحصن منصور . ويسير الطريق من الرقة الى عين الرومية ، فتل عبدا ، فسروج ، فالمزينة ، فسميساط فحصن منصـــور ، فملطية ، فزبطرة ، فالحدث ، فمرعش ، فعمق مرعش وهناك طريق من ملطية الى كمخ .

---

(٣٠) دكتور مؤنس المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٧٧ ـ ٨ ، أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ترجمة عيسى صفحة ٢١ ـ ٢ ،

Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 40-1. Byzantium. p.67

(٣١) دكتور حسن الباشا : طرق التجارة العربية من عهد سبأ الى صدر الاسلام ـ المجلة ع ٤ ابريل ١٩٥٧ .

٢ ـ **الاتصال بين الشام والثغور الشامية** : وتتفرع الطرق داخل الشام فتصل بين شتى انحائها **وعن طريق حلب فى الشمال يمكن الوصول الى الثغور الشامية ومنها الى آسيا** الصغرى أو ثغور الجزيرة • وهكذا تربط الطرق حلب بقنسرين وانطاكية والمصيصة واذنة وطرسوس وعين زربة والهارونية والكنيسة السوداء وتل جبير •

٣ ـ **الاتصال بين الجزيرة والشام** : وقد أورد الجغرافيون اتجاهات متعددة للاتصال بين ذراعى الهلال الخصيب ، ويمر معظمها بمنطقة الثغور والعواصم :

(ا) **فهناك طريق يربط الجزيرة بساحل الشام** : ويسير من الرقة الى دوسر ويستمر حتى يصل جسر منبج فمنبج ، ويدخل فى ديار الشام فيمر بحلب والاثارب ويجتاز عمق انطاكية الى انطاكية ثم يصل اللاذقية على ساحل البحر المتوسط • ويتابع الطريق الساحل متجها نحو الجنوب فيمر بجبلة وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وقيسارية وارسوف ويافا وعسقلان وغزة •

(ب) **وهناك طريق من الرقة الى قلب الشام حتى دمشق** : وهو حين يصل الرصافة يصير أمامه طريق الى دمشق فى البرية ، وآخر الى حمص فى العمران والأخير يمر بسلمية وحمص •• ومنها تتعدد السبل للوصول الى دمشق •

(ج) **غير أن هناك طريقا جنوبيا يصل بين العراق والشام ويسير من الكوفة الى دمشق** : وهذا الطريق بالطبع بعيد عن نطاق الثغور الشامية والجزرية •

٤ ـ **الاتصال بين شمالى الشام والجزيرة وبين آسيا الصغرى** : وقد حاول ابن خرداذبة أن يتتبع مراحل طريق درب السلامة الى آسيا الصغرى حتى خليج القسطنطينية ويبدأ من طرسوس الى العليق (١٢ ميلا) ، ثم الى الرهوة ثم الى الجوزات (١٢ ميلا) ، ثم الى الجرد قوب (٧ أميال) وثم الى حصن الصقالبة ، ثم الى البدندون (٧ أميال) وهو يتابع بيان مراحل الطريق فى قلب بلاد الروم ، ويذكر الطرق المتعددة فى داخلها للولوج الى خليج القسطنطينية • أما المقدسى فيذكر أن أقصر الطرق الى القسطنطينية من اقليم اقور « وكان ثغرة ملطية » •

٥ ـ **الاتصال بين الجزيرة وارمينية** : وتقترب الجزيرة من أرمينية ، علاوة على قربها من آسيا الصغرى واتصالها بالشام عن طريق الثغور •

وقد ذكر الجغرافيون المسلمون مراحل طريق يمتد من نصيبين الى أرزن « وهو يسير من نصيبين الى دارا الى كفر توثا الى قصر بنى نازع الى آمد الى ميافارقين الى أرزن » وهي مدينة تتاخم أرمينية (٣٢) » •

فمنطقة شمال الشام والجزيرة ـ والثغور على حافتها ـ تربطها الطرق بما حولها من أقاليم ، وتقترب بوساطة هذه الطرق من البحار •
وهذا الموقع يهيىء لتلك المنطقة دورا هاما بالنسبة لتجارة الشرق مع الغرب • وقد أبرز المنصور من بين أسباب اختياره موقع بغداد سهولة مواصلاتها مع الجزيرة وأرمينية والشام وما جاوز ذلك بجانب اتصالها عن طريق الخليج الفارسى بتجارة الشرق الأقصى فقال : « هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيئا يأتينا فيها كل ما في البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك ، وهذا الفرات يجىء فيه كل شىء من الشام والرقة وما حول ذلك (٣٣) » • وقد تكلم ابن خرداذبة عن « مسلك التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية » واليهود الراذانية هم الذين عرفوا فى غربى أوربا باسم Radanites نسبة الى نهر الرون وهو روادنوس فى اللاتينية لأن مراكزهم كانت فى بلاد حوض هذا النهر وقد كانوا يقدمون حاصلات الشرق لمجتمع الغرب فقدموا للكنائس البخور وللبيوت الفلفل ، وهؤلاء كانوا « يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق ، برا وبحرا يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والسمور والسيوف • ويركبون من فرنجة فى البحر الغربى ، فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم • وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى الجار وجده ، ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين السمك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملون الى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربى : فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها الى الروم ، وربما صاروا الى ملك الفرنجة فيبيعونها هناك • **وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية ، ثم يركبون فى الفرات الى بغداد** ، ثم يركبون فى دجلة

---

(٣٢) بن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٦ : ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٣ قدامة : نبذ من كتاب الخراج ـ ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢١٤ ـ ٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ـ ٩ ، ٢٢٨ ـ ٩ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٤٨ •

(٣٣) الطبرى جـ ٩ ص ٢٣٨ •

الابلة ومن الابلة الى عمان والسند والهند والصين ـ كل ذلك متصل بعضه ببعض . فأما مسلك تجارة الروس ، وهم جنس من الصقالبة ـ فانهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة الى البحر الرومى ، فيعشرهم صاحب الروم وان ساروا فى تنيس ـ نهر الصقالية ـ مروا بخمليج مدينة الخزر ، فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون الى بحر جرجان فيخرجون فى أى سواحله أحبوا ، وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الابل الى بغداد ، ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون انهم نصارى فيؤدون الجزية (٣٤) » .

وللمدن الشام وثغورها مركز تجارى هام من قديم ، ونرى الاصطخرى يبين مدى ارتباط الشام بالبحر الاحمر فيعتبر القلزم « فرضة مصر والشام ، ومنها تحمل حمولات الشام ومصر الى الحجاز واليمن وسواحل هذا البحر » ، كما يبين أهمية حلب فى اتصال الشام بالعراق فهى «عامرة بالأهل جدا على مدرج طريق العراق الى الثغور وسائر الشامات » وكما يقول ابن حوقل انها كان لها « أسواق حسنة وحمامات وفنادق ومحال وعراص ، ولم تزل أسعارهم فى الاغذية وجميع المآكل قديما واسعة رخيصة (٣٥) » . ويروى ياقوت من رسالة كتبها ابن بطلان المتطبب الى هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابى سنة ٤٤٠ هـ فى دولة بنى مرداس « ومن عجائب حلب ان فى قيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء ، يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة والى الآن » . ونقل ابن الشحنة هذه الحقيقة واستطرد الى الحرير خاصة فقال :

« ومن خصائصها نفاق ما يجلب اليها من البضائع كالحرير والصوف واليزرى والقماش العجمى وأنواع الفرا من السمور والوشق والفنك والسنجاب والثعلب وسائر الحرير والبضائع الهندية وأجناس الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الاجناس فانه قد يتفق أن يباع فيها فى يوم واحد ما لا يباع فى غيرها فى شهر ـ كل ذلك بأطيب ثمن ورغبة . مثلا اذا أحضر اليها مائة حمل حرير فانه يباع فى يوم واحد ويقبض ثمنه ، ولو حضر الى القاهرة التى هى أم البلاد عشرة أحمال لا تباع فى شهر» .

---

(٣٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ٤ دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ ـ مايو ١٩٥١ .

(٣٥) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٠ ، ٤٦ ، ابن حوقل .

ويذكر ياقوت أن « لأهل حلب عناية باصلاح أنفسهم وتثمير الاموال ، فقل ما ترى من نشئها من لم يتقبل أخلاق آبائه فى مثل ذلك ، فلذلك فيها بيوتات قديمة معروفة بالثروة ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان » ، وتجود فيها حاصلات كثيرة على المطر . فلا غرابة أن ينهض رخاء حلب بالتزامات الدفاع عنها وهى ثقيلة ، فنقل ياقوت أن حلب تقوم برزق خمسة آلاف فارس موسع عليهم ولولا الاسراف لقامت برزق سبعة آلاف فارس اذ يحصل بعض الفرسان فى العام على مابين ١٠٫٠٠٠ ، ١٥٫٠٠٠ درهم « وفى أعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخائرها وأرزاق مستحفظيها .. ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الاقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتها عنبا وحبوبا ما يقارب فى كل يوم عشرة آلاف درهم ، وقد ارتفع اليها فى العام الماضى ـ وهو سنة ٦٢٥ هـ ـ من جهة واحدة وهى دار الزكاة التى يجبى اليها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع : سبعمائة ألف درهم ، وهذا هو العدل الكامل والرفق الشامل (٣٦) » .

وقد كان لمتابعة الجهاد فى منطقة الثغور وشحنها بالمقاتلة آثار محمودة فى تأمين الطرق ورواج التجارة ، فيذكر ابن حوقل : « وبالس أول مدن الشام من العراق كان الطريق اليها عامرا ومنها سابلا ، وكانت فرضة لأهل الشام على الفرات . وكان بطرسوس رخص عام على مر الايام ، وكانت من العمارة والخصب بالغاية ، وليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخرزستان والمغرب ـ الا وبها لأهلها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الاموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، الى ما كان السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليه وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف من فنادق ، فهلكوا . وبغرس على طريق الثغور كان فيها دار لزبيدة ، ولم يكن بالشام دار ضيافة غيرها كبيرة (٣٧) » .

ويروى ياقوت فيما يرويه من رسالة ابن بطلان « ... فوجدنا المسافة التى بين حلب وانطاكية عامرة لا خراب فيها أصلا ، ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير تحت الزيتون قراها متصلة ورياضها مزهرة

---

(٣٦) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ابن الشحنة : الدار المنتخب ص ٢٥٤ .

(٣٧) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٦ ، ٤٧ ، ابن حوقل .

ومياهها متفجرة يقطعها المسافر فى بال رضى وأمن وسكون . وبين انطاكية والبحر نحو فرسخين ولها مرسى فى بليد يقال له السويدية ترسى فيه مراكب الافرنج يرفعون منه أمتعتهم على الدواب الى انطاكية » . « وقال احمد بن الطيب : رحلنا من المصيصة الى اذنة فى مرج وقرى متدانية جدا وعمارات كثيرة (٣٨) » . وتصل الشام حاصلات جزر البحر المتوسط « وعرض البحر من سواحل الشام اذا استوت الريح يومان الى قبرص ، ومن قبرص الى الجانب الآخر من البحر نحو ذلك . ويقع بقبرص الميعة التى تحمل الى بلدان الاسلام من بلد الروم والمصطكى تكون بقبرص . وليس فى البحار أحسن حاشية من هذا البحر ، فان العمارات فى الجانبين ممتدة غير منقطعة .. وبصقلية من الخصب والسعة والزروع والمواشى والرقيق - أكثر ما يقع منها - ما يفضل على سائر ممالك الاسلام المتاخمة للبحر (٣٩) » .

وقد كان للرباطات البحرية دور فى التبادل التجارى « وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم - الروم - ويذهبون اليهم فى الرسالات ويحمل اليهم أصناف الاطعمة ، وقد ضج بالنفير لما ترايت مراكبهم .. فرجل يشترى رجلا وآخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشترى ما معهم (٤٠) » .

وعن الجزيرة وأهميتها التجارية كتب المقدسى يقول : « اقليم اقور واسطة بين العراق والشام ومنازل العرب فى الاسلام ، ومعدن الخيل العتاق ومنه ميرة أكثر العراق ، رخيص الاسعار جيد الثمار » . ويقول عن مدينة الرقة : « حسنة الاسواق ، وانتشر فى الاقليمين ذكرها : فالشام على تخمها والفرات الى جنبها ، الا ان الاعراب بها محيطة والطرق اليها صعبة » . ويسهب المقدسى فى تعداد تجارات اقوار ، من خيول وحبوب وفواكه وفحم وحديد وزيوت وعسل وصابون وثياب الصوف والكتان . واشتهرت الموصل كذلك بالمصنوعات الخشبية لأن موقعها على الاطراف الشمالية ووجود الجبال حولها أتاح نمو الغابات ، ويتصل الاقليم من ناحية بآسيا الصغرى « وأقصر الطرق الى القسطنطينية من هذا الاقليم ، وكان ثغرة ملطية » ، كما يتصل من ناحية أخرى بارمينية اذ ترد الى الموصل قوافل الرحاب - وأرمنية جزء منه فى تقسيم المقدسى ،وهذا الاقليم « جل وطاب ،وكثرة فيهالثمار والاعناب ورخصت بهالاسعار ،منه ترتفعالاصواف

---

(٣٨) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٤ ، ١٦٦ .

(٣٩) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٥١ .

(٤٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧٧ .

المعمولة والتكك العجيبة • ثمن الخروف درهمان ، والخبز بدانق لبنان ، والفواكه بلا عد ولا ميزان ، به المتاجر المفيدة والثمار اللذيذة » • ويشتهر الاقليم بصناعة أنواع مختلفة من المنسوجات كما يشتهر بسمك الطريخ وأنواع من الفواكه (٤١) • ووصف ياقوت الموصل بأنها « محط رحال الركبان ومنها يقصد جميع البلدان ، فهى باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد الي اذربيجان • وكثيرا ما سمعت ان بلدان الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور لأنها باب الشرق ، ودمشق لأنها باب الغرب ، والموصل لأن القاصد الى الجهتين قل أن لا يمر بها ••» ، ونصيبين « من بلادِ الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام ، وفيها وفى قراها على ما يذكر أهلها اربعين ألف بستان (٤٢) » •

وكانت الصلات التجارية بين الدول الاسلامية وجيرانها من الامم الشرقية كالصين والهند والتركستان والروم منتعشة فى فترات السلم لتيسير المواصلات البرية او البحرية ، اما اوربا فكانت تتاجر معها الاقاليم الواقعة على ساحل بحر الروم وبخاصة الشام ومصر • وفكر الرشيد فى فتح قناة بين البحرين الابيض والاحمر مما يلي الفرما ـ كما يروى السيوطى ـ لتصل سواحل شمالى افريقية والاندلس وصقلية والفرنجة بسواحل جزيرة العرب وفارس والعراق ، غير أن بعض خاصته ومنهم يحيى البرمكى ثناه عن ذلك مخوفا اياه من خطر هجوم الروم على مقدسات المسلمين فى لاحجاز بعد أن ينفتح امامهم الطريق ، وقال البعض بطغيان مياه البحر الابيض على الاحمر مما يسبب غرق سواحل مصر والصعيد واليمن والحجاز (٤٣) •

ولعبت السوق دورا كبيرا فى حياة المدينة العربية ، وتركت فيها الحياة الصناعية والتجارية • وفى الشام كان السوق من آثار التراث البيزنطى ، فالمصانع والدكاكين تقوم فى المدن المتأثرة بالطرز الاغريقية على طول طريق النصر بين الباب الرئيسى للمدينة ومعبد الاله الأكبر الذى تحول الى كنيسة فمسجد ، وتجمع أصحاب الحرف والتجارة فى جماعات فى حي أو عدد من الأحياء الخاصة • وكان التجار الأجانب يخزنون بضائعهم فى مخازن خاصة ، كما كانوا ينزلون هم ودوابهم فى بنيات مستطيلة واسعة حيث وجدت حول الصحن اصطبلات ومخازن يعلوها طابق ثان يحوى غرفا

---

(٤١) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٥ ـ ٦ ، ١٤٨ ، ١٣٨ ، ٢٧٣ ، ٣٨٠ •

(٤٢) ياقوت : معجم البلدان حـ ٨ ص ١٩٥ ـ ٦ ، ٢٩٢ •

(٤٣) دكتور جومرد : هرون الرشيد حـ ٢ ص ٣٧٠ : ٢ •

تنفتح على الفناء فقط وتتصل ببعضها عن طريق بهو دائرى - وهذا هو القيصرية (أى السوق الامبراطورية) بالاصطلاح السورى الفلسطينى والمغربى أيضا • وهذه الفنادق أو الخانات لا توجد فى المدن فحسب ، بل وفى المحطات على طول الطرق التجارية فى الشرق • ولم يقتصر نشاط السوق على بيع الانتاج المحلى اذ توفرت فيها البضائع الأجنبية كذلك ، وحملت اليها تجارةالشرق الأقصى عن طريق البر والبحر • ويعود الفضل للأمويين فى بناء أساطيل اسلامية فى الشام ومصر • **ولم تعق الحروب داخل الشرق الأدنى ، رحلات التجار كثيرا ، وانما عاقتها ثورات الزط والزنج القرامطة ورحب المسلمون بالتجار الأجانب وكانوا يدفعون العشور ويعتبرون مستأمنين لمدة عام قد تمد أحيانا ، وكان للتجار مكانتهم الاجتماعية • ونال الدمقس (نسبة الى دمشق) والموسلين (نسبة الى الموصل) تقدير الغرب ، فالأقمشة الرقيقة والمخمل والأنسجة الناعمة المطرزة أو المصنوعة من الحرير خرجت من مصانع فارس وبغداد ودمشق وآسيا الصغرى** • واحتفظ الصناع القبط فى مصر بتقاليد الفراعنة فى صناعة الحرير ، وكان الخليفة يمنح الخلع كجوائز أو هدايا وحاكاه فى ذلك رجاله وعماله • وتحوى المجموعات الاثرية العالمية نماذج عديدة من أوانى الخزف والنحاس والزجاج والصناديق المطعمة بالأحجار الكريمة والفضة والعاج وغيرذلك -كمانشطت صناعة لجلود •وأدت مقايضة المعادن الثمينة من معاملات مستمرة **وكانت العملة فى الايام الاولى للاسلام الدينار من الذهب فى الغرب حيث الولايات التى كانت تابعة للبيزنطيين والدرهم من الفضة فى الشرق حيث الولايات التى كانت تابعة للفرس • وفى القرن العاشر الميلادى - الرابع الهجرى سار الدينار الذهبى البيزنطى والدرهم الفضى الفارسى جنبا الى جنب فى التعامل • وحين ضرب الخلفاء عملات ذات قيم متعددة انغمرت الاسواق بقطع نقدية ذات أصول وقيم مختلفة كان على الصرافين الموازنة بينها تحت اشراف المحتسب** ، وكان الصيارف اليهود والنصارى يعيرون مبالغ كبيرة للدولة والتجار ويشتغلون فى ضروب المعاملات النقدية كما اشتغل الاغريق بذلك أيضا (٤٤) • ويرى ماسينيون ان الصيارفة المسلمين لعبوا دورا فى فتن الشيعة ، اذ كانوا يتسلمون الأموال والزكاة ويرسلونها الى الأئمة • وقد أعفيت الارض التى تقام عليها الحوانيت من الخراج ، وسمح بتحويل الارض التى ليس لها مالك الى أسواق • وكانت الأسواق مركزا لعقد الصفقات والمؤامرات أيضا ومجالا

---

(٤٤) ديمومبين : النظم الاسلامية ترجمة السامر والشماع ص ٢٤٩ : ٢٥٥ ، ٣٥٨ •

للاتصال والاختلاط وقد وضعت تحت مراقبة دقيقة فبعد الغروب يحمل التجار تجارتهم الى مخازنهم وتخلى السوق الا من الحراس • وقد كان التفتيش يجرى على الاسعار والمكاييل والموازين • وكان يجلس فى السوق الناقد لتمييز الدراهم ويراقب المحتسب عمليات البيع لمنع غش المبيعات وتدليس الاثمان والبخس والتطفيف ويختار الدلالين متوخيا فيهم الامانة والنزاهة ، ويراقب جودة المصنوعات والصاغة والحاكة والصباغين حتى لا يهربوا بأموال الناس أو حاجاتهم ، **كما كان من مهام المحتسب مراقبة السفن والملاحة والتجارة الخارجية في الثغور** • واتبعت الحكومة سياسة حرية التجارة ، فلم تقيد نقل السلع بين مختلف ولايات الدولة الاسلامية ولم تحتكر تجارة أى بضاعة ، أو تمنع مبادلتها ، وكانت احتكارات الافراد فى الغالب محلية مؤقتة لا تدعمها امتيـــازات حكومية ، فلم تؤثر على الاسعار تأثيرا مستمرا أو شاملا فى كافة أنحاء الدولة • وكانت الحكومة تجبى ضرائبها من الزراع نقدا وعينا فتخفف عنهم أعباءها فلا يضطرون لبيع محصولاتهم بأسعار رخيصة كى يحصلوا على أموال لسداد الضرائب • كذلك كانت ضرائب الدولة ثابتة فأدى هذا الى ثبات الاسعار بعض الشىء• وكانت الحكومة تدفع الى المقاتلة وعيالاتهم عطاء ثابتا يحدد القوة الشرائية لهم كمستهلكين ، وقد ضيقت أرزاق الحنطة والشعير والزيت فرص التلاعب فى أسعار ضروريات المعيشة كما يرى الدكتور صالح العلى • وفى عهد عبد الملك بن مروان زيدت الجزية على أهل الجزيرة ـ فأقبلوا يبيعون انتاجهم فانخفضت الاسعار ، أما فى عهد عمر بن عبد العزيز فقد كثرت الاموال فى أيدى النـــاس نتيجة لتيسيـره عليهم فارتفعت الاسعار (٤٥) • وكان ولاة البريد يكتبون للمنصـــور كل يوم بسعر القمح والحبوب والادم وبسعر كل مأكول ، فاذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأى الاسعار على حالها أمسك وان تغير شىء كتب للوالى والعامل سائلا عن العلة (٤٦) • وكان ترف الخلفاء من دواعى رواج التجارة ، وكان للعباسيين أثر كبير فى ذلك • واقترن نمو التجارة بظاهره فى سياسة الخلافة النقدية اذ استخدمت عوضا غن الاساس الفضى أساسا ذهبيا فى القرن التاسع الميـلادى ، فبينما كانت الضرائب تحصـــل فى الاقاليم الشرقية بالدراهم الفضية تحول الحساب الى الدينار الذهبى » (٤٧) •

---

(٤٥) دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق تحت الحكم الاموى ص ٣٦٢ ـ ٣ ، ٣٦٦ ـ ٧ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ •

(٤٦) غنيمة : تجارة العراق ص ٤٦ •

(٤٧) فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيره ص ١٧ ـ ١٨ •

وكان للتجار الأجانب المارين بديار الاسلام وضع خاص ، فهم قد يتسترون بالتجارة ويقصدون التجسس وقد قيل للمنصور انه لا يؤمن ان يكون بين التجار الغرباء الذين يقدمون بغداد جواسيس ومن يتعرف الاخبار « فأمر باخراج السوق من المدينة وجعلها للشرط والحرس وبنى للتجار بباب طاق الحرانى وباب الشام والكرخ (٤٨) » ومن أجل هذا نص أبو يوسف على أنه « لا ينبغى للامام أن يترك احدا من أهل الحرب يدخل بامان أو رسولا من ملكهم يخرج بشىء من الرقيق والسلاح أو بشىء مما يكون قوة لهم على المسلمين . فاما الثياب والمتاع فهذا وما اشبهه لا يمنعون منه » . وعرض أبو يوسف لحكم القادم المستامن فى المبايعة بالخمر والخنزير واخذه بالحدود ورجح ان تجرى عليه أحكام الاسلام فى هذا الصدد ، وأن طال به المقام أمر بالخروج فان أقام حولا وضعت عليه الجزية . ولو أن مركبا من مراكب المشركين من أهل الحرب حمله الريح بمن فيه حتى القته على ساحل مدينة من مدائن المسلمين ، فقال أهل المركب : انما نحن تجار حملنا معنا تجارة لندخلها بلادكم « لم يقبل ذلك منهم ، وصبروا وما معهم فيئا لجماعة المسلمين » (٤٩) .

حركة التبادل التجارى بعد الاسلام

كان رخاء سوريا وآسيا الصغرى عظيما تحت الحكم البيزنطى ، على الرغم من تأثر بعض أجزائها بالزلازل وغزوات الفرس ، واستمر رخاؤهما حتى بداية القرن السابع الميلادى واعترف بروكوبيوس بانتعاشهما ولا بد أن ادخال تربية دودة القز فى **أواخر القرن السادس م** اضاف الى رخائهما الزراعى رخاء آخر وزاد من الحرير الخام، واثرت مدنهما بالتجارة مع جميع بلاد البحر المتوسط . وتركزت التجارة العالمية بين أقاليم الغرب الزراعية وبين بلاد الشرق فى ايدى العملاء الشرقيين من السوريين واليونانيين و اليهود ذلك ان السوريين المقيمين بفرنسا فىالقرن السادس وأوائل القرن السابع استوردوا التوابل والانبذة وورق البردى الى مرسيليا والى المدن الداخلة مثل باريس وتور ، واستقرت جاليات منهم فى كل مركز هام من مراكز التجارة ويصدق هذا أيضا على اليهود الذين نشطوا خاصة فى تجارة الرقيق

---

(٤٨) الطبرى : جـ ٩ ص ٢٦٢ .
(٤٩) ابو يوسف : الخراج ص ١٨٨ ـ ٩ .

بمدن جنوب فرنسا ، اما نشاط اليونانيين التجارى فى الاقليم فكان أقل . وقد كان احتياج أقاليم الشرق للحبوب من صقلية والقمح وزيت الزيتون من شمالى افريقية والخشب والملح من البحر الادرياتى والحديد والمعادن الأخرى من أسبانيا والغال وغير ذلك من المنتجات الطبيعية ، لا يقل عن احتياج الغرب للتوابل وورق البردى والانبذة ، والحرير والمنسوجات وسائر المنتجات الصناعية الفاخرة المصنوعة فى الاسكندرية وسوريا والقسطنطينية . فليس من الصحيح ان التجار المشارقة ـ استنزفوا ذهب الاقاليم الغربية اثناء تسلطهم على تجارة حوض البحر المتوسط ، وليس هناك ما يدل على انحطاط مستوى العملة الذهبية التى ضربها الفرنجة فى القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديين على التصميم البيزنطى . ولم تنجح تماما محاولات البيزنطيين فى تحويل طرق التجارة الشمالية الجنوبية بعيدا عن ايران ، ولا فى الاستغناء بالحرير الخام عن استيراده ، ولا فى ارغام المستوردين للفرس على قبول الأسعار التى حددوها لشراء الحرير ، فاستمر اعتماد بيزنطة على الفرس كوسيط تجارى فضلا عن مواصلتها ارسال منح مالية لآل ساسان . لكن هذا لا يعنى أن ذهب الامبراطورية قد تحول الى الشرق ، بل اوجدت الصناعات الناجحة فى سوريا والقسطنطينية نوعا من التعادل فى ميزان التجارة مع فارس . فقد غدت العملة البيزنطية فى منتصف القرن السادس عملة دولية دون منازع فى منطقة المحيط الهندى التى كان يسيطر عليها تجار الفرس ، ولم يضرب الساسانيون عملة ذهبية قط مكتفين بالعملة الفضية مما يشير الى سيادة البيزنطيين اقتصاديا (٥٠) .

استمرت احوال التجارة فى البحر المتوسط على ما هى فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى (الثلث الأول من القرن الأول الهجرى) ولم تغير الفتوح الاسلامية فى أول الأمر هذه الأحوال الا قليلا، فاستمرت التجارة فى أيدى السوريين واليونانيين ، ولم يحدث تغيير كبير فى توزيع السكان الا فى الاقاليم الساحلية السورية التى تحرك سكانها على أثر الهجوم الفارسى فالعربى ، يلتمسون مأمنا فى آسيا الصغرى وجهات أخرى من بلاد البحر المتوسط ، واستمرت هذه التحركات اوائل الحكم الاموى خاصة بين عامى ٦٦٦ ، ٦٨٩م حيث نشطت جماعات المردة فى توغلها فى اقليم لبنان ، وسحب جستنيان الثانى ١٢ الفا منهم سنة ٦٨٩م ووطنهم فى آسيا الصغرى ، كما أسكن معاوية جماعات من الفرس

(٥٠) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة احمد عيسى ص ٦٥ ، ٧١ : ٠٣

والزط على طول سواحل الشام . ويمكن القول ان معظم المهاجرين من سوريا أو قبرص أكثرهم من رجال الحكومة البيزنطية أو الكنيسة الارثذوكسية الملكانية ، وأقلهم من التجار أو أهل الحرف الذين تعتبر هجرتهم خطرا اقتصاديا . كذلك ينبغى الا يبالغ فى خسائر الحروب البرية والبحرية بين دمشق وبيزنطه حتى عام ١٩٣م والواقع ان الوحدة المالية لاقاليم البحر المتوسط ظلت كما هى واستمر استخدام العملة الذهبية البيزنطية كأداة دولية للتعامل التجارى . لكن توقف بالطبع أرسال القمح من مصر الى القسطنطينية مما دفع الاخيرة الى محاولة التوصل لمصادر جديدة خاصة فى المناطق الزراعية فى البلقان وآسيا الصغرى وجنوبى روسيا وهذا أدى لرخاء الفلاحين . وأرسلت مصر قمحها لمكة ولمدينة ، وحفر عمرو ابن العاص سنة ٦٤٣م قناة تصل النيل بالبحر الأحمر فانشىء طريق مائى نحو الجنوب . ولم تكن للمسلمين مصلحة فى الابقاء على قوانين وتعليمات جستنيان فى الاستيراد والتصدير ، **اذ اجتمعت تحت حكمهم أراضى الدولة الساسانية والشام ومصر فلم يكن داع لبقاء مراكز المكوس القديمة التى كانت تقع بين المنطقتين** ، ثم ان القسطنطينية لم تتعنت فى تجارتها مع الشام ومصر الا فيما يتعلق باخشاب السفن . ولم يسلم البيزنطيون بدورهم حتى سنة ٦٩٣م بانقطاع الصلات بينهم وبين مصر وسوريا نهائيا ، ومن هنا لم يطبقوا عليها أنظمة جستنيان وان تقاضوا الرسوم المقررة على البضائع الواردة منها ويرى (هيد) أن العداء الدينى والسياسى بين المسلمين والبيزنطيين قد ذات أمام ضروريات الاتصال بين الفريقين . وقد كانت السفن البيزنطية فى فترة الفتح بعيدة بالطبع عن مصر والشام ولكن هذه القطيعة لم تدم طويلا . واحتكرت الحكومة الامبراطورية صناعة الحرير الارجوانى ــ كما احتكرت الحكومة العربية فى مصر دور الطراز ــ الا أنها لم تتشدد فى تطبيق الاشراف الحكومى على صناعات أخرى ، واختفت رقابتها على أصحاب سفن التجارة البحرية navicularii **وصارت حرية التجارة فيما يبدو هى قاعدة التعامل فى بلاد البحر المتوسط** . يتضح هذا من قانون رودس البحرى الذى صدر حوالى هذا الوقت تقريبا ، وبمقتضاه صار ربابنة السفن أحرارا فى تصرفهم لهم أن يتجهوا للحصول على شحنات لسفنهم حيث شاءوا . وليس هناك دليل على اشراف الحكومة على البحرية التجارية بعد الفتح الاسلامى فى القرن السابع على عكس ما كان أواخر العصر الرومانى وأوائل الحكم البيزنطى ، ويمكن القول بصفة عامة ان القرن

السابع كان عصر تجارة غير مفيدة في البحر المتوسط ، وعم الرخاء مدن الشام الداخلية ، وساعد عليه وعلى نشاط التجـارة زوال الحواجز الرومانية القديمة بين الشام والعراق ، أما المدن الساحلية فان الهجرة منها والغارات البحرية عليهـا قد عاقتهـا عن بلوغ مسـتوى مدن الداخـل • على انهـا ظلت قادرة حتى أوائل الحكم الأموى على امداد الأسطول العربى بقوات كبـيرة • وعانت الدولة البيزنطية من غارات المسـلمين على حدودهـا وعاصمتهـا ، ولكن أرشيبالد لويس يرى أنه « ليس ثمة دليل على وجود ازمات اقتصادية حادة ازعجت الدولة ـ مثل تلك الازمات التى واجهها هرقل • والواقع ان نظام حكومات الثغور أو الأجناد أثبت انه نظام فعال زهيد التكاليف ، واحتفظت معه تجارة القسطنطينية باهميتها المعهودة • كما لم تقل العملة الذهبية فى وزنها ولا عيارها » • وازدهرت تجارة البحر الاسود مع مدينة خرسون ومملكة الخزر ـ التى قامت فى منطقة جنوبى الروسيا وبحر قزوين والتى حالفت هرقل فى كفاحه ضد العرب، وتوطدت علاقاتها بالبيزنطيين منذ ذلك الوقت ففتح ذلك أمامهم طرقا للتجارة مع الصين غير الطرق الفارسية التى يتحكم فيها العرب • ومن هنا قامت العدواة بين الخزر ـ ودولتهم تقوم على التجارة خاصة ـ وبين جيرانهم الأمويين ، ممـا يشهد بما كان للتجارة عبر بلادهم من اهمية « والظاهر أن نصف القرن الأول من حكم العرب لسوريا ومصر لم يحدث انقلابا كليا فى الأوضاع الاقتصادية فى شرقى البحر المتوسط ولا يوجد دليل على ان ذلك العصر شهد تدهورا فى رخاء اقتصاديات الأقاليم الغربية • حقيقة وجد ثمة أثر لهجرات السكان وتحركاتهم ، كما اضطربت التجارة العالمية بسبب الحروب التى نشبت بين دمشـق والقسـطنطينية فى البحار ، ولكن تأثير هذا كله كان فيما يظهر طفيفا جدا خلال القرن السابع الميلادى(٥١) وقد استعمل طريقا الخليج الفارسى والبحر الاحمر جنبا الى جنب ، فقد صارا تحت نفوذ قوة سياسية واحدة • وجاءت الملاحة العربيـة فى البحار الشرقية امتدادا ، للملاحة والتجارة الساسانية التى تبرز نشاطها فى جهات الشرق الأقصى كتـابات كوزماس ـ وبروكوبيوس ، وكان الفرس يبحرون طلبا للأحجار الكريمة والحرير وقد اسـتخدموا سفنا كبيرة • وهناك مايدل على ان الملاحة الشرقية كانت سنة ٧٢٧م فى ذروتها ، مما يرجح ابتداءها قبل ذلك بكثير ، وثمة روايات عن رحلات

---

(٥١) ارشيبالد لويس : القوى البحرية التجارية ترجمة احمد عيسى ص ١٢٠ ـ ٩ •
Heyd: Hist. du Commerce Lu Levant. Vol. I. p. 52.

سابقة تصل الى سنة ٦٧١م وقد واصل الفرس الملاحة فى ظل الحكم الاسلامى ، كما ان المسلم العربى كان فى طبيعته تاجرا - ومن هنا كان لابد ان يدخل فى هذا الميدان ، ونرى فى القرن التاسع ان الوثائق العربية الخاصة بالتجارة البحرية مع الشرق الاقصى تذكر المسلمين والعرب أكثر مما تذكر الفرس (٥٢) ويبرز ديموميين وضع الدولة الاسلامية بالنسبة لطرق التجارة العالمية بقوله « كان الخليج الفارسى طريقا نحو المحيط الهندى وحاصلات الشرق النادرة ، كما كان الفرات طوال كثير من العصور طريق السالكين الى البحر المتوسط - الى اليونان وروما » . وكانت الشام اقليما مرتبطا بالبحر المتوسط ومتصلا بآسيا الصغرى من جهة ومصر وبلاد العرب من جهة أخرى ، وقد ارتبط بوادى النهرين عن طريق منحنى الفرات وعبر الطريق الصحراوى المار بتدمر . وقد جمع الساسانيون بين جانبى الهلال الخصيب فى القرن السابع الميلادى لفترة قصيرة ، لكن الشام كان أكثر ارتباطا بآسيا الصغرى ومصر . **وغدت الدولة الاسلامية باستيلائها على فارس وللعراق وريثة نشاط الفرس التجارى فى الشرق الأقصى ، كما غدت بفتح الشام ومصر مطلة على البحر المتوسط وهو حلم الفرس القديم الذى عجزوا عن تحقيقه .** وكان موقع الثغور الجزرية (ومعها ارمينية) والشامية (ومعها ثغور البحر المتوسط) هاما كمحطات لتوزيع ماجلبه المسلمون من تجارة الشرق على بلدان الغرب ، فطريق الخليج الفارسى يؤدى الى الفرات وثغور الجزيرة وأرمينية وطريق البحر الأحمر تكملة الطرق البرية فتصل به المتاجر الى الشام وثغورها وموانى البحر المتوسط . وحين أرادت بيزنطة أن تستخلص للتجارة مسالك بعيدة عن دار الاسلام تنتهى الى طرابزون ، قامت ثغور الجزيرة وارمينية باستقبال التجارة القادمة عن طريق بيزنطة . « فالشريان التجارى القديم المتدفق الى بلاد الشام وآسيا الصغرى لم يمس بأى تغيير ، اذ أدرك أهالى البلاد المفتوحة فى سرعة واعجاب أن العرب الفاتحين ليسوا شعبا متبربرا متغطرسا يضع العقبات فى سبيل الحياة الاقتصادية فى البلاد ، بل رأوا من العرب أناسا يتركون الحياة الاقتصادية تسير فى مجراها الطبيعى ويحوطونها بتشجيعهم ورعايتهم » (٥٣) .

---

(٥٢) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى - ترجمة دكتور السيد بكر ص ١٧٤ .
Hadi Hassan : Hist. of Persian Navigation. pp. 103:5 ، ٧ : ١٩٠

(٥٣) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٢١ .
Heyd. Hist. du Commerce du Levant au Moyen Age. Vol. I. p. 25.
Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Musulm. et Byz. pp. 40:2.

وظهر النظام الاقتصادى للبحر المتوسط بصورة مغايرة خلال **النصف الثانى من القرن السابع الميلادى** (بقية القرن الاول الهجرى) ويبرز أرشيبالد لويس صورة الاحوال القائمة « ٠٠ انه الاضطراب فى مصر ، **والركود فى سوريا** ، والفوضى فى اسبانيا وشمالى افريقية ، والكساد فى فرنسا ، واختفاء التجار السوريين والمصريين من الاسواق الغربية ، وشيوع العملة الفضية فى اسبانيا وفرنسا . انه عالم لم يفلت من تدهوره الاقتصادى سوى بيزنطة وايطاليا وبلاد الخزر ٠ أما فى الناحية السياسية **فقد حل العباسيون والكارولنجيون محل الامويين والميروفنجيين ، واتخذ الأولون عاصمتهم الجديدة فى بغداد والآخرون فى اكس لاشابل وكلاهما بعيد جدا عن شواطىء البحر المتوسط** » ٠ فما هى اسباب هذا الانقلاب العميق ؟ لا نجد هذه الاسباب فى هجرات **السكان أو تخريب الحروب ، ويرى ارشيبالد لويس « أن ايضاح ما حدث** من تغيرات سياسية واقتصادية ، نجده فى **تغير طبيعة الصراع بين الأمويين والبيزنطيين فى الفترة من سنة ٦٩٣ حتى سنة ٧٥٢م ٠٠٠ فقد تطرق اليه عنصر اقتصادى»** ٠ وهو يشير الى ضرب عبد الملك للدنانير وتوقفه عن تصدير البردى لبيزنطة « انه اراد ان يقيم سلطانه على اساس اقتصادى مستقل ، وان ينزل باعدائه نوعا من الضغط الاقتصادى ، فكان هذا بمثابة اعلان لاستقلاله الاقتصادى عن بيزنطة، وهو عمل لم يجرؤ أحد من أسلافه على القيام به » ٠ وأجاب جستنيان الثانى باعلان الحرب سنة ٦٩٣ م ، وربما قطع التجارة ايضا ٠ وقد يكون هذا سبب اقفار قبرص من سكانها الذين عاشوا على تجارتهم مع الشام ، وقد يكون هذا أيضا سبب ثورة أسطول كبير هايوت الذى كان يرابط باقليم تربطه علاقات تجارية هامة مع مصر سيما فى تجارة الخشب ، وهذا يفسر دور تجار رافنا فى اسقاط الامبراطور وقد كانوا يصدرون الخشب لمصر من زمان بعيد ٠ وجاء تيبريوس الثانى ، فقرر اعادة اهل قبرص ، ولعله حاول التوصل الى سلام اقتصادى مع الامويين ، لكن عودة جستنيان الثانى الى العرش سنة ٧٠٥ م حملت معها الصراع ٠ والوليد ايضا قد تابع سياسة ابيه سنة ٧٠٩ م وهو الذى سن انظمة جوازات السفر لسكان مصر وربما طبق ذلك فى اجزاء اخرى من دولته ، وتقدمت اساليب الرقابة « **وصارت الامويين دولة عربية اسلامية منظمة على أساس من الوعى الذاتى ، وتجرى على خطة معادية لجاراتها ٠ وهكذا انتهت تلك الايام ــ ايام التجارة الحرة التى عرفها القرن السابع** ، واقبل على الناس عهد جديد » ٠ وفرض حكام

بيزنطة اشرافا اقتصاديا مماثلا ، وضيقوا على الراغبين فى الانتقال للبلاد العربية ، وعادوا الى نظام الرقابة على التجارة الذى كان قد جرى عليه جستنيان وخلفاؤه تجاه الدولة الساسانية ، والذى كانت التجارة الخارجية وطرق نقلها فيه أداة لخدمة الدولة ومصالحها والدفاع عنها - وهو نظام لم يكن قد عدل عنه تماما فى القرن السابع . ومن أمثلة ذلك اصرار بيزنطة على توجيه التجارة نحو ميناء خرسون الخاضع لاشرافها الدقيق ، وقد استخدمت بيزنطة الحرب الاقتصادية حوالى ٧١٥ - ٦ م يشد ازرها الاسطول ضد اقاليم الدولة الاموية وضد بعض جيرانها الاخرين « والظاهر أن بيزنطة اغلقت البحر المتوسط فى وجه السفن والتجارة القادمة من البلاد العربية ما دامت هذه لم تسر فى المسالك البحرية التى رسمتها وتتبع التعليمات التى اصدرتها ، وعلى هذا لايبدو غريبا ان تقلع فى العام التالى الى القسطنطينية عمارة بحرية اسلامية كبيرة (ثم حصار القسطنطينية ايام سليمان ٧١٧ م\ ٩٨ هـ) .. غير أن بيزنطة لم تكن تستطيع الاستغناء عن جميع منتجات العالم العربى : فالتوابل والبضائع الشرقية التى يقوم العرب فى تجارتها بدور الوسيط هى مواد ضرورية لسلامة الاقتصاد البيزنطى . وعلى هذا لم تحاول بيزنطة فرض حصار شامل اطلاقا ، وخصصت ميناء او اثنين لاستقبال تلك التجارة وفرضت عليهما رقابتها ، ويذكر لنا الجغرافيون العرب ان طرابيزون كانت الميناء الوحيد لدخول جميع التجارة العربية الى بيزنطة فى القرن السابع ، ومع هذا فان قيام ذلك النظام قبل عام ٧١٦ م أو بعده مجرد استنتاج فان طرابيزون التى كانت مركز التجارة العربية البيزنطية قامت بعدة وظائف اخرى لحكام القسطنطينية أولها - انها اعطتهم ميناء فى البحر الاسود آمنا ، بعيدا عن الهجمات البحرية، الثانى - أن البيزنطيين باتخاذهم تلك المدينة نهاية التجارة العربية حولوا تجارة الحرير والتوابل التى يحتاجون اليها الى طريق العراق الذى لا يتهددهم منه خطر بحرى وابتعدوا بها عن سوريا ومصر ، وهما المركزان البحريان لاعدائهم الامويين . ويحتمل ايضا قيام القسطنطينية نفسها بمهمة الثغر الثانى لاستقبال وخروج التجارة العربية » . وهكذا وجدت التجارة الشرقية سبيلها عن طريق البر عبر آسيا الصغرى ، أو اتجهت صوب البحر الاسود الى طرابيزون حيث تنقلها سفن الروم الى القسطنطينية ، على اثر توقف المواصلات المباشرة بين الشام والامبراطورية اول الامر . وقد يسر للبيزنطيين مهمة الرقابة انتشار قوتهم البحرية فى البحر المتوسط منذ انتصارهم سنة ٧١٨ م وامتلاكهم

جزء البليار ـ وسردانية وقورسقة واشرافهم على مضيق سيناء بينما كانت الطريق الممتدة على سواحل البحر المتوسط الجنوبية بين مصر وشمالى افريقية وهى الواقعة تحت نفوذ المسلمين ـ شديدة الخطورة على الملاحة ، ولكن رعايا بيزنطة كانوا يحاولون هم أيضا أن يتملصوا من رقابة دولتهم ، فقد كانت التجارة مع الاقاليم الاسلامية عصب حياتهم الاقتصادية على أن الحصار الاقتصادى البيزنطى ادى الى آثار بالغة الأهمية « ففقدت سوريا مركزها التجارى حوالى سنة ٧٥٢م (أى بعد سقوط الامويين) وفقدت مدنها الساحلية اهميتها كذلك ، ولم تعد قادرة على حشد الأساطيل لأكثر من ٢٠ عاما . وسقطت خلافة الأمويين عقب انكسارهم البحرى والاقتصادى على أيدى البيزنطيين ، ثم انتقلت الخلافة الى العباسيين فاقاموا سلطانها فى العراق حيث تمر التجارة الهامة الى طرابيزون ، وهبطت دمشق الى مستوى المراكز الاقليمية ذات الدرجة الثانية » (٥٤) .

ويلقى ارشيبالد لويس مسئوليه الحالة التى انتهى اليها البحر المتوسط وتجارته فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى كما صورها على بيزنطة التى أسرفت فى استخدام كل مالديها من وسائل الحرب البحرية والاقتصادية لاحراز النصر ، ولكن هنرى بيرين صاحب الكتاب الذائع ((محمد وشرلمان)) وغيره من الابحاث فى الموضوع يرى الامور من زاوية اخرى . وخلاصة نظريته ان دخول المسلمين حوض البحر المتوسط افقده طابعه الذى لازمه طول العصور القديمة ، وبدلا من أن يظل واسطة الاتصال بين الشرق والغرب أصبحت مياهه حدا فاصلا بينهما . واذا كانت الدولة البيزنطية قد وفقت فى حماية بحر ايجه من المسلمين الى حد ما فان أوربا الغربية قد عجزت امامهم حتى سادوا حوضه الغربى والبحر التيرانى وحصروا السواحل الجنوبية لغربى أوربا معتمدين على مراكزهم فى المغرب والاندلس وجزائر صقلية وسردانية وقرسقة والبليار التى ملكوها ، فامتنع ركوب البحر على أهل غالة وشرقى ايطاليا « واستحال عليهم أن يخرجوا فيه بسفين » . كما يقول ابن خلدون . وجاءت امبراطورية الكارولينجيين برية صرفة على حين كان البحر مفتوحا فى عهد الميروفنجيين ومن سبقهم من الرومان . وكان لهذا اثاره البعيدة فى أحوال اوربا الغربية الاقتصادية والاجتماعية

---

(٥٤) ارشيبالد لويس القوى البحرية والتجارية ترجمة احمد عيسى ص ١٣٢ : ١٤٣ وايضا
Runciman : Byz. Civ. p. 133.

خلال القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الميلاديين ـ حين بلغ عداء الجبهتين النصرانيه والاسلاميه ذروته . وبينما نجد حركة تجارية متواضعة بين بلاد المسلمين والبندقية وبعض المواقع البيزنطية على ساحل البحر التيراني مثل نابلي وامالفي نلاحظ توقف كل لون من التبادل التجارى بين غاله وبلاد المسلمين ، وقد هاجم المسلمون سواحل أوربا النصرانية فى عنف متصل حتى اوائل القرن الحادى عشر،وتوقفت الملاحة والتجارة ، لان التجار الذين عرفهم غربى أوربا قبل القرن التاسع كانوا يعتمدون اعتمادا تاما على البضائع الواردة من الشرق عبر البحر المتوسط . وعلى هذه التجارة الشرقية عاشت المدن الرومانية التى ظلت عامرة الى اواخر العصر الميروفنجى اى نهاية القرن الثامن الميلادى . وكانت نتيجة النشاط البحرى الاسلامى « اقفال البحر الابيض الغربى » على حد تعبير بيرين La fermeture de la Mediterranée occidentale وهو يقول « طالما ظل البحر الابيض مسيحيا كانت الملاحة الشرقية هى التى تقوم بعبء التجارة مع الغرب ، وكانت مصر والشام مركزيها الرئيسيين . وكانت هاتان الولايتان الغنيتان أول ما وقع تحت سلطان المسلمين .. ولم تتوقف تجارة التوابل أو صناعة البردى ، ولم يتوقف النشاط فى الموانى .. وعلى هذا فقد استمرت التجارة ، ولكن اتجاهها هو الذى تغير . ومن الطبيعى أن الفاتح (المسلم) منع رعاياه من المتاجرة مع بلاد النصارى طول فترة الفتوح، وعندما هدأت الحرب واستقر السلام عمد الاسلام الى توجيه التجارة فى الوجهات الجديدة التى فتحتها أمامها فتوحه ، لقد انفتحت طرق تجارية جديدة ربطت بحر قزوين بالبحر البلطى عن طريق نهر الفولجا . ومن المؤكد ان الاضطراب الذى كان لابد أن يلازم حركة الفتح الاسلامى للشام ولمصر قد اوقف الملاحة مؤقتا .. **وابتداء من منتصف القرن السابع اصبحت الملاحة ـ من موانى البلاد الاسلامية وموانى بحر ايجة مع البلاد التى ظلت نصرانية ـ مستحيلة . اما من الموانى البيزنطية وما كانت تحميه من السواحل المحيطة بها فقد ظلت الملاحة قائمة فى حماية الاسطول البيزنطى** . واستمر الاتصال مع الأقاليم الاغريقية من بلاد اليونان والبحر الادرى (الادرياتى) وايطاليا الجنوبية وصقلية.. وبدأ المسلمون يهاجمون صقلية ابتداء من سنة ٦٥٠ م .. ثم بدأ فتح الاندلس عام ٧١١ م وكانت النتيجة ان اصبح كل لون من الملاحة البحرية مستحيلا فى البحر الأبيض الغربى ، ولم يعد فى استطاعة بقية الموانى النصرانية ان تحتفظ باتصال ملاحى فيما بينها . وهكذا نستطيع ان نقرر **ان الملاحة**

توقفت من حوالى سنة ٦٥٠ م مع كل البلاد الشرقية الواقعة شرقى صقلية ، وانه خلال النصف الثانى من القرن السابع توقفت الملاحة تماما فى شواطىء الغرب جميعها . ويبدو توقف هذه الملاحة تماما فى أوائل القرن الثامن . لم تعد هناك ملاحة فى البحر الأحمر الا فى السواحل البيزنطية .. وخلال القرن التاسع نجد المسلمين يستولون على الجزائر ويخربون الموانى .. **لقد انكسرت الوحدة الاقتصادية للبحر الأبيض وستظل كذلك حتى الحروب الصليبية** » . واهم نتائج هذا التغيير فى اوضاع البحر المتوسط سرعة تحول العالم الاوربى الغربى الى عالم زراعى قارى لا صلة له بالبحر ، وقد جر ذلك بدوره الى نتائج أخرى ، اذ وقع غربى أوربا بين حصار النورمانديين من الشمال وحصار المسلمين من الجنوب وغارات الافار والمجر من الشرق : « وكان نتيجة هذا الحصار الشديد وما تبعه من اختفاء التجارة واضمحلال المدن ، أن تحول المجتمع فى غربى أوربا الى مجتمع زراعى صرف واصبح الناس جميعا يعيشون على نتاج الارض وحده مباشرة وغير مباشرة .. ويمكن القول ان غلبة نظام الاقطاع على غربى أوربا خلال القرن التاسع ، كان النتيجة السياسية لتحول المجتمع الاوربى الى مجتمع زراعى خلال هذا القرن » (٥٥) .

ولا يوافق ارشيبالد لويس على ما وصل اليه بيرين فيقول « رأى المؤرخ بيرين ماحل بالبحر المتوسط من خراب ، ولكنه أخطأ التحرى عن المسئول عن ذلك . **كان البيزنطيون لا العرب كما زعم هم الذين دمروا الوحدة القديمة التى ربطت اجزاء البحر المتوسط بعضها ببعض ذلك ان بيزنطة استخدمت فى حرب الحياة أو الموت التى كانت بينها وبين الامويين جميع مالديها من وسائل الحرب البحرية والاقتصادية** لاحراز النصر فى المدة بين ٧١٥ : ٧٥٢ م وتكون بيزنطة قد دمرت بعملها الوضع الاقتصادى القديم لعالم البحر المتوسط وهيأت المسرح لظهور حياة أخرى جديدة » (٥٦) .

ويذكر الدكتور حزين اشارة ابن خرداذبة الى رحلات التجار اليهود الراذانية بين الغرب والشرق ، واشارته الى رحلات التجار الروس الذين يأتون عن طريق جنوبى روسيا الى بحر قزوين وبغداد أو يسلكون

---

(٥٥) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ نقلا عن Pirenne : Mohammed et Charlmagne

(٥٦) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ـ ترجمة احمد عيسى ص ١٤٥ .

الطرق البرية خلال الاندلس والفرنجة ثم يعبرون الى المغرب الاقصى فافريقية فمصر فدمشق فالكوفة فبغداد ثم يسيرون شرقا حتى الصين، ويرى أن هاتين الاشارتين تجعلان من الواضح انه **حتى الجزء الأخير من القرن التاسع الميلادى لم يكن الشرق الاسلامى حاجزا دون الاتصال المباشر بين طرفى العالم ، وعلى ذلك ينبغى ــ على الاقل ــ تاجيل تاريخ مثل هذه القطيعة حتى القرن العاشر الميلادى (٥٧) .**

ومضى حكام القسطنطينية فى سياستهم الاقتصادية ازاء اقاليم البحرين الابيض والاسود خلال **القرن الثامن الميلادى** (اواخر القرن الاول الهجرى ، ومعظم القرن الثانى الهجرى) وكانت بيزنطة قد تفوقت بحرا من ٧٥٢ م ، فاستمر الضغط البرى عليها من جانب الفرنجة والبلغار والعباسيين . وحيل بين سفن التجار المصريين والسوريين وبين الوصول الى غرب البحر المتوسط . وربما كان لسياسة العباسيين فى مواصلة سياسة الامويين الخاصة بالرقابة التجارية وتقييد حركة التنقل أثر فى اغلاق غربى البحر فى وجه المسلمين ، ولكن الأرجح أن سياسة القسطنطينية وحدها هى التى ادت الى هذه النتيجة. **واستمر قصر دور التجارة الشرقية اللازمة لبيزنطة خاصة ولبلاد الغرب عامة عبر ثغر طرابيزون على البحر الاسود ، وهذه التجارة هى المستوردة من الوسطاء العرب فى بلاد فارس والعراق** . وربما سمحت بيزنطة لبعض التجارة ان تمر عبر مصر والشام ، على أنه من المؤكد أن هذا كان يخضع لاشراف دقيق ، ولا بد أنهم اشترطوا أن تاتى السلع الى القسطنطينية أولا . ووصلت بعض منتجات شرقية اخرى كالمنسوجات الحريرية والتوابل بيزنطة عن طريق بلاد الخزر الى ثغرخرسون حيث الاشراف الدقيق ، وقد ظل هذا الثغر بالنسبة لتجارة الشمال اكبر منفذ لتجارة الفراء والرقيق وسائر المنتجات الروسية التى تحكم فيها الخزر كوسطاء ، اما تجارة البلغار فاتجهت صوب سالونيكا والقسطنطينية والظاهر انه وجد **تراخ ملحوظ فى تنفيذ تعليمات الرقابة زمن ايرين** (وصية ــ ٧٨٠ : ٧٩٠ م ٧٩٢ : ٧٩٧ م ــ امبراطورة ٧٩٧ : ٨٠٢ م) حيث كانت التجارة تسير فى حماية اسطول الشام الذى واصل العباسيون الاهتمام به على الرغم من بقائه غير قوى ، وكان من الصعب على بيزنطة اغلاق جميع طرق التجارة البحرية من قواعدها فى كريت وصقلية وقبرص ومالطة وقوصره . ويتضح مما كتبه ابن خرداذبة عن

---

(٥٧) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 154:6.

الطرق فى عصر العباسيين الأوائل ان الطريق الرئيسية بين الرقة ومصر لم تسلك سبيلها الى الساحل ، بل سارت فى الداخل من الرقة الى دمشق واقتربت من الساحل فقط عند جنوبى فلسطين ، ولم يتبع الطريق بين مصر وشمالى افريقية الطريق الرومانية الساحلية بل سلكت فى الداخل مجموعة من الواحات الصحراوية . وتعذر انتقال السفارات بين الكارولنجيين والعباسيين عبر المسالك البحرية التى تسيطر عليها بيزنطة بين الشرق والغرب ، فسلك معظمها طريقا ملتوية . على أنه رغم القيود البيزنطية نشط التجار البنادقة فى تصدير الرقيق والخشب لمدن الشواطىء الاسلامية حتى حذر ليو الخامس رعاياه فى أوائل القرن التاسع (لا سيما البنادقة) من الاتجار مع سوريا ومصر - وهذا يدل على انتشار هذا التعامل من قبل وعلى ان البيزنطيين كانوا لا يرون فيه حرجا كما يستنتج (هيد) بحق ، ويحتمل وجود محاولات مشابهة لوقف التعامل التجارى المحظور بين جزر بحر ايجة وشواطىء آسيا الصغرى من جهة وبين مصر والشام من جهة أخرى . وقد دفعت محاولات بيزنطة المسلمين الى اتخاذ اجراءات انتقامية مما ادى الى هجرة كثير من المسيحيين من الشام الى قبرص والأناضول سنة ٨١٣م. وربما كانت بيزنطة ترد بمحاولاتها تلك على ثورة توماس الصقلى ٨٢١ : ٣ م الذى تقبل العون من الاساطيل المحلية للولايات البيزنطية ومن المامون . **ولا شك ان فرض قيود دقيقة على التجارة مع سوريا ومصر كان معناه القضاء على رخاء البنود (الثيمات) البحرية وهى قواعد الاساطيل الاقليمية** . ويفسر اتجاه اللاجئين الاندلسيين من الاسكندرية الى كريت مباشرة بوجود محاولات للتهرب من القيود على التجارة ، وليس ببعيد وجود علاقات تجارية بين جزيرة كريت والاندلسيين اثناء اقامتهم بالاسكندرية . فى الجانب الغربى من البحر المتوسط نشأت علاقات تجارية بين البلاد العربية وبين ممتلكات تابعة لبيزنطة مثل أمالفى ونابلى وجاتيا من مدن البحر التيرانى .

على أن غالبية طرق التجارة الدولية فى البحرين الأسود والمتوسط ظلت تتجه عموما نحو المناطق التى تريدها بيزنطة مثل خرسون وطرابيزون والقسطنطينية وسالونيكا وصقلية وجاتيا وأمالفى ونابلى وبارى والبندقية. **ولعل نظام الرقابة على التجارة هو خير ما يفسر الصراع الطويل بين شرلمان**

وبين بيزنطة حتى عام ٨١٢م : اذ حاول أن يواجه قواعد الاحتكار التجارى البيزنطى فى ايطاليا ولا سيما البندقية .

وقد أدت الرقابة البيزنطية الى تغيير وسطاء التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، فابتداء من سنة ٧١٦ م حالت التدابير الاقتصادية البيزنطية دون وصول التجار السوريين والمصريين الى أسواق الغرب ، وانتهى الأمر بأن **حددت بيزنطة عددا معينا من المنافذ التجارية** واشترطت الا تسلك التجارة غيرها ، بل جعلت توزيع البضائع الثمينة كالحرير والتوابل احتكارا لتجار تلك المنافذ التجارية ومن سمح لهم بالقدوم اليها لأغراض التجارة : فمن خرسون قام الخزر بتصدير البضائع البيزنطية الى روسيا وممتلكاتها ، ومن طرابيزون عاد التجار العرب والأرمن بالبضائع الى بلادهم ، ومن صقلية قام تجار شمالى افريقية بتوزيع بضائع القسطنطينية على سكان المغرب الاقصى . ثم أخذت هذه المدن ترسل سفنها الى مصادر التجارة والى القسطنطينية لتربح من نقلها بجانب توزيعها . **ولقد ظلت القسطنطينية مركز التقاء جميع طرق التجارة من الشمال والجنوب والشرق والغرب ولكنها لم تتول الا القليل من عمليات الاستيراد والتصدير ، ولذا انتقلت الاهمية التجارية أكثر فأكثر الى أطراف الدولة وأدى هذا الى قيام قوى بحرية عند أطراف الدولة استطاعت مخالفة السياسة البيزنطية ، وتاجرت مع الموانىء الاسلامية فى شمالى افريقية ومصر والشام .**

وبازدياد خروج عمليات نقل التجارة من أيدى البيزنطيين الى أيدى الأغراب البعيدين ، ازداد التدهور الملحوظ فى قوة أساطيل الأجناد البيزنطية فى بحر ايجة وكبيرهايوت ، وهذا يفسر ضعف بيزنطة البحرى فى أوائل القرن التاسع وهكذا انتهى هذا النظام البيزنطى الى نوع من السلبية الاقتصادية والى ضعف بحرى « وأخذت بيزنطة طريق الركود الاقتصادى : شأنها شأن ضحيتها سوريا ومصر . حقيقية كانت بيزنطة لا تزال غنية ولا تزال قوية ، ولكنها لم تستطع أن تحافظ المحافظة الواجبة على نظام الرقابة على تجارة البحر المتوسط الذى أقامته ضد اعدائها » .

ويبدو أن أكثر توابل الشرق وحريره ومنتجاته وردت الى القسطنطينية وعالم البحر المتوسط عن طريق الطرق الساسانية القديمة : البرية التى تسلك فارس ، أو البحرية التى تسلك الخليج الفارسى الى البصرة ثم بغداد التى غدت مدينة عالمية كبرى .

ونشط التجار المسلمون فى مياه الشرق الأقصى حتى وصلوا الصين، **وانتقلت عن طريق العراق كميات من بضائع الشرق الى البحر الاسود الذى كان المدخل البيزنطي لتجارة العرب • وأصبحت أرمينية بحكم عبور التجارة الى طرابيزون أشبه ما تكون بدولة حاجزة بين دولتين كبيرتين وان** خضعت بصورة أوضح **للنفوذ العباسي** ، وقد بلغت درجة كبيرة من الثراء والرخاء • **وربما لم يشجع العباسيون استخدام طريق البحر الاحمر لنقل تجارة الشرق بسبب حرصهم على زيادة رخاء العراق مثلما فعل الساسانيون** ولكن السبب الأقوى هو أن بيزنطة لم تشجع ورود هـــذه التجارة عن طريق البحر المتوسط ، رغم ازدهار تجارة البحر الاحمر فى أوائل عهـد الأمويين •

وتقول الروايات العربية ان المنصور طم القناة الموصلة للبحر الأحمر سنة ٧٦٢م لقطع أوصال فتنة وقع فى الحجاز ، ولكن الأرجح أن ذلك كان لتحويل التجارة للعراق مركز قوة العباسيون ووجد الرشيد من صرفه عن فكرة وصل البحرين الأبيض والأحمر بحجج شتى •

وحوالى عام ٨٠٠م اختفت تجارة البحر الاحمر الا من أيدى اليهود وحدهم • وشاهدت موانى مصر على البحر المتوسط وموانى الشام ركودا الا بعض رحلات من الأخيرة لعلها بلغت القسطنطينية • ونزح عدد من المسيحيين من هذه السواحل سنة ٨١٣م تحت ضغط العباسيين ، ويدل بقاء استخدام الذهب فى الشام على استمرار بقاء التجارة بينها وبين مصر والقسطنطينية على أن أحوال قبرص الواقعة بين شواطىء الشـــام وبين الامبراطورية البيزنطية دون أن يتسلط عليها أحدهما أو كلاهما تدل على أن التجارة بين تلك الأقاليم المتجاورة لم تتكن على جانب كبير من الانتعاش ، ومن هنا تدهورت مدن قبرص فى تلك الفترة •

وما يقال عن نهايات طرق تجارة البحر المتوسط فى الشام ومصر يقال مثله عن نهايات الطرق فى غربى هذا البحر • ولم يفلت من هـذا الركود الاقتصادى الذى أصاب بلاد البحر المتوسط سوى الامبراطورية البيزنطية ذاتها وايطاليا معها (٥٨) •

وشهد **القرن التاسع** الميلادى (أواخر القرن الثانى الهجرى ، معظم القرن الثالث الهجرى) عهدا جديدا فى تاريخ البحر المتوسط ، بدأ باغارة

---

(٥٨) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ــ ترجمة أحمد عيسى ص ١٧٤ : ١٩١ ، ١٩٥ •
Runciman : Byz. Civ. pp. 133-4.
Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 52-3.

للمسلمين على صقلية ثم استيلائهم على كريت سنة ٨٢٧م • فعادت الامبراطورية البيزنطية الى مواجهة قوة بحرية معادية وأخذت السيطرة على البحر المتوسط تنتقل الى المسلمين الذين انتشروا على الشواطىء الجنوبية لذلك البحر من جبال طوروس حتى جبال البرانس ، ولم يأت القرن العاشر الا وقد انتقلت السيادة الكاملة فى البحر المتوسط للمسلمين• **غير انه لم يكن هناك نظام موضوع لسيطرة تامة الا بالمعنى العام ، ولم توجد وحدة سياسية وبحرية شاملة تضم جميع البلاد الاسلامية المحيطة بالبحر المتوسط • وأهم القوى الاسلامية : قوة متوسطة ربطت صقلية بشمالى افريقية تحت حكم الاغالبة ثم الفاطميين ، والى غربها قوة الأندلس، والى شرقها قوة تتكون من كريت المستقلة ومن أساطيل طرسوس وهى فى حكم المستقلة وأساطيل الشام ومصر •**

وقد توحدت هذه القوة تحت حكم الطولونيين والأخشيديين ولكن ذلك لم يدم • وكان أول المستفيدين من سيطرة المسلمين البحرية من الوجهة الاقتصادية هم سكان صقلية وسكان شمالى افريقية بصفة خاصة • وتمتع الشام بالرخاء أيضا رغم تأثر بعض الاقاليم بالصراع بين العباسيين والطولونيين والاخشيديين وبين الاسرات الصغيرة الحاكمة فى دمشق وحلب وطرسوس ، وانتعشت طرابلس وبيروت وصور سائر الموانى الساحلية لاعادة فتح البحر أمام التجارة الاسلامية ، وعاد التجار السوريون الى البحر ثانية رغم أن مجال تجارتهم ظل أكثر انحصارا فى نطاق محلى من مجال تجارة اخوانهم أهل المغرب الذين اتجهوا الى مصر والقسطنطينية ، وعظم الرخاء ــ التجارى والصناعى ــ فى حلب ودمشق وبيت المقدس •

وانتشر الدينار الذهبى شرقا وغربا ، وصارت بلاد العالم الاسلامى مرتبطة تجاريا داخل وحدة اقتصادية واحدة ، وفى أواخر القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر اختفى الدرهم الفضى من العراق وايران والمحيط الهندى وانتشر الدينار الذهبى أيضا وبقيت الفضة للاستخدام المحلى والثانوى والتعامل التجارى مع روسيا وغربى أوربا فحسب • وانتشر نظام الجوازات المعمول به فى مصر والموروث عن الأمويين شرقا حتى بغداد ، وشاعت أساليب حكومية واقتصادية مماثلة من الاندلس الى التركستان، **وأشرفت الدولة الاسلامية بدقة على تجارة الصادر والوارد واقتضاء العشور من التجار • وليس ثمة دليل على محاولة الشعوب الاسلامية التحكم فى التجارة الذاهبة الى الامبراطورية البيزنطية أو الخارجة منها** ، وكان تعدد الدول الاسلامية يحول دون تطبيق مثل هذه السياسة لو وجدت ــ وسمحت فترات السلام الطويلة بين المسلمين والبيزنطيين بكثير من

النشاط التجارى بين الطرفين ، فظلت القسطنطينية أواخر القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر مدينة قوية غنية وبقيت عملتها نقية متداولة .

واستمرت طرابيزون المنفذ التجارى الذى تتلقى بيزنطة عن طريقه الحرير والتوابل والعطور وبضائع العراق وفارس من بلاد شرقى العالم الاسلامى ، كما استمرت خرسون المدخل الوحيد لمنتجات روسيا ونهاية طريق تجارة الحرير الذاهب الى الصين ـ وهو الطريق الذى ظل طويلا تحت اشراف الخزر ، وفرضت ضريبة العشر على الواردات . واتجر البلغار والروس الفارنجيون مع القسطنطينية ، وقد حافظت بيزنطة على صلاتها مع بلاد الغرب اللاتينية عن طريق المدن التجارية الايطالية ، ولكن أنشط علاقات بيزنطة التجارية كانت مع المسلمين الذين أمدوها بما تحتاج اليه من الحرير والتوابل والعطور **وعدل اباطرة القسطنطينية عمليا فى اساليب الرقابة الموجهة ضد التجار المسلمين فى البحر المتوسط** ، ويبدو أنه كانت هناك محاولة لاجتذاب التجارة الاسلامية فى البحر المتوسط الى القسطنطينية ، وأقيمت وكالتان بها لتجار الحرير الفاخر وتجار التوابل والعطور ، وعومل التجار المسلمون الذين حملوا المنسوجات الحريرية والكتانية معاملة أفضل من سائر التجار الاجانب ، ولقى السوريون ترحيبا خاصا وهم يحملون معهم العطور والمنسوجات البغدادية . وشاهدت هذه الفترة تعاملا أكثر حرية من جانب القسطنطينية مع بلاد البحر المتوسط الاسلامية . على أن الرقابة الحكومية الاقتصادية لم تخف الا قليلا . اذ تطلب النظام الامبراطورى البيزنطى تنظيما دقيقا لأحوال الصناعة فاق ما عرف عند المسلمين فى مصر وشمالى افريقية ، ويؤكد كتاب المحتسب The Book of the Prefect مدى اتساع تلك الرقابة المرة بعد المرة .

وقد تضمنت قصة القديس الياس الكاسترو جيوفانى خبرا ذا دلالة : فقد تنقل الرجل داخل بلاد المسلمين بحرية تامة ، على حين قبض عليه كجاسوس فى ايطاليا البيزنطية . وكان البيزنطيون يجعلون لأنفسهم وحدهم الحق فى أنفس الاقمشة ، والحكومة وان لم تحرم تصديرها بصورة رسمية الا أنها وضعت فى سبيل ذلك مختلف العقبات .

ونحن نرى ليتبراند Liutprand أسقف كرمون Cremone فى نهاية سفارته الثانية يحتجز موظفو المكوس منه خمسا من أنفس قطع الحرير ، رغم تأكيده بأنه اشتراها للكنيسة وبتصريح الامبراطور . على أن ليتبراند لم يتعرض لمثل هذه المعاملة فى زيارته الأولى سنة ٩٤٩م .

وقد كانت البضائع تمر مهما كانت القيود صارمة أو هينة ، وكان

التجار يتحايلون برشوة موظفى المكوس أو تجنبهم كلية بسلوك طرف بعيدة عن مراكزهم ، وهكذا وصلت البضائع المحظورة الى جهات ايطاليا مرات متعددة وبكميات ليست بالقليلة • والغالب أن ميزان التجارة البيزنطية مع العالم الاسلامى كان فى صالح البيزنطيين ، لأن أقمشتهم الحريرية الرقيقة والمطرزة ومصنوعاتهم الدقيقة كانت موضع التقدير فى الشرق والغرب ، لكنها ربحت أكثر فى تجارتها مع أوربا وروسيا •

على أن كميات الحرير التى كانت تنتجها المصانع الامبراطورية فى القسطنطينية لم تكن كافية قط لاحتياجات البلاط والدولة ، وكان الأباطرة خلال القرن التاسع الميلادى ـ والعاشر أيضا يشترون الاقمشة الواردة من مصر الى القسطنطينية والأشياء المصنوعة فى الشرق عموما والتى تدل أسماؤها على أصلها ، من أجل زينة قصورهم وبهاء حاشيتهم •

وكانت المصانع الخاصة أكثر عجزا عن الدفاع بمطالب التجارة فقد كانت تشكو منافسة مصانع الدوالة وفداحة الضرائب ، وقد حرمها الفتح الاسلامى من أسواق هامة • وقد كان التاجر القادم الى القسطنطينية يجد عند مقدمه أنواعا متعددة من الحرير المحلى والأجنبى ، وقد اشتهرت العاصمة البيزنطية كسوق تحوى أكبر كمية من أنواع الحرير • وكان الطلب يتجه خاصة الى الأقمشة الارجوانية التى كانت تعدها المصانع الامبراطورية باتقان ، واكتفت بيزنطة بأن تكون مجالا للتجارة دون أن تعمد الى الاتجار لحسابها الخاص ، ولم يتحمس البيزنطيون لنشر تجارتهم فى البلاد المجاورة كما لاحظ هيد Heyd وديل Diehl فيقول هيد : ان البيزنطيين بوجه عام لم يبذلوا كثيرا من الجهد لتوزيع المنتجات المحلية الآسيوية المكدسة بمخازنهم فى الأقطار المجاورة • فقد كان الأباطرة يرغبون أن يبهروا أعين الأمراء الأجانب بجودهم وهداياهم الغريبة ، وهكذا أحبوا استعراض الواردات الثمينة فى القسطنطينية ولم يعرفوا ميزة السياسة التجارية الواسعة النطاق والتى تيسر لشعوب أخرى الحصول على هذه الأشياء الفخمة • وقصر التجار البيزنطيون نشاطهم على الحصول على الضروريات اللازمة تاركين للمغامرين الاجانب مصاعب الرحلات التجارية البعيدة ومخاطرها • وكان يرضى كبرياءهم أن يروا السفن التجارية لمختلف أمم أوربا فى ميناء القسطنطينية ، وأن تغدو (سيدة المدن) مركز تجارة الغرب ، اما أن يفقدوا باهمالهم احسن الفرص لزيادة ثروتهم ـ فقد كان شيئا أقل اهمية فى نظر البيزنطيين وما كان أيسر عليهم لو أرادوا أن يلقوا بالبضائع بالجملة فى أسواق

أوربا ـ خاصة جهات أوربا التى كانت علاقاتهم بها وثيقة ، ولكنهم آثرو أن يقدم الى القسطنطينية أهل تلك الجهات ٠

وقد ساعدت الايطاليين مواهبهم التجارية على الافادة من هذه الظروف حتى صاروا بمضى الوقت الموردين الموحدين لمنتجات حوض البحر المتوسط الشرقى فى أرجاء الغرب ٠ وفى هذه الفترة ظهرت شمال افريقيا وأسبانيا وصقلية كمناطق صناعية هامة : تستغل مناجمها وترقى بصناعاتها وزراعاتها ، وتسيطر على تجارة البحر المتوسط القاصدة الى الشرق والمخترقة طرق الصحراء الى ذهب السودان ، كما عاد الرخاء الى الشام ومصر وعادت التجارة الى البحر الأحمر ٠

والغالب ان سياسة المسلمين ازاء تجارة أوربا اللاتينية كانت هى سياسة السماح التى اتبعوها مع بيزنطة (٥٩) ٠

وساعد على نشاط المسلمين فى التجارة الشرقية امتداد دولتهم نحو الشرق ٠ وتسابق المسلمون والبيزنطيون فى السيطرة على أسواق الروس (الصقالبة) ، وقد وصف ابن خرداذبة فى القرن الثالث الهجرى طريقهم من أقصى بلاد روسيا الى العراق : مارين ببلاد الخزر حيث يجبى صاحبها منهم المكوس ومنها الى بحر جرجان ثم يحملون متاجرهم من جلود الثعالب السود والسيوف على ظهور الابل الى بغداد ٠

وفى سنة ٣٠٩ هـ ـ ٩٢١ م اتصل الخليفة بملك الفلجا ، وأسلم الملك وشعبه فى العام التالى ٠ وحين تولى آل سامان حكم الجزء الشمالى الشرقى من دولة الاسلام حفظوا تخوم البلاد وضمنوا للتجار الوافدين الربح ومعظم النقود العربية التى اكتشفت فى شمال أوربا ترجع الى القرن الرابع الهجرى وأكثر من ثلثها من نقود السامانيين ٠

وكانت بلاد الروس منذ ذلك العصر الى ما بعد الحروب الصليبية هى الطريق بين شمالى أوربا وبين الشرق ٠ على أن المسلمين لم يستطيعوا مزاحمة البيزنطيين فى روسيا بعد أن اعتنق أهلها المسيحية على مذهب كنيسة القسطنطينية ، وفشل البلغار فى تحويل فلاديمير أمير كييف الروسى الوثنى الى الاسلام ٠ فتولى أمير كييف حراسة التجار البيزنطيين خلال مسيرهم فى نهر الدنيبر الجنوبى ، واضطلع الروس بصد خطر بلغار

---

(٥٩) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ـ ترجمة أحمد عيسى ص ٢١١ ، ٢٥٠ : ٢ ، ٢٥٨ ـ ٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ : ٨ ، ٢٧٥ :
Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 53:6.

القرم عن اجتياح منطقة خرسون ، وفى مقابل ذلك منحت الدولة البيزنطية سفن الروس تسهيلات فى البحر الأسود ، وخلا الجو للروس والبيزنطيين تماما بتخريب عاصمة الخزر على أيدى فرع من النورمان سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م ركبوا نهر الفلجا ، فغدا الروس يقصدون بلاد الخزر وديار الاسلام مباشرة حاملين متاجرهم ولكن عمل الخزر كوسطاء فى تجارة الشمال ٠

وقد نشأ عن التقدم التجارى ازدهار الجاليات الاسلامية فى كثير من الأطراف التى تغلب عليها غير المسلمين فكان لا يرأس الجالية الا مسلم وكان افرادها لا يقبلون غير حكم المسلمين فيهم مهما قلوا : مثلما حدث فى بلاد الخزر والسرير واللان وغانة وكوغة وصيمور (الهند) ، وكان بالصين وكوريا جالية اسلامية ، أما فى بيزنطة فكان لا يسمح لتجار المشرق بالاقامة أكثر من ثلاثة أشهر ، وكانت إكبر جالية لهم فى طرابيزون (٦٠) ٠

ومن وجهة النظر الاقتصادية يمكن القول باستمرار الأحوال على ما هى عليه فى عالم البحر المتوسط الاسلامى بين لشبونة ودمشق خلال **القرن العاشر** ، الميلادى (أواخر القرن الرابع الهجرى) ، على الرغم من ضعف بحرية العالم الاسلامى وانتعاش بحرية بيزنطة وعلى الرغم من الانقسام السياسى فى الاندلس وشمالى افريقية ٠ ولم يؤثر تغير ميزان القوى على الرخاء الاقتصادى فى أقاليم البحرين الأبيض والأسود والأندلس واتسعت زراعة الحاصلات الشرقية وازدادت حركة التجارة وشاع استخدام الدينار الذهبى ٠ وشاركت الامبراطورية البيزنطية العالم الاسلامى فى الرخاء ٠ **وأدى توسع البيزنطيين فى شمال الشام واستيلاؤهم على انطاكية وسيطرتهم على حلب الى زيادة قوتهم التجارية التى دعمها ما كان لهم من سلطان على شمالى العراق ٠ وللمرة الأولى منذ القرن السابع الميلادى وقع فى أيديهم افضل طرق التجارة من العراق والخليج الفارسى الى البحر المتوسط ٠**

ومع أن معظم تجارة الشرق الذاهبة الى البحر المتوسط جاءت عن طريق عدن والبحر الأحمر - وهو الطريق الواقع تحت سلطان الفاطميين ، الا أن طرق التجارة الساسانية القديمة ظلت محتفظة بأهميتها ودليل ذلك

---

(٦٠) متز : الحضارة الاسلامية - ترجمة دكتور ابى ريدة حـ ٢ ص ٢٧٣ : ٥ ، دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٣٠ : ٤ ، ابن خرداذبة المسالك والممالك ص ١٢٤ ٠
Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 57:74.

يتمثل فى المعاهدة التى عقدت أواخر القرن العاشر بين القسطنطينية وبين حكام المسلمين فى حلب ، ومن شروطها : أن يكون للموظفين البيزنطيين فى المدينة حق تحصـــيل العشر على كل الوارد من الحرير الخام والمخمل والأحجار الكريمة والحلى النفيسة ، على حين يحصل الحكام المحليون ضرائب على المـلابس والـــكتان والماشية وسائر البضائع المســـتوردة من بلاد الامبراطورية •

ولقد غدت حلب احد المنافذ الرئيسية لتجارة بيزنطة مع العالم العربى فى الشرق ، حتى استثناها باسيل الثانى من قرار تحريم الاتجـــار مع الخلافة الفاطمية فى مصر اثر اضطهاد الحاكم للمسيحيين سنة ١٠١٥ م •

والغالب أن حلب أصبحت بدرجة كبيرة أهم قواعد التبادل التجارى مع فارس وبلاد الشرق بدلا من طرابيزون ، **ولا شك أن الطريق الى حلب وانطاكية كان أسهل كثيرا من الطريق المار فى جبـــال ارمينية الى البحر الأسود ، وادى نفوذ بيزنطة فى شمال الشام الى فقد ارمينية اهميتهـــا السياسية والاقتصادية** •

وقد أعقب ذلك اتباع بيزنطة لها وضمها الى امبراطوريتها فى القرن الحادى عشر • ويبدو أن الأرمينيين أنفسهم انتقلوا جنوبا بانتقال الطرق التجارية للجنوب ، وبحلول نهاية القرن الحادى عشر كانوا قد استوطنوا مدن جنوبى الاناضول وشمالى العراق بين الرها وأذنة ــ وعرف هـــذا الاقليم زمن الحروب الصليبية باسم أرمينية الصغرى • وازدهرت قبرص وغدت مركزا تجاريا غنيا عامرا وبلغت القسطنطينية ذروة الرخاء ، ولكن استمرت على سلبيتها فى مجال التجارة الأجنبية ، مع مواصلة اشراف الحكومة على التجارة الخارجية • وقد جرت محاولات لمنع ارسال السفن المحملة بالخشب والحديد والسلاح الى المسلمين ومنع الاتجار مع الفاطميين، على أن الاتجار لم ينقطع طويلا وبقى بعض التجار البيزنطيين يترددون على موانى الشام ومصر ، لكن أغلب التبادل التجارى كان يتم على أيدى التجار المسلمين (٦١) •

وجنت بيزنطة من الحياة الاقتصادية المستقرة فى الشام ثمارا طيبة طالما كان فى استطاعتهما متابعة علاقاتها التجارية مع الشرق « وقد اتيح للامبراطورية البيزنطية والخلافة الاسلامية من فترات السلام ما أعانهـــا على تبين أهمية قيام العلاقات التجارية بينهما ، فقد ظهر التجار البيزنطيون

---

(٦١) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ــ ترجمة أحمد عيسى ص ٢٣٢ : ٦ ،
Runciman : Byz. Civ. p. 183., Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. p. 43.

فى كثير من المدن العربية، كما كان التجار يفدون الى بيزنطة لانجاز أعمالهم وأصبحت طرابزون فى القرن العاشر أهم مركز للاتصالات التجارية بين بيزنطة وتجار المسلمين وقال عنها المسعودى « لها أسواق فى السنة يأتى اليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم » ٠

وكانت العلاقات الاقتصادية مع العرب غاية فى الأهمية لبيزنطة ولم تكن أهميتها لتقتصر على الناحية التجارية فحسب ، بل كانت تعزز مكانتها الدولية كذلك بالنسبة لعرب آوربا ، اذ كان أكثر تجارة الشرق الاسلامى ينقل قبل فترة الحروب الصليبية عن طريق بيزنطة ، وكانت هذه تجنى دخلا عظيما بفضل قيامها بدور الوسيط بين الشرق والغرب ولكن الصليبيين أقاموا علاقات تجارية مباشرة بين أوربا والشرق ، حتى أن ازدهار بيزنطة الاقتصادى تلاشى بعد ذلك بقليل ٠ وانتهى دور السيادة الاقتصـــادية الى المدن الايطالية وعلى رأسها البندقية وجنوة ٠ (٦١م) ٠

(٦١م) فازيليف : بيزنطة والاسلام ـ فصل من كتاب Byzantium ملحق بكتاب بينز : الأمبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٧١ : ٣ ، وايضا ص ٢٨٢ : ٦ ٠

ثانيا : الثغور فى المجال الثقافى

كانت أراضى الهلال الخصيب على اتصال بالصحارى العربية من جهة ، وكانت أطرافه الشمالية بصفة خاصة على اتصال بالهضبة الشمالية فى ايران وشرقى آسيا الصغرى من جهة أخرى ، مما أتاح مجالا خصبا لانتقال الافكار من هنا وهناك . وعلى مقربة من الهلال الخصيب كان هناك العالم الاغريقى ذو الطابع البحرى ، وقد تميز بتوسعه وتغلغله التجارى فى أراضى الهلال الخصيب خاصة فى فترات الرخاء والسلم النسبية ، وهكذا لم يتوقف دخول الآراء الجديدة الى أراضى الهلال الخصيب منذ فجر المدنية .

وتحركت هجرات عربية من صحراء العرب الى بلاد الشام . على ان لبنان كانت واقعة تحت تأثير عناصر قادمة من جهات الهضاب ، وكانت السهول الساحلية تضم بجانب سكان الهضاب والصحارى عناصر من جزر البحر المتوسط الشرقى . وأدى وجود مواضع منعزلة فى أنحاء الشام الى بقاء الجماعات القديمة التى لم تنصهر مع بقية السكان . ويختلف الجانب السورى من الهلال الخصيب فى هذا الصدد عن جانب الجزيرة والعراق حيث كان يتم تمثل الجماعات الصغيرة بصورة أيسر .

وفى خلال الكثير من فترات تاريخ الهلال الخصيب كانت سهوله مسرح نزاع بين الهضاب والصحراء ، كما كانت الهضاب معبراً للتحركات الجماعية من المراعى الشمالية فى التركستان .

وتعتبر حلب من اقدم مراكز المدنية فى هذه المنطقة ، كما وجدت مناطق التجاء عند شعاب الجبال التى تكتنف سهول الهلال الخصيب مثل جبل سنجار . وقد استمر تسرب المؤثرات الثقافية من الهضبة الى الهلال

الخصيب حتى عند ذروة المد السامى• وقد شقت الافكار الفارسية طريقها عبر هضبة الأناضول وسهول الهلال الخصيب الى عالم البحر المتوسط ، وكان عليها ان تصارع فى عنف المؤثرات الاغريقية خلال عبورها آسـيا الصغرى • كما توغلت الثقافة الفارسية داخل بلاد العرب قبل الاسلام ، وخلف النشاط التجارى للفرس آثارا بينة حتى اليمن ، بل امتد النفوذ السياسى الفارسى الى هناك فى نهـاية القرن السادس الميلادى ، وواصل الفرس تاثيرهم الثقافى داخـل نطـاق الدولة الاسـلامية بعد سقوط امبراطوريتهم • وكانت انطاكية من جهة أخرى نقطة هامة للاتصال ومركزا كبيرا للفكر اليونانى فى الشام •

وقد تأثرت اخلاقيات المسيحية خاصة فى الكنيسة الشرقية بالفلسفة اليونانية ، وكذلك كان الحال بالنسبة للثقافة الاسلامية فيما بعد• وقد كان التبادل التجارى بين غربى آسيا وشرقيها يجعل من بعض السلع مثل المنسوجات الحريرية والمصنوعات المعدنية والزجاج والخزف خير وسيط لتبادل المؤثرات الفنية بين مختلف الاقاليم ، كما ان اجتماع التجار من مختلف البلاد فى المراكز التجـارية المختلفة ، كان من شـأنه تحقيق الاتصال بين مختلف الثقافات • وكانت الطرق التجارية تمهـد السـبيل للأهداف الثقافية(٦٢) •

وقد تعـددت صور العـلاقات بين المسلمين والبيزنطيين ، وكانت الثقافة احدى جوانبها وكان أمام الفريقين مورد الثقـافة اليـونانية وقد أكب على تراثه البيزنطيون من قبـل وتمثلوه وعلموه • والتقى المسلمون بهذه الثقافة فى الولايات البيزنطية وبعض الاراضى الفارسية التى بسطوا سلطانهم عليهـا • ويقـول ديمومبين « ان الامبراطوريتين ـ الاسلامية والبيزنطية ، على تنافسهما بحكم الموقع الجغرافى والتقاليد التاريخية ، وتعاديهما نظرا للخلاف الدينى ـ كانت كلتاهما ممثلتين للفكر الاغريقى وحفيظتين عليه • وكانت القسطنطينية ـ الوريثة الطبيعية ـ قد تركت

---

(٦٢) Hyzayyin : Arabia and the Far East. pp. 1-2, 14-5, 25, 217-8.

هذا الفكر يتضاءل حتى لم يعد له سوى مظهر باهت فى الادب والدين ٠٠ أما الفكر الاسلامى الذى أخذ يتجه أيضا نحو ايران والهند فقد كان أكثر اخلاصا للتراث الهلينى(٦٣) »

على ان الدولتين الاسلامية والبيزنطية كانتا تشتركان في مظاهر أخرى ، فالوحدات الثلاثة التى كانت قائمة في العصور الوسطى وقتئذاك: الاسلام ، والمسيحية اليونانية ، والمسيحية اللاتينية ـ كان لكل منها رابطة قوية من الوحدة الثقافية داخل أراضى كل كتلة « وكان الدين فى غالب الامر العامل الاكبر فى تحديد تخوم تلك الكتل ، غير ان هذه الكتل الثلاثة جميعا كانت وارثة الامبراطورية الرومانية وقد صارت الى المسلمين فى الاراضى التى ورثوها عن الروم تقاليد فى القانون والادارة والمالية ، بل حتى فى الفلسفة والأدب والعمارة » ٠ وقد كان على المسلمين أن يمضوا فى عملية اختيار وانتقاء ، ثم ادماج وصهر ، حتى يبدعوا ثقافتهم المتميزة « ولا يلبث الدارس أن ينتبه رويدا رويدا الى التباين المتناهى وراء القناع البهيج الزاهى ، ومع هذا فلا بد من أن يشهد فى النهاية بقيام تلك الوحدة فى التكوين الروحى ، كما يشهد بقوة التكيف المدهشة ٠٠ والحضارة الاسلامية تبدو كانما تلتهم كل شىء صادفته ، ولكن الواقع انها كانت تتخير غذاءها تخيرا دقيقا ، فلقد تقبلت ـ بل التمست ـ فى الخارج كل مساهمة من شأنها أن تساعدها على الاحتفاظ بذاتيتها مهما تغيرت الظروف(٦٤) » ٠

وقد كان للتراث الهلينى وضعه الخاص بالنسبة للفكر الاسلامى «ففى الغرب بقيت لغة الحضارة باقية بعينها أما فى الشرق فقد تغيرت اللغة وتغير الدين ، فكان لا بد لتراث الاوائل الضخم من أن يبدأ أولا فيصبح عربيا اسلاميا : واذا كان تراث الاوائل فى الغرب قد استطاع أن يغزو شعوبا جديدة ويكسبها لنفسه شيئا فشيئا وبقوة متزايدة وأن يمر بأشخاص كثيرة حملته ، فانه كان لا بد للطبقة الحاملة لمشعل الحضارة الهيلينية فى الشرق من أن تصبح اسمية ٠ فكأن تراث الأوائل قد اصطدم اذن فى الشرق بأفكار جديدة ، بينما هو فى الغرب قد اصطدم باناس جديدين فحسب(٦٥)» ولاغرو أن تقوم الشام والعراق ـ وأعاليهما

(٦٣) Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. p. 326.

(٦٤) جرونيباوم : حضارة الاسلام ـ ترجمة جاويد ص ١٢ ، ١٤ ، ٤٠٦ ـ ٧ ٠

(٦٥) كارل هينرش بكر : تراث الأوائل في الشرق والغرب ـ من كتاب دكتور بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ص ٦ ٠

بوجه خاص ـ بدور هام فى عمليات الامتزاج الحضارى والتبادل الثقافى من قديم ، بحكم موقعهما الجغرافى الذى ييسر لهما الاتصال بما حولهما ، وقد تحقق هذا الاتصال على مدار التاريخ • والمؤرخ الفيلسوف توينبى يرى الحضارة الاسلامية مؤلفة من اتحاد مجتمعين شقيقين : هما المجتمع الايرانى والمجتمع العربى ، وان هذين المجتمعين يرجعان فى نسبهما عبر ألف عام من الحقبة الهيلينية فى الشرق الى أصل الحضارة السريانية القديمة ، ويرجع التعقيد الذى يتصف به تاريخ المجتمع السريانى ـ أصل الحضارة الاسلامية فى نظر توينبى ـ الى ما خالطه وشاع فيه من العناصر الأشورية والهيلينية الدخيلة • ولكن توينبى يحاول رغم ذلك التعقيد أن يعرفه بقوله : « عندما نرد المجتمع السورى الايرانى Syro-Iranian أو السريانى Syriae الى أصله نجد ان **سوريا هى موطنه الاصلى** ، وان الفينيقيين والفلسطينيين والاسرائيليين والآراميين ـ هم شعوبه السورية(٦٦) » • وقد كان لمنطقة شمال الشام والجزيرة دورها الثقافى فى عالم الفكر اليونانى قبل الاسلام ، فنحن نقرأ فى القرن السادس الميلادى عن الفيلسوف النصرانى يوحنا الابامى ـ نسبة الى Apamea (أفامية أو فامية فيما بعد) والطبيب الفيلسوف سرجيوس الرأس عينى (نسبة الى رأس عين) ، والطبيب ايتيوس Aetios الآمدى(٦٧) •

واستمرت هذه المنطقة تؤدى دورها الحضارى فى ظل الدولة الاسلامية ، وقد روى ان الحجاج سأل زادان فروخ عن العرب فى الامصار فقال عن أهل الشام « نزلوا بحضرة أهل الروم •• فأخذوا من ترفقهم وصناعتهم وشجاعتهم(٦٨) » •

(أ) الاتصال الثقافى فى مدن الحدود :

انتقلت الحضارة الاغريقية زمن سيادة الاغريق والرومان الى الشام والعراق ، ثم امتزجت مع المسيحية واعتنى أهل الشام بها ، فترجموا فى الاديرة ما يتعلق بالدين والدنيا • واستمرت الحياة الفكرية فى القسطنطينية وآسيا الصغرى والشام ومصر والمغرب فى نفس اتجاهها قبل المسيحية ، بحيث يمكن القول ان حوض البحر المتوسط كانت تسوده

(٦٦) منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبى ص ٥٧ : ٩ •

(٦٧) ماكس مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد ـ من كتاب دكتور بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ص ٤٣ •

(٦٨) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٤٨ •

قبل الاسلام ثقافة اغريقية لاتينية غلب عليها الروح المسيحى • وقد كان الفكر فى العالم البيزنطى وثيق الصلة بالاصول الاغريقية القديمة ، ومن هنا « لم تختف طلاوة الفكر الاغريقى ونقاؤه ، بل فتحا لنشاطهما ميدانا جديدا ، لقد انتقلت خصائص ذلك الفكر اليونانى من ميدان الفلسفة الوثنية الى ميدان اللاهوت المسيحى، والى هذا الميدان الجديد نقل مشاكله ومعاركة القديمة » على حد تعبير مارشال F.H. Marshall • وفى كل نواحى الانتاج الفكرى البيزنطى نجد الصور القديمة نماذج يحتذيها الناس فيما يكتبون من أدب مسيحى ، والمسافة قريبة جدا بين زوزيموس Zosimus آخر أعلام المؤرخين الوثنيين وبروكوبيوس مؤرخ جستنيان المسيحى • بل ان الفكر السريانى الذى بلغ أوجه فى القرن السادس الميلادى كان يحمل بوضوح طابع الفكر الاغريقى القديم ، فقد نهج يعقوب السروجى وفيلوكسين المنبجى ويوحنا الايسورى ويعقوب البردعى السريان المسيحيون على نهج قدماء الاغريق وفلاسفتهم • وأخرجت سوريا نفرا من أعلام الفكر اليونانى المسيحى مثل بروكوبيوس من قيصرية الشام ، ويوحنا مالالاس من انطاكية ، وبروكوبيوس الغزى ، ودوروتيوس واناتوليوس القانونيين من بيروت، **وقامت مدارس الطب فى الرها وحران وانطاكية** على ترجمة مؤلفات أطباء الاغريق الى السريانية • ووجد النساطرة الذين اضطهدتهم الامبراطورية البيزنطية لأنفسهم مأوى عند الفرس ، وفى سنة ٣٥٠ م أسس كسرى أنوشروان مدرسة فى **جند يسابور** بغربى فارس لدراسة الطب والفلسفة • وواصلت حران نشاطها الفلكى • (٦٩) • وقد انتشرت المدارس خلال الشرق الرومانى ، ومن ذلك قيصرية فى كابادوكيا وقيصرية الجديدة ناحية بنطس ومنها مدارس فى قيليقية وبامفيليا • وكانت الاسكندرية مركز الدراسة لاقليم الجنوب ، كما جدت معاهد فى قيصرية بفلسطين وحمص على الحدود العربية ، وفى القرن الخامس ذاع فى الشرق صيت بعيد لمدرسة الخطابة المسيحية فى غزة بينما كانت **انطاكية وافامية وخلكيس وحمص** فى سوريا تفخر باساتذتها المشهورين• والى انطاكية ينسب الخطيب المشهور ليبانيوس المتوفى سنة ٣٩٣ م ، والمؤرخ اميانوس مارسلوس (٣٣٠ : ٤٠١ م) الذى كان جنديا لمع فى

---

(٦٩) هل : الحضارة الغربية ــ ترجمة دكتور العدوى ص ١٠٦ ، دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ــ المجلة التاريخية المصرية م.٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ •

معارك غالة وبين النهرين أكمل تاريخ تاسيتوس واحب انطاكية وفاخر بها . (٧٠) .

ودخلت فى رحاب الدولة العربية هذه المراكز الثقافية الزاهرة : مثل انطاكية فى الشام وقيصرية وغزة فى فلسطين ، ثم الاسكندرية بوجه خاص ، وصارت بكتابها ومدارسها ومتاحفها وبيئتها العامة المشبعة بالحياة الفكرية القوية والتقاليد الهيلينية القديمة - جزءا من الدولة الاسلامية . وأصبحت للثقافة الاغريقية أثرها الكبير فى الحياة العقلية العربية . وازدهرت الرها المركز المسيحى ، وحران المركز الوثنى، وانطاكية المستعمرة الاغريقية القديمة كثيرة العدد ، والاسكندرية ملتقى الفلسفتين الشرقية والغربية ، وغير ذلك من المراكز الشامية والعراقية التى لا حصر لها والتى كانت تدرس فيها العلوم والفلسفة بجانب البحوث الدينية . **ولقد كانت الغارات المختلفة على ارض الروم ونجاحها فى أيام الرشيد سببا فى حصول العرب على كثير من المخطوطات اليونانية، وبخاصة من عمورية وانقرة** Ancyra وكانت الثقافة الهيلينية الارث المشترك الذى استطاع ان يقرب ما بين بيزنطه ودولة الخلافة بعد فتح العرب للشام ومصر ، ولكن العرب كانوا لا يعرفون اليونانية ، وكان عليهم فى مبدأ الامر ان يعتمدوا على الترجمات التى يقوم بها رعاياهم من غير المسلمين وبخاصة النساطرة . ولقد أصبح هؤلاء النساطرة الذين ترجموا أولا الى اللغة السريانية ومنها الى العربية حلقة الاتصال بين الفلسفة الاغريقية والاسلام . (٧١) وفى ظل الحكم الاغريقى - كانت الطبقة الحاكمة الاغريقية فى سوريا تتكلم اليونانية وكانت الآرامية هى اللغة العادية فى سوريا والعراق - وهى لغة قريبة الى العربية ولكنها تغايرها . والآرامية عموما لغة المرتفعات الشمالية والاقاليم الداخلية ، فى حين استعملت العبرية فى المنخفضات واقتربت من اللغة الفيقية المستعملة على الساحل . وتشبعت الآرامية الى مهجات كثيرة وانتشرت فى منطقة كبيرة ، وانتشرت احدى لهجاتها أو مجموعة من لهجاتها فى وقت متأخر بين السكان المسيحيين فى سوريا والعراق متخذة الرها مركزا لها ، وعرفت بالسريانية ، « **وكانت هذه السريانية**

(٧٠) Byzantium بينز : الامبراطورية البيزنطية - ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٠٨ ، رستم : الروم ج ١ ص ١٥٠ - ١ .

(٧١) فازيلييف : بيزنطة والاسلام - ملحق بترجمة كتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية للدكتور مؤنس وزايد ص ٣٦٠ ، ٣٧٤ حتى : تاريخ العرب . ترجمة نافع ج ٢ ، ص ٣٨٥ - ٦ .

الارامية – على حد تعبير أوليري – هى الطريق الرئيسى الذى عبرته الثقافة الاغريقية الى شعوب الشرق الادنى)) . وظلت سوريا قرونا تحت سلطة السلوقيين (السليوكيين) الاغريق فصرفت الشئون العامة بالاغريقية ، « وكان هذا (التهلين) سطحيا من غير شك ، ولكنه ترك طابعا خاصا . ثم أتى الحكم الرومانى فلم يجلب معه ثقافة جديدة ، ولكنه قوى النفوذ الاغريقى الموجود بالفعل . واخيرا جاءت الكنيسة المسيحية ، فكانت أكثر أغريقية فى نفوذها مو السلوقيين أو من الدولة الرومانية . ولقد وضعت الكنيسة يدها فى يد الدولة الرومانية بعد أيام قسطنطين » وتم الاعتراف بأولية كنائس روما وانطاكية ثم بعد بعض التردد بالاسكندرية ، ولأسباب عاطفية أعطيت كنيسة بيت المقدس (أورشليم) مرتبة مماثلة ولو أنها فى الحقيقة كانت تتبع انطاكية . وكانت الكنيسة المسيحية فى عهدها الأول « قوة تهلينية » فى جوهرها على حد تعبير أوليرى « فكانت الاغريقية لغتها ، وكان انتشارها الاول بين هؤلاء الذين تكلموا الاغريقية وعاشوا على النمط الاغريقى ... ولقد استعملت المسيحية اللغة الاغريقية حتى فى روما نفسها » . ويبدو أن الرغبة فى السلامة من التعرض للاضطهاد أدت الى الاتجاه الى تكوين كنيسة مزدهرة فى بين النهرين خارج حدود الامبراطورية الرومانية ، وهذه الكنيسة الواقعة فى منطقة الرها وما حولها عاشت حياتها الخاصة، وكانت أكثر من أى شىء آخر هى التى احدثت تهلين هذه المنطقة عبر الحدود . وكانت كنيسة بين النهرين عبر الحدود تعتبر داخلة فى ابرشيه انطاكية ولكن اسقفها فى وقت اسبق كان يحمل لقب كاثوليكوس « وحيث تكونت الكنيسة هكذا نموذجا للامبراطورية الرومانية هيأت المجتمعات المسيحية للنمط الهيلينى ، لا فى العراق فحسب بل كذلك فى فارس . وهذه الانماط مطبقة على النظم الاجتماعية – هيأت الطريق للثقافة الاغريقية » . (٧٢) .

وفى أخبار سنة ٢٦٩م أن من تولى تفنيد أضاليل بولس السميساطى هو ملكيون (رئيس مدرسة العلوم اليونانية فى انطاكية) . وفى سنة ٢٩٠ م اتفق لوقيانوس السميساطى الاصل ودور وثاوس وبعض رجال الدين على جعل دارهم مدرسة لتدريس الاسفار المقدسة وشرحها . كما يذكر أن يوسطانيوس أسقف انطاكية أسس مدرسة بها

---

(٧٢) اوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب – ترجمة دكتور تمام حسان ص ٦٠ ، ١١ ، ٢٦ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٥ : ٧ .

يقلد مدرسة الاسكندرية الكبرى بعـــد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م « وقد أصبح ديودوروس أسقف طرســوس (المتوفى ســنة ٣٩٣م) وتيودور أسقف موبسيوستيا (المصيصة) (المتوفي سنة ٤٢٩م) فى التقدير العام قادة علماء اللاهوت فى الكنيسة السورية التى تكلمت الاغريقية وتبعت انطاكية ، واعتبرت كتاباتهما بالاغريقية حصون العقيدة فى سوريا وكانت هناك منافسة بين انطاكية والاسكندرية ... » واشــتهر من الادباء الانطاكيين يوحنا الذهبى الفم المتوفى سنة ٤٠٧م والذى نفى فى ثنايا جبال طوروس ثم بلاد بنطس . **وهكذا أصبحت انطاكية العاصـمة الفكرية لسوريا الشمالية** . وقد تعلم فيها آريوس ونســـطوريوس كلاهما . وكانت الدروس فى انطاكية تستمر فى أشهر الشتاء والربيع ويخصص الصـيف للاحتفالات والاعيـاد . وشكلت العلوم الكلاسيكية اليونانية نواة المنهج المدرسى ، وكان للمنطق أهمية وحظى أرسطوبمكانة خاصــة ويجمل الدكتور رســتم الطابع الفكرى لمدرسة انطاكية بقولة « كانت مبادىء مدرسة انطاكية توجب فى كل موضوع بساطة فى المنهج، وكمالا فى الايضاح ، وادراكا فى تعليم الايمـان . وكانت تؤثر الأخذ بظاهر النصوص المقدســة فتبتعد كل الابتعاد عن التأويل . وكانت تعتمد أرسطو أكثر من افلاطون . ومن ثم كانت هذه الفروق بينها وبين مدرسة الاسكندرية (ولهذا السبب تميز مدرسة انطاكية بين اللاهوت والناسوت فى شخص المسيح الواحد ...) » وكانت بيروت المدينـة الوحيدة من بين مدن سوريا البيزنطية التى نافست انطاكية فى الزعامة الفكرية وذلك لوجود مدرسة الحقوق بها . وقد وصلت هذه أرقى مراحلهــا فى القــرن الخامس الميــلادى عندما اجتذبت بعض المفكرين المتازين فى الامبراطورية البيزنطية .

وقد أسس الاسقف يعقوب مدرسة فى **نصيبين** تلت انشاء مدرسة انطاكية بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م وكان غرضها نشر اللاهوت الاغريقى بين المسيحيين الذين يتكلمون الاغريقية . غير أن هذه المدرسة تعرضت للمتاعب ، ثم ضاعت أخيرا حين سقطت نصيبين فى يد الفرس ســنة ٣٦٣م . وعاود رئيسها افرام السريانى عمله فى **الرها** ، فكان هنــاك اتصال طبيعى بين جهود المدرستين ، حتى **أن مدرسة الرها ربما اعتبرت بعثا لمدرسة نصيبين** . وأول من ورد ذكره من طلاب الرها لوقيانوس ، ثم يوسيبيوس الرهاوى أسقف حمص المتوفى سنة ٣٥٩م . وفى أواخر القرن الرابع الميلادى تتابعت اعمال الترجمة من الاغريقية الى السريانية، ووصل نسطور تلميذ مدرسة انطاكية الى كرسى بطريركية القسطنطينية

سنة ٤٢٨م . وحدث الانشقاق الشهير نتيجة جدل فى طبيعة العذراء : هل هى ام للمسيح بطبيعته الجسدية أم بصفته الالهية ؟؟ وتزعمت الاسكندرية المعارضة ضدنسطور الذى كان يرى فى العذراء (والدة المسيح) لا (أم الاله) لانها ولدت انسانا لا اله اللاهوت ، وهى (قابلة) الآله لا غير . ونجحت الحملة ضد نسطور وانتهت بعزله ، لكن ايدته مدرسة الرها . وتعرض النساطرة لاضطهاد الروم ،واغلق الامبراطور زينو مدرسة الرها سنة ٤٨٩م . وهاجر المعلمون النسطوريون من الاراضى المسيحية الى بلاد الفرس ، وكان قد سبقهم الى الهجرة برصوما رئيس المدرسة فقابلهم واغراهم **بالاقامة فى نصيبين حيث افتتحوا مدرسة نسطورية خالصة . « وقد جاءت هذه المدرسة سليلة مباشرة لمدرسة نصيبين** ، وأصبحت فيما بعد جامعة مركزية عظيمة للمجتمع النسطورى » . واستطاع برصوما ان يكسب ثقة الملك الفارسى فيروز الذى علم بقدرته على مفاوضة الرومان « فأطلعه على تحصينات الحدود، ثم بعث به فى مهمة لتفتيش الحدود مع المرزبان الفارسى (dux عند الرومان) وملك العرب . ويجب ان يكون هذا قد حدث قبل صيف سنة ٤٨٤م حين مات فيروز » . وهكذا لعبت مناطق الحدود دورا خطيرا فى الحركة الثقافية بين الفرس والروم « **ويبدو التحويل الدائم للثقافة الاغريقية — فى صورة سريانية معدلة — من الرها عبر الحدود الفارسية الى نصيبين** ، حيث انتشرت فى النهاية الى المجتمع النسطورى ووصلت الى العرب . وانها لحلقة واضحة فى سلسلة النقل ، ولكنها حلقة قد كادت تنكسر فى بعض الاحيان ، ثم تجددت » . وانتشر النشاط التبشيرى النسطورى فى الاقاليم المحيطة ، حتى امتد الى الجنوب الغربى فى بلاد العرب قبل وقت طويل ، ثم الى الشرق عبر آسيا الوسطى حتى الشرق الاقصى . ويبدو ان كثيرا من نصارى الحيرة كانوا على المذهب النسطورى واستعملوا السريانية فى صلواتهم . وتقدمت البعثات النسطورية الى الجنوب حتى وادى القرى — الواقعة الى الشمال الشرقى من المدينة — وكانت معسكرا لحامية رومانية لم يكن جنودها من الرومان ولكنهم كانوا من المرابطين من قبائل قضاعة ، وكان معظم هذه القبائل من النصارى أيام النبى . على أن الثقافة الاغريقية لم تنتقل الا عن **طريق جند يسابور** ، فقد كان كسرى الاول (٥٣١ : ٥٧٨م) رغم حربه للروم معجبا بالثقافة الاغريقية الرومية ، فأكرم الفلاسفة الذين طردوا على أثر اغلاق مدرسة اثينا أيام جستنيان ، **وأنشأ مدرسة جنديسابور** على نهج مدرسة الاسكندرية الذى كان قد اتبع فى حمص

أيضا • وكان فى جنديسابور عند انشائها كمخيم للسجناء مواطنون يتكلمون الاغريقية وآخرون يتكلمون السريانية ، وينبغى أن يكون بعض السكان قد استعمل الفارسية كذلك ، ويبدو أن الأغريقية قد أهملت بطول الوقت وجرى التدريس بالسريانية كما كان الحال فى نصيبين وفى المدارس النسطورية الاخرى وان كانت دراسة الاغريقية كلغة قد استمرت•(٧٣) وظهر فى تاريخ الكنيسة اليعقوبية «القائلة بالطبيعة الواحدة لكلمة الله المتحدة» اعلام من منطقة الجزيرة مثل يعقوب السروجى أسقف حورا من ابرشية سروج (٥٠٢ - ٣م) وفيلوخينوس من تلاميذ مدرسة الرها مضارضى النسطورية ونصف أسقفا على هيروبوليس (منبج) ، ومارا أسقف آمد الذى كان من الذين طردهم جستين سنة ٥١٩م ونفى مع ايسيدور اسقف قنسرين الى بطره (البتراء) • وكان يوحنا الافتونى John of Aphtonia من المضطهدين فى عهد جستين ، وكان رئيسا لدير القديس توما فى سلوقية ، فلما طرد من ديره **انشأ ديرا آخرا فى قنسرين بجانب الرها** ((وازدهر هذا الدير فى بداية القرن السابع بدراسة الاغريقية وغشيه كثير من أحبار اليعاقبة ، ولم يكن لليعاقبة مدرسة قط كمدارس النساطرة نصيبين وجنديسابور - ولكن هذا الدير كان مركزا ثقافيا لا يقل عن هذه المدارس • وصارت المراكز الكبرى للدراسات اليعقوبية فى **اديرة مارمتا ثم طور عابدين على الفرات الأعلى الذى يعتبر أكبر دير فى العراق ثم قنسرين بقرب الرها** وكثيرون من المطارنة كانوا بين خريجى الدير الاخير » • وقد أرسل جستنيان يوحنا الافسوسى أو الآسيوى الراهب الذى كان قد هرب من ديره توقيا للاضطهاد الى آسيا الصغرى لتبشير الوثنيين حول أفسدوس ، وقد لقى يعقوب البرذعى فى القسطنطينية • واشتهر عالم سريانى فى العصر المتأخر هو سيفيروس سيبحت أسقف قنسرين (المتوفى ٦٦٦ - ٧م) وقد كتب فى موضوعات لاهوتية ومنطقية وفلكية • ويبدو أنه اتجه لنقل الارقام الهندية • « ولقد كان اليعاقبة مجدين وناجحين فى التبشير فقطعوا الصحراوات فى حمية بنى غسان ، وكانت ادباين وبيت عربايا مما حول طور عبدين منطقة يعقوبية وكذلك **ارمينية** والمنطقة التى حول جبل عزلا M. Izla الى الشمال قليلا من نصيبين،

(٧٣) اوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب - ترجمة تمام حسان ص ٦٩ : ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ : ٩ ، ٨٤ : ٦ ، ٩٠ ، ٩٩ : ١٠١ ، رستم : الروم جـ ١ ص ١١٣ : ٩ ، ١٢٣ : ٥ ، ١٤٩ : ١٥٤ ، ١٦٢ : ٣ ، حتى تاريخ سوريا جـ ١ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٣٩٤ : ٦ ، ٣٩٩ •

وكانت مدينة شيســـار Shissar مركزا يعقوبيا آخر ... وفى عهد جستنيان أرسلت الامبراطورة تيودورا مبشرا يعقوبيا الى أكسوم ، وقد شغلت اكسوم مكانا هاما فى السياسة البيزنطية أيام جستنيان . ولم يمض وقت طويل حتى بدأ ملك اكسوم يحاول بسط نفوذه على الشواطىء الجنوبية لبلاد العرب . وكان فى مكة كثير من العبيد والصناع الاحباش ومعظمهم كان مسيحيا من اليعاقبة .وكانت نجران مسيحية على المذهب اليعقوبى . وليس من الممكن أن نسمى مركزا يعقوبيـا يدعى انه نقل الثقافة الاغريقية بنفس الثقة التى تصـحب تسميتنا المركز النسطورى فى جند يسابور ، لكن هذا الاتصال لا يصح ان يتجاهل . حقيقة أن المـراكز التعـليمية اليعقوبية كانت اديرة وليســت مدارس كمدرسة جند يسابور ولم تكن لهذا واضحة الاتصال بالعرب كالمدرسة النسطورية ـ ولكنها كانت على اتصال » . (٧٤)

***

وحكم الاســلام هذه المنطقة التى ازدهرت فيها الثقافة اليونانية والنظم الرومانية ، وكانت الشـام قاعدة الحـكم الاموى حيث كانت دمشق العاصمة الرسمية مدينة لا تخلو من آثار الطابع الاغريقى وان لم تكن ذات صبغة هيلينية تامة كما كانت انطاكية ، وكانت مقر الاساقفة المسيحيين الذين كانوا بعد بطارقة انطاكية من حيث التدرج الاكليروسى. وقد كانت بها مدرسة ذات شهرة فى وقت الفتح العربى ، ولكنها لم تبلغ درجة مدرسة الاسكندرية ولا انطاكية واستبقت هذه المدرســة سمعتها بعد الفتح . وقد بدت آثار الفكر الاغريقى على الفكر العربى فى الشـام والعراق ، وربما وجدت هذه الاثار فى أكثر من منطقة واحدة منهما ، وربما انتشرت من منطقة الى أخرى . (٧٥)

وصار العرب ورثة الفكر اليونانى ، ولعب السريان دور الوسيط فى نقل هذا التراث اذ كانوا على اتصال باليونان لاكثر من عشرة قرون ، وكان علماؤهم فى القرنين السابقين لظهور الاسلام يعملون جاهدين فى نقل المؤلفات اليونانية الى السريانية . وهكذا فان الذين اتاحوا كنوز اليونان العلمية والفلسفية للفرس من قبل ، أصبحوا الآن يؤدون هذه الخدمة نفسها للعرب . (٧٦) ويذكر الفـارابى والمسـعودى وابن أبى

---

(٧٤) أوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب . ترجمة دكتور تمام حسان ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، ١٣٢ ـ ٣ ، ١٣٦ ، ١٣٨ : ١٤٢ .
(٧٥) المصدر السابق ص ٢١٠ ، ٢١٦ ـ ٧ .
(٧٦) حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٧٤ ـ ٥ .

أصيبعة نبأ **انتقال مدرسة الفلاسفة والاطباء من الاسكندرية ـ اذا حسبنا أنه لم يكن غير مدرسية واحدة هناك ـ الى انطاكية وحران فى** عهد عمر بن العزيز . ويحاول ما يرهوف تعليل هذا الانتقال بقوله « ... من بين الأسباب : تلك العزلة التى أصبحت الاسكندرية فيهـا منذ فتح العرب ، فقد فصلت عن بيزنطة بسبب حروب البحر المستمرة ، وكان لا مناص من ان تذهب عنها أهميتها الثقافية والاقتصادية منذ اصبحت دمشق مركزا لادارة الامبراطورية الاسلامية الجديدة ... وعلى كل حال فلابد ان يكون العلمـاء الذين يعرفون اليونانية قد تناقص عددهم ، ولابد ان حركة الترجمة الى السريانية التى بدأها بعض العلماء الاسكندرانيين فى القرن السادس الميلادى قد أصيبت بشلل كبير . ومن أجل هذا كان طبيعيا جدا ان تنتقل المدرسة الى الشرق الادنى فى المنطقة التى تتكلم السريانية . وليس فى الروايات مايدلنا على ان الخليفة عمر بن عبد العزيز نفسه قد اشترك فى نقل المدرسة أو كان السبب فى هذا الانتقال ... ولسنا نفهم كذلك لماذا أصبحت انطاكية الموطن الجديد للمدرسة ، نعم كانت هذه المدينة مركزا للثقافة العلمية اليونانية ، الا انها عانت الكثير من الاحداث فى القرون الاخيرة قبل أن يستولى عليها العرب (١٧ هـ ـ ٦٣٨م) ، فقد خربها غزو الفرس وخربتها الزلازل ، ونظرا لوقوعها على الحدود القلقـة بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية العربية بقيت فى العصر الاسلامى موضع نزاع مستمر . ومع هذا فلست أرى من غير الممكن ان تكون قد اختيرت ، **لأن هذا الموقع نفسه قد جعل من السهل احضار المخطوطات اليونانية من آسيا الصغرى لأن حركة التبادل كانت نشيطة دائما على الحدود فى الفترات الخالية من الحروب** . وكان القوم يجدون فى البحث عن امثال هذه المخطوطات ـ كما تبين لنا من كلام لحنين بن اسحق ، وذلك من أجل ايجاد مكتبة أو من أجل اكمال المكتبات القائمة من قبل . ومن المؤكد ان العناية فى المدرسة الحديثة اتجت الى الترجمة الى السريانية ... ثم ان مصادرنا الثلاثة تتفق فى ان مجلس التعليم قد انتقل من بعد من انطاكية الى حران ، وهذا الانتقال اسهل فى الفهم من انتقالها من الاسكندرية الى انطاكية لأن مدينة **حران تقع فى وسط منطقة الثقافة اليونانية فى المنطقة التى تكلم أهلها اللغة الارامية الشرقية ، وكانت الى جانب هذا نقطة مهمة للتبادل والاتصال** ، حتى أن آخر الخلفاء الامويين وهو مروان الثانى نقل مركز الخلافة أحيانا اثناء مدة خلافته اليها بالعراق الأعلى . وكانت الدراسات اليونانية متقدمة منذ زمن بعيد فى المنطقة كلها (كانت حران تسمى هلينوبوليس ـ مدينة اليونانيين)

وكان القائمون بها من النصارى والوثنيين على السواء . ويبدو ان المدينة كانت على صلة ببعث الثقافة الذى اثر فى الكنيستين النسطورية واليعقوبية ... وكتاب التنبيه يحدد الزمن الذى انتقلت فيه مدرسة انطاكيـة فيقول ان ذلك كان فى خـلافة المتوكل (٢٣٣ ، ٢٤٧ هـ) (٨٤٧ : ٨٦١م) فتكون المدرسة قد بقيت فى انطاكية ١٣٠ أو ١٤٠ سنة تقريبا قبل ان تنقل الى حران . (٧٧)

(ب) الاتصال الثقافى عن طريق الاسرى :

كانت الحروب بين المسلمين والروم متواصلة « وتقع الاسرى من كل من الجـانبين فى يد الاخـر ، فأسرى المسـلمين قد يذهبون الى القسطنطينية واسرى الروم الى العراق . والحكايات كثيرة فى التاريخ عن النوعين من الاسارى وخاصة فى عهد الرشيد ، فكان هذا سببا من أسباب امتزاج الحياة الاجتماعيـة واقتبـاس كل من كل . وليس من المعقول ان يمر هذا الاتصال ـ بحكم الروم لكثير من البلاد الاسلامية أولا ، ثم بالرق والاسر ، ثم باحتكاك الدائم السلمى أحيانا والحربى احيانا ـ من غير أن يترك بعضا من المسلمين يتكلمون الرومية وبعضا من الرومانيين يتكلمون العربية . فالـرقيق الرومى مثـلا فى البيوت كان يتكلم الرومية أولا بالضرورة ، ثم يتكلم العربية محرفة ، ثم العربية القريبة من الصحيحة ، وهكذا الشأن فى أسرى المسلمين فى الروم ان استقروا . وهذا يحمل بعض الافراد الراقين من الجانبين على ان يتبادلوا الآراء والافكار والكلام فى اللغة والادب . ويروى صاحب الاغانى فى ذلك خبرا طريفا فيقول : قدم رسول لملك الروم الى الرشيد فسأل عن أبى العتاهية وانشده شيئا من شعره ، وكان ـ أى الرسول ـ يحسن العربية ، فمضى ـ الرسـول ـ الى ملك الروم وذكره له ، فـكتب ملك الروم اليه ورد رسوله يسأل الرشيد ان يوجه بأبى العتاهية ويأخذ فيه رهائن من أراد ـ والح فى ذلك ، فكلم الرشيد أبا العتاهية فى ذلك فاستعفى فى منه واباه » (٧٨) .

ويروى المقدسى صورة لمعيشة اسرى المسلمين فى بلاد الروم فيقول :

---

(٧٧) مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد ـ من كتاب دكتور بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ص ٦١ : ٧١ ،
اوليرى :مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب . ترجمة دكتور تمام حسان ص ٢٥٨ .
(٧٨) احمد امين ـ ضحى الاسلام ص ٢٧٩ ـ ٨٠ .

« اعلم ان مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر ، شرط على كلب الروم بناء دار ازاء قصره فى الميدان ينزلها الوجوه والاشراف اذا اسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده . فاجابه الى ذلك ، وبنى دار البلاط ... ولا يسكن دار البلاط من المسلمين الا وجيه فى اجراء وتعاهد وتنزه ، وسائر الاسارى من عامة المسلمين يستعبدون ويستعملون فى الصنائع ، فالحازم الذى اذا سئل عن صنعته لم يقر بها ، وربما اتجر الاسارى بينهم وانتفعوا . ولا يكرهون احدا على آكل لحم الخنزير ، ولا يثقبون انفا ولا يشقون لسانا . ومن دار الكلب الى دار البلاط حبل ممدود فيه صورة فرس من نحاس ، ولهم أوقات يجتمعون فيها للعب واسم الملك وينطوا واسم الوزير براسيانا ، فاذا أرادوا ان يتفاءلوا فى لعبهم صاروا حزبين وأرسلوا الخيل حول الدكة : فان سبقت خيل حزب الكلب قالوا ، ستكون الغلبة للروم فصاحوا وينطوا وينطوا ، وان غلبت خيل حزب الوزير قالوا ستكون الغلبة للمسلمين فصاحوا براسيانا براسيانا : وذهبوا الى المسلمين فيخلعون عليهم ويصلونهم لكون الغلبة لهم » . (٧٩) وهذه الصورة التى ينقلها المقدسي لا شك ان مصدرها رواية احد الاسرى ، وهى تنبىء عن فرص للاتصال الاجتماعى والثقافى بين المسلمين والروم كان يتيحها الاسر للفريقين .

وقد روى المسعودى فى ثنايا كلامه عن فداء الأسرى الذى حدث فى عهد الواثق فى المحرم سنة ٢٣١هـ « والملك على الروم ميخائيل بن توفيل ، وكان القيم به خاقان الخادم التركى » : **أن من بين من أطلق فى هذا الفداء من أسرى المسلمين لدى الروم مسلم بن أبى مسلم الجرمى « وكان ذا محل فى الثغور ، ومعرفة بأهل الروم وأرضها** ، وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها ، واوقات الغزو فيها والغارات عليها ، ومن جاورهم من الممالك من برجان والابر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم (٨٠) » . ومن علم هذا الاسير الجليل استمد ابن خرداذبة قائمته لبنود الروم وذكر أن مسلم بن أبى مسلم الجرمى قال : ان أعمال الروم التى يوليا الملك عماله أربعة عشر عملا (٨١) .. الخ » .

---

(٧٩) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٤٧ ـ ٨ .
(٨٠) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٦٢ .
(٨١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٥ .

وقدم القسطنطينية عن طريق البحر مكبلا فى قيود الاسر **هارون بن يحيى** فى زمن باسيل الاول (٨٦٧ : ٨٨٦م) أو الاسكندر (٩١٢ : ٣م)، فوصف ما رآه من أبواب المدينة والبذرون (Hippodrome الهبدروم) والقصر الامبراطورى ، واستلفت نظره الأرغن الذى سمعه هناك ، ووصف موكب الامبراطور المهيب الى كنيسة أيا صوفيا ، كما وصف تمثال جستنيان وقناطر المياه وبعض الأديرة حول القسطنطينية . وفى طريقه من القسطنطينية الى روما زار سالونيك . وقد أعطى وصف هارون مادة طيبة لطبوغرافية القسطنطينية واحتفالات البلاط والاحتفالات الدينية (٨٢) . وقد روى ابن رسته صورة السباق « وعلى غربى الميدان مما يلى باب الذهب بابان يسوقون الى هذين البابين ثمانية من الخيل ، وهناك عجلتان من ذهب يشد كل عجلة اربعة من الخيل ، ويركب فوق العجلة رجلان قد البسا ثيابا متوجة بالذهب ... فأيها سبق صاحبها القى اليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب ، وكل من فى قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ويبصرون » كذلك روى ابن رستة صورة خروج الملك الى الكنيسة العظمى « ... ثم يقبل الملك ... وخلفه الوزير ... كلما مشى خطوتين يقول الوزير بلسانهم من رمونت ، وتفسيره اذكروا الموت ... فيسير كذلك حتى ينتهى الى باب الكنيسة ، فيقدم الرجل الطست والابريق ، فيغسل الملك يده ويقول لوزيره : انى برىء من دماء الناس كلهم ، لأن الله لا يسألنى عن دمائهم وقد جعلتها فى رقبتك ويخلع ثيابه التى عليه على وزيره ويأخذ دواة بلاطس - وهى دواة الرجل الذى تبرأ من دم المسيح - ويجعلها فى رقبة الوزير ... وعلى الباب الغربى من الكنيسة مجلس فيه أربعة وعشرون بابا صغارا كل باب شبر فى شبر ... معمولة على ساعات الليل والنهار ، فكلما انقضت ساعة انفتحت منها باب من ذات نفسها واذا انغلقت انغلقت من ذات نفسها » وابن رستة يعتمد على هرون بن يحيى فيما يقدم من معلومات « وذكر هرون ان حوالى قسطنطينية ديارات الرهبان ، وعلى باب قسطنطينية دير يدعى دير ساطرا ينزله خمسمائة راهب (٨٣) » .

---

(٨٢) فازيلييف : بيزنطة والاسلام من كتاب Byzantium مترجم وملحق بترجمة كتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية للدكتور مؤنس وزايد ص ٣٧٧ : ٨ .

(٨٣) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ١٢٠ : ١٢٧ .

(ج) السفارات العلمية :

واذا كان المسلمون لم ينسوا خلال غاراتهم على البيزنطيين ـ خاصة زمن الرشيد ـ أن يحاولوا الحصول على مخطوطات يونانية من مدائن العدو مثل عمورية وأنقرة Ancyra (٨٤) ، فانهم كانوا كذلك يرسلون الرسل من قبلهم لشراء هذه المخطوطات اليونانية الموجودة في الامبراطورية البيزنطية ـ زمن الرشيد أيضا وبتشجيع البرامكة . « وهى سياسة سخية جاءت الى بغداد بكثير من المؤلفات الهامة ، وقد الحق هذا بكرم مماثل من جانب الأفراد الذين أنفقوا بسخاء على المخطوطات والمترجمين . وكثير من المادة التى حصل عليها بهذه الطريقة كان طبيا » (٨٥) .

وفى أخبار الحكماء أن الرشيد « ولى يوحنا بن ماسويه **ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعمورية ـ وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سبيها** ، ووضعه أمينا على الترجمة ، ورتب له كتابا حذاقا بين يديه » . ويروى ابن النديم فى الفهرست « **أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن فى انفاذ مايختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع** فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم : الحجاج بن مطر وابن البطريق ، وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا . فلما حملوه اليه أمرهم بنقله ، فنقل ، وقد قيل ان يوحنا بن ماسويه ممن نفذ الى بلد الروم » . وجاء فى سرح العيون قول ابن نباته عند الكلام على سهل بن هرون : « وجعله كاتبا على خزائن الحكمة ، وهى **كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرص** . وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليها أحد .. فأرسلها اليه واغتبط بها المأمون ، وجعل سهل بن هرون خازنة لها » . وروى كذلك أن **المأمون أرسل الى صقلية أيضا فى طلب الكتب اليونانية** . وقد ذهب حنين ابن اسحق الى بلاد الروم وأجاد تعلم اليونانية ثم عاد ، وأخذ يرحل فى نواحى العراق والشام والاسكندرية يجمع الكتب النادرة (٨٦) .

---

(٨٤) حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع حـ ٢ ص ٣٨٥ .

(٨٥) أوليرى مسالك الاغريقية الى العرب ـ ترجمة دكتور تمام حسان ص ٢٢٨ : ٩

(٨٦) احمد أمين : ضحى الاسلام حـ ٢ ص ٦١ : ٣ ، ٧٩ ، دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ٢ ص ٢٥٧ .

وهكذا استمر الاتصـــال الثقافى بين المسلمين والبيزنطيين رغم الصراع الدامى المستمر وقد أرسل الوليد ابن عبد الملك (٨٦ : ٩٦ هـ ـ ٧٠٥ : ٧١٥ م) الى الامبراطور البيزنطى يطلب ارسال بعض الصناع لتزيين جوامع دمشق والمدينة وبيت المقـــدس بالفسيفساء • ويروى الطبرى فى أخبار سنة ٨٨ هـ أن الوليد كتب الى امبراطور الروم للمعاونة فى بناء مسجد الرسول « فبعث اليه بمائة عامل وبعث اليه من الفسيفساء بأربعين حملا ، وأمر أن تتبع الفسيفساء فى المدائن التى خربت فبعث بها الى الوليد » • على حد رواية الطبرى • ويروى المقدسى أن ملك الروم بعث « بأحمال وبضعة وعشرين صـــانعا ـ فيهم عشرة يعدلون مائة ، وثمانين ألف دينار ••• » • على أن الدكتور ماجد يستبعد أن يطلب الخليفة المسلم من عدوه المعاونة على بناء مسجد رسول الله ، كما يستبعد اجابة الامبراطور البيزنطى له • ويروى ابن العديم مايكشف فى جلاء كيف تخللت معارك القتال اتصالات التبادل الثقافى والحضارى « كنا معشر أهل الشام واخواننا من أهل مصر واخواننا من أهل العراق نغزو فيفرض على الرجل منا أن يحمل من أرض الروم قفيزا بالصغير فسيفساء وذراع فى ذراع من رخام ، فيحمله أهل العراق الى العراق وأهل حلب الى حلب ، ويستأجر على ماحملوا الى دمشق ، ويحمل أهل حمص الى حمص ويستأجر على ماحملوا الى دمشق ، ويحمل أهل دمشق ومن وراءهم حصتهم الى دمشق » (٨٧) •

وفى القرن العاشر الميلادى كان العالم **الرياضى البارز ليو** فى ديار الروم فى عهد تيوفيل (٨٢٩ : ٨٤٢م) ، فدعاه المأمون (١٩٨ : ٢١٨ هـ ـ ٨١٣ ٨٣٣م) الى بلاطه ، ولما سمع تيوفيل بذلك قرر له مرتبا وعينه مدرسا باحـــدى كنائس القسطنطينية • وأرسل المــأمون رسالة شخصية لتيوفيل يطلب منه السماح بحضور ليو الى بغداد لفترة قصيرة ، وقال انه يعتبر ذلك عملا وديا ويعرض فى مقابل ذلك صلحا دائما وألفى قطعة ذهبية الا أن الامبراطور رفض العرض • وقد وصل خبر هذا العالم الرياضى الى المأمون عن طريق أحد أسرى المسلمين من تلاميذه براعة علمية حتى استثار رغبة الخليفة فى طلب رؤية أستاذه ، فكانت الدعـــوة التى لفتت أنظـــار

---

(٨٧) الطبرى : حـ ٨ ص ٦٥ ، العمرى : مسالك الابصار حـ ١ ص ١٨٣ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ٨١ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ١١١ ، فازيلييف: بيزنطة والاسلام ـ بحث من كتـــاب Byzantium ملحق بترجمـــة الدكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطيـــة ص ٣٧٩ ، دكتـــور ماجد : التـــاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ١٨٥ : ٨ •

الامبراطور الى ليو فى حياته المغمورة وقد ارتفع بذلك الى مرتبة كبير أساقفة سالونيك سنة ٨٣٠ م (٨٨) .

وتذكر آيات من سورة الكهف قصة النائمين السبعة الذين لجأوا الى أحد الكهوف فرارا من الاضطهاد فوقعوا فى سبات استغرق ٣٠٩ عاما ثم استيقظوا فوجدوا بلادهم قد دانت بدينهم . ويرى البعض أن ذلك كان فى عهد الامبراطور ديكيوس (٢٤٩ - ٢٥١ م) وقد مات هؤلاء بعد اكتشاف أمرهم مباشرة فأقيم على أجسامهم بالكهف معبد قرب افسوس . ومن المعروف أن القصاصين العرب اعتمدوا على ماتضمنت سورة الكهف من القرآن الكريم من اشارات الى أصحاب الرقيم ، وأنشأوا على أساسها قصصا طويلا نجده عند بعض المفسرين والمؤرخين . ومن أمثلة ذلك ما ذكره المسعودى فى المروج : « **وقد اختلف الناس فى أصحاب الكهف والرقيم** : فمنهم من رأى أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم ، وزعموا أن الرقيم هو ما رقم من أسماء أهل الكهف فى لوح من حجر على باب تلك المغارة ، ومنهم من رأى أن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف - وقد ذكرنا كلا الموضعين بأرض الروم . وقد حكى أحمد بن الطيب عن مروان السرخسى تلميذ يعقوب بن اسحق الكندى عن محمد بن موسى المنجم حين أنفذه الواثق بالله من سر من رأى الى بلاد الروم حتى أشرف على أصحاب الرقيم ... وقد ذكرنا فى الكتاب الأوسط قصة أصحاب الكهف وموضعهم وكيفية أحوالهم الى هذه الغاية ، وخبر أصحاب الرقيم وما حكاه محمد بن موسى المنجم من خبرهم ، وما لحقه من الموكل بهم حين أراد قتله بالسم وقتل من كان معه من المسلمين ، وأخبرنا عن السد الذى بناه ذو القرنين مانعا ليأجوج ومأجوج ... » .

ولاشك أنه كان هناك قصص شعبى ، أوسع لم يصل الينا ، ولكننا نلتمس شيئا من آثاره فى قصص ألف ليلة وليلة . وقد وصلت أطراف من القصص العربى حدل أهل الكهف الى الروم . وكتب عنها نيكيتاس البيزنطى الذى ألف فى النصف الثانى من القرن ٩م ، واستهوى الخليفة الواثق (٢٢٧ : ٢٣٢ هـ - ٨٤٢ : ٧ م) أن يطلب مالدى الروم من تفاصيل عن هؤلاء الفتية الذين دفنوا فى أرضهم ، فوجه محمد بن موسى المنجم الى بلاد الروم « لينظر الى أصحاب الرقيم ، وكتب الى عظيم الروم بتوجيه من

---

(٨٨) فازيلييف : بيزنطة والاسلام فصل من كتاب Byzantium ملحق بترجمة الدكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٨٠ - ١ ، جرونيباوم : حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ٧٨ - ٩ .

يوقفه عليهم ، فحدثني محمد بن موسى أن عظيم الروم وجه من صير به الى قره ثم سار أربع مراحل ... » وقد نقل ابن خرداذبة صورة لمدفن هؤلاء « فاذا رواق الجبل على أساطين منقورة وفيه عدة أبيات ، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليه باب حجر ، منقور فيه الموتى ٠ ورجل موكل بحفظهم ،ومعه خصيان روقة ، وذا هو يحيد عن أن نراه أو نفتشه ، ويزعم أنه لا يأمن من أن يصيب من التمس ذلك آفة ــ يريد التمويه ، ليدوم كسبه بهم ٠ فقلت له : دعني أنظر اليهم وأنت بريء ... واذا أجسامهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها ، واذا جلودهم لاصقة بعظامهم غير أني أمررت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته ... » ٠ وقد تحدث ابن خرداذابة في موضع آخر عن هوتة الرقيم بعد بحيرة المسكنين « وهي خسف في الأرض يكون مقدار مائتي زراع في مائتي ذراع مشقوقة ، في وسطها بحيرة حولها أشجار ، وحول الأشجار في أصل الجبل بيوت ومساكن ... والقوم في مغارة يصعد اليها من أرض الهوتة بسلم لعله أن يكون ثمانية أذرع ونحو ذلك ، فاذا هم ثلاثة عشر رجلا ، وفيهم غلام أمرد ، عليهم جباب صوف وأكسية صوف ، وعليهم خفاف ونعال ، فتناولت شعرات في جبهة أحدهم فمددتها فما تبعني منها شيء » ٠ والمقدسي يذكر عن الكهف أن « المدينة هي طرسوس وبها قبر دقيانوس وبرستاقها تل عليه مسجد قالوا هو على الكهف » ٠ ويروى أن مجاهد ابن يزيد وخالد البريدي خرجا في سنة ١٠٢ هـ « وليس معنا ثالث من المسلمين فقدمنا القسطنطينية ثم خرجنا منصرفين الى عمورية ثم آتينا الى اللاذقية المحترقة في أربع ليال ، ثم انتهينا الى الهوية وهي جوف جبل ، فذكر لنا أن بها أمواتا لا يدرى ما هم وعليهم حراس فأدخلونا سربا طوله نحو من خمسين ذراعا في عرض ذراعين بالسروج ٠ واذا وسط السرداب باب من حديد ومكمن لعيالهم اذا يجيئهم العرب ، واذا خربة عظيمة وسطها نقرة من ماء عرضها نحو من خمسة عشر ذراعا يرى منها السماء ، واذا كهف ذلك المكان الى جوف ذلك الجبل ، فانطلق بنا الى كهف مما يلي الجوف من الهوية ، طوله نحو من عشرين ذراعا واذا فيه ثلاثة عشر رجلا رقودا على أقفيتهم ، على كل رجل منهم جبة لا أدرى من صوف أو وبر فكشفت عن وجه أحدهم فاذا شعر رأسه ولحيته لم يتغير ، واذا بشرة وجهه منيرة ودم وجهه ظاهر كأنما رقدوا تلك الساعة ... وزعم أهل الهوية أنهم اذا كان رأس كل سنة في يوم عيد لهم يجتمعون فيه ، يقيمونهم رجلا رجلا ويتركونهم قياما ويمسحونهم

وينفضون غبار ثيابهم ويسوون أكسيتهم عليهم • فلا يسقطون •• الخ »•
وزار الهروى الكهف والرقيم فى بلاد الروم عند أبسوس « خربة بها آثار عجيبة قريبة من مدينة ابلستين » • ويعلق فازيلييف على رواية هذه السفارة العلمية العربية الى بلاد الروم بقوله : « اننا لا نستطيع رفض قصة هذه الرحلة التى أوردها كاتب عربى فى القرن التاسع ، لأنها صادرة عن كاتب معاصر • **فهى ترينا أنه حتى فى الوقت الذى كانت العداوات فيه شديدة متصلة بين بيزنطة والعرب ، كان من الممكن أن يقوم بينهما نوع من التبادل العلمى** وقد كان هدف البعثة منسجما مطلقا مع عقلية العصور الوسطى » (٨٩) • وقد نظم الواثق كذلك بعثة على رأسها المترجم سلام الذى كان يعرف لغات عدة الى آسيا الصغرى لكشف السور الذى بناه ذو القرنين فى وجه يأجوج ومأجوج ، وقد دامت أعمال هذه البعثة ٢٨ شهرا ، قدم سلام على أثرها للخليفة تقريرا وافيا كما يروى ابن خرداذبة والمقدسى وياقوت ، وقام الخليفة بمكافأة أفراد البعثة (٩٠) •

(د) أدب الحرب :

قيل عن الالياذة : « ان على حسام آخيل نقش هوميروس آداب أمته » ، فكانت الملاحم فروسية وأدبا فى سجل واحد ، الأدب أداتها والحرب موضوعها • والملاحمة كما عرفها نقاد الغرب قصة شعرية لأعمال بطولية خارقة ، وقد تضم الشعر القصصى ولكن ليس كل شعر قصصى ملحمة • والشعر الحربى قديم فى الدهر • وقد كان يسمى الشاعر الحربى فى الأدب الفرنسى فى القرون الوسطى مغنيا أو منشدا Aéde, Chanteur يمضى بين المدن على غرار شعراء التروبادور أوربا الوسيطة والى جانب الشعر الحربى نشأ القصص الحربى وهو روايات وقصص أكثرها النثر وأقلها الشعر •. وقد استغرب ابن الأثير فى خاتمة المثل السائر « أن لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها

(٨٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٦ ـ ٧ ، ١١٠ ـ ١١١ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٥٢ : ٤ ، العمرى : مسالك الابصار ح ١ ص ٢١٧ ـ ٨ ، المسعودى: مروج الذهب ح ١ ص ١٩٥ ـ ٦ ، التنبيه والاشراف ص ١٣٣ ـ ٤ ، جرونباوم : حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ٤٢ : ٤ ، فازيلييف : بيزنطة والاسلام ـ فصل من كتاب Byzantium ملحق بترجمة الدكتور مؤنس وزايد بكتاب بينز الامبراطورية البيزنطية ص ٢٨١ •

(٩٠) فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٩ •

منظومة كالشاهنامة – على أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة فى بحرها »،
وكان ابن الاثير يرى أن « العجم يفضلون العرب فى الاسهاب » (٩١) ٠

ولقد أثرت حروب المسلمين والبيزنطيين فى أدب كلا الفريقين ، ولم يبرح شعور العداء بينهما يشتد بين حين وآخر ، ونعم المسلمون بانتصارات باهرة عاشوا على ذكرياتها طويلا ، والأدب تسجيل للمشاعر والمفاخر ، أما البيزنطيون فقد كابدوا أهوال المخاطر وأوشكت امبراطوريتهم أن تنتهى تماما على يد العرب ثلاث مرات على الأقل – على حد تعبير جرنيباوم « سنة ٦٦٨ م ، ومن حوالى سنة ٦٧٣ م الى سنة ٦٧٩ – ٦٨٠ م ، وفى سنة ٧١٦ – ٧ م ٠ وكان الخطر الاسلامى ماثلا على الدوام فى مخيلة كل بيزنطى ٠٠٠ والأدب البيزنطى يعكس الينا صورة جلية لهذه الحالة ولاريب أن حرب الثغور التى لم يكن ينطفىء لها مع الروم أوار قد تركت آثارها فيما سطر العرب ولم يقتصر الأمر على أن يشيد الشعراء بمعارك لعب فيها سادتهم دورا مشرفا ، بل ان أحداثا وشخصيات تتصل بهذا الكفاح الذى لم ينته قط الى نتيجة حاسمة قد أدخلت فى القصص الشعبى – كما تشهد بذلك رواية الملك عمر بن النعمان التى أضيفت فيما بعد الى كتاب ألف ليلة وليلة – بيد أن هذه الشواهد على الاهتمام المعاصر تبدو غير ذات بال اذا قورنت بصورة تلك الأحداث عينها ، كما انعكست فى الملحمة الشعبية Epic عند البيزنطيين ٠ **فالأدب العربى لا يعوزه فحسب مؤلف من طراز وجدارة الملحمة اليونانية التى تتركز حول ديجينيس أكريتاس بطل حرب الثغور بل ان جو مناطق الثغور الخاص وطريقة الحياة فيها فى صورتها التى لا نشك أنها تطورت اليها لم يجد لسانا يعبر عنهما فى كل من الشعر والنثر العربيين** ٠ والواقع أن الأدب العربى قد أخذ اتجاهه يتحول بمرور الزمن شيئا فشيئا ويصبح أدب عواصم ٠٠٠ » (٩٢) ولعل ذلك كان أوضح ماكان أيام الحمدانيين فى قصائد المتنبى وأبى فراس ٠

لقد خلفت الاشتباكات العسكرية نموذجا لبطل قومى يتصف بالبسالة والاقدام والكرم وأصبح بعض هؤلاء الأبطال شخصيات أسطورية وهبت قوى خارقة غير طبيعية وتقوم بأعمال عجيبة ٠ وتدور ملحمة البطولة البيزنطية المشهورة التى نشأت حول شخصية **ديجنيس اكريتاس** Digenis Akritas وهى من ملاحم أعمال الأبطال ووقائعهم

---

(٩١) دكتور المحاسنى : شعر الحرب فى أدب العرب ص ٥ ، ١٤ ، ١٧ ٠
(٩٢) جرونيباوم : حضارة الاسلام – ترجمة جاويد ص ٢٥١ – ٢ ٠

Chanson de geste ـ تدور حول أعمال بطل قومى بيزنطى هو شخص حقيقى قتل فى معارك البيزنطيين مع المسلمين فى آسيا الصغرى سنة ٧٨٨م على مايستبين فازيلييف • وقبر البطل نفسه غير بعيد عن سميساط • وهذه الملحمة وما يسمى بالأغنيات الشعبية الأكريتية ـ نسبة لاكريتاس ـ تصور الحروب بين المسلمين والبيزنطيين تصويرا رائعا ودقيقا فى حالات كثيرة ، وخاصة حروب القرن التاسع م وعندما انتصرت الجيوش الاسلامية سنة ٨٣٨ م ـ سنة ٢٢٣ هـ على البيزنطيين انتصارا عسكريا عظيما فى عمورية بفريجيا • وقد انتهت الابحاث فى اشعار البطولة البيزنطية والعربية والتركية الى نتيجة هامة « وهى مسألة **الارتباط الوثيق بين ألف ليلة وليلة وبين شعر البطولة اليونانى وملحمة سيد البطال التركية ـ التى لم تدخل فى دائرة الشعر التركى الا بعد نقلها الى اللغة التركية وأصلها عربى •** فملحمة ديجينيس اكريتاس اليونانية مصدر غنى للمعلومات عن العلاقات الثقافية بين بيزنطة والعرب » (٩٣) • ونحن نجد فى الأدب الأسبانى صورة مشابهة فى قصة السيد الكنبيطور أو القمبيطور « ومعناه صاحب الفحص واسمه لذريق » ـ كمايقول ابن عذارى ، فهى اذن Cámpeador من Campus وهو الفحص ومقابل اللفظ فى اللاتينية Campidoctus أى قائد الغارات فى بلاد الأعداء • ويظن أنه ولد سنة ١٠٤٥ م ـ أى بعد زوال الخلافة القرطبية بخمس عشرة سنة ، وقد حارب مع المسلمين وعرف لغتهم ووجد عندهم المأوى عند تشريده • ثم انقلب عليهم فى قسوة وأعمل فيهم تقتيلا وتحريقا • والعجيب أن مثل هذا الشخص قد تحول بعد موته بقرن الى شخصية أسطورية لأجمل صفات البطل القـومى الأسبانى ! ونسج القصاصون والشعراء حول حياته أروع ملاحم البطولة الأسبانية وهى قصيدة السيد El Poemadé Mio Cidh، وقد أحدثت مغامرآته دويا أعان عليه ظهوره فى فترة الصراع بين قشتالة وليون على السـيادة فى ايبريا وتزعمه القشتاليين ضد الليونيين ، وتكونت اسطورته بعد فترة بلغ فيها نفوذ غاله (فرنسا) أقصاه فى أسبانيا عن طريق الفرسان والرهبان الذين استعان بهم ملوك أسبانيا وأطلقوا أيديهم فى الكثير ، فضلا عن كفاحه ضد المسلمين الذى يثير الحماس ، فمضى القصاصون والمنشدون ينشئون حوله الأقاصيص والأشـعار • وقد ظهرت (قصيدة السيد) ـ احدى الأناشيد والقصائد والملاحم التى تدور حول هذه الشخصية ـ بعد

---

(٩٣) فازيلييف : بحث بيزنطة والاسلام من كتاب Byzantium ملحق بترجمة دكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٨١ : ٣ •

ملحمة رولان بأربعين سنة ، وكلتاهما أنشودة أعمال ووقائع Chanson de geste وكلتاهما من الشعر القصصي الشعبى الطويل النفس • وقد كتبها شاعر أسبانى مجهول لابد أنه قرأ ملحمة رولان وغيرها من أناشيد الأعمال الفرنسية وأنشأ قصيدة على غرارها ويغلب أن يكون هذا الشاعر مستعرب من مدينة سالم Medinaceli على الحدود بين مملكة قشتالة وامارة سرقسطة الاسلامية اذ ذاك وقد فرغ منها سنة ١١٤٠ م أى بعد وفاة السيد بأربعين عاما • وتتناول الملحمة فترات مختلفة من حياة السيد من صباه الى أواخر أيامه ، وتصور السيد بطلا محاربا شجاعا يجرى وراء الارض والمال ، ولا يغلب عليها الطابع الدينى كملحمة رولان ولا تصور المسلمين أشرارا أشقياء ، بل مدار الحديث هو الصراع بين القشتاليين والليونيين ، وان كانت القصيدة تصور السيد مسيحيا صادقا مخلصا • وتعطى القصة عن البطل صورة تختلف عن صورته فى التاريخ من نواح وتتفق معه فى نواح أخرى (٩٤) •

ويفترض الأستاذ مافروجورداتو Mavrogordato للوقائع التى دارت حولها ملحمة ديجنيس زمنا هو **القرن الواقع بين عامى ٨٦٠م و٩٦٠ م، وقد جرت احداثها فى أعالى الجزيرة بين سميساط وملطية وفى كبادوكيا ايضا** • وقد نظمها الشاعر فى فترة أعيد فيها الهدوء الى حدود البيزنطيين على الفرات ، مما قد يشير الى عهد قسطنطين التاسع Constantine IX Monomachus (١٠٤٢ : ١٠٥٤ م) أى أواسط القرن الحادى عشر وتشغل الملحمة مكانا خاصا فى الأدب البيزنطى ، فهى ليست صورة لصراع دنيوى بين الشرق والغرب ، فقد كان هذا شيئا غير مفهوم فى العالم البيزنطى وقد جلب بطل الملحمة الذى خلع عليها اسمه ووصفه السلام الى حدود الامبراطورية • وتمثل الملحمة بأقاصيصها وأناشيدها المتشابكة نقلة فى الادب اليونانى بين العصرين الوسيط والحديث • وهى لا تتابع التواريخ البيزنطية والحوليات المحلية وحدها ولكنها تساير – الى حد ما – الكتابات الهلينيستية غير المنظمة ومجموعة من الأدب الشعبى الذى لازال كثير منه متداولا فى العالم اليونانى • وتروى الملحمة قصة أمير عربى من الشام كان راكبا فى كبادوكيا على الحدود فأسر ابنة قائد رومى من أسرة دوكاس Doukas التى كانت قد أبعدت عن ديارها وضياعها • وقد هرع الاخوة الخمسة للفتاة واسمها ايرين لاستنقاذها من الأمير العربى واسمه

---

(٩٤) دكتور مؤنس : السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين – المجلة التاريخية المصرية م ٣ ع ١ مايو ١٩٥٠ •

منصور الذى طلب أن يتزوجها على أن يحضر مع أتباعه الى بلاد الروم . وذكر الأمير أنه ابن لرجل يدعى Chrysocherpes ، وابن أخ لمن يدعى Karös وحفيد للأمير الكبير Ambron ، كما ذكر أن أباه قد توفى ، وأن أعمامه العرب قد حولوه الى الاسلام . وقد وافق الاخوة على تزويج أختهم من الأمير العربى منصور ، وعاد الجميع فرحين الى بلاد الروم حيث جرى تعميد منصور وزواجه من ايرين . **ومن ذرية الزوجين السعيدين ولد باسيل الذى عرف فيما بعد بديجنيس ـ لأنه ولد من تزاوج عنصرين، واكريتاس ـ لأنه اختار المعيشة وحده على الحدود** . وقد كان بارونات الحدود Akritae يلحقون بالفرق الموكلة بحماية الممرات Kheisurai ـ وأحيانا يوضعون تحت قيادتها ـ ومن هؤلاء ديجينيس بطل الملحمة الذى شن حملات دائمة على العرب بجهده الخاص ، وان كان من المحتمل أن يكون قد التحق بالجيوش الامبراطورية فى أية حملة منظمة . وقد كتبت اليه أمه تعاتبه من أدسا (الرها) فزازها أخيرا واصطحبها مع أفراد بيته جميعا عند عودته ، وتختص الكتب الثلاثة الأولى من الملحمة بالحديث عن الأمير والد منصور المسيحى البولسى الذى مزج بزواجه بين جنسين وعقيدتين بينما يتجه الكتاب الرابع من الملحمة الى باسيل ، فيصف كيف عرف الوحوش واللصوص لأول مرة ، وكيف خطب افدوكيا Evdokia من أسرة دوكاس اذ انتزعها ليلا الى العرس فى قلعة أبيه وأجبر أباها واخوتها على القبول ، ثم ركب العروسان ليعيشا وحدهما وقد بدد ديجينيس شمل اللصوص ونشر السلام على طول حدود الامبراطورية . وقد وصلت شهرته مسامع الامبراطور الذى سار الى الفرات ـ وهو يذكر هنا لأول مرة ـ لتهنئة الفارس البطل وتكريمه ، وهناك ألقى على مسامعه ديجينيس درسا فى واجباته الامبراطورية . ويلى ذلك كتابان يضمان مجموعة من أقاصيص البطولة غير مفصلة ، فنقرأ تارة قصة حماية البطل لعروسه من الوحوش المفترسة ، وأخرى نسمع البطل يصف شيئا من مغامراته السالفة فى الحرب . وقد بنى ديجينيس قصرا على ضفة الفرات وزرع حديقة ، وهناك عاش مكرسا مايملك للعمل الصالح وحفظ السلام ، وتوفى فى نفس المكان وهو يستعيد على مسامع زوجه ذكريات مغامراته ، وقد لحقت به الزوجة التى لم تستطع العيش بدونه . وقد جرى تحقيق شخصيات الملحمة وتم التعرف على بعضها ، فوالد الأمير منصور الذى يدعى Chrysocherpes هو Chrysocheir أحد قواد الطائفة البوليسية الذين عرفهم العرب باسم البيالقة وقد انهزم أمام جيش بيزنطى سنة ٨٧٣ م أما عم الأمير المسمى Karös فهو Karbeas (قربياس) أحد قادة

البيالقة ، وجد المنصور المسمى Ambron هو أمير ملطية عمر الاقطع الذى حالف البيالقة وانما تذكر قادتهم على البيزنطيين • على أن الملحمة لا تعرض لهرطقة البيالقة وانما تذكر قادتهم كأعداء شجعان يصعب تمييزهم عن العرب فى سياق الوقائع • وان فكرة الأصل المزدوج فى مولد العظماء كالاسكندر وغيره هى من ايحاء الفكر الاغريقى الشرقى ، وقد أكد المؤرخون البيزنطيون مثلا الأصل المزدوج فى مولد ليو الخامس (٨١٣ : ٨٢٠ م) وباسيل الاول (٨٦٧ : ٨٨٦ م) • ولعل الشاعر كان لديه شيئا من حوليات بعض المدن مثل أدسا (الرها) وسميساط ، وربما كان لديه أيضا بعض الحوليات الشعبية الشعرية مثل تلك التى ظهرت فى كريت فيما بعد على أثر ثورة سنة ١٧٧٠ م • ولعله وجد فى أرض الجزيرة Mesopotamia رصيدا اسطوريا خلفته القرون المتتابعة على الشرق الأدنى ، وتناقلتها لغات أخرى وأعادت صياغتها • وقد ولج الى المصادر الأدبية والشعبية ، وقد امتلك فضلا عن ذلك ملكة عقلية لمزج كليهما فى قالب الملحمة الشعرى الشعبى • وعلى الرغم من أن الشاعر يفتقد العمق العاطفى ، فقد كان لديه من الاصالة مايعطى روايته هدفا ، فهى تنشد صلاحية الحكم وضمان السلام عن طريق تحالف المسيحى والعربى ••• والقصيدة تكرر نفس القصة مع ولد بعد ولد ، وكل من الأب والابن بطل ، وليس أحدهما مسيحيا نقيا أو عربيا نقيا ، ولكنه جمع خير مافى الاثنين • **ان فى ديجينيس اكريتاس قصة مزدوجة ذات أصل مزدوج ورواية تعكس صورة التحالف القديم بين عرب الشام والنصارى البيالقة فى كوماجين وكبادوكيا تسوقه رسالة السلام على الحدود التى أكلتها الحروب فى شرقى الامبراطورية البيزنطية » (٩٥) •**
ويبدو من الملحمة أن المصاهرة بين الفريقين لم تكن شيئا مستغربا ، ويذكر أنه كان لجون تزيمسكس John Tzmisces علاقة liaison بسيدة من آمد (٩٦) •

***

واذا كان هذا صدى الاشتباكات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين فى أدب الروم فما يكون صداه فى أدب العرب ؟؟

لقد كان من أوليات **الشعر الحماسى** الذى قيل فى حرب العرب للروم ما قاله أسعد الكامل فى رواية عبيد بن شريه وهو من الفرسان الشعراء :

---

(٩٥) B.yzantium. pp. 245:9, 299.

(٩٦) Runciman : Byz. Civ. p. 234.

وغسان جازوا الروم كلهـــا وفى الروم صـيرنا الملوك الأقاولا
فدوخت أرض الروم حتى نزلتهـا ثنايا طحون علوها والأسافلا(٩٧)

لكن لا نجد أصداء مبكرة في شعر العرب لحروبهم مع الروم « فمن المؤكد أن طبيعة الحياة التى عاشها المسلمون أول العهد بالفتوح لم تكن لتساعد على قولة الشعر ، استأثرت هذه الفتوح باهتمـــاماتهم الداخلية واستنفدت طاقاتهم النفسية ، وكانت هذه التجارب التى مروا بها تتيح لهم اختزان ثروة المواد الأولى فى العمل الفنى ، واكتساب المسارب الجديدة التى يسكبون فيها انفعالاتهم والمشاهد التى تثير اعماقهـــم ، غير اننا لم نجد في التليد الشعرى ما يدلنا على استفادتهم منهـــا واســـتخدامهم لها ... آية هذا ان حركات الاستنفار للجهـــاد حالت بين العرب وبين الاستقرار ، والقت على اكتافهم أعباء ثقالا ووضعت فى طريقهم عقبـــات ومصاعب ، وتركتهم يصطرعون مع هذه المصاعب ويتوزعون هذه الأعباء ، ولذلك تركزت قواهم المادية والمعنوية فى هذه المعارك التى امتحنوا بها وتبلورت فيها كل مواهبهم النفسية ، واستطاعت حركة الفتوح هذه بما واكبها من الق العقيدة أن تجمع حولها كل مطامحهم فى النجاح ومطامعهم فى الفوز » . ويبدو أن ما تناقله الرواة من شعر الفتوح حظه من الثقة قليل « وأن كثرة منه انما جاءت بعد من عمل الرواة والمنتحلين ـ تزيينا لحوادث الفتح وزخرفة لها ، وأنه حين استقر بالمســـلمين المقام وبدأت حياتهم العلمية أول طريقها فى التدوين ، وكانت المغازى والسير بعض هذا التدوين المبكر ، أصاب الشعر الذى قيل فى الفتوح هذا التزيد فيه والبناء عليه والاكثار منه فى أعقاب كل واقعة . فاذا هو لا يكاد يغـادر معركة من المعارك ولا خبرا من الأخبار الاذيله ببعض هذا الشعر يتخذ منه حلية حينا وشاهدا على صحة مايرويه حينا آخر . ويبدو كذلك أن التنازع الذى آل اليه أمر الفاتحين فى بعض الأقطار قد لعب دوره فى هذا التزيد الشعرى » . ويلتقى شعر الفتوح فى نوعين كبيرين : شعر البطولة وشعر المواجد ، ومن ورائهما الرجز . فشعر البطولة يشيد باقدام الشاعر أو قوة الكتيبة ، وفى سبيل ذلك يصور قوة المعارك وشدة اللقاء وكبريات الأحداث « ولا يخرج شعر البطولة هذا عن أن يكون لونا من الوان الفخر الذى عرفته الحياة الجاهلية ، غير أنه هنا قد اكتسى هذا الصبغ الاسلامى الخفيف أو القوى ، فهو يتحدث عن الاســـلام والدين ، وهو يذكر الله والرسول وهو يصدر عن روح الجماعة أكثر مما كان الشعر الجاهلى يصدر

---

(٩٧) دكتور المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص ١٥٣ .

عن روح الفرد أو القبيلة » وأما شعر المواجد فهو تعبير عن أشواق الشاعر الى مواطنه وأهله ، وقد تثيرها مشاهد يراها أو أحداثا يكابدها • وتشارك الرجز هذين النوعين فى الموضوع وتخالفهما فى الشكل ، وكان الشاعر يرتجز حين يتصدى للبراز أو القتال او يحن للغناء « ولربما كان هذا الرجز فى هذا الدور هو الصورة القريبة للسليقة الشعرية التى غادرت الجزيرة والتى كان يتنفس بها العاديون من الشعراء أو من الذين يريدون أن يقولوا الشعر ، على حين كانت المقطعات والقصائد هى سبيل الممتازين من الشعراء وطريقهم الى التعبير والتصوير » • والواقع أن أكثر شعر الفتوح لم يكن يعدو فى جملته الطوابع الجاهلية « ولم يكن ليجاوزها الا فى خطى ضئيلة قصيرة ، وكانت هذه الخطى ظلالا للفكرة الاسلامية وللجماعة الجديدة من نحو ، كما كانت سبيله ــ بعد من نحو آخر ــ الى الشعر الاسلامى الذى ستتغنى به العرب فى الأمصار » (٩٨) •

وفى العصر الأموى تذكر القصص **شجاعة يزيد بن معاوية فى حصار القسطنطينية الأول** فقد أرسله أبوه سنة ٤٩ هـ سنة ٦٦٩ م لمعاونة الحملة البرية التى كان يقودها فضالة بن عبيد الأنصارى والتى عسكرت سنة ٦٦٨ ــ ٩ م فى خلقدونية ضاحية بيزنطة الآسيوية ، وقد رفع حصار يزيد وفضاله فى الصيف • ويروى أن يزيد اظهر من الشجاعة والقوة أسفل جدران القسطنطينية ما أكسبه لقب (فتى العرب) ، ونقل صاحب الأغانى أن صيحات التهليل كانت تسمع على التعاقب من خيمتين عندما كان يقدم العرب أو البيزنطيون فى المعركة • ولما علم يزيد أن فى احدى الخيمتين ابنة ملك الروم وفى الأخرى ابنة جبلة بن الأيهم ، ابدى نشاطا خارقا للعادة طمعا فى سبى ابنة ملك الغساسنة • ولكن بطل القصة الحقيقى فى تلك الحملة كان أبا أيوب الأنصارى الذى نزل عنده رسول الاسلام فى هجرته للمدينة وكان صاحب لوائه فى القتال •

ويروى أن أبا ايوب ثقل بعد أن صار جيش العرب على خليج فى درب الروم ، فعاده يزيد فقال له : ماحاجتك ابا ايوب ؟ فقال : اما دنياكم فلا حاجة لى فيها ، ولكن قدمنى ما استطعت فى بلاد العدو ، فانى سمعت رسول الله يقول : (يدفن عند سور القسطنطينية رجل صالح) ــ أرجو أن أكون هو • ولكن المنية أدركت أبا ايوب دون أسوار القسطنطينية ، فأمر يزيد بتكفينه وحملته الكتائب على سرير حتى جاوز الأسوار

---

(٩٨) دكتور شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٣٤٣ : ٩ •

الموعودة ورأى قيصر سريرا محمولا والناس من حوله يقاتلون ، فأرسل الى يزيد يسأله الخبر ، فأجابه : هذا صاحب نبينا وقد سألنا أن نقدمه فى بلادك ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحنا بالله • فأرسل اليه قيصر: ابوك كان أعلم بك ، فوحق المسيح لأحفظنه بيدى • ويقول صاحب العقد الفريد : ان قبر ابى ايوب كان معروفا فى القسطنطينية الى يومه ، فبنى عليه قيصر قبة يسرج فيها (٩٩) • والأخبار المنقولة تؤكد أنه أصيب فى أثناء الحصار بزحار أودى به ، وأن قبره الذى قيل انه خارج المدينة لم يلبث ان غدا مزار النصارى الروم يقصدونه متى أصابهم جفاف لاعتقادهم بأن الابتهال فيه الى الله يستنزل المطر ويأتى بالرى • وقيل أن الأتراك العثمانيين عندما حاصروا القسطنطينية بعد ذلك بزمن عثروا على هذا القبر ، اذ هدتهم اليه اشعةعجيبة ـ مما يذكر بقصة كشف الصليبيين الأول للحربة المقدسة فى انطاكية وقد أقيم عنده مسجد ، فغدا رجل القسطنطينية يتبرك به العرب والروم والترك (١٠٠) •

فاذا تجاوزنا هذه الروايات لا نجد رصيدا شعريا اسلاميا كبيرا يسجل الوقائع الحربية المجيدة التى خاضها الأمويون ضد الروم • وان وجدنا اشارات سريعة الى معارك مع الروم ولدت فى ثنايا بعض القصائد فحين مدح نابغة شيبان الوليد بن عبد الملك ذكر أخاه مسلمة وحصاره للقسطنطينية وبلاءه فى جهاد الروم :

اخرى (طرندة) منه وابل برد ... وعسكر لم تقده العزل الجوف
مازال (مسلمة) الميمون يحصرها ... وركنها بثقال الصخر مقذوف
وقد احاطت بها ابطال ذى لجب ... كما أحاط برأس النخلة الليف
حتى علوا سورها من كل ناحية ... وحان من كان فيها فهو ملهوف
فأهلها بين مقتول ومستلب ... ومنهم موثق فى القد مكتوف
تدعو النصارى لنا بالنصر ضاحية ... والله يعلم ما تخفى الشراسيف

وعرج الأخطل على قتال الروم فى طريقه لمدح الوليد بن عبد الملك ، فأفاض فى وصف الخيل التى ذهبت به مجتازة صحراء تدمر الى بلاد الروم •

---

(٩٩) دكتور المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص ١٥٣ •

(١٠٠) حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع حـ ١ ص ٢٥١ ـ ٢ تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمه دكتور اليازجى ص ٤٦ ـ ٧ ، دكتور المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص١٠٩ عن قبور الصحابة في القسطنطينية هناك بحث لشنيدر اورده دكتور المنجد في المنتقى من دراسات المستشرقين •

وفي كل عام منك للروم غزوة بعيدة آثار السنابك والسرب
وان لها يومين : يوم اقامة ويوما تشكى القض من حذر الدرب

ويذكر الأخطل حرب الروم فى سياق هجائه لقيس عيلان ويمدح الوليد فى قصيدة أخرى :

يكفيه الأعنة لا سوؤم قتال الأعجمين ولا ضجور
قتلت الروم حتى شذ منها عصائب ما تحرزها القصور

وفى قصيدة ثالثة يفخر الأخطل بغزوات الوليد للروم وفتحه بلادهم بشجعانه وجيوشه :

وان التعرض للوليد فانه نمته الى خير الفروع مضاربه
وما بلغت خيل امرىء كان قبله بحيث انتهت آثاره ومحاربه
وتضحى جبال الروم غبرا فجاجها بما اشعلت غاراته ومقانبه

على أن الشعراء لم يعطوا معارك الروم حقها فى العصر الأموى كما فعلوا فى العصر العباسى ، وقد لاحظ ذلك الدكتور المحاسنى فقال : « ان الرقعة التى تقع بين القسطنطينية وانطاكية كانت مسرحا لحرب العرب مع الروم زمن بنى أمية ، ولقد فتح العرب منذ أيام خالد بن الوليد الى أيام مروان بن محمد بلادا كان فيها الصقالبة واللان والفرنجة • ومن هذه البلاد اماسية وخرشنة وعمورية وسلوقية وقيسارية والمصيصة ، وفيها حصون فتحها العرب كحصن بولق والأخرم وبولس وقمقم وحصن المرأة ، وفى كل ذلك شاحذ للشاعر الأموى ليقول فى آثار العرب بحربها • ولعل شعراء قد قالوا شعرا فى تلك الحروب ووصفوا هاتيك الأصقاع زمن الأمويين ، ولكن لم يبلغنا من شعرهم الا القليل نتنسم فيه روائح البطولة العربية فى ديار الروم » (١٠٢) واشتهر فى ادب الحروب الاسلامية ضد الروم فى العصر الأموى **عبد الله البطال** ، وكان كبير حراس مسلمة فى حصار القسطنطينية ٧١٦ ـ ٧ م ايام سليمان ، وقد الهب خيال الاخباريين • وتسب الى مسلمة أنه بنى مسجدا فى ابيدوس حيث رابط جيشه وأحدث عين ماء هناك عرفت باسمه ، بل زعم أنه بنى مسجدا فى القسطنطينية وفرض على الروم بناء بيت لأسرى العرب فى جوار القصر الامبراطورى ودخل كنيسة القديسة صوفيا على ظهر فرسه • أما البطال فقد ذكر الطبرى مقتله بأرض الروم مع جماعة من المسلمين سنة ١٢٢ هـ

---

(١٠٢) دكتور المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص ١١٢ : ٤ •

(معركة اكرونيون بآسيا الصغرى سنة ٧٤٠ م) وقد صار هذا البطل الاسلامي فيما بعد النموذج الحى للبطل القومى الاسطورى سيد بطال غازى الذى لايزال قبره قائما فى قرية جنوبى اسكى شهر (دوريليوم Dorylaeum فى العصور الوسطى) بآسيا الصغرى . وقد أجله أبناء الاقليم من النصارى الروم وقدسوه ومثلوه في كنائسهم . وتظهر فى ثنايا الرواية التركية المتأخرة عن السيد البطال اشـــارات واضحة الى الاحداث التاريخية فى القرن التاسع الميلادى مما يكشف عن أصلها ، فهى تشير مثلا الى بابك وقتئذ . وقد توصل ماريوس كنار في قصة الفروسية العربية المسماة (بذات الهمة) الى مادة وفيرة اختلطت فيها وقائع التاريخ بخيال الأساطير وانتهت الى آثار تماثل المعروف عن السيد البطال وهكذا كانت جهود كنارفى التنقيب عن أدب الملاحم أو الفروسية العربية ذات قيمة كبـيرة . وقد اثبتت **أن هذا الأدب كان انعكاســا ادبيـا للحروب العربية الرومية** . وقد كانت الحملات الاسلامية المعروفة ضد القسطنطينية أربعة : ثلاث منها فى العصر الأموى أيام معاوية ثم سليمان ، ومن هذه الحملات الثلاثة حملتان ضربتا حصارا حقيقيا حول المدينة احداهما حملة يزيد (٤٩ هـ ـ ٦٦٩ م) فى عهـد ابيه معاوية والأخرى حمـلة مسلمة (٩٨ هـ ـ ٧١٦ م) فى عهد أخيه سليمان . أما الحملة الرابعة فقد شهدها العصر العباسى بقيادة هرون فى عهد ابيه المهدى (١٦٦ هـ ـ ٧٨٢ م) غير أن الروايات التركية تجعل الحصارات ما بين سبعة وتسعة ، وتنسب منها اثنين الى هـــرون . وكان حمـلات القسـطنطينية مثارا لقصص الفروسية العـــربية فى (**الف ليلة وليلة**) وغيرها ، خاصة فى زمن الحروب الصليبية ثم جاءت ابادة جيش ملطية بقيادة عمر الأقطع فيما بعد ـ فى عهد المتوكل العبـاسى ـ وهى التى تعد أكـــبر هزيمة لجيش الاسلام الى العهـــد الصليبى فتركت أثرها الدامى فى الملاحم العربية ، الذى يبدو فى الرواية العربية التركية عن (السيد البطال) وفى (ألف ليلة وليلة) (١٠٢) .

وتعتبر سيرة « **الاميرة ذات الهمة** » من أضـخم ما وصلنا من أدب شعبى عربى ، ان لم تكن أضخمها من ناحية الحجم على الاطلاق اذ تقع فى

---

(١٠٢) فازيلييف : بيزنطة والاسلام . بحث من كتاب Byzantium ملحق بترجمة دكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٢٨٢ ، حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع حـ ١ ص ٢٥٤ : ٦ ، حـ ٢ ص ٣٧١ ، تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٥١ ـ ٢ ،
Vasiliev : L'Emp. Byz. Vol. I. pp 314, 316.
مقدمة جريجوار لكتاب فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ٣ ـ ٤ .

٧٠ جزءا ضخما من القطع الكبير، وتعتبر صدى روائيا للاحداث التاريخية الهامة التى دارت بين العرب والروم فى صراعهما الطويل • ويقول **فازيلييف** « ان ابادة جيش ملطية العظيم الذى كان يقوده عمر الاقطع تعد أكبر هزيمة لحقت الاسلام الى العهد الصليبى وقد تركت أثرها الدرامى فى الملاحم العربية وبقى هذا الاثر الى أيامنا فى الرواية العربية التركية المسماة : « **السيد البطال** » ويقول **هنرى جريجوار** « لقد اكتشف الاستاذ **كانار** فى رواية الفروسية العربية المسماة **بذات الهمة** مادة وفيرة ما تزال زاخرة بالتاريخ تحللت شيئا فشيئا فى ثنايا الاساطير وانتهت الى مثل **سيرة السيد البطال** ، بعد أن كان المستشرقون يظنون أنها آثار لا تحد بمكان ولا تاريخ • والسيرة التى بين أيدينا اسمها بالكامل « سيرة الاميرة ذات الهمة وولدها الامير عبد الوهاب • والامير أبو محمد البطال وعقبة شيخ الضلال وشو مدرس المحتال » • ولم يصل المستشرقين الا نصوص مبعثرة من جزء من أجزاء هذه السيرة المطولة ، اعتمدوا عليها فى دراستهم لأصداء الصراع بين أبناء منطقة الحدود الاسلامية البيزنطية من عرب وروم • ولم تلق السيرة من الدارسين العرب ما تستحقه من اهتمام حتى تقدمت الدكتورة نبيلة ابراهيم ببحثها عنها لنيل درجة الدكتوراة من جامعة توبنجن بألمانيا الغربية •

وبالطبع ليست « سيرة ذات الهمة » كتاب تاريخ ، وانما تقدم من خلال سردها لقصص بطولة الفرسان سمات المجتمع العربى الاسلامى فى صراعه مع الروم ، وفى احداثه الداخلية وتغلغل النفوذ الفارسى ثم التركى فى أجهزة الحكم ، كما تقدم صورة حية لمنطقة الثغور والعواصم الاسلامية وأبنائها المرابطين على الحدود ، وذلك الى ما تقدمه من صورة مشرقة للمرأة العربية التى تحافظ على عرضها وتبقى على وفائها وتقود الجيوش وتنتزع الفرسان •

و « سيرة الاميرة ذات الهمة » تبرز مشكلة **قبيلة بنى كلاب** التى تصطلى بنيران الحرب على الحدود دون أن يكون لها شأن فى أحداث الدولة العربية ، ولم تكن القبيلة راضية عن وضعها وانما كانت راغمة بعد أن زاحمتها عناصر دخيلة فى أرضها ووجدت هذه العناصر من الحاكمين عونا ونصيرا ، فنزحت الى منطقة «**الثغور**» **حيث اتخذت «ملطية» موطنا لها** ، وهذا ما تحكيه السيرة وتؤيده روايات المؤرخين مثل القلقشندى فى « صبح الاعشى » •

وتبدأ السيرة بذكر **الاجناد** ، فتتحدث عن سيرة الحارث الكلابى ، ومن بعده جندية ثم الصحصاح ، وأعمالهم البطولية فى قلب الجزيرة

وخارجها . ثم تروى رؤيا الصحصاح التى تنبأت بأنه سيرزق بولدين : **أحدهما ظالم والآخر مظلوم** . وتحققت الرؤيا ، وولد لظالم (**الحارث**) الذى ورث عن أبيه ظلمه وغشمه ، وولدت لمظلوم بنت أقصاها أبوها خشية شماتة أخيه . وفى منفاها بين الغرباء ترعرعت « **فاطمة** » التى سرعان ما بدت ارهاصات مستقبلها وبطولتها . ولقد عرفت أهلها وانضمت الى قومها فى صراعهم ضد « ظالم » ، وهنا وقع ابن عمها « الحارث » فى غرامها ولكنها رفضت الزواج منه ، فأعمل الحيلة والغدر لبلوغ مأربه . **ونجح الحارث فى الزواج من فاطمة التى أبدت كل صور الاباء حتى أطلق عليها عندئذ « ذات الهمة » ، ولم تكن تضع ابنها « عبد الوهاب » حتى اعتزمت النزوح مع قومها الى « الثغور » جهادا للعدو** فلم يجد زوجها ما يعرقل به مسعاها ويسىء الى سمعتها الا باشاعة أن « عبد الوهاب » ليس ولده ، وهنا أرجأت ذات الهمة رحيلها حتى ترد على قالة السوء ، واستطاعت بمعونة أهل الفراسة والكهانة أن تثبت براءتها . **وحينذاك رحلت الى « ملطية » على رأس جيش** كبير لتشرع فى جهادها العظيم ضد عدو الخارج ، بعد بلائها المبين ضد عمها الظالم .

وقد اعتزم « بنو كلاب » بزعامة « ذات الهمة » أن يواجهوا الخليفة بمفاسد الحكم من وجهة نظرهم حتى يحددوا موقفهم منه فى مراكزهم الامامية التى يرابطون فيها : هل يستقلون بجهودهم أم ينضوون تحت لوائه . وتروى السيرة أنه فى عهد المأمون ثار ثائر على الدولة البيزنطية ونجح فى أن يجمع حوله جيشا قويا ـ لعله توماس الصقلبى ـ ولم تر ذات الهمة فى هذا الثائر ولا فى ثورته كسبا لدولة الاسلام فى شىء ، بل رأت صالح قومها ودينها فى معاونة بيزنطة على كسر الخارج عليها بعد أن لوحت لمجاهدى الثغور من بنى كلاب بـ «عمورية» مقابل مهادنتهم للروم حتى يقمعوا الثائر . فلما تم الاتفاق بين الجانبين ، سخط المأمون وتهدد بنى كلاب ، فكان من رد ذات الهمة عليه « ... ودعنا فى وجوه الكفرة ـ لا لك ولا عليك ، ولا تلح علينا فيخرج الامر من يديك ويدينا » . وانفذ بنو كلاب خطتهم ، ولما قمع الروم فتنة الخارج عليهم واصل مجاهدو الثغور جهادهم من جديد .

ولقيت بنو كلاب نعم الظهير والنصير فى « محمد البطال » من بنى سليم الذى تشير المراجع التاريخية الى بطولته ، كما تحكى المراجع البيزنطية أن الروم كانوا يعلقون صورنه فى الكنائس والاديرة حتى يبدو شكله معروفا فلا يتسلل بين عدوه وينفذ فيه حيله وآثر محمد البطال الجهاد فى صفوف بنى كلاب بعد أن شهد تواطؤ قومه مع منافق عدو

للاسلام ودولته يدعى عقبة السليمي وهو فقيه مسلم ارتضى أن يبيع آخرته بدنياه ويتستر بالدين والعلم في حين يوالى العدو • وكان السيد البطال من أهل الكيد لا من أهل الضرب ، وتروى عنه السيرة قوله «أناماصنناعتى الحرب والطعن والضرب ، وانما صناعتى الحيل والخداع فى حصن أو قلعة » ، وقد كان يجيد التنكر والتحدث بلغة الروم وتلاوة الانجيل • وهكذا اجتمع لبنى كلاب « همة » الزعيمة وقوة شخصيتها ، وشجاعتها وشجاعة ابنها عبد الوهاب في القتال ، الى دهاء البطال وكيده وحيلته • وقد أصر بنو كلاب على أن يكون جزاء المنافق عقبة السليمى أن يصلب على (باب الذهب) أحد أبواب القسطنطينية ، وكأنهم يضعون أمامهم من قريب رمز الامل المنشود • وقد تحقق فى السيرة الهدف المزدوج ، وان كان فتح القسطنطينية بالفعل في وقائع التاريخ لم يحدث الا على يدى محمد الفاتح ١٥١٧ م •

كذلك تروى « قصة عمر النعمان » ــ من قصص ألف ليلة ، خبر ملك فاسق مستهتر لم يتورع عن أن يعرس بعروس ابنه (شراكان) وكانت رومية تدعى « أبريزة » ، ثم يقصى ابنه ويقطعه جزءا من مملكته توقيا لغضبه • ومن احدى الجوارى العديدات للملك المعربد ، ولد « ضوء المكان » و « نزهة الزمان » اللذان خرجا فى رحلة مهولة لم يعودا بعدها لمقر المملكة الا وعمر النعمان يلفظ آخر الانفاس • فحكم ضوء المكان فلم يلبث حتى توفى وتولى بعده ابنه (كان مكان) فسار مسيرة الرشد فتآمر عليه المنتفعون من فساد الحكم حتى أخرجوه ، وعند نهر الفرات جلس (كان مكان) يحلم بالعودة الى الديار ومدافعة الأشرار • ولحق بالمصلح المكافح شرذمة قليلون من قومه ، ارتأى أن يجاهد بهم الروم الذين كانوا يشدون أزر المفسدين • وفى المعركة غير المتكافئة أسر (كان مكان) فاذا بقائد الروم (رومزان) ولد لأبريزة والدة (كان مكان) الرومية التى اغتصبها أبوه من ابنه (شراكان) ، وكانت قد هربت بطفلها الى ديارها • وأخبرت خادمة لقائد الروم سيدها حقيقة نسب الأسير الذى أوشك القائد أن يطيح برأسه ، فاحتضن العم ابن أخيه وأعلن اسلامه والوقوف الى جانبه لاعادة الحق الى نصابه وارجاع الحاكم الصالح الى قومه وسلطته الشرعية (١٠٢) •

(١٠٢م) هنرى جريجوار : تقديم كتاب فازيلييف : العرب والروم ــ ترجمة دكتور شعيرة ص ٣ ــ ٤ ، دكتورة نبيلة ابراهيم : التعبير الشعبى عن الثورة ــ المجلة ع ، ١١٥ يوليو ١٩٦٦ ، فاروق خورشيد : ذات الهمة ــ دائرة معارف الاهرام •

وفي العصر العباسي اشتهر في شعر الحرب البحتري وأبو تمام الشاعران العربيان الصميمان ، فكان شعر ابى تمام أكثر من غيره فى الحماسة • ويرى الدكتور المحاسنى انه « كان خبيرا فيها اذ احبها وأحب المختار من شعرها فالف فيه ، وانى لأعذره فهو شاعر قد صب فى قوالب عصره ، ولو اتقدت الفتوح فى زمنه لوجدنا صداها فى شعره صريحا كما وجدنا فى فتح عمورية وحروب الروم بما لم يعهد عنه شاعر قبله » • واضعف من شعر الحرب فى العصر العباسى هدوء الفتوح وانشغال الدولة بالفتن الداخلية ، واقتصار قتال الروم على معارك الحدود الدورية وظهور الأعاجم فى قيادة الجيوش وقول الشعر على السواء • وقد وصف البحترى صورة معركة منقوشة على ايوان كسرى تصور غزو الفرس لانطاكية وايقاعهم بالروم •

فاذا ما رأيت صورة انطاكية	ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل ، وانو شروان	يزجى الصفوف تحت الدرفس
فى اخضرار من اللباس على	اصفر يختال فى صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه	فى خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح	ومليح من السنان بترس
تصف العين انهم جدا أحياء لهـ	ـم بينهم اشارة خرس
يعتلى فيهم ارتيابى حتى	تتقراهم يداى بلمس

ومدح أبو المعالى الكلابى الرشيد فأثنى على جهاده للروم — حتى روى انه اتخذ قلنسوة مكتوبا عليها (غاز حاج) •

فمن يطلب لقاءك او يرده	فبالحرمين أو أقصى الثغور
وما جاز الثغور سواك خلق	من المتخلفين على الأمور

وقال أبو العتاهية فى فتح هرقلة :

الا نادت هرقلة بالخراب	من الملك الموفق بالصواب
غدا هرون يرعد بالمنايا	ويبرق بالمذكرة القضاب

وتذكر الروايات العربية ايقاع تيوفيل بزبطرة أيام المعتصم ، وتذكر أن امرأة عربية من زبطرة صاحت حين سباها الروم : وامعتصماه ! فلما بلغ المعتصم خبر استغاثتها صرخ على سريره : لبيك لبيك ، وصاح فى قصره : النفير النفير ! وشاء المؤرخون البيزنطيون ان يصبغوا آثار المعتصم حين فتح عمورية بصبغةالانتقام ، فزعموا أن زبطرة بلد المعتصم التى ولد فيها وأنه قوض مدن عمورية لأنها كانت دارة الأباطرة الروم

وبيت كرسيهم وحمى بطارقتهم . وقد وصف ابو تمام (٨٠٧ : ٨٤٧م) وقعة عمورية ، وسخر من المنجمين الذين نصحوا بالعدول عن الحملة فلم يعبأ بذلك المعتصم :

والعلم فى شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا فى السبعة الشهب

وقد وصف الشاعر هذا الفتح الكبير :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الاسلام فى صعد ... والمشركين ودار الشرك فى صبب
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها او كان الشمس لم تغب
تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقت فى الله مرتغب
لم يغز قوما ولم ينهض الى بلد ... الا تقدمه جيش من الرغب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها فى جحفل لجب
رمى بك الله برجيها فهدمها ... ولو رمى بك غير الله لم تصب
من بعد ما اشبعوها واثقين بها ... والله مفتاح باب المعقل الأشب
لبيت صوتا زبطريا هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
لما رأى الحرب رأى العين توفلس ... والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالأموال جريتها ... فعزه البحر ذو التيار والعبب
ولى وقد ألجم الخطى منطقه ... بسكتة تحتها الأحشاء فى صخب
تسعون الفا كأساد الشرى نضجت ... جلودهم قبل نضج التين والعنب
والحرب قائمة فى مأزق لجب ... تجثو الرجال به صغرا على الركب
كم كان من قطع أسباب الرقاب بها ... الى المخدرة العذراء من سبب

وحفل شعر أبو تمام بالاشادة **بأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى** عامل العباسيين على أرمينية ، ويذكر ابن الأثير ولايته أرمينية وأذربيجان سنة ٢٣٥ هـ/٨٤٩ ـ ٨٥٠ م ـ ومات فى العام التالى أيام المتوكل ويذكر ميشيل السورى أنه ولى الشام والجزيرة منذ سنة ٨٣٩م وكان مقره حلب ويذكر غزوه للروم سنة ٨٣٩م ـ ٨٤٠م . وقد أمضى أيامه منذ ولاه المعتصم على أرمينية سنة ٢٢٠هـ الى موته فى خلافه المتوكل سنة ٢٣٧هـ يبغى الحصون ويقاتل الروم وكان له بلاء فى قتال بابك أيضا حتى غلب عليه لقب الثغرى . ولم يذكر المؤرخون شيئا عن غزو ابى سعيد الثغرى للقسطنطينية فى حين خلد ابو تمام هذه الغزوة التى مد فيها أبو سعيد رماح فرسانه الى حدود القسطنطينية ، وذكر الشاعر القسطنطينية

وأسوارها . وذكر أن أبا سعيد بلغ الخليج وان رجع دون فتح القسطنطينية وهرب من أمامه قائد الروم منويل .

لولا جلاد ابى سعيد لم يزل ... للثغر صدر ما عليه صدار
قدت الجياد كأنهن أجادل ... لقرى (درولية) لها أوكار
حتى التوى من نقع قصطلها على ... حيطان (قسطنطينية) أعصار
أوقدت من دون الخليج لأهلها ... من خوف قارعة الحصار حصار
ولقد فصلت من الدروب اليهم ... بعرمرم للأرض منه خوار
أن يبتكر ترشده أعلام الصوى ... أو يسر ليلا فالنجوم منار
(فالحمة البيضاء) ميعاد لهم ... و (القفل) ختم و (الخليج) شعار
والمشي همس والنداء اشارة ... خوف انتقامك والحديث سرار

وقصائد أبى تمام فى أبى سعيد كثيرة مثبتة فى ديوانه أكثرها عن حروبه مع الروم وبعضها عن سائر وقعاته كاشتراكه فى حرب بابك . يقول كنار : ان ابا سعيد له ذكر فى حرب بابك وحملة عمورية . ولايكاد يذكر مؤرخو العرب شيئا عن دوره فى حرب الروم الا اشارة موجزة فى عمورية أن أحد مواليه صعد الى الحصن ليحمل الى ياطس القائد الرومى الأمر لينزل ، ولكن دوره يجب أن يكون هاما اذا نظرنا اليه فى ضوء أشعار أبى تمام والبحترى ، ولا بد أنه غزا مرات كثيرة آسيا الصغرى أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . ويواصل كنار قوله : ان وقعه (عقرقس) كانت أشهر وقعات ابى سعيد وأضراها على الروم وأشراها ، وقد ذكرها أبو تمام ثلاث مرات وذكرها البحترى مرتين ، وقد صور أبو تمام فى قصيدة قافية جنود ابى سعيد وعليهم الدروع السلوقية ، وجعل يذكر بنود الروم ومدنهم الكبرى واحدة واحدة وفى أكثرها حصون وحواليها أسوار ، وأبو سعيد يفتح ويغنم ويحرق ويقتل وكانت تحدث (معارك شوارع) فى بعض المدن ، حتى اذا بلغ أبو سعيد وادى عقرقس كانت المعركة الفاصلة، وقد بلغ أبو سعيد فى غزوته هذه الخليج مرة أخرى ويصعب تحديد موقع عقرقس بالضبط . ويروى قسطنطين البورفيرى انه حول سنة ٨٩٥م اقتطع من جند البقلار أربعة أقسام منها عقرقس ، وتحديد مكان كل قسم بالضبط غير ممكن وفى الشعر العربى ما يدل على أن عقرقس من جند البقلار أيضا ، ولكن المؤكد أنه يقع بين بحيرة تاتله ونهر الهليس . ويقول ابو تمام فى هذه المعركة :

فى كماة يكسون نسج السلوقى ... وتعدو بهم كلاب سلوق
يتساقون فى الوغى كأس موت ... هى موصولة بكأس الرحيق

وطئت هامة النواحي فلما ان قضت نحبها من (القبدوق).
الهبتها السياط حتى اذا اشفت اطلاقهـا على (النـاطلوق).
شنها شزبا فلما استباحت بالبقـلار) كل سهب ونيق.
سار مستقدما الى البأس يزجي رهجا باسقا الى (الأبسيق)
ثم ألقى على (درولية) البرك محـلا باليمن والتوفيق
فحوى سوقها وغادر فيها سوق موت طمت على كل سوق
فهم هاربون بين حريق السيف صلتا وبين نار الحريق.
واجدا (بالخليج) ما لم يجد قط (بماشان) لا ولا (بالزريق)
وقعة زعزعت مدينة قسطنطين حتى ارتجت بسوق فروق.
كم أسير من سربهم وقتيل رادع الثوب من دم كالخلوق.
يستغيث البطريق جهلا ، وهل يطلب الا مبطرق البطريق
ثم ناهضت في الفلول رجالا ورجالا بالضرب والتحريق.
وبوادى عقرقس لم تعرد عن رسيم الى الوغى وعتيق.
جار الدين واستغاث بك الاسلام من ذاك مستغاث الغريق
يوم بكر بن وائل (بقضات) دون يوم (المحمر) الزنديق.
ويوم حلق اللمات ذاك وهذا اليوم في الروم حلق الحلوق.
أورثت (صاغرى) صغارا ورغما وقضت (أو قضى) قبيل الشروق.
كم أفاءت من أرض (قرة) من قرة عين وربرب مومـوق.
أن أيامك الحسان من الروم لحمر الصبوح حمر الغبوق
معلمات كأنها بالدم المهراق يـوم للنحـر والتشريق.

وفي قصيدة أخرى ذكر أبو تمام حرب أبي سعيد للروم والخرمية :

جدعت لهم أنف الضلال بوقعة تخرمت في غمائهـا من تخرما.
لقد كان أمسى في عقرقس أجدعا فمن قبل ما امسى (بميمذ) اخرما
قطعت بنان الكفر منهم (بميمذ) واتبعتها بالروم كفا ومعصما
وكم جبل (بالبـذ) منهم هدرته وغاوغوى خلمته فتحلما.
فان يك نصرانيا النهر (آلس) فقد وجدوا وادي (عقرقس) مسلما
ولم يبق في أرض (البقلار) طائر ولا سبع الا وقد مات مولما.

ويذكر أبو تمام كيف كان ترويع أبي سعيد للروم وملكهم :

ولما رأى (توفيل) رايتك التي اذا ما استقامت لا يقاومها الصلب.
تولى ولم يال الردى في اتباعه كأن الردى في قصده هائم صب
كأن بلاد الروم عمت بصيحة فضمت حشاها أو رغا وسطها السقب
(بصاغرة) القصوى (وطمين) واقترى بلاد (قرنطاؤوس) وابلك السكب.

أما الشاعر العربى الآخر الذى اتجه الى شعر الحرب واحتفل بأبى سعيد فهو البحترى (٨٢٠ : ٨٩٧م) وهو شامى من منبج يرجح أنه عرف أبا سعيد حين قدم واليا على الشام فخصه بشعره وهو يقول فى وقعة عقرقس :

ربما وقعة شملت بها الروم فباتوا اذلة خاضعينا
قد أمنا أن يامنوك على حال ولو صيروا النجوم حصونا
وتوافت خيلاك من أرض (طرسوس وقاليقلا بأردندونا)
عابسات يحملن يوما عبوسا لآناس عن خطبه غافلينا
زرن بالدارعين أرض (البقلار) فأجلوا عن (صاغرى) صاغرينا
قد طواهن طيهن الفيافى واكتسين الوجيف حتى عرينا
كوعول الهضاب رحن وما يملكن الا صم الرماح قرونا
ونفير الى (عقرقس) أنفرت فسكنت المظفر الميمونا
همة فى غد بتفليق هام فى قرى (العازرون والمازرونا)
ولعمرى ما ماء زمزم أحلى عنده من دم (بزارمينا)
غير وان فى طاعة الله حتى يطمئن الاسلام فى (طمينا) .

وتتبع الشاعر حروب يوسف بن أبى سعيد فى حين لا يعرف التاريخ عنه الا أنه خلف اباه فى حكم أرمينية وأذربيجان واشترك مع أبيه قبل موته فى غزو الروم وليست هناك تفاصيل تاريخية عن غزوه للروم مع أبيه ثم منفردا بعد وفاته ، وقد توفى سنة ٨٥١/٢٣٧ـ٢م أثناء ثورة كبيرة فى أرمينية . لكن البحترى يفصل القول فى وقائع يوسف حتى يصل به الى الخليج أيضا :

وما هو الا يوسف بن محمد أعداؤه والموت غربا ومشرقا
وعارضه المستمطر الجود انه تجهم فوق (الناطلوق) فاطرقا
واضعف (بالقباذقين) سجاله وارعد (بالآبسيق) شهرا فأبرقا
فحرق ما بين الدروب أتيه الى (مجمع البحرين) حتى تحرقا
وبرد خريف قد لبسنا جديده فلم ننصرف حتى نزعناه مخلقا
وبدرين أنضيناهما بعند ثالث أكلناه بالايجاف حتى تمحقا
حوى كل ما دون الخليج ولم يدع فؤادا بما دون الخليج معلقا

ولعل البحترى كان مصاحبا لابن أبى سعيد فى حملته هذه . وقد وقف الشاعر كثيرا من شعره على الروم فى حروبهم مع المسلمين « حتى صححت به حوادث من التاريخ ووضحتها » على حد تعبير المحاسنى . وقد

وصف البحترى فيقصيدة له يمدح بها المتوكل وفدا للروم جاء للمخاطبة في الفداء وحضر مأدبة اقامها له الخليفة ، لكنه اقتصر من وصفه على طعام القوم ومجلسهم الى الموائد وذهول عقولهم من هول ما طالعوا فى قصر الخليفة وما عاينوه . وقد عرف البحترى على بن يحيى الأرمنى - وهو قائد له بلاؤه في حرب الروم وكان له خاصة من الشعراء ولكن البحترى كان يبغضه وهو يهجوه أحيانا ويتهمه بالغلول فى الغنائم والتولية يوم الزحف ومن هنا خلا شعر البحترى من الغزوات المتعددة لهذا القائد .

وقد وصف البحترى أسطول المتوكل الذى قصد القسطنطينية بقيادة أحمد بن دينار وهو شخص غير ذائع الذكر ، ويرجح كنار أن أباه دينار عبد الله من موالى الرشيد وكان له دور حربى سياسى أيام المأمون، ويقول أبو المحاسن عنه انه ولى دمشق مدة سنة ٢٢٥هـ/٨٤٠م وولى ابنه أحمد ولايات هامة لم تذكر وخلف فيها اباه . ولم يذكر المؤرخون غزوة بحرية لأحمد ابن دينار ، ولكن يمكن التقريب بين الغزوة التى يذكرها البحترى وغزوة يذكرها مؤرخو الروم ويذكرون اسم رئيسها أبى دينار Apodenar وهو تحريف من ابن دينـــار ، وقد أرخها فازيلييف بعام ٨٤٢م . ويقول مؤرخو الروم ان هذه الحملة كانت تقصد القسطنطينية. وقد انتهت بكارثة بسبب عاصفة دون أن يذكروا موقعة بحرية ، فى حين يصور البحترى بحارة أحمد بن دينار يقذفون بالنـار الاغريقية الرجال ذوى اللحى الحمر وينتصرون حتى يهرب ابن قيصر :

باحمد احمدنا الزمان واسهلت ... لنا هضبات المطلب المتوعر
ولما تولى البحر والجود صنوه ... غدا البحر من اخلاقه بين ابحر
اضاف الى التدبير فضل شجاعة ... ولا عزم الا للشجاع المدبر
اذا شجروه بالرماح تكسرت ... عواملها فى صدر ليث غضنفر
غدوت على الميمون صبحا وانما ... غدا الموكب الميمون تحت المظفر
أطل بعطفيه ومر كأنما ... تشرف من هادى حصان مشهر
اذا زمجر النوتى فوق علاته ... رأيت خطيبا فى ذؤابة منبر
يغضون دون (الاشتيام) عيونهم ... وقوف السماط للعظيم المؤمر
وحولك ركابون للهول عاقروا ... كئوس الردى من دراعين وحسر
تميل المنايا حيث مالت أكفهم ... اذا اصلتوا حد الحديد المذكر
اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ... ليقلع الا عن شواء مقتر
صدمت بهم (صهب العثانين) دونهم ... ضراب كايقاد اللظى المتسعر

ثم يعرض البحترى للروم ويصور المعركة البحرية بين الجانبين :

يسوقون أسطولا كأن سفينة — سحائب صيف من جهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم — اذا اختلفت ترجيع عود مجرجر
تقارب من زحفيهم فكأنما — تؤلف من أعناق وحسن منفر
فما رمت حتى اجلت الحرب عن طلى — تقطعها فيها وهام مطير
وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده — مليا بأن توهى صفاة ابن قيصر
جدحت له الموت الزعاف فعافه — وطار على الواح شطب مسمر
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها — عليه ومن يول الصنيعة يشكر
اذا الموج لم يبلغه ادراك عينه — ثنى فى انحدار الموج لحظة أخزر
تعلق بالأرض الكبيرة بعدما — تنقصه جرى الردى المتمطر (١٠٣)

وقد رفع لواء شعر الحرب وسجل وقائع الثغور من بعد شاعران كبيران آخران هما المتنبى وأبو فراس ، فكان شعرهما تسجيلا لرفع الحمدانيين لواء الجهاد الاسلامى ضد الروم • واستطاع المتنبى أن ينشر على قصائده ـ على حد تعبير ديمومبين ـ ريحا ملحمية « ومع انه استعمل القوالب القديمة ، الا انه تغنى بالمروءة البدوية فى الفاظ خصبة مصقولة» • وقد انتقلت ملامح من الغارات البيزنطية بجانب أخرى من معارك الحروب الصليبية فى قصص البطولة المتأخرة مثل الف ليلة وليلة وقصة عنتر وغارات بنى هلال كما يرى ديمومبين (١٠٤) •

كان الشعر الحربى الاسلامى تسجيلا تاريخيا للوقائع الحربية الهامة كما كان تسجيلا جغرافيا للمعالم والاماكن البارزة وقد استشهد به ياقوت والبكرى فى مواضع كثيرة من تعريفهما للبلدان • ومع ذلك فانه يصعب على المؤرخين والجغرافيين أن يتخذوا الشعراء كمصادر تاريخية ـ على حد تعبير ماريوس كنار « لبعدهم عن الدقة فى التوقيت وتحديد المكان فى اشاراتهم الى احداث حرب الروم ، فانهم لم يكتبوا شعرهم ليقصوا التاريخ لكن ليمدحوا فيحيطون ما يذكرون من الوقعات بعبارات شعرية حتى لنتكلف الجهد قبل ان نستخلص منها شيئا يسيرا من التاريخ وقد لا تخرج بعد العناء الا بمجرد فروض » • وابو تمام والبحترى من شعراء البلاط المقربين للخلفاء والولاة والقواد والوزراء العباسيين ومع ذلك فانهما على ما قدماه لنا من مادة أدبية عن حروب المسلمين والروم فى ثنايا

---

(١٠٣) دكتور المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص ١٣٦ ، ١٥٣ : ١٩٤ ، كنار : تعليقات اضافية ملحقة بكتاب فازيلييف : العرب والروم ترجمة الدكتور شعيرة ص ٣٤٦ : ٣٥٧ •

(١٠٤) ديمومبين :النظم الاسلامية ترجمة السامر والشماع ص ٢٧٠ •

مدائحهما لابطالهم ، ورغم انفراد هذه المادة احيانا بوقائع وتفاصيل أغفلها المؤرخون فاننا نجد ان « جملة اخبارهما ـ وهما أكبر شعراء العرب فى عصرهما ـ اخبار على شيء من الضآلة ونقص التحديد ، ولكنها مع ذلك تؤيد تأييدا طريفا بعض روايات المؤرخين الروم والسريان : مثل النضال بين أبى سعيد ونصر تيوفوب ، وهر بمنويل فى وقعة انزن وغزوة ابن دينار البحرية ، وهى تدلنا كذلك على نقص اخبار المؤرخين العرب فى عدد من الوقائع والتفاصيل ، ونخرج من قراءة الشعر بشعور واضح اننا لانزال نجهل الشيء الكثير عن حروب الروم والعرب فى القرن التاسع » (١٠٥) ،

يقول ياقوت عن برجمة مثلا « حصن للروم فى شعر جرير » ، ويقول عن **تاكيس** : قلعة فى بلاد الروم فى الثغور غزاها سيف الدولة فقال أبو العباس الصفرى :

فما عصمت تاكيس طالب عصمة ولا طمرت مطمورة شخص هارب

ويقول عن **جلباط** : ناحية يجيل اللكام بين أنطاكية ومرعش كانت بها وقعة سيف الدولة بن حمدان بالروم افتخر بها أبو فراس فيما افتخر فقال :

فاوقع فى جلباط بالروم وقعة بها العمق واللكام والبرج فاخر

وفى كلامه عن جيحان ينقل قول ابى الطيب :

سريت الى جيحان من أرض آمد ثلاثا لقد أدناك ركض وابعدا

وينقل قول أبى تمام فى **درولية** :

ثم القى على درولية البرك محلا باليمن والتوفيق
فحوى سوقها وغادر فيها سوق مزن مرت على كل سوق

ويروى عن أبى فراس فى **سمنين** :

وراحت على سمنين غارة خليه وقد باكرت هنزيط منها بواكر (١٠٦)

وهكذا كان شعر الحرب مصدرا لتسجيل المعالم الجغرافية والوقائع

---

(١٠٥) كنار : تعليقات اضافية ملحقة بكتاب فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ٣٤٦ ،

(١٠٦) ياقوت : معجم البلدان حـ ٢ ص ١١٢ ، ٣٥٣ ـ ٤ ، حـ ٣ ص ١٢٠ ، ١٨٦ ، حـ ٤ ص ٥٧ ، حـ ٥ ص ١٣٣ ،

الحربية الى حد ما وقد استند ياقوت الى كثير من الأبيات التى سبق ذكرها لأبى تمام أو البحترى فى مادته الجغرافية التى يسوقها فى معجم البلدان .

والنثر العربى .. ما دوره ـ فى غير القصص الشعبى ـ فى تسجيل معارك المسلمين والروم ؟

اشترط أن يعرف الكاتب كبريات المعارك « قد ذكر فى (حسن التوسل) ان الكاتب يحتاج الى **معرفة أيام العرب** وتسمية الأيام التى كانت بينهم ومعرفة يوم كل قبيلة على الأخرى وما جرى بينهم من الاشعار والمناقضات وذكر فارس مشهور أو ملك مذكور أو واقعة معينة لشخص خاص وما ادعاه كل منهم لنفسه أو ليومه ـ لما فى ذلك من العلم بما يستشهد به من واقعة قديمة أو يرد عليه فى مكاتبه من ذكر يوم مشهور أو فارس معين ـ ونحو ذلك ، مما مضى عليه أمر الجاهلية أو حدث فى الاسلام . فان الكاتب اذا لم يكن عارفا بالوقائع عالما بما جرى منها لم يدر كيف يجيب عما يرد عليه من مثلها ولا ما يقول اذا سئل عنها » . وقد ظهر فى الادب الرسمى للدولة الاسلامية « **كتب ترسل الى الاطراف للحث على الجهاد** » قال فى (مواد البيان) : كما ان الدين ينتظم بالدعاء اليه والترغيب فيه ، كذلك ينتظم بصيانة حوزته وما دخل فى مملكته وكف أعدائه عن تنقص أطرافه والتغلب على بلاده ، ولهذا ، فرض الله تعالى الجهاد وأوجبه ، والسلطان يحتاج عند الحوادث التى تحدث عند تطرق المخالفين الى بعض الثغور أو شن الغارة على أهل الاسلام أن يدعو الى الجهاد ومقارعة الأعداء وصون حريم الملة وحفظ نظام الدولة . ثم ذكر ان الرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على جميع صنعه : على اعزاز الكلمة واسباغ النعمة باظهار هذه الملة وما وعد الله به من نصر أوليائه وخذلان أعدائه ، والصلاة على رسوله وذكر طرف من مواقعه فى الجهاد ، ثم يذكر الحادثة بنصها ويندب من جاوره وداناه من أهل الملة أجمعين ، ويخاطبهم بما يرهف عزائمهم فى نصرة الدين وكافة المسلمين واتباع سبيل السلف الصالحين .. وان يحضهم على التمسك بعزائم الدين والعمل على بصائر المخلصين وافتراض ما فرض الله عليهم من جهاد اعدائه وتنجيز ما وعدهم به من الاظفار بهم والاظهار عليهم » . وقد عقب على ذلك صاحب (صبح الاعشى) « قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمر الحكم الى زماننا . وقد تقدم ان الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى ذكر فى (حسن التوسل) انه **اذا كتب عن الملك فى أوقات حركات العدو الى اهل الثغور** يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم أنه يبسط القول فى وصف العزائم وقوة

الهمم وشدة الحمية للدين ، وكثرة العسكر والجيوش وسرعة الحركة وطى المراحل ومعاجلة العدو ، وتخيل أسباب النصر والوثوق بعوائد الله فى الظفر وتقوية القلوب منهم وبسط آمالهم ، وحثهم على التيقظ وحضهم على حفظ ما بأيديهم من ذلك وما أشبهه ، وانه يبرز ذلك فى أبين كلام وأجله وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة وأبعده من اللين والرقة ويبالغ فى وصف الأنابة الى الله واستنزال نصره وتأييده والرجوع اليه فى تثبيت الاقدام والاعتصام به فى الصبر والاستعانة به على العدو والرغبة اليه فى خذلانهم وزلزلة اقدامهم ، دون التصريح بسؤال بطلان حركتهم ورجاء تأخيرهم وانتظار العرضيات فى تخلفهم ـ لما فى ذلك من ايهام الضعف عند لقائهم واستشعار الوهن والخوف منهم . وان زيادة البسط ونقصها فى ذلك بحسب المكتوب اليه » .

ومن الأمثلة على كتب الجهاد ما كتبه المنتصر الى مولاه محمد بن عبد الله بن ظاهر عند اغزائه وصيفا مولاه سنة ٢٤٨هـ سنة ٨٦٢م وكان مما جاء فيه « .. وقد رأى أمير المؤمنين لما يحبه من التقرب الى الله بجهاد عدوه وقضاء حقه عليه فيما استحفظه من دينه والتماس الزلفى له فى اعزاز أوليائه واحلال البأس والنقمة بمن حاد عن دينه وكذب رسله وفارق طاعته ، ان ينهض وصيفا مولى أمير المؤمنين من طاعته ومناصحته ومحمود تعبئته وخلوص نيته فى كل ما قربه من الله ومن خليفته . وقد رأى أمير المؤمنين ـ والله ولى معونته وتوفيقه ـ أن يكون موافاة وصيف فيمن أنهض أمير المؤمنين معه من مواليه وجنده وشاكريته ثغر ملطية لاثنتى عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين ـ وذلك من شهور العجم للنصف من حزيران ودخوله بلاد أعداء الله فى أول يوم من تموز . فاعلم ذلك واكتب الى عمالك على نواحى عملك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا ، ومرهم بقراءته على من قبلهم من المسلمين وترغيبهم فى الجهاد وحثهم عليه واستنفارهم اليه وتعريفهم ماجعل الله من الثواب لأهله ليعمل ذوو النيات والحسبة والرغبة فى الجهاد على حسب ذلك ، فى النهوض الى عدوهم والخفوف الى معاونة اخوانهم والذياد عن دينهم والرمى من وراء حوزتهم بموافاة عسكر وصيف مولى أمير المؤمنين ملطية فى الوقت الذى حدده أمير المؤمنين لهم ان شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . وكتبه احمد بن الخصيب لسبع ليال خلون من المحرم سنة ثمان واربعين ومائتين (١٠٧) » .

---

(١٠٧) القلقشندى : صبح الاعشى حـ ١ ص ٣٩٠ ، حـ ٨ ص ٢٤٦ ؛ ٨ ، الطبرى أخبار سنة ٢٤٨ هـ .

(هـ) الفنون :

انتشر تأثير القسطنطينية الفنى فى ارجاء الشرق : فى مصر وسوريا والجزيرة وآسيا الصغرى وارمينية وغيرها على أن كلا من هذه الجهات قد احتفظ بطابعه الفنى الخاص مع وجود بعض الملامح العامة . وقد واجه الفن المسيحى فى الشرق فى بداية القرن الرابع الميلادى تأثيرا مزدوجا من اصول الثقافة الهيلنستية التى كانت ما زالت تواصل حياتها فى المدن الكبرى مثل الاسكندرية وانطاكية وافسوس ، ثم الاصول القديمة للشرق الايرانى أو السامى التى اتيح لها أن تعاود الحياة عن طريق فارس الساسانية فى مصر وبين النهرين وأرمينية وان تدافع التأثير الاغريقى الذى ما فتىء غلابا لأجل طويل . وقد كانت المسيحية فى بعضها للوثنية مقبلة على أساليب هذه الفنون القومية والتعلم من الشرق وان كانت لم تستطع أن تنتزع نفسها تماما من بهاء التقاليد الاغريقية . ومن هنا قام هذا الازدواج بين هذين التأثيرين المتقابلين وهو ازدواج استمر بقدر استمرار الفن البيزنطى نفسه بل الواقع ان هذا الازدواج هو الذى أعطى للفن البيزنطى طابعه المميز (١٠٨) وقد نقلت أنطاكية عن طريق تجارها فن الزخرفة السورى الى اقصى سواحل البحر المتوسط بينما نقل المعماريون فى آسيا الصغرى فن بناء القباب - ربما من فارس - وحاولوا ان يجدوا الطريق لكى يتطوروا بها الى الصورة الشرقية (١٠٩).

وكان للفن البيزنطى آثاره على الحضارة الاسلامية وتأثر العرب بالمؤثرات الفارسية وبصورة أكبر بالمدنية الهلينستية السامية المسيحية فى سوريا ومصر ، وظلت هذه المدنية - التى دعيت بيزنطية من قبل - على تأثرها ببيزنطة حتى بعد الفتح الاسلامى . وكان النصارى فى سوريا - مثل مؤلف Trophies of Damascus فى القرن السابع - يعتبرون أنفسهم رعايا الامبراطور ، كلما كان الخلفاء الامويين يستخدمون المعماريين والفنانين الروم . وكانت العمائر الاسلامية الاولى بيزنطية فى تصميمها كما كانت بيزنطية فى زينتها بقدر ما تسمح بذلك أوامر الاسلام (١١٠). وكان المسلمون عند الفتح الاسلامى للشام يأخذون كنيسة ويستخدمونها مسجدا ، أو يأخذون شطرها أو جزءا منها ليكون مسجدا اذا أذعنت البلد صلحا ، فقد أخذوا ربع كنيسة القديس يوحنا فى حمص . ويروى

---

(١٠٨) Byzantium 169-170

(١٠٩) بينز : الامبراطورية البيزنطية - ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٣٣ .

(١١٠) Runciman : Byz. Civ. pp. 233-4

البلاذرى أنهم أخذوا نصف كنائس حلب وقد باشروا تحديد القبلة بما يناسب اتجاه البيت الحرام . **وهكذا كانت المؤسسات الدينية الاسلامية الأولى تحت تأثير المؤثرات البيزنطية والمسيحية** . وتحدثت الروايات العربية عن روعة المؤسسات الدينية المسيحية ، فقد نقل بن رسته « قال محمد بن موسى بن موسى المنجم : تقول الروم : ما من بناء بالحجارة أبهى من كنيسة الرها وما من بناء بالخشب أبهى من كنيسة منبج لأنها بطاقات من الخشب العناب ، ولا من بناء بالرخام أبهى من قسيان أنطاكية ، ولا من بناء بالحجارة أيضا أبهى من كنيسة حمص » . وقال المسعودى : « وبنت هيلانى كنيسة حمص وهى احدى عجائب العالم على أربعة أركان ، وكنيسة الرهاء من بناء ديار مضر وهى احدى عجائب العالم الأربع المذكورة (١١١) .

وكان الامويون ينزعون الى البادية فاقاموا مضاربهم فيها من الخيام اولا ثم تحولت بالتدريج أثر تزايد الترف الى مخيمات ثابتة ، ثم اقيمت مبانى ذلت طابق ، وقد سكنوا أحيانا فى قلاع الحدود البيزنطية مثل الازرق ـ تلك القلاع التى كانت تكون جزءا من خط الاستحكامات من خليج العقبة الى دمشق ومن دمشق الى بالميرا (تدمر) وبذلك وقعت هذه القصور فى مجال تأثير الفن البيزنطى . وقد توفى يزيد بن معاوية فى حوارين وأقام الوليد بن عبد الملك معظم الوقت على حافة الصحراء خاصة فى خناصرة الاحص (٥٥ كم الى الجنوب الشرقى من حلب) والقريتين وأسيس (تل سيسى ، ١٠٥ كم الى الجنوب الشرقى من دمشق) واختار عمر بن عبد العزيز خناصرة لمقامه ، أما يزيد الثانى فكان يمضى وقته فى الموقر (بين المشتى وقصر خربة) . وعاش هشام فى قصر الحير الشرقى (٦٠ ميلا ـ الى الشمال الشرقى من بالميرا ـ تدمر ، ٤٠ ميلا الى الجنوب من الرصافة) وتتكون اطلاله من مدخلين محصنين وباحة مربعة حولها ابراج نصف مستديرة . وعاش الوليد الثانى حياته فى البادية . ويتكلم الطبرى عن ذهابه للازرق (١٢ ميلا شرقى قصر عمره) ومقامه بجوار ماء الاغدف أو الغدف حيث يقوم قصر الطوبة وقد قتل فى قصر البخراء وهى قلعة رومانية على حافة الصحراء حوالى ١٥ ميلا الى الجنوب الغربى من بالميرا (تدمر) .

(وتنتمى نقوش قصير عمره الى الفن الهيلنستى المتأخر فى سوريا **وقد اثارت هذه النقوش مسالة شرعيتها من وجهة نظر الاسلام** . ومع سيادة تأثير العمارة المسيحية فى الشام فقد كانت هناك مؤثرات

---

(١١١) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ص ٨٣ المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٢٤ .

ساسانية متأخرة نتيجة استعانة الخلفاء بحشود العمال من مختلف أنحاء البلاد الاسلامية ومن هنا جاء الخليط من التأثيرات فى الآثار الاسلامية مابين سورية أولا ثم فارسية وقبطية • وكما تأثر المسلمون فى الشام بالمؤثرات الهيلنسية والفن المسيحى فى بيئتهم تأثر المسلمون فى العراق وفارس بالمؤثرات الفارسية (١١٢) •

وقد بلغ من تأثير الفن البيزنطى على المسلمين فى العصر الأموى أن طلب الوليد بن عبد الملك من امبراطور الروم ـ كما يروى الطبرى وغيره ـ ان يرسل له صناعا لتزيين جوامع دمشق والمدينة وبيت المقدس بالفسيفساء (١١٣) • وهكذا كسا الأمويون ـ وخاصة الوليد ـ المساجد طابعا سوريا بيزنطيا أصيلا ـ كما يروى ديمومبين ـ يلائم زخرفة الرخام الملون والفسيفساء المذهبة المحببة لدى الفنانين البيزنطيين • ويبدو أن حماس الفاتحين وجد تعبيرا عن نفسه فى هذا المجال وقام بالبناء المعماريون السوريون الذين تولوا تكييف التقاليد البيزنطية المأثورة وفقا لعبقرياتهم الخاصة ، والرسومات الحائطية فى قصر عمره الذين كشفه موزيل سنة ١٨٩٨م يزدان فيها سقف القصر والأجزاء العليا من جدرانه بكثير من الاشكال الزخرفية الرمزية ومناظر الحياة اليومية وصور الحيوان والنبات بأسلوب هلنستى مع خليط من التعبيرات الايرانية والهندية على ان ديماند يرى **ان قصر المشتى الأموى فى صحراء سوريا وراء نهر الأردن « يعد من أعظم آثار القرن الثامن الميلادى أهمية ولم تقتصر زخارفه على الأساليب السورية والعناصر الساسانية وتكشف عن اسلوب شرقى جديد يصح تسميته بالأموى** » • وهل يذهب الى ظهور بشائر فن اسلامى جديد نتيجة تميز العمائر الأموية عن النماذج الهيلنستية • وقد أوضحت دراسة البردى استخدام العمال الاجانب على نطاق واسع فى اقامة العمائر الدينية «ويمكن أن نتبين من ذلك أصول المنشآت الأموية ومميزاتها ومدى اتصال الطرز التى استعملت فيها بالطرز القديمة ودخول عناصر جديدة شرقية وغربية على الزخارف » (١١٤) •

---

(١١٢) Creswell : A Short Account of Early Muslim Architecture. pp. 7,93:9,111, 156:8.

(١١٣) الطبرى حـ ٨ ص ٥٦ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٨١ ، العمرى : مسالك الأبصار حـ ١ ص ١٨٣ ، ديمومبين : النظم الاسلامية • ترجمة السامر والشماع ص ٢٦٤ •

(١١٤) هل : الحضارة العربية ـ ترجمة دكتور العدوى ص ٧١ ، ديمومبين : النظم الاسلامية ترجمة سامر والشماع ص ٢٦٤ ، ديماند : الفنون الاسلامية ترجمة عيسى ص ٣٧ ، ٩٠ ـ ١ •

وفي منطقة الثغور والعواصم **ابتنى مسلمة بن عبد الملك لنفسه قصرا بالناعورة** سنة ٩٠ هـ كان ينزله « قال ابن شداد : ولحقت منه برجا واثر ابراج وقد تقدم انه بنى بحجارته باب قنسرين » كذلك **بنى سليمان ابن عبد الملك قصرا في حاضر حلب** « وكان قد تأنق فى بنائه وزخرفته » ٠ وقد أخربه عبد الله بن على بأمر السفاح ٠ وكان هناك قصر فى خناصرة الاحص لعمر بن عبد العزيز (١١٥) ٠

وبانتقال العاصمة الى بغداد تزايد نطاق المؤثرات الفارسية على حساب المؤثرات البيزنطية مما أدى الى مولد فن سامرا ٠ ويشبه كرزويل تأثيرا انتقال الخلافة من دمشق الى بغداد بتأثير انتقال العاصمة من روما الى القسطنطينية فقد تغير فى الحال مركز ثقل الدولة وصار الجو العقلى والفنى اقرب الى الشرق ٠ وقد اشترك نفر من الروم فى بناء بغداد نفسها ٠ كذلك أثر بهاء البلاط العباسى فى أباطرة الروم ، فجاء قصر تيوفيل فى Bryas يحاكي قصور بغداد في الشكل والزينة (١١٦) ٠ **وقد احييت السنن الأموية باتجاه يلائم تقاليد بين النهرين وشيدت عمائر فى بقاع ليس فيها حجر فاستفيد من اللبن الهش وهى طريقة اشوريين والبابليين فلم يتح لها البقاء** (١١٧) ٠ وقد نقل البلاذرى أن **بناء مدينة الحدث زمن المهدى كان باللبن** « قال الواقدى : ولما بنيت مدينة الحدث هجم الشتاء وكثرت الامطار ، ولم يكن بناؤها وثيقا فهدم سور المدينة وشقها ونزل بها الروم ٠ ثم ولى الرشيد فدفع عنها الروم واعاد عمارتها » ٠ على ان البلاذرى يذكر ان **الكنيسة السوداء كانت «من حجارة سود بناها الروم»** ويذكر فى بناء ملطية فى عهد المنصور ، ان الحسن بن قحطبة « ربما حمل الحجر حتى يناوله البناء » ٠ وقد بنى فى ملطية لكل عشرة نفر من الجند أو خمسة عشر « بيتان سفليان وعليتان فوقهما واصطبل » ٠ كما بنى لملطية مسلحة على ثلاثين ميلا منها ٠ وقد عدد البلاذرى جهود العباسيين فى **عمارة الثغور** ، ومن ذلك جهود فرج بن سليم الخادم فى تخطيط طرسوس اذ مسح ما بين النهر الى النهر « فبلغ ذلك أربعة آلاف خطة كل خطة عشرين ذراعا فى مثلها واقطع أهل طرسوس الخطط (١١٨) » ٠ **وبنى صالح بن على قصرا فى بطياس بظاهر حلب وبنى اولاده قصرا خارج باب**

---

(١١٥) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٥٨ ـ ٩ ٠

(١١٦) Byzantium. p. 75, Runciman : Byz. Civ. p. 284 ,, Bury: Hist. of East Rom. Emp. p. 133, Creswell : A Short Account of Early Muslim Architecture. p. 318.

(١١٧) ديمومبين : النظم الاسلامية ـ ترجمة السامر والشماع ص ٢٦٧ ٠

(١١٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٠٠ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٩٥ ـ ٦ ٠

انطاكية يعرف بالدارين وسط قنطرة على نهر قويق بداه عبد الملك بن صالح واتمه سيماء الطويل قائد المعتمد . كذلك **بنى صالح بن على قصرا عند جسر اذنة على سيحان** فى خلافة المنصور ، ولم يكن بناؤه محكما فهدمه الرشيد وأعاد بناءه (١١٩) .

وقد أقيمت الجسور والقناطر محكما مجارى المياه ، وعلى **جسر منبج** كانت القوافل تعبر من حران الى الشام ، وبين الجسر وبين منبج ٤ فراسخ واتخذ الجسر فى خلافة عثمان لتسير عليه حملات الصوائف — وقيل بل كان لم رسم قديم . وقد ذكر ياقوت **قنطرة على نهر سيحان قرب اذنة** نقلا عن أحمد بن الطيب « من حجارة عجيبة بين المدينة وبين حصن مما يلى المصيصة — وهى شبيهة بالربض والقنطرة معقودة عليه على طاق واحد » . وذكر المسعودى **عن قنطرة سنجة أنها** « احدى عجائب العالم وهى بناحلة سميساط من الثغور الجزرية » . وقال المقدسى « وكان يقال عجائب الدنيا ثلاث : فنارة الاسكندرية وقنطرة سنجة وكنيسة الرها .. وهذه القنطرة على خمسة فراسخ من جبل الجودى كبيرة شاهقة متصلة بالجبل على حجر مخوخ مركبة اذا زاد عليها الماء اهتزت » . وقد كانت القنطرة مبنية على الطريقة الأوربية ، وكان قد بناها فسياسيان على نهر سنجة أحد فروع دجلة قرب سميساط ، وكانت الرومان الأهمية الخاصة لهذه القنطرة (١٢٠) . ويذكر الطبرى أن **الرقة قد بنيت على طراز بغداد** فى الأبواب والفاصل والرحبات والشوارع ومع ذلك فالرقة ليست تامة الاستدارة بل هى تشبه حدوة الفرس والجانب الجنوبى مستقيم ، لكن جدرانها مزدوجة مثل بغداد وحول الجدار الداخلى أبراج . **وفى الرقة — كما فى حران كانت تلتقى المؤثرات الفنية للجزيرة والشام وقد ظل الفن الأموى قويا فى الشام فى العصر العباسى (١٢١) .**

ولقد كانت الفنون وجها من أوجه الاتصال الثقافى بين المسلمين وغيرهم . ومن طريف ما يروى من بواكير هذا الاتصال ما يرويه ابن البطريق ان بطريق الروم فى قنسرين طلب الى ابى عبيدة الموادعة سنة حتى يلحق الناس بهرقل ومن أقام فهو فى ذمة وصلح ، وأجابه ابو عبيدة الى ذلك . فسأله البطريق وضع عمود بين الروم والمسلمين ، وصور الروم

---

(١١٩) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٥٩ — ٦٠ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٥ .

(١٢٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٧ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٥٦ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٤٧ ، عبد المؤمن المراصد ح ٢ ص ٧٤٥ ، متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور ابى ريدة ج ٢ ص ٣٠٠ — ١ .

(١٢١) Creswell : A Short Hist. of Early Muslim Architecture. p. 322

فى العمود صورة هرقل جالسا فى ملكه ، فرضى أبو عبيدة . فاعتدى عربى على الصورة ، فاعتبر البطريق ذلك نقضا للصلح وقطعا للهدنة ، وطلب ان يمكن من رد هذا الاعتداء بتصوير ملك العرب والاعتـــداء على صورته ، فوافق أبو عبيدة على ان يصوروه ويفعلوا بصـــورته ما يشاء فأبوا الا صورة الخليفة نفسه « فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب نفسه فى عمود واقبل رجل منهم ففقـــأ عين الصـــورة فقال البطريق قد انصفتمونا (١٢٢) » .

ونقل الصناع الفنيون وحملت مواد البناء الى مختلف البلدان الاسلامية وكان للعمال السوريين والبيزنطيين دورهم فى هذا المجال ـ خاصة فى التجميل بالفسيفساء وعلى حد تعبير ديماند « **بدأ أسلوب اسلامى ناشىء** ينمو تدريجيا ، مشتقا على الأخص من مصدرين بيزنطى وساسانى . ويلاحظ اقتبـــاس التعبيرات الفنية ووجودها جنبا الى جنب فى الآثار الاسلامية الأولى ـ مثل فسيفساء قبة الصخرة ببيت المقدس سنة ٦٩١ ـ ٢ م وواجهة قصر المشتى وترجع الى القرن الثامن الميلادى وصور جدران قصير عمره حوالى سنة ٧٦٢م . وكانت الآثار المسيحية فى مصر وسوريا والعراق مصدرا لموضوعات زخرفية فى آثار العصر الاسلامى الأول .. وتأثر الفن الاسلامى بالزخارف المسيحية الشرقية المحفورة على العاج والمجوهرات » . والى الفن الساسانى يرجع فضل خلق أسلوب جديد من الزخارف النحتية الشبيهة بالأزهار ، والقائمة على الأصول الموروثة عن الفنيين الأشوريين والاخمينى ، ومن أهم خصائصـــها انتظام التكرار والتماسك ، وتعتبر تفريعات المراوح النخيلة ومشتقاتها المتعددة شى الفن الساسانى الأصول المباشرة لمثيلاتها فى الآثار الاسلامية الأولى ـ كما فى قصر المشتى وتيجان بعض الأعمدة المرمرية فى سوريا ، وأدى تطور هذه الأشجار تدريجيا الى أسلوب زخرفى اسلامى أصيل . واكتسب الفن الاسلامى عناصر وأساليب زخرفية جديدة نتيجة الاتصال بقبائل الترك الرحل فى شرق ايران ووسط آسيا ، **مثل طريقة الحفر المائل المشطوف** فى المنحوتات الحجرية والجصية والخشبية فى أوائل العصر العباسى والتفريعات الهندسية ذوات الأوراق المستديرة . وتوضيح زخارف آثار العصر العباسى الأول نشأة أشكال التوريق Arabesque فى الزخرفة الاسلامية ، وان لم يكتمل تطورها الا خلال القرن الحادى عشر ، وهناك

(١٢٢) كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ١١٨ .

مجموعة من التيجان المرمرية عثر عليها فى الرقة فى المنطقة بين الرصافة ودير الزور ، واقتبست المراوح النخيلية من الفن الساسانى وأصبحت من مميزات الأسلوب العباسى (١٢٣) ٠

وقد تقدمت فنون أخرى في المنطقة مثل صناعة الأوانى الزجاجية ونسج الحرير ، وكان قد شاع في سوريا بوجه خاص منذ الحكم الرومانى زخرفة الأوانى الزجاجية بالاقراص أو الخيوط المضافة الى سطح الاناء ٠ وتوجد مجموعة أقمشة حريرية من نهاية القرن الثامن أو بداية التاسع زخارفها برتقالية على أرضية خضراء يمكن نسبتها الى مصانع الشام ٠ واستخدم المسلمون غالبا فى القرنين التاسع والعاشر فنانين من مسيحيى الشام النساطرة واليعاقبة فى تصوير كتبهم وتذهيبها (١٢٤) ٠

---

(١٢٣) ديماند : الفنون الاسلامية ترجمة احمد عيسى ص ٢٤ : ٦ ، ٢٩ : ٣١ ، ٣٥ ، ٩١ ـ ٢ ٠

(١٢٤) ديماند : الفنون الاسلامية ترجمة احمد عيسى ص ٢٣٠ ـ ١ ، ٢٥٨ ، ٤١ ٠

ثالثا : الدين فى الثغور

كان أول مركز للمسيحية السورية المنظمة فى مدينة انطاكية ، وأصبحت كنيسة انطاكية ذات أهمية خاصة فى العالم المسيحى وكانت انطاكية فى آخر أيامها تأتى فى مرتبة القسطنطينية والاسكندرية كمقر بطريركى ، وقد عقدت فيها ١٠ مجامع كنسية بين سنة ٢٥٢ ، سنة ٣٨٠م واطلق اسم انطاكية على احدى مدارس اللاهوت التى كان من أفرادها يوحنا فم الذهب المتوفى سنة ٤٠٧م . وبعد ان ارتقت انطاكية الى مكانة الزعامة فى الجزء الذى يتكلم اليونانية فى سورية ، بدأت **ادسا (الرها)** بالارتقاء الى مكانة مشابهة فى البلاد التى تتكلم الآرامية (السريانية) وكانت ادسا أقدم مركز للمسيحية فيما بين النهرين كما كانت مهد الأدب السريانى . وقد أدت المجادلات حول طبيعة المسيح فى القرنين الرابع والخامس الى انقسام المسيحية السورية الى عدد من الفرق ، وكانت **قنسرين** فى شمالى سوريا مركز هاما لاذاعة تعاليم الطبيعة الواحدة (١٢٥) .

وقد تداخل الدين فى رحى الصراع بين الفرس والروم ، فأقلق الفرس انتشار المسيحية فى أرمينية ، ونشب الاحتكاك بين السلطات الايرانية الحاكمة والرعايا الأرمن المسيحيين ، واتجه المسيحيون

---

(١٢٥) حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين حـ ١ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٣٧٠ ـ ١ ، ٤١٤ ، حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٣٩ ، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص ٨٣ .

الأرمن بأنظارهم الى الامبراطور البيزنطى ، وقد بذل المرازبة الايرانيون الذين تعاقبوا على ولاية أرمينية مساعى جدية لتحسين أحوال الولاية وأعيدت حرية العقيدة اليها بعـــد وفاة يزدجرد سنة ٤٥٧ م وقد أضر بالنصارى السريان استفحال الخلافات الدينية وتعرضوا للاضطهاد ولكن بدرجة أقل مما حدث من قبل فى عهد سابور الثانى (٣٠٩ أو ٣١٠ : ٣٧٩ م) ٠

وحين استقرت النسطورية على أنها المذهب الوحيد لنصارى ايران ابتعدت النصرانية فى الشرق عن نصرانية الغرب ، فحرم على رجال الدين أن ينذروا الرهبنة وانشئت مدرسة للقساوسة فى نصيبين على أثر اغلاق الامبراطور زينون (٤٧٤/٤٩١م) لمدرســـة الرها ٠ وحينمـــا انتشر النساطرة الذين طردوا من الامبراطورية البيزنطية فى العراق وايران خلال القرن الخامس ، فتحت مدارس نصرانية خاصة كان الطب يعلم فيها وأشهرها مدرسة جند يسابور ، وقد بقيت الى مابعد الساسانيين وظلت مركزا هاما لدراسة الطب فى القرون الاســـلامية الاولى ٠ ولكى نحدد العلاقات بين المسيحية والدين الرســـمى فى ايران ابان القرنين الرابع والخامس الميلاديين نسوق ما قاله سخاو : « لقد أجيزت المسيحية كل حين فى الامبراطورية الساسانية حتى فى أعنف أوقات الاضطهاد ، ومن الحق ان جماعات دينية فى المدن والقرى كانت عرضة فى الغالب لمضايقات ونكايات الموظفين الفرس الطامعين ٠ **وقد اقامت المســـيحية الشرقيـــة دستورها فى مجامع سنة ٤١٠ ، سنة ٤٢٠م التى عقدت فى عاصمة الدولة وتحت انظار الحكومة ، وقد تم هذا وهو بليغ الدلالة بمساعدة رسولين من قبل امبراطور بيزنطة هما لأسقف (ماروتا) اسقف ميافارقين و (اكاس) اسف آمد** ٠ وقدألف (أفرعت) مواعظ فى وقت الاضطهاد المروع الذى وقع على النصارى أيام سابور الثانى ولكنه لم يذكر مايدل على أن الديانة المسيحية فى عهده لم تكن تقام كالعادة دون عائق وكان الاضـطهاد يقع على رجال الدين خاصة ولم يذكر فى أى نص ان أحدا طلب من النصارى المدنيين أن يرتدوا عن دينهم ٠ ويظهر ان النصـــارى فى دولتى الفرس والروم قد اتبعوا فى علاقاتهم القانونية قواعد القانون السريانى الرومانى Leges Constantini Theodos Leonis مع تطبيقاتها المحلية ٠ وكانت الاضطهادات الكبيرة نادرة وقد استطاع النصارى أكثر الأحيان العيش هادئين تحت الارشاد الروحى من جثالقتهم وأساقفتهم » ٠

وقد اشتد الصراع بين النساطرة واليعاقبة ، وكان بين النساطرة

أنفسهم أنواع من المنازعات • وكان لغزوات الامبراطور هرقل فى أراضى ايران رد فعل فى حال النصارى ويقول جويدى فى Anonyme de Guidi ان كسرى أقسم حين انتصر فى الحرب ليأتين على جميع الكنائس فى الدولة ولا يترك ناقوسا منها وقد اضطهد النساطرة واليعاقبة على السواء (١٢٦)•

وكانت النزعة الدينية مسيطرة غلابة فى العصور الوسطى ، وهى التى كانت تلون التفكير السياسى والحضارى وكان المسلم والمسيحى يرى نفسه صاحب الدين الحق الاوحد • فكان البيزنطى الذى يعيش داخل الامبراطورية ينتسب الى (شعب الله) وأما من كان يعيش خارجها فهو لم يصل بعد الى الانسانية الكاملة ، وفى الاسلام كذلك من كان يقسم العالم الى (دار الاسلام) و (دار الحرب) ، واستشعر المسيحيون والمسلمون ضرورة التبشير بالدين فى المناطق التى لا تدين بها • واتسم اشعال الحرب بين الفريقين بسمة دينية ، فالقتيل فيها شهيد ، وكلا الجانبين يقاتل أعداءه من أجل رسالة هى فى صالح الانسانية وفى صالح أعدائه أنفسهم بالتالى •

وكانت الثقافة هى الدين والدين هو الثقافة• وكانت الدولة تستمد مبرر وجودها المعنوى من كونها هى حامية العقيدة وهى تتطابق فى رقعتها مع المنطقة التى تسودها عقيدة الحاكم ، وكان معنى المواطن والوطن – ان جاز استعمالها – الانتساب لعالم الاسلام أو المسيحية اليونانية أو اللاتينية أكثر منه الانتماء الى أية دولة خاصة فى داخل تلك الوحدات ، ويقول جرونيباوم « وعلى حين أن هذا الشعور بالوحدة كان على الراجح أقوى ما يكون فى الاسلام فان أوربا الغربية نفسها لم تنس قط وهى فى غمرة حروبها القتالة المتواصلة اتحادها فى العقيدة الكاثوليكية ضد الكفار » • على انه يذكر فى موضع آخر : « ان الخصومات الدولية بين الاسلام وبين بيزنطة أو الغرب لم تكن تؤثر فعلا فى حياة المسلم العادى المقيم خارج مناطق الثغور » •

ولم يبرح شعور العداء لبيزنطة يشتد فى مناسبات عديدة حتى شارف القرن العاشر نهايته ، « ولكن لم يحدث قط ان الامبراطورية البيزنطية ولا أوربا هددتا بيضة الاسلام الاصلية ، لذلك لم يكن للتدخل السياسى من قبل الغرب الا أهون الاثر فى تطور الحضارة الاسلامية وما

---

(١٢٦) كريستنسن : ايران تحت حكم الساسانيين : ترجمة دكتور الخشاب ص ٢٧٠ ، ٢٧٤ – ٥ ، ٢٨٣ – ٤ ، ٤٧٢ – ٣ •

كان للخطر الخارجي سوى ثمرة ضعيفة هي مجرد اذكاء البغضاء في النفوس ولم يحدث قط ان اضطر المسلمون الى حشد كل ماوهبوا من موارد ثقافية وسياسية للقيام بقتال في سبيل البقاء ، وقد افضى هذا الوضع المواتى الذى كان العالم الاسلامى ينعم به وذكريات الانتصارات الباهرة الاولى التى أحرزتها جيوشه الى صبغ احساسه بالاكتفاء الذاتى بشعور من التفوق كانت أحداث الزمان تفقده مبرراته يوما بعد يوم (۱۲۷) » .

وهكذا شهدت منطقة شمالى الشام والفرات صراعا عقائديا بين الاسلام والمسيحية ، وقد شهدت من قبل صراعا بين المسيحية البيزنطية والمعتقدات الفارسية ، ولكن الاسلام كان أكثر اصرارا واقل تساهلا .
وقد ساعدت الخلافات الطائفية المسيحية على تيسير السبيل أمام الاسلام فى بعض أقطار الدولة البيزنطية مثل الشام ، ولكن قام خلاف دينى عميق بين المجتمع الاسلامى والمجتمع المسيحى ، وقد كان هذا الخلاف الدينى سببا أساسيا من أسباب العداء بين الخليفة الاسلامى الذى يرعى دين الله وبين الامبراطور البيزنطى الذى اعتبر واجبه الأول أن يتعهد فى رعاياه حكم الايمان وأن يلزمهم مذهبه الروحى (۱۲۸) .

الجهاد الدينى بين المسلمين والبيزنطيين :

ونحن نلمح الطابع الدينى فى الجهاد بين المسلمين والبيزنطيين منذ معارك الفتح المبكرة ، فنحن نقرأ فى أخبار استعدادات الروم قبل واقعة اليرموك «ولزم الروم خندقهم عامة شهر ، يحضضهم القسيسون والرهبان وينعون لهم النصرانية ، حتى استبصروا فخرجوا للقتال ..(۱۲۹) » .

وقد كان القائد البيزنطى يذكر جنده دائما بأن حربهم (حرب صليبية) النصر فيها من عند الله وحده ، ولابد للمرء من القيام بواجبه حتى ينال هذه الهبة من الله « ومازالت السماء تمنح النصر لجيوش روما ، ما آمن الجنود بهذا التقليد الرومانى العسكرى وحافظوا عليه » . وكان وعاظ الميدان يعرفون كيف يستثيرون حمية الجند بالحديث عن واجباتهم

(۱۲۷) جرونيباوم : حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ۲۲ ـ ۳ ، ۲٦ ، ٥٠ ـ ٦١ .
(۱۲۸). Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. pp. 322, 325.
(۱۲۹). الطبرى حـ ٤ ص ۱۳۳ رواية السرى عن شعيب عن سيف .

تجاه الامبراطور والامبراطورية ، وتجاه الله والمسيحية ، وبتأكيد جزاء البطولة . وكان اليوم يفتتح ويختتم بالصلاة ، ويجرى القداس خلال الحملات . وتشير صيحة (أعلاء الصليب) الى تغلغل الروح الدينية فى الجند ، وكان الموت فى الميدان يعتبر استشهادا . وتدل أناشيد الحرب البيزنطية على أن روح القتال ابان مجد الجيش كانت مزاجا من الثقة بالله والاعتداد بالنفس ، ويظهر هذا جليا فى ملحمة ديجنيس أكريتاس وقد فطن نقفور فوقاس الذى يصفه متز بأنه أكبر عدو للاسلام فى القرن الرابع الهجرى الى قيمة الشهادة من الناحية الحربية فأراد أن يعلن أن كل من يموت فى حرب المسلمين هو شهيد ولكن الكنيسة لم تشأ أن تلبى رغبته سخطا منها عليه لأسباب مالية (١٣٠) .

وفى الجانب الآخر ، نجد معاذ بن جبل يخرج على الناس فى معركة اليرموك ، « فجعل يذكرهم ويقول : يا أهل القرآن ومستحفظى الكتاب وأنصار الهدى والحق ، ان رحمة الله لا تنال وجنته لا تدخل بالامانى ، ولا يؤتى المغفرة والرحمة الواسعة الا الصادق المصدق . ألم تسمعوا لقول الله عز وجل (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات . الخ الآية) ، فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فرارا من عدوكم ، وأنتم فى قبضته وليس لكم ملتحد من دونه ، ولا عز بغيره - يمشى فى الصفوف ويذكرهم ، حتى اذا بلغ من ذلك ما أحب ورأى من الناس الذى سره بهم ، ثم حرضهم ، انصرف الى موقفه رحمة الله » . وسار أبو سفيان فى صفوف المسلمين ، فكانت لهجته الحماسية مشوبة بنغمة واقعية فقال « يامعشر المسلمين ، أنتم العرب ، وقد أصبحتم فى دار العجم منقطعين عن الأهل ، نائين عن أمير المؤمنين وامداد المسلمين . وقد والله أصبحتم بازاء عدو كثير عدده شديد عليكم حنقه ، وقد وترتموهم فى أنفسهم وبلادهم ونسائهم ! . والله لا ينجيكم من هؤلاء اليوم ، ولا يبلغكم رضوان الله غدا ، الا صدق اللقاء والصبر فى المواطن المكروهة ، الا أنها سنة لازمة ، وان الأرض وراءكم ، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبرارى ، ليس لأحد فيها معقل ولا معقول الا الصبر ورجاء ما وعد الله فهو خير معول ، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا بها ولتكن هى

---

(١٣٠) بينز : الامبراطورية البيزنطية - ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١٨٠ .
Byzantium ; pp. 106, 117, 302-3.

ميتز : الحاصات الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى - ترجمة دكتور ابى ريدة ج ٢ ص ٣٩ .

الحصون • قالوا : ثم رجع أبو سفيان الى النساء اللاتى مع المسلمين ، وكان كثير من المهاجرات قد حضرن يومئذ مع أزواجهن وأبنائهن ، فاجلسهن خلف صفوف المسلمين وأمر بالحجارة فالقيت بين أيديهن ، ثم قال لهن : لا يرجع اليكن أحد من المسلمين الا رميتموه بهذه الحجارة ، وقلتن : من يرجوكم بعد الفرار عن الاسلام وأهله وعن النساء بأرض العدو ؟ فالله لله • قال : ثم رجع أبو سفيان فنادى المسلمين فقال : يا معشر أهل الاسلام حضر ماترون ، فهذا رسول الله والجنة أمامكم والشيطان والنار خلفكم ، ثم وقف موقفه • قالوا : وزحفت الروم مكانها الى المسلمين يدفون دفيفا معهم الصلبان ، وأقبلوا بالاساقفة والقسيسيين والرهبان والبطارقة ، لهم رجل كرجل الرعد ، وقد تتابع عظماؤهم على الموت ، ودخل منهم ثلاثون ألفا ـ كل عشرة فى سلسلة لئلا يفروا •• قال : ثم ان الروم تداعوا وتحاضوا ، وذكرتهم الاساقفة والرهبان ، قال: فجعل معاذ اذا سمع ذلك منهم يقول : اللهم زلزل أقدامهم وأرعب قلوبهم، وانزل السكينة علينا وألزمنا كلمة التقوى وحبب الينا اللقاء ورضنا بالقضاء(١٣١) » •

ونقرأ فى تاريخ النسطوريين ما يؤكد النظرة الدينية الى صراع المسلمين والبيزنطيين « فى هذه الايام لما إتصل بهرقليس مالحق أصحابه واستيلاء العرب على مملكة الفرس ، جمع الاساقفة من أهل الشام كلها الى انطاكية ، وسألهم عما عندهم فى أمر القوم الذين ظهروا من العرب وملكهم وما يذكره الكتاب من حالهم ، فأجاب كل واحد منهم بما عنده ، فقال هو لجماعتهم ولمن حضر من قواده : هؤلاء القوم بمنزلة الرمس الذى هو الواسطة بين النهار والليل ، فليس فيه ضوء ولا ظلمة لانهم لم يستضيئوا بنور سيدنا المسيح الذى هو شمس العالم ولا هم منهمكون فى ظلمة عبادة الاوثان • فلما سمع الاساقفة قوله عرفوه ماتذكره التوراة من بركة ابراهيم لاسماعيل وانه لا بد من ظهور هذا الامر • فتقدم هرقليس الى أصحابه ألا يغالبوا أمر الله ولا يقاتلوا القوم وأن يقتصروا على حفظ مدنهم وأعمالهم ، وان طولبوا بأداء الجزية أجابوا اليها • ورحل عن الشام آيسا منها ومن مصر ونصيبين ونواحيها ، ومضى الى القسطنطينية آيسا مغموما بما جرى ، وانتقل أكثر أهل تلك البلاد الى دواخل الروم وتركوا أموالهم • ثم قال هرقليس لأصحابه : الله عز وجل

(١٣١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١ ص ٥٣٦ : ٨ ، ٥٤٩ •

عادل ، وليس يعطي على الوجوه ، والا فما السبب في نقل الملك عنا وهو في أيدينا أكثر من ألف سنة وقد أكلنا خيرات هذه الارض كما قيل في التوراة ويسلمه الى قوم لم يعرفوا خبزا قط وانما عاشوا في البر يأكلون الثمار ويسكنون الخيم ؟ فاستصوب بعضهم قوله وأنكره البعض وعاودوا اقفال العرب فأبادوهم(١٣٢) » •

وقد حفلت الروايات الاسلامية بذكر نوادر البطولة : روى ابن قتيبة ان مسلمة بن عبد الملك حاصر حصنا فندب الناس الى نقب منه ، فما دخله أحد • فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم ، فنادى مسلمة : اين صاحب النقب ؟ فما جاءه أحد ، فنادى : انى قد امرت الآذن بادخاله ساعة يأتى ، فعزمت عليه الا جاء • فجاء رجل فقال : استأذن لى على الامير ، فقال له : أنت صاحب النقب ؟ قال : انا أخبركم عنه • فاتى مسلمة فأخبره عنه ، فاذن له فقال له : ان صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثا : الا تسودوا اسمه فى صحيفة ـ الى الخليفة ـ ولا تأمروا له بشىء ، ولا تسألوه ممن هو • قال : فذاك له • قال : أنا هو ـ فكان مسلمة لا يصلى بعدها صلاة الا قال : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب (١٣٣) •

وينقل الطبرى عن الواقدى فى اخبار سنة ٨٨هـ ان مسلمة ابن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك كانا على الجيش فى فتح طوانه ، فهزم المسلمون العدو ثم تحول الموقف « فانهزم الناس حتى ظنوا الا يجتبروها ابدا ، وبقى العباس معه نفر منهم ابن محيريز الجمحى ، فقال العباس لابن محيريز : اين أهل القرآن الذين يريدون الجنة ؟ فقال ابن محيريز : نادهم ياتوك • فنادى العباس يا أهل القرآن : فاقبلوا جميعا فهزم الله العدو حتى دخلوا طوانة » (١٣٤) •

وقد كان المسلمون يؤمنون انه لن تقوم الساعة حتى يستولوا على القسطنطينية ويزيحوا الروم عن آخر معاقلهم ، وكان المسيحيون ـ لاتين أو اغريق ـ يعتقدون انه لن تقوم حتى يدخل ملكهم بيت المقدس ، وهكذا توفر للفريقين حافز معنوى يستثيرهم دائما للنضال مادام لابد من تحقيق الأهداف الكبرى النهائية قبل فناء العالم ـ على حد تعبير بارتولد(١٣٥) •

---

(١٣٢) تاريخ النسطوريين ـ القسم الثانى ص ٦٢٦ ـ ٧ •
(١٣٣) ابن قتيبة : عيون الاخبار جـ ١ ص ١٧٢ •
(١٣٤) الطبرى حـ ٨ ص ٦٤ •
(١٣٥) Vasiliev : L'Emp. Byz. Vol. I. p. 315.

ومن هنا اقبل المسلمون يلتمسون الاجر في جهاد الاعداء ، فقد طلب الحسين من على أن يلحق بالثغور كحل للازمة بينه وبين يزيد بن معاوية ، وأغزى الرشيد ابن القاسم الصائفة سنة ١٨٧هـ « وجعله قربانا له ووسيلة وولاه العواصم » (١٣٦) وتعددت الروايات عن الصالحين المرابطين للجهاد في الثغور ومن ذلك جعفر بن عبد الواحد من سلالة سليمان بن علي العباس « قاضي القضاة بسر من راى ، ولزم الثغور وكان فاضلا » ، ومحمد بن محمد بن عبد العزيز من سلالة عبد الله ابن عمر بن الخطاب « لزم الثغور حتى مات هناك وولده بطرسوس » . وكان الجهاد رهبانية الاسلام ، والى الثغور كان يهرع جرحى القلوب يشغلون أنفسهم في ميدان القتال ، روى أن الحكم بن عبد المطلب فجع في جارية قريبة الى قلبه طلبها أبوه منه ليزوجها لابنه الآخر واسمه الحارث ، وكان الحكم بارا بأبيه فأنفذ رغبته « ولزم الثغور حتى مات بالشام » . وقال بعضهم : اتيت الشام فمررت بدير حرملة ، وبه راهب كأن عينيه عدلا مزاد ، فقلت: ما يبكيك ؟ فقال : يا مسلم ، ابكي على ما فرطت فيه عمري ، وعلى يوم مضى من أجلي لم يتبين فيه عملي . قال : ثم مررت بعد ذلك فسألت عنه فقالوا : اسلم وغزا ، فقتل في بلاد الروم (١٣٧) .

وكان المسلمون يعتزون باستشهاد من يمضى منهم في قتال الروم، ومن ذلك ان زراره بن جزء به عمرو بن عوف بن كعب بن أبى بكر بن كلاب سيد أهل البادية غزا ابنه عبد العزيز مع يزيد بن معاوية بلاد الروم « فورد على معاوية كتاب ابنه يزيد ينعى عبد العزيز هناك ، فقال: هذا كتاب ينعى سيد العرب ، فقال له زرارة ، هو والله يا أمير المؤمنين ابني وابنك ـ وذهب أكثر قومه في أرض الروم » . (١٣٨) وكان غزاة المسلمين من كل بلد وناحية يتدفقون كالسيل الى طرسوس ، وذكر الاصطخري وابن حوقل انه : « ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان الى مصر والمغرب ، الا وبطرسوس لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها اذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات ، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، الى ما كان السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن في ناحية

---

(١٣٦) الطبرى حـ ٦ ص ٢٢٠ ، حـ ١٠ ص ٨٩ .

(١٣٧) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٣٠ ، الزبيرى : نسب قريش ص ٣٥٩ ، ٣٤٠ ـ ١ ، ابن قتيبة : عيون الاخبار م ٢ ص ٢٩٧ .

(١٣٨) ابن : جمهرة انساب العرب ص ٢٦٧ .

من النواحى المذكورة رئيس ولا نفيس الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف فنادق » • وكان أهل الثغور يكرمون فى بغداد، ويحكى عن أبى على القالى اللغوى المشهور المتوفى سنة ٣٥٦ هـ سنة ٩٦٧ م انه سمى القالى لما انحدر الى بغداد ، فى رفقة أهل قالى قلا ، وكانوا يكرمون لمكانهم فى الثغر ، فنسب اليهم لكونه معهم ، وثبت على ذلك • بعض المكدين يتظاهرون بجمع المال للجهاد أو فك الأسرى ، وكثير من هؤلاء المحتالين كانوا يركبون دوابا كالغزاة ويطوفون البلاد • وفى مصر كان القاضى يبعث ما يجتمع من أموال السبيل لتفرق على ثغورها المسماة بالمواحيز من العريش الى لوبية لتعطى للمتطوعة والفقراء من أهل الديوان• وكانت بلاد ماوراء النهر تلى طرسوس من حيث وقوف أهلها للجهاد ، لما اشتهر به أهلها من الشوكة والبأس والتضحية • وكان فى بيكند بين بخارى ونهر جيحون ما يقرب من الف رباط للغزاة المجاهدين ، وكان باسفيجاب الف وسبعمائة رباط • وكانت رغبة الخراسانيين فى الجهاد وحميتهم له سببا فى سيرهم الى الجبهة الغربية لقتال الروم عندما توالت انتصاراتهم على المسلمين فى معارك الحدود ، حتى خرج عشرون الفا من خراسان سنة ٣٥٥ هـ يظهرون انهم غزاة حتى بلغوا الحدود الشرقية لدولة بنى بويه ، وقد اصطدموا بابن العميد وزير ركن الدولة وطالبوه بالمال والرجال ، ثم كروا راجعين فاشلين الى ديارهم آخر الأمر • (١٣٩)

السياسة الدينية للمسلمين والبيزنطيين :

جرت العادة أيام الخلفاء المسلمين على تحديد القيود التى يلتزمها غير المسلمين فى حياتهم العامة والخاصة ، وتقرير الحقوق التى يمتعون بها فى دار الاسلام • وهناك عهد يعرف بعهد عمر بن الخطاب له صور متباينة ، وهو محل شك فى صياغته ومعانيه ، والعهود الاخرى التى أعطيت لمدن الشام كانت بالغة البساطة • وقد جاء فى بعض العهود شرط على الذميين : **الا يدلوا على عورة المسلمين ، والا يلبسوا السلاح فى عيدهم ، والا يظهروا السلاح فى بيوتهم** • ويقول ترتون « قد يدعى البعض ان موقع بلاد الشام على حدود الدولة الاسلامية جعلها أكثر من غيرها تعرضا للحروب مع البيزنطيين ، وان هذا الوضع أدى الى فرض

(١٣٩) متز : الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ٢ ص ٦٤ : ٧ ، الاصطخرى المسالك والممالك ص ٤٧ ، ابن حوقل •

قيود معينة على سكانها ، ويكفى للرد على ذلك ان نقول ان هناك قسما واحد من الولاية كان وحده دون غيره عرضة لخطر الغزو الاجنبى ، ثم هناك الجزيرة - أعنى شمالى العراق التى كانت فى نفس الوضع ان لم تكن أكثر منه عرضة للاحتكاك الحربى بالروم ، لكننا لا نسمع شيئا عن تلك القيود التى فرضت على أهل الشام وان تكن قد اتخذت فيما بعد فى ربوع العالم الاسلامى ، لكن ليس ثمة بينة بين ايدينا تدلنا على انها طبقت فى بلاد الشام زمن عمر .. بذلك . ننتهى الى خاتمة لانستطيع منها فكاكا هى اننا لا نعرف كيف كان عهد عمر ، ولا تعرف أية مجموعة من معاهدات الصلح يمكن أن توسم باسمه ، والظاهر انه كان من التقاليد المرعية فى مدارس الفقه وضع نماذج للعهود والمعاهدات » (١٤٠) .

وقد روى ابن العديم ماذكر أنه شرط عمر على أهل قنسرين ، وكان مما جاء فيه « ... على الغنى ثمانية وأربعون وعلى الوسط أربعة وعشرون وعلى المدقع اثنا عشر يؤديها بصغار ، وعلى مشاطرة المنازل بينهم وبين المسلمين ، والا يحدثوا كنيسه الا ما كان فى أيديهم ولا يضربوا بالناقوس الا في جوف البيعة ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة ولا يرفعوا صليبا الا فى كنيسة . وأن يؤخذ منهم القبلى من الكنائس للمساجد ، وأن يقروا ضيف المسلمين ثلاثا ، وعلى أن لا تكون الخنازير بين ظهرانى المسلمين ، وعلى أن يناصحوهم فلا يغشوهم ولا يمالئوا عليهم عدوا وأن يحملوا راحل المسلمين من رستاق وأن لا يلبسوا السلاح ولا يحملوه الى العدو ولا يدلوا على عورات المسلمين . فمن وفى وفى المسلمون له ومنعوه بما يمنعون به نساءهم وأبناءهم . ومن انتهك شيئا من ذلك حل دمه وماله وسبى أهله وبرئت الذمة منه وكتب بذلك كتابا ... فدخل فى هذا الصلح أهل الجزيرة . وقبل ذلك ما كان أبو عبيدة فارقهم على أربعة دراهم وعباءة على كل جلجلة على أن يكون عمر الفارض عليهم اذا قدم بلادهم » . وقد اكتفى البلاذرى بالاشارة الى أن صلح قنسرين كان كصلح حمص ، وبالنسبة لصلح حمص أجمل القول أنه كان على ١٧٠ر٠٠٠ دينار .

ومهما يكن من أمر فان الذميين ملزمون على كل حال بمراعاة ظروف الدولة الاسلامية السياسية والحربية ، وعليهم الا يمالئوا عدوها ، وقد تجعل ابن القاسم مما ينقض عهد الذمتين «أن يجمعوا على قتال المسلمين أو يؤوى - أحدهم - للمشركين جاسوسا ، أو يعين على المسلمين بدلالة

---

(١٤٠) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام - ترجمة حسن حبشى ص ٩ : ١٥ ، ١٨ ،

فيكاتب المشركين بأخبار المسلمين » (١٤١) ٠

وكان عدد من القبائل العربية النازلة على تخوم سوريا والعراق كبني غسان وبكر وتغلب وتنوخ قد اعتنق النصرانيــة ، وقد فرضت الجزية عليهم واعتبروا من أهل الذمة وجردوا من السلاح مقابل حمـاية المسلمين لهم ٠ ويقرر الدكتور حتى ان وضع أهل الذمة « قد أتاح لهم أن يتمتعوا بقسط وافر من الحـرية وذلك فى مقابل اداء ضريبة الخراج والجزية ، على انهم ـ اذ لم يكونوا من صميم المجتمع الديني ذى السيادة في البلاد كانوا فى منزلة اجتماعية وسياسية ثانوية ٠ وظل مرجعهم فى الأمور المدنية والقضائية الى رؤسائهم الروحيين الا فى القضايا التى مست المسلمين » ٠ ويرى الدكتور حتى ان المسلمين كانوا أقل تساهلا فى شأن النصارى المنحدرين من أصل عربى ، فقد قتل كبيرا بنى تغلب لامتناعهما عن اعتناق الاسلام فى عهــدى عبد الملك فالوليـــد ، ودعى النازلون فى حوار قنسرين من التنوخيين الى الاســلام على أثر فتح الشـــام ، وأجبر المهدى العباسى المقيمين منهم فى جوار حلب على اعتناق الاسـلام وعمد الى هدم كنائسهم (١٤٢) ٠ على أن ما ذهب اليه الدكتور حتى فى شأن سياسة المسلمين مع العرب النصارى ليس على اطلاقه ، فقـد أراد عمر أن يأخذ الجزية من نصارى بنى تغلب بالجزيرة فهربوا « فتفرقوا فيما يلى الشام والجزيرة من بلاد الروم » فقيل لعمـر : انهم قوم من العرب ذائفون من الجزية وهم قوم شديدة نكايتهم فلا يغنين عدوك عليهم بهم ، فأرسل عمر فى طلبهم ، فردهم وأضعف عليهم الصدقة ٠

وقد روى البلاذرى ما ينبىء عن اخلاص أهل الشـام غير المسلمين للحكم الاسلامى « لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيــه من الظلم والغشم ، ولندفعن ضد هرقل عن المدينــة مع عاملكم ٠ ونهض اليهـود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا أن نغلب ونجهد فاغلقوا

---

(١٤١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ ، ١٥٢ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٣ ـ ٤ ، ترتون اهل الذمة في الاسلام ـ ترجمة حبشي ص ١٨ ٠

(١٤٢) حتى : تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٩٨ ـ ٩ ، ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ترجمة حبشى ص ٩٤ ـ ٥ ٠

الابواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه ، والا فانا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد . فلما هزم الله الكفرة واظهر المسلمين فتحوا مدنهم ، وأخرجوا المقلسين فلعبوا ، وأدوا الخراج، وسا أبو عبيدة الى جند قنسرين وانطاكية ففتحها » (١٤٣) . على أن الطبرى يروى عن أهل الجزيرة موقفا آخر ١٧ هـ سنة ٦٣٨ م ، فقد تكاتب الروم مع أهل الجزيرة يريدون طعن أبى عبيدة والمسلمين بحمص من الخلف « فضم أبو عبيدة اليه مسالحة وعسكروا بفناء مدينة حمص ، وأقبل خالد من قنسرين حتى انضم اليهم فيمن انضم من أمراء المسالح ... فلما وقع الخبر لعمر كتب الى سعد بن مالك : ان اندب الناس مع القعقاع ابن عمرو وسرحهم من يومهم الذى يأتيك فيه كتابى الى حمص .. وكتب اليه أيضا : ان سرح سهيل بن عدى الى الجزيرة فى الجند وليأت الرقة فان أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وان أهل قرقيسياء لهم سلف ، وسرح عبد الله بن عتبان الى نصيبين فان أهل قرقيسياء لهم سلف ، ثم لينفضا حران والرهاء . وسرح الوليد ابن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ .. ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص واستثاروهم وهم معهم مقيمون عن حديث من الجزيرة منهم بأن الجنود قد ضربت على الكوفة ولم يدروا الجزيرة يريدن أم حمص تفرقوا الى بلدانهم واخوانهم وخلوا الروم ... وقد ارفض أهل الجزيرة عن حمص الى كورهم حين سمعوا بمقبل أهل الكوفة ، وذلك انهم قالوا فيما بينهم : أنتم بين أهل العراق وأهل الشام فما بقاؤكم على هؤلاء وهؤلاء » (١٤٤) .

وقد حاول المسلمون استمالة **السامرة ، والجراجمة** ، وقد صالح أبو عبيدة الاخيرين « على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام وألا يؤخذ بالجزية ، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حربا فى مغازيهم » .

واستمرت هذه الميزات للجراجمة فى العهود الاسلامية المتتابعة رغم اتصالاتهم بالروم « فوجه الوليد بن عبد الملك اليهم مسلمة بن عبد الملك فاناخ عليهم فى خلق من من الخلق فافتتحها ، على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت

---

(١٤٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٩ ، الطبرى حـ ٤ ص ١٩٨ .
(١٤٤) الطبرى حـ ٤ ص ١٩٥ : ٧ .

من القمح والزيت ، وعلى ألا يكرهوا ولا أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية ، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ، ولا يؤخـــذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أســلاب من يقتلونه مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين » ٠

وتكرر اجلاؤهم فى عهد صالح بن على العباسى وكتب اليه الاوزاعى رسالة طويلة يعاتبه على موقفه « فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى (ألا تزر وازرة وزر أخرى) وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به ٠ وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رســـول الله فانه قال (من ظلم معاهــدا وكلفه فوق طاقته فانا حجيجه) ٠٠٠ » أما بالنسبة لليهود فنجد خبرا يقول ان معاوية أسكن أطرابلس جماعة كبيرة منهم (١٤٥) ٠ وقد أشار ابن خرداذبة الى التجار اليهود الرذانية « الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية ويسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ويتنقلون بين دول أوربا وديار الاسلام ٠ فيخرجون بانطاكية ، ويسيرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية ، ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ٠٠٠ » ومنها يتجهون شرقا حتى الصين (١٤٦) ٠

وكان المندعيون أو الصابئة الخلص طائفة يهودية تأثرت بالمسيحية يسكنون فى السهول السفلى لبابل ومقرهم الاصلى فلسطين ويمارســون التعميد ، أما **صابئة حران** فكانوا من عبدة النجوم وقد ازدهر شأنهم فى أواخر أيام الامويين ، وانتحلوا لأنفسهم اسم الصابئة لما ســألهم المأمون عن ديانتهم وخيرهم بين الاسلام والقتل ، والتصق بهم هذا الاسم منذ ذلك الوقت ٠ وفى سنة ٣٢٠ هـ استفتى الخليفة القاهر فى شـــأنهم فأفتى بقتلهم ، فجمعوا مالا كثيرا فكف عنهم ٠ وقد صدر حوالى منتصف القرن ٤ هـ منشور كتب للصابئة بحران والرقة وديار مصر أمر فيه الخليفة بصيانتهم وحراستهم ، ولكنهم أخذوا يقلون شــيئا فشيئا ، ومع ذلك وجدوا حين هجوم المغول الذين حطموا آخر معابدهم (١٤٧) ٠

---

(١٤٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٥ : ٩ ، ١٣٣ ٠
(١٤٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ــ ٤ ٠
(١٤٧) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ــ ترجمة حبشى ص ٤٧ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ ٢ ص ٤٥٠ ــ ١ متز : الحضارة الاسلامية ــ ترجمة دكتور ابى ريده حـ ١ ص ٥٢ ٠

واستفاد المسلمون من الطائفة البولسية (**البيالقة**) **الذين** اضطهدهم البيزنطيون ففروا الى ما وراء الحدود ، وتلقاهم العرب مرحبين فانزلوهم فى مواضع أمينة وأشركوهم فى جيوشهم فى قتال الروم وبنى البولسيون لانفسهم مدنا جديدة فى ارجايوس وامارا ثم تفريك حيث عاش الزعيم البولسى قرباص (قربياس) الذى شارك على بن يحيى فى حملا .. عدة لقتال الروم ، وظل البيالقة يعينون المسلمين « وهم من الروم الا انهم يخالفونهم فى كثير من اديانهم .. الى ان رحلوا دفعة واحدة عن هذا الموضع باساءة أهل الثغور معاشرتهم وقلة اشراف المدبرين على أمرهم فتفرقوا فى البلاد وسكن مكانهم هؤلاء الأرمن » (١٤٨) .

***

وكان المسلمون فى الشام يعيشون مع غير المسلمين ، بل كانوا احيانا يقاسمونهم بيتا لله نصفه مسجد ونصفه كنيسة ، وكانت الشام فى نظر المسلمين ارضا مقدسة ، وكتب أحد بطاركة الكنيسة الشرقية على اثر الفتح العربى قائلا « ان العرب الذين ولاهم الله السلطة على العالم فى هذا العهد هم – كما تعلمون – يقيمون فيما بيننا ، ولا يتخذون من النصرانية موقف عداء ، بل هم على عكس ذلك : يمتدحون ديننا ويجلون الكهنة والقديسيين ويجودون بالتقدمات للكنائس والمناسك » (١٤٩) . وقد نال معاوية محبة النصارى ، وفى سنة ٦٥٩ م اتى اساقفة اليعاقبة توادورس (بطريرك اليعاقبة من سنة ٦٤٩ : سنة ٦٦٧م) وسيكوت اسقف قنسرين الى دمشق وجادلوا الموارنة بحضرة معاوية ، وانهزم اليعاقبة ففرض معاوية عليهم عشرين ألف دينار كان بطريركهم يجمعها من الاديار والرهبات والعامة « كيلا ينكف الخليفة عن حمايتهم ولا يضطهدهم الموارنة » (١٥٠) . ويتكلم تيوفانيس عن رعاية معاوية للنصارى ، وفى سيرة معاوية ما يؤكد ذلك مثل بنائه كنيسة الرها التى هدمها الزلزال واتخاذه سرجون بن منصور النصرانى مستشارا له ولابنه يزيد من بعده ، اما ماروى من أن معاوية استعمل واليا نصرانيا على خراج حمص فهو خبر موضوع بغير شك ، وهو الخبر القائل أن معاوية ضمن لابن اثال ان يضع عنه الخراج ماعاش

---

(١٤٨) فازيلييف : العرب والروم – ترجمة دكتور شعيره ص ٢٠٠ : ٢٠٤ ، قدامة / نبذ من كتاب الخراج ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٤ .

(١٤٩) حتى : تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٤٣ .

(١٥٠) الدبس : تاريخ سوريا حـ ٥ ص ٣٣ .

ويوليه جباية حمص مقابل أن يحتال فى قتل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عند انصرافه من بلاد الروم اذ كان قد عظم شأنه بالشام « لما كان عندهم من اثار ابيه خالد بن الوليد ولغنائه عن المسلمين فى ارض الروم وبأسه » (١٥١) ٠

وقد أبقى المسلمون ما وجدوه من نظم ادارية فى البلاد المفتوحة واصطنعوا الموظفين الذين لم يهربوا عند مقدمهم ، وجرت عادة الحكام على استعمال النصارى فى بعض الوظائف وحدث فى زمن الحجاج أن عمد محمد ابن مروان حاكم شمالى الجزيرة الى قتل انبستاسيوس بن اندريا كبير أهل الزها ، ويضيف راوى الواقعة فى Anonymous Syriac Chronicle « وحتى ذلك الوقت كان النصارى يشغلون مناصب الكتابة والولاية وحكم الاقاليم نيابة عن العرب » ٠ ويشير المقدسى فى القرن ٤ هـ الى أن الكتاب فى بلاد الشام ومصر كانوا من المسيحيين ، كذلك كان معظم المطببين فى بلاد الشام منهم (١٥٢) ٠ ولم يكن فى التشريع الاسلامى ما يغلق دون أهل الذمة ابواب العمل وكان قدمهم راسخا فى الصنائع التى تدر الارباح الوافرة ٠

ولم تكن الحكومة الاسلامية تتدخل فى الشعائر الدينية لاهل الذمة، وقد ازدهرت الاديرة ونعمت بالهدوء ، وفى سنة ٢٠٠ هـ ــ ٨١٥ م اراد المامون ــ حسب ما يرويه ميشيل السورى ــ ان يصدر كتابا لاهل الذمة يضمن لهم حرية الاعتقاد وحرية تدبير كنائسهم بحيث يكون لكل فريق منهم مهما كانت عقيدتهم ولو كانوا عشرة انفس ان يختاروا بطريقهم ويعترف له بذلك ، ولكن رؤساء الكنائس هاجوا واحدثوا شغبا ، فعدل المأمون عن اصدار الكتاب ٠ وسادت النسطورية واليعقوبية فى المنطقة ، وكان البطريق الجاثليق للنساطرة يقيم فى بغداد ونشأ حول البطريركية التى عرفت بدير الروم حى سمى دار الروم ، **وازدهرت اسقفيات منها الموصل ونصيبين ، وكان مقر بطريرك اليعاقبة فى انطاكية** ثم نقل الى بغداد اثر اتهام طائفته بالميل الى البيزنطيين ، مع انه روى ان بطريرك انطاكية توج توماس ــ الثائر على بيزنطة الذى قيل انه تحالف مع المامون ــ امبراطورا بيزنطيا . ويلاحظ ان نسطور الذى وصل الى كرسى القسطنطينية سنة ٤٢٧ م قد ولد بمرعش ثم اصبح بطريرك

---

(١٥١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ــ ترجمة دكتور ابى ريده ص ١٢٧ ٠ ١٣١ ، الطبرى حـ ٤ ص ١٢٨ ــ ٩ ٠

(١٥٢) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ــ ترجمة حبشى ص ١٩ ــ ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٧ ٠

انطاكية ، وكان يقول ان مريم ليست والدة الله لان الله لا يولد من انسان بل هي والدة المسيح فكان في المسيح اقنومان مستقلان وابنان احدهما من الله والثاني من مريم وقد رفض مجمع افسوس سنة ٤٣١ م هذه العقيدة . اما يعقوب البرادعي فصار اسقف الرها حوالي سنة ٥٤٣ م وتوفي سنة ٥٧٨ م ويقول بالطبيعة الواحدة. وكانت الكنيسة النسطورية تنتخب الجاثليق ويصادق الخليفة على انتخابه ويكتب له عهد مثل الولاة والمتصرفين ، كما كان يكتب لبطريق اليعاقبة عهد . وكانت الحكومة تراقب كبار رجال الكنائس ، الا ان هذا لا يمنعها من تأييد حقوقهم ، فقد حدث ان قدم على عبد الله بن طاهر (أفرام) ورجاله يطلبون تأييده ، كما وفد بطرك انطاكية ديوينسيوس. فاذن الامير للبطرك اولا ، فانباه بكل ما فعلوه وكيف كانت معارضتهم لاسلافه ودابهم على الشغب واثارة الاضطراب ثم امر عبد الله بادخال الاخر الذى ادعى انه البطرك فعارضه البطرك الشرعي . وامر عبد الله بسؤال آلاف النصارى المجتمعين فى الخارج عن بطركهم الشرعي فقالوا : لا بطرك لنا ولا رئيس سوى ديونسيوس . فنظر عبد الله الى افرام نظرة تعنيف وانبه قائلا « لا تدعني مرة أخرى اسمع انك لبست البيرق ـ Pallium ثوب يطرح على الراس وينزل على الكتفين وهو قبعة كان جاثليق المدائن ينفرد بلبسه ، وتطور استعماله بحسب الزمان ـ او امسكت عصا الرعوية أو نوديت بانك البطرك واذا سمعت بعد الآن انك سافرت في البلاد فدمك مهدور » فعاد ديوينسيوس الى انطاكية مبجلا .

أما فيما يتعلق ببناء الكنائس فلم تكن الدولة الساسانية من قبل تسير على خطة ثابتة في ذلك فكانت تسمح ببنائها احيانا ، على حين ان القانون الروماني في العهد الاخير كان يحرم على اليهود ان ينشئوا معابد جديدة لهم ولا يسمح لهم الا باصلاح ماتهدم منها ، اما في الاسلام فنجد سياسة الدولة تسمح للنصارى احيانا ببناء كنائس جديدة بينما يمنعهم احيانا حتى من اصلاح الكنائس القديمة (١٥٣) . وفي سنة ١٩٦ هـ امر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور وكتب الى السندى بن شاهك يامره

---

(١٥٣) متز : الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور ابى ريده حـ ١ ص ٤٧ ـ ٨ ، ٥٢ : ٤ ، ٥٦ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ٢ ص٤٤٨ Bury : Hist. of East Rom. Emp. pp. 88-9. فازيلييف : العرب والروم . ترجمة دكتور شعيرة ص ٣٧ فروخ : العرب والاسلام ص ١٥ ـ ٦ ، ترتون : اهل الذمة في الاسلام ـ ترجمة حبشى ص ٨٦ ـ ٧ .

باخذ اهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم (١٥٤) .

وكان الفرض من القواعد المتعلقة بملابس أهل الذمة سهولة تمييز النصارى ، وهذا ما يقره ابو يوسف وابن عبد الحكم وهما من اقدم الكتاب الذين وصلت كتبهم الينا . ويلاحظ ترتون انه لم تكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام النصارى بلبس نوع معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون ، اذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة ، وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء انفسهم دون جبر او الزام ، لكن الحاجة استلزمت هذه الفروض فيما بعد حين اخذ العرب بحظ من التمدن ، اذ حمل الاغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم فى ملبسهم والتشبه بهم فى ثيابهم . وقد خلت العهود الواردة فى الطبرى والبلاذرى من الاشارة الى الملابس ، على ان ابا يوسف المتوفى سنة ١٨٢ هـ سنة ٧٩٨ م وابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ سنة ٨٧١ م ينسبان الى عمر قيودا من هذا النحو ، ولعمر بن عبد العزيز اوامر ايضا من هذا القبيل ، ويقول ابن العبرى انه منع النصارى من ارتداء ملابس الجند العرب ويشير مؤرخ سريانى آخر ـ وكذلك ابو يوسف ـ الى انه منعهم من وضع السروج على الخيول . ويرى ترتون انه ليس هناك ما يدل على وضع قيود على اللباس قبل عهد عمر بن عبد العزيز . ولما كان زمن الرشيد فرض على الذميين ليس الزنارات مثل الخيط الغليظ بعقد فى وسطهم ، وان تكون قلانسهم مضربة ، وان يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس كرتين من الخشب مثل الرمانة ، وان يجعلوا شراك نعالهم مثنية ، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل . وكان بعض هذه الاوامر قد صدر قبل ذلك بخمسين عاما . وفى سنة ٢٣٦ هـ سنة ٨٥١ م سار المتوكل على سياسة التشدد ازاء أهل الذمة فنهى عن الاستعانة بهم فى الدواوين او تعليم اولادهم فى مدارس المسلمين ، وأمر المتوكل بالزامهم لبس الطيالس العسلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة ومخالفة لون القلنسوة التى يلبسها المسلمون ، وبتصيير رقعتين عسليتين على ماظهر من لباس مماليكهم فى الصدر والظهر بلون مخالف للون الثوب ، وامر المتوكل باخذ مماليكهم بلبس الزنانير ومنعهم من لبس المناطق ، على انه وردت فى اخبار

---

(١٥٤) الطبرى جـ ١٠ ص ١٠٠ .

الجراجمة ـ كما سبقت الاشارة ـ ما يبيح لهم ارتداء لباس المسلمين سنة ٩٨ هـ سنة ٧١٧ م واعفوا من الجزية لانهم كانوا يقاتلون مع المسلمين ولكن المتوكل الزمهم بالجزية فى عهده .

وترد اخبار متناثرة عن ختم الاعناق ويشير أبو يوسف الى استعماله عند جمع الجزية فحسب ويرى ترتون ان هذا كان امرا شاذا لا قاعدة متبعة ومن الحق الا يحمل العرب وزر هذا العيب اذ لم يكونوا فيه بالبادئين ولا المبتدعين بل كانوا مقلدين لما اصطنعه البيزنطيون قبلهم ، ففى سنة ٥٠٠ م ذهب ديموسثنيس الى الامبراطور واخبره بنكبته فوصله الامبراطور بمبلغ غير قليل من المال لتوزيعه على الفقراء ، فلما عاد من حضرته الى الرها ختم على رقاب الجميع باختام من الرصاص ، واعطى كل واحد منهم رطلا من الخبز كل يوم (١٥٥) .

ويذكر جرجى زيدان « ان اشتراط هذه الشروط على النصارى وحدهم **صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمساعى اهلها النصارى، اذ يكونون عيونا للروم على المسلمين لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية وهى اقوى الجامعات فى الشرق** » (١٥٦) . وكان الخليفة الاسلامى يمارس الضغط على القسطنطينية عن طريق اضطهاد النصارى احيانا ، وكان النصارى انفسهم يزورون القسطنطينية وبلاطها الامبراطورى كلما أمكنهم ذلك (١٥٧) . ويذكر ان نصارى لبنان كانوا قد انتهزوا فرصة وجود اسطول بيزنطى فى طرابلس سنة ٧٥٦ ـ ٧٦٠م اثناء ولاية صالح بن على العباسى وانقضوا من قاعدتهم المنيطرة فى اعالى لبنان وانتهبوا عددا من قرى البقاع ، وكان هذا سببا فى اجلائهم ونشرهم فى شتى أنحاء الشام على اختلافها . وكان أقدام المتوكل على التشدد فى سياسة التمييز بالنسبة لأهل الذمة سببا فى ان انطلقت فتنة عنيفة فى حمص اشترك فيها النصارى والمسلمون واخمدت بعد مقاومة شديدة ، وخربت الكنائس والبيع ، وصدرت الاوامر للوالى « أن لا يترك فى المدينة نصرانيا الا اخرجه منها ، وينادى فيهم قبل ذلك فمن وجده فيها بعد ثلاثة

---

(١٥٥) الطبرى : حـ ١١ ص ٣٦ : ٨ ، ٤٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٨ ، ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ـ ترجمة حبشى ص ١٢٢ : ٧ ، ص ١٣٢ ـ ٣ .

(١٥٦) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى حـ ٤ ص ١١٣ .

(١٥٧) Runciman : Byz. Civ. p. 285.

احسن ادبه » (١٥٨) . على ان البطاركة كانوا اشبه بسفراء سلام بين ملوك الروم ، اذا وقع حيف على المسلمين فى بلاد اعدائهم يندبهم ولاة الاسلام الى مطالعة الروم بما ينال النصارى فى الشام وغيرها من الاضطهاد ان هم اساءوا الى المسلمين الواقعين فى أسرهم او الراحلين اليهم فى التجارة (١٥٩) . بل ان البطرك تيوفيل الاسكندرى امضى اسابيع فى القسطنطينية سنة ١٠١٦ م فى وساطة بين باسيل الثانى وبين البطرك سرجيوس (١٦٠) .

أما أسرى الروم الذين يقعون فى أيدى المسلمين ، فقد كانت القاعدة العامة هى احسان معاملتهم وربما استرقوا ووزعوا على المقاتلين، وربما فودى بهم غير ان هناك رواية غير عربية تذكر ان المعتصم (حاول فرض الاسلام جبرا على ٤٠ من كبار اسرى الروم فى عمورية ، وان هؤلاء الأسرى ثبتوا على دينهم ـ عدا واحدا هو المعزو اليه خيانة قومه وتسليم عمورية للمسلمين ويدعى Boiditzes ، على انه فى النهاية قد لقى مصرعه كالآخرين تماما . وقد أضفت اقلام كتاب الروم جوا اسطوريا على هذه القصة) (١٦١) .

ونحن نجد البيزنطيين فى الجانب المقابل يحاولون التاثير على الاسرى المسلمين لتنصيرهم ،فيروى فى اخبار فداء سنة ٢٣١ هـ سنة ٨٤٦ م أيام الواثق « ... وكان خرج معنا ممن كان تنصر ببلاد الروم من المسلمين نحو من ثلاثين رجلا ، فودى بهم » ، وفى سنة ٢٤١ هـ سنة ٨٥٥ م يذكر الطبرى ان تدوره صاحبة الروم ام ميخائيل استقبلت نصر بن الازهر الذى قدم لمعرفة عدد أسرى المسلمين لمفاداتهم « فذكر ان تذووة امرت بعد خروج نصر بعرض اسراها واعراض التنصر عليهم ، فمن تنصر منهم كان أسوة من تنصر قبل ذلك ومن ابى عليها قتلته ، فذكر انها قتلت من الاسرى اثنا عشر الفا ، ويقال ان قنقلة الخصى كان يقتلهم من غير أمرها ... » وفى فداء سنة ٢٤٦ هـ سنة ٨٦١ م « كان عدد من صار فى ايدى الروم من المسلمين اكثر من الفين منهم عدة من

---

(١٥٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٩ ، الطبرى حـ ١١ ص ٤٩ ، ٥٠ ، حتى : تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٦٧ : ٩ ، تاريخ العرب ـ ترجمة نافع حـ ٢ ص ٤٤٥ ـ ٦ ، ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ترجمة حبشى ص ٥٦ .

(١٥٩) كرد على : خطط الشام حـ ٦ ص ١٢ .

(١٦٠) Runciman : Byz. Civ. p. 235.

(١٦١) Bury : Hist. of East Rom. Emp. p. 271.

كان تنصر ... وكان قوم تنصروا فقال لهم ملك الروم : لا أقبل منكم حتى تبلغوا موضع الفداء ، والا فليضمن وليمض مع اصحابه . واكثر من تنصر اهل المغرب ، واكثر من تنصر بالقسطنطينية ، وكان هنالك طائفتان قد تنصرا فكانا يحسنان الى الاسرى ، فلم يبق في بلاد الروم من المسلمين من ظهر عليه الملك الا سبعة نفر : خمسة اتى بهم من سقلية اعطيت فداءهم على ان يوجه بهم الى سقلية ، ورجلين كانا من رهائن لؤلؤة فتركتهما ، قلت : اقتلوهما فانهما رغبا فى النصرانية » (١٦٢)

وساءت معاملة الاسرى بتدهور احوال الدولة الاسلامية واجتراء الروم على الثغور الشامية حتى روى الوزير على بن عيسى فى خلافة المقتدر بالله « كتب الى عاملنا بالثغر ان اسارى المسلمين كانوا فى بلد الروم على حال رفاهية وصيانة الى أن ولى ملك الروم آنفا حدثان منهم فعسفا وعاقباهم واجاعاهم واعرياهم وطالباهم بالتنصر وانهم فى بلاء وجهد ». وقد استعان الوزير ببطركى انطاكية وبيت المقدس للمطالبة بحسن معاملة اسرى المسلمين والتهديد بمعاملة النصارى فى الدولة الاسلامية بالمثل (١٦٣). وحين استولى نيقفور فوفاس على طرسوس سنة ٣٥٤ ﻫ سنة ٩٦٥ م « .... اشترط تخريب الجامع والمساجد ، وانه من اراد المقام فى البلد على الذمة واداء الجزية فعل ، وان تنصر فله الحباء والكرامة وتقر عليه نعمته . قال : فتنصر خلق فاقرت نعمهم عليهم ، واقام نفر يسير على الجزية ، وخرج اكثر الناس يقصدون بلاد الاسلام وتفرقوا فيها وملك نقفور البلد فاحرق المصاحف وخرب المساجد .. خبرنى جماعة ممن جلا من ذلك الثغر أن نقفور لما فتح طرسوس نصب فى ظاهرها علمين ونادى مناديه : من اراد بلاد الملك الرحيم واحب العدل والنصفة والأمن على المال والاهل والنفس والولد وأمن السبيل وصحة الاحكام والاحسان فى المعاملة وحفظ الفروج وكذا وكذا — وعد اشياء جميلة — فليصر تحت هذا العلم ليقفل مع الملك الى بلاد الروم ، ومن أراد الزنا واللغط والجور فى الاحكام والاعمال وأخذ الضرائب وتملك الضياع عليه وغصب الأموال — وعد أشياء من هذا النوع غير جميلة — فليحصل تحت هذا العلم الى بلاد الاسلام . فصار تحت علم الروم خلق من المسلمين ممن تنصر وصبر على الجزية » (١٦٤) .

---

(١٦٢) الطبرى جـ ١١ ص ١٢ ، ١٩ ، ٢١ ، ٥١ — ٢ ، ٦٠ — ١ .
(١٦٣) الصابى : تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء ص ٣٥٤ : ٦ .
(١٦٤) ياقوت : معجم البلدان حـ ٦ ص ٣٩ — ٤٠ .

وقد بحث الفقهاء المسلمون مشروعية الاقامة تحت حكم غيرهم حين
تقع بلاد الاسلام فى ايدى غير المسلمين أثناء الصراع الطويل بين الاسلام
والنصرانية في المشرق والمغرب . « وهى نتيجة طبيعيـــة لحالة الحرب
الدائمة بين الاسلام والنصرانية على طول العصور الوسطى وعرضها ،
بل ترجع الى أواخر ايام مالك بن أنس نفسه وعاصر دورا من أدوارها
أقطاب المالكية الاول من أمثـــال عبد الرحمن بن القـــاسم واشهب بن
عبد العزيز وسحنون عبد السلام بن سعيد .. فأما أهل المشرق ما بين
مسلمين ، ونصـــارى فلم يعتبروها مشـــكلة اذ لم يكن غريبـــا
عنهم خضوع النصارى للمسلمين أو المسلمين للنصارى . وقد جرت
عادة الجيين على ان تعيش الجماعة المغلوبة فى حكم الغالب فى حدود وقيود
لا تبلغ مبلغ القضاء على الدين او اللغة ،و الشخصية . وصاحب الفضل
فى ذلك هو التشريع الاسلامى الذى وضع من أول الامر نظاما عادلا لاهل
الذمة امنوا به على عقائدهم وشـــخصيتهم من الضياع ، وقد جرى
جيرانهم الروم على آثارهم فصار من يقع من المسلمين تحت سلطانهم
يعتبر ذميا من وجهة نظرهم يخضع لقيود ويؤدى اموالا ولكنه لا يخشى
على عقيدته من الضياع اذا هو احب ان يستمسك بها ، وقد تعارف
الحيان على ذلك وعاش النصارى فى ارض المسلمين والمسلمون فى ارض
النصـــارى وتكفلت حوادث الايام وضرورات العيش باكمـــال مافات
المشرعين » . على ان الامور فى الاندلس لم تجر على هذا النحو وكانت
معاملة النصارى للمسلمين حين تغلبوا غير معاملة المسلمين للنصـــارى
حين حـــكموا . واختلف الفقهاء مابين محرم للاقامة تحت حـــكم غير
المسلمين الا عند العجز عن الهجرة مثل الونشريشى (المتوفى سنة ٩١٤ هـ
سنة ١٥٠٨ م وينسب الى ونشريش بالجزائر) وقد راى ان من اجاز
هذه الاقامة مارق من الدين ومفارق لجماعة المســلمين وان شـــكوى
المهاجرين الى ارض الاسلام من ضيق المعاش زعم فاسد وتوهم كاسد
ولارخصة لاحد فى الرجوع الى بلاد النصارى بحال ، وان حكم المسلم
الذى يزدرى دار الاسلام ويفضل عليها بلاد النصرانية الخزى فى العاجلة
والآجلة ، ولا يجوز للمسلم التخلف ببلد النصارى بدعوى خدمة شئون
اخوانه لان ذلك يتنافى مع عزة الاسلام ، كما ان الاقامة فى حكم النصارى
تحول دون كمال الصلاة وتعطل الزكاة والصيام والحج والجهاد ، وتضع
من امر الاسلام وتعرض للاستغراق فى مشاهدة المنكرات ، فضلا عن
احتمال نقض النصارى لعهودهم مما يعرض الانفس والاهل والاموال
والاعراض للمخاطر ، كما يخشى على المسلمين من غلبة عادات النصارى

ولغتهم ولباسهم بل وفقد اللسان العربى « واذا فقد اللسان العربى فقدت متعبداته » ، فضلا عن التسلط على المال باحداث الوظائف الثقيلة والمغارم المجحفة المؤدية الى استغراق المال واحاطة الضرائب الكفرية به فى دفعة واحدة فى صورة ضرورة وقتية أو فى دفع « فقد ثبت بهذه المفاسد الواقعة والمتوقعة تحريم هذه الاقامة وحظر هذه المساكنة المنحرفة عن الاستقامة .. فلا فسحة للفاضل المذكور فى اقامته بالموضع المذكور للغرض المذكور ، ولارخصة له ولا لاصحابه فيما يصيب ثيابهم وابدانهم من النجاسات والاخباث » . بينما كان المازرى (صقلية) المتوفى سنة ٥٣٦ هـ سنة ١٠٤١ م قد ذهب غير هذا المذهب ، فقد كان يكرم من يعبر على افريقية من مهاجرى صقلية ولا يبخل عليهم بالمال والرأى (١٦٥) .

وقد كانت الدولة توجه اضطهادها أحيانا الى رعاياها ، ففى قلب الامبراطورية البيزنطية فى آسيا وارمينية ظهر **البولسيون** Paulicians (البيالقة) الذين كانوا يمقتون الرهبنة ، ويعارضون الخزعبلات والخرافات ، ومن هناك نشأ الاباطرة اللاصوريون وناصرهم الجيش الذي كان يجمع على الاغلب من آسيا الصغرى وارمينية وكثير من الموظفين المدنيين والاساقفة (١٦٦) . وفى عهد ميشيل الثانى (٨٢٥:٩م) استفاد توماس فى ثورته التى انتهت بالفشل سنة ٨٢٣ م من سخط انصار الصور (الايقونيين) على سياسة الاباطرة المضادة للصور (اللاايقونية Iconclast) كما استفاد من تأييد المامون خليفة المسلمين ومع ذلك فاذا كان « حلف توماس مع العرب امده فى الحقيقة بالقوة المادية لكنه من جهة اخرى ابعد عنه الحزب الأرثذوكسى الذى ايده على انه حامى الصور والذى لم يكن يرتضى حلفه القريب مع الكفار . فلما تقدم توماس فى آسيا الصغرى محوطا بجند مسلمين قل الحماس العام الذى كانت اثارته حركته قلة ظاهرة ، وكان لهذا التحول فى شعور انصاره اثر سيء على كل المشروع ، وكان سببا من الاسباب الرئيسية فى الاخفاق» (١٦٧). هذا ولم تصبر الدولة البيزنطية على امر البولسيين (البيالقة) وقررت ارجاعهم الى الارثذوكسية أو اهلاكهم فشنقوا بالآلاف

---

(١٦٥) الونشريشى : اسنى المتاجر فى بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر – تحقيق وتقديم دكتور مؤنس – صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد م ٥ ع ١ – ٢ .

(١٦٦) بينز : الامبراطورية البيزنطية – ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١١٣ – ٤ .

(١٦٧) فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ٣٧ – ٨ .

وذبحوا ونزعت املاكهم حتى اضطروا الى الفرار وراء الحدود الى ديار المسلمين حيث آزروهم فى حملاتهم ضد الروم ، وتدل اعمال الشهداء الاثنين والاربعين ان قرباص واصحابه كانوا فى ذمة العرب وراء الحدود فى آخر حكم تيوفيل (٨٢٩ : ٨٤٢ م) فقد حاول واليه على اقليم قلونيه ادخال بعض قادة البولسيين فى الارثذوكسية فلم يكن منهم الا ان اسلموه الى اصحاب قرباص اللعين المرتد ، ثم ارسل والى قلونية الى سامرا فكان شهيدا انضاف الى شهداء عمورية (١٦٨) .

اما بالنسبة للدولة الاسلامية فقد اتجهت بكل قواها لمحاربة طائفة **الخرمية** ، ولما راى بابك تضييق الافشين عليه « واشرف على الهلاك » كتب الى ملك الروم توفيل بن ميخائيل بن جرجس يعلمـــه ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته اليه حتى وجه خياطه ـ يعنى بن دينار وطباخه ـ يعنى ايتاخ ... طمعا منه بكتابه فى ان ملك الروم ان تحرك انكشـــف عنه بعض ما هو فيه ، يصرف المعتصـــم بعض من بازائه من جيوشه الى ملك الروم .. فذكر ان تيوفيل خرج فى مائة الف حتى صار الى زبطرة ومعه من المحمرة الذين كانوا خرجوا للجبـــال فلحقوا بالروم حين قاتلهم اسحق بن ابراهيم بن مصعب ـ جماعة رئيســـهم بارسيس ، وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم يستعين بهم فى اهم اموره اليه » . وتظاهر بابك امام تيوفيل باعتناق المسيحية ووعد بتنصير اتباعه (١٦٩) . كذلك تعرض المسلمون الذين توقفوا عن متابعة الراى القائل **بخلق القرآن** الى اضطهاد كبير ، وهو راى قال به المعتزلة وأخذ به الخلفاء العباسيون منذ عهد المأمون وبلغ من تعصبهم لهذا الرأى أن وجه الواثق فى فداء الاسرى ســـنة ٢٣١ هـ مع ابن ابى دواد رجلين لامتحان الاسرى « فمن قال القـــرآن مخلـــوق فودى به ومن ابى ذلك ترك فى أيدى الروم ... وأمر ان يعطوا جميع من قال ان القرآن مخلوق » (١٧٠) .

---

(١٦٨) فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ٢٠٠ : ٣ .

(١٦٩) الطبرى حـ ١٠ ص ٣٠٤ ـ ٥ ،

Bury : Hist. of East. Rom. Emp. pp. 259-60.

فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٢٤ .

(١٧٠) الطبرى حـ ٧ ص ١٩ : ٢١ .

الاديرة والرباطات :

جاءت المسيحية تدعو الى الزهد ، وجاء الاضطهاد فى اول الامر فاضطر بعض المؤمنين الى الفرار بدينهم الى البرارى والقفار وهرب آخرون من وطأة الضرائب وقسوة النظام القائم . حتى اذا اطل القرن الرابع وجاء قسطنطين وخلفاؤه وتنفس معتنقو المسيحية الصعداء لم يشاؤا ان يغيروا هذا الاسلوب بل شعروا ان الحياة المسيحية أخذت تفقد مثلها العليا المتشددة وقالوا بوجوب الابتعاد عن العالم وممارسة حياة التقوى والتأمل ، ولم ينفصلوا عن الكنيسة انفصالا فعليا لكنهم كفوا أنفسهم بأنفسهم وكانوا فى غنى عن الكنيسة . وهكذا قامت الرهبنة منفصلة عن الكنيسة ويمكن اعتبارها من بعض النواحى احتجاجا فرديا على نظام اعان كثيرا على تأييد الدولة وسعت الكنيسة بدورها لتثبيت مركزها ازاء هذه النزعة الجديدة . (١٧١) وظهر فى مصر رواد الرهبنة المسيحية انطونيوس الكبير (٢٥٠ : ٣٥٦ م) وباخوم (٢٩٠ : ٣٤٥ م) . ثم شاع أمر الترهب فى الشام ثم آسيا الصغرى واشتهر رواده هناك باسيليوس الكبير (٣٢٩ : ٣٧٩ م) اسقف قيصرية فى كابادوكيا وهو ممن تعلموا على ليبانيوس الفيلسوف الانطاكى وفى الاسكندرية واثينا وقد زار الشام ومصر سنة ٣٥٧ م فلما عاد الى آسيا الصغرى سنة ٣٦٠ م عزم على الترهب فاختار بنطس حيث ادخلت الحياة الديرية على يد يوستاثيوس من سبسطية Instathius of Sebastea وانشأ هناك ديرا قرب قيصرية الجديدة فوضع نظام الرهبنة الباسيلية القائمة على الطاعة بجانب الفقر والعفة ، واشتهر اتباعه بنشاطهم فى الزراعة وتربية اليتامى وتعليم الصبيان وقد شاعت فى الاقطار الشرقية اليونان والبلقان وروسيا ، وآثر مسيحيو الشام الترهب الفردى على

---

(١٧١) دكتور رستم : الروم حـ ١ ص ١٠٢ – ٣ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية – ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١١٠ : ١١٣ .

الجماعى فتركوا المدن والقرى وانتشروا فى السهول والوديان وعلى قمم التلال يتعبدون ، ومن **اشهرهم مارمارون المتوفى سنة ٤١٠ م وكان مقره فى سوريا الشمالية ويرجح لامنس انه عاش ومات فى القورسية** Cyrrhus **وعاصمتها قورس على مسيرة يومين من انطاكية وعلى نحو ٧ كم من حلب الى شمالها الغربى وهناك رأى آخر ان مارمارون تنسك على جبل فى ابامية (قلعة المضيق)** . وقد وجه اليه يوحنا الذهبى الفم رسالة من منفاه فى مدينة كوكيسوس Caucesus بجبال طوروس طالبا منه الصلاة من أجله سنة ٤٠٤ م أو سنة ٤٠٥ م واجتذب مار مارون تلاميذ عديدين رجالا ونساء التفوا حوله فى صوامع قريبة . وهكذا نشأت اخوية مارونية تعمل بتعاليم هذا الناسك . (١٧٢) وهناك ايضا **اوجينيوس** Eugenius **احد رواد الديرية فى الشام** الذى تربى على الحياة الدينية فى دير القديس باخوم واستقدم ٧٠ راهبا الى الجزيرة، وأسس ديرا بجوار نصيبيين ويذكر ان شخصا يدعى **جوليان ادخل الديرية فى أعالى الفرات فى** منطقة Osrhoene وعاش **القديس جيروم متنسكا فى خلكيس** Chalcis بجوار انطاكية سنين عددا . وتناثرت الاديرة فى ارجاء الشام وقد ذكرها المؤرخون . وعاش الرهبان فى الشام فى وحدة يحكمون أنفسهم بأنفسهم، ولا يخضعون لاى رقابة . وقد مارسوا الوانا من اضناء جسومهم دون ضابط أو حاجز ، وأخذ زهدهم صورا عنيفة متعسفة أحيانا مثل القديس سمعان العمودى (سان سيمون) الذى خلق لونا من الزاهدين توالى على مر القرون . ثم أدت عواصف الخلافات الدينية والهرطقة التى ثارت فى الاسكندرية وانطاكية كما ادت حملات العرب الى عزل كل الاديرة تقريبا فى وادى النيل ومعظم الاديرة فى أقاليم الارنط والفرات ودجله عن المذهب الارثذوكسى السائد . وقد صارت هذه الاديرة جماعات منعزلة لا تشارك فى حياة الاسرة الديرية الكبيرة التى كانت تراثا لانطونيوس وباخوم . وهكذا انتشرت الديرية من مصر والشام وبلغ تيارها آسيا الصغرى، رغم ان المناخ القاسى فى بعض مواضعها كان لا يلائم اصطناع أسلوب حياة النسك والزهد . (١٧٣) .

وقد أدت الاديرة دورا ثقافيا جليلا بجانب مهمتها الدينية ، فقد انكب الرهبان فى اديرة الشام على ترجمة المؤلفات الدينية وغير الدينية.

---

(١٧٢) دكتور رستم : الروم جـ ١ ص ١٠٣ : ٦ .

(١٧٣) Byzantium. pp. 139: 141

من أمثال مؤلفات ارسطو وابقراط وجالينوس ووجد النسطوريون الذين اضطهدتهم الحكومة البيزنطية وأدانهم المجمع الديني المسكوني الثالث سنة ٤٣١ م ملجأ في فارس الساسانية وحملوا اليها علوم الاغريق (١٧٤) . وما برحت الديارات في الشام تقدر البلاغة كما تقام فيها للموسيقى أسواق ، وقد عرفها المسلمون منذ فتحوا الشام قال معاوية ابن قزمل : كنت مع خالد بن الوليد حين غزا الشام فخرجنا فرفع لنا دير فاتيناه فقلنا : السلام عليكم فخرج الينا قس فقال : من أصحاب هذه الكلمة الطيبة؟ (١٧٥) . ولا يرى دير من الديارات الا وهو محصن بسور مكين شاهق يحميه ويصد عنه العدوان ، ولا يخلو دير كبير من خزانة كتب دينية وأدبية وعلمية كانت مجمع الرهبان الباحثين يقرأون وينسخون ويترجمون ويؤلفون كما كان للديارات الجليلة دور ضيافة للزوار اذ لا يباح لهم المقام في صوامع الرهبان . وكان بعضها على فخامة تستدعي انتباه كبار الزائرين وأن تيسر الماء زرعت حول الدير البساتين (١٧٦) .

ومن غريب الامر أن هذه الاديار « كانت منبعا لشيئين متناقضين أشد التناقض : كانت منبعا لزهد وورع وبعد الدنيا ، **ومحطا لبعض زهاد المسلمين يروون عن الرهبان اقوالهم في الهرب من اللذات ....** وكانت كذلك مناخ الخليعين من الشعراء والادباء يخرجون اليها ويتشببون بفتيانها وفتياتها ويقولون في ذلك القول الخليع والشعر الجميل ذلك ان الاديار كانت غالبا في اجمل المواضع واحسنها هواء واجملها منظرا ، تحيط بها انواع البساتين وتجمل فيها الازهار والرياحين ... ويظهر ان الخمارين استغلوا شهرة الاديار بالشراب فانشأوا حولها الحانات قال ابن فضل الله العمري (وكان حول دير العزازي حانات للخمارين والسائلين ومتنزهات) وكانت تقام لبعض الاديار اعياد سنوية ... وهكذا كانت الاديار مصدرا لنغمتين كان الناس يسمعونهما كثيرا في ذلك العصر : نغمة حزينة زاهدة تدعو الى الفرار من الحياة وارتقاب الموت ونغمة مرحة لاهية تدعو الى احتساء الكأس الى آخر قطراته ... » (١٧٧) .

---

(١٧٤) فازيلييف : ترجمة فصل الاسلام وبيزنطة من كتاب Byzantium ـ ملحق بكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٣٧٤ .

(١٧٥) كرد علي : خطط الشام حـ ٤ ص ١٣٩ .

(١٧٦) مقدمة كوركيس عواد لكتاب الديارات للشابشتي ص ٣١ ـ ٢ .

(١٧٧) احمد امين : ضحى الاسلام حـ ١ ص ٣٤٩ : ٣٥١ .

وقد انتشرت الديارات فى الجزيرة وأعالى الشام ومنها ما كان حول الثغور جزرية وشامية ومن اديرة الجزيرة : الدير الأعلى بالموصل الذى كان مركزا أساسيا لطقوس الكنيسة الكلدانية يصفه الشابشتى بأنه « دير كبير عامر .. فيه قلايات كثيرة لرهبانه » ويصفه العمرى بأنه « يضرب به المثل فى رقة الهواء وحسن المستشرف تحته ... والجزائر تتفرق خلجانها وغدرانها بازائه ولم تزل الولاة تخرج اليه للطف الهواء والنظر فى الماء ويقال انه ليس للنصارى دير مثله » . وفى الجانب الشرقى من الموصل فى موضع نينوى دير ينسب ليونس بن متى النبى ويذكر العمرى دير متى « على جبل شامخ حسن البناء جيد الحصانة .. ورهبانه لا يأكلون طعاما الا جميعا ... وله عدة أبواب مفرطة فى الكبر ، وكلها من حديد . مصمت » ودير الشياطين غربى دجله من أعمال بلد بينهاوبين الموصل . وعمر نصيبيين مما يلى الجانب الشرقى منها فى الجبل والجبل مشرف على البلد ويقول عنه الشابشتى « وهو من الديارات الموصوفة والمواقع المذكورة بالطيب والحسن وحوله الشجر والكروم وفيه عيون تتدفق وهو كثير القلايات والرهبان وشرابه موصوف يحمل الى نصيبيين وغيرها وليس يخلو من أهل القصف واللعب فهو وسائر بقاعهمعمورة بمن يطرقها. وبهذا الجبل ثلاثة ديارات أخر فى صف واحد أحسن شىء منظرا واجله موقعا : وهى عمر الزعفران ومر ومر اوجى ومر يوحنا والعمر الكبير بالموضع أحد متنزهات الدنيا ، واسفل الجبل الهرماس وهو نهر نصيبين ... ويجرى هذا النهر بين جبلين وعلى حافتيه الكروم والشجر .. » ويقول العمرى : « وبه كثير من الزعفران وهو عجيب البناء كثير الرهبان وماؤه من صهاريج يجتمع فيها ماء السماء والصهاريج منقورة فى صخور والثلج به ممكن .. قال الخالدى، ولهذا الدير بيوت للضيافة فى علو الهيكل وللسور تسور عجيب وعليه أبواب من حديد مصمت . قال : وشعر زعفرانه فائق ومنه ومن العسل اكثر يسار رهبانه » . وانشىء دير ماراوجين فى الجبل المشرف على نصيبين فى أواخر المائة الرابعة باسم القديس اوجين الناسك القبطى الاصل الذى نشر الرهبانية فى بلاد الشرق واستولى الكلدان عليه فى المائة السادسة وهناك عمر أحويشا وتفسيرها بالسريانية الحبيس ، وهو بسعرت من ديار بكر قرب ارزن يقول عنه الشابشتى « وهو كبير عظيم ، فيه اربعمائة راهب فى قلالى ، وحوله بساتين وكروم وهو فى نهاية العمارة وحسن الموقع وكثرة الفواكه والخمور ويحمل منه الخمر الى المدن المذكورة وبقربه عين عظيمة تدير ثلاثة أرحاء والى

جانبيه نهر يعرف بنهر الروم • وهذا العمر مقصود من كل موضع للتنزه فيه والشرب والخلعاء والمتطربون أغلب عليه من أهله » • وبالرقة دير زكى من أديار السريان المشهورة على جانبيه نهر البليخ « وهو من أحسن الديارات موقعا وانزهها موضعا وكانت الملوك اذا اجتازت به نزلته وأقامت فيه ... وبناحيته الغزلان والارانب وما شاكل ذلك مما يصطاد بالجارح ... » • ودير القائم الاقصى على شاطىء الفرات من جانبه الغربى فى طريق الرقة ويذكر العمرى « وهو مرقب من المراقب التى كانت بين الروم والفرس على أطراف الحدود » • ودير الرمان بين الرقة والخابور تنزلها القوافل من العراق للشام• ودير قنسرى على شاطىء الفرات من الجانب الشرقى فى نواحى الجزيرة وديار مضر مقابل جرباس وجرباس شامية ، وبين هذا النهر ومنبج ٤ فراسخ بينه وبين سروج ٧ فراسخ ، ويصفه ياقوت بانه « دير كبير كان فيه أيام عمارته ثلثمائة وسبعون راهبا » • وقد ذكر الشابشتى ديارات عرفت بالعجائب فمنها دير الخنافس فى شرقى الموصل فاذا ظهرت الخنافس فى يوم معين من السنة التالية كان اليوم التالى هو عيد الدير واجتمع الناس «فقسوا وتقربوا وانصرفوا وقد غابت الخنافس فلا يرى منها شىء الى ذلك الوقت » . ودير الكلب بين الموصل فى الجانب الغربى من أعمال الحديثة « تحته عين قير ، وهى عين تفور بماء حار تصب فى دجلة ويخرج منه القير •• وله قائم وكل دير لليعقوبية والملكية فعنده قائم ، فاما ديارات النسطور فلا قائم لها » • وقيل ان القائم منارة عالية كالمرقب ، وقيل انه شبه صومعة تتخذ الى جانب بعض الاديار لسكنى النساك • وبميافارقين دير مارقوما – وذكر أحيانا برقوما وفرتوما على فرسخين منها فى جبل مال وقيل ان برقوما هذا شهد المسيح ، وللدير عيد يجتمع الناس اليه • وهناك دير ابون بين الجزيرة وثمانين يذكره العمرى فيقول « وهو دير جليل عند النصارى ، وبه جماعة من الرهبان ، ويزعمون انه قبر نوح عليه السلام » •

وقد ذكر عن دير سعيد بالجانب الغربى من الموصل ان لترابه ومائه أثرا فى دفع العقارب ويقول العمرى « وحكى ان رهبانه الزموا بجباية فقاموا بثلثمائة ألف درهم » • ودير مارمخايل على ميل من الموصل يقول عنه العمرى « وبه قلالى كثيرة فى غاية الظرف محفوفة بأنواع الشجر وأصناف الزهر ، وله عيد يكون قبل الشعانين باسبوع ، تخرج اليه النصارى بنسائهم وصبيانهم ويمر لهم فيه يوم وليلة تتجاوب فيه الجان الاغانى وقراءة الرهابين • وحكى انه أريد به حفر بئر فى بعض قلاليه ..

فأفضى الحفر الى صندوق من حجر فكشف فاذا فيه ميت لم يتغير من جسمه شيء واذا ثيابه صحيحة وعند رأسه صحيفة من صفر فيها كتابة قديمة لم يقفوا على قراءتها ولكنهم علموا ان فيها ذكره ، وقصد المسلمون انتزاعه منهم ، ثم دارت النصارى حتى خلى لهم فردوه الى مكانه وعفوا اثره » .

وفي شمالي الشام ديرا اسحاق بين حمص وسلمية ودير ميماس بين دمشق وحمص على نهر ميماس يذكره العمرى فيقول « وهو فى رياض وبساتين وعليه طواحن رومية ، وزعم رهبانه ان به شاهدا من الحواريين» ودير مارمروثا صغير بظاهر حلب في سفح جبل جوشن ، ودير خناصرة قبلى حلب ودير رمانين أو السابان بين حلب فانطاكية مطل على سرمد ، ودير حافر بين حلب وبالس ، ودير جشيان بنواحي حلب من العواصم ، ودير مرقس من نواحي حلب ، ودير مسحل بين حمص وبعلبك ، ودير المغان أو المعان بحمص . وهناك دير كفتون بطرابلس يقول عنه العمرى «يحمل نارنجه الى طرابلس يباع بها ويرتفق بثمنه الرهبان وله مستشرف مطل على البلاد والمزارع ومنه مكان يشرف على بعد على البحر . ولهذا الدير صيت جائل وسمعة مذكورة ، وبه رهبان كثيرو العدد ، والنصارى تقصده وتحمل اليه النذور ، ويقصده كثير من أهل البطالة واللهو للتفرج به والتنزه فيه » . وكان لمارون دير عظيم شرقى حماة وشيزر ذو بنيان عظيم حوله أكثر من ٣٠٠٠ صومعة وفيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم وهو قرب نهر الارنط . ويقول ابن بطريق عن مارون « وكان يقول ان سيدنا المسيح طبيعتان ومشيئة واحدة وفعل واحد واقنوم واحد . **واكثر من تبعه على مقالته تلاميذه القائلون به أهل مدينة حماة وقنسرين والعواصم وجماعة من أرض الروم فسموا الموارنة** .. وقد خرب دير مارمارن سنة ٧٥ للهجرة لما غزا موريق وموريقان بلاد الشام وحملا على هذا الدير وقتلا منه ٥٠٠ راهب وهدما بنيانه ، ثم تحولا من هناك الى قنسرين والعواصم فقتلا الاهلين ونهبا وخربا المساكن ولم يعفيا عن أحد من اتباع مارمارون » . ودير حمطورا فى شرقى طرابلس فى جانب الوادى فى سفح الجبل يقول عنه العمرى « وهو حصين جدا لا يسلك اليه الا من طريق واحد وظهر الجبل الذى له ممتنع » .

وفى نواحي الثغور يذكر ابن فضل الله العمرى **دير المحل بساحل** جيحان قرب المصيصة **ودير الرصافة** قرب رصافة هشام بن عبد الملك **ودير القاروس** على جانب اللاذقية من شمالها . ويذكر **ياقوت دير**

سمعان الذى يقول عنه ابن بطلان فى رسالته « وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون وله من الارتفاع كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة ، وقيل ان دخله فى السنة أربعمائة الف دينار ومنه يصعد الى جبل اللكام » . وقد اشتهر دير برصوما قرب ملطية . ويقول عنه ياقوت « هو الدير الذى ينادى له بطلب نذره فى نواحي الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم .. على راس جبل يشبه القلعة وعنده متنزه وفيه رهبان كثيرة يؤدون فى كل عام الى ملك الروم للمسلمين من نذوره عشرة آلاف دينار على ما بلغنى .. حدثنى العفيف مرجا الواسطى التاجر قال : اجتزت به قاصدا الى بلاد الروم فلما قربت منه اخبرت بفضله وكثرة ما ينذر له وا نالذين ينذرون له قل ما يخالف مطلوبهم وان برصوما الذى فيه أحد الحواريين فالقى الله على لساني ان قلت : ان هذا القماش الذى معى مشتراة بخمسة آلاف درهم فان بعته بسبعة آلاف درهم فلبرصوما من خالص مالى خمسون درهما . فدخلت ملطية وبعته بسبعة آلاف درهم سواء فعجبت فلما رجعت سلمت الى رهبانه خمسين درهما وسألتهم عن الحوارى الذى فيه فزعموا انه

مسجى فيه على سرير وهو ظاهر لهم يرونه وان أظافره تطول فى كل عام وانهم يقلمونها بالمقص ويحملونها الى صاحب الروم مع ماله عليهم من القطيعة ، والله أعلم بصحته فان صح فلا شيء أعجب منه » (١٧٨) وقد روى ابن الشحنة انه كان بحلب نيف وسبعون هيكلا للنصارى ، كما ذكر مشاهد كثيرة بنواحي حلب المختلفة وما حولها منها مقامات لأنبياء مثل مقام ابراهيم ومشهد الخضر ، ومقام داود ، وقبر يوشع بن نون ، « ومن شمالى حلب عمود تنذره المسلمون والنصارى واليهود ويقال ان تحته قبرنبى .. قال : وبجبل الطور المجاور لقنسرين مشهد ، ذكر الشيخ على بن أبى بكر الهروى ان فى جبل قنسرين مشهدا يقال انه مقام صالح النبى عليه السلام ، ويغلب على ظني ان هذا المشهد من بناء صالح ابن على ابن عبد الله ابن العباس فان ولاية الشام كانت اليه وله آثار

---

(١٧٨) الشابشتي : الديارات ص ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٦ ـ ٧ ، ١٣٩ ، ١٩٥ : ٧ ، العمرى : مسالك الابصار حـ ١ ص ٢٥٤ ـ ٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٨٩ ـ ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ـ ٥ ، ٢٩٩ : ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ : ٢ ، ٣٣٤ : ٣٣٦ ، الذيل لكوركيس عواد ص ٢٣٧ ـ ٨ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٦٤١ : ٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٥ ـ ٦ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ـ ١٧٨ ، ١٨٥ ، كرد علي خطط الشام ص ٢٥ : ٣٧ .

بحلب وقنسرين فنسب المشهد اليه٠٠٠ قال: وبانطاكية قبر حبيب النجار فوق آل ياسين وبها قبر عون بن ارميا النبى عليه السلام ، وقبر عوص ابن سام بن نوح ٠ قال : وقال كمال الدين بن العديم بسند يرفعه الى كعب الاحبار : ان بطرسوس من قبور الانبياء عشرة وبالمصيصة خمسة والبقية بسواحل الشام » (١٧٩) ٠

◆ ◆ ◆

ومن ناحية المسلمين كان للشام والجزيرة عندهم ذكر وفضل ».
فقد ورد عن النبى انه بشر أصحابه بفتح الشام والعراق « فقلت يا رسول الله من يستطيع الشام وفيه الروم ذات القرون ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والله ليستخلفنكم الله فيها حتى تظل العصابة منهم البيض قمصهم المحلوق اقفاؤهم قياما على الرجل الاسود ما أمرهم به فعلوا ، وان بها اليوم رجالا لأنتم اليوم أحقر فى أعينهم من القردان فى اعجاز الابل ،

قال ابن حوالة : قلت اختر لى يا رسول الله ان أدركنى ذلك فقال: **اختار لك الشام فانها صفوة الله من بلاده واليها يجتبى صفوته من عباده ٠٠ فان الله قد تكفل لى بالشام وأهله** » ٠ ونقل المقدسى حديثا عن النبى : ان الله عز وجل أوحى الى : أى هـؤلاء الثلاث نزلت فهى دار هجرتك ـ المدينة أوالبحرين أو قنسرين ونقل ابن الشحنة عن ابن العديم حديثا عن النبى : ليلة أسرى بى الى السماء رأيت قبة بيضاء لم أر أحسن منها وحولها قباب بيض كبيرة ، **فقلت : ما هـذه القباب يا جبريل ؟ قال هذه ثغور أمتك ، فقلت : ما هذه القبة البيضاء فانى ما رأيت أحسن منها ؟ قال : هى انطاكية هى أم الثغور وفضلها على الثغور كفضل الفردوس على سائر الجنان ، الساكن فيهـا كالساكن فى البيت المعمور يحشد اليها خيار امتك وهى سجن عـالم من أمتك وهى معقل ورباط وعبادة يوم فيها كعبادة سنة ومن مات فيها من أمتك كتب الله له يوم القيـامة أجر المرابطين** ٠ وقد علق الغزى على هـذا الحديث بقوله « هـذا الحديث غريب وان كان لا يخلو من الدلالة على فضل هذه المدينة » ويذكر ابن العديم عن جبل اللكام «وهو مسكن العباد والزهاد ، وفيه من الفواكه المباحة ما يقتاتون به » ويقول عن طرسوس « وبها كان يقوم سوق الجهاد وينزلها الصالحون والعباد » وهو يروى الكثير فى زهادها وفضلها ٠ ونقل ابن الشحنة عن ابن العديم بسند يرفعه الى كعب الاحبار : « **ان بطرسوس**

---

(١٧٩) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٨١ : ٤ ، ٩٢ : ٩ ٠

من قبور الانبياء عشرة ، وبالمصيصة خمسة ، والبقية بسواحل الشام »• وذكر ياقوت عن طرسوس « وقد نسبوا الى هـذا الثغر جماعة كثيرة من الرواة والزهاد والعباد •• كذا نسبوا غير واحد من المحدثين » • « وما زالت موطنـا للصالحين والزهاد يقصدونها لأنهـا من ثغور المسلمين » ، وقال « قد رابط بهـا الصالحون قديمـا » • وذكر المقـدسي عن الجزيرة (اقليم اقور) « ••• به مشـاهد الانبياء ومنـازل الاولياء به استقرت سفينة نوح على الجودى وبه سكن أهلها وبنوا امدينة ثمانين وبه تاب الله علي قوم يونس واخرج منه العين ومنه دخل الظلمات ذو القرنين وبه كانت عجائب جرجيس مع اذيانة ووفيه أنبت الله تعـالى ليونس اليقطين ومنه خرج نهر الملة المبـارك المذكور دجلة ، أليس به جبل يونس بتل توبه : يقولون سبع زورات له يعدلن حجة ، مع مشاهد كثيرة وفضائل جمة ثم هو ثغر من ثغور المسلمين ومعقل من معاقلهم •• »

وبحكم وقوع الثغور الشامية والجزرية على حدود العـدو ، كان المسلمون الأتقياء يجاهدون بالرباط فى الثغور لحماية بيضة الاسلام ورد عادية المعتدين « يايها الذين آمنو أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » • وقد أورد ابن العديم عن أبى الدرداء « أهل الشام وأزواجهم وذراريهم وعبيدهم واماؤهم الى منتهى الجزيرة مرابطـون فى سبيل الله فمن احتل منهم مدينة فهو فى رباط ومن احتل منها ثغرا من الثغور فهو فى جهاد » وفى رواية « فمن احتل ساحلا من تلك السواحل فهو فى جهاد ومن احتل بيت المقدس وما حوله فهو فى رباط » (١٨٠) » •

وكانت الربط فى أول الأمر مجرد حصون تقام فى الجهات الأكثر تعرضا لغارات العدو تشحن بالمقاتلة والمؤن لصد المغيرين • وحين أنشا عقبة بن نافع القيروان قال له أصحابه « نريد أن نقربها من البحر ليجمع أهلها الجهاد والرباط » • وفى افريقية توسـع الأغالبة فى بناء الربط وكانت تسمى القصور والمحارس فانتشرت على ساحل البحر وكان الناس اذا دهمهم الغزاة يفزعون اليها ويتكاتفون فى مواجهة الخطر ولم تستطع الأساطيل البيزنطية فى القرن الثانى الهجرى أن تنال من السـاحل

---

(١٨٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٥٦ ، ١٣٦ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص٢١٩ : ٢٢١ ، جـ ٣ ص ١٨ ، جـ ٦ ص ٣٨ ، جـ ٨ ص ٨٠ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٥٨ ، ١٠٦ : ٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ : ٢٦١ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٩٩ الغزى : نهر الذهب جـ ١ ص ٦٧ ، ٣٩٠ •

الافريقى • **وساعد انتشار الاسلام وعلومه على أن تتحول الربط من وظيفتها الأولى الى وظيفة تعليمية** حتى قيل « ان قصور زياد المرابط بساحل افريقية (دار مالك) لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك » • كما أشاع المالكية فى اريقية والمغرب موجة من الزهد والورع فهرع أهل التقى الى المحارس والقصور والربط فرارا من الدنيا وطلبا للعبادة فى وقت معلوم أو طول العمر ، وتناقل الناس عن هؤلاء العباد قصصا أقرب الى الاساطير • وقد كان لهذه الرباطات مزاياها ووقت المسلمين غوائل فتن كثيرة ، « **وقد كانت حركات المرابطة فى الشام والمغرب متشابهة الى حد كبير ، ففى بلاد الشام على الحدود البيزنطية الاسلامية انتشرت الثغور والربط ، آوى اليها المتعبدون والزهاد للدفاع عن الاسلام والعزلة والتقشف** ، أما فى المغرب فقد انتشرت فى موانيه المعرضة لغارات البيزنطيين القصور والحصون والمحارس والربط لأداء نفس الدور الذى كانت تؤديه ربط بلاد الشام • ولم يكن **التشابه فى الهدف فحسب ، بل كان فى عمارة هذه القصور وهذه الرباطات ••• واذا عرفنا ان التأثيرات الشامية بيزنطية وان افريقية كانت تخضع للنفوذ البيزنطى أدركنا سر هذا التشابه فى عمارة هذه القصور** ، وعلمنا ان التأثيرات البيزنطية واضحة فى ربط بلاد الشام والمغرب • التى كانت فى الواقع حصونا بيزنطية أقيمت فى الموانى وشحنت بالمقاتلة للدفاع عن الساحل الطويل • وكان البيزنطيون يقيمون سلسلة من الحصون الشامية على الحدود فيشحنونها بمقاتلة يقفون على قدم الاستعداد لرد أى عدوان وهو ما يعرف بنظام الثغور ـ اذن هنالك تأثيرات مسيحية فى عمارة الربط ، تأثيرات بيزنطية واضحة لاشك فيها • ولكن اذا عرفنا أن الربط الاسلامية كانت فى أول الأمر تؤدى غرضا حربيا •• **أدركنا أن** هناك تشابها بين الربط الاسلامية وبين الحصون البيزنطية التى أقيمت على سواحل المغرب ، ولكن بلاد المغرب تحولت فيها الربط الى أماكن للعبادة والانقطاع والتقشف صيام النهار قيام الليل واضناء البدن ومجاهدة النفس •

لقد كان الثغر عنوانا للدولة الاسلامية ، وهو يمثل الفروسية والعلم والحضارة معا « والدولة حريصة على ابراز قوتها الدفاعية ولكنها حريصة على أن تبرز قوتها الحضارية أيضا اذ تؤمن بأن الحضارة قوة أمضى من السيف فى تاليف الشعوب المجاورة أو التحالف معها واخضاعها أو

منع عدوانها ... وان من العلماء من كانوا يقصدون الثغر ويقيمون فيه طلبا للرباط والتعليم بحيث أمكن أن يوجد فى المصيصة وحدها بين سنتى ٢١٩ ، ٢٢٥ هـ ١٢ عالما كبيرا ... وكان علماء المصيصة فى الأصل من اليمامة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وخراسان . وسرى فى الثغور نوع من التصوف نتيجة الحرص على اخفاء حسن البلاء فى المعركة والزهد فى التفاخر به » (١٨١) .

والفقهاء يتناولون المرابطة فى سبيل الله فى أبواب النذور من كتب الفقه ، وقد كان المسلم يقصد الثغر للرباط فيه والدفاع عنه مدة حياته أو جزء منها ، ويلتحق به ثان وثالث من أمثاله وهكذا ، حتى تتكون جماعة فيبنون الرباط الذى يسكنونه ، ويدخرون فيه حاجياتهم من أسلحة وأمتعة وزاد ويقوم شيخ الرباط على ادارته وتثقيف ساكنيه وتوجيههم وتربية نفوسهم . ولكل من المرابطين صناعة يدوية يحذقها أو تلقن له ليكسب منها قوته ولباسه وزاده وحتى أدوات حربه ـ فهو لا يعتمد فى شىء من ذلك على الناس ، ولا تمر مدة طويلة حتى يصبح الرباط معهدا للعلم يلقى فيه العلماء المرابطون على من يأتى اليهم من الطلبة من الجهات المجاورة قصد المرابطة أو طلب العلم دروسا دورية فى علوم الدين واللغة والتصوف وحتى فى الصناعة والتمريض . وكلما أتمت جماعة معلوماتها بارحت المكان وخلفتها أخرى . وكثيرا ما كانت الرباطات مستوصفات طبية لمعالجة الفقراء بالمجان على يد أطباء يتطوعون لهذا الغرض وكانت فى بعض الاحيان كمطابع تخرج الكتب وتعين على نشر العلم ، اذ يعمد أحد المرابطين الى املاء كتاب على عشرة من تلاميذه فيخرج منه عشر نسخ . وكان الصناع من المرابطين ينفقون ما يبيعون به مصنوعاتهم على حاجياتهم ويوفرون الباقى لينفقوه فى مصلحة الرباط. وازدهرت الرباطات ولفتت نظر الناس اليها واشتهر القائمون فيها بالعلم والصلاح نتيجة الدرس والمجاهدة فاخذ الناس يوفرون لها الأموال

---

(١٨١) دكتور حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٢٨ : ١٤٠ .
دكتور شعيرة : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية ـ بحث فى كتاب (الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) .

ويجلبون اليها الأرزاق وأخيرا وقفوا عليها الدور والبساتين والمزارع الواسعة لتوفير نفقاتها اللازمة وضمان بقائها وقيامها بما أنشئت له من اصلاح النفوس وحماية الثغور ٠٠ الا انه بعد ترك المسلمين لامر الجهاد والمرابطة أضحت الرباطات دور علم فقط ، وأخذت شكل زاوية تضم ضريح المؤسس الأول لذلك الرباط ، وربما أضرحة تلاميذه واتباعه أو أفراد كتيبته على أصح تعبير وصارت الاوقاف التى رصدت له تصرف على اطعام أبناء السبيل وطلبة العلم وحفظة القرآن الكريم ، يقصدها هؤلاء من كل مكان ، ويقيمون بها مكفولين بالسكن والاكل والملبس حتى يتم لهم ما أرادوه من استظهار القرآن ومبادىء العلوم بواسطة شيوخ تصرف لهم جرايات من الوقف ٠٠ (١٨٢) » ٠ وقد أوقف الكثيرون على المرابطين فى طرسوس « ليس من مدينة عظيمة من حدسجستان وكرمان ٠٠ الى مصر والمغرب ، الا وبها ـ طرسوس ـ لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها ٠ وتكثر لديهم الصلات ، وترد عليهم الاموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، الى ما كان السلاطين يتكلفونه ، وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف من فنادق » (١٨٣) ٠

وقد نقل ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك انه أملى هذه الأبيات بطرسوس في رسالة منه الى الفضيل بن عياض سنة ١٧٠ هـ أو سنة ١٧٧ هـ :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت انك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الاطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى ... أنف امرىء ، ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

(١٨٢) محيى الدين القليبى : مقال : الرباط فى سبيل الله ـ مجلة رسالة الاسلام السنة الرابعة العدد ٣ شوال سنة ١٣٧١ هـ ـ يوليو سنة ١٩٥٢ م ٠

(١٨٣) ابن حوقل الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ ٠

فانطلق حامل الرسالة فلقى الفضيل بن عياض بها فى المسجد الحرام فلما قرأها ذرفت عيناه وقال : صدق أو عبد الرحمن ونصحني (١٨٤) .

وروى ابن الشحنه ان بظاهر جبلة قبر ابراهيم بن أدهم أصله من بلخ « وكان أبوه ملكا **فترك الدنيا اختيارا لا اضطرارا وجعل الثغور الشامية له منزلا ودارا** ، مات سنة احدى وسنتين ومائة » . (١٨٥) ويذكر ان من الأولياء طائفة يسمون الابدال ، وهم « فئة من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم أبدا وعددهم سبعون : أربعون منهم فى الشام وثلاثون فى سائر البلاد » . وقد ورد فى طبقات الحفاظ للذهبى عن أبى ثوبة المتوفى سنة ٢٤١هـ الذى ولد بحلب وعاش فى طرسوس انه كان من الابدال (١٨٦) .

وأورد ياقوت أسماء **كثير من العلماء نسبوا الى الثغور** فمن طرسوس أبو أمية محمد ابن ابراهيم بن مسلم بن سالم الطرسوسى الثغرى ، وهو بغدادى المولد سكن طرسوس الى ان مات بها سنة ٢٧٣هـ . ونسب الى انطاكية جماعة كبيرة من أهل العلم منهم عثمان بن عبد الله بن محمد بن خرداذ الانطاكى أبو عمرو محدث مشهور مات فى انطاكية فى المحرم سنة ٢٨٢ هـ وقد روى عنه أبو عثمان سعيد بن حرب البغراسى نسبة الى بغراس . وهناك عمر بن على بن الحسين أبو حفص العتكى الخطيب وقد غادر انطاكية فى طلب العلم ثم رجع اليها مستنفرا سنة ٣٥٩ هـ فحدث بها وبحمص ، وهناك ابراهيم بن عبد الرازق أبو يحيى الازدى ويقال له العجلى الانطاكى ، مات بانطاكية سنة ٣٣٨ هـ أو سنة ٣٣٩ هـ . وينسب الى منبج جماعة منهم عمر بن سعد بن أحمد بن سنان أبو بكر الطائى المنبجى وقال ابن حبان **انه صام النهار وقام الليل مرابطا ثمانين سنة** فارساله مقبول (١٨٧) .

---

(١٨٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٤٧ .
(١٨٥) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٠١ .
(١٨٦) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ٢ ص ٣٠ ـ ١ والهامش .
(١٨٧) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٨ ، جـ ٦ ص ٣٨ ، جـ ١ ص ٣٥٨ ـ ٩ ، جـ ٢ ص ٢٤٥ ، جـ ٨ ص ١٧٠ ـ ١ .

التأثير المتبادل فى الفكر الدينى :

واجه المسلمون فى الشام « نظاما دينيا كان قد تطور تطورا عمليا وأصبح يقوم على أساس منطقى بفضل سلسلة طويلة من المناقشات المذهبية والمجادلات » • كما واجهوا فى الجزيرة والعراق ديانات وثنية قديمة « وقد نتجت عن اصطدام الاسلام الشديد بتلك الديانات مركبات وآثار عديدة ، وكان لتلك المعارك الفكرية وما ترتب عليها من تغيير فى الافكار أثر عميق فى تاريخ الشرق الدينى فى العصور التالية » • وقد كانت المسيحية أول دين اتصل بالاسلام عن قرب اذ كانت دمشق فى وقت من الاوقات مقرا للخلفاء الامويين وتقدمت فيها فى ذلك الوقت مدرسة دينية تخرج منها بعض علماء الكنيسة الشرقية البارزين كما ازدهرت حياة فكرية نشطة • وكانت المناقشات الدينية كثيرة بين علماء الدين المسلمين والمسيحيين وقد شجع التسامح على اتصال المسيحين بالمسلمين ، وتعلم العرب التفكير الفلسفى باتصالهم برجال الدين الاغريق الذين اتقنوا فن المناقشة المنطقية (١٨٨) •

وتكشفت الروايات المبكرة التى تتناول اتصالات المسلمين والروم عن هذه **الروح الجدلية** ، ومهما كان حظ هذه الروايات من الثبوت فانها تعكس الروح السائدة • روى ان قيصر كتب الى معاوية : سلام عليك ، أما بعد فانبئنى بأحب كلمة الى الله وثانية وثالثة ورابعة وخامسة ومن أكرم عباده اليه فاكرم امائه وعن أربعة أشياء فيهن الروح لهم يرتكض فى رحم وعن قبريسير بصاحبه ومكان فى الارض لم تصبه الشمس الا مرة واحدة والمجرة ما موضعها من السماء وقوس قزح وما بدء أمره ؟ فلما قرأ كتابه قال : اللهم العنه ما أدرى ما هذا !! فأرسل الى عبد الله بن

---

(١٨٨) فون كريمر : الحضارة الاسلامية ومدى تاثرها بالمؤثرات الاجنبية ترجمة دكتور بدر ص ٦٤ : ٦٠ •

عباس يسأله فقال : أما احب كلمة الى الله فلا اله الا الله لا يقبل عملا الا بها وهي المنجية ، والثانية سبحان الله وهي صلاة الخلق والثالثة الحمد لله كلمة الشكر ، والرابعة الله أكبر فواتح الصلوات والركوع والسجود ، والخامسة لا حول ولا قوة الا بالله ، واما أكرم عباد الله اليه فهو آدم خلقه بيده وعلمه الاسماء كلها ، وأكرم امائه عليه مريم التى أحصنت فرجها . والأربعة التى فيهن روح ولم يرتكضن فى رحم فآدم وحواء وعصا موسى والكبش . والموضع الذى لم تصبه الشمس الا مرة واحدة فالبحر حين انفلق لموسى وبنى اسرائيل والقبر الذى سار بصاحبه فبطن الحوت الذى كان فيه يونس . (١٨٩) .

كان المسلمون يدعون الى الاسلام فيقع الجدم بينهم وبين رؤساء النصرانية وكان ذلك أكثر ما يكون فى الشام ، وقد كان **يحيى أو يوحنا الدمشقى** نصرانيا شديد التمسك بنصرانيته وعمل هو وأبوه فى قصر عبد الملك بن مروان ، والف يحيى كتابا للنصارى لمحاجة المسلمين ، من أمثال ما جاء فيه : اذا قال لك العربى : ما تقول فى المسيح ؟ فقل له : انه كلمة الله ، ثم ليسأل النصرانى المسلم بم سمى المسيح فى القرآن ، وليرفض ان يتكلم بشىء حتى يجيبه المسلم فانه سيضطر الى أن يقول « كلمة الله القاها الى مريم وروح منه » فان أجاب بذلك فأساله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فان قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله اذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح قال يحيى : فان قلت ذلك فيفحم العربى لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين . والمسلمون ردوا على هذا الاعتراض بأن المراد بالكلمة انه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة وأما الروح فتستعمل بمعنى الرحمة، وقد قال الله عند آدم « ثم قال له كن فيكون » « ونفخت فيه من روحى » . وفى الفرق الاسلامية نجد ظلا للمجادلات النصرانية ، فقد تجادلت الكنائس النصرانية مثلا فى خلود العذاب ، وذهب اباء الكنيسة اليونانية الى انكار ابدية عذاب النار مخالفين فى ذلك الكنيسة الغربية ، واتخذت هذا الرأى نفسه فى الاسلام طائفة المرجئة . ورأى جهم بن صفوان ان الجنة والنار يفنيان ويفنى أهلهما . وقد كان أوريجين يؤيد القول بأن عذاب النار له نهاية وجميع الاسكندريين على اتفاق معه فى هذه النقطة ، وحتى معلمى كنيسة انطاكية : ديودور الطرسوسى

---

(١٨٩) ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

وتيودور المصيصى مثلا ــ يشاركون أوريجين عقيدته فى هذه المسألة ولو أنهم عادة لايتفقون معه فى المسائل الاخرى• ويذهب فوق كريمر الى ان آراء المعتزلة نشأت من مناقشات النصرانية لأن آباء الكنائس كانوا يتجادلون فى حرية الارادة وان الانسان مجبور أو مختار كما كانوا يتجادلون فى صفات الله ، وقد تسربت هذه العقائد الى المعتزلة عن طريق النصارى بعد فتح المسلمين للشام • ومن أشهر من احتك بالمسلمين فى العصر الاموى يحيى الدمشقى سالف الذكر وتيودور أبو قره Abocara وقد تكلم يحيى فى أن الله مصدر الخير وقال ان الخير يصدر من الله كما يصدر الضوء من الشمس ،فتكلم المعتزلة الاولون فى القدر وفى صفات الله وقد يكونون تأثروا بسوابق الجدل المسيحى فى مثل هذه الموضوعات • ويذكر متز ان علم العقائد المسيحى كان لمدة طويلة فى ذلك الوقت قد اهتم ببيان وحدة الذات وتنزهها عن الكثرة ، ولا يخلو كلام المعتزلة من تأثير الفلسفة اليونانية البالغ فى القرن الثالث •

ولا يرى الاستاذ أحمد أمين هذا الرأى ــ ويشاركه الرأى الدكتور محمد البهى ، ويريان ان مسألة القدر صدرت عن المسلمين أنفسهم ، وانها فكرة ثارت فى كل دين تقريبا ، ويدللون على ذلك بآيات القرآن وأحاديث الرسول التى تعرضت للقدر • (١٩٠)

ويوحنا الدمشقى (٦٧٥ : حوالى ٧٤٩م•) الملقب بدفاق الذهب لفصاحة لسانه كان سوريا يؤلف باليونانية ، فضلا عن تكلمه الآرامية فى حياته اليومية بالطبع واحسانه العربية » وهو من أبرز من تسرب على يدهم الأثر المسيحى والعلم اليونانى الى الجو الاسلامى » وكانت المناقشات بينه وبين علماء المسلمين حول حرية الارادة والقضاء والقدر بادرة الحركة العقلية فى الاسلام ، وكانت تعاليمه ان الله خلق العالم وتركه يجرى بقوة استمراره • وقد تمتع سر جيوس والد يوحنا فى بلاط عبد الملك بمنصب المستشار وبعد وفاته أسند المنصب الى ابنه ، على انه اعتزل هذا العمل فى أوائل خلافة هشام ولجأ الى دير القديس سابا فى جنوبى شرقى القدس يعيش حياة الزاهدين المتعبدين • وقد وضع القديس يوحنا عددا من

---

(١٩٠) احمد امين : ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٤٣ : ٦ ، فون كريمر : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور بدر ص ٦٦ : ٧١
فازيلييف : العرب والروم ــ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٣ ، متز : الحضارة الاسلامية ــ ترجمة دكتور أبى ريدة ج ٢ ص ٢٨٣ ، دكتور محمد البهى : الجانب الالهى من التفكير الاسلامى •

المؤلفات أهمها ينبوع الحكمة الذى لخص فيه آراء مشاهير المؤلفين الكنيسيين من قبله وقد اعتمده بطرس اللومباردى وتوما الاكوينى ونقل كثـيرا من مؤلفات يوحنا الى اللاتينية ، واتفقت الكنيستان اليونانيـة واللاتينية على اعتباره قديسا • ومن أطرف كتـاباته محاورتاه بين مسيحى ومسـلم اللتان شدد فيهما على ألوهية المسيح وحرية الارادة الانسانية • وكان من وجوه نشاطه البارزة دفاعه عن اسـتخدام الصور للتعبد فى وقت كان ليو الايسورى الامبراطور البيزنطى يبذل الجهد البالغ لابطال الايقونات •

ولذلك تعرض لغضب الامبراطور ، وبلغ من جرأته ان قصـد الى القسطنطينية معرضا حياته للخطر ، وقد نظم أناشيد دينية « وكان القديس يوحنا آخر اباء كنيسة الروم الشرقية وكان من حيث هو عالم لاهوتى ، وخطيب دينى ، ومدافع كنسى ومجادل عقائدى ، ومنظم للفن البيزنطى وللموسيقى البيزنطية من أبرز مفاخر الكنيسة فى ظل الخلافة » (١٩١) •

وقد كان هذا الجدال الدينى من ظواهر الفكر فى القرنين الثـامن والتاسع الميلاديين ، وكان الداعى لهذا الجدل أن الخلفاء كانوا اذا ما ارتقوا عرش الخلافة وجهوا الى الملوك المعاصرين كتبا يدعونهم فيهـا الى الدخول فى الاسلام فلم يكن بد من الرد على هذه الكتب وحين ألف المسـيحيون كتابا يدافعون عن عقائدهم ويهاجمون عقائد المسلمين - ومن ذلك كتاب يوحنا الدمشقى فى الهرطقات On Heresies حفـز ذلك المسـلمين للرد عليهم • **وكان من الضرورى حماية أهل الثغور من خطر التحول عن المسيحية وهو خطر كان يتزايد بتقدم العرب فى كل نواحى حياتهم تقدما محسوسا كل يوم** ، وان تعزز مناعة المسيحيين الخاضعين للمسـلمين من الناحية المعنوية بعد أن ظلوا على ايمانهم وأصبحوا أهل ذمة • وكان كذلك من الضرورى ان تنشر الكتابات الدينية فى سوريا وفى مصر ، وقد جاءت هذه المؤلفات الجدلية المسيحية باليونانية لاستعمال تلك اللغة فى الشام فى زمن يوحنا الدمشقى أيام الامويين وفى زمن أبى قرة فى أوائل العهد العباسى ، ولكن الأخير بدأ استعمال العربية ، وكتب بها أبو كالبيس بحيرا الحوار بين عبد المسيح الكندى وبين عبد الله الهاشمى فى عهد المأمون ، والف برتلمى الرهاوى كتابات فى صورة رد على كتاب عالم مسلم لخصه فى المقدمة وقد عرض تصور المسيحية للاسلام فى أواخر القرن التاسع الميـلادى • **وقد اقتبس العرب فى العراق وديار بكر وديار مضر والفرات**

---

(١٩١) حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١١٥ : ٧ ، تاريخ العرب - ترجمة نافع ج ١ ص ٣٠٧ - ٨ •

الأوسط والثغور طرائق الفلسفة في البحث الديني ، وثار هجوم اسلامي قوى على أثر ما فعله ميشيل الثالث اذا أرسل مقالتين احتج في احداهما بمبدأ السببية ، فرفض المسلمون فكرة وجود ابن الله مشارك في الخلود والصفات • وظهرت رسالة للجاحظ مال فيها صاحبها الى تأييد سياسة المتوكل الشديدة نحو أهل الذمة • وعرض أبو القاسم بن ابراهيم البلخي لفكرة النبوة ، والف أبو عيسى الوراق كتابا ضخما نقد فيه عقائد النصارى بمذاهبهم الثلاثة • (١٩٢) •

وقد بلغت هذه المجادلات الدينية حدا كبيرا من العنف والتعصب في بعض الأحيان ، ومن ذلك ان الفقيه المسلم القفال الشاشي المتوفى سنة ٣٦٦/هـ ٩٧٦م راح يتبادل مع مجهول يتحدث باسم البيزنطيين ألوان الطعن والتجريح انتصارا لحملات ملكيهما الحربية سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦ ــ ٩٦٧م ، فيعلى المسيحي صيحته :

سافتح أرض الشرق طرا ومغربا	وانشر دين الصلب نشر المعالم
فعيسى علا فوق السموات عرشه	ففاز الذى والاه يوم التخاصم
وصاحبكم في القرب أودى به الثرى	فصار رفاتا بين تلك الرمائم

ويجيبه الشيخ المسلم من نفس الوزن والقافية :

ومن رام فتح الشرق والغرب ناشرا	لدين صليب فهو أخبث دائم
ومن دان للصلبان يبغى بها الهدى	فذاك حمار وسمه في الخراطم
وان كان قد مات النبي محمد	فاسوة كل الأنبياء الأعاظم
وعيسى له في الموت وقت مؤجل	يموت له كالرسل من نسل آدم (١٩٣)

ومع ذلك فقد كان هناك تماثل في الجو الخلقي السائد لدى المسلمين والبيزنطيين « ولا مراء ان العادات المرعية والمحظورات كانت تختلف اختلافا بعيدا ، غير ان المعايير الخلقية كما تتجلى في وصايا الآباء وفي النصائح الموجهة لغير ذوي الخبرة من الناس وآراء القادة الروحيين كانت في الأغلب الأعم تلقى القبول بدرجة سواء على جانبى خط الحدود الفاصل بين العقيدتين • وكان كل من الطرفين في العصر الوسيط مولعا باستخلاص العظات الاخلاقية وكانوا في كل من المكانين ينتجون مجموعات

(١٩٢) ارمان بل : تحاج أهل الاديان في القرنين الثامن والتاسع ملحق لكتاب فازيلييف العرب والروم ــ ترجمة شعيرة ص ٣٦٨ : ٣٧١ •
جرونيباوم : حضارة الاسلام ــ ترجمة جاويد ص ٣٢ ، ٦٥ ــ ٦ ، ٤٢٧ •

(١٩٣) جرونيباوم : حضارة الاسلام ــ ترجمة جاويد ص ٣٤ ــ ٥ •

ضخمة من مؤلفات تتسم بطابع التهذيب والارشاد كما انه فى كل من القطرين كانت تقلبات القدر والتعقدات فى الطبيعة البشرية تلاقى الى حد ما رد الفعل نفسه غير الحاسم عند الأفراد (١٩٤) » ٠

***

وقد ظهرت نزعة فى المسيحية تدعو الى **نبذ الصور والايقونات** باعتبار أنها تحمل مسحة وثنية ، وقد استهلت بوادر مبكرة لهذه النزعة منذ القرن الرابع الميلادى وضجت انطاكية مستنكرة تقديس الايقونات فى القرن السادس الميلادى وكانت آسيا الصغرى مركز تلك النزعة **ولعل عداء الديانتين اليهودية والاسلامية فى تلك الجهات للصور والتماثيل له آثاره فى تلك النزعة كما يبدو فى اتهام انصار الصور ليو الثالث الايسورى المتوفى ٧٤٠ م بانه عربى التفكير** Saracen-minded **(١٩٥)** وزعم البعض أنه اعتنق الاسلام سرا على يد الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك مع ان عهده كان بداية فترة من فترات قوة الامبراطورية ٠ فى حين وجه المجمع اللا ايقونى سنة ٧٥٤م الى يوحنا الدمشقى تهمة الميل الى الاسلام ! وقد سار خلفاء ليو الايسورى على سياسته فى محاربة الصور حتى أوقفتها الامبراطورة ايرينى مؤقتا وبذلك استمرت هذه الحركة ٥٠ سنة تقريبا من ٧٢٦ الى سنة ٧٨٠م وكان الانتصار الثانى للصور على يد تيودورا سنة ٨٤٣ م وان كانت قد عادت الى الظهور بعض الوقت فى عهد ليو الأرمنى (٨١٣ : ٨٢٠ م) ٠ ويذكر خدابخش « ان كلوديوس أسقف تورين (المعين سنة ٨٢٨م) الذى قام بطمس واحراق وازالة جميع التماثيل والصلبان فى اسقفيته ولد وتربى فى الأندلس الاسلامية ، ولاشك ان كلوديوس رأى فى الاسلام والمسلمين الشىء الكثير الذى نال تقديره واعجابه ، وتوجد لدينا عبارة صريحة لأحد معارضيه يقول فيها : ان اليهود امتدحوه واعتبروه اعقل رجل بين المسيحيين وهو من ناحيته امتدحهم وامتدح المسلمين كثيرا » (١٩٦) ٠

---

(١٩٤) جرونيباوم : حضارة الاسلام ــ ترجمة جاويد ص ٣٩ ٠

(١٩٥) Runciman : Byz. Civ. p. 234, Byzantium. p. 16. ، بحث فازيلييف عن الاسلام وبيزنطة المستخرج من كتاب Byzantium. والملحق بترجمة دكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٧٦ ٠

(١٩٦) خدابخش : مقدمة لترجمته الانجليزية لكتاب فون كريمر : الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ــ الترجمة العربية للدكتور بدر ص ٢٩ : تعليقات الدكتور بدر ص ١٦٦ ، ١٠ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية ــ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٦٠ ــ ١ ٠

ويرى المؤرخ اليوناني المعاصر باباريجوبولو Paparigopoulo
ان محاربى الصور كانوا دعاة اصلاح سياسى اجتماعى ويريدون تحرير
التعليم والتربية من سيطرة الاكليروس • ويرى المؤرخ الفرنسى لومبار
Lombard انهم كانوا مصلحين دينيين نظروا الى الصور نظرتهم الى
عبادة الاصنام وأشار لويس بربيه Brehier الى أن موضوع الايقونات
يثير البحث فى محاولة تصوير ماهو الهى فى صورة بشرية وتصوير
أسرار الروح تصويرا ماديا ، ولكن **فازيلييف يرى تشابها بين الحركة**
اللا ايقونية الرومية وبين الميل لتغليب العقل فى الاسلام فى القرنين
الثامن والتاسع الميلادى ويرى اوسبنسكى Ospensky ان الدافع الأول
لحرب الأيقونات هو خوف الامبراطورية من تزايد ثراء الرهبان ونفوذهم •
وقد شعر صناع الصور المجيدون فى أفسوس ـ ان الخطر يهدد رزقهم
وكان الدفاع الحار عن الصور المقدسة أنها انجيل الجاهل وهى تذكر بالله
وان من الطبيعى ان يتجه العقل الانسانى الى التماس المعاونة من قوى وراء
الصور المتجسدة وان المسيح قد قدس المادة حين استحال الى جسد بشرى•
غير ان معركة اللاصورية اكتسبت فى مرحلتها التالية طابعا سياسيا « ولم
يكن الرهبان مجرد مدافعين عن الصور يذودون عن تقليد كنسى فحسب
بل كانوا يكافحون عن حرية جديدة ويجاهدون فى سبيل تحطيم العلاقة
بين الكنيسة والدولة ـ تلك العلاقة التى توطدت منذ زمن طويل فى العالم
البيزنطى لأن امبراطور روما الشرقية لم يكن حامى الدين فحسب بل كان
رئيس الكنيسة وكان فى مقدوره وحده ان يدعو المجمع الكنسى ـ برلمان
الامبراطور الدينى » • وهذه النظرية عن علاقة الكنيسة بالدولة هى التى
هاجمها تيودور أحد أنصار الصور المتأخرين ، ويوضح القديس يوحنا
الدمشقى وجهة نظر هؤلاء الرهبان فى قوله « نحن نطيع الامبراطور فيما
يتعلق بحياتنا اليومية ـ أى فى الولاء والضريبة وما يحق له علينا من
الجبايات • أما فى الحكومة الكنسية فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب
المقدس وشارحو القوانين الكنسية • فالتقدم السياسى من اختصاص
الامبراطور أما التنظيم الكنسى فهو من اختصاص القسيسين والمعلمين ،وليس
تجريدهم منه الا من قبيل اللصوصية » • واذ كانت مصر والشام والعراق
قد انفصلت عن جسد الدولة البيزنطية ولم يبق فيها الا الولايات
الارثوذكسية فانه لم يعد هناك مجالا لأن يتدخل الأباطرة تدخلا مستمرا
عنيفا كما كان الحال فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين حين كان فى
الدولة ارثذوكسيون وغيرهم • وقد نهض النزاع حول الصور بالتفكير

اللاهوتى البيزنطى حتى يقول بينز « ان الكنيسة الارثوذكسية خرجت من نزاع اللا ايقونية ارثذوكسية أكثر من أى يوم مضى » .

ومع أن الخليفة الأموى يزيد عبد الملك (١٠١ : ١٠٥ هـ) (٧٢٠ : ٧٢٤ م)المعاصر للامبراطور البيزنطى ليو الثالث (٧١٧ / ٧٤١ م) كان قد أصدر منشورا قبل ليو الثالث بثلاث سنين كما تؤكد المصادر الموثوق بها يأمر بكسر الصلبان ومحو الصور والتماثيل في الكنائس الا أن يوحنا الدمشقى الذى كان يعيش فى ظل الخلافة الاسلامية واصل دفاعه المتحمس عن الايقونات دون أى ازعاج . ومن بين كتاباته المتعددة نجد ٣ مقالات عنوانها : « الرد على الذين يحطون من شأن الصور المقدسة » كتبها فى ظل الخلافة وأصبحت أمضى سلاح للمدافعين عن الايقونات من البيزنطيين (١٩٧) .

ويحكى تيوفانيس أن يهوديا عرافا من اللاذقية قال ليزيد بن عبد الملك أن خلافته ستمتد أربعين عاما ان هو كسر الصور التى فى الكنائس النصرانية بمملكته ويقول تيوفانيس ان هذا كان سببا فى اصدار يزيد أمره بذلك ولكن هذا الأمر لم ينفذ بسبب موت يزيد بعد ذلك بقليل بل لم يبلغ الأمر سوى فى أضيق نطاق ولكن ليو كان على هذا الرأى (الشنيع المخالف للدين) وقد أعانه على ذلك نصرانى اسمه بشر على أسماء العرب وكان وهو أسير حرب فى الشام قد اعتنق الاسلام ثم ارتد بعد اطلاقه وقد بقيت فى نفسه آثار منه .

ويشك فلهوزن فى صدور هذا الأمر من الخليفة اذ لم يعرفه الا الأقل من الناس اما مجرد نبوة يهودى للخليفة بامتداد حكمه أربعين سنة فنجدها عند الطبرى أيضا ولكن النبوءة لم تتحقق ولم يحكم يزيد سوى أربع سنوات (١٩٨) . وقد ذكر المقريزى فى الخطط وساويرس فى سير البطاركة نبأ تنفيذ أوامر يزيد فى مصر « ووسم أيدى الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه » أما مسلمة بن عبد الملك والى العراق وخراسان فقد أمر بمحو الصور جميعها سواء

---

(١٩٧) بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١١٩/١١٤ ، هامش المترجمين ص ١١٩ — ١٢٠ ، ملحق بالكتاب : الاسلام وبيزنطة لفازيلييف من كتاب Byzantium ص ٣٧٤ — ٣٧٥ ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٠٩ .
دكتور رستم : الروم جـ ١ ص ٣٠١ : ٤ ، فازيلييف العرب والروم — ترجمة دكتور شعيرة ص ١٣ ، ٢٨ — ٩ ، ٣٧ — ٨ .

(١٩٨) فلهوزن : تاريخ الدولة ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٣١٤ .

هاكان فيها فى الكنائس أو على الجدران أو فى البيوت والكتب ، كما قام بتحطيم جميع الأصنام والتماثيل سواء أكانت من الحجر أم العاج كما جاء فى Anonymous Syriac Chronicle (١٩٩) ويميل المطران الدبس الى تأييد اتباع يزيد لرأى يهودى بل ويرى ان اليهود أيضا هم الذين أثاروا ليو الايسورى ضد الصور ويقول « أثار الوثنيون واليهود والمانويون وبعض أولى البدع قديما حربا على الصور على ماجاء فى أعمال المجمع السابع المسكونى فى المجلسين الأول والخامس على أن من تسبب فى محاربتها فى هذا القرن انما هو رئيس يهودى اسمه سارانتابك • مضى الى يزيد الخليفة ـ ابن عبد الملك ، فأغراه بأن يصدر أمرا ينهى به المسيحيين عن تكريم الصور فى معابدهم لأن استعمال الصور محظور بسنة المسلمين ، فانقاد الخليفة لاغرائه واصدر أمرا ينهى به عن ذلك فقلق النصـــارى ، **ولما كان هؤلاء الخلفاء قد اعتـــادوا ترك النصارى وما يدينون لم يتشبث يزيد بتنفيذ أمره بل أغضى عنه فكان أعلم وأعدل من بعض المسيحيين ولاســيما الملكين لاون الايسورى وابنه قسطنطين الزبلى** ، اللذين أثاروا حربا عوانا على الصور ومن يكرمها حتى زادا كثيرين فى عذاب الشهداء • فان الملك لاون كان قد وعد اليهود بأنه سيصنع كل مايسألونه ليعاونوه على ترقيته الى منصة الملك فبعد أن استوى عليها زينوا له ان تكريم الصور ضرب من عبادة الأوثان وقد نهت عنه الاسفار المقدسة فى العهد القديم فانحاز الى رأيهم •• وبلغت الاخبار ايطاليا فألقوا الى الارض صور الملك ووطئوها فاحتدم غيظا وكتب الى رومة أمرا بانتزاع الصور من الكنائس ومهددا البابا غريغوريوس الثانى بالعزل والنفى أن مانع من تنفيذ أمره فكتب الحبر الرومانى رسالة عامة الى جميع المؤمنين يحذرهم بها من هذا الضلال ومن مطاوعة الملك عليه وعزم سكان ايطاليا أن يقيموا ملكا ويحملوه الى قسطنطينة فيثلوا عرش لاون ويملكونه مكانه •• وخلف لاون قسطنطين ابنه •• وأراد قسطنطين أن يبرىء أعماله بسلطة الكنيسة فجمع كثيرين من الأساقفة سنة ٧٥٤ م فى قسطنطينية وعقدوا فيها مجمعا لم يكن فيه نائب عن الحبر الرومانى ولا نواب عن بطاركة اســكندرية وأنطاكية وأورشــليم وكان كرسى قسطنطين فارغا قضوا فيه بدسائس الملك وتهديداته وسر بعض الاساقفة بأنه لا يجوز تكريم صور القديسين والالتجاء الى شفاعتهم لأن ذلك يحسب عبادة صنمية •• ان الدين المسيحى والذوق السليم يرشداننا الى أن

---

(١٩٩) ترتون : اهل الذمة في الاسلام ترجمة دكتور حبشي ص ١١١ •

العبادة السامية لا تحق الا لله خالق السماء والارض وما فيهما على أنها يرشداننا أيضا الى أنه يسوغ لنا أن نكرم بعد الله ولاجل الله بعض مخلوقاته التى أبدى بها قداسـة وجوده وقدرته كالملائكة والقديسين الفائزين بسـعادته ، بل يقضي علينا الدين والعقل أن نكـرم والدينا والمحسنين الينـا وملوكنا فى الارض أيضا وان فى جملة صنوف هذا التكريم أن نصور صورتهم ونكرمها اكراما يعود اليهم طبعا لا الى النسيج او الورق المصورة عليه الصورة فكيف لا يسوغ اذن للمسيحى أن يكرم صورة المسيح أو العذراء والدته أو القديسين أصفيائه .. ؟ وندر بين أهل الحضارة من يعتقد أن الصورة هى المصور بها نفسه وان وجد بين أهل الهمجية من هو كذلك لزم ارشاده الى ما هو معقول لا النهى المطلق عن تكريم الصور الذى لا تنكر منفعته بايقاظ عواطف العبادة وذكر فضائل المصور ، ولم ينه الله بوصاياه عن اتخاذ صورة أو تمثال الا لنبذ عبادة الوثنيين التى كانوا يعتقدون بها أن فى أصنامهم قوة بنفسها (٢٠٠) .

ويرى فازيلييف أن التشابه بين الحركة الايقونية والحركة العقليـة فى الاسـلام فى القرنين الثامن والتاسـع واضح جلى وعلى ذلك « فان دراسة هاتين الحركتين من ناحية أثر أحدهما على الأخرى قد يؤدى الى نتائج عظيمة الأهمية لتاريخ الامبراطوريتين الثقافى » (٢٠١) وقد كان من نتائج نزعة تغليب العقل فى الاسلام القول بخلق القرآن وحين اعتنق بعض خلفاء بنى العباس هذا الرأى كانت احدى البعثات التى توجه الى مناطق الثغور لفداء الأسرى تشترط اقرار الأسير بخلق القرآن لافتدائه .

---

(٢٠٠) الدبس : تاريخ سوريا ج ٥ ص ٢٧٨ : ٢٨٣ .

(٢٠١) فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٣ .

رابعا : المجتمع فى الثغور

انتقلت القبائل العربية الى أطراف الجزيرة من قبل الاسلام فالمسعودى يحدثنا أن المسلمين من طىء تفرقوا فى الحروب بين الغوث بن طىء وجديلة بن سعد ، **فلحقوا بحاضر قنسرين من أعمال حلب وخالطوا الانباط** وغيرهم وتزوجوا فيهم . وقد عدد ابن العديم من نزل من العرب حلب : من بنى كلاب ، وبنى نمير ، والنمر بن قاسط ، وقضاعة ، وكلب ، وسليم . وابن حوقل يقول فى خلال حديثه عن الجزيرة : وقد **سكن طوائف من العرب من ربيعة ومضر والجزيرة حتى صارت لهم بها ديار ومراع فنزلوا على خفارة فارس والروم** حتى ان بعضهم تنصر ودان بدين النصرانية مع الروم مثل تغلب بن ربيعة بأرض الجزيرة وغسان وبهراء وتنوخ من اليمن بأرض الشام . وهكذا كانت تطرق الشام والجزيرة قبل الفتح الاسلامى مجموعات عربية متباينة « وكانت تمارس فيها حياتها الجديدة وتتآلف معها وتتأثر بها وتؤثر فيها وتكون فى هذا التأثر والتأثير صلة مابين الجزيرة وخارجها وما بين الجنس العربى والاجناس الأخرى » (٢٠٢) .

وجاءت الفتوح الاسلامية فلم يكن خروج العرب من جزيرتهم قبلى الصورة بل كان الخليفة يبعث مستنفرا للجهاد فتتوافد عليه الجموع فيصرفها فى الوجهة التى يراها وان كان يحدث أحيانا أن تكون كثرة من المحاربين من قبيلة من القبائل . وكانت أعمال الجيوش تقتضى بطبيعتها تعاونا جماعيا لا يعتمد على روح القبيلة الفردى ، ثم **انتهى الاختلاط فى الجيوش الى الاختلاط فى المدن بعد الاستقرار** . وقراءة أسماء القبائل

(٢٠٢) دكتور شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٢٧ ــ ٨ ، ابن العديم : بغية الطلب ــ مخطوط ص ٥١١ وما بعدها الى ٥٥١ .

والجماعات التى نزلت الكوفة مثلا تنبىء عن اشتراك قبائل من الشمال والجنوب ، من ربيعه ومضر ، من الحجاز ونجد ـ فى سكنى مدينة واحدة ٠ وان كثيرا من الحوادث التى تتصل بالحياة السياسية والمالية للمجتمع الاسلامى فى الفتوح والعطاء لتقوم مابين أهل البصرة وأهل الكوفة ومابين أهل الشام وأهل العراق ٠ والى جانب **تميز الجماعات بالمدن التى تسكنها كانت بعض الجماعات تتميز بالوقائع** التى خاضتها « ويبدو كأنما كان لكل معركة كبرى فى الفتوح فى الشام والعراق طبقة تفردت بلون خاص من الامتياز المادى أو الأدبى » وذلك بجانب التقسيم الأشهر الى صحابة وتابعين ونحن نقرأ للطبرى مثلا « كان أبو بكر لا يستعين فى حربه بأحد من أهل الردة حتى مات وكان عمر قد استعان بهم فكان لا يؤمر منهم أحدا الا على النفر وما دون ذلك وكان لا يعدل ان يؤمر الصحابة اذا وجد من يجزىء عنه فى حربه ، فان لم يجد ففى التابعين باحسان وكان لا يطمع من انبعث فى الردة من الرئاسة » ويقول الدكتور شكرى فيصل « هنالك قيمتان كبريان سادتا المجتمع الاسلامى وأرستا قواعده : قيمة معنوية تتمثل فى صحبة الرسول بكل ماوراء هذه القيمة من استمساك بالمثل الاسلامية الأولى الصحيحة وقيمة مادية تتمثل فى العطاء ـ بكل ماوراء هذا العطاء من فهم لأساليب الحكم وأنماط السياسة وطريقة السير بالدولة الاسلامية » وهو يقول عن العطاء « كان العطاء أول الأمر سبيلا لتقدير العمل وكان لا يناله الا الذين يستحقونه فى حدود ما أمر الله ٠ فلما انحرفت بالحياة الاسلامية الطريق حين استقرت فى مهاجرها الجديدة أصبح العطاء ثمنا للفراغ والدعة وطريقا للترف ولم يعد حقا من حقوق الجماعة وانما فسر على أنه حق من حقوق الخليفة يزيده وينقصه كيف يشاء ويصل به ويمنعه عمن يشاء » (٢٠٣) ٠

واذا كان الاسلام قد أعان على ادماج العرب فيما بينهم فانه بدوره لم يعزلهم عن سكان البلاد المفتوحة وأهاليها الأصليين ٠٠ فقد أمنهم المسلمون على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم وشعائرهم « وفى هذه السياسة التى صار عليها المسلمون وفى هذه العهود التى كتبوها كانوا يضعون أسسا لمجتمع جديد ٠٠ لم يكن مجتمعا ضيقا ولا منطويا وليست له الانعزالية التى يحرص عليها المستعمرون ٠٠٠ كان مجتمعا طلقا حرا يسع الناس جميعا من كل أمة ويؤوى اليه الناس جميعا من كل ملة يبيح المشاركة فيه لمن شاء هذه المشاركة ويتيح الخروج عنه لمن أراد

---

(٢٠٣) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٣٥ : ٧ ، ٤٤ : ٧ ، ٣٥٢ .

الخروج ـ يشارك آمنا ويخرج آمنا » ٠ وفى هذا الجو الطلق الصافى استيقظت القرابة القديمة بين عرب الضاحية وعرب الجزيرة « وقد أحست القبائل سواء منها النازلة فى العراق أو فى الشام حاجتها الى أن تعتد بهذه القرابة ومكنت لها وحدة اللغة من هذا الاعتداد ٠ والتفتت فوجدت أن الأصداء التى كانت تنبعث من مراكز الحكم يونانية والأصداء التى كانت تنبعث من مراكز الحكم والتى كانت تستجيب لها آرامية ـ أضحت عربية مبينة صوتا ومقالا ٠٠٠ حارب عرب الضاحية عرب الجزيرة فلما رأوا أن ذلك لن يجديهم اقتربوا منهم ثم تضامنوا معهم ثم شاركوهم مثلهم وفكرتهم وتكونت منهم جميعا هذه الكتلة الكبرى فى جسم الدولة حتى لكان هذه القرابة هى الجرثومة التى نبت عنها تعريب الشام ٠٠٠ والدور الذى لعبته اللغة المشتركة بين عرب الضاحية وعرب الجزيرة أبعد مدى وأشد ايغالا من الدور الذى لعبته القرابة ٠٠٠ ولم يكن هناك الا الروم وحدهم لا يتمثلون هذه اللغة وكانوا بالقياس الى العرب والآراميين قلة حاكمة وكان المسلمون فى شروط الصلح نفوهم عن البلاد وآمنوهم على الخروج منها وسمحوا لمن شاء أن يبقى منهم ٠٠٠ أما اللغة اليونانية فلم تستطع البقاء ولم يمكن لها من قبل الفتح اذ لم تعد ان كانت لغة الدواوين أو لغة المترفين (المتهلينين) » (٢٠٤) ٠

وقد كان المسلمون حريصين على استمالة العرب فى الشام والجزيرة « وانحاز جبلة بن الايهم الى الانصار فقال : أنتم اخوتنا وبنوا أبينا وأظهر الاسلام ٠ فلما قدم عمر بن الخطاب الشام سنة ١٧ هـ لاحى جبلة رجلا من مزينة فلطم عينه فأمره عمر بالاقتصاص منه فقال : أو عينه مثل عينى ـ والله لا أقيم ببلد على به سلطان فدخل بلاد الروم مرتدا وكان جبلة ملك غسان بعد الحارث بن أبى شمر ٠ وروى أيضا ان جبلة أتى عمر وهو على نصرانيته فعرض عمر عليه الاسلام وأداء الصدقة فأبى ذلك وقال : أقيم على دينى وأؤدى الصدقة فقال عمر : ان أقمت على دينك فأد الجزية فأنف منها فقال عمر : ماعندنا لك الا واحدة من ثلاث : اما الاسلام واما أداء الجزية واما الذهاب حيث شئت فدخل بلاد الروم فى ثلاثين الفا ٠ فلما بلغ ذلك عمر ندم وعاتبه عبادة بن الصامت فقال : لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته لأسلم ٠ وان عمر وجه سنة ٢١ هـ عمير بن سعد الأنصارى الى بلاد الروم فى جيش عظيم وولاه الصائفة ـ وهى أول صائفة كانت ـ وأمره أن يتلطف لجبلة بن الايهم ويستعطفه بالقرابة

---

(٢٠٤) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٦٤ : ٧٠ ٠

بينهما ويدعوه الى الرجوع الى بلاد الاسلام على أن يؤدى ماكان بذل من الصدقة ويقيم على دينه فسار عمير حتى دخل بلاد الروم وعرض على جبلة ما أمره عمر بعرضه فأبى الا المقام فى بلاد الروم » .

كذلك أراد عمر أن يأخذ الجزية من نصارى تغلب « فانطلقوا هاربين .. فقال النعمان بن زرعة أو زرعه بن النعمان : أنشدك الله فى بنى تغلب فانهم قوم من العرب نائفون من الجزية وهم قوم شديدة نكايتهم فلا يغن عدوك عليك بهم . فأرسل عمر فى طلبهم وأضعف عليهم الصدقة » (٢٠٥) .

وقد كانت المقاومة التى لقيتها اللغة العربية فى بلاد الامبراطورية الساسانية ـ باستثناء العراق العربى ـ أشد عمقا من المقاومة فى بلاد الامبراطورية البيزنطية فقد كانت اللغة الفارسية هى لغة الحكومة والشعب أما فى الشام فقد كانت اليونانية لغة الحكم والسريانية والآرامية والعربية السنة الشعب .

وقد كانت القبائل العربية تنزل فى ديار الجزيرة بشمالى العراق منذ الجاهلية ، أما غير العرب فقد أخذ تيار التعريب الاجتماعى واللغوى يشق مسالكه فيهم وكان للاسلام آثاره الكبرى كما فعلت الحياة المنزلية فعلها فى تعريب الفارسيات من حرائر واماء وتعريب أطفالهن . وبرزت مع استقرار العرب فى العراق ظاهرة بناء المدن وتمصير الامصار « وكان هذا تجسيما لكل حاجات المجتمع الجديد : كان تجسيما لحاجاته النفسية التى كانت رغبة عن القبيلة واستشرافا للوحدة ونزوعا الى حياة هى أسمى من الحياة التى كانت فى الجزيرة وكان تجسيما لحاجاته الحياتية التى كانت تحتم على هذه الجماعة أن تجد المنزل الذى تتأقلم فيه والذى تتخذ فيه الاعراف بين البيئة التى خلفتها وراءها والبيئة التى تستقبلها من أمامها وكان الى ذلك تجسيما لحاجاته السياسية والحربية فى التمركز بعد الانسياح وتثبيت الاقدام بعد أن بعدت الاماد وامتدت المسافات ومحاولة الارتكاز الى هذه المواطن قبل أن يتبين الوثبة الجديدة ... وكان كذلك استجابة لدواعى البيئة فى العراق وما فرضته على هؤلاء المهاجرين من ألوان وأساليب . فمن الواضح أن هذا السواد الواسع لم يكن الا سهولا متصلة متلاحقة لا مدن فيها ، لم يكن كما كانت الشام تتعاقب فيه الارض والمدن ولم يكن كذلك كماكانت فارس ، وانما كان أرضا

---

(٢٠٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٢ ـ ٣ ، ١٨٩ .

متسعة ممهدة تتعاقب فيها السهول وتجرى فيها الأنهر والقنوات وينتشر المزارعون فلا تتميز الارض الا ببعض القرى ، ولا تكون هذه القرى الا ضرورة لا مناص منها للادارة أو للاشراف . فلما جاء العرب مهاجرين فرض عليهم هذا السواد نفسه ـ مادام من رغباتهم أن يقيموا فيه دولة وينشئوا حكما ـ أن يمصروا فيه البصرة والكوفة أولا وواسط ثانيا ثم بغداد وسامرا بعد ذلك وأن يجعلوا من هذه المدن معالم حياته الجديدة (٢٠٦) .

وقد مصرت الموصل وخططت فى عهد عمر سنة ٢٠ هـ وسميت كذلك لأنها تقع بين العراق والجزيرة وتصل بين الجزيرة والشام وبين الفرات ودجلة ، ثم ازداد عمرانها فى ولاية محمد بن مروان ولما وليها سعيد بن عبد الملك حفر بها نهر سعيد كما بنى سورها وأعاد فرشها بالحجارة . وفى عهد هشام أسس واليه الحر مدرسة ومقرا منيفا تفنن فى بنائه وزخرفته وحلى سقوفه بماء الذهب كما شق جدولا عذبا وغرس الاشجار على جانبى الطرق .

وكان يسكن الموصل كثير من قبائل العرب من أبناء ربيعة ومضر ، وقد نقل محمد بن مروان فى خلافة أخيه عبد الملك الأزد وربيعة من البصرة الى الموصل (٢٠٧) .

وسكن العرب المدن الحربية التى وجدوها فى الشام وشرعوا ينشئون الأمصار فى غير الشام ، «ولم يكن يستطيع المرء أن يتمتع بما للمواطن من حقوق كاملة الا فى الجيش وفى المدن ومعسكرات الجيش الكبرى » ـ على حد تعبير فلهوزن ، « وكان سجل المواطنين المشتمل على أسمائهم هو سجل ديوان الجيش وكانت القبائل والعشائر هى التى تؤلف فصائل الجيش وكتائبه » . وقد كان المجتمع الاسلامى يختلف فى الشام عنه فى العراق « وذلك انه لم يكن للكوفة والبصرة تراث غير تراث حياة البادية وغير تراث الاسلام وكانت حروب الفتح قد قذفت اليهما بجيوش عربية تتالف من مختلف القبائل فاقامت هناك أشبه شىء بالمستعمرات العسكرية ووجدت هذه القبائل نفسها قد انتقلت دفعة واحدة من ظروف حياة البادية الى ظروف الحضارة وصارت فى النقطة الوسطى لامبراطورية كبرى فلا عجب ألا يتحول العرب دفعة واحدة من حياة البداوة الى حياة المواطنين المهذبين .على انه قد هاجر الى الشام أيضا على أثر الفتح الاسلامى

(٢٠٦) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١٠٥ : ١١٣ .
(٢٠٧) دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق في ظل الحكم الاموى ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

كثير من العرب ـ خصوصا من قيس الذين انتقلوا الى شمال الشام ولكن الغالبية في الوسط كانت لكلب ولقبائل قضاعة الى جانب قبائل اخرى من ازاد الصراة. وكانت هذه القبائل قد توطنت هناك منذ قرون ولم تكن قد جاءت مع مجيء الاسلام وكانوا معرضين لتأثير الحضارة اليونانية الرومانية والكنيسة المسيحية والدولة الرومانية ـ فلم تخل هذه العوامل كلها من أن تترك أثرها فيهم ولم تكن مظاهر الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية معانى جديدة عليهم ... ولم يكن من الممكن أن يصبح عرب الشام الذين ادمجوا فى الدولة العربية بعد الفتح فى المرتبة الثانية بعد العرب الذين دخلوها فاتحين ذلك أن دخول عرب الشام فى الاسلام جاء مبكرا وكان لهم فيه نصيب من الاختيار وان كان اسلامهم قد كان مجرد انضمام لراية العروبة المنتصرة ... ولم يكن المسلمون فى الشام يعيشون بمعزل وفى مستعمرات مخصصة لهم بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد فى المدن القديمة مثل دمشق وحمص وقنسرين وغيرها بل كانوا أحيانا يقاسمونهم بيتا لله ـ نصفه مسجد ونصفه كنيسة » (٢٠٨) .

وقد روى أن الحجاج سأل زادان فروخ عن العرب فى الامصار فأخذ يصف أهل كل مصر وخصائصهم فقال عن أهل الشام فلم يغفل تأثير الروم فيهم « نزلوا بحضرة أهل الروم فأخذوا من ترفقهم وصناعتهم وشجاعتهم » (٢٠٩) .

ولم يكن فى وسع العرب مهما يكن الأمر يتناسوا تماما روح القبيلة ، فقد أقاموا فى مدن الشام مثل حمص وحلب فى أحياء مختلفة تبعا لرابطتهم القبلية (٢١٠) ـ ونقرأ فى أخبار الفتوح أن السمط بن الاسود الكندى « قسم حمص خططا بين المسلمين حتى نزلوها ، وأسكنهم فى كل مروض جلا أهله أو ساحة متروكة (٢١١) . وهكذا انتقل العرب بمشاعرهم القبلية من بادية الجزيرة الى المدن والامصار « ولم يشأ الله أن يخالف العرب عن الفطرة بالطفرة ، ولذلك أخذوا بهذه الخطوة المزدوجة خرجوا من قبلية الصحراء الى قبلية المدينة ـ أعنى أنهم حققوا قدرا من التطور يتمثل فى محو ماكان من آماد بعيدة أو قريبة بين قبائل البادية

(٢٠٨) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٢٤ـ٥ ، ١٢٦ : ٨.
(٢٠٩) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٤٨ .
(٢١٠) حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٩٤ دكتور فروخ العرب والاسلام فى حوض البحر المتوسط ص ١٤٨ .
(٢١١) البلاذرى فتوح البلدان ص ١٣٧ .

تحول بينها وبين أن تأتلف أو تتقارب ••• لأن حيـــاة المدينة نفسها ستفرض عليهم ألوانا من النظم ، وستضطرهم الى اشكال من العلائق ، وستدفعهم الى نماذج كثيرة من الصـــلات والترابط ••• وكان يزداد الشعور بالمدينة نموا وأصالة بالقدر الذى ينتقص من شعور القبيلة ذبولا وتخلخلا وكثيرا ماكان يحدث أن تجتمع المدينة كلها ـ أعنى كل القبائل النازلة فيها ـ على شيء تطلبه يخالف ماتطلبه المدينة الأخرى •• » (٢١٢) على أن هذا لا يمنع من حدوث انتكاسات الى العصبية القبيلية أحيانا خاصة فى العهد الأموى •

ويتهم ديمومبين الخلفاء بأنهم تسببوا فى احياء الروح القبلية لأنهم كانوا يتصلون بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل ، فكان الخليفة يؤكد ويؤيد وضـــع رئيس القبيلة ويزوده بســـلطة عســكرية وادارية ومالية •

وكان هناك عداء مستحكم بين اليمنية والمضرية ، كما اشـتد الخلاف بين قيس وتغلب ، وكانت قيس تنزل قبل الاسلام فى نجد وبوادى الحجاز وتمتد بطونها وعشائرها حتى تشرف على منازل تميم وبكر ، أما تغلب فكانت تنزل فى الموصل وكانت بطونها وعشائرها تقيم فى المنطقة الممتدة من الحيرة الى شواطىء الفرات والى بادية الشـــام • فلما ظهر الاسلام خرجت قبائل قيس للاشتراك فى حركة الفتوح ، ونزل جزء كبير منها فى الشام وسكنوا بوجه خاص فى شمالى الشام والجزيرة على جانبى الفرات وفى قنسرين وقرقيسيا وحران ، وامتدت بعض فروعها الى منازل تغلب فى الموصل وحوض الفرات • وهكذا كان بين قيس وتغلب تزاحم فى المنازل وتضارب على المعيشة والمكان • وقد حنقت قيس على نفوذ كلب أصهار معادية ، ومن هنا وثبت على سعيد بن مالك بن بحدل الكلابى حين تولى قنسرين ، وساندت ابن الزبير بعد وفاة يزيد « وهكذا امتزج الخصام القبلى بالسياسة العليا ، وكانت مجموعات القبائل المرتبطة برابطة النسب هى بالاجمال الاحزاب السياسية التى كانت فى أصلها ـ مستقلة عن القبائل ـ » كما يقول فلهوزن ، واستمر الصراع القبلى فى الشام حتى أيام العباسيين ،وعانى الرشيد من ذلك حتى اضطر أن يعقد لجعفر بن يحيى على القيام باخماد الفتنة (٢١٣) •

---

(٢١٢) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١٠٢ ، ١٠٥ •

(٢١٣) دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق في ظل الحكم الاموى ص ٢٤٣ ـ ٤ ، ٣٥٠ •
فلهوزن : تاريخ الدولة الاموية ـ ترجمة أبى ريدة ص ١٦٧ ، ١٧٧ ، الطبرى ح ١٠ ص ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٦ ـ ٧ •

وقد كان العرب والبدو الذين رغبوا فى الزراعة قليلين ومن هنا غلب عليهم التجمع فى المدن وتحاشى العرب جبال لبنان فلم ينزحوا اليه الا فى القرن التاسع الميلادى وبقى معظم سكانه من الآراميين الذين تحدروا من أصل فينيقى وظلوا يعتنقون المسيحية ويتكلمون السريانية فان الأماكن الاخرى ـ خاصة المناطق الجبلية ـ قد حافظت على مظاهرها الاقليمية وأبقت على طابعها الحضارى المحلى ٠ على أن بعض العرب قد تسللوا الى الريف وأنشأوا القرى « وقد تم نشوء هذه القرى على مراحل انتقالية واضحة من استيطان مؤقت الى حياة بدوية زراعية ذات حظ من الاستقرار ، فالى حياة ريفية مستقرة ٠ ونشأت معظم هذه القرى حول منابع المياه ، واعتبر فى اختيار مواقعها سهولة الدفاع وخصب التربة ٠٠٠ » ولكن ظلت مناقب الحياة البدوية هى البارزة ٠ وقد أخذت العربية تغدو لغة المدن ، وأدى تردد أبناء الريف الى المدن لبيع منتجاتهم أو مزاولة أعمالهم الى **محاولتهم تعلم اللغة الجديدة** ٠

وكذلك حاول تعلم اللغة كل من يتأهب للعمل فى احدى وظائف الدولة ، كما أخذ القوم فى **اعتناق الاسلام أيضا** واعتنق خمسة آلاف من نصارى بنى تنوخ بجوار حلب الاسلام أيام المهدى العباسى ، وكان التنوخيون الذين دخلوا لبنان فى مطلع القرن التاسع الميلادى من الأسر العربية الاسلامية الأولى التى استوطنت الجبل ، وقد اقتطعوا لأنفسهم فى منطقة قليلة السكان مقاطعة حكموا فيها قرونا عدة ، ويرى الدكتور حتى أن **العباسيين قد اقاموا من التنوخيين « حاجزا دون الموارنة فى شمالى لبنان ، وسدا فى وجه الروم المقبلين من البحر »** وما أن استهل القرن ١٣ م وآذن العصر العباسى بالزوال حتى **انتصرت العربية تماما وغلبت كأداة للتفاهم فى الحياة اليومية « انما بقيت هنالك (جزر لغوية) لاقوام غير مسلمين : مثل اليعاقبة والنساطرة والموارنة** وقد كان فى عهد الصليبيين كثير من مثل هذه الجزر ، وفى لبنان المارونى دافعت اللغة السريانية حتى القرن السابع عشر ٠٠ واذ اخذ غير العرب فى الاستعراب واعتناق الاسلام عمدوا الى الالتحاق ببعض القبائل العربية على صورة موال وذابوا فيها تباعا ، ثم أخذ الفاصل بين العرب وغير العرب وبين المسلمين القدماء والمسلمين المستجدين فى الاضمحلال وسرعان ماغدا الجميع عربا بلا تمييز ٠٠ وقد انقرض السواد الأعظم من أولئك الذين تكلموا السريانية فى سوريا والعراق وكانوا يسمون بالأنباط » (٢١٣) ٠

---

(٢١٤) دكتور حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٩٤ : ٧ ، ص ١٧٠ : ٢ تاريخ العرب ترجمة نافع جـ ١ ص ٢٨٦ ـ ٧ ، ٤٥٦ ـ ٧ ٠

وقد سار المسلمون أول الأمر على **سياسة تخريب معاقل الحدود الشمالية التي تحجزهم عن الروم ، فلما رسخت أقدامهم واستقرت دولتهم عمدوا إلى ابتناء المدن والتحصينات في مواقع الثغور والمعسكرات وشحنها بالجند .**

وقد كان الاعتماد أول الأمر على **العرب المقيمين والقادمين** في تعمير المراكز الهامة في البلاد المفتوحة « قالوا : ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة ، وأسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام ، وقوما لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادى من قيس ، وأسكن قاصرين قوما ثم رفضوها أو اعقابهم » « ثم لما ولى معاوية الشام والجزيرة لعثمان أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الارضين التى لاحق فيها لأحد ، فأنزل بنى تميم الرابية وأنزل المازحين والمديبر أخلاطا من قيس وأسد وغيرهم ، وفعل ذلك في جميع نواحى ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك وألزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم من عماله » .

على أن الأمر استدعى بعد ذلك الاستعانة **بعناصر غير عربية** في تعمير الثغور فقد أسكن معاوية بن أبى سفيان وهو والى الشام من قبل عثمان طرابلس « جماعة كبيرة من اليهود » « قالوا : ونقل معاوية الى أنطاكية في ٤٢ هـ جماعة الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصرين فكان منهم مسلم بن عبد الله ابن حبيب بن النعمان بن مسلم الانطاكى وكان مسلم قتل على باب من أبواب أنطاكية يعرف اليوم بباب مسلم ، وذلك أن الروم خرجت من الساحل فأناخت على أنطاكية فكان مسلم على السور فرماه علج بحجر فقتله » « وتل جبير نسبت الى رجل من فرس انطاكية كان له عنده وقعة وهو من طرسوس على أقل من ١٠ أميال » « قالوا نقل معاوية قوما من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الاردن ـ صور وعكا وغيرها ٤٢ هـ ونقل من اساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى أنطاكية في هذه السنة أو قبلها أو بعدها بسنة جماعة » ووجه يزيد بن عبد الملك الزط الى المصيصة ، كما نقل المعتصم كثيرا منهم في عهده الى عين زربة وأسكن مروان بن محمد الخصوص في شرقى جيحان بجانب المصيصة : فرسا وصقالبة وانباطا نصارى ، وقد نقلهم المنصور الى المصيصة وعندما توالى تعمير مدن الثغور في العصر العباسى برز الفرس عماد الدولة وسندها الأول بين مستوطنى المدن التى

جرى بناؤها أو تجديدها : مثل اذنة ، وطرســــوس ، وعين زربة.والحدث وهكذا كان « يمثل سكان الثغر كل شعوب المشرق الاسلامى فى هذا الوقت وهم حين ينزلون الثغر يربطهم رباط واحد هو رباط الفروسية والجهاد ، ومن هنا أخذت التقاليد الثغرية أصولها ٠٠ وقد كانت الحياة الاجتماعية فى الثغور مبنية على الحركات الحربية الرتيبة فهى التى تحدث الأمن والانتعاش وتقطع السكون التام » (٢١٥) ٠

وفى أثناء فتنة الامين والمأمون تولى عبد الملك بن صالح للامين الشام والجزيرة فأتاه أهل الشام والزواقيل والاعراب من كل فج ووقع الصدام بين هؤلاء وبين جند أهل خراسان والأبناء (أبناء الدهاقين من الفرس) فلما انتصر المأمون حدث أن زار الشام مرة فتعرض له رجل فقال له : أنظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ، فقال : أكثرت على يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما شاريا ، اغرب فعل الله بك (٢١٦) ٠

وقد وصف المقدسى **أهل حمص والمصيصة بالحمق** حتى وضع قاعدة فقال « واعلم أن كل بلد فيه صاد فأهل حمق الا البصرة فان اجتمعت صادان مثل المصيصة وصرصر نتعوذ بالله » لكنه يقول عن حلب « وفى اهلها ظرف ولهم يسار وعقول » (٢١٧) ومما اختصت به مدينة اللاذقية حسب رواية القفطى فى أخبار الحكماء ــ أن المحتسب كان يجمع **النسوة الفاسدات والغرباء المؤثرين للفساد من الروم** فى حفلة وينادى على كل واحدة منهن ويتزايد الفسقة فيها لليـــلة ثم يؤخذون الى الفنادق التى يسكنها الغرباء ، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتما يسمى خاتم المطران ليكون حجة بيدها من تعقب الوالى لها ، وان وجد خاطىء مع خاطئة من غير خاتم المطران عوقب ٠ على أن هذا النظام لم يذكر الا بعد أن عادت مدينة اللاذقية الى حكم الروم (٢١٨) ٠

---

(٢١٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٧ ، ١٨٦ ، ١٣٢ ، ١٥٤ ــ ٥ ، ١٢٣ ، ١٧٣ ، ١٧٥ : ٩ ، ١٩٩ ، د ٠ شعيرة : المرابطون في الثغور العربية الرومية ــ بحيث في كتاب (الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين) ٠

(٢١٦) الطبرى : جـ ١٠ ص ١٦١ ، ٢٩٦ ٠

(٢١٧) المقدسي احسن التقاسيم ص ٣٥ ــ ٦ ، ١٥٥ ــ ٦ ٠

(٢١٨) متز : الحضارة الاسلامية ــ ترجمة دكتور ابى ريدة جـ ٢ ص ١٢٥ ٠

وكان **الاحتفال بالعيدين** يبلغ روعته حيث يكون الشعور الاسلامى على أقواه مثل طرسوس حيث كان يأتى غزاة المسلمين من كل انحاء الدولة الاسلامية حتى كان يعتبر عيداها من محاسن الاسلام ولما ضاعت من المسلمين طرسوس بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها (٢١٩) ٠

ولكن تعرضت الشام كثيرا **للأوبئة والزلازل** ، وقد وجد عمر الوباء بالشام حين خرج اليها ١٧ هـ وطعن عمير بن سعد والى حمص وقنسرين فى عهد عثمان ووقع طاعون أيام هشام بن عبد الملك وخرج الى الرصافة بالبرية ٠ وجاءت أخبار طاعون شديد بالشام سنة ١٠٧ هـ ، سنة ١١٥ هـ ، ووقعت زلازل فى سنوات مختلفة فزلزلت المصيصة سنة ١٨٧ هـ فانهدم سورها ونضب ماؤها بساعة من الليل وفى سنة ٢٤٥ هـ « كانت فى أنطاكية زلزلة ورجفة فى شوال قتلت خلقا كثيرا وسقط منها ١٥٠٠ دار وسقط من برجها نيف وتسعون برجا وسمعوا أصواتا هائلة لا يحسنون وصفها من كوى المنازل وهرب أهلها الى الصحارى وتقطع جبلها الاقرع وسقط فى البحر فهاج البحر وارتفع منه دخان أسود مظلم منتن ، وغار منها نهر على فرسخ ٠٠٠ وزلزلت بالس والرقة وحران ورأس عين وحمص ودمشق والرها وطرسوس والمصيصة واذنة وسواحل الشام ورجفت اللاذقية فما بقى منها منزل ولا أفلت منه الا اليسير وذهبت جبلة بأفعالها » (٢٢٠) ٠

وقد كانت الثغور موردا للرقيق من أسرى الروم ويذكر المقدسى أن الرقيق البيض صنفان الصقالبة ، والروم وهم يقعون الى الشام وأقور وقد انقطعوا بخراب الثغور « وسألت جماعة منهم : كيف يخصون ، فتحصل لى أن الروم يسلون أولادهم ويحرزونهم على الكنائس لئلا يشغلوا بالنساء وتؤذيهم الشهوة » فاذا غزا المسلمون وقع بعض الخصيان فى أسرهم ، وقد ظهر من الخصيان عند الروم فى القرن الرابع الهجرى مثلان نارسيس Narses ، وأمير البحر نيكتياس Niketas الذى فتح صقلية ، وكان عند المسلمين مؤنس القائد، وثمل الخادم وهو أمير البحر صاحب الانتصارات بطرسوس (٢٢١) ٠ وفى (رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد) لأبى الحسن المختار بن عبدون البغدادى

---

(٢١٩) متز : الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور ابى ريدة ج ٢ ص ٢١٨ ٠

(٢٢٠) الطبرى : ج ٤ ص ١٩٩ ، ج ٥ ص ٦٩ ، ج ٨ ص ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢٨٧ ، ج ١٠ ص ٨٩ ، ج ١١ ص ٥٧ ٠

(٢٢١) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور ابى ريدة ج ٢ ص ١١٣ ، ١١٥ ٠

المعروف بأن بطلان الطبيب النصراني الذى عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى يقول الكاتب « ـ والروميات بيض شقر سباط الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة ، وخدمة ومناصحة ، ووفاء وأمانة يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن ، ولا يخلو أن يكن بالفن صنائع دقيقة ، أما الأرمنيات ، فالملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسر ، والعفة فيهن قليلة أو مفقودة والسرقة فيهن فاشية ، وقل ما يوجد فيهن بخل ، وفيهن غلظ طبع ولفظ وليست النظافة فى لغتهن وهن عبيد كد وخدمة ومتى تركت العبد ساعة بغير شغل لم يدعه خاطره الى خير لا يصلحون الا على العصا والمخافة ، وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر ٠٠ ونساؤهم لا يصلحن لمتعة ، وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان كما ان الزنج أشر السودان » (٢٢٢) ٠

وقد كثر رقيق الروم فى قصور الخلفاء ،وقد أعطى الرشيد مروان بن أبى حفصة مالا وعشرة من رقيق الروم حين مدحه بقصيدة ٠وكان للمأمون غلام يسمى قسطنطين الرومى وآخر يدعى موفق الصقلبى « ودخل أحمد ابن صدقة على المأمون فى يوم الشعانين وبين يديه عشرون ـ وصيفة جليات روميات مزنرات ، قد تزين بالديباج الرومى وعلقن فى أعناقهن صلبان الذهب وفى أيدهن الخوص والزيتون ٠٠٠ » وقد حمل الروميات عادات قومهن فى الغناء وضروب التظرف الى المجتمع العربى ٠ (٢٢٣) ، وذكر ساويرس أن أجاثو Agatho بطرك الاسكندرية اعتاد شراء أسرى الحرب البيزنطيين واطلاق سراحهم ٠ (٢٢٤) ٠

---

(٢٢٢) متز : الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور ابى ريدة جـ ١ ص ٢٢٩ : ٢٣١ ٠

(٢٢٣) احمد امين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٨٧ ـ ٨ ، ٩٧ ، دكتور حتى ـ تاريخ العرب ترجمة نافع جـ ٢ ص ٤٢٨ ٠

(٢٢٤) اهل الذمة في الاسلام ـ ترجمة دكتور حبشي ص ١٥٠ ـ ١ ٠

هذه هى الثغور ..

في نشوئها ، وتطورها ..

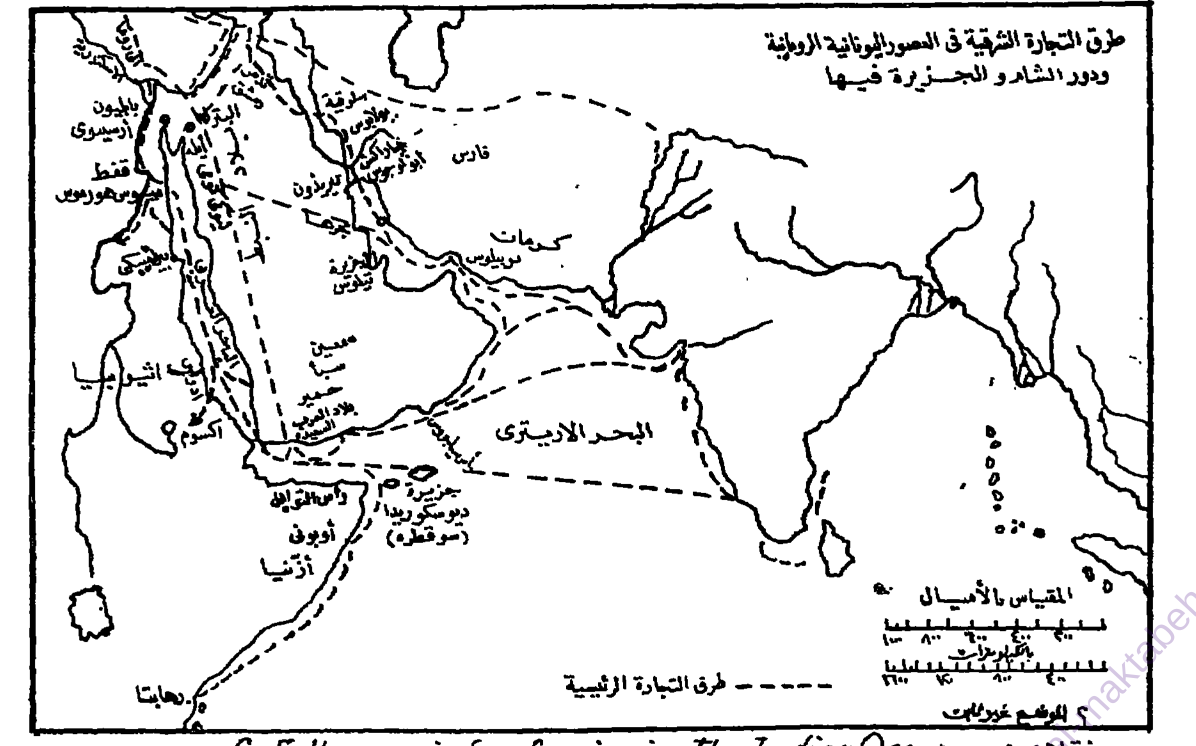
في سلمها ، وحربها ..

مجتمع يموج بالحركة ، وحياة متكاملة ، ونشاط متعدد الجوانب ، ونهضة تجد فى روح الجهاد أسباب الحياة والبقاء والنماء لا عوامل الموت والضعف والفناء .

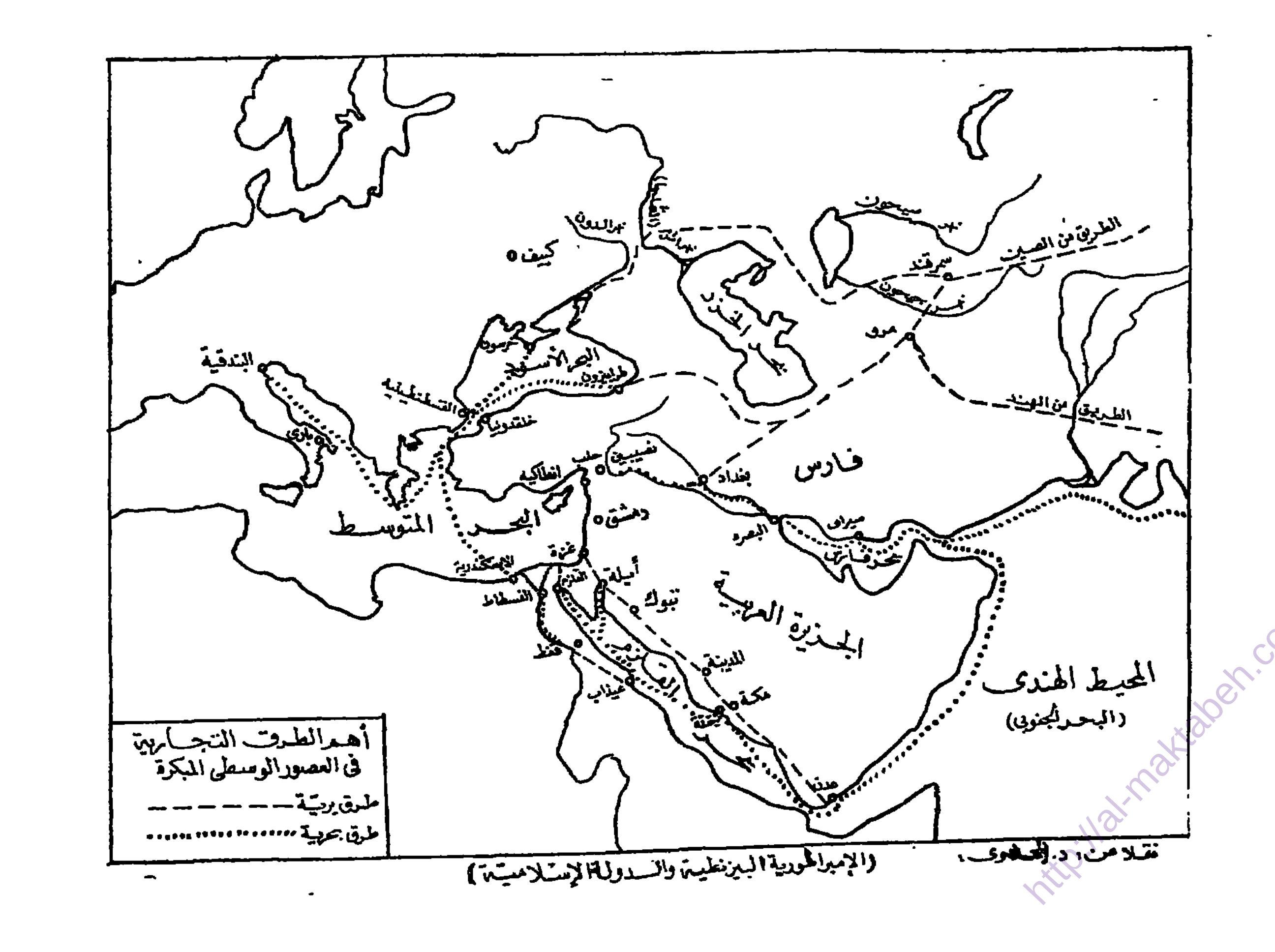
لقد عرف المسلمون كيف يدافعون عن دولتهم بعد أن أقاموها . وامتدت أيديهم تصافح وتعامل ، وتتبادل المتاجر والمعارف وشتى المنافع .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » صدق الله العظيم .

الخرائط



نقلا عن G.F. Hourani: Seafaring in the Indian Ocean



نقلا عن د. العدوى، (الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية)

المراجع

المرجع

أولا : مصادر عربية قديمة

أ ـ البلدانيات :

١ ـ الاصطخرى كتب حوالى سنة ٣٤٠ هـ/ سنة ٩٥١ ـ سنة ٥٢م، المسالك والممالك ـ طبعة وزارة الثقافة والارشاد ٠

٢ ـ ابن جبير (كتب حوالى سنة ٥٨٠ هـ ـ سنة ١٣٨٤ م) : رحلة ابن جبير ـ تحقيق دكتور حسين نصار ٠ مكتبة مصر ٠ سنة ١٩٥٥ م

٣ ـ ابن حوقل (كتب حوالى سنة ٣٦٧ هـ ـ سبنة ٩٧٧ ـ سنة ٧٨ م) : المسالك والممالك ، صورة الارض ـ ليدن ٠

٤ ـ ابن خرداذبة : المسالك والممالك (كتب حوالى سنة ٢٣٢ هـ ـ سنة ٨٤٦ م) ـ ليدن ٠

٥ ـ ابن رستة : (كتب حوالى سنة ٢٩٠ هـ ـ سنة ٩٠٣ م) ٠ الاعلاق النفيسة ـ طبع ليدن ٠

٦ ـ العمرى : ! المتوفى سنة ٧٤٢ هـ ـ سنة ١٣٤١ م) مسالك الابصار فى ممالك الامصار الجزء الاول ٠ نشر وتعليق أحمد زكى باشا

٧ ـ المقدسى : (كتب حوالى سنة ٣٧٨ هـ ـ سنة ٩٨٨ م) ٠ أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ـ ليدن ٠

٨ ـ الهمدانى : (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) صفة جزيرة العرب ـ تحقيق محمد بن بليهد النجدى سنة ١٩٥٣ ٠

٩ ـ اليعقوبى : (كتب حوالى سنة ٢٧٨ هـ ـ سنة ٨٩١ م ـ وتوفى سنة ٢٨٤ هـ ـ سنة ٨٩٧ م) البلدان ملحق بكتاب الاعلاق النفيسة لابن رستة ـ ليدن ٠

١٠ ـ قدامة بن جعفر (توفى حوالى سنة ٣٣٧ هـ ـ سنة ٩٤٨ م) نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ـ ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ـ ليدن ٠

ب ـ الحوليات وكتب التاريخ العام ٠

١١ ـ ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ـ سنة ١٢٣٢ م) :الكامل فى التاريخ ٠

١٢ ـ البلاذرى (المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ـ سنة ٨٩٢ ـ سنة ٣ م) : فتوح البلدان ـ القاهرة ٠

١٣ ـ ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ـ القاهرة ٠

١٤ ـ الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ ـ سنة ٩٢٢ م) : تاريخ الأمم والملوك ـ ١١ جزءا ـ القاهرة ـ المطبعة الحسينية ٠

١٥ ـ أبو الفدا (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ـ سنة ١٣٣١م ـ ٣٢م) : المختصر فى أخبار البشر ـ ٤ أجزاء ـ القاهرة المطبعة الحسنية ٠

١٦ ـ ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ـ سنة ١٣٧٤ م) : البداية والنهاية ٠

١٧ ـ المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ـ سنة ٩٥٦م) : مروج الذهب ـ القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ (طبعة عبد الرحمن محمد) ٠

١٨ ـ المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ـ سنة ٩٥٦م) : التنبيه والأشراف ـ بغداد ٠

١٨م ـ اليعقوبى (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ـ سنة ٨٩٧ م) ـ تاريخ اليعقوبى ٠

جـ : كتب التاريخ التى تعالج موضوعات خاصة (اقليم ـ عصر ـ أشخاص ٠٠٠)

١٩ ـ البدرى : نزهة الانام فى محاسن الشام ٠

٢٠ ـ الجهشيارى (المتوفى سنة ٣٣١ هـ) : الوزراء والكتاب ـ تحقيق السقا والأبيارى ـ القاهرة ٠

٢١ ـ الشـابشتى : الديارات ـ تحقيق وتذييل كوركيس عواد ـ المجمع العلمى العراقى ـ بغداد ٠

٢٢ ـ ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ حلب ٠

٢٣ ـ الصـابى : تحفـة الأمراء فى تاريخ الوزراء ـ تحقيق عبد الستار فراج ٠

٢٤ ، ٢٥ ـ ابن العديم : بغية الطلب فى تاريخ حلب ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ، زبدة الحلب فى تاريخ حلب بتحقيق د ٠ سـامى الدهان ـ طبع دمشق ٠

٢٦ ـ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ٠ المجلدتان ١ + ٢ ـ تحقيق الدكتور صلاح المنجد ـ المجمع العلمى العربى ـ دمشق ٠

تهذيب تاريخ ابن عساكر لبدران ـ القاهرة ٠

٢٧ ـ المقريزى (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ـ سنة ١٤٤١ ـ ١٤٤٢م): امتاع الاسماع بما للرسـول من الانباء والابناء الحفدة والمتـاع ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ٠

٢٨ ـ شرف خان : الشرفنامة ـ ترجمة جميل بندى وروثر بيانى ٠

د ـ كتب الفقه الاسلامى والنظم الاسلامية (وبخاصة السـير والخراج والأحكام السلطانية)

٢٩ ـ البخارى : (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ) (الصحيح) باب فضل الجهاد والسير ٠

٣٠ ـ الحسن بن عبد الله : آثار الأول فى ترتيب الدول ٠

٣١ ـ سحنون : المدونة الكبرى (فى الفقه المالكى)

٣٢ ـ عمر بن ابراهيم الدوسى الأنصارى : تفريج الكروب فى تدبير الحروب ـ تقديم د ٠ جورج سكايلون ٠

٣٣ ـ ابن الفراء : رسل الملوك ومن يصلح للرسـالة والسفارة ـ تحقيق صلاح المنجد ـ لجنة التاليف والترجمة سنة ١٩٤٧ م ٠

٣٤ ـ ابن كثير : (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) تفسير ابن كثير ٠

٣٥ ـ الماوردى : (المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ـ سنة ١٠٥٧ م) : الاحكام السلطانية ـ القاهرة ٠

٣٦ ـ محمد بن الحسن : (المتوفى سنة ١٨٩ هـ ـ سنة ٨٠٤ م) : السير الكبير باملاء وشرح السرخسى تحقيق دكتور صلاح المنجد ـ ٣ أجزاء ـ معهد المخطوطات بالجامعة العربية ٠

٣٧ ـ المقريزى : النقود القديمة الاسلامية ٠

٣٨ ـ الونشريشى : أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ـ تحقيق وتقديم دكتور حسين مؤنس ـ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد المجلد الخامس العددان الاول والثانى ٠

٣٩ ـ أبو يوسف (المتوفى سنة ١٨٢ هـ ـ سنة ٧٩٨م) الخراج المطبعة السلفية ـ القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ ٠

هـ ـ الموسوعات والمعاجم :

٤٠ ـ البكرى (المتوفى سنة ٤٨٧ هـ ـ سنة ١٠٩٧م) : معجم ما استعجم ـ طبعة وستنفلد ، طبعة القاهرة (السقا) ٠

٤١ ـ الزبيرى : نسب قريش ـ دار المعارف ٠

٤٢ ـ ابن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ـ سنة ١٠٦٤ م) : جمهرة أنساب العرب ـ دار المعارف ٠

٤٣ ـ ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ـ سنة ١٤٠٥ ـ ٦ م) : المقدمة تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ـ لجنة البيان العربى سنة ١٩٦٠ ٠

٤٤ ـ ابن عبد الحق البغدادى (المتوفى سنة ٧٣٩هـ ـ سنة ١٣٣٨م) مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ـ تحقيق البجاوى ٣ أجزاء ـ دار احياء الكتب العربية ٠

٤٥ ـ ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦هـ ـ ٨٨٩ م) : عيون الاخبار ـ ٤ أجزاء ـ القاهرة ٠

٤٦ ـ القلقشندى (المتوفى سنة ٨٢١ هـ سنة ١٤١٨ م) : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ـ ١٤ جزءا المطبعة الاميرية ٠

٤٧ ـ النويرى (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ـ سنة ١٣٣١ ـ ٣٢ م) : نهاية الأرب فى فنون الادب ـ ١٣ جزءا ـ دار الكتب ٠

٤٨ ـ ياقوت (المتوفى سنة ٦٢٦ ـ سنة ١٢٢٩ م) : معجم البلدان الخانجى ٨ أجزاء ٠

ثانيا : مراجع عربية حديثة

(ا) الكتب :

٤٩ ـ دكتور ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ـ مكتبة نهضة مصر ٠

٥٠ ـ دكتور ابراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون ـ الانجلو٠

٥١ ـ دكتور ابراهيم العدوى : الاساطيل العربية فى البحر المتوسط ـ نهضة مصر ٠

٥٢ ـ دكتور ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عهد البطالمة ـ جزءان ـ النهضة ٠

٥٣ ـ أبو الفضل ابراهيم وعلى البجاوى : أيام العرب فى الاسلام: دار احياء الكتب العربية ١٩٥٣ م ٠

٥٤ ـ دكتور احسان عباس : العرب فى صقلية ـ المعارف ٠

٥٥ ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤١ م ٠

٥٦ ـ أحمد أمين : ضحى الاسلام : لجنة التأليف والترجمة والنشر ٣ أجزاء سنة ١٩٣٣ ، سنة ١٩٣٥ ، سنة ١٩٤١ م ٠

٥٧ ـ دكتور أسد رستم ـ الروم ـ جزءان ـ دار المكشوف بيروت ١٩٥٦ ٠

٥٨ ـ دكتور أسعد طلس : تاريخ الأمة العربيـة ٤ أجـزاء مكتبة الأندلس ـ بيروت ٠

٥٩ ـ أنستاس الكرملي : علم النميات ٠

٦٠ ـ جاد المولى (محمد أحمد جاد المولى) وعلى البجاوى وأبوالفضل ابراهيم : أيام العرب في الجاهلية ـ دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٣م

٦١ ـ جاسم الخلف : محـاضرات في جغرافيـة العراق الطبيعيـة والاقتصادية والبشرية ـ معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٩ ٠

٦٢ ـ دكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ٨ أجزاء المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ٠

٦٣ ـ جورج حداد : فتح العرب للشام ٠

٦٤ ـ جورجي زيدان : العرب قبل الاسلام ـ تعليق دكتور حسين مؤنس ـ دار الهلال ٠

٦٥ ـ جورجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ـ ٥ أجزاء ـ تعليق دكتور حسين مؤنس ـ دار الهلال ٠

٦٦ ـ دكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ـ ٣ أجزاء الأول ـ المكتبة التجارية سنة ١٩٣٥ ـ الثاني ـ النهضة سنة ١٩٤٥ ـ الثالث النهضة سنة ١٩٤٦ م ٠

٦٧ ـ دكتوران حسن وعلى ابراهيم : النظم الاسلامية ـ سـنة ١٩٣٩ ٠

٦٨ ـ دكتور حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ـ النهضة ـ سنة ١٩٥٧ م ٠

٦٩ ـ دكتور حمدان (جمال حمدان) : دراسات في العالم العربي ٠

٧٠ ـ دكتور حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ـ مكتبة الآداب ٠

٧١ ـ دكتور حسين مؤنس : فجـر الأندلس ـ الشركة العربيـة للطباعة والنشر والتوزيع ٠

٧٢ ـ دكتور حسين مؤنس : صور من البطولة ـ النهضة ٠

٧٣ ـ الدبس (المطران) : تاريخ سوريا .

٧٤ ـ الدكاترة دولت صادق ، غلاب ، الدناصورى : الجغرافيا السياسية ـ الانجلو .

٧٥ ـ دكتور زكى المحاسنى : شعر الحرب فى أدب العرب ـ دار الفكر العربى سنة ١٩٤٧ م .

٧٦ ـ دكتور سليم حسن : مصر القديمة .

٧٧ ـ سليمان صائغ : تاريخ الموصل .

٧٨ ـ دكتور سليمان عادل عبد الحق ، عبد العزيز عثمان : نزهات أثرية فى سوريا .

٧٩ ـ دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ـ دار الفكر العربى سنة ١٩٤٧ .

٨٠ ـ دكتور شكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى ـ مطبعة دار الكتاب العربى ـ القاهرة .

٨١ ـ دكتور شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية فى القرن الاول ـ دار الكتار العربى ـ القاهرة .

٨٢ ـ شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزر البحر المتوسط ـ القاهرة ١٣٥٢ هـ .

٨٣ ـ دكتور ضياء الدين الريس : الخراج أو النظام المالى فى الدولة الاسلامية ـ نهضة مصر ـ ١٩٥٧ .

٨٤ ـ الطباخ : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء .

٨٥ ـ دكتور عباس عمار : المدخل الشرقى لمصر .

٨٦ ـ عبد الرءوف عون : الفن الحربى فى صدر الاسلام ـ دار المعارف

٨٧ ـ دكتور عبد الجبار جومرد : هارون الرشيد ـ جزءان ـ بيروت .

٨٨ ـ دكتور عبد الرحمن زكى : السلاح فى الاسلام .

٨٩ ــ دكتور عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ــ جزءان ــ الانجلو سنة ١٩٥٦ ــ سنة ٥٧ م ٠

٩٠ ــ دكتور عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ٠

٩١ ــ دكتور عطيه مشرفة : نظم الحكم فى عصر الفاطميين ٠

٩٢ ــ دكتور على الخربوطلى : تاريخ العراق تحت الحكم الاموى ــ دار المعارف ٠

٩٣ ــ دكتور عمر فروخ : العرب والاسلام فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ــ بيروت ٠

٩٤ ــ الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب ــ ٣ أجزاء ٠

٩٥ ــ كرد على : خطط الشام ــ ٥ أجزاء المجمع العلمى العربى ــ دمشق ٠ ٠

٩٦ ــ مبروك نافع : عصر ما قبل الاسلام ــ النهضة ــ سنة ١٩٥٢ م ٠

٩٧ ــ محمد أحمد حسونة : الجغرافية التاريخية الاسلامية ــ لجنة البيان العربى ٠

٩٨ ــ دكتور محمد حميد الله الحيدر أبادى : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٨ م ٠

٩٩ ــ منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبى ــ بيروت ٠

١٠٠ ــ دكتور نظير سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية ــ دار الفكر العربى ٠

١٠١ ــ نعمان ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ــ بغداد ٠

١٠٢ ــ نقولا زيادة : صور من التاريخ العربى ٠ المعارف سنة ١٩٤٦ م ٠

١٠٣ ــ يوسف عزت : تاريخ القوقاز ــ ترجمة عبد الحميد غالب ٠

١٠٤ ــ يوسف غنيمة : تجارة العراق قديما وحديثا ــ بغداد سنة ١٩٢٢ م ٠

ب ـ الابحاث والمقالات :

١٠٥ ـ دكتور ابراهيم طرخان : الاقطاع الاسلامى ـ أصوله وتطوره دراسة مقارنة ـ المجلة التاريخية المصرية المجلد السادس ١٩٥٧ ٠

١٠٦ ـ دكتور ابراهيم العدوى : الحمام الزاجل فى العصور الوسطى ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثانى العدد الأول مايو سنة ١٩٥٢ ٠

١٠٧ ـ دكتور ابراهيم العدوى : دراسات فى التاريخ البيزنطى ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثانى العدد الثانى أكتوبر ١٩٤٩ ٠

١٠٨ ـ دكتور ابراهيم العدوى : التمثيل السياسى بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الرابع العدد الاول مايو ١٩٥٢ ٠

١٠٩ ـ دكتور ابراهيم العدوى : السفارات الاسلامية فى العصور الوسطى ـ اقرأ ـ ع ١٧٩ : نوفمبر ١٩٥٧ م ٠

١١٠ دكتور ابراهيم العدوى : نشأة أساطيل الدول العربية فى شرقى البحر المتوسط ـ المجلة ـ السنة الثانية ـ العدد ١٩ ـ يولية ١٩٥٨ ٠

١١١ ـ دكتور ابراهيم العدوى : السفراء العرب الى أوربا فى العصور الوسطى ـ المجلة ـ السنة الثالثة ـ عدد ٣٢ : أغسطس سنة ١٩٥٩ م ٠

١١٢ ـ جبرا ابراهيم جبرا : بلاد العرب من جغرافية سترابون ـ مجلة المجمع العلمي العراقى ـ المجلد الثانى سنة ١٩٥٢ م بغداد ٠

١١٣ ـ دكتور حسن الباشا : طرق التجارة العربية من عهد سبأ الى صدر الاسلام ـ المجلة ـ السنة الأولى العدد ٤ : ابريل سنة ١٩٥٧ ٠

١١٤ ـ حسن حسنى عبد الوهاب : جزيرة قوصرة العربية ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثانى ـ العدد الثانى ـ أكتوبر سنة ١٩٤٩ م ٠

١١٥ ـ دكتور حسين مؤنس: السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثالث العدد الاول مايو سنة ١٩٥٠ م ٠

١١٦ ـ دكتور حسين مؤنس: المسلمون فى حوض البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع ـ العدد الاول ـ مايو ١٩٥١ .

١١٧ ـ سليمان الندوى : الملاحة عند العرب ـ مجلة (الضياء) ـ لكنو (الهند) ـ اعداد ربيع الآخر : شوال سنة ١٣٥٣ هـ .

١١٨ ـ طه الهاشمى : معركة اجنادين: مجلة المجمع العلمى العراقى ـ المجلد الثانى ١٩٥٢ ـ بغداد .

١١٩ دكتور عبد الرحمن زكى : صناعة السيوف الاسلامية ـ المجلة التاريخية المصرية المجلد الخامس سنة ١٩٥٦ م .

١٢٠ ـ دكتور عبد الرحمن زكى : بين قلاع العرب وحصونهم ـ المجلة ـ السنة الاولى ـ العدد ٥ مايو سنة ١٩٥٧ .

١٢١ دكتور عبد الرحمن زكى : العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد السابع سنة ١٩٥٨ .

١٢٢ ـ دكتور عبد الرحمن زكى : مالطة العربية ـ المجلة ـ السنة الثانية العدد ١٤ فبراير سنة ١٩٥٨ م .

١٢٢م : فاروق خورشيد : ذات الهمة ـ دائرة معارف الأهرام .

١٢٣ ـ دكتور محمد مصطفى زيادة: مؤلف الطرسوسى فى التاريخ الحربى على عهد الايوبيين ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثانى العدد الاول مايو ١٩٤٩ م .

(١٢٣م) د . محمد عبد الهادى شعيرة : المرابطون فى الثغور العربية الرومية ـ بحث فى كتاب (الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) .

١٢٤ ـ محمود شكرى محمد : بلاد العرب من تاريخ بلينوس ـ مجلة المجمع العلمى العراقى ـ المجلد الثالث ـ الجزء الاول سنة ١٩٥٤م ـ بغداد .

١٢٥ ـ محيى الدين القليبى: الرباط فى سبيل الله ـ مجلة رسالة الاسلام ـ السنة الرابعة ـ العدد الثالث ـ شوال سنة ١٣٧١ هـ يوليو سنة ١٩٥٢ م .

١٢٥ م د · نبيلة ابراهيم : التعبير الشعبى عن الثورة ـ المجلة عدد ١١٥ ، ذات الهمة : تراث الانسانية (ابتداء من م ٤ ع ١١) ·

١٢٦ ـ دكتوران يحيى الخشاب والباز العرينى : ضبط وتحقيق الالفاظ الاصطلاحية التاريخية فى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد السابع ١٩٥٨ ·

ثالثا : كتب أجنبية مترجمة للعربية

١٢٧ ـ أربرى : تراث فارس ـ مجموعة أبحاث باشرافه ـ ادارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٩م·

١٢٨ ـ أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ـ ترجمة أحمد أحمد عيسى ـ مؤسسة فرانكلين ·

١٢٩ ـ الفونس ماريا شنيدر : قبور الصحابة فى القسطنطينية ، بحث ورد فى كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين ـ جمع وترجمة وتعليق دكتور صلاح المنجد ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٥ م ·

١٣٠ ـ أوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ـ ترجمة دكتور تمام حسان الانجلو سنة ١٩٥٧ م ·

١٣١ ـ أومان : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة الدكتور مصطفى بدر ـ دار الفكر العربى ·

١٣٢ ـ بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ـ ترجمة حمزة طاهر ـ المعارف ـ سنة ١٩٥٢ م ·

١٣٣ ـ بتلر : فتح العرب لمصر ـ ترجمة فريد أبو حديد ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ·

١٣٤ ـ برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسى ـ ترجمة حسن كمال ـ المطبعة الاميرية ·

١٣٥ ـ برستد : انتصار الحضارة ـ ترجمة دكتور أحمد فخرى ـ الانجلو ·

١٣٦ ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ـ ثلاثة أجزاء ـ ترجمة منير البعلبكى ـ بيروت •

١٣٧ ـ بينز : الامبراطورية البيزنطية • ترجمة دكتور مؤنس وزايد ـ النهضة •

١٣٨ ـ ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ـ ترجمة حسن حبشى •

١٣٩ ـ جرونيباوم : حضارة الاسلام ـ ترجمة عبد العزيز جاويد ـ الالف كتاب •

١٤٠ ـ جود فروى ديمومبين : النظم الاسلامية ـ ترجمة السامر والشماع ـ بيروت •

١٤١ ـ جورج يعقوب : أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى ـ ترجمة دكتور فؤاد حسنين ـ لجنة البيان العربى •

١٤٢ ـ جوردن ايست : الجغرافيا توجه التاريخ ـ ترجمة د • الدناصورى ـ الألف كتاب •

١٤٣ ـ حسينى : الادارة العربية ـ ترجمة ابراهيم العدوى ـ مكتبة الآداب سنة ١٩٥٨ م •

١٤٤ ـ حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ـ ترجمة دكتور يعقوب بكر الانجلو •

١٤٥ ـ دوسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ـ ترجمة عبد الحميد الدواخلى والدكتور محمد مصطفى زيادة ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر •

١٤٦ ـ ديل : بيزنطة ـ عظمتها وسقوطها ـ فصل ملحق بترجمة كتاب بينز الامبراطورية البيزنطية ـ للدكتور مؤنس وزايد ـ النهضة •

١٤٧ ـ ديلابورت : بلاد ما بين النهرين ـ ترجمة محرم كمال ـ الألف كتاب •

١٤٨ ـ ديماند : الفنون الاسلامية ـ ترجمة أحمد عيسى •

١٤٩ ـ راوس : التاريخ الانجليزى ـ ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ـ النهضة •

١٥٠ ـ رستوفيتزف : تاريخ الامبراطورية الرومانية الاقتصادى والاجتماعى ـ الجزء الاول ترجمة الدكتورين زكى على وسليم سالم ـ ادارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم ٠

١٥١ ـ سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ـ ترجمة رياض رأفت ـ بغداد ٠

١٥٢ ـ سديو : تاريخ العرب العام ـ ترجمة عادل زعيتر ـ دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٤٨ م ٠

١٥٣ ـ دكتور عبد الرحمن بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ـ دراسات للمستشرقين ـ النهضة سنة ١٩٤٦ م ٠

١٥٤ ـ فازيلييف : فصل بيزنطة والاسلام ـ من كتاب Byzantium ملحق بترجمة كتاب بينز الامبراطورية البيزنطية للدكتور حسين مؤنس وزايد ٠

١٥٥ ـ فازيلييف : العرب والروم : ترجمة دكتور عبد الهادى شعيرة ـ دار الفكر العربى ٠ (والأبحاث الملحقة به : لجريجوار ، كانار ... الخ) ٠

١٥٦ ـ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة الدكتور عبد الهادى أبى ريدة ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ٠

١٥٧ ـ فلهوزن : الخوارج والشيعة ـ ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوى ـ النهضة ٠

١٥٨ ـ فوست : جغرافية الحدود ـ ترجمة محمد سيد نصر ـ النهضة ٠

١٥٩ ـ فون كريمر : الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية ـ ترجمة دكتور مصطفى بدر ـ دار الفكر العربى ٠

١٦٠ ـ فيرجريف : الجغرافيا والسيادة العالمية ـ ترجمة رفاعة الانصارى ـ الالف كتاب ـ النهضة سنة ١٩٥٦ ٠

١٦١ ـ فيشر : تاريخ أوربا (العصور القديمة) ترجمة دكتورين ابراهيم نصحى وعواد حسين ـ المعارف ٠

١٦٢ ـ فيشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ـ القسم الأول ترجمة الدكتورين مصطفى زيادة والباز العرينى .

١٦٣ ـ فيفلد ـ برسى : الجيوبوليتيكا ـ ترجمة مجلى واسكندر ـ الالف كتاب .

١٦٤ ـ دكتور فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ـ الجزء الأول ـ ترجمة دكتور جورج حداد ـ وعبد الكريم رافق ـ الجزء الثانى ترجمة دكتور كمال اليازجى .

١٦٥ ـ دكتور فيليب حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة مبروك نافع ـ القاهرة ، ترجمة دكتور جبور وزملاؤه ـ بيروت .

١٦٦ ـ دكتور فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ـ ترجمة دكتور أنيس فريحة ـ بيروت .

١٦٧ ـ كريسنسن : ايران في عهد الساسانيين ـ ترجمة دكتور يحيى الخشاب ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر .

١٦٨ ـ لى سترينج : بلدان الخلافة الشرقية . ترجمة وتعليق بشير فرنسيس وكوركيس عواد ـ المجمع العلمى العراقى ـ بغداد سنة ١٩٥٤ م .

١٦٩ ـ متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ ترجمة دكتور عبد الهادى أبى ريدة ـ جزءان القاهرة سنة ١٩٤٠ ـ سنة ٤١ م

١٧٠ ـ موسل : شمال الحجاز ـ ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسينى ـ الاسكندرية .

١٧١ ـ هل : الحضارة العربية ـ ترجمة دكتور ابراهيم العدوى ـ الألف كتاب ـ الانجلو سنة ١٩٥٦ م .

رابعا : كتب بلغات أجنبية

172 — Aly Mohamed Fahmy : Muslim sea power in the eastern Mediterranean, from the 7th to the 10th century. Alexandria 1950.

173 — Byzantium : Edited by Baynes, Moss.

174 — Brocklemann : History of Islamic peoples. London 1956.

175 — Bury : History of the later Roman Empire 2 vols., London 1931.

176 — Bury : History of the Eastern Roman Emp.

177 — Canard, Marius : Histoire de la Dynastie des Hamdanides.

178 — Cary : A history of Rome — down to the Reign of Constantine.

179 — Chapot : La frontière de l'Euphrate de Pompée à la conquête arabe.

180 — Charlesworth : . Trade routes, commerce of the Roman Empire.

181 — Cheira : La lutte des Arabes et Byzantins, Alexandria.

182 — Creswell : Early Muslim architecture 2 vols.

183 — Creswell : Fortification in Islam.

184 — Creswell : A short account of early Muslim architec. Penguin 1958.

185 — Dussand : Topographie historique de la Syrie.

186 — Encyclopédie de l'Islam.

187 — Gaudefroy, Platonov : Le monde musulman et byzantin.

188 — Hadi Hassan : History of Persian Navigation.

189 — Hamidullah : The Muslim Conduct of State.

190 — Heyd : Histoire du commerce du Levant 2 vols.

191 — Hitti : History of Syria.

192 — Huzzayen : Arabia and the Far East.

193 — Leidell, Hart : Strategy.

194 — Le — Strange : Lands of Eastern Caliphate.

195 — Le — Strange : Palestine under the Moslems.

196 — Rosenthal : A history of Muslim Historiography.

197 — Runciman : Byzantine Civilization.

198 — Vasiliev : Histoire de l'Empire Byzantin 2 vols.

199 — Fisher : History of Europe.

فهرس

الكتاب الثالث

الموضوع | **الصفحة**

ISLAMIC-BYZANTINE FRONTIERS

between Military Struggle and Cultural-Commercial Relations

PART III.

The Frontiers Rôle in Cultural — Commercial Relations of Medieval World

By

Fat-hi Osman

Printed by
The ARAB WRITER
Publishers & Printers
Cairo, U.A.R.